



مركز دراسات الوحدة العربية

المدينة

في العالم الإسلامي

محرر عام

سلمى الخضراء الجيوسي

محررون خاصون

ريناتا هولود

أتيليو بيتروشيلي

أندرية ريمون

المدينة
في العالم الإسلامي

الفهرسة أثناء النشر- إعداد مركز دراسات الوحدة العربية
المدينة في العالم الإسلامي/ محرر عام سلمى الخضراء الجيوسي؛ محررون خاصون
ريناتا هولود، أنيليو بيتروشيولي وأندرية ريمون.
٢ مج.

محتويات: مج ١.

يشتمل على فهارس.

ISBN 978-9953-82-671-4 (vol. 1)

ISBN 978-9953-82-670-7 (Set)

١. المدن الإسلامية. ٢. المدن العربية. ٣. الآثار الإسلامية. ٤. بغداد - تاريخ. ٥. فاس - تاريخ.
٦. تونس - تاريخ. ٧. القاهرة - تاريخ. ٨. القدس - تاريخ. ٩. حلب - تاريخ.
١٠. بورصة - تاريخ. ١١. طرابلس - تاريخ. ١٢. الجزائر - تاريخ. ١٣. كرمان - تاريخ.
١٤. إسطنبول - تاريخ. ١٥. بخارى - تاريخ. ١٦. سمرقند - تاريخ. ١٧. شيراز - تاريخ.
١٨. أصفهان - تاريخ. ١٩. أغرا - تاريخ. ٢٠. حيدر آباد - تاريخ. ٢١. صنعاء - تاريخ.
٢٢. حرر - تاريخ. ٢٣. الرباط - تاريخ. ٢٤. سلا - تاريخ. أ. العنوان. ب. الجيوسي، سلمى الخضراء (محررة). ج. هولود، ريناتا (محررة). د. بيتروشيولي، أنيليو (محرر). هـ. ريمون، أندريه (محرر).

953

العنوان الأصلي بالإنكليزية

The City in the Islamic World (vol. 1)

edited by Salma K. Jayyusi [et al.]

(Leiden; Boston, MA: Brill, 2008)

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣

الحمراء - بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ - لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ - ٧٥٠٠٨٥ - ٧٥٠٠٨٦ - ٧٥٠٠٨٧ - ٧٥٠٠٨٨ (+٩٦١١)

برقياً: «مرعبي» - بيروت

فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (+٩٦١١)

email: info@caus.org.lb

Web Site: <http://www.caus.org.lb>

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمركز
الطبعة الأولى

بيروت، أيار/ مايو ٢٠١٤

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية
المدينة في العالم الإسلامي / محرر عام سلمى الخضراء الجيوسي؛ محررون خاصون
ريناتا هولود، أنيليو بيتروشيولي وأندرية ريمون.
مج. ٢

محتويات: مج. ٢.

يشتمل على فهرس.

ISBN 978-9953-82-672-1 (vol. 2)

ISBN 978-9953-82-670-7 (Set)

١. المدن الإسلامية. ٢. العمارة الإسلامية. ٣. الآثار الإسلامية. أ. العنوان.
- ب. الجيوسي، سلمى الخضراء (محررة). ج. هولود، ريناتا (محررة).
- د. بيتروشيولي، أنيليو (محرر). هـ. ريمون، أندرية (محرر).

953

العنوان الأصلي بالإنكليزية

The City in the Islamic World (vol. 2)

edited by Salma K. Jayyusi [et al.]

(Leiden; Boston, MA: Brill, 2008)

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣

الحمراء - بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ - لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ - ٧٥٠٠٨٥ - ٧٥٠٠٨٦ - ٧٥٠٠٨٧ - ٧٥٠٠٨٨ (+٩٦١١)

برقياً: «مرعبي» - بيروت

فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (+٩٦١١)

email: info@caus.org.lb

Web Site: <http://www.caus.org.lb>

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، أيار/ مايو ٢٠١٤

المحتويات العامة

المجلد الأول

١١	محتويات المجلد الأول
١٩	المساهمون
٢٣	قائمة رسوم المجلد الأول
٣٣	تمهيد
٣٥	هذا الكتاب
٣٩	مقدمة
	أتيليو بيتروشيولي
	أندريه ريمون

القسم الأول موضوعات عامة

	الفصل الأول : ملاحظات تاريخية - بيانية حول المدينة الإسلامية، مع إشارة
٥١	خاصة إلى صورة المدينة المبنية جوليا آناليندا نغليا

- الفصل الثاني : التنظيم المكاني للمدينة أندريه ريمون ١٠٣
- الفصل الثالث : القانون والمدينة بسيم حكيم ١٣٧
- الفصل الرابع : المدن الموروثة هيو كينيدي ١٦٥
- الفصل الخامس : المدن المؤسّسة في العالم العربي من القرن السابع
إلى القرن الحادي عشر سيلفي دينوا ١٨٧

القسم الثاني

مقاربة إقليمية

- الفصل السادس : مدن البلقان العثمانية بياريينو ٢١٥
- الفصل السابع : المدن الإيرانية هايتز غوبي ٢٣٧
- الفصل الثامن : المدن الهندية مارك غابوريو ٢٦٩
- الفصل التاسع : المدينة العثمانية (بين القرنين الخامس عشر
والثامن عشر) جيل فاينشتاين ٣٠١

القسم الثالث

دراسة حالات

- الفصل العاشر : بغداد في العصر العباسي:
عاصمة عالمية متعددة الطوائف فرنسواز ميشو ٣١٧
- الفصل الحادي عشر : فاس في عهد المرينيين:
الذروة وعلامات الأفول حليلة فرحات ٣٤٣
- الفصل الثاني عشر : التنظيم الحيزي لتونس المدينة ومدن عربية - إسلامية أخرى
في شمال أفريقيا والشرق الأدنى روبرتو بيراردي ٣٦٥
- الفصل الثالث عشر : المدينة المملوكية دوريس بهرنز - أبو سيف ٣٩٩

الفصل الرابع عشر: القدس الإسلامية

أو القدس في ظل الحكم الإسلامي أوليغ غرابار ٤٢٧

الفصل الخامس عشر: حلب: من العاصمة العثمانية

إلى المدينة السورية جان كلود دايفيد ٤٤٣

الفصل السادس عشر: قصة بورصة:

المركز الصناعي للسلطنة العثمانية ثريا فاروقي ٤٨٣

الفصل السابع عشر: طرابلس العثمانية: مدينة على المتوسط ... لودوفيكو ميكارا ٥٠٩

الفصل الثامن عشر: الجزائر خلال الحكم العثماني:

المدينة وسكانها فديكو كرستي ٥٤٣

الفصل التاسع عشر: كرمان في القرون الوسطى:

نموذج «القلعة، المدينة، الضواحي» ليزا غولومبك ٥٩٣

الفصل العشرون: إسطنبول ١٦٢٠ - ١٧٥٠: التغيير والتقاليد موريس سيرا سي ٦٢٣

الفصل الحادي والعشرون: بخارى وسمرقند أنيليو بيترو شيولي ٦٦١

الفصل الثاني والعشرون: شيراز: مدينة الحدائق والشعراء ميهوش عالمي ٧٠١

الفصل الثالث والعشرون: أغرا المغولية: مدينة حدائق على النهر إيبا كوش ٧٣٩

الفصل الرابع والعشرون: حيدر أباد القرن التاسع عشر:

إعادة تخطيط التراث المدني أليسون ماكنزي شاه ٧٨٣

الفصل الخامس والعشرون: مدينة صنعاء رينولد لوكوك ٨٢١

أريف ساتياوان

الفصل السادس والعشرون: هَرَر: المدينة المقدسة الرابعة في الإسلام ... سيرج سانتيللي ٨٤٥

الفصل السابع والعشرون: الرباط - سلا: المدينتان المقدستان للضيفين ... سعيد مولين ٨٦٥

الفصل الثامن والعشرون: مدينة «شبه الصحراء»:

القواعد وشكل البناء بسيم حكيم ٨٩١

زبير أحمد

المجلد الثاني

القسم الرابع وظائف المدينة

٩١٧	محتويات المجلد الثاني
٩٢٣	قائمة رسوم المجلد الثاني
		الفصل التاسع والعشرون : دار الماء: فن العمارة المائية
٩٣٣ كالجيرومونتالبانو	في البلدان الإسلامية
٩٨٧ أندره ريمون	الفصل الثلاثون : اقتصاد المدينة التقليدية
١٠١٣ دايفيدج. روكسبورغ	الفصل الحادي والثلاثون : مدينة الحج
١٠٤١ أندره ريمون	الفصل الثاني والثلاثون : إدارة المدينة
		الفصل الثالث والثلاثون : الريف: التراث الهيدروليكي والزراعي الروماني
١٠٦٧ فيرشيلدروجلز	للبلدان الإسلامية المتوسطة
١١٠١ محمد ناصري	الفصل الرابع والثلاثون : المواطنة الحضرية في مواجهة القرن
		الفصل الخامس والثلاثون : المنزل والنسيج العمراني
١١٣٣ أتيليو بينروشيولي	في المدينة الإسلامية المتوسطة
١١٧١ لوسيان ثاي - شينوكاك	الفصل السادس والثلاثون : المدينة المُقسَّمة بحسب الجنس
١١٩٩ نيللي حنا	الفصل السابع والثلاثون : النقبات في الدراسات التاريخية الأخيرة
١٢٢٥ راندي ديفولم	الفصل الثامن والثلاثون : الوقف في المدينة

القسم الخامس المدينة الحديثة والمعاصرة

		الفصل التاسع والثلاثون : تحديث مدن السلطنة العثمانية
١٢٥٥ جان لوك أرنو	(١٨٠٠ - ١٩٢٠)
		الفصل الأربعون : المتوسطة: تصاميم المعمارين الفرنسيين والإيطاليين
١٢٨٩ ميا فولر	في الثلاثينيات في مدن شمال أفريقيا

١٣٠٧	الفصل الحادي والأربعون : الجزائر العاصمة: المدينة المستعمرة .. أنيلوييتروشيولي
	الفصل الثاني والأربعون : الدار البيضاء:
١٣٢٧	المدينة في العالم الإسلامي جان لوي كوهين
	الفصل الثالث والأربعون : الهوية والعولمة والمدينة
١٣٦١	الإسلامية المعاصرة حَسَن الدين خان
١٤٠١	الفصل الرابع والأربعون : آلام دبي المتنامية: مدينة تبحث عن هويتها ديبا حيدر
	الفصل الخامس والأربعون : القاهرة بين آثار الماضي
١٤٢٩	وإعادة التأسيس الليبرالي إريك دنيس
١٤٦٥	الفصل السادس والأربعون : إعمار بيروت جونصر
	إريك فردي

الفهارس

١٥٠٥ فهرس الأعلام
١٥٣٥ فهرس الأماكن
١٦٠١ فهرس الموضوعات

محتويات المجلد الأول

المساهمون	١٩
قائمة رسوم المجلد الأول	٢٣
تمهيد	٣٣
هذا الكتاب	٣٥ سلمى الخضراء الجيوسي
مقدمة	٣٩ ريناتا هولود أتيليو بيتروشيولي أندريه ريمون

القسم الأول موضوعات عامة

الفصل الأول : ملاحظات تاريخية - بيانية حول المدينة الإسلامية مع إشارة	
خاصة إلى صورة المدينة المبنية	٥١ جوليا آناليندا نغليا
أولاً : المقاربة الاستشراقية	٥١
ثانياً : نقد المقاربة الاستشراقية	٦٠

٧٠	ثالثاً: المقاربة الإقليمية
٧٨	رابعاً: إسبانيا
٨١	خامساً: شمال أفريقيا
٨٦	سادساً: الشرق الأوسط
٩٥	سابعاً: آسيا الوسطى
٩٧	ثامناً: الأناضول
١٠٣	الفصل الثاني: التنظيم المكاني للمدينة أندريه ريمون
١٠٣	أولاً: فرضية المدينة المسلمة
	ثانياً: إعادة النظر في الفرضيات الاستشراقية
١١٠	حول المدينة المسلمة
١١٦	ثالثاً: بنية المدينة العربية التحليلية
١٣٧	الفصل الثالث: القانون والمدينة بسيم حكيم
١٣٧	أولاً: السوابق ما قبل الإسلامية
١٣٨	ثانياً: تشكيل النماذج المدنية
١٤٣	ثالثاً: فهم المدينة كعملية ونتاج
١٤٥	رابعاً: الفقه وتشكيل منظومة القواعد
١٤٨	خامساً: دور الأعراف المحلية
١٥٠	سادساً: مبادئ فقهية تشجع الأحكام التحريمية
١٥١	سابعاً: صورية عملية البناء
١٦٥	الفصل الرابع: المدن الموروثة هيو كينيدي
١٦٧	أولاً: مدن بلاد الشام
١٧٣	ثانياً: مدن العراق
١٧٥	ثالثاً: مدن إيران
١٨٠	رابعاً: الأندلس والغرب الإسلامي
١٨٤	خامساً: حكم المدينة الموروثة

الفصل الخامس : المدن المؤسسة في العالم العربي من القرن السابع

- ١٨٧ إلى القرن الحادي عشر سيلقي دينوا
أولاً : المدن المؤسسة أثناء الفتح والإنشاءات المدنية
١٩٠ التي جذبتها
١٩٩ ثانياً : مدن وجدت في القرون المتأخرة

القسم الثاني

مقاربة إقليمية

الفصل السادس : مدن البلقان العثمانية بيارينو ٢١٥

- ٢١٦ أولاً : المدن العثمانية
٢١٩ ثانياً : «عثمنة» المدن البلقانية
٢٢٣ ثالثاً : الأنسجة العثمانية المدنية للمدن البلقانية
٢٣٢ رابعاً : سرايفو
٢٣٤ خامساً : فهم وحدة المدن العثمانية

الفصل السابع : المدن الإيرانية هاينز غوبي ٢٣٧

- ٢٤٣ أولاً : أصفهان
٢٥٥ ثانياً : هرات، مدينة إيرانية شرقية

الفصل الثامن : المدن الهندية مارك غابوريو ٢٦٩

- أولاً : السياق التاريخي:
٢٧٠ ستة قرون من السيطرة الإسلامية
٢٧٤ ثانياً : اعتبارات عامة
٢٧٧ ثالثاً : أنواع المدن
٢٨٦ رابعاً : موضوعات للبحث

الفصل التاسع : المدينة العثمانية (بين القرنين الخامس عشر

- والثامن عشر) جيل فاينشتاين ٣٠١

القسم الثالث

دراسة حالات

الفصل العاشر: بغداد في العصر العباسي:

عاصمة عالمية متعددة الطوائف فرنسواز ميشو ٣١٧

الفصل الحادي عشر: فاس في عهد المرينيين:

الذروة وعلامات الأفلو حليلة فرحات ٣٤٣

أولاً: الماء: ميزة فاس الرئيسية وحليتها ٣٤٦

ثانياً: أقليات حركية ٣٤٧

ثالثاً: المؤسسات «البلدية» ٣٤٨

رابعاً: المدينة البيضاء: عاصمة المرينيين ٣٤٩

خامساً: قيسارية وهيمنة التجارة ٣٥٢

سادساً: الحفلات العامة والتباهي الملكي ٣٥٣

سابعاً: نشاط فكري لا سابق له ٣٥٥

ثامناً: مجتمع في طريقه إلى الزوال؟ ٣٦١

الفصل الثاني عشر: التنظيم الحيزي لتونس المدينة ومدن عربية - إسلامية أخرى

في شمال أفريقيا والشرق الأدنى روبرتو بيراردي ٣٦٥

الفصل الثالث عشر: المدينة المملوكية دوريس بهرنز - أبو سيف ٣٩٩

أولاً: من الفسطاط إلى القاهرة ٣٩٩

ثانياً: الرعاية المدنية من السلطان الناصر محمد ٤٠٤

ثالثاً: الحقبة الشركسية ٤١٠

رابعاً: الوقف والمباني والصيانة ٤١٥

الفصل الرابع عشر: القدس الإسلامية

أو القدس في ظل الحكم الإسلامي أوليف غرابار ٤٢٧

الفصل الخامس عشر: حلب: من العاصمة العثمانية

إلى المدينة السورية جان كلود دايفيد ٤٤٣

	أولاً: طبوغرافية حلب خلال القرن السادس عشر:
٤٤٥	إرث المماليك
	ثانياً: المساحات والأحياء الأهلية - القرابة العائلية والتراتيبات
٤٦٤	الاجتماعية للمكان
	ثالثاً: وجود الغربيين والتدخل مع المجموعات المحلية
٤٧٣	فتن عام ١٨٥٠
	الفصل السادس عشر: قصة بورصة:
٤٨٣	المركز الصناعي للسلطنة العثمانية ثريا فاروقي
٤٨٣	أولاً: من بلدة أميرية إلى مدينة إمبراطورية غير معلنة
	ثانياً: خارج الصلات: في خدمة العرش العثماني والعاصمة
٤٨٤	والسوق التجارية العالمية
٤٨٨	ثالثاً: البنى التحتية التجارية
٤٩٢	رابعاً: تجارة الحرير تحت هيمنة قانون العرض والطلب
٤٩٦	خامساً: تنظيم الإنتاج وقيوده: العمال (رجالاً ونساء) والنقابات
٤٩٩	سادساً: حرير بورصة خارج البلاط والحاشية
٥٠٠	سابعاً: وفرة إنتاج صناعة الحرير في القرن الثامن عشر
	ثامناً: صنف كان موجوداً منذ فترة طويلة لكنه لم يوثق
٥٠٤	حتى القرن الثامن عشر: أنسجة بورصة القطنية
	تاسعاً: السنوات الأخيرة للمركز النسيجي العثماني:
٥٠٦	الشركات أو الممر للاقتصاد العالمي
٥٠٩	الفصل السابع عشر: طرابلس العثمانية: مدينة على المتوسط . لودوفيكو ميكارا
٥١٠	أولاً: بناء مدينة متوسطة
٥١٦	ثانياً: المدينة العثمانية
٥٢٤	ثالثاً: مدينة القرمانيين
٥٢٨	رابعاً: طرابلس مدينة متوسطة
	الفصل الثامن عشر: الجزائر خلال الحكم العثماني:
٥٤٣	المدينة وسكانها فديريكو كرسيتي

٥٤٦ أولاً: أهمية الهجرة في بداية الحقبة العثمانية
٥٥٢ ثانياً: مصادر ومعلومات حول السكان
٥٦٢ ثالثاً: المعلومات من المصادر الأوروبية: مقارنة نقدية مقارنة ...
٥٦٦ رابعاً: الانخفاض التدريجي للسكان
٥٧٥ خامساً: عدد العبيد
٥٨٢ سادساً: أقلية مهمة عددياً: اليهود
٥٨٤ سابعاً: الوجود العسكري: الإنكشاريون

الفصل التاسع عشر: كرمان في القرون الوسطى:

نموذج «القلعة، المدينة، الضواحي»

٥٩٣ ليزاغولومبك
٥٩٤ أولاً: القرن التاسع عشر
٦٠١ ثانياً: الحقبة البويهية
٦٠٩ ثالثاً: الحقبة السلجوقية
٦١٥ رابعاً: مرحلة خانات قتلغ
٦١٨ خامساً: المرحلتان المظفرية والتمورية
٦١٨ سادساً: المرحلة الصفوية

الفصل العشرون: إسطنبول ١٦٢٠-١٧٥٠: التغيير والتقاليد .. مورييس سيراسي

٦٢٥ أولاً: نشوء المدينة العثمانية
٦٣٢ ثانياً: أزمة أم تغيير؟
٦٤٢ ثالثاً: تطور الحياة في المدينة
٦٤٦ رابعاً: التطور التجاري، والسيدات الراعيات والعمارة السكنية ...
٦٥١ خامساً: العمارة البحرية والبرية والمائية
٦٥٥ سادساً: جماليات الحيز المدني، رمزية الموت والفخامة
٦٥٩ سابعاً: تداعيات التحول

الفصل الحادي والعشرون: بُخارى وسمرقند أتيليو بيتروشيولي

٦٦١ أولاً: النظام المدني
٦٦٢ ثانياً: النسيج المدني والمباني التذكارية

٦٧١	ثالثاً: الطرق ونسيج المباني
٦٧٣	رابعاً: الأقطاب والنقاط المركزية المدنية
٦٧٨	خامساً: العقدية والقطبية
٦٨٩	سادساً: المباني المتخصصة
٦٩٠	سابعاً: قراءة لرمزية مباني بخارى الرئيسية
٧٠١	الفصل الثاني والعشرون: شيراز: مدينة الحدائق والشعراء مِهوش عالمي
٧٠٣	أولاً: مخطط شيراز الصفوية
		ثانياً: مقارنة العلاقة بين الحدائق والمدينة
٧٣٥	في كل من شيراز وأصفهان
٧٣٩	الفصل الثالث والعشرون: أخرا المغولية: مدينة حدائق على النهر إياكوش
٧٤١	أولاً: مكونات المخطط العمراني: الحديقة المغولية
٧٤٥	ثانياً: التطور المدني
٧٥١	ثالثاً: إعادة إنشاء مخطط حافة النهر
٧٥٢	رابعاً: تأثير ملكية الأراضي في رعاية الوجهاء المغول للعمارة ...
٧٥٤	خامساً: الحدائق المطلّة على النهر
		سادساً: الوجهاء المغول يهجرون المدينة المطلّة على النهر،
٧٧٩	وسكان أغرا يستولون عليها
		الفصل الرابع والعشرون: حيدر آباد القرن التاسع عشر:
٧٨٣	إعادة تخطيط التراث المدني أليسون ماكنزي شاه
٧٨٤	أولاً: أفضل الدولة، الرعاية، والتغير الاجتماعي
		ثانياً: «النظاميون»، البريطانيون، وسياسات الهوية المغولية
٧٨٨	قبل عام ١٨٥٧
٨٠٠	ثالثاً: أفضل الدولة والدولة الأميرية
٨٢١	الفصل الخامس والعشرون: مدينة صنعاء رينولد لوكوك
		أريف ساتياوان
٨٢١	أولاً: زيارة في أوائل السبعينيات لمدينة قروسطية الوظيفة
٨٤٢	ثانياً: تحليل: شكل المدينة

٨٤٥	الفصل السادس والعشرون : هَرَر: المدينة المقدسة الرابعة في الإسلام ... سيرج سانتيللي
٨٤٦	أولاً: المحطات السياسية
٨٥٠	ثانياً: تركيبة المدينة
٨٦٥	الفصل السابع والعشرون : الرباط-سلا: المدينتان المقدستان للضفتين ... سعيد مولين
٨٦٩	أولاً: النواة الأولى للمدينة
٨٧١	ثانياً: ملحمة الموحدين
٨٧٥	ثالثاً: عهد المرينيين
٨٧٩	رابعاً: جمهورية أبو رقراق
٨٨١	خامساً: الهويات والخصوصيات المدنية
٨٨٤	سادساً: الهيئة المكانية والتنظيم الاجتماعي
٨٨٦	سابعاً: عالم المنازل في الرباط وسلا

الفصل الثامن والعشرون : مدينة «شبه الصحراء»:

٨٩١	القواعد وشكل البناء بسيم حكيم زيير أحمد
٨٩٢	أولاً: قواعد صنع القرار
٩٠١	ثانياً: مثال من زاريا

المساهمون

أليسون ماكنتزي شاه	أستاذة مساعدة في التاريخ، جامعة كولورادو.
أنيليو بيترو شيولي	باحث إيطالي.
أريف ساتياوان	مهندس معماري - أندونيسيا.
إريك دنيس	باحث في جغرافية السكان والمناطق الحضرية في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS) - فرنسا.
إريك فردي	باحث في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS)، والوحدة المختلطة للأبحاث حول البيئة والمدينة والمجتمع - فرنسا.
أندريه ريمون	مؤرخ ومستشرق فرنسي.
أوليف غرابار	باحث وعالم آثار فرنسي.
إيبا كوش	أستاذة في معهد تاريخ الفن، فيينا - النمسا.
بسيم حكيم	مستشار في التنظيم المدني، جامعة هارفرد، وعضو في المعهد الأمريكي للمهندسين المعماريين.
بيار بينو	مهندس معماري ومؤرخ فرنسي.
ثريا فاروقي	باحثة في التاريخ العثماني.

جان كلود دايفيد	عالم جغرافي، وباحث متقاعد في المركز الوطني للبحوث العلمية.
جان لوك أرتو	باحث في المرصد الحضري للشرق الأدنى (IFPO).
جان لوي كوهين	مهندس معماري فرنسي متخصص في مجال العمارة الحديثة وتخطيط المدن.
جو نصر	باحث مستقل متعاقد مع المعهد الفرنسي للشرق الأدنى - لبنان.
جوليا آناليندا نغليا	أستاذة وباحثة في التصميم المعماري، كلية الهندسة المعمارية، جامعة باري - إيطاليا.
جيل فاينشتاين	مؤرخ وباحث متخصص في التاريخ العثماني.
حسن الدين خان	أستاذ في العمارة وصون التراث التاريخي.
حليمة فرحات	مؤرخة متخصصة في القرون الوسطى - المغرب.
دايفيد ج. روكسبورغ	أستاذ في قسم تاريخ الفن والعمارة - جامعة هارفرد.
دوريس بهرنز - أبو سيف	أستاذ الفن الإسلامي وعلم الآثار في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، جامعة لندن.
ديبا حيدر	باحثة مستقلة في التخطيط الثقافي والاستراتيجي للمناطق الحضرية
رانددي ديفويلم	باحثة في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS).
روبرتو بيراردي	باحث ومهندس معماري إيطالي.
ريناتا هولود	أستاذة في جامعة بنسلفينيا، ومنسقة في متحف علم الآثار والأنثروبولوجيا.
رينولد لوكوك	باحث ومختص في الهندسة المعمارية والتنظيم المدني، جامعة كامبريدج.
زبير أحمد	مهندس معماري - الهند.
سعيد مولين	مهندس مغربي متخصص في مشاريع التنمية.
سلمى الخضراء الجيوسي	أديبة وناقدة فلسطينية، ومحركة سلسلة «الحضارة الإسلامية» مشروع «بروتا».
سيرج سانتيللي	مهندس معماري، حائز درجة ماجستير في تخطيط المدن - فرنسا.

سيلفي دينوا	مديرة الدراسات في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة.
فدريكو كرسني	أستاذ التاريخ الأفريقي وتاريخ البلدان الإسلامية، جامعة كاتانيا، صقلية - إيطاليا.
فرنسواز ميشو	أستاذة جامعية في التاريخ والحضارة، جامعة باريس، السوربون.
فيرشيلد روجلز	أستاذة في جامعة إلينوي، كلية الهندسة المعمارية، قسم هندسة المناظر الطبيعية.
كالجيرو مونتالبانو	أستاذ الهندسة المعمارية والتصميم المعماري، جامعة باليرمو - إيطاليا.
لودوفيكو ميكارا	أستاذ وباحث إيطالي في التصميم العمراني، كلية الهندسة، جامعة دانونسيو - إيطاليا.
لوسيان ثاي - شينو غاك	أستاذة في جامعة كوش، قسم علم الآثار وتاريخ الفن - تركيا.
ليزا غولومبك	أستاذة في جامعة تورنتو، قسم الحضارات الشرق الأوسطية.
مِهوش عالمي	باحث من إيران، وعمل كمهندس معماري في روما.
مارك غابوريو	مدير متقاعد في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS) - فرنسا.
محمد ناصري	باحث من المغرب.
موريس سيراسي	أستاذة في جامعة جنوى، كلية الهندسة، قسم التصميم المعماري - إيطاليا.
ميا فولر	أستاذة مشاركة، قسم الدراسات الإيطالية، جامعة كاليفورنيا، بيركلي.
نيللي حنا	أستاذة التاريخ في الجامعة الأمريكية في القاهرة.
هاينز غوبي	أستاذ جامعي في المدرسة الشرقية، جامعة توبنغن.
هيو كينيدي	أستاذ اللغة العربية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية في لندن.

قائمة رسوم المجلد الأول

الرقم	الموضوع	الصفحة
١-١	خريطة مساحة فرنسية لدمشق، عام ١٩٣٤	٥٦
٢-١	خريطة مساحة فرنسية لحلب، عام ١٩٣١	٥٧
٣-١	خريطة فرنسية لمدينة اللاذقية، عام ١٩٤١	٥٨
٤-١	جدول زمني تاريخي للحضارات الشرقية	٦٩
٥-١	خرائط ابن حوقل (ت ٩٨٨م)	٧٤
٦-١	خرائط الإدريسي للعالم عام ١١٥٤ م	٧٥
٧-١	خريطة العالم للجغرافي الصقلي الإدريسي من القرن الثاني عشر	٨٨
١-٢	سطوح منازل في الجزائر	١٠٦
٢-٢	أسواق رومانية ذات عقود في دمشق	١٠٨
٣-٢	القاهرة في الحقبة العثمانية	١١٨
٤-٢	«القصبة» في القاهرة	١٢١
٥-٢	منطقة «قاهرة» في القاهرة الكبرى	١٢٢
٦-٢	حي «قوم الشيخ سلامة» في القاهرة	١٢٤
٧-٢	شبكة شوارع الجزائر العاصمة: المدينة السفلى	١٢٥

١٢٦ المدينة العليا في الجزائر العاصمة	٨-٢
١٢٩ حي سكن النخبة في تونس العاصمة	٩-٢
١٣٣ الحي اليهودي في القاهرة	١٠-٢
١٣٩ تناقض النسيج المدني الناتج من مجاورة مبنى لمبان أخرى ملاصقة ...	١-٣
 نمط تنظيم عقد المنازل ذات الفناءات السائد في عدة مناطق من	٢-٣
١٤٢ العالم الإسلامي منذ ما قبل الإسلام	٣-٣
 تراتبية الشوارع في تونس المدينة، وهي تظهر ثلاثة مستويات من الشوارع،	
١٤٥ ووصلاتها إلى الأزقة الداخلية الخاصة المقفلة	
١٤٦ مثالان من العناصر القائمة فوق الشارع	٤-٣
١٥٣ مثال من حائوت الحجام في دار بيرم من تونس المدينة	٥-٣
١٩١ محاور البناء الرئيسية في القاهرة	١-٥
١٩٦ القسطنطينية عند بداية القرن الخامس عشر	٢-٥
٢٠٥ خريطة سامراء (بالتفصيل)	٣-٥
٢٢٢ مخطط أشقودرة عام ١٩٢٣	١-٦
٢٢٧ مشهد لشارع في بلوفديف	٢-٦
٢٢٨ مشهد لشارع في بوخارست عند منتصف القرن التاسع عشر	٣-٦
٢٣٠ مخطط أدنة عام ١٨٥٤	٤-٦
٢٣١ مخطط تريكال	٥-٦
٢٣٣ مخطط البازار في سرايفو عام ١٨٨٢	٦-٦
٢٤١ فيروز آباد	١-٧
٢٤٢ يشابور	٢-٧
٢٤٦ شوارع أصفهان	٣-٧
٢٤٨ أصفهان، الميدان القديم	٤-٧
٢٤٩ أصفهان، خوشينان، ويهودية	٥-٧
٢٥١ أصفهان، المحاور الأساسية	٦-٧
٢٥٦ هرات، المدينة الداخلية	٧-٧
٢٦١ بَم المدينة الداخلية	٨-٧
٢٧٨ مدينة شاه جهان آباد	١-٨
٢٨٠ مدينة أغرا	٢-٨
٢٩٠ الديوان الخاص في الحصن الأحمر، دلهي	٣-٨

٢٩١	خريطة مفصلة لمدينة شاء جهان آباد تعود للعام ١٨٣٠	٤-٨
	الحي الواقع بين بوابة كابول وبوابة لاهور في خريطة شاء جهان آباد	٥-٨
٢٩٢	من العام ١٨٣٠	
٢٩٥	خريطة إعادة تركيب لدلهي القديمة في عام ١٨٥٧	٦-٨
٢٩٦	مخطط ومقاطع	٧-٨
٢٩٨	في مشهد متخيل لدلهي القديمة يعود إلى العام ١٨٥٨	٨-٨
٣٢٧	بغداد في القرن التاسع	١-١٠
٣٢٩	بغداد في القرنين الحادي عشر والثاني عشر	٢-١٠
٣٤٤	مخطط فاس	١-١١
٣٦٧	دمشق، المدينة وأجزاء من الضواحي	١-١٢
٣٧٢	مدينة تونس	٢-١٢
٣٧٣	تونس المدينة، الأزقة المغفلة	٣-١٢
٣٧٥	تونس المدينة، المدينة الداخلية	٤-١٢
٣٧٧	فاس، حول الجامع الكبير	٥-١٢
٣٧٨	تونس المدينة، حول الجامع الكبير	٦-١٢
٣٨٠	القيروان المدينة	٧-١٢
٣٨٧	تونس المدينة، شبكة الطرق الرئيسية	٨-١٢
٣٨٨	تونس المدينة، المدينة الداخلية	٩-١٢
٤٠١	خريطة القاهرة في العصر الوسيط	١-١٣
٤٠٧	مشهد القاهرة والقلعة	٢-١٣
٤١٢	خريطة «بين القصرين»	٣-١٣
٤١٣	القلعة والقصر الكبير	٤-١٣
٤١٩	جامع قايتباي والمدافن	٥-١٣
٤٢٢	شارع في القاهرة	٦-١٣
٤٢٨	قبة الصخرة وقبة السلسلة	١-١٤
	المسجد الأقصى، وتبدو قبة المسجد إلى يمين الصورة، وقبة الصخرة	٢-١٤
٤٢٩	في وسطها	
٤٣٣	قبة الصخرة من الداخل	٣-١٤
٤٣٥	المسجد الأقصى من الداخل	٤-١٤
٤٣٩	الحائط الغربي للحرم الشريف	٥-١٤

٤٤١ مسجد الأشرفية	٦-١٤
٤٤٧ مآذن حلب: مشهد من القرن الثامن عشر	١-١٥
٤٤٧ مآذن حلب: مشهد من حلب في حدود ١٧٩٠	٢-١٥
	التمدين «الإرادي» والحي المسيحي (القرنان الخامس عشر والسادس عشر): إمدادات مياه جديدة ونصيب الأحياء منها	٣-١٥
٤٤٩ وقف محمد باشا دوقه كين زاده في حدود ١٥٥٥: جامع العادلية	٤-١٥
٤٥٣ وقف إبراهيم خان زاده، في العام ١٥٧٤: سوق خان الجمر ك	٥-١٥
	وقف محمد باشا دوقه كين زاده في حدود ١٥٥٥:	٦-١٥
٤٥٤ مسجد العادلية والقلعة	
٤٥٦ توزع الجماعات في الضواحي الشمالية من حلب (نحو عام ١٩٠٠)	٧-١٥
٤٥٨ وقف إبراهيم خان زاده، في العام ١٥٧٤: فناء خان الجمر ك	٨-١٥
٤٦٠ اجتماع نبلاء في صالون الخان (من القرن الثامن عشر)	٩-١٥
٤٦٢ صورة جوية لوقف إيشير باشا وحي الجديد في حوالى العام ١٩٥٤	١٠-١٥
٤٦٦ فناء داخلي لمتزل في حلب، في النصف الأول من القرن العشرين	١١-١٥
٤٦٧ زخرفة نافذة في منزل «مكتبي»	١٢-١٥
٤٦٨ واجهة منزل مكتبي (القرن السادس عشر): إعادة ترميم	١٣-١٥
٤٦٩ فناء منزل أتشيلباش (القرن الثامن عشر)	١٤-١٥
٤٧٠ سقف ردهة استقبال؛ من القرن الثامن عشر	١٥-١٥
٤٧٢ نساء من حلب (١٧٩٠)	١٦-١٥
٤٧٥ حلب مطلع القرن العشرين: مشهد من «تلة السوداء»	١٧-١٥
٤٧٦ القلعة من جهة الجنوب	١٨-١٥
٤٨٩ بورصة: قراءة للمعمار الرئيسية وتصنيفها	١-١٦
٥١١ تصاميم مدينية تاريخية في مدينة طرابلس	١-١٧
٥١٦ مخطط لطرابلس في العام ١٥٦٧	٢-١٧
٥١٨ مخطط لطرابلس من ١٥٥٩	٣-١٧
٥٢١ طرابلس: المدينة والمرفأ عام ١٦٧٥	٤-١٧
٥٢٢ مشهد لطرابلس من العام ١٦٧٥	٥-١٧
٥٢٣ معركة بحرية في ميناء طرابلس (١٦٧٦)	٦-١٧
٥٢٤ مخطط لطرابلس في العام ١٦٩٦	٧-١٧
٥٢٦ الميناء والأسوار في طرابلس عام ١٧٦٦	٨-١٧

٥٢٧	مشهد من مدينة طرابلس في العام ١٧٦٦	٩- ١٧
٥٢٩	مخطط طرابلس في العام ١٩١٠	١٠- ١٧
٥٣٣	مخطط مدينة طرابلس الحالية	١١- ١٧
٥٣٤	مشهد شمالي لمجسم مدينة طرابلس	١٢- ١٧
٥٣٥	عقدة قوس ماركوس أوريليوس في مدينة طرابلس	١٣- ١٧
٥٣٧	عقدة الأربع عرصات في مدينة طرابلس	١٤- ١٧
٥٤٠	عقدة مسجد القرماني في مدينة طرابلس	١٥- ١٧
٥٤٤	الجزائر من البحر، منظر من القرن السابع عشر	١- ١٨
٥٤٥	الجزائر في القرن الثامن عشر	٢- ١٨
٥٤٩	صورة جوية للقصة، عام ١٩٧٠	٣- ١٨
٥٥١	فتحة في تحصينات بناها خير الدين	٤- ١٨
٥٥٣	منظر من شرفات المدينة العثمانية	٥- ١٨
٥٥٥	منظر من شرفات المدينة العثمانية	٦- ١٨
٥٥٧	أحد المنازل في المناطق العشوائية	٧- ١٨
٥٥٩	دار مصطفى باشا، نهاية القرن الثامن عشر	٨- ١٨
٥٦١	تراسات، وعليات، ومطال في دار الصوف	٩- ١٨
٥٦٣	دار صغير، مستوصف الآن، شارع القصة	١٠- ١٨
		أجزاء من فناء رئيسي (وسط الدار) في دار الصوف في بداية القرن	١١- ١٨
٥٦٥	التاسع عشر	
٥٦٧	مئذنة، مسجد سيدي رمضان	١٢- ١٨
٥٦٩	شارع في القصة	١٣- ١٨
٥٧١	متزل مهدم قرب جامع اليهود	١٤- ١٨
٥٧٤	شارع في باب الجديد	١٥- ١٨
		المدينة القديمة في كرمان مع بعض الشوارع الرئيسية المشيدة	١- ١٩
٥٩٥	في القرن العشرين	
		صورة جوية لكرمان، تتضمن قلعة دُختر	٢- ١٩
٥٩٧	(في النصف الأول من القرن العشرين)	
٥٩٩	واحد من محاريب ثلاثة في مسجد الملك	٣- ١٩
٦٠٠	صورة جوية للبازار الكبير من جهة الغرب	٤- ١٩
٦٠٢	صورة جوية للجزء الجنوبي الغربي من المدينة القديمة	٥- ١٩

٦-١٩	خريطة كرمان، رسمها سير بيرسي سايكس (١٩٠٢) مع إعادة بناء لمدينة القرن العاشر وبواباتها الأربع؛ قلعة دُخْتَر (تلة الحصن)؛ قلعة أردشير (الحصن القديم) ٦٠٣
٧-١٩	مخزن الثلج (نجدان ملك) شمال قلعة دُخْتَر ٦٠٤
٨-١٩	قلعة دُخْتَر من أعلى شرفة لجهة شمال جنوب ٦٠٥
٩-١٩	برج قديم كان يصل تحصينات أسوار قلعة دُخْتَر بالمدينة (في القرن العاشر على الأرجح) ٦٠٧
١٠-١٩	قلعة دُخْتَر، وفي البعيد مباشرة المبنى الأسطواني ٦٠٨
١١-١٩	حفريات في موقع بناء جديد جنوب مسجد الملك، وقوس مهدم في الوسط يعود إلى العصر الوسيط ٦١٠
١٢-١٩	خريطة كرمان في الحقبة السلجوقية ٦١٣
١٣-١٩	خريطة كرمان تحت حكم قتلغ - الخانيين، تظهر الضاحية الجديدة «ترك آباد» ٦١٤
١٤-١٩	خريطة كرمان تحت حكم المظفرين والتموريين ٦١٩
١٥-١٩	قطع سيفساء مجمعة من كرمان، مطلية بالكروم الأسود والكوبالت، من القرن السابع عشر ٦٢١
١-٢٠	قره مصطفى، جورلولو، مجموعة سنان للمدارس والعزبات (قوناق) على محور ديوان يولو، في خريطة برفيتيتش للعام ١٩٢٠ ٦٢٤
٢-٢٠	مقطع من مشهد الشارع في جورلولو وكوكا من مجموعة مدارس سنان على محور ديوان يولو ٦٢٥
٣-٢٠	إسطنبول في خريطة تعود إلى العام ١٧٦٤ ٦٢٦
٤-٢٠	منظر إسطنبول المركزية (قلب إسطنبول) نحو عام ١٥٦٠ ٦٢٧
٥-٢٠	منظر لقره مصطفى، جورلولو، واحدة من مجموعة سنان للمدارس على محور ديوان يولو التي بنيت بين نهاية القرن السادس عشر والعقد الأول من القرن الثامن عشر ٦٢٨
٦-٢٠	بناء محور معالم ديوان يولو؛ جرى بناء المعالم بين ١٦١٠ و ١٦٩٠ ٦٣٠
٧-٢٠	بناء معالم المحور نفسه، بين عامي ١٦٩٠ و ١٧٥٠ ٦٣١
٨-٢٠	إعادة بناء جزء من المعالم وشبكة الشوارع في إسطنبول المركزية ٦٣١
٩-٢٠	جماليات الجوار: تفسير النسيج المدني الذي بعثه قره مصطفى، جورلولو، من مجمعات سنان في الفترة ما بين ١٥٩٠ و ١٧١٠ ٦٣٦

١٠-٢٠	شقق سكن نساء البلاط (قصر مُنكار) في العام ١٦٩٠،
٦٣٧	مجمع مسجد يتي جامع
١١-٢٠	منظر من إسطنبول المركزية نحو عام ١٧٥٠
٦٣٩
١٢-٢٠	مدرسة إبراهيم باشا ومخطط المجمع على الشارع
٦٤٠
١٣-٢٠	مدرسة سيد حسن باشا والسييل الملحق بها على محور الديوان
٦٤٣
١٤-٢٠	النسيج المدني في حي الفنا: أبنية من الطراز اليوناني
٦٤٨
١٥-٢٠	الخان الجديد في القرن الثامن عشر
٦٥٠
١٦-٢٠	تفاصيل في محيط ميدان السلطان أحمد (ميدان سابق لسباق الخيل)
٦٥٢
١٧-٢٠	أواخر القرن الثامن عشر
٦٥٤
١٨-٢٠	أرض المقابر في الضواحي وخارج أسوار المدينة
٦٥٧
١٩-٢٠	ديوان يولو في لوحة تعود إلى أواسط القرن التاسع عشر
٦٥٨
١-٢١	أمثلة لأضرحة من القرنين السابع عشر والثامن عشر
٦٦٣
٢-٢١	مدينة بُخارى: التنظيم المدني
٦٦٥
٣-٢١	مجمع خوجة زين الدين في بُخارى
٦٦٧
٤-٢١	مجمع كاليان (أي عند أقدام صاحب العظمة)
٦٧٦
٥-٢١	بُخارى المدينة ذات الأسوار والشبكتين اللتين أضيفتا
٦٧٩
٦-٢١	مجمع تشوربكر
٦٨٨
٧-٢١	توزيع رمزي للمعالم الرئيسية في بُخارى
٦٩٣
١-٢٢	مخطط شيراز للعام ١٧٦٥
٧٠٤
٢-٢٢	مخطط مصحح لشيراز الصفوية
٧٠٦
٣-٢٢	منظر لشيراز من رسم شاردان من تنغة الله أكبر
٧٠٧
٤-٢٢	مخطط شيراز من رسم باسكال كوست
٧٠٨
٥-٢٢	مخطط شيراز للعام ١٩١٨
٧١١
٦-٢٢	مخطط درياتشه (بحيرة) قُربانغاه وباغ (حديقة) وزير إيماني بك
٧١٢
٧-٢٢	منظر حديقة وضريح حافظ
٧١٦
٨-٢٢	منظر لباغ (حديقة) تخت قراتشه وسهل شيراز، من ألبوم دي آرسي
٧١٩
٩-٢٢	منظر لقلعة الفردوس، لهوفستد فان إيسان
٧١٩
١٠-٢٢	منظر لمدخل مبنى باغ إمام قُلي خان مع قطبي «شوغان» في المقدمة،
٧٢١
	لكامبير

٧٢٢	مخطط إمام قُلي خان ومنظر لمبناه	١١-٢٢
٧٢٥	مخطط مصحح لأصفهان الصفوية	١٢-٢٢
٧٢٦	مخطط باغ دلفشا	١٣-٢٢
٧٢٧	منظر لمبنى خلوت خانة	١٤-٢٢
٧٤٢	ثلاثة أنواع من «التشهار باغ» المغولي	١-٢٣
٧٤٦	أغرا	٢-٢٣
		خريطة أغرا، على قماش قطن تعود لعام ١٧٢٠ بألوان مائية،	٣-٢٣
٧٤٨	٢٩٤ × ٢٧٢ سم	
٧٥٥	رسم لخطوط خريطة أغرا مع ترقيم حدائق الواجهة البحرية	٤-٢٣
		خريطة أغرا وهي تشير إلى المباني المغولية التي جرى الحفاظ عليها	٥-٢٣
٧٥٦	على الواجهة البحرية	
٧٥٧	منظر لمدينة ذات واجهة نهريّة (أغرا؟)، الخلفية لأحد النبلاء مع موسيقيين	٦-٢٣
٧٦١	١٦٣٠ برج باغ جهان آرا (باغ الزهراء)، ثلاثينات القرن السابع عشر	٧-٢٣
٧٦٣	١٦٤٠ مخطط باغ وزير خان (أو باغ محمد زكريا)، من عام	٨-٢٣
٧٦٨	١٦٣٢ - ١٦٤٣، مع ترقيم المباني	٩-٢٣
٧٦٩	١٦٤٣ - ١٦٣٢، مع ترقيم المباني	١٠-٢٣
		١٦٣٢ - ١٦٤٣، مع ترقيم المباني	١١-٢٣
٧٧١	١٦٣٠ ثلاثينات القرن السابع عشر ... مع أجزاء من أبراج أخرى مهدمة،	١٢-٢٣
		١٦٣٩، تظهر حدائق قصر حصن شاه يوهان، للأمير دارا شكوه، وحدائق الأميرة جهان آرا ونبلاء آخرين	
٧٨٠	داخل المدينة	
٧٨٩	١٨٥٨ المراكز الدبلوماسية قبل العام	١-٢٤
٧٩٠	المقر البريطاني في تشادراغات، الواجهة الشمالية	٢-٢٤
٧٩٢	مدخل مقر تشادراغات من ضفة النهر (جنوب)	٣-٢٤
٧٩٥	بوابة دلهي	٤-٢٤
٧٩٨	تشيني خانة، ديوان ديودي	٥-٢٤
٧٩٩	عينة خانة، ديوان ديودي	٦-٢٤
٨٠٢	١٨٦٨ المراكز الدبلوماسية بعد العام	٧-٢٤
٨٠٣	جسر أفضل	٨-٢٤
٨٠٤	بوابة أفضل، على الجسر	٩-٢٤

٨٠٦	تشار كمان	١٠-٢٤
٨٠٧	تشار مينار	١١-٢٤
٨١٠	قصر تشاو محل، رواق أفضل (جنوب)	١٢-٢٤
٨١١	قصر تشاو محل، رواق تهته (شمال)	١٣-٢٤
٨١٦	مسجد أفضل غنج، الساحة الداخلية	١٤-٢٤
٨١٦	مسجد تولي (القرن السابع عشر)	١٥-٢٤
٨١٨	تصميم مسجد آصف جاه	١٦-٢٤
٨١٩	إعادة رسم الارتفاعات الأصلية لمسجد أفضل غنج	١٧-٢٤
٨٢٢	سور صنعاء وتبدو المنازل المرتفعة والمآذن تعلو فوقها	١-٢٥
٨٢٢	القلعة من داخل المدينة	٢-٢٥
٨٢٣	صنعاء: خريطة للمدينة القديمة	٣-٢٥
٨٢٤	المسجد الجامع في صنعاء	٤-٢٥
٨٢٥	صورة عامة لسوق صنعاء	٥-٢٥
٨٢٦	خان مسقوف نموذجي من الخارج	٦-٢٥
٨٢٧	فندق في السوق، ونرى رجالاً يجلسون في مدخل المقهى	٧-٢٥
٨٢٨	أروقة فناء في القسم السكني للفندق	٨-٢٥
	صورة من الجو لصنعاء تظهر حدائق السوق خلف المنازل المصطفة	٩-٢٥
٨٢٩	على طول الشوارع الرئيسية	
٨٣١	رجال يتجهون لقضاء قيلولتهم بعد الظهر ولمضغ بعض أوراق القات	١٠-٢٥
٨٣٤	منازل صنعانية نموذجية	١١-٢٥
٨٣٥	منزل صنعاني: تقسيم ومخطط نموذجي	١٢-٢٥
	ديوان في منزل كبير - تستطيع العشيرة كلها أن تجتمع فيه في	١٣-٢٥
٨٣٦	المناسبات العائلية	
٨٣٧	غرفة نموذجية ونرى الجبس الأبيض أعلى النوافذ	١٤-٢٥
	غرف تسلية نموذجية (المفرج) على سطوح المنازل، للتمتع بالمناظر	١٥-٢٥
٨٣٧	ويرودة النسيم	
	رسم بياني لحمام نموذجي، يظهر طريقة التخلص من النفايات	١٦-٢٥
٨٣٩	الصلبة والسائلة	
٨٤٠	صهر ييج ماء في زاوية شارع	١٧-٢٥

١٨-٢٥	حقال ماء يحمل القرية المصنوعة من جلد الماعز المملوءة ماء
٨٤١	ويصعد بها درجاً داخل منزل
١-٢٦	فَرس مَغالا، مشهد من الكنيسة
٨٤٩	منظر لمسجد
٢-٢٦	ضريح الأمير نور بن مجاهد
٨٥٣	باحة داخلية لمنزل
٨٥٥	غرفة رئيسية في منزل تقليدي
٨٥٧	حفرة على صحن نحاسي ملون صنع اليد
٨٥٨	صورة جوية عمودية لضفتي النهر ومدينتي الرباط وسلا
٨٦٦	منظر جانبي للقصبة في مدينة سلا
٢-٢٧	منظر جوي عمودي لمدينة سلا عند مطلع القرن
٨٦٨	صورة جوية عمودية لمدينة الرباط عام ١٩٨٠
٨٧٠	منظر جوي لقصبة الوداية
٤-٢٧	صورة جوية عمودية لمدينة سلا عام ١٩٨٠
٨٧٢	منظر لساحة الأعمدة (سبلاناد) والمئذنة في مسجد حسان
٨٧٣	منظر عام للمدينة المرينية المسورة، شالّة
٨٧٧	زاريا المدينة القديمة، مخطط من عام ١٩٧٠
٨٧٨	حدود خلافة سوكونو في أقصى ما بلغت
٨٨٢	صورة جوية، أواسط الستينيات، لنمط المجمّعات السكنية المسورة
٩٠٢	ولمزارع صغيرة عدة بينها كما بين الأحياء
٩٠٣	مجمع نمطي لتجمع سكني في أحد الأحياء
٩٠٥	منظر خارجي للمدخل الرئيسي (زاورة) لمنزلين في زاريا
٩٠٦	حي سكني من ٢٦ مجمعاً
٩٠٧	دراسة مقارنة للمناطق المسقوفة والأمكنة الخلاء
٩٠٩	
٩١٠	

تمهيد

خلف هذا الكتاب، في الأصل، رغبة استبدت بي قبل ثلاثين عاماً تقريباً، وهي السعي إلى التغلب على الحصار والقمع المفروضين على معرفة الثقافة العربية والحضارة العربية - الإسلامية خارج الوطن العربي؛ ومحاولة إظهار التشابهات وكذلك التباينات، ونقاط التلاقي ونقاط الافتراق، بين الاتجاهات الرئيسية العربية وتلك غير العربية، وبخاصة الغربية والتقليدية، والعمل من خلال ذلك على استخراج وحدة الثقافات الإنسانية. أما ما جعل ذلك مطلباً ملحاً فهو ملاحظة النقص القائم، خارج الوطن العربي، في المواد والوثائق التي تمثل الثقافة العربية والفكر والأدب العربيين والحضارة العربية - الإسلامية.

وقد أوجدتُ من أجل هذه الغاية مؤسسة «تواصل شرق - غرب/ بروتا»، بهدف تزويد العالم الناطق بالإنكليزية بوجه خاص، وعلى أفضل ما أستطيع، بعض أفضل آيات الإبداع العربي، ماضياً وحاضراً. وفي اعتقادي أن التاجات الخلاقة لمختلف الثقافات هي تراث حقيقي لكل الشعوب، بدليل الإقبال المتزايد للناس على قراءة روايات وأشعار من ثقافات أخرى مترجمة، وعلى مشاهدة آثارها وأعمالها الفنية، وعلى الإصغاء إلى موسيقاها، ومشاهدة ما لديها من رقص وتمثيل. لقد كان من الأهمية بمكان لي أن تجري، في هذا المفصل من الزمن، محاولة إنشاء فهم أصيل لانتصارات إنسانية أخرى، ولحضارة إنسانية أخرى، انتصارات الحضارة العربية الإسلامية التي كانت لها هذه المساهمة الكبيرة في تقدم الثقافة العالمية. إن الإصرار على منحى المركزية الأوروبية في تفسير التقدم العالمي لا يجدي نفعاً، بل إنه ليقود إلى تعميق العوامل السلبية بين

الشعوب - الأمر الذي بات في الإمكان مشاهدة عواقبه على نحو ملموس في السنوات الأخيرة. وحده الاعتراف بالمساهمات المتألقة لشعوب العالم كافة في تحقيق المزيد من الأغراض الجمالية والفلسفية والروحية للبشرية هو ما يسمح أخيراً بتحقيق الحضارة الحقيقية.

وقد شدّ على زندي دائماً لتحقيق مثل هذا الفهم مجموعة مختارة من الزملاء في أمريكا، حيث بدأ هذا العمل، كما شاركتني زملاء من أوروبا والوطن العربي النظرة عينها.

هذا الكتاب

كان كتاب لويس ممفورد المدينة في التاريخ هو ما شدني أولاً إلى فكرة تزويد الجمهور على مستوى العالم بمجلد في موضوع المدينة في العالم الإسلامي. وبالرغم من أن الكتاب قد لفتني بشموليته ولغته الجميلة إلا أنه كان لافتاً أيضاً عجزه عن أن يُدخل في عمله ولو مدينة إسلامية واحدة - كما لو أن المدن الإسلامية تأسست وسُكنت خارج العمران البشري، بل خارج التاريخ البشري نفسه. لم يتضمن الكتاب كلمة واحدة عن بلدان كانت ذات حضارة لامعة، وذات تحضر كان ظاهراً في مراكزها المدنية التي تحولت إلى أماكن للعلم والاكتشاف والإبداع والفن، وللحداث والمدينة والعمارة الخلابة فيها - وما من مكان آخر أكثر إبداعاً مما تبقى حتى الآن من المدن الأندلسية التي تقاطر إليها يوماً ما طلاب المعرفة من الشرق والغرب، فتعلموا وترجموا فيها ما وسعهم ذلك، وعادوا إلى بلدانهم بالثمار الغنية التي حصلوها هناك.

كان حبي للمدن حافزاً إضافياً. وكان يذهلني، وأنا طفلة، وصف جرجي زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) الأخاذ في رواياته الكثيرة لعدة مدن إسلامية في أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي قبل حقبة الحداثة. لقد ساهم الإعجاب المنقطع النظير الذي محضه ذلك المسيحي اللبناني في كتاباته للتراث العربي والإسلامي في جانبه المدني في شدّ الانتباه إلى المستوى العالي من التقدم والتعقيد الذي بلغته المدن الإسلامية في زمانها. كان عقلي اليافع مشبعاً بصور من أحداث كبرى، وعمليات، وقصور، ومكتبات، وحمامات عامة، وحدائق عابقة، ومساجد فسيحة رائعة بل منقطعة النظير. لقد أحيأ في ذاكرتي شطب ممفورد للمدن الإسلامية كافة ذلك كله، وجعلني أصمم على إخراج عمل متخصص عن المدينة في العالم الإسلامي.

ومع ذلك فقد واجهتني وأنا في صدد تنفيذ مشروعي صعوبتان: الأولى، إيجاد تمويل لإنجاز عمل شامل عن المدينة الإسلامية قُدرت أنه سيحتاج إلى عدة مجلدات؛ والثاني، كيفية تأمين انخراط المتخصصين المعروفين في الموضوع في موضوع المدينة الإسلامية، وهم الذين سيتولون العبء العلمي لهذا العمل.

كان جلياً منذ البدء أن عملاً ضخماً كهذا سيحتاج بالضرورة إلى دعم مالي كبير. واحتاج الأمر إلى إحدى عشرة سنة كي أعثر على ضالتي، وذلك في شخص الصديق عبد الله الناصر، الملحق الثقافي في الملحقة الثقافية السعودية في لندن. لقد كان تفهمه رفيعاً لعملتي العتيد، وللحاجة إلى نشر الثقافة العربية على مستوى العالم، وأظهر الرغبة في تقديم ما يمكن من المساعدة. وقد تولّى مسؤولية محادثة د. خالد العنقري، وزير التعليم العالي في العربية السعودية، وأحد أكثر المسؤولين المستعيرين وأبرز حراس الثقافة في منطقتنا. وحماسة الوزير العنقري لفكرة الكتاب قادتني إلى مخاطبة سمو الأمير عبد العزيز بن فهد، المعروف باهتمامه وحماسه للحضارة والثقافة العربية، فكان التمويل.

أما في اختيار المحررين الملائمين، المتخصصين بالمدينة في العالم الإسلامي، فلم يكن الأمر صعباً جداً. فقد كنت قرأت بعض الأعمال الممتازة للبروفسور أندريه ريمون، ولفتني ما فيها من سعة أفق، وعمق، وأسلوب. كما أتيح لي التعرف إلى أتيليو بيتروشيولي حين تولّى في التسعينيات كرسي آغا خان في معهد ماساتشوستس للتقانة (MIT)، حيث كنت أعيش، وأعجبني حسن اطلاعه وشموليته لمجال اختصاصه الواسع. وقد التقينا معاً غير مرة أواسط التسعينيات لمناقشة المشروع والعمل على تصميم أولي لمحتويات الكتاب الذي كنا في صدد تأمين ولادته. كذلك طلب مني صديقي البروفسور أوليغ غرابار التواصل مع ريناتا هولود من جامعة بنسلفانيا، ولتصبح المحرر المتخصص الثالث الذي يحتاج المشروع إليه. وقد أبدت فوراً حماسها للمشروع، فمنحته ما تملك من معرفة واسعة، إضافة إلى دقتها وحيويتها. لقد كان ذلك لقاءً رائعاً ومثمراً لعقول متجة متمكنة ومجزية؛ وهذه مناسبة لأتقدم بالشكر الخالص من المحررين المتخصصين الثلاثة للكتاب، لرؤيتهم العميقة، ودقتهم، وإبداعهم وحرصهم المنقطع النظير. لقد كان عملي معهم موضع سعادة غامرة لي.

وللمساهمين في هذا العمل، كافة، أدين بالشكر. لقد أعطى كل واحد منهم هذا الكتاب عصارة تخصصه، وأمكنهم مجتمعين أن يعطوا، من خلال عملهم الجاد والمتقن هذا، القارئ حول العالم نصّاً متقناً وشاملاً حول المدينة الإسلامية، في ماضيها

وحاضرها، والدور المركب الذي مثله في تاريخ الحضارة الإنسانية. هؤلاء هم العمود الفقري لهذا العمل.

كذلك، نحن جميعاً ندين بالشكر لصاحب السمو الملكي، الأمير عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز لتمويله البالغ السخاء، الذي سمح لنا بالوصول معاً إلى هذه الخاتمة المثمرة. والشكر موصول أيضاً إلى د. خالد العنقري الذي أثبت أنه داعم صلب للمشاريع الحضارية الهادفة إلى تعميق المعرفة بالثقافة العربية - الإسلامية، ويدورها في بناء وتعزيز الثقافة العالمية. كما نشكر الأستاذ عبد الله الناصر لمبادرته التي سمحت بتمويل هذا العمل ولتفهمه العميق للحاجة إلى إعطاء الثقافة والحضارة العربيتين المكانة التي تستحقانها داخل الثقافة العربية المعاصرة.

سلمى الخضراء الجيوسي

محررة سلسلة «الحضارة الإسلامية»

«مؤسسة تواصل شرق - غرب/ بروتا»

مقدمة

ألقت الأحداث المفجعة الأخيرة الضوء من جديد على العالم الإسلامي، وبعثت الفضول حياله على نحو ملحّ جداً. لقد وضعت الأحداث تلك، أكانت الهجمات على مركز التجارة العالمي، أو مطاردة طالبان في أفغانستان، أو الحرب على العراق، أو مشكلة فلسطين التي لم تجد حلاً حتى الآن، أو العدوان على لبنان أخيراً، العالم الإسلامي في قلب دائرة الضوء والاهتمام الإعلاميين. ومع ذلك، فهناك تحت القشرة الخارجية للأحداث الكثير مما يستدعي نظرة أكثر عمقاً وتبصراً.

وعليه، فغاية هذا الكتاب هي التركيز على مراكز الحياة والسياسة والثقافة حيث تركت أجيال العالم الإسلامي الحالية والسابقة بصماتها المميزة. تلك هي مدن العالم الإسلامي، الكبيرة والصغيرة، المنسية أو تلك التي لا تزال تنمو وتنبض بالحياة. هذه المبادرة هي بمنزلة الترويج الأكثر أهمية لعدة أبحاث حول تلك المدن صدرت في العقود الأخيرة. وبالرغم من هذا التطور على مستوى المعطيات التفصيلية، فإن القليل فقط من تلك الأعمال الحديثة حاول تقديم تلخيص لها جميعاً أو استخلاص ما هو ضروري منها؛ علماً أن لا شيء من ذلك باللغة العربية.

وبما أن هذا الكتاب هو نتاج مساهمات عدد من المؤلفين، فقد توجب أن تكون المقاربة شاملة قدر الإمكان، من عدة زوايا، ووفق مناهج متغيرة تتلاءم مع الدراسات المدنية لجهة الوظائف أو مع حالات بحثية خاصة أو مكانية. أما المفهوم الوحيد المسيطر فكان دائماً النظر إلى المدينة بوصفها كائناً عضوياً حياً. وهكذا، تتألف المدينة من أجزاء شديدة الترابط، مع أنماط سكن واتصال وأمكنة عامة ومؤسسات متداخلة

ومتبادلة التأثير، ولتنتج معاً ثقافة الحياة المدنية. وكما في كل كائن عضوي حي، يجب النظر إلى المدينة كسلسلة من التحولات المستمرة لا كمجموعة صور مجمدة. فللمدينة ميلاد وموت على حد سواء.

وبخلاف عدة كتب سابقة تناولت المدينة في العالم الإسلامي، يتميز هذا العمل باشماله ليس على المعطيات التي تشكل النسيج التاريخي للمدينة فقط، وإنما على التحولات الحديثة والمعاصرة التي أصابت هذا النسيج المدني أيضاً. وعليه، لم يقتصر الاهتمام على جوانب معينة في هذا النسيج، من مثل المواقع السياسية والوطنية التي صنعت صورة المكان، وإنما شمل كذلك، ويكثر من التركيز، التدفق الكلي للعمليات المدنية وصولاً إلى الزمن الحاضر، وما انطوت عليه من ظواهر من مثل تأثير دخول مفهوم النقل على عجالات، والتأثيرات التي تركتها البنى والإدارات الكولونيالية، والتغييرات الشاملة التي جلبتها الهجرات السكانية في السنوات الأخيرة.

لقد اخترنا جعل هذا الكتاب تحت عنوان المدينة في العالم الإسلامي ليتجنب على وجه الخصوص مصطلح «المدينة الإسلامية» الذي لم يعد مطابقاً أو متجاً. لقد كانت هذه المسائل موضع نقاش في العقود الأخيرة، وسيجري مراجعة أهم أديانها في الفصل الأول. ونحن نأمل، من خلال جمع ومقابلة الدراسات المتخصصة التي ركزت على الجوانب التاريخية والمكانية والعضوية، إيجاد قاعدة بيانات أكثر غنى تصبح قيد الاستخدام، ويمكن أن تنبثق منها رؤية أكثر حيوية لكيفية عمل المدن واستمرارها في العمل كمواقع للهوية والثقافة.

وفي حين يمكن التوقع أن التحولات الكبرى للمدن التي جرى توثيقها في السجلات والخرائط الرسمية، سيجري في المقابل استعادة وإظهار تأثيرات من حجم أصغر جلبتها قرارات اتخذها أفراد. وبفضل سيل مستمر من الإصدارات الحديثة التي تناولت معطيات من الأرشفة، بات لدينا الآن معرفة باهتمامات الحياة المدنية وتحولاتها أكثر قرباً وثقة؛ وبعضها على سبيل المثال مراكز الخدمات الاجتماعية التي تشغل عدة مواقع على خرائط المدن والتي أوجدها وتولى تمويلها رجال أو نساء من بين أفراد النخب الحاكمة. لقد بات ذلك معروفاً على نحو أفضل الآن، ويعود الفضل في ذلك إلى نشر وثائق مؤسسات خيرية كثيرة («وقف» أو «حبس» في العربية، و«وقف» في الفارسية).

كذلك، أضاءت الأبحاث المتزايدة في أرشيف أسر معينة على عدة جوانب من الحياة المدنية وتحولاتها. وقد أضافت مادة الأرشيف العثماني الضخم، بما فيها سجلات المساحة والضرائب، معلومات جديدة تتعلق بالمتغيرات المحلية. كما أضاف الإفراج عن مواد الأرشيف في جمهوريات آسيا الوسطى، السوفياتية السابقة، إطاراً جديداً مقارناً. وأخيراً شكّل الاهتمام المتزايد بوثائق الأسر، التي باتت أكثر توافراً، وأتاح التحليل المايكروبي لمعطياتها المحفوظة في صناديق أو على قدور زيت الزيتون المستخدمة أكثر من مرة، الإطلالة على الوحدات المحلية الصغرى.

ومن أجل تقديم المدينة ككائن عضوي حيّ ومتصل، فإن دراسة الماضي القريب، وتحديدًا وثائق القرنين التاسع عشر والعشرين، هو أمر أساسي. وفي هذا السياق، تغدو مواد أرشيف الدول المستعمرة، كما تلك المحفوظة في وزارات التخطيط وخزائن البلديات، في غاية الأهمية. على سبيل المثال، فإن في وسع أرشيف وزارة الحرب، ووزارة ما وراء البحار، في أكس أون بروفنس، ومكتبة وزارة الهند في لندن، ومجموعات أخرى مماثلة، توفير معطيات يمكنها تغيير بعض أفكارنا حول بدايات المدينة الحديثة.

كذلك غدت المواد المتأنية بنتيجة أعمال مسح الأراضي وخرائط التأمين، التي كانت في الأصل لهدف آخر، موضع استخدام في سياق تفسير تاريخ العمران المدني. على سبيل المثال، فإن خريطة بريفتش لإسطنبول (١٩٢٢ - ١٩٤٥) ولأغراض متصلة بالتأمين، ومثلها خرائط المساحة الفرنسية التقليدية بقياس ١/١٥٠٠ في مناطق كانت تحت الاستعمار والنفوذ الفرنسيين (كسورية والجزائر)، وحتى مسوحات ممتلكات الكنائس في طليطلة، يمكن اعتبارها نسيجاً للحياة المدنية. وقد طبقت حديثاً أدوات جديدة في تحليل الشكل المدني تتدرج من التصوير بواسطة السواتل (الأقمار الاصطناعية) إلى المعطيات الجغرافية المجمعة بواسطة نظام المعلومات الجغرافية (GIS) ونظام التموضع العالمي (GPS)، التي أتاحت لنا التوسع في معطياتنا الأساسية وتعميقها.

إلى ذلك، فقد تزايد افتتاح برامج للشكل المدني في عدد من المراكز والأنظمة الجديدة المعروفة وذات الانتشار. منها، على سبيل المثال، مركز دراسات البيئة المبنية (CSBE) في الأردن، و«فريق العالم العربي والمتوسط» (URBAMA/EMAM) في جامعة تور، والـ CNRS IREMAM في المركز الوطني للبحوث العلمية، وجامعة أكس أون بروفنس، و«مدرسة العمارة في باريس»، وموقع الأركنت على الإنترنت

(archnet.org) الذي ترعاه مؤسسة جائزة آغا خان للثقافة، ولائحة أخرى متزايدة من الدوريات المعنية بالعمارة والمدينة المنتجة في كل مكان من المغرب إلى تركيا وإيران.

وفي الوقت الذي تبدو قليلة الدراسات التاريخية للمدن التي بلغت في اهتمامها الزمنَ الراهن، فإن البحث في الوضعية المدنية كما صارت على أيدي مستخدميها هو من الأهمية بمكان. لقد جرى اعتبار الاختبار المدني عند كتاب كثيرين مصدراً معرفياً غنياً، وبين الأكثر حداثة نذكر أورهان باموك في عمله إسطنبول. وبين الأعمال الأنثروبولوجية نذكر س. غيرتز وه. غيرتز، ول. روسن في عملهم عن صفرو في المغرب الذي أظهر أن كل ساكن في المدينة يمتلك تجربة خاصة مع المكان، بالرغم من اشتراكه مع سواه في عناصر بيئية أخرى. هذه التجارب الخاصة هي إلى حد كبير نتاج عوامل العمر، والطبقة، والمكانة، والجندر.

إن صور أوضاع المدن بصروحها الكبرى كما بأنشطتها الصغيرة، هي بمنزلة نوافذ تضيء على الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمدينة. إن تزايد إمكان الوصول إلى البومات الصور التاريخية للمدن، وتزايد نشرها، كما في مكتبة الكونغرس، أو مجموعة جامعة بامبرغ، أو المقارنة بين مجموعتي الصور القديمة والحديثة للمغرب عند سعيد مولين في عمله *Repères de la Mémoire*، هي بيان قوي لطريقة النظر إلى الاختبار المدني من وجهة فردية.

بدأ تطبيق منهج دراسة النسيج المدني مع سافيريو موراتوري ثم استكمل مع مدرسة فرساي، وجرى تطبيقه على دراسة المدن الإسلامية منذ ثمانينيات القرن الماضي جالباً بالتالي نجاحات علمية إضافية. لقد سمح هذا المنهج، أكان على مستوى العمران أو على مستوى النسيج المدني، بتكامل المعطيات المتوافرة، من الخرائط والنصوص والحفريات، كما في حالة القاهرة مع فيليب بيناراي وسوزان نوير، وصولاً إلى الحالات الدراسية الأخرى التي وجدت طريقها إلى هذا الكتاب.

لقد جلبت الكشوفات الأثرية في العقود الأربعة الأخيرة كمّاً ضخماً من المعطيات والتفاصيل حول النسيج المدني لجهة البناء والاستمرارية والتمدد والاستخدام. وأياً تكن الوجهة، أكانت مشاريع أو أعمال حفظ أو توثيق للتوسع الأفقي، فإن الانتقالات الزمنية والتغيير في نوع الوظيفة باتا الآن أفضل توثيقاً. وقد أظهرت الحفريات في بيت شان (بيسان)، على سبيل المثال، أن الأمويين قد استثمروا على نحو عمراني كثيف كما يتضح من آثار المدينة القديمة المتبقية. كذلك سمح إظهار نافارو بالازون لعدة

هكتارات من النسيج السكني المدني في مُرسية بإعادة تركيب مدينة العصر الوسيط الإسلامية. وسمح الكشف عن آثار مدينة سمرقند - أفراسياب القديمة - بإظهار الأبنية القديمة الفخمة وأسس المسجد الجامع الذي كان قائماً. وجمع الستير نورتهديج في عمله بين تقنية الخرائط الحديثة، وسجلات الإحصاءات، ونصوص أخرى، ليستخرج صورة أكثر جدة وكمالاً لمدينة سامراء الملكية. كذلك نجح جان باسيني من خلال أبحاثه في سراديب طليطلة، بمساعدة سجلات أملاك الكنيسة القديمة، بإعداد أول خريطة للمدينة الإسلامية هناك.

في الوقت عينه، تمكّن عدد من الباحثين، عبر استخدامهم نصوصاً جغرافية وشرعية، من تطوير مقاربات نظرية جديدة حول استعمال المكان في المدينة، وحول طريقة إدارة وعمل المكان المدني. فقد قارب عدد من الباحثين، من بينهم صالح الحثلول ويول ويتلي وياهر جوهانسن، موضوعات مثل العام والخاص من أمكنة المدينة، وقانون الإرث، والاصطلاحات والإدارة في المدينة، وسواها. ومن خلال هذه الجهود، يمكن إعادة قراءة الحضارة الإسلامية بوصفها، في الأساس، حضارة مدنية.

ومع ملاحظة أن البناء ذا الحجم الضخم كان ميزة ثابتة للقرن العشرين، كما هو للقرن الحادي والعشرين، فإن نشر النص الكامل لهذه السجلات والتقد اللصيق لها يستطيعان أن يكشفاً حدود الاستمرار أو الانقطاع داخل التفكير والخيال المدنيين. في وسع هذه الإنشاءات الضخمة، في أحسن الأحوال، توفير بعض التعزيز البيئي والعزاء النفسي لتوسع بات يفوق القدرة على الاحتمال. هكذا نجحت جامعة الشرق الأوسط التقنية في توفير برنامج أخضر يلائم مناخ أنقرة، كما نجحت مفوضية آغا خان في انتزاع مكان أخضر فسيح (حديقة القاهرة) وسط مدينة مغبرة يقطنها ١٨ مليوناً من البشر - ميغابوليس من الحجم الضخم. كذلك أتاحت العواصم الجديدة للدول الحديثة الاستقلال لإنشاء مساحات واسعة للتفاعل العام، مفسحة المجال أمام أشكال أكثر جدة من التواصل وتشكّل الهويات الوطنية.

وأيّاً كان المعنيّ، أنقرة عاصمة تركيا العلمانية منذ الثلاثينيات، أو إسلام آباد ودكا في جمهورية باكستان الإسلامية في الستينيات والسبعينيات، أو الرياض في العربية السعودية منذ عام ١٩٧٠، فإن النسيج المدني الجديد بات يتضمن الاختبارات المدنية القديمة والحديثة في الأبنية العامة والطرق السريعة ومجمّعات الشقق السكنية والحدائق. وفي خضم هذا التحول الكبير لا يبقى غير مكان محدود وجزئي أمام محاولات المحافظة على إرث الماضي وإعادة رسم الوجه المكاني للمدن. ومع ذلك

تستحق المحاولات تلك بذل الاهتمام وتوفير الموارد لها كونها لا تزال أمكنة برسم الحياة. وسواء كان المكان في هضاب الهونزا، أو في النسيج المدني لمدينة تونس، يبقى في وسع الأمكنة ذات الحجم الصغير أن تبعث أنماط عيش أكثر دفئاً. وأخيراً فإن القفزة الأكثر جدة في مجال تحويل الخرافة إلى مستقبل حقيقي تتمثل بالواجهة البحرية لكل من أبو ظبي ودبي حيث حجم البنيان يكاد يرى من الفضاء الخارجي.

أولى المحررون، في إطار تقديم مادة هذا الكتاب وتنظيمه، اهتماماً خاصاً بفكرة النظر إلى المدينة بوصفها كلاً عضوياً حياً. وعليه فقد ساهم كل ما فيها من وظائف وخصائص، ماضياً وحاضراً، في صنع ما باتت عليه الآن. ولدراسة المدينة في العالم الإسلامي تاريخ طويل، جرت إعادة تقييمه واستنتاج خلاصاته النظرية على يد باولو كينو أولاً، وهذا ما جرى تحديثه وتبويمه في الفصل الأول من هذا العمل، وتضمن بالطبع نقداً ما بعد كولونيالي، وذلك في عدد من الأعمال. كذلك يقارب أندريه ريمون في بحثه في المدينة العربية والإسلامية، بعض المشكلات التي تواجه تشكيل كيان مدني هنا أو هناك. ومع ذلك فلا تظهر المميزات «الإسلامية» للمدينة الإسلامية حقاً إلا حين يجري النظر إلى المدينة من زاوية الشرع الإسلامي تحديداً، كما يجري تفصيله في الفصل الثالث. وحين يُنظر إلى الحالات الشرعية أو القانونية بوصفها إجراءات مضافة استدعتها ظروف مدنية معينة، من مثل ارتفاع البناء، والضرر اللاحق بالجيران، ومسح الأراضي وتجزئتها، يصبح مُبرراً التساؤل عما إذا كان القانون الإسلامي، الشريعة، قد عدل في التصميم السطحي للمدينة وإلى أي حدود. التساؤل هذا مهم وبخاصة حين نبحث في الكيانات المدنية التي كانت قد ورثتها السلطنات الإسلامية كجزء من النسيج العمراني للحياة المدنية ما قبل الإسلامية وتقاليدها. وسيناقش الفصل الرابع بعض تفاصيل هذا الإرث.

من جهة ثانية، كان هناك، في فترة مبكرة من تاريخ التوسع الإسلامي، إدراك لضرورة إيجاد مستوطنات إسلامية حصراً، حتمتها غالباً إما حاجة الجيوش الإسلامية إلى معسكرات أو الحاجة إلى مدن تكون بمنزلة قصور ملكية. هذا المزج بين المدينة والقصر امتلك باستمرار أهمية خاصة داخل المكان الإسلامي، وكان المفتاح في تطوير معنى فكرة «تحضر» أو «تمدن»، وما هو مدني وحضري وما هو غير ذلك. وهكذا أصبحت «المدينة»، سواء أكانت في الشرق أم في الغرب، مثال التمدن الإسلامي. سيتناول الفصل الخامس ظاهرة تأسيس هذه المدن الجديدة ودورها في تعزيز اللحمة الإسلامية.

البحث في المدينة ككائن عضوي يعني أيضاً تقديم وصف لوظائفها. وعليه، شكلت المدينة قيد العمل فصلاً داخل هذا الكتاب أولى عناية خاصة بتلك الوظائف، مثل توفير المياه، والتواصل، والتعليم، والإدارة، والنظام العام، والمكان الخاص، والحياة المدنية. وحين تؤدي تلك الوظائف على النحو الصحيح يمكن إذ ذاك التأكد من استمرار انتظام «صحة» الكيان المدني.

وللمدينة دائماً وظيفة أخرى أيضاً بوصفها المكان الذي يحتضن ممارسة المسلمين لعباداتهم وشعائرهم الدينية، وكذا للجماعتين المسيحية واليهودية في العالم الإسلامي. فالمسجد الجامع لا يكون إلا وسط تجمع سكاني وعراني كثيف، أي في «مدينة». إلى ذلك فقد كانت مدن مثل مكة والمدينة والقدس، وأخرى أقل بعض الشيء ولكنها مهمة، مثل كربلاء ومشهد، وجهة التبرك والحج.

يلزمنا التركيب الإشكالي لـ «دار الإسلام» النظر من قرب إلى التمايزات الإقليمية والزمنية للمدينة. وكان ذلك نتيجة تزايد الدراسات المتخصصة. وهكذا جهدنا في هذا الجزء من الكتاب لتقديم عرض شامل للمدن يتدرج من الأطلسي إلى المحيط الهندي. لقد خلقت الجغرافيات الثقافية أنماطاً إقليمية تضمنت في ما تضمنت أفكاراً عن حدود المكان والمشهد المدني قبل الإسلام، وعلاقتها بالأنماط الجديدة من الحياة الاجتماعية والسلطة، التي ساهمت في تشكيل المدينة داخل العالم الإسلامي. وقد جرى انتقاء الحالات البحثية هذه وفق معيارين إقليمي وزمني، وكان القصد منها جسر الهوة بين ما يقال إنه تقليدي وما يقال إنه حديث.

لقد تم تأسيس عدد من المدن الجديدة في القرون الأولى للعالم الإسلامي وفق تصميم هادف، وجرى استيعاب التصميم ذاك بنجاح في المراكز المدنية. وفي النهاية خضعت صورة المدينة لمقتضيات تطبيق النظام الإسلامي الشرعي واستخدامه لتشكيل نسيج مدني جديد، فردي، حيث أجزى المكان الخاص في حين بقي المكان العام قيد الاستخدام، لكن من دون حدود واضحة محددة. وأياً يكن التصميم الأولي للمدينة المستهدفة، شبكة أو مربعاً أو دائرياً، فقد ظل في حالة المدن الناجحة، مثل بغداد والقاهرة، نصوصاً في الذاكرة، يمكن تمييزها من المواقع والكيانات غير الناجحة أو المهجورة. وهكذا، فإن التصحيح الأركيولوجي لأفكار التصميم والمخططات الأولية كان أمراً أساسياً، كما هي الحال في قصر الحيرة الشرقي أو عنجر في المركز، والقصر الصغير في الغرب، أو مرو في الشرق. وفي الحقيقة، في وسع هذه المواقع أن تكون الآن أراضي خصبة من خلال تقنيات المعالجة والمناخ.

وفي حين كان في الإمكان إعادة بناء مدينية القرون الوسطى على نحو جزئي، استمرت المدينة الحديثة الأولية في كثير من الحالات كما جرى تصميمها وبنائها فعلاً. يمكن على وجه الخصوص العثور على أفكار تصاميم مدن القرنين السادس عشر والسابع عشر سليمة إلى حد كبير كما الحال في العواصم الصفوية والمغولية مثل أصفهان وفاتح بور سيكري وأغرا وشاه جهان آباد. تطورت بيئات هذه المدن من الحديقة التيمورية والتفكير المشهدي على نطاق كبير. كما أنها أصبحت مواقع للثقافة المدينية الآخذة في الانتشار، تعززها مشاهد الاحتفالات والقصور، والطقوس المسرحية، والأسواق، والمقاهي، والمآدب.

أما العثمانيون فقد جعلوا البوسفور حديقته ومكانهم المشهدي، في الوقت الذي ظلت إسطنبول تجمعاً لقرى وسط امتداد زراعي واسع تقطعه هنا أو هناك إنشاءات سلطانية ومجمعات خدمات أو سكن للنخب الحاكمة. وكذا في سائر أرجاء السلطنة، ستبقى المدينة العثمانية من دون تصميم أو تخطيط صريح حتى زمن «التنظيمات» في القرن التاسع عشر.

وكان تأسيس شركة النقل البحري العامة (شركت - حايري)، في إسطنبول في خمسينيات القرن التاسع عشر إيذاناً بوصول الحداثة إلى المدينة. وعند حدود نهاية القرن التاسع عشر كانت المدن العثمانية قد استقبلت على نحو كثيف رموز الحداثة من تلغراف وسكة حديد وإضاءة عامة. وفيما كانت تلك التقنيات تتمخض عن توحيد متزايد لأراضي المدينة، العاصمة على وجه الخصوص ومعها العواصم الإقليمية أيضاً، فهي إنما كانت تبشر في الواقع بعهد جديد من التحكم. فقد غدا كل شيء الآن، من الضرائب إلى شؤون الصحة، تحت السيطرة الإدارية للحكومة المركزية.

كذلك جلبت تلك التقنيات معها تأثيراً أوروبياً متزايداً، حتى لا نقول سيطرة متزايدة، في العاصمة كما في القاهرة وسواها. والمدن التي ظلت طويلاً مجرد أمكنة للسكن البسيط كان عليها أن تستقبل الآن أنظمة نقل جديدة تقوم على استخدام العجلات. اختفت أنظمة الإنتاج القديمة التي استندت إلى النقابات الحرفية لمصلحة أنظمة الإنتاج التقني الحديثة المستوردة، وجرى توير الإنتاج الزراعي المعد للتصدير في شبكة جديدة حلت محل التنظيم التقليدي القديم للأراضي.

ومع وصول طلائع الإمبراطوريات الاستعمارية وتوسعها فقد تحول العديد من مدن نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين إلى مستقبل لأنماط جديدة مختلفة من

المكان المدني والتفاعل الاجتماعي. وبالتأكيد لم يتوقف الأمر عند حدود الحقبة الاستعمارية. فقد تابعت الدولة الاستقلالية اللاحقة مشاريع تطوير ضخمة، تجارية خاصة أم ممولة من الدولة، لكن أقل نجاحاً من التجارب الأوروبية والأمريكية.

وفي النتيجة، في وسعنا الآن أن ننظر في صورة مدينة تتغير على نحو أكثر كثافة كثيراً. لقد حدث انفصال لطريقة التصميم والتخطيط الحاليين عن التجارب المدنية الأولى، التي كانت قد وسمت العالم الإسلامي بميسمها وطابعها. لم تنمُ المراكز المدنية من حيث السكان والأرض على نحو متفجّر فقط، بل هي نحت جانباً اختبارات عيشها المدني السابق، أو باتت على طريق النسيان. فنسبة النسيج المدني التاريخي في المدينة لم تعد الآن لتزيد في أحسن الأحوال عن ١٠ إلى ١٥ في المئة من كامل المساحة المبنية.

وبالرغم من ذلك، لا يزال في وسع النسيج المدني الأقدم عهداً أن يعلمنا دروساً قيمة، من بين أهمها تلك الشبكة من العلاقات الزمنية التي يفصح عنها، وليس مجرد اختبار مستقيم متصاعد على نحو آلي. وفي وسع الشبكة تلك، إذا جرى حفظها كمجرد متحف في الحد الأدنى، أن تكون ضماناً للهوية الوطنية. أكثر من ذلك، فهي تستطيع أن تكون ذاكرة لتنوع وخصوصية أفكار ومبادئ لتنظيم مدني يكون على عكس التصاميم النمطية «المقيدة» التي ما انفك يبدعها المعماريون «النجوم». وفي الإمكان بالتالي الاستفادة من إمكاناتها الكامنة للدفع باتجاه أنماط بديلة متعددة من بيئات السكن والعيش.

ريناتا هولود
أبيليو بيتروشيولي
أندريه ريمون

القسم الأول

موضوعات عامة

الفصل الأول

ملاحظات تاريخية - بيانية حول المدينة الإسلامية مع إشارة خاصة إلى صورة المدينة المبنية

جوليا آناليندا نغليا^(*)

أولاً: المقاربة الاستشرافية

في بداية القرن العشرين، ارتكزت أبحاث العلماء الأوروبيين حول المدينة الإسلامية بشكل أساسي على مقاربتين مختلفتين؛ فمنهم من نسب بنية المدن الإسلامية إلى عوامل اجتماعية ودينية، في حين سعى البعض الآخر إلى تفسير بنيتها وفقاً لمقاربة تعتمد على تحليل البنية المدنية وسماتها المادية.

أنت أعمال أولى هاتين المقاربتين من دراسات استشرافية إنكليزية، وبالأخص ألمانية، رأت أن المدينة الإسلامية تمثل أفقاً نظرياً أكثر منه فعلياً وهي مستقاة من اهتمامات أركيولوجية وتاريخية واجتماعية: لقد كانت ببساطة نظاماً مدنياً «مختلفاً» في بنيتها عن المدينة «الغربية»، لأنه كان مرتكزاً على تنظيم اجتماعي مختلف. أما المقاربة الثانية فأتت من دراسات استشرافية فرنسية بحثت في المدينة الإسلامية واستندت إلى معرفة مباشرة وملموسة أكثر بهذه المدينة، إذ إنها ولدت في حوض الغزو الفعلي الحاصل لأراضي واسعة حول المتوسط. وبحسب هذه المقاربة، تمثل المدينة الإسلامية نظاماً يتعين وصفه بدقة لإحكام السيطرة عليه سياسياً.

(*) أستاذة وباحثة في التصميم المعماري، كلية الهندسة المعمارية، جامعة باري - إيطاليا.

في الواقع، لم تنفصل هاتان المقاربتان إحداهما عن الأخرى كلياً، بل شكلتا اتجاهين مختلفين سارا جنباً إلى جنب فترةً طويلة من الزمن إلى أن أخضعتهما الدراسة التاريخية البيانية الحديثة للنقد والمراجعة.

ينشأ أصل الدراسات الاستشراقية حول المدينة الإسلامية^(١) من اهتمام بمدن شمال أفريقيا التي تناوب على دراستها منذ عشرينيات القرن العشرين مؤرخون أمثال وليام وجورج مارسيه، وروجيّه لوتورنو، ولويس ماسينيون، وروبرت برتشفينغ. وصف المؤرخون هؤلاء المعالم البارزة في المدن الإسلامية وفق وجهات نظر متنوعة: معمارية - مدنية واجتماعية واقتصادية. وبالرغم من أنهم اعتمدوا مقاربات وطرقاً مختلفة في دراساتهم، إلا أنهم أجمعوا على فرضية وحدة التمدن الإسلامي. واستناداً إلى المعلومات المحددة التي تأتت من بحوثهم في المدن الشمال الأفريقية، صاغوا نموذجاً مدنياً معيناً طبقوه بعد ذلك على المدن العربية الإسلامية، والتركية، والإيرانية، والأندلسية - البربرية. وتحت تأثير أعمال ماكس فير^(٢) وهنري بيرين^(٣)، مال عمل الباحثين أولئك إلى إنجاز وصف شمولي لخصائص المدن في العالم الإسلامي، خلافاً للأوصاف التي أنجزت للمدن الأوروبية.

وبالرغم من أنه يتعين الاعتراف بفضل كل من وليام وجورج مارسيه^(٤) لتحويل اهتمام البحث العلمي من دراسة الأنصاب إلى دراسة البنية المدنية للمدن الإسلامية،

(١) بعض أهم الأعمال التي تختصرتجاهات النقاش في موضوع الدراسات المدنية، هي: Michael E. Bonine

[et al.], eds., *The Middle Eastern City and Islamic Urbanism: An Annotated Bibliography of Western Literature* (Bonn: Ferd. Dümmlers Verlag, 1994); M. Haneda, «An Interpretation of the Concept of Islamic City,» and M. Kisaichi, «The Maghrib,» in: Masashi Haneda and Toru Miura, eds., *Islamic Urban Studies: Historical Review and Perceptive* (London; New York: Kegan Paul International, 1994); p. Guichard, «Les Villes d'al-Andalus et de l'Occident musulman aux premiers siècles de leur histoire: Une hypothèse récente,» papier présenté à: *Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental: [Tables rondes, Madrid, 24-25 mars 1994 et 16-17 novembre 1995]* (Madrid: Casa de Velázquez, 1998).

Max Webber, *Wirtschaft und Gesellschaft* (Tübingen: J.C.B. Mohr, 1922). (٢)

Henri Pirenne, *Les Villes du Moyen Age* (Brussels: Lamertin, 1927). (٣)

النصّان أعلاه مارسا تأثيراً واضحاً في رؤية المؤرخين الأوروبيين لمدينة القرون الوسطى. وقادت نظريات فير على وجه الخصوص المستشرقين المؤرخين لاستخدام منهجية عالمية مقارنة من أجل وصف المدينة الإسلامية.

William Marçais «L'Islamisme et la vie urbaine,» *Comptes rendus de l'Académie de inscriptions et Belles Lettres* (1928), pp. 86-100; Georges Marçais: *Tunis et Kairouan* (Paris: H. Laurens, 1937); «L'Urbanisme musulman,» papier présenté à: *5^{ème} congrès de la Fédération des Soc. Savantes d'Afrique de Nord, Tunis, 6-8/4/1939* (Algiers: [s. n.], 1940), pp. 13-34; «La Conception des villes dans l'islam,» *Revue d'Alger*, vol. 2 (1945); «Considérations sur les villes musulmanes et notamment sur le rôle de mohtasib,» *Recueils de la société Jean Bodin* (Brussels), vol. 6 (1954), pp. 249-262, et «L'Urbanisme

إلا أن نظريتهما طبقت مبادئ التنظيم المدني، المستخلصة من المدن المغربية، ومن دون أي تمييز، على سائر مناطق العالم الإسلامي. وانطلاقاً من الأفكار حول أهمية الدين في تصنيف النموذج المدني الإسلامي، وفكرة النزاع القائم بين سكان المدن والبدو، وركود المجتمع الإسلامي، افترض الأخوان مارسيه نموذجاً ممثلاً لبنية المدينة الإسلامية يرتكز على وجود المسجد الجامع في قلب المدينة، والسوق المبنى بشكل تراتبي بدءاً من المسجد وصولاً إلى بوابات المدينة والمكتمل بوجود مبان متخصصة فيه، وتقسيم الأحياء المختلفة على أساس جماعات إثنية مختلفة، وغياب أي نوع من التنظيم البلدي.

في العديد من المقالات حول الطابع الاجتماعي - الاقتصادي حول المدن الشمال الأفريقية، وبشكل خاص فاس، أكد روجيه لوتورنو^(٥) الرؤية الاستشرافية للأخوين مارسيه، التي ارتكز عليها في نظريته حول البنية المدنية محدداً المزايا التنظيمية للجمعيات المهنية الإسلامية (النقابات المهنية) وواصفاً خصائص المدينة الإسلامية - العناصر الرئيسية التي تضم السوق والمسجد الجامع والقلعة وأسوار المدينة - كما لو أنها ظهرت تلقائياً، من دون أي مخطط، مقابل الريف، ومن دون أي تغيير طوال ما اعتبره المستشرقون عصوراً وسطى طويلة.

صاغ لويس ماسينيون^(٦) نظرية مقارنة بين النقابات المهنية في أوروبا والنقابات الإسلامية في القرون الوسطى وحدد فيها البنية الأساسية للمدينة الإسلامية المتشكلة وفق مقياس مدني في البنية المادية والسوق.

تبنى روبرت برنشفينغ^(٧) نموذج الأخوين مارسيه المكاني وتشارك الميل الشائع في الدراسات الاستشرافية في وصف النموذج المدني للمدن الإسلامية بغير «العقلاني»

musulman,» papier présenté à: *Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman* (Alger: Impr. officielle, 1957), pp. 219-231.

Roger Le Tourneau and L. Paye, «La Corporation des tanneurs et l'industrie de la tannerie (٥) à Fès,» *Hespéris*, vol. 21 (1935); Roger Le Tourneau: *Fès avant le Protectorat: Etude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman* (Casablanca: Société marocaine de librairie et d'édition, 1949; *La Vie quotidienne à Fès en 1900* (Paris: Hachette, 1965), et *Les Villes musulmanes de l'Afrique du Nord* (Alger: La Maison des livres, 1957), et Roger Le Tourneau and H. Terrasse, «Fas,» in: *Encyclopedia of Islam*, 2nd ed. (New York; Leiden: Brill, 1965), pp. 818-823.

Louis Massignon: «Les Corps de métiers et la cité islamique,» *Revue Internationale de (٦) Sociologie*, vol. 28 (1920), et «Enquête sur les corporation musulmanes d'artisans et de commerçants au Maroc (1923-1924),» *Revue du Monde Musulman*, vol. 58 (1924).

Robert Brunschvig, «Urbanisme médiéval et droit musulman,» *Revue des Etudes Islamiques*, (٧) vol. 15 (1947), pp. 127-155.

والخالي من أي مخطط. وهو، في دراساته، يعزو هذا النموذج التلقائي غير المخطط إلى التنظيم الشرعي والإداري للمجتمع الإسلامي الذي حدد أنماط بناء الأشكال المدنية والعلاقات البنيوية والمكانية بين الأحياء المختلفة.

على الرغم من هذا الميل العام لتجاهل التعقيدات البنيوية والانحرافات المختلفة في كل نظام مدني معين ولقراءة المعالم البارزة في المدن الإسلامية من حيث الاختلاف بين عالم أوروبي رائد وعالم إسلامي يعاني الركود، فقد كان عمل هؤلاء الباحثين نقطة البداية للدراسات الحديثة حول المدينة الإسلامية.

في المرحلة نفسها، وفي حين كان الأخوان مارسيه يجريان بحثاً عن المدن الشمال الأفريقية، كان المؤرخ الفرنسي جان سوفاجي^(٨) يقوم ببحث مشابه في الشرق الأوسط، مستخدماً منهجية «مختلفة». بالفعل، تغير البحث المورفولوجي - التاريخي في المدن السورية بشكل ملحوظ بعد عام ١٩٣٤ حين نشر سوفاجي مقاله عن اللاذقية. فقد نشأ من دراساته أن البنية المدنية الإسلامية للعديد من المدن السورية تخفي تخطيطاً هيلينياً ذا محور أحادي الاتجاه. وبالرغم من أن سوفاجي اقترح خطأً واضحة ومعقولة مهدت لاحقاً إلى استكشافات أثرية ودراسات مدنية، إلا أن مقارنته لدراسة المدينة الإسلامية لا تزال تعتبر استشراقية، إذ هي تفسر بنية المدن السورية في القرون الوسطى على أنها نتاج الانخفاض التدريجي في الخطط الكلاسيكية المؤسسة. وعليه، يستحق سوفاجي الاعتراف بفضل، وذلك لـ «حده» المهم حول مورفولوجية البنية المدنية لهذه المدن الذي أدركه من استخدامه الرائد للمسوح الفرنسية.

تعتبر دراسات سوفاجي للمدينة السورية في ظل الانتداب الفرنسي مهمة، وذلك بسبب العلاقة المؤقتة الوثيقة بين إجراء المسوح الحديثة وتطور الدراسات المدنية المرتكزة على مقارنة مورفولوجية^(٩). يمكن العثور على ظاهرة مماثلة في الأراضي

Jean Sauvaget: «Le Citadelle de Damas», Syria, vol. 11 (1930); «Le Plan de Laodicée-sur Mer», Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut de Damas, vol. 4 (1934); «Esquisse d'une histoire de la ville de Damas», Revue des Etudes Islamiques, vol. 8 (1934); «Le Plan de laodicée-sur Mer (Note complémentaire)», Bulletin d'études Orientales de l'Institut Française de Damas, vol. 6 (1936); «Le «tell» d'Alep», dans: Mélanges syriens offerts à René Dussaud, 2 vols. (Paris: p. Geuthner, 1939); Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIX siècle (Paris: p. Geuthner, 1941), et «L'enceinte primitive de la ville d'Alep», dans: Mélanges de l'Institut français de Damas: Section des arabisants (Beyrouth: [s. n.], 1929), tome 1, pp. 133-159.

(٩) لسورية على سبيل المثال، انظر الخرائط التي أنتجت لحلب بين عامي ١٩١٩ و ١٩٣١ بعد المسح الفرنسي: للنسيج المدني (1919) Alep (édition provisoire) وهي الخريطة الأولى لحلب التي طبعت تحت الانتداب الفرنسي، طبعت بواسطة المكتب الطبوغرافي في بيروت مقياس ١:٥٠٠٠ وأصغر ١:١٠٠٠٠ (١٩٢٦ - ١٩٣٠) خريطة

المستعمرة على طول جنوب المتوسط، من شمال أفريقيا إلى الشرق الأوسط. في هذه المرحلة، أصبحت المسوح الإنكليزية، وأكثر من ذلك الفرنسية، الأداة الأكثر فعالية لوصف مادي للبنية المدنية ولمقاربة مورفولوجية للدراسات المدنية حول المدينة الإسلامية^(١٠). وبالفعل، فقد شكلت المسوح الفرنسية ليس أداة لضبط الملكية في الأراضي المستعمرة حديثاً فحسب، وإنما شكلت لأول مرة الأداة الدقيقة لتصوير البنى المدنية لهذه المناطق، مظهرة معرفة ووصفاً للبنى والأشكال ما قبل الحديثة للمدن الشرق الأوسطية والشمال الأفريقية، ووضعت الأسس لدراسات مدنية لاحقة.

بشكل عام، ومع بداية استخدام المسوح في الدراسات المدنية، استبدلت المقاربة الاستشرافية التي ميّزت الموقف «الغربي» من دراسة المدن الإسلامية، والتي ارتكزت على تفسير يصف هذه المدن بالغامضة وبسبب النقص في المعرفة، بأخرى مرتكزة على معرفة أفضل للبنية المدنية. بدءاً من هذه اللحظة، لم يعد الاهتمام بالبنية المادية للمدن في هذه المناطق الاختصاص الوحيد للمسوح المبسطة، والتمثيلات البصرية، والوصف الأدبي، وإنما أصبحت جزءاً من اهتمام أوسع في التصنيف المدني والمعماري الذي أجراه المستعمرون بدءاً من القرن الثامن عشر مع وصف مصر (*Description de l'Egypte*) والذي بلغ ذروته في إجراء المسوح^(١١).

مساحة حلب أنجزت تحت إشراف ك. دورانو (٢٠١ صفحة مساحة، ١٣٣ لوحة من الداخل و٦٨ لوحة إضافية من الخارج)، لوحات المدينة القديمة على مقياس ١:٥٠٠، وفقط لوحات الجزء المركزي من السوق على مقياس ١:٢٠٠٠، بينما القلعة والمناطق غير المسكونة تقريباً على مقياس ١:١٠٠٠ (١٩٣٠) «مدينة حلب، خطط إجمالي لأراضي المدينة..» على مقياس ١:٢٠٠٠ (١٩٣٠) خريطة حلب، مقياس ١:١٠٠٠٠ (١٩٣١) «مدينة حلب: خطط عام»، أربع صفحات على مقياس ١:٥٠٠٠. كذلك في دمشق، طرطوس، اللاذقية، وحماة، جرى تنفيذ أعمال قياس ورسم النسيج المدني، التي لا تزال مع بعض التصحيحات تستعمل إلى أيامنا هذه، وبخاصة الخرائط ذات المقياس المدني.

(١٠) في حالتي الجزائر ومصر، بدأت خرائط المساحة للنسيج المدني عند نهاية القرن الثامن عشر. انظر في حالة الجزائر مثلاً خرائط مساحة لبلدة: «Plan General d'Alignement de la Ville de Blida» (1842, 1866 or 1915) أو سلسلة النسيج المدني مع خدمات مكتب أو سلسلة من الخرائط التاريخية بدءاً من بلدية سنة ١٩٣٥. بالنسبة إلى المدن في مصر بدأت خرائط المساحة للنسيج المدني حين أنجز مكتب الخدمات المصري سلسلة من الخرائط والمخططات للقاهرة من مقياس ١:٥٠٠، ١:١٠٠٠ و ١:٥٠٠٠ عند نهاية القرن التاسع عشر. وأدمج المكتب المصري للمساحة خرائط القاهرة مع «خريطة معالم القاهرة الإسلامية التاريخية»، من مقياس ١:٥٠٠٠ وبالاتحاد إلى مسح ١٩٤٧.

(١١) لم تتوافر خرائط مساحة للمدن الإسلامية حتى القرن العشرين وبنتيجة الاستعمار الأوروبي. قبل ذلك التاريخ كانت هناك طريقة أخرى في تسجيل ملكية الأراضي والضرائب عليها، مثل تقديرات الوقف، الوقف في الشرق الأوسط، أو الجبوس في شمال أفريقيا. وبالرغم من أن السجلات تلك لم تُعد لإنتاج النسيج المدني إلا أنها قدمت المعطيات الضرورية لأي محاولة لرسم خرائط توزيع الملكيات الفردية. هذه السجلات التي تمثل المصدر الرئيسي لدراسات مهمة عن المدينة الإسلامية لا تسمح مع ذلك بوصف الكيان المدني المادي ككل، إذ إنها لا تغطي بالتأكيد

الرسم الرقم (١ - ١)
خريطة مساحة فرنسية لدمشق، عام ١٩٣٤



كانت المنشورات البحثية من المرحلة عينها حول بنية المدن في تلك المناطق من العالم الإسلامي التي لم يستعمرها الأوروبيون أقل من تلك التي أجريت حول المدن في شمال أفريقيا والشرق الأوسط، والسبب في ذلك يعود جزئياً إلى النقص في الأدوات الوصفية المناسبة. مع الملاحظة أن العلماء المحليين هم الذين أنجزوا في بداية القرن العشرين الرسومات المدروسة للمدن في آسيا الوسطى، وشبه الجزيرة الأناضولية، وإيران.

وضع العلماء الروس ما قبل الثورة السوفياتية، أمثال ديبلو بارثولد^(١٢)

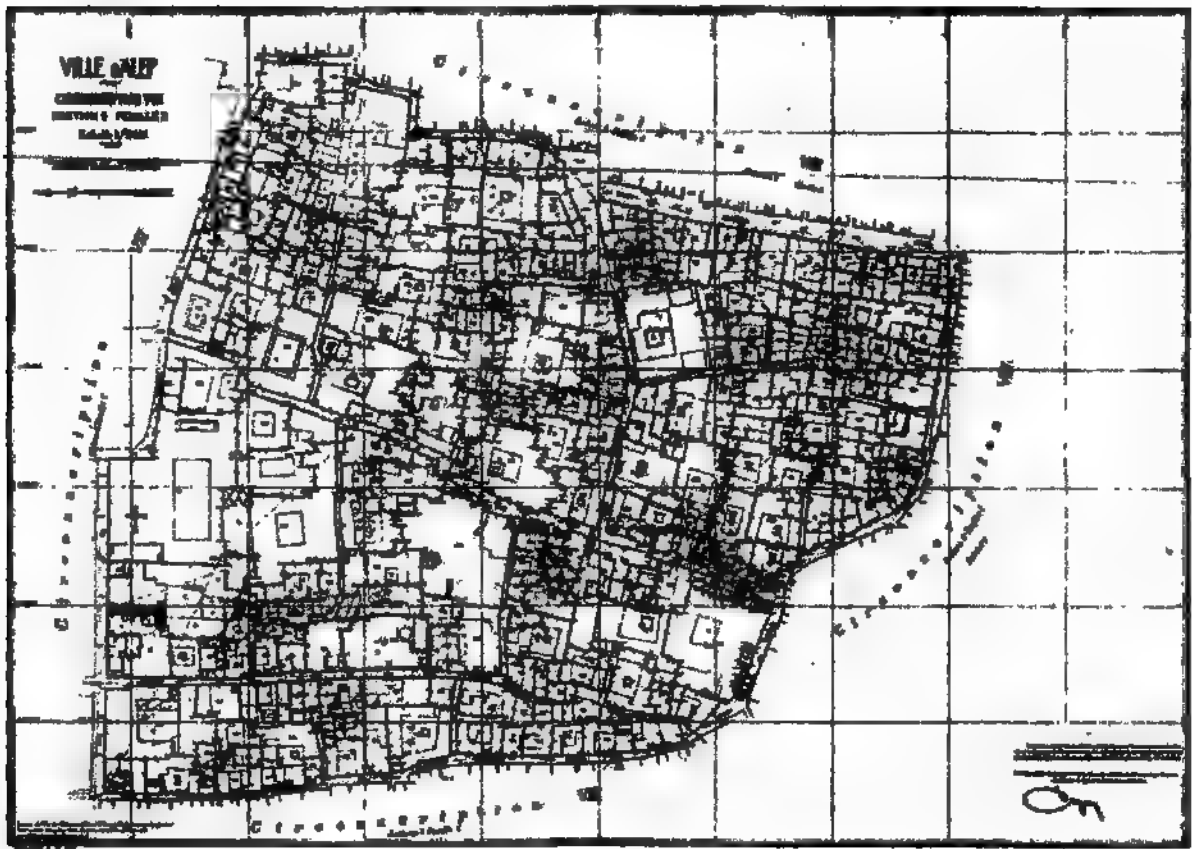
كل أجزاء المدينة، وهي منظمة بطريقة تلي جزءاً فقط من وصف ملكيات الأراضي. من أجل معلومات أكثر عن الجدل حول تمثيلات المدينة الإسلامية قبل القرن العشرين، انظر: Doris Behrens-Abouseif, «Alternatives to Cadaster Maps for the Study of Islamic Cities», and André Raymond, «Cartographie et Histoire de villes arabes, quelques remarques générales», pp. 22-31, in: *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1993), pp. 92-95.

V. V. Barthold: *Istoriko – Geograficheskii obzor Irana* (St. Petersburg: Tip. V. Kirshbauma, (١٢) 1903), and *Turkestan down to the Mongol Invasion* (First Published in Russian 1910; London: Luzac 1928).

وف. أ. شيشكن^(١٣)، أسس الدراسات المدنية حول مدن آسيا الوسطى قبل الثورة السوفياتية. فدراسة المصادر المكتوبة العربية والفارسية حول المراكز المدنية الآسيوية الوسطى في روسيا القرون الوسطى ما قبل المرحلة المغولية (تركستان)، توصل بارثولد وشيشكن إلى عينة من الطبوغرافيا التاريخية للمدن في هذه المنطقة.

في هذه المرحلة، وبينما كان العلماء الأوروبيون يدرسون المدن في الشرق الأدنى وشمال أفريقيا مستعينين بالمقاربة الانتشراقية التي تم وصفها سابقاً، قدم العلماء السوفيات الحقول السيميائية لـ «مدينة إقطاعية» و«مدينة قروضية» ووصفوا بنية المدن الآسيوية الوسطى من حيث الاختلاف بين بنيتها المدنية وبنية المدن الأوروبية الغربية والروسية.

الرسم الرقم (١ - ٢)
خريطة مساحة فرنسية لحلب، عام ١٩٣١



وسّع بارثولد لاحقاً عمله باتجاه سمرقند مع الحفريات الأثرية هناك، وخلال الفترة السوفياتية نشر بارثولد منهجيته في مقاربة الدراسات المدنية التي جمعت البحث التاريخي والأثري.

V. A. Shishkin, *Goroda Uzbekstana* (Tashkent: [n. pb.], 1943).

(١٣)

الرسم الرقم (١ - ٣)
خريطة فرنسية لمدينة اللاذقية، عام ١٩٤١



بالنسبة إلى المدن الآسيوية الوسطى، فقد أجريت في العقود الأولى من القرن العشرين دراسات قليلة حول البنى المدنية في إيران، مقارنة مع العدد الكبير للدراسات حول المدن في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. إضافة إلى ذلك، وبالرغم من إجراء المسوح في ظل حكم الشاه^(١٤)، فقد ركز العلماء في العقود الأولى من القرن العشرين اهتمامهم قبل أي شيء آخر على دراسة الفن والهندسة الإيرانيين أو، ومجدداً من منظور استشرافي، على علم آثار ما قبل المرحلة الإسلامية وليس على البنى المادية للمدن الإسلامية^(١٥).

في هذه المرحلة، تعود أهم الدراسات المدنية لعالم المدن الفرنسي أوجين بودوان والمؤرخ الأمريكي آرثر أوبهام بوب^(١٦) وكانت حول أصفهان، إلا أنها بقيت من دون تمة لعدة سنوات لاحقة.

بالرغم من حقيقة أن إنجاز العديد من المسوح الدقيقة للمدن الرئيسية في الأناضول في بداية القرن العشرين^(١٧) سمح بتطور الدراسات حول البنية المدنية الإسلامية، إلا أن الدراسات الأوروبية ظلت تركز حتى هنا وبشكل أساسي إما على آثار باقية لمواقع هيلينية وما قبل هيلينية وإما على العاصمة، إسطنبول، التي تضم آثار العالم القديم، وتمثل مهد الحضارة الأوروبية. وهكذا تم تجاهل مظاهر المادة الإسلامية في

(١٤) في إيران أنجزت المسوحات تحت حكم الشاه على مقياس ١:٢٠٠٠.

Ernst Herzfeld and Friedrich Sarre, *Archäologische Reise im Euphrat und Tigris Gebiet* (١٥) (Berlin: Dietrich Reimer 1911-1920); Gertrude Lowthian Bell, *Palace and Mosque at Ukhaidir: A Study in Early Mohanmadan Architecture* (Oxford: Clarendon Press, 1914); D. T. Rice, «The City of Shapur», *Ars Islamica*, vol. 2 (1935), pp. 174-189; A. Godard, «Isfahân», *Athâr-é-Irân: Annales du Service Archéologique de l'Iran*, vol. 1 (1937), pp. 7-176; Laurence Lockhart, *Famous Cities of Iran* (Brentford: Middlesex, W. Pearce, 1939), and Ernst Herzfeld, *Geschichte der Stadt Samara* (Berlin: Verlag von Eckardt and Messtorff, 1948).

E. E. Beaudoin and A. U. Pope, «City Plans», in: Phyllis Ackerman and Arthur Upham (١٦) Pope, eds., *A Survey of Persian Art from Prehistoric Times to the Present* (London; New York: Oxford University Press, 1939), pp. 1391-1410, and E. E. Beaudouin, «Ispahan sous les grands chahs (XVII siècle)», *Urbanisme*, vol. 2, no. 10 (1933).

(١٧) في الحقبة العثمانية أنجزت خرائط مساحة دقيقة لإسطنبول وسميرنة، ثم عامي ١٩٠٤ - ١٩٠٦ صدر «خرائط مساحة إسطنبول وسميرنة» لـ «ج. إي. غود»، على مقياس ١:٦٠٠، و١:٣,٦٠٠. استكملت في العقود الأولى من القرن العشرين خرائط مساحة إسطنبول. في أعوام ١٩٢٢ - ١٩٤٥، استكملت «مخططات مساحة إسطنبول لبريفيتش»، على مقياس ١:٢٥٠، ١:٣٧٥، ١:١٥٠٠، ١:١٦٠٠، ١:١٠٠٠، ١:٢٠٠٠، ١:٢٤٠٠، ١:٤٠٠٠. Pierre Pinon and Stéphane Yerasimos, «Relevés après incendie et plans: انظر: *د'assurance: Les Précurseurs du cadastre Stambouliote.*» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1993), pp. 112-129.

بناء المدينة^(١٨). في هذه المرحلة، كان الباحثون المحليون يجرون الدراسات المدنية لصالح الحكومة التركية في الغالب^(١٩)، في حين لم تبدأ أبحاث العلماء الأوروبيين إلا بعدما سُمح لهم باستخدام الأرشفة العثمانية بعيد سقوط السلطنة العثمانية.

ثانياً: نقد المقاربة الاستشراقية

جاءت المرحلة الأساسية من الدراسة حول المدينة الإسلامية، ولا سيما الدراسات المدنية حول المدن الشمال الأفريقية، بنموذج تمثيلي لبنية المدينة الإسلامية وكان على قدر من التجانس. خضع هذا النموذج لنقد أولي في خمسينيات القرن العشرين حين طور إدموند باوتي^(٢٠) نظريات وليام وجورج ماسي وهنري تيراس^(٢١) وهنري بيرين حول المدن الشمال الأفريقية، وصحح النماذج التي اقترحوها، بادئاً بالتالي عملية تصنيف للوحدات المدنية المختلفة استناداً إلى عوامل جغرافية واجتماعية وتاريخية واقتصادية ستهيمن في السنوات اللاحقة.

اقترح باوتي، مستنداً إلى دور الإسلام كدين مدني ومقدماً نموذجاً مدنياً مختلفاً عن نموذج المدينة الأوروبية في القرون الوسطى، التميز بين المدن المنظمة والأخرى العفوية، مستتجاً أن الملوك والسلالات هم من أسسوا المدن الإسلامية في أغلب الحالات، وهي لم تنشأ بالتالي من تلقاء نفسها. لم يشكل تمييز باوتي ذلك نقطة البداية لعملية التدقيق في الدراسات الاستشراقية فحسب وإنما سمح للعلماء بتركيز اهتمامهم

H. H. Von der Osten, «An Unnoticed Ancient Metropolis of Asian Minor,» *Geographical Review*, vol. 18 (1928); D. T. Rice: «Nicaea,» *Antiquity*, vol. 3 (1929), and «British Excavations at Constantinople,» *Antiquity*, vol. 4 (1930); Ernst Mamboury und Theodor Wiegand, *Die Kaiserpaläste von Konstantinopel zwischen Hippodrom und Marmara-meer* (Berlin: De Gruyter, 1934); R. Mayer, *Byzantion, Konstantinupolis, Istanbul: Eine genetische Stadtgeographie* (Vienna; Leipzig: Wein, 1943); Ernst Mamboury, «Istanbul: un nouvel élément pour la topographie de l'antique Byzance,» *Archäologischer Anzeiger: Beiblatt Zum Jahrbuch des Archäologischen Instituts*, vol. 49 (1934), pp. 50-61; Clement Alzonne, *Istanbul*, (Paris: Fernand Nathan, 1936); Renato Bova Scoppa, *Istanbul* (Milano: Agnelli, 1933); Richard Busch-Zantner, «Zur Kenntnis der osmanischen Stadt,» *Geographische Zeitschrift*, vol. 38 (1932), pp. 1-13, and Alfred Cuda, «Stadtaufbau in der Türkei,» *Die Welt des Islams*, vol. 21 (1939), pp. 1-84.

Osman Ergin, *The Historical Development of Urbanism in Turkey* [in Turkish] (Istanbul: [n.], 1936).

Edmond Pauty, «Villes spontanées et villes créées en islam,» *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales*, vol. 9 (1951).

Henri Terasse: *Villes impériales du maroc* (Grenoble: B. Arthaud, 1938), et «L'architecture musulmane d'Occident,» *Les Cahiers de Tunisie*, vol. 4 (1956), pp. 137-144, and Robert Le Tourneau and Henri Terasse, «Fas,» in: *Encyclopedia of Islam*, pp. 818-823.

على ضرورة التطرق إلى التاريخ الفعلي لهذه المدن وإلى شكلها عوضاً من نماذجها النظرية.

في السنوات اللاحقة، أخذ في نظريات باوتي كل من غوستاف فون غرونباوم وإيرا لايدوس وكزافيه دي بلنهل وجيب وهارولد باون، فبحثوا في السمات البارزة للمدينة الإسلامية ولا سيما التنظيم الاجتماعي - السياسي لسكانها.

اعتمد غوستاف فون غرونباوم^(٢٢) في دراسته حول المدينة الإسلامية على نظريات مارسيه (التي أبعد نفسه جزئياً منها بإقامة تمييز بين قرى الريف وتجمعات المدن، والتي اعتقد أنها تبرهن على نظريته) وإلى حد ما على دراسات برتشفينغ. كما نسب غرونباوم أصل بعض العناصر في البنية المدنية - كالشوارع الضيقة والمتعرجة - إلى الطبيعة غير المنظمة والعفوية للمدن الإسلامية وفوضاها الداخلية، إضافة إلى الطبيعة المحكومة للحياة في الحي. ومع تركيز اهتمامه على البنية الاجتماعية السياسية للتنظيم المدني، فهو شدد على غياب المؤسسات البلدية والبنى المجتمعية، بالمعنى الأوروبي، حتى انتهى إلى أن الأحياء نفسها - المعزولة والمستقلة - هي التي جعلت من سكانها مجتمعاً.

وبالعودة إلى منطقة جغرافية واسعة، من مصر إلى آسيا الوسطى، طبق إيرا لايدوس^(٢٣) نموذجاً تحليلياً مرناً لدراسة المدينة الإسلامية يمكن تغييره بحسب المرحلة والمنطقة، مع أنه موجه أساساً إلى وصف المجتمع المدني لا الشكل المدني.

Gustav E. von Grunebaum: «Die Islamische Stadt,» *Saeculum*, vol. 6 (1955), pp. 138- 153; «The Structure of the Muslim Town,» in: «Islam: Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition,» *Memoirs of the American Anthropological Association*, vol. 81 (1955), pp. 141-158; «The Muslim Town and the Hellenistic Town,» *Scientia* (1955), pp. 364-370; «The Sacred Character of the Islamic Cities,» in: A. Badawi, ed., *Mélanges Taha Husain* (Cairo: Dar al-Maaref, 1962), and «The Structure of the Muslim Town,» in: Gustav E. von Grunebaum, *Islam: Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition* (London: Routledge and Kegan Paul, 1961).

Ira M. Lapidus: *Muslim Cities in the Later Middle Ages* (Cambridge: Harvard University Press, 1967); I. M. Lapidus, ed., «Muslim Cities and Islamic Society,» paper presented at: *Middle Eastern Cities: A Symposium on Ancient, Islamic and Contemporary Middle Eastern Urbanism* (Berkley, CA: University of California Press, 1969), pp. 47-79; I. M. Lapidus, «Traditional Muslim Cities: Structure and Change,» in: Carl L. Brown, ed., *From Medina to Metropolis: Heritage and Change in the Near Eastern City* (Princeton, NJ: Darwin Press, 1973), pp. 51-69; «The Early Evolution of Muslim Urban Society and History, *Comparative Studies in Society and History*, vol. 15 (1973), pp. 21-50, and «Muslim Cities as Plural Societies: The Politics of Intermediary Bodies,» paper presented at: *Urbanism in Islam: The Proceedings of the International Conference on Urbanism in Islam (IGUIT), Oct. 22-28, 1989 (Tokyo 1989)*, edited by Yukawa Takeshi (Tokyo: [n. pb.], 1989), pp. 133-164.

إضافة إلى ذلك، فقد استبدل مصطلح «المدينة الإسلامية» بـ «المدينة المسلمة» أو «المجتمع الإسلامي»، في حين أدخل في دراساته حول المجتمع المملوكي مفهوم مجتمع «فسيقيائي»؛ أي شبكة عضوية من الجماعات الإثنية والدينية على قاعدة المورفولوجيا المدنية التي وجدت تكوينها الأساسي في الحي.

أغنت نظريتا جيب وياون^(٢٤) الجدل الدائر من خلال الانطلاق من عمل غرونباوم الذي ميّز بين المدينة والريف، وكذلك من خلال مفهوم المجتمع «الفسيقيائي» عند لايدوس.

ومن منظور استشراقي كذلك، أبرز كزافييه دي بلنهل^(٢٥) الغياب الواضح للحكم المدني في المدن والمجتمعات الإسلامية، وعزا ندرة هذا الحس المدني إلى الأصول البدوية لسكانها.

راجع إيلياهو آشتور^(٢٦) وكلود كاين^(٢٧) نموذج غوستاف فون غرونباوم النظري وطبقاه على منطقة جغرافية مختلفة، أي المدن السورية والعراقية بين القرنين العاشر والثاني عشر. وسعى إيلياهو آشتور مستخدماً مثال دمشق في أوائل القرون الوسطى ليظهر استقلالاً مدينيّاً موجوداً في المدن الإسلامية بالارتكاز على دور «الرئيس» و«المحتسب» و«القاضي».

وشدد كلود كاين بدوره على أن الجمعيات كانت حافزاً لتفكك التجمع المدني وذلك بسبب توجهها الديني الذي نحا نحو الزهد، ولأن الشأن العام كان يدار من طرف فرق منظمة من متفذي الأمر الواقع في المدينة.

Hamilton A. R. Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Muslim Culture in the Near East* (London: Oxford University Press, 1950), vol. 1.

Xavier de Planhol: *The World of Islam* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1959), and *Les Fondements Géographiques de l'histoire de l'islam* (Paris: Flammarion, 1968).

Eliyahu Ashtor: «L'administration urbaine en Syrie médiévale», *Rivista degli Studi Orientali*, (٢٦) vol. 31 (1956); «L'urbanisme syrien à la basse-époque», *Rivista degli Studi Orientali*, vol. 31 (1958), pp. 181-209, et «Républiques urbaines dans le Proche-Orient à l'époque des Croisades», *Cahier de la Civilisation Médiévale*, vol. 18 (1975).

Claude Cahen: «Mouvements populaires et autonomies urbaines dans l'Asie musulmane de moyen âge», *Arabica*, vol. 5, no. 3 (1958); vol. 6, no. 1 (1959), vol. 6, no. 3 (1959); *Mouvement populaires et autonomisme urbain* (Leiden: Brill, 1959), et «Y a-t-il eu des corporations professionnelles dans le monde musulman classique?», papier présenté à: *The Islamic City: A Colloquium*, edited by Albert Hourani and S.M. Stern (Oxford: University of Pennsylvania Press, 1970), pp. 51-64.

يتقد كاين بهذه الدراسات نظريات ماسينيون حول الجمعيات المهنية أو النقابات.

في هذا النقاش حول بنية المدينة الإسلامية، نقلت فرضيات شمويل تاماري^(٢٨) الانتباه من منظور اجتماعي إلى منظور أكثر بنيوية، معيدة الاهتمام بالمعطيات المورفولوجية والبنية المدنية. وتصنيفه المدن الإسلامية في أربعة أنواع هيليني - متوسطي، وإيراني - بلاد ما بين النهرين، وجنوبي - عربي، وداخلي، برهن تاماري على أن المدينة الإسلامية جاءت نتيجة مخططات وتأثيرات متنوعة إلا أنها تطورت في ما بعد من تلقاء نفسها ووجدت بالتدريج فرديتها المورفولوجية الخاصة.

أجرت تلميذة سوفاجي، نكيثا إيليسيف^(٢٩)، التي تهتم بمورفولوجية المدن تماماً كأستاذها، دراسات مدنية عن دمشق، محسنة من طريقة أستاذها ومؤكدة استحالة تطبيق نظريات ماسينيون على دمشق، كون النموذج المدني الإسلامي قد تحدد بعوامل اجتماعية واقتصادية أكثر منها شرعية.

بالرغم من هذه المحاولات الفردية لتوسيع البحث حول المدينة الإسلامية ليشمل مناطق أخرى من العالم الإسلامي ومعالجتها من زاوية بنيتها المادية، استمر هذا البحث ولغاية ستينيات القرن العشرين، الحقل الحصري تقريباً للمؤرخين الفرنسيين وعلماء الاجتماع الإنكليز الذين استمروا في دراسة المدن الشمال الأفريقية من أجل تحديد نموذج مدني يسري على مدن العام الإسلامي كافة.

كان العديد من المساهمات في المناقشات التي دارت حول بنية المدينة الإسلامية والتي طبعت هذه المرحلة أبحاثاً ألفت في مؤتمرات، من بينها تلك التي نظمها إيرا لابيدوس عام ١٩٦٩^(٣٠) وألبرت حوراني، وصامويل ستيرن عام ١٩٧٠^(٣١). تتبع المؤتمر الأخير بشكل خاص مجرى هذه الدراسات عقب ملاحظات حوراني حول الأصول الشمال الأفريقية للنموذج الذي طبقه الأخوان مارسيه على العالم الإسلامي كله، واستحالة تعميم هذا النموذج، ونقد ستيرن للنظريات التي قدمها ماسينيون وفون

Shmuel Tamari, «Aspetti principali dell' urbanismo musulmano», *Palladio*, nos. 1-4 (1966), (٢٨) pp. 45-82.

Nikita Elisséeff, «Damas à la lumière des théories de Jean Sauvaget», papier présenté à: *The Islamic City: A Colloquium*, pp. 157-177. (٢٩)

Middle Eastern Cities: A Symposium on Ancient, Islamic and Contemporary Middle Eastern Urbanism. (٣٠)

Albert H. Hourani, «The Islamic City in the Light of Recent Research», pp. 1-24, and S. (٣١)

M. Stern, «The Constitution of the Islamic City», pp. 25-50, papier présenté à: *The Islamic City: A Colloquium*.

غرونبوم وأشتور وكاين. رفض ستيرن إمكان بناء فرضية تقوم على المقارنة بين البنية المدنية الأوروبية في القرون الوسطى والبنية المدنية الإسلامية، إذ إن التنظيمات المستقلة لهذه الأخيرة كانت لا تزال في بداياتها.

بعد عام ١٩٧٠ وفي إثر نقد مقاربة البحث حول المدينة الإسلامية، بدأ النقاش يتنوع بفضل مساهمة علماء الجغرافيا والاجتماع والمعماريين الإنكليز والأمريكيين الذين رفضوا النموذج الموحد والمجرد الذي تم اقتراحه حتى تلك الفترة. بدلاً من ذلك، صبّ هؤلاء اهتمامهم على دور الدين في ترميز الشكل المدني والمجتمع الإسلاميين، أو دوره في بنية المدن في مناطق أخرى، ولا سيما في الشرق الأوسط.

في هذه المرحلة، اقترح الأنثروبولوجيون أمثال دايل إيكلمان وكينيث براون نماذج مدنية مختلفة من تلك التي سبق وحددتها الدراسات الاجتماعية، بالرغم من أن بحثهم بقي محدوداً بحدود المغرب. فبدأ من تحليل حي في مدينة أبو الجعد في المغرب ومقارنته بمناطق أخرى، رأى إيكلمان^(٢٢) أن نظريات ماسينيون ومارسيه غير ملائمة لرسم نموذج نهائي للمدينة الإسلامية، رافضاً نموذج لايدوس «الفسيفسائي» ونظرياته حول الحي، التي كانت مفيدة فقط لوصف النماذج الاجتماعية أكثر منها النماذج المدنية في الحي، والبنية الفكرية لا المادية، معتمدة على حس متبادل بالجيرة وعلى البنية الدينامية للعلاقات الاجتماعية.

وسّع براون^(٢٣) من عمل باحثين من أمثال لايدوس وستيرن وهوراني حول المدن في الشرق الأوسط لتشمل المدن في شمال أفريقيا؛ ففي مقاله حول سلا في المغرب، ابتعد من نظريات لايدوس واقترب أكثر من أفكار إيكلمان وجيب، مبرهنًا أن في مدينة تمتلك بنية مورفولوجية نموذجية للمدينة الشمال الأفريقية، كان الإحساس بالجماعة، والتنظيم المستقل، والتضامن، أقوى كثيراً.

في ثمانينيات القرن العشرين، أصبح النقاش حول المدينة الإسلامية ساخناً أكثر، وعقدت سلسلة المؤتمرات - وخصوصاً تلك التي نظمها روبرت ب. سيرجنت

Dale Eickelman, «Is there an Islamic City?: The Marking of a Quarter in a Moroccan Town,» *IJMES*, vol. 5 (1974).

Kenneth L. Brown, «An Urban View of Moroccan History: Sale 1000-1800,» *Hespéris-Tamuda*, vol. 12 (1971), pp. 5-106, and *People of Sale: Tradition and Change in a Moroccan City 1830-1930* (Cambridge, MA; New York: Harvard University Press, 1976).

(١٩٨٠) (٣٤) وإسماعيل سراج الدين وسمير الصادق (١٩٨٢) (٣٥) وأيدن جيرمن (١٩٨٣) (٣٦) وكينيث ل. براون (١٩٨٦) (٣٧) وكارل ل. براون (٣٨) وعبد العزيز السقاف (١٩٨٧) (٣٩) وتكيشي يوكاوا (١٩٨٩) (٤٠) - سجّلت الانتقال إلى هذه المرحلة الجديدة من البحث.

أدى الإدراك المتزايد لحقيقة أن أي كيان مديني يمتلك هويته المتفردة، المختلفة عن الهويات الأخرى من حيث الظروف الجغرافية والتاريخية، ولاستحالة استخدام تعميمات تتضمن نماذج موحدة، إلى تغيير في المقاربة وإلى اتجاه جديد سيطر على حقل الدراسات المدنية للمدينة الإسلامية. وجاء معظم النقاش والأدلة من أوجين ويرث وبسيم سليم حكيم وجان كلود غارسان وجانيت أبو لغد.

حاول حكيم (٤١) البحث عن أصول البنية المدنية للمدن التي لا تزال تعرف بأنها إسلامية، في الشرع الإسلامي. رأى حكيم، ومن خلال تطبيقه منهجية مماثلة لمنهجية برنشفينغ، أن الخطوط العامة لبناء المدينة الإسلامية قد حددت على أساس قواعد وأحكام قانونية شرعية. وعليه يمكن تسمية المدن العربية المدن العربية الإسلامية، كون الشرع الإسلامي هو المحدد لشكل البناء كما للحياة المدنية.

Robert B. Serjeant, ed., *The Islamic City* (Paris: UNESCO, 1980), Studies on «Arabia and Yemen» (٣٤)

The Arab City: Its Character and Islamic Cultural Heritage: Proceedings of a Symposium Held in Medina, Kingdom of Saudi Arabia 24-29 Rabi II 1401 AH, 28 Feb.-5 Mar., 1981 AD, edited by Ismail Scrageldin, Richard R. Herbert and Samir el-Sadek (Riyadh: Arab Urban Development Institute, 1982). (٣٥)

Aydin German, ed., *Islamic Architecture and Urbanism* (Dammam: King Faisal University, 1983). (٣٦)

Middle Eastern Cities in Comparative Perspective: Points de vue sur les villes du Maghreb et du Machrek: Franco-British Symposium, London, 10-14 May 1984, edited by Kenneth Brown [et al.] (London; Atlantic Highlands, NJ: Ithaca Press, 1986), and *Urban Crisis and Social Movements in the Middle East: Proceedings of the C.N.R.S.-E.S.R.C. Symposium, Paris, May 23-27th 1986*, edited by Kenneth Brown [et al.] (Paris: L'Harmattan, 1989). (٣٧)

Brown, ed., *From Medina to Metropolis: Heritage and Change in the Near Eastern City*. (٣٨)

Abdulaziz Y. Saqqaf, ed., *The Middle East City: Ancient Traditions Confront a Modern World* (New York: Paragon House, 1987). (٣٩)

Urbanism in Islam: The Proceedings of the International Conference on Urbanism in Islam (IGUIT), Oct. 22-28, 1989 (Tokyo 1989). (٤٠)

Besim S. Hakim: *Arabic-Islamic Cities: Building and Planning Principles* (London: EmergentCity, 1986), and «The «Urb» and its Role in Diversifying the Architecture of Traditional Islamic Cities», *Journal of Architectural and Planning Research*, vol. 11, no. 2 (1994), pp. 108-127. (٤١)

وأرسى ويرث^(٤٢)، في خط دراسات مورفولوجية أخرى، نموذجاً مدينياً ارتكز على المقارنة بين بنى المدن ما قبل الحقبة الإسلامية في شمال أفريقيا وغرب آسيا والشرق الأوسط. وبالفعل تعتبر نظرياته ونظريات سوفاجي أساس الدراسات المورفولوجية التي تناولت المدينة الإسلامية. وفي حين استخدمت الدراسات ذات المنحى الاستشراقي مخططاً تعميمياً مشتقاً من ملاحظة بنى مدينية محددة في مناطق جغرافية وثقافية معينة فصار هذا المخطط بعد ذلك مرجعاً تعميمياً لبنى مدينية أخرى مختلفة اختلافاً شاسعاً من حيث الزمان والمكان، جلب العمل الذي أنجزه كل من ويرث وسوفاجي معطيات مورفولوجية محددة، واختلافات جغرافية، وقراءة للبنى المدينية، بُني عليها نقاش تعميمي مهد الطريق أمام دراسات حديثة حول المدينة الإسلامية.

انطلاقاً من تحليل مقارن لوظائف ومورفولوجيا المدن في شمال أفريقيا وغرب آسيا، استنتج ويرث أنه من غير الممكن تعريف هذه المدن على أنها «إسلامية»، ما دامت أي خاصية من خصائصها لا ترتبط ارتباطاً مباشراً بالإسلام كدين. يجب بالأحرى القول إن بنية المدينة الإسلامية في القرون الوسطى مشتقة من أصلها الشرقي. فالطرق التي تصطف على جوانبها الأشجار، ونظام الأزقة غير النافذة، والتقسيم نحو أحياء مستقلة ومنفصلة، والمداخل المعقوفة، ونمط المنازل ذات الفناء، وهي قائمة حالياً، كانت كلها موجودة سابقاً في معظم المدن القديمة لبلاد ما بين النهرين. وحده السوق بالإمكان اعتباره عنصراً متفرداً يطبع المدينة الإسلامية، كونه لم يوجد قط لا في الشرق القديم ولا في أوروبا. بناء على هذه المعطيات، اقترح ويرث إبدال مصطلح «إسلامي» بمصطلح «شرقي»، رافضاً مصطلح «عربي»، ذلك أنه بالإمكان العثور على الخصائص المدينية نفسها في مدن تركية وإيرانية.

Eugen Wirth: «Die Orientalische Stadt: Ein Überblick aufgrund jüngerer Forschungen (٤٢) zur materiellen Kultur,» *Saeculum*, vol. 26 (1975), pp. 45-94; «Villes islamiques, villes arabes, villes orientales? Une problématique face au changement,» papier présenté à: *La Ville arabe dans l'Islam: Histoire et mutations: Actes du 2^{ème} colloque de l'A.T.P. espaces socio-culturels et croissance dans le monde arabe, Carthage-Amilcar, 12-18 mars 1979, [sous la dir. de] Abdelwahab Bouhdiba et Dominique Chevallier (Tunis: Impr. Al Asria, 1982), pp. 193-215; «Zur Konzeption der islamischen Stadt: Privatheit im islamischen Orient Versus Öffentlichkeit in Antike und Okzident,» *Die Welt des Islams*, vol. 25 (1985), pp. 50-92, and *Die Orientalische Stadt im islamischen Vorderasien und Nordafrika: Städtische Bausubstanz und räumliche Ordnung, Wirtschaftsleben und soziale Organisation (Mainz: Von Zabern 2000).**

أغنت دراسة هشام جعيط حول الكوفة^(٤٣)، في الفترة نفسها، الجدل حول بنية المدينة الإسلامية؛ فمن خلال تحليل دقيق للنصوص المتصلة بمدينة الكوفة الأولى، كشف جعيط الطابع المنظم لطبوغرافية المدينة في المراحل الأولى للتطور الأنثروبولوجي، وبرهن أن في حالة المدن المبنية فوق معسكرات، تأتي البنية المدنية من التصميم العسكري الأصلي المقسم داخلياً، ولأسباب سياسية، على قياس جماعات إثنية. انتقد جعيط في نظرياته مقاربة ويرث، باعتبارها مبنية على افتراضات جغرافية مسبقة جعلتها ترفض مصطلح «إسلامي». إلا أنه يقبل في مجالات أخرى مفهوم الاستمرارية ويربط بنية المدينة الإسلامية ببنية المدينة اليونانية - الرومانية والشرقية القديمة.

تؤكد جانيت أبو لُغد^(٤٤) أن نموذج المدينة الإسلامية المستخدم كان نتاج منظور استشراقي ارتكز على ملاحظة حالات دراسية قليلة في منطقة محددة. لذلك، فهي تحذر في مقالاتها، من مخاطر تعميم معطيات مورفولوجية وجغرافية معينة دفعت المدعوين مستشرقين إلى فرض التشابه بين مدن من مناطق جغرافية مختلفة على نطاق واسع، وقدمت بدلاً من ذلك فكرة تشكّل المدينة الإسلامية من خلال عملية مورفولوجية استندت ليس إلى أنظمة شرعية وسياسية ودينية فقط، وإنما إلى عوامل ثقافية محددة أيضاً.

ذهبت مساهمة روبرت إيلبرت^(٤٥) في الاتجاه النقدي عينه. ومع الاحتفاظ بالمواقف النظرية، حولت أطروحته مفهوم المدينة الإسلامية إلى أداة للتحليل المجرد. فبدءاً من تحليل المعطيات المورفولوجية الحالية، استنبط إيلبرت مفاهيم عامة مطابقاً المدينة الإسلامية مع مفهوم لا يتلاءم مع بنى مدنية حالية، وإنما يتلاءم بالأحرى مع الانتقاء النقدي لسمات معينة مأخوذة خارج سياقها التاريخي وتحضها بالتالي سلسلة من التناقضات تبعاً للبنى المدنية موضوع البحث والمختلفة اختلافاً كبيراً.

Hichem Djalt, *Al Kūfa: Naissance de la ville islamique* (Paris: Le Seuil, 1986). (٤٣)

J. L. Abu-Lughod: «The Islamic City: Historic Myth, Islamic Essence, and Contemporary Relevance,» *IJMES*, vol. 19 (1987), and «What is Islamic about a City?: Some Comparative Reflections,» paper presented at: *Urbanism in Islam: The Proceedings of the International Conference on Urbanism in Islam (IGUIT)*, Oct. 22-28, 1989 (Tokyo 1989).

Robert Ilbert, «La Ville islamique: Réalité et abstraction,» *Cahiers de la recherche architecturale*, nos. 10-11 (1982), pp. 6-13. (٤٥)

ولحفظ جزء على الأقل من النموذج المديني الذي حدده المستشرقون، مع الاعتراف بميله للتعميم، ركّز المؤرخ الفرنسي جان كلود غارسان^(٤٦)، بالاعتماد على مثال القاهرة، نظرياته على التنوع الزمني للتطور المديني الإسلامي والانقسام المبسط للنموذج الاستشراقي إلى مراحل. تطابق المرحلة الأولى من هذا التقسيم تأسيس مركز مديني جديد أو احتلال وإعادة تنظيم مدينة قائمة؛ في حين تتطابق المرحلة الثانية مع تحول المراكز المدينية مع ظهور الارستقراطيات العسكرية؛ أما المرحلة الثالثة فتتطابق مع تأسيس المدينة التقليدية، في بداية الأزمة أواخر القرن الرابع عشر. كانت القاهرة مدينة محاطة بأسوار دفاعية وتتميز بأحياء مغلقة ومنفصلة ومتخصصة، وإلى حد كبير فوضوية وتشبه المتاهة، الأمر الذي جعلها نموذجاً عممته المقاربات الاستشراقية.

في هذا السياق، مثلت دراسات ريمون^(٤٧) في ثمانينيات القرن العشرين، ولا سيّما تلك التي حملت عنوان «المدن العربية الكبرى»، حجر أساس للدراسات المدينية حول المدينة الإسلامية، إذ إنها رفضت معظم المزاعم الاستشراقية التي ارتكزت على مفهوم ركود المدن الإسلامية وتخلّفها اقتصادياً. وقد برهن ريمون في مقالاته حول القاهرة وحلب وتونس، أن الحقبة العثمانية كانت مرحلة توسع لا انحطاط بالنسبة إلى المدن الإسلامية. فبتطبيق منهجية جمعت التاريخي إلى المورفولوجي - بداية بفحص وثائق أرشيف الوقف من أجل التوصل إلى الديناميات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية للتطور المديني وبمساعدة المعلومات المورفولوجية حول النمو المديني التي يقدمها موقع المباني المتخصصة الجديدة في النسيج المديني - دلّ ريمون على أن الانحطاط العام للمدن الإسلامية إنما بدأ مع الاستعمار الأوروبي بعد سقوط السلطنة العثمانية.

وأخيراً، أدت سلسلة المؤتمرات التي نظمتها جائزة آغا خان للهندسة المعمارية في السنوات الأخيرة إلى نشر أعمال ونصوص حول فن العمارة في المدينة

Jean-Claude Garcin, «Le Caire et l'évolution urbaine des pays musulmans», *Annales Islamologiques*, vol. 25 (1991), pp. 289-304, et D. Behrens-Abouseif, S. Denoix, et J.-C. Garcin, «Le Caire», dans: Jean-Claude Garcin, dir., *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman medieval*, avec la collab. de Jean-Luc Arnaud et Sylvie Denoix (Rome: Ecole française de Rome, 2000).

André Raymond: «Signes urbains et étude de la population des grandes villes arabes à l'époque ottoman», *Bulletin d'Etudes orientales de l'Institut Français d'Etudes Arabes de Damas*, vol. 27 (1974), pp. 183-193; «Le Déplacement des tanneries à Alep, au Caire et à Tunis à l'époque ottoman: Un «indicateur» de croissance urbaine», *Revue d'histoire Maghrébine*, nos. 7-8 (1977), pp. 192-200, et *The Great Arab Cities in the 16th-18th Centuries: An Introduction* (New York: New York University Press, 1984).

الإسلامية^(٤٨)؛ وبالرغم من تمحور موضوعات هذه المؤتمرات أساساً حول الهندسة المعاصرة، فهي ساهمت في تزايد الاهتمام العام بدراسة المدينة الإسلامية كمساحة حقيقية للبحث وليس كنموذج نظري مجرد. وازدادت أهمية دور جائزة آغا خان للهندسة والمؤتمرات التي ذكرت سابقاً بالتلازم مع مقارنة إقليمية، إذ إنها أظهرت أن دراسة للمدينة مرتبطة بدراسة المنازل وتقنيات بناء مناطق متنوعة تهدف إلى تنظيم العالم الإسلامي هي ما نحتاج إليه من أجل تخطي المأزق الاستشراقي وفي دراسة وتجديد المدن الإسلامية.

الرسم الرقم (١ - ٤) جدول زمني تاريخي للحضارات الشرقية



Jonathan G. Katz, ed., *Architecture as a Symbol and Self Identity* (Cambridge, MA: Aga Khan Award for Architecture, 1980); Linda Safran, ed.: *Housing: Process and Physical Form* (Cambridge, MA: Aga Khan Award for Architecture, 1980); *Places of Public Gathering in Islam* (Cambridge, MA: Aga Khan Award for Architecture, 1980), and *Adaptive Reuse: Integrating Traditional Areas into the Modern Urban Fabric* (Cambridge, MA: Aga Khan Award for Architecture, 1983), and Robert Powell, ed., *Regionalism in Architecture* (Cambridge, MA: Regionalism in Architecture, 1985).

ثالثاً: المقاربة الإقليمية

في ثمانينيات القرن الثامن عشر، وحين جرى تحصيل مقدار لا بأس به من المعرفة حول المدينة الإسلامية وعمارتها، صار بالإمكان إنجاز سلسلة من الأعمال الموسوعية-التاريخية كـ موسوعة الإسلام^(٤٩) والموسوعة الإيرانية^(٥٠) والبليوغرافيا حول فن العمارة الإسلامية التي ألفها كرسول^(٥١).

في المرحلة نفسها، نُشر كتاب باولو كونيو حول المدينة الإسلامية^(٥٢). يمثل هذا الكتاب العمل الأكثر منهجية حول تاريخ المدن والمناطق المختلفة من العالم الإسلامي. كانت مقاربه التاريخية مرتبطة بمقاربة إقليمية وتم تحليل المعالم المدنية البارزة في المناطق المختلفة على أساس المزايا والتأثيرات المتنوعة التي حددت تنوع الأشكال المدنية مع الوقت. ويعد هذا العمل فريداً في نوعه، ذلك بأنه شامل ومنظم ولم يضاهه في الفترة الأخيرة عمل آخر باستثناء عمل بول ويتلي^(٥٣). فقد وصف الأخير البنى المدنية للمناطق المختلفة في العالم الإسلامي من حيث سياقها الإقليمي وبنيتها المدنية، مستخدماً مقاربة مورفولوجية وتاريخية.

من منظور آخر، تمثل مقاربة باولو كونيو الموسوعية اتجاهاً مضاداً في ما يتعلق بالمقاربة الأكثر شيوعاً منذ ثمانينيات القرن العشرين التي اقتصت بمدن محددة في العالم الإسلامي وتم التعبير عنها مراراً بإنشاء مدارس مختلفة أو فرق من العلماء ذوي المقاربة المنهجية المتماثلة أو الاهتمام بدراسة البنية المادية للمدن الإسلامية.

تعتبر المدرسة الفرنسية المعنية بدراسة المدن في المستعمرات الفرنسية السابقة من أكثر المدارس نشاطاً في البحث عن البنية المدنية للمدينة الإسلامية. تستمد هذه

Encyclopaedia of Islam. (٤٩)

Ehsan Yarshater, ed., *Encyclopaedia Iranica* (London; Leiden: Brill, 1988). (٥٠)

Keppel Archibald Cameron Creswell, *A Bibliography of the Architecture, Arts and Crafts of Islam, Second Supplement Jan. 1972 to Dec. 1980 (with Omissions from Previous Years)* (Cairo: American University at Cairo Press, 1984), 3rd vol. of a bibliographic collection that began from: *1 Jan. 1960* (Cairo, 1961), and *Supplement Jan. 1960 to Jan. 1972* (Cairo, 1973). (٥١)

Paolo Cuneo, *Storia dell'urbanistica* (Rome: Editori Laterza, 1986). (٥٢)

Paul Wheatly, *The Places Where Man Pray Together: Cities in Islamic Lands Seventh Through the Tenth Centuries* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2001). (٥٣)

المدرسة نظريتها من أعمال علماء أمثال أندريه ريمون^(٥٤) وفيليب بانيراي^(٥٥) مرجعاً لها.

وباستخدام المنهجية التي طورها أندريه ريمون والتي تجمع ما بين المقاربة التاريخية والمقاربة المورفولوجية، اعتمد علماء أمثال جان بول باسكوا وروبرت إيلبرت وسيلفي دينوا^(٥٦) مقارنة تعتمد على البحث التاريخي والأرشيبي.

تبنى فيليب بانيراي في دراساته حول بنية المدينة الإسلامية منهجية الدراسات المدنية التي طورها في إيطاليا ألدو روتشي وكارلو إيمونيو في ستينيات القرن العشرين والتي طبقها في المدن الأوروبية والإيطالية. يصف بانيراي نموذج المدينة الإسلامية بأنها شعاعية، تحيط بها أسوار، مع مسجد في الوسط، وأسواق تصلها بوابات المدينة. وبالنسبة إلى بانيراي، يتطور النسيج المدني بشكل أحياء مستقلة استناداً إلى تنظيم اجتماعي ويشبه بالتالي نموذج المدينة «الفسيفسائية».

انطلاقاً من منهجية بانيراي المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتحليل المعطيات المورفولوجية، وعبر تبني عدة مقاربات مختلفة، استخدم بيار بينو أساساً المعطيات التاريخية لتتبع المراحل المختلفة من التطور المدني، في حين استخدم سيرج سانتيلي الرسم المحدد للمباني السكنية كوسائل لوصف البنية المدنية التونسية أساساً وكذلك المدن في أفريقيا والشرق الأوسط^(٥٧). أما جان شارل ديول^(٥٨) فطبق مقارنة وصفية تصنيفية على العمارة، وأخرى اجتماعية؛ في حين استخدم جان كلود دايفيد طريقة متشعبة في

Raymond: «Signes urbains et étude de la population des grandes villes arabes a l'époque (٥٤) ottoman,» pp.183-193; «Le Déplacement des tanneries à Alep, au Caire et à Tunis a l'époque ottoman: Un «indicateur» de croissance urbaine,» and *The Great Arab Cities in the 16th-18th Centuries: An Introduction*.

Philippe Panerai, «Sur la notion de ville islamique,» *Peuple Méditerranéens- Mediterranean* (٥٥) *Peoples*, vol. 46 (1989), pp. 13-30.

Silvy Denoix, «History and Urban Forms: A Methodological Approach,» in: *Environmental* (٥٦) *Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1993), pp. 70-81.

Philippe Revault et Serge Santelli, ed., *Harar, une cité musulmane d'Ethiopie* (Paris: (٥٧) *Maison neuve et Larose*, 2004).

Jean-Charles Depaule and Sawsan Noweir, *L'Habitat urbain dans l'Orient arabe, elements* (٥٨) *d'architecture* (Paris: Ecole d'architecture et d'urbanisme de Versailles, 1984), and Jean-Charles Depaule, «Daily Life and Living Space in the Mashriq,» paper presented at: *Middle Eastern Cities in Comparative Perspective: Points de vue sur les villes du Maghreb et du Machrek: Franco-British Symposium, London, 10-14 May 1984*, pp. 203-211.

دراسته بنية المدينة الإسلامية. يمكن اعتبار منهجية دايفيد في مكان ما بين منهجية بانيراي ومنهجية ريمون، إذ إنه جمع بين مقارنة مصنفة لدراسة المورفولوجيا المدينية تركز على الرسم المحدد ومقاربة تاريخية تركز على دراسة وثائق الوقف وأخرى جغرافية تعتمد على بحث إحصائي. حصل دايفيد من هذا «المزج» المنهجي الذي تطور في دراساته حول حلب، على تركيب أصلي دفعه إلى تكوين «حدس» مثير حول مورفولوجية المدينة الإسلامية.

تُجرى هذه الدراسات في مراكز أبحاث في فرنسا هي التالية: مركز البحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي في إكس^(٥٩) الذي يُعنى بتاريخ المدينة؛ والفريق المتخصص بالعالم العربي والمتوسطي (مثال تملين العالم) التابع للمركز الفرنسي للبحث العلمي في جامعة تور حيث يجري علماء الجغرافيا ومخططو المدن أبحاثاً حول المدن العربية المعاصرة^(٦٠)، وبيت الشرق المتوسطي في ليون^(٦١) الذي يُعنى بوجه خاص بالدراسات التاريخية والمورفولوجية.

وفي إيطاليا، بدأ الاهتمام بدراسة المدن الإسلامية في جامعة روما مع عمل مجموعة من العلماء، من بينهم أتيليو بيتروشيولي^(٦٢) وفلورندو

Groupe de Recherches et d'Études sur le Proche Orient, eds., *L'Habitat traditionnel dans les pays musulmans autour de la Méditerranée* (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1988).

Centre d'Études et de recherches sur Urbanisation du Monde Arabe, ed.: *Présent et avenir des Médinas*, Fasc. 10-11 (Tours, 1982); *Petites villes et villes moyennes dans le Monde Arabe*, Fasc. 16-17 (Tours, 1986); *Éléments sur les centres - villes dans le Monde Arabe*, Fasc. (Tours, 1988); *L'eau et la ville dans les pays de Bassin Méditerranéen et de la Mer Noir: Actes du Colloques de Rabat, 20-22 Octobre, 1988*, Fasc. (Tours, 1991), et Jean-François Train, ed., *Recherches urbaines sur le monde arabo-musulman: Urban Resarch on the Middle East* (Tours, 1993).

Politiques urbaines dans le monde arabe: table ronde C.N.R.S. tenue à Lyon du 17 au 20 novembre 1982, sous la direction de J. Métrol et G. Mutin; actes recueillis par F. Métrol, *Études sur le monde arabe*; no 1 (Lyon: Maison de l'Orient, 1984).

Ludovico Micara and Attilio Petruccioli, «Metodologie di analisi degli insediamenti storici nel mondo islamico», *Istituto Poligrafico e Zecca dello Stato*, no. 4 (1986), pp. 27-40; Attilio Petruccioli: «The Arab City neither Spontaneous nor Created», in: *Environmental Design: Trails to the East, Essays, in Memory of Paolo Cuneo*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1997-1999), pp. 22-34; «New Methods of Reading the Urban Fabric of the Islamicized Mediterranean», *Built Environment* (Oxford), ed., Nasser, 28, no. 3 (2002), pp. 202-216; «La Permanenza della città classica nei tessuti arabi del Mediterraneo», dans: *L'Africa romana: Lo Spazio marittimo del Mediterraneo occidentale, geografia storica ed economia: atti del XIV Convegno di studio, Sassari, 7-10 dicembre 2000*, édité par M. Khanoussi, Paola Ruggeri et Cinzia Vismara (Rome: Carocci, 2002), vol. 3, pp. 2267-2278.

فوزارو^(٦٣) ولودوفيكو ميكارا^(٦٤). وانطلاقاً من اهتمام عام بالمعطيات المورفولوجية المدنية، وبالارتكاز على عمل سافيريو موراتوري ولودوفيكو كادروني، بادر أولئك إلى دراسات حول المدينة الإسلامية، ولا سيما المتوسطة، تميزت باهتمام شديد بالبنية المادية للنسيج المدني وكانوا بالتالي قريبين من دراسات بانيراي من المدرسة الفرنسية.

تمثل منهجية البحث في المدن الإسلامية التي قدمها أنيليو بيتروشيولي بقراءة النسيج المدني مستخدماً أدوات إيبستيمولوجية جرى تطويرها في حقل الدراسات الرمزية (Typological) والمورفولوجية. يركز بحث بيتروشيولي، الذي يعتبر المدينة كائناً حياً، على فكرة أن تاريخ كل مدينة محفور في نسيجها المدني وبالتالي من الممكن فهم المراحل المختلفة لتحولها عبر قراءة بنوية للنسيج العمراني. تبدأ هذه المقاربة بقراءة مسوح أرضية ومقارنة معطياتها بالمعطيات التاريخية.

طور علماء إيطاليون آخرون، بالرغم من أنهم لم يتدربوا في المدرسة الرومانية، منهجية تفسيرية مماثلة. نذكر من بين هؤلاء روبرتو بيراردي. فقد تمكن الأخير، وتبعاً لاهتمامه الشديد بمورفولوجية المدينة كوحدة مادية، من تحليل «أبجدية» البنية المدنية لتونس بتجزئتها إلى أقسامها المركبة.

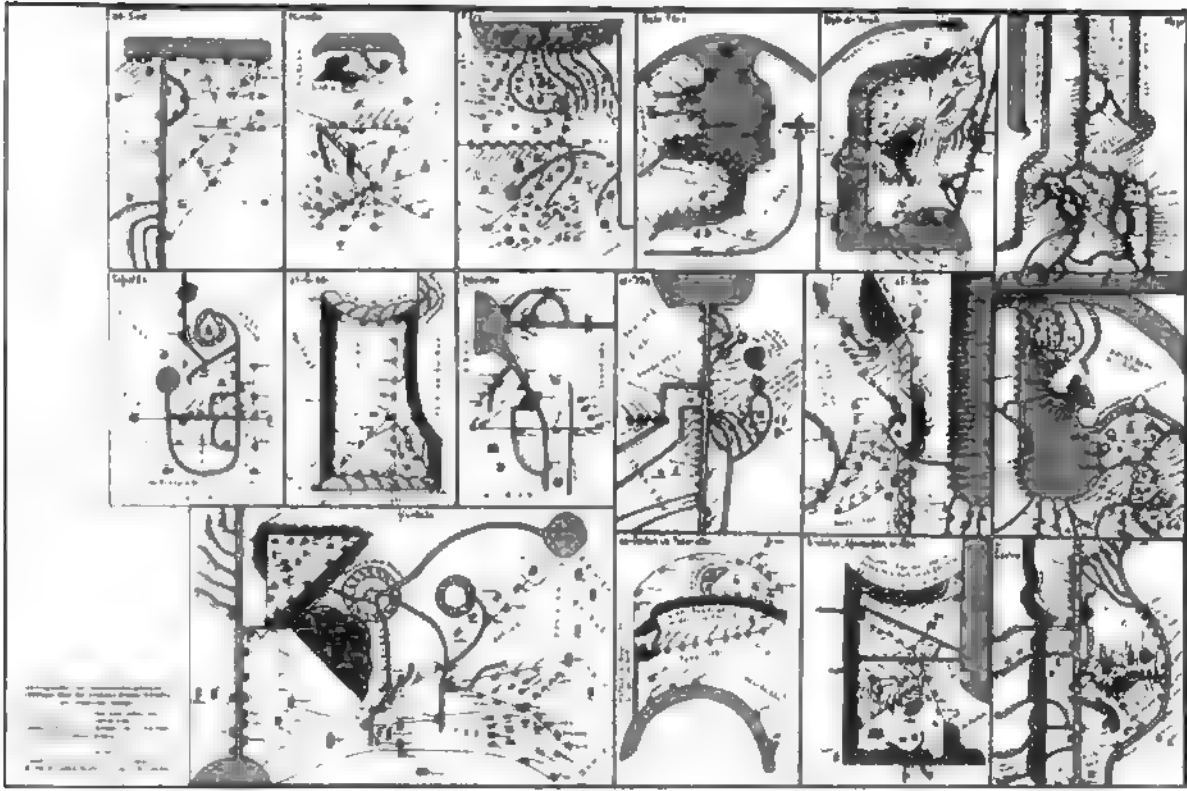
بدأ ذلك منذ عام ١٩٨٣، وأنيليو بيتروشيولي هو الناشر لمجلة التصميم البيئي الصادرة عن مركز أبحاث التخطيط البيئي الإسلامي؛ انظر خصوصاً: *Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans* (1993), and *Urban Fabric* (1989); Maurice Cerasi [et al], eds., *Multicultural Urban Fabric and Types in the South and Eastern Mediterranean* (Beirut: Orient - Institut; Würzburg: Ergon Verlag in Kommission 2007), and Attilio Petruccioli, *After Amnesia: Learning from the Islamic Mediterranean Urban Fabric* (Bari: Polytechnic University of Bari, 2007)

وهو نظم أيضاً عدة مؤتمرات حول المدينة الإسلامية، من بينها مؤتمر سنوي عالمي منذ عام ١٩٨٢. وعلى سبيل المثال: مؤتمر ١٩٨٩ بعنوان: «التاريخ والمشروع: المراكز التاريخية في المغرب»؛ عام ١٩٨١، «المدينة الإسلامية من خرائط المساحة»؛ في عام ١٩٩٩، «مؤتمر ISUF في فلورنسا، التحولات في النسيج المدني...»؛ وفي عام ٢٠٠٣، مؤتمر «المدينة المخططة» في تراني (أبوليا) الذي تضمن أوراقاً عدة حول المدينة الإسلامية.

Florindo Fusaro, *La Città islamica*, prefazione di Francesco Gabrieli (Bari: Laterza, 1984). (٦٣)

Ludovico Micara: *Architettura e Spazi dell'Islam: Le Istituzioni Collective e la Vita Urbana* (٦٤) (Rome: Carucci, 1985); «Ghandames: House and Urban Fabric in a town-Oasis of Central Lybia», paper presented at: *Transformations of Urban Form: From Interpretations to Methodologies in Practice: Six International Seminars on Urban Form*, edited by Roberto Corona and Gian Luigi Maffei (Florence: [n. pb.], 1999); «Città storica e architettura moderna in Libia: Il caso di Tripoli», paper presented at: *Architettura Moderna Mediterranea: Atti del Convegno Internazionale, Bari 10 aprile 2002*, edited by G. Strappa and A. B. Menghini (Bari: [n. pb.] 2003), pp. 81-96, et «Scenari dell'abitare contemporaneo: Tripoli Medina Mediterranea», *Piano Progetto Città* (Rivista dei Dipartimenti di Architettura e Urbanistica di Pescara), nos. 20-21 (2003), pp. 134-141.

الرسم الرقم (١ - ٥)
خرائط ابن حوقل (ت ٩٨٨م)



The Tübingen Atlas des Vorderen Orients (Wiesbaden, TAVO, 1977-1993).

المصدر:

ومنذ التسعينيات، باتت كلية العمارة والبوليتكنيك في باري هي مركز البحث في إيطاليا المهتم بالمدن الإسلامية، وهي ذات توجه موفولوجي قوي وتتبع تقليد مدرسة سافيريو موراتوري.

في الثمانينيات، أجرت عدة فرق أبحاث ألمانية دراسات حول المدن الإسلامية، ولا سيّما المدن في الشرق الأوسط، مستخدمة المقاربتين التاريخية والجغرافية. تألفت هذه الفرق من علماء جغرافيا من المؤسسة الجغرافية في جامعة فردريش - ألكسندر في نورنبرغ^(٦٥)، ولا سيّما أوجين ويرث، وكذلك علماء التاريخ في توبنغن^(٦٦)، ولا سيّما هاينز غوبي وباحثين آخرين من «جامعة برلين التقنية» ولا سيّما دوروثي ساك.

(٦٥) Anton Escher, *Studien zum traditionellen Handwerk der orientalischen Stadt: wirtschafts- und sozialgeographische Strukturen und Prozesse anhand von Fallstudien in Marokko* (Erlangen: Fränkische Geogr. Ges, 1986), and Anton Escher and Eugen Wirth, eds., *Geographische Beiträge zu Persistenz und Dynamik, Verfall und Erneuerung einer traditionellen islamischen Stadt in handlungstheoretischer Sicht* (Erlangen: Fränkische Geographische Gesellschaft, 1992).

(٦٦) أحد مشاريع الباحثين الأساسية في مركز الأبحاث هذا هو مشروع تافو (Tübingen Atlas des Vorderen Orients).

الرسم الرقم (١ - ٦)
خرائط الإدريسي للعالم عام ١١٥٤م



المصدر: المصدر نفسه.

بدأت دراسات وراث المدينة وتعريفاته النظرية لبنية المدينة الإسلامية - الشرقية في الستينيات، واستندت إلى مقارنة مورفولوجية - جغرافية تحدد خصوصية المدينة الإسلامية من حيث علاقتها بالنظام التجاري للأسواق^(٦٧). تستخدم دراسات هاينز غوبي حول المدينة الإسلامية تحليلاً للوثائق التاريخية والنقوش لإعادة بناء تاريخ المدن الإسلامية وبنيتها في المراحل المتنوعة من التطور المدني. ودفعته دراساته، التي تهتم اهتماماً شديداً بالمدينة كوحدة مادية، كما العالم الجغرافي وراث، إلى تطوير تحليلات مهمة للبنى المدنية في المدن الإسلامية، ولا سيما في سورية وإيران.

(Oriens)، فيسبادن ١٩٧٧ - ١٩٩٣، وبخاصة إنتاج خريطة موضوعات تصنيفية للمدن التي كانت موضوع مشاريع أبحاث TAVO.

(٦٧) استمر عمل الجغرافيين الألمان الذين بدأوا مع مشروع بحث وراث على النظام التجاري والبازارات مع شرابي، الذي ربما كان النص الأكثر منهجية عن البازار في العالم الإسلامي، مع مجموعة صور، وخرائط دقيقة، وبيلوغرافيات، حول البنية التجارية للبازار، بحسب أنواعه. انظر: Mohamed Scharabi, *Der Bazar: Das traditionelle Stadtzentrum im Nahen Osten und seine Handelseinrichtungen* (Tübingen: Verlag Ernst Wasmuth, 1985).

وانطلاقاً من بحثها حول البنية المدنية لدمشق، تتجه دراسات دوروثي ساك - التي تركز منهجيتها على مقارنة تاريخية إنما ذات توجه ملحوظ نحو مقارنة مورفولوجية - نحو اهتمام متجدد بآثار المدينة الإسلامية. واهتم باحثون آخرون مثل السويسري ستيفانو بيانكا^(٦٨) بالتجديد المدني للمدن الإسلامية.

في الولايات المتحدة الأمريكية، بدأت الدراسات حول المدينة الإسلامية مع بحث أوليغ غرابار الذي كان أول عالم يدرس تاريخ الفن الإسلامي في الولايات المتحدة؛ غير أن دراساته كانت تعنى بالهندسة أكثر من المدينة كوحدة مادية. وبات الاهتمام بالهندسة الإسلامية والشكل المدني هدف العديد من العلماء ومراكز البحوث مثل: ريناتا هولود^(٦٩) في «مدرسة الفنون والعلوم»، جامعة بنسلفانيا، وناصر رباط^(٧٠) وغولرو نيسيولغو من «برنامج آغا خان للهندسة الإسلامية» في معهد ماساتشوستس للتقانة (MIT)^(٧١)، وإيريني بيرمن

Stefano Bianca: *Architektur und Lebensform im Islamischen Stadtwesen: Baugestalt und Lebensordnung in der islamischen Kultur, dargestellt unter besonderer Verarbeitung marokkanischer Quellen und Beispiele* (Zurich: Verlag für Architektur Artemis, 1979); *Städtebau in islamischen Ländern* (Zurich: Institut für Orts- Regional- und Landesplanung, 1980); *Hofhaus und Paradiesgarten: Sonderausgabe: Architektur und Lebensformen in der islamischen Welt* (Munich: C. H. Beck, 1991); «Evolution d'une politique de réhabilitation: Le Cas de Alep», papier présenté à: *La Réhabilitation des cités anciennes: Actes du colloque International tenu à Salé les 6, 7, 8, et 9 octobre 1988*, edited by Association Bou Regreg (Casablanca: Wallada, 1990), et Stefano Bianca [et al.], *The Conservation of the Old City of Aleppo*, Technical Report (Paris: UNESCO, 1980).

Renata Holod, ed., «Studies on Isfahan: Proceedings of the Isfahan Colloquium», *Iranian Studies* (Special Issue), no. 7 (1974), especially the article of: Liza Golmbek, «Urban Patterns in Pre-Safavid Isfahan», (with comments by Renata Holod), *Iranian Studies*, no. 7 (1974), pp. 18-48, and Renata Holod and Hasan-Uddin Khan, *The Mosque and the Modern World* (London: Thames and Hudson Ltd., 1997).

اهتمام مولود بالمدن الإسلامية قادها إلى نشر أعمال المؤتمرات وتنفيذ أبحاث على آثار وعهارة تونس، انظر على سبيل المثال: *Conservation as Cultural Survival: Proceedings of Seminar Two in the Series Architectural Transformations in the Islamic World, Held in Istanbul, Turkey, September 26-28, 1978* (Cambridge, MA: Aga Khan Award for Architecture, 1980).

Nasser Rabbat: «Writing the History of Islamic Architecture in Cairo», *Design Book Review*, (٧٠) vol. 31 (1994), pp. 48-51; *The Citadel of Cairo* (Leiden: Brill, 1995); «The City» in: *Encyclopedia of the Qur'an* (Leiden: Brill, 1995), and «The Social Order in the Layout of the Islamic City», *Al-Mouhandis al-Arabi*, vol. 78 (1984), pp. 9-11.

Gülru Necipoğlu, *Architecture; Ceremonial; and Power: The Topkapı Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries* (New York: Architectural History Foundation; Cambridge, MA: MIT Press, 1991), and *The Age of Sinan: Architectural Culture in the Ottoman Empire* (London; Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005).

وغولرو نيسيولغو هي ناشرة مجلة المقرنص: مجلة التراث المرن في العالم الإسلامي التي أسسها أوليغ غرابار.

ودونالد بريزيوسي^(٧٢) من مركز UCLA لدراسات الشرق الأدنى، في كلية تاريخ الفنون في لوس أنجلوس، ونزار الصياد^(٧٣) من مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة كاليفورنيا، في بيركلي، الذي درس تاريخ العمارة في ارتباطها بسياقها المدني.

في عام ١٩٧٤ نشرت ريناتا هولود، مستخدمة مقارنة تركز على دراسة تاريخ العمارة والآثار في المدينة الإسلامية من أجل إعادة بناء تاريخها المدني، دراسة مونوغرافية حول أصفهان (في المجلة الأمريكية للدراسات الإيرانية)، مفتحة دراسات معاصرة لاحقة حول المدن الإيرانية.

يرتكز اهتمام ناصر رباط بالمدينة الإسلامية، ولا سيما القاهرة والمدن السورية، على دراسة الوثائق التاريخية والأرشيفية التي يستخدمها كأداة أساسية لإعادة بناء تاريخ العمارة في علاقتها بالتحول في سياقها المدني.

كذلك تركز دراسات غولرو نيسيولغو على تحليل وثائق الأرشيف من أجل إعادة بناء التاريخ المعماري على ميزان مدني. ففي دراساتها حول قصر توبكابي في إسطنبول، ويفحصها الحيّز الحلزوني للقصر، تمكنت من شرح البنية الحيّزية من حيث السياق المدني وصلته بالتقاليد الثقافية الإسلامية والتركية.

وقام نزار الصياد، انطلاقاً من نظريات لايبندوس حول المدينة الإسلامية والبحث التاريخي الدقيق، بتفحص شكل المدن العسكرية الإسلامية ومورفولوجية المدن في القرون الأولى للإسلام من أجل تحديد العناصر الإسلامية العربية في بنيتها المدنية. وهو يتجه اهتمامه الآن نحو عمليات تحول البنية المادية للمدن التقليدية والحديثة.

في الثمانينيات، وانطلاقاً من اهتمام المدارس المذكورة سابقاً في مناطق معينة من العالم الإسلامي، ازدادت الدراسات حول الأشكال والبنى المادية المختلفة للمدينة

Irene A. Bierman, Rifa'at A. Abou-El-Haj and Donald Preziosi, eds., *The Ottoman City and Its Parts: Urban Structure and Social Order* (New Rochelle: A.D. Caratzas, 1991).

Nazar Al-Sayyad: *Streets of Islamic Cairo: A Configuration of Urban Themes and Patterns* (٧٣) (Cambridge, MA: Aga Khan Program for Islamic Architecture, 1981); «Notes on the Islamic City», paper presented at: *Proceedings of the 1986 EDRA Conference*, edited by J. Wideman (Madison, WI: [n. pb.], 1986); N. Al-Sayyad, «Space in an Islamic City», *Journal of Architecture and Planning Research*, vol. 2 (1987), and *Cities and Caliphs: On the Genesis of Arab Muslim Urbanism* (New York: Greenwood Press, 1991).

Traditional Dwellings and Settlements.

والصياد هو ناشر مجلة

الإسلامية التقليدية. وعالجت هذه المقاربة الجديدة المطبقة على ظروف جغرافية وسياسية واجتماعية وتاريخية واقتصادية متصلة، المشكلة العملية - لا النظرية - للبنية والشكل المدينيين، وسعت بالتالي إلى تخطي المآزق الاستشراقي الناتج من نموذج مبالغ في تعميمه؛ وهكذا فهي شكلت مرجعاً منهجياً للدراسات الحديثة حول البنية المادية للمدينة الإسلامية. إضافة إلى ذلك، كان اهتمام مراكز البحوث المحلية بمنزلة رأس جسر للاهتمام المجدد لمراكز البحوث المحلية في التجديد المورفولوجي والمادي للمراكز المدينية الخاصة بها.

وعليه يوجد اليوم، بفضل هذه الجهود المشتركة في هذا الحقل، عدة دراسات حول البنى المدينية للمناطق المختلفة، وهي تهدف إلى تأسيس بانوراما متنوعة للمدن في العالم الإسلامي، بالرغم من وجود اختلال واضح في دراسات البنى المادية المدينية لصالح مناطق معينة على حساب مناطق أخرى.

رابعاً: إسبانيا

في ثمانينيات القرن العشرين، أجرى فريق من العلماء الإسبان والفرنسيين بحثاً حول المدينة الإسلامية في إسبانيا. وبدءاً بعمل المستشرق ليوبولدو توريس بالباس^(٧٤)، استخدم الباحثون معطيات ناتجة من أعمال التنقيب كأداة أساسية في قراءتهم البنية المدينية. وقد قدّم هؤلاء، من خلال تطبيقهم منهجية تجمع بين البحث المرتبط بالآثار وتحليل المسوح، دراسات متنوعة حول المدن الأندلسية والمغربية، ماثين الفراغ الذي خلفه المعماريون الذين تخلوا عن حقل البحث هذا. وغدا عملهم جزءاً من مشاريع المركز الثقافي الفرنسي (Casa del Velazques) في مدريد^(٧٥) الذي يُعنى أيضاً (وليس

Leopoldo Torres Balbás: «La Ciudad musulmana,» *Revista Universitaria*, vol. 6, no. 25 (٧٤) (1938), pp. 97-112; «Hallazgos arqueológicos en la alcazaba de Málaga,» *Al-Andalus*, vol. 2 (1934), pp. 344-357; «Excavaciones y obras en la Alcazaba de Málaga (1934-1943),» *Andalus*, vol. 9 (1944), pp. 173-190; «Notas sobre Sevilla en la época, musulmana,» *Al-Andalus*, vol. 10 (1945), pp. 196-214; «Les Villes musulmanes d'Espagne et leur urbanization,» *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales* (Alger), vol. 6 (1947), pp. 5-30; «Los Contrones de las ciudad hispanomusulmanas,» *Al-Andalus*, vol. 15 (1950), pp. 437-486; «Estructura de las ciudad hispanomusulmanas: La Medina, los arrables y los barrios,» *Al-Andalus*, vol. 18 (1953), pp. 172-197; *Resumen histórica del urbanismo en España* (Madrid: Instituto de Estudios de Administración Local, 1954), et *La Ciudad Hispano Musulmana* (Madrid: Instituto de Estudios de Administración Local, 1971).

Patrice Cressier: «Histoire et archéology de la ville Islamique (Al-Andalous-maroc): Les (٧٥) activités de la casa de Velásquez,» *Medina: Cité du Monde*, vol. 2 (1996), pp. 104-106; p. Moret and P. Cressier, «La Casa de velásquez y los studios ibéricos,» in: Juan Blánquez Pérez and Lourdes Roldán

فقط) بالبحث في موفولوجية المدن الإسلامية في الأندلس، و«مركز الدراسات العربية في غرناطة» الذي يديره أنطونيو ألماغرو، والذي أجريت في رعايته العديد من أعمال إعادة البناء للبنى المدنية في المدن الأندلسية.

في هذا الإطار المرجعي العام، يمكن اعتبار الأعمال التاريخية الأثرية التي أنجزها العلماء المشار إليهم أدناه من أهم الأعمال التي أجريت حول المدينة الإسلامية في إسبانيا: خوليو نافارو بالازون^(٧٦) وبحثه على مُرسية تحت إشراف مركز الدراسات العربية، الذي سهلت أعمال التدمير التي جرت مهمته، إذ سمحت بإجراء بحث أثري حول البنية المدنية والمباني السكنية، وبحث جان باسيني على طليطلة، وبحث أندريه بازانا وباتريك كروسي على الأندلس والمغرب. إضافة إلى هذه الأبحاث، يمكننا أن نضيف دراسات بيار غيشارد^(٧٧) التاريخية حول إسبانيا، ولا سيما فالنسيا، وعمل ب. بافون مالدونالدو^(٧٨) حول إسبانيا بوجه عام.

حاولت دراسات باسيني^(٧٩)، مستخدمة مقارنة فيلولوجية لتحليل مسوح القرن الخامس عشر، إعادة بناء بنية المدن الإسلامية في الأندلس في القرن الخامس عشر

Gómez, eds., *La Cultura ibérica a través de la fotografía de principios de siglo, Un homenaje à la memoria* (Madrid: Universidad Autónoma de Madrid, 1999), pp. 43-47; «Casa de Velasquez», in: J. Blázquez Pérez, ed., *100 Imágenes: Pasado y presente de la Arqueología española* (Madrid: Museo Arqueológico Regional, 2000), pp. 254-257.

Julio Navaro Palazón: «Siyāsa: una madina de la cora de Tudmir», *Annual Report on English and American Studies*, vol. 5 (1985), pp. 171-189; «Murcia como centro productor de loza dorada», papier présenté à: *Congresso Internazionale delle università degli studi di siena* (Florence: [s. n.], 1986), pp. 129-143; *Excavacions y prospeccions arqueològiques* (Murcia: Servicio regional de patrimonio histórico, 1987), pp. 307-320; *Una vivienda islámica en Murcia: una estudio de su ajuar (siglo XIII)* (Murcia: Servicio regional de patrimonio historic, 1991); «Aproximación a la cultura material de Madinat Mursiya», in: Flores Arroyuelo and F. José, eds., *La Murcia Musulmana o Cultura y Sociedad en Murcia* (Murcia: Servicio regional de patrimonio historic, 1989), pp. 253-356.

Pierre Guichard: *Structures sociales «orientales» et «occidentales» dans l'Espagne musulmane* (٧٧) (Paris: Mouton, 1977); «Les Mozarabes de Valence et d'Al-Andalus entre l'histoire et le mythe», *Revue de l'Occident Musulmans et de la Méditerranée*, vol. 40 (1985), pp. 17-27, et *Les Musulmans de Valence et la Reconquête (XI-XII siècle)*, 2 vols. (Damas: Institut français de Damas, 1991), et Alfred-Louis de Prémare and Pierre Guichard, «Croissance urbaine et société rurale à Valence au début de l'époque des royaumes de taifas (XI Siècle de J. C.) traduction et commentaire d'un texte d'Ibn Hayyan», *Revue de l'Occident Musulmans et de la Méditerranée*, vol. 31 (1981), pp. 15-30.

B. Pavón Maldonado, *Cludades hispanomusulmanas* (Madrid: Editorial Mapfre 1992). (٧٨)

Jean Passini et Jean-Pierre Molénat, «Persistance parcellaire et évolution diachronique à Tolède: L'impasse de la Bajada del Pozo Amargo et sa mosquée», *Mélanges de la casa de Velasquez* (1992), pp. 181-198; Jean Passini, «Plan parcellaire et urbanistique médiévale islamique», *Le Moyen Âge, Revue d'histoire et de Philologie*, vol. 1, no. 99 (1993), pp. 27-39; Jean Passini [et al.], «El barrio de

ولا سيما طليطلة. أولى باسيني اهتماماً خاصاً للعلاقة بين دراسة رموز المباني السكنية والبنية المدنية، وتمكن من إعادة بناء البنية المدنية لهذه المدن في المرحلة الإسلامية بدقة.

يرتكز عمل كروسيي^(٨٠) وبازانا^(٨١) على فحص تطور آثار المدن الإسلامية في الأندلس وتحليل سجلات المساحة. حاول هذان العالمان إعادة بناء البنية المدنية لمدين في الأندلس والمغرب خلال المراحل الأولى من التطور الأثروبولوجي. وتمكن كروسيي بوجه خاص من البحث في هذه البنى المدنية من دون إجراء أي تنقيب، مستخدماً طريقة مماثلة لطريقة المدرسة الإيطالية، وهي قراءة المراحل المختلفة للتطور المدني من خلال تحليل سجلات المساحة.

وركزت ماريان باروكانو^(٨٢)، مستخدمة منهجية مختلفة في دراسة المدن الإسبانية والمغربية، ولا سيما مكناس، على تاريخ عمارة القصر وبنيته في علاقته

Santa Justa y el mesón del Lino al final de la edad media.» *Anales Toledanos*, vol. 31 (1994), pp. 65-122; «La Ville de Tolède au Moyen Âge: Apport du parcellaire, du texte et du bâti à l'étude du quartier de San Ginés.» *Les Cahiers de Saint-Michel de Cuxá*, vol. 33 (2002), pp. 61-66, and *Casas y casas principales urbanas: El espacio doméstico de Toledo a fines de la Edad Media* (Toledo: Casa de Velázquez, 2004).

Patrice Cressier: «L'Alpujarra médiévale: Une approche archéologique.» *Mélanges de la casa de Velazquez*, vol. 19 (1983), pp. 89-124; «Fonction et évolution du réseau castral en Andalousie orientale: Le Cas de l'Alpujarra.» dans: André Bazzana, ed., *Guerre, fortification et habitat dans le monde méditerranéen au Moyen Âge*, Castrum; 3 (Madrid; Rome: Casa de Velázquez, 1988), pp. 123-134; «Le Catastro de la Ensenada (v. 1725): La Structure des petites «villes» islamiques d'Andalousie.» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1993), pp. 38-43; Patrice Cressier et Larbi Erbaty, «La Naissance de la ville islamique au Maroc Campagne 1996.» *Nouvelles archéologiques et patrimoniales*, vol. 1 (1997), pp. 13-14, et Patrice Cressier and Mercedes Garcia Arenal, eds. *Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental* (Madrid: Casa de Velazquez, 1998).

A. Bazzana, «Elements d'archéologie musulmane dans al-Andalus: Caractères spécifiques de l'architecture militaire arabe de la région valencienne.» *Al-Qantara*, vol. I (1980), pp. 239-363; A. Bazzana [et al.], «Première prospection d'archéologie médiévale et islamique dans le Nord du Maroc (Chefchaouen-Oued Laou-Bou Ahmed).» *Bulletin d'Archéologie Marocaine*, vol. 15 (1983-1984), pp. 367-450; A. Bazzana, and p. Cressier, «Urbanismo e hidráulica (colectiva y doméstica) en la Saltés almohade.» in: *Casas y palacios de al-Andalus: Siglos XII y XIII* (Madrid; Barcelona: Sierra Nevada, 1995), pp. 139-156.

Marianne Barrucand: *L'architecture de la qasba de Moulay Ismail à Meknès* (Rabat: Ministère d'État chargé des affaires culturelles, 1976); *L'Urbanisme princier en islam: Meknès et les villes royales islamiques post-médiévales* (Paris: p. Geuthner, 1985); «Stadtgründungen als Herrschaftssymbol Bemerkungen zur Architektur islamischer Herrscherstädte des 16 und 17 Jahrhunderts.» in: *22 Deutscher Orientalistentag 1983 in Tübingen: Ausgewählte Vorträge* (Stuttgart: Steiner, 1985), pp. 395-403; «Die palastarchitektur Mulay Ismail: Die Qasba von Meknes.» *Madrider Mitteilungen*, vol. 30 (1989),

بالسياق المدني. أخيراً، وفرت دراسات بيدرو شالميتا^(٨٣) حول نظام السوق الإسباني، معلومات مهمة حول بنية الأسواق الإسبانية، والأسواق بوجه عام، بالرغم من أنها لم تُعَنّ بالسياق المدني ككل.

خامساً: شمال أفريقيا

منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي، كان هناك عدد من الدراسات المدنية حول المدن في شمال أفريقيا التي طبقت فكرة قراءة المدينة كوحدة مادية. استعانت هذه الدراسات بسجلات المسوح التي جمعها الفرنسيون في العقود الأولى من القرن العشرين معتبرينها المصدر الوثائقي الأساسي، كما أضيفت إلى هذه السجلات رسومات محددة مفصلة للبنية المادية والمعمارية.

لم يكن الدارسون الأوروبيون وحدهم في مجال وضع خرائط للبنية المدنية الناتجة من مجموعة شاملة لخرائط البنية المدنية والعمارة فيها، وإنما أسهم في ذلك أيضاً عدد من مراكز البحوث المحلية المهتمة بتحديد المدن الشمال الأفريقية وحمايتها، الأمر الذي أدى إلى وضع عدد من الخطط لأرضية المدن^(٨٤).

في تونس على وجه الخصوص، نشطت عدة جمعيات لحفظ تراث المدينة، وعملت على إنجاز دراسات حتى لبلدات صغيرة، بالتعاون مع جامعات ومراكز بحوث دولية، وعلى إنجاز خرائط تفصيلية ومسح المراكز التاريخية^(٨٥). بين مراكز البحوث

pp. 506-523, and M. Barrucand and Achim Bednorz, *Maurische Architektur in Andalusien* (Cologne: Taschen Verlag, 1992).

Pedro Chalmeta, *El Señor del zoco en España: Edades media y moderna. Contribution al estudio de la historia del Mercado*, préface de Maxime Rodinson (Madrid: Instituto Hispano-Árabe de Cultura, 1973).

(٨٤) في تونس على سبيل المثال، جرى تنفيذ تصاميم الطبقات الأرضية في تونس المدينة على مقياس ١:٢٠٠، وفي القيروان المدينة أعاد كل من باولا جريس وباولو دوناتي تصميم الطبقات الأرضية من طرف اتحاد حماية التراث المدني، والطبقات الأرضية في الحمامات المدينة بواسطة ماريو فايس، وتصاميم الطبقات الأرضية في صفاقس المدينة بواسطة ميشال فان دير ميرش. وفي المغرب استكمل تصاميم الطبقات الأرضية في الصويرة بواسطة أتيليو بيتروشبولي وميكرو أكورسي.

(٨٥) انظر ورشة منتدى المتوسط في نابولي لسنة ٢٠٠٣، من تنظيم أ. س. م. نابولي لرسم الخطوط الإرشادية في إعادة ترميم الوسط الصغير في المدينة التونسية بالتعاون مع المؤسسة الوطنية لحفظ التراث في تونس، المدرسة الوطنية العليا للعمارة في تونس، كلية العمارة والبوليتكنيك في باري، كلية العمارة في باليرمو، ومدرسة العمارة في مونيبييه.

الأكثر نشاطاً حول المدن الشمال الأفريقية نذكر «المعهد الأمريكي للدراسات المغربية» (AIMS) و«مركز دراسات المغرب في تونس» (CEMAT).

يعود الفضل في إدخال تقليد الدراسات المدنية، الذي يعتبر المخراطة التفصيلية للتجمعات السكنية أداة لوصف الشكل المدني، إلى جاك ريفو^(٨٦). صنف ريفو المباني السكنية في شمال أفريقيا ضمن أربعة أنواع، وارتكز كل نوع على مجموعة متجانسة من القواعد التركيبية. وبالرغم من حقيقة أن دراساته لم تستخدم غير نسبة قليلة من المراجع في ما يختص بموضوع هذه المقالة، أي تفسير العلاقة القائمة بين المباني السكنية والنسيج المدني ومنطق التجمعات السكنية فيه، إلا أن دراساته شكلت مع ذلك عينة ممثلة للنسيج المدني بأكمله. تكمن أهمية مثل هذا البحث في أنه، خلافاً لدراسات سابقة، ولا سيما دراسة الأخوين مارسيه التي ركزت حصرياً على المباني المتخصصة، أدخل اهتماماً علمياً جديداً بالمباني السكنية. ويمكن اعتبار دراسات مني زكريا^(٨٧) وجان كلود غارسان^(٨٨) حول القاهرة امتداداً لدراسات ريفو، في حين وثقت أبحاث سيرج ستيلي^(٨٩) المباني السكنية في هذه المنطقة.

وبين الأعمال المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقراءة البنية المادية للمدن الإسلامية الشمال الأفريقية كتجمع للمباني السكنية والعامة، نذكر دراسات روبرتو

Jacques Revault: *Palais et demeures de Tunis (XVIII^{ème} et XIX^{ème} siècles)* (Paris: Centre national de la recherche scientifique (CNRS), 1967); *Palais, demeures et maisons de plaisance de Tunis et ses environs* (Aix-en-Provence: Edisud, 1984); *Reflexions sur l'architecture domestique en Afrique du Nord et en Orient*,» papier présenté à: *L'Habitat traditionnel dans les pays musulmans autour de la Méditerranée: Rencontres d'Aix-en-Provence, 6-8 juin 1984* (Cairo: Groupe de Recherches et d'Etudes sur le Proche Orient, 1988), vol. 1: *L'Héritage architectural: Forms et fonctions*, pp. 315-321; Jacques Revault et B. Maury, *Palais et maisons du Caire du XIV^{ème} au XVIII^{ème} siècles*, 3 vols. (Cairo: Centre national de la recherche scientifique, 1977-1979), vol. 1: *Epoque Mamelouke (XIII^{ème} et XVI^{ème} siècles)* (Paris, 1982); vol. 2: *Epoque ottoman (XVI^{ème}-XVIII^{ème} siècles)* (Paris, 1983).

Mona Zakariya, «Typologie de l'habitat dans le Caire Médiévale: Contribution à l'étude de l'espace central,» *Les Cahiers de la recherche architectural*, nos. 10-11 (1982), pp. 116-125.

Revault et Maury, *Palais et maisons du Caire du XIV^{ème} au XVIII^{ème} siècles*, et Jean Claude Garcin: *Espaces, Pouvoirs et Ideologies de L'Egypte Médiévale* (London: Variorum Reprints, 1987), et «Le Caire et l'évolution urbaine des pays musulmans,» *Annals Islamologiques*, no. 25 (1991).

Said Mouline and Serge Santelli, *Rabat: Numero special du Bulletin d'Information Architecturales* (Paris: [s. n.], 1986); Serge Santelli, «Mahdiya,» in «Urban Fabric,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1989), pp. 54-59; Serge Santelli: *Atlas des Medinas Tunisiennes* (Paris: Institut parisien architecture, 1992); *Tunis: Le Creux Méditerranéen* (Paris: Editions du demi-cercle, 1995); et «L'Atelier Harar,» *Archiscopes*, no. 34 (octobre 2003).

بيراردي^(٩١) حول تونس. شكلت هذه الدراسات مرجعاً منهجياً مهماً لقراءة المدن الشمال الأفريقية وذلك بفضل تفكيكها البنيوي للنسيج المدني، بالاعتماد على تحديد العناصر المتميزة التي أسهمت في تشكيلها وتطبيق عمليات بسيطة على العوامل تلك، الأمر الذي سمح له بتحديد بنية الأسواق والمنازل.

وتعتبر دراسات أخرى من مثل دراسة باولا جرفيس وباولو دوناتي^(٩٢) للكايروان ودراسة مارشيلو بالبو ودانييل بيني لسلال^(٩٣)، إضافة إلى دراسات صامويل بيكنز^(٩٤) وميشال بونين^(٩٥) عن المغرب، جزءاً من مجموعة الأبحاث الفردية المتزايدة التي أجريت على المدن الشمال الأفريقية.

ظهر الاهتمام بالقاهرة كوحدة مادية انطلاقاً من دراسات ليلي علي إبراهيم^(٩٦) وأندريه ريمون^(٩٧)، أهم عالَمين بحثا في التاريخ المدني والمعماري للقاهرة في ظل

Roberto Berardi: «Lecture d'une ville: La Médina de Tunis,» *L'Architecture d'Aujourd'hui*, (٩٠) no. 153 (1970-1971), pp. 38-43; «Alla ricerca di un alfabeto urbano: la medina di Tunisi,» *Necropoli*, vols. 9-10 (1970), pp. 27-48; «Signification du plan ancien de la ville arabe,» papier présenté à: *La Ville arabe dans l'Islam: Histoire et mutations: Actes du 2^{ème} colloque de l'A.T.P. espaces socio-culturels et croissance dans le monde arabe, Carthage-Amilcar, 12-18 mars 1979*, p. 187, et «On the City,» in: «Urban Fabric,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1989), pp. 8-17.

Paola Jervis Donati, «Kairouan,» in: «Urban Fabric,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1989), pp. 36-53.

Marcello Balbo, Daniele Pini, and M. F. Zniber, «Quelle stratégie d'approche pour la Médina de Salé,» dans: *La Rehabilitation des cités anciennes: Colloque International tenu à salé les 6-7-8-9 Octobre 1988*, ed. Association Bou Regreg (Casablanca: Wallada, 1990), et Marcello Balbo et Daniele Pini, eds., *Medina di Salé: Studi e ipotesi per la riqualificazione urbana* (Milan: CittaStudi, 1993).

Samuel Pickens, *Les Villes impériales du Maroc: Fès, Marrakech, Meknès* (Paris: Art Creation Realisation, 1990).

Michael E. Bonine, «The Sacred Direction and City Structure: A Preliminary Analysis of the Islamic Cities of Morocco,» *Muqarnas*, vol. 7 (1990), pp. 50-72.

هذه المقالة حول التوجه القدسي للنسيج المدني التي التفت حول الزمن لتطابق مع توجه الجامع، هي إحدى أكثر المقالات المهمة حول النسيج المدني للمدن المغربية، وخاتمتها يمكن حملها على مدن إسلامية أخرى.

Laila A. Ibrahim, «Residential Architecture in Mamluk Cairo,» *Muqarnas*, vol. 2 (1984), pp. 47-59.

André Raymond: «La Conquête ottoman et développement des grandes villes arabes, le cas du Caire, de Damas et d'Alep,» *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, vol. 27 (1979), pp. 115-134; «Les Grands waqfs et l'organisation de l'espace urbain à Alep et au Caire à l'époque ottomane (XVI^{ème}-XVII^{ème} siècles),» *Bulletin d'Etudes Orientales de IFEA de Damas*, vol. 31 (1980), pp. 113-128; «La Géographie des «hara» du Caire au XVII^{ème} siècle,» dans: *Livre du Centenaire de*

العهدين العثماني والمملوكي. وانطلاقاً من دراستهما لوثائق الوقف، طوّرا مقاربة منهجية جديدة لقراءة البنية المدنية للمدينة. ومن خلال دارستها لتكوين السكان، والتنظيم المكاني، والاقتصاد المدني والمنشآت في القاهرة في الحقبة المملوكية، برهنت ليلي علي إبراهيم، خلافاً للتصور الاستشراقي الشائع، أن المباني السكنية والأسواق توسعت على نحو منظم، وليس فوضوياً، في هذه المرحلة من التوسع المدني. أما أندريه ريمون، ومن خلال وصفه لبنية القاهرة في الحقبة العثمانية، فقد أظهر الانفجار المدني الذي ميّز مراحل تطورها المختلفة، وذلك باستخدامه ووثائق الوقف التي تسجل بناء الجوامع الجديدة والحمامات، وربطه المباني الجديدة هذه بتطور النسيج المدني.

وعلى خطى أبحاث ليلي علي إبراهيم وأندريه ريمون، استعان العديد من العلماء الآخرين بسجلات الوقف كوسائل لإعادة بناء التاريخ المدني للقاهرة. على سبيل المثال، ركزت دوريس بهرنز-أبو سيف^(٩٧) بحثها على التطور المدني للأحياء الشمالية الشرقية للقاهرة، في حين استخدم ليونور فرنانديز^(٩٨) ووثائق الوقف كوسيلة لإعادة بناء تاريخ المدينة المعماري. وأعادت المؤرخة نيللي حنا^(٩٩) بناء تاريخ حي بولاق

l'IFAO (Cairo: l'Institut français d'archéologie orientale, 1980); *The Great Arab Cities in the 16th-18th Centuries: An Introduction* (New York; London: New York University Press, 1984); *Grandes villes arabes à l'époque ottomane* (Paris: Sindbad, 1985); *Le Caire des Janissaires: L'apogée de la ville ottomane sous 'Abd al-Rahmān Katkhudā* (Paris: Centre national de la recherche scientifique, 1993); «The Residential Districts of Cairo's Elite in the Mamluk and Ottoman Periods (Fourteenth to Eighteenth Centuries),» in: Thomas Philipp and Ulrich Haarmann, eds., *The Mamluks in Egyptian Politics and Society* (Cambridge, MA: Haarmann, eds., *The Mamluks in Egyptian Politics and Society*, 1998), pp. 207-223, and *Cairo* (Cambridge, MA; London: Harvard University Press, 2000).

Doris Behrens-Abouseif: «A Circassian Mamluk Suburb North of Cairo,» *Art and Archeology* (٩٧) *Research Papers*, vol. 14 (1978), pp. 17-23; «The North Eastern Extension of Cairo under Mamluks,» *Annales Islamologiques*, vol. 17 (1981); *Azbakiyya and its Environs: From Azbak to Ismā'īl, 1476-1879* (Le Caire: Institut français d'archéologie orientale, 1985); «Locations of Non-Muslim Quarters in Medieval Cairo,» *Annales Islamologiques*, vol. 22 (1986); *Egypt's Adjustment to Ottoman Rule: Institutions, Waqf and Architecture in Cairo, 16th and 17th Centuries* (Leiden: E. J. Brill, 1994); «Qaytbay's Investments in the City of Cairo: Waqf and Power,» *Annales Islamologiques*, vol. 32 (1998), and *The Cairo Heritage: Essays in Honor of Laila Ali Ibrahim* (Cairo: American University in Cairo Press, 2001).

Leonor Fernandes, «Three Sufi Foundations in a 15th Century Waqfiyya,» *Annales* (٩٨) *Islamologiques*, vol. 17 (1981), pp. 141-156; «Some Aspects of the Zawiya in Egypt at the Eve of the Ottoman Conquest,» *Annales Islamologiques*, vol. 19 (1983), pp. 9-17; «The Foundation of Baybars al-Jashankir: Its Waqf, History, and Architecture,» *Muqarnas*, vol. 4 (1987), pp. 21-42, and *The Evolution of a Sufi Institution in Mamluk Egypt: The Khanqah* (Berlin: K. Schwarz, 1988).

Nelly Hanna: *An Urban History of Bulaq in the Mamluk and Ottoman Periods* (Cairo: (٩٩) L'Institut français d'archéologie orientale, 1983); *Construction Work in Ottoman Cairo (1517-1798)* (Cairo: L'Institut français d'archéologie orientale, 1984); «La Maison Waqf Radwan au Caire,» papier

باستخدامها وثائق الوقف ووصف مصر. وأنجز فيديريكو كريستي^(١٠٠) دراسات سكانية حول الجزائر في المرحلة العثمانية مستخدماً روايات المسافرين والمعلومات الموجودة في سجلات الوقف حول عدد الجوامع والحمامات.

كما أجرى علماء آخرون من حقول متنوعة دراسات حول القاهرة ومدن مصرية أخرى؛ فاستخدمت سيلفي دونوا^(١٠١) مقارنة تاريخية تركز على تحليل الأرشيف والوثائق المتعلقة بالآثار. أما فيليب بانيراي^(١٠٢)، المهتم بمورفولوجية المدينة الإسلامية، فركز بحثه على الرسومات المحددة إضافة إلى تحليل خرائط المساحة والعلاقة الأساسية بين الأقسام المختلفة للمدينة. في حين قام روبرت إيلبرت^(١٠٣) بدراسة القاهرة والإسكندرية من منظور تاريخي، كما تطرق بشكل مختصر إلى الجوانب المورفولوجية في المدينتين. أما جان شارل ديول^(١٠٤) فقد بحث في الأنظمة السكنية في القاهرة مستخدماً مقارنة تجمع الحقلين الاجتماعي والرمزي؛ بينما استخدم

présenté à: *L'Habitat traditionnel dans les pays musulmans autour de la Méditerranée: Rencontres d'Atx-en-Provence, 6-8 juin 1984*, et *Habiter au Caire: La Maison moyenne et ses habitants aux XVI^e et au XVII^e* (Cairo: l'Institut français d'archéologie orientale, 1991).

Federico Cresti: «The Boulevard de l'Imperatrice in colonial Algiers (1860-1866),» in: (١٠٠) «Maghreb: From Colonialism to a new Identity,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vol. 1 (1985), pp. 54-59; «Alger à la période turque: Observations et hypothèses sur sa population et sa structure sociale,» *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, vol. 44 (1987), pp. 125-133, et «Beni Abbes,» in: «Urban Fabric,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, vols. 1-2 (1989), pp. 28-35.

Sylvie Denoix, *Décrire Le Caire, Fustāṭ-Miṣr, d'après Ibn Duqmāq et Maqrīzī: L'Histoire* (١٠١) *d'une partie de la ville du Caire, d'après deux historiens égyptiens des XIV^e-XV^e siècles* (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1992), et Sylvie Denoix, Jean-Charles Depaule et Michel Tuchscherer, dirs., *Le Khan al-Khalili et ses environs: Un centre commercial et artisanal au Caire du XIII^e au XX^e siècle* (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1999).

Sawsan Noweir and Philippe Panerai, «Cairo: The Old Town,» in: «Urban Fabric,» (١٠٢) *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, vols. 1-2 (1989) pp. 60-67.

Robert Ilbert: *Heliopolis: Le Caire, 1905-1922: Genèse d'une ville* (Paris: Centre national (١٠٣) de la recherche scientifique, 1981); «Note sur l'Égypte au XIX^e siècle: Typologie architecturale et morphologie urbaine,» *Annales Islamologiques*, vol. 17 (1981), pp. 343-357; «Méthodologie et Idéologie: La Recherche française sur les politiques urbaines en Égypte,» papier présenté à: *Middle Eastern Cities in Comparative Perspective: Points de vue sur les villes du Maghreb et du Machrek: Franco-British Symposium, London, 10-14 May 1984*, pp. 103-114, et «Entre deux mondes: Archives et lecture d'une ville,» *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, vol. 46 (1987), pp. 9-12.

Jean Charles Depaule, Sawsan Noweir et Bernard Lavergne, *L'Habitat urbain dans l'Orient* (١٠٤) *arabe, éléments d'architecture* (Paris: Ecole d'architecture et d'urbanisme de Versaille 1984), et Jean Charles Depaule, *Actualité de l'habitat ancien au Caire: Le Rab' Qizlar* (Cairo: Centre d'études et de documentation économiques, juridiques et sociales, 1986).

فلاديسلاف كوبياك^(١٠٥) مصادر تاريخية ومصادر أخرى مرتبطة بالآثار من أجل وصف بنية الفسطاط.

من بين مراكز البحوث المتنوعة التي تعنى بفن العمارة في مصر والتي قدمت مساهمات مهمة نذكر المعهد الألماني للآثار في القاهرة الذي ينشر أعماله في إصداراته، والمركز الفرنسي للبحوث الأركيولوجية الشرقية في القاهرة الذي ينشر نتائجه في *Annales Islamogique و Mémoires و Bulletin*.

سادساً: الشرق الأوسط

في ثمانينيات القرن العشرين، وعلى خطى عدد كبير من الباحثين الفرنسيين والألمان، اشتدت وتيرة الدراسات المدنية الشرق الأوسطية التي اهتمت خصوصاً ببنية المدينة كوحدة مادية وبنظام الأسواق التجارية.

تطورت الدراسات حول المدن السورية من أبحاث هاينز غوبي وأوجين ويرث حول حلب^(١٠٦) التي اجتمعت فيها المصادر الأدبية القديمة والمسح الشامل للمباني المتخصصة في المدينة القديمة. وهكذا تمكنت هذه الدراسات من إعادة بناء البنية المدنية منذ القرون الأولى للفتح الإسلامي فصاعداً. كما اجتمعت المقاربتان التاريخية والجغرافية لهذين الباحثين في رسم سلسلة من الخرائط الرئيسية تمثل البنية المدنية لحلب في كل من الحقبة المعاصرة والحقبة القديمة ولا سيما نظام الطرق والمباني الدينية والعامة والتجارية.

وأسهم جان كلود دايفيد^(١٠٧) بدوره في تقديم معلومات حول حلب؛ فباستخدامه منهجية مختلفة في قراءته البنية المدنية، ولا سيما بنية السوق والمباني الدينية والمنازل

Wladyslaw B. Kubiak, *Al Fustat: Its Foundation and Early Urban Development* (Cairo: (١٠٥) American University in Cairo Press, 1987).

Heinz Gaube and Eugen Wirth, *Aleppo: historische und geographische Beiträge* (١٠٦) zur baulichen Gestaltung, zur sozialen Organisation und zur wirtschaftlichen Dynamik einer vorderasiatischen Fernhandelsmetropole, Tavo, B, nr. 58, 2 vols. (Wiesbaden: Reichert, 1984).

Jean-Claude David: «Alep, dégradation et tentatives actuelles de réadaptation des structures (١٠٧) urbaines traditionnelles.» *Bulletins d'études orientales de l'Institut français d'études arabes de Damas*, tome 28 (1975), «Urbanisation spontanée et planification; le faubourg ancien nord d'Alep (XV^{ème}-XVIII^{ème} siècle),» *Les Cahiers de la recherche architecturale*, vols. 10-11 (1982), pp. 14-18; «La Formation du tissu de la ville arabo-islamique, apport de l'étude de plans cadastraux d'Alep,» *Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, vols. 1-2 (1993), pp. 138-155; J.C. David, «L'Habitat permanent des grands commerçants dans les khans d'Alep à l'époque ottomane,» dans: D. Panzac, dir., *Les Villes dans l'Empire ottoman: Activités et sociétés* (Paris: Centre national de la recherche

ذات الفئات، توصل إلى استنتاجات مورفولوجية ورمزية يمكن تطبيقها بوجه عام في مدن أخرى في المنطقة نفسها.

وأظهر عدد من العلماء الآخرين اهتماماً بالبنية المادية لحلب^(١٠٨). على سبيل المثال، عملت أنيت غانغلر^(١٠٩) في دراستها المورفولوجية، التي ارتكزت على مسح تفصيلي شامل للمباني السكنية، والتي استخدمت لاحقاً في وضع خرائط وصفية للتجمع المدني، على تحليل البنية المادية لحبي بنقوسة. أما ياسر طباع^(١١٠) فقد تمكن، باستخدامه معطيات تاريخية، من إنتاج دراسات وإعادة بناء للبنية المدنية لحلب في الحقبة الأيوبية.

وعن حلب كذلك، لا يستطيع أحد تجاهل مساهمة أندريه ريمون^(١١١) في فهمنا للبنية المدنية والتجارية لحلب في المرحلة العثمانية. وفي دراسته هو غالباً ما يقارن حلب بتونس والقاهرة، وأظهر من خلال دراسة وثائق الوقف، وروايات المسافرين، والطبوغرافيا التاريخية، النمو الذي شهدته حلب في المرحلة العثمانية.

scientifique, 1994), pp. 85-123; *La Suwayyat 'ali à Alep* (Damascus: Institut français d'études arabes de Damas, 1998); Jean-Claude David and Mohamed Al-Dbiyat, «La Ville en Syrie et ses territoires: Héritages et mutations,» *Bulletins d'études orientales de l'Institut français d'études arabes de Damas*, vol. 52 (2000), pp. 17-27; Jean-Claude David and Jean-Claude Degeorge, *Alep* (Paris: Flammarion, 2002), et Jean-Claude David et Bruno Chauffert-Yvart, *Le Waqf d'Ipsir Pasa à Alep (1063-1653): Etude d'urbanisme historique* (Damascus: Institut français de Damas, 1982).

(١٠٨) انظر أيضاً: Giulia Annalinda Neglia: «Persistences and Changes in the Urban Fabric of the Old City of Aleppo,» *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (2000-2001), pp. 32-41; G.A. Negelia, «Bab Qinnasrin à Alep,» *Bulletin of the Max van Berchem Foundation* (Geneve), no. 20 (December 2006), pp. 3-4, et «An Interpretation of the Urban Fabric: The Structure of Pre-Islamic Aleppo,» *Urban Morphology: Journal of the International Seminar on Urban Form*, vol. 11, no. 1 (2007), pp. 43-58.

(١٠٩) Anette Gangler, *Ein traditionelles Wohnviertel im Nordosten der Altstadt von Aleppo* (Tübingen: Ernst Wasmuth Verlag, 1993).

(١١٠) Yasser Tabbaa: «Circles of Power: Palace, Citadel, and City in Ayyubid Aleppo,» *Ars Orientalis*, vol. 23 (1993), pp. 181-200, and *Construction of Power and Piety in Medieval Aleppo* (Philadelphia: Pennsylvania State University, 1997).

(١١١) André Raymond: «Signes urbains et étude de la population des grandes villes arabes à l'époque ottomane,» *Bulletins d'études orientales de l'Institut français d'études arabes de Damas*, vol. 27 (1974), pp. 183-193; «Le Déplacement des tanneries à Alep, au Caire et à Tunis à l'époque ottomane: Un «indicateur» de croissance urbaine,» *Revue d'Histoire Maghrébine*, vols. 7-8 (1977), pp. 192-200; *La Syrie d'aujourd'hui* (Aix-en-Provence: Centre d'études et de recherches sur l'Orient arabe contemporain, 1980); *La Ville arabe, Alep, à l'époque ottoman: XVI^{ème}-XVIII^{ème} siècles* (Damas: Institut français d'études arabes de Damas, 1990); «Alep, à l'époque ottomane (XVI^{ème}-XVIII^{ème} siècles),» *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, no. 62 (1990).

الرسم الرقم (١ - ٧)

خريطة العالم للجغرافي الصقلي الإدريسي من القرن الثاني عشر



المتوسط يظهر بوضوح حتى مضيق جبل طارق، إلا أن سواحل الأطلسي في إسبانيا، وأفريقيا، والهند، جنوب شرق آسيا فلا تظهر. ويخلاف ذلك، يظهر جنوب روسيا، وآسيا الوسطى، والصين، وبعض التفصيل. الخريطة هي من فوق إلى تحت. سافر الإدريسي على نطاق واسع وتعرف كثيراً إلى بلدان أخرى لم تظهر في الخريطة. وتبين الخريطة إلى أي حد استمر العالم الإسلامي معتمداً على جغرافية بطليموس.

Michael Rogers, *The Spread of Islam* (Oxford: Elsevier-Phaidon, 1976).

المصدر:

على خطى دراسات ريمون، استخدم مؤرخون معماريون آخرون وثائق الوقف من أجل إعادة بناء النسيج المدني لحلب في المرحلة نفسها. على سبيل المثال، حلل

أنطوان عبد النور^(١١٢) البنية المادية للمباني السكنية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر مستخدماً سجلات المحكمة الشرعية. وعلى أساس تحليل وثائق الأرشفة والبحث الميداني، أعادت جيهان تات^(١١٣) بناء تاريخ الوقف وعلاقته بالمنطقة. واستناداً إلى قراءة وثائق الوقف، قدم هيغنار واتنبوف^(١١٤) فرضية تفكك مركزية البنية المدنية لحلب في المرحلة العثمانية.

ولدت أبحاث عدد من العلماء، ولا سيما غوبي وويرث، اهتماماً لدى المنظمات الدولية للمحافظة على الإرث المعماري العالمي، كمنظمة الأونيسكو^(١١٥). ولا يزال هذا الاهتمام قائماً حتى يومنا هذا وهو يتجلى في المراقبة المتواصلة للمدينة القديمة من جانب فريق سوري - ألماني (GTZ)/ مديرية المدينة القديمة^(١١٦).

وفي ثمانينيات القرن العشرين، أجريت معظم الأبحاث الشاملة عن دمشق على يدي دوروثي ساك^(١١٧) التي جمعت في مقاربتها للدراسات المدنية بين البحث الأرشفة والبحث التاريخي مع رسومات محددة للنسيج المدني والمباني التذكارية الرئيسية؛ ويصف عملها التحول المدني لدمشق من خلال تجميع الخرائط الموضوعية والتاريخية لنظام الطرق والجوامع والأسواق في مراحل مختلفة، كما يحدد أنظمة المياه والأسواق والعناصر الأساسية للبيئة المدنية.

Antoine Abdel Nour: «Types architecturaux et vocabulaire de l'habitat en Syrie aux XVI^{ème} et XVII^{ème} siècles», dans: Dominique Chevallier, dir., *L'espace social de la ville arabe* (Paris: Maisonneuve et Larose, 1979), et «Habitat et structures sociales à Alep aux XVII^{ème} et XVIII^{ème} siècles d'après des sources arabes inédites», papier présenté à: *La Ville arabe dans l'Islam: Histoire et mutations: Actes du 2^{ème} colloque de l'A.T.P. espaces socio-culturels et croissance dans le monde arabe, Carthage-Amilcar, 12-18 mars 1979*, [sous la dir. de] Abdelwahab Bouhdiba et Dominique Chevallier (Tunis: Impr. Al Asria, 1982).

Jihane Tate, *Une waqfiyya du XVIII^{ème} siècle à Alep: La Waqfiyya d'al Hāgg Mūsā al-Amīrī* (113) (Damascus: Institut français de Damas, 1990).

Heghnar Zeitlian Watenpaugh, *The Image of an Ottoman City: Imperial Architecture and Urban Experience in Aleppo in the 16th and 17th Centuries* (Leiden: Brill, 2004). (114)

Bianca [et al.], *The Conservation of the Old City of Aleppo* (Technical Report). (115)

Damaskus-Aleppo: 5000 Jahre أهمها: سلسة من المؤتمرات بين أهمها: (116) *Stadtentwicklung in Syrien*, edited by Mamoun Fansa (Mainz: Zabern, 2000).

وفي عام ٢٠٠٥ تلقت حلب جائزة فيرونیکا ريدج للتنظيم المدني في هارفرد لإعادة ترميم الوسط التاريخي فيها.

Dorothee Sack: «Damaskus die Stadt intra muros», *Damsaener Mittelurgen*, vol. 2 (1985), (117) pp. 207-290, et *Damaskus: Entwicklung und Struktur einer orientalisches-islamischen Stadt* (Mainz: p. von Zabern, 1989).

وتعتبر دراسة ميشال ماينيكي^(١١٨) لحي المدينة القديمة أكثر اتصالاً بالدراسة المعمارية، كما في دراسة ستيفان وير^(١١٩)، الذي أظهر اهتماماً رمزياً بدمشق في القرن التاسع عشر. أما مقارنة جان بول باسكال^(١٢٠) فاعتمدت على تحليل وثائق الوقف. ويتطابق المنهجية عينها التي استخدمتها نيللي حنا في بحثها حول القاهرة، استكمل عمل باسكال حول دمشق عمل ريمون على حلب والقاهرة، وتوصل إلى وصف دقيق لشكلها المدني عند نهاية القرن السادس عشر.

أهم مراكز البحث الرئيسية في سورية حول المدينة كوحدة مادية هو «المركز الفرنسي في دمشق»^(١٢١) الذي رعى عدة دراسات مدنية وراقب عدة مراكز مدنية، وكان ينشر النتائج في نشرة الدراسات الشرقية^(١٢٢)، المديرية العامة للآثار والمتاحف^(١٢٣) التي أصدرت الحوليات الأثرية العربية السورية - دمشق^(١٢٤).

Michael Meinecke, «Der Survey des Damaszener Altstadtviertels as-Sālibīya», *Damsaener Mitteilungen*, vol. 1 (1983), pp. 189-247.

Stefan Weber: «The Creation of Ottoman Damascus Subtitle: Architecture and Urban Development in the 16th and 17th Centuries», *ARAM*, vols. 9-10 (1997-1998), pp. 431-470; «Marga-Platz in Damaskus: Die Entstehung eines modernen Stadtzentrums unter den Osmanen als Ausdruck eines strukturellen Wandels (1808-1918)», *Damsaener Mitteilungen*, vol. 10 (1998), pp. 291-344, taf: 77-88; «The Transformation of an Arab-Ottoman Institution: The Suq (Bazar) of Damascus from the 16th to the 20th Century», in: Afife Batur, Welcuk Batur and Nur Akin, eds., *7 Centuries of Ottoman Architecture: A Supra-National Heritage* (Istanbul: Yapi-Endustri Merkezi Publications, 2000), pp. 244-253.

Jean-Paul Pascal, *Damas à la fin du XVI^{ème} siècle d'après trois actes de waqf ottomans* (120) (Damascus: Institut français d'études arabes de Damas, 1983), et Jean-Paul Pascal, ed., «Villes au Levant: Hommage à André Raymond», *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, nos. 55-56 (1990).

(121) قَدَمَ العديد من المنشورات الراهنة أبحاثاً حول المدن السورية الرئيسية ذات طبيعة تاريخية أو جغرافية، نذكر منها: *La Syrie, de Byzance à l'Islam, VII^{ème}-VIII^{ème} siècles: Actes du colloque international*, Lyon; *Paris 11-15 septembre 1990*, publ. par Pierre Canivet et Jean-Paul Rey-Coquais (Damascus: Institut français de Damas, 1992); *Damas extra-muros: Présentation et analyse des édifices répertoriés* (Damascus: Institut français de Damas, 1994); Mohamed Al-Dbiyat, *Homs et Hama en Syrie centrale: Concurrence urbaine et développement régional*, préf. de Jean-François Troin (Damas: Institut français de Damas, 1995); Brigitte Marino, *Le Faubourg du Midān à Damas à l'époque ottomane: Espace urbain, société et habitat, 1742-1830* (Damascus: Institut français de Damas, 1997), et Yves Roujon et Luc Vilan, *Le Midan: Actualité d'un faubourg ancien de Damas* (Damascus: Institut français de Damas, 1997).

(122) انظر خصوصاً المسألة المونوغرافية، في: *Bulletin d'Etude Orientales*, tome, vol. 52 (2000) (Damascus, 2001), et Jean-Claude David et Mohamed Al-Dbiyat, «La Ville en Syrie et ses territoires: Héritages et mutations», *Le Bulletin d'études orientales*, vol. 52 (2000), pp. 17-27.

(123) قائمة المباني الأثرية المسجلة والمعدة للتسجيل في مدينة دمشق حتى بداية ١٩٨٣ (دمشق: المديرية العامة للآثار والمتاحف، ١٩٨٣).

(124) انظر: *Damaszener Mitteilungen* 1, 1983, and 3, 1985; 3, 281-306; *Annales Archéologiques*: *Arabes Syriennes* (=AAAS) 33/2 (1983), 160-173; & 267 (in Arabic); *World Archaeology* 17/2, 289-303

في لبنان، نفذت دراسات مدنية في طرابلس على يدي حياة سلام ليبش^(١٢٥) ونمرود لوز^(١٢٦) تناولت العمارة الدينية والتجارية المملوكية في المدينة، في حين درس المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت البنى المدنية المملوكية هناك.

أما دراسة القدس الإسلامية فأجريت على يدي محمود الحفاري^(١٢٧) الذي درس العمارة الأيوبية؛ في حين درس ميشال بورغوني^(١٢٨) العمارة المملوكية، ودرست سيلفيا أولد وروبرت هيلينبراند^(١٢٩) العمارة العثمانية. ويطلعنا بحثهم، الذي يمثل النتاج الأخير لسلسلة من الأبحاث التاريخية ومسوح المباني العثمانية والمملوكية الذي رعاها مجلس أوقاف القدس، على البنية المدنية للمدينة المسورة في هاتين المرحلتين المهمتين من النمو المدني؛ كما يشير إلى الخطوط الأساسية للنمو المدني للمراحل نفسها. ويعود الفضل في ذلك إلى استخدام المخططات المساحية التي تظهر توزيع العمارة المتخصصة داخل النسيج المدني.

في هذا السياق، يتعين علينا أن نذكر أيضاً الدراسة حول قبة الصخرة التي أجراها أوليف غرابار وسعيد نسيبة^(١٣٠). وبالرغم من أن هذه الدراسة تعالج معلماً واحداً في علاقته (المرئية والبنوية) مع «القبر المقدس»، إلا أن المؤلفين قدما قراءة مكانية للقدس القديمة بأكملها.

والى اليوم، ليس هناك من بحث منظم للمباني السكنية في القدس. العمل الوحيد الذي أجري حول المباني السكنية في سياق مدني في المنطقة هو لكل من فيليب ريفو

and cover photograph; *Archive für Orientforschung* 31 (1984), 126-128, *Syria* (Paris) 62 (1985), 132-133; *Berytus* 33 (1985), 103-142.

Hyatt Salama-Lieblich, *The Architecture of the Mamluk City of Tripoli* (Cambridge, MA: Aga Khan Program for Islamic Architecture, 1983).

Nimrod Luz, «Tripoli Reinvented: A Case of Mamluk Urbanization», in: Yaacov Lev, ed., *Towns and Material Culture in the Medieval Middle East* (Leiden: Brill, 2002), pp. 53-71

(١٢٧) قدم المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، بإدارة ستيفان وير، بالتعاون مع مركز الترميم والصيانة في مجلس بلدية طرابلس والجامعة اللبنانية (طرابلس) مخططاً لترميم المركز القديم لمدينة طرابلس بناء على البحث التاريخي والخرائط التفصيلية للعمارة المملوكية. انظر: M. K. Havari, *Ayyubid Jerusalem: An Architectural and Archaeological Study* (Oxford: Archaeopress, 2007).

Michael Burgoyne, *Mamluk Jerusalem: An Architectural Study* (London: World Festival of Islam Trust for the British School of Archaeology, 1987).

Sylvia Auld and Robert Hillenbrand, eds., *Ottoman Jerusalem: The Living City, 1517-1917* (London: Altajir World of Islam Trust, 2000), in particular catalogue of «Buildings» by Yusuf Natsheh.

Oleg Grabar and Said Nuseibeh, *The Dome of the Rock* (New York: Rizzoli, 1996). (١٣٠)

وكاترين وايل روشان وسيرج ساتيللي حول بيت لحم^(١٣١). والمؤسسات الوحيدتان اللتان تتوليان العمل في القدس ومراقبة تراثها البنياني والمعماري هما: «المدرسة البريطانية لعلم الآثار في القدس» و«وزارة الأوقاف الإسلامية».

وفي الأردن، أنجز المؤرخ وعالم الآثار هيو كينيدي^(١٣٢) وصف الانتقال من البنية المدنية البيزنطية إلى البنية الإسلامية الأولى، في حين قام رونالد ويتكومب^(١٣٣) بدراسة الآثار الإسلامية من المرحلة الفاطمية. ومركز الأبحاث العامل هناك هو «مركز دراسات البيئة المبنية» (CSBE).

في ثمانينيات القرن الماضي، كان العلماء التالية أسماؤهم يُعتبرون الأكثر أهمية في دراسة البنية المادية للمدن الإيرانية^(١٣٤)، بالرغم من مقارباتهم ومنهجياتهم واستنتاجاتهم المختلفة: هايتز غوبي وأوجين ويرث^(١٣٥) ويبحثهما حول البنى التجارية للمبازارات؛ هايتز غوبي^(١٣٦) ويبحثه حول بنية ومورفولوجيا المدن الإيرانية، وميشال بونين^(١٣٧) ويبحثه حول العلاقة بين البنيتين المدنية والإقليمية. تمكن غوبي ويرث

Serge Santelli, Philippe Revault and Catherine Weill-Rochant, *Maisons de Bethléem* (١٣١) (Paris: Maisonneuve Larose, 1997); Diala Khasawneh, *Memories Engraved in Stones: Palestinian Urban Mansions* (Ramallah: Riwaq and Institute of Jerusalem Studies, 2007), and Riwaq's Registry of Historic Buildings in Palastine, 3 rolls (Ramallah, 2007).

Hugh Kennedy: «From Polis to Madina: Urban Change in Late Antique and Early Islamic Syria», *Past and Present*, vol. 106 (1985), pp. 3-27, and «The Towns of Bilad al-Sham and the Arab Conquest», paper presented at: *Proceedings of the Symposium on Bilad Al-Sham During the Byzantine Period, Amman, 15-19 November 1983*, edited by Muhammad Adnan Bakhit and Muhammad Asfour, 2 vols. (Amman: University of Amman, 1986), vol. 2, pp. 88-99.

Donald Whitcomb: «Excavations in 'Aqaba», *Annal of the Department of Antiquities of Jordan*, vol. 31 (1987), pp. 247-266; «A Fatimide Residence at 'Aqaba, Jordan», *Annal of the Department of Antiquities of Jordan*, vol. 32 (1987), pp. 207-224, and «Aqaba- Port of Palastine on the China Sea (Amman: Economic Press Co., 1988).

(١٣٤) خرائط المساحة من مقياس ١: ٢٥٠٠، التي تغطي المدن الإيرانية، حتى الصغيرة منها، باللغة الألمانية، وقد أنجزها «مركز المساحة الوطني». انظر كذلك خرائط المدن الإيرانية جمعها مهريار وآخرون: M. Mehryar [et al.], *Pictorial Documents of Iranian Cities in the Qajar Period* (Tehran: Shaid Beheshti University and Iranian Cultural Heritage, 2000).

Heinz Gaube and Eugen Wirth, *Der Bazar von Isfahan* (Wiesbaden: Ludwig Reichert (١٣٥) Verlag, 1978).

Heinz Gaube: *Iranian Cities* (New York: New York University Press, 1979), and «Innenstadt Kontinuität and Wandel in Grundriss von Heart (Afghanistan)», in: G. Schweizer, ed., *Beiträge zur Geographie orientalischer Städte und Märkte* (Wiesbaden: Ludwig Reichert, 1977).

Michael E. Bonine: «The Morphogenesis of Iranian Cities», *Annals of the Association of American Geographers*, vol. 69 (1979), pp. 208-224; *Yazd and its Hinterland: A Central Place System of Dominance in the Central Iranian Plateau* (Marlburg, Lahn: Im Selbstverlag des Geographischen

في دراستهما المونوغرافية حول أصفهان من التوصل إلى استنتاجات عامة أكثر تتعلق بالتطور التاريخي للبنية المدنية من خلال العمل الميداني والبحث التاريخي حول بنية البازار.

ويعين غوبي في كتابه حول المدن الإيرانية، المعالم العامة في البنى المدنية لأصفهان وهرات وبمّ ومدن أخرى في العالم الإسلامي التي يعتبرها مميزة في بنية المدن المسوّرة والبازارات والجوامع، إضافة إلى تلك المعالم غير المشتركة؛ كما يشير إلى أهمية المياه وتأثير المخططات المدنية غير الغربية، المربعة والدائرية، التي وضعت قبل الحقبة الإسلامية. إضافة إلى ذلك، حدد المخطط المدني لأصفهان وبنيتها في شبكة الطرق ما قبل المرحلة الصفوية واستخرج المخطط المربع لأسوار مدينة هرات المتأثر بالعلوم الهندية.

كانت هرات موضوع بحث لعلماء من أمثال عبد الوصي ناجمي^(١٣٨)، ورافي سامسزاي^(١٣٩)، وتيري ألين^(١٤٠). نشر ألين، مستخدماً منهجية المدرسة الألمانية، دراسة حول تاريخ هرات في القرن الخامس عشر، ارتكزت على العمل الميداني والبحث التاريخي. وبخصوص المدينة القديمة، ومن دون الابتعاد من نظريات غوبي، شدد ناجمي على مزايا هرات العامة التي تشاركها مدن أخرى في العالم الإسلامي: الطرق غير النافذة والبازارات وموقع الجوامع في البنية المدنية.

أما العلاقة الوثيقة بين البنية المدنية للمدن الإيرانية وأنظمتها المائية وبنيتها المنتظمة بقنوات المياه فقد حللها ميشال بونين. وارتكز بحث رونالد ويتكومب^(١٤١)

Institutes der Universität Marburg 1980), and «Qanats, Field Systems, and Morphology: Rectangularity on the Iranian Plateau,» in: Peter Beaumont, Michael Bonine, and Keith McLachlan, eds., *Qanat, Kariz and Khattara: Traditional Water Systems in the Middle East and North Africa* (Cambridgeshire, UK: Middle East Centre, School of Oriental and African Studies, University of London, 1989), pp. 34-57.

Abdul Wasay Najimi, *Herat, the Islamic City: A Study in Urban Conservation*, Occasional (١٣٨) Papers; 2 (London: Scandinavian Institute of Asian Studies, 1988).

Rafi Samizay, «Heart: Pearl of Khurasan,» in: «Urban Fabric,» *Environmental Design: (١٣٩) Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1989), pp. 86-93.

Terry Allen, *Timurid Heart* (Wiesbaden: Ludwig Reichert, 1983). (١٤٠)

Donald Whitcomb: «The City of Istakhar and the Marvdasht Plain,» paper presented at: *Akten (١٤١) des VII Internationalen Kongresses für Iranische Kunst und Archäologie: München, 7-10 September 1976* (Berlin: D. Reimer, 1979), pp. 363-370, and *Before the Roses and Nightingales: Excavations at Qasr- i Abu Nasr, Old Shiraz* (New York: Metropolitan Museum of Art, 1985).

حول البنى الأنثروبولوجية الإيرانية على غرار دراساته حول الأردن على اهتمام
أركيولوجي في المراحل الأولى للفتح الإسلامي لهذه المنطقة.

أخيراً، اتجه عمل الباحثة الإيرانية مهوش عالمي^(١٤٢) نحو إعادة بناء البنية
المادية للمدن الصفوية فحللت الوثائق التاريخية وروايات المسافرين أمثال
أعمال بيترو ديلافال وأنغلبرت كامبفير. وفي مقالها حول طهران، استخدمت طبعة
جديدة لخريطة القرن التاسع عشر كمصدر أساسي لتحليل جديد لمورفولوجيتها
المدينة.

في ثمانينيات القرن العشرين، طبع عمل هشام جعيط حول الكوفة بطابعه
النقاش الدائر حول بنية المدينة الإسلامية في العراق^(١٤٣). وجد جعيط، مستخدماً
وثائق تاريخية ومقارناً البنية المدنية للكوفة مع المدن الأخرى، المزايا العربية
لمورفولوجيتها المدنية في بنية الأحياء السكنية وفي العلاقة بين الخطاط والمنطقة
العامة المركزية.

في السنوات نفسها، أجرى كل من بيكويت وقسم الآثار في بغداد بالتعاون مع
المركز العراقي - الإيطالي للآثار، ومن منظور تاريخي ومورفولوجي، دراسات حول
البنية المادية لبغداد.

وقد أشار بحث بيكويت^(١٤٤)، آخذاً بعين الاعتبار التأثيرات الثقافية والتاريخية
والمورفولوجية المتبادلة، إلى مصدر النموذج المدني لبغداد في المخطط المدني
الدائري في آسيا الوسطى وإيران.

Mahvash Elemi: «The 1891 Map of Tehran: Two Cities, Two Cores, Two Cultures,» in: (١٤٢)
«Maghreb: From Colonialism to a New Identity,» Attilio Petruccioli, ed., *Environmental Design: Journal
of the Islamic Environmental Design Research Centre*, vol. 1 (1985), pp. 74-84; «Urban Spaces as
the Scene for the Ceremonies and Pastimes of the Safavid Court,» in «Mugal Architecture: Pomp and
Ceremonies,» Attilio Petruccioli, ed., *Environmental Design*, vols. 1-2 (1991), pp. 98-107; «The Relation
between the Royal Complexes and Cities,» in: *Transformations of Urban Form, ISUF'99* (Florence: ISUF,
1999); «Il giardino reale in Persia e le sua relazione con il disegno urbano,» papier présenté à: *Atti
del Convegno Genova, 8-9 Nov. 2001*, edited by M. Matteini and A. Petruccioli (Genova: Microart's
Edizioni, 2001), et «Giardini reali e disegno del paesaggio ad Isfahan e nel territorio iraniano alla luce
dei documenti inediti di Pascal Costen» in: «Opus,» *Quaderni di Storia Architettura Restauro* (Università
degli Studi Gabriele d'Annunzio a Chieti), no. 7 (2003).

Djafar, *Al Kūfa: Naissance de la ville islamique.*

(١٤٣)

Ch. I. Beckwith, «The Plan of the City of Peace: Central Asian Iranian Factors in Early (١٤٤)
«Abbāsid Design,» *Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae*, vol. 38, nos. 1-2 (1984).

أجرى كل من قسم الآثار العراقية والمركز العراقي - الإيطالي للآثار في بغداد^(١٤٥) منذ السبعينيات، مسحاً معمارياً لمعالم حي الكرخ وحي الرصافة بمساعدة وثائق الوقف والمصادر التاريخية من أجل تحديد الطبوغرافيا التاريخية لهذين الحيين.

تمكن أحمد العلي صالح^(١٤٦) في دراسته حول بغداد والبصرة، التي أجريت وفق منظور تاريخي، ولا سيما عمله حول بغداد، من تفسير بنيتها المدنية ومفولوجيتها خلال الخلافة العباسية.

تعد الدراسات حول البنية المدنية للموصل أكثر كثيراً من تلك التي أجريت حول بغداد، كون بنية الأولى شهدت تغيرات طفيفة. وفي هذا السياق، يتعين أن نذكر البحث الذي أجراه هاشم خضير الجنابي ويوسف دنوب. ففي دراسته حول الموصل ومدن عراقية أخرى، ومن منظور جغرافي، أشار هاشم خضير^(١٤٧) إلى الخصائص البارزة للبنية المدنية للمدينة القديمة وأعاد رسم خرائط الأحياء والسوق. كما ميز عمل يوسف دنوب^(١٤٨) الاهتمام نفسه بالبنية المادية للموصل؛ وهو تركز دراساته التي رعاها قسم إعادة بناء الموصل على مسح للمباني السكنية والدينية والعامة. وتظهر، من خلال تصويره وتمثيله للمباني الفردية، عينة كاملة للبنية المدنية.

سابعاً: آسيا الوسطى

لغاية ثمانينيات القرن الماضي، كان البحث حول المدن الآسيوية الوسطى الحقل الحصري تقريباً لباحثين من الاتحاد السوفياتي السابق، إذ لم يكن متاحاً لعلماء من غير السوفييات الوصول إلى مصادر بيبليوغرافية أو إجراء المسوح الميدانية. إضافة إلى ذلك، عرقلت مشكلة أخرى تطور الدراسات حول البنية التاريخية للمدن الآسيوية الوسطى؛ فقد اختفى العديد من المدن التي نشأت بالقرب من مخيمات البدو ولم يبق لها أي أثر.

Jabir Khalil and Vincenzo Strika, «The Islamic Architecture of Baghdad; the Results of a Joint Italian-Iraqi Survey», *Annali*, 47, no. 3, Supplement 52 (1987).

(١٤٦) أحمد العلي صالح: بغداد مدينة السلام: إنشاؤها وتنظيم سكانها في المهد العباسية الأولى، ٢ ج (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٥)، وخطط البصرة ومنطقتها: دراسة في أحوالها العمرانية والمالية في المهد الإسلامية الأولى (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٦).

(١٤٧) هاشم خضير الجنابي: التركيب الداخلي لمدينة الموصل القديمة: دراسة في جغرافية المدن (الموصل: مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٧٦)، ومدينة أربيل: دراسة في جغرافية الحضر (الموصل: مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٧)، و Hashim K. al-Janabi, *Der Suq (Bazar) von Bagdad: Eine wirtschafts- und sozialgeographische Untersuchung* (Erlangen: Kommission bei Palm and Enke, 1976).

(١٤٨) يوسف دنوب، المباني في الموصل، ٣ ج (الموصل: مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٢).

وبالتالي، كان تاريخ الخصائص المدنية البارزة في هذه المناطق حقل علماء الآثار أكثر من العلماء الذين يدرسون البنى المدنية.

بدأت الدراسات الحديثة حول المدن الإسلامية في آسيا الوسطى مع عمل أ. م. بيلينيتسكي وبيتوفيتش وبولشاكوف^(١٤٩) الذين سعوا من منظور تاريخي - أركيولوجي إلى مراجعة الدراسات الشرقية السوفياتية والروسية حول المدن الآسيوية الوسطى في القرون الوسطى ونقدها. وتضمن عمل *Svednevekovyi gorod svendei Azu* إعادة رسم الخرائط التي وصفت تحولات البنية المدنية لمرو وسمرقند وبُخارى منذ الفتح العربي وصولاً إلى الاجتياحات المغولية.

بعد نشر هذه الأعمال، عُقد العديد من الندوات المختلفة حول المدن الإسلامية في آسيا الوسطى في الثمانينيات كالندوة التي نظمها معهد التاريخ في أكاديمية العلوم في أوزبكستان^(١٥٠) عام ١٩٨٩ - ولم تول هذه الندوات أهمية كبرى للمدينة كوحدة مادية.

في العقد نفسه، أجريت دراسات فردية حول المدن في هذه المنطقة وساهمت مساهمة ملحوظة في تاريخها المدني: على سبيل المثال، عمل أنارييف^(١٥١) الذي استخدم معطيات أركيولوجية لتفسير البنية المدنية والمعمارية لبانجكنت وسمرقند والنجف في القرون الوسطى، وكذلك عمل العلماء غير السوفيات كإيرنست جيز^(١٥٢).

ومؤخراً، وبفضل تحسن فرص الحصول على المصادر، ظهر اهتمام شديد بالبنية المادية للمدن الآسيوية الوسطى وتم نشر بعض الأعمال عن بُخارى وسمرقند^(١٥٣)، ولا سيّما بعد الندوة العالمية التي يرعاها كل من مؤسسة سامويل كريس وبرنامج آغا

A. M. Belenitskii, I. B. Bentovich, and O.G. Bolshakov, *Svednevekovyi gorod Svendei Azli* (١٤٩) (Leningrad: [s. n.], 1973), and O. G. Bolshakov, *Svednevekovyi gorod Blizhnego Vostoka, VII-seredina XIII: Sotsial noekonomicheski otnosheniyai* (Moscow: [s. n.], 1984).

R. G. Mukminova, ed., *Pozdne-feodal'nyi gorod*: جرى جمع معظم الأوراق التي قدمت في عمل: *Srednei Azil* (Tashkent: [n. pb.], 1990).

A. Anarbaev, *Blagoustroistvo srednevekovogo goroda Srednei Azli (V - nachalo XIII)* (١٥١) (Tashkent: Fan, 1981).

Ernst Giese, «Aufbau, Entwicklung und Genese der islamisch-orientalischen Stadt in (١٥٢) Sowjet-Mittelasiens» *Erkunde*, vol. 34 (1980), pp. 46-60.

G. Andriani [et al.], «Samarkand: The Planned City» paper presented at: *The Planned City*: (١٥٣) *ISUF International Conference*, edited by A. Petruccioli, M. Stella and G. Strappa (Bari: [s. n.], 2003), pp. 595-599.

خان للهندسة الإسلامية في جامعة هارفرد ومعهد ماساتشوستس للتقانة (MIT) (١٥٤). على سبيل المثال، جُمع البحث الذي أجراه كل من أنيت غانغلر وهانتر غوبي وأتيليو بيتروشيولي حول بُخارى (١٥٥) في إصدار حديث وفيه حُلّت المراحل المختلفة لتطور البنية المدنية. أخيراً، يعتبر روبرت مكشيسني (١٥٦) من بين العلماء الذين استخدموا وثائق الوقف لإعادة بناء التاريخ الاجتماعي والمعماري للمدن الآسيوية الوسطى.

ثامناً: الأناضول

تطورت الدراسات حول البنية المدنية للمدن الإسلامية في الأناضول في الوقت عينه مع الدراسات حول المدن العربية والبلقانية في المرحلة العثمانية بالرغم من أنها ركزت على إسطنبول. يعتبر روبرت منتران (١٥٧) العالم الأول الذي أجرى بحثاً حول بنية المدن التركية. فبدأً بتحليل الوثائق الأرشيفية، قام بدراسة البنية المدنية والحياة الاقتصادية والمجموعات الاجتماعية المختلفة في إسطنبول.

ولاحقاً أجرى كل من دوغان كوبان (١٥٨) وتانيلي (١٥٩) بحثاً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتعريف البنية المادية لمدن الأناضول. ونسب كوبان الأصل البنيوي للمدينة التركية إلى التأثيرات المختلفة للنماذج المدنية الإسلامية والآسيوية الوسطى والإيرانية

A. Petruccioli, ed. *Bukhara: The Myth and the Architecture* (Cambridge, MA: Aga Khan Program for Islamic Architecture 1999).

Anette Gangler, Heinz Gaube and Atilio Petruccioli, *Bukhara: The Eastern Dome of Islam: Urban Development, Urban Space, Architecture and Population* (Stuttgart; London: Menges, 2004).

Robert D. McChesney: *Waqf in Central Asia: Four Hundred Years in the History of a Muslim Shrine, 1480-1889* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1991); «Reconstructing Balkh: The Waqfiya of 947/1540,» in: Devin DeWeese, ed., *Studies on Central Asian History* (Bloomington, IN: Indiana University Research Institute for Inner Asian Studies, 2001); «Architecture and Narrative: The Khwaja Abu Nasr Parsa Shrine, Part One: Constructing the Complex and its Meaning, 1469-1696,» *Muqarnas*, vol. 18 (2001), and «Architecture and Narrative: The Khwaja Abu Nasr Parsa Shrine, Part Two: Representing the Complex in Word and Image, 1696-1998,» *Muqarnas*, vol. 19 (2002).

Robert Mantran: *Istanbul dans la seconde moitié du XVII^{ème} siècle* (Paris: Maisonneuve, 1962); *La Vie quotidienne à Constantinople au temps de Soliman le Magnifique (XVI^{ème} et XVII^{ème} siècles)* (Paris: Hachette, 1965); «Foreign Merchants and the Minorities in Istanbul During the Sixteenth and Seventeenth Centuries,» paper presented at: *Christians and Jews in the Ottoman empire: The Functioning of a Plural Society* (Conference), edited by Benjamin Braude and Bernard Lewis, 2 vols. (New York: Holmes & Meier Publishers, 1982), vol. 1: *The Central Lands*, pp. 127-137.

Dogan Kuban, «Anadolu-Türk Şehri Tarihi Gelişmesi, Sosyal Ve Fiziki Özellikleri Üzerinde Bazı Gelişmeler,» *Vakıflar Dergisi*, vol. 7 (1968).

U. Tanyeli, *Anadolu-Türk Kentinde Fiziksel Yapının Evrim Sürecisi: 11-15yy* (Istanbul: Teknik Üniversitesi, Fen Bilimleri Enstitüsü, 1978).

والأناضولية والبيزنطية والبدوية التركية التقليدية. أما تانيلي فطور دراسات كوبان مصنفاً في بداية الأمر مدن الأناضول في ثلاثة أنواع (المدن الشرقية المحاطة بالأسوار، والمدن الشرقية التي تفتقر إلى الأسوار، والمدن الغربية التي تحد الأراضي البيزنطية)، كما عمل على قراءة بنيتها المدنية. وهكذا ردّ أصول معالمها البارزة إلى النماذج المدنية التركية-الإيرانية وإلى مساهمات البدو.

وأخيراً، عملت دراسات سيفجي أكتور^(١٦٠) حول المدينة في الأناضول في المرحلة العثمانية على تحليل بنيتها المدنية من حيث بنيتها الاقتصادية والاجتماعية.

أما الدراسات المدنية المنظمة حول إسطنبول فتظهر في عمل دليو مولير-فاينر^(١٦١) الذي بحث في البنى المدنية والهندسية؛ وهو أكثر عمل شامل يتناول مدينة إسطنبول في المراحل المختلفة من تطورها الأنثروبولوجي.

من جهة أخرى، توضح دراسة موريس منير سيراسي^(١٦٢) حول البنية المادية لإسطنبول تنظيمها المورفولوجي. يصف سيراسي في بحثه بنية المدينة «الشرقية» من

Sevgi Aktöre: *19 yüzyıl sonunda Anadolu kenti: Mekânsal yapı çözümlemesi* (Ankara: ODTÜ Mimarlık Fakültesi 1978), and «The Islamic Anatolian City,» in «Urban Fabric,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1989), pp. 68-79.

Wolfgang Müller-Wiener: *Bildlexikon zur Topographie Istanbuls: Byzantion, (161) Konstantinupolis, Istanbul bis zum Beginn d. 17 Jh* (Tübingen: Wasmuth, 1977); «Der Bazar von Izmir: Studien zur Geschichte und Gestalt des Wirtschaftszentrums einer agaischen Handelsmetropole,» *Mitteilungen der Fränkischen Geographischen Gesellschaft*, vols. 27-28 (1980-1981), pp. 420-454, and «Das Kavak-Sarayı - ein verlorenes Baudenkmal Istanbuls,» *Istanbuler Mitteilungen*, vol. 38 (1988), pp. 363-376.

Maurice Munir Cerasi: «Open Space, Water and Trees in Ottoman Urban Culture in (162) the XVIII^a - XIX^a Centuries,» in: «Water and Architecture,» in: *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1985), pp. 36-49; «Place and Perspective in Sinan Townscape,» in «Mimar Sinan,» in: *Environmental Design*, vols. 1-2 (1987), pp. 52-61; *La Città del Levante: Civiltà urbana e architettura sotto gli Ottomani nei secoli XVIII-XIX* (Milano: Jaca Book, 1988); «Città e architettura nella settecento,» in: *Istanbul, Constantinople, Byzantium,» Rassegna: Problemi di architettura e dell'ambiente*, vol. 72, no. 4 (1997), pp. 36-51; «Type, Urban Context, and Language in Conflict; Some Methodological Implications,» paper presented at: *Typological Process and Design Theory* (Conference Proceedings), edited by Attilio Petruccioli (Cambridge, MA: Aga Khan Program for Islamic Architecture, 1998), pp. 179-188, and «Un Barocco di Città-trasformazioni linguistiche e tipologiche nel Settecento ad Istanbul,» *Quaderni di Storia dell'Architettura*, vol. 3 (2000), pp. 81-102, and Maurice Munir Cerasi and A.L. Melling, «Costantinopoli tra naturalismo e prospettiva,» *Rassegna di studi e notizie-Raccolta delle stampe Achille Bertorelli*, vol. 27 (2003), pp. 191-230.

خلال توضيح العلاقات المورفولوجية والمكانية بين البنى المختلفة ومن بينها البنية المدنية ومورفولوجية الموقع.

وصف خليل إينالشيك^(١٦٣) المعالم المدنية البارزة في إسطنبول في علاقتها ببنية المدينة الإسلامية. وهو باستخدامه مصطلح المدينة «العثمانية الإسلامية» للإشارة إلى نموذج اجتماعي يركز على نظام الوقف والقاضي وفكرة الخصوصية، وصف نموذجاً مدينياً مقسماً إلى أحياء سكنية ذات مهمات مستقلة ومناطق تجارية وعامة تسيطر عليها وتنظمها سلطة مركزية.

وبعيداً من دراسات سيراسي وإينالشيك حول تنظيم إسطنبول العثمانية والعلاقة بين البنية المدنية والمعمارية، أجري العديد من الدراسات. على سبيل المثال، دراسة كل من أصلان أوغلو^(١٦٤) وإيرزن^(١٦٥) وروجرز^(١٦٦) وكوران^(١٦٧) وغودفري غودوين^(١٦٨) وإينيس قرطان^(١٦٩) ويرايموس^(١٧٠) وبيارينو^(١٧١) الذي أولى اهتماماً

Halil Inalcik, «Istanbul: An Islamic City: Conquest as an Act of Faith», *Journal of Islamic Studies*, vol. 1 (1990).

I. Aslanoglu, «Siting of Sinan Kulliyes in Istanbul», in «Mimar Sinan: The Urban Vision», (١٦٤) in: *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1987), pp. 154-161.

Jale Erzen, «Imperializing a City: Istanbul of the Sixteenth Century», in: *Ibid.*, pp. 88-97 (١٦٥)

J. M. Rogers, «Sinan as Planner: Some Documentarey Evidence», in: *Ibid.*, pp. 174-191. (١٦٦)

Aptullah Kuran, «A Spatial Study of Three Ottoman Capitals: Bursa, Edirne, and Istanbul», (١٦٧) *Muqarnas*, vol. 13 (1996), pp. 114-131.

Godfrey Goodwin, «Sinan and City Planning», in: *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1987), pp. 10-19.

Enis Kortan, «The Role of Sinan's Work Within the Urban Context», in: *Ibid.*, pp. 140-145. (١٦٩)

Stéphane Yérasimos, «Istanbul Ottomana», *Rassegna: Problemi di architettura dell'ambiente*, vol. 72, no. 4 (1997), pp. 24-35. (١٧٠)

Pierre Pinon, «Les Tissus urbains ottoman entre Orient et Occident», paper presented at: (١٧١) *Proceedings of the 2nd International Meeting on Modern ottoman Studies and the Turkish Republic* (Leiden: Brill, 1989), pp. 15-45; Alain Borie, Pierre Pinon et Stéphane Yérasimos, «Tokat: essai sur l'architecture domestique et la forme urbaine», *Anatolia Moderna*, vol. 1 (1991), pp. 239-273; «Essai de définition morphologique de la ville ottomane des XVIII^{ème} et XIX^{ème} siècles», in: Nikola Tasić [et al.], *La Culture urbaine des Balkans (XV^{ème}-XIX^{ème} siècles)*, vol. 3, *La Ville dans les Balkans depuis la fin du Moyen Age jusqu'au début du XX^{ème} siècle* (Paris; Belgrade: SANU, 1991), pp. 147-155; «Métamorphose d'une ville», in: «Byzance-Istanbul», *Critique*, vol. 48, nos. 543-544 (1992), pp. 712-720; «La Cartographie urbaine d'Istanbul et les incendies au XIX^{ème} siècle: Les Plans de lotissements après incendies et les cadastres d'assurances», papier présenté à: *La Ville en Feu: Actes du Colloque du laboratoire TMU*, edite par Stéphane Yérasimos and F. Fries, *Cahiers*, nos. 6-7 (1993), pp. 37-44; «Topographie des lotissements et transformations urbaines d'Istanbul dans la second moitié du XIX^{ème}

خاصاً لدراسة سجلات المسوح. من بين العلماء الذين استعانوا بوثائق الوقف كمصدر أساسي لإعادة بناء تاريخ إسطنبول، نذكر حاييم غريب^(١٧٢) الذي برهن من خلال عمله على بورصة أن الوقت كان أداة ضبط مديني فعالة في حين اهتمت ثريا فاروقي^(١٧٣) بوجه خاص بالعلاقة بين المدينة واقتصادها.

حاولت هذه الملاحظات التاريخية - البيانية رسم هذه الخطوط الأساسية للنقاش الذي طبع الدراسات حول المدينة الإسلامية التقليدية بدءاً بالتغيرات في المقاربة وصولاً إلى بنيتها المادية بعد تطور الدراسات الإقليمية في الثمانينيات. سعت الملاحظات هذه، بالرغم من طبيعتها الموجزة، وبالإشارة إلى الأعمال الجيوجرافية والنقدية حول المدينة الإسلامية بوجه عام^(١٧٤)، إلى إبراز المجرى الذي أدى إلى الانتقال من المقاربة الاستشراقية إلى الدراسات المدينية المعاصرة.

siècle.» *Histoire économique et sociale de l'Empire ottoman et de la Turquie (1326-1960): Actes du Sixième Congrès International* (Leuven; Paris: Peeters, 1995), pp. 687-703; Pierre Pinon and Stéphane Yérasimos, «Relevés après incendie et plans d'assurances: Les Précurseurs du cadastre stambouliote,» *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design*, vols. 1-2 (1993), pp. 112-129, et «Essai de typologie des tissus urbains des villes ottomans d'Anatoli et des Balkans,» in: Batur, Batur and Akin, eds., *7 Centuries of Ottoman Architecture: A Supra-National Heritage*, pp. 174-198.

Haim Gerber: «The Waqf Institution in Early Ottoman Edirne,» *African and Asian Studies*, (١٧٢) vol. 17 (1983), and *Economy and society in an Ottoman City: Bursa 1600-1700* (Jerusalem: Hebrew University, 1988).

Suraiya Faroqhi: *Towns and Townsmen of Ottoman Anatolia: Trade, Crafts and Food* (١٧٣) *Production in an Urban Setting, 1520-1650* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1984); «The Anatolian Town and its Place within the Administrative Structure of the Ottoman State (1500-1590),» paper presented at: *Manzikert to Lepanto: The Byzantine World and the Turks, 1071-1571 Papers Given at the Nineteenth Spring Symposium of Byzantine Studies, March 1985*, edited by Michael Ursinus and Anthony Bryer (ACLS Humanities E-Book, 1991) pp. 209-244; «Migration into Eighteenth-Century «Greater Istanbul» as Reflected in the in the Kadi Registers of Eyüp,» in: *Eyüp'te Sosyal Yaşam* (Istanbul: [s. n.], 1998), pp. 33-48; «Urban Space as Disputed Grounds: Territorial Aspects to Artisan Conflict in Sixteenth to Eighteenth-Century Istanbul,» in: *Stories of Ottoman Men and Women: Establishing Status, Establishing Control* (Istanbul: Eren, 2002), pp. 219-234; «Pious Foundations in the Ottoman Society of Anatolia and Rumelia: A Report on Current Research,» in: Michael Borgolte with Tilmann Lohse, eds., *Stiftungen in Christentum, Judentum Islam vor der Moderne und Unterschieden in religiösen Grundlagen, praktischen Zwecken und historischen Transformationen* (Berlin: Akademie Verlag, 2005), pp. 223-256; «Die Historische Forschung und das frühmoderne Istanbul,» in: Yavuz Koese, ed., *Istanbul: Vom Imperialen Herrschersitz zur Megapolis: Historiographische Betrachtungen zu Gesellschaft, Institutionen Und Räumen* (Munich: Peter Lang, 2006), and Leila T. Erder and Suraiya Faroqhi, «The Development of the Anatolian Urban Network during the Sixteenth Century,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 23 (1980), pp. 265-303.

Michael E. Bonine [et al.], eds., *The Middle Eastern City and Islamic* (١٧٤) *Urbanism: An Annotated Bibliography of Western Literature* (Bonn: Ferd. Dümmlers Verlag, 1994),

ويبدو أن الميزان قد استقر في النهاية لصالح اهتمام متجدد بالبنى المدنية،
الذي تجلى في المساهمات العديدة للعلماء ومراكز البحوث الذين استخدموا
منهجيات متنوعة في البحث حول البنى والأشكال المادية المختلفة للمدن
الإسلامية.

الفصل الثاني

التنظيم المكاني للمدينة

أندريه ريمون^(٥)

أولاً: فرضية المدينة المسلمة

١ - يعود مفهوم المدينة «المسلمة» إلى المدرسة الاستشراقية الفرنسية في الجزائر خلال أعوام ١٩٢٠ - ١٩٥٠، ولا سيما إلى رائديها الأساسيين وليام وجورج مارسيه، وقد تلاهما روجيه لو تورنو^(١)، واستكمل ممثلاً مدرسة دمشق، وهما جان سوفاجي وجاك فولارس، وضع اللمسات الأخيرة على هذا المفهوم^(٢). ترافق هذا البحث النظري

(٥) مؤرخ ومستشرق فرنسي.

W. Marçais: «L'Islamisme et la vie urbaine», dans: *Articles et conférences*, [notices (١) nécrologiques, par Alfred Merlin, Marius Canard et Henri Terrasse], publications de l'Institut d'études orientales; Faculté des lettres d'Alger; 21 (Paris: A. Maisonneuve, 1961), et «L'Urbanisme musulman», dans: *Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman* (Algiers: Imprimerie officielle du Gouvernement generale, 1957).

أبرزت جانيت أبو لغد التطور الذي طرأ على هذا التقليد المستشرق من الأخوين مارسيه إلى غ. فون غرونيباوم، في: Janet Abu-Lughod, «The Islamic City: Historic Myth, Islamic Essence and Contemporary Relevance», *International Journal of Mormon Studies* (IJMES), vol. 19 (1987).

André Raymond, «Islamic City, Arab City: Orientalist Myths في: هذه المشكلة، and Recent Views», *British Journal of Middle Eastern Studies*, vol. 21, no. 1 (1994).

Jean Sauvaget: «Esquisse d'une histoire de la ville de Damas», *Revue des études islamiques*, (٢) vol. 8, no. 4 (1934), et *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIXe siècle* (Paris: p. Geuthner, 1941); Jacques Weulersse: «Antioche, essai de géographie

مع تدفق هائل للدراسات المونوغرافية (الوصفية) التي تناولت عدداً من المدن العربية الكبرى، على غرار الدراسات عن مراكش لغاستون دوفاردان (١٩٥٩)، والرباط لجاك كايي (١٩٤٩)، وفاس لروجيه لو تورنو (١٩٤٩)، والجزائر لريني ليسبس، والقاهرة لمارسيل كلارجي (١٩٣٤)؛ ودمشق وحلب لجان سوفاجي (١٩٣٤ و ١٩٤١)؛ وأنطاكية لجاك فولارس (١٩٣٤)^(٣).

وكما يتضح، كان كل الباحثين أولئك فرنسيين؛ الأمر الذي يشير إليه ستيفن هامفريز حين يتحدث عن «التقليد الفرنسي العظيم من الدراسات المدنية الإسلامية» وعن «جدول رفيع، وإنما متواصل، من المنشورات (أغليتها على يد مفكرين فرنسيين) التي تعالج أوجهاً مختلفة للموضوع»^(٤). هذا الأمر ليس سمة لعلم اجتماع مدرسي فقط، بل هو مؤشر للاهتمام أيضاً نظراً إلى غياب المؤلفات المماثلة في المناطق التي خضعت لبريطانيا العظمى. كانت فرنسا حينذاك قوة استعمارية بسطت سلطتها على كامل المغرب والشرق، لذلك ليس غريباً أن تكون أعمال هؤلاء الباحثين اللامعين قد تأثرت بروح العصر: روح حملت أعضاء «الطبقة المهيمنة» (المؤسسة الحاكمة (Ruling Institution) على حد قول هاملتون) جب على النظر إلى الإنجازات الحضارية للشعوب الخاضعة لسيطرتهم (التي اعتبرت خارج العصر أو حتى متخلفة) بكثير من الفوقية. وكان نفور المستعمرين من الحقبة «التركية» التي سبقت الاستعمار الفرنسي في جميع هذه المناطق يصب في الخانة نفسها، وكان من شأنه أن يحدو بهؤلاء الباحثين إلى التقليل من شأن الإنجازات القائمة قبل وصول الفرنسيين الذين اعتبروا أنفسهم حاملين لحضارة جديدة وكانوا يطمحون إلى استعادة أمجاد الإمبراطورية الرومانية^(٥).

urbaine,» *Bulletin d'études orientales* (L'Institut français de Damas), vol. 4 (1934), et *Paysans de Syrie et du Proche-Orient* (Paris: Gallimard, 1946).

(٣) Gaston Deverduin, *Marrakech des origines à 1912*, 2 vols. (Rabat: Editions techniques nord-africaines, 1959-1961); Jacques Caillé, *La Ville de Rabat jusqu'au Protectorat français*, 3 vols. (Paris, Vanoest, 1949); Roger Le Tourneau, *Fès avant le Protectorat: Etude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman* (Casablanca: Société marocaine de librairie et d'édition, 1949); René Lespès, *Alger: Etude de géographie et d'histoire urbaines* (Paris: libr. Félix Alcan, 1930), et Marcel Clerget, *Le Caire: Etude de géographie urbaine et d'histoire économique*, 2 vols. (Le Caire: Impr. E. et R. Schindler; Paris, Paul Geuthner, 1934).

في ما يتعلق بـج. سوفاجي وج. فولارس، انظر الهامش الرقم (٢).

(٤) R. Stephen Humphreys, *Islamic History: A Framework for Inquiry* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1991).

(٥) يمكننا وضع قائمة بالباحثين الفرنسيين المناهضين للأتراك من دو غرامون إلى سوفاجي، انظر: H. D. de Grammont, *Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830)* (Paris: E. Leroux, 1887).

وكان من الصعب تفادي مثل هذا التقابل، نظراً إلى أن المناطق المتوسطة الخاضعة للاستعمار كانت تحمل آثاراً لا تمحى لحضارة قديمة برز إشعاعها وازدهارها في شبكة رائعة من المدن العريقة على غرار: جميلة وتيمقاد ودقة والجيم وتدمر وأفاميا، التي لم تكن سوى بعض من جواهر المدن القديمة التي تفتحت بُعيد الازدهار الإغريقي في الأراضي التي غزاها الرومان. فقد أرست الطرق الرومانية طابعاً حضرياً من الصعب مضاهاة انتظامه ونوعية مؤسساته البلدية ومثانة الروح الحضرية فيه. وكانت المقابلة بين مدن ذات تنظيم حضري فريد من نوعه وشبه كامل وبين انعدام الانتظام في المدن العربية التي تشع سحراً غريباً والمعقدة في الظاهر، هي الحافز إلى مؤلفات مميزة، على غرار مؤلفات ج. سوفاجي حول دمشق وحلب واللاذقية؛ كما قادت إلى عقد مقارنات حزينة؛ فكتب لو تورنر: «ما من شيء أكثر غربة على مدينة مسلمة في المغرب من الشوارع المستقيمة التي تميز المدينة الرومانية أو المدينة المعاصرة. فالصورة الجوية لأي مدينة مسلمة تعطي انطباعاً بالمتاهة»^(٦) (انظر الرسم الرقم (٢ - ١)).

وعليه، فالمقابلة بين المدينة الرومانية والمدينة «المعاصرة» (أي الفرنسية في حال المغرب) ليست ثمرة المصادفة.

٢ - من السهل تحديد المبادئ التي تشكل أساس القراءة الاستشراقية للمدن العربية المتوسطة. والمبدأ الرئيسي هو الافتراض القائل إنه في حضارة معولمة مثل الحضارة المسلمة، يجب أن تكون جميع المظاهر مسلمة على وجه التحديد. وكان لتدريب المستشرقين الأولي (الموجه أساساً نحو دراسة الدين وبناء الفوقية) أن يقودهم إلى وجهة نظر متطرفة. في هذا المضمار، لاحظ ر. إيلبرت عن حق «أن أغلبية المستشرقين بدأت بفرضية أولية مبسطة... حول الدور الرئيسي الذي اضطلع به الإسلام في هيكلة المكان فكان أن عادوا إليها في نهاية المطاف»^(٧).

ولا عجب بالتالي أن نجد الإسلام يذكّر بالترابط بين المؤسسات، وتنظيم الحياة السياسية، والأنشطة الاجتماعية والاقتصادية بالطبع، بل مع البنية المادية للمدينة، أو المنزل كذلك، التي لا يمكن وصفها من هذا المنظار إلا بـ «المسلمة».

Le Tourneau, *Fès avant le Protectorat: Etude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman*, p. 20.

Robert Ilbert, «La Ville islamique: Réalité et abstraction», *Les Cahiers de la recherche architecturale*, vols. 10-11 (avril 1982), p. 12.

الرسم الرقم (٢ - ١) سطوح منازل في الجزائر



متى نظرنا إلى الظواهر الحضرية من زاوية دينية، تبدو الظواهر الحضرية كثوابت في إطار استمرارية تاريخية تمتد ثلاثة عشر قرناً وعلى امتداد عالم إسلامي يغطي ثلاث قارات وصولاً، إلى الصين البعيدة. يحيل ج. مارسيه في «التنظيم الحضري الإسلامي»، صفحة صفحة، إلى فسطاط الفاطميين، وفاس المرينيين، وجزائر الدايات العثمانيين، لوصف مدينة تبدو له أكثر من مغربية في الظاهر ولا تمثل إلا الحالة التي وصلت إليها «المدينة» نفسها (وهي الكلمة المستعملة من الجغرافيين لوصف المراكز القديمة) في بداية القرن التاسع عشر.

توصل المستشرقون عبر المقارنة بين حضرية قديمة يفترض أنها كاملة وحضرية «مسلمة» تتميز لأول وهلة بعدم انتظام حاد وبرفض كل قاعدة عقلانية، إلى خلاصات محبطة حول البنية المادية للمدن. تعتبر ملاحظة ر. لو تورنو التي وردت أعلاه خير دليل على حالة عدم الفهم هذه. وأعرب ج. مارسيه عن حيرته قائلاً: «لم يعترف المسلمون الذين اكتفوا بالطرق الضيقة بميزة الخط المستقيم كطريق تقود من نقطة إلى أخرى»^(٨).

Marçais, «L'Urbanisme musulman», p. 227.

(٨)

هذه الإحالة إلى العصور القديمة أدت إلى استنتاجات متعجرفة عند ج. سوفاجي، إذ إنه هو الذي درس بدقة بنية المدن السورية الكبرى خلال العصور الرومانية التي لا تزال هندستها ظاهرة في شبكة طرق المدن العربية المعاصرة.

ودمشق وحلب، بحسب قوله، إنما تعكسان صورة منحلة عن المدينة - كما يظهر ذلك من خلال عملية الانتقال من الشارع القديم ذي الأعمدة إلى السوق - التي أنجز لها وصفاً لامعاً وأرفقها برسم بياني معبر^(٩) (انظر الرسم الرقم (٢ - ٢)).

وأضاف سوفاجي أن المدينة المسلمة لم تعد تمتلك المؤسسات البلدية التي ميزت المدن القديمة (ورافقت تطور البلديات الغربية في القرون الوسطى). تشكل هذه الملاحظة إحدى أبرز مساهماته في المفهوم الاستشراقي للمدينة المسلمة^(١٠): «لا يخضع وضع المدن لأي نص خاص في القانون الإسلامي. لم يعد هنالك من مؤسسات بلدية... ولم تعد المدينة تعتبر وحدة أو كائناً بحد ذاته، معقداً وحيّاً؛ لم تعد المدينة سوى مجموعة أفراد لهم مصالح متضاربة ويعملون لحسابهم الخاص». افتقرت المدينة إلى أي إدارة محددة وأصبحت خاضعة لسلطة الأمير المباشرة الذي يديرها وفقاً لمبادئ الاستبداد الشرقي.

قد يكون مفهوم المدينة المفككة والمقسمة إلى جماعات متضادة، وهو مساهمة ج. فولارس، مبنياً على دراسة مدينة محددة ذات طابع خاص، وهي مدينة أنطاكية المنقسمة بين جماعات مختلفة جداً، من مسلمين سنة وعلويين ومسيحيين، وصفها الجغرافيون على أنها مفككة ومقسمة إلى قطاعات منكفئة على ذاتها وعدائية.

من هذه الملاحظة الموضوعية، في نهاية المطاف، والناشئة من تنوع طائفي وإثني كبير، يستخرج سوفاجي قانوناً طبقه على حلب، حيث سجلت خلال مرحلة الحكم الإسلامي، بحسب قوله، «انفكاً للمركز الحضري الذي تجزأ إلى خلايا فردانية صغيرة... وحتى متصادمة أحياناً»^(١١).

(٩) Sauvaget, *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIXe siècle*, p. 247.

(١٠) Sauvaget, «Esquisse d'une histoire de la ville de Damas», pp. 455-456.

(١١) Sauvaget, *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIXe siècle*, p. 248.

الرسم الرقم (٢ - ٢)
أسواق رومانية ذات عقود في دمشق



وقد ذهل فولارس بمشهد اللاذقية السنية العالقة في محيط ريفي علوي فقال
معمماً:

«في الشرق، تبدو المدينة وكأنها جسم غريب «متكتس» في البلاد، كما لو أنها
مخلوق مفروض على الريف الذي تهيمن عليه وتستغله... وبالتالي، يبدو النشاط
الاقتصادي للمدن طفيفاً. فالمدينة... تستهلك ولا تنتج»^(١٢).

وقد تكررت هذه المقولات بانتظام في دراسة مدن أخرى بالرغم من أنها واقعة في
محيط آخر مختلف كلياً^(١٣).

٣- عليه، تتميز المدينة «المسلمة» بما تفتقر إليه، أي إلى الانتظام والتنظيم والروح
الحضرية للمدينة القديمة؛ وإلى المؤسسات البلدية التي ميزت القرون الوسطى. لذلك
هي آيلة إلى الانحطاط لا محالة. وقد لاحظ م. كلارجي أن القاهرة في عهد العثمانيين
كانت «تنطفئ ببطء... وتخلع شيئاً فشيئاً ثوب ماضيها العريق... تستعيد القاهرة... نمط
السكن المفضل لدى العرب الأولين»^(١٤). والأمور تتعلق هنا بالمرحلة العثمانية تحديداً
التي ما انفكت موضع كره المستشرقين. إلا أن ج. سوفاجي ذهب إلى أبعد في التعميم
وقال عن حلب: «لم يكن لفترة الحكم الإسلامي أي نتيجة إيجابية... لم تؤدِ إلّا إلى
تفكك المركز الحضري». الإسلام لم يكن له «سوى نتائج سلبية». تحولت المدينة إلى
«مجموعة مفككة، متفرقة، من الأحياء»^(١٥).

وحين يكون استنتاجهم هنا ال «لا مدينة» وال «لا تحضر»، فلا عجب بعد ذلك
أن يفتقر المؤلفون حين حاولوا تحديد الخطوط العريضة لبنية المدينة الإسلامية إلى
المعايير الإيجابية، وأن يقتصروا على تعداد ميزات غير رئيسية وغير صائبة أحياناً؛
فتراهم يتحدثون عن أسوار المدينة والقصر أو القلعة (التي لا تشكل في الواقع سمات
خاصة)، وعن وجود جامع مركزي (الأمر الذي ينسحب على الكاتدرائية المركزية)
يرتبط عموماً بأسواق تنمو فيها تعاضديات (تحاكي تلك الموجودة في الغرب) وبوجود
حمامات عامة (التي تعد مسلمة كونها ضرورية للوضوء بعيداً من الرخاء الذي يميز

Weulersse, *Paysans de Syrie et du Proche-Orient*, pp. 86-88. (١٢)

(١٣) انظر على سبيل المثال الملاحظات حول البلدين (سكان المدينة) في الجزائر الذين قيل إنهم شعب غريب
في بيئة ريفية مختلفة ومعادية.

Clerget, *Le Caire: Etude de géographie urbaine et d'histoire économique*, vol. 1, pp. 178-180. (١٤)

Sauvaget, *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu
du XIXe siècle*, pp. 247-248. (١٥)

الحمامات القديمة)، والأحياء المنفصلة، والتصميم النمطي لمنزل يتنظم حول باحة (يتكرر وصفه بـ «المسلم»)، حتى وإن كان وجوده منذ العصور القديمة ووجوده حول المتوسط هما من الحقائق المعلومة. أخذ غوستاف فون غرونباوم الذي كتب بنية المدينة المسلمة^(١٦) عام ١٩٥٥، في الاعتبار العناصر التي سبق وأشرنا إليها، إنما من دون أن يحاول استخراج وصف لبنية المدينة المسلمة، كما يشير عنوان مقاله. فهو يغوص في تفاصيل المؤسسات الحضرية (عدالة القاضي، الرقابة الخلقية التي يمارسها المحتسب) التي هي مسلمة من دون شك، شأنها شأن السكان (في أغليبتهم على الأقل نظراً إلى وجود الأقليات الدينية). حتى وإن كانت خلاصته أقل تطرفاً من تلك التي توصل إليها سوفاجي، إلا أنها كانت متوقعة، إذ قال: «لم يكن للمدينة الإسلامية نمط متجانس من الحياة الحضرية كما كانت حال المدن الإغريقية والرومانية»^(١٧).

لكن، تجدر الإشارة إلى أن غرونباوم يلاحظ عند بعض النقاط تطوراً واضحاً في التقليد الاستشراقي الصرف، إذ يشير إلى وجود نماذج مختلفة في إيران وتركستان وإلى بداية انحلال التنظيم القديم في أواخر العصور القديمة؛ ويتحدث عن الاهتمام الذي أولاه رجال الفقه المسلمون إلى المشاكل الحضرية (بعد المقال الذي نشره روبرت برنشفيج عام ١٩٤٧)^(١٨). وفي الوقت الذي كانت تجري كتابة مقالة غرونباوم، كانت قد بدأت مراجعة النظرية الاستشراقية حول المدينة الإسلامية، بحيث يمكن اعتبار المقالة خلاصة النظرية تلك وخاتمتها.

ثانياً: إعادة النظر في الفرضيات الاستشراقية حول المدينة المسلمة

١ - ما من شيء يدعو إلى الدهشة حيال إعادة النظر هذه. فالاستعمار الذي تطورت نزعة الاستشراق في إطاره في خمسينيات القرن العشرين كان قد دخل آخر أيامه. وفرنسا نفسها التي شكلت معقلاً للدراسات الحضرية هذه كانت قد أقفلت ملف الاستعمار في الأربعينيات (المشرق) والخمسينيات (المغرب والجزائر) قبل إغلاقه بصورة نهائية عام

G. von Grunebaum, «The Structure of the Muslim Town,» in: Gustave E. von Grunebaum (١٦) *Islam; Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition* ([Menasha, Wis.]: American Anthropological Association, 1955).

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

Robert Brunschvig, «Urbanisme médiéval et droit musulman,» *Revue des études islamiques*, (١٨) vol. 15 (1947).

١٩٦٢ (الجزائر). بهذا انتهت المركزية الأوروبية الكامنة والميل إلى احتقار حضارات بدا أن الأكثر أهمية، من الآن وصاعداً، فهم اختلافاتها وتحليلها، بدلاً من التشديد على دونيتها المزعومة بالنسبة إلى النموذج الغربي. وليس من المغالي فيه القول إن الاستشراق أشرف على نهايته في هذه الفترة. فقد تمثلت آخر أكبر إنجازاته بإصدار هاملتون جب وهارولد بُوون (Bowen) المجتمع الإسلامي والغرب (١٩٥٠ - ١٩٥٧). وكان من المتوقع أن يلي هذين المؤلفين صورة عامة للمجتمع الإسلامي. لكن ذلك لم يحدث، ويفسر فشل هذه المحاولة بوضع البحث الذي لم يتقدم إلى درجة تسمح بإنجازه، وجزئياً بسبب من المقاربة المستمدة من روح الاستشراق التي ترى الشرق من مرآة الغرب والتي يشي بها العنوان.

اكتسبت إعادة تقييم أهمية وفائدة الإرث العثماني، التي أسهم فيها بقوة مؤرخو مدرسة لطفي باركان التركية منذ نهاية الثلاثينيات، أهمية إضافية بحيث دفعت إلى مراجعة الرؤية السلبية التي كونها مستشرقو مدرستي الجزائر العاصمة ودمشق عن المدن العربية قبل الاستعمار. أكد الاهتمام الموازي بالأرشفات الضخمة التي ترقى إلى العهد العثماني وتطويرها التدريجي، أن المدن العربية لم تشهد في هذه الفترة الانحطاط العام الذي تحدث عنه الاختصاصيون، ووجود مكونات إدارية منذ تلك الفترة. وسلطت هذه النظرة الأضواء على المشكلة التي طرحها مؤلف سوفاجي الضخم حول حلب وسمحت بحل التناقض الواضح بين التقييم المتماذي في السلبية الذي أجراه عن العهد العثماني وبين الصورة المشرقة التي تجلت من أعماله، والتي لم يستطع دحضها إلا بجملة ختامية غير مقنعة: «لم تكن حلب الحكم العثماني سوى سراب، مجرد أنقاض تتوارى خلف واجهة فخمة»^(١٩).

٢ - لا شك أن مشاركة أصحاب التخصصات الأخرى في البحث سمحت بإعادة النظر في نظرية التفوق الضمني للإسلام في ما يتعلق بالدراسات التي تناولت المدينة، وبالقضاء على احتكار بعض اختصاصيي الدين لها. وقد اعترف بعض المؤرخين بصورة أكبر بضرورة وضع تطور المدن في إطار زمني يمتد إلى اثني عشر قرناً، منذ عمليات الإنشاء أو إعادة التأسيس خلال القرن السابع إلى نهاية الحكم العثماني (بداية القرن العشرين). في هذا الإطار، كان لكتاب كلود كاين بعنوان الحركات الشعبية والاستقلالية الحضرية^(٢٠)

(١٩) Sauvaget, *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIXe siècle*, p. 239.

(٢٠) Claude Cahen, *Mouvements populaires et autonomisme urbains dans l'Asie musulmane du Moyen Age* (Paris: E. J. Brill, 1959).

الصادر عام ١٩٥٩ طابعاً تأسيسياً. وأثرى علماء الاجتماع النقاش باهتمامهم بالبيانات الاجتماعية وروجوا الفكرة القائلة إن العديد من الظواهر المدروسة من زاوية الإسلام هي ظواهر حضرية بوجه عام. ساهم الجغرافيون في وضع هذه الدراسات في إطارها المكاني (وفي تصميم الخرائط حول بعض جوانبها) وذكرُوا بأن العالم الإسلامي لا يقتصر على العالم العربي (أو حتى المغربي) الذي درسه المستشرقون. كانت مساهمة أوجين ويرث الذي وضع الدولة المستشرقة (*Orientalische Stadt*) ذات أهمية حيوية في هذا المجال.

٣ - سمح تطور المعلومات المتاحة حول المراحل الأخيرة للعصور القديمة (ولا سيما من خلال الحفريات، كذلك التي أجراها ج. بالثي في أفاميا) بتأكيد الفرضيات التي عبر عنها سوفاجي في مؤلفه حول حلب^(٢١). تمت الإشارة إلى التفكك التدريجي للتنظيم القديم، ولا سيما من قبل كلود كاين وذلك منذ عام ١٩٥٨، ومن ثم من قبل صامويل ستيرن عام ١٩٧٠، وأخيراً من قبل هيو كينيدي في مقاله «من البوليس [أي المدينة اليونانية القديمة] إلى المدينة» (١٩٧٠) حيث يشير إلى أن المجتمعات الحضرية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر في سورية «كانت تفتقر إلى تخطيط مدني كلاسيكي من شأنه أن يؤدي إلى نمو لاحق... كانت الشوارع ضيقة ولم يكن هنالك من أغور أو جادات ذات أعمدة أو مسارح»^(٢٢).

وبالتالي، من غير المجدي المقابلة ما بين حضرة قديمة خالية من العيوب، كانت قد اندثرت قبل الفتح العربي، وحضرة إسلامية تعمها الفوضى. تبين من الحفريات في تدمر وبيت شان (بيسان) وجود أشكال للانتقال من آخر أيام الرومان إلى عهد الأمويين توحى باستمرار أكثر منها انقطاعاً مفاجئاً^(٢٣). وعليه، فقدت الخلاصة المستخرجة من هذه المقارنة في ما يتعلق بالمدن الإسلامية جزءاً من تماسكها.

(٢١) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٤٨، ملاحظته حول «حصر إطار الحياة الحضرية بأشكال أكثر بساطة أطلقتها الفترة البيزنطية».

(٢٢) Claude Cahen, «Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie musulmane du Moyen âge», *Arabica*, vol. 5 (1958), p. 226; S. M. Stern, «The Constitution of the Islamic City», paper presented at: *Islamic city: A Colloquium [Held at All Souls College, June 28-July 2, 1965], published under the auspices of the Near Eastern History Group, Oxford, and the Near East Centre, University of Pennsylvania*; edited by A. H. Hourani and S. M. Stern (Oxford; Cassirer; [Philadelphia]: University of Pennsylvania Press, 1970), and Hugh Kennedy, «From Polis to Madina», *Past and Present*, vol. 106 (February 1985), pp. 13-14.

(٢٣) خالد الأسعد، «اكتشاف سوق من العهد الأموي في تدمر»، *الحوليات الأثرية السورية*، الستان ٣٧-٣٨ (١٩٩١)، و- Yoram Tsafrir and Gideon Foerster, «Urbanism at Scythopolis-Beth Shean in the Fourth-Seventh Century», *Dumbarton Oaks Papers*, vol. 51 (1997).

٤ - ومع ذلك، فإن إعادة النظر في المفهوم الاستشراقي للمدينة وجدت تعبيرها الأكثر جذرية في ما يتعلق بالفكرة القائلة بإمكان تحديد نموذج إسلامي - شامل وسرمدي. تحدث جورج مارسيه في مقاله التأسيسي حول الحضرية المسلمة، عن المدن «في أراضي الإسلام» (التي وصفها بتعابير تعسفية مسبقة كـ «بلاد العطش» نظراً لمناخها)، وأعطى في ما خص المدن المغربية على وجه الخصوص أمثلة (تراوحت بين فترة الفتح والقراصنة البربر). وعند الطرف المقابل من سلسلة حَمَلَة مثل هذا الاعتقاد، كان غرونيباوم أكثر حذراً عندما اعترف أن «التصميم الأصلي للمدينة في إيران وتركستان مختلف بعض الشيء»، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يقطع بدون تردد الفترة الزمنية الطويلة التي تفصل الإنجازات الأولى للقرن السابع عن العهد العثماني^(٢٤).

من غير المجدي التوقف عند الملاحظة البديهية القائلة بأن العالم الإسلامي يمتد على أراض واسعة، من المحيط الأطلسي إلى الشرق الأقصى وأنه يغطي مناطق مختلفة جداً من حيث طبيعتها المادية وتنوع مناخها، في حين أن العالم العربي الذي انصبت عليه تحاليل المستشرقين بشكل شبه حصري (هذا متى لم يقتصروا على المغرب أو المشرق حسب الحالة المعنية) لا يشكل إلا جزءاً صغيراً، سواء على صعيد المساحة أو السكان، من هذا الكيان الشاسع. وأشار أوليغ غرابار الذي عالج الأشكال الفنية (غير أن منطقه ينطبق أيضاً على البنية الحضرية) إلى صعوبة الاكتفاء بمفهوم واحد، ألا وهو المفهوم «الإسلامي» للدلالة على ظواهر وإنتاج يميزان مناطق ذات تقاليد تاريخية وثقافية وخصائص طبيعية تشبه بتنوعها، وبخصائصها الطبيعية، تلك الموجودة في «العالم المسلم» في معناه الأوسع، من المغرب إلى الصين ومن آسيا الوسطى إلى أفريقيا الاستوائية^(٢٥). وفي النهاية، كيف يمكن في حالي المغرب وإندونيسيا مقارنة مشاكل تزويد المدينة أو المسكن بالمياه من منظور إسلامي صرف؟

وبالمقدار نفسه من الصعوبة، تبرز مشكلة نفي الزمن التي تُستحضر لتمييز مدينة من النوع الذي لا يتغير منذ زمن نشر الدين الإسلامي إلى مطلع القرن التاسع عشر. في هذا الإطار، لا يسعنا سوى التذكير بتساؤل ج. كلود غارسان بشأن البيت المسلم الذي لا يمكن مقارنته بـ «تفسير ستاتيكي»، ثم بتوسعه في الموضوع بقوله: «يمكننا إبداء الملاحظات المماثلة حول «التفسير» الذي غالباً ما نقدمه عن «المدينة المسلمة

Marçais, «L'Urbanisme musulman», and Von Grunebaum, «The Structure of the Muslim Town».

Oleg Grabar, «Reflections on the Study of Islamic Art», *Muqarnas*, vol. 1 (1983), p. 8.

(٢٥)

وتنظيمها»^(٢٦). ولأنهم يضعون أنفسهم خارج الزمن، فالمستشرقون، وكذلك غالبية المؤلفين المعاصرين، تصرفوا كما ولو أن المدينة القديمة الموجودة أنقاضها تحت أنظارهم توفر رؤية قابلة للاستعمال المباشر عن المدينة «الكلاسيكية» (من القرون الوسطى) في حين أنها ليست سوى النسخة «المعاصرة» (أي «العثمانية») عن هذه المدينة كما تكونت على مر ثلاثة أو أربعة قرون. يمكن إعادة بناء المدينة «الكلاسيكية» فقط من خلال تحليل يستند إلى المصادر القديمة حصراً. فتاريخ هذه المدن كان من الطول ومن التعارض بحيث يصعب علينا تقديم تفسير متجانس، عابر للمراحل التاريخية، لها.

٥ - تدفعنا هذه الاعتبارات إلى القول إنه لا وجود لمدينة «مسلمة» كما حددها المستشرقون. في الواقع، إن البحث المتواصل عن العناصر التي من شأنها إرساء أسس وصف لهذه المدينة في القرآن والسنة لم يؤد إلا إلى حصيلة زهيدة من الأحكام العامة حول حماية الحياة الخاصة أو حول القيود المفروضة بحكم الجوار. النص الوحيد الذي يمكن الاعتداد به هو الحديث الشريف الذي لطالما تم التذرع به^(٢٧). في المقابل، أغنت القرارات الصادرة عن القضاة أو الفقهاء على مر القرون التفكير حول المدينة. ويظهر ذلك بوضوح في أعمال روبرت برنشفيغ ومؤخراً بآبر جوهانسن^(٢٨). وبالرغم من حديث سوفاجي عن عدم اكتراث العلماء وجهلهم في هذا المجال، فإنهم أسهموا في تكوين نظرية حضرية؛ غير أن موضوعنا هنا هو التاريخ، لا اللاهوت.

فتحت الاعتبارات السلبية هذه وانتقاد الميزات الخاطئة التي وصفت بها المدينة «المسلمة» الباب أمام نوع من العدمية. ومع استبعاد شبكة الطرق غير المنتظمة والطريق

(٢٦) Jean-Claude Garcin, «Habitat médiéval et histoire urbaine à Fustat et au Caire», dans: Jean-Claude Garcin [et al.], eds., *Palais et maisons du Caire: Université de Provence, Groupe de recherches et d'études sur le Proche-Orient. I, Époque mamelouke: XIII^{ème}-XV^{ème} siècles* (Paris: Editions du Centre national de la recherche scientifique, 1982), p. 216.

(٢٧) انظر على سبيل المثال الدراسة المثيرة للاهتمام التي أعدها: Besim Selim Hakim, *Arabic-Islamic Cities: Building and Planning Principles* (London; New York : KPI, 1986).

انظر ملاحظة جاك بيرك: «إن تأويل القرآن والسنة أكثر مما يحتملانه في هذا المجال بمثابة إفراط في التعميم»، في: Jacques Berque, *L'Islam au temps du monde*, la bibliothèque de l'islam. Essais (Paris: Sindbad, 1984), p. 206.

(٢٨) Brunschvig, «Urbanisme médiéval et droit musulman»; Baber Johansen: «The Claims of Men and the Claims of God», in: *Pluriformiteit en verdeling van de macht in het Midden-Oosten* (Nijmegen: Vereniging voor de Studie van het Midden-Oosten en de Islam, 1980), and «The All-embracing Town and its Mosques: Al-Misr al-gâmi'», *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, vol. 32, no. 32 (1981).

المسدود (الموجودة في الشرق القديم)، والمنزل ذي الباحة المركزية (الموجود أيضاً خلال العصور القديمة) وتجزئة المدينة إلى أحياء، يستتج أوجين ويرث أن السوق الواقعة في مركز الأعمال وربما كانت «المعيار الوحيد والأساسي الذي يميز المدينة في الشرق الأدنى والذي يمكن اعتباره بمثابة إرث ثقافي إسلامي». وهو يقترح بالتالي «التخلي عن مصطلح «المدينة المسلمة» ويفضل عليه مصطلح «المدينة الشرقية» الأكثر عمومية... إذ يبدو الإسلام وكأنه الساكن أو الشاغل للأنظمة الحضارية الشرق الأوسطية أكثر منه مهندسها»^(٢٩).

يبدو لي أننا ذهبنا بذلك بعيداً، لذلك أقترح، مع مراعاة التغيرات من حيث الزمان والمكان المشار إليهما أعلاه، أن تجري محاولة وصف مدينة عربية، متوسطة في جزء كبير منها (بما فيها مدن العراق وشبه الجزيرة العربية واليمن)، خلال الفترة الأخيرة من تطورها، أي منذ بداية القرن السادس عشر وقبل التغيرات الكبرى التي طرأت منذ القرن التاسع عشر وما بعده. تدفعنا الوحدة اللغوية والثقافية العميقة للمنطقة قيد الدراسة، ووحدة مصيرها التاريخي خلال هذه الفترة، ووجود أنقاض واسعة لمدن ترقى إلى هذه الفترة (مدعمة بالغنى الفريد من نوعه للوثائق العثمانية)، إلى الأمل بأن تقدم هذه المدن «العربية التقليدية» ما يكفي من القواسم المشتركة والميزات الأصلية لإبراز «نظام حضري» حقيقي، من المفيد مقابلته مع «أنظمة» بلقانية - أناضولية، إيرانية - أفغانية، مغولية... إلخ. والعمل الذي يندرج هذا الفصل ضمنه إنما يطمح إلى المساهمة في مثل هذه المقارنات.

هذا التقييد المزدوج، المكاني والزمني، الذي نفرضه على أنفسنا لن يحل بالتأكيد جميع المشاكل، ولا سيما تلك التي اعتقد المستشرقون أنه بإمكانهم معالجتها من زاوية دينية. فالفكرة القائلة بوجود مجال حضري مشترك، من المغرب إلى أفغانستان على الأقل، لا تستند فقط إلى انطباع بوجود قواسم غامضة مشتركة، أو إلى حس عام مباشر. هنالك بالتأكيد مجال حضري مشترك يتجاوز المجال العربي: سمات بنوية حضرية معينة سوف نعود إليها لاحقاً (تمركز الأسواق في قلب المدينة، وجود الأحياء المغلقة، غلبة المساكن ذات الباحة المركزية) وهي موجودة من مراكش إلى هرات. إلا أن هذه السمات ليست إسلامية حصراً. فقد سبقت الإسلام أحياناً. فهذه المدن المتنوعة التي تشترك في قيود طبيعية مشابهة سكنتها شعوب تشاركت على نحو متشابهة جملة خصائص

E. Wirth, «The Middle Eastern City: Islamic City? Oriental City? Arabian City?», (Lecture (٢٩) given at Harvard University, 1982), typescript, p. 9.

(ولا سيما حرصها على حماية الحياة العائلية) وتحددت على نحو واسع بانتمائها الديني، شعوب تأثرت حياتها الاجتماعية والمهنية إلى حد بعيد بوجود مؤسسات ذات طابع إسلامي (الحسبة). باختصار، تعتبر هذه المدن (كما يلاحظ ويرث) مسلمة لأن شعوباً إسلامية تسكنها. إلا أن هذه الملاحظة لا تساعدنا على وضع تعريف لأي بنية حضرية محددة قد تكون موجودة. ونحن نأمل، من خلال جمعنا معاً لسمات معينة بعضها ليس خاصاً بالفضاء الإسلامي وبعضها الآخر موجود في بلدان إسلامية أخرى، في إظهار صورة نظام حضري أصيل ربما يكون مصطلح «المدينة العربية التقليدية» الأكثر ملاءمة له. وكما يلاحظ جاك بيرك فإن «معنى المجموع لا يقع في عناصره، وإنما في الطريقة التي يأتلف بواسطتها»^(٣٠).

ثالثاً: بنية المدينة العربية التقليدية

إذا حصرنا البحث بمجموعة من المدن العربية الكبرى التي تقع من المغرب إلى العراق ومن سورية إلى اليمن، خلال الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى بداية القرن التاسع عشر، وهي تصادف مرحلة الحكم العثماني بالنسبة إلى جميعها تقريباً، تبدو الخطوط العريضة للبنية الحضرية ثابتة ووليدة منطلق يخولنا التحدث عن نظام حضري متماسك^(٣١).

١ - تشمل السمات الأساسية تلك الفصل الجذري الواضح بين مناطق النشاط الاقتصادي والمناطق السكنية، والمركزية الشديدة للتنظيم الحضري (انظر الرسم الرقم (٢-٣)).

تحتم هذه البنية وجود منطقتين متعارضتين بقوة: منطقة «عامة» تقع في وسط المدينة، ومنطقة «خاصة» سكنية أساساً. وقد أظهرت أبحاث بابر جوهانسن أن رجال الفقه الحنفيين تنبهوا كلياً إلى هذا التقسيم في المدينة، في ما يتعلق بالمعاقبة على الجرائم التي يبقى مرتكبها مجهولاً. ففي المناطق «العامة» التي تتميز بوجود شارع كبير

Berque, *L'Islam au temps du monde*, p. 219.

(٣٠)

(٣١) تطرقت إلى هذه المسائل، في: André Raymond: *Grandes villes arabes à l'époque ottoman*.

la bibliothèque arabe (Paris: Sindbad, 1985), et «La Structure spatiale de la ville,» papier présenté à: *Sciences sociales et phénomènes urbains dans le monde arabe: Actes du colloque de l'association de liaison entre les centres de recherches et documentation sur le monde arabe (ALMA), Casablanca, 30 novembre-2 décembre 1994*, sous la direction de Mohamed Naciri et André Raymond (Casablanca: Fondation du roi Abdul-Aziz Al Saoud pour les études islamiques et les sciences humaines, 1997).

وسوق كبيرة أو جامع مهم، تعود المسؤولية إلى السلطات السياسية. أما في المنطقة «الخاصة»، وهي منطقة سكنية ذات طرقات مسدودة، فالناس الذين يسكنون المنازل المجاورة يتحملون مسؤولية الجريمة المرتكبة هناك^(٣٢).

يتمحور المركز الحضري حول الثنائي المشكل من الأسواق الرئيسية المسقوفة (الموجودة عموماً حول القيصرية أو البادستان بحسب المناطق) والجامع الرئيسي. وقد أظهر لويس ماسينيون ذلك بوضوح في دراساته حول المدن العراقية والمغربية، التي شدد فيها على دور سوق الصاغة حيث يتم عادة صرف العملات. والتصميم ثابت لا يتغير: «الخلية - الأم» في فاس، مدينة القرويين التي تحتوي «على جامعين، وضريح مولاي إدريس وجامع القرويين إضافة إلى السوق المركزية، أو القيسارية»^(٣٣)؛ وفي حلب، تقع منطقة الأسواق حول الجامع الكبير والأسواق التي تشكل القيسارية. هذه المنطقة مسرح للتجارة الكبرى والتجارة الدولية، ما أبرز الحاجة إلى سوق للمصرافين. وفي القاهرة شارع موجود وراء سوق الصاغة ويحمل اسماً مهماً هو «شارع المقاصيص» لأداء هذه الوظائف. كانت الأغراض الثمينة والغالية على وجه الخصوص تباع في «سوق مسقوف» يكون أحياناً في بناء مغلق، أو في مجموعة أسواق (حلب) وخانات (خان الخليلي في القاهرة). فكان هنالك خانات كثيرة (فندق، خان، وكالة، سمسرة، بحسب المدن) تجري فيها التجارة الدولية والتجارة بالجملة. كان المركز يضم الأسواق المتخصصة في التجارة الكبرى إضافة إلى الحرف المهمة على الرغم من الإزعاج الذي قد تشكله بالنسبة إلى الجوار. وتلك كانت حال النحاسين في القاهرة. فنظمت المهن على أساس تخصص صارم ترجم بالتوزيع ضمن اتحادات مهنية وتوزيع جغرافي ثابت^(٣٤).

وحمل هذا الحي، بحكم وجود الجامع الكبير الذي كان يؤدي أيضاً دور جامعة دولية في بعض الأحيان (القرويين في فاس، الزيتونة في تونس، الأزهر في القاهرة) آثار الدين والثقافة. وقد ضم الجامع الأزهر، وهو مركز التعليم العالي الأساسي في العالم العربي، نحو مئة معلم و ٣٠٠٠ طالب.

Baber Johansen: «Eigntum, Familie und Obrigkeit im hanafitischen Strafrecht,» *Die Welt des Islam*, vol. 19 (1979), pp. 19-24, and «The Claims of Men and the Claims of God,» pp. 64-66

Le Tourneau, *Fès avant le Protectorat: Etude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman*, p. 122 and 375.

(٣٤) سأطرق إلى تفاصيل هذه الوظائف الاقتصادية في الفصل الثلاثين، «اقتصاد المدينة التقليدية»، في هذا الكتاب.

وبخلاف ذلك، لم يكن وجود السلطة السياسية والإدارة في هذا المركز الكبير طاغياً. فالمحاكم الأكثر أهمية كانت موجودة عادة في الجوامع الأساسية وبعض المرافق «الإدارية». كانت دكة الحسبة في القاهرة موجودة على مقربة من المنطقة التجارية التي يفترض بالمحتسب الإشراف عليها. ولكن غالباً ما كانت السلطات العليا (الحكم أو الوالي) متمركزة على أطراف المدينة (القاهرة، دمشق) أو حتى خارجها (باردو في تونس) لأسباب أمنية (للاحتماء من الحركات الشعبية المحتملة) أو لأسباب تتصل بالراحة (إيجاد المساحة الضرورية لإيواء الجنود)؛ وقد تخلى الباشوات في حلب عن القلعة ليسكنوا في دير الشيخ أبو بكر خارج المدينة. لكن الجزائر تمثل استثناءً فريداً حيث تتمركز أجهزة السلطة في وسط المدينة: قصر الداي (الجنينة)، ودار السكة، وبيت المال، ومقر شيخ البلد (الإدارة)، وسجن مزوار (الشرطة)... إلخ^(٣٥).

لم تنقل الجنينة إلى القصبة في أعلى المدينة إلا في وقت متأخر جداً (في عام ١٨١٧) لأسباب أمنية داخلية (الخوف من الإنكشاريين) وخارجية (احتمال القصف البحري)، فأصبح وضع الجزائر يحاكي وضع المدن الأخرى.

كانت المنطقة المركزية تعبرها شوارع واسعة ومنتظمة نسبياً موزعة حول شارع مركزي («الشارع المستقيم» في دمشق ذو أصل روماني؛ القصبة في القاهرة) انظر الرسم الرقم (٢ - ٤)) التي شقها الفاطميون؛ والشارع الكبير الذي يعبر الجزائر العاصمة من باب عزّون إلى باب الواد) وعدة شوارع موازية (في حلب، على خط الشارع القديم من باب أنطاكية إلى القلعة) أو شبكة شوارع شبه متعامدة (في تونس العاصمة). كانت شوارع مستقيمة نسبياً تصل المنطقة المركزية بأبواب المدينة، وهو ما أمن نفاذاً سهلاً إلى المركز التجاري الذي يعد ضرورياً للأنشطة الاقتصادية. وتشير المخططات في تونس إلى انتشار هذه الطرق المزدوجة باتجاه باب البنات وباب السويقة في الشمال وباب البحر في الشرق وباب الجديد وباب الجزيرة في الجنوب.

تسمح كثافة المراكز التجارية (الأسواق الكبيرة، ولا سيّما الخانات) برسم حدود دقيقة لهذه المراكز التي كانت مساحتها رهن أهمية المدن ونشاطها

Tal Shuval, *La Ville d'Alger vers la fin du XVIII^e siècle: Population et cadre urbain* (Paris: ١٩٩٥) Editions du Centre national de la recherche scientifique, 1998), pp. 164-172.

الاقتصادي، مثلاً هكتاران أو أكثر قليلاً في الجزائر العاصمة، و٦ في تونس العاصمة، و٩ في دمشق، و١٠ في الموصل، و١١ في حلب، و١٢ في بغداد، إنما نحو ٦٠ هكتاراً في القاهرة وهي المدينة الثانية في السلطنة العثمانية من حيث عدد السكان والنشاط.

ونظراً إلى أهميتها وفرديتها الشديدة في تنظيم المدينة، حملت هذه المراكز أحياناً أسماء خاصة. فكانت تلك حال «المدينة» في حلب و«القاهرة» في القاهرة (في وسط الدولة الفاطمية التي امتدت إلى ما بعد المنطقة المركزية الاقتصادية) (انظر الرسم الرقم (٢ - ٥)) و«الربيع» في تونس العاصمة (وهي تسمية تنطبق على جميع الأسواق المسقوفة التي أحاطت بالزيتونة)^(٣٦).

يفسر عدد المؤسسات الاقتصادية والصلة بالجامع الكبير استقرار هذه المراكز التي لم يتغير موقعها منذ العصور القديمة وصولاً إلى الفترة المعاصرة. فظلت القصبة، وهي الشارع الرئيسي في المدينة الفاطمية، نواة القاهرة في القرن الثامن عشر. لم تسجل سوى حالة انتقال واحدة للمركز، وذلك في الموصل حيث انتقلت الأسواق التي تقع عادة حول الجامع الكبير قرب القلعة حيث يعبر الشارع التجاري الكبير دجلة، لظروف وأسباب نجهلها^(٣٧).

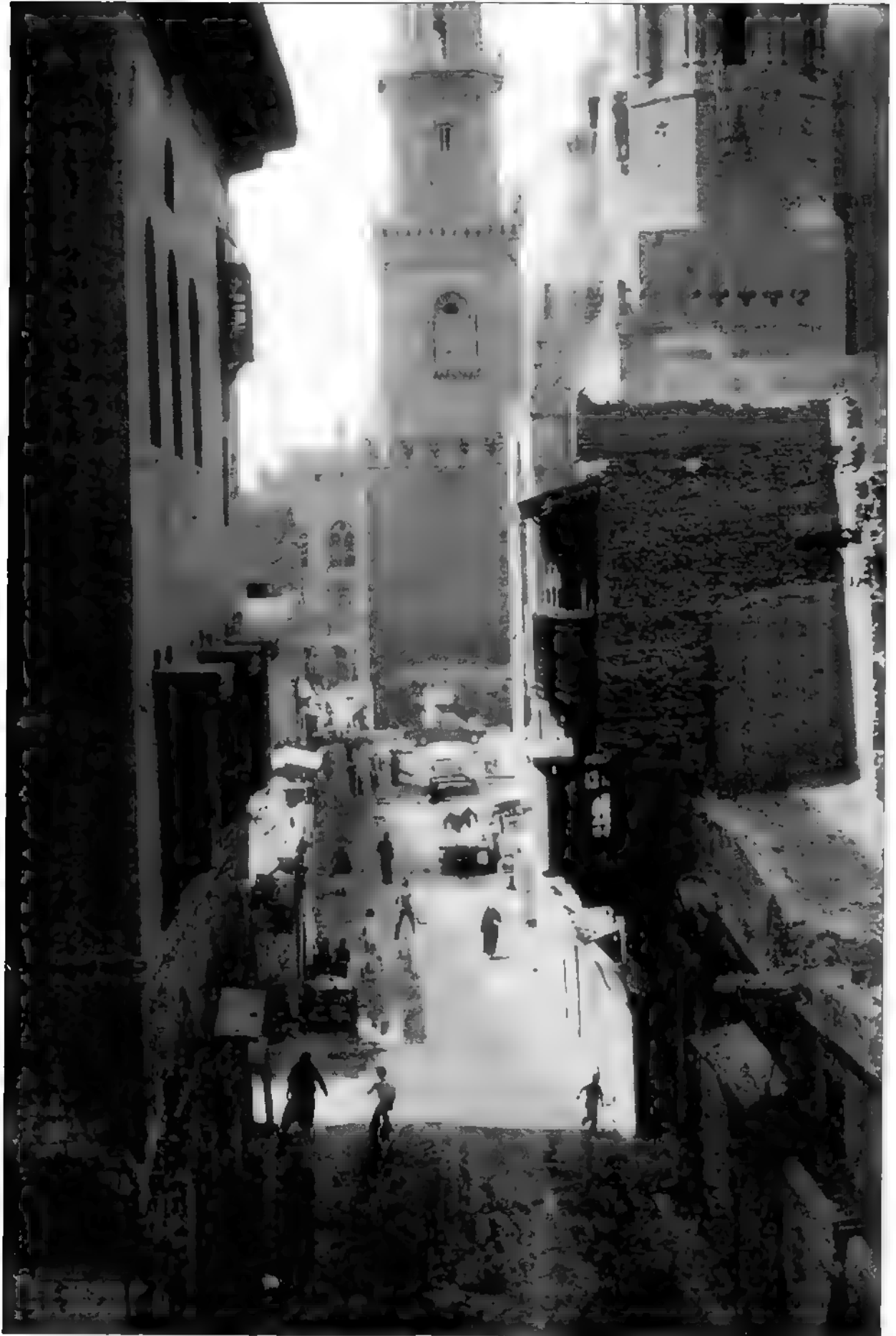
أضفت هذه البنية الشديدة المركزية ميزة إضافية على المدينة، إذ إن منطقة الأسواق والجامع الكبير المركزية في استطاعتها التوسع على حساب المناطق السكنية المحيطة بها. حصل ذلك خلال العهد العثماني الذي شهد توسعاً بارزاً للمدن العربية الكبرى التابعة للسلطنة. نجم عن هذا التطور الحضري في حلب توسع لمساحة «المدينة» بنسبة الضعفين تقريباً، إذ ارتفعت من ٦ هكتارات إلى ١١ هكتاراً في حين ارتفعت مساحة منطقة النشاط الاقتصادي في القاهرة من نحو ٤٠ إلى ٦٠ هكتاراً.

(٣٦) في ما يتعلق بـ «الربيع» في تونس، انظر تحليل: A. Henia, *Propriété et stratégies sociales à Tunis* (Tunis: [s. n.], 1999), pp. 240-246.

وشوفال عرق في تصحيح التقييم (أكثر من هكتار) الذي أجرته للمركز الاقتصادي في الجزائر، انظر: المصدر نفسه، ص ١٨٢.

(٣٧) Dina Rizk Khoury, *State and Provincial Society in the Ottoman Empire: Mosul, 1540-1834*, (Cambridge Studies in Islamic Civilization (Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press, 1997), pp. 202-203.

الرسم الرقم (٢ - ٤)
«القصبة» في القاهرة



الرسم الرقم (٢ - ٥)
منطقة «قاهرة» في القاهرة الكبرى



Description de l'Egypte (Paris: [s.n.], 1809-1822).

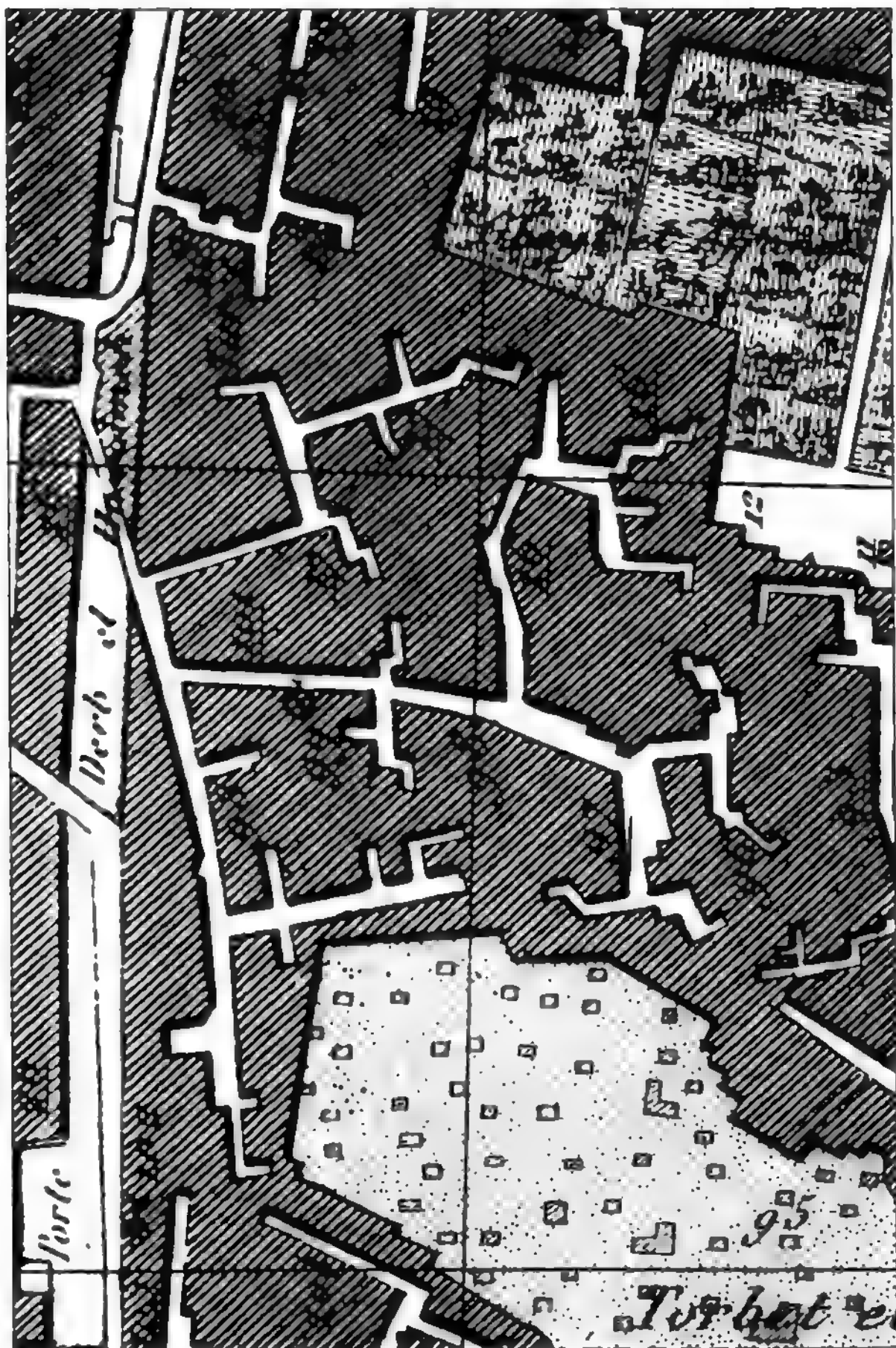
المصدر:

٢ - وراء المنطقة المركزية هذه كانت تمتد منطقة «خاصة» مكرسة للسكن الخاص. في هذه «الأحياء» نمت أحياء (الحومة، والحارة، والمحلة، بحسب المدينة) التي تشكل إحدى سمات المدينة العريية. وكانت هذه الأحياء مغلقة في معظم الأحيان، وكان التواصل مع الخارج يتم عبر شارع رئيسي واحد يتشعب في الداخل إلى طرقات غير منتظمة تنتهي بطريق مسدود (انظر الرسم الرقم (٢ - ٦)).

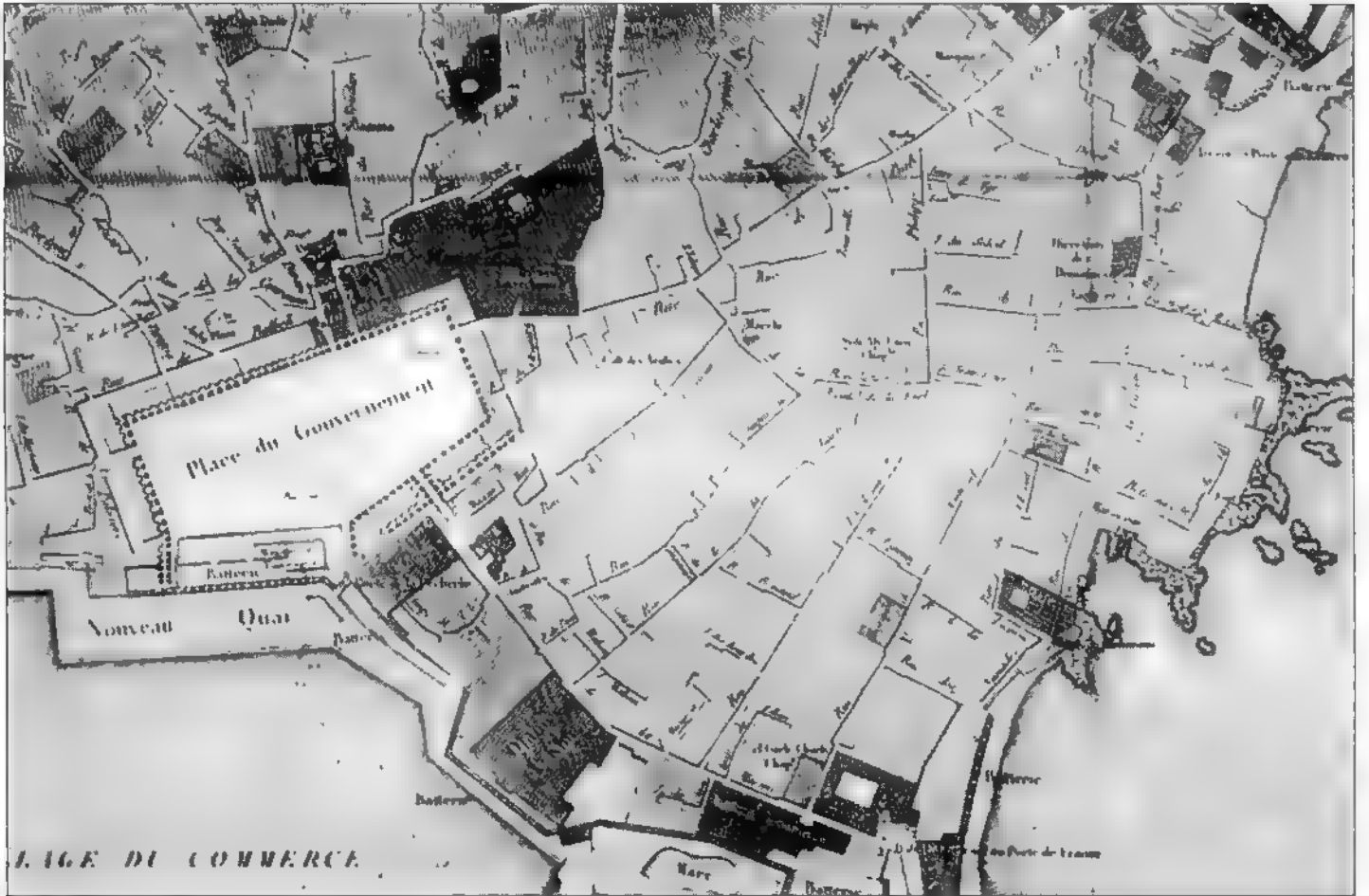
كان الفصل بين الحي والحي المجاور لا يتم بواسطة جدار وإنما من خلال صف المنازل الأخيرة حيث ظهرها إلى ظهر بعض. كان الباب يسمح بإقفال الحي في الليل لضمان أمنه، ولكن لم يكن دوره الصمود في وجه الاعتداءات الخارجية. كانت الأحياء مجهزة بوسائل محدودة يستعملها السكان في حياتهم اليومية، أي الفرن وفي بعض الأحيان الحمام والمسجد. إلا أن العنصر الأساسي تجسد بالسوق (أي السوق الصغيرة) التي قدم سوفاجي وصفاً كلاسيكياً لها في حالتها دمشق وحلب. فقد كانت هذه السوق غير المتخصصة تلبي الحاجات اليومية (الغذاء وأغراض الاستعمال اليومي) للسكان الذين كانوا في وسعهم شراء حاجاتهم الأخرى من أسواق المدينة.

وعليه، فقد كان عدم انتظام الشوارع وكثرة الطرق المسدودة، التي طالما أثارت حيرة المستشرقين، ظاهرة محلية في المدن، تلبي الحاجات المختلفة لسكان أحيائها وليست سمة عامة. وقد لاحظنا كيف أن المرور في المركز وعند الأبواب كان يجري عبر طرقات مباشرة ومنتظمة. كان في استطاعة السكان الاكتفاء في أحيائهم بالشوارع غير المنتظمة وبالطرق المسدودة التي تسهم في ضمان أمنهم، ولم يحتاجوا إلا إلى التواصل مع مركز المدينة حيث يمارسون نشاطهم ويؤدون واجباتهم الدينية الأساسية (صلاة الجمعة)؛ ولم يكونوا بحاجة إلى الاحتكاك المباشر بالخارج. تألف كل حي من نوع من الجيب السكاني، المفتوح فقط باتجاه المركز. مثلت الطرق المسدودة إحصائياً أقل من نصف شبكة الطرق، واقتصر نموها على الأحياء: ٥٢ في المئة من شبكة المواصلات في فاس و ٤١ في المئة في حلب. وفي الجزائر العاصمة، كان الفرق شاسعاً بين المدينة السفلية التي تمثل المركز (٥، ٢٤ في المئة من الطرق المسدودة) (انظر الرسم الرقم (٢ - ٧)) والمدينة العليا (مقر السكان المحليين) (٩، ٥٩ في المئة) (انظر الرسم الرقم (٢ - ٨)). وعليه، كانت للطريق المسدود سمة وظيفية عملية في قطاع محدد من المدينة.

الرسم الرقم (٢-٦)
حيّ «قوم الشيخ سلامة» في القاهرة

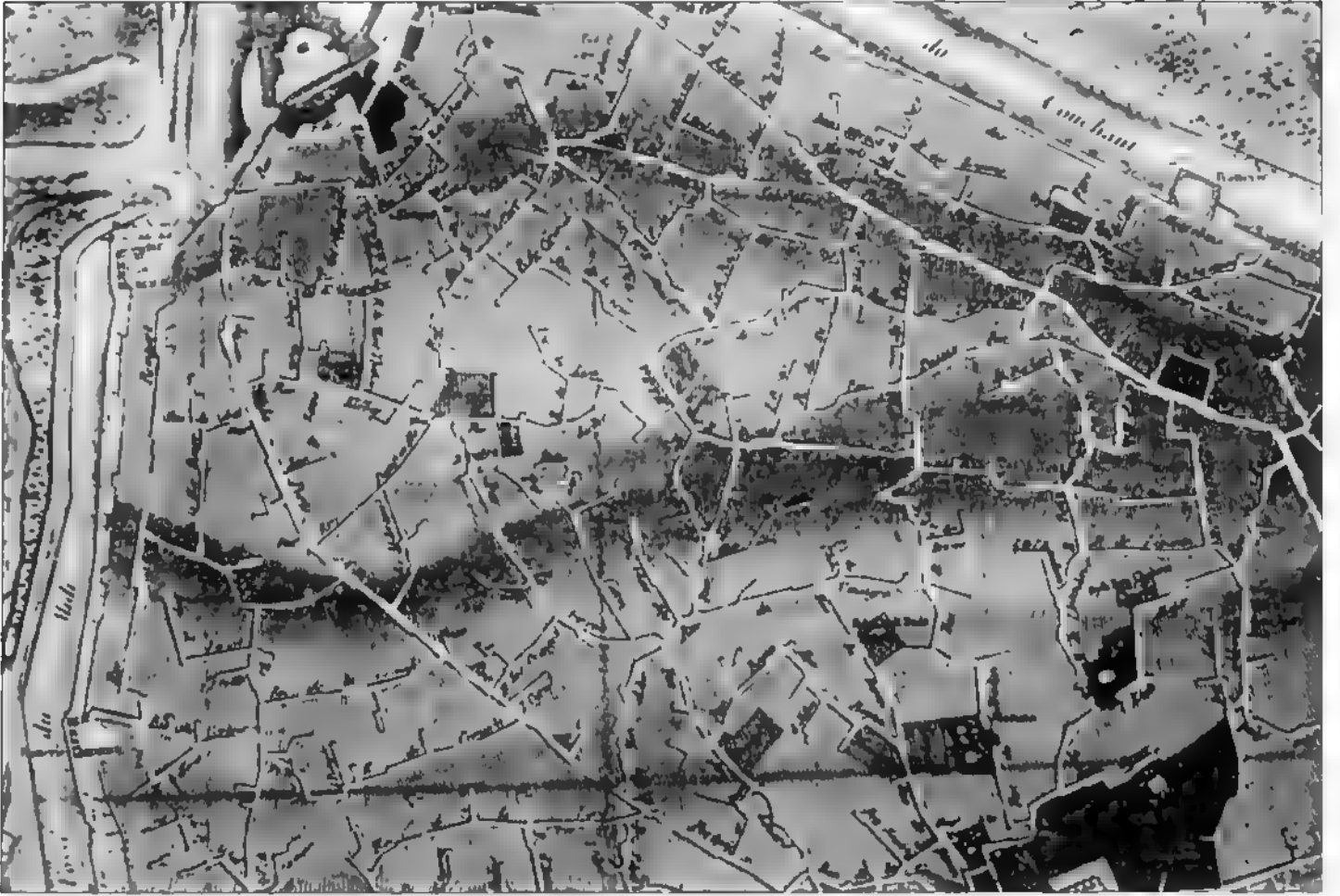


الرسم الرقم (٧ - ٢)
شبكة شوارع الجزائر العاصمة: المدينة السفلى



المصدر: مأخوذة من: خريطة ييليت سنة ١٨٣٢.

الرسم الرقم (٢ - ٨)
المدينة العليا في الجزائر العاصمة



المصدر: مأخوذة من: خريطة بيليت سنة ١٨٣٢.

لم يتجاوز سكان الأحياء الألف نسمة (أي نحو ٢٠٠ أسرة). فكانوا يعيشون في جو عائلي، كما لو كانوا في قرية يعرف فيها كل واحد منهم الآخر، تحت إشراف الشيوخ، وبخاصة بفضل رقابة ذاتية ساهمت إلى حد بعيد في ضمان أمنهم. وكان المشاغبون وذوو السمعة السيئة يتعرضون، عند الضرورة، لإجراءات طرد تحال أحياناً إلى السلطات (كانت بعض الحالات تصل إلى إسطنبول). وشهدت هذه الأحياء حياة جماعية ناشطة واحتفالات عائلية (ختان) وجماعية (الاحتفالات التي تناول ولياً محلياً) وأفراح وزياحات (على غرار العراضات في دمشق) تحييها مجموعات الفتيان التي قد تتحول إلى مجموعات للدفاع الذاتي أو تغذي نزاعات ذات طابع تقليدي ضد جماعات تنتمي إلى أحياء أخرى، وهو ما كان يؤدي إلى معارك حقيقية تدعم أحياناً من خارج المدينة^(٣٨).

لا ينبغي اعتبار انقسام المدينة إلى أحياء عنصراً سلبياً بالكامل يسهم في تفككها وفي فوضاها، كما ورد على لسان سوفاجي وج. فولارس؛ فقد شكل الانقسام، على العكس، عنصر استقرار يسمح بإدارة المدينة في المناطق ذات الكثافة السكانية العالية، وبتسهيل اندماج الوافدين الجدد من الريف.

٣ - أما الميزة الأخرى لبنية المدينة المكانية فتقوم في التدرج الصارم للأنشطة والسكن من الحي المركزي إلى أطراف المدينة. سبق وأشرنا إلى أن مركز المدينة كان يجمع الأنشطة التي تعد غنية، ولا سيما تلك المتصلة بالتجارة الدولية (تجارة القماش وبعض المنتجات على غرار القهوة التي بدأت تضطلع بدور بارز في اقتصاد المنطقة). انطلاقاً من هذا المركز، كانت الأنشطة تتوزع في المدينة من الصنعة الأكثر أهمية إلى الأقل أهمية وصولاً إلى الأرياض حيث كانت توجد الأنشطة التي تحتاج إلى مساحة واسعة (الحبالون، الحصابريون، باعة الغلة أو المنتجات الغذائية) أو التي تتسبب بانزعاج يصعب تحمله في المركز (الأفران، المسالخ، المدايح)^(٣٩). يمكن تفسير أي تغيير في الموقع الجغرافي لصنعة ما داخل هذا النظام على أنه دليل تطور في حال الاقتراب من المركز أو اندثار في حال الابتعاد منه. واستقر نشاط وافد جديد على غرار تجارة البن فوراً في وسط القاهرة نظراً إلى أهميته الاقتصادية، إذ وجدت الوكالات

(٣٨) حول الأوجه المختلفة للحياة في الأحياء، انظر خاصة: J. Lecerf et R. Tresse, «Les 'Arada de Damas», *Bulletin d'études orientales*, vols. 7-8 (1937-1938), et Nawal al-Messiri, «The Concept of the Hara», *Annales Islamologiques*, vol. 15 (1979).

(٣٩) انظر: الفصل الثلاثون: «اقتصاد المدينة التقليدية»، في هذا الكتاب.

الاثنان والستون المكرسة لهذه التجارة التي ظهرت في النصف الأول من القرن السابع عشر على مقربة من القصبة في جوار خان الخليلي وحي الجمالية والأزهر.

كان تنظيم كهذا منطقياً وعكس توزيعاً «طبيعياً» للأنشطة بحيث جاز اعتباره عفوياً. ومع ذلك يجب التدقيق في هذه الخلاصة، في ضوء ما نعرفه حول الأنشطة المعتادة للمحتسب والقضاة والمعنيين تحديداً برفاه السكان، وكذلك في ضوء السجلات المتبقية عن تدخل السلطات في الحالات الأكثر خطورة. فقد تم نقل المدابع في حلب والقاهرة وتونس إلى مناطق أبعد في الخارج، بحكم التطور الحضري الجاري، نتيجة قرار اتخذ من أعلى مستويات السلطة السياسية.

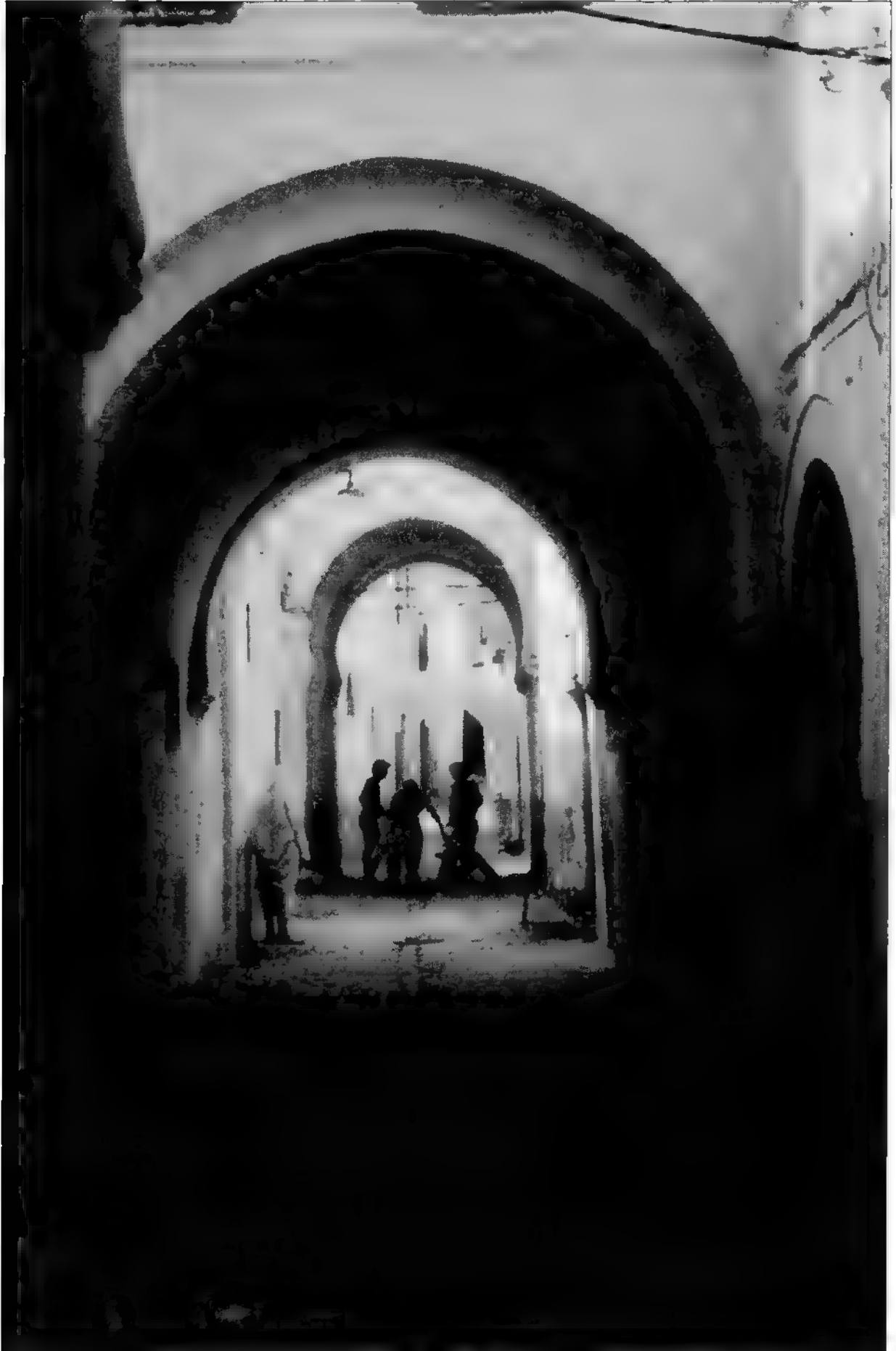
يبدو أن هذا التدرج يميز أيضاً طريقة توزيع مساكن الطبقات الاجتماعية المختلفة في المدينة، كما أظهرت الأبحاث الأخيرة، إذ إنها تعكس وضعاً مختلفاً كل الاختلاف عن الرؤية الاستشراقية حول الاختلاط الاجتماعي الناتج من المساواة التي يفترض بها أن تميز المجتمع الإسلامي. تشير الأبحاث التي أجراها جاك روفو حول المساكن الرفيعة المستوى في تونس العاصمة إلى أن مساكن النخبة التي يصفها تقع في المنطقة المحيطة بالمركز (انظر الرسم الرقم (٢ - ٩)). وقد حددت نيللي حنا في مؤلفها العيش في القاهرة^(٤٠) ثلاث مناطق تتدرج من المركز ويوجد فيها مسكن ميسور ومسكن عادي ومسكن متواضع. وفي معرض دراسته لمختلف فئات البناء القديم في حلب، لاحظ جان كلود دايفيد وجود منطقة سكنية رفيعة المستوى في المركز قرب «المدينة» والقلعة، ومنطقة سكنية متواضعة أبعد منها ومنطقة سكنية شعبية في الأرياض^(٤١).

هذا التنظيم منطقي؛ فبرجوازية التجار والشيوخ كانت تلتصق بالمناطق المجاورة للمركز حيث توجد الأسواق والجامع الكبير - الجامعة، وحيث يمارسون نشاطهم فيهما. في هذه المنطقة المتسمة بكثافة الأبنية، كانت الأراضي أكثر ندرة ومرتفعة الثمن في حين كانت المنطقة الخارجية، المكرسة عموماً للأنشطة الاقتصادية الفقيرة والملوثة، تستقبل المساكن الشعبية.

Nelly Hanna, *Habiter au Caire aux XVII^{ème} et XVIII^{ème} Siècles* (Cairo: Institut Français d'archéologie orientale du Caire, 1991), (٤٠)

Jacques Revault, *Palais et demeures de Tunis*, 4 vols. (Paris: Ed. du Centre national de la recherche scientifique, 1967-1978); Nelly Hanna, *Habiter au Caire: La Maison moyenne et ses habitants aux XVII^{ème} et XVIII^{ème}*, études urbaines; 2 (Le Caire : Institut français d'archéologie orientale, 1991), et Jean-Claude David, «Alep, dégradation et tentatives actuelles de réadaptation des structures urbaines traditionnelles.» *Bulletin d'études orientales*, vol. 28 (1975). (٤١)

الرسم الرقم (٢ - ٩)
حي سكن النخبة في تونس العاصمة



وعلى حد قول نيللي حتّا، يبلغ بدل الإيجار السنوي لأرض تساوي مساحتها ١٠٠ ذراع ١٧١ بارة في المركز و٧٦ بارة في المنطقة الوسيطة و١٧ بارة عند أطراف القاهرة. بلغ متوسط سعر المنازل المشمولة بدراستها (التي لا تشكل سوى عينة عن المنازل الأكثر أهمية) وعلى التوالي ٢٠٦٨٤ بارة و٨٩٣١ بارة و٤٨٢٥ بارة في المناطق نفسها^(٤٢).

كانت المناطق المجاورة للمركز تحتوي، إذاً، على مساكن ميسورة وبرجوازية على غرار تلك الموجودة في فاس وتونس العاصمة والقاهرة، التي تتميز بباحتها المركزية وبكبر مساحتها، وهو ما يسمح بالتوسع في استعمال الغرف وبتنميق الزينة. كان وجود مسكن ذي طابع جماعي من نوع الرّبع (المباني المؤجرة شققاً) يسهل وصول الطبقة الوسطى في القاهرة إلى المناطق المجاورة للمركز^(٤٣)؛ وغالباً ما أدت الخانات (الفندق، الخان، الوكالة) هذا الدور بالنسبة إلى الطبقة الوسطى في القاهرة وفي المدن الكبرى الأخرى. وفي المناطق «الوسيطّة»، حافظت المنازل على السمات العامة المتمثلة بالمنزل ذي الباحة، إنما بقياسات أصغر؛ وكان هنالك منازل أكثر بساطة من دون باحة على غرار تلك التي درستها نيللي حتّا في القاهرة^(٤٤).

أما الأرياض فكانت تحتوي على المساكن الفقيرة والبسيطة (غرفة أو غرفتان)^(٤٥) أو مسكن جماعي من نوع الحوش، وهو كناية عن باحة تحيط بها أكواخ صغير ووضيعة^(٤٦). كما أننا لا نستبعد وجود مساكن أكثر وضاعة من نوع «مدن الصفيح» وإن لم تخلف أي أثر، وذلك لأسباب منطقية (هشاشة المواد وقدم البناء). في هذا المضمار،

Hanna, Ibid., pp. 185-207

(٤٢)

Jacques Revault [et al.], eds., *Palais et demeures de Fès*, 3 vols. (Paris: Ed. du CNRS, 1985-1992); Revault, Ibid., Bernard Maury [et al.], eds., *Palais et maisons du Caire: Université de Provence, Groupe de recherches et d'études sur le Proche-Orient. 2, Époque ottomane: XVI^{ème}-XVIII^{ème} siècles* (Paris: Editions du Centre national de la recherche scientifique, 1983), et André Raymond, «Le Rab', un habitat collectif au Caire», *Melanges de l'Université Saint-Joseph*, vol. 50 (1984).

N. Hanna, «Bayt al-Istanbuli», *Annales islamologiques*, vol. 16 (1981).

(٤٤)

(٤٥) لا تتوفر معلومات كثيرة حول هذا المسكن الفقير لأنه لم يترك أي أثر. يسعنا في المفارقة التحدث عن المسكن الذي أظهرته حفريات كوبياك وسكانلون في الفسطاط. انظر: George T. Scanlon and W. Kubiak, *Fustat: Expedition Final Report: Fustat-C* (Winona Lake (Ind.): Eisenbrauns for the American research center in Egypt, Cop., 1986-1989).

(٤٦) يرد وصف مفصل عن «الحوش»، في: E. F. Jomard, «Description de la ville du Kaire», pp. 662 et 696, et M. de Chabrol, «Essai sur les moeurs des habitants modernes de Egypte», pp. 516-517, dans: *Description de l'Egypte: Etat modern (II-2)* (Paris: Imprimerie royale, 1822).

يكتسب وجود أسماء مثل النوايل في فاس وتونس الذي يشير إلى «أكواخ من الطين مكسوة بسقف من القش» في مناطق تقع عند أطراف هذه المدن مدلولاً مهماً في هذا المجال^(٤٧).

تجدر الإشارة هنا إلى أن تنوع تلك المساكن يخالف بشدة الرؤية الاستشراقية القائمة على وحدة النموذج في ما يتعلق بالمتزل الإسلامي المرفق بباحة داخلية حيث بدا أن أغلبية النماذج المدروسة، ولا سيما في فاس والجزائر العاصمة وتونس العاصمة والقاهرة وحلب، هي كناية عن قصور كبيرة أو صغيرة لا تخص سوى الطبقة المتوسطة والطبقة الغنية في هذه المدن، ناهيك بالمسكن العالي غير المرفق بباحة الذي تكثر نماذجه في منطقة البحر الأحمر.

٤ - أشارت الحجج أعلاه إلى أهمية العوامل التمييزية التي عكست - في خصوص التنظيم المكاني للمدينة العربية التقليدية - انعداماً صارخاً للمساواة في البنية الاجتماعية. وأظهرت الأبحاث الأخيرة في هذا الصدد مدى خطأ الرؤية الاستشراقية عن مجتمع قائم على المساواة: وكأنه يحقق المساواة الدينية القائمة بين المؤمنين. واللافت للنظر حقاً عند دراسة وقائع الحياة الاجتماعية للمجتمعات المسلمة في العصر الحديث، هو، على العكس، انعدام المساواة الاجتماعية؛ إذ يشير فرز التراكات الموجودة في سجلات المحاكم إلى الاختلاف الكبير بين الأثرياء والفقراء.

أكثر من ذلك، فإن هذه السجلات إنما تقتصر على الفئة الأكثر ثراء، إذ كانت ذمم الشريحة الأكثر فقراً مستثناة من التسجيل بعد الوفاة. في خلال العقدين اللذين سبقا عام ١٧٠٠، بلغ معدل التركة الدنيا إلى التركة الكبرى في القاهرة ١ إلى ١٠٠٠٠. وفي دمشق، كانت هذه النسبة نحو عام ١٧٠٠ في حدود ١ إلى ٤٠٠٠. أياً كانت عيوب طريقة الحساب هذه (التي تتناول ذمماً مالية لا عائدات)، فالفرق فيها شاسع.

وإذا ما ترجمت هذه المقارنة إلى مؤشر يسمح بقياس انعدام المساواة الاجتماعية، ألا وهو مؤشر جيني (Gini) (حيث يمثل ٠,٠٠ توزيعاً متساوياً في حين يمثل ١ انعدام مساواة تاماً)، يجري التوصل إلى أرقام تكشف عن انعدام مساواة حاد؛ إذ بلغ هذا

حول الحجاز، انظر: صالح بن علي المذلول، المدينة العربية الإسلامية: أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية (الرياض: المؤلف، ١٩٩٤).

Raymond, *Grandes villes arabes a l'époque ottoman*, p. 323.

(٤٧)

المؤشر ٧٤, ٠ في القاهرة ودمشق نحو عام ١٧٠٠. وهو تماثل مهم آخر يؤكد صدقية هذه الحسابات. وفي الجزائر العاصمة، كان مؤشر انعدام المساواة الاجتماعية في نهاية القرن الثامن عشر أكثر ارتفاعاً حيث بلغ ٨٠, ٠ (٤٨).

تشير هذه الأرقام، إذا ما قارناها بتلك المسجلة في مجتمعات وفترات أخرى، إلى انعدام مساواة هو من الكثافة بحيث نفهم ترجمته في البنية المكانية للمدينة. وقد تردد الكثير من المؤلفين، وفاء منهم للنظريات الاستشراقية، في تقبل حقيقة تبدو غير قابلة للجدل عند النظر إلى المدينة بصورة عامة ومن وجهة شبه إحصائية، كما فعلناه في ما يتعلق بتونس العاصمة والقاهرة وحلب.

ويبدو أن التدرج من مناطق سكنية ميسورة في المركز إلى مناطق سكنية فقيرة عند الأطراف خير دليل على الاختلافات التي شددنا للتو على أهميتها، بالرغم من تسجيل عدة حالات من التعايش بين الأثرياء والفقراء جنباً إلى جنب.

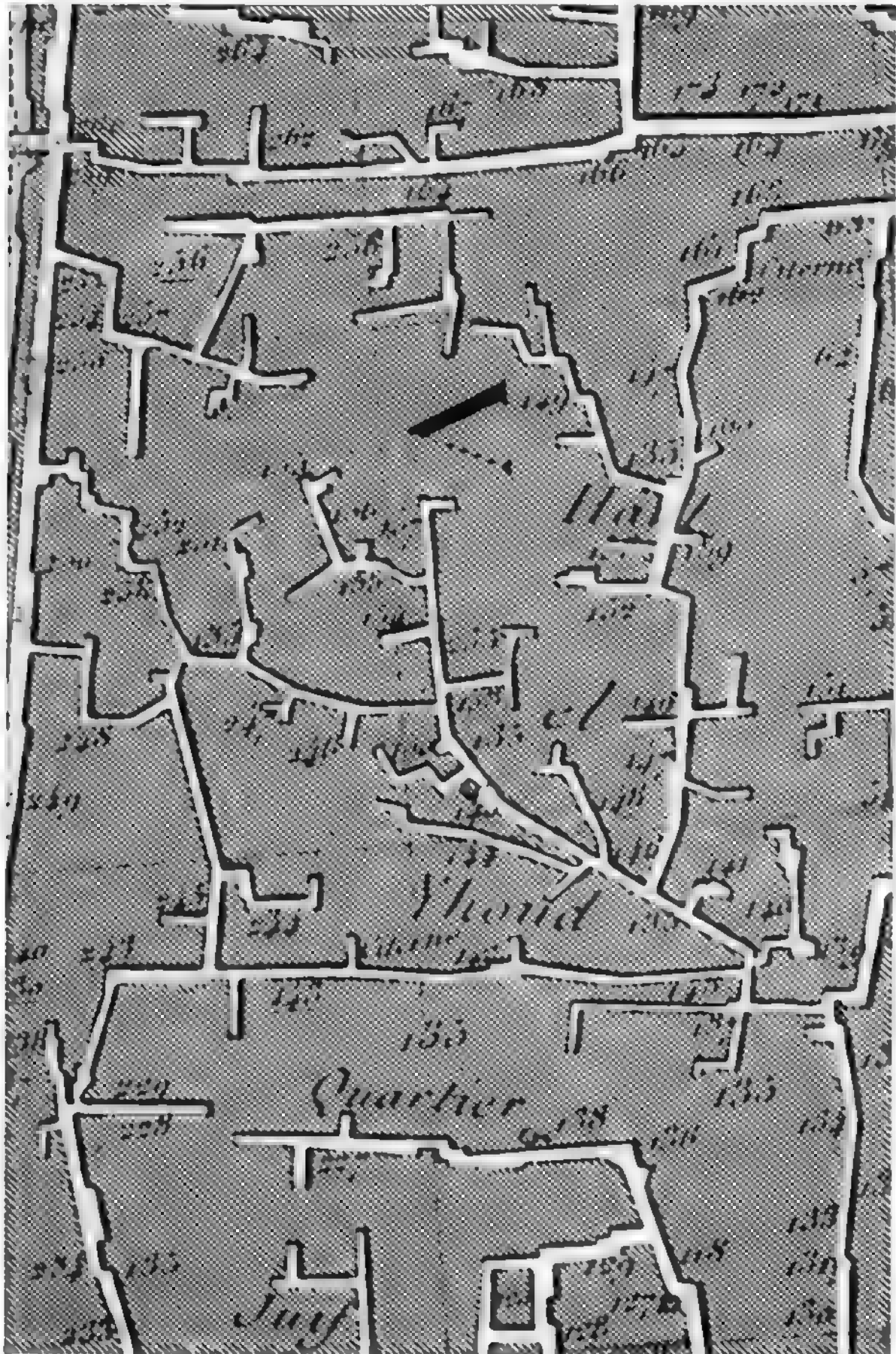
يظهر هذا الميل إلى تنظيم تمييزي في التجمع التقليدي للأقليات الدينية والإثنية؛ لا يشكل سمة عثمانية خاصة حتى وإن زادت الممارسة المستقلة للجماعات أيام العثمانيين من حدة هذه الظاهرة. فإقامة أحياء مغلقة للمسيحيين واليهود هي ظاهرة عامة حيث الحرص على العيش على نحو متجانس منفصل - وهو حرص يتشارك فيه، وعلى نطاق واسع، العنصر المهيمن (المسلمون) والعنصر المسيطر عليه (الذميون) - هو وضع لا يمكن عزله عن رغبة المهيمنين في إبقاء المجموعات المختلفة متباعدة (تسهيل السيطرة عليها عند الضرورة) (انظر الرسم الرقم (٢ - ١٠)).

André Raymond, *Artisans et commerçants au Caire au XVIII^{ème} siècle*, 2 vols. (Damas: Institut français de Damas, 1973-1974), vol. 2, p. 375; Colette Estabiet et Jean-Claude Pascual, *Familles et fortunes à Damas: 450 foyers damascains en 1700* (Damas: Institut français de Damas, 1994), et Colette Estabiet, Jean-Claude Pascual et André Raymond, «La Mesure de l'inégalité sociale dans la société ottomane», *Journal of the Economic and Social History of the Orient* (JESHO), vol. 37 (1994), et Shuval, *La Ville d'Alger vers la fin du XVIII^e siècle: Population et cadre urbain*, pp. 141-142.

على سبيل المقارنة، في الجزائر وفي نهاية القرن الثامن عشر، كانت ١٠ في المئة من أبرز التركات تقاسم ٧٤ في المئة من المبلغ الإجمالي. في فرنسا عام ١٩٩٦، امتلك ١٠ في المئة من الأسر ٥٠ في المئة من الذم. انظر: *Le Monde*, 2/3/1996.

يمكننا أيضاً التحدث عن القاهرة، فعلى حد قول خاروفي، تقاسم ٢٠ في المئة من السكان عام ١٩٩٦، ٤٠ إلى ٥٠ في المئة من الدخل القومي، انظر: M. Kharoufi, «Mobilité du centre ville au Caire», papier présenté à: *Sciences sociales et phénomènes urbains dans le monde arabe: Actes du colloque de l'association de liaison entre les centres de recherches et documentation sur le monde arabe (ALMA), Casablanca, 30 novembre-2 décembre 1994*, p. 167.

الرسم الرقم (٢ - ١٠)
الحي اليهودي في القاهرة



كان هذا الوضع شائعاً في المدن العربية الكبرى. أما الفرق فيمكن في الموقع الجغرافي للمجموعات المختلفة داخل المدينة نفسها. وإلى ذلك، فحين تكتسب «الأقليات» المسلمة نفسها أهمية ما، فهي تميل إلى التجمع بالطريقة نفسها: ويقدم حي الأكراد في الصالحية في دمشق مثلاً على ذلك منذ زمن. وفي بعض المدن يذهب اتجاه التجمع لدى الجماعات إلى حده الأقصى، كما في القدس، بقطاعاتها المسلمة والمسيحية والأرمنية واليهودية، كذلك في أنطاكية حيث تنقسم المدينة إلى قطاعات تركية ومسيحية وعلوية، تعكس مواقعها المكانية أهميتها السياسية والاجتماعية - الأتراك كعنصر مسيطر يحتلون قلب البلد، والعلويون الأفقر والأكثر سوء معاملته على أطراف المدينة.

ويسبب الميل الطبيعي لدى النخب إلى نوع من الحصرية (التي عززت حرصها على الابتعاد من «الجمهور»)، فإن الأحياء التي تسكنها النخبة كانت تتميز تلقائياً عن سواها. فعزلت النخبة المملوكية في القاهرة نفسها في منطقة بركة الفيل جنوب «القاهرة»، ثم في القرن الثامن عشر إلى جوار بركة أخرى، الأزيكية، غرب مركز المدينة خلال القرن الثامن عشر.

٥ - لا يسعنا إنهاء هذا الوصف لبنية المدينة من دون التطرق إلى إدارتها، ولا سيما أن موقف المستشرقين، الذين يقودهم جان سوفاجي في هذا المجال، كان سلبياً جداً - بإشاعتهم أن المدينة المسلمة كانت تدار بشكل ضعيف، لا بل إنها لم تخضع لأي إدارة. وقد أظهرت أبحاث أكثر عمقاً أن غياب الإدارة المزعوم على مستوى المسؤولين السياسيين من نسج الخيال، إذ إن نقل المدايغ من القاهرة أو من تونس العاصمة، وهو حدث حاسم في مجال البنية الحضرية، تقرر على أعلى المستويات (السلطان في القاهرة والباي في تونس)؛ ونتج توسيع «المدينة» في حلب في القرن السابع عشر من إجراءات منسقة اتخذها الباشوات. وإذا كان نشاط المحتسين معروفاً، ولا سيما في الأندلس، فقد أبرز برنشفين وجوهانسن دور القضاة في إدارة المدينة^(٤٩) عند مستويات أدنى. كذلك أظهر الاهتمام الكبير الذي تم إيلاؤه للأوقاف، وبخاصة في أوجهها الحضرية، الدور الحاسم الذي اضطلعت به في تنظيم المدينة^(٥٠).

(٤٩) انظر مقالها في الهامشين الرقمين (١٨) و(٢٨).

(٥٠) André Raymond, «Les Grands waqfs et l'organisation de l'espace urbain a Alep et au Caire a l'epoque ottomane (XIV-XVII siecles)», *Bulletin d'Etudes Orientales*, vol. 31 (1979).

وحول الأوجه العامة، انظر: Randi Deguilhem, *Le Waqf dans l'espace islamique outil de pouvoir socio-politique* (Damas: Institut français d'études arabes, 1995).

وقد أدت الطوائف تحت إدارة شيوخها دوراً مهماً في إدارة المدينة وشؤون السكان. وهي نظراً إلى تنوعها الكبير (اتحادات مهنية، تجمعات الأحياء الجغرافية، مجموعات دينية وإثنية) وإلى تنوع المناطق الجغرافية التي وجدت فيها (المناطق المركزية في ما يتعلق بالاتحادات والمناطق السكنية في ما يتعلق بتجمعات الأحياء)، شكّلت شبكات محكمة في استطاعتها ممارسة رقابة متعددة الأوجه على السكان وعلى الحياة الحضرية. فقد ضمت القاهرة نحو ٢٥٠ اتحاداً مهنيّاً و ١٠٠ تجمع داخل أحياء، إضافة إلى طوائف دينية وإثنية مختلفة. ولربما هنا يتوجب البحث عن مؤسسات موازية لـ «المجتمع المدني»، الذي يقلق غيابه الواضح اختصاصي العلوم السياسية.

خلاصة

يبدو أنه من الممكن التحدث في المجال العربي المتوسطي الواسع عن «نظام حضري»، وبما لا يتوافق كثيراً مع مباحثات المستشرقين حول الفوضى المزعومة للمدينة المسلمة. أما التفكك الذي تحدث عنه سوفاجي وفولارس فهو وليد قراءة سلبية لانقسام المدينة إلى وحدات منفصلة. لكن إذا أخذنا في الحسبان نجاح المدينة الذي لا جدل حوله (وحتى تطورها خلال الفترة قيد الدراسة)، يسعنا القول إن هذه الخلايا، التي لم تهدد الوحدة الإجمالية للمدينة، أسهمت على العكس، كل في مجالها الخاص، في تنظيم المدينة وإدارتها. حتى في الحالات القصوى المتمثلة بالقدس وأنطاكية المنقسمتين تماماً بين مجموعاتها الدينية والإثنية، برز عنصر جامع يضمن حسن القيام بالوظائف الضرورية، التي مثلتها جزئياً الأسواق بتقديمها صلة وصل بين مكونات متعارضة في الظاهر.

وفي كل الأحوال، ليس من الواضح من حيث المبدأ تصور كيف استطاعت مدن، تعدمها الفوضى وغياب التنظيم كما وصفها سوفاجي في الحد الأقصى من فرضياته، أن تنجح بالصمود على مر القرون. لذا، يجب الاعتراف بوجود بنية داخلية قوية تقف خلف التطور الذي شهدته هذه المدن وصولاً إلى الحقبة الحديثة - ولا سيّما في حالة حلب التي انكب المؤرخ على تاريخها محاولاً حل التناقض الظاهر بين كارثة يراها وعظمة تتجلى على كره منه. لا ريب إذاً، أن المنطق الداخلي لتنظيم هذه المدن وقدرتها على التطور، ناهيك بصمودها أمام تقلبات الدهر، عناصر أسهمت كلها في استمرارية ونجاح النماذج الأبرز لهذا النظام الحضري، من مراکش إلى بغداد.

الفصل الثالث

القانون والمدينة

بسم حكيم^(*)

موضوع هذا الفصل المتعلق بالقانون والمدينة هو القيم المجتمعية - المتجذرة في الثقافة الإسلامية مباشرة في الدين - وتفاعلها مع اتخاذ القرارات وعملية الإنتاج وشكل البناء المُنتج. سياق البحث هذا شامل، ويتخطى مقياس البناء لينشئ مفهوماً واضحاً عن علاقة الجزء بالكل، والمبنى بمحيطه القريب وبالمقياس المدني. إن فهم الآثار المتبادلة للبيئة المبنية بأكملها، ولمختلف مستويات البيئة، نزولاً إلى المباني المستقلة وتصميماتها، أمر حاسم من أجل فهم العمارة والمدينة في سياق الثقافة الإسلامية.

إن مستويات البيئة التي يجب التشديد عليها هي: المدينة، والجوار، ومجموعات المباني، والمباني المستقلة. هذا الترتيب ليس حاسماً دائماً بالنسبة إلى المناقشات التالية، لكن العلاقة بين المستويات يجب أن تبقى في الذهن، وبخاصة عند محاولة الربط بين تأثير القيم المتضمنة في اتخاذ القرارات وطبيعة عمليات الإنتاج والبناء.

أولاً: السوابق ما قبل الإسلامية

شهد الشرق الأدنى على مر التاريخ تطورات في القانون منذ الحضارات الأكثر قدماً في المنطقة. ومن الأمثلة المعروفة جداً والمتأخرة نسبياً في بلاد ما

(*) منشور في التنظيم المدني، جامعة هارفرد، وعضو في المعهد الأمريكي للمهندسين المعماريين.

بين النهرين شريعة حمورابي، ملك بابل، الذي حكم من عام ١٧٩٢ إلى عام ١٧٥٠ ق.م.^(١)

كما كان هناك تقليد بعيد وقديم أيضاً يقضي باحترام الأعراف المحلية. أثرت أنماط استيطان ما قبل الإسلام، ورموز المباني، وتقنيات البناء، وعمليات اتخاذ القرارات المعنية، في النمط الناشئ لشكل البناء في الثقافات الإسلامية. وفسر بعض العلماء المسلمين إحدى آيات القرآن الكريم، كتوصية لقبول التقاليد والأعراف المحلية على ألا تتداخل مع القيم أو الأخلاق الإسلامية أو القانون الإسلامي. ويرى المسلمون أن القرآن كلام الله كما أوحى به إلى النبي محمد. وتستخدم الآية ١٩٩ من سورة الأعراف المصطلح العربي «عُرف» ﴿خُذِ الْعُقُوفَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢) للإشارة إلى تقليد محلي قائم في طريقة إنجاز عمل ما.

يطرح التأمل في نمط التصميم المعقد سؤالاً حول طريقة مقارنة الجدار المشترك وحل مشكلاته (انظر الرسم الرقم (٣ - ١)). قارب القانون الإسلامي هذه المشكلة وغيرها من المشكلات المتعلقة بنمط هذا البناء ونوعه. والسوابق القانونية ما قبل الإسلامية موجودة، وفق ما أثبتته عمل بعض الباحثين^(٣).

ثانياً: تشكيل النماذج المدنية

بشر النبي محمد بالإسلام بعد عام ٦١٠ م. في مكة الواقعة على بعد ٤٥٠ كلم (٢٨٠ ميلاً) جنوب المدينة المنورة، حيث استقر النبي نهائياً بدءاً من عام ٦٢٢ م. ويمثل هذا التاريخ السنة الأولى في التقويم الإسلامي. أما السنوات العشر التالية في المدينة، التي باتت تحت توجيه النبي وقيادته، فتعتبر مهمة جداً كمصدر مثالي وسابقة لجميع أوجه نمط عيش الجماعة الإسلامية بما في ذلك البناء. يسجل عدد من مواقف النبي

(١) لدراسة مفصلة للقوانين البابلية، انظر: Godfrey Rolles Driver and John C. Miles, eds., *Babylonian Laws*, vol. 1: *Legal Commentary* (London: Wipf and Stock Publishers, 1952).

(٢) القرآن الكريم، «سورة الأعراف»، الآية ١٩٩.

(٣) Driver and Miles, *Ibid.*, and Besim S. Hakim, «Julian of Ascalon's Treatise of Construction and Design Rules from Sixth-Century Palestine», *Journal of the Society of Architectural Historians*, vol. 60, no. 1 (March 2001), pp. 4 and 25.

نأتي محتويات هذا البحث من قوانين عرفية في الشرق الأدنى والقانون الروماني. ولإجراء مقارنة لحالة تتناول جداراً مشتركاً مهتماً وكيف عالجت حلول قانونية مشابهة هذه المشكلة من الفترات النيوآشورية والإسلامية. انظر: Besim S. Hakim, «Arab-Islamic Urban Structure», *Arabian Journal of Science and Engineering*, vol. 7, no. 2 (April 1982), p. 72.

الرسم الرقم (٣ - ١)
تناقض النسيج المديني الناتج من مجاورة مبنى لمبان أخرى ملاصقة



كان ذلك النمط التقليدي السائد في العالم الإسلامي. رسمان مرسومان أعلاه (أ و ب) على المقياس نفسه.
(أ) هو مخطط جزئي من «سبدي يوسف» على ساحل المتوسط، شمال تونس.
(ب) مخطط جزئي من «الدرعية» قرب الرياض، العربية السعودية.
المصدر: المؤلف.

حيال مشاكل محددة متعلقة بنشاط البناء. ويصح هذا على الخلفاء الذين خلفوه بمن فيهم عمر بن الخطاب الخليفة الثاني الذي حكم خلال الفترة الممتدة بين عامي ٦٣٤ و٦٤٤م. وقد أثبت هذا التوجيه في خصوص البناء بأنه حاسم بوجه خاص للمذهب المالكي الذي تطور تحت إشراف مالك بن أنس (٧١٢ - ٧٩٥م) الذي أمضى حياته كلها في المدينة والذي لا يزال أتباع مذهبه الخاص به يعيشون حتى هذا اليوم في بلدان المغرب، كليبيا وتونس والجزائر والمغرب والأندلس في شبه الجزيرة الأيبيرية حتى أوائل القرن السادس عشر وفي أفريقيا جنوب الصحراء.

خلال العقود الثلاثة الأولى للإسلام صيغ عددٌ من مدارس الفكر ومقاربات القانون. وتحت الفرع السني للإسلام يتجمع الباقون حتى اليوم في أربعة مذاهب: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي. يشكل أتباع الإسلام السنة الأغلبية في العالم الإسلامي على الرغم من أن الناس في إيران وفي أجزاء من العراق وبعض المجتمعات في سورية ولبنان هم من أتباع الشيعة ولهم مذهبهم الخاص بهم. ومن المهم الإشارة إلى أن الاختلافات القانونية حول البناء ثانوية وهي نتاج تفسيرات مختلفة للمذاهب المتعددة. ومع ذلك، تصح المناقشة المرتكزة على المذهب المالكي في شمال أفريقيا بشكل واسع على مناطق أخرى من العالم المسلم.

بعد مرور ثلاثة وثمانين عاماً على وفاة النبي في ٨ حزيران/يونيو ٦٣٢م، كان الإسلام قد غطى أرضاً شاسعة تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي والبيرينييه إلى حدود الصين - وهي مساحة أكبر من مساحة روما في ذروتها. لقد تحقق هذا الأمر بقيادة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥م) من مقره في دمشق وأبنائه الأربعة الذين خلفوه. عبر هذه المنطقة الجغرافية الشاسعة مارست ثلاثة عناصر تأثيرها في طبيعة البناء والتصميم التي تطورت في إطار الحضارة الإسلامية: أولاً، أثرت النماذج المدنية للثقافات والحضارات ما قبل الإسلامية في أراضٍ اعتنقت الإسلام في تطور تركيبة المدن الإسلامية اللاحقة وشكلها. وكان هذا الأمر صحيحاً بوجه خاص في المنطقة المعروفة بالهلال الخصيب وكذلك في إيران. ثانياً، كان الجمل هو وسيلة النقل الأساسية التي كانت شائعة في الشرق الأوسط بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين^(٤). وقد كان لهذا العامل المهم والمنسي غالباً أثر رئيسي في نظام الشوارع والشكل المدني للمدينة الإسلامية. ثالثاً، إن موقع معظم أراضي العالم الإسلامي بين

(٤) انظر: Richard W. Bulliet, *The Camel and the Wheel* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1975).

خطي عرض ١٠ و ٤٠ والتشابه الناتج في ظروف مناخية واسعة النطاق قد أسهم في ظهور تأثيرات موحدة معينة في ممارسة البناء^(٥).

ويتفق بعض المؤرخين على أن ثلاثة نماذج مدنية قابلة للتمييز قد تطورت ضمن إطار الحضارة الإسلامية. هذه النماذج هي مدينة ما قبل الإسلام المجددة أو المعاد صياغتها، والمدينة المخططة والمصممة، والمدينة الناشئة تلقائياً والمتكاثرة على نحو متصاعد^(٦).

توجد المدينة المجددة غالباً في أراض كانت خاضعة للرومان سابقاً، ونجد مثلاً لها في دمشق وحلب. وقد جرى تغيير البنى والأشكال السابقة لتلاءم والمتطلبات الاجتماعية للمجتمع الإسلامي. والنموذج الجنوبي - الغربي ما قبل الإسلامي في الجزيرة العربية للبنى المتعددة الطوابق المعزولة، مثل صنعاء، والسائدة بوجه خاص في اليمن، مصنف هو أيضاً تحت هذه الفئة. والبحث مطلوب لتحديد لماذا لم ينتشر هذا النوع أبعد من المواقع القليلة التي نشأ فيها.

أما النوع الثاني من المدن فقد خطط له وصممه مسبقاً حكام مسلمون ليكون عاصمة المملكة، أو على نحو أكثر نمطية كمقر لمجمع القصر ومنشآته ذات الصلة. المثال الرئيسي على مجمع قصر مدني متصور مقدماً ومبني ككيان كامل هو مدينة بغداد الأصلية الدائرية، في حين كانت العباسية، الواقعة في جنوب القيروان الحالية، مجمع قصر؛ وكلاهما غير قائمين اليوم. يمكن تحديد النموذج المؤثر في تخطيط وتصميم هذا النوع الثاني من المدن بوجه عام من خلال الموقع الجغرافي. في حالة المشرق (المناطق الشرقية) كان لنماذج ما قبل الإسلام تأثير متميز بينما في المغرب (المناطق الغربية) حددت التأثيرات في الحاكم وخبراته النموذج والمقاربة اللاحقين. فبعد انهيار مملكة ما، كان التقليد يقضي بالتخلي عن هذا النوع من المدن، أو مجمع القصر، وكانت النتيجة أن تظل إلى اليوم أنقاضاً أو أن تطمس بالكامل ويلزم إعادة ترميمها من جانب علماء الآثار.

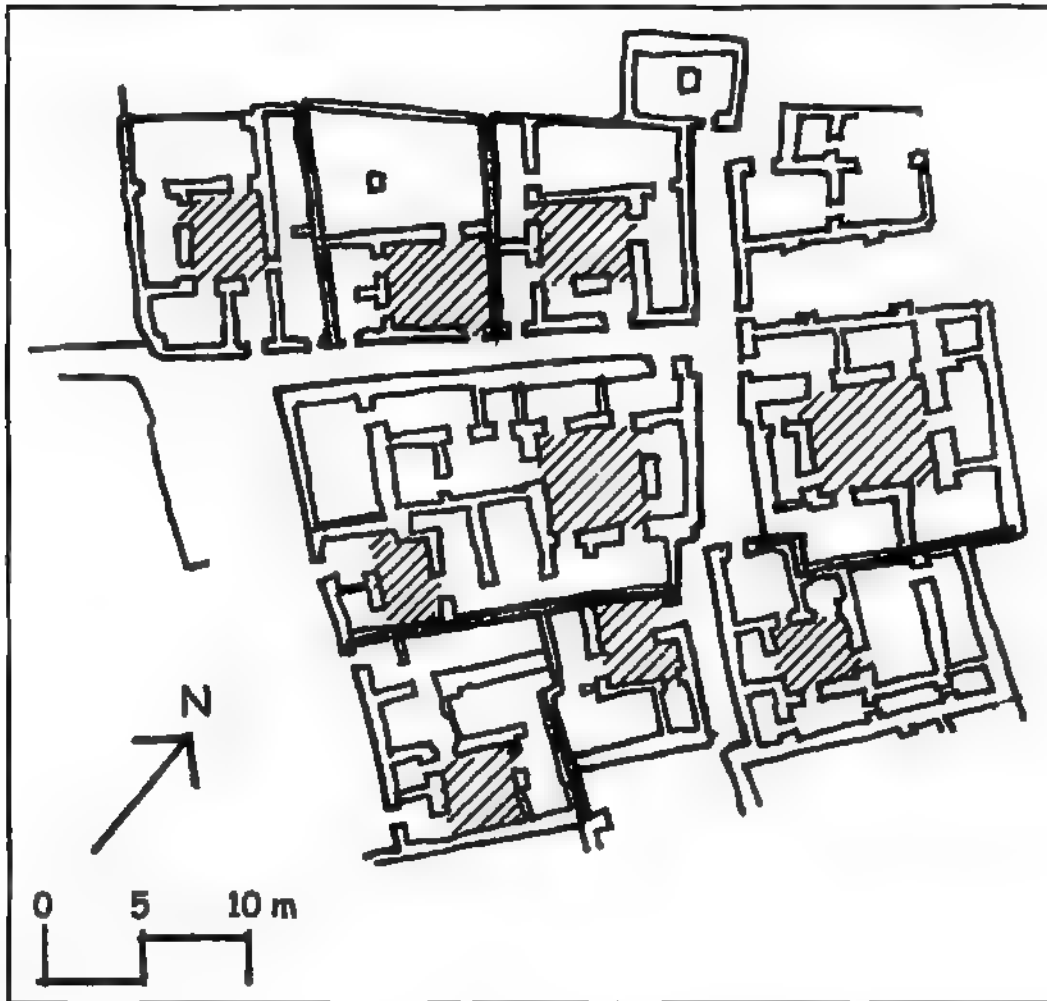
(٥) بالنسبة إلى حسنات المناخ الخاصة بنمط منزل الفناء الذي كان الأكثر شيوعاً في العالم الإسلامي، انظر: Daniel Dunham, «The Courtyard House as a Temperature Regulator», *New Scientist* (8 September 1960), pp. 663-666.

أما بالنسبة إلى ابتكارات أنظمة التبريد في المناطق القاحلة، انظر: Mehdi N. Bahadori, «Passive Cooling Systems in Iranian Architecture», *Scientific American*, vol. 238, no. 2 (February 1978), pp. 144-154.

(٦) انظر: Edmond Pauty, «Villes Spontanées et villes créées en Islam», *Annales de l'institut d'études Orientales*, vol. 9 (1951), pp. 52-75, and Jean Sauvaget: «Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas», *Revue des études islamiques*, vol. 8, no. 4 (1934), pp. 421-480, and *Essai sur le Développement d'une grande ville Syrienne des origines au milieu du XIX^{ème} siècle* (Paris: Librairie Orientaliste, 1941).

أما النموذج الثالث للمدينة الإسلامية فقد برهن بأنه الأثبت والأكثر انتشاراً؛ وقد تطور عن هذا النموذج معظم أقدم مناطق العواصم والمدن الرئيسية في العالم المسلم اليوم. ولا تزال أفضل الأمثلة عن الأحياء القديمة أو «المدينة» حية في البلاد المغاربية، إلا أنها في عدة حالات مهددة اليوم وعلى نحو جدي من جرّاء السيارات. وعلى الرغم من أن المبادئ التنظيمية لهذا النموذج ترقى إلى ما قبل الإسلام بـ ٢٥٠٠ سنة على الأقل وكانت شائعة بوجه خاص في جنوب بلاد ما بين النهرين، فإن قوة وميزات وأقدمية نمط المدينة هذا إنما تعكس الطريقة التي كان يمارس بها نشاط البناء في المجتمع الإسلامي (انظر الرسم الرقم (٣ - ٢)).

الرسم الرقم (٣ - ٢)
نمط تنظيم عقد المنازل ذات الفناءات
السائد في عدة مناطق من العالم الإسلامي منذ ما قبل الإسلام



هذا المثال مأخوذ من مدينة «أور»، المدينة القديمة في بلاد ما بين النهرين ويعود إلى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. يظهر الرسم بخطين مزدوجين استعمال الجدار نفسه من مبنين متجاورين متلاصقين.
المصدر: مرسوم من قبل ل. وولي.

ثالثاً: فهم المدينة كعملية ونتاج

إن النظر إلى المدينة كعملية ونتاج في آن معاً هي أداة تحليل وتقييم وتخطيط فعالة، ولا غنى عنها في أي دراسة للمدينة الإسلامية. تشمل العملية اتخاذ القرارات في خصوص نشاط البناء تحت توجيه القيم الإسلامية. ويمكن إدراك ذلك بأفضل طريقة من خلال معاينة ديناميات اتخاذ قرارات البناء المؤثرة في مستويين من المدينة: نطاق المدينة وجوارها. كانت القرارات حول مستوى نطاق المدينة تتخذ عادة من جانب الحاكم أو الحكومة؛ وهي تتعلق بولادة مدينة ما، ونموها، أو إعادة إحيائها، وتشمل موقع المسجد الأساسي، وتوزيع الأرض داخل تخوم المدينة على المجموعات العرقية أو العائلية أو القبلية، وموقع وشكل بوابات المدينة وأسوارها. كل ذلك يتوجب أن يكون نتيجة للقرارات المتخذة في السنوات القليلة الأولى لتأسيس مدينة.

تشمل قرارات أساسية نموذجية أخرى متخذة أثناء نمو المدينة تشييد مبان رئيسية عامة مثل المساجد والحمامات العامة، أو تعيين موقع مقابر جديدة. أما أنشطة إعادة الإحياء فتتم في العادة بمبادرة حكام أو حكومات طموحة، وفي الحقب التي تتميز بالأمن والازدهار. كما أن لشروط الموقع وتحديد العوامل المقررة، مثل المياه والمعالم الطبيعية المفيدة لأغراض دفاعية، تأثير في القرارات الكبرى المتخذة وفي الشكل المدني المنتج بالتالي.

أما ديناميات القرارات المتخذة على مستوى الجوار والحارات فقد مالت لتكون من طبيعة مختلفة، كما كانت نتائجها ذات أهمية مباشرة. وفي حين أن التأثير الذي تتركه القرارات الصغيرة لمواطني حارة أو جوار ما في الشكل المدني يبقى غير مباشر ولا يظهر عادةً إلا في التجمع السكاني، فقد كانت نتائج القرارات الكبرى للحكام - من مثل موقع المساجد الرئيسية، والسوق وترتيبه، والصناعات المهمة، تميل لإظهار الدور الفردي المميز. كان لقرارات البناء على مستوى الجوار والحارات تأثير في المبادرات لاتخاذ القرارات كما في مواطني الحارات أنفسهم. ويدخل في قرار البناء وأنشطته العلاقات بين المواطنين والاعتماد المتبادل بين الجيران. بصورة أدق هذه الأنشطة هي مدار عناية الشريعة الإسلامية.

يوضح تفحص المدينة كتاج كيفية إنجاز شكل بناء معقد، متباين الخواص، بمجموعة بسيطة من المكونات التنظيمية المادية وآلية تواصل شفهي ذات صلة مستخدمة في قرارات البناء. العناصر المدنية الأساسية الموجودة في معظم مدن العالم الإسلامي هي: مبنى الفناء أو الباحة، نظام الشوارع، والعناصر الموجودة فوق الشارع.

١ - بناء الفناء

هو الطراز الأساسي المستخدم في المباني السكنية والعامة. تبلغ نسبة مساحة البناء إلى قطعة الأرض ١:١. في المباني السكنية يحتل الفناء نحو ٢٤ في المئة من تغطية الأرض بينما يتألف المبنى من طابق أو اثنين أو ثلاثة طوابق أحياناً. تختلف المباني العامة من حيث متوسط حجم فنائها إلى تغطية الأرض، وتتألف من طابق واحد كما في المساجد، ولكن من طابقين غالباً كما في «الفندق» أو الخان (لاستضافة التجار). تجدر الإشارة هنا إلى أن النبي قد أكد على استخدام هذا النوع من الخريطة عند بناء مسجده/ مسكنه بعد وصوله إلى المدينة بشكل بناء فناء مربع.

٢ - نظام الشوارع

أنظمة الشوارع هي أساساً على نوعين: الشارع المباشر، المفتوح، الذي يعتبر المرور فيه حقاً عاماً، ويجب أن يكون واسعاً بشكل كاف ليتسع لتلاقي جملين محتملين على الأقل؛ ثم الزقاق المقفل الذي يعتبر وفقاً للشريعة الإسلامية الملكية الخاصة للأشخاص الذين لهم حق المرور عبره إلى أبوابهم الأمامية (انظر الرسم الرقم (٣ - ٣)).

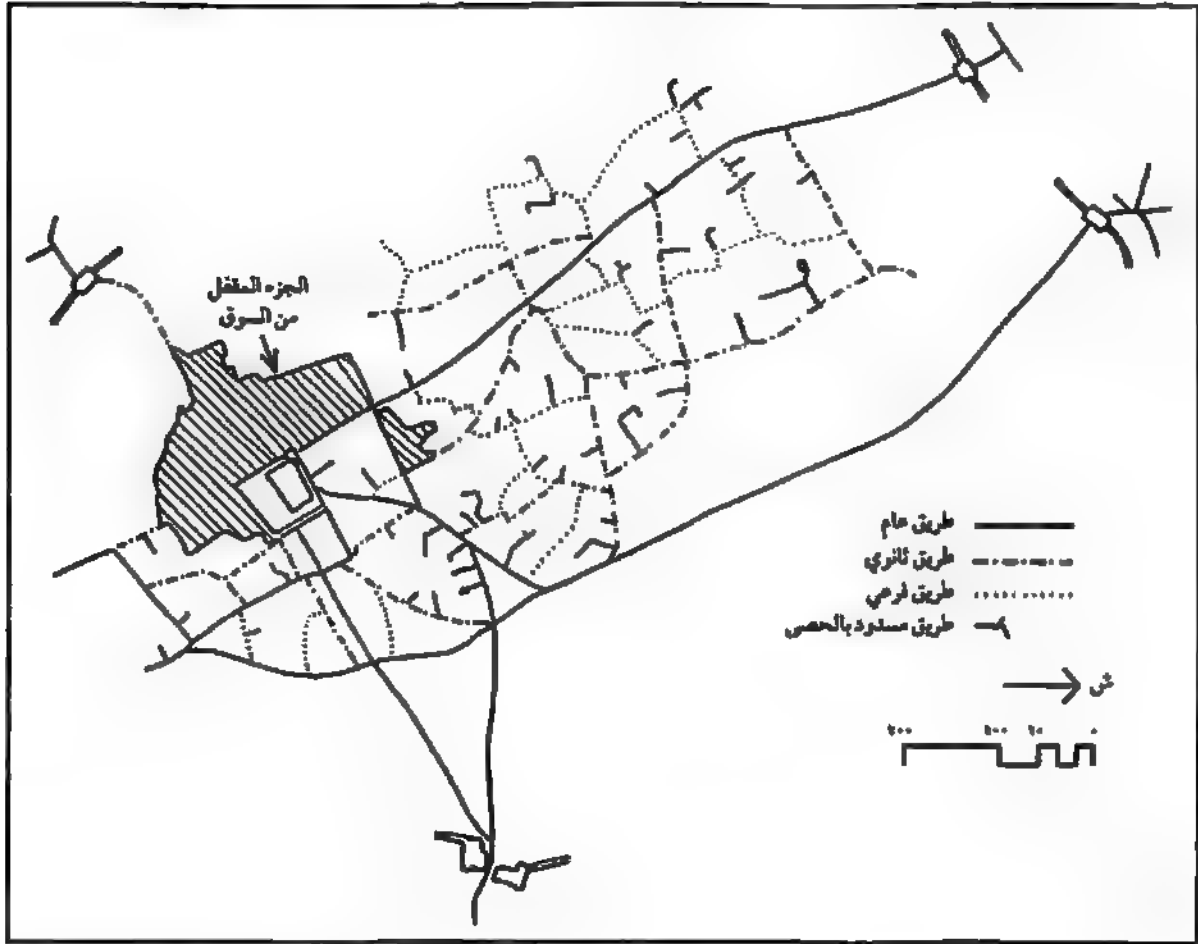
٣ - العناصر القائمة فوق الشارع

كانت العناصر الموجودة عادة فوق الشارع هي في العادة ساباط، أي غرفة تشكل جسراً فوق الشارع، والأقواس الداعمة والممتدة بين جدران طرفي الشارع لتأمين قوة بنائية ودعم للجدارين المتقابلين (انظر الرسم الرقم (٣ - ٤)).

إضافة إلى هذه المجموعة البسيطة مبدئياً من العناصر التنظيمية، طورت المدينة الإسلامية نظام تواصل معقداً في شكل لغة أو معجم تصاميم بناء عمل بها على جميع مستويات البيئة المبنية. وعلى مستوى المدينة حدد هذا النظام عناصر مدينية معينة مثل أنواع المباني، والساحات العامة، واستعمالات أخرى. وحدد على مستوى البناء أشكالاً مكانية واستعمالات متصلة، فضلاً عن تفاصيل البناء، والزخرفة، والرسوم الرمزية. ومن صفات هذه اللغة أنها دمجت شكل المضمون المادي ووظيفته وأعطته اسمها. كان المعجم هذا معروفاً وشائعاً لدى معظم شرائح المجتمع المعنيين بنشاط البناء، وقد كان أداة اتصال فعالة بين المستخدمين والبنائين. كان هناك بالتأكيد تغييرات

الرسم الرقم (٣ - ٣)

تراتبية الشوارع في تونس المدينة، وهي تظهر ثلاثة مستويات من الشوارع، ووصلاتها إلى الأزقة الداخلية الخاصة المقفلة



المصدر: Besim S. Hakim, *Arabic-Islamic Cities: Building and Planning Principles* (London; New York: Emergent City Press, 1986)

محلية في معجم التصميم، إلا أن اللغة كانت موحدة من خلال تشابه شكل المبنى ومكوناته^(٧).

رابعاً: الفقه وتشكيل منظومة القواعد

اهتم علم الفقه، منذ بداياته الأولى، بتطوير قواعد تنظم أنشطة البناء في الحارات والجوار.

(٧) من أجل عرض مفصل للغة تصميم على المستوى المدني، انظر: «A Design Language: Urban and Architectural Elements», in: Besim Hakim, *Arabic-Islamic Cities: Building and Planning Principles*, 2nd ed. (London; New York: Emergent City Press, 1988), Chap. 2, pp. 55-101. [Available from Books on Demand, UMI, Ann Arbor, MI].

الرسم الرقم (٣ - ٤)
مثالان من العناصر القائمة فوق الشارع



شارع من تونس المدينة، يظهر فيه ساباط وشيء من المستوى
الأعلى مع فناء المنزل.
المصدر: المصدر نفسه.



مثال من الرباط - المدينة، المغرب، تظهر فيه قناطر الدعم بين
جدارين، وساباط. وممر المشي على الجانبين هو في عرض فناء
للمنازل على كل جهة من الشارع.

والفقه هو المصطلح العربي لفلسفة التشريع أو علم القانون الديني في الإسلام. وهو يخص نفسه بمجالين من النشاط: العبادات التي تعالج مسائل متعلقة بالعبادات الطقسية؛ والمعاملات، أي المسائل القانونية التي تنشأ في الحياة الاجتماعية (مثلاً قانون العائلة وقانون الإرث والملكية والعقود والقانون الجنائي... إلخ) والمشاكل الناجمة عن أعمال البناء والعمليات ذات الصلة. نظر الفقه إلى هذه الأخيرة كما نظر إلى مشاكل أخرى ناجمة عن نشاطات البشر وتفاعلهم. وعليه، فعلم الفقه في الجواهر هو علم القوانين المرتكزة على الدين والمعنية بالأعمال وأوجه الحياة العامة والخاصة كافة.

برز مقدار المعرفة الذي طوره الفقه بالنسبة إلى معظم أوجه العلاقات الإنسانية بما في ذلك أوجه نشاط البناء في السنوات الثلاثمئة الأولى للإسلام، على الرغم من أن الأجيال اللاحقة عملت كذلك على تطويرها وصقلها. ينبع مصدر معظم القواعد من القيم القرآنية والحديث الشريف، وهي مجموع أقوال النبي وممارساته ولا سيما خلال السنوات العشر من قيادته وحكمه في المدينة. تجدر الملاحظة هنا إلى أن الطبيعة المسجلة لمعظم قواعد الأدب الفقهي هي متضمنة في الحالات العديدة المسجلة أيضاً لأحكام قضاة محليين وآراء المفتين.

كما أن مجموعة أخرى من القواعد الموثقة في أدب المذهب المالكي سيتم تمييزها ومناقشتها في أمكنة أخرى^(٨). يمكن إيجاز بعض هذه القواعد على النحو التالي:

- تجنب أذية الآخرين والذات.
- قبول مبدأ الاعتماد المتبادل.
- احترام خصوصية المجال الخاص للآخرين، ولا سيما تجنب إنشاء أروقة بصرية مباشرة.
- احترام حقوق الاستعمال الأصلي أو السابق.
- احترام حقوق بناء طوابق علوية ضمن مجال المرء الجوي الخاص.
- احترام ملكية الآخرين.
- للجيران حق الشفعة في شراء ملكية مجاورة.

- سبعة أذرع هي الحد الأدنى لعرض الشوارع العامة (بما يسمح بمرور جملين محملين تماماً).

- تجنب جعل المصادر المحتملة للروائح الكريهة والنشاطات الجالبة للضجيج في جوار المسجد أو بقربه.

إلى ذلك، تعمل قواعد أخرى معنية بتصرف الفرد والجماعة كأكية تنظيم ذاتية. مثال رئيسي على ذلك هو مبدأ «الجمال من دون غرور» الذي أثر بقوة في طريقة بناء ومعالجة الواجهات الخارجية للمباني وارتفاعاتها. ينسب هذا المبدأ مباشرة إلى النبي محمد بقوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». وبحسب مسلم بن الحجاج، وهو عالم حديث مشهور، قال رجل للرسول: «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة». فأجابه النبي: «الله جميل يحب الجمال». ومع السماح بمبدأ الجمال من دون غرور غدا التقليد أن يزين المالك الباب الأمامي للمبنى فقط للتعبير عن مواقفه ومركزه. وعلى العكس من ذلك، كانت الحجرات الداخلية للمباني مزخرفة، ولا سيما واجهات الفناء أو الباحة. واعتمدت درجة التعقيد أو مستوى الزخرفة هذه على إمكانيات المالك المالية وذوقه.

يمكن العثور على الآيات القرآنية وأقوال النبي التي استخدمت كخطوط توجيهية في البناء في أمكنة أخرى أيضاً^(٩). وفي معظم الحالات كان صاحب العمل الفقهي يشير إلى هذه الآيات والأقوال بشكل محدد بهدف التأييد أو التوسع في الأسباب والمبررات المنطقية الكامنة خلف قرار القاضي أو رأي المفتي.

خامساً: دور الأعراف المحلية

حتى سنوات القرن العشرين الأولى نجد ضمن العالم الإسلامي نوعين من أنظمة القواعد عملاً معاً وعلى نحو متعاقب، هما: النظام المركزي المفروض، والقواعد العرفية المحلية المبنية على الجماعة. وكان لكلا النوعين من «نظام القواعد» أثرهما في البيئة المبنية التقليدية للمجتمعات الإسلامية. وقد عملت أفكار ونصوص النظام الأول على إنشاء وحدة المفاهيم والاتجاهات التي تعنى بالبيئة المبنية في أنحاء العالم الإسلامي كافة. أما النظام الثاني فعمل على التأثير في التفاصيل والتصاميم المعمارية لشكل البناء المحلي. أسهم هذان النوعان من القواعد، وبالتناوب، في ظاهرة تنوع مستويات

(٩) انظر: المصدر نفسه، الملحق الرقم (١)، ص ١٤٢ - ١٥٧.

المناطق الفرعية في العالم الإسلامي، مع الاحتفاظ بوحدة المفاهيم والاتجاهات العامة التي تشاركها المناطق كافة. وفي النتيجة، بدا التفرد في كل ما هو محلي ومايكروي، مقابل الاشتراك في بعض العموميات في كل ما هو شمولي وماكروي.

كانت أغلبية مجتمعات ما قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية قد نظمت حياتها وفق معتقدات ماورائية متجذرة عميقاً ومعروفة من مختلف قبائل المنطقة، ووفق أعراف محلية تتبعها قبيلة محددة بعينها. نشأت الأولى عادة من معتقدات دينية وساعدت على تنظيم الصراعات القبلية المتداخلة مثل مبدأ الحَرَم والحَوَطة؛ وبصورة أساسية على تقسيم المكان إلى مناطق «مقدمة» أو «مدنسة» حيث تحرم في الأولى بعض أنواع النشاطات والتصرفات^(١٠). أما الأعراف المحلية فهي الطريقة التي تولد بها الفطرة (الدافع الغريزي أو الفهم الفطري غير المكتسب) حلول البناء ذات الخصوصية والطابع المحليين. وقد استمر عدد كبير من هذه الأعراف، بمستوياتها الماورائية والمحلي، في عهد الإسلام لأنها لم تتعارض مع القيم والأخلاق الإسلامية كما وردت في النصوص.

خضع القانون الإسلامي لتطور تدريجي وبلغ مرحلة النضوج خلال النصف الأخير من القرن الإسلامي الثالث، أي نحو عام ٩٠٠ م. ومصادر القانون التي توافقت عليها المذاهب السنية كافة هي القرآن والسنة والإجماع (فكرة مبنية على إجماع أغلبية المسلمين المعلمين) والقياس (حكم مرتكز على الاستنتاج عبر التشابه). وأضافت المذاهب الحنفية والمالكية والحنبلية «الاستحسان» (الاشتقاق من حكم عام على مشكلة ما إلى حكم مبني على ظروف خاصة). أما في حالتي المذهب الحنبلي، ومدارس المالكية بخاصة، فقد أضافا أيضاً مبدأ «الاستصلاح» أو المصالح المرسلة (أي المشاكل التي لم تعالجها المصادر الرئيسية من قبل والتي تستلزم حلولاً تبعاً لظروف الزمان والمكان الخاصة). أما «العرف»، كمصدر للتشريع، فقد اعترفت به خصوصاً المدرستان الحنفية والمالكية، كما قبلته المذاهب الفقهية كافة، لأسباب عملية، وفي هذا الجانب أو ذلك. وكي يكون اتباع «العرف» ممكناً يفترض أن يكون «صحيحاً» أولاً (أي لا يتهدد بوضوح قوانين وتحريمات إسلامية). فقد تشكلت أنشطة البناء التقليدي وطرائق التشييد

(١٠) انظر: Robert B. Serjeant, «Haram and Hawtah: The Sacred Enclave in Arabia», in: Abdurrahman Badawi, ed., *Melanges Taha Husain* (Cairo: Dar Al-Maaref, 1962).

وقد تمت إعادة طباعته في: Robert B. Serjeant, *Studies in Arabian History and Civilization*, Collected Studies Series (London: Variorum Reprints, 1981).

أساساً من الأعراف المحلية، مؤثرة بالتالي في نوعية التصميم الناجم عن ممارسة فن البناء المحلي والتقنيات الخاصة به^(١١).

سادساً: مبادئ فقهية تشجع الأحكام التحريمية

هناك أكثر من مئة مبدأ يرتكز عليها الفقه الإسلامي^(١٢). وفي ما يلي سبعة مبادئ مختارة لأنها كان لها تأثير مباشر في البيئة المبنية التقليدية. وهي هنا منسوجة بعضها مع بعض لتصوير منطقها التراكمي:

- ١ - إن أساس التصرف هو حرية الفعل.
- ٢ - الحرية تحفزها وتحكم عليها النيات وراء تلك التصرفات.
- ٣ - والحرية مقيدة بتفادي إلحاق الضرر بالآخرين.
- ٤ - ومع ذلك، فإن تفادي الضرر الأكبر يسمح عند الضرورة بقبول ضرر أصغر.
- ٥ - يجب أخذ الوقائع الأقدم المثبتة بعين الاعتبار عبر التكيف مع وجودها وشروطها.
- ٦ - يجب احترام أعراف الناس وأتباعها.
- ٧ - ولكن، قد يغير الزمن تلك الأعراف فتظهر الحاجة إلى حلول جديدة.

عند تطبيق ذلك على سياق البيئة المبنية، يكون في وسع المبادئ الفقهية أعلاه ضمان حرية التصرف والبناء، مقيدة بحدود معينة. هي إذاً تحريمية بطبيعتها، تسمح بحرية إيجاد حلول لمشاكل محلية محددة استجابة لشروط الموقع والظروف المحيطة به. ويتأسس توازن في الموقع حيث يتم التوصل إلى الحل «الأفضل» لوضع محلي محدد في ظرف زمني محدد. وعليه، يمكن تحقيق التنوع في البيئة المبنية بحيث يصبح كل موقع وشارع متفرداً بخصائصه ويتج هويته الخاصة. يساهم هذا بدوره في إغناء

(١١) من أجل تحليل شامل لكيفية مساهمة العرف في تنوع هندسة المدن التقليدية وشكلها المدني في العالم الإسلامي، انظر: Besim S. Hakim, «The Urf and Its Role in Diversifying the Architecture of Traditional Islamic Cities», *Journal of Architectural and Planning Research*, vol. 11, no. 2 (Summer 1994), pp. 108-127.

(١٢) أحمد الزرقعة، شرح القواعد الفقهية، تقديم مصطفى أحمد الزرقعة، ط ٢ (دمشق: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٩). والكاتب هو ابن أحمد بن محمد الزرقعة (١٩٣٨) الذي كتب الطبعة الأولى لهذا الكتاب. ومن أجل مراجعة ما كُتب وببليوغرافيا شاملة عن الموضوع، انظر: Wolfhart Heinrichs, «Qawa'id as a Genre of Legal Literature», in: Bernard G. Weiss, ed., *Studies in Islamic Legal Theory* (Leiden: Brill, 2002), pp. 365-384.

البيئة المبنية بأكملها. هكذا تندمج أعراف الناس كلياً في الطريقة التي ينون بها ويغدو في إمكانهم التعبير عن نظرتهم العامة من خلال شكل البناء. لكن النظام هذا يستطيع أيضاً أن يعترف بالتغيرات التي تطرأ على الأعراف مع مرور الزمن ويتكيف معها.

تستطيع أوجه عديدة من البيئة المبنية أن تظهر عمل هذا النظام. هنالك مبدأً معمول بهما وسنعرّفهما بشكل مختصر: أحدهما هو المفهوم المكاني لـ «الفناء» وهو المساحة المحيطة بمبنى، ويتراوح عرضها عادة ضمن المتر الواحد (٣ أقدام)، التي تحيط بكل الأشكال الخارجية للأبنية. وللمالك داخل هذه المساحة حقوق محددة، كما عليه مسؤوليات. أما المبدأ الآخر فهو كيان مادي يسمى «الساباط» وهو بنية تشكل جسراً فوق حق مرور عام وهو مشيد ليمنح مساحة إضافية. وهناك قواعد محددة يجب التقيد بها لمثل هذا البناء، ولا سيما طريقة عزم الدعائم. راجع عمل هذه الأمثلة وغيرها من الأمثلة الكثيرة الأخرى كما ترعاها المبادئ أعلاه في مكان آخر^(١٣).

سابعاً: صورية عملية البناء

من أجل إدراك التفاعل بين آليات عملية البناء، عليك بالصورة التالية التي تشمل مثلاً واحداً عن كل مكون من مكونات إطار خماسي الأجزاء صممه الكاتب لتمثيل العوامل المادية التي حددت شكل المدينة الإسلامية التقليدية، ولا سيما على مستوى الحارات والجوار. يشمل هذا الإطار جميع مسائل نشاط البناء المذكورة في أدبيات فقه المذهب المالكي. والمكونات هي: (١) الشوارع بما فيها الشوارع المباشرة والأزقة المسدودة والعناصر ذات الصلة؛ (٢) القيود المكانية المفروضة على استخدامات تسبب ضرراً مثل الدخان والرائحة الكريهة والضجيج؛ (٣) العناصر المظلة مثل الأروقة المرئية الناتجة من الأبواب وفتحات الشبايك والارتفاعات؛ (٤) الجدران الموجودة بين الجيران وحقوقهم بالملكية والاستخدام؛ (٥) مصارف مياه الأمطار والمجارير.

تخيّل أن رجلاً يرغب في البناء على قطعة أرض فارغة أو إعادة استخدام موقع مشيد عليه منزل متهدم. إذا كانت الرغبة هي إعادة تشييد بناء للاستعمال نفسه، عندئذ يمكنه المتابعة من دون اعتراضات؛ أما إذا كان التصميم يتضمن بناء حمام عام أو مخبز فهو سيواجه على الأرجح، بل بالتأكيد، باعتراضات الجيران. والأسباب المقدمة هي أن

Hakim, *Arabic-Islamic Cities: Building and Planning Principles*, pp. 27-30.

(١٣)

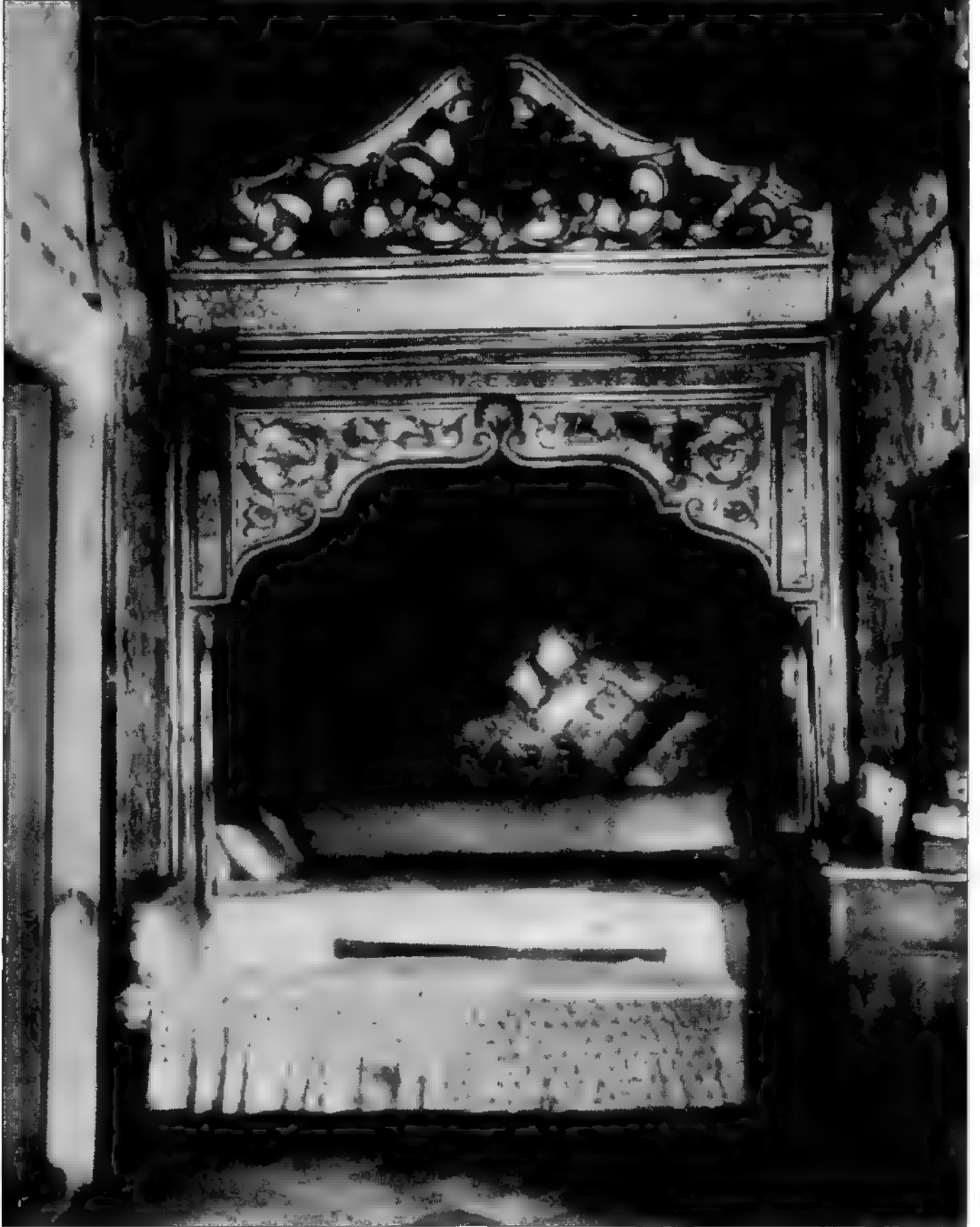
Diane Dorney, ed., *Council Report III-IV*: انظر: التقنيات التقليدية، انظر: (Gaithersburg, MD: Town Paper, 2003), pp. 42-43 and 63.

استعمالات عامة جديدة كهذه مستسبب أذى في ثلاث طرائق: (١) التسبب بحركة مرور إضافية في الشارع أو الشوارع المؤدية إلى المنشأة وهو ما يدفع بالأشخاص المقيمين في الجوار إلى التكيف مع هذا الظرف الجديد؛ (٢) الضرر الذي يولده الدخان؛ و(٣) انخفاض ثمن المنازل المجاورة بسبب الاستعمالات العامة المجاورة الوشيك والأضرار التي قد تنتج. ويتكرر استناد الفقهاء إلى مصدرين يدعمان هذه الشكاوى ضد التغيير في الاستعمال. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(١٤)، ومن أقوال النبي كذلك: «لا ضرر ولا ضرار» (رواه أحمد وابن ماجه).

بعد تفحص استعمالات أخرى للموقع يتخذ المالك قراراً بتشييد منزل. وهو يطلب من باني محلي تشييده؛ وسيتواصل أحدهما مع الآخر بشأن مستلزمات التصميم باستخدام لغة التصميم المحلي. ويتم ذلك عبر تعريف كل قسم بحسب اسمه في لغة التصميم. ومن أجل إيضاح المسألة نستخدم أمثلة من اللغة المحلية في منطقة تونس: يطلب المالك «سقيفة» واحدة (رواق مدخل له أبواب دخول مصممة لكي لا يتمكن أحد من رؤية الفناء مباشرة من الخارج) مع «دكانتين» مواجهتين إحداهما للأخرى (مقاعد مبيتة مزودة للسقيفة ويستخدمها تقليدياً المالك أو الشاغل من الذكور عادة لاستقبال زوار أو تجار عابرين). وهو يحدد أن يكون في وسط الدار (الفناء المفتوح في مركز المنزل) «معجن» (حوض لتجميع مياه الأمطار من السقوف) و«برطال» واحد (بهو معمد بعيد من الفناء يعطي أهمية وأحياناً حماية من الشمس للغرفة الخلفية) بعيد من الطريق الرئيسي. وحول الفناء أو الباحة يطلب المالك من الباني تشييد ثلاثة «بيوت طريدة» (غرف بسيطة) و«بيت بالقبو ومقصر» (غرفة رئيسية شائعة في منازل الطبقات الوسطى والطبقات العليا الوسطى) حول الفناء وهي عادة ما تقع في مقابل المدخل إلى الفناء. تنقسم الغرفة الرئيسية إلى: (١) مختلى مركزي يدعى قبو يضم عادة مقاعد مبيتة وزخرفات معقدة للجدران والسقف، وهو يستخدم لاستقبال أنساب وأصدقاء حميمين؛ (٢) غرفتان صغيرتان تقعان بشكل متماثل على طرفي القبو وتدعيان «مقصورة» وتستخدمان كغرف نوم؛ (٣) ومختليان مبيتان أحدهما مقابل الآخر مع أسرة مبيتة و/أو مخزن. يمكن وضع الأسرة المبيتة على أحد جانبي المختلى أو كليهما وهي عادة محاطة بإطار من الخشب المزخرف يسمى حانوت الحجام. وقد تطول هذه اللائحة لتشمل أصغر تفاصيل التزيين والزخرفة (انظر الرسم الرقم (٣ - ٥)).

(١٤) القرآن الكريم، «سورة الشعراء»، الآية ١٨٣.

الرسم الرقم (٣ - ٥)
مثال من حانات الحجّام في دار بيرم من تونس المدينة



لاحظ الزخرفة الدقيقة على الجدران والتصميم المعقّد لأعلى سقف السرير.
المصدر: المصدر نفسه.

إذا كان المنزل معقداً نسبياً فسيقوم الباني عندئذ بتصميم الخريطة وأي تفاصيل أخرى من ابتكاره الخاص وليس بالتواصل مع المالك. وعندما لا تكون لغة التصميم ملائمة بالنسبة إلى المالك والباني كليهما لتوضيح نقطة ما، يتولى أي منهما، والمالك بصورة أعم، أخذ الباني لمشاهدة منزل معين لكي يوضح الشكل الذي يريده.

ويتوقع من الباني أن يعرف عادات وتقاليد ممارسة البناء والمبادئ التي يجب اتباعها واحترامها. وما يثير الدهشة هو أن التضمنات المفصلة لقواعد البناء ليست شائعة دائماً بين المراتب الدنيا من البنائين. وغالباً ما تجري الإشارة في المخطوطات القديمة إلى قرارات البناء المطبقة التي اعتبرت انتهاكات ثم جرت إزالتها أو تصحيح وضعها بأمر من القاضي المحلي واستجابة لشكاوى الجار. ومع ذلك، فإن للبنائين الأكبر سناً والأكثر رسوخاً من حيث سنوات الخبرة، الذين يستخدمهم عادة زبائن أغنياء، معرفة مفصلة بالقواعد.

مع تحديد استخدام الموقع ولغة التصميم لأغراض التخطيط، يتفحص الباني والمالك الآثار المحتملة على مستلزماتها وقدراتهما المتعلقة بالمباني المحيطة القائمة. وفي حال وجود نافذة على أحد جدران الجار، على سبيل المثال، فلا بد عندئذ من أخذ وجودها بعين الاعتبار بسبب مبدأ حقوق الاستعمال السابقة. ووقعت على المالك الجديد للمنزل مسؤولية تفادي إنشاء رواق بصري مباشر من النافذة القائمة إلى ملكيته الخاصة؛ فكان عليه في الواقع اعتراض مشاكل الإشراف المحتملة.

يمكن استخدام جدران جارٍ لإدخال دعامة أفقية رئيسية بدلاً من بناء جدار مجاور آخر. وقد شجع النبي بوجه خاص هذه الممارسة: «لا يمنع جارٌ جاره أن يفرز خشبه في جداره» (رواه أبو هريرة). ومع ذلك، كان هناك دلائل مفصلة يجب احترامها لدى استعمال جدران الجار والمشاكل المرافقة لحقوق الصيانة اللاحقة. على سبيل المثال، اعتمدت نسبة الحائط الواجب استخدامها على ملكيتها. وفي حالة إعادة بناء منزل متهدم كان التعريف الصحيح لملكية الجدران المجاورة حاسماً. كان التفحص الدقيق للجدران موجهاً بمعايير حددت ما إذا كانت الملكية فردية أو مشتركة. وأكثر هذه المعايير شيوعاً هو اكتشاف طبيعة العقد أو رابط الجدران عند الزوايا أو ملتقى جدارين عبر تفحص الأدوات والملاط لتحليل ما إذا كان الجدران قد بنيا معاً. تعود هذه الممارسة التي أجازها النبي إلى العقد الممتد بين عامي ٦٢٢ و ٦٣٢ م في المدينة، وهي لا تزال متبعة حتى اليوم في أقدم أقسام المدن الإسلامية تحت القانون العرفي المحلي أو العرف.

ولا بد أن تتبع مشكلة تصريف مياه الأمطار والمجارير بعض القواعد والتوجيهات. شكل تصريف المياه مشكلة دقيقة بوجه خاص لأنه لم يكن من الجائز اعتراض وصول المياه الفائضة إلى الآخرين. وينسب هذا المبدأ بشكل مباشر إلى قول النبي: «لا يمنع فضل ماءٍ ليمنع به الكلاء» (رواه أبو هريرة) «المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والكلاء والنار» (رواه أبو داود وابن ماجه عن ابن عباس).

أما بالنسبة إلى علاقة المنازل بالشوارع فافترض أن جانباً من جوانب منزل ما يحاذي شارعاً مفتوحاً وأن المالك يريد مساحة أكبر. ويقضي أحد الخيارات ببناء ساباط (غرفة تشكل جسراً فوق الشارع). وبغية دعم المبنى الموجود على الجانب المقابل قد ينال المالك إذناً من مالك المبنى المواجه، غير أن منح إذن كهذا لم يكن نهائياً تماماً، وبالتالي اعتمد هذا الخيار على رؤية المالك لعلاقته المستقبلية بجاره المقابل. وعلى نحو أكثر من المحتمل، قد يختار المالك استعمال الأعمدة الداعمة، تاركاً نفسه وورثته مستقلين تماماً عن جاره. ويتضمن خيار آخر استخدام أعمدة لدعم الجهتين، الأمر الذي يمكن في المستقبل من بيع الساباط إلى مالك المبنى المقابل ويحسن بوجه عام تسويق المنزل.

لا تقدم الأمثلة التوضيحية السابقة سوى نظرة عامة حول المسائل المعنية بعملية البناء النمطية لمنزل ما. ويمكن إيجاد حالات أخرى عديدة بعضها متورط جداً في أماكن أخرى^(١٥). ومع ذلك فهذا النقاش كاف لتوضيح واقع أن شكل البناء كان نتيجة مباشرة لديناميات اتخاذ القرارات، باستخدام آليات محددة ومحكومة بقواعد الفقه المشتقة من قيم إسلامية مجسدة في القرآن والحديث.

خاتمة

سأختم هذا الفصل بمناقشتين: الأولى تفترض أن النظام التقليدي يقدم مقداراً كبيراً مما نتعلمه من أجل حياتنا المعاصرة ومن أجل المستقبل أيضاً؛ والثانية تفترض حاجة مناطق متعددة إلى مزيد من البحث الضروري لتطوير معرفتنا وفهمنا لأعمال النظام التقليدي، وهو ما يمكننا بالتالي من صياغة نظرية شاملة حول المدينة الإسلامية التقليدية.

أ- التعلم من الماضي

كان النظام التقليدي للبناء والنشاطات المدنية في معظم مدن العالم الإسلامي عملية تطور متدرجة يعاد توازنها دائماً وتشمل تأليف أعراف دينية واجتماعية - ثقافية.

كان النظام نصف منظم، بحيث يسبب أي انحراف أو انتهاك رئيسي للقواعد والأعراف وضعاً يستوجب القيام بعمل تصحيحي؛ وفي حال غياب عمل كهذا، يكون تدخل القاضي (القاضي المحلي) كافياً لفرض وصفة لتسوية النزاع ضمن النظام، بالتوافق مع المعايير والقواعد المعمول بها لدى الجماعة.

على وجه التحديد، هناك ثلاث تجارب قيمة للسياق المعاصر:

أولى هذه التجارب هي أهمية الإطار القانوني بوصفه المكوّن الرئيسي للبيئة المدنية، ولا سيّما البيئات على مستوى الجوار. ويصح هذا الأمر بالتأكيد اليوم مع الترتيبات المقررة لكل منطقة، والتقسيمات الفرعية إلى أجزاء أصغر، ورموز البناء. ولكن طبيعة الإطار القانوني هي حيث تستطيع المدينة الإسلامية تأمين رؤية جديدة. نشأت قواعد البناء الفقهية عن قيم مجتمعية مرتكزة على معتقدات دينية يدعمها تفصيل كاف لمعنى كل قاعدة. فعدة اقتراحات محددة لا يجري ذكرها، وهي نادراً ما ذكرت كمثال على كيفية حل مشكلة محددة. في الجوهر، عملت القواعد كمعايير أداء على عكس قوانين البناء والتخطيط المعاصرة المرتكزة على مقاييس. الأول نوعي وموجه بقصد ومستجيب لتغيرات المستلزمات أو ظروف الموقع، بينما الأخير كمي وموجه عددياً وغير مستجيب لتغيرات المستلزمات أو الموقع. لا تعتبر مقارنة معايير الأداء أكثر تعقيداً فحسب لجهة معالجة كل مشكلة بناء ضمن سياقها الخاص، ولكن النتائج الإجمالية التي تساعد على إحداثها كبنية مبنية مختلفة ومعقدة. القوانين المبنية على مقاييس تُقارب كل المشاكل على نحو واحد متشابه، مع نتائج من التكرار والرتابة في البيئة المبنية. وأفضل الأمثلة هي آلاف الضواحي المطورة في الغرب وبوجه خاص في الولايات المتحدة خلال القرن العشرين ولا سيّما منذ الحرب العالمية الثانية.

والدرس الثاني هو استخدام «لغة تصميم» البناء كعامل مساعد على التواصل واتخاذ القرارات المتعلقة بالتصميم. تدمج مكونات اللغة الشكل الثلاثي الأبعاد ووظيفة عامل التصميم الذي جرى إيصاله. هذه الآلية تساعد المستخدم والبناني على التواصل أحدهما مع الآخر. كما أنها تحفظ وتديم صور التصميم وأشكاله التي أثبتت استمراريتها عبر التجربة من دون إعاقة التنوع في الحل الفردي لمشكلات التصميم.

أما الدرس الرئيسي الثالث فيتمثل بطبيعة التنظيم المادي. وكما سبق أن ذكرنا، تعود شبكة مباني الفناء التي يمكن الوصول إليها عبر زقاق غير نافذ وشوارع إلى ما قبل الإسلام؛ لكن الحضارة الإسلامية طورت وصقلت هذه الشبكة ونشرتها على مدى

منطقة جغرافية واسعة بمساعدة التطوير واكتساب المعرفة الفقهية المعنية بالتدخل في البيئة المبنية. وسنلقي بعض الإضاءات على ميزات هذا الشكل التنظيمي؛ فشكل مخطط الفناء قابل لتأدية استعمالات مختلفة. والكثافات المستحدثة في المساكن فعالة من دون التضحية بخصوصية الوحدة الفردية. تستخدم الشوارع كشبكة نفاذ إلى الحد الأقصى، كما في المثل المتعلق بالجزء المركزي لمدينة تونس. تشغل الشوارع كافة ١٢,٥ في المئة من مجموع المساحة المبنية، وتمثل ١٣,٣ في المئة فقط من تلك الشوارع أزقة غير نافذة تؤدي إلى ٢٨,٥ في المئة من المباني كافة؛ أي أن نسبة منخفضة نسبياً من الأزقة غير النافذة تؤدي إلى نسبة عالية من المباني. تستخدم الساباطات لإنشاء مساحة إضافية للمستخدمين الخاصين وفي الوقت عينه تأمين غطاء للجماهير في الشوارع. وفي الجزء المركزي لمدينة تونس ٨ في المئة من الشوارع كلها مغطاة بساباطات، إضافة إلى ٧,٥ في المئة مغطاة بقناطر تؤمن تغطية لمجموع ١٥,٥ في المئة من شوارع المدينة.

هناك خصائص عديدة إضافة إلى تلك المذكورة أعلاه، مثل استخدام الزخرفة والزينة وتفاصيلها في حقل الفن. هناك مهمة أخرى نالت بعض الاهتمام من قبل وهي خصائص توفير الطاقة لشكل البناء ضمن سياق منطقة قاحلة بمساعدة ممارسات وأدوات توفير الطاقة مثل البرج الهوائي ومنفذ الهواء وأحواض لتخزين المياه والمحافظة على برودتها وصانع الثلج^(١٦). أما الممارسات الأخرى فتمثلت بجمع مياه الأمطار وتخزينها في أحواض تحت فناء المباني والاستخدام الفعال للطوابق التحتانية كأحياء سكنية خلال الفصل الحار وإعادة تدوير أدوات البناء.

على الرغم من أن هذه المناقشة تتناول يثبات إسلامية، فإن هناك فوائد عالمية؛ ويؤمل أن تكون قيمة هذه المعلومات ذات قيمة واستعمالها مفيداً لأشخاص من ثقافات أخرى اليوم وفي المستقبل. ويشير أموس رابوبورت بوضوح إلى أهمية هذه المعلومات وصلتها الوثيقة بالموضوع عندما يقول:

«كلما كانت البيئة أوسع في المكان والزمان كنا على الأرجح سنرى الانتظام في فوضى ظاهرة، فضلاً عن فهم أفضل لتلك الاختلافات المهمة. وبالتالي كان من الأكثر ترجيحاً أن نرى أنماطاً وعلاقات، وهذه هي أهم الأمور التي يجب النظر إليها. إن القدرة

Dunham, «The Courtyard House as a Temperature Regulator,» and Bahadori, «Passive (١٦) Cooling Systems in Iranian Architecture».

وانظر الأمثلة المتعددة حول إيران، في: Elisabeth Beazley and Michael Harverson, *Living with the Desert: Working Building of the Iranian Plateau* (Warminster: Wilts Press, 1982).

على إنشاء أنماط كهذه من شأنها أن تساعدنا على معالجة مشكلة الثبات والتغيير... ومن المهم جداً فهم الثبات، فضلاً عن التغيير، لأن ثقافتنا تشدد على التغيير إلى درجة متطرفة. وإذا كان التغيير الظاهر والمتبدل تعبيراً عن عمليات ثابتة، فسيكون أمراً مهماً جداً، لأن أسباب القيام بأشياء مختلفة ظاهرياً تبقى هي نفسها^(١٧).

ب - مساحات لبحث إضافي

الاقتراحات التالية للدراسة والبحث ليست شاملة، لكن يجب اعتبارها لائحة أولية أساسية بالمواضيع التي من الضروري التعهد بها لإنتاج المعرفة و صفوف المباني لكي تحصل محاولة جدية لبناء نظرية حول الشكل المديني في الثقافات الإسلامية. وتقتصر اللائحة مواضيع تعالج مستوى الاستيطان يليه تلك المواضيع ذات الصلة بمستوى المجموعة/الجوار، ومن ثم تلك المتعلقة بالقيمة على مستوى البناء الفردي. وبعض الاقتراحات ذات أهمية بالنسبة إلى المستويات الثلاثة مجتمعة وبعضها لمستويين فقط. وفي ما يلي لائحة بالموضوعات:

١ - تصورات ما قبل إسلامية للمستوطنة المدينية والمدينة في الشرق الأدنى ولا سيما في المنطقة الغربية من شبه الجزيرة العربية. كيف طبق العرب الذين اعتنقوا الإسلام المفاهيم لدى إنشاء مستوطنات جديدة واعتماد قرى ومدن قائمة مثل حالي دمشق وحلب؟ على حد علمي لا تتوافر أي دراسات رئيسية تتناول أنماطاً في امتلاك الأرض وحقوق الملكية ومراقبة المكان؟ وكيف أثرت تلك الأنماط في صورة المباني والشوارع وتراصف المتاجر في المناطق والأسواق التجارية؟

٢ - عملية تعيين الحدود وتقسيم الأراضي إلى أجزاء أصغر في بداية نشأة المدن الإسلامية. إنها العملية الأولية التي تم التعهد بها لتخصيص الأراضي لاستعمالات عامة وخاصة. هل سبق تخصيص الأرض الخاصة اعتبارات تصميم حق مرور عام؟ ماذا كانت التقنية لدى تولي هذه المهمة؟ أو هل كانت العملية عكسية^(١٨)؟

(١٧) Amos Rapoport, «Cultural Origins of Architecture,» in: James C. Snyder and A. J. Catanese, (1979) *Introduction to Architecture* (New York: McGraw-Hill College, 1979), p. 18.

(١٨) حاول جمال أكبر تفسير هذا الأمر. انظر: Jamel Akbar, «Khatta and the Territorial Structure of Early Muslim Towns,» *Muqarnas*, vol. 6 (1989), pp. 22-32.

يعالج المسعى مسائل مهمة ويجب النظر إليه كبداية جيدة. والمطلوب هو بحث أكثر شمولية. فباستطاعة تقنيات علماء الآثار ومهاراتهم أن تؤدي دوراً قيماً هنا. وخير مثال على دراسة سابقة هو كتاب عالم الآثار يورغن شميت، انظر: Jürgen Schmidt, «Strassen in Altorientalischen Wohngebieten: Eine Studie zur Geschichte des Städtebaues in Mesopotamien und Syrien,» *Deutsches Archäologisches Institut Abteilung Baghdad: Baghdader Mitteilungen* (Berlin), vol. 3 (1964), pp. 125-147.

٣ - دراسة مفصلة حول المبادئ والأعمال المتعلقة بـ «إقطاع» الأراضي و«إحيائها» ضمن أهداب المستوطنات. فقد طبق النبي مبدأ «الإقطاع» في المدينة مباشرة بعد استقراره هناك. هناك أوصاف وافرة حول ذلك المثال في الأدب العربي ولا بد من إمكان إعادة تركيب ما ظهر في ذلك الوقت باستخدام عملية مناظرة مرتكزة على المعلومات المتوافرة^(١٩).

٤ - عملية اختطاط الأرض في النشأة الأولية للمحلة أو مستوى الجوار. بعد تخصيص الأرض لمجموعة من الأشخاص تولوا مسؤولية اختطاطها في مجموعات قطع أرض وتخصيص أرض ملائمة للنفوذ أصبحت في آخر الأمر الشوارع والأزقة. ولأن هذه الظاهرة حصلت خلال بدايات نشأة معظم المدن الإسلامية يصعب إيجاد معلومات ملائمة وموثوق بها تصف هذه العملية. ومع ذلك من المهم جداً تطوير عدد من السيناريوهات البديلة لأغراض نظرية البناء.

٥ - كيف عملت مؤسسة الوقف لجهة تأثيرها في المباني وعلى نحو موسع في الشكل المديني؟ ما كان التأثير في عمليات النمو والتغيير؟ هناك عدد كبير من الدراسات حول مؤسسة الوقف التي تنشأ مع تعاليم النبي. ومن أهم أقواله التي رواها البخاري: «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا» ويعرّف المذهب الحنفي الوقف: «حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه، ممنوع من التصرف في عينه بلا عذر، مصروف منافعه في البر تقرباً إلى الله تعالى»^(٢٠). تعالج معظم الدراسات المتوافرة مباني محددة مسماة الوقف، لكن على حد علمي ليس هناك من دراسات تحاول تفسير عدد كبير من المباني والملكيات على المدينة ككل، وعمليات النمو والتغيير الخاصة بها، وتداعياتها على الشكل المديني عبر الزمن.

٦ - ماذا كانت أنماط مختلف أنواع تولي وامتلاك الأراضي والمباني؟ ماذا كان تأثير فرض الضرائب على مختلف أنواع الولاية؟ هناك كميات كبيرة من المعلومات المتوافرة في خصوص هذه المسائل في المصادر العربية الكلاسيكية ومؤخراً في المصادر العثمانية التي ترقى إلى أواخر القرن التاسع عشر. لقد تم نشر محاولة تخطيطية

(١٩) انظر: أبو الحسن علي بن عبد الله الحسني السهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ٤ ج (بيروت: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٩٥٥). أما بالنسبة إلى مبدأ «الإحياء» وتطبيقه، فقد توضح المعلومات المرتكزة على الأدب القانوني للمذاهب الإسلامية السائدة تساعدها أبحاث آثار ميدانية للمدن تأثرت في مذهب محدّد عمل هذا المبدأ.

(٢٠) Henry Cattán, «The Law of Waqf,» in: Majid Khadduri and Herbert J. Liebesny, *Law in the Middle East* (Washington, DC: Lawbook Exchange, 1955).

لمعالجة هذه المسائل ولكن على حد علمي لا تتوافر دراسات شاملة تعالج هذه المسائل^(٢١).

٧ - مؤسسة الحسبة: ماذا كان اختصاصها ومسؤوليتها؟ وتأثيرها في الإدارة المدنية؟ ماذا كان التداخل و/أو التفاعل مع حقل اختصاص القاضي؟ هناك عدد من لوحات الحسبة المعروفة من مناطق المشرق والمغرب في العالم الإسلامي والتي يجب فحصها بدقة للإجابة عن هذه الأسئلة. وستشأ توضيحات إضافية عن عملية دراسة وتحليل مفصلة لهذه اللوحات.

٨ - كانت الأعراف المحلية في ممارسات تصميم وبناء المباني محركاً أساسياً مؤثراً في اتخاذ القرارات واختيار حلول التصميم في موقع محدد. لقد أجاز المذهب الذي له صلاحية في موقع ما الأعراف شرط ألا يتعارض العرف مع مبادئ الشريعة الإسلامية. والبحث مطلوب لتحليل مقارن لـ «الحلول» الناتجة تحت مظلة المذاهب المختلفة وإظهار تلك الحلول مادياً ولا سيما ملاحظة الاختلافات حول مشاكل مشابهة. وقد يركز هذا البحث على حالات أحكام القانون العرفي كما فعل القضاة المحليون، وفي مجموعة نصوص المفتين المدعمة بتحقيقات ميدانية.

٩ - البحث الميداني لعدد من المدن ضمن المناطق الرئيسية من العالم الإسلامي والمصممة لتوثيق لغة التصميم (العرف اللغوي) مشيرة إلى مصادر المصطلحات ومعناها والشكل والتدابير المادية الفعلية التي رجعت إليها مفردات لغة التصميم المحلي، بما في ذلك تضمينها على تصميم المباني وتصوير الشكل المدني. إن الدراسة المبينة على مقارنة نتائج هذه التقارير قد تعزز إلى حد كبير فهمنا لقيم شكل البناء في تلك المدن^(٢٢).

١٠ - تحدث التعبيرات الرمزية على مختلف مستويات البيئة المبنية، أي تصميم وتفاصيل الزخرفات في مواقع مختلفة من المبنى، مثل قسم من المدخل الرئيسي، وحول النوافذ، وعلى الجدران المحيطة بالأقنية الداخلية. وفي موقع يشكل جزءاً

(٢١) انظر: Mona Serageldin, William Doebele and Kadri El-Araby, «Land Tenure Systems and Development Controls in the Arab Countries of the Middle East,» in: Linda Safran, *Housing Process and Physical Form* (Jakarta, Indonesia: The Aga Khan Awards, 1980), pp. 75-88.

(٢٢) لمناقشة مفصلة حول ما هي «لغة التصميم»، انظر: Hakim, *Arabic-Islamic Cities: Building and Planning Principles*, chap. 2.

ولمعرفة ما هو «العرف اللغوي»، انظر: Hakim, «The Urf and Its Role in Diversifying the Architecture of Traditional Islamic Cities».

لا يتجزأ من الجمعيات الدينية، يؤثر موقع المسجد وينابيع المياه المخصصة للاستعمال العام وغيرها من العناصر في المساكن بالجمعيات التاريخية والدينية. إن البحث المقارن لأمثلة كهذه في شتى أنحاء العالم الإسلامي ضروري^(٢٣).

١١ - الرياضيات وعلم الهندسة والمسح وتقنيات الهندسة التي استخدمت في تصميم المباني وتشييدها. أجري عدد قليل من الأبحاث الجدية حول هذه الأوجه ذات العلاقة المتبادلة. إن العلم الحديث مشجع جداً، ولكن مساحة البحث هذه مفتوحة على عدد كبير من الإمكانيات^(٢٤).

١٢ - مواد البناء وتقنياته. ما كانت خاصياتها وحدودها؟ كيف وما هو سياق استخدام الأدوات على نحو منفصل أو مجموعة مع أخرى؟ لأي غرض وكيف تم استخدام المواد المعاد تدويرها؟ ما كانت الحدود البنيوية للأدوات وكيف ابتكر البناؤون ضمن تلك القيود؟

١٣ - ممارسات وتقنيات توفير الطاقة التقليدية، على سبيل المثال استعمال المياه وأدوات التبريد مثل أبراج الهواء وطرق نقل براز الإنسان والحيوان. وعلى الرغم من أن البحث حول هذه المواضيع متوافر في الأغلب عن إيران فهو لم يتوافر إلا قليلاً عن مناطق أخرى. إن الدراسات الشاملة ضرورية لفهم حلول التصميم المستخدمة لمعالجة الظروف في مناطق مناخية مختلفة ومعالم طبوغرافية.

١٤ - دراسة تركز على استخدام الفناء في تصميم المنازل وتخطيطها، مع اهتمام خاص باستخدامها كعنصر موروث عرقي أي عند استعمالها عن غير قصد كممارسة عرفية من دون اهتمام بإمكانياتها للتصميم مقابل استخدامها المتعمد كأداة تشمل إمكانيات تصميم وفرص للسيطرة على المناخ.

Besim S. Hakim, *Sidi Bou Sa'id, Tunisia: A Study in Structure and Form of a Mediterranean Village* (Halifax, NS: Emergent City Press, 1978) [Available from Books on Demand, UMI, Ann Arbor, MI], chap. 4.

يجلّ هذا الفصل الرمزية في تلك القرية على مستويات ثلاثة: (١) القرية، (٢) المداخل، والنوافذ، والأدراج، (٣) وزخرفات السطح مثل النقوش الجصية والمباني الحجرية والقرميد.

(٢٤) راجع مقالات وسماء شربتجي، في: Wasma'a Chorbachi, «In the Tower of Babel: Beyond Symmetry in Islamic Design,» *Computers and Mathematics with Applications*, vol. 17, nos. 4-6 (1989), pp. 751-789; Alpaz Ozdural, «Omar Khayyam, Mathematicians, and Conversazioni with Artisans,» *Journal of Society of Architectural Historians*, vol. 54, no. 1 (March 1995), pp. 54-71, and Ca'fer Efendi, *Risale-i Mimariyye: An Early 17th Century Ottoman Treatise on Architecture*, translated by Howard Crane (Leiden: Brill, 1987).

١٥ - أطلس المدن الإسلامية في مختلف مناطق العالم الإسلامي الذي قد يوثق:

(١) خرائط مدن مرسومة بالشكل ذاته باستخدام نظام الألوان نفسه وهي مزودة بالصور الجوية الضرورية؛ (٢) أنماطاً مورفولوجية على مستويات المدينة والجوار ومجموعات المباني التي قد تشمل، على سبيل المثال، أنماط الشوارع العامة النافذة والأزقة الخاصة وتحليل نقاط قوة وضعف دراسة الرموز. كما يمكن أيضاً دراسة بعض الخصوصيات مثل أفضلية موقع مسجد صغير عند مفترق استراتيجي في نظام الشوارع^(٢٥)؛ و(٣) ودراسة أنماط البناء المرسومة على المقياس ذاته والمقدمة في خرائط وارتفاعات ومقاطع.

أرجو أن تكون لائحة الموضوعات السابقة ذات قيمة للمعنيين بالنقص في النظرية التي تتناول الشكل المديني في المدن الإسلامية التقليدية. يمكن تطوير وإضافة موضوعات تعالج أوجهاً مفصلة أخرى. ومن المهم التشديد على أننا في لحظة من تطور هذا المجال تتطلب جهوداً تعاونية لمعالجة المسائل السابقة. يمكن تحقيق التعاون بطرائق شتى عبر: (١) أدوات اتصال فعالة وسهلة المنال من خلال صفحات شبكة الإنترنت العالمية. يمكن أن يُنشئ طلاب أفراد ومؤسسات مواقع على شبكة الإنترنت حيث يلخص و/ أو يتم توفير البحث الأحداث لنقل المعلومات إلى كومبيوتر شخصي؛ (٢) ندوات ومؤتمرات مركزة؛ و(٣) اختبارات في مشاريع معاصرة عبر إعادة تدوير المبادئ المضمنة في الأفكار والإجراءات التقليدية^(٢٦).

(٢٥) إن استخدام هذا النوع من الروابط الناتج عن التقاء شارعين ضمن هذا النوع المورفولوجي يمكن أن يرقى إلى عام ٢٠٠٠ ق.م. في «مدينة أور» في جنوب بلاد ما بين النهرين. انظر العرض الثاني لمقالي، في: Besim S. Hakim, «Arab-Islamic Urban Structure», *Arabian Journal for Science and Engineering*, vol. 7, no. 2 (April 1982), pp. 69-79.

وكذلك تحليل الشارع في الفصل الثالث في: Hakim, *Sidi Bou Sa'id, Tunisia: A Study in Structure and Form of a Mediterranean Village*, pp. 19-56.

(٢٦) لقد أنشأت إطاراً للعمل تم نشره في: Besim S. Hakim, «Urban Design in Traditional Islamic Culture: Recycling its Successes», *Cities*, vol. 8, no. 4 (November 1991), pp. 274-277.

في ٧ حزيران/يونيو ١٩٩٧، ألقى خطاباً رئيساً في ندوة بصرية في العربية السعودية، وتحديدًا في الرياض، كانت قد نظمتها الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، لدى إكمال المرحلة الأولى من عملية التخطيط الثلاثية المراحل المعروفة باستراتيجية التطوير العاصمي للرياض. ارتكز أحد اقتراحاتي في تلك الحظبة على مبدأ اتخاذ القرارات على مستوى الحمي. كان هذا المبدأ جامزاً للعمل في كافة المدن والمساكن التقليدية في العالم الإسلامي واستبدل في حالة العربية السعودية بتركيبة اتخاذ القرارات من الأعلى إلى الأسفل في خلال منتصف القرن العشرين نتيجة التأثيرات الغربية ولأسباب متعلقة بتفضيلات سياسية محلية. وقد قضى اقتراحي بإنشاء منظمات مجاورة تكون مهمتها تنسيق القرارات المؤثرة في رفاهة حي يبا في ذلك مسائل متعلقة بالتصميم والتخطيط. وقد يتبب ذلك بوضع تشجع فيه الأحياء على التنافس مع بعضها البعض حول أفضل الأفكار والتصميمات التي من شأنها أن تخفف أو تحل مشاكل متشعبة وشائعة، مثل السلامة في الشوارع المجاورة، وتشجير الشوارع عبر غرس الأشجار والجنبت والحفاظ عليها، وإنشاء عمرات

وفي حال تنفيذ هذه الأفكار كافة، فإن تحقيقاً بهذه الأهمية سيكون ذا قيمة كبيرة، ليس للعالم الإسلامي وثقافته المتفرعة العديدة فحسب، بل سيكون أيضاً إسهاماً مهماً في فهمنا للتمدين والظاهرة المدينية كتعبير ثقافي ضمن سياق عالمي شامل.

مريجة للراجلين التي قد تضمن أمن وحماية النساء والأطفال. أما اقتراحي الثاني فهو إعادة كتابة رموز تخطيط المدينة بطريقة تستخدم الحكمة المتأصلة في الرموز التقليدية بدلاً من محاولة تثبيت تضمينات تم صوغها في أوائل الثمانينيات وقد أثبتت أنها دونية، كما يتضح في مختلف أنحاء المدينة. كما قابلت أيضاً مسائل مشابهة متعلقة ببلدات تاريخية في دول المغرب في شمال أفريقيا في محاضرة بعنوان: «إعادة إحياء نظام القواعد: مقارنة لإعادة إحياء قرى تقليدية في المغرب» في مؤتمر «المدينة الحية: المدينة العربية المسورة في الهندسة والآداب والتاريخ» الذي عُقد في طنجة (المغرب)، في حزيران/يونيو ١٩٩٦، برعاية المعهد الأمريكي للدراسات المغربية. وقد تم نشرها لاحقاً بالعنوان نفسه في: *Cities*, vol. 18, no. 2 (April 2001), pp. 87-92.

الفصل الرابع

المدن الموروثة

هيو كينيدي(*)

كثيرٌ من المدن التي وُجدت عند نشوء العالم الإسلامي، إذا لم يكن معظمها، كانت موجودة بشكل أو بآخر قبل مجيء الإسلام. هناك بالطبع استثناءات مهمة: الكوفة والبصرة في العراق، والفُسطاط في مصر، والقَيروان في تونس، وبغداد وسامراء بالطبع، وقد أنشئت كل هذه المدن بغية توفير قواعد للمستوطنين المسلمين ومراكز ملائمة جديدة للحكم.

ويبدو أن ثمة مدناً جديدة أخرى نشأت بصورة تدريجية استجابة للأنماط الجديدة للسلطة والاستيطان: مرسية في شرق الأندلس، وفاس في المغرب، والموصل في شمال العراق، وشيراز في فارس، وكرمان في جنوب إيران، جميعها أمثلة للنمط الأخير. كما مورست السلطة السياسية من مراكز قديمة: قرطبة ودمشق والرّي، ومرو، وهي مدن فُقدت أصولها في غياهب الأزمنة القديمة.

تشكّل المدن الموروثة في العصر الإسلامي الأول مجالاً مثيراً للدراسة، لأنها توفر لنا الفرصة لتفحص كيف أثر مجيء لغة النخبة ودينها الجديدين، وظهور أنظمة سياسية وعسكرية جديدة، في بنى الحياة اليومية.

(*) أستاذ اللغة العربية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية في لندن.

تقدّم الأدلة الأثرية أسس هذا التحقيق بالضرورة، لكنها غير مكتملة بطبيعتها ولا تجيب عن الأسئلة التي نطرحها. ولا تزال العديد من المدن التي ورثتها الدولة الإسلامية مزدهرة حتى اليوم، ويصعب استعادة ماضيها الدفين تحت شوارعها وأبنيتها الحديثة. فدمشق والقدس وحلب وقرطبة وبُخارى مواقع لا يزال فيها مركز المدينة القديمة مركزاً للحياة الحضرية اليوم. لكن ثمة عدداً كبيراً من المواقع الأخرى التي صمدت في الأزمنة القديمة وبقيت قائمة في الحقبة الإسلامية، لكنها هُجرت في وقت لاحق، ومن بينها جرش في الأردن (ولعلها فقدت شكلها الحضري في القرنين التاسع والعاشر)، ونيسابور في شمال إيران، ومرو في تركمانستان (هُجرتا عقب فتوحات المغول في الفترة ١٢١٨ - ١٢٢٠)، وهي مواقع مفتوحة على مصراعيها للتحقيقات الأثرية في تاريخها القديم والإسلامي. وربما كانت بُلخ مماثلة لها لو كانت الظروف السياسية في أفغانستان مشجعة لعلماء الآثار. وقد انتقلت المراكز الحضرية في بعض المدن الأخرى، ما يسمح بتفحص موقع المدينة القديمة والمدينة في العصر الإسلامي الأول. هذه هي حال سمرقند، حيث تقع أسوار المدينة القديمة وقلعتها، وقد دُمّرت في أثناء الغزوات المغولية، خارج المدينة الحديثة التي طوّرها التيموريون وخلفاؤهم. وتقدّم الفُسطاط صورة معقّدة حيث تمّ توسيع القلعة التي حصّنها الرومان، وترجع إلى عهد تراجان (٩٨ - ١١٧)، بإنشاء مدينة إسلامية إلى الشمال في القرنين السابع والثامن. وتمّ هجرها إلى حدّ كبير أيضاً في القرن الثاني عشر حين انتقل مركز الحياة الحضرية إلى نقطة أبعد شمالاً، إلى القاهرة، وهو ما سمح لعلماء الآثار بتقصّي المركزين الروماني والإسلامي المبكر في نهاية المطاف.

تختلف الأدلة الأثرية وتتنوّع كثيراً وتمكّنتنا الأنواع المختلفة من المعلومات من طرح أسئلة مختلفة. يمكننا على العموم التمييز بين المدن المبنية من الحجارة في الأراضي البيزنطية القديمة وبين المدن الساسانية المصنوعة من الطين والطوب في الشرق. لقد بدأ للتوّ استقصاء المدن المبنية من الطوب في العصر الإسلامي الأول في مصر. وثمة مراكز حضرية قديمة مبنية من الحجارة في إسبانيا وشمال أفريقيا، بالرغم من أنها لم تخضع على العموم لفحص وافٍ بقدر ما خضعت المواد المستخرجة من سورية.

تكمن أهمية التمييز بين المناطق وأساليب البناء في أنها تصيغ بصورة أساسية نوع الأسئلة التي يمكننا أن نطرحها في شأن شكل المدن الموروثة وطريقة تغييرها، وبقاء العمارة الحجرية أكثر من الطينية. ويمكننا أن نبدي ملاحظات عامة في مقاطعات

الخلافة الإسلامية كافة عن توزّع المدن وأيّها ازدهر وأيّها تراجع. وعلى مستوى أكثر تحديداً، تتفاوت الصورة كثيراً بين منطقة وأخرى. ففي سورية، وإلى حدّ أقل في الغرب الإسلامي، يمكننا النظر في الطبوغرافيا الإسلامية لبعض المدن، أي أنّ في وسعنا ملاحظة كيف تطوّرت خطط الشوارع وتصاميم المباني. يمكننا في مواقع مثل جرش^(١) وبيسان^(٢) أن نلاحظ تطوّر مشهد الشوارع، بل حتى في مدينة مثل حلب، التي يبنى فوقها باستمرار حتى يومنا هذا، ويمكننا التوصل إلى أحكام ذات مغزى عن طريقة تغيّر خطط الشوارع، أو عدم تغيّرها، مع مجيء الإسلام. ونادراً ما تكون مثل هذه الدقّة ممكنة في الشرق المسلم. بل إنّ المعلومات التي تمّ التوصل إليها في مواقع مثل سمرقند ومرو وقصر أبو نصر، حيث أجريت بعض الحفريات العلمية في البيئة الحضرية المبنية، كانت محدودة. وتعرض الحفريات في مدينة مرو القديمة المساكن الساسانية المتأخرة، لكنها لا تقدّم كثيراً من المعلومات عن تطوّرها اللاحق، هذا إذا قدّمت أي شيء. وتقدّم سمرقند بعض المعلومات عن تطوّر مركز النخبة وقصر أبو نصر، وتطوّر النواة الحضرية الصغيرة داخل أسوار القلعة. وبالرغم من هذه المحدوديات، يمكن أن تقدّم لنا الوقائع الإسلامية الشرقية صورة عن الجغرافية الكبيرة للمدينة ومقدار توسّع المدن قبل الإسلامية أو تغيّر مواقعها في العصر الإسلامي الأول.

أودّ أن أتفحص في هذا الفصل ثلاث مناطق رئيسية في العصر الإسلامي الأول، بلاد الشام، وإيران والشرق الإسلامي، والغرب الإسلامي، مبتدئاً بتوزّع المدن الموروثة ثمّ بمورفولوجيا المواقع كل على حدة.

أولاً: مدن بلاد الشام^(٣)

نجد أوضح الأدلة على المدن الإسلامية الموروثة في بلاد الشام، في المقاطعات الشرقية التي حكمها البيزنطيون. ومن بين المدن الإسلامية الكبيرة، بقيت دمشق والقدس وحافظتا على أهميتهما في العصر الإسلامي الأول. بل إنّ دمشق توسّعت في تلك الفترة

(١) عن خطة الشوارع في جرش، انظر: Carl H. Kraeling, *Gerasa: City of the Decapolis* (New Haven, CT: American Schools of Oriental Research, 1938).

(٢) Yoram Tsafrir and Gideon Foerster, «Urbanism at Scythopolis-Bet Shean in the Fourth to Seventh Centuries», *Dumbarton Oaks Papers*, Dumbarton Oaks Research Library and Collection, no. 51 (1997), pp. 85-146.

(٣) الكتابات عن سورية الرومانية والإسلامية كثيرة. للحصول على مدخل إلى سورية في الأزمنة القديمة، انظر: Warwick Ball, *Rome in the East: The Transformation of an Empire* (London: Routledge, 2000), and Kevin Butcher, *Roman Syria and the Near East* (London: Routledge, 2003).

بسبب دورها السياسي كعاصمة للخلافة الأموية بين عامي ٦٦١ و ٧٥٠، وبالرغم من أننا لا نعرف الكثير عن التاريخ الحضري، مقارنة بالتاريخ الأثري، للقدس في العصر الإسلامي الأول، فإن موقعها كمركز ديني يوحى بأن الحياة الحضرية استمرت.

لم يكن أداء عواصم المقاطعات الأخرى على هذا القدر من الجودة. فقد كانت أنطاكية عاصمة الشرق الروماني بأكمله في مرحلة متأخرة، وهي إحدى مدن الإمبراطورية العظيمة ومقر إحدى بطريركيات الكنيسة المسيحية القديمة الأربع. توحى الأدلة، المكتوبة والأثرية على السواء، بأن المدينة أخذت تتراجع اقتصادياً وسياسياً منذ أواسط القرن السادس، لكنها احتفظت بصدارتها السياسية حتى نهاية الحكم البيزنطي. وحافظت المدينة على بقائها في العصور الإسلامية كمدينة إقليمية متوسطة الحجم^(١) لكنها عانت على المدى الطويل صعود نجم مدينة حلب المجاورة، وهي مدينة قديمة لكنها نمت بسرعة في القرون التي تلت الفتح الإسلامي. وبقيت خالكيس باسم قنشرين في العصر الإسلامي الأول، واستوطن المسلمون باكراً خارج أسوار المدينة الكلاسيكية. وبقيت مهمة سياسياً لفترة من الزمن كعاصمة للجند الذي يحمل اسمها، لكن حلب أيضاً حلت مكانها قبل نهاية العهد الأموي كأهم مدينة في المنطقة. وبقيت أفاميا مركزاً سياسياً مهماً حتى نهاية القرن السادس، لكنها عانت كثيراً أعمال السلب والنهب التي قام بها الساسانيون سنة ٥٧٣. لم تقاوم المدينة الجيوش الإسلامية كثيراً، وتراجعت الحاضرة القديمة الكبرى لسورية، إلى حجم بلدة صغيرة ومكانتها.

والى الجنوب، تابع المركز الحضري سيثوبوليس/ بيسان، عاصمة فلسطين، نموها واستمر إنشاء الشوارع والأروقة المعمدة الجديدة حتى نهاية العهد الأموي، بالرغم من أن ذلك قد يمثل استمرار الحيوية في جزء صغير فقط من منطقة في المدينة القديمة^(٥).

وللاطلاع على التغيرات التي حدثت في أواخر الأزمنة القديمة، انظر: Clive Foss: «The Near Eastern Countryside in Late Antiquity: A Review Article,» *JRA, Supplementary Series*, vol. 14 (1995), pp. 213-234, and «Syria in Transition, AD 550-750,» *Dumbarton Oaks Papers*, Dumbarton Oaks Research Library and Collection, no. 51 (1997), pp. 189-270.

وللاطلاع على التغيرات التي حدثت في العصر الإسلامي الأول، انظر: Hugh Kennedy, «From Polis to Medina: Urban Change in Late Antique and Early Islamic Syria,» *Past and Present*, vol. 106 (1985), pp. 3-27.

(١) انظر: Hugh Kennedy, «Antioch: From Byzantium to Islam and Back again,» in: John Rich, ed.: *The City in Late Antiquity* (London: Taylor and Francis, 1992), pp. 181-198.

(٥) انظر: Hugh Kennedy, «Gerasa and Scythopolis: Power and Patronage in Byzantine Cities of Bilad al-Sham,» *Bulletin d'études orientales*, vol. 52 (1997), pp. 199-204.

عانت المدن الساحلية كثيراً الظروف السياسية عندما أصبح البحر المتوسط منطقة حرب بدلاً من وسيلة مواصلات، بالرغم من أنه يجب عدم إغفال أن الغزوات الفارسية التي جرت في العقد الأول من القرن السابع أدت بالفعل إلى انقطاع قسم كبير من التجارة القديمة. وإضافة إلى معاناة بيروت من الدمار الناتج من تراجع التجارة البحرية، أحدث زلزالٌ دماراً كبيراً بالمدينة في أواسط القرن السادس. وقد تكون تعافت من ذلك، لكن لا يوجد أي أثر لهذا التعافي في الكتابات أو السجل الأثري^(٦). ويقول الجغرافي اليعقوبي إن بيروت، إلى جانب مدن ساحلية أخرى مثل طرابلس وجبيل وصيدا، كان يسكنها الفرس الذين نقلهم إلى هناك الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان^(٧). ويوحى ذلك بأن استمرارية السكان كانت ضئيلة أو انقطعت بالرغم من استمرار السكن في المواقع. ويبدو أن صور وقيسارية بقيتا مركزين حضريين مهمين حتى أوائل القرن السابع، وكانت قيسارية المدينة الوحيدة التي قاومت الفاتحين المسلمين مدة طويلة. وعقب الفتح الإسلامي، أسدل عليهما ستار من الغموض النسبي، وعلى غرار أنطاكية، لا تُعزى أي أهمية إليهما لحيويتيهما التجارية بقدر ما تُعزى إلى دورهما العسكري أو السياسي. ولم تبدأ الموانئ الساحلية للشرق بالتوسع ثانية إلا في القرن الحادي عشر مع ظهور التجار الغربيين في شرق المتوسط.

لم تحظُ بُصرى، عاصمة مقاطعة شبه الجزيرة العربية، بأهمية تُذكر في العهود الإسلامية. وثمة ما يوحى باستمرار أهميتها التجارية في أواخر القرن السادس في قصة بحيري التي تصف قدوم النبي محمد (ﷺ) في شبابه إلى المدينة في عداد قافلة تجارية قادمة من مكة وإعجابه بتعاليم الراهب التقي. لكننا نعرف من مصادر أخرى أن الغساسنة المنشقين نهوها في أواخر القرن السادس، وفقدت في العهد الأموي أي أهمية سياسية ربما كانت لا تزال تحتفظ بها أمام مدينة دمشق المجاورة^(٨).

ولا تُذكر أكثر العواصم القديمة إيجالاً في الجنوب، البتراء، في روايات الفتح الإسلامي، ولا يوجد أي دليل أثري على منشآت جديدة بعد أواسط القرن السادس. وقد تعرضت الكنيسة الكبيرة التي اكتُشفت مؤخراً للدمار بحريق شب في أواسط القرن

(٦) Linda Jones Hall, *Roman Berytus: Beirut in Late Antiquity* (New York: Routledge, 2004).

(٧) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، كتاب البلدان، تحقيق جان دي خويا (ليدن: بريل، ١٨٩٢)، ص ٣٢٧.

(٨) Maurice Sartre, *Bostra: Des origines à l'islam*, bibliothèque archéologique et historique (Paris: Guethner, 1985).

السادس ولم تُبن ثانية في وقت لاحق^(٩). ويوحى هذا الدليل السلبي بأن المدينة فقدت شخصيتها الحضريّة تماماً قبل مئة عام على مجيء المسلمين.

إذا كان قليل من المراكز السياسية الكبيرة في الحقبة المتأخرة من الإمبراطورية الرومانيّة بقي كمدن كبيرة في الفترة الإسلاميّة، فإنّه يبدو أنّ ثمة استمراريّة أكبر كثيراً للمدن الصغيرة، ولا سيّما تلك البعيدة من الساحل. وكما هو الحال في الغالب في هذه الفترة، تظهر الأدلّة الأثريّة معلومات أكثر من تلك التي تعرضها المصادر الأدبيّة القليلة في القرنين الأولين من الحكم الإسلامي. ويمكننا أن نعرف من خلالها أنّ مدينة مثل جرش بقيت أهلة طوال العهد الأمويّ. وقد أنشئت مساكن جديدة ومسجد جديد كبير لاستيعاب أعداد السكّان المسلمين المتنامي^(١٠). أما عمّان فقد أعيد بناء القلعة القريبة منها بشكل شامل، وفي أواسط القرن الثامن، كانت تتباهى بقصر جديد ومسجد وحمامات ومساكن للنخبة في حين بني مسجد آخر في أسفل المدينة. يقدّم كل ذلك انطباعاً بالحيويّة العمرانيّة التي لا تجد سوى صدى صغير في المصادر المكتوبة. وعلى غرار ذلك، يوحى تطوّر سوق جديدة على طول الشارع المعمّد الذي شكّل العمود الفقريّ لمدينة تدمر استمرار أو انتعاش الأهميّة التجاريّة لهذه المدينة الرومانيّة.

إنّ بلاد الشام هي المنطقة الوحيدة التي يمكننا السجّل الأثريّ من إجراء بعض التقييم لتأثير الفتوحات الإسلاميّة في البيئة العمرانيّة والمعماريّة للمدن، وندخل هنا في نقاش حول طبيعة المدن في أواخر الأزمنة القديمة. فمسألة شكل المدينة في تلك الأزمنة ومظهرها هو موضوع خلافيّ مفعم بالحيويّة. فثمة افتراض ضمّنّي بأنّ المدينة الكلاسيكيّة بخطّتها المنتظمة وشوارعها العريضة المعمّدة ومبانيها الضخمة بقيت على حالها دون تغيير، إلى أن أدخل مجيء الإسلام نوعاً جديداً من «المدن الإسلاميّة» ذات الشوارع الضيقة الملتوية والمنازل ذات الجدران المصمتة مقابل غياب المباني العامّة بخلاف المسجد. وقد جرى التشكيك مؤخراً في صحّة هذه الصورة للتغيّر المفاجئ وتعديلها. فمن الواضح أنّ انتظام المدينة الكلاسيكيّة وضخامتها، إذا ما وجدت أصلاً بهذه الصورة النقيّة، شهد تغيّراً وتطوّراً في أواخر الأزمنة القديمة. فقد هُجر كثير من المباني الضخمة للحقبة الكلاسيكيّة، مثل المسارح والحمامات الكبيرة، ولم يحافظ

(٩) Zbigniew Fiema [et al.], *The Petra Church*, 3 vols. (Amman: American Center of Oriental Research Publications, 2001).

(١٠) Alan Walmsley, «The Newly-Discovered: انظر: هذا الاكتشاف، انظر:»

Congregational Mosque of Jarash in Jordan,» *Al-'Usur al-Wusta: The Bulletin of Middle East Medievalists*, vol. 15 (2003), pp. 17-24.

عليها عندما تغيّرت الظروف. بل إنّ ما هو أكثر أهمية من ذلك إغلاق المعابد العظيمة وخرابها، وهي عملية بدأت في أواسط القرن الرابع واستكملت إلى حدّ كبير في أوائل القرن السادس. كانت هذه المعابد قد شكّلت النقطة المحورية في خطط العديد من المدن، كما كانت الطرق المقدّسة المفضية إليها الشوارع الأعرض والأكثر رُقياً، في حين شكّلت العقود والأروقة التي أضفت المهابة على الطرق الموكّبة المعالم المركزيّة لمشاهد المدينة. وقد عنت هجرة المعابد الوثنيّة في مدينة مثل جرش في القرنين الخامس والسادس تمزّق النسيج العمراني بأكمله. وعنى صعود المسيحية بالطبع إقامة مباني دينيّة جديدة في المدينة القديمة، ما أدى إلى إنشاء طرق وأمكنة جديدة.

لم تكن المباني الضخمة فحسب هي التي شهدت تغييراً في أواخر الأزمنة القديمة. فقد بدأت الشوارع العريضة والمساحات المكشوفة المنتظمة في المدينة القديمة تتآكل، وتعدّت عليها المساكن ودكاكين البيع بالمفرّق. وأصبحت شوارع المدن في أواخر الأزمنة القديمة في كل أنحاء الشرق تبدو مثل الدروب الضيقة للمدينة الإسلاميّة الأصليّة التي جاءت في وقت لاحق. لكنّ التطوّر لم يكتمل. ففي عواصم المقاطعات، مثل سيثوبوليس، أنشأ الحكّام شوارع وساحات جديدة في القرن السادس، وعندما أمر الإمبراطور جوستينيان بإعادة بناء أنطاكية بعد كارثة الزلزال الذي وقع عام ٥٤٠، أوضح بجلاء أنّه يريد لها مدينة كلاسيكيّة على الطراز القديم، مع الساحات والأروقة المعمّدة والمسارح والحمامات. وعندما وسّع الإمبراطور نفسه الطريق الشماليّة الجنوبيّة للقدس نحو الكنيسة الجديدة التي كان يبنّيها، أنشأ شارعاً عريضاً معمّداً كان أغسطس أو هادريان ليفاخرا به.

أثر مجيء الحكم الإسلامي في المدن بالطبع. وكان أوضح الاختلافات ظهور نوع جديد من المباني الدينيّة، ألا وهو المسجد. وقد تفاوت تأثير المسجد في مشهد المدينة كثيراً من مدينة إلى أخرى. ففي دمشق، احتلّ الجامع الأموي الساحة العظيمة التي كانت تحيط سابقاً بمعبد وثنيّ وكاتدرائيّة مسيحيّة. وفي القدس، أصبح الفناء الواسع لمعبد هيرود، الذي ربما هُجر منذ تدمير المبنى بعد الفتح الرومانيّ عام ٧٠ ميلاديّة، مركزاً للدين الإسلاميّ عند بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة. وفي كلتا الحالتين شغلت المباني الدينيّة الجديدة مواقع تقليديّة مقدّسة.

كانت هاتان الحالتان غير عاديّتين. ففي المدن الأخرى كان يبنى المسجد في منطقة سكنيّة أو تجارية. مرّة أخرى يأتينا أوضح الأدلّة من جرش حيث يمكننا أن نرى موضع الكاتدرائيّة المسيحيّة المبنية في القرن الرابع والمسجد المبنّي في القرن السابع

أو الثامن في البنية العمرانية القائمة. كان المسجد، الذي اكتُشف وكُشف عن آثاره جزئياً في الستين الأخيرتين، مبنى كبيراً مستطيلاً ومعمّداً، شُيّد عند تقاطع طرق في خطة الشوارع الكلاسيكية يبدو أنّه كان مركز مستوطنة إسلامية مبكرة. وفي حلب، ربما احتل المسجد في قلب السوق الموقع المعتمد كأساس لساحة سوق قديمة، في الشارع المقابل للكاتدرائية. وثمة سجلات أدبية في بعض المدن توحى بتشارك المكان المقدس بين المسيحيين والمسلمين، حيث يشغل المسجد جزءاً من الكنيسة. وتلقى هذه الصورة دعماً أثرياً مدهشاً من قرية صغيرة في النقب تدعى شبطا، حيث شغل المسجد الصغير جزءاً من المجاز المؤدي إلى صحن الكنيسة من دون أن يعطل عمل مبنى الكنيسة على ما يبدو. وقد لحق الخراب بالكنيسة والمسجد على السواء عندما هُجرت القرية، ربما في القرن الثامن أو التاسع.

خضع تأثير الفتح الإسلامي في خطة الشوارع القديمة لكثير من النقاش، وهو مسألة مركزية في ظهور «المدينة الإسلامية». في دراسة رائدة عن حلب^(١١)، رأى جان سوفاجي أنّ خطة الشوارع الكلاسيكية بقيت على حالها في الواقع حتى القرن العاشر عندما أتاحت فترة من الفوضى وعدم وجود حكومة حازمة للتجار بناء أكشاكهم في وسط الشارع، وبالتالي أنشأوا السوق كما لا تزال قائمة حتى اليوم. وتبيّن الحفريات الأثرية الحديثة وجوب إدخال تعديل على هذه الصورة. ترجع السوق في الشارع المعتمد في تدمر، وهي تؤكد من عدّة نواحٍ التغيرات التي اقترحها سوفاجي، إلى القرن السابع أو الثامن، قبل نحو مئتي سنة عن الزمان المقترح. وتوحى أدلة حديثة من سيثوبوليس بوجهة نظر جديدة مفاجئة. ففي وسط المدينة، كان يوجد شارع عريض ومستقيم على جانبيه أروقة معمّدة. يرجع ذلك من الناحية الأسلوبية إلى العهد البيزنطي ويعتبر دليلاً على استمرار التزام السلطات بمعايير التخطيط المدني الكلاسيكي. غير أنّ الحفريات كشفت عن نقوش فسيفسائية تظهر بدون شك بأن الشارع أنشأه الوالي المحلي بناء على أوامر الخليفة هشام بن عبد الملك في العقد الرابع من القرن الثامن^(١٢). وهكذا لم تكن السلطات المسلمة تنشئ معالم عمرانية ذات وجه كلاسيكي واضح فحسب، بل إنّ الحاكم كان يتصرّف مثلما كان يفعل أسلافه قبل الإسلام، تجميل البيئة العمرانية للمدينة وتعزيزها ووضع نقوش تحفظ ذكرى أفعاله ورعاية الحاكم الذي أمر بذلك.

Jean Sauvaget, *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIX^{ème} siècle* (Paris: Geuthner, 1941).

Tsafrir and Foerster, «Urbanism at Scythopolis-Bet Shean in the Fourth to Seventh Centuries,» (١٢) p. 139.

توحي الأدلة المستمدة من بلاد الشام بأن مجيء الدين الإسلامي الجديد أثر في مظهر المدن ووظائفها، لكن هذه التغيرات كانت من عدة نواح استمراراً أو تحويراً أو تسريعاً للتغير الذي كان جارياً بالفعل قبل ولادة الدين الجديد. غير أن طبيعة الأدلة تجعل من الصعب معرفة إذا ما تكرر هذا النمط في مناطق أخرى من الخلافة.

ثانياً: مدن العراق

على غرار بلاد الشام، كان العراق القديم أرضاً عامرة بالمدن. بعضها مراكز سياسية كبرى، ولا سيما العاصمة الكبرى طيسفون التي سماها العرب المدائن، إذ يبدو أنها كانت تضم عدداً من الأقسام المختلفة. وكان هناك الكثير من المدن الأصغر في المقاطعات التي لم تخلف كبير أثر في سجل علم الآثار، ويُعزى السبب الأكبر في ذلك إلى أنها بنيت من الطوب الطيني. وقد انحصر التقصي العلمي لهذه المواقع بأكمله في أعمال المسح الميداني في الحقل. ويمكن أن يكون ذلك مفيداً جداً في الإحياء بمناطق الاستيطان في بعض الفترات، لكنه لا يعطينا أي فكرة عن استخدام خطة الشوارع الموروثة أو أنماط المباني. يقدم الجغرافيون العرب المبكرون أوصافاً شعرية تقريباً لازدهار بلدات صغيرة مثل دير العاقول وفم الصلح، ومساجدهما وأشجار النخيل المتجمعة على ضفاف القنوات. ولم تكن العديد من هذه البلدات مستوطنات قديمة البتة، وفقاً لمعايير بلاد ما بين النهرين، لكنها تطوّرت في أثناء التوسع الزراعي الكبير الذي حدث في المنطقة إبان العهد الساساني. كانت المستوطنة العمرانية المميزة للعهد الساساني هي بلدة السوق الصغيرة بدلاً من المدن الكبرى.

من المدن النموذجية في المنطقة النهروان^(١٣)، حيث تعبر الطريق إلى الهضبة الإيرانية القناة التي تحمل ذلك الاسم. وقد وصف ابن رُسته في بداية القرن العاشر وصوله إلى النهروان، «عبر مجرى القناة»، بعد سفره مسافة أربعة فراسخ من بغداد عبر بساتين النخيل المتواصلة والحقول المحروثة. «وفي الجانب الغربي أسواق ومسجد جامع ونواعير تسقي أرضيها وفي الجانب الشرقي مسجد جامع وأسواق وحول المسجد خانات ينزلها الحاج والمارة»^(١٤). ويقال إن المدينة كانت تضم أيضاً جالية يهودية كبيرة. وتوحي أعمال المسح في الحقل بأن المستوطنة المقامة في الضفة الغربية

Robert Adams, *The Land Behind Baghdad: A History of Settlement on the Diyala Plains* (١٣) (Chicago, IL: University of Chicago, 1965), pp. 91-92.

(١٤) أحمد بن عمر بن رسته، الأعلام النبوية، تحقيق ميشال جان دي خويا (ليدن: بريل، ١٨٩٢)، ص ١١٣.

غلب عليها التراجع بالفعل في القرن العاشر. وعندما كتب المقدسي في أواخر القرن العاشر، كان المسجد في الضفة الشرقية المبنى الوحيد الذي لا يزال مستخدماً. وبحلول القرن الحادي عشر، كان الموقع قد هجر بالفعل.

في الأزمنة الساسانية، كانت إسكاف بني جنيد^(١٥) أكبر بلدة في حوض نهر ديبالا بعد العاصمة المدائن نفسها، وتبلغ مساحتها أربعة كيلومترات مربعة. وقد بقيت أهلة في العصر الإسلامي الأول، وتباهت، خلافاً لما هو معتاد في شأن البلدات الصغيرة في المنطقة، بقصر في العهد الأموي يفترض أنه بُني لآسياد بني جُنيد الذين سمّيت البلدة باسمهم العربي. وفي الوقت نفسه بُني مسجد فوق منشآت ساسانية مهجورة. لكنّ هذا الازدهار في العصر الإسلامي الأول لم يدم: توحى أعمال المسح السطحية بأن مساحة المستوطنة لم تعد تبلغ سوى نحو عشرين هكتاراً في القرن العاشر، أي واحد على عشرين من أكبر مساحة بلغت في الفترة الساسانية. ولعلّ هذه المستوطنة، الموجودة في قلب المدينة، كانت محاطة بأكوام من الأنقاض. وفي نهاية القرن الحادي عشر أضيفت مثدنة صغيرة إلى المسجد وقُسمت غرف القصر بفواصل تقريبية لإيواء شاغليه من ذوي المكانة المتدنية. وبعد ذلك هُجرت المستوطنة القديمة تماماً.

كانت المدائن عدة مدن في الواقع^(١٦). لقد أنشأ أردشير الأول مدينة دائرية تقريباً تدعى رسمياً «واه أردشير». ويبدو أنها بقيت مركزاً للحكومة والمقرّ الشتويّ للأكاسرة الساسانيين حتى منتصف القرن الخامس عندما تحوّل مجرى نهر دجلة وقسم المدينة إلى قسمين. ولعلّ المدائن تطوّرت بعد ذلك إلى الجنوب من المدينة الدائرية وشرقها، وهنا أنشأ الساسانيون، ربما في القرن السادس، قصر الاستقبال العظيم ذا العقود المعروف بإيوان كسرى. وقد أدهش القصر الساسانيّ البنّائين المسلمين الأوائل وبقي قائماً، جزئياً على الأقل، حتى اليوم الحاضر. بقيت أجزاء من المدينة مأهولة بعد الفتح الإسلامي. غير أنها فقدت دورها السياسيّ عند إنشاء مدينتي الكوفة والبصرة الإسلاميتين الجديدتين: يُعطى هذا الانتقال بعداً رمزياً، إذ يقال إنّ بوابات المدائن نُقلت إلى الكوفة. ولا بد أن إنشاء بغداد وجه ضربة إضافية إليها؛ ففي نهاية القرن التاسع كانت المدائن لا تزال مدينة تجارية مزدهرة تضمّ مسجدين وسوقاً^(١٧)، لكنها ربما هُجرت في

Adams, Ibid., pp. 95-96.

(١٥)

(١٦) للحصول على عرض مجمل عن المدينة مع بليوغرافيا كاملة، انظر: Jens Kroger, «Ctesiphon,» and «Ayvan-e Kesra,» in: *Encyclopedia Iranica*.

تقدّم هذه المادّة عن «إيوان كسرى» خطّة تقريبية عن الموقع.

(١٧) ابن رسته، المصدر نفسه، ص ١٨٦.

القرن الحادي عشر. لم تُستكمل الحفريات في الموقع ومن الصعب تقييم مقدار إعادة استخدام المنشآت الساسانية وتعديلها في الحقبة الإسلامية.

عانت المدن الموروثة في العراق إنشاء المدن الإسلامية الجديدة؛ فقد اجتذبت الكوفة والبصرة المستوطنين بعيداً من البلدات القديمة، وأدى تطوير حاضرة بغداد إلى اجتذاب التجارة والسكان الطموحين بعيداً من المدن والمراكز القديمة. لكن تراجع نظم الري منذ القرن التاسع وما يليه هو الذي أدى في المقام الأول إلى القضاء على ازدهار هذه المدن وحيويتها^(١٨). وفي القرن الحادي عشر، لم يعد أي من المدن التي ورثها الفاتحون المسلمون من الساسانيين قائماً كمستوطنات حضرية.

ثالثاً: مدن إيران

على غرار حالتي سورية والعراق، تقيّد طبيعة الأدلة الأثرية إدراكنا للطريقة التي استخدم بها المسلمون المدن التي ورثوها وطوّروها. وبالرغم من الأعمال التي جرت مؤخراً في مرو^(١٩)، وسمرقند^(٢٠)، وبعض الدراسات وأعمال المسح التي أجريت قبل ذلك في فارس وإصطخر وفيروز أباد، فإنه لم يتم تفحص أي مدينة كبيرة في إيران الكبرى على النحو الكافي لكي نحصل على عرض مجمل عن التغير الحاصل خلال هذه الفترة. فلم نستطع على سبيل المثال استعادة الخطة المفصلة لمسجد حضري كبير من الفترة ما قبل السلجوقية^(٢١) أو معرفة كيف تلاءمت المباني الدينية الجديدة مع النسيج العمراني القائم.

في بعض المناطق، حلّت المراكز التي أنشئت حديثاً محلّ المدن السابقة على الإسلام. ويأتي أوضح مثال على ذلك من فارس في جنوب غرب إيران حيث حلّت

(١٨) David Waines, «The Third-century Internal Crises of the Abbasids,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 20 (1978), pp. 282-303, and Hugh Kennedy, «The Decline and Fall of the First Muslim Empire,» *Der Islam*, no. 81 (2004), pp. 3-30.

(١٩) Georgina Hermann, *Monuments of Merv: Traditional Buildings of the Karakum* (London: Society of Antiquaries of London, 1999).

(٢٠) Frantz Grenet, «De la Samrkand antique a al Samarkand islamique: Continuités et ruptures,» *paper présenter à: Colloque international d'archéologie islamique: IFAO, le Caire, 3-7 février 1993* (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1998), pp. 387-402.

(٢١) الاستثناءات الجزئية الوحيدة هي طريق خانة في دمعان في القرن الثامن أو التاسع ومسجد ناين، ربما من القرن العاشر. لكن لم يكن أي من هذين الاستثناءين مدينة كبيرة، ولم يتضح كيف تلاءمت المساجد مع الإطار العمراني المعاصر. للاطلاع على المساجد المبكرة في إيران، انظر: Barbara Finster, *Fruhe Iranische Moscheen* (Berlin: D. Reimer, 1994).

شيراز محل المراكز الحضريّة القديمة. ويبدو أنّ موقع شيراز نفسها انتقل من الحصن المعروف اليوم بقصر أبو نصر في أعلى التلّ إلى مقربة من موقع مدينة شيراز الحديثة في السهول^(٢٢). وقد يكون هذا الانتقال من موقع صغير محصّن إلى موقع أكبر مكشوف أمراً معهوداً في المدن الإيرانيّة الأخرى. حافظت بلدات فارسيّة صغيرة أخرى على وجودها وأصبحت فيروز أباد/ غور عاصمة سياسيّة مهمّة ثانية في القرن العاشر. وفي ولاية كرمان إلى الشرق، حلّت مدينة كرمان في القرن الحادي عشر محلّ العاصمة الساسانيّة والإسلاميّة في الحقبة المبكّرة.

يوجد في بعض العواصم الإقليميّة في فارس (إصطخر وأرجان وبيشاپور وفيروز أباد وداراب) أدلّة أثريّة على إنشاء مستوطنات إسلاميّة مبكّرة، إلى جانب المدن الساسانيّة القائمة، كانت بمثابة امتدادات خاصّة بالقوّات العسكريّة^(٢٣). ففي إصطخر كانت المدينة الإسلاميّة القديمة منطقة مسوّرة بجدار وتبلغ مساحتها نحو ٤٠٠م^٢، وتضمّ مسجداً وسوقاً في وسطها. وفي بيشاپور، كان قسم من المستوطنة الإسلاميّة المبكّرة يقع في الحدائق إلى الغرب من المدينة الساسانيّة الضخمة، لكن الأدلّة توضح أيضاً أنّه جرى تعديل بعض العمارة السابقة في هذا الموقع الساسانيّ الملكيّ لتستخدم كمساجد. وفي مدينة فيروز أباد، بدا أنّ المستوطنة الإسلاميّة المبكّرة شغلت قسماً من المنطقة المسوّرة الأصليّة. وثبتت الأدلّة المكتوبة والأثريّة أنّ العواصم الإقليميّة الخمس لفارس استمرّت عامرة، وربما توسّعت، في الأزمنة الساسانيّة والإسلاميّة المبكّرة، وتلا ذلك الاضمحلال والهجرة ابتداء من القرن الحادي عشر فما يليه.

في خراسان، بقيت المدن التي كانت مهمّة قبل الإسلام مراكز للسكنى والسلطة السياسيّة حتى الغزوات المغوليّة. فقد ازدهرت الرّي ونيسابور ومرو وبلخ وبُخارى

(٢٢) للاطلاع على شيراز في الحقبة الإسلاميّة الأولى، انظر: Donald Whitcomb, *Before the Roses and Nightingales: Excavation sat Qasr-E Abu Nasr, Old Shiraz* (New York: Metropolitan Museum of Art, 1985).

(٢٣) انظر: Donald Whitcomb, «Trade and Tradition in Medieval Southern Iran» (Unpublished PhD Thesis, University of Chicago, 1979).

وأنا مدين بالشكر للأستاذ ويتكومب لتزويدي بنسخة منها. وعن العمران في بيشاپور، انظر: Roman Ghirshman, *Fouilles de Chapour: Bishapour I* (Paris: Persia, 1971), pp. 21-36.

وعن أرجان، انظر: Heinz Gaube, *Die Sudpersische Province Arragan: Kuh-Giluyeh von der Arabischen Eroberung bis zur Safawidenzeit* (Vienna: [n. pb.], 1973).

وعن داراب، انظر: Peter Morgan, «Some Remarks on a Preliminary Survey in Eastern Fars», *Iran*, no. 41 (2003), pp. 323-338.

وسمرقند في مواقعها الساسانية، بالرغم من أنها تغيرت في بعض النواحي كما سنرى. وفي خوارزم، بقيت كاث عاصمة إقليمية، وبقيت جرجان مدينة مهمة في السهوب إلى جنوب شرق بحر قزوين.

لم تكن استمرارية الموقع تعني استمرار الطبوغرافيا المدنية، إذ نرى في كل أنحاء المنطقة مدناً ساسانية تتسع خارج نواها القديمة المحصنة وتطور ضواحي جديدة، وهي ضواحي حلت محل المدينة القديمة في بعض الأحيان كمراكز للسلطة وسكن عليّة القوم.

ربما تكون مدينة نيسابور أوضح مثال على ذلك^(٢٤). فقد كانت المدينة التي وجدها الفاتحون العرب تتكوّن من حصن بيضوي الشكل من جانب واحد من المدينة الداخلية. وكان الاثنان محاطين بسور من الطين والطوب يمكن تمييزه بسهولة في التصوير الجوي. وثمة دليل على وجود ريف أو مدينة خارجية خلف هذه الحدود. وقد حسب بوليت بأن مساحة المدينة بلغت ١٧, ٦ هكتار تقريباً، ويوحى استخدام كثافة تبلغ ما بين مئة ومتي نسمة في الهكتار بأنّ تعداد سكّانها راوح بين ١٧٦٠ و ٣٢٥٠ نسمة؛ وذلك، كما يقول، «لا يزيد على حامية لحماية طريق التجارة عبر خراسان»^(٢٥).

في أثناء الحصار الذي فرضته قوات عبد الله بن عمير لمدة تسعة أشهر على المدينة في الفتوحات الإسلامية الأولى، بني مسجد خارج أسوار المدينة. وبعد الاستيلاء عليها، بني مسجد ثانٍ في موقع معبد النار الرئيسي، وتلك مصادرة رسمية للموقع الديني الرئيسي. وفي القرون الثلاثة ما بين الفتح العربي والأوصاف التي قدّمها الجغرافيان الإصطخري وابن حوقل، شهدت المدينة توسعاً كبيراً. فقد أنشئ جامع كبير يدعى الجامع العتيق، لا تزال بعض آثاره قائمة حتى اليوم، جنوب المدينة. وطوّرت حيّ تجاريّ إلى غرب المدينة مباشرة. ويوصف ذلك الحيّ في المصادر العربية بالمرّبع، ويبدو أنّه اتخذ شكل تقاطع طرق تمتد الأسواق على طول شوارعه الأربعة. كما يبدو أنّ ذلك مثال مبكّر على الـ «تشهار سو»، أي الأسواق الأربع، الذي ميّز المدن الإيرانية لاحقاً. وربما امتدت الأسواق في زمن ابن حوقل نحو ٢ كم من الشرق إلى الغرب.

(٢٤) انظر: Richard Bulliet, «Medieval Nishapur: A Topographic and Demographic Reconstruction», *Studia Iranica*, vol. 5 (1976), pp. 67-89.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٨٧.

وفي الجوانب الأخرى من السوق في المدينة القديمة، أنشأت السلطات الإسلامية دار الإمارة بتاريخ غير معروف من القرنين الإسلاميين الأولين. تجدر الإشارة هنا إلى أن مركز الإمارة الجديد لم يكن في القلعة القديمة وإنما في موقع غير مسور في الظاهر على بعد ٢ كم. وفي أوائل القرن التاسع، تحت حكم الطاهريين، أصبحت نيسابور عاصمة ولاية خراسان بأكملها وأنشئ حي رسمي جديد تماماً إلى الغرب.

وفي القرن العاشر، ربما بلغ قطر المدينة ٦ كم عندما وصلت إلى مداها الأقصى. ويقدر بوليت مساحة المنطقة المبنية بنحو ١٦٨٠ هكتاراً. وذلك يسمح بأن يكون تعداد سكانها ٣٣٦٠٠٠ نسمة، لكن إذا أخذت المساحات الفارغة والمناطق المتدنية الكثافة بالحسبان، فإنه يميل إلى الاعتقاد بأن تعداد سكانها تراوح بين ١١٠٠٠٠ و ٢٢٠٠٠٠ نسمة^(٢٦).

ويمكن رؤية الاتجاهات نفسها في تاريخ مرو. فقد كانت مرو مدينة كبرى، المركز الساساني الرئيسي المتقدم في الجهة الشمالية الشرقية من الإمبراطورية ومقر المرزبان، المسؤول عن الدفاع عن المنطقة. وكما هو الحال في نيسابور، كانت المدينة القديمة تضم قلعة بيضوية الشكل إلى حد ما (تعرف باسم حصن القلعة) قائمة عند أحد جوانب المدينة الداخلية شبه المستطيلة تدعى قلعة الملحدين. وبالرغم من التشابه في الشكل، كان كل شيء في مرو على مقياس أكبر مما هو عليه في نيسابور. وتبلغ مساحة القلعة وحدها ٢٠ هكتاراً، أكبر من قلعة نيسابور ومدينتها الداخلية معاً. وتبلغ مساحة المدينة المستطيلة نحو ٢ كم^٢. وذلك يجعل المساحة نحو ٤٠٠ هكتار، وتعداد السكان ما بين ٤٠٠٠٠ و ٨٠٠٠٠ نسمة باستخدام مضاعفات بوليت، بالرغم من أنه لم يتضح هل بنيت المساحة الموجودة ضمن الجدران أم لا، كما لم يتضح إذا ما كانت مبنية عند الفتح الإسلامي عام ٦٥٠.

كما هو الحال في نيسابور، شهدت القرون الأولى من الحكم الإسلامي في مرو توسع المدينة خارج أسوار الموقع الساساني. ونشأ حي جديد مع مساجد وأسواق إلى الغرب من المدينة المسورة على ضفاف قناة مجان. وهناك بنى أبو مسلم دار الإمارة العظيمة بعد أن سيطر على المدينة باسم العباسيين عام ٧٤٧. وكما في نيسابور، بقي هذا الامتداد غير مسور طوال الفترة الإسلامية المبكرة ولم يحصن إلا في عهد ملك شاه السلجوقي (١٠٧٢ - ١٠٩٢). في هذه الأثناء، أهملت القلعة القديمة ولم تعد تستعمل،

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٨٨.

واستخدم قسم كبير من قلعة الملحدين لأغراض صناعية (صناعة الفولاذ) أو ببساطة جرى هجره.

كان الأمر مختلفاً في سمرقند. فقد هجرت القلعة البيضوية الشكل هنا، لكن التل الذي أقيمت عليه أصبح موقع المسجد الجديد. وعندما بنى أبو مسلم دار الإمارة الجديدة في سمرقند، اختار بناءها عالياً إلى جانب القلعة القديمة. ونشأت أحياء تجارية جديدة خارج أسوار المدينة القديمة.

تعتبر مرو من المواقع النادرة التي يمكننا أن نجد فيها شيئاً من العمارة الساسانية المحلية، وذلك أمر مهم، إذ تمّ الكشف في قلعة الملحدين القديمة والمدينة الساسانية عن منطقة سكنية يمكن النظر إليها على أنها شارع إسلامي تقليدي ضيق وملتح تحفّ به الأبنية الصغيرة للبيوت، وهي الخطة العامة نفسها التي يمكن إيجادها في المدن الإيرانية حتى القرن العشرين. ويبدو أن المنازل الساسانية هي آخر ما أقيم في الموقع، ولا يمكننا أن نعرف كيف أثر مجيء المسلمين، إذا ما أثر، في البيئة العمرانية التي ورثوها.

يشكل نمط التطور العمراني من الأساس الساساني الصغير نسبياً إلى المدينة الإسلامية المبكرة الأكثر اتساعاً سمة مشتركة للتاريخ العمراني الإيراني. ويؤدي علم الآثار دوراً مهماً في الكشف عن هذه الاتجاهات. لكن الأدلة الأدبية تذهب في الاتجاه نفسه في الغالب^(٢٧). وعلى أساس هذا التحليل للأدلة النصية، رأى ريتشارد بوليت أن «القرن التاسع شهد أسرع نموّ للمدن في التاريخ الإيراني»^(٢٨). وكانت كلها بدون استثناء مدناً موروثية توسّعت خارج نواتها القديمة؛ ويمكن الافتراض أنه لم تكن هناك في الواقع مدن إسلامية جديدة في الأراضي الإيرانية التابعة للخلافة.

تفاوتت تفسيرات هذه الظاهرة. فقد اقترح واطسون أن تحسن أساليب الزراعة والمحاصيل الجديدة سمحت بتطور زراعة تتوجّه إلى السوق، وأتاح ذلك بدوره تطور مدن كبيرة جداً^(٢٩). وقد انتقد بوليت وجهة النظر هذه ورأى أن أهمية هذه التغيرات هامشية في أحسن الأحوال^(٣٠). ففي اعتقاده أن العامل الرئيسي هو اعتناق الإسلام

Richard Bulliet, *Islam: The View from the Edge* (New York: Columbia University Press, (٢٧) 1994), pp. 73-75.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٧٧.

Michael Watson, *Agricultural Innovation in Early Islamic World* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1983), pp. 132-136.

Bulliet, *Ibid.*, pp. 67-70.

(٣٠)

الذي شجّع المعتنقين على ترك مجتمعاتهم الريفية حيث لا تزال المعتقدات والروابط القديمة سائدة، بل أجبرهم على ذلك، والانتقال إلى البيئة الإسلامية في المدينة. وتلك فرضية جذابة لكنها ربما تقلل من تقدير أهمية هياكل الدولة. فقد كانت الدولة الإسلامية الأولى تقدّم دفعات مالية منتظمة إلى أعداد كبيرة من الناس، معظمهم من العسكريين؛ بل إن الكثيرين كانوا يتقاضون الرواتب في الواقع. وتلك سوق لا يمكن أن يتجاهلها أي تاجر مغامر. على سبيل المثال، كانت مرو المكان الذي تنظم منه الحملات العسكرية على المدن الغنية ما وراء النهر في القرن الثامن، وفي مرو كانوا يبيعون حصصهم من الغنائم في الأسواق؛ فلا غرو إذاً أن يتوجّه المهاجرون من كل أنحاء خراسان إلى الأسواق الحديثة المتوسعة. وقد تكرّر هذا النمط في كل أنحاء الشرق الإسلامي على مقياس أكبر أو أصغر.

يمكن القول أيضاً إن النخب السياسية والعسكرية انتقلت إلى المدن بعد الفتح الإسلامي. وتوحي الأدلة القليلة بأن العائلات الإيرانية الكبيرة في الحقبة الساسانية كانت تعيش في القلاع والقصور الريفية وأن معابد النار الكبرى كانت في مواقع ريفية بعيدة من المراكز العمرانية: كان الملوك الساسانيون يتوجّون في طيسفون (المدائن)، لكن القسم الديني من التنصيب يتم في شيز (مسجد سليمان) في جبال زاغروس، إلى الشمال الشرقي. وباستثناء طيسفون وبيشاپور، لا توجد أدلة كثيرة على إقامة النخبة داخل أسوار المدن الساسانية.

رابعاً: الأندلس والغرب الإسلامي^(٣١)

كانت شبه الجزيرة الأيبيرية تتباهى بعدد من المدن في العصور الرومانية، بعضها من أهم المدن في الإمبراطورية بأكملها. وقد وقع العديد من هذه المواقع تحت الحكم الإسلامي في السنين التي تلت الفتح الأولي عام ٧١١. ومن بين العواصم الإقليمية

(٣١) للاطلاع على المدن القديمة المتأخرة في شبه الجزيرة الأيبيرية، انظر: Michael Kulikowski, *Late Roman Spain and its Cities* (Baltimore, MD; London: Johns Hopkins University Press, 2004).

وعن المدن الإسلامية المبكرة في شبه الجزيرة والمغرب، انظر: Vincente Salvatierra Cuenca, «The Origins of al-Andalus,» in: Margarita Diaz-Andreu and Simon Keay, eds., *The Archaeology of Iberia: The Dynamics of Change*, Theoretical Archaeology Group (London: Routledge, 1997), pp. 263-278, and Patrice Cressier and Mercedes Garcia-Arenal, eds., *Genèse de la Ville Islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental* (Madrid: Casa de Velázquez, 1998).

وللاطلاع على مقدمة عامة عن العمران في الأندلس، انظر: Basilio Pavon Maldonado, *Ciudades Hispanomusulmanas*, Colecciones MAPFRE, 1492 (Madrid: Editorial MAPFRE, 1992).

الكبيرة، لم يستوطن المسلمون براغا (غاليسيا)، وكانت «طراغونة» في منطقة الجبهة ويبدو أنها هُجرت بمعظمها في العصر الإسلامي الأول. وأصبحت طليطلة، ومريدا، وإشبيلية، مراكز إسلامية مهمة. إضافة إلى ذلك، أصبحت سرقسطة، وهي مدينة رومانية لم تحظ بأهمية كبيرة في الأزمنة الكلاسيكية، مركزاً للسلطة الإسلامية في وادي إيبرو، كما أصبحت قرطبة، وكانت مدينة من الدرجة الثانية في الهرمية الرومانية، عاصمة للأندلس.

لم يتضح مقدار احتفاظ المدن الرومانية في شبه الجزيرة بمظهرها العمراني أثناء اضطرابات القرن الخامس ولأكثر من مئتي سنة من الحكم القوطي الغربي. وليس هناك أي دليل تقريباً على وجود مبانٍ قوطية غربية داخل المدن، سواء أكانت كنسية أم مدنية، ومن الصعب العثور على أي آثار للاحتلال في العديد من المواقع أثناء هذه الفترة. وفي حين أنّ العديد من المدن الإسلامية شغلت مواقع أسلافها القدماء واحتمت داخل بقايا الأسوار الرومانية، لا يمكننا أن نجد آثاراً تدلّ على بقاء خطط الشوارع المنتظمة للفترة الكلاسيكية، إلا في سرقسطة والمدينة الأندلسية الصغيرة إسيجا، بالرغم من أنّ هذه الاستمرارية الظاهرة حُجبت في سرقسطة التغيرات الكبرى في البنية المادية للمدينة في الأزمنة القديمة المتأخرة^(٣٢). وفي حين حافظت دمشق عاصمة الأمويين على الإطار العام للتخطيط الكلاسيكي، فإنّ هذا الإطار العام يبدو أنه فقد في قرطبة عاصمة الأندلس الأموية. قد يكون هذا الاختفاء للتخطيط والنسيج المدني دليلاً على حدوث انقطاع في الحياة المدنية في القرنين الخامس والسادس.

تكشف قصة قرطبة بعض الخفايا في هذه الناحية^(٣٣). فقد كانت المدينة القديمة تحدّد الضفة الشماليّة لنهر الوادي الكبير عند نهاية الجسر الروماني. وفي نهاية القرن الثالث، أنشئ مجمع فخم كبير، يعرفه المنقّبون في القرن العشرين باسم ثيريديا^(٣٤). وربما كان ذلك المجمع قصراً للحاكم الإقليمي ومركزاً للإدارة المحليّة. وكانت بعض مواد الزينة قد أخذت من المسرح غير المستخدم في ذلك الوقت، ومن الممكن أن تكون بعض المباني داخل المدينة القديمة قد تهدّمت وخربت في ذلك الوقت وتجمّع ما تبقى من السكّان في المنطقة الجنوبيّة القريبة من ضفاف النهر. أنشئت هناك كنيسة سان فنتسان الكبيرة عند رأس الجسر، إضافة إلى قصر كبير للحاكم في ما بعد. وقد أصبح

Kulikowski, *Late Roman Spain and its Cities*, pp. 244-249.

(٣٢) انظر:

Manuel Acién Almansa and Antonio Vallejo Triano, «Urbanismo y Estado: انظر: عن قرطبة، انظر:

islámico: De Corduba a Qurtuba-Madinat al-Zahra,» in: Cressier and Garcia-Arenal, eds., *Ibid.*, pp. 107-136.

Kulikowski, *Ibid.*, pp. 114-120.

(٣٤) للاطلاع على ثيريديا وتأثيره في المدينة، انظر:

هذا المجمع مركزاً للسلطة الإسلامية عندما أنشأ الحاكم الحر بن عبد الرحمن الثقفي المدينة كعاصمة له عام ٧١٦ وبنى قصراً جديداً إلى الغرب من المركز العمراني الجديد. وأجرى السمع بن مالك الخولاني، حاكم المدينة بين عامي ٧١٩ و٧٢١ برنامجاً كبيراً للإصلاحات، فرمّم الجسر الروماني الذي يبدو أنه كان خرباً، وأجزاء من الأسوار الرومانية. وأنشأ أيضاً مقابر ومصلين في الضواحي. وربما حُرم المسيحيون كنيسة سان فنسان الكبيرة وحولت إلى مسجد في أثناء حكم يوسف الفهري (٧٤٨ - ٧٥٦). يرجع تاريخ الأقسام الأولى من المبنى الحالي للمسجد الكبير إلى عام ٧٨٦ حين دمر الخليفة الأموي عبد الرحمن الأول المبنى القائم واستخدم حجارتها لبناء الجامع^(٣٥).

ومنذ ذلك الوقت أبعد النصارى واليهود إلى الكنائس والكنس الموجودة في الضواحي، وأضيف الطابع الإسلامي كاملاً على المدينة القديمة. وفي القرن العاشر، ازداد تعداد السكّان زيادة كبيرة وأنشئت ضواحي جديدة على نطاق واسع، ولا سيّما إلى الجهة الغربية من المدينة. وكما في العديد من الأمثلة الشرقية، بقيت هذه الضواحي الجديدة غير محصّنة. وبلغ الامتداد نحو الغرب أوجه في بناء مدينة الزهراء الجديدة في أواسط القرن العاشر على بعد نحو ٥ كم.

طوى النسيان الإرث القديم لمدينة طليطلة داخل تحصينات القرون الوسطى. وفي إشبيلية لا يعثر إلا على بعض الآثار، واقترح البعض وجود ساحة عامة في موقع ساحة سان سلفادور وأن موقع الكنيسة نفسها كان بازيليكاً مسيحية، ثمّ موقع أول مسجد في المدينة، لا تزال تُشاهد بعض آثاره حتى اليوم، إلى أن أصبح كنيسة مرة ثانية. وكانت مريدا واحدة من المدن الرومانية العظيمة، ولا تزال خرائبها تشهد على عظمتها في الأزمنة القديمة. ولعلّ مصدر شهرتها الرئيسي عند الفتح الإسلامي هو مزار القديس يولاليا الذي كان الحجاج يحتشدون في المدينة لزيارته^(٣٦).

وربما بسبب هذه الهوية الطائفية قاومت المدينة الفاتحين طويلاً. وبعد الفتح سرعان ما اعتنقت النخب المحلية الإسلام وتواصلت حياة المدينة داخل أسوار المدينة الرومانية. كانت حركة المرور عبر الجسر الروماني، الذي كان لا يزال قائماً،

(٣٥) للحصول على رواية حديثة عن المسجد مع مزيد من المصادر الجيوجرافية، انظر: Marianne Barrucand and Achim Bednorz, *Moorish Architecture in Andalusia*, Midsized (Cologne: Taschen, 1992).

وعن استخدام الأنقاض الكلاسيكية والقوطية الغربية، انظر: Patrice Cressier, «Les Chapiteaux de la Grand Mosquée de Cordoue.» *Madriider Mitteilungen*, no. 25 (1994), pp. 257-313.

(٣٦) عن مدينة مريدا في الأزمنة القديمة المتأخرة، انظر: Kulikowski, *Ibid.*, pp. 19-92 and 290-293.

تحمل التجارة إلى المدينة. وفي وقت ما في أواسط القرن التاسع، هُجر مزار القديس يولاليا وانتقلت ذخره، وهو ما يشير إلى نهاية المسيحية كدين سائد في المدينة. وكان الخليفة عبد الرحمن الثاني عازماً على فرض سيطرته المركزية على الأرستقراطية الإسلامية المحلية في المدينة، فأمر عام ٨٥٥ بإنشاء قلعة عند النهر في موقع الخان (xenodochium) الذي بُني في زمن القوط الغربيين لإيواء الحجاج^(٣٧).

ووضع في هذه القلعة حامية من الجنود المرسلين من قرطبة. كما كانت تضمّ خزان ماء أصبح مورد الماء الرئيسي للمدينة عندما توقّف استخدام القنوات الرومانية. وعندما واصل المريدّيون المقاومة، أمر محمّد الأول بتدمير سور المدينة القديمة، وبالتالي بدأت المدينة بالتراجع بعدما أصبحت مكشوفة ولم تعد إحدى مدن الأندلس الكبيرة. وعندما انقسمت خلافة قرطبة في بداية القرن الحادي عشر، لم تعد مريدا عاصمة لملوك الطوائف الذين سيطروا على المنطقة بل باداخوز.

كان المغرب أقلّ عمراناً كثيراً من الأندلس عند مجيء المسلمين. وقد هجرت الإدارة الرومانية البلد بحلول عام ٢٨٥ باستثناء مدينتي طنجة وسويتا الساحليتين. وبالرغم من ذلك، استمرّت الحياة العمرانية في فوليبيليس، أفضل المدن القديمة المتبقية في المنطقة^(٣٨).

وفي أواخر القرن السادس، جرى تقصير السور المحيط وبقي قسم كبير من المركز الضخم القديم في الخارج، لكنّ بعض الأحياء المحلية من المدينة كانت لا تزال آهلة. ويبدو أنّ المسلمين تبنّوا المدينة كقاعدة في المنطقة، وثمة بعض الأدلة النّمية (المتعلّقة بالنقود) على وجود حامية عبّاسية في النصف الثاني من القرن الثامن؛ وقد اتخذها أول الأدارسة عاصمة له. ويبدو أنّ المدينة توسّعت إلى خارج الأسوار القديمة وظهر حيّ جديد يضمّ حقّاماً. لم يتمّ العثور على آثار أي مسجد، ويروى أنّ إدريس (توفي عام ٧٨٩) اختار أن يُدفن خارج المدينة. وقد انتهى دور فوليبيليس/مليية كعاصمة للدولة الإسلامية الأولى في المغرب عند إنشاء مدينة فاس، وسرعان ما هُجرت المدينة الموروثة وتمّ الانتقال إلى المدينة الجديدة.

Barrucand and Bednorz, Ibid., p. 27.

(٣٧)

Aomar Akeraz, «Recherches sur les niveaux islamiques de Volubilis», dans: Cressier : انظر (٣٨) and Garcia-Arenal, eds., *Genèse de la Ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental*, pp. 295-304, and Ahmed Siraj, «Vie et mort d'une cite islamique: À propos du phénomène urbain dans le Maroc idrisside septentrional», pp. 285-294.

خامساً: حكم المدينة الموروثة

من الصعب الإجابة عن سؤال ما هو مقدار تأثير الفاتحين المسلمين في الهيكل الاجتماعي للمدن التي ورثوها. من الواضح في العديد من الحالات ظهور نخبة جديدة، أي طبقة حاكمة مستمدة من الجالية العربية/ المسلمة السائدة. ووجد الناس الذين كانوا مواطنين محترمين ومتميزين في السابق ممتلكاتهم وقد صودرت في حين أُجبروا هم أنفسهم على دفع الجزية المخزية أو التحوّل إلى أرقاء.

وقد تكون قصّة عائلة الهمداني في أصفهان نموذجيّة. فقد كان أول فرد في الأسرة في ما نعرفه دِهقاناً (ملاكاً) يدعى عجلان. وكان لديه ضيعة في الأراضي الريفية المحيطة بالمدينة التي كانت تتكوّن من نواتين عمرائيتين صغيرتين، واحدة تدعى يهودية والأخرى تدعى جَيّ. وعندما قدمت الجيوش العربية إلى المنطقة، أخذ عجلان أسيراً ونُقل إلى مدينة الكوفة، حيث اعتنق فيها الإسلام. وقد رُزق بولدين في الكوفة، وعندما شبّا عادا إلى أصفهان وطالبا باسترداد أراضي والدهما. ولم يصبحا مالكي أراضي في الريف كما فعل والدهما، لكنهما انتقلا إلى المدينة النامية حيث أصبح أحدهما مرجعاً في الفقه الإسلامي والحديث، وعن طريقه عرفنا ماذا حلّ بهما^(٣٩).

من المتعذّر أن نعرف إذا كانت تجربة عجلان وأسرته مألوفة، ومقدار استمرارية النخب الحضريّة قبل الفتوحات الإسلاميّة وبعدها. ويمكننا أن ننظر في مثال عائلة سرجون التي خدمت الأمويّين الأوائل في دمشق كمسؤولين ماليّين، ولا نعرف الكثير عن تاريخها لأنّ آخر أفراد الأسرة الذين ذُكروا في السجلات هو العالم اللاهوتي الكبير القديس حنّا الدمشقيّ.

وعلى المستوى المؤسسيّ، لم يكن يوجد في المدن الموروثة الكثير الذي ينقله الفاتحون. فلم يكن في العالم البيزنطيّ أو الساسانيّ تراث من الاستقلال الذاتي في أيام الفتوحات الإسلاميّة. تمتعت مدن الشرق الأدنى الرومانيّة في القرنين ونصف القرن الأولى من التاريخ الميلاديّ، بدرجة عالية من الحكم الذاتي المحليّ، فكانت تختار مجالسها وتحصل ضرائبها وتسكّ نقودها النحاسيّة الخاصّة. لكن هذه البنى اختفت منذ الأزمنة التي وقعت في القرن الثالث؛ فكان الحاكم الذي تعينه السلطات الإمبراطوريّة يمارس السلطة الحقيقيّة، وكان الموظفون الإمبراطوريّون يحصلون الضرائب، واختفت النقود النحاسيّة. وقد سرّع هذه العمليّة إلغاء طقوس العبادات في المعابد التي كان يتركز

فيها الكثير من الوطنية المدنية. وبالرغم من أن المطران المسيحي كان مواطناً بارزاً وأن مزارات القديسين المحليين كان يمكن أن توفر التركيز على الوطنية المحلية، فإن هؤلاء لم يكونوا يتمتعون بالمكانة المؤسسية لمجالس المدن الملغاة^(٤٠).

وفي العالم الإيراني، لم يعد هناك وجود لأي تقاليد متبقية للحكم المدني الذي أدخله المستعمرون المقدونيون في جيش الإسكندر. ربما كان يوجد مواطنون محليون أغنياء ونافذون، لكن لم يكن هناك هياكل مؤسسية يمكنهم التعبير عن سلطتهم من خلالها. وفي هذا الإطار واصل الحكم الإسلامي الممارسة التي كانت سائدة في الماضي القريب.

ولا نجد قادة مدنيين حاكمين للمدن إلا ابتداء من القرنين العاشر والحادي عشر، وفي مناطق محدّدة فقط، مثل شمال سورية والأندلس، حيث كانت الهياكل السياسية الأخرى ضعيفة. وفي هذه المناطق، كان القاضي يبرز أحياناً كممثل فعلي للمصالح المحلية، لكن مقارنة بالمدن الإيطالية، لم تتطور أي نظرية سياسية أو هياكل مؤسسية تساند الاقتصاد الهش.

استنتاجات

إنّ ما يقال عن الجيوش العربية إنها زحفت ودمّرت العالم القديم الساكن وغير المتغيّر أمر مضلل جداً. فقد حكم الفاتحون المسلمون في القرنين السابع والثامن مجتمعات كانت تشهد تغيّرات سريعة. وتنطبق صورة التغيّر على مدن تلك المناطق بقدر ما تنطبق على أي ناحية أخرى من نواحي الحياة. ففي المناطق الرومانية السابقة، طرأ تغيّر جذريّ على المدن الكلاسيكية التي نزور خرائبها ونبدي إعجابنا بها، والتي لا تزال صورتها تمثل ضرباً من ضروب العمران الكامل؛ فقد ورث المسلمون الشوارع الضيقة والملتفة والكنائس، ولم يرثوا الساحات العامة والشوارع المعمّدة والمباني الضخمة.

وتفاوت مصير هذه المدن الموروثة كثيراً، ما بين التوسّع والحيوية المتجدّدة كما في حالة حلب ومرو وقرطبة، وبين الاندثار الفعليّ كما في قيسارية أو إصطخر أو فوليبليس. ولحق الدمار ببعض المدن نتيجة إنشاء مدن إسلامية جديدة على مقربة منها،

(٤٠) للاطلاع على هياكل السلطة المختلفة في مدينتين في الأزمنة القديمة المتأخرة، انظر: Hugh Kenedy,

«Gerasa and Scythopolis: Power and Patronage in the Byzantine Cities of Bilad al-Sham», *Bulletin d'études orientales*, no. 52 (2000), pp. 199-204.

وهو ما أدى إلى امتصاص حيوتها واجتذاب سكانها؛ لم تستطع طيسفون/ المدائن البقاء عقب إنشاء بغداد، ولم تتمكن إصطخر من الازدهار في ظل مدينة شيراز.

وتقرر مصير المدن في العديد من الحالات بقرارات سياسية: تطوّرت المدن التي أصبحت مراكز للحكومة والاستيطان العربي. لم يحدث ذلك فقط لأنها أصبحت مدناً رسمية يقطن فيها الموظفون والعسكريون، بل لأن الحكومة وعمّالها كانوا الحافز الأكبر للنشاط الاقتصادي في أوائل الدولة الإسلامية. وكانت بلاطات الخلفاء والحكام على السواء تنفق الأموال على المباني والمنسوجات الفاخرة والخزف والأشغال المعدنية. وكان الجنود والموظفون يتوجهون إلى الأسواق لشراء حاجاتهم اليومية والكماليات التي يستطيعون تحمّل أسعارها. وتدفّق التجّار والحرفيون لعرض سلعهم وخدماتهم فتوسّعت قاعدة الحكومة لتصبح مركزاً للتجارة والأعمال. وشكّلت المدن الموروثة قاعدة أساسية للعمّال المديني في العهد الإسلامي الأول، لكن الطرائق التي استخدم بها المسلمون هذا الميراث تفاوتت كثيراً بين منطقة وأخرى.

الفصل الخامس

المدن المؤسسة في العالم العربي من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر

سيلفي دينوا(*)

ينسحب موضوع المدن المؤسسة على الفترة الطويلة نسبياً التي أسست خلالها المدن المهمة المعنية. لذلك، لا يغطي هذا الفصل فترة معينة، وإنما الظواهر الاجتماعية التي سجلت في فترات زمنية قد تكون متباعدة وربما تُظهر أوجهاً متنوعة. وبالاعتماد على التاريخ الدقيق الذي تأسست فيه المستوطنات، فهي بدت انعكاساً لهذه الدينامية أو تلك (فتح إسلامي على سبيل المثال أو ظهور سلالة حاكمة جديدة) ونشأ فيها هذا النمط من المجتمع أو ذاك. من هنا، إذًا، بدأت عناصر التمايز الأولية.

بما أن مسألة المدن المؤسسة تشمل اللحظة الأولية فقط لا التطور الذي شهدته المدن على مر القرون، سنعكف، بالنسبة إلى كل حالة، على دراسة الفترة الأصلية أو فترات التأسيس المتتالية على الموقع نفسه (وتسمع الأخيرة بدراسة هذه الظواهر ضمن فترة معينة) - حتى وإن كانت تلك المدن، شأنها في ذلك شأن المدن الأخرى، تنمو على مستوى السكان والوظائف والتنظيم المكاني وما إلى ذلك. السؤالان الأولان اللذان يفترض أن يُطرحا، إذًا، هما حول معرفة ماهية المشروع الحضري للمؤسسين والشكل الذي ارتدته المدينة حيثئذ. إلى ذلك، فلطالما شكل ظهور سلالة حاكمة جديدة

(*) مديرة الدراسات في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة.

دافعاً إلى تأسيس مدن أريد لها الاضطلاع بدور العواصم. وسيكون التطور اللاحق لتلك السلالة أمراً حاسماً بالنسبة إلى توسع تلك المدن الخاصة.

أكثر من ذلك، إذا كان ولو جزء من المباني ومن شبكة الطرقات يعود إلى الفترة الأصلية للمدن قيد الدراسة، فلا معنى للبحث فيها عن آثار لأصول افتراضية؛ وعليه، فليس هدفنا دراسة المدن العربية والأحياء القديمة كما وصلت إلينا.

يزخر التاريخ بالروايات حول المدن التي أسسها العرب، وعليه فالسعي إلى وضع قائمة وافية بها ودراستها جميعاً هو ضرب من الوهم. سنكتفي بذكر البعد العام لمختلف أنماط التأسيس المعتمدة ويعرض بعض المدن المؤسسة تلك التي طبعت مخيلة المؤلفين المتأخرين. وهكذا، فالمدن التي لم يكتب لها الدوام - على غرار الجابية، تلك المدينة المعسكر، ومدينة عنجر الأموية، أو مدينة قلعة بني حماد - لم تمثل لوقت طويل في الأذهان، كما كان حال الكوفة والبصرة أو بغداد.

من المعروف أن الإسلام توسع في مدن متمدنة إلى حد بعيد وأن عدداً من المدن كان من مخلفات الحضارات السابقة على غرار أنطاكية وحلب ودمشق والإسكندرية... وبما أن الفاتحين انتقلوا مع مطباتهم وجمالهم وعاشوا ضمن قبائل لم تعد الحياة المدنية، فهم آثروا في المراحل الأولى المنشآت الجديدة والأمصار التي كانت تناسب أكثر تنظيمهم الاجتماعي منه المدن القديمة التي استقروا فيها في ما بعد. ومع ذلك، وكإشارة إلى أن خيارهم الأول لم يكن عن ريبة وحذر، فقد اختاروا دمشق عاصمة لسلالتهم الحاكمة الأولى. خلال الفتح في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ظل القائد الأعلى للمسلمين في شبه الجزيرة العربية وأملى قراراته بالنسبة إلى التفاصيل العملية الصغيرة والخيارات الحاسمة (كاختيار موقع عاصمة ولاية معينة) عبر رسائل ينقلها ساع إلى قادة الجيوش، في حين لم يكن العرب قد استوعبوا بعد السمات الثقافية للحضارات التي بسطوا سلطتهم عليها؛ فاستقروا خلال العقود الأولى في منشآت جديدة تتلاءم أكثر مع نمط عيش أغلبية المحاربين وتلبي أكثر تطلعات الخليفة في المدينة المنورة. أما أول الخلفاء الذين استقروا خارج شبه الجزيرة العربية، أي الأمويون، فقد وقع خيارهم على الاستمرارية المحلية باتخاذ دمشق عاصمة لهم، ولكنهم بنوا قصوراً صغيرة في الصحراء السورية عاشوا فيها بطريقة تروقهم برفقة حاشيتهم، فتعاطوا الصيد والملذات الأرضية على مسافة من الشعوب التي حكموها. لم تتخذ تلك الإنشاءات شكل مدن، وهذا ما يفسر عدم شمولها ببحثنا هذا.

بعد فترة، سكن المسلمون المدن التي وجدت قبل وصولهم وأسسوا مراكز مدنية ذات أهمية متفاوتة. وغالباً ما كان ظهور سلالة حاكمة جديدة يمهد الطريق أمام تلك الإنشاءات الجديدة.

إن معرفتنا بتلك المدن رهن المستندات المتوافرة، شأنها في ذلك شأن كل موضوع دراسة. في ما يتعلق بأغلبية المدن المعنية، لا وجود لنصوص حديثة ترقى إلى الفترة الأولى. ولم يكن لإنشاءات فترة الفتح الإسلامي أو المرحلة التي تلتها شهود مباشرين سردوا الأحداث ووصفوا الأماكن. لذا، اضطررنا على نحو شبه مستمر إلى الاعتماد على المصادر التي تعود إلى مرحلة لاحقة. على سبيل المثال، يرقى النص الأول حول تأسيس بغداد إلى عام ٢٧٨هـ / ٨٩١م بعد مرور أكثر من عقد على الأحداث المسرودة. كما تتوافر لنا كتابات مبكرة فقدت مخطوطاتها، إنما نستطيع قراءتها وقد نقلها مؤلفون لم يعيشوا في تلك الفترة على غرار ابن سراييون وهلال الشابي وأحمد بن أبي طاهر طيفور بالنسبة إلى بغداد، وقد ذكرهم الخطيب البغدادي^(١) أو المدائني الشيخ عمر بن شبة والساجي وابن عربي بالنسبة إلى البصرة. تعود معلوماتنا حول القاهرة الفاطمية إلى ابن طوير الذي ذكره مؤلفو القرن الرابع عشر إلى القرن الخامس عشر، وابن الفرات والمقريزي^(٢) والقلقشندي وابن تغري بردي. كما تجدر الإشارة إلى أن ابن طولون لم يشهد على تأسيس القاهرة، إذ إن كتاباته ترقى إلى نهاية عصر الخلفاء الفاطميين وبداية عهد الأيوبيين. من هنا أهمية علم الآثار في مساعدتنا على فهم ظاهرة المدن التي تم تأسيسها، عند وجود حفريات تشهد على تلك المراحل المهمة.

ونحن لا نفتقر إلى مصادر نابعة من شهود مباشرين فحسب، بل إن المدن التي تأسست والتي تعد أسطورية كونها أصلية، وهو ما يشكل دعماً خاصاً للمخيلة، أفضت إلى تصورات محددة. وغالباً ما عُزي ظهور تلك المدن إلى ولي صالح أو إلى فاتح ما. وفي كل الأحوال، فالأسطورة موجودة لتظهر عظمة الفترات الأولى. لقد حل شيء من بركة تلك الفترة على السكان اللاحقين فاشتملت المصادر، وإن وضعت بعد قرون، على أصداء هذه التمثلات.

(١) انظر: Françoise Micheau, *L'Orient au temps des croisades*, presentation, traductions et notes par Anne-Marie Edde et Françoise Micheau, Garnier Flammarion Series; 1121 (Paris: Flammarion, 2002).

(٢) نُقِّحَت الأجزاء التي اقتبسها المقريزي من نص ابن طوير على يد أيمن فؤاد سيد.

أولاً: المدن المؤسسة أثناء الفتح والإنشاءات المدنية التي جذبتها

اتخذت المدن المؤسسة أثناء الفتح الإسلامي شكل أمصار أرساها قائد حرب وجيوشه على مواقع استراتيجية عند ملتقى طرق تسمح بالسيطرة على منطقة بأسرها. تأسست المدن الأولى، أي الجابية في سورية والبصرة والكوفة في العراق والفسطاط في مصر، أثناء الخلافتين الأوليين في أوائل العصر الإسلامي عندما كانت الحاجة قوية إلى البقاء على اتصال بشبه الجزيرة العربية، حيث بعث عمر بن الخطاب بالجملة التالية «لا يجعل بينه وبينهم بحراً» إلى هذا وذلك^(٣). وعليه، كانت المواقع المختارة عند نقاط اتصال بين العالم القديم والأراضي الجديدة المفتوحة.

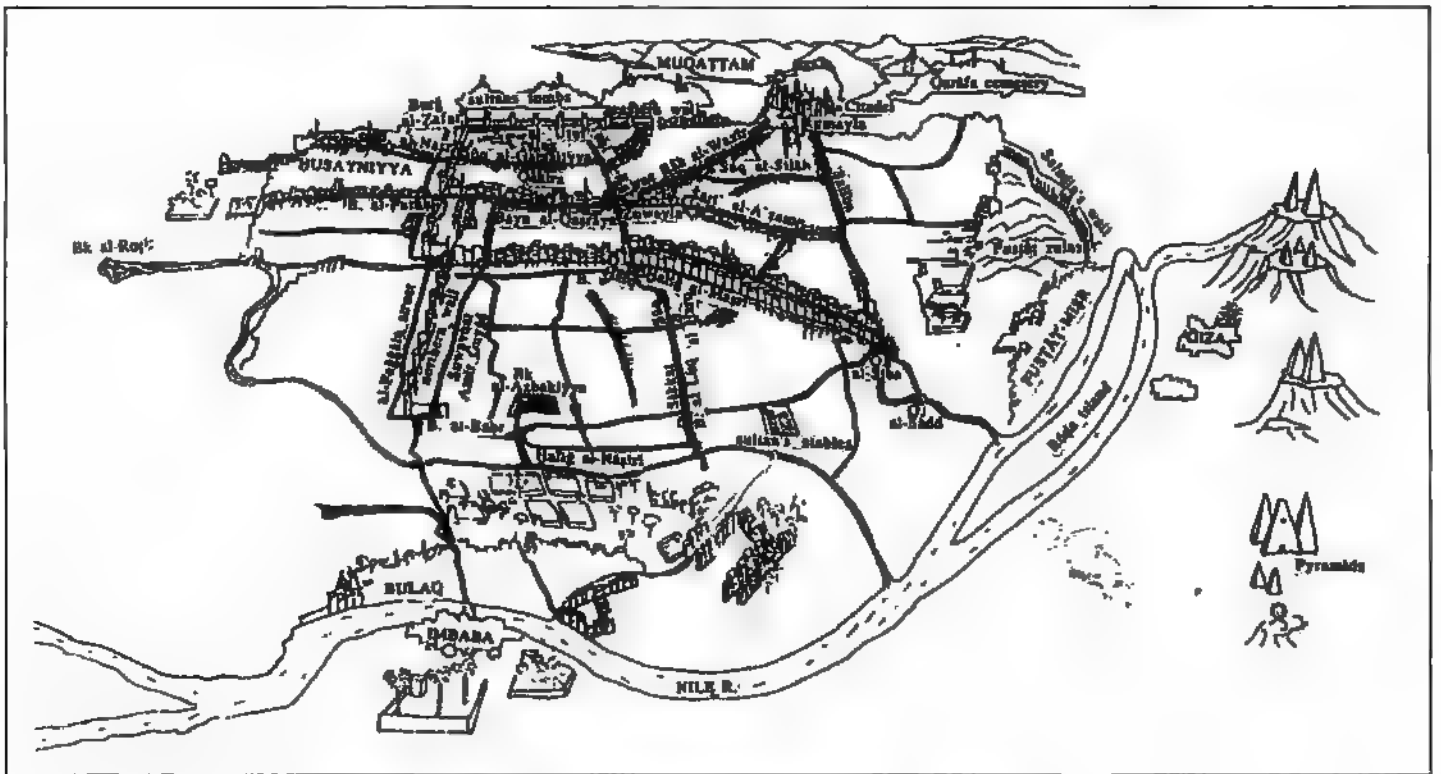
والعملية المشتركة جلية بين تلك التمرکزات: يقيم الفاتحون معسكراً على موقع يُختار بدقة؛ ولكن بما أن نتائج الحرب يلفها الغموض، فما من شيء يؤكد أن المعسكر سيصبح مدينة. وعليه، من المستحيل إرساء أسس مدينة، فيتم الاكتفاء بمخيم يشكل قاعدة تركز فيها المطبات والقبائل في الوقت الذي يستمر فيه الفتح. من ثم، بعد الفوز في المعركة واستتباب الأمن في المنطقة، يتم الاستقرار بصورة دائمة على الموقع الذي اختير لفترة مؤقتة. تدل هذه العملية على أن المدن التي أبصرت النور خلال الفتح لم تخضع لنمط معين، بل كانت مخيماً لقبائل تخوض حرباً يتم تكريسه في أوقات النصر ويمكن المكوث فيه بشكل دائم ونهائي عبر الاختطاط والبناء وتجهيز الموقع ببنية تحتية مؤسسية ترسم حدود الأرض بأبنية سياسية وثقافية مثل دار العمارة والجامع. وأسست مساحات غير مخصصة على غرار الفضاءات في الفسطاط والصحارى في الكوفة.

تعود بنا تلك التمرکزات المدنية إلى الإشكالية التالية: هل تفضي أشكال التنظيم الاجتماعي إلى أنواع محددة لشغل المساحة؟ كان جزء من العرب (وحتى الموالي الأعاجم) الذين سكنوا تلك الأمصار، ولا سيما النخبوية منها، على غرار بعض اليمنيين أو القرشيين الذين انتمى بعضهم إلى الصحابة، مدنيين قدامى، نذكر على سبيل المثال نخبة الفسطاط مثل عمرو بن العاص وعقبة بن نافع وخارجة بن حذافة وهم من القرشيين، أو مسلمة بن مخلد الذي كان يميناً في السابق وتمركز في المدينة المنورة، ونخبة الكوفة مثل طلحة والزبير وأسامة، صهر النبي، وعمرو بن الحارث الخزاعي

(٣) بالنسبة إلى الكوفة، انظر: أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري، كتاب فتوح البلدان (بيروت: مكتبة الهلال،

١٩٧٣)، ص ٢٧٠.

الرسم الرقم (٥ - ١)
محااور البناء الرئيسية في القاهرة



Environmental Design-Urban Morphogenesis (Florence, Italy: Dell'Ocra Editore, 1993), «Mateo Pagano's Map: Canals».

المصدر:

وسعد الأشعري وأبو موسى الأشعري... وأسس سكان المدن بالتالي مؤسسات مدنية. من جهة أخرى، فإن أفراد القبائل غير المتمدينة قبل الفتح التي شكلت القسم الأكبر من المحاريين، لم يكونوا سكان مدن بل يمينين أو عرباً من الشمال انتقلوا ضمن قبائل من البادية، سواء كانوا حضراً أم لا. استقرت تلك الشعوب ضمن أمصار في خطط منحت لكل قبيلة في حين أن الفاتحين من الأرستقراطية حصلوا على دور فردية. وكان النبي نفسه قد أسس هذا النظام المزدوج القائم على التخصيص في المدينة المنورة^(٤) (حيث تسمى الخطة في بعض الأمصار خطة وداراً (في الفسطاط) أو قطيعة (في الكوفة)). أما مجموعة الموالى الاجتماعية وهم من السكان الأصليين الأعاجم، فقد التجأت لدى العرب في إطار علاقة يكون هؤلاء فيها أسياداً؛ وكانوا في أغليتهم من السكان الريفين الذين تحضروا عندما استقروا في تلك الأمصار على الأراضي التي منحت لـ «أسيادهم» وقد تبنا تناحراتهم القبلية. على مر الوقت، اعتمد أعضاء القبائل النموذج المدني الذي اتبعته النخبة في الأمصار وتمدنوا.

١ - البصرة

يشير بناء مدينة جديدة مسألة الوجود المستمر لشعب سابق والتأثير المدني للمراكز الأكثر قدماً. على سبيل المثال، بنيت البصرة على آثار موقع فارسي في أسفل بلاد ما بين النهرين سمّاه العرب الخريبة. ويمكن اعتبار البصرة إنشاءً جديداً إذ لم يبق شيء يذكر من الموقع السابق عندما استقر فيه العرب. وفي ما يتعلق بالتأثيرات، هل أن قرية الفاو^(٥) وهي قرية في شبه الجزيرة العربية تقع على بعد ٦٨٠ كم جنوب الرياض كانت لتمثل أحد نماذج البصرة؟

تطورت العمليات على نحو نمطي كلاسيكي. أسس الفاتحون مصر عام ١٤هـ/ ٦٣٥م، وبعد مرور ثلاث سنوات، أي عام ١٧هـ/ ٦٣٨م أثناء خلافة عمر بن الخطاب، اختار قائد الفوج، عتبة بن غزوان، هذا الموقع لينطلق الفتح منه نحو فارس وخراسان وسجستان. من ثم، وصلت غلال تلك الأراضي إلى البصرة وأصبح في استطاعة المدنيين الجدد إرساء عناصر بنية تحية مدنية ذات جودة.

(٤) منح النبي نفسه في المدينة (...) الخطط للقبائل المختلفة الدور للأفراد في: صالح علي المثلول، المدينة العربية الإسلامية: أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية (الرياض: المؤلف، ١٩٩٤)، ص ٥٤.

(٥) Abdul-Rahman Attayib al-Ansariy, «Qaryat dhat kahl: al-Fau.» dans: Mohamed Naciri et André Raymond, eds., *Sciences Sociales et Phénomènes Urbains dans le Monde Arabe* (Casablanca: Publication de la Fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud por les etudes islamiques et les sciences humaines, 1997), pp. 13-22.

يشهد الاختلاف في أنواع مواد البناء على اختلاف مراحل السكن، فالقصب العادي على غرار ذلك الموجود على ضفاف الفرات دل على مسكن مؤقت، في حين أشارت المباني المصنوعة من الطوب الخام على مسكن أكثر استقراراً، إلى أن تم استعمال الطوب المشوي عام ٥٠هـ / ٦٧٠م أثناء ولاية زياد بن أبي سفيان. توافقت تلك الفترة مع تأسيس المركز المدني الذي ضم مؤسسات مثل دار العمارة والجامع مع كثر المسلمين وبيت المال وميناء نهري على الفرات. احتوى المركز على منشآت من قبيل قنوات المياه، وشكل، أسوة بالأمصار الأخرى، مقراً لمحاربين متأهبين للهجوم ليسوا بحاجة إلى أسوار دفاعية^(٦).

كما سجل وجوداً للمؤسسات الكلاسيكية، مثل الولاية (وكان الوالي يضطلع بدور الإمام) والشرطة... بالنسبة إلى القبائل، قسمت المدينة إلى أخماس ومنحت كل من الفروع الخمسة (أهل العالية، وتميم، ويكر بن وائل، وعبد القيس، والأزد) مساحتها الخاصة حيث استقر الحلفاء والمهتدون والموالي... استمر هذا النوع من شغل الأراضي لفترة طويلة نسبياً. على سبيل المثال، يضم السور الأول في البصرة الذي يرقى إلى العهد العباسي مساحة الإقامة الموسعة للمدينة التي تركزت فيها القبائل ومطياتها. أما السور الثاني الذي يرقى إلى عام ٥١٧هـ / ١١٢٣م فهو يعكس نسيجاً مدنياً بصورة فعلية وبني «على مسافة كيلومترين داخل السور القديم الذي دمر في نهاية القرن الخامس/ القرن الحادي عشر»^(٧).

وقع أحد الأحداث التي أسست التاريخ الإسلامي على مقربة من البصرة وتمثل بمعركة الجمل (جمادى الثانية ٣٦هـ / تشرين الثاني/ نوفمبر - كانون الأول/ ديسمبر ٦٥٦م) حيث واجهت عائشة وطلحة والزبير الإمام علي (عليه السلام) بعد اغتيال عثمان، الخليفة الثالث. يكتسب هذا الحدث أهمية كبرى بالنسبة إلى البصرة لأن حلفاء الفريقين (الوالي، وعثمان بن حنيف وقائد الشرطة، وحكيم بن جبلة)، الذين ناصروا الإمام علي (عليه السلام) من جهة، وحر قوص بن زبير السعدي الذي ناصر عائشة وطلحة والزبير من جهة أخرى، حاولوا الفوز بالمواقع الرمزية (اتجاه الصلاة) ودارت عدة معارك. لذا، اعتبرت المخيلة العربية البصرة خلال العقد الأول أحد أول المسارح التي دارت فيها أحداث التاريخ الأولى.

(٦) ستبقى البصرة من دون أسوار دفاعية زهاء قرن ونصف القرن تقريباً. بني جدار يحيطه خندق عام ١٥٥هـ / ٧٧١ - ٧٧٢م خلال الفترة الصعبة المتمثلة بتثبيت السلطة العباسية.

Charles Pellat, s.v. «Basra», dans: *Encyclopédie de l'Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill; Paris: (Y) Maisonneuve, 1975), p. 1118.

تأسست الكوفة التي تحاكي البصرة قدماً عام ١٧هـ / ٦٣٨م على إحدى ضفاف الفرات على يد الفاتح سعد بن أبي وقاص وعلى أرض بور حسبما قيل. في غياب المصادر المعاصرة، هل يسعنا أن نحاول إعادة رسم ملامح التمرکز الأول؟ في هذا السياق، اقترح علينا الطبري وصفاً لكوفة العصور الأولى باتباع النهج نفسه كما ولو أراد وضع حديث، أي بإعطاء سلسلة الراوين وصولاً إلى الفترة المعنية. وحاول عدد من الباحثين، نذكر منهم ماسينيون، ومؤخراً هشام جعيط، الوقوف على هذا الوصف.

ما الذي يستفاد من تلك النصوص المؤخرة؟ يبدو أن المراسلات التي تم تبادلها حدثت بالخليفة إلى اقتراح مكان تمرکز ثابت للجيش وإضفاء معيار مدني على هذا الأخير. تذكر المصادر كتاباً أرسله عمر إلى سعد ومفاده: أن «يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيرواناً»^(٨). من ثم أمر بأن تمتد «المناهج» (يصفها ماسينيون^(٩) بـ «صف من الخيم») على أربعين ذراعاً؛ وأن يمتد ما يقوم بمحاذاتها على ثلاثين ذراعاً وما يوجد بينهما على عشرين ذراعاً وأن يكون طول الأزقة سبعة أذرع. لا شيء من دون ذلك. كما أمر بأن تمتد القطائع على ستين ذراعاً^(١٠). بالتالي، نلاحظ أن هذه الشبكة كانت منظمة وخطّط لها بشكل جيد وقد صممها الخليفة وتم إنجازها قبل توزيع الأراضي.

يقول لنا الطبري إن المسجد كان «أول شيء خطط وبنى حين عزموا على البناء». إلا أن هذا القول يتعارض مع ما قاله سابقاً حيث من الواضح أنه تم تصميم الأزقة والقطائع قبل أي بناء آخر. يشير هذا العرض المتناقض إلى نص معتمد، وهو ما تؤكد قراءة البلاذري الذي يقول من دون لبس: «فاختطها وأقطع الناس المنازل وأنزل القبائل منازلهم وبنى مسجدها وذلك في سنة سبع عشرة للهجرة»^(١١).

(٨) الطبري، ج ١، ص ٢٣٦٠، مقتبس في: Fred Donner, *The Early Islamic Conquests* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1981), p. 227.

(٩) يصف لويس ماسينيون هذا بـ «صف من الخيم». انظر: Louis Massignon, «Explication du Plan de Kâfa», dans: *Mélanges Maspéro*, Mémoires Publiées par les membres de l'institut français d'archéologie orientale du Caire; t. 66, 67, 68, 4 vols. (Le Caire: Institut Français d'archéologie orientale, 1935-1940), p. 345.

(١٠) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحرير محمد أبو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب؛ ٣٠، ١٠ ج (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠ - ١٩٦٨)، ص ٤٤.

(١١) البلاذري، كتاب فتوح البلدان، ص ٢٧٠.

يقول اليعقوبي^(١٢) إن إنشاءات الفاتحين كانت من نوعين: خطط جماعية للقبائل وأدور أو قاطعات فردية للقادة، على غرار أسامة بن زيد أو جبير بن مطعم، تحيط بالجامع، وقد وضع فريد دونر قائمة بها^(١٣). كانت خطط القبائل تضم جبانة وهي كناية عن مساحة غير مبنية كانت تسمح بالتجمعات. وقد قام ماسينيون بإحصائها^(١٤).

لرواية البلاذري بنية حلقية، ما يبرر الصعوبة التي واجهها القراء. فبعدما تحدث عن الاختطاط وبناء الجامع عام ١٧ هـ، عاد ليذكر بجملته عمر الشهيرة المتعلقة باختيار الموقع («لا يجعل بينه وبينهم بحراً») وليتحدث عن الاختطاط: «وولى الاختطاط للناس» - لا للقبائل. لم يرد ذكر البناء إلا في فترة لاحقة في عهد زياد، أي في عام ٥٠ هـ / ٦٧٠ م. من أجل التوفيق بين التقاليد - ما قد يساوي رواية سيف التي نقلها الطبري - يمكن القول إن الكوفة شهدت تخطيطاً واختطاطاً تلتهما عملية بناء خلال عام ١٧ هـ.

أسفرت تلك العمليات عن ميدان يضم دار العمارة والجامع والقصر الذي نقب فيه محمد علي مصطفى^(١٥) والأسواق وأدوار «الأرستقراطية»، نذكر منها تلك العائدة إلى عمرو بن حريث والوليد بن عقبة والمختار وخالد بن عرفطة وأبو موسى (التي وضع خرائطها هشام جعيط)^(١٦) في ما يتعلق بالعصر الأموي؛ تنطلق المناهج من تلك المساحة المركزية وتخدم المساحات المكرسة للخطط الممنوحة للقبائل (ثقيف وهمدان والأسد والنخع وكندة والأزد ومُزينة...) مع مساجدها وجباينها^(١٧).

كانت دار الرزق حيث تودع الغلة عند مفترق الطريق التي تمتد إلى الشمال. اقترح لها هشام جعيط تصويراً خريطياً أكثر تنظيماً من التصوير الذي وضعه ماسينيون^(١٨). فإلى أي مدى كان هذا النموذج المدني فريداً في نوعه وإلى أي حد خضع لتأثير المدن التي وُجدت من قبل في المنطقة على غرار الحيرة، عاصمة اللخمين؟

(١٢) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، كتاب البلدان (البدن: بريل، ١٨٩٢)، ص ٣١٠.

(١٣) Donner, *The Early Islamic Conquests*, p. 228.

(١٤) Massignon, «Explication du Plan de Kûfa», pp. 347-348.

(١٥) Muhammad Ali Mustafa, «Preliminary Report on the Excavations in Kufa during the Third Season», *Sumer*, no. 19 (1963).

(١٦) Hichem Djait, *Al-Kûfa: Naissance de la ville islamique* (Paris: Maisonneuve et Larose, 1986), p. 302.

(١٧) Donner, *The Early Islamic Conquests*.

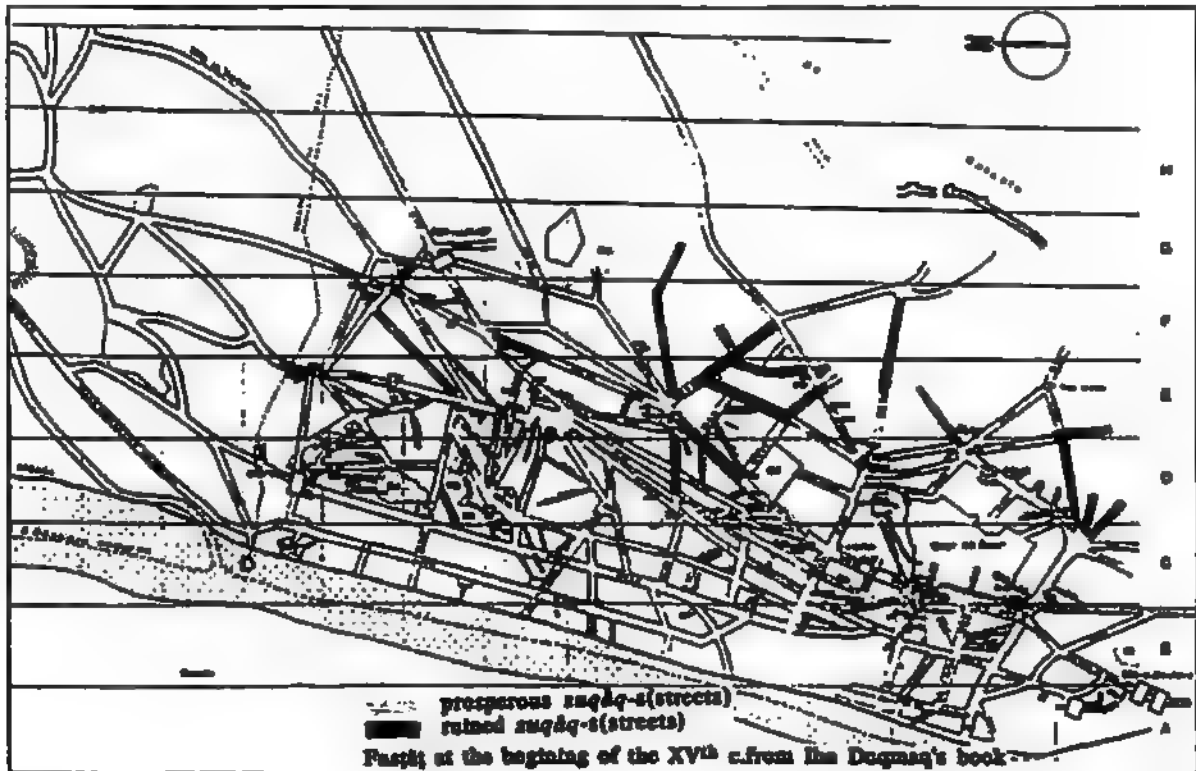
(١٨) Djait, *Ibid*, p. 360.

لا تمثل الكوفة في مخيلة العرب أحد إنشاءات العصر المتكلمة بمجد الفتح فحسب، بل هي أيضاً مكان انطلاق المعارضة ضد علي ووصول معارضة الموالي المستائين، أولئك الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام، وتوقعوا الحصول على رتبة تحاكي رتبة أسيادهم السابقين؛ فأعلنوا مع أبي مسلم الخراساني أبا العباس خليفة عام ٧٤٩م. ناهيك بمدرسة القواعد الشهيرة التي لا نفهم أهميتها إلا متى أدركنا حب العرب للغتهم (كان الكتاب لسيويه أول كتاب عربي طبع وهو كتاب في القواعد العربية). برزت أهمية الكوفة في ميادين فكرية أخرى، نذكر منها فن الخط (حيث ظهر الخط الكوفي، خط كتب القرآن الكريم الأولى) والنثر مع مجموعات خطب علي، الشعر...^(١٩).

٣ - الفسطاط

لم تؤسس الفسطاط مثل الأمصار الأخرى، بل شهدت تركزاً أولياً غير رسمي ومن ثم اتخذ القرار بجعلها عاصمة مصر المسلمة (انظر الرسم الرقم (٥ - ٢)).

الرسم الرقم (٥ - ٢) الفسطاط عند بداية القرن الخامس عشر



المصدر: المصدر نفسه.

فلنذكر بالأحداث التي لا تُخفى على أحد: أنشأ الجيش العربي في طريقه إلى فتح الجزء الغربي من العالم وبقياة عمرو بن العاص مخيماً أول عام ٦٤٠ في أسفل معقل بيزنطي، بابل مصر، أطلق عليه اسماً قبطياً ترجمه العرب بقصر الشمع. يقع هذا الموقع على بعد ٢٠ كم جنوب رأس دلتا النيل وهو يعد استراتيجياً، إذ يفصل بين مصر العليا ومصر السفلى. تمركز الجيش الذي تنظم وسط قبائل في مخيم واسع يمتد على مساحة ٧٥٠ هكتاراً. بعد سقوط هذا المعقل، انتقل جزء من الجيش إلى غزو عاصمة أوروبا البيزنطية، الإسكندرية، في حين احتل الجزء الآخر الأرض التي تم الاستيلاء عليها.

ثمة أسطورة تفسر لنا هذه العملية: أسس الفاتحون مخيمهم في أسفل قلعة بيزنطية سمّوها بابل، وفتحوها وذهبوا يحاربون في الإسكندرية. قبل الانطلاق، اكتشف القائد عمرو بن العاص حماسة على رأس خيمته (أو فسطاطه، إذ تهدف الأسطورة إلى تفسير الأصل العربي لاسم المكان المشتق من اليونانية fossaton، وهي كلمة تعني خندق). فلم يشأ إزعاجها وعليه لم ينزع فسطاطه. وعندما عاد ظافراً وأصبحت الفسطاط العاصمة المسلمة الأولى لمصر، اختار موقع خيمته ليقم فيه بما أنه لم يتغير. تظهر لنا هذه القصة الصغيرة أن توزيع المخطط على المحاربين لم يتم في الأمصار إلا عقب فتح المنطقة المعنية. فالاستقرار الأول كان مؤقتاً ما دامت نتيجة المعارك يكتنفها الغموض؛ وما أن يستولي العرب على البلاد، كان يبدأ التنظيم وتوزع الممتلكات بصورة نهائية.

بعد النصر، قرر عمرو ألا ينشئ عاصمة مصر في مكان بعيد (تقع الإسكندرية بعد الذراع الغربية للنيل) ووقع خياره على الفسطاط. فكان ذلك بمثابة الاستقرار النهائي و«تأسيس» للعاصمة الجديدة من دون اتباع طقوس حقيقية كون الموقع لم يتغير. حصلت كل قبيلة على قطعة، خطّ، سواء في المكان الذي خيمت فيه خلال الحصار، أو بعد انتقال القبيلة والمطبات، وهو ما أدى إلى تحركات القبائل التي صورها كوبياك^(٢٠).

تمركز عمرو ورفاقه في دور في وسط الموقع^(٢١)، وبنوا دورهم فيها بسرعة، كونهم سكاناً مدنيين قدامى. نفهم من هذا لِمَ أخفت هذه المجانسة في لفظة «دار» المعنى المزدوج لهذه الكلمة التي تشمل واقعين، أولهما عقاري وثانيهما منزلي.

Wladyslaw Kubiak, *Al-Fustat: Its Foundation and Early Urban Development* (Cairo: (٢٠) American University in Cairo, 1987), p. 176.

(٢١) Sylvie Denoix, «Note sur un sens du terme dar», dans: *Annales Islamologiques*, Publications de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire, 11 vols. (Le Caire: Institut Français d'archéologie orientale, 1991), pp. 285-288.

كانت تلك المساكن تقع أحياناً على علو وفقاً لنموذج المساكن المحلية ولربما اليمينية أيضاً؛ لكن مع ذلك كان ضرورياً استشارة عمرو بن العاص للسماح بهذه الارتفاعات. ووضعت كذلك أولى البنى التحتية: المسجد (جامع عمرو)؛ والحمام الصغير، حمام الفار؛ وبعض الشوارع (أهمها التي تذهب إلى جوار المسجد زقاق القناديل). هنا إذاً نشأ مركز مديني في موقع مدن المعسكرات في الفسطاط. وتبين بسرعة أن بعض ساكني المدن قد أعطوا حقوقاً - على غرار وردان، الفارسي المعتقد من ابن العاص - وبات يحق لهم الحصول على خططهم المدينية، فبنت نواة مدينة ثانية حول سوق وردان، باتجاه الشمال. بالتالي، شهدت الفسطاط، شأنها شأن الأمصار الأخرى، نظاماً مزدوجاً لشغل الأراضي يساوي نوعين متجاورين من التنظيم الاجتماعي. فمن جهة، كان هنالك شغل مدني يقوم على المباني «العامة»^(٢٢) وشبكة الطرقات والأدوار الموزعة على النخب، أي السكان المدنيين القدامى في شبه الجزيرة العربية والموالي ذوي الهويات المختلفة والأقباط المهتدين الذين بنوا منازلهم على خططهم؛ ومن جهة أخرى، سُجِّل شغل مكثف للأراضي يقوم على الخطط الجماعية الممنوحة للقبائل. شكلت هذه المساحة معسكراً كبيراً لبعض الوقت ومن ثم غادر جزء من هذه الفرقة الفسطاط لمتابعة الفتح نحو الغرب، وتمدّد من بقي منهم بانتقالهم إلى المراكز (حول زقاق القناديل وسوق وردان) التي توسعت وازدادت كثافتها السكانية.

انعكست التقلبات السياسية للإمبراطورية على التنظيم المدني للفسطاط. عندما تبوأ العباسيون سدة السلطة عام ٧٥٠م، لم يشأ هؤلاء أن تبقى الفسطاط عاصمة مصر، فأسسوا مركزاً مديناً في الشمال ومن دون تدمير الفسطاط حيث وزعوا الخطط على أعضاء الجيش عملاً بنظام الاختطاط. زود هذا التمرکز الجديد الذي سمي «العسكر» بالمؤسسات المعهودة، أي دار العمارة والجامع. في عام ٨٦٨م، انشق الوالي أحمد بن طولون وأسس الدولة الطولونية (التي لم تدم إلا عهد خلف واحد) وأنشأ مركزه المدني باتباع المبدأ عينه، أي مساحة مركزية للأرستقراطيين مع مقام الأمير (قصر فخم مع حديقة ذات أجنحة ومساحة للحيوانات) والجامع ومساحة خارجية تقوم على الخطط الموزعة على أعضاء الجيش، علاوة على الأجهزة الهيدروليكية (قناة جر المياه). عرفت الخطط في هذه الحالة بالقطائع (القطيعة) وأعطت اسمها للموقع.

حول الفسطاط تحديداً، انظر: Sylvie Denoix, *Décrire le Caire: Fustât-Misr d'après Ibn Duqmâq et*

Magrîzi, études urbaines; 3 (Cairo: Institut Français d'archéologie orientale, 1992), pp. 73-80.

(٢٢) يربط المقرئزي والقلشندي أول ظهور لدار الإمارة في الفسطاط بالحلبة العباسية. وقد ذُكِر ذلك في:

Kubiak, *Ibid.*, p. 129.

استوحيت ضخامة الجامع الذي لا يزال موجوداً في النسيج المدني للقاهرة الحالية ومثلته التي تضم سلالماً لولية من جامع سامراء. إلا أن هذا الانشقاق لم يرق للسلطة المركزية ودُمّرت القطائع عام ٩٠٥م، باستثناء الجامع وقناة المياه.

ثانياً: مدن وجدت في القرون المتأخرة

ما إن انتقلت الخلافة من المدينة المنورة، وبعد مرحلة الغزو والفتح، تبدلت استراتيجيات التمرکز التي اتبعتها الجيوش الإسلامية، إذ أصبح ممكناً وجودها بعيداً من العاصمة (القيروان حيث انتقل الفتح نحو الغرب أو في العراق، في واسط، من أجل التأكيد على وجود الإمبراطورية في مواجهة تحركات أنصار علي) أو على العكس، في سورية من أجل التمدن المحلي أو المجالات شبه المدنية خلال عهد المروانيين (الرملة (قريب عام ٧١٤م)، وعنجر وجبل سيس (٧١١ - ٧١٥)، ورصافة الشام (٧٢٣)، وقصر الحيرة الشرقي (٧٢٨)، وعمّان (٧٢٤ - ٧٤٣) والمشتى (٧٤٣))^(٢٣). على المستوى الشكلي، نجد عناصر من البنية التحتية (قلعة، أسوار) أو نوعاً من التنظيم المدني (بعد المدينة الأميرية بالنسبة إلى مدينة السكان العاديين) تميز تلك الأماكن عن التمرکزات الأولى. بعد ذلك، غالباً ما كانت التمرکزات الجديدة نتيجة مشروع ملكي، مثل بغداد وسامراء العباسيتين والقاهرة الفاطمية وفاس الأدارسة، وما إلى ذلك.

١ - القيروان

رمى قائد الجيش الإسلامي عقبة بن نافع، رمحه عام ٥٠ هـ / ٦٧٠م، ووضع قيروانه في أفريقيا الوسطى. وعام ٥٠ هـ هو وقت متأخر نسبياً في التسلسل التاريخي للفتح. كما تمرکز قيروانان في وقت سابق في المنطقة، إلا أن معسكر عقبة هو الذي أصبح دار الهجرة (أي مكان تمرکز المهاجرين الذين غادروا شبه الجزيرة العربية) في عام ٦٢ هـ / ٦٨٢م^(٢٤). اختيرت القيروان عاصمة لأفريقيا في الدولة الأموية وناقت في ذلك قرطاجة، حسبما ترويه الأسطورة، حيث روض عقبة الأفاعي التي اجتاحت الموقع، أسوة بأسقف قرطاجة الذي قهر بقوته الوحوش المفترسة.

(٢٣) أخذتُ هذا الجدول من: Donald Whitcomb, «Amsar in Syria?: Syrian Cities after the Conquest», *Aram*, vol. 6, nos. 1-2 (1994), pp. 13-33.

(٢٤) Mondher Sakly, «Kairouan», dans: Jean-Claude Garcin, *Grandes Villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, conjunction with Jean Luc Arnaud and Sylvie Denoix (Rome: Ecole Française de Rome, 2000), p. 58.

انتقل الولاة من دمشق إلى القيروان، وبالرغم من القلاقل التي أثارها البربر الخوارج، نجحت القيروان في الاضطلاع بدور عاصمة إقليمية ومركز اقتصادي وديني. كانت القيروان لدى تأسيسها مصراً مع مركز مدني يضم بعض الأبنية المشيدة من الحجارة، على غرار الجامع الكبير الذي بني عام ٥٠هـ / ٦٧٠ م ودار العمارة ومساكن بعض السكان المدنيين. كان جزء من الموقع يضم معسكراً مؤقتاً، أقله في المراحل الأولى، سكنه الفاتحون مع مطباتهم. «تأسست القيروان كمدينة كبيرة غايتها جمع شمل العرب في أفريقيا»^(٢٥). لم يكن هذا التجمع بمثابة مسكن دائم، واضطلع العرب بدور الفاتحين الذين أكمل جزء منهم طريقه نحو الغرب. كانت القيروان بعراقة المدن الكفيلة بجذب الأمراء أو الخلفاء، إلا أن هؤلاء أثروا الانعزال. وقد ساهم قرب المراكز الأميرية في تطوير النشاط التجاري والحرفي في القيروان.

تأسست العباسية عام ١٨٤هـ / ٨٠٠ م على بعد ٥ كم تقريباً جنوب شرق القيروان على يد إبراهيم بن الأغلب، أمير أفريقيا. كان هنالك قصر (حيث حمل سفراء شارلمان هداياهم إلى هارون الرشيد) وميدان خيل ودار الضرب، حيث كانت تضرب الدنانير والدراهم الذهبية، ودور الطراز وجامع على منوال الجوامع في بلاد ما بين النهرين^(٢٦) والمراكز التجارية والحمامات وإنشاءات جر المياه. بالتالي، كانت المدينة مزودة بالبنى التحتية الضرورية التي تلي مواصفات عاصمة. لكن، ما إن خسرت هذه الوظيفة مع تأسيس الرقادة على يد إبراهيم الثاني، فقدت العباسية من شأنها. وحظيت الرقادة بالمصير نفسه الذي آلت إليه سلالة الأغالبة، إذ تخلّى عبيد الله، داعية الفاطميين الذي حضر وصول خليفتهم الأول، عن الرقادة عندما بنى المهديّة.

كانت صبرة، التي أطلق عليها اسم المنصورية هذا تيمناً بالخليفة الفاطمي المنصور (٣٣٤ - ٣٣٦هـ / ٩٤٥ - ٩٤٨ م) تقع على بعد أقل من ٢ كم جنوب القيروان. وكانت كناية عن مجمعات بلاطية تحيط بها الحدائق. كانت تلك المدينة الفاطمية محاطة بأسوار تخترقها أبواب، إلا أن الأنشطة التجارية والحرفية كانت تزاول في القيروان؛ وأشار المنذر الصكلي إلى غياب الجوامع في المرحلة الأولى^(٢٧).

لقد أثرت التقلبات السياسية في التطور المدني، ولا شك أن تلك المدينة كان يمكن أن تشهد تطوراً أهم لو لم ينتقل الفاطميون للعيش في مصر (٣٦١هـ / ٩٧٢ م)

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٨١.

كي يتخذوا عاصمةً لهم من المدينة التي أسسوها عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م، أي القاهرة. كان مصير السلالة المعنية حاسماً بالنسبة إلى العواصم. فبعد انتقال الأمراء الفاطميين إلى مصر، لم تسقط صبرة المنصورية على الفور لأن باديس الزيري أمر بنقل الأنشطة التجارية والحرفية من القيروان إليها لانتشالها من وهدة الزوال. في الواقع، لم يحط رحيل الفاطميين من شأن صبرة فحسب، إنما سرّع أفول القيروان قبل اجتياح بني هلال لها. في الواقع، لو احتفظت القيروان بوضع العاصمة الذي خسرت لصالح تونس في عهد الموحدين، لكان من المحتمل أن يسجل توسع واستمرارية في النسيج المدني من صبرة إلى القيروان التي خسرت وضعها كمدينة أميرية وذابت في التجمع القائم، أسوة بفسطاط القاهرة. عوضاً من ذلك، تحدث علماء التاريخ عن اختصار القيروان حيث أقيمت أسوار بعد اجتياح بني هلال طوقت مساحة تزداد صغراً. من دون التقليل من تأثير هؤلاء البدو الذين انطلقوا إلى المغرب، يمكن أن نعتبر أن انتقال الفاطميين إلى مصر أثر إلى حد بعيد في القيروان التي صغر حجمها قبل وصول بني هلال. وبعد اجتياح هؤلاء للمدينة، برزت الحاجة إلى الاحتماء بالأسوار. وبما أنه تعين بناء أسوار جديدة، كان من الأفضل تطوير المدينة ضمن حجمها الحقيقي الذي ازداد ضيقاً بعد رحيل الفاطميين وانتقال الأنشطة الحرفية إلى صبرة.

إذا كانت بعض التمرکزات - على غرار القيروان التي تمتعت بوضع عاصمة أو جارة العواصم منذ نشأتها إلى أفولها في نهاية القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد - قد تحولت إلى مدن كبرى فإن بعض الإنشاءات الأخرى لم تحط بالمصير نفسه؛ فهي إما لم تتخط مستوى البلدة البسيطة وإما أفل نجمها ما إن غادرها مؤسسها، على غرار العباسية أو الرقادة الأميريتين (٢٦٤هـ/٨٧٧م)، على الرغم من أن مساحة تلك المدن الجديدة كانت شاسعة (مئة هكتار لصبرة المنصورية وأكثر لرقادة)^(٢٨).

٢ - واسط

تقع مدينة واسط في أسفل العراق بين الكوفة والبصرة (ما يفسر اسمها بحسب أحد التقاليد) على الضفة الغربية لنهر دجلة؛ وقد تأسست على يد والي الأموي في العراق، الحجاج (٧٥هـ/٦٩٤م - ٩٥هـ/٧١٣م). وكانت هنالك مدينة على الضفة الشرقية (كسكر) وسرعان ما التأمّت الوجدتان لتشكلا وحدة وحيدة أطلق عليها اسم واسط.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٦١.

لم تكن هذه المدينة التي تأسست عقب الفتح عام ٨٢٣/٧٠٢م أو ٨٨٤/٧٠٣م مصراً ولم ينشأ معسكر كبير في واسط، بل مجرد حامية. كان الهدف في البداية لإيواء جيوش الاحتلال السوري للعراق. وقد استغرق بناء المدينة زهاء ثلاث سنوات حيث تم تكبد مصاريف باهظة. كان من شأن الأبنية مثل دار العمارة والجامع السماح للأمويين بالظهور بحلة القادة السياسيين والدينيين في العراق، إذ كان من الأهمية بمكان في هذه البلاد المناصرة لعلّي إظهار القوة. أقام الوالي في المدينة لغاية عام ٩٧هـ/٧١٥م وضرب النقود فيها لغاية نهاية العصر الأموي. حتى ولو لم تكن واسط مركزاً للمملكة، فقد كان لتأسيسها وقع في النفس شديد، إلى درجة أن الخليفة المنصور قلد تصميم قصر الحجاج المربع الشكل الذي تعلوه قبة خضراء لدى بناء قصره الخاص في بغداد. كما أن الجامع المحاذي لقصر الوالي شكل نموذجاً بالنسبة إلى المؤسسة الخليفة في القرن الثامن عشر.

٣ - بغداد

بنيت بغداد على يد الخليفة العباسي الثاني، المنصور (الذي حكم بين عامي ١٣٦هـ/٧٥٤م و١٥٨هـ/٧٧٥م) - تمركز العباسيون في وقت سابق في الكوفة - على الضفة الغربية لنهر دجلة في موقع كان يضم المنشآت، ولا سيما العديد من الأديرة المسيحية. بدأ بناء عاصمة العباسيين عام ١٤٥هـ/٧٦٢م، أي بعد مرور اثني عشر عاماً على ظهور السلالة، وهو ينخرط ضمن مشروع سياسي إمبراطوري.

تبعث قراءة المصادر التي تصف بغداد الشك في النفوس أكثر من أي مدينة أخرى. فما المقصود بوصف المدينة الدائرية؟ وبالقياسات (المحيط الذي يتراوح ما بين ٤٠٠٠ و٢٠٠٠٠ ذراع)؟ خاض العديد من المؤلفين في هذا السياق^(٢٩) عمليات إعادة تشكيل. وتجاوزاً للشكل والقياسات المحددة للمدينة الأميرية الجديدة، من المعروف أنه تم التخطيط بشكل مسبق لتنظيم المدينة المكاني. فهي تجمع هائل منذ البدء، نواته مدينة يحيطها سور مستدير تخترقه أربعة أبواب عملاقة، ألا وهي باب البصرة من الجنوب الغربي وباب الكوفة من الجنوب الشرقي وباب خراسان من الشمال الشرقي وباب الشام من الشمال الغربي. تنطلق منها أربعة جادات وهي كناية عن ممرّ معقودة تقود إلى ساحة مركزية واسعة تضم القصر والجامع. بني قصر المنصور على نموذج قصر واسط الأموي مع قبة من الخزف الأخضر ويقفله «باب الذهب». يقف الحرس ويقع

(٢٩) الدوري، لو سترابنج، دون، ماسينيون، هرزفلد، سوزا، لاستر...

مقام قائدهم ورئيس الشرطة شمال شرق الساحة، في حين تقع منازل أولاد الخليفة والخزينة وإدارة البريد والخراج والخاتم والحرب والمطابخ حول الساحة... توجد «المنشآت» الأخرى في المدينة، على غرار السجن، بين باب الكوفة وباب البصرة. يشكل السور مبنىً دفاعياً متطوراً يضم جداراً أمامياً تعلوه الأبراج ويحتوي على خندق داخلي، في حين تشمل الأبواب العملاقة الأربعة عدة أبواب حديد. استعمل طوب خاص طوله ذراع واحدة من أجل بناء السور. كما حُفرت القنوات والآبار التي تزود المدينة المستديرة وضواحيها بمياه الفرات، وهو ما أسفر عن إنشاء حدائق خلابة. قام اليعقوبي بتسمية الشوارع^(٣٠)، مثل «شارع الشرطة» و«شارع النساء» و«شارع السقائين» و«شارع المؤذنين».

النظام بأكمله هناك: شكل في متهى الكمال، والسلطة في المركز، والتجسيد الواضح للإسلام في الجامع المحاذي لقصر الأمراء - الأئمة، والمحاور الكبيرة التي تقود إلى أبواب تفتح على الاتجاهات الأربعة للإمبراطورية. كما أن حجم الأشغال كان إمبراطورياً، فالمصادر تُعدّد الخبراء من المهن كافة (يذكر اليعقوبي وجود ١٠٠٠٠ عامل وهو رقم خيالي)، بمن فيهم علماء الفلك. امتدت بغداد منذ المراحل الأولى خارج نطاق المدينة المستديرة؛ فقد بنيت أربع ضواحي منذ البدء مع أسواق وحمامات، وطلب من مهندس مديني الإشراف على تصميمها. استند شغل تلك الأراضي، كما كانت حال الأمصار بداية، إلى مبدأ توزيع القطاعات الفردية على العرب أو الموالي أو القطاعات الجماعية على الجيش، سواء داخل أسوار المدينة أو خارجها. قام اليعقوبي بتعدادها^(٣١) وهذا الأمر لا يستبعد الممتلكات الفردية، بالنسبة إلى التجار على سبيل المثال.

تميز السكان منذ البداية بالتعددية الطائفية، إذ تمتع المجوس واليهود والمسيحيون النساطرة بمؤسسات عديدة في المدينة التي هاجروا إليها انطلاقاً من جميع أصقاع العالم الإسلامي. ولا يخفى على أحد أنهم اضطلعوا بدور حاسم في ما يتعلق بحركة الترجمة الواسعة للعلوم الإغريقية إلى اللغة العربية مروراً باللغة السريانية. أما المسلمون فقد شهدوا تنوعاً إثنياً كونهم وفدوا من جميع أنحاء الإمبراطورية. إلا أن المشروع السياسي العباسي كان يرمي إلى تسخير اللغة العربية لتوحيد ثقافة أعضاء البلاط، سواء أكانوا يتحدثون الفارسية أو التركية (على غرار التركمان) أو أي لغة أخرى.

(٣٠) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٤٠ وما بعدها.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٢٤٣ - ٢٥٤.

لم تكن المدينة الدائرية مجرد تأسيس أولي؛ ومن ثم شكلت التجمعات البلاطية أقطاباً مهمة وكانت مركزاً للأحياء المدنية الجديدة. بنى الخليفة المنصور عام ١٥٧هـ/ ٧٧٣م على الضفة الغربية لنهر دجلة أيضاً قصراً خارج المدينة المستديرة فشيّد على أساسه حي الكرخ. وبعدها بنى على الضفة الشرقية من النهر تجمعاً بلاطياً آخر أكثر اتساعاً لابنه وورثه المهدي وقد شيّد على أساسه حي الرصافة. ومنذ ذلك الحين، تطورت المدينة بقوة على الضفة الشرقية مع بناء حيي الشماسية والمخرم.

بين عامي ٢٢١هـ/ ٨٣٦م و ٢٧٩هـ/ ٨٨٩م، حاول الخلفاء العباسيون تفادي وراثتهم وقد ضاقوا بهم ذرعاً، فبنوا مدينة بلاطية هي سامراء على بعد ٦٠ كم شمال بغداد. ولدى عودتهم، استقروا على الضفة الشرقية نهائياً حيث اضطلعت القصور بدور أساسي وأفضت إلى إنشاء الأحياء. إلا أن الأمر لم يعد يتعلق بإنشاءات للخلافة، إذ عظم شأن الوزراء البرامكة وبنى أحدهم، وهو جعفر بن يحيى البرمكي، القصر الجعفري جنوب المخرم، التي استقر فيها الخليفة المعتضد ابتداء من عام ٢٧٩هـ/ ٨٩١م وبنى قصر الفردوس شمال القصر وفي الجنوب قصر التاج الذي أصبح منذ ذلك الحين مقام الخلفاء.

وكانت بغداد في الوقت عينه مقر الأمراء العباسيين والبلاط والجيش، وضمت في جزء كبير منها أتراك آسيا الوسطى ومدينة شعبية كبيرة تمتعت ببنية تحتية للتجارة وبمؤسسات العبادة ونقل المعرفة؛ فشكلت عاصمة شعبية تجمع ما بين الازدهار الاقتصادي والمستوى الفكري المتطور؛ وكان من شأن وجود جيش دخیل إثارة امتعاض السكان الأثرياء والمثقفين؛ فحدثت تلك المشكلة بالخلفاء إلى البحث عن عاصمة أخرى ابتداء من عام ٢٢٠هـ/ ٨٣٤ - ٨٣٥م.

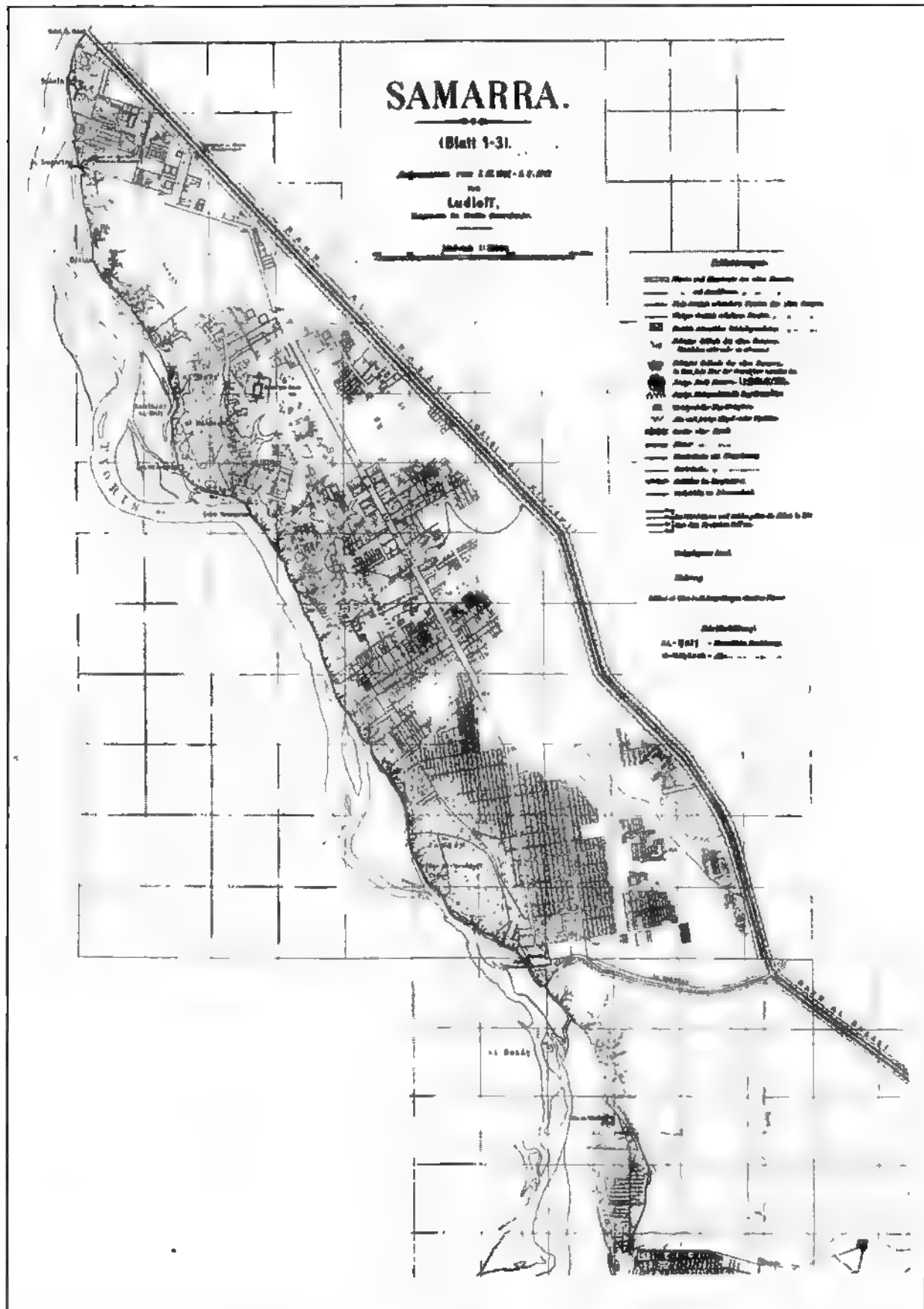
٤ - سامراء

درج الخلفاء العباسيون على الصيد على الضفة الشرقية لنهر دجلة على بعد ١٢٥ كم شمال بغداد؛ فسجلت محاولة لتأسيس مدينة فيها على نموذج المدينة المستديرة خلال عهد هارون الرشيد في عام ١٨٠هـ/ ٧٩٦م، إلا أنها باءت بالفشل^(٣٢). وفي عام ٢٢١هـ/ ٨٣٦م، أسس الخليفة المعتصم (٢٢٧هـ/ ٨٤٢م) مدينة الخلافة الجديدة على قواعد وجدت قبل الفتح الإسلامي، ولا سيما على دير (انظر الرسم الرقم ٥ - ٣).

Alastair Northedge, «Samarra'», dans: *Encyclopédie de l'islam*, p. 1047.

(٣٢)

الرسم الرقم (٥ - ٣)
خريطة سامراء (بالتفصيل)



المصدر: E. Wirth, *Die Orientalische Stadt Im Islamischen Vorderasien und Nordafrika*, 2 vols. (Mainz: Philipp von Zabern, 2000)

سمحت الحفريات في المدينة، التي بقي منها ٣٥ هكتاراً عام ١٩٢٤^(٣٣)، علاوة على قراءة المصادر اللاحقة (ولا سيما اليعقوبي، البلدان) بكشف النقاب عن عدة قصور وحلبات خيل وجوامع وأسواق وجادة طويلة تمتد على ٣,٥ كم وعن ميناء نهريّة مع أرصفة تمتد على طول نهر دجلة. يستفاد من المصادر أن الجيش حصل على خطط بحسب المجموعات الإثنية حيث استقر الأتراك شرق الجادة والمغاربة الوافدين ربما من مصر في الغرب على ضفة نهر دجلة... تحولت سامراء في عهد خليفة المعتصم، الواصل، من معسكر مؤقت إلى مدينة بكل ما للكلمة من معنى تضم جادات كثيرة وبنى تحتية اقتصادية (أسواق متنوعة، ولا سيما للرقيق) وإدارة (ديوان الخراج الأعظم، ومجلس الشرطة) وعدة قصور مع مساحات مكرّسة للصيد وإسطبلات خيول الخلفاء وحلبات الخيل الشاسعة (يفوق طولها الـ ١٠ كم). استضاف مقام الخليفة المتوكل، أي القصر الهاروني، وحدات تركية لفترة من الزمن^(٣٤). كما تم بناء جامع جديد بين عامي ٢٣٥هـ / ٨٤٩م و ٢٣٧هـ / ٨٥١م مع متذنته الشهيرة وسلالمه اللولبية حول الجذع المركزي التي استوحى منها ابن طولون في إنشاءاته في القاهرة.

كان ثمن هذا النشاط المدني باهظاً؛ وألقت التكاليف الخيالية التي كابدها الخلفاء، ولا سيما الخليفة المتوكل، بثقلها على الخزينة. من جهة أخرى، كرمس انعزال الخلفاء بالنسبة إلى الجيش ضعف هؤلاء في وجه الثورات العسكرية التي اتخذت شكل عمليات نهب للمدينة البلاطية. فعاد الخلفاء إلى بغداد عام ٢٧٩هـ / ٨٩٢م.

٥ - القاهرة

شكلت القاهرة، شأنها في ذلك شأن بغداد، مدينة لسلالة الخلفاء. فقد أرسل الخلفاء الفاطميون الشيعة الذين استقروا إلى تاريخه في أفريقيا، جيشهم ليفتح مصر عام ٩٦٩ بقيادة جوهر الصقلي، بهدف التوسع شرقاً باتجاه بغداد التي سكنها الخلفاء السنة. إلا أن هذا الأمر لم يتحقق؛ فبعد الفتح، قضت مهمة جوهر بتأسيس مدينة على نموذج العاصمة الفاطمية الحالية، ألا وهي صيرة المنصورية. فاختار موقعاً على بعد نحو ٤ كم شمال القسطنطينية بعيداً من ضفاف النيل غير الصحية وذلك على الضفة الشرقية لقناة حفرها الإمبراطور الروماني تراجانوس تصل النيل بالبحر الأحمر.

(٣٣) المصدر نفسه، Ernst Herzfeld, *Ausgrabungen von Samarra, Band 1, Der Wandschahmuck der Bauten von Samarra und seine Ornamentik* (Berlin: [n. pb.], 1923).

Northedge, Ibid., p. 1075.

(٣٤)

نقل إلينا المؤلفون أسطورة تعترف بالدور الحاسم لعصفور، كما كانت حال الفسقاط. عهدت مهمة تشييد المدينة، في غياب الخليفة الذي بقي في أفريقيا، إلى علماء الفلك الذين يمارسون نوعاً من التنجيم - مع العلم أن هذه الشعائر ليست إسلامية - للوقوف على أفضل وقت للمباشرة بتأسيس المدينة. فراقبوا الكواكب من موقع مميز. وجرى تركيب الأجراس على حبال تسندها الأوتاد وتجوب المدينة؛ وقد نوى المسؤولون عن المشروع قرع تلك الأجراس في الوقت الذي تعده الكواكب مناسباً. لسوء الحظ، حط غراب، نذير شؤم، على تلك الحبال وأطلق العملية: دقت الأجراس ويوشر بالأشغال. غير أن كوكب الحرب، المريخ القاهر - من هنا الاسم الذي أطلق على المدينة - كان في سمته، فتنبأ علماء الفلك أن الأمر سيؤول بالقاهرة المريخية إلى الحرب حيث ستخضعها سلالة قادمة من عالم الترك.

ماذا تقول لنا الأسطورة هنا؟ من جهة، حيث المدينة خضعت لطقوس التأسيس وفي غياب الخليفة، تم اللجوء إلى القوى السماوية وأفلتت الأمور من أيادي صناع القرار. فهل اعتبر غياب الأمير أمراً سلبياً؟ ومن جهة أخرى، كانت الخطوة الأولى رسم حدود المدينة. لم تشمل الأشغال الأولى، كما كانت الحال في عصر الرومان، تشييد بناء، جامع أو قصر، وشق الطرقات؛ أو توزيع الأراضي، كما فعل العرب، بل تمثل أول إجراء، المترافق بالاحتفالات، بفصل مدينة الخلافة عن باقي البلاد. وبالتالي يبدو أن الميزة الأساسية للمدن الأميرية الفاطمية تحققت في القاهرة، أكثر من أي مكان آخر؛ نقصد بذلك انعزالها اللافت للنظر (التمثل ببعد مدينة الخلافة من المدينة الشعبية وبسور محصن يحمي المدينة من الاجتياحات) لأن الفاطميين، أنى وجدوا، لم يكونوا يوماً من السكان الأصليين واعتبروا سلطتهم نخبوية. في المدن المؤسسة في أفريقيا، أي المهدية وصبرة المنصورية والقاهرة، خصصت المدينة للأمير وحاشيته وجيشه واحتوت على مستلزمات الحياة البلاطية.

تمثل العنصر الأول بالسور الذي فصل المرؤوسين عن أولئك الأمراء الأجلاء المتعذر بلوغهم وفقاً للبروتوكول، إلا أثناء الزياحات المنظمة بأبهة خارج مدينة الخلافة لكي تتمكن الجماهير من الإعراب عن إعجابها بتلك النخبة وعبادتها. في تلك المناسبات النادرة - على سبيل المثال، أثناء الاحتفال بقطع سد القناة - كان الخليفة ووزيره والحاشية يخرجون من القاهرة وفقاً لاحتفالات منظمة جيداً^(٣٥). أما

Paula Sanders, *Rituals, Politics, and the City in Fatimid Cairo*, Suny Series in Medieval Middle East History (Cairo: State University of New York Press, 1994).

العنصر الحاسم الآخر لتلك الإنشاءات فكان القصر. في القاهرة، تعلق الأمر بمجمعين كبيرين يقعان عند جانبي طريق سمي طريق بين القصرين. خصص القسم البلاطي الشرقي للخليفة والمقربين منه في حين خصص القسم الغربي الذي يطل على بستان كافور لخلف الخليفة الذي يتم اختياره سلفاً. كما تم بناء الجامع الأزهر الذي كان أقل مركزية من القصور. وُزعت الحارات على المجموعات الإثنية التي ألقت الجيش، أي البربر والديلميين (جنوب بحر قزوين) والأتراك والسودانيين... وذلك أسوة بالعواصم الأخرى التي اتخذتها هذه السلالة.

أعيد بناء السور في وقت لاحق وشيدت جوامع أخرى، منها داخل المدينة مثل الأقرم والحاكم (بنا أول الأمر خارج المدينة ومن ثم شملهما التخطيط الجديد للسور) ومنها في الخارج، على غرار الصالح طلائع جنوب السور الجنوبي، والجيوشي في جبل المقطم في الجنوب الشرقي. وإذا اختفت القصور الفاطمية التي دمرها الأمراء السنة الذين تلوهم، أي الأيوبيون، فإن بعض الجوامع لا يزال قائماً حتى اليوم، علاوة على الأسوار وبعض الأزقة التي تهيكل الحي.

٦ - فاس

تنتمي فاس إلى المدن المتأثرة بالتقلبات السياسية التي يشهدها البلد وتعاقب السلالات. في عام ١٧٢هـ / ٧٨٩م، أسس إدريس بن عبد الله، الذي أعطى اسمه إلى الأدارسة، أول مركز مديني استقرت فيه القبائل البربرية. في عام ١٩٣هـ / ٨٠٩م، استقبل إدريس الثاني خمسمئة فارس قيرواني أسس لهم مدينة جديدة هي العليا على الضفة الأخرى من النهر. وفي عام ٢٠٢هـ / ٨١٨م، استقر الأندلسيون، الذين طردهم الخليفة الأموي الحَكَم من قرطبة، في المدينة الأولى. أشهر جوامع فاس جامع القرويين ومسجد القرطبي، إنما ليسا أولاهما، إذ سبقهما جامعاً الشرفاء والأشياخ. كما كانت مدرسة القرويين أحد أقدم وأعرق مراكز تدريس العلوم الدينية في الإسلام.

لكل وحدة سورها - نظراً إلى الخلافات التي شهدتها القرويون والقرطبيون - وجوامعها وعملتها^(٣٦). لم توحد المدينتان إلا عام ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م على يد المرابطين الذين بنوا سوراً وحيداً بعدة أبواب دمره الخليفة المهدي عام ٥٤٠هـ / ١١٤٦م وأعيد

(٣٦) حول التأسيس المزدوج، وبعض الأفكار حول مدن المغرب القديم، انظر: Halima Ferhat, «Remarques sur l'histoire des villes et la fragilité du tissu urbain avant le XV^{ème} siècle,» dans: Naciri et Raymond, eds., *Sciences Sociales et Phénomènes Urbains dans le Monde Arabe*, pp. 97-103.

بناؤه عام ١٢٠٨هـ/١٢١٢م. كما بنوا القصبه الأولى في المدينة عام ٦٠٠هـ/١٢٠٤م. وأسس المرينيون عام ٦٧٤هـ/١٢٧٦م «فاس الجديدة» أو المدينة البيضاء، التي ظلت عاصمة لغاية عام ٩٥٥هـ/١٥٤٩م حين اتخذ السعديون من مراكش عاصمة لهم.

يعدّ ذلك نموذجاً مدنياً فريداً في نوعه؛ إذ غدت المدينة منظمة منذ وقت مبكر حول عدد من المراكز، وكان فيها شيء من البنية التحتية المدنية، أي القصبه، التي ميّزت عدداً كبيراً من المدن خلال هذه الفترة الوسيطة حيث كانت هناك أرستقراطية عسكرية، دخيلة في أغلب الأحيان، في سدة السلطة. هذا هو النموذج المدني الذي سمّاه جان كلود غارسان^(٣٧) «مدينة الخيالة» حيث لا تلبي القصبه في الشرق «الضرورة السياسية بعزل الخيالة الأتراك عن تجمعات السكان الأصليين» فحسب، بل تعكس أيضاً تأثير المدن الإيرانية «التي مرت بها الأنظمة التركية قبل الوصول إلى البلدان الإسلامية في المتوسط». في معظم الأحيان، لا يتعلق الأمر بتأسيس مدينة جديدة تتمتع بعنصر البنية التحتية المدنية، بل ببناء قصبه في مدينة موجودة من قبل، كما كانت حال دمشق عام ٤٦٨هـ/١٠٧٦م وحلب في أواسط القرن التالي أو القاهرة عام ٥٧١هـ/١١٧٦م في عهد صلاح الدين. والوضع مماثل في فاس، إذ بدأت القلاع تشكل جزءاً من المشهد المدني منذ ظهور البربر.

وبفعل تعاقب السلالات التي تركت آثارها في فاس، يسهل فهم كيف تصوّر مخيلة المغاربة فاس على أنها «مدينة رمزية يختلط تاريخها بتاريخ البلد والأداسة (...) تجسد أيديولوجيا شريفية قوية (...)» فهي قطب الشرفية الإدريسية وشتاتها الذي يضيفي الشرعية على الحركات الشرفية الإقليمية، لذا، ساهمت في التوحيد الروحي للمغرب^(٣٨).

خاتمة

تختلف المدن المؤسسة في العالم العربي باختلاف فترة تأسيسها، سواء أكان ذلك على مستوى النموذج المدني أو على مستوى السكان، وبحسب الفترات التي تأسست فيها. فمدن مرحلة الفتح، أي الأمصار، تشرك القبائل المتحدرة من أصول مختلفة والمتناحرة، علاوة على السكان المدنيين وغير المدنيين، بالعيش معاً وتعيّن

Jean-Claude Garcin, «Le Caire et l'évolution Urbaine des Pays Musulmans,» dans: *Annales Islamologiques*, pp. 289-304.

Halima Ferhat, «Fés,» dans: Garcin, *Grandes Villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, p. 323.

على الأخيرين التكيف مع نمط الحياة المدني الجديد. حدد هؤلاء السكان أنماط شغل الأرض وملامح تلك الأمصار التي كانت موسعة جداً في مرحلة أولى، ووجود نواة مدنية أو أكثر تضم «منشآت العامة»، أي دار العمارة والجامع، لا بل حماماً والأسواق الأولى في العالم الإسلامي ومساكن «الأعيان». صحيح أن تلك المدن لم تخضع في تأسيسها لأي طقس محدد، كما هي حال معظم المدن المؤسسة من العدم، للأسباب التي سبق وذكرناها، إلا أن تلك المراكز أنشئت انطلاقاً من «قصد تمدني» على حد قول هشام جعيط^(٣٩) انبعث منذ اللحظات الأولى عن السلطة المركزية في المدينة المنورة.

القصد الحضري جلي بالنسبة إلى جميع المدن التي تم تأسيسها والتي لا تزال تسجل وجوداً للسلطة المركزية. في الواقع، تندرج تلك المدن ضمن مشاريع محددة، ألا وهي تأمين مسكن للجيش الفاتح والتعبير عن وجود إدارة مركزية ترتبط بالإسلام في ما يتعلق بالأمصار الأولى أو مشروع إظهار قوة الأمراء وعظمتهم، وهو ما كان جلياً في واسط منذ العصر الأموي. تظهر إرادة السلطات المركزية بصورة أوضح في الإنشاءات الخليفة أو السلالية الكبرى في العصور اللاحقة. فإذا كان علماء الفلك يشرفون على المراحل الأولى للإنشاءات حين تخضع لطقس معين، فإن المهندسين المدنيين يكتسبون أهمية حاسمة بالنسبة إلى تلك المدن، ولا سيما بغداد التي تم تصميمها بصورة مسبقة.

من الواضح أن المدن المؤسسة والمشمولة بدراستنا تندرج ضمن إطار مشروع سياسي. فقد فتح المسلمون العالم واستقروا فيه، أو أن بعض السلالات أرادت التعبير عن عظمتها بتعبيرات مادية وكانت الإنشاءات المدنية وسيلة لإظهار إشعاعها. بالتالي، خلفت تلك المدن أثراً في نفوس معاصريها أو من عرفها في وقت لاحق، سواء سكنها أو زارها أو حتى من لم يعرفها إلا من خلال وصف الكتب لها. كما يعود التأثير الذي مارسه إلى تجسيدها جزءاً من رأس المال الحضاري للثقافة العربية الإسلامية.

لا شك في أن المدن - المعسكرات التي ترقى إلى مرحلة الفتح أثرت إلى حد بعيد في المخيلة العربية الكلاسيكية. فنلاحظ أن مصادر العصر العباسي أو عهد المماليك التي تشير إليها تواجه أحياناً صعوبة قصوى في رؤية تلك المدن على نحو استردادي دقيق. على سبيل المثال، وصف ابن دقماق، وهو مؤلف مصري من أوائل القرن الخامس عشر، مدينة الفسطاط من دون التمييز بين الأمور التي تعود إلى عصره

وتلك التي ترقى إلى فترة الفتح، وذلك في إطار علاقة تقوم على الانصهار التام في تلك الفترة المتداخلة. تظهر تلك المصادر أهواء الدارسين^(٤٠)، وتروي في ذلك أساطير بديعة، وقد ذكرنا منها تلك المتعلقة بالمراحل الأولى للفسطاط والقاهرة والقيروان. علاوة على الفرحة التي تخالجننا عند قراءة نصوص ساحرة والفرصة التي تسنحها لنا بفهم ذهنية مؤلفيها، فهي توفر لنا أحياناً إشارات لا نكاد نستشفها في النصوص الأكثر عقلانية. وإذا كان من مدن تم تأسيسها وتقدم، كفتة، الإطارَ لقصص رائع، فهي بغداد بلا شك، التي استحوذت على المكانة الأرفع في مخيلة العرب. فقد تم الحديث عن روائعها (مثلاً في كتاب فضائل بغداد العراق للمؤلف الفارسي يزدجرد بن مهيندار) وشكلت إطاراً لأغلبية روايات ألف ليلة وليلة خلال الفترة الأكثر ازدهاراً المتمثلة بخلافة هارون الرشيد. يدور قصص الرواية في شوارع وأسواق المدينة وفي القصور الفخمة على ضفاف نهر دجلة.

يمكن الوقوف على العلاقة العاطفية التي ربطت السكان بمدينتهم أو التي أقامها العرب مع المدن التي تم تأسيسها بوصفها «أماكن للذاكرة». وأحد أماكن الولع المشترك للعرب هو مع اللغة العربية ومعرفتها، ففي هذه المدن ظهرت الأنشطة الأدبية الكبرى. ويقال في البصرة - حيث لغة البدو تعتبر أكثر اللغات نقاوة - كيف كان علماء القواعد العرب يترددون إلى المربد زمن المعارض، حيث كان العرب البدو يزاولون تجارتهم، وذلك لتسجيل الطريقة التي يعبرون عن أنفسهم بها. بالتالي، «كانت العراق القلب النابض للحياة الأدبية، ولا سيما البصرة والكوفة وبغداد» ما بين عامي ١٣٢هـ / ٧٥٠م و٢٣٢هـ / ٨٤٧م^(٤١).

أكثر من ذلك، فإن وجود عاصمة أحب فيها الأمراء الأدب والشعر والعلوم ورعوها، كما في بغداد حيث فتح الخليفة «بيت الحكمة»، لا تستطيع إلا أن تعزز «أمكنة الذاكرة» هذه التي تمثلها المدن المؤسسة.

Denoix, *Derier le Caire: Fustât-Misr d'après Ibn Duqmâq et Maqrîzî*.

(٤٠)

Katia Zakharia, *Histoire de la littérature arabe* (Paris: Flammarion, 2003), p. 27.

(٤١)

مراجع إضافية

لا يسعنا عرض بيليوغرافيا شاملة لكل من المدن التي تمت دراستها ضمن المقياس المتواضع لهذه الدراسة. وعليه، نحيل القارئ إلى البيليوغرافيا الواردة في المؤلفات التالية:

بالنسبة إلى القيروان وبغداد والفسطاط والقاهرة وفاس، انظر البيليوغرافيا التي وضعها كل من: المنذر الصكلي (Mondher Sakly)؛ فرنسواز ميشو (Françoise Micheau)، أيمن فؤاد سيد (Ayman Fu'ad Sayyid)؛ رولان-بيار غايرو (Roland-Pierre Gayraud)؛ جان كلود غارسان (Jean-Claude Garcin) وحليمة فرحات (Halima Ferhat)، في: Jean-Claude Garcin, *Grandes Villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, conjunction with Jean Luc Aranaud and Sylvie Denoix (Rome: Ecole Française de Rome, 2000),

بالنسبة إلى بغداد، انظر: ك. عواد وآ. عبد الحميد، بيليوغرافيا حول بغداد (بغداد: [د. ن.]، ١٩٦٢).

بالنسبة إلى البصرة، انظر: Charles Pellat, s.v. «Basma», dans: *Encyclopédie de l'islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill; Paris: Maisonneuve, 1975).

بالنسبة إلى الكوفة، انظر: Hichem Djaït, *Al-Kûfa: Naissance de la ville islamique* (Paris: Maisonneuve et Larose, 1986).

بالنسبة إلى سامراء، انظر: Alastair Northedge, «Samarra», dans: *Encyclopédie de l'islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill; Paris: Maisonneuve, 1975)

المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS)؛ معهد الأبحاث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي (IREMAM)؛ الدار المتوسطة للعلوم الإنسانية (MMSH).

القسم الثاني

مقاربة إقليمية

الفصل السادس

مدن البلقان العثمانية

بيار بينو^(٥)

المدينة التي نتكلم عنها هنا هي تشكيل من البنى المورفولوجية والأنسجة المدنية (Urban Fabrics). هي من جهة، التنظيم العام للأحياء، ومخططات الطرق الكبرى، والمنشآت المدنية؛ وهي من جهة ثانية، النسيج السكني، وتصاميم فرعية، وأجزاء مقطعة، ومنشآت داخل الأحياء. علينا، أولاً، وصف هذه البنى والأنسجة لكن علينا أيضاً طبعاً محاولة فهمها في علاقتها بالظواهر الإثنية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية. وهدفنا في هذا ليس الشرح بمقدار ما هو الكشف. ليس من البديهي أبداً القول إن المجتمع ينتج أمكنته المدنية بوعي كامل لُبناها الخاصة مطبقةً على المكان. والصحيح أنه يقوم بذلك على نحو مشوّش، ويتوجب عليه في النهاية أن يكتف حاجاته وتصوراته مع المدينة التي ورثها. ويبقى الإجراء الأكثر تواضعاً معاناة الشكل الذي تستطيع من خلاله البنى المكانية، أي المورفولوجيات المدنية في حالتنا، أن تدفع إلى الضوء ظواهر يمكن بطريقة ما تفسيرها. بهذه الطريقة، تستطيع دراسة الأشكال المدنية للعالم العثماني، وبمساعدة إجراءات أخرى، أن تساهم في تعريف المدينة العثمانية، وتميز مناطق محددة داخل الإمبراطورية العثمانية؛ كالتميز مثلاً، وكما بات شائعاً اليوم، بين «المقاطعات المركزية» من جهة والمقاطعات البلقانية والعربية من جهة ثانية.

(٥) مهندس معماري ومؤرخ فرنسي.

إلى ذلك، تنشأ دائماً مشكلة التعريف حين ننسب اسم «مدينة» إلى كيان تاريخي وجغرافي ما. هل يمكن أن يقوم نوع واحد من المدن ولحقة تدوم عدة قرون؟ هل هذه هي حال المدينة العثمانية منذ نهاية القرن الخامس عشر وحتى بدايات القرن العشرين؟ وهل يكون صحيحاً في منطقة تغطي عدة أقاليم طبيعية وكان لها مواضع متباينة؟ هل هذا هو حال المدينة البلقانية^(١) وفي أي حال، فإن فكرة المدينة نفسها - باستثناء المدن الجديدة التي وجدت وتطورت في سياق تاريخي موحد وعلى امتداد فترة معينة - تتعارض مع التعريف الذي يقيدتها بحقة زمنية ضيقة. إذا كنا نرغب في الكلام عن مدينة «عثمانية» بحتة، فهذا يعني تقييد أنفسنا بمدن تأسست من لا شيء، ابتداءً من نهاية القرن الخامس عشر وصعوداً، وهذا سوف يستثني على الفور بورصة وأدرنة وإسطنبول، ثلاث عواصم تأسست داخل المدن اليونانية الرومانية. ويظهر التقادم الزمني جلياً في الشكل المدني؛ حيث كل حالة هي مجرد وريث لحالة سابقة ثم جرى تكييفها مع المتطلبات الجديدة. وعليه وبدل الكلام عن مدن عثمانية، ستكلم عن مدن جرت «عثمتها»، إذ احتوت الإمبراطورية العثمانية مدناً ذات مواضع متنوعة، يونانية - رومانية وبيزنطية وعربية وسلاجقية.

أولاً: المدن العثمانية

جرى التفريق، تقليدياً، بين المدن الأناضولية والبلقانية، وبين المدن العربية الشرقية والمغربية - حين لا يكون ممكناً ردها معاً إلى مجموعة «شرقية» واحدة^(٢). تشهد المظاهر على هذا الانحصار (البعض يسميه اختلاطاً): «تصميم فوضوي»، شبكة طرقات ضيقة ومتعرجة (عادة هناك أزقة مغلقة) ومعقدة، بازارات مركزية، وسيطرة مآذن المساجد على المشهد. ربما يقدم ذلك صورة كاريكاتورية (تبسيطية) للماضي، ولكن هل هي مغلوطة كلياً؟ وحده التحليل الدقيق للبنى والأنسجة سيكون في وسعه تأكيد

(١) انظر الأفكار المهمة حول الموضوع، في: Gilles Veinstein, «La Ville ottoman: Les Facteurs d'unité», dans: *La Ciudad Islámica: Ponencias y comunicaciones* (Zaragoza: Institución Fernando el Católico, 1991), pp. 65-92, et «La Ville ottoman», dans: Mohammed Naciri and André Raymond, *Sciences Sociales et phénomènes urbains dans le monde arabe* (Casablanca: Publication de la Fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud por les etudes islamiques et les sciences humaines, 1997), pp. 105-114.

(٢) حول فكرة المدينة الشرقية، انظر: Eugen Wirth: «Die Orientalische Stadt: Ein Überblick auf jüngeren Forschungen zur materiellen Kultur», *Saeculum*, no. 26 (1975), pp. 45-94, and *Die orientalische Stadt im islamischen Vorderasien und Nordafrika* (Mainz: Zabern, 2000).

مع الملاحظة أن مدن الأناضول والبلقان لم تبحث تخصيصاً في تلك الدراسات.

ذلك؛ ومثل هذا التحليل صعب إجراؤه غالباً لأن التخطيطات الدقيقة للمدن القديمة (قبل التغييرات التي حصلت في القرن العشرين) باتت مفقودة؛ أو على الأقل يصعب الوصول إليها. وتغزو الدراسة الحقيقية للأنسجة المدنية ممكنة فقط من خلال استخدام مخططات مساحية؛ فهي وحدها تستطيع إظهار القطع الجزئية التي تقدم صورة صادقة في خصوصيتها، وهو ما يسمح لنا بقراءة بقايا البنى الأولية، وفك رموز التقسيمات العقارية، واكتشاف كيفية إنشاء المنازل. لقد برزت التخطيطات المساحية مؤخراً فقط (نهاية القرن التاسع عشر أو في القرن العشرين) ومن الصعب تحقيقها ما لم يتمكن من الولوج إلى السجلات العقارية للمدن كافة وتكون لنا السلطة لأخذ نسخ منها.

وكفرضية عملية، سوف نفترض أن حقل المدن العثمانية - تعريفات وتميزات - يمكن بلوغه بواسطة واحد من عناصرها، وتحديداً المنزل المدني، على فرضية أن الأخير أكثر شهرة من المدينة نفسها. يمكن بسهولة تمييز ودراسة وتصنيف المنزل العثماني من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (حتى لو كان الكثير منها قد اختفى منذ عدة عقود) من حيث نوعه، إذ هو كان، ولنحو خمسين سنة، موضوع دراسات وصفية وخلصات^(٣)، من البوسنة إلى تركيا مروراً بصربيا^(٤) وبلغاريا^(٥) أو مقدونيا^(٦). يكفي النظر إلى التصاميم والصور الفوتوغرافية (دع جانباً التعليقات ذات الإيحاء القومي أحياناً) لاكتشاف الوحدة المدهشة في شكل المنازل العثمانية، خارج الأقاليم العربية وجنوب شرق تركيا. يكشف توزيع المنازل العثمانية مع «حياة» أو «صوفا»^(٧)، أن التقسيم السائد ليس ذلك الذي يمكن توقعه من حيث المبدأ، أي بين نوعيه التركي - البلقاني والعربي. خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (إذ معرفتنا بالمنازل قبل ذلك محدودة) لم تعرف البلقان ككل المنزل العثماني في مجموع خصائصه - إذ إن قسماً من ألبانيا بقي جزئياً خارج

(٣) انظر خصوصاً: A. Arel, *Osmanlı konut gelenginde tarihsel sorunlar* (Izmir: [n. pb.], 1982), and Döğen Kuban, *The Turkish Hayat House* (Istanbul: Eren, 1995).

(٤) على سبيل المثال، انظر: J. Krutnić, *Kuća i varoš u oblasti Stare Raske* (Belgrade: [n. pb.], 1994).

(٥) على سبيل المثال، انظر: Bagra Georgieva, Ivan Ivanchev and Liliã Peneva, *The Old Bulgarian House: Interior, Architecture, Design and Furnishing* (Sofia: [n. pb.], 1980), [In Bulgarian], and Bernard Lory, *Le Sort de l'héritage ottoman en Bulgarie: L'Exemple des villes bulgares, 1878-1900*, *Varia Turcica* (Paris: Isis, 1985).

(٦) في دراسات حديثة، انظر الدراسات الوصفية المنشورة في ألبانيا عن الشمال البلقاني لدى مطبوعات ميليسا.

D. Gabrigan, *Makedonska Kuca* (Ljubljana: [n. pb.], 1957).

(٧) الحياة أو الصوفا هي قاعة في وسط البيت تحيط بها غرف من جوانبها. من أجل تعريف أكثر دقة لـ «حياة»

و«صوفا»، انظر: Alain Borie and Pierre Pinon, «La Maison turque.» *Bulletin d'information architecturales*, no. 94 (1985).

تأثيره^(٨)، وعلى نحو أبعد في ولاشيا أو الأفلاق^(٩). أكثر من ذلك، ليست كل منازل تركيا عثمانية، أي منظمة حول «حياة» أو «صوفا» (بالرغم من محاولات «تتريكها»^(١٠)). على سبيل المثال، منازل كبادوكيا القديمة ومنازل القيصرية الأكثر قدماً (القرن الخامس عشر والقرن السابع عشر) مؤلفة من باحة داخلية وإيوان، ومنازل قونيا فيها «مايين» (أي إيوان مغلق). تضم منازل بلاد ما بين النهرين العليا (ديار بكر وماردين وأورفة) باحات داخلية وإيواناً وقاعة. أما منازل أنطاكية فتضم باحة وقاعة وهي قريبة جداً من منازل سورية الشمالية، أي ما بعد التقليد المملوكي. أما منازل البحر الأسود أو شرق الأناضول، فمن الممكن أن تكون من الطراز القوقازي (أرضروم). هكذا تتوقف الواجهة الشرقية للمنتزل العثماني التقليدي (سوى بعض البيوت والقوناقات لمالكين عثمانيين) على خط متعرج ينطلق من أنطاليا إلى توكات، مروراً بموغلا وأفيون وأنقرة وأماسيا^(١١)، من دون أن يعني ذلك أن التأثير العثماني كان غائباً عن سورية الشمالية^(١٢) أو لبنان^(١٣)، وبخاصة مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

هل أن هذا الحد (بالتأكيد هو ليس مقفلاً، إذ توجد مناطق متغيرة وتتعايش فيها عدة أنواع معاً) الذي يعين منطقة توزيع المنزل العثماني التي تغطي البلقان (البوسنة وبلغاريا ومقدونيا وئيساليا مع المنازل العثمانية الجميلة في سرايفو وأوهريد وقسطوريا وأمبيلاكيا) والشمال الغربي للأناضول (بورصة وزعفرانبولو وأماسيا وتوكات وكوتاهيا وأفيون وكيولا) هو نفسه بالنسبة إلى المجال المديني؟ إذا كانت هذه هي الحال^(١٤)، فإن البلقان، من جهة أشكال المدن، سيكون مجرد مجموعة فرعية من مجموعة أكبر تضم

(٨) إذا كانت منازل أشقودرة تبدو عثمانية مع الجرداق (تنويع لـ «حياة»)، فإن تلك التي في تيرانا تبدو منسقة حول «ديوان»، بينما تلك التي في كروجا، بيرات، وخصوصاً في جيروكاستر لها جرداق، جزء موضوع على برج وفقاً للتصميم الأصلي.

(٩) الجرداق موجود تكراراً في منزل مع صوفا في بوخارست (بيت مالك المبني سنة ١٧٦٠).

(١٠) ومع ذلك، ففي أطراف البلقان أو تركيا المظهر الخارجي، والديكور الداخلي، وتوزيع الغرف، متأثرة بقوة بالعمارة العثمانية المحلية.

Borie and Pinon, «La Maison turque».

(١١) انظر:

Jean-Claude David, «Nouvelle Architectures domestiques à Alep au XIX^{ème} siècle: انظر:

Expressions locales d'un phenomene regional,» dans: Michael F. Davie, *La Maison beyrouthine aux trois u arcs: Une architecture bourgeoise du Levant* (Beirut: Centre de Recherches et d'études sur l'urbanisation du monde arabe, 2003), pp. 217-243.

Semaan Kfoury, «La Maison à hall central au Liban: Origins, influences, identitiés,» انظر: dans: Davie, Ibid., pp. 33-55.

(١٤) كانت تلك منذ زمن فرضيتنا، انظر: Pierre Pinon, «Essai de Definition morphologique de la ville ottoman des XVIII^{ème}-XIX^{ème} siècles,» dans: Nikola Tasi, Dusica Stosi et Ivan Nini, *La Ville dans les Balkans depuis la fin du Moyen Age jusqu'au début du XX^{ème} siècle: Recueil d'études*, Posebna

أيضاً الشمال الغربي للأناضول. ليس بالأمر السهل أن تعطي اسماً لهذه المجموعة. فهي لا تستبعد الأقاليم العربية فقط، بل تستبعد كبادوكيا والمناطق القوقازية وبلاد ما بين النهرين العليا أيضاً. يمكن أن ندعوها «البلقان - التركية»، مع استدراك أن المسيحيين كان لهم السيطرة المسبقة في البلقان، في حين كان الأتراك يوجدون بكثرة في الجنوب الشرقي لتركيا. يجب إذاً الاكتفاء بهذا الحد الفاصل بين عالم هو «تركي بلقاني» (في انتظار تسمية أفضل)، من جهة، وعالم عربي عثماني من جهة أخرى^(١٥).

هكذا إذاً، يجب تقسيم الإمبراطورية العثمانية، لجهة الأنواع المعمارية والمورفولوجيات المدنية، إلى قسمين كبيرين لا ثلاثة. وليس من المستغرب ملاحظة أن القسم «العربي العثماني» من تركيا (كذلك في انتظار تسمية أفضل) هو حيث يوجد الفن المعماري السلجوقي (من ديفريك إلى ماردين مروراً بقونيا وقيصرية)، وبخاصة بعدما استولت الفتوحات العربية والسلجوقية باكراً على المعازل البيزنطية. وعلى العكس من ذلك، فقد خضع القسم التركي البلقاني (من بيتينيا القديمة إلى صربيا) للحكم البيزنطي للفترة الأطول. ويظهر أن وجود هذه القواعد العربية - السلجوقية والبيزنطية هو في أصل هذا التقسيم الشفاف في مجالي الفن المعماري والمدينة العثمانية.

ثانياً: «عثمنة» المدن البلقانية

حين استولى العثمانيون على الحكم في الشمال الغربي للأناضول، وغزوا البلقان والقسطنطينية، كانت المدن متعددة؛ وهم لم يكادوا يحتاجون إلى بناء مدن جديدة. بهذا المعنى نحن نتحدث عن «العثمنة» لا عن «مدن عثمانية» بالمعنى الدقيق للكلمة - على الأقل في ما يختص بالأشكال المدنية، الموروثة جزئياً التي قلما أعيد بناؤها.

كانت المدينة العثمانية البلقانية أكثر من مجرد تكييف مبسط للمدينة البيزنطية؛ وقادها ذلك على مر العصور إلى تحولات وتوسعات على قدر من الأهمية. وعليه، فالحديث عن المدن البلقانية العثمانية، يعني من ناحية، محاولة تحديد الجذور الأصلية المتنوعة للمدن البلقانية ما قبل الحكم التركي، ويعني من ناحية أخرى، وصف وتفسير

Izdanja (Paris: Academie Serbe de Sciences et des Arts; Belgrade: Institut des études Balkaniques, 1991), pp. 147-155.

(١٥) حول المدن «العربية العثمانية»، انظر: André Raymond, *Grand Ville arabe à l'époque ottoman* (Paris: Sindbad, 1985).

التطورات منذ الفتح وحتى بداية القرن العشرين. ستقارب البلقان العثمانية باعتبارها منطقة واسعة جداً تمتد من البوسنة حتى تراقيا، ومن ييلوبونيز إلى ولاشيا؛ وستفحص تطورها المدني من القرن الخامس عشر حتى بداية القرن العشرين.

ما هي «العثمنة» على وجه الدقة؟ ستميّز بين المدن الكبيرة (موضوع التحولات) والمدن الصغيرة (القابلة للتمدد). باستثناء القسطنطينية وسالونيك، لم تكن في البلقان مدن كبيرة قبل الفتح. بالنسبة إلى سالونيك، التي حافظت على بنية التصميم القديم للطرق فيها، تضمنت «العثمنة» تحويل عدة كنائس إلى مساجد (حتى الغلاريوس المقدس)، وتجهيز منشآت في الحارات (مثل الحمامات)، وعلى وجه الخصوص بناء حي للطبقة التركية العليا، الذي ظل حتى القرن التاسع عشر متميزاً عن باقي المدينة، ليس من خلال «تصميمه الشرقي» فقط وإنما من خلال الألوان الحية (التي كانت وقفاً على المسلمين في كل الإمبراطورية) التي ميزت منازلها أيضاً، بخلاف اللون الرمادي لـ «الأقليات» (اليونانيين واليهود هنا خصوصاً). في القسطنطينية^(١٦)، المدينة المهجورة بأكملها والمدمرة، جرى التمددين تدريجاً من خلال سكان استقدموا من أنحاء الإمبراطورية كافة، ومن دون الأسوار البرية التي لم تدرك كاملة على الإطلاق. هنا، تم عملياً تهيئة كل الكنائس (أولاًها آيا صوفيا) وتحويلها تبعاً إلى مساجد (بعدها استخدمت مؤقتاً كمقر لأقارب السلطان محمد الثاني). ولم يجر أي تعديل معماري فيها خلا المحراب والمئذنة. وجرى بسرعة زرع نواة البازار الكبير المستقبلي في مكان قريب من القصر القديم (إسكي سراي). وشيّد مسجد الفاتح محل كنيسة الرسل المقدسة. وفي نهاية القرن الخامس عشر، كانت جغرافية جديدة قد رأت النور من خلال إقامة المساجد (عبر الأوقاف) مع مدارسها وزوايا الدراويش، ومن خلال أحياء جديدة أيضاً كان لا بد منها (أبنية للتجار والحرفيين حول البازار، وللجنود قرب الأسوار أو البحر). تبدو هذه الأحياء كما لو أنها قرى متفرقة، وبعيدة إلى حد ما الواحدة من الأخرى. تظهر المخططات الأولية للمساحة (التي نفذت في القسم الثاني من القرن التاسع عشر في إثر اندلاع الحريق الكبير)^(١٧)، قبل إعادة الترميم بحسب نمط الفرز الأوروبي، نظاماً مؤلفاً

(١٦) انظر: Stephane Yerasimos, «Istanbul Ottoman, in Istanbul, Constantinople, Bizantio», *Rassegna*, no. 72 (1997), pp. 25-36.

(١٧) انظر: Pierre Pinon and Stephane Yerasimos, «Relevés après incendie et plans d'assurances: Les précurseurs du cadastre stambouliote», dans: «Urban Morphogenesis: Maps and Cadastral Plans», *Environmental Design*, nos. 1-2 (1996), pp. 112-229; Pierre Pinon: «Topographie des Lotissements et transformations urbaines d'Istanbul dans la seconde moitié du XIX^{ème} siècle», dans: Daniel Panzac, ed., *Histoire économique et sociale de l'empire ottoman et de la Turquie (1326-1960): Actes du Sixième*

من شارع أو شارعين رئيسيين («أمهات») محاطين بطرق مجزأة ضيقة وعميقة، وبقي أصلها وطرزها وتاريخ إنشائها مجهولة^(١٨). وفي نهاية القرن السادس عشر، كانت كل المربعات الإمبراطورية الضخمة «الكلية» قد شيدت (تتضمن مسجداً ومدرسة وحقاًماً ومركزاً ربما إدارياً ومستشفى) - السليمانية وبازيد وشاه زاده والسليمية - وكلها على حافة شبه جزيرة إسطنبول.

منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر وما فوق (أو في القرنين السابع عشر والثامن عشر بحسب المناطق المعنية)، تطورت المدن على نحو رئيسي خارج أسوارها؛ وظهرت حول مساجدها حارات جديدة (varosh)^(١٩) (أو حول الأديرة، كما هي الحال في ولاشيا). في الوقت نفسه، أسست أسواق بمحاذاة الأسوار البيزنطية، وكان تخصيص كل حارة بتجارة ما أساسياً للمدينة العثمانية والإسلامية بعامة^(٢٠). هذه الصورة، قلعة بيزنطية وبازار وحارات سكنية، تأسست في بورصة ثم استُنسخت في أدرنة وأثينا وجانينا وفي أشقودرة (ألبانيا)^(٢١). لا تزال السوق المحاطة بخانات موجودة بقوة في المدن البلقانية العثمانية من سرايفو إلى بلوفديف، ومن سكوبي إلى جانينا تحت عدة أسماء مشتقة من «تشارسي» (Çarsi) (كارسيا (Carsija) في البوسنة أو في مقدونيا، ومن بازار (Bazaar) إلى بازار (Pazar) في ألبانيا. ما زالت ألبانيا وكوسوفو تملكان حتى الآن عدة «بازارات»^(٢٢) في جيروكاستر وألباسان وبيك (Pec) وجاكوفيا، وهي تتضمن كلها على الأرجح بادستان (أي السوق المقلدة) كما هي الحال في أشقودرة وبيرات

Congrès international tenu a aix-en-provence du 1^{er}, Collection Turcica; 8 (Louvain and Paris: Peeters, 1995), pp. 687-703, et «Transformazioni urbane tra il XVIII° il XIX secolo», Rassenga, no. 72 (1997), pp. 52-58.

(١٨) هو نمط النسيج الحضري الذي دعونه «ج» في: Pierre Pinon, «Essai de Typologie des tissus urbaines des villes ottomans d'Anatolie et des Balkans», dans: *7 Centuries of Ottoman Architecture, «A Supra-National Heritage»* (Istanbul: Turkish Chamber of Architects, YAYIN, 2000), pp. 185-186. ومع ذلك فنحن لا نعرف ما إذا كانت هذه الأنسجة المدنية قد تكوّنت من العثمانيين بعد الاحتلال، أو أنها تطابق أنسجة خاصة تستخدمها الأقليات المحلية في أحيائها، إذ بحسب معطيات البحث الراهنة هي موجودة فقط في الأحياء اليونانية، اليهودية، والأرمنية.

(١٩) حول ألبانيا، انظر على سبيل المثال: E. Riza, «Aperçu sur l'urbanistique de la ville albanaise: le cas de Tirana», *Monumentet*, no. 17 (1977), pp. 47-73.

(٢٠) حول بنية المدينة العثمانية، انظر على سبيل المثال: Maurice Cerasi, *La Città del Levante: Civiltà urbana e architettura sotto gli ottomani nei secoli XVIII-XIX* (Milan: Jaca Books, 1986).

(٢١) هو موجود أيضاً في الأناضول، في أفين، كوتاهيا، وتوكات.

(٢٢) انظر: E. Riza, «Les Ensembles des marches et leur restauration», *Monumentet*, nos. 15-16 (1978), pp. 117-138, et Zija Shkodra, *La Ville albanaise au cours de la renaissance nationale, 1813-1912* (Tirana: Mihal Duri, 1988), p. 149.

وسكوبي وبريزرن وبريشتينا. يتألف هذا الـ «تشارسي» عادة من شبكة منظمة وكثيفة من الأزقة محاطة بدكاكين من خشب. وعلى نحو أكثر ندرة، يكون التشارسي خطياً مشكلاً العمود الفقري للمدينة، كما في كروجا (انظر الرسم الرقم ٦ - ١).

الرسم الرقم (٦ - ١)

مخطط أشقودرة عام ١٩٢٣



وعلى غرار الأناضول، غدا البلقان مليئاً غالباً بالمعالم الدينية (مساجد في كل الحارات) أو المدنية (مثل المركز الإداري في كافالا). وفي الحارات الجديدة أو

القديمة، وتبعاً لظاهرة التجديد المعماري، اتخذ المنزل العثماني مكانه على طول الشوارع، وخصوصاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مشكلاً بذلك مشهداً مدينيّاً، ومصنفاً لاحقاً كنمط «تركي» («الحارات التركية القديمة» للمرشدين السياحيين). من أوريد إلى بلوفديف، ومن فيريا (في اليونان) إلى تيتوفو، وصولاً حتى إلى بوخارست، تجري الشوارع المحاطة بالمنازل (التشيكما çikma) كما بالتركي) والسقوف المتدلية، مع فوارق بسيطة في التفاصيل، حتى مع اختلاف بنية الأنسجة المدنية؛ وهي شبيهة لتلك الموجودة في بورصة وفي توكات أو كوتاهيا.

ثالثاً: الأنسجة العثمانية المدينية للمدن البلقانية

تظهر المدن العثمانية، كما تبدو من خلال معظم المخططات القديمة التي نعرفها، التي يعود تاريخها، باستثناء القاهرة (والشكر للخرائط التي وضعها المساحون في حملة بونابرت)، إلى منتصف القرن التاسع عشر، ولأول وهلة، كما لو كانت مجرد مجموعة فرعية من تجمع واسع جداً يضم مدناً عربية وفارسية أو حتى هندية من الشمال. يمكن القول، من دون الوقوع في التبسيط أو التشويه، إن المدن العثمانية تنتظم حول مسجد كبير قريب من البازار والنزل، وهي مؤلفة من نسيج مديني سكاني من دون تراتبية غالباً، وشبكة من شوارع رئيسية «أمهات» قليلة، وفق تصميم وتراصف غير منظمين في تخطيطها وفي تراسفها، مع أزقة كثيرة مقفلة في نهايتها^(٢٣).

ومن دون الدخول في نقاش حول دور الأزقة في الدلالة على الأنسجة المدينية «الشرقية» (نحن نعلم أنه توجد عدة أزقة في المدن المتوسطية في القرون الوسطى التي لم تكن إسلامية أبداً، كما هي الحال في ساساري، في سردينيا)^(٢٤)، نحن نعتقد أن الأزقة الموجودة في المدن «الشرقية» هي بنوية، بينما هي ظرفية في مدن القرون الوسطى الغربية (حيث هي موجودة أيضاً)، أي أنها تستجيب لحالات خاصة لا أكثر. أكثر من ذلك، في الحالة الأخيرة لا تقوم هذه الأزقة حين يمكن تجنبها، بينما هي في المدن «الشرقية» واحد من المكونات الرئيسية في أصل النسيج المديني العادي. وفي حالة إسطنبول، تميّز نصوص القرن السادس عشر، في الواقع، بين الشوارع الرئيسية،

(٢٣) سنعود بتفصيل أكبر إلى هذه المسألة التي سبق وقاربناها في: Pinon, «Essai de Typologie des tissus urbains des villes ottomans d'Anatolie et des Balkans».

(٢٤) الأزقة (المقفلة) يمكن ربما كانت متعدّدة في المدن الغربية القروسطية، مثل الأكراس، انظر مثلاً: François

Himly, *Atlas des villes medievales d'Alsac* (Strasbourg: [n. pb.], 1970).

والشوارع التي توصل إلى أحياء، والشوارع الوظيفية داخل الأحياء^(٢٥). بعض هذه الأخيرة يمكن أن تكون أزقة بالطبع.

لحل المشكلة تلك كليا يجب استعمال تخطيطات المساحة، أو على الأقل التخطيطات القديمة التي تبرز التجزئة العقارية^(٢٦). إلا أن غياب مثل هذه التخطيطات عن البلقان، مع استثناء نادر لسرايفو، يجعل مثل هذه العملية مستحيلة في الواقع الراهن للبحث. وفي كل الأحوال، فإن دراسات الأنسجة المدنية (خارج اليونان) هي نادرة جداً. وقد اكتفت الدراسات المنشورة حول المورفولوجيا المدنية بالإفادة من مخططات لا تظهر سوى الشوارع والمنازل. عليه، فمن المستحيل، في معظم الحالات، معرفة شكل القطع الصغيرة (الهندسة، والنسب) أو معرفة الشبكة العامة لتنظيم القطع المجزأة (والمعروفة بـ «الخطوط المولدة» و«صورها»)^(٢٧). وفي أكثر المدن العثمانية، وحتى في «الشرقية» على نحو أعم، تشكل المولدات تلك، وعلى نحو متكرر، أشكالاً منتظمة تبدو على تناقض واضح مع الشبكة غير المنظمة لـ «الطرق العامة».

فئة النسيج المدني الأسهل تعريفاً هي تلك التي تخص المدن المشيدة في أزمّة قديمة وفق تصميم متعامد. وخير مثال على هذه المدن هي سالونيك؛ هنا، وكما في عدة مدن في شمال سورية (دمشق وحلب واللاذقية وأنطاكية)^(٢٨)، حُفظت الشبكة الهيلينية جيداً في الأحياء الدنيا (لليونانيين واليهود)، بالرغم من بعض التغير في التفاصيل. في سالونيك، كما في معظم المدن الهيلينية المستعمرة، يبلغ مقياس المربع السكني ١٥٠ م بـ ١٠٠ م^(٢٩)، وحجم الأجزاء الصغيرة (نحو ٥٠ متراً في العمق) كان كافياً لاستيعاب المنازل العثمانية بمحاذاة الطرقات مع حدائقها في الخلف (مثل الأبنية التي حلت

(٢٥) Yerasimos, «Istanbul Ottoman, in Istanbul, Costantinople, Bizantio», p. 28.

(٢٦) في حالة تركيا، هناك وثيقة استثنائية: «مخطط صوفي باي» (١٨٦٢).

(٢٧) انظر: Pinon, «Essai de définition morphologique de la ville ottoman des XVIII^{ème}-XIX^{ème} siècles.» et «La Transición desde la ciudad Antigua a la ciudad medieval: Permanencia y transformación de los tejidos urbanos en el Mediterráneo oriental.» dans: Jean Passini, *La Ciudad medieval: De la casa al tejido urbano* (Cuencea: [n. pb.], 2001), pp. 179-213.

(٢٨) آثار الشبكة المضلعة القديمة لا زالت مشاهدة بوضوح، وإن تك غير محفوفة جيداً، في عدد من المدن العثمانية، خصوصاً في تركيا، في أورفة، إزمير، وبورصة. انظر: Pierre Pinon, «Survivances et transformations: انظر: dans la topographie d'Antioche après l'Antiquité.» dans: *Forthcoming among Proceedings of a colloquium entitled antioche de Syrie: Histoire images et traces de la ville Antique* (Lyon: Maison de l'Orient, 2001).

(٢٩) Michael Vickers, «Hellinistic Thessaloniki», *Journal of Hellinic Studies*, no. 92 (1972). انظر:

محلها في القرن العشرين، بعد حريق عام ١٩١٧^(٣٠). المثل الآخر، الأقل وضوحاً، هو مدينة أدرنة (أدرينوبل) حيث بقيت الشبكة المتعامدة القديمة للطرق مكانها في حي القلعة اليوناني ولغاية حريق عام ١٩٠٥، ما يمكننا من إعادة تكوينها من خلال تحليل المخطط الذي وضعه الكولونيل أوسمان عام ١٨٥٤^(٣١). في سالونيك وأدرنة، إذاً، المخطط القديم هو الذي يكشف الشبكة العامة للنسيج المدني. وقد تأثر تطور هذا النسيج بالتعديلات (تغييرات في نظام الطرق بسبب تعدي أمكنة خاصة على أملاك عامة)، وفتح طرق جديدة، وإعادة تقسيم القطع المجزأة. وتبقى حالة القسطنطينية افتراضية؛ هنا جرى، على الأرجح، الاحتفاظ في بعض أنظمة الشوارع بالمخططين البيزنطي والقديم اللذين ظلّا ظاهرين في خريطة عام ١٨٨٢ (كما نشرها إي. ك. أيفاردي). لكن الطبوغرافيا الحالية تحتوي على تعديلات واسعة عبر فرز الأراضي، وذلك بعد حرائق النصف الثاني من القرن التاسع عشر. هذه الظاهرة واضحة جداً في أحياء «السليمانية»، و«كوكا مصطفى باشا»، وفي وادي الهيكسوس القديم^(٣٢)، حيث تكشف الشوارع المستقيمة بامتياز، متعامدة أو متوازية، تصميم جادات رومانية متأخرة ضخمة (مدينة القسطنطينية وتيودوسيوس) وأحياناً حتى أجزاء من شبكات طرق قديمة متعامدة.

أولى الخصائص المورفولوجية المميزة للمدن العثمانية، وبعد تأسيس الإمبراطورية، هي غياب الأسوار. فـ «السلام العثماني» حرر المدن من هذا الإلزام. وكانت نتائج هذا الانفتاح عديدة. فتخطيط المدن لم يعد مشروطاً بحدود مفروضة تحد من التوسع وتفرض أن يمر مخطط الشوارع الرئيسية بالبوابات. وفي المدينة المفتوحة تطوّر الخطط حتى بحرية أكبر. لا يعني هذا، مع ذلك، أن العوائق انتهت؛ فقد بقيت القيود التي تسببها الأرض الجبلية، وهو ما يعني الالتفاف حول المنحدرات؛ وبقيت القيود المتعلقة بالمياه، وهو ما يعني بدوره وجود أنهار يجب البناء في محاذاتها أو تخطيطها بواسطة جسور (نوع آخر من المرور الإجباري). وبالرغم من هذا، فقد سمحت الحدود أعلاه لشبكات الطرق أن تجري وظيفياً بيسر أكثر، فتوزع من أي مركز نريده:

(٣٠) انظر: Alexandra Yerolymbos, *The Replanning of Thessaloniki after Fire of 1917* (Thessaloniki: University Studio Press, 1995).

Architectural Archives, Vincennes.

(٣١)

انظر: Alexandra Yerolymbos, *Urban Transformations in Balkans (1820-1920): Aspects of Balkan Town Planning* (Thessaloniki: University Studio Press, 1996), pp. 78-82.

(٣٢) انظر: Pinon, «La Transición desde la ciudad Antigua a la ciudad medieval: Permanencia y transformación de los tejidos urbanos en el Mediterraneo oriental».

من المسجد الكبير (أو الكنيسة الرئيسية) أو من حي التجار والحرفيين. ومن باب المفارقة، أن شكل المدينة العثمانية الذي يقدم عادة فوضوياً (وهي سمة تشارك فيها سائر المدن «الشرقية») يُظهر تطابقاً مع كل وظائفه، مؤسساً لمركز تجاري مكتظ في مقابل محيط سكني طرفي.

وإذ يتحرر شكل المدينة العثمانية من هذه القيود، فهي تتحرر أيضاً من جيرة ليست مفروضة ولا مرغوباً فيها. وإذا كان الأتراك قد جلبوا حقاً بعداً ذا أهمية خاصة للمدينة، فهو العلاقة بالطبيعة^(٣٣)، إذ لم يكن هناك من منزل بلا حديقة. وأفضل مثال - للمنزل أو «الكوشك» (Köşk) أو القصر - هو نمط البناء المتباعد. وحتى المساجد، وكنائس الأديرة، كانت أيضاً منعزلة داخل أراضٍ مسوّرة. يمكن للمنازل أن تكون متراففة على جهة واحدة من جهتي الطريق^(٣٤)، وغالباً غير الجهة الأمامية التي يجري الدخول منها (لم تظهر المداخل المباشرة على الشارع قبل نهاية القرن التاسع عشر)؛ لكن هناك دائماً فناء - حديقة أمامية وحديقة جانبية أو خلفية - أما الساحة العامة فكانت مقتصرة على الأحياء المركزية؛ والشوارع الرئيسية كانت محدودة. كان المسكن العثماني (في البلقان وشمال شرق الأناضول) متناثراً في الغالب، وهو أمر نادر في تاريخ المدن قبل ظهور الضواحي الحديثة. لقد سمحت المدينة المفتوحة للعثمانيين بتطوير مدن حدائق، من سراييفو إلى باتاك أو كوبريفشتيسا (في بلغاريا)، من فيريا أو تريكاللا (في اليونان) إلى بوخارست، وفي المدن الكبرى والصغيرة على حد سواء.

كانت شبكة طرق المدن العثمانية، كما في كل المدن «الشرقية»، ضعيفة الترتاب. لقد كانت محصورة بالشوارع الرئيسية (أو «شبكة» الشوارع) والطرق (مسارب أو زوارب مقلّة) لغرض الاستخدام المحلي؛ كان من الصعب أن تجد شيئاً يتوسط الاثنين. وهو ما أعطى الرحالة الأوروبيين الأوائل انطباعاً بالفوضى - هو لم يكن في الواقع سوى إدراك خاطئ لنظام يختلف عن نظامهم الخاص (لا تنظيم ظاهرياً يشي بتنظيم داخلي).

وفي كل الأحوال، لم تكن الشوارع «الأم»، التي تؤمن بعضاً من الشرايين الرئيسية، بالأمر الحاسم على نحو دقيق للنسيج المدني. فحين تمضي أول مجموعة من المنازل

(٣٣) انظر: Cerasi, *La Città del Levante: Civiltà urbana e architettura sotto gli ottoman nei secoli XVIII-XIX*, pp. 223-241.

(٣٤) باستثناء بوخارست، حيث المنازل معزولة غالباً في قطعها المفروزة. (مخطط بوروسيزين ١٨٤٦).

نصبح إزاء نظام توزيع مختلف. فالشكل الخارجي للتخطيط هو الذي أملى تجمعاً يتواصل عبر الأزقة. وعليه، إذا بدا تصميم الطرقات في الأحياء السكنية غير منتظم، إلا أن التخطيط كان عموماً منتظماً^(٣٥).

الرسم الرقم (٦ - ٢)
مشهد لشارع في بلوفديف



المصدر: من قبل بيار بينو.

هذه الشوارع «الأم» هي، في كل الأحوال، حالة نادرة: ليس أكثر من أربعة أو خمسة في المدن الكبرى، وواحد أو اثنين في المدن الصغيرة. وفي بعض حالات لا يوجد سوى شارع واحد، كما في كروجيا أو في فيريا، حيث يعبر شارع تجاري المساكن المشتتة.

إن نظام الشوارع «الأم» الأكثر شيوعاً هو «المروحي الشكل»، حيث تنتشر مساحة ما انطلاقاً من نقطة مركزية، أو اضطرارية، نحو الأطراف المدنية، ثم تستمر الشبكة عبر طرقات نحو الخارج.

الرسم الرقم (٦ - ٣)

مشهد لشارع في بخارست عند منتصف القرن التاسع عشر



المصدر: طباعة م. دوسو.

يجاور البازار عادةً القلعة، ويشكلان معاً مركز المروحة، كما في أدرنة وأشقودرة^(٣٦) وسكوبي^(٣٧) (حيث يتعزز المركز بوجود جسر على الدونا أو على فاردار) في نوفي بازار أو في بيك^(٣٨). في وسع الجسر وحده أن يشكل نقطة تلاق، كما على الضفة اليسرى من ماريكا في بلوفديف^(٣٩)، وهي بالأحرى سمة مادية عالمية في تاريخ الأشكال المدنية، البدء من البوابات المدنية (وبخاصة في أمكنة أخرى، إضافة إلى العالم العثماني). تسمح نقطة التلاقي بتوجيه الطرق الفرعية إلى نهايتي شارع ما (كما في فيريا حيث لا يزال سور قديم قائماً)، أو بتوزيع من

(٣٦) خطط ١٩٢٣ حسب إ. ريزا.

(٣٧) خطط ١٩١٤ حسب ميخائيلوفيتش (١٩٢٩).

(٣٨) انظر: Jovan Kronic, *Kuća i varoši u oblasti Stare Raške* by Jovan Kronic (Beograd: Zavet, 1994).

(٣٩) خطط ١٨٩١ حسب ج. شنير.

موقع المضيق كما في قسطنطينيا (مع بوابة قديمة هنا أيضاً). السمة هذه قد تصبح أكثر تعقيداً، بوجود مروحتين، واحدة تنطلق من ثنائية القلعة - البازار، وأخرى تؤمن وصلات مستقيمة كما في جانينا. عندما لا يكون البازار والقلعة مستنديين إلى هضبة أو إلى نهر، يمكن أن تتوسع المروحة إلى ١٨٠° كي تشكل نظاماً مشعاً بالكامل، وهو ما نجده في كوزاني (اليونان) حول القلعة المركزية في بلوفديف (الضفة اليمنى) أو في صوفيا. وبسبب مركزية شبكة الطرق، تكون الوصلات المباشرة بين الأحياء المستقلة تبعاً لذلك نادرة.

تجري خدمة هذه الأحياء داخلياً بواسطة طرق محلية؛ ويستحيل فهم منطق تصاميم تلك الأحياء من دون معرفة واقع تجزئة القطع. في الواقع، إن تشكيل كتل كبرى غير منتظمة ومتفاوتة إنما يرتبط بالوجود السابق للأراضي المسيجة أو للحارات المجزأة التي هي خارج تحليلنا الآن. في حين يسهل أكثر تفسير نظام الأزقة المقفلة، إذ إنه ليس خاصاً بالبلقان على وجه التحديد. الأزقة المقفلة هي على ثلاثة أنواع، ونجدها في مجموع الإمبراطورية العثمانية، بما فيها المقاطعات العربية:

- أزقة قصيرة مستقيمة تؤمن المواصلات إلى المنازل ذات العمق الثانوي خلف المنازل المطلة على الشارع؛ وفي الغالب ابتداءً من الشوارع «الأم»، كما في أشقودرة (محلة بيراش) أو سرايفو أو سكوبيه.

- أزقة أكثر طولاً مع مسارب، كي يمكن الدخول إلى قلب التجمعات الكبرى، كما في أشقودرة وسكوبيه أيضاً، وفي بلوفديف وكوزاني^(٤٠) وتريكال^(٤١) أو صوفيا^(٤٢).

- أزقة توزع أحياء طرفية مقفلة النهايات، كما في أشقودرة (حي تيبى) وسرايفو وجانينا^(٤٣) وكوزاني (عند أقدام الهضبات) أو تريكال^(٤٤). الأزقة موجودة في كل أحياء سكوبي، في الأحياء التركية واليونانية أو السلافية. لكنها مع ذلك قد تكون نادرة، كما هي الحال في فيريا^(٤٥).

(٤٠) غطت القرن التاسع عشر، أعاد تركيه س. أفريو - كولونيا.

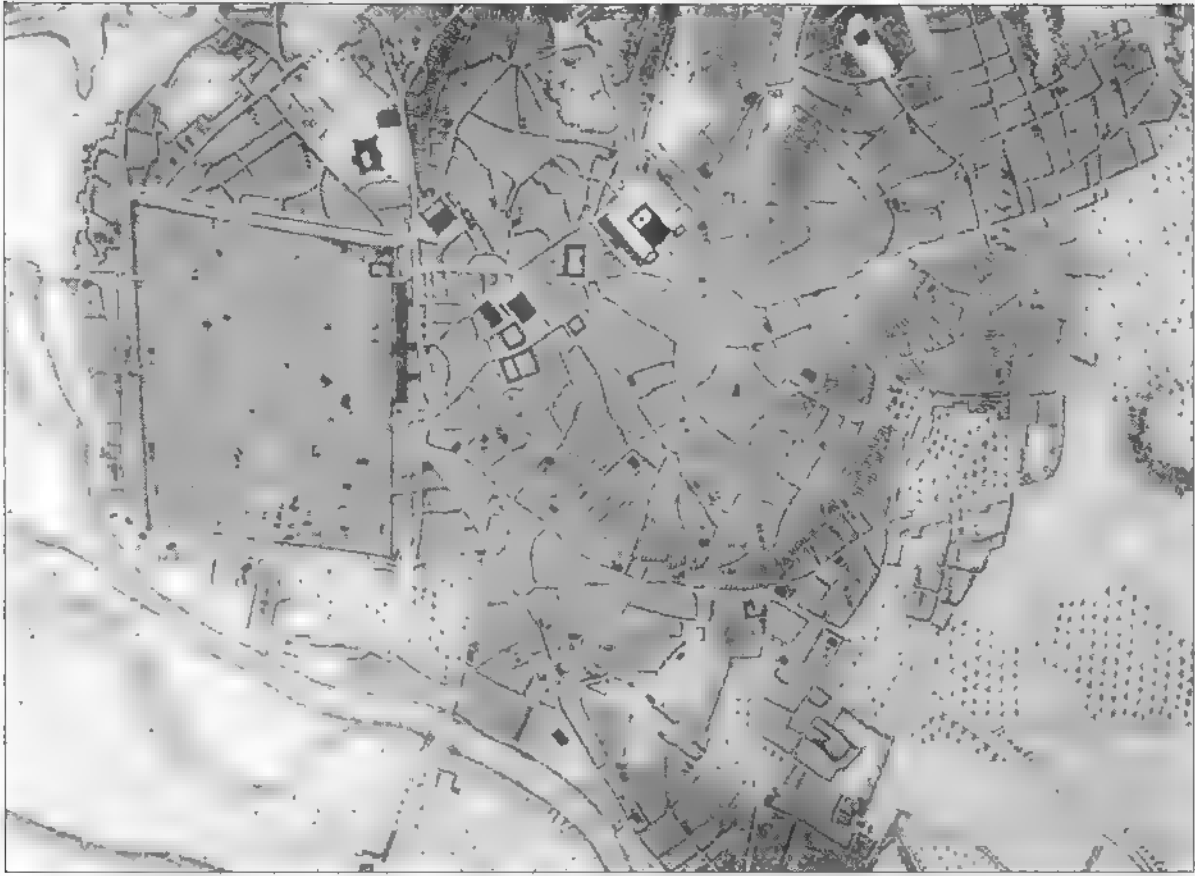
(٤١) حسب نسابالا برديلي.

(٤٢) غطت ١٨٧٨.

(٤٣) حسب روجوي - كريبولو.

(٤٤) حسب ن. كالوجيرو.

الرسم الرقم (٦ - ٤)
مخطط أدرة عام ١٨٥٤



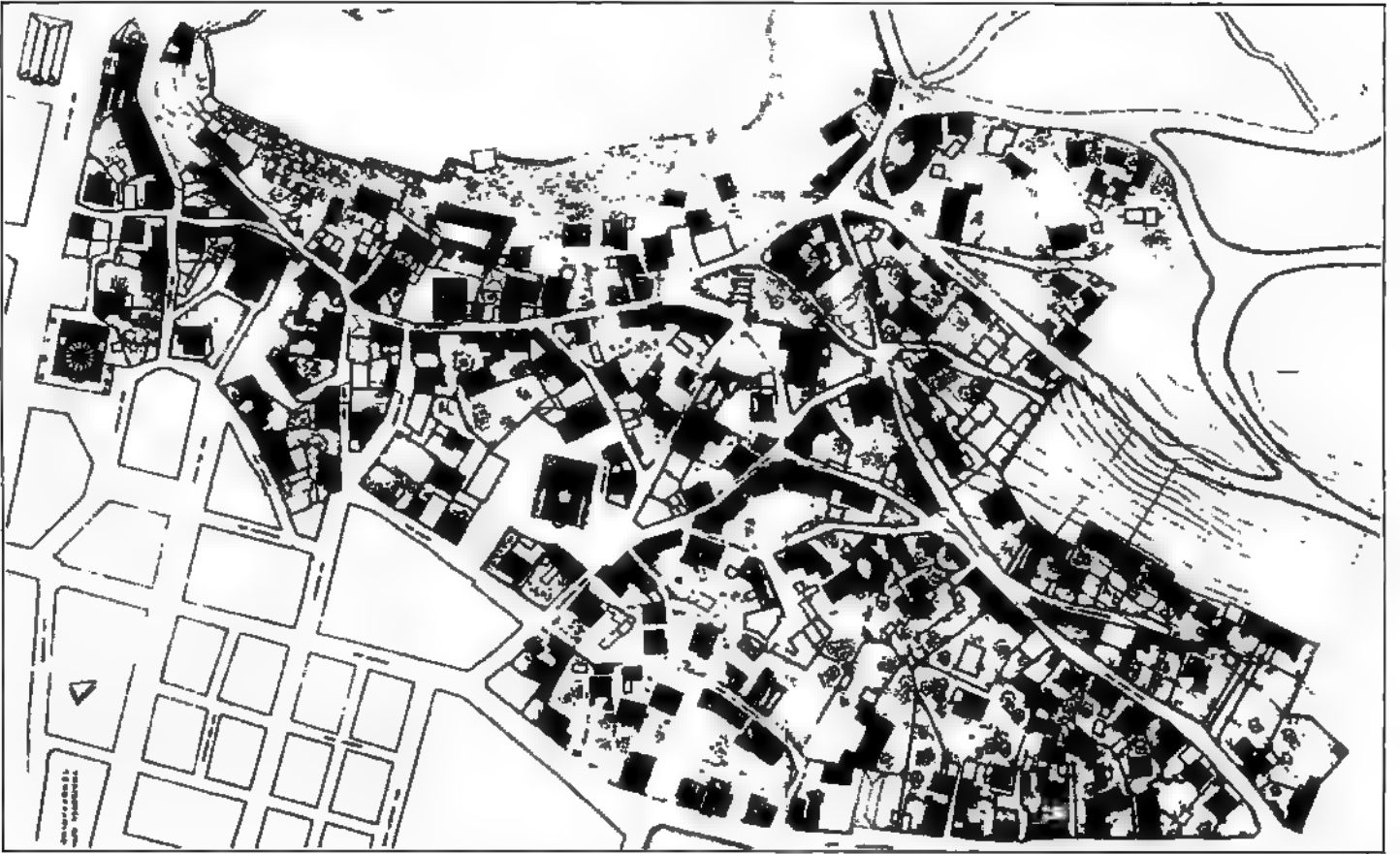
المصدر: نقلاً عن: الكولونيل أوسمان.

تشكل الشوارع «الأم»، وشوارع التوزيع المحلي، والأزقة، نظاماً شديداً التشعيب، تتوزع كما أغصان الشجر؛ متمركزة في الوسط، ومتباعدة عند الأطراف (كوزاني وبلوفديف وصوفيا)، شكراً لغياب الأسوار، الذي يسمح بتوسع تدريجي على الإطار الريفي (طرق وقطع).

فكرة المربعات السكنية لا يمكن شرحها بسهولة. لا يملك المربع بنية داخلية خاصة به. شكله نتاج تصميم الشوارع ذات الاستخدام المحلي، وشوارعه لا ندرك منطقها. في بعض الحالات، يمكن التوهم أن الشوارع والمسارب المحلية تتبع تصميم الطرق الريفية. ويبدو هذا جلياً في الشوارع الطرفية حيث يمكننا المقارنة بين الأنسجة المدنية والريفية واستنتاج التشابه من حيث البنية^(٤٥). هذه المربعات هي في معظمها مربعة الزوايا. ومع

(٤٥) يمكن إثبات ذلك من خلال حالة بعض المدن العثمانية، مثل أيفاليك على بحر إيجة لجهة تركيا، انظر: Pinon, «La Transición desde la ciudad Antigua a la ciudad medieval: Permanencia y transformación de los tejidos urbanos en el Mediterraneo oriental», pp. 177-179.

الرسم الرقم (٦ - ٥)
مخطط تريكال



المصدر: نقلًا عن: تسابالا بردولي.

ذلك، فمعظم المربعات العثمانية، كبيرة كانت أم صغيرة، هي عبارة عن مضلعات غير متساوية الزوايا. يمكننا التخيل أن هذه المربعات قد خلقت من الملكيات الخاصة وجرت قسمتها تدريجاً - بنيت أولاً في الوسط ثم فُزرت إلى قطع تباعاً، والأجزاء المركزية يجري الدخول إليها من خلال ردوب طويلة جداً تتوزع من شوارع طرفية (على حدود الملكيات الأصلية)، ثم تلتقي قدر المستطاع بالشوارع «الأم». وهكذا، فإن حدود المربعات تصبح حدود الملكيات الكبيرة الأصلية. وستكون الكثافة المتزايدة هي العامل الذي سيقود إلى التقسيم إلى قطع وإلى تصاميم جديدة للطرق.

يمكن التأليف بين هذه الملاحظات بالعودة إلى مثال سرايفو.

رابعاً: سرايفو

«بوسنة - سراي» (سرايفو) هي المدينة الوحيدة في البلقان التي بناها العثمانيون، وهي في الوقت نفسه واحدة من مدن قليلة نملك مخططاً تفصيلياً لها^(٤٦) يمثل القُطْع المُفَرَّزة فيها. نحن إذا أمام مثال متميز، يمكننا من خلاله محاولة بناء خلاصة مورفولوجية للمدن البلقانية. احتل الأتراك المكان عام ١٤٢٨ - ١٤٢٩ وسكنوا فيه عام ١٤٣٥ - ١٤٣٦.

باستثناء حيّ القلعة (محلة فراتنيك) الموقع الأساسي لسراي إسحق بك، نشأت المدينة فعلياً في القرنين السادس عشر والسابع عشر على ضفتي ملياكا. لقد كانت مدينة خضراء، إذ يكتب الرحالة م. كويسليت الذي مرّ بها سنة ١٦٥٨^(٤٧): «المدينة مليئة بالحدائق، وقليلة جداً المنازل التي لا تملك حدائقها الخاصة، وكلها ملأى بأشجار مثمرة».

تتفرج شبكة الطرق نحو السوق أو البازار، حيث تنتشر مروحتها نحو الشمال والشرق (حي القصر) وعلى الضفة اليسرى (ابتداء من جسر كاريفي)، مستخدمة نظاماً يميل لأن يكون مضلعاً غير متساوي الأضلاع باتجاه الشمال الغربي (الشارع «المصفوف» مواز للنهر، وشوارع متعامدة).

شيّدت الأسواق إلى جانب أول خان (قولوبارا خان حالياً)، والمتصل تباعاً بخانات أخرى وحمامات ومسجد غازي خسرو بك (١٥٣٠)^(٤٨). لقد جرى تنظيمه

(٤٦) L. Tautcher, A. Krezevic and J. Metasi, *Austrian Cadastral Plan* (Vienna: [n. pb.], 1882).

(٤٧) M. Quiclet, *Voyage à Constantinople par terre* (Paris: [n. pb.], 1664).

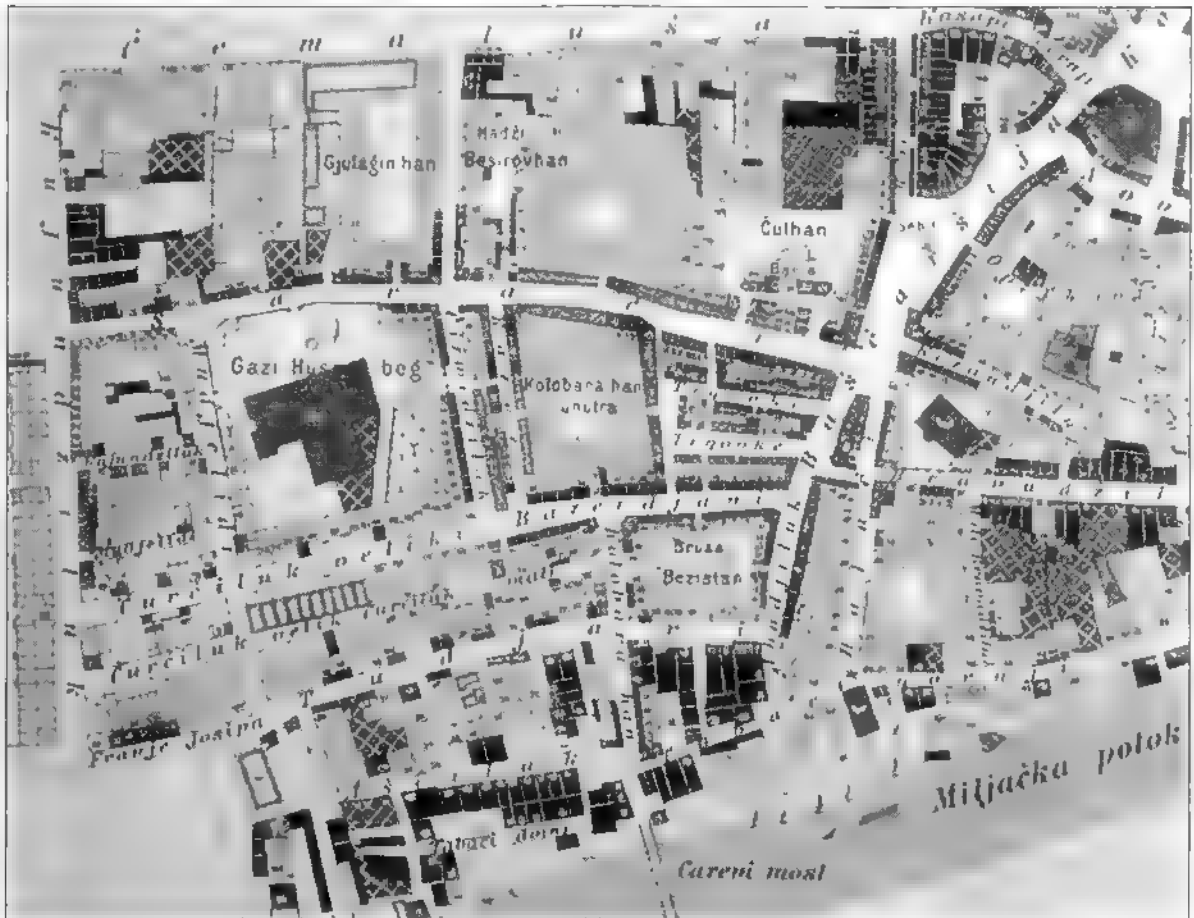
(٤٨) René Pelletier, *Sarajevo et sa region* (Paris: [n. pb.], 1934). في تاريخ سرايفو ومعالمها، انظر:

حول نقطة التقاء طريقين رئيسيين (سراسي وباسكارسيا) وكان موقعاً لبازستانين (شيد بازستان بورصة على يد رستم باشا عام ١٥٥١ والثاني (بازستان أراستا) على يد خسرو بك بشكل أراستا).

يسمح مخطط ١٨٨٢ بتحليل دقيق للنسيج المدني. والأزقة قليلة في الشوارع الشمالية، التي لم تنشأ على الأرجح قبل القرن الثامن عشر. وهي جوهرياً من النوعين الأول والثالث اللذين عرضاً أعلاه. يمكن العثور على أزقة قصيرة على الضفة الشمالية لكالوسا يوليسا بهدف تأمين مدخل للمربعات الكبيرة التي تحدها. في حي كوفاتشي، هناك عدة أزقة متفرعة من الشارع الكبير «الأم» الذي يخترق الأحياء الشمالية (في استمرار لباسكارسيا). وسمح ذلك بتقسيم قطع كبيرة إلى شرائح صغيرة (باحة، حديقة منزل) مع الاحتفاظ بتناسق القطع المفروزة (انظر الرسم الرقم (٦ - ٦)).

الرسم الرقم (٦ - ٦)

مخطط البازار في سرايفو عام ١٨٨٢



يعطي حي القصر مثلاً على تناسق الأجزاء التي تندرج في عدة مدن «شرقية»، حتى لو قطع من الوسط شارع يذهب من كارسيا إلى برج فيزغراد. ويظهر شارع إيلاف، من جهته، كيف استقر النسيج المدني داخل البنية الريفية (وهي تبقى ظاهرة عالمية)؛ وتتبع المسارب، على شبكة شبه متعامدة، تصميم حدود القطع الأصلية المفروزة.

هكذا، ومنذ نهاية القرنين الخامس عشر والسادس عشر، تجسدت في آن معاً البنية المدنية والنسيج المدني، وليؤلفا إحدى أجمل الصور المحفوظة للمشهد المدني العثماني في البلقان.

خامساً: فهم وحدة المدن العثمانية

بالرغم من بعض المتغيرات، فإن صورة المدينة «الشرقية» التي رسمها أ. ويرث تنطبق جزئياً على المدينة العثمانية في البلقان والأناضول والمشرق. من المؤكد أن المدينة التركية - البلقانية هي أقل كثافة سكانياً^(٤٩) (وبخاصة الطرفية)؛ كما أن المشهد المدني الذي تطفئ عليه السقوف المتدلية والخرجات والفتحات العديدة على الطرقات، مختلف إلى حد كبير. إلا أن البنى والأنسجة المدنية تبدو جوهرياً متشابهة. كيف تفسر هذه الوحدة؟

من المؤكد أن البحث وبلورة الأفكار يجب أن يتمحورا على أساس علاقة المنزل بالقطعة المفروزة وبالشارع. المنازل في المدن العثمانية - وأقل في البلقان من سواها - ليست دائماً متراففة على امتداد الشارع؛ أو هي كذلك لكن ليس من جهة الواجهة الرئيسية (قبل نهاية القرن التاسع عشر على الأقل وقبل الفترة الأخيرة التي جعلت المنزل العثماني غربياً)^(٥٠).

هي لا تملك تراسات [بمعنى خلاء يفصل البيت عن الشارع] خلا شوارع قليلة معينة (حيث الواجهة تفتح على الشارع عبر المدخل)؛ أو، في فترة متأخرة، مع صعود ظاهرة «الغربة» نفسها. في المدينة «الشرقية» وكذلك البلقانية، التراصف والتراس ثانويان، بينما هما يشكلان الأساس في شكل المدن «الغربية».

(٤٩) الأحياء الأكثر كثافة هي، بالطبع، في البلقان (بلوفديف)، ولكن أكثر منها في تركيا (إسطنبول - فنار أحياء كومكاي قبل حرائق النصف الثاني من القرن التاسع عشر - بورصة، أفيون، وكوتاهيا).

(٥٠) الصيغة الأخيرة هي تعديل مربعات الشقق، كما هي في حي خَلْطَة منذ نهاية القرن التاسع عشر. ومع ذلك، بقيت المصوفاً لفترة أطول.

إذا كان التراس غائباً أو لا يقوم بدور أساسي، فلأنه ثانوي لمفهوم المنزل. فليس التراس هو الذي يعرف نواة المنزل مع باحة، ولا المنزل المحاط بحديقة. في المنازل «العربية التركية» ذات الباحة المركزية، تكون الصالة هي الوسيلة التي من خلالها تحيط نهايات الغرف بالباحة، التي تبقى دائماً منتظمة هندسياً. في العالم «التركي البلقاني»، تؤدي الحديقة هذا الدور، أو من خلال استقلالية الطابق الأرضي، الذي يتكيف مع شكل المكان، مقارنة بالطابق الأول الذي يبقى هو أيضاً منتظماً هندسياً. في كلتا الحالتين، يضعف نظام الأزقة، البنيوي لا الظرفي (كما في الغرب)، بدوره من دور التراسف.

التوازي بين المنازل مع باحة وبين المنازل «مع حديقة» ليست مسألة مصادفة. ففي البدء (في القرنين الخامس عشر والسادس عشر) كانت المنازل العثمانية، ربما، منزلاً مع باحة (في إسطنبول على الأقل)؛ لكن الباحة تحولت تدريجاً إلى حديقة، عازلة المسكن، ولكن من دون أن يغدو مفهوم المنزل كوحدة مغلقة موضعاً للسؤال لجهة علاقته بمسألتَي التراسف والتراس^(٥١). ومن دون شك، تقدّم نمط المسكن على الشارع في المدن «الشرقية» هو ما يفسر المفهوم الخاص للنسيج المدني، موضوع البحث، وشكله الخارجي.

في الحالات الخاصة بالمدن «التركية البلقانية»، بقيت البنى التحتية (طرق مواصلات وقطع مفروزة) شرقية، كما يبدو، حتى نهاية القرن التاسع عشر، بالرغم من التغريب الذي كان بدأ في القرن الثامن عشر على الأقل، من خلال تعدد النوافذ المشرفة على الشارع، ثم بالواجهات الرئيسية المطلة مباشرة على الشارع. وربما سهّل ذلك من التحول إلى مدينة غربية، بتراسفها التراسي.

تؤكد هذه الأفكار أن المدينة العثمانية (على الأقل التركية البلقانية) تقوم، جغرافياً بالطبع، ولكن تاريخياً أيضاً، بين الشرق والغرب^(٥٢).

(٥١) ما من شيء في الحقيقة يشير إلى أن هذا النظام هو إسلامي أو حتى شرقي حصرياً، إذ نجد واحداً آخر يشبهه في «حي المسرح» في ديلوس، وهو هيليني.

(٥٢) انظر: Pierre Pinon, «Les Tissus urbains ottomans entre Orient et Occident», dans: *Proceedings of the 2nd International Meeting on Modern Ottoman Studies and the Turkish Republic* (Leiden: Brill, 1989), pp. 15-45.

الفصل السابع

المدن الإيرانية

هاينز غوبي^(٥)

مقدمة

في عام ١٩٦٠، أعاد لورنس لوكارت نشر كتابه المدن الفارسية (نشر أول مرة عام ١٩٣٩ بعنوان مدن إيران الشهيرة)^(١) الذي يصف فيه ٢٣ مدينة إيرانية؛ لكنه وصف ضعيف لم يساهم مطلقاً في فهم التحضر الإيراني؛ فبقينا معه بعيدين تماماً من فهم جميع القواعد التي ارتكز عليها تطور المدن الإيرانية. وفي عام ١٩٧٩ حاولت مقارنة المشكلة على قاعدة العمل الميداني والبحث الواسع في المراجع الأدبية^(٢). إلا أنه بسبب التغيرات السياسية في إيران، لم أستطع توسيع آفاق عملي. وعليه، استبج في هذا الفصل تطور المدينة الإيرانية التقليدية وشكلها؛ أي المدينة كما كانت قبل عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، حين أعادت تغيرات حاسمة تشكيل المدن الإيرانية كما سائر المدن في الشرق الأدنى.

بعد مقدمة تعرض للشروط الجغرافية والمائية المسبقة لتطور التحضر في إيران، سيعالج هذا الفصل مدينتين متميزتين، مستخدماً، تبعاً لموقعهما وتاريخهما، مقاربات

(٥) أستاذ جامعي في المدرسة الشرقية، جامعة توينغن.

(١) Laurence Lockart, *Persian Cities* (London: Luzac and Co., Ltd., 1950).

(٢) Heinz Gaube, *Iranian Cities*, Hagop Kevorkian Series on Near Eastern Art and Civilization (New York: New York University Press, 1979).

منهجية مختلفة. يبدأ الفصل من الغرب مع مدينة أصفهان حيث يمكن تعيين مراحل مختلفة من تطورها، واكتشاف فكرة مخططها الأصلي، مخطط المدينة الإيرانية الدائرية. وسيكون التركيز الأساسي على المرحلة ما قبل الصفوية، إذ سيتم التطرق إلى مدينة أصفهان الصفوية في فصل آخر من هذا الكتاب. ومن ثم ينتقل الفصل إلى الشرق، إلى هرات التابعة في أيامنا هذه لأفغانستان. تمثل هذه المدينة نموذج المدينة الإيرانية الشرقية. مقاربتى ليست وصفية إنما منهجية. وفي تقديمي لهاتين المدينتين، أريد أن أظهر كيف أنه في الإمكان الجمع بين العمل الميداني والبحث المكتبي.

إيران بلد صحراوي، ذو جبال عالية قاحلة. وفي أماكن قليلة فقط، في الإمكان إيجاد مستوطنات مجاورة تغطي مساحات واسعة. والبلاد جزء من الحزام الجبلي الأوروبي الآسيوي، الذي يمتد من شبه الجزيرة الأيبيرية مروراً بجبال الألب والبلقان والكاريبات وطوروس وبونتوس وصولاً إلى مرتفعات ألبرز الإيرانية وزاغروس. إيران أيضاً جزء من الحزام القاحل للعالم القديم الذي يمتد من الصحراء الكبرى في الغرب مروراً بشبه الجزيرة العربية والهضبة الإيرانية وصولاً إلى صحارى آسيا الوسطى في الشرق. يتقاطع هذان الحزامان، اللذان يمران في العالم القديم، في إيران. وبالتالي، تشكل الجبال والصحارى العنصرين اللذين يحددان وجه إيران، وكما الفسيفساء تماماً، تتداخل هذه الجبال والصحارى مكونة باستمرار أشكالاً مختلفة.

يعيش معظم السكان في عدد من الواحات المختلفة الأحجام وفي مستوطنات مبعثرة عند أقدام التلال المنخفضة للسلاسل الجبلية العالية. يتمركز الجزء الأهم من المستوطنات التي يفوق عدد سكانها ١٠٠٠٠٠ نسمة إما بالقرب من حافات مرتفعات ألبرز وزاغروس الإيرانية وإما في الأودية ما بين الجبال الداخلية. تقع المدن الكبرى كافة تقريباً في مناطق تعاني شح الأمطار. وعليه لا تنشأ هذه المدن أو تنمو ما لم تجد حاجاتها من المياه من مصادر أخرى غير سقوط الأمطار. بعض هذه المدن تأخذ المياه التي تحتاج إليها من الأنهار، وخير مثال على هذه المدن مدينة أصفهان التي تدين بنموها الهائل إلى احتياطات المياه في زابنده رود. غير أن أغلبية المدن الإيرانية كذلك المدن في جنوب ألبرز وشرق زاغروس تعتمد على المياه الجوفية التي تُجرّ من حفاقي الجبال بواسطة القنوات.

القناة هي مجرى ترابي مستحدث. تجمع القناة المياه الجوفية في المراوح الغرينية في أسفل الجبال العالية وتتبع انحدار الأرض لتتمكن من توصيل المياه إلى المستوطنات والحقول.

ظهر فن تكوين النايبيع الاصطناعية هذا بواسطة الأنفاق نحو الألف قبل الميلاد، أو في فترة لاحقة، في الهضاب الإيرانية والأرمينية. أحدث هذا الأمر تغيراً جذرياً في نمو المستوطنات، إذ أفسح المجال لاستيطان مناطق جديدة كانت خالية من السكان وأصبحت من ثم أساس التحضر الإيراني. شكل إدخال القناة أحد الأسس التي ربما بنيت عليها أول إمبراطورية عالمية في التاريخ، الدولة الأخمينية. لم يكن في الإمكان بناء شبكة الطرق البرية والأماكن المخصصة للجيش والاتصالات والإدارة والتجارة إلا بعد إدخال القناة.

الميزة الظاهرة الأكثر وضوحاً في المدينة هي وجود الأسوار في الحضارات والمراحل التاريخية كافة تقريباً. كان تحصين المدينة أمراً ضرورياً من أجل حماية الثروات والمنازل والأعمال داخل المدينة. لا تؤمن المدينة الحماية فقط إنما هي مقر الحكومة، ومركز الحياة الدينية والفكرية، والنشاطات الاقتصادية ومركز تجمع السكان المنشغلين في هذه الوظائف المدنية. إلى جانب السور، للمدينة «الحقيقية» معبد يكون في الأصل مقر القيادة الدينية والسياسية. لكن الأمر اختلف لاحقاً، وأضيف معلم جديد هو القلعة، فصارت مقر القيادة السياسية، في حين تركزت الحرف والتجارة في أمكنة خاصة^(٣).

في الهضبة الإيرانية والمناطق المجاورة في الشرق والشمال الشرقي، ظهر التحضر في وقت متأخر كثيراً عن بلاد ما بين النهرين. ففي بلاد ما بين النهرين ومنذ أواخر الألفية الرابعة قبل الميلاد، ظهرت المدن التي تتميز بالأسوار والمعابد والأبنية النصبية إضافة إلى المناطق الخاصة بالتجارة والحرف. أما في إيران والمناطق المجاورة في الشرق والشمال الشرقي، فظهرت المستوطنات المدنية الأولى في العصر البرونزي، أي نحو ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. تتميز هذه المستوطنات الأولية بأبنية نصبية وبيعض المناطق الخاصة بحرف محددة، غير أنها افتقدت الميزات الأخرى للمدينة. تم التنقيب عن مثل هذا النوع من المستوطنات في المنطقة الواقعة بين فارس وكرمانيا وسيستان وجنوب تركستان^(٤). تركزت هذه المعلومات على دليل أركيولوجي ليس بتمام أو بنموذجي حتى

Lewis Mumford, *The City in History: Its Origins, Its Transformations, and Its Prospects* (٣) (Baltimore, MD: Penguin Books, 1966), and Max Weber, *The City* (Glencoe: [n. pb.], 1958).

Maurizio Tosi, «The Archaeological Evidence for Protostate Structures in Eastern Iran and Central Asia at the End of the 3rd Millenium B.C.» papier présentée à: *Le Plateau iranien et l'Asie centrale des origines à la conquête islamique: Leurs relations à la lumière des documents archéologiques: [actes du colloque]*. Paris, 22-24 mars 1976. Colloques internationaux du Centre national de la recherche scientifique; no 567 (Paris: Éditions du Centre national de la recherche scientifique, 1977), pp. 45-46.

الآن. وقد يكشف البحث الميداني الأركيولوجي في المستقبل عن ميزات للمستوطنات في إيران والمناطق المجاورة لا نستطيع التفكير فيها اليوم.

في نهاية الألفية الثانية وبداية الألفية الأولى قبل الميلاد، هاجر الميديون والفرس من الشمال إلى ما تعرف اليوم بإيران. وابتداءً من هذه المرحلة، يمكن التحدث عن المدن الإيرانية بكل ما للكلمة من معنى. تظهر التمثيلات الأولى لهذه المدن على خرائط آشورية فقط. غير أنه من خلال وصف هيرودوتس لأغباتانا^(٥)، أي همدان اليوم، عاصمة الدولة الميديّة، أول مدينة إيرانية، يمكننا تكوين فكرة عن العناصر الأساسية في المدينة الميديّة. كتب هيرودوتس: «سكن الميديون في قرى مبعثرة»، لكن الملك داريوش (٧٢٧ - ٦٧٥ ق. م) «طلب منهم بناء مدينة واحدة فقط تعرف بأغباتانا. أسوار هذه المدينة ضخمة وقوية وترتفع بشكل دائري سوراً داخل سور. إن مخطط هذا المكان هو أنه يتوجب على كل سور أن يفضي إلى سور خلفه ذي فتحات ليتلاءم وظروف الحرب. تشجع طبيعة الأرض، وهي تلة صغيرة، إلى حد ما في نجاح هذا التدبير، إلا أنه كان كذلك عملاً فنياً، إذ يبلغ عدد الدوائر سبعاً ويقع القصر الملكي وأموال الخزينة خلف الدائرة الأخيرة».

يصف هيرودوتس أغباتانا على أنها مستديرة الشكل. الخريطة الآشورية من القرن الثامن ق. م التي تصور المدينة الميديّة تتطابق مع المبادئ المدينية التي وصفها هيرودوتس. نجد هنا سلسلة من الأسوار يرتفع الواحد فوق الآخر ومن الممكن أن نفترض أن السور الأعلى هو سور القصر. يبدو أن تمركز القصر أو المعبد في المكان الأعلى في المستوطنة هو إحدى ميزات المدن الإيرانية الأولى.

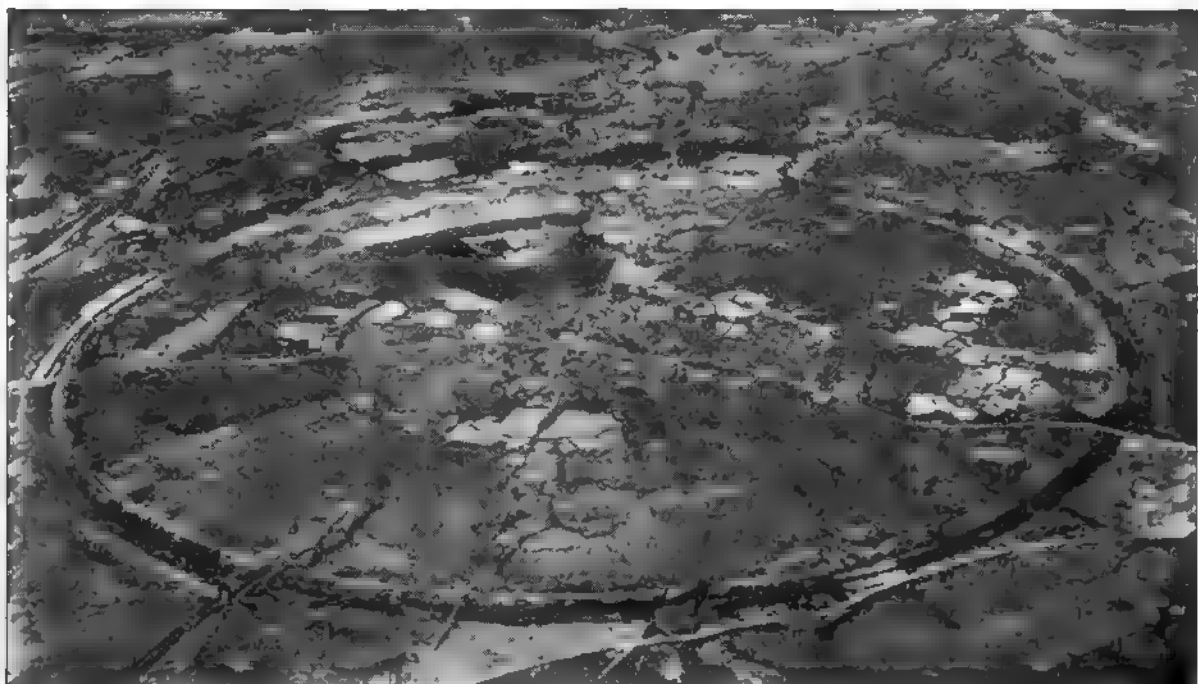
ساهم انتصار الإسكندر على الأخمينيين في نشر الأفكار اليونانية وصولاً إلى الهند. واتبعت المدن العديدة التي أسسها هو وخلفاؤه في إيران والمناطق المجاورة النموذج المتصالب الهيبودامي [الشطرنجي] الغربي. تظهر صور من هذه المخططات بعض المدن في الشرق والشمال الشرقي من العالم الإيراني، كهرات وبُخارى، حيث يطغى المركز، فنجد تقاطعاً مركزياً لشارعين أساسيين يحدد المخطط. غير أن أصل هذا الرسم ليس واضحاً بعد، من الممكن أن يكون إحدى صور التخطيط الهيبودامي، أو ربما يكون ذا أصل هندي أو متأثراً بمبادئ التخطيط الصيني؛ إلا أن خلفاء الإسكندر

Ernst Herzfeld and Gerold Walser, eds., *The Persian Empire: Studies in Geography and Ethnography of the Ancient Near East* (Wiesbaden: Franz Steiner Verlag, 1968), pp. 96-99.

«السلوقيين»، ثم البارثيين الإيرانيين من بعدهم، فضلوا بناء المدن المستديرة. خير مثال على هذا التغيير هو مدينة مرو في تركستان التي أسسها الإسكندر الأكبر، ثم دمرت عام ٢٩٣ ق. م وأعاد أنتيوسوس الأول (٢٨٠ - ٢٦١ ق. م) بناءها كمدينة هيبودامية. في الحقبة البارثية، كان يحيط بالمدينة سور دائري الشكل. وتبقى الحَضْر الواقعة في شمال غرب العراق أفضل مثال على المدينة البارثية المستديرة^(٦).

كانت المدينة الساسانية الأولى التي أسسها الساساني أردشير الأول (٢٢٦ - ٢٤٠ م) أردشير خوره (فيروز آباد) قرب شيراز دائرية الشكل تماماً (انظر الرسم الرقم (٧ - ١)).

الرسم الرقم (٧ - ١) فيروز آباد



المصدر: Roman Ghirshman, *Iran: Parther und Sasandien* (Munich: Verlag C.H. Beck, 1962).

لم يتم التنقيب في الموقع. في وسطها، نجد بقايا بناء يشبه المعبد. وداراب غير البعيدة من أردشير خوره تشبهها أيضاً. هنا، يحيط السور الدائري التام بتلّين صخريين كبيرين. على أحد هذين التلّين الصخريين نجد بقايا قصر، وكان يوجد على الأرجح معبد على التل الآخر. بنى شابور الأول (٢٤٠ - ٢٧١ م) ابن أردشير عاصمته بيشابور في

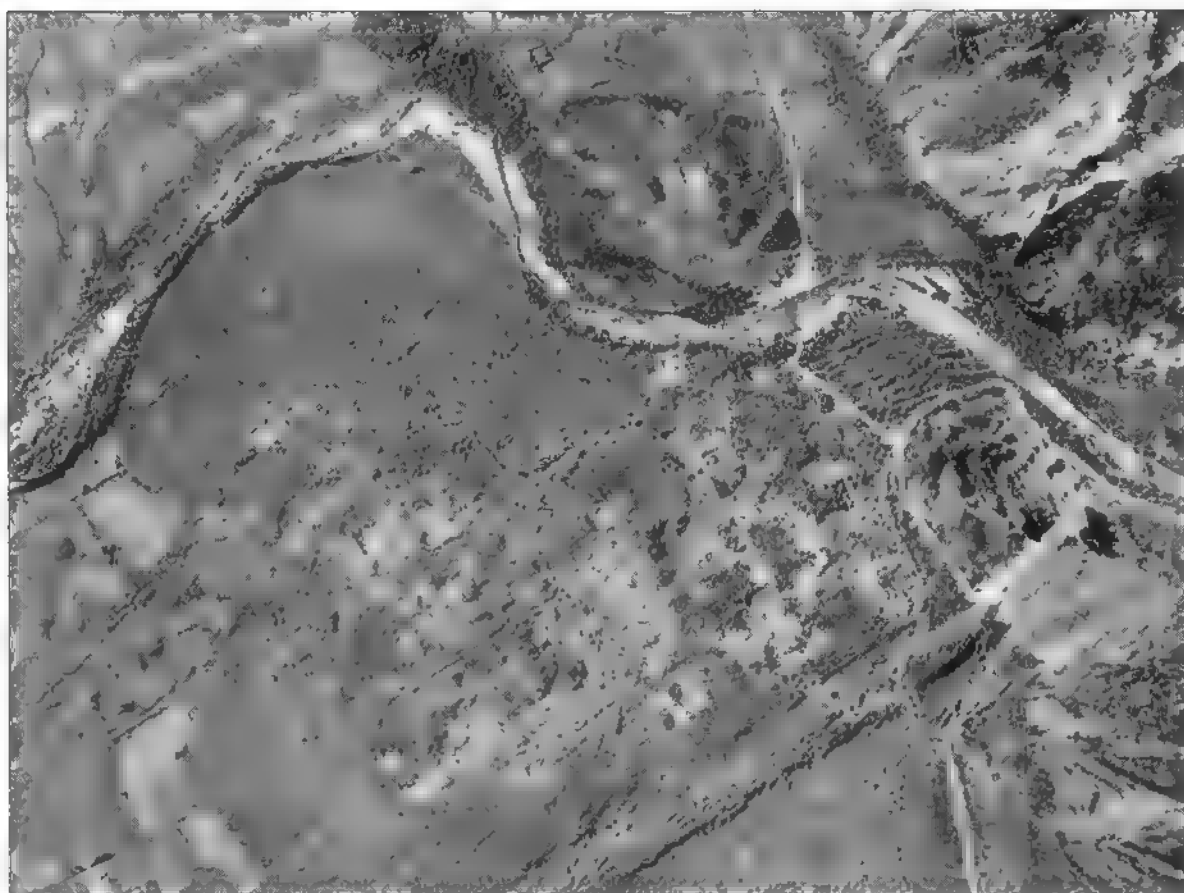
W. Andrea, *Hatra-Berlin, 1908-1912* (Berlin: Beaudouin, 1933).

(٦)

الشمال الغربي من أردشير خوره. وبعيد انتصاراته الساحقة على الرومان، أحضر عدداً من أسرى الحرب الرومان إلى إيران وعملوا في بيشابور، فتركوا بصماتهم فيها، كما يشير مخطط المدينة الهيبودامي (انظر الرسم الرقم (٧ - ٢)). كما مارسوا تأثيراً قوياً في الفنون التزيينية في زمن شابور. وقد اكتشفت فسيفساء في بقايا عاصمته تشبه تلك التي كانت في أنطاكية في ذلك الوقت. كما تغير طراز الألواح الحجرية في زمن شابور من الطراز البارثي القاسي المسطح، الذي يمكن مشاهدة بقاياها اليوم، إلى الطراز الأطول والأكثر مرونة.

الرسم الرقم (٧ - ٢)

بيشابور



المصدر: المصدر نفسه.

باختصار، استعملت في إيران قبل الحقبة الإسلامية مخططات مختلفة لتصميم المدن: المخطط الدائري، والمخطط الغربي الهيبودامي، وكشكل منه المخطط الإيراني الشرقي. إضافة إلى هذه المبادئ، التي يمكن استخلاصها اليوم من مخطط بعض المدن

في إيران، جرى تدمير كثير من المدن ثم أعيد بناؤه عدة مرات بحيث بات في استطاعتنا تحديد أنشطة التخطيط الأخيرة فيها فقط.

أولاً: أصفهان

١ - تطوّر أصفهان حتى القرن الثامن: يهودية و«جَيّ» وخوشينان

تقع أصفهان على ارتفاع ١٥٠٠ م، وهي مدينة تحيط بها الصحارى وشبه الصحارى. وعليه فالشرط الأساسي المسبق للنمو الزراعي والمديني في مثل هذه الحالة هو المورد المائي الكافي. لذلك فقد زودت المدينة ومناطقها الداخلية بالماء عن طريق نهر زابنده رود الذي يتميز بتدفق مياه هي الأغزر بين أنهار الأراضي الإيرانية الداخلية المقفلة.

بالرغم من أن الطبيعة قد حبت أصفهان بميزات جيدة، إلا أنها لم تصبح وحدها مركزاً يتفوق على المدن الإيرانية الأخرى. وموقعها في الوسط تقريباً بين إمبراطورية دمشق وإمبراطورية حلب في الغرب، وسمرقند وبخارى في الشرق، جعل منها مركزاً لتبادل السلع والأفكار بين شرق العالم الإسلامي وغربه، كما أن موقعها المركزي في إيران منحها مسبقاً فرصة أن تكون عاصمة الإمبراطورية تحت حكم سلالتين قويتين هما السلجوقية (١٠٣٧ - ١١٥٧) والصفوية (١٥٠٢ - ١٧٣٦). هاتان الميزتان، كمكان وسط وكعاصمة، جرت ترجمتهما في البازار وفي المباني الجميلة التي منحت أصفهان لقب «فرساي» الشرق.

وما لم يجرِ عمل أركيولوجي مهم في أصفهان، فليس في وسعنا غير التخمين فقط في خصوص موقع وشكل غبي/أسبدانة، الأصل الأخميني لأصفهان لاحقاً. ورد ذكر هذا المكان، في المصادر الأدبية في القرون ما بعد الأخمينية، تحت اسم أصبهان^(٧)، وكذلك ظهر اختصار كلمة أصفهان (ASP) على العملات الساسانية بدءاً من القرن الرابع وما بعده.

وأول من زودنا بمعلومات تمكنا من تكوين فكرة حول كيفية تطور أصفهان حتى القرن العاشر ميلادي هم الجغرافيون والمؤرخون العرب الذين كتبوا في ذلك الزمن

J. Marquart, *Erānšahr nach der Geographie des Ps. Mses Xorena c'i* (Berlin: [n. pb.], 1901), (٧) pp. 27-30.

وبعده. وبحسب هذه المصادر، احتل المسلمون العرب المنطقة المحيطة بأصفهان في منتصف القرن السابع ميلادي. وقد واجهوا مدينتين، يهودية وجي. يهودية هي سلف أصفهان اليوم، في حين تشهد آثار قليلة باقية، وبعض الخراب، وتل من الحطام، وجسر من القرون الوسطى يمتد فوق نهر زابنده رود على بعد نحو ٨ كم جنوب شرق وسط أصفهان اليوم، على جي القديمة. وينسب المصدر الأكثر ثقة، وهو المؤرخ المحلي أبو نعيم الأصبهاني (في بداية القرن الحادي عشر)، تأسيس جي إلى الملكين الساسانيين كسرى أبرويز (٤٥٩ - ٤٨٦م) وكسرى الأول (٥٣٢ - ٥٧٩). ونعلم من المؤلف عينه أن جي الساسانية لم يكن يقيم فيها السكان باستمرار، وإنما اتخذت كملجأ لسكان المستوطنات المجاورة غير المحصنة. أنشأ كسرى الأول داخل أسوار المدينة بعض المباني. وبحسب ابن رسته^(٨) الجغرافي العربي الذي كتب نحو عام ٩٠٣، فقد كان في المدينة قلعة. ويتحدث المؤلف العربي ابن النديم^(٩) الذي كتب نحو عام ٩٨٧، عن اكتشاف بعض المخطوطات البهلوية القديمة في جي. يدفعنا هذا الأمر إلى التفكير بأن جي الساسانية لم تكن ملجأ محصناً فحسب وإنما كانت أيضاً مركزاً إدارياً لمناطقها الداخلية.

بعد الفتح الإسلامي لإيران، بنى العرب أول مسجد جامع في منطقة أصفهان في جي. جاء قرار بناء المسجد في جي لا في يهودية لأسباب عقلانية واستراتيجية. بفضل تحصيناتها والفتحات في الأسوار كانت جي الأكثر ملاءمة لتكون مخيماً عسكرياً للعرب.

بعد عام ٧٦٧ قليلاً انتقل مقر الحاكم من جي المحصنة إلى خوشينان، قرية تقع بين جي ويهودية. هنا بنى الحاكم أيوب بن زياد قصراً ويقابله جامع على ضفة نهر فرسان، وقناة لم يعد في الإمكان تحديد موقعها^(١٠). كما أصدر قراراً ببناء بازار كبير في ضواحي خوشينان في اتجاه يهودية. إضافة إلى هذه المباني الحكومية، بُني عدد من المباني الخاصة. وأصبحت منازل خوشينان في وقت قصير مجاورة لمنازل يهودية^(١١). ولأن خوشينان نمت في الوقت عينه مع يهودية، فقد بات عليها منافسة المدينة هذه.

(٨) أحمد بن عمر بن رسته، كتاب الأعلام النفيسة (ليدن: بريل، ١٩٦٠)، ص ١٦١.

(٩) أبو الفرج محمد بن إسحق بن النديم، الفهرست، تحرير غوستاف فلوجل، واعتنى به بعد موته يوهانس روديفر وأوغست مولر، ج ٢ (ليبنغ: فوجل، ١٨٧١ - ١٨٧٢م)، ص ٢٤٠.

(١٠) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ذكر أخبار أصفهان، حرر عن مخطوطة ليدن سفن ديديرينغ، ج ٢

(ليدن: بريل، ١٩٣٤)، ص ١٦.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٦.

وخلافاً لخوشينان، نجحت بعض المدن التي أسسها المسلمون في ظروف مماثلة في أن تصبح مراكز جديدة لتجمعات سكنية واسعة. كانت يهودية في هذه المرحلة تنبض بالحياة قطعت في نهاية المطاف على خوشينان. وبدءاً من عام ٧٧٣ بُني جامع جديد، وهو الثالث في منطقة أصفهان، في يهودية وفي المكان الذي يقع فيه مسجد أصفهان اليوم.

تؤكد دلائل مرتبطة بالمسكوكات انتقال مركز النشاط في منطقة أصفهان من جَيّ/ خوشينان إلى يهودية. تم اكتشاف عملات تحمل ختم جَيّ وتعود إلى الفترة الممتدة بين عامي ٦٩٥ و ٧٤٦ في حين أن العملات كافة تحمل ختم أصفهان. وصف الجغرافيون العرب في القرن العاشر جَيّ على أنها قرية صغيرة في منطقة أصفهان ولم يأتوا على ذكر خوشينان مطلقاً. غير أنهم وصفوا يهودية على أنها المنطقة الأهم في أصفهان، كما وصفوا مدينتها ومسجد الجمعة الواقع في منطقة البازار النشطة والتي يزورها يومياً حشد هائل من الناس حاملين بضائعهم من ممالك بعيدة وقرية.

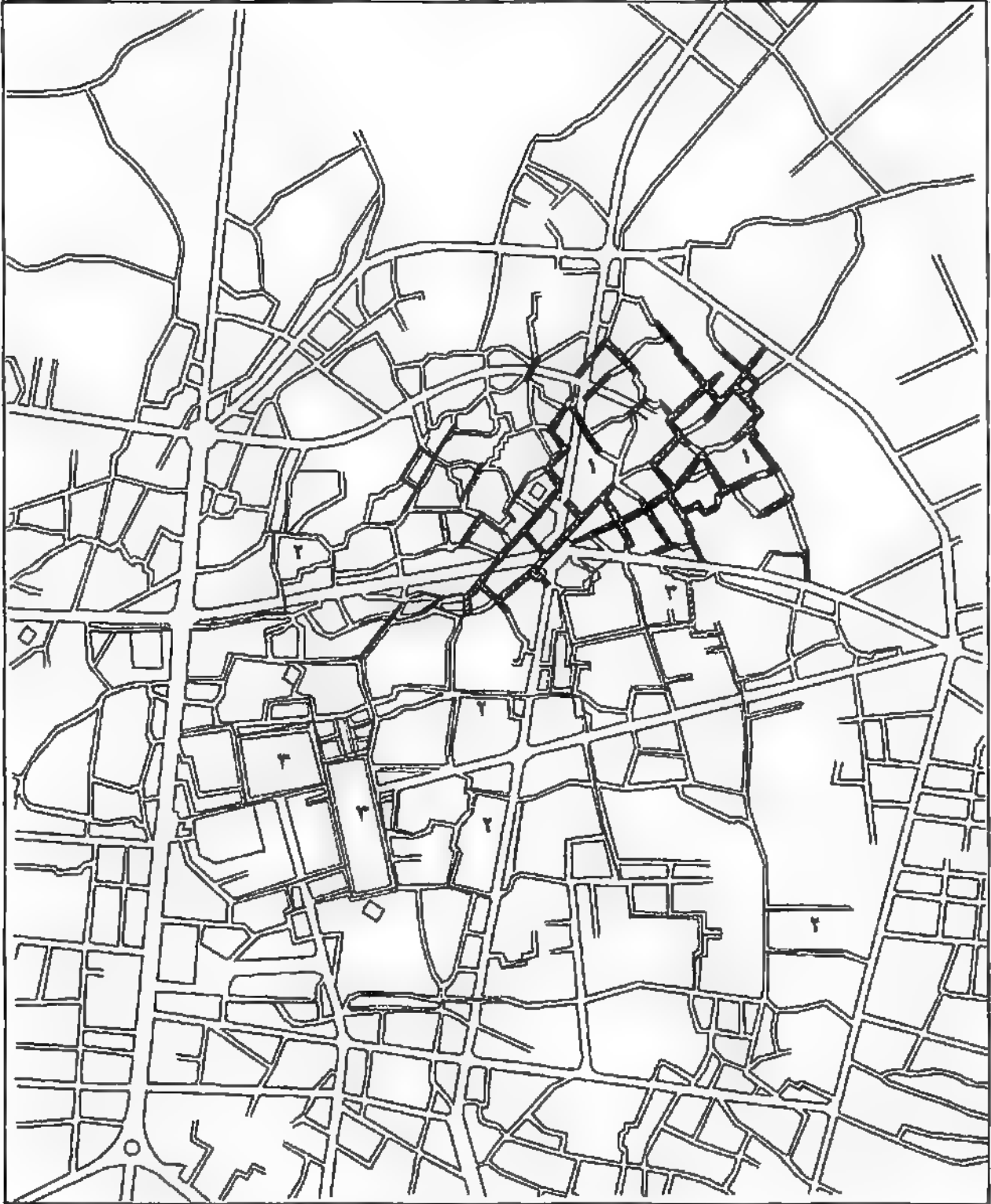
٢ - تطوّر أصفهان حتى القرن السادس عشر

أ - المسجد الجامع والميدان القديم

كان شرحنا لتطور أصفهان حتى القرن الثامن شرحاً عاماً لا أكثر. إلا أنه منذ انتقال المركز المدني إلى يهودية، مركز مدينة أصفهان القديمة اليوم، أصبحت المعلومات أكثر غنى. فإضافة إلى المصادر الأدبية، تتوافر لدينا الآن إثباتات أكثر أهم كثيراً هي الشكل الرئيسي لمخطط المدينة، وبدرجة أقل بعض المباني.

يكشف التحليل الجغرافي للمعالم الأساسية في مخطط المدينة أنه استُخدم في أصفهان ثلاثة مخططات حيال الأرض تميّز كل منها بتوجه مختلف للمحور الأساسي فيها (انظر الرسم الرقم (٧ - ٣))، ويعكس كل منها مرحلة مهمة في مراحل تطور المدينة. داخل أقدم هذه النماذج الأرضية القديمة، المتميّز بالشوارع الممتدة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ومن الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، نجد المسجد والميدان القديم (ساحة كبيرة جنوب شرق المسجد). تنطلق هذه الشوارع من مركز، هو الجامع الكبير والميدان القديم، في اتجاه شعاعي لتصل إلى البوابات. وتجاورها المنطقة السكنية الإسلامية الأولى التي تمتد إلى الجنوب الغربي والجنوب والشمال الغربي للمسجد.

الرسم الرقم (٧ - ٣)
شوارع أصفهان



١ - نمط الشوارع الأقدم من أصفهان الإسلامية.

٢ - نمط شوارع القرن العاشر.

٣ - نمط شوارع من حقبة شاه عباس.

ثلاثة أنماط رئيسية للشوارع في أصفهان:

المصدر: Heinz Gaube and Egen Wirth, *Der Bazar von Isfahan* (Weisbaden: Reichert Verlag, 1978), and Heinz Gaube, *Iranian Cities*, Hagap Kevorkian Series on Near Eastern Art and Civilization (New York: New York University Press, 1979).

كما ذكر سابقاً، بدأت أعمال بناء الجامع عام ٧٧٣. غير أنه لم يبق شيء فوق الأرض من ذلك البناء ولا من القسم الذي أعيد بناؤه في القرن العاشر، وجميع المباني تقريباً المحيطة بباحة المسجد في أيامنا هذه بنيت في النصف الأول من القرن الثاني عشر. في تلك الفترة، وبعيد الدمار القوي الناتج من حريق كبير، كان يتوجب بناء مسجد جديد؛ فتغيرت خلال عملية البناء باحة المسجد ذات التصميم العربي إلى بناء ذي أربع إيوانات، وهو مثل منذ ذلك الحين التصميم النموذجي للمسجد الإيراني.

الميدان القديم (انظر الرسم الرقم (٧ - ٤)) هو العنصر المهم الآخر في تصميم أصفهان في القرون الوسطى. في أيامنا هذه، جرت إعادة بناء الساحة بورشها الحرفية ومخازنها البسيطة، إلا أنه في الإمكان إعادة بناء الشكل الأصلي كاملاً. فقد كان الميدان محاطاً بالجوامع والمدارس والقصور وببازار واسع وجناح موسيقي ملكي. كان في الإمكان رؤية أغلبية هذه المباني حتى القرن السابع عشر، ولو في صيغة آثار متبقية^(١٢). كان الميدان في الأصل مخصصاً لسباق الخيل ولرياضة البولو. وكلمة ميدان هي من أصل إيراني ولها مرادف فارسي هي «أسبرس»^(١٣). وقد أتت المصادر العربية في القرون الوسطى^(١٤) على ذكر الميدان القديم في أصفهان، «ميدان أسفريس». كانت الميادين تقع في ضواحي العديد من المدن الإيرانية والعراقية. وهي كانت المواقع المثالية كذلك للأسواق، ما دامت سباقات الخيل ومباريات البولو لا تقام يومياً.

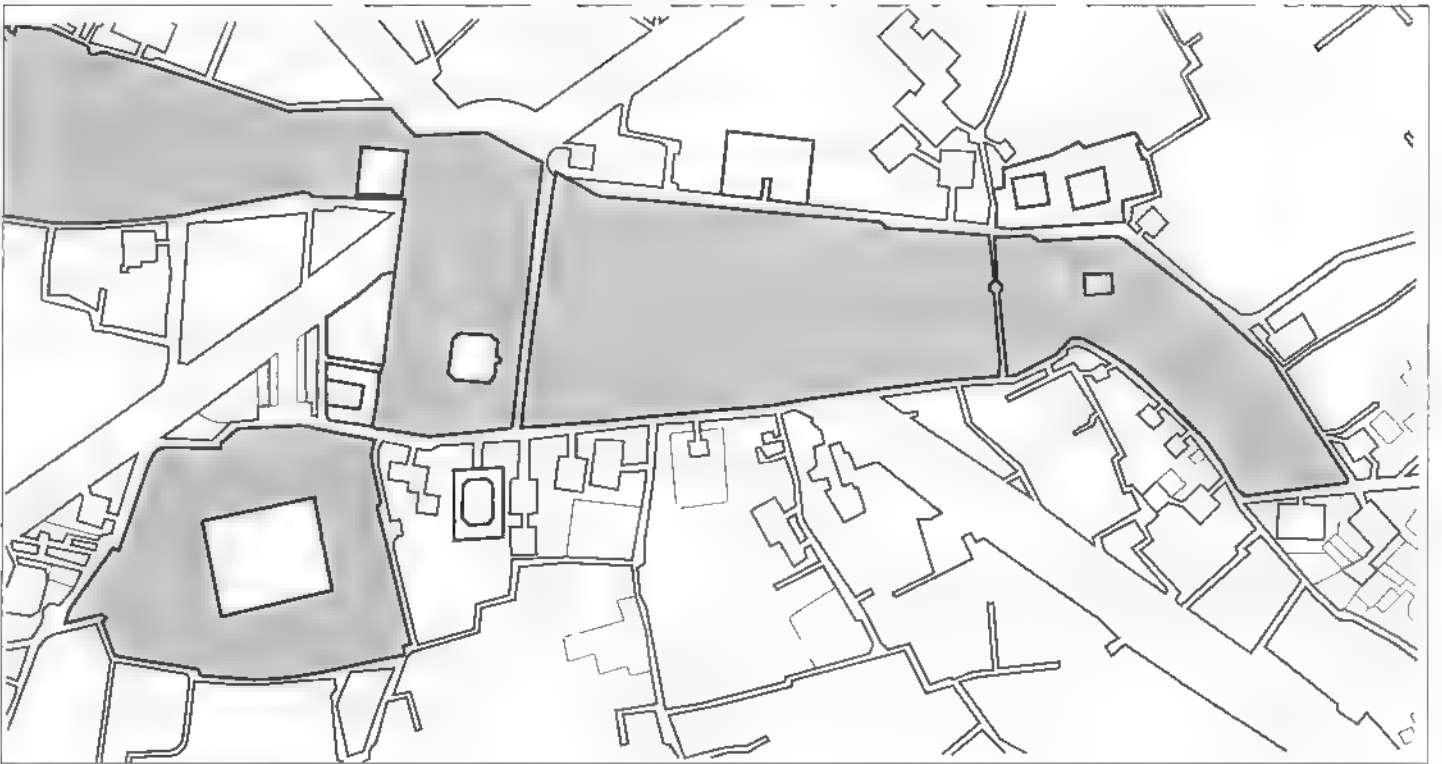
كان الميدان القديم في أصفهان، وحتى القرن الثامن، يقع على حافة المستوطنة. وعليه فما من سبب لعدم إرجاع تاريخ أصله إلى أزمنة ما قبل إسلامية. ونتيجة أعمال البناء في خوشينان، لم يعد الميدان في ضواحي يهودية وإنما بات في وسط الوحدة المدنية الجديدة التي تشكلت من يهودية وخوشينان معاً (انظر الرسم الرقم (٧ - ٥)). لذلك، وبسبب من الأنشطة الإعمارية الواسعة التي جرت في القرن الحادي عشر في هذه المناطق كافة، والتي تتميز بمخطط الشارع الثاني، كان على الميدان القديم ولفترة

(١٢) John Chardin, *Voyages du Chevalier Chardin en Perse et autres lieux de l'Orient: Enrichis* (Amsterdam: [n. pb.], 1711).

(١٣) Herzfeld and Walser, eds., *The Persian Empire: Studies in Geography and Ethnography of the Ancient Near East*, chap. 22.

(١٤) شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحرير فرديناند وستفلد عن مخطوطات برلين، سانت بطرسبرغ، باريس، لندن وأكسفورد، ٦ ج (ليزيغ: بروكهاوس، ١٨٦٦ - ١٨٧٣)، الفصل ٤، ص ٧١٣.

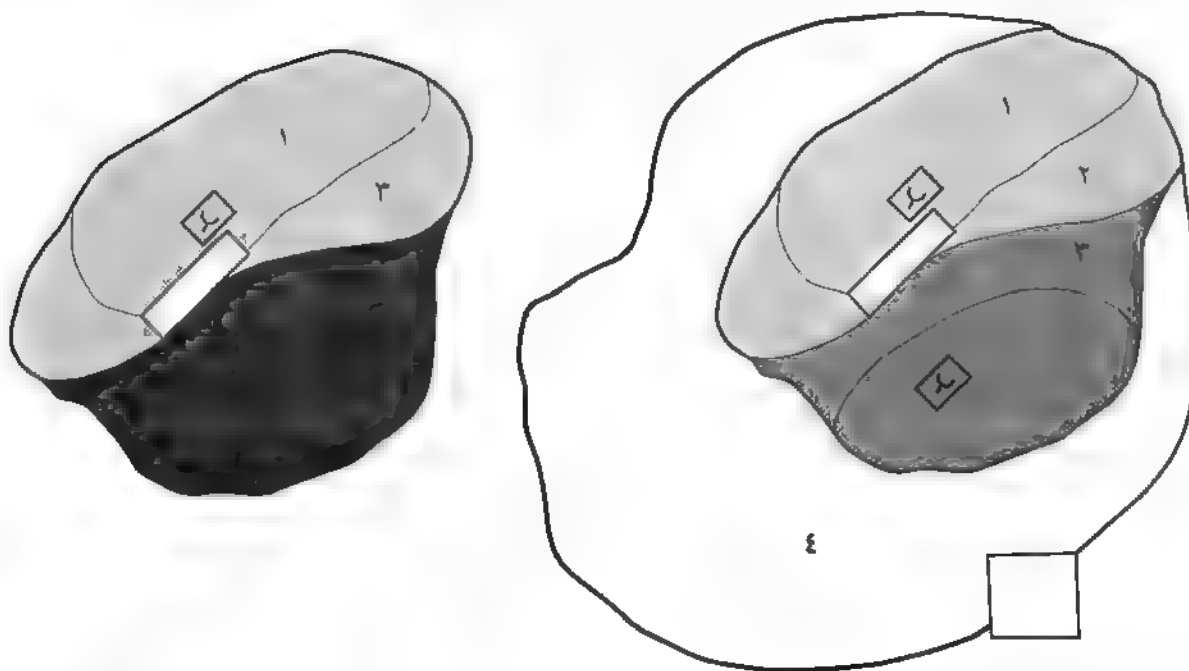
الرسم الرقم (٤ - ٧)
أصفهان، الميدان القديم



المصدر: المصوران نفسها.

طويلة أن يتبع المركز الظاهر للمدينة. ويشدد أنغلبرت كامبفير^(١٥)، الرحالة الألماني الذي زار أصفهان عام ١٦٨٤، في وصفه لها، على الموقع المركزي للميدان القديم «في قلب المدينة».

الرسم الرقم (٧ - ٥) أصفهان، خوشينان، ويهودية



تطور خوشينان ويهودية
المصدر:

Gaube, Ibid.

في أواخر القرن الحادي عشر وحين كانت أصفهان عاصمة الإمبراطورية السلجوقية القوية، لم يعد الميدان القديم مركزاً رياضياً وتجارياً فحسب بل أصبح أيضاً، وبفضل موقعه المركزي، المركز الإداري والديني للمدينة. بقي الميدان القديم مركز المدينة لغاية القرن السادس عشر. ومن ثم بُني الميدان الجديد الذي صمم بعد الميدان القديم. أصبح الميدان الجديد المركز الإداري للمدينة واستقطب القسم الأكبر من التجارة، ولا سيما السلع العالية القيمة. استمر الميدان القديم قائماً، إلا أنه بات المركز الثاني لأصفهان. ولا يزال واضحاً اليوم أن المحاور الداخلية الرئيسية للتواصل المدني في العصور القديمة، وقبل عصر العربات، تنطلق من أطراف المدينة لتلتقي في الميدان القديم.

Engelbert Kaempfer, *Amoenitatum Exoticarum Politico-physico-medcarum* (Lemgoviae: (١٥) Henrici Wilhelmi Meyeri, 1712).

ب - المحاور الرئيسية للتواصل المدني الداخلي

المحاور الرئيسية في التواصل المدني الداخلي هي نفسها محاور القرون الوسطى. ففي سور القرن العاشر، كانت بوابات المدينة الأكثر أهمية تقع على هذه المحاور. ومن الممكن التحدث عن موقع افتراضي لتلك البوابات حين لا نتمكن من استخراج معلومات إضافية (انظر الرسم الرقم (٧ - ٦)).

ويجب ألا يفاجئنا ذلك مطلقاً، إذ لم يعد لبوابات القرون الوسطى في المدينة، بدءاً من القرن السابع عشر، أي دور. لقد تطورت المدينة خارج أسوار القرون الوسطى؛ ولم يدافع الصفويون عن إمبراطوريتهم عند بوابات عاصمتهم وإنما عند حدودها الأبعد، في آسيا الوسطى وغرب العراق وشرق الأناضول.

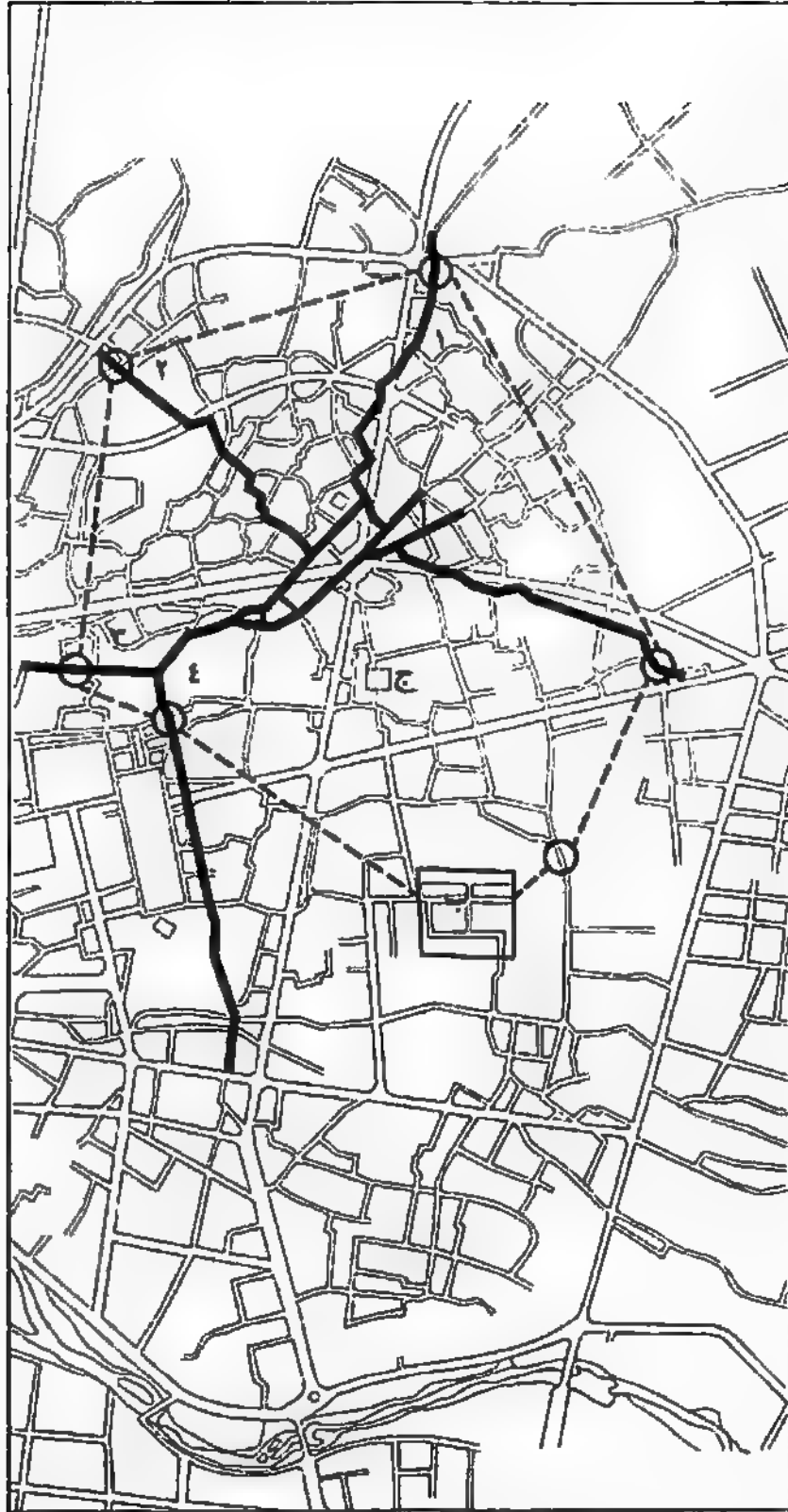
وفي كل الأحوال فما من شك في أن أصفهان ما قبل الحقبة الإسلامية، وأصفهان بداية الحقبة الإسلامية، كانت تتميز بشكل هو بين المضلع والدائري. وإلى بداية هذا القرن، لا تزال المحاور الرئيسية الأربعة في أصفهان القديمة كما كانت، حيث المتاجر والورش الحرفية ويازار المدينة. يمكن ملاحظة مدى قدم هذه المحاور من واقع أنها باتت وبفضل التقدم الزمني ترتفع مترين أو أكثر عن مستوى الساحات على جانبيها. وعلى طول هذه الطرق الرائعة، تم بناء bazars خطية في القرن العاشر^(١٦)، وقد جرت المحافظة، ولو جزئياً، على bazars الموجودة إلى الشمال والشمال الغربي. ومنذ عام ١٦٦٠، أصبح الشارع الممتد من البوابة الغربية في اتجاه الشمال الشرقي جزءاً من محور البازار الرئيسي. كذلك يقوم بازار آخر شرق الميدان القديم. وفي الزاوية الشمالية الشرقية للميدان القديم، تقوم بقايا بازار آخر يمكن تمييزه بوضوح على خريطة عام ١٩٢٤ وفي صور جوية قديمة^(١٧).

يمكن الافتراض أن «مشهد السوق الإمبراطورية» الذي يتحدث عنه شاردان في القرن السابع عشر إنما كان «القيصرية» القديمة. فما من شارع يمتد من الميدان القديم باتجاه الجنوب الشرقي. وتمكّننا المصادر الأدبية من الاستنتاج أنه هنا، في المدينة الإسلامية الجديدة، انتشر عدد من المباني الدينية (ولا سيّما المدارس) والقصور ذات

(١٦) ناصر خسرو علوي قبادياني، سفرنامه... با حواشي وتعليقات وفهارس أعلام وشرح لغات بكوش محمد دبير مياقي. تشاب دوم (سفرنامه: تشاب دوم، ١٣٤٤ هـ/ ١٩٦٦ م)، ص ١٢٢.

(١٧) خريطة جوية لأصفهان أنجزت لرضا خان سنة ١٣٠٢ هـ/ ١٩٢٤ م. انظر: Erich F. Schmidt, *Flights Over Ancient Cities of Iran* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1940), p. 27.

الرسم الرقم (٧-٦)
أصفهان، المحاور الأساسية



محاور التواصل الداخلية في أصفهان القديمة:

○ البوابات القديمة في أصفهان.

١ - بازار مجلسي ٢ - بازار داشت ٣ - طريق البوابة الغربية ٤ - طريق البوابة الجنوبية.

أ - البازار القديم ب - القلعة ج - المسجد الجامع.

Gaube and Wirth, Ibid.

المصدر: المصدر نفسه، و

الحداثق^(١٨). لم يتطلب مثل هذا الاستخدام المكثف للأجزاء الجنوبية الغربية للمدينة في القرون الوسطى وجود محور رئيسي بين القلعة والميدان القديم. فمن خلال تحديد الخطوط الرئيسية للتواصل المديني الداخلي، ونقطة تقاطعها، غدا في الإمكان عزل الميدان القديم، وسائر أجزاء المدينة العائدة إلى القرون الوسطى والتي مثلت عمودها الفقري.

أدى تغير الظروف السياسية في إيران بعد انحلال الإمبراطورية السلجوقية في منتصف القرن الثاني عشر إلى حرمان أصفهان دورها الرئيسي كمدينة عاصمة. وفي عام ١٢٤٤ احتل المغول المدينة وسجل عام ١٣٨٧ النهاية الحتمية لـ ٨٠٠ سنة من الازدهار لأصفهان في الحقبة الإسلامية. في هذا العام غزا تيمورلنك المدينة وأمر جيشه بنهبها. ومات العديد من سكانها خلال عملية النهب تلك. وفي عام ١٤١٤ نهبت المدينة مرة ثانية، وذكر عام ١٤٧٤ أن عدد سكان أصفهان كان يبلغ نحو ٥٠ ألف نسمة فقط.

٣- تطوّر أصفهان حتى عام ١٧٠٠

أ- الشاه عباس الأول: ميدان الشاه

خلال نهضة الدولة الصفوية في بداية القرن السادس عشر، جرت أولى محاولات إعادة بناء أصفهان على أيدي الشاه إسماعيل (١٥٠٢ - ١٥٢٤) والشاه طهماسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦). دمج هذان الحاكمان مبانيهما في مخطط أصفهان الذي يعود إلى القرون الوسطى. كان اهتمامهما الأساسي هو إعادة بناء المنطقة المحيطة بالميدان وتحسينها. وقد شادا في هذه المنطقة ما لا يقل عن خمسة مباني. كما بنيا مسجدين ومدرسة وحمّاماً على طول الشارع الممتد من الميدان القديم في الاتجاه الجنوبي الغربي^(١٩).

في شتاء عام ١٥٩٧، قرر الشاه عباس الأول، شاه إيران منذ عام ١٥٨٧، نقل عاصمته من قزوین الواقعة شمال غرب إيران إلى أصفهان. وعقب هذا القرار، وفي سنوات معدودات، بلغ تطوّر أصفهان ذروته، فصارت عاصمة ذات أهمية عالمية، حيث يلتقي فيها المبعوثون والتجار القادمون من أوروبا بأولئك القادمين من الشرق الأقصى.

(١٨) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٧٧٧، ومفضل بن سعد بن الحسين المافروخي، عاين أصفهان، تصدى لتصحيحه وطبعه ونشره جلال الدين الحسيني الطهراني (طهران: مطبعة مجلس، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م)، ص ٨٣.

Gaube, *Iranian Cities*, p. 82.

(١٩)

في فترة قصيرة من الزمن، وضع عباس ومستشاروه التصور الأساسي حول كيفية إعادة إعمار المدينة وتوسيعها. اتجهت مخططاتهم في تطوير أصفهان نحو سبل جديدة يمكن مقارنتها من حيث مداها بأساس أصفهان المدينة الإسلامية المبكرة في القرن الثامن.

وبخلاف السلاطين الذين حكموا أصفهان في ما مضى وعاشوا أحياناً في المدينة القديمة، قرر عباس عدم الإقامة في المدينة القديمة. بنى محكمته عند الحافة الجنوبية الغربية للمدينة في أيامنا هذه. واتبع في ذلك أسوراً عُرِفَتْ سابقاً في المرحلة السلجوقية، كبناء المجمعات الملكية بالقرب من النهر^(٢٠). ذهب عباس أبعد من ذلك، فبنى مركزاً دينياً واقتصادياً جديداً في حافة مدينة القرن السادس عشر. ودفع بذلك تطور أصفهان في اتجاهات جديدة لاحقة.

شكل الميدان مجدداً نواة مخطط عباس، إذ بدأ التصميم المثالي لتوحيد الوظائف الأكثر أهمية في المدينة، كمركز إداري وديني وفكري واقتصادي. لقد أعيد إنشاء كل ما تعاقب من تطور على الميدان القديم على مر العصور، ولكن بطريقة منظمة الآن. وخلف القناطر الممتدة في الميدان في الشرق والغرب والجنوب، انتشرت الآن بازارات خطية مع متاجر ومحترفات. وفي الحافة الشمالية، امتدت المقاهي التي كانت طوابقها العليا تستخدم نُزْلاً ومواخير^(٢١).

في أماكن أربعة، وسط الجانبين الجنوبي والشمالي وعلى الجانبين الشرقي والغربي، وبعيداً قليلاً من المركز باتجاه الجنوب، تقطع بوابات رائعة تعاقب واجهات القناطر. تقود البوابة في الجهة الجنوبية إلى مسجد الشاه، المسجد الجديد، كما أطلق عليه في الحقبة الصفوية. وفي الجهة الشرقية من الميدان، تقوم بوابة مسجد آخر، مسجد لطف الله.

ب - مجمع القصر

في الجهة المقابلة لمسجد لطف الله في الجهة الغربية من الميدان يقع قصر علي قابو، والباب العالي، وقصر استقبال عباس الأول وخلفائه. في القرن السابع عشر، مثل علي قابو

(٢٠) المافروخي، المصدر نفسه، ص ٥٣... ٥٦.

Chardin, *Voyages du Chevalier Chardin en Perse et autres lieux de l'Orient: Enrichis*, (٢١) pp. 43-50; Cornelis De Bruin, *Reizen Over Moskovian Door Persian et Indien* (Amsterdam: [n. pb.], 1714), p. 147; A. Olearius, *Vermeehrte Moscovitische und Persische Reisberschreibung* (Schleswig: [n. pb.], 1656), pp. 554-558, and Jean-Baptiste Tavernier, *Les Six voyages de Jean Baptiste Tavernier: Ecuyer Baron d'Aubonne, qu'il a fait en Turquie, en Perse et aux Indes, pendant quarante ans* (Paris: Chez Olivier de Varennes, 1679), pp. 442-447.

المدخل إلى منطقة القصر الواسعة المجاورة للميدان في الغرب. امتد القصر نحو الغرب وصولاً إلى الشارع الرئيسي تشهار باغ. وفي منطقة القصر هذه كانت المباني الخاصة بالحريم، وحي سكني خاص بالعائلة المالكة، وسرداقات في متزهات واسعة، ومطابخ، وسقائف تخزين، وبيوت للدواجن، وورش بناها عباس وخلفاؤه.

في غرب وجنوب منطقة القصر، على جانبي تشهار باغ والنهر، أقيمت منازل الخدم، التي بنيت في هذا الموقع بناء على قرار أصدره عباس الأول. يؤدي تشهار باغ، الذي يعبر المنطقة الحكومية، إلى أحد أجمل الجسور في العالم، علي وردي خان الذي بناه علي وردي خان أحد أقرب مستشاري الشاه عباس الأول. يؤدي تشهار باغ، بعد الجسر، إلى مقر سكني ملكي ريفي هو هزار جريب. ونحو عام ١٧٠٠، بنى الشاه سلطان حسين، آخر شاه صفوي، غرب هزار جريب، قصرًا كبيراً محاطاً بحدائق شاسعة، فرح آباد. ولكن كلا المجتمعين لم يعودا موجودين اليوم^(٢٢).

أمر عباس الأول ببناء مستوطنة جُلُفا الجديدة جنوب نهر زابنده رود أيضاً. وأسكن فيها الأرمن القادمين من جُلُفا ومناطق أخرى من أرمينيا. نقل عباس هؤلاء الأشخاص لأسباب استراتيجية واقتصادية. فقد أراد أن ينشئ حزاماً من الأرض المحروقة شمال غرب مملكته من أجل حمايتها من العثمانيين. كذلك كان عباس مدركاً لمهارات الأرمن التجارية والصناعية فأرادهم أن يساهموا في الحيوية الاقتصادية للمدينة.

ج - البازار شمال الميدان الجديد

يقع بازار شمال الميدان الجديد جنوب المنطقة التي تتداخل فيها المدينة ما قبل الصفوية والمدينة الصفوية^(٢٣). تشبه بوابة البازار الرائعة بوابة جامع الشاه المقابل لها في آخر الميدان من الناحية الجنوبية. وعبر هذه البوابة، يمكن الدخول إلى شارع البازار ذي الطابقين، القيصريّة. كانت السوق حكرًا ملكيًا، حيث كانت تباع فيها في القرن السابع عشر الأنسجة الفاخرة. وسط هذا المسرب كان هناك قبة عالية. وتحت القبة نحو الجهة اليمنى، يقع دار سك العملة الملكية في حين يمكن من الجهة الشمالية الدخول إلى نزل الشاه. كان في هذا النزل الأكبر في المدينة ١٤٠ غرفة. وفي نهاية القرن السابع عشر، كان تجار الأقمشة من تبريز وقزوین وأردبیل والهند يستخدمون غرف الطابق

Eugène E. Beaudouin, «Isfahan sous les grands chahs (XVII^{ème} siècle),» *Urbanisme*, vol. 2, (٢٢) no. 10 (1993), pp. 1-47.

Heinz Gaube and Eugen Wirth, *Der Bazar von Isfahan* (Wiesbaden: انظر: لمزيد من التفاصيل، Reichert Verlag, 1978).

الأرضي، في الوقت الذي انتشرت في الطابق العلوي متاجر ومحترفات الجواهريين والصاغة والنحاتين. وشمال نزل الشاه، كان هنالك نزل مشابه وهو الآن أسوأ حالاً من النزل الأول. تنقسم المنطقة شرق هذين النزلين إلى مربعات وفق نظام مسارب البازار، وتتقاطع تحت قباب عالية، تشهارسوات. وبالرغم من ورش الإعمار والترميم الكثيرة منذ الحقبة الصفوية، فإنه لا يزال في الإمكان ملاحظة المخطط الرئيسي الذي وضع في عهد عباس الأول. تضمن المخطط الأصلي للبازار مسربين متوازيين يمتدان شمالاً وجنوباً ويتقاطعان مع ثلاثة مسارب تمتد شرقاً وغرباً. في شمال البازار، أي المنطقة التي كانت تعرف في القرن السابع عشر بالقيصرية، كان هنالك مستشفى وبجواره نزل بناه عباس الأول من أجل تأمين المال للمستشفى. غير أنه لم يعد من وجود لهذين المبنيين. وقليلًا إلى الشمال، بنى أمير لدى عباس الأول، جارتشي باشي، جامعاً ونزلاً شيداً وفق اتجاه تصميم الشارع الثاني الذي يعود إلى أوائل القرون الوسطى. يتداخل المخطط المنطلق من الميدان والمخطط الأقدم أحدهما مع الآخر في هذه المنطقة، فيشكلان بالتالي قطبية ثنائية الميدان الجديد/ القديم.

يُميّز تصميم الشوارع والمسارب في الميدان الجديد وحوله ثالث النماذج لنظام الشوارع، النموذج الصفوي. نجد هذا النموذج في القسم الجنوبي الشرقي من المدينة في المنطقة التي دمرت في الحقبة ما قبل الصفوية وفي منطقة غرب الميدان التي دمرت بدورها. عند التقاطع، شمال مباني جارتشي باشي، تلتقي نقاط جذب الميدانين، القديم والجديد. لم يصبح الميدان الجديد المركز المدني الوحيد لأصفهان، لأن المسجد الجامع ما زال، بالرغم من المسجد الجامع الجديد في الميدان الجديد، أهم مسجد في المدينة ويستقطب حشود الناس إلى منطقة الميدان القديم. ولحسن الحظ، إن انتقال الجاذبية تلك لم يحدث، ذلك بأن القطبية الثنائية بين الميدان القديم والميدان الجديد أدت إلى توزيع متوازن للتجمع المدني بين المدينة الصفوية الجديدة والمدينة القديمة ما قبل الصفوية.

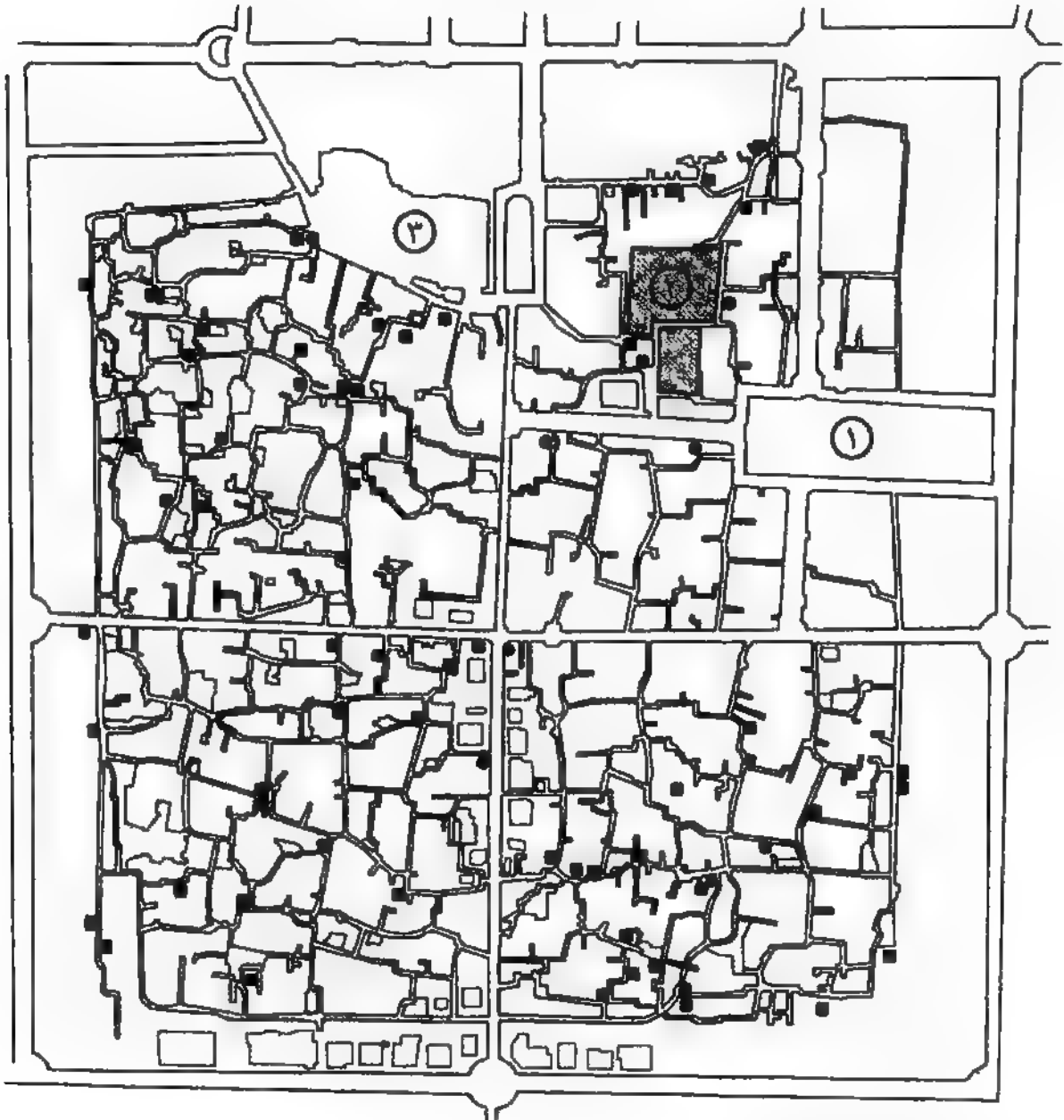
ثانياً: هرات، مدينة إيرانية شرقية

١ - هرات في القرن التاسع عشر

هرات هي المدينة الغربية الأكبر في أفغانستان (انظر الرسم الرقم (٧ - ٧)). وهي تقع في واحة نهريّة خصبة وتحيط بها عدة قرى. كانت المدينة بفضل موقعها الجغرافي،

بمثلة بوابة إلى الهند. مرّ بها الإسكندر الأكبر كما كانت ممراً للتجارة بين الهند وآسيا الصغرى والشرق الأدنى لغاية الأزمنة الراهنة. وبالرغم من أن تاريخ هرات شهد الكثير من التقلبات، صعوداً ونزولاً؛ إلا أنها لم تتشارك مع العديد من المدن الإيرانية الأخرى قدرها في المعاناة من جراء الإخلاء الجزئي من جهة، وعدم الإقامة فيها من جهة أخرى.

الرسم الرقم (٧ - ٧)
هرات، المدينة الداخلية



خريطة المدينة الداخلية لهرات:

١ - الجامع الكبير. ٢ - مقر الحاكم. ٣ - القلعة. ■ مساجد. ● مياه

Gaube, Ibid.

المصدر:

بما أن هناك أوصافاً لهرات يمكن الاعتماد عليها والوثوق بها تعود إلى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، من السهل تكوين فكرة عما كانت عليه المدينة منذ نحو مئة سنة. بل حتى هنالك أيضاً بعض الخرائط القديمة، أهمها وأكثرها غنى بالمعلومات خريطة الضابط الألماني أوسكار فون نيدرماير (١٩٢٤)^(٢٤) الذي قاد بعثة عسكرية صغيرة إلى أفغانستان عام ١٩١٦ - ١٩١٧. في خريطة هذا الأخير، نرى المدينة تقريباً مربعة وتمتد على مسافة ١٥٠٠ م من الشمال إلى الجنوب وموجهة نحو الاتجاهات الأربعة للبوصلة: كان يحيط بها سور وخندق عميق وعريض. كان للسور خمس بوابات: بوابة في كل من الجهة الغربية والجنوبية والشرقية ويوابتان في الجهة الشمالية. تنطلق ثلاثة شوارع من كل من الغرب والجنوب والشرق، ورابع من البوابة الغربية في الجهة الشمالية، وتتقاطع جميعها في وسط المدينة تحت مبنى مقبب (تشهار سو). يراوح اتساع هذه الشوارع بين ١٢ و ١٥ قدماً، وقد شكلت بازار المدينة. كانت النزل تقام بالقرب من تشهار سو إلى جنوبه. ومن أجل تأمين مياه الشرب للبازار والأقسام المجاورة للمدينة، انتشرت في عدة أماكن من المدينة خزانات مياه ضخمة مغطاة بقبب عالية.

تقع القلعة في الجزء الغربي من القسم الشمالي للمدينة المجاور للسور. وهناك بني قصر متواضع. في أوقات السلم، لم يكن حاكم هرات يقيم في القلعة إنما في قصر في المدينة قريباً من الجامع الكبير. بالقرب من القصر، انتشرت الإسطبلات والمعامل الحكومية ومخازن القمح والشكنات. وفي الحي الشمالي الشرقي للمدينة القديمة، تمركز الجامع الكبير. في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، أعيد بناء الجامع فاكسب مميزات جديدة لا تزال إلى أيامنا هذه.

غطت الأحياء السكنية أغلبية مناطق المدينة القديمة. يمكن الدخول إلى هذه الأحياء السكنية عبر الشوارع الرئيسية الأربعة والبازار؛ وتتفرع من الشوارع الرئيسية شوارع ثانوية، تعبر الأحياء في الاتجاهات الشمالية - الجنوبية والشرقية - الغربية. والقول إن مخطط هذه الشوارع قد ارتكز في الأساس على نموذج متصالب لا يبدو بالنسبة إليّ قولاً بلا أساس أو سبب. فداخل هذه الأحياء السكنية، انتشر العديد من المباني الدينية والجوامع والمزارات. وقد تمركزت الجوامع المهمة كافة، ومن دون استثناء، على جوانب الأحياء. والمزارات عبارة عن قبور حقيقية أو افتراضية للأولياء

Oskar Von Niedermayer, *Afghanistan* (Leibzig: [n. pb.], 1924).

(٢٤)

حيث يصلي المؤمن مؤملاً تحقيق أمنيته. وهي تنتشر بكثرة داخل المدينة القديمة وخارجها. وفي كتاب رسالة مزارات هرات، نشر عام ١٨٩٢، يجري ذكر ووصف ٣٠٠ مزار تقريباً. ولا أعرف مدينة أخرى يمكنها أن تحتوي هذا العدد الضخم من المزارات.

٢ - هرات في أوائل القرون الوسطى

عند تفحص المصادر الأدبية في طبوغرافيا هرات، نجد أن المعالم التي وصفت آنفاً لا تصح في القرن التاسع عشر فحسب، إنما هي أيضاً مميزات أساسية للمدينة كما كانت في أوائل القرون الوسطى. الوصف الأكثر شمولاً للمدينة في القرن العاشر جاء في كتب جغرافيين عربيين، الإصطخري (نحو ٩٥١م)^(٢٥)، وابن حوقل (نحو ٩٧٧م)^(٢٦). واستناداً إلى هذين المصدرين يمكن وصف هرات على النحو التالي:

يحيط بالمدينة سور، وهو كباقي المباني الأخرى مبني من الآجر. يبلغ محيطه نحو أربعة كيلومترات. وأمام السور يقوم خندق. وعبر أربع بوابات وسط الجدار، تنطلق أربعة طرق واسعة من المدينة. تواجه البوابات الجهات الأربع للبوصله. وعند بداية كل بوابة هناك بازار يؤدي إلى مركز المدينة. بنيت القلعة داخل أسوار المدينة ولها أربع بوابات في نفس اتجاه بوابات المدينة وتحمل الاسم عينه. بالتأكيد لم يتغير موقع المسجد الكبير. في نهاية القرن، بني كل من المجمع الإداري وقصر الحاكم والإسطبلات ومخزن القمح والمحترفات، في اتجاه قبلة المسجد الكبير. ويروي كتاب القرون الوسطى عن وجود سجن مجاور للمسجد الكبير. لم تبَن السجون عشوائياً وإنما كانت تشاد عموماً في المنطقة التي يقيم فيها الحاكم وجيوشه.

٣ - المخطط بحسب مصادر القرن الخامس عشر

تشير مصادر القرن الخامس عشر، ولا سيما مصادر الإسفزازي الذي كتب عن تاريخ هرات في عام ١٤٢٩، إلى أن شكل المدينة الداخلي لهرات بقي إلى حد كبير كما هو منذ القرن العاشر.

(٢٥) أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي، كتاب مسالك الممالك: وهو معول على كتاب صور الأقاليم، تحرير ميخائيل دو غويه (لندن: مطبعة بريل، ١٩٢٧)، ص ١٤٩ - ١٥٠.
(٢٦) أبو القاسم محمد بن حوقل، كتاب صورة الأرض (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢).

يبدأ الإسفزازي تاريخ هرات بمقدمة جغرافية يمكن على أساسها تلخيص الصورة الحالية لهرات^(٢٧). بلغ محيط أسوار المدينة ٧٣٠٠ قدم هراتي، في حين أن المسافة بين كل من البوابات بلغت ١٩٠٠ قدم، ما يثبت أن للمدينة مخططاً مربعاً. أحاط خندقُ السور. وفي وسط الجهات الشمالية والغربية والجنوبية والشرقية للسور إضافة إلى الجهة الشمالية الشرقية، تركزت البوابات. من البوابات الأربعة في وسط كل جهة، تمتد البازارات إلى تشهار سو في وسط المدينة. بني البازار في الشمال من الطوب المدعم، وبالتالي يمكننا الافتراض أن البازارات الأخرى بنيت من الطين والطوب.

في كل بازار من البازارات، انتشرت النُّزل. وكان المسجد الكبير بين البوابات الشرقية والشمالية الشرقية. يذكر الإسفزازي أنه في الفترة التي سبقت حكم تيمورلنك، بنى الملك معز الدين (١٣٣٠ - ١٣٧٠) للمدينة سوراً خارجياً إضافياً تبلغ مساحته نحو ٦ كم^٢. دمر تيمورلنك هذا السور ولم يُعد بناؤه. ذلك بأن السور، بحسب رأيه، لم يكن قادراً على حماية المدينة.

تكفي الأدلة المقدمة إلى الآن للحصول على الاستنتاجات التالية:

طراً على كل من مخطط مدينة هرات الداخلية ومواقع أهم المباني والبازار والمسجد الكبير والمباني الإدارية والقلعة، ومنذ القرن العاشر، تغييرات طفيفة فقط في أحسن الأحوال. هذه الديمومة تميز هرات عن المدن الأخرى في المنطقة المعمارية الإيرانية - العراقية، حيث تغيرت بصورة ملحوظة مواقع الأقسام المركزية لامتداد المدن عبر القرون. إن المخطط المربع الذي بنيت على أساسه هرات غير موجود في مخطط المدن ذات المساحة نفسها غرب الصحراويين الداخليين الإيرانيين، إنما نجده في مخطط مدن أخرى في الحزام الثقافي الإيراني الشرقي، أي داخل إيران اليوم وصولاً إلى بُخارى.

٤ - أمثلة عن المدن الإيرانية الشرقية

أ- بَم

كان للمدينتين الأكثر شهرة في إيران الساسانية ما قبل الحقبة الإسلامية، فيروز أباد (أردشير خوره) العاصمة التي أسسها أردشير الأول (٢٢٤ - ٢٤١) وبيشاپور العاصمة

Roman Ghirshman, *Iran: Parther und Sasaniden* (Munich: Verlag C.H. Beck, 1962), (٢٧) pp. 77-79.

التي أسسها شابور الأول، مخططات منفصلة ومتباينة تماماً. ففيروز أباد^(٢٨) مدينة دائرية الشكل في حين أن بيشابور^(٢٩) مستطيلة، ذات شبكة من الشوارع المدنية المنظمة. للمدينة الساسانية الدائرية سابقتها المباشرة في المدينة البارثية الدائرية، الحَصْر^(٣٠)، في العراق اليوم، التي لها بدورها سوابق في المدن الدائرية للشرق الأدنى القديم. ينطلق مفهوم تخطيط بيشابور من واقع أن المدينة بنيت من جانب سجناء الحرب الرومان. إنه مفهوم أجنبي لم يتم تكراره في غرب إيران في الحقب ما بعد الساسانية. تشكل مدينة بغداد الدائرية الشكل التي بناها الخليفة المنصور (٧٥٤ - ٧٥٥) المثال الأكثر شهرة^(٣١). كذلك كان مخطط كل من أصفهان ومدينتها التوأم جيّ دائرياً^(٣٢).

لكن إذا انتقلنا إلى غرب إيران لوجدنا مبادئ مختلفة في تخطيط المدينة. في المقاطعة الإيرانية شرق فارس تقع كرمان، وشرق هذه المقاطعة وعلى الطريق الذي يدور جنوباً حول صحراء لوت وصولاً إلى سيستان تقع مدينة بَمّ الصغيرة (انظر الرسم الرقم (٧ - ٨)). اشتهرت بَمّ في القرون الوسطى بصناعة المنسوجات. وكانت مدينة غنية ومزدهرة. وكانت قلعة مشهورة تشرف على المدينة الداخلية، «المدينة». وكان يحمي «المدينة» سور ذو أربع بوابات تذهب في اتجاه جهات البوصلة الأربع. كان هناك ربض خارج المدينة، فيما اصطفت أشجار النخيل في أنحاء المستوطنة^(٣٣).

في الثلاثينيات من القرن العشرين هُجرت مدينة بَمّ القديمة. انتقل السكان إلى المدينة الجديدة جنوب المدينة القديمة وأصبحت هذه الأخيرة نوعاً ما مدينة - متحفاً. في المخطط الحالي للمدينة القديمة المحصنة، تبدو شبكة من الشوارع النظامية الموجهة نحو الشمال - الجنوب، والشرق - الغرب، ظاهرة يغدو ممكناً تعيين مراحل تطورها. كانت «المدينة» الأصلية دائرية الشكل، وكانت القلعة تقع في الشمال داخل سور المدينة. لاحقاً، تمددت المدينة نحو الشرق وفي تمدد متأخر أكثر نحو الشمال الغربي. وبالتالي، كان لبَمّ في القرون الوسطى شكل دائري وقلعة تقع على حافة المدينة، وأربع بوابات، كانت أغليبتها في وسط كل جهة ووصلت بعضها ببعض عن طريق نظام

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٢٣.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٣٨.

Andrea, *Hatra-Berlin*, 1908-1912.

(٣٠)

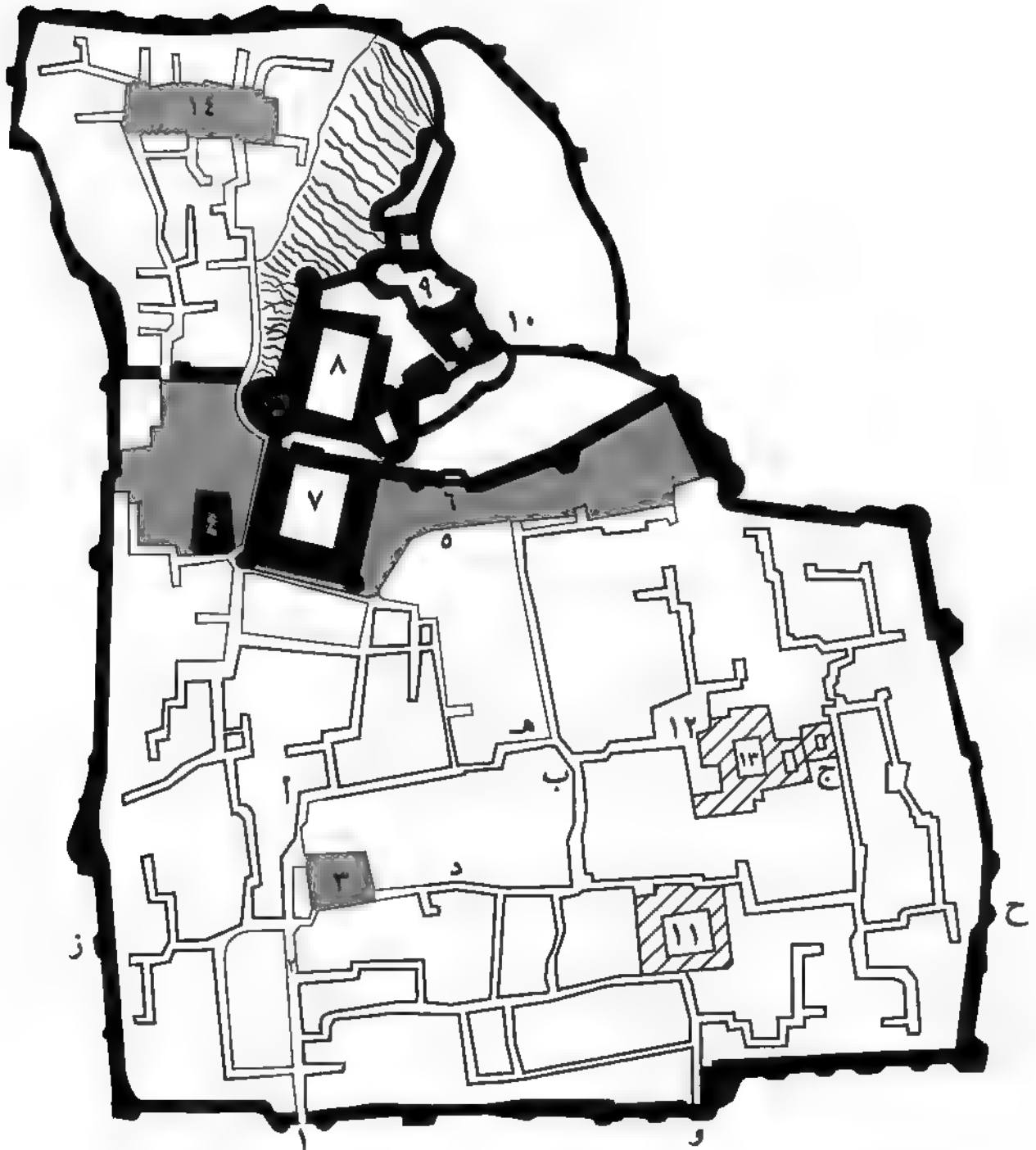
Keppel Archibald Cameron Creswell, *A Short Account of Early Muslim Architecture* (Beirut: Librairie du Liban, 1958), pp. 161-182.

Gaub, *Iranian Cities*, pp. 67-72.

(٣٢)

(٣٣) المصدر نفسه، ص ١١٢.

الرسم الرقم (٧ - ٨)
بَم المدينة الداخلية



خريطة المدينة القديمة لـ «بَم»

١٤ - ساحة الشمال الشرقي
أ - ج محور مدني جنوب شمال
د - هـ محور مدني شرق غرب
و - بوابات المدينة

٩ - تشهار فصل
١٠ - بيت الحاكم
١١ - الجامع
١٢ - زورخانه
١٣ - مساكن

٤ - التزل
٥ - شرفة القلعة
٦ - بوابة القلعة
٧ - ساحة مع اسطبلات
٨ - فسحة للمدفعية

المصدر: المصدر نفسه.

مشتق من الشوارع. وعليه، تبدو بَمَ المثال الغربي الأهم في ما دعونه «المدن الإيرانية الشرقية»^(٣٤).

ب- زرنج

أظهر مثال بَمَ أنه من الممكن أن نجد شرق الصحاري الداخلية الإيرانية مدناً تتبع مفهوم تخطيط مشابه لمخطط يشابور. كانت بَمَ في الأصل مربعة الشكل ذات نظام منظم من الشوارع الداخلية المدنية، التي تمتد بموازاة أسوار المدينة. هذا الأمر مفاجئ، ويتطلب تفسيراً، وبخاصة مع إمكان استبعاد التأثيرات الغربية. تقع زرنج، العاصمة القديمة لسيستان وإحدى أشهر المدن الشرقية الإيرانية، شرق بَمَ بالقرب من الحدود الحالية بين إيران وأفغانستان، وعلى الأراضي الأفغانية اليوم. إن اسم سيستان مشتق إما من سجستان وإما من ساكستان، أي أرض «سكا»، وهم قوم تركوا آسيا الوسطى في القرن الأول بعد الميلاد وهاجروا إلى هذه المنطقة. خلال الحكم الساساني، كانت زرنج مدينة مهمة وأصبحت في القرنين التاسع والعاشر عاصمة النفارين (٨٦١ - ١٠٠٣) الذين سيطروا في أوج أيامهم على كامل إيران تقريباً. وفي عام ١٣٨٣، دمر تيمورلنك زرنج ولم يُعدّ إحيائها بعد ذلك.

تظهر صورة جوية لزرنج^(٣٥) محيط المدينة الذي يتألف من قسمين، ومربعاً مع بقايا قلعة في إحدى زواياها ومستطيلاً غير منتظم بعض الشيء أضيف إلى جانب واحد من المربع. القسم المربع هو «المدينة» على الأرجح. ووفقاً لابن حوقل والإصطخري، اللذين قدما أفضل وصف لزرنج في القرن العاشر^(٣٦)، كان للمدينة خمس بوابات حديد... في الجهة المقابلة لفارس (الغرب) بوابتان: البوابة القديمة والبوابة الجديدة، أما البوابات الثلاث المتبقية فكانت في اتجاه الجهات الثلاث الأخرى المتبقية للبوصل. هذا الأمر له تفسير واحد فقط: كان لمدينة زرنج في الأصل أربع بوابات في اتجاه الجهات الأربع للبوصل. لكن المدينة تمددت نحو الجنوب بواسطة رَين، وقبل القرن العاشر، كانت الأسوار تحيط بالمدينة بأسرها.

(٣٤) تعرضت مدينة بَمَ لزلازل قوي في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣ أدى إلى تدميرها (المحرر).

(٣٥) Klaus Fischer, ed., *Geländebegehungen in Sistan 1955-1973 und die Aufnahme von Dewal-i Khodaydad 1970 (Nimruz)* (Bonn: Habelt, 1974-1976), fig. 72.

(٣٦) Heinz Gaube, «Die Quellen Zur Karte B VII 6: «Die Kernländer des «Abbasidenreiches»» und ihr Auswertung,» in: W. Rolling, ed., *Von Der Quelle Zur Karte Abschlussbuch DES Sonderforschungsbereichs Tübinger Atlas (Sonderforschungsbereiche)* (Weinheim: Wiley-VCH Verlag GmbH, 1991), pp. 199-210.

ج- أصل مخطط المدن الإيرانية الشرقية

كيف تطور هذا المخطط الخاص للمدن الداخلية لهرات وبم وزرنج وأين علينا البحث عن جذوره؟ يفكر المرء مباشرة بالمدن اليونانية - الرومانية؛ فتحت تأثير هذا النموذج الأصلي، جرى تأسيس المدن والمستوطنات الشبيهة بالمدن في مناطق غرب إيران في بداية الحقبة الإسلامية. على سبيل المثال، عنجر في لبنان والعقبة في الأردن. تتميز هاتان المستوطتان بشكل مستطيل وبشرايين رئيسية تنطلق من البوابات في وسط كل من الأسوار الأربعة وتتقاطع في وسط المستوطنة مشكلةً بالتالي صلياً^(٣٧).

لا توجد في إيران، على حد علمنا، مبانٍ إسلامية من هذا النوع. لكن توجد مستوطنات ريفية صغيرة ذات شكل مستطيل أو مربع، تسمى مستوطنات «القلعة». وهي يقتصر تشابهها مع المدينة الداخلية لهرات على بعض النواحي الشكلية. لذا، يمكن، نظراً إلى حجمها الصغير وتركيبها التنظيمي المختلف، مقارنتها فقط بمستوطنات من النوع نفسه في آسيا الوسطى. فالقرية - القلعة القديمة جداً معروفة في تلك المنطقة^(٣٨).

أما في إيران فما من تشابه تقريباً بين القرية - القلعة وبين المدينة، في حين نجد أن مخطط المدينة في آسيا الوسطى يتشابه من حيث الشكل مع القرية - القلعة، ومن حيث البنية مع هرات. هذا واضح، على سبيل المثال، في مخطط مرو البارثية، المدينة السلوقية الداخلية^(٣٩). وهي ترتبط، من جهة، بمستوطنة القلعة البارثية توبراك قلعة^(٤٠) بمجموعة أبنية، بمحور محدد واضح وبقلعة تقع على حافة المدينة. أما من جهة أخرى، فمرو تشبه هرات في سور المدينة المربع الموجه نحو اتجاهات البوصلة الأربع، والطرق البرية الأربعة التي تنطلق من المدينة عبر أربع بوابات في وسط كل جهة، وقلعة تقع في الحافة الشمالية للمدينة داخل الأسوار. وقد نشأت في القرون الوسطى، غرب المدينة الداخلية القديمة لمرو، مدينة مشابهة إنما أقل انتظاماً^(٤١)، ولها أيضاً محوران محددان بوضوح وقلعة في الزاوية الشمالية الشرقية داخل أسوار المدينة.

Eugen Wirth, *Die Orientalisch-islamische Stadt* (Mainz: [n. pb.], 2000), pp. 39-44. (٣٧)

E. E. Nerasik, *Sel'skij poseleniya afrigid'skogo Choresma* (Moscow: [n. pb.], 1966). (٣٨)

G. A. Pugachenkova, *Puti razvitiya architektury jushnogo Tukmenistana pory rabowladenija* (٣٩)

I feodalizma (Moscow: [n. pb.], 1985), p. 42.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٤٣.

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٩١.

يتوجب النظر إلى مرو ما قبل الإسلامية والقروسطية كمدينة تمثل النوع نفسه الموجود في هرات. وعليه، هناك سبب وجيه للكلام عن نوع مديني إيراني شرقي - آسيوي وسطي يمتد من الأطراف الجنوبية لصحراء لوت الإيرانية، شرق لوت وكوير، وصولاً إلى مدن آسيا الوسطى، حيث بخارى ومرو مثالان ممتازان لهما. السؤال الذي يجب طرحه الآن هو: هل بدأ مخطط المدن الداخلية مثل هرات وزرنج وبم من آسيا الوسطى أم من مكان آخر مختلف؟ تمثل هرات هذا النوع من المدينة في شكلها الأنقى، فهي جغرافياً تقع بين منطقتين يحتمل أن تكونا مصدر هذا النوع من المدينة: الهند إلى الجنوب الشرقي وآسيا الوسطى و/أو الصين إلى الشمال الشرقي.

لا يمكن استبعاد التأثير الهندي، نظراً إلى الصلات الثقافية القوية التي نشأت بين الهند وإيران منذ الأيام الغابرة وبلغت ذروتها في الحقبة الساسانية. وفي الواقع، فإن البحث في الأدب الهندي القديم، الغني بمقالاته حول العمارة والتمدن، له ما يبرره. نجد في المنصورة^(٤٢)، وهو كتيب أو دليل معماري يرجعه أغلبية الباحثين إلى القرن الأول الميلادي، المبادئ التالية في خصوص تخطيط المدن:

«المدينة الهندية المثالية هي المدينة الموجهة نحو الاتجاهات الأربعة للبوصلية. يحيط بكل مدينة سور وداخل هذا السور تبني قلعة. خارج السور، يمتد خندق. بوجه عام، هنالك أربع بوابات للمدينة، بوابة في وسط كل جهة من الجهات الأربع. داخل الأسوار وبجوارها، تحيط شوارع عريضة بالمدينة. إضافة إلى ذلك، هنالك شارعان عريضان يصلان البوابات المتقابلة للمدينة. يتقاطع هذان الشارعان في وسط المدينة حيث يقع معبد أو قاعة يتجمع فيها السكان. وبالتالي تقسم المدينة إلى أربعة أحياء وينقسم كل حي بدوره إلى مسارب. تمتد على طول الشارعين الرئيسيين اللذين يتقاطعان في وسط المدينة المنازل التي تتخذ طوابقها الأرضية كمتاجر. في حين يتألف القسم المتبقي من المدينة من أحياء سكنية»^(٤٣).

يتبع مخطط هرات مبادئ تخطيط المدن الموجود في هذا الكتاب في سبع من أصل مزاياه الثماني. وبالتالي هنالك احتمال أن تكون هرات قد صممت وفقاً لمخطط مصدره الهند، فقطع أفغانستان ووصل إلى آسيا الوسطى. غير أن هذا الأمر يبقى احتمالاً

Prasanna Kumar Acharya, *Architecture of Manasara* (London: Gyan Books, 1934). (٤٢)

D. N. Shulka, *Vastu-Sastra: Hindu Science of Architecture* (Ghandighar: Munshiram Manoharlal Publishers, 1938), pp. 247-248. (٤٣)

واحداً فقط. يمكن أيضاً أن يكون اتجاه التأثير عكس ذلك، أي من آسيا الوسطى و/أو الصين باتجاه إيران الشرقية.

يشرح كتاب ضخّم نُشر مؤخراً أصل المدينة الصينية وتطورها، كما يتناول الجذور الفلسفية والدينية لتخطيط المدينة الصينية. في المقدمة، يقول الكاتب: «بالتأكيد، ليس من المفاجئ أن نجد مفهوم العالم القديم للنظام الكوني منظماً كالنموذج الأصلي للمستوطنة، العالم المسكون من جانب مجتمعات مقيمة. في الصين، تم صوغ هذا الأمر في نموذج «المربع السحري» الذي يعرف أيضاً بالـ «مندالا» البوذية. و«المربع السحري» عبارة عن نظام مؤلف من الـ «جينغ تيان تشي» (أي النظام الحسن التنظيم للحقل المقدس ذي المربعات التسعة). استخدم «يو العظيم»، مؤسس أول سلالة «المربع السحري»، وبطل الثقافة الأسطورية، ذلك كإطار مثالي لتقسيم الصين إلى تسع مقاطعات. كذلك استخدمه دوق تشو كنموذج لتصميم المدينة المقدسة لسلالة تشو في نهاية الألفية الثانية الميلادية. ولغاية القرن العشرين تم استخدامه كتصميم لما يعرف بـ «الحقل المقدس» حيث يقوم الإمبراطور، كونه «المزارع الأول» لشعبه، بحراثة الأرض سنوياً في بداية كل ربيع...»^(٤٤).

يحاول الكاتب في كتابه الذي يزيد على ٤٠٠ صفحة، فرض مفهوم «المربع السحري» على المدن الصينية في مراحل مختلفة وأجزاء مختلفة من الصين. لا بد من الاعتراف أنني لم أستطع تتبع حججه اللفظية والبيانية. غير أن حقيقة واحدة أصبحت جلية، وهي أن مفهوم المدينة الإيرانية الشرقية ومفهوم المدينة الصينية لديهما فقط شيان مشتركان: التقسيم الهندسي لفضاء المدينة والخط الهندسي الخارجي للأسوار المدنية. لكن الميزة الأساسية للتنظيم الداخلي للمدن الإيرانية الشرقية، هي التقسيم الرباعي، الذي يتشكل من جرّاء تقاطع الشوارع الأساسية في الوسط، وهو ليس موجوداً في المدينة الصينية.

الاستنتاج

هنالك ثلاثة احتمالات لتفسير الشكل النمطي والتنظيم الداخلي للمدينة الإيرانية الشرقية:

Alfred Schnitz, *The Magic Square-Cities in Ancient China* (Stuttgart: Axel Menges, 1996), (٤٤) p. 9.

١ - تطور داخلي مستقل في المنطقة.

٢ - تأثير هندي.

٣ - تأثير صيني.

يمكن استبعاد التأثير الصيني بنسبة عالية. ومن الممكن، إلى حد ما، التفكير في التأثير الهندي. غير أنه ليس ممكناً أيضاً أن يكون هذا النوع من المدن قد تطور في خراسان وبلخ ومنطقة ما وراء النهر؟ وبالرغم من أنه لا يوجد إثبات قاطع على أنه تطور داخلي في المنطقة، فإنه ليس في الإمكان إقصاء ذلك أيضاً. إن تنظيم مدينة حديثة التأسيس وفقاً للمبادئ الهندسية واضح بنفسه. يصح هذا الأمر في مدن الشرق الأدنى القديم كما في مدن مصر القديمة. وكذلك طبق اليونانيون الأمر نفسه في مدنهم الحديثة التأسيس. وبالتالي لا يمكن استخدام الانتظام الهندسي كوسيلة لإظهار الاعتماد في التطور.

علينا إذاً النظر في العناصر التنظيمية بعيداً من الانتظام الهندسي. في حالتنا هذه، العناصر هي الشارعان الرئيسيان اللذان يتقاطعان في وسط المدينة واللذان تنتشر على جوانبهما المتاجر، والبوابات في وسط كل جهة من المدينة المربعة، والقلعة. وإلى الآن السؤال هو حول النظر إلى المدينة الإيرانية الشرقية: هل هي نتيجة تطور محلي أم أنها نمط مدينة تطور في ظل تأثيرات هندية؟ هذا الأمر لم يجد جواباً شافياً.

هنالك، على الأقل مشكلتان يجب حلها قبل إعطاء أي جواب. تكمن الأولى في التاريخ الدقيق للنص المأخوذ من المنصورة. إذا كان هذا النص قديماً أي يعود إلى ما قبل القرن الأول ق.م، تضعف بالتالي احتمالات التأثير القادم من إيران الشرقية/ وسط آسيا في تخطيط المدن الإيرانية، في حين تزداد احتمالات التأثير المعاكس. أما المشكلة الثانية فهي المعلومات الأركيولوجية الدقيقة حول مدينة هرات. إن تمكنت هذه المعلومات من إثبات أن مخطط هرات، وفق ما نستطيع تحليله وإعادة تركيبه في الوقت الحالي وكما كان مطلع القرون الوسطى، هو نفسه تقريباً مخطط هرات قبل حقبة الإسكندر الأكبر، أي مخطط مدينة آريا الأخمينية، التي هي هرات اليوم، فسيكون لدينا بالتالي دليل منطقي على تطور محلي مستقل.

مراجع إضافية

المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. لندن: مطبعة بريل، ١٩٠٦.

Gangler, Anette. Heinz Gaube and Attilio Petruccioli. *Bukhara: The Eastern Dome of Islam*. Stuttgart and London: Axel Menges, 2003.

Ghirshmann, Roman. *Bishabour*. Paris: [n. pb.], 1956-1971.

Göbl, Robert. *Sasanidische Numismatik*. Braunschweig: [n. pb.], 1968.

Le Strange, Guy. *The Lands of the Eastern Caliphate: Mesopotamia, Persia, and Central Asia, from the Moslem Conquest to the Time of Timur*. London: [n. pb.], 1905.

Pugachenkova, G. A. and L. I. Rempel. *Istoriya iskustu Uzbekistana*. Moscow: [n. pb.], 1965.

Walker, John A. *Catalogue of the Arab-Byzantine and Post reform Umayyad Coins*. London: British Museum. Dept. of Coins and Medals, 1965.

الفصل الثامن

المدن الهندية

مارك غابوريو^(٥)

يقدم هذا الفصل عرضاً عاماً للمدن الإسلامية الهندية. مصطلح الهند مأخوذ هنا بالمعنى التاريخي الكامل لشبه القارة الهندية أو جنوب آسيا ككل، التي قُسمت بعد عام ١٩٤٧ إلى سبع وحدات سياسية^(١)، ثلاث منها فقط موجودة في أطراف شبه القارة، يحكمها المسلمون الآن، هي الباكستان وبنغلادش والمالديف؛ أما الداخل، الهند والنيبال، فمحكوم من الأغلبية الساحقة للهندوس، في حين يحكم البوذيون سري لانكا وبوتان. نسبة المسلمين، المتزايدة، إلى إجمالي السكان في شبه القارة الهندية هي اليوم نحو ٢٩ في المئة. وبلغ مجمل عدد السكان المسلمين عام ٢٠٠١ نحو ٤٠٠ مليون شخص؛ وهم يمثلون ثلث عدد سكان كل من البلدان الثلاثة الكبرى: فهم ٩٧ في المئة من تعداد السكان في الباكستان، و٩٠ في المئة في بنغلادش و١٣ في المئة في الهند. وفي البلدان الصغيرة يمثل المسلمون ٧,٥ في المئة في سري لانكا، و٣ في المئة في النيبال وبوتان، ونحو ١٠٠ في المئة في المالديف. وإذا كان المسلمون حالياً هم سياسياً على الهامش في شبه القارة؛ فهم لم يكونوا كذلك في القرون الستة الماضية التي سبقت دخول البريطانيين، والتي كرس لها هذا الفصل أساساً.

(٥) مدير متقاعد في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS) - فرنسا.

(١) Annmeri Schimmel, *Islam in the Indian Subcontinent* (Leiden: E. J. Brill, 1980), and Marc Gaboricau, ed., *Islam et société en Asie du Sud*, Collection Purushartha; 9 (Paris: EHESS, 1986), pp. 7-8.

أولاً: السياق التاريخي: ستة قرون من السيطرة الإسلامية

إن تهميش الإسلام مرده هنا إلى الغزو البريطاني في نهاية القرن الثامن عشر، وأكثر من ذلك إلى تقسيم شبه القارة الهندية عام ١٩٤٧. لكن يجب أن نبقي في أذهاننا أن الأسرة الحاكمة المسلمة بقيت مهيمنة لستة قرون قبل ذلك الوقت. بعد الاختراقات الأولى للفاطحيين والتجار المسلمين على الساحل الغربي بين القرنين السابع والعاشر، اتخذت الأسرة الغزنوية التركية قاعدة لها في ما يعرف بأفغانستان اليوم، وبالتالي لتؤسس في القرنين الحادي عشر والثاني عشر معقلاً ثابتاً على التراب الهندي، في حوض «الهندوس» - الإقليم الذي تشغله باكستان اليوم - مع عاصمته الجنوبية في لاهور. وكانت الخطوة الحاسمة التالية إخضاع دلهي، في حوض نهر الغانج، في نهاية القرن الثاني عشر، التي فتحت الطريق لأخذ شبه القارة كلها على نحو سريع في قرن أو أكثر قليلاً، وكرست السيطرة الإسلامية التي مارستها الأسرتان الحاكمتان التركيتان والأفغانيات واستمرت حتى مجيء البريطانيين. خلال هذه المرحلة كانت الهند جزءاً مكماً لدار الإسلام؛ ويعيداً من أن تكون على هامش العالم المسلم، كان للهند وزن سكاني واقتصادي وثقافي، زاد بالتأكيد بعد تدمير بغداد على أيدي المغول.

هذا الفصل مكرس للقرون الستة من الهيمنة الإسلامية في الهند، إذ إن القليل جداً هو المعروف عن التاريخ الحضري للهند الإسلامية قبل تأسيس سلطنة دلهي مع بداية القرن الثالث عشر. يمكن تقسيم هذه الفترة الممزقة الطويلة إلى أربع مراحل: الحلم بإمبراطورية هندية مسلمة موحدة لم يتحقق أبداً باستثناء فترة قصيرة تحت حكم الإمبراطور المغولي أورانغزب في النصف الثاني من القرن السابع عشر؛ ومحاولات التوحيد السياسي - لسلطنة دلهي والإمبراطورية المغولية على التوالي - وكانت تعقب كل منها حقبة من التفسخ.

المحاولة الفاشلة الأولى لتوحيد الهند قامت بها سلطنة دلهي منذ بداية القرن الثالث عشر إلى النصف الثاني من القرن الرابع عشر^(٢) وأنتجت في أحسن أحوالها «مجموعة ممالك» من الهندوس والمسلمين على السواء^(٣) كان ولاؤهم للمركز متزعزعاً وغالباً ما كانوا يتمردون.

Marc Gaborieau, «L'Islamisation de l'Inde et l'Asie orientale,» in: Jean-Claude Garcin [et al.], (٢) eds., *Etats, Sociétés et cultures du monde musulman médiéval, X^e-XV^e siècles: Tome I: L'évolution politique et sociale* (Paris: Presses Universitaires de France, 1995), pp. 431-459, and Peter Jackson, *The Delhi Sultanate: A Political and Military History* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1999).

Jackson, *Ibid.*, p. 87.

(٣)

أنهت سلسلة ثورات كهذه منذ عام ١٣٣٨ هذا البناء السياسي وبدأت فترة ثانية من السلطنات الإقليمية المستقلة التي استمرت إلى منتصف القرن السادس عشر^(٤). انطلقت المبادرة من المقاطعة الشرقية في البنغال، في دلتا الغانج، التي أصبحت مستقلة عام ١٣٣٨. ثم أسس حاكم الدُكْن، على السهل الجنوبي، السلطنة البهمنية التي انقسمت في ما بعد إلى خمس ممالك مختلفة: بيدار، وبيرار، وأحمد نغر، وبيجابور، وغولكوندا؛ وإلى جنوب هاتين السلطنتين ازدهرت المملكة الهندوسية القوية فيجاياناغار (١٣٣٦ - ١٥٦٥). وعلى الساحل الغربي من مقاطعات الخاندش، غوجارات، أصبحت السند مستقلة أيضاً. أما الأرض الداخلية في الشمال الهندي فقد قسّمت بين مألوا غرب دلهي، وجُونبور في الشرق، وأخيراً دلهي نفسها التي كانت جزءاً من الأقاليم الإثني عشر في السلطنة حيث كانت الهند المسلمة مقسمة؛ وبعد الأسرة الحاكمة سيّد الزائلة، أصبحت تحت حكم الأسرة الحاكمة الأفغانية القوية، اللودية التي نقلت العاصمة إلى أغرا عام ١٥٠٥. ويمكن اعتبار نهب دلهي على يد تيمورلنك عام ١٣٩٨ مؤشراً لنهاية التفسخ في سلطنة دلهي. ومع ذلك يجب عدم اعتبار مرحلة السلطنات المستقلة مرحلة انحطاط أو تدهور، بل هي منطلق لزيادة المنافسة الاقتصادية والثقافية، التي أنتجت تطوراً لمراكز مدنية جديدة مع زيادة الإنتاج المتقن.

المحاولة الثانية الناجحة للتوحيد السياسي كانت على يد المغول في القرن السادس عشر^(٥). كان عليهم تأكيد أنفسهم بنجاح ضد الأسرتين الحاكميتين الأفغانييتين القويتين في الشمال (اللوديون والسوريون) والتعامل مع سيطرة البرتغاليين على البحر. لم يكن للممثلين الأولين لهاتين الأسرتين الحاكميتين لآسيا الوسطى - بأثر الذي أخضع في البدء دلهي عام ١٥٢٦ وابنه همايون الذي نفي لفترة طويلة إلى إيران على يد أسرة سور - إلا تأثير محدود في الهند. فقط مع الإمبراطور أكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥) بدأت محاولة البناء الإمبراطوري الجديد بجهد لبناء دولة مركزية وإخضاع شبه القارة لحكمه. ثم أكمل العمل ابنه جهانغير (١٦٠٥ - ١٦٢٧) وحفيده شاه جَهان (١٦٢٨ - ١٦٥٨)، باني تاج محلّ، وبلغ ذروته في الحملات الطويلة لأورانغزب (١٦٥٨ - ١٧٠٧) في الدُكْن التي جلبت تحت السلطة المغولية آخر السلطنات المتمتعة بالحكم الذاتي

Gaborieau, Ibid.

(٤)

Marc Gaborieau, «Villes de Toile et villes de pierre: Les capitals Mongoles etaient-elles des camps?» dans: Pierre Clement, Sophie Charpentier et Charles Goldblum, *Cités d'Asie*, cahiers de la recherche architectural, nos. 35-36 (Marseille: Editions Parentheses, 1995b), pp. 15-34, and John F. Richards, *The Mughal Empire: The New Cambridge History of India* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1993), p. 5.

في بيجابور وغولكوندا، لكنه فشل في ضم المناطق في جنوبها وكان عليه أن يواجه تصاعد سلطة الهندوس الماراثيين الذين ساهموا في سقوط الإمبراطورية. وتبقى درجة المركزية في الإمبراطورية المغولية موضوعاً قابلاً للنقاش: الرأي التقليدي - الذي جاءت به وأشاعته مدرسة أليغار - حول حكم استبدادي ضريبي مركزي^(٦) جرى نقده مؤخراً^(٧). يبقى أن الازدهار الاقتصادي وأنشطة البناء للأسرة الحاكمة ساهمت على نحو كبير في تشكيل المشهد الهندي المديني الذي يمكن رؤيته حتى اليوم.

بموت أورانغزب عام ١٧٠٧، بدأ تفسخ الإمبراطورية، وانهارت الإدارة المركزية في أقل من ثلاثة عقود، مفسحة في المجال لكيانات إقليمية متمتعة بالحكم الذاتي^(٨). إما كانت تُحكم من أسر الحكّام المسلمين السابقين للمقاطعات الذين نصبوا أنفسهم كـ «نواب» - ممثلين للإمبراطور؛ وتلك كانت الحالة في قلب الهند وشرقها مع إمارات عوض والبنغال وكرناتيك وحيدر أباد، تضاف إليها عدة ممالك أسسها مغامرون أفغان^(٩) موزعة في شمال الهند وغربه، مثل رامبور وفروخ أباد وتونك وبوبال؛ وإما كانت تُحكم أن تُحكم من غير المسلمين، وهذه في الغالب حالة الهند الغربية مع الماراثيون في الجنوب، والجاتيون في غرب دلهي، والسيخ في ما يعرف بالباكستان اليوم. خلال هذه العقود - المسماة الفترة «النوابية» - كانت الإمارات متمتعة بالحكم الذاتي السياسي، وتحافظ على الولاء الشكلي للإمبراطور المغولي الذي كان حكمه يتداعى في قصره «الحصن الأحمر» في دلهي. وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية، بأخذها أول تملك في الهند وبانتزاعها النفوذ من نواب «بيغال»، تتبع الإمبراطور نظرياً وظلت كذلك حتى عام ١٨٥٧ حين حلت الملكة فيكتوريا بدلاً من المغول إمبراطورة على الهند. هذا الطور الأخير من الهيمنة الإسلامية - مقارنة بالفترة المبكرة من السلطنات الإقليمية - لا يمكن اعتباره خطأ كطور انحطاط^(١٠)؛ إذ شهد تطوراً اقتصادياً مهماً؛ فقد حفزت المنافسة بين الكيانات السياسية الجديدة، في ظل إمكانيات مالية حقيقية، أنشطة البناء والإبداع الفني

(٦) Ishtiaq Husain Qurechi, *The Administration of the Mughal Empire* (Karachi: University of Karachi, 1966), and Irfan Habib, *The Agrarian System of Northern India, 1526-1707*, 2nd rev. ed. (New Delhi: Oxford University Press, 1999).

(٧) Muzaffar Alam and Sanjay Subrahmanyam: «L'Etat moghol et sa fiscalité», *Annals HSS*, no. 1 (1994), pp. 189-217, and *The Mughal State, 1526-1750* (New Delhi: Oxford University Press, 1998), pp. 12-16.

(٨) Muzaffar Alam, *The Crisis of the Mughal Empire in Mughal India: Awadh and the Punjab, 1707-1748* (New Delhi: Oxford University Press, 1986).

(٩) Jos J. L. Gommans, *The Rise of the Indo-Afghan Empire, 1710-1780* (Leiden: E. J. Brill, 1995).

Alam and Subrahmanyam, *The Mughal State, 1526-1750*, pp. 55-68.

(١٠)

التي استمرت لزمان طويل بعد ترسيخ البريطانيين هيمنتهم على شبه القارة الهندية بين عامي ١٧٦٥ و ١٨١٨.

كانت المرحلة البريطانية، بشكل ما، امتداداً للمرحلتين المغولية والنوابية؛ إذ استمرت عدة مدن بالإزدهار، كلاهور وكراتشي، المدينتين الكبيرتين في باكستان اليوم، ودكا^(١١)، العاصمة الحالية لبنغلادش. في الهند يمكن إعطاء مثال على عواصم أقاليم المغول مثل باتنا والله أباد، أو على المدينة النوابية مثل لكناو. لكن الحالة الأكثر إثارة للاهتمام هي دلهي، العاصمة الإسلامية منذ نهاية القرن الثاني عشر، التي اختيرت من جديد من جانب البريطانيين لتكون موقع العاصمة العملاقة الجديدة للإمبراطورية، ثم أنشئت نيودلهي عام ١٩٣١، على أنقاض بعض العواصم الإسلامية السبع المجاورة السابقة، ولتكون قريبة من عاصمة المغول في شاه جهان أباد، التي كانت آنئذ مطابقة في تصميمها لدلهي القديمة. أنشأ البريطانيون أربعة أنواع من المدن الجديدة على الأقل:

النوع الأول «عواصم الرئاسات الثلاث» (تقسيمات إدارية أصغر): بومباي ومدراس وكالكوتا، والأخيرة كانت العاصمة الإمبراطورية منذ عام ١٧٦٥ حتى عام ١٩٣١. وهذه كانت في الوقت نفسه مدناً إدارية وصناعية وموانئ تجارية فتطورت بسرعة إلى مدن عملاقة؛ وأصبحت أكبر تكتل سكاني في شبه القارة مع كراتشي (التي كانت عاصمة باكستان منذ عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٥٩) ودكا (العاصمة الحالية لبنغلادش). والفئة الثانية هي «نقاط التواصل»، مدن تجارية وصناعية أنشئت على تقاطع خطوط سكك الحديد الرئيسية، مثل كانبور في شمال الهند في وسط وادي الغانج. والثالثة «معسكرات»، مثال عليها حاميات تطورت لتصبح مدناً متكاملة، مثل رواليند التي ما زالت مقراً للمراكز الرئيسية للجيش الباكستاني وكانت عاصمة باكستان بين عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٩، قبل بناء العاصمة المجاورة إسلام أباد. والرابعة «مدن الاصطياف المشهورة» القائمة على مناطق جبلية منخفضة، حيث كان ضباط القيادة البريطانية يمضون أشهر الصيف الحارة: دارجيلينغ، نينيتال وأشهرهم سيملا^(١٢) في الهملايا.

لم يغير التقسيم والاستقلال عام ١٩٤٧ جوهرياً في النموذج المدني، عدا التطور المذهل للمدن الرئيسية في باكستان المستحدثة: كراتشي في الجهة الغربية (باكستانية

Sharifuddin Ahmad, ed., *Dhaka: Past, Present, Future* (Dhaka: Asiatic Society of Bangladesh, (١١) 1991).

O. H. K. Spate, *India and Pakistan: A General and Regional Geography*, 2nd ed. (London: (١٢) Methuen: E. p. Dutton, 1957), pp. 192-193.

تماماً الآن) ودكّا^(١٣) في الجهة الشرقية (عاصمة بنغلادش المستقلة منذ عام ١٩٧١). وكان طموح هاتين الدولتين بناء مدن رأسمالية جديدة على المثل الهندسي ذي الخطوط المستقيمة المنقاطعة: إسلام آباد، والقسم الإداري الجديد من دكّا. وبالرغم من أن مدناً كثيرة مثل دلهي^(١٤) وغيرها وصلت بعمرانها الضخم إلى حد مذهل، فإن أغلب السكان في شبه القارة كاملاً ظلوا ريفيين؛ حتى في أكثر بلدان شبه القارة مدينية، الهند، ارتفعت نسبة السكن المديني قياساً على عدد السكان الإجمالي منذ الاستقلال من ١٨ في المئة إلى ٣٠ في المئة لا أكثر.

ثانياً: اعتبارات عامة

خلال فترة الحكم الإسلامية التي انتهت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، كانت الهند تشهد كثافة سكانية، بلغت وفق التقدير الشائع بين ١٠٠ و ١٥٠ مليون نسمة في الفترة المغولية^(١٥). وبقي المسلمون أقلية، وكانوا يعرفون أنهم أقلية، لكنهم لم يتركوا أي إحصاءات؛ وقد مثلوا في أول تعداد سكاني، وفق الإحصاء الرسمي البريطاني بين عامي ١٨٧٢ و ١٨٧٤، أقل من ٤٠ في المئة من عدد السكان. ويظن اليوم أن نسبتهم لإجمالي عدد السكان في الفترة المغولية كان نحو ١٥ في المئة (مقابل ٢٩ في المئة حالياً).

وبالرغم من ذلك، فقد ترك المسلمون بصمات واضحة في الحياة المدينية. وبالإجمال، كانت نسبة المسلمين الحضريين أعلى مما كانت عليه لدى الهندوس، ٢٧ في المئة مقابل ١٨ في المئة، تبعاً للإحصاء الرسمي الهندي عام ١٩٦١؛ مع أن ذلك يجب أن لا يخفي حقيقة أن أغلبية المسلمين كانوا - دائماً ولفترة طويلة - من الريفيين. كان إنشاء سلطنة دلهي حافزاً للنمو المديني ولتطور كبير في عدد سكان المدن. وبالرغم من عدم توافر إحصاءات، فقد وضعت تقارير الرحالة الأجانب عدد سكان المدن المغولية بمئات الآلاف لكل منها؛ واستناداً إلى التقارير تلك وإلى وثائق الضرائب، يقدر مؤرخو جامعة أليغار الإسلامية أن نسبة السكان المدينيين (الهندوس والمسلمون على

Ahmad, Ibid.

(١٣)

Veronique Dupont, Emma Tarlo and Denis Vidal, eds., *Delhi: Urban Space and Human Destinies* (Delhi: Manohar, 2000).

Shireen Moosvi, *The Economy of the Mughal Empire c. 1595: A Statistical Study* (New Delhi: Oxford University Press, 1987), pp. 393-406. (١٥)

السواء) كانت نحو ١٥ في المئة^(١٦). هذه التخمينات هي الوحيدة المنطقية المتوافرة؛ وسوف تناقش مصداقيتها في الجزء الرابع من هذا الفصل.

في التصورات الشعبية، التي انعكست في اللغة العامية الحديثة مثل الهندية، ترتبط الظاهرة المدنية بالإسلام. فالمفردات التي تشير إلى القرى (غون)، وإلى التقسيمات الإدارية الدنيا (بارغانا) هي مفردات محلية هندية؛ بينما المراكز الرئيسية الإدارية التابعة (القصبه)، والمناطق التجارية (البازار) والمدن الكبرى (شاهار) أخذت كلها من العربية والفارسية. في القرن العشرين فقط، ومع جهود الهندوس لنزع إسلامية اللغة، استبدلت كلمات شائعة مثل «شاهار» بكلمات سنسكريتية تعليمية مثل «ناجار» لتعني مدينة. ومع ذلك، فهذا لا يعني أن الحضارة الهندية تجاهلت المدنية قبل قدوم الإسلام. على العكس، حين بلغ المسلمون الهند، كان هناك تقليد عمره آلاف السنين في بناء المدن - وعلى صلة ربما بحضارة بلاد ما بين النهرين: المدينة الراهنة باتنا في بهار هي في موقع باتاليوترا، عاصمة الإمبراطور البوذي أشوكا في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد وصفها الرحالة اليونانيون بالتالي: هناك نظرية تعليمية عن بناء المدن في التقاليد السنسكريتية، المبدأ الذي ما زال ممكناً ملاحظته ضمناً في مدن القرون الوسطى في النيبال وفي جنوب الهند. والسؤال الذي سيناقش في هذا الفصل سوف يكون: كيف أثرت الأنماط الهندوسية القائمة في تطوير الحياة المدنية في الحقبة الإسلامية؟

يستند معظم ما كتب عن المدن الإسلامية في الهند المسلمة إلى سجلات الرحالة الأجانب، أو إلى دراسات وأوصاف من الحقبة الاستعمارية؛ فالمصادر الهندو - فارسية الأولية كانت غير دقيقة^(١٧) عدا حالات معينة مثل دلهي، التي درست على نحو مستمر دائماً^(١٨) وبصورة أدق في خلال الفترة المغولية^(١٩) ومدينة الدكن في فيروز آباد^(٢٠).

(١٦) المصدر نفسه، ص ٣٠٥.

(١٧) Hamida Khatoon Naqvi: *Urban Centres and Industries in Upper India, 1556-1803* (London: Asia Publishing House, 1968), and *Urbanization and Urban Centres under the Great Moghals* (Simla: Indian Institute of Advanced Studies, 1972).

(١٨) Percival Spear, *Delhi: Its Monuments and History*, 3rd ed. (New Delhi: Oxford University Press, 1994).

(١٩) Stephen p. Blake, *Shajhanabad: The Sovereign City in Mughal India* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1991).

(٢٠) Richard M. Eaton and Georges Mitchel, *Furuzabad: Palace City of the Deccan* (Oxford: Oxford University Press, 1990).

حالة البحث في المدن الإسلامية الهندية ليست متقدمة جداً^(٢١)؛ فمع وجود أقدم^(٢٢) وأحدث^(٢٣) أعمال تركيبية في فن العمارة، لا يوجد غير مسوحات تمهيدية غير كافية عن الدراسات المدنية، ولم تكن مكرسة حصرياً لفترة السيطرة الإسلامية^(٢٤). كان العلماء مهتمين بالشجر أكثر من اهتمامهم بالغابة، أي، بالمعالم الجزئية لا بالمدين^(٢٥). ودراسات المدن قام بها، مهنيًا، مؤرخو الفنون والمؤرخون العامون؛ بينما تأخرت الجغرافيا المدنية لتبدأ^(٢٦)؛ ومؤخرًا فقط وجدت الأنثروبولوجيا المدنية طريقها^(٢٧). مدنٌ قليلة جداً هي التي بُحثت بعمق من الحقبة الإسلامية؛ أما مضاعفة الدراسات لدلهي عبر التاريخ فهي استثناء^(٢٨). وعليه، ليس هناك بين أيدينا مجموعة دراسات علمية رئيسية تكفي لتأمين أرضية للتعميمات؛ وبالتالي ففي وسعي فقط تقديم مسح للوضع الحالي للبحث، ملاحظات مؤقتة عن السمات الرئيسية للمدن الهندية الإسلامية، وجدول بالموضوعات الحالية للبحث كما للأسئلة التي يجري الجواب عنها أو أهملت. وفي غياب أعمال مركبة، يبقى مسرد المراجع موزعاً ولا يمكن الإسهاب في الاقتباس منها في هذا الفصل. سأذكر فقط مراجع الأعمال المرجعية الأساسية التي بحثت في الأمثلة التي اقتبستها.

Marc Gaborieau, «Les Rescherches sur les aires culturelles non-européennes en habitat et urbanisme: Importance pratique et théorique,» *Architecture et comportement*, vol. 5, no. 3 (1989), pp. 193-206.

John Marshall, «The Monuments of Muslim India,» dans: *The Cambridge History of India*, (٢٢) vol. 3 (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1922), and Percy Brown, *Indian Architecture: Islamic Period*, 5th rev. ed. (Bombay: Taraporevala, 1956).

Ebba Koch, *Mughal Architecture: An Outline of its History and Development, 1526-1858* (٢٣) (Munich: Prestel, 1991), and Catherine B. Asher, *Architecture of Mughal India*, New Cambridge History of India; 1: 4 (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1991).

Kenneth Ballhatchet and John Harrison, eds., *The City of South Asia: Pre-modern and Modern* (٢٤) (London: Gurzon Press, 1980), and Indu Banga, *The City in Indian History* (Delhi: Manohar, 1992).

Catherine B. Asher, «Mapping Hindu-Muslim Identities through the Architecture of Shahjahanabad and Jaipur,» in: D. Gilmartin and B. Lawrence, *Beyond Turk and Hindu: Rethinking religious identities in Islamicate South Asia* (Gainesville, FL: University Press of Florida, 2000), pp. 121.

Spate, *India and Pakistan: A General and Regional Geography*, pp. 191-196. (٢٦)

Nita Kumar, *The Artisans of Banaras: Popular Culture and Identity* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1988). (٢٧)

Robert E. Frykenberg, eds., *Delhi Through the Ages: Essays in Urban History, Culture and Society* (New Delhi: Oxford University Press, 1986); Blake, *Shahjahanabad: The Sovereign City in Mughal India*; Narayani Gupta, *Delhi between Two Empires, 1803-1931: Society, Government and Urban Growth* (Delhi: Oxford University Press, 1981); Spear, *Delhi: Its Monuments and History*, and Dupont, Tarlo and Vidal, eds., *Delhi: Urban Space and Human Destinies*. (٢٨)

ثالثاً: أنواع المدن

مع استحالة العثور على دراسة لرمزية مكان مؤسسة على نحو جيد، سوف أورد فقط قائمة من أربعة تصنيفات وصفية رئيسية استخدمت من جانب الباحثين لإلقاء ضوء سريع على أنواع المدن التي مررنا بها: عواصم، مدن إدارية أدنى، مدن تجارية، ومدن حج؛ مع الأخذ في الحسبان بأنه ليس التصنيف المفضل، فلكل مدينة عدة وظائف. وقد صنفناها بحسب أهم الوظائف التي حكمت تطور المدينة المعنية.

١ - المدن العواصم

أكثر المدن المعروفة والمدرسة في الهند المسلمة هي التي اعتمدها السلاطين والأباطرة والنواب لحكم رعاياهم. كثير منها يعود إلى فترة السلطنات التي كانت حقبة عظيمة في بناء المدن. وأكثر هذه المدن شهرة هي دلهي، التي كانت رمزاً ناجحاً لسلطنة موحدة، بعد غزو تيمورلنك، لسلاطين لودي والسيد المحليين، قبل أن يعاد إعمارها أخيراً كعاصمة مغولية في منتصف القرن السابع عشر كما سنرى الآن. وقد بنى كل من السلاطين الحاكمين مدينة جديدة إلى جانب سابقتها، هكذا تمثل دلهي، فوق بقايا مدينة هندوسية غابرة، سبع مدن إسلامية متجاورة، وكلها على أنقاض مهجورة عدا العاصمة المغولية شاه جهان آباد^(٢٩) (الرسم الرقم ٨ - ١).

تشير هذه السلسلة من المدن المهجورة السؤال - الذي سيبحث في الجزء التالي من الفصل - حول: إلى أي مدى كانت المدن الإسلامية في الهند مستوطنات دائمة وراسخة أو مجرد معسكرات مؤقتة؟ وبالمثل، فقد بنت السلطنة العظمى الأولى في دكا، للبهمنيين، ثلاث عواصم متعاقبة^(٣٠) في أماكن متعددة: غولبارغا، وفيروز آباد^(٣١) وبيدار^(٣٢).

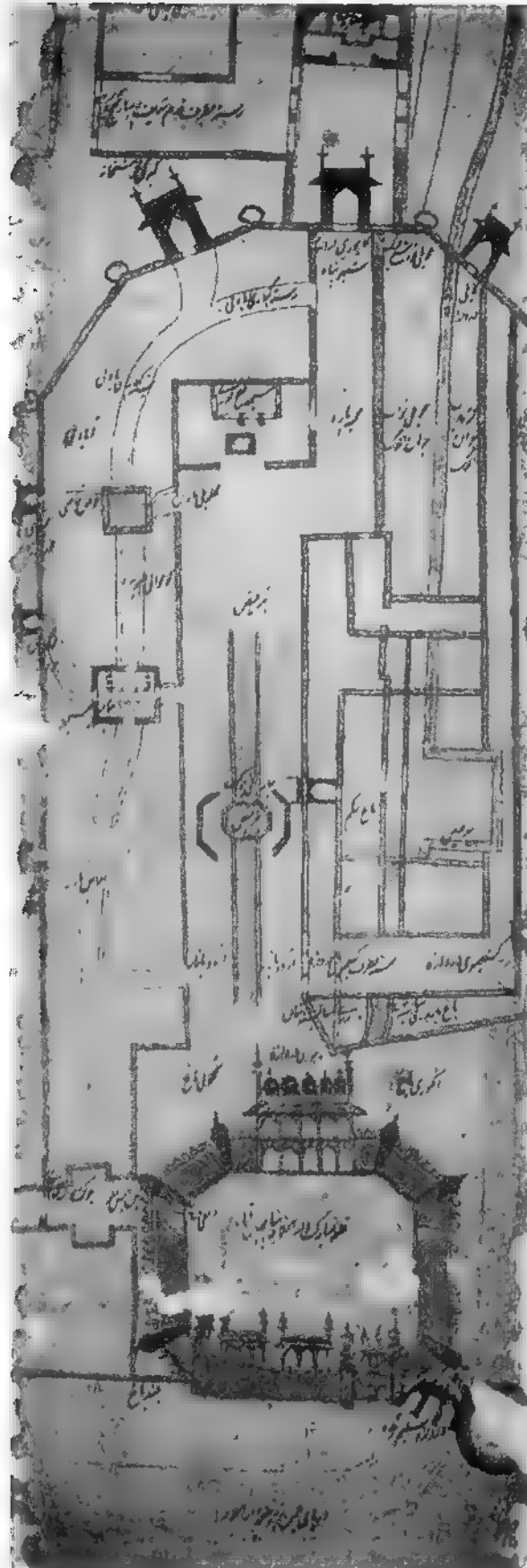
Y. D. Sharma, *Delhi and its Neighbourhood* (New Delhi: Archeological Survey of India, 1964); (٢٩)
Frykenberg, eds., *Delhi Through the Ages: Essays in Urban History, Culture and Society*, and Spear,
Delhi: Its Monuments and History.

George Michell, «Firuzbad: Palace City of the Bahmanis,» in: Anna Libera Dallapiccola and (٣٠)
Stephanie Zingel-Ave Lallemand, eds., *Islam and Indian Regions*, 2nd ed. (Stuttgart: Franz Steiner Verlag,
1993), pp. 185-191.

Eaton and Georges Mitchel, *Furuzabad: Palace City of the Deccan*. (٣١)

G. Yazdani, *Bidar: Its History and Monuments* (New Delhi: Oxford University Press, 1974). (٣٢)

الرسم الرقم (٨ - ١)
مدينة شاه جهان آباد



المصدر: Susan Gole, *Indian Maps and Plans from the Earliest Times to the Advent of European Surveys* (New Delhi: Manohar, 1989).

كان لكل من سلطنات الأقاليم الاثنتي عشرة التي نشأت من سلطنة دلهي ومن البهمنين عاصمتها الموروثة أو المبنية حديثاً. الأكثر شهرة بينها هي التالية: الغور، عاصمة البنغال في الشرق التي ترك الرحالة البرتغاليون وصفاً مفصلاً لها^(٣٣)؛ وأحمد آباد في الغرب، التي أنشئت كعاصمة للسلطنة الغوجارية، وهي أيضاً مركز تجاري مهم، وبقيت مزدهرة حتى يومنا هذا عبر الإمبراطورية المغولية والحقبة الاستعمارية^(٣٤)؛ وغولكوندا من الدكن، التي باتت اليوم أطلالاً بعدما كانت مشهورة بمجوهراتها، ووصفها بإسهاب الرحالة الأوروبيون، في حين عُرِفَت بيجابور بمتصوفيهـا^(٣٥)؛ وأغرا، التي أنشأتها الأسرة الحاكمة اللودية في دلهي في منتصف القرن الخامس عشر، وقد اشتهرت بعدما حوّلها الإمبراطور أكبر بعد قرن واحد إلى واحدة من عواصم الإمبراطورية المغولية^(٣٦) (الرسم الرقم (٨ - ٢)).

بنى المغول كذلك، الذين عاشوا في معسكرات^(٣٧)، عدة عواصم في أماكن متعددة لتتلاءم مع دوافعهم الإستراتيجية والسياسية أو الدينية. في النصف الثاني من القرن السادس عشر ترك الإمبراطور أكبر دلهي واختار أغرا التي توسعت وزخرفت كأول عاصمة له. ولأسباب أيديولوجية أي لتشريع سلالته من خلال الطريقة الشيشية الصوفية، بنى حول ضريح الولي سليم شيشتي مدينة فاتح بور سيكري التي لم تدم طويلاً^(٣٨).

وفي آخر عهده، وليستكمل حملته على كشمير وأفغانستان، انتقل أكبر إلى الشمال وبنى عاصمته الأخيرة - التي لا تزال محفوظة جيداً - وهي لاهور، على

Genevieve Bouchon and Filipe Thomaz, *Voyages dans le delta du Gangeet de l'rranouady*, (٣٣) 1521 (Paris: EHESS, Fondation Gulbenkian, 1988), and Richard M. Eaton, *The Rise of Islam and the Bengal Frontier, 1204-1760* (Berkley, CA: University of California Press, 1993).

K. L. Gillion, *Ahmedabad: A Study in Insian Urban History* (Berkley, CA: University of California Press, 1968), and Gillion, *Ahmedabad: A Study in Insian Urban History*, and Claude Markovits, «L'Adaptation d'un espace urbain traditionnel à des fonctions nouvelles: Le Cas d'Ahmedabad (Inde).» dans: Pierre Clément, Sophie Charpentier et Charles Goldblum, *Cites d'Asie*, cashiers de la recherché architectural, nos. 35-36 (Marseille: Editions Parentheses, 1995), pp. 47-56.

Richard M. Eaton, *Sufis of Bijapur, 1300-1700: Social Roles in Medieval India* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1978; Reprint New Delbi: Munshiram Manoharlal, 1996).

I. p. Gupta, *Agra: The Imperial Capital: Urban Glimpses of Mughal India* (Delhi: Discovery, 1986).

Gaborieau, «Villes de Toile et villes de pierre: Les Capitals Mongoles etaient-elles des camps?».

Koch, *Mughal Architecture: An Outline of its History and Development, 1526-1858*, pp. 56- (٣٨) 60, and Atilio Petruccioli, *Fathpur Sikri: La Citta del sole e delle acque* (Rome: Carucci Editore, 1988).

موقع مدينة غزنوية سابقة^(٣٩). وقد تُركت لشاه جهان آباد (١٦٢٨ - ١٦٥٨) التي شيدت منذ عام ١٦٣٨ كأكبر عاصمة مغولية، والتي ألهمت بعد ذلك تخطيط نيودلهي، غير أنها عادت فأصبحت دلهي القديمة بعدما بنى البريطانيون نيودلهي الجديدة خاصتهم^(٤٠).

الرسم الرقم (٨ - ٢)
مدينة أغرا



المصدر: المصدر نفسه.

M. A. Khan, *The Walled City of Lahore* (Lahore: [n. pb.], 1993).

(٣٩)

Blake, *Shajhanabad: The Sovereign City in Mughal India*; Eckart Ehlers and Thomas Krafft, (٤٠) eds., *Shajhanabad/Old Delhi: Tradition and Colonial Change* (Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 1993), and Koch, *Mughal Architecture: An Outline of its History and Development, 1526-1858*.

انظر أيضاً: الفصل الثالث والعشرون من هذا الكتاب.

كان نشوء دول إقليمية جديدة في القرن الثامن عشر فرصة أيضاً لتطوير أو خلق مدن ملكية جديدة وإدارية جديدة يمكن تسميتها عواصم «نوابية». بقيت من المدن تلك اثنتان مشهورتان خارج الهند: مدينة حيدر آباد في الدكن، وكانت يوماً ما صاحبة لغولكوندا، التي عاد فطورها «النظاميون»، وهي سلالة سنية حاكمة استطاعت البقاء كإمارة خلال الحقبة البريطانية^(٤١)؛ ولكناو، عاصمة لإمارة شيعية في وسط وادي الغانج، حيث سيطر التأثير الإيراني^(٤٢)؛ ومرشد آباد في البنغال، التي ازدهرت يوماً ما كمقر لآخر الأسر الحاكمة الشيعية، وهي اليوم طي النسيان؛ وأركوت، المركز الرئيسي لإمارة سنية في تاميل نادو، على الساحل الجنوبي الغربي للهند، ولا تزال في الذاكرة. ويبقى أكثرها شهرة اليوم عواصم الولايات الأفغانية الجديدة في غرب الهند مثل فروخ آباد^(٤٣) ورامبور وبوبال.

٢ - المدن الإدارية الأدنى

بين العاصمة والقرية كان يوجد في الحقبة المغولية سلسلة من المراكز الإدارية - كانت تبيتاً رسمياً لتقليد قديم - شملت ثلاثة مستويات^(٤٤): أولها، إدارات المقاطعات (سوبا)، وكانت صورة مصغرة عن الحكومة المركزية مع الحاكم (سوبا - دار) أو نائب الملك (نواب) كممثل للإمبراطور؛ ثانيها، في المستوى الوسيط، الإدارات الفرعية الوسطى (ساركار)، التي يمكن تسميتها المناطق، وهي جرى تنظيمها من «أكبر» على أساس محاولات سابقة؛ وثالثها، البارغانا في المستوى الأدنى، الذي عرف منذ بداية سلطنة دلهي، وهو شبه منطقة تتألف من مجموعة قرى تحت حكم المدينة الإدارية الأصغر وتسمى قسبة.

وبحسب علمي، لا يوجد دراسة متخصصة بمدن المستوى الأول. ويمكن اختيار دكّا، عاصمة بنغلادش اليوم، كمثال؛ وهي أنشئت على يد المغول كمركز لإدارة الإقليم في بداية القرن السابع عشر. في هذه المدينة الجديدة، إلى جانب سيطرة النبلاء، جذب المغول التجار والعلماء وطوروا فن عمارتهم وهو مختلف عن

(٤١) انظر الفصل الرابع والعشرون من هذا الكتاب.

(٤٢) Juan R. I. Cole, *Roots of North India Shi'ism in Iran and Iraq: Religion and State, 1722-1859* (Berkley, CA: University of California Press, 1989), and Violette Graff, ed., *Lucknow: Memories of a City* (Delhi: Oxford University Press, 1997).

Gommans, *The Rise of the Indo-Afghan Empire, 1710-1780*, pp. 128-131. (٤٣)

K. K. Trivedi, *Agra: Economic and Political Profile of a Mughal Suba, 1580-1707* (Pune: Ravish Publishers, 1998), chap. 1. (٤٤)

فن العمارة المحلي السابق للبنغال^(٤٥). أما عواصم الأقاليم، كباتنا مثلاً، فكانت مدناً أقدم عهداً.

ستجري هنا معالجة المستويين الأوسط والأدنى معاً، إذ لا وجود منفصلاً لإدارات الساركار الوسطى، والبارغانا الصغرى. ما جذب انتباه العلماء، على نحو فضولي، هو هذا المستوى الأخير، القصبة، التي ظلت في فترة المغول والبريطانيين بؤرة الحياة الإدارية والتجارية والثقافية في الريف؛ وكان المسلمون يمثلون أكثرية في هذه المدن الصغيرة، لكنهم استمروا أقلية في المناطق الريفية المحيطة^(٤٦).

اهتم المؤرخون أولاً بالوضع الإداري. على سبيل المثال، كانت بتالا في البنجاب، التي أنشئت عام ١٤٦٥، تضم تقريباً ما بين ١٥٠٠٠ و ١٨٠٠٠ نسمة في بداية القرن الثامن عشر؛ وكان لكل جماعة دينية منطقتها المعينة بوضوح مع أحياء منفصلة لكل طائفة أو مجموعة مهنية؛ وكانت هناك مراكز لمسؤولي الدخل الحكومي والقضاء (القاضي)، يعينون من قبل السلطات الإقليمية. أغنى الإنتاج الحرفي والتجارة المدينة، التي كانت أيضاً المقر المفضل للعلماء والمتصوفة المسلمين^(٤٧). وأضأت دراسات عن مدن أخرى على الأهمية الاقتصادية لهذه المدن الصغيرة^(٤٨)، وعلى أهميتها الدينية والثقافية التي تزايدت منذ النصف الثاني للقرن السابع عشر حين أصبحت المنع للقضاء والعلماء تقليداً متاورثاً^(٤٩).

تواصل تاريخ القصبات في شمال الهند منذ القرن التاسع عشر وصولاً إلى نهاية القرن العشرين^(٥٠). وقد أنجز فريق هندي - فرنسي يترأسه جيرار فوسمان من الكوليج دو فرانس ما يمكن اعتباره الدراسة الأكثر عمقاً للمدينة الهندية المسلمة، وهي تضمنت

Abdul Karim, *Dacca: The Mughal Capital* (Dacca: Asiatic Society of Pakistan, 1964), and (٤٥) Eaton, *The Rise of Islam and the Bengal Frontier, 1204-1760*, pp. 149-167.

Richards, *The Mughal Empire: The New Cambridge History of India*, pp. 194-196. (٤٦)

J. S. Grewal, *In the By-lanes of History: Some Persian Documents from a Persian Town* (٤٧) (Simla: Indian Institute of Advanced Studies, 1975).

Christopher A. Bayly: «The Small Town and Islamic Gentry in North India: The Case of (٤٨) Kara,» in: *The City of South Asia: Premodern and Modern*, ed. K. Ballhatchet and J. Harrison (London: Gurzon Press, 1980) pp. 20-48., and *Rulers, Townsmen and Bazaars: North India in the Age of British Expansion, 1780-1870* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1983).

Alam, *The Crisis of the Mughal Empire in Mughal India: Awadh and the Punjab, 1707-1748*, (٤٩) pp. 110-117.

Gyanendra Pandey, «Encounters and Calmities: The History of a North Indian Qasba in the (٥٠) 19th Century,» in: Ranjit Guba, ed., *Subaltern Studies III* (Delhi: Oxford University Press, 1984).

خرائط مفصلة على الكمبيوتر^(٥١). القصبة تلك هي تشاندري التي أنشئت في عصر سلطنة دلهي، وكانت لفترة ما العاصمة الثانوية للسلطنة الإقليمية في مألوا. كانت خلال الحقبة المغولية مركز إدارة (ساركار)؛ لكن أهميتها ضعفت خلال الحقبة البريطانية، فتدنى عدد سكانها عام ١٩٠١ إلى ٤٠٠٠ نسمة. ثم انتعشت مرة أخرى بعد الاستقلال، فوصل عدد سكانها في نهاية القرن العشرين إلى نحو من ٢٠٠٠٠ نسمة. ارتكز ازدهارها على الحياكة اليدوية لحريير الموسلين (الساري) الذي كان يعتبر الأجود في الهند، حتى أفضل من بينارسي.

تغطي هذه الدراسة التي لم يكتمل نشرها إلى اليوم، تاريخ هذه المدينة واقتصادها وأنثروبولوجيتها الاجتماعية. ثلث سكانها من المسلمين، وهي تضم أكثرية من ثلثين جلهم من الحرفيين، وبخاصة النساجون، وثلثاً من النخبة. نحو ١٢ في المئة من عدد السكان هم من التجار الذين يتمون إلى الديانة الجاينية (هي طائفة زاهدة انفصلت عن الهندوسية) وهي تحتكر تقريباً تجارة المدينة، وأهمها التمويل والإتجار بالساري الحرير. باقي السكان هندوس يتمون إلى ٣٨ طائفة مختلفة، أهمها اثنتان: البراهمانيون (١١ في المئة)، ويعملون كهنة، وأسائذة وموظفي الياقات البيض أو تجاراً؛ و«المنبودون»، وهم النساجون. الأهمية الخاصة التي تحملها هذه الدراسة هي الخرائط المفصلة على الكمبيوتر للفتات الاجتماعية، التي تقارن بوضوح، كما سنرى لاحقاً، بين موقع كل جماعة دينية وكل طائفة أو مجموعة طوائف داخل كل جماعة؛ وللمسلمين أيضاً طوائفهم^(٥٢) في مناطق محددة واضحة.

٣ - مدن وموانئ تجارية

لا يوجد نمط واحد للمدينة التجارية في الهند. كثير من المدن الداخلية التي كان لها دور سياسي عرفت أيضاً بأهميتها التجارية: مُلتان في الباكستان المتصلة بالتجارة الأفغانية؛ وياتنا في شمال الهند في بداية شبكة طريق الهملايا؛ وبرهانپور التي توسطت التجارة بين شمال الهند والدُّكَّن. من دون أن ننسى أن مدن الحج مثل بينارسي كان لها أهمية كبرى أيضاً^(٥٣).

K. L. Sharma, *Chanderi, 1990-1995* (Paris: De Boccard, 1999), and Gerard Fussman [et al.], (٥١) *Naissance et Declin d'une qasba: Chanderi du Xème au XVIIIème siècle*, 3 vols. (Paris: De Boccard, 2003).

Gaborieau, «L'islamsation de l'indeet l'Asie orientale».

(٥٢)

Pierre-Daniel Coute and Jean-Michel Léger, eds., *Bénarès: Un Voyage d'architecture* (Paris: (٥٣) Editions Créaphis, 1989).

اختلفت أنماط المدن الساحلية بين منطقة وأخرى. فاشتهرت منذ أيام الرحالة المسلمين الأوائل موانئ المقاطعة الغربية لغوجارات؛ أولاً كامبيه (كانبايا) حيث كانت مستوطنة من التجار المسلمين تحت رعاية الحكام الهندوس، قبل أن يجري إخضاع المدينة وإدارتها على يد المسلمين في نهاية القرن الثالث عشر؛ وبسبب الطمي (الذي يحدثه فيضان النهر)، أبدلت تدريجاً بسورات التي أصبحت في القرنين السادس عشر والسابع عشر المرفأً الإسلامي الأهم على الساحل الشرقي، حيث يسافر الحجاج إلى مكة. وتقدّم موانئ الجنوب الشرقي لكيرالا، حيث المسلمون كانوا دائماً خاضعين للحكام الهندوس، نمطاً آخر، إذ كانت تسكن جماعة التجار المسلمين في جزء منفصل من المدينة، وكانت تمتلك نوعاً من الاحتكار للتجارة البحرية، كما الحال على سبيل المثال في كالكوتا^(٥٤) وكنانور.

طور المسلمون مدنهم التجارية في تاميل نادو على طول ساحل كورمانديل في الجنوب الشرقي للهند^(٥٥)، وأشهر مدنهم كانت كايالباتينام. كانت هذه المدن في معظمها إسلامية حصراً، وكانت الأموال تغدق عليها من قبل تجار ماريكار الأثرياء؛ كان لكل حيّ جامع خاص به وشبكة من الطرقات الضيقة التي تدير فيها النساء بيوتهن. في شرق البنغال، وبسبب صعوبة إيجاد مياه عميقة في دلتا الغانج - براهماپوترا المتحركة دوماً، استُحدث مرفأً جديد في عرض خليج البنغال على ساحل المقاطعة البورمية في أراكان، وذلك حين أخذ المغول عام ١٦٦٦ شيتاغونغ من الملوك الأراكانيين^(٥٦)، وحولوها إلى أهم مرفأً تجاري استراتيجي في المنطقة، وبقيت كذلك خلال الحكم البريطاني ثم بعد استقلال بنغلادش.

٤ - المدن الدينية والعلمية

تمثل المدن الدينية الوجه الأخير المتبقي لتقسيم المدن؛ إذ لا يوجد مدينة إسلامية كبرى معروفة كمدينة حج. هناك مع ذلك، بعض المدن لها حجم متواضع وتتميز بأضرحة الأولياء المشاهير التي تجذب جمهور الحجاج إليها. إثنان منها مشهورتان بوجه خاص. الأقدم بينهما عُرفت منذ نهاية القرن الثالث عشر، باحريش، حيث دفن غازي ميان، الذي

Geneviève Bouchon, «Un Microsime: Calicut au 16^{ème} Siècle», dans: Denis Lombard and (٥٤) Jean Aubin, eds., *Marchands et hommes d'affaires asiatiques dans L'Océan Indien et la Mer de Chine, 13-20 siècles* (Paris: EHESS, 1988), pp. 49-57.

Susan Bayly, *Saints, Goddesses and Kings: Muslims and Christians in South Indian Society, 1700-1900* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1989), pp. 77-86.

Eaton, *The Rise of Islam and the Bengal Frontier, 1204-1760*, pp. 234-238.

(٥٦)

توفي في أثناء الجهاد، بحسب الرواية، ضد الهندوس في حرب مقدسة؛ هو مبجل من قبل مئات الآلاف من الحجاج، وتجري زيارة ضريحه لاستسقاء هطول الأمطار من أجل الزراعة، أو لشفاء الأمراض مثل العقم والجدام^(٥٧). خلال حكم الإمبراطور المغولي أكبر في النصف الثاني من القرن السادس عشر، أنشئ ضريح معين الدين شيشتي مُدخل الطريقة الشيشتية الصوفية إلى الهند في أجمير، ويؤم ضريحه الحجاج المسلمون من كل أرجاء الهند. يجب أن لا ننفل هنا أن عاصمة المغول المؤقتة فاتح بور سيكري بنيت على يد الإمبراطور أكبر حول ضريح سليم شيشتي الذي شفع للإمبراطور بولد خلد سلالة. وهناك أماكن أخرى اشتهرت لأهميتها الاقتصادية والسياسية هي أيضاً مدن حج مهمة، كحالة دلهي الهندية التي تستضيف مركز أكبر ولي شيشتي، نظام الدين أولياء (ت ١٣٢٥)، وغولبارغا، في الدكن، مع المقام المشهور غيسو دراز شيشتي (ت ١٤٢٢) في ملتان، الباكستان، مقر الطريقة السهروردية، والغور وياندوا، في البنغال^(٥٨). والمدن الهندوسية المقدسة مهمة كذلك للمسلمين على السواء؛ مثل بينارسي، حيث يوجد حي كامل من المسلمين (نساجو الساري الحرير خصوصاً). كانت هذه المدينة موضوع الدراسة الفردية الوحيدة للأنثروبولوجيا المدنية التي كرّست للسكان للمسلمين^(٥٩).

نوع آخر من المدن الدينية هي تلك التي بنيت لطوائف دينية معينة لعزل أعضائهم عن باقي أفراد الجماعة الإسلامية، ف«المدن الطوباوية» بتها الطائفة الألفية المهدوية بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكانت من الأمثلة الأولى المعروفة؛ لكنها دمرت بسبب الاضطهاد^(٦٠). وكان لطائفة الأحمدية مغامرات حديثة مماثلة في القرن العشرين؛ كانت أولى مدنها قاضيان، الموجودة في الهند، أول مركز رئيسي للطائفة الذي ما لبث أن هُجر منذ التقسيم^(٦١)؛ وبني مركز رئيسي جديد في الربوة في الباكستان قرب لاهور. وعلى نحو مماثل أسس الحزب الديني - السياسي للمودودي، مدينته الخاصة بجماعته الخاصة في بائانكوت (اليوم في الهند) أولاً ثم نقلها بعد التقسيم إلى مقربة من لاهور.

Marc Gaboricau, «Les Saints, les caux et les récoltes en Inde,» dans: Muhammad Ali Amir- (٥٧) Moezzi, ed., *Lieux d'Islam: Cultes et cultures de l'Afrique à Jawa* (Paris: Editions Autrement, 1996), pp. 239-254.

Eaton, *Ibid.*, pp. 176-177. (٥٨)

Kumar, *The Artisans of Banaras: Popular Culture and Identity*, and Coute and Légère, eds., (٥٩) *Banaras: Un Voyage d'architecture*.

Derryl Maclean, «La Sociology de l'engagement Politique: Le Mahdawīya indien et l'état,» (٦٠) dans: Mercedes Garcia-Arenal, ed., *Mahdajisme et millénarisme en Islam*, *Revue des Monde Muslumun et de la Mediterranee*, nos. 91-94 (Edisud: Aix-en-Provence, 2000), pp. 241.

Spatte, *India and Pakistan: A General and Regional Geography*, pp. 189-192. (٦١)

بدءاً من النصف الثاني للقرن التاسع عشر، حدث تطور آخر في أثناء الحقبة الاستعمارية وهو نمو المدن العلمية التي انتشرت حول الجامعات الإسلامية: وأكثرها روعة ديوبند للسلفيين، وألغار للحداثيين؛ وفي الأخيرة كان ازدهار الجامعة السبب المباشر لزيادة عدد السكان المسلمين الذي يبلغ اليوم نصف عدد السكان وهو ٤٠٠٠٠٠ نسمة، وهي نسبة غير اعتيادية في الهند. وبالمثل، أدى تأسيس الجامعة الإسلامية الوطنية في ضاحية دلهي، أو كلا، إلى نمو مدينة غدت إجمالاً إسلامية.

رابعاً: موضوعات للبحث

بعد هذا العرض، سأحلل الموضوعات الأساسية التي ظهرت في المنشورات المعنية بالمدن الإسلامية في الهند، مشيراً إلى الأسئلة المعلقة وتدارك الهفوات لافتتاح آفاق جديدة للبحث.

١ - مدن أم معسكرات؟

دعنا أولاً تناقش الفكرة الملتبسة التي تنسب صفة الزوال السريع للمدن الإسلامية في الهند. فاستناداً إلى الملاحظات التي تركها الرحالة الأجانب، التي قارنت العواصم المغولية بالمخيمات العسكرية، ظهرت تعميمات غير عادلة حيال الطابع المؤقت للمدن التي بناها المسلمون. صحيح أن عواصم المغول تحمل في تصميمها شيئاً من المخيمات العسكرية^(١٢)؛ كذلك لا يمكن إنكار أنه حين كان الإمبراطور يغادر، كان جزء من النبلاء والتابعين له يهجرون بدورهم، الأمر الذي كان يسفر عن تدني كبير في عدد السكان. لكن التغير في عدد السكان لا يعني بالضرورة الهجرة من المدينة. وعملياً، قليلة هي المدن التي هجرت بشكل كامل: في الدكن، فقط فيروز أباد وبيدار أخليتاً كلياً من السكان، لكن ذلك كان نتيجة تمزق السلطنة البهمنية وصعود عواصم للدول الصغيرة الجديدة، مثل غولكوندا وبيجاپور، اللتين انبثقتا عنها. غولكوندا - وهي حصن رائع على تلة ولكن تنقصه المياه - أخليت بالتأكيد لمصلحة حيدر أباد فقط بعد انتصار المغول عام ١٧٨٧ حين فقدت ميزتها الاستراتيجية؛ أما في الشمال، ففي منطقة البنغال فقط، هجرت الغور وباندوا لمصلحة دكا المغولية ومرشد أباد ما بعد المغولية. ومن بين العواصم المغولية الأربع، وحدها فاتح بور سيكري التي هجرت لأن المدينة لم تكن

Gaborieau, «Villes de Toile et villes de pierre: Les Capitales Mongoles etaient-elles des (١٢) camps?».

نموذجية من عدة جوانب: كانت طريقها بعيدة، من دون مياه كافية، بينما كانت عواصم المغول الأخرى على ضفاف الأنهار. وكانت حماقة من الإمبراطور أكبر بناء مدينة للحج في وقت أزمة الصوفية، ومن دون أن تستطيع تحقيق أية وظيفة إدارية أو تجارية حقيقية، وغدت كالصدفة الفارغة بعدما هجرها الإمبراطور. على العكس من ذلك، شيدت أغرا ودلهي ولاهور على مواقع لمدن سابقة في السلطنة، واستمرت مزدهرة إلى يومنا هذا. تحوي دلهي سبع مدن متجاورة، ست منها مهجورة الآن. لكن الموقع لم يُهجر أبداً، فكل سلالة كانت تبني مدينة جديدة إلى جانب السابقة، وحتى عندما توقفت عن كونها العاصمة، وتجاوزتها أغرا ولاهور في معظم القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، فهي لم تتوقف عن أن تكون مراكز مهمة للحياة الاقتصادية والدينية والثقافية. وأخيراً فإن معظم المدن الإسلامية في الهند كانت دائمة: وهي حال المدن الموروثة مثل ملتان ولاهور وياتنا، أو حال المدن التي أنشئت حديثاً مثل أحمد آباد وأجمير ودكا.

٢ - معدل المدينة

السؤال الأساسي المطروح من مؤرخي جامعة أليغار - ذاهباً نحو الماضي حول إحصاءات المستعمرين - هو معدل المدينة: تقدر مدرسة المؤرخين في جامعة أليغار الإسلامية، وبالاكتفاء على تقارير الرحالة الغربيين والوثائق المالية، نسبة السكان المدينيين (الهندوس والمسلمون على السواء) في حدود ١٥ في المئة^(٦٣). هذه التخمينات هي الوحيدة المعقولة المتوافرة، وهي ربما تكون مبالغاً فيها كذلك لأسباب أيديولوجية^(٦٤). فجامعة أليغار تذهب على نحو بديهي إلى أن الفتح الإسلامي سرّع من معدل المدينة، فقد غدا للمدن دور اقتصادي يقارن (أو حتى أكبر) بالمدن الأوروبية المعاصرة، وأن الحقبة البريطانية كانت بامتياز زمن نزع المدينة. وفي الحقيقة لا يوجد أساس ثابت لتلك التآرجحات بين ارتفاع وهبوط. وإذا أخذنا في الحسبان الإحصاءات التي سجلت نمواً في عدد السكان المدينيين من ٩,٣ في المئة عام ١٨٨١ إلى ١٦,١ في المئة عام ١٩٥١، يغدو أكثر عقلانية التقدير أن عدد السكان في المدن خلال الفترة المغولية لم يتجاوز ١٠ في المئة.

Moosvi, *The Economy of the Mughal Empire c. 1595: A Statistical Study*, p. 305, and Habib, (٦٣) *The Agrarian System of Northern India, 1526- 1707*, pp. 83-85.

M. Moufakharul Islam, «Urbanisation and Urban Centers in Mughal India: Some General Comments,» in: Sharif Uddine Ahmad, ed., *Dhaka: Past, Present, Future* (Dhaka: Asiatic Society of Banglaesh, 1991), pp. 584-594.

موضوع شائع آخر للتاريخ السياسي والإداري، هو تاريخ الحكومة المدنية. وقد شدد المؤرخون الهنود على حقيقة أن الهند المسلمة تقارن بشكل سيئ بأوروبا من حيث منح المدن حرياتها باكراً. على العكس، لم تتمتع المدن الهندية باستقلال سياسي؛ فقد كانت مباشرة تحت حكم سلطة الملك، الذي يتمثل محلياً عبر نوع من ضابط الشرطة ويسمى بالهندية كوتوال، وهو له قوة الشرطي وصلاحياته، ويفرض القانون والنظام والأخلاقيات العامة، ويضبط البغاء ويبيع المسكرات، وينفذ أوامر الملك ويتجسس لمصلحته، ويطبق أوامر القاضي، ويشرف على السجون، وينفذ حكم الإعدام والتشهير بالملحدين^(٦٥). كان يجمع بطريقة ما مهمات الشرطي إلى المحتسب التقليدي. وفي عام ١٦٥٩ فقط أحياناً أورانغزب المكتب الرسمي، ولكن طبقاً لتقارير الرحالة فقد استمرت القوة الحقيقية في المدن بيد الكوتوال.

كانت المدينة مقسمة تقليدياً إلى أحياء منعزلة، أو محلات، تسكن كل محلة منها جماعة دينية، إثنية أو طائفية معينة. وللوصول إلى أفراد من هذه المجموعات، كان على الكوتوال أن يذهب من خلال رأس هذه العائلة في كل حي^(٦٦). ولا يُعرف كيف كان يتم هذا التوسط.

٤ - التصميم والتخطيط

عدا قلة من المدن المخططة كلياً، مثل فيروز آباد في الدكن وفاتح بور سيكري وشاه جهان آباد في الشمال، نمت المدن في العادة ببطء، كحالة أغرا ولاهور. لذلك من الصعب إيجاد نموذج متماسك. تضاف هذه الصعوبة إلى صور ذهنية لا تنطبق على الواقع؛ فتمثيل لاهور على خريطة طرق كمدينة متناسقة مع حصن في الوسط يمكن أن يتطابق مع نموذج مثالي لمخيم عسكري، لكنه بعيد جداً من واقع مدينة مغولية يقع الحصن فيها عند الزاوية الشمالية للسور والمجرى السابق للنهر^(٦٧). والموقع الجانبي

Jadunath Sarkar, *Mughal Administration* (Calcutta: M. C. Sarkar, 1920), pp. 93-97; Qurechi, (٦٥) *The Administration of the Mughal Empire*, pp. 203-206; M. p. Singh, *Town, Market, Mint and Port in the Mughal Empire* (Delhi: Adam Publishers, 1985); C. E. Bosworth, «Kotwal,» in: *Encyclopedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: E. J. Brill, 1986), vol. 5, pp. 279-280; Gaborieau, «L'Islamisation de l'Inde et l'Asie orientale,» pp. 31-32, and Trivedi, *Agra: Economic and Political Profile of a Mughal Suba, 1580-1707*, pp. 187-188.

Qurechi, *The Administration of the Mughal Empire*, pp. 205-206.

(٦٦)

Naqvi, *Urban Centres and Industries in Upper India, 1556-1803*, and Gaborieau, (٦٧) «L'Islamisation de l'Inde et l'Asie orientale,» pp. 26 and 29.

هذا للحصن موجود ليس فقط في شاه جهان آباد وأغرا، بل وفي مدن السلطنة مثل أحمد آباد^(٦٨). بالنسبة إلى الدُّكْن، تحولت فيروز آباد عن انحراف كهذا باتجاه النهر^(٦٩).

ويبقى أنه من المبكر التعميم في موضوع تخطيط المدن الإسلامية في الهند. مع ذلك، حاول أتيليو بيتروشيولي، في مقال جريء له بعنوان «إعلان كوادراتوم...» وضع بعض المعالم المشتركة لمدن الدُّكْن الإسلامية، وبخاصة التقاطعات العمودية للشوارع الرئيسية، مشيراً إلى تقسيم مثالي للمدينة إلى أحياء، وعلى شاكلة الصور المستوحاة من الجنة^(٧٠). ويساعد كثيراً بحث سوزان غول حول الخرائط والمخططات الهندية على فهم تصميم المدن^(٧١).

٥ - النسيج المدني والهرمية الاجتماعية والعزل المكاني

يرتبط تخطيط المدن بالسؤال المتعلق بتوزيع المجموعات الاجتماعية فيها. فبسبب زوال أكثرية المباني، ولعدم دقة الوصف في المصادر المحلية، بات من الصعب إعادة تركيب النسيج المدني من جديد، وبخاصة في ما يعني الطبقات الدنيا؛ فمن المستحيل مثلاً معرفة كيف عاش الحرفيون وعملوا - حتى في الأزمنة غير البعيدة جداً من الحقبة المغولية. ولا تستطيع الأنثروبولوجيا التاريخية أكثر من الاستقراء عبر التجربة ومن المراقبة الراهنة ووثائق الوصف الاستعماري.

يجب ملاحظة ثلاث سمات: أولاً، النسيج المدني الأساسي كان أقل من بيوت متراصة متجانسة وأكثر من قصور فخمة للنبلاء الأثرياء (الرسم الرقم (٨ - ٣))، التي هي نسخة مصغرة عن قصر الإمبراطور، ولكل منها جيش من التابعين والخدم والحرفيين^(٧٢)؛ بينما عاش الناس العاديون وبمقدار ما استطاعوا في بيوت من طين بين قصور النبلاء^(٧٣)، وفي شهادة الرحالة الفرنسي فرنسوا برنيه في القرن السابع عشر،

Markovits, «L'Adaptation d'un espace urbain traditionnel a des fonctions nouvelles: Le Cas d'A Ahmedabad (Inde)».

Michell, «Firuzbad: Palace City of the Bahmanis».

Attilio Petruccioli, «Ad Quadratum»: Notes on Deccani Town Planning, in: Anna Libera Dallapiccola and Stephanie Zingel-Avé Lallement, eds., *Islam and Indian Regions*, 2 vols. (Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 1993), pp. 193-202.

Cole, *Roots of North India Shi'ism in Iran and Iraq: Religion and State, 1722-1859*.

Blake, *Shahjahanabad: The Sovereign City in Mughal India*.

Gaborieau, «Villes de Toile et villes de pierre: Les capitales Mongoles etaient-elles des camps?» pp. 25-26.

كانت شاه جهان آباد أشبه بـ «مجموعة قرى متصلة معاً» (...) كمخيم حربي، أحسن ترتيباً وأكثر راحة منه في الريف»^(٧٤). إلى ذلك، كان هناك بازارات، ويحتمل بقوة أنها ضمت مناطق للحرفيين المتسخة ثيابهم، إذ وُضع في العهد المغولي قانون أساسي إلزامي فرض على الكوتوال أن يوزع «في أحياء متفصلة في المدن التجارات المحترقة التي لها روائح كريهة، على سبيل المثال اللحامون وغاسلو الموتى والكناسون»^(٧٥).

الرسم الرقم (٨ - ٣) الديوان الخاص في الحصن الأحمر، دلهي



ثانياً، كان هناك تراتبية واضحة مع مدينة أرقى إلى جانب القصر الملكي حيث بيوت النبلاء، والطبقة العليا، ومدينة أدنى حيث تتجمع الطبقات الدنيا منفية في الجزء المقابل من المدينة. وقد ذُكر ذلك في المصادر؛ وجرت محاولة للتوسع في هذا السؤال عبر خريطة لشاه جهان آباد من النصف الأول من القرن التاسع عشر^(٧٦).

Francois Bernier, *Voyage dans les états du grand Mogol*, edited and introduced by France (٧٤) Bhattacharya (Paris: Fayard, 1981), pp. 184-185.

Bosworth, «Kotwal,» in: *Encyclopedia of Islam*, p. 280, and Qurechi, *The Administration of* (٧٥) *the Mughal Empire*, p. 206.

Jamal Malik, «Islamic Institutions and Infrastructures in Shajhanabad,» in: Eckart Ehlers and (٧٦) Thomas Kraft, eds., *Shajhanabad/Old Delhi: Tradition and Colonial Change* (Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 1993), pp. 43-64.

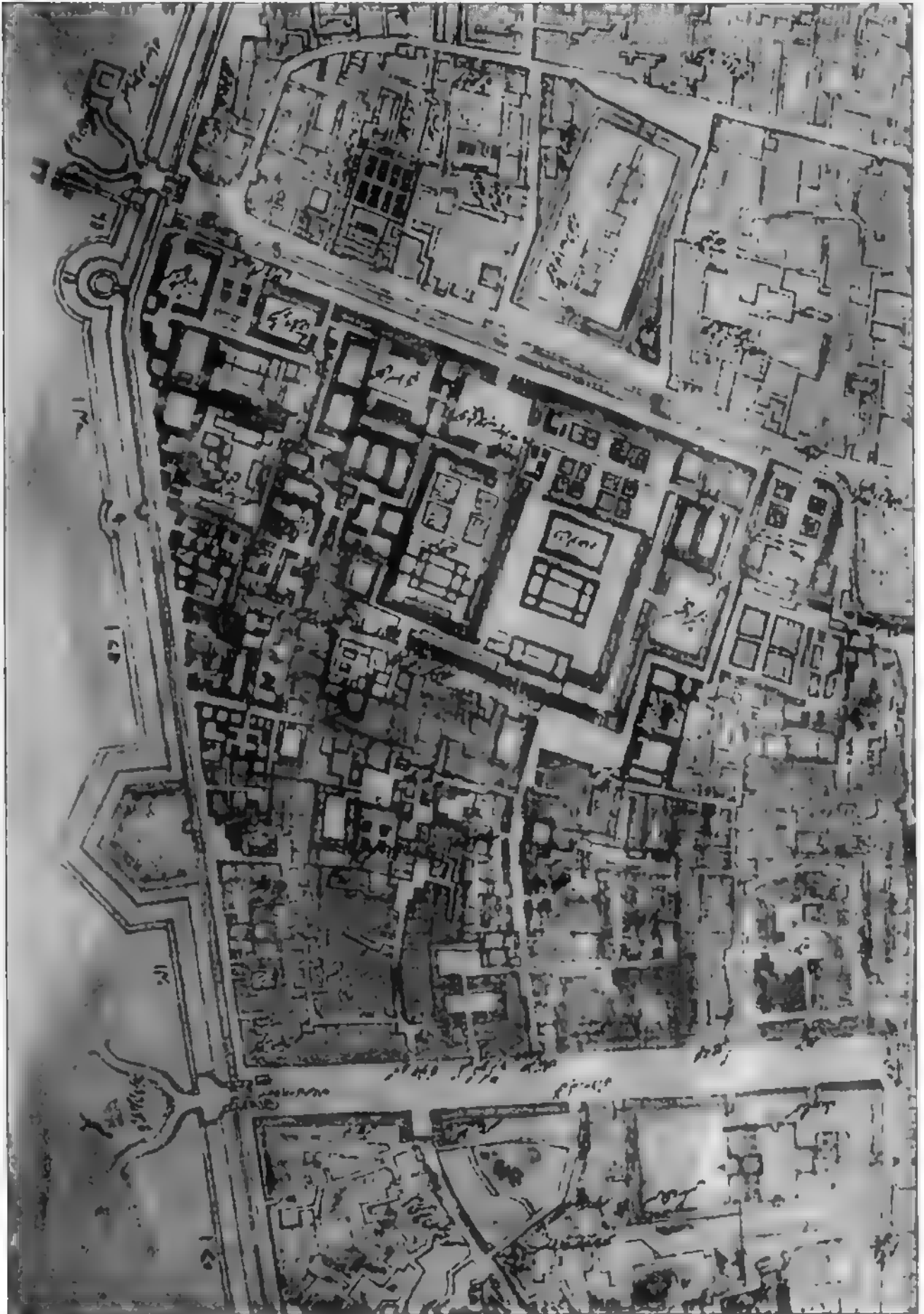
الرسم الرقم (٨ - ٤)

خريطة مفصلة لمدينة شاه جهان آباد تعود للعام ١٨٣٠



الرسم الرقم (٨ - ٥)

الحي الواقع بين بوابة كابول وبوابة لاهور في خريطة شاه جهان آباد من العام ١٨٣٠



أخيراً، السكان الذين كانوا معزولين تبعاً لمجتمعهم الديني، أو أصولهم الإثنية أو طوائفهم. وقد تكرر ذكر هذا العزل في المصادر، لكن مع نقص في المعلومات التي تكفي لإعادة تركيب الخريطة الاجتماعية مجدداً. إلا أن لمحة عن المدن التقليدية مثل تشاندري تمكنتنا، مع ذلك، من تخيل الماضي^(٧٧): الجماعات الثلاث المتدينة (المسلمون الهندوس والجانيون) عاشت في مناطق منفصلة؛ بالنسبة إلى الهندوس والمسلمين، المختلفين اجتماعياً، عاشت الطبقات الاجتماعية العليا في مناطق متميزة عن مناطق الطبقات الدنيا. وأعيد تجميع النساجين في مناطق محددة، مع أحياء منفصلة فيها ثانية للهندوس والمسلمين. ويمكن تكرار الملاحظات نفسها عن بينارسي، وخصوصاً الأحياء المقطعة للنساجين المسلمين أو الهندوس^(٧٨).

٦ - حدود المدينة: الداخل والخارج

لا يمكن تعريف مدينة ما بنفسها فقط، وإنما يجب أن تؤخذ في علاقتها بالخارج. لقد تعود مؤرخو مدرسة أليغار إيلاء أهمية واضحة للعلاقات الاقتصادية - الاجتماعية بالريف (وهي بالطبع كذلك)، لكنهم تجاوزوا الأسئلة الأكثر أهمية حول المساهمة المباشرة للضواحي والأسواق والمزارات في صنع تعريف المدينة من وجهات نظر ثقافية واستراتيجية وشعائرية.

مادياً، كانت حدود المدينة تتحدد بواسطة الأسوار الدفاعية التي تُدعم عادة بخنادق، كما في حالة بيجابور. والأسوار الأكثر أهمية المتبقية هي في بيدار حيث حُفظت مع كامل بواباتها كما كانت في منتصف القرن السادس عشر، أي في آخر تعزيز لها لمقاومة نيران المدافع^(٧٩). من المعروف أن جزءاً من الحياة الاقتصادية - الاجتماعية للمدينة كان قد تمدد خارج الأسوار مع كثافة سكانية في الضواحي التي حوت مستودعات وأسواق^(٨٠). كذلك توسعت الحياة الدينية والثقافية خارج الأسوار وحيث وُجدت أضرحة الأولياء والملوك التي كانت زيارتها جزءاً من الحياة الثقافية - الاجتماعية. وفي مثال شاه جهان آباد من جديد، فقد أكد أدب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على أهمية هذه الزيارات

Sharma, Chanderi, 1990-1995, map p. 123.

(٧٧)

Kumar, *The Artisans of Banaras: Popular Culture and Identity*, pp. 63-82, and Couste and L'gere, eds., *Banaras: Un Voyage d'architecture*, pp. 11-38.

(٧٩)

Yazdani, *Bidar: Its History and Monuments*.

Hamida Khatoon Naqvi, «Shahjahanabad: The Mughal Delhi: An Introduction.» in: R. E. (٨٠)

Frykenberg, ed., *Delhi Through the Ages: Essays in Urban History, Culture and Society* (New Delhi: Oxford University Press, 1986), p. 148.

التي يقوم بها الرجال كما النساء، وبخاصة مساء الخميس ونهار الجمعة وعلى احتفالات الأولياء. ومع وجود مواقع كثيرة للزيارة، إلا أن موقعين خارج نيودلهي تحديداً نالا أكبر قدر من التجميل على يد آخر المغول: الأول، قطب الدين بختيار كاكى (ت ١٢٣٥هـ)، الولي الراعي لدلهي، في مهراولي، قرب المدينة الإسلامية الأقدم، وقطب مينار في الجنوب الغربي؛ والثاني، في الجنوب الشرقي، المنطقة المحيطة بضريح نظام الدين أولياء (ت. ١٣٢٥) الذي يبقى إلى اليوم المركز الأكثر حيوية للحياة الدينية والثقافية في دلهي المسلمة، كما يحوي أضرحة مغولية مهمة. إن مجمع المدافن الأكثر أهمية الذي يضم أيضاً أقدم النصب التذكارية المغولية في دلهي، هو المجمع المبني فوق رفات الإمبراطور همايون (ت. ١٥٥٦)، الواقع في وسط حديقة مغولية، ربما كانت تستعمل أيضاً مقر سكن ريفياً للعائلة الإمبراطورية^(٨١). هذه الزيارات خارج الأسوار كانت من صلب تقاليد المسلمين في المدن الهندية؛ بل إن أحد الأنثروبولوجيين يجعل من بينارسي حالة نموذجية لخروج الهندوس والمسلمين معاً، كل صباح أو في أيام الأعياد، للزيارة أو الاحتفال كجزء من حياتهم المشتركة^(٨٢).

إلا أن هناك جانباً قضائياً ودينياً لا يذكر إلا نادراً^(٨٣)؛ فالأسوار ليست خطأ دفاعياً مادياً فقط، بل إن لها أيضاً أهمية دينية إسلامية يعرفها جميع المصلين. كانت صلاة الجمعة تقام في الجامع الكبير داخل الأسوار، وعادةً في أعلى نقطة من المدينة قرب قصر الحاكم؛ أما الصلاة بمناسبات استثنائية، كصلاة عيدي الفطر والأضحى وصلاة الاستسقاء أيام الجفاف فيجب إقامتها خارج الأسوار، في مكان يسمى بالعربية المصلى ويعرف بالهند باسمه الفارسي عيدكاه. مثل هذه الصلاة الخارجية هي سمة عادية للمدن الهندية الإسلامية منذ سلطنة دلهي حتى أيامنا الحاضرة؛ إذ يجب أن تقام في أرض كبيرة متسعة لاستيعاب آلاف الرجال، متجهين نحو القبلة التي يرمز لها بإشارة على الحائط غرب المحراب، كما يمكن أن تكون بشكل بناء أكثر تفصيلاً^(٨٤). تحوي شاه جهان أباد مثل هذا العيدكاه^(٨٥) حيث كان الإمبراطور يحضر لإقامة صلاة الأعياد راكباً على فيل، يرافقه كبار النبلاء. وحتى إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر حين كان المندوب السامي البريطاني يحضر الصلاة

Asher, *Architecture of Mughal India*, 43-47.

(٨١)

Kumar, *The Artisans of Banaras: Popular Culture and Identity*, pp. 83-110.

(٨٢)

Gaborieau, «L'Islamisation de l'Inde et l'Asie orientale», pp. 30-31.

(٨٣)

Asher, *Architecture of Mughal India*, Index/under «Idgah».

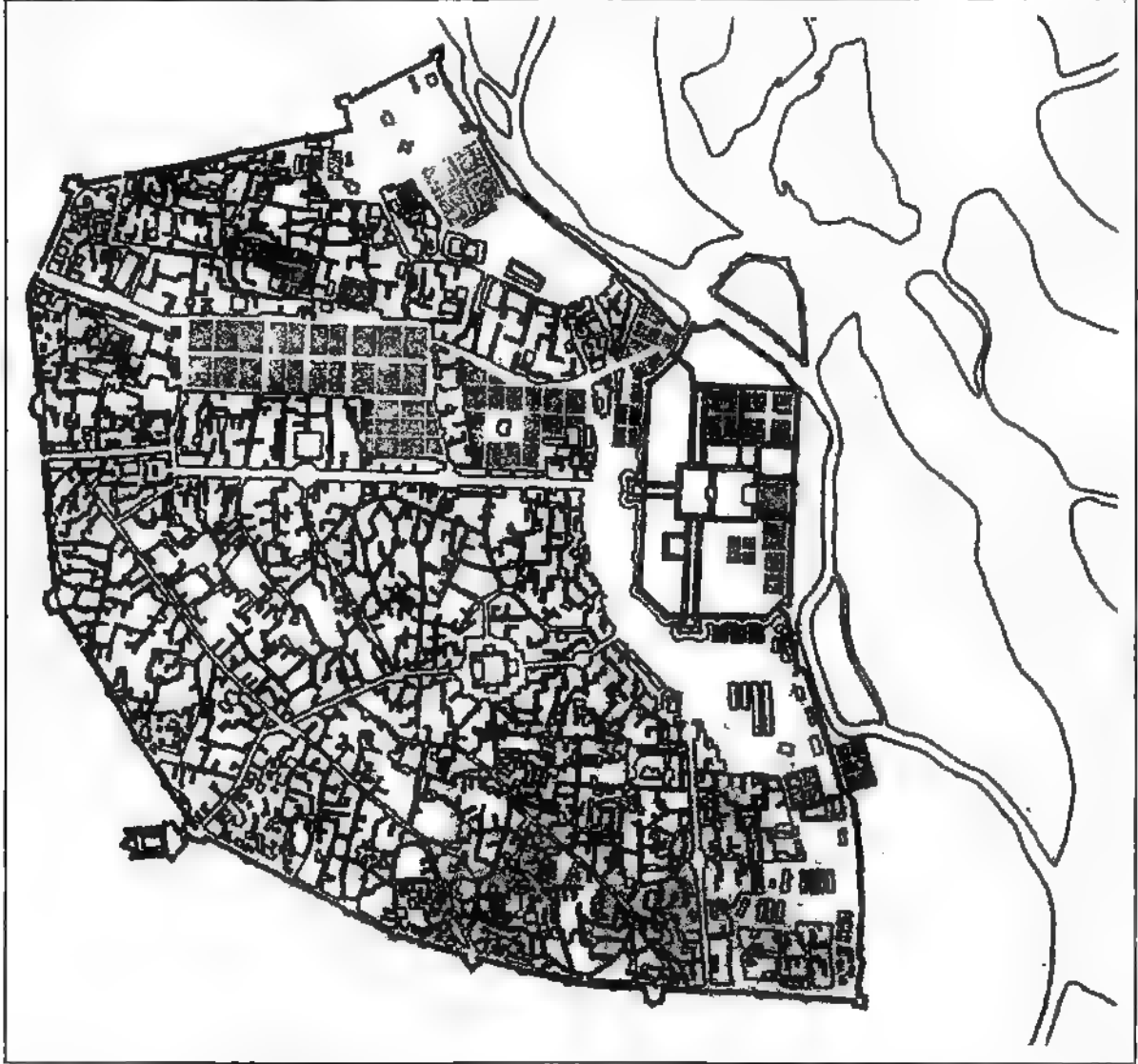
(٨٤)

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٢ و ٢٣٥.

والاحتفال^(٨٦). كان لهذه الاحتفالات بالطبع أهمية سياسية حيث يجري تجديد الولاء للإمبراطور.

الرسم الرقم (٨ - ٦)

خريطة إعادة تركيب لدلهي القديمة في عام ١٨٥٧



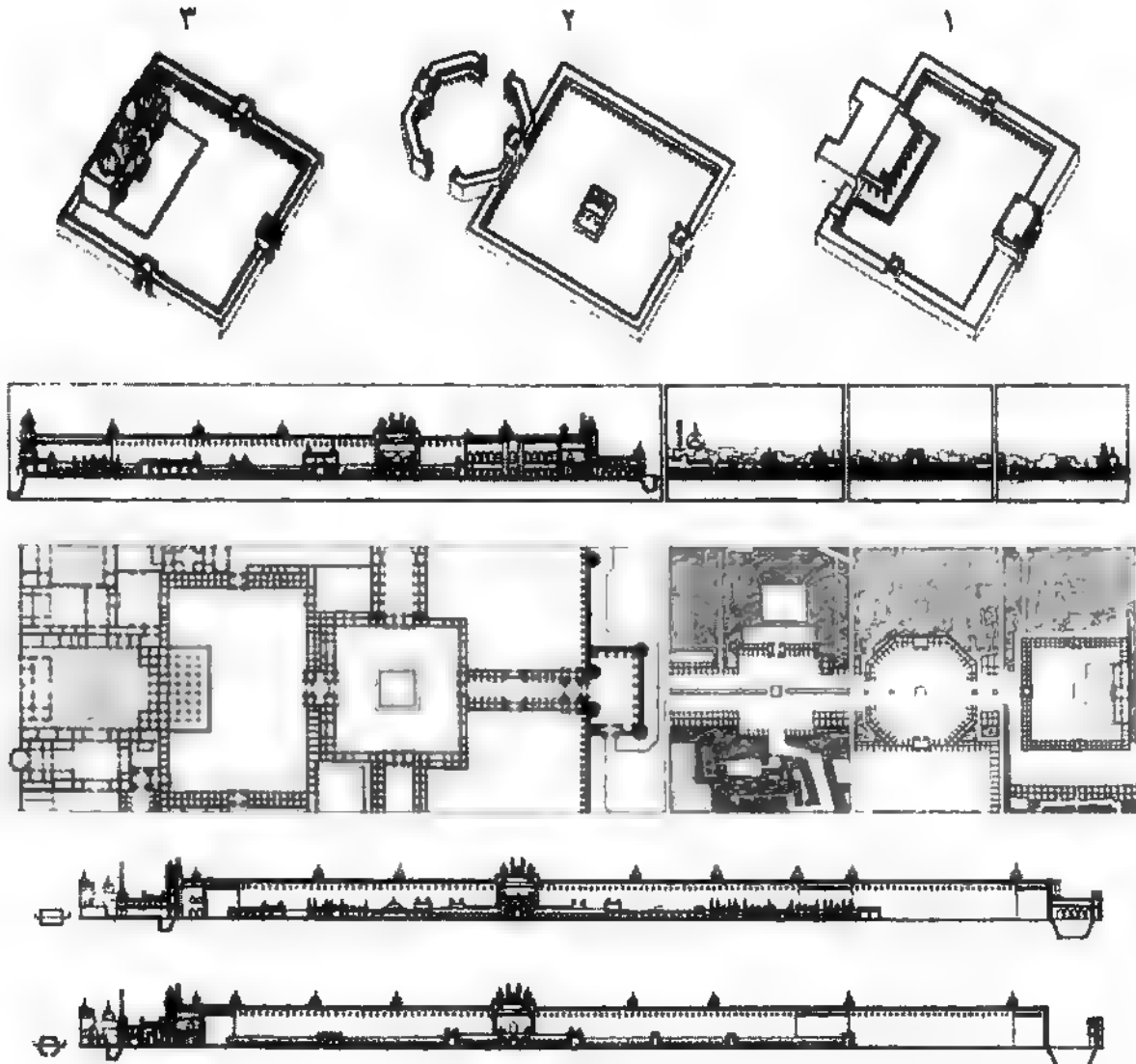
أخيراً، يمكن السؤال عما إذا كانت هذه الحدود الشرعية، التي تحدد الفارق بين نوعي الصلاة، ليست حدوداً دينية تفصل بين الأعمال المخلصة وتلك غير المخلصة لله. يبرز هذا السؤال بالمقارنة مع المدن الهندوسية حيث هناك حدود دينية وسحرية خارجية يجب أن تبقى خارج منازل أفراد طوائف المنبوذين. ومن الصعب، اعتماداً

Gaborieau, «L'Islamsation de l'Inde et l'Asie orientale,» pp. 30-31.

(٨٦)

على هذا الدليل الوحيد المتوافر، الوصول إلى نتيجة محددة^(٨٧)؛ لكن يبدو بحسب الباحث الوحيد الذي أثار هذا السؤال بخصوص شاه جهان آباد^(٨٨)، أن الاختصاصات غير النظيفة كانت تُدفع إلى أطراف المدن، ولكن ليس خارج الأسوار، بل تبقى داخلها، كمحال المشروبات والمسالخ؛ ولا يبدو أن هناك خطأ دينياً سحرياً محدداً يفصل بين الداخل والخارج، كما كان في حالة الهندوس. وعليه فنحن بحاجة إلى أبحاث إضافية للوصول إلى معرفة حقيقية بحدود المدينة.

الرسم الرقم (٨ - ٧) مخطط ومقاطع



١ - الديوان العام؛ ٢ - سراي جهان آرا بيغم؛ ٣ - مسجد فاتح بور.

(٨٧) المصدر نفسه، ص ٣٠-٣١.

(٨٨) Naqvi, «Shahjahanabad: The Mughal Delhi: An Introduction», pp. 147-148.

(٨٨)

٧ - طرّز محلية ومستوردة: الهندوس والمسلمون

أخيراً، يجب أن نبحت في التخمينات حول الطرّز التي استعملها المسلمون لبناء مدنهم في الهند. استند معظم ما قد كُتب إلى فرضية أن هناك تقليدين ثقافيين منفصلين، إسلامي وهندوسي، يعبران عن نفسيهما بوضوح من خلال نصوص كلاسيكية كتبت على التوالي بالفارسية والسسكريتية.

بالاستناد إلى هذه الفرضية، لدينا من جهة الباحثون الذين يذهبون إلى أن المسلمين الهنود استخدموا المعمارين الفرس ومهندسي المدن وأن جزءاً من مدنهم قد بني وفق طرّز إيرانية ولا تدين بشيء للسياق الهندي. تلك هي، على سبيل المثال، حالة مدينة فيروز آباد في الدكّن، وفق جورج ميتشل، حيث المخطط المربع يشبه ذلك الذي في هرات، الذي «لا يمكن فهمه إلا في سياق التراث الفارسي»^(٨٩).

ومع ذلك، ففي بعض المدن الأخرى كان الطراز الهندي واضحاً. وبحسب ستيفان بليك، فإن شاه جهان آباد - ذات المخطط القوسي حيث القلب فيها هو قصر الإمبراطور في الزاوية الشمالية الشرقية - إنما تستنسخ عن قصد الطراز الهندي ولا تدين بشيء لأي إحياءات فارسية^(٩٠).

أما بالنسبة إلى معظم المدن الأخرى، مثل بيدار مع مخططها الدائري، فمن الصعب إطلاق أحكام قاطعة في شأنها. وكما هو متوافق عليه عادة^(٩١) فهناك في الغالب تركيب ما بين تقليدين ثقافيين. أضف إلى ذلك أنه من الصعب تتبع مصادر العناصر المختلفة المكونة لكل حالة، إذ إن التقليد، على عكس البنى الأيديولوجية الحديثة للأصوليين، سواء الهندوسي أم المسلم، غير متعارضين على النحو الذي نتوهمه في العادة، بل إن التشابهات التي تظهر، على سبيل المثال، في التراتبية الاجتماعية والمكانية، تجعل من الصعوبة بمكان تتبع الأصل الدقيق لمعلم معين. خذ على سبيل المثال فرضية أن المدينة الهندوسية التقليدية كما المدينة الإسلامية قد ارتكزت على مركزية قصر الملك محاطاً بأهم الأبنية الدينية؛ هذه المباني المركزية ميّزت أيضاً الجزء العلوي من المدينة الذي تقيم فيه الطبقات العليا، أما الطبقات السفلى فقد جعلت في الجزء الآخر من المدينة، أو حتى خارجها.

Michell, «Firuzbad: Palace City of the Bahmanis», p. 190.

(٨٩)

Blake, *Shahjahanabad: The Sovereign City in Mughal India*, and Gaborieau, «L'Islamisation de l'Inde et l'Asie orientale», pp. 32-34.

(٩٠)

Michell, Ibid, and Petruccioli, ««Ad Quadratum»: Notes on Deccani Town Planning».

(٩١)

الرسم الرقم (٨ - ٨)
في مشهد متخيل لدلهي القديمة يعود إلى العام ١٨٥٨



يبدو في الرسم منطقة سوق «تشاندي تشوك».

خاتمة

يُبرز هذا المسح المختصر، في آن معاً، غنى المجال الذي تمثله المدن الإسلامية في الهند، وندرة الدراسات فيه. وعليه فمعظم ما فيه يتوجب إنجازه في الغالب. في وسعنا الملاحظة أن الباحثين ركزوا على مدن قليلة كانت في معظمها عواصم، كدلهي التي لها صدارة المكان. ولعل الجزء الأعظم من الدراسات قد خصص لفاتح بور سيكري، المدينة المهجورة وغير النمطية التي لطالما فتنت المؤرخين لصلتها بعقائد

السلطان أكبر السياسية - الدينية. ولكن من غير المؤكد أن هذه الحالة الخاصة تضيء بما يكفي لفهم التاريخ المدني الهندي الإسلامي. فما زال ينقصنا دراسات مفصلة لعواصم مغولية أخرى مثل أغرا ولاهور ستكون ذات فائدة أكبر. كذلك اختيرت المدن الصغرى مجالاً للدراسة على نحو انتقائي. أما مدن المستوى الوسطي فقد أهملت تماماً وهي تحتاج إلى المزيد من البحث. ومن المثير فعلاً أن تكون المدن الصغيرة (القصبات) قد درست في الغالب على نحو أفضل من المدن الكبرى.

وفي خصوص موضوعات البحث، نحن بحاجة إلى مزيد من الدراسات حول إدارة المدن ونسيجها وتوزيع الجماعات والطوائف فيها، ويوجه عام دراسات حول الاعتبارات الدينية التي تتداخل في تعريف البنية الداخلية للمدينة وحدودها الخارجية. ولاستكمال ذلك، لا بد من تطوير أنثروبولوجيا مدنية للهند المسلمة.

أخيراً، وعلى عكس الاتجاه الراهن من المواجهات الدينية، يجب التشديد على التشابه بين تقاليد الهندوس والمسلمين؛ فهذه التشابهات فقط يستطيع المرء فهم كيف يستطيع أتباع الديانتين العيش معاً في المدن نفسها وكيف تشاركوا في بنائها وتطويرها. ولنورد في نهاية هذا الفصل حالة لاهور؛ فقد شيدت على يد السلطانين أكبر وجهانغير، وأبقي على تصميمها النمطي كعاصمة مغولية؛ وظلت لأكثر من نصف قرن حتى عام ١٨٤٩، عاصمة لمملكة السيخ؛ وكانت حتى نهاية الحقبة البريطانية ذات أكثرية سكانية من الهندوس، الذين توجب عليهم المغادرة حين جرى التقسيم. فقط بعد عام ١٩٤٧ أصبحت لاهور مسلمة كلياً تقريباً، مع استثناء واحد لمجموعة صغيرة من طائفة «الهندوس المتبوزين»، وبخاصة النساجون منهم، الذين تحولوا إلى المسيحية، واستمرت معاملتهم من المسلمين كمتبوزين.

مراجع إضافية

- Ali, Athar. *The Mughal Nobility under Aurangzeb*. Bombay: Asia Publishing House. New Delhi: Oxford University Press, 1997.
- Cole, Susan. *Indian Maps and Plans from the Earliest Times to the Advent of European Surveys*. New Delhi: Manohar, 1989.
- Gaborieau, Marc. (a) chap. 2, The Indian States: The Sultunates; (b) chaps. 5-10, The Moghul Empire (1556-1739).» in: Claude Markovits (Trans. and ed.). *A History of Modern India, 1489-1950*. London: Anthelm Press; Paris: Fayard, 1994.
- _____. *Ni Brahmanes ni ancetres: Colporteurs musulmans du Nepal*. Nanterre: Société d'ethnologie, 1989.
- Hambly, R. G. G. *Cities of Mughal India: Delhi, Agra, Fatehpur Sikri*. Hambly. New York; Delhi: Putnam, 1988.
- _____. «Towns and Cities: Mughal India.» in: Tapan Raychaudhuri and Irfan Habib (eds.). *The Cambridge Economic History of India. V. 1: c. 1200-c. 1750*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1982.
- Markovits, Claude (ed.). *A History of Modern India, 1480-1950*. Paris: Fayard, 1994.
- Raychaudhuri, Tapan and Irfan Habib (eds.). *The Cambridge Economic History of India: vol. 1: c. 1200-c. 1750*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1982.

الفصل التاسع

المدينة العثمانية

(بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر)

جيل فاينشتاين^(٥)

يقتضي البحث في موضوع «المدينة العثمانية»، التفكير ملياً، قبل أي شيء آخر، بمفهوم «المدينة العثمانية» نفسه، وفق المعلومات المتوافرة بين أيدينا حتى اليوم، لا من حيث المحتوى فقط وإنما من حيث تطبيقاتها أيضاً: هل هناك نمط متفرد لخصائص المدينة في السلطنة العثمانية ككل يأخذ تلقائياً طابع «المدينة العثمانية»^(١)، أم أنه يوجد من الاختلافات ما يكفي لتعيين الفارق بين المدن والتميز بالتالي بين أنماط مختلفة في أرجاء السلطنة؟ وبالتالي أي نمط هو الأنسب لاختياره كمدينة عثمانية وما هو الموقع الجغرافي الذي يتطابق معه؟

وكما يبدو، هناك جواب واحد مقبول عموماً عن هذا السؤال الذي يجهد الباحثون في مقارنته، من أجل التوصل إليه، ضمناً على الأقل: من جهة، هناك تلقائياً تمييز قائم بين مدن المغرب ومدن المشرق التي يذهب نسبها لا كمدن عثمانية وإنما باعتبارها - وفق كلمات أندريه ريمون - «مدناً عربية في الحقبة العثمانية»؛ وهناك المدن العواصم، من جهة ثانية أو بالأحرى «النواة» لمقاطعات السلطنة، وهي المدن العثمانية الحقيقية.

(٥) مؤرخ وباحث متخصص في التاريخ العثماني.

Gilles Veinstein, «La Ville Ottomane: Les facteurs d'unité», dans: *La Cuidal Islamica*, (١) (Saragossa: Institucion Fernando el catolico, 1991).

وبمفردات أخرى، يجعل خط التقسيم أعلاه المقاطعات العربية في جانب والأناضول وروملي (آسيا الصغرى والبلقان) في جانب آخر. هذا التمييز أعلاه يجعل المدن العربية في مقابل المدن التركية، استناداً إلى أسس إثنية - ثقافية واضحة، وذلك لا يناسب غير القوميين في الجانبين الذين يستمرون، حتى يومنا هذا، في تطوير الموضوع وبغير اعتدال. ويجب أن نضيف أن الباحثين الذين هم خارج هذه الانشغالات الأيديولوجية إلى هذا الحد أو ذلك، يميلون تلقائياً إلى قبول هذا التمييز وتعزيزه بمقدار ما هو مواز لتقسيم مشابه في الأكاديميات التي تعارض الحقلين العربي والتركي، وهم اختصاصيو السلطنة العثمانية على وجه الدقة؛ فالسلطنة عرفت على الدوام نوعين من المدن، تلك التي تدرج في باب الدراسات العربية، والأخرى من ضمن الدراسات التركية.

هذا «الدليل»، أولاً، هو ما سيكون موضوع المساءلة من خلال محاكمة مسبقة تتضمن مراجعة العوامل المختلفة التي أثرت على الأرجح في العمليات المدنية للسلطنة العثمانية.

قبل ذلك، يتعين ملاحظة حقيقة تثير عدداً من الأفكار؛ فهذه المدن تنتمي جميعها إلى السلطنة الواحدة نفسها. صحيح أن هذه السلطنة أقيمت، كما يقال، فوق «ثلاث قارات»، وتمددت بما فيه الكفاية طويلاً وعرضاً مما بعث تنوعاً كبيراً في الظروف الطبيعية، وتميزت باختلافات في المناخ وفي مواد البناء المتوافرة التي ستؤثر من دون شك في موضوع المباني. هناك فرق واضح بين المناطق التي تستخدم فيها عمارة الحجر - سورية وجنوب شرق الأناضول ومنطقة قيصرية - وتلك التي تسود فيها عمارة الخشب. وقد شكل الخشب المادة الأساسية واستخدم بكميات كبيرة في المنازل التقليدية في إسطنبول والبوسفور، أو بكميات صغيرة لتكوين الإطار الذي يُملأ في ما بعد بمواد متنوعة.

لم يكن سلاطين إسطنبول، في الوقت نفسه، أول من أتى بالوحدة السياسية إلى هذه المناطق المتباينة؛ فقد كانت هذه كلها جزءاً من الإمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية، اللتين كان تراثهما عند وصول العثمانيين حديثاً وحيّاً إلى هذا الحد أو ذاك في بعض المناطق، أو كان على العكس مدفوناً تحت طبقات لاحقة. في مطلق الأحوال، إن تأثير هذه القربى في المشهد المدني للحقبة العثمانية كان ملموساً جداً، ليس نتيجة وجود الآثار والنصب البيزنطية، المدهشة أحياناً، في أغلبية هذه المدن فحسب، وإنما كذلك بسبب الآثار المستمرة في طبوغرافيا نماذج الطرق الرومانية (التي لا تزال حتى يومنا هذا). هذه الظاهرة المعروفة جداً في العديد من المدن الغربية ولا سيما في شمال

إيطاليا، تقوم في الآن نفسه في عدد من مدن المشرق، كما يتن جان سوفاجي في عمله مشكوراً، كما تنتشر أيضاً في سالونيك، ونيقية، ورودوس، أو في إزمير، كما برهن ب. بينو، داخل الحي التركي القديم حول الساحة العامة، أو على نطاق أضيق في حي القلعة في بورصة^(٢).

بالنسبة إلى المرحلة العثمانية بحد ذاتها، تشترك مدن السلطنة كافة في حقيقة أنها تنتمي إلى المرحلة نفسها، وتساهم بالتالي وبوجه عام في التطورات التقنية والاقتصادية - الاجتماعية التي يتخطى تأثيرها حدود العالم العثماني. ويبدو عمل ويرث حول تطور المراكز الاقتصادية المدنية في الحقبة الإسلامية، في رأينا، خير مثال لهذه الظواهر العامة المرتبطة بمرحلة محددة. بدأ اكتمال هذه المراكز، التي تميّزت بإضافة خانات مع باحات داخلية وجعلت غالباً بالقرب من بوابات المدينة، في أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر، ويليغ ذروته في الإنجازات الأكثر أهمية والمباني المشهودة المعقدة وذلك بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر. غير أن هذا الأمر لم يقتصر على الحقبة العثمانية وحدها، وإنما امتد إلى الحقبة الصفوية وإلى دول أخرى، ولكن في أشكال بدائية أو مختلفة^(٣).

كذلك عرفت المدن العثمانية ظروفاً محددة مرتبطة باندماجها في السلطنة. وخلافاً للإجحاف الدائم للحكم العثماني والأوهام التي تلصق به، لم تكن هذه الشروط لتعتبر غير مناسبة للتطور المدني ككل، بالرغم من أنه يتعين أن نقرّ بأنها أفادت مدناً معينة أكثر من سواها، تبعاً لموقع تلك المدن في النظام الإداري السياسي والاستراتيجي والاقتصادي في السلطنة.

وفي مطلق الأحوال كان الاندماج في هذه البنية الضخمة والقوية شرطاً مسبقاً للازدهار: أولاً، أتى هذا الاندماج بنظام وأمن نسبيين داخل السلطنة وفي علاقاتها

(٢) من بين آخرين، انظر: Jean Sauvaget, «Le Plan antique de Damas», *Syria*, vol. 26, nos. 3-4 (1949), pp. 314-358; Guido Achille Mansuelli, *Urbanistica e architettura della Cisalpina romana* (Brussels: Latomus revue d'études Latines, 1971); Pierre Pinon, «Les Tissus urbains ottomane entre Orient et occident», paper presented at: Van Donzel, ed., *Proceedings of the 2nd International Meeting on Modern Ottoman Studies and the Turkish Republic* (Leiden: Brill, 1989), p. 17.

E. Wirth: «Zum Problem des Bazars (suq, carsi): Versuch einer Begriffbestimmung und Theorie (٣) der traditionellen Wirtschaftszentrums der orientalisches-islamischen Stadt», *Der Islam* (1974), pp. 203-260, et (1975), pp. 6-46; «Die Orientalische Stadt: Ein Überblick aufgrund jüngerer Forschungen zur materiellen Kultur», *Saculum* (1975), pp. 45-94, et Xavier De Planhol, «Sur La Genese du Bazar», dans: Jacqueline Beaujeu-Carnier, ed., *Regions, Villes et aménagement: Melanges jubilaires offerts à Jacqueline Beaujeu-Garnier* (Paris: Societe de Geographie, 1987), pp. 445-474.

بجيرانها، الأمر الذي حفّز بوجه عام التواصل والنشاط الاقتصادي. بالطبع، تعطل في بعض الأحيان «السلم العثماني» ذاك؛ فلم يتم القضاء كلياً على قطاع الطرق، كما كانت الحدود المتقلبة باستمرار أكثر عرضة للمشاكل. ثانياً، خففت السلطة المركزية بدءاً من أواخر القرن السادس عشر قبضتها، بالرغم من أن هذه القبضة كانت محكمة يوماً ما، وينسب معينة، لمصلحة حكومات محلية.

وأتاحت السلطنة، على نحو متزامن، انبعاث إنتاج محلي واسع جداً وسوق استهلاكية موحدة نسبياً تشريعياً، وضريبياً وإدارياً ونقدياً ولغوياً، يحفزها تطور العلاقات مع الغرب والتبادل المنتظم مع سائر العالم الشرقي. هذا الوجه من التجارة العثمانية الأقل معرفة كان لفترة طويلة عرضة للتقليل من أهميته.

وكجزء من عوامل النمو المديني، ساهمت الدينامية التجارية في تمدد مراكز التجارة المدينية، وفي تعزيز قيام بنى تحتية نمطية، من bazارات وأسواق وخانات، في معظم المراكز تلك^(٤).

وكما برهنت الأعمال الحديثة، التي تلت أبحاث إينالشيك، فقد اهتمت السلطات العثمانية وتصّدت لتأثير القوى الاقتصادية التي كانت تواجهها على نحو يتجاوز ما قيل (وهو ما تظهره المعاهدات التجارية المبرمة في المراحل كافة، والتسهيلات التي منحت للتجار الكبار في خصوص القيود التي يفرضها نظام النقابات، وكذلك دخول عدد كبير من أصحاب المقامات عالم الأعمال). ومع ذلك، كان اهتمام السلاطين أكثر شمولاً: لقد كانوا مهتمين علناً بالمدينة وطوّروا سياسة مدينية حريصة طبقت بطرائق متنوعة وعلى مستويات مختلفة؛ فكان الترحيل تبعاً لاعتبارات سياسية (بهدف منع تشكيل مراكز مقاومة ولا سيما في المناطق التي تم غزوها حديثاً)، وكان كذلك ترجمة واضحة لاهتمام السلطات باستيطان أو إعادة استيطان مدن معينة وإحياء نشاطها الاقتصادي عن طريق تزويدها باليد العاملة والمهارات التقنية الضرورية^(٥).

Suraiya Faroqi, *Towns and Townsmen of ottoman Anatolia: Trade, Crafts and Food (٤) Production in an Urban Setting, 1520-1650*, Cambridge Studies in Islamic Civilization (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1984), pp. 23-48, and Mustafa Cezar, *Typical Commercial Buildings of the Ottoman Classical Period and the Ottoman Construction System* (Istanbul: Türkiye İB Bankası Cultural Publications, 1983).

لؤفي باركن، «Osmanlı İmparatorluğunda bir İskan ve Kolonizasyon metodu: أنظر خصوصاً: (٥) olarak sürgünler.» *İstanbul Üniversitesi İktisat Fakültesi Mecmuası*, vol. 6, nos. 1-4 (1949-1950), pp. 524-569, et Nicoara Beldiceanu, *Rescherche sur la ville Ottomane au XVI^{ème} siècle: Etude et Acts* (Paris: A. Maisonneuve, 1973), pp. 36-44.

نذكر في هذا السياق مبادرات محمد الثاني من أجل إحياء إسطنبول بعيد الفتح؛ فقد أعيد بالقوة، وفي وضع جديد، إسكان عناصر مسلمة ومسيحية ويهودية من أجزاء مختلفة من الأناضول وروملي، ومن الجزر اليونانية، في الأحياء والمنازل البيزنطية القديمة^(٦). وزوّد خلفاء الفاتح مدينتهم بحرفيين متنوعين وفنانين أعيدوا من الحملات العسكرية. كان هذا الأمر صحيحاً وخصوصاً بالنسبة إلى سليم الأول الذي أخذ الكثير عن المدن المملوكية والفارسية. صحيح أنه حين كانت هذه التدابير تطبق على سكان المدينة لا على أهالي الريف، لم تكن تؤدي إلى زيادة إجمالية مهمة، بل إلى إعادة توزيع لسكان المدن في مناطق مميزة. وفي كل الحالات، ساهمت تلك الخطوات في وضع معايير نموذجية للإنتاج، وبخاصة في الفن، في أنحاء السلطنة كافة. وبالرغم من اختلاف الوضع، فقد أدى استقبال السلاطين لليهود الذين طردوا من إسبانيا والبرتغال أو إيطاليا، ولاحقاً المنقليين على ديانتهم - سواء كانت تعبيراً عن التسامح أو لأسباب براغماتية - هذه المرة إلى نتائج مماثلة في العديد من المدن المتناثرة في أجزاء مختلفة من السلطنة، كسالونيك وإسطنبول وصدف. ولهذا السبب، بقيت السلطنة مفتوحة دائماً أمام مختلف أنواع اللاجئين (يصح هذا الأمر على الأشخاص في الغرب الذين يطلق عليهم المرتدين) الذين أدوا دوراً في تطور السلطنة التقني والعلمي، فأفادت المدن من ثمار إنجازاتهم.

ظهر اهتمام السلطات المباشر بوضوح في المسائل المعمارية، والمدينة عموماً، من خلال إنشاء هيئة من مهندسي عمارة القصور («معماري إحصاء»)^(٧) نحو عام ١٥٣٥، وضمت ١٢ مهندساً، وتجاراً واحداً، وصانع سقوف قرميد^(٨). وترأس الهيئة «معمار باشا»؛ فتولى هذا المنصب المهندس الكبير سينان منذ عام ١٥٣٩ ولغاية عام ١٥٨٨ منجزاً الروائع التي نعرفها. لم يحصر هذا الشخصية القوية، الذي تمتع بمركز قريب من السلطان، كفاءاته بالقصر فحسب، أو حتى بالعاصمة فقط، بل طغى على جميع أعمال البناء المدنية والعسكرية والدينية الضخمة الممولة من قبل السلطان وحاشيته. في ما خص الأماكن البعيدة، كان يبعث بالمخطط لينفذه مهندس من الهيئة

(٦) انظر: Halil Inalcik, «The Policy of Mehmed II toward: The Greek Population of Istanbul and the Byzantine Buildings in the City,» *Dumbarton Oaks Papers*, nos. 23-24 (1969), pp. 231-249.

(٧) انظر: Şerafettin Turan, «Osmanlı Teskilatında Hassa Mimarları,» [Official Architects in the Ottoman Organization], *AUDTCE Tarih Arashmaları Dergisi*, vol. 1, no. 1 (1963), pp. 157-202.

(٨) انظر: O. L. Barkan, «H. 933-934 (M. 1527-1528) Mali yilma bir bütçe örneği,» [Budget Sample for Fiscal Year 1527-1528] *Istanbul Üniversitesit İktisat Fakültesi Mecmuası*, vol. 15, nos. 1-4 (1935-1954), pp. 329.

في الموقع. وهو ما يفسر العدد المرتفع الذي لا يصدق من الأعمال المنسوبة إلى سينان^(٩).

مع بداية القرن السابع عشر، عينت الحكومة المركزية معماريين ممثلين لهيئة «معمار باشا» في عدد كبير من المدن العثمانية. وكانوا يتمتعون في المستويات كافة بالكفاءة نفسها في تخطيط المدن كما رئيسهم في العاصمة، وأمسكوا بالتالي بجميع النقابات المرتبطة بتجارة البناء.

وبدا في عدد لا بأس به من الأماكن، أنه كان على المعماري المحلي أن يعطي مسبقاً الموافقة على مشاريع البناء كافة، وكان في بعض الأحيان يوزع مواد البناء المتوافرة على الحرفيين المهرة. وفي الوقت الذي تقلص الدور الأولي للمحتسب تدريجاً وتحول إلى مجرد جابي ضرائب ثانوي وأحياناً يلزم منصبه، غدا المعماري المحلي معروفاً من خلال كفاءته العمرانية والمدنية.

كان ذلك، بصورة واضحة، وضع المعماري الرئيسي في العاصمة. لقد كان مسؤولاً عن تطبيق تنظيمات السلطان المدنية، التي كانت في الأغلب مستوحاة منه.

هذه الأعمال الوفيرة، التي أنجزت بين أواسط القرن السادس عشر وحقبة «التنظيمات» المعروفة لنا - في ما يتعلق بإسطنبول وإلى حد ما بمكة على الأقل - وذلك بفضل الوثائق العديدة التي قام بنشرها أحمد رفيق وعثمان نوري التي جمعها أخيراً ستيفان يرازي موس^(١٠). يشدد هذا الأخير على الطابع «المألوف» تحديداً للوثائق، المستوحاة من اهتمام الدولة بالمنفعة العامة، بخلاف مبادئ «الشريعة» التي كانت معنية بحماية المصالح الخاصة. نستطيع هنا أن نلاحظ إصرار الإدارة العثمانية على تنظيم جوانب المسائل المدنية كافة كما في مجالات عديدة أخرى: تصنيف الارتفاعات بحسب المناطق، المعالم الأمامية (تم نظرياً منع السقوف المغطاة المزينة بالطنف)، والمواد المسموحة والممنوعة، والمناطق المحظورة... إلخ.

(٩) انظر: A. Kuran, «Suleyman: The Magnificent's Architectural Patronage», in: «Soliman: Le Magnifique et son temps», dans: Giller Veinstein, ed., *Rencontres de l'école du Louvre* (Paris: La Documentation Française, 1992), pp. 217-223.

Osman Nouri, *Mecelle-i Umar-i Belediye*, [City Code] (Istanbul: Istanbul B. Ş. Belediyesi, ١٠) 1992); Ahmet Refik: *On altuncu asırda İstanbul Hayatı, 1553-1591* [Life in The 16th C.] (Istanbul: the Auter, 1935); *Hicri Onbirinci Asırda İstanbul Hayatı, 1000-1010* (Istanbul: [n. pb.], 1930); *Hicri onuncu asırda İstanbul Hayatı, 1100-1200* (Istanbul: [n. pb.], 1932), and Stéphane Yerasimos, «Le Réglementation urbaine Ottomane (XVI-XIX^{ème} siècles)», paper presented at: Donzel, ed., *Proceedings of the 2nd International Meeting on Modern Ottoman Studies and the Turkish Republic*, pp. 1-14.

ويتطابق عدد لا بأس به من هذه المبادئ، في الحقيقة، مع الاعتبارات الأمنية المعلنة: منع استخدام الخشب في بناء المنازل خوفاً من اندلاع الحرائق؛ وحماية الأحياء من الاعتداءات بواسطة البوابات؛ ومنع عمليات البناء العشوائية وغير القانونية والخانات التي تأوي أفراداً خوفاً من الهجرة السرية؛ كما تم منع البناء مقابل الجهة الخارجية للأسوار (في المدن المعرضة للحصار، وذلك بهدف تجنب تسهيل مهمة المحاصير، كما في الجزائر أو مدن القرن السادس عشر على الحدود الكرواتية). غير أنه كانت هنالك دوافع أخرى لإسطنبول في القرن الثامن عشر، إذ كان يتعين استخدام أسوار المدينة كحاجز نار؛ وعدم عرقلة الحركة عند البوابات والسلالم؛ والنصح أخيراً بعدم إعطاء انطباع سيئ للسفراء الأجانب القادمين إلى إسطنبول^(١١).

وفي دراسة أخرى، يلحظ يرازيموس أن تكرار أوامر المنع نفسها طوال القرون هو دليل على عدم فعاليتها الكاملة. وهو يعزو هذا الوضع إلى حماية المصالح الخاصة للقضاة، الذين جعلوا الأولوية لـ «الشريعة» على حساب تنظيمات السلطان. وإذا صح ذلك، كان للواقع يومذاك أن يشبه ما تم منعه لا ما قرره السلطان ومعماريوه^(١٢).

ويمكن الأخيرة أن تصح، على الأقل، على الهندسة المعمارية الخاصة، «غير الرسمية»، وبشكل أكثر تعميماً على ما يسمى أحياناً «المدينة الميكروية» (الصغرى) أو «الجزر الداخلية».

من جهة أخرى، يستطيع الحاكم أن يترك بصمته وأن يضع «معمار باشا» مبادئه قيد التطبيق عبر الهندسة الرسمية فقط. ساعدت الهيئات الدينية على تمويل المشاريع، لكنها حددت في المقابل أي أنواع من الإنشاءات يجب القيام بها: المباني الدينية والخيرية والخدمات التي لم تبين كعناصر منفصلة إنما بعضها مع بعض لكي تشكل «مجمّعات» أدخلت تأثيراً بنوياً في أقسام كاملة من النسيج المدني. كان السلاطين العثمانيون وعائلاتهم من أهم مؤسسي الوقف المدني، الذي تزايد عدده في القرن السادس عشر حين بلغت ثروة الدولة ذروتها، وجرت المحافظة على هذا التقليد في ما بعد حين كانت نساء البلاط وأمّهات وزوجات الحكام ناشطات في هذا المجال في القرنين السابع عشر

O. Nuri, «Decree of May 2-7 June 1722», (1089), quoted in: Yerasimos, Ibid., p. 7. (١١)

Basbakanlik Arsivi, in: *Istanbul*, انظر: من الداخل والخارج، انظر: *Muhimme Deftri*, vol. 3, no. 82 ([n. d.]).

Stéphane Yerasimos, «À Propos des réformes urbaine des Tanzimat», dans: Robert Ilbert, (١٢) *Villes Ottomanes à la fin de l'empire*, edited by Paul Dumont and François Georgean (Paris: L'hamattain, 1992), pp. 17-32.

والثامن عشر^(١٣). ولحق أصحاب المقامات الرفيعة وحكام المقاطعات برأس الدولة. أدى الوقف، في ظل الشروط هذه، دوراً حاسماً، ليس في التزوين فقط وإنما في تحسين الخدمات كذلك وتطوير المدن العثمانية. وربما تم تجديد مناطق بأكملها وفق مخطط عام أعقب إنشاء مؤسسة من الوزن الكبير. يمكن توضيح ذلك بأمثلة من المشرق والبلقان، وتحديدًا مؤسستي الحاكمين الدمشقيين سنان ومراد باشا، في أواخر القرن السادس عشر ومؤسسات غازي خسرو بك حاكم سراييفو في بداية القرن السادس عشر^(١٤).

سواء كانت العوامل المحفزة للنمو المدني بسبب ظروف موضوعية، أم كانت عملاً مقصوداً مؤثراً في قليل أو كثير من السلطات المركزية، فقد كان لذلك النمو، الذي راجعناها قبل قليل، تأثير شامل، بالرغم من أنه أصاب من دون شك مناطق ومدناً محددة على نحو غير متساو. فقد حظيت إسطنبول بالحظ الأعظم لأنها كانت مركز جذب للتبادلات التجارية في السلطنة والهدف الأول لاهتمام السلطنة المفرط من حيث الاستيطان، والإمدادات، والمنشآت والتطوير، والتجميل. وهو ما يفسر لماذا جاءت المدن التاريخية الكبرى في الشرق الأوسط (القاهرة وحلب ودمشق) خلف إسطنبول بأشواط في تصنيف المدن الرئيسية في السلطنة. وبسبب قربهما من العاصمة، حظيت الأناضول وروملية بما لم يحظَ بهما من مدن ذات حجم متوسط في أحسن الأحوال، كبورصة وسالونيك وأدرنة^(١٥). ولنفس الأسباب، رأينا أيضاً أن الأنظمة المدنية التي عرفناها كانت موضع عناية العاصمة حصراً في حين نحن لا نعرف بوضوح كيف طبقت في أماكن أخرى. وفي خصوص التأثير الذي كان لـ «معمار باشا» وأنماطه الهندسية في المقاطعات العربية في السلطنة، فقد أظهرت مسوحات أ. ريمون كم كان محدوداً ذلك التأثير، كمياً وزمناً: لقد سجل فقط ١٥ معلماً ذات الطراز العثماني، تسعة منها تعود إلى القرن السادس عشر وثلاثة إلى القرن السابع عشر وثلاثة إلى القرن الثامن عشر. إلى

(١٣) انظر: Leslie p. Pierce, *The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire* (Oxford: Oxford University Press, 1993), pp. 198-218.

(١٤) انظر: B. Djurdjev, s.v. «Bosna» dans: *Encyclopédie de l'Islam*, 2nd ed. (1301-1305), vol. 1; Adem Handazić, «O Formiranju nekih gradskih naseja u Bosni v XVI stoljecu» *Priolzi za orijentalnu filologiju*, no. 25 (1975); Sarajevo (1977), pp. 133-169; German, «Ein Aspekt der Entstehungs Geschichte Osmanischer Städte im Bosnien des 16 Jahrhunderts» *Südost-Forschungen*, no. 37 (1978), pp. 41-49, and Jean Paul Pascual, «Damas à la fin du XVI^{ème} siècle d'après trois actes de Waqf Ottomans» Institut Français de Damas (Damascus), vol.1 (1983).

(١٥) انظر: Ömer Lütfi Barkan, «Essai sur les données statistiques des registres de recensement : dans L'Empire ottoman» *Journal of Economic and Social History of the Orient*, vol. 1 (1958), pp. 9-36.

ذلك، فالمعلمان الوحيدان في المغرب العربي، أي الجامع الجديد في الجزائر وجامع سيدي محرز في تونس، هما أحدث عهداً (يعودان إلى عامي ١٦٦٠ و١٦٦٨ على التوالي) ويعبران عن إرادة راعييهما المحليين لتأكيد صلاتهما الرمزية بالباب العالي، وليس لإرادة المعمارين الرسميين لإسطنبول^(١٦). تقترح هذه الملاحظات، إضافة إلى كل الاعتبارات الأخرى، أن المسافة مع إسطنبول، كبرت أو قلت، كان لها عامل التمييز بامتياز بين المدن العثمانية، غير أنه ليس ممكناً في هذه اللحظة تقييم أهميتها على نحو دقيق.

إلى ذلك، يتعين علينا النظر في عامل الوحدة بين مدن السلطنة الذي يتفق عدة باحثين على اعتباره حاسماً، أي باعتبارها مدناً إسلامية، أو على الأقل مدناً تحت الحكم الإسلامي (إذ إن في العديد منها، وهذا لا ينطبق على البلقان فقط، أقليات واسعة، أو ربما حتى أكثريات، غير مسلمة أحياناً). والعلماء الذين يتمسكون برأي غرونباوم ومارسيه في أن الإسلام، كعقيدة، ونظام شرعي، وكثقافة بوجه عام، يعين نمطاً لمدينة محددة يدعونها «المدينة الإسلامية»، سوف يميلون إلى المطابقة بين المدينة العثمانية والمدينة الإسلامية (مدن «المشرق» أو «الشرق» بكلمات مؤرخي البلقان) ولا يميزون بالتالي ما بين المدن العثمانية.

ومع ذلك، لا نستطيع إلا أن نلاحظ الاختلافات بين المدارس الحنفية والمالكية والشافعية في الفقه والقضاء التي تشارك مناطق السلطنة وتقطع المشرق، عن المقاطعات المركزية وعن المغرب في آن، بالرغم من أنه صحيح أيضاً أن لهذه الاختلافات تأثيراً طفيفاً في المدن، عدا الاختلافات المعروفة في أساليب بناء المساجد والمآذن. ما هو أكثر أهمية التغيرات في العصر وظروف الأسلمة في المناطق. وهنا نحن نتحدث تحديداً عن التناقض بين المناطق العربية والمناطق المركزية. فمن جهة، هناك مناطق تمت فيها الأسلمة قبل السيطرة العثمانية بعدة قرون وهي مرتبطة باللغة والثقافة العربيتين. وفي المقاطعات المركزية، وبالرغم من أنه يتعين التمييز بين الأناضول الشرقي والأوسط حيث تمت الأسلمة في زمن أحدث نسبياً من المقاطعات العربية، فقد جرت الأسلمة قبل وصول العثمانيين وتطورت في ثقافة كانت شديدة التأثير ببلاد فارس؛ وبين الأناضول الشمالي والغربي والبلقان حيث أتى العثمانيون أنفسهم بالإسلام، في شكل ينحدر من الإسلام الأناضولي ومطبوع بالتالي بالثقافة الفارسية.

André Raymond, «L'Architecture dans les pays arabes à l'époque ottomane», dans: Robert (١٦) Mantran, ed., *Histoire de l'empire ottoman* (Paris: Fayard, 1989), pp. 684-688.

تسبب هذه الأوضاع المختلفة بافتراقات واضحة، على الأقل في الأساليب المعمارية والمصطلحات، وليس بالضرورة في الواقع الذي يشير إليه الأخير؛ فمفردنا «بازار»، التي تشير إلى المركز التجاري، و«بادستان» (وهي تحريف لـ «بازستان») التي تشير إلى السوق المسقوفة حيث يتم الاتجار بالسلع الثمينة والعناية بها، شائعتان في مختلف مدن السلطنة. غير أن الاختلافات في التسمية تفصل المقاطعات العربية عن المركزية: ففي المقاطعات المركزية، الخان أو الكروان سراي، تعني على التوالي مخازن، وتُزَل صغيرة للمسافرين والتجار، ومراكز للبيع بالجملة، ولا يشار إليها بالمفردات المستخدمة في الوقت الحالي في المقاطعات العربية، أي القيصرية، والفندق، والوكالة. تستخدم المقاطعات المركزية مصطلح «دكان» فقط للإشارة إلى المتاجر، باستثناء الـ «حانوت». يطلق على الشوارع وأجزاء من الشوارع المتخصصة المصطفة مع المحال التشارسي وليس السوق. والمسألة هنا ألسنية بحتة، ذلك بأن المفردات كافة إنما تشير إلى الوحدات التجارية نفسها.

إذا حاولنا اليوم تلخيص السمات المشتركة للمدن العثمانية كافة، وكذلك الاختلافات الصغيرة التي أشرنا إليها في حينها، يتعين علينا الافتراض أن هذه المدن هي على ارتباط وثيق (ولنتذكر المركز الاقتصادي المديني السابق). إلا أن بعض التفاوت، وكما نقول، هو أمر ممكن كما في المصطلحات والأسلوب المعماري على سبيل المثال. أما إذا أردنا على نحو أفضل تقييم تأثير الظروف المتشابهة جزئياً من جهة والمختلفة جزئياً من جهة ثانية في خصوص الأجزاء الرئيسية للنسيج المديني، فعلينا ترك حقل التكهّنات والانتقال بدلاً من ذلك إلى المقارنات الملموسة للمعطيات: رسم المخطط العام، ومخطط العقارات المفروزة، والمساحة المبنية، ومنطقة التوزيع؛ بل كذلك التوزيع المكاني للوظائف والسكان تبعاً للثروة أو الهوية الإثنية - الدينية (وقد أظهرت معظم المدن تنوعاً في هذا الخصوص، الأمر الذي جعل «المشرق» أقرب إلى المقاطعات المركزية مما كان عليه «المغرب»).

يستلزم هذا النوع من التمرين أن ينخرط الاختصاصيون من مناطق مختلفة في حوار يتجاوز الانقسام الأكاديمي بين الاختصاصيين العرب والعثمانيين الذي مرّ معنا، وليغدو البحث بالتالي وعلى الجانبين بالسرعة عينها وفي اتجاهات متشابهة. وبحسب رأينا أن ذلك لم يجر بصورة كافية، حتى اليوم على الأقل. وسواء كانت مدن المقاطعات العربية والمدن المركزية مختلفة جذرياً أم لا، فمن الواضح أنها كانت تُدرس بطرائق مختلفة ومن أشخاص مختلفين. هذا التفاوت يجب ويمكن إصلاحه، شرط أن تكون

المدن موضوع البحث تنتمي إلى المرحلة نفسها وإلى البنية الإدارية والسياسية عينها - وهما شرطاً للبحث الميداني والأرشيقي - ومتشابهة على نطاق واسع وإلى حد كبير. والمغرب لا يحظى، في هذا المجال، بأفضليات مقارنة مع بقية أجزاء السلطنة، إذ لم تحتفظ بيروقراطية إسطنبول بسجلات إحصائية للمنطقة، وهو أيضاً حال بلدان عربية أخرى (مصر والحجاز وجزء من العراق). إلى ذلك، فالسجلات القضائية هي أيضاً قليلة.

يعتبر العمل الميداني في المقاطعات العربية أكثر تطوراً، ويعود الفضل في ذلك إلى «المدرسة الفرنسية» (مع عدم إغفال حقيقة ارتباط ذلك بالظرف الاستعماري بالطبع)، لكن اللجوء إلى الأرشيقي العثماني يبقى غير متاح دائماً، إما للنقص فيه (إذ لم يجر العثمانيون إحصاءً في القاهرة والجزائر وتونس وبغداد ومكة والمدينة) وإما لأن الوصول إليه لم يكن متاحاً، على الأقل في البداية؛ وهو مكن الحرص الذي أبداه الباحثون في تخمين مستوى السكان لمدينة ما وتطورها على قاعدة «علامات مدنية» ملموسة (المساحة المبنية، وأنواع المساكن، وعدد الحمامات، والاختلاف في مساحة جوامع الخطبة، وحركة المدايح)، وذلك حين طبقوا الطرائق التي فصلها تورييس بالباس، مؤرخ المدن الإسلامية الإسبانية في القرون الوسطى. لقد مهد ذلك الطريق أمام تحقيقات ملموسة أكثر^(١٧).

خلافاً لذلك، فالدراسات المونوغرافية (الفردية) حول المدن التقليدية (قبل إصلاحات القرن التاسع عشر)^(١٨) كثيرة في الحقل التركي، غير أنها تميل لأن تكون «مكتبية» جداً، بل تغطي عليها مادة الأرشيقي التركي، للتطابق مع ما يسميه خليل بركاتي «عبادة الوثائق»، متجاهلة معالجة الأسئلة، ولا سيما تلك المرتبطة بالمدينة. وفي أحسن الأحوال فهي، حين لا تقع في إطار المدرسية المحلية، ستكون مساهمات في التاريخ الاجتماعي والمؤسسي أكثر منها دراسات حول المدينة (بلديسيانو، إينالشيك، مانتران، تودوروف، إرجينك، جيرير، فاروقي). ويبدو أن مؤرخي المدن

(١٧) انظر: Leopoldo Torrès Balbas, «Extension y demografia de las ciudades hispano-musulmanas», *Studia Islamica*, no. 3 (1955); Alexandre Lezine, *Deux Villes d'Ifrîqiya* (Paris: Librairie Orientaliste Paul Geuthner, 1971), and André Raymond, «Signes Urbains et étude de la population des grandes villes arabes à l'époque ottomane», *Bulletin d'études Orientales*, vol. 27 (1947).

(١٨) غيّرت الإصلاحات في المؤسسات المدنية في حقبة «التنظيمات» والسياق العام للنصف الثاني من القرن التاسع عشر في شروط تصميم المدينة العثمانية: لكننا لا نبحث هذه الفترة حيث اكتسبت وحدة المدينة العثمانية خصائص جديدة، ولا أدبيات هذا الموضوع، وبخاصة الحديث منها. انظر: Ilbert, *Villes Ottomanes à la fin de l'empire*.

العربية ولا سيما ريمون، ورفيق، وعبد النور، كان لهم قصب السبق مجدداً في الإفادة من السجلات القضائية، من دون القول إن هذه المصادر لم تكن موضوع الأعمال الرائدة في الدراسة التركيبولوجية لفترة زمنية طويلة (إينالشيك، باركان، جينيغر، تودوروف، إرجينك، أوزدمير، فاروقي وجيرير)، لكنهم وكتاباً آخرين، لم يحرصوا بوضوح في رأينا على دراسة هذه المواد في إطار البنى المكانية للمدينة وتوزع سكانها.

في ضوء ذلك كله، ما من داع إلى المبالغة، فالهوة بين المقاربتين آخذة بالتقليص: إذ كان هناك، خلال العقود الأخيرة، دراسات كثيرة وجادة بما يكفي حول النواحي الملموسة للمدينة في المقاطعات المركزية، وهو ما سمح لنا بإقامة المقارنات مع المدن العربية في هذه النقاط (المسكن المدني^(١٩)، والبنى المادية^(٢٠)، والمنشآت^(٢١)، والنسيج المدني^(٢٢)).

(١٩) انظر: Eski Balci, *Istanbul evleri ve Bogaziçi yahlari* [Old Houses of Istanbul and Residences: انظر: of the Posporus] (Istanbul: [n. pb.], 1975); Rifat Osman, *Edirne evleri ve konaklari* [Houses and Palaces in Edirne], edited by A. S. Ünver (Istanbul: [n. pb.], 1976); Nezihe Araz, «Eski Bursa Evleri,» [Bursa's Old Houses] *Sanat Dunyamiz*, vol. 4, no. 10 (1977), pp. 6-21; Bülent Cetinor, «Eski Ankara Evleri,» [Ankara's Old Houses] *İlgi*, vol. 8, no. 27 (1979), pp. 7-13; Ayda Arel, *Osmanlı Konut geleneğinde tarihsel sorunlar* [Historical Questions on the Traditional Ottoman Habitat] (Izmir: E.Ü. Güzel Sanatlar Fakültesi Yayınları, 1982); Sedat Hakki Eldem: *Türk evi Plan Tipleri* [Layout Types of Turkish House] (Istanbul: Istanbul Teknik, 1940); *Türk evi: Osmanlı Dönemi* [The Turkish House: Ottoman Period], vol. 1 (Istanbul: Istanbul Teknik, 1984); Surayia Faroqhi, *Men of Modest Substance: House Owners and House Property in Seventeenth-Century Ankara and Kayseri*, Cambridge Studies in Islamic Civilization (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1987); Alain Borie and Pierre Pinon: «La Maison turque,» *Bulletin d'information architecturale*, nos. 20-21 (1988); «Maisons Ottoman à Bursa,» dans: *L'Habitat traditionnel dans les pays Musulmans: Actes du colloque tenu à Aix-en-Provence en 1984*, vol. III (Paris: [n. pb.], 1991); Pierre Pinon, «Le Voyage d'Orient de L'Architect Jean-Nicolas Huyot (1817-1820) et la découverte de la maison Ottoman,» *Turica*, vol. 26 (1994), pp. 211-240.

(٢٠) انظر خصوصاً: Gonul Tankut: «The Spatial Distribution of Urban Activities in the Ottoman City,» *TA*, vol. 3, no. 211 (1993), pp. 245-265, and *Nauplia-Anabolu-Napoli di Romania: A Structural Analysis* (Ankara: [n. pb.], 1978).

(٢١) انظر خصوصاً: Salih Orhonlu, ed., *Osmanlı İmparatorluğunda Şehircilik ve Ulaşım üzerine Araştırmalar* [Studies on City Planning and Communications in the Ottoman Empire] (Izmir: Ege Üniversitesi, 1940); Kazım Cecen, *Istanbul'da Osmanlı Devrinde Su Tesisleri* [Water Supply Installations in the Ottoman Period] (Istanbul: TÜ yayınları, 1979).

(٢٢) S. Aktüre: «17. Yüzyıl başından 19. Yüzyıl ortasına kadarki dönemde Anadolu Osmanlı şehrinde şehirselsel yapının değişme süreci,» [Transformation Process of the Urban Structure of the Ottoman Town between the early 17th and the 19th C.] *Mimar Fakültesi*, vol. 1, no. 1 (1975), pp. 101-128; «19. Yüzyıl sonunda Anadolu Kenti mekansal yapı çözümü,» [The Dissolution of the Spatial Structure of the Anatolian Town at the End of the 19th C.] (Ankara: [n. pb.], 1987), and Maurice Cerasi, «Il tessuto residenziale della città ottomana (sec. XVII-XIX),» *Storia della città*, nos. 31-32 (1985), pp. 105-122.

في تركيب للتائج الأولى للبحث حول النسيج المدني، يخلص بينو^(٢٣) إلى أن الانقسام الحقيقي لا يقوم بين مدن المقاطعات العربية والمركزية، بل إن خط التقسيم هو ذلك الذي يعبر الأناضول ليصل إزمير بأرضروم، أو بدقة أكبر، الأناضول بأرضروم. وهو يناقض بالتالي البلقان وشمال غرب الأناضول من جهة وجنوب شرق الأناضول من جهة أخرى، وتتصل الأخيرة بالمقاطعات العربية، أي الشرق الأدنى والمغرب، ومن دون أن يكون لهذا الاتصال أي معنى إثني أو قومي. يؤكد نمط المسكن هذا الانشقاق. البلقان وشمال غرب الأناضول هما مقر ما يسمى المنزل «التركي» (الذي يسمى أيضاً من بعض المؤلفين المنزل «العثماني»، «البلغاري» أو حتى «البيزنطي»): منزل فيه «حياة» أو «صوفا»، أي قاعة في الوسط تحيط بها غرف على جوانبها؛ ويتألف المنزل من طابقين، مع منصة صلبة، مصنوعة من الخشب أو في إطار خشبي مليء بمواد مختلطة، ومغطى بسقف متدلٍ منحدر، وطنف مسقط، ومدهون بألوان لماعة أو ناعمة.

وأخيراً، يتميز المنزل من الخارج بأنه مفتوح، إن صح التعبير، إذ لديه العديد من النوافذ، وفي بعض الأحيان الأبواب، التي تطل على الشارع. ولا تزال نماذج من هذا النوع حية في أفيون وبورصة وتوكات وكولا وبرجي وأنقرة وإسطنبول وكاستوريا وسراييفو وأدرنة وبلوفديف وأمبلاكيا وميلنيك. غير أنه يتعين على الفرد أن يتذكر أن هذه المنازل لا تؤرخ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وخضعت لتأثير غربي. والمنزل العثماني الأكثر قدماً ليس معروفاً تماماً. ويظهر أنه كان «انطوائياً» وأقرب في هذه النقطة إلى المنزل العربي ذي القاعة المركزية السائدة في حلب والمدن الأناضولية جنوب خط التقسيم المحدد سابقاً: ديار بكر وأورفة وماردين وقيصرية.

يلاحظ بينو أن الأعمال المنسوبة إلى سنان «معمار باشا» نادرة، ليس في المقاطعات العربية فقط، كما قلنا آنفاً، وإنما أيضاً جنوب الخط نفسه (حيث يمكن إيجاد معالم محدودة فقط في قونيا وقيصرية وبياص وديار بكر).

أخيراً، ينطبق هذا التقسيم على تصميم المدينة ومورفولوجيتها (بالمعنى الذي استخدمه بانيراي) بطريقة ليست غير مرتبطة بالاختلاف في المسكن، الذي، كما ذكرنا، تزايد مع مرور الوقت. فبخلاف المدن الغربية، وحتى مدن القرون الوسطى، تشارك المدن العثمانية كافة بلا شك خصائص معينة، كمناطق ذات امتداد أقل تواصلاً هندسياً وطبوغرافياً والمزيد من القطع غير النظامية التي ظهرت مع الوقت، كالمسكن الخاص

والاهتمامات التي يغذيها بلا شك القانون الإسلامي، والمتهكة على الأرض العامة. وفي حين أن مورفولوجيا المدن جنوب شرق الأناضول متشابهة جداً مع مورفولوجيا المدن في المشرق والمغرب، بمقدار ما يمكن التعميم (وعلى سبيل المثال، فتصميم قيصرية وقونيا وأورفة وديار بكر مشابه لتصميم حلب والموصل)، في حين هناك اختلافات ملموسة في البلقان وشمال شرق الأناضول: من السهل تحديد محاور مهمة متصلة في الوسط وممتدة من خلال الطرق الأساسية (وهذه المحاور هي أكثر عدداً من تلك في المدن العربية)؛ وشوارع مستقيمة وغير نافذة؛ ومساكن أقل كثافة (تقع المنازل داخل الحداثق ولديها حائط واحد مشترك مع حدودها الخارجية)، ولكن هذا النمط المتناثر من المنازل متصل جزئياً بالشارع بواسطة الواجهات، وهذا اختلاف آخر.

ويستتج بينو، بالتالي، أن هناك فعلاً نمطاً مدينياً أصيلاً، لنقل، بين المدن «العربية» و«الغربية». وإذا تأكد هذا التحليل بدراسات ومقارنات مستقبلية، فسيكون أمراً مشروعاً استخدام مصطلح «المدينة العثمانية» باعتبارها نمطاً لهذا النوع من المدن.

القسم الثالث

دراسة حالات

الفصل العاشر

بغداد في العصر العباسي: عاصمة عالمية متعددة الطوائف

فرنسواز ميشو^(*)

ينقسم تاريخ بغداد إلى ثلاثة أزمنة؛ فقد عرفها العالم أولاً عاصمة عظيمة للخلفاء العباسيين، منذ تأسيسها عام ١٤٥هـ / ٧٦٢م على يد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ولغاية غزوها من الجيوش المغولية عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، ثم تحولها قروناً إلى عاصمة إقليمية بسيطة؛ وقبل أن تصبح، منذ عام ١٩٢١، عاصمة المملكة العراقية التي يصدمنا واقعها المأساوي بصور يومية من الخراب. وسيقتصر هذا الفصل على الفترة الأولى فقط^(١).

لم يبقَ شيء من عاصمة الخلفاء العباسيين، فقد اختفت المباني وغاب النسيج المدني، عدا بعض الاستثناءات. قضت الحرائق والفيضانات والدمار والحروب والاجتياحات، أو بكل بساطة تقادم القرون، على جميع آثار مباني الخلفاء المصنوعة في معظم الأحيان من الطوب الخام وجعلت من بغداد بالتالي عاصمة «من دون موقع

(*) أستاذة جامعية في التاريخ والحضارة، جامعة باريس، السوربون.

(١) في ما يتعلق بتاريخ بغداد في العصر العباسي، انظر: المورد، السنة ٨، العدد ٤ (١٩٧٩)، Guy Le Strange, *Baghdad during the Abbasid Caliphate* (Oxford: Oxford University Press, 1900; Reprint London: 1972); «Baghdad», in: *Encyclopaedia of Islam*, vol. I; *Arabica*, Special Issue, 9 (1962), and Françoise Micheau, *Grandes Villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, sous la direction de Jean Claude Garcin, Collection de l'École française de Rome; 269 (Roma: Collection de l'École française de Rome, 2000), pp. 87-112.

للمذاكرة^(٢). وراهنأ تراققت حملات المسح والترميم مع عدة دراسات محددة حول مباني المدينة^(٣). يتبين أن أقدم الآثار تعود إلى القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد وأن عددها متدن جداً؛ أهمها، المدرسة المستنصرية التي تأسست عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م وهجرت في القرن السابع عشر ثم رمت عامي ١٩٤٥ و ١٩٦٠ وحوّلت اليوم إلى متحف. كما يمكن إضافة أربع مآذن منعزلة: «القصر العباسي» (المرجح أنه بني على يد الخليفة الناصر ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م - ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، وبابان من سور المستظهر (الباب الوسطاني وباب الطلسم)، وأخيراً بعض الأضرحة. وهذا قليل جداً ولا يقارن بعدد وعظمة القصور والمساجد ومنازل الأمراء التي حوتها المدينة خلال القرون الوسطى.

حتى إن أسماء الأماكن وتصميم الطرقات لم يحفظا ذكرى العصور القديمة. وحده تصميم السور الذي بناه المستظهر عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، بقي على ما كان عليه منذ أواخر القرن الخامس/ الحادي عشر ولغاية عام ١٨٧٠، حيث دمر باستثناء البابين المذكورين أعلاه.

إلى ذلك، ليست خرائط بغداد العباسية سوى محاولة لإعادة تشكيل معالم المنطقة على أساس المعلومات الصادرة عن الجغرافيين العرب القدامى. وهي افتراضية إلى حد بعيد، ولا سيّما أن مجرى دجلة والمساحة المدنية قد خضعا لتحوّلات جذرية مع مرور القرون. أما العمل الرائد في هذا المجال، الذي لا يزال يشكل مرجعاً للجميع، فهو عمل لو ستراينج. غير أن المؤلف نفسه لم يعتبر أن خرائطه الموضوعية حسب الفترة الزمنية والحيّ نهائية: «خرائط لبغداد خلال القرون الوسطى هي تجريبية إلى حد ما»^(٤).

منذ الخمسينيات، أجرى العلماء العراقيون دراسات مهمة حول تاريخ المدينة وطبوغرافيتها، محاولين إتمام المعلومات التي أتى بها المستشرق أو تفصيلها أو حتى تصحيحها^(٥).

(٢) Vincenzo Strika, *The Islamic Architecture of Baghdad: The Results of a Joint Italian-Iraqi Survey*, Supplemento, no. 52 agli Annali, vol. 47 ([n. p.]: Istituto Universitario Orientale, 1987), Annexe 52, and Marie-Odile Rousset, *L'Archéologie islamique en Iraq: Bilan et perspectives* (Damas: IFPO, 1992).

(٣) Le Strange, *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, pp. 352-356.

(٤) ولا سيّما: أحمد سومة ومصطفى جواد، دليل خريطة بغداد المفضل في خطط بغداد قديماً وحديثاً (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٨)؛ صالح أحمد العلي، بغداد مدينة السلام: الجانب الغربي، ج ٢ (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٥)، ج ١: إنشاؤها وتنظيم سكانها في العهود العباسية الأولى؛ ج ٢: التوسع وتطوره، ومشاركات عديدة في مجلة المورد.

ومع أنه تحققت بعض الاكتشافات خلال أعمال الحفر الأخيرة، فإن أياً من الحفريات الأثرية تلك لم يكن حفراً معمارياً. أما الأبحاث التي كانت لا تزال ممكنة في أوائل هذا القرن عندما كانت معظم الأراضي زراعية أو بوراً، لم تعد ممكنة اليوم نتيجة تطور التمدين.

وهكذا، تركز معرفتنا ببغداد العباسية على المصادر المكتوبة المتوافرة فقط، وهي متعددة لحسن الحظ، وقد استعملها المؤرخون المعاصرون بكثافة. أما أبرز ثلاثة كتب تصف بغداد خلال العصر العباسي فالفها اليعقوبي وابن سرايون والخطيب البغدادي. افتتح الأول كتاب البلدان الذي ألفه عام ٢٧٨هـ/ ٨٩١م بروايته الشهيرة عن تأسيس «المدينة المستديرة» وبلائحة دقيقة تحدد القطيعات والمستفيدين منها^(٥). قدّم ابن سرايون وصفاً دقيقاً لقنوات بغداد خلال أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي التي شكلت نقطة انطلاق لجميع محاولات استعادة الطبوغرافيا المدنية^(٦). أما الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)، فاستهل كتابه المعنون تاريخ بغداد، بوصف قيم للمدينة، وقد ضم الكتاب مجموعة من نصوص الحديث الشريف، مستوحاة من المؤلفين السابقين، وليس شهادة حول المدينة خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي^(٧). إن النصوص التي وضعها أبرز جغرافي العصر العباسي الآخرين، على غرار ابن حوقل والمقدسي، هي أقل غنى من ناحية المعلومات^(٨). في المقابل، يقدم وصف ابن عقيل لبغداد (ت ٥١٣هـ/ ١١١٩م) معلومات قيمة جداً حول المدينة

(٥) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، كتاب البلدان (لندن: مطبعة بريل، ١٨٩٢)، و Ahmad ibn Abi Yaqub, *Les Pays*, traduit par Gaston Wiet, Publications de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire; 1 (Le Caire: Publications de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire, 1937), pp. 237-254.

(٦) Guy Le Strange, ed. and trans., «Description of Mesopotamia and Baghdad, Written about the Year 900 A. D. by Ibn Scrapion», *Journal of the Royal Asiatic Society* (1895), pp. 1-76 and 255-315.

(٧) نشر وترجمة الجزء الطبوغرافي من قِبل جورج سلمون في: Georges Salmon, *L'Introduction topographique à l'histoire de Bagdad* (Paris: É. Bouillon, 1904), and Jacob Lassner, *The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages* (Detroit: Wayne State University Press, 1970), pp. 43-118.

(٨) أبو القاسم محمد بن حوقل، المسالك والممالك، طبعة ج. هـ. كرامرز، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٢ (لندن: مطبعة بريل، ١٩٣٨)، ص ١٦٤ - ١٦٥؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٣ (لندن: بريل، ١٨٧٧)، ص ١١٩ - ١٢١، Abu al Qasim Muhammad Ibn Hawqal, *Configuration de la Terre (Kitab Surat Allard)*, introduction et traduction, avec index par J. H. Kramers et G. Wiet, Collection UNESCO d'oeuvres représentatives; Serie Arabe (Beirut; Paris: Commission Internationale pour la traduction des chefs d'oeuvre, 1964), pp. 233-234. Muhammad Ibn Ahmad Muqaddasi, *The Best Divisions for Knowledge of the Regions: A Translation of Ahsan Al-Taqasim Fi Ma'rifat al-Aqalim*, translated by Basil Anthony Collins; reviewed by Muhammad Hamid al-Tai, *Great books of Islamic Civilisation* (Reading UK: Garnet Publishing, 1994), pp. 108-110.

بُعِيد فتح السلاجقة^(٩). وتؤكد شهادات الجغرافيين والرحالة اللاحقين، على غرار ابن جبير الذي مر بالمدينة عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، وياقوت الذي كتب معجم البلدان عام ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م، أو ابن بطوطة الذي أقام فيها في القرن الثالث عشر - الرابع عشر، بصورة خاصة على تراجع المدينة بعد أن تميزت بعظمتها؛ وتقدم أيضاً معلومات تكميلية مجدية أحياناً.

من الواضح أن المؤلفات التاريخية متعددة وأنها تمدنا بمراجع طبوغرافية كثيرة وتسمح بكتابة تاريخ المدينة المؤسسي والاجتماعي؛ وأهمها، على سبيل الذكر لا الحصر: تاريخ الأمم والملوك للطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م)، ومروج الذهب للمسعودي (ت ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م)، وتجارب الأمم لمسكويه (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، والمنتظم لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م). كما تتضمن مذكرات جليس الأمراء الصولي (ت ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م) معلومات كثيرة. أما المعاجم أو الطبقات، وفي صدارتها تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المذكور أعلاه لمقدمته، فتزودنا بأدوات لأبحاث اجتماعية ينبغي إجراؤها^(١٠).

يختلط تاريخ بغداد إلى حد بعيد بتاريخ الخلفاء، كما جاء على لسان لو ستراينج: «إن تاريخ المدينة هو تاريخ الخلافة العباسية»؛ ويردد لاسنر العبارة نفسها: «كان نمط النمو محدداً بطابع المدينة باعتبارها المركز الإداري للمملكة»^(١١). وفي الحقيقة، فقد تزامن ازدهار المدن مع عظمة الخلفاء.

تولى العباسيون الخلافة بعد الأمويين الذين كانوا يستمدون قوتهم من سورية واختاروا دمشق عاصمة لهم. بدلاً من ذلك التفت العباسيون نحو بلاد ما بين النهرين وصولاً إلى إيران. والعباسيون سلالة جديدة تنتمي إلى العباس، عم النبي، جعلت من بغداد عاصمة لها بعد أن اختارت بعض المواقع الأخرى في أسفل العراق. لم يضع الخليفة المنصور حجر الأساس لما سيصبح من أبرز المدن في العالم فقط، بل هو

(٩) وصف وَرَدَ في: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، مناقب بغداد (بغداد: مطبعة دار السلام، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م)، و George Makdisi, «The Topography of Eleventh Century Bagdād: Materials and Notes», *Arabica*, vol. 6, no. 3 (September 1959), pp. 185-195.

(١٠) ستدافع فانسيا فان رنترغيم عن أطروحة حضرته تحت إشرافي حول النخبة البغدادية خلال القرن الأول من عهد السلاجقة، وقد تمكنت من وضع قاعدة بيانات تضم أكثر من ٢٠٠٠ شخص من خلال التعمق في دراسة الطبقات.

(١١) Le Strange, *Baghdad during the Abbassid Caliphate*, p. 301, and Lassner, *The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages*, p. 117.

فتح أيضاً صفحة جديدة في تاريخ البلدان الإسلامية؛ فمن الآن وصاعداً سوف تصبح عاصمة الدولة بعيدة من مناطق البحر المتوسط، وبالأحرى في الشرق، في جوار بلاد فارس وثرواتها وسلعها، المادية والثقافية، في الرجال والجنود والعلماء.

لم تنفك المصادر الوصفية، ولا سيما كتاب اليعقوبي، تشي على «المدينة المستديرة» التي بناها الخليفة المنصور عام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م: في وسط ساحة شاسعة خالية من أي بناء، شيد قصرًا تعلوه قبة خضراء هائلة وإلى جانبه الجامع الكبير. توزعت المنازل المخصصة لاستقبال نخبة موظفي الدولة والضباط حول القصر. كما تضمنت هذه الحلقة المبنية أربعة شوارع ذات أربعة أبواب: باب البصرة وباب الكوفة وباب خراسان وباب الشام. كان من شأن هذه الأبنية الهندسية أن تثير الرهبة والاحترام لدى من ينظر إليها من الخارج بخندقها وجدرانها وأبوابها المحروسة. أما شكلها الدائري المستوحي من حضارة بلاد ما بين النهرين فمثير للاهتمام بمعناه الرمزي، إذ يقع مقر السلالة الجديدة وسط دائرة تنفتح على الأراضي الخاضعة للسيطرة بواسطة أربعة أبواب: في الجنوب تقع ضفاف الخليج العربي والمحيط الهندي، وفي الشرق هضبة إيران وسهب آسيا الوسطى، وفي الشمال والغرب تقع بلاد ما بين النهرين العليا والأناضول وسورية. وينسب الجغرافي اليعقوبي الأقوال التالية إلى المنصور وهي تنبئ بالدور المركزي الذي ستقوم به بغداد:

«كل ما يأتي في دجلة، من واسط، والبصرة، والأبلة، والأهواز، وفارس، وعمان واليمامة، والبحرين، وما يتصل بذلك فإليها ترقى، وترسى. وكذلك ما يأتي من الموصل، وديار ربيعة، وأذربيجان، وأرمينيا، مما يحمل في السفن في دجلة. وما يأتي من ديار مصر والرقعة، والشام، والثغور، ومصر، والمغرب، مما يحمل في السفن في الفرات، فيها يحتط وينزل، ومدرجة أهل الجبل وأصبهان وكور خراسان. فالحمد لله الذي ذخرها لي، وأغفل عنها كل من تقدمني»^(١٢).

أصبحت مدينة بغداد قلب العالم ووريثة الحضارات الماضية. وكما جاء في حديث ذكره الطبري والخطيب، أمر المنصور بتدمير قصر كسرى لكي تستعمل أنقاضه لبناء «المدينة المستديرة». وتشير الرواية، وإن كانت غير محتملة، إلى إرادة الخلفاء في وضع يدهم على إرث الساسانيين والحصول على ولاء سكان هذه الإمبراطورية الزائلة.

(١٢) يقدم هذا النص وصفاً أصلياً لقنوات التواصل التي غطت بغداد في الزمن الذي كتب فيه اليعقوبي، انظر:

Yaqubi, *Les Pays*, p. 10.

اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٣٧ - ٢٣٨، و

أثارت «المدينة المستديرة» اهتمام المؤرخين نظراً لهندستها الغربية، من دون أن يتفقوا على قياساتها (حددوا قطرها بين ٢ و ٣ كم) أو موقعها الصحيح أو ترتيبها الدقيق، بسبب غياب أي أثر لها. غير أنهم حصروا المدينة الأصلية بهذه البنية الهندسية التي لم تكن في الحقيقة سوى نوع من «المدينة - القصر» ونوع من البلاط المؤلف من «أملاك الخليفة الخاصة التي تتضمن القصر والجهاز الحكومي»^(١٣). وفي كل الأحوال، صمّم المنصور مدينة حقيقية ومنح امتيازات (قطيعات) لأعضاء بلاطه من عسكريين ومدنيين. ويظهر وصف اليعقوبي كياناً مدينيّاً إرادياً، مع مساحات عامة شاسعة في كل حي:

«ووقع إلى كل أصحاب ربع ما يصير لكل رجل من الذرع، ولمن معه من أصحابه، وما قدره للحوانيت والأسواق في كل ربع، وأمرهم أن يوسعوا في الحوانيت، ليكون في كل ربع سوق جامعة، تجمع التجارات، وأن يجعلوا في كل ربع من السكك والدروب النافذة وغير النافذة، ما يعتدل المنازل. وأن يسموا كل درب باسم القائد النازل فيه، أو الرجل النبيه الذي ينزله، أو أهل البلد الذين يسكنونه. وحد لهم أن يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعاً بالسوداء؛ والدروب ست عشرة ذراعاً. وأن يبتنوا في جميع الأرباض والأسواق والدروب من المساجد والحمامات ما يكتفي من في كل ناحية ومحلة»^(١٤).

شكّلت هذه القطيعات نقطة انطلاق الأحياء الشاسعة التي تميزت بها الضفة الغربية وأهمها حي الكرخ في جنوب «المدينة المستديرة» الذي كان الأكثر أهمية والأكثر اكتظاظاً بالسكان.

بعد تأسيس «المدينة المستديرة» وأحيائها المجاورة على الضفة الغربية للدجلة، تطورت المدينة وتحددت بنيتها على أساس المنشآت البلاطية المتعاقبة. في الواقع، أدت الحرب الأهلية التي دارت بين الأمين والمأمون، ولَدَيَّ هارون الرشيد وشهدت معارك في العاصمة العباسية لعدة أشهر عام ١٩٨ هـ / ٨١٤ م، إلى تدمير كبير في المدينة. وما إن هجر الخلفاء اللاحقون «المدينة المستديرة» كمقر للإقامة، حتى آلت إلى الخراب، لتعود هذه المساحة إلى الاندماج في النسيج المديني.

منذ عهد المنصور، ساهم كيانان عمرانيان آخران في توسيع المساحة المدينية: الأول هو قصر الخلد الذي شُيّد عام ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م في شمال «المدينة المستديرة» على

Lassner, Ibid., p. 144.

Yaqubi, Ibid., pp. 18-19.

(١٣)

(١٤) اليعقوبي، المصدر نفسه، ص ٢٤٢، و

شاطئ دجلة؛ والثاني مجمع واسع مخصص لورثته المهدي، تضمن قصرًا وجامعًا على الضفة الشرقية للدجلة. كان هذا القصر الأساس لحي الرصافة، وحتى لتطور المدينة على الضفة الشرقية، مع حي الشماسية في الشمال وحي المخرم لناعية الجنوب.

خلال الحرب الأهلية الثانية عام ٢٥١هـ / ٨٦٥م، سيج الخليفة «المستعين» المدينة بسور تضمن، على الضفة الشرقية، هذه الأحياء الثلاثة (الرصافة والشماسية والمخرم، من باب الشماسية وصولاً إلى سوق الثلاثاء)، وامتد، على الضفة الغربية، من قطيعة أم جعفر إلى قصر حميد. غالباً ما ورد هذا السور على الخرائط كعنصر مستديم من الطبوغرافيا المدنية، غير أنه من المرجح أنه زال بسرعة ولا سيما أن الجغرافيين العرب لم يشيروا إليه في وصفهم كما لم يأت المؤرخون على ذكره عندما تطرقوا إلى أعمال المعتضد.

بعد عودتهم من سامراء في أواخر القرن الثالث/ الرابع الهجري، تركز الخلفاء العباسيون من جديد على الضفة الشرقية، ولكن باتجاه الجنوب حيث شكّلوا، بفضل التوسيع والضم وإعادة الإعمار، مجتمعا مهماً تضمن القصور الثلاثة الرئيسية:

- القصر الجعفري، أو المأموني أو الحسني. تُفسر هذه التسميات المختلفة في ضوء تاريخ المكان: لقد بنى الوزير جعفر البرمكي هذا القصر في جنوب حي المخرم ثم ورّثه إلى المأمون الذي جمّله قبل أن يتركه لوزيره حسن. ثم أقام المعتضد فيه ابتداء من عام ٢٧٩هـ / ٨٩١م بعد أن وسّعه إلى حد كبير.

- قصر الفردوس، الذي بناه المعتضد بشكل يشرف فيه على القصر الحسني.

- قصر التاج الذي أسسه المعتضد في أسفل القصر الحسني والذي أنهى بناءه ابنه المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥هـ / ٩٠١ - ٩٠٧م) والذي وسّعه المقتدر. أصبح هذا القصر المقام الرئيسي للخلفاء وزوّد بممر تحت الأرض يوصله بقصر الثريا.

ولم تكن هذه المباني الوحيدة، إذ كان الحرم الخلفي يتضمن قصوراً عديدة، أو بالأحرى أجنحة، على غرار قصر الشجرة الذي حمل هذا الاسم تيمناً بالشجرة الفضية الموجودة في وسطه، أو قصر الجوسق ببركته المشهورة بجدرانها المصنوعة من القصدير. وحول القصور، امتدت حدائق فخمة وملاعب البولو وحلبات السباق ومساحة للصيد وحديقة حيوانات. ومن جملة أوصاف المصادر العربية، نحتفظ بالتلخيص التالي:

«وكان للقاهر في بعض الحصون بستان نحو من جريب قد غرس فيه النارنج وقد حمل إليه من البصرة وعمّان مما حمل من أرض الهند، قد اشتبكت أشجاره، ولاحت ثماره كالتجوم من أحمر وأصفر، وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزمر، وقد جعل مع ذلك في الصحن أنواع الطيّر من القمّاري والدباسي والشحارير والبيغاء، مما قد جلب إليه من الممالك والأمصار، وكان ذلك في غاية الحسن، وكان القاهر كثير الشرب عليه، والجلوس في تلك المجالس، فلما أفضت الخلافة إلى الرازي اشتد شغفه بذلك الموضع، فكان يداوم الجلوس والشرب فيه»^(١٥).

إلا أن شكل القصور وتنظيمها الداخلي وزيتها، تبقى غير معروفة. غير أنه جاء في رواية الوفد اليوناني عام ٣٠٥هـ/٩١٧م الذي استقبله الوزير ابن الفرات والخليفة المقتدر في قصر التاج، وصف لسلسلة من المساحات المكشوفة والأروقة المظلمة التي تؤدي إلى قاعات اجتماع شاسعة تنظم فيها الحفلات الفاخرة والمعقدة^(١٦).

كانت دار الخلافة مؤلفة من القصر وشرفات المراقبة والحدائق وكان الخليفة يقيم فيها مع حاشيته وحراسه، بعيداً من الشعب والضوضاء. ويحيط بهذا المكان الخاص الذي غالباً ما أشارت إليه المصادر بعبارة «حريم»، سورٌ نهج تاريخ بنائه. وكانت جادة كبيرة عرفت بالشارع الأعظم تمتد من باب الشماسية في شمال المدينة إلى سوق الثلاثاء في الجنوب، لتصل إلى باب العامة، وهو المدخل الرئيسي لدار الخلافة. استعملت هذه الجادة من قبل السفراء والأسرى الرفيعي المستوى والخلفاء خلال دخولهم أو خروجهم الرسمي والمواكب الرسمية للأمراء وكبار الموظفين.

خلال النصف الثاني من القرن الثالث هجري/ التاسع الميلادي، تأثر التنظيم المدني في البلاط بالبويهيين. ففي عام ٣٥٠هـ/٩٦٢م، بنى معز الدولة مجمعاً كبيراً قرب باب الشماسية ثم أعاد عضد الدولة بناءه جزئياً. وبعد أن صادر بهاء الدولة قصر مؤنس الخادم الواقع في سوق الثلاثاء، حوّله إلى دار فخمة اعتمدها السلاطين السلاجقة وأصبح اسمها دار المملكة (أو دار السلطنة)؛ ولكن، رمز التسلط السلجوقي هذا دُمّر على يد الخليفة الناصر في ٥٨٧هـ/١١٩١م. ولا يزال الغموض يكتنف تفاصيل تاريخ قصور الأمراء والسلاطين.

(١٥) أبو الحسن علي بن الحسين السعدي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ترجمة نوم بارير [وآخرون]، ٩ ج (باريس: [د. ن.]، ١٨١٦ - ١٨٧٧)، ج ٨، ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

(١٦) Jacob Lassner, *The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages: Text and Studies* (Detroit, MI: Wayne State University Press, 1970), and Janine Sourdel-Thomine, «L'Art de Bagdad,» *Arabica*, vol. 9 (1962), pp. 449-465.

بحماية الأمراء، شيدت النخب دوراً فخمة. لنذكر مثلاً: قصر الأمير حميد [بن عبد الحميد الطوسي] (حاكم العراق خلال عهد المأمون) الذي بني على ضفاف نهر دجلة وخلّده الشاعر علي بن جبلة؛ وقصر الطاهر (من كبار قواد المأمون) الذي أقام فيه قائد شرطة المدينة في القرن الثالث/الرابع واستعمل لاحقاً كضريح استقبل عدداً من الخلفاء؛ وقصر فرج (أمة حمدونة، عشيقه هارون الرشيد) الذي قيل أنه الأجمل في حي الشماسية، وقصر ابن مقلة (وزير الخليفة المقتدر) الذي كلف بناؤه ٢٠٠ ألف دينار وكان مزوداً بحديقة كبيرة تمتد على مساحة ٣ هكتارات.

كانت القصور تنتقل مع تعاقب السلطات الخليفة والوزارية والأميرية والسلطانية، فتضاعفت وتكاثرت كما كان شأن السيادة، مفسحة المجال لمبانٍ أخرى عند رحيل أصحابها. على سبيل المثال، بنى عضد الدولة المستشفى المشهور الذي حمل اسمه على أنقاض قصر الخلد. نضرب مثلاً آخر: أسس النسيج المدني منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي على أنقاض «المدينة المستديرة» التي دُمرت خلال الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون.

على خلاف مدن أخرى، لم تكن بغداد تخصص مكاناً محدداً للسلطة يشغله الحكام المتعاقبون، على الرغم من أهمية حي دار الخلافة. فبغداد مدينة متعددة المراكز انطلقت من مركزها الأصلي، «المدينة المستديرة»، بفضل تأسيس القصور وتوسيعها ضمن بيئة مدنية تبدل باستمرار.

وقد أدرك ابن خلدون جيداً، وبعيد نظره المعهود، ماهية هذه الصورة المركبة التي تميز بنظره العواصم الإمبراطورية:

«ثم إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها فعمر الدولة حيثئذ عمر لها فإن كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت وإن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها متفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحبية تكثر وتتعدد ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذراع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها.

ذكر الخطيب في كتابه التاريخ أن الحمامات بلغ عددها في بغداد في عهد المأمون خمسة وستين ألف حمام، وأنها كانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة تجاوزت الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لإفراط العمران وكذا حال القيروان

وقرطبة والمهدية في الملة الإسلامية وحال مصر والقاهرة بعدها فيما بلغنا لهذا العهد»^(١٧).

يطرح ذكر ابن خلدون للمدن والبلدات الأربعين (مدن وأمصار) مشكلة جرت مقاربتها كثيراً: هل كانت هذه المدينة الهائلة مقسمة إلى أحياء؟ كانت المدينة منذ تأسيسها مقسمة إلى أرباض، أي ضواح، كون هذه المساحات المبنية موجودة خارج «المدينة المستديرة». ثم أسست المدينة على شكل وحدات - شوارع وأحياء - غالباً ما تجمعت فيها شعوب تنتمي إلى المنطقة الجغرافية عينها وإلى الدين نفسه وتزاوّل النشاط المهني ذاته. وكان الفرق واضحاً بين مشاهد القطاعات الميسورة وتلك في القطاعات الفقيرة، وفق ملاحظة ابن عقيل: «كانت طرق معينة موقوفة حصراً لأشخاص من مرتبة معينة: فدرج الزعفران في الكرخ مثلاً لم تكن للحرفيين، بل لتجار السلع غير السائلة والعطورات؛ ودرج سليمان في الرصافة هي حصراً للقضاة وكتاب العدل (الشاهد بالعدل) والتجار الأثرياء»^(١٨).

وعلى نطاق أوسع، كان الفرق شاسعاً وجلياً أيضاً بين الضفتين: فالضفة الشرقية كانت تضم، حول القصور، المساكن الفخمة العائدة لكبار أعضاء البلاط والموظفين والأمراء، في حين بدت الضفة الغربية أكثر شعبية ونشاطاً مع نسبة مرتفعة من السكان الشيعة. وغالباً ما كان الأدباء يستعملون عبارة «سكان الضفتين» لكي يشير إلى الشعب بكامله. وكان التنقل بين الضفتين يجري بواسطة جسري قوارب أو ثلاثة حسب الفترة الزمنية، نظراً إلى أن الإنشاءات الحجرية كانت مستحيلة بسبب كثرة الفيضانات. وشكلت هذه الجسور مساحات عامة مهمة تعج بالعابرين، ولطالما عرضت على جوانبها جنث أشخاص معروفين قضوا إعداماً.

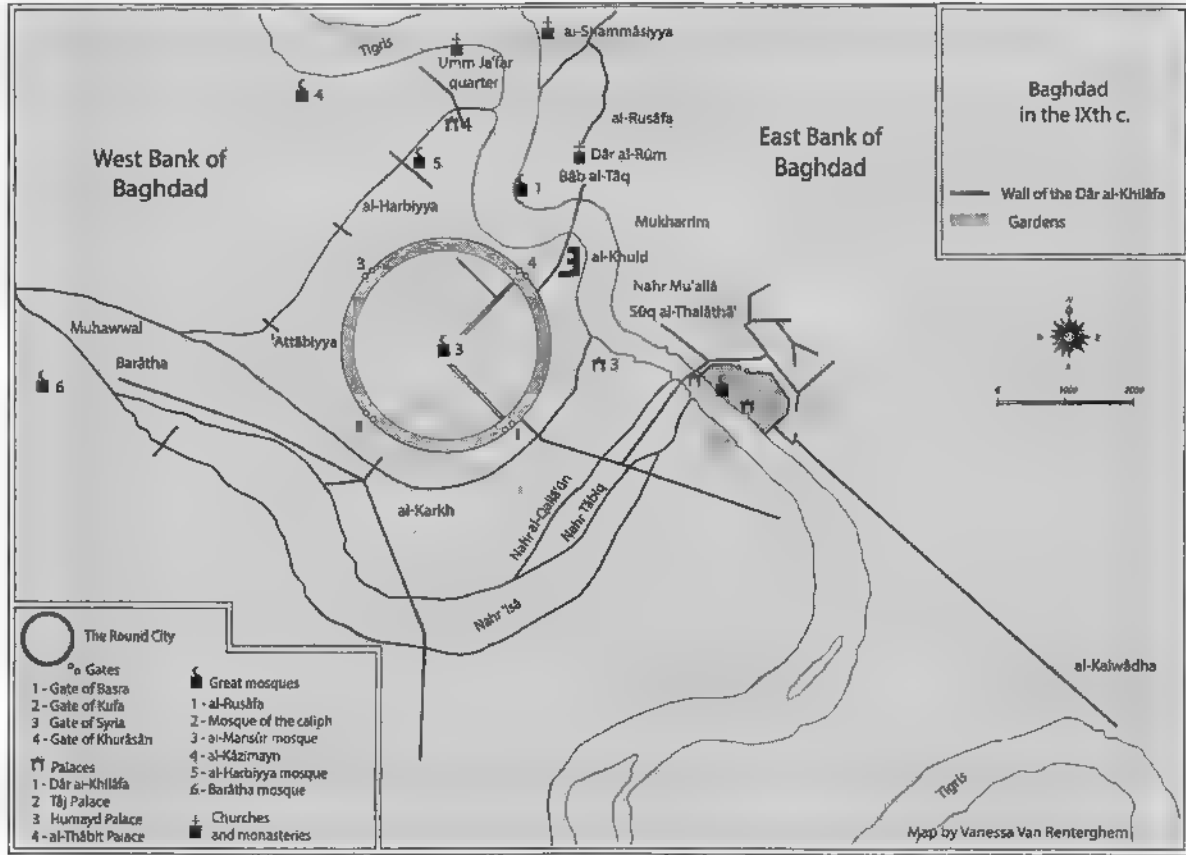
في المقابل، يصعب معرفة إذا ما كانت مدينة بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة/ التاسع والعاشر للميلاد حقاً مقسمة إلى أحياء (الرسم ١٠ - ١١). فالمهم التمييز بين الحي كمجموعة مساحية أو حتى اجتماعية (من دون أي حدود ثابتة أو تقسيم معين) من جهة، والحي كوحدة إدارية مستقلة من جهة أخرى. تشير وقائع عديدة إلى تقسيم التجمعات السكانية إلى عدة وحدات منفصلة، وخير دليل على ذلك: عبارة شيوخ الحي، والتمييز الواضح في بعض النصوص بين مدينة بغداد (مدينة المنصور

Ibn Khaldun, *The Muqaddimah: An Introduction to History*, translated from the Arabic by (١٧) Franz Rosenthal, Bollingen Series; 43, 3 vols. (London: Pantheon Books, 1958), pp. 235-236.

Makdisi, «The Topography of Eleventh Century Bagdād: Materials and Notes», p. 195. (١٨)

وأرباضها القريبة) والمناطق المبنية الأخرى (ولا سيما الكرخ)، ووجود العديد من الجوامع الكبرى.

الرسم الرقم (١٠ - ١) بغداد في القرن التاسع



في نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، كانت ستة جوامع كبرى - يجب تمييزها عن المساجد البسيطة أو المصليات التي بلغ عددها ٣٠٠٠٠ على الضفة الغربية و١٥٠٠٠ على الضفة الشرقية - وفقاً لليعقوبي، تجمع المسلمين للصلاة يوم الجمعة، أربعة على الضفة الغربية واثنان على الضفة الشرقية:

- جامع المنصور في «المدينة المستديرة» القديمة، الذي أعاد بناءه هارون الرشيد عام ١٩٢ - ١٩٣ هـ/ ٨٠٨ - ٨٠٩ م ووسّعه المعتضد عام ٢٨٠ هـ/ ٨٩٣ م.

- جامع حي أم جعفر؛ تم توسيع هذا المسجد الصغير عام ٣٧٩ هـ/ ٩٨٩ م ليستعمل كجامع.

- جامع الحرية؛ حَوْل الخليفة القادر هذا المسجد الواقع في شمال الكرخ إلى جامع عام ٣٨٣هـ / ٩٩٣م.

- جامع برائثا في جنوب غرب الكرخ؛ أمر المقتدر بهدم معقل الشيعة هذا ثم أعاد بناءه أمير الأمراء بِجُحْم ووسعه عام ٣٢٨هـ / ٩٣٩م وافتتحه الخليفة المتقي للتأكيد على عودة السنة إلى مكان العبادة هذا.

- جامع حي الرصافة الذي بناه المهدي عام ١٥٩هـ / ٧٧٥م.

- جامع دار الخلافة الذي غالباً ما سُمِّي جامع القصر وبنائه المكتفي عام ٢٨٩هـ / ٩٠١م.

تعدد الجوامع الكبرى هو، من دون شك، تعبير ديني عن ضخامة المدن: قضت الحاجات الثقافية لآلاف من المسلمين الرجال بالخروج عن القاعدة المعتمدة ألا وهي «جامع كبير واحد في كل مدينة». ولكن في بغداد كما في مدن أخرى، يمكن تفسير تعدد الجوامع الكبرى من خلال تقسيم المدن إلى أحياء مستقلة.

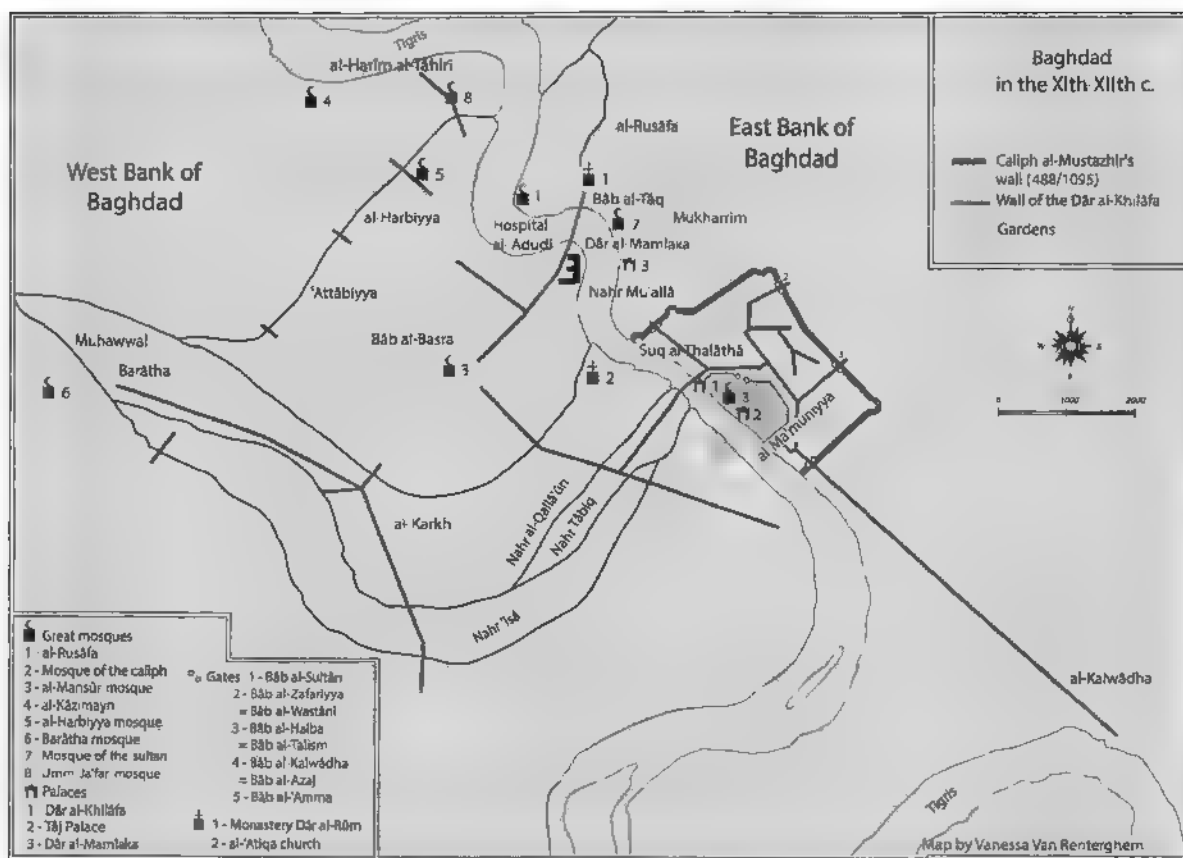
ابتداء من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أصبحت المصادر أكثر وضوحاً. فقد نص ابن عقيل في كتابه أن الحي الذي كان يقيم فيه «يساوي بكبره ووسعه مدينة باب الطاق السورية وأنه حي من بين عشرة»^(١٩). أما الأحياء التسعة الأخرى فهي: سوق السلاح، والمخرّم، وسوق الدابة، ونهر المعلى، ودار الخلافة، وباب المراتب، وباب الأزج، والمأمونية على الضفة الشرقية، وعلى الضفة الغربية حي واحد وهو حي الكرخ^(٢٠). ووفقاً للرحالة الأندلسي ابن جبير الذي أقام لبعض الوقت في بغداد عام ٥٨١هـ / ١١٨٥م، كانت المدينة تضم حينئذٍ «سبع عشرة محلة كل واحدة منها تشكل مدينة منفصلة» (الرسم الرقم (١٠ - ٢)). يبقى أن نعرف إذا ما كنا نشهد ظاهرة نمو مديني متمايز خاص بالعاصمة الخليفة كما يؤكد لاسنر، أو نشهد على العكس، تطوراً جديداً كما يقترحه كاي. في هذه الحالة، يرجح أن المدينة الموحدة بدأت بالتفكك ابتداءً من عهد السلاجقة، مؤدية بذلك إلى بروز تدريجي لمجموعة من الأحياء شبه المستقلة، تفصل بينها أنقاض وأراضٍ بور وحدائق، وبالتالي إلى تزايد التمييز الاجتماعي^(٢١).

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٨٥.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٩٦.

(٢١) أنظر: Jacob Lassner, «Municipal Entities and Mosques,» in: Lassner, *The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages: Text and Studies*, pp. 176-183, and Claude Cahen, «Bagdad au Temps de ses derniers califes,» *Arabica*, vol. 9 (1962), p. 308.

الرسم الرقم (١٠ - ٢)
بغداد في القرنين الحادي عشر والثاني عشر



في أي حال، تراجعت المدينة مع تراجع سلطة الخلفاء بسبب نفوذ الأمراء ومع تزايد الاضطرابات السياسية والثورات الشعبية. على الرغم من تزايد عدد المنشآت الجديدة في عهد السلاجقة واستمرار النشاط الاقتصادي، ولا سيما في حي الكرخ، وصف ابن جبير مدينة ضعيفة ومكتسحة إلى حد بعيد. قضت فتوحات هولاكو عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وتيمورلنك عام ٨٠٣هـ/١٤٠١م نهائياً على المدينة. وقد كتب المقرئ في هذا السياق أن بغداد مخربة، غابت عنها الأسواق والجوامع وغاب عنها المؤمنون والمؤذنون، وجف فيها معظم أشجار النخيل وانسد معظم القنوات، وأنه يصعب تسميتها مدينة (٢٢).

وحتى لو حمله فخره بمدينته القاهرة التي كانت في أوج عزها إلى المبالغة في الوصف، فإن شهادة هذا المؤرخ المصري تؤكد بوضوح تراجع العاصمة الخليفية التي لم تعد في ذلك الحين سوى مجرد عاصمة محلية. وبالفعل، خضعت المدينة

Jean Aubin, «Tamerlan à Bagdad,» *Arabica*, vol. 9 (1962), p. 308.

للإيلخانيين (لغاية عام ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م)، ثم للجلاتريين (لغاية عام ٨١٣هـ / ١٤١٠م) والتركمان (لغاية عام ٩١٤هـ / ١٥٠٧م) والعثمانيين عام ٩٤١هـ / ١٥٣٤م، بعد عقود عديدة من الحروب مع الفرس من أجل السيطرة على المدينة. وأشار الرحالة تافارنيه، الذي زار بغداد عام ١٦٥٢م، إلى عدد سكان متدن جداً وهو ١٥٠٠٠ نسمة.

فلنعد إلى العصر العباسي للتشديد على غرار جميع مؤلفي القرون الوسطى، على الطابع العملاق للعاصمة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين. في الحقيقة، تعتبر الأرقام الواردة في المؤلفات هي تعبير عن تخيلات للمدينة أكثر مما هي نتاج مقاييس دقيقة. هذا الانطباع يعطيه نص ممتع للقاضي التنوخي كتب في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي:

«تجارينا عند القاضي أبي الحسن محمد بن صالح بن علي الهاشمي ابن أم شيبان في سنة ستين وثلاثمائة، عظم بغداد، وكثرة أهلها، في أيام المقتدر [الخليفة الذي حكم من عام ٢٩٥هـ / ٩٠٨م إلى عام ٣٢٠هـ / ٩٣٢م]، وما كان فيها من الأبنية، والشوارع، والدروب، وكبر البلد، وكثرة أهله، في سائر أنواع الناس. [وبعد ما يورد المؤلف عملاً ليزدجرد بن مهتدار يورد فيه أن في بغداد عشرة آلاف حمام عام، وبين ثلاثين وأربعين ألف مخزن للقمح والغلة وسائر ما تحتاج إليه بغداد من طعام، وذكر آخر عمل أحمد بن الطيب حول الموضوع نفسه، روى القاضي أبو الحسن ما يلي] «أما ذاك، فعظيم لا نعمله، وقد شاهدنا منه ما لا يستبعد معه أن يكون كما أخبر يزدجرد، وأحمد بن الطيب، إلا إنا لم نحصه فنقطع العلم به، ولكن بالأمس، في سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، لما ضمن محمد بن أحمد المعروف بثره، بادوريا، عمرها، وتناهى في ذلك، فأحصينا وحصلنا ما زرع فيها من جريان الخس، في هذه السنة، وقدرنا بكلواذاي وقُطْرُبْل وقرب بغداد، ما يحمل إليها من الخس على تقريب، فكان الجميع ألفي جريب [وحدة قياس للأرض ومكيلة]، ووجدنا كل جريب خس يزرع فيه ستة أبواب، يقلع من كل باب من الأصول، كذا وكذا، ولم أحفظه، يكون للجريب كذا وكذا أصلاً، وسعر الخس إذ ذاك، على أوسط الأسعار كل عشرين خسة بدرهم واحد، فحصل لنا أن ارتفاع الجريب [وحدة قياس للأرض ومكيلة]، على أوسط الربيع والسعر، ثلاثمائة وخمسون درهماً، قيمتها خمسة وعشرون ديناراً، يكون لألفي جريب، خمسون ألف دينار، وكل ذلك يؤكل ببغداد، فما ظنك ببلد يؤكل فيه في فصل من فصول السنة، صنف واحد من صنوف البقل، بخمسين ألف دينار»^(٢٣).

David Samuel Margoliouth, *The Table-Talk of a Mesopotamian Judge*, Oriental Translation (٢٣) Fund, New Series; 28 (London: Royal Asiatic Society, 1922), pp. 69-70.

للدلالة على التوسع الهائل للعاصمة العباسية، أورد الخطيب البغدادي عدداً من الأحاديث حول طول وعرض جانبي بغداد والمساحة الإجمالية وعدد الجوامع والحمامات فيها^(٢٤). وقد اقتبست قطعة واحدة من تلك المعلومات من جانب عدد من المؤرخين المحدثين هي: في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كانت مساحتها تمتد على ٤٣٧٥٠ جريب، منها ١٦٧٥٠ جريب للضفة الشرقية و ٢٧٠٠٠ جريب للضفة الغربية. ويصعب إجراء معادلة بين وحدة القياس هذه والهكتار (إذ يساوي الـ ٤٣٧٥٠ جريب بين ٥٠٠٠ و ٧٠ ألف هكتار)^(٢٥)، علماً أنه تم استعمال هذه المساحة في إطار محاولة لاحتساب عدد السكان. لكن، يصعب تقدير عدد السكان من خلال الاعتماد على مساحة المدينة فقط، بل يتطلب ذلك أيضاً معرفة الكثافة السكانية. بالرغم من ذلك، حاول العديد من المؤرخين المحدثين تقييم عدد السكان في العاصمة. فتوصل لاسنر إلى اعتبار أن الكثافة السكانية تبلغ ٤٠ نسمة/ الهكتار من خلال قسم الكثافة السكانية في القسطنطينية (٢٠٠ نسمة/ الهكتار) بخمسة، لأن بغداد كانت تضم عدداً أقل كثيراً من السكان بسبب مساحة الحدائق والقصور. بالتالي، وبعد أن قدر مساحة المدينة بـ ٧٠٠٠ هكتار، توصل إلى عدد سكان يبلغ ٢٨٠ ألف نسمة^(٢٦).

في هذا الفصل الذي يتناول مقاييس المدينة، يجمع الخطيب البغدادي كعادته بين أحاديث عديدة تشير إلى عدد الجوامع والحمامات كما إلى كمية الصابون والزيت التي يحتاج إليها الشعب خلال فترات الأعياد والاحتفالات. ووفقاً لحديث من هذه الأحاديث الذي ينسبه إلى محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)، كانت المدينة تضم ٦٠ ألف حمام عام يهتم بكل واحد خمسة خدام وهو ما يشكل ملاكاً يتألف من ٣٠٠ ألف شخص... ولكل حمام خمسة مصليات، كل واحد يقابله خمسة أشخاص على الأقل، ما يرفع عدد المصليات إلى ٣٠٠ ألف وعدد السكان إلى مليون ونصف المليون. ويبدو لي أن هذه الأرقام المرتفعة جداً لا تحمل أي مدلول دقيق وأنها نوع من المغالاة الحسائية التي تهدف إلى عكس الكثافة السكانية التي تميزت بها هذه العاصمة الكبيرة. ويبدو أنه كان من السهل جداً على مؤلفي القرون الوسطى مضاعفة الأرقام

(٢٤) Lassner, *The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages; Text and Studies*, pp. 107-110.

(٢٥) ٥٥٠٠ هكتار حسب لو ستراينج، انظر: Le Strange, *Baghdad during the Abbassid Caliphate*, pp. 324-326.

و ٥٩٠٠ هكتار حسب الدوري، انظر: Abdel Aziz Duri, «Baghdad», in: *Encyclopaedia of Islam*, vol. 1.

Lassner, *Ibid.*, pp. 157-158.

و ٧٠٠٠ حسب لاسنر، انظر:

Lassner, *Ibid.*, pp. 159-160.

(٢٦)

للتشديد على عظمة العاصمة: هكذا، فعدد ٣٠٠٠ للجوامع هو رقم تقريبي ولكن معقول إذا ما قورن بعدد جوامع فاس (٧٨٥)^(٢٧) وحلب (٦٨٤)^(٢٨)، ولظاهرة المغالاة الحسابية عينها قفز العدد إلى ٣٠ ألفاً ومن ثم إلى ٣٠٠ ألف.

أما المؤرخ العراقي عبد العزيز الدوري، فانطلق من عدد أقل كثيراً (١٥٠٠ حمام)، أعطاه هلال الصابي لنهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ومن المعلومات التي أوردها هذا المؤرخ أن كل حمام كان يخدم ٢٠٠ منزل؛ وهو اعتبر أيضاً أن كل منزل كان يضم معدل خمسة أشخاص؛ فتوصل إلى تقدير عدد سكان بغداد بمليون ونصف المليون خلال أوج عزها^(٢٩).

يصعب وضع تصور دقيق بين هذين الرقمين المتباينين: ٣٠٠ ألف نسمة ومليون ونصف المليون نسمة. لكن من المؤكد أن بغداد في العصر العباسي كانت مدينة كثيرة السكان ووحدها القسطنطينية كانت قادرة على منافستها في تلك الفترة.

وبما أن بغداد مدينة جديدة (حتى ولو كانت تضم بعض المستوطنات الأرامية قبل تأسيسها على يد الخلفاء العباسيين)، فقد تألف شعبها بادئ ذي بدء من أفراد أجانب. يتبين من لائحة القطيعات أن مختلف هذه الامتيازات كان يقيم فيها مدنيون وجنود، معظمهم من العرب والفرس. إلى جانب النخبة - كالعباسيين وأحفاد الصحابة وأهل البلاط وكبار الموظفين وقواد عسكريين - تألفت مدينة المنصور بصورة أساسية من حرفيين وعمال (بلغ عددهم مئة ألف تقريباً وفقاً لليعقوبي) ومن تجار وعدد أكبر من الجنود. تجمع هؤلاء بحسب المدينة أو المنطقة التي ينتمون إليها في الأصل: الكوفة، واليمامة، وفارس، وكرمان، وخراسان، وخوارزم، وبخارى، ومرو، وبلخ، وكابل، وسغد، وأسيجباب، وخطال، وجرجان، وفرغانة. نشير في هذا التعداد إلى أهمية إيران^(٣٠). وعليه، يبدو أن شعب بغداد ثمرة احتلال طوعي من قبل عناصر غير محلية، وينسب أقل من حركة سكن انطلاقاً من القرى القريبة والمناطق الريفية المجاورة.

(٢٧) من مسح في عهد الخليفة الناصر (٥٥٩هـ/ ١١٩٩م - ٦١٠هـ/ ١٢١٣م)، وتلخيصه في زهرة الأس للجازني، وترجمته الفرنسية في: Aboul-Hasan 'Ali El-Djaznai, *La Fleure de myrthe*, traduit par Alfred Bel (Algiers: Jules Carbonel, 1923), pp. 81-82.

(٢٨) ابن شداد، من تلخيص أن - ماري إدو، في: Anne-Marie Edde, *La Principaute ayyoubide d'Alep* (579/1183-658/1260), Freiburger Islamstudien (FIS) (Stuttgart: Franz Steiner Verlag 1999), p. 559, note 675.

Duri, «Baghdad».

(٢٩)

(٣٠) وضع صالح الملي خريطة للتوزيع الإثني والاجتماعي في بواكير بغداد. انظر: الملي، بغداد مدينة السلام:

الجانب الغربي، وSaleh Ahmad Al-Ali, «The Foundations of Baghdad», in: A. H. Hourani and S. M. Stern,

ثم تزايد عدد السكان بفضل النمو الطبيعي وحركات النزوح. تقدّم معاجم السير، ولا سيّما تاريخ بغداد، العناصر الأساسية لإجراء دراسة حول أصل العلماء ورجال الدين الذين استقروا في بغداد بعد أن أغرتهم القرص المادية والثقافية التي سنحتها العاصمة العباسية. غير أن هذه الدراسة لم تجر بعد. ولكن، يمكن الاطلاع على ميزات هذا النزوح بفضل بعض الأعمال الآنية. خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين، شكلت بغداد نواة جذب لعدد كبير من العلماء والأدباء^(٣١)، معظمهم من مدن بلاد ما بين النهرين السفلى، ولا سيّما البصرة والكوفة، ومن بلاد ما بين النهرين العليا، ومن سورية ومصر، ومن مختلف مناطق إيران بوجه خاص. في القرون التالية، استمر هذا التوجه بالميزات عينها، حتى ولو تشكلت، مع تفكك الدولة العباسية، أسر حاكمة أخرى حاولت عواصمها منافسة بغداد^(٣٢).

بدت جاذبية العاصمة العباسية كبيرة جداً بالرغم من أنها لم تتعد حدود الشرق الأوسط العربي والفارسي. غير أن حركات النزوح الطوعي التي ميزت نخبة تتمتع بحرية تامة في التنقل أغرتها القرص التي تقدمها العاصمة، كانت ضئيلة جداً مقارنة بالنزوح القسري: نزوح الحرفيين الذين وظفتهم السلطة الخليفة لتعزيز عظمة العاصمة، ونزوح الرقيق من زنوج وسلافيين وأتراك وبربر ساهموا إلى حد بعيد في تهجين الشعب بفضل الإعتاق والمساكنة؛ وأخيراً وبصفة أساسية، نزوح الجنود الذين تم شراؤهم أو اختطافهم بأعداد هائلة في آسيا الوسطى من أجل تشكيل الجيش انطلاقاً من إصلاحات الخليفة المعتصم (٢١٨هـ/ ٨٣٣م - ٢٢٧هـ/ ٨٤٢م).

نتيجة لذلك، أصبحت بغداد مدينة متعددة الأجناس، بمعنى أنها تميزت بتعايش شعوب عديدة مختلفة الأعراق والتقاليد الثقافية ضمن مجموعة مدنية واحدة. وقد غلبت ثلاث مجموعات رئيسية هي العرب والفرس والأتراك. غير أن تعدد الأجناس

eds., *The Islamic City: A Colloquium: Published under the Auspices of the Near Eastern History Group, and the Near East Centre, Papers on Islamic History*; I (Philadelphia, PA: University of Pennsylvania, 1970), pp. 87-103.

(٣١) انظر خرائط تقسيم رجال العلم، في: Michel, François Micheau, «L'Intermédiaire Arabe?», dans: Michel, François Micheau, *Elements d'histoire des sciences* (Paris: Bordas, 1989), pp. 158-159.

في القرنين الثاني والثالث كان ٢٥ من ٢٦ عالماً يعيشون في بغداد.
(٣٢) وفق نفس الدراسة، كان في بغداد في القرنين الخامس والسادس ١٦ عالماً، مقابل ١٨ في الغرب الإسلامي، و ١٠ في عدة مدن عربية من الشرق الأدنى، و ١٢ في العاصمة الإيرانية. وفي القرنين السابع والثامن أصبحت الأرقام على التوالي: ٣ في بغداد، و ١٤ في الغرب الإسلامي، و ١٨ في عدة مدن عربية من الشرق الأدنى، و ١٢ في العاصمة الإيرانية.

لم يترافق في بغداد مع تعدد لغوي، إذ بقيت اللغات الأخرى تستعمل في إطار التبادل الخاص أو الطقسي، وفُرضت اللغة العربية كلغة محكية وثقافية، وهو ما يدل على نجاح مشروع الخلفاء العباسيين الهادف إلى دمج شعوب عديدة ومختلفة ضمن مجموعة سياسية وثقافية واحدة. غير أن أهمية الفرس، ولا سيما في مجال الإدارة، انعكست في الحياة البغدادية من خلال انتشار تقاليد فارسية الأصل: التقاليد الأدبية التي اعترض عليها العرب الأصليون من خلال حركة الشعرية، والتقاليد الشعبية على غرار عيد رأس السنة الإيراني (النوروز) الذي كان أحد أهم الأعياد ويحتفل به في ٢١ آذار/ مارس.

أضفى الأتراك من جهتهم طابعاً جديداً على المجتمع البغدادي بعد أن أصبح عددهم طاغياً في الجيش العباسي. فخلال عهد المعتصم، أدى بروز هؤلاء الجنود إلى اضطرابات حملت الخلفاء على مغادرة بغداد لوقت محدد وعلى الاستقرار في عاصمة جديدة هي سامراء التي بنوها أكثر إلى الشمال على ضفاف دجلة. بعد عودة الخلفاء إلى بغداد في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، اضطلعت القوات العسكرية التركية وقوادها، الأمراء، بدور كبير في الحياة السياسية وتفوقوا تدريجاً على الوزراء. فطغت المعارك بين هذه الأحزاب العسكرية على تاريخ بغداد في القرن التاسع الهجري/ العاشر الميلادي.

لم تكن بغداد في العصر العباسي مدينة عالمية فحسب، بل كانت متعددة الطوائف أيضاً، إذ تجمع فيها المسلمون والمسيحيون واليهود والزرادشتيون.

كانت الطائفة المسيحية النسطورية كبيرة وناشطة وحسنة التنظيم^(٣٣). لم يكن هناك ضمن صفوفها سوى عدد محدود جداً من السكان المحليين، إذ تشكلت بصورة أساسية من المسيحيين الذين أغرتهم ثروات العاصمة وميزاتها. غادر الكاثوليكوس تيموتاوس منزله ليقیم في بغداد حيث كان قد أجرى حملته الانتخابية عام ٧٨٠. وكان البطريك النسطوري شخصية مهمة، يحق له الدخول إلى البلاط ويُعتبر من أعيان المدينة. وعليه، أورد الصولي في يومياته وفاة الكاثوليكوس إبراهيم في خانة الأحداث المهمة التي ميزت عام ٣٢٥هـ/ ٩٣٦ - ٩٣٧م. تمتع اليعاقبة والملكيون بوجود لا بأس به في العاصمة الخليفية، غير أن عددهم كان أقل أهمية من عدد النساطرة.

(٣٣) انظر: بطرس حداد، كنائس بغداد وديارها (بغداد: شركة الديوان للطباعة، ١٩٩٤)، و J. M. Fiey،

Chrétiens Syriques sous les Abbasides surtout à Bagdad (749-1258), Subsidia (Louvain: Secretariat du Corpus SCO, 1980); Michel Allard, «Les Chrétiens à Bagdad», *Arabica*, vol. 9 (1962).

وكان للمسيحيين نحو عشرين كنسية وديرًا، أهمها: دير درتا ودير القباب على الضفة الغربية ودير درمالس ودير سمالو، وبصورة خاصة دير الروم المشهور جداً الذي بني في حي الشماسية، على الضفة الشرقية خلال عهد المهدي الذي أصبح لاحقاً مدفنًا للكاثوليكوس. كان المسلمون والمسيحيون يترددون إلى هذه الأديار للتلاقي والتمتع كما يتبين من الوصف الوارد في كتاب الديارات الذي ألفه الشابشتي في نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي:

«هذا الدير في رقة باب الشماسية ببغداد، قرب الدار التي بناها الديلمي أحمد بن بويه، بباب الشماسية وموقعه أحسن موقع وهو نزه كثير البساتين والأشجار ويقربه أجمة قصب وهو كبير، أهل برهبانه وقسانه والمتبتلين فيه وهو من البقاع المعمورة بالقصف، والمقصود بالنتزه والشرب. وأعياد النصارى ببغداد، مقسومة على ديارات معروفة، منها أعياد الصوم [...] والأحد الرابع دير درمالس هذا، وعيده أحسن عيد، يجتمع نصارى بغداد إليه، ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو إلا تبعهم، ويقيم الناس فيه الأيام، ويطرقونه في غير الأعياد»^(٣٤).

أما اليهود الذين كان عددهم كبيراً في بلاد ما بين النهرين قبل الفتح العربي، فتوافدوا إلى بغداد، على غرار المسيحيين. اجتذبت بغداد طلاباً وعلماء من مصر والمغرب وإسبانيا وإيطاليا والإمبراطورية البيزنطية. وبالرغم من المبالغة في تقدير قوة رجال الأعمال اليهود في الحياة الاقتصادية، يبقى أن عائلي بني النضير وبني هارون الكبيرتين، المتحالفتين تارة والمتخاصمتين طوراً آخر، سيطرتا على الطائفة وقد عمل العديد من أفرادهما كمصرفين لدى الخلفاء والوزراء^(٣٥).

لم يتمتع الزرادشتيون بالشهرة عينها إنما كان لهم وجود أكيد في العاصمة بغداد. كما وجد شارع سمي «درب المجوس»، أي شارع الزرادشتيين، فأصبح تعبير المجوسي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي يُطلق على المسلمين التقليديين لمجرد كونهم يقيمون في هذا المكان. لكن هناك اعتقاد غالب بأن هذا الشارع ضمّ في

(٣٤) انظر: Gerard Troupeau, «Les Couvents chrétiens dans la littérature arabe», *La Nouvelle revue du Caire*, no. 1 (1975), pp. 265-279, Quoted in: Anne-Marie Eddé, Françoise Micheau et Christophe Picard, *Communautés Chrétiennes en pays d'Islam: Du début du VII^{ème} siècle au milieu du XI^{ème} siècle* (Paris: Sedes, 1977), p. 204.

(٣٥) Georges Vajda, «Le Milieu juif à Bagdad», *Arabica*, vol. 9 (1962), pp. 389-393, and Solomon D. Sasson, *A History of the Jews in Baghdad* (Leitchworth: Simon Wallenburg Press, 1994).

الأصل الفرس الذين حافظوا على معتقدهم^(٣٦). قال الصولي إنه عام ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م، غادر التجار اليهود والزرادشتيون الأغنياء العاصمة بسبب عدم الاستقرار السائد فيها^(٣٧).

وأخيراً، وإن كان المسلمون يمثلون الأكثرية، فهم لم يؤلفوا طائفة موحدة، بل على العكس، فخلال فترة وضع النصوص المرجعية للدين الإسلامي، وعقائده وطقوسه وقانونه وممارساته، بلورت العاصمة العباسية التيارات التي كانت في ذلك الحين في طور الاتصاح. ومن دون العودة إلى مختلف جوانب تاريخ الفكر الإسلامي تجنباً للخروج عن الموضوع، تجدر الإشارة هنا إلى هاتين المجموعتين الدينيتين اللتين أثرتا في الحياة الاجتماعية في العاصمة العباسية.

كان عدد الشيعة في الضفة الغربية كبيراً جداً، ولا سيما أنهم جمعوا أعداداً من الأنصار من الأوساط الشعبية في هذه الأحياء، مانحين لهم إطاراً أيديولوجياً لمتطلباتهم الاجتماعية، كما يتبين من الدور الكبير الذي قاموا به في أعمال الشغب. كما ساهمت سيطرة كبار الأمراء البويهيين ابتداء من عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م في تعزيز الممارسات الشيعية، ولا سيما إحياء ذكرى عاشوراء. وما لبث أن حوّل السنّة ذكرى وفاة الحسين في كربلاء، وهو يوم حداد رسمي للشيعة، إلى عيد واحتفال يرتدون فيه ثيابهم الجديدة ويقيمون المآدب^(٣٨).

وبرزت جماعة ثانية حسنة التنظيم وهي الحنابلة. والمعروف أن ابن حنبل (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م) انصف خلال الفترة ٨٢٠ - ٨٥٠م بشدة تمسكه بالنزعة السلفية والقرآن والحديث الشريف وعرف بمخالفته لـ «الرأي» والتوجهات التي تشجع التفكير المنطقي والانفتاح على ثقافات أخرى. قام الحنابلة بدور حاسم في مقاومة المعتزلة التي ناصرها المأمون وفرضها على القواد عام ٢١٢هـ/ ٨٢٧م؛ كما ساهموا إلى حد بعيد في القضاء عليها خلال أوائل عهد الخليفة المتوكل عام ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م. بعد أن حازوا دعم الخلفاء الذين اعتبروهم من أهم المدافعين عن العقيدة الخليفة. وفي الحياة

«Madjus», in: *Encyclopaedia of Islam*.

(٣٦) في معنى مجوس، انظر:

كما أخذت الأنساب من: أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاتي، الأنساب، ١٢ ج، السلسلة الجديدة (دائرة المعارف العثمانية) ١/١٩ - ٦/١٩ (حيدر أباد الدكن: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٢ - ١٩٨٤)، ج ١٢، ص ٩٩.

(٣٧) محمد بن يحيى أبو بكر الصولي، أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق، ترجمة فرنسية (الجزائر: ميوارث دن، ١٩٤٦)، ص ٨٨.

(٣٨) وذلك بحسب: Adam Mez, *The Renaissance of Islam*, translated into English by Salahuddin

Khuda Bukhsh and D. S. Margoliouth (London: Luzac, 1937), p. 69.

اليومية، غالباً ما كانوا يضطلعون بدور مؤلفي المواعظ المقدّرين من الشعب العادي ودور مصلحي الآداب والأفكار، معترضين على جميع أوجه التجديد:

«في هذا العام ٣٢٣هـ / ٩٣٤م عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكسبون من دور القواد والعامّة، وإن وجدوا نيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الموسيقى، واعترضوا في البيع والشراء ومشى الرجال مع النساء والصبيان، فإذا رأوا ذلك سألوهم عمن يسيرون معهم؛ فإن أخبروهم ضربوهم وحملوهم إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليهم بالفاحشة»^(٣٩).

في ما يتعلق بالفترة السلجوقية، لدينا شهادة ممتازة عن الحنابلة: ترك ابن البناء وهو من أعيان بغداد كان يقيم على الضفة الغربية لنهر دجلة، نوعاً من «اليوميّات» التي لم يعدّها للنشر ودوّّن فيها أنشطته وملاحظاته اليومية. كان هذا الأستاذ والمحدث ورجل القانون الحنبلي يدرّس في جامع القصر الكبير وفي جامع المنصور الكبير. كما كان المدرّس الخاص لعائلة التاجر الفني ابن جرادة. وقد شكلت الاحتفالات العائلية والأعراس وأكثر من ذلك الجنائزات، ووصول قوافل التجار أو حتى عودة الحجاج، لحظات مميزة نشأت فيها العلاقات بين الأعيان الحنابلة والتجار والأدباء ورجال العلم^(٤٠).

بدأت بغداد بكبر منشآتها وأهمية شعبها وتعايش مجموعات العرقية والاجتماعية والدينية المختلفة جداً مدينةً ضعيفة تعرضت باستمرار للكوارث وأعمال الشغب. وكثرت فيها المخاطر المدنية على غرار الحوادث والفيضانات والحرائق. ولم يقصر المؤلفون في الإشارة إلى هذه الأحداث المأساوية. وهنا بعض الأمثلة:

«لم تكن الجسور العائمة التي كانت تشكل صلة وصل حيوية بين ضفتي الدجلة متينة بما فيه الكفاية: عام ٢٨٢هـ / ٨٩٥م، انهارت المنشآت التي كانت تحمل سطح الجسر تحت وزن المارين وغرق أكثر من ألف شخص في مياه دجلة. ووقعت حادثة مماثلة عام ٣٣٠هـ / ٩٤٢م بسبب تجمع الحشود لمشاهدة رحيل الخليفة»^(٤١).

(٣٩) عز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، صخّح أصوله وكساه ملاحظات مفيدة عبد الوهاب النجار، ٩ ج (القاهرة: إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٤٨ - ١٣٥٧هـ، [١٩٢٩ - ١٩٣٨م])، ج ٨، ص ٣٠٧.

(٤٠) من قطعة محفوظة من العام ٤٦٠هـ / ١٠٦٨م من: George Makdisi, «Autograph Diary of an 11th Century Historian of Baghdad», *Bulletin of the School Oriental and African Studies*, vol. 18 (1956), pp. 9-31 and 239-260, and vol. 19 (1957), pp. 13-48, 281-303 and 436-443.

(٤١) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، راجع أصوله ورقمه وضبط مبهمه وعلّق عليه محمد محيي الدين عبد الحميد، ٤ ج، المكتبة التاريخية (القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨)، ص ١٧٠ و ٩٥٧، والصولي، أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق، ج ٢، ص ٥٠.

أما فيضانات نهر دجلة الأكثر خطورة، فدمرت الأحياء المجاورة باستمرار. فنهر دجلة يرتفع خلال حركة المد إلى علو ٦٠، ٣٤ م، وهو ما كان يهدد باستمرار الموقع المزعوم لـ «المدينة المستديرة» بالغمر نظراً إلى وقوعه على ارتفاع ٣٥ م. ولم يكن حي الكرخ بمنأى من هذه الفيضانات على الرغم من وجوده على تل ممتد يراوح ارتفاعه بين ٣٦ و ٤٤ م، إذ تعرض لهذه الكارثة عام ٢٧٠هـ / ٨٨٣ م عندما جرفت المياه ٧ آلاف منزل^(٤٢).

أما الضفة الشرقية، فكانت محمية نسبياً بواسطة سدود بلغ ارتفاعها أو زاد على ٣٦ م. وهنا يكمن على الأرجح سبب توسع المدينة على الضفة الشمالية. غير أن مخاطر الفيضانات كانت لا تزال تهددها وتتطلب صيانة مستمرة لتلك السدود^(٤٣).

كما عانت بغداد الحرائق التي لم تقل خطورة عن الفيضانات، وهي كانت تندلع نتيجة لحادثة أو فتنة. وهكذا - وهذا مثل من عدة أمثلة أخرى - واجهت المدينة عام ٣٦٢هـ / ٩٧٢ م بعض الاضطرابات واحترق حي الكرخ، وهو ما أسفر عن وفاة ١٧ ألف شخص وهدم ٣٠٠ متجر وعدد كبير من المنازل و٣٣ جامعاً^(٤٤).

كانت المدينة ضعيفة أيضاً على الصعيد الاقتصادي. فتأمين المأكل لسكان بهذه الكثافة يتطلب شبكات تموين واسعة. استولت بغداد على الفائض الزراعي والعائدات الضريبية للسواد؛ وكما هو الحال في جميع المدن القديمة في بلاد ما بين النهرين، ما كان تطور المدينة ليكون ممكناً من دون داخل البلاد الغني هذا. غير أن عملية التموين المنتظم ازدادت صعوبة. ومن المرجح أن التوازن الضروري ولكن الضعيف بين المدينة والأراضي التي تغذيها زال في القرن الرابع/ العاشر. وفي حين كانت المجاعة والأوبئة نادرة قبل عام ٣٢٠هـ / ٩٣٢ م، فهي أصبحت كثيرة الوقوع بعد هذا التاريخ. ويشير المؤلفون إلى أزمات في الحنطة أعوام ٣٢٣هـ / ٩٣٤ م و ٣٢٤هـ / ٩٣٥ م و ٣٢٩هـ / ٩٤٠ م و ٣٣٠هـ / ٩٤١ م و ٣٣١هـ / ٩٤٢ م و ٣٣٢هـ / ٩٤٣ م و ٣٣٤هـ / ٩٤٥ م و ٣٣٦هـ / ٩٤٧ م و ٣٣٧هـ / ٩٤٨ م... إلخ، وهي غالباً ما كانت تؤدي إلى تحركات شعبية ومشاهد نهب وسلب.

ازداد عدم الاستقرار حدة بسبب وجود عدد كبير من المهمشين. فأتى ذكر العيارين لأول مرة خلال الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، قبل أن يحتلوا صدارة أخبار بغداد

(٤٢) المصدر نفسه، ج ٢ - ٣، ص ١٠٥.

(٤٣) Etienne de Vaumas, «Introduction Géographique à L'étude de Bagdad,» *Arabica*, vol. 9 (1962), pp. 243-244.

(٤٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤٦٢.

في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين. ظهر العيارون الذين عُرفوا أيضاً بالفتيان أو الشطار خلال فترة ضعف السلطة والفتن الشعبية، فارتكبوا الأفعال الهمجية والنهب والسلب. خضع البعد الأخلاقي (المتصل بالفتوة) والمعنى الاجتماعي (اللمصوبية أو ثورة المحرومين) اللذان اتخذتهما حركتهما لتقديرات متناقضة. وفي بعض الفترات كانت سلطتهم من القوة بحيث كانوا يحلون مكان السلطة المدنية ويفرضون خوة على الأغنياء؛ وهكذا نجح البرجمي، رئيس العيارين، في مقاومة السلطة وبسط سلطته عام ٤٢١ - ٤٢٥ هـ / ١٠٣٠ - ١٠٣٣ م. وفي فترات أخرى، حشدت السلطة هؤلاء المهمشين لتوظيفهم في الشرطة أو كمقاتلين^(٤٥).

كما يتبين من مختلف السجلات، يبدو تاريخ بغداد مشحوناً بالثورات الشعبية، وكانت محركها الدين والسياسة والمجتمع في آن معاً: اضطرابات الحنابلة، والنزاعات بين الشيعة والسنة، والتمرد على الأثرياء، وقلق تجاه احتلال بيزنطي جديد، واستياء من الابتزاز الممارس من قبل الموظفين، وأعمال عدوانية ضد العسكر، واعتراضات من العسكر على تأخر الرواتب^(٤٦). عانت بغداد كثيراً عدم الاستقرار هذا كما الانتفاضات الشعبية. ويبدو أن عدم الاستقرار ازداد سوءاً خلال القسم الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وهو ما أدى إلى رحيل العديد من الأثرياء، في حين أقفل آخرون أبواب شوارعهم ونظم التجار حراسات ليلية. ومن خلال قراءة «مذكرات» جلساء الصولي، يمكن الاطلاع على الوقائع والأحداث التالية التي شهدت أعوام ٣٢٣ - ٣٢٨ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٠ م:

- اعتراض الشعب على ارتفاع سعر الخبز.
- تمرد الوحدات التركية التي تطالب برواتبها.
- حريق هائل في حي الكرخ.

(٤٥) حول «العيارين»، انظر: Claude Cahen, «Mouvements Populaires et autonomismes urbains dans l'Asie musulmane au moyen age», *Arabica*, vol. 6 (1958), pp. 34-44 et 47-52; Simha Sabari, *Mouvements Populaires à Bagdad à l'époque, abasside, IX^{ème}-X^{ème} siècles* (Paris: Maisonneuve, 1981), pp. 77-100, and Abdallah Cheikh Moussa, «L'Historien et la littérature arabe medieval», dans: «L'Oeuvre de Claude Cahen: Lectures Critiques», *Arabica*, vol. 43 (1996), pp. 152-188.

Sabari, Ibid; see also lists established by M. Canard for the 4th-10th c. in: Canard Marius, (٤٦) «Bagdad au IV^{ème} siècle de l'Hégire (X^{ème} siècle de 1^{ère} chretienne)», *Arabica*, vol. 9 (1962), pp. 283-285; Henri Laoust, «Les Agitations religieuses à bagdad aux IV^{ème} et V^{ème} siècles de l'Hégire», in: Donald S. Richards, ed., *Islamic Civilization* (Oxford: Cassirer, 1973), pp. 169-185, and Elizabeth Greene Heilman, *Popular Protest in Medieval Baghdad* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1978), pp. 295-334 and 908-946.

- أعمال شغب جديدة بسبب غلاء المعيشة، وهو ما أدى إلى صدام بين الشعب والجيش.

- احتجاجات الحنابلة ضد الاحتفال بعيد المحيا (النوروز) الإيراني.

- فضيحة نتيجة لتوقيف مصرفي يهودي.

- اعتداءات مسلحة عديدة ارتكبها لصوص حكم عليهم بالإعدام لاحقاً.

- فيضان كبير لنهر دجلة.

- اضطرابات نشأت عن احتجاجات عسكر الديلمي.

كانت المحافظة على النظام تتطلب من السلطة تموين المدينة ومنع ارتفاع سعر الخبز واللجوء باستمرار إلى القوى العسكرية والسهر على رفاه الشعب. قلّت أعمال الشغب خلال عهد الأمير البويهى معز الدولة مذ تسلّم زمام الحكم عام ٣٣٤هـ / ٨٤٥م، إذ أعاد الازدهار إلى المدينة وحدد سعر بيع الخبز بدرهم واحد لكل ٥٠٠ غرام، ونظم مباراة في المصارعة في الساحات العامة ومباراة في السباحة في نهر دجلة وسباقات سرعة.

«ومن أمتع الأشياء المتوالدة في زمن معز الدولة السبق والمصارعة، ذلك بأن معز الدولة احتاج إلى سعاة ليجعلهم يريداً بينه وبين أخيه ركن الدولة في الرّي، فيقطعون تلك المسافة البعيدة في المدة الأقصر. وأعطى معز الدولة الجوائز للمتفوقين، وهو ما جذب أحداث بغداد وفقراءها إلى ذلك فأنهمكوا فيه وسلموا أولادهم إليه. واشتهر عداءان في عهد معز الدولة أحدهما بـ «مرغوش» والآخر بـ «فضل»، وكان الواحد منهما يعدو أكثر من ثلاثين فرسخاً في اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ما بين عقبرة وبغداد. وعلى كل فرسخ من الطريق كان قوم يشجعونهما، فصارا إمامي السعي ببغداد، وسميت الرياضة باسمهما. وتعصب الناس لهما وانقسموا طائفتين»^(٤٧).

بعيداً من هذا الواقع الحافل بالأحداث، كانت بغداد بالنسبة إلى سكان دار الإسلام حلم خلافة وحيدة تجمع المسلمين كافة في أمة واحدة. وإن لم يحقق العباسيون وحدة العالم الإسلامي، أصبحت عاصمتهم في الخيال الجماعي قلب العالم ومحوره:

(٤٧) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٥ ج (حيدر أباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧ - ١٣٥٨هـ / ١٩٣٨ - ١٩٣٩م)، مترجم في: John J. Donohue, *The Buwayhid Dynasty in Iraq 334 H./945 to 403 H./1012: Shaping Institutions for the Future*, Islamic History and Civilization, Studies and Texts, 44 (Leiden: Brill, 2003), pp. 334-344.

«وانما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا، وسرة الأرض، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق، والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها، سعة وكبراً وعمارة، وكثرة مياه، وصحة هواء، ولأنه سكنها من أصناف الناس، وأهل الأمصار والكور، وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية؛ وأثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم، فليس من أهل بلد إلا ولهم فيها محلة، ومتجر ومتصرف. فاجتمع ما ليس في مدينة في الدنيا»^(٤٨).

ويتطرق الخطيب البغدادي، الذي استهل كتابه تاريخ بغداد، بوصف مطول للمدينة في الموضوعات عينها، علماً أنه ألف كتابه هذا في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي عندما لم تعد بغداد تضطلع بالدور السياسي والاقتصادي والثقافي الذي كان لها قبل قرنين: «مناقبها التي أفردتها الله بها دون سائر الدنيا شرقاً وغرباً وبين ذلك من الأخلاق الكريمة والسجايا المرضية والمياه العذبة الغدقة والفواكه الكثيرة الدمنة والأحوال الجميلة والحذق في كل صنعة والجمع لكل حاجة والأمن من ظهور البدع والاعتباط بكثرة العلماء والمتعلمين والفقهاء والمتفقهين ورؤساء المتكلمين وسادة الحساب والنحوية ومجيدي الشعراء ورواة الأخبار والأنساب وفنون الآداب وحضور كل طرفة واجتماع ثمار الأزمنة في زمن واحد لا يوجد ذلك في بلد من مدن الدنيا إلا بها سيما زمن الخريف ثم إن ضاق مسكن بساكن وجد خيراً منه وإن لاح له مكان أحب إليه من مكانه لم يتعذر عليه النقلة إليه من أي جانب من جانبيه أرادته ومن أي طرف من أطرافه خف عليه ومتى هرب أحد من خصمه وجد من يستره في قرب أو بعد»^(٤٩).

ارتقت هذه التصورات ببغداد إلى مصاف مدينة فريدة تحيا في قلب الدنيا ومدينة -عالم تجمع بين ميزات وثروات جميع المدن الأخرى. وهي أقرب إلى الرمزية منها إلى الحقيقة، ولا سيما بعد تراجع السلطة الخليفة^(٥٠). ومع ذلك، فهي تصورات قوية ولا تزال ماثلة حتى اليوم في خيال العرب لأنها تعبر عن توق إلى ماضي عظيم وترمز إلى حلم بـ «أمة» مسلمة موحدة. وإن كانت بغداد في حجارتها مدينة «من دون ذاكرة»، فهي تبقى للعرب «مكاناً ماثلاً في الذاكرة».

Yaqubi, *Les Pays*, p. 4.

(٤٨) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٢٣ - ٢٤٤، و

(٤٩) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٥٠) حول التصور الرمزي لـ «المدينة العملاقة»، المدينة العالم في سجلات المؤرخين العرب، انظر: F. Micheau

et p. Guichard, «Les Sources pour les mégapole orientales», dans: Robert Ilbert Nicolet et Jean-Charles Depaule, *Mégapoles Méditerranéennes: Géographie urbaine retrospective*, Atelier Méditerranée (Paris and Rome: Maisonneuve et Larose, 2000), pp. 685-704.

الفصل الحادي عشر

فاس في عهد المرينيين؛ الذروة وعلامات الأهل

حليمة فرحات (*)

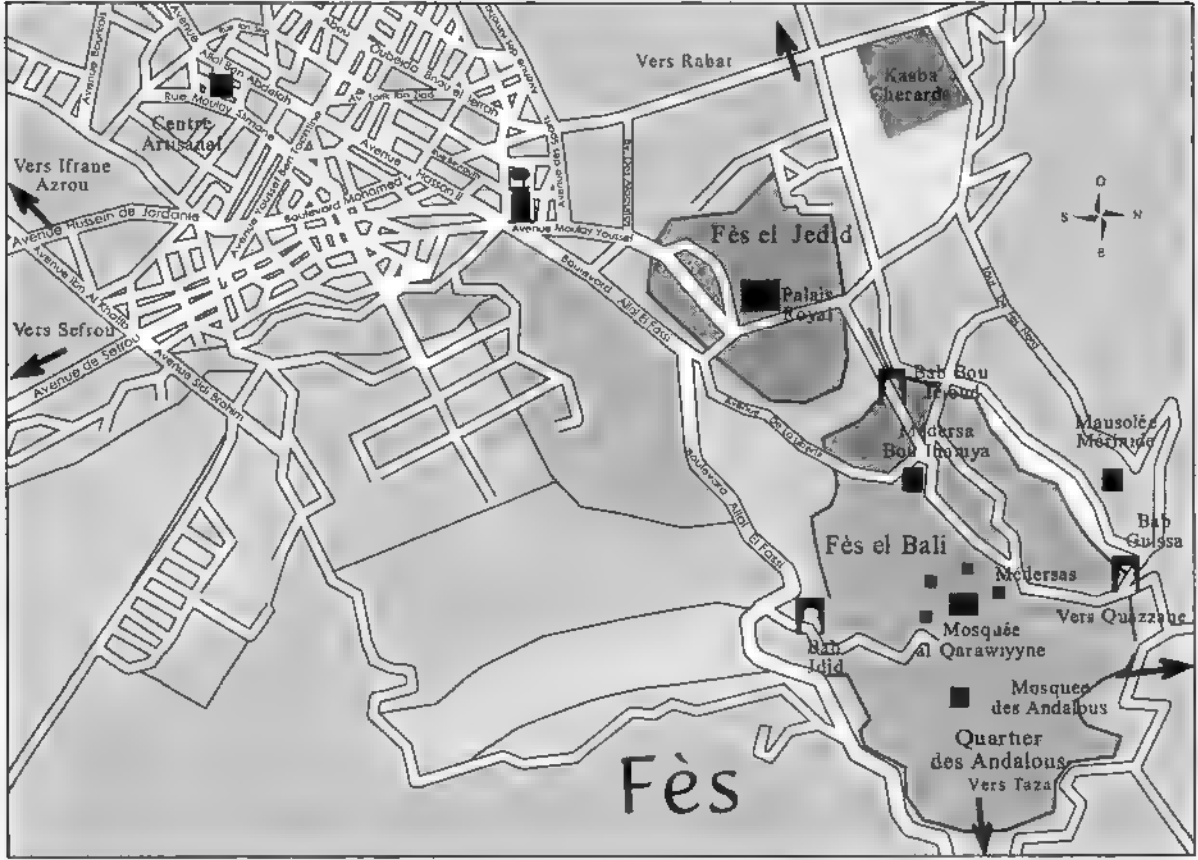
تقع فاس في منطقة سهلية عند نقطة التقاء المحاور الرئيسية التي تربط مناطق المغرب المختلفة في ما بينها، وقد كانت فاس لعقود عاصمة للمغرب (انظر الرسم الرقم (١١ - ١)).

تفتقر المدينة إلى شبكة قنوات صالحة للملاحة، إلا أن الموحدون أنشأوا ترسانة على النهر في موقع الجبال، على بعد ٣ كم في الشرق، وقد أمنت قوارب صغيرة في وقت ما الصلة بالمحيط الأطلسي. وكان أبو عنان المريني صاحب مشروع أكثر طموحاً، لم يكتب له النجاح؛ غير أنه تم بناء سفييتين كبيرتين في هذا المكان.

كان للأمراء المغراويين الذين حكموا من نهاية القرن التاسع إلى أواسط القرن الثاني عشر، والذين لم تنصفهم سجلات المؤرخين، الفضل في إضفاء الطابع المدني على تلك المدينة التي تأسست على يد أعدائهم الأدارسة. واحتفظت فاس بوضعها المميز خلال عهد المرابطين والموحدين الذين اتخذوا من مراكش عاصمة رسمية لهم. إلا أن عهد المرينيين هو من دون شك أكثر الفترات إشعاعاً وثراء ولا تزال آثار هذه السلالة ماثلة في الكثير من المباني.

(*) مؤرخة متخصصة في القرون الوسطى - المغرب.

الرسم الرقم (١١ - ١) مخطط فاس



تتوافر لنا معلومات كثيرة نسبياً حول تلك الفترة التي شهدت المدينة أوجها وظهرت فيها أولى إشارات التفكك والانحطاط في الوقت نفسه. قدم المؤرخون والمسافرون والفقهاء وغيرهم من العلماء وصفاً متشعباً للعاصمة المرينية، واستكمل كل وصف الآخر؛ وكان آخرهم زمنياً ليون الأفريقي الذي كرس ٦٢ صفحة لبلده المعتمد بحيث لا يسهل الحديث عن فاس من دون استعادة هذا الوصف المثير والدقيق. نشر مؤلفه في البندقية عام ١٥٥٠، إلا أن فاس كانت قد بدأت تنهار من الداخل وترزح تحت تهديد السعديين^(١).

Leo Africanus, *Description de l'Afrique*, translated by E. Epaulard (Paris: [n. pb.], 1956), (١) pp. 179-241.

تثير تشكيلات بيوتات فاس، وهو كتيب وضعه إسماعيل ابن الأحمر، التساؤلات. فهل هو تصميم لمؤلف لم تنته صياغته؟ إذ يوحي الأسلوب المتراخي والمفارقات التاريخية بأن المؤلف (أو المؤلفين) استرشد من دون تمييز من مصادر متفرقة ومتعارضة أحياناً. انظر: أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، بيوتات فاس (فاس: [د. ن.]، ١٩٧٢).

حافظت المدينة الحالية على الشكل الذي كان يميزها خلال القرون الوسطى حتى وإن شهدت الأسوار والأبواب عدة تحولات، إذ ارتفع عددها أو تراجع على مر تاريخ المدينة. كما سُوّر بعضها، في حين تغير اسم البعض الآخر، على غرار باب الكنيسة الذي تحدث عنه البكري وأصبح يُعرف بباب الخوخة^(٢). جاد المؤلفون في الثناء على تلك المدينة المشهورة بمزاياها الفريدة في نوعها. انبهر مؤلف زهرة الأس بمدينته وقال: «فقد سكنها جملة من أصناف الناس وأهل الكور والأمصار، وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية، فليس من أهل بلد ولا إقليم إلا ولهم بها منزل ومتجر وصناعة ومصرف، واجتمع فيها ما ليس في مدينة من بلدان الدنيا، وأتتها التجارات وأهل الصناعات من كل صقع حتى تكامل بها كل متجر»^(٣). حدد ابن عباد وهو الصوفي الرافض للتساهل، الدور الفكري الذي اضطلعت به العاصمة: «فاس أم أقطار المغرب...؛ فكانت نقطة انطلاق النظام والفساد على حد سواء إلى المدن الأخرى»^(٤). كما لم يتردد ابن الخطيب، الذي اشتهر بتعصبه للأندلس، في الإشادة بتلك المدينة الرائعة. وخلص ليون الأفريقي الذي زار بلداناً كثيرة إلى القول: «لم أر في أي مكان، لا في أفريقيا أو آسيا أو إيطاليا، سوقاً يباع فيها هذا الكم الهائل من البضائع: فهذا أمر يستحيل تقييمه». كانت فاس على صلة وثيقة بالبحر المتوسط وموانئه الرئيسية، ومنها سبتة وباديس، وراء الصحراء، وبلاد السودان عبر سجلماسة. يمكن تفسير عداء المرينيين لتلمسان، جزئياً، بالرغبة في وضع اليد على طرق الذهب التي أوحى بكتابات مستفيضة.

لا شك أن فاس نعمت خلال القرون الوسطى واشتهرت بديناميتها وأخلاق سكانها. فكانت مبانيتها حسنة الهندسة، جميلة وأنيقة. وقد أنتجت وصنعت وباعت أنواعاً مختلفة من البضائع وتسلّمت أنواعاً أخرى أعادت توزيعها وازدهرت فيها التجارة. زودتها قرية البهاليل بحطب الوقود والفحم في حين مدتها جبال بني يازغة بخشب الأرز الذي استعمل بكثافة في البناء وأرسلت لها قريتا مدشر الشاطبي ودمنات

(٢) Hammad Berrada, *Fès de Bab en Bab: Promenades dans la Médina* (Casablanca: Plan de la Médina de Fés, 2002).

يسمح هذا الدليل الصغير بفهم التعقيد الذي يميّز شبكة الأبواب والأسوار في فاس.
(٣) علي الجزنائي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور (الرباط: المطبعة الملكية، ١٩٦٧)، ص ٣٤. وقد تُرجم إلى الفرنسية في: Aboul-l-Hasan 'Ali El-Djaznai, *La Fleure de myrthe*, traduit par Alfred Bel (Algiers: Jules Carbonel, 1923).

يتمحور المؤلف حول جامع القرويين، إلا أنه لا يتحدث عن المدينة المرينية الجديدة (ص ٧٢ - ٧٣).
(٤) Paul Nwyia, *Ibn 'Abbad de Ronda (1332-1390): Un mystique predicateur à la Qarawiyn de Fès* (Beyrouth: Institut de lettres orientales de Beyrouth, [1956]), p. 150.

البَقُول المَلَح الذي استهلكته المدايع بكثرة. عمل العديد من المراكز الصغيرة كملحقات وفُرضت عليها الضرائب لتمويل عملية تحسين مظهر العاصمة. حتى مكناس لم تستطع الفرار من ذلك التوجه وسمحت عائذات بساتين الزيتون التي تضمها ببناء بعض مباني المدينة البيضاء^(٥).

أولاً: الماء: ميزة فاس الرئيسية وحليتها

اضطلعت الأنهر ومصادر المياه بدور حيوي وشهدت المدينة أشغالات واسعة لشق القنوات منذ زمن بعيد؛ إذ يرد ذكر البرك والبلل والفوارات والسقايات^(٦) بصورة منتظمة ويكرر المؤلفون أن فاس التي تضم ٣٦٠ مصدر ماء أغنى من دمشق على هذا الصعيد. وسمحت هذه المياه بتنظيف الشوارع بانتظام^(٧).

ينسب المؤرخون منافع استثنائية لمياه المدينة؛ فهي فاترة في الشتاء وباردة في الصيف وتسمح بالتخلص من الحصى وتشفي بعض أمراض الجلد. ويعود اسم «وادي الجواهر» إلى الأصداف الثمينة التي يحتوي عليها ويوفر كميات كبيرة من السمك.

أمدّ أمراء المدينة ورعاتها الأحياء والأزقة والمباني بسقايات لا يراد منها توفير المياه فحسب، بل شكلت تحفاً حقيقية زينت بالزليج وهو بلاط من الخزف المزخرف المطلي بألوان متوهجة. وكان عدد المباني المزودة بالمياه الجارية والمنسوبة إلى أبي الحسن هائلاً؛ فهناك فوارات بالطبع ومساق وقاعات للوضوء وفساق وبلل في الجوامع... إلخ^(٨). زُودت منازل الأعيان بالمياه منذ زمن وتمتع أكثرها جمالاً بفوارات «مزينة بسخاء» وبرك استخدمت كأحواض سباحة خلال فترات القيظ^(٩).

(٥) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازي، الروض المختون في أخبار مكناسة الزيتون (الرباط: المطبعة الملكية، ١٩٦٤). كانت فاس تنتج الزيتون بقيمة ٥٠,٠٠٠ دينار، أي ما يساوي ضعف إنتاج مكناس تقريباً الذي يبلغ ٣٥,٠٠٠ دينار. استقر ابن غازي في فاس بصورة نهائية في العام ٨٥٦ هـ (١٤٥٣ م).

(٦) Reinhart Pieter Anne Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, 2 vols. (Algerie: [a. pb.], 1981).

(٧) الجزنائي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، ص ٣٤. في زمن ليون الإفريقي، كانت شوارع فاس تنظف بانتظام (ص ٢٢٨).

(٨) أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر وعاشق مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس يغيرا؛ تقديم عمود بوعباد، النصوص والدراسات التاريخية؛ ٥ (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨١)، ص ٤١٧-٤١٨.

(٩) Africanus, *Description de l'Afrique*, pp. 182-183.

شكلت هذه المياه مجد المدينة الملكية الجديدة. وتمثل التجديد الذي حققه الأمراء المرينيون بالنواعير الضخمة التي سمحت بري القصر والحدائق العديدة التي كلفتهم عناء ومصاريف باهظة.

أحضر محمد بن الحاج، مبتكر الدواليب الشهيرة التي وُصفت بشكل مستفيض، من غرناطة^(١٠). وهو ابن المدجن من إشبيلية وكان خبيراً في الفنون الميكانيكية؛ فركب الدولاب الكبير مع دَلَوَاتِهِ الكثيرة وآلية تشغيله السرية علاوة على دواليب أخرى، بما في ذلك دولاب المصرة.

بالرغم من غزارة المياه، خضع توزيعها على المنازل لتنظيم صارم وكان من صلاحية المحتسب والخبراء. والأمر نفسه بالنسبة إلى صيانة القنوات. ولم يجر حتى الآن دراسة المصطلحات الغنية المستعملة في هذا المجال. إلا أن مظهر المدينة شهد تغييرات عديدة في غضون قرنين، إذ إن مصادر ومجاري المياه لم تعد في الهواء الطلق بعدما غطتها الإنشاءات. وشكلت ملكية المياه موضوع عدة نزاعات بين سكان المدينة والفلاحين في المناطق المجاورة^(١١).

سمح الري لفاس بإنتاج الفاكهة والخضار بكثرة، إضافة إلى الأزهار التي عشقها السكان. وقد شكى ابن عباد، الذي كان غريباً في المدينة، رداءة المنزل الذي استأجره في المدينة «حيث لا شجر أو أضواء أو أزهار». ويبدو أن الفاسيين كانوا يهونون الأمكنة التي تسمح بالتزه والأكل في الهواء الطلق والرحلات في الحقول.

ثانياً: أقلية حركة

كانت المدينة مكتظة بالسكان وعانت نقصاً في المساكن؛ فسُجلت حالات سكن مشترك متكررة، وجاورت الضواحي البائسة القصور الرائعة التي تحدث عنها كل من العمري وليون الأفريقي.

(١٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٤ - ٢٣٥؛ لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، حقق نصّه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، ٤ مج (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧٣ - ١٩٧٧)، مج ٢، ص ١٣٩ - ١٤١؛ أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن الحاج، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب: مصدر جديد من مصادر تاريخ المغرب الأدبي والخضاري في العصر المريني، دراسة وإعداد محمد بن شقرون (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠)، ص ٢٠ - ٢٥، و Georges S. Colin, «L'Origine des norias de Fès», *Hesperis*, vol. 13 (1933), pp. 156.

(١١) محمد مزين، فاس وبأديتها: مساهمة في تاريخ المغرب السعدي، ١٥٤٩ - ١٦٣٧، رسائل وأطروحات؛ ج ٢، ١٢ (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٨٦).

كان نفوذ الأقلية اليهودية يضاهي قدمها، وتولّى بعض أفرادها وظائف مهمة في البلاط. وذاع صيتهم بصورة خاصة في التجارة وصناعة المعادن الثمينة إلى درجة أنهم أثاروا غيرة الآخرين. فكانوا صاغة وجوهرين وصرافة وأنهموا بالغش زمن الأزمات المالية، وأدى تضارب المصالح إلى وقوع مآسي^(١٢).

كان «فندق اليهود» أحد أقدم الأماكن في المدينة مع دار القيطون، الذي أعطى اسمه لفرع من فروع الشرفاء الإدارية. لم ينفك المؤرخون، بدءاً من البكري، يكررون أن فاس هي المدينة المغربية التي تضم أكبر عدد من اليهود. ولاحظ ابن الخطيب أن «أخلاف سام وحام» استقروا في فاس وربطتهم بسواهم علاقة حسن جوار^(١٣). وزاد من شأن تلك الأقلية وفرة اليهود المطرودين من إسبانيا، وتشهد ضخامة الضرائب التي سددها على عددهم المرتفع وراثتهم في آن معاً.

لا تتوافر لدينا معلومات كثيرة حول المسيحيين الموجودين في المدينة. لكن من الواضح أن عدد الفرسان الذين خدموا السلالات المتعاقبة والمحتجزين والدبلوماسيين والمراق كان مرتفعاً. وأكد المؤرخون الذين سردوا وقائع إنشاء حي مسيحي، هو ربض النصرى، في المدينة البيضاء، أن هؤلاء عاشوا قبل هذا التاريخ داخل المدينة القديمة. وأشارت كلمة علج (وجمعها علوج) إلى «المرتدين» أو المسيحيين المهتدين في فاس.

ثالثاً: المؤسسات «البلدية»

ما من وثيقة «حسبة» متوافرة تحديداً لمدينة فاس دون سواها في تلك الفترة. كانت الوظيفة ذات شأن من دون شك، وقد عين فيها شاعر البلاط، الملووزي. وقد أعرب ليون الأفريقي عن أسفه تجاه هذا التدهور والأسف للتغيرات الحاصلة وقال: «في الماضي، لم يكن يعهد بها إلا إلى رجال أكفاء وطيبين السمعة. أما الآن، فترى الملوك يعهدون بها إلى أناس عاديين وجاهلين»^(١٤).

سهر المحتسب على النظام والنظافة وراقب أعمال الغش التي قد يرتكبها التجار، وسهر على مصالح السكان وصحتهم وحال دون شغل المساحات العامة المهددة بتكاثر

(١٢) Mohammed Kably, *Société, Pouvoir et religion au Maroc a la fin du «Moyen-Age» (XIV^e-XV^e)*, islam d'hier et d'aujourd'hui (Paris: Maisonneuve et Larose, 1986).

(١٣) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص ٧٩، و١، *Africanus, Description de l'Afrique*, vol. 1, p. 207.

Africanus, Ibid., p. 207.

(١٤)

الساباطات... إلخ. شكل التدقيق في الأوزان والقياسات سمة مهمة في هذا المضممار؛ فخلال عهد المرينيين، وُضعت معايير الذراع على جدران مكتب المحتسب لقياس الأقمشة الثمينة والشراشف^(١٥). تفسر المواد المستخدمة في البناء، أي الخشب علاوة على القصب والنخيل، السريعة الالتهاب، كثرة الحرائق والكوارث التي نجمت عنها. فمتى شبت النيران، كان من شبه المستحيل تطويقها ولم تذكر الحسبة الإجراءات الواجب اتخاذها في مثل هذه الحالة^(١٦).

أنشئت دائرة لشؤون النظافة عنيّت بالبرص الذين أرغموا على البقاء في مستشفيات الجذام والذين أثاروا قلق السكان حيث طالب هؤلاء بنقل تلك المنابذ مرتين. فبعدما استقروا في باب الخوخة ونُقلوا إلى باب الشريعة [المحروق لاحقاً]، أرغموا على الرحيل مرة جديدة لأن السكان اشتكوا من الروائح النتنة ومن الأوساخ التي قد تلوث مصادر المياه.

حرصاً على النظافة، أبيع ذبح الحيوانات خارج المسالخ ومارس المحتسب رقابة صارمة على اللحوم. فاعتُبر الدم من المحرمات ولم يجز أن يلوث المارة. إلا أن هذا الأمر لم يكن بالسهل في تلك الشوارع الضيقة والمكتظة.

رابعاً: المدينة البيضاء: عاصمة المرينيين

بعد فتح فاس وطرد حكامها الموحدين منها، بدأ الأمراء المرينيون يستقرون في قلعة أعدائهم المعروفة بقصبة الأزهار. إلا أنهم افتتحوا ورشة بناء المدينة البيضاء في آذار/مارس ١٢٧٦. واعتبر ابن خلدون تأسيس تلك المدينة علامة السلالة الجديدة. أضيفت تلك المدينة إلى التجمع المدني المؤلف من فاس القديمة والواقعة بين نواتين متميزتين، إحداهما على ضفة القرويين وثانيتها على ضفة الأندلسيين^(١٧).

Alfred Bel, *Inscriptions Arabes de Fès* (Paris: [n. pb.], 1917).

(١٥)

(١٦) أبو الحسن علي بن عبد الله بن أحمد بن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (الرباط: دار

نصور للطباعة والوراقة، ١٩٧٢)، ص ٧٣.

Roger Le Tourneau, *Fès Avant le protectorat: Etude économique et sociale d'une ville de* (١٧)

l'occident, Publications de l'Institut des hautes études marocaines; 45 (Casablanca: SMLE, 1949), pp. 837-842, et H. Ferhat, «Fès,» dans: Jean-Claude Garcin, dir., *Grandes Villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, Collection de l'École française de Rome; 269 (Roma: École Française de Rome, 2000), pp. 215-232.

احتفى جميع المؤرخين بهذه المدينة التي شكلت عاصمة حقيقية أريد منها أن ترمز إلى مجد السلالة الجديدة وقوتها. ونحن لسنا أمام مقام ملكي بسيط أو مجرد مجمع إداري.

أطلق على تلك المدينة اسم المدينة البيضاء، لكن سرعان ما أطلق عليها سكان فاس اسم فاس الجديدة الذي احتفظت به المدينة إلى اليوم^(١٨). طُوِّقت المدينة بسور بُني في مرحلة أولى عَزَلَهَا عن فاس القديمة التي احتفظت بشكلها كمدينة مزدوجة. اشتملت المدينة على القصر وملحقاته الكثيرة والواسعة، فضلاً عن الجامع الرئيسي والثكنات والإسطبلات، أي أنها كانت مدينة بكل ما للكلمة من معنى لها جوامعها ومتاجرها وأسواقها وأحيائها السكنية وحماماتها. فنقلت إليها أجهزة الدولة الأكثر أهمية^(١٩).

نافست دَارُ السكة المشاغل القديمة، بل حلت محلها. وقد نشط فيها العمال والموظفون والصاغة والجوهريون والكتاب العدل وأمناء السر وسكنوا فيها. كما ضمت رِبَاض النصارى وحي اليهود. فقد سكن المسيحيون الذين خدموا السلالة قبل ذلك في المدينة القديمة، والأمر نفسه بالنسبة إلى اليهود الذين نُقلوا إليها عقب سلسلة من الاعتداءات^(٢٠).

شكل الجامع الكبير موضوع عناية كبيرة بحيث نافس المساجد القديمة؛ وقد احتوى على منبر قيّم وعلى ثريا مذهشة مؤلفة من ١٨٧ قادوساً، ومقصورة... إلخ.

كان الملوك المرينيون بنائين طموحين وأقوياء العزم، فبنوا الكثير وأنفقوا الكثير على زينة المباني كما لو أنهم أرادوا التفوق على إنجازات الموحدون. يشكل جامع القرويين مثلاً ساطعاً على تلك المنافسة. تابع القضاة المرينيون، ولا سيّما محمد بن أبي الصبر أيوب، الأشغال في مكان العبادة هذا الذي جعل منه الموحدون المبنى الديني الأبرز في فاس^(٢١). ازدادت زينة المباني فخامة وعثرت الهندسة المرينية على طابعها الخاص.

Africanus, *Description de l'Afrique*, vol. 1, pp. 232-233.

(١٨)

(١٩) تحدث ابن الفضل الله العمري بصورة مطولة عن المدينة البيضاء في: أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*، ترجمة وتفسير غودروف ودوموميين (باريس: [د.م.], ١٩٢٧).

(٢٠) ابن أبي زرع، *الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية*، ص ٩٦ - ١٦١.

(٢١) الجزنائي، *جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس*، ص ٤٥ - ٦٧؛ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أحمد بن أبي زرع، *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*، اعتنى بتصحيحه كارل يوحنا

الحمامات المرينية كناية عن مبانٍ في غاية التألق لم يُشهد لها مثيل، إنما قُلدت أحياناً، وإن ظلت متواضعة. يبدو أن أجملها كان حمام المدينة الملكية. وينقل العمري عن ابن سعيد أن المياه كانت تغذي حمامات فاس فقط لا غير^(٢٢). أنشأ الأعيان الذين نفروا من الاختلاط حماماتهم الخاصة في منازلهم. وخلافاً للشرق، لا تحتوي حمامات فاس على مقصورات خاصة تسمح للأعيان بتحاشي الاختلاط الناتج من الصالات المشتركة التي ترددت إليها عامة من الناس والتي لطالما أثارت حنق المؤرخين^(٢٣).

زُودت المباني الجديدة بملاحق عديدة تشهد على أهمية الابتكارات الفنية. بغض النظر عن التفاصيل الهندسية، يمكننا ذكر الساعة المائية الموجودة في إحدى مدارس أبي عنان القرآنية؛ كما ضمت المباني الدينية الأخرى ساعات كثيرة أخرى. وُضع خباء من الكتان بفضل نظام حبال ذكي في باحة جامع القرويين ليحمي المؤمنين من وهج الشمس. وأنشئ بناء صغير في الباحة نفسها لاحتواء الجرس الضخم الذي يزن ١٠ قناطر والذي استُحضر من جبل طارق عام ١٣٣٣.

سواء تعلق الأمر بإسطرلابات متقنة، ويساعات تعمل وفق السنة الشمسية، وبابتكارات هيدروليكية أو بتصميم مدينة جبل طارق، لم يتم الاكتفاء دوماً بنقل ما وجد منذ الأزل. وغالباً ما قدم السفراء الأجانب، ولا سيّما أهل جنوى، الآلات. فالتبادلات مع العالم المسلم، ولا سيّما مع مصر، كثيرة، والأمر سيان بالنسبة إلى جنوى وقشتالة وأراغون؛ ولم يتجاسر أي وفد على الحضور فارغ الأيدي.

شكلت المسرة، التي كانت تقع خارج البلاط فسحة واسعة شمال غرب المدينة نُظمت فيها الاستعراضات العسكرية وغيرها، فضلاً عن ألعاب الفروسية. وقد ضمت عدة أجنحة، منها برج الذهب. تردد أبو الحسن إليها مرتين في الأسبوع لحضور الاستعراضات العسكرية ومبارزات الفروسية التي كانت توضع أفضل الفرسان وأبرعهم وجهاً لوجه.

تورنبرغ (أوبسالا: دار الطباعة المدرسية، ١٩٧٣)، ص ٦٠ - ٦٦ وقد وصف هؤلاء المؤلفون الابتكارات الهندسية المرينية بالتفاصيل. (قُبب جديدة، وهي كناية عن بناء صغير في الباحة يشير إلى اتجاه الصلاة... إلخ).

انظر أيضاً: Boris Maslow, *Les Mosquées de Fès et du Nord du Maroc*, introduction de Henri Terrasse; notes sur six inscriptions de Fès et de Taza par E. Levi-Provencal, Publications de l'Institut des hautes études marocaines; 30 (Paris: Editions d'art et d'histoire, 1937).

(٢٢) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.

Africanus, *Description de l'Afrique*, vol. 1, pp. 189-190.

(٢٣)

ترمي زاوية المتوكلية التي أنشأها أبو عنان إلى استقبال المسافرين الذين كانوا يصلون بعد إغلاق أبواب المدينة. وبحسب الشهادات، ولا سيما شهادة النميري، شكل هذا المبنى تحفة هندسية مع حدائقه وفواراته؛ لكن لسوء الحظ، لم يبق أي أثر له. أنشأ المرينيون أو رمموا الكثير من الحدائق والبساتين والرياض، اشتهر منها روض الغزلان وبستان أمينة، لكن كثيرة هي البساتين المذكورة في النصوص من دون أن يتم التعرف إليها.

خامساً: قيسارية وهيمنة التجارة

تأثر تاريخ المدينة وذهنية سكانها بالتجارة بفروعها المختلفة، وقد سُجل وجود الأسواق المتخصصة منذ عهد الإدارة. يبدو أن قيسارية، وهي كيان هندسي يحتل مساحة واسعة، شهدت تغيرات عديدة قبل أن تستحيل السوق المرينية المدهشة التي ألت إليها. فهي «مدينة صغيرة محاطة بالأسوار» ومزودة بجهاز رقابة معقد. كما تنافس فيها التجار المسلمون واليهود، وهو ما أسفر عن حصول توترات.

كانت قيسارية معدة لبيع الكماليات والأنسجة الحرير والبهارات والعطور والأحزمة والسروج وخيوط التطريز والأغطية الأوروبية... إلخ. والوصف الذي قدمه ليون الأفريقي، فيما كانت البلاد تعاني أزمة، يعطي فكرة عن ثراء تلك الأسواق^(٢٤). كما كُرسَت أمكنة أخرى كثيرة لأنشطة أقل رقباً ويُنيت بعناية أقل، نذكر منها «التربيعات» وهي ساحات متواضعة تحيط بها الممار أحياناً، وهي معدة لأنشطة محددة، ولا سيما الأنشطة النسيجية.

انقسمت «فنادق» المدينة إلى فئتين، منها ما شكل مسكناً للتجار ومنها ما أعد لتخزين البضاعة، وكانت تقع بوجه عام قرب أبواب المدينة. كان بعض الفنادق ملكاً للأفراد، إلا أن أهمها كان ملكاً للأوقاف، بما فيه فندق الشمع المشهور.

تعرضت كفاءات الفاسيين التجارية لانتقادات ترددت أصداؤها منذ القرن الثاني عشر؛ فقد هزأ الشاعر ابن بقي من بخلهم، واتهمهم ابن الخطيب بالذرائعية والأنانية والجفاء تجاه الغريب^(٢٥). واشتكى ابن عباد من قساوة الغربة في هذه المدينة التي تنعم

(٢٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٨-١٩٩.

(٢٥) سعد زغلول عبد الحميد، الاستبصار في عجائب الأمصار: وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد (الإسكندرية: جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨)، ص ١١٨٢ أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ، نفع الطيب، تحرير أحمد فريد الرفاعي، ٩ ج (بيروت: [د.ن.]، ١٩٦٨)، ج ٣، ص ٣٢٤.

بالرخاء والتي لا يبالي سكانها بعزلة الغرباء^(٢٦). فالفاسيون حادّو الذكاء ويتمتعون بمهارات تجارية مرتفعة وبحب شديد للكسب، إنما يتميزون أيضاً بالمعرفة وتقوى تحاذي الفريسية.

أصبح الثراء واضح الملامح وامتدت أملاك السكان المدينين في منطقة واسعة حول المدينة. واندرج توزيع أملاك الأسر المدنية ضمن طبوغرافيا فاس التي حملت شوارعها ورياضها وفنادقها وحماماتها وأسواقها أسماء تلك الأخيرة بحيث امتزج تاريخ بني الحاج والسلالقي وبني الملجوم مع تاريخ المدينة^(٢٧).

بُنيت المنازل الخاصة على علو وكانت تمتد على طابقين أو ثلاثة أو حتى أربعة طوابق؛ زينت منازل التجار والأعيان بالزليج المتعدد الألوان وكانت تضم الحدائق. إلا أن المدينة كانت مكتظة بالسكان ولم يتوقف المؤلفون عند المساكن المتواضعة.

سادساً: الحفلات العامة والتباهي الملكي

تجلت أبهة المرينيين وعظمتهم عبر إنفاق على الكماليات. كانت الجلسات الملكية تُنظم بعناية كبرى لأنها تعين الملك على التعبير علانية عن سلطانه ونفوذه.

اتسم الموكب الملكي بفخامة صممت لتؤثر في النفوس. فكانت تُسرج أكثر الأحصنة جمالاً بالذهب والحجارة الكريمة وتُطرّز السروج بخيوط ذهبية ويسير الموكب على قرع الطبول وغيرها من الأدوات الموسيقية. ولاح عدد كبير من الرايات المتعددة الألوان في الأفق وهيمن عليها اللون الأبيض، رمز السلالة. أوحى تلك المواكب بوصف مستفيض وشكل استقبال ملك غرناطة، محمد الخامس، خير مثال على ذلك^(٢٨).

دعيت مختلف المهن إلى الاحتفاء بتلك الأحداث الرسمية. وكان الشعب المعفى من وظائفه من أجل تلك المناسبة يتهاافت ليشاهد الظهور العلني لملك أو لوصول الزوار ورحيلهم واستقبال السفراء والتمتع بألعاب السيرك وبالمآثر الفروسية.

(٢٦) Nwryia, Ibn 'Abbad de Ronda (1332-1390): *Un mystique predicateur à la Qarawiyyin de Fès*, (٢٦) p. 49.

(٢٧) عبد الحميد، المصدر نفسه، ص ٢٠٣ - ٢٠٥، وابن الأحمر، بيوتات فاس، ص ٤٤ و ٤٩.

(٢٨) لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب، نفاضة الجراب في حلالة الاغتراب، تحقيق أحمد غنار المبادي؛ مراجعة عبد العزيز الأهواني (القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، [د.ت.])، ص ١٨٤ - ١٨٥.

جعل المرينيون من عيد المولد احتفالاً رسمياً ومنحوه شأنًا خاصاً ولم يُدخر جهد لتكون هذه الذكرى حدثاً فخماً. والوصف في هذا الصدد مسهب، إذ حضر ابن مرزوق، مؤلف المسند، هذه الاحتفالات لسنوات متتالية عديدة واكتملت شهادته بشهادة ليون الأفريقي: الطعام الغني كمّاً ونوعاً، والفاكهة، والحلويات، والحلوى بالعسل والسكر والصالات الفخمة والإنارة. في الليل، كان يُلقى قصيدة البردة للبوصيري وتُنظم مسابقات في الغناء وتقرأ «المُولديات» وتؤدى.

انعكست عظمة الرسول على الأمير الحاكم الذي أغدق النعم على أهل البيت وغيرهم من الأعيان. أما الفقراء في المدينة فكانوا يستفيدون من الحفلة ليملاؤا بطونهم وقد استغلوا تلك الولائم الفاخرة للحصول على الحسنات والشمع الذي لم يُستعمل. وسرعان ما أضاف المرينيون إلى الاحتفال بالمولد النبوي إحياء ذكرى اليوم السابع، ألا وهو يوم «العماد»، إذا جاز التعبير.

لا شك أن فاس تأمست على يد الإدارة الذين كانوا من أهل البيت، إلا أن المرينيين هم من ساعد الشرفاء على الاستقرار ومنحهم الامتيازات. وقد سبق لمؤلف الاستبصار خلال عهد الموحدين أن تحدث عن عبادة الشعب لأسرة إدريس، إلا أن سياسة الإنفاق التي اعتمدها المرينيون هي التي شجعت على تشكيل طبقة حقيقية^(٢٩).

سرعان ما نظم الشرفاء أنفسهم على شكل وحدات تغار على مكتسباتها وقد أرسل القصر المبعوثين لدعوة الشرفاء الأصليين إلى الاستقرار في المدينة. شكل تدفق شرفاء الشرق الذين أغواهم سخاء المرينيين حدثاً لافتاً^(٣٠)؛ فقد مُنحوا معاشاً وامتيازات جنبتهم ممارسة الأعمال الشاقة أو الحقيرة لكسب لقمة العيش. كُلف نقيب (أو مزوار) ينتمي إليهم السهر على سلاتهم ومنع الدخلاء من التمتع بالميزات عينها. كان محمد بن عمران الجوطي، وهو إدريسي من فاس، أول من حمل اللقب. فأفلت الشرفاء من اختصاص القضاء المدني وأصبح لهم قضاؤهم الخاص.

سمح رحيل القافلة إلى مكة المكرمة، أو ما يعرف بالركب، بدمج الدين مع السلطة والتجارة. ولم يكن الحجاج من المناطق المختلفة المعنيين الوحيدين بالأمر،

(٢٩) الجزنائي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، ص ٢٩ Kably, *Societe, Pouvoir et religion au Maroc a la fin du «Moyen-Age» (XIV^e-XV^e)*, pp. 219-299, et Halima Ferhat, «Chérifisme et enjeux du pouvoir au Maroc», *Orient Moderno*, vol. 79, no. 2 (1999), pp. 473-483.

(٣٠) Herman L. Beck, *L'Image de Idriss II, ses descendants de Fās et la politique chérifienne des sultans Mérinides* (Leiden: Brill, 1989), et Fernando R. Mediano, *Familias de Féz: SS. XV-XVII* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1995).

إذ التحق السفراء والأمراء وعدد كبير من التجار بالقافلة، علاوة على موفدي الملك المحملين بالهدايا إلى أمراء الشرق. فتمكن أعضاء البلاط من الإعراب عن إعجابهم بعظمة أسيادهم وبالعلاقات التي تجمعهم ببلدان الشرق الأسطورية، ولا سيّما مصر والأماكن المقدسة.

نُظمت استعراضات سيرك بشكل منتظم على منوال ما كان يجري في روما البعيدة حيث يدور العراك بين الأسود والثيران. وبالرغم من دقة الوصف، يصعب تحديد مكان الحلبات المرينية، ولا تزال التكهّنات قائمة حول مدى شبهها بصراعات الثيران الحالية. في الواقع، كانت الأسود تواجه الثيران في تلك «الألعاب» بإشراف مروضين يحتمون بنوع من «البراميل» الخشبية ولم يكن ملك الغابة الرابع دوماً، إذ يقال إن الأسود المجروحة كانت تصفى قذفاً بالأسهم.

سابعاً: نشاط فكري لا سابق له

عقب انهيار قرطبة وإشبيلية وأفول مراكش، أصبحت فاس القطب الرئيسي الذي جذب النخب من أنحاء العالم كافة^(٣١)، إذ كانت تقع عند مفترق طرق وأقامت فيها جميع الشخصيات النافذة لفترة طويلة نسبياً؛ فقد زارها أو استقر فيها الأمراء من بني زيان من تلمسان وبني نصر من غرناطة والأمراء الحفصيون، علاوة على السفراء والمسافرين والصوفيين والطلاب أو حتى المتطفلين، ناهيك بأغلبية الشخصيات المشهورة في تلك الفترة. تكثر المعلومات حول أوساط الأدباء الذين أحاطوا بالأمراء، ولا سيّما أبو الحسن وأبو عنان. كان البلاط المريني مفتوحاً إلى حد بعيد ولم يكن الملوك بالبخلاء، بل لم يكن في وسعهم إظهار أي بخل. فقد شكلت الهبات جزءاً من نظام الحكومة وشاركت فيها نساء البلاط. ويعترف ابن بطوطة أن والده الملك، وقبل مغادرته إلى غرناطة، «أرسلت لي بعض القطع الذهبية التي أفادتني كثيراً»^(٣٢).

عاش إسماعيل بن الأحمر بعدما أقصاه ابن عمه، ملك غرناطة، سنواتٍ منفى ذهبية، حيث عاشر الأدباء في البلاط والمدينة. فاشتهر بكتابته السير المستفيضة وكان

Mohammed Bencheikroun, *La Vie Intellectuelle marocaine sous les Mérinides et les Wattasides* (٣١) (XIII^{ème}, XIV^{ème}, XV^{ème}, XVI^{ème} siècles) (Rabat: [n. pb.], 1974).

Abu Abd Allah Muhammad Ibn Abd Allah Ibn Batuta, *Voyages d'Ibn Batoutah: Texte arabe*, (٣٢) accompagne d'une traduction par C. Defremery et le B. R. Sanguinetti, Collection d'ouvrages orientaux (Société asiatique), 4 vols. (Paris: Imprimerie Nationale, 1874-1879), vol. 2, p. 238.

أحد أبرز شعراء السلالة ومؤرخيها الرسميين. شكلت أعماله شهادة قيّمة حول الندوات التي كانت تجمع الأدباء. واعترف أن ملك فاس تكفل بجميع نفقات عرسه مع ابنة عمه^(٣٣).

كان ابن عباد من التلامذة الموهوبين لابن عاشر من سلا، ولفت انتباه البلاط بالرغم من تواضعه الشديد. كما حققت التعليقات التي وضعها على الحُكم نجاحاً كبيراً وساهمت إلى حد بعيد في نشر الشاذلية. كان إمام ومبشر جامع القرويين وشارك في احتفالات عيد المولد الرسمية. وشكلت عظاته وتعليقاته حدثاً أدبياً مهماً وجعلت منه مواهبه وحبّه للوحدة ونفوره من المسائل العديمة النفع المطروحة على بساط البحث شخصيةً فذة.

أحييت تلك النخبة، بالولادة أو المعرفة، الحياة الثقافية، فكان أولئك المؤلفون والمفكرون الحركيون يعرفون بعضهم البعض ويتعاضدون في ما بينهم ويقدر أحدهم الآخر ويشعرون بالحسد من بعضهم البعض ويكره أحدهم الآخر؛ كما أنهم لم يترددوا في اللجوء إلى الوشائيات والدسائس التي وقع ضحيتها ابن الخطيب. كان ابن خلدون أحد أصدقاء هذا الأخير الذي وجه له رسالة لمناسبة ولادة طفل^(٣٤). كان يحيى، شقيق ابن خلدون، المؤرخ الرسمي لبني عبد الواد من تلمسان، أشقاء المرينيين وأعدائهم، وأقام في فاس. أما روايات ابن بطوطة، التي طالما أعجبتنا، فقد أثارت الريبة والتعليقات الساخرة أكثر من الحماسة.

كما أقامت في فاس نخبة من المفكرين الوافدين من أنحاء العالم كافة؛ فقد تحدّثوا من القبائل المجاورة، مثل فشتالة وبني مكّدة، أو جاءوا من المدن المغربية الأخرى على غرار النحوي وبني عجرم وأمراء بني العزفي من سبتة، ولكنهم وفدوا أكثر ما وفدوا من الأندلس وتلمسان.

حاصر الأمراء المرينيون تلمسان عدة مرات، فقد كانت المقابل لفاس. وظلت العلاقات العدائية أو الودية بينهما مهمة ومنظمة، وكانت نخبة تلمسان تتنقل دورياً بين المدينتين هرباً من انتقام أمير مدينة ما والاحتماء بخصمه.

(٣٣) أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، نشر فرائد الجبان في نظم فحول الزمان ودراسة في حياته وأدبه، دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٧)، و Alfred-Louis De Premare, *Maghreb et Andalousie au XIVe siècle* (Lyon: Presses Universitaires de Lyon, 1981).

(٣٤) ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ص ١٢١.

ولد أبو عبد الله الأبلبي في تلمسان عام ١٢٨٢ واختار المنفى عندما احتل المرينيون المدينة ليسافر إلى الشرق. بعد عودته إلى البلاد، غادرها بسرعة كي لا ينتقل إلى خدمة السلطان أبو حمو. فالتجأ في فاس عند اليهودي خلوف المغربي الذي علمه علمَ التعايلم. من ثم، انتقل إلى مراكش عند ابن البناء وعند الهسكورة في الأطلس الكبير من ابن تروميت وآل به المطاف إلى الالتحاق بمجموعة علماء أبي الحسن فرافقهم في رحلاتهم إلى طريفة وتونس قبل أن يتوفاه الله عام ١٣٥٦.

كما تحدر من تلمسان أيضاً الأشقاء بنو الإمام الذين حماهم أبي الحسن من تلمسان؛ تربوا في تونس وكانت لهم مواجهة عنيفة مع ابن تيمية أثناء إقامتهم في الشرق^(٣٥). اضطلع مواطنوهم من بني مرزوق بدور بارز وتمكنوا بفضل واحد منهم من الحصول على هذا الكم من المعلومات حول استغلال الحسن للمقربين منه. كما تحدثت عائلة أحد أهم قضاة المدينة، المقرّي، من تلمسان.

اضطلع المهاجرون الأندلسيون بدور بارز في جميع المجالات؛ تُفسّر أهمية تلك الأقلية بالتقدم اللافت الذي حققه المسيحيون وبالأزمات الداخلية التي مزقت مملكة غرناطة.

ظلت المدارس القرآنية تحيي ذكرى المرينيين المجيدة. أسس عالم ثري مدرسة قرآنية في سبتة، إلا أن المؤسسة ذات المبانى الغنية، التي تدفع السلطات رواتب مدرسيها، كانت في الحقيقة ابتكاراً مرينياً، إذ أسست تلك السلالة التي تميز أمراؤها بإنشاءاتهم وهباتهم، أغلبية المدارس في فاس^(٣٦). ففي عام ١٣٣٧، تم استيراد كتلة رخام من المربة تزن ١٤٣ قنطاراً من أجل فسقية المدرسة القرآنية. وقد استدعى نقل هذه الكتلة بذل جهود جمة^(٣٧).

تفخر فاس بالعدد الهائل من الكتب التي تحتوي عليها وإن اختفت أغلبية معامل تصنيع الورق التي ترقى إلى عصر الموحدين. أدى استيراد المنتجات الأوروبية الذي

(٣٥) أبو عبد الله محمد بن محمد بن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، وقف على طبعه محمد بن أبي شنب (الجزائر: المطبعة العالية، ١٩٠٨)، ص ١٢٣ - ١٢٦ و ٢١٤ - ٢١٩، و Ibn Khaldun, *Le Voyage d'occident et d'orient*, autobiographie presentee et traduite de l'arabe par Abdesselam Cheddadi, Bibliotheque Arabe; collection textes politiques (Paris: Sindbad, 1980).

(٣٦) محمد المنوني، وراثة عن حضارة المرينيين، سلسلة بحوث ودراسات؛ ٢٠ (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٨٣).

(٣٧) الجزنائي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، ص ٣٧.

أصبح ضرورياً إلى صدور مجموعة من الفتاوى^(٣٨). انتشرت المكتبات الخاصة بكثرة، إلا أن مكتبات الجوامع والمدارس القرآنية نتجت من إرث ملكي أو خاص وقدم العديد من المؤلفين نسخاً من مؤلفاتهم إلى الأوقاف. على سبيل المثال، أهدى ابن خلدون مخطوطاً من مؤلف التاريخ الضخم الذي وضعه إلى جامع القرويين.

نُظم الشعر بكثرة في البلاط والمدينة على حد سواء. إلا أن أغلبية تلك الأشعار وضعها شعراء متكسبون. وقد جمعت مباريات الشعر الشعراء من حين إلى آخر. عام ١٣٦٣ (ربيع الثاني ٧٦٤هـ)، تنافس عدد كبير منهم للاحتفاء بسيف إدريس الأول الذي كان سيوضع في مثناة جامع القرويين ليشكل طليساً للمدينة. تأثر الشعر في معظم الأحيان بالظروف الراهنة، إلا أن العديد من الكتابات حدثها الرغبة في الحصول على مكافأة نقدية.

تمتع الوزراء النافذون، أسوة بالملوك، بمبجليهم. ثمن جلساء الأمراء والشعراء كرم، بل تبذير وإسراف، بني عثمان - سلالة شريفة - ولم ينفكوا يحتفلون بسخائهم.

تكتسب تلك المؤلفات أهمية بالغة لدراسة تاريخ المدينة، إلا أنها قد تزجج القارئ المعاصر بسبب التعظيم المغالي فيه والإطراء الموجّه إلى الأطراف النافذة.

خاض ابن بطوطة وكاتبه مزايذة حول مجد الملك أبي عنان وفضائله؛ لم ينفك ابن جُزَي يتدخل في الرواية ليضيف ثناء يكاد يكون أقرب إلى التزلف. بعد عهد أبي الحسن، صُور حكم أبي عنان على أنه عهد العدالة والإنصاف والنظام، وصُورت مواهب الأمير على أنها فريدة من نوعها؛ فهو يتمتع ببسالة لا مثيل لها في ساحة القتال ويصرع الأسود ويتفوق على أمراء العالم في الميادين كافة. وقال: «يحتل سيدنا المرتبة الأولى في جميع تلك العلوم»، «خطه أكثر جمالاً من زينة قبر الرسول»^(٣٩).

جذبت دروس الأساتذة الأكثر شهرة النخب وشكلت فرصة لإقامة علاقات مجدية وولوج أوساط السلطة. فقد اجتمع فيها الأمراء وأبناء الموظفين الكبار والطلاب الموهوبون، إذ استحال العلم وسيلة لارتقاء سلالم المجتمع ولكن، تجرأ علماء مشهورون، على غرار عبد العزيز القروي، على انتقاد السياسة المالية التي انتهجها أبو الحسن.

Halima Ferhat, «Le Livre instrument de savoir et objet de commerce», *Hespéris-Tamuda*, (٣٨) vol. 32 (1994), pp. 53-62.

Ibn Batuta, *Voyages d'Ibn Batoutah: Texte arabe*, vol. 2, pp. 369-372.

(٣٩)

حلت فاس مكان المدن الأندلسية التي تبنت إرثها وأضحت منارة تشع علماً وثقافة تناقش فيها جميع المسائل من مناهج التعليم المهددة بالاندثار والخيارات الصوفية ووفاء العامة وصولاً إلى الضرائب والشرقية.

كان المولد النبوي عيداً رسمياً وشعياً أثار نقاشاً واسعاً حول قيمة هذه «البدعة»: هل هي جيدة أم سيئة؟^(٤٠)

لم ينج تحكم المدارس القرآنية بالمعرفة من الانتقاد؛ فقد انتقد أبو عبد الله المقرئ وهو تلميذ الأبلبي وقاضي فاس الكبير جدوى تلك المعاهد الرسمية التي هددت دينامية وحرية الأساتذة والطلاب على حد سواء وألحقت الضرر بالعلوم^(٤١). من الواضح أن ابن عباد الذي هجا جشع معاصريه وكسلهم الفكري استهدف هؤلاء المدرسين المنجّرين إلى الفساد.

انتقل تيار الصوفية الذي ازدهر في الماضي في عاصمة الموحدين إلى فاس وشهد تغييرات جعلته يجذب الأدباء وحتى جلساء الأمراء. وظل المؤمنون بالرغم من معتقداتهم، على مقربة من أماكن السلطة. حرر ابن خلدون دراسته الشهيرة حول الصوفية المعنونة شفاء السائل في فاس^(٤٢) وكرس ابن الخطيب روضة التعريف إلى الموضوع نفسه^(٤٣).

لدينا معلومات كافية نسبياً حول تلك الأوساط بفضل شهادتين مميزتين^(٤٤). سهر الصوفيون على النظام ونددوا بالإجحاف الذي تُفرض به الضرائب وبالإدارة السيئة للأوقاف وهاجموا أحياناً الأمير بصورة مباشرة. وقد أعرب البعض عن اهتمام خاص

Halima Ferhat, «Le Culte du prophète au Maroc au XIII^{ème} siècle: Organization du pèlerinage (٤٠) et celebration du Mawlid,» dans: André Vauchez: *La Religion civique à l'époque médiévale et modern: Chrétienté et Islam*, Collection de l'Ecole française de Rome (Rome: Ecole Française, 1995), pp. 89-97, et *Sabta: Des Origins au XIV^{ème} siècle* (Rabat: [n. pb.], 1993), pp. 454-457.

Kably, *Société, Pouvoir et religion au Maroc à la fin du «Moyen-Age» (XIV^e-XV^e)*, p. 238. (٤١)

(٤٢) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، عارضه بأصوله وعلّق حواشيه وقدم له محمد بن تاويت الطنجي، منشورات كلية الإلهيات؛ ٢٢ (إسطنبول: مطبعة عثمان بلشن، ١٩٥٧)، وقد تُرجم إلى الفرنسية، في: R. Péres, *La Voie et la loi ou le Maître et le Juriste* (Paris: [n. pb.], 1991).

Halima Ferhat, *Le Soufisme et les zaouyas au Maghreb: Mérite individuel et patrimoine sacré* (Casablanca: [n. pb.], 2003). (٤٣)

(٤٤) أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب، أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، سلسلة الرحلات؛ ٢ (الرباط: المركز الجامعي للبحث العلمي، ١٩٦٥)، والخضرمي، سلسال الذهب (سلا: [د. ن.], ١٩٨٨).

بعالم الحرفيين الذين تجرأوا على إدانته. يمكن استشفاف روح تبشيرية من هذا التيار. أعدّ رجل دين صلاة خاصة للحرفيين، في حين كرّس ابن الحاج الجزء الرابع والآخر من المدخل لعالم العمل^(٤٥).

وافق بعض الصوفيين على التصرف كوسطاء بين الحكام والمحكومين وإن كان ذلك ليشير نقمة الآخرين وغيرتهم، لأن معاشرة الأمراء لم تكن محمودة عقباها^(٤٦). كان أبو علي الحسن الدجائي عالماً وصوفياً وكرس حياته ودخله للأعمال الخيرية ولم يتردد في مساعدة الفقراء والتخفيف من حدة النزاعات.

ولم ينفك ابن عباد، بالرغم من مهماته الرسمية، يندد بالحكم السيئ وبالضرائب المجحفة وبجشع العلماء الذين لم يتردد في إدانة طمعهم وانتهازيتهم: «لم يتمسكوا بهذه الوظيفة (أي وظيفة الفقيه) كي يتصدوا للضياع العام الذي أصاب معاصرنا البائسين، بل لأنهم وجدوا فيها طريقة ممتازة لكسب ممتلكات هذا العالم»^(٤٧). بالطبع، ليست تلك الانتقادات بالجديدة، غير أنها تعكس حقيقة سياسية اجتماعية سمحت بتكديس ثروات مشتبه بأمورها. أتى أبو عبد الله المقرّي، سلف واضح نفح الطيب، من أسرة ثرية من تلمسان جمعت بين المعرفة والغنى، وكان قاضياً نافذاً ومدرساً ذا اعتبار ولم يتردد في هجاء الحاكم^(٤٨).

ندد الأبلّي، وهو فيلسوف أهواه علم التعاليم، بالمؤسسة الرسمية المتمثلة بالمدارس القرآنية. وقد أثار اهتمامه بالحالة الشيعية الشبهات، إلا أننا نفتقر إلى المعلومات المتعلقة بتبرير هروبه واختبائه والاضطهاد الذي تعرض له.

بالرغم من الإشعاع الفكري، أخذت اختصاصات أساسية مثل الطب والفلسفة تعاني التراجع؛ سجل وجود للمارستانات، أي المستشفيات، إنما المعلومات المتوافرة لدينا في هذا المجال ليست بالكافية. اكتفى مؤلف المسند الذي عنون فصلاً من مؤلفه

(٤٥) ابن الخطيب، المصدر نفسه، ص ٧٤ - ٧٧، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن الحاج، المدخل، ٤ ج، ط ٢ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٧٢).

(٤٦) Halima Ferhat, «Saints et Pouvoirs au Moyen Âge au Maghreb: Entre le refus et la tentation», dans: *L'Autorité des saints: Perspectives historiques et socio- anthropologiques en Méditerranée occidentale* (Tunis: Éditions Recherche sur les Civilisations, 1998).

(٤٧) أصبح ابن عباد حامي الإسكافيين وظلّت تعليقاته حول الحكام تلاقي النجاح نفسه، انظر: Nwryia, *Ibn 'Abbad de Ronda (1332-1390): Un mystique predicateur à la Qarawiyyin de Fès*, p. 150.

(٤٨) المقرّي، نفح الطيب، ص ٢٠٣ - ٢٠٩.

تأسيس المارستانات بذكر ترميم أبي الحسن لمارستان أسسه والده^(٤٩). وإذا ما استطعنا رصد أسماء أطباء البلاط، يبدو أن أكثر ما أثار اهتمامهم هو علم التغذية وفن الحفاظ على الصحة كما يتجلى ذلك من مؤلفات ابن الخطيب الذي كان طبيباً. وشكل الطاعون موضوعاً لعدد من الدراسات، ولكنه ساهم بشكل أساسي في الكشف عن عجز الأطباء.

سُجل غياب شبه تام للفلسفة، نظراً إلى الاضطهاد الذي مارسه الفقهاء في حق دعائهم، كما تجلى ذلك في مأساة الأبلبي الذي اتهم بالهرطقة واضطر إلى الاختباء من جديد.

برز تيار علمي غامض انضوى تحت رايته علماء بالرياضيات على غرار ابن البناء ومنجمون - فلكيون مثل ابن قنفذ وصوفيون وعلماء يهود مثل ابن مخلوف.

اشتهر أبو زيد اللجائي بزمه وأعماله الخيرية واختراع إسطرلاباً هيدروليكيّاً اعتبره ابن قنفذ وهو الفلكي المهم بالصوفية اختراعاً فريداً من نوعه^(٥٠).

ثامناً: مجتمع في طريقه إلى الزوال؟

بدأ نفوذ الشرفاء وشعبيتهم يهددان السلطة، وجسدت ثورة الجوطي النشأة السياسية لهذه الطبقة^(٥١). ابتداء من القرن الخامس عشر، أدى «اكتشاف» ضريح مؤسس فاس إلى محورة المدينة حول معبدتين، ألا وهما جامع القرويين من جهة وضريح مولاي إدريس من جهة أخرى.

كانت أملاك الحبوس هائلة في القرن الرابع عشر وأضيفت الهبات الملكية إلى التركات الخاصة؛ فكانت كناية عن طواحين وحمامات وفوارات وأفران عامة وفنادق؛ خصصت عائداتها لصيانة الجوامع والمارستانات والمدارس القرآنية. إلا أن النفقات كثيرة حيث هدد إنشاء وصيانة المدارس والمارستانات والجوامع والرواتب والإنارة والزكاة ومعاشات الشرفاء والاختلاسات مصير تلك الأملاك. سهر أربعون موظفاً، بمن فيهم عدة مؤذنين، على صيانة وحسن سير جامع القرويين وحده. حدا تبديد تلك العائدات، بما في ذلك الإنارة المفرطة، بالقاضي عبد الله الفشتالي إلى رفض دخول

(٤٩) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٦٨.

(٥١) Mercedes Garcia-Arenal, «The Revolution of Fās in 869/1465 and the death of Sultan 'Abd al-Haqq al-Marīni,» *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, vol. 44 (1978), pp. 43-66.

الجامع الكبير لغاية توقف هدر الأموال العامة في شراء الشمع والزيت^(٥٢). تدهورت الأموال العامة نظراً إلى غياب الصيانة؛ وأشار الجزنائي إلى تردي حال عدة أبواب وتعطل الآليات وإهمال بعض الأضرحة^(٥٣).

تزامنت وفاة أبي الحسن مع بروز عائلات نافذة في الواجهة. وهو بالرغم من نفوذه وطموحه، مات ابنه أبو عنان خنقاً على يد وزيره الفودودي وأقيل العديد من خلفائه أو اغتيلوا على يد هؤلاء الموظفين الكبار وهم وزراء نافذون تحدروا من القبائل المرينية الكبيرة، أي الفودودي والسدرتي واليمني وبني وطّاس، ونجحوا في تبوؤ سدة السلطة وحلوا محل أبناء عمهم^(٥٤).

تحيلنا أسماء الأماكن الحالية في فاس إلى تاريخ المدينة الطويل وتردد أصداء أحداث مأساوية (ثوار تعرضوا للشق أو الحرق) وتذكر بإقامة شخصيات بارزة فيها. كما عكست المقابر صورة هذا التاريخ الحافل بالأحداث^(٥٥). من جهة أخرى، احتفظت تلك الأسماء بذكرى أنشطة أو وظائف اندثرت أو على وشك الاندثار. وثمة إشارة إلى المنازل التي أقامت فيها الشخصيات المشهورة على غرار منزل بني الحاج الذي سكنه القاضي عياد من سبّة وجامع أبي مدين، شفيح تلمسان الحالي ومنزل ابن عباد.

وقد حمل بعض الأحياء والفنادق والجوامع اسم حرف اندثرت، أو هي على وشك الاندثار، على غرار صانعي المناخل والإسكافيين.

لاحت بعض بواذر الشؤم في الأفق^(٥٦)؛ إذ مُني أبو الحسن بفشل ذريع في أفريقيا بوجه القبائل العربية والمسيحيين في الأندلس وسحق الطاعون علماء وجيشه، وهو توفي في المنفى في الأطلس الكبير بعدما طرده ابنه أبو عنان. أثارت الثروات المحصلة

(٥٢) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مج ٢ - ١، ص ٢٣.

(٥٣) الجزنائي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، ص ٨٠.

(٥٤) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ١٥٣، والمماش ٣. وللتنصيل حول ارتقاء الشخصيات النافذة في النظام السياسي المريني، انظر: Kably, *Société, Pouvoir et religion au Maroc à la fin du «Moyen-Age» (XIVe-XVe)*.

(٥٥) يمكننا ذكر روض العطر الأنفاس لابن عيشون شرار، وسلوة الأنفاس للكتاني، اللذين يمحوران تاريخ المدينة حول مقابرهما.

(٥٦) Maria J. Viguera, «Le Maghreb mérinide: Un Processus de transfèrement», dans: Congrès Union européenne des arabisants et islamisants, *La Signification du bas Moyen âge dans l'histoire et la culture du monde musulman* (Paris: Edisud, 1978), pp. 309-322.

بطريقة مشبوهة الفضائح، ولم ينفك الأخلاقيون ينددون بحديثي النعمة الذين جمعوا ثرواتهم بوسائل مرذولة. وبدأت مجموعة من المؤمنين الذين ألفوا أقلية إلى تاريخه تتمتع بنفوذ واسع. ولم يكثر أولئك المرابطون الغريبو الأطوار بالممارسات الدينية. ولم يمنع امتعاض المؤمنين الحقيقيين ولا استنكار العلماء نجاحهم الذي ترسخ على مر القرون.

غير أن فاس ظلت مثلاً للتألق واللباقة؛ وكان استقبال الفاسيين للسعديين معبراً، إذ اعتبروا أولئك البدو الذين يلبسون الستور وأقمشة الأثاث المسروقة من المنازل الفخمة أفضلاً وأتهموهم بالتباهي بملابس مضحكة ومبرقشة^(٥٧). ويبدو أنهم تعلموا حسن السلوك على يد زوجين كانا في خدمة المرينيين وقد علماهم كيفية اللبس وترتيب الشعر والجلوس وحمل السلاح وتحضير الطعام وتقديمه والأكل... إلخ. لكن مقاومة الجمهور الفاسي كانت عنيفة ودائمة، إذ شعروا بالحنين إلى بني مرين وأبناء عمهم بني وطاس مقابل السعديين. يفيد قول ماثور أنه لا وجود لشيء خارج هاتين السلالتين^(٥٨). ولم ينفك المؤرخون يشيدون بشمال أولئك البنائين الذين حرصوا على رأي علماء الدين وأغدقوا النعم على المدينة، وإن كان الواقع التاريخي بعيداً كل البعد من تلك النظرة المثالية.

تشيد شهادة ليون الأفريقي في نهاية حكم بني وطاس بتلك المدينة التي ظلت تقاوم بالرغم من الأزمات التي عصفت بالبلاد والفوضى المستمرة والخطر الأيبيري^(٥٩). تقلصت مساحة الأرض على الرغم من الجهود الكبيرة المبذولة، وأفلتت طرق الذهب من يدي فاس. فأصبح الذهب شحيحاً وتزايدت الأزمات النقدية.

وقبل الختام، يمكننا الحديث عن ملمح لافت للنظر لا يزال يميز فاس، فتلك المدينة اتسمت بتقوى سكانها وكانت مهداً للعلوم الدينية، إذ ذكر عدة مؤلفين وجود طلاس أريد منها حماية المباني والسكان. ولا يبدو أن رهاب التصويرات أزعج المؤمنين، مثل التمثال الذي يصور عصفوراً يحمل في منقاره ذنب عقرب وتفاخاً ضد

(٥٧) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص ٢٨ - ٣٠.

E. Destaing, «Les Beni Mer'in et les Beni Vattâs (légende marocaine),» dans: *Memorial H.* (٥٨) Basset (Paris: 1928), p. 1202.

Velemtin Fernandez, *Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal*, traduit de p. De (٥٩) Cénival et Thomas Monod (Paris: [n. pb.], 1938), et Damiao De Gois, *Les Portugais au Maroc de 1495 à 1521* (Rabat: Edition R. Ricard, 1937).

الزواحف^(٦٠)؛ وقمة تمثال آخر يرمي إلى ردع طير السنونو عن التعشيش في الجوامع وأسود نحاسية تسيل المياه من أشداقها. بل إن هناك ساعة في قاعة الاستقبال تشير تماثيل نسائية فيها إلى الوقت^(٦١). هذه الإشارات تستدعي منا إعادة النظر في بعض الأفكار المسبقة.

(٦٠) الجزنالي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، ص ٩٣، وابن أبي زرع، الأئیس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ٥.
(٦١) المنوني، ورقات هن حضارة المرينيين، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

الفصل الثاني عشر

التنظيم الحيزي لتونس المدينة ومدن عربية - إسلامية أخرى في شمال أفريقيا والشرق الأدنى

روبرتو بيراردي (*)

قبل أعوام عديدة، باتت دراسة تونس المدينة بمنزلة المناسبة لي كي استكشف واقعاً حضرياً لأول مرة عبر وثائق أصلية مصممة كلياً لذلك الهدف. لم يكن الأمر مسألة فهم حيز المدينة من خلال الفوارق التي أظهرتها، هذه المصنوعة اليدوية الجماعية، في شأن معرفتي التاريخية والعملية للمدن الغربية، بمقدار ما كان مسألة محاولة فهم كيف أن حيزاً معرّفاً بأنه حضري منظمٌ ضمن الثقافة المحددة تاريخياً التي أنشأته.

وقد قادني إلى هذه الحالة من «الصفحة البيضاء» (Tabula Rasa) الإدراك أن التجربة الحيزية لتونس المدينة أيقظت فيّ أصداً، وانطباعات تبائنات، والرغبة في تشكيل مقارنات، وإحساساً بالارتباك. وبيّنت لي هذه الأحاسيس، قبل أي شيء، أن معارفي الرسمية لم تذهب بعيداً كفايةً للوصول إلى أي معرفة حقيقية للمدن التي زرتها أو درستها. لذلك كان لا بد من علاقة جديدة مع هذه الحقيقة الواقعة كي أنشئ الأدوات الملائمة واللازمة لاستكشافها.

إن تاريخ المجتمعات الحضرية لا يتجسد تلقائياً أبداً في التنظيم المادي لمدينتها. ولا المدن المتتمية إلى مجالات ثقافية متجانسة نسبياً ظهرت وتطورت في مآل الأمر

(*) باحث ومهندس معماري إيطالي.

متبعة أنماطاً موحدة ومميّزة بسهولة. فحتى القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر كانت القرون الوسطى الأوروبية بيئة طبيعية مبهولة إجمالاً، إلا في كسرات مبعثرة، وتضمنت كلاً من التدهور المتأخر، أو ببساطة التغير المتدرج، لهيئات حضرية أقدم، فضلاً عن عمليات استيطان غمرتها مراحل تمدنين متوالية.

وأنا لست أبحث عن نموذج أو مثال، وإنما عن «الترتيب» الذي قام «حيز» معين - حيز الدفاع والأنشطة التجارية والإنتاجية والمعتقدات الدينية والاجتماعية لثقافة حضرية معينة - بترسيخه في جميع الترتيبات السابقة، إمّا باستيعابها وإمّا بإلغائها. وفي الحالة موضوع الدراسة، كانت هذه الثقافة مجرد إحدى الثقافات العربية - الإسلامية الكثيرة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط؛ لكنها كانت مهمة لي من حيث تمكيني من تقديم تحليل مقنع لهذه المدينة «بعينها»^(١).

تفحصت في عهد أقرب طبوغرافية حلب ودمشق في السجلات العقارية الفرنسية البالغة الدقة^(٢)، وأقمت مقارنة بين التنظيم المتعلق بمقياس مسطحات العاصمة السورية عام ١٩٣٢ والمسح الطبوغرافي الذي أجراه كل من فولتسينغر وفاتسينغر عام ١٩١٢ (انظر الرسم الرقم (١٢ - ١)).

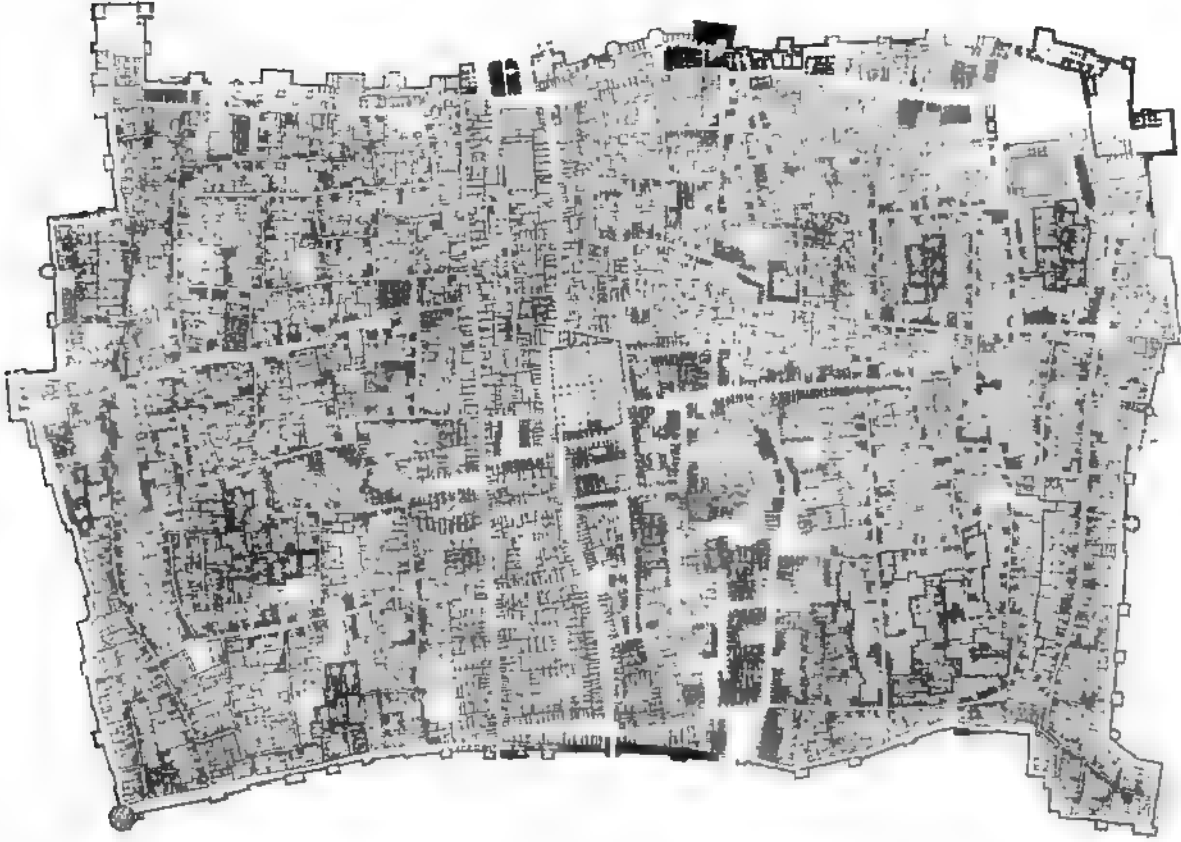
كما أنني استفدت من الرسومات المدروسة لأسواق فاس ولحلب، وهي من وضع ستيفانو بيانكا، ورسمه واحدة لصفاقس وضعها ميشال فان دير ميرشن ورسمه للقيروان وضعها كلٌّ من باولا جرفيس وباولو دوناتي. وقادني هذا العمل إلى تطوير الفرضية التي كنت قد صغتها خلال بحثي السابق، الأمر الذي أغنى الصورة التي

(١) في هذه المقالة رجعت وأشرت إلى منشورائي السابقة، انظر: Roberto Berardi: «Lecture d'une ville: انظر: La Medina de Tunis,» *L'Architecture d'aujourd'hui*, no. 153 (1970-1971); «Espace et Ville en Pays d'Islam,» dans: Dominique Chevallier [et al.], eds., *L'Espace social de la ville arabe* (Paris: Centre national de la recherche scientifique, 1979); «Signification du Plan ancien de la Ville Arabe,» papier présenté à: *La ville arabe dans l'Islam: Histoire et mutations: Actes du 2^{ème} colloque de l'A.T.P. espaces socio-culturels et croissance dans le monde arabe, Carthage-Amilcar, 12-18 mars 1979*, [sous la dir. de] Abdelwahab Bouhdiba et Dominique Chevallier (Tunis: Imprimerie al-Asria; Paris: Centre national de la recherche scientifique, 1982); *Città, materia del tempo* (Florence: Edizione Città di Vita, 1995); *Della città del fiorentini* (Florence: Giunti, 1992); *Capri portolano della città* (Florence: Edizione Città di Vita, 1994), and «L'Architettura delle città nelle epoche di formazione dell'Occidente Cristiano e dell'Islam,» dans: Alireza Naser Eslami, ed., *Architetture e città del Mediterraneo tra Oriente e Occidente* (Genoa: De Ferrari Publication, 2002).

(٢) انظر كتاب جان كلود دافيد بشأن حلب وسجلاتها العقارية، وخصوصاً مقالته: «La Formation du tissu de la ville arabo-islamique, apport de l'étude de plans cadastraux d'Alep,» *Environmental Design*, vols. 1-2 (1993).

كونتها لتنظيم مقصود للحيز على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط في بلاد عربية مختلفة.

الرسم الرقم (١٢ - ١) دمشق، المدينة وأجزاء من الضواحي



المعلومات التي تضمنتها خرائط المساحة جرى إدماجها مع الخريطة المنشورة قبل ذلك بأثني عشرة سنة من طرف فولتسينغر وفاتسينغر في عملهما: دمشق مدينة إسلامية *Damaskus, Die Islamische Stadt*.

في هذا المخطط التفصيلي إلى أقصى حد للمدينة من الداخل، وللمحيط المجاور في قلب ضاحية دمشق هي إلى اليسار، فوق باتجاه الغرب. تحت هذه، هناك المنطقة حول القلعة، تحيط بها الأسواق التي أعيد تنظيمها جزئياً حول الطريق المؤدي إلى المسجد الكبير. تحت هذه، هناك مناطق قيد التهديم أو البناء، والآخرية في شكل تقسيم إلى قطع من أجزاء أخرى من الضواحي. أعمال البناء التي قادت إلى تهديم الضواحي الغربية يمكن إعادتها إلى سنة ١٩٣٢.

ويعزل عن الطريق الهليني، هناك طرق من الحقبة عينها تذهب في اتجاه شمال - جنوب وشرق - غرب، تاركة أثراً من نوع ما لماضي ما قبل عربي، ولكن مع تحولات وتطورات لاحقة يظهرها المخطط. داخل هذه الشبكات المتداخلة تنتظم التجمعات وفق تصاميم غير هيلينية: شريط الأسواق والفنادق الذي يشبه سواه في مدن أخرى، المنازل على جانبي الطرق، وعناقيد السكن العائلي حول واحد أو أكثر من الأزقة المقفلة ومن النوع الذي يتنا معادين عليه. ليس هناك من طرق رئيسية متفرعة، كما هو شائع في تونس مثلاً. من ناحية ثانية هناك مخازن ووكالات قرب البوابات، كما في كل المدن التي وصفناها. في المناطق المأهولة هناك تقريباً حديقة في فناء كل منزل؛ وفي الحد الأدنى هناك في فناء كل منزل شجرة وبركة ماء دائرية.

تتناثر المساجد الصغيرة والمدارس والزوايا حول المسجد الكبير، وكذلك على طول الوصلات الداخلية التي توصل إلى المناطق السكنية بين تسيج الشوارع الهلينية، وأحياناً بطريقة عشوائية قرب الأسوار القديمة (الجنوبية الغربية مثلاً)، وحتى في الضواحي. إلى أي حد أثر التغيير في إمدادات المياه التي تغذي المدينة من الشمال إلى الجنوب في أنماط السكن؟ وإلى أي مدى أثرت الطرق ما قبل الهلينية القديمة في التنظيم اليوناني الروماني والإسلامي للمكان المديني؟ وحدها الحفريات الأثرية والمستحيلة الآن تملك الإجابة. وفي كل الأحوال، وبعيداً من الفضول الذي تثيره بقايا مسرح أو أوديون أو فوروم، نستطيع القول أيضاً:

يشكل الحي المحيط بالمسجد الكبير نوعاً من ورشة كبرى كثيفة حيث تتوالد الأسواق والفنادق، أمام وخلف عناقيد المنازل، والمدارس والمعابد الصغيرة. تمتد هذه الورش حتى نهاية شبكة الطرق عند البوابات الشالية. كان إنتاج الثروة يتساوى مع العمل على إنتاج المساواة والاستقامة أمام الله في تلك الحياة الداخلية الغنية، وينعكس ذلك في منازل من أحجام متنوعة تشكل النمط السائد.

يمكن الوصول إلى المباني السكنية، وهي في شكل تجمعات عنقودية، من خلال الأزقة المقفلة، في كل ركنٍ أو زاوية من المدينة الداخلية كما تنتشر في سائر أجزاء المدينة أشرطة من المنازل على طول الشوارع والأزقة وصولاً إلى أقصى الأمكنة الداخلية وطبع عناقيد السكن العائلي بطابعها الخاص بمعزل عن المكونات العامة. ويجري استخدام بقايا الشبكة الهلينية في سلسلة من التراتيبات وطرائق الإشغال، على نحو يشبه ما هو قائم في تونس والقيروان وصفاقس وفاس. المكان الذي تحلقه التحولات تلك يشبه ما هو موجود في كل المدن تلك، لا وجود للطريق المستقيم، الساحات تقطعها الممار، والدريبات والأزقة المقفلة، وعليه تغيرت ظاهراً بناها التشكيلية القديمة.

المصدر: خريطة المساحة الفرنسية لمدينة دمشق ١٩٣٢.

وبالرغم من ذلك، ليس في نيتي أن أؤكد أن «نوعاً»، أو أن نوعاً «واحداً» فقط من المدينة العربية - الإسلامية موجود، ولا أن أؤكد أن جميع المدن العربية - الإسلامية على شكل واحد. فالعالم العربي - الإسلامي شاسع بما يكفي، في الزمان والمكان، لأن يكون متميزاً عن تجارب حضرية سابقة أو مترادفاً معها. بدأت علاقات الشعوب العربية بسورية القديمة وبلاد ما بين النهرين فجر التاريخ المدوّن. وشهدت الأراضي العربية مساكنة بين ثقافات رعوية وبدوية وثقافات حضرية وتجارية وفلاحية اندمجت الحياة البدوية فيها من خلال التبادل التجاري والسفر والحملات العسكرية.

في كتاب المدن، أدوات الزمن حاولت اقتفاء أثر الصلات الاستثنائية بين هذه العوالم الواقعية المؤسسة القديمة - المبنية بكثير مما نجده في التنظيم الحضري والمعماري لتونس المدينة، بل في التنظيم الحضري والمعماري لفاس والقيروان وصفاقس وحلب ودمشق أيضاً - ولكن من دون أن أتمكن من كشف هوية مشتركة في الهيئة المادية لهذه المدن المختلفة^(٣).

(٣) (Città, Materia del Tempo) ومع ذلك لا يمكننا تجاهل واقع أن عناصر المدن السومرية والأكدية والبابلية والآشورية القديمة استوعبتها المدن العربية - الإسلامية موضوع البحث، وطبقته: بالإضافة إلى «نوع» السكن، وفي سلسلة من صور أخرى مغايرة ومركبة غالباً وذات أفنية متعددة، تشكل التدابير من مثل المدخل المتلوي، والزقاق غير النافذ كشكل من تجمع حول مبنى مهم واحد أو أكثر، والشوارع التجارية قرب أبواب (مداخل) المدن

وربما سيكون أكثر إمتاعاً أن أتبع طرق التجارة والحروب والتحويلات الثقافية التي أفضت إلى انتشار أشكال معينة من التنظيم الحيزي الحضري ومكوناته الهندسية وأنماط طرقه - من بلاد ما بين النهرين إلى كريت فالى اليونان القديمة. وإلى أن أتت ابتكارات هيوداموس بفكرة ثورية في شأن الحيز في ما يتعلق بإرث الماضي، فإن الأمر يبدو، من تلك اللحظة، أن فن بناء المدينة عرف افتراقاً بين فكرة يونانية - رومانية للحيز في الغرب وبين استمرار فكرة الحيز الفارسية وحيز ما بين النهرين في الشرق الأدنى.

إننا نبدو قادرين على التحقق من صحة هذه الفرضية من خلال دراسة كرونولوجية (بحسب الترتيب الزمني) لـ «نوع» السكن مع دار داخلية، وجميع تقلباته وتغييراته، من الألفية الرابعة - الثالثة في الوركاء وأور ونيبور إلى آشور وبلاد الفرس القديمة وسوسة وبارثيا، من جهة، ومن اليونان القديمة (فيلاكوبي مثلاً) - حيث القاعة الكبرى، الموجودة فعلاً في الأناضول ما قبل التاريخ، مضمومة إلى فناء داخلي وأزقة غير نافذة وغياب أمكنة عامة مكشوفة - إلى البيوت في ديلوس وميليتوس وبارثيا، من جهة أخرى. هنا، بالرغم من تشابه ظاهري بسبب وجود فناء داخلي، يبدأ فصل آخر في تاريخ الحيز الأهلي الحضري (شكل مغاير هو اليوم مستقل عن «النوع») ليُتبعه البيت الإيطالي القديم ومن ثم البيت الروماني.

لقد ذكرت كتابي ومصادري معاً لأوضح منهجية بحثي، التي تركز على اقتناع بأن المدن، بهيئاتها المادية، هي كلمات ربائية (logoi)؛ أي أنها تعطي شكلاً مادياً «لترتيب عام» ذا تركيب حيزي حضري^(١).

وفي حالة تونس المدينة تبدو لي المبادئ والاستراتيجيات المستخدمة في تحقيقها، من حيث الحيز المعماري والحضري، جلية كما مجموعة من القواعد. لكن لا يسعنا أن نقول ما إذا كانت هذه القواعد تشير إلى عقائد اجتماعية وتقاليد تاريخية، ولا ما إذا كانت تمثل التطور النهائي على أساس حيز عربي - إسلامي ومن ثم حيز عربي - عثماني «ممکن إلى الأبد». في إمكاننا القول فقط إن طُرز التركيب الحيزي

الآشورية العظيمة بمض الأمتلة فحسب. وفي سوسة في الحقبة الأخمينية نلاحظ، إلى جوار المخطط الجامد لقصر داريوس (مؤلف من جمع من باحات سكنية من أحجام مختلفة، وغرف تخزين وقاعات ذات سقوف مرفوعة على أعمدة، مثل جميع القصور الإمبراطورية في الشرق الأدنى القديم)، تنظيمًا حيزيًا حضاريًا أقل جموداً وتجريباً أكثر سخاء مع باحات سكنية متعددة، كبيرة وصغيرة.

(٤) هذا الشكل المادي يطابق الترتيب العام من خلال تغير أجزائه، لكن مع احترام أساسي للمبادئ التي تحكمه.

للإسكان والتجارة والإنتاج ترقى، من حيث التضمين المتبادل أو الإقصاء المتبادل، إلى فترة طويلة قبل ظهور الإسلام، على ما يبدو - أو حتى إلى ما قبل روما واليونان القديمة - في بلاد الفتح العربي الأول: مصر وسورية والعراق وشمال أفريقيا.

وكما ذكر قبل قليل، يبدو أن في المسح الأثري لمدينة موهنجو - دارو [مدينة باكستانية تعود إلى ما قبل التاريخ في شمال شرق كراتشي الحديثة] أنماط من الاعتماد المتبادل بين مساكن أحادية أو ثنائية الحجيرات وأبنية أكبر حجماً وأكثر تعقيداً يمكننا أن نسميها قصوراً^(٥). وهذه يبدو أنها تشكل مجموعات، أو وحدات، مقترحة تكراراً.

وإذا كانت الطرز الهندسية لا تطابق أصحاب التجربة الحضرية التي جرى تحليلها هنا، مع ذلك، فإن لفيف البيوت الأكبر والمساكن الثنائية الحجيرات، والفكرة نفسها في شأن شبكة الطرق الداخلية إلى المناطق المعمّرة الواسعة الواقعة ضمن نظام الطرق الرئيسية، لا يمكن اعتبارها غريبة عن التنظيم الحيزي المتأخر للمدن العربية - الإسلامية في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

ومثلما تحفظ اللغة - أو الكتابة، التي هي الأثر المادي للتصنيف والسرد والتقويم والتفكير الحسابي - ضمن الجذور القديمة نفسها التي تربط بين شعوب وثقافات مختلفة ومنحدرة من حضارات سحيقة تقريباً، هكذا تحوي المدن - التي هي الأثر الذي تخلفه حضارات حضرية على الأرض - داخل أنفسها، في هيئة مبانٍ، الذاكرة المجهولة المعالم أصلاً لجميع مواطنيها.

إن الأداة المنهجية التي اعتمدت عليها هي الرسمة المنتظمة للمدينة، التي تتوقف الحدود العقارية فيها عن تقرير حدود الأملاك وتغدو مملوءة بدلاً من ذلك بتنظيم معماري للحيز. وهذا بدوره، عرضة لتفسيرات يعمل الزمن والعُرف فيها كمتغيرات

(٥) بشأن موهنجو - دارو، انظر: خاصة: A. Sarcina, «House Patterns at Mohenjo-Daro», *Mesopotamia*, vols. 13-14 (1979).

إذا كانت القصور الكريتية في كنوسوس وفايستوس وماليا تبدو مدناً داخلية بسبب تشابكها الوظيفي وترتيب المباني التي من شأنها تكوين مجمّع القصر، فإن قصور الألفية الثالثة قبل الميلاد السومرية والأكادية تكشف عن مفهوم مماثل للهندسة المعمارية؛ أي، مجمع القصر كمدينة «مغلقة»، والمدينة الفعلية الممتدة حوله والمتمتعة بتنظيم مختلف، من حيث الحجم والمخطط كليهما. في هذا السياق، يشكل قصر زمريلن مثلاً جيداً. فالحيز الحضري يبدو مضمراً في التنظيم العام للقصر، ومكوناً من وحدات أفنية داخلية موصولة بممار معقدة، ومداخل محصنة، ومجموعات من غرف تخزين، وسلسلة من ورش صائغين، ومحفوظات، وودائع، وأحرام. وهي كلها منظمة على نمط شبكي الشكل، يبدأ بسلسلة قاعات، ودهاليز، وأفنية دخول، ومجالس تشریف تفضي إلى حجرة العرش وحرمة. وعلى الرغم من قوارقها، فإن قصور خلفاء العصر العباسي وعصور لاحقة تتخذ هذا النموذج بأشكال مختلفة.

أساسية من خلال التغييرات التي أثرت في الكائن العضوي الحضري. هذا كله يحدث بواسطة تنظيم «الحيز»، بحيث إن مجتمعاً حضرياً وتاريخ مدينته يُنظر إليهما لمحا من خلال شفافية صافية، إذا جاز القول، أو من خلال فرضية وتحقيق. وليست الرسة المنتظمة مجرد تكملة للمسح العقاري لمدينة ما؛ إنها أيضاً «زيارة» تقوم فيها الفطنة الذهنية للمخطط والخبرة المكتسبة عبر استكشاف حيز معين والعلاقة الموطدة مع أولئك الذين يعيشون هناك، بتأدية دور حاسم.

لهذا السبب ليست، حتى الرسة المنتظمة، صورة عاكسة مطلقة للواقع، بل هي نص يتعين فك رموزه من خلال اكتشاف تلك العناصر التي تنتج، عند جمعها على أساس قوانين يمكن تمييزها، مجموعة من المتغيرات التي يمكن اقتفاء أثرها رجوعاً إلى «قانون عام».

ولا يصيب تفسير رسة منتظمة نجاحاً إلا إذا أنشأت نظاماً معرفياً تكون جميع العناصر فيه موصولة بعضها ببعض من خلال علاقة تماسك وتآزر تصل التفصيل الأصغر بالتنظيم الأشد تعقيداً، والمكوّن الحيزي الأبسط بمعنى عالمي للحيز الحضري. هذا التوكيد النظري والاعتباري على ما يبدو هو حقاً نتيجة معرفة «عملية» يمكننا أن نصل على أساسها إلى صيغة نظرية. وهكذا تصبح المدينة في الرسة المنتظمة مجموعة معرفة يمكن استنباطها بأشكال عديدة من التحليل والتفسير.

لقد كان غرض رسوماتي المنتظمة تفحص الطرائق التي يتحقق بها حيز حضري، وتفحص هندسة المدينة، والمدينة كتنظيم عام لحيز أنشأ مجتمع خُطّط له عبر الزمن والتغيير. ولست أزعم أنني أميز استمرارية «تاريخ» في هذه الرسومات المنتظمة أو توقفه، بالرغم من أنني قد أتطرق إليه أو أقدم عناصره المادية. وقد استطعت إلقاء نظرة سريعة على هذا التاريخ من خلال المساحات التي استكشفتها، وأوجه الارتباط والانفكاك التي تمكنت من تمييزها «ضمنها».

• تونس المدينة وتكوينها المكاني

في مساعي الأولي لفهم طبيعة تونس المدينة وأنماط تركيب بيئتها المبنية حاولت أن أقدم وصفاً دقيقاً للأسس العملية والمفهومية التي تشكل السند التركيبي لمجمل هندسة هذه المدينة. وربما حتى لمعظم المدن العربية في منطقة البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى (انظر الرسم الرقم (١٢ - ٢)).

الرسم الرقم (١٢ - ٢)

مدينة تونس



يعود هذا المخطط للعام ١٨٦٠، ويحتمل أنه أول رسم للمدينة تستخدم فيه أدوات موثوقة وإن لم تكن تامة. في الأسفل إلى الشرق، بحيرة تونس، المرفأ القديم، ومكان المحطة المستقبلية للقطارات. فوقها، بساتين خضار وفاكهة تمر قناة وسطها. ويمكن ملاحظة مكان جادة البحر المستقبلية والبيت الفرنسي قيد الإنشاء. في وسط المخطط تقع المدينة المركزية، تحيط بها الأسوار ويحاذيها باب البحر. من هناك إلى اليمين يقع رباط باب السوق، يحاذيه من الجهة الشرقية مقبرتان إسلاميتان وواحدة يهودية. تحيط بباب السوق أسواره إلى جهة الشمال، بينما يشترك بها إلى الغرب مع المدينة المركزية. إلى الشرق تستبدل الأسوار بمستنقعات. بين الطرف الأقصى للرباط، والمدينة المركزية، و«القصبة» تقوم ساحة كبيرة مفتوحة تستخدم للتدريبات العسكرية.

تشكل «القصبة» مدينة منفصلة، إلى الجهة الغربية من المدينة المركزية، والتي تتصل بها من خلال بوابة. تضم القصبة القصر الملكي، والمسجد الجامع، والحمّامات. يحاذي المدينة المركزية، المحاطة بالأسوار، جنوباً رباط باب الجديد المحصن، الذي يتضمن المقابر الإسلامية ومناطق غير مسكونة. ويجب أن نلاحظ أن ما من طريق من المناطق الداخلية إلى المدينة المركزية مباشرة. وعلى المسافر أن يقدم نفسه أولاً على إحدى البوابات قبل الولوج إلى داخل المدينة. وبالنسبة لفتون اليوم، «تونس الحاضرة» تتألف من ثلاثة تجمعات، بالتدريج من الشمال إلى الجنوب، من المقبرة العالية في الجلاز إلى الأرض المرتفعة في الشمال.

المصدر: من كولن، باريس، محفوظات المكتبة الوطنية.

في البداية كان «العنصر الأساسي»: «الوحدة»، ثلاثة جُذُر وأرضية وغطاء. وفي الوقت ذاته، ظهر إلى الوجود النظام الابتدائي للتنظيم المعماري: «حيز مكشوف» محاط بجدران، وهو ما يمكننا أن نعتبره صيغة النفي للأول وما يبدو أساساً للتكوين المعماري اللاحق المتأخر للحيز الحضري. وفي حالة «نوع السكن» - وهو عنصر أساسي وشامل للمدن كافة - فإن العنصرين الأولين متبوعان بـ «تنظيم مشبك» من أنواع مختلفة من

الوحدات حول حيز مكشوف. وتمييز الوحدات ينشئ «النوع»، «الدار» (البيت ولكن أيضاً النسب والعائلة) التي هي على منوال واحد، مقارنةً بمتغيرات الملكية أو الساكنين. وهذا النوع قادر على تنظيم معظم الحيز الحضري، إما باتباع تواتر خطي مزدوج وإما بـ «تكاثر» حول زقاق ضيق المنفذ (انظر الرسم الرقم (١٢ - ٣)).

الرسم الرقم (١٢ - ٣) تونس المدينة، الأزقة المقفلة



يظهر هذا المخطط أهمية تنظيم الأزقة المقفلة في بناء النسيج المدني. تنفرغ الأزقة من الطرق الرئيسية المقفلة أحياناً في غير اتجاه. ويغدو واضحاً من المخطط أن المكان المدني يتبع أنماطاً مكتملة من التجمعات، ويخضع لقواعد صارمة، ليس بالضرورة لتمط محدد من التنظيم المدني بل لعملية توسع التجمعات السكنية المتشعبة والمتداخلة في شكل مجموعات أو عناقيد متصلة ومتفصلة في آن. وحتى الأمس القريب كانت مجموعات المنازل تمثل طريقة سكن العائلات الممتدة، أو أكثر ذات النسب الواحد أو القريب، وكان التوسع على حساب البساتين.

وهكذا، فإن الترتيب الذي يؤسس للأزقة المقفلة - بتفرعاته بحسب الحجم أو «الدار» - يتناسب مع عملية التوسع في المجتمع المدني، ليس فقط لجهة بناء مكان يخص نسباً محدداً وإنما للمكان المدني بأسره. العلاقة بين أشرطة المنازل والمجموعات العنقودية المتجمعة حول الأزقة المقفلة يمكن أن تفهم على نحو أفضل حين ندرس تطور الملكية العقارية.

يتضح من ذلك أن العائلات الأعلى مركزاً تتجمع حول الوصلة أو الزقاق المقفل في حين تسكن الأسر الأقل حظاً والزبائن وطواقم العمل والأفراد الأقل حظوة في حزام دفاعي يشكل مكانياً حاجباً لمكان إقامة الفئة الأولى. لاحظ الفارق في مفهوم المكان المدني للمدن الأوروبية الغربية من تلك في القرون الوسطى وإلى اليوم.

المصدر: من إعداد المؤلف.

والوحدات حول حيز مركزي يمكن مضاعفتها أو جمعها، أو يمكنها أن تشكل سلاسل ومجموعات. تنتظم الردهة الملتوية (السقيفة) والدريبة على شكل معين؛ وهما، كعنصرين معماريين، توفران صلة بين البيت والمساحة التي يمكن اجتيازها بحرية. وهما، علاوة على ذلك، طريقان لمراقبة من يدخل البيت من الخارج. والفناء^(٦) يسمى وسط الدار - نظراً إلى أنه الحيز الذي يلتقي فيه جميع أفراد العائلة الممتدة وحيث يُستقبل الضيوف وتتلاقى الممار الداخلية - مع أنه في موضع خارجي بالنسبة إلى البيوت^(٧) (الغرف المبنية حول هذه النواة المركزية) حيث تسري حياة مختلف أفراد العائلة الممتدة في خصوصية، بحسب العمر والمكانة والوضع الاجتماعي والواجبات المنزلية وتعليم الأطفال وما إلى هنالك. والدار مثل جنين قرية صغيرة (دوار)، هي كسابقتها حيز المعيشة الذي تتشاطره العشائر الأسرية.

وإذا أُطيل الفناء ورُصفت الوحدات على الجانبين الأطول، تكون النتيجة قسماً من سوق ينتهي بمدخل على كلا الطرفين. والوحدات الطرفية دوماً مؤلفة من طابقين ومصفوفة عند زاوية مع مراعاة إحداها للأخرى لإتاحة المجال لسلسلة مماثلة عند زوايا مختلفة. وفي كثير من الحالات تكون وحدات السوق مضاعفة عمودياً ولها قبو. ويشكل تركيبها الشبكي الشكل خاناً (فندق) من طابقين أو أكثر، حيث يُستخدم الطابق العلوي مسكناً للمعيشة. نوع الخان هذا ليس شائعاً جداً في تونس، مع أنه كان في ما مضى في صفاقس مثلاً (كما وصفه مراد رمّاح في أفريقيا) والقاهرة ودمشق وبغداد وحتى في البندقية وإسطنبول.

يستطيع قسم السوق أن يولّد تواليات خطية بجمع الوحدات، وهذه أيضاً تشكل شبكة؛ والأقسام تتقاطع، بالرغم من أنها تبقى مغلقة ببوابة في كلا الطرفين. والأقسام المختلفة تتطابق مع حرف مختلفة، أو أنواع مختلفة من البضائع المعروضة للبيع التي لم تكن تقليدياً في حالة تنافس قط. وهكذا، فحتى السلسلة الخطية من الوحدات تبدو منظمة على مبدأ تكوين أحياز داخلية فارغة وغير مرئية من الخارج ويصعب النفاذ إليها. هذا النظام المشبّك - أي تكوين تقاطع ثلاثي أو رباعي لسلسلة وحدات، في وسطها فناء، أو مجموع وحدات متتالية في كلا الاتجاهين المتعامدين - ينشأ دوماً بفعل وضع حيز واحد أو حيزين «في الوسط» الذي ينظّم حوله تعاقب الوحدات. والبيت والسوق كلاهما نتيجة لمثل ذاك الإبراز للمعالم المعمارية (انظر الرسم الرقم (١٢ - ٤)).

(٦) يمكن أن يكون للفناء واجهة حجرية بلغة هندسية معبّرة، مستخدماً الناحية البارزة المتميزة من القناطر، مع زخرفة مطعّمة أحياناً.

(٧) كانت كلمة بيت في اللغات السامية القديمة تعني معبداً أو مكاناً مقدساً لرب ما.

الرسم الرقم (١٢ - ٤) تونس المدينة، المدينة الداخلية



يوضح المخطط المدينة الداخلية. إلى الغرب، تتحدد القصبة بلون قاتم. إلى الجنوب من باب الجديد، تبدأ الطريق الفرعية من الباب وسوق الحدادين (شارع الميناتيكي، شارع السجون، شارع المحاكم) وتنتهي في اتجاه واحد (شارع بن بجي، شارع محسن) في ساحة القصر، حيث مقر القصر الملكي، فيما تكمل من الاتجاه الثاني نحو الأسواق، ثم تعبرهم لتحاذي الجامع الكبير، وتتقدم نحو باب البنات. يشكل الجزء الأخير طريقاً رئيسية تذهب من باب البنات إلى المسجد الكبير في اتجاه واحد فيما شارع القصبة في الاتجاه الآخر.

طريق ثان رئيسي (شارع بن طي - شارع إسوردوا) ينطلق جنوباً من باب جانبي للقصر، ثم يتقدم نحو المسجد الكبير ثم يتفرع ليصبح شارع سيدي علي عزوز ويحاذيه شارع جامعة الزيتونة. ومن هنا ينطلق إلى سوق القرائنة آتياً من باب السوق، الذي يلتف نحو باب قرطاجنة في الشرق.

طريق ثالث رئيسي يترك باب الجزيرة تحت اسم شارع الدباغين ويتفرع إلى اتجاهين: سوق البلاط وصولاً إلى الجامع الكبير، وشارع سيدي علي عزوز الذي يلتقي هنا بشارع جامعة الزيتونة. يظهر المخطط كيف تتناثر في هذه الشوارع المدعوة رئيسية مبان دينية ثانوية - مساجد، زوايا، ومدارس - وإنشاءات متخصصة قرب بوابات المدينة. هذا التركيز للأمكنة الاجتماعية ذات الدور الرئيسي هو الذي يصنف شبكة الطرق إلى طرق رئيسية منفصلة عن الطرق الفرعية.

وتمثل منطقة حقول الزيتون الخضر في المخطط إلى اليمين الجزء المدمر من الحفصية، منظمة كلياً تقريباً حول معمار مقلدة، تبدأ من سوق القرائنة. فوق، في الوسط، شبكة الأسواق المتداخلة، والتي تحيط بالجامع الكبير والمدارس والحمامات والزوايا ومخازن المواد الغذائية.

لا يشير تعبير «شارع رئيسي» إلى شارع يقطع خلال مناطق كبيرة أو أنه الأكبر في الحجم، وإنما تبعاً لاستخدامه واتصاله بمنشآت دينية أو أسواق تبيع المواد الغذائية باتت أقل خصوصية من الشوارع الثانوية أو الأزقة المقلدة.

المصدر: من إعداد المؤلف.

وعند تطبيق هذا النظام الشبكي على سلسلة متوالية من الوحدات، فإنه يستطيع تكوين إما حيز الأسواق بكامله وإما مبنى جديد: الخان أو الورشة الخاصة بمجموعة من الصنّاع (لصنع أقمشة و سلع جلدية ونحاسية وغير ذلك)؛ أو الوكالة، وهي مكان إقامة موقّعة للذين لم يجدوا بعد بيتاً في المدينة أو في ضواحيها. وأوضح تعبير عن هذا النظام وعن تعاقب موازٍ من وحدات بسيطة هو القيسارية. وهي في حالة تونس، من العهد العثماني فصاعداً، كانت مكرسة كلياً لإنتاج الشاشية، حيث الأرباح المحصلة منها تُجمع وتُدار مباشرة من جانب السلطان أو الباي.

القيسارية^(٨) ساحة محوّطة مغطاة وذات أبواب، ويحتوي جزء منها على شبكة السوق. والسلسلة المتوالية من الوحدات إما مواجهة إحداها للأخرى وإما ظاهرة إحداها على الأخرى بطريقة متوازية. والحيز الخالي مقصور على مرور الرجال والبضائع. وفي حين أن الخانات والمدارس والحمامات والميضآت والمساجد والوكالات (ومجموعات صغيرة من البيوت أحياناً) واقعة في حيز خال ناشئ من شبكة الأسواق، فإن القيسارية مبنى كبير منعزل تماماً ومغطى بسقف مقنطر واحد، وهي شبيهة بسوق ومتميزة عن سائر الأسواق، بالرغم من كونها مؤلفة من العناصر نفسها. وفي إمكاننا مقارنة هذه بالرسم المنتظمة لفاس حول جامع القرويين الكبير^(٩) (انظر الرسم الرقم (١٢ - ٥)).

إن جامع القرويين محاط إلى الشمال بمساكن تفي بحاجاتها أزقة لا تنتهي، يبدو أنها تجمع معاً المجموعات الأكثر انعزالاً والمؤلفة من بيوت أكبر أو بيوت مرتبة بشكل متتالٍ على امتداد جانبي الزقاق، في منطقة داخلية بعيدة من الطريق العام. هذا النوع من التنظيم الحيزي للشوارع، ومن تقريب العائلات الممتدة بعضها إلى بعض، قياسي وهو يوجد أيضاً في حلب ودمشق وفي أنحاء المغرب، وعلى الأخص في تونس. وهذه الأزقة الطويلة جداً نادرة في المدينة المركز في تونس، بينما هي أكثر تواتراً في ضاحية باب السويقة. والطرق التي تصل بين الشوارع الأهم منقسمة غالباً إلى أقسام متميز بعضها عن بعض ويمكن سدّها بمتاريس أو إغلاقها إذا ما أثار فتية شغباً على سبيل المثال^(١٠).

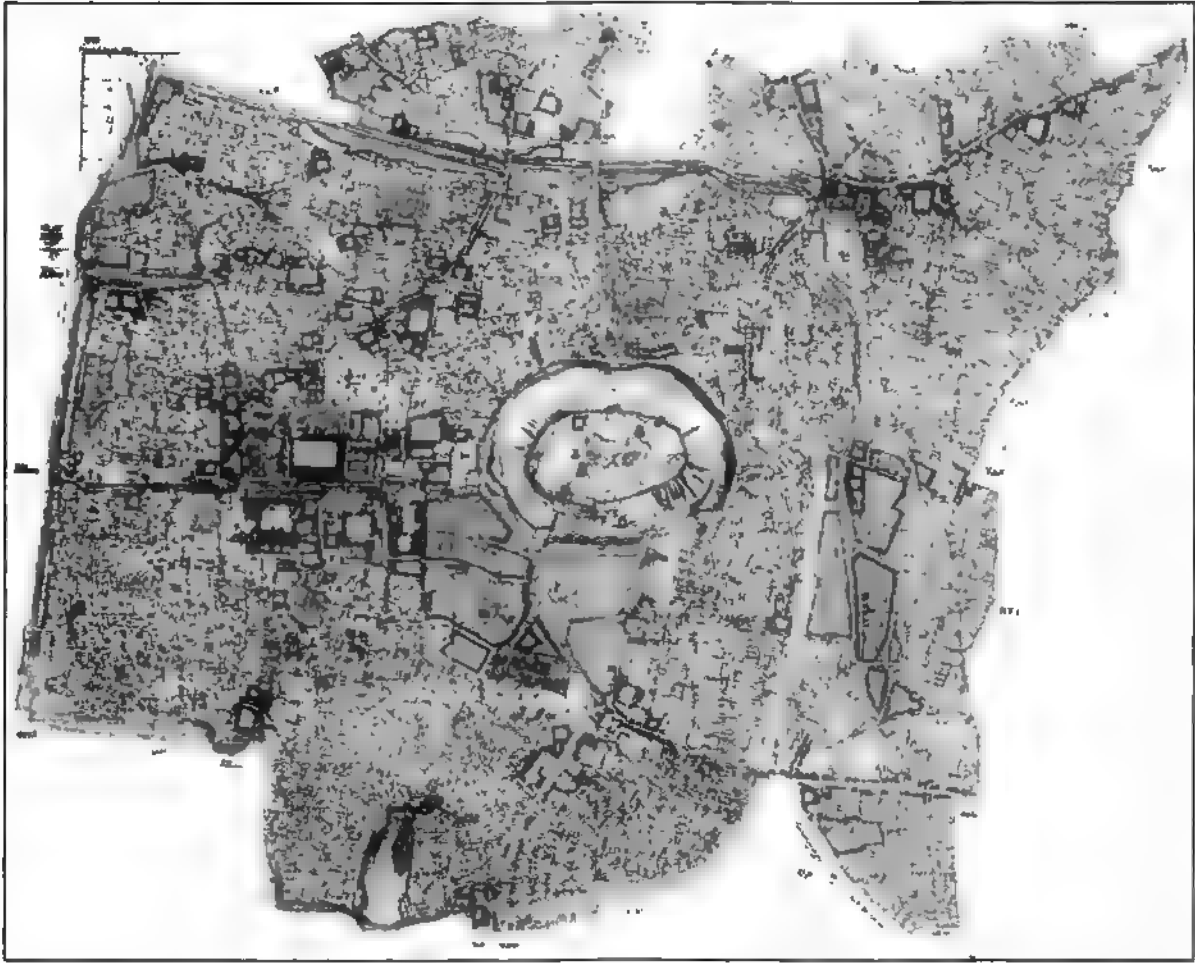
(٨) انظر، مثلاً: Louis Massignon, *Les Corps de métiers et la cité islamique* (Paris: Maisonneuve, Larose, 1920).

«القيسارية محيط مغلق ذو أبواب متينة ونوع من قاعة كبيرة كانت تحفظ فيها سلع مستوردة ومواد نفيسة عائدة لهيئات مهنية متشابهة المصالح». انظر أيضاً الوصف الدقيق الذي قدمه غوستاف فون غرونباوم: Gustav E. von Grunebaum, «Die islamische Stadt», *Saeculum*, vol. 6, no. 2 (1955).

(٩) انظر: Stefano Bianca, *Urban Form in the Arab World: Past and Present* (London; New York: Thames and Hudson, 2000).

(١٠) الفتوة عنف أحداث (أو حديثي السن) يأتي من «زاوية».

الرسم الرقم (١٢ - ٥)
فاس، حول الجامع الكبير



يمثل هذا الرسم المستند إلى أقيسة المنطقة المجاورة مباشرة لـ «مسجد القرويين»، في مدينة التجار والحرفيين، في فاس الجديدة، مقر الملك والبلاط. هي تحتوي على الامتداد الكامل للأسواق (أسواق وفنادق)، المباني الدينية الرئيسية (الجامع الكبير، الضريح - مسجد مولاي إدريس والمدرسة البعيدة عن النظر خلف أشربة من المتاجر) وعناقيد السكن العائلي بين سلسلة الورش والمنظمة حول وصلات مقللة تنتهي إلى الأسواق من خلال مداخل دقيقة تكاد لا ترى. الزوارب المقللة طويلة في العادة وهي كما في المدن الأخرى تنطلق من التجمع السكني فتتبع خلاعات ويعاد توجيهها وتشعبيها، تبعاً للتحويلات في الروابط العائلية، أو كبديل لبناء تجمعات أو عناقيد سكن عائلية جديدة. لذلك هي تتكسر وتنتشر. وفروعها الصغيرة تخدم عناقيد مساكن أصغر وتنتهي مثلاً في سوق يحاذي الجامع الكبير من الشرق والجنوب الشرقي.

على طول الشارع التجاري الرئيسي إلى الغرب تقوم سلسلة من الورش منظمة حول مساحات، تاركة مكاناً لفنادق غير تقليدية. تمتد القيسارية على طول الجانب الغربي من الجامع الكبير في ما يشبه مدينة تونس.

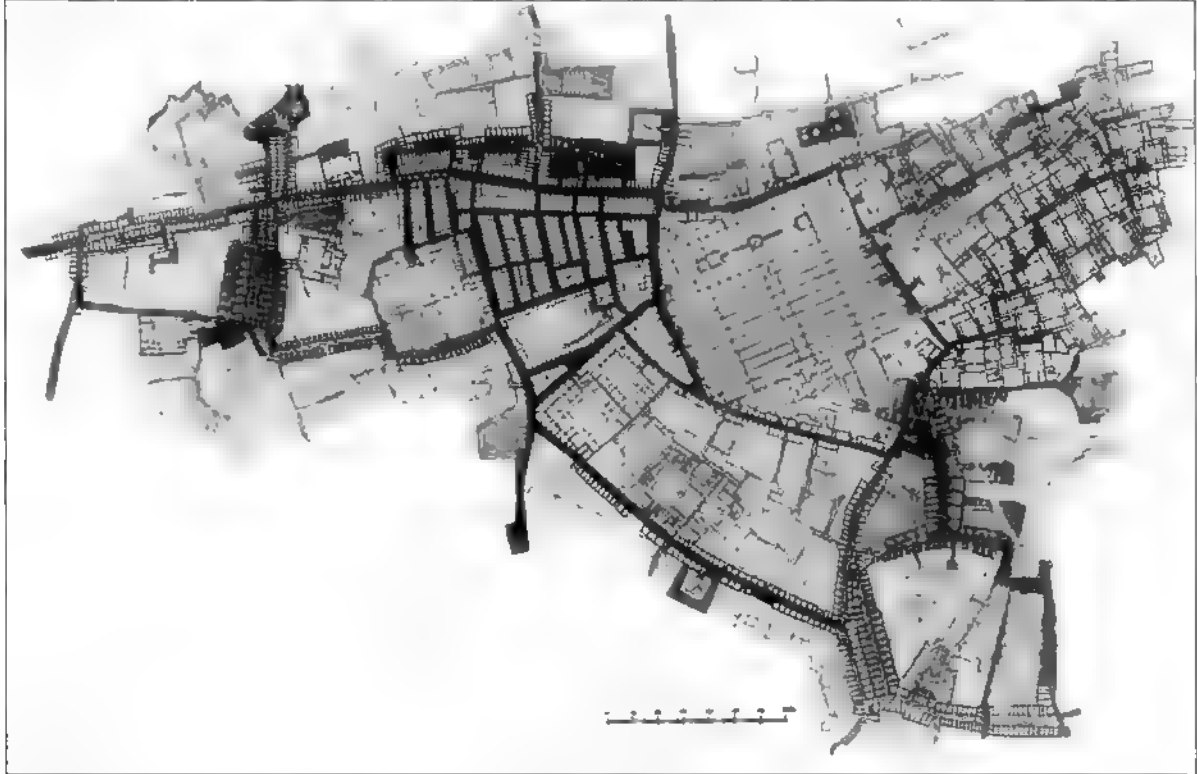
المصدر: Stefano Bianca, *Urban Form in the Arab World: Past and Present* (London: Aga Khan Trust for Culture, 2000).

والمخطط من إعداد المؤلف.

وفي حالات كهذه تقسم الطرق الرئيسية (من المداخل إلى المسجد، أو من باب إلى باب) لأغراض دفاعية إلى قطاعات متجانسة من قبيل سلسلة من المساكن المتوازية

التي تخدمها قطاعات منعزلة من شبكات الطرق. وهكذا «تصبح مناطق المدينة كافة مجزأة ومغلقة ولا يمكن الوصول إليها»^(١١). لكن في الأوقات الهادئة، تستعيد الطرق الرئيسية قيمتها الاعتبارية كدورة دموية ضمن الصفوف الطويلة من البيوت القائمة على جوانبها (انظر الرسم الرقم (١٢ - ٦)).

الرسم الرقم (١٢ - ٦) تونس المدينة، حول الجامع الكبير



الجامع الكبير في وسط المخطط ومحاط كلياً بالأسواق، في مكانه لجهة نمط بنائه ويختفي خلف الأسواق. الأمر نفسه لمخازن المواد الغذائية، التي تشبه تجمعاً عائلياً كبيراً، تحتل أمكنة تقع خلف الورش. حين تنتهي الأسواق فجأة، تبدأ أشرطة المساكن، حيث تخفي الصغيرة الكبيرة الأكثر ثراءً. والأكبر أحياناً كما إلى اليسار تملك مخازنها الخاصة، كما فندق الهناء الذي يفتح على شارع النيار، بينما البناء الذي فيه يفتح على شارع غربال، ماراً بمعبّد عائلي، اختفى الآن. منازل عائلة غربال تتداخل مع الجانب الشمالي لفندق الهناء والتي له ممر إليهم.

في التجمع الواقع إلى اليمين من جامعة الزيتونة، بين شارع القصبة وسوق الأوزار، يقوم النوع نفسه من الاتصال بين منزل كبير ومشغل حرفي ينحصر إلى جوار الجامع الكبير على تقاطع شارع سيدي بن عروس وسوق التّرك، هناك زاوية، مدرسة، مبنى ديني صغير، ويقايا اسطبل متداخل مع قيسارية. وفي المخطط تظهر أيضاً أنواع من التجمع حول وصلات مقفلة أو أزقة مسدودة، ومنازل مع «دريبات»، وأشرطة من الأسواق، والمساكن.

المصدر: من إعداد المؤلف.

(١١) انظر: المصدر نفسه، David, «La Formation du tissu de la ville arabo-islamique, apport de l'étude de plans cadastraux d'Alep».

في فاس أيضاً، تشكّل قيسارية المواد النفيسة والمجوهرات، بين المسجد وضريح مولاي إدريس، مبنى متراصاً مكوناً من سلسلة وحدات متوازية ومتلاحمة مع الأسواق الأخرى.

وفي رسة فاس المنتظمة نرى كيف أن قطعاً من سوق تستطيع أن تكون عدداً من الخانات المتحلة، كما في الجلابة أو أسواق السجاد، التي تشكّل كائنات عضوية مغلقة حول فناء داخلي. هذه التشكيلات حول زقاق أو «ساحة» صغيرة شائعة في صفاقس في كلا السوقين اللذين يصلان باب الجبلي وباب الديوان، بالرغم من أن هناك خانات لا ثقة أيضاً، كما في حالة سوق الحدادين وغيرها (انظر الرسم الرقم (١٢ - ٥)).

ثمة تشابه شكلي آخر مع تنظيم تونس الحيزي هو الترتيب المتوازي لصفين من الوحدات (انظر سوق الحدادين وسوق الصباغين في تونس). فهذه الوحدات تبرز على منوال واحد نوعاً من الفناء الذي قد يقابله بهو للصلاة (انظر سوق النجارين وأسواقاً أخرى في فاس).

والخانات في تونس وصفاقس تقع داخل شبكة الأسواق وحول محيطها، وكذلك قرب أبواب المدينة وخارجها. الأمر نفسه ينسحب على القيروان، حيث شكل ضواحي باب تونس حالة نموذجية. وهناك أيضاً تنظيم حيزي آخر في حلب ودمشق^(١٢).

في الرسة المنتظمة للقيروان قبل ٣٠ عاماً - جزء من مدينة ذي تاريخ طويل من التخريب والضمور والتحول - تتجمّع مراكز تجارية للسلع الرئيسية^(١٣) للقوافل وبضائعها بين باب تونس والقلعة، فتتشع خارج باب المدينة نوعاً من «ما قبل مدخل» («Ante-gate») فسيح، وهو حيز مكشوف يحرسه جنود مرابطون في القنصة أو القلعة.

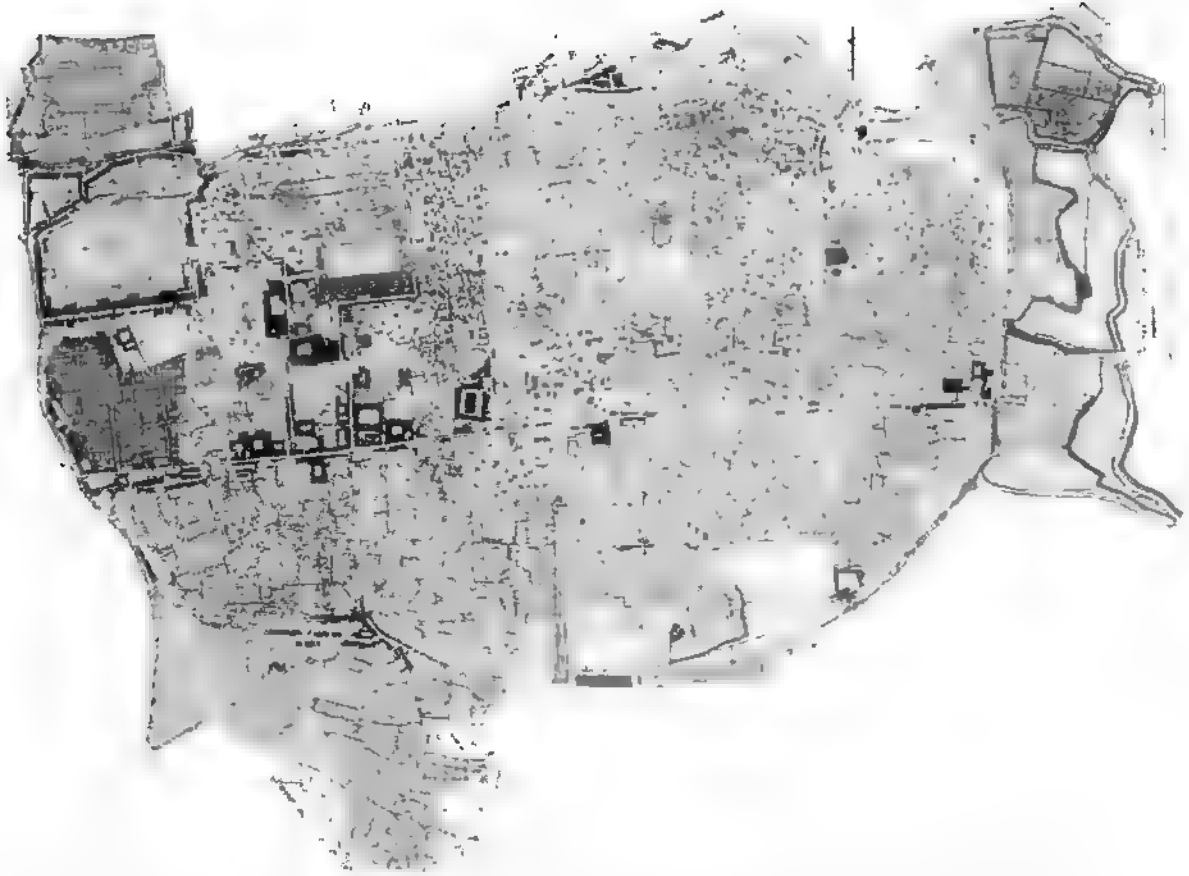
والباب نفسه سوق، مثل باب المنارة وباب الجديد في تونس، وقرب الحيز المكشوف لسوق الحبوب تنشأ الضاحية التي تحيط بمركز المدينة إلى الغرب والشمال الغربي وتواجه الحيز المكشوف ذا الوكالات المخصصة للغرباء الذين لا يستطيعون تمضية الليلة في المدينة (انظر الرسم الرقم (١٢ - ٧)).

(١٢) انظر، خصوصاً، الرسة المنتظمة لجزء من الشارع الرئيسي بين باب قنشرين وبيهارستان أرغون، وهي من وضع ستيفانو بيانكا وقد ضممها إلى السجلات العقارية من حلب: Bianca, Ibid.

(١٣) المراكز التجارية أماكن مجازة لتجارة التجار الأجانب.

الرسم الرقم (١٢ - ٧)

القيروان المدينة



جرى بناء مدينة القيروان، وعاصمة أفريقيا في الأيام التي تلت غزو قبيلة بني هلال، ببطء وسط ما كان سهولاً شمال أفريقية خصبة. لا تتبع المدينة الحالية المخطط التقليدي للمدينة الإسلامية الأولى، وهكذا فالجامع الكبير الذي كان قلب المدينة المركزي هو الآن في الضواحي، بعيداً من الأسواق والمخازن، وهو فوق ذلك مكان يحج إليه مسلمون من بلدان أخرى.

وكما شددت باولا جرفيس، لم يكن ممكناً هنا إحياء تشكيل مديني مبني كجزء بنيوي وجوهري كما الحال في تونس المدينة. ومع ذلك ففي وسعنا تمييز ترتيب الأسواق وفق تعاقب خطي، ومركزية المباني الدينية في تنظيم أشرطة المنازل المحاذية للطرق وفي شبكة الأسواق، ونظام الأزقة المقفلة وانتشار المنازل في فترة أقرب مع درية خلف أشرطة ما يسمى طرق رئيسية.

كل الاستراتيجيات المكانية المستخدمة في تحولات سلسلة الأسواق في اتجاه الفنادق أو العكس يجري الالتزام بها هنا. ورغم ذلك، يبدو الكل أقرب إلى تناثر غير منظم للانتشار السكني من دون وحدة مكانية وتناسق كما في تونس. استخدم هنا نمط مختلف قائم على تناثر لأجزاء مدينية.

ما يلفت حقاً هو التكرار المنهجي للمساكن على مثال حرف T على نحو مستطيل، لجهة الحجم واتجاه المنزل، وعلى كامل المساحة المبنية. وأنا لا أعرف مدينة عربية إسلامية أخرى يؤدي فيها النمط ذاك مثل هذا الدور الرئيسي.

Paula Jarvis, «Kairouan,» *Environmental Design*, vols. 1-2 (1989).

المصدر:

المخطط من إعداد المؤلف.

ووفقاً لباولا جرفيس^(١٤) كانت الطريق العريضة، التي تمر اليوم بالقيروان من باب تونس إلى باب الجلادين (حيث سوق المواشي في طرفه الجنوبي - الجنوب الشرقي) كثلمة في المدينة المتراسة، خلافاً لما هي عليه اليوم، موصولة بوظيفة القيروان التجارية المحددة: كانت في ما مضى مكاناً للراحة والتبادل لقوافل متنقلة وشبه متنقلة مع أحمالها من العبيد والأقمشة، فتحولت اليوم إلى مكان سياحي تُشتري فيه المتوجات الريفية (الجلود والأصواف والحبوب) وتباع. ويذكر الكاتب أيضاً سوقاً للدباغين قرب باب الجلادين وسوقاً للحدادين إلى الشمال من الأسواق المركزية؛ ويوجد خارج الجُدُر إلى الغرب أفران الآجر والفخار، بينما يوجد إلى الشرق حائكو الصوف في مركزين تجاريين قرب مسجد الأخوة. ويجري هذا العزل نفسه للعمل الصاخب والقذر والخطير في جميع المدن الإسلامية التي استكشفتها.

تقدم القيروان وصفاقس كلتاهما (أكثر من تونس أو حلب أو دمشق) هذا المخطط لـ «مركز» ذي شكل خطي ممتد أساساً باتجاه واحد (شمال - غرب، جنوب - شرق لهما كلتاهما). وفي صفاقس يقع هذا المركز بين صفين متوازيين من الأسواق متصلين بصفوف أخرى أصغر حجماً يمكن أن تضاف إليها شبكة موازية تتضمن المسجد وتمتد إلى مدخل باب الديوان، التي هي نفسها مثل خان كبير يدخل المرء منه إلى المدينة ويغادرها. وفي دمشق وحلب يتضمن الكثير من الأسواق، المرتبة في صفوف متوازية، مزيجاً من خان وسوق (بين أسواق متوازية تواجه إحداها الأخرى) مع مدخل خاص به، وهو محجوب تماماً عن الخارج. وبما أن الأسواق المركزة قرب الجامع الكبير في هاتين المدينتين مغطاة بنوع من السقيفة المتواصلة، ينشأ حيز لا يغلب عليه أي اتجاه ووحدة الأجزاء العديدة فيه مؤكدة بشعور بفقدان القدرة على معرفة الاتجاه كما في بهو ذي سقف معمد. على سبيل المثال، بهو الصلاة لمسجد مهم أو حتى المخزن في مركز تجاري مهم.

إن شكل أسواق تونس أقرب إلى شكل أسواق دمشق وحلب منه إلى شكل أسواق القيروان وصفاقس، بالرغم من أن شبكة الأسواق الواسعة في تونس المدينة تنفرج قرب مدخلي باب البحر وباب الإنتجمي (Intjemmi)^(١٥) (بين القصبة ووسط المدينة) في

Paula Jarvis, «Kairouan,» *Environmental Design*, vols. 1-2 (1989).

(١٤) انظر:

(١٥) استخدمت الاسم الذي أطلقه روبرت برنشفيج على الباب الذي انفتح على المدينة من القصبة. كما أني

أقمت إعادة بنائي للحدود الأصلية لصاحبة باب الجديد على النص نفسه. انظر: Robert Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines à la fin du XIV^{ème} siècle* (Paris: Adrien Maisonneuve, 1940).

المنبسط المسمى شارع القصبة. والمنبسط المسمى شارع جامع الزيتونة، من ناحية أخرى، ينعطف رجوعاً كمرفق اسمه شارع دي سيليه وينتهي عند باب المنارة المشكل بسوق والمنظم كردهة ملتوية إلى المدينة.

بعد هذا الوصف النسبي - وعلى الأخص في حالة تونس المدينة - نحتاج إلى تفحص روابط الطرق، عدا شبكة شوارع الأسواق، وهي الشبكة المقسمة التي يمكن الوصول إليها تقريباً. بكلمات أخرى، يجب أن ندخل «مدينة العشائر الأسرية»، حيز النساء والأطفال، حيث يمضي الرجال الليالي فقط.

إن هذه هي قلب المدينة الحيوي، حيث يتجدد سكانها ويتكونون معاً مع مواعظها الدينية وتضامن مواطنيها. المدينة مؤلفة من فسيفساء كثيفة من المساكن المتصورة كـ «منطقة مسورة» منصوبة حول ساحة تمدها بالنور والهواء وماء المطر. وفي تونس - كما في حلب ودمشق على قدر ما استطعت أن ألاحظ في السجلات العقارية - ثمة ثلاثة أنواع مختلفة من المساكن:

١ - «المساكن المصفوفة على امتداد طريق» والمفتوحة لكل واحد والموصولة بمساكن أخرى مماثلة، أو التي ليس الدخول إليها محظوراً. وهي مكشوفة على الشارع بواسطة ردهة ملتوية تحول دون رؤية الفناء من الخارج بشكل مباشر، أي تحول دون رؤية ما تقوم به العائلة من أعمال حياتية: تحضير السميد، تجفيف خضار لحفظها، غسل الملابس، تعليم الأطفال وإلى ما هنالك. والفناء هو المساحة الأوسع في الدار وتشاطره جميع نساء أهل الدار وأطفالهم. وهو محاط بثلاث أو أربع غرف (بيوت) تشكل بأكمل هيئة لها T مقلوبة. ومحور ال T نوع من غرفة معيشة، في حين أن طرفي العارضة مشغولان بأسرة على مساند مزدوجة الأرجل. ويدعى الجزء الأوسط قبواً وينتهي قبالة المدخل بمجال مؤثث بمقاعد وأرفف. وتلي هذا المجال أبواب تفضي إلى غرف أصغر حجماً (مقاصير) يمكن أن يكون لها سلم مؤد إلى غرفة عليا فوق جانب من العارضة حيث يستطيع صاحب الدار أن يراقب الأعمال في الفناء، أو أن ينعزل ببساطة ليقراً.

هذا الترتيب متكرر في تونس، وخصوصاً في المنازل الكبيرة التي تملكها عائلات ثرية. وفي منازل أخرى يُختزل القبو إلى تجويف صغير في الجدار. أمّا في صفاقس، فإن هذا «النوع» أندر، بينما هو شائع في القيروان، في المنازل الصغيرة في الضواحي وفي

المنازل الكبيرة الأوفر ترفاً. وكل منزل مؤلف من ثلاث أو أربع غرف منظمة في نمط شبيه بشبكة حول الفناء^(١٦).

وليس للمنازل واجهات تطل على الشارع بل هي مطلة على الفناء، وتبنى أحياناً من حجارة ملساء أو رخام ملون، وغالباً مع قناطر معقدة، وخصوصاً في مساكن القرون الخامسة عشر - السابع عشر. ويُقصد بالواجهة في الغرب إثارة إعجاب المارة، وهي محفوظة هنا لأهل الدار وضيوفهم. وجمال البيت محتفظ به للعائلة؛ ولا يدل على مرتبة العائلة الاجتماعية إلا الباب الأمامي الخشب الذي كان يزين بمسامير معدنية ومؤطرة بعتبات وقوس من حجر رملي منقوش. وفي ما يتعلق بالتخطيط، فإن المنزل يتبع التنظيم المشبك نفسه كما المخانات والوكالات، والتركيب الحضري وحتى المسجد، في شبكة من وحدات أصغر (بيوت) حول الفناء. ولأنه بالضبط مسكن للعائلة فإنه يمكن مضاعفته ضعفين أو ثلاثة أضعاف، في حين توضع خصوصيته ضمن حماية «حارة مسدودة».

٢ - «المساكن التي لها مدخل على طريق عام لكنها متراجعة خلف (الدريّة)» وموجهة إلى الداخل نحو حشد المنازل. الدريّة مطلة على ردهة وهذه بدورها مطلة على فناء المسكن. ومن الواضح أن هذه المنازل ليست قديمة قَدَم المنازل المحيطة بها، إذ ربما بُنيت على أرض خراب. ومن الممكن أن تكون غنية ومعقدة كذلك الموصوفة أدناه، وأن يكون لها فناء خدمة وهي مجاورة أحياناً لزقاق.

٣ - «المساكن المجاورة لزقاق أو هي في نهاية زقاق»؛ إنها كبيرة عادة ومتصلة بأخرى أحياناً بواسطة ممار من فناء إلى آخر. لها فناء خدمة للمراحيض وموصولة مباشرة أحياناً بخان يعود إلى مالكيها. وهذه المساكن تدير ظهرها للطرق العامة أو شبه العامة. وهي مبنية في أعماق مناطق شبكات الشوارع والزقاق يمكن الوصول إليها فقط «عبر براح» أو من طريق «تغيير في الاتجاه» (دريّة أو ردهة)؛ أي على أساس ابتعاد متزايد دوماً من الطريق العام. وقد يستهوي المرء الظن بأن الزقاق مثل دائماً مدى السكن الأصلي لأسرة ممتدة أو لعشيرة منحدرّة من جد مشترك. غير أن روبرت برنشفينغ أظهر

(١٦) باختصار، حوّت أماكن إقامة الخلفاء الأمويين والعباسيين كلها تقريباً، وبوضوح، في حجراتها، مخطط المسكن العائلي، حيث نُظمت الغرف على نمط مشبك حول قاعة وسطى كبيرة (أو فناء): قصر القطرانة، القسطل، قصر المشتى والقصر الأموي في قلعة عمان، حيث تظهر أزقة غير نافذة (عمار وشرفات داخلية) وإيوانات في الشكل الهندسي الصارم للهندسة المعمارية؛ قصر الحيرة الشرقي، وهو قرية تقريباً مع مساكنها المحوطة بأعمدة؛ الأخيضر، الأشد تعقيداً، حيث العناصر المطورة في القرون البائدة لهذه الحضارة حاضرة وحيث يستطيع المرء تخيل تكون الغرف ذات الشكل T من دمج إيوان مع جزء من أجنحتها الجانبية. وقد وجد الإيوان وشكل ناشئ من غرفة ذات شكل T أيضاً في المساكن التي نقب عنها غابرييل مارسيل في القسطنطينية.

أن من القرن الرابع عشر فصاعداً كان هناك قوانين صارمة جداً تمنع أي شخص يملك عقاراً متاخماً لزقاق من فتح باب مطل عليه.

وهكذا، حتى شكل الزقاق لا يمثل واقعاً اجتماعياً وحيزياً ثابتاً على حاله، بل إنه يتبع تغييرات في الملكية والعلاقات الإنسانية تحدث تحولات، مهما يقل شأنها، في هيئة الزقاق وفائدته. وبالرغم من ذلك، فإن المنازل الأكبر والأغنى والأعقد مجموعة في نهاية الزقاق، يمنع القانون تقليدياً إنشاء أبواب قرب نهاية الزقاق أو مقابلة لأبواب قائمة إلا إذا وافق مالكو العقارات. وفي قرطبة كانت موافقة الجيران كلهم مطلوبة تقليدياً لفتح باب جديد مطل على الزقاق، أو إقفال المدخل المفضي إلى الزقاق ببوابة^(١٧).

إذا أمعنا النظر في الرسمة المنتظمة لأي مدينة عربية - إسلامية في شمال أفريقيا أو الشرق الأدنى، نرى أن هناك إلى جوار الطرق المسدودة البسيطة والمستقيمة طرقاً مجزأة ومتفرعة عند نقاط مختلفة. هذه هي شُعَب لطرق ضيقة يكون منشؤها أحياناً نتيجة انهيار مبنى. ومن ثم، بمرور الزمن، ينهض مبنى آخر على الانقاض، بسبب الإهمال أو بسبب استحالة إزالة الانقاض. وأنا لا أرغب في الإقرار بأن هذا - وهذا فقط - هو أصل الطرق المسدودة، لكنني ببساطة لاحظت مثل هذه الحالات في تونس.

ولاحظت النقيض أيضاً في تكتل المنازل حول فندق الهناء الذي يحده سوق البلاط وشارع المفتي وشارع سيدي علي عزّوز؛ ففي منتصف المسافة على طول شارع غربال الحالي لا بد أن منزلاً كبيراً يعود إلى القرن الثامن عشر كان قد بُني على أنقاض مسجد صغير، لكن من غير استخدام بهو الصلاة، الذي ليس له سقف الآن. وكان هذا البهو لا يزال خراباً حين وضعت الرسمة المنتظمة. ويبدو أنه كان لمخرج الطريق المفضي إلى شارع المفتي والمزين بقوس (السباط) يوماً ما، بينما المخرج المفضي إلى شارع سيدي علي عزّوز في الطرف المقابل لم يعد يُظهر آثاراً مماثلة. والطريق الآخر الذي يجتاز هذا الحشد من المنازل، وهو شارع النّيار، ينتهي عند سوق البلاط بقوس آخر ربما كان له باب.

وهكذا استطاع القرار الذي اتخذته مجموعة واحدة أو أكثر من العائلات أو الجيران أن يحوّل حيزاً قابلاً للتدخل نسبياً إلى منطقة مغلقة تماماً ومحمية من أي شيء قد يحدث في الطرق العامة وشارع سيدي علي عزّوز وسوق البلاط. ويمكن أن نجد

(١٧) انظر: Robert Brunschvig, «Urbanism medieval et droit musulman», *Revue des études islamiques* (1947).

مثالاً آخر في كتلة الحي الذي تم دمج طريق ضيق، كان في ما مضى يربط بين شارع المدرسة السليمانية وشارع دو تريزور، في المباني المجاورة وجري، في أقسام محددة منه، تخصيصه كلياً لمنفعة منازل القرن السابع عشر - القرن الثامن عشر. ويدل وجود مخازن كبيرة على أنه كان هناك فندق أيضاً.

إن مثل هذا اللبس - وسرعة الزوال - لحقوق الدخول والمرور والاستخدام جائز بوضوح في جميع الشوارع الجانبية التي تربط ما سميت «الطرق الرئيسية» التي يبدو أنها تخترق الجانب المادي من الحيز الحضري، موصلة كل باب بشبكة أسواق وباب آخر. والشكل ٧ أو ٧ هذا، الذي يدل على طابع الاتجاهين لكل طريق، مصحوب باصطفاف مرصوص تقريباً لمساجد وزوايا ومدارس وحمامات وأفران وأسواق صغيرة تباع مواد غذائية.

ليست هذه الطرق الرئيسية محددة بحجمها ولا بالطبيعة البائنة للمباني المحاذية لها. والتحفظ والاحتياط هما القاعدة الأولى لفن تجميل حضري يكون ما هو مهم محجوباً عن النظر: فجامعة الزيتونة خلف جُدُر وقناطر الأسواق (بالرغم من أن نوع البضائع المعدة للبيع - عطور وملابس وسجاد وكتب - يدل على وجود هذه البضائع من دون الكشف عنها)؛ والمساجد والزوايا تُشار إليها فقط بإطار باب في الجدار الكلسي الأبيض؛ وباب الحمامات الأحمر والأخضر والغسيل المختلف الألوان على السطوح. والطريق المتواصل والمباشر من باب إلى آخر، أو من باب إلى سوق، لا يزال موجوداً، لكنه ليس مستقيماً على الإطلاق، ومشار إليه بأصغر اللافتات، التي يسهل بالرغم من ذلك على الساكنين هناك التعرف إليها أو تمييزها. هذه اللافتات، مضافة إلى مساعدة المارة وأصحاب الحوانيت، هي التي تمكن المرء من معرفة وجهته والوصول إلى الجهة التي يقصدها.

عندما نزرع مدينة غربية، فإن ما يمكننا من معرفة وجهتنا ليس الشبكة المنتظمة من الشوارع (التي قد نضيع فيها بسهولة) بل الآثار الهندسية الرائعة التي تعلو على المباني الأقل ارتفاعاً - قمم أبراج كاتدرائيات، وأبراج من القرون الوسطى، وقوصرات مزينة بعناية، وقبب مرتسمة ظلّتها على صفحة السماء - أو تدفق الأضواء التي تشير إلى وجود ساحة في نهاية شارع.

في تونس، من جهة أخرى، يرشّح نسيج الطرق الرئيسية شبكة من التقاطعات التي تنشأ منها طرق داخلية ثانوية. والشارع المنحدر، صعوداً أو هبوطاً، وسلسلة المساجد،

وأبهاء الغسل، والتزل هي الأدلة التي يقدمها هذا الحيز إلى الذين يجتازونه، إلى جانب الاستفسار من أحد المارة (أفضل طريقة لمعرفة الاتجاه في رأيي). والانطباع المميز لأي فرد يمشي على امتداد هذه الطرق هو أنها متشابهة كلها وأنها جميعاً تخفي عالماً متوارياً خلف جدرانها. على هذا يلاقي كل امرئ عابر المدينة التنظيم الشبيه بالنسيج والبالغ الأهمية. هذا «النظام» المنسي وغير المتوقع هو بالضبط الذي شوش أذهان الكثير من رحالة القرن التاسع عشر الأوروبيين، الذين اعتبروه منافياً للتفكير السليم وبلا معنى.

تتكون الشبكة لا من شوارع وإنما من تقاطعات الكائنات العضوية الهندسية؛ على سبيل المثال، جدران مبنيين يفصل بينهما ممر. وضمن الشبكة نفسها يمكن أن يكون هناك مدارس أو حتى فنادق، موصولة بشكل مباشر أحياناً، بمسكن لأسرة غنية، كما شاهدنا حول الجامع الكبير في تونس (انظر الرسم الرقم (١٢ - ٨)).

ثمة إشارات أخرى تعني ضمناً مداخل المدينة^(١٨). مثال على ذلك: سوق خارج المدينة نفسها، وهي مع ذلك ضمن هندسة المدخل، مثل باب المنارة وباب الجديد المهدم في تونس؛ ومسجد؛ ومقام أحد الأولياء الصالحين؛ وخان في الجوار المباشر؛ ووكالة؛ وقلعة. وهكذا يمد المدخل بركته (قوته الدفاعية، طاقته الواقية، لكن ضيافته أيضاً) إلى داخله وإلى خارجه على السواء.

والمدخل لا يزال مدخلاً، لكنه جزء من الجهاز الحضري للترحيب والاختيار أيضاً. ويمنع من دخوله المسلحون أو العربات؛ ويستطيع التجار الإقامة في الأسواق حيث الوكالات اللائقة، أو في زاوية مرتبطة بشكل ما بمسقط رأسهم أو بديانتهم. لذلك، فإن الحيز زاخر بقوانين وأنظمة تجعله تجلياً لمجتمع خاص في لحظة مقررة تاريخياً^(١٩).

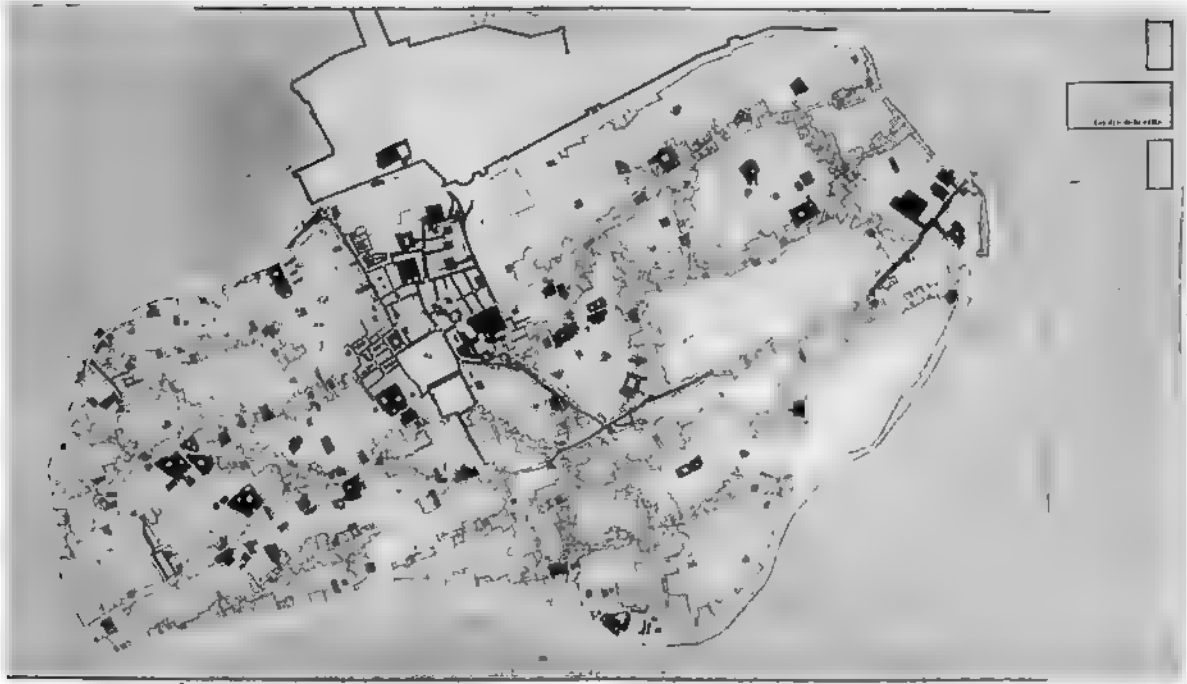
(١٨) انظر: Louis Massignon, «Les Corps de métiers et la cité islamique», (a Lecture given at the college de France om 4/2/1920), *Revue des étude islamique* (1950).

«تعمل المدينة مجرد امتداد للأسواق. إنها بلورة للسوق، التي تحولت إلى مركز يقوم فيه الصناعيون بصنع مختلف المواد التي تشرى وتباع. وفي الواقع، تقوم ورش الحائكين، والمطاحن وأعمال الصباغة والمناشر خارج أبواب المدينة، كما في فاس، مثلاً. أحيلك على موسوعة إسلامية تقدم تفصيلات عن النقابات المهنية جمعها طائفة إسماعيلية في القرن الحادي عشر. الموسوعة تحمل العنوان «إخوان الصفا»، وهي تعطي نوعاً من تصنيف فلسفي لمختلف المهن في العالم الإسلامي، بحسب المواد ومكان العمل وساعات العمل والأدوات».

(١٩) قارن بـ: Ibn Jobeir, *Voyages d'Ibn Jobair*, 3 vols. (Paris: Paul Geuthner, 1949).

«على القاضي أن يولي رجلاً نزحاً وفاضلاً، رجلاً ملماً بالقانون، خارج كل باب مدينة. وعلى هذا الرجل أن يحكم بين الأشخاص المتنازعين... وعليه مراقبة الجلود واللحوم الطازجة المباعة خارج أبواب المدينة».

الرسم الرقم (١٢ - ٨)
تونس المدينة، شبكة الطرق الرئيسية



«الطرق الرئيسية» لا فراغات بين المباني، ولا طرقاً من دون مخطط مدني للمباني المحيطة؛ بل هي منشآت معمارية مع صفيين محيطين من المنازل تواجه بعضها بعضاً على طول الطريق.

هذه «الأشرطة» مجسدة على صفحة المخطط. هي في موازاة - ليس فقط - صفوف المباني، وإنما كذلك تعقب مقاطع مصنوعة من مباني وتجمع عائلات وتعمل على حماية خصوصياتهم. المناطق الداخلية نفسها تتحدد بواسطة هذه الأشرطة. في أوقات الخطر في وسع هذه المقاطع أن تقفل، فتتعلل سيرورة الطريق والحركة الحرة عليها. وهكذا ينقطع داخل المدينة عن الخارج. في هذه الحالات، يبدو المكان المدني بأسره مجزأاً وفقد الطرق الرئيسية وظيفتها.

تبدأ الطرق الرئيسية من بوابات المدينة، من أضرحة أولياء، من مركز مهني ذي وظيفة اجتماعية، أو من وكالة أو «فندق». على جانبي الطريق، كما ذكرنا، تقوم مساجد صغيرة، ومبانٍ لمساعدة الحجاج، ومدارس فقهية، ومصليات. أما مدينة الأغنياء وأصحاب السلطة فتقع خلف هذه الأحزمة الدفاعية.

المصدر: المصدر نفسه.

لكن، من ناحية أخرى، يمكن قراءة حتى التأثير بالطرق الرئيسية، كما هو مشار إليه في مخطط المدينة، بطرق مختلفة. كما رأينا، يمكن استبدال الطريق المفتوح والميسور بطريق مجزأ، حين يُسد سابات واحد أو أكثر كي تُعزل مناطق نشب فيها شغب مدني أحدثه فتية، أو حدثت انتفاضة شعبية رداً على أحداث سياسية معينة.

الأمر نفسه يمكن أن يحدث على نطاق أضيق لأزقة تربط طريقاً عاماً بآخر، الأمر الذي يؤثر في المناطق السكنية كلها وفي المداخل المؤدية إلى «طرق غير نافذة». وبما أن هذا ممكن في أي مكان وفي كل مكان، فإن المدينة تعرف هذا النوع من الحيز أيضاً

بإغلاق المداخل أو بسد الساباطات، حيث لا يضمن أي طريق من طرق الحيز مروراً مباحاً في أي اتجاه، وحيث يمكن أن يتحول أي قسم من الشارع إلى طريق مسدود ويصبح الحيز مجزأً إلى آخر حد. هذا بالضبط ما يحدث ليلاً عندما تغلق المداخل المفضية إلى كل قطاع من الأسواق (انظر الرسم الرقم ١٢ - ٩).

الرسم الرقم (١٢ - ٩) تونس المدينة، المدينة الداخلية



يشبه المخطط هذا «نيغاتيف» فوتوغرافي للصورة السابقة. هو يمثل المنطقة الواقعة داخل شبكة الطرق الرئيسية والفرعية. تؤدي الطرق دور الأحزمة الدفاعية، فتخفي ما خلفها. هذه المناطق المحمية والتي تتباين في الحجم والشكل، منظمة وفق أزقة مغلقة أو يمكن إقفالها حين يكون ذلك ضرورياً.
المصدر: المصدر نفسه.

«إن من هو خارجي، من هو بعيد، هو غريب عن الجماعة المنحصرة دوماً، من الجماعة الحضرية إلى القبيلة إلى المواطنين المشتركين إلى قرابة الدم والعشيرة الأسرية». ومع ذلك، يدل هذا «الخارجي» ضمناً على الـ «داخلي»: نظام الأسواق، ومكان للتبادل بين المواطنين، وبين التجار والغريباء، تحت عين القانون الساهرة. ودرجة الفصل تتغير، والأدوات ذاتها التي تسببه هي أيضاً الأدوات التي تقلله أو تلغيه

بالفعل. لذلك فإن الردهة الملتوية ليست بالتأكيد مبنية للترحيب بالغريب. وإذا أطلت على الدرية أطلت على زقاق، تكون درجة الفصل عندئذ في حدها الأقصى.

ومع ذلك، تكون الردهة الملتوية مجاورة غالباً لغرفة لا تتصل بالفناء ولا بالغرف التي تعيش فيها الأسرة؛ لذا يمكن استخدامها لاستقبال الغريب والترحيب به؛ كما مكاتب السكرتير في القصور الأوروبية، الذي يقع نصفه في الداخل ونصفه في الخارج، وهو بين الشارع والمنزل، ويستخدم للموظفين والزبائن. لذلك يبدو أن الحيز الحضري كله مشبع بمعنيين جائزين، وهما متعارضان لكن التوفيق بينهما ممكن.

نحن إذاً في حضرة حيز مرن، لكن حيز قابل للاختراق فقط في ظل ظروف معينة وفي مناطق معينة، من خلال درجات أو مستويات من الدخول والتركب؛ إنه حيز قابل للاجتياز، لكنه بلا علامات هندسية، عدا مثذنة المسجد الخاص بجماعة المصلين، مرئية من الخارج فقط، من التلال أو الطرق المؤدية إلى المدينة.

إن كل شيء ضمن المدينة مستلهم؛ كل شيء معروف، بالرغم من أنه ليس معروضاً للتأمل بالنظر، لأن المدينة تكشف عن نفسها للعين الغريبة، وفي أشكال يمكن تمييزها، من الداخل فقط. لكن حتى هذا «الداخل» مفكك ومعاد جمعه بأشكال موقته من الحظر وبالإمام بها، بكلمات أخرى، بممارسات وعادات الحياة الاجتماعية الحضرية.

والشكل المنتخب لحياة الجماعة الذي يسمح بالاختيار الاجتماعي «حضري» فعلاً: الحيز لغير المواطنين هو في الضواحي، حيث يستطيعون التخلص من عاداتهم الراسخة واكتساب عادات المواطن؛ وحيز المواطنين هو في وسط المدينة مع حرفهم ومصنوعاتهم. والبدو يجب أن يبقوا خارج المداخل، ينظمون قوافل ويلتزمون السعر الذي ينبغي أن يدفعوه لقاء حمايتهم في رحلتهم عبر الصحاري.

إن التبادل هو العامل الوظيفي الذي ينهي كون الدخلاء غرباء. وهو يجري ضمن شبكة الوحدات التي يمكنها، بينما هي تقاطع، أن تشكل إما جسماً واحداً قابلاً للاختراق وإما متاهة من المداخل المغلقة التي لا تُخترق. ونظام الأسواق^(٢٠) حيز قابل للتخلل ومفتوح على «الأخر»؛ إنه موضوع منقّق مبتذل (Topos) يجري

(٢٠) تشكل الأسواق نوعاً من حدود داخلية ضمن المدينة، وبين المناطق السكنية، وتمثلها «فرجة» الشوارع حيث تتم أنشطة التبادل التجاري.

فيه تواصل حيوي؛ وخلافاً لذلك تكون المدينة وعاء مبهماً لا علاقة لها بمجتمعات إنسانية أخرى.

يشكل نظام الأسواق والخانات والجامع الكبير والمدارس (الفقهية - الشرعية) نوعاً من جسم ضمن جسم المدينة، يمتد غالباً بين مدخلين، ويمثل حيز الرجال ومهنتهم كتجار أو علماء. وفي وسعنا أن ندعو هذا النظام موقع الممارسات المقبولة ومكان إنتاج المعرفة الدينية التي لها صلة اجتماعية مباشرة^(٢١). إنه مكان الأنشطة التي تعطي التبادل شكله؛ مكان مزاولة الحِرَف وإنتاج المصنوعات. إنه مكان التماسك الاجتماعي الذي يكشف عن نفسه في المسجد، لكنه يضرب أيضاً على إيقاعات النهار بمبادئه وقواعده. ثمة مسجد في كل مدينة، في كل ورشة ومركز تجاري، أو بالقرب منها. وفي دمشق وحلب كان شائعاً تماماً في ما مضى أن تجد مزاراً في وسط فناء خان.

هذا النسيج المعقد، المغزول من قطع متضافرة - أسواق ومزارات ومدارس والجامع الكبير المتواري خلف الورش، وأهم المراكز التجارية المحجوبة خلف باب - الذي تحركه أصوات وخطوات، يقدم نفسه إلى إحساس الغريب كمناهة لا يمكن تفسيرها؛ كشابه لا ينتهي؛ كحيز لتشوش لا يظهر فيه المخطط الذي يقوم عليه أو لا يكشف عن نفسه. والحيز هذا هو كل السياق، كل التناسق، الذي يكون بيان الأثر الهندسي فيه مكبوتاً، ويكون فهمنا له مشكوكاً في أمره.

تبدو المدينة كلها تكراراً متواصلاً لنفسها؛ كلاً حيزياً متراصاً موحداً لا يقبل التجزؤ. هذا التصور للمدينة العربية - الإسلامية ككل، أو كوحدة لا يمكن تشريحها إلى أجزائها المتعددة - وحيث وضع أجزائها المتماثلة سوياً لا يشكل رتابة متسلسلة اطراداً، بل الإحساس بانتماء إلى حيز واحد لكنه متصل بمفاصل ومعبر عن «نموذج» مجسد في تركيبه - يعيدنا بسهولة إلى القصور الأموية أو العباسية. هنا تُحدث «الهندسة الميَّنة» لعناصر واضحة ومتميزة، ولتوزع هذه العناصر، الإحساس الملتبس نفسه بحقيقة أن ذلك يفلت منا بصرياً بصورة مستمرة، في الوقت الذي لا يتخلى أبداً عن وضوح عاداته أو قانونه (Nomos).

Massignon, «Les Corps de métiers et la cité islamique».

(٢١) قارن بـ:

«إنه ليقين مطلق أن تبادلاً للمعرفة والعلم حول المسجد - أي، ينتمي إلى جماعة محددة من «العائلين» المفكرين والزبائن، جماعة تنظم أشكالاً من الترحيب بعلماء زائرين - قد جعل الجامعة المجلس النقابي بامتياز».

الرواية المكتوبة عن تأسيس المدينتين الأوليين البصرة والكوفة هي أكثر تلميحاتاً إلى مخطط قصر يحيط بمسجده منها إلى مسح لرمزية مدينة القرن الثالث عشر - القرن السادس عشر.

إضافة إلى ذلك، نحن لا ندرك كل ما اتخذ شكلاً معيناً على المواقع التي ندرسها، وكم من تحولات مر بها المفهوم نفسه للحيز المبني من القرن الثامن إلى الوقت الحاضر. نحن يمكننا فقط أن نعرف الحاضر، وأجزاء قليلة من الماضي البعيد. ونحن مجبرون على مقارنة مقولات حكمنا بنتائج حضارة ازدهرت في حقبة كانت الحضارة الغربية فيها تكابد أعماق أزمة من أزمت الهوية.

لا شك أن الحضارة العربية - الإسلامية أثرت فينا، وهي جزء منا، ولا تزال بالرغم من ذلك معروفة بمقدار قليل جداً. لهذا السبب قررت قبل عدة أعوام أن أحاول فك رموزها، وأنا أعرف جيداً أنني أستطيع فعل ذلك ضمن ثقافتني أنا.

بدافع من فضول لا يرتوي في شأن أصول هذا الحيز أو أحد أصوله، أعيد قراءة تقليد تأسيس مدينة الكوفة^(٢٢):

«لما أجمعوا على أن يضعوا بنيان الكوفة، أرسل سعد [بن أبي وقاص] إلى أبي الهيثاج [الأسدي] فأخبره بكتاب عمر في الطرق، أنه أمر بالمناهج أربعين ذراعاً، ومما يليها ثلاثين ذراعاً، وما بين ذلك عشرين، وبالأزقة سبع أذرع، ليس دون ذلك شيء، وفي القطائع ستين ذراعاً إلا الذي لبني ضبة... فأول شيء خُطَّ بالكوفة وبُني حين عزموا على البناء المسجد... فاخطوه، ثم قام رجل في وسطه... فرمى عن يمينه فأمر من شاء أن يبني وراء موقع ذلك السهم، ورمى من بين يديه ومن خلفه، وأمر من شاء أن يبني وراء موقع السهمين. فترك المسجد في مربعة غلوة من كل جوانبه، وبني ظلة في مقدمه، ليست لها مجنّبات ولا مواخير، والمربعة لاجتماع الناس لثلاثين ذراعاً... وأعلموا على الصحن بخندق لثلاثين ذراعاً، وبنوا لسعد داراً بحيانها بينهما طريق منقب ما تلي ذراع، وجعل فيها بيوت الأموال، وهي قصر الكوفة اليوم... ونهج في الودعة من الصحن خمسة مناهج، وفي قبلته أربعة مناهج، وفي شريقه ثلاثة مناهج، وفي غربيّه ثلاثة مناهج، وعلمها، فأنزل في ودعة الصحن سليماً وثقيفاً مما يلي الصحن على طريقين، وهمدان على طريق، وبجيلة على طريق آخر، وتيم اللات على آخرهم وتغلب...».

(٢٢) الطبري، «ابن عباس»، مقتبس من: L. Caetani, *Annali dell'Islam*, IV (Rome: U. Hoepli, 1949), and *Tradizione della fondazione della città di al-kuffāh*.

أحاول أن أحدد إلى أي مدى يمكن أن يكون وقف من القرن الثامن فاتحة لأحياء درستها، وما هي الآثار التي يمكن أن تبقى في النسيج الحضري، ماضياً وحاضراً، ويبدو أنني أرى عناصر لم يمحها ١٣٠٠ عام كلياً.

وتصنيف الشوارع إلى شوارع رئيسية ومتفرعات ومتفرعات صغيرة وأزقة ليس من دون تدبير، بل يمثل ترتيباً جوهرياً مخططاً له ضمن منفعة أسخى (وفي ما تعدى تينك النقطين كان في وسع أي امرئ أن يبنى مسكنه)، ومطبّقاً معايير وحدة اجتماعية وإثنية، وبالتالي معايير فصل نسبي، ضمن الحيز الحضري.

استقرت «الجماعات المسلمة»، على كلا جانبي الشارع نفسه؛ بذّا يمكننا تخيل صفين متوازيين من المنازل على امتداد «النطاق الخالي» من الشارع.

ويذكر نص الطبري ساحات (أو مجموعات من البيوت؟) وسككاً وأزقة (من الممتع معرفة المعنى الأصلي للاصطلاحات). ويبدو أن السكك تكون نقاط التقاء معقّدة يمكن تمييزها في جميع المدن موضوع البحث. ألا نلمح في هذا الوصف سمات أو جوانب الحيز الحضري الذي وصل إلينا^(٢٣)؟

في «خطة لمدينة تونس جمعتها كولن عام ١٨٦٠»^(٢٤) تبدو تونس المدينة في شكلها المؤلف من ثلاثة أجزاء: وسط المدينة منعزل ضمن جُدره، بينما هو محوّل إلى الجنوب والغرب والشرق بمدارٍ ثانٍ من الجُدر يضم الضواحي ويتصل بالجُدر الدفاعية للقنصة إلى الغرب - الجنوب الغربي والغرب - الشمال الغربي. وهذه الأخيرة تطل على وسط المدينة، لكنها لا تطل على الضواحي، من خلال باب شرقي.

على الجانب الشرقي من المدينة برك وأقنية، ومجمل جادة فرنسا وجادة بورقيبة، وربما بقايا حوض بناء السفن، ومحطة السكة الحديد لخط حلق الوادي - المرسى - قمرت.

وفي هذه المنطقة لا وجود لجُدر مدينة؛ بل يوجد بدلاً منها مستنقعات وبحيرة تونس (الرسم الرقم ١٢ - ١١).

إن اثنتين من الضواحي (الرباطات)، باب الجديد وباب السويقة، لا تتصل إحداهما بالأخرى، إلا من خلال المستنقعات الممتدة إلى الشرق؛ أي، بمغادرة المدينة

(٢٣) هذا الحيز مختلف تماماً اليوم عن الأصلي، إذ استغرق كل منها فترة طويلة للاكمال.

Plan de la ville de Tunis dressé par Colin en 1860.

(٢٤)

ودخولها ثانية عبر باب آخر. غير أنهما موصولتان بما سميته الطرق الرئيسية، ضمن المدينة، وهي طرق يمكن الوصول إليها عبر الأبواب المشتركة بين وسط المدينة والضواحي. ولهذه الأخيرة أبواب خاصة بها، ومشرفة غالباً على مدافن ومحفوفة بخانات ومساجد أو زوايا. ولكل ضاحية مسجدها المعادل للمسجد الرئيسي جامع الزيتونة: مسجد سيدي بشير ومسجد سيدي محرز ومسجد صاحب الطابع^(٢٥).

ليس لأي من هذه التجمعات الثلاثة ساحات. فميدان الحلفاويين، في المسح الفرنسي لعام ١٨٩٨، كان لا يزال غير موجود. وكان في مكانه مجموعة من المباني التي هُدمت في ما بعد. ولم يكن ميدان باب السويقة قائماً أيضاً. وفي الضاحية إلى الجنوب، خدمت الساحات الفارغة المستوية كأسواق للحبوب والخيول. وفي باب البحر كان ثمة نوع من «ما قبل مدخل»، بينما كانت المراكز التجارية الغربية قائمة وراء هذا الباب، خارج جُذر المدينة.

في هذه الفترة بلغ عدد سكان تونس المدينة، مع ضواحيها، ١١٠٠٠٠ نسمة و٢٢٠٠٠ عائلة. ولو أن أمدها الزمني، حتى مجيء المحمية الفرنسية، هو أمد الإمبراطورية العثمانية والزمن التقليدي، فإن المدينة هي إذاً وارثة حاضرة العالم القديم وزمن ما قبل الصناعة. أو هكذا تبدو لي. ويساتين الخضار والمقابر (الإسلامية، بل اليهودية والمسيحية أيضاً) متشرة حول جُدرها. ووراء هذه كروم وأحراج، وخصوصاً باتجاه الشمال، وبتجاه الشرق، على امتداد الطريق إلى أريانة وبنزرت والطريق إلى المرسى.

بالنظر إلى هذه المخططات الباكورة الخاصة بتونس، وهي من وضع طبوغرافيين أوروبيين^(٢٦)، ينشأ فينا انطباع بأنها مدينة من «كتلة» مبنية منحوتة بصدوع عميقة متجهة إلى صدوع أضيق. إنها كما لو أن الحيز الأصلي للمدينة وضواحيها «كان جسماً جامداً» شقته الطرق في أجزائه الضعيفة، بينما أقتحمت المباني في هذا الجسم بدلاً من إقحامها في الأحياء المخاوية.

(٢٥) أذكر مسجد سيدي محرز كمسجد طرفي مهم، إذ يبدو أن تاريخ تطوير جزء على الأقل من المنطقة الشمالية لوسط المدينة يعود إلى القرن الثالث عشر.

(٢٦) أي قبل أن تكون خطة مفصلة على مقياس (٢٥٠:١) لكل مجموعات المباني المحوطة ضمن شبكة طرق، أو على الأقل تلك التي تقع في وسط المدينة، قد رُسمت في عهد المحمية الفرنسية، وقبل خطة تسجيل عقاري (في عدة صفحات) للمدينة وضواحيها على مقياس (١٥٠٠:١).

في حقيقة الأمر، تتكون تونس المدينة من وحدات معمارية مركزة على النمط الهندسي المعتمد أكثر من سواء: أشكال هندسية رباعية الأضلاع مكشوفة في وسطها للسماء، ويمكن أن تكون منازل أو مراكز تجارية أو نُزلاً أو مؤسسات دينية على التوالي. وحتى المساجد الأهم لها المخطط والتفصيل الداخلي والهندسة التقليدية ذاتها. ومع ذلك يبدو تركيبها في وحدات مثل فسيفساء تحل الإجراءات الرمزية فيها محل الهندسة الإقليدية الأثيرة جداً إلى الغرب والمتأصلة إجمالاً في هويته الحضريّة.

ما زال صعباً عليّ تحديد ما هو بالضبط هذا المجسّم، الذي يجب على الهندسة الأولية للمباني أن تلائم نفسها ضمنه مع عوائق غير متوقعة، من انحناء وتقدم وتأخر. ويبدو أن الفرضية الصحيحة الوحيدة هي أن الجسم المجسّم هو «الزمن»؛ بكلمات أخرى، الظروف المادية التي فرضتها حقب تاريخية مختلفة على مبادرات بناء متميزة، أكانت أعمال بناء جديدة أم أعمال إعادة بناء. طبعاً، كانت في حالات أخرى وصل متفرعات أزقة لم يعد تقسيم مهمل إلى نواة أسرية وعشائر يتطابق معها. وإلى جانب الإهمال، خلقت ظواهر كالزلازل والحرائق أوضاعاً جديدة وغير متوقعة. لكن لتأكيد ذلك، تبرز الحاجة إلى معرفة تاريخية لمختلف الأطوار الزمنية المتقاطعة والمتداخلة - أي تأريخ موثوق منه.

إن أعمال التنقيب في نيبور التي قام بها دونالد ماكاون ودونالد هوس^(٢٧) (وهي تتعلق بالفترة الممتدة من الألفية الرابعة إلى الألفية الثانية قبل الميلاد) مثال مناسب على تطور وتقاطع أقسام المدينة عبر ألفيتين؛ مدينة ترك تنظيمها الحيزي علاقات تجانس كذلك الموصوفة أعلاه. ففي تنقيبات المناطق السكنية في أور (الألفية الثالثة)، يُنشئ نظام الطرق - مع طرق اتصال داخل المدينة وسلاسل من الأزقة - حيزاً حضرياً ذا تطابق مشير للإعجاب، بالضبط كما في نيبور من قبل. والردهة الملتوية هي المعيار، في كل من المنازل وأماكن العبادة. هنا، أيضاً، نجد المنازل المهمة متراجعة عن الشارع بممار مغطاة، والمنازل الأهم، تلك ذات الفناءين أو الثلاثة أفنية، قائمة في عمق النسيج المبني. ومضى ألف عام وبقي الوضع على حاله تقريباً.

أياً تكن تحولات المعنى وتبدلاته بفعل الزمن، يبدو أن أدوات إعادة تخطيط الحيز الحضري وإعادة تنظيمه لم تتغير وأنها عملت كشيء ثابت في التصميم الفسيفسائي

Donald E. McCown and Donald p. Hause, *Excavations at Nippur*, Oriental Institute (٢٧) Publications; vol. 57 (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1967).

للمدن القديمة فضلاً عن هيئاتها الأقرب عهداً. وكان اكتساب نماذج جديدة - نماذج القرن التاسع عشر الأوروبية تحديداً - وجاذبية تنوعها وحدائتها هو فقط الذي استطاع إزاحة النماذج القديمة، حين بهتت العادات التقليدية إزاء فرض مستوطنات أوروبية في جوار مدن ألفية.

حدّد روبرت برنشفيج في مقالته التي أضحت كلاسيكية^(٢٨) مبدأً قضائياً وهو الفناء - أو الحيز الخالي المحيط بمبنى أو المواجه له، الذي يحق لصاحب المبنى استخدامه - متواتراً في أحكام القاضي الشافعي ومتواتراً، بشكل مخفّف، في أطروحات الفقه المالكي. معنى ذلك أن هدم مبنى يشغل جزءاً من الشارع^(٢٩) ليس أمراً إجبارياً في حال مرور عدة أعوام على بنائه من غير أن يبدي أحد اعتراضاً أو إذا كان لا أحد يعرف لماذا بُني، بالرغم من أن مبنى كهذا يعتبر محرماً وفقاً للحديث النبوي، وهكذا، فإن الحيز المادي والحيز القضائي ليسا مقترنين بالقيود نفسها. والقانون غير المكتوب يرى، في الحيز الخالي أو الفناء، تصادم أو ترشّخ حقوق تجعله حيزاً زائحاً بـ «الطاقة الكامنة». والأنقاض الناجمة عن منزل ما تهدم يمكن إزالتها، لكن بصعوبة؛ إذ ليس هناك خدمات بلدية لهذا الغرض، كما يصعب تحديد الطرف الذي عليه دفع تكاليف الإزالة.

لقد كانت الخرائب العديدة المهجورة في المدن الإسلامية المكان الطبيعي لتكديس جميع أنواع القمامة. وكان على المهنة القانونية تقبل العواقب غير البغيضة؛ فالقانونيون لا يدينون العادة في حد ذاتها ولا يمنعونها رسمياً. وإذا كان في المستطاع، في حالة محدّدة، تمييز استخدام غير مجاز لملك شخص آخر، فبأي حق يمكن منع استخدامه برمته في تجمعات ليست فيها خدمة تنظيفات عامة؟

هكذا سيبدو الكثير من الأزقة في المدن العربية - الإسلامية نتيجة هذه الانتهاكات ولانتهاكات مماثلة أصبحت شرعية في ما بعد، بسبب كمية الوقت المنصرم بين إشغال قطعة أرض وإحالتها إلى المحكمة، أو غياب أي إحالة كهذه في الواقع. ويمثل ذلك، يمثل تحويل شوارع ذات مخرجين إلى أزقة غير نافذة تحولاً بحكم الأمر الواقع في استخدام حيز والتحكم فيه، علماً أن الزقاق غير النافذ يُعتبر ملكاً مشتركاً لهؤلاء الذين لهم أبواب مطلة عليه، لو رضي جيرانهم أم لم يرضوا.

(٢٨) Robert Brunschvig, *Urbanisme médiéval et droit musulman* (Paris: p. Geuthner, 1947).

(٢٩) يُجعل مثل هذا البناء أمراً ممكنًا بالإيذان بمبدأ قضائي - نوع من «هالة» من الوجود الذي لا يُلمس، لكنه حقيقي، ويمتد من حيز المنزل إلى الجوار المباشر.

إن الملكية والأملاك والجيران أصناف عامة قضائية وحيزية، بالرغم من أنه يسهل رؤية كيف تم التوصل إلى استخدام مثل هذه الأصناف العامة لتشير إلى عادات اجتماعية وعادات جماعات محبوكة النسيج، وإلى تعزيز اتفاقات أو أوامر تحريم معبر عنها كلها حيزياً.

لا شك في أن كل شيء قيل حتى الآن لا يتعلق فقط بالتنظيم الحيزي ونظام القوانين والواجبات الإلزامية المدنية التي تتصف بها تونس المدينة ومدن عربية - إسلامية أخرى. ولا بد من إيجاد شيء ما مشابه في كل مجتمع يترك فيه التطور البطيء لقوانين الملكية مشكلة الممارسات اليومية بلا حل وقتي. في إيطاليا، مثلاً، وفي المرور من أوائل القرون الوسطى إلى القرن الخامس عشر، ثم من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، قلص امتلاك أرض لا ملكية مؤكدة عليها ولم تكن على ما يظهر، وربما حتى قانونياً، عامة ولا خاصة، عدد الشوارع الفرعية التي تتصل بشوارع أهم، ورأى الأزقة الضيقة التي فصلت بين المنازل وعزلت الأملاك الأهم عن المنازل المتوالية والأقل شأنًا وقد ابتلعتها المباني الأكبر حجماً. هذه كلها يمكن تمييزها في فلورنسا، مثلاً، داخل الإنشاءات المتأخرة وخارجها على السواء.

وحتى الوضع القانوني والمدني لأفنية القرون الوسطى الأوروبية، الموصولة بالشارع العام بواسطة ممار مغطاة، مشابه لوضع الأزقة غير النافذة على الشواطئ المقابلة للبحر الأبيض المتوسط. إنه تشابه وليس مجرد محاكاة للثقافة الحضرية العربية - الإسلامية التي كانت معروفة لدى التجار الإيطاليين من خلال أسفارهم وبلغت أنضج تجلياتها يوم كان انبعاث المدينة الأوروبية لا يزال في مرحلة طفولته. وفي المدينة الأوروبية أيضاً، كان ثمة فصل مادي بين عالم العشيرة الأسرية وعالم التجار المعروف بين عامة الناس؛ لكنه كان فصلاً عمودياً، مشتقاً ربما من المدينة ذات الأبراج، التي لم تكن قد اختفت تماماً. وهكذا، كان في أوروبا من القرن الثالث عشر فصاعداً مدينة سفلية مفتوحة كلياً ومدينة علوية مغلقة كلياً.

هناك عادة أخرى معهودة تؤكد الرؤية الخاصة لتنظيم حيز مبني نجده في تونس المدينة ونجده، كذلك، في مدن عربية - إسلامية أخرى: لا يمكن أن يُفتح باب قبالة باب منزل آخر، تماماً مثلما لا يمكن أن يُفتح باب داخلي على فناء مباشرة (للخانات، من ناحية أخرى، مدخل يوصل إلى الشارع أو إلى الزقاق مباشرة، أي أنه بلا ردهة ملتوية). وكل منزل يخطط لحريمه - أي للحفاظ على فرديته وإفته - على ما يعتبر حيزاً عاماً. لذا

يمكن ربط دواب وترك حزم في جوار باب أحدهم، أو جعل مجموعات من الزبائن ينتظرون على باب حانوت (أو دُكان).

بدلاً من حيازة حيز عام، تشير هذه العادة إلى مفهوم لحيز مبني غير معين بحدود ملكية، لكنها تستلزم الامتداد المحتمل لكل مبنى باتجاه «المباني الأخرى»؛ وهذا شكل لتدخل «ممکن» في حيز لا يعود لكتلة جماعية وإنما يُعتبر مشاعاً أو «يتشاطر» كثيرون. ويبدو أن الزقاق غير النافذ، بامتداداته المتفرعة في اتجاهات مختلفة - بدءاً من «الجذع» الذي يوصله بطريق عام نافذ أو طريق رئيسي أو ملتقى طرق - يعبر عن هذا النوع من تصنيف المكونات الحيزية. تدل النهاية المغلقة لكل زقاق على الخصوصية المتناهية للمنازل الواقعة فيه، كما تدل على جميع ضروب أوامر القرابة والتكافل التي يمكنها في أي لحظة أن تشكل سداً، جاعلة الوصول إلى تلك المنازل مستحيلاً.

الزقاق غير النافذ هو الحيز الذي استخدمته نساء وأطفال المنازل المطلة عليه بحرية؛ مثله مثل وسط الدار، وإنما على نطاق أوسع من حيث صلة القرابة والتكافل. وبالنظر إلى متفرعات الزقاق الأصلي غير النافذ، من زاوية علاقاتها بعضها ببعض، تبدو أنها تدل على شبكة علاقات متينة كانت في الأصل أوسع ربما (بل حتى قبليّة) وانفصت لاحقاً وحلت محلها علاقات أخرى جمعت معاً في شكل مختلف من الاحتواء والإبعاد. وحتى المنازل البعيدة التي تكون البنية المركبة والشائقة للطرق الرئيسية والتقاطعات يمكن أن تصبح جزءاً من مورفولوجيا الزقاق في مناسبات معينة؛ من ذلك عندما يدعو عصيان إلى تجزئة الحيز بإغلاق الأبواب (المداخل) المشتركة أو سد الممار.

وفي بعض الأحيان، عندما لا تُزال الأنقاض الناجمة عن مبنى انهار، ينشأ تأثير سلبي في تخطيط الطرق. وقد ينشأ تأثير مماثل بفعل ظاهرة اجتماعية معينة مثل الانتماء إلى أصل مشترك من منطقة جغرافية محددة، أو التعلق الشديد بمواعظ رجل مبارك، أو المنافسة السياسية بين حارات مختلفة - وخصوصاً في المدن التي ليس فيها محاكم أو التي تولي النظام المدني اهتماماً أكبر من الاهتمام بصون السلامة والصحة الحضريين^(٣٠).

(٣٠) قارن ب: Gustav E. von Grunebaum, *Medieval Islam* (London; Chicago, IL: University of Chicago Press, 1946, 1953 and 1971).

«لذلك، يجب ألا يُدهش المرء إذا لم يطور سكان مدينة إسلامية أي جهاز إداري... في ظل إدارة الدولة استمر وجود تنظيم أولي للحيز؛ وكان هذا مجرد استمرار للعادات القبلية، والرغبة في أن يتولى رئيس القبيلة أمور التوجيه. وواصل السكان تقليد النقابات القديم، فنظموا أنفسهم في عدد كبير من المجموعات التي استطاع كل واحد أن يجد له مكاناً... وفي عام ١٩٢٣ كان لا يزال هناك ١٦٤ نقابة في فاس و١١٥ نقابة في مراكش و١٠٦ نقابات في مكناس».

لذلك يبدو أن في صميم صورة الحيز الحضري ضرباً من الالتباس، أو من الجمع بين نقيضين؛ فهو «كل» موحد و«مجال» للتمييز، تمييز قائم على النسب والأصول (أي التحدر من ثقافة بدوية أو ثقافة حضرية، مثلاً) والتفسير الاجتماعي - الديني لحقائق المواطنة والاعترا ب^(٣١). لذلك فإن كل مواطن غريب أحياناً (بالنسبة إلى مسكن جماعات أخرى أو إلى طريقها غير النافذ، أو المراكز التجارية للغرباء)، وهو في أحيان أخرى ضيف مرحب به أو هو العضو الوداع في الجماعة أو الجماعات التي ينتمي إليها.

وربما بسبب هذا الالتباس، أو التناقض، بالتحديد، يعمل الحيز الحضري كـ «عامل تحول». وما يبدو أن له علاقة أبعد هو أن منظومات اجتماعية مختلفة تصورت وحققت على مر الزمن نظاماً حيزياً لم يجر التخلي عنه قط، فترك علامة لا تمحى على كل جزء من الحيز في المدينة العربية - الإسلامية، أياً كانت أصولها.

الوجهاء والزبائن، والتجار والحرفيون، والأغنياء والفقراء، والمؤسسات الدينية، بل المواطنون أيضاً ومن لم يصبحوا مواطنين بعد، والسلطات الدينية والقانونية، ومركز المدينة، وضواحي المهاجرين المتهين للمواطنة (تماماً كما في بعض المدن الأوروبية، وخصوصاً المدن الإيطالية، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر)، كل هؤلاء يكونون هذا العالم المتنوع والمنقسم غالباً، لكن المتماسك بقوة، الذي يتخذ شكلاً مادياً في بناء الحيز الحضري. هذا «التمييز»، هذه الصفة المميزة للمعنى المكوّن في وعاء الانصهار الحضري، تستثمر مساحات جغرافية كاملة، من المراكز المحصنة والمحمية إلى القصبات والمناطق التجارية والعسكرية: أسواق أسبوعية (سوق الخميس، سوق الأربعاء... إلخ)، والشوارع المراقبة والأرباض وأحواض بناء السفن والموانئ والممار المائية وطرق القراصنة والطرق التقليدية عبر الصحاري والبحار وخانات القوافل والطرق الآمنة بفعل تحالف مع القبائل البدوية. هذه هي الشبكة غير المحدودة من حيث الإمكانية التي ألفتها هذه الحضارة، مادياً وثقافياً، على الجغرافيا المتحولة للإثبات الخاص بها.

(٣١) حتى في الحرف والتجارة؛ يترجم فون غرونباوم جزءاً من إخوان الصفا: «... الحرف مميّزة من زاوية المكانة حين يدرسها المرء تحت الفئات الخمس التالية: (١) المواد المستخّمة: هنا الصانغ والمطار في أعلى السلم؛ (٢) المنتج المتّئم: هنا يأتي صانعو أدوات معقدة كالإسطرلاب في المقدمة؛ (٣) الطلب الذي يجعل عملهم ضرورياً: هنا يُفضّل الحائكون والعمال الزراعيون والبنّاءون؛ (٤) منفعة عامة: هنا يُعتبر الذين يديرون الحمامات ويجمعون القمامة عناصر مهمة لصحة المدينة؛ (٥) هؤلاء الذين يؤخذون كما هم، من حيث مهارتهم الخاصة، من غير اعتبار لمنفعتهم... إلخ: السحرة والرسامون والموسيقيون مزكّون بمواهبهم».

الفصل الثالث عشر

المدينة المملوكية^(*)

دوريس بهرتز - أبو سيف^(**)

أولاً: من الفسطاط إلى القاهرة

كانت القاهرة في ظل الحكم المملوكي (١٢٥٠ - ١٥١٧) أهم مدينة إسلامية وأكبرها في العالم. كان تحولها من العاصمة الأيوبية الثنائية الفسطاط - القاهرة إلى العاصمة المملوكية تحولاً هائلاً صاغته الرعاية المكثفة للارستقراطية الحاكمة. بعدما ضمن المماليك شرعية حكمهم بعيد الانتصارات التي حققوها على الصليبيين والمغول، بدأوا باتباع سياسة دينية وهندسية ذات بعدين غير متوازنين. فقد تلازمت مساهمتهم في إنشاء المساجد والمدارس والخانقاهات، كما المؤسسات الخيرية، مع توسع مديني وازدهار هندستهم المعمارية في مدن المملكة. هكذا أمكن القاهرة، العاصمة المملوكية مع الظاهر بيبرس، ومركز الدولة العباسية التي باتت شكلية، أن تتفوق على بغداد، العاصمة السابقة للعالم الإسلامي.

شغلت القاهرة المملوكية مساحة ضخمة امتدت من ضريح الإمام الشافعي في الجنوب إلى قبة يشبك في العباسية اليوم في الشمال، ومن النيل وصولاً إلى الصحراء

(*) هذا الفصل مشابه للفصل الثامن من كتاب أبو سيف، انظر: Doris Behrens-Abouseif, *Cairo of the Mamluks: A History of the Architecture and Its Culture* (London; New York: I. B. Tauris, 2007).

(**) أستاذ الفن الإسلامي وعلم الآثار في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، جامعة لندن.

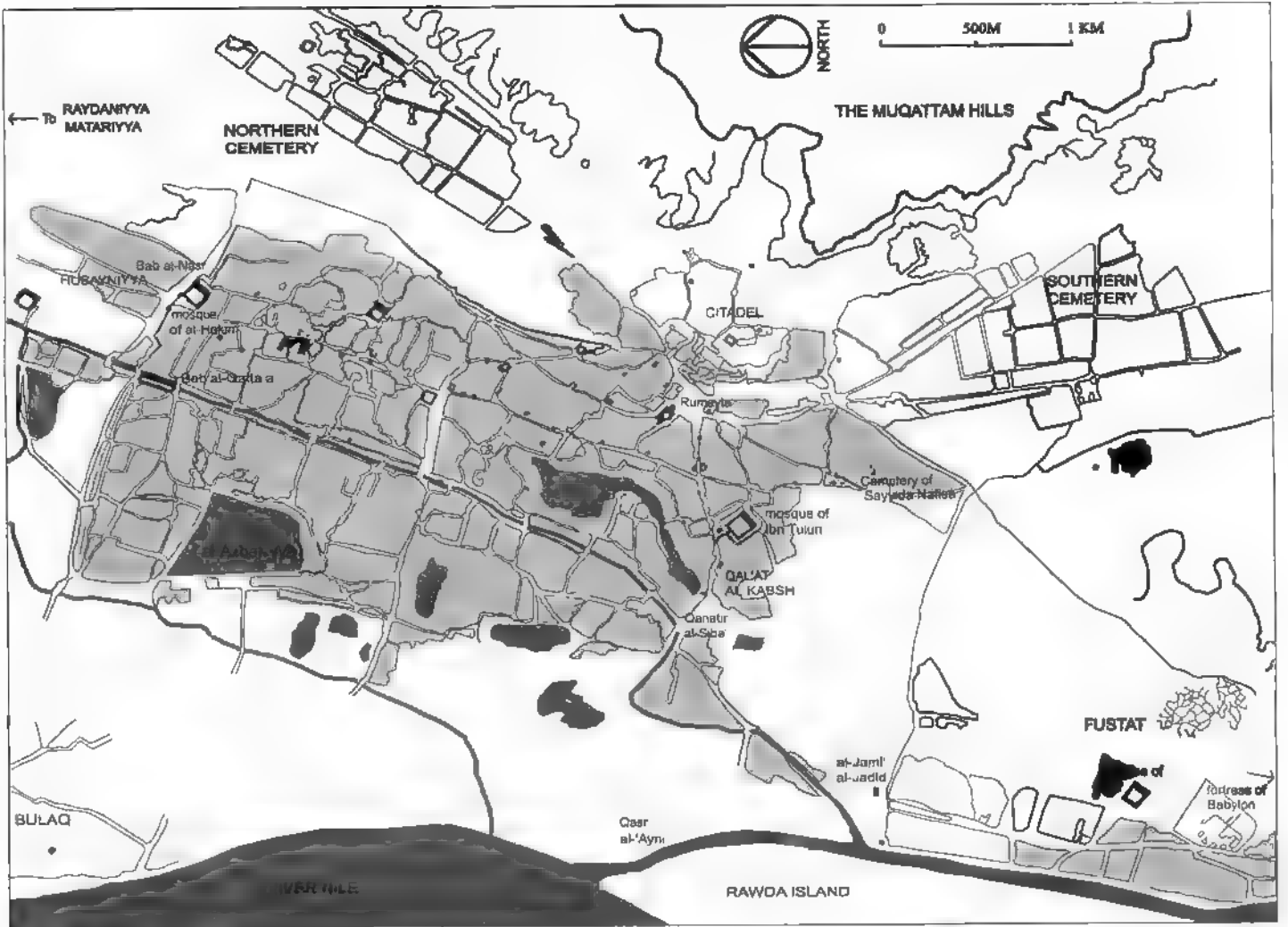
في الشرق. إلا أن هذه المنطقة الكبيرة لم تكن تجمعاً متجانساً. وهكذا، حين تسلم المماليك السلطة عام ١٢٥٠، كانت القاهرة تجمعاً يقوم على قطبي جذب ثنائيين، وهما العاصمة القديمة الفسطاط، التي أسسها، مع ضواحيها، العرب الفاتحون؛ والقاهرة المدينة الفاطمية التي تأسست في القرن العاشر ثم أخذت تدريجاً تفقد طابعها البلاطي الحصري. كان صلاح الدين قد خطط لتوحيد القاهرة في الشمال مع الفسطاط في الجنوب، بجعلهما معاً خلف الأسوار نفسها المتصلة بقلعته، وبمقر الإمارة المستقبلية على هضبة المقطم. لكن بدلاً من التوحيد ذاك الذي أراد صلاح الدين، نمت القاهرة بسرعة كعاصمة مملوكية وكتجمع سكاني ضخم، ممتدة في كل الاتجاهات ومن دون أن تندمج كلياً بالفسطاط.

يشير أول المعالم المملوكية في القاهرة أن الأفضلية الواضحة التي أعطيت للقاهرة على الفسطاط كانت بحاجة إلى بعض الوقت لتصير أمراً واقعاً. ومع ذلك، فمنذ بدء عهد السلاطين جرى توسيع مباني المقار الملكية في القلعة. كان «الضريح» أول المعالم المملوكية وكان مُهدىً إلى السلطان الأيوبي الأخير الصالح نجم الدين. وإلى جانب الضريح أنشئت مدرسة، وكلاهما شيدتهما في العام نفسه، ١٢٥٠، شجرة الدر أرملة الصالح والسلطانة الأولى في العهد المملوكي لثلاثة أشهر. شيدت المدرسة في ضريح السيدة نفيسة إلى جنوب القلعة، وبالقرب من معابد فاطمية، وبخاصة ضريح السيدة نفيسة والسيدة رقية^(١).

بنت شجرة الدر بالقرب من ضريحها ومدرستها، حماماً وقصراً مع حدائقه. لم يدفن حاكم في تلك المقبرة من قبل، ولعل اختيار شجرة الدر هذا الموقع مرده مجاورته القصر الملكي في القلعة، وضريحي سيدتين صالحتين. أما ضريح زوجها فكان بالقرب من مدرسته في شارع «بين القصرين» في القاهرة. عزز وفاء المماليك الأوائل للصالح، السلطان الأيوبي الأخير، المتجسّد في هذا المبنى التذكاري، من أهمية «بين القصرين» بتقاليد الملكية والدينية الموروثة. وكما في الماضي، استمر هذا الموقع مع المماليك قلباً للعاصمة المصرية. يعود اسم «بين القصرين» لوقوعه بين المركز البلاطي الفاطمي السابق والقصور المملوكية التي شيدت بعد ذلك في المنطقة (انظر الرسم الرقم (١٣ - ١)).

(١) أبو العباس أحمد بن علي المقرئ، الخطط المقرئية المسماة بالمواظظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وإقليمها (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م)، ج ٤، ص ٣٤٣، Doris Behrens-Abouseif, «The Lost Minaret of Shajar al-Durr at her Complex in the Cemetery of Sayyida Nafisa», *Mitteilungen des Deutschen Archäologischen Instituts Abteilung Kairo*, vol. 39 (1983), pp. 1-16.

الرسم الرقم (١٣ - ١)
خريطة القاهرة في العصر الوسيط



كان المعز أيك، الزوج الثاني لشجرة الدر وخليفتها في الحكم (١٢٥٠ - ١٢٥٧)، قد فضل أن يبني مدرسته (١٢٥٦ - ١٢٥٧) في منطقة جنوب الفسطاط، على شاطئ النيل، مقابل «النيلوميتر» على جزيرة الروضة^(٢). وشيّد إلى جانب الموقع حماماً مزدوجاً، ومجمعاً سكنياً (الربيع)، ومبنى تجارياً ضخماً، وكانت هناك أيضاً أرض فناء. وكانت تلك آخر مباني مملوكية ملكية يجري بناؤها في العاصمة لجهة الجنوب البعيدة تلك. اختار السلطان قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠) موقعاً مختلفاً، إذ بنى مدرسته بجوار القلعة، في حي حدرة البقر، حيث شيّد السلطان حسن مسجده في ما بعد^(٣).

استمرت الفسطاط في أثناء حكم الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) تحظى بالرعاية الدينية ورعاية المعالم الأثرية؛ فاهتمام السلطان بتطوير جزيرة الروضة من خلال ترميم قلعة الصالح وقصره وإضافة مسجد، ثم بناؤه مسجداً كبيراً جديداً عام ١٢٧٣ بين الفسطاط والقاهرة، عند منشأة (منشأة) المهراني، كان دليلاً على استمرار العناية بالعاصمة القديمة^(٤). على أي حال، كانت مدرسة بيبرس (١٢٦٢ - ١٢٦٣) في «بين القصرين»، بجوار مدرسة سيده الصالح نجم الدين، ومسجده في الحسنية في طرف القاهرة الشمالي، يشير إلى انتقال الرعاية الملكية باتجاه الشمال^(٥). وبالرغم من أن بيبرس لم يكن يملك كما يبدو خرائط تطوير مديني، فإن قراره زيادة عدد خطب الجمعة في العاصمة، ناسخاً التقليد الشافعي القديم للأيوبيين بجعل خطبة الجمعة في مسجد واحد لا غير في كل تجمع سكني، أدى إلى لامركزية وظيفية إضافية في المدينة.

وفي الوقت الذي أسس السلطان منشأتين دينيتين رئيسيتين في القاهرة، فإن بعض عماله البارزين، مثل أسرة بني حنا المؤلفة من وزراء وأرستقراطية قوية وثرية مركزها في الفسطاط، أضافوا لمستهم الخاصة على العاصمة القديمة بتأسيسهم عدداً من

(٢) أبو العباس أحمد بن علي المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٣٠٢؛ صارم الدين إبراهيم بن محمد بن دقماق، كتاب الانتصار بواسطة عقد الأمصار (بولاقي: المطبعة الأميرية الكبرى، ١٣١٤هـ/١٨٩٨م)، ج ٤، ص ٩٢، وأبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٣ - ١٩٧١)، ج ٧، ص ١٤.

(٣) أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى، ج ٦ (فيسبادن: جمعية المستشرقين الألمان؛ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦١ - ١٩٧٥)، ج ١، ق ١، ص ٣٠٨.

(٤) ابن دقماق، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٩، والمقرئ، الخطط المغريزية المسجلة بالمواضع والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ٢٩٨ وما بعدها.

(٥) المقرئ، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٩ و٣٧٨، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥، ص ١٦١ وما بعدها.

المباني الدينية والتجارية فيها^(٦). كذلك أنشأ الأمير معز الدين أيلك الأفرم (ت ١٢٩٦)، الذي كان بدأ إمارته أيام الصالح، مشروعاً تطويراً مدينياً مهماً في الضواحي الجنوبية للفسطاط؛ وعبر استعماله الأرض التي أضيفت من تحويل ضفة النيل، الذي بعث بطريق جديد على طول النهر، حوّل معز الدين جزءاً من المستنقع المسمى «البركة الشعبية» إلى حديقة ذات جدران مع سد يحميها من فيضان النيل. وبنى أيضاً «رباطاً» ومسجداً^(٧).

رستخت مباني السلطان المنصور قلاوون (ب ١٢٧٩ - ١٢٨٠) السيادة غير المتنازع عليها للقاهرة. تضمن مجمعه مدرسة، وضريحاً، ومستشفى كبيراً، شيد عام ١٢٨٤ - ١٢٨٥ في «بين القصرين» مقابل مدرستي الصالح نجم الدين أيوب والظاهر بيبرس. مع هذه المباني الملكية الثلاثة، المشيدة بعضها في جوار بعض والمحاطة بمبانٍ وتسهيلات تجارية، غدا قلب القاهرة الفاطمية المركز الثقافي والتجاري للعاصمة المملوكية. فقد ظل مستشفى قلاوون المركز الطبي الرئيسي في مصر ما قبل الحداثة وحتى مطلع القرن التاسع عشر. ولتأمين مباني رئيسية مناسبة للمجمع، أزال قلاوون قلعة الصالح وقصره من على جزيرة الروضة، بعدما كان بيبرس قد رممها، وحرّم بذلك الجزيرة وشاطئ الفسطاط المقابل من طابعهما السكني الأرستقراطي^(٨).

أدى تحويل مجرى النيل غرباً في القرن الرابع عشر إلى إضافة أراضٍ جديدة لمنطقة العاصمة، وبعث بإمكانات مدينية جديدة في الضاحيتين الشمالية والغربية للقاهرة. فبخلاف الفسطاط، التي شيدت على شاطئ النيل، شيدت القاهرة بعيداً نحو الشرق، على ما يسمى القناة أو الخليج، التي تربط النيل بالضاحيتين الشمالية والشرقية؛ وحيث مصبها يقابل رأس جزيرة الروضة. تمددت القاهرة بعيداً خارج أسوارها الفاطمية، التي سرعان ما اختفت خلف المباني.

لم يبقَ من الفسطاط الكبرى غير حي حول جامع ابن طولون، عند الطرف الشمالي من العاصمة القديمة، وقد تكامل مع القاهرة من خلال شريان الصليبية الذي يصل القلعة بالخليج. وإلى الجنوب من شارع الصليبية توجد هوة مدينية تفصل القاهرة عن الفسطاط.

(٦) ابن دقماق، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٠١، والمقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٨ وما بعدها، ص ٣٧٠، ٤٢٧ و ٤٢٩.

(٧) ابن دقماق، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٧٨، ٥٥ و ١٠١، والمقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٨ وما بعدها، ١٦٥ و ٢٩٨.

(٨) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨٣ وما بعدها.

كانت الملاحة في النيل مهمة باستمرار للاقتصاد المصري؛ فاستمرت الفسطاط تستقبل المراكب القادمة من مصر العليا والمحملة بمواد البناء والسلع الواردة من تجار البحر الأحمر، التي كانت تمر في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بقوص في طريقها إلى الإسكندرية أو دمياط على شاطئ المتوسط. كانت الفسطاط المملوكية منطقة صناعية معروفة بطوبها الطيني، وبمعاصر الزيت والسكر، وبحوض السفن. ويظهر أنها كانت تمتلك مهناً مترفة أيضاً، مثل النسيج وصناعة السجاد العائدتين إلى القرن الرابع عشر^(٩). ومن بين «المدارس» التسع المشيدة في الفسطاط في خلال الحكم المملوكي، وحدها منشأة أيلك كانت ملكية^(١٠). أما المنشآت الأخرى فقد شيدها أمراء وموظفون وتجار. ومسجد عمرو بن العاص، الذي يمثل أول منشأة إسلامية على الأرض المصرية، أعيد ترميمه تكراراً. وتؤكد ندرة المنشآت الملكية، وغياب الفسطاط عن الاحتفالات الملكية، المصير الهامشي الذي آلت إليه المدينة تدريجاً.

أما المدافن الجنوبية، التي امتدت لتصل إلى الفسطاط، فقد جرى المحافظة عليها نظراً إلى أهميتها الدينية، إذ تقوم فيها قبور ومقامات لأولياء صالحين تعود لبداية الحقبة الإسلامية في مصر. مع توسع القاهرة، ظهرت مدافن جديدة مع مبانٍ دينية أميرية في الصحراء شمال شرق المدينة وإلى جنوب شرق القلعة.

وسرعان ما تلى منشآت بيبرس وقلاوون في القاهرة مبان ملكية أخرى: مدارس الناصر محمد (١٢٩٥ - ١٣٠٤)، وخانقاه بيبرس الجاشنكير (١٣٠٦ - ١٣١٠)، والمجمعات المتعددة الوظائف للظاهر بريقوق (١٣٨٤ - ١٣٨٦)، والأشرف برسباي (١٤٢٥)، والشيخ المؤيد (١٤١٥ - ١٤٢٠)، وقانصوه الغوري (١٥٠٤ - ١٥٠٥).

ثانياً: الرعاية المدنية من السلطان الناصر محمد

يصف المقرئزي، بكثير من الحنين، فترة حكم الناصر محمد بالعهد الذهبي في تاريخ القاهرة^(١١). تحقق تطور القاهرة في خلال هذه الفترة مستفيداً من فترة حكم

(٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٢.

(١٠) يستثنى من ذلك مدارس متجار الجولي وسارجيتيمش على شارع الصلية. انظر: Sylvie Denoix, *Décrire le Caire Fustât-Miṣr d'après Ibn Duqmāq et Maqrīzī* (Cairo: Institut français d'archéologie orientale (IFAO), 1992), p. 95 ff.

André Raymond, *Cairo* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2000), chap. 3, and (١١) Howayda al-Harithy, «The Patronage of al-Nasir Muhammad Ibn Qalawun,» *Mamluk Studies Review*, vol. 4 (2000), pp. 219-244.

السلطان الطويلة بشكل استثنائي (١٢٩٣ - ١٢٩٤، ١٢٩٩ - ١٣٠٩، ١٣١٠ - ١٣٤١)، التي كانت فترة استقرار وسلام، ومؤاتية للتوسع الاقتصادي. والأكثر أهمية أن الناصر محمد كان مدفوعاً برؤية مدنية، أمكنه بواسطتها أن يتخيل ويخطط للعاصمة من خلال منظار أوسع من مجرد معلم هنا أو هناك. كانت المشاريع الهندسية المدنية عاملاً حاسماً في برنامجه للبناء. ومع الجسور العديدة التي أقيمت في عهد الناصر محمد، لم تعد القناة أو الخليج حدّ القاهرة الغربي، إذ فتحت الضفة الغربية لتدمج بالمدينة الرئيسية. كانت القناة والبرك التي تتغذى منها في الضواحي الغربية والشمالية والجنوبية يغطيها فيضان النيل في خلال الصيف، وبعد أن يتراجع الفيضان تستمر الخضرة بساطاً ممتداً باقي أشهر السنة. جذب المشهد الأحياء السكنية في الوقت الذي وفر أيضاً أمكنة للهو وتمضية الوقت. ووفرت القناة للقاهرة أيضاً مياه الشرب.

دفع الناصر بمشاريعه المدنية إلى الأمام على الضفة الغربية لـ «الخليج» بحفره عام ١٣٢٥ قناة جديدة، بموازية القناة الأساسية، متصلة بشمال مسجد بيبرس. غدت القناة الجديدة تلك القديمة وربطت القاهرة بقرية سرياقوس، على بعد نحو ٣٢ كم شمال القاهرة، حيث بنى الناصر محمد خانقاهاً مع ضريح وميداناً كبيراً مع مبانٍ سكنية^(١٢). حفر الناصر بين القناتين «البركة الناصرية»، التي غدت جاذبة لمنازل أرستقراطية جديدة. لم يكن إنشاء مجمع سرياقوس متصلاً مباشرة بنمو القاهرة المدني؛ كانت إقامة المجمع مرتبطة بأرض الصيد لدى السلطان، والخانقاه كان تحقيقاً لنذر منه بعدما شفي من مرض في الوقت الذي كان بجواره. وفي كل الأحوال، ولأن سرياقوس هي على طريق القوافل القادمة من سورية أو الحجاز، أو أبعد من ذلك، كانت إنشاءات سرياقوس المعمارية تمنح انطباعاً رائعاً للزائر الداخل إلى القاهرة.

نسّق السلطان مخططاته للعاصمة الضخمة مع أمرائه حاثاً إياهم على البناء، مشجعاً لهم من خلال أفضليات قانونية تتعلق بالأرض كما بالدعم المادي. وهكذا حوّل «بركة الفيل» إلى منطقة سكنية أرستقراطية احتوت على جوامع الأمراء الماس (١٣٢٩ - ١٣٣٠)، وقوصون (١٣٢٩ - ١٣٣٠)، وبشتاك (١٣٣٦) (١٣). كذلك، أعاد السلطان لاجين إحياء المنطقة المحيطة بمسجد ابن طولون، القاطع القديم، فأصبحت

(١٢) John Alden Williams, «The Khanqah of Siryaqus: A Mamluk Royal Religious Foundation,» in: A. H. Green, ed., *In Quest of an Islamic Humanism: Arabic and Islamic Studies in Memory of Mohamed al-Nowaihi* (Cairo: American University in Cairo Press, 1984).

(١٣) Georges Salmons, «Etudes sur la topographie du Caire: La Kal'at al-Kabeh et la Birkat al-Fil,» *Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale*, vol. 7 (1902).

تابعةً للفسطاط الكبرى، بعد فترة إهمال طويلة، وذلك من خلال إعادة إعمارها هذا المسجد عام ١٢٩٦ وإقامته ميداناً كبيراً بجواره. وبنى الأمير سالار قصراً عند «قلعة الكباش» ومقاماً (١٣٠٣ - ١٣٠٤) قرب شارع الصليبية.

تظهرت رؤية الناصر المدنية أكثر من خلال تجديداته في حي حدرة البقر أسفل القلعة، شمال غرب ميدان الرملة، حيث أنشأ السلطان حسن مدرسته. فقد صمم قصراً مجتمعاً مع فكرة الإطلال على مشهد معماري رائع من قصره إلى القلعة. وكان يتكون من مجموعة من قصرين للأميرين الصهرين المفضلين لديه، يلغا اليحياوي والطبغا المارديني، وأربعة «إسطبلات» ضخمة للأمراء قوصون وطاشتمر وأيدغمش^(١٤). وكانت تلك المباني على الأرجح قصوراً مهمة مثل ذاك الذي يسمى «إسطبل قوصون»، وآثاره المتبقية لا تزال تشير إلى ضخامته^(١٥)، وقصر بكتيمور المسمى «إسطبل بكتيمور»، الذي شغل موقع ميدان السلطان لاجين.

تضمنت الطفرة العمرانية في عهد الناصر بناء المدافن. وما دامت القاهرة محصورة بين النيل والصحراء، كان من الطبيعي أن يكون مكان المدافن على جانب الصحراء الشرقية بدل ضفاف النيل الخضراء. وقد أضفت المنشآت الدينية الموصولة بأضرحة الأرستقراطية المملوكية طابعاً مديناً على المدافن. يكتب المقريري في المقبرة الواقعة جنوب القلعة، فيقول: «ثم استجدّ أمراء دولة الناصر محمد بن قلاوون في هذه الجهة الترب، فبنى الأمير يلغا التركماني، والأمير طقتمر الدمشقي، والأمير قوصون وغيرهم من الأمراء، وتبعهم الجند وسائر الناس، فبنوا الترب والخوانك والأسواق والطواحين والحمامات، حتى صارت العمارة من بركة الحبش إلى باب القرافة، ومن حدّ مساكن مصر إلى الجبل، وانقسمت الطرق في القرافة وتعددت بها الشوارع، ورغب كثير من الناس في سكناها لعظم القصور التي أنشأت بها، وسميت بالترب، ولكثرة تعاهد أصحاب الترب لها وتواتر صدقاتهم ومبراتهم لأهل القرافة»^(١٦).

وقد تحولت القلعة التي بناها صلاح الدين وأكملها خلفاؤه، لتكون مركز السلطة الإدارية والسياسية، في ظل سلاطين المماليك، إلى قصر - في - المدينة. توسعت

(١٤) المقريري، الخطط المقريرية المسماة بالمواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وإقليمها، ج ٢، ص ٧١ - ٧٣.

(١٥) Jean-Claude Garcin, «Habitat médiéval et histoire urbaine à Fustat et au Caire», dans: Jean-Claude Garcin [et al.], eds., *Palais et maisons du Caire: vol. 1, Époque mamelouke: XIII^{ème}-XV^{ème} siècles* (Paris: Editions du Centre national de la recherche scientifique, 1982), pp. 51- 59.

(١٦) المقريري، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٤٤.

الإضافات المملوكية على القلعة الأيوبية إلى القسم الجنوبي مع مجمع قصر غدا مشرفاً على مشهد يحتوي في آن معاً القاهرة والفسطاط مع المدافن الواقعة أبعد منها إلى الخلف.

كانت القلعة، وهي الأضخم من نوعها في القرون الوسطى، توصف باعتبارها مدينة في حد ذاتها بقصورها ومكاتبها وثكناتها ومساكنها ومتاجرها. استبدل الناصر محمد القصور القديمة والمسجد القديم في القلعة بمبانٍ جديدة؛ وغدا جامعاً الجديد (١٣١٨ - ١٣٣٥)، مقابل القصور والصروح العمرانية، والإيوان الكبير (١٣١٠ - ١٣١١) والقصر الممتد والقصر الأبلق (١٣١٣)، ولعدة قرون، من المعالم البارزة للمقر الملكي^(١٧).

ومن أجل بناء «حوش»، يجمع مساكن خاصة تطل على مرعى أخضر واسع مع قطعان أغنام، استصلح الناصر قطعة أرض من هضبة المقطم وأقام عليها إنشاءات أخرى. لكن إضافة إلى القنوات التي أقامها، واجه مشروعه لجر إمدادات المياه من النيل إلى القلعة، من خلال قناة وتمديدات مائية، عدة صعوبات فتم الاستغناء عنه (انظر الرسم الرقم (١٣ - ٢)).

الرسم الرقم (١٣ - ٢) مشهد القاهرة والقلعة



المصدر: مقطع من لوي فرنسوا كاساس، متحف وولفراف - ريشارتز، كاساس، مصر ٨.

(١٧) حول القلعة في الحقبة المملوكية، انظر: Doris Behrens-Abouseif, «The Citadel of Cairo: Stage for Mamhuk Ceremonial,» *Annales Islamologiques*, vol. 24 (1988), pp. 25-79, and Nasser O. Rabbat, *The Citadel of Cairo: A New Interpretation of Royal Mamluk Architecture*, Islamic History and Civilization, Studies and Texts; v. 14 (Leiden; New York: E.J. Brill, 1995).

كان للقلعة تأثير حيوي في تطور الأحياء الجنوبية للقاهرة، فجذبت إلى جوارها أسواق الخيل والسلاح، من أجل إشباع حاجات الأرستقراطية العسكرية كما الجيش. انتشرت المنشآت الدينية الأميرية على جوانب الشوارع التي تصل القلعة بالبوابة الجنوبية للقاهرة، باب زويلة.

شيّدت في خلال فترة حكم الناصر ثمانية مساجد في الحسينية، ستة في الضواحي الجنوبية الغربية والشمالية الغربية، بما فيها بولاق، وستة في القطاع الجنوبي الغربي، وعشرة داخل القاهرة، وستة عشر بين باب زويلة وابن طولون، وأربعة في المدافن الجنوبية، وثلاثة في منطقة الفسطاط - الروضة^(١٨).

جرى التخطيط كي تتحول المساجد الكبرى في الضواحي إلى نواة لأحياء جديدة، أو لتندمج في مناطق تشهد تطوراً مديناً. كان الأمراء في العادة يبنون مساجد بجوار مساكنهم، باعثن بذلك الفرصة لقيام وحدات مدينية تحتوي على مبانٍ تجارية. فحين بنى الأمير حسين مسجده على شاطئ الخليج، بنى أيضاً جسراً بجواره، بل اتخذ قراراً مشيراً بفتح بوابة في سور المدينة الغربي، بهدف جذب «المصلين»^(١٩).

وفي الوقت الذي أظهرت التوسعات الشمالية والجنوبية المباشرة القدرة على الديمومة والانسجام مع الحاجات الطبيعية للمدينة، لم يصمد التوسع غرباً، خلا في بولاق والشارع المؤدي إليها، وذلك لأسباب متصلة بالأزمة الحادة التي نشأت أواخر القرن الرابع عشر^(٢٠). وقد هُجرت المنطقة المحيطة بمسجد الناصر الأكبر، المشيد عام ١٣١٢ على شاطئ النيل مقابل جزيرة الروضة، قبل زمن المقريري^(٢١).

أما مسجد السلطان حسن، المشيد بين عامي ١٣٥٦ و ١٣٦٢، وفي الوقت الذي هو يضيفي بعداً جديداً للعمارة الدينية المملوكية، فاندمج بنجاح من خلال معايير المعمارية مع القلعة وساحة الرُميلة المواجهة له. وقد حقق تصميمه والمواصفات

Raymond, *Cairo*, p. 136.

(١٨)

(١٩) المقريري، الخطط المقريرية المسماة بالمواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وإقليمها، ج ٢، ص ٣٠٧.

(٢٠) David Ayalon: «Muslim City and the Mamluk Military Aristocracy», *Proceedings of the Israel Academy of Sciences and Humanities*, vol. 2 (1968), pp. 311-329 and «The Expansion and Decline of Cairo under the Mamluks», dans: Raoul Curjel et Rika Gyselen, eds., *Itinéraires d'Orient: Hommages à Claude Cahen*, Res Orientales; 6 (Paris: Groupe d'études pour la civilisation du Moyent-Orient, 1994).

(٢١) المقريري، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٤.

التي انطوى عليها، وفي موقع القصر نفسه الذي بناه والده الناصر محمد لخلق إطلالة معمارية يتمتع بمنظرها من القلعة، التوقعات المطلوبة منه. كان جمعه بين وظائف الضريح والمسجد الجامع والمدرسة عملاً إبداعياً غداً في ما بعد قاعدة لكل المباني الملكية اللاحقة.

كان مسجد السلطان حسن الذروة في فترة اتسمت بالنشاط العمراني، واستمرت بعيد وفاة الناصر عام ١٣٤١، بالرغم من الوباء العظيم أو الموت الأسود الذي أصاب القاهرة عام ١٣٤٨. ويقدر أن المدينة قد خسرت خلال «الموت الأسود» ما بين الثلث والخمسين من ساكنيها^(٢٢).

وقد تكون حماسة المماليك العمرانية استمرت لأن مثل هذه الكوارث لم تنعكس سلباً على خزانة الدولة، التي كانت الوارث الأوحده، وأمكنها بالتالي تأمين التمويل المطلوب لأبنية جديدة.

وبحسب معطيات تعود إلى الخمسينيات^(٢٣)، فقد ورثت القاهرة من العقود الثلاثة التي تلت موت الناصر عدداً مهماً من المعالم الدينية تنسب إلى رعاية كل من: أصلم البهائي (١٣٤٤ - ١٣٤٥)، وأيدمر البهلوان (١٣٤٦)، وأقصنقر (١٣٤٦ - ١٣٤٧)، وقطبغا الذهبي (١٣٤٧)، وأرغون الإسماعيلي (١٣٤٧)، وطوغاي (١٣٤٨)، ومنجق اليوسفي (١٣٤٩)، والخروي (١٣٤٩)، وشيخو (مسجد) (١٣٤٩) وخانقاه (١٣٤٩)، وصرغتمش (١٣٥٦)، ونظام الدين (١٣٥٦)، والسلطان حسن (١٣٥٦ - ١٣٦٢)، وبدر الدين العجمي (١٣٥٧)، والجمالي يوسف (١٣٥٧)، وتتر الحجازية (١٣٦٠)، وبشير آغا الجمدار (١٣٦٠)، ومثقال (١٣٦١ - ١٣٦٢)، وتاييوغا (١٣٦٦)، ووالدة السلطان شعبان (١٣٦٨ - ١٣٦٩)، وأسنبغا (١٣٧٠)، ولمجهول (١٣٧٠)، وألجاي اليوسفي (١٣٧٣)، وابن الغنّام (١٣٧٣)، والبقاري (١٣٧٤).

لا تتضمن هذه اللائحة المعالم التي زالت في وقت أبكر، من مثل المدرسة المشيئة من السلطان شعبان عام ١٣٧٥ قرب القلعة ودمرها خليفته السلطان برقوق عام ١٤١١.

Michael W. Dols, *The Black Death in the Middle East* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1977), p. 169 ff.

(٢٣) استندت هذه اللائحة على: K. A. C. Creswell, *A Brief Chronology of the Muhammadan Monuments of Egypt to A. D. 1517*, bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale; t. 16. (Le Caire: Imprimerie de l'Institut français d'archéologie orientale, 1919), and *Index to Mohammedan Monuments in Cairo* (Cairo: Maslahat al-Misāhah, 1951).

ثالثاً: الحقبة الشركسية

قاد مديح المقريري وحنينه إلى فترة حكم الناصر وتصوره المتشائم لزمانه، أي للعقدين الأولين من القرن الخامس عشر، المؤرخين إلى الحكم على الحقبة المملوكية الشركسية بالأفول. كان المقريري ينظر إلى مدينة ما زالت تعاني غزو تيمورلنك لسورية عام ١٤٠٠ التي أصابت الاقتصاد المملوكي في الصميم، وكوارث طبيعية ترافقت مع اضطراب سياسي. هكذا، هُجر أو خُرب العديد من أحياء القاهرة وأسواقها.

ومع ذلك، لم تفتقر حماسة المؤسسة الحاكمة للبناء، ولا تراجعت نوعية إنشاءاتها العمرانية بالرغم من الأزمات الاقتصادية. ربما لا تكون فترات حكم السلطان برقوق (ح ١٣٨٢ - ١٣٩٠) وخلفائه في القرن الخامس عشر: الناصر فرج (ح ١٤٠٥ - ١٤١٢)، والشيخ المؤيد (ح ١٤١٢ - ١٤٢١)، والأشرف برسباي (ح ١٤٢٢ - ١٤٣٨)، والظاهر جقمق (ح ١٤٣٨ - ١٤٥٣)، والأشرف إينال (ح ١٤٥٣ - ١٤٦١)، والظاهر خوشقدم (ح ١٤٦١ - ١٤٦٧)، والأشرف قايتباي (ح ١٤٦٨ - ١٤٩٦)، والعاذل طومان باي (ح ١٥٠١)، وقانصوه الغوري (ح ١٥٠١ - ١٥١٦)، كلها فترات ازدهار، لكنهم أضافوا معالم دينية إلى العاصمة المملوكية، أكثرها بقي سليماً، ويشهد للحماسة والإبداع اللذين طبعاً مهنة البناء.

خلال القرن الخامس عشر، ومع تزايد أهمية البحر الأبيض المتوسط التجارية، تعاظم مركز بولاق كمرفأ؛ وغداً مركزاً تجارياً وصناعياً مع عدد من المساجد والقصور^(٢٤). ويسجل ابن تغري بردي أنشطة مدنية كثيفة ملأت المنطقة الصحراوية شمال شرق القاهرة وبولاق قبل بدء حكم قايتباي^(٢٥). فقد شُيد في العاصمة بين عامي ١٤١٢ و ١٤١٦ ما لا يقل عن ثمانين مسجداً^(٢٦). كذلك تشير المباني البعيدة إلى فترة بناء كثيف بجوار القلعة أيضاً.

بدأت المدافن الشمالية، التي كانت مقتصرة من قبل على أضرحة أميرية، بجذب إنشاءات ملكية أخرى؛ فقد شُيد فرج بن برقوق (ح ١٤٠٠ - ١٤١١)، وبرزباي (١٤٣٢)،

(٢٤) حول «بولاق»، انظر: Nelly Hanna, *An Urban History of Būlāq in the Mamluk and Ottoman Periods*, Supplément aux Annales islamologiques; cahier no. 3 (Le Caire: Institut français d'archéologie orientale, 1983).

(٢٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١١، ص ١٨٦ وما بعدها.

Raymond, Cairo, p. 179.

(٢٦)

ولينال (ح ١٤٥١ - ١٤٥٦)، وخوشقدم (ح ١٤٦١)، وقايتباي (ح ١٤٧٢ - ١٤٧٤)،
والظاهر قانصوه أبو سعيد (١٤٨٩)، والعاذل طومان باي (١٥٠١) أضرحة لهم هناك.

وباستثناء بناء الظاهر خوشقدم^(٢٧)، فقد بقيت تلك الأضرحة حتى أيامنا هذه.
وبمرور الزمن، اكتسب تصميم المدافن وعمارتها ملامح مدينية متزايدة، على مستوى
الواجهات وعلى طول الشارع، من مثل ما تظهره مباني برسباي وقايتباي وقرقماز
(ح ١٥٠٦ - ١٥٠٧).

كان التزيين والزخرفة في برنامج السلاطين والأمراء المماليك أيضاً. فقد بنى
الشيخ المؤيد قصراً مجتمعاً جديداً في كوم الريش، الضاحية الشمالية للقناة، تضمن
قصراً جديداً سمي «منظرة الخمس وجوه»، وذلك على أنقاض قصر فاطمي كان يحمل
الاسم نفسه^(٢٨). وشجع رجال بلاطه أن يبنوا مساكن هناك لتكون منطقة مقفلة للبلاط
حين يكون موجوداً فيها^(٢٩).

وقد أزال أحد كبار موظفيه، عبد الغني الفخري، عام ١٤١٧ كل المباني الموجودة
على طول شاطئ النيل بين حي المقس في الشمال وقنطرة الموسكي في الجنوب -
منطقة تعادل في وصف المقريري مدينة في سورية - وذلك لإنشاء حديقة بالقرب من
مقره السكني^(٣٠).

كذلك نظف السلطان برسباي المنطقة المحيطة بساحة الرُميلة، وامتدح إينال
لتوسيعه الشريان الرئيسي، شارع بين القصرين، في أثناء بنائه «الربيع» مع حمام مزدوج
عام ١٤٥٧ خلف سلسلة المباني السابقة. وهو أعطى، أكثر من ذلك، توجيهاته لمنع
كل العوائق، وهدم كل المباني التي تمنع انسياب الطريق على طول شاطئ نهر النيل^(٣١)
(انظر الرسم الرقم (١٣ - ٣)).

(٢٧) هذا المعلم لم يبق، وتاريخ بنائه الدقيق غير معروف وكذلك ظروف زواله.

(٢٨) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٤، ص ١٠٥ وما بعدها، وحوادث الدهور
في مدى الأيام والشهور، تحقيق وليام بوير، ٤ ج (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، ١٩٣٠)، ج ٢، ص ٢١٧، والمقريري،
السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٥٢٦، ٥٢٨ و ٥٤١.

(٢٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٤، ص ١٠٥.

(٣٠) المقريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٣٨٦.

(٣١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٥، ص ١١٨ وما بعدها، وحوادث الدهور
في مدى الأيام والشهور، ج ٢، ص ٣٠٧.

خريطة «بين القصرين»



المصدر: من نيقولا س ووارنر.

خلال فترة حكم السلطان خوشقدم، أطلق أمين سرّه العظيم جانبك مشروعاً طموحاً لإحداث تغيير في المشهد الطبيعي؛ وكان ذلك كناية عن حديقة مسورة تبلغ مساحتها ١٢٠ فدانا، أي ١٣٠ هكتاراً، مقابل جزيرة الروضة مع رصيف. أقيمت الحديقة في موقع بركة جرى ملؤها بسحب الطين من أمكنة قريبة. وعلى طرفها الشمالي، قناطر السباع، بنى الأمير قصره، وأسس على طرفها الجنوبي مجمعاً صوفياً يشرف على النيل^(٣٢).

الرسم الرقم (١٣ - ٤) القلعة والقصر الكبير



المصدر: من لوي فرنسوا كاساس.

تميّز برنامج بناء قايتباي بأعمال ترميم مكثفة للمعالم الدينية والمدنية في العاصمة. وهو إضافة إلى مسجد ضريحه في القسم الجنوبي من المقبرة الشمالية، وجامع آخر في قلعة الكيش، وقم مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط، وضريح الإمام الشافعي، ومقام السيدة نفيسة، والجامع الأزهر، وعدداً من المساجد المملوكية^(٣٣). إلى ذلك، فهو جدد ملكيات الوقف المدني للمؤسسات السابقة من خلال ترميم وإعادة بناء مبانيها

(٣٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج ٣، ص ٥٥٦ - ٥٦٩ و ٧٦٦ - ٧٦٨، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٦، ص ٣٢٣، وابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٢، ص ٤٠٦.

(٣٣) محمد الششتاوي، منتزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني (القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٩٩٩)، ج ٦، ص ٢٠١ وما بعدها، وابن إياس، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢٩.

التجارية والسكنية^(٣٤)، وهكذا تمت إعادة إحياء البنية التحتية التجارية للمدينة. ورمم في القلعة معالم الناصر محمد: القناة، والإيوان الكبير، والمسجد الذي أعاد بناء قبه. وحول منطقة الحوش، التي كانت في العادة لحريم الممالك البحرية، مضيفاً مباني جديدة إليها وجاعلاً منها مسرحاً لجمهوره. وفيما كان تركيز السلطان نفسه على إصلاح المعالم الموروثة بدل تصميم مشاهد مدنية جديدة، فإن أميريه الأكثر قوة، أزيك بن ططخ ويشبك بن مهدي، كانا أكثر مبادرة في إنجاز تحولات مدنية.

وكظهر للمدينة المملوكية الأميرية في القاهرة كان توسع الضواحي التي ملأت الثغر المدنية ومدت المساحة المتروبوليتانية. أطلق الأمير أزيك، قائد جيش قايتباي، مشروعاً لتطوير وإصلاح الضفة الغربية من الخليج. فقد حفر بركة ضخمة جنوب الحي القبطي، ماثلاً منطقة كانت بعيدة جداً من المدينة التي كانت في الوقت نفسه في غاية الإهمال. وقد أنشأ على طول الشاطئ الجنوبي للبركة حياً مع قصر، ومسجداً، ومباني سكنية، ومنشآت تجارية بما فيها المتاجر، والقيسارية، والحمام المزدوج، الذي شيّد على جانبي شارع جديد. بدأ المشروع عام ١٤٧٦ وسُمّي على اسم منشئه، الأزيكية^(٣٥).

كذلك أطلق مشروع مدني رئيسي آخر على يدي يشبك بن مهدي، أمين السر العظيم. فقد بنى على الأطراف الشمالية للحسينية/الريدانية مجعماً لمبانٍ سكنية وتجارية بجانب مسجد القبة (١٤٨٠) يمكن الوصول إليه من خلال ممر طويل متدرج. لكن الحي شهد خراباً خلال فيضان للنيل حوله إلى مستنقع. ثم بنى على الجانب الصحراوي ضريحه. المسجد المقرب فقط هو الذي نجا، وهو يعرف اليوم بـ «قبة الغداوية»^(٣٦).

يرتبط اسم يشبك أيضاً بإصلاح مدني انقسمت حوله الآراء في زمنه. فقد بادر يشبك عام ١٤٧٧ - ١٤٧٨ إلى مشروع تزيين العاصمة للاحتفال بعودة قايتباي من زيارة سورية، وذلك بإصدار أوامره للناس لتزيين واجهات محالهم ومنازلهم وإزالة التعديات على الشوارع. وبالرغم من امتداح المؤرخين لمبادرته، فقد قابله الجمهور بمعارضة إزالة إنشاءاتهم غير القانونية، التي كانت قد غدت ملمحاً اعتيادياً للمدينة. وساهم

Doris Behrens-Abouseif, «Qaytbay's Investments in the City of Cairo: Waqf and Power», *Annales Islamologiques*, vol. 32 (1998), pp. 29-40.

Doris Behrens-Abouseif, *Azbakiyya and its Environs: From Azbak to Ismā'īl, 1476-1879* (Le Caire: Institut français d'archéologie orientale, 1985), pp. 3-25.

Doris Behrens-Abouseif, «A Circassian Mamluk Suburb North of Cairo», *Art and Archaeology Research Papers*, vol. 14 (1978), pp. 17-23.

السلطان العادل طومان باي، بالرغم من أنه لم يحكم لأكثر من مئة يوم، في توسيع منطقة الريدانية بجوار مطعم الطير، التي كانت كما يبدو مقبرة ومجمعاً دينياً أساسياً، يمكن مقارنته بذلك الذي رُممه قرقماز في المقبرة الشمالية عامي ١٥٠٦ و ١٥٠٧، مع مباني سكنية ومخازن^(٣٧). ولم يبق من ذلك كله غير مقبرة مقيبة.

عند نهاية الحقبة المملوكية، وغير بعيد من التقدم العثماني الزاحف، منح السلطان الغوري اهتماماً كبيراً واعتمادات وفيرة لمشاريع بناء مهمة. فقد بنى عند تقاطع الشارع الرئيسي مع الجامع الأزهر مقبرة مع مجتمع على الشارع الرئيسي مُظهرًا إبداعاً مدنياً متكاملًا منقطع النظير. فالمسجد مع مثذنته على جانب من الشارع مقابل الضريح مع الخانقاه والـ «سيل - مكتب» على الجانب الآخر. وأقيم بينهما ساحة صغيرة مغطاة بسقف خشب لتظلل السوق والأكشاك والمتاجر.

لم يضعف انتشار المؤسسات المملوكية الدينية والمدرسية من مكانة الأزهر باعتباره المكان المقدس الأول في القاهرة. فقد أعاد بيبرس إقامة «الخطبة» فيه بعدما أزالها صلاح الدين. وجرى توسيع برامجه لتضمن اختصاصات إضافية، وخدماته الخيرية تبعاً للتقديمات والهيئات التي كانت تمنح له من المؤسسة المملوكية أو من أفراد عاديين. استمر المعهد في جذب الطلاب من الأقاليم المصرية كما من الخارج. وُجدد مبناه وجرى تجميله بانتظام، في فترة طيرس المملوكية البحرية (ح ١٣٠٩ - ١٣١٠) وأقبغا (١٣٤٠) وفي الفترة الشركسية مع جوهر الفنقبائي (١٤٤٠) الذي بنى مدارس إلى جواره. كذلك أصلح قايتباي المبنى وأضاف إليه بايين ومثذنة؛ وكما في مسجد عمرو بن العاص في القسطة، رمم ضريحي الإمام الشافعي والسيدة نفيسة وجعل صيانتها دورية.

رابعاً: الوقف والمباني والصيانة

كان تمويل المساجد المملوكية يجري أكثر الأحيان من ريع العقارات المدنية. وبالرغم من أن تأسيس مساجد/مصليات ساهم في تمدد الحدود المدنية وترقية أحيائها، لم تكن كل الأوقاف الكبرى مصممة لتضم كل المباني التجارية والمساكن الممنوحة حول المسجد. بدلاً من ذلك، كان النمط الأكثر شيوعاً في المنشآت

Evliya Çelebi, *Seyahamamesi: Misir, Sudan, Habeş, 1672-1680* (Istanbul: Devlet Basimevi, (٣٧) 1938), pp. 397, 484 and 1043.

هناك وصف في أرشيف الباب العالي ٢٦٥ / ٢٣٠، ص ١٧١ وما بعدها.

الملكية هو الاستثمارات المتنوعة؛ فقد منح الظاهر بيبرس مدرسته في منطقة بين القصرين مجتمعاً سكنياً ضخماً قرب باب زويلة، فضلاً عن قيسارية ومنازل في أحياء أخرى.

إن معظم ما وهبه الأشرف خليل وفقاً لمدرسته ولضريح والده تألف من أراضي مؤجرة في الضواحي الغربية في جوار عدة منشآت تجارية في العاصمة وأرضاً في سورية. كانت عقارات الناصر الموهوبة لمدرسته في المدينة أو الخانقاه في سرياقوس مختلطة كذلك، إذ ضمت أرضاً زراعية وإنشاءات تجارية ومصانع في الإسكندرية وسورية. وتألف وقف مدرسة السلطان حسن أساساً من أرض زراعية وقرى في مصر وسورية. وتألف وقفا قايتباي والغوري من خليط من إنشاءات تجارية موزعة وأرض زراعية. سمح هذا التنوع في الاستثمارات لأصحاب الرعاية باستصلاح الأراضي المهملة وترقية المناطق المهمشة في المدينة. والمؤسسة الحاكمة، بتأسيسها أحياء جديدة أو ترقية القديم منها، أو ببساطة بإضافة إنشاءات تجارية ومساكن حيث تدعو الحاجة، إنما كانت تجدد في النسيج المدني.

كان في وسع السلاطين والأمراء الكبار، ويوصفهم المشرفين الفعليين على الإدارات الكبرى لأوقاف سابقهم، أن يؤدوا دوراً حيوياً في حفظ الموروث الزراعي. ولطالما أشرفوا شخصياً في الغالب على الأعمال العامة ذات الأهمية الحيوية، كما في الأعمال المتعلقة بالنيل مثلاً؛ كما كان الأمراء يساهمون في مثل هذه الحالات بمواردهم وبمشاركة مملوكيهم وأفراد من ملكياتهم. كان السلاطين يذهبون في جولات تفتيش، ينظرون في أعمال بناء مساجدهم، كما في مسائل مدينية أخرى. وقد كانت جولات جقمق وقايتباي التفتيشية صفة مميزة لحكيمهما^(٣٨).

من غير المستبعد أن تكون أنشطة البناء المكثفة للمؤسسة المملوكية في العاصمة قد خضعت لنوع من التنسيق مع التخطيط المدني في العاصمة تبعاً لمركزة مهنة البناء بين أيدي السلطان والمحيطين به. وقد نجح كبار السلاطين البناء، على الأرجح، في إقامة قدر كاف من الاتفاق مع تابعيهم في خصوص مشاريع البناء الفردية. أكثر من ذلك، فإن التشديد على إنشاء المجمعات والأحياء بدلاً من المباني الفردية تضمن بالتأكيد شكلاً من التخطيط.

(٣٨) علي بن داود إبراهيم الجوهري بن الصيرفي، أنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق وتقديم حسن حبشي (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٠)، ص ٢٠٢، ٢٤٤ و ٤٠٥ وما بعدها.

ومع أن القضاة وولاة الشرطة ومحتسبي السوق، كانوا منخرطين جميعاً في إدارة العاصمة، فقد ساهم التدخل المتواصل والمباشر للسلطين بمساعدة أمرائهم، في صنع خيارات وقرارات خاصة صاغت إلى حد كبير وجه المدينة ووظائفها. تظهر مبادرة إينال في توسيع الشارع الرئيسي بين القصرين وخطوة يشبك في إزالة المخالفات من الشوارع، التورط المباشر للمؤسسة الحاكمة في مسائل التنظيم والجماليات المدنية. كما أنها تشير، في الوقت نفسه، إلى أن سلطة السلطان أو الأمير القوي وحدها يمكن أن تكون مؤثرة بما يكفي لفرض النظام أو إدخال إصلاحات^(٣٩). ومع ذلك، تورد سجلات المؤرخين تكراراً أخبار السلطين الذين مارسوا هم حرية إقفال الطرق بمبانيهم أو لانتزاع ملكيات وقفية بطرائق ملتوية من مالكيها السابقين. ويظهر فرض مسجد ضريح قايتباي في المدافن أنه حوّل الطريق بالضرورة لتحسين مدخل مجمعه، وهذا ما سيفعله أبو سعيد قانصوره أيضاً بعد بضع سنوات^(٤٠).

باستثناء قرية الناصر محمد الملكية في سرياقوس، لم يبن أحد من السلطين أو الأمراء مقار سكنية أو منازل صيفية في الأقاليم أو في مدن مصرية أخرى؛ فهم لإقامتهم أثناء رحلات الصيد، أو التزهات، أو السفر، كانوا ينشئون المخيمات الواسعة. عاشت الأرستقراطية المملوكية في القاهرة باستمرار، في منازلها المدنية أو في قرى عند أطراف ضفاف وشواطئ البرك والخليج أو النيل. وفي الغالب لم تكن قصور الأمراء ملكيات خاصة تعود لهم بل للدولة، في وسعهم الإفادة منها ما داموا هم في الخدمة، إلا أنها تعاد إلى السلطان في حالة الوفاة أو العزل. وكان بعضها ملكيات وقفية، يشكل إيجارها جزءاً من عائدات البناء الممنوح. وكان للقصور أن تُشغل أو تُسكن لقرون، لكن ليس على أسس وراثية، وهي كانت تخضع لإعادة تغيير وتشكيل باستمرار.

أخذت قصور الأمراء المماليك أمكتها في عدة مناطق داخل المدينة الفاطمية وعند أطرافها، وبخاصة في الأحياء الجنوبية على طول شريان الصليبية وبركة الفيل. ومع أن المراجع تعود إلى أمكنة بعينها كانت المفضلة لدى الأمراء والنبلاء الآخرين من مثل ضفاف البرك، إلا أنه لم يكن هناك حيّ أرستقراطي حصري في العاصمة المملوكية. وتشير سجلات الوقف في الأزبكية وغيره من الأحياء إلى أنها خططت مع قصور إلى جانب مساكن من أحجام مختلفة في جوار متاجر ومبانٍ تجارية. وكان المماليك والأفراد الآخرون من أسرهم يسكنون الحي نفسه.

André Raymond et Gaston Wiet, *Les Marchés du Caire: Texte de Maqrīzī, textes arabes et* (٣٩) *études islamiques*; 14 (Caire: Institut français d'archéologie orientale (IFAO), 1979).

(٤٠) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٣، ص ٤٢٥ و ٤٣٧.

كان نمو المساجد في القرن الرابع عشر بشكلها، الجامع والمسجد الجامع، استجابة لخطط الناصر الطموحة في توسيع الرقعة المدينية. فبعد دمج السلطان حسن للمدرسة مع المسجد الجامع بات المجمع الجديد قادراً على أداء وظائف متعددة. وفي القرن الخامس عشر لم يعد إيجاد المساجد الجامعة وفقاً على السلاطين والأمراء، بل شمل مدنيين من خلفيات مختلفة؛ كما أضيفت منابر الخطبة إلى عدة «زوايا» ومدارس أخرى، إضافة إلى احتواء الجديد عليها تلقائياً. وأدى انتشار مساجد التجمعات والمجمعات ذات الوظائف المتعددة إلى نوع من الإشباع مع نهاية القرن الخامس عشر، إلى درجة أنه لم يعد في وسع السلطان حسن قايتباي نفسه أن يبنى أكثر من جوامع حارات صغيرة، في الحجم والوظيفة. ترافق هذا التطور الذي أدخل ملامح سكنية في العمارة الدينية، مع تعديل أيضاً في المساجد لجهة شكل القاعة الكبرى، والوحدات السكنية في شكل «رَبْع» (انظر الرسم الرقم (١٣ - ٥)).

لم تكن هندسة القاهرة المعمارية، بخلاف مدن إسلامية أخرى، مقلوبة. فالرَبْع، شكل السكن النمطي للطبقات الوسطى، كان يتألف من شقق سكنية مبنية فوق صف من المتاجر أو المنشآت التجارية مع باحة^(١). وكانت هذه الشقق، وهي في الغالب مزدوجة مع سقف فردي، تطل على الشارع حينما يكون ذلك متاحاً. كذلك في المنازل والقصور، فالنوافذ في القاعات كانت مفتوحة على الشارع. كانت القاعة، وهي الأعلى والأكبر حجماً في المنزل والمحاطة بغرف أصغر حجماً، هي قلب المسكن، في حين كانت الباحة - وعدا كونها مركز الحياة الأهلية كما الفناء في المنزل السوري أو المغربي - تحتوي عدة خدمات بما فيها «الإسطبل». وفي المنازل الأكبر كان هناك باحة ثانية تقوم بوظيفة الحديقة.

كانت القاهرة تتلقى إمدادات مياه الشرب من النيل عبر الخليج. وكانت المياه تصل إلى القلعة بواسطة قنوات ونواوير. وكان للمؤسسات الخيرية «سبيل» خاص، أو خزان مياه، يوفر المياه للعامة كعمل خيري. ومنذ أواخر القرن الرابع عشر بات السبيل مدمجاً معمارياً في المنشآت الدينية كافة، وفي الزاوية غالباً، يحف به «مكتب» أو مدرسة أطفال ابتدائية. أما سبل الماء المخصصة للحيوانات فكانت عبارة عن صهريج أو بركة تقام في أمكنة أخرى مستقلة. وكان أغلب المنازل والمنشآت التجارية يملك خزانات ماء، وآباراً، ونواوير؛ فتملأ الخزانات سنوياً أيام الفيضان بمياه تحمل على الجمال أو الحمير، أو تباع بواسطة صهاريج تمر في الشوارع.

Laila Ali Ibrahim, «Middle-class Living Units in Mamluk Cairo,» *Art and Archaeology* (٤١) *Research Papers (AARP)*, vol. 14 (1978), pp. 24-30.

الرسم الرقم (١٣ - ٥)
جامع قايتباي والمدافن



١ - المساحات المفتوحة والميادين

يعدد المقريري بعض المساحات المفتوحة ويسميا «الرحبة»، التي كانت تستقطب «الأسواق» عادة. تضاعف عدد الميادين الكبرى زمن المماليك، وكانت وظيفتها غالباً بمنزلة مدخل للقلعة، وللاستقبالات، وألعاب البول، والاستعراضات العسكرية، وأعراس الأمراء، والصلوات الجماعية أو حتى لجمهور السلطان. كان للميادين أسوار، معها حدائق في العادة، وتحتوي على مطالاً مشاهدة وأمكنة جلوس^(٤٢). على سبيل المثال، فإن ساحة الرُميلة عند أقدام القلعة، التي كانت تمتد بين حُدرة البقر بقناتها ومسجد السلطان حسن وبين باب القرافة، بوابة المدافن، كانت تحتوي على ميدان رئيسي، كما كانت المسرح الذي تجري فيه الأحداث العامة، مثل الاستعراضات واحتفال مغادرة قافلة الحج. لقد كانت معلماً أيوبياً جرى تجديده وترميمه على يد الناصر محمد، الذي استخدمها مرمحاً للتدريب، ومراجعة أنسال الخيل، والاحتفال بالعيدين الكبيرين، ولصلوات الجماعة. وعند نهاية الحقبة المملوكية، جدد السلطان الغوري الميدان كمخفر أمامي للقلعة؛ وربطه بإنشاءات مائية لجلب المياه إلى بركة وحديقة تتبعانه وكان فيها أشجار مهمة، ثم بنى فيه مكاناً للمشاهدة وأمكنة جلوس للجمهور والاحتفالات.

أما المقبرة الشمالية فكانت في الأصل ميدان القبق، بناه الظاهر بيبرس. وفي عام ١٢٦٧ بنى فيه نوعاً من «المصطبة» متصلة بمرمخ (مطعم الطير). نقل الناصر المرمخ إلى جنوب القسطنطينية عند بركة الحبش، وأتاح بذلك للمدافن مزيداً من التوسع. وفي كل الأحوال ظلت مصطبة الميدان الكبير في القسم الشمالي من المدافن تتردد في السجلات حتى نهاية الحقبة المملوكية، كساحة تدريب واستعراضات واحتفالات ملكية متعددة^(٤٣).

لكن الناصر محمد أزال أيضاً ميدانين آخرين، أقامهما سابقاً الظاهر بيبرس والعاقل كتبغا، واستبدلها بميدان المهرة الذي جعل مكانه عند قناطر السباع بين القناتين، والآخر عند بستان «الخشب» بين القسطنطينية والقاهرة على شاطئ النيل. وبإستثناء سرياقوس، التي هُجرت في الحقبة الشركسية، استمرت الميادين التي أنشأها الناصر تخدم أغراض البلاط المملوكي؛ وكانت ترمم دورياً من طرف السلاطين المتعاقبين^(٤٤).

(٤٢) المقريري، الخطط المقريرية المسماة بالمواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وإقليمها، ج ٢، ص ١٩٧ - ٢٠٠ و ٢٢٨.

(٤٣) Doris Behrens-Abouscif, «The Northeastern Extension of Cairo under the Mamluks», *Annales Islamologiques*, vol. 17 (1981), pp. 157-189.

(٤٤) المقريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٥٢٩، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٤، ص ٩٥ - ٩٦ و ٩٩.

٢ - الشوارع والأسواق

باستثناء القلعة، لم يحصّن المماليك القاهرة؛ فالدفاع عنها كان يجري بعيداً من الأرض المصرية. لقد حصّنوا بدلاً من ذلك المدن السورية والمدن المصرية الساحلية؛ كانت سورية هي الحاجز بين مصر وأي غازٍ محتمل. فغزوات المغول وتيمورلنك، التي أوقعت دماراً شديداً في سورية، إنما أوقفت هناك قبل أن تصل إلى مصر. والمعركة الفاصلة مع العثمانيين الغزاة جرت أيضاً هناك في مرج دابق بالقرب من حلب.

غطت المنطقة المبنية في القاهرة المملوكية مساحة شاسعة مع كثافة سكانية متباينة. وبحسب تقدير غارسان، فقد ارتفع عدد سكان العاصمة المصرية الفسطاط - القاهرة عام ١٥١٧ إلى ٢٧٠.٠٠٠ نسمة^(٤٥).

قدّمت القاهرة المملوكية نمط الشارع الإسلامي التقليدي مع بضعة شرايين طرق رئيسية متصلة بشوارع فرعية ومسارب تنتهي في أزقة. يتضمن تصنيف المقرئزي للشوارع الهرمية ما يلي: الحارة، الخطّ، الزقاق، والدرب، والأخير مسرب يقفل ببوابة. الحارة هي منطقة كبيرة تتألف من عدة أحياء، بينما «الخط» هو الحيّ. تُظهر الخريطة (انظر الرسم الرقم (١٣ - ١)) شرياناً رئيسياً من الحسينية نزولاً إلى باب زويلة، ومن هناك يتفرع شرقاً نحو شارع الدرب الأحمر الذي يوصل إلى القلعة، وآخر جنوباً إلى بركة الفيل، وبعدما يعبر الصليبة يستمر أبعد نحو مقام السيدة نفيسة، حيث يتفرع غرباً إلى الفسطاط وشرقاً إلى المقبرة الجنوبية. على الجانب الغربي، يصل جسر الخليج المدينة مع بولاق، وشاطئ النيل.

تمتد الأسواق الرئيسية من الحسينية في الشمال إلى الداخل نحو القلعة وأبعد نحو الصليبة في الجنوب. وهي تتألف من متاجر وسقيفات ومنشآت مبنية تحت الرّبع أو مساجد وعلى طول واجهاتهما (انظر الرسم الرقم (١٣ - ٦)). تركّزت أكثر الأسواق قيمة عند ما بين القصرين حول المساجد الملكية الرئيسية. وهي تتضمن مباني من نمط «الخان» و«القيسارية» و«الوكالة»، التي كانت أسواقاً أو معامل متخصصة، أو مصارف وأسواق بورصة^(٤٦).

Jean-Claude Garcin, «Note sur la population du Caire en 1517,» dans: Jean-Claude Garcin, (٤٥)
Jean-Luc Arnaud et Sylvie Denoix, dirs., *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman medieval*,
collection de l'École française de Rome; 269 (Rome: Ecole française de Rome, 2000).

Raymond et Wiet, *Les Marchés du Caire: Texte de Maqrizî*.

(٤٦)

الرسم الرقم (١٣ - ٦)
شارع في القاهرة



المصدر: من ل. لياي.

إضافة إلى تجارة السلع الفخمة، والعبيد، والمنتجات الزراعية، فالملمح المميز لأسواق القاهرة، كما يروي عدة رحالة، إنما كان أكشاك الطعام، والمطاعم، والباعة المتجولون الذين يبيعون وجبات مطهية.

نظرياً، كانت كل المؤسسات التجارية في شوارع الأسواق المركزية للقاهرة مع مساكنها ملكاً للأوقاف الكبرى التي تخص السلطان والأمراء، والتي كانت تغذي مؤسساتهم الدينية إضافة إلى الأرباح الشخصية التي تعود إليهم أو إلى تابعيهم. كانت التجارة المدنية إلى حد كبير تحت سيطرة الأرستقراطية المملوكية وموظفيها^(٤٧). كان في وسع السلطان أو الأمير أن يلزم بالقوة تحويل سوق ما أو مجموعة حرفيين إلى ملكيته الخاصة، وكان في الإمكان إجبار التجار على بيع سلع معينة وبأسعار معينة يحددها السلطان. ومن واجبات الأسواق الكبرى تزويد البلاط بالمواد الثمينة والاحتفالية. وظل التطعيم المملوكي المشهور للمصنوعات المعدنية يُنتج في البازار حتى أواخر القرن الرابع عشر ليختفي بعد ذلك. ومن المرجح، على ما يروي المقرئزي، أنه كانت تصنع وتزخرف مصابيح وأوان زجاجية جميلة في أسواق الزجاج (الزجاجون). يحيلنا المقرئزي أيضاً إلى أسواق المصممين (الرسامون)^(٤٨)، الذين يؤدون جملة فنون وحرف. كذلك كانت تنتج في المدينة الأثواب أو العباءات الاحتفالية والأسلحة. لكن التجار والحرفيين كانوا في الواقع مستأجرين وليسوا مالكيين لمتاجرهم وورشهم الحرفية، شأنهم في ذلك شأن معظم الناس من كل الأطياف في مساكنهم ومبانيهم، بما فيها المنازل والقصور.

كان في وسع الأقليات غير المسلمة أن تمارس مراسم دفن أفرادها في الفسقاط وأطراف القاهرة. وكذا حال الكنائس اليونانية والكنس اليهودية التي بنيت في القاهرة في أثناء الحقبة الفاطمية. لم يسمح المماليك لهؤلاء «الذمين» أن ينشئوا مباني دينية جديدة، وإنما ترميم القديم منها فقط. وبالنسبة إلى الأقباط، الذين عملوا في المركز التجاري وسكنوا في بعض أحياء القاهرة عند «الخليج» وفي الضواحي الغربية، لم تعد كنائس الفسقاط تتناسب وتمركزهم الديمغرافي. لكن الوضع كان مختلفاً لليهود، فقد كان لديهم كنيس في حارة زويلة، وهو الحي اليهودي الرئيسي خلف مجمع قلاوون.

Ira Marvin Lapidus, *Muslim Cities in the Later Middle Ages* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1967).

(٤٨) المقرئزي، الخطط المقرئزية المسماة بالمواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ينص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وإقليمها، ج ٢، ص ١٠١ و ١٠٥.

وفي الوقت الذي كانت هناك أحياء يغلب فيها ساكنون غير مسلمين، فقد كانت هناك كذلك مناطق كثيرة مختلطة ومن دون فصل ظاهر بين الجماعات المكونة لها.

٣- الأسلوب المتروبوليتاني

كان لانغماس الأرستقراطية الحاكمة في تجارة المدينة، والإمكانات التي انطوى عليها نظام الوقف، وهو ما جعل المماليك يستمرون في الملكيات العقارية المدنية، ومخصصين أرباحها لمؤسساتهم الخاصة كما للمؤسسات الخيرية، كان لكل ذلك وقع شديد التأثير على صورة المدينة. فبسبب مساجدها ومساكنها وحماماتها وخاناتها المدمجة كلها تحت الرعاية الأميرية، امتلكت القاهرة بالتأكيد طابعاً أميرياً على كثير من التجانس، بحيث لم يتبق مكان لمشاريع بناء مشتركة.

ورث المماليك عاصمة ذات تاريخ طويل من تبوئها، ومن دون منازع، مكانة عاصمة مصر الإسلامية التي لم تبخل تقاليدها المعمارية والمدنية في منحهم الإلهام. ومنذ الحقبة الفاطمية، كانت سيادة جماليات الشارع ملمحاً مميزاً للهندسة المعمارية القاهرية، التي بلغ بها المماليك الذروة. واستخدموا هذا الأسلوب في «مسجد الأقمار» (١١٢٥)، لفصل محور واجهة الجامع عن باقي داخل المسجد الملزم الاتجاه جهة القبلة (مكة)، ويهدف فرض التجانس بين البناء لجهة الشارع وعدم الإخلال بوحدة صف المباني. هذه الإحالة الدائمة إلى مرجعية منظر الشارع تأخذ أبعاداً تفصيلية أكثر في معالم أضرحتهم الدينية، التي كانت تصمم لتأكيد وضع الضريح المقبب بما يسمح بإمكان المشاهدة من الشارع^(٤٩)، وكذلك في تجانسه مع المئذنة. وفي النتيجة، أمكن للمجمعات الدينية المملوكية أن تقدم تنوعاً من المخططات المصممة لتناسب البيئة المدنية.

شكلت هذه الملامح، التي جمعت التقاليد الموروثة مع رغبة الأمراء العارمة في إحياء ذكراهم، جوهر الأسلوب المتروبوليتاني الفذ الذي أعطى طابعاً حصرياً للعاصمة. هنا نجد ملاحظة أيالون «أن قلة فقط من الأرستقراطيات العسكرية في التاريخ الإسلامي كان لها مثل هذا الارتباط بالعاصمة إلى درجة التماهي، من حيث التعريف بها، قياساً

Christel Kessler, «Funerary Architecture within the City», paper presented at: *Colloque (٤٩) International sur l'histoire du Caire (1969)* (Cairo: Ministry of Culture of the Arab Republic of Egypt, 1972).

على مدن أخرى، وبالقدر الذي كانت عليه علاقة المماليك بالقاهرة»^(٥٠)، تجد هذه الملاحظة، ما يؤكد في الظهور المتكرر والدوري للسلطين في الشوارع وانخراطهم المباشر في تطور العاصمة المديني وصيانتها. ساهمت العلاقة الحميمة والحصري بين الأرستقراطية المملوكية الحاكمة وعاصمتها في جعل القاهرة المملوكية ظاهرة متفردة، أو وفق تعبير المقريري «مدينة تفوق الخيال».

Ayalon, «Muslim City and the Mamluk Military Aristocracy», p. 319, and M. Sharon, ed., (٥٠) *Studies in Islamic History and Civilization in Honour of Professor David Ayalon* (Leiden; New York: Brill Academic Pub., 1997), p. 205.

الفصل الرابع عشر

القدس الإسلامية

أو القدس في ظل الحكم الإسلامي

أوليف غرابار(*)

كانت القدس في رسوم رحالة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أو في الصور الفوتوغرافية للنصف الثاني للقرن التاسع عشر حتى خمسينيات القرن العشرين، تقدم على الدوام على النمط نفسه. فمن الجهة الجنوبية الغربية، أسفل جنوب جبل الزيتون، يتيح المرتفع الطبيعي، وغري المكان، للزائر رؤية المدينة في عمومها على الجانب الآخر لواد عميق حافل بالأضحية.

وخلف حقل الأموات ذاك، تمتد مساحة مربعة تقريباً تحدها أسوار ضخمة مُحافظ عليها في حالة مُرضية مع قليل من البوابات الظاهرة؛ والأكثر وضوحاً من تلك الزاوية هي البوابة الذهبية البارزة خطوطها على نحو حسن على أسوار المدينة، وقد أغلقت منذ القرن السابع وربما لم تعد عملياً تُستخدم منذ ذلك كمدخل أبداً... وتظهر المدينة تلك كما لو كانت جاثمة بتكلف على قمة أرض وعرة، كثيرة الصخور، وغير مستوية.

وفي الداخل، يشغل الموقع الإسلامي المقدس المعروف بالحرم الشريف، وهو موقع فسيح ومكشوف تظله جزئياً الأشجار، الزاوية الجنوبية الشرقية من الساحة المحاطة بالأسوار. يشتمل الموقع على قبة الصخرة الرائعة والجليلة (انظر الرسم الرقم

(*) باحث وعالم آثار فرنسي.

(١٤ - ١)، وإلى جنوبها مسجد جامع يُعرف بـ «المسجد الأقصى» والذي تعلوه أيضاً قبة عالية (انظر الرسم الرقم ١٤ - ٢).

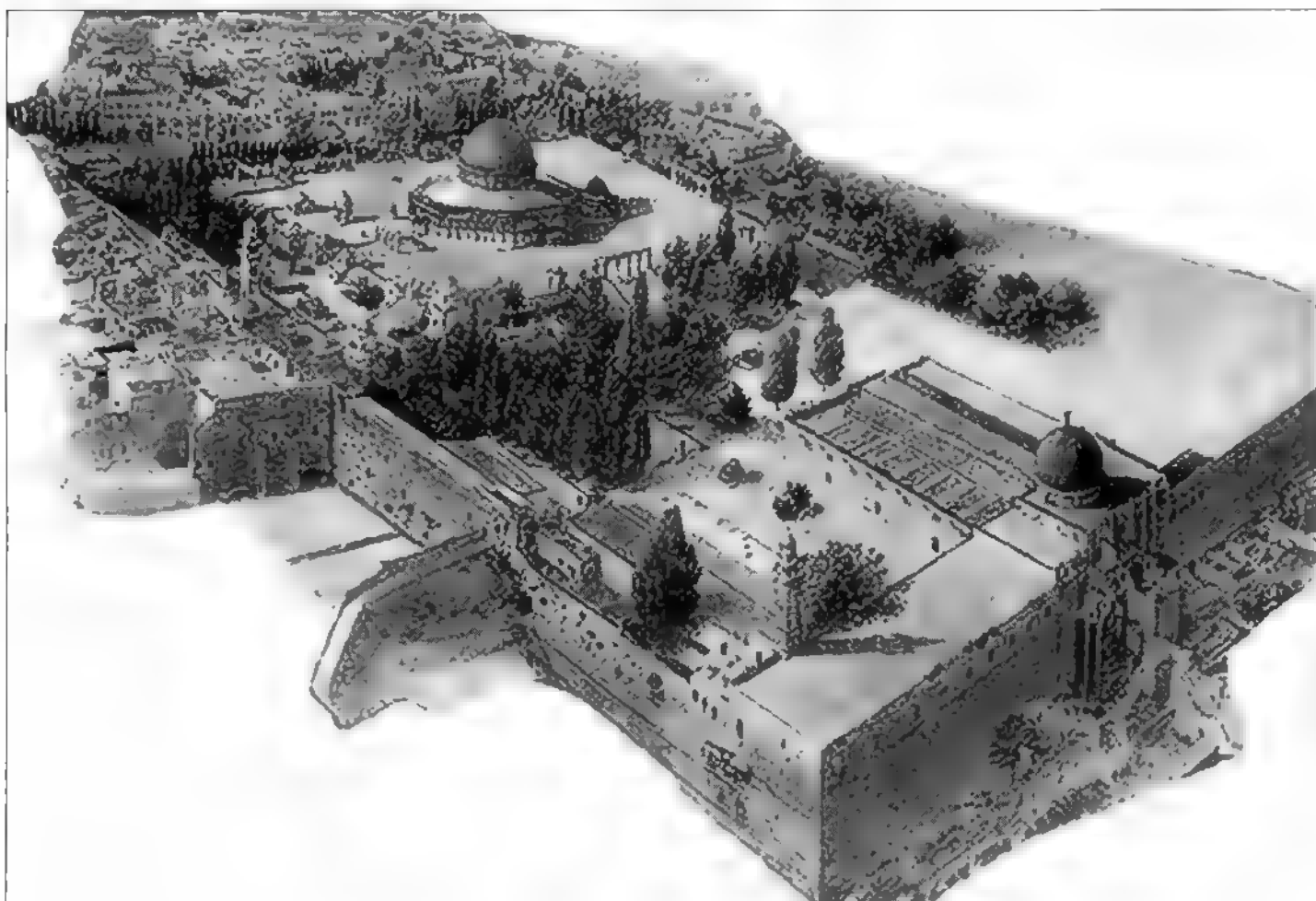
الرسم الرقم (١٤ - ١)
قبة الصخرة وقبة السلسلة



وتحتل شوارع ومبان مكتظة باقي المدينة، عدا قباب القبر المقدس العتيق، الحديثة نوعاً ما والمحاطة عمداً بمئذنتي مسجدين صغيرين، كما بالقباب الأحدث كثيراً لكنيسي الأشكناز والسفارديم الظاهرة بوضوح. وفي وقت لاحق في القرن التاسع عشر، أدت الأبراج اللوثرية والكاثوليكية غرض التعريف بحضور ديني آخر في المدينة المقدسة فضلاً عن استحضار رفعة الشأن المسيحي الغربي.

ليس ثمة علامة أو رمز خارجي يميز الدلالة الطائفية لهذه المباني، لكن السكان المحليين يعرفون ما هي تلك المباني، لأنها كانت جزءاً من نسيج المدينة، والأداة التي لا غنى عنها في الدلالة على معنى المدينة وحياتها. ومعظم أولئك الذين جاؤوا إلى القدس يعون وجودها أيضاً، غير أن معرفة الحجاج كانت ربما مقتصرة على معالم دينهم أو حتى على جزء فقط من دينهم.

الرسم الرقم (١٤ - ٢)
المسجد الأقصى، وتبدو قبة المسجد إلى يمين الصورة، وقبة الصخرة في وسطها



أخذت هذه المدينة المسورة شكلها الراهن في القرن السادس عشر. ومع أن الكثير قد جرى على مدى الأعوام الخمسمئة الماضية لتبديل أو لإصلاح أجزاء فيها، فلا يزال الطابع الخاص لبنيتها الأساسية على حاله؛ بل إن مشاهد الأنوار الكهربائية في الأماسي والليالي، وهي الأنوار التي غيرت سماء الكثير من المدن التاريخية، غائبة عن مدينة القدس المسورة. الأنوار تلك عادت إلى الظهور فقط على الجانب الغربي من المدينة ولسد حاجات سياحية جديدة، تماماً مثلما كانت أنوار القرن السابع على منحدر جبل الزيتون تهدي الحجاج وهم في طريقهم إلى داخل المدينة المقدسة. أما التغييرات في البنية الحضرية للقدس، فقد تمت خارج الأسوار، إذ إن المؤسسات الأجنبية في معظمها - المدارس والمستشفيات والأديرة، ومؤسسات من جميع الأنواع، ومن ثم الفنادق والمباني الإدارية - إنما شيدت في الفسح الأكثر انبساطاً والخالية نسبياً إلى شمال المدينة وغربها. وظهرت هناك أيضاً مجموعات صغيرة من البيوت أو الأملاك الفردية، الكبيرة إلى حد ما عادة، وقد شكلت تلك البيوت والأملاك قلب ما أصبح قرى في ما بعد، ثم أدرجت في نهاية المطاف، وليس بإرادتها دائماً، في مدينة ضخمة.

ما يكون أصالة القدس، لا بل فرادتها في الواقع، ليس نموها في أواخر القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين، الأمر الذي تشاطره مع مئات المراكز الحضرية الأخرى، وإنما ميزتان فريدتان بارزتان تتصف بهما المدينة القديمة؛ الميزة الأولى هي أن شكلها الحالي نشأ في ظل قيادة أو حكم المسلمين فوق تحويل إمبراطوري روماني لمدينة يهودية قديمة. والميزة الأخرى هي أن محتوياتها كانت إسلامية ويهودية ومسيحية بنسب وأهمية تتفاوت وفق جزر التاريخ ومدّه ومع حضور متزايد لوظائف وبنى دنيوية من منتصف القرن التاسع عشر فصاعداً. ما من مدينة مقدسة أخرى في العالم هي مقدسة، بطريقة أو بأخرى، لدى ثلاث ديانات وعبادات مختلفة، وإن بدت مترابطة تاريخياً ولاهوتياً.

كيف حدث ذلك؟ كيف نشأت المدينة؟ وعبر أي آليات استمرت؟ سأقوم أولاً بتقديم وصف إجمالي وموجز لما يمكن إعادة بنائه للقرن السابع عندما أصبحت المدينة تحت الحكم الإسلامي ثم تحديد بعض الملامح الإسلامية، وعلى الأخص التي كان لها تأثير في المدينة على مدى القرون الأربعة عشر التالية.

لا يزال الكثير من الغموض يكتنف مسألة صيرورة القدس مدينة إسلامية عام ٦٣٧م أو نحوها، ومن غير المرجح أن تُعرف الحقيقة يوماً. وأهمية ما حدث في واقع

الأمر من أجل فهم دور المدينة في الفن الإسلامي التقليدي لا يزيد على ما يجري تخيله. وما سيلبي هو إعادة بناء أحداث ومواقف كما اعتقد أنها حدثت من وجهة نظري. فالمدينة التي سلمها البطريق اليوناني صفرونيوس كانت معسكراً رومانياً جرى تكييفه مع أطلال القدس الهيرودوسية ثم حُوّل إلى مدينة مسيحية بعد اعتناق قسطنطين الكبير المسيحية في النصف الأول من القرن الرابع. وقد سيطر على حياتها ومعالمها العمرانية موضوعان: الاحتفاء بذكرى تاريخ مقدس مركز أساساً على آلام يسوع، وتوقع اليوم الأخير وحلول مملكة الله على الأرض.

كانت الكنائس، وأهمها مجمع القبر المقدس، مكرسة لحياة يسوع على وجه أخص، لكن رفات الموتى في ذخائر الكنائس وأشياء من كل الأنواع مصنوعة محلياً أو مبيعة محلياً كانت تستذكر جميع أشخاص الكتاب المقدس من آدم إلى المسيح. واستُحضر العالم الآخروي في الغالب من خلال المدافن العديدة التي لاصقت المدينة المسورة ومن خلال الأماكن المقدسة على جبل الزيتون والممجدّة لصعود المسيح وعودته النهائية. وكان محظراً على اليهود رسمياً دخول المدينة، لكن كان يسمح لهم بالمجيء إليها مرة واحدة في السنة ليكوا تدمير الهيكل الذي اختلطت أنقاضه مع ما بقي من أبنية وثنية قليلة، حيزاً واسعاً مهجوراً في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة.

كان هذا الحيز المثقل بالذكريات، والحافل بمبانٍ متصبة أو خربة، هو الذي فتحه المسلمون الوافدون - وربما حتى الخليفة عُمر نفسه - بوصفه مكانهم المقصود عليهم بالذات. وقد سُمّي المكان حينئذ بيت المقدس، ومنه جاءت أخيراً لفظة القدس بوصفها الاسم العربي للمدينة. وبعد مرور عدة قرون، بعد عام ١٢٠٠، حاز المكان اسمه الحالي: الحَرَم الشريف. وصلى المسلمون هناك، ربما في الجزء الجنوبي من الساحة، حيث لم يلبثوا أن بنوا مسجداً ذا سقف مرفوع على أعمدة. واستقر معظم العرب المسلمين المهاجرين في جنوب ساحة الحَرَم وغربها. وربما أن بعضهم جاء ليقيم في جوانب أخرى من المدينة، إذ لم تكن الأحياء ذات الطابع الإثني أو الديني قد ظهرت بعد في معظم مدن الشرق الأدنى.

وفي زمن ما، لعله نحو عام ٧٠٠، شُيد مبانٍ كبيران إلى الجنوب والجنوب الغربي من الحَرَم، ووجدت أسسهما في وقت ما في سبعينيات القرن العشرين. وثمة مناقشة وافرة في شأن وظيفة هذين المبنين اللذين ربما كانا قصرين للخلفاء أو مبنين إداريين (دار العمارة كما تصفها النصوص) أو مستقرين لعائلات وافدة، أو لخليط من

هذه الوظائف. أياً يكوننا، وسواء كانا حتى منجزين أم لا، وأياً تكن الفترة التي استُخدما فيها، فقد كانا ضمن حدود المدينة المسورة وفي اتصال مباشر بالحرم من خلال أنواع مختلفة من المسالك الضيقة.

إلا أن قبة الصخرة هي التي حولت شخصية المدينة تماماً وأعطتها صبغتها الإسلامية الأولى. وقد أقيمت فوق نتوء صخري في أعلى ما كان يعرف آنئذ بجبل موريا. ومن المؤكد أنه كان للنتوء الصخري، مع كهف منحوت فيه بشكل مصطنع جزئياً وحفرة مشقوقة بصورة مرتبة في الوسط تقريباً، غرض ديني أسبق لا نملك إزاءه إلا الافتراضات. وقبل سيطرة المسلمين على المكان بعدة قرون، كانت العبادات اليهودية تقرنه بالهيكل المهدم.

والبناء الجديد فوق الصخرة أمر به الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وُشِع فيه أو أنجز عام ٦٩١ (هناك بعض المناقشات التحقيقية في شأن كيفية تفسير هذا التاريخ). وهو مؤلف من عُلبة مستديرة مغطاة بقبة كبيرة على أسطوانة عالية جوفاء ومحاط بحلقة ثمانية الأضلاع ذات ممشين مسقوفين موضوعين على اثنتي عشرة رصة وثمانية وعشرين عموداً.

ويوجد أربعة أبواب تفضي إلى داخل المبنى، باب عند كل من الجهات الأربع، ولا يتميز أي منها على الأبواب الأخرى من حيث الحجم أو الزخرفة. والجدر الخارجية رقيقة جداً، وهي أقرب إلى ستار حول مكان محصور منها إلى جدار حامل. وفوق صفائح كبيرة من المرمر، درج أن تغطي الفسيفساء أجزاء واسعة من الوجه الخارجي للبناء، وقد استُبدلت في القرن السادس عشر بأجر عثماني جميل جرى ترميمه في منتصف القرن العشرين.

أما الزخرفة الداخلية للبناء، فقد ظلت محفوظة بشكلها الأصلي وتألفت من صفائح مرمرية كبيرة في الجزء الأدنى من الأسوار ومظهر بهيج للفسيفساء (نحو ١٢٠٠م) على الجزء العلوي للقناطر وفي جميع أنحاء الأسطوانة الجوفاء.

ومن المحتمل أن تكون الصفائح المرمرية قد اختيرت بسبب جودة الترسيمات الطبيعية عليها، والفسيفساء تبدي، وفي الوقت الذي نستخدم ألفاظاً اصطلاحية جارية في عموم أواخر آثار البحر المتوسط القديمة، الكثير من النواحي البارزة الفريدة في ما اختير منها وفي طريقة تركيبها (انظر الرسم الرقم (١٤ - ٣)).



طُرحت تفسيرات عديدة مختلفة لبناء قبة الصخرة. فقد رأى البعض، في القرون الوسطى، أنها كانت محاولة من عبد الملك بن مروان لجعل القدس لا مكة وجهة الحج، البالغة الأهمية للمسلمين. وبالفعل، فإن الكثير من مخطط المبنى وموقعه يمكن تفسيره بتقليد «الطواف»، الشعيرة البالغة الأهمية في ممارسة الحج. ثم قيل في أزمنة أكثر حداثة إنه معلم يحتفي بانتصار الإسلام على المسيحية في المدينة المسيحية بامتياز، ويتبدى ذلك من خلال استعادة قداسة المكان اليهودي المقدس خلافاً لرأي المسيحيين. وجرى التعبير عن هذه الرغبة من خلال تعليق جواهر ملكية بيزنطية وإيرانية، كالكؤوس المدلاة وسط زخرفة الفسيفساء في الرواق المثلث، ومن خلال تزيين المبنى بنصوص قرآنية تتضمن حض أهل الكتاب، اليهود والمسيحيين، على قبول الوحي الجديد.

ويجد باحثون آخرون دليلهم في التمثيل التخيلي للنباتات في الفسيفساء ومن النقوش على البوابة الشرقية للمبنى ليزعموا أن المبنى يحتفي بيوم الحساب المقدس الآتي الذي يعقبه الثواب والعقاب، والذي ترتبط أحداثه دائماً بالقدس. ف «الحساب» لكل الرجال والنساء، وفق الاعتقاد الشعبي، إنما يحدث تحت القبة الصغيرة شرق قبة

الصخرة تماماً والمعروفة بـ «قبة السلسلة». وسوف يكون المعلم الرئيسي شبيهاً بصورة المكان الذي جرى وصفه في القرآن باعتباره موجوداً في الفردوس الأبدي، وباعتباره، وهذا أمر فريد في تاريخ العمارة، معلماً يحتفي بحدث لم يقع بعد. وربما تكون هذه الرؤية للمستقبل قد عكست الأساطير الغنية المتصلة بالملك - النبي سليمان، الذي يُعتقد أن هيكله، وبخاصة قصره، كان قائماً في هذه المنطقة. وربما يكون ممكناً، أخيراً، وعلى قاعدة تقليد مبكر رفضه فقهاء المسلمين، الاعتقاد أن المبنى يمجّد «الصخرة» التي غادر الله الأرض من عليها بعد خلقه لها.

كل هذه التفسيرات تتلازم مع ذكريات (موقع هيكل سليمان وقصره)، وأحداث (ثورة ابن الزبير ضد الأمويين واحتلال مكة، والانتصار على الإمبراطوريتين الكبيرتين للعصور القديمة المتأخرة)، ومعتقدات (الإيمان بيوم الحساب القريب)، هي كلها كانت سائدة أواخر القرن السابع. ثم تضاعف وقع هذه الذكريات والأحداث والمعتقدات ببطء، وشيئاً فشيئاً، غمرت الحَرَمَ قدسية إسلامية على نحو أخص والقدس ككل بعدة طرائق.

وعلى مستوى أدنى، جاء هذا التاريخ المقدس الإسلامي بقصص عن آدم وإبراهيم ويسوع وزكريا ويعقوب وحتى يوسف، وقرنها بأماكن مختلفة في المدينة أو في الحَرَم. لكن الاقتران الأهم والأعمق كان بالنبي محمد. وغدت قبة الصخرة المكان الذي صلى فيه بعد إسرائه من مكة وقبل معراجه إلى السماء. والآية ١ من سورة الإسراء في القرآن الكريم التي تذكر مسجداً أقصى مرتبطاً بالقدس^(١)، وكان الحَرَمَ مشمولاً بشواهد تذكارية تتعلق بلحظات مختلفة من وصول النبي ومعراجه، وأصبح المسجد الجامع المسجد الأقصى مع الفقرة الملائمة من النص القرآني التي استُنسخت في وسط البناء بفسيفساء أوائل القرن الحادي عشر.

والسياق الذي تمت فيه هذه المجموعة الجديدة من التداعيات ليس معروفاً جيداً. ولربما بدأ في وقت مبكر جداً على مستوى شعبي ويات يعبر عنه رسمياً في تحول القدس والحَرَمَ في بداية القرن الحادي عشر، في ظل حكم الأسرة الفاطمية في مصر. وخلال هذه القرون، التاسع - الحادي عشر، حاز المسجد الأقصى شكله الأكبر ووفد أولياء صالحون وحجاج إلى المدينة من شتى بقاع العالم المسلم.

(١) «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْأَيْمَانِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» [القرآن الكريم، «سورة الإسراء»، الآية ١].

الرسم الرقم (١٤ - ٤)
المسجد الأقصى من الداخل



كان الحَرَم، الذي لم يكن بعدُ معروفًا بهذا الاسم، مركز القدس الإسلامية، مع صفوف أعمدة جديدة مقامة على جانبه الغربي وجانبه الشمالي، ومع بوابات جديدة وصفها رحالة، كانت إحداها مزخرفة حتى بالفسيفساء وعليها نقش باسم خليفة فاطمي. وقد تقلص حجم المدينة، إذ إن امتدادها البيزنطي إلى الجنوب هُجر في مطلع القرن الحادي عشر، ولبثت في أبعادها الحالية تقريباً. والأمر الفريد في العالم أجمع هو أنها كانت مدينة مقدسة عند اليهود والمسيحيين فضلاً عن المسلمين، الذين سيطروا عليها مادياً وقاموا في وقت ما بإعادة بناء قلعة كبيرة على جانب المدينة الغربي. وأحياناً خلال

عهد الخليفة الحاكم - كان هناك أعمال اضطهاد ضد المسيحيين واليهود، سُلب خلالها القبر المقدس ودُمر جزئياً. لكن مثل هذه الأعمال كان نادراً، وتعايشت الديانات كلها في ما يبدو أنه كان انسجاماً نسبياً، مرده، على الأغلب، إلى تجاهل إحداها للآخرين على نحو لافت للنظر.

إنها مدينة سلمية ومنسجمة نسبياً، بمواقعها المقدسة وحجاجها الآتين من كل حذب وصوب، على حد وصف الرحالة والفيلسوف الفارسي الإسماعيلي ناصر خسرو، في ما هو إحدى أندر الروايات القروسطية التي يمكن اتباعها على الأرض. وما زال الكثير من آثارها ماثلاً والروايات اليهودية من الجنيزة أو الروايات المسيحية على السنة رحالة تبدو مؤكدة وجود مدينة بثلاث ديانات عاشت مستقلة إحداها عن الآخرين وبأدنى حد من الاحتكاكات، لكن من دون صراعات ذات شأن في معظم الوقت.

في عام ١٠٩٩ استولى الصليبيون، الآتون من أوروبا الغربية، على القدس وقتلوا أو نفوا معظم سكانها، وأقاموا فيها عاصمة المملكة اللاتينية. ولم تدم المملكة أكثر من قرن ونصف القرن، إذا ما حسب المرء عقود الحكم المسيحي - الإسلامي التعايشي الذي تلا فتح صلاح الدين المدينة مجدداً عام ١١٨٣. غير أن وقعها كان شديداً على نسيج المدينة من حيث إنها عدّلت البنى التي عملت المدينة وفقها. لقد هُدم الكثير، لكن جرت المحافظة على آثار الحَرَم التذكارية العظيمة بسبب ارتباطها الخيالي في الأغلب بهيكل سليمان و«هيكل الرب» الذي أحضرت مريم إليه وهي طفلة، كما ورد في اللاهوت المسيحي في القرون الوسطى، قبل أن تأتي بطفلها إليه، والذي ألقى فيه يسوع موعظته في وقت لاحق.

وكان فرسان الهيكل أسياذ الحَرَم وقد أعادوا استخدام ساحاته لأغراضهم. فهم، على سبيل المثال، استخدموا القاعات تحت الأرض عند الطرف الجنوبي للحَرَم كأسطبلات وسببوا بالتالي في تعريف تلك القاعات بأنها إسطبلات سليمان. وكنيسة القديسة آن في القطاع الشمالي الشرقي من المدينة أفضل مثال على هذه الأعمال، وهو كثيراً ما يستعاد. وكان جزء كبير من المدينة المتأخرة قد بُني على أنقاض خطط البناء الهائلة التي وضعها الصليبيون، وقليلة هي أجزاء المدينة التي ليس فيها بقايا من طراز رومانسكي أو قوطي مطمورة في الأبنية الحجرية المتأخرة.

في زمن باكر يعود إلى ما بعد عام ١١٨٣، لكن على وجه الخصوص بعد عام ١٢٦٠ وهزيمة جيوش المغول الوافدة من الشرق، توطد حكم المماليك في مصر

وفلسطين وسورية ومكث حتى عام ١٥١٧. وخلال هذين القرنين ونصف القرن، أصبحت القدس تحفة فريدة في روائع الهندسة المعمارية الإسلامية في أواخر القرون الوسطى. أما الأسباب الكاملة لهذا التطور فليست واضحة برمتها. ولا شك في أن ثروة مملكة المماليك كانت وافرة؛ فالقاهرة ودمشق وحلب وحتى مدن صغيرة مثل حماة أو طرابلس، كانت مجللة بأبنية جديدة ذات هندسة معمارية رفيعة المستوى.

ولا شك أيضاً أن العالم المملوكي، بعيداً من التغيرات الصاخبة التي وسمت العالم التركي - الإيراني في الشمال والشرق أو التغيرات الثورية في أوروبا المتوسطة الإيطالية والإسبانية، طور بناءً سياسياً وثقافياً أصيلاً جداً بحيث إنه رعى نوعاً فريداً جداً من التدين الاجتماعي. لقد كان تدين خدمات تعود بالمنفعة، كالمدارس التي كانت مراكز للتعليم الديني ولتكوين النخب القضائية، والخانقاهات والرباطات التي كانت أماكن إقامة أولياء صالحين من الرجال والنساء، ومستشفيات ومدارس للأطفال ومكتبات وأسبلة وإلى ما هنالك، وكلها موقوفة من جانب أمراء حاكمين أو أثرياء من الطبقة الحاكمة. أما الطرق التي عملت بها هذه المؤسسات واستجابت لحاجات اجتماعية ملموسة، فلم يجر شرحها حتى الآن. ويبدو غريباً فعلاً أن تكون أكثر من خمسين من مثل هذه المؤسسات الموقوفة للرفاه العام والتعليم قد حُفظت أو سُجلت في مدينة صغيرة وثنائية سياسياً كمدينة القدس.

لكن ثمة سبب ثالث لتطور هندسة معمارية فخمة في ظل حكم المماليك وهو أن القدس حققت للحكام في القاهرة، ولولايتهم في دمشق بدرجة أقل، دوراً مزدوجاً؛ فهي كانت مدينة مقدسة مع جميع الروابط التي أُقيمت وصُقلت خلال القرون الأولى للحكم الإسلامي، وكانت ميسورة أكثر من مكة والمدينة، فضمنت بالتالي كون أبنيتها الأثرية معروفة أكثر وكون رعاتها محترمين على نحو لائق. بيد أن القدس كانت أيضاً مدينة معزولة بلا دور اقتصادي ذي شأن، وأضحت مدينة منفي والمكان الذي كان المماليك الذين يفقدون حظوتهم في البلاط يُعَدُّون إليه من صراعات السلطة في العاصمة.

وفي القدس، ومن خلال إشراف ووهب أموال لبناء المدارس والمؤسسات الاجتماعية الأخرى، عمل المماليك في سبيل إيمانهم وحاولوا بهدوء إعادة بناء سلطتهم السياسية وتوطيدها في أماكن أخرى. وكان من نتيجة هذا المزيج غير العادي المحبذ للاستثمار الهندسي عرض حقيقي لمبانٍ قبالة الجانبين الغربي والشمالي للحرم، كانت في بعض الأحيان تقترب من الحرم نفسه كما هي حال سبيل ماء الشرب المعروف باسم قايتباي، أو تترافق على امتداد بعض الشوارع المفضية إلى الحرم.

والأنجح بين هذه المباني هي المدرسة الأشرفية (١٤٨٢) تجاه الحَرَم، والمدرسة التنكزية (١٣٢٨ - ١٣٢٩) على الشارع الرئيسي المؤدي إلى الحَرَم، وخان السلطان (١٣٨٦ - ١٣٨٧) مع إضافات وتعديلات كثيرة أدخلت لاحقاً، وسوق القطانين مع بوابتها الفخمة الرائعة قبالة الحَرَم، ويعود تاريخها إلى عام ١٣٣٦ - ١٣٣٧، ثم شارع مسقوف للمتاجر وحمّامان عامان وخان، وكلها ما زالت موجودة لكن في حالة مزرية.

وإذا أضف المرء عدداً من المباني الإسلامية ذات الطبيعة الدينية، المنتشرة في نواح أخرى من المدينة، وقلعة مرمّمة على الجانب الغربي أدت الغرض بوصفها سند المدينة الدنيوي الموازن للحَرَم الشريف (كما أصبح اسمه متعارفاً عليه تماماً وقتئذٍ) الديني، يتضح أن القدس كانت، ضمن حيزها الصغير، نوعاً من مثال مصغر لمدينة إسلامية مملوكية متأخرة في الشرق الأدنى. وربما كانت مفتقرة إلى مخلفات القاهرة التاريخية العظيمة، إلا أن مجموعتها المتراسة من الأبنية الكثيرة المحاذية، وكلها مبنية بأحجار فلسطينية جميلة، توضح على نحو أفضل كثيراً الخليط الشكلي الخاص جداً الذي ميّز الهندسة المعمارية المملوكية. فالبوابات المعدّة بكامل العناية والتفصيل، والتصميمات المتألّقة للجُدُر الحجر، والباحات ذات الإيوان المقنطر الواحد أو أكثر، والقباب أو أنصاف القباب على أقواس مقرنصة، والمحاريب المتعددة الألوان، والخواصر العَرَضية، والأفاريز المزينة بأشكال نباتات غير بسيطة أو النقوش بكتابة عربية حروفها أنيقة وفخمة ومتصلة ومنسرحة، هذه الخصائص البارزة كلها على وجه التقريب تظهر على جميع المباني المملوكية تقريباً. وهي تعكس عادة تقاليد القاهرة أو دمشق الأكثر إبداعاً، لكن في نوعية تنفيذ خاصة وبملامح محلية حولت القدس إلى متحف حقيقي للهندسة المعمارية.

وينبغي للمرء أن يضيف أن تلك القرون المملوكية كانت مهمة أيضاً لكونها زمن محاسبة النفس في شأن المدينة. وقد بُتت صلاتها الدينية الرئيسية، والأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل للعلامة المحلي مجير الدين هو نوع من خلاصة للتاريخ المقدس والدنيوي ودلالة للمدينة بالنسبة إلى مسلم سُني ورع.

في هذه المدينة الإسلامية إلى حد بعيد، كان للمسيحيين واليهود مقامهم. فالقبر المقدس كان في أيدي المسيحيين، غير أن مسلماً هو من نظّم إدارته بسبب الصراعات بين السلطات الكهنوتية اليونانية واللاتينية (الرهبان الفرنسيسكان بشكل أساسي خلال تلك القرون) وبسبب ضرورة تضمين حضور مجموعات مسيحية أقل عدداً وسلطة كالأقباط والأرمن واليعاقبة السوريين، وأخيراً الإثيوبيين، الذين مثلوا، مع ذلك، الجزء

الأكبر من سكان المدينة المسيحيين. وقد كان على كلا جانبي القبر المقدس (وما زال) مسجد صغير كانت مثذنته من قبة الحَرَم المسيحي، وبما يعبر عن سيطرة المسلمين على المنطقة. وكانت سلطة المسلمين ملموسة أيضاً في الطرق التي تولوا بها أمر الحَرَم الذي أعيد بناؤه على جبل صهيون في عهد الصليبيين.

وكان معظم الحجاج المسيحيين في تلك القرون من داخل العالم الإسلامي؛ وهناك روايات قليلة فقط لغربيين وصفوا فيها، بوضوح تام أحياناً، المشقات التي انطوى عليها التعبير عن عقيدتهم في القدس. وكان يهود من أماكن كثيرة مختلفة قد استقروا في الجزء الجنوبي من المدينة حول كنيسين، وأخذ النمط اليهودي للتعبد في جوار الحائط الغربي للحَرَم [الشريف] يطور أشكاله ما قبل الحديثة (انظر الرسم الرقم (١٤ - ٥)).

الرسم الرقم (١٤ - ٥) الحائط الغربي للحرم الشريف



انتهت الحقبة المملوكية عام ١٥١٧، عندما استولى السلاطين العثمانيون على سورية وفلسطين وشبه الجزيرة العربية. وكان العمل الحضري الأبرز ذلك الذي قام به سليمان الكبير (ح ١٥٢٠ - ١٥٦٦) الذي، كسليمان(*) جديد، وجه عناية خاصة للقدس. فقد رُممت أماكن الحَرَم المقدسة، وحازت قبة الصخرة غلافها الخارجي من الأجر الملون الباهر، ورُمم المسجد الأقصى عدة مرات، وتم ترميم أسوار المدينة على نحو خاص لتكتسب الفخامة التي لا تزال تتمتع بها اليوم. وشيئاً فشيئاً أُسست هيكلية إدارية عثمانية انتشرت مكاتبها في أنحاء المدينة وأقيمت مؤسسات حديثة كالتكيات والنزل ومركز تجاري جديد. وواصلت المجتمعات المسيحية التقاتل في ما بينها، ومضى وقت

(*) النبي سليمان الحكيم ابن داود، حوالي ٩٣٠ - ٩٧٠ ق.م (المترجم).

طويل شب خلاله حريق عام ١٨٠٨ دمر قبة القبر المقدس، قبل أن يتم وضع نظام لإدارة مشتركة بين الطوائف ليعمل بحد أدنى من المواجهات.

وفي القرن التاسع عشر تأسس وجود مسيحي جديد مع نمو إرساليات بروتستانتية وكاثوليكية وأرثوذكسية مرتبطة بدول علمانية؛ ونتيجة لذلك ارتفع في الحي المسيحي من المدينة برج لوثري وآخر كاثوليكي كانا أعلى من المآذن الإسلامية التي هيمنت على كنيسة القبر المقدس الباكّة. كما ازداد المستوطنون اليهود عدداً في ظل الحكم العثماني، فهاجروا أولاً إلى الجزء الجنوبي من المدينة القديمة، قرب الكنيسين، وانتقلوا لاحقاً في القرن التاسع عشر إلى غرب المدينة القديمة أحياناً. هناك، وإلى الشمال، بدأ ينمو عالم من مستوطني الضواحي، أفراداً ومؤسسات، يمهد لتغيرات القرن العشرين الهائلة.

هذه التغيرات كلها، التي يأخذ تاريخها بالبروز إنما يبطء، حوّلت القدس إلى مدينة عثمانية، وهو أمر مغاير تماماً للمدينة الإسلامية القروسطية، إذ حكمتها سلطة دنيوية تحمي مكاناً مقدساً وتصونه. غير أن هذه التغيرات لم تؤثر في المظهر المادي للمدينة المسوّرة، باستثناء التردّي البطيء لبنائها المعماري.

وخلال القرن العشرين جرى، وبنجاح تام وكالعادة، ترميم وإصلاح الآثار الإسلامية الرئيسية كقبة الصخرة والمسجد الأقصى والأشرفية (انظر الرسم الرقم (١٤ - ٦)) والمكتبة الخالدية والقلعة وبعض البوابات المؤدية إلى المدينة. وأنشئ مسجد جديد تحت الزاوية الجنوبية الشرقية للحرم، في ما عُرف عادة بإسطبلات سليمان. وقد وُجّهت إلى هذا البناء انتقادات كثيرة، لأسباب مشروعة جزئياً، لكنه نجح في تلبية حاجات مجتمع إسلامي متوسّع.

ولا يزال القبر المقدس موقعاً للصراعات بين الجماعات المسيحية التي تفصح فيها المجموعات المسيحية المحلية عن نفسها على نحو يفوق ما كانت عليه لمدة قرن واحد أو نحو ذلك. وقد ضمّ حي يهودي حديث، أعيد بناؤه كلياً في القسم الجنوبي من المدينة، إلى نسيجه نتائج حفريات كبرى وأفلح في البقاء ضمن الحدود الجمالية التي وضعتها المدن القروسطية والعثمانية. إلا أن الجوانب الجنوبية والغربية والشمالية من المدينة تبدلت كلياً والصورة التي كنتُ قد بدأتُ بها هذا النص، أي صورة مدينة مسوّرة في أعلى متون طبيعية، ولّت إلى غير رجعة.

الرسم الرقم (١٤ - ٦)
مسجد الأشرفية



ببليوغرافيا

ثمة مراجع إضافية، وبلغات عديدة، تتعلق بتاريخ القدس وآثارها. للاطلاع على مسح سريع، انظر: S. D. Goitein and Oleg Grabar, «Al-Kuds», in: *The Encyclopaedia of Islam*.

وبالنسبة إلى مصادر مكتوبة، فإن المسح الأكمل للمصادر التقليدية هو في: Guy Le Strange, *Palestine under Moslems: A Description of Syria and the Holy Land from ad 650 to 1500* (Beirut: [n. pb.], 1965; London: [n. pb.], 1980, and New York, [n. pb.], 2002).

منذ ذلك الحين، إن أهم المصادر هي «الفضائل». انظر: محمد بن أحمد الوسيط، فضائل بيت المقدس، تحرير إسحاق حسون (القدس: [د. م.], ١٩٧٩)، وأبي المعالي

المشرف ابن المرجى بن إبراهيم المقدسي، فضائل بيت المقدس والخليل وفضائل الشام (شفا عمرو، فلسطين: دار المشرق، ١٩٩٥).

والأثر القديم هو: أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (عمّان: مكتبة دنيس، ١٩٧٣). والنقوش كلّها متوفرة من خلال: Max Van Berchem, *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum*, 3 vols. (Geneva: The Author, 2001).

وأحدث عمليات المسح لتاريخ المدينة وآثارها مع مراجع إضافية ووافية هي: Oleg Grabar, *The Shape of the Holy: Early Islamic Jerusalem* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1996); Michael Burgoyne, *Mamluk Jerusalem: An Architectural Study* (Buckhurst Hill: Interlink Publication Group Inc., 1987); Sylvia Auld and Robert Hillenbrand, *The Architecture of Ottoman Jerusalem: The Living City, 1517-1917* (London: Al Tajir-World of Islam Trust, 2002); Amikam Elad, *Medieval Jerusalem and Islamic Worship: Holy Places, Ceremonies, Pilgrimage*, Islamic History and Civilization: Studies and Texts; vol. 8; Medieval... Peoples, Economies and Cultures, 400-1500 (Leiden: Brill, 1995), and Andreas Kaplony, *The Haram of Jerusalem 324-1099: Temple, Friday Mosque, Area of Spiritual Power*, Freiburger Islamstudien (FIS) (Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 2002).

انظر أيضاً السلسلة التي حرّرتها جوليان وجيريمي جونز، في: Julian Raby and Jeremy Johns, *Bayt Al-Maqdis* (Oxford: Oxford University Press, 1992-1999), and Meir Ben Dov, *Historical Atlas of Jerusalem*, translated by David Louvish (New York: Continuum, 2002).

والمقالة العميقة الفكر لـ: Carolanne Mekeel-Matteson, «The Meaning of the Dome of the Rock,» *The Islamic Quarterly*, vol. 43 (1999).

الفصل الخامس عشر

حلب: من العاصمة العثمانية إلى المدينة السورية

جان كلود دايفيد(*)

لا تزال حلب، التي استعادت مكانتها كـ «مدينة كبرى» بُعيد الفتح الإسلامي، تحافظ إلى اليوم على منحني سكاني تصاعدي، باستثناء بعض فترات الأزمة. انضوت حلب، لأربعة قرون تقريباً، تحت لواء الإمبراطورية العثمانية حيث خضعت لسيطرة غربية وقريبة في الوقت عينه، وكانت على مدى فترة طويلة المدينة الثالثة في الإمبراطورية بعد إسطنبول والقاهرة من حيث عدد سكانها وأنشطتها الاقتصادية.

ولربما كان هذا الخلود ميزة العواصم، أي المدن ذات الوظائف المتنوعة ومجالات النفوذ الواسعة والأراضي الكثيرة والمتكاملة، التي لا تتأثر عموماً بالمخاطر الآنية التي تهددها. أما المنحني التصاعدي والمميز فقد كان مدعوماً بفترات من النشاط الكثيف في القرنين السادس عشر والثامن عشر تجلّى عبر حركة العمران والتوسع المكاني وتكاثر النسيج المدني وتضاعف التبادلات التجارية والأدوات المالية التي تغذي العائدات الضريبية العثمانية أيضاً.

وقد عانت المدينة الأزمات في أوقات أخرى، خلال القرن السابع عشر على سبيل المثال، حيث جاءت المؤشرات سلبية في أغليبتها، على غرار حركة تأسيس الأوقاف

(*) عالم جغرافي، ويبحث متقاعد في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS).

الكبرى وشيد الأبنية «العامة»^(١) في حين استمرت حركة شيد الأبنية الأكثر تواضعاً والمعدّة للأنشطة الخاصة: المنازل الكبرى المعدّة للسكن وقيساريات النسيج^(٢). كما تطوّرت المدينة خلال الأزمة، إذ لاحظ أندريه ريمون^(٣) زيادة ملحوظة في عدد السكان خلال القرن السابع عشر حيث قدّر هذا العدد بـ ١١٥٠٠٠ نسمة عام ١٦٨٣ مقابل ٧٥٠٠٠ نسمة بحسب إحصاء عام ١٥٨٤. وبذلك، يكون عدد السكان قد سجّل خلال قرن من الزمن زيادة بنسبة ٥٣ في المئة.

كانت حلب مدينة عثمانية. وكان لها بالتالي سهمها في مشروع يرمي إلى تطوير نفوذ السلطان ضمن نموذج خاص لتنظيم الأراضي والسياسة. فالمركزية العثمانية تختلف إلى حد بعيد عن المركزية الفرنسية الملكية، ومن ثم البيروقراطية، حيث تنوّع الهويات هو أساس الإمبراطورية والعيش المشترك منظم والميل إلى الانفتاح والتبادل معزّز. لكن نمط العيش في حلب لا يختلف كثيراً عما هو عليه في إسطنبول أو دمشق؛ فإسطنبول تنشر تأثيرها على كامل الإمبراطورية، ولكن من دون الحرص على التجانس. وإضافة إلى النظامين السياسي والعسكري، الرمز العملي للسيطرة والنفوذ في المنطقة، فقد كان هنالك هوية مدنيّة مشتركة تتعدّى الهويات الإقليمية وتفتي من جميع المناطق، متجاوزة نطاق الأنظمة السياسية والعسكرية التي تنظم السيطرة على المناطق وتبعيةها. وفي هذا السياق، لم يكن هناك من وجود للهوية أو الهويات الوطنية، ولو على نحو جنيني، قبل القرن التاسع عشر.

تتسم حلب أكثر من دمشق، العاصمة القديمة والمستقبلية لسورية، بالتنوع والتسامح والتمازج الثقافي، إذ إنّ انفتاحها على جميع أوجه التبادل يتجاوز ذلك الذي يميز سواها من مدن الإمبراطورية ويغيّر مصيرها. فحلب هي أول وأكثر الممار التي سلكتها واستعملتها القوى الغربية المتوجّهة إلى الشرق، قبل بيروت والإسكندرية كثيراً،

(١) يُلاحظ أندريه ريمون وجود «انحسار لافت للنظر لحركة البناء خلال القرن السابع عشر، حيث تمّ تشييد ٣٥ بناء خلال القرن السادس عشر و٣٩ بناء خلال القرن الثامن عشر و٢١ بناء فقط خلال القرن السابع عشر مع غياب تام لأي إنشاءات تذكر خلال ٤٥ سنة، ما بين عامي ١٦٠٢ و١٦٧١».

انظر: André Raymond, «Réseaux Urbains et mouvements populaires à Alep (fin du XVIII^{ème}-début du XIX^{ème} siècles)», *Arab Historical Review for Ottoman Studies* (Zaghouan), nos. 3-4 (1991), pp. 278-279.

(٢) تكثر القيساريات، وهي مجموعات من مشاغل النسيج المرتبة على طابقين حول باحات كبرى في الضواحي الشمالية، أي الأحياء المسيحية قديماً. والغريب هو أنّه يتم النفاذ إليها، لا من خلال شوارع رئيسية تشكّل جزءاً من المجال العام، إنّما عبر الشوارع الصغيرة في الحي وأحياناً عبر الطرق المسدودة التي قد تسمح أيضاً بالنفاذ إلى المساكن. وبالتالي، يبدو أنّ هذه الأنشطة تتصل بالمجال المنزلي، كما ولو أنّها حافظت على شيء من المواقع القديمة في المنازل.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

إذ إن جزءاً من مركزها مصمم بحيث يلبي وظيفة المرسى أو المعبر. وبعبداً من البحر، تشكل سوق حلب بوابة وميناء في آن معاً.

تحوّلت دمشق في نهاية العهد العثماني إلى مصهر للهوية الوطنية السورية، وذلك مع نشوء دولة أمة محتجزة ضمن حدود ضيقة. وعليه فقد خسرت حلب مكائنها كعاصمة التي سرعان ما انتزعتها دمشق.

بعد الملخص التاريخي الذي أجراه أندريه ريمون^(٤) حول حلب العثمانية والذي نُشر قبل أكثر من عشر سنوات، تطوّرت الاستفادة من المصادر الخطية من خلال الدراسة الجديدة للمعارف القديمة^(٥). قد يكمن أحد أهداف هذا العرض في توضيح بسيط لمكانة حلب كعاصمة كبرى وللخصائص التي توليها هذه المكانة والدلائل المادية والقيود المكانية الخاصة بها.

يتعيّن على تحليل المدينة تنويع المصادر والمعايير للأخذ في مجموع الفاعلين والمشاهد، إذ ينبغي إيلاء الأهمية إلى إسقاطات المدينة وأراضيها وشبكاتها ومواطن النفوذ والتبادل، علاوة على دراسة المدينة بحد ذاتها مع تزاوتها ووظائفها وأنشطتها. ويمكن دراسة حلب العثمانية من خلال مصادر مختلفة، غير أنّ المؤرّخ جان سوفاجي صوّر على نحو مقنع جداً ثراء العلامات المادية والشواهد الأثرية والهندسية والطبوغرافية.

أولاً: طبوغرافية حلب خلال القرن السادس عشر: إرث المماليك

في أوائل القرن الخامس عشر، اندثرت الطرق التجارية بين بلاد فارس والبحر المتوسط مروراً بالبحر الأسود وأرمينيا الصغرى، الخاضعة لسيطرة الجنوئين، لمصلحة طريق يقع أكثر إلى الجنوب ويمر بحلب ويسيطر عليه البنادقة. كانت سفن البندقية ترسو بانتظام في موانئ الساحل السوري، وسرعان ما أصبحت حلب مركزاً مهماً لتجارة الحرير. يفسّر سوفاجي هذا الازدهار وجميع فترات الازدهار في حلب استناداً إلى التجارة المتوسطة مع أوروبا ودور حلب في مجال إعادة توزيع المنتجات الغربية

André Raymond, «Alep à l'époque ottomane (XVI^{ème}-XIX^{ème} siècles),» *Revue du monde musulman et de la Méditerranée*, vol. 62, no. 62 (1991).

(٥) أبحاث برنار هايبرغر، عل أرشيف الأديرة الكاثوليكية، هي الأكثر إبداعاً.

والشراشف الفلمنكية والأجواخ الإيطالية في الشرق وفي «إرسال بالات القطن والحريز الخام وبعض الأنسجة الشرقية الثمينة إلى أوروبا عبر طرابلس»^(٦).

استؤنفت الاستثمارات العقارية بوجود وقفين بارزين شمال الأسواق يحتوي كل منها على خان ومجموعة حوانيت. وقد أسس خاير بك، آخر حكام المماليك، وقفاً آخر قبيل الفتح العثماني يضم خاناً كبيراً وسوقين. تشكّل الأوقاف الضخمة العائدة إلى حكام المماليك، إنما التي لا ترقى إلى حجم الأوقاف العثمانية، تجسداً مسبقاً للأوقاف المذكورة.

ترافق النمو المكاني لحلب بانتقال آخر للأنشطة والخدمات لمواجهة التعقيد المتزايد للمدينة والمتطلبات الجديدة من حيث نوعية الحياة وتطور العلاقات بين السلطة والمجتمع. وقد أورد سوفاجي معظم هذه الحركات في خرائطه التاريخية^(٧). تركزت أماكن السلطة بين القلعة في الشمال وميدان الخيل عند باب قنسرين في الجنوب الشرقي. يشكّل بناء قصر العدل، مقر الإدارة المدنية والقضائية في جنوب القلعة، الذي أنهى على يد الملك الظاهر غازي في أوائل القرن الثالث عشر حجر أساس كرس أهمية الموقع لثمانية قرون^(٨). تتمركز الأجهزة التابعة لفرسان المماليك في المثلث القريب من القصر وميادين الخيول جنوب القلعة.

نمت الأحياء باتجاه الشرق وراء السور الأيوبي وحددت الجوامع الجديدة التي يؤم فيها الحكام الصلاة، عوضاً من الجامع الكبير، معالم هذه المساحة الجديدة: جامع الطنبغا عام ١٣١٨، وعشق تيمور عام ١٣٧٤، ويلبغا الناصري نحو عام ١٣٨٥. وفي عام ١٣٩٩/٨٠١م بدأ بناء جامع آقبا الأطروش مقابل سوق الخيل غير بعيد من قصر العدل. تشمل أوقافه قيسارية وأربعين حانوتاً في عدّة أسواق مجاورة وسوق تجار القش وسوق البرادعة شرق الجامع (وحوانيت في «المدينة») (انظر الرسم الرقم (١٥ - ١) والرسم الرقم (١٥ - ٢)).

(٦) Jean Sauvaget, *Alep, Essai sur le développement d'une grande ville syrienne, des origines au milieu du XIX^{ème} siècle*, Bibliothèque archéologique et historique; 36 (Paris: p. Geuthner, 1941), p. 165.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) دمر القصر القديم الذي كان في حالة يرثى لها خلال الزلزال الذي وقع عام ١٨٢٢ واستبدل بعد بضع سنوات بسرايا جديدة شمال القلعة بني في فترة الاحتلال المصري بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٤٠. استبدلت هذه السرايا بدورها بالسرايا التي خططت لها الإدارة العثمانية والتي بُنيت خلال فترة الانتداب الفرنسي جنوب القلعة خلال الثلاثينيات. سيستضيف مبنى إداري جديد في وقت قصير الأجهزة البلدية والسراي في امتداد وسط المدينة غرباً خارج الأحياء القديمة.

الرسم الرقم (١٥ - ١)
مآذن حلب: مشهد من القرن الثامن عشر



المصدر: شغل يدوي من قصر عزام في حماة.

الرسم الرقم (١٥ - ٢)
مآذن حلب: مشهد من حلب في حدود ١٧٩٠



المصدر: الرسام فرنسوا روسيه.

تظهر أهمية هذه المؤسسات التجارية التمدّن الذي أضفته الأوقاف التي كثيراً ما تم اللجوء إليها خلال العهد العثماني، كما تؤكد قيمة الموقع جنوب القلعة. انتهى من شيد السور الجديد في الشرق قرابة عام ١٤٢٨ وضمّ الضواحي الواقعة شرق المدينة، ودُمّر السور القديم الذي استندت إليه القلعة قديماً. هذه السمة الخاصة كانت قد أرسيت قبل أقل من قرن على الفتح العثماني، إذ أخذت المدينة تحيط بالقلعة من جميع الجهات.

وتطوّرت ضواحٍ أخرى، ولا سيّما في الشمال خارج باب النصر وباب الفرج اللذين احتويا في نهاية عهد المماليك على عدّة جوامع وحمّامات ونوافير عند مفترق الشوارع الرئيسية أتاحت المجال في ما بعد أمام تطوّر مراكز للأحياء. خلال القرن الخامس عشر، بدأ المسيحيون الذين خرجوا من المدينة أو المهاجرون منهم يطوّرون الحي الذي حمل اسم حي الجُدّيدة أو الصّليبة، والذي يقوم، وفق رواية ابن الشحنة عام ١٤٢١، حول الكنائس، التي كانت من دون شك أديرة قديمة خارج الأسوار.

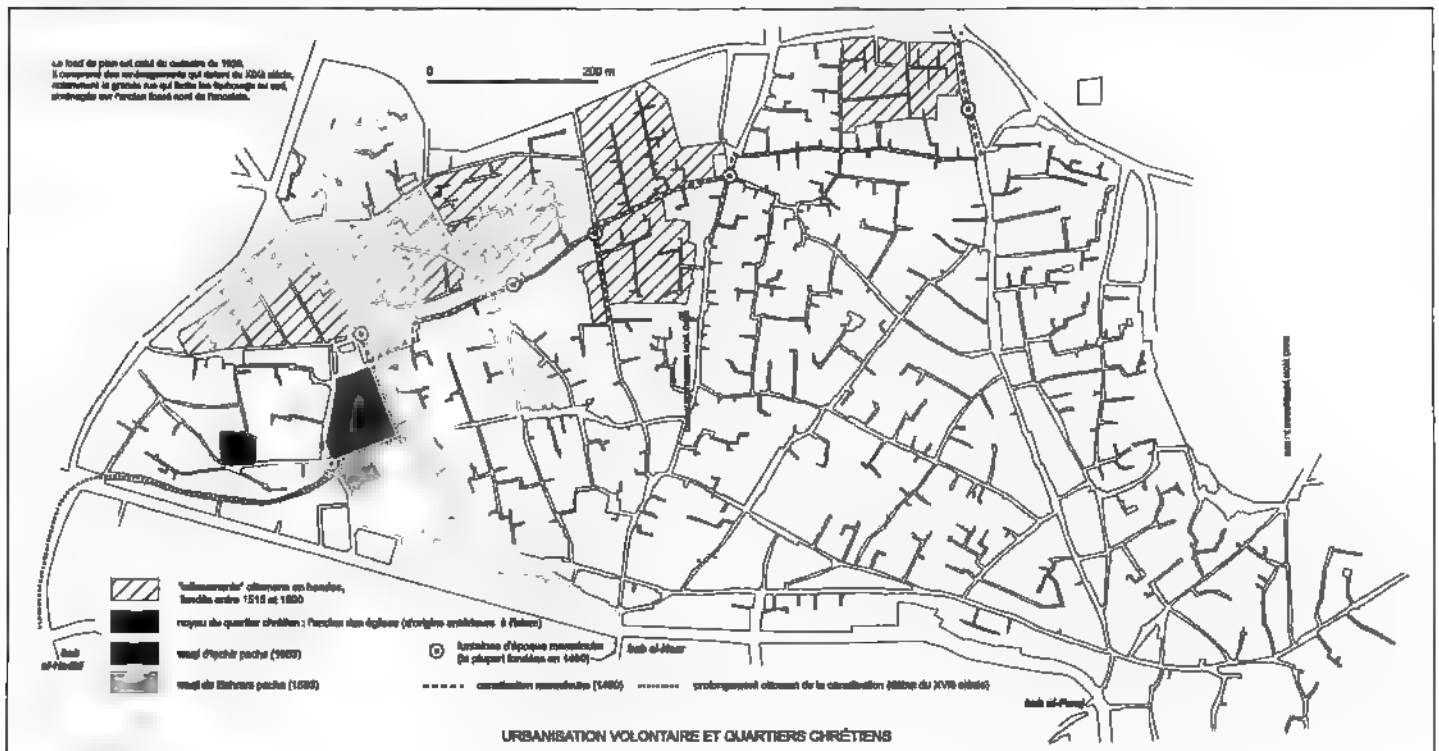
منذ البداية، كانت هناك كنيسة أو كنيسة أرمنيتان في حين أن الكنائس الأرثوذكسية والسريانية والمارونية الموجودة خلال العهد العثماني تعدّ قديمة أيضاً. وتطوّرت هذه الأحياء التي سكنها المسيحيون في أغليبتها لغاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

شكّلت التبادلات مع الغرب عبر المتوسط عاملاً أساسياً لازدهار حلب، غير أنّ المؤرخين لا يقدّرون جيداً أهمية التجارة مع منطقتها ومع مصر وباقي أنحاء الشرق الأوسط الناشط من دون شك. نلاحظ أيضاً أنّ المدينة تطوّرت منذ بداية القرن الرابع عشر قبل تغيير المسارات التجارية التي أشار إليها سوفاجي. تحاكي الجوامع الكبيرة التي بناها حكام المماليك تلك التي بناها الحكّام العثمانيون من حيث قياسها وضخامتها وغنى زينتها وجمال مآذنها، إنّما بفن مختلف.

وعليه، فنشوء وازدهار حي مسيحي حقيقي، علاوة على عمليات تطور المجال المدني والتوجّهات والتوازنات الجديدة التي يبدو أنّها تميّز المدينة العثمانية، إنّما تعود إلى القرن الأخير من عهد المماليك، غير أنّها لم تكتسب معناها الكامل إلا ابتداءً من القرن السادس عشر (انظر الرسم الرقم ١٥ - ٣).

الرسم الرقم (١٥ - ٣)

التمدين «الإرادي» والحي المسيحي (القرنان الخامس عشر والسادس عشر): إمدادات مياه جديدة ونصيب الأحياء منها



١ - استمرار المنطق المدني المملوكي بعد الفتح العثماني، ١٥٣٠ - ١٥٤٠

استمر تطوّر مراكز السلطة وبعض المرافق جنوب القلعة بعد عام ١٥١٦. يقع أول وقف عثماني كبير، وهو عائد إلى الحاكم خسرو باشا، وقد خطه سينان، المهندس الخاص بالسلطان، ويُنسب ما بين عامي ١٥٣٧ و ١٥٤٦ عند أسفل القلعة (يبقى منه جامع جميل ذو طابع عثماني مع توابعه وخان الشونة). امتد هذا الوقف على أكثر من أربعة هكتارات وجمع حول الجامع قيسارية من ٥٠ حانوتاً (طبعاً خان الشونة) وخاناً من ٩٥ حانوتاً وسوقاً كبيرة إضافةً إلى عدّة حوانيت أخرى. لم يكن هذا الإنجاز المهم، الضعيف الصلة بأسواق «المدينة»، الذي لم تحركه الأنشطة المتخصصة القديمة العائدة إلى عهد المماليك، مريحاً ربما لفترة طويلة من الزمن.

تمركزت الأوقاف الكبرى التي تأسست على امتداد القرن السادس عشر في «المدينة» قرب الجامع الكبير، وكُرسَت لأنشطة تجارية وحرفية في خدمة مدينة مدنيّة بوجه خاص لم تعد مجرد معقل عند الحدود الشمالية لإمبراطورية المماليك، أي مدينة لا تشغلها الهموم العسكرية والخيالة والأسلحة، بل تعنى بالتجارة، فخضعت ميادين الخيل تدريباً لأنشطة التنظيم المدني في حين اندثرت الأحياء الواقعة جنوب القلعة^(٩) (انظر الرسم الرقم (١٥ - ٤)). تتعارض حركة الاستثمار في المركز مع التوجهات السابقة لحكام المماليك الذين أسسوا أوقافهم لفترة طويلة جنوب القلعة. كما أنّها تناقض منطقاً أكثر قديماً لا يزال مهماً في عهد العثمانيين، ألا وهو منطق تمركز الأنشطة التجارية والخانات والأسواق والخدمات قرب أبواب السور.

٢ - التوجهات العثمانية الجديدة بعد عام ١٥٥٠: الأوقاف الكبيرة والأحياء المتخصصة

كان الطلب على المساحة المخصصة للأنشطة التجارية حينها قوياً جداً، فتحت منه ثلاثة أوقاف عثمانية كبيرة تلت الوقف العائد إلى خسرو باشا وتراصفت جنوب الأسواق من الشرق إلى الغرب واحتلت كامل المساحة تقريباً، ولربما أوقافاً قديمة ظلت من دون وريث بعد الفتح العثماني^(١٠).

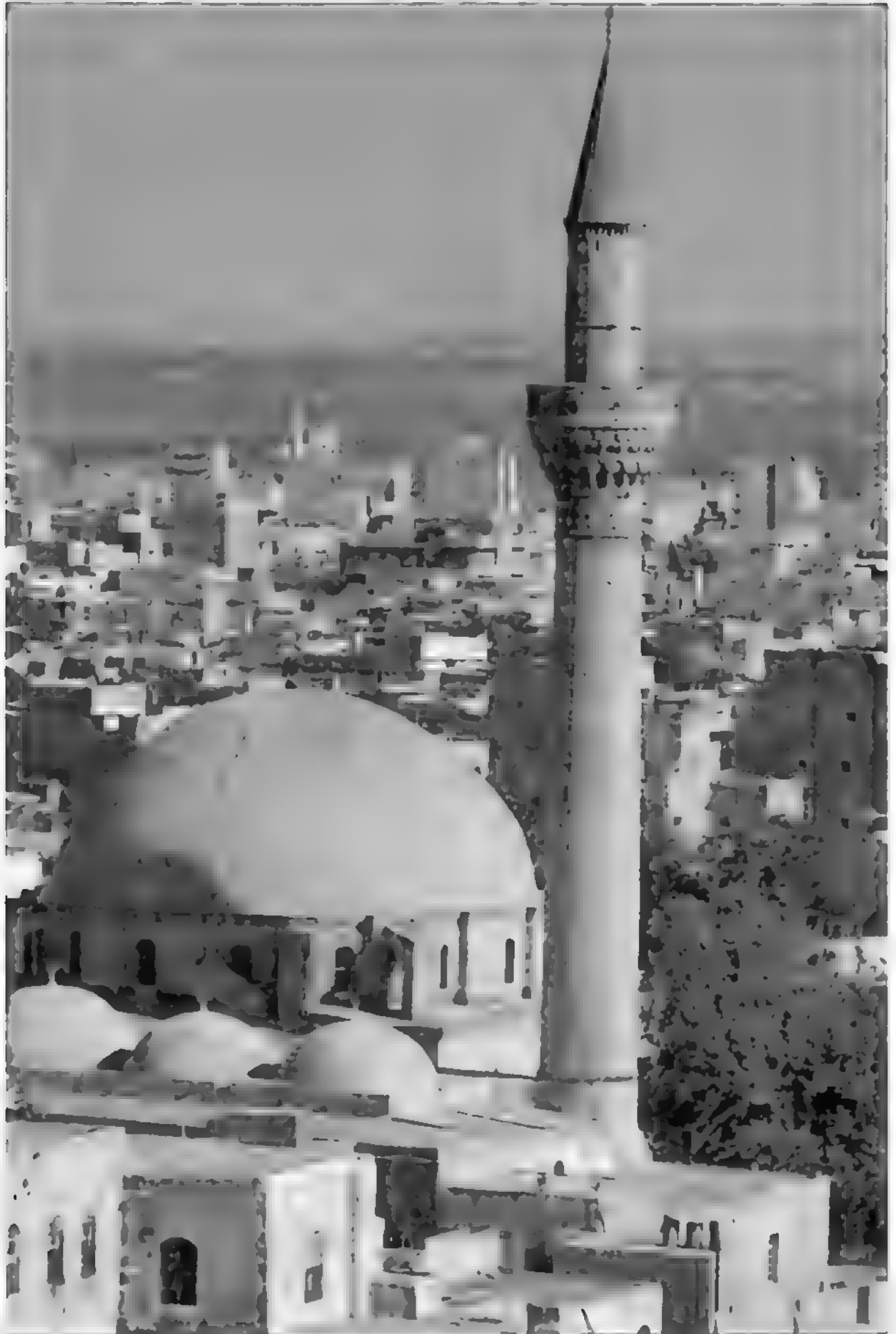
(٩) خدمت حلب كقاعدة لحملات السلطان إلى إيران وكانت ممراً للجيش ونقطة تجهيز.

(١٠) Jean Sauvaget and Robert Mantran, *Règlements Fiscaux ottomans: Les provinces syriennes* (Paris: [n. pb.], 1951).

حول الضرائب المخصصة على المنازل والخانات، انظر: ص ٢٠ - ٢٣، ٣٥، ٣٩ و ١١٣ - ١١٤.

الرسم الرقم (١٥ - ٤)

وقف محمد باشا دوقه كين زاده في حدود ١٥٥٥: جامع العادلية



أمر محمد باشا دوقه كين زاده، والي حلب من عام ١٥٥١ إلى عام ١٥٥٣، وأحد المقرّبين من السلطان، ببناء مجمّع كبير حول جامع العادلية ذي الطابع العثماني (١٥٥٥) (انظر الرسم الرقم (١٥ - ٤٤)). وضم أربع أسواق (١٥٧ حانوتا) وثلاثة خانات كبرى. ضم الوقف العائد لإبراهيم خان زاده محمد باشا الذي يرقى إلى عام ١٥٧٤ خان الجمر ك (٦, ٠ هكتار، ١٢٩ مقرأً) (انظر الرسم الرقم ١٥ - ٥)، علاوة على سوقين ضخمين موازيين لواجهة الخان^(١١) ومئات المقار التجارية الأخرى في حلب وفي أماكن أخرى من الإمبراطورية.

يشمل آخر الأوقاف الكبرى الواقع غرباً، الذي بني عام ١٥٨٣ على يد بهرام باشا الذي كان حاكماً عام ١٥٨٠، جامعاً جميلاً حليياً في تفاصيله، إضافة إلى سوق وقيسارية ضخمة (على نصف هكتار مع الجامع) وحمّام واسع في الجديدة. يعدّ هذا الوقف العثماني الكبير والأخير في «المدينة» الأولى في الضاحية، على مشارف الأحياء المسيحية قيد التطور^(١٢) (انظر الرسم الرقم (١٥ - ٦)).

أنجزت أنشطة أخرى لترتيب المساحة وتحسين ظروف الحياة خلال القرن السادس عشر، فبُنيت دار دباغة على مستويين وهي تضم ٥٣ غرفة في الطابق الأرضي و٥٨ غرفة في الطابق المرتفع ويمتد على طول ١٧٠ م وعرض ٤٠ م، خارج المدينة، مقابل باب أنطاكية قرب نهر قويق. تشكل هذه الدار جزءاً من وقف إبراهيم خان زاده محمد باشا^(١٣). بالتالي، بدأت هذه الصناعات التي تركزت في الماضي شمال الجامع الكبير تبتعد من الأحياء السكنية. وغادرت أغلبية الصباغين والنحاسين المدينة باتجاه الضواحي شمال باب النصر.

في القرنين السابع عشر والثامن عشر، تأسست القيسارية التي تضم مشاغل النسيج أو غيرها من الأماكن التي تتمركز فيها الأنشطة النسيجية، بكثرة في الأحياء المسيحية. وبُنيت أغلبية المصابن الكبرى التي تطورت بوجه خاص خلال القرن الثامن عشر وأحصاها روسو في أوائل القرن التاسع عشر وهي لا تزال موجودة في جزء كبير منها، داخل السور على مقربة من الأبواب أو على المحاور الرئيسية التي تقود إليها، أكثر منه في الضواحي.

(١١) جرى إحصاء ١٢٥ مبنى منشأ، ٣٤ منهم في حلب.

(١٢) André Raymond, «Les Grands waqfs à Alep et au Caire à l'époque ottomane à Alep et au Caire à l'époque ottomane (XIV^{ème}-XVII^{ème} siècles),» *Bulletin d'études Orientales* (Damascus), vol. 31 (1979).

(١٣) André Raymond, «Le Déplacement des tanneries à Alep, au Caire et à Tunis à l'époque ottomane: Un Indicateur de croissance urbaine,» *Revue du monde musulman et de la Méditerranée*, vol. 55, nos. 55-56 (1990).

الرسم الرقم (١٥ - ٥)
وقف إبراهيم خان زاده، في العام ١٥٧٤: سوق خان الجمرك



الرسم الرقم (١٥ - ٦)

وقف محمد باشا دوقه كين زاده في حدود ١٥٥٥ : مسجد العادلية والقلعة



المصدر: محفورة لدرموند - من القرن الثامن عشر.

لم يكن اختيار هذه المواقع المتميزة حصيلة تخطيط علمي، ومع ذلك فهي استخدمت وسائل لإنتاج مكان يلبي بشكل فعال التنوع في حاجات المدينة (انظر الرسم الرقم (١٥ - ٧)). إذا كانت أغلبية الأماكن التجارية تقع في أسواق وخانات «المدينة» في قلب المدينة، فإن الضواحي التي ضاعفت مساحة المدينة خلال العهد العثماني غدت مركزاً للأنشطة التصنيعية أو لتخزين وتسويق منتجات الزراعة وتربية المواشي؛ فاستضافت تلك الضواحي سكاناً جدداً ممن أيدوا عاملة رخيصة أو محترفين مؤهلين، وشكلت مركزاً أساسياً لتنوع الأنشطة وتمازج الشعوب، وهو ما يندرج ضمن خصائص وضع العاصمة الذي يمكن لحلب المطالبة به^(١٤).

٣ - الضواحي المتخصصة: تطور الضواحي الشمالية المسيحية والمختلطة

يمكننا قياس أهمية المجموعات المسيحية من خلال النمو الطبوغرافي الهائل لأحيائها الواقعة في الضواحي الشمالية^(١٥)، ولا سيما عبر حجم عمليات تقسيم المساحة إلى أشرطة من العرض نفسه يعاد قطعها عمودياً للتوصل إلى أقسام مرتبة نوعاً ما. تغطي هذه الأقسام نحو ١٠ هكتارات على أربع مجموعات^(١٦).

من المرجح أن ترقى تلك الأقسام المؤرخة جزئياً من خلال المنازل التي تضمها (نحو عام ١٦٠٠ بالنسبة إلى منزل وكيل) إلى القرن السادس عشر^(١٧) حيث تم شغلها على نحو تدريجي. وقد سكنها المسيحيون بوجه خاص من أرمن وموارنة وملكيين^(١٨). وتبقى هذه التقسيمات الجزئية الكثيرة عند أطراف الضواحي الشمالية نادرة أو غائبة عن الضواحي الأخرى وعن المدينة الواقعة داخل الأسوار (انظر الرسم الرقم (١٥ - ٧)).

(١٤) سيكون من الممتع تعيين الوظائف المقارنة للضواحي الكبيرة في كل من حلب ودمشق. فضواحي الأخيرة، لجهة الشمال، ويخاصة إلى الجنوب، تستجيب لأنشطة متنوعة، أحياناً دينية وتجارية على التوالي، مثل الميدان، الموقع الذي تتجمع فيه قافلة الحج.

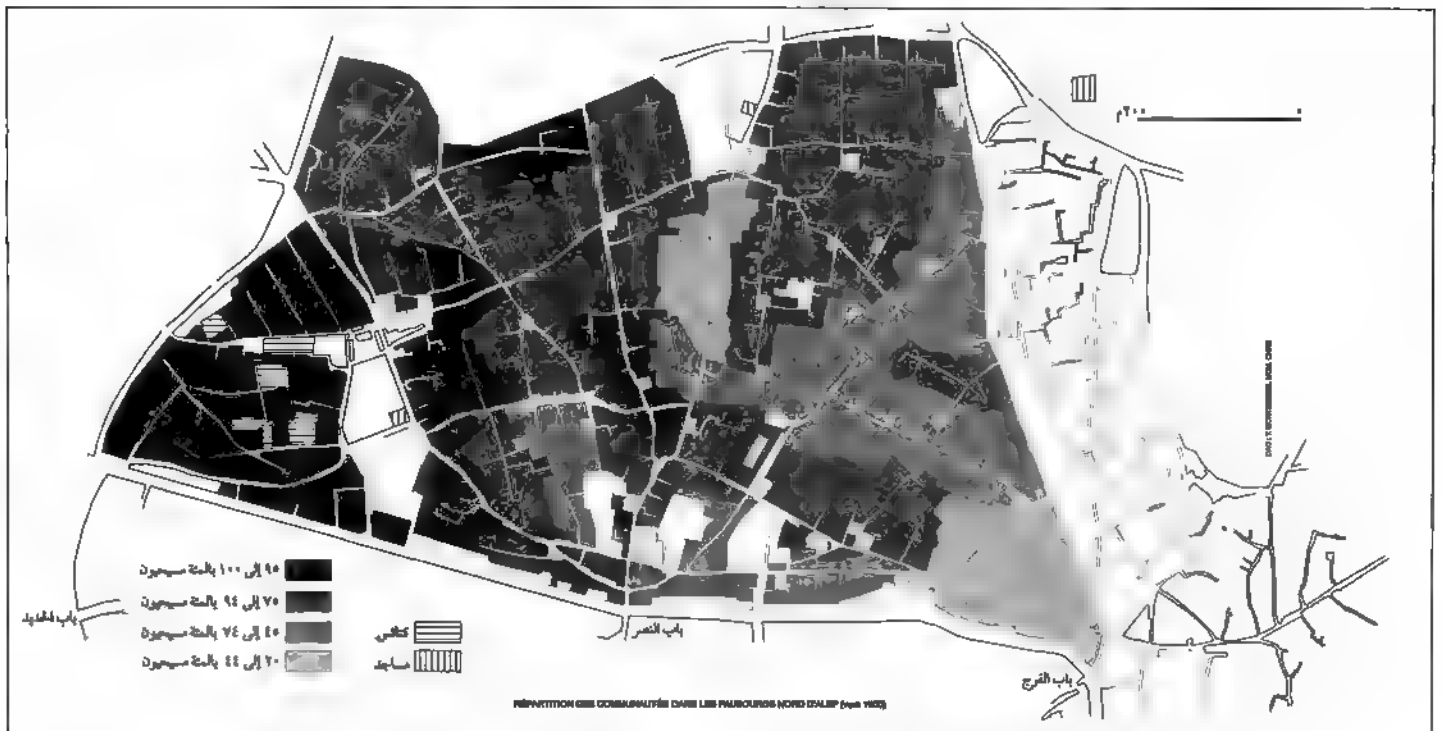
(١٥) André Raymond, *La Ville arabe, Alep, à l'époque ottomane (XVI^{ème}-XVIII^{ème} siècles)* (1998) (Damascus: IFEAD).

(١٦) Jean Claude David, «Urbanisation Spontanée et planification: Le faubourg ancien nord d'Alep (XV^{ème}-XVIII^{ème} siècles)», *Les Cahiers de la recherche architecture*, vol. 10, no. 11 (1982), pp. 62-73.

(١٧) بحسب المؤرخ الحلبي ك. الغازي، أنشئ حي زقاق الأربعين في فترة حكم السلطان سليم الفاتح (١٥١٢ - ١٥٢٠) بهدف إسكان أربعين أسرة مسيحية.

(١٨) يبدو أن السلطان مراد الرابع، وفي أثناء مروره بحلب عام ١٦١٦، أجاز للأرمن تكبير كنيستهم القديمة على نحو بارز. دينامية الجماعات المسيحية في حلب، وسلطة الأشراف وعلاقتهم الجيدة بالسلطات، تظهر في وقائع تكبير الكنائس وإعادة الجزئية لترميمها.

الرسم الرقم (١٥ - ٧)
توزيع الجماعات في الضواحي الشمالية من حلب (نحو عام ١٩٠٠)



كما سُجِّلَت ظواهر أخرى عند أطراف الضواحي تمثلت بـ «الحوش» أو القيسارية المحلية، وهي مجموعة من المساكن الجماعية التي تبدو كما لو أنه تم التخطيط لها من قبل سلطة معينة. ولربما كانت هذه الباحات الكبرى المحاطة بغرف للسكن معدة أصلاً «للعمال المهاجرين العزاب» وأن العديد من المسيحيين مكثوا أول ما مكثوا في المدينة في هذه المساكن الفقيرة.

٤ - الأوقاف الكبرى كوسيلة لإنتاج مكان عام في الأحياء المسيحية

تطوّرت هذه الأحياء أيضاً بفعل حركة نمو الأوقاف، ولا سيّما الأوقاف المسلمة على مشارف الأحياء ذات الأغلبية المسيحية. وقد تعزّز هيكل هذه الضواحي، وهو مجموعة طرقات تخرج من باب النصر، باستحداث نظام لجر المياه نحو عام ١٤٩٠ يصل إلى النوافير والجوامع والحمّامات وشبكات الخدمات العامة التي يزخر بها العالم الإسلامي.

تمركز المسيحيون بوجه عام عند التقاطعات وفي قلب التجمعات وراء الصف الأول من الأبنية وفي المساحات القليلة التمدّن باتجاه الغرب، حول الكنائس، وفي الشرق. ويعتبر التوضع في قلب التجمعات، بعيداً من المكان العام، آمناً ومفضلاً وهو يوفر الحذر الضروري لمن هم من غير المسلمين.

يعدّ وقف بهرام باشا الذي تأسس عام ١٥٨٣ الوقف العثماني الكبير الأول في هذا الحي ويقع في جزء كبير منه في «المدينة» ويضم أحد أكبر حمّامات المدينة في الجديّة. تأسس وقف الحاكم إيشير باشا عام ١٦٥٣ ليكمل هذا الوقف الأول^(١٩). تضمّ عدة أوقاف ترقى إلى القرن الثامن عشر (طه زاده، جابري...) مواقع في الضاحية الشمالية هي في أغلبية الأحيان أسواق أو قيساريات ومجموعات من مشاغل النسيج وغيرها من المشاغل في مجال الأنشطة النسيجية.

يشكّل مجموع هذه الأوقاف مركزاً حقيقياً مع نافورة وحمّام عام ومقهى كبير وجميل جداً وغيره من المقاهي الأكثر تواضعاً ومئات الحوانيت والخانات التي تخزن فيها المنتجات الغذائية والألياف النسيجية؛ كما تضم هذه الأوقاف المدايق والمطاحن

Raymond, «Les Grands waqfs à Alep et au caire à l'époque ottoman à Alep et au caire à (١٩) l'époque ottoman (XIV^{ème}-XVII^{ème} siècles);» Jean Claude David and B. Chauffert-Yvart, *Waqf D'Ipsir Pasa A Alep (1063-1653): Etude d'urbanisme historique*, Publications Institut Français de Damas PIFD (Damas: Institut Français d'études arabes de Damas, 1982).

وقيساريات النسيج وجامعاً صغيراً جداً. وفي حين استخدم مسيحيو حلب الأملاك التابعة لها، فإن عائدات تلك الأوقاف، التي كانت رمزاً قوياً وخياراً عملياً، خصصت للأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة (انظر الرسم الرقم ١٥ - ٨).

الرسم الرقم (١٥ - ٨)

وقف إبراهيم خان زاده، في العام ١٥٧٤: فناء خان الجمر



لم يتمتع المسيحيون بنفوذ مباشر لإنتاج أمكنة عامة فهذا كان حكراً على الإسلام في المدينة المسلمة. غير أن الوزن الاقتصادي لمجموعتهم والعلاقات التي أقامها بعض أعيانهم مع السلطة برزت في الأوقاف المعدة لخدمتها. وحتى في ذلك، فإن البحث البسيط عن الربحية كان من شأنه تبرير تمركز تلك الأوقاف على مقربة من الأحياء المسيحية التي تشكل مجتمعاً شاباً، منتجاً ومستهلكاً دينامياً^(٢٠). كما تجلّى رخاء المسيحيين من خلال بناء مئات المنازل (في القرنين السابع عشر والثامن عشر) التي وإن كانت صغيرة نسبياً، بُنيت على يد حديثي النعمة وكانت فاخرة ومريحة وأكثر عملائية من المنازل القديمة، الواسعة والمتباينة العائدة إلى الأسر الإسلامية.

Jean Claude David, «L'Espace des chretiens a Alep: Segregation et mixite, strategies communautaires (1750-1850),» *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, vol. 1, no. 55 (1990).

٥ - تطوّر الضواحي الشرقية وباب النيرب وبنقوسة:

المكان المدني لغير سكان المدينة

يكمن أحد القواسم المشتركة بين مدن سورية الداخلية، على غرار حلب وحمص وحماة^(٢١) في وجود الأحياء المتشعبة التي أسسها أشخاص غير مدينيين والموجودة بوجه عام شرق المدن على نحو متواصل مباشرة بالسهب والصحراء. في حماة، لا يزال هذا الحي يحمل اسم «الهدير» الذي يشير إلى مخيم البدو الرحل وهو مكان للاستقرار غير دائم بالضرورة. كما أنّ هذه الأحياء كانت صلة الوصل مع العالم الريفي واستضافت خلال العهد العثماني التركمان والأكراد والإنكشاريين... إلخ.

يبدو أنّ الإنكشاريين ذوي الوظيفة العسكرية أصلاً ألفوا مجموعة تضم عشرات آلاف الأشخاص في حلب في نهاية القرن الثامن عشر. ويتفق المؤرخون على أنّ استقطاب الإنكشاريين كان يتم من بين صفوف المهاجرين غير العرب والبدو والفلاحين في المدن. «هي شعوب وصلت للتو (...) وكانت فقيرة نسبياً، لذا كانت تجذبها الفرص التي تقدمها الخدمة العسكرية كوسيلة للعيش والارتقاء بالمكانة الاجتماعية»^(٢٢).

وفي الحقيقة، إن الانتماء إلى فرق الإنكشاريين ربما بدا وسيلة لتبديل الوضع الاجتماعي والاندماج بصورة أفضل في المدينة^(٢٣). حافظ الإنكشاريون على علاقات وثيقة بمجموعاتهم الأصلية والقبائل وتراتبيتها وبعض المهن؛ وعليه، فإنهم منظمون نسبياً وباستطاعتهم إنتاج القادة والأعيان الذين يتم اختيارهم لا ضمن التراتبية العسكرية، إنّما ضمن التراتبية القبلية^(٢٤) (انظر الرسم الرقم ١٥ - ٩).

(٢١) كانت ضاحية الميدان في دمشق، ضاحية العوام الريفي داخل المدينة، مختلفة عن مدن أخرى وأقل انتساباً إلى أصول بدوية.

Raymond, «Réseaux Urbains et mouvements populaires à Alep (fin du XVIII^{ème}-début du XIX^{ème} siècles),» p. 99.

(٢٣) كانت أحياء الإنكشارية في الجزء الشرقي من هذه الضواحي، الأكثر انفتاحاً على المدينة بفضل تنوع أنشطتها ومنشآتها. تميّز محوّر بنقوسة، حيث يتجمعون أكثر من أي مكان آخر، بوجود بعض الأصول الوقفية متصلة بمؤسسات الأشراف الكبرى في القرن الثامن عشر. وكانت الأحياء على جانبي المحوّر في الضواحي الشرقية الوحيدة التي تضمّ مسيحيين (موزعين) في القرن الثامن عشر وحتى نهاية التاسع عشر.

Jean Claude David, «Les Territoires des groupes à Alep à l'époque ottomane: Cohésion urbaine (٢٤) et forms d'exécution,» dans: Sylvie Denoix, ed., «Biens Communs, patrimoines collectifs et gestion communautaire dans les sociétés musulmanes,» *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, vol. 79, no. 80 (1996).

الرسم الرقم (١٥ - ٩)
اجتماع نبلاء في صالون الخان (من القرن الثامن عشر)



A. Russel, *The Natural History of Aleppo*, 2 vols. (London: A. Millar, 1794).

المصدر:

خلال الاضطرابات التي شهدها القرن التاسع عشر، اضطلع بعض الأشخاص المنحدرين من هذه الأحياء والمتسبين إلى مجموعة الإنكشاريين، بدور تجاوز نطاق مجموعتهم. فهم إما تعاونوا مع السلطة المركزية وإما ناهضوها، بموجب تحالفات مؤقتة مع فرق أخرى، ولا سيما «الأشراف». وكانت هذه التحالفات تؤتي ثمارها، إلا أنها بقيت غير مستقرة وظرفية^(٢٥).

ولربما شكّل الترسخ القوي لهذه السلطات ضمن مساحة معينة وفي مجموعة معينة أحد أسباب عجزها عن الاتحاد على نحو مستدام مع مجموعات أخرى لتشكيل سلطات أو مواقع نفوذ مدنيّة.

(٢٥) القوى القادرة على إحداث الشغب والموجودة في الأحياء الشرقية من حلب كانت أيضاً مستندة إلى جماعات خارجية: كما جرى عام ١٨٥٠ حين استعانت بالبدو والفلاحين من الريف والصحراء حين لم تكن الأمور تجري في مصلحتها.

٦ - الاستثمارات العقارية والأوقاف في الضواحي الشرقية:

تعبئة الموارد المحلية

تضمّ الأجزاء الأكثر قدماً من هذه الأحياء منازل ترقى إلى أوائل العهد العثماني وهي مدنية كلياً. إلا أن المساكن فيها أكثر فقراً عموماً من أغلبية الأحياء الأخرى^(٢٦). تؤكد خريطة توزيع أسعار المنازل في أواسط القرن الثامن عشر التي أعدها أبراهام ماركوس^(٢٧) استناداً إلى سجلات المحاكم، المؤشرات الهندسية (انظر الرسم (١٥) - ١٩).

تتميز الهوامش شمال بنقوسة بسيطرة الأحواش، وهي مساكن شعبية جماعية تضم مجموعة من عشر باحات كبيرة (تساوي مساحة كل واحدة منها ٥٠م × ٢٥م تقريباً) تغطي مساحة نحو هكتار ونصف الهكتار^(٢٨).

كما أن هنالك أحواشاً أخرى أكثر صغراً في عدّة أحياء من هذه المنطقة. تتألف المساكن في الضواحي الخارجية، ولا سيّما حي الصفا في الشمال (الذي لربما بني خلال القرن التاسع عشر) من باحات كبرى متفاوتة القياسات تتوزع حولها غرف السكن والمباني ذات الاستخدام الزراعي أو لتربية الماشية.

كما أن تنوّع المساكن ظاهر في شرق باب النيرب، حيث يسجّل وجود للمنازل الفردية الصغيرة من دون باحة في حي القرباط الذي قد يعود إلى أوائل القرن التاسع عشر والمنازل ذات الباحة الكبيرة في السُّخنة وغيرها من الأحياء شبه الريفية، علاوةً على الأحواش الصغيرة والأراضي المسوّرة ذات الاستعمال الريفي والمساكن الأكثر مدنيّةً العائدة إلى الحرفيين والتجار والأعيان التي نتجت في أغلبية الأحيان من عمليات إعادة بناء تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين^(٢٩).

(٢٦) كما في أحياء أخرى، يتناقض هذا المسكن مع منازل أخرى أكثر اتساعاً وقادرة على احتواء إيوان - ولم تكن القاعة الكبرى الموجودة في مساكن الأثرياء قد ظهرت بعد هنا.

(٢٧) Abraham Marcus, *The Middle East on the Eve of Modernity: Aleppo in the 18th Century* (New York: Colombia University Press, 1989), figure 91.

(٢٨) الحوش، الذي كان يبنى بطريقة منتظمة نتج كما يبدو من تدخّل قوي، عام أو خاص. يصعب تحديد تاريخه لأنه خضع لتحولات. لكن يحتمل أنه بني في القرن الثامن عشر، ثم أعيد تقسيمه لاحقاً إلى مساكن صغيرة ذات مساحات صغيرة، مع باحة خاصة، في قلب الساحة المركزية، في مكان جماعي غير منظم يحوي بئراً.

(٢٩) دمّرت هذه الأحياء في الغالب مع التوسع المدني في أعوام ١٩٨٠ - ١٩٨٢.

الرسم الرقم (١٥ - ١٠)
صورة جوية لوقف إيشير باشا وحي الجَدْبِلَة في حوالى العام ١٩٥٤



تميّزت تلك الضواحي، علاوة على فقر المسكن والطابع الريفي الظاهر أحياناً، بالندرة النسبية للتجهيزات الجماعية. فبدلاً من أن تتوزع الحمامات على مقربة من الأحياء، فهي كانت تقع قرب أبواب السور، ولا سيما عند باب الحديد حيث يستغل وجود ثلاثة حمامات. وكانت تلك الأحياء المكتظة بالسكان تضم خمسة حمامات^(٣٠). كما أن عدد النوافير وغيرها من التجهيزات والجوامع الصغيرة التي ترقى إلى عهد المماليك أو إلى أوائل العهد العثماني كان أقل من عددها في الأحياء التي تقع داخل المدينة، في حين أن شبكة قنوات المياه أقل كثافة مقارنةً بالأحياء الطرفية الواقعة في الضاحية الشمالية (انظر الرسم الرقم (١٥ - ١٠)).

إذا كانت أملاك الأوقاف بارزة في هذه الضواحي، فإن حصة الأوقاف الكبرى العائدة إلى حكّام القرنين السادس عشر والسابع عشر غائبة، بخلاف الضواحي المسيحية. كما أن أوقاف الأعيان في القرن الثامن عشر لا تعني تلك الأحياء، ففي وقف الحاج موسى الأميري لعام ١٧٦٣، توجد، من أصل ١٣٦ ملكية، ثلاث فقط (حانوت ومصبغتان) في الضاحية الشمالية الشرقية، في حين أنها غائبة عن باقي الضواحي الشرقية. في المفارقة، يقع نحو ٣٥ ملكية في الضواحي الشمالية^(٣١). وتقع بعض أملاك وقف أحمد باشا طه زاده ما بين عامي ١٧٥٣ - ١٧٦٥ على المحور الرئيسي لبنقوسة في مكان قريب (حوانيت ومقهى وقيسارية وفرن منزل...).

يدلّ هذا التنوع في المجموعات والتهميش الاجتماعي وأهمية السلطات المحلية وطريقة الإنتاج والطابع الفريد للمجال المدني على ضعف شديد في المدنية، أو لربما على مدنية محدودة. تتجسّد هامشية الضواحي الشرقية في لامبالاة الأعيان المدنيين وفي وجود فئة من الأعيان خاصة بهم. وإن كانت هناك حركية اجتماعية ومكانية بين تلك الضواحي والأحياء الموجودة داخل المدينة، إلا أنه يصعب قياسها ووصفها.

وفي القرن الثامن عشر، غالباً ما كان الأعيان الحلييون، ولا سيما المثقفون والتجار منهم، يدعون أنهم منحدرين من مدن أخرى، سواء في سورية أو العراق (ولا سيما البصرة وبغداد والموصل) أو الأناضول أو مصر أو المغرب، لا من أحياء حلب الشعبية

(٣٠) احتوت الضواحي الشمالية على سبعة حمامات، موزعة بطريقة حسنة في المكان. كذلك جرى تصحيح النقص في منشآت الأحياء الشرقية من خلال تشييد حمامات جديدة في حدود عام ١٩٠٠. انظر: Jean-Claude David and Dominique Hubert, «Le Déperissement du hammam dans la ville: Le cas d'Alep», *Les Cahiers de la recherche architecturale*, nos. 10-11 (1982), pp. 62-73.

(٣١) Jihane Tate, *Une Waqfiya du XVIII^{ème} siècle a Alep* (Damascus: Institut français d'études arabes de Damas, 1990), p. 83ff.

أو على الأقل من ضواحيها. كما يدّعي معظمهم أنهم كانوا من الأعيان في مدينتهم الأصلية^(٣٢).

يتمتع سكان الضواحي الشرقية في حلب، شأنهم في ذلك شأن «المدينين» الآخرين، بقدرات لافتة على إقامة العلاقات مع الخارج، لكن بخلاف المجموعات الأخرى التي تنتمي في الوقت عينه إلى مدينة وبصورة أوسع إلى المدينة وإلى جميع مدن الإسلام، يعتبر انفتاح سكان تلك الضواحي على الخارج نتيجةً طبيعيةً لاندماجهم الضعيف في المدينة، كون جذورهم الخارجية غير مدنية. وتحفظ الأغلبية بانتماين، أولهما الانتماء الأصلي، القبلي عموماً، وثانيهما الرغبة في الاندماج في المدينة.

ثانياً: المساحات والأحياء الأهلية القراة العائلية والترائيات الاجتماعية للمكان

تطوّرت الهندسة الأهلية لا لاتباع الموضة فحسب، بل لتلبية حاجات التطور في نمط الحياة وموازن القوة بين المجموعات والاستراتيجيات العائلية وانخراطها في المساحة.

من الممكن أن تشكّل الديناميات المحلية أو الإقليمية التي ينبغي تحديد محركاتها، تفسيراً للاستقلالية النسبية حيال التيارات الثقافية والفنية والسياسية والاجتماعية النابعة من المركز. فالقاهرة لم تؤثر سوى قليلاً في حلب في عهد المماليك في حين كان تأثيرها أكبر في دمشق. أما إسطنبول فأثّرت إلى حد بسيط جداً في حلب ودمشق في عهد العثمانيين. وقد شكّلت بعض الجوامع وغيرها من الهندسات استثناءً على هذه القاعدة.

١ - العمارة الأهلية الجديدة وتطوّر المجتمع

تراجعت المساحة المتوسطة للمساكن ما بين القرن السادس عشر ونهاية القرن الثامن عشر، في حين تم استيعاب الزيادة الثابتة نسبياً في عدد السكان أثناء هذه الفترة^(٣٣).

Margaret Lee Meriwether, *The Notable Families of Aleppo, 1770-1830: Networks and Social Structures: Thesis* (New York: University of Pennsylvania, 1981).

André Raymond, «The Population of Aleppo in the 16th and 17th Century: According to Ottoman Census Documents,» *IGMES*, no. 16 (1984).

من خلال التطور المكاني والتكاثف. يطلعنا عدد من المصادر الهندسية أو القانونية (محفوظات المحاكم)، ولا سيّما بالنسبة إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر، على عدّة حالات من التقسيم الفرعي مع إعادة بناء أو من دونها، نتيجةً لتركة معينة^(٣٤).

ابتداءً من القرن السادس عشر، أخذت الغرف تتوزع حول باحات مغلقة على حساب التنظيم ضمن أجنحة في حديقة مفتوحة كانت تفضّل في الماضي لدى بناء القصور. يدعونا بعض النصوص والشواهد الهندسية التي ترقى إلى عهد المماليك وإلى أوائل العهد العثماني إلى الاعتقاد بأن بعض القصور كانت لا تزال قائمة على هذا التنظيم المرن الذي يجمع ما بين القاعات ذات القعص المحوري والأواوين والأحواض وغرف الخدمة في حديقة مغلقة^(٣٥).

أما قصر جان بولاد الذي بُني في حلب في القرن السادس عشر على أنقاض قصور للمماليك، وقصر العظم الذي بُني في دمشق خلال القرن الثامن عشر في موقع قصور أكثر قدماً، وكلاهما موجود في أحياء داخل المدينة قريبة من المركز، فيظهران بوضوح فكرة الأجنحة الواقعة ضمن حديقة التي تطوّرت بشكل غير كامل لتتخذ شكل تنظيم حول عدّة باحات أو جمعت بدقة ما بين النظامين (انظر الرسم الرقم (١٥ - ١١)).

واكب تنظيم آخر مختلف جداً للمساحة نظام الأجنحة في عهد المماليك في ما يتعلق بقصور الأمراء في حلب ودمشق. ويبدو أن هذا التصنيف الاستثنائي في سورية مستوحى من أشكال وممارسات موجودة بصورة بارزة في القاهرة في عهد المماليك. كانت غرف السكن تعلو فوق الطابق الأرضي المخصص للخدمة والإسطبلات بوجه خاص. وربما تكون بعض منازل القاهرة قد طورت إلى أكثر من طابقين. وكانت العلاقة بين البعدين الوظيفي والهندسي في حلب وسورية العثمانية تُحدد عبر المحور الشمالي - الجنوبي المتألف من مجموعة الإيوان - الحوض - الحديقة^(٣٦).

Antoine Abdelnour, *Introduction à l'histoire Urbaine de la Syrie Ottomane, (XVI^{ème}-XVIII^{ème} siècle)* (Beirut: L'Université Libanaise, 1982).

David: «L'Espace des chrétiens à Alep: Segregation et mixité, stratégies communautaires (1750-1850),» et «Une Grande maison de la fin du XVI^{ème} siècle à Alep,» *Bulletin d'Etudes Orientales* (Damascus), no. 50 (1988).

(٣٦) هناك مثال واحد معروف للقاعة في حلب بنيت في الحقبة العثمانية، مطلع القرن السابع عشر، على قواعد أساسية ومصممة لخدمات أهلية مثل المطبخ والملحقات، لكن من دون إسطبلات كما في القصور الملوكية الأميرية في القاهرة، وهو بيت المعراوي، في حي قشّرين.

الرسم الرقم (١٥ - ١١)
فناء داخلي لمنزل في حلب،
في النصف الأول من القرن العشرين



المصدر: من أوجين نابليون فلاندين.

من المرجح أن يكون هذا التنظيم متفقاً مع أهمية خيالة الممالك كأساس للسلطة وبالتالي مع وجود عدد كبير من الخيول والإسطبلات في قصور المدينة^(٣٧) والجيش العثماني يعرف الخيالة أيضاً، لذا، لم تختفِ الخيول من المدينة، إنما أصبح وجودها أقل ازعاجاً.

استعيض من هذين النظامين بتوليفة جديدة مهيمنة في أغلبية المنازل، باستثناء الأكثر تواضعاً منها، تستند إلى هيمنة الإيوان وهو مكان مركزي ورمزي يستضيف المحور الشمالي - الجنوبي الذي ينظم الباحة.

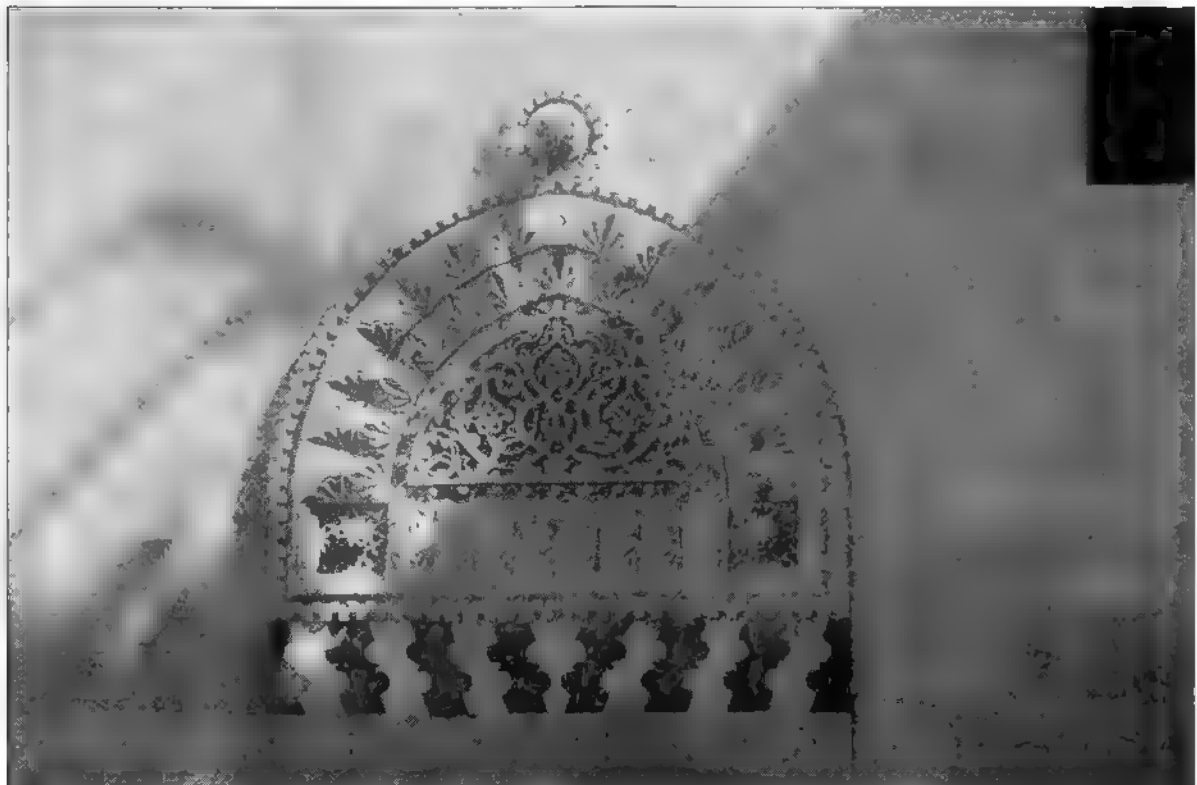
(٣٧) يوثق غارسان إلى التغيير في الأشكال المعمارية المحلية في القاهرة المتصلة بالسلطة والمجتمع مع سقوط الممالك وتصادد النفوذ العثماني. انظر: Jean Claude Garcin, *Palais et Maisons du Caire: 1: Époque mamelouke (XIII^{ème}-XVI^{ème} siècle)*, HC ART CP10 (Paris: CNRS Editions, 1998).

في هذه المساحة الصغيرة، للنبات والماء وجود شبه رمزي. ونادراً ما كانت تضم جهات الباحة الأربع جميعها الغرف في حين أن الواجهات التي بنيت في فترات مختلفة قلما كانت متجانسة. فالمنزل خاضع لتطورات مستمرة ويتكيف مع الحاجات العائلية.

يعد القصر (السراي، القوناق)، وهو مركز السلطة، مجالاً عائلياً، وهو ما لا يتناسب والإطار الثقافي العربي - الإسلامي والشرقي، فالقصور في فرنسا كانت مساحات منزلية بدورها في الفترة نفسها.

تسمح الحلول الهندسية والممارسات بإدارة هذا التعايش بين الوظائف العامة والمنزلية، فالمنازل الكبيرة تضم جزءاً عائلياً أكثر تطوراً ومساحات للاستقبال يكون تطورها متناسباً وأهمية الوظيفة العامة لرب المنزل. فالمنزل ذات الباحثين الداخلية والخارجية هو تكييف ظرفي أكثر منه حصيلة تصميم أولي وتخطيط مسبق (انظر الرسمين الرقمين (١٥ - ١٢) و (١٥ - ١٣)).

الرسم الرقم (١٥ - ١٢) زخرفة نافذة في منزل «مكتبي»



الرسم الرقم (١٥ - ١٣)
واجهة منزل مكتبي (القرن السادس عشر): إعادة ترميم



٢ - الأوقاف والمساحات الأسرية: الأعيان يحددون مواقعهم

في القرن الثامن عشر، اشتهرت بعض الشخصيات المهمة الأكثر ثراءً في عصرها، على غرار الحاج موسى الأميري وأحمد باشا طه زاده وعثمان باشا^(٣٨)، ولا تزال ممتلكاتهم وأوقافهم محفوظة في جزء كبير منها إلى اليوم. أما منازل تلك الشخصيات فتتناسب والنموذج المطور خلال القرنين الفاتنين، ولكنها اكتسبت طابعاً «برجوازيّاً»، فيدهشنا تواضعها النسبي وغياب الارتقاع والقياسات الصغيرة للأواوين وغياب القاعة الكبيرة على شكل T وكثرة الغرف المستطيلة الأكثر صغراً وحميمية والمزينة بفخامة بواسطة تلييسات خشب مطلية ورخام ملون في العتبات. كما تميزت المنازل التي بناها المسيحيون في الفترة نفسها بقياساتها الصغيرة وغنى زينتها والراحة التي توفرها، فظهرت الحمامات الخاصة الصغيرة وتكاثرت حمامات المياه والمغاسل والمطابخ. ويبدو أنه تم اقتباس بعض العناصر من الهندسة الغربية، على غرار النوافذ ذات العقود الصغيرة التي تميز مساكن الخانات (انظر الرسم الرقم (١٥ - ١٤)).

الرسم الرقم (١٥ - ١٤)
فناء منزل أتشيلباش (القرن الثامن عشر)



كان الحاج موسى الأميري وأحمد باشا طه زاده وعثمان باشا من كبار مالكي الأراضي المدنية وفي وسعهم ممارسة الوظائف الرسمية أو الأنشطة التجارية. وقد أسسوا أوقافاً هائلة مختلفة كل الاختلاف عن تلك العائدة إلى حكام القرنين الماضيين وتتصل بصورة وثيقة بمساحتهم المنزلية وهي على مقربة من مساحتهم العائلية حيث يمارسون نفوذهم. فبنوا مجموعات تساوي مساحتها مساحة أوقاف الحكام الكبرى ولكنها أقل ضخامة. ودمجوا منطق السوق والمنطق المحلي والعائلي بالمنطق الاقتصادي ومتطلبات الربحية. تركزت استثمارات آل الأميري وأقربائهم في سوق علي، في «المدينة» وفي الضواحي الشمالية، وهي ثلاثة مراكز للأنشطة الاقتصادية وشبكات السلطة والاستراتيجيات العائلية^(٣٩) (انظر الرسم الرقم (١٥ - ١٥)).

الرسم الرقم (١٥ - ١٥)
سقف ردهة استقبال؛ من القرن الثامن عشر



1770-1830: Networks and Social Structures: Thesis, and Marcus, The Middle East on the Eve of Modernity: Aleppo in the 18th Century.

Jean-Claude David, *La Suwayqat 'Alī a Alep*, PIFD (Damascus: Institut Français Damas, (٣٩) 1998).

٣ - التراتبية الاجتماعية الجديدة للأحياء

تأثرت المساحة المدنية بالتراحيات الاجتماعية المتباينة المختلفة كل الاختلاف عن التنظيم الكلاسيكي القائم على علاقات تبعية بين رب عمل وزبائن من الجوار نفسه، أو التراتبية ضمن قبيلة أو أسرة، كما كانت الحال في عصور أقدم أو في أماكن أخرى. يدل بعض أسماء شوارع وأحياء المركز التي ذكرها ابن العجمي أو ابن الشحنة، إضافة إلى الآثار الهندسية، على توزيع قصور الأمراء في جميع الأحياء الواقعة داخل المدينة، بما في ذلك «المدينة»، والمحاطة بالمنازل المتواضعة. خلال العهد العثماني، ظل بعض قصور الأعيان مبعثراً (الكواكبي في الجلوم والغوري قرب الكلثاوية... إلخ)، إلا أن تلك العائدة إلى الأعيان الجدد تتركز في أحياء قريبة من أماكن السلطة والأنشطة الاقتصادية. يستند التنظيم الضروري في المدينة العثمانية إلى تجمع الأشخاص الأكثر ثراء قرب المركز وإلى إقصاء الفقراء في الأرباض^(٤٠).

استناداً إلى سجلات المحاكم، كانت أسر الأعيان الثلاثين عند منعطف القرن التاسع عشر^(٤١)، تسكن في ستة عشر حياً فقط من أصل الأحياء المئة والأربعة التي تضمها المدينة؛ تعيش نسبة ٧٥ في المئة من هذه الأسر في سبعة أحياء، منها ستة شمال الأسواق والجامع الكبير. سكنت الأسر المسيحية الغنية في الضواحي المسيحية التي سجلت نمطاً مماثلاً بوجود منازل الأعيان قرب الكنائس ومنازل الفقراء الجماعية عند الأطراف (انظر الرسم الرقم (١٥ - ١٦)).

سبق وتطرقنا إلى مسألة تهيش بعض المجموعات غير المدنية التي تسكن في المدينة، على غرار الريفين والقبليين والإنكشاريين والجنود خارج الثكنات والمهاجرين العزّاب الذين عاشوا في الضواحي الشرقية والشمالية الشرقية حيث تتركز الأنشطة المهنية المحترقة المتصلة بالعالم الريفي والحيوان وخدمات تنظيم وتجهيز القوافل. وتمّ في حلب استحداث حل في ما يتعلق بفئة خاصة من المهمشين، مثل الأجانب الغرباء الذين يجب ألا يسكنوا في الأحياء، والقناصل والتجار الأوروبيين والموفدين. كان الحل يكمن في التجمع في الخانات مع البضائع.

Jean-Claude David, «Alep, Degradeations et tentative actuelles de readaptation des structures urbaines traditionnelles», *Bulletin d'Études Orientales*, vol. 28 (1975).

Meriwether, *The Notable Families of Aleppo, 1770-1830: Networks and Social Structures: Thesis*.

الرسم الرقم (١٥ - ١٦)

نساء من حلب (١٧٩٠)



المصدر: من فرنسا روسيه.

ثالثاً: وجود الغربيين والتدخل مع المجموعات المحلية فمن عام ١٨٥٠

١ - القناصل والمبشرون وكاثوليك حلب

تميّز القرن التاسع عشر بالنفوذ المتنامي للغرب على الشرق الأوسط، الذي ترافق مع ظهور القوميات في الإمبراطورية العثمانية وانتهى إلى مكاسب استعمارية. غير أن وجود الغربيين ليس بالحديث، إذ إن الأواصر التجارية وحماية المسيحيين في الشرق منحت شرعية لوجود مستمر، منذ القرون الوسطى، للبنادقة والجنوئين ومن ثم للفرنسيين والبريطانيين والفرنلنديين، ولا سيّما في حلب. كما أنّ التبادلات التجارية بين حلب وفرنسا شكّلت أحد أبرز محركات الوجود الغربي في المنطقة.

سلّطت دراسات سوفاجي الضوء على نشاط القناصل والموفدين في حلب. كما عكف ب. هايبرغر^(٤٢) من جهته على عمليات ونتائج التبشير الكاثوليكي في حلب، ولا سيّما من خلال التقارير والرسائل التي بعث بها رجال الدين إلى رؤسائهم، وغيرها من ملفات محفوظات الرهبنات، ولا سيّما أعوام ١٩٨٨ و ١٩٩٦ و ١٩٩٧^(٤٣).

كذلك معروفة تماماً تواريخ وأماكن استقرار المبشرين المختلفين في حلب إضافة إلى سلوك المسيحيين وتطور ذهنيّتهم، فالفرنسيّسكان واليسوعيون كان لهم بعثة مستقرة في حلب ابتداءً من عامي ١٥٦٠ و ١٦٢٧ على التوالي. كما أرسل رهبان آخرون البعثات إلى حلب على غرار الكبوشيين والكرمليين... إلخ.

ونعرف أيضاً المشاحنات التي تحدّث عنها سوفاجي بين الإدارة العثمانية ومسيحي حلب، ولا سيّما النساء منهم، الذين انجذبوا لحركة المبشرين والذين تردّدوا إلى كنائس وأديرة الخانات في «المدينة». كانت حركة اعتناق الكاثوليكية لا تقاوم

(٤٢) Bernard Heyberger: «Les Chrétiens d'Alep (Syrie) à travers les récits des conversions des missionnaires Cannes Dechaux (1657-1681)», *Mélange de l'Ecole française de Rome* (Rome), no. 100 (1988); «Une nouveau modèle de conscience individuelle et de comportement social: Les Confréries d'Alep XVIII^{ème}-XIX^{ème} siècles», in: *Actes du Premier symposium syro-arabique* (Kaslik) (September 1995), *Paroles de l'Orient*, no. 21 (1996), et «Reforme Catholique et union des Eglises orientales, XVI^{ème}-XVIII^{ème} siècles», dans: *Homo Religiosus: Autour de Jean Delumeau* (Paris: Fayard, 1997).

(٤٣) يذكر سوفاجي احتجاجات القناصل عام ١٧٣٢ على التدخل في الشؤون الدينية وعلى حضور النساء لخدمات الكنيسة «بالرغم من تحذير الباشا». انظر: Sauvaget, *Alep. Essai sur le développement d'une grande ville syrienne, des origines au milieu du XIX^{ème} siècle*, pp. 207-208.

بالرغم من معارضة السلطات الشرقية والإدارة العثمانية وحتى القناصل في بعض الأحيان^(٤٤)، فأعضاء الطوائف الكاثوليكية هم في أغلبية الأحيان الزبائن والموظفون والمعاونون والشركاء المفضلون للغربيين، ولا سيّما الفرنسيين^(٤٥).

قبل نهاية القرن السابع عشر، دفع الفرنسيون واليسوعيون قسماً كبيراً من «السوريين» إلى اعتناق الكاثوليكية (اليعاقبة)، علاوة على الأرمن واليونانيين^(٤٦). ويعود فضل اعتناق اليعاقبة للكاثوليكية إلى قنصل فرنسا، فرنسوا بيكيه^(٤٧). يرقى اعتناق البطريرك الأرمني للكاثوليكية إلى ٢٩ أيار/ مايو ١٦٩٠، وقد تأكدت الأهمية السياسية والتجارية لهذا العمل الديني بالرسالة التي وجهها البطريرك في هذه المناسبة إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر. كما أدى انشقاق عام ١٧٢٤ إلى اعتناق أغلبية «اليونانيين» الكاثوليك.

في أوائل القرن التاسع عشر، أصبح المسيحيون الذين التحقوا بروما يمثلون الأغلبية الساحقة في حلب. وقد أخذت النزاعات العنيفة في أكثرية الأحيان بين الطوائف الجديدة والطوائف القديمة وهي الوحيدة المعترف بها من الإدارة العثمانية، بالتوازنات المكتسبة ولا سيّما تلك التي حدّدت وضع المسيحيين المحميين في مدينة إسلامية. اتّمت الأسر المسيحية الأكثر نفوذاً في حلب إلى الأغلبية الكاثوليكية. ويشير بعض أوجه أنماط العيش وطرائق السكن والسلوك إلى أنّ اعتناق الكاثوليكية هذا لم يشكل غربنة وأنّ الذهنيات لم تتطور بالقدر الكافي.

٢ - فتن عام ١٨٥٠: هل كان المسيحيون كبش محرقة؟

اندلعت الثورات المدنية في حلب طوال فترة العهد العثماني. وعبرت الانتفاضات الشعبية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر عن معارضة عاجزة عن أن تشكل كسلطة اضطلع خلالها الإنكشاريون والشرقاء بالدور الأبرز^(٤٨). خلال العقود الأولى

(٤٤) أذى اليهود أيضاً هذا الدور. وكان أول موظف في القنصلية الفرنسية عام ١٦٦٠ من اليهود، نقلاً عن: المصدر نفسه، الهامش ٧٦٣.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٤٧) أدى بيكيه دوراً بارزاً في التحول إلى الكاثوليكية كما في ترويج التجارة الفرنسية، قبل تنويعه بعد ذلك أسقفاً على بابل.

(٤٨) Raymond, «Réseaux Urbains et mouvements populaires à Alep (fin du XVIII^{ème}-début du XIX^{ème} siècles),» pp. 93-104; Jean Pierre Thieck, «Decentralisation ottoman et affirmation urbaine a Alep

من القرن التاسع عشر، أصبحت الاضطرابات أكثر استدامة وعلانية ودموية، ولم تعد موجهة بوجه خاص ضد السلطات العثمانية.

كان لاحتلال إبراهيم باشا [نجل والي مصر محمد علي باشا] لسورية وفلسطين لعشر سنوات الأثر الأبرز، حيث وضعت الإصلاحات الإدارية وطبقت بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٤٠ تحت السيطرة المصرية الداعية إلى الحداثة والمتأثرة كل التأثر بالغرب، وذلك بإدخال التجنيد والضرائب الجديدة وتأسيس مراكز جديدة للسلطة إضافة إلى سراي «حديث» شمال القلعة كان يسكنه الحاكم ويمارس مهماته فيه، وثكنة كبيرة بنيت على مرتفع خارج المدينة ومعدّة لمراقبتها أكثر منه الدفاع عنها.

خلال الفترة نفسها، اعترفت السلطات بالأساقفة الكاثوليك كممثلين لطوائفهم وسمحت ببناء الكنائس وإعادة بنائها، الأمر الذي سمح للطوائف الكاثوليكية ببناء أماكن عبادة واسعة وغنية (انظر الرسم الرقم (١٥ - ١٧)) والرسم الرقم (١٥ - ١٨)).

الرسم الرقم (١٥ - ١٧)

حلب مطلع القرن العشرين: مشهد من «تلة السودا»

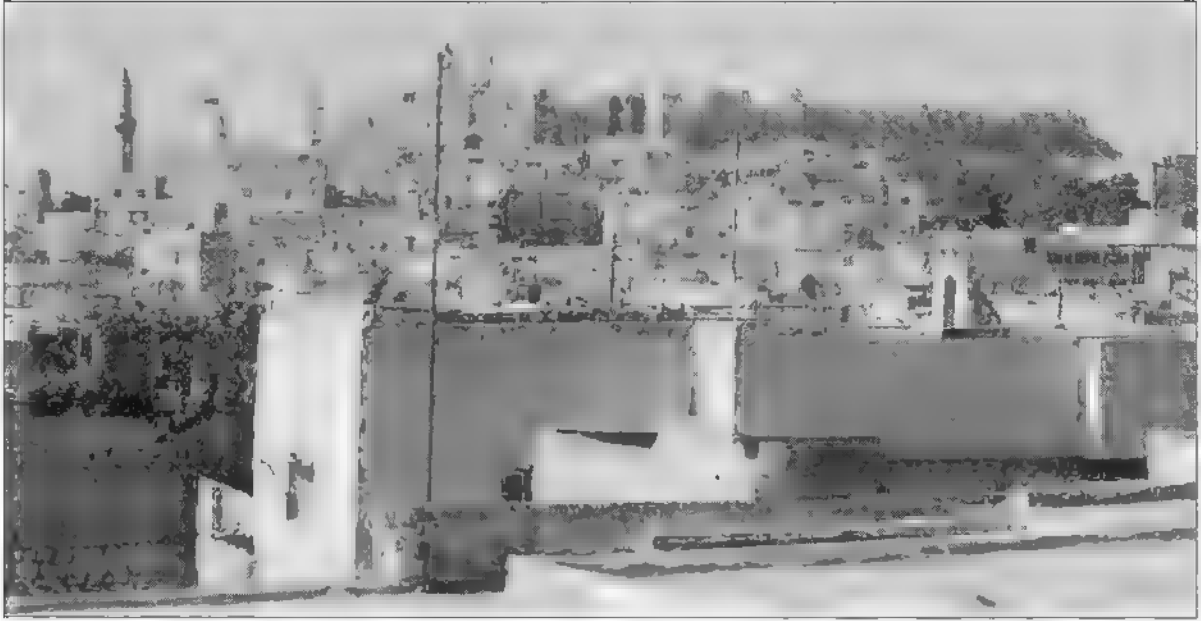


المصدر: الصورة من بوش.

a la fin du XVIII^{ème} siècle,» dans: Mona Zakariya, *Mouvements Communautaires et espaces urbains au Machreq* (Beirut: Centre d'études et de recherches sur le Moyen-Orient contemporain, 1985).

الرسم الرقم (١٥ - ١٨)

القلعة من جهة الجنوب



نشأت فتن عام ١٨٥٠ في الضواحي الشرقية، وهي أحياء الإنكشاريين القدامى والقبليين والمقربين من العالم الريفي. وصل المشاغبون إلى الوسط وإلى أماكن السلطة وبحثوا عن أشخاص يتحدثون إليهم لإيصال شكواهم وحاولوا الاتصال بالحاكم الذي تهرّب منهم. بعد فترات من الهيام بين المدينة وضواحيها، دخل المشاغبون الأحياء المسيحية ونهبوا المنازل وأتلفوا الممتلكات التي تعذر عليهم حملها وسرقوا الكنائس وأضرموا النار فيها، وكان عدد القتلى قليلاً. لم يقلق اليهود، شأنهم شأن المسيحيين، إذ التجأوا إلى جيرانهم المسلمين.

وبعد عدة أيام من البلبلّة، رجحت كفة السلطة العثمانية ودحرت المشاغبين باتجاه أحيائهم أو إلى خارج المدينة وكان القمع عنيفاً، فأسفر عن ضحايا كثيرة في صفوف الشوار. أما المسيحيون فحصلوا على تعويضات لقاء الأضرار المتكبّدة وأعيد بناء الكنائس...

كانت أحداث عام ١٨٥٠ رد فعل شعبياً افتعله قواد محليون؛ فقد أثار تقهقر امتيازات الإنكشاريين أو اندثارهم وإلغاء نظام التعااضديات، وهما عمادان أساسيان للمجتمع، سخطاً عارماً تبلور في رفض التجنيد والضريبة المباشرة وهما إصلاحان محدثان مستوحيان من الغرب. لذا، يمكن القول إنّ الحلبيين ثاروا على مجموعة

من الإجراءات التي اتخذتها الدولة لإعادة تحديد علاقاتها بالسكان على حساب المجموعات الوسيطة التقليدية^(٤٩).

ترتبط الضغينة ضدّ المسيحيين بغنى بعض منهم وتعجرف البعض الآخر. وقد أشار المؤرخون الذين غطوا حوادث عام ١٨٥٠ إلى الكره الذي كنهه المشاغبون للبطريرك الكاثوليكي مكسيموس مظلوم. فقد تعرّضت كاتدرائية الكاثوليك والسرّيان الكاثوليك لأعمال نهب أوسع نطاقاً في حين سلمت الكنائس الأرمنية وأضرمت النار في أسقفية الأرثوذكسيين^(٥٠). إلا أنّ الاعتداء ضدّ المسيحيين جاء منضبطاً بشكل لافت، فالنهب كان منهجياً وعنيفاً، إنّما من دون نية في التعرّض لحياة الناس.

كانت قوة الوجود الأوروبي ظاهرة بوضوح، إذ بدا أنّ المشاغبين لا يستهدفون القناصل والأجانب القاطنين في خانات «المدينة». كما أنّ الأسواق لم تتعرض للنهب وأغلبية الأحداث وقعت في الضواحي. من جهة أخرى، التجأ المسيحيون الأثرياء وبعض الأساقفة والمقربون منهم، إضافة إلى قسم من السكان المسيحيين، إلى القناصل في الخانات، ولا سيّما لدى إدمون دو لوسابس. كما التجأ إليهم أيضاً بعض قادة المتمرّدين أثناء إخماد الانتفاضة (انظر الرسم الرقم (١٥ - ٩)).

رأى القنصل البريطاني بايكر، أنّ فوز القوات العثمانية أكيد بفضل المدافع الجديدة التي زوّدها بها البريطانيون والمساعدة العسكرية التي قدّمها الضباط المجريون والبولونيون اللاجئون الذين قادوا الجيش العثماني. كما بُذل جهد دبلوماسي حثيث؛ ولا شك في أنّ السرعة والفاعلية اللتين أظهرتهما إسطنبول كانتا حصيلة الضغط الذي مارسه القوى العظمى، حيث أرسل السلطان إلى حلب حاكماً يراعي مصالح المسيحيين.

يبدو أنّ الدولة العثمانية وإن نشطت على عدة جبهات، اختارت معسكر المسيحيين والقوى العظمى. فشكل هذا الوجود المفتوح أو الضمني للأوروبيين الذين وفروا الحماية للمسيحيين أحد أسباب النزاع قبل أن يساهم في حلّه.

(٤٩) Moshe Ma'oz, «Syrian Urban Policies in the Tanzimat Period between 1840 and 1841,» *Bulletin of Oriental African Studies*, vol. 29, no. 2 (1966), and Bruce Masters, «The 1850 Events in Aleppo: An Aftershock of Syria's Incorporation into the Capitalist World System,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 22, no. 1 (1990).

(٥٠) طلب المتفضّلون ألا يستخدم المسيحيون خدماً مسلمين، وأن يجري تمييزهم بعلامات على ثيابهم.

اضطلع المسيحيون بدور بارز في حلب، وإن كان محدوداً وخاضعاً للرقابة، ومارسوا أنشطة تجارية وحرفية مزدهرة سمحت لهم بالعيش بشكل متوازن بين مجتمع من الأعيان وتجار الجملة والممولين وعدد كبير من العمال والتجار وحرفيي النسيج. بعد فترة قصيرة من المحافظة على الدينامية في أوائل القرن التاسع عشر، ولا سيما بفضل السوق الداخلية العثمانية^(٥١)، انعكس اتجاه التيارات التجارية وأصبحت صادرات حلب إلى الغرب تسجل عجزاً بعدما كان العكس صحيحاً. وتحول المسيحيون الذين كانوا يتعاونون مع التجار الغربيين إلى وسطاء محليين مفضلين لدى هؤلاء وممثلهم، وأخذوا يوزعون المنتجات المستوردة من الغرب في كل أنحاء الشرق التابعة للإمبراطورية العثمانية، ولا سيما في القاهرة التي كانت تضم عدداً كبيراً من المسيحيين السوريين.

في هذا السياق، لا عجب إن رأى المسلمون أن المسيحيين المحليين اختاروا معسكر الغريب على حساب معسكر القريب. كما يمكن اعتبارهم، بحكم غناهم المتمثل بالزيارات العامة والمواكب الفاخرة على غرار ذلك الذي حيّا وصول مكسيموس مظلوم إلى حلب، إهانةً للفقر والظروف المزرية للحياة اليومية لدى الأغلبية، بما فيه بعض المسيحيين. كما أن رفضهم دفع إتاوة للمشاغبيين جعلهم حلفاء السلطة العثمانية ومسؤولين عن تلك التغيرات التي لا يجوز قبولها.

وبحكم وجودهم وقربهم الاجتماعي من حيث نمط عيشهم وطريقة تفكيرهم، يمكن اعتبارهم بامتياز ضحايا نوع من التمرد التقليدي من حيث الشكل، إنما الجديد من حيث الموضوع والضخامة. أوليسوا كبش محرقة يدين المشاغبيون من خلاله وفي آن معاً السلطة العثمانية التي كانت عنصر التغير والتحديث ومصالح الغربيين الذين أوحوا بهذه التغيرات؟ لقد كان من الأسهل مهاجمة المسيحيين عوضاً من التعرّض مباشرةً للوجود الحقيقي للغرب في القنصليات والأديرة المجمعة في خانات «المدينة».

ألم تكن غربنة المسيحيين التي يعتد بها بروس ماسترز^(٥٢) أمراً سطحياً؟ ففي ظل الظروف الاقتصادية التي كانت لا تزال سلبية في حلب عام ١٨٥٠ وفي إطار نمو متسارع في بيروت، هاجر الكاثوليك السوريون، ولا سيما الحلبيون منهم، في أعداد

Eugen Wirth, «Aleppo dans la première moitié du XIX^{ème} siècle: Un Exemple de stabilité et (٥١) de dynamique dans l'économie ottomane tardive», dans: «Aleppo et la Syrie du Nord», *Revue du monde musulman et de la Méditerranée*, vol. 62 (1991).

Masters, «The 1850 Events in Aleppo: An Aftershock of Syria's Incorporation into the (٥٢) Capitalist World System».

كبيرة. انتقل حصن الكاثوليكية في الشرق الأوسط من حلب إلى لبنان حيث كان هناك وجود للمدارس الإكليريكية والمدارس العادية والأديرة وغيرها...

تأثر مختلف سكان حلب المسيحيين بحركة التحديث على نحو متفاوت، فإذا كان الأعيان قد انجذبوا للغرب لجهة الترفيه والتسلية والأثاث، فهذا الأمر يعني عدداً محدوداً من الأفراد، وهذه النزوات العابرة ليس لها تأثير عميق ولا تندمج ضمن الممارسات التقليدية. تأثر مسيحيون آخرون بصورة أكبر برجال الدين والأخويات والعطاءات والمؤسسات الخيرية، وهي مؤسسات تقترب أكثر من الأخويات المسلمة من حيث تأثيرها في الأوساط الشعبية. وزّعت الكتب والصور الدينية التي تشكل أساساً لممارسة التقوى الخاصة ابتداءً من أوروبا. وتأسست أول مطبعة في العالم العربي في حلب عام ١٧٠٦ لدى الكاثوليك وانتشر التعبير عن الروحانية وعبادة قلب يسوع والمسابيح... إلخ.

في هذا الإطار، اكتسب المصير المأساوي لهنديّة عجمي بعداً مهماً^(٥٣). فهنديّة التي تلقت بوادر التحوّل الفكري الذي حملها إلى الروحانية في حلب في كنف أسرتها المكوّنة من الأعيان المسيحيين المقربين من الأوساط الكهنوتية، سرعان ما اتجهت إلى التصوف. ولم يتأخر الوقت كثيراً حتى أصبحت عام ١٧٤٦ رئيسة دير في عينطورة في جبل لبنان، ثم لدير في بكركي عام ١٧٥٠، وهناك تواجهت الراهبات الحليّيات وأولئك الوافدات من جبل لبنان، بين الملكيات والمارونيات، بين من حظين بحماية اليسوعيين ومن نعمن بحماية الأسقفية المارونية. لقد كان المكان مسرحاً للخلافات التي دلّت على التعارض وعدم التعايش الذي لا يزال قائماً بين الكاثوليكية الغربية والمسيحية الشرقية الكاثوليكية.

خلاصة: ١٨٦٨، أشكال مدنيّة جديدة، وأراضٍ جديدة، ومجتمع جديد

ربما أخطأ المسلمون الهدف بتعرضهم للمسيحيين عام ١٨٥٠، مهاجمين بذلك رمزاً أكثر منه حقيقة، غير أنّ المسيحيين برفضهم العلني لبعض الأمارات المتعلقة بالمبادئ والآليات العثمانية الخاصة بالتعايش بين الطوائف سبقوا بشكل بسيط عملية التحديث التي كانت في طور التطبيق.

Bernard Heyberger, *Hyndiyya Mystique et criminelle, 1720-1798*, Collection historique (Paris: (٥٣) Aubier Montaigne, 2001).

في عام ١٨٦٨، تشكلت حاكمية للصحراء اندمجت مع حاكمية دير الزور عام ١٨٧٠ لتكوين سنجق يضم كامل وادي الفرات السوري والجزيرة وشمال الصحراء السورية. ومع استتباب الأمن، أصبح التنقل ممكناً بين حلب وبغداد عبر الضفة اليمنى. تسارع تحضير البدو وعليه زراعة الأراضي. بدأ الأعيان الحلبيون يستثمرون في هذه المناطق لزراعة أكثر حداثة وحضارة وتصديراً تقوم على القطن والحبوب، وتوسعت مساحات حلب الجديدة تدريجاً نحو الفرات والجزيرة^(٥٤).

بين عامي ١٩٠٠ و ١٩١٠ أنشئت الطرق وبدأت العربات المقطورة تحل محل القوافل وتنقل بين حلب وبغداد باتجاه أورفة والموصل. كانت الأسواق الأساسية في حلب تلك الموجودة في منطقة واسعة تدرج ضمن العقدة الشمالية للسلطنة العثمانية وتحدها بلاد الأناضول الوسطى والشرقية في الشمال والموصل وبغداد في الشرق ومصر في الجنوب. وتأكد بذلك الاستقطاب القاري لأنشطة المدينة.

ترقى السكة الحديد التي وصلت حلب ببيروت إلى عام ١٩٠٦. ولم يصبح الوصول إلى الإسكندرون وهي المنفذ الطبيعي لحلب على البحر المتوسط، ممكناً عبر السكة الحديد إلا ابتداءً من عام ١٩١٤. وعليه، سرعان ما تحولت التجارة الحلية إلى بيروت^(٥٥) التي تضم مرفأً مجهزاً ونشطاً، الأمر الذي أدى إلى تراجع نسبة الحمولة المحملة والمفرغة في الإسكندرون بين عام ١٩٠٦ والحرب العالمية الأولى. وبدأت سورية الشمالية المحيطة بحلب تدرج ضمن منطق سوري - لبناني ووثقت عراها مع دمشق وبيروت، إذ لم تعد المسألة تتعلق بخيار للنفاذ إلى مرفأً متوسطي، إنما بخيارات إقليمية أكثر حيوية.

كما شهد عام ١٨٦٨ إنشاء جهاز بلدي في حلب في إطار إعادة تنظيم عام للإدارة العثمانية وبداية بناء أول حي «حديث»، ألا وهو حي العزيزية المزود بشبكة طرقات منتظمة ومتعامدة وبمنازل كبيرة من دون باحة وسطى ومنفتحة على الخارج بنيت أكثر ما بنيت على يد الأعيان المسيحيين. وبنى المسلمون واليهود أحياء أخرى بعد فترة قليلة.

بني وسط جديد للمدينة ابتداءً من عام ١٨٨٢ لبى الحاجة إلى الخدمات والمساحات الضرورية لوسائل النقل الجديدة والمسافرين الجدد وشبكة المواصلات

Jean Claude David, «Bab Al-faraj a Alep: Un nouveau centre ville pour de nouveaux territoires (٥٤) extérieurs, pour une nouvelle société?», *Cahiers de Recherche GREMMO-Monde arabe contemporain* (Lyon), no. 5 (1996).

(٥٥) كذلك، مع بعض المشاكل، مرحلة خط سكة حديد رياق - بيروت.

الإقليمية الجديدة. استعادت حلب ازدهارها وحازت وظيفة جديدة، ألا وهي وظيفة العاصمة الإقليمية، ومركز إعادة تنظيم قسم من الأراضي العثمانية - الوظيفة التي حضرتها للانكفاء، إذ لاحت في الأفق البوادر الأولى للترسيمات الجديدة للأراضي التي ستؤدي إلى نشأة سورية. فقد أسست العقود الأخيرة للعهد العثماني آليات وأمكنة وخدمات لن يضيف إليها الانتداب الفرنسي إلا القليل^(٥٦).

اضطلع المسيحيون أيضاً بدور في الصراعات القومية وفي بناء مجتمع سوري أصبح فيه غير المسلمين مواطنين كاملي المواطنة، ولم يعودوا رعايا للمسلمين؛ في هذه الطريقة غدا دور الجماعات هو الموضوع.

David, «Les Territoires des groupes a Alep a l'époque ottoman: Cohesion urbaine et forms (٥٦) d'exécution».

الفصل السادس عشر

قصة بورصة:

المركز الصناعي للسلطنة العثمانية

ثريا فاروقي^(٥)

أولاً: من بلدة أميرية إلى مدينة إمبراطورية غير معلنة

تحتل بورصة، بين مدن السلطنة العثمانية الكثيرة، منزلة خاصة. فهي أول مدينة رئيسية احتلها العثمانيون، عام ١٣٢٦، وربما في خلال حياة المؤسس عثمان غازي^(١). وإلى اليوم، في وسع الزائر أن يشاهد مباني من القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وبخاصة الجوامع والمدارس الدينية والأضرحة. لا شيء كان يضاهي حجم ودرجة تطور المباني تلك في الأراضي العثمانية كافة، إلى زمن اكتساح «محمد الفاتح» لما تبقى من الإمبراطورية البيزنطية جاعلاً القسطنطينية إسطنبول، ومؤسساً فيها أولى مجمعات مساجد العاصمة الإمبراطورية.

ظلت بورصة مركزاً مهماً للسلطنة الناشئة المتوسعة حتى نهاية القرن الرابع عشر، حين قرر السلاطنة نقل مقر إقامتهم إلى مدينة أدرنة في البلقان قريباً من الجبهة البلقانية. جرى في الفترة تلك بناء قصر على تلة القلعة، لم يبق منه الكثير اليوم بفعل الزلزال وقرون من الإهمال. ومع ذلك ليس مناسباً وصف بورصة بالعاصمة، على الأقل ليس في

(٥) باحة في التاريخ العثماني.

(١) للحصول على المعلومات الأساسية قارن مقالتي «بورصة» (Bursa) و«حرير» (Harir) في: Halil Inalcik, in: *Encyclopaedia of Islam*, edited by p. Bearman [et al.] (Leiden: Brill, 2008).

عهد السلطان أورخان غازي. فقد وصف ابن بطوطة الذي زار المدينة شخصياً السلطان أنه يملك مئة حصن، يتفقدتها بانتظام، ولا يتاح له بالتالي أن يمكث حتى شهر واحد في مكان واحد^(٢). إلا أن صلات بورصة بالعرش العثماني استمرت إلى فترة طويلة، حتى بعدما باتت السلطنة يصرفون معظم أوقاتهم في أدرنة وإسطنبول؛ إذ ظل أمراء وأميرات السلالة الملكية، وأتى توفوا، يدفنون حتى القرن السادس عشر في المدينة وتحديداً في مجمع المقبرة الملكية التي تحمل اسم السلطان مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١). وإلى ذلك كان الحكام يقصدون جبال أولوداغ (كيس داغي أي جبل الراهب في القرن السادس عشر) القريبة في حفلات صيد. وهكذا بقي في بورصة شيء من المدينة الملكية حتى القرن السادس عشر؛ ولمئة عام لاحقة ظلت مدارسها القضائية والدينية توفر الخريجين لأعلى المناصب في هرمية الإدارة القضائية والتعليمية^(٣).

ثانياً: خارج الصلات: في خدمة العرش العثماني والعاصمة والسوق التجارية العالمية

بورصة، بالنسبة إلى مؤرخي الاقتصاد والمجتمع والثقافة، مدينة متميزة لأنها كانت مركزاً رئيسياً للتجارة والحرف، ولقطاع النسيج على وجه الخصوص. واستمرت تؤدي الدور نفسه حتى نهاية السلطنة وربما بعدها أيضاً. كانت صلات المدينة بالقصر من جهة ونشاطها التجاري والحرفي في البدء من جهة ثانية، وجهين لعملة واحدة، إذ إن سلعاً كثيرة كانت تنتجها بورصة كانت تستهلك في قصر السلطان ويجب أن تنقل بالتالي إلى إسطنبول، وكان ذلك سهلاً بواسطة السفن حتى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

بهذا المعنى يمكن النظر إلى بورصة، بالرغم من حجمها الكبير نسبياً، باعتبارها «مدينة خدمات» تطورت في الغالب في فلك عاصمة أو مدينة كبرى^(٤). بل قيل إن

(٢) انظر: Ibn Battuta, *Voyages d'Ibn Battuta* (Paris: Anthropos, 1854), vol. 2, p. 322.

ينتزع الوصف الذي يعطيه غير زائر لبورصة، في غير زمن، لجهة الطول والتفاصيل، وهي متاحة الآن في: Heath Lowery, *Ottoman Bursa in Trade Accounts* (Bloomington, IN: Indiana University, Turkish Studies, 2003).

(٣) من عام ١٧٠٠ وما فوق وحدها مدارس إسطنبول الدينية كانت تتيح الوصول إلى المراكز العليا. انظر: Madeline Zilfi, *The Politics of Piety: The Ottoman Ulema in the Post-Classical Age, 1600-1800* (Minneapolis, MN: Bibliotheca Islamica, 1988), p. 60.

(٤) Fernand Braudel, *Civilisation Matérielle, économie et capitalism, XV^{ème} - XVIII^{ème} siècle*, 3 vols. (١) (Paris: A. Colin, 1979), vol. 1, p. 444.

المركز المدني المهم في فجر عصر الحداثة كان يُظهر عظمته على نحو نمطي من خلال ربط بلدات أخرى بقراراته. لكن إسطنبول لم تكن تملك في فلكها غير بضع مدن صغيرة لا أكثر. يمكننا أن نسمي منها رودوس تشوك/ تكيرداغ حيث كانت تخزن الحبوب الواردة من خارج المنطقة لوقت الحاجة، وإزمير حيث تولت مطاحنها، في القرن السادس عشر على الأقل، توفير الطحين الضروري لإطعام سكان العاصمة، ثم أيوب بوجه خاص التي كان فيها مقبرة مشهورة لأحد صحابة الرسول، اعتاد السلاطين الذين يتولون العرش حديثاً زيارتها لالتماس الشرعية الدينية^(٥). إلا أن بورصة كانت من دون شك الأكثر أهمية من المستوطنات الملحقة، ولولا وجود إسطنبول والأهمية التي تنطوي عليها لكانت بورصة هي العاصمة الإقليمية بلا منازع.

من الأهمية بمكان، نتيجة التطورات تلك، اعتبار عدد السكان الكبير لبورصة انعكاساً للحجم الذي بلغته الصناعات والتجارة فيها من جهة الطلب عليها والمسافة غير البعيدة من العاصمة. كانت المدينة الأكثر سكاناً في الأناضول معتمدة على العاصمة العثمانية إلى حد كبير، وهو ما عكس درجة المركزية الشديدة التي فرضها السلطان على المقاطعات الأم^(٦). في المقاطعات البعيدة، مصر مثلاً، كان ممكناً للتجار تجنب اليد الثقيلة للإدارة المركزية؛ أما في بورصة فكان عليها أن تفيد من ناحية من الطلب الشديد لزبائنها الأثرياء، وأن تكون أنشطتها الحرفية والتجارية من ناحية ثانية تحت هيمنتهم، وأكثر مما كانت عليه القاهرة أو حلب^(٧).

هذه الصلة المباشرة بإسطنبول تفسر أيضاً لماذا كان يوجد ذلك العدد الكبير من العبيد ذوي الدور الناشط، ليس كخدم في المنازل وحسب وإنما كعمالة في المحترفات والمراكز التجارية أيضاً^(٨). كان التجار أمام خطر التعرض لخسائر إذا

(٥) Nicolas Vatin, «Aux Origins du pelerinage a Eyub des sultans ottomans,» *Turcica*, vol. 27 (1995), pp. 91-100.

(٦) Daniel Goffman, *Izmir and the Levantine World, 1550-1650*, Publications on the Near East, University of Washington (Seattle: University of Washington Press, 1990), pp. 138-140.

(٧) Nelly Hanna, *Making Big Money in 1600: The Life and Tunes of Isma'il Abou Taqiyya, Egyptian Merchant*, Middle East Studies Beyond Dominant Paradigms (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1997).

(٨) Halil Sahillioglu, «Slaves in the Social and Economic Life of Busra in the Late 15th and Early 16th Centuries,» *Turcica*, vol. 17 (1985), pp. 43-112.

وقد أعيدَ طبعها في: Halil Sahillioglu, *Studies on Ottoman Economic and Social History*, Ottoman history and civilisation series (Istanbul: Organisation of the Islamic Conference Research Centre for Islamic History, Art and Culture (IRCICA), 1999), pp. 105-174.

لم تصل بضائعهم إلى عناوينها، أو لم تعد إليهم، لذلك كان توظيف العبيد في خدمة الشحنات التجارية إلى إسطنبول مغامرة لكنهم عرفوا كيفية جعلها تنجح من خلال شرائهم إخلاص عبيدهم. وبعض السر أن تقليد عتق العبيد بعد سنوات طويلة من الخدمة كان موضع التطبيق أو ممكناً، وهو ما دفع العبيد إلى تحمّل مشقات خدمة معلّمهم على الهرب إلى «بلاد الروم» أو «الهند» من حيث أتوا. حتى إنهم بعد سنوات خدمتهم وإقامتهم الطويلة في بورصة لم يكونوا متأكدين من أنهم سيستقبلون على نحو حسن لو عادوا إلى ديارهم الأصلية^(٩).

وحين يتعلّق الأمر بالتجار أو الحرفيين المهرة، فإن توظيف العبيد كجزء من القوة العاملة لديهم كانت خطوة فيها قدر من المغامرة والتكلفة، إذ كان عليهم إسكان العبيد هؤلاء وإطعامهم للتغلب على شكوكهم وغربتهم، كما كان عليهم تعليمهم الحد الكافي من التركية واكتساب المهارات المتوقعة منهم. كذلك كانت التكلفة عالية، إما في حالات دفع تعويضات ما بعد الوفاة لأقارب هؤلاء، أو أحياناً في استثمار فاشل حين يتضح عجز هؤلاء عن تعلّم التقنيات الدقيقة المطلوبة لحياكة قطعة ثياب معقدة على أنوال بسيطة كانت كل ما هو متوافر قبل عصر التحديث في ذلك الزمن. وكان ذلك يعني أن أنوال بورصة في القرن السادس عشر كانت تنتج الأقمشة أو الأنواع المطلوبة لزبائن من الطبقة العليا حيث «لا مشكلة في السعر»، وهو ما لم يكن ليتوافر إلا لدى زبائن مهمّين داخل البلاط العثماني أو ملحقين به.

إلا أنه يظهر أن أقمشة بورصة أصبحت منذ القرن السابع عشر وما بعده أقل فخامة، ولم تعد موجهة للسلطين والوزراء والشخصيات الأرفع في البلاط حصراً. ومع ذلك يتوجب الحذر حيال التواريخ المحددة، فما نرده الآن إلى القرن السادس عشر ربما كان من زمن لاحق. إلا أنه من الثابت أن صناعة الأقمشة بعد عام ١٦٠٠ قليلاً أو كثيراً لم تستعد ألقتها السابق؛ فقد جرى توظيف عمال غير مهرة، وجُلّبت خيوط حرير محلية الإنتاج ومن نوعية متدنية، وهكذا تدنت النوعية وتقلصت التكلفة^(١٠). وربما

(٩) فرنجيستان هو اسم نوع يُقصد به أرض الأفرنجة (الغرب)، وحول العبيد الهنود في بورصة (Bursa)، انظر: Sahillioglu, *Studies on Ottoman Economic and Social History*, p. 134.

(١٠) Haim Gerber, *Economy and Society in an Ottoman City: Bursa, 1600-1700* (Jerusalem: The Hebrew University, 1988), pp. 10-11.

انظر أيضاً: Suraiya Faruqi, «Busra at the Crossroads: Iranian Silk, European Competition and the Local Economy, 1470-1700», in: Suraiya Farouqui, *Making a Living in the Ottoman Lands* (Istanbul: Isis Press, 1995), pp. 113-148.

بسبب توافر بديل محلي للخیوط الباهظة الثمن المستوردة، أمكن لمصانع حریر بورصة أن تبقى مفتوحة مع التوقف الكامل لاستيراد الحریر الإيراني، نتیجة الحروب التي نشأت في إيران مع سقوط الدولة الصفوية وأزمة إنتاج الحریر التي تلتها. وعليه بات إنتاج بورصة منذ القرن الثامن عشر يتجه إلى زبائن أكثر تواضعاً، من غير أهل البلاط، ولكنهم رفيعو الذوق والاختيار؛ إذ بات الحریر على صدور ملابس النساء رمزياً أكثر مما كان قبل عام ١٤٨٠ على سبيل المثال^(١١). إلى ذلك لم يكن الحریر هو القماش الوحيد موضع شغل الحرفي البورصي؛ فقد تقدمت صناعة القطنيات إلى المقدمة، خالصة أو ممزوجة بالحریر^(١٢). وعليه في الإمكان الافتراض من حيث المبدأ أن معامل بورصة باتت بعد عام ١٦٠٠ أقل ارتباطاً بالبلاط السلطاني وأكثر اتصالاً بحاجات سكان العاصمة والسوق المحلية المتزايدة الاتساع.

أما «نقطة التحول» الثانية في الثروة الاقتصادية للمدينة فكان عليها أن تنتظر حتى عام ١٨٣٠، حين اكتشفت صناعة الحریر الناشئة في ليون وبريطانيا العظمى على أسس حديثة كثيفة حقول التوت المحيطة ببورصة كمصدر للمواد الخام الطبيعية. واستدعى ذلك مشاغل كبرى لحل شرائق دود القز إلى خیوط حریر على أيدي قوة عاملة نسائية إلى الحد الأقصى، يتولين معالجة الشرائق؛ نفعها بالماء الساخن وعركها وتصنيفها وجعلها خیوطاً جاهزة للنسج على آلات مصانع ليون الحديثة^(١٣). أصبحت الحياكة نشاطاً ثانوياً، وباتت معامل بورصة الناشئة تعمل، لا في خدمة إسطنبول بل السوق العالمية، والأكثر تحديداً صناعة النسيج الفرنسية، والأوروبية بنسب أقل. استمرت الحال كذلك حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ حين انهارت السوق الخارجية ب نتیجة الحرب تلك. ولم تعد الحياة إلى صناعة النسيج تلك إلا بدءاً من عام ١٩٣٢ حين رعت حكومة الجمهورية التركية الجهود المبذولة لإعادة الحياة إلى تلك الصناعة مع قدر واضح من النجاح، وبخاصة على مستوى الاستهلاك المحلي. إلا أن عوامل محلية وخارجية كانت قد تراكمت ولم يعد بمقدور صناعة حریر بورصة أن تستعيد قصة نجاحها السابق^(١٤).

Suraiya Faroqhi, «Female Costumes in Late Fifteenth Century Bursa,» in: Suraiya Faroqhi, (١١) *Stories of Ottoman Men and Women: Establishing Status, Establishing Control* (Istanbul: Eren, 2002), pp. 63-74.

(١٢) كان إنتاج القطن قطاعاً أساسياً في البلاد، لكن لم يمر توثيق ذلك إلا في القرن الثامن عشر على وجه الخصوص وما بعده.

Leila T. Erder, «The Making of Industrial Bursa,» (Ph.D. Thesis, Princeton University, (١٣) Princeton, 1976).

Fahri Dalsar, *Türk sanayi ve ticaret tarihinde Bursa'da ipekçilik* (Istanbul: Sermet Matbaası, (١٤) 1960).

وفي هذا الإطار، فإن قصة بورصة العثمانية وحرفها الحرفية وصناعاتها النسيجية سوف تصل إلى خاتمتها عام ١٩١٤.

ثالثاً: البنى التحتية التجارية

نستطيع، «من خلال زجاج داكُن»، أن نعود إلى الوراء فنراقب مدينة بورصة كما ظهرت في السجلات العثمانية الرسمية لدافعي الضرائب والموارد الضريبية عام ١٤٨٧. أما الزجاج الداكُن، أي غير الواضح، فيعود إلى حقيقة أن التسجيلات تلك التي وصلتنا هي غير كاملة والوصف فيها لا يشمل أكثر من ٤٣ حياً (محلة) فقط من بورصة المدينة^(١٥). بخلاف ذلك، نحن نعرف، من السجلات أيضاً ولحسن الحظ، أنه كان في بورصة وقتذاك ١٧٤ حياً يسكنها ٦٤٥٧ رب منزل من دافعي الضرائب. ومع ذلك فليس من فكرة عندنا عن متوسط حجم المنزل في بورصة أواخر العصر الوسيط. فإذا قدرنا تقريباً أن في كل منزل أو أسرة كان يوجد ٥ أشخاص، يصبح عدد ساكني بورصة يومذاك نحو ٣٢٠٠٠ شخص، ومع ذلك لا يشمل هذا العدد المعفيين من دفع الضرائب، من أرامل أو جنود أو رسميين، أو غيرهم ممن استثنوا من دفع الضرائب. وعليه يغدو هذا العدد مساوياً لنحو ٢٠ في المئة من عدد سكان أي مدينة عثمانية كبيرة في الحقبة تلك وفق ما بات متعارفاً عليه بين الباحثين. وإذا كان سكان بورصة يصل إلى ٤٠٠٠٠ نسمة كما قدرنا، فهو سيكون بالتالي أقل من نصف عدد سكان إسطنبول في نهاية القرن الخامس عشر^(١٦) (انظر الرسم الرقم (١٦ - ١)).

تبدو قائمة دافعي الضرائب العائدة لهذه الفترة المبكرة منطقية وعادلة إلى حد كبير، فهي تظهر أنه كان في بورصة أسواق وورش حرفية من النوع وبالحجم الذي يتوقعه المرء في مدينة عثمانية ذات وزن. كان فيها مثلاً، وعلى وجه الخصوص، سوق حنطة متخصص، وموازن عامة معترف بها، وورشة لتصنيع السمنة أو الدهون. أكثر من ذلك، كان لبورصة «دمغة»، طابع ضريبي نجده على الأقمشة المصنعة في المدينة، وكان فيها موازين متخصصة للصباغ وللتوابل؛ الأمر الذي يعني أن بورصة كانت على صلة بالشبكة العالمية لتجارة العقاقير والتوابل الموجودة في جنوب شرق آسيا^(١٧).

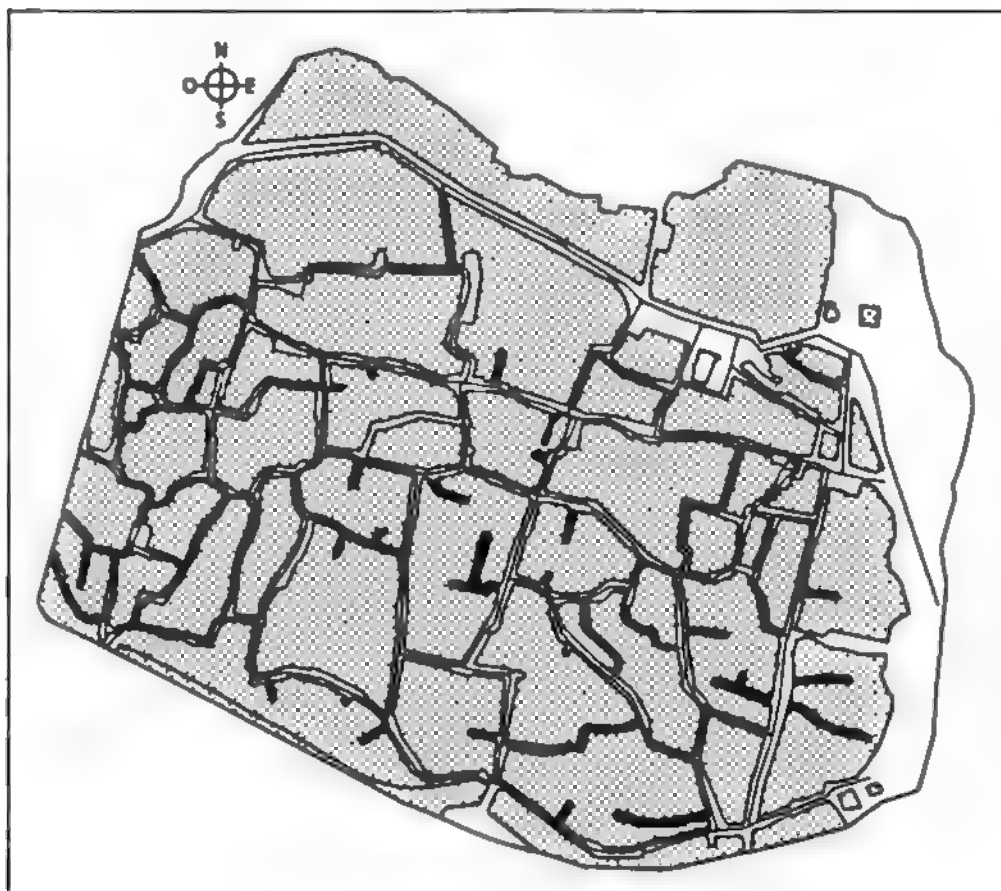
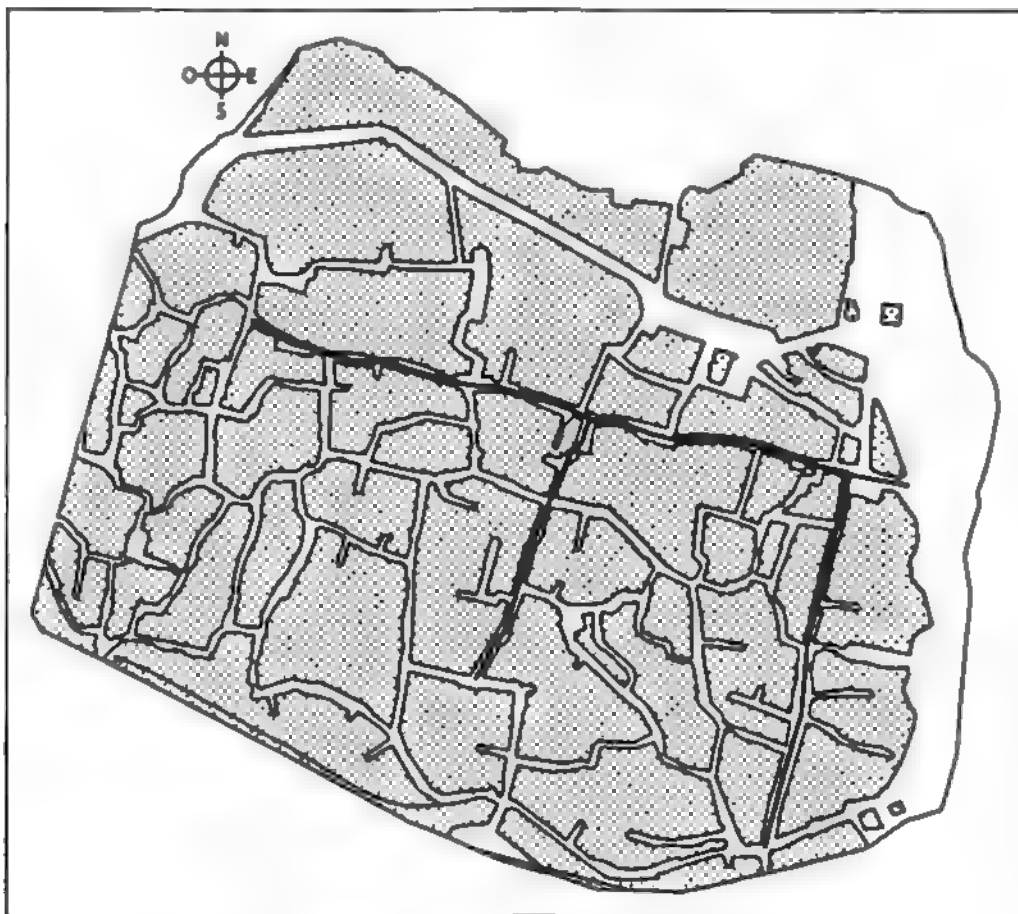
Omer Lutfi Barkan and Enver Meriçli, *Hudavendigar Livast Tahrir Deftri I* (Ankara: [n. pb.], (١٥) 1988), Section p. 1, and introduction, p. 60.

Halil Inalcik, in: *Encyclopaedia of Islam*, vol. 4.

(١٦) قارن بمقالة «إسطنبول» في:

Halil Inalcik, «Busra and the Commerce of the Levant», *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 3 (1960), pp. 131-147, and Barkan and Meriçli, *Ibid.*, pp. 10, note 179.

الرسم الرقم (١٦ - ١)
بورصة: قراءة للممار الرئيسية (فوق) وتصنيفها (تحت)



ومن المؤسف أن السجلات تلك لم تحتو شيئاً عن مداخل مؤسسات السلطان الصناعية والتجارية وأملكه الزراعية الموجودة في بورصة أواخر القرن الخامس عشر، وهو ما يجعلها مرة ثانية سجلات غير كاملة.

إلى ذلك، يمكن استخلاص بعض مكونات تاريخ المدينة الحرفي والتجاري في القرن الخامس عشر من سجلات موجودة وتعود إلى مطلع القرن السادس عشر. ومع أنه يمكن بالطبع أن يكون بعض مصادر عائدات المدينة قد اكتسبت بعد موت المانحين وقبل اكتمال السجلات عام ١٥٢٠، لكن ذلك يبقى الاستثناء لا القاعدة. فقد امتلك كل أصحاب المؤسسات السلطانية مصادر تفصيلية عن الدخل العائد لها. وكثير من المحال التجارية، أو محال القبان، أو الخانات، كان مملوكاً للمؤسسات السلطانية، وهو ما كان يعيق حركة باقي المؤسسات التجارية والصناعية التي تُفرض مع ذلك ضرائب على مداخلها والتي عليها أن تدفع فوق ذلك مبالغ أخرى مقابل الإيجار ورسوماً أخرى عند استخدام المؤسسات.

كانت كل مجتمعات المساجد الرئيسية التي أقامها الحكام في المدينة في الحقبة العثمانية المبكرة تمتلك خانات ومحال تجارية. على سبيل المثال، فالمسجد الكبير (علو قامي) الذي بدئ بينائه عام ١٣٩٦ واكتمل عام ١٤٠٠، كان محاطاً بخانات وبسوق مسقوف. وبالرغم من أن المنطقة كانت في الأساس خارج القلعة، فهي غدت قلب المدينة التجاري مع محمد الأول (١٤١٢ - ١٤٢١) الذي بنى «سوق الخيالة»^(١٨). كان هناك ٦٧ محلاً تجارياً تتبع الجامع^(١٩). ومع الفترة الأولية تلك تقريباً، كان مصدر معظم مداخل مؤسسات أورخان غازي (١٣٢٦ - ١٣٥٢) الأراضي. ولكن حتى في الفترة المبكرة تلك، امتلكت المؤسسة ٢١٤ محلاً تجارياً وملكيات عقارية بُني عليها مداين وخان عُرِف باسم خان البِزَازِيَّة^(٢٠).

كذلك، أوقف السلطان مراد الأول خُداوِنْدِكَار (١٣٥٢ - ١٣٨٩) عدة قرى لمؤسسته الخيرية إضافة إلى أرباح وفيرة من مؤسسات في المدينة. تضمنت الأخيرة قبان بورصة للفواكه، وربما في المبنى الذي كان يباع فيه العبيد أيضاً. كما كان هناك

(١٨) لتفاصيل أكثر حول البنيان قارن بـ: Albert Gabriel, *Une Capitale Turque, Brousse-Bursa*, 2 vols. (Paris: Boccard, 1958), and Godfrey Goodwin, *A History of Ottoman Architecture* (London: Thames and Hudson, 1971), p. 86.

Barkan and Meriçli, *Hudavendigar Livast Tahir Defiri I*, p. 49.

(١٩)

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٥.

ورشة لتصنيع بيرة الدُّخْن (بوزاخان) ومحال تجارية أخرى^(٢١). وأسس بايزيد الأول يلدرم (١٣٨٩ - ١٤٠٢)، صهر السلطان وشيخ الدراويش، مؤسسة ملكية كاملة، احتوت «خان سوق الحبوب» و٢٥ محلاً تجارياً ومدبغة. إضافة إلى ذلك، كان يعمل في هذه المؤسسة، كتلك التي أسسها أوائل السلاطنة، عدد كبير من سكان بورصة^(٢٢). وأخيراً، فقد خصَّ السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢)، الذي كانت معظم أملاكه في إسطنبول، بمؤسسة كانت تمتلك مجمعين (كروانسراي) في المركز القديم («إسكي - يني» و«يُني خان» (الخان الجديد)). وهكذا كان النشاط التجاري في بورصة يمول نحو عام ١٥٠٠ الأعمال الخيرية في العاصمة الجديدة للسلطان العثمانيين.

من خلال جردة موجودات ما بعد الوفاة لثري من بورصة في نهاية القرن الخامس عشر، يمكن إعادة تكوين بنية الأعمال في خانات المدينة^(٢٣). لم يكن الأثرياء الذين لدينا معلومات عنهم هم الذين يسافرون، بل كانوا شركاء مهمين لأصحاب أعمال آخرين، وهو ما يؤكد نمط أعمال كان سائداً في عالم منطقة المتوسط^(٢٤). وربما يكون رجال أعمال ناشطون في تجارة الحرير قد وظفوا في فترة مبكرة تعود إلى أواخر القرن الخامس عشر عمالاً في خدمتهم؛ وإذا صح ذلك فهو يعني أن في هذه المدينة ومنذ زمن طويل كان هناك أعمال تتطور خارج العائلة. كان امتلاك العبيد أمراً شائعاً بين رجال الأعمال أولئك، وبعضهم كان قد أصبح من أبناء عبد الله، أي دخل في دين الإسلام. وهكذا فعلى الأرجح أننا هنا إزاء نخبة من العبيد كانوا يجهزون للإعتاق فيدخلون في أعمال مالكيهم السابقين.

يمثل قطاع النسيج في المجتمعات ما قبل الصناعية والصناعية محورياً رئيسياً. فقد احتلت المحالج وفبارك النسيج موقع الحديد والفولاذ منذ أواسط القرن التاسع عشر وما فوق وصولاً إلى القرن العشرين، والصناعات الكيميائية منذ عام ١٨٩٠، والأدوات الكهربائية بين عامي ١٩٣٠ و١٩٧٠، وصناعات الكومبيوتر بعد ذلك التاريخ. وعليه ليس من المفاجئ أن معظم إنتاج بورصة كان موجهاً نحو قطاع النسيج.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٤٣.

(٢٣) Suraiya Farouqi, «The Business of Trade: Bursa Merchants of the 1480s,» in: Farouqi, (٢٢) *Making a Living in the Ottoman Lands*, pp. 193-216.

(٢٤) Murat Çizakça, *A Comparative of Business Partnerships: The Islamic World and Europe*, with Specific Reference to the Ottoman Archives (Leiden: Brill, 1996), pp. 66-77.

كانت محالج الصوف أقل أهمية، بالرغم من أنها كانت موجودة على نطاق ما. إلا أن المادة الخام الرئيسية التي كانت تجري في المدينة فهي الحرير والقطن، اللذين يمكن خلطهما معاً لإنتاج أقمشة رخيصة هي «القطنيات»، وكان معظمها قمصاناً تدبغ بالأسود وترتديها غالباً نساء من غير المسلمات^(٢٥). ولأن قسماً كبيراً من المواد الخام كان يجلب من خارج بورصة، ومن مسافات بعيدة أحياناً، ولأن المحالج كانت منظمة لتلبي في السلطنة العثمانية شبكة محلية وخارجية، يغدو طبيعياً أن عدداً محدوداً فقط من التجار كان مهيمناً على تجارة خيوط النسيج والمنسوجات.

رابعاً: تجارة الحرير تحت هيمنة قانون العرض والطلب

كانت التجارة تعني مجيء وذهاب الناس من خارج السلطنة، بمن فيهم التجار الفلورنسيون على وجه الخصوص في حدود النصف الثاني من القرن الخامس عشر^(٢٦). وكانت الصلات التجارية، بالمثل، قوية لجهة الشرق من حيث كون تلك البلدان معنية بفبارك الحرير. يخبرنا الأسير البافاري هانز شيلترغر أن الحرير الخام كان يرد من شروان فيُحمل إلى فبارك بورصة بهدف تصنيعه^(٢٧).

ومع ذلك يمكن أن نردّ صناعة الحرير الناشئة في بورصة إلى بدايات يمكن العثور عليها في القرن الثالث عشر، حيث كانت إزنيق، التي أصبحت نيقية، مقراً لميخائيل بالايولوجوس الذي أعاد احتلال القسطنطينية عام ١٢٦١ وأسس فيها حكم آخر سلالة إمبراطورية بيزنطية. كانت حياكة الحرير قد اختفت لفترة قصيرة بعد عام ١٢٠٤، فوجدت حرفيات في نيقية لتخدم حاجات ميخائيل بالايولوجوس وحاشيته، وكان آخر ذكر لذلك في سجلات عام ١٢٩٠^(٢٨). فهل كان لهؤلاء النساكين أنفسهم في حدود عام ١٣٢٦ زبائن لهم في بلاط أورخان غازي في بورصة، مسألة تستحق النظر؟

وأياً يكن الحال، فإن الطلب المتنامي من الحكام العثمانيين هو الذي أسس لازدهار صناعة الحرير في بورصة منذ عام ١٤٠٠، مع الاعتراف بأن المعلومات الدقيقة

Ahmed Refik, *Onuneu Asr-i Lucride Istanbul Hayati (1495-1591)* (Istanbul: [n. pb.], 1988), (٢٥) p. 48.

Lowery, *Ottoman Bursa in Trade Accounts*, pp. 20-22.

Dalsar, *Türk sanayi ve ticaret tarihinde Bursa'da ipekçilik*.

Johannes Schiltberger, *Als Sklave im Osmanischen Reich und bein den Tataren, 1394-1427*, (٢٧) edited and translated by Ulrich Schlemmer (Stuttgart: [n. pb.], 1983), p. 106.

(٢٨) أدین بهذه المعلومة لمحاضرة ألقاها البروفسور دافيد يعقوبي (David Jacobi)، في ميونيخ عام ٢٠٠٤.

حول هذا الموضوع، كما عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمدينة، لم تصبح متوافرة بكثرة إلا في ثمانينيات القرن الخامس عشر؛ إذ بدأ «القاضي» في هذه الفترة يحفظ سجلات المدينة، وهو أمر استمر مع بعض الانقطاعات طوال حياة السلطنة العثمانية. ولم تكن بالقليلة طوال الوقت العقود والخلافات التي كان محورها تجارة الحرير، والتي طالما عاد إليها المؤرخون^(٢٩).

في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كانت شرائق الحرير التي تحل وتصح في بورصة تأتي بقوافل من إيران، وكان التجار في العادة يعبرون الحدود العثمانية في قوافل من طريق ديار بكر أو أرضروم؛ وبعدما يدفعون الرسوم الضريبية المتوجبة، كانوا يعبرون الأناضول من الجنوب الشرقي إلى الشمال الشرقي أو يصلون إلى بورصة عبر طريق القوافل الشمالي الذي كان يمر بتوكات وأماسيا. وحتى دخول الشاه إسماعيل، مؤسس السلالة الصفوية، والسلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) في حرب، تولّى التجار المسلمون من غرب إيران غالباً تنظيم جلب الحرير الخام إلى بورصة. لكن السلطان سليم منع تجارة الاستيراد نحو عام ١٥١٢ بهدف حرمان أعدائه عوائد التجارة تلك، وربما أيضاً لمنع احتكاك التجار العثمانيين بأتباع الشاه الذين كانوا هراطقة دينياً في نظره. وكان التجار الذين كانوا يتجاهلون المنع يسجنون فكان ذلك يفاقم الأزمة بين العرشين. التفت التجار لفترة ما على الحظر ذاك باستخدام الطريق الجنوبي المملوكي عبر حلب، لكن ذلك الطريق أقفل أيضاً بعد انتصار العثمانيين على المماليك عام ١٥١٦ واحتلال حلب^(٣٠). لكن الحظر ما لبث أن زال، إذ جرى التخفيف منه مع تسلم سليمان القانوني الحكم عام ١٥٢٠، الذي أخذ في مشورة فقهية تقول إن منع التجارة وسجن التجار يخالفان الشرع الإسلامي. ولكن يمكن الافتراض أيضاً أن سبب التحرير ذاك إنما كان البطالة التي عاناها سكان بورصة بسبب الحظر، كما الخسائر في العائدات التي أصابت العرش العثماني نفسه.

بعد القطيعة هذه، أصبح قدوم التجار الإيرانيين أقل انتظاماً، حيث باتوا يشعرون كونهم شيعة بعدم الأمان الكافي في أراضي السلطنة حيث يسود المذهب السني. حل بدلاً من أولئك التجار الأرمن الذين أخذوا مهمة الاستيراد من إيران والذين لا يمكن اتهامهم بأنهم دعاة شيعة في زي تجار، كما كانت الفكرة السائدة حتى منتصف القرن

Dalsar, *Türk sanayi ve ticaret tarihinde Bursa'da İpekçilik*, and Inalcik, «Busra and the Commerce of the Levant».

Dalsar, *Ibid.*, pp. 131-136.

(٣٠)

السادس عشر. وأصبح الوضع الجديد رسمياً في حدود عام ١٦٠٠، حين جعل الشاه عباس (١٥٨٧ - ١٦٢٩) تجارة الحرير حكراً على البلاط الشاهي وكلف الأرمن الذين كانوا يسكنون شمال إيران حصراً بتولي هذه التجارة دون سواهم^(٣١). ولما كان الشاه في حالة حرب مع العثمانيين فقد حاول إيجاد طريق بديل لتجارة الحرير عبر التجار الإنكليز الذين استخدموا البحر بدلاً من الطرق البرية، ولكي يحرم بدوره أعداءه من مداخيل الرسوم الضريبية. لكن ما حصل بعد حين أن التجار الإنكليز، أمام الكميات الضخمة من الحرير التي يجب تصديرها، بدوا غير قادرين أو لا يريدون توظيف الكمية من المال التي تحتاج تلك التجارة إليها، وهو ما تسبب بأزمة تصريف لحرير الشاه. ومع تراجع وتيرة المواجهة بين الدولتين، واكتشاف مبلغ الخسارة للجانبين، عادت تجارة الحرير نحو بورصة تدريجاً إلى قنواتها السابقة.

من جهة ثانية، توسعت في القرن السادس عشر صناعة الحرير في رؤوس الجسور التي بدأت لندن تحتلها في غير مكان من الشرق، وكذلك في إيطاليا ومناطق أخرى. وبالرغم من انتشار زراعة التوت وحل الشرائق في عدة أمكنة جديدة، فقد ارتفع الطلب في المناطق الإيطالية خصوصاً على الحرير الخام الإيراني على نحو واضح. لكن صناعة العوائد والأرباح انتقلت الآن إلى التجار الإنكليز في «شركة الشرق» الذين تولوا توزيع الحرير الخام المنتج من البلدان الشرق الأوسطية على مختلف مصانع الحياة الأوروبية. وكان طبعاً أن ترتفع تبعاً لهذا الطلب الشديد أسعار الحرير الخام عالمياً، الأمر الذي توجب على فبارك بورصة أن تدفعه أيضاً^(٣٢).

أضف إلى ذلك، وإن بتأثير أقل، القلاقل الأمنية داخل السلطنة، من مثل تمرد جنود الإنكشارية للدخول في الخدمة النظامية، وانتفاضات ما يسمى الجاللي، التي هزت الأناضول في خلال الثلث الأخير من القرن السادس عشر والسنوات الأولى من القرن السابع عشر. فقد غدت الطرق غير آمنة، وبات الحرير الذي يمكن تهريبه أكثر تكلفة.

Ina Baghdiantz McCabe, *The Shah's Silk for Europe's Silver: The Eurasian Trade of the Julfa Armenians in Safavid Iran and India, (1530-1750)*, University of Pennsylvania Armenian Texts and Studies (Atlanta: University of Pennsylvania, 1999); Rudolf p. Mattbec, *The Politics of Trade in Safavid Iran: Silk for Silver, 1600-1730* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1999), and Edmund Herzig, «The Rise of Julfa Merchants,» in: Charles Melville, ed., *Safavid Persia: The History and Politics of an Islamic Society* (London: I. B. Tauris, 1996), pp. 305-322.

Murat Çizakça, «Price History and The Bursa Silk Industry: A Study in the Ottoman Industrial Decline, 1550-1650,» in: Huri Islamoglu-Inan, ed., *The Ottoman Empire and The World Economy* (Cambridge, MA and Paris: Cambridge University Press, 1987), pp. 247-261.

وزاد الطين بلة أن المتمردين نشطوا بدءاً من عام ١٦٠٣ حتى في المناطق المحيطة ببورصة نفسها، وهو ما جعل السلطات تطلق حملات عسكرية ضدهم، ليزيد من ثم التدمير وصعوبات الإنتاج والانتقال، والتكلفة التي يدفعها المنتجون في النهاية^(٣٣).

كان على صناعة حرير بورصة أن تدفع غالباً ثمن الاضطراب الأمني وتداعياته على تكلفة الإنتاج، وخصوصاً أنها كانت عاجزة عن رفع أسعار منتجاتها بما يكفي^(٣٤). والسبب الرئيسي داخلي بالدرجة الأولى، فمنتجات بورصة موجهة لتلبية حاجات البلاط والحاشية، وهو كان في وسعه بالتأكيد أن يفرض أسعاراً تقل عن تلك التي تلائم تكاليف الإنتاج التي يطالب بها المنتجون. إلى ذلك، بات البديل لحرير بورصة جاهزاً أمام البلاط، وهو ما تنتجه فبارك البندقية من أطرزة حرير عثمانية مخصصة لتلبية حاجات البلاط والحاشية والتي لا يمكن تمييزها من حيث الجودة عن منتجات بورصة، ولكن بأسعار أقل. وزاد من قوة منافسة فبارك البندقية لبورصة الجانب الدبلوماسي الذي أضيف إليها والذي كان ولأسباب واضحة يحرص عليه البلاط العثماني. كان جزء منه على هيئة هدايا إما للبلاط مباشرة وإما للبعثات التي كانت تذهب إلى البندقية في القرنين السادس عشر والسابع عشر؛ وعلى الأرجح أن جزءاً من هدايا البندقية كان يعاد بيعه في متاجر إسطنبول^(٣٥). كانت الأسعار إذاً تحت سيطرة البلاط الملكي الذي كان في وسعه التحول، أو التهديد بالتحول، في أي لحظة إلى بدائل خارجية لفبارك بورصة^(٣٦). وما زاد الأمر سوءاً الأزمة المالية للسلطنة أواخر القرن السادس عشر، التي كانت لتعني أن أي زيادة في أسعار حرير بورصة ستجعله يخسر سوق البيروقراطية العثمانية التي شحّت مداخيلها وتراجعت قدراتها الشرائية على نحو خطير.

ومع ذلك، وخلافاً للمتوقع، لم تؤد الأزمات تلك إلى هلاك صناعة الحرير في بورصة. فبعد كل أزمة أو اضطراب أمني كانت الصناعة تنهض من جديد، وبحسب ملاحظة أحد مؤرخي الفترة تلك، اكتشف صنّاع حرير بورصة أن الأزمات هي جزء طبيعي من الفضاء الذي يعمل هذا القطاع فيه^(٣٧). تحوّل صنّاع الحرير، وكجزء من

Mustafa Akdag, *Celâli İsyanı, 1550-1603* (Ankara: [n. pb.], 1963), p. 220. (٣٣)

Çizakça, *Ibid.*, pp. 251-255. (٣٤)

Maria Pia Pedani Fabris, *In Name del Gran Signor, Inviati Ottomani a Venezia dalla caduta di Costantinopoli alla Guerra di Candia* (Venice: [n. pb.], 1994). (٣٥)

Louise W. Mackie, «Ottoman Kaftans with an Italian Identity,» in: Suraiya Farouqi and Christoph Neumann, eds., *Ottoman Costumes: From Textile to Identity* (Istanbul: [n. pb.], 2004). (٣٦)

Gerber, *Economy and Society in an Ottoman City: Bursa, 1600-1700*, p. 32. (٣٧)

تكتيهم مع الأزمات، إلى نمط عمالة أقل تكلفة، كما اتجهوا إلى المواد الخام المنتجة محلياً، وهو ما يفسر المساحات الواسعة من شجر التوت التي زرعت في ضواحي بورصة، كما تشير إلى ذلك جردات إرث بعض المتوفين من بورصة^(٣٨).

ومع أنه قد توجد استعمالات أخرى لشجر التوت ذلك، إلا أنه كان يصب بشكل أو بآخر لمصلحة صناعة حرير بورصة. يمكن ملاحظة تحولات صناعة حرير بورصة صعوداً وهبوطاً في سجلات «قاضي» أو محتسب المدينة في حدود عام ١٦٠٠، إذ نكتشف من خلالها بقاء صناعة حرير بورصة في قيد الحياة. وأفادت الصناعة تلك من عدم اهتمام التجار الأوروبيين في القرن السابع عشر بالحرير الخام المنتج محلياً، فأفادت منه فبارك بورصة لإحداث بعض التوازن مقابل الأسعار العالية للحرير الخام الإيراني^(٣٩).

ليس في الإمكان، وفق ما هو متوافر الآن، التمييز بين الفبارك التي تحولت إلى الحرير الخام المحلي وتلك التي استمرت تستورد الخام الإيراني المفضل. وإلى أن يتمكن الباحثون في السنوات القادمة من اكتشاف درجات أنواع الحرير الخام المنتج من مزارع محلية في بورصة، وحجم دخولها في حياكة الملابس، وإلى من تنجه، يمكن التكهن أن الطلب من البلاط على الحرير الثقيل ظل يلبي من المواد الخادم المستوردة من إيران^(٤٠).

خامساً: تنظيم الإنتاج وقيوده: العمال (رجالاً ونساء) والنقابات

انتظمت الشرائح الأساسية من حائكي الحرير في بورصة، كما كان سائداً في السلطنة، في نقابات مهنية^(٤١). تولّت هذه التنظيمات حماية مصالح الحرفيين (المعلمون) الذين يحق لهم وحدهم الانتساب إليها، وكان في وسعهم مثلاً تقييد عدد الورش التي يمكن أن تعمل في المدينة؛ وهم يقررون متى تنتهي فصول التدريب للعمال الجدد، وهو قرار يراعي حتماً الحالة العامة للسوق. حين تحل الخلافات داخل النقابات

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٣٩) Murat Çizakça, «Incorporation of the Middle East into the European World Economy,» *Review*, vol. 8, no. 3 (1985), pp. 353-378.

(٤٠) تفاصيل شفهية أعطاها شارلوت جيروسيك مديرة متحف النسيج في جامعة كورنل، إيثاكا، نيويورك.

(٤١) Gerber, *Economy and Society in an Ottoman City: Bursa, 1600-1700*, p. 61.

لا نقرأ شيئاً عن ذلك في السجلات، أما حين تصل الخلافات تلك إلى القاضي، وهو يستعين بدوره بآراء معلمين مجربين، فيجري تنظيم محاضر مسجلة بالحالات تلك.

كان تنظيم شؤون الحرفيين يجري من خلال «المحتسب» يوماً فيوماً؛ الذي كان يرى أن تحديد الأجور يجب أن يجري بواسطة القاضي أو بالتوافق داخل النقابة نفسها. على سبيل المثال، تحتوي سجلات عام ١٥٠٢ التي تناولت تحديد الأجور، إشارات ثمينة حول أنواع أثواب الحرير المحاكة في بورصة عند مفتتح القرن ذاك، كما للانتهاكات التي كان يرتكبها الدباغون، أو النساجون، أو سواهم من الحرفيين والتجار. يعود النص إلى نوع الحرير الثقيل المخملي (كثيف)، والمقصب، والحرير الخفيف (كمها) المعروف بال «Vale». ويدل تنوع أنواع الحرير المنتج ذاك على مدى التقدم الذي كان موجوداً في صناعة حرير بورصة^(٤٢).

واستناداً إلى النص، استمرت الصناعة تلك مزدهرة جداً وفي ما خص تجارة الحرير تحديداً، كما يتضح أن التحول نحو أنواع رخيصة برسم بعض المستهلكين، لم يكن، كما قد يتوقع المرء، هو القاعدة أو المهيمن حتى في زمن الصعوبات. فقد جرى اتهام الحرفيين بصنع حريرهم الكثيف بطرز رخيصة ومحاولة تبرير أفعالهم بإلقاء اللوم على تجار معينين يحتكرون السوق ولا يبيعون إلا بأسعار عالية، وبحيث إنهم هم أنفسهم باتوا عاجزين عن توفير الأنماط القديمة والمكلفة. تناولت شكاوى أخرى طريقة النسيج الضعيفة للمواد الخام في الأثواب المنسوجة، ومنها ندرة الفضة والذهب التي تدخل في غزل الأثواب تلك.

ما نقوله لا يعني أن كل التغيرات التي دخلت على نوعية النسيج كانت ضارة. فمع الاعتراف بأن نساجي ما يسمى «غولستاني كمها» أنتجوا نوعية أخف من تلك التي سوّقها زملاء لهم، فإن المعلمين المجربين يعرفون أن كلا النوعين مطلوبان من الزبائن في الواقع ولا يمكن بالتالي منع النوع الخفيف.

ومع أن الكلمة الفصل في تنظيم الإنتاج كانت للمعلمين، فلا يمكن القول إنهم المتجرون وحدهم. ويمعزل عن العمال العبيد الذين لم يكن لهم دور في القرار، وعن المتدربين، فقد شكلت النساء عاملاً مهماً من القوة العاملة وفي الإنتاج، بالرغم من أنهم

Omer Lutfi Barkan, «Bazi Buyuk Sehirlerde Esya ve Yiyecek Fiyatlarinin Tesbit ve tefisi (٤٢) Hususlami Tanzim Eden Kanunlar,» *Tarih Vesikalan*, vol. 1, no. 5 (1942), pp. 326-340; vol. 2, no. 7 (1942), pp. 15-40; vol. 2, no. 9 (1942), pp. 168-177.

لم يملكن الأنوال أو الآلات التي يجري النسيج عليها^(٤٣). فبعضهن كن ناسجات، وذلك تبعاً لشهادة فتاة مسجلة كانت تتدرب على كيفية نسيج الفاله^(٤٤). وكان دورهن أكبر في قتل الخيطان وجدلها. فتبعاً لشهادة هاكي محمد، عام ١٥٣٠، الذي كان كما يبدو تاجراً أو جابي ضرائب، فقد أعطى حريراً مملوكاً للدولة إلى امرأة محلية لجدله^(٤٥). ويتبين من سجلات تعود إلى عام ١٦٧٨ أن من أصل ثلاثمئة آلة قتل وجدل (مكوك) كان نصفها مملوكاً لنساء. وذلك يعني أنهن كن فاعلات مستقلات بالرغم من تواضع آلاتهن، ولم يكن مجرد تابعات لأعمال أزواجهن^(٤٦). تخصصت نساء أخريات في صنع الصفائر والشارات التي توضع على الثياب، وامتلكن الحق ببيعها أنى رغبن ومن دون دفع رسوم، وغالباً لمصلحة تجار بورصة^(٤٧). ومع الأسف لا سجلات لدينا تشير إلى نساء أسسن محالج حرير لمصلحتهن، وهو ما سنجد في إسطنبول القرن السابع عشر^(٤٨).

في جملة ما يعنيه هذا، أن الإنتاج لم يكن وفقاً على المتسبين إلى النقابات، وأن جزءاً من العمل كان يقوم به أناس من خارج النقابات. كان في وسع التجار التدخل في مراحل مختلفة من عملية إنتاج الأقمشة، كما كان هناك قدر واضح من التنافس بين معلّمي الورش العاملة والتجار الذين أرسوا نوعاً من تنظيم العمل خارج النقابات، حيث يعطون الحرير لنساء خارج القبارك، وحتى في القرى، ليتولين نسيج ما يطلب إليهن من أثواب. وعليه يذكر سجل «قاض» يعود إلى عام ١٦٧٧ نساءً غير مسلمات كن يسكن بورصة ويبعن إنتاجهن في المدينة، بعد أن يجري جدل الخيطان وفتلها في بلدة كايت القريبة^(٤٩). كان هناك إذاً، معلمون وحرفيون صارمون يعملون لإنتاج رفيع وفق تقاليد

(٤٣) يمكن على الأقل البناء على نص في سجلات لقاضي بورصة تعود للعام ١٥٨٦، وهي تظهر أصحاب الأنوال التي عانت خسائر تبعاً للحرب العثمانية - الصفوية، ولم يكن من نساء بين الأسماء تلك، انظر: Dalsar, *Türk sanayi ve ticaret tarihinde Bursa'da ipekçilik*, p. 335, and Haim Gerber, «Social and Economic Position of Women in an Ottoman City, Bursa 1600-1700», *International Journal of Middle East Studies*, vol. 12 (1980), pp. 231-244.

Dalsar, *Ibid.*, p. 320.

(٤٤)

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٩٦.

(٤٦) Gerber, «Social and Economic Position of Women in an Ottoman City, Bursa 1600-1700», p. 237.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٢٣٧.

(٤٨) Angelos Delivorrias, *A Guide to the Benaki Museum* (Athens: Benaki Museum, 2000), pp. 137-140.

Dalsar, *Türk sanayi ve ticaret tarihinde Bursa'da ipekçilik*, p. 388.

(٤٩)

مهنية تقليدية عريقة، كما كان هناك تجار وعمال خارج النقابات تدفع في الاتجاه المعاكس.

وعليه ليس صائباً القول، كما يجري أحياناً، إن مهني بورصة كانوا عاجزين عن التكيف مع شروط السوق: فقد أنتجوا في مناسبات وظروف معينة منسوجات رخيصة (الكُتَم) أو اعترفوا أن منتجات تخصصهم من نوعية رخيصة كانت موجودة إلى جانب قطع غالية الثمن. كان القصر كما يبدو قادراً على الدفع باتجاه الحفاظ على نوعية الإنتاج التقليدية. لكن دور القصر بات أقل أهمية مع عمليات الإنتاج بعد عام ١٦٠٠، بل إن نساجين كثر كانوا يبحثون عن بدائل ممكنة لأنواع الإنتاج الجاري وشكله، ومستابع هذا الجزء في الفقرة التالية.

سادساً: تحرير بورصة خارج البلاط والحاشية

كان في وسعنا في القرن السادس عشر أن نرى ثياباً كهنوتية صنعت في فبارك بورصة في أثناء خدمات قداس رعايا في السلطنة في الكنائس الأرثوذكسية؛ إلا أنه، لسوء الحظ، لا تكفي السجلات التاريخية التي وصلتنا لتكوين فكرة دقيقة عن مدى تحول الكنائس المسيحية إلى زبائن لتحرير بورصة ذي النوعية العالية، أو ما إذا كان تجار بورصة في القرن السادس عشر قد سعوا فعلاً إلى فتح مثل هذه السوق. من وجهة تاريخية، كانت الثياب الكهنوتية في الكنائس تحمل في الواقع تواريخ محددة، لكنها تواريخ تحدد زمن تقديمها إلى الكنيسة لا زمن صنعها. لكن يبقى ذلك مؤشراً ذا قيمة.

ينطبق هذا مثلاً على ثوب عثمانى مطرز بالذهب وفي طراز جوقة كنسية أهدي عام ١٦٢٩ إلى كاتدرائية سان جون برودروم في سترالي (مقاطعة سترس اليونانية) بعدما انضمت إلى نيوفيتوس، متروبوليتانية نيقية^(٥٠). في هذه الحال من الصعب معرفة ما إذا كان النسيج صنع لاستخدام آخر ثم جرى تعديله وتقديمه إلى نيوفيتوس، أو أنه صنع خصيصاً للمناسبة؛ إذ من غير المستبعد أن تكون فبارك بورصة قد صنعت أثواباً لمناسبات دينية مماثلة. ففي متحف بيناكي في أثينا يعرض ثوب صنع في بورصة في القرن السادس عشر يُظهر صورة مريم العذراء بين ملائكة^(٥١). إلى ذلك، يأخذنا العجب من المصدر الذي آمن منه النساجون الذين أنتجوا أوشحة وأقمشة أخرى كنسية لمصلحة

Delivorrias, Ibid., p. 136.

Delivorrias, Ibid., p. 137.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٧٤، و

(٥١)

الكنيسة خيوطهم الفضية والذهبية والحريرية؛ إذا كانت إسطنبول هي المصدر في بعض الحالات فإن حرفيي بورصة كانوا مصدراً محتملاً أيضاً.

كذلك، ومن خارج البلاط العثماني، كان النبلاء البولونيون زبائن إضافيين لحريير بورصة، فقد ارتدى هؤلاء في القرن السابع عشر طرازاً من الثياب مستوحى من الطرز العثمانية وقد صنّعه فبارك بورصة من حريير ثمين خصيصاً لهذا الهدف. بعض هذه الأثواب كانت لمناسبات رسمية، وقد استعيدت في سياق الاكتشافات الأركيولوجية^(٥٢). والبعض الآخر كان يدور، وفي هذه الحالة كثياب كنسية لرهبان كاثوليك، ونادراً ما كانت تظهر عليها تواريخ الإهداء في هذا السياق، فذروة الطراز السرماتي كانت في القرن السابع عشر ويعتقد أن عدة فبارك حريير محفوظة من بولونيا تعود إلى هذه الفترة. وما لا شك فيه أن السوق البولونية الجدية هذه شكّلت بديلاً أصيلاً كانت تحتاج فبارك حريير بورصة إليها لكي تتجاوز صعوبات الإنتاج في تلك المرحلة، وهي كانت جزءاً من العوامل التي ساعدت على نهوض صناعة الحريير في بورصة من جديد بعد عام ١٦٠٠ في الوقت الذي كانت مشتريات البلاط تنخفض أواخر القرن السادس عشر.

سابعاً: وفرة إنتاج صناعة الحريير في القرن الثامن عشر

وصل انتعاش سوق النبلاء البولونيين مع رواج الطراز السرماتي إلى نهايته في القرن الثامن عشر؛ ومع ذلك وجد حرفيو بورصة أسواقاً بديلة أخرى. حين نراجع جردات ممتلكات عائدة لثلاثينيات القرن الثامن عشر، يتضح فوراً أن النساء، وهن نصف السكان، بتن يملكن الآن منسوجات، حريرية وقطنية، أكثر من أي وقت مضى^(٥٣). وبينما كان عدد الأثواب والقمصان والأوشحة المملوكة حتى من امرأة حسنة الظروف المادية متواضعاً جداً في القرن الخامس عشر، رأينا امرأة ثلاثينيات القرن الثامن عشر تملك عدة أثواب حريرية، إضافة إلى الأغذية والستائر وملءات الأسرة^(٥٤).

Selmin Kangal, *War and Peace: Ottoman-polish Relations in the 15th-19th Centuries* (Istanbul: EREN Books, 1999), p. 237.

Lowery, *Ottoman Bursa in Trade Accounts*, pp. 66-70.

(٥٣)

يقدم الدليل من سجلات الرحالة بخصوص ازدهار حريير بورصة وتوجهها للسوق المحلي.

Faroghi, «Female Costumes in Late Fifteenth Century Bursa».

(٥٤)

في جردات القرن الثامن عشر مقارنة مثلاً بسجل ب ١٦٠ في المكتبة الوطنية، أنقرة. بالطبع ما من طريق لمعرفة ما إذا كان مجموع ثياب الشخص المتوفي في سجلات القرن الثامن عشر عن تلك التي كانت قبل قرنين ونصف من قبل. في الحقبة الأولى من العصر العثماني كانت تلك القطع تُلَفّ قبل الموت، فلا تبقى في البيت حين يمضي المسجل ليجرد الموجودات. وفي ذلك أن العدد كان أقل، والمنسوجات كانت أكثر ندرة.

إلى ذلك، يجب أن نتذكر دائماً أن كلا الزوج والزوجة يستطيع أن يمتلك منسوجات منزلية، لكننا مع الأسف لا نملك غير جردة بممتلكات شخص واحد. وهكذا نستطيع الافتراض أن الأسر ذات الأوضاع المادية الحسنة من القرن الثامن عشر امتلكت مخزناً من الأقمشة الحريرية ربما بلغ ضعفي الكمية التي احتوتها السجلات المعنية.

لم يكن الحرير الذي امتلكه سكان بورصة من الدرجة الأولى بالضرورة؛ وحتى البلاط العثماني في ذروة بحبوخته - كما تظهر الدراسات الحديثة - اشترى حريراً من أنواع مختلفة^(٥٥). وفي منتصف القرن الثامن عشر لم تسجل إلا شكاوى بسيطة في خصوص نوعية خيوط الحرير المصنعة في بورصة التي كانت تعتبر خفيفة جداً لصناعة الكتّم وأنواع أخرى^(٥٦).

ورُغم أن تجارة المدينة كانت، من وجهة نظر الإدارة المركزية، تعاني أزمة تبعاً لهذا العيب، لأنه كان يعني انخفاضاً في الضرائب. وكما يبدو، كان الكتّم الأقل جودة الأسهل بيعاً. وكانت جردة ميراث صانع كتّم حسن الظروف نسبياً، تعود إلى أيار/ مايو ١٧٩٠، تحتوي قطعاً مصبوغاً وأطوال من الحرير إضافة إلى نوعين من الحرير^(٥٧). وكان الكتّم نفسه في أنواع مختلفة: الملون والعين (مصمم وفق رسمة العين) والزهري والأبيض.

جرى وصف المتوفي صاحب هذه الأنسجة باليوناني ابن القسطنطينية. وهو ذكر ثلاثة يونانيين آخرين عنواناً لمنتجاته، وهذا يعني إما أن الآخرين قد صنعوا الكتّم باسم معلمهم ولم تتح له الفرصة لتسليمهم، وإما أنهم أمروا ببيع هذه المنسوجات لحساب ابن القسطنطينية. وفي لائحة دائني المتوفي يمكن العثور على شبكة واسعة من التواصل في عالم الحرفيين. فبخلاف سجلات المكتب الرسمي للقاضي، الشخص المسؤول عن هذا السجل تحديداً قد أدخل حسابات عدة دائنين، وهي تبين أن ابن القسطنطينية كانت له علاقات عمل مع المسلمين، ومع القليل من الأرمن، ومع أفراد من جماعته بالطبع. من بين هؤلاء كان هناك الدبّاغون والحائكون وصانعو الأحذية والخياطون وحتى الإمام. ومع الأسف لا يشير السجل إلى من سلّم البضائع للشخص المتوفي -

Mackie, «Ottoman Kaftans with an Italian Identity».

(٥٥)

Dalsar, *Türk sanayi ve ticaret tarihinde Bursa'da ipekçilik*, pp. 349-353.

(٥٦)

(٥٧) «بورصة مسيلي، ب، ١٠-١١ أ»، ملفات في المكتبة الوطنية، أنقرة.

ويحتمل أن تلك هي أيضاً حالة منظفي القطن الذين ذكروا في الجردة والذين استدانوا منه مالا^(٥٨).

وكان أقل حظاً منه حائك الحرير أبو بكر بن عبد الله الذي كان يدير عملاً كان ينتج قطعاً حريرية تسمى «القوطة» عام ١٧٨٧^(٥٩). لم يكن الرجل يملك نولاً يخصصه شخصياً، ولكن وبسبب تركه ١٨ قطعة غير مكتملة من القوط يمكن الافتراض أن أبا بكر قد دخل في ترتيبات عمل خارجية من نوع ما. احتوى محله على أنواع مختلفة من القوط، فضلاً عن أنواع مختلفة من الحرير الخام: بايوريك، حرير سحري، حرير مجعد/ غير صالح للاستعمال، وغيرها^(٦٠). ولأن كمية القطن الملحوظة كانت محدودة، فيمكن الافتراض أن قطع أبي بكر كانت في معظمها من الحرير، مع تزيين عكسي بسيط بالقطن. كيف كان الحرفيون يبيعون إنتاجهم، هوذا السؤال، ولكن الدين المسجل على الملكية كان تبعاً لإرساليات تسلمها لا لدفعات مستحقة له.

كل ذلك إنما يعني أن صنّاع بورصة القرن الثامن عشر تكيّفوا كما يبدو مع انقطاع إمدادات الحرير الإيراني التي نتجت من الحروب التي هزت إيران خلال العقد الأخير من الحكم الصفوي وما تلاه^(٦١). وكان ذلك نتيجة زرعهم حقولاً واسعة من التوت الذي كان كافياً كما يبدو لتلبية حاجات الحائكين المحليين. ويمكن من سجل جامع ضرائب يعود إلى عام ١٧٧٥ قراءة أسماء تجار حرير بورصة، كونه سجل عدة مبيعات حرير وبيع منسوجات قطنية كذلك^(٦٢). كان مسلمون كثر، وأرمن، ويونانيون، ويهود منخرطين في أعمال القطاع حينذاك، ومع الأسف لا تذكر السجلات الوجهة التي كان هؤلاء يأخذون سلعهم إليها.

(٥٨) إقراض المال كان مصدراً مهماً للمداخيل للسكان الحسني الظروف في بورصة في ثلاثينيات القرن الثامن عشر، واستمرت مهمة حتى نهاية القرن. انظر: Suraiya Faroqhi, «A Builder as Slave Owner and Rural Moneylender: Haci Abdullah of Bursa Campaign Mimar», Reprint in: Suraiya Faroqhi, *Stories of Ottoman Men and Women: Establishing Status Establishing Control* (Istanbul: EREN Books, 2002), pp. 95-112.

(٥٩) انظر: Mine Esiner Ozen, «Turkcode Kumas Adhari», *Tarih Dergisi*, vol. 33 (1980-1982), pp. 291-340, see p. 314 for a list of different varieties of «Futa».

(٦٠) من أجل لائحة بأنواع الحرير المتوفرة في بورصة، عام ١٦٠٠ وليس العام ١٨٠٠، قارن بـ: Murat Çizakça, «Sixteenth- Seventeenth Century Inflation and the Bursa Silk Industry: A Pattern for Ottoman Industrial Decline?» (PhD Dissertation, University of Pennsylvania, 1978), pp. 39-97.

(٦١) Nese Erim, «Trade, Traders and the State in Eighteenth Century Erzurum», *New Perspectives on Turkey*, vols. 5-6 (1991), pp. 123-150.

(٦٢) Basbakanlık Arşivi-Osmanlı Arşivi, «Istanbul», Section Bab-i Defteri-Bursa Mukataasi, (٦٢) no. 24377.

والى الصناع المحليين، اعتمدت صناعة الحرير التي كانت مزدهرة في جزيرة كيوس جزئياً على الحرير الخام المنتج في بورصة، حيث لم يكن الخام المنتج في الجزيرة يكفي حاجات صناعها. كان صناع الأحزمة المعروفة بـ «كوزاك» التي اقتناها في القرن الثامن عشر حتى رجال البلاط في المناسبات الدينية إنما استندت إلى الحرير الخام المنتج محلياً في بورصة^(٦٣). في المقابل كان الحرير الخام المصدر إلى أوروبا قليلاً كما يبدو في القرن الثامن عشر. ويشير الباحث الإيطالي دومينيكو ساستيني بمناسبة زيارته بورصة عام ١٧٧٩ إلى حقيقة أن الصادرات إلى أوروبا موجودة لكنها ضئيلة مقارنة بضخامة الإنتاج المحلي^(٦٤).

ففي النهاية كان التجار الإنكليز ينسحبون في ذلك الوقت من تجارة حرير الشرق، بعدما تبين لهم أن حرير البنغال والصين أكثر ربحاً، في الوقت الذي كانت الشركة الفرنسية الوحيدة التي بقيت عاملة في بورصة عاجزة عن إقناع أي كان في بلادها بتخصيص ولو نائب قنصل لها في بورصة^(٦٥). والسبب ربما يعود إلى حقيقة أن حرير بورصة لم يكن يلقى التقييم العالي لدى المصانع الفرنسية الحديثة. وعليه كتبت شركة «غارافاك وغاسون» ومقرها إزمير إلى وكيلها في مرسيليا عام ١٧٦٩ أنها ألغت صفقة تبادل لصوف فرنسي بحرير من بورصة خوفاً من الخسائر المترتبة عن نوعية الأخيرة^(٦٦). وعليه يبدو أن الصناع المحليين في القرن الثامن عشر لم يكونوا راغبين في إثارة مخاوف منافسيهم الأجانب بخصوص مصادر موادهم الخام^(٦٧).

إلا أن ما هو أكثر جدارة بالملاحظة أنه في أوائل القرن التاسع عشر وجد مسؤول قنصلي نمساوي وباحث معروف في الشؤون العثمانية، جوزف فون هامر، خلال زيارته بورصة أن صناعة الحرير المحلية في بورصة لا تزال مزدهرة - ربما بسبب إعجابه ولو جزئياً بكل ما هو عثماني^(٦٨). تعود ملاحظات فون هامر بالتأكيد إلى ما قبل الأزمة

(٦٣) حول المنسوجات ذات التوقيع (دمغة) في كيوس، قارن بـ: Hulya Tezcan, «Döşemede Tarih: Sakiz», *Adasın Osmanlı İpekçileri», Ev Tekstil Dergisi*, vol. 2, no. 7 (1995), pp. 10-15.

أشكر المؤلف لتزويدي بنسخة من مقاله.

(٦٤) Domenico Sestini, *Voyage dans la Grèce Asiatique, à la peninsula de Cyzique, à Brousse et à Nicée, avec des details sur l'histoire naturelle de ces contrées* (London and Paris: [n. pb.], 1789), p. 194.

(٦٥) هذه كانت مرة حالة الأخوين «عزت»، مسجلة لدى: المصدر نفسه، ص ٨٧.

(٦٦) LIX/743, Sept. 1769.

(٦٧) غرفة تجارة مرسيليا، فوندر،

(٦٨) Lowery, *Ottoman Bursa*، انظر: نتيجة مشابهة، على أساس تقارير التجار التي جرى دوسها، بلغ لوري نتيجة مشابهة، انظر: *in Trade Accounts*, pp. 55-62.

(٦٨) Joseph Von Hammer [Purgstall], *Umblick auf einer Reis von Constantinopel nach Brussa...* (Budapest: [n. pb.], 1818), pp. 69-70.

الاقتصادية الكبرى التي تلت انهيار الحكم الإمبراطوري الفرنسي عام ١٨١٤ - ١٨١٥، حين تأثرت صناعة بورصة، إلى ذلك، بسوء المحصول ونهاية الازدهار الذي نتج من الحصار الخارجي. ويقدر فون هامر أن أكثر من ١٠٠٠٠٠ قطعة حرير تغادر المدينة سنوياً. وهي تضم أردية وقمصاناً وختميات وصفها المؤلف كنسيج حريري خالص، وليس خليطاً حريرياً قطنياً كما يعتقد البعض. كان فون هامر معجباً بالتصاميم الرائعة للأردية، ولكنه أعجب أكثر بأثواب الحرير الشفافة (بورومتشك) التي تزيد في رأيه من جمال المرأة.

ثامناً: صنف كان موجوداً منذ فترة طويلة لكنه لم يوثق حتى القرن الثامن عشر: أنسجة بورصة القطنية

لا يمكن إبراز دور بورصة كمركز صناعي مهم من دون التعرض بالبحث لتصنيع القطنيات فيها، تلك الصناعة التي استمرت قائمة في المدينة حتى أيامنا هذه. وفي هذا الإطار يحتل المنتج المسمى «بلدي»، وهو من نوعية رخيصة، أهمية خاصة^(٦٩). كان البلدي، وفق قوائم إرث ذلك الزمان، يصنع في كل مكان وغالباً من القطن، وفي أحيان أقل من الحرير. كذلك من غير المعروف ما إذا كان خليطاً من القطن والحرير. ازدهرت هذه الصناعة في بورصة في القرن الثامن عشر. ومرة ثانية تقدم جردة الصانع والتاجر لهذا المنتج بعض الشرح عن كيفية صنع البلدي^(٧٠).

في واحدة من الحالات المسجلة، وخلافاً لابن القسطنطينية الثري نسبياً، كان خليل بن خليل، الذي تعود جردة إرثه إلى عام ١٧٨٦ فقيراً بوضوح. فإضافة إلى نوله والقطع المساعدة، كان لديه ٢٥ وسادة مصنوعة من البلدي مكتملة الصنع ولكن غير مباعة. والقمصان التسعة المذكورة في القائمة كانت كما يبدو برسم البيع أيضاً. والمادة الخام الرئيسية عند خليل بن خليل كانت جديلات بيض من القطن كما يبدو؛ ومن أجل التزيين كان هناك كمية صغيرة من الجديلات الحمراء، وكمية أكبر من صنف وُصف بأنه مصبوغ. وبما أنه لم يكن يملك أي مال ولا ديوناً كذلك، نستطيع الافتراض أن صانع البلدي كان حِرَفِيّاً بسيطاً يبيع السلع التي كان يصنعها بنفسه، وربما بمساعدة أفراد من أسرته.

(٦٩) انظر: Esiner Ozen, «Turkcede Kumas Adlari», p. 304، حيث يصف قطن «بلدي» كنسيج قطني

من دون العود إلى بورصة كمركز صناعي.

(٧٠) «بورصة سيسيل ب ٢٣٢، ملف ٦ ب»، المكتبة الوطنية، أنقرة.

يبد أن الزبائن الباحثين عن قطن ومنسوجات أخرى متعددة، كان في وسعهم الانتقاء على نحو أفضل إذا ذهبوا الى أحد مخازن البازار الكبير الذي يوفر تشكيلة واسعة من قطع كهذه، مجلوبة من مختلف أرجاء السلطنة. على سبيل المثال، جرى توثيق موجودات مخزن غني كهذا عام ١٧٨٧، بعد موت صاحبه حقي صالح بن أحمد. قدّرت جرّدة إرث حقي فوق ١٧٠٠ غرّش، واحتوت على قائمة متنوعة من المنسوجات القطنية، حددت غالباً باسم المكان الذي جاءت منه أو الذي أخذت منه تصميمها. احتوت جرّدة حقي صالح على ما بدا عمامات جاهزة للارتداء من مقياس ٦ أو ٨ أو ١٠، إذا صحت ترجمة مفردات «التا، سيكزلي، وأونلو». من حلب جاء منتج يعرف بـ «الكا» الذي يمكن أن يكون من القطن أو الحرير، إضافة إلى قطع وأوشحة حريرية^(٧١). كذلك ظهرت بلدة دنزيلي ومحيطها مثل أغراس وكركاسو، مركز إنتاج القطن الأناضولي، وظهر أيضاً بين أشياء أخرى نسيج قطني يسمى «اليمني»^(٧٢). كان هناك القليل من القطن المستقدم من بور، وهي بلدة صغيرة جنوب الأناضول لم تكن معروفة في ذلك الزمان بمنتجاتها النسيجية. إلى ذلك، كان هناك نسيج يسمى «الزهري» من دون أي إيضاح إضافي، ومصدرها على الأرجح منطقة بورصة التي كانت معروفة جيداً لمنظم السجل، لذلك هي لم تحتج إلى أي شرح إضافي.

مرة ثانية تحتوي علاقات عمل حقي صالح التي نقرأ عنها على قائمة من الديون التي تستحق له أو عليه، أي غير المدفوعة التي تركها خلفه. كان هناك سهم رئيسي مؤلف من ١١٣ دائناً يبلغ مجموع ديونهم ٤٠٠٠ غرّش، يعيشون في منطقة بورصة وخصوصاً في قرى أو بلدات كستل وكرمان وكايت. وعليه فمن المحتمل أنها الأمكنة التي كان حقي صالح يحيك فيها قطنياته. في وسعنا أن نتخيل أن التوريدات المنتظمة للمخزن كانت تتأمن عبر إقراض المال للحائكين بحيث كانوا مجبرين على سداذه عند الطلب. إضافة إلى ذلك، كان حقي صالح مديناً لعدة موردين: لتاجر كان يجلب له السلع من حلب، ولثلاثة آخرين زودوه بنسيج يماني للبطانات وبمادة خام تعرف بـ «بوغاصي»، وهي مفضلة للثياب الداخلية والبطانات.

مرة ثانية، وحيث لم تذكر أمكنة المصدر، من المحتمل أن تكون تلك القطع قد جلبت إلى المدينة من مناطق قريبة. أكثر من ذلك، يبدو هذا النشاط متطابقاً مع ملاحظة

Ozen, «Turkeede Kumas Adlari», p. 300.

(٧١)

(٧٢) حول أهمية «منطقة البحيرة» جنوب غرب الأناضول كمركز لصناعة القطن، انظر: Suraiya Faruqi,

«Notes on the Production of Cotton Cloth in Sixteenth and Seventeenth-Century Anatolia», *Journal of European Economic History* (Rome), vol. 8, no. 2 (1979), pp. 405-417.

فون هامر من أن البطانات الزرق والخضر كانت تصنع فتحول إلى مناشف بديعة للحمام؛ بيد أن هناك في المصدر الأخير خطأ صغيراً، وهو أن تلك القطع بحسب وثائقنا كانت في الغالب تصنع من القطن.

أخيراً، تبدو هذه المراجع مهمة لأكثر من سبب، وخصوصاً إذا تذكرنا أن الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر مثلاً حقبة الأزمة الاقتصادية الخطيرة التي عصفت بالبلاد العثمانية، والتي يبدو أن بورصة قد نجحت في تجاوزها نسبياً، فأصابها منها أقل مما أصاب سواها.

تاسعاً: السنوات الأخيرة للمركز النسيجي العثماني: الشركات أو الممر للاقتصاد العالمي

تُجمع المصادر العثمانية وغير العثمانية أن بورصة ظلت حتى مطلع القرن التاسع عشر مركزاً لصناعة النسيج للسوق المحلية على وجه الخصوص، وعلى نحو ثانوي للمواد الخام أو المنتجات غير المكتملة للفبارك الأوروبية. ومع ذلك، فقد تغير هذا الوضع بعد انتهاء حروب نابليون، وبدأ بالتالي الطور الثالث في تاريخ بورصة كمركز لصناعة النسيج. حين توقف بعد عام ١٨٢٠ التوسع في سوق ثياب الحرير، وتحول بعض النساجين في إثر ذلك إلى حرف أخرى ليكسبوا عيشهم^(٧٣)، لم يتوقف إنتاج الحرير نفسه، على الأقل في القرن التاسع عشر، لكن صناعة الأقمشة القطنية الإنكليزية الجاهزة جعلت القطن بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر يحل محل الحرير في أقمشة متنوعة منسوجة في بورصة.

من ناحية أخرى توسع الطلب على الحرير في أوروبا في حدود قدرة البرجوازية على توفير أثمان «فساتين المناسبات» الحرير الفاتنة. إلى ذلك ضربت حشرة معدية شرائق الحرير في جنوب أوروبا في خمسينيات القرن التاسع عشر، فأمكن لتجار بورصة أن يفيدوا من ارتفاع الأسعار لفترة قصيرة قبل أن يعود المرض فيضرب في بورصة نفسها. شجعت الأسعار العالية مزارعي التوت على بيع موادهم الخام إلى الخارج بدل بيعها إلى نساجي فبارك بورصة، وتسبب ذلك بأزمة مواد خام وأسعار عالية مرة أخرى.

(٧٣) مصير حرير بورصة في القرن التاسع عشر، انظر: Donald Quataert, *Ottoman Manufacturing in the Age of the Industrial Revolution* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1993), pp. 107-133. قارن به: «The Silk Industry of Bursa, 1880-1914» in: Islamoglu-Inan, ed., *The Ottoman Empire and The World Economy*, pp. 284-299.

لكن الوضع عاد إلى طبيعته بعد حين إثر شيوع أنواع مزروعات مقاومة للعدوى سرعان ما وصلت إلى مزارعي بورصة أيضاً^(٧٤). بيد أن تصدير الحرير الخام استمر مهميناً، وكتيجة مباشرة لحال الإفلاس الذي ضرب الدولة العثمانية عام ١٨٧٥ والذي جعل الكثير من عائدات بورصة رهناً للدين العثماني الذي وفّره الفرنسيون^(٧٥).

هكذا بات صناع بورصة، «بعد الاندماج في الاقتصاد العالمي»، وفي ظل إحكام هيمنة رأس المال الأوروبي، شديدي الضعف أمام التقلبات في السوق العالمية، بعدما كانوا معنيين سابقاً بصورة رئيسية بالطلب السلطاني والأميري وبعد ذلك المدني لا غير. إلا أنه على عكس ما قد يُتوهم، فإن إنتاج الحرير المحوّل للفبارك الأوروبية لم يكن يعني نهاية الصناعة المحلية. فهي وإن لم تشارك كثيراً في تلبية السوق العالمية المتوسعة، ظلت تلبي وينجاح حاجات السوق المحلية، حتى من دون تجديد يذكر في طرائق التصنيع والإنتاج على غرار منافسيها الأوروبيين.

باختصار، في وسعنا القول إن صناعات بورصة استمرت ما استمرت السلطنة العثمانية نفسها، وإلى نهاية الحرب العالمية الأولى التي جلبت معها زوال السلطنة، وانهايار صناعة بورصة أيضاً. ونتيجة لإحكام قبضة الدائنين، والأعمال الحربية، والنقص في المحروقات، وندرة العناية، أكت معظم حقول التوت في بورصة إلى بوّار. وزاد الطين بلة أن العمالة النسائية التي كانت تعمل في الفبارك في القرن التاسع عشر كانت من غير المسلمات، وجلهن من اليونانيات والأرمن، وقد غادر معظمهن المنطقة وخصوصاً بعد التبادل السكاني الذي حدث عام ١٩٢٣. عادت عجلة إنتاج الحرير إلى بورصة أخيراً، بفعل التشجيع الرسمي، لكن على نحو محدود. بل إن المدينة أصبحت لاحقاً مركزاً لصناعة المنسوجات القطنية والتوليفات المتصلة بها، إلا أن تلك قصة أخرى^(٧٦).

Quataert, Ibid., p. 115.

Erder, «The Making of Industrial Bursa», pp. 121-131.

(٧٤)

(٧٥)

(٧٦) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

الفصل السابع عشر

طرابلس العثمانية : مدينة على المتوسط

لودوفيكو ميكارا^(*)

ليس بالأمر السهل عزل مرحلة تاريخية معينة، كالمرحلة العثمانية، من تاريخ التطور المدني لطرابلس. ففي الواقع أن تطور المدن، من خلال استخدام البقايا الموروثة من الماضي وتحويلها، من شأنه أن يضع نهايات مبكرة وبدايات جديدة. يمكن ملاحظة ذلك بصورة أوضح في مدن العالم الإسلامي حيث النسيج المدني منظم بطريقة متماسكة تسمح بتخطي أي أزمة مهما بلغت حدتها. في حالة طرابلس، غير الاحتلال الإسباني الكارثي للمدينة لمدة تقارب الأربعين عاماً (١٥١٠ - ١٥٥١)، في طبرغرافيا المدينة وأزال آثاراً مهمة من ماضيها القديم^(١). غير أن خراباً كهذا لم يتمكن من وقف عملية تشكيل البنية المدنية، بل تحول إلى حافز جديد لتطور المدينة. خلال

(*) أستاذ وباحث إيطالي في التصميم العمراني، كلية الهندسة، جامعة دانونسيو - إيطاليا.

(١) التحديد المشترك لـ «كاردو» في طرابلس الرومانية، أوريا، مع الشارع الطويل المعروف بـ «الأربع عرصات» و«جامع الدروج»، هو موضع شك. فاتجاه هذا الطريق يختلف في الواقع عن اتجاه مداخل قوس ماركوس أوريليوس الذي كان في وسط المدينة الرومانية، أو بوليسيوم، بينما الديكوماتوس المفترض هو في مركز مدخل القوس نفسه تماماً. وإلى ذلك فإن الشوارع المتعامدة للكاردو لا تتقاطع معه، بل هي تذهب مع اتجاه الديكوماتوس. وعليه يمكننا الظن، وبوجود النقص في الأبحاث الأركيولوجية المتقدمة، أن الدمار الذي خلفته الفرق الإسبانية وفرسان سان جون في المنطقة المدنية إلى الغرب من القلعة، إضافة إلى الدمار الذي تسبب به العثمانيون في غزو المدينة مجدداً أدّى إلى سد الكاردو القديم وتحوله غرباً. ومن المحتمل أيضاً أن درغوث باشا الذي بنى مسجداً حمل اسمه (جامع سيدي درغوث)، والشارع المتصل به أي المتعامد الوحيد مع الكاردو الجديد هو من حدّد وجهته. وكان قصره كما يبدو في الجوار نفسه.

المرحلة العثمانية، ولا سيما تحت حكم أسرة القرمانلي، تعززت الصورة الحالية لمدينة طرابلس.

تشكلت هذه الصورة المدنية القوية نتيجة أنشطة عمرانية مختلفة، تولتها مؤسسات دينية واجتماعية وتجارية مختلفة، إضافة إلى تصميم حصون القلعة وجدرانها الدفاعية، وهي شيدت كلها بتصميم دقيق، ناهيك بالمنازل المصقولة والأماكن السكنية. كما أن إقامة علاقة جيدة وتعاون حيوي بين الحكم الإسلامي والجماعتين المسيحية واليهودية الخاضعتين له أغنى الصورة المدنية تلك. إن المميزات الخاصة للنسيج المدني لطرابلس إنما هي نتاج عملية تشبه نماذج وثقافات مدنية في عالم البحر المتوسط. وهذا ما يفسر الطريقة الخاصة التي يطل فيها المنزل من خلال النوافذ والشرفات والمصاطب على الشارع، بخلاف المدن الإسلامية الأخرى، كما يفسر وجود طرق المدينة على الواجهة البحرية وهذا إرث روماني بامتياز.

أولاً: بناء مدينة متوسطة

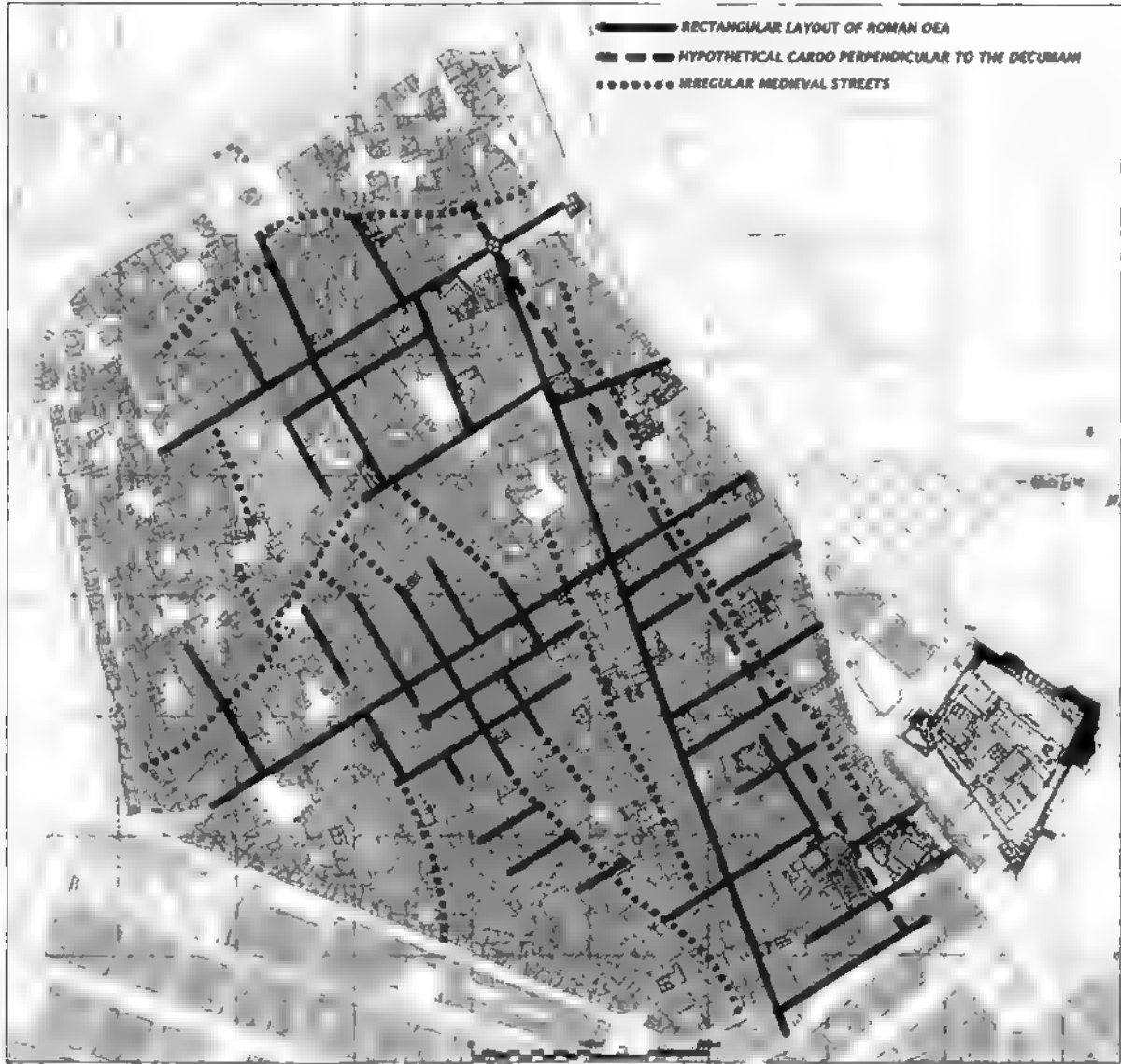
يمكننا في الخريطة المعمارية لطرابلس ملاحظة سلسلة من النماذج المدنية التي تعود إلى مراحل تاريخية محددة للمدينة. تذكّر شبكة الشوارع المتعامدة بالتصميم الروماني الكلاسيكي الذي يركز على نوعين من الشوارع (الكاردو والديكومانوس)، أما الممار غير المنتظمة والملتوية التي تنتهي بأزقة لا منافذ لها فتذكّر بالمدينة العربية الإسلامية، في حين أن الهندسة المضلعة للأسوار فهي نموذج لنظام التحصين في القرن السادس عشر. تكشف هذه النماذج المدنية، ومن خلال الآثار التاريخية المتداخلة، عن اللحظات المختلفة في التشكيل المعقد للمدينة، ولتطورها، كما تعرض في الآن نفسه الطابع المركب للحضارة المدنية المتوسطة.

تشكل طرابلس، بهذا المعنى، حالة نموذجية. فمنذ القرن السابع عشر، وتحت الحكم القرمانلي، كانت الجماعات المختلفة شديدة الاندماج بالفعل، وهو ما أدى إلى تقسيم أقل جموداً للأحياء ولم يكن من جدران تفصل ما بينها^(٢). وحتى مطلع القرن العشرين كان النسيج المدني العضوي يستجيب على نحو ناجح للتعايش المشترك والاندماج ما بين المسلمين والعبرانيين والمالطيين والصقليين والنيجيريين والسودانيين، كل يختص بحرفة ومهنة مختلفة (انظر الرسم الرقم (١٧ - ١)).

Paolo Cuneo, *Storia dell' Urbanistica: Il Mondo Islamico* (Paris: Laterza, 1986), p. 393.

(٢)

الرسم الرقم (١٧ - ١)
تصاميم مدنية تاريخية في مدينة طرابلس



أما العنصر الآخر الذي يسبغ طرابلس بالطابع المتوسطي فهو الاختيار الذكي للموقع. استقر الفينيقيون في موقع عُباط (أويا في ما بعد) أو طرابلس القديمة، وهي مكان آمن ذو ميناء عميق، ويحميه لسان داخل في البحر من الشمال الشرقي، وتحرسه من الغرب هضبة قليلة الارتفاع. كانت أويا المحطة الأخيرة لطرق القوافل القادمة من المناطق الداخلية لليبيا التي تعبر واحة واسعة خصبة لتدخل المدينة من الغرب أو الجنوب الشرقي.

سمح هذا الموقع، الذي يمتلك منفذاً بحرياً مهماً يؤمن إجراء تبادلات تجارية وزراعية مع الداخل، بقيام مدينتين بناهما الفينيقيون على الشاطئ نفسه، هما صبراتة

ولُبدة الكبرى. وورثت المدينة نفسها اسمها، طرابلس (تريبوليس) من اتحاد المدن الثلاث التي توحدت تحت الحكم القرطاجي^(٣).

يؤكد النمط الروماني لـ «أويا»، هندسياً، اتجاه الطرق الموجودة سابقاً. وقد بات أحد الطرق تلك، الذي يذهب من الجنوب الشرقي إلى الشمال الشرقي بموازية الشاطئ، الكاردو، في حين أسس الطريق الآخر الذي يصل من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي إلى المرفأ اتجاه شارعي الديكومانوس الرئيسيين. وشكل التقاطع بين الكاردو والديكومانوس الشمالي الساحة العامة الرئيسية للمستوطنة، يزينها القوس الذي أقيم عام ١٦٣ ق.م على شرف الإمبراطورين ماركوس أوريلوس أنطونيوس ولوسيوس فيروس.

كان القوس الذي مَوَّلَ بناءه الوصي سي. كالبورنيوس سالسوس رباعياً، في مواجهة الاتجاهات المتعامدة التي ذكرناها قبل قليل. ومسافة امتداد الأقواس على الطريق التي تقود إلى المرفأ أكبر مما هي في الجانب الآخر، وهو ما يكشف عن الدور الأساسي للتجارة البحرية في تريبوليس - أويا.

كانت وظيفة الجدران السميكة أن تحمي المدينة من جهة البر^(٤)، أما بحر نوستروم (Mare Nostrum)، فقد كان صديق الرومان. وكان هناك أيضاً حصن يحرس بوابة المدينة من الجهة الجنوبية الشرقية، حيث موقع القلعة الموجودة اليوم.

Denys Eyre Lankester Haynes, *An Archaeological and Historical Guide to the Pre-Islamic Antiquities of Tripolitania* (Tripoli: Antiquities, Museums and Archives of Tripoli, 1965); Ettore Rossi, *Syoria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al 1911* (Rome: Istituto Per l'Oriente, 1968); A. Hutt and G. Michell, «The Old City of Tripoli», in: *Islamic Art and Architecture in Libya* (London: Libyan General Committee for Participation in the World of Islam Festival, 1976); Muhammad Warfeili, «The Old City of Tripoli», *Art and Archeology Research Papers (AARP)* (April 1976), pp. 2-18; Gaspare Messina, «La Medina di Tripoli», *Quaderni dell' Istituto de Cultura di Tripoli*, no. 1 (1979), pp. 6-36; Fuad Cabasi, « Profilio Storico Urbanistico e Sociale della Medina o Citta Vecchia di Elmahmudi », in: *The Islamic Cities in Libya: Planning and Architecture*, Europäische Hochschulschriften Reihe xxviii, Kunstgeschichte (Frankfurt am Main: Peter Lang, 1998); V. Christedis, G. Oman and G. E. Bosworth, «Trablus al Gharb», in: *Encyclopaedia Islamica*, 2nd ed., pp. 212-214.

Salvatore Bono, «Storiografia e Fonti Occidentali Sulla Libia: انظر: حول المصادر الغربية عن طرابلس، انظر: *Quadreni dell'Istituto Italiano di Cultura di Tripoli* (Rome), New Series 2 (1982).

S. Aurigemma, «Le Fortificazioni: التاريخ المعقد لتحصينات سور طرابلس جَرَّتْ دراستها من طرف: *Notiziario Archeologico del Ministero delle Colonie*, vol. 11, nos. 1-11 (1916), pp. 217-300; Salvatore Aurigemma, «Per La Storia delle Fortificazioni di Tripoli», *Rivista della Colonia Italiana*, vol. 3, no. 5 (1929), pp. 460-473, and «Le Fortificazioni di Tripoli in Antiche del Seycento e del Settecento», *Rivista della Colonia Italiana*, vol. 3, no. 11 (1929), pp. 1104-1128, and vol. 3, no. 12 (1929), pp. 1217-1237.

يعتبر النموذج الروماني الموجود سابقاً، والظاهر بوضوح في الطبوغرافيا المعاصرة، ميزة ثابتة في التاريخ المدني لطرابلس. كانت تلك في الحقيقة ملاحظة أبو محمد عبد الله التيجاني في أثناء رحلته إلى ديار الإسلام المقدسة في عامي ١٣٠٧ و ١٣٠٨م. فهو يسجل في سجلات ترحاله، الرحلة، أن «شوارع المدينة كانت نظيفة، وأكبر مما هي في أماكن أخرى، وتمتد من جانب إلى الجانب الآخر في المدينة متقاطعة كرقعة شطرنج، ويسهل اجتيازها»^(٥).

يظهر الدور البنيوي للكاردو والدكيومانوس واضحاً في التاريخ المدني لطرابلس، إذ يشكل تقاطعهما المركزين الرئيسيين في الحقتين الرومانية والعربية - الإسلامية. أما القوس الرباعي والأربع عرصات، اللذان أعطيا اسميهما بسبب بنائهما الرباعي الأعمدة، فقد كانا العلامتين البارزتين للميزتين للمنطقة ما بين الكاردو والميناء، حيث أعيد استخدام البقايا الرومانية (سبوليا) في بناء عدة مؤسسات إسلامية جماعية: المساجد والأسواق والخانات والحمامات.

في عام ٦٤٣م/ ٢٢هـ، احتل العرب بقيادة عمرو بن العاص طرابلس، الذي دخلها من جهة البحر، وعلى الأرجح من الشمال الغربي حيث لم تكن هناك تحصينات كما قيل. وظلت طرابلس، أو أطرابلس، مدينة عربية حتى عام ١٥١٠م، خلا الفترة القصيرة بين عامي ١١٤٦ و ١١٥٨ حين احتلها النورمانديون، الذين كانوا احتلوا قبل ذلك صقلية ومالطا، وأنشأوا فيها موقعاً عسكرياً. في القرون التسعة تلك تطور، في الغالب، الجزء الغربي من المدينة. لم يكن هناك، كما في مدن إسلامية كثيرة، نمط يحكم مخططات الشوارع. فالمساحات لا تخضع لمقاييس ثابتة، كما كانت تحسب في المدن الرومانية يعدد البيوت الدوموس (المنازل ذوات الطبقات العليا)، بل هي غدت أكبر حجماً وذات أشكال معقدة، وباتت بحاجة إلى مسارب غير نافذة للولوج إلى المناطق الداخلية. وأسوار المدينة القديمة، التي دعاها التيجاني المدينة البيضاء^(٦)، أزالها عمرو بن العاص. وقد أعيد بناء تلك الأسوار في ما بعد لتمتد من القلعة على طول الشاطئ. كان للأسوار الجديدة ثلاثة أبواب على الأقل: باب هوارة (وهو على الأرجح باب المنشية اليوم)، وباب الأشدر (باب زناتة اليوم)، وباب البحر، وهو باب على الشاطئ منه يمكن التمتع

(٥) التيجاني، «الرحلة»، في: Rossi, *Syria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al* 1911, pp. 76.

(٦) «عندما اقتربنا من طرابلس كاد اليباض اللّماع للمدينة، مع انعكاس الشمس، يعمينا. وتحققتُ ساعتذاك من السبب الذي دعا إلى تسميتها: المدينة البيضاء». انظر: Warfelli, «The Old City of Tripoli», p. 2.

بالمنظر الرائع للميناء، الذي أعجب التيجاني «لنظافته واتساعه» وللسفن التي «كانت مصطفة كأحصنة سباق في عابرها»^(٧). واستكملت هذه التحصينات أيضاً بسور ثانٍ وخنديق ماء^(٨).

تركزت المدينة في هذه المرحلة في الداخل لا على البحر. واكتسب الدكيومانوس الثاني بالتالي أهمية، وشكّل تقاطعه مع الكاردو المركز العام للمدينة. جرى إبراز التقاطع وعرف معمارياً بـ «الأربع عرصات»، مستعيداً قوس ماركوس أوريليوس الرباعي. وعلى زوايا التقاطع، وُضعت بقايا أربعة أعمدة مع تيجانها الجميلة لدعم القوس الممتد بين الشارعين.

في ٢٥ تموز/ يوليو ١٥١٠، احتل الإسبان بقيادة الكونت بيدرو نافارو طرابلس بعدما تغلبوا على مقاومة أهلها. كان الوضع السياسي في البحر الأبيض المتوسط مختلفاً كلياً. وفي عام ١٤٥٣، سقطت القسطنطينية بيد العثمانيين الذين باتوا يهددون أوروبا. وبدأ رد الفعل المقاوم للمسلمين من إسبانيا حيث أمكن لفرديناند دي أراغون وإيزابيل دي كاستيل عام ١٤٩٢ هزيمة آخر ملك عربي في غرناطة. وفي عام ١٥٠٢ طرد العرب من إسبانيا وأرسلت تكراراً بعثات وحملات لاحتلال موانئ الشمال الإفريقي ومدنه (وهران وبجاية والجزائر وتونس وطرابلس).

يصف بيدرو نافارو طرابلس بعد احتلاله لها فيقول: «هذه المدينة هي أكبر مما ظننت، وبالرغم من أن المعجبين بها تكلموا كثيراً عنها، ففي وسعي القول إنهم قالوا نصف الحقيقة فقط؛ فبين كل المدن التي شاهدها في العالم، لا أجد واحدة يمكن أن تقارن بها، لجهة التحصينات كما لجهة نظافتها. هي تبدو كما لو كانت مدينة ملكية...»^(٩).

ونعلم من باتستينو دو تونسيس الذي اشترك في الحملة أن «مدينة طرابلس تقع على أرض مسطحة، ذات شكل مربع ويبلغ محيطها الدائري ميلاً واحداً. لها سور مزدوج مع خندق مائي ضيق وعميق. السور الأول صغير ومنخفض، أما الثاني فطويل جداً وسميك على نحو كاف، مع أبراج وتحصينات قوية ومتينة. من جهة البحر هي مسورة من ثلاث جهات، مع ميناء كبير وجميل يحتوي ٤٠٠ سفينة وقارب تجديف. وهو سبب خسارة المدينة. ويقال إنها مأهولة بأكثر من عشرة آلاف من المورين وبعض

(٧) التيجاني، «الرحلة»، ص ٧٧.

Aurigemma, «Per La Storia delle Fortificazioni di Tripoli», p. 246.

(٨)

Rossi, *Syoria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al 1911*, p. 112.

(٩)

اليهود، أسير منهم خمسة آلاف. أما السكان الباقون فقتلوا خلا قلة فرت عبر الأسوار قرب الحي اليهودي»^(١٠).

في عام ١٥٣٠ أعطى شارل الخامس طرابلس، مع جزيرتي مالطا وغوزو، لفرسان سان جون الذين كان قد أخرجهم سليمان الكبير من رودوس. وفي عام ١٥٣١ تمكن سينان باشا، بمساعدة القائد البحري درغوث، من استعادة المدينة من جديد.

وفي عام ١٥٦٠ جرى بنجاح رد هجوم أحقق للأسطول الإسباني. واستمرت طرابلس تحت السيطرة العثمانية، أو لبعض الوقت تحت سيطرة عائلات محلية مستقلة كالقرمانلي، وحتى الاحتلال الإيطالي عام ١٩١١.

وتبقى المعلومات عن وضع المدينة في أثناء الاحتلال الإسباني نادرة.

يكتب ليون الأفريقي، المسلم الذي انقلب إلى المسيحية بعد أسره، في إثر زيارته المدينة عام ١٥١٨، أن طرابلس «قد دُمرت بعد أن احتلها المسيحيون. ومع ذلك، فهم عززوا القلعة بأسوار صلبة ومدفعية مهمة»^(١١). وعليه يمكن الافتراض، وبحسب وقائع كهذه، أن مستوى الشوارع قد ارتفع^(١٢) وأن القلعة القديمة تحولت إلى حصن مع دفاعات كافية، وفق النظريات الجديدة لفن المدفعية التي نشرها شارل الخامس في أرجاء عالم المتوسط. تتضمن وجهتا نظر ظهرت عامي ١٥٥٩ و١٥٦٧^(١٣) بياناً بأوضاع القلعة والأسوار في طرابلس (انظر الرسم الرقم ١٧ - ٢).

ففي تقرير يعود إلى عام ١٥٥٩، ويستند إلى معلومات أكثر راهنية قياساً بتقرير ١٥٦٧، نجد أن حصناً جديداً قد أقيم إلى جانب القلعة وجرى تعزيزه بالتحصينات. بنى درغوث باشا الحصن، المسمى سان بيتر، عام ١٥٥٩ على الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة، بهدف حماية الميناء، «إذ كان يتوقع مهاجمته من طرف الأسطول الإسباني»^(١٤).

(١٠) المصدر نفسه، ص ١١٣.

Jean-Léon l'Africain, *Description de l'Afrique* (Paris: Librairie d'Amérique et d'Orient (١١) Adrien Maisonneuve, 1981), vol. 2, p. 406.

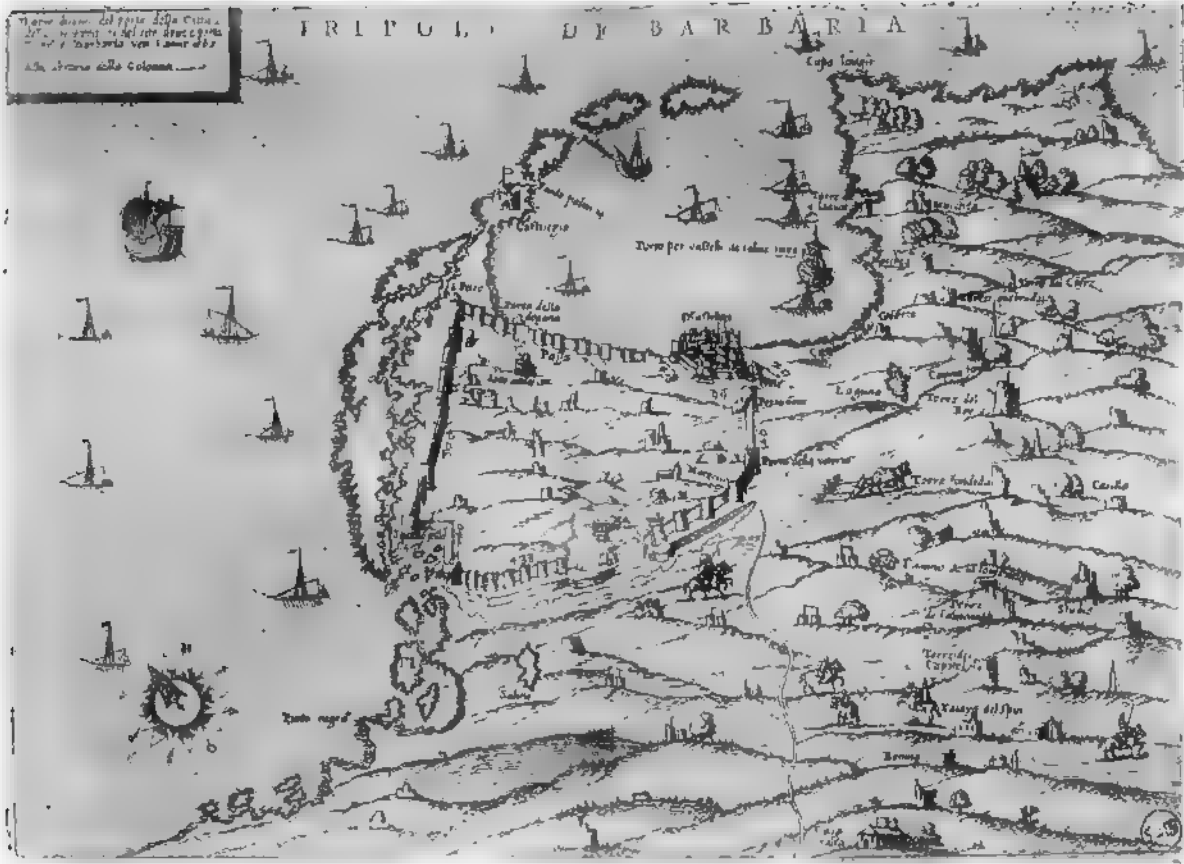
Aurigemma, «Per La Storia delle Fortificazioni di Tripoli», p. 263. (١٢)

G. Furnagalli, «La Piu antica pifata di Tripoli», *Accademie e biblioteche d'Italia*, vol. 6, no. 1 (١٣) (August 1932), pp. 28-40, and S. Aurigemma, «A Proposio di un antica pifata di Tripoli», *Rivista delle Colonie Italiane* (1933).

Histoire Chronologique du Royaume de Tripoli de Barbarie (Paris: Bibiothèque Nationale, (١٤) 1685), man. cod. no. 12.219, 12.220, in : Aurigemma, «Per La Storia delle Fortificazioni di Tripoli», p. 466.

كذلك يظهر في التقرير نفسه حصن آخر، كاستيللو (لاحقاً «برج المندريك») الذي بُني على الصخور لحماية مدخل الميناء من الجهة الشمالية.

الرسم الرقم (١٧ - ٢)
مخطط لطرابلس في العام ١٥٦٧



في وثيقة عام ١٥٦٧ تحت عنوان «الخطة الصحيحة للميناء والمدينة والحصن والموقع حيث تقع طرابلس البربرية»، تظهر المدينة خراباً، وبما يتوافق مع شهادة ليون الأفريقي حول التدمير الذي أحدثته القوات الإسبانية.

ثانياً: المدينة العثمانية

في الخامس من آب/أغسطس ١٥٥١، حاصر الأسطول العثماني الذي يقوده سنان باشا، بمساعدة سفن قراصنة درغوث والمقاتلين العرب التابعين لمراد آغا القادمين من تاجوراء المجاورة، قلعة طرابلس التي استسلمت في

وصاحب الوثيقة، المجهول حسب أوريفيما، هو البروفنس سيرجيون جيرار، حسب رومي.

الرابع عشر من آب/ أغسطس، فاتحة أبوابها للأتراك ومعلنة سيطرة عثمانية نهائية على المدينة^(١٥).

كان مراد آغا، باني مسجد تاجوراء، والقائد البحري درغوث، اللذان أديا دوراً حاسماً في احتلال المدينة، أول حاكمين، باشاوين لطرابلس. كان عملهما الأول والعاجل إصلاح وتعزيز النظام الدفاعي للمدينة. نفذ درغوث باشا، الحاكم بدءاً من عام ١٥٥٦، خطة محددة للأسوار، فأزال الجزء الواقع في الجانب الجنوبي الغربي من المدينة والذي يصل برج الكرمة بالبحر.

تدفع الخطة الجديدة بالتواء الأكبر «سبيرون» والتواء الأصغر «سيرونسيلو» ليشكلا، وفق الآراء التي رأيناها، الزاوية بين السورين الجنوبي الغربي والشمالي الغربي. وتم إضافة خط من الأسوار بين بوابة المدخل عند الديكماتوس الأوسط، وباب زناتة، والبحر، مشكلاً بذلك بالتالي تحولاً في الشكل شبه المنحرف الأصلي إلى ما يشبه الشكل الخمس الحالي للسور.

وقام درغوث كذلك ببناء تحصينات برج التراب، الذي يسمى لاحقاً برج الفنار، على تلة تشرف على الزاوية الشرقية من المدينة، وحصن درغوث (أو سان بيتر سابقاً) على الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة (انظر الرسم الرقم (١٧ - ٣)).

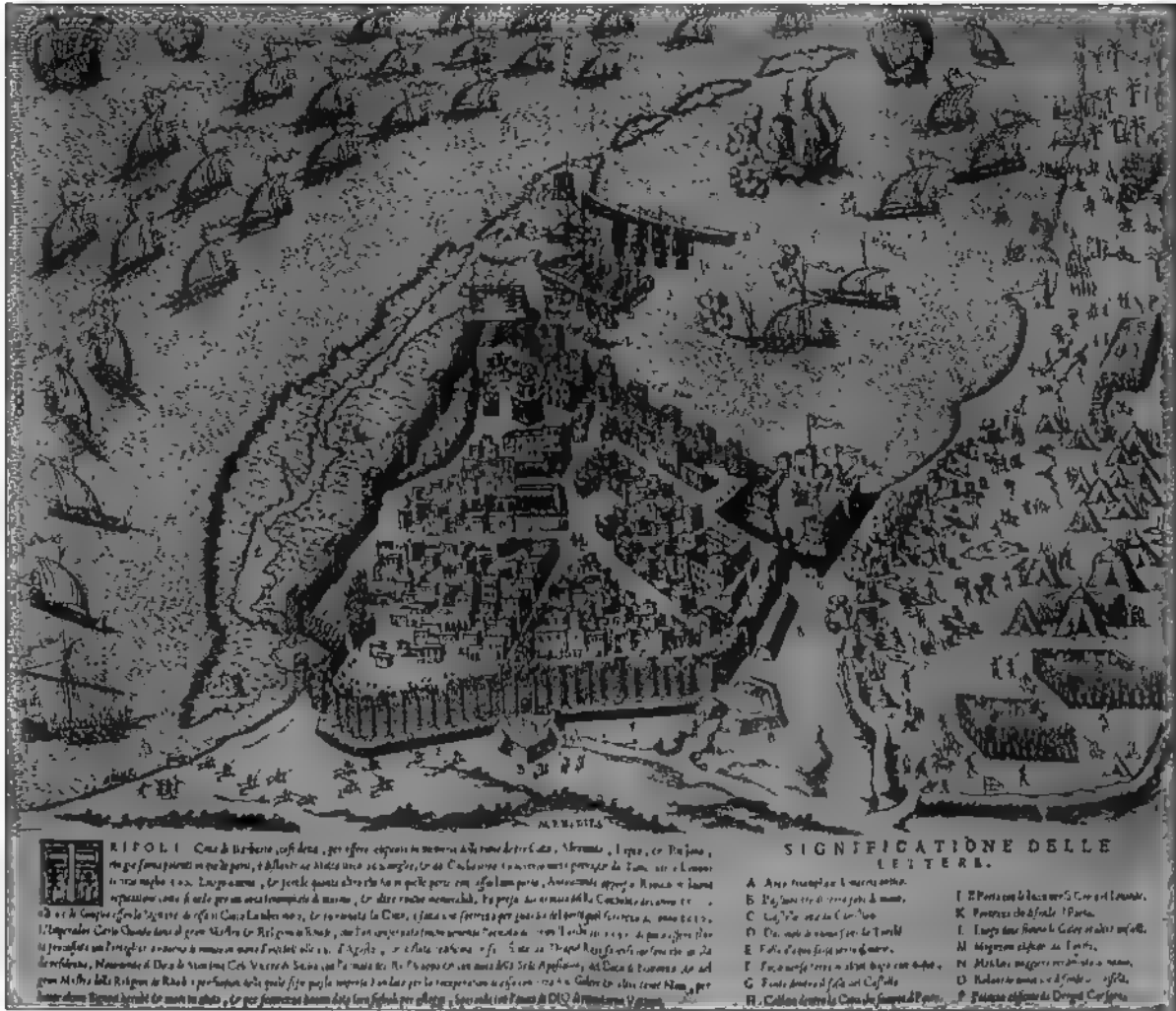
وفي المنطقة نفسها من المدينة، إلى الجنوب من قوس ماركوس أوريليوس، شاد درغوث قصره الجديد ومسجداً جامعاً جديداً^(١٦) (جامع سيدي درغوث). وبسبب خراب جامع الناقة التاريخي^(١٧) الذي تهدم تقريباً خلال الاحتلال الإسباني، أعاد درغوث استخدام بقايا معبد بناه فرسان مالطا من أجل هذا الغرض.

(١٥) حول تاريخ طرابلس العثمانية انظر: Rossi, *Syria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al 1911*; Costanzo Bergna, *Tripoli dal 1510 al 1850* (Tripoli: Nuove Arti Grafiche, 1925), and Laurent-Charles Féraud and Nora Lafi, *Annales Tripolitaines* (Tunis and Paris: Bouchène, 1927).

(١٦) الجامع الجديد وقصر درغوث كانا واضحين في وثائق ١٥٥٩. كذلك ظهر الجامع في حفريات أواخر القرن السابع عشر، والذي ذكر في جملة ما ذكر في نص ١٦٧٥ في: *Atlas Maritimes* لجون سلر وفي ١٦٩٦ في *Les Forces de l'Europe* لدو فير.

(١٧) «جامع الناقة» الذي ذُكر أيضاً في «الرحلة» للتيجاني يُنمى على الأرجح في عهد الخليفة الفاطمي المعز، الذي زار طرابلس خلال انتقاله من تونس إلى القاهرة سنة ٩٧١ - ٩٧٢. وبحسب مصدر ثقة قديم فإن الخليفة الذي أخذ باستقبال الطرابلسيين له أهدى المدينة ناقة من قافلته كسيا تبايع وحملها ويوسع بها الجامع القائم. انظر: Gaspere, *L'Architettura Musulmana della Libia* (Tunis: Castelfranco Veneto, 1927), pp. 108-110, and Ali Mas'ud El Ballush, *A History of Libyan Mosque Architecture during the Ottoman and Karamnli*

الرسم الرقم (١٧ - ٣)
مخطط لطرابلس من ١٥٥٩



في عام ١٦٠٤، بنى إسكندر باشا حماماً عاماً قرب جامع سيدي درغوث وفي منتصف الطريق بين قوس ماركوس وأريليوس وتقاطع الأربع عرصات، مرشحاً بالتالي نقطة محورية مدنية جديدة كان أرساها أول حاكمين عثمانيين للمدينة. وسوف يقوم لاحقاً الحاكم صفرداي بترميم «جامع الناقة» وفتحها للجمهور عام ١٦١٠. كان صفرداي يجمع بين السلطتين العسكرية والسياسية كقائد للقوات التركية، الإنكشارية، والباشا كممثل أصيل لإسطنبول وللإدارة العثمانية.

في الواقع، كان التنظيم الإداري، المعمول به في المقاطعات الأفريقية (الجزائر وتونس وطرابلس)، وإلى حين تسلم أسرة القرمانلي السلطة باعتراف من إسطنبول،

Period: 1551-1911: Evolution, Development and Typology (Tripoli: General Publication, Distribution and Advertising Company, 1984), pp. 58-60.

يستند إلى الباشليق، أي منطقة خاضعة لسلطة باشا يعين مباشرة من الحكومة العثمانية المركزية.

كان في تصرف الباشا وحدات عسكرية من الإنكشارية (الأوجاق، أي «القلب» باللغة التركية، وهي الكلمة التي حلت على نطاق واسع محل الـ «باشليق») مكونة من مشرقين ومسيحيين كانوا أخذوا من عائلاتهم، ودُربوا على القتال بعد اعتناقهم الإسلام. وكان لوحدات الإنكشارية تراتبية عسكرية يقودها ضابط كبير هو «الباي» الذي يتولى القيادة، وضباط مسؤولون عن رواتب العسكر يسمون «الداي»، بمعنى العم. وكانت الشؤون العامة لوحدات الإنكشارية تناقش في مجلس يسمى «الديوان» يرئسه آغا. وكانت العلاقات ما بين الباشا، والباي، والداي، تتغير بحسب قوة أو ضعف السلطنة العثمانية أو بنشوء قيادات محلية وعسكرية. وكانت تتغير معها درجة استقلال المقاطعة الذاتي^(١٨) أو خضوعها للباب العالي، الذي غالباً ما يقارن في المصادر الأوروبية بمرتبة الوصي على العرش أو المملكة.

أصبح الداي الثالث محمد الساقزلي، بعد حصوله على حكم طرابلس ولقب «باشا» من مراد الرابع، الحاكم الوحيد على البلاد لأول مرة. وهكذا تمكن محمد، ومن بعده خليفته عثمان الساقزلي، أن يضمنا بين عامي ١٦٣٣ و١٦٧٢ فترة من السلام والازدهار النسبيين.

وألزم اختطاف السفن الحربية التي تجوب شواطئ إسبانيا وإيطاليا عدة مسيحيين، دفع مبالغ مالية فدية لإطلاقهم ساهمت في تحسين وضع المالية العامة. كما شجع استقرار الأوضاع السياسية الداخلية البلاد الأوروبية، مثل فرنسا وهولندا والبندقية وصقلية على توقيع معاهدات تجارية مع طرابلس لفتح قنصليات لها داخل المدينة.

(١٨) من أجل فهم المستويات المختلفة للاستقلال الذاتي الذي تمتعت به السلطة البلدية المحلية، يجب تمييز الدور الذي أدته «النخب» في النظام العثماني والمعتبر عنه في الاستقلال الذاتي للجماعات البلدية، مع آلية حكمها البيروقراطي، وبخاصة في حالتي المدن المتوسطة والصغرى بعيداً من عاصمة الخلافة. لمراجعة هذا الموضوع المهم لعدة مدن متوسطة إسلامية انظر: André Raymond, «Les Caractéristiques d'une ville arabe «moyenne» au xviii^e siècle: Le cas de Constantine», *Les Cahiers de Tunisie*, vol. 34, nos. 137-138 (1986), pp. 175-196. وموضوع الاستقلال المقارن للدول - المدن الإسلامية خلال حقبة القرون الوسطى جرى بحثه، وبخاصة في حالة طرابلس عند: Michael Brett, «The City-State in Medieval Ifriqiya: The Case of Tripoli», *Les Cahiers de Tunisie*, vol. 34, nos. 137-138 (1986), pp. 69-94, and Masatoshi Kisaichi, «The Maghrib», in: *Islamic Urban Studies: Historical Review and Perspectives*, edited by By Masashi Haneda and Toru Miura (London; New York: Kegan Paul International, 1994).

إلى جانب تنشيط التبادلات التجارية، أخذت القنصليات على عاتقها مهمة التفاوض على فدية مقابل المسيحيين الأسرى وإنشاء معاهدات تحمي السفن التجارية من القرصنة عبر دفع ضرائب طائلة للعرش.

وبدأ حي جديد بالتشكل غير بعيد من الميناء يتميز بوجود مقار القنصليات الأوروبية فيه مع مستودعاتها. وأنشئت أسواق جديدة، وفنادق، ومستودعات، على طول الكاردو القديم الذي غدا شارع البازار. وساهم سوقا «التُرك» و«الربا» وسوق «المورين»، قرب القلعة، في إيجاد المنطقة التجارية الأكثر نشاطاً في المدينة، وبالتكامل مع الأسواق التي كانت موجودة من قبل.

عزز عثمان باشا التمرکز المديني الذي خلقه درغوث من خلال بناء صرح «المدرسة» عام ١٦٥٤ والذي حمل اسمه بعده. جرى تمويل صرح المدرسة الرائع من عدة «وقفات»^(١٩) من بينها «الفندق الكبير» عند الزاوية الشمالية لسوق التُرك، و«الحمام الكبير» عند الديكومانوس الجنوبي إلى الغرب من الأربع عرصات.

أظهرت الحفريات الفائقة الأهمية لجون سلر^(٢٠) عام ١٦٧٥ الصورة الكاملة للمدينة، التي وصفها بالتفصيل البروفنس سيرجيون جيرار^(٢١) الذي كان سجيناً في طرابلس بين عامي ١٦٦٨ و١٦٧٦. كشفت الحفريات، وفق وصف جيرارد^(٢٢)، عن بنية مدنية حسنة الهيئة بل مكتملة. فالأسوار المخمسة التصميم، بتحصيناتها وبواباتها، تحيط بمنطقة مدنية تقوم بطريقة واقعية جداً. ومن السهل تمييز الكاردو والديكومانين الرئيسيين اللذين يمتدان على طول الشريط الموازي للبحر في شبكة من الشوارع المستقيمة والواسعة، وبما يذكر بالتصميم الروماني تماماً. في القسم الأعلى من الصورة،

(١٩) حول مؤسسة الوقف ودورها الأساسي في تطوير المدن العثمانية، انظر: Richard Van Leewen, *Waqfs and urban Structures: The Case of Ottoman Damascus*, Studies in Islamic Law and Society (Leiden; Boston, MA and Kholn: Brill Academic, 1999), pp. 33-92.

(٢٠) «A Mapp of the Citie and Port of Tripoli in Barbary,» and «A Prospect of the City of Tripoli in Barbary,» in: John Seller, *Atlas Maritimus, or, The Sea Atlas: Being a Book of Maritime Charts. Describing The Sea-Coasts, Capes Headlands, Sands, Shoals, Rocks, and Dangers, the Bays, Roads, Harbors, Rivers and Ports, in Mast of the Known Parts of the World: Collected from the Latest and Best Discoveries that have Been Made by Divers Able and Experienced Navigators of Our English Nation: Accommodated with a Hydrographical Description of the Whole World...: with the Nature of the Commodities and Merchandizes of Each Country* (London: Printed by John Darby for the Author, and are to Be Sold at his Shop..., 1675), and Aurigemma, «Per La Storia delle Fortificazioni di Tripoli».

Histoire Chronologique du Royaume de Tripoli de Barbarie, pp. xix and 191-194. (٢١)

Rossi, *Syoria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al 1911*, p. 192, footnote (٢٢) 76.

إلى الغرب من الكاردو، تفقد الشوارع بالتدرج شكلها المستقيم فتغدو منحنية في موازاة هندسة الأسوار المضلعة. النسيج المدني الذي يظهر في الحفريات هو بوضوح النمط المحكم والمستمر للمدينة العربية - الإسلامية. فالشرفات والأسقف المقبية هي ما يميز المنازل، والأبنية الدينية الثانوية، والمستودعات، والورش، والمنازل، ذات الطبقتين عموماً، عالية، ومفتوحة على الشارع من خلال الأبواب والنوافذ، وتظهر بقوة علاقتها اللصيقة بالمكان المدني الخارجي، السمة الدائمة للمدن المتوسطية لا الإسلامية (انظر الرسم الرقم (١٧ - ٤)).

الرسم الرقم (١٧ - ٤) طرابلس: المدينة والمرفأ عام ١٦٧٥



المصدر: John Seller, *Atlas Maritimus, or, The Sea Atlas: Being a Book of Maritime Charts. Describing The Sea-Coasts, Capes Headlands, Sands, Shoals, Rocks, and Dangers, the Bays, Roads, Harbors, Rivers and Ports, in Most of the Known Parts of the World: Collected from the Latest and Best Discoveries that have Been Made by Divers Able and Experienced Navigators of Our English Nation: Accommodated with a Hydrographical Description of the Whole World...: with the Nature of the Commodities and Merchandizes of Each Country* (London: Printed by John Darby for the Author, and are to Be Sold at his Shop..., 1675)

يظهر المسطح الذي رسمه سلر نظاماً متيناً من الأسوار والتحصينات والأبراج وبطاريات المدافع، التي تميّز الصورة الخارجية للمدينة. وللقلعة منظر لا يمحى، يظهر جلياً في واجهتيها الشمالية والشرقية، والمهملتين في وقتنا الحاضر. وراء الخط الأفقي للتحصينات، التي باتت ميزة مدن كثيرة على شاطئ المتوسط بعد الاحتلال الإسباني، تقوم وسط أنقاض صفوف من القباب الضخمة ثلاث مآذن عالية تكشف عن الهوية الثقافية والدينية للمدينة. والمآذن كانت العلامات الفارقة لمعظم الجوامع المهمة في القرن السابع عشر. يقع جامع سيدي سالم الذي بني في نهاية القرن الخامس عشر وأعيد ترميمه عام ١٦٧٠ على منحدر التل الذي يُتَوَجَّه حصن الفنار. أما الجامع الكبير الجديد، الذي بناه درغوث باشا عام ١٥٥٦ عند الطرف الشرقي للمدينة، فهو قرب البحر. وجامع الخروبة، الذي بني على الأرجح قبل الاحتلال التركي وأعيد ترميمه في النصف الثاني من القرن السابع عشر، فهو ملاصق للقلعة (انظر الرسم الرقم (١٧ - ٥)).

الرسم الرقم (١٧ - ٥)

مشهد لطرابلس من العام ١٦٧٥



المصدر: المصدر نفسه.

لكل المآذن المذكورة أعلاه^(٢٣)، إضافة إلى جامع محمود خزندار (١٦٨٠) الذي لا يظهر في خريطة سلر، لها شكل أسطواني كان كما يبدو ميزة القرن السابع عشر^(٢٤). بعد هذه الفترة بدأ تصميم المآذن يتحول نحو الشكل المثلث الزوايا مع جذع أعلى، وهي يمكن ملاحظتها في جوامع شايب العين (١٦٩٩)، والقرمانلي (١٧٣٨)، والغوري (١٨٣٤).

(٢٣) درغوث (١٦٠٤)، سيدي سالم (١٦٧٠)، وجامع الخروبة (النصف الثاني من القرن السابع عشر).

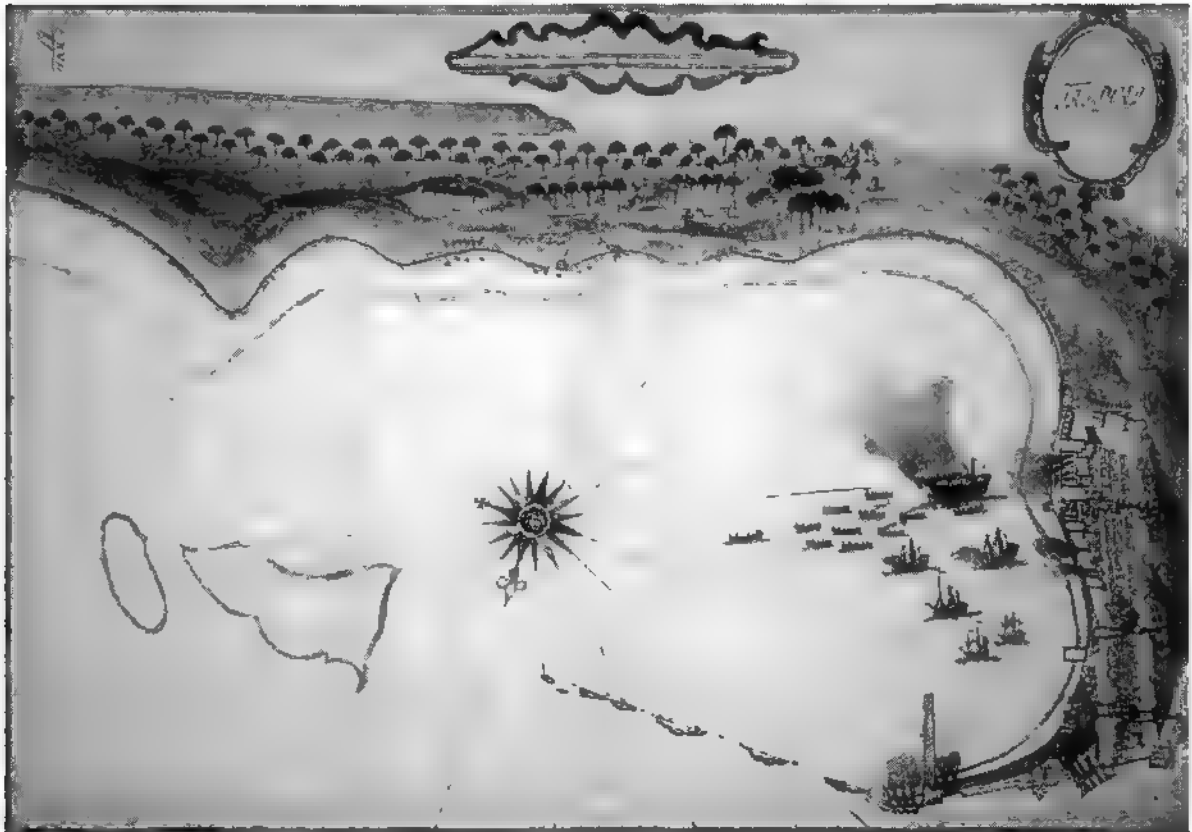
(٢٤) Ballush, A History of Libyan Mosque Architecture during the Ottoman and Karamnli Period: 1551-1911: Evolution, Development and Typology, pp. 152 and 173.

يمنح منظر المآذن الصلبة والحادة الثلاث، في لوحة سلر، طابعاً مميزاً للأفق
المديني كما يسدل الستار بقوة على مرحلة الباشوات والدايات.

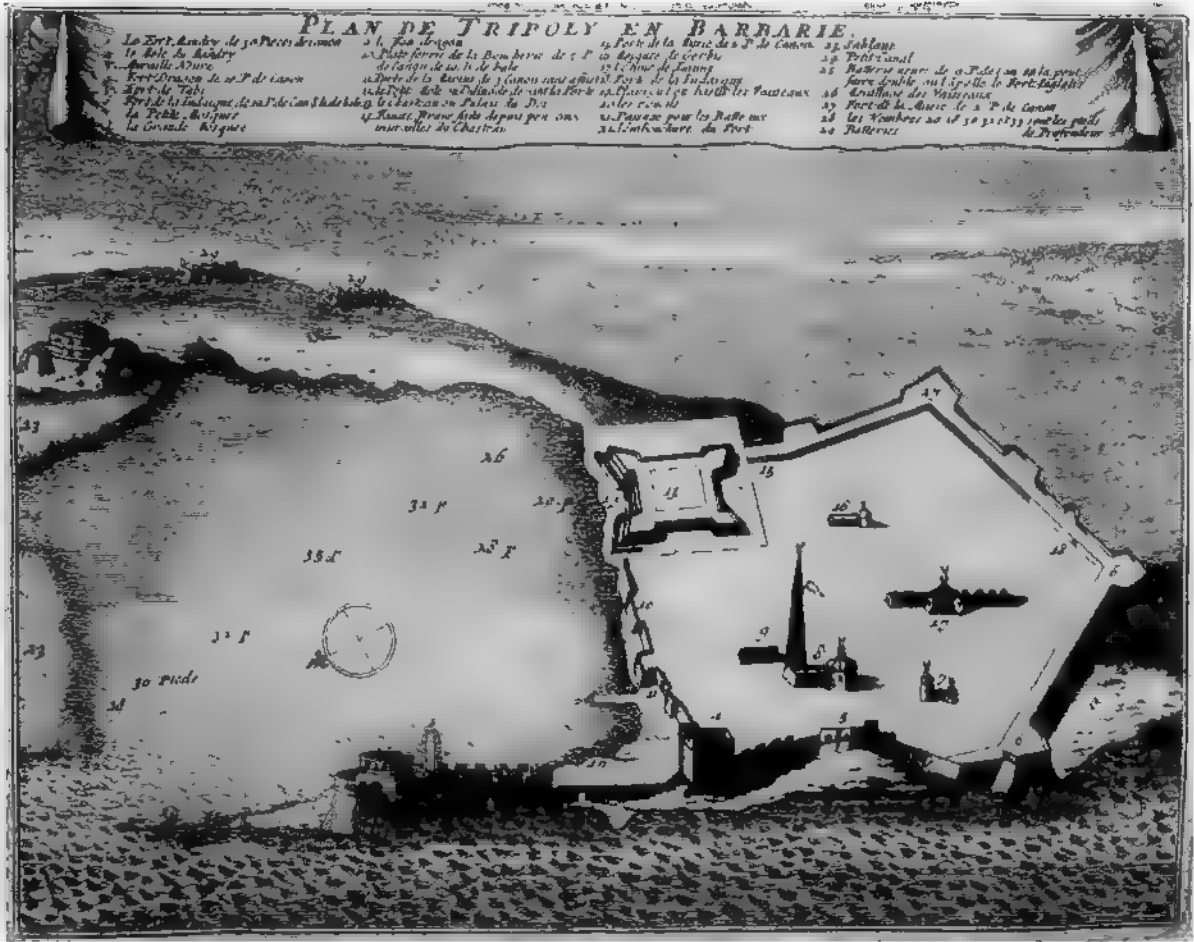
فبعد موت عثمان باشا (١٦٧٢) فصل المنصبان. استمر «الباشا» يتولى اسماً فقط
موقع رأس الإدارة. فبعد فترة مضطربة من الصراع على السلطة بين القادة المحليين،
نجح محمد الإمام شايب العين، آغا وحدات الإنكشارية، في إعادة النظام إلى الإدارة،
وتوصل إلى إنجاز اعتراف السلطان العثماني مصطفى الثاني بالمنصبين معاً، الباشا
والداي.

في حقبة الازدهار الجديدة هذه، أعاد الباشا ترميم مسجد شايب العين، ثاني أكبر
المساجد بعد درغووث، بينما كان مسؤولون إداريون رفيعو المستوى، مثل الخزندار
والقبطان والبايلرباي والداي، يبنون مساجد جديدة أخرى.

الرسم الرقم (١٧ - ٦)
معركة بحرية في ميناء طرابلس (١٦٧٦)



الرسم الرقم (١٧ - ٧)
مخطط لطرابلس في العام ١٦٩٦



المصدر: Nicolas de Fer, *Les Forces de l'Europe, ou Description des principales villes* (Paris: Histoire des Villes, 1696).

ثالثاً: مدينة القرمانيين

انتهت فترة الاضطرابات في الحكم التركي العثماني، بين الباشوات والدايات وخصوصاتهم مع الأعيان المحليين، حين تمكنت أسرة القرماني من تسلم مقاليد الحكم^(٢٥). كان هؤلاء من أصل تركي، لكن على ارتباط بالسكان العرب والبربر الذين

(٢٥) حول تاريخ طرابلس في ظل الأسرة القرمانية، انظر: Rossi, Ibid., and Nahum Slousch, «La Tripolitaine sous la domination des Karamanli,» *Revue du Monde Musulman*, vol. 4 (1908), pp. 58-84, 211-232, 432-453; R. Vadala, «Essi sur l'Histoire des Karamanli Pasches de Tripolitaine de 1714 à 1853,» *Revue de L'Histoire des colonies françaises*, vol. 7 (1919), pp. 177-288; Rodolfo Micacchi, *La Tripolitania sotto il dominio dei Karamanli* (Verbania: A. Airoldi, 1936), and Robert Mantran, «Karamanli,» in: *Encyclopedia Islamica*, 2nd ed.

كانوا الجماعة المهيمنة على طرابلس ومنطقتها. ومن دون نسيان اعترافهم بسلاطين إسطنبول، حكم القرمانليون وتوارثوا الحكم كسلالة ملكية حقيقية. وكانوا بمعنى ما أسبق من نظرائهم من السلالات الملكية المحلية في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر في بلدان من الإمبراطورية العثمانية مثل البلقان ومصر.

تخلص مؤسس السلالة، أحمد باشا القرمانلي، من الوجود الطاغوي للإنكشارية بمجزرة تشبه تلك التي نفذها في مصر بعد قرن كامل محمد علي باشا ضد المماليك. دشّن تسلّم أحمد باشا الحكم حقبة طويلة من الاستقرار، واعتمد السياسات التجارية المفتوحة تجاه البلدان الأوروبية بهدف جني المال وتوقيع معاهدات الصداقة، ولو عبر التهديد المستمر بالقرصنة التي قد تصيب سفارات طرابلس وبعثاتها. أسس القرمانليون قنصليات نظامية في بعض المنازل المهمة في المدينة، الواقعة في المنطقة المدنية الشمالية الشرقية المواجهة للميناء.

أهم إنجازات أحمد باشا الإعمارية خلال فترة حكمه الطويلة (١٧١٤ - ١٧٤٥) كانت إيصاله قنوات جرّ المياه إلى القلعة والمدينة^(٢٦)، وإلى الأسواق، والفنادق، وفوق كل شيء، إلى المسجد، والمدرسة، والحمام العام، والحدائق، التي اكتملت عام ١٧٣٨ وجرى دمجها في المجمع المعماري الجديد المواجه للجانب الغربي للقلعة.

وفي سياق التطوير المدني القائم تم نقل الأمكنة العامة الرئيسية في المدينة من الشمال إلى الجنوب، على طول الكاردو القديم، ونشأت نقطة استقطاب جديدة عند الحد الجنوبي بالقرب من باب المنشية. تكونت نقطة الاستقطاب الجديدة من القلعة، وقد رمت وأضيف إليها مقصورات جديدة، والمسجد الملكي الذي احتوى المدرسة، بفضل مؤسسة الوقف الشرعي، والأسواق والفنادق الجديدة.

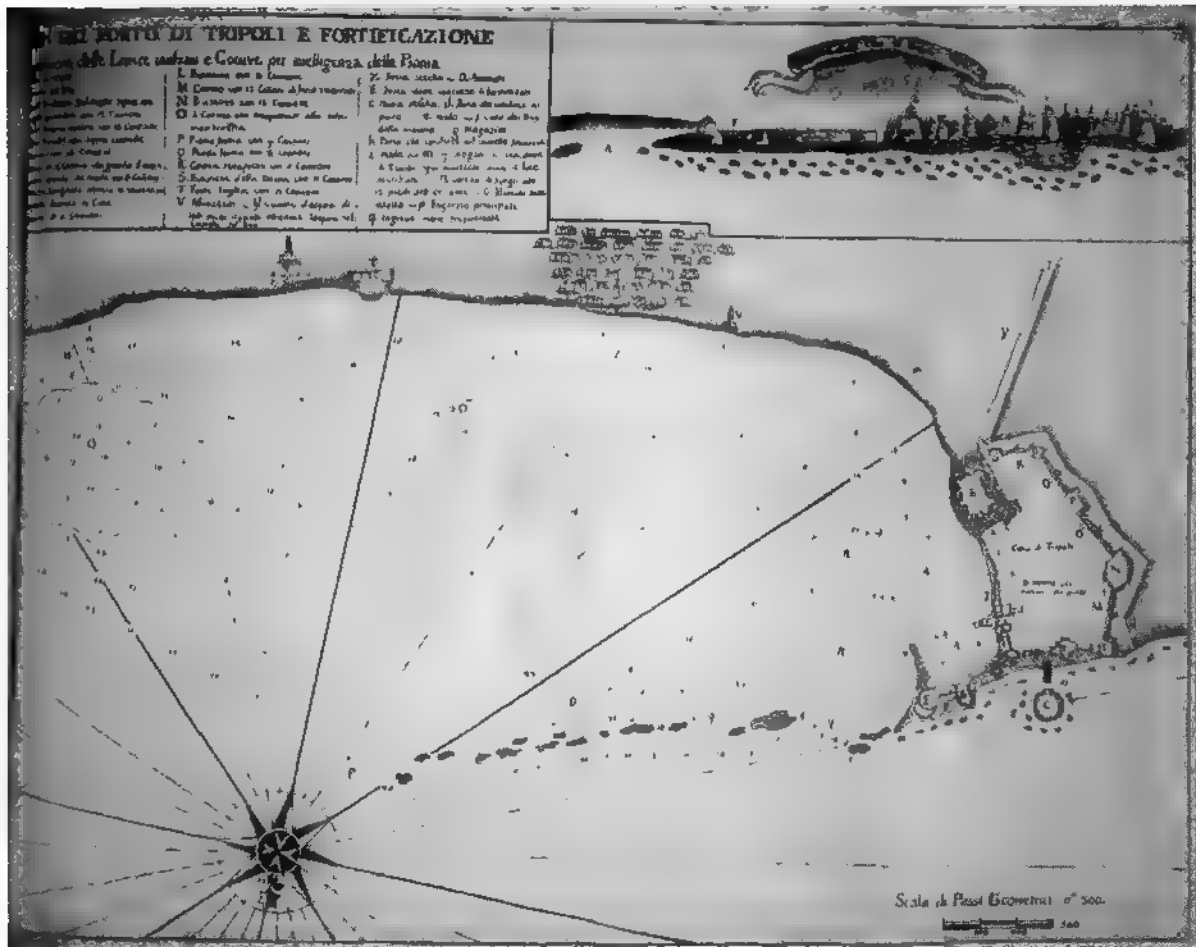
وتحت حكم خلفاء أحمد، محمود باشا (١٧٤٥ - ١٧٥٤)، وعلي باشا (١٧٥٤ - ١٧٩٣)، وأحمد باشا الثاني (١٧٩٥)، ويوسف باشا (١٧٩٥ - ١٨٣٢)، تطور بسرعة طابع المدينة المتعدد الأعراق والديانات. ومثل اليهود في ذلك أقلية متميزة ونشطة^(٢٧).

(٢٦) انظر المخطط الذي رسمه أنطونيو بوج سنة ١٧٦٦، في: Antonino Borg, «Piano del porto di Tripoli e fortificazione», in: *Piano di tutta la costa degli stati soggetti al Gran signor nel Mediterraneo...., 1768-1770.*

أعيد تقديم صورة القناة المهدمة في: Richard Tully, *Narrative of a Ten Years Residence at Tripoli in Africa* (London: Printed for Henry Colburn, 1816).

(٢٧) «تفرقت الجماعة اليهودية الطرابلسية بعدما احتل الجيش الإسباني المدينة، ثم تشكلوا من جديد في النصف الثاني من القرن السابع عشر ضامين عناصر جديدة من جبل نفوسة، غريان، زليتن، إسبانيا، وليغهورن. عاش هؤلاء

الرسم الرقم (١٧ - ٨)
الميناء والأسوار في طرابلس عام ١٧٦٦



Antonino Borg, «Piano del porto di Tripoli e fortificazione,» in: *Piano di tutta la costa: المصدر delli stati soggetti al Gran singor nel Mediterraneo...*, 1768-1770.

وبحسب سجل معاصر للفترة تلك^(٢٨)، وصل عدد اليهود عام ١٧٨٣ إلى ٣٠٠٠ شخص من أصل ١٤٠٠٠ ساكن. وضمت الجماعة المسيحية، التي لم تكن على عدد كبير، القناصل وتابعيهم وبعض التجار، بمن فيهم جنويون ومواطنون من ليفهورن. لم

منعزلين في حيهم المعروف بالحارة ولهم قائد مسؤول عن علاقتهم بالحكومة؛ واتخذوا تدريجياً منحى التجارة وصناعات معينة أخرى كتصنيع المعادن». انظر: Rossi, *Syorta di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al* 1911, p. 236, Footnote 61, and Nahum Slousch, *Un Voyage d'études juives en Afrique* (Paris: Imprimerie Nationale, 1909).

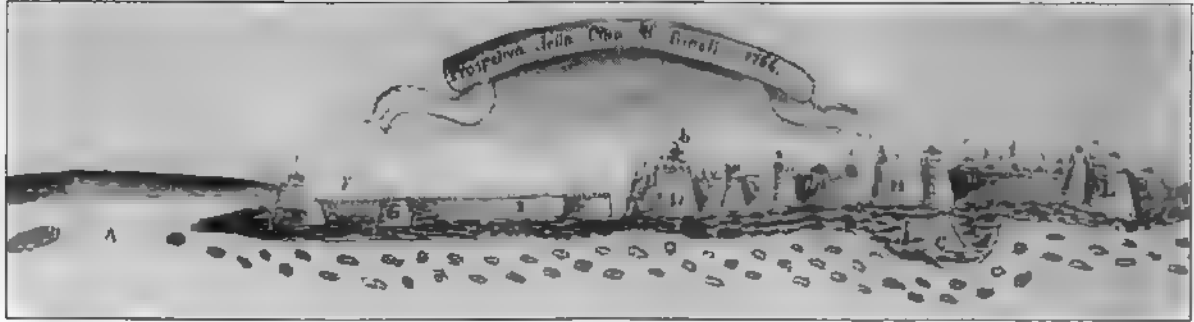
وفي أعمال وتقاليد اليهود الليبيين انظر: Mordekai Cohen, *Gli Ebrei in Libia* (Rome: Sindacato Italiano Arti Grafiche, 1930, and Firenze, 1994).

(٢٨) مخطوطة ١٧٨٤ «جورنال إيستوريكو» *Giornale Istorico* للتاجر الفينيقي مارينو دو كسيرا في: Rossi, Ibid., p. 248, and F. Coro, «Una Relazione veneta su Tripoli ne 1700,» *Rivista della Colonie Italiane*, vol. 6, no. 12 (December 1930), pp. 1092-1102.

يظهر المالطيون إلا مع بداية القرن العشرين وتبعاً لتزايد النفوذ البريطاني في عالم البحر الأبيض المتوسط^(٢٩).

الرسم الرقم (١٧ - ٩)

مشهد من مدينة طرابلس في العام ١٧٦٦



المصدر: المصدر نفسه.

وتحت حكم يوسف، اكتسبت العلاقات بين البلدان المقابلة للمتوسط، أو لها مصالح فيه، أهمية متزايدة. ومع ذلك كان هناك علاقات متوترة مع بلدان مثل نابولي^(٣٠)، وسردينيا^(٣١)، والولايات المتحدة الأمريكية^(٣٢)، بسبب أنشطة القراصنة الذين يتلقون الحماية من القرمانليين. هكذا تزايدت الحاجة إلى تعزيز الدفاعات البحرية للمدينة. فأنشأ وزير البحرية، قائد الجمارك، الأميرال مصطفى قُرْجي، حصناً جديداً (البرج الجديد)، عند نهاية الميناء، قرب برج المندريك، القلعة الإسبانية القديمة. وطبق الحصن الجديد نظام الدفاع البحري المؤلف من البرج الأحمر، والحصن الإسباني، على الساحل الشرقي، وبرج المزجرة، والقلعة نفسها؛ في حين استند النظام الدفاعي عند الساحل الشمالي إلى برج الفرارة (الدالية)، وبرج الفنار أو برج التراب. كما بنى مصطفى قُرْجي عام ١٨٣٤ جامعاً حمل اسمه قرب قوس ماركوس أوريليوس.

(٢٩) أجاز اجتماع فيينا في العام ١٨١٤ لإنكلترا تملك مالطا.

(٣٠) Giuseppe Paladino, «La Spedizione della marina napoletana a Tripoli nel 1828», *Rivista delle Colonie Italiane*, vol. 3 (1929), pp. 909-924 and 1003-1014.

(٣١) Giuseppe Ferrari, *La Spedizione della Marina sarda a Tripoli nel 1825* (Rome: Memoire Storico Militari, 1912).

(٣٢) Enrico De Agostini, «Una spedizione Americana in Ciranica nel 1805», *Rivista Delle Colonie Italiane*, vol. 2, no. 5 (October-December 1928), pp. 721-732, and *Rivista Delle Colonie Italiane*, vol. 3, no. 1 (January 1929), pp. 41-56.

في عام ١٨٣٢ تنازل يوسف باشا القرماني عن الحكم لمصلحة ابنه علي. وقاد الوضع السياسي الجديد، الذي بدأ يتسم بالصراع بين فرنسا وإنكلترا على السيادة في البحر الأبيض المتوسط (ففي ١٨٣٠ احتلت فرنسا الجزائر) سلطان الأستانة إلى عزل علي باشا واستبداله بحكم مباشر على طرابلس.

في الرابع من آب/أغسطس ١٨٣٨ توفي يوسف باشا في منزله في المدينة قرب الأربع عرصات وجرى دفنه في تربة الأسرة. هكذا، وعلى نحو رمزي، بلغت فترة الاستقرار والازدهار السابقة لطرابلس نهايتها. وقدم الحاكم التركي للمدينة، مع الضباط وسكان المدينة، واجب التكريم أثناء دفن يوسف: «عند الظهر اعتلى المؤذن المئذنة وتليت لساعة آيات من القرآن الكريم وكلمات التمجيد. وحرر العبيد وكذلك السجناء من السجون. ونكست القنصليات أعلام بلدانها وسط تقدير كبير من الأهالي»^(٣٣).

رابعاً: طرابلس مدينة متوسطة

لم تنجز الإدارة العثمانية لطرابلس بين عامي ١٨٣٥ و ١٩١١^(٣٤) تغييرات كبيرة في المدينة، لأنها كانت في حرب مستمرة ضد انتفاضات الأشراف العرب المحليين من جهة، وضد المصالح التجارية للسفارات والقنصليات الأجنبية من جهة ثانية (انظر الرسم الرقم (١٧ - ١٠)).

يصور باليسير دو رينو، قنصل فرنسا في طرابلس بين عامي ١٨٥٠ و ١٨٥٢، المدينة كـ «مدينة صغيرة من ١٠ أو ١٢ ألف ساكن، نظيفة بما يكفي خلا الحي اليهودي. والمدينة محاطة بأسوار لكنها في حالة سيئة»^(٣٥).

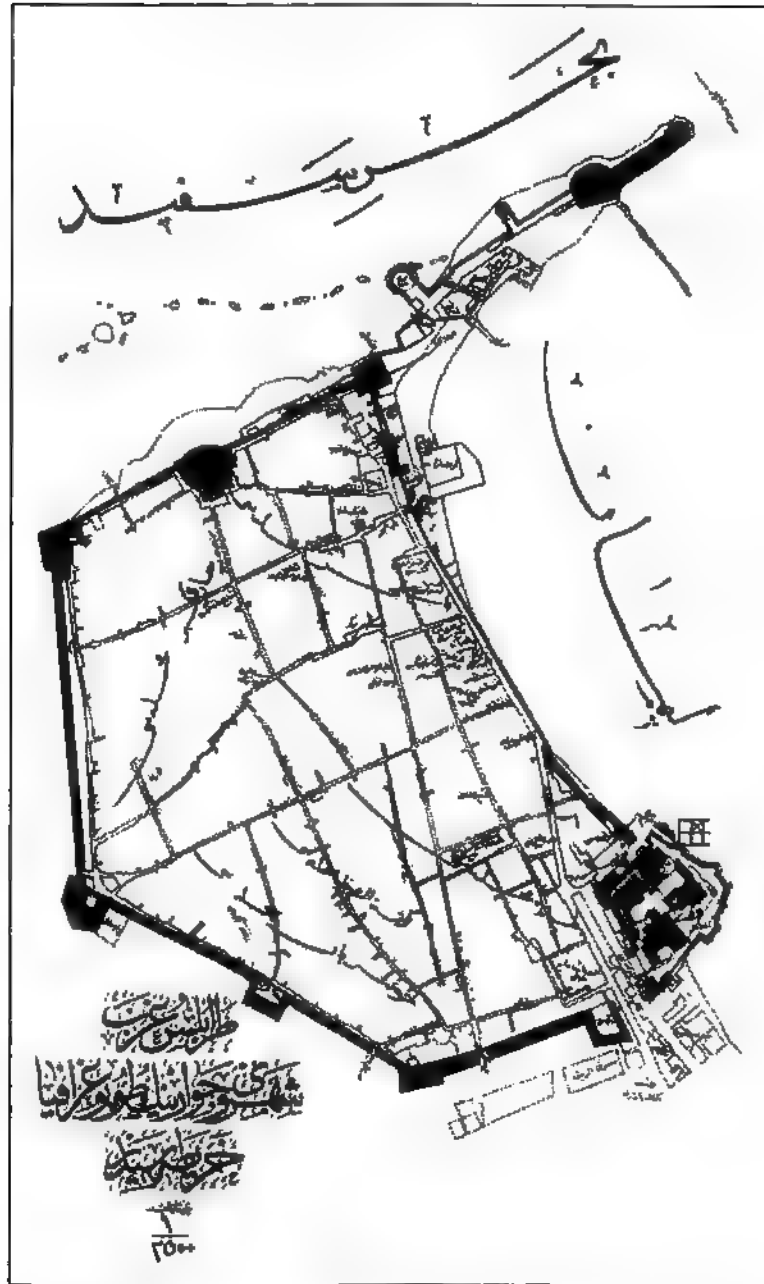
تزايد النشاط التجاري في طرابلس لفترة قصيرة في إثر إخماد الباشوات الأتراك عام ١٨٥٨ انتفاضات السكان العرب بقيادة جمعة. وقد احتلوا المناطق الداخلية في فزان وغدامس ومُزق وغات، وأقاموا حصوناً تركية لفرض الأمن.

Rossi, *Syoria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al 1911*, p. 291. (٣٣)

Francesco Coro, *Settantasei anni di domanzione turca in Libia (1835-1911)* والمصدر نفسه، و (٣٤) (Tripoli: Dar al-Firjani, 1937); Anthony I. Cachia, *Libya under the second Ottoman Occupation (1835-1911)* (Tripoli: Government Press, 1945); Rodolfo Micacchi, «La Tripolitana dal 1835 al 1858», *Rivista della Colonie*, vol. 11 (1937), pp. 816-832 and 974-989.

Edmond Pellissier de Reynaud, «La Regence de Tripoli», *Revue des Deux Mondes*, vol. 12, (٣٥) no. 4 (1855), in: Rossi, *Syoria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al 1911*, p. 313.

الرسم الرقم (١٧ - ١٠)
مخطط طرابلس في العام ١٩١٠



Fehmi Bey.

المصدر:

في هذه الفترة شكلت نبتة الحلفاء، التي تنمو في المناطق الجافة غرب ليبيا، مورداً تجارياً مهماً استخدم في تصنيع السلال والحبال والورق وفي التصدير كذلك. وكان حجم صادرات نبتة الحلفاء، وبحسب سجلات الميناء^(٣٦)، يعادل تقريباً نصف مجموع صادرات البلاد الطرابلسية المؤلفة من زيت الزيتون والقمح والصوف، إلى منتجات

Coro, Ibid., p. 92.

(٣٦)

سودانية مثل ريش النعام والعاج وغبار الذهب. وفي الصادرات كذلك منتجات حرفية ومكونات مستخلصة أخرى.

وبحسب رزنامة عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ - ١٨٨٣)^(٣٧) كان في طرابلس عاصمة الولاية ٢٥٠٠٠ ساكن، بينهم ٤٠٠٠ يهودي و ٣٠٠٠ من الأجانب. وكانت طرابلس الغرب مأهولة أكثر من سواها في الولاية والمدينة الأهم فيها^(٣٨).

كان هناك سور يحيط بالمدينة فيه أربعة أبواب: باب الخندق، وباب المنشية، وكلاهما في الجهة الجنوبية، وباب الجديد إلى الغرب، وباب البحر إلى الشمال. كان في طرابلس ستة أحياء هي التالية: «حومة غريان، وحومة البلدية، وكوشة الصقار، وباب البحر، والحارة الكبيرة، والحارة الصغيرة»^(٣٩). وبحسب قَبْسي كانت هناك مساحات فارغة واسعة تفصل بين الأحياء^(٤٠). وكان تقسيم طرابلس إلى أحياء (حومات) دليلاً على تنوع المجموعات القبلية والدينية الساكنة في المدينة. كانت الحومات التي يقطنها اليهود تسمى «الحارة»: الحارة الصغيرة والحارة الكبيرة، ومع أن ساكني الحارة الصغيرة كانوا أكثر من الكبيرة، فإن ظروف حياتهم المعيشية كانت أكثر ضعة من الأخرى^(٤١).

وكانت خاصية الحي لا تحدد بساكنيه فقط، وإنما بموقعه في المدينة أيضاً. ف «باب البحر كان له واجهة بحرية؛ وحومة غريان وكوشة الصقار كانتا متعلقان بطريق القوافل؛ وكانت حومة البلدية ذات طابع تجاري وسيط مع اتجاه إداري، بلغة اليوم، نظراً إلى اتصالها بالقلعة مركز الحكومة. وكان لافتاً أن تعكس رمزية المباني التنوع الوظيفي للأحياء. فمنازل حي باب البحر كانت أصغر مساحة من تلك القائمة في الأحياء المركزية الشرقية، لأن صيادي السمك ليسوا بحاجة إلى مخازن. فالسمك يجب أن يباع في اليوم نفسه، بينما كان المنزل في الحي التجاري يتألف من مكان سكن، ومخزن، ومتجر، وبما يسمح بحفظ البضائع التي كانت موسمية ونادرة، أو يجب حفظها لكي تباع بسعر أعلى في الأوقات العصيبة. وكان التجار إلى ذلك يحتاجون إلى مكان للحصان أو للعربة، التي كانت تلك توضع في السقيفة، أو غرفة أمامية تستخدم عادة

Calogero Piazz, «La Vilayet di Tripoli d'Occidente nel 1300 dell'Egira secondo un (٣٧) almanacco», *Studi Senesi*, 108 (3rd Series, 45), no. 1 (1966), pp. 139-173.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٥٠.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٥١.

(٤٠) Fuad Cabasi, «Profilo storico urbanistico e sociale della Medina o Città vecchia di Tripoli», *Quaderni dell'Istituto di Cultura di Tripoli*, vol. 1 (1979), p. 41.

(٤١) المصدر نفسه.

كمحل تحميل أو إسطل أو حتى غرفة انتظار للزبائن، وكان مركز صاحبها الاجتماعي يقاس بمواصفاتها»^(٤٢).

يسجل التقويم السابق كذلك سلسلة من المباني داخل الأسوار، من بينها «القلعة، وبرج الساعة، وعشرة جوامع، وسبعة كُتُس، وأربع كنائس، و٢٣ مدرسة، ومستشفيان، وثلاث صيدليات، وأربعة حمامات عامة، و٢٤٧٠ منزلاً، و١١٠٠ متجر، و٥٠ مستودعاً، و٥٠ خاناً، و٧٢ مطحنة، و٣٣ مخبزاً، و٣ ورش صناعية، ونحو ٥٠ مبنى مختلفاً. وكان هناك خارج الأسوار ثكتان عسكريتان، كانت تستخدمان مع القلعة لإقامة الجند، والمستشفى العسكري، و١٢٠ ضريحاً صغيراً، ومدرستان، و٢٠٠٠ منزل، و٢٥٠٠ بستان، و٢٦٠ مستودعاً، ونحو ٦٠ خاناً، و٢٧ مطحنة، وعدة أبنية أخرى»^(٤٣).

القائمة السابقة مثيرة للاهتمام لأنها تشير إلى هيمنة المدينة المسورة مقارنة بالمنطقة المبنية في الواحة. ومع ذلك «يُظهر عدد المنازل والمتاجر التي جرى بناؤها في السنوات الأخيرة خارج أسوار المدينة أن الواحة تنمو على نطاق واسع»^(٤٤). تركزت المؤسسات الجماعية التابعة للجماعات المختلفة من السكان في المدينة. فإلى الجماعة المسلمة، نمت الجماعتان اليهودية والمسيحية مع كنسهما وكنائسهما.

ويعد عدد المدارس شاهداً على الاهتمام الجديد للإدارة العثمانية بتوفير إصلاحات تربوية (رشدية) كانت قد دخلت في أرجاء السلطنة كافة بالرغم من معارضة علماء الدين. «بدأت الإصلاحات التربوية في طرابلس الغرب عام ١٢٧٦هـ / ١٨٩٧م، بافتتاح أول مدرسة مهنية (لاحقاً تقنية)، واستكملت بافتتاح مدارس أساسية. وبحسب التقويم، كان يوجد عام ١٣٠٠هـ ١٥ مدرسة عامة كانت المدرسة التقنية إحداها، و١٤ مدرسة أساسية وإبتدائية... وكان توزيع المدارس في العاصمة على النحو التالي: ٧ في حومة البلدية، ومدرسة واحدة للبنات مؤلفة من مدرّس واحد و٥٠ تلميذة؛ اثنتان في حومة غريان؛ ثلاث في ضاحية القرن [الروماني]؛ اثنتان في باب البحر. إلى جانب المدارس العامة (السلطانية) كانت هناك مدارس أخرى؛ فقد أقيمت مدارس قرآنية لتثيت تعليمها في الناشئة قبل السياسة (الرشدية) وبعدها في طرابلس وولايتها. أديرت مدرسة درغوث والكتاتيب من طرف رجال دين متعلمين. وكان هناك أيضاً مدرسة الجالية اليهودية في

(٤٢) المصدر نفسه.

(٤٣)

Piazza, Ibid., p. 150.

(٤٤) المصدر نفسه.

الحارة الكبيرة و«مدارس» الأجانب كتلك التي يديرها الفرنسيون «الفرير»، و«مدرسة البنات» لراهبات المحبة، والمدرسة «الإيطالية» ل«أخوات ماروللي»^(٤٥).

من المثير مقارنة معطيات طرابلس، بحسب التقويم، بمعطيات إحصاء الثالث من تموز/يوليو ١٩١١، عشية الاحتلال الإيطالي لليبيا. «في مدينة طرابلس ٢٩٨٦٩ ساكناً، ١٩٤٠٩ منهم مسلمون، و٦٤٦٠ يهود، ونحو ٤٠٠٠ أوروبيون بمن فيهم المالطيون»^(٤٦). من حيث الأبنية كان هناك «نحو ٢٧٥٠ منزلاً، و١٣٠٩ متاجر، و٣٥ نزلاً، و٧٢ مقهى، و٩٥ خاناً، و٣ فنادق، و٥ حانات، وصالتا سينما، ومسرح عربي واحد، وطاحونة عسكرية على البخار، و٤٥ طاحونة تدار بالجمال، و٤٣ مخبزاً، و٤ معامل للصابون، و٣ دباغات للجلود، و٣٣ جامعاً، و٢٢ كنيسة، وكنيسة كاثوليكية واحدة، وكنيسة أرثوذكسية واحدة، و٢١ مربطاً، و٥ زوايا بينها الرفاعية والعروسية والمدنية، و٥ مدارس إيطالية، ومدرستان فرنسيتان، و٣ مدارس دينية إسلامية، ومدرسة عسكرية تركية واحدة، ومدرستان يهوديتان، و٢١ مدرسة عربية للصبيان تعلّم فيها القرآن، ومدرستان عربيتان للبنات مشابهة لتلك التي للصبيان، ومدرسة إسلامية عالية تعلّم فيها القرآن، و٦ مدارس تركية أساسية وابتدائية، ومستشفى مسيحي واحد، وعيادة جراحية إيطالية، و٥ صيدليات، و٣ حمامات، ومستشفى مدينة تركي واحد، ومستشفى عسكري واحد»^(٤٧).

يسجّل مخطط طرابلس، الذي لخصه فهمي باي عام ١٩١٠^(٤٨)، على نحو دقيق الزيادة في السكان والعمران التي كانت أعلى في الحين اليهوديين في الزاوية الشمالية الغربية للمدينة. المساحة المدنية داخل الأسوار ملأى كلياً بالمباني. الحدائق والمقابر القريبة من المساجد والأضرحة، والمساحات الفارغة التي تفصل ما بين الأحياء، لم تعد قائمة. والحدائق القائمة والمجاورة للأسوار في مخطط ١٩١٠^(٤٩) فتعود ملكيتها للمقابر الإسلامية، والمسيحية، والأرثوذكسية، واليهودية (انظر الرسم الرقم (١٧ - ١١)).

(٤٥) المصدر نفسه، ص ١٥٢ - ١٥٣. لا يذكر التقويم المدرسة الإيطالية الملكية في طرابلس، التي افتتحت سنة ١٨٨٣ وأدارها فيليب روستانو (ص ١٧٣، الهامشان ١١٤ - ١١٥)، وEttore Rossi، «La Colonia Italiana a Tripoli nel secolo XIX», *Rivista delle Colonie Italiane*, vol. 4 (1930), p. 1065, and Angelo Del Boca, *Gli Italiani in Libia: Dal fascismo a Gheddafi* (Rome-Bari: Gius Laterza and Figli, 1993), p. 47.

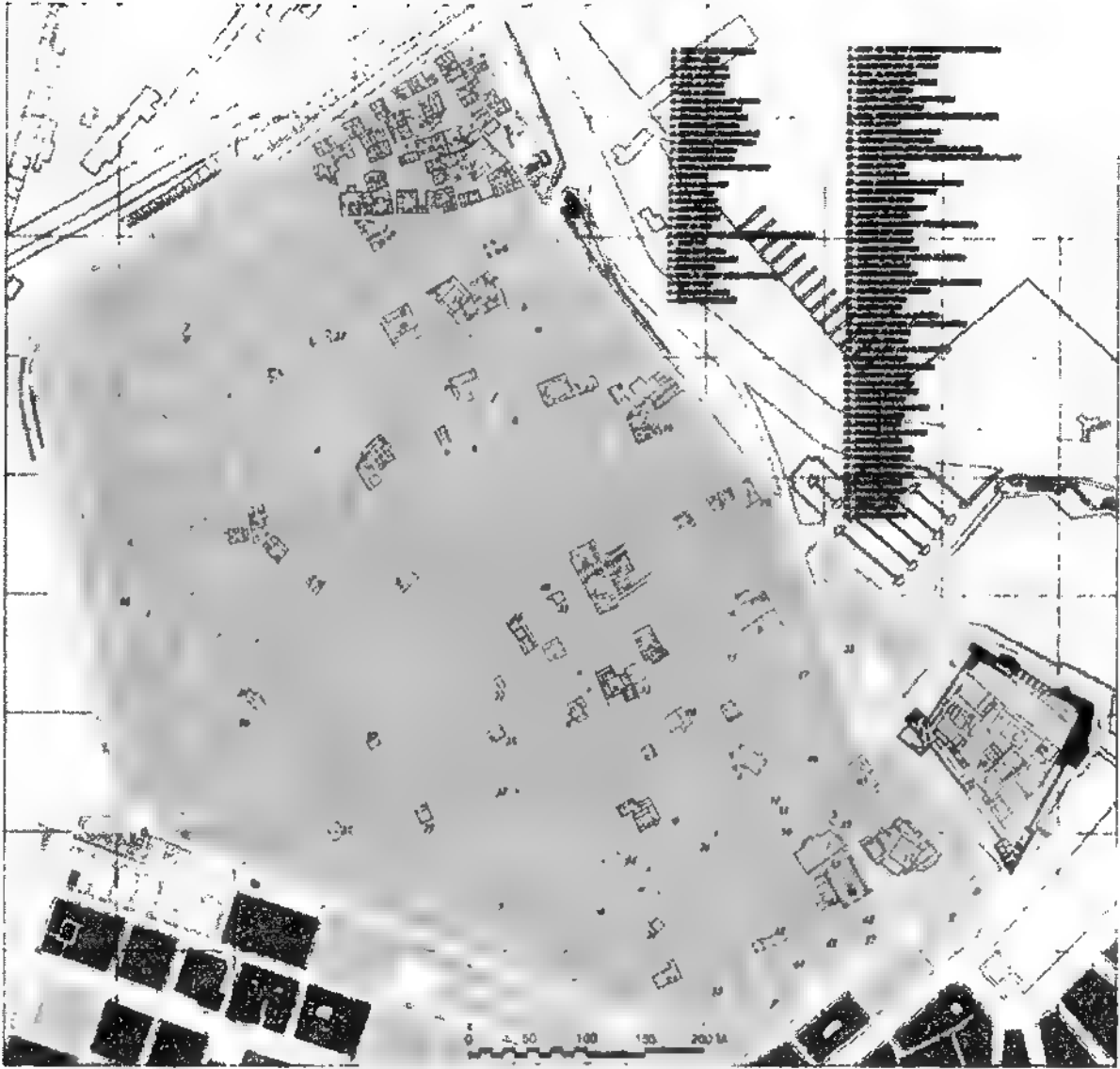
(٤٦) Coro, *Settantasei anni di domanzione turca in Libia (1835-1911)*, p. 92.

(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) Aurigemma, «Le Fortificazioni della Città di Tripoli», p. VII.

(٤٩) «كان هناك مكان صغير يدعى «جنان الفرق»، قرب ساحة إسبارتو، المصممة كحديقة عامة؛ لكن المكان هذا قلّص سنة ١٩٠٢ حين بني بجواره الثكنات العسكرية الجديدة، ويات مكاناً للنادي العسكري بعد الاحتلال الإيطالي». انظر: Coro, «Una Relazione veneta su Tripoli ne 1700», p. 92.

الرسم الرقم (١٧ - ١١)
مخطط مدينة طرابلس الحالية



زادت الكُنس بزيادة عدد السكان اليهود. ووجودهم الوازن جرى تسجيله عام ١٩١٢ في أول مخطط توجيهي رئيسي للمدينة^(٥٠).

حضر في المخطط أيضاً جوامع صغيرة أو عدة أضرحة داخل الأحياء. وقوس ماركوس أوريليوس المقفل تماماً تقريباً في المخطط جرى استخدامه كقاعة سينما،

(٥٠) حول التحوّل من المدينة العثمانية إلى المدينة الإيطالية، انظر: Marida Talamona, «Citta Europa: a citta Araba in Trioplitania», in: *L'Architettura italiana d'oltremare (1870-1940), Catalogue of the Homonymous Exhibition, a cura di G. Gresleri* (Bologna: Venezia, 1993), pp. 257-277, and L. Micara, «Citta storica a architettura moderna in Libia: Il caso di Tripoli», in: *Moderna Mediterranea*, edited by G. Strappa and A. B. Menghini (Bari: Mario Adda Editore, 2003), pp. 81-96.

إحدى الصاليتين المسجلتين في إحصاء ١٩١١ للمدينة؛ في حين ظهرت عدة مدارس من نوع مختلف لم تكن من قبل في شبكة المؤسسات الجماعية.

الرسم الرقم (١٧ - ١٢)
مشهد شمالي لمجسم مدينة طرابلس

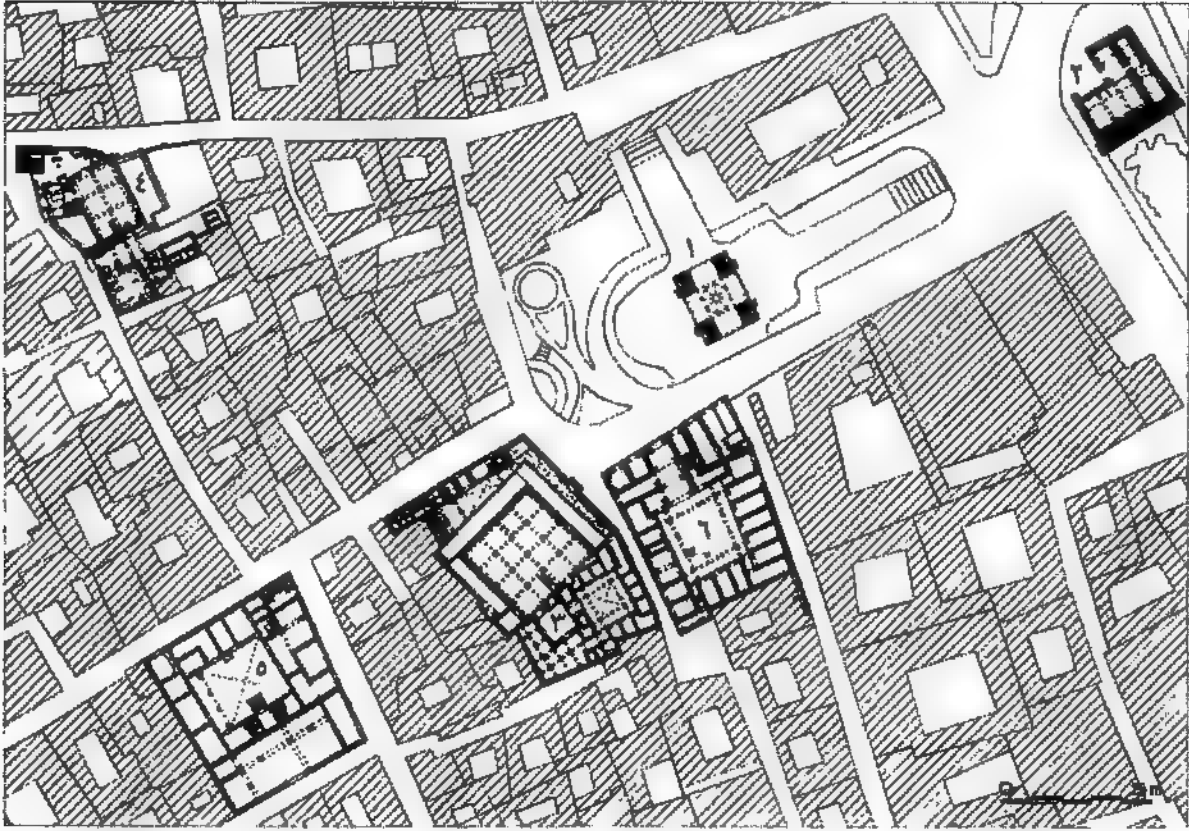


مقدمة الأسفل: باب الحرية، جامع أحمد باشا القرماني، باب المونسكية. القلعة (سراي الحمراء).

عشية الاحتلال الإيطالي لطرابلس عام ١٩١١، كانت المؤسسات والأمكنة العامة الرئيسية، الممثلة لمراحل التطور المدني المختلفة، متمركزة على طول الشريط الممتد بين الكاردو القديم والميناء. ويكشف قوس ماركوس أوريليوس الروماني المرتفع، وجامع الناقة الإسلامي القديم، وتقاطع الأربع عرصات، وقلعة الإسبان وفرسان مالطة المحصنة، وجامعا سيدي درغوث ومحمد باشا العثمانيان القديمان، ومسجد أحمد باشا القرماني في حي الأسواق والفنادق، وأخيراً حي السفارات والقنصليات من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تكشف كلها عن التعاقب المستمر للأحداث التاريخية الرئيسية وفي المركز المدني نفسه. وبينما يمكن بسهولة تمييز هذا الشريط في المدينة، تظهر الحاجة ملحة إلى مخطط أكثر تفصيلاً من أجل فهم كيف بدت تلك المباني غير منفصلة عن سياقها المدني^(٥١).

(٥١) المخطط المنشور هنا هو نتيجة علمية راهنة، حول موضوع مدينة طرابلس، في: «البعثة الإيطالية لدراسة

الرسم الرقم (١٧ - ١٣)
عقدة قوس ماركوس أوريليوس في مدينة طرابلس



١ - قوس ماركوس أوريليوس؛ ٢ - جامع سيدي عبد الوهاب؛ ٣ - جامع مصطفى باي قُرْجِي؛ ٤ - جامع سيدي سالم المشاط؛ ٥ - القنصلية الإنكليزية؛ ٦ - فندق زميت.

التراث المعماري والمديني للحقبة الإسلامية في ليبيا». هدف عمل البعثة، الذي نُفذ بالتنسيق مع دائرة الآثار الليبية ومع المشروع التنظيمي والإداري لمدينة طرابلس القديمة، إلى دراسة المباني والبنية المدنية وتحولات المدينة من أجل تعيين الاستراتيجيات المناسبة لإعادة الترميم والحفظ. يتضمن المشروع، وكما خطه ج. نولي لروما في القرن الثامن عشر، في خريطة واحدة وعلى مقياس ١/٥٠٠ مخططات جميع الأبنية العامة (الجوامع، المساجد، المدارس، الزوايا، الأسواق، الفنادق، الحمامات،... إلخ) والمنازل التي أمكن مسحها، وسمحت المعالجة الحاسوبية للرسوم تلك بتسجيل التغيرات والتحولات التي طرأت على المخطط، من أجل إنجاز وثيقة أساسية للمشهد الدائم للتحولات المدينية للمدينة. من أجل بليوغرافيا نشاط البعثة انظر: p. Cuneo, «The Italian Architectural Mission for the Islamic Period (1989-1994)», *Libya Antiqua*, New Series, vol. 1 (1995), pp. 170-174, tavv. 81-84; p. Cuneo [et al.], «The Italian Architectural Mission for the Islamic Period: 1995 Report», *Libya Antiqua*, New Series, vol. 2 (1996), pp. 204-210, tavv. 91-94; Ludovico Micara: «Missione Italiana per lo studio dei monumenti architettonici di peronici di period islamico: Relazione sull'attività del 1996», *Libya Antiqua*, New Series, vol. 2 (1997); «Missione Italiana per lo studio dell'architettura e dell città di period islamico in Libia. Relazione sull'attività del 1997», *Libya Antiqua*, New Series, vol. 4 (1998), pp. 259-268; «Scenari dell'abitare contemporaneo: Tripoli medina mediterranea», *Piano Progetto Città, Rivista dei Dipartiment di Architettura e Urbanistica di Pescara*, nos. 20-21 (2003).

فنحن إنما نتحدث عن النسيج المديني المركب، والمتميز على نحو رئيسي بثباته الفيزيائي والبنوي والوظيفي^(٥٢). وهنا يؤدي الفراغ، بحسب نظرية الدومينو، إلى فراغات أخرى في كل مكان، ناشراً العدوى إلى المحيط^(٥٣).

فالجامع، وهو مكان تأدية صلاة الجماعة، يتصل من خلال مداخله بنمط الشوارع التي تقود إلى أمكنة عامة أخرى وإلى التجمعات السكنية. فجامع الناقة، مسجد الاجتماع في المدينة عدة قرون، يحاذي «الأسواق» و«الفنادق»، كما هي أيضاً حال مسجد أحمد باشا القرماني. تدين هذه الميزة لمؤسسة الوقف، التي تتكون من وهب الملاك أراضي، يعود ريعها لصيانة المسجد وتحسينه. وفي أزمنة معينة، كان يبنى حمام عام أو مدرسة في أراضي الأوقاف القريبة من الجامع، وهو ما يخلق وحدات دينية وتجارية وتربوية كبيرة^(٥٤).

في هذه المجمعات المدينية، تشكل الطرق التجارية خاتمة المطاف لنظام سير القوافل. تدخل القوافل المدينة غالباً من الجنوب، من خلال باب المنشية وباب الحرية، أو من الغرب من خلال باب الجديد وباب زناتة. أما داخل الجزء المركزي من المدينة، فتؤلف تلك الطرق شبكة دائمة من الأزقة المكشوفة أو المسقوفة، تحف بها متاجر متخصصة بحسب البضائع المعروضة للبيع. فضلاً عن ذلك، باتت المساجد في الأحياء الطرفية بؤراً يقوم ويتنظم حولها نسيج مديني نشط.

في أزمنة ما، كانت البيوت الكبيرة تنتج في محيطها نسيجاً مدينياً مهماً. وتلك هي حالة تقاطع الأربع عرصات الذي تأسس مادياً من أربعة منازل لأسر غنية في المدينة، مثل القرماني وقرجي ومحسن. وفي الواقع تتكامل هذه المنازل مع أسواق

(٥٢) يفي نموذج المدينة المنتج، بمناسبة المؤتمر العالمي «المدينة المتوسطة» الذي نظمه ل. ميكارا، وأ. بيترشولي، في كلية العمارة في بيسكارا وفي متحف ميشيتي لفرانكافلا البحرية، على الطابع الدائم والمركب للنسيج المديني. والنموذج على مقياس ١/١٥٠٠ يعيد خلق الوضع الطبوغرافي للمدينة سنة ١٩١١، عشية التحولات التي أحدثتها حقبة الاحتلال الإيطالي. وهو نتاج جهد بحثي مشترك من «البعثة الإيطالية لدراسة التراث المعماري والمديني للحقبة الإسلامية في ليبيا»، في سياق التطور الجغرافي التاريخي لمدينة طرابلس.

(٥٣) هذه الظاهرة واضحة على وجه الخصوص في المنطقة الغربية من المدينة، والمأهولة من اليهود وكانوا منذ الاستعمار في حال من الفقر. وحين ترك هؤلاء ليبيا سنة ١٩٦٧ بعد حرب الأيام الستة فقد آلت منازلهم إلى خراب تدريجي. ومن الضروري اليوم وضع استراتيجيات إعمار طارئة لوقف تدهور بلغ مستويات قصوى ويات يهدد بفقدان هوية المدينة.

(٥٤) بوجود بيلوغرافيا غنية حول هذه الموضوعات، المرتبطة بالعالم الإسلامي، راجع حول عمارة المؤسسات الجمعية: Ludovico Micara, *Architettura e spazi dell'Islam: Le istituzioni collective a la vita urbane* (Rome: Carucci 1985).

مغطاة وتحاذيها المناجر ، وهو ما يعزز صورة بؤرة مدنية ناشئة (انظر الرسم (١٧) - (١٤)).

الرسم الرقم (١٧ - ١٤)
عقدة الأربع عرصات في مدينة طرابلس



١ - منزل أسرة قُرْجي ٢ - الأربع عرصات ٣ - منزل محسن ٤ - منزل القرماني ٥ - منزل غير محدد ٦ - مسجد ابن الطيب ٧ - منزل من فترة الاستعمار الإيطالي ٨ - جامع الصقلاني ٩ - منزل الباشا.

في أحيان أخرى، كانت المنازل نفسها تجذب أنشطة من نوع خاص وتصبح، بالتالي، أمكنة مثيرة للاهتمام. ذاك هو حال منازل التجار الأغنياء الذين يعملون في تجارة الأراضي أو الأمكنة البحرية في شارع سيدي عتمورة، وكوشة الصقار، وفي منزل الباشا في شارع جامع الدروج الذي استخدم كمحكمة إسلامية، كذلك المنازل بجوار قوس ماركوس أوريليوس التي تحولت إلى قنصليات فرنسية وإنكليزية.

ليست مدينة طرابلس مجرد نسخة مقلدة للمدينة العربية - الإسلامية بمؤسساتها الجماعية المحددة؛ فهذا النظام المدني إنما هو تطور للبلدة الرومانية السابقة وقد بته شعوب متعددة مثل العرب والبربر الأوروبيين واليهود. على سبيل المثال، الأبنية

المفتوحة على الشارع العام من خلال عناصر معمارية خاصة، كالفناطر والمداخل والنوافذ والمصاطب والشرفات، لا تحميها المشربية دائماً. لهذا السبب يمكن الحديث عن طرابلس كمدينة متوسطة. ويفترض هذا التعريف تراثاً من قيم الحياة والمكان المدنيين المشتركين لدى المدن الواقعة على المتوسط، المكان المفضل للعلاقات والتبادلات، بالرغم من وجود فوارق ثقافية ودينية مختلفة معينة.

لا تضيف سجلات أبو محمد عبد الله التيجاني، الرحلة، حول زيارته طرابلس أعوام ١٣٠٦ - ١٣٠٨ الكثير من المعلومات الموثوق فيها في ما يخص نوع مساجدها وشكلها المعماري. هو يقول إن طرابلس مدينة مزدهرة، «حيث المساجد الكثيرة فيها تفوق عدد المنازل»^(٥٥). وقد ذكر التيجاني من بينها «مسجد سيدي الشعاب في القسم الشرقي من المدينة، والمسجد الجامع قرب المدرسة المستنصرية، غير بعيد من قوس ماركوس أوريليوس، وكلاهما غير موجودين اليوم. وقد وصف المسجد الأخير بالقول إنه واسع مع أعمدة مرتفعة. وله مثذنة مسدسة الشكل تقوم على أعمدة»^(٥٦).

ويذكر التيجاني أيضاً مسجداً قرب الأسوار، بين باب البحر وباب الأخضر. ويمكن التخمين أن التيجاني قصد بذلك جامع الناقية، الذي ما زال قائماً في المكان عينه. وكان صفردي قد أعاد ترميم هذا الجامع عام ١٦١٠، بعد خرابه أثناء الاحتلال الإسباني.

يضم المسجد قاعة مربعة (١٨ × ٥، ١٨ م)، تتألف من ٤٩ زاوية مربعة (٦٠ × ٢ م) مغطاة بقباب. ويدعم البناء ٣٦ عموداً استحضرت من بقايا أثرية. وحدها الزوايا المقابلة للمحراب، وذات الشكل المستطيل، يعلوها عقد مفرغ. وتحيط أربع واجهات، يتألف كل منها من سبعة عقود متقاطعة، بالصحن الذي يتساوى في أبعاده مع القاعة. هذا النظام المعماري المتكرر للقاعة الكبرى، المؤلفة من سلسلة من الزوايا المغطاة بالقباب، هو الميزة الثابتة المشتركة بين مساجد مدينة طرابلس^(٥٧). ويختلف هذا النوع جوهرياً عن نمط الساحة المركزية في المسجد العثماني التي تغطيها قبة واحدة هائلة.

(٥٥) التيجاني، «الرحلة»، في: Ballush, *A History of Libyan Mosque Architecture during the Ottoman and Karamnli Period: 1551-1911: Evolution, Development and Typology*, p. 58.

Ballush, *Ibid.*, p. 59.

(٥٦)

Gaspere Messina, *L'Architettura Musulmana della Libia*, Islamic Architecture in Libya (٥٧) (Castelfranco Veneto: Edizioni Del Grifone, 1972); Warfelli, «The Old City of Tripoli», and Ballush, *A History of Libyan Mosque Architecture during the Ottoman and Karamnli Period: 1551-1911: Evolution, Development and Typology*.

إن حجم ونسب الصحن الكبير تتغير: من ٩ قباب في جامع الخروبة وجامع الدروج، إلى ١٦ قبة في جامع محمد باشا، إلى ٢٧ ثم ٣٢ قبة لاحقاً^(٥٨) في جامع سيدي درغوث، و ٢٥ قبة في جامع أحمد باشا القرمانلي^(٥٩)، إلى ١٦ قبة في جامع مصطفى باي قُرْجي^(٦٠).

يتطور نوع عمارة المسجدين الأخيرين إلى كثير من التفاصيل ليغدو مجمعاً مكوناً من عناصر مختلفة تؤلف مسجداً مربعاً يقابل الجهة الجنوبية الشرقية، ومدرسة مع باحتها، وثُربة، ومثناة مع تراس (شرفة) ذي شكل مسدس أو مشمن^(٦١)، ونافورة وضوء، ومراحض. ولأن الاتجاه الشمالي الجنوبي - الجنوبي الشرقي للمسجد لا يتوازي مع الاتجاه الشمالي الجنوبي للشارع الروماني القديم، فقد جرى إيجاد أمكنة غير منتظمة تصل بين حدود المجتمع والبناء الديني المركزي. تتألف الأمكنة هذه من ثلاث ساحات شبه منحرفة، تتبع كما يعتقد بعض العلماء، رمزاً حنفياً.

التغيير في اتجاهات مخطط المسجد، الذي يحدده اتجاه مكة، وواجهات المباني على الشارع، هي ميزة دائمة في عمارة البلدان الإسلامية. ويحدث ذلك حين تبنى المساجد في نسيج مديني متين ومؤسس من قبل. وقد ظهرت الحاجة إلى حل معماري أولاً عام ١١٢٥ في الجامع الأقمر في القاهرة^(٦٢).

تنوع الحلول المكانية المختلفة للمداخل من البسيط، كما في الجامع الأقمر، إلى الأكثر تعقيداً كما في مساجد الصفويين المواجهة لميدان الشاه في أصفهان^(٦٣). أما في طرابلس فكان الحل واضحاً ومتقناً؛ فكان جواباً دقيقاً عن مشكلة أكثر تعميماً تتصل

الصحن الداخلي الكبير في المساجد الكبرى يعزز بأمكنة للنساء على الجانب المقابل للمحراب أو على الجوانب الثلاثة التي تحيط مع القبلة بالصحن المركزي. وهناك «دكة» بحسب بلوشر، أو «سدّة» بحسب مِسّانا، خشبية مزخرفة يجلس فيها مؤسس الجامع وأسرته، وتكون في العادة فوق المدخل المقابل للمحراب. (٥٨) بعد إعادة الترميم سنة ١٩٤٧ للجزء المركزي من مخطط طرابلس.

Salvatore Aurigemma, «La Moschea di Ahmad al-qarmanli in Tripoli», *Dedalo*, vol. 7 (1927), (٥٩) p. 492-513.

Salvatore Aurigemma, «La Moschea di Gurji in Tripoli», *Africa Italiana* (1927-1928), (٦٠) pp. 257-285.

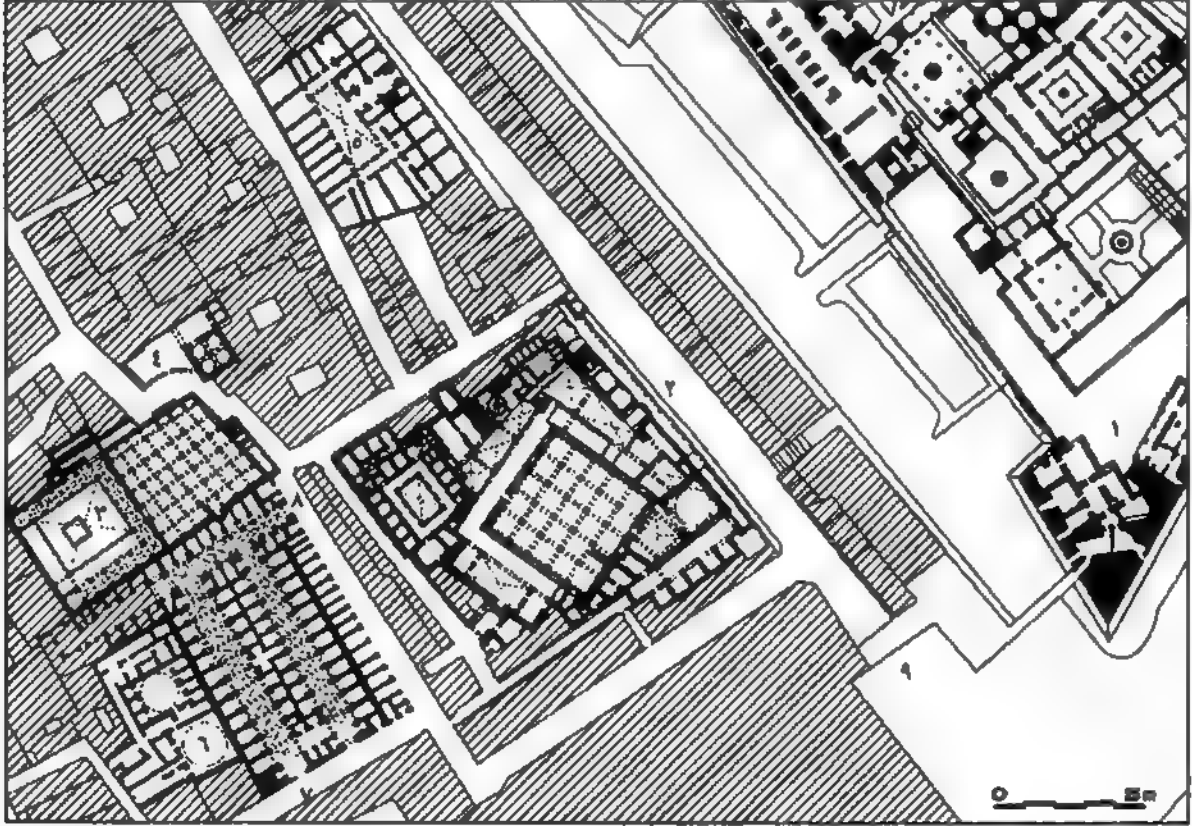
(٦١) تلك هي حالة مسجد قُرْجي.

K. A. C. Creswell, *Muslim Architecture in Egypt* (Oxford: Clarendon Press, 1952), pp. 241-246, and Viktoria Meinecke-Berg, «Outline of the Urban Development of Cairo», *Art and Archeology Research papers (AARP)* (London) (1980), pp. 8-13.

(٦٣) حول هذا الموضوع انظر: Micara, *Architettura e spazi dell'Islam: Le istituzioni collettive a la vita urbane*, pp. 30-36.

بتطور المشهد المعماري للمسجد ووضعه المدني في نسيج المدينة «العثمانية» (انظر الرسم الرقم (١٧ - ١٥)).

الرسم الرقم (١٧ - ١٥)
عقدة مسجد القرماني في مدينة طرابلس



١ - سراي الحمراء؛ ٢ - جامع أحمد باشا القرماني؛ ٣ - جامع الناقية؛ ٤ - مسجد الزاوية القادرية؛ ٥ - فندق الزاهرية؛ ٦ - حمام الحلقة؛ ٧ - سوق اللفة؛ ٨ - سوق الناقية؛ ٩ - باب المنشية.

والحل المؤسسي الذي يكتف الأمكنة العامة المختلفة في مجتمع هو في وضوح الحل المعماري. فالمجتمع هنا تجري مقارنته وفق مخطط هندسي منضبط يقدم الانتظام في النشوء التلقائي لعدة وظائف وأمكنة عامة حول الباحة الرئيسية ذات الأعمدة في المساجد الكاتدرائية القديمة.

تكشف الأبنية الأخرى، مثل الأسواق والفنادق والحمّامات والمدارس، عملية مشابهة في تجميع عناصر مشتقة من الحضارة العربية - الإسلامية في أشكال مرتبطة بيئة معينة، وبالحساسية المكانية وتقاليد البناء في مدينة طرابلس. وهو ما يمكن قراءته أيضاً في «مدرسة» عثمان باشا.

من هذه الجهة، تبدو منازل المدينة مشيرة للاهتمام؛ فنوع تجميع قطع الأرض والباحات ذات الحجم الكبير والموحد يذكّر بالنسيج الصلب والمنتظم للمدينة الرومانية^(٦٤).

والمنازل القديمة لطرابلس اليوم، وبخاصة تلك العائدة للقرنين السابع عشر والثامن عشر، تتنظم حول ساحة مربعة، تحيط بها بالقناطر وتغطيها الشرفات التي يمكن بلوغها من الشارع من خلال مدخل غير مباشر. تدعم الأعمدة الرخامية أو الرملية أو الخشبية القناطر على جوانب الباحة في الطابق الأرضي، في حين تكون الغرف في الطابق العلوي. هناك أربع غرف حول جنبات الباحة، حيث تتوسطها عادة بركة ماء وبئر دائماً.

في المنازل الأكبر حجماً، تتوسط الغرف غرفة مركزية عالية تعرف بالقبو، مسقوفة بقوس أو عقد ضخمة، وفي جناحها غرفتان داخليتان متشابهتان. الغرفة السفلى هي بمثابة مخزن، أما العليا لنحو المتر ونصف المتر فوق الطابق الأرضي فتكون غرفة صغيرة، أو سدة، تغطي بالستائر وتستخدم كزاوية للنوم.

والأدراج الموصلة من الباحة إلى الغرف العليا مثبتة في الجدار المواجه للمدخل. تلك حالة منزل القرمانلي الذي تحول لاحقاً إلى مقر للقنصلية الإنكليزية، أو منزل الباشا الذي استخدم كمقر للمحكمة الإسلامية. تكون سلالم المبنى في شكل T، حيث يتعامد الصف الأول مع الجدار، فيوصل إلى منبسط يتفرع منه جناحان من الأدراج تصعد في موازاة الجدار. وقد استخدم هذا النمط في وقت ما في فنادق المدينة أيضاً.

تظهر النوعية العالية للعمارة السكنية في المدينة التصميم الدقيق المزخرف، ولكن المقتصد، للأمكنة، والتناقض الذكي بين جدران القواعد الصلبة والإنشاءات الخشبية الخفيفة، والقيم الغنية التي تسكن الحياة الأهلية في المدينة. ولا يفوت المراقب اكتشاف هذه القيم بالرغم من الحالة البائسة التي باتت عليها تلك المباني المكتظة بالمهاجرين.

يكشف البحث في الوضع السكني للمدينة ليس فقط وجود منازل تتفاوت في أهميتها بحسب طريقة العيش العربية التقليدية، بل يكشف أيضاً انتشار الاهتمام برمزية المنزل، الذي بناه عادة مقاولون وعمال إيطاليون ومالطيون، الذي يفتح من خلال

Pietro Romanelli, «Vecchie Case Arabe di Tripoli», *Architettura e Arti Decorative*, vol. 3, (٦٤) no. 5 (January 1924), pp. 193-211.

النوافذ والشرفات باتجاه الشارع. تعدل هذه الرمزية السكنية تكراراً في المناطق المدنية الهامشية، بهدف حل معضلة الكثافة السكانية في المدينة، من خلال إيجاد شقتين في المبنى الواحد، واحدة تفتح على الشارع وأخرى على الباحة الداخلية.

ينبعث هواء المتوسط من الطرق المختلفة للحياة المدنية، الأمر الذي يعكس استيعاب مختلف التأثيرات الأجنبية، وهو مفتاح أساسي في فهم تعقيد المدينة العثمانية في طرابلس وتفسيرها.

الفصل الثامن عشر

الجزائر خلال الحكم العثماني: المدينة وسكانها^(*)

فدريكو كرسنتي^(**)

مقدمة

من المواضيع المتعلقة بالجزائر تحت الحكم العثماني، التي لا تزال موضع جدال بين اتجاهات مختلفة من المؤرخين والباحثين، هو موضوع سكان الجزائر. وبالفعل، تطرق عدة علماء في العقود القليلة الماضية إلى هذا الموضوع المهم في نظر كل شخص معني بالمدينة في العالم الإسلامي خلال الحقبة العثمانية.

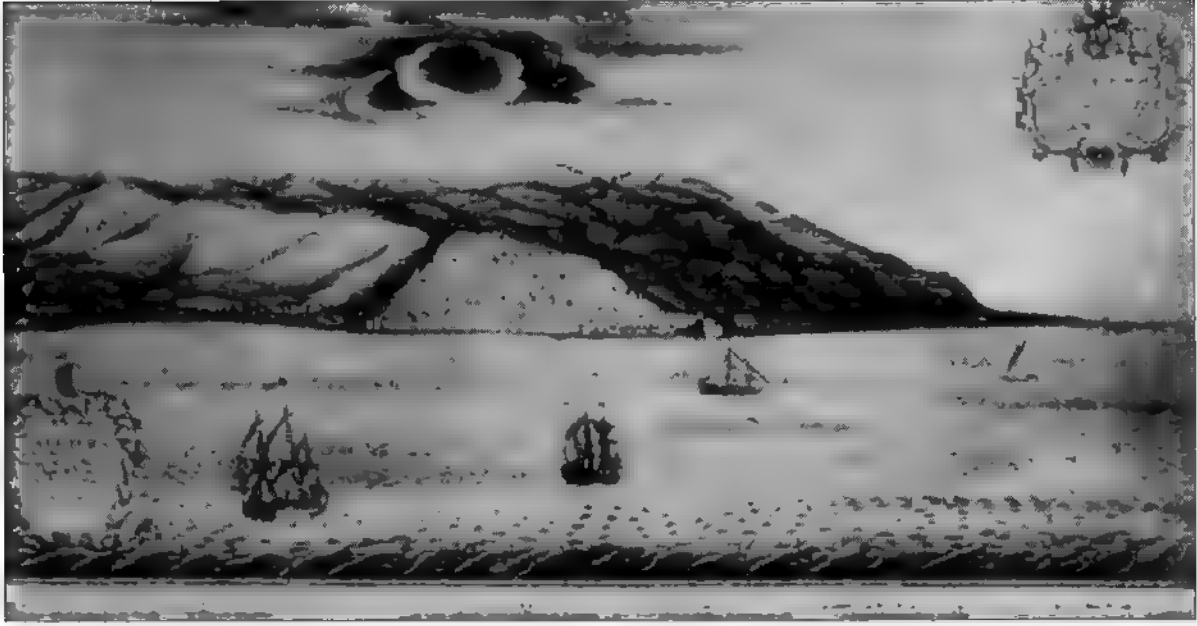
إضافة إلى ذلك، ومن وجهة نظر تاريخية عامة أكثر، يحمل الموضوع مدلولات مهمة عن وضع الجزائر ضمن إطار الأحداث في منطقة البحر المتوسط بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر وعن أهميتها كعاصمة إقليمية للسلطنة العثمانية.

Cosmica-Centro per gli studi sul mondo islamico contemporaneo e l'Africa Università di (*)
Catania (Center for Studies on the Contemporary Islamic World and Africa, University of Catania,
Italy).

يرتكز هذا الفصل على نص محاضرة ألقيتها في المؤتمر الدولي: «Alger: Lumière sur la ville» الذي عُقد في الجزائر بين ٤ و٦ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(**) أستاذ التاريخ الأفريقي وتاريخ البلدان الإسلامية، جامعة كاتانيا، صقلية - إيطاليا.

الرسم الرقم (١٨ - ١)
الجزائر من البحر، منظر من القرن السابع عشر



G. Esquer, *Iconographie historique de Algérie* (Paris: [n. pb.], 1931).

المصدر:

في هذه المناسبة، سأعود إلى البحث الذي بدأت العمل عليه منذ عدة سنوات والذي سبق أن نُشر جزء من نتائجه^(١)، ذلك بأنه لا يزال هناك مجال لتقديم المزيد من الفرضيات. يكمن هدفي هنا في تحديد مواضع الخلاف بدقة، ومراجعة وضع البحث الحالي بالتفصيل، وبقدر الإمكان، وإضافة بعض المعلومات الجديدة.

قد يكون مفيداً التذكير ببعض الحقائق الجغرافية والتاريخية التي تشكل الإطار المرجع وأساساً لاعتبارات أخرى حول المراجع المنشورة أو وثائق الأرشيف المتوافرة؛ أولها حجم المدينة في الحقبة العثمانية.

من المعروف أنه بعد تسلّم خير الدين بربروس السلطة واعترافه بحكم سلطان القسطنطينية (١٥١٨)، أقيمت تحصينات المدينة بشكل يتناسب مع المتطلبات الدفاعية الجديدة وتوسعت مساحتها^(٢).

(١) انظر خصوصاً: F. Cresti: «Quelques Reflexions sur la population et la structure sociale d'Alger a la periode turque (XVI^{ème}-XIX^{ème} siècles),» *Cahiers de Tunis*, vol. 34, no. 137-138 (1986), pp. 161-164, and «Gli schiavi cristiani ad Algeri in età ottoman: Considerazioni sulle fonti e questioni storiografiche,» *Quaderni storici*, vol. 36, no. 107 (2001), pp. 415-435.

(٢) يشير تاريخ هذه الحادثة إلى أن حسن آغا، خلف خير الدين كحاكم للجزائر، أعاد بناء الأسوار وأصلح الأقسام المتضررة وزوّدها بمدافع. تمّ إصلاح تحصينات المدينة بضع مرّات في الماضي، على حدّ قول ليون الأفريقي

الرسم الرقم (١٨ - ٢)
الجزائر في القرن الثامن عشر



المصدر: المصدر نفسه.

وبالرغم من أننا لا نعرف الحجم الدقيق لجزائر بني مزغنة، فقد غطت الأسوار الدفاعية خلال الحكم العثماني مساحات أوسع مقارنة بالمرحلة السابقة. إضافة إلى

(الذي زار الجزائر عام ١٥١٥ أثناء إحدى رحلاته). في كتابه وصف إفريقيا يتحدث عن إعادة بناء أسوار المدينة بأحجار التامندفوست.

R. Basset, *Documents Musulmans sur le siege d'Alger en 1541* (Paris; Oran: E. Leroux, 1890), انظر: pp. 200-21, et Jean Léon L'Africains, *Description de l'Afrique*, translated by A. Epaulard (Paris: Adrien-Maisonneuve, 1981), p. 352.

غير أن هذا النص لا يحدد مرحلة إعادة الإعمار. لقد اقترح في مكان آخر أن إعادة الإعمار هذه قد جرت في المرحلة الزبانية في القرن الرابع عشر. انظر: F. Cresti, «Note Sullo sviluppo urbano di Algeri dale origini al period turco,» *Studi Magrebini*, vol. 12 (1980), p. 115.

«سبق أن بدأ عروج العمل على تحسين دفاع قلعة «القصبية» التي كانت في تلك الفترة القلعة الوحيدة في الجزائر. انظر: «The Kasaba, which in That Period was the Only Fortress in Algiers,» in: Diego de Haedo, «Epitom de los reyes de Argel,» translation de H. D. de Grammont, *Revue Africaine*, vol. 24, no. 139 (1880), p. 58.

ذلك، أجريت تعديلات على المرفأ سهلت في العقود التالية رسو السفن، كما كانت وراء فترة ازدهار ارتكزت في الأساس على زيادة القرصنة. بلغت مساحة المدينة ضمن نطاق الأسوار ٤٥ هكتاراً على الأقل^(٣).

يتعين علينا أن نتذكر أن هذه المنطقة لم تكبر بصورة ملحوظة خلال العقود التي تلت، لا لأنه ما كان من حاجة إلى مزيد من المساحة للبناء وإنما لأسباب عسكرية. ولا يُخفى على أحد أنه خلال حكم عرب أحمد باشا (١٥٧٣)، بدأت المدينة تمتد نحو الجنوب، خارج باب عزون، مع بناء ضاحية تم تدميرها لاحقاً لأسباب دفاعية^(٤).

أولاً: أهمية الهجرة في بداية الحقبة العثمانية

يتفق العلماء^(٥) بوجه عام، على الأسباب الكامنة وراء زيادة عدد سكان الجزائر في بداية المرحلة العثمانية، وأهمها هجرة المسلمين الذين أُجبروا على مغادرة شبه الجزيرة الأيبيرية في المراحل الأخيرة للغزو المسيحي.

ما لا شك فيه أن هذه الظاهرة بدأت قبل وصول الأتراك، غير أنها ازدادت بُعيد استيلاء عروج وخير الدين بربروس على المدينة، أو في مطلق الأحوال في العقدين الأولين من القرن السادس عشر. كتب ديفغو دي هايدو، الذي كان في الجزائر نحو عام ١٥٨٠ ونشر لاحقاً عملاً في غاية الأهمية زاد على معلوماتنا، حول المدينة في تلك المرحلة، ما يلي:

(٣) «بلغ محيط الأسوار نحو ٣٠٠٠ م ومساحتها ٤١٥ ألف م^٢. بحسب روزيت امتدت المدينة على مساحة ٥٣ هكتاراً. وبحسب ليسبس، بلغت مساحة المدينة التركية من دون قلعة «القصة» ٤١ هكتاراً. انظر: R. Lespès, *Alger: Etude de géographie et d'histoire urbaines* (Paris: [n. pb.], 1930), p. 524, footnote 3. في مقاله الأول حول الموضوع، أخذ ريمون المعلومات التي جمعها ليسبس، وهو يفيد لاحقاً أن مساحتها كانت ٤٦ هكتاراً. يفيد كلاين أن مساحتها كانت ٥٠ هكتاراً و٥٣ آراً للمدينة داخل الأسوار، إنما كان من الضروري إضافة أربع هكتارات وتسع آرات للإمارة.

يفيد ف. بينايا أن امتداد المدينة كان ٦٠ هكتاراً عام ١٨٣٠. ويفيد ت. شوفال أنه خلال توسعها الأكبر، كانت المدينة العثمانية «تمتد على مساحة ٥٤ هكتاراً و٦٢ آراً في حين بلغت المساحة المبنية ٤٦ هكتاراً. إن التفاوت بين الأرقام المذكورة سابقاً (من ٤١,٥ إلى ٦٠ هكتاراً) مثير للاهتمام. سيكون من المفيد التحقق من الإحصاءات المختلفة من أجل أن نحدد بدقة أكبر العلاقة بين المساحة المبنية في المدينة ومساحة المدينة داخل الأسوار.

(٤) بحسب هايدو الذي يتحدث عن ضاحية من ١٥٠٠ منزل.

(٥) غير أن هذين المؤلفين يتخذان قبل أي شيء نص هايدو كأساس لمعلوماتهم.

«تتألف الفئة الرابعة من الموريين [في الجزائر] من أولئك الذين قدموا إلى هنا من غرناطة وأراغون وفالنسيا وكاتالونيا والذين لا يزالوا يأتون إلى هنا اليوم من مرسيليا وموانئ فرنسية أخرى حيث من السهل الإبحار. بالإمكان تقسيم هذه الفئة إلى مجموعتين: المدجن (Mudejares) الذين قدموا من غرناطة والأندلس والتغارينوز (Tagarinos) الذين قدموا من فالنسيا وكاتالونيا. كان هؤلاء الموريون من ذوي البشرة البيضاء والشكل المتناسق كأولئك الوافدين من إسبانيا. كانوا يزاولون عدداً كبيراً من المهن المختلفة وكل فريق كان ماهراً في بعض الحرف: بدءاً بصنّاع البارود والملح الصخري وصولاً إلى صنّاع الأقفال والنجارين والبنائين والخياطين وصنّاع الأحذية والخزف... إلخ. كانت تباع ديدان القز وجميع أنواع البضائع في المتاجر [...] يلبسون كالأتراك [...]. في الجزائر، يتشر نحو ألف منزل لهؤلاء الموريين الأندلسيين»^(٦).

والجدير بالملاحظة أنه، بحسب هايدو، في الوقت الذي يحتلون أقل من ١/١٢ من المنازل (ما مجموعه ١٢٢٠٠ منزل صغير وكبير)^(٧)، كان الأندلسيون يمثلون خمس أو سدس السكان الموريين في الجزائر^(٨). المعلومات المتوافرة عن هجرة الأندلسيين إلى المدينة قليلة. على سبيل المثال، وبحسب هايدو أيضاً، ضمت بعثة عسكرية غادرت الجزائر عام ١٥١٧ بقيادة عروج ٥٠٠ أندلسي مسلم بين صفوفها^(٩). غير أن النص لا يخبرنا إن كان من بين هؤلاء أعضاء من العائلات التي استقرت في الجزائر. يتعين

(٦) Diego de Haedo, «Topographie et Histoire general d'Alger», translation de Monneret et Berbrugger, *RA*, vol. 14, no. 84 (1870), p. 495.

(٧) يرتكز عدد المنازل الذي اقترحه هايدو على إحصاءات سهلة على ما يبدو، إلا أنها تظهر خاطئة حالما يتم التدقيق في معلومات النص. يصبح الإحصاء أكثر تعقيداً كون المرجع لدى بعض الفرق، على سبيل المثال الزواوة، هو العائلات لا المنازل؛ للرجال العزب يتحدث عن «تكنات» لا منازل؛ غالباً ما يتحدث عن عائلات تعيش في أكواخ أو «غرف مستأجرة»، وهو على الأقل في حالة واحدة يشير إلى مساكن غير ثابتة مصنوعة من القش وملامسة للمنازل خارج المدينة. إن أضفنا المساكن التي ينسبها المؤلف بوضوح إلى كل من الفئات السكانية في المدينة (٤١٠٠ للموريين و٧٦٠٠ للأتراك و١٥٠ لليهود) نحصل على الرقم ١١٨٥٠. بقراءة نص هايدو بإمعان، يحدّد عدد السكان بمجموع يشتمل على المقيمين في ١١٨٥٠ منزلاً و١٠٠ عائلة و٢٠٠ أو ٣٠٠ (أحياناً أكثر) رجل أعزب إضافة إلى ٢٥٠٠ عبد مسيحي وعدد صغير من المسيحيين الأحرار.

(٨) من بين الفرق الأربع المتميزة التي تضم الموريين، يعتبر هايدو أن «هؤلاء الذين ولدوا في المدينة، أي البلديون (baldis)، يشغلون ٢٥٠٠ منزل أما الزواوة فليدعم ١٠٠ عائلة و٢٠٠ أو ٣٠٠ رجل أعزب، أما القبائل الأخرى فليدعمها ٦٠٠ منزل في حين أن العرب (Alarbes) لا يملكون منازل في المدينة كونهم يعيشون «في الأروقة المسقوفة» أو في أكواخ القش خارج باب عزون. يفيد ن. صيدوني أن الجزائر خلال هجرة المورسكين كانت مدينة يسكنها الأندلسيون في الأساس، ويشير إلى أنهم شكلوا نحو نصف سكان الجزائر؛ وحتى هذا المؤلف يتخذ من نص هايدو أساساً لمعلوماته.

(٩) De Haedo, «Epitom de los reyes de Argel», p. 62, et Lespès, *Alger: Etude de géographie et d'histoire urbaines*.

علينا أن نتذكر أن مهمات عروج وأخيه خير الدين غرب المتوسط شملت نقل هؤلاء المسلمين الإسبان الذين أرادوا مغادرة البلاد إلى الشاطئ الأفريقي الشمالي. وبحسب دو غرامون (الذي يذكر كمصدر له بعض «الكتاب الشرقيين» من دون ذكر أي أسماء)، «جاؤوا بأكثر من ١٠ آلاف من المورين عبر البحر»^(١٠).

وفي كتاب غزوات عروج وخير الدين، الذي يمكن أن يكون مصدر دو غرامون، هناك سبع مراحل من هذا النوع. قطع خير الدين المياه الإسبانية لمدة ثلاثة أشهر من أجل مساعدة إخوانه، وأخذ على متن سفنه هؤلاء الذين يستطيع تخليصهم من الطغيان المسيحي^(١١)، بالرغم من عدم تحديد العدد. وبعد مرور عدة سنوات، أبحرت سفنه على طول الشاطئ الإسباني لأخذ المسلمين الذين أرادوا الانتقال إلى أفريقيا. وفي هذه المناسبة «أبحر بعدد كبير ممن قدم للعيش في الجزائر»^(١٢).

لاحقاً، بين عامي ١٥٢٩ و ١٥٣٥، أبحر الأسطول الجزائري عدة مرات و«حمل على متنه ٧٠ ألف شخص إلى الجزائر». كان هذا الرقم الأخير كبيراً نظراً إلى العدد الصغير نسبياً من الإسبان المسلمين المورسكيين الذين استقروا في الجزائر التي لم تكن واحدة من المدن التي استقرت فيها الأغلبية. ذهبت أكثرية هؤلاء الذين وصلوا إلى المغرب الأوسط للعيش في الداخل أو في مدن أخرى على طول الشاطئ، كشرشال. ويخبرنا الغزوات بأن تلك المدن شهدت نهضة بفضل المسلمين الأندلسيين^(١٣).

بصرف النظر عن هذه المعلومة الغامضة، سكنت فئات أخرى من المهاجرين المدينة، ولا يبدو أن المجتمع الأندلسي كان الأهم من حيث الزيادة السكانية في القرن السادس عشر. حالياً، يفيد هايدو أنه حين وصل إلى الجزائر كان الأتراك يمثلون النواة

De Haedo, Ibid., p. 3.

(١٠)

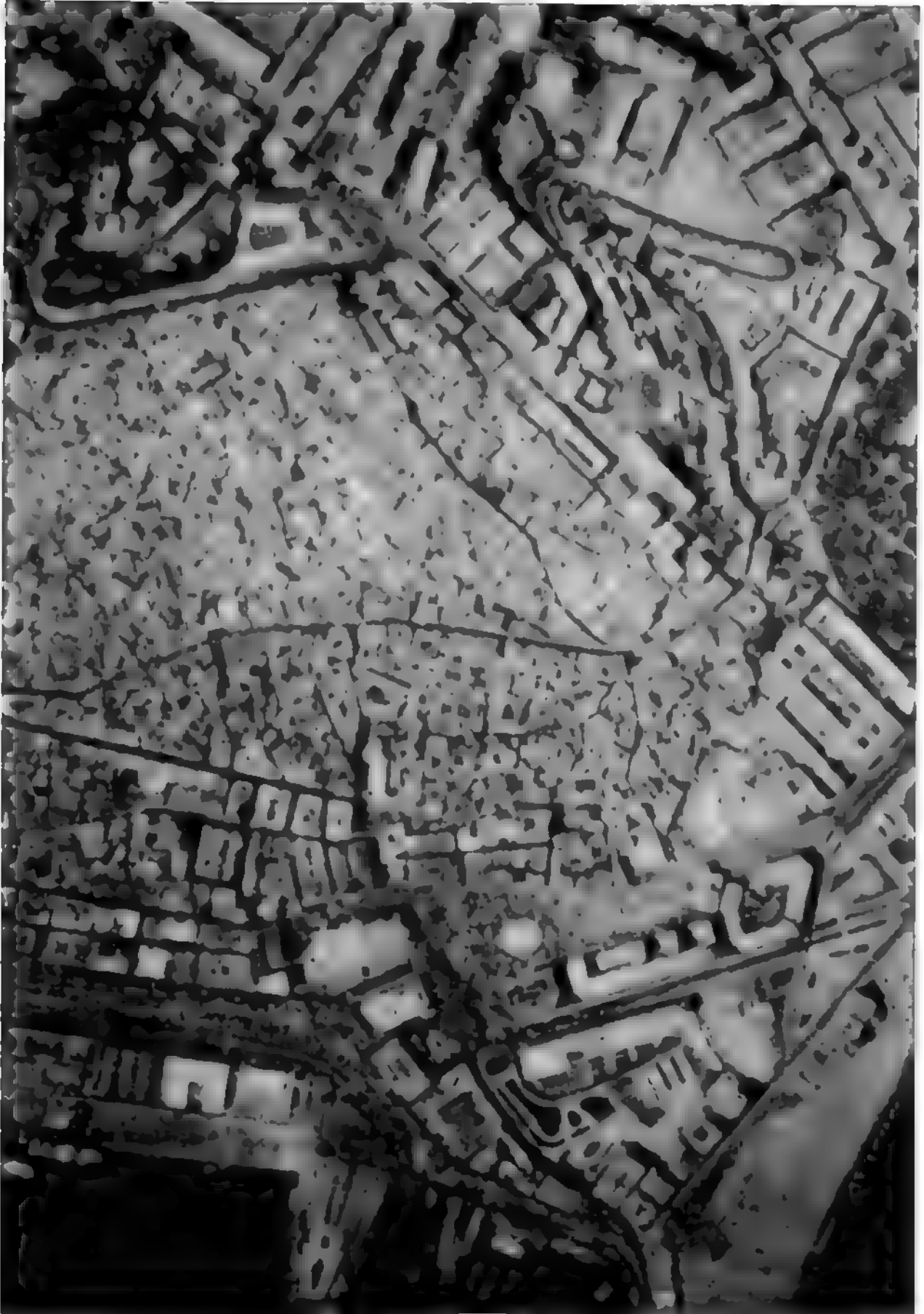
(١١) ارتكزت ترجمة دي بارادي على مخطوطة عربية من القرن الثامن عشر وهي تعد «ترجمة فرنسية فقيرة جداً لنسخة عربية من القرن الثامن عشر وهي مجرد تلخيص وليست دائماً آمنة للنسخة الأصلية. إن ترجمة إيطالية للمخطوطة الإسبانية الموجودة في المكتبة العامة في باليرمو التي هي بدورها ترجمة لنسخة غزوات هروج وخير الدين الموجودة في إسكوريال في مدريد نشرها إي. بليز في نهاية القرن التاسع عشر. تبدو العودة الآن إلى نصوص المصادر مناسبة. منذ بضع سنوات، نشر ج. غالوتا طبعة انتقادية لإحدى المخطوطات لـ غزوات هروج وخير الدين إلا أنه لم ينشر ترجمته لها.

انظر: S. Rang et F. Denis, eds., *Fondation de la régence de l'Alger: Histoire des barberousse*, translation de J. M. Venture de Paradis (Paris: [n. pb.], 1837), p. 37; Gallotta, Ibid., Infra 3, and G. Bonaffini, *La vita e la storia di Ariadeno Barbarossa* (Palermo: [n. pb.], 1993).

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٢.

الرسم الرقم (١٨ - ٣)
صورة جوية للقصبية، عام ١٩٧٠



السكانية الأكبر. يتعين علينا أن نتذكر أن هايدو عنى بالأتراك كل «من ولد في تركيا أو وُلد جده هناك» إضافة إلى كل هؤلاء «الذين يطلقون على أنفسهم أتراك من حيث المهنة»؛ بعبارة أخرى، أولئك الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً والمسيحيون (في أغلب الأحيان عبيد سابقون) الذين تخلوا عن مذهبهم. مثل هؤلاء أغلبية السكان (كانوا وأطفالهم أكثر عدداً من السكان الآخرين، الموريون والأتراك واليهود، إذ ما من أمة مسيحية لم تزود الجزائر بمجموعة من المرتدين). يقدر هايدو أن عدد منازلهم كان ٦٠٠٠، وهذا أقل قليلاً من نصف سكان المدينة^(١٤).

أما بالنسبة إلى أولئك الذين «وُلدوا في تركيا»، فإن النواة الأولى لم تتألف من الفرق التي قادها عروج وخير الدين فحسب وإنما تألفت أيضاً من ٢٠٠٠ إنكشاري أرسلهم السلطان سليم الثاني إلى الجزائر بعد إعلان ولائه، ومن متطوعين أتراك وصلوا في الوقت نفسه: بلغ عددهم مجموعين نحو ٤٠٠٠ شخص على حد ما استقيناها من المصادر^(١٥).

إضافة إلى الفئات المتنوعة، مثل الأتراك القسم الأهم من السكان مع ٧٦٠٠ منزل. ومن أجل الوقوف على كامل صورة الفرق الإثنية التي وضعها هايدو، يجب ألا ننسى اليهود الذين ملكوا ١٥٠ منزلاً في حين مختلفين.

إذا وضعنا جانباً في الوقت الحالي أي تفكير في القيمة المطلقة لأرقام هايدو واكتفينا بقيمتها النسبية، يبدو أن مساهمة السكان من بلاد أخرى بلغت ذروتها نحو نهاية القرن السادس عشر. وإذا ما اعتبرنا أن سكان المدينة قبل تسلم الأتراك السلطة كانوا يشتملون على فئة البلديين التي تحدت عنها هايدو - التي يمكن أن نضيف إليها الزواوة وقبائل أخرى، ناهيك باليهود وعدد معين من الأندلسيين - يمكننا الاستنتاج بالتالي أن عدد سكان الجزائر ازداد ثلاثة أضعاف خلال القرن السادس عشر، مع وصول المهاجرين مستفيدين من المركز الجديد للمدينة ضمن سياق الأحداث في منطقة البحر المتوسط في تلك المرحلة. وإذا أضفنا المسيحيين العبيد، لربما ازداد عدد

(١٤) من المحتمل أن يكون هذا الرقم مبالغاً فيه: لا بد من أن يكون العدد الكبير لـ «المرتدين» قد أثر في رجل دين كهيدو. حول وجود المتحولين إلى الإسلام في اليبليشيا في المرحلة اللاحقة، انظر: De Haedo, «Topographie et Histoire general d'Alger», p. 497, and T. Shuval, *La Ville d'Alger vers la fin du XVIII^{ème} Siècle: Population et cadre Urbain* (Paris: [n. pb.], 1998), pp. 60-62.

(١٥) بحسب تخمين مقبول حالياً ولكن مشكوك فيه: على سبيل المثال، لا يشير كتاب غزوات عروج وخير الدين إلى وصول الإنكشاريين أو قوات مسلحة أخرى من الأناضول إلى الجزائر، في حين يتحدث مؤلفون آخرون عن وصول ٢٠٠٠ إنكشاري و٤٠٠٠ متطوع. انظر: de Haedo, «Epitom de los reyes de Argel», pp. 60-62.

الرسم الرقم (١٨ - ٤)
فتحة في تحصينات بناها خير الدين



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف (شباط/فبراير ٢٠٠٠).

سكان الجزائر أربعة أضعاف. تبدو مثل هذه الزيادة - ثلاث أو أربع مرات عدد السكان الأساسي على مدى ١٠٠ عام - ظاهرة فريدة بالنسبة إلى مدينة «ذات نظام قديم». من منظور اقتصادي، تناسب هذه الزيادة «النمو الاستثنائي في الجزائر» بفضل القرصنة التي تحدث عنها فرناند بروديل^(١٦).

ثانياً: مصادر ومعلومات حول السكان

قد يكون التزايد الهائل في عدد سكان الجزائر مقبولاً إذا استطعنا أن ننسب حجماً أصغر وموقعاً متواضعاً للجزائر العاصمة بالنسبة إلى المدن الشمال الأفريقية الوسطى في المرحلة التي سبقت الحكم العثماني. حتى الآن، ما الذي نعرفه بالتحديد عن سكان الجزائر العاصمة في تلك المرحلة؟ القليل القليل. في القرن الثاني عشر، وصف الإدريسي المدينة بأنها كثيرة السكان وتنعم بتجارة مزدهرة بالرغم من أن هذا لا يطلعنا كثيراً على حجم السكان الحقيقي^(١٧).

يعود الإحصاء العددي الأول في المصادر إلى بداية القرن السادس عشر، حين أشار الحسن الزياتي المعروف باسم ليون الأفريقي أيضاً، إلى وجود ٤٠٠٠ «منزل»^(١٨). غير أن هذا الرقم^(١٩) لا يضع الجزائر بين المدن الأكثر كثافة من حيث السكان في المغرب العربي الأوسط^(٢٠).

F. Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, 4^{ème} éd. (١٦)
(Paris: [n. pb.], 1966) p. 203.

يتكلم بروديل على أول معجزة في الجزائر من ١٥٦٠ إلى ١٥٧٠، ومرحلة ثانية من ١٥٨٠ إلى ١٦٢٠ (ص ٢٠٣ - ٢٠٥).

(١٧) يستخدم علماء جغرافيا مسلمون في مراحل أخرى كالبكري التعبير نفسه في وصفه للجزائر. انظر: R. Dozy et M. de Goeje, eds. et trans., *Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrisi* (Leiden: Brill, 1968), p. 65.

L'Africains, *Description de l'Afrique*. (١٨)

(١٩) من دون محاولة إيجاد حلول للمشكلة التي يطرحها تحليل مفهوم «feu» (الموقد)، سنسلم بالفرضية المقبولة حالياً، وهي أن الموقد يوازي ٤ - ٥ أشخاص كحد أدنى. غير أن المشكلة تكمن في المساواة بين «الموقد» والوحدة السكنية، إذ إن الأحوال المعيشية كانت خاضعة لتغيرات متعلقة بالطبقة الاجتماعية للسكان. ولكن خلافاً لي، حدّد ٣ أشخاص في العائلة الواحدة كمعدل للعائلة اليهودية عام ١٧٢٥ كما يؤكد لوغيه دو تامي أن خطأ مطبعياً في: Cresti: «Quelques Reflexions sur la population et la structure sociale d'Alger a la periode: (XVI^{ème}-XIX^{ème} siecles)»^{turque} ضاعف ثلاث مرات الخمسة آلاف منزل أو العائلات التي تحدّث عنها لوغيه.

(٢٠) ينسب ليون الأفريقي ٦٠٠٠ موقداً لوهرا و ٨٠٠٠ لقسنطينة و بجاية و ١٢٠٠ لتلمسان (التي بحسب المؤلف نفسه ضمت ١٦٠٠ في أوج ازدهارها). في هذه الحالة تكون الجزائر خامس مدينة في المنطقة من حيث الأهمية السكانية.

الرسم الرقم (١٨ - ٥)
منظر من شرفات المدينة العثمانية



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف (أيلول/ سبتمبر ١٩٨٧).

يبدو أن حجمها السكاني الصغير في العقود الأولى من الحكم العثماني سيتم تأكيده على يد نيقولاس دي نيقولاى الذي كان أول أوروبي يصف حجمها السكاني في القرن السادس عشر^(٢١)؛ إذ بمروره في الجزائر عام ١٥٥١، قدر عدد السكان بـ ٣٠٠٠ «منزل»، وهو رقم أقل من رقم ليون الأفريقي.

هذا مختصر عن المعلومات الضئيلة المتوافرة بين أيدينا عن المرحلة التي سبقت الحكم العثماني. إذا ما أقررنا بزيادة أساسية في عدد السكان بسبب الهجرة (زيادة بنسبة ثلاثة أو أربعة أضعاف خلال ١٠٠ سنة)، سنواجه على الفور مشكلة المساحة. هل أدى توسيع الأسوار الدفاعية في بداية الحكم العثماني إلى زيادة مساحة المدينة بثلاثة أو أربعة أضعاف؟ بالتأكيد لا، بالرغم من أنه، كما سبق وذكرنا، من الصعب تخمين امتداد المدينة في المرحلة السابقة.

وإذا سلّمنا باستنتاجات باسكالي^(٢٢) الذي تركز تحليلاته، لتوسع الجزائر في المرحلة البربرية والعثمانية، على قائمة طويلة جداً من الفرضيات المتعلقة بمورفولوجية الموقع وعلى مقارنة بمزيج من المواقع المدنية الأخرى - فإن توسع الأسوار يجب ألا يتخطى المئة هكتار. يظهر احتمال آخر وهو أن المباني في المدينة قبل الحكم العثماني كانت تتركز ضمن منطقة محددة وكانت المساحة الكبرى غير مأهولة أو مستخدمة لزراعة المحاصيل^(٢٣).

وهناك فرضية أخرى أيضاً هي أن أسوار المدينة في مرحلة ما قبل الحكم العثماني كانت تحد نطاقاً أصغر من ذلك الذي اقترحه باسكالي وأنها كانت تحيط بالمنطقة المبنية الفعلية فقط (ما لا يزيد على ٢٠ هكتاراً) في المنطقة المنخفضة من الموقع بالقرب من البحر. تبدو هذه الفرضية الأخيرة معقولة^(٢٤) بالرغم من أننا نحتاج إلى تفسير المعلومات

N. de Nicolay, *Les Quatre premiers livres des navigations orientales* (Lyon: [n. pb.], 1568), (٢١) passim.

(٢٢) بغياب برهان مادي أكثر إقناعاً، تبدو فرضية باسكالي حول امتداد المدينة في المرحلة البربرية مريبة جداً.

(٢٣) هي كما يبدو الفرضية التي يقبلها، من بين آخرين. انظر: S. Missoury, «Eldesarrollo de la medina de Argel entro los siglos XVI y XVII y sus relaciones con los textos y practicas juridicas», in: Cressier, Fierro and Van Staavel, *L'Urbanisme dans l'occident musulman au Moyen âge: Aspects juridiques* (Madrid: [n. pb.], 2000), p. 220, fig. 3.

(٢٤) حتى المصادر التي دقّق فيها دوفال، والتي على أساسها يمكننا أن نفي بكل تأكيد أن الأسوار العثمانية امتدّت على مساحة أكبر مقارنة بالمدينة في المراحل السابقة، ليست قادرة على تعزيز هذه الفرضية، إذ إن القصة القديمة (من الاسم المستخدم في الوثائق للقلعة قبل المرحلة العثمانية والتي بحسب باسكالي كانت داخل أسوار المدينة) كانت معزولة بالنسبة إلى المنطقة المأهولة. انظر: A. Devoulx, «Alger etude archéologique et topographie...» RA, no. 115 (1876), pp. 71-74.

الأثرية من جديد وإلى إجراء مسح أرضي جديد لإثبات هذا الأمر. تبدو هذه الفرضيات كافة مستبعدة في المستقبل القريب.

الرسم الرقم (١٨ - ٦)
منظر من شرفات المدينة العثمانية



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف (آذار/ مارس ١٩٨٩).

أياً كانت الفرضية الصحيحة من هذه الفرضيات، كانت نتيجة هذا التزايد السكاني الإشغال التدريجي للمساحة بأكملها ضمن الأسوار الجديدة للمدينة^(٢٥) والازدحام التدريجي للمنطقة المبنية. بلغ هذا التزايد في كثافة المباني حداً غير مألوف صدم أغلبية الأوروبيين الذين وصفوا المدينة في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وبالعودة مرة أخرى إلى هايدو، يبدو من المستبعد أن تكون المساحة المتوافرة داخل الأسوار قد سمحت ببناء ما يزيد على ١٢٠٠٠ منزل (بمعنى وحدات فردية منفصلة) وبالتالي يمكننا الاستنتاج بأن هذا الرقم مبالغ فيه^(٢٦).

(٢٥) انظر: المصدر نفسه، ص ٧٣.

(٢٦) من المهم التشديد على حقيقة أن هايدو لا يعتبر الجزائر مدينة كبيرة، إذ إن لديها ١٢٢٠٠ منزل كبير وصغير فقط. إن نقطة تشابه مقبولة أكثر هي تلك التي تتحدث عن ٦٨٠٠ منزل في الإحصاء العسكري الفرنسي بعد الغزو. غير أننا لا نعرف بدقة تطور أنواع المنازل في القرنين ونحو نصف القرن التي تفصل التخمينين. في

لا تزيد المصادر الوثائقية العربية والتركية من القرنين السابع عشر والثامن عشر الكثير على معلوماتنا حول الحجم السكاني للجزائر، في حين أن المصادر الأوروبية تزودنا بكثير من المعلومات بالرغم من أن أغليتها لا تأتي من معرفة مباشرة للمدينة وإنما من كتب ومؤلفات، أو أنها لا تتناسب مع الحجم الطبيعي للمدينة.

طوال القرن السابع عشر، أفاد العديد من الكتاب الأوروبيين أن عدد المنازل في الجزائر كان يفوق تقدير هايدو: بدءاً من ١٣٥٠٠ منزل بحسب جان باتيست غراماي الذي كان سجيناً في الجزائر عام ١٦١٩، وصولاً إلى ١٥٠٠٠ منزل بحسب جيوفاني باتيستا سالفاجو البندقي وفرنسوا بيار دان اللذين بقيا هناك بضع سنوات لاحقاً. أخذ العديد من علماء الجغرافيا والكتاب الذين عالجوا أحداثاً في الجزائر وشمال أفريقيا في المرحلة العثمانية في هذه الأرقام الأخيرة^(٢٧).

بدءاً بالرقم الذي أعطاه هايدو (١٢٢٠٠ نسمة)، يقدر جان باتيست غراماي أنه في الربع الأخير من القرن السادس عشر والعقدين الأولين من القرن السابع عشر، ازداد عدد المنازل في المدينة بحدود ١٣٠٠ منزل.

من الممكن أن تكون هذه منازل بناها السكان السابقون للضواحي التي دمرت عام ١٥٧٣ داخل الأسوار في حين أنه من المفترض أن يكون عدد كبير من الأندلسيين الذين طُردوا من إسبانيا عام ١٦٠٩ قد أسسوا مأوى في الجزائر اشتمل على ٣٠٠ منزل جديد (أو *casas vel domus* كما كتب غراماي باللغة اللاتينية، أي أكواخ ومنازل).

منذ العقود الأخيرة في القرن السادس عشر، يبدو أن عدد السكان الذي سجلته المصادر الأوروبية ارتفع ارتفاعاً صاروخياً: ١٣٠ ألف نسمة بحسب لا نفيروتشي وبوزيو (١٥٨٧)؛ و ١٥٠ ألفاً بحسب سالفاجو (١٦٢٥) الذي يصف المدينة بأنها ممثلة كالبليضة، والتقدير نفسه بحسب تولوت (١٧٣١) و ١١٧ ألفاً بحسب شاو.

المقال المذكور سابقاً، يفيد س. ميسوم أن النقص في الفراغ تسبب حتى نهاية القرن السابع عشر. بظهور أنواع جديدة من المنازل. يتحدث بروديل عن التطور المدني خلال القرن السادس عشر كما لو أنها «مدينة جديدة تتبع المدن الأمريكية». إن وجود أنواع المنازل غير الثابتة داخل وخارج أسوار المدينة (الأحياء الفقيرة والأكواخ)، المذكورة عرضاً في المصادر، من الصعب تقديره كما رقم «الغرف المستأجرة» التي يذكرها هايدو.

(٢٧) ذكر الرقم ١٥٠٠٠ منزل كل من دوفال (١٦٦٥) ودابير (١٦٦٨) وأوغليي (١٦٧٠) ودي لا كروا (١٦٨٨) ولوغيه دو ناسي (١٧٢٥) وباليرمو (١٧٨٤)؛ أما الرقم ١٣٠٠٠ فذكره دو روكول (١٦٦٠). اقترح سانسون دابفيل (١٦٥٦) وأوفري (١٦٦٢) رقماً يراوح بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ منزل.

الرسم الرقم (١٨ - ٧)
أحد المنازل في المناطق العشوائية



إن رقم ١٠٠ ألف هو الرقم الذي يتكرر كثيراً؛ إذ ذكر اثنا عشر مؤلفاً، على الأقل، هذا الرقم في كتاباتهم بالرغم من أنه يتعين علينا أن نتذكر أن آخرين ذكروا أرقاماً أصغر على غرار بوتيرو (١٥٩٥) ودافيتي (١٦٢٥) وكوبن (١٦٨٦) الذين ذكروا ٨٠ ألف نسمة، في حين قدّر ليثغو (١٦١٥) الرقم بـ ٣٠ ألفاً.

ولاحقاً تحدث كانوا (١٧٥٠) عن ٥٠ ألف نسمة تماماً كفانتور دي بارادي (١٧٨٩) وشالير (١٨١٥). أما رينال، فقدّر الرقم بأقل من ٥٠ ألفاً في حين رايح عدد السكان بحسب دوبوا تانيفيل بين ٧٥ ألفاً و ٨٠ ألفاً.

يعود هذا التفاوت بين تقديرات المؤلفين الأوروبيين إلى الصعوبة الحقيقية في اقتراح أرقام ليست مجرد نتائج تخمينات غير موضوعية أو أرقام تأخذ في تقارير موثوقة أكثر. يبدو أن المعرفة المباشرة للمدن الشمال الأفريقية والأدب المتعلق بها الذي قد يؤمن وسائل فضلى للتخمين لا يؤديان إلى مزيد من الموضوعية.

على سبيل المثال، أشار غرابرغ، الذي كان قنصلاً سويدياً في بلدان أفريقيا الشمالية والذي ركز مشاهداته على البحث البليوغرافي المكثف، إلى أن المدينة تضم ٧٠ ألف نسمة و ١٠ آلاف منزل كحد أدنى. على سبيل المقارنة، يتعين أن نتذكر أن الإحصاء العسكري الفرنسي الأول، بعد الإستيلاء على المدينة، يشير إلى وجود ٢٤٢٠٠ نسمة و ٦٨٠٠ منزل^(٢٨).

تلقي المعلومات المستقاة من المصادر المتوافرة، المنشورة في معظمها^(٢٩)، الضوء على نقاط التفاوت التي سبق ذكرها وعلى الاعتراف الواسع بالتقدير الذي وضعه الكتاب الأوروبيون الذي يقع في حدود ١٠٠ ألف نسمة أو أكثر، ولا سيما حتى بداية القرن الثامن عشر.

(٢٨) يذكر ليسيس الرقم في هذا النص من نسخة موجودة في الأرشفة نفسه الذي يمكن أن يكون مختلفاً عن نسختنا. لن نتمكن من إيجاد الوثيقة التي ذكرها ليسيس الذي لا يعطي أرقاماً للسكان. أجري الإحصاء الذي يشير إليه ميموار كولاس بناءً على أوامر الجنرال كلوزيل في تشرين الأول/أكتوبر ١٨٣٠. كوننا لم نجد أي وثائق أصلية أخرى مرتبطة بهذا الإحصاء، يبقى ميموار كولاس المصدر الأكثر مدعاة للوثوق به. لاحقاً، يعطي مؤلفون (أمثال أومرات وكلاين اللذين لا يذكران بوجه عام مصادرهما بدقة) صورة مشوشة عن المعلومات في هذا الإحصاء ويقرحون أرقاماً تراوح بين ٨٠٠٠ و ٤٠٠٠ منزل. يذكر ليسيس بدقة الـ ٦٨٠٠ منزل التي تم ذكرها في ميموار كولاس.

(٢٩) إن المرجع إلى تواريخ مؤلفي الأعمال المنشورة الذين عاشوا في الجزائر هو تاريخ إقامتهم لا تاريخ طباعة أعمالهم. في هذا الجدول، تم إضافة بعض المعلومات على سبيل المثال في ما يتعلق بنصّ جو مسكريناس الذي نشر في ليشبونة عام ١٦٢٧ وعدد السكان المقترح في ميموار كولاس في عام ١٨٣٠.

الرسم الرقم (١٨ - ٨)
دار مصطفى باشا، نهاية القرن الثامن عشر



الجدول الرقم (١٨ - ١)
سكان الجزائر في الحقبة العثمانية بحسب المصادر

العام	المصدر	عدد السكان أو المنازل
١٥١٦	حسن الزياني	٤٠٠٠ منزل
١٥٥٠	نيقولا	٣٠٠٠ منزل
١٥٧٨ - ١٥٨١	هايدو	١٢٢٠٠ منزل
١٥٨٧	لا نفيرونتشي وبوزيو	١٣٠ ألف نسمة
١٥٨٨	سانوتو	٤٠٠٠ منزل
١٥٩٥	بوتيرو	٨٠ ألف نسمة
١٦٠٥	سفاري دو بريف	١٠ آلاف نسمة
١٦١٥	ليثغو	٣٠ ألف نسمة
١٦١٩	غراماي	١٣٥٠٠ منزل
١٦٢١ - ١٦٢٦	مسكريناس	١٢ ألف منزل
١٦٢٥	سالفافو	١٥٠ ألف نسمة و ١٥ ألف منزل
١٦٣٤	دان	أكثر من ١٠٠ ألف نسمة و ١٥ ألف منزل
١٦٤٠ - ١٦٤٢	دو أرندا	١٠٠ ألف نسمة
١٦٥٦	سانسون دافيل	١٢ ألف - ١٥ ألف منزل
١٦٦٠	دافيتي (ناشر دو روكول)	١٣ ألف منزل
١٦٦٢	أوفري	١٠٠ ألف نسمة، ١٣ - ١٥ ألف منزل
١٦٦٥	دوفال	١٥ ألف منزل
١٦٦٨	دابير	١٥ ألف منزل
١٦٧٠	أوغليبي	١٠٠ ألف نسمة، ١٥ ألف منزل
١٦٧٤ - ١٦٧٥	أرفيو	أكثر من ١٠٠ ألف نسمة و ١٥ ألف منزل
١٦٨٣	مانيسون - ماليت	١٠٠ ألف نسمة
١٦٨٥	لوغيبه دو تاسي (نشر ١٧٧٢)	١٠٠ ألف نسمة
١٦٨٦	كوين	٨٠ ألف نسمة
١٦٨٨	دي لا كروا	١٥ ألف منزل
١٧٠٠	كوملن	أكثر من ١٠٠ ألف نسمة
١٧١٩	غودفيل	١٠٠ ألف نسمة
١٧٢٩	فاندرا	٥٠٠٠ منزل
١٧٣١	تولوت	١٥٠ ألف نسمة

يتبع

١١٧ ألف نسمة	شاو	١٧٣٨
٥٠ ألف نسمة	خوان كانو	١٧٥٠
أكثر من ١٠٠ ألف نسمة، وليس أقل من ١٥ ألف منزل	باليرمو	١٧٨٤
٨٠ ألف نسمة	فون ريندر	١٧٨٨ - ١٧٨٥
أقل من ٥٠ ألف نسمة	رينال	١٧٨٨
٥٠ ألف نسمة و ٥٠٠٠ منزل	فانتور دي بارادي	١٧٨٩
٧٣ ألف نسمة	بوتين	١٨٠٨
٧٥ ألف إلى ٨٠ ألف نسمة	دوبوا تانيغيل	١٨٠٩
٥٠ ألف نسمة، و ٥٠٠٠ منزل	شالير	١٨١٥
١٠٠ ألف نسمة	بنتي	١٨١٧ - ١٨١٥
٧٠ ألف نسمة، و ١٠ آلاف منزل	غرابرغ	١٨٣٠
٢٤٢٠٠ نسمة، و ٦٨٠٠ منزل	ميموار كولاس	١٨٣٠

الرسم الرقم (١٨ - ٩) تّراسات، وعليات، ومطالّ في دار الصوف



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف (شباط/ فبراير ٢٠٠٠).

ثالثاً: المعلومات من المصادر الأوروبية: مقارنة نقدية مقارنة

تكشف المصادر الأوروبية عن عدد سكان مستقر خلال القرن السابع عشر. يشير الكتاب كافة بالفعل، باستثناء اثنين، إلى أن عدد سكان المدينة هو ١٠٠ ألف. ولكن هل يمكننا أن نتخيل ١٠٠ ألف نسمة أو أكثر لمدينة بحجم الجزائر في الحقبة العثمانية؟ بوجه عام، يلقي هذا الرقم موافقة العلماء المؤرخين والجغرافيين المحدثين. ففي تحليل نشر عام ١٩٢٩ حول توزيع السكان في مدينة القصبة التي كانت توازي محيط المدينة العثمانية تقريباً، لا يبدي ريني ليسبس تفاجؤه، نظراً إلى الكثافة المسجلة، أن يكون «مؤلفو القرن السابع قد استطاعوا، من دون أي مبالغة، تقدير عدد السكان في الجزائر بـ ١٠٠ ألف أو أكثر»^(٣٠).

لكن أندريه ريمون شكك في هذا الرقم مؤخراً. ففي إحدى دراساته حول المدن العربية خلال الحقبة العثمانية نقرأ: «في نهاية القرن الثامن عشر كانت الجزائر مدينة متواضعة أكثر، ذات مساحة تبلغ ٤٦ هكتاراً، وكان عدد سكانها يقدر بـ ٣٠ ألفاً عام ١٨٣٠ وهو عدد أقل كثيراً مما كان عليه في القرن السابع عشر. ازدادت الشكوك حول الجزائر بوجه خاص: كثافتها السكانية مرتفعة جداً مع وجود ٦٤٦ نسمة في الهكتار الواحد (من أصل ٣٠ ألف نسمة عام ١٨٣٠) أي أعلى من كثافة القاهرة. قد يُفسر هذا الأمر بـ «انضغاط» المدينة ضمن الأسوار وكثافة المباني، وبنيتها العمودية وأخيراً وجود السجون التي يُحتجز فيها العبيد أثناء الليل والشركات التي تكتظ بالآلاف من الإنكشاريين والعبيد المسيحيين. لكن من الواضح أن الأرقام التي تم تقديرها لمراحل سابقة (عموماً ١٠٠ ألف نسمة في القرن السابع عشر) يجب أن تكون مصدراً للشكوك. إن الكثافة البالغة ٢٠٠٠ نسمة في الهكتار الواحد هي ظاهرة حديثة في مدن كالقاهرة والجزائر لأسباب متعلقة بالاستعمار أو بالانفجار السكاني في القرن العشرين»^(٣١).

تظهر مقارنة ريمون المقارنة، وبالرغم من تقدير يقل عن ٣٠ ألف نسمة، أن الجزائر كانت تملك الكثافة الأعلى من أي مدينة كبرى في الوطن العربي في نهاية القرن الثامن عشر مع وجود ٦٥٠ نسمة في الهكتار الواحد^(٣٢). إضافة إلى ذلك، يقترح ريمون أن

Lespès, *Alger: Etude de géographie et d'histoire urbaines*, p. 524, and p. Boyer, «L'évolution (٣٠) démographique des populations musulmanes du Département d'Alger 1830/66-1948», *RA*, no. 98 (1954), pp. 220 et 323.

A. Raymond, *Grandes Villes arabes à l'époque ottoman* (Paris: [n. pb.], 1985), pp. 62-63. (٣١)

(٣٢) تقلد الكثافة السكانية في القاهرة بـ ٣٠٠ و ٦٠٠ نسمة في الهكتار الواحد وذلك بحسب الحي، مقابل ٤٤٦ نسمة في تونس و ٣٢٧ في حلب و ٢٨٧ في دمشق و ٢٨٣ في الموصل و ٢٦٥ في بغداد.

الرسم الرقم (١٨ - ١٠)
دار صغير، مستوصف الآن، شارع القصبة



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف عام ١٩٨٧.

الرقم البالغ ٥٠ ألفاً، الذي قدمه فانتور دي بارادي في نهاية القرن الثامن عشر، هو أقرب إلى الحقيقة^(٣٣).

يبدو أن إحصاء فانتور دي بارادي (الذي كان موجوداً في الجزائر من عام ١٧٨٨ لغاية عام ١٧٩٠) قد أجري بحرص. إضافة إلى ذلك، ومع وجود القنصلية الفرنسية كنقطة مشاهدة، كان لديه فكرة أوضح عن الحقيقة المدينية للجزائر، وهو مقارنة بالكتاب الأوروبيين الآخرين، تمتع بالأفضلية بإتقانه العربية والتركية. وقد كتب يقول: «لدى الجزائر امتداد تملكه مدينة ذات ٢٥ ألف - ٣٠ ألف نسمة في فرنسا؛ وأظن أن عدد سكانها الحالي يمكن تقديره بواقعية بـ ٥٠ ألف نسمة آخذين في الحساب عدد النساء الملازمات للمنزل وبالتالي لسنّ جزءاً من الحشود. تتوزع ٥٠ ألف نسمة على النحو التالي: ٦٠٠٠ من الكولوغلي و ٣٠٠٠ تركي شرقي و ٧٠٠٠ يهودي و ٢٠٠٠ عبد ومسيحيين آخرين و ٣٢ ألفاً من الموريين بينهم أولئك الوافدون من بسكرة ولديهم المهمات نفسها التي لدى الأشخاص من السافوي والأفيرون في باريس، والزواوة الذين يأتون من ميزاب وجربة...»^(٣٤).

يمكن أن نلاحظ أنه حين كان فانتور دي بارادي يكتب ملاحظاته في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، كانت أغلبية المصادر الأوروبية قد تخلت تقريباً عن التخمينات القائلة بـ ١٠٠ ألف نسمة أو أكثر واقترحت أرقاماً أصغر بدءاً بـ ٨٠ ألفاً إلى أقل من ٥٠ ألفاً. ومع الأخذ في الحساب هذه الأرقام، تبدو تخمينات فانتور دي بارادي معقولة بالرغم من أننا بحاجة إلى توضيح بعض الملاحظات قبل القبول بها.

بالتأكيد، لم يكن النصف الثاني من القرن الثامن عشر المرحلة الأكثر ازدهاراً لعاصمة السلطنة العثمانية، وإلى «حد قبول التوازن بين ارتفاع عدد السكان أو انخفاضه والنمو الاقتصادي أو التدهور كفرضية صحيحة للبحث»^(٣٥)، يمكننا أن نفترض رقماً أعلى للسكان خلال مرحلة عرفت ازدهاراً أهم شأنًا. إنه لأمر مثير للاهتمام تحديد هذه المرحلة في الربع الثاني من القرن السابع عشر - بضع سنوات أكثر من المدة

(٣٣) يأخذ شوفال في رأي ريمون. إن قبلنا بتخمين فانتور دي بارادي ستزيد الكثافة السكانية في المدينة على ألف نسمة في الهكتار الواحد في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر.

(٣٤) في مقطع آخر تقع على تعليق مثير للاهتمام، ولكن من الصعب ترجمته إلى أرقام: يمكن أن نقدر سكان الجزائر من خلال مطاحن القمح الموجودة في المدينة ومطاحن حجر الرحي التي يشغلها الجبال أو البغال.

Raymond, Ibid., p. 183.

(٣٥) انظر:

الرسم الرقم (١٨ - ١١)

أجزاء من فناء رئيسي (وسط الدار) في دار الصوف في بداية القرن التاسع عشر



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف (شباط/فبراير ٢٠٠٠).

التي اقترحها بروديل^(٣٦) - بالرغم من أنه ما من وثيقة تحدد التقدير الدقيق لعدد السكان آنذاك. إن الرقم البالغ ١٠٠ ألف نسمة أو أكثر الذي اقترحه المؤلفون الأوروبيون الذين زاروا الجزائر في هذه المرحلة (أكثر من ١٠٠ ألف بحسب دان عام ١٦٣٤؛ و ١٠٠ ألف بحسب دو أرندا عام ١٦٤٠ - ١٦٤٢) غير مقبول، لا بسبب حجم المدينة فحسب بل لأنه ينم بوضوح عن رغبة الكتاب بمفاجأة القارئ بصورة استثنائية للحالة^(٣٧).

رابعاً: الانخفاض التدريجي للسكان

يمكن تحديد الانقلاب الذي ظهر في التغيرات التي طرأت على المدينة ومواردها الاقتصادية لغاية نهاية العقد الثالث من القرن السادس عشر بالرغم من أن هذا الأمر من وجهة نظر ديمغرافية لم يُترجم بانخفاض فوري. يبدو عام ١٦٣٨ ومعركة فالونة مقبولين كرمز لهذا الانقلاب. غير أن نتائج هذه المعركة التي تواجه فيها الأتراك والبنادقة لم تكن رمزية للجزائر، إذ خسرت المدينة قسماً مهماً من السفن وعمّالها ناهيك بالعديد من السفن الشراعية للمسيحيين العبيد^(٣٨). وبسبب تكلفة إعادة بناء الأسطول (الذي سيكابد مجدداً بعد بضع سنوات أي عام ١٦٤٤ خسائر جسيمة خلال حصار كانيا) بالتلازم مع التغيرات التقنية للملاحة: تم التخلي تدريجاً عن نظام السفن الشراعية بعد معركة فالونة؛ ولم يعد لإبقاء العبيد في السجون أي معنى اقتصادي، وبالتالي كان من السهل الانتقال من مفهوم «طاقة الرق» إلى مفهوم «بضاعة الرق»^(٣٩). وإضافة إلى الحاجة إلى ملء خزينة السلطنة، كان هذا يعني أن تحرير العبيد ازداد خلال العقود التي تلت، وهو

(٣٦) ما زال في الإمكان الشعور بآثار «ثروة الجزائر الضخمة» التي يتحدث عنها بروديل (يذكر أن المدينة بلغت أوجها بين عامي ١٥٨٠ و ١٦٢٠)، انظر: Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, p. 195.

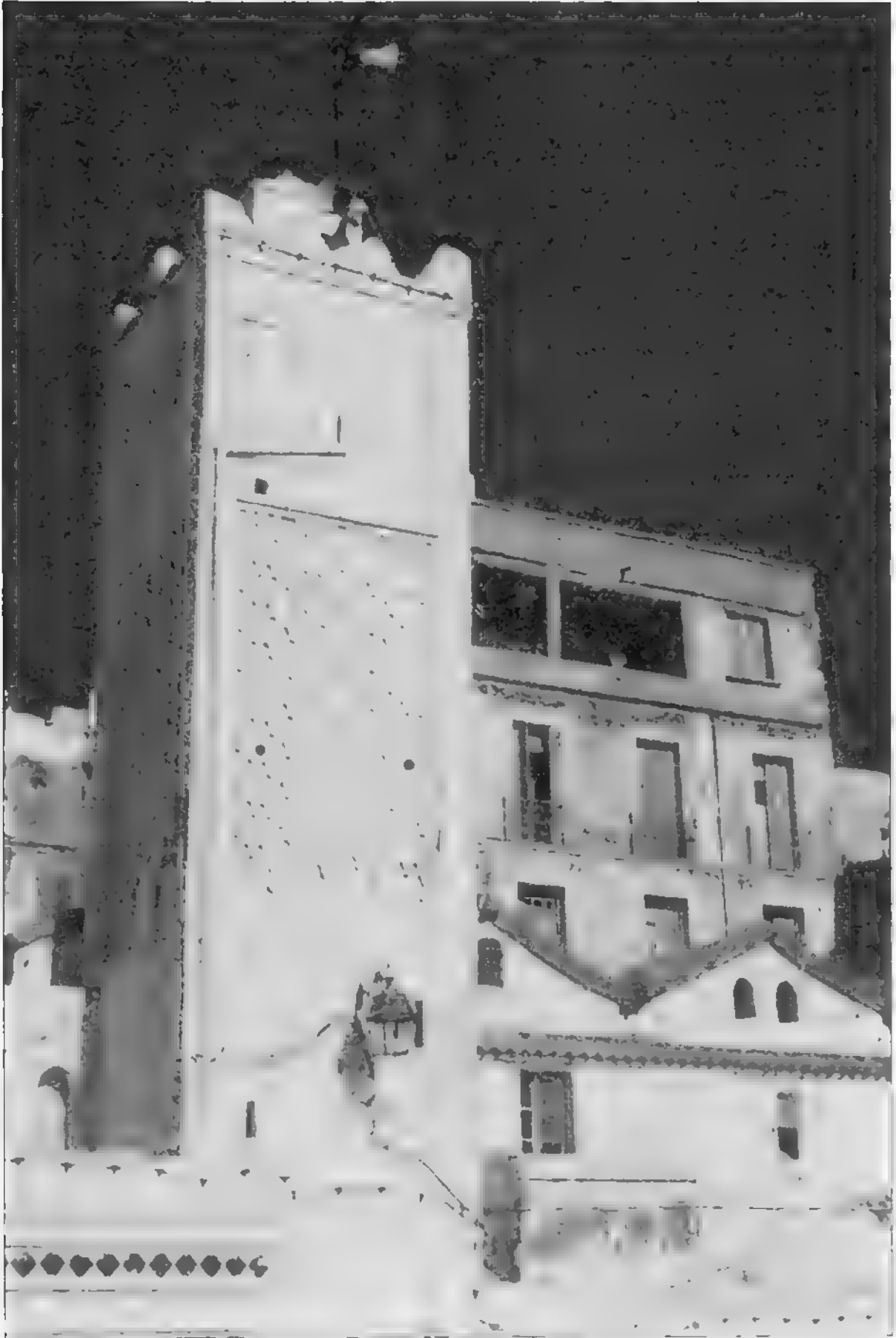
إضافة إلى ذلك، يتطابق منتصف القرن السابع عشر مع نهاية المسلك المثوي للقرن السادس عشر الطويل (كان عام ١٦٥٠ ليكون قمته)، الذي كان ليؤثر في الحالة الاقتصادية على طول المتوسط. كانت شهرة قوة المدينة في تلك الفترة في ذروتها. يكتب سالفاغو أن الرأي المعاصر (كتب نصّه في عام ١٦٢٥) قدّر عدد السكان في المدينة بـ ٣٠٠ ألف نسمة؛ بعد إحصاءات عديدة خفض هذا الرقم إلى النصف بالرغم من أنه يقيد، حاصياً المنازل في الريف المجاور، أن عدد السكان كان ٢٠٠ ألف. انظر: G. B. Salvago, *Africa Ovvero Barbaria*, edited by A. Sacerdoti (Padua: [n. pb.], 1937), p. 85.

(٣٧) انظر: Cresti, «Gli schiavi cristiani ad Algeri in età ottoman: Considerazioni sulle fonti e questioni storiografiche», p. 422.

(٣٨) بحسب دو غرامون، كانت حصيلة الخسائر ١٦ سفينة شراعية ومدّرعين (تقريباً نصف السفن الشراعية وأربعة أساطيل بحرية جزائرية) و ١٥٠٠ قتيل وإطلاق سراح ٣٦٣٤.

(٣٩) انظر: Boyer, «L'évolution démographique des populations musulmanes du Département d'Alger 1830/66-1948».

الرسم الرقم (١٨ - ١٢)
مئذنة، مسجد سيدي رمضان



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف (شباط/فبراير ٢٠٠٠).

ما أدى إلى انتشار واضح للعبيد «الخارجين» مقارنةً بالعبيد «الوافدين». بكلمات أخرى، أدى ذلك إلى تراجع تدريجي في أعدادهم.

خلال هذه السنوات نفسها، ولا سيّما عام ١٦٣٩، ضربت الزلازل المدينة وعرف السكان الجوع وأحداثاً مأساوية أخرى. ومنذ عام ١٦٥٠، جاءت الأزمة السكانية، التي أصابت السكان بعد سلسلة من الأوبئة المدمرة، جلية وواضحة^(٤٠)؛ كما شهدت المدينة أزمة سياسية: حتى عام ١٦٧١ وبداية مرحلة الأغوات وبعدها أيضاً، جرت سلسلة من الانقلابات المفاجئة. كانت القوة العسكرية للمدينة وسلامتها مهددتين، ولا سيّما خلال هجمات الأسطول الفرنسي في ثمانينيات القرن السابع عشر^(٤١).

بدأت الحالة السياسية تستقر بدءاً من العقد الثاني من القرن الذي تلا واستمرت لغاية نهاية القرن الثامن عشر. دفع السلام والانتعاش الاقتصادي الذي عرفته السلطنة خلال حكم الأغا محمد بن عثمان (١٧٦٦ - ١٧٩١) أندريه ريمون إلى التصريح بأن هذه المرحلة «يمكن اعتبارها مرحلة النهضة الجزائرية»^(٤٢).

أدى إحياء القرصنة (الناجم عن الانتعاش الاقتصادي) ومعاهدات السلام مع قسم من الحكام المسيحيين إلى تجديد ازدهار الجزائر. وفي حين شهدت المدينة تزايداً في عدد عبيدها من جهة، فهي تعرضت من جهة أخرى لهجمات بحرية وضربها الجوع والأوبئة فانطوت بالتالي صفحة حكم محمد بن عثمان.

(٤٠) كثيراً ما كانت تنتشر الأوبئة في الجزائر طوال القرن. وبحسب التأريخ شهدت الأعوام الممتدة بين عامي ١٦٥٤ و ١٦٥٧ وفي عام ١٦٦٤ أسوأ الأوبئة حين هلك أغلبية السكان (أكثر من النصف بحسب بعض الوثائق من تلك المرحلة). لكن من الجدير ذكره أن بعض الأرقام التي قدمتها الوثائق حول أعداد الموتى يبدو مبالغاً في أمرها. يفيد الكاهن جيانولا، قسيس العبيد المسيحيين في تلك الفترة، أنه خلال الأشهر العشرة التي انتشر فيها الطاعون عامي ١٦٩٠ و ١٦٩١، توفي ٤٠ ألف شخص من الأتراك والبربر وألف من العبيد. يصرح دو غرامون من دون تعليق ومن دون ذكر مصادره، أن الطاعون الذي تفشى عام ١٦٩٨ أدى إلى مقتل ما بين ٢٥٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ شخص كل عام لمدة أربعة أعوام. لا يمكن قبول هذه الأرقام إلا إذا كان دو غرامون يشير ضمناً إلى كل الأراضي الخاضعة للسلطنة.

(٤١) لا يبدو أن قصف أعوام ١٦٨٢ و ١٦٨٣ و ١٦٨٨ الذي ألحق ضرراً بالمباني قد سبب خسائر كبيرة في الأرواح، إذ إن السكان هربوا إلى الريف. من منظر سكاني، لم يكن لأي قصف على الجزائر نتائج خطيرة بالرغم من أن الوثائق تعطي أرقاماً متغيرة للخسائر في الأرواح. على سبيل المثال، كان القصف الألفظ في تاريخ المدينة هو قصف الأسطول الإنكليزي بقيادة اللورد إكسهاوث في ٢٨ آب/ أغسطس ١٨١٦، إذ تراوح عدد القتلى بين ٣٠٠ و ٢٠٠٠ (كان الأسطول قريباً من أسوار المدينة).

(٤٢) انظر: A. Raymond, «North Africa: Pre-colonial Period,» in: *The Cambridge History of Islam*, edited by p. M. Holt (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1970), p. 278.

الرسم الرقم (١٨ - ١٣)
شارع في القصبة



وفي تلخيص المزايا الأساسية في تطور الجزائر في القرن السابع عشر والأربعاء الثلاثة الأولى من القرن الثامن عشر: أدى وصول المهاجرين أثناء طرد المسلمين المورسكيين من إسبانيا بعد عام ١٦٠٩، إضافة إلى زيادة عدد السكان من جراء الانتعاش الاقتصادي وتدفق العبيد، إلى أكبر زيادة في عدد سكانها بين عامي ١٦٢٥ و١٦٣٨. أصبحت المساحة ضمن المدينة مكتظة مع منطقة مبنية كثيفة داخل أسوار المدينة تتألف من مباني من طابقين أو أكثر^(٤٣). من الممكن أن تكون أشكال المساكن الهشة لأغلبية المهاجرين الحديثين قد اختفت في تلك الفترة. أدت نهاية مرحلة الثروة العظمى والأزمة السياسية، ناهيك بالكوارث الطبيعية، إلى تراجع أولي في عدد السكان بنسب ملتبسة حتى منتصف القرن السابع عشر. حدث تراجع تدريجي ترافق مع مراحل من الأزمات الحادة (خلال الكوارث الطبيعية كالزلازل والأوبئة) وفترة انتعاش فرضية منذ منتصف القرن السابع عشر لغاية عام ١٧٩٧. في نهاية هذه المرحلة، يمكن تقدير عدد السكان بـ ٥٠ ألف نسمة.

إن الدليل التوثيقي المتعلق بآثار الزلازل التي ضربت المدينة في القرنين السابع عشر والثامن عشر غير دقيق، كون المصادر المعروفة اكتفت بوصف الضرر المادي. على سبيل المثال، هناك إحصاء نادر لآثار الزلازل في المباني العالية في تقرير بعثة في القرن الثامن عشر كانت تعمل على تحرير المسيحيين العبيد، وفي هذا التقرير نقرأ أن منزل القنصل الفرنسي كان أحد أجمل المنازل في الجزائر: «قبل حدوث الهزة، كان على علو ثلاثة طوابق في حين أنه على علو طابقين اليوم»^(٤٤). علمنا من المصدر عينه أن هذا الزلزال الذي تلتته المزيد من الارتجاجات لغاية حزيران/يونيو من السنة عينها، ألحق ضرراً كبيراً بمباني المدينة كافة وأنه بعد مرور سبع سنوات، وبالرغم من الإصلاحات، بقي العديد من المنازل مدمراً أو نصف منهار. «كان الزلزال قوياً جداً إلى درجة أن أغلبية المنازل في الريف باتت كومة حجار وكانت المدينة برمتها لتعاني القدر نفسه لو لم تكن المنازل متراصة إلى درجة أنها كانت بمثابة دعامة لبعضها البعض»^(٤٥).

اختلفت الوثائق المتعلقة بالأوبئة بوجه عام في تقديرها. لكن كانت هناك أزمة سكانية بارزة حتى نهاية القرن الثامن عشر تتوافر حولها المعلومات الدقيقة بفضل

(٤٣) يتحدث دان عن المنازل على أنها «متاخمة بعضها للبعض الآخر وفي بعض الأحيان في منزل واحد ٥ أو ٦ عائلات». انظر: F. p. Dan, *Histoire de Barbarie et de ses corsairs*, 2^{ème} éd. (Paris: [n. pb.], 1649), p. 90. (٤٤) *Voyage pour la redemption des captives aux royaumes d'Alger et de Tunis, fait en 1720 par les pp. Comelin, de les motte, Bernard* (Paris: [n. pb.], 1721), p. 14.

(٤٥) المصدر نفسه.

الرسم الرقم (١٨ - ١٤)
منزل مهتم قرب جامع اليهود



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف عام ١٩٩٣.

المصادر وسجلات الأرشف، مثل الطاعون الذي ضرب عام ١٧٨٧ - ١٧٨٨. في حين أنه لدينا تقديرات مبهمة لآثار الأوبئة الأولى؛ في هذه الحالة تزودنا المصادر برؤية أكثر دقة حول الخسائر البشرية، فالأعداد كافة التي تذكرها مرتفعة جداً. وبحسب الكاتب أحمد الشريف الزهار، الذي خصص بضعة أسطر من سجله الزمني للأحداث (كتبت لاحقاً بعد عدة عقود)، كان ٥٠٠ شخص يلقون مصرعهم يومياً خلال تفشي الوباء^(٤٦). وبحسب راينال، الذي كان موجوداً في الجزائر في تلك المرحلة، من بين الموتى على أسوار المدينة كان هناك ١٤٣٣٤ مسلماً و ١٧٧٤ يهودياً و ٦١٣ مسيحياً أحراراً و عبيداً^(٤٧). وتم تأكيد عدد الموتى الذي بلغ ١٦٧٢١ في رسالة من القنصل دو كرسى الذي تحدث عن ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ ميت في الريف المجاور، في حين أن فون ريندر الذي كان في الجزائر بين عامي ١٧٨٥ و ١٧٨٨ تحدث عن ١٥٨٢٩ ضحية في خمسة أشهر^(٤٨). أخيراً، ها هو إحصاء فانتور دي بارادي:

«كان عام ١٧٨٧ عاماً محزناً بالنسبة إلى الجزائر، كانت حصيلة الطاعون بمثابة مجزرة رهيبة. كل يوم وطوال أربعة أشهر، كان يموت ٢٠٠ مسلم أو حتى ٢٤٠ من دون إحصاء المسيحيين واليهود. وفي عام ١٧٨٨، ضرب الطاعون مرة أخرى لكنه لم يكن فتاكاً. وفي غضون سنتين، لاقى ٧٠٠ عبد مسيحي حتفهم. وما لا شك فيه أن طاعون عام ١٧٨٧ قضى على ثلث السكان»^(٤٩).

إذا قبلنا بتقدير فانتور دي بارادي وشاهدي عيان آخرين، كان عدد سكان الجزائر أكثر قليلاً من ٥٠ ألف نسمة قبل الطاعون و ٣٥ ألفاً بعده.

في السنوات الأربعين التالية، منذ تلك الحادثة وإلى حين سيطر الفرنسيون على الجزائر، بقي عدد السكان مستقراً تقريباً. سمح لنا غياب الكوارث الطبيعية والأوبئة

(٤٦) وَرَدَ في: M. Belhamissi, «Une Letter inedite sur Alger au XVIII^{ème} siècle,» *Archives Nationales* (Algerie) no. 6 (1977), p. 41.

(٤٧) G. T. Raynal, *Histoire Philosophique et politique de établissements et du Commerce des Européens dans l'afrique septentrionale*, 2 vols. (Paris: [n. pb.], 1826), vol. 2, p. 112, citée dans: Lespès, *Alger: Etude de géographie et d'histoire urbaines*, p. 139.

(٤٨) إن المقطع في دو كرسى قام باقتباسه م. بلحمسي، في: Belhamissi, *Ibid.*, p. 40.

تفيد الرسالة بأن الوباء وصل إلى نهايته في منتصف آب/أغسطس ١٧٨٧ بعد أن تفشى على الأقل مدة سبعة أشهر. قام ليسبس باقتباس إحصاء فون ريندر. يتحدث دو غرامون عن ١٧٠٤٨ ضحية من دون ذكر مصادره.

(٤٩) يؤكد تفحص ت. شوفال لقوائم تشريح الجثث فتك هذا الوباء: بدءاً باختلافات نجدها بين العدد المتوسط للقوائم وعدد سنوات الطاعون، ترتفع النتيجة إلى ١٤٦٠٠ [وفاة]، وهو ما يمثل نحو ٢٩ في المئة من العدد الأقصى لسكان المدينة.

الخطيرة وبعض الاستقرار الاقتصادي^(٥٠) بأن نطرح جانباً فرضية مرحلة محددة من الانخفاض السكاني الذي توافقت عليه كتابات التاريخ الاستعمارية. لكن يجب أن نظل حذرين حين نصّرح بأن عدد السكان بقي ثابتاً بين نهاية مرحلة الأوبئة الخطيرة وعام ١٨٣٠، إذ إن مجموع سكان الجزائر قبل الغزو الفرنسي هو في مطلق الأحوال موضع تقييمات وفرضيات متعارضة.

المعلومة المتعلقة بالسكان التي يمكن الوثوق بها هي الإحصاء الأول عام ١٨٣٠ في الوثيقة السابقة الذكر في الأرشيف العسكري لميموار كولاس. يشير الإحصاء الذي أمر الجنرال في القيادة بإجرائه إلى النتائج التالية:

١ - عدد الموريين الذين بقوا في البلاد بعد اجتياحات متنوعة، والمهاجرين الإسبان والأتراك: ١٦٨٠٠.

٢ - عدد اليهود الذين طُردوا من أوروبا في القرن الثالث عشر: ٥٢٠٠.

٣ - عدد الزوج والعبيد الأحرار، والخدم المحليين من الجنسين: ١٢٠٠.

٤ - عدد القبائل المحلية والعمال العرب إضافة إلى الزوج: ١٠٠٠^(٥١).

وهكذا، ما مجموعه ٢٤٢٠٠ شخص لا يمثل مجموع سكان المدينة في نهاية المرحلة العثمانية. في الواقع، قبل دخول الجيوش الفرنسية في ٥ حزيران/يونيو ١٨٣٠ وبعده، هرب قسم من السكان من المدينة لكن من الصعب تقدير العدد^(٥٢).

إضافة إلى ذلك، تم طرد أعضاء في الميليشيا الإنكشارية (٢٥٠٠ شخص أعزب و١٠٠٠ رجل متزوج بحسب الوثائق)^(٥٣) وعائلاتهم، إلى جانب أتراك آخرين، بناءً على

(٥٠) إن عدد العبيد الذي كان ثابتاً حتى عام ١٨١٦ والذي شهد زيادة ملحوظة بين الأعوام ١٨٠٠ و ١٨١٥ يمكن أن يشكل معياراً مثيراً للاهتمام.

(٥١) يبدو أن عدد الزوج (نحو ألف) في المخطوطة قد أضيف لاحقاً ولم يتم الإفصاح عن المجموع. إن مشاهدات ب. روزيت حول الإحصاء الأول الذي أجري غداة وصولنا والتي أخذ فيها ليسيس، مضللة. بعد سلسلة طويلة من الإحصاءات والمشاهدات، قدر روزي عدد سكان المدينة بـ ٣٠ ألف نسمة قبل الاحتلال الفرنسي.

(٥٢) انظر: H. Khodja, *Le Miroir* (Paris: [n. pb.], 1985).

يذكر ه. خوجة أن رحيل العائلات على متن قوارب لحماية أنفسهم إلى بلاد القبائل وبجاية قبل الاحتلال. كما يصف هذا الأخير رحيل مالكي المنازل التي كان يستخدمها الجيش والطبقات المسورة بعد الاحتلال. فبحسب أ. جوليان غادر عشرات الألوف من الأشخاص المدينة إما بحراً وإما عبر الطريق المؤدية إلى القسطنطينية في الأيام التي سبقت وصول القوات الفرنسية.

(٥٣) انطلق ٢٥٠٠ إنكشاري إلى سميرنة (إزمير) في تموز/يوليو، وطرد ألف إنكشاري متأهل مع عائلاتهم في آب/أغسطس. في ضوء هذا الطرد، التحق ٩٦٥ تركيا متأهلاً بالشرطة في نهاية تموز/يوليو؛ وفي ٣٠ تموز/يوليو أبحر ٥٠٠ «تركي» إضافة إلى عدد كبير من النساء والأطفال». يتحدث مؤلفون آخرون عن طرد ٤ آلاف إنكشاري.

الرسم الرقم (١٨ - ١٥)
شارع في باب الجديد



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف عام ٢٠٠٠.

أوامر قائد البعثة بورمون^(٥٤)؛ أي نحو ألف عائلة و ٢٥٠٠ رجل أعزب وهذا بالتأكيد أكثر من ٥٠٠٠، أي ما مجموعه ٧ آلاف شخص.

إذا أضفنا جميع الذين هربوا من المدينة وأولئك الذين ماتوا أثناء العمليات العسكرية منذ لحظة نزول الفرق الفرنسية في سيدي فرج حتى الهدنة، نستطيع أن نفيد مع درجة لا بأس بها من التأكيد أن عدد سكان الجزائر عشية الغزو الاستعماري كان يفوق ٣٠ ألف نسمة.

تؤكد وثيقتان إضافيتان هذا الأمر: تفيد الوثيقة الأولى (من المحتمل أن يكون كتبها شخص قريب من برتراند كلوزيل، قائد الجيش الذي أمر بإجراء أول إحصاء) «أن عدد السكان قبل الاجتياح الفرنسي ارتفع إلى ٤٠ ألف نسمة»^(٥٥)؛ في حين أن تقرير لجنة التحقيق التي أرسلت إلى الجزائر بعد ثلاث سنوات على الاجتياح يفيد «أن عدد سكان الجزائر راوح بين ٣٥ و ٤٠ ألف نسمة قبل الحصار»^(٥٦).

خامساً: عدد العبيد

في سياق سكاني لمدينة من «النظام القديم»، حيث تحافظ الولادات والوفيات على مستوى ثابت تقريباً لعدد السكان، أصبحت الهجرة عاملاً فاصلاً في أي تغيير ملحوظ في عدد سكان المدينة. سبق وناقشنا تأثير الهجرة التركية والأندلسية إضافة إلى تأثير اعتناق الإسلام في الارتفاع المفاجئ في عدد السكان في أوائل المرحلة العثمانية.

غير أنه من الصعب، في ظل الوضع الحالي لمعرفتنا، تقييم عامل فاصل آخر في سكان الجزائر خلال المرحلة المثيرة للجدل، أي مرحلة العبيد، في أيام المدينة الأكثر تكللاً بالنجاح، منذ نهاية القرن السادس عشر ولغاية منتصف القرن السابع عشر.

Mémoire Collas, p. 3.

(٥٤) انظر:

«منذ طرد الفرنسيين الأتراك وهجرة قسم من البربر، انخفض عدد السكان بصورة ملحوظة؟».

(٥٥) انظر: «Réfutation de l'ouvrage de Hamdan Khodja,» dans: *L'observateur des Tribunaux*, 4, livres (Paris: [n. pb.], 1834), p. 281.

«الذي كتب أصدقاء كلوزيل أو كلوزيل نفسه؟» بحسب أ. جغلول. هل كان لدى كلوزيل أو شخص في عيطة المعلومات الكافية لاقتراح هذا الرقم؟ من الصعب القول.

(٥٦) انظر: X. Yacono, «La Régence d'Alger en 1830 d'après l'enquête des commissions de 1833-1834,» ROMM, vol. 1, no. 2 (1966), p. 244.

الجدول الرقم (١٨ - ٢)
العبيد المسيحيون في الجزائر ١٧٣٦ - ١٨١٦ (٥٧)

السنة	العدد	السنة	العدد	السنة	العدد	السنة	العدد
١٧٣٦	١٠٦٣	١٧٥٧	١٥٦١	١٧٧٨	١٣٦٩		
١٧٣٧	٩٣١	١٧٥٨	١٥٧١	١٧٧٩	١٤٨١	١٧٩٨	١١٦٨
١٧٣٨	٧٠٥	١٧٥٩	١٧٥٣	١٧٨٠	١٤٩٤	١٧٩٩	١٠١٩
١٧٣٩	٥٦٩	١٧٦٠	١٩٤١	١٧٨١	١٥٨٦	١٨٠٠	٨٦٠
١٧٤٠	٤١٢	١٧٦١	١٩٩٣	١٧٨٢	١٥٣٢	١٨٠١	٥٤٥
١٧٤١	٤٩٩	١٧٦٢	١٩٠٢	١٧٨٣	١٥٠٧	١٨٠٢	٧٢٢
١٧٤٢	٥٣٠	١٧٦٣	١٩٠٠	١٧٨٤	١٥٢٠	١٨٠٣	٩٦٤
١٧٤٣	٥٨٢	١٧٦٤	١٩٢٠	١٧٨٥	١٣٧٢	١٨٠٤	٩٠١
١٧٤٤	٧٣٩	١٧٦٥	١٩٤٤/١٩٠٤ (٥)	١٧٨٦	١٤٢٦	١٨٠٥	١٠٢٢
١٧٤٥	٧٤١	١٧٦٦	٢٠٠٤	١٧٨٧	٥٧٢	١٨٠٦	١٢٢٨
١٧٤٦	٧٣٨	١٧٦٧	٢٠٦٢	١٧٨٨	٥٧٤	١٨٠٧	١٢٦٧
١٧٤٧	٨٢١	١٧٦٨	١١٣١	١٧٨٩	٦٥٩	١٨٠٨	١٤٢٢
١٧٤٨	١٠٠٣	١٧٦٩	١٢٢٦	١٧٩٠	٧١٥	١٨٠٩	١٥٤٥
١٧٤٩	٩٥٠	١٧٧٠	١٣٢٣	١٧٩١	٧٦٢	١٨١٠	١٣٥٧
١٧٥٠	١٠٦٣	١٧٧١	١٣٢٠	١٧٩٢	٨٣٢	١٨١١	١٣٤٥
١٧٥١	١٧٧٣	١٧٧٢	١١٩٠	١٧٩٣	٧٥٥	١٨١٢	١٤٧٥
١٧٥٢	٦٠٩	١٧٧٣	١٣٢٦	١٧٩٤	٧٧٩ (٥)	١٨١٣	١٦٥٦
١٧٥٣	٦٣٢	١٧٧٤	١٣٧٦	١٧٩٤	٨٩٦ (٥)	١٨١٤	١٥٢٥
١٧٥٤	٥٩١	١٧٧٥	١٣٧٣	١٧٩٥	٧٣٠	١٨١٥	١٤٥٠
١٧٥٥	٥٦٤	١٧٧٦	١٤٦٨	١٧٩٦	٦٥٩	١٨١٦	١٠١٦
١٧٥٦	٦٩٤	١٧٧٧	١٥٠١	١٧٩٧	٥٤٦		

(٥) هذه التواريخ هي تواريخ الحقبة المسيحية: في حالتين، من الممكن أن يكون الرقم المزدوج بسبب التباين بين التقويمين الغريغوري والإسلامي.

المصدر: A. DeVoulx, *Tachrifat: Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'A'ger* (Algiers: [n. pb.], 1852), p. 86.

(٥٧) لدينا معطيات للفترة نفسها وفق مؤلفين ومصادر أوروبية (١٧٣٨ - ١٨٣٠).

الجدول الرقم (١٨ - ٣)

العبيد المسيحيون في الجزائر بحسب المصادر الأوروبية (١٧٣٨ - ١٨٣٠)

١٧٣٨	ت. شار	٢٠٠٠
١٧٨٥	فون ريندر	٢٠٠٠
١٧٨٦ - ١٧٨٧	فاتور دي بارادي	٢٠٠٠
١٧٨٨	رينال	٨٠٠
١٧٨٨	فون ريندر	٨٠٠
١٧٨٨ - ١٧٨٩	فاتور دي بارادي	٥٠٠
١٧٩٦	ألسيا (APF)	٧٠٠
١٨٠١	فيشيرات (APF)	٥٠٠
١٨٠٥	جوسوي (APF)	١٢٠٠
١٨١٦	في دو غرامون	١٦٤٢ حررهم اللورد [كسماوث]
١٨٣٠	ب. روزيت	١٢٢ حرروا حين تم الإستيلاء على المدينة
١٨٣٠	في دو غرامون	١٥٠ تم تحريرهم أيضاً حين تم الاستيلاء على المدينة

ملاحظة: تكشف مقارنة المعلومات في المصادر الأوروبية بتلك الموجودة في التشريرات عن تقدير مبالغ فيه في التشريرات وعن التقديرات الدقيقة جداً أيضاً لبعض المؤلفين على غرار الكهنة الكاثوليك الرومان ألسيا وفيشيرات وجوسوي الذين أرسلوا لمساعدة العبيد.

لم تعد هذه المشكلة ظاهرة في المرحلة اللاحقة منذ عام ١٧٣٦ حتى الغزو الفرنسي، إذ إن المصادر الوثائقية العربية - التركية في القرن الأخير من الحكم العثماني كانت تعطي دلالات دقيقة جداً. في ما يلي جدول أرقام وُجد في دفتر التشريرات^(٥٨)، أحد سجلات الإدارة العثمانية التي درسها ألبرت ديفولكس، المحافظ على أرشيف الدولة بالعربية خلال العقود الأولى من مرحلة الاستعمار.

للمرحلة الممتدة من عام ١٧٨٧ إلى عام ١٨٣٠، التي قَدَرنا أن عدد السكان خلالها كان مستقراً جداً - بين ٣٠ ألف و ٤٠ ألف نسمة - يسمح لنا دفتر التشريرات

(٥٨) انظر: A. DeVoulx, *Tachrifat: Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger* (Algiers: [n. pb.], 1852).

بعض الوثائق تُرجمت إلى الفرنسية (وكانت قد تُرجمت قبل ذلك إلى العربية) وفيها مراجعة نقدية مبنية على الوثائق الأصلية. انظر: J. Deny, «Les Registres de solde des Janissaires Conservés à la bibliothèque nationale d'Alger», *RA*, vol. 61 (1920), p. 21.

وبخاصة جداول العبيد التي يذكرها دوفال حيث تظهر اختلافات في الأرقام عن تلك الرسمية لمرحلة ١٧٧٤ -

DeVoulx, Ibid.

١٨١٦، انظر:

بإحصاء عدد العبيد وفق عدد متغير إجمالي بين حد أدنى هو ١, ٥ في المئة وحد أقصى هو ٤, ٧ في المئة؛ وبالتالي معدل ٣ في المئة من عدد السكان. باستخدام الأرقام من التشریفات، سيكون هذا المعدل مؤكداً لعدد سكان يبلغ ٥٠ ألف نسمة عام ١٧٨٠. إن الانخفاض الحاد المسجل في عدد العبيد بين عامي ١٧٨٦ و ١٧٨٧ (انخفاض بنسبة ٦٠ في المئة مع خسارة ٨٥٤ شخصاً في سنة واحدة، وهو رقم قريب من العدد ٧٠٠ الذي أعطاه فانتور دي بارادي) كان بسبب الأوبئة التي فتكت بالمدينة في تلك السنوات.

بدءاً من عام ١٨١٦، تراجع كثيراً تأثير عدد العبيد في مجموع السكان. بعد بعثة اللورد إكسماوث الذي أعلم حاكم الجزائر بإلغاء الرق بناءً على مرسوم صادر من كونفرس فيينا وحرر المسيحيين العبيد كافة، تراجع الرقم إلى ٥, ٠ في المئة من سكان المدينة مع بقاء ١٥٠ عبداً في عام ١٨٣٠.

ماذا يسعنا القول عن المرحلة السابقة لعام ١٧٣٦؟ في ما يتعلق بالمصادر العربية والتركية فقط تعطينا الغزوات بعض الأرقام لكن من الصعب تأكيدها. يشهد رقم أولي على وجود ٧ آلاف عبد في الجزائر (قام العبيد بثورة نحو عام ١٥٣٢ غير أن خير الدين قمعها)^(٥٩).

تشير فصول أخرى إلى أن هذه النواة الأساسية الأولى للعبيد لم تكن تضم مسيحيين أسرهم القراصنة، وإنما تكونت نتيجة الهجمات الإسبانية على المدينة. تذكر الغزوات بوجه خاص ٣٠٣٦ إسبانياً تعرّضوا للأسر حين غرق عام ١٥١٩ الأسطول الذي يقوده هيوغو دي مونكادا. دمر خير الدين عام ١٥٢٩ بعثة إضافية وصلت متأخرة جداً لمساعدة الحامية العسكرية الإسبانية التابعة ليينون، الأمر الذي رفع عدد العبيد في المدينة إلى ٢٧٠٠^(٦٠).

بعيداً من هذه المعلومة، ومن المرحلة السابقة لعام ١٧٣٦، تتوافر لدينا فقط معلومات تزودنا بها المصادر الأوروبية (الجدول الرقم ١٨ - ٤).

G. Gallotta, entry on «Khayral – din Pascha», dans: *Encyclopedie de l'Islam*, 2nd ed. (Leiden; (٥٩) Paris: Brill, 1978), vol. 5, p. 1188.

Rang and Denis, eds., *Fondation de la régence de l'Alger: Histoire des barberousse*, (٦٠) انظر: vol. 1, pp. 111, 228 and 291.

بعد أسر هؤلاء خلال حملة شارل الخامس عام ١٥٤١، تم استعباد العديد من الإسبان بعد حملة فاشلة أخرى ضد مستغانم عام ١٥٥٨: بحسب هايديو تم أسر أكثر من ١٢٠٠٠ شخص في هذه الحادثة. يقيد بروديل، متبعاً نص هايديو، بأن المنازل في الجزائر أصبحت ممتلئة بهؤلاء الأسرى الجدد (مج ٢، ص ٢٨٤).

الجدول الرقم (١٨ - ٤)
العبيد المسيحيون في الجزائر بحسب المصادر الأوروبية (١٥٧٨ - ١٧٢٩)

العدد	المصدر	السنة
تقريباً ٢٥ ألفاً	هايدو	١٥٨١ - ١٥٧٨
٢٠ ألفاً	لا نغريدوتشي وبوزيو	١٥٧٨
تقريباً ١٥ ألفاً	ماغيني	١٥٩٨
أكثر من ٣٥ ألفاً	غراماي	١٦١٩
أكثر من ١٦ ألفاً	مسكريناس	١٦٢١ - ١٦٢٦
٢٥ ألفاً	سالفاغور	١٦٢٥
٢٥ ألفاً	دان	١٦٣٤
٣٠ ألف / ٤٠ ألفاً	دو أرندا	١٦٤٠
٣٠ ألف / ٤٠ ألفاً	هيرولت	١٦٤٤
٣٥ ألفاً	دافيتي (ناشر دو روكول)	١٦٦٠
٣٠ ألفاً / ٤٠ ألفاً في «كافة أنحاء السلطنة» وأكثر من ١٢ ألفاً داخل المدينة	أوفري (Miroir de la Charite)	١٦٦٢
أكثر من ٤٠ ألفاً	دوفال	١٦٦٥
١٠ آلاف / ١٢ ألفاً	أرفيو	١٦٧٤
١٨ ألف منهم ٩ آلاف فرنسي	وضع الجزائر الحالي	١٦٧٦
٢٠ ألفاً / ٣٠ ألفاً	دي فركور	١٦٧٨
٣٥ ألفاً / ٤٠ ألفاً	مانسون مالت	١٦٨٣
٣٥ ألف في مملكة الجزائر	بيتي دي لا كروا	١٦٨٤
٤٠٠٠	لورانس (APF)	١٦٩٣
١٦٠٠ في السجون	لورانس (APF)	١٦٩٦
٢٦٠٠	لورانس (APF)	١٦٩٨
٨٠٠٠ / ١٠ آلاف	كوملن	١٧٠٠
٣٠٠٠	لورانس (APF)	١٧٠١
٤٠٠٠	غودفيل (أطلس)	١٧١٩
١٠ آلاف / ٩٠٠٠	فاو	١٧٢٩
أكثر من ٥٠٠٠	فانلرا	١٧٢٩

المصدر: Cresti, «Gli schiavi cristiani ad Algeri in età ottoman: Considerazioni sulle fonti e questioni storiografiche», table 1, p. 425, table 2, p. 159.

لا تبدو الأرقام الأعلى (٣٠ ألفاً و ٣٥ ألفاً و ٤٠ ألفاً) التي تحدث عنها أغلبية مؤلفي القرن السادس عشر، ولا سيما في المرحلة الممتدة بين عامي ١٦٢٠ و ١٦٨٠ مقبولة ما لم نقر بأن الجزائر لم تكن أكثر من سجن كبير^(٦١)! لقد افترضوا بالفعل وجود نسبة عالية من العبيد بالنسبة الى مجموع السكان: ٣٠ إلى ٤٠ في المئة إذا قبلنا بمعدل الـ ١٠٠ ألف الذي اقترحه المؤلفون أنفسهم حتى أكثر إن كان هذا المعدل أقل حين كانت المدينة في أوج ازدهارها. يظهر تحليل مقارن أن ما من مدينة أخرى في المتوسط كانت فيها ظاهرة الرق ملحوظة ونملك عنها بعض المعلومات، بلغت هذه النسبة فيها مستويات مشابهة. في تراباني، صقلية، سمح إحصاء أجري عام ١٥٧٩ بمعرفة عدد العبيد الذي بلغ ١٥ في المئة من مجموع السكان. وبحسب بعض التحليلات، بلغ عدد العبيد في سيفيتافيكيا ٢٠ في المئة من مجموع السكان عام ١٦٠١ و ١٠ في المئة عام ١٦٢٢ و ٨ في المئة عامي ١٦٤٢ و ١٦٤٣، في حين أن النسبة المقدرة في جنوى بلغت ٣ في المئة في نهاية القرن السادس عشر^(٦٢).

وفي مالطا - المرادف المسيحي لمدن القرصنة في أفريقيا الشمالية - تتغير التقديرات كون المعلومات المتوافرة تشير فقط إلى مجموع السكان: تتراوح النتائج بين ٤,٣ في المئة و ٥ في المئة عام ١٥٩٠ مع ٣,٥ في المئة كأعلى رقم عام ١٦٣٢ (٩) في المئة من مجموع سكان لا فاليتا حيث تركز العبيد، إذ إن عدد سكان المدينة في تلك الفترة بلغ ٢٢ ألف نسمة^(٦٣). حتى في هذه الحالة لن يعطينا تقييم مقارن أي تأكيد بالرغم من أن هذا الأمر يسمح لنا بالتشكيك في صحة الأرقام المقترحة للجزائر.

بالعودة إلى المصادر الأوروبية في الجدول السابق، وحدها الأرقام التي اقترحتها إيفون لورانس، وهو كاهن رسولي في الجزائر من عام ١٦٩٣ لغاية عام ١٧٠٥، تبدو معقولة بالرغم من كونها غير دقيقة ولا تكاد تكون دلالية. كان الكاهن ناشطاً في مساعدة العبيد المسيحيين، وبالتالي كان في موقع يمكنه من تقدير أرقامهم. يعود التفاوت في الأرقام التي اقترحتها طوال السنوات، كما يبدو، إلى اهتمامه بهذه الظاهرة من حيث

(٦١) هكذا كانت الحال نحو عام ١٥١٨ بحسب فزوات التي نقرأ فيه أنه كان هناك تخوف من ثورة عبيد بها أن عددهم فاق عدد السكان. بحسب المصدر عنه قرر خير الدين بناء ثلاثة سجون قيد فيها العبيد الأقوياء بالسلاسل. انظر: Rang and Denis, eds., *Fondation de la régence de l'Alger: Histoire des barberousse*, vol. 1, pp. 115-116, et Bonaffini, *La vita e la storia di Ariadeno Barbarossa*.

(٦٢) يرى بونو أن الرقم ٣٦ في المئة الذي اقترح لليغهورن في عام ١٦١٦ لا مثيل له أو استثنائي. انظر: S. Bono, *Schiav I Musulmani nell'Italia Moderna* (Naples: [n. pb.], 1999), p. 24.

(٦٣) M. Fontenay, «Il Mercato Maltese degli schiavi al tempo dei Cavalieri di San Giovanni (1530-1798)» *Quaderni Storici*, vol. 107 (2001), p. 394.

العدد^(٦٤). إضافة إلى ذلك، تبين المعلومات أنه لغاية نهاية القرن السابع عشر، كان العبيد الذين يعيشون في الحمامات (حيث الأغلبية هناك من الباشوات) يمثلون أقل من نصف العدد الإجمالي.

إذا كانت أرقام لورانس قريبة من الحقيقة، فهي بالتالي بعيدة من أرقام مراقبين أوروبيين آخرين تحدثوا عن ٢٠ و ٣٠ و ٤٠ وحتى ٥٠ ألف عبد للسنوات السابقة. ما من حدث معروف في النصف الثاني من القرن السابع عشر يبرر مثل هذا الانخفاض المفاجئ في عدد العبيد (من ١٥ ألفاً كحد أدنى إلى أكثر من ٣٠ ألفاً طوال فترة دامت ٣٠ عاماً). انخفض عدد العبيد انخفاضاً ملحوظاً بفضل تحريرهم بأعداد كبيرة على الأرجح، فضلاً عن الهجمات على المدينة والأويشة المتنوعة، ولا سيما إذا اعتبرنا أن القرصنة خلال الفترة عينها تواصلت من دون انقطاع^(٦٥). ربما كانت الأرقام التي اقترحها دارفيو (١٠ آلاف - ١٢ ألف عبد عام ١٦٧٤) وأوفري في مرآة الإحسان (أكثر من ١٢ ألف داخل المدينة عام ١٦٦٢) هي أقرب إلى الحقيقة^(٦٦). إذا افترضنا أن الرقم الأعلى للعبيد يتزامن مع الذروة السكانية والاقتصادية للمدينة بين عامي ١٦٢٥ و ١٦٣٨ أو في مطلق الأحوال في العقود الأولى من القرن السابع عشر، نستطيع الافتراض أن العبيد كانوا أكثر عدداً في هذه المرحلة (ربما بضعة آلاف أكثر، أي ١٥ ألفاً)^(٦٧).

(٦٤) إن التفاوت في أرقام لورانس (ما مجموعه ٤٠٠٠ عام ١٦٩٣، ١٦٠٠ في السجون في عام ١٦٩٦، و ٢٦٠٠ و ٣٠٠٠ في عام ١٦٩٨ و ١٧٠١ على التوالي) ليس استثنائياً بالرغم من أنه من الغريب عدم وجود أي صدى للبعثة والاستيلاء على تونس اللذين أديا إلى جلب كمية كبيرة من العبيد إلى الجزائر بحسب دو غرامون. يصف لورانس في رسالة إلى روما انتصار القوات الجزائرية بعيد عودتها من تونس التي استولت عليها بعد هزم جيش البكوات في نهاية عام ١٦٩٤. «تألفت الكمية الكبيرة» من العبيد من ٤٠٠ عبد فقط يتمون إلى محمد بك.

(٦٥) بالنسبة إلى العبيد «الوافدين»، إن معلومات دو غرامون (٣٠٠ عبد تم أسرهم من السفن الفرنسية في عام ١٦٨١ وأكثر من ٦٠٠٠ بحار ألقى القبض عليهم بين عامي ١٦٦٨ و ١٦٨١). انظر: H. D. De Grammont, *Histoire d'Alger sous la Domination Turque, 1515-1830* (Paris: [n. pb.], 1887), p. 265.

مشكوك في أمرها بالنسبة إلى الإنكليز ومن المستحيل التدقيق فيها لأنه لا يذكر مصادره. إضافة إلى ذلك، نعلم من الأرقام المتوافرة الناقصة أنه بعد هجمات الأسطول الفرنسي بقيادة دوكنس (١٦٨٢ و ١٦٨٣) وديستريز (١٦٨٨)، أدت هدنة أولية إلى تحرير العبيد الفرنسيين كافة (٥٠٠ عبد). انظر: (ص ٢٥٠ - ٢٥١).

قد يميل المرء إلى استخدام معدل دو غرامون (أي ١:٢٠) عبد فرنسي بالنسبة إلى المجموع بالرغم من أن تقديره يبدو مرتكزاً على مجرد افتراض. أخيراً، نتحدث رسالة من الجزائر كتبها مبشّر عام ١٦٩١ عن موت ألف عبد في الوياء الذي دام ١٠ سنوات تقريباً.

(٦٦) كان ميشال أوفري ضمن عملية تحرير العبيد التي نظمها الآباء الفرنسيون التابعون لسيدة الشكر عام ١٦٦٢ الذين غادروا الجزائر مع نحو مئة عبد محرّر. بقي دارفيو في الجزائر عامي ١٦٧٤ - ١٦٧٥.

(٦٧) في مقال سابق، اقترحتُ فرضية رقم يراوح بين ٦٠٠٠ و ١٦٠٠٠ عبد على الأغلب وهذه الفرضية ترتكز على حسابات إحصائية فقط. انظر: Cresti, «Gli schiavi cristiani ad Algeri in età ottoman: Considerazioni sulle fonti e questioni storiografiche».

سادساً: أقلية مهمة عددياً: اليهود

ثمة فئة مهمة أخرى من السكان هي الجالية اليهودية التي تتوافر حولها معلومات بفضل المصادر الأوروبية، بالرغم من أننا لا نقبل هذه الأرقام العالية من دون تحفظ، ولا سيما الأرقام التي يقترحها شاو (١٥٠٠٠) ولوغيه دو تاسي (٥ آلاف منزل تسكنه عائلات يهودية)، وهي أرقام مستبعدة جداً. إن المرجع الوحيد المعقول موجود في الإحصاء الذي أجري في نهاية عام ١٨٣٠ والذي يسجل وجود ٢٥٠٠ يهودي في الجزائر. ولا بد من أن هذا الرقم يعود إلى وجودهم قبل الاحتلال الفرنسي كون اليهود لم يغادروا المدينة بعد هذا الحدث.

الجدول الرقم (١٨ - ٥)
الجالية اليهودية في الجزائر بحسب المصادر الأوروبية

السنة	المصدر	العدد
١٥٣٣ - ١٥٣٦	مذكرات سيمانكاس (ترجمة دي لا بريمودي)	٣٠٠ عائلة
١٥٧٨ - ١٥٨١	هايدو	١٥٠ منزلاً
١٦١٩	غراماي	أكثر من ٨٠٠٠
١٦٣٤	دان	٩٠٠٠ - ١٠٠٠٠
١٦٦٠	دافيتي (ناشر دو روكول)	أكثر من ٨٠٠٠
١٦٦٢	أوفري	٨٠٠٠ - ٩٠٠٠
١٦٧٠	أوغلي	٩٠٠٠ - ١٠٠٠٠
١٦٧٤	دارفيو	١٠٠٠٠ - ١٢٠٠٠
١٦٧٦	الوضع الحالي للجزائر	١٣٠٠٠ يهودي محلي
١٧٢٥	لوغيه دو تاسي	٥٠٠٠ منزل أو عائلة
١٧٣٨	شاو	١٥٠٠٠
١٧٤٢	تولوت	٥٠٠٠ عائلة
١٧٥٤	(قبل) ريكو (في فانتور دي بارادي)	٧٠٠٠ - ٨٠٠٠
١٧٨٤	باليرمو	٥٠٠٠ عائلة
١٧٨٩	فانتور دي بارادي	٧٠٠٠
١٨٠٨	بوتين	١٠٠٠٠ - ١٢٠٠٠
١٨٢٦	شالير	٥٠٠٠
١٨٣٠	ميموار كولاس	٥٢٠٠
١٨٣٠	روزيت	٥٠٠٠

إن التطور السكاني لهذا الجزء من السكان معروف في طيفه الأوسع^(٦٨). تشكل المجتمع اليهودي، أو في مطلق الأحوال توسع، في نهاية القرن الثالث عشر بفضل الهجرة من جزر البليار. وفي القرن التالي، بعد صدور مرسوم عام ١٤٩٢ الذي ترك لهم خيار المنفى أو تغيير الدين، وصل كثيرون منهم من إسبانيا. وقبل إقامة الحكم العثماني، سبق أن جاء العديد من إيطاليا وهولندا وفرنسا وإنكلترا. سهّل خير الدين إقامتهم في المدينة وأدى هؤلاء دوراً مهماً في الاقتصاد ولا سيما بفضل التجارة التي أوجدتها القرصنة.

عرفت الجزائر كذلك هجرة أخيرة لليهود من أوروبا في القرن الثامن عشر، مع وصول عائلات بأكملها من ليفهرون أدت دوراً تجارياً وسياسياً مهماً في حياة المدينة، ولا سيما بعد احتكارها تصدير الحبوب. انتهت مرحلة الازدهار هذه عام ١٨٠٥، العام الذي نُهب فيه منازلهم ودُبحوا بعد اغتيال نفتالي بوشناق، أغنى تاجر يهودي في المدينة وأكثرهم نفوذاً.

ويطلعنا دو غرامون، مستخدماً الوثائق الفرنسية في إعادة تركيبه الأحداث، أن ٥٠ يهودياً على الأقل لاقوا حتفهم في هذه الحادثة في حين هرب ٢٠٠ ولم يصب أيٌّ منهم بأذى بلجؤهم إلى القنصلية الفرنسية. كتب دو غرامون أن مصطفى آغا نفى على الفور «عددًا كبيراً من الناجين»^(٦٩). من المستحيل أن نحدد بدقة النقص في عدد سكان اليهود في هذه الحادثة، لكن إذا اعتمدنا مرة أخرى على إحصاء فانتور دي بارادي الذي قدر عددهم بـ ٧٠٠٠ نسمة عام ١٧٨٩ وإذا سلّمنا جدلاً بدرجة معينة من الاستقرار في السنوات التالية، سيرواح الانخفاض طوال العقدين الأخيرين من المرحلة العثمانية بين ألف وألفي شخص.

إن الرقم الثابت في المرحلة العثمانية، الذي أتى على ذكره كاتبان على الأقل في فترة ٢٠٠ سنة، هما غراماي وفانتور دي بارادي، هو كثافة السكان في الأحياء اليهودية.

٦٨) انظر: I. Bloch, *Inscriptions tumulaires des anciens cimetières israélites d'Alger* (Paris: [n. pb.], 1988); J. Hanoune, *Apersu sur les israélites algériens et sur la communauté d'Alger* (Alger: [n. pb.], 1922), et M. Eisenbeth, «Les Turif en Algerie et en Tunis a l'époque Turquie», *RA*, no. 96 (1952), pp. 101-102 et 343-384.

Ch. A. Julien, *Ibid.*, pp. 11-13.

انظر أيضاً توليفة كلود جوليان في:

De Grammont, *Histoire d'Alger sous la Domination Turque, 1515-1830*, p. 361. (٦٩)

في الحزن العربي اليهودي الذي اقتبسه بلوخ، ذبحت المليشيا ٤٢ يهودياً في الكنيس وجرح العديد. يفيد المؤلف أن الطرد كان مجرد تهديد إلا أن ٣٠٠ عائلة رحلت إلى تونس وليفهورن في تموز/ يوليو من السنة عينها. انظر: Eisenbeth, *Ibid.*, p. 377.

يدّعي الأول أنه أحصى على الأقل ٣٠٠ شخص في منزل واحد في حين أن الأخير تحدث عن ٧٠٠٠ يهودي يعيشون في ١٨٠ منزلاً، وبالتالي بمعدل أقل قليلاً من ٤٠ نسمة في المنزل^(٧٠).

سابعاً: الوجود العسكري: الإنكشاريون

تعطي المصادر الأوروبية أيضاً أرقاماً متغيرة للإنكشاريين. يمثل الرقم ١١٨٩٧ المدوّن عام ١٧٤٥ في السجلات^(٧١) رقماً دقيقاً للنصف الثاني من القرن الثامن عشر. إن التمييز بين «الرجال في القوى المقاتلة» (٩٣٢٢) و«الجنود خارج الصفوف» (٢٥٧٥) المستخدم في تحليل هذه السجلات ليس بذی أهمية كبرى بالنسبة إلینا، في حين أن عددهم الإجمالي مهم مقارنة بحالات معروفة أخرى^(٧٢).

من الصعب القول ما إذا كان عدد الإنكشاريين المسجل في هذه المرحلة هو أقل من المراحل السابقة بالرغم من أن الرقم الأعلى للفرق من المحتمل أن يكون قد سُجل في النصف الأول من القرن السابع عشر.

ويبدو أن بناء ثكنتين عسكريتين في الحقبة العثمانية، عرفتاً بالغرف القديمة (odalar eski) والغرف الجديدة (odalar yeni)، وهما إسمان تركيان، عامي ١٦٢٧ - ١٦٢٨ و١٦٣٨ على التوالي، جاء ليؤكد هذه الفرضية^(٧٣).

I. B. Gramaye, *Africae Illustratae libri decem* (Tornaci: [n. pb.], 1622), p. 13, et Rang et Denis, eds., *Fondation de la régence d'Alger: Histoire des Barberousse*, p. 3.

Deny, «Les Registres de solde des Janissaires Conservés à la bibliothèque nationale d'Alger.» (٧١) p. 36, and Cresti: «Quelques Reflexions sur la population et la structure sociale d'Alger à la periode turque (XVI^{ème}-XIX^{ème} siecles),» p. 161.

(٧٢) هذا على سبيل المثال، إذ تمّ إحصاء ٦٤٦١ إنكشارياً من أصل ١٥٩١٦ في النصف الثاني من القرن السابع عشر. غير أن الحالة في القاهرة، مع وجود عدد كبير من الفرق المملوكية، كانت استثنائية في السلطنة العثمانية. إضافة إلى ذلك، يفيد ريمون في أحد أعماله الأولى حول المدن العربية الكبرى في المرحلة العثمانية، بأن عدد الإنكشاريين في الجزائر كان ٢٠٠٠٠ إنكشاري تقريباً في القرن السابع عشر مقابل ١٠٠٠٠ إنكشاري في القرن الثامن عشر بالنسبة إلى مجموع السكان الذي لا بد أنه لم يتعدّ ١٠٠ ألف نسمة. انظر: A. Raymond: *Egiptiens et Français au Caire, 1798-1801* (Cairo: IFAO, 1998), p. 9, et «La Conquête Ottomane et le développement des Grandes Villes ottomans, le cas du Caire, de Damas et d'Alep,» ROMM, no. 27 (1979), p. 122.

(٧٣) انظر: G. Colin, *Corpus des inscriptions arabes et turques de l'Algérie* (Paris: [n. pb.], 1901); R. Meunier «Les Casernes des Janissaires d'El-Djezaïr,» *Feuilles d'El Djezaïr*, New Series, no. 5 (July 1962), pp. 5-6.

قد يشكل معدل الوفيات الطبيعي ومعدل وفيات مَنْ سقطوا أثناء المعارك فراغاً كبيراً في الصفوف العسكرية. وفقاً لإحصاء عام ١٧٥٤، تراجع على سبيل المثال عدد الجنود إلى ٤٠٠٠ رجل^(٧٤).

يمثل الإحصاء الذي أجري بناءً على أوامر الأغا محمد الخزنجي عام ١٨١٥ معلومة إضافية يمكن الاعتماد عليها، إذ يبرهن أن النقص في عدد الجنود لم يُملأ بتجنيد جديد، كما يكشف عن وجود ٤ آلاف رجل من بينهم ٧٠٠ لم يكونوا في الخدمة الفعلية^(٧٥).

ويؤكد عدد الإنكشاريين الذين طُردوا بعد الاحتلال الفرنسي هذه الأرقام. وإذا أخذنا في هذه الأرقام كلها، يبدو لنا أنها تشير إلى انخفاض مستمر في عديد القوات المسلحة منذ منتصف القرن الثامن عشر: إن المجندين الجدد البالغ عددهم ٨٥٣٣ بين عامي ١٨٠١ و ١٨٢٩^(٧٦) (مع معدل ٣٠٠ مجند في السنة) لم يكونوا كافين لتجديد القوة العسكرية للمدينة في أوج أيامها.

يمكننا الاعتبار أن الانخفاض في عدد الإنكشاريين تم تعويضه بتجنيد رجال ميليشيا محلية بالرغم من أن المصادر المتوافرة غير دقيقة وأن المعلومات التي تفيدنا بها غير دقيقة ومغايرة أيضاً، وبالتالي لا يمكن الوثوق بها. على سبيل المثال، يفيد غرابرغ أنه كان باستطاعة السلطنة، إن دعت الحاجة، استدعاء ١٠٠ ألف جندي على الأقل، ويقدر أن عدد الحاميات عشية البعثة الفرنسية راوح بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ حامية تركية و ١٠ آلاف كولولي ومورسكي. كما يذكر المؤلف وجود ٢٠٠٠ فارس وكتيبة عسكرية جديدة من «أبناء البلاد» والعبيد من أفريقيا الوسطى الذين تم تجنيدهم من جانب الداوي قبل وقت قصير^(٧٧).

(٧٤) بعد الهبوط المفاجئ في الأرقام، أمر السلطان بتجنيد ٥٠٠ إنكشاري في الأناضول. انظر: A. Sacerdoti, «La Mission à Alger du Consul de Venise Nicolas Rosalem (1753-1754)», *RA*, no. 96 (1952), p. 87, and Shuval, *La Ville d'Alger vers la fin du XVIII^{ème} Siècle: Population et cadre Urbain*, pp. 64-65.

(٧٥) انظر: De Grammont, *Histoire d'Alger sous la Domination Turque, 1515-1830*, p. 374.

ويشير ديني إلى أن وجود السجلات يثير الشكوك حول ما أفاده دو غرامون عن أن الداوي محمد الخزنجي قد قُتل لأنه أمر بإجراء إحصاء للميليشيا: لا يخفى على أحد أن هذه العملية تسبب دائماً للشرقيين نوعاً من الذعر. انظر: Deny, «Les Registres de solde des Janissaires Conservés à la bibliothèque nationale d'Alger», pp. 19-20.

(٧٦) M. Colombe, «Contribution à l'étude du recrutement de l'Odjad d'Alger», *RA*, no. 87 (1943), p. 180.

(٧٧) بحسب لجنة عام ١٨٣٣ - ١٨٣٤، كان لا يكاد يوجد لدى الأتراك ٣٠٠٠ رجل عندما وصلنا: كان جيش الداوي المتبقي يتألف من عناصر عملية وحتى من سود استفادوا منهم في بعض أقسام السلطنة. انظر: Yacono, *Régence d'Alger en 1830 d'après l'enquête des commissions de 1833-1834*, p. 238.

الجدول الرقم (١٨ - ٦)
الجنود والإنكشاريون في الجزائر بحسب المصادر

العدد	المصدر	السنة
٢٠٠٠ تركي و ٧٠٠٠ - ٨٠٠٠ من البربر الأندلسيين	بيريز دي إيدياكاييز	١٥٣٦
٢٥ ألف جندي من بينهم ٦٠٠٠ إنكشاري	لا تفريدوتشي وبوزيو	١٥٨٧
١٠ آلاف	دو بريف	١٦٠٥
٦٠٠٠	ليشغو	١٦١٥
٦٠٠٠ عائلة من المحاربين القدامى منها	غواماي	١٦١٩
٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ في كافة الأراضي		
٧ ثكنات مع ٥٠٠ - ٦٠٠ رجل لكل من بينها	مسكربناس	١٦٢١ - ١٦٢٦
١٠٠٠ - ١٥٠٠ في الجزائر		
١٠ آلاف	سالفاغو	١٦٢٥
٢٢ ألف رجل ميليشيا	دان	١٦٣٤
١٢ ألف	دو أرندا	١٦٤٠ - ١٦٤٢
٦٠٠٠ عائلة	دافيتي (ناشر دو روكول)	١٦٦٠
١٤ ألف إنكشاري	الوضع الحالي للمملكة	١٦٨٤
١٠ آلاف - ١٤ ألف رجل	دي آرسي (مخطط الجزائر)	١٦٨٦
١٢ ألف	غودفيل	١٧١٩
١٣ - ١٤ ألف رجل (الأغلبية في الجزائر)	تولوت	١٧٣١
١١٨٩٧	سجلات المبيعات	١٧٤٥
١١ - ١٢ ألف	ريكو (في فانتور دي بارادي)	١٧٥٤
٤٠٠٠	روزلم (ناشر ساسردوتي)	١٧٥٤
٣٠٠٠	باليرمو	١٧٨٤
٧٠٠٠ - ٨٠٠٠ بينهم	فانتور	١٧٨٥
	في الجزائر	٣٠٠٠
١٠ آلاف رجل بينهم	رينال (مذكور في ليسيس)	١٧٨٨
	تركي في كافة أنحاء السلطنة	٦٠٠٠
١٠ آلاف (٢) في السلطنة (١٥٠٠٠ رجل من بينهم في سائر أنحاء السلطنة)	بوتين	١٨٠٨
٤٠٠٠ (من إحصاء محمد الخزنجي)	دو غرامون	١٨١٥
٤٥٠٠ تركي عثماني	غرابيغ دي همسو	١٨٣٠
	٣٥٠٠	١٨٣٠

كما في حال العبيد، تطرح الأرقام المرتفعة المقترحة للجنود مشكلة تقسيمها بين العاصمة ومواقع عسكرية أخرى في السلطنة. لا تقيم المصادر الأوروبية غالباً هذا التمييز. وفي غياب وثائق أكثر دقة، غابت عنا أهمية هذا التقسيم الذي تغير بلا شك. يفيد مسكريناس الذي كان موجوداً في الجزائر بين عامي ١٦٢١ و١٦٢٦ أنه بين ثلث وسدس الإنكشاريين أقاموا في المدينة في حين أقام الباقون في مواقع عسكرية في الأجزاء الداخلية من البلاد. ويقدر فانتور دي بارادي أن عدد الجنود في العاصمة كان ٣ آلاف جندي من أصل ٧ آلاف أو ٨ آلاف (تركي) في أنحاء السلطنة كافة^(٧٨).

استنتاجات

ماذا يمكن القول إذاً، مع حد أدنى من اليقين، عن التطور السكاني للجزائر في المرحلة العثمانية؟ نظراً إلى الوضع الحالي لمعلوماتنا، يبدو التلخيص التالي معقولاً:

١ - بالرغم من أن الجزائر كانت إحدى المدن الأساسية في المغرب الأوسط في المرحلة السابقة للحكم العثماني، إلا أنها كانت صغيرة جداً من حيث المساحة والسكان. يبدو أن ندرة السكان كانت ظاهرة ثابتة في الأراضي الجزائرية في القرون الوسطى، وكان في المدينة عدد سكان متواضع مقارنة بالمدن الكبرى كفاس وتونس والمدن الأقل أهمية كتلمسان وقسنطينة.

٢ - شهد القرن السادس عشر بداية التطور الذي سيقود المدينة في غضون بضعة عقود إلى احتلال مركز أساسي اقتصادياً وسياسياً وسكانياً بين المدن الكبرى في المغرب الأوسط. جاءت هذه الظاهرة نتيجة تزايد عدد السكان بسبب أحداث عالمية (طرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية) وأحداث سياسية (تحوّل الجزائر تدريجاً إلى العاصمة الإقليمية للسلطنة العثمانية وتدفق النخبة العسكرية التركية إليها) وعوامل اقتصادية (ولا سيّما تطور نظام إنتاج وتوزيع الثروة الذي يركز بشكل واسع على القرصنة). وزوّدت عمليات القرصنة وسلسلة المعارك التي تكلّلت بالنصر ضد الإسبان في القرن السادس عشر الجزائر بعدد كبير من العبيد المسيحيين الذين أصبح قسمٌ منهم جزءاً من سكان المدينة باعتناقهم الإسلام.

J. C. Mascarenhas, *Memoravel relação da perda da nao Conceição e descripção nova* (٧٨) *da cidade de argel* (Lisbon: [n. pb.], 1627), p. 102; Rang et F. Denis, eds., *Fondation de la régence de l'Alger: Histoire des barberousse*, p. 3, et Shuval, *La Ville d'Alger vers la fin du XVIII^{ème} Siècle: Population et cadre Urbain*, p. 54.

يفيد بأن نحو ربع الإنكشاريين كانوا «دائماً خارج المدينة» في القرن الثامن عشر.

٣ - إن غياب المعلومات يصعب عملية تقدير الجذب الذي مارسته المدينة العثمانية على سكان المناطق الداخلية في الجزائر الذين بقوا أقلية داخل المدينة بحسب المصادر النادرة التي تطرقت إلى هذا الموضوع.

٤ - بالنسبة إلى المحيط الإعماري، فقد توسع في المرحلة العثمانية مع توسيع محيط الأسوار في النصف الأول من القرن السادس عشر. لكن يبدو أن هذا المكان المطوق لم يكن كافياً لتحمل تدفق المهاجرين، إذ إن ضاحية جديدة بدأت تظهر خارج الأسوار. ولا تتوافر لدينا أي تفاصيل حول هدم الضاحية، لكن في إمكاننا التخيل أن سكانها انتقلوا بعد هذه الحادثة إلى داخل أسوار المدينة.

وقد ظلت المدينة لبقية المرحلة العثمانية داخل الأسوار. يسمح لنا استقرار مساحتها الافتراض أن الضغط السكاني كان معقولاً وأنه ربما كان هناك إرادة سياسية لاحتواء السكان ضمن حدود من السهل ضبطها.

٥ - بالنسبة إلى هجرة السكان، يجب إقامة تمييز بين المجموعات المختلفة. أولاً بين المسلمين وغير المسلمين، وثانياً بين المسلمين «الشرقيين» و«الغربيين». جرت آخر هجرة للمسلمين الإسبان بعد عام ١٦٠٩ مع صدور قرار طرد المورسكيين. تألف المسلمون الشرقيون أساساً من الأتراك الأناضوليين الذين مثلوا العمود الفقري للقوات المسلحة؛ كان يتم تجنيدهم باستمرار بالرغم من أن التجنيد كان في هذه المرحلة متغيراً وفي تراجع منذ منتصف القرن الثامن عشر.

أما بالنسبة إلى غير المسلمين، فتظهر الحاجة إلى التمييز بين المسيحيين واليهود. كان اليهود موجودين في المدينة قبل الحكم العثماني وتزايدت أعدادهم منذ بداية القرن السادس عشر بفضل الامتيازات الجديدة التي منحها إياهم حكام المدينة الجدد. يُحتمل أن يكون عددهم استمر بالتزايد مع وصول المهاجرين من إيطاليا بالرغم من صعوبة تحديد هذه العملية؛ واستمر الأمر على هذه الحال حتى بداية القرن التاسع عشر حين طُرد أو هرب قسم من هذه الأقلية من المدينة في إثر أعمال عنف ومذابح.

وبالنسبة إلى المسيحيين، ولا سيّما المسيحيين العبيد، فقد تغيرت أعدادهم على نحو ملحوظ وفقاً لعمليات القرصنة والأحداث العالمية والسياسية والعسكرية. تواصل وجود العبيد بين سكان الجزائر طوال هذه المرحلة، ويمكننا أن نتصور أن عددهم كان أعلى في الفترة التي شهدت فيها المدينة ازدهاراً وأنه بدأ ينخفض بعد عام ١٦٣٨.

أخيراً، بالنسبة إلى الفريق الأخير «المستورد»، العبيد الأفارقة، فإن المعلومات نادرة (يمكن تلخيصها بـ ١٢٠ رجل حر وعبد وخادم) بحسب إحصاء عام ١٨٣٠.

٦ - إذا افترضنا احتمال نمو سكاني موازٍ لازدهار اقتصادي متزايد واستقرار سياسي وقوة عسكرية، فقد بلغ عدد سكان الجزائر ذروته في النصف الأول من القرن السابع عشر. وقد اخترنا عام ١٦٣٨ كتاريخ رمزي لهذه الذروة. إضافة إلى ذلك، ربما بلغ وجود الإنكشاريين والعبيد أعلى مستوى له في هذه المرحلة أيضاً.

يمكننا الافتراض أن كثافة المباني ضمن أسوار المدينة بلغت حداً أقصى في هذه المرحلة: تم بناء أشكال عمودية من المساكن، وكانت إحدى ميزات المدينة من وجهة نظر معمارية ومورفولوجية مدينية، ولا تزال مختلف رموزها غير معروفة.

٧ - في منتصف القرن السادس عشر، شهدت المدينة انخفاضاً في عدد السكان من جراء عوامل متنوعة، من بينها انخفاض عدد العبيد بسبب تدني عمليات القرصنة (سببها الخسائر التي كابدها الأسطول الجزائري)، وتطور تقنيات الملاحة وتزايد عمليات تحرير العبيد. كان هذا الانخفاض سريعاً أكثر أثناء تفشي الأوبئة (ولا سيما عامي ١٦٥٤ - ١٦٥٧ و ١٦٦٤)، وحدثت الكوارث الطبيعية. وما من وثائق تفيد بأنه تم تعويض الخسائر البشرية بواسطة السكان المحليين.

٨ - ألحق القصف، ولا سيما قصف الأسطول الفرنسي في ثمانينيات القرن السابع عشر، ضرراً في بعض مباني العاصمة بالرغم من أنه لم يصب السكان. كما أنه أضعف الوضع السياسي والاقتصادي ناهيك بتناجه السكانية التي يصعب تقييمها.

٩ - في سياق الأعوام المئة التالية حتى عام ١٧٨٠، بقيت النواة الأساسية للسكان ثابتة مع خسائر كبرى خلال الكوارث الطبيعية. انخفض عدد المسيحيين العبيد (المسجل بدقة منذ عام ١٧٣٦)، ولربما اشتمل على ٤ في المئة كحد أدنى من مجموع السكان. عرفت الجزائر فترة من التزايد السكاني الطفيف منذ عام ١٥٥٧ لغاية عام ١٧٦٨، حين استقرت أعدادهم عند الأرقام الأعلى المسجلة في هذا القرن، وذلك بفضل عقود من النمو الاقتصادي والاستقرار السياسي.

١٠ - إن الانحدار السياسي التدريجي للعاصمة كجزء من الأزمة العامة في السلطنة العثمانية يظهر أيضاً في انخفاض عدد المجندين في الميليشيا التركية. وفي غياب المزيد من المعلومات الدقيقة، يمكننا الافتراض أن هذا الانخفاض هو انخفاض تدريجي. وما

من وثائق تسمح لنا بالإفادة بأنه تم تعويض هذا الانخفاض بتجنيد قوات احتياطية محلية بالرغم من أن هذا الاحتمال وارد أيضاً.

١١ - إذا قبلنا بالأرقام التي اقترحها فانطور دي بارادي، يمكننا بالتالي أن نفيد أن عدد سكان الجزائر قبل طاعون عام ١٧٨٧ بفترة قصيرة بلغ ٥٠ ألف نسمة.

١٢ - في عامي ١٧٨٧ و ١٧٨٨، شهدت المدينة انخفاضاً سكانياً حاداً، إذ انخفض عدد السكان بنسبة الثلث (٣٥ ألف نسمة) من جراء وباء الطاعون.

١٣ - منذ نهاية القرن الثامن عشر ولغاية عام ١٨٣٠، يبدو أن عدد السكان استقر. لكن لا يمكننا استبعاد الاتجاه التدريجي نحو الانخفاض، وهو أمر يصعب تقديره بدقة. كان هناك انخفاض ملحوظ في عدد العبيد واليهود طوال هذه المرحلة الأخيرة.

١٤ - بكل تأكيد، بلغ عدد سكان الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي ٣٠ ألف نسمة وربما بلغ ٣٥ ألفاً.

ثمة عدد من العناصر التي لا تزال ناقصة والتي من شأنها المساعدة على تحديد التطور السكاني في الجزائر بدقة في الحقبة العثمانية، بالرغم من أن المعلومات المتوافرة تسمح لنا بتخطي مجرد «الرأي الموثوق فيه»^(٧٩)، وبصوغ فرضية قريبة من الحقيقة التاريخية. وبالتالي، تبدو الجزائر ظاهرة استثنائية في بانوراما العواصم العربية الإقليمية في السلطنة العثمانية، ولا سيما من حيث كثافة سكانها: أكثر قليلاً من ١١٠٠ نسمة في الهكتار الواحد نحو عام ١٧٨٠، بل أكثر من ذلك في ذروتها السكانية قبل ٦٥٠ - ٧٥٠ سنة من الغزو الفرنسي عام ١٨٣٠. لا بد من أن الاكتظاظ، ولا سيما في المرحلة التي شهدت الجزائر عدداً مرتفعاً من السكان، قد تسبب بحالة معيشية يرثى لها للفئات الفقيرة في المجتمع. والمنازل الواسعة التي لا يزال بعضها قائماً حتى يومنا هذا كانت الاستثناء لا القاعدة.

بالنسبة إلى المصادر الوثائقية، يمكن أن تكون المعلومات المتوافرة، ولا سيما من المصادر الأوروبية، مضللة. لكن بالرغم من أنها غالباً ما تركز على أحكام أيديولوجية أو مزورة لأسباب «ترويجية» لا علاقة لها بالبحث عن الحقيقة التاريخية، فهي تقدم العديد من العناصر الصحيحة ولو جزئياً، التي تساعد على إغناء معرفتنا. وعلى غرار

(٧٩) هذه هي العبارة التي استخدمها بوتين في تقريره (١٨٠٨). انظر: X. Yacono, «Peut-on évaluer la population de l'Algérie vers 1830?», *RA*, no. 98 (1954), p. 277.

المصادر التاريخية كافة، فهي لا بد من أن تخضع لتدقيق نقدي. تتطلب المصادر في الأرشيف العربي والتركي تفحصاً حديثاً سبق أن بدأ العمل عليه ومن شأنه أن يزود بأرقام كانت ناقصة.

في الختام، أي نقاش حالي أو مستقبلي حول التطور السكاني للجزائر خلال الحكم العثماني يمكن أن يركز فقط على الوثائق والمصادر المكتوبة. منذ بضع سنوات أكملتُ شرحي الأول للموضوع مؤكداً أن تحليلاً للبنية المدنية للمدينة العثمانية القائمة سيعالج، على الأقل في جزء منه، نقص المصادر المكتوبة وسيسمح لنا بفهم تطورها طوال أكثر من ثلاثة قرون، وبالتالي سيجعل من الممكن إقامة أساس أصح للفرضيات المختلفة [...] بالنسبة إلى السكان والبنية الاجتماعية في الجزائر في المرحلة التركية^(٨٠).

أما اليوم، فقد ذهبت تلك الآمال أدراج الريح. إن الدمار والخراب والفراغ الذي خلفته المباني المهدومة والمنهارة والمشاريع العديدة لتجديد المدينة، والترميم الذي لم يبدأ أو لم يُستكمل قط، وأكواخ المدينة التي ظهرت في الأماكن الفارغة في المدينة القديمة، كل هذه الأمور جعلت المدينة تبدو على فراش الموت ومن المستحيل إحيائها. وعليه فقد فقدنا وثيقة من الصعب تعويضها لتاريخ الجزائر في المرحلة العثمانية وهي المدينة العثمانية بحد ذاتها.

(٨٠) انظر: Cresti: «Quelques Reflexions sur la population et la structure sociale d'Alger a la periode turque (XV^e-XIX^e siècles),» p. 164.

الفصل التاسع عشر

كرمان في القرون الوسطى نموذج «القلعة، المدينة، الضواحي»

ليزا غولومبك^(*)

تبدو كرمان إلى الآن، كما العديد من المدن القديمة في إيران، مدينة من القرون الوسطى، ولا تزال الطرق الواسعة التي تحيط بالنواة تعيد إلى ذاكرتنا صورة المدينة المسورة. وفي داخلها تصطف المنازل المصنوعة من الطين والطوب على طول الأزقة المتشعبة، وتعلوها سطوح قرميد متشابهة تتشر هنا وهناك. وفي المدينة، تمتد سوق مغطاة (بازار) لا تزال تحتفظ ببعض الكنوز الزخرفية الجميلة، صاخبة، مستقيمة ذات قناطر مزخرفة على شكل حزام يقسمها قسمين: قسم شمالي وقسم جنوبي. وهي تفضي في طرفها الغربي إلى ميدان كبير. أبعد من ذلك، هنالك أنماط لشوارع حديثة، وللمنازل حديثة كذلك. أما الطرف الشرقي، فهو يفضي إلى ساحة مرور ليست ببعيدة من مسجد المدينة الجامع. هل يتعين علينا أن نفترض أن الحدود الحالية لهذه المدينة المسورة تتطابق مع المدينة الإسلامية المبكرة؟ أم أنها مقامة فوق مبانٍ أصلية أقدم عهداً؟ هل كانت السوق الرئيسية (البازار) دائماً حيث تقع الآن، قاسمة المدينة إلى قسمين متساويين تقريباً؟ في كرمان مسجدان جامعان حالياً يقع أحدهما على مقربة من الآخر. ما الذي يمكن أن يفسر هذه الازدواجية؟ دعونا نتفحص من كتب ما يمكن أن نلمحه اليوم.

(*) أستاذة في جامعة نورنتو، قسم الحضارات الشرق الأوسطية.

أولاً: القرن التاسع عشر

تؤكد دراسة الخرائط القديمة والصور الجوية أن ما نراه اليوم هو الحال الذي كانت عليه كرمان في القرن التاسع عشر، باستثناء الشوارع الواسعة وساحات المرور. قام الأخوان فيودوروف برسم خريطة المدينة التي نشرت مؤخراً في مجموعة من خرائط مرحلة القاجار^(١). ويبدو أن خريطة خانيكوف التي ظهرت عام ١٨٥٩ تركز على هذا العمل، كما أنها تبسط الكثير من معالمه^(٢).

وتعتبر خريطة بيرسي سايكس التي نشرت عام ١٩٠٢^(٣) الخريطة الأهم، كونها تزودنا بعدة أدلة عن تاريخ المدينة. هذه الخريطة مشابهة تقريباً للخريطة الروسية، إلا أنها تحوي المزيد من التفاصيل وأسماء المواقع الجغرافية. درس بول الإنكليزي المدينة مستخدماً بعض هذه المواد، إضافة إلى خرائط المدينة التي تبقي على دراسة أسماء المواقع قبل الثورة. لم يحاول سايكس النش أكثر في ماضي كرمان، لذلك تحتوي خارطته عن كرمان في القرن التاسع عشر على عدد من الأخطاء (كتغيير أسماء منكشفين صخرين شرق المدينة)^(٤).

لسر أغوار التاريخ المدني لكرمان، بدأ في عام ٢٠٠١ العمل على مشروع تعاوني بين منظمة الإرث الثقافي الإيراني ومتحف أونتاريو الملكي في تورونتو وجامعة ميتشغان. وتولت منظمة الإرث الثقافي الإيراني بالتالي مهمة تسجيل البنية المدنية المختفية لمدينة القاجار^(٥)، في حين بدأت د. سوزان باباي من جامعة ميتشغان بدراسة المعالم الصفوية مستعينة بنصوص تاريخية وخرائط قديمة وصور جوية. وسيتم عرض النتائج الأولية في هذا النص.

أعاد مكتب تجميل المدينة (دفتر بهسازي بافت شهر) تنظيم خريطة مدينة القاجار المرتكزة على عمل فريق من جامعة طهران (انظر الرسم الرقم ١٩ - ١) مستعيناً بالخرائط القديمة والذاكرة الجماعية، وتظهر هذه الخريطة سور المدينة والشوارع التي اختفت.

(١) وثائق مصوّرة للمدن الإيرانية في الحقبة القاجارية، ١٩٢.

(٢) N. Khanikoff, *Mémoire sur la partie méridionale de l'Asie Centrale* (Paris: [n. pb.], 1861).

(٣) P. Sikes, *Ten Thousand Miles in Persia or Eight Years in Iran* (New York: [n. pb.], 1902), facing p. 188.

(٤) P. English, *City and Village in Iran: Settlement and Economy in the Kerman Basin* (Madison: WI, 1966), figs. 11-12.

(٥) رأستها السيدة فريبا كرمان، مع نُزمت أحمدي مسؤولة عن الوثائق وتسجيل المكتشفات.

الرسم الرقم (١٩ - ١)
المدينة القديمة في كرمان وبعض الشوارع الرئيسية المشيدة في القرن العشرين



الشريط الدائري يتبع أسوار فترة القاجار. A - P مواقع اكتشفت فيها آثار.
(١) المسجد الجامع، (٢) مسجد الملك، (٣) مجمع خنج علي خان.
XXXXXX البازار الرئيسي ----- البازار الثانوي ————— الطرق الحديثة.

استرجع السكان المحليون أسماء الأحياء القديمة وحدودها. ولغايات مرتبطة بالتوجه، يتم إظهار الشوارع الأهم التي شقت المدينة في بداية القرن العشرين. يكشف تحليل غلام حسين بيجاري غير الدقيق لهذه الخريطة موقع البوابات الست في أسوار مدينة القاجار وأسمائها.

سنحاول، مستعينين بهذه المصادر، اكتشاف المعالم الإضافية التي باتت ظاهرة الآن. تظهر خريطة سايكس سوراً كبيراً في القلعة الغربية التي بناها الحكام القاجار. يمتد البازار الكبير (المعروف بـ «بازار الوكيل» على خريطة بول الإنكليزي) على طول المدينة من القلعة إلى بوابة المسجد. هنا يقع مسجد المدينة الجامع الذي شُيّد عام ١٣٥٠، إلا أنه غير متصل مباشرة بالبازار الكبير. أما المباني المتبقية الموجودة في البازار فهي مباني غنج علي خان (١٥٩٨) وميدانه المحاطين بالمؤسسات التجارية. تعود أغلبية المباني في البازار إلى مرحلة القاجار. يُعتقد أن قسم البازار الأقرب إلى المسجد الجامع المشيد في القرن الرابع عشر معاصر لجامع مظفري ولا يزال يعرف ببازار مظفري. وهناك مسجد آخر، لا يزال قائماً، هو مسجد الملك (أواخر القرن الحادي عشر) الواقع جنوب البازار الكبير.

خارج أسوار المدينة، تنتشر مناطق مأهولة أخرى تتضمن الحي الكبير في الشمال الشرقي المعروف بمحلة غُبر (حي الزرادشتيين)، وحيّاً يحمل الاسم نفسه شمال المدينة ويشار إليه بـ «المهجور». وتعرف بعض المعالم الأثرية بأسماء الأحياء. ويُعرف التواءان الصخريان شرق المدينة بقلعة أردشير وقلعة دُختر. ويبدو البازار الكبير الحالي، بالتالي، مشابهاً كثيراً لما كان عليه في مرحلة القاجار، كما تتناسب حدود المدينة القديمة التي لا تزال رؤيتها ممكنة في الصور الجوية العائدة إلى خمسينيات القرن العشرين، مع حدود مدينة القاجار (انظر الرسم الرقم ١٩ - ٢).

تقع سلسلة من مخازن الثلج، التي لا يزال بعضها موجوداً، في حين أن بعضها الآخر مشار إليه في خريطة سايكس، خارج هذه الأسوار. وفي الأماكن حيث لم يعد لأسوار المدينة من وجود، يمكن الاستعانة بمخازن الثلج لتحديد موقع الأسوار. قيل إن بعض مخازن الثلج هذه أو كلها تعود إلى المرحلة الصفوية، وبالتالي يُعقل أن المدينة الصفوية كانت بحجم مدينة القاجار تقريباً. ويقع أحد هذه المخازن بعيداً من الأسوار بالقرب من قلعة دُختر، الأمر الذي يعزز الفرضية القائلة إن المدينة الصفوية ربما كانت أكبر قليلاً لجهة الشرق من مدينة القاجار.

الرسم الرقم (١٩ - ٢)

صورة جوية لكرمان، تتضمن قلعة دُختر (في النصف الأول من القرن العشرين)



تطرح الصورة التي رسمناها لمدينة القاجار عدة مشكلات تدفعنا إلى التساؤل إن كانت مدينة القاجار تقع بالفعل فوق المستوطنة الإسلامية الأولى. إحدى هذه المشكلات مشكلة استقامة البازار. كيف تمكّن غنج علي خان من شق طريق يصل ميدانه بالجامع الذي شُيّد في القرن الرابع عشر في الحافة الشرقية للمدينة؟ هل سبق أن كان طريقاً عاماً وخُلد بيناء بازار مسقوف أم تعين على غنج علي خان تدمير قسم من البنية السكنية لشقه؟

كذلك يطرح وجود مسجدین جامعین متجاورین سؤالاً ثانياً؛ فالإلى جانب جامع مظفري، يوجد مسجد آخر كبير جداً يعرف بمسجد الملك بُني في أواخر القرن الحادي عشر جنوب البازار على بعد ١٠ دقائق سيراً من المسجد الآخر. وبالرغم من إعادة بناء معظمه في حقة القاجار ولاحقاً، فهو لا يزال يحتفظ ببعض العناصر السلجوقية، كالمئذنة في الشمال الشرقي ونقوش الطوب على قبلة الإيوان والمحاريب الثلاثة على السطح والمحراب المزخرف الذي اكتُشف حديثاً في الباحة^(٦). من الصعب فهم المبرر وراء بناء جامع مظفري بعد ٢٧٠ عاماً فقط، علماً أن مسجداً واحداً من شأنه أن يكفي مدينة بهذا الحجم. عادةً، يتولى الحاكم المحلي مهمة ترميم المسجد. لم يكن المسجدان بعيدين كفاية ليعهدا مجتمعين مختلفين كما لا يمثلان اختلافات طائفية^(٧). سنقدم لاحقاً تفسيراً لهذه الظاهرة (انظر الرسم الرقم (١٩ - ٣)).

يسعنا الآن الانتقال إلى مسألة تحديد موقع المدينة الإسلامية الأولى. أتقع أسفل المدينة عند الأسوار الصفوية/القاجارية والبازار الكبير المسقوف، أم في مكان آخر مرتبط نوعاً ما بالخرائب الموجودة على قمة التلال؟ بحسب الوصف الأولي لكرمان الذي ستطرق إليه باختصار، كان للمدينة حصون (من بينها حصن على مرتفع) وقلعة وخندق وأربع بوابات وأخيراً ضاحية واحدة أو أكثر. تتطابق هذه الصورة والنموذج المقبول عامة للمدن الإسلامية الأولى في إيران، التي تشمل أربعة عناصر أساسية: المدينة المسورة شهرستان، والقلعة أو الحصن، وضاحية أو أكثر (رَبَض)، والبازارات. وبالتالي، حين ننظر إلى ما تبقى اليوم، يستحيل معرفة كيف يلائم هذا الوصف البقايا الحالية أو حتى ما يظهر في خريطة سايكس (انظر الرسم الرقم (١٩ - ٤)).

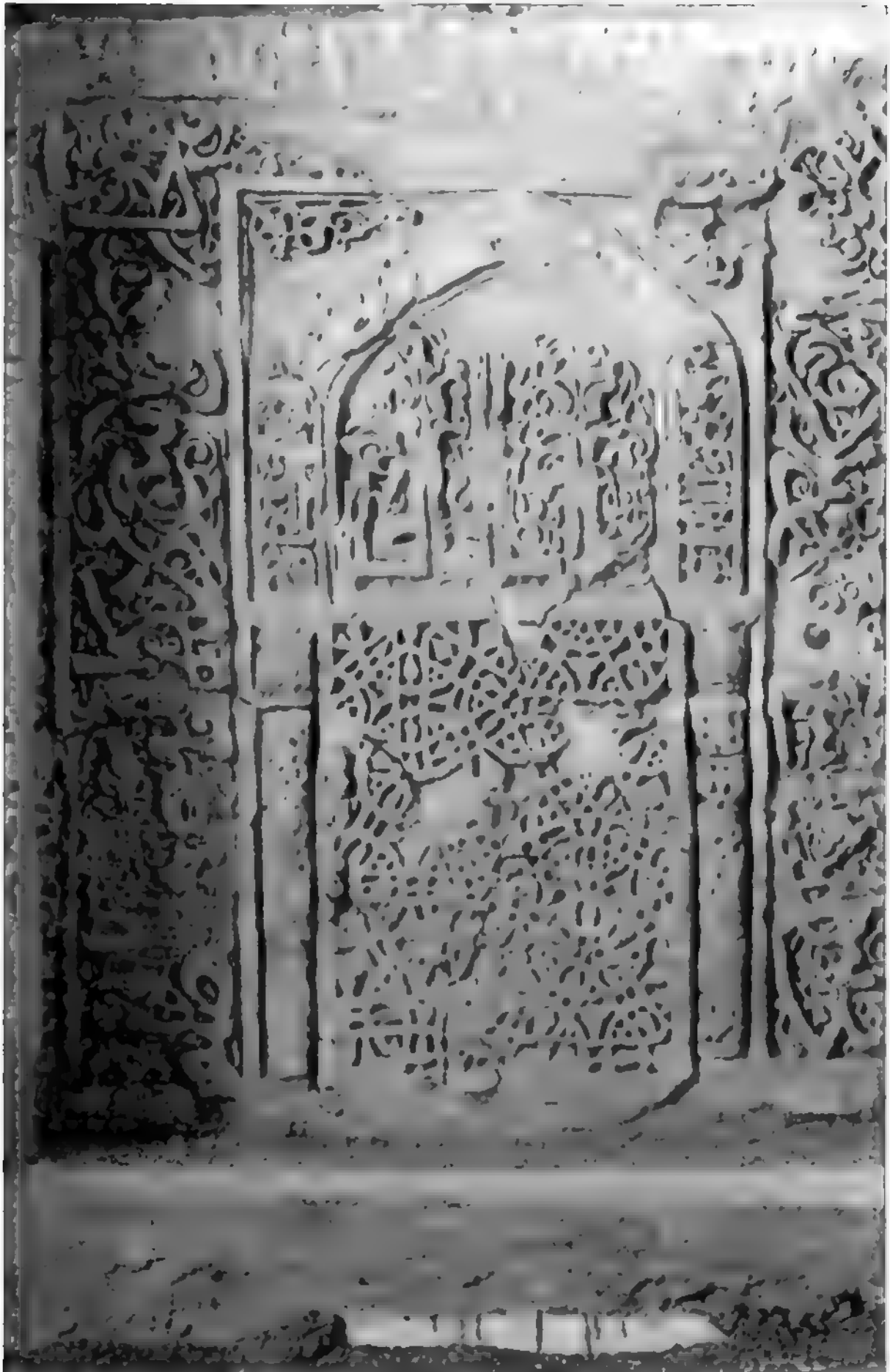
(٦) نشر شرودر خريطة للجامع في كتابه. انظر: E. Schroeder, *Survey of Persian Art*, edited by A. U. Pope [et al.] (London: [n. pb.], 1938), p. 1034, and Antony Hutt, «Three Minarets in the Kirman Region,» in: «Studies in Honour of Sir Mortimer Wheeler,» *Journal of the Royal Asiatic Society* (1970), pp. 172-180.

(٧) على سبيل المثال، كان في بَم ثلاثة مساجد جامعة: واحد في البازار، واحد في القلعة، وواحد للخارجين.

H. Gaube, *Iranian Cities* (New York: [n. pb.], 1979), p. 106.

انظر:

الرسم الرقم (١٩ - ٣)
واحد من محاريب ثلاثة في مسجد الملك



الرسم الرقم (١٩ - ٤)
صورة جوية للبازار الكبير من جهة الغرب



في المقدمة: ساحة التوحيد.
يسار أعلى: ميدان غنج علي خان يمتد ليتصل بالجانب الأيسر من البازار.
المصدر: الصورة من م. زنده روح كرماني.

وفي الوقت الذي انكب بعض الباحثين على دراسة التاريخ العربي والفارسي لكرمان، لم تظهر أي محاولة لمطابقة الدراسات هذه لطبوغرافيا المدينة^(٨).

يمكننا، بالنظر إلى خريطة سايكس فقط وإلى دلائل أخرى على معالم طبوغرافية مختفية، أن نبدأ بتحديد حدود المدينة الأولى وعناصرها. ما سنكتشفه ليس مدينة تلائم النموذج تماماً وحسب، وإنما مدينة تتفاعل عناصرها (القلعة والمدينة والضواحي).

ويتم ذكر هذه العناصر كافة في السجلات، وبالتالي في الإمكان دراسة أدوارها المختلفة وقدرها النهائي. تساعد المعالم المتبقية والمعالم الجغرافية ودراسة أسماء المواقع على ربط هذه المعلومات بنقاط ثابتة على الأرض.

ثانياً: الحقبة البويهية

تعتبر جغرافية محمد بن أحمد المقدسي^(٩)، المرجع العربي الأكثر أهمية حول بردسير (الاسم السابق لكرمان):

«بردسير: قصبة ليست بالكبيرة لكنها حصينة. وإليها دواوين الإقليم اليوم وبها الجيش، على جانبها قلعة كبيرة فيها بساتين، وقد حفر فيها بئر عظيمة عجيبة من بناء أبي علي بن إلياس وهو الذي اختار هذه القصبة وسكنها عشرين سنة. على الباب حصن وخندق مجسر. لها أربعة أبواب: باب ماهان، باب زَرَنْد، باب خبيص، باب مبارك. أكثر شربهم من آبار ولهم قناة. وفي وسط البلد قلعة أخرى والجامع قربها لطيف ويحرق بالبلد بساتين والقلعة عالية كان يصعد إليها ابن إلياس على الدواب الجبلية المعتادة لصعودها وينام فيها كل ليلة والقني تسقي بساتينهم المحيطة» (انظر الرسم الرقم (١٩ - ٥)).

(٨) لتاريخ وجغرافيا شاملين لكرمان، انظر: A. K. Lambton, «Kirman», *Encyclopaedia of Islam*, vol. 2, no. 5 ([n. d.]), pp. 147-166.

ومن أجل مواعمة المصادر التاريخية مع الآثار القائمة، انظر: G. Le Strange, *The Lands of the Eastern Calphate* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1905), pp. 303-307.

(٩) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن: بريل، ١٨٧٧). بدأ المقدسي كتابة جغرافيته للعالم الإسلامي عام ٩٨٥ في شیراز، غير بعيد من كرماني، وبعد ٢٠ سنة فقط من بدء الحاكم أبو علي بن إلياس برنامج بناء واسعاً.

الرسم الرقم (١٩ - ٥)
صورة جوية للجزء الجنوبي الغربي من المدينة القديمة



يظهر في الزاوية اليسرى السفلية بقايا خندق مائي؛ إلى اليمين لجهة الشمال مسجد الملك؛ فوق الوسط يمتد البازار الكبير (من النصف الأول من القرن العشرين).

يطرح هذا المقطع عدة مشاكل، إذ لا يمكن أحداً التأكد مما ورد للمقدسي أعلاه. غير أنه إذا ما بدأ بتحديد موقع الحصن وبواباته الأربع، ستأخذ المعالم الأخرى مكانها الطبيعي. كانت كل من هذه البوابات باستثناء بوابة مبارك تقع في النقطة حيث يدخل الطريق الممتد من المدينة الحصن. إذا ما اتبعنا الطرق التي تظهر في خريطة سايكس (انظر الرسم الرقم (١٩ - ٦))، نرى أنها تتقاطع في نقطة غرب قلعة دُختر.

أما بوابة خبيص فلا بد أنها كانت تقع في الشمال؛ في حين يؤكد مصدر غير متوقع موقع بوابة زَرَنْد. قام المؤرخ التيموري فصيح الخوافي بتسجيل الأحداث سنة تلو الأخرى. وهو يطلعنا أن مظفر حاكم كرمان بدأ عام ٧٥٢هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٢ م ببناء مسجد جامع عند بوابة زَرَنْد^(١٠) وأنجز في السنة اللاحقة^(١١).

ليس واضحاً إن كان الجامع داخل أسوار المدينة أم خارجها، لكن بما أننا نعرف موقع هذا الجامع (حالياً المسجد الجامع للمدينة)، يمكننا بالتالي التأكد من أن الطريق من زَرَنْد يمر في كرمان (بردسير) بالقرب من هذا المسجد.

وتشير المراجع إلى أن الأسوار البويهية بقيت موجودة في المرحلة التيمورية (أو على الأقل حين شيد المسجد). وكانت بوابة زَرَنْد تقع، بالتالي، في الجهة الغربية لحصن المقدسي. يؤكد هذا الأمر أيضاً قَدَمُ الطرف الغربي لمحلة شهر؛ وأعتقد أن هذا يحدد لنا الزاوية الشمالية الغربية للمدينة البويهية (انظر الرسم الرقم (١٩ - ٧)).

الرسم الرقم (١٩ - ٧) مخزن الثلج (نجدان ملك) شمال قلعة دُخْتَر



(١٠) أحمد بن جلال الدين محمد الخوافي، مجمل الفصيح (مشهد: نشر محمود فاروق، ١٩٦٢)، ص ١٣٤،

وج ٣، ص ٧٩.

(١١) المصدر نفسه.

أما بوابة ماهان فلا بد أنها كانت تقع في الجنوب. لدينا إذاً ثلاث بوابات في ثلاث جهات مختلفة مفترضين أن البوابة الرابعة تقع في الشرق. ومن المعقول أن بوابة مبارك إنما تشير إلى المدافن التي طالما وجدت في الشرق ونصب كرمان الأول (ربما القرن العاشر). أما ضريح جبل سنغ فيمتد على الطريق من المدينة إلى المدافن^(١٢).

يمكننا أن نحاول رسم مستطيل يربط هذه البوابات بحيث تقع كل منها في منتصف الأسوار، فتبين من هذا التمرين أن مصطلح «حصن» يشير إلى مبنى يقع في السهول وليس على التلال، وأنه كان بمنزلة مدينة أكثر مما هو قلعة. لذا فإنني أميز هذا العنصر من خلال خندقه وبواباته الأربع والجسور كقلعة - مدينة. يدعم المؤرخ السلجوقي أفضل الدين كرمانى هذا الاستنتاج ويفيد أن ابن إلياس بنى أسوار المدينة والخندق وثلاثة حصون^(١٣) وأن هنالك أربع بوابات يظهر اسمه على واحدة منها (انظر الرسم الرقم (١٩ - ٨)).

الرسم الرقم (١٩ - ٨) قلعة دُختر من أعلى شرقاً لجهة شمال جنوب



(١٢) طبع مراراً، وجرت مناقشته في: Bernard O'Kane, «The Gunbad-I Jabaliyya at Kirman and the development of the Domed Octagon in Iran,» in: T. Abdullah [et al.], eds., *Arab and Islamic Studies of Marsden Jones* (Cairo: [n. pb.], 1997), pp. 1-12.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٦٧.

يشكل التطرق إلى مسألة الحصون إشكالية أكبر، ولكن إذا أمعنا النظر في معلومات أفضل الدين وبعض المعلومات المستقاة من مراجع عرضية مرتبطة بالحصون طوال نصه، تتوضح الصورة أكثر. يقترح نص المقدسي وجود حصنين، حصن متاخم للمدينة وآخر داخلها. للحصن المتاخم بئر كبيرة. في حين أتخذ من الحصن الآخر متجعاً ملكياً. يذكر أفضل الدين حصون (قلاع) ابن إلياس الثلاثة: قلعة التل والقلعة القديمة والقلعة الجديدة^(١٤).

كما يأتي على ذكر البئر الشهيرة ويضعها في قلعة التل. ويتعين أن نثق بكلامه لأنه كان شاهداً على دمار هذه القلعة التي يقول إنها كانت تعرف بـ «القلعة الكبيرة». في عام ١٢١٣، قام ملك زوزن بتدميرها كلياً مع بئرها. ويقال إن عمق هذه البئر المدهشة التي تقطع الصخر يبلغ ٤٠٠ غز^(١٥) «أما خارجها الذي رأيت، أنا أفضل الدين، فيبلغ طوله وعرضه ثمانية في ثمانية تقريباً»، ويقسم إلى أربعة أقسام ويغطي بأربع عجالات. يمكن أن يكون السبب في تدمير هذه القلعة هو أن البئر كانت كبيرة وأن لديها عدة أبواب وطوابق ويتطلب أمر صيانتها وحراستها الكثير من الرجال. من بين عجائب هذه القلعة هو أن بواباتها الفضية كانت مصنوعة من الحديد. وقد تم تجنيد رجال المدينة لتدميرها ورميت الأقسام المتبقية بعيداً. وبينما كانوا يدمرونها، ظهرت قنطرة في الأسوار وعندما قاموا بانتزاعها، وجد إناءان حجرين أو ثلاثة وداخلها تاج من الذهب وبعض الأواني الفضية والذهبية تزن ١٥ مناً من الذهب و٢٧ مناً من الفضة. فأخذوا هذه الأواني إلى خزانة الملك. لم يعرف أحد خلال ٣٠٠ عام أي حاكم وضع يده على هذه الخزانة^(١٥). وبعد التدمير، استخدمت البئر كسجن، وتروى قصة عن حصول هروب من البئر بمساعدة صاحب المياه فيها^(١٦).

نفترض وقائع ثلاث أن قلعة التل أو القلعة داخل المدينة تقع أعلى قلعة دُختر: أولاً، أنها المرتفع الأقرب إلى المدينة؛ ثانياً، تشير خريطة سايكس إلى وجود سور امتد من التلة وصولاً إلى السهول، ولا يزال ممكناً رؤية بقايا برج وربما قسم من بوابة. وقد أعيد بناء القلعة عدة مرات؛ ويشير وجود قطع كبيرة جداً من الطوب في المداميك السفلى إلى احتمال تشييدها قبل المرحلة الصفوية. أما الواقعة الثالثة فهي وجود مصدر

(١٤) المصدر نفسه.

(*) الكز وحدة قياس قديمة تساوي ٦٠ سم. المصدر: <<http://www.kirmanigaz.ir>>.

(١٥) أحمد بن حامد أفضل الدين كرمانى، المضاف إلى بدائع الأزمان في وقايح كرمان، تحرير عباس إقبال

(طهران: [د. ن.].، ١٣٣١ هـ/ ١٩٥٢ م).

(١٦) E. W. Smith, *Mughul Colour Decoration of Agra*, Archaeological Survey of India, New

Imperial Series; 30 (Allahabad: Superintendent Government Press, 1901), pp. 3-17.

مياه يظهر أنه لا يزال قيد الاستعمال وتعلوه الآن المنازل الحديثة. وإني لأفترض أن هذا كان مصدر مياه «البئر المدهشة» الأصلي (انظر الرسم (٩ - ١٩)).

الرسم الرقم (٩ - ١٩)
برج قديم كان يصل تحصينات أسوار قلعة دُخْتَر بالمدينة
(في القرن العاشر على الأرجح)



أود تعيين القلعة القديمة ببقايا قلعة أردشير التي قام ابن إلياس بترميمها وتوسيعها. يشير أحد المصادر إلى أن الجيش اعتاد التخيم بين القلعتين، قلعة التل والقلعة القديمة، على ما يبدو في السهل المفتوح الذي يمكن رؤيته بين قلعتي دُخْتَر وأردشير. يدعم هذا الأمر أن المساحة تناسب تخيماً كهذا^(١٧).

قد تكون «القلعة الجديدة» معلماً اختفى باختفاء المدينة الأصلية أو القلعة التي كانت تقع في الزاوية الجنوبية الغربية لسور القاجار^(١٨). ويمكن رؤية هذه القلعة والخندق المحيط بها في الصور الجوية التي أخذت في القرن العشرين. وإن صح هذا

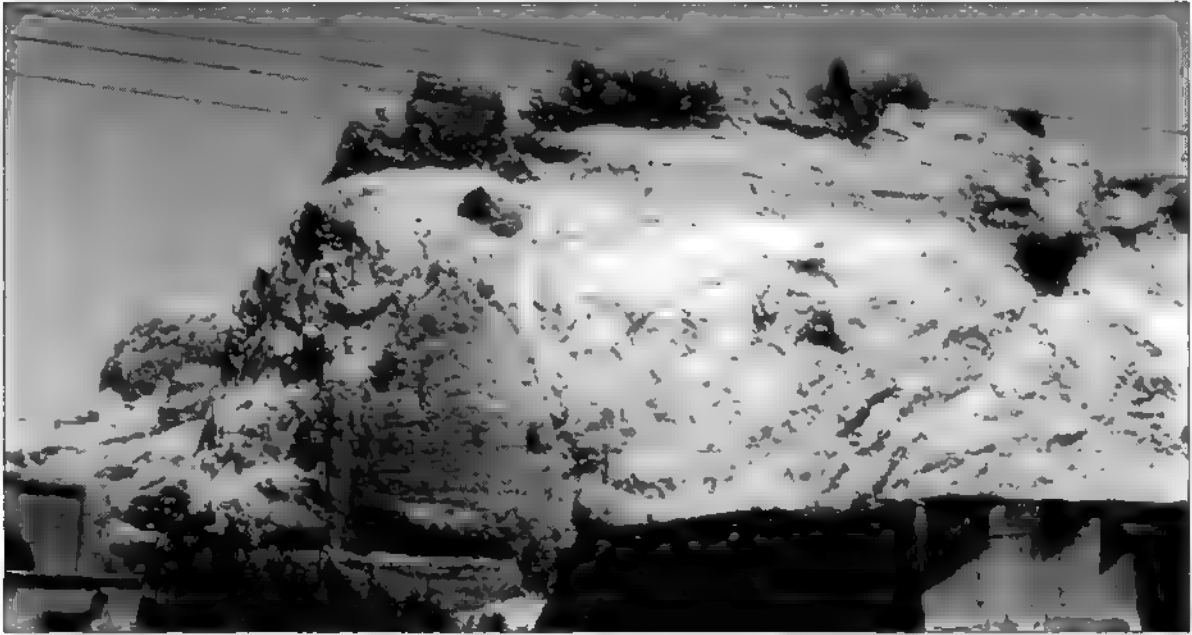
(١٧) محمد بن إبراهيم، أثر تاريخ سلجوقيان كرمان (١٨٨٦)، ص ١٩٣.

(١٨) اقترح هذا الاحتمال لو سترابونج، لكن أعتقد أنه يقوم حيث شيدت قلعة القاجار. انظر: Le Strange, *The Lands of the Eastern Calphate*, p. 306.

الأمر فهي لم تكن تحاذي المدينة البويهية وقلعة التل فيها، وإنما هي استخدمت لحراسة مدخل المدينة من جهة الغرب.

بتنا الآن نعرف شيئاً عن موقع المدينة البويهية وحجمها. ويسعنا القول إنها امتدت إلى الشرق لغاية قلعة دُختر. يحدد التقليد الشعبي الاستيطان الأول في محلة شهر، الحي الشرقي لمدينة القاجار. هذه المنطقة صغيرة جداً لكي تمثل المدينة بأكملها؛ لكن إذا اتبعنا الأسوار المهدمة على خريطة سايكس وألحقناها بالصور الغربي لمحلة شهر، نحصل على شكل مستطيل يسمح لنا بتحديد مواقع البوابات الأربع التي أتى على ذكرها المقدسي. وإذا وسعنا الطرق المعروفة بزَرند وخبيص وماهان على خريطة سايكس، دخلت هذه الأخيرة أسوار مدينتنا المفترضة تقريباً وسط الجهات الغربية والشمالية والجنوبية. وبالعودة إلى الصورة الجوية، يمكننا رؤية بقايا نموذج شارع بشكل دوائر تتبع ربع دائرة شمالية شرقية للمدينة البويهية المفترضة (انظر الرسم الرقم (١٩ - ١٠)).

الرسم الرقم (١٩ - ١٠) قلعة دُختر، وفي البعيد مباشرة المبنى الأسطواني



يزودنا أفضل الدين بالمزيد من التفاصيل حول ما وُجد داخل المدينة في أيامه أثناء تعداده للمباني التي دمرت خلال المعارك التي اندلعت بين الأميرين السلجوقيين بهرام شاه وأرسلان شاه^(١٩)؛ أما المباني التي دمرت فهي التالية: دار سك النقود (دار

(١٩) ابن إبراهيم، المصدر نفسه، ص ٥٢ - ٥٣.

الضرب)، ودار الحكم، والحمام والبازار والدكاكين؛ وافترض أفضل الدين تمرکز مباني المدينة في موقع واحد قريب من المركز التجاري. وربما تكون هذه العناصر قد بنيت حول مساحة مفتوحة واسعة أو ميدان بالرغم من أن المصادر لم تلمح قط إلى وجود ميدان في كرمان السلجوقية. سنرى في ما يلي أن المسكن الرئيسي لملوك قورش بقي في المدينة إلى أن بنيت الضاحية الملكية.

يظهر سؤال أخير مرتبط بالزرادشتيين، إذ لا يزال إلى أيامنا هذه يقوم شارع يعرف بـ «آتشكده» (معبد النار)، يمتد شرقاً - غرباً من الحدود الغربية لمحلة شهر إلى مسجد بامینار (٧٩٣/١٣٩٠). خلال زيارتي عام ٢٠٠١، أشار السكان المحليون إلى قطعة أرض خلاء في الجوار، وتحدثوا عن وجود معبد نار فيها استمر لفترة قريبة جداً^(٢٠). إن أصبنا في تحديد موقع السور البويهى على طول الحافة الغربية لمحلة شهر، فهذا يعني أن حي الزرادشتيين هو قبل المرحلة الصفوية الأخيرة وكان يقع خارج المدينة. وسنرى أن هذه المنطقة كانت لتصبح ضاحية على الأقل أواخر المرحلة السلجوقية.

تقع هذه المنطقة التي تظهر مدمرة على خريطة سايكس شمال أسوار القاجار. ولا تزال بقايا البوابة التي تصل الضاحية بالمدينة عبر الطريق من زَرَنْد تحمل اسم بوابة غِبَر أو بوابة الزرادشتيين (خريطة سايكس، بوابة غِبَر). بعد النهب الأفغاني عام ١٧٢٠ - ١٧٢١ وتدمير آغا محمد خان المدينة عام ١٧٩٤، انتقل الزرادشتيون إلى شرق مدينة القاجار وسكنوا مجدداً المستوطنة البويهية الأصلية (انظر الرسم الرقم ١٩ - ١١).

ثالثاً: الحقبة السلجوقية

ألمحنا للتو إلى إنشاء الضواحي وإلى إمكان أن يكون الزرادشتيون هم أول من بنى الضاحية المبكرة. بنيت الضاحية الرئيسية المعروفة بـ «رباط دشت»، أو ضاحية السهول، بمرسوم. والرواية الأصلية لأفضل الدين تستحق أن تروى ثانية. عام ١٠٨٥ م/٤٧٨ هـ ويعزم شديد، صعد طوران شاه السلجوقي إلى سطح منزله في المدينة وأطلق ثلاثة سهام باتجاه القبلة. وقد أمر بتشييد جامع حيث وقع السهم الأول، في حين بنى قصره حيث وقع السهم الثاني، أما السهم الثالث فأطلقه ليحدد موقع «السراي والكشك والخانقاه والضاحية التي كانت قرية بعضها من بعض»^(٢١).

Lambton, «Kirman», p. 157.

(٢٠)

(٢١) ابن إبراهيم، المصدر نفسه، ص ٢٠.

الرسم الرقم (١٩ - ١١)
حفريات في موقع بناء جديد جنوب مسجد الملك،
وقوس مهدم في الوسط يعود إلى العصر الوسيط



شكلت هذه المباني الملكية تجمعاً كان بمثابة نواة الضاحية الجديدة وبالتحديد ضاحية السهول (رباط دشت). ما السبب الكامن وراء هذا البناء الطموح؟ لماذا قرر الملك نقل سكنه إلى خارج المدينة؟ إليكم القصة. كان طوران شاه بناءً «طماعاً» اهتم شخصياً بأنشطة التجار والحرفيين. وحين رأى نجاراً يعمل في سراي المدينة مع غلام متدرب، كان يبدو تركياً، سأل النجار: أهذا الغلام ابن رجل تركي؟ أجاب النجار: «هذا سؤال يطرحه الصادق عليك. تقول والد الغلام إنني والده. إلا أن هناك جندياً تركياً يقيم في منزلي ولا شك أنه يمكنه أن يعطيك جواباً»^(٢٢).

(٢٢) المصدر نفسه.

في رواية ابن شهاب لقصة أفضل الدين أن الحرفي كان خزاناً، وأن الملك لاحظ: «الغلام تركي وأنت طاجيك؟»^(٢٣).

انزعج طوران شاه بشدة من هذا الكلام، وأمر على الفور جيشه كله بمغادرة منازل السكان والانتقال إلى الضاحية حيث لا يوجد بناء، «إذ كانت الناس تقيم في المدينة». كما صدرت أوامر أجبرت «الأمراء والوزراء والجيش» الذين كانوا يعيشون في المدينة على نصب خيم وبناء مأوئهم في الضاحية. في ذلك اليوم، نصب الأتراك والطاجيك في الجيش الخيم خارج المدينة وبنوا المنازل وعند صلاة العشاء لم يبق أي جندي أو تركي في أي منزل في المدينة. «في ذلك اليوم، بدأت عملية البناء خارج المدينة»^(٢٤).

وفي حين قد تكون هذه القصة مشكوكاً في صحتها، فهي أعطت طوران شاه الحجة لتأسيس رمزية واضحة ومثيرة للإعجاب لحكمه. تجدر الإشارة هنا إلى أن تاريخ البناء (١٠٨٥) يتزامن مع بناء الحاكم السلجوقي العظيم ملك شاه القصب الشهيرة في جامع أصفهان. كان سلاجقة كرمان مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالسلالة الحاكمة. كان قورش والد طوران شاه الأخ الأكبر لألب أرسلان وحاول الاستيلاء على الحكم بعد موت أخيه عام ١٠٧٢. إلا أنه هزم فقتله ملك شاه ابن ألب أرسلان. وعليه ربما رأى طوران شاه التغيير في جامع أصفهان تمجيداً لجذع عائلة عمه. وقد يكون هذا الأمر هو الذي حثه على تقليد هذا العمل.

وعلى نطاق أوسع، تدعو القصة إلى إقامة المقارنة بملوك الماضي في حين تشير قصة السهام إلى مساعدة إلهية في اختيار المواقع وهو موضوع يظهر في العديد من القصص الأخرى التي تدور حول البناء.

على الرغم من ذلك، تعتبر القصة في غاية الأهمية، إذ إنها تطلعتنا على نموذج النمو المدني في كرمان. يتم مراراً ذكر هذه الضاحية وقصرها في المصادر التي ذكرتها في سياق الأحداث التي جرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر^(٢٥).

وغالباً ما يتم مقارنة الضاحية بالمدينة، ذلك بأن الضاحية متألقة إنما ضعيفة دفاعياً، نظراً إلى عدم وجود أسوار. تشير قصة أفضل الدين في هذه النقطة إلى اجتياح

(٢٣) أحمد بن حامد أفضل الدين كرماني، بدائع الأزمان في وقائع كرمان، تحقيق مهدي بياني (طهران: [د. ن.]، ١٣٢٦هـ/١٩٢٧م)، ص ١٨.

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) ابن إبراهيم، المصدر نفسه، ص ٧٠، ١٠٧ و ١١٣.

الغزنويين لها نهاية عام ١١٧٤م/٥٦٩هـ. كما يقول عن تدمير القصر الرائع وحدائقه: «إن تلك الغرف الملكية والمنازل والقصور الرائعة والبساتين والمرابي والسقوف المزينة بأروع الصور واللوحات السماوية المزينة بالنجوم ليس لها مثل في المناطق الإسلامية والفناعات الواسعة. عند بزوغ الفجر، دمرت هذه كلها. كل شخص تمنى نهب تلك القلعة عمل على نزع مدا ميكها».

بعد هذا الاجتياح، نقل الملك محل إقامته إلى سراي المدينة. ونهب الغزنويون القصر الموجود في الضاحية وهرب السكان إلى المدينة للاحتباء^(٢٦). ومع ذلك لاقى العديد منهم حتفهم ثم غادر العديد منهم المدينة. عاد الغزنويون مرة ثانية بعد عشر سنوات وعاثوا في الضاحية خراباً فدمروا القصور والمنازل^(٢٧). قبل ثلاثين عاماً، حين أطيح الملك المعمر أرسلان شاه من قبل ابنه عام ١١٤٢، نقل من هذا القصر سراي دشت إلى قلعة التل لتأمين حمايته^(٢٨).

يسمح لنا معلمان متبقيان بتحديد موقع الضاحية الملكية وربما قصر الملك أيضاً. المعلم الأول هو المسجد، مسجد الملك (أو كما يعرف اليوم بمسجد الإمام) الذي بناه طوران شاه وهو لا يزال قائماً محتفظاً ببعض بنيته السلجوقية كما ذكر سابقاً.

أما الدليل الثاني الذي يساعدنا على تحديد موقع الضاحية السلجوقية هنا فهو اسم الحي الشاه العادل الذي يظهر على خريطة سايكس. كان هذا اسماً مشهوراً أطلق على طوران شاه وربما لا تزال بقايا الضاحية السلجوقية موجودة بالقرب من المسجد. تكشف زيارة لهذا الموقع في عام ٢٠٠١ عن وجود حفرة عميقة بالقرب من المسجد في الجهة الجنوبية حُفرت من أجل بناء مركز تسوق جديد.

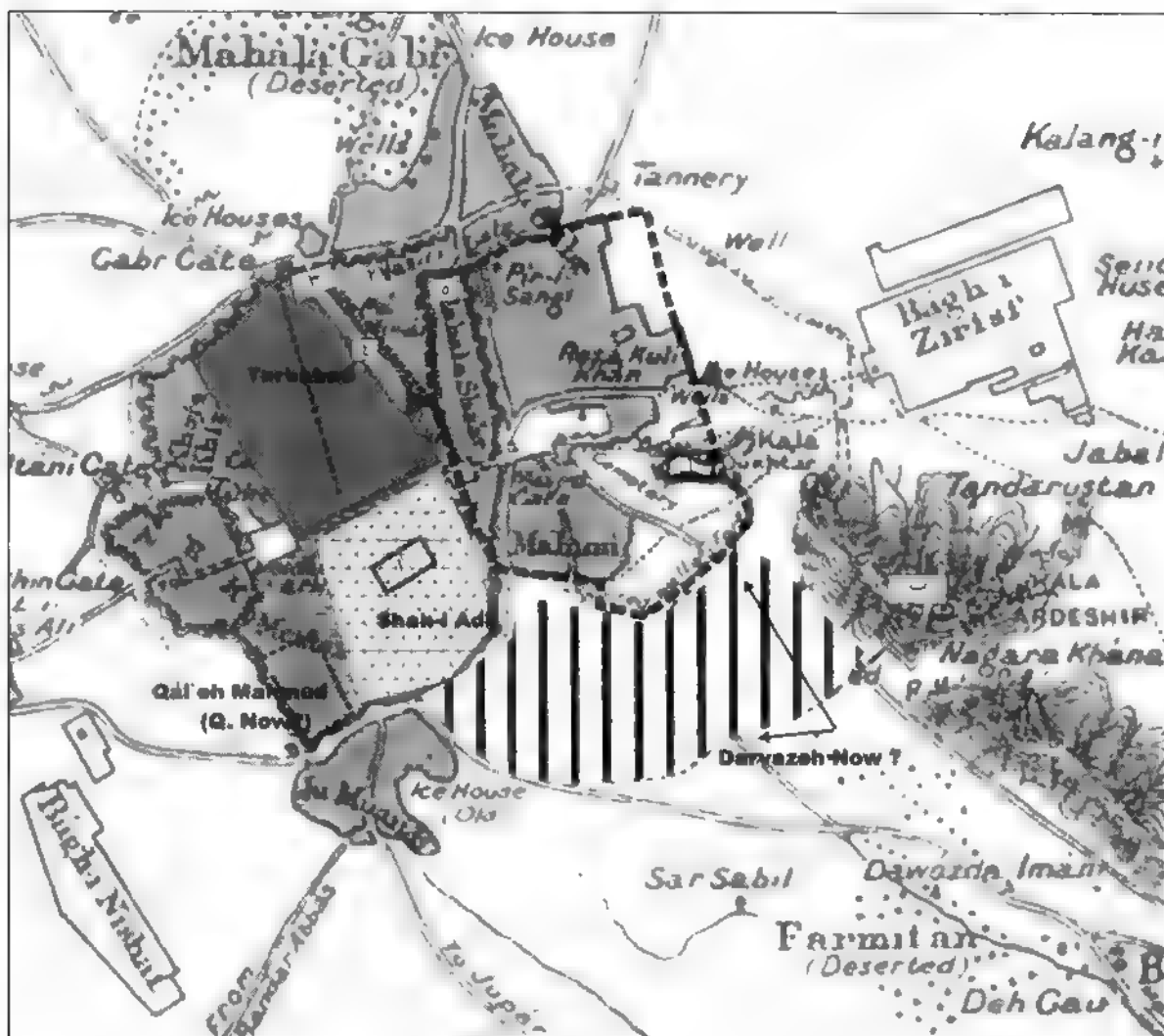
على طول الطريق إلى الموقع، في الأسوار أسفل المنازل المدمرة، انتشرت أجزاء من القناطر المهدامة التي ربما كانت بقايا من الحقة السلجوقية أو حتى من القصر بحد ذاته. كانت الأنقاض أسفل منازل القاجار مليئة بالبقايا الصفوية التي تعود إلى بداية القرن السابع عشر، الأمر الذي سيكون مهماً في نقاشنا حول التغيرات في المرحلة الصفوية (انظر الرسم الرقم (١٩ - ١٢)).

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١١٤ - ١١٥.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٨.

تظهر الضاحية الجديدة «ترك أباد»



٤ - حوز الملك، أواخر القرن الثاني عشر.

المصدر: المصدر نفسه

يمتد كلا النصبين على طول الطريق إلى زَرَنْد ويؤكدان أهمية ذلك الطريق في الفترة تلك. إذا ما كانت الضاحية الزرادشتية تقع هنا، فالمباني الإسلامية تشير إلى أن سكان هذا الحي قد تداخلوا بعضهم ببعض الآخر. ربما كانت هذه ضاحية اليزديين (أي الزرادشتيون القادمون من يزد). ذُكرت هذه الضاحية على أنها المكان الذي بنت فيه زوجة أرسلان شاه ضاحية^(٣١).

(۳۱) ابن ابراهیم، اثر تاریخ سلجوقیان کرمان، ص ۲۷.

تعتبر مرحلة السلاجقة بالنسبة إلى كرمان والمنطقة المرحلة الأكثر أهمية؛ وتسجل النصوص وجود العديد من المباني التي اختفت الآن. يعود الجزء الأكبر من هذا التغيير إلى تأثير اجتياحات الغزنويين عام ١١٧٤ وما تلاه.

أعاد الملك دينار (١١٩٥م/٥٩١هـ) الازدهار الذي كان، لكن خلفه وضع يده على الخزينة، وتناوبت بالتالي عدة أطراف جديدة في التقاتل على نهب كرمان مرة أخرى. بنى الملك دينار على الأقل صرحين عاقمين لا يزالان قائمين حتى اليوم: مسجد الملك دينار (الواقع بين مسجد الملك وحمّام غنج علي خان) والخزان المعروف بحوز الملك (الواقع على الطريق المؤدي من المسجد الجامع إلى مسجد بازار شاه). أعيد ترميم هذين الصرحين كلياً ولم نلاحظ خلال زيارتنا عام ٢٠٠١ أي أثر للمباني الأصلية. أقام ابن الملك دينار لفترة في القلعة الجديدة التي لم يعرف موقعها^(٣٢). وفي عام ١٢١٣م/٦٠٥هـ، استولى مؤيد الملك قوام الدين، ملك زوزن على كرمان ودمّر قلعة التل (انظر أعلاه).

رابعاً: مرحلة خانات قتلغ

في ظل الحكم المغولي، عادت كرمان إلى الحياة. قام خانات قتلغ (نحو ١٢٢٤ - ١٣٠٥) بتشييد العديد من المباني. يمثل المعلم المعروف حالياً بـ «القبّة الخضراء»، الواقع في الربع الشمالي الغربي لمدينة القاجار بقايا مجمع عمراني ضخم شيده مؤسس السلالة قتلغ خان الملقب بـ «براق حاجب» (١٢٣٥م/٦٣٢هـ). اعتنق هذا الأخير الإسلام قبل عدة سنوات فقط من موته^(٣٣)، وبنى مدرسة ربما ليطلع هذه المناسبة.

تفيد تقارير سمط العلّي أن براق حاجب دُفن في مدرسته في الحي المعروف تُرك أباد الذي كان خارج المدينة^(٣٤). وقد حُدّد موقع هذه الضاحية على خريطة كرمان في القرن التاسع عشر لبول الإنكليزي الذي ربما ارتكز على ما ورد سابقاً. تكمن مشكلة هذا التحديد في أن النصب القائم هنا والمعروف بالقبّة الخضراء، خلافاً لحالة مسجد الملك، لا يمكن استخدامه لتأكيد موقع الضاحية ذاك، فهو بوصفه الحالي لا يتناسب مع الوقائع. إنه إيوان وليس قبة بالرغم من أنه ما من أحد قد يتصور أن الإيوان كان مدخل

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٩٠ - ١٩١.

(٣٣) W. Barthold, «Buraq Hadjib», *Encyclopaedia of Islam* 2, p. 1311.

(٣٤) ناصر الدين منشي كرماني، سمط العمل للحضرة العليا (بالفارسية)، تحرير عباس إقبال (طهران: انتشار

مجلة يادغار، ١٣٢٨هـ/١٩١٠م)، ص ٢٦.

المدرسة وأن الضريح المقبب قد اختفى. غير أن الزخرفة الفسيفسائية للإيوان تعود إلى مرحلة متأخرة عن مرحلة خانات قتلغ. وتظهر صورة للقبة الخضراء في كرمان في كتاب سايكس^(٣٥)، ولا يمكن لهذا النصب الذي لم يبق له أي أثر بعد زلزال عام ١٨٩٦، أن يعود إلى تاريخ مبكر، بل الاحتمال الأكبر أنه يعود إلى القرن الخامس عشر^(٣٦). إلا أن الاسم يظهر في خريطة سايكس على أنه «بقايا»؛ كما حدد وزيري (١٨٧٤) موقع البقايا في حي ترك آباد. وسنسى إلى افتراض أن هذا الاسم يشير إلى مبنى خانات قتلغ الذين بنوا الضاحية الشمالية الغربية للمدينة.

كذلك شيدت ابنته مجتمعاً آخر اكتسب شهرة أوسع من مجمع المؤسس. ففي عام ١٢٥٨م/٦٥٦هـ بنت عصمت الدنيا قتلغ ترکان خاتون مدرسة وضريحاً لزوجها السلطان قطب الدين الذي توفي عام ١٢٥٨م/٦٥٦هـ^(٣٧). حكمت عصمت الدنيا كرمان عشرين عاماً بعد موته فشيدت العديد من المباني الأخرى من بينها المسجد الجامع الواقع في المدينة البويهية القديمة بالقرب من البوابة الجديدة^(٣٨).

جذبت المدرسة العديد من العلماء المشهورين^(٣٩) وتم دفن أفراد العائلة الآخرين في غرفة القبة في مدرسة القطبية^(٤٠). ليس واضحاً إن كان هذا المبنى مجاوراً لمبنى

(٣٥) المصدر نفسه، مقابل ص ٢٦٤.

ينقل سايكس معلومات قرئت له من لقبة على نُصِبَ يسمى الممارين ويعطي تاريخ ١٢٤٢/٦٤٠ (١٩٤). وهذا التاريخ هو بدقة داخل الفترة الصحيحة ولكن من غير معرفة ما إذا كان ذلك هو تاريخ مدرستي قتلغ خان. (٣٦) بحسب وزيري (١٤٩)، كان للمدرسة ضريح عالٍ جرى الدفن فيه. «هو الآن في مكانه ويدعى قبة سبزو (القبة الخضراء)». تظهر قبة الضريح في صورة سايكس تشبه القبة المزدوجة على قاعدة عالية، والتي بدأت في منتصف القرن الرابع عشر وهي مشتركة في الفترة التيمورية وما تلاها. هذا النمط من الأضرحة يظهر في فترة مبكرة قبل منتصف القرن التاسع عشر كنموذج دو منار دودشت (موقع منارتي السهل) في أصفهان. ما من مبنى من هذا النوع يوجد اليوم في الموقع المعروف شعبياً بهذا الاسم. يعلّق وزيري أنه بحسب مصدر آخر (ميرزا عبد المؤمن). هو ضريح خوجة عبد الرشيد، معاصر لشاه سليمان ويعود تاريخه إلى منتصف القرن السابع عشر. وربما استبدل هذا لبناء المدرسة الأصلية.

(٣٧) يعطي كرمانى ألقابها؛ في عدة أعمال خيرية حققتها ترکان خاتون، وخصوصاً في مدرسة القطبية والمسجد الجامع عند البوابة الجديدة، انظر

راجع: ملاحظة رقم ٤ على نصب قائم في باستاني باريزي نقلاً عن وزيري، ١٥٥، رقم ٤، ويعطي نص من «جغرافية حافظ آبرو» تاريخ المسجد الجامع في ١٢٦٧/٦٦٦ - ١٢٦٨ (٤٦٧ - ٤٦٨)، ولكن من دون أي أدلة إضافية من حيث موقعه. انظر: كرمانى، المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٣٨) راجع الملاحظة السابقة.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٤٣ - ٤٤.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(بالعودة إلى دفن ترکان خاتون هناك)؛ وبالنسبة لدفن بادشاه خاتون، شقيقتها (ص ٧٧)، حيث أخذت إلى «القبة الخضراء» ودفنت «في الجانب النسائي». هذا التعمين ضروري جداً لأن الأفراد الذكور في الأسرة دفنوا أيضاً في الضريح [محمد شاه، ١٣٠٣/٧٠٣ - ١٣٠٤] (ص ٩٥).

والدها في ترك أباد أو أنه كان يقع في مكان مختلف كلياً. وبحسب سمط العلي، كانت هذه المدرسة تقع في دار شهر، وهو تحديد يصعب تفسيره. بما أن مسجد ترکان كان يقع بالقرب من البوابة الجديدة، ربما كان مجمعه هناك أيضاً.

وبما أن الضواحي نشأت، فقد ظهرت معها طرق جديدة. تظهر خريطة سايكس طريقاً يمتد بالقرب من دروازه (بوابة) غُبر في اتجاه جنوبي غربي. كما يحاذي هذا الطريق ميدان غنج علي خان في الشرق ويمتد جنوباً من الجهة الغربية نزولاً إلى البوابة الجنوبية للمدينة (بوابة ريغ أباد). لا يزال القسم الجنوبي بازاراً ويعرف ببازار محمود ويمتد بشكل متوازٍ إلى الأسوار الشرقية لقلعة محمود التي لم يبق لها أي أثر (ربما هي القلعة الجديدة التي يأتي على ذكرها أفضل الدين). يظهر أن الفرع الشمالي يعود إلى تاريخ إنشاء حي ترك أباد وقد يعود الفرع الجنوبي إلى الحقبة السلجوقية، إذ إنه كان حياً ملكياً. شيد بازار محمود قبل إنشاء علي خان الميدان كما هو مذكور في الوقفية^(٤١). يفترض هذا الطريق المشترك أن التدفق الرئيسي في أواخر القرن الثالث عشر كان تدفقاً شمالياً - جنوبياً عوضاً من التدفق الشرقي - الغربي كما أصبح في المرحلة الصفوية.

زرعت النزاعات حول العرش في كرمان عند نهاية القرن الثالث عشر مجدداً الفوضى في المنطقة. وبالنسبة إلى كرمان، تأتي دائماً صيانة المنشآت التجارية والصناعية في المرتبة الأولى. تم ذكر تنظيم دار سك النقود والسمرة من بين الخطوات المهمة التي أثرت في الانتعاش. وحين وقعت الاعتداءات المستمرة على المدينة من الداخل والخارج، تأذت الأسواق والمحال والأحياء السكنية^(٤٢). كان الدمار كبيراً في تلك الفترة إلى درجة أنه «لم يبق أي غصن على شجرة»^(٤٣). كما حدث المجاعة من قدرة المدينة على المقاومة.

ومن المعقول أنه في هذه الفترة تعرض كل من جامع طوران شاه السلجوقي وضاحيته الملكية للدمار، ورفض الحاكم إعادة بنائهما. عوضاً من ذلك، شيد أمير المظفرين مسجداً جامعاً بعد خمسين عاماً، وبقي هذا الأخير الجامع الرئيسي في المدينة^(٤٤). وربما يفسر هذا الأمر وجود مسجدين جامعين متجاورين وهو سؤال طرحناه في البداية.

(٤١) أنا مدينة في هذه المعلومات لسوزان باباي.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٨٦ - ٨٧.

(٤٤) D. Wilber, *The Architecture of Islamic Iran: The il Khanid Period* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1955), p. 182.

خامساً: المرحلتان المظفرية والتمورية

نتقل الآن إلى بناء هذا الجامع وتأثيره في التطور المدني للمدينة. نحو منتصف القرن الرابع عشر، كان لدى كرمان ثلاثة شرايين تجارية على الأقل، أنشئ أحد هذه الشرايين في مرحلة مبكرة على طول الطريق المؤدي إلى المدينة البويهية من اتجاه زَرَنْد؛ أما الشريان الآخر فيصل حي تَرْك أباد بالضاحية السلجوقية تماماً كما هو الوصف؛ في حين أن الشريان الثالث قد يكون امتد وسط المدينة البويهية رابطاً بوابة زَرَنْد في الغرب بالطريق المؤدي إلى المدافن في الشرق.

يُعتقد أن القسم الشرقي من بازار اليوم يعود إلى تاريخ بناء جامع مظفري؛ غير أننا لا نعرف أنه امتد على طول بازار الحالي. يأتي اختيار الموقع كتأكيد أن المدينة الحالية تمتد الآن خارج الأسوار البويهية وأن هذا المسجد قد شُيّد لكي يؤمّه سكان المدينة والضاحيتين الكبيرتين في الغرب. يعرف القليل عن كرمان في المرحلة التيمورية ولم تظهر أي آثار لها عدا بعض الأشياء الصغيرة وقلعة دُخْتَر.

سادساً: المرحلة الصفوية

جرت بعض أعمال البناء في القرن السادس عشر، ولا سيّما الإضافات على جامع مظفري، إلا أن المقلم العمراني الثاني الأهم سيُشيد خلال حكم الشاه عباس حين عُيّن غنّج علي خان حاكماً لكرمان (١٥٩٦ - ١٦٢٢). أصبح الطريق الذي ينطلق من بازار مظفري العمود الفقري لكرمان الصفوية وتعاظمت أهميته في ميدان غنّج علي خان والمباني العامة المحيطة.

تمت مقارنة هذه المجموعة مع بناء الشاه عباس ميدان الشاه الذي ألهم بلا شك حاكم كرمان^(٤٥). كانت «النسخة» المحلية على مقياس أصغر كثيراً، وكانت تهدف إلى

استناداً إلى الحفريات تاريخ المدخل والردهة عند ٧٥٠ / ١٣٥٠ ولكن معظم العمل هو من باب الترميم. انظر:

L. Golombek, «The Safavid Ceramic Industry at Kirman,» *Iran*, no. 41 (2003), pp. 263-266.

The mihrab and qiblah wall contain work dating from this period and the sixteenth century, and the façade on court was revetted with blue-and-white underglaze tiles and cureda seca in the mid-Seventeenth century.

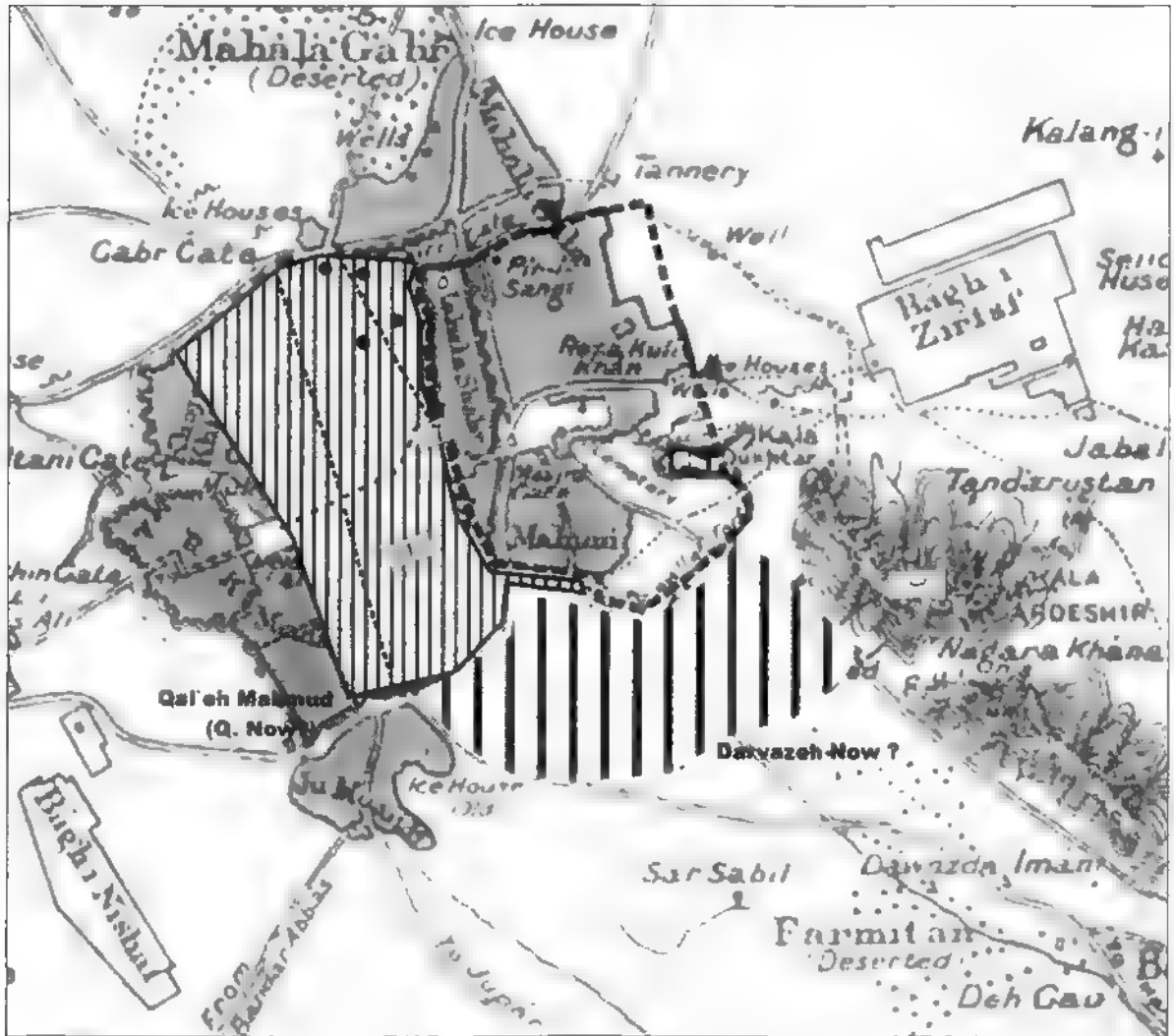
R. Hillenbrand, «Safavid Architecture,» in: p. Jackson, ed., *The Cambridge History of Iran: (٤٥)*

The Tumuid and safavid Periods, vol. 6 (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1986), chap.15 (b), p. 793, («...» Maidan-i Shah in miniature?).

منذ فترة قصيرة كانت موضوعاً لمحاضرة في جامعة هارفرد لسوزان باباي، التي كان لها دراسة معمقة في هذا السياق.

دفع التجارة قدماً إلى الأمام. وبحسب المؤرخ الصفوي ماشيزي، «خلال حكم غنج علي خان، عرفت المدينة ازدهاراً عظيم الشأن. فقدم الناس المعنيون بأمر التجارة والخدمات التجارية إلى كرمان. ويوماً بعد يوم كانت تتعزز درجة هذا الازدهار»^(٤٦).

الرسم الرقم (١٩ - ١٤)
خريطة كرمان تحت حكم المظفرين والتموريين



٥ - ضريح الشيخ داوود؛ ٦ - جامع مظفري.
المصدر: المصدر نفسه.

وبالرغم من حجمه، شيد هذا المجمع على مستوى فني عالٍ مقارنة بالعمل المنجز في أصفهان. تتطابق الحدود الجنوبية للميدان مع أروقة البازار الشمالية. ففي

(٤٦) محمد سعيد ماشيزي، تذكرة صفوية في كرمان، تحرير محمد إبراهيم باستاني باريزي (طهران: [د. ن.]، ١٣٤٩/١٩٧٠ - ١٩٧١م)، ص ٢٧٦.

الشرق، تقع واجهة نزل رائع يحتوي على حجر كريم لمصلى ملكي في زاوية المدخل. بينما كان يقع في شمال الميدان دار سك النقود (أعيد ترميمها اليوم على أنها متحف المسكوكات القديمة)، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية وجدت معالم صرح تشهار سو. أما جنوب البازار، فكان هنالك حمام منزل رائع (أعيد ترميمه كمتحف).

سبق أن أشرنا إلى أن الطرق الممتدة من الشمال والجنوب كانت موصولة بالميدان. ويؤدي الطريق من الجامع إلى المركز التجاري الجديد. إضافة إلى هذا المبنى، حث غنج علي خان على بناء الأحياء القديمة ولا سيما تلك الموجودة بالقرب من هذا المركز. ويصف ماشيزي بعض المناطق التي شهدت تطوراً. منطقة واحدة فقط من هذه المناطق من السهل معرفتها الآن: فقد رغب أغلبية السكان جنوب جامع مظفري ببناء منازل بالقرب من مزار الملك السلجوقي طوران شاه المعروف بالملك العادل. ومنذ أن أصبح هذا الحي جميلاً، بدأ يعرف بـ «حصن أباد»، وهو حي مزدهر جداً اليوم^(٤٧).

انتقل الناس الذين لا يزالون يقيمون في أحياء المدينة القديمة بين قلعة دُختر وجامع مظفري إلى الضواحي السلجوقية القديمة ورمموها. وقد انجذبوا إليها لقربها من محل إقامة الحاكم. ويمكن تأكيد سيطرة الصفويين على هذا الحي من خلال العثور على مئات اللقى التي تعود إلى بداية القرن السابع عشر (انظر الرسم الرقم ١٩ - ١٥)^(٤٨)، وكانت أغليبتها مزججة وملونة بالكوبالت وبعضها كان أحادي اللون ذا تزيين بسيط. وما من قطع تعود إلى النصف الثاني من القرن أتت من هذه المنطقة بالرغم من أنه في أماكن أخرى من المدينة تم استعادة العديد من السلع باستثناء الأواني الخزفية المطلية بطلاء لَمَاع^(٤٩).

أما ما دل على وجود صناعة فخار في هذه المنطقة فهو حفرة طين وجدت بين القطع، وهي ربما كانت فرنًا. يؤكد توزيع الآثار الصفوية التي جمعت من أنحاء المدينة كافة أن المدينة الصفوية شملت منطقة القاجار كافة المصورة في خريطة سايكس وربما أكثر من ذلك. لم تتم دراسة المناطق الواقعة ما وراء أسوار القاجار. ويمكن أن تكون

(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) L. Golombek, «The Safavid Ceramic Industry at Kirman,» *Iran*, no. 41 (2003), pp. 253-270, and R. B. Mason, «Petrography of Pottery from Kirman,» *Iran*, no. 41 (2003), pp. 271-278.

(٤٩) جاءت من مشهد لقي صفوية. انظر: R. B. Mason and L. Golombek, «The Petrography of Salvid: انظر: Ceramics,» *Journal of Archaeological Science*, vol. 30, no. 2 (February 2003), pp. 251-261.

المدينة الصفوية قد امتدت إلى ما وراء الأسوار وذلك بسبب وجود مخزن ثلج شمال قلعة دُختر.

الرسم الرقم (١٩ - ١٥)

قطع فسيفساء مجمعة من كرمان،

مطلية بالكروم الأسود والكويالت، من القرن السابع عشر



لنعد إلى المشكلتين اللتين طرحناهما سابقاً والمرتبطتين باستقامة البازار ووجود جامعين متجاورين. يبدو أن التفسير يكمن في سياق الأحداث لا في أي نموذج افتراضي لمدينة إسلامية. فكما ربط شاه عباس الضفتين الشمالية والجنوبية للنهر الذي يعبر أصفهان، استخدم علي خان البازار كذلك لدمج الضاحيتين في الشمال والجنوب. والفارق هو أنه في أصفهان جرى دمج المدينة القديمة بالمدينة الجديدة. ومع انتقال

لا يذكر إلى الجنوب، بقي مقر الحكومة في المكان نفسه. أما في كرمان فقد تم بناء سور جديد لإحاطة الأقسام المرممة في المدينة، إلا أن هذا العمل عزل مدينة القرن العاشر الأصلية. كما توارت القلعة على التل عن الأنظار ولم تعد تؤدي أي دور ناشط مرة ثانية.

قد يفسر لوح حجري يحتوي على كتابات ومحفوظ في الجامع ما حصل. تقول الكتابة إن جامع مظفري الذي كان خارج مدينة كرمان والذي أعيد ترميمه، يقع الآن وسط مدينة مأهولة^(٥٠). لم يتم تأريخ هذه الكتابة إلا أنها تعود إلى المرحلة القاجارية حين أضيف حائط جديد إلى الجامع. وهكذا أصبحت المدينة في المرحلة القاجارية ضاحية، في حين تحولت الضواحي السابقة، المحاطة الآن بسور، إلى مدينة. زين القاجاريون كرمان بعدد من المباني الجديدة واصطفت المدارس الكبيرة والجوامع والنُزل والحمامات على طول البازار الكبير. كما وسعوا البازار أكثر لناحية الغرب ليتصل بميدان أرك وقلعته وجعلوا البازار مستقيماً في الشرق. ولعل البازار كان في يوم من الأيام متصلاً مباشرة بجامع مظفري ولم يكن مستقيماً هكذا.

وبعد، ربما تكون فكرة هذا البحث هي أن هذه النماذج مفيدة لفهم التطور المدني في العالم الإسلامي، إلا أنها لا تكفي وحدها لشرح مجرى التطور في حالات فردية محددة. فمجموعة الظروف التاريخية الخاصة بمدينة ما هي التي تفسر دينامية نموها وتطورها.

(٥٠) موجودة في: مرآة البلدان، ج ٤، ص ١١٨، وفي: ماشيزي، تذكرة صفوية في كرمان، ص ١٩٣، رقم ٣ من صفحة سابقة، ولكن بجزء، مسجلة في مشروع كرمان سنة ٢٠٠١.

الفصل العشرون

إسطنبول ١٦٢٠ - ١٧٥٠

التغيير والتقاليد

موريس سيرا سي (*)

يعالج هذا الفصل التغير في العمارة الثقافية المدنية، قبل أن يصبح اعتماد النماذج الغربية أمراً واضحاً وسائداً. يمكننا، ربما، تحديد تلك الفترة أيضاً بأنها تلك التي تلت بناء مسجد السلطان أحمد، والتي اعتُصرت فيها قطرات الثقافة العثمانية الكلاسيكية والذهنية المدنية الأخيرة المنبثقة من روح وأساليب الفترة التي حكم فيها سليمان القانوني وابنه، أي الفترة التي عمل فيها مهندسهما المعماري يسنان، والتي انتهت قبل تخطيط النورعثمانية ذات الطراز المعماري الباروكي، والتي تضمنت إنجازات أواسط القرن السابع عشر العمرانية وقد وصفها المؤرخ نعيمة، والكاتب أوليا (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ١)). وكان ذلك قبل أن يعمد المعماريون أمثال محمد طاهر ويسميون كلفاء، إلى إحداث تحول جديد وشامل في تصميم الواجهات والأحجام والحيز العمراني، بالرغم من استمرارهم في اتباع التقليد الرمزي العثماني. كانت الطريقة الكلاسيكية لا تزال متبعة في الفترة التي أقوم بدراستها وكان التغيير دقيقاً، ممهداً بالتدريج لمرحلة إسطنبول الباروكية والروكوكية التي بدأت في النصف الأول من القرن الثامن عشر^(١) (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ٢)).

(٥) أستاذة في جامعة جنوى، كلية الهندسة، قسم التصميم المعماري - إيطاليا.

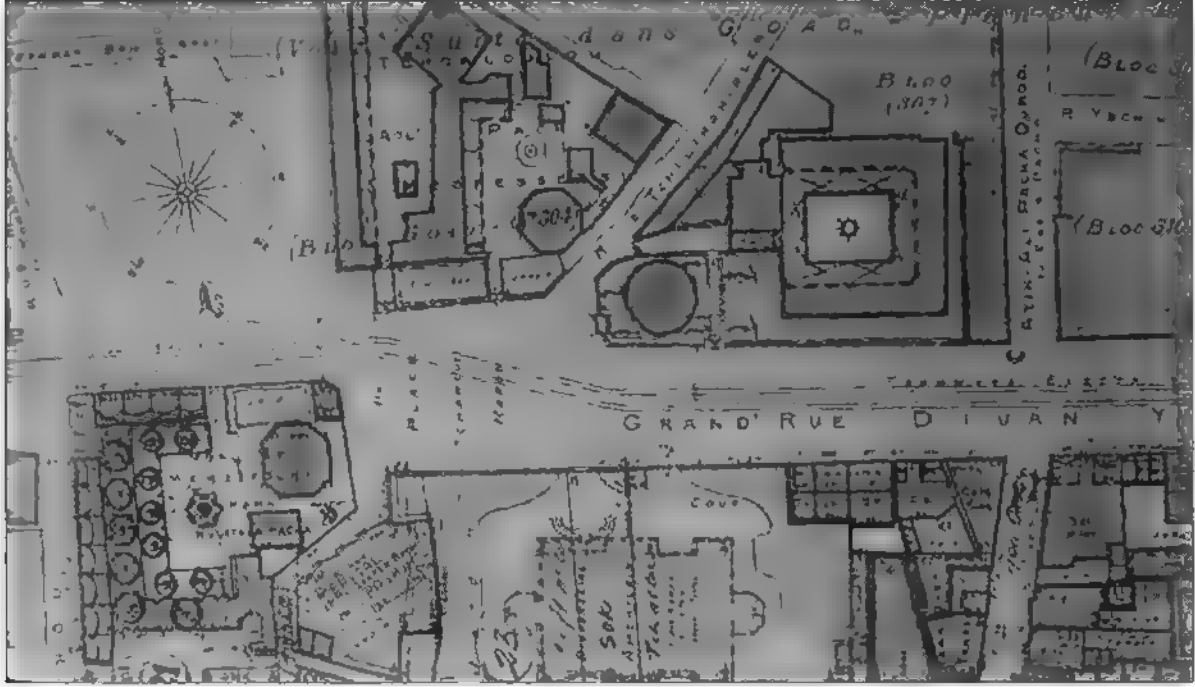
(١) أكثرُ من الرجوع إلى المصادر التالية: *Hicri Onüçüncü asırda İstanbul*: Ahmet Refik Altınay;

Hayatı (İstanbul: [n. pb.], 1930); *Hicri Onüçüncü asırda İstanbul Hayatı* (İstanbul: [n. pb.], 1932);

الرسم الرقم (٢٠ - ١)

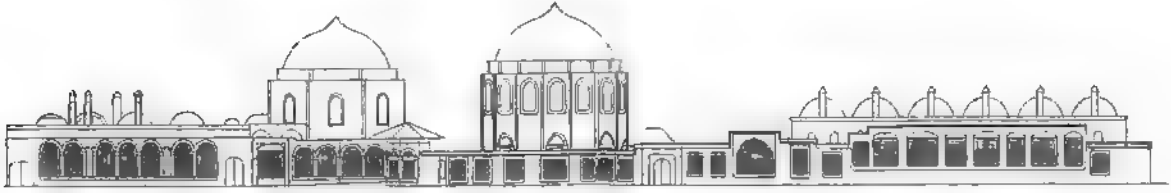
قره مصطفى، جورلولو، مجموعة سنان للمدارس والعزبات (قوناق)

على محور ديوان يولو، في خريطة برنيتش للعام ١٩٢٠



Oktay Aslanapa, *Osmanli Devri Mimarisi* (Istanbul: Inkilap Kitabevi, 1986); Dunden Bugune, *Istanbul ansiklopedisi* (Istanbul: T. C. Kultur Bakanligi ve Tarih Vaki, 1993); Eminonu Camileri, *Istanbul: Turkiye Diyanet Vakfi Eminonu Subesi* (Istanbul: [n. pb.], 1987); Evliya Celebi, *Narrative of Travels in Europe, Asia, and Africa, in the Seventeenth Century*, translated from the Turkish by the Ritter Joseph Von Hammer (London: Parbury, Allen and Co., 1834-1850); *Fatih Camileri ve diger tartihi eseler* (Istanbul: Diyanet Isleri Baskanligi Fatih Muftulugu, 1991); Howard Crane, ed., *The Garden of the Mosques: Hafiz Huseyin al-Ayvanasarayi's Guide to the Muslim Monuments of Ottoman Istanbul* (Leiden: Brill 2000); Godfrey Goodwin, *A History of Ottoman Architecture* (London: Thames and Hudson, 1971); Cornelius Gurlitt, *Der Baukunst von Konstantinopel* (Berlin: Wasmuth, 1912); Joseph Freiherr von Hammer-Purgstall, *Constantinopolis und der Bosphoros*, Ortlich und geschichtlich beschrieben von Jos. Von Hammer; mit...dem Plane der Stadt Constantinopel und einer Karte des Bosphoros (Pesth: Hartleben's Verlag, 1822); Halil Inalcik, art., «Istanbul,» in: *Encyclopedie de l'Islam* (Leiden: Brill, 1978); Dogan Kuban, *Istanbul, An Urban History: Byzantion, Constantinopolis* (Istanbul: Economic and Social History Foundation of Turkey, 1996); Robert Mantran, *Istanbul dans la seconde moitie du XVII^{eme} siecle* (Paris: Adr Maisonneuve, 1962); Wolfgang Muller-Wiener, *Bildlexikon zur Topographie Istanbul* (Tubingen: Wasmuth, 1977); Mustafa Naima, *Annals of the Turkish Empire from 1591 to 1659 of the Christian Era* (London: Oriental Translation Fund, 1832); Zeynep Nayir, *Osmanli Mimarliginda Sultan Ahmet ve Sonrasi* (Istanbul: ITU Mimarlik Fakulesi Baski Atolyesi, 1975); Gölru Necipoglu, *Architecture, Ceremonial, and Power: The Topkapi Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries* (Cambridge, MA; London: The MIT Press, 1991); Inci Nurcan, «18 Yuzyilda Istanbul Camilerine Bati Etkisiyle Gelen Yenilikler,» *Vakiflar Dergisi*, no. 19 (1985), pp. 223-236; Mehmet Zeki Pakalin, *Osmanli Tarih Deyimleri Sozlugu* (Istanbul: M.E.B., 1946); Mouradja d'Ohsson, «Tableau General de l'empire othman, divise en deux parties, don't l'une comprend la legislation Mahometane,» *l'Autre, l'Histoire de l'Empire Othoman* (Paris), vol. 1 (1790), vol. 3 (1820), and Tahsin Öz, *Istanbul Camileri* (Ankara: [n. pb.], 1962).

مقطع من مشهد الشارع في جورلولو وكوكا
من مجموعة مدارس سينان على محور ديوان يولو



هل كانت هذه فترة انتقالية؟ لم تشهد إسطنبول، على غرار المدن الكبرى كافة في العالم، فترات انتقالية معينة ومحدودة. ففي النهاية، كانت إسطنبول خلال مسيرة تطورها قصة تحوّل مستمرّ، سادت فيه أحياناً فترات من التردد لم يكن من السهل معه تصوّر العصور المقبلة التي ستلي؛ لكن مع الركود الذي ربما كان يصيب بعض القطاعات، كانت قطاعات أخرى تنهياً لحدوث تغيير يبدأ بسيطاً لكن سرعان ما يصبح جذرياً بعد عقود قليلة. كان للتغيرات والتطورات التي حدثت في الفترة الواقعة بين عامي ١٦٢٠ و١٧٥٠ تأثير ضئيل جداً في إسطنبول مقارنة بالقاعدة العثمانية القوية جداً التي ترسّخت قبل قرن ونصف القرن، لكن من المتعذّر فهم إسطنبول الباروكية من دون الحديث عن التحول التدريجي الذي سبقها (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ٣)).

أولاً: نشوء المدينة العثمانية

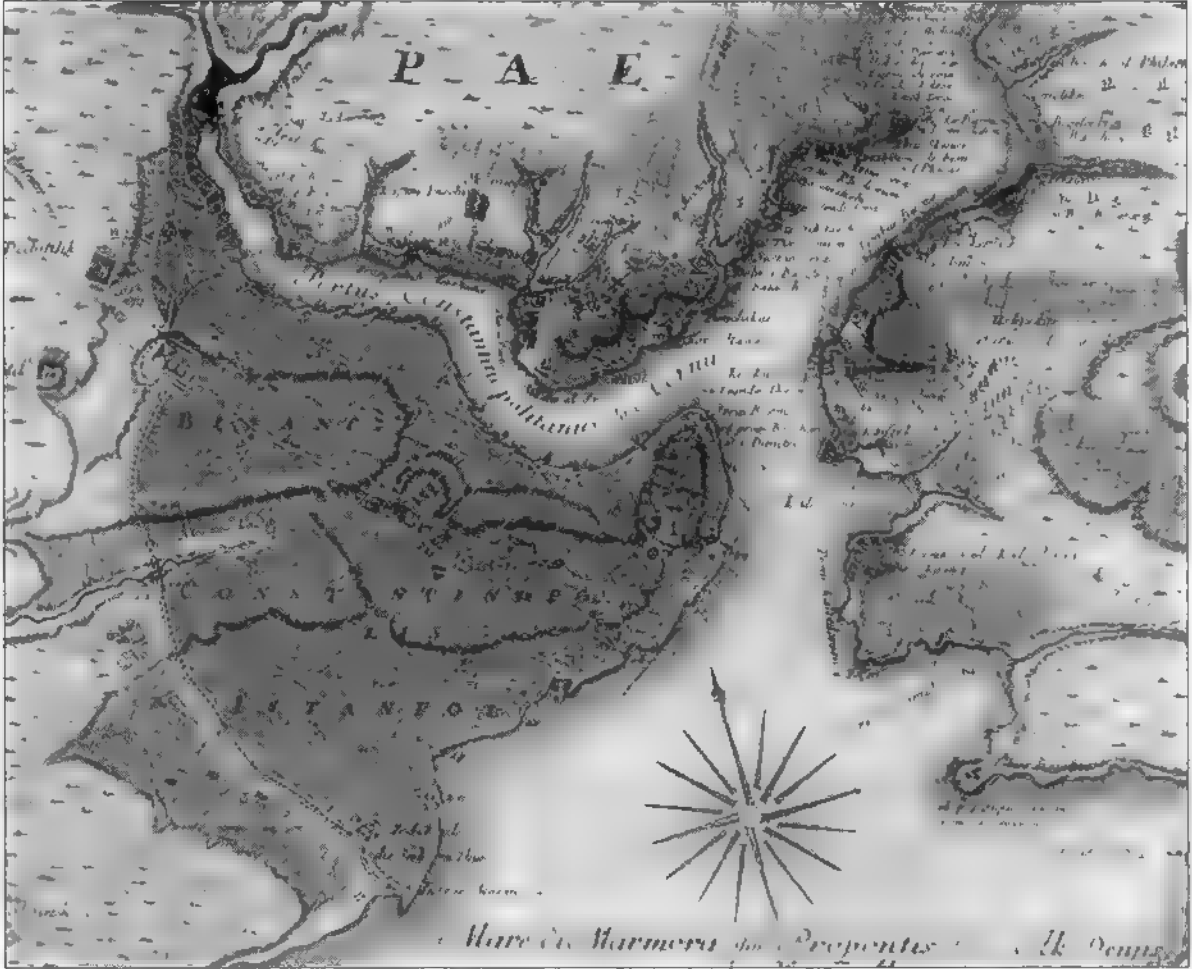
كان تدهور مدينة القسطنطينية البيزنطية عملية طويلة امتدت سحابة قرنين^(٢)؛ فقد انخفض عدد سكانها الذي كان ضخماً ليصل إلى خمسين أو ستين ألفاً. كما أن مساحتها الشاسعة التي تحيط بها الأسوار كانت تحتوي على ما بدا أنه سلسلة من قرى ريفية وشبه ريفية تتخللها الأديرة والكنائس والقصور التي آل الكثير منها إلى خراب. وفي منطقة القرن الذهبي كانت غَلَطَة (الإيطالية) أقرب ما تكون إلى مدينة منعزلة.

بعد أن فتح محمد الثاني مدينة القسطنطينية الهرمة والقليلة السكان عام ١٤٥٣، احتاج إلى مدة عقدين تقريباً لكي يقرر ما إذا كان سيجعل منها عاصمة عالمية متألّفة وكيفية تحقيق ذلك. وتبع ذلك عقدان آخران من عمليات البناء المحمومة التي سهر عليها خلفاؤه الذين أورثوا سليمان القانوني مدينة عثمانية - إسلامية بالكامل في شكلها

(٢) من الغزو الصليبي عام ١٢٦٠ إلى الفتح العثماني عام ١٤٥٣ تقريباً.

وثقافتها، إن لم يكن في سكانها. وبعد سنين قليلة، نقل السلطان بلاطه من أدرنة (أدرانوبل) على بعد ٢٥٠ كلم إلى الشمال الغربي.

الرسم الرقم (٢٠ - ٣)
إسطنبول في خريطة تعود إلى العام ١٧٦٤



المصدر: خريطة رين - هومان.

وفي ربع القرن التالي، وضع السلطان الأساس العثماني والإسلامي للمدينة، فنقل السكان، مسلمين ومسيحيين، من القرى الأخرى التابعة لسلطانه، معزراً منطقة السوق المركزية (تشارسي) بمبنى تجاري (بادستان) ومحال جديدة، وبنى قصراً كبيراً جداً داخل الأسوار في موقع سوق الثور (ليهجره بعد ذلك وينتقل إلى قصر توبكابي الجديد عند رأس ناتئ في البحر كان يعرف بالمتدى الروماني المتأخر). وأثناء إعادة إعمار المدينة، تم إسكان العشرات، وأحياناً المئات، من العائلات ضمن مجموعات متجانسة في محيط مبنى ديني أو مسجد أو كنيسة أو كنيس، عملية مخطط لها إلى حد ما. كان يطلق على الوحدة اسم المحلة، وهي وحدة إدارية، لكنها كانت أيضاً هوية عمرانية

ورمزية ومكانة اجتماعية. وقد فرض على كبار باشواته وأفراد حاشيته التبرع بنحو ١٨٤ جامعاً ومسجداً، و٢٤ مدرسة تعلّم الدين والعلوم و٣٢ حماماً تركياً و١٠ مبان تجارية وخانات (مبنى تجاري كبير يضم غرفاً صغيرة ورواقاً معمداً).

أما مساهمته الرئيسية في إعمار المدينة فكانت إنشاء عمارة الفاتح عام ١٤٧٠، وهي مجمع كبير ضم مسجداً ومدارس وغيرها من المؤسسات الاجتماعية. ويحكم موقعه شمال غرب المركز القديم، فقد أصبح المركز النواة الإسلامية للمدينة، سواء بالنسبة إلى سكان الأحياء المجاورة أم بالنسبة إلى التطور المعماري والعمراني المتنوع للمنطقة برمتها (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ٤)). أما الخطوة المهمة التي قام بها الفاتح فتمثلت بإنشاء موقع أيوب المقدس - مع صرح عمراني شيد عام ١٤٥٩ ومسجد عام ١٤٦٢ - ١٤٧٠ - على بعد كلم واحد خارج أسوار المدينة على امتداد القرن الذهبي، والذي ستنبثق منه الأحياء الخارجية الأكثر أهمية في إسطنبول^(٣).

الرسم الرقم (٢٠ - ٤)

منظر إسطنبول المركزية (قلب إسطنبول) نحو عام ١٥٦٠



المصدر: من رسم ملشيور لوريش.

(٣) من المفترض أن يكون الموقع هو المكان الذي دُفن فيه الصحابي أبو أيوب الأنصاري، الذي توفي أثناء الحصار الإسلامي الأول للقسطنطينية عام ٦٧٢.

ومنذ تأسيس عمارة الفاتح وحتى أواخر القرن الثامن عشر، استندت كل المرافق في إسطنبول إلى مبدأ تشترك فيه جميع المدن الإسلامية، ألا وهو مؤسسة الوقف. استمدّت مدينة إسطنبول هويتها وشكلها لعدة قرون، من المثلث: عمارة - محلة - ضريح (العمارة يتبرّع بها قائد، والمحلة تقطنها مجموعات متجانسة، والضريح تصديق رسمي رمزي على تملك أرض ومكان من خلال دفن بطل أو قائد). وبمرور الأيام، تغيّرت أحجام مكونات هذا الثالوث وتأثيراتها الشكلية والنفسية وأعطت لوناً لكل فترة وكل جزء من المدينة، لكن جوهر عمليات بناء المدن العقلية والأيدولوجية لم يتغير. وعلى غرار كل المدن الإسلاميّة كان مصطلح «عام» يستخدم بطريقة مضلّلة في إسطنبول العثمانيّة. وهكذا فإنّ المنشآت التي تحتاج إلى مبانٍ معينة ذات طبيعة دينية - مثل الجوامع والمساجد والمدارس، وكذلك مدارس الأطفال (صبيان مكتبي) والمكتبات والمطابخ المخصصة للفقراء والمستشفيات، وهي جميعاً لها أوقاف للعقيدة الإسلامية ذات ارتباط مباشر بالدين - كان يتبرّع بها غالباً أفراد من المجتمع، وكان بعضها يُموّل من موارد السلطان (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ٥)).

الرسم الرقم (٢٠ - ٥)

منظر لقره مصطفى، جورلولو، واحدة من مجموعة سنان للمدارس على محور ديوان يولو التي بنيت بين نهاية القرن السادس عشر والعقد الأول من القرن الثامن عشر



وغالباً ما كان قانون المؤسسة يوفر الدخل للمنشآت الخيريّة من ممتلكاتها في الريف كما في المدن. وتتضمن هذه الأخيرة الخانات والحمامات والدكاكين التي تعمل

بدورها على إثراء المدينة. وكان للأقليات المسيحية واليهودية بدورها خدمات خاصة بها أيضاً. حتى إن الخدمات الأساسية، مثل بناء نوافير الماء العامة وإقامة الجسور، كانت تقدّم إما مجاناً وإما مقابل أجر معيّن. كما أن المياه، المصدر الحيوي للحياة المدنية، جُرّت إلى المدينة بفضل التبرعات السخية التي قدّمها الباشوات والسلاطين^(٤).

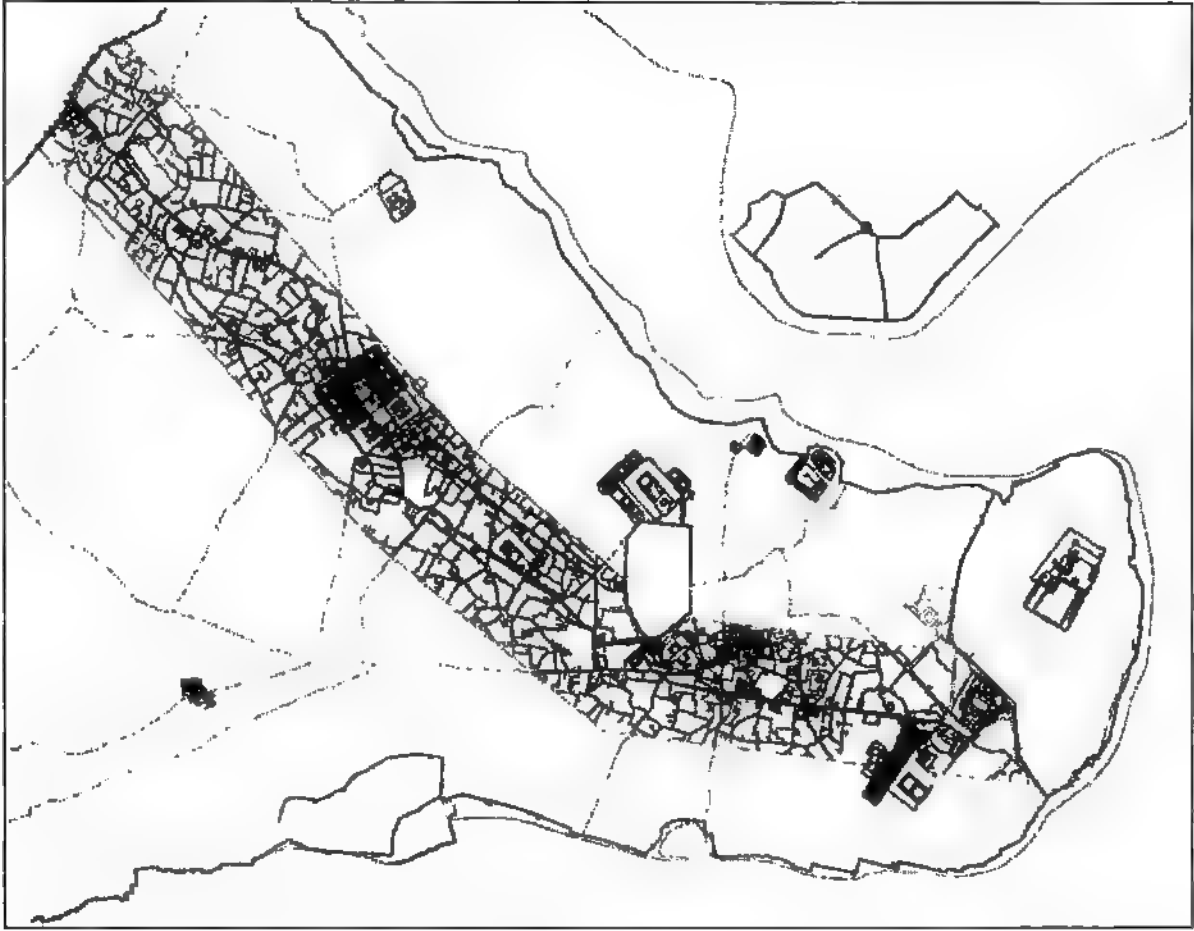
وكانت القنوات الاصطناعية تلبي حاجة المجمّعات الكبيرة إلى المياه وتوفّر الماء للنوافير العامة في الأحياء المختلفة أثناء مرورها في المدينة. حملت هذه القنوات اسم الوقف وبالتالي اسم المتبرّع الأساسي. لذلك، كانت نظم جرّ المياه المعقدة هذه تسمى فاتح سويولاري، وكوبرولو سويولاري، وهكذا دواليك (انظر الرسمين الرقم (٢٠ - ٦) والرقم (٢٠ - ٧)). تضمن العديد من الإقطاعات الكبيرة الممنوحة وظائف متنوعة في مبانٍ مختلفة تشكّل مجمّعا (أو «كلية» كما تسمى في العصور المتقدمة)، يقع أحيانا وليس دائماً ضمن كيان معماري مع ساحات وجدران تحيط به. بالطبع، لم يكن هذا النظام، كونه يعتمد على السخاء الفردي، يوفر الخدمات العامة كافة التي يحتاج إليها مجتمع عمراني في فترة ما بعد القرون الوسطى. على سبيل المثال، وفّرت المستشفيات التي بُنيت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لإسطنبول القرن السابع عشر وسكّانها البالغ عددهم نصف مليون نسمة ما لا يزيد على مئتي غرفة، وكانت مثالا على التميّز في النوعية لا الكمية، مقارنة بالمدن الغربية التي كان فيها آنذاك مستشفيات كبيرة جداً ذات مساحات واسعة وغير مريحة مخصصة لاستقبال آلاف من المرضى.

في السنين التي تلت عهد الفاتح، ركّز بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) جهوده العمرانية الأولى على عمارته الإقليمية في أدرنة وأماسيا، ولم يأمر ببناء مسجد بايزيد والمجمّع القريب من سوق الإقليم إلّا في السنوات الأخيرة من حكمه كسلطان. أما سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) فقد كان كثير الانشغال في حملاته العسكرية، والمسجد الذي سُمّي باسمه إنما بناه في الواقع ابنه سليمان الأول (القانوني) عام ١٥٢٢.

استعمل سليمان وخليفته، سليم الثاني ومراد الثالث، المعماري سنان وتلامذته في إثراء البنية الأساسية والمتينة التي بناها الفاتح، فأضفوا عليها هالة من الفخامة من خلال التناسق المعماري والتماسك الديمغرافي في إطار سياسة للهجرة والترحيل. توزّعت الأبنية التي شيدها على إسطنبول وضواحيها الرئيسية - أيوب وعُظّة وأسكودار وعلى الأقاليم المجاورة، واشتملت على القصور والمجمّعات الدينية والجسور وقنوات

(٤) تشير عبارة «السلطان» متبوعة بالاسم (مثل السلطان إبراهيم) إلى الحاكم. كما تشير عبارة السلطان المسبوقة بالاسم (مثل قوسيم سلطان) إلى السلطنة والدّة السلطان، ويخلاف ذلك، يكون المقصود والدّة السلطان.

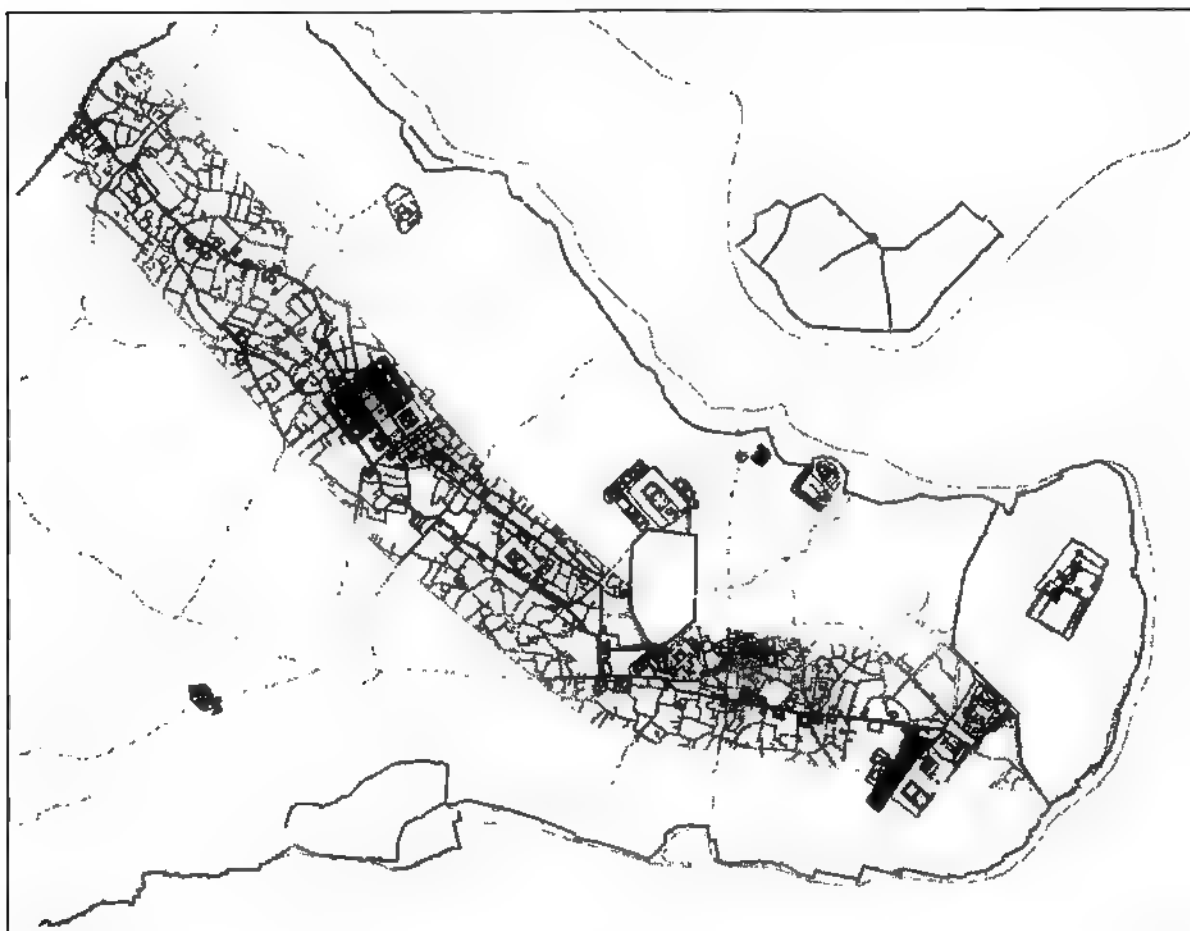
الرسم الرقم (٢٠ - ٦)
بناء محور معالم ديوان يولو؛ جرى بناء المعالم بين ١٦١٠ و ١٦٩٠



المياه. لم يبق من هذه القصور شيء تقريباً بعد أن تشوهت معظم معالمها. ومع ذلك، فإن الصورة الظلية المعروفة لإسطنبول ولما هو أكثر من مجرد مخططات لتوسعتها، ترقى إلى الفترة ما بين ١٥٤٠ و ١٥٨٠. ومعظم المعالم التي شُيّدت في تلك الفترة ثَبَّتَت السمات الرمزية واللغوية للحيز المركزي المقبب للمسجد النموذجي في إسطنبول، ولتركيبته المثلثية الرمزية المؤطرة بمثلثة أو مثلثتين، ولأنواع المباني المميزة والأضرحة الملحقة بها. كما أنها حَسَّنت من طريقة عمل الرعاية المعمارية، وهو ما عزَّز من دور والده السلطان (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ٨)).

ومن المزايا غير المألوفة لعهد سليمان الأول (ت ١٥٦٦) تشييد مساجد السلطان بعيداً من المحاور الرئيسية وعلى التلال المشرفة على القرن الذهبي، كما لو كان ذلك محاولة لتجنب أي اتصال مباشر بالنسيج التجاري والاجتماعي للمدينة. ويشعر المرء بأنهم سعوا إلى إنشاء أماكن مركزية جديدة، في حين كانت المجمعات أيام الفاتح وبيازيد تقع على المحاور الرئيسية وتؤثر بشكل مباشر في التطور العمراني المركزي.

الرسم الرقم (٢٠-٧)
بناء معالم المحور نفسه، بين عامي ١٦٩٠ و ١٧٥٠



الرسم الرقم (٢٠-٨)
إعادة بناء جزء من المعالم وشبكة الشوارع في إسطنبول المركزية



من خرائط ما قبل العام ١٨٥٠.

لم يقدّم خلفاء سليمان الكثير إلى المدينة. فقد بنى سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٤) مسجده، تحفة سنان الأخيرة، في أدرنة، وتبرّع مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) بمراديتيه لمدينة مانيسا، التي كانت أحد مقرّي أولياء العهد في الأناضول. وعلى النقيض من ذلك، أنفق أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) الأموال (والنفوذ السياسي) في سبيل إضافة تحفة ملكية إلى الرأس البحري لإسطنبول: المسجد الأزرق الذي اكتمل بناؤه عام ١٦١٧^(٥). بني هذا المسجد بعيداً من المراكز التجارية وكان تأثيره في التطور المدني مشهدياً أكثر منه وظيفياً. لكن كانت عناصره الإضافية، المدفن (الضريح) وأراستا (شارع تجاري مقبّب) والمدارس... إلخ، أقل اندماجاً من المجمّعات السلطانية السابقة وأظهرت نوعاً من التشتت ونقصاً في التناسق، وهو ما يعكس التعقيدات المتزايدة للمدينة.

ثانياً: أزمة أم تغيير؟

من وجهة نظر التاريخ المحافظ الذي يجزئ مسار الأحداث إلى حروب وتوسّع اقتصادي ومعاهدات دولية وتآمر على السلطة ولوائح بالأسماء العظيمة، يمكن أن يطلق على القرنين السابع عشر والثامن عشر من التاريخ العثماني فترة الأزمات بالتأكيد. فقد كانت فترة طويلة من الحروب المشؤومة وتقلّص الحدود ونقص الأموال، والثورات في الأناضول ومكائد البلاط. وغرقت العقلية المحافظة وذات التوجّه العسكري للطبقة العثمانية الحاكمة في التحسّر على مضي العصر الذهبي، حيث كانت ترى في نكساتها السياسية والتنظيمية سقوطاً للحضارة. لكن لا يزال يتعين إثبات أن الأزمات السياسية، والحماقات العسكرية، وتقييد التمويل العام، تؤدي إلى فقر فني وثقافي فوري. فذلك لم يكن حال إسطنبول، ولا جنوى والبندقية التي عاشت أزهى أيامها عندما كانت في حالة تدهور سياسي ومالي.

صحيح أن الأعمال العمرانية الكبرى التي قام بها السلاطين الكبار كانت نادرة، لكن التبرعات المتواضعة والمتوسطة التي قدّمها الباشوات وسيدات البلاط، كما سنرى لاحقاً، غيّرت مظهر الشارع والعديد من مظاهر الحياة الريفية. فقد انتشرت المدارس

Nayir, Osmanli and Zeynep Ahunbay, arts., «Sultan Ahmed Kulliyesi» in: *Dünden bugüne* (٥) *Istanbul ansiklopedisi* (Istanbul: Kultur Bakanligive, 1993), pp. VII and 55-61; Howard Crane, *Risale-i Mi'mariyye: An Early seventeenth century Ottoman Treatise on Architecture* (Leiden; New York: Brill, 1987), and Aslanapa, *Osmanli Devri Mimarisi*, pp. 325-334.

ومدارس الأطفال، وأنشئت معظم مكاتب إسطنبول في تلك الفترة^(٦). وتم إصلاح نظم توزيع المياه، وبُنيت الخزانات، وتضاعف عدد العيون العامة، ونما عدد السكان. وزادت أسواق المدن من أهمية المدن وحجمها، وأصبحت الخانات المبنية من الأحجار معلماً رئيسياً من معالم إسطنبول. وشكل ارتفاع الأسعار ونقص المواد مصدر قلق دائم للتجار والحرفيين والسلطات، ومع ذلك ازدهرت التجارة. صحيح أن القصور العظيمة لنبل القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت تتداعى أو أصبحت أقل عدداً، لكن المنازل الخشبية الأنيقة والبهية التي شُيدت في مواقع جميلة على شاطئ البحر يالي كانت تزداد عدداً على الدوام. وشاركت مجموعات كبيرة من الأشخاص في حياة مترفة ولا مبالية (تقريباً). لم يكن هناك بؤس أو فقر مدقع في حياة المدينة، وإنما كانت حياة الأناس العاديين متواضعة ومتقشفة، ولكنها لم تخل من النعمة.

تلا وفاة أحمد الأول عقد من الاضطرابات. لم يخلف مصطفى الأول (١٦١٧ - ١٦١٨ و ١٦٢٢ - ١٦٢٣) ولا عثمان الثاني (١٦١٨ - ١٦٢٢) أثراً في المدينة، باستثناء ردم جانب من البحر والشاطئ سوف يستمر منذ ذلك الوقت بمتنزعات دولما بهشة (ملينة بالحدائق) عند الطرف الجنوبي الغربي لمضيق البوسفور. تمتع مراد الرابع بفترة حكم طويلة (١٦٢٣ - ١٦٤٠)، لكنه كان مشغولاً بالفتوحات. وكانت المباني المهمة الوحيدة التي بناها ريوآن عام ١٦٣٥ وأكشاك بغداد عام ١٦٣٨ ضمن أراضي قصر تويكابي للاحتفال بانتصاراته على الجبهات الشرقية. وفي عهده، رعت أمه (قوسيم سلطان - زوجة أحمد الأول والدة إبراهيم أيضاً وجدة محمد الرابع) بناء جامع جينيلي في أسكودار، وبنى الوزير بيرم باشا مدرسته بالقرب من خاسكي.

يقال عن إبراهيم (١٦٤١ - ١٦٤٨) بوجه عام إنه كان مضطرباً عاطفياً. فقد كان محباً للنبيذ والنساء والولائم بصورة خرافية. وفي عهده، بلغت مكائد البلاط ذروتها. والمبنى الوحيد الذي شيده كان كُشك السَّبْت عام ١٦٤٣ على الشاطئ شمال غرب الرأس البحري تويكابي المواجه للبوسفور. وفي الفترة ذاتها، بنى كمانكش مصطفى باشا مدرسته في ديوان يولو عام ١٦٤١.

ومن عوامل التاريخ العمراني التي تستحق الذكر في النصف الثاني من القرن السابع عشر تفضيل الكثير من السلاطين أدنة. لاحظ سكان إسطنبول هذا الأمر

(٦) انظر: Behçet Ünsal, «Türk Vakfı İstanbul Kutuphanelerinin Mimari Yöntemi», *Vakıflar Dergisi*, no. 18 (1984), pp. 95-124.

وشعروا بالاستياء من الغياب المستمر للسلطين عن المدينة. فالسلطان محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧)، الملقب بـ «الصياد» بسبب ولعه بالصيد والحملات، كان يكره المدينة ولا يثق بأهلها. كما أن أحمد الثاني (١٦٩١ - ١٦٩٥) لزم مقره في أدرنة ولم يزر إسطنبول قط. والشيء ذاته يمكن أن يقال عن مصطفى الثاني (١٦٩٥ - ١٧٠٣) الذي ولي العرش وخُلع عنه في أدرنة، وهو الذي ما كان ليغادرها قط إلا لكي يشن حملاته المتكررة في الغرب، وبلغ به الحد أنه كان يعقد لقاءات الديوان كافة في تلك المدينة. كما أنه أمر بإحضار والدته من إسطنبول في موكب مهيب. بل إن أحمد الثالث، الذي كان قد تخلى عن هذا الميل وعاد مع حاشيته إلى إسطنبول (بعد شهر واحد من ارتقائه العرش في أدرنة)، غاب عنها لمدة سنة كاملة عام ١٧١٨، لأن مقره الحربي كان في أدرنة من ناحية، وبسبب الحريق الكبير الذي اندلع في إسطنبول من ناحية أخرى. وبما أن الصدر الأعظم كان يرافق السلطان عادة، وبسبب الخلع المستمر للسلطين أيضاً، غالباً ما كانت إسطنبول تحت سيطرة القائمقام (وهو النائب الرسمي للصدر الأعظم في إدارة شؤون المدينة). وقد كان لذلك تأثير كبير في الصعيدين النفسي والاقتصادي بالنسبة إلى مدينة يؤدي البلاط فيها دوراً كبيراً في الإنفاق وفي المهن الحرفية. وفي عام ١٦٨٧ وعام ١٧٠٣، أثناء ما سمي «حوادث أدرنة»، أطلق السكان والإنكشارية العنان لغضبهم وأجبروا السلطان آخر الأمر على إعادة مقره إلى إسطنبول بصورة دائمة.

أثر الإحساس بالأزمة في مزاج سكان البلدة بالتأكيد، لكن ذلك كانت له أسباب أخرى أكثر شمولاً. فحركات التمرد في الأناضول (حركة الجلاي وتمرد الباشوات المحليين)، والحروب التي اندلعت على الجبهتين النمساوية والروسية، وغارات القوزاق على البحر الأسود وصولاً إلى مداخل مضيق البوسفور، والحصار الذي ضربته البندقية على الدردنيل، لم تؤدّ إلا إلى زيادة الإحساس بانعدام الأمن لدى السكان، المتزعجين أصلاً من الميول الثورية وغير الانضباطية للإنكشارية والسباهية (فرق الخيالة النخبوية). كما انتشرت القلاقل وتغيرت الأمزجة وسادت الخرافات والشائعات. أضف إلى ذلك المشاكل في ميزانية الدولة والتخلي عن الذهب في غرب المتوسط، وهي أمور زادت من حدة الإحساس بالتضخم.

بالرغم من كراهية محمد الرابع لإسطنبول وإقامته الطويلة في أدرنة، فقد شهد عهده (١٦٤٨ - ١٦٨٧) حركة عمرانية نشطة نسبياً. ففي أربعينيات ذلك القرن حوّلت جدته قوسيم سلطان قصر جراح باشا في قلب المدينة التجاري بين البازار وإمينونو

ليصبح أكبر خان في إسطنبول، خان الوالدة. ومن الصعب اعتبار أضخم مسجد يشيد في تلك الفترة، جامع إمينونو الجديد الذي انتهى العمل فيه عام ١٦٦٣، امتداداً للفترة الكلاسيكية في وضعيته ومبانيه الإضافية، بالرغم من أن مظهره الخارجي وفناءه الداخلي لم يختلفا كثيراً عما كانا عليه في المساجد السلطانية الأولى. بدأت أعمال البناء برعاية السلطنة صفية، من البندقية، والدة مراد الثالث، وبإشراف المعماري داود آغا، تلميذ سينان، ولكنها توقفت بعد ذلك ببضع سنين عندما وصل البناء في الطابق الأرضي إلى مستوى النافذة، وظل كذلك حتى عام ١٦٦٠. استأنفت والدة محمد الرابع، السلطنة طرخان، وهي من البندقية أيضاً، أعمال البناء في تلك السنة، وقامت بتدشينه عام ١٦٦٣. لم يغير مصطفى آغا، المهندس المعماري الجديد الذي أتم البناء، في التصميم، فظل امتداداً للفترة الكلاسيكية السابقة. لكن برنامج بناء المجمع كان قد تغير؛ فقد ألغيت المدارس الأصلية، وفي المقابل، استُحدث بازار مزدوج (تشفته تشارسي)، ومدفن، ودار للقراء (صفوف لتفسير القرآن)، ومدرسة ابتدائية، وسبيلان، وجناح سلطاني (سرادق ملكي يؤدي إلى رواق السلطان في المسجد) مع إطلالة على البحر^(٧). وبذلك يكون قد وفر، بمبانيه التجارية الإضافية وأجنحته السلطانية، منظوراً جديداً لقلب المدينة التجاري ومهد لحدوث أعمال تطوير جديدة.

في ديوان يولو، استؤنف العمل مجدداً في بناء المدرسة والضريح الذي كان في غاية الأهمية في أواخر القرن السادس عشر (مجمع خوجة سينان عام ١٥٩٣، ومدرسة وضريح غضنفر آغا عام ١٥٩٦)، وفي مطلع القرن السابع عشر (مجمعاً إكمكجي زادة وكويوكو مراد، نحو ١٦١٠)، وكماتكش مصطفى (١٦٤١)، إضافة إلى مجمعي المدرسة والضريح كويبرولو (١٦٦١) وقره مصطفى (١٦٨٣) وخان الوزير في كويبرولو^(٨). كما شيد على المحور الرئيسي مجمع أمجزاده حسين باشا (نحو ١٦٩٩) ومكتبة ومدرسة فيض الله أفندي (١٧٠٠). وفي وقت لاحق أضيفت مجمعات المدرسة - السبيل - الضريح: مجمعات جورلولو علي باشا (١٧٠٨) والوزير الأعظم إبراهيم باشا (١٧٢٠)، وسيد حسن باشا (١٧٤٠) (انظر الرسم الرقم ٢٠ - ٢٩).

(٧) انظر: *Istanbul Yeni Cami Hunkar Kasrı* (Istanbul: Vakıflar Genel Müdürlüğü, [n. d.]), for its vakıfname (foundation act) and functional programme, and Doğan Kuban, «Yeni Cami Kütüphanesi», in: *Dünden Bugüne İstanbul ansiklopedisi* (Istanbul: Kültür Bakanlığı ve Tarih Vakfı, 1993), pp. VII pp. 464-467.

(٨) يرى كوران أن أصل هذا النموذج الجديد لمجمع التربة - المدرسة في مجمع أيوب سوكولو الذي صممه سينان وتبناه داود آغا وتلامذة سينان الآخرون. انظر: Aptullah Kuran, *Sinan-the Grand Old Master of Ottoman Architecture* (Washington, DC; Istanbul: AKA Press, 1987), p. 132.

الرسم الرقم (٢٠ - ٩)

جماليات الجوار: تفسير النسيج المدني الذي بعثته قره مصطفى، جورلولو،
من مجمعات سينان في الفترة ما بين ١٥٩٠ و ١٧١٠



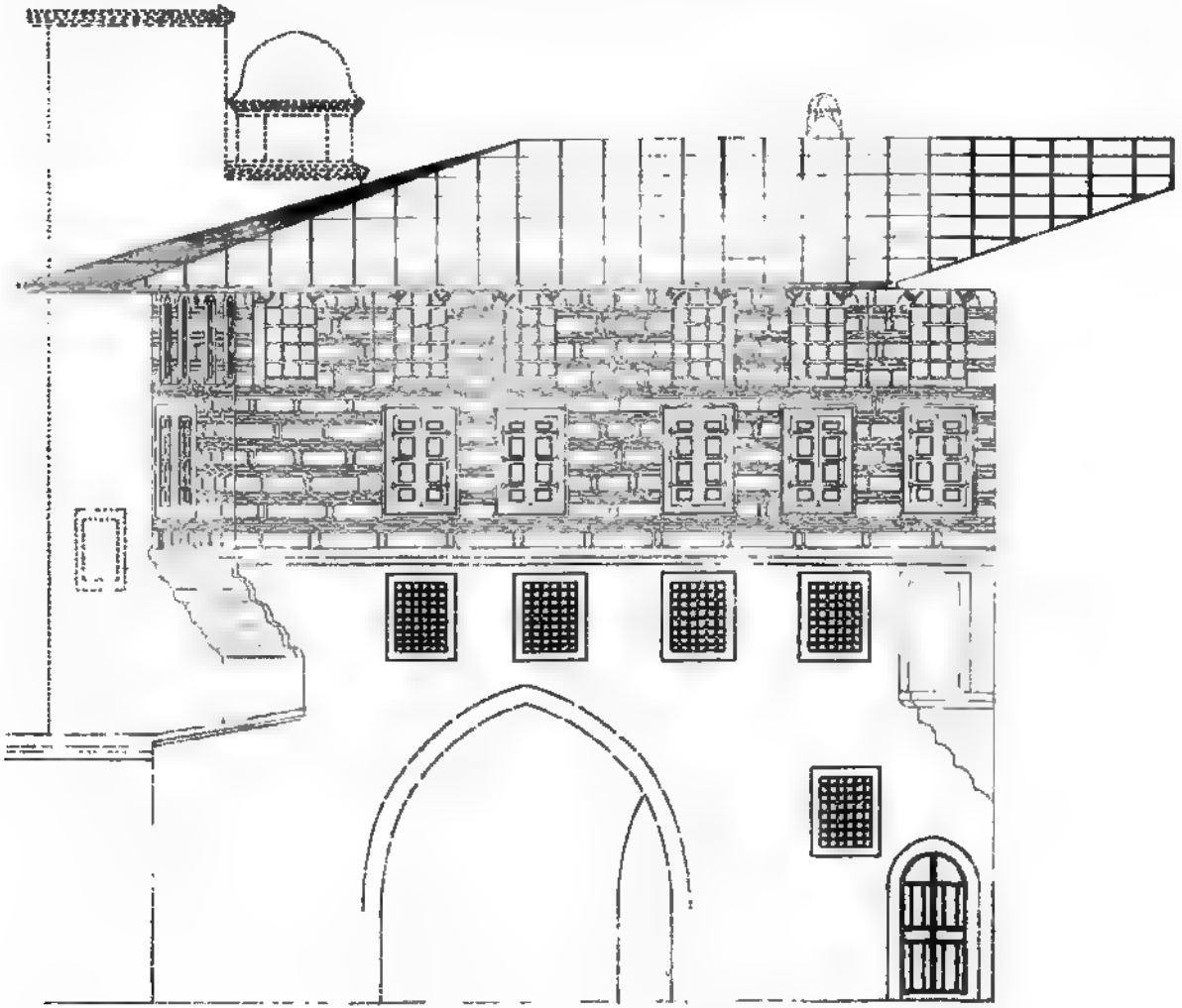
ومن المنجزات الأخرى البارزة في تلك الفترة أجنحة حريم قصر توبكابي الجديدة عام ١٦٦٨ التي بنيت بعد الحريق الذي أتى على الأجنحة القديمة ودمرها (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ١٠)).

وفي عام ١٦٧٩، بدأ العمل بقصر بشكطاش على شاطئ البحر بأمر من السلطان. كما أمرت طرخان سلطنة ببناء قصرها أيوب على شاطئ البحر عام ١٦٨٣، ولعله أول بناء بارز أطلق عادة بناء سيّدات البلاط [حريم السلطان] منازل فخمة لهن سواء رئيسية أو ثانوية في ذلك المكان المقدس.

ربما يعتقد المرء بأن غياب السلاطين ومكائد البلاط والهزائم العسكرية والاضطرابات السياسية أعاقَت جميعها التطور العمراني، لكن الأمر كان بخلاف ذلك. وكما سنرى، فقد كان القرن السابع عشر قرن الباشوات الأقوياء الذين تركت أوقافهم وأضرحتهم ومدارسهم في نسيج المدينة أثراً أقوى مما خلّفته أعمال السلاطين في الفترة نفسها. صحيح أن المكائد والنزاعات السياسية أدت إلى خفض رتب العديد من الباشوات وإعدامهم، وإلى التغيير المستمر لشاغلي منصب الوزير الأعظم، لكن هؤلاء هم الذين يمكن أن يُعزى إليهم تقديم أهمّ التبرعات.

الرسم الرقم (٢٠ - ١٠)

شقق سكن نساء البلاط (قصر هُنكار) في العام ١٦٩٠، مجمّع مسجد بني جامع



وفي سياق التغير المستمر وحالات السقوط المدوّي، يبرز اسمان ساهم نشاطهما في زرع بذور الإصلاح التي قُدّر لها أن تنمو في وقت لاحق، وذلك بسبب تأثيرهما السياسي ومساهمتهما في إعمار المدينة بين عامي ١٦٦٠ و ١٧٣٠، نعني بذلك سلالة كوبرولو من ناحية، والوزير الأعظم إبراهيم باشا (النوشهرلي) من ناحية أخرى؛ وقد دام عهد هذا الأخير عقداً واحداً فقط، لكنه أثر بقوة في السياسات الإمبراطورية وفي المدينة.

دام عهد سلالة كوبرولو ما يزيد على ثلاثين عاماً وشغل ثلاثة من أبنائها منصب الصدر الأعظم: محمد كوبرولو، الأول والأبرز، وابنه فضيل أحمد، وقره مصطفى باشا وأمجزاده حسين باشا، أحد أقربائهم. وبالرغم من التقييم التاريخي المتباين لأفراد هذه السلالة - الذي راوح بين اعتبار مؤسسها محمد مصليحاً لآلية الدولة، وبين إدانة

الطموحات المدمرة لقره مصطفى باشا الذي حاول الاستيلاء على مدينة فيينا وأعدم بسبب فشله في تحقيق ذلك - فقد كانوا جميعاً منخرطين في مسيرة إخراج النظام السياسي العثماني الصعبة من فوضى العقود الأولى والوسطى من القرن السابع عشر. كما أنهم كانوا راعين بارزين لمعظم المباني المهمة التي شُيّدت في تلك الفترة. بالطبع، ينبغي الحكم على إنجازاتهم وإخفاقاتهم (هزائمهم العسكرية وضعفهم الدبلوماسي الذي لم يمكنهم من استغلال انتصاراتهم العسكرية) في سياق القوة المتضائلة للدولة العثمانية في مجال السياسة العالمية والتوازن العسكري^(٩). فقد كانوا جزءاً من طبقة كانت تنظر إلى النجاحات والنكسات من منظور عسكري وبوصفها مسائل تتعلق بسلطة الدولة المركزية، وتتصرف على نحو متفهم ضمن محيط معين، وهو ما أنتج انتقاداً تاريخياً للأوضاع العامة. ومن المثير للإشارة إلى أنه بالرغم من النظرة السياسية العسكرية التي سيطرت على الطبقة العثمانية الحاكمة وبالرغم من ازدهارها التجارية، فهي ساهمت في بناء الخانات بقوة (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ١١)).

كانت مؤسساتها الدينية والجنائزية صغيرة الحجم ومتواضعة إذا ما قورنت بالمباني التجارية التي اكتسبت زخماً عمرانياً وتوسّعاً متعدّد الأبعاد. وكانوا شهوداً خيرين، إذ إنهم لم يدعموا ما يمكن وصفه بـ «التطور البرجوازي» للمشهد المعماري لإسطنبول بمساكنها الصغيرة والمتوسطة الحجم لكن المصممة بدقة، وبخاناتها الحجرية الضخمة ومجمّعاتها الدينية التي تكاملت بأسلوب جيد مع مشهد الشارع. أما المبنيان اللذان شيدهما الوزير الأخير في هذه السلالة، أمجداده حسين باشا، وهما سرادق يالي الشاطئي الصغير على مضيق البوسفور ومجمّع المدرسة والضريح في سراج خانة فيشكلان مثالين بارزين لمشهد إسطنبول الجديد.

كان عهد أحمد الثالث عهد تغيير، ولكنه عزّز أيضاً الميول الكامنة السابقة. فقد حقّق منجزات معمارية مثل مسجد يني جامع (جامع الوالدة) في أسكودار، ومدرسة الأنقراوي^(١٠)، وخان السمكشخانة الكبير الذي تبرعت به والدة السلطان، ومجمّع جورلولو علي باشا على ديوان يولو، ومتنزّهات وأكشاك سعد أباد الأولى، ومكتبة القصر والغرفة الصغيرة والممتعة التي تسمى يَميش أوضة (غرفة الفواكه) في قصر توبكابي،

Asianapa, *Osmanlı Devri Mimarisi*, pp. 354-362.

(٩) انظر:

ويقول فيه الكاتب إن النصف الثاني من القرن السابع عشر يمثل عهد أسرة كوبرولو سواء من الناحية السياسية أو من ناحية رعايتهم للبناء، وربما في الأناضول أكثر منه في إسطنبول. وتمّ في تلك الفترة بناء العديد من الطاش خانات (مبينة من الحجر أو من الحجر والطوب).

(١٠) المصدر نفسه، ص ٣٧٠.

والعديد من النوافير، وأهمها توبكابي باب همايون وأسكودار، وأسبلة أحمد الثالث، وكل الأعمال التي أوكل بها الوزير الأعظم إبراهيم باشا (النوشهرلي) والتي تضم لائحة طويلة بأعمال الترميم التي ينبغي أن يقال عنها المزيد.

الرسم الرقم (٢٠ - ١١)

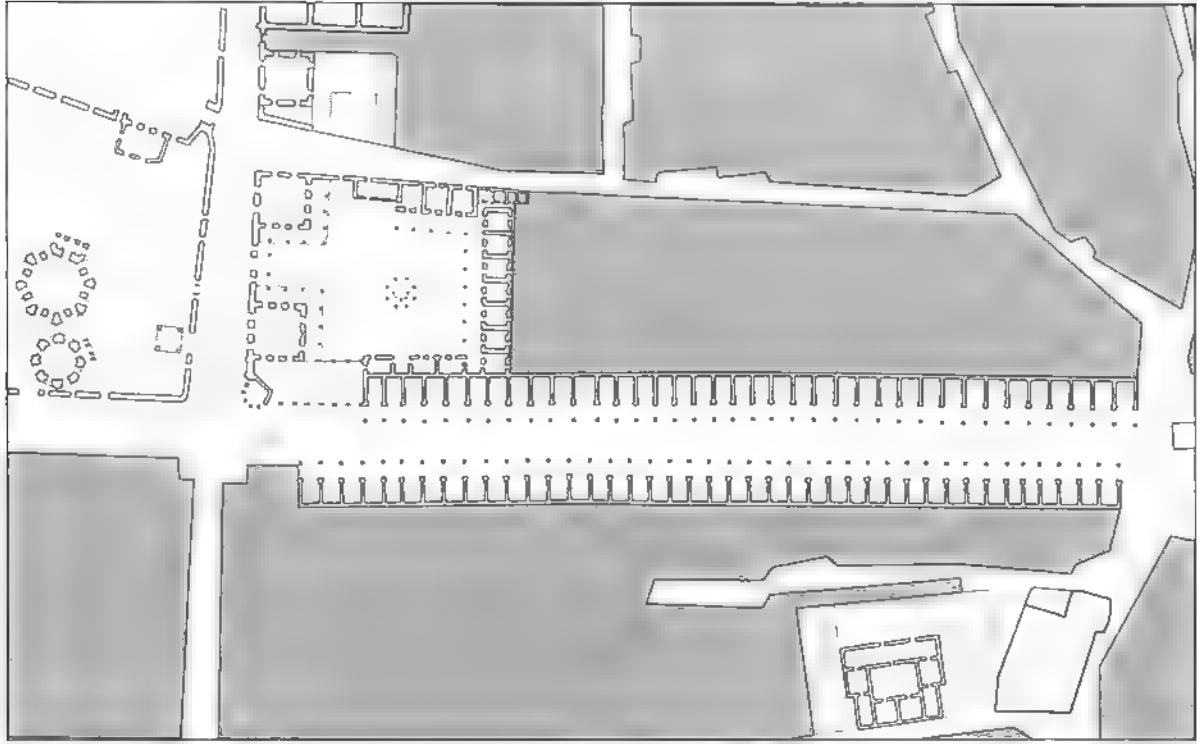
منظر من إسطنبول المركزية نحو عام ١٧٥٠



المصدر: من رسم يارون فون غيدنس.

إن طموح دامات إبراهيم باشا كفرد، وعروضه الثقافية، وصداقته لأحمد الثالث وتأثيره في السياسة حتى قبل أن يصبح الصدر الأعظم عام ١٧٢٠، جعلت منه حالة مستقلة بحد ذاتها. وهو بالتأكيد أحد الرعاة الرئيسيين، إن لم يكن الراعي الوحيد للفترة اللامعة للفن العثماني وطريقة عيش العثمانيين التي عُرفت بفترة زهرة التوليب. وقد كُتب الكثير عن الولع بمتع الحياة السريعة الزوال وعن البيئة، وعن التزيين المذهل للنوافير بالأزهار، وعن السراشق الخفيفة ذات الإنارة الجيدة، وعن الإعجاب بفنّ الحداثق الغربية ومحاولات تقليدها، وعن ظهور أول مؤسسة جدّية للطباعة (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ١٢)).

الرسم الرقم (٢٠ - ١٢)
مدرسة إبراهيم باشا ومخطط المجمع على الشارع



وغالباً ما كان يقال إن الميل إلى النظر إلى الغرب كمثال كان العامل الأبرز في هذه الفترة التي امتدت قرابة عشرين سنة وانتهت بردة فعل عنيفة من شرائع عاصية من السكان التي أدت إلى إعدام الوزير الأعظم إبراهيم. لكنني أودّ أن أؤكد تواصل هذه الفترة وامتدادها إلى أواسط القرن الثامن عشر. ألم يكن هناك مبالغة في تقدير الفجوة عند طرفي تلك العقود؟ كان فن التزيين بالأزهار ميزة خاصة بأدرنة في أواخر القرن السابع عشر عندما كانت مقر الحكم لعدة عقود^(١١).

ولم يكن الاهتمام بالفنون والعادات الغربية يحظى برعاية أقوى ولا أقل من الاهتمام بالفنّ الفارسي وطرائقه: كانت فترة إحياء للفضول الثقافي. ويمكن النظر إلى أعمال الترجمة التي شجع عليها إبراهيم باشا من زاويتين: كتعبير عن الاهتمام بالأشياء التركية، وكطريقة فعالة لإثراء البنية الثقافية الشائعة والشعبية في الأدب، والمنمنمات، والنصب المعمارية التذكارية والمباني السكنية، ولامتصاص العناصر الأجنبية في المكوّن المحلي المتنوع، وتقصير المسافة السابقة بين طريقة النخبة وطريقة العامة في التعبير،

A. Süheyl Ünver, «Türk Sanat Tarihinde Edirnekâri Lake İşleri ve Sanatkarları,» *Vakıflar* (١١) *Dergisi*, no. 6 (1965), pp. 15-20.

وبين النماذج المحلية السابقة المحترقة إلى حدّ ما والنماذج الفارسية والغربية الرفيعة. من الأمثلة البارزة على ذلك دمج الطرائق المعمارية لبناء المنازل الريفية الخشبية، أثناء فترة التوليب وما سبقها وما تلاها، بعمارة الأبنية الحجرية في أقسام معينة (في المساجد السلطانية وفي مبان مدرسية ومكتبية معينة وفي الخانات...). قابل ذلك أيضاً إدخال تحسينات مبتكرة على عمارة المباني السكنية والسراشق، باستخدام أساليب تركيبيّة مستقاة من عمارة المباني التذكارية العثمانية الكلاسيكية (كما في تصميم النوافذ)، ومن السراشق الفارسية (الشرفات العالية المسقوفة والأعمدة الخشبية والتساوق) بل حتى من الشرق الأقصى والصين (كما في حالة الطنف الكابولية المنمقة في سبل الماء ومنازل الأثرياء).

يعكس مجتمع كل من جورلولو علي باشا (١٧١٠) والوزير الأعظم إبراهيم (١٧٢٠) معالجة خفيفة ومحافظة جداً للمسجد والمئذنة والمدرسة، في حين نجد أن جدران المساحات المبنية وسبل المياه، أي عناصر الواجهات في الشوارع، زاهية ومبتكرة ومزخرفة، وتغلب على الجوهر الوظيفي للمجمعات، الذي لا يكاد يُرى من الساحات العامة. في كلا المجتمعين نجد أن للانطواء والبساطة في التخطيط وفي العناصر المعمارية للفناء الداخلي تأثيراً رقيقاً وإبرازاً لمشهد الشارع.

وضع أحمد الثالث، المحب للسلام، ووزيره إبراهيم، الأساس لسلام طويل (١٧١٧ - ١٧٣٧) مع النمسا، العدو الرئيسي للإمبراطورية العثمانية في العقود السابقة، لكنه لم يتمكن من تجنّب القتال مع بلاد فارس وروسيا. ومع ذلك، فقد أتاح النشاط اللافت للوزير الأعظم إبراهيم فرصة تطبيق برنامج موفّق للترميم وتشييد مبان جديدة. أما ترميمه لأسوار المدينة، وبرج ليندر (قزكوليسي)، وقصر تكفور البيزنطي في غلطة سراي، وإعادة إحياء الشوارع ذات القناطر في شاه زاده، فهما مؤشران لنزعة تاريخيّة ناشئة وتقليدية تتفق مع نهج العثمانيين المحافظين. لكن يبدو في هذه الحالة أنها تفسح في المجال أمام التباهي بالتقاليد المحلية وإعادة النظر في الأساليب القديمة.

وبمرور الزمن، تطورت هذه النزعة التاريخيّة الإمبراطورية إلى مظهر مثير للاهتمام من مظاهر العمارة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في المناطق الوسطى والشرقية، مشيرة إلى إحياء لبعض النماذج والتقنيات البيزنطية والعثمانية الكلاسيكية في إسطنبول، وإعادة انتشار النماذج السلجوقية والأرمنية والرومانية المتأخرة في شرق الأناضول وسورية، والذوق المملوكي في سورية ومصر.

المسجد الكبير الوحيد للفترة التي عكف على دراستها، بعد جامع إمينونو الجديد (١٦٦٣)، هو نتاج عمل والده أخرى، وهو مسجد بني جامع (١٧٠٨) في أسكودار. ومع أن تخطيطه تقليدي، غير أنه يظهر عدداً من الابتكارات التي ستأخذ شكلاً عضوياً وأكثر تماسكاً في ثالث أكبر مسجد بُني في تلك الفترة، أي مسجد حكيم أوغلو علي باشا (١٧٣٣)؛ وهو مسجد ذو حجم رأسي، قائم بذاته في فناء أشبه بحديقة، ويضمّ تجمّعاً غنياً للعناصر الإضافية (مدرسة وسبيل وشقق سكنية...) على محيط جدران المنطقة، يوجد مصلى ذو سقف مرتفع في الطابق السفلي مع سلّم بارز يؤدي إلى مدخل الشرفة المسقوفة.

ومن أبرز المباني التي شُيّدت في عهد محمود الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤) مجمّع حكيم أوغلو علي باشا الذي سبق ذكره، ومدرسة وخان حسن باشا (اكتمل بناؤهما نحو عام ١٧٤٥)، ومجمّع جاغال أوغلو حجي بشير آغا (١٧٤٤ - ١٧٤٥)، وسبيل توب خانة البارز (١٧٣٢)، وجميعها تضم عناصر الطراز الباروكي - الروكوكي في زخارفها مع المحافظة على احترامها للمبادئ المعمارية التي سادت في فترة أحمد الثالث. وأخيراً، فإن البدء بتشييد مجمّع نورعثمانية الكبير عام ١٧٥٠ والذي اكتمل بعد وفاة محمود، يفتح فصلاً جديداً في تاريخ العمارة في إسطنبول والمباني الريفية (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ١٣)).

ثالثاً: تطور الحياة في المدينة

زادت رقعة المدينة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث كانت أسكودار وأيوب ويشكطاش وتوب خانة التي تمتد على الخط جميعها بلدات كبيرة جداً لا مجرد ضواحي، وقد كانت كلها تتمتع بأسواقها الخاصة ومرافقها العامة. وامتدّت غَلْطَة خارج أسوارها نحو بساتين الفواكه في بيراي. وأصبحت إسطنبول مدينة مجزأة إلى أقسام - المرفأ، البازار، المجمّعات الدينية الكبيرة، أيوب ومدافنها، والقصبات الخارجية... - يتصل بعضها بمحور الديوان في حين تتصل أقسام أخرى بالبحر. في عام ١٦٨٠، أبرز مسح للمرافق البحرية نمواً هائلاً في تلك النشاطات؛ ففي عام ١٦٦٨، كانت المدينة تعتمد على النقل البحري الحضري الذي يحتاج إلى ١٤٤٤ قارب تجذيف (كايك، بيرامة) يملك الوقف العديد منها ويستفيد من عائدها^(١٢).

(١٢) انظر: Cengiz Orhonolu, *Osmanlı İnşaatı ve Şehircilik ve Ulaşım Araştırmaları* (İzmir: Ticaret Matbaacılık, 1984), pp. 85-87.



وداخل النسيج العمراني، كانت الشوارع ضيقة ومتعرجة، بالرغم من أن مثال بنية الدروب المسدودة الإسلامية لا ينطبق تماماً عليها. وكانت الشوارع غير مصانة جيداً. ولم يعتبر الرحالة والمؤرخون ذات بعض الأهمية^(١٣) إلا جادة واحدة سميت ديوان يولو. تبدأ هذه الجادة بالقرب من قصر توبكابي وتمر تقريباً بمحاذاة ميسي القديمة وتنساب بين الأسواق المركزية المزدهمة ومجمع الفاتح وتخرج من بوابة أدرنة. ويتراوح عرضها بين ٦، ٣ و ٦ أمتار ويمكن سلوكها في محفة تجرّها أربعة بغال^(١٤).

(١٣) D'Ohsson, *Tableau General*, vol. 2, p. 175, and Cosimo Comidas da Carbognano, *Descrizione topografica dello stato presente di Constantinopoli* (Bassano: [n. pb.], 1794), p. 51.

(١٤) D'Ohsson, *Tableau Général*, vol. 2, p. 304, and Pitton de Tournefort, *Relation d'un voyage du Levant, fait par ordre du roy* (Lyon: [n. pb.], 1717), vol. 2, p. 183.

ومع نهاية القرن السابع عشر، ظهر اتجاه عمراني مهمّ جديد: خط بازار الباب العالي؛ فمنذ عام ١٦٥٤، عندما تمت مصادرة قوناق الصدر الأعظم خليل باشا^(١٥) قرب كشك علي، أصبح هو مقرّ الصدر الأعظم بين الحين والآخر لعدة عقود. وبدءاً من العقود الأولى للقرن الثامن عشر، أصبح المقر الدائم للحكومة، وهو ما منحه المزيد من المكاتب البيروقراطية. لذلك حصل انتقال ملحوظ للأنشطة من قصر توبكابي إلى الباب العالي، وهذا بدوره أدى إلى انتقال جزئي لرمزية المراسم وانتقال ملموس لحركة المرور الحضرية من مركز المدينة وشوارعها الرئيسية وإليه. يلتقي المحوران عند قلب المدينة النابض بالحياة، الذي أصبح البازار (التشارسي) بدلاً من ديوان يولو.

لم تتوقف أعمال البناء بعد اكتمال مواقع البناء في الفترة الكلاسيكية، ولكنها استمرت على نطاق أضيق وأوسع انتشاراً بالنسبة للعمارة التجارية، والمساكن ذات النوعية الأفضل (المتألقة أحياناً). ويستحق الميل إلى التركيز على المنشآت المدنية والتجارية الذكر في المجتمعين الكبيرين اللذين تم التخطيط لهما في أوائل القرن السابع عشر، وهما جامع السلطان أحمد وجامع والدته (مسجد يني جامع)، بشوارعهما التجارية المسقوفة وشققهما الإمبراطورية التي تشبه المنازل في إسطنبول كما ستظهر لاحقاً إلى حد بعيد.

حدث تغير واضح في طابع مجتمعات الوقف في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وأصبح أكثر بروزاً في القرن التالي. فأحجامها باتت أصغر، وتكاملت بشكل أفضل مع البنية الحالية للمدينة، وزاد توجهها نحو الورع الفردي، مع اهتمام أكبر بضرّيح المؤسس ومدافن عائلته. وكان الباشوات في القرنين السادس عشر والسابع عشر من المتبرعين الأساسيين للمدارس، فتركزت كليّاتهم بشكل أساسي على تلك المؤسسة. يرجع ظهور المدرسة كعنصر رئيسي في المجمّع إلى أواخر القرن السادس عشر. في الواقع، بعد أن كان مسجد المجمّع يهيمن على مدرسة أتيك علي (١٤٩٦) في سميرليطاش، وفيما لم تكن مدرسة مجمّع أدرنة كابي أتيك علي باشا (١٤٩٩) مهيمنة بالرغم من كبر حجمها، تمحورت الكليات الرئيسية الأخرى على المدرسة التي فيها، بالرغم من أنه كان يوجد في بعضها مساجد صغيرة أو مصليات^(١٦).

Robert Mantran, *La Vie Quotidienne à Constantinople aux temps de Soliman le Magnifique et de ses successeurs (XVI-XVII^{es} siècles)* (Paris: Hachette, 1965), pp. 36-41.

Mubahat S. Küttükoğlu, «1869 da faal İstanbul Medreseleri,» *Tarih Enstitüsü Dergisi* (1977), (١٦) pp. 277-285.

٦٢ مدرسة من أصل ١٦٦ في إسطنبول وأسكودار بُنيت في القرن التاسع عشر قبالة الجادة وفي محيطها.

حدث تطور كبير في بناء مدارس الصبيان والمكتبات في القرن الثامن عشر والعقود الأخيرة من القرن السابع عشر^(١٧). وكان العديد منها قائماً بذاته وغير تابع لكلية. ومنذ عام ١٦٩٧ عندما قدم مجمع (مدرسة وتربة) أمجزاده حسين آغا مدرسة بارزة على رصيف الشارع، ساهم إلى حد واسع في المشهد المعماري للشارع. من الأمثلة المهمة على ذلك مدرسة القبطان إبراهيم في بايزيد، وإسماعيل أفندي في تشرشمبا (١٧٢٣)، والحاج سليمان أفندي (١٧٢٨)، ورئيس الكتاب إسماعيل أفندي (١٧٣٢). فقد تميزت جميعها بـبروز خفيف للصف الدراسي والمحال في الطابق الأول أو بالنوافير والأسبلة المتقنة عند مستوى الشارع. كما كانت المكتبات مثل مكتبة أحمد الثالث في قصر توبكابي ومكتبة عاطف أفندي في وفا، مبتكرة أيضاً. كانت تكايا الدراويش (التي هي أشبه بمراكز للاجتماع منها بالمعتزلات)، بالرغم من تباينها البارز عن المدرسة التي تعتمد على الصفوف العلمية، مراكز اجتماعية مهمة، غير متنحية ومندمجة مع محيطها الطبيعي والتركيبية السكانية، وتزايدت أعدادها باستمرار خارج أسوار المدينة وداخل المناطق السكنية^(١٨).

في إسطنبول العثمانية، كان القصر بداية حياة المدينة ونهايتها. فالهتافات والثورات كانت موجهة نحوه. وكانت الدولة ومؤسسات المدينة ومقر إقامة الحاكم (ومساكن طبقة الباشوات الحاكمة) متداخلة سياسياً ومؤسسياً، لكنها كانت منفصلة في مبانيها والمساحات التي تشغلها. يمكن مشاهدة قصر توبكابي من البحر فقط ومن مسافة بعيدة: سراب من الأشجار العالية، وسرادق منخفضة الأسقف وجدار. ومع ذلك، فقد لامس تأثيره جوانب المدينة كافة. كان تاجاً غير مرئي. ومن داخله كانت تتم السيطرة على الأسعار، وإدارة الأنشطة العمرانية وتحديد المعايير. كما أن عشرات الألوف من الأشخاص عملوا في القصور، وترعرعوا فيها وعاشوا بالقرب منها^(١٩). لكن القصر كان

Özgönül Aksoy, *Osmanlı devri İstanbul sıbyan mektepleri bir inceleme* (Istanbul: İstanbul Teknik Üniversitesi, 1968).

ويبدو أن مدارس الصبيان كانت متشرة في شبه الجزيرة بأكملها.

M. Baha Tanman, «Tekkeler,» in: *Dünden bugüne İstanbul ansiklopedisi* (Istanbul: Kultur Bakanlığı ve Tarih Vakfı, 1933), vol. 7, pp. 236-240; Zakir Sükrü Efendi, *Die Istanbuler Derwisch-Konvente und ihre Scheiche (Mecmu'a-l tekaya)/Zakir Sukri Efendi: nach dem Typoskript von Mehmet Serhan Taysi*, edited by Klaus Kreiser (Freiburg im Breisgau: Schwarz, 1980); Bilgin Turnali and Esine Yücel, «İstanbul'daki bazı tekkelerin yerlerine dair bir araştırma,» *Vakıflar Dergisi*, no. 18 (1984), pp. 141-163, and Raymond Lifchez, ed., *The Dervish Lodge: Architecture, Art, and Sufism in Ottoman Turkey* (Berkeley, CA: University of California Press, 1992).

Necdet Sakaoglu, «Saray ve İstanbul,» in: C. Kafescioğlu and L. Thyss-Senocak, eds., (١٩) *Aptullah Kuran İcin Yazılar-Essays in honour of Aptullah Kuran* (Istanbul: Yapi Kredi Kültür Sanat Yayınları, 1999), pp. 277-286.

تاجاً مقسماً أيضاً؛ فقد صنع العشرات من الباشوات وبعض الرؤساء الدينيين مراكز ثانوية لصنع القرار في قصورهم الخاصة. كان لكل من هذه القصور فناء صغير. ويروي أوليا أن سرايات وقصور السلطات الرئيسية كانت تتركز في منطقتين، الأولى مقابل ديوان يولو على الطريق بين آيا صوفيا وبايزيد، والثانية في ناحية السليمانية - شاه زاده - وفا، والقليل منها كان في أهيركابي - كادرغا على شاطئ مرمرة. ولغاية القرن السابع عشر، كانت القصور الفخمة المبنية من الأحجار، التي يضم كل منها مئات الغرف، تتخلل مشهد المدينة، كما كانت الخانات الفخمة من قبل واستمرت في ذلك مدة قرنين^(٢٠).

لكن ذلك اختفى تماماً تقريباً بحلول القرن الثامن عشر. فقد واصل الباشوات الكبار إدارة الشؤون العامة من منازلهم، لكنهم جعلوا إقامتهم ومقارهم في منشآت خشبية فسيحة وكثيرة محاطة بمساكن مشابهة لها إلى حد بعيد من الناحيتين المعمارية والرمزية وتختلف عنها في الحجم الذي كان يتراوح بين منازل صغيرة من طابقين يتألف كل منهما من غرفتين وبين قصور عامرة تضم عشرات الغرف، بل المئات منها، في حالات نادرة. وراوحت نوعية البناء وتفاصيله بين الاعتبارية والإهمال والبراعة والتكلف، لكن التقانة والمبادئ الأساسية كانت واحدة من حيث الجوهر.

رابعاً: التطور التجاري، والسيدات الراعيات والعمارة السكنية

مثل النمو التجاري، والارتباط الوثيق بين عمارة المباني الضخمة والأقسام النشيطة من المدينة، ودور سيدات البلاط، العوامل الأساسية للتطور المادي والمعماري لإسطنبول في تلك الفترة.

بالطبع، كانت الأنشطة المتصلة بالبلاط والدولة جزءاً مهماً من الاقتصاد العمراني لإسطنبول، لكن التطور «البرجوازي» (وهي العبارة الوحيدة المتوافرة، بالرغم من أنها لا تتلاءم بالتأكيد مع السياق العثماني) للتجار الصغار والمتوسطي الحجم والبيروقراطيين والتجار الأكثر أهمية ومالكي الخانات، والحمامات، والمستودعات، إضافة إلى الذين يعملون في أنشطة وخدمات الوقف والذين يعتاشون منها، هو الذي يفسر التطور السكني^(٢١). هناك عدد من الظروف التي تشير إلى القرن السابع عشر بوصفه المرحلة

(٢٠) انظر إلى المشهد البانورامي لإسطنبول الذي أعده ملشور لوريش. تضمنت أعمال سينان ٢٦ قصرًا، سبعة منها في البوسفور وبحر مرمرة، وستة بالقرب من ميدان سباق الخيل وثلاثة بالقرب من بايزيد - وفا.

(٢١) Bahaeddin Yediyildiz, *Institution du Vaqf au XVIII^{ème} Siècle en Turquie-etude historique* (٢١) (Ankara: [n. pb.], 1985).

التي نشأ فيها نموذج المنزل العثماني التقليدي كما وصل إلينا من المصادر البيانية الغربية في القرن الثامن عشر ومن الأمثلة القليلة المتبقية. ومع أن اقتناؤه اقتصر في بادئ الأمر على الميسورين، لكنه ما لبث أن انتشر بين معظم الطبقات الاجتماعية كجزء من الميل العام نحو التمتع بالفسح والطبيعة. لم يكن في المنزل التقليدي غير طابق أرضي واحد من البناء الحجري وطابق علوي سكني مصنوع من الأخشاب، مع نوافذ كبيرة أو متعددة. كان سهل البناء والاستبدال، وهو ما أدى إلى ظهور علامات البلى بسرعة وإلى سهولة تجديد البنية العمرانية أيضاً^(٢٢). من ناحية أخرى، نجد أن نشوء طبقة من التجار اليونانيين الأثرياء في القرن الثامن عشر خلف ميراثاً رمزياً منفرداً من خلال منازلهم الحجرية، وربطاً بين العمارة الحجرية العامة والعمارة الخشبية السكنية الخاصة^(٢٣) (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ١٤)).

تجدر الإشارة إلى أن الإشراف على أعمال البناء حتى القرن السابع عشر كان يتم إما بواسطة معماريين، خاصين، يعملون لدى السلطان، وإما بواسطة حرفيين بسيطين مجهولين؛ إلا أن القرن السابع عشر شهد ظهور ما يسمى معماريي المدن في مدن الأقاليم^(٢٤). ومع أنه لا توجد إشارة إلى هذه الفئة في إسطنبول، لكن الدقة المتناهية البارزة في المساكن وفي المباني غير التابعة للسلطان أو الوقف تشير إلى تنظيم جديد للفنون يعكس تنامي الطبقات العليا والمتوسطة ورعايتهم المتزايدة لأعمال البناء العادية.

لطالما كان تركيز النشاط والتخزين التجاري والمهن مرتفعاً جداً بالقرب من القرن الذهبي ومنطقة محمود باشا وصولاً إلى البازار الكبير. وهذا الأخير استوعب مع المناطق المحيطة به حتى بايزيد الأنشطة التجارية الأكثر أهمية التي تتطلب حيز تخزين أقل. ومن البادستان (المبنى التجاري المركزي في البازار) كانت شوارع ثلاثة تؤدي (ولا تزال) إلى شاه زاده وسراج خانة (السوق الواقعة إلى الشرق من الفاتح)، ونزولاً نحو محمود باشا

إذا كانت هذه الكثرة في القرن الثامن عشر، فلا بد أنها كانت موجودة، وإن بدرجة أقل؛ وكذلك في العقود الأخيرة من القرن السابع عشر.

Sedad Hakki Eldem, *Türk evi: Osmanlı donemi-Turkish houses: Ottoman Period* (٢٢) (Istanbul: Türkiye Anıt Çevre Turizm Degerlerini Koruma Vakfı, 1984); Dogan Kuban, *The Turkish hayal house* (Istanbul: Muhittin Salih Eren, 1995), and Maurice Cerasi, *La Citta del Levante: Civilla urbana e architettura sotto gli ottoman nei secoli XVIII-XIX* (Milano: Jaca Books, 1988), chap. 8

Haluk Sezgin, «Les Maisons en Pierre de Fener,» in: *Armas-Volume in Honour of*: انظر: (٢٣) Professor N. K. Moutsopoulos (Thessaloniki: Arsitote University of Salonico, School of Architecture, 1991), pp. 1597-1629.

Orhonolu, *Osmanlı İmparatorlugunda Sehircilik ve Uzerine Arastirmalar*, pp. 1-6 and انظر: (٢٤) 9-26.

الرسم الرقم (٢٠ - ١٤)
النسيج المدني في حي الفنار: أبنية من الطراز اليوناني



والقرن الذهبي^(٢٥). ضمت منطقة البازار المركزي قرابة ٤٠٠٠ دكان في البازار نفسه وفي الخانات والشوارع المحيطة. وكانت الدكاكين التي تبيع السلع الغذائية والكتب في المحيط الخارجي للبازار، وكان للسوق المسقوف (التشارسي) إجمالاً شوارع ضيقة لكن منتظمة، ومسقوفة أحياناً بالمظلات والعتبات الخشب. وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر تم سقف معظم هذه المنطقة بالقبب الحجر، لذلك باتت تسمى البازار المسقوف (كابالي تشارسي). كان يوجد في منطقة بايزيد تركيز كبير للأنشطة الترفيهية العامة^(٢٦)؛ فاكسبت هذه المناطق كافة والمناطق خارج أيوب وأسكودار وبشكطاش المزيد من الثقل مع تطور أسواقها وتنامي أعداد الخانات فيها - التجمع العثماني الأكثر تميزاً للورش والمستودعات والأعمال التجارية التي تمارس في غرف صغيرة على محيط الساحات ذات القناطر التي ترتفع طابقين - الجديدة منها أو التي أعيد بناؤها أو تمت زيادة مساحتها. ويذكر أوليا جلبي وجود ٥٥٦ خاناً في ذلك الوقت^(٢٧).

كثرت الخانات في المنطقة الواقعة بين البازار المسقوف والمرفأ: خان والدة بويوك (في الربع الثاني من القرن السابع عشر)، وخان الوزير (نحو ١٦٦٠ - ١٦٧٠)، والسمكشخانه (نحو ١٧١٠)، وخان حسن باشا (نحو ١٧٤٠) في تلك الفترة (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ١٥)).

على الرغم من غياب السلاطين، فقد ساهم صناع القرار في البلاط في هذا التوسع. وكان الدور الحاسم الذي أدته الوالدة والصدر الأعظم في صنع القرار واضحاً جداً في القرن السابع عشر، عندما باتت مكائد البلاط تؤثر في اختيار الصدر الأعظم وحتى في اختيار أفراد العائلة الحاكمة الذين سيقفون العرش. في إثر توازن القوى الناتج بدرجة كبيرة في أنماط الرعاية؛ برزت سيدات البلاط وعائلات الباشوات القوية كراعات رئيسيات للأنشطة المعمارية، وخصوصاً لغاية العقود الأولى من القرن الثامن عشر. إن أهمية زوجات السلاطين وأمهاتهم معروفة. فمعظم السلاطين أظهروا إخلاصاً كبيراً لأمهاتهم، اللاتي كانت الكثيرات منهن صانعات للملوك بحق. وكما في حالة السلطنة صالحة، والدة محمود الأول، فقد يصل الأمر بالسلطان إلى حد مغادرة القصر لملاقاة أمه بكامل الأبهة، ويمكن أن تكون جنازة الوالدة من شؤون الدولة في بعض الأحيان.

(٢٥) يتعمق ماتران في تحليل ارتباط التجارة وغيرها من الأنشطة الحضرية في المدينة في القرنين السادس عشر والسابع عشر. انظر: Mantam, «Istanbul», pp. 38-39, 414-414 and 452-467.

(٢٦) استناداً إلى أوليا، كان يعمل في العبارات ١٥٠٠٠ شخص. انظر: Evliya Celebi, «Narrative», p. 499.

(٢٧) المصدر نفسه.

لكن يمكن بالطبع أن يكون الدور الذي أدته السلطنة قوسيم^(٢٨) والسلطنة طرخان طويلاً، وعداوتهما المتبادلة، وتحكّمهما بالسياسة الذي امتد نصف قرن، وليد القرن السابع عشر وحسب. ومع أن تلك القبضة تراخت في القرن الثامن عشر، فقد استمرت رعاية السيدات كما في السابق، كما أن دور الكزلراسي (Kizlarağasi) (كبير الخصيان، وسيد القصر الداخلي الوثيق الصلة بسيدات البلاط ذوات النفوذ) كان دائماً كبير الشأن في سياسة المدينة، وهو ما أعطاه سلطة كبيرة على مخصصات ورعاية الوقف^(٢٩).

الرسم الرقم (٢٠ - ١٥) الخان الجديد في القرن الثامن عشر



(٢٨) قتلت قوسيم عام ١٦٥١، وهو ما أتاح للسلطنة طرخان القيام بدور الوالدة بشكل كامل، بالرغم من أن ابنها محمد الرابع الذي كان لا يزال صبيّاً أصبح السلطان منذ عام ١٦٤٨.

(٢٩) انظر: Mantran, «Istanbul», p. 173.

كمثال آخر، نشير إلى الكزلراسي بشير آغا، الراعي الذي تنسب إليه الكلية (١٧٤٥) بالقرب من الباب العالي، وكان له تأثير كبير في القرارات المتعلقة بالتبرعات للوقف وكان هو الذي يرشح الوزراء كما كان هو الذي يعزلهم.

ربما كان لهذه الرعاية بعض التأثير في طابع المباني الجديدة. هل أتت صناعة القرار من قبل سيدات البلاط بعمارة أقل تقشفاً وذات طابع محلي أكثر وأدت إلى إضفاء ذوقهن على الزخرفة الطبيعية والتكوين غير المتناظر المحتمل؟ أنا أشك في إمكان إثبات وجود رابط عرَضِيّ بين رعاية السيدات والطابع المعماري الخاص بتبرعاتهن. صحيح أنه نشأ ميل عام إلى تزيين عناصر الزخرفة المتناظرة، المهيمنة في العمارة العثمانية غير السكنية السابقة، لكن ذلك ينطبق في النهاية، على التعبير المعماري للعصر، بصرف النظر عن جنس من كان يرعى العمل.

خامساً: العمارة البحرية والبرية والمائية

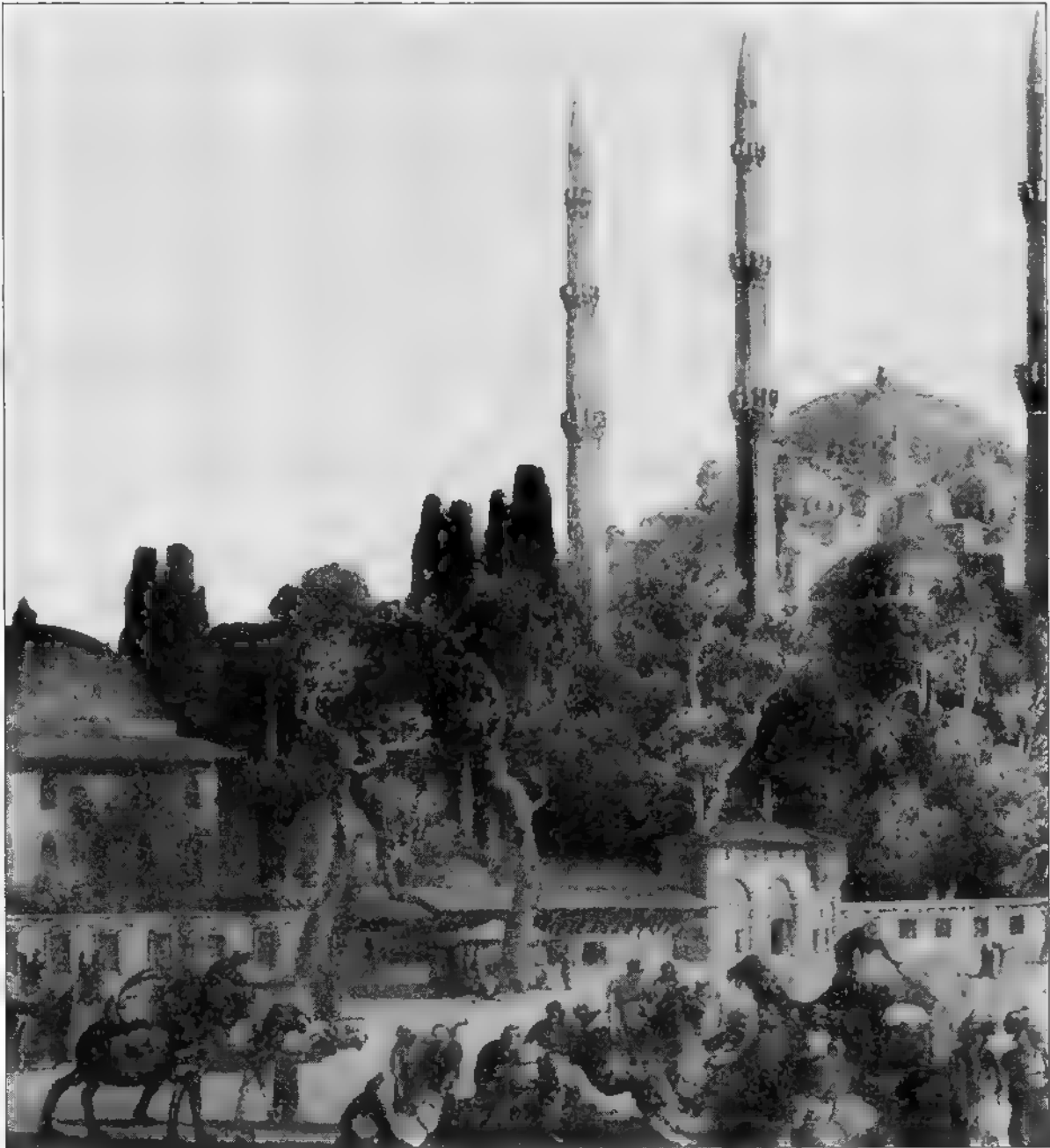
كانت إسطنبول بوجه عام مدينة شبه ريفية تكثر فيها بساتين الفواكه والمنتزهات على نحو لافت للنظر، وتنتشر المدافن في ضواحيها. كان ذلك نتيجة للحرائق المدمرة والمنح المتشعبة، لكنه أمر عكس أيضاً النزعة العثمانية إلى تفضيل بنية عمرانية مفتوحة ومتشابكة مع عناصر الطبيعة والمساحات^(٣٠). فكثير من أراضي التسلية والترفيه على امتداد القرن الذهبي والبوسفور، أو على سفوح التلال، لم تكن أكثر من مروج شاسعة مع القليل من السرادق، والنوافير المتفرقة، والمنصات الصغيرة المرتفعة، بل كانت حتى خالية في بعض الأحيان من هذه العناصر الإضافية كافة. لم تكن منتزهات كما كان يسميها المراقبون الأجانب، لأن العثمانيين لم يكونوا يخرجون من منازلهم للاختلاط بالآخرين أو لكي يُروا، بل كانوا يجلسون جماعات، أو يخرجون للتنزه، أو للتفرج على الطبيعة ومشاهدة الألعاب النارية. كذلك كانت الميادين أشبه بأراضي تقام عليها معارض وبمروج بلدات صغيرة كالتي في الغرب منها بالساحات العامة.

موقعان فقط يمكن استثناؤهما تميزا ببعض السمات الحضرية: ميدان سباق الخيل القديم الذي يسمى الآن «آت ميدان» و«سباهي ميدان» (ساحة الفرسان) الذي لم يكن أكثر من مرفأ مردوم قديم كانت تستخدمه السفن الشراعية، وكانا يستخدمان في الأغلب في ممارسة رياضة الخيل، ولعقد اللقاءات والمواكب، أو من أجل الاستراحة. كانت المساحات المفتوحة في المجمعات الدينية الكبيرة هي الميادين المعمارية الفعلية للمدينة، وقد شكلت مع المساحات التجارية الرئيسية، الأمكنة التي

(٣٠) بالنسبة إلى الحيز المفتوح في المدن العثمانية، انظر: «Open Space, Water and Trees in Ottoman urban Culture», *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design*, vol. 2 (1985).

يلتقي فيها المواطنون (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ١٦)). لكن في القرن الثامن عشر، بدأت الأفنية الخارجية للمساجد الكبيرة تأخذ شيئاً فشيئاً شكل الحدائق، لا شكل ميادين حضرية؛ يمثل فناء مجمّع حكيم أوغلو الذي شيد عام ١٧٣٤ مثلاً نموذجياً على هذا التطور.

الرسم الرقم (٢٠ - ١٦)
تفاصيل في محيط ميدان السلطان أحمد (ميدان سابق لسباق الخيل)
أواخر القرن الثامن عشر



المصدر: المنظر من كاساس.

أصبحت المدافن الكثيرة، بأشجار السرو الجميلة والمناظر التي توفرها (باستثناء المدافن الجرداء ومدافن اليهود) أماكن للاستراحة إلى حد ما. وأصبحت أيوب، المدينة الورعة التي تكثرت فيها المساجد والأضرحة وخلوات الدراويش والمدافن، بحلول القرن السابع عشر، مكاناً للاستراحة يقصده سكان إسطنبول لشراء الألعاب وتناول الطعام والتزّه. وبالتدريج، أصبح البوسفور، والقرن الذهبي إلى حد ما، خلفية للمئات من المنازل الشاطئية الفخمة (يالي). كان القرن الذهبي بترساته الحربية مرفأً وطريقاً عاماً في آن ومستودعاً للمدينة، وكان له تأثير كبير سواء من الناحية الوظيفية أو النفسية، ويتحوّل إلى نقطة مركزية، في الإدراك الحسي للشكل العمراني والحياة التي ساهم في تحسينها (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ١٧)).

ما بين عهدي محمد الفاتح وسليمان الأول، أضيفت قنوات مهمة إلى بقايا شبكة المياه الرومانية والبيزنطية التي كانت لا تزال صالحة. فشُقت قناتا المياه الحلقلي والكرك تشاشمة (الفساقي الأربعين) وبعض القنوات تحت الأرض لتزويد معظم مناطق الكلية^(٣١) على قمم تلال إسطنبول الرئيسية، على غرار محور الديوان. وكان استهلاك المياه مرتفعاً إلى درجة أنه لزم التشجيع على عدم بناء الحمامات. لهذا السبب لم يتم بناء الكثير من الحمامات بعد القرن السادس عشر. وكانت معظم مكّونات نظام إمداد المياه العثماني التي كانت لا تزال تعمل في بدايات القرن العشرين قد بُنيت عام ١٧٥٠. كان الهدف من جميع القنوات المائية الاصطناعية التي أنشئت في الفترة ١٦٢٠ - ١٧٥٠ إمداد مجمّعات الوقف الكبيرة. ففي عام ١٦٧٢ بنيت قناة كوبرولو وعملت على صيانتها مؤسسة حملت الاسم نفسه. لكن سُمح بوصل العديد من النوافير العامة، وبعض الحمامات أحياناً وحتى المنازل الفخمة الخاصة، بتلك القنوات.

أصبحت النوافير والسبل مكّونات بارزة وثابتة في مشهد الشارع، حيث تم تسجيل ما يقارب ألف نافورة تاريخية وما يزيد على أربعين سيلاً في إسطنبول في سائر اللوائح^(٣٢).

(٣١) القنوات الاصطناعية الرئيسية التي تمجري على خط القمم هي: محمود باشا، كوبرولو، ييليك، السليمانية، بايزيد، الفاتح، السلطان أحمد، نورعثمانية، محرمه. انظر: Kazim Cecen, *Istanbul vakif sularından Halkalı suları* (Istanbul: Istanbul Su ve Kanalizasyon İdaresi Müdürlüğü, 1991), and Kazim Çeçen, *II. Bayezid su yolu haritaları* (Istanbul: Istanbul Su ve Kanalizasyon İdaresi Genel Müdürlüğü, 1997).

(٣٢) انظر: Ibrahim Hilmi Tanisik, *Istanbul Çeşmeleri* (Istanbul: Maarif Matbaası, 1943-1945); Affan Egemen, *Istanbul'un çeşme ve sebilleri: resimleri ve kitabeleri ile 1165 çeşme ve sebil* (Istanbul: Aritan Yayınevi, 1993); İzzet Kumbarcılar, *Istanbul sebilleri* (Istanbul: Devlet Basımevi, 1938), and

الرسم الرقم (١٧ - ٢٠)
أرض المقابر في الضواحي وخارج أسوار المدينة



Omer Faruk Şerifoglu, *Su güzeli: İstanbul sebilleri* (İstanbul: İstanbul Büyükşehir Belediyesi Kültür İşleri Daire Başkanlığı, 1995).

أما إذا كان توسيع نظام إمداد المياه قد سبق التطور العمراني أو جاء تلبية للطلب على المياه فهو سؤال ما زال موضع نقاش. لكن ما لا شك فيه أن البناء الرائع لأسكودار وبشكطاش وبيرا في القرن الثامن عشر قد تزامن مع بناء خطوط إمداد المياه الرئيسية. كان كل من أحمد الثالث ومحمود الأول متبرعاً متحمساً لمشاريع بناء النوافير والسبل وخزانات المياه. تم بناء أول سد للمياه في غابة بلغراد شمال إسطنبول عام ١٦٢٠ تقريباً. تبع ذلك بناء سدود أخرى؛ وفي عام ١٧٢٢ كان يوجد سبعة سدود في المنطقة ذاتها. وهي لم تكن مساهمة لوجستية محضة، بل استخدمت كأمكنة للتسلية من قبل الحاشية والنخبة من سكان المدينة، وأصبحت بمثابة دليل مهم على قدرة العثمانيين على إيجاد بيئة معمارية في محيط طبيعي.

سادساً: جماليات الحيز المديني، رمزية الموت والفخامة

كانت فخامة وعظمة الحاشية من ثوابت إسطنبول الإمبراطورية. وأكثر المواكب الرسمية وربما أكثرها تميزاً كان العرض العسكري (الآلاي)، للقوات والباشوات المشتركين في الحملات العسكرية في الغرب، وهو عرض كان يستغرق أسبوعاً كاملاً. كانت المواكب الاستعراضية تسير على طريق أدرنة كابي - توبكابي الذي يمتد مسافة خمسة كيلومترات. وثمة موكب مهيب آخر هو موكب فرسان السلطان كان يُجرى قبل احتفال تقليد السيوف وبعده عند ضريح أبو أيوب الأنصاري في أيوب خارج أسوار المدينة، وكان يستغرق ما بين خمس إلى ست ساعات^(٣٣). كما كانت أعياد البلاط، المهمة منها وغير المهمة، مناسبات للمواكب التي تحمل النخيل (هدية على شكل شجرة زيتة أو هرم مع كعكة محلاة ومزخرفة) بين القصرين القديم والجديد، ولإنارة المنازل والمباني العامة وتزيينها، وهي مناسبات متكررة دون شك.

في مناسبة أو مناسبتين في القرن، كان السلطان ينظم مهرجاناً إمبراطورياً يشترك فيه عموم سكان المدينة ويدوم عدة أسابيع، فتقام الولائم وتطلق الألعاب النارية وتسير المواكب. وهذا ما حدث في أدرنة عام ١٦٧٥. وبالرغم من إقامة مهرجانات زفاف للأمراء في أعوام ١٦٤٦ و ١٦٩٥ و ١٧٠٨ و ١٧٠٩ و ١٧٢٤ و ١٧٤٠، لم يقم سوى

(٣٣) انظر مثلاً: Sakaoglu Saray and Ismail Hakki Uzuncarsili, *Osmanli Devletinin Saray teşkilatı* (Ankara: [n. pb], 1984).

مهرجان مهم وحيد وكبير في إسطنبول في نهاية الفترة التي نعكف على دراستها^(٣٤). وفي تشرين الأول/أكتوبر ١٧٢٠ استعرض موكب ضخم في وسط المدينة بعد المهرجان الذي دام خمسة عشر يوماً في مختلف ضواحي المدينة بمناسبة ختان أبناء أحمد الثالث. تجتمع الموكب في القصر القديم (إسكي سراي)، وأثناء توجهه إلى قصر توبكابي، انتقل غرباً أولاً فمرّ في وزنيجلر ثم توجه نحو سراج خانة باشي متجاوزاً مقار الإنكشارية، وانعطف يساراً نحو أكسراي عابراً حي خورخور السكني ليتجه بعد ذلك ناحية الشرق بمحاذاة نافورة لاليلي، ودار سك النقود القديمة، وحمّام الوالدة ليتقدّم أخيراً تحت نافذة السلطان في النقاشخان^(٣٥).

تصوّر مخطوطة سورنامه وهبي الرائعة هذا الموكب كحدث عظيم، لكن من غير أن يصوّر مسارح أحداثه. فقد تم تصميم الملابس الرائعة وسلوك المشاركين المتعجرف، والنخيل الذي زاد ارتفاعه على عشرة أمتار في بعض الأحيان، بدقة أكبر من خلفية مسارهم المعمارية. وهذا أحد المداخل لفهم طريقة استخدام العثمانيين الحيز المدني وإدراكهم الحسي له. كما تميزت تلك المناسبات بالمبالغة في الاعتناء بالمنشآت الموقّعة أكثر من الاعتناء بالتصميم الدائم للحيز العام. فالمواكب، وإن كانت ممتعة وبديعة في حد ذاتها، لم تكن بحاجة إلى خلفيات خلابة. وباستثناء التجربة النادرة والقصيرة الأمد بالنسبة إلى الوزير الأعظم إبراهيم باشا النوشهري في الشوارع المقنطرة، لم يسعّ البناؤون ورعاة أعمال البناء العثمانيون أبداً إلى إحياء التقاليد الرومانية والبيزنطية العريقة.

في النصف الثاني للقرن السابع عشر، لم تشهد إلا أدنة على هذه المواكب الإمبراطورية. وبدلاً من ذلك، سادت في إسطنبول عروض يومية لأتباع الباشوات النافذين والمواكب الخاصة بالجنّازات والأعراس. نجد مثلاً على القوّة في صورة الباشوات وأعضاء الديوان الذين يتقلون مرتين على الأقل ذهاباً وإياباً بين القصر والقوناقات (وهي كما ذكرنا مساكن أتباعهم ومكاتبهم ومراكزهم، وكل منها قصر قائم بذاته). يشير نعيمة، المؤرخ البارز في أواخر القرن السابع عشر^(٣٦)، إلى أفراد الحاشية الذين يتقلون في ديوان يولو ومحيطه وفي محيط القصر، لا في المناسبات الاحتفالية

(٣٤) Stefan Yerasimos, «The Imperial Procession: Recreating a world's order,» and Doğan Kuban, «The Miniatures of Surname-I Vehbi,» in: *Surname: Sultan Ahmed the III's Festival of 1720* (Bern: Erug Editions, 2000).

(٣٥) يمكن الحصول على نسخة طبق الأصل لسورنامه مع نصوص وتراجم في: Surname, Ibid., p. 32.

Naima, *Annals of the Turkish Empire from 1591 to 1659 of the Christian Era.*

(٣٦)

وحسب، بل عندما تعقد اللقاءات السياسية أو تحاك المؤامرات. في عام ١٦٤٤، أعاد كيثودا بيه، مراد آغا، المعين حديثاً، إحياء التقليد القديم للهِتاف والتصفيق (الألكيش) المزدوج من قبل أتباعه للكيثودا الكبير لدى عودته من الديوان، عند الخروج أولاً من قصر توبكابي، ولاحقاً عند خروجه من مسجد السليمانية حيث يطلقون أمامه الهِتاف نفسه. لم تغلب المباني الإمبراطورية الفخمة (باستثناء شاه زاده وبايزيد) على مشهد ديوان يولو، فقد كان مزدحماً بأضرحة الباشوات والمدارس والمكتبات والحزيرات (وهي مدافن حضرية صغيرة ضمن الكلية) (انظر الرسم الرقم (٢٠-١٨)).

الرسم الرقم (٢٠-١٨)
ديوان يولو في لوحة تعود إلى أواسط القرن التاسع عشر



كانت الأضرحة والقبور الضخمة أحد المكوّنات النفسية والسياسية المهمة للعقلية العثمانية. لم يبن سوى القليل من أضرحة السلاطين في الجانب الغربي لمحور الديوان: محمد الثاني (ت ١٤٨١) عند الفاتح، وبايزيد الثاني (ت ١٥١٢) عند بايزيد، وسليم الثاني (ت ١٥٧٤)، ومراد الثالث (ت ١٥٩٥)، ومصطفى الأول (ت ١٦٢٣)، وإبراهيم (ت ١٦٤٨)، في آيا صوفيا، وأحمد الأول (ت ١٦١٧)، وعثمان الثاني (ت ١٦٢٢) ومراد الرابع (ت ١٦٤٠) في مجمّع السلطان أحمد المجاور. لكن بين عامي

١٦٤٨ و ١٧٨٩، بنيت كافة أضرحة السلاطين (باستثناء سليمان الثاني وأحمد الثاني اللذين دفنا في مجمّع السلیمانیة) بعيداً منه، ويبدو أنهم كانوا يفضلون أن يُدفنوا بالقرب من المساجد المركزية داخل المناطق التجارية المهمة (تحديداً في مسجد يني جامع - إمينونو في لاليلي).

وفي المشهد اليومي، كانت قبور الباشوات ومقابر ديوان يولو أهم كثيراً. فحتى لما كان يتم إنزال رتبة الصدر الأعظم (هذا ما حصل لجميعهم تقريباً) أو حتى ضرب عنقه (كما حصل للقليل منهم)، أو مصادرة ما لديه من قوناكات ومنازل شاطئية (يالي)، فإن ضريحه وأضرحة أبنائه وعائلته لم تلمس وكانت تظل واقفة كمعالم في المشهد العمراني.

لم تكن تربة الباشوات منعزلة، بل كانت تقع ضمن الأراضي متوسطة الحجم وحتى الصغيرة التي سبق أن تبرّعوا بها، يزيد من أبعثها المدافن الحضرية الصغيرة (الحزيرات) والنوافير (انظر الرسم الرقم (٢٠ - ١٩)).

الرسم الرقم (٢٠ - ١٩)

أمثلة لأضرحة من القرنين السابع عشر والثامن عشر



سابعاً: تداعيات التحوّل

زادت أعداد «المرافق العامة» الوقفية - مدارس الصبيان والمكتبات والسبل والنوافير والتكايا - في القرن الثامن عشر وأصبحت أكثر انتشاراً، بالرغم من أنها باتت أصغر حجماً وأقل تكلفة من السابق. واكتسبت العناصر الثانوية، مثل النوافير والبوابات، في ذلك الحين أهمية مبهمة. وأضفت جدران الحزيرة ذات الفتحات الناعمة والمتظمة، تنوعاً كبيراً وإبداعياً سواء في شكل الفتحات الإفرادية أو تفاصيلها.

تظهر جدران الحزيرة والنقوش التأيينية دقةً بالغة تهدف إلى توفير أكبر قدر من الشفافية وإمكانية الرؤية من الشارع. وأصبح تقسيم المجمعات التابعة للوقف إلى أقسام صغيرة والأهمية المتزايدة المعطاة للعناصر الإضافية، في سياق تقنيات التشكيل المتعددة، مصدر قوة بدل ضعف ويات ينفذ بطرائق أكثر رقة.

ظهر في القرن الثامن عشر كذلك ترابط شكلي أكثر دقة بين العناصر المدنية، ودرجة معينة من التكامل بين المباني الضخمة والحياة المدنية. وقد عبّرت بعض الأمثلة في أواخر القرن السابع عشر، مثل مجمع أمجزاده حسين باشا، عن الحاجة إلى توحيد التباينات المتبادلة وتقليلها بين عناصر الكلية. فنجد أن تكوينها بات أكثر نعومة وهو ما جعل الانتقال الشكلي سلساً من عنصر متميز إلى عنصر آخر. وفسحت النماذج الأغنى لكل عنصر، مثل العقود الكابولية الكبيرة والفتحات الكثيرة في جدران المدافن والترب، في المجال أمام المنظور العمراني الذي جاءت به لاحقاً الباروكية العثمانية^(٣٧).

لم يكن الإحساس باستمرارية الحيز مجرد تطور لغوي، بل جرى اختباره في الشارع المقنطر للوزير الأعظم إبراهيم باشا الذي سبقت الإشارة إليه (يسمى ديركلراراسي) بالقرب من شاه زاده، ويقناطر الدكاكين؛ بعد ذلك بثلاثة عقود، في الجانب الشمالي الغربي من مجمع النورعثمانية.

يمكن أن تكون الفكرة - الفريدة بكل أسف - آتية من الغرب، لكن حجم وشكل العناصر المتتابعة للقناطر يذكّرنا بالأمثلة البيزنطية المتواضعة والفنطرة المركزية في عنجر القرن السابع، قلب المدينة المقنطر الوحيد في الإسلام.

(٣٧) انظر: Maurice Cerasi, «Un Barocco di Citta: Transformazioni linguistiche e tipo-logiche nel settecento ad Istanbul,» *Quaderni di Storia dell'Architettura*, no. 3 (2000), pp. 81-102.

توسعت المناطق التجارية في المدينة في تباين واضح مع التراجع التدريجي للدور الاقتصادي للمدينة في منطقة البحر المتوسط. ويات المسكن أكثر تهذيباً من حيث التكوين وتقنيات البناء، ونفذت التقانة الغربية والذوق الغربي إلى أوجه الحياة كافة. لكن الحضارة العمرانية العثمانية ظلت حتى الربع الثاني من القرن التاسع عشر محتفظة بهويتها الخاصة التي تكوّنت خلال فترة التحوّل الطويلة التي امتدت من عشرينيات القرن السابع عشر إلى خمسينيات القرن الثامن عشر.

الفصل الحادي والعشرون

بُخارى وسمرقند

أتيليو بيتروشيولي^(٥)

أولاً: النظام المدني

تعتبر بُخارى وسمرقند، مثل أي مدينة أخرى، نظامين حيويين خضعا باستمرار لعمليات تغيير زادتتهما غنى. ولهذا السبب لا يمكن تحليلهما كوحدات كاملة بوجه عام وإنما يجب أن يفكَّكا إلى مكوّناتهما الثلاثة: (١) بنية المبنى الذي يشمل نسيج البناء (السكني) الأساسي ونسيج البناء (العام والتجاري) المتخصص؛ (٢) الحركة، التي تتألف من الطرقات وعلاقاتها الهرمية بنسيج المبنى؛ (٣) نقاط التقاطع أو النقاط المركزية ونقاط استقطاب لا تشمل المباني التذكارية فحسب وإنما لحظات الانقطاع في النسيج البنائي أيضاً، مثل الساحات والمداخل والمخاضات.

وفي الوقت عينه، من المهم إدراك كيف أن كلاً من هذه المكونات مترابط بالآخر وكيف أن نسيج بناء المباني متصل بالطرقات، والطرقات متصلة بنقاط التقاطع، ونقاط التقاطع متصلة بنسيج المباني. وبدءاً بخريطة المدينة سنحلل هذه المكونات الثلاثة ونصنّفها، ومن ثم سنركّز على المباني التذكارية على انفراد.

(٥) باحث إيطالي.

ثانياً: النسيج المدني والمباني التذكارية

يعود نسيج بناء مدينتي بُخارى وسمرقند العصريتين إلى بداية القرن السادس عشر وحتى عام ١٨٦٨ في ظل حكم سلالة أوزبك خان. ويجب تحليل أي شيء تم شيده قبل هذا التاريخ بطريقة استرجاعية من خلال الآثار المخلفة في التنظيم المدني بواسطة عملية رمزية. ينطبق هذا الإجراء قبل أي شيء على العهود العظيمة الثلاثة التي شكّلت تاريخ هاتين المدينتين: العصر ما قبل الإسلامي والتصميم الهيليني للشهرستان البخاري بوجه خاص، والعصر الساماني، والعصر التيموري. يصف هاينز غوبي في مقالته «بُخارى في القرن التاسع» لجهة موقع مداخلها وطرقها الرئيسية^(١). فالصورة التي رسمتها الأدبيات المعاصرة هي صورة مدينة امتدت وراء الشهرستان إلى ضواحي الربض المعروف بحسار نو، وإلى الغرب وراء الريحستان (الميدان)، وإلى الجنوب وراء قناة شاهرود. أما في الشمال فقد امتدت المدينة إلى ضريح السامانيين أي نحو عام ٥٠٠ م وراء السور الحالي. ويبدو أنه في لحظة ما خلال العصر الساماني كانت دفاعات المدينة مسترخية لمصلحة هذا النسيج المشتت تماماً الذي يشبه حديقة مدنية. كما تركزت الأسواق والنشاطات التجارية في جنوب الشهرستان حيث كانت تصل القوافل خلف باب بازار نارشاخ دار (انظر الرسم الرقم (٢١ - ١)).

يتميز الشهرستان بنوعين مختلفين من النسيج المدني لجهة الاتجاه والكثافة: (١) بيوت البناء الأكثر تجانساً، المجمعة بكثافة، ولها واجهات تركز على وحدة قياس بين ١٢ و ١٥ م؛ (٢) ومباني تذكارية مجموعة بأقل كثافة تتطابق أبعادها مع وحدة قياس عددية أعلى وتظهر في خريطة المدينة مع السماكة الثابتة لجدرانها. هذا التسلسل لبنايات ضخمة ذات فناء ومتصلة بمتاجر ومفترقات طرق مقيّبة بواسطة شبكة وحدات قياس أصغر هو مشابه للأسواق الشرقية الكبرى في أصفهان أو كاشان في إيران المجاورة.

A. Gangler, H. Gaube and A. Petruccioli, *Bukhara: The Eastern Dome of Islam* (Stuttgart; (١) London: [n. pb.], 2004).

p. Guneo, *Storia dell'urbanistica: Il Mondo islamico* في: الدراسات الحضرية في: *Vseobshaja istoria arkhitektury* (Bari: [n. pb.], 1986); I. I. Nokin, «ArkhitECTura Srednej Azii XIII-XIV v.» *Vseobshaja istoria arkhitektury* (Moscow), no. 5 (1996); B. Pnvrochazka, *Bukhara* (Prague: [n. pb.], 1993), and A. Petruccioli, ed., *Bukhara: The Myth and the Architecture* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1990).

O. A. Sukhareva, *Kvartal'nata obshchina pozdnefeodal'* انظر: *nogorodo Bukhary* (Moscow: [n. pb.], 1976).

الرسم الرقم (٢١ - ١)
مدينة بخارى: التنظيم المدني



يضم الشهرستان خمسة طرق رئيسية أفقية وتسعة طرق عمودية فرعية. وكما هو مبين في رسم بولشاكوف^(٢) (١٩٧٣) البسيط للتنظيم المدني وتحليله لتراصف الجدران، يتبع تصميم الشهرستان وجزء من الرض لجهة جنوب باب السوق، بوجه عام، اتجاه النقاط الرئيسية.

ومع أنه يصعب القول إذا ما كان هذا التصميم متعلقاً بالنسيج الهيليني / الكوشاني القديم أو إذا ما كانت البيوت المستطيلة التي يفترضها بولشاكوف متعلقة بتراصف الجدران، فإن استمرارية المؤسسات تشير إلى عصر ما قبل الإسلام. وبالطبع، كان يتم إعادة تراصف الجدران في وقت لاحق، وهي عملية كان يمكن أن تكون ممكنة فقط لو تم تدمير الشهرستان بالكامل وهجره بعد الفتح العربي. علاوة على ذلك، تتحدث السجلات التاريخية عن تقسيم سلمي بين السامانيين والسكان المحليين. وتبدو حتى أقل احتمالاً مسألة إعادة تخطيط المدينة بعد جنكيزخان (القرن الرابع عشر) لأننا كنا لنجد آثاراً لها في السجلات التاريخية.

A. M. Belenitskii, I. B. Bentovich and O. G. Bol'shakov, *Srednevekouyi gorod Srednei Azii* (٢) (Leningrad: [n. pb.], 1973).

أما النسيج الذي يشمل المباني التذكارية التيمورية لمسجد كاليان ومدرسة أولغ بك، فضلاً عن مباني البازار التذكارية، مثل تيمتشه (بازار) عبد الله خان، فهو أقل اتساعاً من الشهرستان لكن له الأهمية ذاتها.

وبحسب الشبكة الواسعة التي نشرها غينزبورغ عام ١٩٣١^(٣)، يعمل دوران هذه المباني التذكارية (بنحو ١٠ درجات بالاتجاه الجنوبي - الغربي) كمغنطيس بالنسبة إلى المباني المحيطة الواقعة في جنوب مسجد كاليان وفي المنطقة الواقعة شرق بازار عبد الله خان التي تضم مسجد مولانا شريف ومسجد بازار غول ومدرسة تركمان ونزل ميرزا توردي. كما أن نسيج المباني المتخصصة المتفرقة مترافقة بالدوران نفسه كمدرسة ترسن خان.

وبالرغم من أن مدرسة مولانا شريف تقع في قلب منطقة دهقان المترافقة مع المحاور الرئيسية نجدها مترافقة مع المباني التيمورية. وكذلك نجد كروانسرائي (نزل) ميرزا توردي وهو نموذج عن هذا الترابط ضمن التنظيم المدني الذي يتراصف مع النسيج الكوشاني على جهات ثلاث ومع النسيج التيموري على الجهة الرابعة.

تدور الخانقاه والمنطقة التي تحمل الاسم نفسه، والتي تم تشييدها في النصف الأول من القرن السادس عشر، إضافة إلى الحوز ومسجد خوجة زين الدين، باتجاه الجنوب الغربي، وهي أبعد من أن يتم ربطها بالنسيج التيموري. فهي تشكّل جزءاً مستقلاً من النسيج المدني الناتج من الخط المائل للشارع الواقع بين باب بني سعد والجسر الساماني فوق قناة شاهرود (انظر الرسم الرقم (٢١ - ٢٢)).

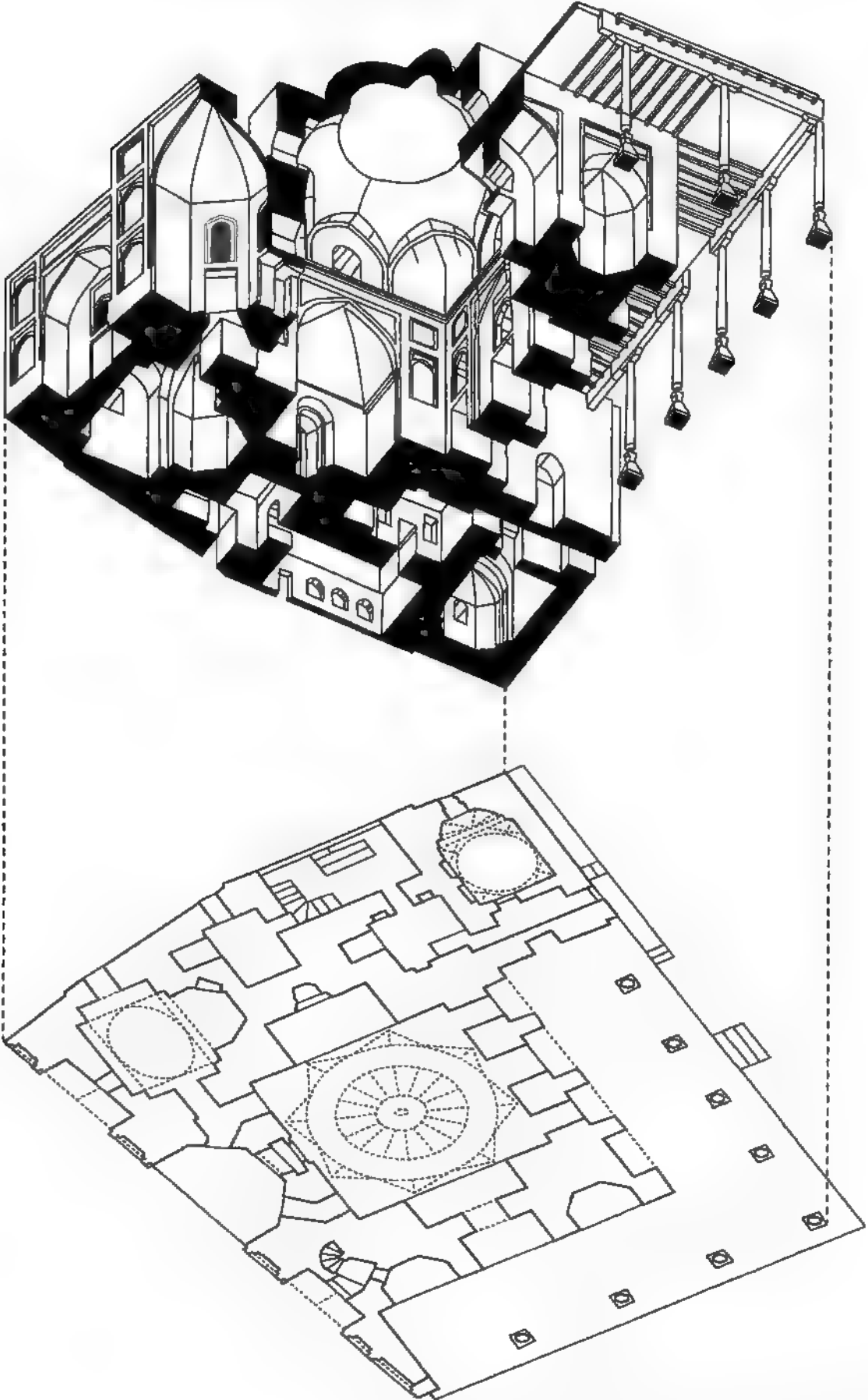
تتراصف مساجد الغُدر (الجوار) في الشهرستان^(٤)، والمصليّات والمدارس الابتدائية الصغيرة والمستودعات الصغيرة، والمباني الاجتماعية المتوسطة الحجم التي ارتفعت فوق مزار قديس صوفي، سويّة مع المحاور الرئيسي؛ بمعنى آخر مع نسيج مبان قديمة ما قبل إسلامية. من جهة أخرى، تتراصف المساجد التيمورية كافة مع مسجد كاليان، وهو ما يناقض بالتالي فكرة وجوب أن يكون المحراب باتجاه مكة. في الواقع، شكّل إنشاء القبلة، ومن ثم اتجاه المباني الدينية، عملية دينامية تعتمد على توجيهات من السلالة الحاكمة كما تعتمد على الحسابات الدورية التي يقوم بها الفلكيون^(٥).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) Gangler, Gaube and Petruccioly, *Bukhara: The Eastern Dome of Islam*, pp. 117-125.

(٥) M. Bonine, «The Sacred Direction and City Structure: A Preliminary Analysis of the Islamic City,» *Muqarnas*, vol. 7 (1990), pp. 50-72, and *Encyclopedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1965).

الرسم الرقم (٢١ - ٢)
مجمع خوجة زين الدين في بُخارى



مشهد رقمي من تحت يظهر قاعة الصلاة، رواق الأعمدة، والضريح.

يمكن العثور على تفسير مقنع باجراء مقارنة مع سمرقند، وهي العاصمة التيمورية الواقعة في جنوب هضبة أفراسياب حيث نسيج المباني مصمم باتجاهين مختلفين: الأول هو الاتجاه الشمالي الغربي للريجستان حيث توجه مساجد الغُدر محاريبها باتجاه الغرب في محاذاة المحاور الرئيسية. أما بقية المدينة والمباني التذكارية الأخرى، مثل مسجد بيبي خانم، فهي على الصف ذاته مع الريجستان بدوران ١٠ درجات تقريباً في الاتجاه الجنوبي الغربي، على الرغم من أن جوري أمير القائم فوق موقع ديني أقدم ينحرف عن هذا التراصف. هكذا نجد نوعين من التراصف: الأول الذي يعود إلى النطاق الممتد خلف أسوار أفراسياب ويرقى إلى العصر الساماني أو حتى قبل ذلك ويتجه في محاذاة المحور الرئيسي؛ والثاني يتعلّق بمباني الريجستان الثلاثة (التي يمكن أن يرقى من بينها مسجد أولغ بك إلى عام ١٤١٧ ومسجد بيبي خانم إلى فترة أبكر قليلاً أي بين عامي ١٣٩٩ و ١٤٠٤) وجزء كبير من المدينة التيمورية.

فرض تيمورلنك رؤيته على نسيج البناء الساماني المنتظم إلى حد ما، الذي كان على الأرجح ينحصر في الشبكة الشرقية، بمركزها التجاري المتدرج على طول خط يمتدّ من الريجستان إلى باب أفراسياب. وقد تم تنفيذ البناء على مرحلتين: سلاسل بنايات على مراحل قبل المباني التذكارية بدوران ١٠ درجات تقريباً في اتجاه الجنوب الغرب/الشمال الشرق، تلتها سلاسل محاور نصف قطرية مركزها الريجستان وتخترق نسيج البناء الساماني القديم^(٦).

يمكن التعرف بسهولة إلى دور المحاور نصف القطرية في الخرائط المثلثة وشبه المنحرفة على طول محيطها. فقد حدث شيء مماثل في بُخارى: هنا جرى فرض نسيج مباني تيمورية فوق مباني تعود إلى ما قبل الإسلام موجهة وفقاً لخط تراصف واحد، بينما تمثل الفرق الوحيد بكون محور الشارع الرئيسي توسيعاً لطريق سابق يسير بموازية قطع المباني بحيث لا يتداخل نسيج المباني، ويؤمّن وبالتالي بقاء هذه القطع منتظمة.

لا يتوقف التشابه مع سمرقند عند هذا الحد، ذلك بأنه في الحالتين يبدأ المحور الأساسي من الريجستان، في سمرقند نحو أفراسياب (وهي اليوم شارع طشقند)، وفي

M. Bernandini, «The Ceremonial Function of Markets in the Tumorid City,» edited by A. (٦) Petruccioli, *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design*, vols. 1-2 (1991), pp. 90-97.

بُخارى نحو الباب الشرقي للشهرستان. ويقع على هذين الطريقين المتشابهين وعلى التوالي مسجد بيبي خانم العظيم ومسجد كاليان (ترقى خريطة الأخير إلى العصر التيموري). ويبدو التغيير في التراصف هنا جزءاً من مشروع تيمورلنك المتعلق بالسلالة الحاكمة من أجل إعادة تخطيط المدينة وفقاً لصورة الحاكم تاركاً بالتالي علامة يتعذر إزالتها على البنية المدنية بمبانيها الجليلة وعلى غنى زخرفتها المتعددة الألوان (انظر الرسم الرقم (٢١ - ٣)).

الرسم الرقم (٢١ - ٣)

مجمع كاليان (أي عند أقدام صاحب العظمة)



هو آية معمارية من آسيا الوسطى. فالتصميم البديع وبوابات المسجد الرائعة، المدرسة، ومثناة أرسلان خان لطالما أثارت الإعجاب لعظمتها والتناسق الذي فيها.

الشكل المدني لسمرقند هو نتيجة سلسلة تحولات متأخرة في المخطط العقوي الموجود سابقاً. فالموقع الذي تحتله المدينة اليوم لا يتطابق مع موقع المستوطنة السكانية الأولى في المنطقة. أما ماراقند العاصمة القديمة للمرزبانين فهي تقع في الواقع على المنحدرات الشمالية لهضبة أفراسياب - وهو نظام ارتفاعات أرضية طبيعية تحددها تخوم جبلية دقيقة وتسيطر على السهل باتجاه الجنوب. وبعد الهجمات التي شنها المغول عام ١٢٢٠ والتدمير اللاحق للمدينة هجرت ماراقند.

وهكذا تكشف مدينة سمرقند في فترة ما قبل العصر التيموري عن بنية تفرض تركيب العديد من الأنظمة المدينية، وقد حُطّط لأحدها على الأرجح خلال العصر القراخاني^(٧) الذي فُرض على نسيج المباني الأول خارج جدران ماراقند.

نستطيع فهم منظومة النمو والتحول من خلال المعلومات التي نملكها حول تطور العاصمة السابقة. يقع قلب المدينة على الحدود الشمالية الأبعد من هضبة أفراسياب الذي لا يمكن النفاذ إليه من الشمال بسبب وجود جرف شديد الانحدار ولا يمكن بلوغها بالتالي إلا من الغرب. وقد تم تأمين صلات بباختريا عاصمة المرزبانية المجاورة عبر طريق يلتفّ حول حافة الهضبة من الغرب بينما يتّجه جنوباً. يمتد هذا التصميم، الأقدم على الأرجح، من الشمال إلى الجنوب عبر النسيج الحالي لسمرقند ويحاذي قناة طبيعية - قد تكون القلعة التيمورية واقعة خلفها باتجاه الغرب - تسير قليلاً ربما باتجاه الشرق إلى الموقع الذي يشغله اليوم ضريح روح أباد. تتجمع المستوطنات الأقدم عفواً بمحاذاة هذا الطريق بينما يتم فصل نسيج مبانيها باتجاه شرقي - غربي. وحتى الآن يمكن التعرف إلى اثنتين منها: الأولى تقع بالقرب من المنطقة التي يشغلها الريجستان وتمتد إلى شرق الطريق الأم؛ والثانية تتشر حول غور أمير وتمتد باتجاه الغرب.

جاء توسع ماراقند، بدءاً من نواتها الأولى هذه، باتجاه الجنوب مستفيدة من المنحدر الطبيعي البسيط للهضبة التي أنشئت عليها. وقد تم بناء أسوار دفاعية جديدة^(٨) من الجهة الجنوبية بحيث يدخل المرء إلى المدينة عبر باب يطلّ على طريق جديد مواز للطريق السابق. ينفصل هذا الطريق عن الطريق الأقدم عند مخاضة كانت تقع على الأرجح خارج حدود المدينة التيمورية. من هنا، ينعطف الطريق بالاتجاه الشمالي - الشرقي ويسير بموازية الطريق السابق بجانب مجرى مائي آخر.

نستطيع إلى الآن، في نسيج سمرقند، أن نرى بوضوح هذا المخطط، الذي يمتد كسابقه باتجاه شمالي - جنوبي. يجتاز المخطط كل الأراضي التي ستشكل المدينة المستقبلية ويطوف حول منطقة الريجستان ومنطقة مسجد بيبي خانم، إلى أن يصل إلى

G. Andriani [et al.], «Samarkand: The Planned City. A Hypothesis of Structure through the (٧) Reading of the Historical Restoration,» in: *The Planned City*, Atti del Convegno Internazionale (Trani: [n. pb.], 2003), and L. Pisano, C. Rubini and p. Traversa, «Samarkand: A Case Study of Urban Restoration and Renewal,» in: *The Mediterranean Medina*, Atti del Seminario Internazionale (Pescara: [n. pb.], 2004).

Belenitskii, Bentovich and Bol'shakov, *Srednevekouyi gorod Srednei Azii*.

(٨)

الباب الجنوبي لمراقند. كما يخوض الطريق قناة أخرى لا تزال آثارها واضحة في بنية سمرقند المدينة في موازاة بازار تشهار سو الواقع في منطقة الريحستان الحالية. ومن هنا شمالاً يقطع الطريق المنطقة المجاورة لمسجد بيبي خانم من جهة القبلة ومن ثم يتابع باتجاه باب أفراسياب.

وكما في الحالة أعلاه، خضعت القنوات الطبيعية والاصطناعية في الأرض لعملية تحويل بدورها، فمع مرور الوقت امتلأت القنوات الموازية للطريق الأم مشكّلةً بالتالي طرقاً مدنية جديدة. نستطيع أن نرى في الشكل المدني لسمرقند كيف أنّ الطرق الأم الواقعة في شرق محور الاتصالات المهم هذا تدور على ٩٠ درجة وتمتدّ باتجاه شرقي - غربي إلى حدود قناة المياه الطبيعية.

يتطابق اتجاه هذه الطرقات مع اتجاه المدرسة القراخانية المدمرة الآن، التي اكتشفت بقايا منها في منطقة شاه زنده بالقرب من ضريح قثمة بن العباس^(٩). تشكّل هذه المباني زاوية ١٠ درجات تقريباً مع الاتجاه الجنوبي - الشرقي. والمسافة بين الطرقات الشمالية الأبعد والطرقات الجنوبية الأبعد بعيدة إلى حد أن التشهار سو المشيّد في القرن الثامن عشر وبالتالي المخاضة التي تقوم عليها البناية، يقعان على الخط المركزي للطريق الذي يجمعهما. ويبدو أن الطريقين الرئيسيين الداخلين يلتقيان عند هذه المخاضة.

يتميز الطريق الأم الشمالي الأبعد بعقدة عند النقطة حيث كان يقع على الأرجح باب ينفذ إلى قاعدة جديدة. ومن ثم يتفرّع من هذه النقطة العقدية محدثاً بالتالي طريقاً آخر ويستمر باتجاه شمالي - غربي نحو بُخارى مجتازاً المنطقة التي شغلها لاحقاً مسجد بيبي خانم. أما الطريق الجنوبي الأبعد فيتابع باتجاه شاهريسابز إلى النقطة التي سيلتقي فيها طريق آخر يصل بعيداً إلى باب الأسوار التيمورية. وهكذا يمكننا مشاهدة مبنى مربع له تخوم محددة بدقة يبلغ طول كل جانب نحو ٩٨٥ م. لذلك يمكن افتراض مرحلة تخطيط على الأرجح تكون مرحلة قراخانية بعدما أصبحت المساحة المتوافرة للبناء على أفراسياب تامة ومكتظة وقبل تدمير مراقند وهجرها نهائياً في إثر النهب الذي قام به المغول (١٩ آذار/ مارس ١٢٢٠).

(٩) N. B. Nemtseva, *Ansambl' Shah-i Zinda, Zodcestva Uzbekistan* (Tashkent: [n. pb.], 1970).

حول مدرسة تامغاش بورغا - خان، انظر: «Medrese Tamgach Borga-Khan v Samarkande», *Afrasiab*, no. 3 (1974).

في العصر التيموري خضع هذا النظام لتحولات عميقة، فقد استولى تيمورلنك على بنية مدنية موجودة من قبل، نظام الطريق الشعاعي الجلي في هرمية العقد التي نُظِّم حولها النسيج العشوائي لريض ماراقند. من خلال افتتاح طرق جديدة حصلت المدينة على بنائها الشعاعي الحالي ومركزه الريحستان. لقد أمر تيمورلنك بإنشاء محور موكبي وتجاري جديد^(١٠) وصل بعيداً إلى واجهة مسجد بيبي خانم الجديد المكلف به. ونجد وصفاً مباشراً لهذا الطريق والتدمير اللازم لبنائه في مذكرات روي غونزاليس دي كلافيجو^(١١)، مبعوث ملك كاستيل وليون، الذي قدم إلى المدينة بالنيابة عن هنري الثالث في ٨ أيلول/سبتمبر ١٤٠٤. من هذه النواة الرئيسية كانت عاصمة المملكة موضوع تحولات عميقة على مرّ القرون، إلى أن بلغت وضعها المكاني الحالي في القرن السابع عشر فقط حين تم تشييد تلاً قاري آخر المدارس المحددة لهذه المساحة.

جرى تشييد مسجد بيبي خانم الجامع بدوران ٨ درجات تقريباً في الاتجاه الجنوبي - الغربي، وهو مشابه لما حصل لضريح روح أباد ومدرسة أولغ بك. أما البنايات الأخرى التي تحدد الريحستان اليوم أي مدرسة تلاً قاري (في القرنين الخامس عشر والسادس عشر) ومدرسة شير دور (١٦١٩ - ١٦٣٦) فهي تدور في الاتجاه نفسه بنحو ١٠ درجات بينما جاء دوران مجمّع غور أمير أكثر (بنحو ٢٠ درجة في الاتجاه الجنوبي - الغربي).

يقوم طريق ثان في التنظيم المدني الجديد، الذي يتقدم من التشهار سو في الريحستان ويؤكد الطبيعة الشعاعية للخريطة الجديدة، باختراق النسيج الموجود سابقاً بخط قطري في الاتجاه الجنوبي - الشرقي وصولاً إلى الباب الذي يقود إلى مستوطنة شاهريسابز، وهي مستوطنة قبيلة بارلاس التي يتحدّر منها تيمورلنك. وانطلاقاً من الريحستان مرة أخرى مرّ طريق متجه غرباً فوق جسر غاتفر إلى القلعة التيمورية الجديدة. كما بلغ طريق نصف قطري آخر في الاتجاه الجنوبي - الغربي موقع غور أمير، وهو مجمّع ديني متعدد الوظائف وقبر تيمورلنك وسلالته.

(١٠) S. E. Ratitja, *Mec'et Bibi Chanum* (Moscow: [n. pb.], 1950), p. 14, plate 6.

(١١) F. L. Estrada, ed., *Ruy Gonzales de Clavijo: Embajada a Tamorlan. Estudio y edicion de un manuscrito del siglo XV*, critical edition (Madrid: CSIC, 1943).

وانظر الطبعة الفرنسية في: R. Gonzales de Clavijo, *La Route de Samarkand au temps de tamurlan* (Paris: Imprimerie Nationale, 1990).

وقد أعيد طبعته عام ٢٠٠٢. انظر أيضاً الطبعة الإنكليزية لمذكرات كلافيجو، في: C. R. Markham, *Narrative of the Embassy of Ruy Gonzales de Clavijo to the Court of Samarkand, A. D. 1403-1406* (London: Hakluyt Society, 1895).

ومع ذلك، فإنّ المدينة الجديدة المفوضة لتيّمور مبنية فوق التصميم الساماني والقرخاني وتقوم في آن معاً بتفكيكه. وفي الوقت عينه، تلحظ صورة مخططها المركزي دورها كعاصمة للإمبراطورية وكمركز للعالم. تربط بوابات سمرقند، التي تشبه المخطط الدائري لمدينة المنصور في بغداد القديمة، المدينة بعالم تتعرف فيه إلى جذورها وتمتد إليه وتسعى إلى فرض سيطرتها السياسية والعسكرية: في الاتجاه الشمالي - الشرقي إلى أراضي المغول وهي السلالة التي يزعم تيّمورلنك التحدر منها؛ وفي الاتجاه الجنوبي - الشرقي إلى مدينة مسقط رأس قبيلة بارلاس؛ وفي الاتجاه الجنوبي - الغربي إلى المناطق التي كان الخلفاء العرب يسيطرون عليها؛ وفي الاتجاه الغربي إلى بُخارى عاصمة بلاد ما وراء النهر (ترانسوكسيانا) القديمة.

ثالثاً: الطرق ونسيج المباني

في بُخارى، تنطلق سلسلة جبال طويلة ومنخفضة في الشرق وترتفع إلى القلعة والمدينة (الشهرستان) ومن ثم تتسطح لتشكل رعناً منخفضاً. وتجري قناة زرافشان عبر سفوح الجبال الشمالية باتجاه جنوب قناة شاهرود، وتلتقي القناتان خارج المدينة غرب الريجستان. ومنذ البداية حددت هذه الطبوغرافيا تصميم الطرقات التي لا تزال مستخدمة حتى اليوم مع بعض الاستثناءات:

١ - يخرق الطريق الشمالي - الغربي الشهرستان عبر باب كلاباد أو نُو، ويتّجه شمالاً إلى القلعة عبر الباب الشرقي المعروفة بغوريان. هذا هو الطريق الأقدم الذي يسبق من دون أدنى شك أي مستوطنة في الشهرستان. وينطلق طريق بديل من باب بني أسد نحو باب طالب في ضواحي المدينة باتجاه خوارزم القديمة (خيوا).

٢ - المسار الشمالي - الجنوبي الذي ينحدر في الوادي البالغ عرضه ٧٠م، الواقع بين القلعة والشهرستان، والذي يعبر الطريق الشرقي - الغربي، هو أيضاً قديم جداً. كما كان المسار الذي لا يزال في الإمكان رؤيته في العديد من الشوارع المنسية القديمة في منطقة خوجة زين الدين يمرّ بمحاذاة مدرسة ترسن خان ويخوض قناة شاهرود بالقرب من مجمّع المدرسة الحديث ليعود أخيراً وينضمّ ثانية إلى شارع كراكول عند المدرسة الغازية الأصغر.

٣ - يغادر الطريق الشمالي - الجنوبي الباب الشمالي لشهرستان، وإذا يعبر الشارع الرئيسي يشقّ طريقه بحذر في قبة الصاغة (طاق زارغاران)، وطاق تلباك فُروشان (قبة

باعة القبعات) جنوب باب دار بازار السامانية القديمة، وقبة الصرافة (طاق صرافان) (مسار المخاضة ذات الضفاف الشديدة الانحدار). وبين قبة الصاغة (طاق زارغاران) وقبة الصرافة (طاق صرافان) يمرّ الطريق عبر نسيج المباني السكنية والتجارية قبل أن ينعطف مخترقاً الرض الجنوبي ليطوف أخيراً حول حوز الرشيد ليصل إلى باب رؤ أو سلخانة.

٤ - أما منطقة بُخارى التجارية فهي مجموعة طرقات تمتدّ من طاق تلباك فُروشان:

أ - الطريق الأفقي عند أسفل السد الجنوبي للشهرستان الذي يُعرف اليوم بشارع ميرزا ساتشاك يمرّ بمحاذاة مدرسة ترسن خان قبل أن يستدير شمالاً على نحو مفاجئ على طول منعطف شاهرود القوي ويدخل الريجستان تحت قبة بائعي الرمان (طاق أورد فُروشان). كما كانت تقع منطقة مُلّا أمير مباشرة في شمال شارع ميرزا ساتشاك وعلى طول ٥٠م بموازية قناة الشهرستان بين طاق تلباك فُروشان ومدرسة ترسن خان. وكان ذلك عبارة عن بنية متعامدة من المباني السكنية والمتخصصة في خريطة مشبكة تشمل مسجد الملّا أمير، وجامع تيم فُروشان وحمّامات ميري وتيمشيه لطيف ميراقي. أما البازار فقد كان مغلقاً من الجهتين بواسطة باب.

ب - ينتهي الطريق الجنوبي - الغربي المؤدي إلى باب كراكول ومنطقة خراسان ومجمع غوكوس خان الديني الشيباني عند القناة حيث نجد مثذنة خراسان. لا يمكن تفسير هذا الطريق إلّا من خلال وجود مخاضة قديمة بالقرب من المثذنة، وهي تعبر جسر الخندق كما هي مبينة في خريطة أوليغ بولشاكوف لبُخارى في القرن التاسع عشر^(١٢).

ج - كما تم لاحقاً تحديد طريق ربط نحو الجنوب يصل طاق تلباك فُروشان بمخاضة بالقرب من الضفة الروسية من خلال التحول التدريجي نحو نقطة طاق صرافان المركزية.

د - وهناك الطريق الذي يمرّ في اتجاه شمالي - جنوبي (الفقرة ٣ أعلاه) وهو يشكل خط تماس مع جامع مغاك عطّار.

هـ - كما يوجد الطريق الفرعي الذي يبدأ عند الزاوية الجنوبية - الشرقية للمدينة قبل العصر التيموري ويعود ليدخل مجدداً إلى الشهرستان عبر الباب الشرقي.

تتبع أهمية المخاضة الواقعة بالقرب من مثذنة غوكوس خان من المحور التوجيهي المتجه نحوها بما في ذلك الطريق (الفقرة ب أعلاه) الذي يشطر شارع كراكول ومفرق الطريق الذي يحيط كلاً من جانبي مقبرة الترك جندي، فضلاً عن أحد الشوارع المحلية التي تتجه شمالاً بشكل مفاجئ. أما مخاضة الضفة الروسية فتحدها مجموعة الشوارع التي تلتقي عند هذه النقطة: شارع كراكول حيث المدرستان الشيبانيتان والمدرستان الغازيتان والربض المحيط بالحوز الذي لم يعد موجوداً؛ والشارع المؤدي إلى نمازگاه المعروفة اليوم بنمازغانسكيا أوليتسا التي تحيط بمقبرة الترك جندي؛ والطريق المفقود الآن في المنطقة النائية خلف المقبرة؛ والطريق الشرقي - الغربي عند الضفة الجنوبية لشاهروود التي تلتف حول حوز آب (بركة مياه) إلى باب كارش.

يشكل هذا الطريق، المعروف اليوم بجلافنايا أوليتسا، المنفذ الأساسي للسيارات الداخلة إلى المدينة من الشرق. كما تواجه مجموعة الشوارع المحاذية لمخاضة الضفة الروسية بمجموعة شعاعية مضادة تمتد من مخاضة غوكوس خان إلى جنوب قبة الصرافة (طاق صرافان) عبر مناطق الضاحية المكتظة بالسكان وفقاً لنمط يذكر بمنطقة لونغوباردو في مدينة بولونيا الإيطالية.

٥ - يجري الطريق الشمالي - الجنوبي من باب سمرقند إلى حوز آب خلف نادر ديوانبني حيث يقع مقر السينما اليوم. وعلى طول هذا الطريق نجد مسجد ومقبرة شاه بخشي ومسجد مولانا ميرزا ومسجد ومدرسة باي أستانا.

٦ - وأخيراً، نجد البنى التحتية المدنية الواسعة لجادة خيابان.

رابعاً: الأقطاب والنقاط المركزية المدنية

تشبه المدينة رقعة شطرنج مع مئات اللاعبين. يقوم كل لاعب بخطوة وفجأة يصبح كل شيء تحت رحمة التغيير والحركة. ومع إبقاء هذه الصورة في الذاكرة، يمكننا تعريف العقدة كنقطة مركزية في تبادل الحركة. ليس الجزء هو ما يهم كثيراً ولا حتى النقطة بذاتها، وإنما القوة التي تمارس على الموقع في ما يتعلق بالأجزاء الأخرى في لحظة معينة والتي يمكننا تعريفها بعقدة النقطة المركزية. تعتبر العقدة النموذجية أو النقاط المركزية مخاضات أو بوابات، ونقاط تقاطع بين طريقين عند مفترق طرق أو التشهار سو، والتقاطع البصري المجرد لمحورين هندسيين مثل المسلة. كما يمكن أن تشمل العقد مجمعات مباني في المواقع الرئيسية للمدينة. من جهة أخرى، يمكن اعتبار

القطب أكثر من عقدة - أي نقطة تغمر المحيط القريب - تؤثر كما كانت في الرقعة المدنية بأكملها.

هناك في قلب بُخارى ست مخاضات فوق شاهرود، وخمسة أطواق (قُبب) (لم تعد اثنتان منها موجودتين فعلياً) وأربعة مجمّعات هندسية كبيرة على الأقل يمكننا اعتبارها عقداً. ولم يعد بعض المخاضات مهماً: فلا بد أن المسار (١) الذي كان يجري في الوادي الصغير الواقع بين القلعة والشهرستان قد اختفى خلال العصر الساماني لأنه لا يظهر في خريطة القرن التاسع عشر. ونجد إلى شرق هذا المسار طريقاً قطرياً (٢) كان يسير من باب بني سعد الجنوبية - الشرقية في الشهرستان إلى المخاضة الواقعة فوق جسر خسكة.

ومع ذلك، يبقى المعبر الراجل القديم لمثذنة غوكوس خان مهماً، فهو الذي حدد غوكوس خان الشيباني الذي يعود إلى القرن السادس عشر والذي ضمّه بولشاكوف إلى جسر الخندق. تعود أهمية هذا المعبر إلى شكل المباني التذكارية غير المتناسق مثل الشكل الشبيه بالتابوت لكروانسراي (نزل) غوكوس خان، والشكل شبه المنحرف للمدرسة، التي يفترض أن تشرف على الطرقات. إنّ مدرسة عبد الرحمن علم مجردة من أحد جوانبها في ما يتعلّق بقناة شاهرود، بينما يمكن تفسير الشكل المضلع غير المنتظم لكروانسراي (نزل) عبد الله خان من خلال الشوارع التي لا بد أنها قادت مجدداً باتجاه باب البازار في العصر الساماني. وبالتالي لا بد أنها شكّلت أهم مخاضة في هذا العصر.

في أواخر القرن السادس عشر فقط، وبينما كانت عملية إعادة تخطيط المنطقة التجارية جارية، زادت أهمية المخاضة الواقعة بالقرب من الضفة الروسية (٤) إلى جانب شبكة الشوارع من الجنوب، تماماً كالمخاضة الواقعة أمام قبة الصرافة (طاق صرافان) (٥) والتي أصبحت مدخل مركز الشيباني التجاري^(١٣) بفضل الجسر محوّلة بالتالي الطريق الشمالي - الجنوبي لطاق تلباك فُروشان بحيث أصبح يمرّ أمام واجهة مسجد مفاك عطار المجدد حديثاً.

وكما هو مبين في مخطط بلدة مستوطنة شاهر يسايز المفوضة لتيمورلنك ومخطط هرات (١٤٠٤) المفوضة لابنه شاه رُخ، تُعتبر الأطواق أقطاباً معمارية تميّز التقاطع بين

(١٣) E. Nekrasova, *Die Basare Bucharas vom 16. Bis zum frühen 20. Jahrhundert: das Antlitz einer Handelsstadt im Wandel* (Berlin: [n. pb.], 1999).

شارعي بازار أو أكثر. ويبدو أن التركيبة المتدرجة الرائعة لغرف قرميدية مقنطرة ومقبية تعيد في المخطط توليد تعقيد النسيج المديني في الخريطة.

بقيت إلى اليوم ثلاثة أطواق في بُخارى. الأقدم هو قبة الصاغة (طاق زارغاران)؛ وهو مبنى تيموري يقع عند نقطة تقاطع الشارع الرئيسي (الشارع العريض) في الشهرستان. وهناك طاق تلباك فُروشان، الذي يقع مباشرة تحت باب بازار القديم عند نقطة الالتقاء بين شبكة شوارع آتية من الجنوب والشارع العريض القادم من الشمال. كما هناك قبة الصرافة (طاق صرافان) القائمة عند نقطة الالتقاء بين باب رُو والصفة الجنوبية لشاهرود (انظر الرسم الرقم (٢١ - ٤)).

لدى رؤية ارتفاع سلسلة المباني المقنطرة القرميدية التي تقوم بينها علاقات متبادلة تشكّل الأطواق تركيبات دورانية تعكس تعقيد البناء المديني على قياس معماري. إن طاق زارغاران البالغ عرضه ٤٤ م مقسّم إلى قسمين: قسم مركزي يشبه تصميم تشهار سو مستوطنة شاهريسايز وله محوران رئيسيان يتطابقان مع مداخل البشتاك الأربعة؛ والمحوران النصفيان على الخط القطري لربع الدائرة. يحدد المركز بممشى له قناطر فوق متاجر الحرفيين أو الدكاكين وتعلوه قبة قطرها ١٤ م على قاعدة مثمنة. تقوم القاعدة على تلّ أسطواني له نوافذ ومبانٍ متدلية لها شكل الترس متعددة التسلسل على شكل شبكة تتألف من ٣٢ قوساً متقاطعاً.

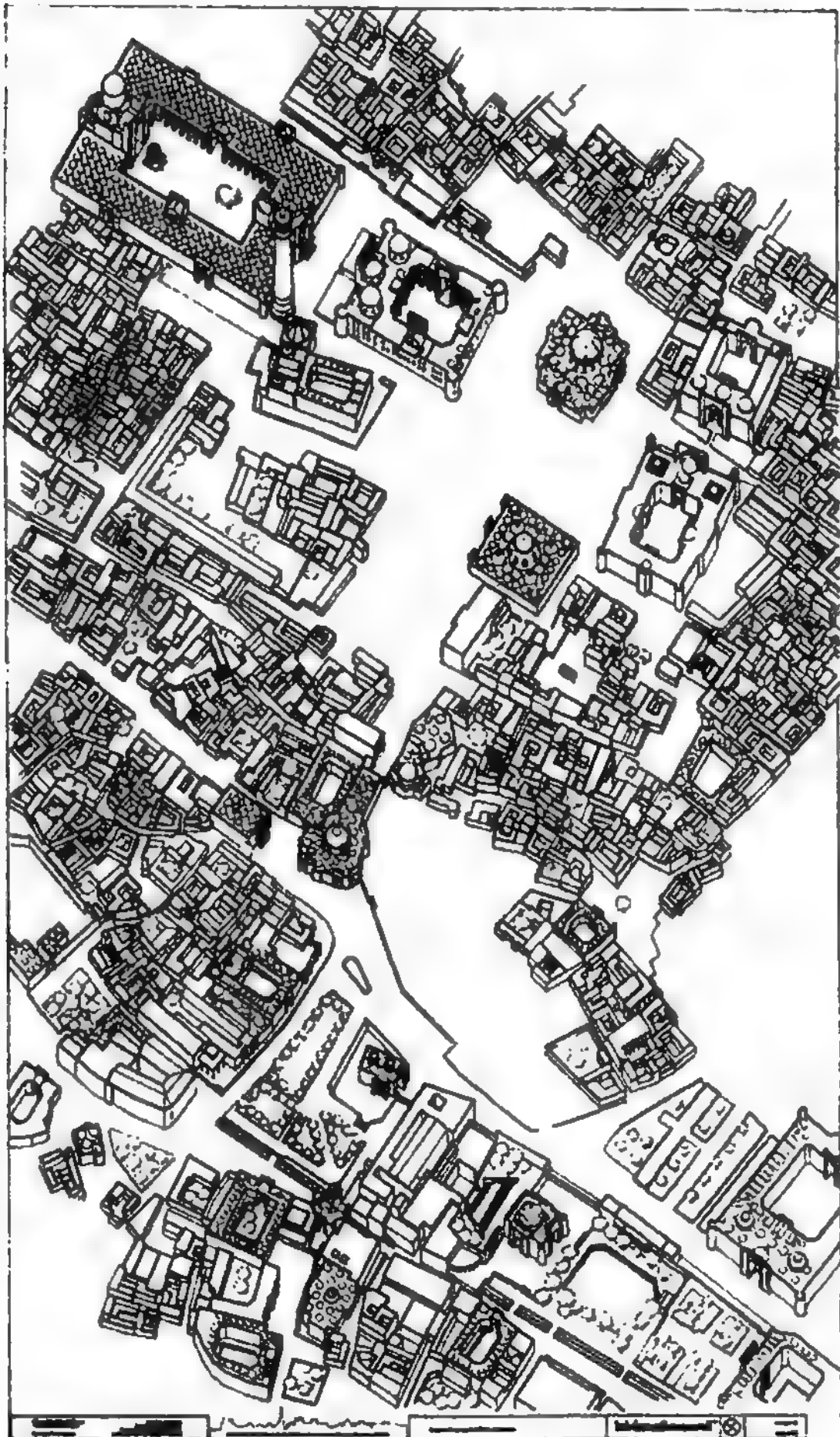
قبل عام ١٩٣٠ كانت أربعة شوارع مزدحمة تمرّ عبر طاق زارغاران محدثة مساحة داخلية ضخمة من دون أي جبهة أو واجهة. كما شكّلت القبة والعقود الجانبية جزءاً من النسيج المعماري للمباني الذي استمر مع البيوت في الشمال وخان الأرز في الغرب والخان الهندي في الشرق. لكن بعد التدمير الأخرق للطراز المعماري للمباني المجاورة خلال العصر السوفياني تبدو الآن أشبه بجزيرة حركة المرور [منشئة].

رأت ج. بوغاتشنيكوفا^(١٤) أن الطاق قد بني على الأرجح خلال العصر التيموري؛ لكن إذا أردنا تصديق كلام حافظ طانيش، وهو مؤرخ من القرن السادس عشر^(١٥)، فلقد أعيد بناء الطاق بين عامي ١٥٦٩ - ١٥٧٠ في موقع تشهار سو بُخارى وهو مبنى رائع.

G. A. Pugachenkova, *Arkhitekturnoe nasledie Timura* (Taskent: [n. pb.], 1976). (١٤)

B. A. Ahmedov, *Istoriko-geograficheskaja literature Srednei Azii XVI-XVIIv. Pis'mennye pamjatniki* (Taskent: [n. pb.], 1965). (١٥)

الرسم الرقم (٢١ - ٤)
بُخارى: منظر تفصيلي لقلب المدينة، اليوم



والى اليوم لا يزال في وسعنا رؤية آثار طريق يجري عبر مساحة مغطاة في الرواق الذي يتجه شمال طاق تلباك فُروشان المؤرخة بين عامي ١٥٧٠ و ١٥٧١^(١٦). يتألف هذا الطاق من تركيبة مركزية على خريطة مسدسة الشكل تغطي ثلاثة محاور تتجزأ إلى ستة أنصاف محاور مختلفة ورواق يواجه المحور الشمالي - الجنوبي للبازار. يخترق المحور الشمالي مركز الطاق من دون اجتيازه قبل أن يصطدم بمساحة مغلقة وينعكس ١٢٠ درجة في موازاة خطين قطريين ممثلين للطريقين القديمين خارج المدينة.

يبدو الطاق بانحرافاته الهندسية والبنائية العديدة محاولة لتبجيل نقطة التقاطع القديمة للشوارع الخمسة التي تسير وفقاً لزاويا مختلفة. تعلو الطاق قبة قطرها ١٤,٥ م ترتفع على أسطوانة لها ١٢ جهة على خريطة مسدسة الشكل. بعد عمليات الحفر المنقذة، افترض فيليمونوف وجود جناح مسدس الشكل في شمال باب البازار المقبب له مدخل مواجه للجنوب خلال العصر الساماني. كذلك افترضت نيكراسوفا^(١٧) وجود جسر يربط بين البنائيتين.

أما طاق صرافان المؤرخ بين عامي ١٥٣٤ و ١٥٣٥^(١٨) فهو معبر مربع على طول المحاور الرئيسية بزاوية دوران بسيطة تبلغ ٤٥ درجة؛ كما يحدد المحور الأخير مشكاة الزاوية المطلّة على مسجد عُذْر، والشايخانة، ومتجرين للصرافين. ويغطي طاق صرافان قبة عالية بصلية الشكل لها مشكاة، وهي مسندة إلى أربع قناطر متقاطعة ضخمة أعيد تشييدها في القرن التاسع عشر. كما يحافظ على القناطر الموجودة في القوس الخارجي للقبّة على أنها زخرفة شائعة في واحات بُخارى؛ ويبدو تسقيف خانقاه بهاء الدين شاهداً على سبيل المثال.

أما بالنسبة إلى الطاقين اللذين لم يعودا موجودين أي طاق أورد فُروشان وطاق طيريجاما فهما ليسا بأبنية ذات دوران مركزي كامل لأنهما غطيا سابقاً نقطة اتصال على شكل T كما هو مبين في خريطة إعادة الإعمار الخاصة بريمبيل (١٩٨٢). فالأول هو نسخة مطابقة عن طاق صرافان بينما يشبه الثاني طاق زارغاران إلى حد كبير. وبحسب جريفا^(١٩) هناك أيضاً طاق ثالث يعرف باسم تشهار سو تونبا فُروشان (قبة بائعي الدّهون).

G. p. Juraeva, «Bukhoroda kadimji khamom wa sugorish inshoot lari,» *Sharqshunolik* (1994). (١٦)

Nekrasova, *Die Basare Bucharas vom 16. Bis zum fruhen 20. Jahrhundert: das Antliz einer Handelsstadt im wandel*, place 4. (١٧)

V. Filiminov and N. Nekrasova, «L'ensemble architectural de taq-e Sarrafan à Boukhara,» in: (١٨) «Boukhara la noble,» *Cahiers d'Asie Centrale*, nos. 5-6 (1998), pp. 95-124.

Juraeva, «Bukhoroda kadimji khamom wa sugorish inshoot lari,» p. 87. (١٩)

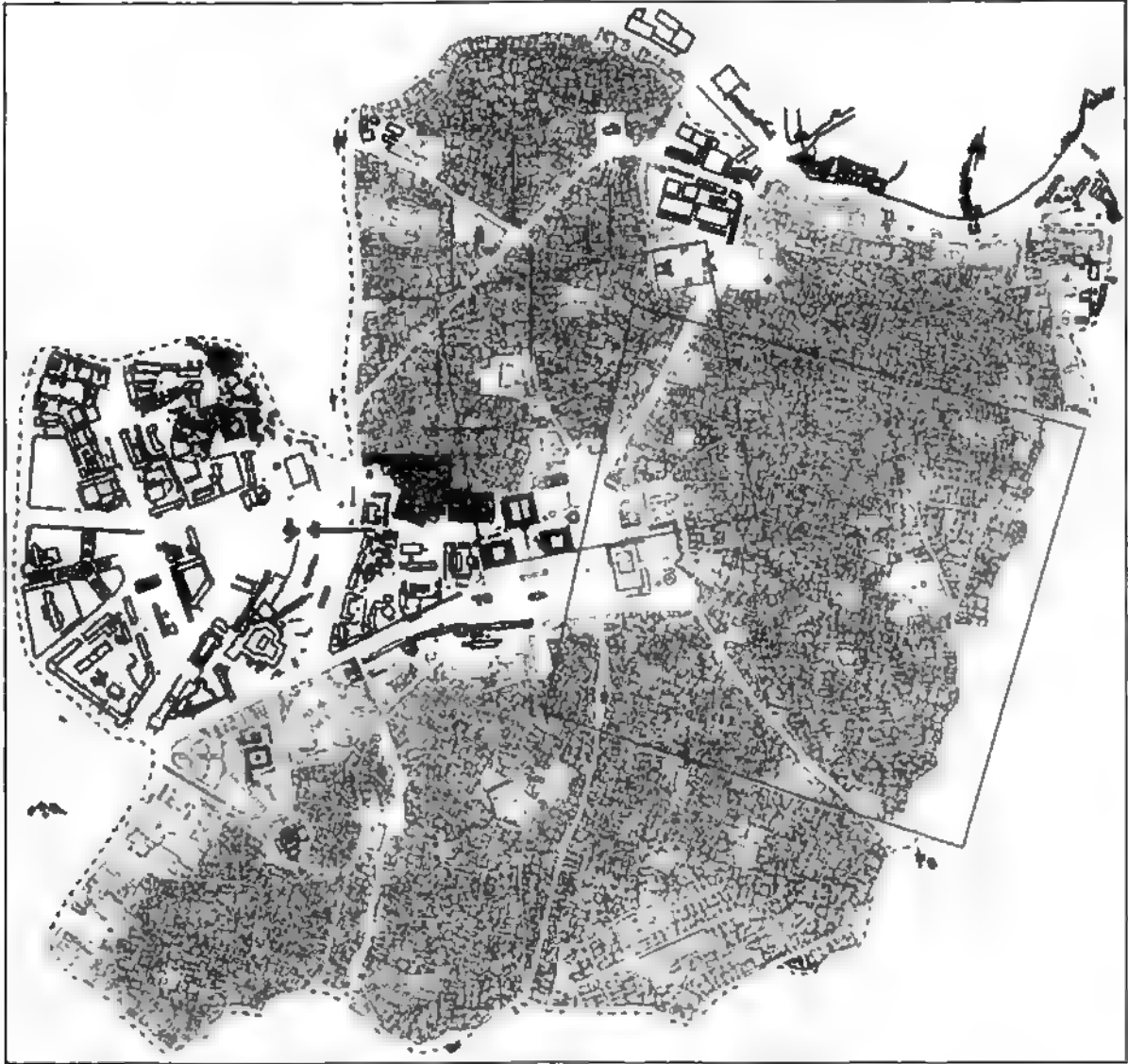
وقعت الأطواق الخمسة في خط اتصال دقيق واحد مثل خرزات السبحة على الرغم من أن طاقي الريحستان لم يكونا أبداً متصلين بشكل مباشر لبعض الأسباب المجهولة.

خامساً: العقدية والقطبية

يحدد مفهوما العقدية والقطبية حجم ونوعية المناطق العقدية والقطبية في حين يحدد مفهوما العقدية المضادة والقطبية المضادة المناطق العقدية المضادة والقطبية المضادة. لا يشمل تنظيم المناطق العقدية التنظيم المادي للمكان أو نوع المباني فحسب بل تنظيم وظائفها أيضاً. تحتل الوظائف والخدمات العقدية المركز أو المناطق العقدية، بينما تحتل الوظائف العقدية المضادة الهوامش أو المناطق العقدية المضادة. كما تشكل قيمة الملكية عامل تمييز مهماً آخر. إن التكلفة المنخفضة للمناطق القطبية المضادة كما يمكن رؤيتها في أديرة أوروبا في القرون الوسطى أو المجمعات الصوفية في المدن الإسلامية، لا تميل إلى استحسان انتشار مراكز الإنتاج فحسب بل انتشار المراكز الدينية أيضاً. ويحتل المسجد الجامع المحاط بوظائف لا تزعج قدسية المكان المركز الهندسي للبازارات في المدن الإسلامية. من جهة أخرى، تقع المصانع والمدايع ومحال الجزارين خارج مركز المدينة. إلا أن مسجد بيبي خانم في سمرقند بموقعه اللامركزي نوعاً ما بالقرب من باب أفراسياب يبدو استثناء لهذه القاعدة، إلا إذا أراد تيمورلنك علامة بين المدينة القديمة والجديدة.

في مدينة بخارى القديمة، كان للطريق الشمالي - الجنوبي الذي يمر عبر الوادي الصغير بين تلتي القلعة والشهرستان وظيفة قطبية. وقد أكد ذلك وجود الباب الشرقي للقلعة، التي لم تعد قائمة، وأربعة أبواب أو أكثر بقيت حتى القرن التاسع عشر تخترق السور الغربي للشهرستان، فضلاً عن الوجود المحتمل لحصن أصغر حجماً شرق القلعة حيث يقع الآن سجن شاه زنده. يصبح هذا الطريق مستقطباً عند القسم الرباعي الأضلاع للجسر المؤدي إلى القلعة، والشارع الرئيسي، وأسوار القلعة وأسوار الشهرستان المواجهة لباب بني سعد. بقيت المنطقة مركزية بالنسبة إلى المدينة حتى الغزو الذي قام به جنكيزخان. وقد تم بناء ثلاثة مساجد جامعة هنا بين عامي ٧٧٠ و١٠٦٨: مسجد فضل بن يحيى (٧٧٠) ومسجد حامد نوح (٩٥١) ومسجد شمس المُلْك (١٠٦٨) (انظر الرسم الرقم (٢١ - ٥)).

الرسم الرقم (٢١ - ٥)
بُخارى المدينة ذات الأسوار والشبكتين اللتين أضيفتا



حتى القرن الثامن عشر كانت القطبية المضادة تقع في شمال وشرق الشهرستان وفي جنوب القناة^(٢٠). وتقدم المقبرة الكبيرة الموجودة في شرق باب البازار دليلاً على هذا الأمر.

حتى في يومنا هذا، تقع النشاطات «الخطرة» أو «القدرة»، مثل إنتاج وبيع لوازم البناء مباشرة وراء الباب الشمالي للشهرستان.

من جهة أخرى، يقع بازار الأحصنة مقابل نزل الرشيد جنوب طاق صرافان.

(٢٠) Nekrasova, Die Basare Bucharas vom 16. Bis zum frühen 20. Jahrhundert: das Antlitz einer Handelsstadt im wandel, map 1.

تبين السجلات المؤرخة بين عام ٨٤٠ والقرن الثاني عشر ضاحية جديدة (ربض) يحيط بها سور مزدوج، سواء أكان سوراً دفاعياً أو سوراً معيناً للحدود ببساطة. كما يفترض بولشاكوف ودافيدوفيتش^(٢١) وجود دائرة أو حتى دائرتي أسوار متراكبتين حول المدينة. ومع ذلك، يبدو لنا من الأمثلة السابقة أن مسألة القطبية واللاقطبية متصلة بعضها ببعض تاريخياً. فهناك دائماً تبادل مستمر للأدوار بين العقد واللاعقد والأقطاب واللاقطاب. فالمركز يصنف ضواحي المدينة باستمرار كوظائف مضادة للقطب، وهو ما يفتح المجال أمام نشاطات مركزية جديدة. حصل هذا النوع من التحول في بُخارى في القرن التاسع عندما أصبح الريجستان والمنطقة الواقعة مباشرة في جنوب باب البازار النقطة الرئيسية للمدينة السامانية. في القرن الثالث عشر، امتلأت ساحة الريجستان بأبنية إدارية وبلاطية استُبدلت لاحقاً بأبنية تجارية ودينية.

ومن ثم امتدت المناطق المضادة للقطب وراء الشاهروود، كما يمكن رؤيتها في الحلقة الأولى للمقابر الصغيرة: خوجة تشارشامبا القزاق، والترك جندي، وخوجة بلغار، وشاه بخشي، وخوجة نور أباد. افترض بولشاكوف دائرة ثانية من الأسوار المتراكزة تبعد نحو ٤٠٠ م من فندق المدينة المائي. وعلى الأرجح أن تكون أهمية الشهرستان قد تراجعت لهذا السبب. وقد اختفى العديد من البوابات وأصبح المسار نفسه مسدوداً بمنازل. أما الشارع الخارجي الذي يسير في موازاة شاهروود والذي يربط بين قطبي بُخارى السامانية - باب البازار والريجستان - فقد ازدادت أهميته أكثر فأكثر. وفي عام ١١٢١ تم بناء مسجد جامع^(٢٢) تحت أرسلان خان على الساحة الواسعة والمفتوحة في ذلك الوقت الواقعة شرق طاق زارغاران، معيداً بذلك للشهرستان موقعاً مركزياً.

أكدت مشاريع البناء التيمورية في بداية القرن الخامس عشر هذا الميل إلى التبادل القطبي/اللاقطبي بحيث أعيد إحياء محاور الشهرستان الرئيسية وتم شيد مبانٍ تذكارية رئيسية على طول الشارع الرئيسي، وهو ميل شددت عليه هندسة طاق زارغاران ذات التخطيط المركزي. بقي الريجستان مهماً بالرغم من تغير أدواره تدريجاً، بحيث أصبح محاطاً بحلقة من المباني التذكارية العظيمة - مساجد طائفية متعددة، ومستشفيات وغيرها من المباني الدينية - التي كانت معاكسة لاتجاه باب القلعة: مدرسة دار الشفاء، وخانقاه أوستوروكي، وخانقاه ومدرسة حوز بولو (المدرسة الوحيدة الباقية)، ومدرسة

Belenitskii, Bentovich and Bol'shakov, *Srednevekovyi gorod Srednei Azii*, and E. A. (٢١) Davidovich, *Istoria deneznogo obrashchenija srednei Azii* (Moscow: [n. pb.], 1983).

Nekrasova, *Die Basare Bucharas vom 16. Bis zum fruhen 20. Jahrhundert: das Antliz einer Handelsstadt im wandel*, Plate 1. (٢٢)

شودمبي، ومدرسة خوجة نيكول، ومسجد بوياندا أتاليك. وتظهر صور عائدة إلى القرن التاسع عشر مساحة مفتوحة تحدها الأسوار العالية للقلعة والمباني الدينية الضخمة وتكتظ أكشاك السوق عند باب القلعة، وهي إشارة إلى أن الريحستان لم يفقد أبداً وظيفته الأصلية كمحطة للعربات.

تُحدد بُخاري التيمورية بواسطة طرقاتها (محاوير الشوارع) وعقدها (المباني التذكارية). فتركز نقطة التقاطع بين المحورين الرئيسيين (المحور الديني الشرقي - الغربي والمحور التجاري الشمالي - الجنوبي) إلى نموذج مشترك يُعتبر التنظيم المدني لهرة أبرز مثال عليه. تعمل هذه المحاور كمسارات متصلة تجاور العمارة العامة. ويمتد المحور الديني الشرقي - الغربي من باب بني أسد إلى باب نُو. ونجد على هذا الطريق مدرسة مير عرب، ومسجد كاليان، ومدرسة أولغ بك فضلاً عن نُو بادل بك ومدارس عبد الشكر وعبد العزيز في فترة زمنية ما. من ناحية أخرى، تتجمع المباني التذكارية الضخمة حول رموز لافتة للنظر ونسيج بناء سابق من النوع المتسلسل والمتكرر وعلى نطاق أصغر.

يشهد المشروع التيموري على مدينة «مشابهة» - باستخدام مصطلح ألدو روسي - خطط لها ونفذها جزئياً جيل واحد وغيّرتها تدريجاً أجيال متعاقبة. وعلى الرغم من حصول ركود اقتصادي في وقت مبكر من القرن السادس عشر، تمثلت طموحات عبيد الله خان وخلفه عبد الله خان ولاحقاً مشايخ الجوبباري بإنشاء مدينة متعددة الأقطاب. ووفقاً لمشروع تيموري تم تصوّر بازار متصل من الريحستان إلى دار بازار بمحورين عموديين مترافقين مع أبنية متخصصة ولو أنها منفصلة عن طاق زارغاران. كما أنشئت العقد المدنية الأولى مع ساحة مغلقة على منتصف مسافة الشارع العريض بدءاً بمتنزه كاليان الباقية التي تعود إلى القرن الثاني عشر ومن ثم المجمع الغازي في الجنوب على طول شارع كراكول ومجمع غوكوس خان (الذي يشمل مدرسة ومسجداً مستقلاً وبركة) المبني بين عامي ١٥٦٢ و١٥٧٩.

يعتبر مجمع غوكوس خان دليلاً مدرسياً في كيفية تحوّل قطيعة المدينة [تعني كلمة غوكوس خان الجزار الذي يذبح الماشية]. وفي السابق ضمت المنطقة المجاورة للقناة مسلخاً وطواحين هوائية وأنشطة حرفيين آخرين: بمعنى آخر، كانت منطقة ذات أهمية هامشية ووظيفة لاقطبية. وفي الوقت عينه، أخذت منطقة مقبرة الترك جندي اللاقطبية وظيفة قطبية أكدها وجود البازار الأخضر الجديد الذي يخدم المنطقتين اليهوديتين بحيث شكّلت التشهار سو عند جنوب المقبرة.

إنَّ المنطقة الواقعة شمال شهرستان والمنطقة الخالية في الغرب مثل حلقة المقابر تشاشمة أيوب، ووضر خوجة غُنجار، وإمام الإملاء، إشاو أستاذ، وجامع زنده - قل أحمد، وبهادر باي باتجاه الغرب؛ والخليفة حسين وخوجة ساساران باتجاه الشرق؛ وحق مزار وخوجة نمدهوش خارج السور الشرقي؛ وأخيراً الشيخ جلال وشاه عرب على طول مسار كراكول - بقيت هامشية أو لاقطية في خلال القرن السادس عشر. وابتداء من هذه اللحظة أصبح سوق الجمل يقع خارج باب نمازگاه معيَّناً بالتالي الحدود الخارجية للمدينة.

تُحدث كل مرحلة جديدة في نمو المدينة آلية انقلاب لعقدتها وأقطابها. ويستمر نسيج المباني بالاندماج والتوحد مع المباني المجاورة بينما تبقى المناطق اللاعقدية، حتى يحدد مركز جديد مجموعة علاقات جديدة - فرضية أيدتها في بُخارى مشاريع المباني الضخمة في العقود الأخيرة من القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر. لقد بلغ النظام المدني مرحلة نضج مع اتمام المباني في محاذة طريق بازار شهرستان وحوز آب. كما تم وصل هذين المحورين الواقعيين بين عُقد الريحستان الثلاث، وهما طاق زارغاران وطاق صرافان، بتشيد العديد من المباني التذكارية مثل تيمشيه عبد الله خان ومدرسة عبد العزيز خان والخانات العديدة مثل الخان الهندي. كما اتخذت خطوة محددة شرقاً باتجاه القطب المهم لمخاضة الضفة الروسية بينما تم تقليص حجم مجمع غوكوس خان إلى مركز مجاور.

في نهاية القرن السادس عشر أصبح قطب حوز آب الجديد - الذي يشمل مدرسة كوكلداش (١٥٦٨ - ١٥٦٩)، وخانقاه نادر ديوانبغی (١٦٢٠) ومدرسة/كروانسرای نادر ديوانبغی (١٦٢٢ - ١٦٢٣) والمبنى حول بركة مساحتها ٤٦ x ٣٦ م مع صف أدراج حجرية - بارزاً. لقد كان نمو هذه المنطقة القطبية مرتبطاً بنشوء الصوفية كما حصل للمجمعات الدينية العظيمة. إنَّ الخانقاهات في ما وراء النهر (ترانسوكسيانا)، التي كانت سابقاً فنادق ومراكز دراسية للصوفيين المسافرين - أمكنة منعزلة، انعكست في السياج المحيط بخانقاه خليفة خداداد - أصبحت اليوم أماكن اجتماع ضخمة ومدارس مدنية منتظمة حول السميت أو ذكرخانة، الحجرية المركزية للطقوس الصوفية، ومحور التخطيط المدني على مقياس ضخم.

وفي هذه المرحلة ساهم مشروعان مدينيان بدمج المحيط مع المدينة. فلقد تم توسيع أسوار المدينة إلى الغرب خلال حكم عبد العزيز خان الأول (١٥٤٠ - ١٥٤٩) باستخدام بقايا الأسوار السامانية القديمة في الشمال والغرب. ومن ثم أضيفت منطقة

الجويباري الواقعة في جنوب المدينة خلال حكم عبد الله خان الثاني (١٥٥٧ - ١٥٩٨). وعلى طول جادة خيابان المخططة على شكل شجرة والمتجهة شمالاً وجنوباً بين سيرغارام وكراكول نصف القطرية تم تحويل المساحة المفتوحة للصور الغربي المدمر إلى قطاع بساتين وحدائق تم البناء فوقها لاحقاً. لكن منذ القرن السابع عشر وُجد المركزان المذكوران أعلاه، بينما بقيت الأقطاب - المدرسة الغازية ومجمع كوش لمدرستي عبد الله خان ومادر في شارع شورصوران، وغوكوس خان وحوز نو - مجرد مراكز مجاورة.

توسعت الساحات الرئيسية، بوصفها نتاج التبادل الجدلي بين القطب واللاقطب في تطور بُخارى، بدءاً من الأمكنة الموجودة أمام مساجد المحلة. وفي بُخارى اليوم يجد المرء بوجه عام مبنيين تذكاريين أو أكثر واقعين في ساحات مغلقة أو نصف مغلقة. مقارنة بإيران، وشرق إيران بوجه خاص، حيث تكون الساحات بوجه عام مرتبطة بإحياء الشيعة ذكرى استشهاد الحسين في محرم، في بُخارى وسمرقند حيث الأغلبية المسلمة من السُّنة، بقيت الساحات جزءاً حيوياً من الحياة اليومية.

يمكن تعريف بعض هذه الساحات على أنها كوش، أي تصميم فريد في نوعه لآسيا الوسطى منذ منتصف القرن السادس عشر. يتألف الكوش من مبنيين ضخمين - مسجد/مدرسة أو مدرسة/مدرسة - يواجه أحدهما الآخر على طول الشارع بحيث يتركان مساحة كافية لإنشاء ساحة. أما النموذج الأصلي فهو تصميم مسجد كاليان ومدرسة مير عرب الذي تولاه عبيد الله خان عام ١٥٣٦. لقد حدد اختيار الموقع - إضافة إلى المسجد السابق - مثذنة أرسلان خان المشيدة عام ١١٢٧. وتشكل واجهة مسجد كاليان (١٥١٤) والمدرسة الكبيرة المقابلة، وكلاهما على مستوى هندسي ضخم، تعبيراً عن القوة غير المحدودة التي تمتع بها الأمير. إنّ الكوش المستطيل الشكل مغلق من الجهة الشمالية بصف بيوت (أصبح اليوم بازاراً عصرياً هجيناً) ومن الجهة الجنوبية بالأحجام المعزولة لحمامات مدرسة عبد الرحمن علم وبالرمح الأسطواني لمثذنة أرسلان خان.

يحيط بالمثذنة - البالغ ارتفاعها ٦,٤٥ م وقطرها تسعة أمتار عند القاعدة وستة أمتار عند القمة - مضلع له ١٦ جهة على صفوف بناء مسقطة ومنظمة على شكل هوابط (شُرَف) ومغطاة ببناء معقد بالآجر. تحدث المثذنة مع سقف الحمامات المقوّس حركة ضوء وظل في طول الساحة وعرضها. فتعكس واجهات المبنيين العامين بعضها مع بعض بطرائق متعددة. فالواجهات يبشتاكتاتها المصفوفة معاً، وخرائطها المضلعة الشكل، ومداخلها المتعددة تحدث جزأين ناتئين عظيمين في هندسة الساحة. أما واجهة

مدرسة مير عرب فهي منحوتة أكثر بحيث تضم طابقين من الأروقة الخارجية العميقة. ويعكس مسجد كاليان هذه الواجهة في سلسلة مشككات واسعة وسطحية في طابق واحد. إن الارتفاع والحجم المختلف للمسجد، والمدرسة والمئذنة والحمامات إضافة إلى امتدادها الجانبى المحتوى يصنع مساحة الساحة بتوتر حرك.

ونجد، قليلاً باتجاه الشرق، الكوش الذى يضم مدرسة أولغ بك (١٤١٧) ومدرسة عبد العزيز خان (١٦٥١ - ١٦٥٢) على الشارع الرئيسى. تصبح المساحة هنا أقل دينامية بسبب المحور الشرقى - الغربى غير المكتمل الذى أعطي لاحقاً شكل ساحة صغيرة. تقع واجهة مدرسة أولغ بك على الصف نفسه مع الشارع فى حين تقع واجهة عبد العزيز خان على بعد عدة أمتار - وهذا تأكيد إضافى على أن التيموريين لم يعتزموا بناء ساحة، لذا يجب نسبها فضلاً عن الكوش إلى سلالة أوزبك خان الحاكمة.

لا تتمثل أهم ميزة من ميزات الكوش بوجود المحاور الطويلة التى يتقاسمها المبنيان وإنما بواقع كون واجهاتهما تعكس إحداهما الأخرى. ويمكن ملاحظة هذه القاعدة الحديد فى الكوش الذى يضم مدرسة عبد الله خان (١٥٨٨ - ١٥٩٠) ومدرسة مادر خان (١٥٦٦ - ١٥٦٧) حيث تدار واجهة مادر خان من أجل الحفاظ على خط واجهة عبد الله خان. يحدث هذا الدوران تشويهاً فى عمق المساحات الداخلية وشكلها الذى يتم استيعابه جزئياً عبر تسميك الجدران. تقع مدرسة عبد الله خان على شكل عمودي مع الشارع بحيث تدير موقع غرفة الصلاة فى داخل مبنى الميانسراى بتأثير مكاني مشوق. وفى الكوش الذى يضم المدرستين الغازيتين^(٢٣)، تطوّر المدرسة الأصغر حجماً بسلسلة غرف تغطي تراصف الشارع عبر تحويل المجتمع إلى مخمس غير متناسق. وهكذا تحافظ على الشكل الاعتيادي للفناء الداخلى المستطيل الشكل والقاعة ذات الأجنحة الثلاثة.

إن قطب حوز آب المدينى العظيم، وهو ساحة مفصولة عن حركة المرور المحيطة به، يأخذ تصميمه من كوش مسجد كاليان وريجستان سمرقند. وينعكس هذا على موقع المباني الثلاثة فى ما يتعلق بالطرقات التماسية فضلاً عن واجهات الأروقة الخارجية التى تتسم بوجود مدخل بشتاك واسع النطاق. فى سمرقند من جهة أخرى، تقوم جدران الواجهات المرتفعة الثلاث، إضافة إلى الأرضية الحجر، بإعادة توليد شعور الوقوف أمام مسرح داخلى رائع.

L. L. Rempel, *Dalekoe i blizkoe. Bukharskie zapisi. Stranitsy zhini, byta, atoitel'nogo dela*, (٢٣) *remesla Stori Bukhary* (Taskent: [n. pb.], 1982), p. 141, and V. A. Lavrov, *Grandostroitel'naja kul'tura srednej Azii* (Moscow: [n. pb.], 1950).

إن مكاناً كهذا هو نتاج التحول التدريجي لمركز المدينة نحو شخصية أكثر بروزاً. بين عامي ١٤١٧ و ١٤٢٠ شيد أولغ بك أول مدرسة قريبة من الخانقاه والتزل الموجودين سابقاً اللذين سيتم استبدالهما بين عامي ١٦١٩ و ١٦٣٥ بمدرسة ثانية تدعى شير دور وتقع بمواجهة المدرسة الأولى. وهكذا تم بناء أول كوش. بعد بضع سنوات، أعطت مدرسة تلاً قاري (١٦٤٦ - ١٦٤٧) المحاطة بالأبنية المدنية التي تركت واجهة واحدة غير محاطة بشيء، الريجستان شكله الحالي.

أما في بُخارى فيُعتبر هذا التأثير مفقوداً كلياً في حوز آب بسبب انفتاح المكان. فقد تم هنا نقل محور مدرسة كوكلداش إلى الشرق - على الأرجح بسبب المباني الموجودة سابقاً على الجهة الشمالية الشرقية، بما في ذلك مدرسة نزار إلشي - بينما أدى وجود الحوز والحديقة المحاطة بالمدارس، حيث يستطيع المرء رؤية أشجار التوت المزروعة منذ زمن بعيد يعود إلى عام ١٤٧٥، أي مضاعفة المحاور البصرية التي تجعل المجتمع (الذي يضم مبنيين مستقلين) هامشياً أكثر. وقد أكد الوظيفة المضادة للقبطية السابقة للمنطقة واقع إزالة الزوايا الشمالية - الغربية والجنوبية - الشرقية لمدرسة ديوانبغ، وهو ما يشير إلى طريقين موجودين سابقاً يلتقيان في الشاهروود عند النقطة التي حدد فيها بولشاكوف موقع جسر السوق القديم الذي يتزامن بشكل غير مفاجئ مع توسيع المحور الطولي لمدرسة كوكلداش. أما اليوم فتقوم مدرسة كوكلداش بسدّ طريق سابق منحني الأضلاع آتٍ من الشمال ويقود إلى المخاضة^(٢٤). ولا يزال هذا الطريق مرئياً جزئياً اليوم في الزاوية المفقودة لمدرسة دوملو شير على سبيل المثال.

تشمل المجمعات الأخرى التي يقع في مركزها حوز خيابان في غرب بُخارى التي نجد فيها مدرسة ومسجداً يحملان الاسم نفسه، حوز خوجة جعفر في شرق بُخارى، وأخيراً حوز نُو وفيه مسجد عبد العزيز الأول (١٥٤٠ - ١٥٥٠) ومدرسة الجويباري كاليان^(٢٥). ونجد اليوم الحوز الأخير مدفوناً تحت الشارع وهو يجعل التعرف إلى الساحة أمراً مستحيلاً.

باختصار، خضعت بُخارى القروسطية منذ نهاية القرن الرابع عشر لتحول جذري في ظل عهد التيموريين لجهة محاورها الأساسية والموقع الاستراتيجي لمبانيها الأثرية الواسعة النطاق. وفي القرن السادس عشر وسّع أوزبك خان أعمال البناء هذه لتصبح

Rempel, Ibid., p. 111.

(٢٤)

B. Babajanov, «Arhitekturnye pamjatniki v srednevekovykh pis'mennykh istochnikakh na (٢٥) arhitekturnykh pamjatnikakh-Uzbekistana.» *Arhitektura i stroitel'stvo Uzbekistana* (Tashkent), no. 7 (1991).

أقطاباً مساوية هرمياً تؤكد بوجه عام النقاط العقدية الرئيسية للمدينة التيمورية السابقة من دون إحداث أي هيمنة مطلقة لنقطة على نقطة أخرى. لكن في العقود الأخيرة من القرن السادس عشر أصبحت المناطق القطبية أكثر تخصصاً فأنشئت هرمية سيطر فيها قطبا الريحستان وحوز آب.

قد يبدو مصطلح «الساحة» غامضاً قليلاً. فكوش وساحات بخارى تختلف كثيراً عن ساحات النهضة الإيطالية. على سبيل المثال، باتت المباني المتخصصة منذ العصر التيموري، أكثر تمركزاً تدريجاً، محدثة بالتالي محوراً متماثلاً، شكّل أيضاً محور طريق يبدأ من إيوان (باب المدخل) المباني التذكارية. وقد يفترض هذا اعتماداً قوياً على البنية المدنية كحالة مدخل متراصف مع شارع، ومع ذلك فهذه ليست الحالة المذكورة. إذا كان مدخل بشتاك ضخماً يؤدي إلى شارع كما هي حالة مدرسة أولغ بك فإنه يعمل ببساطة كواجهة لا كستارة مدنية خلفية. من ناحية أخرى، إذا جاء المنفذ عن طريق ساحة كما هي الحالة بالنسبة إلى مسجد كاليان فهو يفصل كلياً عن الطريق على عكس ما يحدث في إيطاليا وبلدان أوروبية أخرى حيث يصطف الطريق المدني بوجه عام مع المحور المتماثل لمبنى ما.

في التاريخ الهندسي الأوروبي يتحدد تغيير الطريق على فتح أو إغلاق باب، ولا سيما في القصور الأرستقراطية الإيطالية. نقصد دائماً بالباب الشارع، سواء أكان مفتوحاً أو مغلقاً في طراز البناء المحيط. في آسيا الوسطى، من ناحية أخرى، غالباً ما تستمر ذكرى نسيج بناء سكني سابق. وفي المدن الإسلامية يتنظم هذا النسيج في ما يسمى مجموعات متلاحمة تعترض دائماً مساحة متوسطة أو نوعاً من الغرف المزیلة للضغط بين شارع عام ومنطقة خاصة. يقوم باب ما أحياناً بإغلاق الممار الضيقة الخاصة التي تتجمع في مساحات عامة مغطاة^(٢٦).

ويتمثل اختلاف آخر عن المدينة الإيطالية القروسطية بكون المدينة الإسلامية تخضع لنظام تمنطق صارم يفصل المناطق السكنية عن مناطق الإنتاج والنشاطات العامة. وهكذا، يملك البناء المتخصص علاقة غير مكانية بالبناء السكني ويميل كلاهما إلى العمل كأنظمة مغلقة مستقلة بعضها عن بعض.

(٢٦) انظر: M. I. Filanovic, «Traites principaux de l'urbanisme dans le Mavarannahr et le Turkestan à la fin du XV^{ème} siècle», dans: M. Szuppe, ed., «L'héritage timuride», Cahiers d'Asie Centrale, nos. 3-4 (1997), pp. 169-182.

في حالة مسجد كاليان على سبيل المثال، يمرّ الشارع الرئيسي (مرتكز التجديد المدني التيموري) على تماس مع جانب المبنى الطويل الذي بلغ ١٣٠ م. تملك الواجهة مدخلين اعتياديين للمؤمنين. ومن ناحية أخرى، يصطف البشتاك مع المحراب ويفتح على الساحة الصغيرة بدوران ٩٠ درجة في ما يتعلق بالطريق. الشيء نفسه يمكن أن يقال لبشتاك مدرسة مير عرب المواجهة على الرغم من أن وظيفة المدرسة في هذه الحالة تتطلب مبنى يشرف على الداخل على نحو أكبر وله منفذ واحد فقط. وفي الكوش الذي يضم مدرستي عبد العزيز خان ومادر خان حيث يكون المحور المتماثل متعامداً مع الشارع، تشاهد الواجهتان من منظور مائل. وهكذا، لا تتطابق المحاور الداخلية للمباني التذكارية مع المحاور الداخلية للطرق المدنية.

في حالة مسجد مفاك كوريا (١٦٣٧)، الواقع عند ملتقى الشارع الرئيسي الذي يمر من طاق تلباك فروشان نحو الريحستان في الغرب ومسلخ غوكوس خان الشيباني، يتكرر في الداخل غموض التنظيم المدني للمبنى. وهنا لا يتماكن المحور الطولي المتماثل مع محور الطريق؛ فيكون مدخل البشتاك للقاعة السفلية فقط بينما نجد بابين جانبيين للقاعة العلوية.

لا تتراصف المباني التي تضم مجمع غوكوس خان الضخم ومسجد ومدرسة خوجة كاليان والمدرسة الصغيرة المعروفة باسم عبد الرحمن علم، مع الطريق الذي يتسع عند ساحة الحوز الصغيرة ولا مع بعضها البعض. ويبدو أن القطب بأكمله محدّد بواسطة طبوغرافيا الموقع؛ فالشكل شبه المنحرف لمدرسة غوكوس خان تحدده الشوارع المتفرّعة حيث تقع تماماً كشكل التابوت الذي يميز نزل غوكوس خان الواقع خلفها. يجرد الشاهرود مدرسة عبد الرحمن علم من أحد جوانبها ويقع الحمام الصغير حتى بين الطريقين الملتفين.

يجري الطريق الرئيسي الموازي للقناة في حوز آب على تماس مع المجمع. ولهذا السبب يُنظر إلى واجهات خانقاه ومدرسة ديوانبغلي من زاوية مائلة بينما يُعتبر بشتاك مدرسة كوكلداش بعيداً جداً من أن يتصل مباشرة بالطريق.

ويبدو أن الاستثناء الوحيد هو مجمع تشور بكر الريفي (١٥٦٠ - ١٥٦٣) حيث يكاد يكون الشارع متراصفاً مع مدخل المسجد وإن لم يكن تماماً كذلك. يشكل المسجد نفسه جزءاً من مجمع معماري أكبر على شكل حرف C ويقع الخانقاه والمصلّى في

الساحة المكشوفة. تتميز نقطة المحور الوسطى فيه بوجود المئذنة القصيرة العريضة التي لا تتراصف مع الطريق المؤدي إلى المجمع^(٢٧) (انظر الرسم الرقم (٦ - ٢١)).

الرسم الرقم (٦ - ٢١)

مجمع تشور بكر



كامل تاريخ تأسيس هذا المجمع الشعائري يرتبط بأسرة مشايخ الجويباري. بني المجمع حول المكان الذي دفن فيه الإمام أبو بكر.

خلال الأعوام المئة والخمسين التي سجّلت أهم التغييرات في هندسة بُخارى وبنيتها المدنية، أثرت المدارس (مدارس قرآنية) بقوة في شخصية المساحات العامة. إن المساحة الخاصة الداخلية للفناء، كنوع برج عاجي محمي من العالم المدني، تنكشف تدريجاً إلى العالم الخارجي والمدينة. هناك مثلاً فقط: تحيط بمدرسة مير عرب ثلاثة جدران مرتفعة لا تُخترق أضيف إليها ببطء مباني ثانوية، بينما فتحت مدرسة كوكلداش جوانبها الثلاثة للمدينة بعد مضي قرن، اخترقتها أروقة خارجية في طوابق

متعددة. لا يعتمد الاستيلاء التدريجي على الشوارع والمساحات العامة على الشكل المتغير للتعليم ومواصلة المعرفة فحسب وإنما على عاملين متصلين: الموقع اللاقطي للمدارس الجديدة وإدخال أروقة خارجية على الواجهات.

ويغدو بناء أروقة خارجية في جوانب المبنى كافة ممكناً عندما تحتل المبنى بأكمله وتكون محاطة بشوارع ومساحات. تتحول الأروقة الخارجية إلى شرفات وعلى الأرجح أنها زُخرفت في خلال المهرجانات والمواكب وبالتالي أدت دوراً فعالاً في المشهد المديني^(٢٨). في المناطق الريفية من ناحية أخرى، تم الانتقال من هندسة انبساطية أكثر تدريجاً. وفي مجمع تشور بكر الضخم، ولا سيما خانقاه بهاء الدين، تغير تماماً نظام الغرف المطلة على فناء والمتصلة بواسطة رواق طويل؛ بحيث وُضعت أروقة الخدمة في الداخل وواجهة الغرف في الخارج (على الرغم من أنها لا تزال ضمن المجمع الديني). وبالرغم من السابقة المهمة لواجهة مدرسة أولغ بك (١٤١٧)، أصبحت الظاهرة منتشرة في بخارى بعد عام ١٥٦٠ فقط مع مدارس خيابان وبازار غوسفند ومحمد يار أتاليك وكوكلداش، ومن هنا انتشرت في باقي أنحاء آسيا الوسطى.

سادساً: المباني المتخصصة

تستند دراسة المباني الأثرية الضخمة من الناحية الرمزية إلى تعريف أنواع المباني على أنها المحصل العضوي لمعالم بناء المباني في وقتٍ وزمنٍ محددين وتعتمد على الحقيقة المقررة التي تقول إن جميع المباني المتخصصة في المدينة متعلقة بعضها ببعض وإن روح المكان تؤثر في أي تغيير يُجرى على المباني بغض النظر عن حجمها. كما تم تشييد مسجد غُذر صغير [للمارة] له سقف مسطح بسيط وفقاً لوحدة قياس البناء نفسها (أو أحد مركباته) مثل مسجد كاليان بقبه الكثيرة. كما نجد تأكيداً إضافياً على هذا التشابه في أنظمة البناء؛ إذ تشكل جدران الدعم الموجودة في المنازل ومساجد الغُذر (المارة) إطاراً ممتلئاً، أي بنية خشبية مغلّفة بقرميد مجفف بواسطة حرارة الشمس.

تشكل وحدة قياس البناء مع ميل إلى بعض التقنيات والأدوات جزءاً من الإرث الثقافي المحدد لمجموعة اجتماعية، وهي تتغير فقط إذا تم اجتثاث تلك المجموعة من بيئتها الأصلية. وتشبه الناحية الرمزية للمباني المتخصصة، الموجودة في مدينة كبيرة

وقديمة مثل بُخارى، شجرة ضخمة لها أغصان عديدة وجذع واحد فقط؛ ويمكننا إعادة بناء تشعباتها ونموها بدءاً بالبراعم.

تنشأ المباني المتخصصة بشكل ثابت من عمليات بناء أساسية أو سكنية^(٢٩). إذا كان المنزل استجابة للحاجة إلى ملجأ، فالمبنى استجابة للحاجة إلى مجموعة اجتماعية تمثل قيمها الجماعية. وينشأ المبنى بدوره من إعادة تنظيم البناء الأساسي لجهة وجود أمكنة متخصصة وتركيبية أكثر هرمية. نجد مستوطنات صغيرة عديدة في الواحات المحيطة ببُخارى، وهي ببساطة تجمع منازل من دون قاعة صلاة حتى؛ وفي حال وجود قاعة صلاة فلا يمكن تمييزها عن المنزل. ومع ذلك، قد يكون من المستحيل تصور مدينة مؤلفة من نسيج مباني متخصصة فقط.

سوف ندرس الآن الناحية الرمزية للمباني الصغيرة والمتوسطة الحجم، أي تلك المباني على مقياس الحي أو المحلة. يشكل القاسم المشترك الأدنى بين المباني المتخصصة في بُخارى وحدة قياس بناء مربعة تبلغ نحو ٣٠، ٣٠م أي ما يعادل ستة كُزات^(*) بأربعة جدران يخترقها باب واحد ويغطيها سقف خشبي له دعائم ذات اتجاه واحد. فيمكن أن تكون ببساطة غرفة في منزل أو حجرة تشكّل جزءاً من تركيبية أبنية متشابهة تنظم خطة موحدة الخواص قابلة للتكيف مع أهداف تجارية أو دينية.

سابعاً: قراءة لرمزية مباني بُخارى الرئيسية

عالجنا حتى الآن مسألة العلاقة بين مباني ثانوية واشتقاقها من المنزل؛ وقد تضمّن تحليلنا تأثيراً محلياً قوياً. لكن لدى معالجة المباني الأثرية الواسعة النطاق يجب أن نتذكر أن المؤثرات الثقافية الخارجية تؤدي دوراً أكثر مركزية. وقبل أي شيء، تتطلب المباني الأثرية الكبيرة تقنيات أكثر جرأة في إنشاء قناطرها وزخرفاتها على سبيل المثال. لذلك علينا أن نتصور مجموعات حرفيين متخصصين شكّلت شركات أو نقابات متنقلة مثل شيراز. وفي هذا السياق، تعتبر الطموحات الفنية لمجتمع بأكمله، بمن في ذلك الطبقات الاجتماعية الدنيا، أقل أهمية من محسوبة الأرستقراطيين ورجال الدين الأكبر الذين فضلوا أحدث التصاميم في الهندسة الآتية من العاصمة والبلاط. ويدو صحيحاً القول إن بُخارى تحولت إلى المركز الثقافي الرئيسي لآسيا الوسطى منذ القرن السادس

G. Ganiggia and G. L. Maffei, *Compazione architettonica e tipologia edilizia*, Lettura (٢٩) dell'edilizia di base (Venice: Marsilio Editore, 1979), pp. 105-108.

<<http://www.kirmanigaz.ir>>.

(*) الكز وحدة قياس قديمة تساوي ٦٠ سم. المصدر:

عشر، وإنه يمكننا بين عامي ١٥٦٠ و ١٥٩٠ حتى الحديث عن مدرسة في بُخارى. ولمدة قرنين قبل هذا الزمن كانت سمرقند هي المركز الثقافي. علاوة على ذلك، كانت الآفاق الثقافية التيمورية واسعة، وهو ما أوجب البحث عن التأثيرات الفنية في أنحاء الإمبراطورية كافة.

تعتبر العمارة نظاماً مكانياً وبنائياً يمكن قراءة محاوره المكانية كجمع مصالح المستخدم النفسية والشعائرية والعملية المتعددة. يمكن أن نعزو تنظيم وتوزيع المساحة المعمارية الجماعية إلى أربعة نماذج تركز على أربع درجات أساسية أكثر فأكثر للمخطط المحوري: من الخطي إلى القطبي: أحادي الاتجاه؛ ثنائي الاتجاه؛ ثلاثي الاتجاه (بمحور عمودي)؛ متعدد الاتجاه (بمحور عمودي). يمكن تحليل كل نموذج باستخدام المبادئ الهندسية الأساسية للخريطة، والارتباط بين المحاور المختلفة من حيث القسم والمنظور، وقوانين الوحدة الداخلية المتعلقة بالتعريف المكاني لكل عنصر، وتنظيم الأحجام الداخلية والخارجية.

تنتمي المباني التي ليس لها محور مسيطر وإنما خريطة مفتوحة إلى الفئة الأولى كالعديد من حمامات بُخارى على سبيل المثال. فهي تتألف من فرق عناصر معمارية مجمعة بحرية على خريطة مربعة أو مضلعة لها هندسة داخلية قوية وتماثل مزدوج؛ أما كسلسلة، فهي تعمل كردهة، وغرفة تدليك (خان خادم)، وغرفة حارة (خان جرم)، وغرفة باردة (خان خناك). تضم الحمامات المجاورة لقبة الصرافة (طاق صرافان) ثمانين غرف مختلفة - مستديرة، ومستطيلة، ومربعة، وخماسية، وسداسية، وثمانية - منظمة حول غرفة مركزية على خريطة صليبية الشكل^(٣٠). وبحسب جريفا^(٣١) تذكر وثائق الوقف الحمامات التالية في بُخارى في القرن السادس عشر: خيابان، وتركاشدوزان ريجستان وزارغاران وموتشي تشابازاي وشوكي مينوي وغوكوس خان وغازيان وكبا والجويباري وسار بازار ريجستان وخوجة وغريبية وكفيسر وفروشان.

كما تنتمي إلى هذه الفئة المباني الأحادية الاتجاه التي لها أفنية تتميز بمدخل وحيد أو إيوان، وقطاع منتظم وصفوف حجيرات على الجوانب الأربعة كلها. لم يعد العمود يشكل البنية الداعمة وإنما الحائط، بينما أصبحت الساحة مقنطرة بواسطة براميل. لا توجد عناصر معمارية بارزة؛ فعلى الأكثر هناك باب مدخل أو زاوية داخلية

M. I. Filanovic and U. Alimov, «K obnaruzeniju Srednevekovoj v Tashkente,» *Istorija* (٣٠) *material'noj kultury uzbekistana* (Tashkent), no. 22 (1988), pp. 179-182.

Juraeva, «Bukhoroda kadimji khamom wa sugorish inshoot lari».

(٣١)

مختصرة (نلتح إلى خريطة ثمانية ومن ثم أكثر عضوية) كما في مدرسة عبد الرحمن علم ومدرسة مسكين ومدرسة غوكوس خان. تنتمي معظم النزل إلى هذه الفئة مثل نزل قره بك وكليوتا، ويقع الأخير بالقرب من طاق تلباك قروشان. أما في النزل الهندي فيفتقر الفناء إلى وجود إيوان لكنه يملك تنظيمًا معقدًا للممار التي تجري على ٤٥ درجة من الزوايا وتعمل كمنفذ إلى الغرف الصليبية الشكل. إن الخرائط المتسلسلة لفئة الفناء هذه، مقارنة بتركيبات أكثر عضوية مثل الميانسراي، يمكن تشويبها بطريقة أسهل عبر إزالة وحدات القياس ولكن من دون إلحاق ضرر خطير بالوظيفة الداخلية؛ راجع على سبيل المثال خرائط كروانسراي الرشيد ومدرسة/ كروانسراي نادر ديوانبغي.

تنتمي إلى الفئة الثانية تلك المباني التي لها محاور ثنائية الاتجاه في الخريطة. ويدل على المحور الطولي عادة وجود إيوانين داخليين يشبهان البشتاك ومشكاة المحراب على الجزء الخارجي من المبنى. إن الخريطة مركبة؛ فالجانب الأساسي أو الأمامي يختلف عن الجوانب الأخرى في تنظيمها المتكرر لوحدات القياس وهو منظم مثل الميانسراي في تسلسلها المستعرض لقاعة الدخول (دهليز)، وقاعة الدفن أو الصلاة (الغرخانه)، وقاعة الاجتماعات الشتوية، التي تشكل معاً جناحاً.

وبحسب تعريف المكان، يسيطر المحور الطولي على المحور المتقاطع. وتعتبر الزوايا متخصصة لجهة استخدامها من أجل وظائف اجتماعية جماعية ولجهة دوران زوايا مساحات ومداخل زاوية بـ ٤٥ درجة. إن غرف الزاوية مقببة بخلاف وحدات قياس الصف المقنطرة. في التقطيع تتمفصل هرمية الأحجام بواسطة أبواب وقبب أكثر ارتفاعاً من الجزء الأساسي للمبنى.

تتألف الفئة الثالثة من مباني ذات محورين ثنائي الاتجاه في الخريطة ومحور عمودي. وهذا نموذجي بالنسبة إلى خرائط صليبية الشكل وشائع في الهندسة الفارسية بمخطط أربعة إيوانات. ويكاد يكون محورا الخريطة متساويين بالرغم من أن المحور المعاكس المستعرض أضعف طبيعياً. وتملك هذه المباني بنية عقدية نموذجية في نقطة تقاطع المحاور والخريطة. تسيطر العناصر العقدية الخاصة بالإيوان والميانسراي ومشكاة المحراب، وقاعة الصلاة أمام المحراب، والمحاور العمودية في محاذاة المحور الطولي (نقاط التقاطع «الفعالية» والأبنية الدورانية أو المعقودة بشكل متقاطع) على التنظيم التسلسلي للأروقة المقنطرة كما هي الحال بالنسبة إلى مسجد كاليان. وتنتمي المدارس والمساجد المستقلة العظيمة في القرن السادس عشر، مثل مير عرب، إلى هذه الفئة (انظر الرسم الرقم (٢١ - ٧)).

الرسم الرقم (٢١ - ٧)
توزيع رمزي للمعالم الرئيسية في بُخارى

1	MONODIRECTIONAL AXIALITY	DIRECTIONAL AXIALITY	TRIDIRECTIONAL AXIALITY	PLINDIRECTIONAL AXIALITY
2	UNIFORM	COMPOSITE	CROBBED	SET UP ON A PIVOT
3	REPETITIVE	COMPLEMENTARY	HIERARCHIC	EQUIVALENT
4	LINEAR	SERIAL	NODAL	POLAR
	A	B	C	D

تتألف الفئة الرابعة من مبانٍ ذات محاور متعددة الاتجاهات؛ بمعنى آخر تلك التي تدور حول محور عمودي كالمباني الكبيرة المخططة مركزياً حيث تعلو القبة المركزية مجموعة محيطة من القباب الأصغر حجماً. يبلغ عدد محاور الخريطة، بما في ذلك الخطوط القطرية، أربعة على الأقل ولو أنها غير متساوية بالضرورة. من جهة أخرى، يُعد التعريف العام للمساحة متماثلاً، بحيث تميل حتى الأحجام المكانية والبنائية الأكثر تعقيداً إلى التحرك حول المحور العمودي الذي يحرف أي دفع أفقي نحو الأعلى.

لقد سبق وذكرنا التوترات المتعارضة في مساجد الغُدر المنشأة بين اتجاه القبلة واتجاه السماء.

قد يكون المخطط مفتوحاً أو مغلقاً؛ في الحالة الأولى تأخذ بنية نصف قطرية بينما لها في الثانية بنية مطوّقة. أما أطواق بُخارى التي تم ذكرها سابقاً فهي نموذجية في وضوحها الهندسي؛ فطاق تلباك فُروشان هو بنية قطبية مفتوحة مثل طاق تيمشيه عبد الله خان؛ وطاق زارغاران، وهو مفتوح في الجزء المركزي ولكنه مغلق في تصميمه العام؛ وخانقاه بهاء الدين وهي بنية مغلقة.

في الرسم الرقم (٢١ - ٧) تم تصنيف مجموعة من المباني في بُخارى عبر استخدام شبكة متسامتة: تمثل الدرجات (أو الفئات) المختلفة على المحور السيني بينما تنظم الأمثلة على المحور الصادي وفقاً لمستويات متدرّجة من التعقيد المكاني باتباع مبادئ رمزية^(٣٢).

تتألف مدرسة أمير علم خان من ثلاثة عناصر مترابطة. فيربط المدخل الحالي (الذي أعيد تشييده خلال عهد ستالين) الحمامات المخططة مركزياً بقبة مصلّعة إلى المدرسة التي تعود إلى القرن الثامن عشر، والتي تتألف من وحدات قياس متسلسلة على طابقين بزاوية دوران ٤٥ درجة ويمكن الوصول إليها بواسطة رواق صغير.

تشارك مدرسة غوكوس خان الصغيرة الميزة نفسها لزاوية مختصرة بغية تسهيل الوصول إليها منشئةً بذلك فناءً مثمّن الزوايا. انشئت هذه السابقة هنا لمدارس عديدة لاحقة: فنجد طابقاً واحداً على جوانب المبنى الثلاثة مع صفوف غرف للطلاب، بينما يبلغ ارتفاع الواجهة مع البشتاك ضعفي ارتفاع الواجهات الأخرى. كما تنتمي المدرسة الغازية الأصغر حجماً إلى هذه الفئة.

يُعتبر مسجد مفاك كوريا بنية مركّبة من البازيليكات التي لها ثلاثة صحنون، كل واحد من اثنتي عشرة وحدة قياس مقببة ومحور طولي شرقي - غربي يبرزه البشتاك الطويل الذي يبلغ أعلى الواجهة والمحراب المقبب والنوعية العالية للزخرفة المقنطرة في الصحن المركزي، ولا سيّما على قبة قاعة الدراسة (درس خانة). يحيط بالقاعة رواق بينما تم تعميق حائط القبلة بغية تكييف غرف الخدمة. أما الرواقان الثانيا الاتجاه فهما مفتوحان إلى الشمال والجنوب حيث يتدفق الضوء عبر قوسين عظيمين، ولكنه

Ganiggia and Maffei, *Compazione architettonica e tipologia edilizia*, and L. Y. Mankovskaya, (٣٢) *Tipologicheskij osnovi soch Sredni Azii LX nachado XXV* (Tashkent: [n. pb.], 1980).

بعد ذلك يرشح من خلال ثقب أصغر إلى قاعة الصلاة. ويفترض التصميم أن المبنى لم يكن مجرد مسجد في الأصل بل خانقاهاً أيضاً مع وجود غرف في الأروقة الجانبية. إن جزءاً من حائط الواجهة عميق بشكلٍ يكفي لاحتواء البشتاك والمدخل إلى القاعة العلوية. كما أن المحور المتماثل للقاعة العلوية محور مثالي ولا يشبه بالتالي محور الطريق، بينما يقع المدخل إلى القاعة السفلية عند قاعدة البشتاك عبر سلم محوري. وتملك الغرفة الثالثة من المدخل حيث تقع الدرس خانة قبة مزدوجة على إسطوانة طويلة محدثة محوراً معاكساً محتملاً لا يؤثر مع ذلك في الواجهات الجانبية. ويشبه التصميم بأكمله مسجد مغاك عطار^(٢٣).

يتألف مسجد مغاك عطار من ثلاث طبقات بناء متتالية فوق هيكل القمر القديم. في عام ١٩٤٠، اكتشف عالم الآثار شيشكين^(٢٤) مسجداً يعود إلى القرن الحادي عشر وله أربعة أعمدة في الموقع الحالي. ومن المعروف أيضاً وجود مسجد يعود إلى القرن الثاني عشر وله ستة أعمدة كانت في حالة خراب في القرن الخامس عشر في الموقع نفسه. تشبه الخريطة الحالية هذه النسخة وتتألف من ثلاثة أجنحة بمجموع اثني عشرة حجرة. في عامي ١٥٤٦ و ١٥٤٧ أعيد بناء المسجد ليُشبه التصميم الجديد للبازار. وبمحاذاة المحور الطولي تم فتح باب جديد له بشتاك باتجاه الشرق على سطح علوي وأضيفت قبتان مزدوجتان قائمتان على ركائز من أجل إضفاء شعور بالهرمية على البناء بأكمله. إن الباب الجنوبي عند السطح السفلي، الذي يشبه مدخل القرن الثاني عشر الأصلي، يفتح على باب عظيم مزخرف بنموذج هندسي من القرميد (جريخ). يعود غموض البناء إلى التعديلات المختلفة: يرتبط المحراب والباب الذي يرقى إلى القرن السادس عشر بالمحور الرئيسي؛ لكن وجود بايين مواجهين أحدهما للآخر على الجوانب الأطول ينشئ محوراً معاكساً مستعرضاً. إن طبيعة المحاور المتممة ومفصلة المسجد لدى الارتفاع تظهره كمثل عن الفئة الثانية.

من الناحية المورفولوجية، شكّلت مدرسة أوليغ بك، التي ترقى إلى عام ١٤١٧، نموذجاً لتطورات لاحقة عبر اختيار أنظمة مكانية وتوزيعية جديدة لأول مرة مثل الميانسراي على الواجهة وقاعة دخول مركزية تؤدي إلى قاعة الاستماع والمسجد. لكن وحده الفناء (٢٢, ٢ × ٢٤, ٥ م) متناسب جيداً ومحاط بصف قناطر يتألف من طابقين

L. Y. Mankovskaya, *Bukhara: A Museum in the Open* (Tashkent: [n. pb.], 1991), p. 80. (٢٣)

V. A. Shishkin, «Archeologicheski raboty v mecheti Magkak-I Attari v Buhare,» *Trudy Instituta Istori i Arheologii Bukhara* (Tashkent), no. 7 (1955), pp. 56-57. (٢٤)

فيهما حجيرات على جوانب ثلاثة، وهي تشكل في الطابق الثاني مكاناً لصالة الخدمة. ويشار إلى المحور الشمالي - الجنوبي الرئيسي بواسطة بايين في الداخل وجزء ناتئ في الشمال من الهيكل الأساسي للمبنى وبالتالي يعمق الإيوان. تبقى غرف زوايا المحور الرئيسي من النوع المتسلسل من دون أي محاولة لإيجاد حل أكثر عضوية. كما يشار إلى المحور الأساسي على الواجهة بواسطة بشتاك متّوج ضخم يبلغ ارتفاعه نحو ٢٠م، أي ضعفي ارتفاع الهيكل الأساسي للمبنى. وتعتبر هذه تقنية بسيطة تم تطويرها في الهندسة التيمورية بغية تعزيز التأثير المهم حتى للمباني الصغيرة. لقد تمت مضاعفة المدخل المركزي بينما أحاطت ردهة بالإيوان بمحاذاة رواقين.

إذا كان هذا التصميم يخدم تركّ الإيوان الجنوبي مخصصاً لأهداف التعليم فإنه مع ذلك يحدث تفرعاً ثنائي الشعب بين محور الطريق ومحور البناء، وهو ما يجعل أي قراءة موضوعية للمبنى صعبة. تقوم القاعتان المقنطرتان في الميانسراي مع المدخل (دهليز) خلف البشتاك بتشكيل محور معاكس متراصف مع المحراب الذي يعزز واجهة المبنى بأكملها. كما تؤدي الواجهة المطلة على الشارع، التي يسودها باب له زخرفة نموذجية عن القرن الخامس عشر والتي يشكلها برجان زاويان إسطوانيان، دوراً تمثيلاً، وتعطيها سلسلة الأروقة الخارجية الموجودة في الواجهة مظهر مبنى مدني. نجد على الواجهة نقشاً يشير إلى أنها من عمل المهندس إسماعيل بن طاهر بن محمود الأصفهاني^(٣٥). كلّف أولغ بك بنسختين عن المدرسة، واحدة في سمرقند والأخرى في عُجديوان^(٣٦).

بعد نحو مئة وخمسين عاماً، أكمل عبد العزيز خان الثاني بين عامي ١٦٥١ و١٦٥٢ تصميم الكوش مع مدرسة. تسود الإيوانات المستعرضة في الفناء ويوازن شكلها الناتئ قوة الميانسراي. هذه تركيبة نموذجية لها محور طولي ذات معالم غير تقليدية: نجد خلف بوابات الفناء أروقة تؤدي إلى حجيرة موجودة في طابقين، بينما يتبيّن المحيط الخارجي من خلال الأجزاء الناتئة واللوحات المتنوعة والغولداستا. وتستحق الحجرة الاهتمام نظراً إلى تعقيدها المكاني: نجد في كل حجرة غرفة وغرفة مضادة وموقدة ومشكاة وشرفة ومنصة للسريّر وقناطر مزخرفة. أما المكتبة الموجودة فوق الدهليز في الطابق الأول فهي غير اعتيادية بينما للمداخل الصليبية الشكل نفسه

V. A. Levina, «O reznoy derevyannoi dveri medrese Ulgebegav Bukhare,» *Trudi SAGUAGU*, (٣٥) no. 49 (1953), pp. 161-169.

L. Golombek and D. Wilber, *The Timurid Architecture in Iran*: من أجل مقارنة الخرائط، انظر: *and Turan*, 2 vols. (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1990), vol. 2, plate 7, p. 88.

كمدرسة أولغ بك الذي يجبر الزائر على الانعطاف حول الإيوانات عبر الأروقة الجانبية. كان محمد صالح مهندس المدرسة. كما كُلف عبد العزيز خان الثاني بثلاث مدارس أخرى: مدرسة ميروكون (١٦٥٠ - ١٦٥٢)، ومدرسة خيابان (١٦٥٤ - ١٦٥٥)، ومدرسة بازار غوسفند (١٦٦٥ - ١٦٧٠).

يحتل مسجد بيبي خانم في سمرقند بالقرب من باب الحديد مساحة قدرها ١٦٧ × ١٠٩ م. كان المسجد الذي بُني للاحتفال بانتصار تيمورلنك في الهند مواجهاً لمدرسة هي الآن مدمرة في موقع ضريح ساراي مُلك خانم. تعتبر خريطة المسجد عبارة عن فناء له أربعة إيوانات تقليدية. يتميز المحور الطولي بوجود بشتاك مزدوج يبلغ ارتفاعه ٣٠ م (مدخل وداخلي). كما يسبق الإيوان العميق الذي يؤدي إلى غرفة مقببة لها محراب. كما تظهر حجيرتان ثانويتان مقببتان ذات تخطيط مربع عند المحور المستعرض للمسجد. كانت الإيوانات الداخلية الأربعة مرتبطة بواسطة رواق يبلغ عمقه أربع وحدات قياس في ثلاث جهات وتسع وحدات قياس نحو القبلة. وتُميز أربع مآذن الزوايا الخارجية الأربع.

يعتبر مسجد كاليان بمساحته البالغة ١٣٠ × ٨١ م وقبته البالغ ارتفاعها ٣٠ م أهم معلم في بُخارى وإن لم يكن، على الأرجح، مؤثراً كمسجد بيبي خانم في سمرقند. مع ذلك، لا يعتبر التصميم التقليدي بفنائه البالغ مساحته ٧٧ × ٤٠ م وإيواناته الأربعة حلاً عضوياً تماماً. يسيطر المحور الطولي معزراً بسلسلة عناصر معمارية: بشتاك المدخل والإيوانات الداخلية التي يربطها رواق، والقبّة المقابلة التي يقع أمامها إيوان وجزء ناتئ عميق للمحراب. وتؤكد كل من هذه العقد بمحورها العمودي المسار بشكل متواتر. إن تصميم الإيوانين المواجهين أحدهما للآخر في الفناء (وهو رسم مأخوذ من قصر أفسراي التيموري في مستوطنة شاهريسابز)، السرادق المركزي تارات خانة للوضوء وحتى الشجرة المعزولة على منصة منخفضة يقود نظر الزوار وتحركاتهم بمحاذاة المحور الطولي، الذي يشكل العنصر البنائي الحقيقي الوحيد في المبنى بأكمله.

وبالفعل، يلمح الإيوانات الواقعان في وسط الجوانب الطويلة إلى محور عكسي ضعيف لا يؤثر في المحيط الخارجي بينما يفترض البابان المطلّان على الشارع محورين عكسيين إضافيين لا يؤثران في واجهة الفناء. تعتبر خريطة مسجد كاليان بحجراتها المقلّنة البالغة متين أو أكثر، التي تُحدث مساحة متصلة ومتواترة، مجازاً للبناء المدني بمنازله ونصبه التذكارية. تبيّن الخريطة الرباعية التجزؤ والمستوحاة ربما من مسجد جمعة في هرات، التباين الدقيق نفسه بين عقديّة الإيوان الواضحة والتنظيم

المتسلسل للأروقة المعمدة مع فارق أن الإيوانات أعمق والمداخل جانبية في مسجد كاليان ما يبرز بالتالي المحور المتقاطع.

ترتفع القبة، النموذجية في الهندسة التيمورية، المتشعبة وفق الطموحات البالغة الضخامة، وعلى نحو غير متجانس فوق سقف الأروقة المعمدة بدلاً من أن تنسجم مع قياس المباني المحيطة. وهي تتركز على رواق قاعة الصلاة العميقة التي تتألف من ثلاثة أقسام مختلفة: إيوان انتقالي، درس خانة، ومحراب قبوي. ويشبه هذا المخطط إلى حد بعيد مخطط جوهر شاد في هرات. تتبع القبة المخطط التيموري لقبة صغيرة مزدوجة ترتفع على أسطوانة طويلة، وهو حل بسيط يسمح لمساحة القبة المستديرة الإشراف على المباني المدنية؛ ولكن عيب القبة يتمثل بكونها تبدو ثقيلة جداً. تتركز القبة الداخلية على مجسم ثماني من القناطر المعلقة وتعلوها قبة مستطيلة مدهونة باللون الأزرق تتركز بدورها على الأسطوانة الطويلة المطلية^(٣٧).

يتألف تصميم مدرسة مير عرب التي ترقى إلى عام ١٥٣٦ من أربعة إيوانات وصفوف حجيرات في طابقين، وهي نموذج من الفئة الثالثة. تحدث الإيوانات الأربعة (المتشابهة) محورين يتقاطعان في وسط الفناء متجة قوة دفع عمودية قوية. وتعلو في الأفق الإيوانات والأكتاف إضافة إلى قبتي الميانسراي القائمتين على ركائز. هذا هو الجزء الأكثر لفتاً للنظر في المبنى مع الحل الجديد والاستثنائي للقبب التي تعلو القبر والمسجد وتتركز على أربع قناطر متقاطعة لها أضلع ثانوية من المرمر تسند «الأذرع» الناتئة للقناطر. ويتم ملء الصدوع بالأجر على شكل معلقات تشبه التراس. يشكل إطار القناطر المتقاطعة مصبغة بينما تكون الزوايا بين القناطر الأساسية مكسوة بأجزاء من القناطر ومزخرفة بالمقرنصات.

من الناحية البنيوية، تكون القبة مزدوجة عادية تتركز على أسطوانة طويلة باستثناء كون القبة الداخلية مفتوحة ومضاءة من الأعلى عبر نوافذ في الأسطوانة. إن هذا الابتكار الجديد أحدث تغييراً كاملاً في المساحة الداخلية التي أصبحت الآن منارة أكثر ومناسبة بالتالي للزخرفة البارزة المعقدة.

إذا قمنا بمقارنة هذا الحل بالحل المشابه لميانسراي مدرسة كوكيلداش نلاحظ أنه في حين يُعتبر الأول تكييفاً بارعاً للبني التيمورية، يعتبر الثاني ابتكاراً جديداً هنا

M. Yusupova and G. A. Pugachenkova, «Material and Spiritual Culture,» in: *Bukhara: An Oriental Gem* (Tashkent: [n. pb.], 1997).

يتحول قسم القبة الذي يركز على القناطر القطرية المتقاطعة إلى نوع من البدعة الضوئية بينما ترتفع القبة القصيرة على الأسطوانة مثل منارة شفافة.

وبالنسبة إلى فورونينا^(٢٨) تتفوق مدرسة مير عرب على الهندسة التيمورية لجهة تمكّن مهندسيها من الجمع بين فخامة المباني الضخمة وصقل أسلوبها ومهارة فنية في تخفيف وزن الكتلة.

تعتبر مدرسة كوكلداش بمساحتها البالغة ٨٦ × ٦٩ م وبحجيرات طلابها البالغة مئة وثلاثين، أكبر مدرسة في بخارى. كما تعتبر النقطة المركزية للتصميم العام لإيوانين ولصفوف حجيرات واقعة في طابقين من الميانسراي المركّب الذي يكاد يكون مبنى بحد ذاته^(٢٩). تدير الزوايا في الفناء الغرف بـ ٤٥ درجة ما يجعلها مستقلة، وبالتالي أكثر الحلول عضوية إلى حد بعيد.

تقوم مدرسة عبد الله خان التي تعود إلى عام ١٥٨٩ - ١٥٩٠، على مخطط رباعي التجزؤ مع وجود أقسام من الجسم الأساسي للمبنى ناتئة من المحيط الخارجي. وأبرز ابتكار هو القاعة ذات الضوء المزدوج على المحور المركزي للفناء والمسمّاة فانوس عبد الله خان. وتؤدي هذه القاعة إلى عشرين حجرة وتغطيها قبة تعلو أسطوانة فيها نوافذ.

تتسمي إلى الفئة نفسها مدرسة ترسن خان ولها فناء رباعي التجزؤ وغرف مزوّاة بدوران ٤٥ درجة، ومسجد غوكوس خان، ومدرسة عبد العزيز خان.

أما تيمشيه عبد الله خان فهو بناء قطبي نموذجي من الفئة الرابعة الأكثر عضوية. ويدمج مخططة محورين مركزيين ومحورين قطريين على ٤٥ درجة من المحورين الأساسيين. نجد رواقاً حول المثلث المركزي للقبة رابطاً بين محالّ متعددة وغرف مزوّاة بدوران ٤٥ درجة. كما يملك خانقاه بهاء الدين النقشبندي خريطة قطبية مركزية بمحورين. إن المحورين المتعامدين اللذين يؤكدهما بشتاك بارز مزدوج الارتفاع على الواجهة وأربعة إيوانات أصغر حجماً في الداخل، وجدران المبنى الصلبة التي تدعم القبة المضلّعة بثمانية أضلاع متقاطعة وحتى زوايا القطع الأربع للواجهة، يفترضان تماثلاً قوياً جداً يسيطر عليه محور القبة العمودي.

V. L. Voronina, *Architectural Monuments of Middle Asia: Bukhara, Samarkand* (Leningrad: (٢٨) [n. pb.], 1969).

Mankovskaya, *Bukhara: A Museum in the Open*, p. 74.

(٢٩)

في الواقع، ارتكزت خريطة المبنى على محور واحد مثل خانقاه فايز آباد (١٥٩٨ - ١٥٩٩) التي تملك صفين من الحجيرات المتوازية باتجاه الخارج. في خلال القرن التالي أعيد تنظيمها إلى حد بعيد بحيث أصبحت متماثلة بالكامل على الجوانب الأربعة، على الرغم من إدخال المحور العكسي المتوازن وصفين آخرين من الحجيرات المتعامدة. أما الدليل الوحيد في المخطط على التصميم السابق فيجب أن نراه في الغرف الأربع ذات الزاوية الأحادية الاتجاه.

الفصل الثاني والعشرون

شيراز: مدينة الحدائق والشعراء

مِهْوَش عَالَمِي^(*)

يقدم هذا الفصل بصورة أولية مخططاً شاملاً لشيراز في عهد الصفويين، استناداً إلى الأدلة الموثقة المكتشفة حديثاً، ويدرسُ بعد ذلك العلاقة بين الحدائق الملكية وحدائق الأضرحة وبين المدينة كما يبينها هذا المخطط. ستجري مقارنة هذه العلاقة بمدينة الحدائق التي أنشئت في الفترة نفسها في أصفهان، بهدف العثور على الملامح المشتركة والإضاءة على الميزات الخاصة بشيراز.

أسفرت عادة ملوك الفرس في الانتقال من المصيف (يلاق) إلى المشتى (قشلاق)، والاصطياد على طول الطريق، عن إنشاء شبكة من الحدائق الملكية التي انتشرت على الطرقات الرئيسية المؤدية إلى الأماكن التي كانوا يقصدونها. وكما يظهر التاريخ المدني للهضبة الإيرانية، غالباً ما كانت العاصمة تنتقل من مدينة إلى أخرى، لأسباب استراتيجية مرتبطة بالأصول البدوية للعائلة الملكية الحاكمة. وهكذا كانت الحدائق الملكية، مع مرور الأيام، تبنى في مدن مختلفة. وأثناء حكم السلالة الصفوية، انتقلت العاصمة من تبريز إلى قزوین ثم إلى أصفهان. وقد أظهرت دراسة العلاقة بين الحدائق الملكية ومدينتي قزوین وأصفهان خصائص مشتركة معينة؛ ففي كلتا العاصمتين، كان اختيار إنشاء البلاط الملكي يفسح في المجال أمام إنشاء مدينة حدائق بجانب كل من المركزين

(*) باحث من إيران، وعمل كمهندس معماري في روما.

المدينين. لذا من المهم أن نفهم كيف ارتبطت الحدائق بالمراكز المدنية في تلك المدن التي لم تكن العاصمة، وأن نعرف ما إذا كانت هذه العلاقة قد تغيرت في سياق طبيعي فقط أم بسبب عوامل اجتماعية وتاريخية أخرى أيضاً، من بينها وجود البلاط الملكي.

في هذا السياق، تبدو شیراز في عهد الصفويين حالة دراسية ذات صلة؛ فهي لم تكن العاصمة، ولم تكن مجرد منتجع للصيد، بل كانت عاصمة إقليم فارس. كانت المدينة، وهي الأكبر جنوب منطقة زاغروس، ذات أهمية استراتيجية وتجارية لوقوعها على طرق المواصلات الرئيسية، التي تمتد من أصفهان إلى الخليج، وتبعاً للوجود الأوروبي في المنطقة أيضاً. كان السهل المحيط بالمدينة مكسوّاً بحدائق المقابر الكثيرة إضافة إلى حدائق النزهة التابعة للحكام المحليين أو أفراد الأسرة الحاكمة.

يقدم الرحالة الأوروبيون في العهد الصفوي فكرة عن العلاقة القائمة بين المشهدين المدني والطبيعي لشيراز وحدائقها من خلال أوصافهم وآرائهم في المدينة. لكن في الإمكان تصوير هذه العلاقة بطريقة أفضل وقراءتها عياناً في مخطط مرثي. وبما أنه لا يتوافر لدينا حتى الساعة المخطط الصفوي لشيراز وضواحيها، سيقدم هذا الفصل أولاً مخططاً مستوحى من تركيب الدراسات السابقة^(١) ومن سجلات الرحالة الأوروبيين^(٢)، ومن الوثائق البيانية والنصية غير المدروسة بعد، وبوجه خاص مخطوطات أنغلبرت كامبفير في المكتبة البريطانية. ولن يكون في مقدورنا مقارنة علاقة الحدائق الملكية وحدائق الأضرحة الرئيسية بالمدينة بعلاقتها بأصفهان الصفوية وبحث مزاياهما المشتركة والاختلافات بينهما إلا بعد تحديد مواقعها ورسمها على المخطط.

(١) درس تاريخ المدينة كلٌّ من: Laurence Lockhart, *Famous Cities of Iran* (Middlesex: W. Pearce and Co., 1939); Fredy Bemont, *Les Villes de L'Iran* (Paris : [n. pb.], 1973); Karamatollah Asfar, *Tarikh-e-baft-e qadimi-ye Shiraz* (Tehran: [n. pb.], 1374h/1995m), (shortened as Asfar), and Manuchehr Daneshpajuh, *Shiraz* (Tehran: [n. pb.], 1377h/1998m), (shortened as Daneshpajuh).

درس حدائق شیراز كلٌّ من: Donald Newton Wilber, *Persian Garden, pavilions* (Washington, DC: Washington University Press, 1979), and Alireza Arianpur, *Pajuheshi dar shenakht-e baghaye tarikh-ye shiraz* (Tehran: [n. pb.], 1365) (shortened as Arianpur).

(٢) روايات الرحالة الرئيسيين في الفترة الصفوية التي استخدمت في هذه المقالة وهم: Pietro Della Valle, *Biblioteca Vaticana*, Ms. Ottob. Lat. 3382, (abbreviated Della Valle); Jean Chardin, *Voyages*, 9 vols. (abbreviated Chardin); Jean Baptiste Tavernier, *Les Six voyages de Jean Baptiste Tavernier en Turquie en Perse et aux Indes*, vol. 2, pp. 307-319; Cornelis De Bruyn, *Voyages de Cornielle le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales*, 5 vols. (Paris: [n. pb.], 1725), (shortened as Bruyn); British Library, Sloane Ms. 2846, *Comentarios de Don Garcia De Silva, de sus Embaxada de parte del rey de Espana Don Philippe III Ritzo al xa Abas de Persia. Ano de 1618* (shortened as Comentarios), and Don Garcia de Silva y Figueroa, *L'ambassade de D. Garcias de Silva Figueroa en Perse* (shortend as Figueroa), and Engelbert Kaempfer, *British Library*, Sloane Manuscripts.

أولاً: مخطط شیراز الصفوية

أقدم مخطط لشيراز هو رسم أعدّه كارستن نيبور (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ١)) عام ١٧٦٥^(٣)، حيث تظهر فيه المدينة المسوّرة وقسم من السهل الذي يحيط بها^(٤). وهو يستحضر الشكل الدائري القديم الذي كانت تتميز به المدن في فارس (داراب، وفيروز أباد وبیشابور)^(٥). والبوابات التي تظهر في هذا المخطط هي باغ شاه وأصفهان في الشمال الغربي والشمال الشرقي، وسعدي في الشرق، والقصب^(٦) في الجنوب الشرقي^(٧)، وشاه داعي في الجنوب الغربي وكازرون في الغرب^(٨). كما سُقي الطريقان اللذان يبدأان من هذه البوابات ويؤديان إلى أصفهان، بابا كوهي والشيخ سعدي. ويظهر أيضاً نهر خرّم درّه أو خُشك وثلاثة جداول تؤدي إلى بوابة باغ شاه، وإلى قطاع سرباغ. وتظهر على الطريق المؤدي إلى أصفهان، البوابة عند تنّغة الله أكبر (A)، وضريح حافظ (B)، وضريح المير حمزة والمقبرة. وإلى الجنوب، يظهر ضريح خاتون قيامه ومقبرة شاه داعي.

وداخل الأسوار، أشير إلى ضريح السيد الحسين وضريح شاه تيراغ. وتم تحديد سرباغ^(٩)، حيث كان للأرمن كنيسة صغيرة في «وكالة الإنكليز التجارية»، إضافة

Carsten Niebuhr, *Voyages en Arabie et en d'autres pays circonvoisins* (Amsterdam : [n. pb.], (٣) 1776), vol. 2, tab. 35, (shortened as Niebuhr).

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٨.

«لم أستطع أن أرسم المخطط الدقيق لهذه المدينة. بيد أن القاريء يستطيع أن يكون فكرة كافية عن مساحة هذه المدينة وعن موقعها، استناداً إلى اللوحة XXXV التي أشرتُ فيها بدقة إلى موقع أبوابها. قرب A يوجد باب رائع لحَيّ طانجي الأكبر، ويدل حرف B على موقع ضريح حافظ؛ أما سارباش فبها معمل للإنكليز. ونشاهد في A وB أطلال معمل كانت للفرنسيين والهولنديين والبرتغاليين سابقاً. وعلى المخطط يشاهد موقع بعض المساجد، ولكنها تشاهد بشكل أوضح في اللوحة رقم XXXVI التي رسمت مخطّطها في الصرح المجاور لضريح حافظ».

Abol Abbas Moin-ed-Din Ahmad ebn Shahab ed-Din Abi al-Kheyr Zarkub Shirazi, *Shiraz* (٥) Name, edited by Esmail Va'ez Javadi (Tehran: [n. pb.], 1350h/1971m), (abbreviated as Shiraz name), p. 34.

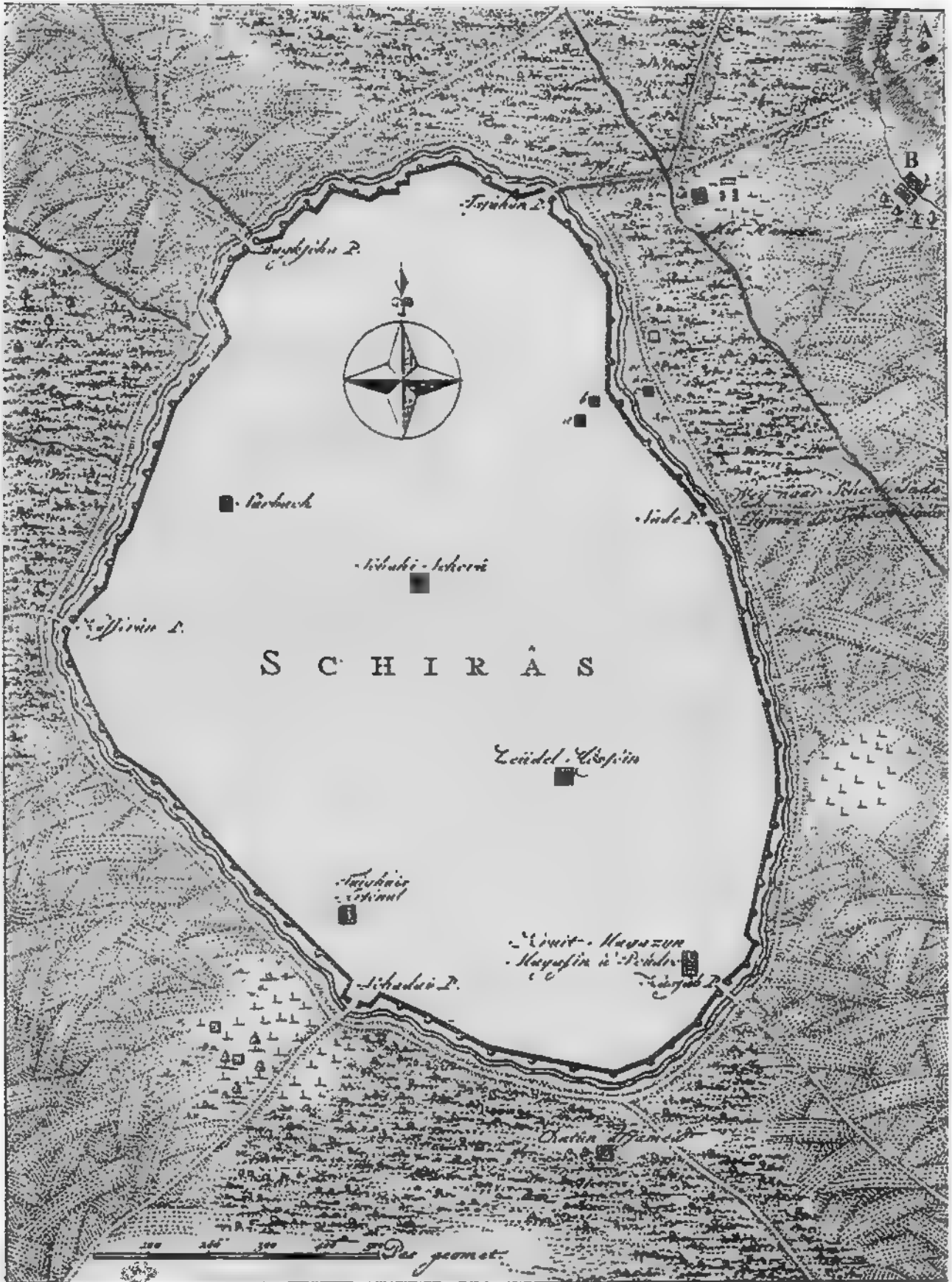
(٦) هذه البوابة في المخطّط الذي أعدّه ميرزا حسن شیرازي تسمى كشتارغاه. ويُطلق عليها باسم كاسكال كوست «المسلخ». ويشير إليها ببيترو ديلا نالي ببوابة فسّا. واستناداً إلى شاردان، فإن البوابة في الجهة الجنوبية كانت: «La porte de Phess, du nom d'une petite ville à la quelle elle conduib».

(٧) يذكر شاردان خطأ أن هذه البوابة في الغرب.

(٨) يذكر شاردان خطأ أن هذه البوابة في الشرق بدلاً من الغرب.

(٩) كان للربان الكرملين نزل ومسكن في شیراز من ٦ آب/ أغسطس ١٦٢٣، وحتى ١٧٢٨ - أي ما يقارب ١١٥ سنة - مع راهب يقيم على نحو متّظم باستثناء فترتين: آب/ أغسطس ١٦٣١ - تشرين الثاني/ نوفمبر ١٦٣٤ ومن أوائل ١٦٤٤ وحتى آذار/ مارس ١٦٥٤، أي ما يقارب ١٣ سنة من أصل ١١٥ سنة. استخدم الموقع الأول والأكثر رحابة لمدة ٣٣ سنة، واستخدم الثاني لمدة ٨٢ سنة. انظر: Herbert Chick, *A Chronicle of the Carmelltes in Persia* (London: [n. pb.], 1939), p. 1071.

الرسم الرقم (٢٢ - ١)
مخطط شيراز للعام ١٧٦٥



Carsten Niebühr, *Voyages en Arabie et en d'autres pays Circonvoisins* (Amsterdam: المصدر: [n. pb.], 1776).

إلى ألقباء خرائب وكالات الفرنسيين والهولنديين والبرتغاليين^(١٠). وفي مشهد أعدّه نيبور، يمكن من الجهة الشمالية تمييز معالم أخرى من بينها: الجسور القريبة من بابي أصفهان وسعدي، وخاتون قيامه، ومستودع البارود، والسيد الحسين، وبني بي دُختران، والمدرسة، وشاه تيراغ وعمارة بيغلر بيكي (المحافظ)، شقيق كريم خان^(١١).

يطابق المخطط الذي أعدّه كارستن نيبور من حيث الجوهر القطاع التاريخي للمدينة الذي يمكن تمييزه في مخطط شيراز لعام ١٩٤٦ (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ٢))^(١٢).

وهذا المخطط الأخير هو أفضل أساس متوافر لرسم مخطط مجدد يمكن الاستناد إليه من الناحية الطبوغرافية، لأنه يظهر المدينة والمناطق المحيطة بها في بداية عهد سلالة البهلويين عندما كانت موضوعة شق الطرقات من أجل مرور السيارات داخل المدينة القديمة قد بدأت حديثاً. ولا يزال مخطط عام ١٩٤٦ يظهر القطاع التاريخي من المدينة، الذي يتميز بشبكة من الطرقات الضيقة، باستثناء شارع كريم خان ولطف علي خان اللذين كانا قيد الإنجاز في ذلك الوقت^(١٣). لذا يمكن رسم أسوار المدينة والمعالم الأخرى التي أظهرها نيبور في مخطوطه. ويبدو شكل الأسوار التي بيّنها نيبور صحيحاً؛ لأنها تتطابق عند وضعها فوق مخطط عام ١٩٤٦ مع الشوارع الموجودة. وبخلاف ذلك، فيبدو أنّ الطريق المؤدي إلى أصفهان عبر بوابة تنغة الله أكبر، الذي رُسم في الشمال الشرقي من المدينة بدلاً من الشمال، قد رُسم خطأً على امتداد الطريق المؤدي إلى أصفهان عبر نيريز.

أعاد كريم خان زناد بناء الأسوار بعد أن أعاد تأسيس العاصمة في شيراز عام ١٧٦٥^(١٤). في ذلك الوقت، كانت شيراز شبه مدمرة، لا بسبب الأضرار التي لحقت بها أثناء تفهقر الأفغان عام ١٧٢٩، ومطاردتهم من قبل إمام قُلي خان (نادر شاه فيما بعد) وحسب، وإنما نتيجة الفيضانات التي دمرت الأجزاء الشمالية القريبة من ضفة

(١٠) يشير إلى عمل سرباغ والأرمن والشركات المختلفة. انظر: Kaempfer, *British Library*, 2912 fol 41.

(١١) Niebuhr, *Voyages en Arabie et en d'autres pays circonvoisins*, p. 93.

«السيد الحالي لقصر بيغلر بيكي هو الذي بناه مؤخراً، ويقع في مساحة كبيرة مزروعة. ولا يختلف الصرح الأمامي أبداً عن أية بيت جميل يملكه برجوازي ثري؛ وخلف هذا الصرح الأمامي يقع السكن الأمامي المطل على باحة فيها بحيرة كبيرة ونوافير ماء. اقتادونا إلى ردهة فسيحة مفتوحة بكاملها على هذه الباحة». وأضاف قائلاً: «بعد المقابلة... طافوا بنا في أرجاء القصر... ثم اقتادونا إلى الحرم الملك الذي لم يكن قد جُهِزَ تماماً... وكان بيغلر بيكي ينام في برج دائري أقامه خلف المنزل، وكان يتمتع بحراسة مشددة».

(١٢) Sazeman-e Havapeymai va Naqshebardri (1946), plan of Shiraz, scale 1:10000, 1326 AH.

(١٣) Asfar, *Tarikh-e-bast-e qadimi-ye Shiraz*, p. 285-287.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٩٧.

النهر أيضاً^(١٥). وتذكر روايات الرهبان الكرمليين أن حدود المدينة تقلصت بعد تلك الحادثة^(١٦).

الرسم الرقم (٢٢ - ٢)
مخطط مصحح لشيراز الصفوية



المصدر: من رسم مَهْوُش عالمي على خريطة للمدينة من العام ١٩٤٦.

كان للمدينة أيام الصفويين تسعة أبواب، وكانت أسماؤها إصطخر (أصفهان)، وسعادت (غُذْرغاه، وكانت قريبة من سعدي)، والمنذر (بين سعدي وفسَا)، وفسَا (وكانت تسمى أيضاً غوسفند، وقصاب خانة، وكوَار)، ونُو (أو خاتون قيامه)، وسلم (أو شاه داعي)، وكازرون (أو شوشتر)، وبيزا (بين باغ شاه وكازرون) ومزدستان (باغ شاه أو دَرَك موسى أو آهني).

Chick, *A Chronicle of the Carmelites in Persia*, p. 1068.

(١٥)

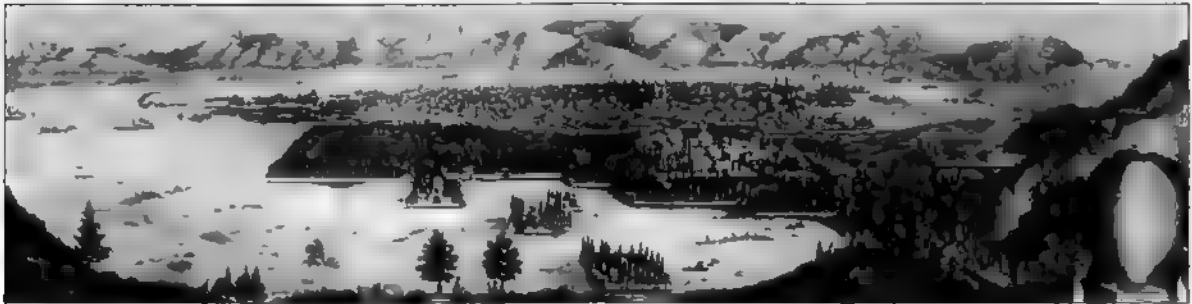
(١٦) «بتضييق (حدود) البلدة، دُمِر بيتنا من أساساته». انظر: المصدر نفسه، ص ٦١٧.

١ - النسيج المدني داخل الأسوار

لا يظهر النسيج المدني داخل أسوار المدينة في مخطط نيبور، لكنه يظهر في مخطط لاحق أعدّه شيريكوف عام ١٨٥٠، (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ٣))^(١٧)، بالرغم مما احتوى عليه من أخطاء واضحة في ما يتعلق بموقع مسجد نُو (المسجد الجديد) وضريح شاه تِشراغ.

الرسم الرقم (٢٢ - ٣)

منظر لشيراز من رسم شاردان من تنغة الله أكبر



كما يظهر النسيج المدني جيداً في رسم أعدّه فيلبر ويمثل المركز التاريخي لشيراز في عام ١٩٣٥ (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ٤))^(١٨).

وعند مطابقة هذين المستندين مع مخطط عام ١٩٤٦ للمدينة، يصبح في الإمكان استعادة النسيج المدني التاريخي المفقود، حيث شقّت شوارع حديثة. ويمكن تتبّع أسماء الأحياء والمحالّ في مخطط نشره أفسار^(١٩).

تميّز النسيج المدني التاريخي بالمباني الحكومية التي يمكن الوصول إليها عبر شوارع ضيقة ومتعرجة، باستثناء القطاع الشمالي الواقع بين البازار وبوابة باغ شاه الذي كان منطقة المجمع الحكومي الذي أنشئ أيام الصفويين وأعيد بناؤه أيام السلالة الزندية. وتوجد شوارع طويلة تصل بين البوابات الرئيسية مكوّنة شبكة عضوية تمتدّ في اتجاهين،

(١٧) مخطط شيراز من إعداد برسكوريakov وأورغانوفتش بإشراف شيريكوف وقد نُشر في: M. Mehryar

[et al.], eds., *Pictorial Documents of Iranian Cities in the Qajar Period* (Tehran: Shaid Beheshti University; Iranian Cultural Heritage, 2000).

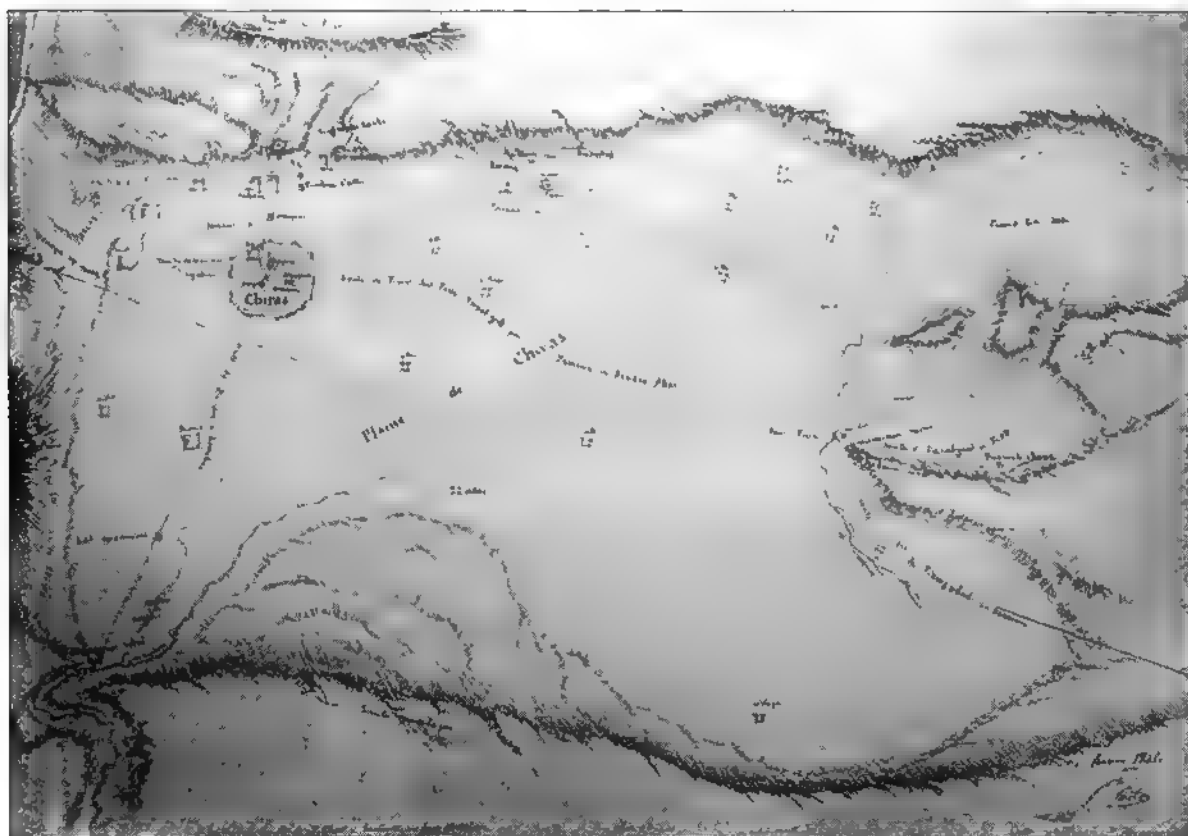
Donald Wilber, «Shiraz 1935», *Journal of Persian Studies* (1935), pp. 125-129, (abbreviated (١٨) as Wilber).

Afsar, *Tarikh-e-baft-e qadimi-ye Shiraz*.

(١٩)

الاتجاه الشمالي الغربي - الجنوبي الشرقي الذي تحدده الخطوط الطبوغرافية الموازية لنهري خرّم درّه وقره باغ^(٢٠)، وعلى نحو متعامد مع الشوارع السابقة، تتبع الشوارع اتجاه مجاري المياه الهابطة من الجبال في الشمال والشمال الشرقي وتدخل المدينة عند بابي أصفهان وسعدي^(٢١).

الرسم الرقم (٢٢ - ٤) مخطط شيراز من رسم باسكال كوست



المصدر: المكتبة الوطنية في مرسيليا.

من بين العناصر البنيوية الرئيسية في المدينة كان هناك بازار يصل باب أصفهان بقلب المدينة ويمكن تمييزه خارجياً في قسمين، القسم الشمالي الذي يتميز بتخطيط هندسي ونقطة تقاطع لأربعة أروقة ضيقة (تشهار سو)، بالقرب من المجمع الحكومي؛ والقسم الجنوبي ذو التصميم العضوي الذي ينتهي عند مسجد الجامع ومسجد نو ومجمع شاه تشارخ الديني.

(٢٠) ينبع نهر خرّم درّه من جبال بابا كوهي ويجري في اتجاه منخفض مهارلو، في حين ينبع نهر قره باغ من بيريناب. انظر: المصدر نفسه، ص ٦ - ٨.
(٢١) المصدر نفسه، ص ١٨ - ٢٠.

يذكر بييترو ديللا فالي، الذي وصل إلى المدينة عام ١٦١٨ من باب أصفهان، أن
البازار القريب من الميدان كان بمثابة بهو لمنزل إمام قُلي خان^(٢٢)، حاكم مدينة شیراز.

وكان هذا الميدان، على غرار ميدان أصفهان، محاطاً بممار مقنطرة، وكان هناك
رواق عال تُعزف فيه الموسيقى^(٢٣). لكن شاردان كان أكثر دقة في ما يختص بموقع هذا
الميدان حيث أشار إلى أن داود خان، شقيق إمام قُلي خان، بنى بازاراً أثناء حكم شاه
عباس، عند تقاطع أربعة أروقة تعلوه قبة^(٢٤). وكان أحد هذه الأروقة ينتهي عند ميدان
كان بمنزلة بهو لمنزل الحاكم، وهناك رواق آخر ينتهي عند خان مولتاني. ولعل خان
ديو دان الذي بناه إمام قُلي خان، وحيث استقبل السفير الإنكليزي السير دودمور كوتون
عام ١٦٢٧م/ ١٠٣٦هـ، هو المكان الذي بنى فيه كريم خان خانه لاحقاً. وأفضل خان في
البازار كان يدعى قيصرية^(٢٥). وقد بنى داود خان القسم الشمالي من هذا البازار، وكان
يتميز بتصميمه الهندسي. ثم جرى ترميمه أيام السلالة الزندية وهو يظهر في مشهد أعدّه
فرد ريتشاردز عام ١٩٣١^(٢٦). ولا يزال هذا البازار موجوداً بالرغم من أن شارع لُطف
علي خان يقطعه إلى قسمين بالقرب من التقاطع.

ويذكر بييترو ديللا فالي أيضاً «مدرسة» جديدة شُيّدت في عهد الصفويين،
عند تل الشاطر علي^(٢٧). كانت هذه مدرسة إمام قُلي خان^(٢٨) التي أشار إليها

(٢٢) كان إمام قُلي خان نجل الغلام الشهير من أسرة الشاه، الله وردي خان، وقد خلف أباه بيغلر بيكي فارس
في ٢٢/ ١٠/ ١٦١٣ هجرية.

Pietro Della Valle, *Biblioteca Vaticana*.

(٢٣)

Chardin, *Voyages*, vol. 9, p. 177.

(٢٤)

يحمل سوق داود خان اسم من بناءه، وكان أخ إمام قُلي خان الشهير. يتألف السوق من أربعة أروقة متناظرة
كلها، وتصطف فيها الحوانيت من كلا الجانبين. ويتألف كل حانوت من دكان صغير تعلوه غرفة. ووسط هذه
الأروقة الأربعة قبابٌ عالية تتخللها نوافذ دائرية منتظمة تدير المكان؛ ومركز السوق كناية عن ساحة مستديرة تعلوها
قبة كبرى. ويفضي أحد الأروقة إلى أمام بيت الولي، ويفضي الثاني إلى خان مولتاني، أي هنود ولاية مُلتان حيث تقع
كبرى مدن الهند الحاذية لبلاد فارس من جهة الشمال؛ ويفضي الرواقان الآخران إلى أماكن أخرى...^(٢٥)

(٢٥) يشير أفسار إلى أن قيصرية، بالرغم من تدميرها، كانت لا تزال موجودة منذ ٤٠ سنة في محل بازار مُرغ
(الطيور). وكان على أحد جوانبها بازار يسفّرُها (النحاسين)، وإلى الغرب خان آخر. وفي وقت لاحق، بُني مسجد
Asfar, *Tarikh-e-bafl-e qadimi-ye Shiraz*, p. 156.

مارليك خان في مكانها. انظر:

Fred Richards, *A Persian Journey* (London: [n. pb.], 1931), p. 128.

(٢٦)

Pietro Della Valle, *Biblioteca Vaticana*, Ms. Ottoboni Latino 3382, fol. 154.

(٢٧)

Asfar, *Ibid.*, p. 126.

(٢٨) انظر مدرسة إمام قُلي خان رقم ٩٣ في مخطط فيلبر، في:

استناداً إلى فارستامه ناصري، ص ١٣٩. وفي عام ١٠٢٢، أي بعد عام على تولي إمام قُلي خان حاكمية شیراز،
أمر ببناء مدرسة تضم أكثر من مئة غرفة،.... وكان على جوانبها الأربعة تشهار باغ. تظل الغرف على التشهار باغ
وعلى المدرسة. وهذه الأخيرة يطلق عليها اليوم اسم مدرسة خان وتقع بين محل بازار مُرغ وإسحاق بك؛ يمر شارع

شاردان^(٢٩) ولو بروين أيضاً، وهي تقع جنوب شرق تل الشاطر علي الذي يسمى حالياً تل حصيرباغان (نسا جو الحصر).

كان لهذه المدرسة بؤابة ضخمة ومثذنتان، وهي تظهر بشكل مميز في مسقط وضعه شاردان (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ٥)). واستناداً إلى ديللا فالي، كان الضريح الرئيسي يدعى السيد مير محمد^(٣٠). وهو من بين ٢٠ ضريحاً وقبراً رئيسياً^(٣١) عُدَّ شاردان أسماءها إضافة إلى تسعة من أكبر المساجد وأفخمها، وهي: ميدان الشاه، وديروازه، وديركيم، وآهني، وشاه زاده، والبركات، وحجي ناصر، وتو (الجديد)، والمسجد الجامع.

واستناداً إلى شاردان، كان القصر الذي بناه إمام قُلي خان داخل أسوار شيراز، قريباً من مستشفى كبير يدعى دار الشفاء^(٣٢). ويمكننا التكهن بأن ساحات هذا القصر كانت في المكان الذي بنى فيه كريم خان لاحقاً حديقته، باغ نَظَر^(٣٣). يقدم إلينا كوززون وصفاً مفصلاً لقصر كريم خان، الذي لا يزال قسم منه قائماً جزئياً حتى الآن، ويوضح أن

لُطف علي خان نحو طرفه الجنوبي. توجد أرض خالية ناحية الشمال وميدان اللقحة ناحية الشرق، وهذا كل ما تبقى من الشهار باغ المذكور.

Chardin, *Voyages*, vol. 9, p. 180.

(٢٩)

«الأمر كذلك بالنسبة للمدارس الاثنتي عشرة التي بدأت تتداعى. وأهمها المدرسة المسماة بمدرسة الأمراء والولاة، وبؤاباتها واسعة وشاهقة يعلوها برجان من كل جانب، لكن أحد البرجين متهدم. المدرسة قسبان يتألف كل قسم من طابقين، وتحيط بهما باحة كبرى طولها أكبر من عرضها، وتزورها مقاصير الطلاب المكونة من قسم أرضي وطابق مزدوج. وتزين الباحة بحرة مياه».

Della Valle, *Biblioteca Vaticana*.

(٣٠)

Chardin, *Ibid.*, vol. 9, p. 176.

(٣١)

(٣٢) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٨٠.

«هذا قصر إمام قُلي خان، الذي سبق أن حكم هذه المدينة وريفها وعدداً كبيراً من الأرياف الأخرى. وعلى الرغم من أن هذا القصر قد أُلِّم به الخراب، إلا أنه يشهد على اتساعه وعظمته... عندما نجولنا في هذه القصور وجدنا أنها كناية عن أخيرة لمستشفى كبير. ويطلق الفرس كلمة دار الشفاء على المستشفيات».

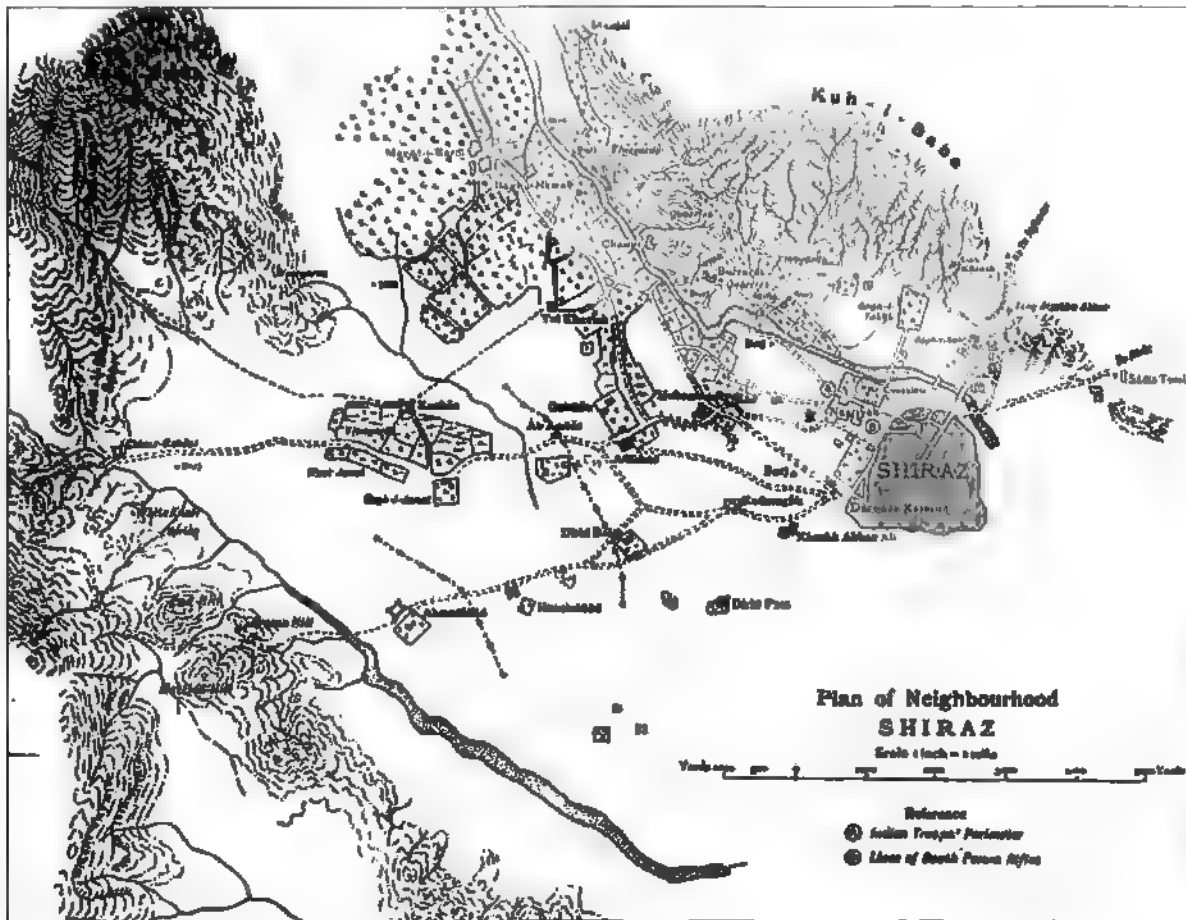
Niebuhr, *Voyages en Arable et en d'autres pays circonvoisins*, p. 95.

(٣٣)

«لم أجد في شيراز بستاناً رائعاً سوى البستان الذي أمر كريم خان بزراعته... وسط البستان هناك صرح مثمن الأضلاع ذو سقف صيني وله جناحان. وقاعة الصرح الأساسي مثمنة الأضلاع وتكتنف الطابقين. ويحيط بها من الجانب العلوي رواق، وفي القسمين العلوي والسفلي حجرات صغيرة. وزجاج النوافذ صغير الحجم وملون في معظمه. وفي الأسفل كانت الجدران مكسوة بمرمر توريسي؛ أما الجدران الأخرى فكانت مغطاة بالزخارف والأزهار التي رسمت بلون ذهبي أو بألوان مشرقة أخرى. وحتى خارج الصرح الرئيسي توجد صور بشرية مرسومة. وفي القاعة الكبرى وأمامها توجد نوافير ماء؛ وفي الجناحين كليهما، يوجد إيوان مكشوف في الطابق الثاني. وفي طرف من أطراف الجناحين المستند إلى جدار الحديقة، رأيت باحة مرتبة محاطة بجدار سميك وتعلوها أشباه قباب أو مقاصير صغيرة، تستخدم ككنائس، ويُمضي فيها الوكيل جانباً من وقته. ومن الطرف الآخر من الباحة، يرتفع مبنى ضيق يقال إن الموسيقين يصطفون فيه ويعزفون على طبولهم وسناطيرهم ومزاميرهم».

الميدان أمام القصر كان متصلاً برواق من البازار، تماماً كما تذكر سجلات الرحالة في العهد الصفوي^(٣٤). ويشير أوليفيه إلى وجود قصر رائع ضمن المباني التي شيدها كريم خان وسط حديقة مربعة كبيرة، باغ نظر، وفيها سرادق كولا الفرنجي، حيث كان هناك حجرة مشرفة يفترض أن يدفن الوكيل يوماً ما فيها^(٣٥).

الرسم الرقم (٢٢ - ٥)
مخطط شیراز للعام ١٩١٨

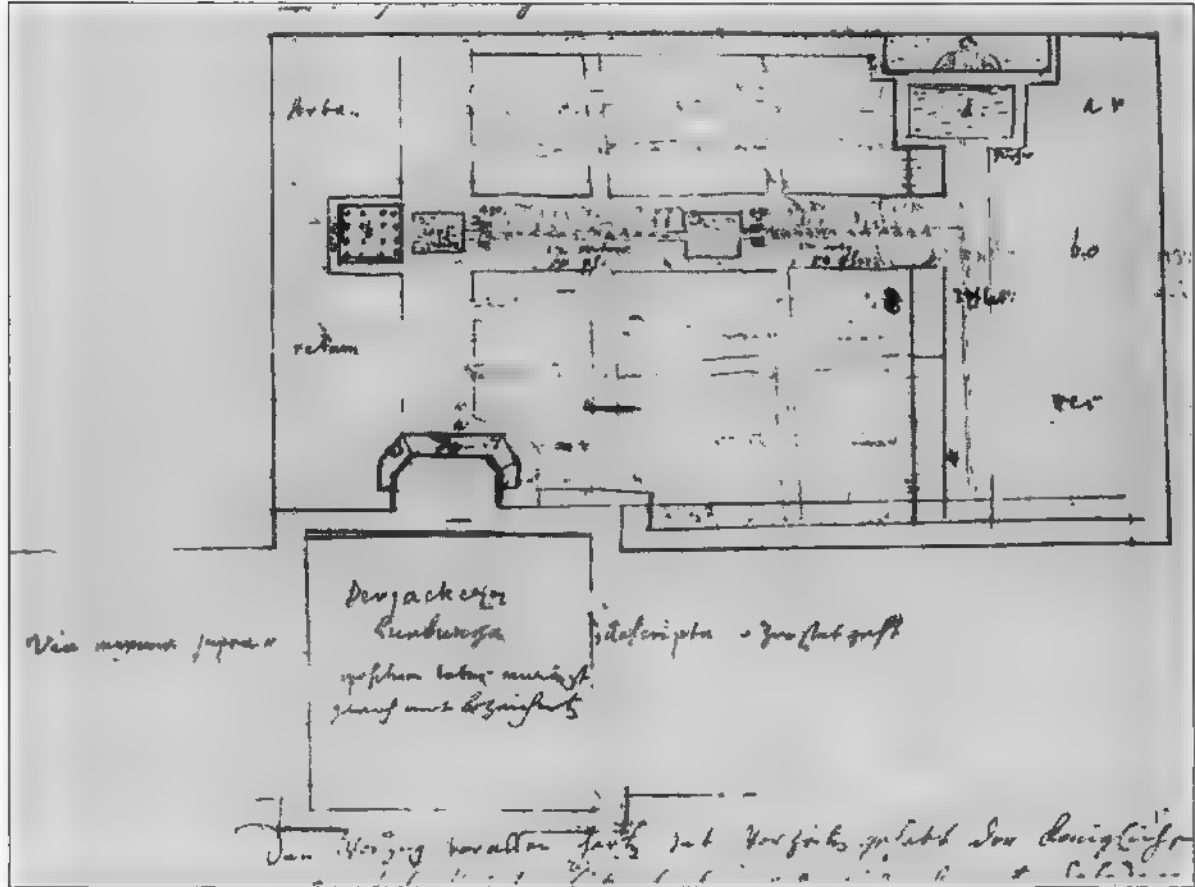


(٣٤) «تطل إحدى واجهات القصر على الميدان الرئيسي... وفي الجهة الشمالية، يوجد مبنى كبير، تشغله حالياً مؤسسات التلغراف الهندي الأوروبي والفارسي، لكنه كان سابقاً غرفة الديوان، أو غرفة العائمة في قصر كريم خان. تؤدي بوابة مقنطرة من الميدان إلى حديقة جميلة فيها حاووز أو خزان يوجد عند جانبه العلوي، وعلى منصة، واجهتها مزينة بنقوش بارزة على الرخام، غرفة كبيرة غائرة، تشغلها الآن طاولات كبيرة وخزانات، كانت تحتوي يوماً على أعمدة ملتفة من الرخام وتحت مرمر، أو عرش الرخام، الذي وصف سابقاً بأنه منتصب في التالار أو غرفة العرش في طهران، حيث نقله آغا محمد قبل مئة عام. ومن الميدان، يمكن الدخول إلى بازار الوكيل..... يقطعه إيوان قصير يبلغ طوله ١٢٠ ياردة، على شكل مبنى دائري تعلوه قبة يمثل نقطة التقاطع...». انظر: George N. Curson, *Persia and the Persian Question Persia*, 2 vols. (London: [n. pb.], 1966, 1892), vol. 2, p. 99.

(٣٥) Guillaume Antoine Olivier, *Voyages dans l'empire Othoman, l'Égypte et la Perse, fait par ordre du gouvernement, pendant les six premières années de la république* (Paris: H. Agasse, 1800).

يصور لو بروين المساجد وغيرها من الأماكن المهمة في مُسقط رُسم من ناحية الجبال الشمالية الشرقية، قريباً من ضريح الشيخ سعدي^(٣٦) (انظر الرسم الرقم (٢٢-٦)):

الرسم الرقم (٢٢-٦)
مخطط درياتشه (بحيرة) قربانغاه وباغ (حديقة) وزير إيماني بك



Engelbert Kaempfer, British Library.

المصدر:

تجدر الإشارة إلى أن إحدى المزايا الرئيسية لشيراز كانت كثرة القبور والأضرحة داخل أسوار المدينة وخارجها. ووفقاً لفيلبر، فإن هذا العدد الكبير للمنشآت الدينية في

Cornelis Le Bruyn, *Voyages de Corneille le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes* (٣٦) *Orientales*, 5 vols. (Paris: chez les frere wetstein, 1725), pp. 294 et 414.

(١) خاتون قيامه؛ (٢) الشيخ سيد الدين؛ (٣) السيد علاء الدين الحسين؛ (٤) الشيخ نوربخش؛ (٥) مير محمد؛ (٦) شاه تشراغ؛ (٧) مسجد نُور. ويمكن مشاهدة مدرسة إمام قُلي خان بين النصيين السابقين؛ (٨) بي بي دُختران، وهو مبنى ضخم يضم بعضاً من الأضرحة؛ (٩) السيد مير علي حمزة، وكان قريباً من الجسر الذي يدعى پُل (جسر) شاه زاده خارج أسوار المدينة؛ (١٠) تشهار باغ؛ (١١) قرية ضياء الدين أو الشيادان، على النهر حيث يوجد جسر طوله ٦٥ خطوة؛ (١٢) نهر رودخان؛ (١٣) كوه سبز بوشان، أو جبل ذوي اللباس الأخضر؛ (١٤) كوه سياه، أو الجبل الأسود؛ (١٥) الفردوس أو الجنة.

شيراز يعكس أولوية الإسلام في الحياة المحلية للمدينة. وهو يحدد في مخططة المشار إليه أعلاه ١٣٨ مسجداً ومدرسة وقبراً وضريحاً. ولذلك أسبابه التاريخية؛ فقد كانت منطقة شيراز، ولوقوعها على الطرق المهمة التي تربط المواقع الساسانية والأخمينية، مهمة لملوك ما قبل الإسلام الذين شيدوا عدة قلاع وقصور في المنطقة، وشهدت أيضاً بقايا قلعة فهندر ومسجد مادر سليمان. وكانت قرية أيضاً من مواقع مهمة مثل بيرسيبوليس، حيث كان يحتفل بعيد النوروز، ونقش رستم بأسارغاد حيث كانت تجري زيارة الأضرحة مطلع كل ربيع.

مثلت قلعة فهندر للزرادشتيين نقطة مهمة في مقاومتهم للعرب المسلمين. وفي الواقع أن عدداً من مجاهدي الإسلام قتل وبنيت لهم أضرحة في شيراز، من بينهم الشيخ دولت بن إبراهيم، والشيخ منذر بن قيس، وعلى اسميهما كانت بوابتا دولت ومنذر. جعل العرب المسلمون أولاً إصطخر مقراً لهم، ولما لم تكن آمنة اختاروا بعد بعض الوقت شيراز لتكون هي المقر. ويقال إن محمد بن يوسف شيد المدينة عام ٧٤هـ، إذ يقال إنه حلم بمكان دائري قريب من إصطخر سيصبح ممراً لآلاف المتصوفة^(٣٧).

وبالرغم من فتح العرب المسلمين للمدن الكبرى في فارس، فقد بقي عدد من الناس الذين قبلوا الإسلام يمارسون ديانة أجدادهم. وفي حدود القرن الرابع للهجرة كان الزرادشتيون لا يزالون كثرة في المنطقة، وكان ذلك شائعاً، إذ إنهم، وفق تعبير المقدسي، لم يكونوا يرتدون علامات خاصة.

قاد سقوط الخلافة الأموية بمساعدة الشيعة الإيرانيين الخليفة العباسي المأمون، إلى اختيار الإمام الرضا خليفة له، وذلك تقديراً لمساعدة الشيعة له. لكنه عندما بدّل رأيه وأسند حكم خراسان إلى الطاهر بن الحسين أمر لا بقتل الإمام الرضا فقط بل بقتل إخوته وأحفاده أيضاً الذين كانوا التحقوا به، ودفن بعضهم في شيراز.

تعاقب صعود الأسر المحلية التي حكمت في فارس؛ من خراسان إلى جيلان وميستان وغيرها من المناطق، وقد استند في أغلبها إلى ثورات السكان الزرادشتيين والشيعة الذين تطلعوا إلى استقلال إيران عن الخلافة العباسية في بغداد. ومع احتلال المغول لشيراز جرت المحافظة على عدد كبير من أضرحة الشيوخ^(٣٨). واستمرت بالتالي الشعائر القديمة في تذكّر فرّوشي الموت بداية كل ربيع، حيث يقوم الناس

Asfar, *Tarikh-e-baft-e qadimi-ye Shiraz*, p. 35.

(٣٧)

Jean Aubin, «Le mécénat Timouride a Chiraz», *Studia Islamica*, vol. 8 (1957).

(٣٨)

بزيارة أضرحة أجدادهم ويتحسّنون بالطعام على الفقراء، وكذلك في احتفالات النوروز والقربان، طوال قرون الإسلام مع الحكام المحليين مثل ركن الدولة الديلمي. وبالرغم من أن الأتراك عادوا فجعلوا الحكام من السنة، فقد استمرت الشعائر القديمة حتى في عهدهم.

ومع مجيء السلالة الصفوية في القرن العاشر، ازدادت الشعائر القديمة قوة؛ فأعيد بناء معظم هذه الأضرحة وتطويرها نتيجة وصول الشيعة إلى السلطة. وبين الأضرحة الأكثر أهمية التي ذكرت في روايات الرحالة أيام الصفويين تلك التي شُيّدت في الواقع فوق أضرحة إخوة الإمام الرضا، التي يوقرها الشيعة؛ منها ضريح أحمد بن موسى الكاظم، شقيق الإمام الرضا الذي شُيّد في عام ٧٩١هـ ورممه الشاه إسماعيل عام ٩١٢هـ، وهو الضريح الأكثر شعبية في شیراز، وعرف في الحقبة الصفوية بشاه تِشراغ؛ وضريح السيد مير محمد^(٣٩)، ابن موسى الكاظم، الذي شُيّد عام ١٠٧٠ وضمّ إلى شاه تِشراغ في القرن الماضي؛ وضريح السيد علاء الدين الحسين^(٤٠)، وهو شقيق آخر للإمام الرضا، الذي عُثر على ضريحه في حديقة قتلغ، وفي عهد الأتابكة، بُنيت فوقه قبة صغيرة. وفي عهد الشاه إسماعيل أضاف السلطان خليل، حاكم شیراز، مباني أخرى إلى هذا الضريح في حدود عام ٩٢٣هـ؛ وضريح علي بن حمزة^(٤١)، وهو نجل آخر لموسى الكاظم، وعرف في الحقبة الصفوية بشاه مير حمزة وكان في مقبرة كبرى تدعى جوان آباد امتدت حتّى الموقع الحالي هنرستان وباغ ملي؛ وضريح إمام زاده إبراهيم، وهو ابن آخر لموسى الكاظم، الذي كان قريباً من مقبرة دار السلام القديمة.

ما يلفت النظر أنه كانت هناك باحات لتقديم الموسيقى، نقاره خانة، بالقرب من ضريحي شاه مير حمزة وشاه تِشراغ. وكان الشائع في تقليد نقاره كوبي أن تؤدّى عند شروق الشمس ومغيبها. لكنها تنتشر أيضاً في طاق بستان في خلال فصول صيد الملوك^(٤٢). وقد اعتاد الملوك الصفويون أن يلعبوا الشوغان (البولو) في الميدان على وقع الأنغام (نقاره كوبي). ويرجح أن يكون ملوك الديلم هم أول من مزج بين هذه

(٣٩) بقعة سيد مير محمد الرقم ٢ في مخطط فيلبر.

(٤٠) بقعة السيد علاء الدين الحسين، الرقم ٣ في مخطط فيلبر. وكان قد بناء في عهد الشاه إسماعيل الصفوي

السلطان خليل ذو القدر، حاكم شیراز عام ٩٢٣هـ كما ورد في: Daneshpajuh, Shiraz, p. 105.

(٤١) سيد مير علي حمزة، الرقم ٥ في مخطط فيلبر. انظر: المصدر نفسه، ص ١٣٩.

هذا الضريح، الذي بُني بالقرب من الجسر القديم الذي كان يؤدي إلى باب أصفهان، مدفن علي بن حمزة بن موسى الكاظم. شُيّد المبنى الأصلي في عهد عضد الدولة الديلمي.

(٤٢) Yahya Zaka, «Ain-e naqarakubi dar Iran-va piscine-ye an», *Honor va Mardom* (Tehran), (٤٢) vol. 15, no. 180 (1977), pp. 29-49.

الممارسات وبين التقاليد الإسلامية. وما وجودها في مقدّم الأضرحة التي تحمل نقوش «شاه» سوى دليل على المزوجة في الشعائر الشيعية بين الملكية والقداسة، كما كان الأمر في الأزمنة القديمة.

٢ - حدائق الضواحي

يصوّر شاردان ولو بروين المركز المدني لشيراز محاطاً بحدائق تابعة تتصل بمصادر المياه في الجبال الشمالية والغربية، وكذلك بالضاحية التي توسعت على النهر في سهل جعفر آباد إلى الشمال من نهر خُشك. وهي على الأرجح باغستان، أي منطقة الحدائق، المذكور في ظفرنامه^(٤٣). هنا وقع قتال بين جيش تيمورلنك وجيش الشاه منصور صاحب الضريح المعروف باسم شاه زاده منصور^(٤٤) الذي لا يزال قائماً داخل الأسوار في محلة شيادان، بين بابي أصفهان وسعادت (السعادة).

يُظهر رسم أعدّه كامبفير^(٤٥) الجبال الشمالية لشيراز وباغستان، وجسر الشاه رستم^(٤٦) في صدر الرسم المعالم والحدائق المبيّنة من الغرب إلى الشرق هي التالية: (أ) سبيدان؛ (ب) بابا كوهي؛ (ج) أشجار السرو؛ وعند أسفل جبل بابا كوهي نرى كروم العنب (هورتلوم)، وحديقة تخت قراتشه أو هورتوس فردوس؛ (د) قبة ضريح شاه مير حمزة التي ترتفع فوق الحدائق المحيطة بها؛ (هـ) تشهار باغ إلى الشرق من باغستان مع جداره الذي في المقدمة؛ وتظهر حديقة مقبرة هفت تنان أسفل ممر تنغة الله أكبر؛ (و) المقبرة؛ (ز) بير بندباس؛ على تشهل مقام (جبل الدراويش الأربعين)؛ (ح) شاه غدير؛ (ط) قدمغاه خضر؛ ... (ي) مقبرة [سعدى] وتظهر بين الجبلين الشرقيين؛ (ك) هورتي... (ل) خرائب قلعة بندرغا أو فهندر وتظهر فوق الجبال الشرقية البعيدة، وتسمى أيضاً جبل الشيخ سعدي؛ وفي الأسفل بيرمه دليك، ورسم صغير يظهر (م) خيم ديبرونياتر؛ (ن) مير سلوم، أي درياتشه نمك (بحيرة الملح)؛ (س) مسجد مادر سليمان (والدة سليمان)... خضر زنده/ خضر الحي^(٤٧).

(٤٣) مولانا شرف الدين علي يزدي، ظفرنامه، تحقيق محمد عباسي، ٢ ج (طهران: [د. ن.].، ١٣٣٦ هـ/ ١٩١٧ م)، ج ١، ص ٤٣٤.

Kaempfer, British Library.

(٤٤)

(٤٥) المصدر نفسه.

(٤٦) الجسر الذي ذكره كامبفير سمي على اسم ضريح الشيخ رستم بن عبد الله الخراساني (توفي عام ٧٤١ هـ)،

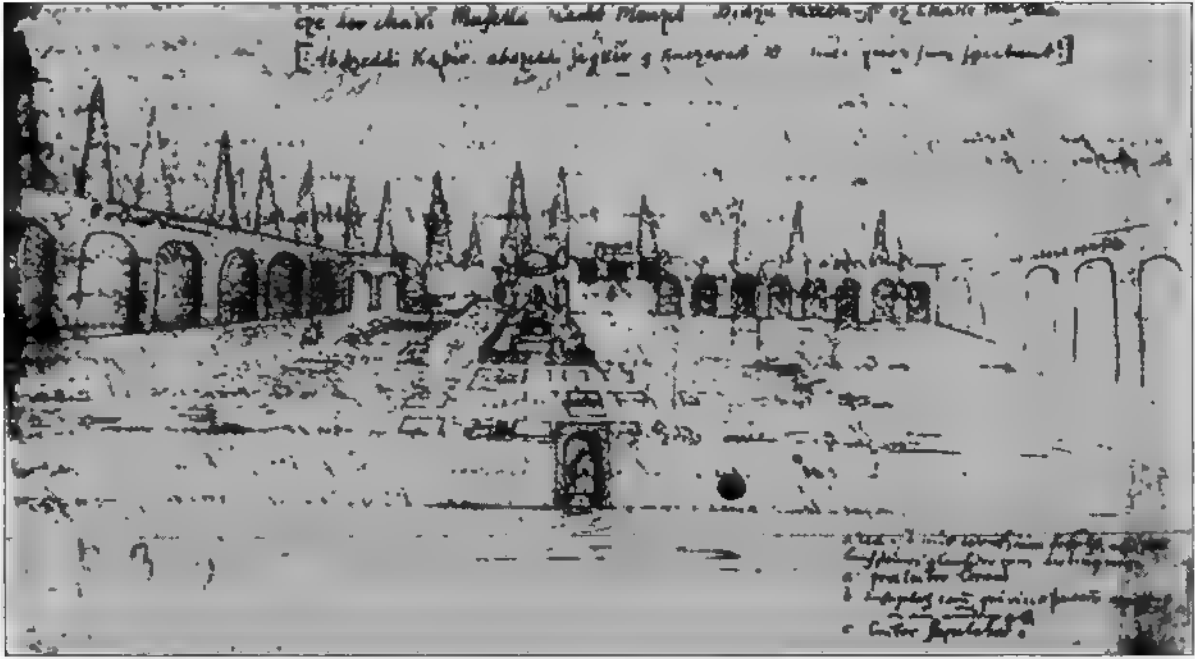
Asfar, *Tarikh-e-baft-e qadimi-ye Shiraz*, p. 94.

بني في سهل جعفر آباد. انظر:

Kaempfer, *Ibid.*

(٤٧)

الرسم الرقم (٢٢ - ٧)
منظر حديقة وضريح حافظ



المصدر: المصدر نفسه.

الميزة التي يجب ذكرها هي أن معظم الأمكنة التي أشار إليها كامبفير أعلاه تمتلك نوعاً من القداسة الشعبية. ومثلها بابا كوهي وأشجار السرو الضخمة، وتنغة الله أكبر، وتشهل مقام، وشاه غدير أو المرتضى علي، قدمغاه خضر (مقام النبي الخضر)، ومسجد مادر سليمان (والدة سليمان). يرتبط الطابع المقدس الذي يضاف على الجبال ومصادر المياه والأشجار بمعتقدات بلاد ما بين النهرين وإيران القديمة التي كانت شائعة بين الناس الذين يعيشون في جنوب إيران وشرقها واستمرت من خلال الممارسات الشعبية. وقد بنى الملوك الأخمينيون أضرحتهم غير بعيد من الجبل المقدس «كوهي رحمت».

يرى المصوّر الذي وضعه كامبفير أن العلامات والحدائق التي ظهرت لاحقاً مع لو بروين، تؤكد أن تلك المواقع هي الأكثر أهمية في خلال الحقبة الصفوية؛ كما ذكرت مع بييترو ديلا فالي كل من تافارنييه وشاردان أيضاً. لكن معظم الحدائق تلك كانت خراباً في حدود عام ١٧٦٥ حين كانت رحلة نيبور إلى شیراز، ولم تظهر في خارطته^(٤٨).

Niebuhr, *Voyages en Arabie et en d'autres pays circonvoisins*, p. 97.

(٤٨)

«لم يبق من المباني العديدة التي كانت في الماضي تقع خارج هذا الباب وقرب الجبال المحيطة، سوى أطلال حزين؛ ولم يبق من الضاحية الكبرى التي كانت تقع بين هذا المكان وشيراز سوى مسجدتين فقط».

من أجل فهم العناصر البنيوية في هذا المشهد تجب العودة إلى خرائط لاحقة. فقد رسم باسكال كوست عام ١٨٤٠ مخططاً عاماً سماه «مخطط شيراز» تظهر فيه المدينة في سهل تحيط به الجبال من الشمال والغرب والجنوب، ونهران يجريان شرقاً إلى بحيرة الملح، مهارلو. تدعى الجبال الشمالية بابا كوهي، كوه (جبل) تشهل مقام، والشيخ سعدي أو فهندر، والغربية تدعى كوه درك، أو القلعة، والجنوبية سي شناور، سياه، أو قبلي. وعند أسفل الجبال حيث مصادر المياه غزيرة تقوم الحداثق.

يسمح مخطط كوست (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ٤))^(٤٩)، مع مخطط شيريكوف، ومخطط سايكس، لأحياء شيراز (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ٥))^(٥٠)، بتخيل مواقع حداثق الضواحي المهمة والمذكورة في تقارير الرحالة في الحقبة الصفوية، ويفهم أفضل لعلاقتها بالمركز المديني^(٥١). تعود حداثق الضواحي الأساسية للحكام أو أنها بُنيت حول أضرحة دعاة (شيوخ)، أو كرست لمتصوفة (صوفي أو عارف)، أو لأفراد من نسب الرسول محمد (سادة)، أو قضاة أو فلاسفة (حكماء)، أو شعراء. وكانت هذه تتصل بالمدينة من خلال الوصلات التالية: راست مصلى؛ وميدان السعادة؛ والطريق المؤدي إلى سعدية وباغ (حديقة) دلغشا؛ والجادة المؤدية إلى باغ تخت؛ والخيابان (الشارع) الذي يصل قصر إمام قُلي خان الصفوي بحديقته في الضاحية.

ما هي الميزات التي كانت تتمتع بها نقاط الوصل تلك؟

أ- راست مصلى

منذ أقدم الأزمنة، كان الطريق المؤدي إلى إصطخر وأصفهان من الباب الشمالي الذي يحمل هذين الاسمين، يمرّ بين جبلي بابا كوهي وتشهل مقام ويسمى تنغة الله أكبر. وقد وصفه جميع الرحالة أيام الصفويين بخیابان أو جادة راست بسبب تخطيطه المستقيم، الذي انتشرت على طوله حداثق التزهة وحداثق الأضرحة. وكانت كلمة خیابان تشير إلى المتنزهات العامة التي تُقصد للتنزه في أيام الأعياد، والتي كانت ترتبط

Pascal Coste, *Voyages en Perse pendant les années 1840 et 1842*, Perse modern (Paris: [n. (٤٩) pb.], 1843-1854), p. 55.

Percy Sykes, *A History of Persia*, 2nd ed. (London: [n. pb.], 1921), vol. 2: «The Plan shows the (٥٠) fights between the India Troops and the South Persia Rifles in 1918».

Kaempfer, *British Library*, 51140 (8).

(٥١) انظر:

خريطة فارس الجنوبية أعدّها حاجي ميرزا حسن الشيرازي، وتعرف بفنائي، كمرجع ل فارسانه ناصري. (١٢٩٣ هجرية).

منذ قديم الزمن بالأضرحة أو الحدائق الملكية^(٥٢). كان السهل الواقع إلى الغرب من هذه الجادة يستقى مصلّى، والسهل الواقع إلى الشرق جعفر آباد. وكان هذان السهلان يُرويان بواسطة نظامي قنوات يدعيان آب (ماء) زُكني وآب زنكي أنشأهما على التوالي ركن الدولة الديلمي وأتابك زنكي.

في ١٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٦٢١، وصف بييترو ديللا فاللي المعالم الرئيسية لهذه الجادة بأنها مستقيمة وطويلة مع حدائق على جانبيها تزينها المباني المختلفة. ويقول إنه وصل إلى حوض مياه كبير بعد أن قطع أكثر من نصف طول الجادة. كان هذا الحوض بطول ٨٠ خطوة وعرض ٥٠ خطوة. تتسع الجادة عند جانبي الحوض للفسح في المجال للمارة لتتشكل ساحة يحيط بها جدار مزدان بالعقود والنوافذ. وعلى الجانب الغربي، بالقرب من الساحة، يشير إلى مسجد قديم بناه كلانتر، وهو ضريح شاه مير حمزة^(٥٣).

ويلقي وصف شاردان لهذا الراسن الضوء على بعض المعالم الشائعة لخيابان تشهار باغ الشهير في أصفهان: كان محفوقاً بالحدائق، مع بوابات كبيرة تعلوها الخيم، الواحدة قبالة الأخرى^(٥٤).

ويعقد لو بروين مقارنة صريحة بين الجادة وخيابان تشهار باغ في أصفهان مشيراً إلى أنه أصبح خربة^(٥٥). كما يذكر أن الحوض الكبير على بعد ١٥٠٠ خطوة من البوابة الواقعة عند تنغة الله أكبر ويشير إلى ضريح شاه مير حمزة بأنه مسجد ذو واجهة طولها ١٠٠ خطوة، بالقرب من الجسر الذي يسمى بُل شاه زاده. ويصوّر لو بروين في رسم الجادة باتجاه تنغة الله أكبر، ومسجد شاه مير حمزة في المقدمة (انظر الرسم الرقم ٢٢ - ٨).

Jallal Matini, «Khiyaban», *Irannameh*, vol. I (1982), pp. 57-99.

(٥٢)

Della Valle, *Biblioteca Vaticana*.

(٥٣)

Chardin, *Voyages*, vol. 9, p. 176.

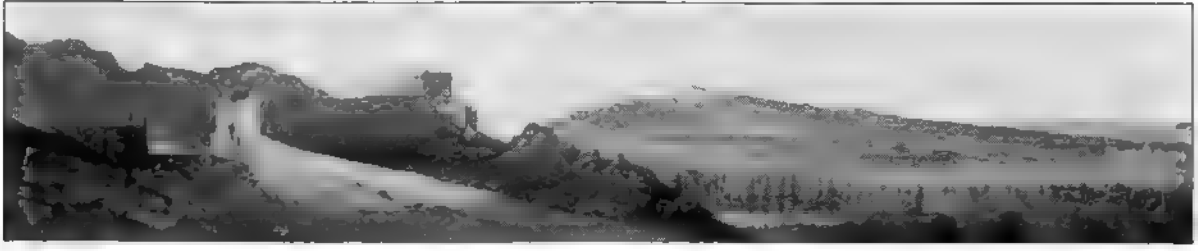
(٥٤)

«يفضي باب المدينة إلى شارع يعتبر أجمل مكان فيها، فهو طويل ومستقيم ويصل عرضه إلى خمسين قدماً، وتحيط بجانبيه حدائق تمتد إلى مئتي قدم، وتوجد في ناصيته بوابات مؤلفة من أنصاف قباب ومن أجنحة متقابلة في أقسامها العلوية».

Le Bruyn, *Voyages de Cornielle le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales*, (٥٥) p. 294.

«بعد أن اجتزنا هذا الباب - وهو باب كبير وشاهق - وجدنا قاعة تسمى تنغة الله أكبر، وتحيط بها مباني من اليمين واليسار، على غرار تشهار باغ في أصفهان، ولكنها كانت مهذمة كلها تقريباً، وكذلك الحال بالنسبة للبساتين المليئة بأشجار السرو وبالأشجار المثمرة».

الرسم الرقم (٢٢ - ٨)
منظر لباغ (حديقة) تخت قراتشه وسهل شيراز



British Library.

المصدر: من ألبوم دي آرسي

يضيف كامبفير إلى الأوصاف السابقة رسماً (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ٩))^(٥٦)، يظهر مخطط ذلك القسم من الجادة حيث يوجد الحوض الكبير الذي يسمى درياتشه قربانغاه.

الرسم الرقم (٢٢ - ٩)
منظر لقلعة الفردوس، لهوفستد فان إيسان



المصدر: المصدر نفسه.

الصفة دريأتشه، أي البحيرة، استعارة تستخدم عادة في وصف الأحواض الكبيرة في تلك الفترة. ويشير كامبفير إلى قسم الجادة الممتد من بوابة الله أكبر إلى الساحة حيث الحوض الكبير باسم راست مصلى، وإلى القسم الممتد من هذه الساحة إلى الجسر باسم راست شاه مير حمزة، على اسم الضريح الرائع الموجود عند جانبها الشرقي. ويستحضر اسم الحوض قربانغاه مكان استشهاد شاه مير حمزة الذي قُتل مع إخوته في شیراز^(٥٧). هنا، تُذبح الأضاحي في العيد الذي يسمى عيد قربان [الأضحى].

إن الحديقة التي تظهر على امتداد راست، أمام دريأتشه (بحيرة) قربانغاه، تخص الوزير إيماني بك^(٥٨). وكامبفير هو الرحالة الوحيد الذي أعدّ رسماً مفصلاً لهذه الحديقة يُظهر: مبنى مدخل الحديقة، إمارة سردار (a) الذي كان على شكل نصف مضلع ثماني، تبدأ عنده جادة (خيابان) وتصل إلى حوض أمام رواق، تالار؛ (b) خيابان رئيسي للحديقة، وهو مزين بقناة ماء، ومجموعتين مؤلفتين من ١٢ نافورة متباعدة، مع حوض ثانٍ يتقاطع مع حوض آخر عمودي يؤدي إلى حوض كبير؛ (d) أمام مبنى الحرم (c).

يعدّ التالار أحد العناصر اللافتة للنظر في تصميم هذه الحديقة، وكان يتألف من ١٦ عموداً تحمل السقف، ولم يكن يتكوّن من بناء حجري كما نجد في أصفهان في الفترة ذاتها. ويشير الشاعر عبدي بيك إلى استخدام هذه التالارات الحرة في حدائق الشاه طهماسب في قزوین في عهد الصفويين^(٥٩).

تثبت المقارنة بين مبنى مدخل هذه الحديقة، وإمارة سردار، ومبنى باغ البلب في أصفهان، وجود مزايا مشتركة في حلولهما المعمارية أيضاً.

يبين باسكال كوست في تمثيله لسهل شیراز حديقتين للنزهة على جانبي هذا الخيابان تقابلان موقع باغ نُو (الحديقة الجديدة) وباغ جهان نما^(٦٠) الحالي. ويصور مشهد باغ نُو (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ١٠))^(٦١)، الذي أعدّه أوجين فلاندين، حوضاً

(٥٧) يذكر أفسار أن قربانغاه كانت مقبرة تحيط بباغ نُو، حيث كان يوجد قبر كبير يسمى مصلى. كما أن دليل المخطط الروسي يتضمن الاسم قربانغاه أيضاً. انظر: Asfar, *Tarikh-e-baft-e qadimi-ye Shiraz*, p. 282.

(٥٨) Kaempfer, *Ibid.*, Ms. Sloane 2912, fol. 34v «Vizir Imambek».

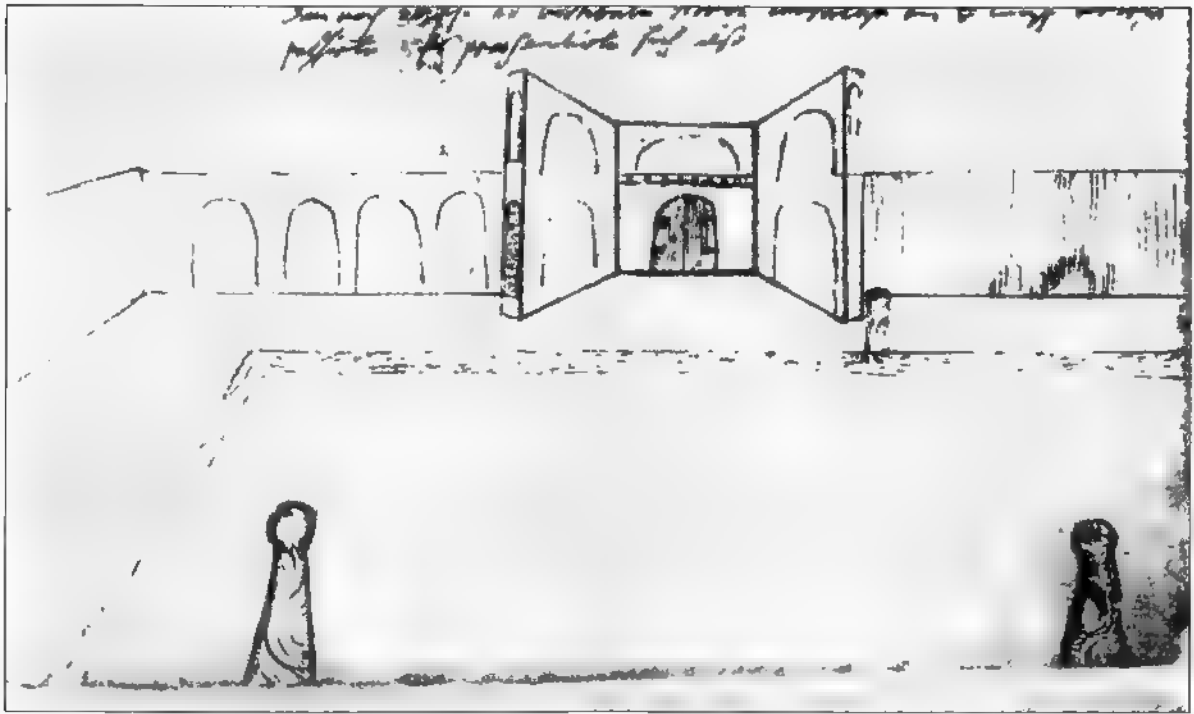
(٥٩) Abdi Beyk, *Markazi Library* (Tehran: University of Tehran, [n. d.]), Ms. N. 2425.

(٦٠) يوجد في ألبوم دي آرسي مشهد لسرادق مثنى الشكل مبني من الحجارة ومحاط عند المستوى الأرضي بقنطرة خشبية يمكن أن يكون سرادق جهان نيا. انظر: *Album of 58 Views of Persia Mostly made during the Ouseley Embassy of Tehran (1810-1812)* (London: British Library, [n. pb.]), Shelfmark WD3274, fol. 44.

(٦١) Eugène Flandin and Pascal Coste, *Voyage en Perse pendant les années 1840-1842: Perse Moderne* (Paris: [n. pb.], 1843-1854), p. 85.

مُشَمَّناً أمام تالار المبنى يتطابق مع وصف الأعمال التي نُفذت في الحديقة في فترة القاجار. وقد أنشئت هذه الحديقة في موقع حديقة صفوية ليس لدينا أي وثائق أخرى عنها.

الرسم الرقم (٢٢ - ١٠)
منظر لمدخل مبنى باغ إمام قُلي خان
مع قطبي «شوغان» في المقدمة، لكامبفير

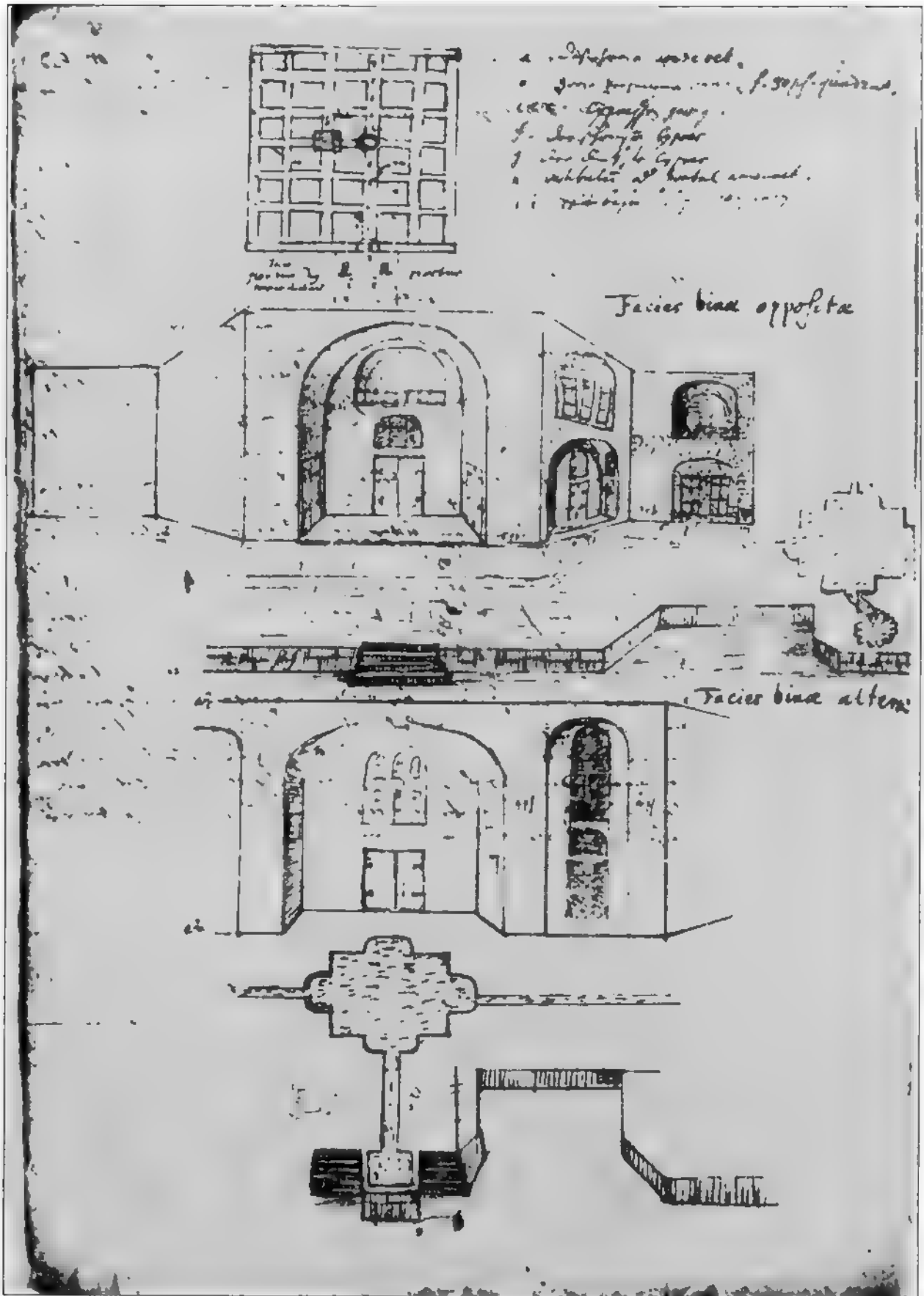


المصدر: المصدر نفسه.

إلى الشرق من راسِ، كانت توجد حدائق الأضرحة، وتدعى أيضاً تكيّة، تُسهل تنان (تكية الأربعين شخصاً)، وهفت تنان (تكية الأشخاص السبعة) والحافظية. حين عاد ديللا فالي إلى شيراز في تموز/ يوليو ١٦٢٢، زار ضريح الشاعر الكبير خوجه حافظ الكائن في حديقة في حي المصلى^(٦٢). ويُظهر رسم أعده كامبفير معالم هذه الحديقة في الفترة الصفوية قبل التغيرات التي أدخلت عليها في القرن العشرين (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ١١)^(٦٣)).

(٦٢) يطلق اسم المصلى أحياناً على المنطقة الواقعة على جانبي راسِ وليس على الجانب الغربي فقط. في الواقع، يعتبر ضريح حافظ الواقع إلى الشرق من راسِ ضمن قطاع المصلى. انظر: Della Valle, *Biblioteca Vaticana*.
(٦٣) Kaempfer, *British Library*, Ms. Sloane 2912, fol. 37v.

الرسم الرقم (٢٢ - ١١)
مخطط باغ إمام قلي خان ومنظر لمبناه



تجدر الإشارة هنا إلى أن جميع الرحالة الذين قصدوا شیراز لم يشيروا إلى ضريح حافظ فقط، بل إلى ضريح الشاعر الكبير الآخر سعدي أيضاً. يعدّ الشاعر حافظ الأكثر شعبية في إيران، ومعظم الناس يحفظون قصائده عن ظهر قلب. يلقي كامبفير في مخطوطاته الضوء على أحد أسباب شعبية هذا الشاعر، فيشير إلى أن قصائده كانت تبدو كالوحي. وكانت هذه الحديقة محاطة بسلسلة من الكوآت المنيقة. وثمة إيوان كبير مميّز بالحرف (a) حيث كان يُقرأ القرآن الكريم، وأكثر الأشجار فيه من السرو^(٦٤).

ب - ميدان سعادت وحديقة تشهار باغ

كان حيّ شيادان، خارج بوابة سعادت^(٦٥)، مجموعة حدائق، أي باغستان. ومن بينها حديقة كبيرة بالقرب من جسر الشاه رستم الذي يشير إليه لو بروين وكامبفير باسم تشهار باغ. يرسم شاردان الذي سبقهم إلى شیراز، مربعاً منتظماً، خارج بوابة سعادت، كان بمثابة ردهة لحديقة كبيرة، تقع في مكان تشهار باغ المذكور أعلاه. وهو على الأرجح ميدان سعادت (السعادة) الذي تشير إليه الروايات التاريخية على أنه المكان الذي بنى فيه الأمير الشيخ أبو إسحاق قصرأ^(٦٦). وربما كان الموقع نفسه الذي بنى فيه جلال الدين شاه مسعود قصرأ في وقت سابق^(٦٧).

أدى فيضان كبير عام ١٦٦٨ إلى تدمير ميدان سعادت، وربما يكون ذلك سبب عدم إشارة لو بروين وكامبفير إليه^(٦٨). وقد يكون التشهار باغ نفسه^(٦٩) باغ ميدان المشار إليه في ظفرنامه.

(٦٤) يبيّن كامبفير أيضاً طريقة غريبة استخدمها الفرس الذين كانوا يكتبون التراخي في أبيات شعرية، بحيث تناظر الأحرف أرقاماً معينة تضاف إلى السنة التي وقع الحدث فيها، وهي الطريقة التي اتبعت في تاريخ سنة وفاة الشاعر حافظ.

(٦٥) هذا الباب هو بين بابي أصفهان وسعدي على مخطط نيبور وتدعى أيضاً فهندر.

(٦٦) Asfar, *Tarikh-e-baft-e qadimi-ye Shiraz*, pp. 103-104.

(٦٧) Shirazi, *Shiraz Name*, pp. 102-112.

(٦٨) Niebuhr, *Voyages en Arabie et en d'autres pays circonvoisins*.

كان ضريح شاعر الفرس الشهير حافظ يقع في الماضي في ضواحي شیراز، أما اليوم فهو على بعد فرسخ من المدينة؛ وعلى طول الطريق لم نشاهد إلا صرحاً واحداً، بالإضافة إلى جامع كبير يدعى جامع شاه مير حمزة، المشار إليه في اللوحة XXXVI... ونجد أيضاً قرب هذا المصل جدول ماء صغيراً يستمد مائه من خزان كبير، ثم يتشعب في الأرياف المجاورة. ومن أشجار السرو الباسقة التي كانت كثيرة جداً هنا في الماضي لم يبق إلا عدد ضئيل منها، لأنها قُطعت في فترة الاضطرابات الداخلية.

(٦٩) Zafarname, p. 439.

ومع ذلك، كانت حديقة تشهار باغ موجودة في بداية الفترة الصفوية. فبحسب هربرت، أقام السفير السير دوذمور كوتون هناك عام ١٦٢٧م/ ١٠٣٦ هـ، أثناء حكم إمام قُلي خان، في قصر يدعى علي خان، وكان بمثابة مسكن ملكي محاط بحديقة فسيحة إلى الشرق من شيراز، وهو المكان الذي يقابل التشهار باغ المذكور أعلاه كما هو مبين في رسم شاردان.

ج - الطريق إلى سعدي ودُلغُشا

ثمة عنصر بنيوي آخر في المشهد الطبيعي للسهل الواقع إلى الشمال من شيراز، وهو الطريق المؤدي إلى نيريز حيث كانت المياه تجري على طول قناة سعدي. وكانت تسمى أيضاً قناة بندر أو فهندر على اسم الحصن القديم الذي بُني بالقرب من هذا الموقع. وفوقه كانت توجد نافورة تسمى شاه مرتاض علي في جبل تشهل مقام حيث كان يوجد ينبوع صغير تتدفق منه مياه معدنية. يبدأ مجرى المياه من الممر بين جبلي الشيخ سعدي وتشهل مقام إلى الشرق من المدينة ويظهر في حوض يعرف بحوض ماهي، بالقرب من ضريح سعدي على مسافة من الحدائق المتفرقة والمنتشرة بكثرة أسفل السهل. وبعد أن تمرّ ببعض النواعير وتسقي باغ دُلغُشا، تدخل مياه القناة المدينة من بوابة سعدي أو بوابة غُذُرغاه^(٧٠).

يظهر في رسم أعدّه لو بروين للجانب الشمالي الشرقي (انظر الرسم الرقم ٢٢ - ١٢) ضريح الشيخ سعدي، وباغ دُلغُشا الذي حُدّد بأنه منزل الحاكم، وحديقة تشهار باغ المذكورة أعلاه^(٧١).

يصف بيسترو ديللا فالي^(٧٢) ضريح سعدي الذي كان يوجد خلفه خانقاه سماها مدرسة، ويذكر الحوض المليء بالأسماك الذي وصفه لو بروين أيضاً^(٧٣).

E. G. Browne, *A Year Amongst the Persians* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, (٧٠) 1926), p. 304.

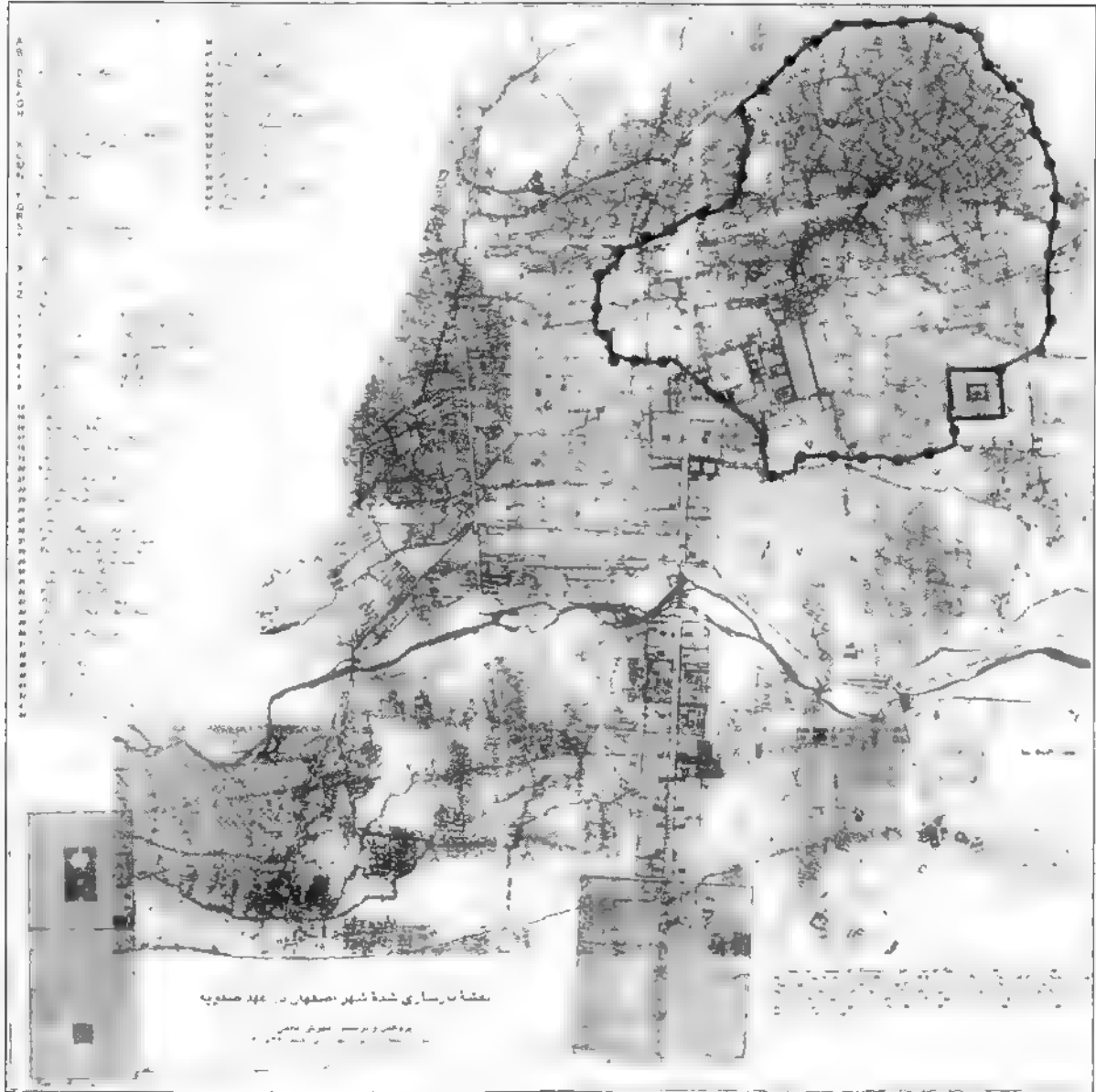
Le Bruyn, *Voyages de Cornielle le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales*, (٧١) p. 423.

Pietro Della Valle, Biblioteca Apostolica Vaticana, Ms. Ottob. Lat. 3382, fol. 154. (٧٢)

Le Bruyn, *Ibid.*, p. 418. (٧٣)

يوجد أيضاً صرح آخر مهذّم في السهل، وضريح أحد شعراء بلاد الفرس الأوائل، واسمه سعدي، وعاش منذ ٤٠٠ سنة تقريباً... وقرب هذا الضريح، توجد بحيرة ممتلئة الأضلاع، وماؤها فاترة وتعتج بالسمك. ويحيط بهذه البحيرة جدار منخفض، والماء الجارية منها قرب المدينة وفي أسفل المبنى تشكّل أسبلة أخرى تجري من ثم في المروج...^(٧٤)

الرسم الرقم (٢٢ - ١٢)
مخطط مصحح لأصفهان الصفوية



المصدر: من رسم مَهْمُوش عالمي.

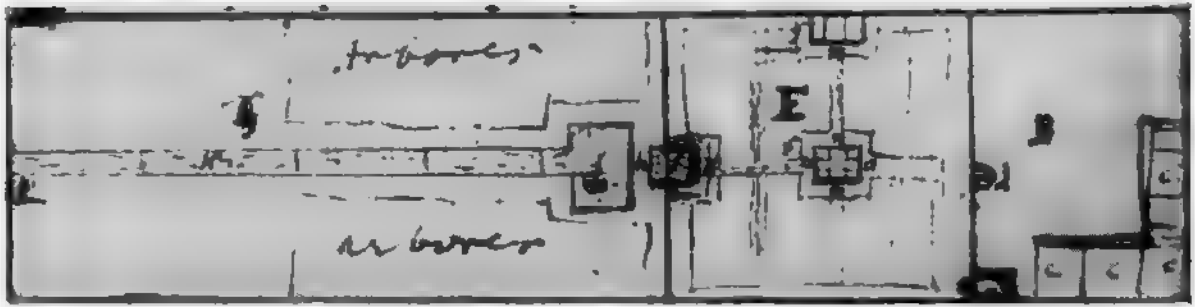
في جوار ضريح سعدي وعلى امتداد مجرى المياه الذي يبدأ من قناة فهندر وحتى بوابة سعدي، كانت توجد حديقة يملكها كلانتر (الشریف) مرتضى قُلي خان ويطلق عليها باغ دلغُشا. قام كامبفير برسم مخطط لهذه الحديقة (انظر الرسم الرقم ٢٢ - ١٣)^(٧٤) قبل إدخال التعديلات عليها في القرن التاسع عشر. وكانت تتألف من ثلاث مساحات مسورة:

Kaempfer, *British Library*, Ms. Sloane 2912, fol. 36v.

(٧٤)

الحديقة المسورة (g) مع مجرى المياه الكبير (k)، الذي يؤدي إلى الحوض (i)،
 قبالة التالار الرئيسي (h)، للإمارة التي تؤدي إلى المساحة المسورة الثانية التي كان
 حديقة أعناب (e) مع ثلاث إمارات (fff). كان يوجد حوض صغير قبالة كل من إيوانات
 الإمارات المركزية الأربعة (f)؛ وكانت إمارة ثالثة (f) بجانب سور هذه الحديقة وباب
 (d) يؤدي إلى الفناء (b) حيث كان يوجد الحرم والغرف (c) زورخانة (جمنازيوم) التي
 كان الوصول إليها ممكناً أيضاً عبر المدخل (a).

الرسم الرقم (٢٢ - ١٣) مخطط باغ دلغشا



المصدر: المصدر نفسه.

ويضيف كامبفير مصدراً بيانياً آخر يعرض الإمارة السابقة التي كانت تقع بين
 الحديقتين الأولى والثانية والتي كان يطلق عليها تسمية خلوت خانه (بيت الخلوة)
 (الفناء الخلفي) (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ١٤))^(٧٥).

ومن المثير للاهتمام أن المبنى الوحيد الذي لا يزال قائماً في باغ دلغشا مماثل
 في ارتفاعه لتالار مركزي تعلوه غرفة ذات سقف مائل. لكن المنشآت التي بجانبه
 كانت مختلفة؛ فقد كان كل طابق يحتوي على غرفتين، في حين أنه يحتوي اليوم على
 غرفة واحدة فقط، مع شرفة في الطابق العلوي وعلى جوانب المنشأ المركزي. ووفقاً
 لكامبفير، كانت هذه أجمل حديقة في شيراز.

يظهر ذوق شيرازي خاص في ارتفاع هذه الإمارة؛ فإيوانها لا يتبع النوع المقتب
 الذي كان شائعاً في الحدائق الملكية في أصفهان، وإنما يتألف من عمودين يعلوهما
 سقف أفقي. وهو نوع استخدم لاحقاً في مباني زند وقاجار في شيراز.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٣٦.

د - الجادة المؤدية إلى باغ تخت قراتشه

عند أسفل جبل بابا كوهي كانت هناك حديقة كبيرة ذات مصاطب تدعى باغ تخت قراتشه^(٧٧) بناها أتابك قراتشه، على مقربة من مصدر للمياه في جبل بابا كوهي. وقد كتب جان أوبين أن ميرزا إسكندر، ابن عمر شيخ، حكم في فارس من عام ١٤٠٩ إلى عام ١٤١٤. وقد بنى قلعة جلالي في شیراز أيضاً. أما مسكنه فكان تخت قراتشه الواقع في شمال المدينة. وقد وصف أنطونيو تنريو مقره الذي زاره عام ١٥٢٤ بأنه يتألف من دائرتي جدار يحيط بقصر من الرخام مزين بزخرفات مجصصة وخزف ملون، وبأشجار من الأنواع كافة، وورود وطرقات تحيط بها أشجار سرو عظيمة إلى درجة أنها تظلل الطريق حتى خلال النهار. وكان يحيط بالمنزل أيضاً بركة مياه كبيرة وفي وسطها جناح غنيّ التزيين. وعندما زار نيور المدينة، كانت الحديقة عبارة عن خربة^(٧٨)؛ ثم أعاد آغا محمد خان القاجار ترميمها لاحقاً وياتت تعرف باسم باغ تخت قاجار. وضع فيلبر مخططاً لهذه الحديقة الأخيرة في كتابه^(٧٩).

وفي اليوم دي آرسي في المكتبة البريطانية، يظهر مشهد جميل لشيراز في عهد القاجار، حيث يبدو مبنى الحرم لهذه الحديقة قبالة الجبل ويشرف على حديقة فسيحة يحيط بها حوض كبير في السهل أسفل المخطط (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ١٠))^(٨٠).

لكن المشهد الذي أعده هوفستد فان إسن (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ١١))^(٨١)

Kaempfer, Ibid., Ms. Sloane 2912, fol. 38, and Shirazi, *Shiraz Name*, p. 64.

(٧٧)

Niebuhr, *Voyages en Arabie et en d'autres pays circonvoisins*, p. 135.

(٧٨)

«على بعد نصف فرسخ شمال شیراز، توجد صخرة صغيرة توفرّ منظراً جميلاً للمدينة وللسهل الخصيب المترامي الأطراف؛ وفي البعيد كانت تشاهد الجبال العالية. يحاكي كثيراً حال هذه الصخرة الصغيرة حال تلك التي بُني فوقها قصر برسيوليس. لقد شيد أحد المسلمين هنا قصراً، ولكنه كان على جانب من العشوائية بحيث زالت جميع معالم المبنى، ما عدا أسفل عمود صغير، ويقال إنه نقله من تشهل منار، ولا سيما أنه من ذات المرمم الصلب والأسود الذي يشاهد في أوابد برسيوليس، علماً بأن الصخرة المطلّة على شیراز بيضاء وغير صلبة. والصعود إلى هذا الصرح يمرّ بسفح شديد الانحدار بُني عليه سور من كل جانب... وفي الجهة المطلّة على السهل الفسيح، نحت المهتمس درجات في الصخرة واستجرّ من تحت الصرح جدول ماء صغيراً حوّلته إلى شلالٍ بديع؛ ولكن النبع استعاد مجراه السابق، ولم تعد للشلال أية فائدة. وفي مكان من السهل ليس بعيداً، شاهدنا خزاناً كبيراً من الماء وآثار عدد من النوافير... وفي أسفل الصخرة ما زالت بعض الأقواس المتصدّعة قائمة، ويبدو أنها كانت اسطبلات ومساكن للخدم. وفي مكان في الجبل ليس بعيد يوجد ضريح لوليّ اسمه بابا كوهي يتردد إليه المسلمون كثيراً».

Donald Wilber, *Persian Gardens and Garden Pavilions*, 2nd ed. (Washington, DC: [n. pb.], (٧٩) 1979).

Album of 58 Views of Persia Mostly Made during the Ouseley Embassy of Tehran, 1810-1812 (٨٠) (London: British Library, [n. d.]), Shelfmark WD3274, fol. 7.

Kaempfer, *British Library*, Ms. Sloane 2912, fol. 34v.

(٨١)

يُظهر الحديقة أعلاه قبل إدخال التعديلات عليها في فترة القاجار. هنا، يظهر التالار قبالة الإيوان المقبب الكبير للمبنى، المشيد فوق الشرفة العليا أو التخت، على شكل نصف مثنى. وكانت المستويات المتدرجة بين الحديقة السفلى والتخت خربة. ويوجد تحت المشهد عبارة تقول قلعة الفردوس. ويعلمنا كامبفير أن تخت قراتشه كانت تسمى أيضاً قلعة الفردوس^(٨٢). ويضيف تافارنييه، المعجب بما تبقى من جمال المبنى الذي كان يطل على الحوض الكبير، أن حدائقه كانت مزروعة بأشجار السرو، وأن الحدائق في شيراز كانت «الأجمل في العالم»^(٨٣). تتطابق أوصاف كل من دون غارسيا دي سيلفا فيغويرا، وكان نبيلًا من قشتالة أرسله الملك فيليب الثالث كسفير ووصل إلى شيراز عام ١٦١٧^(٨٤) ولو بروين^(٨٥) مع مشهد هوفستد فان إيسان.

يفترض أن يكون دون غارسيا، الذي أقام في باغ شاه، قد وصل إلى هذه الحديقة عبر طريق في المكان نفسه المبين في المخطط الذي وضعه سايكس. لكن ما من مستند آخر يبين جادة في هذا المكان قبل مستند سايكس؛ فالمخطط الذي وضعه كوست يظهر طريقاً قديماً من شوشتر ويمر بجوار الحدائق أسفل جبل بابا كوهي ويتصل براست بالقرب من شاه مير حمزة. وبما أنه لم تصلنا أخبار عن جسر مقام فوق نهر خشك في هذا الموضع، فمن المحتمل أن تكون الجادة التي بينها سايكس جادة حديثة وأن هذه الطريق هي التي كانت تربط الحدائق السفحية بالمدينة في الفترة الصفوية.

(٨٢) المصدر نفسه.

Tavernier, *Les Six voyages de Jean Baptiste Tavernier en Turquie en Perse et aux Indes*, (٨٣) p. 313.

Figueron, *L'ambassade de D. Garcias de Silva Figueron en Perse*, p. 129. (٨٤)

«في سفح هذا الجبل، ومن حيث نعود من منزل السفير، يوجد بستان كبير من الأشجار المثمرة وصفوف من السرو والدردار، وخلفه شاهلدا بحرة فسيحة عرضها مئة وثلاثون قدماً ويتجاوز عمقها قامة ونصف. وتنزل ماؤها من صخرة هائلة الحجم تبعده عن عشرين قدماً، وفوقها بُني بيت قديم لُيس سوره بزخارف شاهلدا قسماً منها ما زال قائماً، ولكن معظمها صار إلى خراب. وللبيت بوابة صغيرة خلفها فسحة سواوية كبيرة ومربعة فيها سبيل ماء، ويحيط بها من جانبيها غرفتان إحداها كبيرة رثة، والأخرى صغيرة جداً... وتطل البوابة ونوافذ البيت على بحرة واسعة وعلى البساتين والمدينة فتشكّل منظراً خلّاباً من شتى جنباته. وإذا ما نظر المرء إلى الجبل لرأى أنه يستطيع صعوده انطلاقاً من البستان والبحرة لأن الصخر مستوٍ على علو ثلاثة رماح، ولكنه يصعد حتى منتصف الطريق عبر درج محفور في الصخر نفسه، وهنا أقيم سبيل ماء كبير يعلوه قوس وتنزل الماء في البحرة. ويعدّها ينتهي الدرج، ويتم الصعود إلى الأعلى عبر الصخرة نفسها للوصول إلى البيت... الذي هو كناية عن باحة كبيرة...».

Le Bruyn, *Voyages de Cornielle le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales*. (٨٥)

«في أسفل الجبل وعلى صخرة صغيرة توجد أطلال صرح جميل له بحرة كبيرة جفت ماؤها، وله بستان واسع مليء بالسرو والأشجار الأخرى وتتخلله جلول مزروعة جميلة. وفي نهاية الجبل الأوسط، هناك أطلال صرح آخر يضاهي الصرح الأول. ويحيط بالبستان سور ترابي ولكنه تداعى دون أن يصلحه أحد. وأطلق على هذا المكان الجميل اسم فردوس: وقبل مئة سنة كان يسكنه ملك يدعى قراتشه».

ووفقاً لـ ظفرنامه، قبل الأمراء والكلانترات (الأشراف) الأرض كتعبير عن خضوعهم لجيش تيمورلنك بالقرب من تخت قراتشه^(٨٦). وقد بنى تيمورلنك حديقة حملت الاسم نفسه في أعلى أحد الجبال بالقرب من سمرقند، محاكياً نموذج الحديقة التي أقام بها يوماً في شیراز^(٨٧). يصف شاردان قلعة الفردوس بأنها حديقة قريبة من تخت بادشاه كتشل^(٨٨). وهذه الحديقة الأخيرة ذكرها تافارنييه^(٨٩)، وقد بُنيت على غرار حديقة تخت قراتشه ذات المصاطب، التي يرجّح أن يكون الياس بك ذو القدر بانيها، وكان ذائع الصيت مثل كتشل بيك^(٩٠)، إذ حكم شیراز في عهد الشاه إسماعيل، مؤسس الأسرة الصفوية الحاكمة. ويظهر كوست في سهل شیراز كلاً من باغ نُو وتخت قراتشه وحديقتين أخريين في أسفل الجبل إلى الغرب من راست. ويمكن أن تكون إحداهما مكان تخت بادشاه كتشل وأن اسمها تغير في وقت لاحق.

هـ- من خيابان إلى باغ شاه

يصف دون غارسيا دي سيلفا قدومه إلى شیراز بأنه على صلة بموضع باغ شاه والخابان الذي يربط هذه الحديقة الملكية بالمدينة. فقد وصل إلى شیراز عبر بوابة فسّا، من الجهة الجنوبية الشرقية، وعبر بعض الشوارع المتعرجة التي تؤدي إلى ميدان، حيث كان وردي خان يبني مسجداً كبيراً^(٩١). بعد أن مرّ بميدان أكبر حيث يوجد منزل السلطان، تابع طريقه عبر شوارع أخرى مشابهة نحو البوابة المقابلة التي كانت تسمى دروازه آهني، وتابع السير غرباً ثم شمالاً ثم غرباً. ومن هذه البوابة، سلك جادة يناهز طولها «٢٠٠٠ خطوة» ويقارب عرضها «٩٠ خطوة» وتفضي إلى منزل للملك حيث أقام السفير. كانت الجادة مستوية وتحفها جدران بساتين الفواكه الكبيرة، مع سراقدين

Zafarnama, vol. I, pp. 316-320.

(٨٦)

(٨٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨.

Chardin, Voyages, p. 186.

(٨٨)

«ما بين الظهيرة والمغيب، نكتشف أطلالاً شتى هي أشبه بحديقة كبرى فيها مناسك عديدة كمي بعضها بالرخام... ويطلق القرس على هذه الأطلال الجميلة عبارة «تخت بادشاه كتشل» أي قصر الملك الأقرع، لم أفقه سبب هذه التسمية. وعلى مقربة منها، هناك بستان يسمونه «باغ فردوس». ويعده بنصف فرسخ توجد دارة جدرانها مكسوة بزخارف بديعة الصنع. وفي وسط البستان توجد بحيرة مربعة الشكل طولها مئة وثلاثون قدماً وعمقها تسعة أقدام. وفي القسم الغربي من هذا القصر، شاهدنا مزهريات مصنوعة من المرمر الأسود الصلد والصقيل الملّمس والرائع المنظر. ونجد نفس المرمر ونفس الازميل كما في برسيوليس».

Tavernier, p. 317.

(٨٩)

Asfar, Tarikh-e-bafi-e qadimi-ye Shiraz, p. 122.

(٩٠)

De Silva, de sus Embaxada de parte del rey de Espana Don Phillippe III Riizo al xa Abas de Persia. Ano de 1618.

(٩١)

للاستراحة، يخصص الملك أيضاً، على امتداد ثلثي الشارع، الواحدة قبالة الأخرى. وكان هذا المكان يستخدم للتدرب على ركوب الخيل؛ وعلى مسافات متساوية توزعت ستة أعمدة^(٩٢) من الرخام الأبيض، استخدم اثنان منها كمرمين أثناء التمرن على لعبة البولو، أو الشوغان^(٩٣).

كما وصف تافارنيه جادة، شمال غرب المدينة، تنتهي عند حديقة باغ شاه حيث نُصبت ثلاث مجموعات من الأعمدة^(٩٤). وكان أربع من هذه الأعمدة لا يزال موجوداً في تسعينيات القرن العشرين؛ اثنان على جانبي القنصلية البريطانية (يظهر موقعهما في مخطط سايكس للمناطق المحيطة بشيراز^(٩٥) واثنان عند الطرف الشمالي لشارع رودكي، وقد سُمي المكان «العمودان» نسبة إليهما^(٩٦). كما يشير شاردان إلى باغ شاه^(٩٧) ويبيّنها في مخططة، خارج البوابة التي كانت تعرف كذلك بدرك موسى في عهد الصفويين.

وعليه، فإن دروازه أهني (أي باب الحديد) التي أشار إليها فيغيروا، هي بوابة باغ شاه نفسها في مخطط نيور. وهي التي أشار إليها كورنيليس لو بروين أيضاً في روايته، إذ بعد أن وصف راسيت مصلى، ذكر طريقاً آخر يعبر النهر ويؤدي إلى باب أهني^(٩٨). من المحتمل أن لا يكون هذا «الطريق الآخر» تمة راسيت مصلى، الذي ينتهي عند

(٩٢) ليس من المعتاد وجود ستة أعمدة، لأن اللعبة تجري بين فريقين وتحتاج إلى مرمين.

De Silva, *Ibid.*, fol. 72v

(٩٣)

Tavernier, *Les Six voyages de Jean Baptiste Tavernier en Turquie en Perse et aux Indes*, (٩٤) p. 309.

(٩٥) رسم هذا المخطط لإظهار الخط الفاصل بين القوات الهندية وفرقة مشاة فارس الجنوبية أثناء حصار

Sykes, *A History of Persia*.

شيراز عام ١٩١٨. انظر:

حيث قال: «قمنا باحتلال حزام من الحدائق المسورة في الجهة الشمالية الغربية لشيراز، والتي كانت توفر الحماية الكاملة باستثناء نيران البنادق البعيدة... بين هذا المعسكر والمدينة هناك أرض مكشوفة، ربما كان عرضها نصف ميل. كما كان هناك فجوة ريبا على بعد ربع ميل من الحديقة. وكان مكتب القنصلية والتلغراف في ذلك المعسكر».

(٩٦) تم نقل الأعمدة الأخيرة إلى مدخل شارع غولستان. انظر: Asfar, *Tarikh-e-bafi-e qadimi-ye Shiraz*, p. 166.

Chardin, *Voyages*, p. 182.

(٩٧)

«وبين هذه البساتين الفسيحة والجميلة أعجبنا بالبستان الملكي، وهو كناية عن مربع طول ضلعه ألف قدم تقريباً. وتنصب فيه أشجار الرمان والبرتقال والليمون... وكذلك شتى الأشجار المثمرة التي نجدها في أوروبا...».

Le Bruyn, *Voyages de Cornielle le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales*. (٩٨)

«من هذا الجسر يبدأ شارع تنغة الله أكبر الذي يبلغ عرضه ٣٠ قدماً. وإذا سلكنا طريقاً آخر لوجدنا أن عرضه واحد، يصل المرء إلى أحد أقدم أبواب المدينة ويسمى «دروازه أهني» (باب الحديد)، وهو باب تضرر كثيراً وتحول الآن إلى سوق له قبة ويبلغ طوله ٨٠ قدماً. كُتبت فوق جدران الباب حروف تركية كثيرة، وتعلوه بقايا برج. ويفضي المرء إلى شارع طويل فيجد مقبرة على يساره، ويستأنأ خرباً إلى يمينه، بالإضافة إلى العديد من المباني. ويمتد هذا الشارع إلى قلب المدينة التي لا يكاد يبلغ محيطها فرسخاً واحداً».

باب أصفهان، وإنما كان يؤدي إلى دروازه أهني من خارج الأسوار^(٩٩). وهكذا ينبغي عدم الخلط بين باب أهني وباب أصفهان. ويشير شاردان إلى كلا البابين بقوله: «وفي الشمال، يوجد باب أهني وكذلك باب أصفهان».

يشير بييترو ديللا فاللي إلى المكان الموجود أمام هذه الحديقة الملكية، حيث أقام الإنكليزي، بالميدان، وهو أكبر ميدان شاهده في شیراز وكان يستخدم سوقاً للخيل^(١٠٠). أما لو بروين فيسمي «العجاة الجميلة» التي تصل باغ شاه بقصر إمام قلبي خان في المدينة كوتشه باغ. تجدر الإشارة هنا إلى أن هذه العبارة تطلق على الشوارع الضيقة التي تحدها جدران الحدائق، بخلاف العجاة التي يبلغ طولها ٩٦٦ خطوة وعرضها ٩٥ خطوة^(١٠١).

تجد هذه الأوصاف دعماً في المستند البياني الصفوي الوحيد لمدخل حديقة إمام قلبي خان، وهو الذي رسمه كامبفير، حيث يظهر عمودا الشوغان، أو البولو، في صدر المخطط، لكن طول العجاة التي تؤدي إلى الحديقة وفقاً لكامبفير يبلغ «٧٠٠ خطوة» (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ١٢))^(١٠٢).

في «سهل شیراز»، يشير باسكال كوست إلى مكان مستطيل خارج البوابة الغربية سماه «حلبة سباق الخيل»^(١٠٣). ويظهر مشهد لشيراز أعده فلاندين هذا المكان خارج بوابة المدينة في فترة القاجار. العنصر الوحيد المرئي في الحلبة، إلى جانب الحدائق التي كانت مدمرة أصلاً، هو عمود قبق أندازي (منصة المرمى) وأعمدة شوغان. يظهر برج ممسنى في هذا المشهد قريباً من النهر، كما يظهر في «سهل شیراز» لكوست وفي مخطط سايكس. ويعتبر هذا المعلم، إضافة إلى شارع لا يزال يحمل اسم باغ شاه، عنصراً مهماً في تحديد موقع الحديقة^(١٠٤).

يتكلم تافارنييه على الحديقة وجادتها، المزروعة بأشجار السرو، والتي تؤدي من مدخل المبنى إلى مبنى آخر يوجد على يساره حوض كبير مبني من الحجارة. وهذا

(٩٩) Browne, *A Year Amongst the Persians*.

(١٠٠) Della Valle, *Biblioteca Apostolica Vaticana*, Ms. Ottob. Lat. 3382, fol. 154.

(١٠١) Le Bruyn, *Voyages de Cornielle le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales*, p. 421.

(١٠٢) Kacmpfer, *British Library*, Ms. Sloane, 2912, fol. 35.

(١٠٣) Coste, *Voyages en Perse pendant les années 1840 et 1842*, p. 55.

(١٠٤) في مخطط حديث لشيراز، وعلى طول بولفار كريم خان زند بين فلكه (مستديرة) ستاد وفلكه (مستديرة)

تماشا، يطلق على الشارع المتقاطع الرابع والموازي لشير فاطمي، باغ شاه. تغير اسم الشارع الذي يليه في وقت لاحق وأصبح نهازي. انظر: Arianpur, *Pajuheshi dar shenakht-e baghchaye tarikh-ye shiraz*, p. 148.

في رأيه سر جمال الحديقة الذي لا يلاحظ في فرنسا. كانت الحديقة مليئة بالأشجار المثمرة والورود والياسمين، لكن من دون تماثل وتماثل^(١٠٥). ومع ذلك، هذا ما كانت عليه الحدائق عند الفرس. في الواقع، يشير لو بروين الذي اتفق وجوده هناك في ٢٢ آذار/ مارس أثناء عيد النوروز، إلى أن الناس أمروا المكان من كل حذب وصوب من أجل الاستمتاع، وأن الشوارع شهدت ازدهاماً كالذي تشهده الأسواق^(١٠٦).

إن كامبير هو الرحالة الوحيد الذي رسم مخطط حديقة إمام قلي خان وواجهتي سرادقها^(١٠٧). ويظهر مخطط باغ شاه ما يلي (انظر الرسم الرقم (٢٢ - ١١)):

مبنى المدخل (h) ومنها يؤدي خيaban محفوف بأشجار السرو (c.c.c) إلى عمارة مئمنة (a) ويوجد إلى يسارها حوض كبير (b) مساحته ٩٠ خطوة مربعة. وأمام مبنى المدخل ينتصب عمودان يستخدمان في لعبة الشوغان (ii).

هناك العديد من المعالم المناظرة للوصف الذي أعطاه السفير الإسباني للحديقة أعلاه، في مبنى المدخل الذي أقام فيه^(١٠٨). كانت الحديقة مؤلفة من مزار كثيرة شكّلت

Tavernier, *Les Six voyages de Jean Baptiste Tavernier en Turquie en Perse et aux Indes*, (١٠٥) p. 310.

ولكن كل هذا فوضوي، دون أي ترتيب أو تناظر.

Le Bruyn, *Voyages de Cornielle le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales*, (١٠٦) p. 421.

بعد أن اجتزنا ردهة المطلة التي تقع في آخر هذا البستان، دلفنا إلى ممشى آخر جميل تحيط به أشجار السرو، ويبلغ طوله ٦٢٠ قدماً وعرضه ٢٠، وتكتظ الأزهار في وسطه. ووجدنا فيه بيتاً جميلاً تحيط به قناة، وأقيم على أطراف المبنى سيلا ماء تحتلط مياهها بمياه القناة. وهذا البيت فسيح، ويتوسطه هو كبير مغطى بقبة مليئة بالمقرنصات. وقبل الدخول إليه رأينا إلى اليسار بحرة مربعة الشكل، يبلغ طول أضلاعها ٨٥ قدماً. ويحيط بهذا الممشى من كل جانب ٧٢ شجرة سرو جميلة يبلغ محيط دائرتها ٢٢ شبراً. ويطلق على هذا البستان اسم «باغ شاه» (الحديقة الملكية). وزرته في ٢٢ آذار/ مارس، عيد النوروز الذي يتهافت إليه الناس من كل حذب وصوب للتسليه، بحيث صارت الماشي أشبه بسوق تجاري.

Kaempfer, *British Library*, Ms. Sloane, 2912, fol. 35.

(١٠٧)

Figuerola, *L'ambassade de D. Garcias de Silva Figuerola en Perse*, pp. 109-112.

(١٠٨)

... كان هذا الشارع الطويل والجميل يقضي إلى بوابة القصر الملكي... في هذا المكان صعدنا درجتين ووصلنا إلى منظره صغيرة أعلى من باقي الشارع... عند مدخل القصر وأمام بوابته، وسط هذه المنظره، كانت هناك بحرة مئمنة الأضلاع... وقام المهندس الكبير إسماعيل سيامي ببناء بيت السفير وضّم إليه البستان... وشيد المنزل على شكل برج مؤلف من ثلاثة طوابق يصعد إليها بدرج صغير ضيق وحلزوني الشكل... في الطابق الثاني هو جميل تعلوه قبة قائمة على أقواس وتغطي القاعة كلها... وبين الشرفات المحيطة بهذه الدارة، كانت شرفتان أكبر من غيرهما. إحداها فوق باب المنزل وتطل على الشارع... السور الذي يشكّل واجهة المنزل ليس مستقيماً بل منحنيّاً ومعوجاً ويضمّ جانباه رواقين صغيرين... الرواق الآخر أو الشرفة، وهو يواجه الرواق الذي تكلمنا عنه للتو، يقع فوق الباب الذي منه ندلف إلى البستان، ويقضي إلى البستان كالرواق الآخر... ويضم في كل طرف من أطرافه رواقاً أصغر، وكلاهما

شبكة من قطع الأراضي المزروعة بالأشجار المثمرة، وكان الممر الرئيسي الذي يزيد طوله على ٩٠٠ خطوة وعرضه على ٣٠ خطوة^(١١٩)، تحفّ به أشجار السرو والدلب، ويؤدي من مبنى المدخل إلى السرادق في وسط الحديقة والذي يستخدم كحرم. وكان السرادق مشيداً فوق منصة مرتفعة تبرز عن السرادق مسافة ٤٠ قدماً وعلى كل جانب توجد عشرة أحواض مثمّنة صغيرة متصلة بقناة مائية صغيرة^(١٢٠).

من هناك يبدأ ممشى باتجاه عمودي يوصل إلى حوض توجد فيه قوارب تتزّه بها النساء. وتوجد منمنمة تصوّر إمام قُلي خان في قارب يحيط به الخدم^(١٢١)، تذكّرنا برواية دون غارسيا الذي يصف الحوض أمام مبنى الحرم بأنه مرتفع من ثلاثة جوانب وأن الوصول إلى مياهه يتم عبر سلسلة من الدرجات على شكل مسرح، ومن هناك تصعد النساء إلى القوارب^(١٢٢).

كالشرقة أيضاً يواجهان ممشى جليلاً تحيط به أشجار السرو الضخمة والزنزلخت... ولكل واحد من هذين الرواقين ثلاثة أبواب بمنظور مستقيم... ومن مركز هذه القاعة، لا يرى المرء فقط الشارع والممشى، بل يرى الطرف المؤدي إلى باب المدينة وباب إزم أو السرايا القائمة في الوسط، كما يرى مركز البستان^(١٢٣).

(١٢٩) المصدر نفسه، ص ١١٢.

(١٣٠) المصدر نفسه، ص ١١٣.

«في نهاية هذا الممشى توجد إزم أو السرايا... وهي مبنى أخذ شكل وهندسة المبنى الآخر، دون أن يكون فسيحاً جداً وعالياً جداً... بنيت هذه السرايا فوق أكمة ترتفع سبعة أقدام عن باقي البساتين، وشيّدت بالأجر المربع والضخم، وهي واسعة، وبالإضافة إلى أساسات المبنى، فإن عرضها يصل إلى أربعين قدماً من كل جانب. ويوجد في هذا الحيز عشر بحرات صغيرة مثمّنة الشكل يبلغ عمقها قامة إنسان تقريباً. وتجري الماء نفسها فيها، وهي ماء جميلة وصافية، عبر أقنية صغيرة تنقل الماء بينها، ويبلغ عرضها نصف قدم، وعمقها كذلك^(١٣١).

(١٣١) نسخة مصغرة في المكتبة البريطانية. انظر: Kaempfer, *British Library*, Ms. Sloane, Add.7801, fol. 49.

ونسخة جاروناما أعيد نشرها في: Barbara Schmitz, «On a Special Hat Introduced During the Reign of Shah Abbas the Great,» *Iran*, vol. 22 (1984), pp. 103-112.

وهي تصوّر إمام قُلي خان في قارب يحيط به الخدم.

(١٣٢) Figueroa, *L'ambassade de D. Garcias de Silva Figueroa en Perse*, pp. 115-116.

«وبعد السرايا أو إزم بستين أو سبعين قدماً... هناك بحرة كبيرة وجميلة يُصعد إليها بأربع أو خمس درجات، وحوافها يوجد ممر مبنّى بالأجر المربع، كذلك الأجر الذي يحيط بالمبنى، ويتجاوز عرضه عشرين قدماً. والبحرة مربعة الشكل يتجاوز كل ضلع من أضلاعها مئة قدم، ويربو عمقها على ثلاث قامات، وهي مكان جميل للترّهة. وبعد كل ثلاثة أقدام هناك درجة تحيط بكامل البحرة المصمّمة على شكل مدرّج يُتزل منه إلى الماء وفي البحرة زورقان كبيران تستخدمان في نزهة وتسليه السيدات، عندما توجد نساء في السرايا... وترتفع البحرة عن سطح الأرض أربع أو خمس درجات، ولكن من جوانبها الثلاث فقط. وتنصبّ فيها الماء عبر قناة يتجاوز عرضها ثلاثة أقدام ويربو عمقها على نصف قدم... وبعد أن تجتاز الماء البحيرة تخرج منها بقناة أخرى مقابل القناة الأولى، وبالطريقة نفسها تنزل إلى مستوى البستان بفتحة مصنوعة من الرخام، الذي يكسو أيضاً جسم البحرة وجسم القناة... وحفر الرخام على شكل قواقع، بحيث تشكّل المياه الجارية في هذا المكان الصغير، مناظر عديدة وجميلة وخلاّبة، كما في البلور الصافي جداً^(١٣٣).

و- بيربناب وباغ وحش

في الجهة الجنوبية الغربية من شیراز، وعند مصدر طبيعي للمياه، كان يوجد صومعة يقيم فيها بضعة دراويش وتدعى «بير بونو» أو بيربناب (بناب يعني مصدر المياه). يبرز تافارنييه أن الدراويش اختاروا أنسب الأماكن لخلواتهم. وعلى امتداد مجرى المياه، سيّج إمام قلبي خان أرضاً كبيرة وجلب إليها عدة حيوانات، لكنها كانت قد تحولت إلى خراب عندما زارها تافارنييه. عُرِفَت هذه الحديقة بباغ وحش (حديقة الحيوانات). ويبيّن باسكال كوست في «سهل شیراز» حديقة في ذلك الموقع^(١١٣). كانت تتصل بالمدينة عبر طريق يؤدي إلى دروازه كازرون.

ثانياً: مقارنة العلاقة بين الحدائق والمدينة في كلٍّ من شیراز وأصفهان

يبيّن مخطط شیراز والمناطق المحيطة بها أن الحدائق الواقعة خارج النسيج المدني بُنيت بالقرب من مصادر المياه الطبيعية أو حيث كانت توجد قنوات سطحية. كان السهل بكامله مليئاً بالحدائق، ولا سيّما على سفوح التلال التي تحده من الغرب، حيث تزداد كثافتها وتمتد نحو الجهة الشمالية الغربية لمسجد بردي. لذا كانت مواقع هذه الحدائق وثيقة الصلة بالشكل الطبيعي للسهل البيضوي الذي تحيط به الجبال من ثلاث جهات وبالجداول التي كانت تنساب نحو الجهة الشرقية المنخفضة لتشكل بحيرة مهارلو.

إنّ ما كان يجمع بين شیراز والعاصمة أصفهان هو أن أكثر مواقع الحدائق أهمية كانت تتصل بالمدينة عبر الخيابانات والميادين.

ويقارن الرحالة الأوروبيون صراحة، كما سبقت الإشارة، بين راست مصلى وخابان تشهار باغ في أصفهان^(١١٤)؛ فالحدائق كانت منتشرة على جانبي الجادّتين؛ ومباني المداخل في هذه الحدائق توزعت على نحو متماثل، وكانت الغرف في الطوابق العلوية تطل على الجادّتين. كما أن تخطيطهما المستقيم وعرضهما الكبير كان ميزة مشتركة. وإذا قارنا راست بأي صلة وصل أخرى في المدينة القديمة يمكننا فهم قوة هذا

Tavernier, *Les Six voyages de Jean Baptiste Tavernier en Turquie en Perse et aux Indes*, (١١٣) p. 317.

Mahvash Alemi, *Plan of Safavid Esfahan*.

(١١٤)

التصميم. في الحقيقة، يبرز الرحالة الأوروبيون هذا المعلم بوضوح عند رسمهم شيراز. وهو معلم كان يحظى بتقدير كبير لدى الأوروبيين لأن المتنزّحات بدأت تشيع في الفترة ذاتها أيضاً في روما ونابولي وباريس.

ومع ذلك، كان هناك اختلافات جوهرية بين الخيابان (الشوارع) في شيراز والخابان في أصفهان. فالقرار باتخاذ أصفهان عاصمة أتاح المجال أمام إنشاء مدينة حدائق إلى الجنوب من المدينة السلجوقية، حيث شكّل خيابان تشهار باغ العمود الفقري لهذه الإضافة. فقد كان يربط قصر شاه عباس عبر النهر بالحديقة الملكية التي كانت في الضاحية. وعلى امتداد هذا المتنزّه، الذي كان بمثابة حديقة مستطيلة فعلية ذات أحواض مختلفة ومزرعة بأشجار الشنار، أنشأ الأمراء وأعيان الحاشية حدائقهم الخاصة.

لم تحدد هذه الجادة وجهة الحدائق المنتشرة على جانبيها فقط، وإنما ولدت شبكة من الشوارع المتعامدة معها في الأحياء المجاورة. كما أن قنوات المياه، أو الـ «مادي»، التي كانت تجري بموازية نهر زابنده رود وبشكل متعامد مع المتنزّه، عملت على تخطيط هذه الشبكة أيضاً. أما الخيابان في شيراز فلم يكن له التأثير ذاته.

في الواقع، جرى إضافة عدد قليل من حدائق النزهة على امتداد الطريق الموجود بين شيراز وأصفهان حيث كانت حدائق الأضرحة منتشرة. لكن كان من الممكن أن يؤدي راسّ الدور الإنشائي نفسه الذي أداه خيابان تشهار باغ في أصفهان. صحيح أن آثار الحدائق والتكايما على جانبي الجادتين لا تزال باقية حتى وقتنا الحاضر بسبب حجم الممتلكات الكبير، لكن من الواضح أن تأثير الخيابان في النموذج العمراني كان أقوى في أصفهان منه في شيراز.

أضف إلى ذلك أن الحدائق التي تحفّ الـ «راسّ» في شيراز كانت موازية لمجرى المياه ولم تحدث التأثير الممتد نفسه باستثناء منطقة باغستان، على امتداد نهر خُشك. ويظهر مخطط شيراز الصفوية بوضوح هيكلية الوصلات بين مواقع الحدائق الرئيسية والمدينة، حيث بُنيت الحدائق بالقرب من مصادر المياه في أسفل الجبال التي تحيط بالسهل من ثلاث جهات، وعلى امتداد نهر خُشك. وكانت النتيجة مشهداً ينقل شكلاً طبيعياً أكثر مقارنة بشبكة المدينة الحديقة لأصفهان.

كما أنّ الحدائق المحيطة بشيراز، على كثرة عددها، لا تضاهي الإضافة الملكية لأصفهان، حيث شكّل نظام الحدائق الملكية وحدائق الحاشية معاً مدينة جنائن حقيقية. في شيراز، بُنيت حدائق الحكام في مواقع مختلفة وعلى امتداد مجاري المياه المختلفة.

والجادة الغربية التي تتجه نحو باغ شاه هي الوحيدة التي يمكن مقارنتها، وإن على نطاق أدنى كثيراً، بنموذج خيابان تشهار باغ في أصفهان الذي ينتهي عند باغ هزار جريب الملكية.

الميزة الأخرى المشتركة التي أشار إليها الرحالة كانت في إنشاء ميدان في شیراز، مثل الميدان الذي قبالة القصر الملكي، دولت خان، في أصفهان، والذي كان بمثابة بهو لقصر إمام قلي خان. كانت القناطر ممتدة في شیراز على جوانب الميدان وكانت توجد شرفة عالية تُعزف عليها الموسيقى، وكانت متصلة بالمسجد والبازار، لكن ما من معلومات حول ممارسة لعبة الشوغان (البولو) هناك. وبدلاً من ذلك، كان الحيز المخصص لهذه التمارين قبالة ردهة الحديقة الملكية (باغ شاه) حيث يبين كامبفير الأعمدة المخصصة للبولو.

على العكس من ذلك، كان الميدان في أصفهان المكان الذي تؤدي فيه هذه الطقوس الملكية مثل الشوغان والقبق أندازي. وترجع طقوس هذه العروض الملكية إلى عادات وتقاليد راسخة كانت معروفة بأغلبها في الأزمنة القديمة. فالملك الذي يلعب الشوغان في الميدان إنما يبرهن على قوته وشجاعته. كان لهذه الطقوس، رموز السلطة والقداسة، تأثيرها الجوهري في تخطيط أصفهان والعمارة فيها. بهذا المعنى، هناك فرق كبير بين الميدان في شیراز ونظيره في أصفهان.

خلاصة القول، إن الخيابانات والميادين التي تربط حدائق الضواحي بمدينة شیراز كانت مشابهة في مزاياها الحسية لبعض مظاهر تلك التي في أصفهان، لكنها لم تؤد الدور الرمزي نفسه، إذ إن حاكم شیراز كان يعين من قبل الملك ولم يكن يملك القدرة على منافسة الملك في سلطته وقيادته.

ومع ذلك، فقد كان لشیراز مزاياها الخاصة، فمشاهد المدينة تبين أن إحدى المزايا الأساسية لمناظرها الطبيعية كانت أشجار السرو المزروعة في حدائقها. وكان شجر السرو (سرونار) الشیرازي مشهوراً في إيران، ولم يقتصر استخدامه على حدائق الأضرحة، بل إنه استخدم في حدائق التزهة على امتداد الممار الرئيسية. كما كانت تنتشر كروم العنب التي كان يُعصر منها نبيذ شیراز المعروف، وحدائق الورد التي كان يستخرج منها ماء الورد.

لكن الميزة الأهم لشیراز هي الناس، الذين زاروا ولا يزالون يزورون حدائق أضرحة الشعراء، في منطقة الحدائق (باغستان) شمال المدينة، فضلاً عن العديد

من الأضرحة داخل أسوار المدينة، ليس لأنهم يحبون الشعراء والأولياء ويجلّونهم وحسب، بل لأن هذه الطقوس تخالطها البهجة والطعام والشراب. وفي الكثير من الحدائق تلك، كان يجري تقديم الطعام إلى الفقراء، وكانت زياراتهم بذلك تساعد على تحقيق رجاءاتهم.

كانت شيراز تلقب بدار العلم، لأنها كانت ملاذ الكثير من الشيوخ، والفلاسفة، ولأنها مثوى اثنين من الشعراء الكبار، سعدي وحافظ.

كانت حدائق الأضرحة تلك، بوجه خاص، هي التي أضافت إلى شهرة المدينة وأعطتها لقب مدينة «عُلّ وبلبل»، أي «الورد والعندليب»، وبعبارة أخرى، مدينة الحدائق والشعراء.

الفصل الثالث والعشرون

أغرا المغوليّة: مدينة حدائق على النهر

إيبا كوش(*)

مقدمة

لم يتمّ حتى الآن استيعاب مدى مساهمة المغول في «المدينة الإسلامية» بصورة كافية، إذ تركّز الاهتمام على مدينة شاه جهان آباد التي أنشئت منذ عام ١٦٣٩ وما بعد في منطقة دلهي، العاصمة القديمة للسلطين^(١). ما يقترحه هذا الفصل هو أنّ أغرا، أول عاصمة للمغول، تمثّل إنجاز المغول التخطيطي المدني الأكثر أصالة، الذي يتخذ من الحديقة على حافة النهر وحدة نمطيّة في خطة دائمة التطوّر.

أنشئت أغرا، المدينة التي تحتضن تاج محلّ، قبل أن يتخذها السلاطين اللوديون مقرّاً لحكومتهم عام ١٥٠٥ بوقت طويل^(٢). وبعد ذلك بعشرين عاماً، أي عام ١٥٢٦،

(*) أستاذة في معهد تاريخ الفن، فيينا - النمسا.

(١) انظر مثلاً: S. p. Blake, *Shahjahanabad: The Sovereign City in Mughal India, 1639-1739*, Cambridge South Asian Studies; 49 (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1991).

(٢) هناك القليل من الأعمال عن أغرا قبل المغوليّة والمغوليّة، انظر على وجه الخصوص: Particular S. Muhammad Latif, *Agra: Historical and Descriptive* (Lahore: Sandhu Printers, 1981); H. R. Nevill, *Agra: A Gazetteer* (Allahabad: Printed by the Superintendent Government Press, United Provinces, 1921); Abdul Aziz, «The City of Agra at the Beginning of Shah Jahan's Reign,» in: «A History of the Reign of Shah Jahan,» *Journal of Indian History*, vol. 7 (1928), pp. 127-147; Mahdi Husain, «Agra before the Mughals,» *Journal of the United Provinces Historical Society*, vol. 15, no. 2 (1942), pp. 80-87; I.

عندما وطّد المغول وجودهم في هندستان، أصبحت أغرا أول عاصمة للإمبراطورية المغولية واكتسبت في أثناء هذه الفترة سمة مميزة كمدينة حدائق على حافة النهر. وقد اعتاد المغول، الذين قدموا من أواسط آسيا عبر مدينة كابل، الإقامة في حدائق تقليدية مخططة. وبدأ بأثر، مؤسس السلالة المغولية، وأتباعه بإنشاء الحدائق «على نمط الصروح في خراسان» على طول مصدر الماء المتوافر في أغرا، أي النهر البطيء الجريان الذي يدعوه المغول يَمُنا أو جَمُنا أو جاون^(٣). وكيقوا التصوّر التيموري للحدائق التقليدية المخططة مع الوضع على حافة النهر على نحو مبتكر.

في بداية القرن السابع عشر كانت أغرا المغولية «إحدى عجائب العصر - كمركز للطرق التجارية البرية والمائية على السواء - بقدر ما كانت كذلك مكان اجتماع الأتقياء والحكماء والعلماء من كل أنحاء آسيا... نجمة حقيقية يُهتدى بها للحرفية الفنية والموهبة الأدبية والقيمة الروحانية»^(٤). وقد اعتبر المراقب الإنكليزي جون جوردان الذي شاهد مدينة أغرا عام ١٦١١ أنها «إحدى أكبر المدن في العالم، أكبر كثيراً من القاهرة الكبرى وفقاً للتقارير»^(٥)، في حين رأى الرحالة الألماني يوهان ألبرخت فون ماندلسلو عام ١٦٣٨ أن حجمها يبلغ «ضعفي حجم أصفهان على الأقل»^(٦)، وقُدّر سكانها في ذلك الوقت بنحو ٧٠٠٠٠٠ نسمة^(٧).

كانت نواة أغرا تتكوّن من حدائق على طول ضفتي نهر جَمُنا، وكان ما تبقى من المدينة يحيط بمخطط حافة النهر في الغرب. مثلت الحدائق أماكن إقامة الأسرة الإمبراطورية وأعلى طبقات الوجهاء، وتحولت بعض المواقع إلى حدائق مقابر. ولم يستوعب الباحثون السابقون تماماً فكرة أن يكون لمركز المدينة سمة الضواحي، وأن

p. Gupta, *Urban Glimpses of Mughal India: Agra: The Imperial Capital (16th and 18th Centuries)* (Delhi: Discovery Publishing House, 1986).

Babur-Nama Babur, *Memoirs of Babur*, translated from the original Turki text of Zahiru'din (٣) Muhammad Babur Padshah Ghazi by A. S. Beveridge (New Delhi: Oriental Books Reprint, 1970), pp. 531-533, and Zayn Khan, *Tabaqat-i Baburi*, translated by Sayyid Hasan Askari, annot. by B. p. Ambastha (Delhi: Idarah-i Adabiyat-i Delli, 1982), pp. 160 ff.

Abdul Aziz, «The City of Agra at the Beginning of Shah Jahan's Reign,» p. 129. (٤)

William Foster, ed., *The Journal of John Foster, 1608-1617* (Cambridge, MA: Hakluyt Society, (٥) 1905), p. 162.

The Voyages and Travels of J. Albert de Mandelslo Into the East Indies, translated by John (٦) Davies of Kidwelly, 2nd ed. (London: [n. pb.], 1669), p. 35; quoted in: Abdul Aziz, *Ibid.*, p. 136.

Abdul Aziz, *Ibid.*, p. 138, and Gupta, *Urban Glimpses of Mughal India: Agra: The Imperial (٧) Capital (16th and 18th Centuries)*, p. 31.

تمثل الحديقة المطلّة على النهر الوحدة النسقيّة المجهرية لهذا المشهد المدني^(٨). وهكذا لم يتمّ اختيار موقع فريد أو بارز لتاج محلّ، بل أدمج في مخطّط حاقّة الماء. عكست المدينة مفهوم الحديقة كمقرّ إقامة فطريّ لسلالة المغول وكانت بالمعنى الأيديولوجيّ الأوسع رمزاً لازدهار هندستان تحت الحكم العادل لشاه جّهان.

أولاً: مكوّنات المخطّط العمرانيّ: الحديقة المغولية

يخبرنا بآبُر في سيرته الذاتيّة، كما هو معروف، عن محاولاته إدخال تقليد الحديقة التيموريّة الفارسيّة لموطنه في أواسط آسيا إلى هندستان^(٩). وقد دعا بآبُر حديقته الأولى التي أقامها في أغرا عام ١٥٢٦، تشهار باغ، على غرار بعض حدائقه السابقة في أفغانستان اليوم. وفي أضيق التفاسير، يعني مصطلح تشهار باغ، أو شكله المختصر تشرباغ، الذي حظي ببحث مستفيض، حديقة متصالبة المحاور رباعيّة الأقسام. غير أنّ بآبُر يستخدم المصطلح بأوسع معانيه ليشير إلى الحدائق المخطّطة معماريّاً ذات الممارّ المتصالبة المرتفعة والمنصات والبرك.

لم يستخدم المغول بعد بآبُر مصطلح تشهار باغ كثيراً. وقد استُخدم في المصادر الشاه جهانيّة على سبيل الاستعارة، بمعنى الأرض أو الأرضيّ، «تشهار باغ العالم»^(١٠)، وكانت الحديقة تسمّى باغ عادة. ومع أنّ المغول لم يستخدموا مصطلح تشهار باغ، فهم أنشأوا أعظم التشهارباغات وأكثرها اتساقاً في تاريخ عمارة الحدائق بأكمله. يمكننا تحديد ثلاثة أنواع مختلفة من التشهارباغات أو التشرباغات (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ١)).

Gupta, Ibid., pp. 15, 19-20 and 69.

(٨) انظر مثلاً:

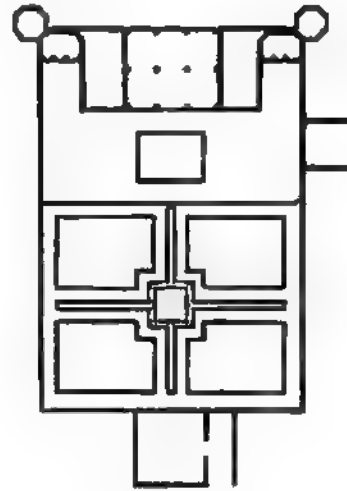
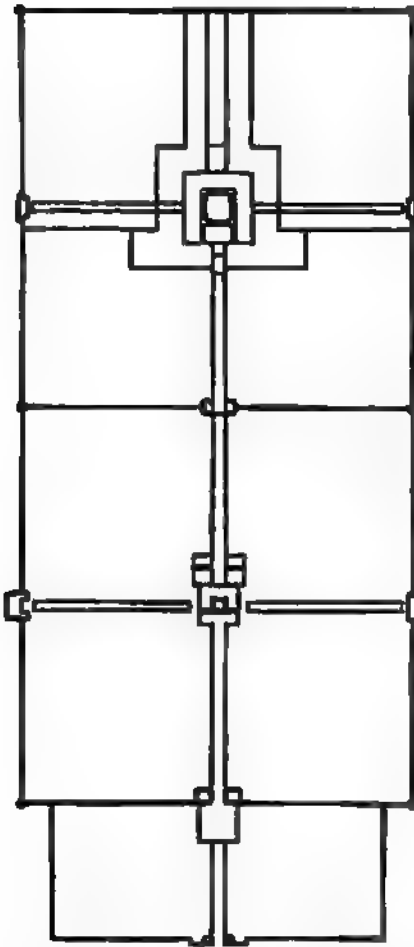
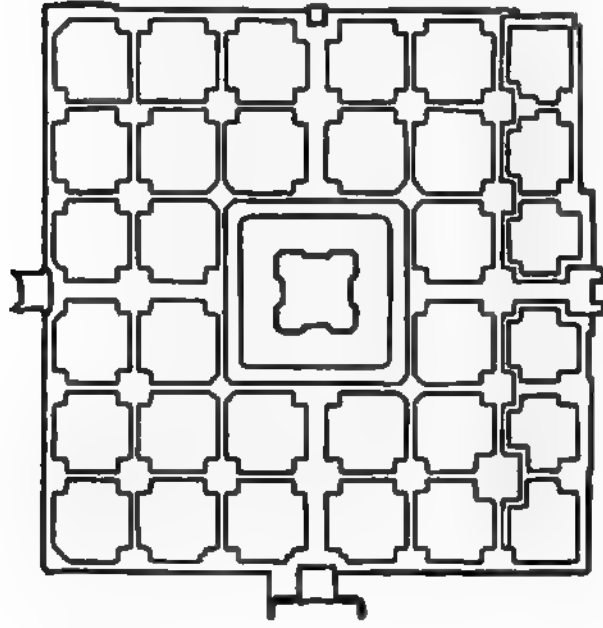
كما يجب استخدام خريطتيه ١ و ٢ بحذر. لقد بدأت أحلّل مخطّط حاقّة النهر في عدّة منشورات انظر الهامش ٣٠ أدناه لمعرفة. ويقدم الفصل الأول من دراستي القادمة عن تاج محلّ، أكمل معالجة لذلك. انظر: Ebba Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra* (London: Thames and Hudson, 2005).

Babur, *Memoirs of Babur*, and Khan, *Tabaqat-i Baburi*.

(٩) انظر:

(١٠) «من الواضح بالنسبة إلى من يتمتع بالبصيرة أنّ إيماءات البادشاه للأرواح النقيّة التي تشبه الماء بالنسبة إلى تشهار باغ العالم، وتعمل مثل الشاهنشاهات أصحاب القلوب النيرة، وهم مثل الشمس بالنسبة إلى سماء الحكم، لا يخلون من الحكمة». ترجمتي بمساعدة يونس جفري عن: Muhammad Salih Kanbo, *'Amal-i Salih or Shah Jahan-nama*, revised and edited by Wahid Qurayshi based on the Calcutta edn. of 1912-46 by Ghulam Yazdani, 2nd, 3 vols. (Lahore: Majlis-i Taraqqi-yi Adab, 1967-1972), vol. I (1967), p. 270.

الرسم الرقم (٢٣ - ١)
ثلاثة أنواع من «التشهار باغ» المغولي



إلى الأعلى: تشهار باغ غروطي متصلب حول محور ضريح همايون، دلهي (١٥٦٢ - ١٥٧١)؛
أسفل يسار: حدائق شاليمار ذات الشرفات في كشمير (١٦٢٠ و ١٦٣٤)؛
أسفل يمين: حديقة على الواجهة المائية، جزءاً من قصر شاه جهان في باري (١٦٣٧).
المصدر: رسم ريتشارد آ. بازود ولييا كوش.

١ - تتكوّن التّشرباغ المغوليّة النموذجيّة من مربّع تقسمه ممارّ محوريّة متصّالة مبلّطة (خيابان)^(١١) إلى أربعة أقسام متساوية. يشغل المركز المحتمل بالرمزيّة تحميلاً عالياً مقصورة الحديقة (عمارة، ناشيمان)، لكن يمكن وجود بركة (حوز) أيضاً. وربما تضمّ الممارّ قنوات غائرة (نهر)، ويمكن وضع بوابات (دروازه) حقيقيّة أو وهميّة عند نقاط التقاء الممارّ بجدار الحديقة. ويمكن تقسيم أرباع الحديقة بدورها بحيث تنشأ مربّعات مضاعفة. ويحيط بالحديقة جدار (ديوار) ترتفع منه أبراج عند الزوايا.

٢ - النوع الثاني هو الحديقة المدرّجة التي طوّرها المغول في كشمير بإدخال مفهوم آسيا الوسطى للحدائق المقامة على التلال إلى المشهد الطبيعيّ الجبليّ للوادي. تصطف المباني الرئيسيّة على مصطبات على طول المحور المركزيّ الذي تشكّله قناة مائيّة تستجمع ماء أحد الينابيع. وتكون الحديقة مسوّرة أيضاً. تمثّل الحديقة المدرّجة التّشرباغ بالمعنى الواسع للكلمة. لكن يمكن منح المصطبات كل على حدة الشكل القانونيّ الرباعيّ الأقسام.

٣ - النوع الثالث من الحدائق المغوليّة هو الحديقة المطلة على الماء^(١٢). وهو يمثّل ضرباً من التّشرباغ ابتكره المغول من أجل الظروف الجغرافيّة الخاصّة لهندستان، أي سهل الغانج الهندي. فمصدر المياه الرئيسيّ ليس نبع ماء على منحدر جبليّ، وإنّما نهر كبير بطيء الجريان تجرّ منه المياه المتدفقة المطلوبة إلى الحديقة عن طريق روافع للماء. بناء على ذلك، وضع المغول تصوّراً لنوع من الحدائق يستغل الوضع المواجه للماء. فلم يوضع المبنى الرئيسيّ في مركز الحديقة، كما في التّشهار باغ المغوليّة الكلاسيكيّة، وإنّما على مصطبة مستطيلة مكشوفة على طول حافة النهر. كانت المصطبة

(١١) أتيح في استعمال المصطلحات المغوليّة ممارسة المؤلّفين الشاه جهانيّن، ولا سيّما المؤرّخ الرسمي: 'Abd al-Hamid Lahawri, *Badshah-nama*, edited by M. Kabir Al-Din Ahmad and M. 'Abd al-Rahim (Calcutta: Asiatic Society of Bengal, 1867-1872).

أو المؤرّخ كانبو، الذي يقدّم أوسع المصطلحات المعماريّة المتسقة في أوصافهم لمشاريع مباني الإمبراطور. انظر: Ebba Koch, *Mughal Architecture: An Outline of Its History and Development (1526-1858)*, 2nd ed. (New Delhi: Oxford University Press, 2002), pp. 96 and 143.

وعن مؤرّخي شاه جهان انظر: Stephen Conerman, *Historiographie als Sinnstiftung: Indo-persische Geschichtsschreibung während der Mogulzeit (932-118/1516-1707)* (Wiesbaden: Reichert Verlag, 2002), in particular pp. 101-109 and 125-126.

(١٢) Ebba Koch, «The Mughal Waterfront Garden», in: Ebba Koch, *Gardens in the Time of the Great Muslim Empires: Theory and Design*, edited by Attilio Petruccioli Mugarnas Supplements; vol. 7 (Leiden and New York and Köln: Brill, 1997), pp. 140-160; rpt. in: Ebba Koch, *Mughal Art and Imperial Ideology* (New Delhi: Oxford University Press, 2001), pp. 183-202.

تضمّ عادةً غرفاً تحت المبنى الرئيسيّ، وسلالم للتزول من أعلى إلى رصيف. وقد ترافق هذا التحوّل نحو حافة النهر مع فتح الحديقة، وهو ما وفر للمباني الرئيسيّة المزايا المناخية للمياه الجارية. كما ولّد أيضاً واجهة مشكّلة بعناية بالنسبة إلى الذين يشاهدون الحديقة من قارب عبر النهر. ويمكن رؤية المنشآت المقامة على النهر من الجانبين: كانت المباني توفّر خلفية تسر الناظر للحديقة من الجانب الداخليّ.

أصبحت الحديقة المطلة على الماء الخطّة المفضّلة للحدائق السكنيّة في أغرا، وبلغت أعظم تعبير عنها في تاج محلّ. وبعد أن اتخذت هذه الحديقة الطابع النموذجيّ والأثري في تاج محلّ فهي صارت امتيازاً إمبراطورياً. وفي مدينة شاه جهان آباد الجديدة التي أنشأها شاه جهان (١٦٣٩ - ١٦٤٨)، استُخدمت استخداماً حصريّاً تقريباً للحدائق وساحات قصر الإمبراطور المطل على النهر، القلعة الحمراء. وكان على النبلاء البناء داخل المدينة.

أ - نباتات الحدائق

لدينا معلومات مفضّلة عن المزايا المعماريّة للحدائق المغوليّة، لكنّ المصادر لا تبلغنا بالكثير عمّا زُرِع فيها وأين. كان يُتَظَر ألا تكون الحدائق جميلة فحسب وإنّما مفيدة أيضاً؛ لذا زرعت بأشجار زينة ذات رائحة عطرة وبالأزهار والجنّبات والأشجار المثمرة أيضاً. وقد تواصل جني الثمار من حديقة تاج محلّ، على سبيل المثال، من أيام المغول إلى فترة الاحتلال البريطانيّ^(١٣).

ب - جناح الحديقة

كانت مقصورة الحديقة المفضّلة مبنى مركزيّ التخطيط يسمّى بالفارسيّة «هشت بهشت»، أي الجنة الثمانية. وكان يضمّ تسعة أقسام، حجرة مقببة في الوسط، وردّهات مستطيلة مكشوفة في وسط الجوانب، وغرفاً مربّعة، مقببة وذات دورين في الغالب، عند الزوايا. تتصل الحجرة المركزيّة بالردّهات المحوريّة بشكل متصالب (+). وفي الأنواع الشعاعيّة التخطيط لهذا المخطط، أدخل محور متصالب آخر (x) بإضافة معابر قطريّة تصل الغرف القائمة عند الزوايا بالحجرة المقببة. ويشير مصطلح «هشت بهشت» إلى الغرف الثماني التي تحيط بالقاعة المركزيّة.

في العمارة المغولية في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، كان هذا التصميم هو الشكل الأكثر شهرة للمقصورات إضافة إلى الأضرحة، وقد نُظر إليه على أنه شكل جنازتيّ من أشكال مقصورات الحديقة^(١٤). وفي وقت لاحق من القرن السابع عشر، جرى التخلي في عمارة جهانغير وشاه جهان عن الخطط المركزية للمقصورات السكنية، وحلت محلّها منشآت تضمّ قاعات كبيرة تحيط بها غرف جانبية. يظهر هذا الشكل في المقصورات المطلّة على النهر في أغرا. غير أنّه تواصل استخدام الهشت يهشت للأضرحة، وبنيت عدّة أضرحة في أغرا المطلّة على النهر وفقاً لهذه الخطة. يقام ضريح الهشت يهشت عادة في وسط تشرياع المقبرة لكنّه في تاج محلّ يظهر في أفخم صوره على مصطبة الحديقة المطلّة على النهر.

ج - الأبراج

كانت الأبراج المتقنة، ولا تزال، سمة مميزة للمخطّط المطلّ على الماء من أغرا المغولية. وهي ترجع أصولها إلى العمارة التحصينية، ثم عدّلت لتكون بمثابة مقصورات للحديقة فكانت في أدوارها العليا مكشوفة ذات فجوات معقودة أو شرف معمّدة تحيط بحجرة داخلية مثمّنة. وكان الدور العلويّ يتكوّن من الشاتري، أي كشك مقبّب ومعمّد. وفي الحديقة الشاه جهانية المميّزة المطلّة على الماء، كانت الأبراج تبرز بداية الأسوار التي تحيط بالحديقة من جوانبها البرية الثلاثة. وهي بهذه الطريقة تشكّل إطاراً لمصطبة حافة النهر المكشوفة ترتفع في وسطه مقصورة الحديقة الرئيسية. كانت أغرا المطلّة على النهر تعبّر عن نفسها كسلسلة من هذه الوحدات النسقية المرتفعة لمقصورة أو منزل تحيط به الأبراج من الجوانب (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ٢)).

ثانياً: التطور المدني

عندما استولى بابر على أغرا عام ١٥٢٦ أطلق عملية إعادة تنظيم منظرها المدني. وكانت الحداثق بالنسبة إليه، كونه تيموريّاً، النوع المفضّل للإقامة. ونظراً إلى عدم توافر مثل هذه الحداثق، أو عدم وجود ما يتناسب مع ذوقه منها، في أغرا، كان إنشاء حديقة مشروعه الأول في المدينة^(١٥).

Koch, *Mughal Architecture: An Outline of Its History and Development (1526-1858)*, (١٤) pp. 45-50.

T. W. Lentz, «Memory and Ideology in the Timurid Garden,» and Anthony Welch, «Gardens (١٥) That Babur Did Not Like: Landscape, Water, and Architecture for the Sultans of Delhi,» in: J. L. Wescoat

الرسم الرقم (٢٣ - ٢) أغرا



الضفة اليسرى من النهر تظهر عليها بقايا الحدائق المغولية من جنوب غرب وعبر النهر. في المقدمة برجا الواجهة المائية لباغ وزير خان (باغ محمد زكريا) وبينهما بقايا البرج العالي المطل. خلف البرج ضريح مجهول يعرف بكالا غومباد. خلفه ترتفع قبة ضريح ضخمة لأفضل خان شيرازي (الروضة الصينية)؛ أجزاءه الشمالية على الواجهة البحرية تظهر إلى اليسار. إلى يسار ذلك أيضاً يقوم البرج الجنوبي الطويل على الواجهة البحرية لباغ جهان آرا (باغ الزهراء).

المصدر: تصوير إيليا كوش عام ١٩٨٦.

أسف بآبر للافتقار إلى الينابيع الجارية والجداول التي لا يُستغنى عنها لمثل هذا المشروع، واستصعب التصالح مع فكرة الإفادة من نهر جَمُنَا البطيء الجريان والأرض المحيطة به^(١٦).

وبعد التغلب على شكوكه، أنشأ الحديقة المغولية الفطرية في أغرا، التشرباغ، التي تدعى أيضاً باغ هشت بهشت، على الضفة اليسرى لنهر جَمُنَا، مقابل حصن

and Joachim Wolschke-Bulmahn, eds., *Mughal Gardens: Sources, Places, Representations, and Prospects* (Washington, DC: Dumbarton Oaks Research Library and Collection, 1996), pp. 31-58 and 59-94.

ويتعقب ولش الحدائق السلطانية وصولاً إلى القرن الرابع عشر فقط ولا يضم حدائق اللوديين، أسلاف بآبر المباشرين.

Babur-Nama Babur: *Memoirs of Babur*, pp. 531-532, and *The Baburnama: Memoirs of Babur, Prince and Emperor*, translated and edited by Wheeler M. Thackston (New York: Oxford University Press, and Washington, DC: Smithsonian Institution, 1996), pp. 359-360.

اللوديين والمدينة القائمة^(١٧). ثم أنشأ خلفاؤه حدائق «على نمط صروح خراسان»، كما يخبرنا زين خان، مرافق بابُر^(١٨). وقد أطلق سكّان أغرا على المنطقة ذات الحدائق الجديدة «كابل»، وذلك يبيّن أنهم اعتبروا تطوّر الضفة اليسرى للنهر جديداً وغريباً^(١٩).

هكذا أبرز إحياء بابُر مطلق النهر أهمية التخطيط المدني في هندستان، وكان له أيضاً تأثير حاسم في تصميم الحدائق المغولية في السهول؛ وهو أدى إلى إنشاء الحديقة المطلّة على النهر كوحدة نسقية للمدينة المطلّة على النهر^(٢٠) (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ٣)).

استأنف أكبر (ح ١٥٥٦ - ١٦٠٥) تطوير أغرا كمدينة مطلّة على النهر. وكان همايون قد اختار دلهي مقراً لإقامته واعتزم بناء مدينة جديدة هناك، لكن جرى التخلي عن الخطة بسبب نفيه إلى إيران. عام ١٥٥٨ نقل أكبر بلاطه إلى أغرا ثانية ونمى حجم المدينة وثروتها وقوتها. ويخبرنا مؤرخه أبو الفضل أن «المنازل وزّعت على الوجهاء وأن عمّال البلاط على ضفتي النهر أقاموا منازل جميلة وحدائق غناء»^(٢١).

وعندما تولّى جهانغير الحكم، اكتمل تطوير مخطط المطلّ النهري. وفي عشرينيات القرن السابع عشر، لاحظ التاجر الهولندي فرانسيسكو بلسارت أن «عرض المدينة ليس كبيراً بقدر طولها لأن الجميع يحاولون الاقتراب من ضفة النهر، وبالتالي فإن القصور المكلفة لكل الوجهاء المشهورين تشغل حافة النهر، وهو ما يجعلها تبدو زاهية ورائعة»^(٢٢).

(١٧) اتّبع الباحثون من أمثال: Abdul Aziz, «The City of Agra at the Beginning of Shah Jahan's Reign», pp. 132-135, and Gupta, *Urban Glimpses of Mughal India: Agra: The Imperial Capital (16th and 18th Centuries)*, p. 12 and أبا الفضل الذي يقول إن قلعة اللوديين كانت على الجانب الشرقي من النهر وذلك خطأ واضح لأن بابُر يبلغنا أنّه انطلق من قلعة اللوديين التي اتخذها مقراً له لعبور النهر لإيجاد مكان لحديقته، وحدائق أتباعه.

(١٨) Zayn Khan, *Tabaqat-i Baburi*, translated by Sayyid Hasan Askari, annotation by B. p. Ambastha (New Delhi: Idarah-i Adabiyat-i Delli, 1982), p. 160f.

Babur: *Memoirs of Babur*, p. 532. (١٩)

Koch, *Mughal Architecture: An Outline of Its History and Development*: انظر: (٢٠) للاطلاع على ذلك، انظر: (1526-1858).

Shaykh Abu'l Fazl 'Allami, *Akbar-nama*, translated by H. Beveridge, 3 vols., 2nd ed. (Delhi: Ess Ess Publications, 1979), vol. 2, pp. 117-118 and 187-188. (٢١)

Jahangir's India, *The Remonstrantie of Francisco Pelsaert*, translated by W. H. Moreland and p. Geyl (Delhi: Idarah-i Adabiyat-i Delli, 1972), pp. 2ff. (٢٢)

ورأى بلسارت أنّ «فخامة البساتين في كل الأنحاء تجعل المدينة تبدو حديقة ملكيّة أكثر منها مدينة». وقد أورد ٣٣ حديقة مع أسمائها، ثلثها تقريباً أنشئت أو أعيد تصميمها أثناء حكم جهانغير.

الرسم الرقم (٢٣ - ٣)

خريطة أغرا، على قماش قطن تعود لعام ١٧٢٠ بألوان مائية،

٢٩٤ × ٢٧٢ سم



المصدر: متحف المهراجا ساواي مان سينغ الثاني، جايپور، اللوحة رقم ١٢٦.

بعد أن تسلّم شاه جهان الحكم، أطلق على أغرا اسم أكبر أباد، أي «مدينة أكبر»^(٢٣)، تكريماً لجده المبجل. وفي عهده أصبحت الحديقة المخططة المطلّة على النهر أو الحديقة المطلّة على الماء الشكل السكني الأوسع استخداماً. وقد عبّر محمد صالح كانبو، مؤرّخ شاه جهان، عن الانطباع الذي تركته أغرا لدى المعاصرين:

Muhammad Amin Qazwini or Amina-i Qazwini, *Padshah-nama*, Persian ms., British Library, (٢٣) Oriental and India Office Collections (henceforth quoted as BL OIOC), Or. 173 fol. 143a/refoliated 144a; Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 1 part 2, p. 156, and Abdul Aziz, «The City of Agra at the Beginning of Shah Jahan's Reign,» p. 136.

«على ضفتي النهر البهيج تصطف عمارات وحدائق المكان الفردوسي جنباً إلى جنب، فتبعث السرور في قلب الناظر إليها وهو يجمع أزهار شهر الربيع. وتبدو حدائق الأزهار أمام العمارات المطلة على النهر كأن بعضها متصل ببعض دون انقطاع، فتمحو من الذاكرة الرغبة في المشي في الجنة... وتعطي العمارات الواسعة والمقصورات الرائعة للأمراء ذوي الأصل الكريم والأمراء المشهورين... مظهر جنة رضوان وقصور الجنة»^(٢٤).

ويؤكد الرحالة الفرنسي دي تيفينو الذي زار الهند عام ١٦٦٦ - ١٦٦٧ أن مخطط حافة النهر شكّل مركز المدينة:

«يترافق هذا القصر [قلعة أغرا] مع خمسة وعشرين أو ثلاثين قصراً واسعاً، تصطف كلها جنباً إلى جنب، وتعود إلى الأمراء وأسياد البلاط الكبار. وهي تقدّم معاً أمتع المناظر للناظرين على ضفة النهر الأخرى، وكان يمكن أن يبعث المشهد على مزيد من السرور لولا جدران الحدائق المرتفعة، وهي تساهم في جعل المدينة طويلة جداً. وثمة قصور عديدة وعمارات أخرى أصغر في الصف نفسه. الكل يرغب في الاستمتاع بالمشهد الرائع والراحة التي تبعثها مياه نهر جَمْنَا، ويسعى لشراء أرض على تلك الضفة، وهو السبب الذي جعل المدينة طويلة جداً ولكن ضيقة. وكل الشوارع في المدينة ضيقة وغير متناظرة، باستثناء بعض الشوارع المستقيمة فيها»^(٢٥).

تطوّرت مخططات عمرانية مشابهة في عاصمتي إمبراطوريتين إسلاميتين أخريين: في إسطنبول العثمانية، حيث اصطفّت الفيّلات الملكية وغير الملكية ذات الحدائق على طول البوسفور؛ وفي أصفهان الصفوية في القرن السابع عشر حيث أنشئت المساكن ذات الحدائق على ضفاف نهر زابنده رود. غير أن أغرا في تخطيطها المنهجيّ المتشدّد، الذي نلاحظ فيه منطقاً مغولياً خاصاً، تختلف عن هذه المخططات التقليدية المطلة على الماء. وفي العاصمة المغولية الأخرى الكبرى، لاهور، لم يتحقّق المخطط المطل على الماء إلا جزئياً، وجرى التخلّي عنه في شاه جهان آباد.

كما أنّ أغرا المغولية مختلفة لأنّ مخطط الضاحية المطل على النهر شكّل هنا نواة المدينة، وكان مجمل النسيج العمرانيّ المتبقّي موجوداً إلى غربها. لم يقرّ بذلك العلماء

Muhammad Salih Kanbo, *Bahar-i Sukhan*, Persian ms, BL, OIOC, Or. 178, fols. 248a and b, (٢٤) as translated in: Koch, *Gardens in the Time of the Great Muslim Empires: Theory and Design*, p. 143, Reprint in: Koch, *Mughal Art and Imperial Ideology*, pp. 194-195.

The Travels of Monsieur de Thevenot, The Third Part: Containing the Relation of Indostan, the New Moguls, and of Other People and Countries of the Indies (London: [n. pb.], 1687), p. 34. (٢٥)

السابقون الذين رأوا أن الضفة اليمنى تشكل جزءاً من المدينة فقط وأن الضفة اليسرى هي الضواحي^(٢٦).

واتخذ شاه جهان أيضاً مبادرات لتطوير ما تبقى من أغرا؛ ففي عام ١٦٣٧ أمر بإنشاء سوق (لم تعد قائمة اليوم) وفق مخطط مثنى غير منتظم (شكل يسميه المغول مثنى بغداد) كرابط منظم بين قلعة القصر، قلعة أغرا، والمسجد الجامع (١٦٤٣ - ١٦٤٨) إلى غربها، برعاية ابنته جهان آرا. وكانت الساحة المثلثة التي تحيط بها أضلاع المثنى بمثابة فناء للقصر، وينتقد هذا الغياب لساحة التجمع اليوم، في وقت يتعاضد إدراك أهمية الاحتفالات كأحد عيوب قصر أغرا، وكان ذلك في نهاية المطاف أحد الأسباب الرسمية لإنشاء مدينة شاه جهان آباد^(٢٧). بُني المسجد بدلاً من مسجد أقدم أقيم على ضفة نهر جَمُنا، لكن توقف إنشاؤه عندما أعطي مشروع تاج محل الجديد الأولوية^(٢٨). وأدى هذا التوقف إلى تغيير موقع المسجد. وربما اعتُقد أن وجود منشأة دينية منعزلة لا يتلاءم مع مخطط الحدائق السكنية المطلّة على الماء، وبخلاف ذلك يبقى المسجد الذي يشكل جزءاً من مجموعة تاج محل المطلّة على النهر بدون منافس. وقد دُمّر عدد كبير من المساكن لتوسيع الطريق المؤدي إلى المسجد الجامع الجديد^(٢٩).

لكن حتى بعد إكمال المشروع، ظل محور اهتمام المدينة منصباً على المخطط المطلّ على النهر. ولم يجد المراقبون، مثل ثيفنو الذي كان موجوداً في أغرا بعد اكتمال السوق المثنى والمسجد، شيئاً يستحق الذكر بعيداً من النهر.

قدّمت أغرا نفسها كمدينة مطلّة على نهر، مثل لندن أو باريس، لكنها عبّرت عن ذلك بطريقتها الخاصة. كانت مجموعات من القصور، التي تعلو الأبراج على جوانبها وتحيط بها الحدائق ذات الأزهار والأشجار، تصطف على ضفتي نهر جَمُنا. وكان الاتصال بين الحدائق يتمّ بالقوارب، وكانت الرحلة بالقارب في النهر على طول واجهات الحدائق المرتبة ترتيباً أنيقاً تعدّ تجربة رائعة حقاً.

Gupta, *Urban Glimpses of Mughal India: Agra: The Imperial Capital (16th and 18th Centuries)*, (٢٦) pp. 19, 24 and 69.

Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 1, part 2, pp. 251-52, and 'Inayat Khan, *Shah Jahan Nama*, (٢٧) translated by A. R. Fuller, revised and edited by Wayne E. Begley and Z. A. Desai (New Delhi: Oxford University Press, 1990), pp. 205-206.

Kanbo, *'Amal-i Salih or Shah Jahan-nama*, vol. 2, p. 193.

(٢٨)

(٢٩) انظر: المصدر نفسه.

ثالثاً: إعادة إنشاء مخطط حافة النهر

لم يتبق اليوم سوى بضع حدائق من أغرا المغولية. وتوجد معظمها منعزلة بعضها عن بعض، بعد أن فقدت إطارها المدني الأصلي. لكنّها خربة إلى حد كبير مع بعض الاستثناءات، وتستخدم تبعاً لموقعها، للزراعة أو البناء عليها بعد أن طغت عليها المنشآت اللاحقة للمدينة.

يمكن إعادة إنشاء مخطط الحدائق المطلة على الماء في المدينة بمساعدة السجلات المغولية والأوروبية وخريطة كبيرة مرسومة على القماش موجودة في متحف المهرابجا ساواي مان سينغ الثاني في قصر جايبور^(٣٠). وقد أعدت في عشرينيات القرن الثامن عشر عندما عين الإمبراطور المغولي محمد شاه (ح ١٧١٩ - ١٧٤٨) المهرابجا ساواي جاي سينغ من جايبور (١٦٩٩ - ١٧٤٣) حاكماً على إقليم أغرا، الذي عين بدوره راي شيواداسا نائبه على المدينة^(٣١).

كان المهرابجا ساواي جاي سينغ يخطط في ذلك الوقت مدينته الجديدة في جايبور ويبنيها^(٣٢)، ومن الواضح بالنسبة إلى الدراسات المعاصرة، أنّه أمر راي شيواداسا بإعداد خرائط للعاصمة القديمة للإمبراطورية المغولية وخطط للعمارات البارزة فيها.

(٣٠) مخطط رسم ١٢٦، يبلغ حجم المخطط المرسوم على قطعة قماش ٢٩٤ × ٢٧٢ سم. وقد درستها في أواسط الثمانينيات، انظر: Ebba Koch: «The Zahara Bagh (Bagh-i Jahanara) at Agra,» *Environmental Design*, no. 2: (1986), pp. 30-37; «The Mughal Waterfront Garden,» M. C. Beach, E. Koch and W. Thackston, *King of the World: The Padshahnama: An Imperial Mughal Manuscript from the Royal Library, Windsor Castle* (London: Azimuth Editions and Washington, D C: Arthur M. Sackler Gallery, Smithsonian Institution, 1997), cat. nos. 29, pp. 185-87, cat. no. 45, pp. 209-10, fig. 132.

وأشكر ب. م. جاواليا، التّم على المخطوطات، لمساعدتي في قراءة الكتابات على المخطط في تموز/ يوليو ١٩٨٥ وشباط/ فبراير ١٩٨٦، والدكتور آسوق كومار داس، مدير متحف المهرابجا ساواي مان سينغ الثاني في ذلك الوقت على إذنه بدراستها ونشرها.

Lalah Sil Chand, *Tafrih al-Imarat*, compiled for James Stephen Lushington, Acting Collector, (٣١) Agra, 1825-26, BL OIOC Persian ms Or 6371, copied for James Davidson, Sessions Judge, Agra, 1836-37, BL, OIOC Persian ms. I.O.L. 2450, fol. 97b; V. S. Bhatnagar, *Life and Times of Sawai Jai Singh, 1688-1743* (Delhi: Impex India, 1974), pp. 162-163; Chandramani Singh, «Early 18th-Century Painted City Maps on Cloth,» in: *Facets of Indian Art* (London: Victoria and Albert Museum, 1986), pp. 185-192, and S. Gole, *Indian Maps and Plans: From the Earliest Times to the Advent of European Surveys* (New Delhi: Manohar, 1989), pp. 200-201.

Bhatnagar, *Ibid.*, p. 331; Singh, «Early 18th-Century Painted City Maps on Cloth,» pp. 190- (٣٢) 192; G. N. Bahura and C. Singh, *Catalogue of Historical Documents in Kapad-Dwara, Jaipur, Part II: Maps and Plans* (Jaipur: [n. pb.], 1990), p. 11, and V. Sachdev and G. Tillotson, *Building Jaipur: The Making of an Indian City* (New Delhi: Oxford University Press, 2002).

تشكل خريطة جايبور أساس إعادة إنشاء أغرا المغولية؛ فهي تبين التمثيل المنهجي لحدائقه وعماراته. وقد رأى واضع الخريطة أن الحدائق المطلة على الماء خاصة جداً بالمنظر المدني، بحيث إنه عرض التشريعات المخططة تخطيطاً مركزياً بهذه الطريقة، مثل حديقة ضريح اعتماد الدولة. أعطيت الأسماء في مخطوط ديواناغاري، بتهجئة خاطئة في الغالب، بسبب استخدام كلمة باغ الفارسية (أي حديقة) للحدائق السكنية على الضفة اليسرى لنهر جَمُنا، ومصطلح «حويل» بالعربية (المنزل ذي الفناء) للأماكن السكنية ذات الحدائق على الضفة اليمنى للنهر.

وكان هناك تفريق بين أنواع المنازل المطلة على النهر، فكانت الضفة اليسرى تتميز بسمة الضواحي أكثر من الضفة اليمنى، حيث كانت تسود المنازل ذات الفناءات الداخلية. وتستخدم الكلمة العربية روضة أو مقبرة لحدائق الأضرحة. وتحمل معظم حدائق الخريطة أسماء أفراد الأسرة الإمبراطورية والأمراء ذوي المناصب العليا في عهد جهانغير وشاه جهان. وكانت تشغل الضفة اليسرى من النهر، مع بعض الاستثناءات، حدائق الإمبراطور وزوجاته، في حين كانت الضفة اليمنى المقابلة للمدينة مخصصة للأمراء والوجهاء. وقد شكلت الحدائق فضلاً عن الحويلات والمنازل ذات الأفنية مقار إقامة الأمراء والوجهاء عندما كان البلاط موجوداً في أغرا.

رابعاً: تأثير ملكية الأراضي في رعاية الوجهاء المغول للعمارة

كان الوجهاء المغول أو أصحاب المناصب يخضعون لقيود كبيرة في حقوق الملكية والتوريث إلى الورثة. ولم يكن لديهم قاعدة في الأرض، بل كانوا يستمدون سلطتهم من مناصبهم التي تحدّد قوتهم العسكرية، وتتوقف على الإمبراطور بوجه تام. وقد سُمح لهم كقاعدة بتملك الأرض مؤقتاً، حتى لو خص الأمر الأسرة الإمبراطورية. وكان الراجبوت الهنود الذين شاركوا في الإدارة في موقع أفضل من الوجهاء المسلمين، إذ كان في وسعهم عادة الاحتفاظ بأراضي أسلافهم وإقامة قصور كبيرة عليها. وكان لممارسة انقطاع الميراث تأثير كابح في الرعاية غير الإمبراطورية للعمارة.

وقد لاحظ المراقبون الأوروبيون ذلك، ومنهم السير توماس روه، مبعوث جيمس الأول إلى البلاط المغولي بين عامي ١٦١٥ و١٦١٩، حيث أشار إلى أن «رجال [أي

رجال الإمبراطور المغولي] الكبار لم يكونوا يبدون رغبة في التوريث^(٣٣). فبعد وفاة مالك الأرض المؤقت، يُدمج القصر أو الحديقة في الأملاك الإمبراطورية. وإذا لم يحتفظ الإمبراطور بالعقار لنفسه، يعطى إلى فرد آخر في الأسرة الإمبراطورية أو إلى وجيه آخر. ويعيد المالك بعد ذلك تشكيل المبنى و/أو الحديقة. وبالتالي يمكن أن ينتقل قصر أو حديقة الوجيه المغولي إلى سلسلة من الملاك.

في المقابل سُمح للراجبوت بامتلاك عقارات يمكن توريثها. كانت ملكية قطعة الأرض التي يريدها شاه جهان لإنشاء تاج محل تعود إلى عائلة كاتشواها راجات مملكة عنبر منذ وفاة الراجا مان سينغ (ت ١٦١٤). وكانت عشيرة كاتشواها أول أسرة راجبوت تتعاون مع المغول في أثناء حكم أكبر. حرص شاه جهان على الحصول على الأرض بشكل قانوني صحيح من ميرزا راجا جاي سينغ (ت ١٦٦٧)، حفيد مان سينغ، بإعطائه أربعة قصور في مقابلها من أراضي التاج في أغرا^(٣٤).

وقد استُنيت الأضرحة من هذه الأنظمة، وبالتالي أصبح من أنواع المباني المفضلة لدى الوجهاء أو ذوي المناصب المسلمين، إلى جانب منشآت المصلحة العامة، مثل الخانات والحمّامات والمساجد، التي يستطيع الراعي أن يصنع عن طريقها لنفسه اسماً ويضمن مرضاة الله في الآخرة. وقد لاحظ فرانسيسكو بلسارت، الوسيط التجاري الكبير في شركة الهند الشرقية الهولندية الذي كان موجوداً في أغرا بين عامي ١٦٢١ و١٦٢٧، المزايا الخاصة للرعاية التي أولاها الوجهاء المغول للمنشآت المعمارية، وأبلغ قراءه بأن «الوجهاء الكبار هنا يفوقون النبلاء لدينا عظمة، لأنّ حدائقهم تستخدم للمسرة أثناء حياتهم، وتؤوي بعد الوفاة أضرحتهم التي يبنونها في حياتهم بعظمة كبيرة في وسط الحديقة»^(٣٥).

ويبدو أنّه تمّ التخلّي في أغرا عن الممارسة المعتادة باستعادة الحدائق من الوجهاء بعد وفاتهم ومنحها إلى ملاك مؤقتين عندما نقل شاه جهان مقرّ حكمه إلى عاصمته الجديدة شاه جهان آباد في دلهي. ويبدو أنّ القسم الأكبر من الحدائق في أغرا بقي

Thomas Roe, *The Embassy of Sir Thomas Roe to India, 1615-1619*, edited by William Foster (٣٣)

(London: Oxford University Press, 1926; New Delhi: Munshiram Manoharlal, 1990), p. 105.

Lahawri, *Badshah-nama*, vol. I, pp. 402-403, and W. E. Begley and Z. A. Desai, trans., *Taj* (٣٤)

Mahal: The Illumined Tomb: An Anthology of Seventeenth-Century Mughal and European Documentary Sources (Cambridge, MA: The Aga Khan Program for Islamic Architecture, 1989), pp. 41-44 and 168-171.

India, *The Remonstrantie of Francisco Pelsaert*, p. 5.

(٣٥)

لدى عائلات الملوك الآخرين، أو أنها احتفظت بأسمائها على الأقل. كما بنى العديد من الوجهاء أضرحتهم في حدائقهم، وبالتالي احتفظت عائلاتهم بالأرض التي كانت بخلاف ذلك تعود إلى التاج بعد وفاة مالكيها المؤقت. وقد غير ذلك الميزة السكنية للمشهد العمراني. وبرزت الأهمية الكبرى للأضرحة ببناء تاج محل على عقار سكني سابق. ومع ذلك، تقدم خريطة جايبور التي أعدت في عشرينيات القرن التاسع عشر صورة تقريبية فعلية عن أغرا في زمن شاه جهان، وتدعمها مصادر من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

خامساً: الحدائق المطلة على النهر

يوجد خمس وأربعون حديقة (باغ) مطلة على النهر وفقاً لخريطة جايبور (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ٤)). لن نبحث هنا إلا الحدائق التي حُفظت، إلى حد ما على الأقل^(٣٦) (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ٥)).

١ - حدائق الضفة اليسرى

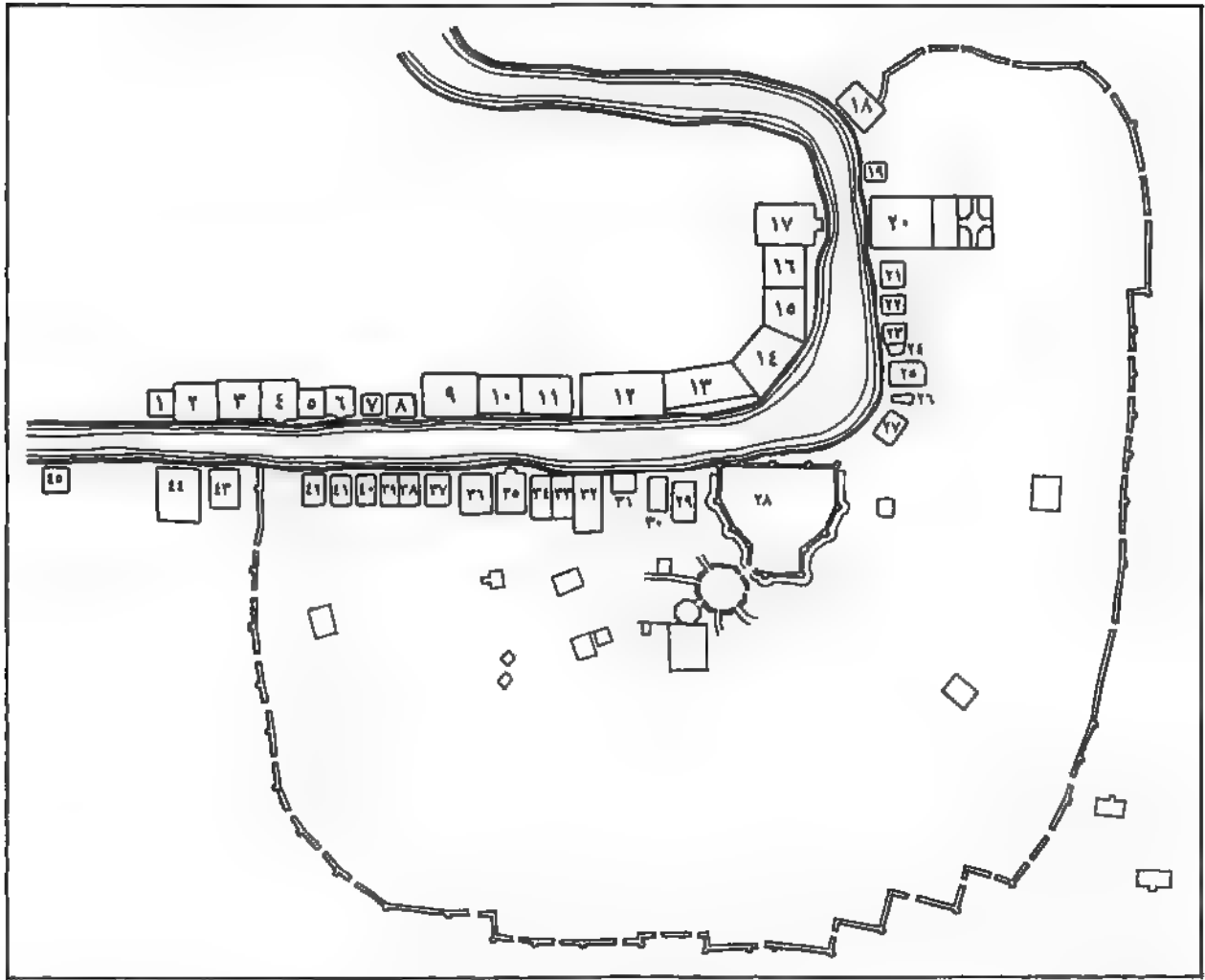
تحفظ الضفة اليسرى لنهر جَمُنا خاصية المشهد المديني الأصلي لأغرا المغولية كمدينة حدائق مطلة على النهر إلى حد كبير، وهي المنطقة التي طورها بابر وخلفاؤه أولاً بإنشاء الحدائق. تشغل المنطقة الشرقية اليوم ما تبقى من الحدائق المغولية إضافة إلى المشاتل التجارية، وتشغل الحقول الزراعية المنطقة الشمالية، بعد انعطاف نهر جَمُنا. وعند حافة النهر يمكن تتبّع بقايا الحدائق المغولية القديمة ضمن المزروعات. ويشير ترقيم الحدائق إلى الحديقة في الرسم الرقم (٢٣ - ٤).

أ - بولاند باغ (الحديقة العالية) (محفوظة بشكل جزئي)

تعزى الحديقة تقليدياً إلى بولاند خان، أو ساربولاند خان، وهو بخلاف ذلك من خصيان جهانغير. من أبرز بقايا بولاند باغ برج مرتفع يدعى باتيس كامبا، وهو يستخدم اليوم كمستل ويبدو برج مماثل في مشهد لحافة النهر ربما يظهر أغرا أيضاً كخلفية للوحة تدعى «وجيه مع موسيقيين» من أواخر القرن السابع عشر، في مجموعة هوارد هودكين (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ٦)).

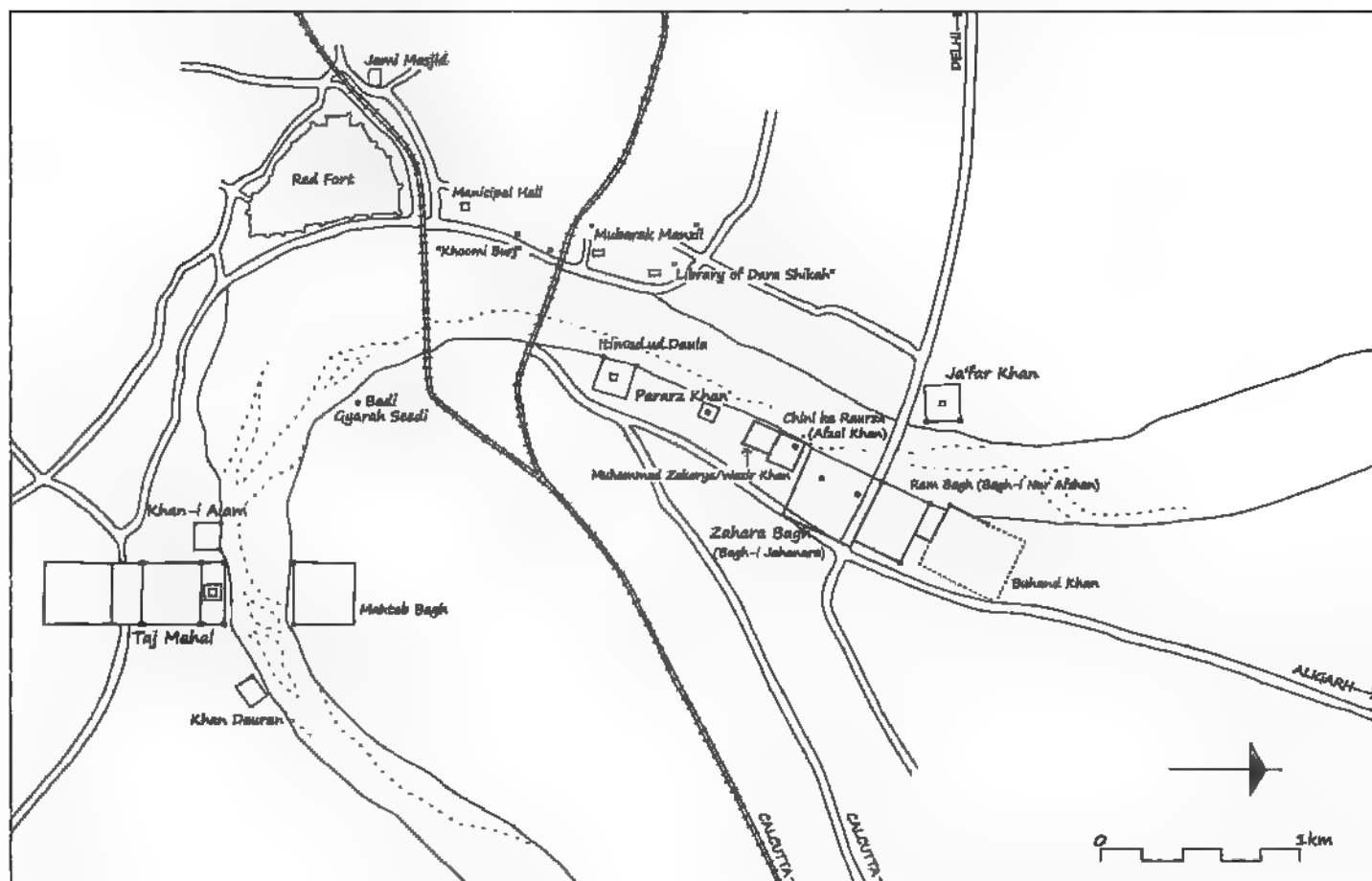
(٣٦) للحصول على معالجة أكمل، انظر الفصل الأول من دراستي «Taj Mahal».

الرسم الرقم (٢٣ - ٤)
رسم لخطوط خريطة أغرا مع ترقيم حدائق الواجهة البحرية



- | | | |
|-----------------------------------------|-------------------------------------------|----------------------------------|
| ١ - باغ شاه نواز خان. | ١٦ - تشر باغ بادشاه (حديقة باير الأولى في | ٣١ - حويل حافظ خدمتغار (منطقتان |
| ٢ - بولاند باغ. | أغراء وتدهى تشهار باغ أو باغ هشت | مسورتان). |
| ٣ - باغ نور آفشان (رام باغ اليوم). | بيشت). | ٣٢ - حويل عساف خان. |
| ٤ - باغ جهان آرا (باغ الزهراء اليوم). | ١٧ - باغ مهتاب بادشاه (مهتاب باغ اليوم). | ٣٣ - حويل عَلمغير. |
| ٥ - حديقة من دون اسم. | ١٨ - حويل خان داوران. | ٣٤ - حويل عَلمغير. |
| ٦ - روضة أفضل خان (الروضة الصينية | ١٩ - حويل آغا خان. | ٣٥ - مسجد مبارك منزل. |
| اليوم). | ٢٠ - روضة شاه جهان. | ٣٦ - حويل شايبستا خان. |
| ٧ - باغ خوجة محمد زكريا أو باغ وزير | ٢١ - باغ خان علم. | ٣٧ - حويل جعفر خان. |
| خان. | ٢٢ - حويل أصالة خان. | ٣٨ - روضة شايبستا خان. |
| ٨ - باغ سلطان برويز. | ٢٣ - حويل مهابة خان. | ٣٩ - حويل وزير خان. |
| ٩ - ضريح اعتماد الدولة. | ٢٤ - حويل هوشدار خان. | ٤٠ - حويل مقيم خان. |
| ١٠ - باغ موسوي خان صدر. | ٢٥ - حويل عزام خان. | ٤١ - حويل خليل خان. |
| ١١ - باغ بادشاه (الحديقة الإمبراطورية). | ٢٦ - حويل مغول خان. | ٤٢ - باغ راي شيف فاس. |
| ١٢ - موتي باغ بادشاه. | ٢٧ - حويل إسلام خان. | ٤٣ - باغ حكيم كاظم علي. |
| ١٣ - باغ بادشاه. | ٢٨ - بادشاه قلعة (قلعة أغرا). | ٤٤ - روضة جعفر خان. |
| ١٤ - لال باغ بادشاه. | ٢٩ - حويل دارا شكوه. | ٤٥ - شاتري (مقصورة ضريح) جاسوانت |
| ١٥ - تشر باغ بادشاه الثانية. | ٣٠ - حويل خان جهان لودي. | مينغ. |

الرسم الرقم (٢٣ - ٥)
خريطة أغرا وهي تشير إلى المباني المغولية التي جرى الحفاظ عليها على الواجهة البحرية



المصدر: رسم ريتشارد آ. بازود وإيبا كوش.

الرسم الرقم (٢٣ - ٦)
منظر لمدينة ذات واجهة نهريّة (أغرا؟)، الخلفية لأحد النبلاء مع موسيقيين



المصدر: من مجموعة هوارد هودكين.

ب - مجمّع المرافق العامّة (محفوظ لكنّه خرب)

يوجد بين بولاند باغ ورام باغ بقايا مجمّع معماريّ مستطيل غير محدد في خريطة جايبور. وهو يتكوّن من شارع مفتوح على جانبيه صفوف من الحجرات التي يتقدّمها إيوان. وتوجد بوّابة على الجانبين الشرقي والغربي. كان هذا النوع من المنشآت يستخدم للأسواق، ولا بدّ أنّه كان يخدم الحدائق المجاورة بهذه الصفة.

ج - باغ نور أفشان (الحديقة النائرة للضوء) أو رام باغ (محفوظة)

تعرف الحديقة اليوم باسم رام باغ أو أرم باغ، لكنّ اسمها الأصليّ باغ نور أفشان وهي تظهر بهذا الاسم في خريطة جايبور وفي أوصاف أغرا في القرن التاسع عشر^(٣٧).

Sil Chand, *Tafrih al-Imarat*, fols. 119b-29b; Raja Ram, *Tamirat Agra*, written in Persian «A (٣٧) Few Years» before the mutiny [1857-1858]» and translated by S. Abu Muhammad under the title «The Gardens of Agra,» *Journal of the United Provinces Historical Society*, vol. 4, no. 1 (1928), p. 17, he attributes the buildings wrongly to Raja Jawahir Singh of Bharatpur; A. C. L. Carlleyle, «Agra,» in: *Archaeological Survey of India Report* (1871-1872), p. 199; A. Führer, *The Monumental Antiquities and*

ومن المؤلف استخدام المكوّن نور الوارد في اسم الحديقة في منشآت جهانغير وزوجته الملكة نور جهان، وهو يلمح، كما يبلغنا هو بنفسه إلى لقب جهانغير التكريمي نور الدين واللقب الذي منحه إلى زوجته نور جهان (نور العالم) (٣٨).

من الواضح أنّ الطراز المعماري لباغ نور أفشان يرجع إلى زمن جهانغير ويشهد على الرعاية التي أولتها نور جهان كمنشئة بارزة للحدائق. ومن منشآتها الأخرى في أغرا ضريح اعتماد الدولة (٩) الذي دُفن فيه والداها.

إنّ باغ نور أفشان هي من أوليات الحدائق المغولية المحفوظة في أغرا، وربما أنشئت على أسس حديقة أقدم بناها بآبر. تعرض الحديقة أقدم مخطط باقي لحافة الماء في أغرا، وهو يتكوّن من منطقة ذات مصاطب محاذية للنهر، وحديقة في الجانب المواجه للبر، بالرغم من أنّ التشكيل لا يزال غامضاً ولا يظهر الشكل المخطط المتناظر الذي اتسمت به الأمثلة الشاهجانية اللاحقة. ولم تنشر أي وثيقة مفصلة عن الحديقة، وتعود المخططات التقريبية لتصميمها العام إلى مخطط بريطاني من عام ١٩٢٣ يشير إلى زراعتها بأشجار مثمرة (٣٩). وقد أعددت مخططاً لمقصوراتها عام ١٩٨٦ (٤٠)، ومخططاً شاملاً عام ٢٠٠٢ (٤١).

تتألف مباني الحديقة على المصطبة من مقصورتين مستطيلتين ضيّقتين واجهتهما القصيرة باتجاه النهر. وهما يشكّلان فناء مكشوفاً يضمّ بركة محفورة بينهما. وكانت جدران المقصورتين وقناطرهما المزينة بالنقوش مغطاة أصلاً برسوم لحيوانات وأناس

Inscriptions in the North-Western Provinces and Oudh, Archaeological Survey of India, New Imperial Series no. 12 (Varanasi; Delhi: Indological Book House, 1969), p 53.

وللحصول على ذلك ووصف للحديقة، انظر: Ebba Koch, «Notes on the Painted and Sculptured Decoration of Nur Jahan's Pavilions in the Ram Bagh (Bagh-i Nur Afshan) at Agra», *Facets of Indian Art*, A symposium held at the Victoria and Albert Museum on 26, 27, 28 April and 1 May 1982, edited by Robert Skelton [et al.] (London: Victoria and Albert Museum, 1986), pp. 51-65, and Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*.

Jahangir, *Tuzuk-i Jahangiri or Jahangir nama*, translated by Alexander Rogers, edited by (٣٨) Henry Beveridge, 2 vols. (Delhi: Munshiram Manoharlal, 1968), vol. 1, pp. 269-270, and vol. 2, pp. 75-76, 151, 192 and 226.

A Complete Set of Site Plans of the Major Gardens of the United Provinces, Supplement to (٣٩) the Report on the Working and Administration of the United Provinces Government Gardens for the year 1923-1924 (Allahabad: Printed by the Superintendent Government Press, United Provinces, 1924), p. vi.

(٤٠) أجريت مسحاً للحديقة منذ سنة ١٩٧٨، للاطلاع على غطط المقصورات، انظر: Koch, «Notes on the Painted and Sculptured Decoration of Nur Jahan's Pavilions in the Ram Bagh (Bagh-i Nur Afshan) at Agra», p. 52.

Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*.

(٤١) انظر:

وكائنات مجنحة وطيور، بما في ذلك طائر السيمورغ، وهي كلها ذات صلة بالرسوم السلিমانيّة ومماثلة لـزخارف قلعة لاهور^(١٢).

ويوجد في الدور السفلي غرفة كبيرة تحتية (تح خانة) مخصصة لأشهر الصيف الحارة. ولمعظم المقصورات المطلّة على النهر في أغرا غرف مماثلة تحت الأرض في المصطبة التي تقوم عليها. ويوجد إلى الشمال منصة أخرى تحتها تح خانة أكبر كثيراً تضم مجموعة من الغرف، بما في ذلك الحمام.

وعند حافة النهر توجد آبار توفر الماء للحديقة، وتبرز نهاياتها بأجنحة ذات أبراج مظلمة عند الزوايا.

ولا تزال هيئة المسح الأثري الهنديّ تعنى بالحديقة الكبيرة، وهي إلى جانب ضريح اعتماد الدولة وتاج محلّ تنتمي إلى الحدائق المحفوظة حفظاً شديداً في المدينة.

د- باغ جهان آرا أو باغ الزهراء (محفوظة في أجزاء منها)

لم تنشئ الحديقة ابنّة بابر، كما كان يعتقد من قبل، وإنما أنشأتها الملكة ممتاز محل، زوجة شاه جهان^(١٣). وهي المنشأة المعماريّة الوحيدة التي ترتبط برعايتها^(١٤). وبعد وفاتها عام ١٦٣١ انتقلت إلى ابنتها جهان آرا، وبمرور الزمن، تغير الاسم باغ جهان آرا. وكان لا يزال مستخدماً في القرن التاسع عشر - إلى باغ الزهراء (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ٢)). وحولت جهان آرا ميراثها إلى أجمل قصر جنائني في أغرا، إذا ما صدّقنا أبو طالب كليم، شاعر بلاط شاه جهان، الذي منحها فضاء خاصاً في قصيدته الوصفية المدحية للمدينة. ويقدم عدد من أبياته معلومات عن تصميمها ونباتاتها ومؤسّسها:

الرحلة بالقارب تزيل الأسى من قلبك

(١٢) Ebba Koch, «Jahangir and the Angels: Recently Discovered Wall Paintings under European Influence in the Fort of Lahore,» in: J. Deppert, ed., *India and the West* (New Delhi: Manohar, 1983), pp. 173-195, reprint in: Koch, *Mughal Art and Imperial Ideology*, pp. 12-37.

(١٣) Abu Talib Kalim, *Diwan*, edited by Partaw Bayza'i (Tehran: Khayam, 1336h/1957m), pp. 350-351.

ويقول لاهوري إنّ شاه جهان أنشأها عندما كان أميراً ومنحها إلى ممتاز عند اعتلائه العرش. انظر: Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 2, p. 99.

(١٤) Koch: «The Zahara Bagh (Bagh-i Jahanara) at Agra,» pp. 30-37, and Koch, *Mughal Architecture: An Outline of Its History and Development (1526-1858)*, p. 117.

لمعالجة كاملة عن الموضوع، انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*.

إذا مررت بالقرب من حديقة جهان آرا
في هذه الجنة قصر جذاب
يشدك إلى مشاهدته
ويوجد في ثلاثة من جوانبه حديقة أزهار، والنهر من أمامه
تري في كل موجة عقصة شعر جميلة
عندما رحلت سيّدة العالم، بلقيس هذا العصر
إلى الجنة وغادرت مجلس سليمان (شاه جهان)
منحت الجنة التي أزهرت على يديها
إلى ابنتها الجميلة
كبرى بنات الملك المحبوبة، السيّدة المحبّبة المبهجة
التي تذكّر بصاحبة الجلالة، الملكة^(٤٥).

لم تكن الأسرة الإمبراطورية تتردّد وحدها على الحديقة، بل كان شاه جهان يستقبل فيها الحاشية والأعيان الأجانب أيضاً. وفي أيار/ مايو ١٦٣٨ دعا الإمبراطور السفير الفارسيّ يادغار بك إلى باغ جهان آرا، وأمر في المساء بإضاءة الأنوار وإطلاق المفرقات التي عُرضت على ضفّة نهر جَمُنا أسفل العِمارة^(٤٦). وزار الأمير أورانغزب ابن شاه جهان، ووارث الملك بعد والده، شقيقته جهان آرا في حديقته عندما توقّف في أgra عام ١٦٥٢ لتفقّد أحوال تاج محلّ^(٤٧).

لم يتبقّ اليوم سوى أجزاء من الحديقة، وهي لا تخضع لحماية هيئة المسح الأثريّ الهنديّة. وقد اتّبع التصميم واجهة الماء حيث تقوم العمارة الرئيسيّة على مصطبة تشرف على النهر^(٤٨). ويمكن تمييز العمارة في صورة فوتوغرافية التقطها جون موراي في أوائل خمسينيّات القرن التاسع عشر^(٤٩). ويعتبر برج الزاوية الجنوبية الغربيّة أفضل

(٤٥) أبيات منقاة من: Abu Talim Mathnawi, «Praise of Akbarabad and the Bagh-i Jahanara» in: Abu Talim Kalim, *Diwan*, pp. 346-351.

(٤٦) Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 2, p. 99.

(٤٧) رسالة من أورانغزب يذكر فيها زيارته وقد قام بترجمتها في: Begley and Z. A. Desai, trans., *Taj Mahal: The Illumined Tomb: An Anthology of Seventeenth-Century Mughal and European Documentary Sources*, pp. 175-177.

ولم يتعرّفوا إلى حديقة جهان آرا.

(٤٨) قُمتُ بمسح الحديقة بشكل متكرر منذ سنة ١٩٧٨ وأخذت مع بازود مقاييس المنشآت المنبّية في شباط/ فبراير ٢٠٠١ وآذار/ مارس ٢٠٠٢ ومن ذلك أعدت خطة المسح.

(٤٩) انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*.

العناصر المحفوظة في الحديقة ويشكل مثلاً رائعاً على أبراج حدائق أغرا (انظر الرسم الرقم (٧ - ٢٣)).

الرسم الرقم (٧ - ٢٣)
برج باغ جهان آرا (باغ الزهراء)، ثلاثينات القرن السابع عشر ١٦٣٠



المصدر: الصورة من إيبا كوش.

هـ- روضة أو ضريح أفضل خان، يدعى الآن الروضة الصينية (المبنى محفوظ)

بنى الضريح الملا أفضل خان شيرازي، ويلقب بالعلامة أفضل خان شيرازي الذي خدم في عهد جهانغير، وتولى في عهد شاه جهان منصب ديوان الكل (يسمى أيضاً وزير المالية). توفي أفضل خان عام ١٦٣٩ في لاهور، وأحضرت رفاته إلى أغرا لتدفن في الضريح الذي يقال إنه بناه في أثناء حياته^(٥٠) (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ٢)).

وكان هذا الوجه شقيق أمانت خان الذي ركب النقوش الخطية المحفورة في تاج محل، والذي قدم معه إلى الهند. ومن المرجح أيضاً أنه وضع النص المنقوش على ضريح شقيقه، لكن لم تحفظ سوى أجزاء منه.

يستمد الضريح الذي فقد حديقته الأصلية اسمه الشعبي من واجهته المزينة بفسيفساء مكونة من بلاط مزجج على طريقة لاهور، وهو عنصر دخیل حقاً على العمارة المغولية في أغرا^(٥١).

يوجد القبر المكعب على قاعدة ذات حجرات مقببة مغلقة الآن ومشيدة بحسب خطة هشت بهشت، تضم بشتاكات (كوى مقوسة في أطر مستطيلة) كبيرة في وسط كل جانب. وقد جرى ترميم الروضة الصينية عدة مرات، ولا سيما البلاطة المواجهة للخارج والزخارف الداخلية المرسومة التي فقدت الكثير من خصائصها الأصلية^(٥٢).

و- باغ خوجة محمد زكريا أو باغ وزير خان (المباني المطلة على النهر محفوظة لكنها خربة)

لا يمكن التحقق من هوية الحديقة يقيناً، لكن ربما كانت حديقة حكيم عليم الدين

(٥٠) Athar Ali, *The Apparatus of Empire: Award of Ranks, Offices and Titles to the Mughal Nobility* (Delhi: Oxford University Press, 1985), pp. 167, S 2326; Samsam Al-Dawla Shah Nawaz Khan, *Ma'athir al-Umara*, edited by 'Abd al-Rahim and M. Ashraf 'Ali, 3 vols. (Calcutta: Asiatic Society, 1887-1896), pp. 191-214.

(٥١) E. W. Smith, *Mughul Colour Decoration of Agra, Archaeological Survey of India, New Imperial Series; 30* (Allahabad: Superintendent Government Press, North Western Provinces and Oudh, 1901), pp. 3-17.

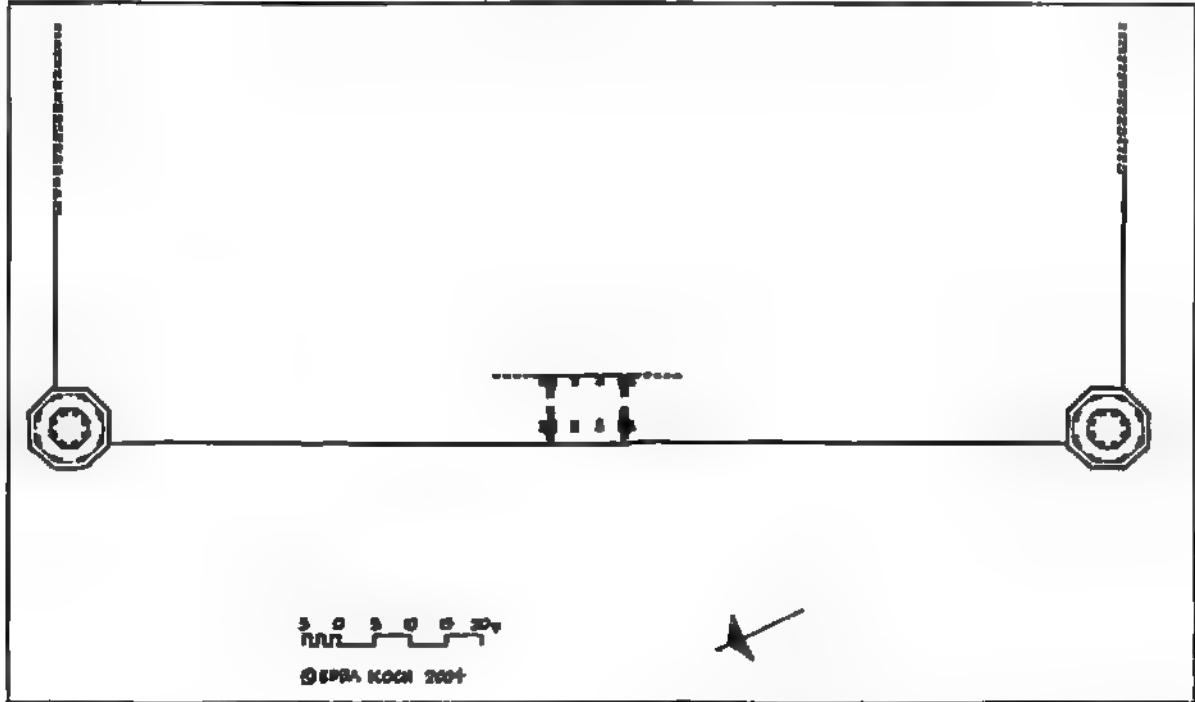
مع تشديد خاص على زخارفه التي ألهمت التصميم المعاصر.

(٥٢) Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront*, انظر: للضريح، انظر: *Gardens of Agra*.

وزير خان^(٥٣)، وهو طبيب ووجيه مميز لدى شاه جهان توفي عام ١٦٤١^(٥٤) (انظر
الرسمان الرقمان (٨-٢٣) و(٢٣-٢٤)).

الرسم الرقم (٨-٢٣)

مخطط باغ وزير خان (أو باغ محمد زكريا)، من عام ١٦٤٠



المصدر: الرسم من ريتشارد أ. بارود وإييا كوش.

لا تزال مباني الحديقة المتبقية، بالرغم من خرابها، تمثل أفضل مباني
حديقة محفوظة مطلة على النهر لراعي غير إمبراطوري من زمن شاه جهان في
أغرا. أحد مميزاتها المقصورة الموجودة في وسط حافة النهر فوق حجرة تحنية
(تح خانة) على جانبيها برجان في نهاية المصطبة. وكل المباني ملبسة بحجر
أحمر.

(٥٣) في خريطة جايور تسي باغ خوجة محمد زكريا، وهو من الوجهاء في عهد جهانغير، لكن سجلات القرن
التاسع عشر تشير إليها بأنها لوزير خان. وكذلك في خريطة غويتا الأولى والثانية. وربما خلف وزير خان خوجة محمد
زكريا في ملكية الحديقة. انظر: Gupta, *Urban Glimpses of Mughal India: Agra: The Imperial Capital* (16th and 18th Centuries).

Nawaz Khan, *Ma'athir al-Umara*, vol. 3, pp. 981-983; Athar Ali, *The Apparatus of Empire: Award of Ranks, Offices and Titles to the Mughal Nobility* (Delhi: Oxford University Press, 1985), pp. 97-
S67, 105-S325, 117-S698, 175-S2599 and 177-S2653.

ز- باغ سلطان برويز (القبر فقط محفوظ)

السلطان برويز هو ابن جهانغير، وبالتالي شقيق شاه جهان، ووالد نادرة بانو بيغم التي تزوجت الأمير دارا شكوه عام ١٦٢٦، الابن البكر لشاه جهان. يورد فرانسيسكو بلسارت، التاجر الهولندي، عام ١٦٢٦ أنّ هذه الحديقة تقع على الضفة اليسرى لنهر جَمُنا في وصفه أغرا المطلّة على النهر^(٥٥).

توفي السلطان برويز عام ١٦٢٤ - ١٦٢٥ في برهانپور التي كان حاكماً لها^(٥٦)، وقد أحضرت رفاته إلى أغرا ودُفن في الحديقة التي بناها^(٥٧). دُعيت أسرته إلى البلاط وسمح لها بمواصلة الإقامة في الحديقة لأنّ لاهوري، المؤرّخ الرسمي لشاه جهان يذكر إقامة أسرة السلطان برويز في تشرين الثاني/نوفمبر ١٦٣٢، عندما أرسلت الهدايا إلى الحديقة حيث تقيم والدّة العروس الأرملة كجزء من حفل خطوبة دارا شكوه ونادرة بانو بيغم^(٥٨).

يوجد موقع الحديقة إلى الشمال من ضريح اعتماد الدولة، وتغطّيها المشاتل جزئياً ومقرّ الإقامة التابع لحديقة موتي باغ. المبنى الرئيسي المتبقي في حديقة موغال هو الضريح، ويعرف محلياً باسم مقبرة برويز خان، الموجود بين النهر وطريق أليغار إلى الغرب من مخفر الشرطة. وليس هناك ذكر لحديقة السلطان برويز إلا في سجلّات أوائل القرن التاسع عشر^(٥٩)، لا في الأوصاف المتأخّرة لأغرا. والضريح غير معروف اليوم على العموم ولا يخضع لحماية هيئة المسح الأثري. يتّصبب الضريح المكعب الذي تعلوه قبة على منشأة تحتيّة ذات غرف مقنطرة، مرتبة على نسق هشت بهشت^(٦٠). وكان الضريح بأكمله، بما في ذلك منشآته التحتيّة، مزيّناً بالرسوم التي لم يبق منها سوى أجزاء. وهي يرجع تاريخها إلى الربع الثاني من القرن السابع عشر.

India, *The Remonstrantie of Francisco Pelsaert*, p. 5, and Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*, p. 16.

Ali, *The Apparatus of Empire: Award of Ranks, Offices and Titles to the Mughal Nobility*, (٥٦) p. 87-J1471.

Beni Prasad, *The History of Jahangir* (London: Oxford University Press, 1922), p. 428. (٥٧)

Beach, Koch and Thackston, *King of the World: The Padshahnama: An Imperial Mughal Manuscript from the Royal Library, Windsor Castle*, nos. 21-24. (٥٨)

Sil Chand, *Tafrih al-'Imarat*, fol. 109b, and Raja Ram, «Gardens of Agra», p. 16. (٥٩)

Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*. انظر: المخطوط، نظر: (٦٠)

ح - ضريح اعتماد الدولة (محفوظ بشكل جيد)

بنت نور جهان، زوجة جهانغير القوية، الضريح بين عامي ١٦٢٢ و ١٦٢٨ لوالديها. وكان والدها غياث بيه الطهراني، الملقب باعتماد الدولة، وزيراً لمالية إمبراطورية المغول في أثناء حكم جهانغير^(٦١). يعكس الضريح الذي بنته ابته نور جهان له أناقة ذوقها، حيث كانت مواهبها المتعددة تشمل اهتماماً ملحوظاً بالعمارة.

على غرار معظم حدائق الأضرحة، باستثناء تاج محل، لا تتبع حديقة اعتماد الدولة تصميم حافة النهر وإنما تصميم التشرباغ الرباعي الكلاسيكي، حيث يوجد مبنى الضريح في الوسط عند تقاطع الممار^(٦٢).

يتم التعامل مع امتياز مخطط حافة النهر بأن تكون المقصورة في منتصف الواجهة النهرية، بتفصيل خاص. ولمصطبة حافة النهر درجات تفضي إلى الغرف السفلية، ووسعت أبراج حافة النهر بغرف للآبار ومنحدرات لرفع الماء. يتسم مخطط هشت يهشت الذي تتبعه عمارة الضريح ببساطة المربع السحري، وتغنيه الأبراج الأربعة في الزوايا. المبنى بأكمله مغطى بالرخام المرصع بحجارة مختلفة الألوان^(٦٣). وهي تسبق أشغال الترصيع الأكثر أناقة في تاج محل. يوجد التاريخ ١٠٣٥هـ، الذي يوافق ١٦٢٦ - ١٦٢٧م، إلى جانب اسم المخطاط عبد النبي القرشي على لوحة منقوشة على البرج الجنوبي الغربي. ويظهر التاريخ ١٠٣٦هـ / ١٦٢٧ - ١٦٢٨م داخل الغرفة العليا على اللوح الأول غرباً من الجدار الشمالي.

Jahangir, *Tuzuk-i Jahangiri or Jahangir nama*, p. 373, and Nawaz Khan, *Ma'athir al-Umara*, (٦١) vol. 2, pp. 1072-1079.

Ali, *The Apparatus of Empire: Award of* انظر: نور جهان، انظر: *Ranks, Offices and Titles to the Mughal Nobility*, p. 78-1194.

B. Asher, *Architecture of Mughal India*, The New Cambridge History of India; 1.4 (Cambridge, (٦٢) MA; New York; Oakleigh: Cambridge University Press, 1992), pp. 130-133.

وللحصول على وثائق فوتوغرافية حديثة، مع مخطط خاطئ لسوء الحظ (يظهر ضريح مريم الزمان في سيكاندارا)، انظر: Amina Okada (text) and Jean-Louis Nou (photographs), *Un Joyau de l'Inde Moghole: Le mausolée d'Iltimad ud-Daulah* (Milan: Continents Editions, 2003).

Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront* انظر: *Gardens of Agra*.

Smith, *Moghul Colour Decoration of Agra*, *Archaeological Survey of India*, pp. 18-19. (٦٣) انظر: وهو يرى في مقارنته الميزة الضريح على أنه يحمل تصميمًا زخرفيًا.

وأثناء الحكم البريطاني، جرى تعديل المقصورة المطلّة على النهر لتصبح بيتاً من طبقة للمقيمين الأوروبيين في أغرا الذين يقيمون هناك بين الحين والآخر لتغيير الجو^(٦٤).

ط - الحدائق الإمبراطورية حول نهر جَمُنَا

يلي حديقة باغ موسوي خان صدر، غير المحفوظة (١٠)، سلسلة من الحدائق الإمبراطورية الموجودة حول انعطافة نهر جَمُنَا وتمتدّ على القسم المستقيم وصولاً إلى مهتاب باغ مقابل تاج محلّ. وقد بنيت هذه المنطقة اليوم وصولاً إلى الجسر الحديد وتضمّ مباني سكنية حديثة، ويستخدم ما تبقى منها للزراعة.

ي - تشهار باغ بادشاه أو باغ هشت بهشت (غير محفوظة)

كانت هذه حديقة بأثر الأولى في أغرا، وجرى بحثها في البداية. وقد بقي بعض الأبار في المنطقة التي كانت تشغلها الحديقة.

ك - مهتاب باغ (محفوظة جزئياً)

هي من الحدائق التي بناها شاه جهان. يتساوى عرضها مع عرض حديقة تاج محلّ، وتقع مقابلها تماماً، وهو ما أدى إلى الاعتقاد أنّ شاه جهان كان يعتزم بناء ضريحه هناك كصورة مقابلة لضريح زوجته بالرخام الأسود، ومرتبطة به بجسر فوق النهر. وقد أورد هذه القصة الرحالة الفرنسي تافارنييه الذي كان في أغرا في ستينيات القرن السابع عشر^(٦٥). ولم تكشف الحفريات الأثرية التي أجرتها هيئة المسح الأثري في الهند في تسعينيات القرن العشرين عن أي شيء يؤيد هذا الافتراض. وكانت مؤرّخة الحديقة إليزابيث موينيهان قد اقترحت أنّ مهتاب باغ بنيت لمشاهدة تاج محلّ، حيث تلتقط انعكاسه بركة كبيرة في وسط مصطبة المطلّة على النهر والخربة الآن^(٦٦). وثمة ما يؤيد نظريتها وهو أنّ المبنى الرئيسي في تصميم الحديقة المطلّة على النهر استُبدل وحلّت مكانه بركة كبيرة، وتلك سمة غير موجودة في الحدائق الأخرى.

Carlisle, «Agra», p. 141.

(٦٤)

Jean-Baptiste Tavernier, *Travels in India*, translated by V. Ball; edited by William Crooke (٦٥)
(New Delhi: Oriental Books Reprint Corporation, 1977), vol. 1, p. 91.

E. B. Moynihan, *The Moonlight Garden: New Discoveries at the Taj Mahal* (Washington, DC: (٦٦)
Arthur M. Sackler Gallery, Smithsonian Institution, and Seattle and London: University of Washington Press, 2000).

Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront* وللإطلاع على الصورة المنعكسة لتاج محلّ، انظر: *Gardens of Agra*, pp. 31 and 40.

٢ - حدائق الضفة اليمنى وصولاً إلى قلعة أغرا

أ - حويل خان داوران (خرب ومبني فوقه)

أنشأ هذا المجتمع خان بهادر نصرت جنك، أحد قادة شاه جهان العظام الذين تميزوا في حملات الإمبرطور العشرة^(٦٧). لكنه كان مرهوب الجانب ومكروهاً لقسوته، وقد قتله في تموز/ يوليو ١٦٤٥ صبي براهمي أدخل في خدمته وحُمل على اعتناق الإسلام^(٦٨).

يشار إلى مقر إقامة خان داوران على حافة النهر باسم حويل، وهو ضرب من المباني يضم فناء أو أكثر، وهو بالتالي منشأة أكثر تجسماً من الباغ الذي تقام فيه مقصورات في الحديقة. ومع ذلك اتبعت الحويلات المطلّة على النهر في أغرا تصميم الحديقة المطلّة على النهر في أنّ المنشأة الرئيسية مشيّدة بحيث تشرف على نهر جَمُنا. وقد بني تاج تانري على ما تبقى من حويل خان داوران، ولا يرحب فيها بالزوار.

ب - روضة شاه جهان (تاج محل) (محفوظة جيداً)

شكّل تاج محل جزءاً من مخطّط الحدائق المطلّة على النهر في أغرا، وهو يعبر عن الحديقة المطلّة على النهر في أبهى صورها^(٦٩) (انظر الرسمين الرقمين (٢٣ - ٩) و(٢٣ - ١٠)).

يتنصب الضريح والمباني المجانية له على مصطبة كبيرة ذات واجهة مزخرفة باتجاه النهر، ويظهر تشرباغ في الجانب المواجه للبر. ولا يحدّد مخطّط حافة الماء شكل حديقة التاج فحسب، بل هو عنصر رئيسي في تخطيط مجتمع التاج بأكمله أيضاً. يوجد إلى الجنوب من الحديقة مستطيل كبير (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ٩ - c)) يشكّل مربّعه المتوسط الفناء الأمامي للتاج، وقد أطلق عليه عبد الحميد لاهوري ومحمد صالح كانبو، مؤرّخا شاه جهان، اسم جلاوخانة.

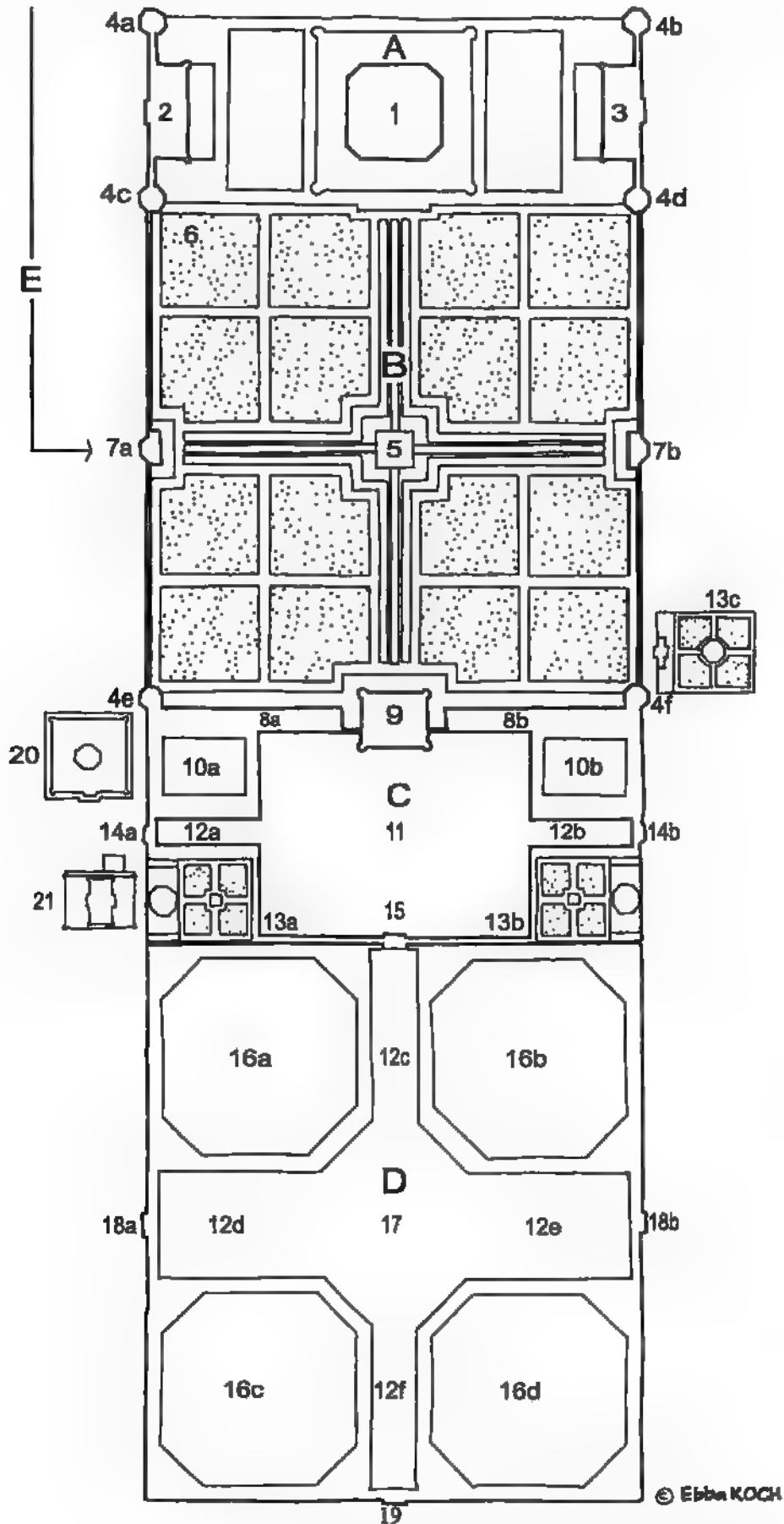
Beach, Koch and Thackston, *King of the World: The Padshahnama: An Imperial Mughal Manuscript from the Royal Library, Windsor Castle*, cat. nos. 10, 18, 19, 31, 32, 35, 36, 40 and 43.

'Inayat Khan, *Shah Jahan Nama*, p. 325, and Nawaz Khan, *Ma'athir al-Umara*, vol. I, (٦٨) pp. 778-783.

(٦٩) لا يبحث هنا النصب سوى «كوحدة» للمدينة المطلّة على الماء. للحصول على أول معالجة لتاريخه وعمارته، انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*.

الرسم الرقم (٢٣ - ٩)

تاج محل، مخطط لكامل المجموع، ١٦٣٢ - ١٦٤٣، مع ترقيم المباني



المصدر: الرسم من ريتشارد آ. بازود وإيلا كوش.

الرسم الرقم (٢٣ - ١٠)
تاج محلّ، مجموعة من مباني الواجهة المائية



في الوسط الضريح يحاذيه إلى اليمين المسجد وإلى اليسار ميهان خانا، ١٦٣٢ - ١٦٤٣.
المصدر: إياكوش.

يحيط فناءان صغيران بمربع الجلاوخانة (انظر الرسمين الرقمين (٢٣ - ٩) و(٢٣ - ١١)) من جانبيه القصيرين. ويقسم شارع سوق مفتوح (انظر الرسوم الأرقام (٢٣ - ٩)، ((12a) و(12b)) هذين الفناءين ويوفر المنفذ الرئيسي للجلاوخانة، وخلف ذلك، يتم الوصول إلى حديقة الضريح عبر بوابة كبيرة (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ٩)). ويحتوي الفناءان الشماليان على مقر إقامة زوّار الضريح، الخواص بورا (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ٩)، ((10a) و(10b)) ويحتوي الزوجان الجنوبيان على حديقتين فرعيتين لضريحي زوجتي شاه جهان الأقل شأنًا (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ٩)، ((13a) و(13b)). ويردّد فناء هذين الضريحين صدى تصميم حديقة الضريح الرئيسية لأنهما يتبعان مخطط حافة الماء المميّز للتشرباغ المحوريّ ممزوجاً بالمصطبة المستطيلة التي يتصب عليها الضريح والمبنيان المجانبان (أحدهما محفوظ فقط).

وفي هاتين النسختين الصغيرتين المكرّرتين عن الحديقة الرئيسية، ينقل مخطط حافة الماء إلى موضع داخليّ. بل تستخدم الحديقة المطلّة على الماء أيضاً كمخطط ترتيبيّ للمجمّع الفرعيّ للتاج بأكمله، لأنّه يوجد إلى الجنوب من الجلاوخانة مجمّع

فناء آخر ذو ترتيب محوريّ (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ٩) (D)). وهو مشكّل من شوارع السوق المتقاطعة (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ٩)، (12c)، (12d)، (12e)، (12f)) التي تقابل ممارّ الحديقة، وأربعة سرايات أو خانات مربعة (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ٩)، (16a)، (16b)، (16c)، (16d)) تشغل أماكن الحدائق الأربع.

نقابل هنا نقلاً فريداً ومبتكراً جداً لتصميم التشرباغ في مجمّع معماريّ مدنيّ خدماتيّ. ويمثّل تشكيل الوحدة المستطيلة التي تضمّ الجلاوخانة والوحدة القائمة عند تقاطع المحاور إلى الجنوب مخطط حافة الماء الخاص بحديقة التاج. وهكذا يتكوّن مجمّع تاج محلّ بأكمله من وحدتين تتّبعان تصميم حافة الماء، حديقة تاج محلّ، وهي حديقة مطوّلة على الماء، وتصميم الوحدات الفرعية الداخلية.

وتقوم إلى الغرب من تاج محلّ الأشغال المائية التابعة لها، منها قناة كبيرة لنقل الماء من نهر جمّنا إلى الحديقة.

ج - باغ خان علم (محفوظة جزئياً)

تقع الحديقة إلى الغرب من الأشغال المائية، وكانت تابعة لميرزا بارخوردار، وهو وجيه تيموريّ منحه جهانغير عام ١٦٠٩ لقب خان علم، وبعد ستين أرسله الخان كسفير إلى بلاط شاه عباس في إيران. خدم خان علم شاه جهان أيضاً في أوائل عهده، لكنّه تقاعد عام ١٦٣٢ لكبر سنّه و«أمضى ما تبقى من أيامه بهدوء وراحة» في أغرا، في حديقته القريبة من تاج محلّ على ما يفترض^(٧٠) (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ١١)).

اتبعت الحديقة مخطط حدائق المغول السكنية في أغرا حيث توجد العمارة الرئيسية للحديقة على مصطبة تشرف على النهر والحديقة في جانب البرّ. ولا يزال المبنى المطلّ على النهر محفوظاً لكنّه خرب. وعلى غرار العديد من حدائق أغرا، استخدمت باغ خان علم كمدفن لصاحب الحديقة، لكن لم يستبدل المبنى الرئيسيّ للحديقة بالضريح كما في حالة الروضة الصينية (٦)، أو اعتماد الدولة (٩)، أو جعفر خان (٤٤)، لكن تمّ رفع المنصّة التي تحمل النصب التذكاري على المحور المركزيّ جنوب المبنى المطل على النهر.

India, *The Remonstrantie of Francisco Pelsaert*, p. 4; Nawaz Khan, *Ibid.*, vol. 1, pp. 389-392; (٧٠) Sil Chand, *Tafrih al-Imarat*, fol. 77b; Ram, «The Gardens of Agra», p. 21, and Ali, *The Apparatus of Empire: Award of Ranks, Offices and Titles to the Mughal Nobility*, p. 117-S702, and previous references.

وتستخدم دائرة الحدائق التابعة لهيئة المسح الأثري حديقة خان علم اليوم بمثابة
مشتل.

الرسم الرقم (٢٣ - ١١)

باغ خان علم، وبرج مهذّم على شرفة الواجهة البحرية
مع أجزاء من أبراج أخرى مهذّمة، ١٦٣٠ ثلاثينات القرن السابع عشر



المصدر: تصوير إيبا كوش.

د - قلعة أغرا (محفوظة جيّداً)

إلى جانب تاج محلّ، تبرز القلعة العظيمة للأباطرة على المشهد المطل على النهر
في أغرا. وعلى غرار الضريح، اتخذت القلعة موقع الحديقة في المخطط المدني، كما
أن حديقة قصرها وأفنيتها الرئيسية تتبّع تصميم الحديقة المطلّة على النهر.

أقام المغول القلعة الكبيرة مكان قلعة قديمة بناها اللوديون من الطوب والطين. بدأ
أكبر بناء القلعة عام ١٥٦٤ كمقر رئيسي لحكمه، ودعّمها بتحصينات رائعة مبنية بالحجر
الأحمر. وقد أدخل خلفاء أكبر تعديلات على القلعة - ولا سيّما شاه جهان الذي أعاد
إنشاء أفنية القصر الرئيسية الثلاثة بين عامي ١٦٢٦ و ١٦٣٧، وميّز مبانيه بواجهات من

الرخام الأبيض والجص المصقول^(٧١). بقيت القلعة المقر المغولي الرئيسي إلى أن نقل شاه جهان بلاطه إلى شاه جهان آباد في دلهي. وأقام البريطانيون حاميته في القلعة عندما فتحوا أغرا عام ١٨٠٣ ولا يزال القسم الأكبر منها خاضعاً للإدارة العسكرية، إذ بقيت القلعة تحت الإدارة العسكرية بعدما نالت الهند استقلالها عام ١٩٤٧. وقد بني العديد من المنشآت المغولية فوقها أو هدمت وحل محلها ثكنات، لكن أفنية القصر الرئيسية حُفظت وتمثل مجموعة فريدة من عمارة القصور الإسلامية والهندية في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وفي عام ١٩٢٣ - ١٩٢٤ أقامت هيئة المسح الأثري سياجاً حول المنطقة الأثرية التي تضم القصور ومسجد موتي الذي أنشأه شاه جهان لفصلها عن المنطقة العسكرية وأتاحت وصول الزوار إليها عبر بوابة أمار سينغ التي فُتحت أمامهم في ٢٥ شباط/فبراير ١٩١٤^(٧٢). وفي عام ١٩٨٢ أصبحت قلعة أغرا، إلى جانب تاج محل، من مواقع التراث العالمي للأونيسكو.

وتعكس أفنية القصر الرئيسية الثلاثة لشاه جهان تصميم الحديقة المطلّة على النهر. وكان فناء الديوان العام يشكّل قلب القصر، وقد أعاد شاه جهان إنشاءها بين عامي ١٦٢٨ و ١٦٣٧، إلى جانب الفناءين القائمين شرقها، حيث يدعى الفناء الشماليّ منهما مشهي باوان اليوم، والجنوبيّ أنغوري باغ، وتدعى المباني المطلّة على النهر خاصّ محلّ. والأفنية الثلاثة منظّمة بطريقة مماثلة وتتبع مخطط الحدائق المطلّة على النهر في أغرا. تتشكّل ثلاثة من جوانبها من أجنحة من دور أو دورين، وتوجد في الجانب الرابع المباني المنفردة المرفوعة على مصطبة. وهي تخدم الوظائف الاحتفالية الرئيسية للبلاط والاستخدام الشخصي لشاه جهان ونسائه. وإلى جنوب أنغوري باغ يوجد فناءان صغيران يرجعان إلى عهد أكبر، ويدعيان جهانغير محل وأكبر محلّ.

هـ- الديوان العام

من الجناح الشرقيّ لفناء الديوان العام، تبرز قاعة الاستقبال المعمّدة، دولت خانه (قاعة استقبال للخواص والعامة)، وتدعى اختصاراً الديوان العام^(٧٣).

(٧١) Koch, *Mughal Architecture: An Outline of Its History and Development (1526-1858)*, pp. 53-

55 and 106-109, and Asher, *Architecture of Mughal India*, pp. 47-51 and 182-189.

(٧٢) Smith, *Mughul Colour Decoration of Agra, Archaeological Survey of India*, p. 8.

(٧٣) Ebba Koch, «Diwan-i 'Amm and Chihil Sutun: The Audience Halls of Shah Jahan,»

Muqarnas, vol. 11 (1994), pp. 143-165, reprint in: Koch, *Mughal Art and Imperial Ideology*, pp. 229-254.

و- مشهي باوان

أرفق الاسم الحالي لفناء مشهي باوان (دار السمك) في تاريخ لاحق، وفي عهد شاه جهان لم يكن يحمل اسماً خاصاً وكان يشار إليه باسم فناء الدور الأرضي لقاعة استقبال الخاصة، خاصة دولت خانه، ديوان الخاصة اختصاراً^(٧٤). وهي مقصورة واسعة ملبسة بالرخام الأبيض تتصب على الجانب الجنوبي من المصطبة المطلّة على النهر من الفناء. وفي مقابل الجانب الآخر من المصطبة، يوجد حمام شاه جهان، وهو مجموعة من الغرف المقنطرة التي تفتقر إلى الواجهة وقاعة أمامية^(٧٥). وتضم أجنحة مشهي باوان الخزانة، وفي الفناء يشاهد الإمبراطور حيواناته الصيادة، وكلابه وصقوره وفهود الشيتا، ويراقب تدريب جياده. وكانت تستخدم أيضاً في قتال الحيوانات.

ز- خاص محل وأنغوري باغ

يدعى فناء الحديقة أنغوري باغ (حديقة العنب) اليوم، ويشير لاهوري، مؤرخ شاه جهان، إليها بالحديقة (باغ) فقط. كانت في عهد شاه جهان الحديقة الوحيدة ضمن مجتمع القصر الإمبراطوري^(٧٦). وهنا تغير تصميم الحديقة الكلاسيكية المطلّة على الماء في أغرا إلى فناء قصر محاط من ثلاثة جوانب بأجنحة مكونة من دورين. يرتفع على مصطبة حافة النهر مبنى خاص محل، وهو مجموعة من ثلاثة مباني رخامية تشكّل مجموعة مستقلة عن النظر إليها من الداخل فضلاً عن الخارج: الخوابگاه أو جناح المنامة الإمبراطورية في المركز، وبجانبها بانغلا درشان أو مقصورة المشاهدة الإمبراطورية من اليسار (الشمال)، وهي مقصورة ذات سقف موشى بالذهب، ويوجد بجانبها إلى اليمين (الجنوب) صورتها المروّية، بانغلا جهان آرا، أي مقصورة ابنة شاه جهان.

ويحدّد القرب من النهر الذي يحظى بتقدير موقع المنطقة الرسمية لمشهي باوان والمنطقة التي يصعب النفاذ إليها، وهي الألفية الخاصة التي يستخدمها الإمبراطور ونساؤه، أنغوري باغ، وإلى جنوبها جهانغير محل وأكبر محل، وهما يرجعان إلى عهد أكبر. تغلق حواجز المساحات المفتوحة نحو النهر باتجاه النهر، ومع ذلك تشاهد

(٧٤) يشير لاهوري إلى ذلك باسم «سهي روي زمين» و«سهي باين». انظر: Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 1, part 2, p. 238, and Nur Bakhsh, trans., «The Agra Fort and Its Buildings», in: *Archaeological Survey of India: Annual Report, 1903-1904*, pp. 177-179.

Ebba Koch, «The Lost Colonnade of Shah Jahan's Bath in the Red Fort of Agra», *Burlington Magazine*, vol. 124, no. 951 (1982), pp. 331-339, reprint in: Koch, *Mughal Art and Imperial Ideology*, pp. 255-268.

Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 1, part 2, p. 240, and Bakhsh, *Ibid.*, pp. 180-181.

(٧٦)

المباني من الخارج وبالتالي يتناقض ذلك مع المفاهيم العامة للدائرتين العامة والخاصة في الثقافة الإسلامية. فالمكان المخصص للاستقبال في البلاط، الديوان العام، موجود داخل القصر. وقد احتفظ الإمبراطور بالمطلّ على النهر لنفسه ولأسرته ونسائه. وحدّد مفهوم الحديقة المطلّة على النهر تصميم القصر.

٣- أماكن الإقامة إلى شمال القلعة

من غير المعروف على وجه اليقين كم تبقى من مقارّ الإقامة في الحدائق الممتدة على ضفة النهر بين القلعة وروضة جعفر خان (٤٤) لأنّ مدينة أغرا استوعبت المنطقة وتمّ البناء عليها بكثافة. تقع أكثر البقايا الظاهرة للعيان على طول طريق جَمُنَا - كنارا، على بعد سبعمئة وخمسين متراً إلى شمال القلعة في قسم المدينة الذي يدعى بيلان غنج، وهي: برجان يعلوهما قبة معمدّة على الطراز الشاه جهانيّ يبعد أحدهما ٤٠ متراً من الآخر. يعرف البرجان محليّاً باسم خوني برج (برج الدم) وشكلاً الزاويتين المطلّتين على النهر لمجمّع يدعى محليّاً باسم بوتارية محلّ^(٧٧).

وراءهما بعيداً من الطريق يوجد مبارك منزل الخاص بأورانغزب الذي حوّل البريطانيون إلى دار للجمارك، وينتصب حيث تنعطف الطريق إلى الغرب مبنى خرب كبير يسمّى «مكتبة دارا شكوه».

أ- حويل دارا شكوه (غير محفوظ)

دارا شكوه هو ابن شاه جهان المفضّل والوريث المعيّن، لكنّه فقد حياته عام ١٦٥٩ على يد أخيه الأصغر أورانغزب^(٧٨). لم يحفظ الحويل التابع له في أغرا لكن يمكن تحديد موقعه^(٧٩). ووفقاً للمعجم الجغرافي لأغرا عام ١٩٢١، تمّ تهديم بقايا الحويل عام ١٨٨١ لجعل المكان مبنى للبلدية^(٨٠). ولا يزال هذا المبنى قائماً، على بعد ٢٥٠ متراً شمال القلعة، بعيداً من طريق جَمُنَا - كنارا. يصفه لوح على واجهته الشمالية

(٧٧) معلومات من السيّد نافين تشاند، المالك الحالي لمبارك منزل (انظر ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ أدناه)، في ١٢ آذار/مارس ٢٠٠٤.

Bikrama Jit Hasrat and Dara Shikuh, *Life and Works* (New Delhi: Munshiram Manoharlal Publishers Pvt. Ltd, 1982).

(٧٩) للحصول على معالجة أوفى، انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*.

H. R. Neville, *Agra, a Gazetteer, District Gazetteers of the United Provinces of Agra and Oudh*, 3 vols. (Allahabad: Superintendent Government Press, United Provinces, 1921), p. 198.

بالإنكليزية والفارسية بأنه مبنى البلدية وأنه يرجع إلى عام ١٨٨٢. وتم تحويله إلى مدرسة في وقت لاحق.

ب - مجمعات أورانغزب

٣٣ و ٣٤ مدرجان في مخطط جايبور باسم حويل عَلمغير، و ٣٥ باسم «مسجد مبارك منزل».

يشكل تاريخ موقع حويل أورانغزب مثلاً بارزاً على تغير ملكية الأرض في النظام المغولي. ويمكننا تتبع مالكيها إلى القرن السادس عشر. في عهد أكبر كانت ملكية حافة النهر تعود إلى خان خانان (القائد الأعلى) بيرم خان تركمان، الوصي على أكبر ووكيله. وبعد إقصاء بيرم خان، أعطى أكبر اللقب والمنصب، إضافة إلى مقر الإقامة في أغرا، لمنعم خان عام ١٥٦٠^(٨١). وعندما توفي عام ١٥٧٥، انتقلت الملكية إلى التاج ثانية. وعندما اعتلى جهانغير العرش، منحها إلى ابنه الأكبر خسرو مع مئة ألف روبية لإعادة بنائها^(٨٢). وبعد وفاة خسرو المفاجئة التي يتحمل مسؤوليتها شاه جهان، انتقل المبنى إلى الأخير على ما يبدو لأن دي ليت لا يدرج منزل خسرو وإنما منزل «الأمير سلطان خُرم [مُنح خُرم اسم شاه جهان]» بأنه المنزل الرابع إلى شمال القلعة، وذلك مماثل تقريباً للموقع الوارد في مخطط جايبور^(٨٣).

وفي شباط/ فبراير ١٦٢٨ أقام شاه جهان في مقر إقامته كأمير - الذي كان معروفاً في ذلك الوقت بالقصر الإمبراطوري دولت خانة - لمدة ١٢ يوماً انتظاراً للوقت الميمون (الذي حسب المنجمون لديه في الرابع عشر من الشهر) لكي يدخل القلعة رسمياً من أجل حفل اعتلاء العرش^(٨٤).

وفي آذار/ مارس ١٦٣٣ أقام فيه الأمير شاه شجاع، ابن شاه جهان الثاني، بمناسبة زواجه^(٨٥). غير أن الإمبراطور واصل استخدامه. وعندما انتشر الطاعون في أغرا في

(٨١) 'Allami, *Akbar-nama*, vol. 2, pp. 187-188, and Ram Kishore Pandey, *Life and Achievements of Muhammad Bairam Khan Turkoman* (Bareilly: Prakash Book Depot, 1978), p. 260.

Jahangir, *Tuzuk-i Jahangiri or Jahangir nama*, vol. 1, p. 12. (٨٢)

De Laet, *A Dutch Chronicle of Mughal India*, translated and edited by Brij Narain and Sri (٨٣)

Ram Sharma (Lahore: Sang-e-Meel Publication, 1978), pp. 38-39.

Qazwini, *Padshah-nama*, fol. 121a/refoliated 122a; Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 1, part. 1, (٨٤)

pp. 86-87; Kanbo, *'Amal-i Salih or Shah Jahan-nama*, vol. 1, pp. 187, and 'Inayat Khan, *Shah Jahan Nama*, p. 15.

Lahawri, *Ibid.*, vol. 1, part 1, p. 463. (٨٥)

وقت لاحق من ذلك العام، انتقل إلى هناك في حزيران/يونيو ١٦٣٣ «بسبب اتساعه وقربه إلى الماء ونقاء هوائه»، لتجنب التقاط العدوى في قصره^(٨٦).

ويتأكد موقع الحويل إلى شمال القلعة من خلال وصف قتال تاريخي للأفيال حدث في ذلك الوقت، إذ بدأ أمام قصر الإمارة وانتقل إلى القلعة^(٨٧). وانتقل المبنى إلى أورانغزب في النهاية، إذ يذكر المؤرخ لاهوري بمناسبة زواجه أن شاه جهان منحه له «بعد اعتلائه العرش»^(٨٨).

يعرض مخطط جايور منطقتين مسورتين تدعيان حويل عَلمَغير، وإلى شمالهما منطقة مسورة أخرى تدعى مسجد مبارك منزل. لم يتبق من المجمع سوى مبنى عرف منذ القرن التاسع عشر باسم مبارك منزل، ودار الجمارك، وبيرمت كوتي، ويعرف اليوم باسم تارا نواس. استُخدم هذا المبنى بين عامي ١٨١٠ و ١٨٧٧ كدار للجمارك أو مقر رئيسي لدائرة الملح في أغرا (انظر الرسم الرقم (٢٣-٣))؛ وفي عام ١٨١٧ أدخل عليه تعديل كبير، وأضيف إليه طبقة ثانية. وأعدت الإدارة البريطانية مخططاً عن أغرا عام ١٨٦٧ - ١٨٦٨ يظهر دار الجمارك في أعلى الجسر العائم^(٨٩). وقد باعت الحكومة البريطانية المبنى في ٢٨ حزيران/يونيو ١٨٧٨ بالمزاد العلني بمبلغ ١٧٠٠٠ مهر ذهبي إلى شيت حيرا لال من أسرة تعرف بالشيشيين من ماثورا^(٩٠).

وفي عام ١٩٠٢ أشارت الجالية الإسلامية في أغرا أمام اللورد كوززون أنه مكان للعبادة، لكن رُفض التماسهم، إذ لم يعثر على أي دليل عن عمارة المسجد^(٩١).

Kanbo, Ibid., vol. 1, p. 460.

(٨٦)

Beach, Koch and Thackston, *King of the World: The Padshahnama: An Imperial Mughal Manuscript from the Royal Library, Windsor Castle*, cat. no. 29, in particular: Koch, pp. 185-87.

Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 1, part 2, p. 268, and Beach, Koch and Thackston, Ibid., p. 187, no. 10. (٨٨)

BL OIOC, Map x/1381/1-15.

(٨٩) انظر:

أشكر جيري لوستي، رئيس قسم المطبوعات والرسوم والصور في المكتبة البريطانية للفت انتباهي إلى هذه الخريطة ولتكرمه بمشاركتي المعلومات التي لديه عن أغرا تحت حكم البريطانيين.

(٩٠) تعرّفت إلى مبارك منزل في ١٢ آذار/مارس ٢٠٠٤ بمساعدة المالك الحالي نافين تشاند، وهو من المتحدرين المباشرين من شيت حيرا لال، الذي تفضل بتقديم تفاصيل الحصول على المبنى وتاريخه وسمح بإجراء مسح لعمارته. عن مبارك منزل انظر: S. Chand, *Tafrih al-'Imarat*, fols. 92b-93a; Ram, «The Gardens of Agra», p. 20; Muhammad Latif, *Agra, Historical and Descriptive* (Lahore: Sandhu Printers, 1981), pp. 200-202, Neville, *Agra, a Gazetteer, District Gazetteers of the United Provinces of Agra and Oudh*, p. 198, and Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*.

Curzon Papers: Indian Archaeology, 1899-1905, BL OIOC, Mss Eur F111/621, pp. 170-171. (٩١)

وبعد ذلك بسنة، أفاد أ. ك. بولوسل، وهو مهندس تنفيذي، بأن مبارك منزل استخدم مستودعاً لسكة حديد شرق الهند، وأنه بإذن من المالك في ذلك الوقت، شيث تشوني لال، ابن حيرا لال، ثبت لوح رخامي عليه نقش يعيد استحضار التراث المحلي للمبنى بكونه أنشئ من قبل أورانغزب عقب معركة ساموغار في حزيران/ يونيو ١٦٥٩^(٩٢).

ولا يزال المبنى المغولي الأصلي قائماً، وقد غطي في منشأة عام ١٨١٧، وهو يتخذ شكل قاعة معقدة منبسطة السطح وذات أعمدة مسطحة وعقود متعددة الفصوص، على غرار العمارة الشاه جهانية، ويبرز أبراجاً تعلوها قباب صغيرة عند زواياه الأربع.

ج - حويل وزير خان (محفوظ جزئياً)

ربما كان حكيم عليم الدين وزير خان هو مالك هذه الحديقة الواقعة على الضفة اليسرى لنهر جَمُنَا. وكان الوجهاء ذوو المنازل الرفيعة يمكنهم امتلاك حويل إضافة إلى حديقة في أغرا، ولا سيما بالنسبة إلى وزير خان لأنه تولى حكم أغرا مرتين، في أعوام ١٦٢٨ - ١٦٣١، و ١٦٤٠ - ١٦٤١. تبين رسمه في متحف المهراجا ساواي مان سينغ الثاني في قصر جايپور، ترجع إلى القرن الثامن عشر، أن حويل وزير خان يقع مقابل ضريح اعتماد الدولة^(٩٣).

ويقابل الوضع في الحويل وضع مبنى كبير عند منعطف طريق جَمُنَا - كنارا نحو الغرب، يعرف الآن باسم شيرون والي كوتي أو «مكتبة دارا شكوه». وقد بني فوق منشأة مغولية لا يزال يشاهد منه قناطر ذات أعمدة شاه جهانية مسطحة وعقود متعددة الفصوص عند حافة النهر. ويحدد لوح رخامي عند بوابته أنه «حويل راي بهادور شيث سوراج بهان كي»، وهو لا يزال تابعا لفرع من أسرة شيث في ماثورا، تنحدر من سوراج بهان^(٩٤).

(٩٢) *Annual Progress Report, Agra, Gazetteer of the Archaeological Surveyor United Provinces and Punjab (1903-1904)*, p. 23.

(٩٣) الخريطة الرقم ١٢٨ لم تُنشر حتى الآن. وهي تقدم اسم الحويل والحديقة بالخط الديوانغري. حويل وزير خان في يظهر غلط جايپور باتجاه أعلى النهر لكن من الواضح أن هذا التخطيط يزيح الحدائق من شمال قلعة أغرا كثيراً نحو الشمال من موضع روضة جعفر خان (٤٤) التي يجب أن تكون مقابل رام باغ (باغ نور أفشان) (٣) وليس باتجاه أعلى النهر.

(٩٤) اتصال شخصي مع السيد نافين تشاند، المالك الحالي لمبارك منزل في ١٢ آذار/ مارس ٢٠٠٤.

د- روضة جعفر خان (محفوظة)

إنّ فرزانة بيغم زوجة جعفر خان هي شقيقة ممتاز محل^(٩٥). ومن ثمّ يرتبط جعفر بعلاقات وثيقة بالأسرة الإمبراطورية، فضلاً عن أنّه ميّز نفسه بالخدمة المخلصة. تقع روضة جعفر خان إلى الشمال مباشرة من تحويلة الطريق السريع الوطني رقم ٢ على ضفة النهر، مقابل رام باغ أو باغ نور أفشان (٣)^(٩٦). يقع الضريح، وهو مبنى مربع ذو سطح منبسط، في وسط ما كان سابقاً حديقة كبيرة مسوّرة يوجد برج عند ركن من أركانها^(٩٧). وهي تستخدم اليوم مخزناً للحكومة. ولم تعد ضفة النهر من حدود روضة جعفر خان مدرجة في مخطّط جايبور. ويطلق سيل تشاند اسم راجوارا على المنطقة التي كانت تضمّ مساكن وجهاء راجبوت الذين خدموا الإدارة المغولية^(٩٨). وهي تحمل اليوم اسم راجوارا، قرية يتصب فيها النصب التذكاريّ لجاسوانت سينغ المقبّب.

هـ- شاتري جاسوانت سينغ (محفوظ جيداً)

ثبّت شاه جهان جاسوانت سينغ من راثور في منصبه خلفاً لأبيه وراجا عام ١٦٣٨ - ١٦٣٩، وأكرمه لأنّه ينحدر من أنبل الأسر الهندية. وربما توفي جاسوانت سينغ عام ١٦٧٨^(٩٩). كان نصب جاسوانت التذكاريّ^(١٠٠) قائماً أصلاً في منطقة مستطيلة مسوّرة ذات أبراج عند أركانها، ولم يتبقّ منها سوى الجدار المزخرف على حافة النهر. بني النصب التذكاريّ بالحجر الأحمر وكان على شكل مقصورة ذات اثني عشر باباً، أي يوجد ثلاث فتحات في كل جانب. ويرجع طراز حجره الأحمر المزخرف إلى الطراز المعماريّ لفاتح بور سيكري في سبعينيات القرن السادس عشر. يتمتع نصب جاسوانت سينغ التذكاريّ بحماية هيئة المسح الأثريّ وهو محفوظ بحالة جيّدة، بالرغم من أنّ محيطه قذر.

Beach, Koch and Thackston, *King of the World: The Padshahnama: An Imperial Mughal Manuscript from the Royal Library, Windsor Castle*, pp. 183-184. (٩٥)

(٩٦) موضع روضة جعفر خان في غطّط جايبور غير صحيح.

Führer, *The Monumental Antiquities and Inscriptions in the North-Western Provinces and Oudh*, p. 67. (٩٧)

Chand, *Tafrih al-'Imarat*, fols. 98b-99a, and Gupta, *Urban Glimpses of Mughal India: Agra: The Imperial Capital (16th and 18th Centuries)*, p. 19. (٩٨)

Khan, *Ma'athir al-Umara*, vol. 1, p. 754, and Ali, *The Apparatus of Empire: Award of Ranks. Offices and Titles to the Mughal Nobility*, pp. 163-S2201, 278-S5917 and 322-S7342. (٩٩)

Chand, *Tafrih al-'Imarat*, f. 99a; Führer, *The Monumental Antiquities and Inscriptions in the North-Western Provinces and Oudh*, p. 67, and Ram, «The Gardens of Agra» p. 23. (١٠٠)

سادساً: الوجهاء المغول يهجرون المدينة المطلّة على النهر، وسكان أغرا يستولون عليها

كان نهر جَمُنا الذي يعتبر أحد الأنهار المقدّسة العظيمة في الهند، جوهر المفهوم الفريد لمدينة أغرا المغوليّة المطلّة على النهر. وقد شكّل الشريان، الذي يربط الحدائق كافّة معاً، جاذبة (خيابان) مائية كبيرة، كما رآه الشاعر كليم^(١٠١)، يستطيع المرء بواسطته الانتقال بالقرب من مسكن أو ضريح إلى آخر.

بدأت أغرا تتراجع عندما نقل شاه جهان بلاطه إلى مدينته الجديدة شاه جهان آباد (دلهي) عام ١٦٤٨. بل إنّها تخلّت عن لقبها دار الخلافة لشاه جهان آباد وحصلت على لقب بديل هو مستقرّ الخلافة^(١٠٢). كما ألغيت السمة «الديمقراطيّة» للمدينة، حيث كان في وسع الوجهاء بناء منازلهم على جانبيّ النهر قرب الحدائق الإمبراطوريّة. يمتدّ الجانبان الشرقيّ والشماليّ لمدينة شاه جهان آباد على نهر جَمُنا، وقد شغلت حافة النهر قلعة الإقامة الإمبراطوريّة ومقارّ ابن الإمبراطور دارا شكوه وقلّة من الوجهاء المتّقين. كان على أغلبية الوجهاء، بل حتى ابنة الإمبراطور المفضّلة الأميرة جهان آرا، أن يتنوا حدائقهم وحويلاتهم داخل المدينة. وقد أصبح مخطّط حافة النهر امتيازاً إمبراطورياً^(١٠٣) (انظر الرسم الرقم (٢٣ - ١٢)).

ازداد إهمال النخبة الحاكمة لأغرا عندما حبس أورانغزب والده هناك في القلعة حتى مات عام ١٦٦٦. وأصبحت أغرا مدينة الإمبراطور المخلوع. وعندما هجرت النخبة الحاكمة المدينة المطلّة على النهر، استولى عليها المواطنون في أغرا. وخدمت الحدائق كمناطق ترفيهية يمكن الوصول إلى مياه النهر من خلالها. وأصبح النهر وضافه مركز الحياة المدنيّة في أغرا. وأدى ذلك إلى بروز ثقافة سباحة بارزة يشارك فيها الناس من مختلف المشارب، صغاراً وكباراً، أغنياء وفقراء. وتوجت بمهرجان السباحة السنويّ، تريفيني، الذي كانت تقيمه الجاليتان المقيمتان في روضة جعفر بصفة مشتركة،

Abu Talib Kalim, *Padshah-nama*, Persian ms. BL. OIOC (Ethé: 1570), fols. 115a-b. (١٠١)

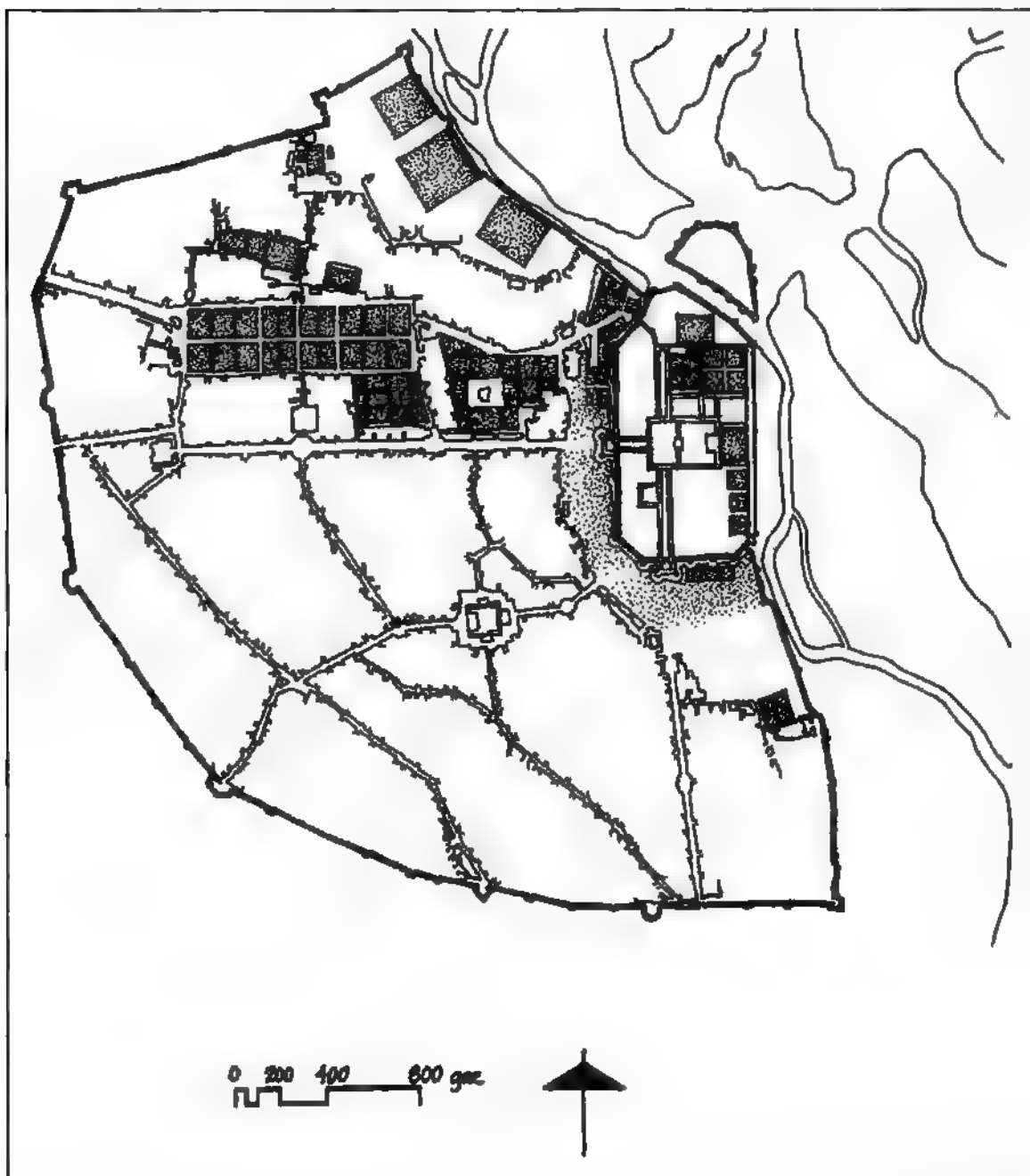
Ebba Koch, «The Delhi of the Mughals prior to Shahjahanabad as Reflected in the Patterns (١٠٢) of Imperial Visits.» in: A. J. Qaisar and S. p. Verma, eds., *Art and Culture: Felicitation Volume in Honour of Professor S. Nurul Hasan* (Jaipur: Publication Scheme, 1993), p. 11, and Koch, *Mughal Art and Imperial Ideology*, p. 171.

Koch, «The Mughal Waterfront Garden,» and Koch, *Mughal Art and Imperial Ideology*, (١٠٣) pp. 183-202.

الهندوس المحتفلون بكرشنا والمسلمون من أتباع خوجة خضر الذي عثر على ماء الحياة، وفقاً للحكايات الإسلامية^(١٠٤).

الرسم الرقم (٢٣ - ١٢)

خريطة شاه جهان آباد، بدأت في ١٦٣٩، تظهر حدائق قصر حصن شاه يوهان، للأمير دارا شكوه، وحدائق الأميرة جهان آرا ونبلاء آخرين داخل المدينة



المصدر: الرسم من ريتشارد أ. بازود وإيبا كوش.

(١٠٤) أجري مهرجان مماثل يدعى بايراكي في ماثورا، شمال أغراء ومركز عقيدة كريشنا. انظر: F. S. Growse, *Mathura: District Memoir* (New Delhi: Asian Educational Services, 1979), p. 181.

وبعد استيلاء البريطانيين على أغرا عام ١٨٠٣، استمر أهلها في الاحتفال بمهرجان السباحة تريفيني، لكنّ الحداثق الممتدة على ضفاف نهر جَمُنَا واصلت تدهورها. وفي النهاية أدى البريطانيون دوراً فاعلاً في تدمير أقسام كبيرة من مخطط حافة النهر، وإن كان ذلك بنيات حسنة^(١٠٥).

وفي القرن العشرين، طوى النسيان إلى حدّ كبير المشهد المديني الأصلي لأغرا المغولية واستوعبتها المدينة الدائمة التوسع. وانخفض مستوى الماء في نهر جَمُنَا، الذي يسمّى يَمُنَا اليوم، بفعل السدود التي بنيت في أعلى النهر لجرّ الماء من أجل الريّ، وتعرّض ما تبقى ليتدفّق في أغرا للتلوّث الشديد الناتج من مياه المجاري والفضلات الصناعية^(١٠٦). وقد تحوّلت ضفّة نهر جَمُنَا من أكثر المواقع امتيازاً إلى أدناها. وهو اليوم مرحاض ومكبّ للقاذورات ومكان لممارسة القمار بصورة غير مشروعة.

(١٠٥) انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*, chapter V.

(١٠٦) *Taj Mahal Agra: Site Management Plan* (Delhi: Taj Mahal Conservation Collaborative, 2003), p. 19.

الفصل الرابع والعشرون

حيدر أباد القرن التاسع عشر: إعادة تخطيط التراث المديني

آليسون ماكنزي شاه^(*)

في القرن التاسع عشر، كان يسهل تعريف مدينة حيدر أباد الهندية كمدينة من العالم الإسلامي. فقد رحل إليها عرب، وأحباش، وياتان، وعسكريون أتراك، وصوفيون، وفقهاء، وأمراء مسلمون، شيعة وسنة، من شمال الهند وجنوبها، جاءوا كلهم إلى عاصمة دولة آصف جاه، بحثاً عن رعاية «النظاميين»، الأسرة الحاكمة في المدينة المغولية. من تنظيم المكان، إلى روزنامة الشعائر، ومن لباس البلاط المغولي إلى اللغة الفارسية، صاغت المثل العليا لحكام حيدر أباد وممارساتهم ومجتمعهم المسلم المتنوع حياة المدينة.

وبينما المدينة إسلامية في تقاليدھا الثقافية، وسلطتها السياسية على قوة متزايدة في جنوب آسيا القرن التاسع عشر، بدا البريطانيون، العامل المديني الجديد، الوسيلة لعرض الثغر الثقافية في تلك الهوية - أي غياب المخطط المديني الشامل - الأمر الذي سمح للسلطات البريطانية النظر إليها بوصفها مدينة من القرون الوسطى.

نظر البريطانيون إلى المدن الاستعمارية بوصفها مدناً مخططة وسكانها منظمين، في حين رأوا المدن الهندية مدناً عشوائية. وخدم النقص هذا في زعم السعي إلى إعادة تعريف الأمكنة وفق التقاليد السياسية والقيم المجتمعية التي تحتاج إليها في

(*) أستاذة مساعدة في التاريخ، جامعة كولورادو.

الدخول إلى حداثة استعمارية^(١). إن تقسيم المدن هذا إلى فئات متعارضة عصرية/ استعمارية وتقليدية/ محلية قديم قدم الجمع بين التخطيط المدني والمشروع الاستعماري؛ ومع ذلك، وبسبب طبيعة أرشيفات النصوص حول المدن، لا تزال تحليلات التنظيم المدني في حقبة الاستعمار تمتحن بمفردات العمليات الأوروبية، المرتكزة على وزارات الأشغال العامة، والأهداف الأوروبية، من مثل الصحة والضبط الاجتماعي^(٢).

هكذا، بدت المدن، مثل حيدر آباد، التي «تعصرت» في القرن العشرين وفق طرائق تخطيط أوروبية، مدناً فرعية في أحسن الأحوال^(٣). إلا أن استخدام منهجية بديلة تركز على الرعاية المعمارية لحاكم حيدر آباد منتصف القرن التاسع عشر، نظام الخامس، أفضل الدولة، سيكون في وسعها أن تقدم، بدلاً من الرؤية المدنية، أرشيفاً بصرياً بالمواد التي تتصل بالماضي ما قبل الاستعماري.

أولاً: أفضل الدولة، الرعاية، والتغير الاجتماعي

حكم نواب مير تهنته علي خان، أفضل الدولة، آصف جاه الخامس من مدينة حيدر آباد، دولة الدُكَّان التي تحمل الاسم نفسه لمدة اثني عشر عاماً بين عامي ١٨٥٧ و ١٨٦٨. كان الحاكم الخامس من سلالة مغولية حاكمة تعرف بآصف جاه، أو بـ «النظاميين» - كتعبير عاقي استناداً إلى لقبه المغولي نظام الملك - الذين جعلوا من مدينة حيدر آباد عاصمة لهم عام ١٧٧٠. وأفضل الدولة معروف في الأصل في المنشورات البريطانية

(١) انظر: V. Oldenberg, *The Making of Colonial Lucknow, 1865-1877* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984).

(٢) لأمثلة داخل التاريخ المدني، انظر: Narayani Gupta, «Military Security and Urban Development: A Case Study of Delhi, 1852-1912», *Modern Asian Studies*, vol. 5, no. 1 (1971), pp. 61-77; Ira Klein, «Urban Development and Death: Bombay City, 1870-1914», *Modern Asian Studies*, vol. 20, no. 3 (1986), pp. 725-754; Susan Neild, «Colonial Urbanism: The Development of Madras City in the 18th and 19th Centuries», *Modern Asian Studies*, vol. 13, no. 2 (1979), pp. 217-246, and Norma Evenson, *The Indian Metropolis: A View toward the West* (New Haven, CT: Yale University Press, 1989).

J. C. Masselos, «Appropriating Urban Space: أبرزها: بدأت بعض الدراسات بالعمل خارج التخطيط، *Social Constructs of Bombay in the Time of the Raj*,» *South Asia*, vol. 14, no. 1 (1991), pp. 44-67.

(٣) انظر: Thomas R. Metcalf, *An Imperial Vision: Indian Architecture and Britain's Raj* (Berkeley, CA: UCP, 1989), and G. H. R. Tilloston, «Vincent J. Esch and the Architecture of Hyderabad, 1914-1936», *South Asian Studies*, vol. 9 (1993), pp. 29-46.

في منتصف القرن التاسع عشر كـ «حليف أساسي من سلالة حاكمة ودية دائماً»، بالرغم من كونه حاكماً ذا شخصية فظة تؤمن بالخرافات^(١).

يسعى هذا الفصل إلى إعادة بناء ديناميات علاقة أفضل الدولة بالبريطانيين، ويبحث في مسألة تحالفاته، والطابع «الخرافي» لنظرته إلى العالم وعلاقتها بالتقليد الإسلامي والهندي - الإسلامي، في إطار إظهار طريقة هذا «النظام» في بناء هويته منذ منتصف القرن التاسع عشر، والمعبر عنها في الشكل المديني: كمعلم في وسع الجميع قراءته.

تزامن حكم أفضل الدولة مع انتقال رئيسي للسلطة الاستعمارية في جنوب آسيا من شركة الهند الشرقية إلى التاج البريطاني في إثر تداعيات انتفاضات عام ١٨٥٧. اعتبرت حدود الهند البريطانية حدوداً دائمة بحيث لا يكون هناك المزيد من التوسع. أما المناطق الواقعة خارج الحكم الاستعماري المباشر فقد أدخلت في علاقات رسمية جديدة مع التاج البريطاني.

هكذا أحدثت انتفاضة عام ١٨٥٧ تغييراً سياسياً مهماً في حيدر أباد المتمتعة بالحكم الذاتي، ووقعت معاهدات جديدة رسخت أول ضمانات سياسية حقيقية لسلالة آصف جاه منذ وصول البريطانيين إلى الهند في القرن الثامن عشر. وتم أخيراً ضمان عدم ضمها إلى الهند البريطانية من خلال تعيين «نظام» رئيساً لفئة سياسية حديثة التعريف، هي الدولة الأميرية. وفي الوقت الذي كانت هذه الدولة مستقلة بالاسم، استمر المسؤولون البريطانيون مع ذلك - بفعل امتلاكهم في هذا الجزء أقوى تجمع عسكري لهم في جنوب الهند - في تأدية أدوار استشارية رئيسية في شؤون حيدر أباد. لقد ارتبطت الضمانات السياسية بدعم الحكم البريطاني الجديد.

لم يكن نظام الخامس أول حاكم على حيدر أباد في القرن التاسع عشر يتمتع بضمانات سياسية وحسب، بل كان كذلك أول من أمّن بتصرفه خزينة مالية مليئة. وفي حين جعلت سنوات الدين السابقة أسلافه يبيعون للمصرفيين وارداتهم الإقطاعية

Richard Temple, *Journals Kept in Hyderabad, Kashmir, Sikkim and Nepal* (New Delhi: [n. pb.], (١) 1977), p. 72.

تسبب الممارسات الخرافية في دعمه الفقراء، وفي معارضته لحدائية الوزير سالار جنج الذي حل حكومة نظام واستبدلها بنظام يبروقراطي. انظر: General Fraser, *Our Faithful Ally, The Nizams: being an Historical Sketch of Events Showing the Value of Nizams Alliance to the British Government in India and his Services during the Mutinies* (London: [n. pb.], 1865).

فضلاً عن مجوهراتهم، كان نظام الخامس قادراً في النهاية على سدّ الديون تلك^(٥). ومن موقعه الجديد كنظام لإمارة حيدر أباد، الدَّكْن، المزدهرة مالياً، قام أفضل الدولة بأول تدخل ملكي رئيسي في شكل المدينة في ما يزيد على الخمسين عاماً، فارضاً على النسيج المدني هوية سياسية جديدة. فقد أعاد عام ١٨٥٨ تأهيل الأكواس الضخمة في قلب المدينة، تشار كمان، المشيّدة عام ١٥٩٥ كجزء من تأسيس المدينة. وبين عامي ١٨٥٩ و ١٨٦١، رعى بناء جسر له بوابة فخمة تؤدي إلى المدينة، وهي أفضل درّوازه^(٦). كما أضاف مسجداً ضخماً عند الطرف الشمالي من الجسر الجديد، وهو مسجد أفضل غنج، الذي اكتمل تشييده كما يبدو عام ١٨٦٨^(٧). كما ينسب إليه إعادة تأهيل مجمع القصر، تشاو محل، بالرغم من أنه يصعب على وجه الدقة تحديد تاريخ ذلك في خلال فترة حكمه الذي دام اثني عشر عاماً^(٨).

لا نجد في سجلات نظام دليلاً معاصراً يظهر القصد من تشييد تلك المباني^(٩). لكن في عصر كان يُنظر فيه إلى العمارة من زاوية قوتها الرمزية، ليس من المفاجئ بالتالي أن يجذب القصر والمسجد اهتمام مصادر القرن التاسع عشر المتأخرة. جعل أفضل الدولة قصره، تشاو محل، نسخة من قصر الشاه في إيران؛ ومن مسجده، مسجد أفضل كنج، نسخة لافتة عن مسجد أولى السلالات المسلمة الحديثة التي حكمت

(٥) سجلات فرايزر في ٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٦١، أقام نظام الديار في خلوات وقدم المندوب السامي البريطاني هدايا باسم الملكة، من بينها شطب دين وإعادة مقاطعتي رايشور داراسيو، وهدية من ٣٠٠٠٠ روية قُدمت كذلك إلى شمس العمرة وسالار جنغ. انظر: المصدر نفسه، ص ٣١٥.

(٦) «في حزيران/يونيو ١٨٦١، [١٢٧٧هـ] اكتمل بازار وجسر إلى نهر موسى في حيدر أباد تحت أوامر حكومة نظام وبتكلفة ١٣٠٨١٣ روية. نظام الحالي، أفضل الدولة، نظام الخامس، بدأ عهده بالأمر بتنفيذ هذه المشاريع». انظر: المصدر نفسه، ص ٣٢١.

لكن لا ذكر لها في سجلات نظام الرسمية.

(٧) كانت تنسب باستمرار. ما من دليل خارجي يؤكد هذا التاريخ، لكن يمكن أن يكون هناك بناء عُطي الآن بأشغال حديثة هو عبارة عن بناء من طابقين بالحرسانة يحيط بالباحة، ويحجب مع الأسف واجهة المسجد الأصلية. تكلفة الرعاية كانت ١٠٠٠٠٠ روية، لآك واحد.

(٨) تسمية المحال إلى الجتوب، أفضل محل، وإلى الشمال، تهته محل، في المجمع التذكاري لنظام الخامس، مير تهته علي خان، أفضل الدولة، آصف جاه الخامس. وهذا يعطي الحجة حول دوره كراع، المأخوذة من نص ليلغرامي، S. Bilgrami, *Historical and Descriptive Sketch of His Highness the Nizam's dominions* (Bombay: [n. pb.], 1883-1884).

والتي تدّعي أنه هو من أمر بترميم القصر.

(٩) ليس هناك من دليل أنه كان لأي رسمي بريطاني معاصر أي دور في مشاريع الرعاية تلك. ولو كان هناك من اهتمام من الراج البريطاني أو أي وكالة تمثله أو مقيميه في التنظيم المدني أو رموز السلطة لوجب أن تكون مسجلة. هناك توثيق لاهتمام بريطاني بترميم أضرحة غولكوندا في مقابر المدينة القديمة.

حيدر آباد، وهي قطب شاه (١٥١٨ - ١٦٨٧)^(١٠). إلا أن ذلك، وفي كلا الحالتين، هو في أحسن الأحوال نصف الحقيقة فقط. صحيح أن ميزات المبنيين تشترك وميزات مبان أخرى تعود إلى أزمنة وأمكنة أخرى، غير أنها ليست نسخاً عنها في أي حال من الأحوال. فالتفكير بهذه الطريقة يخفي فرضية أن نظاماً في منتصف القرن التاسع عشر لم يكن يمتلك غير القليل من الطاقة الخلاقة، وأن الرؤية «الإسلامية» إنما تركزت في قرون أخرى ودول أخرى^(١١). وقد آن أو أن إعادة النظر لا في المباني نفسها فحسب، وإنما أيضاً في المنظار الذي يجري تفحصها من خلاله.

ما أقترحه، هو أن مباني نظام الخامس قد استخدمت بوعي تراث المدينة المعماري، وأنها كانت تؤثر بقوة إلى الذاكرة الثقافية التي ينطوي عليها الشكل المدني. ونظراً إلى أن أفضل الدولة قد حكم في زمن اتسم بالتحول السياسي، فقد شدد على مواقع ذات فاعلية رمزية في الشكل المدني وعلى نحو يسترجع اللحظات الرئيسية الأولى في التاريخ السياسي لدولة الدكن. يمثل تشاو محل، المشيد عام ١٥٩٥، تاريخ تأسيس المدينة، مظهر الرؤية المدنية لسلالة قطب شاه الدكنية، غير المغولية. وقصر تشاو محل هو أحد أقدم القصور التي امتلكها مؤسسو سلالة آصف جاه، وهو يرمز إلى تأسيس وجود السلالة في المدينة. فالمقصورات الفردية التي أعاد أفضل الدولة ترتيبها في تشاو محل إنما هي تصاميم مأخوذة من المقر البريطاني، وهو معلم تاريخي تم شيده في منقلب القرن التاسع عشر ومثل في آن معاً تأسيس الحكم البريطاني ونهاية الاستقلالية الكاملة لآصف جاه. كان مسجد أفضل غنج مبنى حديثاً، إلا أنه صمم ليكون إحياء تاريخياً لمسجد قطب شاه الأولي داخل مجتمع آصف جاه العصري، واستخدم كسائر مشاريعه ليلعب على قوة المعالم العمرانية التاريخية في التمثيل الرمزي للهويات الجمعية. لقد خدمت هذه الأشكال كعلامات بارزة لسلطتين منفصلتين ومتعاقبتين حكمتا الدكن: قطب شاه، وآصف جاه، في جو التهديد البريطاني الضاغظ. أعادت رعاية أفضل الدولة ترجمة رمزية كل ذلك، دامجة الهويات السابقة المنفصلة ومنتقية معالم تستطيع استرجاع بنية خريطة الأصول التاريخية والتحويلات الكبرى التي قادت منطقياً إلى تشكيل هويته الجديدة كأمير لدولة حيدر آباد.

(١٠) حول تشاو محل، انظر: A. Claude Campbell, *Glimpses of the Nizam's Char mahal*, in: *Dominions: being an Exhaustive Photographic History of the Hyderabad State, Deccan, India* (Bombay: [n. pb.], 1898).

Syed Bilgrami, *Historical and Descriptive Sketch*, p. 581.

حول جامع أفضل، انظر:

(١١) كان قصره يشبه بشيء من ألف ليلة وليلة.

كانت إحدى أهم استراتيجيات نظام الخامس التخفيف من قوة الحكم البريطاني، وزيادة قوة سلطته هو، من خلال السيطرة على الماضي وبناء هوية جديدة للسلالة الحاكمة. لكن لفهم أفق عمل هذا الراعي الأميري، يجب عدم النظر إلى مشاريع أفضل الدولة كمعالم منفصلة، وإنما كتنظيم مدني متكامل وإبداعي.

أحيث أعمال أفضل الدولة الجديدة حضور السلطة التي يرمز إليها الإرث الثقافي في تعبير جديد عن هوية آصف جاه السياسية التي غيّرت انتسابه من المغول إلى زعم جديد بامتلاك جذور في الدُّكْن. كما أن وضعه تلك المباني في تسلسل خطّي جديد أعاد تأطير المواقع التي رمزت إلى التنافس بين السلطتين البريطانية والحيذر أبادية المتنافستين في دبلوماسية أوائل القرن التاسع عشر. وما تصميمه لثلاثة مشاريع بناء رئيسية إلا إعادة تشكيل للمكان المدني، بهدف التأشير إلى تراتبية سياسية مستقبلية للسلطة في حيذر آباد، حيث نظام هو رأسها بوضوح. تلاعب أفضل الدولة بالمكان والشكل ليمثلاً معاً المقيم البريطاني ووزير نظام كليهما - جاعلاً نفسه وسيطاً قوياً بين هاتين السلطتين السياسيتين المتعارضتين، المرتبطتين بالمركز الملكي بطرائق مختلفة.

هكذا، عمل التصميم على تقديم تاريخ جديد لهوية سياسية جديدة. كانت العلاقات الشعائرية بين المباني تعبّر على نحو سردي عن هويته الجديدة من خلال الطريقة التي جرى فيها تنظيم المواقع التاريخية في ممار طقسية جديدة لدبلوماسية آصف جاه - بريطانيا. استخدمت رعايته المعمارية، في آن معاً، العمليات والرموز التي كانت تتصل بصورة واضحة بالتقاليد في العالم الإسلامي والتي جرى تصويرها بميزان مدني. وحين يجري تحليلهما معاً، في سياقهما المدني، سيتضح أنهما هدفاً برأبي إلى تقديم تنظيم مدني غير من مدينة مغولية وفق التصور الاستعماري لجعلها عاصمة دولته الأميرية الحديثة.

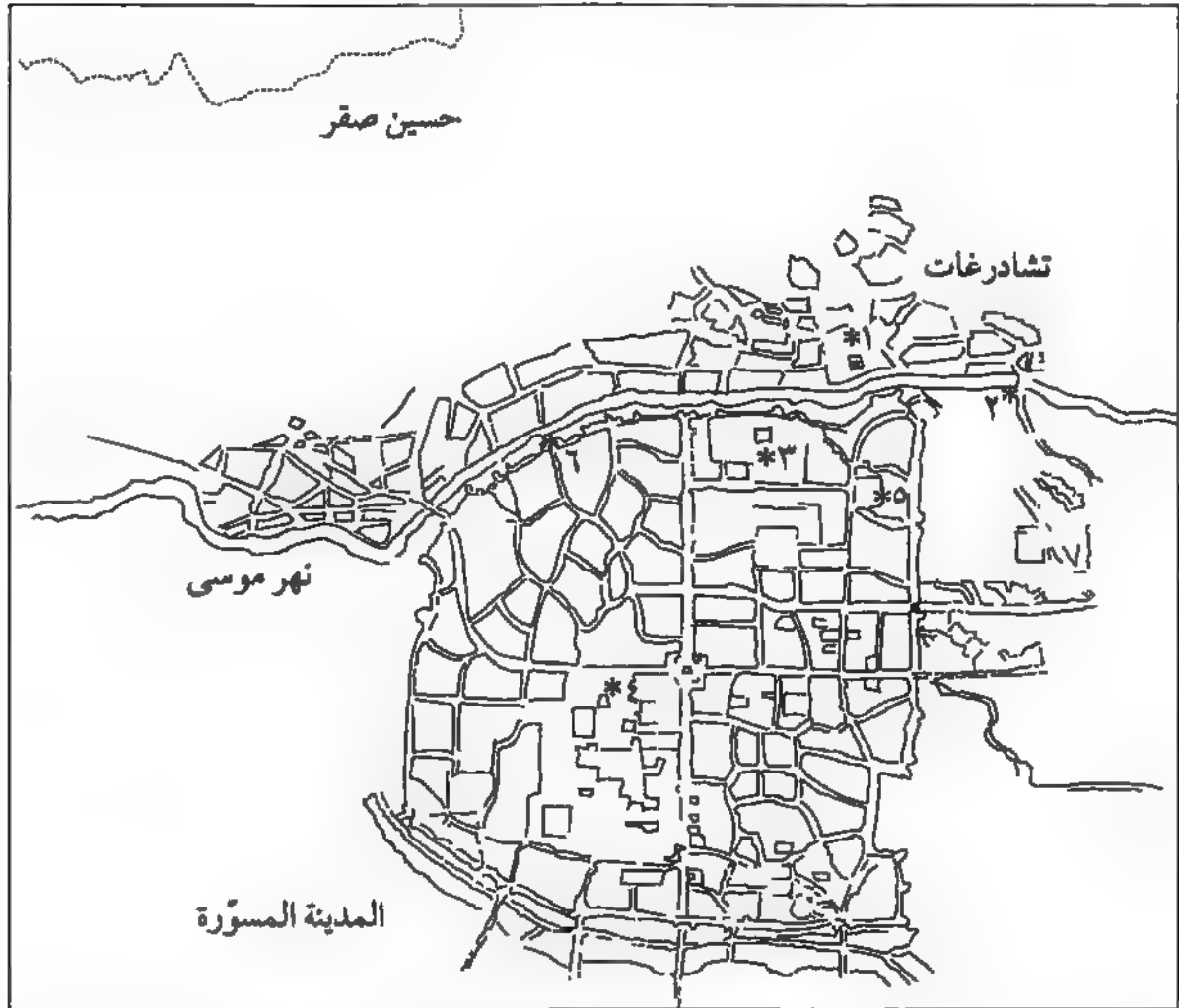
ثانياً: «النظاميون»، البريطانيون،

وسياسات الهوية المغولية قبل عام ١٨٥٧

بدأت حيذر آباد في أوائل القرن التاسع عشر، من فوق، مثل أي مدينة استعمارية (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ١)). وبالرغم من أن المدينة لم تكن مستعمرة، فقد أنشئ معسكر عند الضواحي الشمالية للمدينة بعد التوقيع عام ١٧٩٨ على التحالف الملحق

الذي يضمن بقاء جيوش بريطانية «الحماية» حيدر أباد^(١٢). وبين عامي ١٨٠٣ و ١٨٠٨، بُني قصر رسمي ضخم كان بمثابة مركز إداري بريطاني عند طرف المدينة الأصلية المسورة. وما عناه المعسكر بالمفردات العسكرية، أكدّه المقر سياسياً؛ فقد دخلت المدينة في نظام سياسي مشترك بين المقيم والحاكم، وهو ما ميّز نظام استعمار أطراف الهند في القرن التاسع عشر^(١٣).

الرسم الرقم (٢٤ - ١) المراكز الدبلوماسية قبل العام ١٨٥٨



- ١ - المقر البريطاني في تشاردغات؛ ٢ - جسر تشاردغات ١٨٣١؛ ٣ - ديوان ديودي؛ ٤ - قصر نظام في موتيغالي؛ ٥ - حويل بوراني؛ ٦ - بوابة دهي.
- خريطة المدينة استناداً إلى شغل س.بي. شوري على «خريطة حيدر أباد وإسكندر أباد حوالى العام ١٨٤٥ ميلادي» من المجموعات المنشورة حديثاً لشاه منصور علم.

(١٢) انظر: Sarojini Regani, *Nizam British Relations, 1724-1857* (Hyderabad: [n. pb.], 1963).

(١٣) مثل مقار أخرى، كلاكتو.

شكل المقر في صورته ووظيفته تمثالاً لتأسيس السلطة البريطانية في حيدر آباد
(انظر الرسم الرقم (٢٤ - ٢)). فالقسم الخارجي، بسلمه الضخم الموصل إلى رواق
كلاسيكي مجدّد، يشبه إلى حد بعيد المبنى المركزي لقصر نائب الملك في كالكوتا،
مقر الحكومة، الذي ارتكز بدوره على قصر كدليستون في إنكلترا^(١٤).

الرسم الرقم (٢٤ - ٢)
المقر البريطاني في تشادراغات، الواجهة الشمالية



المصدر: Claude Campbell, *Glimpses of the Nizam's Dominions: Being an Exhaustive Photographic History of the History of the Hyderabad State, Deccan, India* (Bombay: [n. pb], 1898).

(١٤) Sten Nilssen, *European Architecture in India, 1750-1850* (New York: Faber and Faber, 1968), pp. 101-104.

وبمفردات إمبراطورية، كان الطابع الصرحي لهذا النسق المعماري لمبانٍ مشابهة للأصل البريطاني عملاً سياسياً قوياً من الدرجة الأولى يجلب الإرث الثقافي الأرستقراطي الذي أرساه الإنكليز في القرن الثامن عشر ليحكم توسع السلطة البريطانية في الهند^(١٥). وكما لو كان تأكيداً على ارتباط مبنى المقيم بالجغرافيا الثقافية للهند البريطانية كان هذا المبنى موجهاً ناحية الشمال باتجاه معسكر الجنود الذي تقوده بريطانيا المتمركز في معسكر إسكندر آباد الجديد، وشمالاً عموماً باتجاه مقر السلطة البريطانية أي كالكوتا.

كان لمدينة حيدر آباد القديمة عدة طبقات متنوعة من التاريخ السياسي الهندي - الإسلامي المظمور في مبانيها^(١٦). كانت المدينة مسلمة في الأساس من حيث ديمغرافيتها وإسلامية من حيث تنظيمها المدني وإرثها الهندسي. كما كانت مدينة مخططة تم تأسيسها عشية ذكرى الألفية الإسلامية في عام ٩٩٩هـ / ١٥٩١م على يد قطب شاه، وهي سلالة حاكمة مسلمة شيعية من الدكن تمكنت الجيوش المغولية من التغلب عليها في القرن السابع عشر^(١٧). تم دمج المدينة بعنف بالإمبراطورية المغولية كعاصمة إقليمية بينما بدأت تلك الإمبراطورية بالتفكك. تلا ذلك نصف قرن مضطرب من صراعات سلطة ما بعد المغول أعلن خلالها الحاكم المغولي نظام الملك، آصف جاه الأول، استقلاله عن دلهي عام ١٧٢٤. وفي عام ١٧٧٠، اعتمد خلفه نظام الثاني حيدر آباد كعاصمة لسلالته بالرغم من اختياره العودة إلى طلب دعم الإمبراطور المغولي بالاسم للشرعية السياسية.

استخدمت سلالة آصف جاه في القرن الثامن عشر، بوصفها سلالة حاكمة خليفة للمغول لا تزال مرتبطة بشدة بدلهي، مجمعات القصور ذات التصميم المغولي لطقوسها السياسية السابقة. تألفت قصورها من سلسلة طويلة من أفنية خاصة متزايدة تؤدي إلى أجنحة قصر فردية. إن التصميم المغولي من جلو خانة إلى خلوت خانه قد حدد مركزه الملوكي في منطقة موتيغالي الواقعة جنوب غرب المدينة المسورة. وفي القرن الثامن عشر كانت المدينة المسورة مركز الجغرافيا المدنية وكان مركز قوة نظام بالفعل مشرعاً من خلال وضعه إلى جانب مسجد جامع في المدينة، مسجد

(١٥) «بالتأكيد ليست مصادفة أن المقر في حيدر آباد يسترجع بالتفصيل كما في الصورة المعمارية العامة بيت الحكومة الحديث في كالكوتا»، في: المصدر نفسه، ص ١١٣ - ١١٤.

(١٦) جرى بناء المقر وضاحيته في تشادراغات كحي للمصريين والمهاجرين الذين كانوا تحت رعاية وحماية بريطانيا.

Anon, Notes on the Hyderabad Residency ([n. d.]), p. 5.

(١٧)

مكة حيث كانت تقرأ الخطبة باسم الإمبراطور المغولي الذي استمرت سلطته الثقافية باستعماله اللقب الملكي على النظامين المستقلين القائمين فعلاً. ولكن إنشاء المقر البريطاني في بداية القرن التاسع عشر أعاد تشكيل القوى المحركة للمساحة المدنية المغولية هذه.

بينما شكّل دار المندوب السامي بصرياً معلماً يمثل السلطة البريطانية في المنطقة، فقد تم تخطيطه لينضم أكثر فأكثر إلى سرديّة أوسع لهوية محلية من خلال موقعه في المدينة، عبر الشعائر والجغرافيا. وبسبب اتجاه المبنى نحو الشمال، بينما تتجه حيدر آباد نحو الجنوب، كان دخول الزائرين وخروجهم من المجمع يتم عن طريق ما يمكن اعتباره الجزء الخلفي من المبنى (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ٣))^(١٨).

الرسم الرقم (٢٤ - ٣)
مدخل مقر تشادرغات من ضفة النهر (جنوب)



المصدر: R. M. Grindlay's Scenery, Costumes and Architecture (London: [n. pb.], 1826 - 1830).

كان الدخول إلى المجمع من الجهة المواجهة لنهر موسى يعني أن الوصول إلى قاعة الدريار يقضي بضرورة تجاوز المرء جناح الحريم، والمطبخ أو مكاتب الخياطين

(١٨) ينحو البيت الحكومي في كالكوتا شمالاً أيضاً، ولأسباب مناخية على الأرجح. انظر: Nilssen, *European Architecture in India, 1750-1850*, pp. 114-115.

وجرى الاحتفال به من خلال البوابة الضخمة «المستعارة» من بوابة البيت الحكومي، زينت من البريتيش ليونز، وبنيت في حديقة المقر.

والغساليين^(١٩). ارتكز بلاط نظام على تقاليد المغول المتعلقة بالمحاور والنظرات، حيث المداخل والممار الرسمية سمات رئيسية في ممارسة السلطة السياسية^(٢٠).

ومن خلال علاقة الشكل بالموقع، كان يمكن للصراع على السلطة السياسية بين البريطانيين والنظاميين أن يجري على مسرح ثقافي كما كان يجري في الساحات السياسية العلنية.

لم يشيّد النظاميون في أوائل القرن التاسع عشر أي مبنى جديد خاص بهم لينظر الوجود البريطاني؛ بل ركزوا بدلاً من ذلك على التشريفات الشعائرية للسلطة في شكلها المدني. لقد تغيرت هوية مدينتهم المسورة، إذ أصبح مجالها بأكمله جزءاً قابلاً للتحديد مادياً وثقافياً في جغرافية مدنية أوسع في الوقت الذي كانت المدينة تنمو باتجاه مختلف تماماً على الضفة الشمالية لتشاردرغات^(٢١).

باتت المدينة المسورة مرتبطة بالبلاط أكثر فأكثر، عبر أبنية ثقافية من الزمن الديني والسياسي. أما نظام الثالث ونظام الرابع فقد جعلا الدربار الخاص بهما، حيث تقديم النذور ومنح الألقاب أثناء إقامة الاحتفالات، وفق التقويم الديني الهندي - الإسلامي: عيد الفطر، وعيد الأضحى، والنوروز، واحتفال الباسانت الهندي^(٢٢). كما أقاما عرضاً رسمياً مدنياً سنوياً في المدينة القديمة، موكب لانغار، في الخامس من محرم، مرتبطاً بالطقوس الشيعية التي تحيي ذكرى عاشوراء بعد خمسة أيام^(٢٣).

(١٩) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٢٠) Gulru Negopoglu, «Framing the Gaze in Ottoman, Safavid, and Mughal Palaces,» *Ars Orientalis*, vol. 23 (1993), pp. 303-326.

ويمكن ملاحظة استمرار التقليد المغولي من خلال تنظيم القصور في حيدر أباد تحت الأحكام المغول في غولكوندا، نو محل، وفي المدينة القديمة مجتمع جلوسخانة للنظام، كما في استمرار دربار المغول وتنظيمهم الرسمي للمكان.

(٢١) Alison Mackenzie Shah, «Mapping Space, Mapping Identity: Imagining Hyderabad's Walled City in the 19th century,» *Marg*, vol. 56, no. 1 (2004), pp. 50-60.

(٢٢) يقوم هذا على احتفالات البلاط المغولي كما الدكني ويتضمن أعياد المسلمين المهمة كما النوروز الفارسي والباسانت (الربيع) الهندي. انظر: S. Naqvi, *Muslim Religious Institutions and their Role under the Qutb Shahs* (Hyderabad: [n. pb.], 1993).

هذه الاحتفالات كانت تجري تحت حكم عدّة حكام وسلالات، لكن نظامي القرن التاسع عشر كانوا أول من أقام تلك الاحتفالات المختلفة معاً.

(٢٣) ينبع هذا الاحتفال من وعد قطب شاه لير عالم، لكن تنفيذ الاستعراض من أجل «سلامة الشاح» كان اختراعاً من أصف جاه. انظر: Alison Mackenzie Shah, «Constructing a Capital on the Edge of the Empire: Politics and Urban Patronage in the Nizams' Hyderabad, 1750-1950,» (Ph.D. Dissertation, University of Pennsylvania, 2005).

ومن خلال هذا الدمج بين الروزنامتين الرسمية والدينية، ضم نظام الثالث ونظام الرابع الإيqaاعات الثقافية لحياة المدينة القديمة إلى التشريقات الاحتفالية للسلطة الملكية^(٢٤). وفي حين نجحاً بنسج البلاط مع الحياة المدنية، فقد ساعداً أيضاً على رسم حدود سلطة «نظام» في جغرافية مادية، حيث الطقوس والاحتفالات كانت ترتبط أساساً بالتقويم الإسلامي.

وبدأت أسوار المدينة وصفة النهر الجنوبية بفرض الحدود الثقافية للسلطة المتهاوية لـ «نظام». وبالرغم من تزايد قوة الوجود البريطاني في الدكن في أوائل القرن التاسع عشر، فقد ركز النظاميون من وجهة دفاعية على الاحتفالات السياسية المغولية لتقليص الوجود البريطاني رمزياً، ومن خلال عمليات دبلوماسية داخل الجغرافيا المدنية الأوسع للمدينة.

أقام نظام الثالث (١٨٠٣ - ١٨٢٩) ونظام الرابع (١٨٢٩ - ١٨٧٥) وعلى نحو شعائري، درباريهما وجمهورهما واستقبالاتهما، في عدة قصور مدنية، مثل حويل مانجلي بيغم، وقصر خوابگاه، وقصر رغبمالا، وروشان محل، ومحال أخرى داخل المركز الملكي وحوله، فضلاً عن قصور نبلاء المدينة وحويل بوراني، وهو قصر تم شراؤه في الحي الشيعي القديم بالقرب من منزل مير عالم^(٢٥) (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ١) #٥). وهما غالباً ما تركا المدينة المسورة لتمضية الوقت وإجراء مقابلات في حدائقهما الخاصة في ضواحي المدينة، ولكنهما نادراً ما غادرا المدينة لزيارة مقر تشادركات - وهي مهمة تركت لممثلهما الدبلوماسي، الوزير.

جرى إظهار الصلة المغولية بصورة واضحة ليس بالشعائر الشعبية فقط، وإنما بالموكب أيضاً. فقد اعتاد نظام الثالث مغادرة المدينة إلى دلهي دروازته (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ٢٤))، في مناسبات سياسية - لتلقي الفرمانات من دلهي، أو لزيارة دار المندوب السامي البريطاني، أو لمرافقة مندوب سام جديد إلى قصر نظام^(٢٦).

لإعطاء تعريف حول لانجار، انظر: Central Records Office, *Chronology of Modern Hyderabad, from 1720-1890* (Hyderabad: [n. pb.], 1954), glossary, 8-9.

(٢٤) احتفل النظاميون بأربع درباريات في السنة كانت تقدم النذر خلالها إلى نظام، والألقاب إلى الحاشية، أعياد الأضحي، الفطر، النوروز، والباسانت لاحقاً. انظر: المصدر نفسه، ص ٣.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٦٥، ١٦٩، ١٩٤، ٢٤١-٢٤٣، و٢٤٦-٢٤٧.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١١٧، ١٢٢ و١٧٦.

كانت دلهي دُرّوازَه بوابَة تقع على مسافة ما من دار المندوب السامي وتتطلب خوض نهر موسى على ظهور الأفيال (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ١) #٦٧)^(٢٧).

الرسم الرقم (٢٤ - ٤)

بوابَة دلهي



Campbell, Ibid.

المصدر:

كان المسار غير مباشر على نحو واضح، ويبدو أنه اختير في الأساس لاتجاهه الرمزي نحو دلهي المغولية. كان يجري التفاوض على تخم المدينة - ذلك المكان الانتقالي الحساس الذي يفصل مدينة «نظام» القديمة عن الضاحية البريطانية في

(٢٧) «دلهي دُرّوازَه»، في: المصدر نفسه، كرونولوجي، ص ١١٧ (٢٠ أيار/مايو ١٨٠٨).

تسمية البوابَة كدلهي دُرّوازَه عبر شبه القارة نحو دلهي العاصمة الإمبراطورية. مدخل تشادراغات إلى النهر، وموكب نظام من الشرق يظهر في: R. M. Grindlay's *Scenery, Costumes and Architecture* (London: [n. pb.], 1826-1830).

تشادرغات - وعبر دلهي، التي كان عليها أن تحمل السلطة الرمزية للعاصمة المغولية الشمالية، وليس عبر المسؤولين البريطانيين المحليين في المنطقة المجاورة. وبعد زيارة دار المندوب السامي، كان نظام يكمل طريقه إلى ممتلكاته الخاصة الواقعة وراء المقر في حلقة الصيد الملكي وممتلكات الحدائق المحيطة بالمدينة^(٢٨). لم يعتبر نظام قط المقر البريطاني وجهته الأخيرة، بل كان مجرد محطة في جغرافية ثقافية أوسع لممتلكات السلالة المغولية الحاكمة.

بقي دار المندوب السامي موقعاً لرمزية سياسية ملتبسة، إذ لم يزر نظام الثالث (١٨٠٣ - ١٨٢٩) هذا المقر إلا مرة واحدة فقط. وعندما حدث ذلك، جاء التفاعل غامضاً كغموض عملية بناء بيان القوة. فقد قَدَّم البريطانيون إلى النظام كـ «نذر» العناصر التي يمكنه بواسطتها تنفيذ التدريب بالأسلوب المغولي، مع جواهر وملابس مطرزة بالذهب. غير أن نظام لم يقدِّم في المقابل شيئاً إلى المقيم أو المسؤولين البريطانيين الموجودين، بل أخذ على العكس الجواهر المقدمة إليه ومن ثم منحها كهدايا لرجال حاشيته المرافقين له. تروي المصادر طبيعة علاقات القوة بين نظام والبريطانيين في شكلية الصراع على السلطة من خلال الاشتراك الرمزي لرجال حاشية نظام، لكن الاحتفال لم يخرج ليشمل الرسميين البريطانيين.

كانت مساهمة نظام الرابع (١٨٢٩ - ١٨٥٧) أكثر جوهرية في شكلية علاقات القوة بين القصر والمقر البريطاني. فبعد سنوات من خوض البريطانيين للنهر الضحل على ظهر الأحصنة من أجل الوصول إلى المدينة لإجراء مقابلات مع وزراء وممثلين، منح نظام الرابع إذناً لبناء جسر عام ١٨٣١ يربط بين البوابة الخلفية للمقر والضفة الجنوبية لنهر موسى خارج الأسوار باتجاه شرق المدينة (الرسم الرقم (٢٤ - ١) #٢). وقد عزز ذلك التوجه السياسي لدار المندوب السامي. قَدَّم هذا الجسر طريقاً عملياً باتجاه حيدر آباد رابطاً المركز البريطاني بالضفة الجنوبية للنهر على نحو مباشر ولكن غير مباشر إلى المدينة المسورة. وتطلب هذا المسار من المسؤولين البريطانيين دخول المدينة عبر بوابة تشادرغات مروراً بالأحياء السكنية للمدينة حيث تشكل الأسوار الخارجية المرتفعة المستوية لقصور المدينة والمحال المجاورة الصغيرة صفّاً على طول الطريق. لم يكن هناك من جادة لمواكب كبيرة تدل على شراكة سياسية؛ كان طريق جسر تشادرغات أقرب إلى مدخل للخدام نحو المنزل المدني للنظام.

أثبت مقر المندوب السامي بوصفه رمزاً لاستمرارية القوة البريطانية في حيدر أباد أنه مبنى غير مرحب به من خلال اضطراب نظام إلى المناورة في سبيل ترسيخ هويته وإنشاء سلطته في مناخ سياسي غير مؤات مطلع القرن التاسع عشر. وليس من المفاجئ أن إحباطات نظام السياسية والمالية استمرت بالتفاقم حول المبنى، بحيث انتهى إلى حال من التدهور الخطير. أجريت عمليات ترميم أساسية للمبنى عام ١٨٢٦، غير أن المقيمين البريطانيين كان يزداد سخطهم لضرورة توسل نظام للحصول على أموال من أجل ترميم قصرهم. عام ١٨٣٣، اقترح على نظام ترك مقر تشادرغات و«اللجوء إلى مقر أكثر تواضعاً يقع على مسافة أبعد من المدينة»^(٢٩).

وقد تم شيد جناح أكثر تواضعاً في الجانب الشمالي لبحيرة حسين صقر في بولارم لأهداف إدارية. ومع ذلك، بقي مقر تشادرغات المهجور جزءاً مهماً من المدينة الناشئة ومثل الوعد بالحكم البريطاني على المنطقة، الذي قَدّم أمواله وضرائبه وجنوده لحماية جماعة نامية من المصرفيين البريطانيين والبارسيين والمرواريين الذين كانت قروضهم تموّل - أو على الأرجح تفلّس بشكل أدق - حكومة نظام. مع إضافة الحداثق العامة ذات الأسلوب الأوروبي عام ١٨٤٠ وانتهاء شيد كنيسة القديس جاورجيوس عام ١٨٦٠، طوّرت الضاحية نسيجاً مختلفاً جداً، إذ شيدوا وحضروا في قلب حيدر أباد، المدينة المسورة القديمة الواقعة في جنوب النهر.

مثّلت ضفتا النهر بشكل متزايد منطقتين ثقافيتين مختلفتين وسلطتين سياسيتين مختلفتين. لكن نوع الشعائر السياسية التي ربطت بين القصر الملكي والمقر في النصف الأول من القرن التاسع عشر هدفت أساساً إلى التشويش على علاقة التبعية بين نظام والبريطانيين، بحيث بات دور ديوان نظام كوسيط سياسي حاسماً. وبينما لم يكن مركز الوزير وراثياً، فإن عائلة مير عالم الممتدة كانت تتولى موقع الديوان خلال معظم سنوات القرن التاسع عشر^(٣٠). كما كان الوزراء ينجزون مهماتهم من قصرهم، ديوان ديودي، حيث نشأ جزء مركزي ثالث للسلطة في نظام القرن التاسع عشر السياسي ذاك (الرسم

Anon, *Notes on the Hyderabad Residency*, p. 3.

(٢٩) انظر:

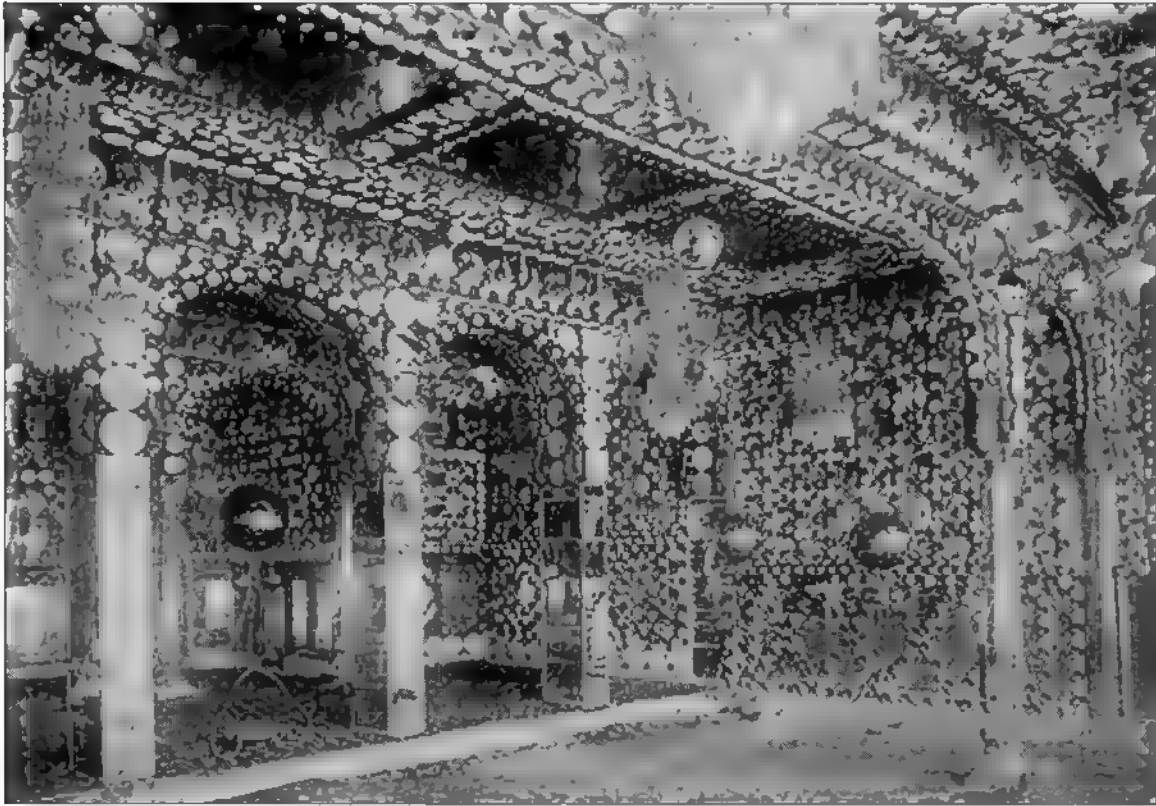
الأسباب التي أعطاها لاقتراحه كانت تكاليف صيانة البناء الرامن، حيث إن قرية من المدينة جلب الفساد للعمال وعرض السكان للخطر من الجنود، ثم يعتبره لاحقاً غير مرغوب أن يكون المقر قريباً جداً من بلاط جلالته.

(٣٠) مير عالم (ديوان، ١٨٠٤ - ١٨٠٨)؛ صهره منير الملك (١٨٠٩ - ١٨٣٢)؛ ابنه سراج الملك (١٨٤٦ - ١٨٤٨، ١٨٥١ - ١٨٥٣)، ابن أخته مير تراب علي خان، سالار جنغ الأول (١٨٥٣ - ١٨٨٣)، ابنه مير لايك علي خان، سالار جنغ الثاني (١٨٨٤ - ١٨٨٦)، ابنه مير يوسف علي خان، سالار جنغ الثالث (١٩١٢ - ١٩١٤).

الرقم (٢٤ - ١) #٣). وهذا يعني، كالبريطانيين ومعتمدتهم، أن دور الوسيط بات مرتبطاً بمركز أوحد حصراً.

طوال مطلع القرن التاسع عشر، أعطي الشكل البصري للقصر موقعاً مركزياً في علاقات القوة بين حاكم حيدر أباد والمندوب السامي. ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، عام ١٨٣٠، كافح الوزير منير الملك ضد رسميين آخرين في حيدر أباد لإنشاء الديوان، كقناة تواصل وحيدة بين المقيم والحاكم، وضم بعض المقصورات الخلاقة على نحو استثنائي. وضمت تلك قاعة تشيني خانة الشهيرة (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ٥)) التي غطيت جدرانها وسقفها بفناجين وصحون إنكليزية مستوردة، وعينة خانة التي ملئت بمرايا مستوردة (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ٦)).

الرسم الرقم (٢٤ - ٥) تشيني خانة، ديوان ديودي



المصدر: المصدر نفسه.

وفي الأربعينيات، كان دور الوسيط كلياً في أيدي عائلته، وتأسس بالتالي دور ديوان ديودي كمركز للسلطة. وكانت القاعات، في عرضه لأشكال معمارية مدنية قديمة مليئة بسلع بريطانية، إنما تفصح عن الهوية السياسية الراهنة للأطراف المستعمرة.

وبفرض سلع مستوردة من شركات بريطانية في مقصورات حيدر آباد، فقد كانت تعبّر عن الطريقة التي جرى بها ملء سلطة نظام بمستشارين بريطانيين ومن خلال الوزير.

الرسم الرقم (٢٤ - ٦)
عينة خانة، ديوان ديودي



المصدر: المصدر نفسه.

مع انسحاب المقيمين البريطانيين من مقر تشادرغات وبعدها أو شك نظام على الإفلاس كلياً، خلا هذا الموقع على الأرجح من أي تعبير عن قوة حيدر آباد. وعليه غدا ديوان ديودي الخاص بمنير الملك مركز قوة مقترحاً للمدينة المسورة يتنافس فيه مع قاعات دربار نظام. أدى غياب الدربار والشعائر الطقسية إلى تعقيد فرص نجاح الميول القوية لاستمرارية سلطة نظام السياسية التي كان يصنعها من خلال تشكيل المكان المغولي والطقوس، وفتحت الطريق أمام سياسات ثقافية ومحلية طبعت الصراع المثلث على السلطة الذي غلب على المدينة في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

بحلول منتصف القرن التاسع عشر، بات للمدينة عدة معالم تمثل علاقات القوة بين نظام، والمقيم، ووزرائه الوسطاء، التي أظهرت معاً وعلى نحو رمزي حدود سلطة آصف جاه السياسية. فالمدينة بيلاطها الهندي - الفارسي من جهة، وديوان ديودي

الخاص بالوزير من جهة أخرى، وضاحية تشادراغات بوافديها المصرفيين التجار من غير المسلمين، كان هؤلاء جميعاً وعلى نحو مرثي غير مترابطين ويمثلون صراعات السلطة السياسية التي فرضها وصول المقر البريطاني. ولم تكن مواقع السلطة تتباين بالاعتماد على موارد ثقافية مختلفة فحسب، بل كانت منفصلة في شعائرها أيضاً، إذ كان لكل من نظام والمقيم طريق مختلف بين المواقع.

وليس من الغريب أن يكون نهر موسى قد أمّن حداً طبيعياً سهلاً حافظ على التمايزات الثقافية بين المدينة القديمة الإسلامية والضاحية الجديدة التي كانت تنمو في رعاية المقر البريطاني. وقد اعتقد المسؤولون البريطانيون المحليون وحاشية حيدر آباد بأن نظام قد يجشو أخيراً أمام الملحقة البريطانية كما فعلت دول أخرى في شبه القارة الهندية. وكما ذكر أحد المراقبين البريطانيين المحليين عام ١٨٢١: «إن إقامة تحالف معنا (البريطانيون) على النظام الفرعي سيؤدي على نحو محتم إلى التدمير المطلق للدولة التي تشملها»^(٣١).

ومع ذلك، تضمنت المواكب الشعائرية بين المواقع سرديّة للنظاميين كانت تهدف إلى تقليص موقع المقر كرمز لتأسيس السلطة الجديدة. وفي حين لم يحصل البريطانيون على أي وضع في ممارهم إلى مدينة نظام، تضمنت الموكب باتجاه المقر احتفالات مهمة ربطت نظام بدلهي المغولية، في الطرق فوق النهرية عبر بوابة دلهي، ودربار مغولية كانت تقام في المقر عندما يزورها نظام. ولأن المقر لم يلق وضع نقطة النهاية، فإن الشعائر السياسية التي ربطت بين هذه المواقع في النصف الأول من القرن التاسع عشر بقيت تشوش شعائرياً على أهمية البريطانيين وتنكر دور المقر كرمز في تأسيس السلطة البريطانية، وتحويله بدلاً من ذلك إلى موقع آخر لدربار نظام. وبحلول عام ١٨٤٠ أخلي المبنى، في الواقع، وترك عن قصد بحالة خراب ليكذب بصرياً أي فكرة عن تأسيس سلطة بريطانية تشكّل بداية لسلطة سياسية قوية وصاعدة.

ثالثاً: أفضل الدولة والدولة الأميرية

عام ١٨٥٧ عندما اعتلى أفضل الدولة العرش ليغدو نظام الخامس، عكست الجغرافيا السياسية لحيدر آباد عدم الارتياح الذي تسبب به التحالف غير المرغوب

H. Russell, *A Sketch of the Proceedings Connected with Certain Pecuniary Transactions of* (٣١) *Mssrs, Palmer and Co. with the Government of His Highness the Nizam* (London: Allen and Unwin, 1825), p. 18.

فيه من أسلافه مع البريطانيين. فإضافة إلى رموز السلطة المدنية من مثل إعلان اسم الإمبراطور المغولي في الخطبة، ووضع الاسم على النقد المعدني، واستمرار شعائر البلاط المغولي في القصر، احتفظ النظاميون بالعديد من رموز السلطة التي تعود إلى الإرث الحديث المبكر والتي أصبحت ثقافياً جزءاً لا يتجزأ من مشهد السلطة المتغير بسرعة. عام ١٨٥٨، وبعد أن خلع البريطانيون آخر إمبراطور مغولي وأرسلوه إلى المنفى في بورما، استلزم الأمر إعادة التفكير في السلطة التي أوجدها النظاميون من خلال اعتمادهم شعائر الإرث الثقافي المغولي^(٣٢).

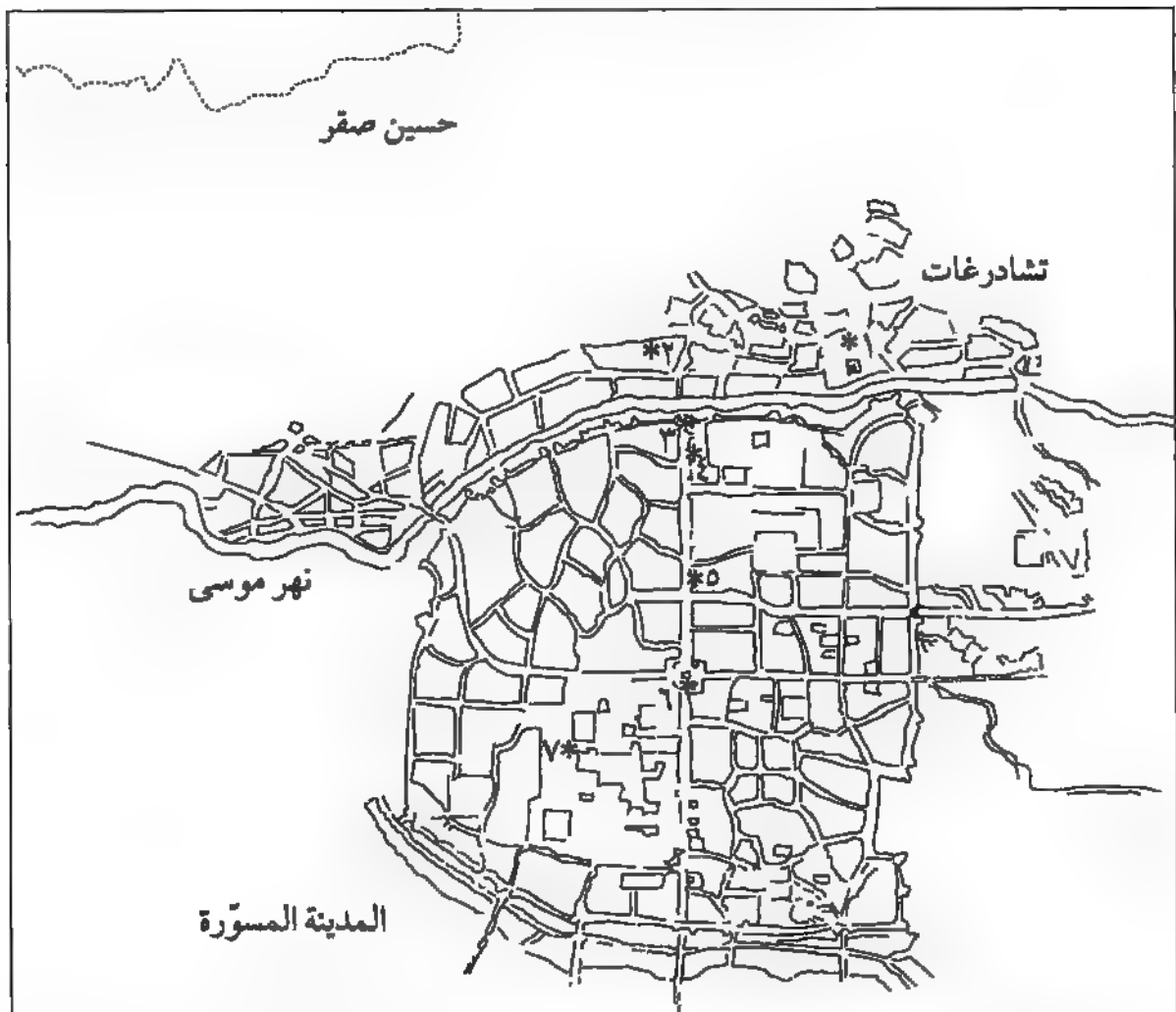
وقد رد نظام أفضل الدولة ببيانات مرئية عبرت عن أيقونة جديدة لسلطة الدّكن الحديثة بمفردات هندية - إسلامية. لقد جرى ضمان سيادة الدولة على الشؤون الداخلية فقط، وارتكزت على استمرار دعم التاج البريطاني لها. استخدمت رؤية أفضل الدولة الإرث المدني ليعبر في آن عن طبيعة الشراكة الإلزامية مع التاج البريطاني وعن استقلالية آصف جاه. وقد جرى إظهار هذه النقطة في خطاب ثقافي استند إلى تصميم فارسي للقصر، ومسجد، ومجموعة تقنيات بناء حددت هوية إسلامية حديثة.

إن تركيز نظام الخامس على القصر والمسجد قياسي تقريباً، ولا سيّما في المباني القابلة لإظهار الحكام المسلمين سلطتهم السياسية منها على أولئك الذين يحكمونهم كما على نظرائهم. ومع ذلك، فقد شكل كلاهما مع الجسر بنية مدنية، مجذرة محلياً، وقوية، تعكس صورة الحاكم وتؤكد موقع المدينة العاصمة كرمز لهوية نظام. لم يعلن القصر والمسجد والجسر عن مستقبل جديد للسلالة الحاكمة فحسب، بل اقترحت ماضياً جديداً أيضاً، مضيئة معالم جديدة غيرت دفعة واحدة تراث السلالة وأعادت كتابة أدوار المعالم المبكرة للسلطة السياسية عبر وصلها وربطها معاً بطرق جديدة^(٣٣)؛ ووحدت، في الوقت عينه، المدينة الكبرى - المدينة المسورة وضواحيها الشمالية - بصورة أوضح في ظل نظام، وسلطته الثقافية الهندية - الإسلامية، بإنشاء مواقع نقلت رموز السلطة من ضفة في النهر إلى الضفة الأخرى (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ٧)).

(٣٢) كان البريطانيون سريعين في التكيّف مع التراث الثقافي المغولي كهوية لهم. انظر: B. Cohen, «Representing Authority in Victorian India», in: Eric Hosbawn and Terence Ranger, eds., *The Invention of Tradition* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1983), pp. 165-210.

(٣٣) ارتبط قصر تشاو محل وتطور مجمع مسجد أفضل غنج بقوة تحت مظلة الرعاية التي شكّلت المدينة في بعثها من جديد كمقرّ لسلطة سلالة قوية. سابقاً، كانت الرعاية جزئية، غير أن أفضل جلب مجمّعاً مخططاً وسردية كاملة من خلال المكان وحركة شعائرية مع ارتباط بالأجزاء المدنية: جرى تخيل المدينة كوحدة موحدة تحت رعايته.

المراكز الدبلوماسية بعد ١٨٦٨



١ - المقر البريطاني في تشاد رغات؛ ٢ - مسجد أفضل غنيج؛ ٣ - جسر أفضل / بوابة أفضل؛ ٤ - مدخل ديوان ديودي؛ ٥ - تشار كيان؛ ٦ - تشار ميتار؛ ٧ - قصر تشاو محل.

خريطة المدينة استناداً إلى شغل س.بي. شوري على «خريطة حيدر آباد وإسكندر آباد للعام ١٨٤٥ ميلادي»، من المجموعة المنشورة حديثاً لـ «منصور علم».

جاء أولاً بناء جسر جديد. فبالرغم من نمو المدينة المسورة باتجاه الشمال بقيت المدينة المسورة مستقلة، بجادتها الشمالية - الجنوبية الأساسية التي تنتهي عند ضفة النهر، وجرى ربط الضواحي الشمالية بالمدينة فقط عبر جسر تشادرغات في الشرق والجسر القديم، بورانا پُل، بعيداً باتجاه الغرب. تمثل المشروع الأول لأفضل الدولة بتوسيع الجادة المركزية للمدينة إلى داخل الضواحي الشمالية، واضعاً بهذه الخطوة التصميم المتصالب الأصلي المزدوج للمدينة الحديثة المبكرة المخططة إلى الجنوب من النهر مع تطور المدينة في القرن التاسع عشر على الضفة الشمالية (الرسم الرقم

(٢٤ - ٧) (٣#). نقل توسيع الجادة الشمالية - الجنوبية الأساسية للمدينة الجغرافيا المدنية من مركز هندي - إسلامي أقدم ومن منطقة جديدة معزولة خاضعة للاحتلال ومعادية لحكومة نظام إلى تكامل مركّب، وحتى طبيعي، لوجهي التطور المدني (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ٨)).

الرسم الرقم (٢٤ - ٨) جسر أفضل



المصدر: المصدر نفسه.

واستلزم توسيع الجادة إلى جسر إنشاء بوابة جديدة في سور المدينة؛ فأصبحت بوابة أفضل الضخمة الجديدة (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ٩)) الواقعة عند الطرف الجنوبي للجسر نقطة العبور بين المدينة المسورة بإرثها الهندي - الإسلامي الذي يعود إلى عدة قرون والضاحية الجديدة بطابعها غير المغولي وغير الإسلامي بلا جدال. وشجع إنشاء أفضل الدولة لسوق حبوب، أفضل غنج، على الجهة الشمالية للجسر نمو قطب تجاري من شأنه تأمين النشاط الاقتصادي هناك، بحيث غدا التوسع من المدينة القديمة عبر هذا الممر الجديد من دون خط أمراً لا نظير له.

إذا كان الجسر قد أرخى ظل نظام على المدينة والضاحية الشمالية، فهو قد ردد أيضاً صدى منح هوية رمزية جديدة للمقر. فمن جهة، عرّف الجسر، مكانياً، بالطبيعة الطرفية للمركز البريطاني، الذي أصبح الآن على مسافة أبعد من قمة الجسر الجديد، ومركز

المدينة. لكن إذا كان الجسر قد أمّن الوضع الطرفي للمقر في الحياة المدنية لحيدر
آباد، فهو قد دمج أيضاً وعلى نحو أوضح مقر تشادرغات بالجغرافيا السياسية. في أواخر
ستينيات القرن التاسع عشر، شهد مقر تشادرغات نهضة كمركز رسمي للسلطة البريطانية.
وبينما كان المقيمون لا يزالون يسكنون في بولارم فهم أحيوا الدور الرسمي لقصر الطراز
البالاديوني الكبير وذلك يعود على الأرجح إلى اهتمامهم الخاص المتزايد بتعبيرات
ثقافية ملائمة لسلطة إمبراطورية^(٣٤). وبينما كان المسؤولون البريطانيون قد اتخذوا على
الأرجح قرار العودة إلى مقرهم، خلق الجسر ممراً دبلوماسياً بين قصر نظام والمقر الذي
بقي مركزياً في الاحتفالات السياسية حتى القرن العشرين. وثق الجسر شعائراً العلاقة بين
الحاكم والمقيم وركزها بصورة أوضح على دولة حيدر آباد. وقد عبر مسؤولو بريطانيا
ومسؤولو آصف جاه، بوابة أفضل بدلاً من بوابة دلهي أو جسر تشادرغات. أما الزوار من
مقر تشادرغات فكانوا ملزمين أن يصلوا إلى مركز المدينة عبر جادة رسمية وحيدة.

الرسم الرقم (٢٤ - ٩)
بوابة أفضل، على الجسر



المصدر: المصدر نفسه.

(٣٤) عام ١٨٦٨ كتب المقيم تامبل أن «قاعة قد أنشئت في الطبقة العليا من المقر وأثنت للمناسبة بعد سنوات
من عدم الاستعمال». انظر: Temple, *Journals Kept in Hyderabad, Kashmir, Sikkim and Nepal*, p. 139.

رمز ممر نظام بين الموقعين إلى الهوية المشتركة بين السلطتين^(٣٥). ومن خلال التغيير في المسار الشعائري الذي يربط بين الموقعين، اختفت دلهي شعائرياً من تاريخ السلالة وهويتها، فأصبح أفضل الدولة بواسطة جسره وبوابته الرابط، بدلاً من العقبة، بين منطقتي عاصمة دولته الأصلية، كما أمّن الطريق الجديد من الجسر لنظام منفذاً إلى الواجهة الرسمية لقاعة الدربار الخاصة بالمقر واضعاً بالتالي حداً للطريق الخلفي أي المدخل من جهة النهر. بقي المقر مع ذلك ينهد صوب كالكوتا، غير أن أفضل الدولة ربط الآن واجهته الأمامية بالمدينة (ويقصره الجديد أيضاً) بشكل مباشر عبر طريق منعطف جديد، بحيث لم تعد كالكوتا وحيدر آباد رمزياً متقابلتين.

داخل الأسوار، سلّط استخدام نظام الجادة الشمالية - الجنوبية المحورية الواسعة في مركز المدينة، كطريق نافذ للتفاعل السياسي الرسمي، الضوء على ادعاء جديد بالأصول الثقافية للحاكم من خلال مباني حيدر آباد المدينة الأقدم. فلطالما كان النظاميون حكاماً لمملكة الدّكن، لكنهم وجدوا منفعة أكبر في بناء هويتها كفلاحي إقطاع مغول. كما فصلت الآن شرعية نظام الخامس عن الشمال المغولي الميت. مع ذلك، كانت عاصمته قد تأسست كعاصمة لسلالة حاكمة من الدّكن، وهي قطب شاه، التي حكمت حيدر آباد لمدة قرن، قبل أن تتغلب عليها جيوش المغول عام ١٦٨٧. كانت هوياتهما مختلفة جداً. وبالرغم من أنهما كانا سلالتين حاكمتين مسلمتين، فقد كانت قطب شاه من الشيعة بينما كان النظاميون، كما المغول، من السنة. ومع ذلك، ففي رقصة تاريخية، بدّل نظام هويته من أجل الوقوف إلى جانب الجيوش المغولية الفاتحة، التي قدم في ظل وجودها سلفه آصف جاه الأول إلى حيدر آباد، لينضم إلى قطب شاه الدّكن.

وقر تأثير ربط الطريق المحوري بالجسر الجديد شمالاً رابطاً أقوى بين الضاحية والمدينة نفسها. فالدخول إلى المدينة المسوّرة عبر هذه الجادة الواسعة يمكن المرء من أن يحدّق في طريق يُظهر سلسلة مبان شاهقة من أيام دور حيدر آباد كعاصمة مبكرة لدّكن (الرسم الرقم ٢٤ - ٧) # ٥ و ٦). عبر الزوار الجسر واتجهوا إلى الطريق الرئيسي محدّقين عن قرب تشار كمان الرائعة، وهي أربعة قناطر حجرية ضخمة رسمت تقاطع أربع جادات في المدينة الأصلية المخططة، التي جددتها حديثاً أفضل الدولة عام ١٨٥٨ (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ١٠)).

(٣٥) لاحظ المقيم تامبل في تقرير حول إدارة حكومة جلالتة نظام في الدّكن، أن عدة طلبات رفعت لحكومة نظام من أجل إجراء تغييرات في المدينة، لكن لا شيء حول ربط المقر شكلياً بالمدينة. انظر: Calcutta (1868), chap. 7.

الرسم الرقم (٢٤ - ١٠)
تشار كمان

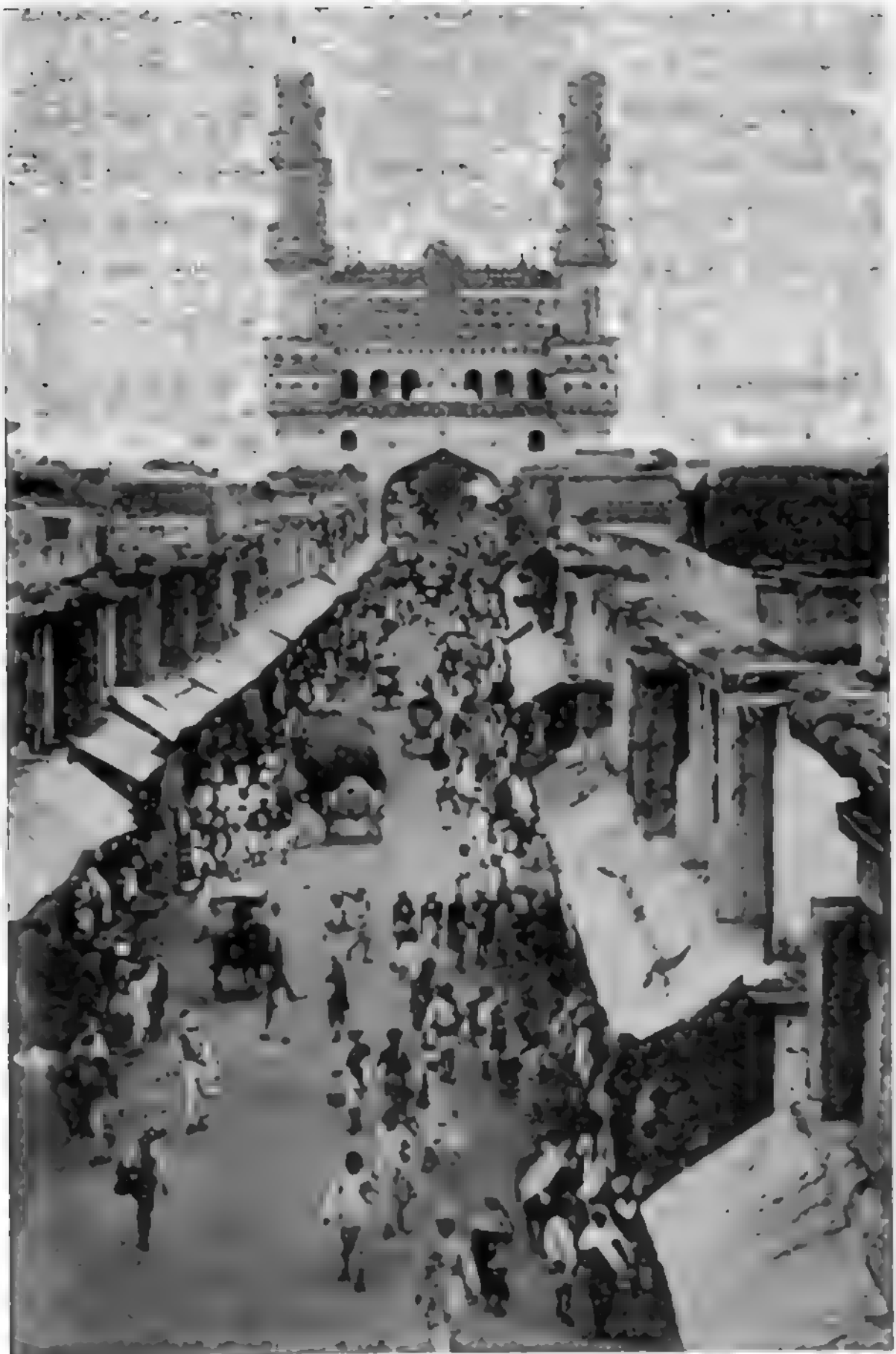


المصدر: المصدر نفسه.

وبعد عبورهم تلك القناطر، في وسعهم التقدم بمحاذاة المسجد الجامع (١٠٠١هـ) قبل الوصول إلى تشار مينار، معلم حيدر آباد الأكثر روعة، كذلك لجهة تشييده عام ١٥٩١، وهو ما ميّز التقاطع الثاني في الخريطة المتصالبة المزدوجة الأصلية للمدينة (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ١١)).

بعد المرور في محاذاة تشار مينار يتجه الزوار الرسميون غرباً نحو المركز الملكي للنظام. وفي استخدامها قناطر مرتفعة ومآذن، ففي وسع المعالم تلك إظهار إرثها الهندي - الإسلامي الديني والمديني هويةً مدنية أعظم من أي مبانٍ فردية. ومن خلال وضع هذه النصب التذكارية القديمة بين بوابة أفضل والقصر الجديد لنظام فهي توحد المدينة المسورة في مرحلة واحدة من تاريخ الدُّكن الهندي - الإسلامي، فتستحضر ماضي المدينة البعيد ليخدم هوية عصرية لسلالة آصف جاء الحاكم.

الرسم الرقم (٢٤ - ١١)
تشار مينار



المصدر: المصور نفسه.

عند الطرف الجنوبي لهذا المسار السياسي، كان مجمّع قصر أفضل الدولة الجديد. يعكس اسم قصر تشاو محل أجنحته (محال) الأربعة (تشهار سو) التي تواجه بعضها البعض حول حوض مستطيل. لقد تم تكييف الشكل الفارسي وفق الذوق الحيدر آبادي في ظل حكم سلالة قطب شاه الشيعية الحديثة، التي سعت إلى ارتباطات بإيران كطريقة لمواجهة الوجود المغولي في الشمال. وقد دفع التصميم الفارسي العام بالكاتب البريطاني كامبيل إلى القول إنه كان «نسخة» عن قصر شاه قاجار^(٣٦). لكن إعادة تصميم تشاو محل لم يكن له علاقة بإيران بل كان يتعلق بالهوية السياسية لسلالة آصف جاه. كانت تشاو محل عام ١٧٥٠ القصر الذي آوت فيه سلالة آصف جاه القوات الفرنسية التي تمت بمساعدتها فعلياً مناهضة وجود البريطانيين في حيدر آباد^(٣٧).

في نهاية القرن الثامن عشر، انفجر مستودع بارود ودمر أحد الأجنحة مسجلاً آخر مرة يُذكر فيها المجمّع في السجلات التاريخية أو الأزمات المحلية حتى عام ١٨٤٩، عندما سُجّل وقوع اضطراب خارج بوابته، ومنع حينها الإذن للجمهور لمقابلة المقيم الكولونيل فرايزر^(٣٨). والعودة إلى هذا الموقع المهجور لأن مركز القوة الأساسي كان طريقة لإعادة رسم التاريخ المبكر لسلالة آصف جاه في حيدر آباد فضلاً عن تاريخ البريطانيين.

أكد موقع تشاو محل فكرة منطقة ملكية مركزية، لكنها قدمت مع ذلك تفسيراً أوسع للهوية الملكية وربما أكثر من قصور نظام القديمة. فهو يقع مباشرة جنوب قصور نظام العائلة إلى القرن الثامن عشر خلف قاعة العرش (الرسم الرقم (٢٤ - ٧) #٧). وقد سمح هذا الموقع (بخلاف قصر حويل نظام بوراني) بقيام مواكب طويلة على طول الجادة المركزية بمحاذاة المباني الكبيرة للسلطة السياسية المسلمة في الدُّكْن. وكان المسجد المستقل الأساسي في المدينة الذي يدفن في فناءه «النظاميون»، والذي يقع مباشرة خلف حائط قبلة مسجد مكة، قد وسّع من منطقة يمكن أن تحصل فيها كل نشاطات العائلة المالكة، بدءاً باعتلاء العرش ومن ثم الإعلان عن السلطة في «الخطبة» والدربار ومن ثم الدفن واحتفال «العرس»، جيلاً بعد جيل.

(٣٦) Campell, *Glimpses of the Nizam's Dominions: Being an Exhaustive Photographic History of the Hyderabad State, Deccan, India.*

(٣٧) Sarkar, «Haidarabad and Golkonda in 1750 as Seen Through French Eyes», *Islamic Culture* (٣٧) (April 1936), pp. 234-247.

(٣٨) كان تشاو محل قصراً قديماً ولكن ليس مركزاً للاحتفال السياسي. لا ذكر للقصر كمجمع في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مع أنه يحتمل أننا لم نميز أسماء أخرى له ريثما قبل إعادة ترميمه. انظر: Central Records Office, *Chronology of Modern Hyderabad, from 1720-1890*, p. 237.

عُرفت هذه المنطقة احتفالياً من جهة طابعها المغولي، لكن إعادة تشكيل تشاو محل حول التركيز على الإرث المغولي في الهوية الملكية إلى شيء أكثر قدماً وأكثر عصرية معاً. فبخلاف التصميم المغولي السابق لمجمعات القصور في هذه المنطقة، التي كانت عبارة عن سلاسل طويلة من الباحات تنتهي بأجنحة مفردة، مكن الشكل الحيدر أبادي الفارسي القديم ذي الأجنحة الأربعة المواجهة بعضها لبعض نظاماً من تمثيل هويات جماعية مختلفة عبر موارثها البصرية وجمعها في علاقة رسمية موحدة. تعمل تشاو محل كمجموعتي أجنحة متكاملتين مواجهة إحداهما للأخرى في أجوبة. كان الجناحان المفردان ذوا الطبقة الواحدة في الجهة الشرقية والغربية، مهتاب محل وأفتاب محل، على التوالي، يعكسان في التصميم كما في الحجم واحدتهما الآخر.

أما من حيث الزخرفة فقد احتويا على عناصر منفصلة للشمس، أفتاب، والقمر، مهتاب، اللذين يحملان اسمهما. كانت القاعة المركزية لأفتاب محل الغربي مزخرفة بمرتب من الميزات الأوروبية: أعمدة أيونية الطراز وحلية معمارية على الطراز البالاديوني تتحدث عن تمركز الإرث البريطاني في المدينة. تتألف القاعة المركزية لمهتاب محل الشرقي من قناطر مفصصة تعلو أعمدة درابزين مزدوجة بأسلوب استخدمته قصور المدينة القديمة لحاشيتي نظام من المسلمين والهنود. أما القصران فكلاهما مصقولان بالجص بدلاً من أن يكونا مبنيين بخشب الساج الحيدر أبادي التقليدي وهو ما يشدد على مادة مرتبطة بالمقر البريطاني والإرث الإسلامي العام في المدينة كرمز لسلطة جديدة. لم تكن الأجنحة المطلية بالجص مباني مبتكرة لجهة موادها فحسب بل افترض القرار بتمثيل أسلوبين زخرفيين منفصلين في هذه الأجنحة المواجهة دمج التصميم البريطاني المستورد بهوية الدُّكْن الحديثة^(٣٩).

كما افترضت الأجنحة المتباينة المرتبطة في هويات متممة مثل الشمس والقمر بأن نظام كان حاكم جماعتين مختلفتين تجتمعان لتقديم شكل متكامل مثل النهار والليل. وجرى التعبير عن فكرة التعارض الضروري هذه في تلك الأجنحة الأصغر حجماً التي

(٣٩) مع الأسف، لا أدلة كثيرة عن أي نوع من الأعمال جرت في كل «عمل». في آخر القرن التاسع عشر، استخدم تمته عمل من أجل الترفيع الرسمي للزوار، في القرن العشرين استخدم أفتاب عمل للإدارة، وتؤكد الصور أن مهتاب عمل استخدم للدريار. ومع ذلك لا يعني ذلك الكثير حول منتصف القرن التاسع عشر. تصميم القصور الأربعة لموقع سلطة سياسية يعني أنه كان هناك أساليب لقاعات مختلفة، وهو ما يسمح باختيار هوية سياسية دون أخرى في أثناء مفاوضات نظام حول سلطته. يتضح هذا مع نظام السادس في القرن التاسع عشر حين ركز على هوية دربار صوفية بجعل الدريار في قاعة مغولية.

شغلت جانبي المجمع. أما الخيارات المتخذة في أفضل محل الجنوبي وتهنته محل الشمالي، اللذين لا يشكلان صوراً تعكس بعضها البعض، بالاسم أو الشكل، فهي بحاجة إلى تحليل إضافي.

يقع عند الجانب الجنوبي من تشاو محل أكبر جناح، يدعى بحق أفضل محل. إنه عبارة عن قاعة معتمدة ذات طابقين كبيرين مرجعها المقر البريطاني في تشادغات بصورة واضحة (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ١٢)).

الرسم الرقم (٢٤ - ١٢) قصر تشاو محل، جناح أفضل (جنوب)



أما في مواجهة أفضل محل عند الطرف الشمالي للمجمع فنجد تهنته محل (ويشكل مير تهنته علي خان لقباً آخر لنظام الخامس) وهو تكييف مخفض لأفضل محل باستخدام زخرفة القصر الجنوبي في جناح حيدر آبادي متناسب بصورة أبسط (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ١٣)).

يذكر أفضل محل برواقه المعتمد الذي يبين ستة أعمدة كورنثية شاهقة، وقاعته الدريار الداخلية المزخرفة بتفصيل بالاديوني من الجص المنحوت وهو يحيط بالغرفة في الطابق الثاني، بالمقر لكن ليس في شكله الخارجي كثيراً الذي أزيلت قوصرتة

البلادونية كلياً من جماليات الدّكن كما من أمكتها الداخلية^(٤٠). أما شعائرية الدريار فقد كانت في آن معاً أقوى سياسياً وأسهل اندماجاً مع الإرث المعماري المحلي.

الرسم الرقم (٢٤ - ١٣)
قصر تشاو محل، جناح نهتة (شمال)



أثبت مقر تشادرغات بصورة واضحة لأسلاف أفضل الدولة بأنه مبنى معقّد أخذين بعين الاعتبار التعديلات السلبية التي مارسها النظاميون السابقون. فقد مثل الطابع الأجنبي للبريطانيين وقوتهم التي تلوح خارج المدينة المسوّرة كما لو أنها موازنة لتولي سلطة الدولة. لقد بيّن أفضل محل بفعالية صورة المقر البريطاني في تشادرغات كقطعة من الإرث الملكي من خلال وضعه ضمن قواعد هندسية فارسية دكّنية^(٤١). ولكنه سرعان ما تبنى التعريف البصري للسلطة البريطانية وقلّص أجنبة السلطة الممثلة

(٤٠) لا يزال تشاو محل من أملاك «نظام - تراست».

(٤١) لم يستورد قصر أفضل الدولة فقط العمارة البريطانية لأجنحة حيدر أباد لتشكيل هوية أصف جاه جديدة، بل هو لصق التراث الإنكليزي على قمة تاريخ الفرنسيين في الدّكن. بني أفضل محل على موقع للكونندان دي بوسي، ثم صار لشركة الهند الشرقية البريطانية في القرن التاسع عشر، واستخدم كمقر له. راجع ساركار «من خلال عيون فرنسية». وفيما تغير بالتأكيد نوع الدعم، من تقديم الخدمة العسكرية في منتصف القرن الثامن عشر ولتحقق السيادة الكاملة في منتصف القرن التاسع عشر، تاريخ افتتاح تشاو محل لحظة تأسيس السلطة البريطانية من خلال العودة إلى الموقع المرتبط بالتراث الفرنسي. وحقيقة أن الجناح الشمالي دمر بانفجار ذخائر في نهاية القرن الثامن عشر ولم يرمم تقريباً حتى حكم أفضل يقيم الدليل على ذاكرة مستمرة متصلة بموقع متصل بالحضور الفرنسي القديم، بالرغم من أنه يعيّن

بالمبنى البالاديوني الأصلي، وجعل الإرث الثقافي للمقر الميزة المركزية للسلطة الهندية - الإسلامية الدكنية الحديثة. أعاد قصر نظام الخامس الجديد ضبط ذاكرة أصوله إلى الوراثة إلى أصل دكني عام، جاعلاً الانتقال بين قطب شاه والسلالة المغولية عبر تطوير جزء جديد من المركز الملكي، ومُدْخِلاً العمارة البريطانية في رمز سلطته. وفي الوقت عينه، ومن خلال التبادل بين الشكّلين البصريين البريطانيين والمغوليين، فقد جعل العمارة الإنكليزية في موقع متعاون أكثر من مما كان سابقاً رمزاً لمعارضة المصادر البريطانية الاستعمارية. في الحقيقة، إن العملية البسيطة نسبياً لإعادة تصميم قصر فارسي إنما أعادت رمزياً تشكيل تاريخ سلالة بأكملها.

لقد أعيد تفسير تشاو محل فقط كمجمّع مستقل تم تخيله، ولكنني أرى ضرورة قراءته أيضاً كجزء من التنظيم المدني الأكبر للنظام. فالجسر الجديد وطريق المدخل الجديد بين المقر وتشاو محل وسّعا طريق الوصول إلى القصر ومكّنا نظام من المطالبة بـ «جواب» لأفضل محل من مقر تشادرغات البعيد. لا يواجه أفضل محل والمقر بعضهما البعض بالضبط، لأن كليهما يتجهان شمالاً، ولكن بات جسر أفضل غنج الجديد يربط الآن طريق النفاذ الملتف الذي يذهب شمالاً ثم شرقاً إلى الواجهة الأمامية للمقر. وهكذا في وسع المرء، بعد أن يترك قاعة دربار تشاو محل أفضل النيو كلاسيكية، بأعمدتها الكورنثية الستة، أن يتقدم في موكب دبلوماسي إلى قاعة «مرايا» الدريار النيو كلاسيكية، بأعمدتها الكورنثية الستة في مقر تشادرغات (الشكل الرقم (٢٤ - ٧) # ١ و٧). بهذا المعنى يمكن قراءة تهته محل ببساطة كخطوة أصغر لإتمام فناء القصر في إطار تنظيم مدني أوسع. فمن خلال الطريق وحدودها الدبلوماسية، تم نقل سلطة المقر الأيقونية من مؤشر على إنشاء السلطة البريطانية في حيدر آباد إلى مجرد جزء في الهوية الجمعية لدولة حيدر آباد.

من خلال هذه المعالم، دخل قطاعا المدينة في حوار وياتا من خلال الجسر أكثر تداخلاً. يعرض الطريق المتفرع الآن من الجسر فعلاً مبانيّ مسلمة تاريخية ومبانيّ بريطانية أحدث عمّقت شرعية نظام وراهنية سلطته. لكن شرعيته وسلطته كانتا أيضاً مرتبطتين مباشرة باللعب الثالث في مفاوضات آصف جاء حول السلطة: الوزير. كان لأفضل الدولة وزير قوي جداً، سالار جنغ، الذي حاول نظام بجهد إخضاعه لإرادته الملكية، لكن استقلالته وطرقه «العصرية» أكسبته اعترافاً من بعيد، من لندن مثلاً. كان

ديناميات ثقافية باتت مفقودة الآن. وبالرغم من أن التاريخ يشير أن الدولة الأميرية بدأت مع البريطانيين، فإن سلالة نظام تعود أكثر إلى الوراثة لتضمّ الفرنسيين أيضاً.

قصر ديوان ديودي الخاص بسالار جنغ يقع في أعلى الجادة التي بلغت الآن باتجاه تشادركات مع بوابة أفضل والجسر الجديد، الواقعة في منتصف الطريق تقريباً بين المقر وقصر نظام الجديد (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ٧) #٤).

لقد استخدم نظام الخامس هذا التنظيم المدني الطولي لإعادة تخطيط إرث هوية سلالته، كما استخدمه للتلاعب بموقع سلطة الوزير، الذي يراهن مكانياً على دور مستقبلي للوزير في دولته الجديدة. ولأن معاهدة التحالف ثبتت البريطانيين بصورة دائمة في مدينة نظام، كان النظاميون يصارعون ضد وزرائهم من أجل السلطة السياسية الكاملة. لاحظ مقيم بعد مقيم أن النظاميين لم يثقوا بوزرائهم بل شعروا أن وزراءهم كانوا يحاولون اغتصاب سلطتهم^(٤٢).

كان صراع نظام لاحتواء الوزير معروفاً جداً. فكان على سالار جنغ الحصول على إذن من سيده الملكي حتى من أجل مغادرة المدينة^(٤٣). وطبع هذا التعهد رمزياً السيطرة الملكية على الشكل المدني: فمن الشمال كان على المقيم المرور بأفضل دروازته للوصول إلى قصر سالار جنغ - وكان على سالار جنغ المرور عبر تلك البوابة لمغادرة المدينة. لم يعد الوزير ضمن هذا التنظيم المدني الجديد لاعباً مستقلاً بعد الآن في نظام ثلاثي الممار. وإذا كان على نظام أن يكون على اتصال بالبريطانيين نظراً إلى موقعه السياسي، فيفترض بالوزير في المقابل أن يكون مرتبطاً به بصورة أوضح.

ومع ذلك، لم يكن التنظيم المدني لنظام طريقة للمطالبة بالسلطة لا يمكن مهاجمتها، وقد تركته معالمه عرضة للخلاف نفسه الذي سعى نظام باستمرار لاحتوائه. فمن منظور آخر كان موقع الجسر الجديد إلى جانب بوابة القصر يعني بأن الوزير امتلك الـ «نظام» ولم يعد في استطاعة البريطانيين الدخول إلى المدينة من دون الحصول على موافقته وقد وضع سالار جنغ حراساً على الجسر الجديد لتأمين ذلك^(٤٤). ويعد مرور عام على إنجاز الجسر أكد الوزير بصرياً موقع قصره كنقطة جديدة للوساطة بين قوتين سياسيتين، مضيفاً «منزلاً واسعاً للمأدبة» يدعى نايا مكان (أي الموقع الجديد) إلى مجمع قصره^(٤٥). كان لنايا مكان، الذي جهز بالأسلوب البريطاني - لا بأسلوب

Temple, *Journals Kept in Hyderabad, Kashmir, Sikkim and Nepal*, p. 108. (٤٢)

Bilgrami, *Historical and Descriptive Sketch of His Highness the Nizam's dominions*, p. 174. (٤٣)

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٥٥٢.

M. A. Nayeem, *Splendour of Hyderabad: Last Phase of an Oriental Culture* (Bombay: [n. (٤٥) pb.], 1987), p. 98.

المقر - أثاث مثل الكراسي والطاولات فضلاً عن غرفة مستديرة^(٤٦). احتل نابا مكان موقع عينة خانة كمكان لاستقبال الزوار البريطانيين وأتيح للبريطانيين المحافظة على تقليدهم بالجلوس على كراس وعدم خلع أحذيتهم لأول مرة ضمن العالم الثقافي للنظم في المدينة القديمة^(٤٧).

ومع مرور الوقت أصبح هذا الجناح مكان الانتقال الوحيد، حيث كان يتسلى البريطانيون (ولاحقاً زوار أوروبيون آخرون) وطلب منهم الذهاب للحصول على أفيال لزيارة المدينة وقصر نظام. ونجد في كتاب إنكليزي حول حيدر آباد في عام ١٨٨٠ تأثراً بزخرفة هذه القاعة «مجموعة كاملة من اللوحات (صور نصفية) الزيتية لجميع المقيمين السابقين في بلاط حيدر آباد وصولاً إلى سير ستيوارت بايلي، الذي غادر في نيسان/ أبريل من العام الماضي (١٨٨٢)»^(٤٨). لم تجمع هذه القاعة، من الأثاث إلى الزخرفة، بين الثقافتين البريطانية والحيدر آبادية كما فعلت أجنحة ديوان ديودي السابقة، بل فصلت بينهما بصورة واضحة، وهو ما جعل منها مجرد مكان يرغب في زيارته المسؤولون البريطانيون. يبين الإطار النظري أن استقلالية الوزير باتت الآن تركز على إبراز الاختلافات بين القوتين السياسيتين المتعارضتين، وقد سمحت التقاليد الثقافية للاحتفال السياسي لكل منهما بتسليط الضوء على اختلافاتهما.

يؤكد تصميم ديوان ديودي أهمية العمارة والمواكب في حيدر آباد في منتصف القرن التاسع عشر في إطار مطالبتها بماضي مناسب لهوية سياسية جديدة. كما يشير إلى واقع المعارك الحقيقية لمستقبل السلطة الملكية بين نظام والوزير سالار جنغ^(٤٩). ارتكزت مطالبة سالار جنغ بالسلطة على بناء مختلف للدولة الأصلية، أي بناء لا تعود جذوره إلى الزمن البعيد للإرث الهندي - الإسلامي بل إلى زمن وصول المقيمين البريطانيين في حيدر آباد. وبخلاف أفضل محل الذي تلائم فعلاً مع الإرث المدني،

(٤٦) انظر: Temple, *Journals Kept in Hyderabad, Kashmir, Sikkim and Nepal*, p. 92.

وهو يصفها كمكانية جداً بنيت وأثنت وفق النمط الإنكليزي.

(٤٧) يذكر تامبل عشاء في قصر سالار جنغ أقامته حكومة نظام لكه وخمسين شخصاً. كانت الباحات رائعة، وكان العشاء وفق الذوق الإنكليزي وعصبة من الجيش أدت فاصلاً موسيقياً بعد العشاء. انظر: المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٤٨) Bilgrami, *Historical and Descriptive Sketch of His Highness the Nizam's dominions*, p. 558.

(٤٩) انظر خصوصاً: V. K. Bawa, *The Nizam between the Mughals and the British: Hyderabad under salar Juny I* (New Delhi: [n. pb.], 1986).

وكذلك دور سالار في برقرطة حكومة نظام وإنهاء سلطة البلاط.

لم يكن نابا مكان ديوان ديودي مرتبطاً بوضوح بموقع تاريخي في المدينة، ودل اسمه، المنزل الجديد، على استقلالية الوزير عن التكافل الثقافي للسلطة المتمثلة بالمقر وقصر تشاو محل الخاص بنظام.

من خلال وضع نصب تذكارية من الطراز البريطاني على الجهة الجنوبية للنهر، جعل مجتمعا نظام والوزير تشعب المدينة باتجاه منطقتين بريطانية وأصف جاهية غير واضح. وبينما كانت هذه المواقع مفتوحة أمام النخبة السياسية فقط، وضع أفضل الدولة برعايته مسجد أفضل غنج رمزاً تذكاريّاً لسلطة نظام الهندية - الإسلامية على الضفة الشمالية لنهر موسى (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ٧)).

كان هذا الجامع الواقع في المحيط الجنوبي لمنطقة تشادرغات الثقافية غير المسلمة معلماً مرئياً للجميع. كما كان هذا الجامع المشيد من طابق واحد له مداخل موسعة وفناء كبير أوسع من أي مسجد آخر، باستثناء مسجد مكة وهو أكبر جامع في المدينة القديمة. فالجامع بأسلوبه وعظمته وموقعه يتطابق مع المطالبة بإدخال ثقافة مدينة نظام القديمة في المنطقة التي كان عرقها سابقاً مجتمعها غير المسلم ونسيجها المدني.

وكإحياء تاريخي لمبنى خاص بقطب شاه، قدم المسجد صورة قديمة وأصلية معطياً شعوراً بالعمق للنسب السياسي للحاكم الجديد ورابطاً نظرياً التواصل مع الإرث الفني والثقافي المحلي الظاهر في المباني التي زينت الشارع الواقع في الجهة المقابلة من النهر (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ١٤)).

لقد شكل المسجد بمواده وهندسته، فضلاً عن زخرفته، تحفة من هندسة المساجد العظيمة العائدة لقطب شاه. فالزخرفة الجصية المنقوشة المثيرة التي تميز المآذن بقممها المنيعة تذكر بتلك المساجد التي تشكل صفّاً على الطريق الرئيسي لضاحية كروان الصحو بالقرب من حصن غولكوندا (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ١٥)).

ومن بعيد، ومع منظر مثذنتي المسجد المنقوشتين بشكل معقد، كما نصوص السقف المزخرفة كثيراً، التي تعلوها قمم مقبية صغيرة، قد يظن عابر السبيل أنه فعلاً أمام مسجد قطب شاه، وأن المنطقة كانت إحدى أقدم مستوطنات المدينة. وعندما تلقى الخطبة باسم حاكم الدكن، يكون الجو المعماري لمسجد أفضل غنج قد نجح في تقديم صدى محلي عميق. ومع ذلك، فالمعالم الرئيسية لتصميم المسجد تسير بوضوح إلى راعيه المعاصر.

الرسم الرقم (٢٤ - ١٤)
مسجد أفضل غنج، الساحة الداخلية



Campbell, Ibid.

المصدر:

الرسم الرقم (٢٤ - ١٥)
مسجد تولي (القرن السابع عشر)



المصدر: المصدر نفسه.

وفي الوقت الذي لم تشذ مسلوقة المسجد (الشكل الظلي للمسجد) نفسها عن طراز النماذج الأصلية التذكارية الحديثة، فهي لم تخلد الرمزية الشعبية في استخدام واجهة من خمسة أجزاء ناتئة. وقد صمم هذا المسجد ليكون مسجد قطب شاه لكن من دون الرمزية الشيعية^(٥٠).

إضافة إلى ذلك التغيير، شكل المجمع بفنائه الواقع في الطابق الثاني وأكشاك المتاجر المنحوتة على شكل مشكاة في محيط الواجهة عند الأسفل، تصميمًا حيدر آباديًا يرقى إلى القرن التاسع عشر. أمّن شيد المساجد الضخمة التي تعود إلى زمن قطب شاه في مركز خان كروانسرائي دخل إيجار من التجار القادمين من مسافات بعيدة والمقيمين في الغرف، بهدف دعم صيانة المبنى وإعالة موظفيه. في ظل حكم سلالة آصف جاه التي استمرت لمئات من السنين، تم شيد مسجدين مستقلين كبيرين فقط. وقد اختلف هذان المسجدان بصورة واضحة من حيث ارتفاعهما، إذ بحث كل مسجد عن طريقة لتمثيل هوية القرن التاسع عشر، غير أن كليهما استخدمتا تصميم المجمع الثنائي الطبقات الذي يتلاءم وحاجات المدينة القديمة ذات المساحة المحدودة (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ١٦)).

من الناحية النظرية زاد هذا التصميم من ارتفاع الشكل الظلي للمسجد على نحو مشير؛ أما تقنياً فقد كان مؤثراً، إذ استلزم مهارة هندسية مهمة لأن حجيرة المسجد تقع على وطيدة طابق ثان. وفي ضواحي حيدر آباد، لم يكن هناك طلب على هذا التكيف الثنائي الطوابق: فلم تكن الأرض نادرة كما كانت عليه في المدينة القديمة. وقد شكلت المتاجر الداعمة عملياً جانبي المسجد في صف يذهب بطول الشارع، يبقى أن مسجد أفضل خنج اتبع نمط مسجد مير عالم مندي الأسبق وكذلك نمط مسجد الشوق الأعظم (انظر الرسم الرقم (٢٤ - ١٧)).

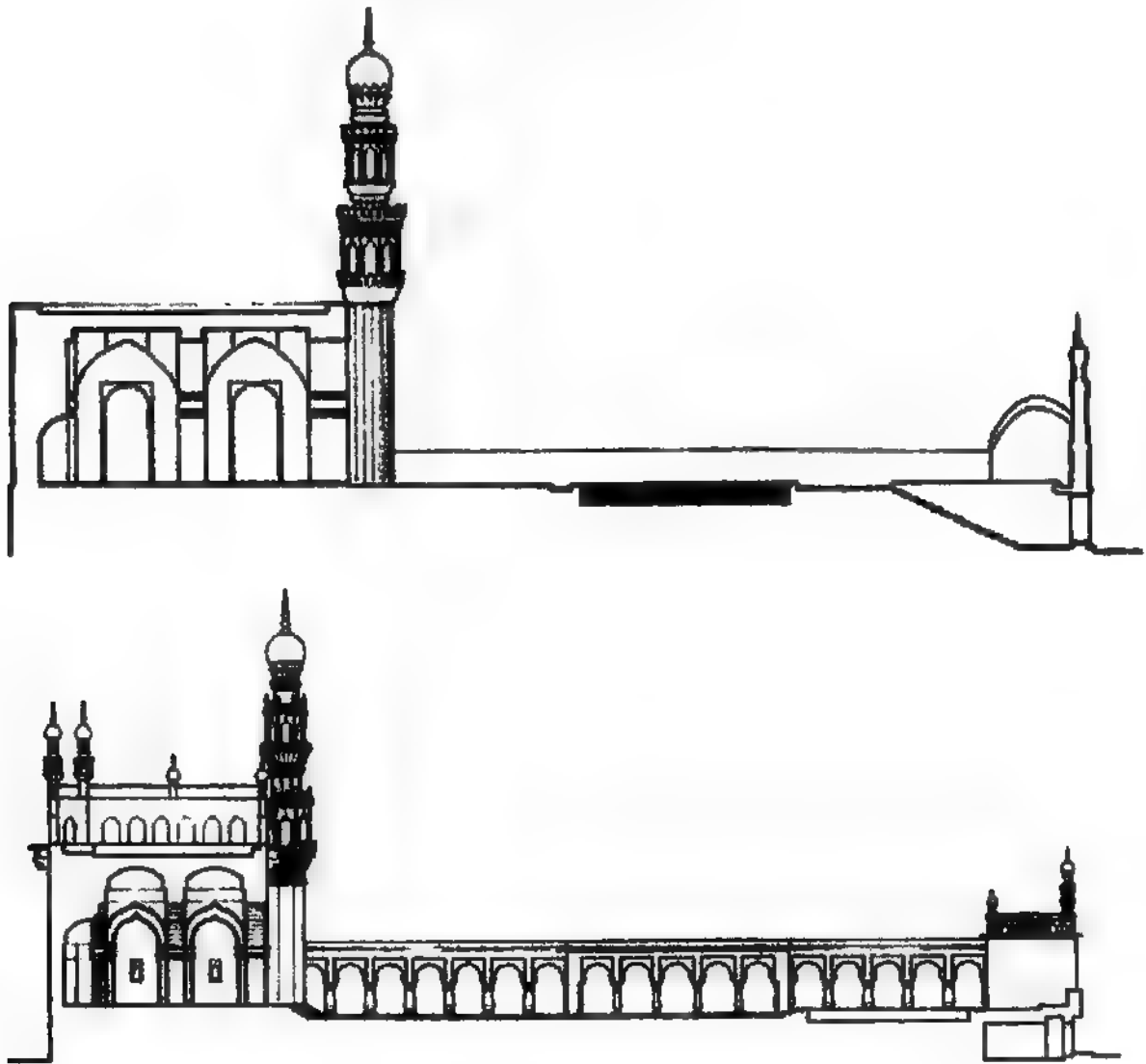
قرار تصميم مجمع كهذا، كان في رأيي، قراراً سياسياً. فقد بنى نظام مجمعاً قديماً وجديداً في وقت واحد، وقدم من خلال ارتفاعه الواضح، ترميزاً يعكس هوية آصف جاه الملكية. كان تصميم الجهة الخارجية لواجهة المجمع المكان الذي تقع العين على المناظر الخلابة فيه. فلأول مرة قدمت هنا صورة ملكية لآصف جاه بشكل محدد عبر استخدام شرفات «شاروقة» على جانبي بوابات المدخل المقوسة البسيطة. وهو النمط نفسه الظاهر عند مدخل قاعة جلو خانة، التي تؤدي إلى قاعة العرش الملكية. تشكّل

(٥٠) «بانجنان» الشيعية، يظهر رمزياً في عبارة الدُكْن في نمط خامسي.

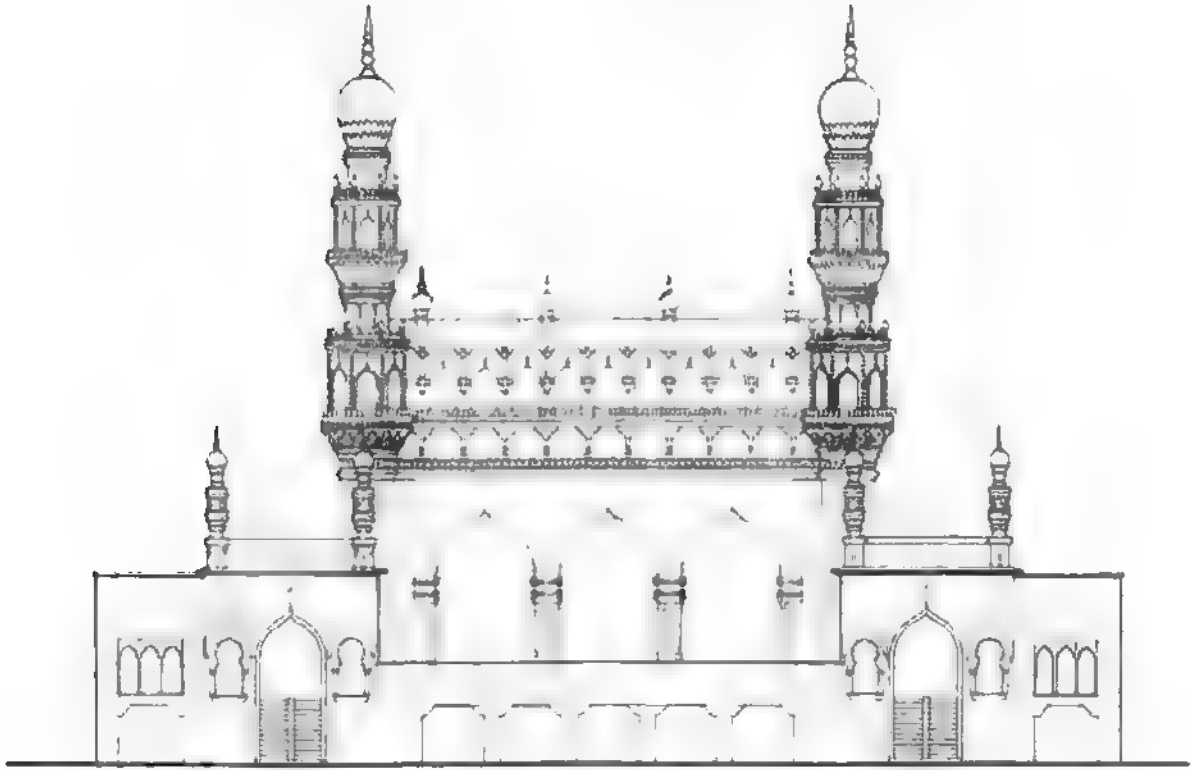
النهائيات الموجودة على أسقف أجنحة المدخل تمة لتلك النهايات الموجودة على سقف المسجد؛ وهكذا يتم المزج من خلال هذه المباني التي تبدو غريبة، بين صور قطب شاه وآصف جاه المنفصلتين. وباختيار تغيير واضح للأسلوب القديم في مبنى المسجد، بدلاً من إنشاء مبنى حديث أو مبتكر، فهو إنما قرب وجهتي الرعاية الملكية الشيعية والسنية معاً، ولتغدو إسلامية حيدر أبادية بوجه عام. لقد جمع مسجد أفضل نظرياً بين السلالتين الحاكميتين في الدكن، أي قطب شاه وآصف جاه، حاذفاً التاريخ المغولي من هويتهما.

الرسم الرقم (٢٤ - ١٦)

تصميم مسجد آصف جاه



الرسم الرقم (٢٤ - ١٧)
إعادة رسم الارتفاعات الأصلية لمسجد أفضل غنج



قدّم المسجدُ المشيد ظاهرياً لتوجيه المؤمنين نحو القبلة والمركز المقدس في مكة، وبوضوح، ثقافةً سياسيةً محلية كذلك. فمن خلال تشكيل تصميم هجين، والتركيز على الموقع عند المسار الطقسي الدبلوماسي، تأخذ رعاية المسجد معنى قوياً بوجه خاص. وبوصفه مؤسسة ذات سلطة سياسية، فهو خدم هدف إحياء ذكرى الحاكم في الخطبة أمام رعاياه المسلمين.

أما بوصفه معلماً على طريق الطقوس الدبلوماسية، فهو إنما كان يشير إلى تراث السلطة الإسلامية في المدينة في ما يتعلق بالبريطانيين. لقد كانت راية الإسلام الخضراء هي التي اجتمع خلفها الشوار ضد البريطانيين عام ١٨٣٩ ومجدداً عام ١٨٥٧ (في مساهمة حيدر أباد في الثورات الإقليمية في ذلك العام). في المساجد داخل المدينة نظم المولويون الرجال ضد البريطانيين وأمكنهم حتى رفع راية الإسلام الخضراء فوق المقر في مرحلة ما من عام ١٨٥٧. واجه المسجد مباشرة قوة دار المندوب السامي ونافسه على دوره كمرساة وحيدة لمنطقة منفصلة بعيدة. ولأن المسجد لحظ الارتباط المباشر شمالاً من المدينة القديمة، فقد قدّم الإرث والتوجه الإسلاميان مرساتهما الخاصة للتطور المستقبلي لصاحبة عاصمة آصف جاه.

خلاصة

توفي أفضل الدولة بعد أشهر من اكتمال شيد مسجده، ولم تتح له بالتالي فرصة عرض رؤيته التوحيدية عبر الطقوس والاحتفالات الدبلوماسية. لكن مشاريعه كانت قد حددت ديناميات الشعائر السياسية لاستمرار الحكومتين البريطانية الهندية والآصف جاهية، ولا تزال تشجع على ملاحظة رابط قوي بين سلالتي قطب شاه وآصف جاه.

كان نظام الخامس الذي اجتاز حكمه الانتقال الأساسي في السلطة السياسية أول نظام من سلالة يتعهد مشاريع رعاية عامة أساسية في المدينة. لقد أعاد تنظيمه المدني كتابة تاريخ سلالة آصف جاه من خلال مواقع تاريخية مختارة وإنشاء مسارات جديدة للتفاعل السياسي. أسست مشاريع أفضل الدولة الثلاثة معاً كتنظيم مدني، وشكل الممر بينها، طريقاً طقسياً لتوحيد شكل المدينة بخيط من السلطة السياسية، في الوقت الذي دلت الأجزاء الفردية على بناء هوية جديدة واضحة في العمق التاريخي والراهنية السياسية معاً. لقد عبرت هذه المعالم عن التزامات تجاه موارث وسلطات ثقافية مختلفة، فضلاً عن السياسية، وقد جلبت مشاريع نظام الخامس هذه الأماكن في علاقة مكانية واضحة من خلال تغيير السياق الذي نشأت فيه. وأنا افترض أن نظام قد عرض من خلالها تقديم جديد لأصول آصف جاه.

خدمت الأساليب العمرانية في الهند البريطانية للقرن التاسع عشر أهدافاً سياسية، كما أن تعريف المكان المدني والسيطرة عليه كانا على نحو واع عملاً سياسياً قوياً. تقدم العمارة التي تركها أفضل الدولة الدليل لاكتشاف طريقته في التعريف بمكانته. والنظرة إلى البيئة المدنية للمعالم تظهر كيف أن مشاريع البناء الثلاثة خلقت بناء مزدوجاً للسلطة في جغرافيا مدنية جديدة؛ إن تحليل جسره وقصره ومسجده، معاً ككيانات سياسية متداخلة مرتكزة على إرث هندي - إسلامي، يفترض بأن الطرف الإمبراطوري كان مشتركاً بفاعلية في العمليات نفسها كما في المركز الاستعماري، لكن في الجوهر لأهداف ثقافية وسياسية مختلفة كثيراً.

الفصل الخامس والعشرون

مدينة صنعاء

رينولد لوكوك^(*)

أريف ساتياوان^(**)

بلغت صنعاء زمننا الحديث هذا محتفظة بعلامتها القروسطية وبطريقتها التقليدية في الحياة. وكان أئمة اليمن قد حظروا دخولها منذ أواخر القرن السابع عشر، خلا فترة قصيرة أثناء الاحتلال العثماني. وفي إثر حرب أهلية في الستينيات، بات في وسع عدد من الباحثين الدوليين دراسة المدينة القديمة وقبل أن يصيبها أي تحديث مهم.

أولاً: زيارة في أوائل السبعينيات لمدينة قروسطية الوظيفة

ترتفع مآذن صنعاء فوق مشهد المدينة، وتتألاً في ضباب الصباح (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ١)). تظهر في الأحياء القريبة مدينة القرون الوسطى التي كانت محاطة كما يبدو بسور. كانت صنعاء صغيرة جداً قبل العهد الإسلامي، والشكل الذي يراه الزائرون اليوم إنما بني معظمه على أرض عذراء. تحمي صنعاء والطريق التجاري الذي يمر عبرها قلعة، فصلت حصونها العليا عن المدينة القديمة عند مرتفع من الأرض (انظر الرسمين الرقم (٢٥ - ٢) والرقم (٢٥ - ٣))، وهو ما سمح للقلعة بالسيطرة على المدينة بسهولة. وبحسب الروايات الشائعة فإن الجزء السفلي من القلعة هو المدينة الأصلية نفسها، التي آوت الثكنات في ما بعد. ويعود تاريخ بعض جدران التحصينات إلى القرن الثامن.

(*) باحث ومختص في الهندسة المعمارية والتنظيم المدني، جامعة كامبريدج.

(**) مهندس معماري - أندونيسيا.

الرسم الرقم (٢٥ - ١)
سور صنعاء وتبدو المنازل المرتفعة والمآذن تعلو فوقها



كان جنوب بلاد العرب يسمى «العربية السعيدة» لأنها كانت تعرف أمطاراً موسمية غزيرة جداً مرتين في السنة لفترات قصيرة. نستطيع أن نتيّن الفيضان نصف السنوي في المقدمة.

الرسم الرقم (٢٥ - ٢)
القلعة من داخل المدينة



نرى أن القلعة تسيطر على المدينة من الخارج. ولكننا نرى كذلك أنها متصلة بالمدينة بحيث يمكن الوصول إليها من المدينة.

كان لمدينة صنعاء القديمة سبع بوابات تتيح الدخول إليها. وكان يحمي بعضها في الأصل حصون بنيت بشكل يجعل الطرق المؤدية إليها تأخذ شكلاً متعرجاً. ولأن هناك وادياً في المدينة يقطعها إلى قسمين، كان على السور الدفاعي أن يعبر المدينة مرتين، مع قناطر تسمح بتدفق المياه عبره (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ٣)).

الرسم الرقم (٢٥ - ٣)
صنعاء: خريطة للمدينة القديمة



نرى القلعة مسلطة إلى الشرق ويبدو المسجد الجامع في وسط المدينة تقريباً والسوق إلى شمالها الشرقي.
المصدر: فون ويسمان.

بني المسجد الجامع بأمر من النبي محمد (ﷺ) نفسه، بحسب مؤرخي الإسلام الأوائل. وعلى الأرجح أنه كان يعرف المدينة لأنه مارس التجارة فيها، وقد أعطى، كما يُروى، تعليمات دقيقة لممثله حول المكان الذي يجب أن يبنى فيه المسجد في حديقة الحاكم الفارسي. ويبدو أن جزءاً كبيراً من البناء الأصلي قد صمد إلى الوقت الحاضر من ناحيتيه الجنوبية والشرقية. وهو بناء مستطيل الشكل جدرانه بيض وله عدد ضئيل من الأبواب فقط (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ٤)).

الرسم الرقم (٢٥ - ٤)
المسجد الجامع في صنعاء



صورة جوية باتجاه ساحة المسجد، مع ضريح في الوسط والمئذنة إلى اليسار، هي الأكبر بين منارتين.

تم توسيع المسجد في القرن الحادي عشر الميلادي من الناحية الشمالية أو ناحية القبلة وأعيد بناء المحراب والرواق الشرقي. نُقل إلى المبنى مواد بناء كانت مستخدمة من قبل في المعابد الوثنية قبل الإسلام وفي الكنائس المسيحية إضافة إلى الأعمدة التي كانت توضع أحياناً رأساً على عقب. للمسجد مئذنتان واحدة ضيقة والثانية واسعة، ويتطابق النداء إلى الصلاة الصادر منهما واحد بصوت عالٍ والثاني بصوت منخفض، فيوفر متعة سماع الصلاة لسكان في المدينة خمس مرات في اليوم. وفي قلب المسجد باحة تحوي كنزاً من النسخ القديمة للقرآن ومن السجلات العامة المحفوظة.

بعد المسجد كانت تقوم حوانيت الوراقين ومجلدي الكتب، ويعدها يبدأ السوق نفسه. وبخلاف الأبنية المحيطة العالية، نجد السوق منخفضاً (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ٥)). يتميز المشهد في السوق بكثرة ألوانه، فتسطع مظلات النوافذ العادية وتبهرك أكثر الثياب اللامعة التي يرتديها الناس (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ٥))، إذ يعتقد المجتمع اليمني بضرورة ارتداء الرجل ملابس ملونة مثل ملابس النساء. بل قد تكون ملابس الرجال أكثر ألواناً نظراً إلى أن النساء يلتحفن بالشال خفراً.

الرسم الرقم (٢٥ - ٥)
صورة عامة لسوق صنعاء



والمتجر العادي تجد فيه أنواعاً مختلفة من البضائع وتدور فيه نشاطات متعددة، بالرغم من صغر حجمه الذي لا يزيد على حجم خزانة (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ٧)). هذا ما يميز أكشاك السوق؛ فتجد في كل منها نرجيلة للتدخين وخزنة. وبالرغم من ضيق المكان، تُصنع المتوجات الحرفية داخل المتجر. أما الأعمال التي لا يمكن إتمامها داخل الحانوت والتي تتطلب درجة حرارة عالية وحدادة وغيرها فكانت تنفذ في ورش خلف الحوانيت.

من مزايا السوق الأخرى أنه يدير بنفسه شؤونه وأمنه، إذ يسمي أصحاب المتاجر شيخاً أو زعيماً على رأس السوق، فيعيّنه الحاكم ليتولى إدارة أعمال السوق ويؤمن حمايته، كما هي الحال في كل حي سكني في المدينة.

يتميز السوق بغناه أيضاً إلى درجة كان يحتاج معها إلى المراقبة. ففي الحقيقة أن صائغي الذهب والفضة كانوا بمثابة مصرفي المدن الإسلامية هذه. وأصبحت حماية ثروة السوق في الليل من السرقة مسألة جدية. بدأ الأمر بحمايتها من خلال منع السكن في منطقة السوق، وهو ما أبقي أبنية السوق ذات طابق واحد، فبقيت أبراج المراقبة والمخفر المركزي للشرطة الأبنية الوحيدة العمودية (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ٥)).

يمثل نقل البضائع جزءاً مهماً من ثروة صنعاء القروسطية. فهي مدينة تجارية تتعامل بالتوابل والحبوب والملح والبضائع المصنّعة. وهي تستخدم قوافل من الحمير والجمال لنقل البضائع. كانت الخانات حول أطراف المدينة تؤمّن خزن البضائع والإسطبلات للحيوانات في الهواء الطلق. إلا أنه كان يوجد كذلك بعض الخانات المسقوفة في أطراف السوق (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ٨)).

عند وصول القافلة، كانت تستودع الجمال والحمير في الإسطبلات بعد أن تفرّغ حمولتها التي توضع جانباً لتخزن أو ربما ليعاد شحنها. ويؤمن مبيت التجار والسائسين في الطابق الأعلى. وبما أن التجار كانوا عموماً أثرياء، فلم يكن نزلهم يقتصر على المطابخ وغرف الطعام أو النوم فقط، بل كان يضم الحمامات العامة الساخنة والمساجد الصغيرة أيضاً. نرى في الرسم التوضيحي الرقم (٢٥ - ٦) أنه كان في الخان فندقان فوق الإسطبلات، كل منهما مصمم حول فناء، كانا يؤمنان الراحة وأعلى درجات الاستجمام. هذه النماذج من الخانات ميّزت المنشآت التجارية للمدن الإسلامية الكبرى في القرون الوسطى.

الرسم الرقم (٢٥ - ٦)
خان مسقوف نموذجي من الخارج



لاحظ المتاجر المبنية في طوابقه السفلى.

وهناك نوع ثان من الفنادق على أطراف منطقة السوق، التي بُنيت على مستوى الأرض، إذ يكون الفندق أيضاً بمثابة مقهى ومطعم في الوقت نفسه (انظر الرسمين الرقم (٧-٢٥) والرقم (٨-٢٥)).

الرسم الرقم (٧-٢٥)

فندق في السوق، ونرى رجالاً يجلسون في مدخل المقهى



وفي المقهى منضدة يجري من عليها تقديم القهوة والشربات ومشروبات أخرى. هو يشبه المقهى في بومبياني (المدينة الإيطالية التي دمرها البركان) بصورة مذهلة أو حتى أي مقهى حديث. تحيط غرف المنامة في الطابق الأعلى بالفناء. تشبه هذه الفنادق إلى حد بعيد الفنادق الأوروبية في القرون الوسطى؛ ومسرحيات شكسبير إنما كانت تمثل في البداية في أفنية فنادق مماثلة في بريطانيا تحيط بها أروقة.

الرسم الرقم (٢٥ - ٨)
أروقة فناء في القسم السكني للفندق



وحول السوق وفي أطرافه، حيث كان مسموحاً للمباني أن تكون عالية، كان السوق يؤمن مأوى للفقراء مجاناً (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ٩)). كذلك كان يسمح للطلاب والأمهات والأولاد الذين لا معيل لهم بالمبيت هناك. لهذا السبب لم يكن في شوارع صنعاء واحد بلا مأوى.

نجد في طرف السوق في صنعاء نوعاً آخر من أنواع البناء وهو المحترف أو الورشة. أما النوع الأكثر تميزاً فهو الطاحون الذي يستخدم لطحن الملح والحبوب. والملح كان يستخرج في هذه المناطق الصحراوية من الصخور ثم يطحن. كانت

تستعمل الطواحين كذلك لجرش جميع أنواع الحبوب. وكان يستخرج من بعضها الزيت كحبوب السمسم مثلاً. وكانت الحمير والجمال تستعمل لتأمين الطاقة لإدارة الطاحون والمعاصر، فتغطى أعينها لكي تحافظ على توازنها في مسيرتها اللانهائية حول حجر الرحى.

الرسم الرقم (٢٥ - ٩)
صورة من الجو لصنعاء تظهر حدائق السوق
خلف المنازل المصطفة على طول الشوارع الرئيسية



وخارج المدينة، كانت تقع بعض النشاطات التجارية غير المرغوب فيها داخل الأسوار، فكان يتم التداول بها عند البوابات؛ أهمها بيع اللحوم والوقود، لأنهما مصدر محتمل للتلوث كما كان يعتقد، لذا لم يكن مرغوباً بيع اللحوم والسمك في السوق، بل عند بوابات المدينة. وكذلك الأمر بالنسبة للوقود الذي كان يباع على أبواب المدينة ليس لكونه يشكل خطراً مبدئياً فحسب، بل لأنه يحتوي على روث الحيوانات إضافة إلى الخشب.

كان هنالك نشاطات أخرى أكثر أهمية تجري خارج المدينة، مثل صلاة العيد لدى المسلمين. فقد اتخذ القرار في أيام النبي أن لا تؤدى صلاة العيدين في أماكن

مبنية داخل المدن والبلدات بل تقام في الخارج لأسباب نشرها لاحقاً. كان للمكان الذي تقام فيه الصلاة في العراء، ويسمى المصلّى، جدار واحد هو بمثابة حاجز في اتجاه مكة وهي قبة المصلين. وهذا أدنى ما يكون عليه مكان للصلاة. وإذا كان لمكان الصلاة أربعة جدران، يوضع رمز على جدار القبلة واسمه المحراب للإشارة إلى اتجاه الصلاة.

كانت الناس تأتي إلى صلاة العيد مدججة بالسلاح خوفاً من أعداء القبائل. وبذكر موضوع القبلية هذا، نكون قد وصلنا إلى موضوع أساسي حول المدن الإسلامية التقليدية - وحول صنعاء تحديداً. كان للإسلام فضل في الجمع بين حضارة الماضي المدنية وسكان الأرياف بطريقة لم تحصل من قبل. يقصد سكان الريف المدينة على بعد مئات الأميال مرتين على الأقل في السنة لأداء صلاة العيد. وكان التفاعل بين سكان المدن وسكان الريف في الإسلام أكثر استقراراً من كل من عرفوه في المجتمعات السابقة. وأهم ما كان يميز سكان الريف آنذاك أنهم يتمون إلى عشائر وقبائل. وبات الإسلام بفضل فتوحاته، غنياً إلى حد واسع في أقل من جيل واحد بعد وفاة النبي. استقرت أعداد هائلة من سكان الريف في المدن، وزاد نمو المدن والبلدات استثنائياً في تلك الفترة. ومع ذلك حافظ الريفيون على عصبيتهم القبلية لأجيال عديدة - بل حتى وقتنا الحاضر أحياناً. هذا عامل مهم في فهم تشكيل المدن الإسلامية. فلطالما كانت القبلية عنصراً أساسياً في حكم الجماعات في العصور القديمة^(١).

تقوم العصبة القبلية عادةً على رابطة الدم. وفي المبدأ، يؤمن جميع أفراد القبيلة الواحدة أن لهم جداً واحداً، وليس مهماً إذا كان هذا الجد قديماً جداً أو حتى مجرد أسطورة. إلا أنه يوجد نوع آخر من الصلات وهي العشيرة. ولأفراد العشيرة جد مشترك يذكرونه. يراوح تعداد أفراد العشيرة عادةً بين مئتين وخمسمئة شخص بينما قد يصل عدد أفراد القبيلة الواحدة إلى عشرة آلاف شخص. ينتمي جميع سكان الريف تقريباً إلى تقسيمات من هذا النوع. وتولي كل عشيرة لرئيسها الاحترام والطاعة. ينطبق الشيء نفسه على القبائل؛ فلكل قبيلة رئيس منتخب وهو شيخ القبيلة الذي يطيعه الجميع بكامل رضاهم.

(١) مقارنة بقبائل «إسرائيل» ودور القبلية في التركيبة السياسية لدول المدن في اليونان القديم.

الرسم الرقم (٢٥ - ١٠)
رجال يتجهون لقضاء قبولتهم بعد الظهر ولمضغ بعض أوراق القات



نستنتج من هذا أن تركيبة المجتمع كانت هرمية، وأن أنجح أنماط الحكم المركزي هي بوضوح تلك التي تحسن الإفادة من قوة رؤساء القبائل. هذه هي الطريقة التي حَكَم بها الإسلام الكثير من المناطق بسهولة نسبياً، بما فيها المناطق حول صنعاء. إلا أن مشكلة القبلية هي في العداوات التي يمكن أن تتفاقم بسهولة، كما الحال بين العائلات. فالأفراد يحملون الأحقاد؛ وقد يحملونها في المجتمعات القبلية لمئات السنين. وعليه يغدو الانتقام جزءاً مهماً من العادات القبلية، ويغدو التعامل معه مشكلة رئيسية تواجهها الإدارة.

أفضل مثال على هذا هو وصول الناس إلى صلاة العيد في صنعاء مسلحين ليحموا أنفسهم من أولئك الذين ربما يقررون الانتقام من آخرين ثاراً، أو لضيم عشائري أو قبلي قديم. وكان رجال الشرطة يتمركزون صبيحة العيد لحماية الجماعة ككل من أي اقتتال قبلي يمكن أن يقع. هذا بالتالي هو سبب إقامة صلاة العيد في العراء المفتوح خارج المدينة بدلاً من الداخل.

إذا سلمنا جدلاً بصحة الحجة السابقة فمن المنطقي أن نسأل كيف كانت تتم السيطرة على رجال القبائل الريفيين القادمين إلى المدينة؟ في يوم سوق عادي كان يسيطر على رجال القبائل القادمين من الريف، الذين يودون الذهاب إلى السوق والمشاركة بدافع التجارة فيه، بطريقتين: الأولى أن يأخذ حراس المدينة أسلحتهم عند الأبواب ويحفظوها إلى حين عودتهم، والثانية أنه إذا بدأ أحد رجال القبائل بشغب في السوق فعلى أصحاب المتاجر مسؤولية وقفه، تحت طائلة إنزال أشد العقوبات بهم في حال نشوب قتال قبلي.

ظهر أثر الخصومات بين القبائل في الشكل الذي اتخذته المدينة، إذ انقسمت المنطقة الحضرية داخل الجدران إلى أحياء متجاورة، ينتمي كل حيٍّ منها أصلاً إلى قبيلة محددة أو مجموعة متحالفة. ويتمتع كل حيٍّ باستقلالية كبيرة. ولتفادي نشوب أي قتال قبلي، نصّت القوانين القديمة على منع دخول أعداد كبيرة من الغرباء إلى أي حيٍّ سكني دفعة واحدة.

وإذا ما درسنا الخرائط جيداً (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ٢)) أو الصور الجوية لصنعاء القديمة (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ٩))، فإننا نلاحظ بقاءً واسعة من المساحات المفتوحة في جميع أنحاء المدينة. هذه البقع هي عبارة عن حدائق السوق أو البساتين التي نمت على الأرض الخلاء الفاصلة بين الأحياء. وكانوا يستخرجون منها حاجتهم

من الطين والتراب لبناء المباني الأصلية. ثم تطورت هذه المساحات لتصبح حدائق للسوق.

والحفاظ على استتباب الأمن من الغسق إلى الفجر هو من المشاكل التي تصادف مدينة مثل صنعاء. فالمنافسات بين أفراد العشائر من أحياء مختلفة هي أمر شائع. وقد حلّ فرض حظر التجول جزءاً من مشكلة الضبط الاجتماعي. كان يعلن عن بدء حظر التجول عادةً بدق جرس أو ناقوس، ثم أصبح يعلن عن بدئه بضربة مدفع عند الثامنة مساءً وعند انتهائه في السادسة صباحاً. وفي أثناء ذلك كان يتوجب على السكان البقاء في حدود أحيائهم ويحظر عليهم التسلل إلى الطرقات الرئيسية. ليس هذا بالأمر الشاق الذي يمكن تصوره. فلكل حي طريق ثانوي يؤدي دور الطريق العام المركزي للحي. ويتفرع منه طرق فرعية تقود إلى المنازل.

أول ما يلفت النظر في صنعاء هو ارتفاع منازلها؛ فقد اتخذ السكن في الأنحاء الأخرى لجنوب الجزيرة العربية شكل المنازل المرتفعة كالأبراج، بدافع الحفاظ قدر الإمكان على الأراضي للإفادة منها في الزراعة. وقد تناقلت قصص تاريخ صنعاء منذ القدم أن المنازل المرتفعة وجدت في صنعاء منذ أوائل الزمان^(٢) في الوقت الذي لا يزيد عمر معظم المنازل الباقية على الثلاثمئة سنة.

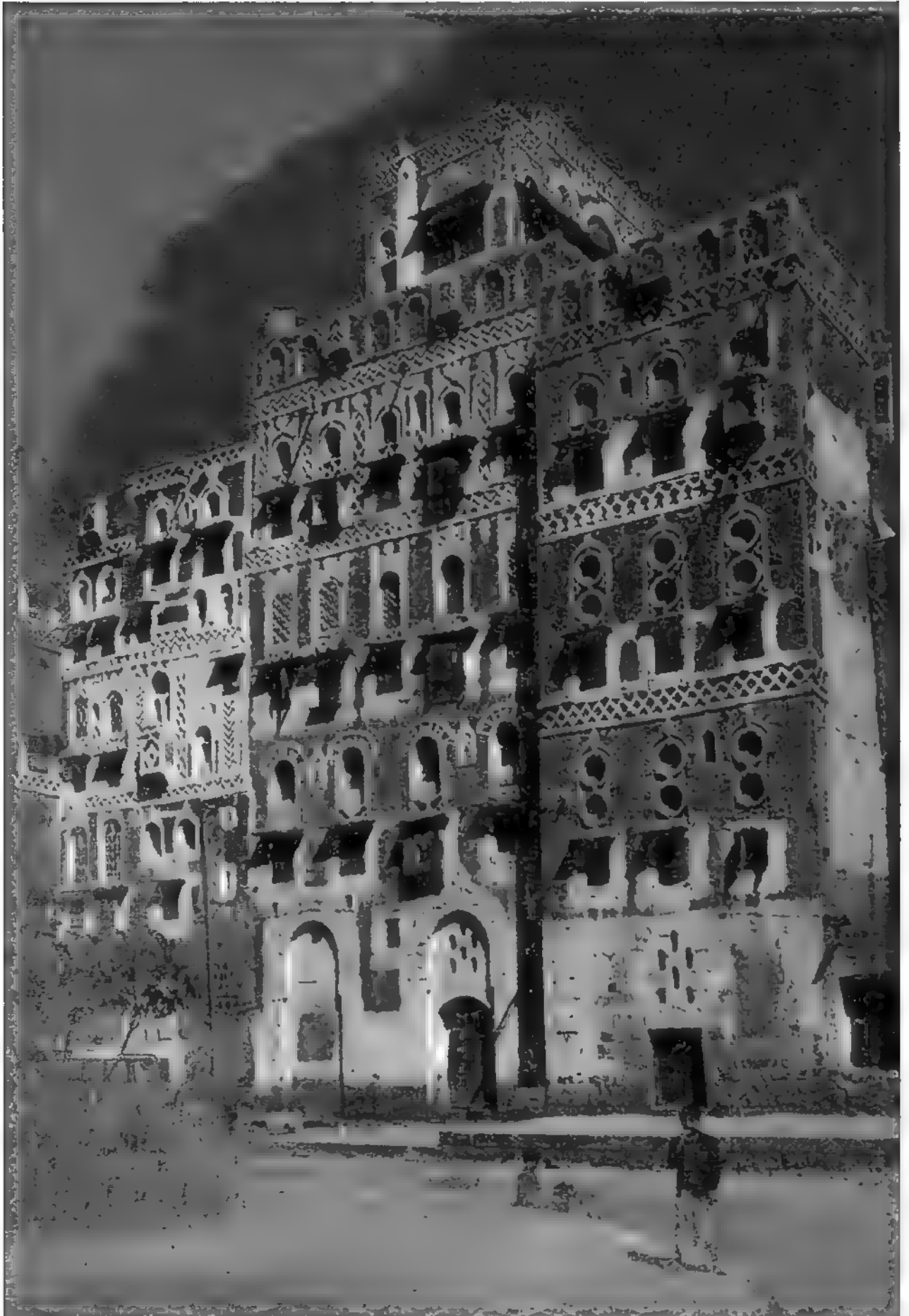
يبلغ ارتفاع المنازل في صنعاء القديمة بين خمسة وتسعة أذوار (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ١١)). وهي عادةً مستطيلة الشكل وتجدها بكثافة على طول الطرقات.

أما المواد المستعملة في بناء المنازل فهي الحجر الصخري والأجر. يستخدم الحجر الصخري في بناء الطوابق السفلية حتى علو ٣٠ قدماً فوق مستوى الأرض. ثم يستعاض عنه بالأجر المشوي للطوابق العليا. وتقل سماكة الجدران تدريجاً كلما زاد الارتفاع لأسباب هيكليّة.

تميل واجهات المنازل إلى التماثل. وهي مزينة بزخارف غنية حول النوافذ والفتحات. وتدل الأحجار المجردة من الزخرفة إلى الانتقال من الجدران الحجرية إلى بدء استعمال الأجر في بناء المستوى الأعلى. وقد أضفى طلاء الكلس على الواجهات شكلاً مفضلاً.

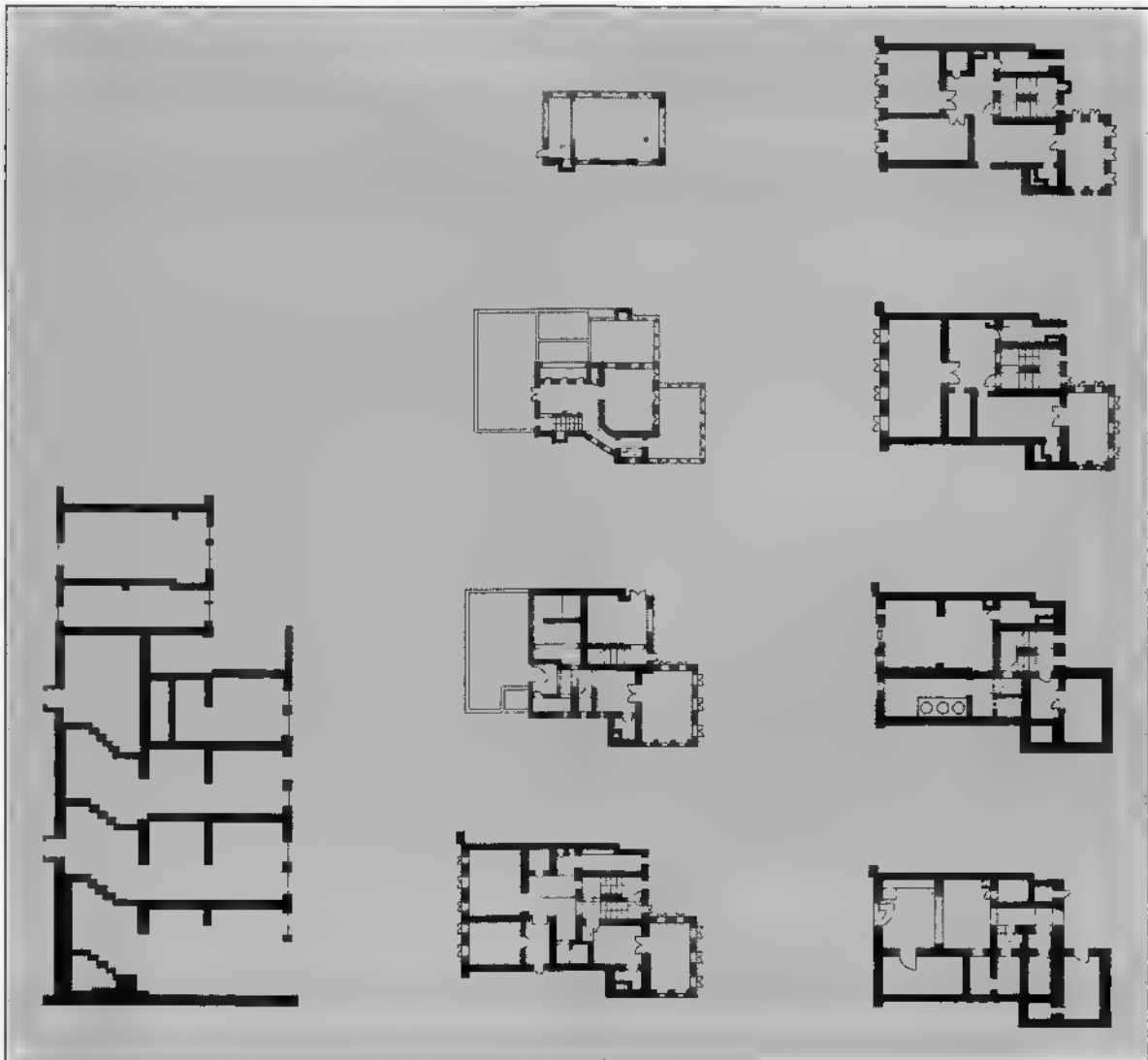
R. B. Serjeant and Ronald Lewcock, *San'a': An Arabian Islamic City* (London: [n. pb.], 1983), (٢) pp. 487-496.

الرسم الرقم (٢٥ - ١١)
منازل صناعية نموذجية



كانت الدار تشيّد عادةً حول درجات عمودية تؤدي دور العمود المفرّغ الذي يمنح المنزل الثبات (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ١٢)). ويحوي الدور الأرضي عادةً صالة المدخل حيث الدرجات التي تؤدي إلى الدور الأعلى، كما تتصل بالدور الأرضي زرائب الماشية مثل الحمير والجمال. كما تستعمل العائلة الدور الأول كمخزن للحبوب والفواكه، وهو عادةً ما يكون طابقاً متوسطاً بين الأرضي والأول.

الرسم الرقم (٢٥ - ١٢)
منزل صنعاني: تقسيم ومخطط نموذجي



يُستعمل الطابق الذي يليه لاستقبال الضيوف الغرباء حيث فرزت غرفة كبيرة للقيام بالأعمال واستقبال الزوار من الرجال. وأكبر غرفة في الطوابق السكنية هي

الديوان (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ١٣))، الذي تجتمع العشيرة بأكملها فيه في المناسبات المهمة في حياة العائلة، مثل ولادة طفل أو وفاة أحد أفراد العائلة... وتبقى بقية وظائف المعيشة من دون ترتيب مسبق. فمن الممكن أن يجلس المرء أو يأكل أو ينام في أي غرفة يريد، لا فرق، وفي أي وقت من اليوم. أما استعمال المفروشات فكان ضئيلاً، إذ تفرش الغرف بالسجاد وتصفّ فيها وسادات محشوة بالصوف حول الجدران.

الرسم الرقم (٢٥ - ١٣)
ديوان في منزل كبير - تستطيع العشيرة كلها
أن تجتمع فيه في المناسبات العائلية



ولنوافذ المنازل الصنعانية عقود من الجبس بدلاً من الزجاج. ويقع «المفرج» وهو غرفة التسلية في أعلى المنزل، حيث يمكن للجالسين فيه التمتع بالمناظر وبرودة الهواء (انظر الرسمان الرقم (٢٥ - ١٤) والرقم (٢٥ - ١٥)).

الرسم الرقم (٢٥ - ١٤)
غرفة نموذجية ونرى الجبس الأبيض أعلى النوافذ



الرسم الرقم (٢٥ - ١٥)
غرف تسليية نموذجية (المفرج) على سطوح المنازل، للتمتع بالمناظر وبيرودة النسيم



لاحظ أن علو المنازل قد قَرَّم المآذن.

يوجد في كل طابق حمام فيه دورة مياه. ولكل حمام عادة أرضية من الحجر. ويخزن ماء الاستحمام في آنية كبيرة من الخزف خارج الحمام وتنقل إلى داخله في أباريق أصغر حجماً. وكان يتم الاستحمام بالاعتسال وقوفاً على حجرين مرتفعين عن الأرض ويصب الماء فوق الرأس بواسطة الإبريق الموضوع على حجر مستدير بالقرب من المستحم.

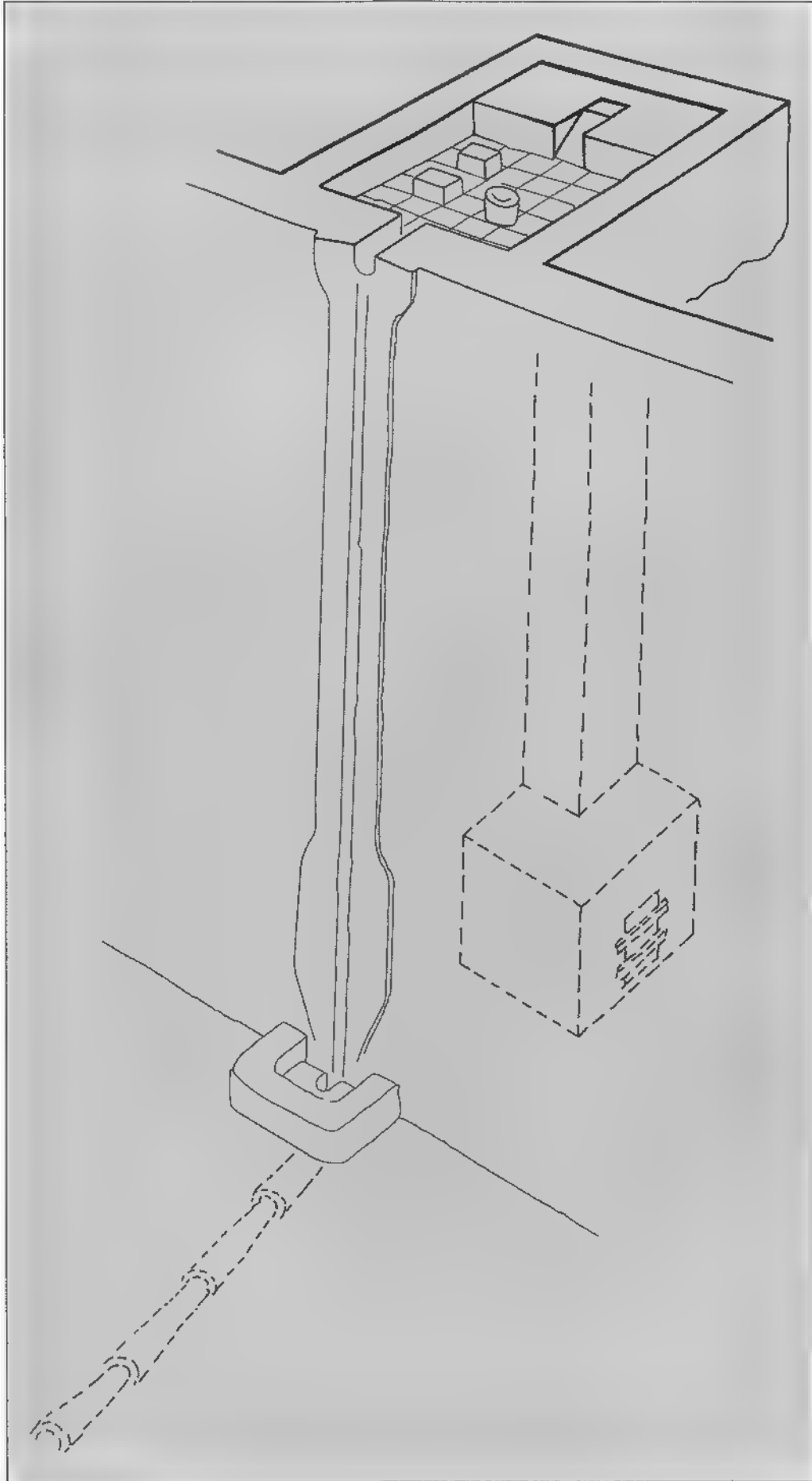
يتم التخلص من النفايات الصلبة في المراحيض عبر عمود مفرغ يصب في جورة في الأسفل. ويتدفق البول عبر الأرضية إلى أسفل أيضاً لكن عبر جدار المنزل إلى الخارج. ثم تغسل الأرض ودورة المياه فيغسل المصرف خارج الجدار الخارجي بالماء نفسه. كان المسافرون في القرون الوسطى يثنون على هذا النظام الاستثنائي للنظافة، إذ كانت تجمع النفايات الصلبة من وقت إلى آخر وتؤخذ إلى الحمامات الساخنة لحرقها، تماماً كما كنا نفعل في عالمنا بتجميع النفايات الصلبة ليلاً حتى القرن الماضي تقريباً؛ فيتحول رماد هذه النفايات إلى سماد معقم يستعمل في حدائق السوق التي تفصل الأحياء بعضها عن بعض. ومن ثم تباع الخضرة المنتجة فيها لسكان المنازل القريبة فتكتمل بهذا دورة بيئية كاملة (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ١٦)).

تؤمن إمدادات المياه للمدينة بعدة طرائق. ففي زوايا كل شارع كان يوضع صهريج ماء أحدهما لاستعمال الناس والثاني للحيوانات (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ١٧)). وكانت تستخدم الحمير والجمال كمصدر للطاقة لسحب المياه من الآبار وجلبها لملء هذه الصهاريج (انظر الرسم الرقم (٢٥ - ١٨)).

كان هناك نظام أكثر تطوراً يستعمل لتأمين المياه بواسطة برك كبيرة في الهضاب حول المدينة. فتجمع مياه الجداول والينابيع لتصب في البرك، وتجري المياه منها إلى المدينة بواسطة قنوات. وقد تبعد البركة من المدينة بين ٢٠ و ٦٠ كم. جرّ الرومان من قبل المياه إلى المدن بهذه الطريقة من خلال استخدام قنوات مفتوحة. لكن الجو الحار والجاف في بلاد العرب جعل من التبخر مشكلة لا يمكن معها استخدام الطريقة نفسها، فكان لا بد للقنوات أن تمر تحت الأرض. وهي كانت تسمى الغيل باللغة العربية والقناة بالفارسية، وبعضها كان يجر الماء إلى صنعاء في القرون الوسطى.

الرسم الرقم (٢٥-١٦)

رسم بياني لحمام نموذجي، يظهر طريقة التخلص من النفايات الصلبة والسائلة



الرسم الرقم (٢٥ - ١٧)
صهريج ماء في زاوية شارع



الرسم الرقم (٢٥ - ١٨)

حَمَّال ماء يحمل القربة المصنوعة من جلد الماعز المملوءة ماءً
ويصعد بها درجاً داخل منزل



ثانياً: تحليل: شكل المدينة

تمثل القلعة السفلية قلب المدينة ما قبل الإسلام، ويقع السكان الفرس والإثيوبيون إلى غربها مباشرة، جنوب المجال المفتوح المعروف بميدان صنعاء. يتصب في وسط هذا المجال المعبد اليهودي الذي بقي قائماً حتى أول العهد الإسلامي. وبنيت الكنيسة المسيحية العظيمة في مقابل المعبد، واللوحه الجدارية على جانبها الشرقي لإحياء ذكرى المرور الأسطوري للسيد المسيح وإقامته الموقته في المدينة أثناء هروبه من مذبحة الأبرياء. وعلى الجانب الغربي من المدينة القديمة يقع عُمدان، الذي كان قصراً للملك أولاً ثم أصبح قصر الحاكم، وهو الآن تل من الخراب. وإلى الشمال، يتوسع السوق خارج البوابات، كما في الوضع الذي ظل عليه حتى وقت قصير قبل أن يتلعه توسع جديد آخر.

مُذ تحولت المدينة إلى الإسلام، تطوّر حول هذه النواة مدينة مختلفة تماماً. تمّ في البداية، في أثناء حياة النبي وتحت إشراف صحابته، بناء المسجد الكبير في حديقة قصر عُمدان. ثم جاءت القبائل المسلمة للاستقرار في الشمال والشرق وأحاطت بالمسجد الذي كان خارج الأبواب سابقاً. وأصبح المسيحيون واليهود والفرس الذين لم يعتنقوا الإسلام محاطين من جهتين، وتوسعت المدينة بعيداً نحو الشمال والغرب.

نمت أحياء المستوطنين المسلمين الجديدة على نحو تلقائي ومن غير تخطيط، فكانت تعتمد في تماسكها على القرابة العشائرية. وهي النمط الذي سيحكم كل التوسع اللاحق للمدينة.

تجدر الملاحظة هنا أن مناطق النمو في صنعاء الإسلامية لم تكن محاطة بسور لحمايتها حتى نهاية القرن الثامن أو بداية القرن التاسع. فقد كان التوسع إلى الشرق مقيداً بوجود القلعة القديمة، التي كانت تجدد باستمرار وتقوى للتحكم بالتجارة عبر الهضاب العالية. واستمر توسع المدينة إلى الغرب كذلك، إذ في الوقت الذي احتلت أسرة صلاح الدين جنوب الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر، كانت حدود المدينة قد تجاوزت الوادي الذي كان يحميها سابقاً من الجهة الغربية؛ فبني في الجهة المقابلة للوادي قصر جديد لحاكمهم، ومخيّم للجيش الفاتح، وأكمل السور بجدران جديدة تحيط بالحدود الجديدة للمدينة.

قسّمت المدينة في أثناء إعمارها إلى أحياء جديدة تفصل ما بينها مساحات واسعة. كان الهدف من هذه المساحات حماية السكان من المشاحنات بين العشائر والقبائل،

وكانت تؤمن مواد البناء الضرورية من تراب وطين. ثم تحولت إلى حدائق للسوق تؤمن الخضار والفواكه للأحياء. بعض هذه الحدائق ما زال قائماً إلى يومنا هذا.

أدى توسع المدينة إلى تمديد أسوارها على نحو متواصل. إلا أن هذه العملية توقفت حين شقت جيوش سليمان العظيم العثمانية طريقها من الساحل إلى التلال لتحتل صنعاء. سيطر حكام العثمانيين على المدينة من القلعة فأداروا أسلحة الأبراج في اتجاه المدينة وبنوا طريقاً تحفه الأشجار على الجانبين يمتد من الميدان خارج القلعة إلى الباب الشمالي حيث يقع مسجد جديد، وحمّامات عثمانية رائعة ومدرسة حربية ومقاهٍ. وحين استعاد الحكام اليمنيون المدينة كانت الحدود السابقة للمدينة قد ثبتت ضمن أسوارها. وبنى قصر جديد للحكام اليمنيين خارج المدينة في طرفها الغربي وأحيطت حديقة الفيلات التي كانت قد نمت أكثر إلى الغرب بسور منفصل لخلق منطقة مميزة تعرف باسم بير العزب.

في أواخر القرن السابع عشر، وفي هذه الفسحة، سمح لليهود الذين كانوا قد أُجبروا على إخلاء منازلهم في المدينة القديمة، عقب أول اضطرابات دينية، أن يستقروا من جديد في حي يعرف بالقاع.

خاتمة

هكذا، تعمل مدينة صنعاء القديمة وفق نظام مكتفٍ ذاتياً من الناحية الاجتماعية والاقتصادية. واقرن التفاعل الاجتماعي المستقر فعلياً بإعادة تدوير المواد وبدورة النمو وباستهلاك المحاصيل الصالحة للأكل وإعادة استعمالها كسماد. وبدت حياة المدينة متجانسة نسبياً - مع التقسيم شبه الحربي في أحياء قبلية - وحيث يخضع كل منها لشيخ ولقوانين صارمة ضد حمل السلاح ولمنع المجموعات من العبور من حيٍّ إلى آخر. وأمنت حدائق السوق مصدراً للطعام في أوقات الحصار، ومتنفساً طبيعياً في المدينة ليلعب الأولاد ومتعة للبالغين.

وأهم من هذا كله، كان للمدينة حياة اجتماعية في المسجد، وفي السوق، وفي الحمّام وفي اجتماعات بعد الظهر ووقت العصر الهادئة في المنازل الكبيرة، وعلى مدار السنة في الأعياد الدينية وفي صلاة الفجر وفي المواكب الجنائزية إلى المقابر خارج أسوار المدينة، وفي الرقص في الشوارع احتفاءً بالأعراس.

مراجع الفصل

- Abdel-Rahm, M. «Governmental Institutions.» in: R. B. Serjeant [et al.]. *The Islamic City*. Paris: UNESCO, 1980. pp. 90-103.
- Akbar, Jamal A. *Crisis in the Built Environment: The Case of the Muslim City*. Leiden: E. J. Brill, 1988.
- Belkacem, Y. «Bioclimatic Patterns and Human Aspects of Urban Form in the Islamic City.» in: El-Sadek Serageldin [et. al]. *The Arab City*. Riyadh: The Arab Institute, 1982. pp. 1-12.
- Elisseeff, N. «Physical Lay-out.» in: R. B. Serjeant [et al.]. *The Islamic City*. Paris: UNESCO, 1980. pp. 52-64.
- Lapidus, I. M. «Muslim Cities and Muslim Societies.» in: I. M. Lapidus [et. al.]. *Middle Eastern Cities*. Berkeley; Los Angeles: University of California Press, 1969. pp. 47-79.
- Lewcock, Ronald. *The Old Walled City of San'a'*. Paris: UNESCO, 1986.
- . «Towns and Buildings in Arabia, North Yemen.» *Architectural Association Quarterly*: vol. 8, May 1976. pp. 3-19.
- Serjeant, R. B. and Lewcock, Ronald. *San'a': An Arabian Islamic City*. London: [n. pb.], 1983.

الفصل السادس والعشرون

هرر: المدينة المقدسة الرابعة في الإسلام^(*)

سيرج سانتيللي^(**)

يبدو أن الشيوخ المسلمين كانوا معروفين في هرر قبل مجيء أمدا سيون، إمبراطور الحبشة المسيحي، وأثناء عهده (١٣١٤ - ١٣٤٤). وأقدم وثيقة تشير إلى وجود المدينة هي سجل انتصاراته على مملكة عدل الإسلامية، التي كانت جزءاً من إمبراطورية الحبشة بالرغم من كونها مستقلة. وبعد وفاة الإمبراطور، تقلصت سلطانات هدية وفتحجار وداوارو وإيفات، حيث كانت هرر جزءاً منها - لتصبح مجرد أقاليم يحكمها أمراء مسلمون باسم النجاشي.

بعد انقضاء عهد أمدا سيون، أصبحت هرر موطئ قدم مهماً للإسلام، يضم ميناء زيلع الاستراتيجي المطل على البحر الأحمر. ومع نهاية القرن الرابع عشر، نقل سلطان عدل عاصمته إلى وهال، حيث بدأ بالتحضير لحرب مقدسة دامت ثلاثين سنة، سقطت بعدها المنطقة بكاملها في يد المسيحيين الذين تمكنوا عام ١٤٢٥ من احتلال ميناء

(*) تم إعداد هذا البحث بالاستناد إلى الوثائق وعمليات المسح التي قامت بها «ورش العمل في هرر» أعوام ٢٠٠٠ و ٢٠٠١ و ٢٠٠٢ في المدينة بفضل المساعدة المالية التي قدمتها الحكومة الفرنسية. ترأس ورش العمل هذه كل من فيليب ريفو وسيرج سانتيللي، وعاونها مهندسان معماريان وأساتذة في برنامج «المدن والمهارة والتراث: المغرب والشرق الأدنى» (المخصص لطلاب الدراسات العليا). كما قام بأعمال المسح الاجتماعي والمعماري المتعلقة بالمباني الدينية والسكنية كل من ناديا آي وإيما غرينار وناديج تشلبي.

(**) مهندس معماري، حائز درجة ماجستير في تخطيط المدن - فرنسا.

زيلع. وفي عام ١٥١٥، هزم الإمبراطور المسيحي أمير هرر، واسمه محفوظ، وقتله ولاحق جنوده المنهزمين. غير أن ائتلافاً من المسلمين تجمعوا واتخذوا من منطقة هرر قاعدة لهم بإمرة الإمام أحمد بن إبراهيم الغازي (١٥٠٦ - ١٥٤٣)، المعروف بقران (وكان قد قتل السلطان أبا بكر وأعاد سلطة القرآن والسنة في بلاده)، وعادوا فنهضوا لقتال المسيحيين.

انتقلت عاصمة السلطنة في عهد قران إلى هرر عام ١٥٢٠. لكن قران، الذي عرف بـ «الفاتح الأول» للمدينة، قتل عام ١٥٤٣. بقي إقليم هرر وعاصمته، بعد مقتل قران، الإقطاعية المفضلة لرفاقه وعائلته وأتباعه. ترأس نور بن مجاهد الحركة وسُمي أميراً وخليفة لقران عام ١٥٥٢. وأصبح الزعيم الحقيقي لهرر فجعل المدينة حصناً مسوّراً، وكان ضريحه - في مركز المدينة - السبب في تكريس المكان كمدينة مقدسة موصدة أمام من هم من غير المسلمين إلى أن احتل مينيليك المنطقة عام ١٨٨٧.

وبعد موت نور برز اعتزال المجتمع الإسلامي - وخصوصاً في هرر - وهي حركة هدفت إلى تعميق الإيمان وممارسة الشعائر الإسلامية في مجتمع كان لا يزال الإسلام في معظم شرائحه سطحيّاً. كان يوجد في هرر عدد من المدارس وبعض القضاة. وعلى مرّ العقود التي تلت وفاة نور بن مجاهد، شاعت المؤلفات الدينية التي كانت تهدف إلى إرساء ممارسة تعاليم القرآن وطقوس بعض الأولياء المحليين. جرت هذه الممارسات تحت تأثير الأخويات الدينية، ولا سيّما القادرية التي ظهرت في هرر في أواخر القرن الخامس عشر وتخطى تأثيرها حدود الإمارة ليصل إلى المناطق الجنوبية الغربية من إثيوبيا. ولمدة طويلة من الزمن، حتى القرن التاسع عشر، كانت هذه الأخوية الوحيدة النشطة في إثيوبيا، وخصوصاً في مجال نشر التعاليم الدينية.

أولاً: المحطات السياسية

١ - استقلال هرر

عام ١٥٦٧، احتل شعب الأورومو، الذي كان حتى ذلك الحين يعيش في جنوب إثيوبيا وعلى المنحدرات الشرقية للهضبة، منطقة هرر بكاملها ودمرها. حاول الأمير نور مقاومتهم، لكنه مات بالطاعون الذي تلا المجاعة التي أصابت المنطقة عام ١٥٦٧ - ١٥٦٨. تقلّصت المناطق التابعة للمدينة وانحسرت أنشطتها التجارية. ومع ذلك، تحولت أغلبية شعب الأورومو إلى الإسلام، الأمر الذي سمح بتطوير أسواقها

وتجارتها. وكانت هرر المنطقة الأولى في إثيوبيا التي بدأت زراعة أشجار البن بحيث أصبحت المدينة والقرى المحيطة بها، في نهاية القرن السابع عشر، المصدر الأول للبن الإثيوبي، الذي كان ينقل عبر ميناء زيلع على البحر الأحمر.

انتقل مركز السلطنة، التي كانت هرر لا تزال جزءاً منها، بعد أن أدهقتها المجاعة وغارات الأورومو، إلى أواسا عام ١٥٧٧؛ وشهد النصف الثاني من القرن السادس عشر بروز العديد من الإمارات والسلطنات والمقاطعات الإسلامية على امتداد الشريط الساحلي. كانت هرر إحداها، لكنها اكتسبت قوة مميزة بسبب ازدهار زراعتها وتجارتها. وأصبحت دولة تجارية صغيرة ومركزاً مؤثراً لتعليم الإسلام ونجحت في تحرير نفسها من السلطنة مع مجيء سلالة علي بن داود (١٦٤٧).

وعلى امتداد ثلاثة قرون تقريباً، ظلت هرر مدينة مستقلة تسكّ عملتها وتحيط بها أسوارها ويحكمها أميرها؛ لكنها كانت فترة انحسار أيضاً، لأن عدد سكانها تقلص من ٤٠٠٠٠ - ٥٠٠٠٠ نسمة إلى ١٢٠٠٠ - ١٤٠٠٠ نسمة. وبحكم عزلتها السياسية وضعفها العسكري، كانت المدينة قادرة على العيش فقط من عائدات تجارتها التي تعدّ الأساس الجوهري لاقتصادها. وصلت القوافل الهررية إلى الأقاليم الغنية في جنوب إثيوبيا، وإلى شوا وأوغادين، إضافة إلى موانئ البحر الأحمر وزيلع وبربرة. ومع ذلك، دعمت هرر دورها الأساسي بوصفها حصناً راسخاً للإسلام - كمركز للعلم - وكمدينة نشطة تجارياً في الوقت ذاته.

إن اعتناق قسم كبير من شعب الأورومو الإسلام على يد التجار القادمين من الشرق - وخصوصاً من هرر - والقادمين من اليمن أيضاً، كان، بلا شك، العامل الأهم في انتشار الإسلام. أما بالنسبة إلى قبائل الأورومو الجنوبية (أروسي وبورانا وليغا)، التي كانت في معظمها من الرّحل أو شبه الرّحل، فقد غلب عليها تأثير المدينة الإسلامية بدءاً من القرن التاسع عشر. وأصبح الإسلام والتجارة شيئاً واحداً، وصار يقال للمسلم في لغة الأورومو «نغادي»، وهي كلمة إثيوبية تعني التاجر.

في أواخر القرن الثامن عشر، كانت القبائل الأورومية والصومالية لا تزال تتوسع في منطقة هرر وتستولي على بعض المناطق المجاورة للمدينة. لكن ظاهرة اعتناق الإسلام استمرت وجنحت قبائل عديدة إلى الاستقرار، معترفةً أغليتها بسلطة الأمير، الذي كانت تدفع له الإتاوة وتقدم إليه الهدايا، في مقابل أن تحظى بحمايته. وفي سبيل توطيد العلاقة مع الأورومو عقد أمراء هرر تحالفات مبنية على المصاهرة معهم. وفي

الوقت ذاته، اتفق التجار الهريون والمزارعون الأوروميون والصوماليون في ما بينهم من أجل السماح بتطور الحركة التجارية بين الريف والمدينة. وكان يسمح لبعض القوافل التجارية الأورومية والصومالية الصغيرة بدخول المدينة يومياً في مقابل أن يدعوا أسلحتهم عند بوابة المدينة، كما تمت السيطرة على أعداد الأجانب بشكل مستمر.

وبحلول أواخر القرن التاسع عشر، كانت المدينة تجني ثروتها بفضل موقعها المميز على أحد الطريقين التجاريين الرئيسيين اللذين يصلان جنوب إثيوبيا بشمالها. وتفيد شهادات المعاصرين لتلك الحقبة بأن المدينة كانت نشطة جداً، حيث كان يتم تبادل المنتجات الزراعية - لهذه المنطقة الخصبة - مثل البن والذرة والموز والقات، وكذلك الجلود والملح، بكميات كبيرة، فضلاً عن الذهب والبخور.

كان أمراء هرر أكبر التجار في المدينة قبل مجيء المصريين. ونظراً إلى أنهم معفيون من دفع ضرائب المرفأ، فقد كانوا يصدّرون البن والعاج من مرفأ زيلع الكبير. كما كان الأمير يبيع العاج (باحتكار ملكي) في بربرة عبر وسيط أو وكيل. أما التجار الآخرون فكانوا يصدّرون الرقيق والعاج والمطاط من هرر إلى عدن، وهناك كانوا يشترون القوارير الزجاجية والملبوسات... إلخ، ثم يذهبون إلى تاجوراء وإيفات، حيث يقايضون هذه السلع بالرقيق والبغال والقطن.

٢ - الفتح المصري

بعد أن استولى رؤوف باشا المصري على السودان ثم على زيلع وبربرة عام ١٨٧٠، عاد واحتل هرر للفترة ١٨٧٤ - ١٨٨٤. ثم احتلت هرر للفترة ١٨٨٣ - ١٨٩٠ من قبل مينيليك، ملك شوا منذ عام ١٨٦٤، ثم إمبراطور إثيوبيا منذ عام ١٨٨٩، الذي ضم المدينة إلى مملكته عام ١٨٨٧، وعيّن ابن عمه ماكونن حاكماً عليها. وكانت العلامة الأبرز في هزيمة هرر تدمير مسجدّها القديم، في فرّس مغالا، أي الميدان المركزي، وبناء كنيسة أرثوذكسية على أنقاضه، مثمّنة الشكل صمّمها مهندس إيطالي (انظر الرسم الرقم (٢٦ - ١)).

٣ - هرر إحدى مدن الإمبراطورية الإثيوبية

كان راس ماكونن، الذي تعلّم على أيدي كهنة فرنسيين، مهتماً بإقامة علاقة بالحضارة الغربية. من هذا المنطلق، سافر إلى الشرق وإلى أوروبا كمبعوث خاص للإمبراطورية. وبعد وفاته عام ١٩٠٦، خلفه ابنه تفاري، الذي ولد في هرر عام ١٨٩٢،

كحاكم لإقليم هرر. ولا يزال منزله، منزل راس تفاري، يشرف على المدينة. وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٠، أصبح الإمبراطور هيلا سلاسي. وفي عهده نمت شبكة من الطرق بين المدينة العاصمة والأقاليم المختلفة، وأنشئ خط للسكك الحديدية ربط جيبوتي بدير داوا وأديس أبابا.

يبقى أن نشير إلى أن النشاط التجاري لهرر بدأ بالانحسار المطرد. ويمكن تفسير ذلك بالعوامل السياسية الداخلية مثل خسارتها استقلالها من ناحية، وبالتالي حررتها في التصرف، وزوال أمرائها الذين كانوا أكبر التجار في المدينة، من ناحية أخرى. أضف إلى ذلك أن الاضطرابات السياسية واصلت تأثيرها في سلامة الطرقات وإخلالها بالنظام التجاري في المدينة.

الرسم الرقم (٢٦ - ١)
قرس مغالا، مشهد من الكنيسة



كما أثر تنامي قوة المراكز التجارية الجديدة في نشاط هرر التجاري؛ فإنشاء خط السكك الحديدية، على سبيل المثال، كان أحد العوامل الرئيسية التي ساهمت في تدهورها، إذ بسبب طبيعتها الجبلية لم يكن ممكناً مرور هذا الخط فيها، فاتبع الخط مساراً يربط جيبوتي بأديس أبابا مروراً بدير داوا في السهل. وبالتالي، خلافاً لتوقعات

ماكونن، لم تتطور هرر التي كان حاكماً عليها، بل تطورت دير داوا، التي نمت وأضرّت بجارتها التاريخية.

٤ - هرر تحت الاحتلال الإيطالي

سقطت هرر في أيدي الإيطاليين عام ١٩٣٦ ثم عادت وتحررت عام ١٩٤٢. وقد قام الإيطاليون بأعمال تطوير عمرانية كبيرة في المدينة؛ فبنوا خارج أسوارها، في القسم الغربي من المدينة، أساس مدينة جديدة تضم قصر الحاكم والمباني الإدارية الأخرى. كما شقوا طريقاً مستقيماً، يربط البوابة الغربية، هرر باري، بالميدان المركزي لإتاحة مرور السيارات. كما أنهم بنوا داخل جوغل (المدينة التاريخية) سوقاً دائمة، ذات مبانٍ داخلية مقنطرة، وهو ما سمح بإنشاء محال تجارية حقيقية.

وبما أن الإيطاليين أرادوا الاعتماد على المسلمين لمكافحة المقاومة الأمهرية، فقد منحوهم امتيازات كثيرة، وبنوا المساجد في كل مكان، وعينوا القضاة في المراكز وشجعوا على تعليم اللغة العربية التي أعلنت اللغة الرسمية في هرر. أفادت هذه السياسة المجتمع الإثيوبي المسلم فلم يعد على هامش الحياة السياسية كما كان في الماضي.

ثانياً: تركيبة المدينة

يحيط بالمدينة سور متواصل تتخلّله ست بوابات، إحداها بوابة هرر الحديثة. من الواضح أن هذه البوابات كانت تقع على الطرقات الرئيسية التي تصل المدينة بالمناطق المجاورة. تسمح بوابة شُوا (باب النصر) بدخول المدينة من الجهة الغربية إلى حيث الطريق الرئيسي الشرقي - الغربي قبل أن توسعه الإدارة الإيطالية بعد عام ١٩٣٦. وتتصل بوابة فلانا (باب الفتوح) بالقسم الشمالي، وتتصل بوابة هرر بالشرق، وتتصل بوابة سنغا (باب السلام) بالجنوب الشرقي، وتتصل بوابة بودا (باب حاكم) بالجنوب. تقع جميع هذه البوابات على الشوارع الرئيسية التي تؤدي إلى وسط المدينة الذي كان يضم حتى عام ١٨٨٧ المسجد الكبير والسوق. تقع المباني العامة كافة، وبعض المرافق العامة كذلك (مثل المستشفى)، في ساحة مركزية عامة يحدها: مبنى البلدية في الجانب الغربي لفَرس مغالا، قبالة كنيسة مدهنيلم، والمسجد الجامع والمستشفى القريب المتصل بالكنيسة الكاثوليكية والمدرسة في الجانب الشرقي، وغدير مغالا (السوق المركزية) في الجانب الجنوبي.

تتصل هذه الساحة المركزية بالبوابة الغربية عبر «الشارع المستقيم»، أو الجادة الحديثة التي تحدها المحال العصرية، «أندينيا مانغت». وكان هذا المجمع العمراني عبارة عن سلسلة طويلة من الأنشطة التجارية، حيث يمكن المرء أن يجد مواد البناء كافة، وقطع السيارات، ومستودعات الورق، ومختبرات التصوير، إضافة إلى محال الخياطة الحديثة، ومحال بيع المجوهرات... إلخ.

١ - شارع الأمير

كانت هناك سلسلة ثانية من الأنشطة المناظرة لأنشطة الشارع الرئيسي الأول، في شارع الأمير الذي يؤدي إلى هرر عبر بوابة شُوا (باب النصر). ولا يزال التسيج العمراني التجاري هناك محفوظاً وهو عالي الكثافة دائماً، بحيث تزداد هذه الكثافة كلما اقتربنا من بوابة المدينة. وهو يضم محال مبنية من الحجارة مخصصة لمزاولة مختلف النشاطات (محال بيع اللحوم، والبقالة، والأحذية... إلخ) ومتاجر صغيرة على جانبي الشارع (لبيع الخضرا، والبنزين في أعلى الشارع...). وهو شارع مزدحم بالمارة (لأنه لا يمكن الوصول إليه بالسيارات) وقاطني المدينة القديمة الذين يذهبون إلى السوق عبر مدخل شُوا (باب النصر)، الذي يقع خارج السور مباشرة، ويسلكون هذا الطريق التجاري من أجل التسوق في شارع الأمير.

٢ - قرَس مَغالا

يتميز الميدان المركزي قرَس مَغالا (الرسم الرقم ٢٦ - ٣)، الذي يقع في نهاية الشارع المستقيم الرئيسي، برمزية مشابهة لرمزية الشارع، لكنه أعلى كثافة نظراً إلى مركزية المكان الذي يضم صالة السينما والمقاهي الخارجية. كما أن السوق الرئيسية للقات في هرر موجودة فيه. يُزرع القات في المناطق الريفية، وهي زراعة خاصة بمنطقة هرر، ويُستهلك ويصدر بكميات كبيرة. وهو سلعة لها قيمة تجارية كبيرة، إذ إنها توفر عائدات كبيرة لمزارعيها. يُجمع القات كل صباح في الحقول القريبة من هرر، لتيّعه النساء الأوروميات في المدينة.

٣ - ماكيننا غِرغير

يهبط شارع ماكيننا غِرغير من قرَس مَغالا نحو غدير مَغالا (السوق المركزية). لهذا الشارع سلسلة تجارية خاصة جداً بسبب أقسامه المتخصصة (الصناعات الحرفية في أعلى الشارع، ومحال بيع الأقمشة والخياطين في القسم الأسفل). لا يوجد تداخل في

الأنشطة في هذا القطاع، والزبائن يقصدونه لقضاء حاجاتهم الخاصة. يضم هذا الشارع القسم الأعظم من النشاطات الحرفية الموجودة في المدينة.

إضافة إلى الخياطين، يجد المرء صناعة السلال بوجه خاص، التي تصنعها النساء الهرريات في منازلهن عادة، أو نساء القرى المحيطة اللواتي يبعنها في هرر. تشكل هذه السلال قسماً من الزينة في المنزل الهرري وأثاثه التقليدي، وإن كانت النساء اليوم يملن إلى استبدالها بالأحواض الحديد المصقولة التي تستورد من الصين وتباع بأسعار متدنية.

٤ - غدير مغالا

في أسفل شارع ماكينا غرغير، نصل إلى السوق المركزية التي بنيت في ظل الاحتلال الإيطالي، وهي الوحيدة المبنية من الحجارة. تقع في وسط مكان كبير، كانت سوقاً مفتوحة سابقاً، وفيها عدد كبير من المتاجر الصغيرة المسقوفة والمصطفة قبالة قناطر السوق وعلى امتدادها. يوجد في السوق القصابون الذين يبيعون اللحم الحلال للمسلمين. وفي وسط السوق، في الحيز الواقع بين جانبيين على شكل حرف U، تجد النساء الأوروبيات اللاتي قدمن من الريف لبيع حزم من الأعواد الخشب.

وخارج المبنى، توجد متاجر صغيرة لبيع الملابس والفواكه والخضر. كما يمكنك أن تجد داخل السوق نساء متجولات يبعن القهوة (يحملن صواني وفناجين وأباريق حافظة للحرارة مملوءة بالقهوة الساخنة) والحليب. وهنّ يقمن بنقل الحليب في مستوعبات يحملنها على ظهورهنّ ويبعنه بعد صبه في أكواب بلاستيك.

٥ - المساجد

كانت هرر، التي تعرف بالمدينة المقدسة الرابعة في الإسلام، تضم ٩٩ مسجداً لم يبقَ منها غير ٨٢ مسجداً، إضافة إلى ١٠٣ أضرحة للأولياء المسلمين متفرقة داخل النسيج العمراني.

كان أهم مسجدين في هرر يقعان في أعلى نقطة من المدينة (دُمر أحدهما، وهو المسجد المركزي، وبنيت على أنقاضه كنيسة) بالقرب من مركز المدينة وليس بعيداً من ضريح الأمير نور، الذي بنى أسوار المدينة. في المقابل، يقع ضريح الشيخ أبادير، مؤسس المدينة المقدسة الشهير، عند الطرف الجنوبي الشرقي من المدينة، بالقرب من سورها، ووسط قطعة أرض كبيرة، تحت ظل شجرتي جَمَيز كبيرتين.

المسجد الهرري التقليدي مبنى ذو أشكال بسيطة، وهو تطوري بطبيعته. يتخذ صحن المسجد شكلاً مستطيلاً تراوح مساحته ما بين ٢٤ و ٣٥ م^٢. يرتكز السقف الأفقي على عمودين يقسمان صحن المسجد إلى ستة أقسام. تُكسى جدران المسجد بطلاء الكلس، الـ «نورا»، ويوجد فيه، إلى جانب المحراب التقليدي، كَوَات تستخدم عادة من أجل حفظ الكتب، والشموع والأحذية. كما نجد الزوايا في أغلبية المساجد، وهي غرف مسقوفة تتفاوت مساحتها تبعاً لأماكن العبادة. وهي يمكن أن تقع ضمن محيط المسجد أو خارجه. وفي الداخل، توجد منصة حجرية، أو نَدَبَة، وأربعة مختليات لاستقبال الغرباء وتعليم القرآن (الرسم الرقم (٢٦ - ٢)).

يوجد في فناء كل مسجد مكان للوضوء، سواء أكان بركة أم تجهيزات مع مقاعد وصنابير ونظام لقضاء الحاجة. وتوجد مآذن في القليل من المساجد يتفاوت شكلها تبعاً لتاريخ بنائها. وهي بحجمها الصغير، باستثناء المسجد الكبير، تشير إلى أن المسجد يقع في مشهد مديني (انظر الرسم الرقم (٢٦ - ٢)).

الرسم الرقم (٢٦ - ٢) منظر لمسجد



يوجد في أفنية بعض المساجد أو حدائقها ضريح واحد أو أكثر للأئمة، والمؤذنين وعائلاتهم. وإذا كان القبر لأحد الأولياء، يقام احتفال كل سنة في فناء المسجد.

٦ - القبور

في هرر، يسمي السكان المحليون قبور المسلمين الـ «أواش»، وهي تأخذ أشكالاً عديدة: عناصر طبيعية، أشكال مبنية، ومواقع غير معلّمة. ويمكن العثور عليها بسهولة داخل حدود المدينة التاريخية أو خارجها، بالرغم من أن أكثرها يوجد في جوغل.

نعني بالعناصر الطبيعية الأشجار والصخور التي كانت مبعّلة في الديانة الكوشية، والطقوس التي كانت تؤدي قبل مجيء الإسلام عندها. لكن مع مجيء الإسلام، ظهرت توليفة بين تلك الطقوس وتعاليم الإسلام الجديدة. فقد تجد شجرة منعزلة أو تجد بالقرب منها بناءً معيناً يمكن أن يكون قبراً. ويمكنك أن تجد في جوغل عشر شجرات منفردة.

القبور المبنية في هرر تسمى «قبري»، وهي كلمة ترمز إلى كل من المقبرة والقبر. ويوجد بالقرب من القبر أحياناً شجرة «الوانزا» (الجمّيز) أو «كلييتو». وإذا كان القبر في فناء المسجد، فهو يأخذ شكلاً مستطيلاً متناظراً، مبنياً عند مستوى الأرض، يُعرف بالمزار، مع شاهد حجري يواجه الغرب ولا يقل ارتفاعه عن ٥٠ سم.

القبة عنصر ذو قاعدة دائرية يتراوح ارتفاعها ما بين ٣ إلى ٦ أمتار. وللقبة حيّز داخلي يمكن الوصول إليه عبر باب ضيق ومنخفض. وهناك صلة بين صغر هذه الأبواب وصغر أبواب المساجد، فهذه الصفة ترمز إلى التواضع الذي ينبغي أن يتحلّى به المرء عند انحنائه للدخول إلى الضريح. وفي الداخل، نجد القبر بالاتجاه الشرقي الغربي وفوقه أحياناً نعش خشبي مغطى بالرايات والأقمشة الخضراء المطرزة. تطلّى القبة باللون الأخضر أو الأبيض، وتُكسى القبة الخارجية أحياناً بالأحجار التي تسمح بالوصول إلى القسم العلوي لإجراء عملية الطلاء السنوي بالكلس (انظر الرسم الرقم ٢٦ - ٣).

٧ - الأضرحة

يعتبر ضريح أبادير، الواقع جنوب جوغل، وضريح عبد القادر الجيلاني، على بعد ١٥ كم جنوب البلدة، الضريحين الأكثر أهمية. ولهذين المجمعين خاصية تتمثل بكونهما منتظمين حول القبر، وهما مكوّنان من قسمين منفصلين، كل منهما محاط بجدار ومفصول بممر مشترك.

يحظى ضريح أبادير بالإجلال الأكبر ويقوم بزيارته أتباع طريقتة. وهو يعتبر «أبا» البلدة، ويقال إنه أدى دوراً كبيراً في تأسيسها في القرن الثالث عشر. تتألف الحجرة

من قسمين: القسم الأول يتضمن القبر، ويمكن الوصول إليه من غرفة أداء الصلاة حيث يوجد ضريح الولي نفسه إضافة إلى أضرحة أولياء آخرين، تحت ظل شجرتي جَمَيز عظيمتين. والقسم الثاني، في الجانب الآخر من ممر يقسم المجتمع إلى نصفين، ويتضمن مسجداً ومجموعة من المنازل المختلطة (منزل بطراز تقليدي عند مستوى الطابق الأرضي، وطراز هندي في الأعلى).

الرسم الرقم (٢٦ - ٣)
ضريح الأمير نور بن مجاهد



أما ضريح عبد القادر الجيلاني فهو مبني على غرار الضريح الأول، ويتألف من القبر وثلاث شجرات جَمَيز في ناحية، وفي الناحية الأخرى، توجد مجموعة من المنازل، ومسجد، و«غالما»، أي مدارس تعليم القرآن، وهي كلها مجمعة حول ساحة مركزية.

أما الموقع غير المعلم فهو حَيَز كان فيه يوماً ضريح وليّ، أو شجرة، لكنه تهدّم أثناء شق طريق أو بناء منزل. ومع ذلك، يمكن اعتباره تراثاً غير مادي بالنسبة إلى السكان كون الطقوس لا تزال تمارس في هذه المواقع. يطلق على كل من هذه المواقع اسم الولي الذي يمثله. ولا تزال الاحتفالات الدينية تقام هناك، وإن بوتيرة أقل منها في حالة الأضرحة المبنية أو الأضرحة ذات العناصر الطبيعية.

يمكن للمرء أن يجد غالباً بالقرب من بعض الأضرحة. ولهذه العبارة أصل أوروبي؛ فهي تشير إلى غرفة صلاة تستخدم للاحتفال بوليّ ما. وهذه العبارة سبقت مجيء الإسلام لكنها أصبحت بعد ذلك تشير إلى المكان الذي يؤدي فيه المسلم عبادته. وللغالب أشكال مختلفة: يمكن أن تكون حيزاً مفتوحاً ومسقوفاً ببساطة بألواح معدنية، أو غرفة مستطيلة الشكل مسقوفة وفيها بعض النّدّبات (المقاعد الحجرية)، أو حتى حيزاً دائرياً مسقوفاً بأغصان الأشجار (كما نجد في حالتين، واحدة داخل المدينة، والثانية خارجها). وهذه تستخدم في الاحتفالات الدينية أو يومياً من قبل المريد (المسؤول عن الضريح) عندما يستقبل الزوار. والأضرحة التي تحظى بأوفر نصيب من الزيارات هي تلك التي تتضمن غالباً. كما أن بعضها يحظى بزيارات يومية، مثل ضريح أبابير وآي أبدة.

تعتبر الزيارة التي يقوم بها المؤمن الهري جزءاً مكتملاً لواجباته الاجتماعية والدينية. وينطوي هذا النشاط على تقديم الأعطيات، وبوجه خاص القات والبخور، والسكر أحياناً. تعطي هذه الهدايا للمريد الذي يرحب بالزوار في الغالب بالدعاء رجاء البركة.

تجري الاحتفالات بأعياد المسلمين عند الأضرحة أساساً بدلاً من المساجد. وتكثر الاحتفالات عند الأضرحة الأكثر أهمية، مثل ضريحي أبابير وعبد القادر الجيلاني، ويمكن أن تقام أربعاً وعشرين مرة في السنة. خلال هذه المناسبات، تُتلى أي من القرآن الكريم والأذكار، والأناشيد المخصصة للأولياء والأنبياء باللغة الهريية، والأوروبية، واللغة العربية والأهمرية.

وفي ذكرى عاشوراء، من ليلة التاسع إلى نهار العاشر من شهر محرم، تقام الاحتفالات عند الأضرحة خارج جوغل، حيث يتم تحضير وجبة لإطعام الضباع. وتروي الأساطير أن هذه الحيوانات هاجمت الناس في أحد الأيام عندما حدثت مجاعة شديدة. وبعد ذلك تم التوصل إلى اتفاق: يقوم الناس كل عام بتحضير وجبة قوامها الزبدة والحبوب للحيوانات على ألا تقوم بمهاجمتهم. وإذا لم يتم تناول الوجبة، فتلك إشارة سيئة. وهذا يعني أنه لن تقام الأعراس في ذلك الشهر وأنها ستكون سنة سيئة. يُظهر الرابط بين الضباع والأضرحة في الاحتفالات أن الحيوانات تمثل الوجه الخطر لليل والعالم الخفي. ولهذا السبب أيضاً، تقدّم معدة الحيوان الذي ضُحّي به عند الضريح إلى الضباع.

٨ - ال «غي أباد»

إن التقاليد الهررية متماثلة من حيث الطراز المعماري. فالمنزل، أو ال «غي أباد»، مؤلف من عدة وحدات سكنية، إما أن تكون مجتمعة وإما منفصلة، وإما يكون بعضها متجاوراً جنباً إلى جنب. كانت هذه المساكن تقليدياً، قبل أن تضع الحكومة يدها عليها، تؤوي الأفراد من العائلة نفسها. واليوم، تنقسم العائلات التي تنتمي إلى مختلف الطبقات الاجتماعية، القادمة من أصول مختلفة، المنزل نفسه.

يتألف ال «غي أباد» من وحدة رئيسية مستطيلة الشكل «غي غار»، تشتمل على ثلاث غرف في الطابق الأرضي، وعلى ال «غدير غار»، وال «كيرتات»، وال «ديرا»، إضافة إلى غرفة تسمى «كويتي قالا» في الطابق العلوي. توجد أماكن الخدمة ودورة المياه والمطبخ في الفناء دائماً وهي غير ملاصقة للوحدة الرئيسية، ولكنها عادة ما تكون إلى جانب المنزل.

الرسم الرقم (٢٦ - ٤)
باحة داخلية لمنزل



المكان الخارجي الرئيسي للمنزل هو الفناء. وهو منفصل عن الشارع ومنعزل عنه بجدار. وهو حيز مشترك يتسع لنشاطات متنوعة، مثل إعداد الطعام، وحياسة السلال، والغسيل... وهو مرتب ومنفصل بعنبتين متتابعين؛ الأولى باب المنزل، وغالباً ما يكون مغلقاً إن لم يكن مفتوحاً بالكامل، وهو يمثل الحد الفاصل بين الحيز العام والفناء؛ والثانية الباب المؤدي إلى الوحدة الرئيسية، ويسمح بالوصول إلى الغرفة الرئيسية، ال «غي غار»، وغالباً ما تحدد على الأرض بمجموعة من النباتات أو بدرجة (انظر الرسم الرقم (٢٦ - ٤)).

٩ - الـ «غي غار» (أو الغدير غار)

الـ «غدير غار» (أي المنزل الكبير، وتلك ترجمة حرفية للكلمة) هو غرفة الاستقبال الرئيسية في المنزل. يتم دخولها عبر باب ذي أبعاد كبيرة يعكس المنزلة الاجتماعية للمقيم في المنزل وعائلته. تتألف الأبواب القديمة من مصراعين مصنوعين من ألواح خشب من شريحة واحدة، في حين أن الأبواب الأحدث (التي صنعت في أواخر القرن التاسع عشر) حُفرت عليها رسوم الأزهار تبعاً لتقليد شائع معروف على الشواطئ السواحلية، في إيران والهند، ويصنّف بأنه «هندي - إيراني» جاء به التجار الهنود في أواخر القرن التاسع عشر. تدخل الإنارة إلى الغرفة عبر الباب، إذ لا توجد فتحات أخرى باستثناء نافذة صغيرة تنير الغرفة العلوية (انظر الرسم الرقم (٢٦ - ٥)).

الرسم الرقم (٢٦ - ٥)

غرفة رئيسية في منزل تقليدي



تتألف الغرفة من مساحات مختلفة تأخذ شكل حرف T. في القسم المركزي المواجه للباب، توجد كوة كبيرة مفتوحة على المدخل. تعلو الأرضية منصّات حجرية مجهزة كمقاعد وتسمى النَّدْبَة. تسمى الكوة والنَّدْبَة «غي غار». تتألف النَّدْبَة، وعددها خمسة في الغرفة، من مقاعد متدرّجة الارتفاع، يجلس عليها الزوار وكذلك أفراد العائلة. ولكل منها اسم خاص. والمنصّات، كما الأرضية، مطلية باللون الأحمر، الذي يحیی بطريقة رمزية، ذكرى العديد من ال «غي دوسو» الذين قُتلوا في معركة تشالينكو (التي أسفرت عن استيلاء مينيليك الثاني على المدينة). يطلق على هذا النوع من الطلاء اسم «قَه عفر»، أي الأرض الحمراء.

١٠ - النَّدْبَات

تُبنى النَّدْبَات على عدة مستويات بخمسة ارتفاعات، وتُكسى بالحصر، والسجاد، وتوضع على جوانبها الوسائد. يعتبر السجاد جزءاً من مهر العروس. يطلق على كل نَّدْبَة اسم يرمز إلى من يجلس عليها (أمير نَّدْبَة)، وإلى محيطها الجذاب (سورتي نَّدْبَة)، وحجمها (غدير نَّدْبَة، تايت نَّدْبَة)، ومكانها في الغرفة (غيتي هير نَّدْبَة، أي «إلى جانب الباب»).

ال «أمير نَّدْبَة» هي الأعلى مقاماً بوجه عام؛ فمكانها استراتيجي تحسباً لهجوم يتعرض له المنزل أو المدينة، وهي مخصّصة تقليدياً لرب المنزل. أما اليوم، فبات يستخدمها أفراد العائلة كافة ولم يبق سوى القليل جداً من العائلات التي لا تزال تملك الرماح القديمة أو تعرضها.

أما ال «سورتي نَّدْبَة» فهي المقعد الذي يوصف بالحميم (سورتي)، وهو يوضع في الموضع الداخلي من المنزل، على الجانب الأيمن من الكوة. وعندما تقام الاحتفالات الثقافية، يُحجّز لضيوف الشرف أو كبار السن، وهو مكان لا تقع عليه أعين الزوار ولا النساء. وهو بمثابة سرير لكبار السن والأرامل في الليل، وفي النهار يستخدم للراحة أو التأمل.

وال «غدير نَّدْبَة» هي أكبر النَّدْبَات الخمس وتوضع قبالة الباب. يمكن رؤية الغرفة منها بوجه عام، والقضبان الخشب بوجه خاص التي لا تزال تستخدم حتى يومنا هذا في تثبيت البُسْط الملفوفة على جدار الواجهة من جهة الفناء، وهي بُسْط تقدّم مهراً للفتاة التي يراد الزواج منها. يسمح هذا الموضع، ومن دون الحاجة إلى السؤال، بمعرفة ما إذا كانت الفتاة في سن الزواج. ويقال إن عدد هذه البُسْط يبيّن للزوار عدد الفتيات

اللاتي في سن الزواج. تخصص هذه النُدبة أيام الاحتفالات للرجال المتعلمين، ويُقصد بهم الذين يُحسنون قراءة القرآن الكريم واللغة العربية. وعلى هذه النُدبة يؤدي الرجال والنساء الصلاة، كما أنها تستخدم سريراً للرجال والأولاد في الليل. ويمكن للاستراحة أو الاسترخاء أو النشاط اليومي: تدخين النرجيلة (الشيشة)، واحتساء القهوة، ومضغ القات، والمطالعة... الخ.

وال «تايث نُدبة»، وهي تقع تحت «غدير نُدبة»، وهي الأقل ارتفاعاً من بين سائر النُدبات، وتسمح بالوصول إلى «غدير نُدبة» أو «سورتي نُدبة». وهي تُحجز تقليدياً أيام العطل والأعياد للمراهقين الذين تقع عليهم مسؤولية خدمة الرجال الذين يجلسون على المقاعد الأعلى. ويمكن لأي كان وفي أي وقت من النهار استخدامها للقيام بالنشاطات المختلفة. ثم ال «غيتي هير نُدبة»، وهي مخصصة حصراً للنساء أيام الأعياد. وبموقعها إلى جانب المدخل، تكون بمنأى من الأعين. وهي المكان الذي يتم تناول الوجبات فيه غالباً.

يوجد في جدران ال «غدير غار» كَوَات، يصل عددها إلى إحدى عشرة كوة عادة؛ خمس منها فوق «غدير نُدبة» قبالة ممر المدخل، واثنان، «إكيد تكيث» (إكيد تعني «المقابل»)، مستطيلتا الشكل، ومخصصتان للقرآن وبعض الصور ذات الدلالة الدينية. كما أن الكوات الحديثة تزين أحياناً بنقوش على شكل أزهار. وتعلو الكَوَتَيْن السابقتين ثلاثُ كوات أخريات يطلق عليها «تيلي تكيث» (من «تيلي» التي تعني النسر بسبب موقعها المرتفع نحو السماء). وهي تأخذ شكلاً مقوساً لا مستطيلاً، وتستخدم في حفظ الأشياء الثمينة، أو المصاييح أو الأواني الخزفية. كما أن أدوات الكتابة كانت توضع تقليدياً فيها. وفوق ال «نُدبة» الأخرى، يمكن أن توجد كَوَتَان أو ثلاث، تحمل أسماء المقاعد أسفلها، مثل «غيتي هير نُدبة تكيث» و«أمير نُدبة تكيث». تستخدم هذه الكَوَات حالياً لعرض الأطباق الفاخرة أو المقتنيات الشخصية لأفراد العائلة (كتب مدرسية، أشرطة تسجيل، راديو...).

عند أحد جوانب الكوة الرئيسية، فوق «غيتي هير نُدبة»، يوجد رف، يسمى «مارابرابا»، على شكل كوة مؤلفة من أعواد خشب، كانت توضع عليه الأدوات الموسيقية. أما اليوم، فهو يستخدم في حفظ الأطباق والأواني الأخرى. وفي الجهة المقابلة توجد خزانة، غائرة في الجدار ذات بابين خشبيين مزينين بالنقوش - «نُدبة ديرا» - توضع الألبسة والأقمشة فيها. يفصل حاجز (حامل)، من خشب الجَمْتِيز (والوانزا)، موازٍ للواجهة الأمامية، غرفة الجلوس عن ممر المدخل. وغالباً ما يكون مغطى بغلاف خشب مزين بنقوش الأزهار المشابهة لتلك التي تزين الباب الأمامي. يُدقّ

عدد من الأوتاد الخشبية ذات الرؤوس المستطيلة، التي تسمى «ونتافنشي»، في صف واحد فوق الباب الأمامي. وهي تستخدم لثبيت البسط التي حاكها ربة المنزل. سقف «غدير غار» مصنوع من الجيزان المتلاصقة التي يسمح عددها بقياس مساحة الغرفة. تطلّي الجيزان بماء الكلس وتظل مكشوفة في معظم المنازل. أما اليوم فهي تكسى في بعض المنازل بغلاف خشبي. وكانت تعلّق بالسقف في الماضي بيضة نعامة لحماية المنزل من الصواعق.

تُكسى الجدران بعدد كبير من عناصر الزينة، مثل السلال، «الدارات» (تعرض أزواجاً)، والأطباق الخشب المطلية بدهان زيتي أسود، «الغباتا»، والأوعية المعدنية المزينة بنقوش الأزهار الكثيرة الألوان والمستوردة من الصين. جرت التقاليد أن يُكتفى بكسوة الجدار المقابل لممر المدخل. واليوم تتم كسوة جدران الغرفة كافة بهذه العناصر التي توضع حول الكوّات التي في الجدران على نحو متماثل.

يستخدم في تزيين المنزل هذه الأيام عدد من الأطباق المعدنية المطلية التي تستورد من الصين أو اليابان، حيث يتم توزيعها بالدقة نفسها لتحل محل السلال القديمة التي تم بيعها. لكن ذلك لا يمنع الاستمرار في صناعة السلال التقليدية التي تحافظ عليها سيدات هرر بلباقتهنّ، حيث قام بعضهنّ بإنشاء سوق سياحية لهذا الغرض. وهناك العديد من الورش التابعة للجمعيات والأعمال التجارية المتخصصة في بيع هذه المنتجات التي نمت في المدينة في السنين القليلة الأخيرة، وهو ما سمح للفتيات من مختلف الطبقات الاجتماعية بممارسة الحرفة.

في الطابق الأرضي، توجد غرفتان مجاورتان للـ «غدير غار» الرفيع المقام: «كيرتات» و«ديرا». الـ «كيرتات» في الحقيقة نوع من الكوات الكبيرة التي تطل جزئياً على الغرفة الرئيسية، وتستخدم لأغراض التخزين. وفي بعض الأحيان، يوجد في الجدار الذي يفصلها عن الـ «غدير غار»، نافذة مغلقة بستارة مصنوعة من قلد خشب تسمح بالتهوية. كما تستخدم هذه الغرفة من قبل المرضى من أفراد العائلة. وهي تضم منصة مصنوعة من الأحجار.

الـ «ديرا» غرفة يغلق عليها باب مواجه للـ «كيرتات». وكما في الحالة السابقة، يبلغ ارتفاع سقفها نصف ارتفاع سقف الـ «غدير غار» لأنها تقع أسفل الغرفة العلوية. وهي تستخدم في خزن الأدوات المستخدمة يومياً، التي تخص النساء بوجه خاص. كما أنها تستخدم كغرفة زيجية للعروسين الشابين إلى أن تحمل الزوجة أو تضع مولودها الأول.

وهناك كوة ذات شكل مستطيل داخل جدار الغرفة الذي يفصلها عن الـ «كيرتات»، تحتوي على أربعة أوانٍ خزفية سود اللون تسمى «أفلالا»، مغطاة بـ «قبعات مستدقة» في سلة تسمى «أفلالا أفة». وكل منها يحتوي على أشياء منزلية ثمينة. وهي من اليمين إلى اليسار: الأولى تحتوي على بذور، والثانية تحتوي على حلي، والثالثة تحتوي على أعشاب طيبة مجففة، أما الأخيرة فتحتوي على فضة. واليوم، نجد أن الأواني المعدنية قد حلت محل الأواني الخزفية التقليدية في معظم البيوت.

يوجد في الطابق العلوي، فوق الـ «كيرتات» والـ «ديرا»، غرفة كبيرة تسمى «كويتي قالاً». كانت هذه الغرفة تستخدم تقليدياً من أجل خزن ما تنتجه الحقول (البن، المانغا...). والوصول إليها يتم عبر سلم إلى جانب الباب الأمامي. ومنذ أواسط القرن التاسع عشر، استُبدل الجدار الذي يفصل هذه الغرفة عن الـ «غدير غار» بحاجب من الخشب المحفور (من نوع المشربية)، «المنديرا»، وأضيف درابزين خشبي إلى السلم. وهكذا، تغير استخدام الغرفة لتصبح غرفة جلوس.

لكن هذه الغرف باتت تستخدم اليوم بشكل مختلف ولأغراض مختلفة، فأصبحت غرفة نوم الوالدين منفصلة ويعيدة من غرف نوم الأولاد، أو من مكان التخزين. وغالباً ما تُبنى غرفة أخرى على أحد جوانب الـ «غي غار»، وتسمى «تيت غار» أو «المنزل الصغير». إذا كان المراد أن تستخدم النساء أو الأطفال هذه الغرفة، تبنى فيها «نَدْبَة» واحدة ترتفع عن الأرضية قرابة ٣٠ سم. ويمكن أن يقيم فيها مستأجر، أو طالب أو ضيف. ويمكن الدخول إليها من الأبواب الداخلية أو من الخارج، أو من الفناء إن كانت مجاورة للوحدة الرئيسية.

١١ - البيت الهندي

النوع الثاني من المنازل المنتشرة في هرر، هو النموذج الهندي الذي جاء به التجار الهنود بعد سقوط هرر عام ١٨٨٧. معظم هذه المنازل مبني في أعلى نقطة من المدينة. وهي مباني بسيطة مستطيلة الشكل مؤلفة من طابقين وميزتها الرئيسية شرفتها الخشبية في الطابق الأول التي تطل من الواجهة الرئيسية على الشارع أو الفناء. وهي مغطاة بأسقف وتعتبر الأكثر ارتفاعاً مقارنة بالمنازل العادية في هرر. كما تشرف هذه المنازل على المدينة. ويعتبر منزل رِمباود الذي شُيد في بداية القرن العشرين، أجمل هذه المنازل وأكثرها شهرة. وقد أعادت السلطات المحلية ترميمه بمساعدة الخدمات الثقافية الفرنسية وأصبح مركزاً ثقافياً يضم مكتبة. وهو الآن المبنى الأكثر شهرة في هرر.

وهناك ما يقارب اثني عشر منزلاً من هذا النوع يوجد معظمها في الجزء الأكثر ارتفاعاً من جوغل. على سبيل المثال، فإن راس تقاري، الذي عاش فيه هिला سلاسي عندما كان في هرر قبل توليه الحكم، ينتمي إلى هذا النوع من المنازل.

١٢ - المنزل المختلط

النوع الثالث من المساكن هو النوع المختلط الذي يتألف من نواة المنزل الهرري التقليدي والتوسعات «الهندية» الأحدث في الطابقين الأول والثاني، بحيث تبنى الغرف الإضافية فوق المنزل التقليدي ويكون الوصول إليها عبر رواق خشبي يطل على الفناء. وهو نوع شائع نسبياً حيث تم توسيع العديد من المنازل التقليدية، الـ «غي غار»، في هرر بدون أن يتم تحويلها بالكامل. أي أنه يتم الإبقاء على المنزل الأصلي في حين تُستوحى الأقسام الخارجية من الطراز الهندي. ويبدو أن هذه التعديلات لا تصيب المنزل التقليدي، إذ إن الحل يكمن إما في بناء منزل جديد وإما في بناء غرف جديدة من دون المساس بالغرف الموجودة. وبذلك، يصبح المنزل «مزدوجاً» يمكن أن تجد فيه النوع الهرري التقليدي مترافقاً مع البناء الهندي الحديث.

للأقسام الجديدة شكل مستطيل بسيط ليس فيه تعقيدات معمارية كالتي يتميز بها الطراز الهرري. في الطابق الأول، توجد نوافذ في الغرف الجديدة، وهي تبنى الواحدة إلى جانب الأخرى بحيث تشكل مجموعة خطية من الغرف عند أحد جوانب الفناء. وفي الطابق الثاني، تتبع الغرف الجديدة النمط نفسه وتتفرع من رواق خشبي خارجي يتم الوصول إليه عبر سلم خارجي. يوجد في أغلبية الغرف الجديدة مقعد حجري واحد يشغل قسماً كبيراً من مساحة الغرفة.

١٣ - الفيلا

ينتج عدد من ساكني هرر هذه الأيام إلى اقتناء منازل جديدة تقع خارج سور المدينة. تأخذ هذه المباني شكل الفيلا وتتضمن وحدتين سكنيتين على أرض واحدة: الأولى تتبع النمط الحديث والثانية تتبع النمط الهرري التقليدي.

المنزل الجديد، «الحديث»، منزل مؤلف من طابق واحد مستطيل الشكل ومسقوف غالباً بسقف مزدوج الانحدار، وهو يطل على الشارع من الشرق. في هذا المنزل، يتم تجميع غرف الجلوس (على الجانب المواجه للشارع) وغرف النوم والخدمات (المطبخ والحمامات) على طول ممر توزيع مركزي. وقد استبدلت مواد

البناء التقليدية بالخرسانة المسلحة في الجدران الحاملة للثقل وبالأحجار الإسمتية في جدران التقطيع. وهذا المنزل هو المكان الذي تقضي فيه العائلة أوقاتها.

يمكنك أن تجد النوع الثاني، أو «التقليدي»، من المنازل في الجهة الخلفية من العقار، وراء المنزل «الفيللا»، الذي يحتل دائماً الجهة الأمامية منه بحيث تطل واجهته على الشارع. ويجد المرء في ذلك المكان الجسم التقليدي العام للوحدة السكنية الهررية التقليدية إضافة إلى نظام الـ «تدّبات» والكوات. وأكثر التحولات البارزة للعيان تتعلق بالمواد المستخدمة في المنازل الحديثة. ومع ذلك فإن بقاء هذا المنزل يبيّن كيف أن الوحدة السكنية الهررية تظل متلائمة مع الاستخدام التقليدي كون الـ «غدير غار» الجديد لا يزال يؤدي الدور ذاته كغرفة استقبال. وفي هذا المنزل، يُحتفل بالأعياد والمناسبات الدينية، إضافة إلى جلسات القات اليومية، وحفلات الزفاف، ومجالس العزاء... إلخ.

لا يوجد في معظم المنازل آبار ولا خزانات لتجميع المياه. لذلك يتعين على النساء الهرريات أن يجلبن الماء من نهرين يجريان خارج أسوار المدينة. لكن هذين النهرين أصبحا ملوَّثين تماماً وهما يستخدمان للتخلّص من النفايات. وقد تم مؤخراً ربط المنازل بشبكة مياه المدينة، التي تمدّ المنازل بمياه غير صالحة للشرب. ولا تزال المياه المبتذلة حتى يومنا هذا تُطرح في الشوارع لتصل إلى قناة مجاري مفتوحة خارج أسوار المدينة. وتم رصف الشوارع الرئيسية حديثاً بالأحجار، لكن افتقارها إلى شبكة لتصريف المياه يجعل أغلبية هذه الشوارع متسخة.

ومع ذلك، تعتبر الحالة القائمة للنسيج المدني والمعماري في هرر جيدة نسبياً، وخصوصاً إذا قارناها بالمدن العربية في العالم الإسلامي. لا تزال الأغلبية العظمى من المنازل التقليدية في حالة جيدة (بنسبة ٨٠ إلى ٨٥ في المئة)، بما في ذلك زخرفتها الداخلية. ويمكن ملاحظة القليل من التحولات الجديدة على امتداد الشوارع الرئيسية للمدينة المسورة، لكن مظهرها الحالي تقليدي صرف. كانت الجدران تبنى في الأصل من الأحجار البنية التي تلصق بالتراب وكانت تضيء على الشوارع لوناً داكناً. لكن العديد من الجدران الحديثة تُكسى الآن بطبقة من الملاط الجيري ثم تطلّى بماء الكلس من أجل توفير حماية أفضل للبناء، وهذا ما يعمل على تغيير المظهر الداكن للشوارع. ومع ذلك، لا تزال مدينة هرر، التي يفتخر سكانها كثيراً بـ «ثقافتهم الهررية»، قادرة حتى اليوم على المحافظة على تراثها المعماري والعمراني، وهو ما يجعلها بالتأكيد إحدى أكثر المدن الإسلامية المحفوظة جيداً في العالم.

الفصل السابع والعشرون

الرباط - سلا، المدينتان المقدستان للضفتين

سعيد مولين^(٥)

مقدمة

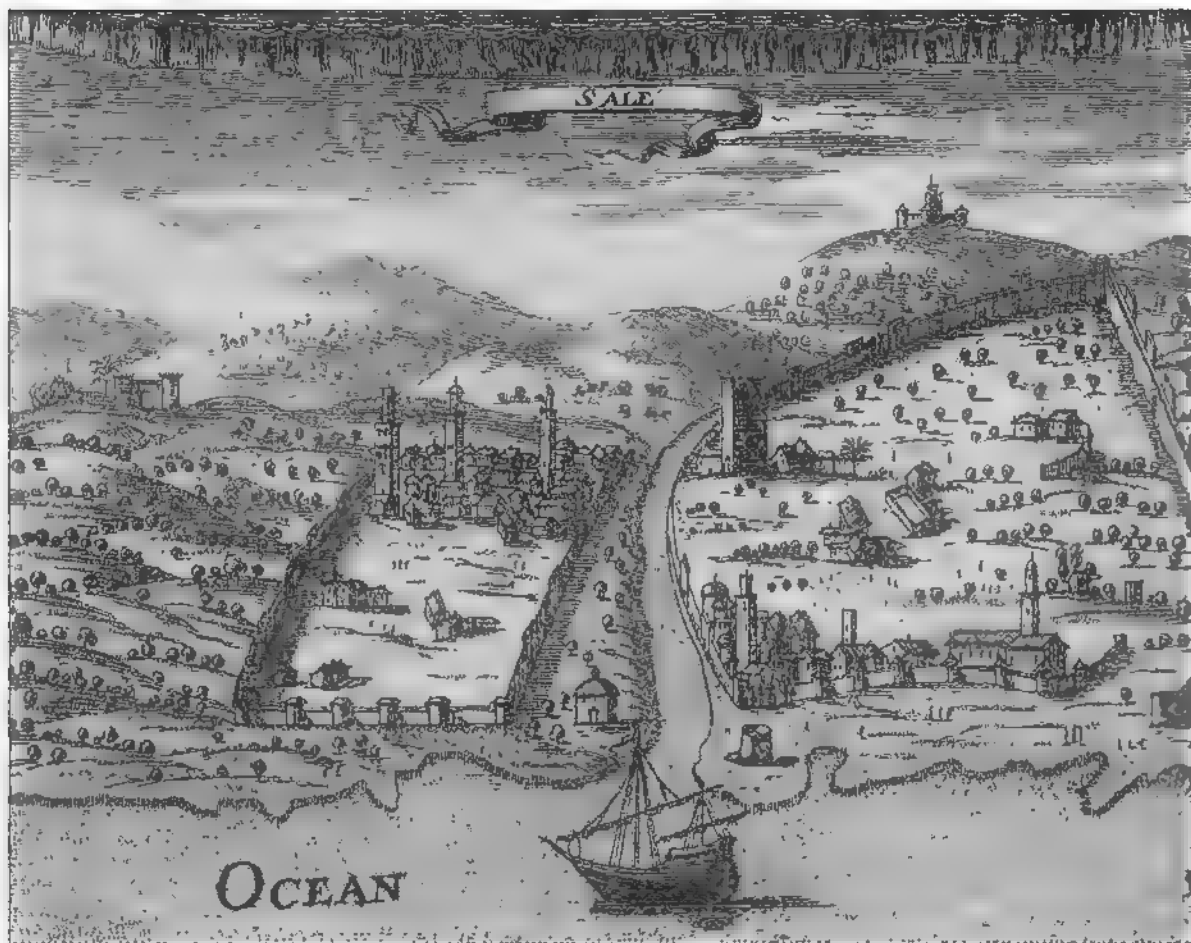
في قلب عاصمة مملكة المغرب، يفصل نهر أبو رقراق المثلث بالتاريخ، الكتلة السكنية للرباط وسلا، فتجري منعطفاته وسط وادٍ مدهش، ما يقارب الأربعة آلاف هكتار حيث تنتشر المشاهد الطبيعية في الضفتين على مدى النظر وفي عمق ١٥ كم. في هذا المكان يتجاور الماء والسماء والتراب والنبات في تناسقٍ سحري يبعث الفتنة والمشاعر القوية.

لم تشيّد المستوطنات البشرية على مصب أبو رقراق، منذ الفينيقيين والقرطاج على الأرجح، وبالتأكيد منذ الاستقرار الروماني في مستوطنة سلا، المواجهة للمحيط الأطلسي، بل لضفتي الجدول. يصل النهر المحيط، بطول مئات الكيلومترات، عبر حاجزٍ مهم يقع على ما يُقارب السبعمة متر من مجرى المدخل الذي يظهر بمحاذاة الساحل بطولٍ لا بأس به. وبسبب فقدان العمق عند الحاجز، بقي الخط الغاطس للسفن محدوداً، حتى بداية القرن العشرين.

(٥) مهندس مغربي متخصص في مشاريع التنمية.

هكذا، ومن جهتيّ أبو رقرق، أدارت مدينتا سلا والرباط، ومنذ بناء نواتهما المدينية الأصلية، ظهرهما للبحر. نواة هاتين المدينتين، المتساويتين في المساحة إلى حد ما، وعلى التوالي، هي محلة بني عَشْرَة، التي شُيّدت في القرن السادس عشر على الضفة اليُمنى، ورباط عبد المؤمن، التي شُيّدت في عام ١١٥٠ على الضفة اليسرى. والوجود على ضفتي النهر ليس محصوراً بتلك الإنشاءات المدينية العالية التي قامت هناك في الماضي. فالأبراج، والأدراج، والمُلوّحات، والأسوار المُسنّنة، والأبواب المدينية المزخرفة، كلها توطّر النهر وتزيّنه على الضفتين. وإلى الوراء أكثر، مآذن الجامع العتيق بلون المغرة المائل إلى الاصفرار، والجامع الأعظم، ومسجد حسان، مؤلفة من نفس الحجارة المغرة، وتزداد استدارات القباب بياضاً بواسطة عددٍ من الزوايا، لتظهر التضارب الأفقي للمباني، التي كانت في سالف الأزمان منخفضة جداً إلى حد أنها تعانق الأشكال الناعمة لأسس المدينتين كما تظهران من ضفتي النهر (انظر الرسم الرقم (٢٧ - ١)).

الرسم الرقم (٢٧ - ١) حفرة على صحن نحاسي ملوّن صنع اليد



Allain Manesson-Mallet, *Description de l'univers* (Paris: D. Thierry, 1683).

المصدر:

ويفضل هذا النهر وبموانئهما النهرية الخاصة، ضمنت المدينتان مستقبلاً بحرياً
اشتهرتا به منذ تأسيسهما، وبخاصة في القرنين الرابع عشر والسابع عشر. وغالباً ما يغيب
عن البال، أن هذه الموانئ النهرية التي أنشئت منذ زمن بعيد على مصب أبو رقرق،
كانت الوحيدة على الساحل الأطلسي المغربي التي لم تخضع أبداً للسيطرة الغربية
وصولاً إلى الوصاية الفرنسية عام ١٩١٢. هذا التقليد المرفئي النهري لم يعد موجوداً
اليوم إلا في «علم الأسماء» مع باب البحر على الضفة اليسرى، وباب المريسة على
الضفة اليمنى. ويبدو كأنما ذلك قد حجب الآن من تاريخ المدينتين، وهو ما أدى إلى
إخفاء ما تدينان به للنهر الذي يربطهما، وأخيراً إلى تهميش النهر نفسه، شعاع تاريخهما
وإرثهما التاريخي.

هو النهر، يدل بحق على تاريخ الكثير من المنشآت ذات الأهمية الكبرى في
وادي أبو رقرق. تلك هي حال مستوطنة سلا - التي ضمت حديثاً مقبرة المرينيين
في شالة - وقصبة الوداية التي تشرف على المصب الذي يتحكم بمدخل منارة حسان
ومسجد المهديين.

تلك هي الحال أيضاً بالنسبة إلى باب البحر الذي يقود إلى شارع القناصل في
الرباط، وباب المريسة والقناة التي تربط النهر بحوض السفن داخل الأسوار في مدينة
سلا... إلخ. والأكثر أهمية وتعبيراً هو ذلك الختم المقدس الذي ختم به النهر هاتين
المدينتين وزاوج بينهما (انظر الرسم الرقم (٢٧ - ٢)).

في الأقسام التي ستلي، سنحاول تلخيص هذا التاريخ من وجهة نظر جديدة:
تاريخ نهر ومدينتين مقدستين على الضفتين، كُرسا لانتشار الإسلام وتمجيد الإيمان
والجهاد في البحر. وسوف نعطي طبعاً وبشكل خاص خلال هذه المرحلة، قدراً من
الاهتمام بالمعالم والأطلال والآثار المادية لهذا الختم المقدس على الخصائص
المعمارية والمدينية للتجمعات السكنية عند مصب أبو رقرق. وستوقف، في هذا
الصدد، عند بعض الذين ساهموا في منح القداسة للضفتين وفي تطور الإيمان والتقوى
في هذا المصب، مثل عبد المؤمن، ويعقوب المنصور، وسيدي اليابوري، وسيدي بن
عاشر، والعياشي، وكثيرين آخرين ممن كُرسوا أنفسهم لحرب مقدسة مبكرة جداً في
الغرب الأقصى المسلم. كما سنلفت الانتباه أيضاً إلى العلاقات التي نسجتها الضفتان
مع الأندلس: علاقات متعددة الجوانب ظهرت نتائجها في عدة ميادين، وبوجه خاص
في العوالم المغلقة للمساكن في الرباط وسلا، كما في زخرفتها وأثاثها.

الرسم الرقم (٢٧ - ٢)
صورة جوية عمودية لضفتي النهر ومدينتي الرباط وسلا



المصدر: من أرشيف وزارة الإسكان والتنظيم المدني في المغرب.

أولاً: النواة الأولى للمدينة

١ - الضفة اليسرى: قصبة الوداية

منذ القرن العاشر، اتسمت مدينة الرباط بطابع مقدس، وما يشهد على ذلك في تلك الحقبة، وجود رباط ثم قلعة للمرابطين على رأس جرف (شاطئ صخري منحدر) موجودة على الضفة اليسرى لأبو رقرق. على هذا الموقع الدفاعي الطبيعي، الذي يشرف على مصب النهر من نحو ثلاثين متراً، بنى عبد المؤمن، أول ملك من سلالة الموحدين، عام ١١٥٠، قلعة كانت تجمعاً للمقاتلين في سبيل الإيمان، ونقطة ارتكاز في ملحمة «التوحيد» في التوسع الإسلامي وفتح الأندلس. احتوت القلعة، التي كانت مركز الخلافة، على مسجد وخزانات مياه تتزود بها بواسطة قناة تجر الماء من عين غبولة. وجعلت التحصينات من النتوءات والصخور البارزة، مع انزلاقات الجرف، القلعة مكاناً منيعاً يصعب الوصول إليه. دعي هذا البناء، الذي يشبه إلى حد كبير قصبة الوداية الحالية، المهدية تخليداً للذكرى المهدية ابن تومرت، مؤسس عقيدة الموحدين (انظر الرسم الرقم (٢٧ - ٣)).

كانت قلعة الموحدين هذه، بلدة صغيرة تبلغ مساحتها عشرة هكتارات، مدينة مصغرة، قدر لها أن تسهل بوجه خاص تجمع مجاهدي الإيمان حول أسوارها الذين سيغادرون من أجل الحرب المقدسة في إسبانيا، وستكون هذه المدينة النواة الأولى لمدينة الرباط. وفي القصبة، أنشئ أقدم مسجد في الرباط، الجامع العتيق، الذي يرتفع على أعلى قمة في القصبة ويعد من أوائل معابد الموحدين^(١).

غالباً ما كان عبد المؤمن يمكث في هذا المقر الأميري حيث توفي عام ١١٦٣. وبين مراكش، عاصمة إمبراطورية الموحدين، ومضيق جبل طارق، كانت الرباط بوجه خاص موقعاً مخصصاً لتسهيل تجمع مجاهدي الإيمان حول أسوارها الذين سيخوضون الحرب المقدسة ضد مسيحيي إسبانيا، إنها نقطة على طريق الجهاد الذي كان يمر في القصر الكبير والقصر الصغير. أثناء ولاية يعقوب المنصور فقط (١١٨٤ - ١١٩٩) سبّرت من خلال الرباط وعلى هذه الأرض المقدسة مدينة عظيمة يسهل الوصول إليها من شمال المغرب وجنوبه، وهي في الوقت نفسه مختلفة

(١) أطلقت لقرون عديدة تسميات على هذا التجمع: حصن الرباط، قلعة سلا، القصبة، القصر، القصبة الأندلسية... إلخ. أما التسمية الحالية فتعود إلى العام ١٨٣٣ حين قام السلطان مولاي عبد الرحمن بتقي قبيلة الوداية من فاس، فسكن من بقي منها القصبة، ولم تكن مسكونة ريباً يومها وأخذت اسمها بالتالي.

ومجاورة لمدينة سلا التي تقع على الضفة الأخرى لأبو رقراق (انظر الرسم الرقم (٢٧ - ٤)).

الرسم الرقم (٢٧ - ٤)
منظر جوي عمودي لمدينة سلا
عند مطلع القرن



الرسم الرقم (٢٧ - ٣)
منظر جانبي للقصبة
في مدينة سلا



٢ - الضفة اليمنى: محلة بني عشرة

على هضبة صغيرة بارتفاع نحو العشرين متراً عن مصب أبو رقراق، على الضفة اليمنى تجاه توأمها الرباط، تقع سلا على شاطئ البحر والمحيط الأطلسي، تدير له ظهرها؛ ويضربها دوماً بضوضائه وضجيج أمواجه الصاخبة، ويمثل لها قيمة تزيينية مضافة. وبينما المدينة بحرية ظاهرياً، فقد بقيت سلا بريّة إلى حد كبير، وسرية، وكان لها في كل زمن شهرة مدينة التقوى.

هذه الشهرة تحددت في القرن الحادي عشر وتثبتت فعلياً ابتداءً من القرن الثاني عشر حين باتت أراضي مصب نهر أبو رقراق، أرضاً مقدسة مكرسة للحرب المقدسة،

نقطة تجمع من اختاروا الإيمان للجهاد في الأندلس، ومرفأ على علاقة دائمة بإشبيلية. تشكلت أول نواة مدينية من عائلات أندلسية، ولا سيما بنو عشرة، وهم أمراء من أصل أموي قدموا من الأندلس، واستقروا جميعاً في سلا خلال القرن الحادي عشر. كان بنو عشرة أنصاراً كباراً للأدب، كرماء وخصوصاً تجاه المفكرين الشعراء والموسيقين الأندلسيين^(٢).

وبدأ من عام ١١٢١ استضافهم ابن تومرت، الذي أسس حركة الموحدين لاحقاً، في قصره الذي لم يبق له أي أثر اليوم. ابتداءً من القرن الثاني عشر، عرفت سلا تطوراً مدينيّاً ملحوظاً، وانطلقت أول نواة ستؤلف القطب الديني للمدينة في عهد ولاية الموحدين في القرن الثاني عشر، وستترسخ وتتوسع وتزّين في عهد المرينيين في القرن الرابع عشر.

ثانياً: ملحمة الموحدين

١ - الضفة اليسرى: رباط الفتح

ابتداءً من رباط عبد المؤمن، على الضفة اليسرى لأبو رقراق، أسس حفيده يعقوب المنصور، وريث إمبراطورية تبدأ من قشتالة وصولاً إلى طرابلس، مدينة ضخمة مزوّدة بأسوار هائلة تخترقها أبواب فخمة خصص لها مسجد ضخمة، حسان، حيث يستطيع جيش كامل أداء الصلاة (انظر الرسم الرقم (٢٧ - ٥)).

لحماية الواجهتين الجنوبية والغربية للمدينة المنشأة، تم بناء سور محيط مهم في نهاية القرن الثاني عشر، مؤلف من سورين طويلين مستقيمين، يتقاطعان في زاوية حادة بطول متساوٍ يزيد على خمسة كيلومترات، وبسماكة تزيد على المترين وبمعدل ارتفاع يبلغ نحو الثمانية أمتار. هكذا تكون قد أغلقت مساحة تقارب ٤٢٠ هكتاراً، تضم الهضبة العليا التي تشكل شالة اليوم، وتأمّنت في حال الهجوم سلامة الأقسام السفلى من المدينة^(٣).

(٢) الأكثر شهرة بينهم، ابن الخازن، الفيلسوف والموسيقي ابن باجة، وحفيده ابن الحمار.

(٣) مثل كلّ الأسوار التي بناها الموحدون، بُني هذا السور من مادة صلبة غنية بالكلس وأظهر مقاومة واضحة. وإذا تقطعه أبراج منتظمة كان هناك ممرّ علوي مغطى بهرميات صغيرة. وعلى الجانب الغربي أربعة أبواب: باب العلو، باب الحد، باب الرواح، والرابع جزء من القصر الملكي. أما في الجزء الجنوبي فباب وحيد، باب زعير.

الرسم الرقم (٢٧ - ٥)
صورة جوية لمدينة الرباط عام ١٩٨٠



عند قمة هذا السور، تقوم التحفة الفنية الضخمة، باب الرواح، التي تُظهر، كما باب القصبة، آية في التشييك حول الفتحة، في شكل قوس مغربي في إطار مستطيل. وكما هي الحال في باب أكناو في مراكش، تقوم قناطر ضخمة تساعد على توسيع حركة قوس البوابة، فتحيطها بإطار متعرج ذي رؤوس مستننة، يعلو إفريز عريضة بنقش كوفي^(٤).

(٤) «البوابات المغربية هي بين الأجمل في العالم». انظر: Henri Terrasse, *L'Art Hispano-mauresque des origines au XIII^{ème} siècle*, Publications de l'institut des hautes études Marocaines (Paris: Ed. G. Van Oest, 1932).

داخل هذا السور المحيط، في القسم الشمالي الشرقي للمدينة، فوق النهر ومقابل البحر، وبارتفاع يقارب ارتفاع قصبة تقريباً، أمر يعقوب المنصور ببناء مسجد ضخم لم يستطع أبداً إتمامه، إذ كان سصبح في ما بعد واحداً من أكبر الصروح الدينية في العالم الإسلامي^(٥) (انظر الرسم الرقم (٢٧ - ٦)).

الرسم الرقم (٢٧ - ٦)
منظر جوي لقصبة الوداية



يمتد هذا الصرح على مساحة تناهز الهكتارين ونصف الهكتار، أنشئ بدقة متناسقة بالنسبة إلى المحور الأساسي الذي يقود إلى «محراب». عند الطرف الآخر لهذا المحور، نقش في الواجهة الشمالية وبرزت من الخارج والداخل منارة الساحة

(٥) «في باقي العالم الإسلامي، فقط جامع سامراء في العراق يملك مثل هذا الاتساع» (ليني بروفنسال).

الكبرى. لقد كانت تلك المنارة الوحيدة التي تحتل هذا الموقع في الغرب الإسلامي. منارة تملك اتساعاً استثنائياً^(٦)، تسمى اليوم منارة حسان. تدفع نحو السماء زينة ضخمة مقسمة إلى أربعة أوجه بتركيبات مختلفة^(٧).

أعاققت وفاة يعقوب المنصور عام ١١٩٩، الأعمال والبناء الضخم، ولم يستوعب أساسه، رباط الفتح - مخيم النصر، تخليداً للانتصارات في الحرب المقدسة ضد مسيحيي إسبانيا، عدد السكان الذي كان في إمكانه استيعابهم وحمايتهم.

بقي المسجد غير مستكمل، وبقيت منارته الشهيرة، بالرغم من سلب قسمها الأعلى، علامة حية لأكبر مشروع مدني للمهدين، في موازاة الأعمال التي شرعوا بها في مدينتي مراكش وإشبيلية. كانت الأبراج الثلاثة: الكتبية والجيرالدا وحسان، ترشد كالمنازل درب الموحدين وتشهد على الذوق الفني نفسه الذي طبع صفتي مضيق جبل طارق يومذاك.

٢ - الضفة اليمنى: مدينة موجهة ذات قطبين

حظيت سلا، في ظل ولاية الموحدين، بأسوار جديدة من الناحية الشمالية والناحية الجنوبية الشرقية، في حين بقيت الواجهتان من ناحية النهر وعلى جبهة البحر مفتوحتين.

عام ١١٩٦، بنى يعقوب المنصور، مكان المسجد الأول الذي انهار سطحه، مسجداً جديداً، واسعاً جداً. إنه المسجد الكبير الذي يدعى اليوم الجامع الأعظم أو مسجد الطالعة. يقع هذا المسجد حتى اليوم في المكان نفسه، ولكنه يدين بوجهه الحالي لإصلاحات القرن الثامن عشر. له مثذنة عظيمة، من حجر منحوت، تشرف على فضاء المدينة كلها. هكذا غدا النسيج المدني منظماً بين هذا القطب الديني في الشمال الغربي مرتكزاً على المسجد، والقطب الاقتصادي في الجنوب الشرقي مرتكزاً على سوق وقيسارية.

والجدير ذكره أن كل التنظيم المدني سيأخذ شكله تبعاً ابتداءً من حيّ الطالعة، وينتجه بوضوح استناداً إلى مسجد الموحدين. توزيع الأحياء، وبوجه خاص تصميم

(٦) مع ارتفاع ٤٤م وقسم مربع يفوق الـ ١٦م قليلاً.

(٧) هي في الواقع الأكثر أهمية بين المآذن الموحدية الكبرى الثلاث: تفوق أبعادها، أو كانت، كذلك منفتحي جامعي الموحدين الآخرين: الكتبية في مراكش، والجيرالدا في إشبيلية.

الوصلات الرئيسية للمواصلات، هي إما من الشرق إلى الغرب، بموازاة الجدار القبلي للمسجد الكبير (باب الجديد إلى باب سبتة، باب بوحاجة إلى باب الفرد)، وإما من الشمال إلى الجنوب (من سيدي بن عاشر إلى باب المريسة، من المقبرة الشمالية على مقربة من باب شعفة إلى باب الفرد) على نحو متعامد معه. ويظهر ذلك إلى أي درجة كان حائط القبلي للجامع الأعظم يتحكم بالتنظيم المدني للمدينة. وبالمساهمة جوهرياً في تمدين مصب أبو رقراق، ربط يعقوب المنصور، ولأول مرة في تاريخ المدينتين، الضفتين بجسر متحرك، ذي تقنية ملحوظة انتزعت إعجاب معاصريه.

ثالثاً: عهد المرينيين

١ - الضفة اليسرى

منذ انتهاء عهد الموحيدين نحو منتصف القرن الثالث عشر وحتى بداية القرن السابع عشر، تراجعت أهمية الرباط على نحو ملحوظ؛ وحدها المعالم التي ارتفعت على يد المرينيين في القرن الرابع عشر بقيت شاهدة على تلك الحقبة. هذه هي حال الجامع الكبير الذي يعتبر اليوم أكبر مسجد في المدينة. كما بقيت بالقرب من هذا المسجد بعض آثار نافورة جميلة. وأبعد قليلاً بالقرب من شارع سيدي فاتح، هناك الحمام الجديد، الذي بناه السلطان أبو عنان، ويعود إلى الحقبة نفسها^(٨).

وفي كل الأحوال، يبقى الضريح الضخم للسلالة المرينية، أو مقبرة شالة، هو المعلم الأهم من تلك الحقبة. وفي موقع الرباط، المشرف على الضفة اليسرى لوادي أبو رقراق، تبسط شالة (الاسم القديم للمدينة) الأطلال الهائلة للمقبرة المرينية الملكية، جامعاً في وسط السور أنقاض سلا العتيقة. وتحدد الأخيرة مع ويلي (فوليبيليس) الحدود القصوى لمقاطعة موريتانيا الطنجية الرومانية. لم يأت ذكر سلا إلا ابتداءً من القرن الأول؛ لكن يبدو أنها كانت محطة فينيقية ابتداءً من القرن السابع قبل الميلاد^(٩).

(٨) كما الحمامات العربية في الأندلس، في مرسية وشريش وغرناطة وغيرها، فهي كانت تضم مكونات الحمام الروماني: غرفة استراحة وغرفة ياردة وغرفة ساخنة وغرفة حارة.

(٩) في الحقبة الموريتانية (من القرن الثاني إلى القرن الأول قبل الميلاد)، تطورت المدينة حول أحد أكثر بنايع المنطقة غزارة. وجرت إعادة تنظيمها في الحقبة الرومانية بإحاطتها بسور عام ١٤٤ ميلادية. لكنها هجرت في القرن الخامس، ربما بعد غزو القانдал عام ٤٢٩.

كان يجب انتظار نهاية القرن الثالث عشر لنشهد عودة ظهور سلا. وقد اختار السلطان المريني أبو يوسف يعقوب (ت ١٢٨٦) هذا الموقع ليني المقبرة الملكية لسلالته، وقد بنى هناك مسجداً وملحقاته أيضاً، مع أضرحة ليواري فيها جثمانه وجثامين عائلته. في منتصف القرن الرابع عشر، ساهم خليفته أبو الحسن في توسيع هذا الموقع الأخير، فسيجه بجدار بثلاثة أبواب وبنى مدرسة مزودة بمئذنة وحمام. كان الوصول إلى شالة عبر الباب الرئيسي، بمواجهة باب زعير في سور الرباط. كان باباً جميلاً مصنوعاً من الصلصال الرملي، مزيناً بفخامة كبيرة ومحصناً ببرجين مكسوري الزوايا يتسعان عند قمتهما. وإلى اليمين، على الجانب الأسفل، تقوم الأنقاض القديمة^(١٠) وفي الجهة المقابلة مقبرة المرينيين.

٢ - الضفة اليمنى

شكلت سلا الهدف المغربي الأول للقشتاليين، فجرى نهجها عام ١٢٦١. أعاد السلطان المريني يعقوب فتحها فعززها ودعّمها من جهة المحيط حيث شيّد الباب الكبير (باب المريسة) (باب المرفأ الصغير). وبوجه عام جرى خلال حقبة المرينيين استكمال وتوطيد نظام الدفاع عن المدينة، كما خُصّصت المدينة بعدة معالم. ارتفع سور جميل من الحجارة لجهة النهر وترسانة حربية مرتبطة بالمرفأ النهري بواسطة قناتين من داخل المدينة، في حين يؤمن ممران ضخمان، من بينها باب المريسة من جهة الجنوب، دخول السفن (انظر الرسم الرقم (٢٧ - ٢٨)).

وبين أهم العناصر التي ميّزت هذه الحقبة، نذكر على وجه الخصوص تعزيز القطب الديني للمدينة. هكذا، وبالقرب من المسجد الكبير، تم عام ١٣٤٢ إنشاء مدرسة أبو الحسن، إلى جانب المسجد الكبير، التي اعتبرت من روائع الفن المريني. وعلى الرغم من كونها أصغر مدارس الحقبة المرينية، فهي جديرة بالاهتمام من عدة وجوه، ولمجاورة أحد أقسامها حائط الجامع الأعظم. من هنا كان لها ميزة للكشف عن واجهة مكتملة تشهد على البناء التزيني وعلى الاندماج المدني.

(١٠) يتركز التنقيب في سلا القديمة حول الشارع الرئيسي، الديكيومانوس مكسيموس. هنا يمكن العثور على المعالم الرئيسية غير المكتشفة حتى الآن: المحال على الجانب الأيمن من الطريق، المعبد الرئيسي للمدينة الرومانية ومركز التراس العالي، وفي الوسط الفوروم، ينسبط في باحة معبد ما قبل روماني، وحيث وجد تمثال لأخر ملك موريتاني، بطليموس، حفيد كليوباترا، واغتيل على يد كاليغولا. وعلى يسار الديكيومانوس مكسيموس تقوم الختامات العامة، والمخازن البلدية، في مواجهة ينابيع، وفي وسط الشارع العام بقايا قوس النصر. وكان يلي الشارع العام لسلا قنوات أو خنادق باتجاه المرفأ القديم على نهر أبو رقراق، زالت الآن. المدينة الرومانية إذا كانت تذهب أبعد من السور المريني باتجاه النهر.

الرسم الرقم (٢٧ - ٧)
صورة جوية عمودية لمدينة سلا عام ١٩٨٠



يعتبر المدخل المتدرج، الذي أنشئ بمحاذاة سبيل جميل، من بين أروع الأعمال. هذا المدخل، يوفق ويفرح نادر بين الجبهة المصنوعة من الحجارة وبين الإفريز المصنوع من الخشب وكلاهما نُقش بمهارة. يتركز البناء حول باحة داخلية جرى نسيان مساحاتها الصغيرة^(١١) في دقة النسب، وفي غنى وانسجام التزيين مع قوة الاندفاع نحو السماء (الرسم الرقم (٢٧ - ٨)).

(١١) نحو ٣٢ متراً مربعاً.

الرسم الرقم (٢٧ - ٨)
منظر لساحة الأعمدة (سبلاناد) والمئذنة في مسجد حسان



المصدر: الصورة من إتيان ريفو.

أكثر من ذلك، فالمارستان (مستشفى الأمراض العقلية)^(١٢) وقناة تنبع من ينبوع عين بركة، وبناء زاوية النساك، ومكان استقبال العارفين الزهاد والأتقياء... إلخ، كل هذه الإنجازات تشهد على الأهمية التي أولاها المرينيون خلال ما يقارب القرن لمدينة سلا، وبوجه عام لمصعب أبو رقراق، حيث أنشأوا المقبرة الجنائزية لسلا لتهم.

عرفت سلا، بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر ازدهاراً زراعياً واقتصادياً؛ فكانت تستورد الزيت من إشبيلية وتصدر القمح وشمع النحل والجلود والصوف والنيلة. وبحسب الإدريسي «كانت ترسو فيها سفن إشبيلية والمدن البحرية الأندلسية كافة... وكانت تحمّل المؤن نحو الأندلس البحرية».

عرفت هذه الفترة بروز أشهر رجال العلم والفقهاء والباحثين، وبخاصة سيدي أحمد بن عاشر، شارح الفكر الشاذلي وشخصية مهمة للمغرب الصوفي في القرن الرابع عشر، الذي حظي بانتشار واسع واعتُبر واحداً من الأولياء الصالحين لمدينة سلا حيث

(١٢) فندق أسكور حالياً.

كان مثلاً لها. وقد طبع ضريحه البارز المقبرة البحرية المدهشة التي تحمل اسمه^(١٣) والتي تمتد القطب الديني لسلا وتفصلها في الآن نفسه عن المحيط الأطلسي.

رابعاً: جمهورية أبو رقرق

أصدر ملك إسبانيا فيليب الثالث، في بداية القرن السابع عشر، عدة مراسيم^(١٤) قضت بإخراج المسلمين من مملكته التي كانت تدعى الأندلس في المغرب والمورسكيون في إسبانيا. وكان من بين هؤلاء سكان مدينة هورناشوس^(١٥) الذين استقروا عند مصب أبو رقرق. ولاحقاً سوف يتبعهم لاجئون أندلسيون آخرون. وهكذا، وابتداءً من عام ١٦١٠، استقبل المصّب مجموعة كبيرة من السكان المسلمين اللاجئين الذين طردوا من الأندلس واستقروا وتنظموا في مدينتي الضفتين. بعد صعود وهبوط عدة مرات^(١٦) أعلنت عام ١٦٢٧ جمهورية الضفتين التي جمعت، خلال عشرات السنين سلا الجديدة (الرباط) وسلا القديمة (شالة) بمصير واحد. وبفضل مبادرة سكانها وموقعها الذي كان باستطاعته أن يتحكم بمدخل النهر والمرقا، أصبحت القصبّة تلقائياً عاصمة الدولة الجديدة^(١٧).

عرف مصب أبو رقرق إذًا، إلى جانب الجهاد البحري، الفترة الأكثر نشاطاً في تاريخه كما أصبح مشهوراً بمآثر قرصته التي كانت في طبيعة الـ «جهاد» البحري، إذ جالت في الأطلسي، بل رفعت رايتها في المياه البريطانية على مدخل التايمز، وفي أيسلندا، وحققت انتصارات في غزوات بعيدة وخطيرة وصلت إلى حدود أكاديا والأرض الجديدة.

وفي القرن السابع عشر ثم الثامن عشر، نجح قراصنة سلا في الإبحار على متن مراكب متوسطة خفيفة أو لوسيتانية (البرتغال) (مراكب صغيرة، سفن شراعية، سفن مربعة الأشعة، مراكب سريعة بثلاث صواري أو أكثر... إلخ). إلا أن الفترة الأكثر نشاطاً كانت في عهد جمهورية أبو رقرق (١٦٢٧ - ١٦٦٦) بحيث بلغ عدد السفن ما يقارب

(١٣) في مساحة أولية تبلغ ٢٠ هكتاراً.

(١٤) هما في ٤ آب/ أغسطس ١٦٠٩، و ٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٦٠٩... إلخ.

(١٥) مدينة تقع في إسترامادورا، في مقاطعة باداخوز، شرقي مريدا.

(١٦) كان الصعود والهبوط تبعاً للعلاقات الصعبة داخل الوافدين أنفسهم، بحسب مدن الأصل، وبينهم وبين

سكان الرباط وسلا. انظر: Jacques Caillé, *La République du Bou Regreg*, vol. 4, pp. 205-281.

(١٧) انظر: المصدر نفسه، ص ٢١٥.

الأربعين وحدة. من الناحية الفعلية، كانت القرصنة موجودة سابقاً في سلا، إلا أنها وبحسب جاك كايي وروجيه كواندرو^(١٨)، «لم تكن متطورة جداً ولا خطيرة جداً». غير أنها تشكل في النصف الأول من القرن السابع عشر حرفة سكان جمهورية أبو رقراق وصناعتهم^(١٩).

اتخذ «قراصنة سلا» في طليعة الإسلام البحري، وعلى عكس الجزائر أو تونس أو طرابلس - التي كانت متفرغة للقرصنة في البحر الأبيض المتوسط - المحيط الأطلسي بوجه خاص مسرحاً لعملياتهم. في الواقع، حقق هؤلاء في ذلك البحر الغربي أبرز مآثرهم البحرية على هذا المحيط الشاسع والخطير. وأطلقوا، بمجازفة كبيرة، حملات خطيرة، فوصلوا إلى الأرض الجديدة التي تبعد من قاعدتهم أكثر من ألفي ميل، فحازوا صيتاً مربعاً وجعلوا من مصب أبو رقراق مهد الحرب المقدسة.

تميزت هذه الحقبة بعدة أعمال وتعديلات في الكيان المدني لصفني أبو رقراق. فرممت القصبة التي كان يشغلها الهورناشيون سورّها، وثقب ليجهّز بالمدافع، كما أنشئت في الداخل منازل وحمامات وممار تحت الأرض أعاد جاك كايي^(٢٠) بناء تصاميمها.

وبغية تعزيز قوتهم وبهدف جمع عدد من الناس حولهم يستطيعون الاعتماد عليهم، استقدموا لاجئين آخرين أندلسيين إلى المغرب فاستقروا بالقرب من القصبة ومن المحلة المسكونة أصلاً قرب النهر. وكما أن رباط عبد المؤمن كان الأساس لرباط الفتح، فهكذا تحولت قصبة الهورناشيون إلى مدينة أندلسية في الرباط.

احتفظ تاريخ المغرب بذكرى «قراصنة سلا». إلا أن هذه العبارة ربما تبدو مضللة، وتعطي انطباعاً بأن القراصنة سكنوا سلا الحالية. ويفسر هذا بأنه ولغاية القرن السابع عشر لم يكن هناك من اسم للرباط، بل تسمية سلا فقط، سلا الجديدة وسلا القديمة. في الواقع، «بقي سكان سلا القديمة غرباء عن القرصنة، بينما كان المحرضون من المورسكيين الذين استقروا على ضفة اليسار لأبو رقراق (...) وكانوا يعتبرون هذه

Roger Coindreau, *Les Corsaires de Salé*, Publications de l'institut de haute etudes Marocianes, (١٨) vol. 47 (Paris: [n. pb.], 1948).

Caillé, *La Republique du Bou Regreg*, pp. 223-225.

(١٩) انظر:

بين ١٦١٨ و ١٦٢٦ أسر ٦٠٠٠ مسيحي، وبلغت الديات أكثر من ١٥ مليون جنيه. وبين ١٦٢٩ و ١٦٣٩ سجلت الجهارك المورسكية ٢٥ أو ٢٦ مليون دوقية.

(٢٠) انظر: المصدر نفسه، ص ٢١٤.

النشاطات وجهاً من وجوه الحرب المقدسة^(٢١). كذلك يحفظ التاريخ ذكرى مرفأ نشط حمل أكثر من غيره علامات الحضارة الأوروبية.

خامساً: الهويات والخصوصيات المدنية

١ - الضفة الشمالية: من مدينة الأندلس إلى مقر الإمبراطورية

شغلت مدينة الأندلس في الرباط جزءاً مدينياً بلغ مئات الهكتارات، داخل سور الموحدين المحيط؛ يتضمن إنجازات المرينيين ويحده من الجنوب الشرقي مبنى سور جديد. فبدءاً من باب الحد كان هذا السور الأندلسي يربط بين استحكامي القرن الثاني عشر والجرف الذي يشرف على أبو رقراق حيث يقع برج سيدي مخلوف^(٢٢). هكذا رسمت المعالم الكبيرة لمدينة الضفة الشمالية أو مدينة الرباط في القرن الثاني عشر. ثم في القرن الرابع عشر، ثم اتخذت شكلاً حقيقياً في القرن السابع عشر؛ وفي هذه الحقبة ثبتت فتحها على القسم البحري للنهر وبدأ أيضاً هذا التوجه في بنيتها المدنية التي يتحكم بها شريانان رئيسيان عموديان: شارع القناصل الذي يحاذي النهر ويؤلف القطب الاقتصادي للمدينة، وشارع السوق وهو محور رئيسي يحاذي المسجد الكبير في القرن الرابع عشر، كما يربط باب الحد بشارع القناصل، ثم باب البحر الذي يفتح على المرفأ النهري.

شارع القناصل، بحكم موقعه بين القصبة والمرفأ النهري، هو من دون شك واحد من أقدم الشوارع الرئيسية للمدينة وسيؤدي دوراً مهماً في القرنين السابع عشر والثامن عشر في ظل الانفتاح التدريجي على أوروبا. وفي جو العالمية الذي اتصف به الشارع الذي كان يتفاعل على إيقاع نشاطات المرفأ النهري، أدى هؤلاء الوكلاء، الذين كانوا مهتمين أساساً بحماية رعاياهم، دوراً سياسياً أيضاً، إذ كانت قنصلياتهم تهتم بالمفاوضات التي كانت تجريها مع دول الرعايا، وتتوسط لاسترجاع الأسرى. وسوف يقيم في شارع القناصل تباعاً ممثلو عدد لا بأس به من الأمم الغربية: قناصل السويد والدنمارك وهولندا وفرنسا. ثم قدم ممثلو إنكلترا وإسبانيا والبرتغال ثم إيطاليا والنمسا وهنغاريا وألمانيا والولايات المتحدة... إلخ.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٢٤-٢٢٦.

(٢٢) بقطعهما من غير زاوية الأبراج، السور الأندلسي، الذي امتد لأكثر من ١٤٠٠ متر ويمتد علو يبلغ ٥ أمتار وسهكة متر ونصف المتر. كان فيه ثلاثة أبواب: باب التين، باب البويرة، وباب شالة.

عرفت الرباط في الفترة الممتدة بين سقوط مصب أبو رقراق على يد مولاي الرشيد عام ١٦٦٦ مؤسس الولاية العلوية وبين بداية القرن العشرين، تحولات رئيسية. وإذا كانت هذه الأخيرة لم تؤثر في النسيج المدني للمدينة، فإن التوسعات وشيد المباني التي تمت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد منحها صفة رئيسية أخرى ألا وهي مقر الإمبراطورية. بداية، في عهد العلويين الأوائل ولغاية عهد مولاي سليمان أوائل القرن التاسع عشر، تابعت المدينة تركيز نشاطاتها على أعمال القرصنة وتجارتها. وهو ما يفسر الأهمية التي أعطيت للقصبة، فأصبحت لاحقاً قلعة - مخزن، والمنشآت والترميمات العديدة التي أنجزت فيها كما عمليات الدفاع البحري المنجزة طوال تلك الحقبة. من ناحية أخرى، يدل بناء قصر ومسجد كبير في نهاية القرن الثامن عشر، وفي عهد سيدي محمد بن عبد الله، في القسم الجنوبي الغربي لسور الموحدين على الأهمية التي خصها بها الحكام (الرسم الرقم (٢٧ - ٩)).

الرسم الرقم (٢٧ - ٩)
منظر عام للمدينة المرينية المسورة، شالة



المصدر: المصدر نفسه.

برز هذا الطابع الجديد للمدينة أكثر فأكثر خلال عهد مولاي سليمان، الذي بنى فيها قصراً على شاطئ البحر، دار البحر^(٢٣)، ومعابد كثيرة من بينها المسجد القائم على تقاطع شارع البوينة والسوقة الذي يحمل اسمه. وقد رُمّم باب الحد وباب شالة وأمر ببناء ملاح (محلة اليهود) في الطرف الشرقي للمدينة على أرض لا تزال حتى اليوم مشغولة بحدائق كبيرة داخل أسوار ما كان مدينة الأندلس. من ناحية أخرى، وعلى الأرجح في بداية القرن التاسع عشر، شيد سور خارجي يبلغ أقصى طوله ٤٣٠٠ م. كما

(٢٣) اخضت الآن.

ضاعف امتداد سور الموحدين من الناحية الجنوبية ومن الغرب حتى المحيط الأطلسي ليضم بذلك مساحة تزيد على ٨٤٠ هكتاراً. وفي النصف الثاني للقرن التاسع عشر أنهى سيدي محمد بن عبد الرحمن بناء قصر جديد في القسم الجنوبي الغربي لسور الموحدين محيياً بذلك الإمبراطورية الصغيرة التي أسست آنفاً في هذا المكان.

بدأت الرباط مع بداية القرن العشرين في هذه الصورة الجديدة، ولم تعد تشكل سوى تجمع سكني منفرد. وحتى إذا كان السكان يتركزون دائماً في المدينة، داخل سور الأندلس، فإن المعالم التي شيدت في المكان والتي حددت بواسطة سور الموحدين إنما كانت تدل على طابع المقر الإمبراطوري الذي سيطع المدينة في المستقبل.

٢ - الضفة اليمنى

بقيت سلا، حتى بداية القرن العشرين، مطبوعة وبقوة بطابع المدينة التقية ليس نتيجة تصميم المدينة فقط، كما رأينا سابقاً، إنما نتيجة عدد وطبيعة وخصائص المنشآت أو التقاليد الاجتماعية التي حافظت عليها أيضاً. تملك المدينة في الواقع ستين مسجداً يوجد بمحاذاتها مدارس قرآنية^(٢٤)، وهي تعدّ قرابة الأربعين، من بينها الزوايا التي تقع داخل المدينة وخارجها، فضلاً عن أربعة وعشرين سبيلاً عاماً لا يزال أكثر من نصفها يعطي الماء دورياً.

عام ١٩١٨، انقسمت المدينة التي كانت تحتل نحو نصف المساحة المزنة بالأسوار^(٢٥) إلى اثنتي عشرة محلة^(٢٦)، ضمت نحو ١٧٠٠٠ نسمة، نحو ١٠ في المئة منهم كانوا من اليهود. تعود كثرة هؤلاء السكان اليهود إلى الهجرة الجماعية بسبب عمليات الطرد الجماعي من إسبانيا. استقر السكان اليهود الساليون آنذاك بالقرب من باب احساين في الملاح القديم (حي اليهود). في أوائل القرن التاسع عشر، بنى السلطان مولاي سليمان، ملاحاً في الجنوب الغربي للمدينة، حارة جديدة تتميز عن غيرها بتصميمها المنظم. أما المدافن الإسرائيلية فهي خارج المدينة. وعام ١٩١٨، تزعم السكان اليهود رابي رفايل أنغورا الذي كان واحداً من أشهر النافذين في الطائفة اليهودية في المغرب^(٢٧).

(٢٤) بين الأهم، إلى ما سبق، مسجد سيدي أحمد حجي، مسجد الشهاب، جامع زرقاء، مسجد سيدي حاج عبد الله، إلى غيرها.

(٢٥) كما تظهر من الصور الجوية لزمنا. بين القطاع المدني والسور كانت تقوم بساتين مشرة وأرض زراعية.

(٢٦) نذكر منها: الطالعة، رأس الشجرة، بليدة، الجزارين، الملاح القديم، الصوف، السوق،... إلخ.

(٢٧) جرى اتخاذ القرار نفسه في الرباط، حيث بني الملاح على الطرف الجنوبي الشرقي للمدينة.

بقيت سلا من أهم المراكز الفكرية في المغرب. والحركة الفكرية التي توسعت ووصلت إلى أوجها في عهد المرينيين^(٢٨)، وبخاصة مع العمل المتقن لأعلى موظف سلاوي من المخزن هو أحمد بن خالد الناصري، وكان أهم شاهد على تحولات المغرب في القرن التاسع عشر، ومؤلف الاستقصاء آخر وأكبر مجموعة في تاريخ الإسلام في المغرب. وأخيراً، فسلا هي المدينة الوحيدة من مجموعة مدن المغرب التي حافظت على ترسيخ «تطواف الشموع» الذي كان يُحتفل به كل عام في ذكرى المولد النبوي الشريف^(٢٩).

عشية المولد كان يتألف موكب بالقرب من دار شقرون حيث تُهيأ كل عام وتُرَّمَّم شمعدانات ضخمة على جدران مغطاة بمهارة بآلاف نماذج الشموع الصغيرة المصبوغة بألوان متعددة. وكان عمال مرفأ سلا الذين يرتدون زيهم الرسمي اللماع، يهتمون بنقل الشموع السبع المتقنة التي تعتبر الزينة الرئيسية للتطواف الذي يتم على وقع الموسيقى على طول خط سير الموكب الذي يمرّ تحديداً بمسجد سيدي أحمد حجي والسوق الكبير وصولاً إلى ضريح سيدي عبد الله بن حسون حيث تحتل أجمل شمعة وسط القبة التي تشرف على منصة النعش. وإلى اليوم، لا يزال هذا التطواف المدني جزءاً من المراسم الأساسية للعيد الديني الكبير يبرز في طريقه اللحظات والمنشآت الرئيسية التي تشهد على الإيمان والتقوى اللذين يميزان تاريخ مدينة سلا.

سادساً: الهيئة المكانية والتنظيم الاجتماعي

يقود تحليل مخطط مدينة الرباط إلى التمييز بين منطقة مركزية من جهة وبين حارات طرفية في الجهات الغربية الشمالية والشرقية للمدينة، من جهة أخرى. في المنطقة المركزية، طرق المرور (شوارع وأزقة ودروب) تدل على تصميم غير منتظم، بينما المناطق السكنية مقفلة بمعظمها ومؤلفة من مجموعة منازل صغيرة مجتمعة حول منازل كبيرة. أما في الحارات الطرفية، حي الكزا وحي سيدي فاتح وحي العلو والملاح قبل سواها، فيظهر تصميم منتظم مؤلف من محور رئيسي يوزع من جهة أخرى أزقة

(٢٨) كان زمن المفسرين الكبار من أمثال لسان الدين ابن الخطيب الذي جعل سلا مكاناً لإقامته وكان له جمهوره مع سيدي بن عاشر.

(٢٩) قدم هذا التقليد الشعبي والجذاب إلى المغرب في نهاية القرن السادس عشر وبمبادرة السلطان سيدي أحمد المنصور الذهبي، الذي كان له صلات بالباب العالي. وكان يحتفل في الوقت عينه في مراكش العاصمة ومدن أخرى في المغرب.

عمودية ومتوازية، يؤمن طرق مواصلات إلى مجموعة المنازل الصغيرة بسماكة قطعتي أرض. وتؤلف المنشآت الدينية التي ارتفعت في الرباط في عهد السلالة العلوية في القرن السابع عشر ولغاية القرن العشرين تحفة معمارية مهمة^(٣٠).

في مدينة سلا التي عرضنا آنفاً أهم اتجاهاتها، يحيط بالقطب الديني منازل كبيرة، بعضها مع رياض وملحقات عديدة وحتى مقابر خاصة. الحارات السكنية التي تحيط بالقطب الاقتصادي هي أصغر من حيث المساحة وأكثر تواضعاً. وهذا ما نستطيع استنتاجه بنظرة عامة لحقبة بداية القرن بين المنطقة المركزية المتمدينة والأسوار، وجود السواني، وأراضي وبساتين مرصودة للزراعة. من بين أهم الحارات ذات المساكن العائلية يمكن ذكر: التلة، ورأس الشجرة، وبليدة، والجزارين، والملاح القديم، والصوف، والسويقة... إلخ.

في المدينتين، تؤلف المناطق السكنية والحارات المتناسقة الحجم، وحدات متقاربة في قلب المجموعة السكنية. في كل حارة خدمات جماعية للحاجات اليومية للسكان المقيمين: فرن للخبز ومدرسة للقرآن وسبيل وتجارات صغيرة أيضاً، وفي مدى أوسع، سواء انضمت إلى ما سبق ذكره أم لا، مسجد ومحلة وزاوية وحمام... إلخ. في مدينتي الرباط وسلا، وحيث الحارة لا تتميز دائماً ككيان مادي منفصل، فهي تؤلف وحدة اجتماعية، جمى، وتمثل المصالح الأساسية للسكان. يتضمن كل حمى عدداً معيناً من الدروب التي تؤلف فسحات اجتماعية أصلية للمدينة. يبدأ الدرب من المنزل الذي يقع في نهاية الممر الذي تملكه عائلة بارزة ويحمل اسمها عادة. من نهاية الدرب وعند طرفه يصطف ومن الجهتين عدد معين من المنازل التي تحافظ على علاقات القرى أو علاقة زبائن مع العائلات المالكة لها.

والاختلاف في المراتب والبيئة والوظيفة الذي نلاحظه بين الحارات السكنية والشرايين التجارية الكبرى إنما يعود إلى اختلاف جوهري في التصميم المعماري. وطرق المواصلات التي تخترق الأسواق محددة دائماً من خلال أبنية عضوية بنيت في سلسلة خطية مفتوحة على الساحة العامة. في نمط التنظيم هذا، مثل الدرب إذاً أول درجة في التقسيم المكاني، وكجزء من آلية أكبر يجري من خلالها عزل الخاص عن العام. وهي طريقة في التجميع نلاحظها بوجه عام في النسيج المدني للمدن الإسلامية العربية.

(٣٠) عام ١٩٠٦ كان هناك في الرباط ٦ مساجد ضخمة، و٣٣ مسجداً ثانوياً، و١٣ زاوية، بني معظمها خلال حقبة الحكم العلوي، انظر: Caillé, *La République du Bou Regreg*, p. 457.

سابعاً: عالم المنازل في الرباط وسلا

من حيث التصميم المعماري، كانت كل وحدة سكنية منظمة حول باحة مركزية، نواة حقيقية تتألف من خلالها وحولها جميع العناصر الأساسية لتؤلف وحدة مكانية. المنازل الأكثر رفاهية تنشأ حول باحة فسيحة جداً ويمكنها امتلاك باحتين أو أكثر، بما فيها الحدائق الخاصة والحمام والإسطبل ويزاد عليها مسكن للضيوف أو للخدم... إلخ. من الملاحظ أيضاً في الرباط وسلا عدد كبير من «المنزهات» على الشرفات. هذه المنزهات تفتح باتساع على ناحية أو أكثر مؤلفة بذلك منظراً مدينيّاً شاملاً. وهي كناية عن فسحة ترفيهية يستطيع سيد المنزل الاستقبال فيها في فترة بعد الظهر. وهي عادة مزينة بفسقية (حوض من الرخام في وسطه نافورة ماء) مركزية أو بسبيل على حائط الباحة محاطة عامة بممار في إمكانها أن تتضاعف جزئياً أو كلياً عند الطابق الأول.

أنظمة البناء والأدوات المستعملة هي ذاتها في الرباط وسلا^(٣١)، وهي تساعد على منح المنازل باحات بأحجام متناسقة. كما هي الحال بالنسبة إلى ساحات الباحات الداخلية والأجزاء السكنية التي تحيط بها، أنواع الممار، قناطر ذات حاشية أو إكليلية. تحيط الممار أو تدل على مداخل الأجزاء الرئيسية. يسمح استعمال الحجارة^(٣٢) في المدينتين بالبناء على جدران قليلة العرض وباستعمال أعمدة حجرية رقيقة، وهو ما يسمح بانجاز أروقة خفيفة أنيقة. وقد أعطى ذلك نسباً رفيعة وخفيفة وأحياناً جريئة، بخلاف منازل فاس أو مراكش حيث الدعائم التي يبلغ ارتفاعها المترين لها عادة قياس يتراوح قطرها بين ٥٠ و ٦٠ سم. بينما من المألوف أن نرى في الرباط وسلا جذوع أعمدة لا يتعدى قطرها ٢٥ - ٣٠ سم بارتفاع ٣ أو ٤ أمتار. والصخر الذي يزين الممار ومداخل الأجزاء السكنية منحوت كله قبل وضعه، حتى وإن كان مخصصاً لشرفة مقوسة فيها الكثير من التعقيد.

والبناء في الرباط وسلا هو حجار ونحات في الوقت نفسه، إذ يحضر عمله على الأرض حجراً حجراً بشكل أفقي قبل أن يصبح جاهزاً على قوس محضّر في الورشة. من جهة أخرى، تزيّن أبواب شارع مدينة الرباط وسلا، كما باقي المدن على الساحل، إطارات من حجر مؤلفة من عمودين تعلوهما عقدة كاملة منقوشة، نموذج غريب بعض

(٣١) انظر: «Particularites des maisons de Rabat.» dans: Jean Gallotti, *Le Jardin de la maison arabes au morac*, 2 vols. (Paris: Ed. Albert Levy, 1926), vol. 2.

(٣٢) هناك أكثر من حجر في الحضبة.

الشيء على الفن الإسلامي. كما نلاحظ أيضاً الشكل القضيبى لمطارق الأبواب مصنوعة من الحديد أو النحاس^(٣٣).

أما العناصر المورسكية التي تميز المنازل في الرباط وسلا فتجدها بوجه خاص في طبيعة الزينة وتوزيعها. يظهر هذا التأثير في أبواب المداخل التي تزين نماذج مستوردة من إسبانيا كما في السطوانات، أروقة طويلة مصنوعة من قناطر تقود إلى الباحة الداخلية. تتألف مجموعة التزيين في هذه الأخيرة من: أرضية مرصوفة ببلاط رخامي، وجص منحوت، وسقفية من الخشب المتقن، وجادة كبيرة تنتهي بلوحة مركزية من الزليج والشواف، معروضة بشكل بارز على زاوية ممر يمتد بين صفي مقاعد تقطعها أعمدة تعلوها أقواس من صنف.

يظهر هذا التأثير أيضاً في تنظيم وتزيين الباحة الداخلية التي تظهر بتركيباتها التناسقية الفتوحات وتدرج الأقواس الصخرية على طول الرواق: أقواس إفريزية كبيرة تتوسط بين قوسين صغيرين متدليين. ويساهم انعكاس الأشكال في ممر الطابق الأول بإعطاء أناقة كلية، وتوازن وتناغم. ويتشر الرخام، والصخور المنحوتة، والجص المنقوش، والحديد المشغول، والخشب المدهون والزليج في الباحة وعلى واجهاتها، فتعطي بغناها ودقة تنفيذها المنزل مكانته الحقيقية^(٣٤).

والأثاث مؤلف بوجه خاص من مقاعد سميكة ومريحة تعلوها وسادات تحيط بجدران كل الغرفة. ويبدو التأثير المورسكي أيضاً في الزركشات الحرير الفخمة، وبخاصة في الرباط وسلا، مميزة بنماذجها وألوانها التي تعطي مجموعة الوسادات والبسط والستائر ذلك التناغم الفرح لداخل المنازل التقليدية لمدن الضفتين. ومن دون شك، فإن الأندلسيين الذين استقروا في القصبة في الرباط، أو في سلا، قد حافظوا على فنونهم ولباقتهم في الأشكال المدنية الجديدة التي اتخذوا لها المساحات المجهزة. كما استطاعوا أن يحافظوا ويطوروا بعض أعمالهم مثل الفلاحة، والري بواسطة الناعورة والقنوات والجنيات، وزراعة الأشجار المثمرة المتنوعة^(٣٥)، وفن صناعة الأحذية، وفن

(٣٣) انظر: P. Richard and A. Delpy, «Note au Sujet de vieilles portes marocianes», *Hesperes*, vol. 15, 2nd Trimester (1932), fasc. 1.

(٣٤) انظر: Saïd Mouline, «Trois Demeures de Rabat: Dar Caid Souissi, Dar Reghayé et Dar Hassnim», dans: *L'habitat traditionnel dans les pays musulmans autour de la Méditerranée*, Groupe de Recherches et d'études sur le Proche-Orient, 2 vols. (Cairo: Publication de IFAO, 1988), vol. 1: *L'Heritage architectural: Forms et fonctions*, pp. 242-263.

(٣٥) من بينها كروم العنب الشهيرة للرباط - سلا. «حظي سكان المدينتين بنعمة ثقافة الكرمة وأنتجوا عدة أنواع

التنجيد، وفن التجليد والتغليف، والأثاث على طراز عصر النهضة والباروكي الإسباني مع حاشية أسرته ذات القيب، وأعمدة صغيرة من الخشب المضفور والموسيقى الأندلسية المسماة غرناطة وحتى أسماء عائلات تشهد دائماً على هذا الأصل الإسباني^(٣٦).

خاتمة

ينبع التراث المعماري والمديني من عمل البنّائين، ومن الفن المحلي المتميز، ومن العلاقات الاجتماعية والثقافية والتاريخية والبيئية وغيرها، المتعددة والمختلفة. لكن ذلك لا ينبثق من مصدر واحد بل من عدة مصادر وتبادلات. هكذا، وعلى المدى البعيد، يغدو التراث نتيجة عدة عناصر مُحددة، ثمرة تلاقح الثقافات أو - تفادياً لأي مضمون تحقيري ممكن أن يتعلق بهذه العبارة - هو نتيجة الإثراء المتبادل.

كتب فرناند بروديل، في مؤلفه المتميز المخصص للبحر الأبيض المتوسط، أن «الحضارات تتصل بشكل متين بالموقع الجغرافي كما تجد في مواجهاتها سبب وجودها». وجهة نظر المواجهات تلك كانت محرك التطور في الحضارات التي تهمننا هنا، وبخاصة في حالة التقدم التاريخي للمدينتين المقدستين لضفتي أبو رقرق. وهذا يهمننا بالطبع لأن التراث المعماري والمديني، النتاج والسبب حضارياً، يحمل الشاهد على التبادل والهجرة والمتغيرات التي تظهر وتوضع وتوثق في الزمان. وربما نقول إنه غالباً ما يشكل المادة والترسبات في الزمان كي يصنع منها مواقع مميزة ومشاهد مدينية.

إنه هذا الطابع الفريد، نتاج بيئة ومحيط خاصين، المصب ومدينتي الضفتين، الذي عاد إليه بالوصف عام ١٩١٨ كل من جيروم وجان تورو، اللذين حلا ضيفين على هوير ليوتي المندوب السامي للوصاية الفرنسية في المملكة الشريفة منذ عام ١٩١٢: «عند مصب نهر أفريقي بطيء، حيث يخترق البحر باتساع بواسطة أنصال طويلة مزركشة بالزبد، تقوم مدينتان في بياض مدهش، مدينتان من ألف ليلة وليلة، رباط الفتح مخيم النصر وسلا البربرية، اللتان تذهبان من ضفة إلى أخرى مثل شطرين لقصيدة واحدة، بياضهما وشرفاتهما ومنارتهم وحدائقهما، وأسوارهما، وأبراجهما ومدافنهما الكبيرة

منها. وكانوا شديدي التعلق بها، وزرعوها في حدائق منازلهم، بل كان لمعظم المنازل عرائش تسلق جدران منازلهم... وكان عندها طيباً وخفيفاً «حريراً» وكان عصيرها شهياً ويصنر منه إلى الأندلس...». انظر: M. Ben Ali Doukkali, *Itinéraire Culturel des Almorawides et des Almohades. Maghreb et Péninsule Ibérique*, translated by Halima Ferhat (Paris: Foundation El Legato Andalus, 1999), p. 137.

(٣٦) حل سبيل المثال، عائلات بيرو، توريدانو، برغاش، بلافريج، مولين... إلخ. في الرباط، وفي سلا عائلات زنيبر، فنيش، بريتال، الكرومي، القمور... إلخ.

التي تشبه أرض بريتونية باثرة سجاجدات صخرية رمادية ضخمة منبسطة على شاطئ البحر. بعيداً أكثر، بصعود النهر وسط أرض حمراء، يرتفع البرج المربع العالي الأحمر أيضاً لمسجد اختفى. وبعيداً أيضاً، مدينة أخرى أو بالأحرى، أسوار قلعة مدمرة لم تعد الآن سوى سراب، ذكرى صخرة في حديقة شجر البرتقال. ومن الرباط البيضاء إلى سلا البيضاء، وفوق المصب العريض للنهر، من برج حسان الوحيد إلى شالة الغامضة، من الصباح حتى المساء، حركة طيور اللقلق البطيئة والمستمرة تربط بطيرانها ويخيط خفي مدن الإسلام الثلاث المجتمعة في بقعة ضيقة، بهذا البياض وهذا الخضار وهذه المياه.

هل هي مخيلتي أم عيناى التي ترى في هذا المكان واحداً من أجمل الأماكن في العالم؟ مثل العصافير الكبيرة يسقط نظري تباعاً، ودون أن أتعب أبداً، على كل هذه الجمالات المتشعبة، واحدة واحدة، عارية كما هي^(٢٧).

Jerome and Jean Tharaud, *Rabat ou le heures marocaines* (Paris: Emile-Paul Freres, 1928), (٢٧) pp. 4-5.

الفصل الثامن والعشرون

مدينة «شبه الصحراء»: القواعد وشكل البناء

بسيم حكيم
زبير أحمد (*)

يتفحص هذا الفصل القواعد التي اتبعتها كل الأطراف المعنية بالقرارات المؤثرة في البيئة العمرانية في منطقة شبه الصحراء الأفريقية، وبخاصة على مستوى الجوار. مصدر المادة الواردة في هذا الفصل هو مخطوطات كتبت خلال خلافة سوكتو في القرن التاسع عشر. والأمثلة على شكل البناء هي من المنطقة التراثية التاريخية لمدينة زاريا في شمال نيجيريا. فمن خلال فهم القواعد والمسائل التي عالجوها، يغدو ممكناً تقييم الطريقة التي أثروا بها في مجمل شكل البناء، كما يظهر في المثال المتقى من زاريا وهو عبارة عن عدة مجمعات تؤلف جيرة مترابطة.

من المعروف أن خلافة سوكتو قد بدأت عام ١٨٠٨ مع النجاحات التي حققتها الحملات الجهادية لعثمان دان فوديو، والتي انتهت بدخول الاستعمار البريطاني عام ١٩٠٣. لقد درسنا القواعد الأساسية المتبعة في عمليات صنع القرار التي أثرت في تصميم المدن، وأحيائها التي تضم أنماطاً من الجوار، إضافة إلى الجوار العنقودي. ومن أجل اكتشاف هذه القواعد على نحو دقيق، قمنا بدراسة المخطوطات ذات الصلة التي كتبها في بداية هذه المرحلة الثلاثي الفوديو - الشيخ عثمان وأخوه

(*) مهندس معماري - المتد.

عبد الله (المعروف في المنطقة بعبد الله) وولده محمد ييللو - ولاحقاً علماء آخرون^(١).

يبدو جلياً ومن دون إبطاء أن كتابات الثلاثي الفوديويني إنما تتجذر في أعمال العلماء المسلمين الأوائل من شمال أفريقيا والشرق الأوسط. كما كشف لنا البحث في تلك الأعمال مقاصد الثلاثي أعلاه، وتحديدأ إحياء الشريعة الإسلامية وإقامة مجتمع يُحكم وفق الشريعة. لقد قاموا بما قام به غيرهم من قبل: إعادة نسج الصلات مع مصادر ومرجعيات سابقة في الثقافة الإسلامية.

ومعلمو عثمان، كما أسرته، وآخرون ممن اتبعوه، هم من أتباع المذهب المالكي. لقد آمنوا بالقرآن وسنة الرسول وبآراء وتعاليم الأئمة الأربعة، وبالقواعد التي أرساها الخلفاء الراشدون^(٢). وحين يكون الأمر ضرورياً ومناسباً فلا بأس بالعودة إلى آراء علماء من مذاهب فقهية أخرى، ويهدف توضيح أحكام معينة.

إلى جانب دراسات الثلاثي الفوديويني، تفحصنا أعمال علماء آخرين من خلافة سوتوكو وسيجري التعريف بهم وبأعمالهم في سياق النص.

أولاً: قواعد صنع القرار

بعد تحليل الدراسات التي كتبت في شمال نيجيريا في القرن التاسع عشر والخصائص المورفولوجية لمدن المنطقة، يمكننا القول إن القواعد التي جرى وضعها لإدارة عمليتي النمو والتغيير في البيئة العمرانية تندرج تحت واحدة أو أكثر من مسائل الإطار التالي:

١ - الحرم: وهي منطقة تحيط بمدينة أو بلدة أو ملكية خاصة أو بناء، وهي ضرورية للوظيفة المنوطة بها.

(١) لتفسير مفردة «فوديو»، انظر: John O. Hunwick, *Arabic Literature of Africa*, 2 vols. (Leiden: Brill, 1995), vol. 2: *The Writings of Central Sudanic Africa*, pp. 53-55.

الثلاثي (تريو) تعود إلى شيخ عثمان، وأخوه عبد الله، وولده محمد ييللو. من أجل معرفة أوفى بسيرهم.
(٢) الخلفاء الأربعة المعروفون عند المسلمين السنة بالراشدين هم: أبو بكر (ح ١٠ - ١٣هـ / ٦٣٢ - ٦٣٤م)، عمر بن الخطاب (ح ١٣ - ٢٣هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤م)، عثمان بن عفان (ح ٢٣ - ٢٤هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦م)، علي بن أبي طالب (ح ٣٦ - ٤١هـ / ٦٥٦ - ٦٦١م). والأئمة الأربعة عند السنة هم: أبو حنيفة (٨٠ - ١٥٠هـ / ٦٩٩ - ٧٦٧م)، مالك (٩٦ - ١٧٩هـ / ٧١٥ - ٧٩٥م)، الشافعي (١٥٠ - ٢٠٥هـ / ٧٦٧ - ٨٢٠م)، وابن حنبل (١٦٣ - ٢٤١هـ / ٧٨٠ - ٨٥٥م).

- ٢ - إحياء الأرض الموات: أي الأراضي التي لا يملكها أو يستخدمها أحد.
- ٣ - حق الارتفاق: أي الحقوق المتعلقة بالأماكن المجاورة، وحق المرور والانتفاع.
- ٤ - الطرق العامة وحقوقها: الحقوق في الطرق العامة.
- ٥ - المرافق ومنع الضرر: أي منع الضرر على الأبنية والمنشآت المجاورة.
- ٦ - الضمان والمسؤولية عند إحداث الضرر: المسؤولية المترتبة عن إحداث الضرر أو الأضرار.
- وفي ما يلي القواعد التي تحكم كلاً من الفئات الست أعلاه:

١ - قواعد الحُرْم

يشرح عبد الله فودي في تعاليم الراضي كيف يتم إنشاء الحُرْم لوحدات مختلفة وكيف يتم تمييزه^(٣).

- القرية: تستخدم المنطقة المحيطة بمنطقة احتطاب ورعي. تبلغ مساحتها نحو ١٠ كم أي مسافة السير ذهاباً وإياباً في يوم واحد. في بعض الأحيان، تكون المنطقة التي يجمع منها الحطب أبعد من منطقة الرعي أو ضمن حدودها. في هذه الحالة، يشمل الحُرْم المنطقة الأبعد بين الاثنين.

- النهر: ١٠٠٠ ذراع أو نحو ٥٠٠ م، وهو منطقة ملائمة لأولئك الذين يمكن أن يفيدوا منه.

- الينبوع الغزير: ٥٠٠ ذراع أو نحو ٢٥٠ م.

- الينبوع الذي تستخدمه الماشية: المنطقة التي لا تزعج من يجلب قطيعه للشرب من الينبوع.

- الينبوع المستخدم لأغراض زراعية: المساحة المطلوبة لحمايته من الضرر وللسماح لمستخدميه بالإفادة منه.

(٣) عبد الله فودي، تعاليم الراضي في أسباب اختصاص بالأراضي الموات (في التعليم المنعلق بالأرض الموات). ولا يشير المؤلف إلى تاريخ إكمال النص.

- الينبوع المستخدم للزراعة، أو منزل أو رافد صغير أو نهر يمر في أرض لا يملكها أحد: ٢٠ ذراعاً أو نحو ١٠ م.

- المنزل المحاط بأرض موات: يحدد حرم هذا المنزل بالمساحة المطلوبة للدخول والخروج، والمساحة الكافية لتكديس تربة البناء ولأغراض الصيانة، والمساحة الكافية لصرف مياه المطر والمياه القذرة.

- المنزل المحاط بمنازل أخرى أو ملكيات: لا يجوز لمالك وحيد وضع يده على مساحة كالحرم من أجل منفعته فقط، إنما يستطيع كل مالك الاستفادة من الحرم المجاور لملكيته من دون إحداث ضرر أو إزعاج جيرانه.

- بستان من النخيل أو أنواع أخرى من الأشجار: الحرم هو المنطقة الواقعة على حفافي البستان والمنطقة الكافية للدخول والخروج.

- الشوارع: ٧ أذرع أو ٣, ٥ م. لا يجوز احتلال مساحة ضمن العرض الأدنى للشارع، ما لم يتوافر المزيد من المساحة. إذا تم البناء في حق مرور الطريق، يجب هدم هذا البناء حتى وإن كان لا يحدث ضرراً. ولا يجوز أيضاً أخذ مساحة من حق مرور الطريق ودمجها بحدود أحد. كما يجري ذكر شروط أخرى متعلقة بالشوارع.

٢ - إحياء الأرض الموات

يورد عبد الله فوديو في تعاليم الراضي القواعد التالية لإحياء الأراضي الموات:

إن كانت الأرض واقعة ضمن منطقة حريم منطقة مبنية، يمكن إحيائها بإذن من الإمام أو الحاكم أو مثله. أما إذا كانت خارج حريم منطقة مبنية، فما من حاجة إلى الإذن. ومن يقوم بإحياء الأراضي الموات يكتسب حقوق ملكية هذه الأراضي. غير أن هنالك عدة قواعد وشروط متعلقة بفقدان ملكية الأرض التي تم إحيائها، وكيف يمكن لشخص آخر أعاد إحياء الأرض نفسها أن يطالب بملكيتها حين تعود الأرض التي ترك المحيي الأول حالتها السابقة. ويعتبر موقع الأرض وبعدها من منطقة العمران عاملاً مؤثراً في حقوق الملكية حين يسمح محييها الأول بعودتها إلى حالتها الأصلية. ويكون «الإحياء» شرعياً في الحالات التالية:

أ - في حال إيجاد ماء في الأرض عن طريق حفر بئر أو فتح عين وبالتالي بات من الممكن زرع الأرض.

ب - إزالة المياه من الأرض المغمورة.

ج - القيام بأعمال بناء على الأرض.

د - قيام مزروعات أساسية على الأرض.

هـ - استصلاح الأرض وفلحها. تجدر الملاحظة إلى أن الاستصلاح من دون حرث مسبق لا يعتبر إحياء.

و - إزالة الشجر من الأرض بقطعها أو حرقها.

ز - إزالة الصخور من الأرض وتسوية منحدراتها الحادة.

التحجير هو عملية تحديد الأرض التي تم اختيارها للإحياء باستخدام علامات حجرية. ولا يعترف بعض العلماء كابن القاسم بهذا الفعل على أنه إحياء؛ في حين يوافق آخرون، أمثال الأشهب، على التحجير كمؤشر لنية إحياء الأرض المختارة في مدة زمنية قصيرة. ولا يعتبر الرعي أو حفر بئر لكي ترتوي منه الماشية فعل إحياء.

٣ - حق الارتفاق

هو الحق في مرور الجار أو لخدمة ملكية أخرى. يقوم أول المراجع المتعلقة بهذا الحق في مختصر خليل بن إسحاق، الذي يشير إلى أنه يتعين على صاحب الأرض أن يسمح لجاره باستخدام هذه الأرض لإدخال ألواح في جداره وإعطائه حقوقاً أخرى كحق المرور في ملكيته أو المشاركة في مصدر ماء^(٤). كما يشرح ابن سلمون الكناني (٧٤٠هـ / ١٣٤٠م) الذي عاش في غرناطة قبل جيل من خليل حق الارتفاق^(٥). وهو يرى أنه في الإمكان إعطاء هذا الحق للأبد أو لمدة محددة من الزمن. وفي الحالتين يتعين إجراء عقد أو اتفاق. كذلك تطرق ابن عاصم (٨٢٩هـ / ١٤٢٦م) من غرناطة إلى شرح حق الارتفاق هذا^(٦).

(٤) ضياء الدين بن إسحاق المالكي، مختصر العلامة خليل في فقه الإمام مالك (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥)، ص ٢١٨، فقرة «الشراكة».

(٥) سلمون بن علي الكناني، العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام، ٢ ج (القاهرة: د. ن. د. ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م)، ج ٢، ص ١٢٩ - ١٣٠، وقد أعيد طبعته في بيروت عام ١٩٩٥.

(٦) أبي بكر محمد بن عاصم الأندلسي الغرناطي، «منظومة تحفة الحكام في نقد العقود والأحكام»، قام بنقد هذه الدراسة عدد من العلماء من بينهم: أبو الحسن الثُّنوي علي بن عبد السلام بن علي، البهجة في شرح التحفة (شرح تحفة الحكام)، ضبطه وصححه محمد عبد القادر شاهين (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨).

يقتبس عبد القادر بن المصطفى من خلافة سوكونو، والمتزوج من ابنة محمد بيللو خديجة، كلام حماء عن مسائل المنازل المجاورة لحق الطريق العام. بحسب آراء بيللو التي استشهد بها عبد القادر، لا يمكن لمالكي المنازل المجاورة التعدي على الطرقات، ويتعين دائماً المحافظة على نظافتها وأن تكون مفتوحة للعامة. يستخدم بيللو مصطلح «ارتفاق»، أي أن لجميع الناس الحق في الانتفاع والمرور على هذه الطرقات العامة^(٧).

٤ - الطرق العامة وحقوقها

للجميع، عموماً، الحق بالمرور على الطرق العامة من دون مواجهة أي عراقيل^(٨).
يورد خليل بن إسحاق الحقوق التالية المتعلقة بالشوارع العامة:

أ - لا يجوز البناء ضمن حق الطريق العام سواء شكّل هذا البناء أم لم يشكل عراقيل أو أحدث ضرراً للمارة. يتعين هدم أي انتهاك من هذا النوع.

ب - يجوز للبائعين استعمال جوانب الطرق لعرض بضائعهم إذا كان استعمال هذه المساحة أمراً مؤقتاً ولا يعرقل حركة المارة. ويكون حق استعمال مساحة معينة من جانب الطريق العام لمن يضع يده على المكان أولاً، بالقياس على شخص وضع يده على مساحة ضمن حدود الجامع من أجل الدراسة أو التعليم.

ج - لا يجوز، على طريق عام، لجار أن يفتح محلاً أو أن يبني إسطبلًا مقابلًا للباب الأمامي لجار آخر، لأن ذلك سيعتبر إزعاجاً وتعدياً على خصوصية الجار في الجانب الآخر من الطريق.

د - يجوز بناء مسقط فوق الطريق ما دام لا يسبب إزعاجاً للمارة. يجوز لمن يملك مبنين متقابلين عبر الطريق أن يبني مسقطاً بينهما^(٩). وقد ورد ذكر الشرطين الأول والثالث كذلك في كتاب جامع أهم مسائل الأحكام في قطع الخصام لإدريس بن خالد بن محمد، قاضي غواندو، الذي أتم كتابته في ٢٠ آب/أغسطس ١٨٣٦ (يشير الكاتب إلى أعمال الثلاثي: عثمان وعبد الله ومحمد بيللو). في كتاب ضياء الأحكام

(٧) عبد القادر بن المصطفى، نبذة ابن المصطفى من كتب الأئمة. ولّد ابن المصطفى سنة ١٢١٩هـ/١٨٠٤م، وتوفي سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) انظر: محمد بن عبد الله القرشي المالكي، مختصر خليل، ج ٥ (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٣١٧هـ/١٩٠٠م)، ص ٢٧٥ - ٢٧٨. عاش محمد عبد الله القرشي المالكي ومات في القاهرة ١١٠١هـ/١٦٩٠م. كان الكتاب هذا متوافراً كمخطوط للثلاثي الفوقتي وعلماء آخرين في خلافة سوكونو.

الذي كتبه عبد الله فوديو عام ١٢٢١/١٨٠٦ حين كان يزور كانوا، يوضح هذا الأخير عدداً من المسائل التي من شأنها أن تسبب مشاكل في الطرق العامة. على سبيل المثال لا يجوز حفر بئر في الطريق العام في حين يجوز توجيه مزارب مياه الأمطار على الطرق العامة. وقد أكد عبد الله فوديو حكم خليل، كما تم توثيق الأحكام الأخرى المتعلقة بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالطرق العامة^(١٠).

٥ - المرافق ومنع الضرر

تطرق ابن سلمون (٧٤١/١٣٤٠) من غرناطة وبعد جيلين، وكذلك ابن فرحون من المدينة (ت ٧٩٩/١٣٩٧)، إلى الشروط والحالات المتعددة التي قد تظهر بين المرافق المجاورة أو المتقابلة (عبر الطريق العام)، كأن يُلحق على سبيل المثال أحد الضررَ بالآخر وكيف بالإمكان منع هذه الأضرار المحتملة والحقيقية أو إزالتها^(١١).

يخصص عبد الله فوديو القسم الثالث عشر من الجزء الخامس («السياسة الشرعية») من ضياء الحكام لمسألة «نفي الضرر عن الجيران وغيرهم». كما يتضمن كتاب إدريس بن خالد بن محمد جامع أهم مسائل الأحكام الذي أنجزه عام ١٨٣٦ قسماً عن «من يحدث ضرراً عليه إزالته»^(١٢).

وفي ما يلي بعض المسائل التي يمكن تطبيقها على مورفولوجيا التجمعات كنواة للبلدان الحضري في المدن في أثناء خلافة سوكونو. المبدأ الأول للقواعد في هذه المنطقة، الذي استشهد به علماء كثر، بمن فيهم أولئك من خلافة سوكونو، هو حديث

(١٠) انظر: عبد الله بن فوديو، ضياء الحكام في ما لهم وعليهم من الأحكام، تحقيق وترجمة شيخ موسى (زاريا، نيجيريا: جامعة أحمد بيللو، ١٨٠٦)، وقد استكملت عام ١٨٠٦، بينما كان مؤلفها عبد الله فوديو يزور كانوا. وقد كتبها استجابة لطلب أصدقاء وزملاء له في كانوا.

(١١) سلمون بن علي الكتاني، المعقد للنظم للحكام فيما يجري علي أيديهم من العقود والأحكام (الإسكندرية: دار الكتب المصرية، [د. ت.])، وإبراهيم شمس الدين محمد بن فرحون البعمري المالكي برهان الدين أبو الوفاء، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، تحقيق جمال مرعشلي، ٢ ج (د. م.]: دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣)، وقد كان الأخير شائعاً جداً بين التريو الفوديووي والعلماء اللاحقين في خلافة سوكونو.

(١٢) إدريس بن خالد بن محمد، جامع أهم مسائل الأحكام في قطع الخصام مما اشتدت إليه حاجة الحكام. وقد أتمه حين كان قاضياً عام ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م في غواندو، وفي أثناء حكم إبراهيم خليل بن عبد الله فوديو المتوفى عام ١٢٧٦هـ / ١٨٦٠م. تاريخ إكمال الدراسة هو ٢٠ آب / أغسطس ١٨٣٦م. كان الهدف منها ترك مرجع يعود إليه هو وقضاة آخرون. وقد استقى مصادرها الأولية من أعمال الثلاثي الفوديووي، عثمان وعبد الله وعحمد بيللو، كما استعان بمصادر معروفة منها: المختصر لخليل بن إسحاق، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، وقوانين الأحكام لابن جزي، وكتاب النوازل لمحمد بن سليم، والمعيان للونشريسي، وآخرين.

الرسول «لا ضرر ولا ضرار» الذي يعتبر قاعدة رئيسية من قواعد الفقه^(١٣). يتبع تفسير عبد الله فوديو لهذا الحديث تفسير المتيطي (٥٧٠/١١٧٤): يقع الضرر حين يؤدي جار جاره، ويقع الإضرار حين يؤدي الجاران أحدهما الآخر^(١٤).

يضع عبد الله فوديو في ضياء الأحكام لائحة بالأفعال التي من شأنها أن تُحدث ضرراً:

- الدخان المنبعث من الحمامات والمخابز.
- غبار تذرية القمح.
- ثفن الدبّاغين.
- بناء إسطبل بالقرب من الجار.
- بناء طاحونة أو محل حداادة بالقرب من الجار.
- ينظر بوجه عام إلى الفعل المسبب للضرر على أساس أنه حديث ما لم يبرهن أنه قديم.

- فتح نافذة تطل على خصوصية الجار.
- لا يجوز بناء مزارب تتسرب منه المياه إلى ملكية الجار حتى وإن كان لا يُحدث ضرراً إلا في حال وافق الجار على ذلك.

- لا يجوز أن يكون باب المنزل أو البناء المطل على الطريق العام مواجهاً لباب آخر عبر الطريق، بل يتعين وضعه بطريقة تحجب الرؤية المباشرة للرواق. لا يجوز بناء مسقط أو فتح نافذة في الدرب، أي الطريق، غير النافذ الذي يملكه الأفراد الذين لديهم مرور فيه، من دون موافقة المالكين كلهم.

- لا يجوز طلاء الحائط الذي يملكه جار مجاور من جانب ملكية الجار الآخر.
- تتركز صيانة قناة المياه القذرة/البالوعة على المبدأ التالي: كل مستعمل مسؤول عن الحصة التي يستعملها ويساعده الجار (الجيران) الذي يستعمل القناة، مثلاً

(١٣) لتفسير مختصر القواعد الفقهية وتأثيرها في طبيعة وتشكيل القواعد المؤثرة في البيئة العمرانية، انظر: الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(١٤) المتيطي (المتنوّي ٥٧٠هـ/١١٤٧م) هو عالم مالكي من فاس حيث كان لكتابه النهاية والنهائم في معرفة الوثائق والأحكام والمعروف بـ المتيظية تأثير في عدّة علماء.

إذا كانت تستخدم القناة من أربعة منازل، ينظف مالك المنزل الأول حصته من القناة ويساعد جاره الثاني على التنظيف ومن ثم يقوم هذان الإثنان بمساعدة الجار الثالث وهكذا دواليك.

- امتلاك أشجار في أرض شخص آخر: يجوز له دائماً المرور ويمكن لصاحب الأرض المطالبة بأن يكون المرور عبر الطريق الأقصر والمباشر إلى موقع الأشجار.

- موقع الممر الذي تستخدمه العامة وإنما يمر في ملكية خاصة وكان موجوداً منذ أن اشترى المالك الأرض أو ورثها. لا يستطيع المالك تغيير موقع الممر وإن كان يسبب ضرراً له، ذلك بأن العامة تستخدم هذا الممر. قد يسعى المالك إلى الحصول على إذن الإمام الذي بعد أن يتفحص الموقع يمكنه أن يحدد إذا كان تغيير الممر ممكناً ومفيداً لكل من المالك والعامة التي تستخدمه. إن قام المالك بتغييره من دون الحصول على إذن من الإمام، يمكن لهذا الأخير بعد تفحصه الموقع إما الموافقة على هذا التغيير أو إصدار أمر يقضي بإعادته إلى ما كان عليه سابقاً. إذا كان عدد معين من الأفراد يستخدم هذا الممر فبالتالي من الممكن أن يوافق هؤلاء على تغيير صاحب الأرض للممر^(١٥).

ذكر إدريس بن خالد بن محمد، الذي كان ناشطاً في ثلاثينيات القرن التاسع عشر في غواندو، مسائل أخرى مرتبطة بمنع حدوث الضرر، منها:

- كيفية تحديد حقوق الملكية والاستعمال في ما يتعلق بحائط قائم بين جارين متلاصقين؛ على سبيل المثال ماذا يحدث إذا انهار الجدار الذي يحيط ببستان ذي ملكية مشتركة وأراد أحد الشريكين إعادة بنائه في حين يرفض الآخر الأمر؟

(١٥) استند عبد الله فوديو إلى بعض المصادر التالية في إنتاج قواعده: الأشهب القيسي (توفي في مصر ٢٠٤هـ/٨١٩م) وهو صديق للإمام مالك (ت ١٧٩هـ/٧٩٥م في المدينة)؛ ابن المجشون (ت ٢١٢هـ/٨٢٧م) من أصفهان في الأصل، عاش وعمل في المدينة ومات في بغداد؛ أصبغ بن الفرج بن نافع (ت ٢٢٥هـ/٨٤٠م) من مصر؛ ابن حبيب (ت ٢٣٨هـ/٨٣٥م) من قرطبة وهو مؤلف الواضحة؛ سحنون (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) سوري الأصل، ولد ومات في القيروان ومؤلف المدونة الكبرى؛ يحيى بن عمر (ت ٢٨٩هـ/٨٤٥م) من القيروان، درس على ابن حبيب وسحنون؛ كتابه اقتصار المستخرجة المعروف بـ المتخبة؛ ابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م)، أحد أهم علماء القيروان مؤلف الرسالة والعمل المتعدد المجلدات النوادر والزيادات؛ ابن عطب (ت ٤٦٦هـ/١٠٦٩م) من قرطبة كان عالماً في علم الوثائق؛ اللخمي (ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م) أصله من القيروان، سكن صفاقس ومات فيها، وهو مؤلف التبصرة؛ المتيطي (ت ٥٧٠هـ/١١٧٤م) من فاس وهو مؤلف النهاية والتهام في معرفة الوثائق والأحكام والمعروف بـ المتيطية؛ ابن جوزي الكلبي (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م) من غرناطة ومؤلف القوانين الفقهية؛ ابن سحنون، أبو محمد (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م) من غرناطة ومؤلف العقد المنظم للحكام، ابن فرعون (ت ٧٤١هـ/١٣٩٧م)، ولّد ونشأ ومات في المدينة وهو مؤلف تبصرة الحكام.

- إذا هدمت طاحونة ذات ملكية مشتركة وقام أحد الشركاء بإعادة بنائها بعد رفض الشريك الآخر، وكيف يجب تقاسم إيراد الطاحونة؟

- من المسؤول عن السطح وصيانته في بناء يتألف من طابقين أو ثلاثة طوابق إذا كان كل طابق يملكه فريق مختلف عن الآخر؟ (نادراً ما تحدث هذه الحالة في مدن خلافة سوكوتو، تبعاً لطبيعة التصميم الهندسي السائد).

يكرر إدريس بطريقة أخرى ما ذكره عبد الله فوديو في دراسته. وفي الصفحة الأولى من كتابه، يذكر إدريس مصادره، ومنها الثلاثي الفوديو عثمان وعبد الله ومحمد بيللو. كما ويذكر علماء آخرين وعملهم المحدد الذي استعان به^(١٦).

ذكر علماء لاحقون من خلافة سوكوتو حالات مرتبطة بتنظيم البيئة العمرانية، وكانت أغليتها تكراراً للمسائل التي وردت من قبل. وهي تعود لعلماء من مثل: عبد القادر بن المصطفى (١٢٨٠/١٨٦٤) ابن حما محمد بيللو، ودراسته كانت تحت عنوان نبذة من كتب الأئمة؛ عثمان بن إسحاق بن عمر (ت ١٣٣٠/١٨٨٥) أما دراسته فكانت أجوبة لأسئلة في ما أشكل من الطلاب (أنجزت عام ١٢٨٥/١٨٨٦)؛ القاضي عبد الله بن الإمام (١٣٢١/١٩٣٠) رسالتان قصيرتان، واحدة لإسماعيل بن محمد البخاري أمير كيبى، والأخرى لباناغا، زعيم مرو.

٦ - الضمان والمسؤولية عند إحداث الضرر

عالج علماء في خلافة سوكوتو المسألة المرتبطة بكيفية تحديد المسؤولية وتعيينها عن فعل أحدث ضرراً. يناقش عثمان فوديو في كتاب تنبيه المحاكم الشروط التي تحدد فيها مسؤولية إحداث الضرر. يتضمن الجزء الخامس («في السياسة الشرعية») من دراسة عبد الله فوديو، ضياء المحاكم، مراجع متعددة للسياق الذي تحدد فيه المسؤولية عن فعل أحدث ضرراً. يتطرق القسم الثاني عشر من الجزء الخامس الذي يحمل العنوان «في تضمين الصنّاع وغيرهم» إلى أنواع التجارة والظروف التي تحدد فيها بعض الأفعال التي يقوم بها الصانع على أنها فعل إهمال والتي يعتبر الصانع مسؤولاً عنها. ويشير إدريس بن خالدة، قاضي غواندو، في كتاب جامع أهم وسائل الأحكام، إلى المسؤولية

(١٦) انظر: الرسالة لابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م) من القيروان، القوانين الفقهية لابن الجوزي الكلبي (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م) من غرناطة، مختصر خليل لخليل بن إسحاق (ت ٧٧٦هـ/١٣٤٧م) من القاهرة، تحفة المحاكم لابن عاصم (ت ٨٢٩هـ/١٤٢٦م) من غرناطة، لامية في الأحكام المعروفة بلامية الزقاق، لأحمد بن علي الزقاق (ت ٩١٢هـ/١٥٠٦م) من فاس، والمعيار لأحمد بن يحيى الونشريسي (ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م) من فاس.

عن أفعال متنوعة وإلى الشروط التي يجب أن يتحمل بموجبها الجاني المسؤولية. كما يكرر بعض المواد في أعمال عثمان وعبد الله فوديو.

يناقش شرارة في دراسة حديثة، المقدمات النظرية والشرعية للأفعال التي من شأنها أن تحدث ضرراً وكيفية تحديد وجه المسؤولية^(١٧). وهو ينتقل عن القرّفي، العالم المالكي، الذي يشير إلى ثلاثة أسباب لتحميل المسؤولية:

١ - «العدوان» كالتسبب بحريق أو تخريب.

٢ - نتيجة فعل كحفر بئر في الطريق العام.

٣ - يد المتهك، أو اليد الغاصبة، كاختصاب حقوق شخص، أو ملكيته. وفي الفئة الثالثة هذه أيضاً، الإبطال غير الشرعي لعقد ما، كحالة مستأجر يرفض تسديد بدل الإيجار^(١٨).

المعيار الأساسي في تعيين المسؤولية هو تحديد الضرر أو الأذى الذي وقع. يصبح إلغاء الضرر أو الأذى مسؤولية الفريق الذي سبّب الضرر في المقام الأول. على سبيل المثال إصلاح الضرر الذي يحدث في الطرق أو الممارّ العامة. وفي دراسة حديثة، يلاحظ عبد المجيد الحكيم أن الاعتداء على حقوق الأشخاص يتخذ شكل الاعتداء على شخص أو على ممتلكات، وهو أساس المبدأ القائل «إن كل فعل ضارٌّ يوجب الضمان». وهو يبيّن هذا الحكم الشرعي على حديث الرسول «الضرر والإضرار» كما فسره الفقه^(١٩).

ثانياً: مثال من زاريا

كانت مدينة زاريا القديمة المحاطة بالأسوار عاصمة إمارة زاريا القديمة^(٢٠). زازاو أو زغزغ، المملكة التاريخية التي يقال إنها تعود إلى القرن الحادي عشر، أسسها الملك

(١٧) عبد الجبار أحمد شرارة، نظرية نفي الضرر في الفقه الإسلامي المقارن، ٢ ج (طهران: [د. م.]، ١٩٩٧)، ج ٢، الفصل الرابع، ص ٢٧٨.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٢٦٢.

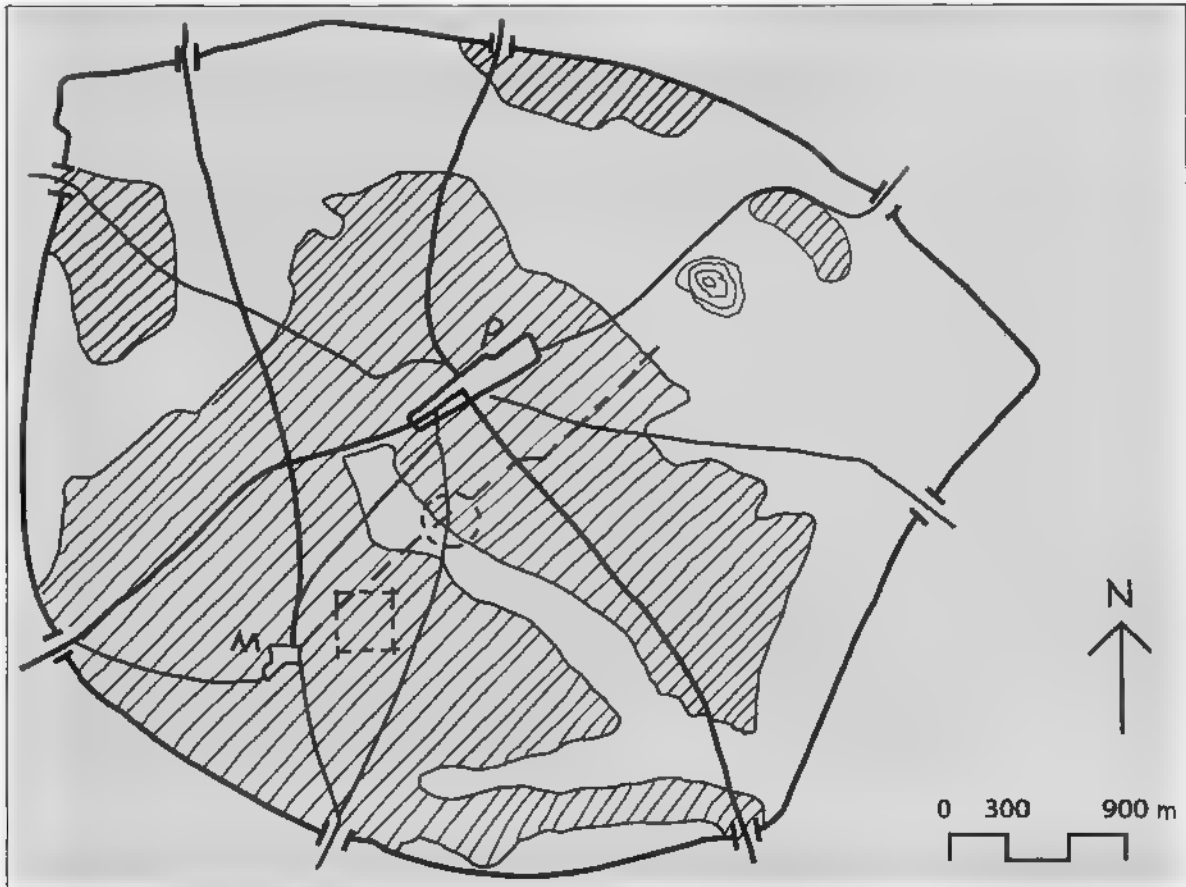
(١٩) عبد المجيد الحكيم، المجاز في شرح القانون المدني (بغداد: مقتبس من شرارة، [د. ت.]، ص ٢٦٨.

(٢٠) إحداثيات الجغرافية لزاريا هي كما يلي: خط العرض ١١ درجة، ٣ دقائق شمالاً، خط الطول ٧ درجات، ٤٢ دقيقة شرقاً، والارتفاع عن سطح البحر ٦٧٠ متراً. الاتجاه نحو القبلة في مكة هو ٦٧ درجة و ١٦ دقيقة شمال شرق.

جئقوما كواحدة من ولايات هوسا بكاوي (سبع ولايات حقيقية). كانت قوافل الجمال تأتي من شمال الصحارى إلى المملكة للتجارة. دخل الإسلام المنطقة نحو عام ١٤٥٦ وكان هناك حكام من المسلمين الهوسا في الحكم منذ مطلع القرن السادس عشر. غزا أسكيا محمد الأول، القائد المعروف لإمبراطورية سونغاي، زازاو عام ١٥١٢.

وفي وقت لاحق من القرن نفسه، وسعت الملكة أمينة، حاكمة زازاو، منطقة نفوذها بشنها عدداً من الغزوات. ومن المحتمل أن تكون زاريا قد تأسست عام ١٥٣٦ ثم أصبحت في فترة لاحقة من القرن عاصمة ولاية زازاو هوسا. أطلق على المدينة والدولة اسم زاريا تيمناً بالملكة زاريا (أواخر القرن السادس عشر)، الأخت الصغرى للملكة أمينة وخليفتها (انظر الرسم الرقم (٢٨ - ١)).

الرسم الرقم (٢٨ - ١)
زاريا المدينة القديمة، مخطط من سنة ١٩٧٠

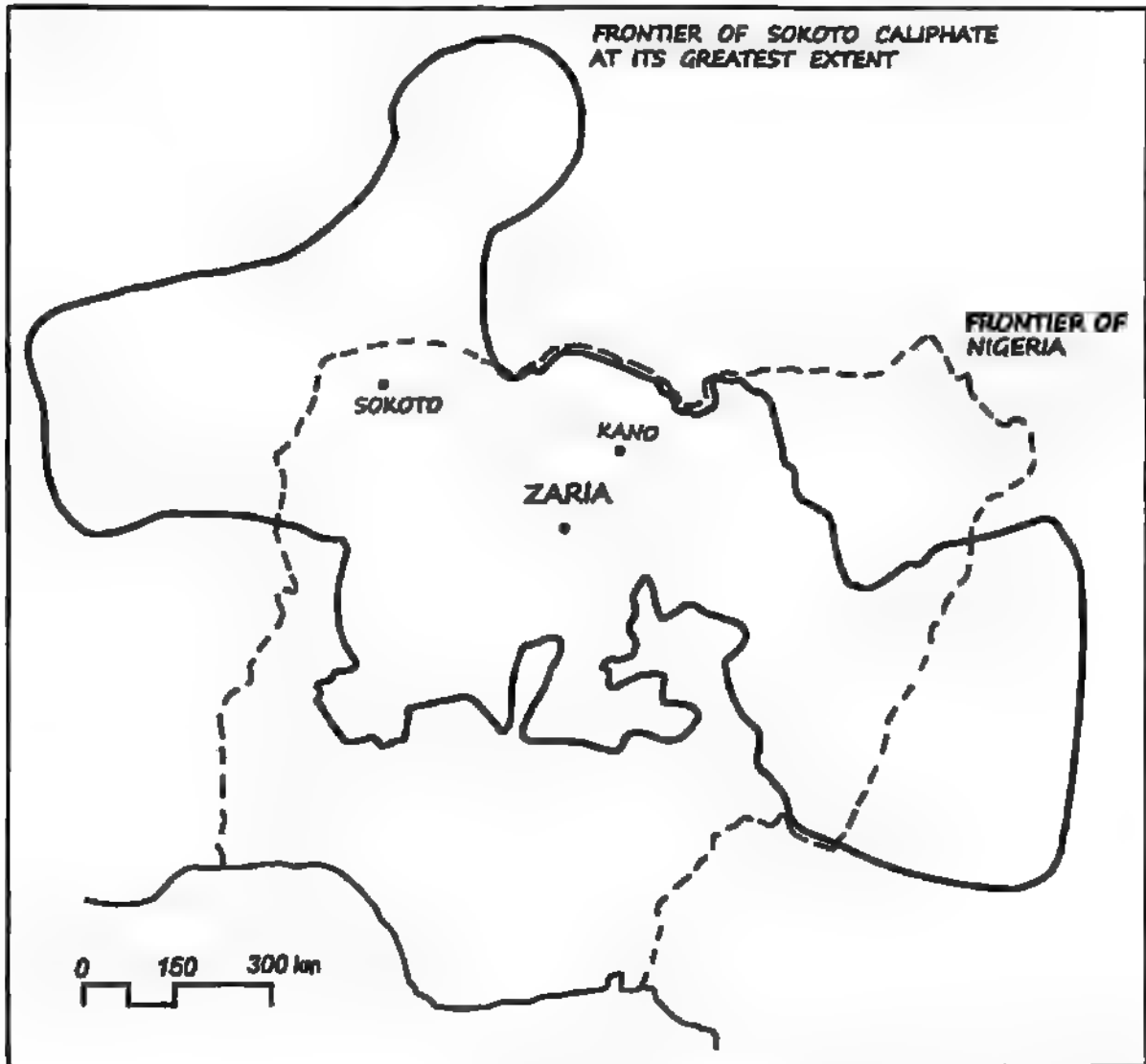


يظهر الشوارع الأساسية التي تصل بوابات المدينة المسوّرة إلى منطقة الأسواق (M)، وإلى المسجد الكبير وقصر الأمير (P). المناطق المظلمة من المخطط تشير إلى المناطق المبنية داخل الأسوار. المربع المنقط هو الموقع التقريبي للصورة الجوية في الرسم الرقم (٢٨ - ٣)، والدائرة المنقطّة تشير إلى موقع التجمع السكاني للحيّ في الرسم الرقم (٢٨ - ٦).

عام ١٢١٩/١٨٠٤، أعلن هوسا المسلم حاكم زاريا وفاءه لعثمان دان فودي، فكانت النتيجة أن أصبح الفولاني حاكماً لزاريا عام ١٢٢٣/١٨٠٨. تأسست إمارة زاريا عام ١٢٥١/١٨٣٥ ووضعت تحت سيطرتها كلاً من كفي ونصراوة وجمعة ولاباي في الجنوب. تولى حكمها ممثل عن السلطان في سوكوتو وكذلك أمير محلي^(٢١).

يبين الرسم الرقم (٢٨ - ٢) موقع زاريا المتاخم لحدود خلافة سوكوتو في القرن التاسع عشر وحدود دولة نيجيريا الحديثة.

الرسم الرقم (٢٨ - ٢)
حدود خلافة سوكوتو في أقصى ما بلغت



مدينة زاريا في الوسط تقريباً. الخط المنقط هو الحدود الحالية.

تظهر خريطة مدينة زاريا القديمة، المأخوذة نحو عام ١٩٧٠، الشوارع الرئيسية، والمنطقة المبنية داخل الأسوار، وبوابات المدينة. كما تظهر موقع السوق الرئيسية ومجمع القصر والمنطقة موضوع الدراسة. أما الرسم الرقم (٢٨ - ٣) فهي صورة جوية لقطاع نموذجي من المجمعات يقع شرق سوق زاريا الرئيسية.

تألف المنطقة التي تشكل محور دراستنا من قطاع يضم ٢٦ تجمعاً وهو يمكن اعتباره حياً مع مساحاته المشتركة ومرافقه المحلية. تقع هذه المنطقة شمال شرق السوق وجنوب قصر الأمير. تتجمع المجمعات التي تؤلف القطاع حول البناء الأقدم في القطاع الذي يملكه الإمام وتشكل مع المسجد الصغير والباحة النقطة المحورية في القطاع. يسكن هذه المجمعات التي تشكل القطاع، في الأساس، أبناء الإمام الزعيم، والأقارب، والأقارب ب نتیجه الزواج^(٢٢).

تحيط الأسوار العالية بمدن الهوسا ومجمعاتها العمرانية. لهذه المجمعات مدخل وحيد يعرف بالزاورة (Zaure)، وهو مدخل على شكل كوخ يؤدي إلى الباحة الأمامية (كوفار غيدا). وللوصول إلى القسم المركزي والخاص من المجمع (سيكين غيدا)، يتعين على الشخص المرور بشقيفة (shigifa) أو مدخل ثان. تستعمل السقيفة عادة للانتقال بين القسم المخصص للنساء والقسم المخصص للرجال (انظر الرسم الرقم (٢٨ - ٤)).

وعليه فمنطقة الزاورة والباحة الأمامية والغرف المجاورة أو المرافق، هي منطقة الرجال والصبيان، في حين أن باقي المجمع ما بعد السقيفة مخصص للعائلة والنساء والخدم. في المدينة الكبيرة، تبلغ مساحة المجمعات عموماً نحو ٥٠٠ - ٦٠٠ م^٢^(٢٣) (انظر الرسم الرقم (٢٨ - ٥)).

وقد أنجز تايلور وويب وصفاً دقيقاً لعملية بناء المجمع في زاريا في العقود الأولى من القرن التاسع عشر، الوصف متوافر باللغة الإنكليزية كما بلغة الهوسا^(٢٤).

Barbara A. Urbanowicz, «Selected Aspects of House Form in Zaria Urban Area with Special Reference to Traditional Forms in Zaria Walled City», (PhD. Thesis, Ahmadu Bello University, Zaria, 1979), p. 74.

Friedrich W. Schwerdtfeger, «Urban Settlement Patterns in Northern Nigeria (Hausaland)», (٢٣) in: p. J. Ucko, R. Tringham and G. W. Dimbleby, eds., *Man, Settlement and Urbanism* (London: Duckworth, 1972), pp. 547-556.

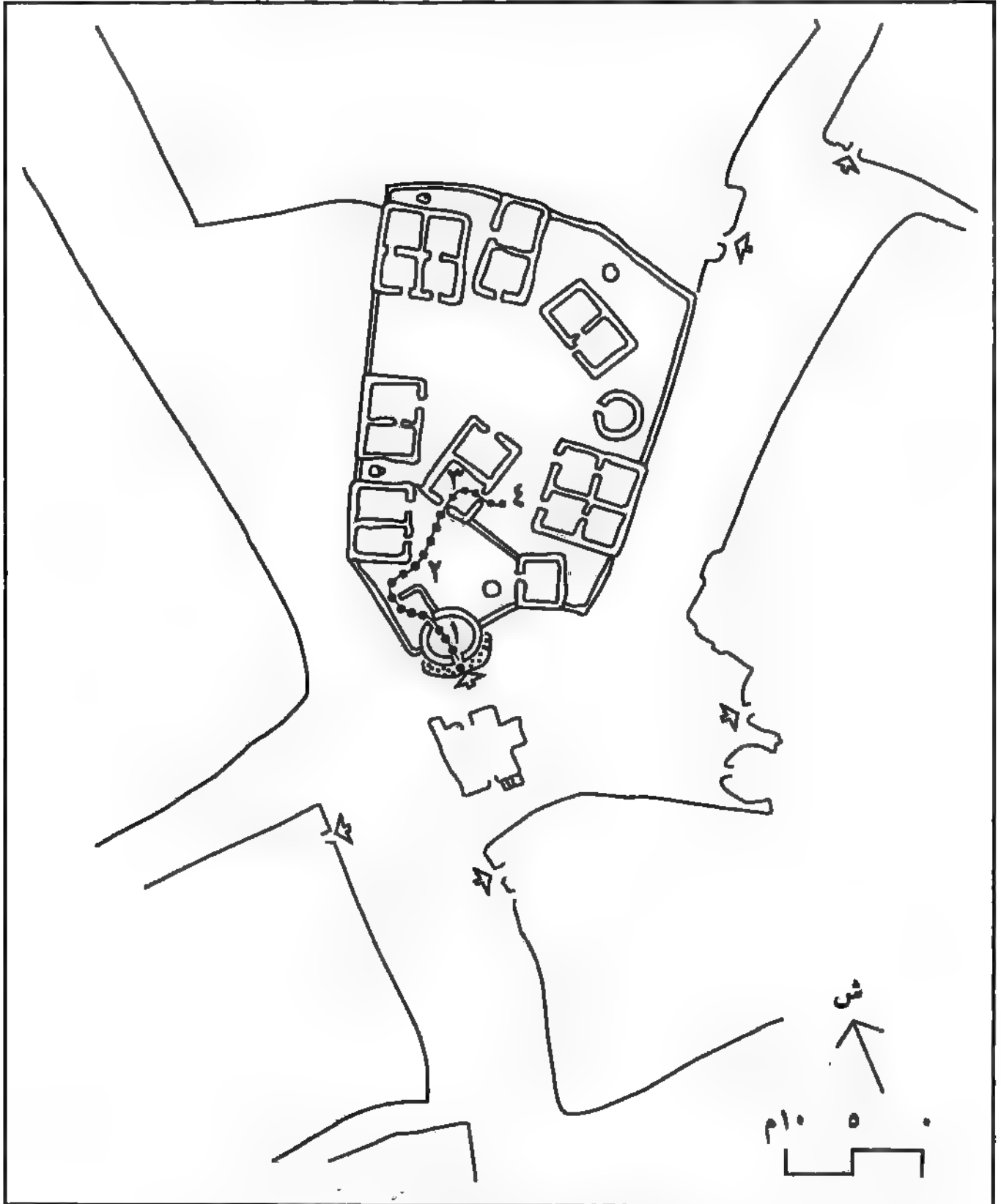
F. W. Taylor and A. G. G. Webb, *Labarum Al'Adun Hausawa da Zantatukansu* (London: (٢٤) Oxford University Press, 1932), p. 35.

الرسم الرقم (٢٨ - ٣)
صورة جوية، أواسط الستينيات، لنمط المجتمعات السكنية المسورة
ولمزارع صغيرة عدة بينها كما بين الأحياء



المصدر: هذه الصورة وسواها من الصور هي من حكومة شمال نيجيريا.

الرسم الرقم (٢٨ - ٤)
مجمع نمطي لتجمع سكني في أحد الأحياء



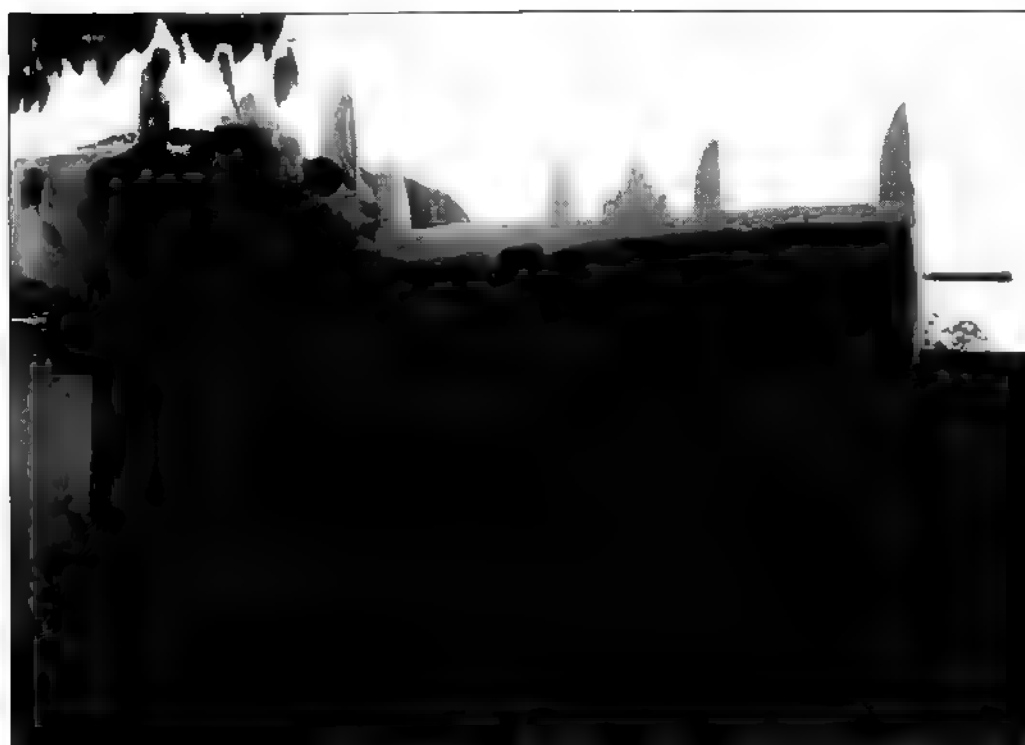
يظهر طريق الدخول من الخارج إلى القطاع الخاص بالعائلة:

- ١ - زاورة (المدخل الرئيسي)، ٢ - كوفار غيدا (الواجهة الأمامية)، ٣ - سقيفة (مدخل ثان) - عمر، ٤ - سيكين غيدا (المنطقة الخاصة في المجتمع).

الرسم الرقم (٢٨ - ٥)
منظر خارجي للمدخل الرئيسي (زاوية) لمنزلةن فف زارفا



(أ) منزل من حجم متواضع وفي المقدمة درج.



(ب) نموذج لواجهة منزل أكثر تعقيداً ذي واجهة مزخرفة.
المصدر: الصورة من زفير أحمد، ٢٠٠١.

يظهر هذا الوصف بوضوح اشتراك المالك والبانى وتعاونهما المتبادل في اتخاذ القرارات المتعلقة بالتخطيط وتصميم المجمع. يتغير حجم المجمع بحسب قدرة المالك المالية. يقدم هذا الوصف معرفة ممتازة بمواد البناء المستخدمة خلال مراحل البناء، وعدد الأيام التي تستغرقها كل مرحلة من مراحل البناء المتعددة. ويصف شوارتفيلر المسؤوليات التي تترتب على رئيس المجمع وتوزيع العمل بين أفراد المجمع في صيانة الجدران والغرف المشتركة وبناء كوخ جديد لمتزوجين حديثاً. ويجري تسمية المجمع حالما يستطيع رئيس المجمع، بوصفه صانع القرار الأساسي، التصرف باستقلالية. يتعين على أرباب أو أشباه أرباب الأسر داخل المجمع الحصول على موافقة رئيس المجمع إذا أرادوا إجراء تغييرات في المجمع^(٢٥).

كذلك قدم تايلور وويب دراسة تناولت الزراعة في زاريا. لاحظ الباحثان أنه: «إذا أراد فرد بناء مزرعة، فهو يختار مكاناً تكون التربة فيه جيدة...». وهذا يتطابق مع تقليد «الإحياء»، أي أن الشخص يختار أرضاً مناسبة للزراعة وبقيامه بهذا الأمر يكون قد طبق إحياء الموات. ويتابع النص: «هو ينتزع كلياً الأعشاب الضارة ويزيل الأجمات»^(٢٦).

ويظهر الرسم الرقم (٢٨ - ٦) خريطة المنطقة التي تشكل محور الدراسة: يُظهر حواء من ٢٦ مجمعات الأبنية كافة ومحيط الأسوار. يُظهر الرسم الرقم (٢٨ - ٧) نظام المناطق المخصصة للرجال في المجمع، التي تضم الزاوية (أكواخ المدخل الأول)، والباحة الأمامية والسقيفة المؤدية إلى المناطق الخاصة في المجمع.

يبلغ معدل حجم المجمعات في زاريا ٦٢٠ م^٢، ومعدل عام، ثلثا مساحة المجمع مفتوحة في حين أن ثلثها يقوم عليه البناء. يراوح عدد ساكني المجمع بين ٩ و ١٥، بمعدل ١٢ شخصاً في المجمع الواحد. بلغ عدد ساكني بعض المجمعات التي تمت دراستها في أواخر ستينيات القرن العشرين ٣٦ شخصاً^(٢٧). وتنعكس المسؤوليات في المجمعات في التصرف والتعاون. على سبيل المثال، كل الأشخاص الذين يأكلون معاً من القدر عينه يسكنون في قسم واحد من المجتمع المعروف بالساسا، ويتشاركون العمل، والخدمات، و/أو الأموال للمساهمة في خزانة العائلة^(٢٨).

Friedrich W. Schwerdtfeger, *Traditional Housing in African Cities* (New York: John Wiley and Sons, 1982), p. 35.

Taylor and Webb, *Ibid.*, pp. 163-169.

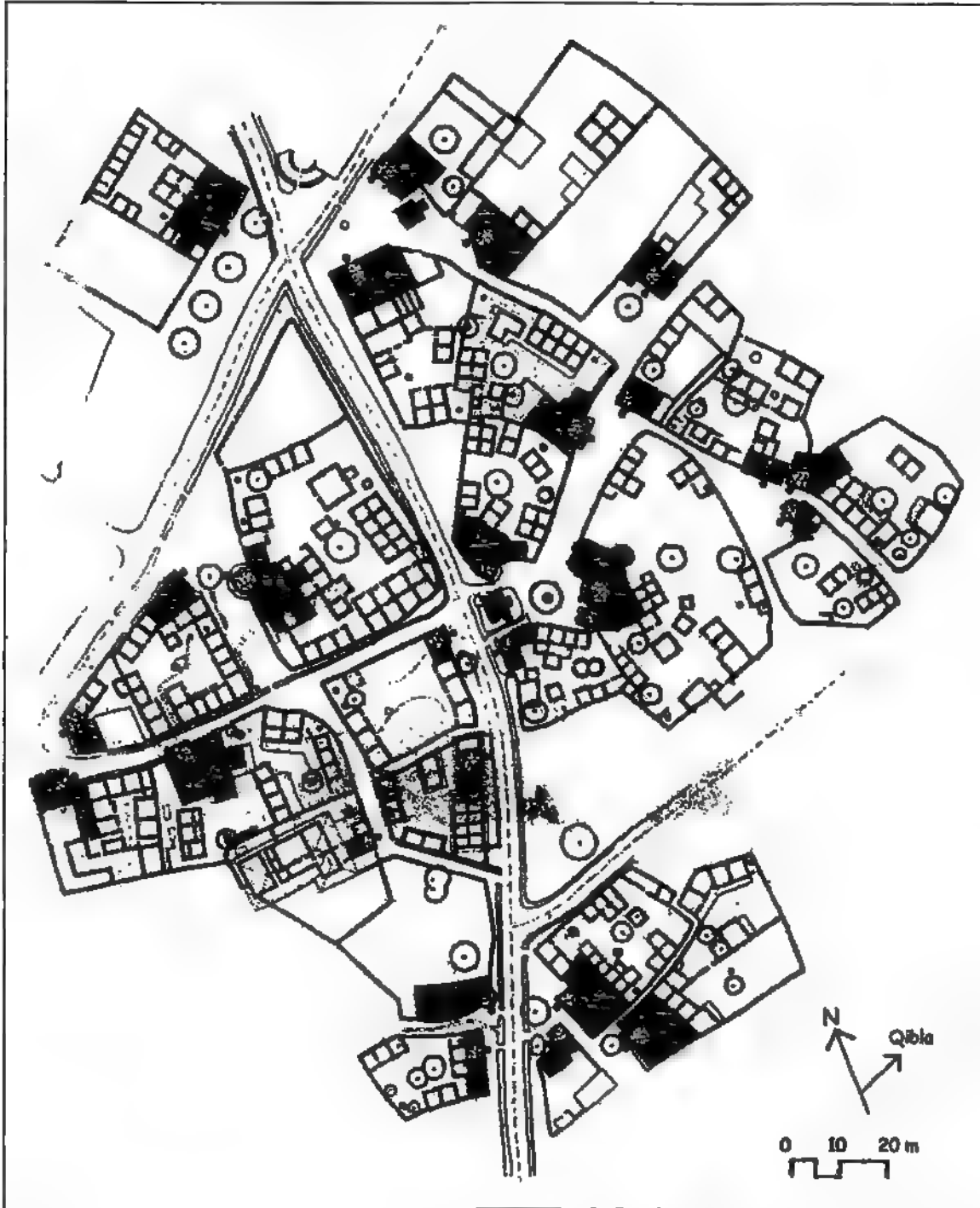
Schwerdtfeger, *Ibid.*, p. 35.0

(٢٦)

(٢٧)

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٣ - ٣٥.

الرسم الرقم (٢٨ - ٦)
حي سكني من ٢٦ مجمعاً



موقعه داخل المدينة مشار إليه في الرسم الرقم (٢٨ - ١).

المدخل إلى زاورة كل مجمع مشار إليه بالنقط السود. مسجداً محليان صغيران يظهران بالأسود. واحد في الوسط والآخر إلى شمال التجمع. المناطق المنقطعة هي الزاورة (الأكواخ عند المدخل الرئيسي) في كل مجمع. المناطق المتشعبة داخل كل مجمع هي القطاع الذكوري.

المصدر: Barbara A. Urbanowicz, «Selected Aspects House from in Zaria Urban Area with Special Reference to Traditional Forms in Zaria Walled City,» (Ph D. thesis, Ahmad Bello University, Zaria, 1979), p. 74.

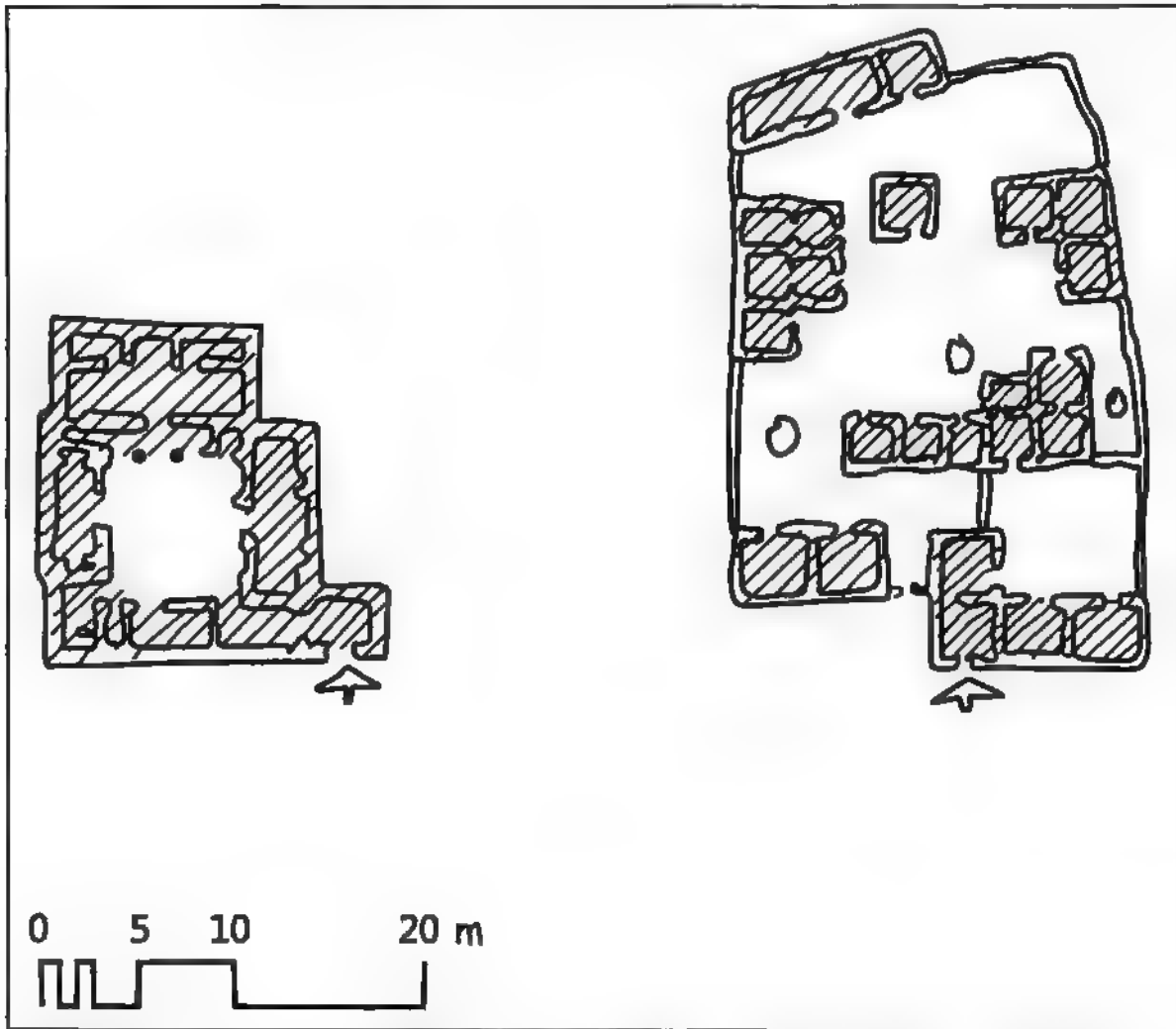
تحقيق حقلي لزبير أحمد.

يملك المجمع الموجود في أغلبية المدن التقليدية في أرض الهوسا بعض الأفضليات على نمط المباني السائد في شمال أفريقيا ذي الفناء المشترك.

على سبيل المثال، يبلغ معدل مساحة المنازل الفردية في تونس ثلث مساحة المنازل في زاريا. فمعدل مساحة المنزل في تونس يبلغ ٢٢٥ م^٢، أما في زاريا فيبلغ ٦٢٠ م^٢ مع وظائف أكثر تنوعاً. وثلث منطقة البناء في مجمع زاريا يساوي تقريباً حجم معدل مساحة منزل في تونس. ولهذا التمييز مدلولات مهمة عن حجم المدن المحاطة بالأسوار في أرض الهوسا، مقارنة بمدن شمال أفريقيا (انظر الرسم الرقم (٧ - ٢٨)).

الرسم الرقم (٧ - ٢٨)

دراسة مقارنة للمناطق المسقوفة والأمكنة الخلاء



رسمت من هاوسلاند على المقياس نفسه في شبه الصحراء الأفريقية. المثال على اليسار من تونس، وعلى اليمين من زاريا.

وفي ما يلي نقاط إيجابية محددة لنمط المجمع وهي:

- المرونة وسهولة إضافة غرف جديدة أو توسيع الغرف القديمة داخل المجمع.
- المزيد من المساحات الفارغة بين غرف العائلات داخل المجمع، وهو ما يقلص بالتالي احتمال نشوب خلافات.
- المزيد من الأماكن المفتوحة للسكان كافة، ولا سيّما الأماكن المخصصة للعب الأطفال.
- يمكن تنظيم المياه في المجمع، الأمر الذي يقلص احتمال نشوب خلافات بين المجمعات المجاورة.
- لم يتغير محيط أسوار المجمع التي بنيت أولاً خلال فترة طويلة من الزمن، الأمر الذي ساهم في تثبيت الطرق والممارز بين المجمعات وداخل قطاع المجمعات.
- حرية إجراء تصميم هندسي داخل المجمع من دون التأثير في الطابع العام للمحي.

- ما من داع إلى العلو في البناء، وهو ما يجنب بالتالي مشاكل مرتبطة بتزايد المباني العالية كالإشراف على التجمعات المجاورة أو حجب الهواء أو التسبب بوجود الظل داخل المجمع وفي المجمعات المجاورة.

خلاصة

لا يمكن المبالغة في أهمية دراسة ظاهرة التمدين والتمدين في أقسام متنوعة من العالم الإسلامي. فكلما توافرت بين أيدينا الأمثلة عبر المكان والزمان فهمنا المدينة في العالم الإسلامي أكثر. يُظهر هذا المثال من القرن التاسع عشر في منطقة شبه الصحراء الأفريقية بوضوح إحياء الشريعة الإسلامية واستمرارها وتأثيرها في كيفية تشكل المنطقة المبنية في وجه عاملي التغيير والنمو. كما يُظهر هذا المثال كيف أن الشريعة الإسلامية من خلال القواعد الفقهية، تبدو متجاوبة مع تصاميم البناء والمورفولوجيا المدنية الفريدة في نوعها في المنطقة وفي أماكن أخرى من العالم.

ومن خلال دراسة عمل القواعد على مستويات متنوعة من البيئة المبنية، وفي هذه الحالة على مستوى المجمع، وسلاسل المجمعات، وبناء الممار وتخطيطها، ونظام

المرور في الملكيات العامة والخاصة، إضافة إلى مميزات عمليات التغيير والتطور المحلية، نستطيع البدء بفهم كيف يجري ترجمة القيم الإسلامية المستقاة من مصادرها الأصلية في القرآن والسنة في قواعد. ويتم اتباع هذه القواعد في عملية التمدين، بغض النظر عن النموذج الهندسي والمورفولوجيا المدنية لمنطقة محددة. وعندما نتكلم بالتالي على المدينة الإسلامية كشكل حضري فإنما نشير إلى الصلات القائمة بين القيم الاجتماعية وشكل البناء، وهي الجوهر الذي يظهر كيف تنعكس الثقافة في ما يتدعه الإنسان من فن وهندسة وعمران.

محتويات المجلد الثاني

قائمة رسوم المجلد الثاني ٩٢٣

القسم الرابع وظائف المدينة

الفصل التاسع والعشرون : دار الماء: فن العمارة المائية

٩٣٣ كالجيرومونتالبانو في البلدان الإسلامية

٩٣٥ أولاً : الإقليم المتجانس في العالم الإسلامي

٩٥٣ ثانياً : أشكال المياه

٩٨٧ الفصل الثلاثون : اقتصاد المدينة التقليدية أندريه ريمون

٩٨٨ أولاً : المدينة: الإنتاج والتجارة

٩٩٤ ثانياً : الأنشطة المركزية

١٠٠٦ ثالثاً : المناطق السكنية

١٠٠٧ رابعاً : الأنشطة في الأطراف

١٠١٣ الفصل الحادي والثلاثون : مدينة الحج دايفيدج. روكسبورغ

١٠٤١	الفصل الثاني والثلاثون : إدارة المدينة	أندريه ريمون
١٠٤٣	أولاً : السلطات المدنية	
١٠٤٧	ثانياً : المؤسسات المدنية الجمعية	
١٠٥٥	ثالثاً : المؤسسات الدينية (الوقف، الحبوس)	
١٠٥٧	رابعاً : الخدمات العامة	

الفصل الثالث والثلاثون : الريف: التراث الهيدروليكي والزراعي الروماني

١٠٦٧	لبلدان الإسلامية المتوسطة	فيرشيلدروجلز
------	---------------------------------	--------------

١١٠١	الفصل الرابع والثلاثون : المواطنة الحضرية في مواجهة القرن	محمد ناصري
١١٠٤	أولاً : الظروف التاريخية لبناء المواطنة الحضرية	
١١١٥	ثانياً : عودة الاهتمام بالشأن الحضري	
١١٢١	ثالثاً : مراحل تكوين التوافق حول المواطنة الحضرية	
	رابعاً : إعادة اعتماد مفهوم معين	
١١٢٨	في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية	

الفصل الخامس والثلاثون : المنزل والنسيج العمراني

١١٣٣	في المدينة الإسلامية المتوسطة	أتيليو بيتروشيولي
١١٣٤	أولاً : المنزل ذو الفناء	
١١٣٧	ثانياً : التسمية الاصطلاحية والعملية الدلالية	
١١٤٧	ثالثاً : المنزل ذو الفناء: التنظيم البنيوي	
١١٥٣	رابعاً : هل المنازل ذات الفناء نموذج عالمي؟	
١١٥٥	خامساً : الخط المتوسطي للمنازل ذات الفناء	
١١٥٦	سادساً : منازل البندقية ذات الفناء	
١١٥٧	سابعاً : المنازل اللبنانية ذات الفناء	
١١٦١	ثامناً : المنازل التركية ذات الفناء	
١١٦١	تاسعاً : المنازل المصرية ذات الفناء	

- الفصل السادس والثلاثون : المدينة المُقسَّمة بحسب الجنس لوسيان ثاي - شينوكاك ١١٧١
- أولاً : الحريم: هل هو مكانٌ نسائي فقط ؟ ١١٧٥
- ثانياً : مشهد المدينة الإسلامية ١١٧٩
- ثالثاً : الهندسة المعمارية والمدينة المُقسَّمة بحسب الجنس ١١٩٠
- رابعاً : خديجة طرخان سلطانة ومجمع مسجد يتي جامع
والجناح الملكي: أماكن مخصصة لجنسٍ واحد ١١٩١
- الفصل السابع والثلاثون : التقبّات في الدراسات التاريخية الأخيرة نيللي حنا ١١٩٩
- أولاً : تسلسل أحداث التقبّات وتاريخها المبكر ١٢٠٢
- ثانياً : التقبّات والدولة ١٢٠٤
- ثالثاً : التقبّات والقانون ١٢١١
- رابعاً : التقبّات في النسق الحضري ١٢١٤
- خامساً : التقبّات والاقتصاد ١٢١٧
- الفصل الثامن والثلاثون : الوقف في المدينة راندي ديفويلم ١٢٢٥
- أولاً : في المدينة ١٢٢٧
- ثانياً : لمحة عن مختلف أنواع الوقف في المدينة وطرائق استخدامه ١٢٢٩
- ثالثاً : ممارسة الوقف وتنظيم المكان المديني: مدينة حلب مثلاً .. ١٢٣٦
- رابعاً : الوقف في المدينة: اعتبار شخصي أم اجتماعي ؟ ١٢٣٩
- خامساً : الأوقاف المسيحية واليهودية في مدن العالم الإسلامي ١٢٤٦
- سادساً : الوقف: ليس ظاهرة مدنية فقط ١٢٤٨

القسم الخامس

المدينة الحديثة والمعاصرة

- الفصل التاسع والثلاثون : تحديث مدن السلطنة العثمانية
(١٨٠٠ - ١٩٢٠) جان لوك أرنو ١٢٥٥
- أولاً : سياق جديد ١٢٥٥
- ثانياً : أنماط الإدارة، والرعاية، والتشريع ١٢٦٠

ثالثاً: الوظائف المدنية وأشكال الفرز الجديدة ١٢٦٧

رابعاً: ظهور أشكال مدنية وهندسية جديدة ١٢٧٦

الفصل الأربعون: المتوسطة: تصاميم المعمارين الفرنسيين والإيطاليين

في الثلاثينيات في مدن شمال أفريقيا ١٢٨٩

أولاً: فن العمارة «المتوسطة» الفرنسية ١٢٩٠

ثانياً: فن العمارة المتوسطة الإيطالية ١٢٩٨

ثالثاً: فن العمارة المتوسطة في بيتها ١٣٠٠

الفصل الحادي والأربعون: الجزائر العاصمة: المدينة المستعمرة .. أتيليو بيتروشيولي

أولاً: مراحل تطور الجزائر العاصمة ١٣٠٩

ثانياً: التحولات النمطية ١٣١٥

ثالثاً: النمو الحضري ١٣١٨

الفصل الثاني والأربعون: الدار البيضاء:

المدينة في العالم الإسلامي ١٣٢٧

الفصل الثالث والأربعون: الهوية والعولمة

والمدينة الإسلامية المعاصرة ١٣٦١

أولاً: المدينة الإسلامية: حقيقة واقعة؟ ١٣٦٣

ثانياً: نمو المدينة الحديثة ١٣٦٤

ثالثاً: المدينة العالمية في العالم الإسلامي ١٣٧٤

رابعاً: المدينة العملاقة والمدن الجديدة: حكاية مدينتين ١٣٧٦

خامساً: تكييف العولمة: المنطقة المركزية لإدارة الأعمال

والتجليات التجارية ١٣٨١

سادساً: المستوطنات الريفية/الأهلية في المدينة ١٣٨٧

سابعاً: السياحة والمحافظة على التاريخ واللغة العامية المحلية ... ١٣٨٨

ثامناً: تجليات المحلي ١٣٩٢

تاسعاً: مدينة الفقراء ١٣٩٤

عاشرأ: التعددية في «المدينة الإسلامية»: نظرة إلى المستقبل ١٣٩٨

الفصل الرابع والأربعون : آلام ديمى المتنامية: مدينة تبحث عن هويتها ديبا حيدر ١٤٠١

الفصل الخامس والأربعون : القاهرة بين آثار الماضي

وإعادة التأسيس الليبرالي إريك دنيس ١٤٢٩

أولاً : البناء الوطني والتفجر السكاني الضخم ١٤٣١

ثانياً : السيطرة على الديمغرافيا ١٤٣٣

ثالثاً : إعادة توزيع السكان بعيداً من المركز ١٤٣٨

رابعاً : إعادة التوزيع السابقة للتزوح من الأرياف ١٤٤٠

خامساً : الأحياء الشعبية غير المخططة، أو مستقبل القاهرة ١٤٤١

سادساً : إعادة توزيع الكثافة السكانية ولكن من دون انخفاضها ١٤٤٣

سابعاً : إعادة تعريف الملكية المتاحة ١٤٤٥

ثامناً : بيئة الاندماج الجديد في السوق ١٤٤٨

تاسعاً : البيئة الاستثنائية الجديدة لمخاوف التجمعات السكنية الكبرى ١٤٥١

عاشراً : عودة الخاص مع شبه العام ١٤٥٤

حادي عشر : استشارة الحنين والتراث كوسيلة للترويج للبرالية ١٤٥٩

الفصل السادس والأربعون : إعمار بيروت جون نصر ١٤٦٥

إريك فرداي

أولاً : لمحة تاريخية عامة للتحويلات في بيروت قبل عام ١٩٧٥ . ١٤٦٧

ثانياً : بيروت وخططها في زمن الحرب ١٤٧٥

ثالثاً : بيروت ما بعد الحرب وخططها ومشاريعها ١٤٨٣

الفهارس

فهرس الأعلام ١٥٠٥

فهرس الأماكن ١٥٣٥

فهرس الموضوعات ١٦٠١

قائمة رسوم المجلد الثاني

الرقم	الموضوع	الصفحة
١-٢٩	مناظر وبحيرات في المنطقة الهندية	٩٤١
٢-٢٩	مناظر من خزانات المياه	٩٤٢
٣-٢٩	مخططات وخزانات للمياه	٩٥١
٤-٢٩	منظر لقناة أوزون كير وسديوك	٩٧١
١-٣٠	صانعو الشاشيات في تونس	٩٩٠
٢-٣٠	مصنع صابون في حلب	٩٩١
٣-٣٠	قيسارية فاس	٩٩٦
٤-٣٠	وكالة «ذو الفقار» في القاهرة	٩٩٧
٥-٣٠	خان قرتباي في حلب	٩٩٨
٦-٣٠	سوق البركة، تونس	١٠٠١
٧-٣٠	قصبة رضوان، القاهرة	١٠٠٥
٨-٣٠	خانات أو نُزل في منطقة القاهرة، القاهرة	١٠٠٣
٩-٣٠	نقل الأسواق في الموصل	١٠٠٥

١٠-٣٠	سوقة جيرون في دمشق	١٠٠٧
١-٣١	القدس في القرن الحادي عشر، منظر مخطط من الشمال الشرقي	١٠١٤
٢-٣١	دليل رحلة حج المسلم إلى الأمكنة المقدسة في فلسطين بحسب	
	ابن المرجى (مطلع وأواسط القرن الحادي عشر)	١٠١٦
٣-٣١	قطعة من وجه صفحة من القرآن الكريم، من القرن الثامن، صنعاء،	
	دار المخطوطات	١٠٢٢
٤-٣١	قطع من وجه صفحة من القرآن الكريم، من القرن الثامن، صنعاء،	
	دار المخطوطات	١٠٢٣
٥-٣١	أجزاء من مطوية حج تصوّر الكعبة في مكة وقبر النبي في المدينة،	
	مملوكية، تعود إلى العام ٦٩١هـ، ١٢٩١-١٢٩٢م	١٠٢٤
٦-٣١	رأس مطوية حج تظهر «البسملة» وجبل «عرفات»	١٠٢٧
٧-٣١	درج حج، يعود إلى العام ٦٠٨هـ/ ١٢١١-١٢١٢م	١٠٣٠
٨-٣١	رسم طولي من درج حج يعود إلى العام ٦٠٨هـ (١٢١١-١٢١٢م)	١٠٣٠
٩-٣١	درج حج، أبوي، يعود إلى العام ٦٠٢هـ (١٢٠٥-١٢٠٦م)	١٠٣٦
١-٣٢	الحيّان المسيحي واليهودي في بغداد	١٠٥٠
٢-٣٢	الحي اليوناني في القاهرة	١٠٥١
٣-٣٢	حي سكني في القاهرة	١٠٥٢
٤-٣٢	باب أحد الأحياء في دمشق	١٠٥٣
٥-٣٢	ارتفاع مستوى أحد الشوارع في حي سكني	١٠٦٠
٦-٣٢	تلال شرق القاهرة	١٠٦١
٧-٣٢	أمكنة سُبُل ماء القاهرة	١٠٦٣
٨-٣٢	سبيل عبد الرحمن كتخدة في القاهرة، من العام ١٧١٤	١٠٦٤
٩-٣٢	قنوات ماء في الجزائر	١٠٦٥
١-٣٣	مخطط مدينة عنجر	١٠٧٠
٢-٣٣	الرصافة، مخطط حديقة	١٠٧١
٣-٣٣	زغوان، قناة في «معبد المياه»	١٠٧٣
٤-٣٣	أحواض الأغابة في القيروان	١٠٧٣
٥-٣٣	خريطة لمواقع رومانية عند نهر الوادي الكبير	١٠٧٥

١٠٧٩	أكوا أوغستانا، قرطبة	٦-٣٣
١٠٨٠	بقايا قناة رومانية في الجزء الغربي من قرطبة	٧-٣٣
١٠٨١	إمدادات المياه في مدينة الزهراء	٨-٣٣
١٠٨٣	ناعورة تعمل على قوة دفع النهر	٩-٣٣
١٠٨٣	«ساقية» ناعورة	١٠-٣٣
١٠٨٤	المضخة الحلزونية	١١-٣٣
١٠٨٦	نافورة مياه على شكل فيل مع خزان وقناة	١٢-٣٣
١٠٩١	جسر قرطبة	١٣-٣٣
١٠٩٤	منظر لأشجار زيتون	١٤-٣٣
	قرية آيت لحسن، في منطقة القبائل، الجزائر:	١-٣٥
١١٣٩	تكرار لوحدة سكن على منحدر	
١١٤٠	قرية آيت لحسن في منطقة القبائل في الجزائر: امتداد جانبي للأقسام	٢-٣٥
١١٤١	قرية آيت لحسن، الجزائر: تكرار جانبي، ولكن مع خرسانة معززة	٣-٣٥
١١٤٢	معالجة طبوغرافية لفناء المنزل الداخلي	٤-٣٥
١١٤٤	سلسلة (ب-١) و(ب-٢) و(ب-٣) تصف عملية التاييرنا	٥-٣٥
١١٤٥	سلسلة (ج-١) و(ج-٢) و(ج-٣) تمثل عملية إنسولا	٦-٣٥
١١٤٩	منزل في القصبة، الجزائر، في خمس طبقات بشكل هرمي	٧-٣٥
	منزل الشيخ عادل حصن الدين في المختارة، لبنان	٨-٣٥
١١٥٩	مخطط للطابق السفلي ومقطع رمزي	
١١٦٠	لبنان. من الخلية الأولية إلى المنزل مع قاعة تتوسطه	٩-٣٥
١١٦٢	«الوكالة» و«الربع» في ذو الفقار	١٠-٣٥
	مقطع قياسي ومخطط الطابق الأرضي لـ «الوكالة»	١١-٣٥
١١٦٢	وبازار «الربع» في القاهرة	
١١٦٤	قاعة صيفية في منزل في القاهرة	١٢-٣٥
١١٦٧	ربع قايتباي في القاهرة. مدخل تاريخي مزخرف	١٣-٣٥
١١٧٧	جان لوي جيروم، «تراس الحرير»، ١٨٨٦	١-٣٦
١١٧٨	محمد الرابع، كأي شاب، يراقب بينما مهرّجان يسليانه	٢-٣٦
١١٨٠	حفل استقبال على شرف سفير في قاعة المجلس العام	٣-٣٦

١١٨٢	نساء يتقدمن إلى حمام عام	٤-٣٦
		حمام مزدوج، للرجال وللنساء، شيدته زوجة سليمان، خاسكي سلطان،	٥-٣٦
١١٨٣		وجدت في أسس سباق خيل بيزنطي في إسطنبول، منظر من جهة الغرب	
١١٨٥	إتيان رافورت، «سبيل ماء طوفان» ١٨٤٩	٦-٣٦
		النساء يتعجن، كما يجب أن يكون الأمر، مع الرجال في «نظام الخامس»	٧-٣٦
١١٨٦	في طقوس التفجع على موت مجنون ليلي	
		ضريح تلي بابا على الشاطئ الأوروبي من البوسفور في إسطنبول هو	٨-٣٦
		مكان تقليدي للزيارة والحج للنساء يصلين فيه من أجل زواج سعيد وأطفال	
١١٨٧	في المستقبل	
		سجلات البلاط تشهد أن النساء في السلطنة العثمانية وفي بدايات الحقبة	٩-٣٦
		الحديثة كن يتقدمن مباشرة بظلاماتهن إلى القاضي والرسميين الآخرين	
١١٨٩	في السلطنة	
١١٩٢	مخطط مجمع مسجد بني جامع في أمينونو، إسطنبول	١٠-٣٦
		مخطط مجمع مسجد بني جامع، يظهر الأجزاء المختلفة لمؤسسة	١١-٣٦
١١٩٤	طرخان سلطنة التي كان بها ممر للسيدة إلى المقصورة الملكية	
١١٩٧	..	غالباً ما تشاهد النساء يشاركن في المناسبات العامة، ولو على الهامش	١٢-٣٦
١٢٤٠	مانح الوقف	١-٣٨
١٢٦٦	إسطنبول، حي أدرنة كايي، تقسيم الأرض قبل ١٨٨٢	١-٣٩
١٢٦٩	مدينة الإسكندرية، فترة نموها	٢-٣٩
١٢٧١	النمو المدني للقاهرة في القرن التاسع عشر	٣-٣٩
١٢٧٣	دمشق، مثال على النسيج المدني القديم، حي سوق ساروجة	٤-٣٩
١٢٧٤	إسطنبول، حي كومكايي، مثال لتقسيم أراضٍ منظم	٥-٣٩
		القاهرة، شوارع وأزقة غير نافذة، أحياء إلى الشمال الغربي	٦-٣٩
١٢٧٩	من المدينة القديمة	
١٢٨٠	تونس، الجادة البحرية، حوالى العام ١٩١٠	٧-٣٩
١٢٨١	..	بورصة، تقاطع شوارع مفتوحة في حي البازار شقت بعد زلزال ١٨٥٥	٨-٣٩
١٢٨٤	القاهرة، ممارٍ مسقوفة، الحي الفرنسي	٩-٣٩
١٢٨٥	الإسكندرية، مجمع شقق في حي كوم الناصورة	١٠-٣٩

١٣١٠	ساحة الجمهورية	١-٤١
١٣١٢	قياس العملية الرمزية	٢-٤١
١٣١٤	البنية التحتية العملاقة للمرفأ من تصميم شاسيريو	٣-٤١
١٣١٥	الدرج كحل للزاوية في شارع ميشليه	٤-٤١
١٣١٩	النسيج العربي التقليدي تغطيه واجهة استعمارية في ساحة شارتر	٥-٤١
١٣٢٥	مخطط الجزائر	٦-٤١
١٣٣١	بقايا «أنفا»، من جورج براون وفرائز هوغنبرغ	١-٤٢
١٣٣٥	فيليكس وايزربر، مخطط الدار البيضاء عام ١٩٠٠	٢-٤٢
١٣٣٩	هنري بروست، تطوير وتوسعة مخطط ١٩١٧ للدار البيضاء	٣-٤٢
١٣٤٢	هنري بروست، مخطط قطاعي للدار البيضاء، نسخة ١٩٣٠	٤-٤٢
١٣٤٤	صورة جوية للمدينة، ١٩٤٣	٥-٤٢
١٣٤٥	ألكسندر كورتوا، مشروع مستديرة داماد، ١٩٤٤	٦-٤٢
١٣٤٧	ميشال إيكوشار، الدار البيضاء الكبرى في قطاعات، ١٩٥٢	٧-٤٢
١٣٥١	أربعة مناظر لحي الحبوس [أي الوقف في التعبير المغربي]	٨-٤٢
١٣٥٤	مشروع «آببات أفريقيا» (ATBAT-AFRIQUE)	٩-٤٢
١٣٥٦	شارع في حي سيدي عثمان، ١٩٩٩	١٠-٤٢
		مركز أعمال جديد على الطريق إلى مطار محمد الخامس،	١١-٤٢
١٣٥٩	سيدي معروف-٢٠٠٢	
١٣٦٧	مخطط هليوبوليس، مصر	١-٤٣
١٣٧٠	المخطط الرئيسي لإسلام أباد	٢-٤٣
١٣٧١	كوالالمبور، المسجد الوطني	٣-٤٣
١٣٧٢	دكا، العاصمة	٤-٤٣
١٣٧٨	جاكرتا: القرى المدينة	٥-٤٣
١٣٨٠	مخطط ليو كاراواصي	٦-٤٣
١٣٨٢	بُرجا بترونس، كوالالمبور	٧-٤٣
١٣٨٤	دبي، مول حديث للتسوق	٨-٤٣
١٣٨٥	مدينة غولف السلیمانية	٩-٤٣

١٠-٤٣	مطار الظهران، ١٩٦١، مينورو ياماساكي، تفسير حدثاتي لنمط
١٣٨٩	الخيمة البدوية
١١-٤٣	مبنى المجلس الوطني في الكويت
١٣٩٠	
١٢-٤٣	فندق برج العرب
١٣٩١	
١٣-٤٣	مخيم إسكان للعمال الأجانب في السعودية
١٣٩٧	
١-٤٤	حصن الفهيد، دبي
١٤٠٧	
٢-٤٤	حي البستكية، دبي
١٤٠٨	
٣-٤٤	السوق الكبير مع السقف الخشبي، دبي
١٤٠٩	
٤-٤٤	الجامع الكبير، دبي
١٤١١	
٥-٤٤	مسجد علي بن أبي طالب، دبي
١٤١٢	
٦-٤٤	برج العرب
١٤٢١	
٧-٤٤	جزر النخيل، دبي
١٤٢٢	
١-٤٥	نسبة النمو السنوي حسب حجم التجمعات، ١٩٠٠ - ٢٠٠٠
١٤٣٢	
٢-٤٥	تطور معدلات النمو السنوي حسب نوع الحي
١٤٣٤	
٣-٤٥	تطور عدد سكان القاهرة الكبرى
١٤٣٩	
٤-٤٥	نسبة المولودين خارج القاهرة من عدد السكان، في تعداد
١٤٤٠	١٩٠٧ - ١٩٩٦: زمن الهجرة
٥-٤٥	الاحتكاك بين حي بولاق الدكرور حيث السكن الشعبي غير المخطط،
١٤٤٢	ومنطقة المهندسين السكنية في الجزيرة
٦-٤٥	سكن شعبي غير قانوني على حافة أرض زراعية خاصة - الجزيرة
١٤٤٦	
٧-٤٥	سكن شعبي غير قانوني على حافة أرض زراعية خاصة - الجزيرة
١٤٤٦	
٨-٤٥	تطور الكثافة السكنية حسب نوع الحي
١٤٤٧	
٩-٤٥	فيلاً في مجمع سكن الأحلام المسور - قرب مدينة ٦ أكتوبر،
١٤٥٣	الجزيرة، ٢٠٠٢
١٠-٤٥	مبان على الضفة الغربية من النيل - المُنيب، الجزيرة، ٢٠٠٢
١٤٥٤	
١١-٤٥	تعدد السكن الشعبي غير القانوني على الأرض الزراعية
١٤٥٦	
١٢-٤٥	رمزية السكن غير القانوني داخل منطقة القاهرة الكبرى
١٤٥٨	
١-٤٦	مخطط وسط بيروت للعام ١٩١٢، دليل للمسافرين
١٤٧٠	

١٤٧٣	مقترح إرنست إيفلي لتغييرات في بيروت وضواحيها	٢-٤٦
١٤٧٤	مشروع تغييرات لوسط بيروت	٣-٤٦
١٤٧٧	تدمير المباني من فترة الحرب في منطقة بيروت الكبرى	٤-٤٦
١٤٨١	مشروع أوجيه لمنطقة ساحة الشهداء عام ١٩٨٤	٥-٤٦
١٤٩٠	مشاريع إعادة الإعمار لمنطقة بيروت الكبرى خلال التسعينيات	٦-٤٦
١٤٩٧	مقترح لمنطقة وسط بيروت، كما جرى تقديمه عام ١٩٩١	٧-٤٦ أ
١٤٩٨	مقترح لمنطقة وسط بيروت من سوليدير (١٩٩٥)	٧-٤٦ ب
	منظر شامل لمنطقة الوسط، يظهر المنطقة المفرّغة خارج ساحة الشهداء	٨-٤٦
١٤٩٩	على اليمين، وجزءاً طريق الرينغ حول الوسط لجهة اليسار	
	مسجد جديد قيد الإنشاء في آذار/ مارس ٢٠٠٤ [جامع محمد الأمين]	٩-٤٦
١٥٠١	بين ساحة البرج [الشهداء]، في المقدمة، وكاتدرائية سان جورج إلى اليسار	

القسم الرابع

وظائف المدينة

الفصل التاسع والعشرون

دار الماء: فن العمارة المائية في البلدان الإسلامية

كالجيرو مونتالبانو^(*)

قال تعالى: ﴿فَقَتَّعْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾
[سورة الأنبياء، الآية ٣٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَبْتَتْ مِنْ كُلِّ ذَرْبٍ
يَبْعِثُ﴾ [سورة الحج، الآية ٥].

مقدمة

يهدف هذا الفصل إلى تحليل فن العمارة وشكل المكان الحضري الإسلامي في المناطق والظروف المناخية المختلفة داخل البقاع الشاسعة التي سادت فيها الحضارة الإسلامية. وقد مثل الماء الأداة الرسمية والدينية التي حرّكت عملية التحول، إذ تحولت المياه إلى مادة نافعة في تصميم الأمكنة والمدن وإن اختلفت باختلاف الشروط والظروف البيئية.

وعلى مدار التاريخ، أثارَت مسألة كيفية التحكم بالمياه ومصادرها في الأمكنة المهددة بالجفاف بقوة، مثلاً، العديد من الحروب، لكنها ساهمت في الوقت نفسه في

(*) أستاذ الهندسة المعمارية والتصميم المعماري، جامعة باليرمو - إيطاليا.

إحداث نوع من الاتحاد الاجتماعي العميق. أما في المجتمع الإسلامي، فقد أخذت تلك الحدود معاني خاصة بلغت الحد الأقصى من الاهتمام.

فمن دلهي إلى دمشق، ومن بغداد إلى قرطبة، ميّز وجود المياه، بأشكالها المختلفة، مشهد الحدائق والقصور، في المدينة كما في كل أجزاء المشهد الطبيعي. تتكون ثقافة الماء ليس من تقنيات قادرة على جمع هذا السائل الثمين ونقله وحفظه فقط، وإنما من تقنيات قادرة على حفظه وحسن إدارته أيضاً؛ إذ يجب التحكم بالمياه، وتجميعها، وتوزيعها؛ وهنا يبرز دور العمارة المائية، من خلال عملية تحديد شكل الأمكنة، وتحديد النافع والمقدس، كما اليومي والمبهج في قيمة المياه الثمينة تلك.

في الأقاليم غير المنتظمة، مورفولوجياً ومناخياً وبيئياً، كما حال الإقليم الإسلامي الكبير، لا يمكن بسهولة رسم نوع محدد من الاستمرارية المعمارية أو الرمزية أو القياسية في العلاقة بين الماء والحضارة الإسلامية.

وفي الواقع، يمكن الانتقال من إطار تكون فيه المياه موجودة على نحو خفي، تجري داخل طبقات التربة التحتية، أو موجودة فقط في الأبنية والمنازل في شكل فساق، كما الحال في دمشق وفاس، إلى إطار آخر تقوم المياه فيه بأداء دور إقليمي، بفضل أبعادها المتعددة، وتصبح نقطة انطلاق لعمليات تخطيط وتطوير مناطق بأكملها، كما يحدث في الأنظمة النهرية للنيل ودجلة والغانج.

أكثر من ذلك، إن كل شكل من أشكال المكان البشري إنما هو يأتي من خلال التفاعل المستمر بين الإنسان والبيئة المحيطة به^(١)؛ لكن الدور الذي تقوم به المياه وعلاقتها العميقة بالمناطق السكنية يرتبطان إلى حد كبير بالظروف الخاصة للتربة والطبقات التحتية منها، وقدرتها على الاحتفاظ بالسائل النفيس أو السماح له

(١) انظر: P. Sanlaville, «Réflexion sur les conditions générales de la quête de l'eau au proche orient,» vol. 1, pp. 9-21 et J. Cauvin, «Le Problème de l'eau, De l'homme prédateur aux premières sociétés hydrauliques,» pp. 23-30, dans: J. Metral et P. Sanlaville, ed., *L'Homme et l'eau en Méditerranée et au Proche Orient*, 4 vols. (Lyon: Presses Universitaires de Lyon, 1981); X. De Planhol, *Les Fondements géographiques de l'histoire de l'Islam* (Paris: Flammarion, 1968); P. Sanlaville, *Étude Géomorphologique de la région littorale du Liban*, 2 vols. (Beyrouth: L'Université Libanaise, 1977); J. Oates, «Prehistoric Settlement patterns in Mesopotamia,» dans: Peter J. Ucko [et al.], eds., *Man, Settlement and Urbanism* (London: [n. pb.], 1972), pp. 185-310, and D. Oates and J. Oates, «Early Irrigation agriculture in Mesopotamia,» in: G. Sieveking, I. H. Longworth and K. E. Wilson, ed., *Problems in Economic and social archaeology* (London: Duckworth, 1976), pp. 109-135.

بالتسرب إلى أعماق كبيرة ليغذي الطبقات التحتية للتربة أو ضياعه في تصدعات عميقة.

كل هذه العناصر، مع غيرها من اختلافات المناخ والمطر، تؤثر بقوة في شكل المدن وحجمها، وإمكان توسعها، أو تجزئتها إلى عدة مراكز داخل المكان أو وفق منطق المزارع الصغيرة؛ كما تؤثر في شكل المزارع والحدائق، جاعلة لكل من المدينة والقرية البنية نفسها^(٢). ولفهم الطرائق المختلفة التي تتخذها العلاقة بين نمط المياه وشكل المكان المبني، يمكننا أولاً الرجوع إلى بعض الفئات البيئية وإلى التأثيرات التي تضيفها على البنية المعمارية (انظر الجدول الرقم (٢٩ - ١)).

أولاً: الإقليم المتجانس في العالم الإسلامي

إذا نظرنا إلى شكل وبنية الإقليم، فيمكننا اكتشاف ثمانية أقاليم متجانسة على الأقل داخل العالم الإسلامي، تتميز بطرائق مختلفة في ما يتعلق بمشاريع المياه وأشكالها المعمارية:

١ - منطقة شمال غرب أفريقيا (الشمال الأفريقي لحوض البحر المتوسط): المغرب وتونس والجزائر^(٣)

في منطقة تتميز بالمطر القليل وبالنقص المستمر في المياه الجارية، أجبر السكان على أن يكونوا حرصاء أشد الحرص على الحدائق والبساتين التي تقع قريبة من المناطق السكنية، في حين نجحوا في إنتاج واحات حقيقية وتوفير حاجات المدن من المياه، وفي الإفادة من شبكة مصادر المياه الموجودة^(٤).

J. Bethemont, «Sur les Origines de l'agriculture hydraulique», dans: Metral et Sanlaville, *Ibid.*, (٢) vol. 2, pp. 7-30; R. J. Braidwood, «The Agricultural Revolution», *Scientific American*, vol. 203 (1960), and C. A. Reed, ed., *Origins of Agriculture* (The Hague: Mouton, 1977).

J. Celerier, «Le Paysage rural au Maroc», *Hesperis* (1943), pp. 129-142; F. Cresti, «Le : انظر (٣) Système de l'eau à Alger pendant la période ottomane (XVI^{ème}-XIX^{ème} Siècle)», dans: Dell'Oca, ed., «Algérie, Mémoire et Architecture», *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1992), pp. 42-53; R. Dozy et M. De Goeje, trans., *Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrisi* (Leiden: Brill, 1866), et M. Dalloni, «Le Problème de l'alimentation en eau potable de la ville d'Alger», *Bulletin de la Société de géographie d'Alger*, vol. 29 (1928).

G. Deverdun, *Marrakech des origines à 1912* (Rabat: [n. pb.], 1959), 10 ff., et A. : انظر (٤) Bechraoui, *La Vie rurale dans les oasis de Gabes (Tunisie)* (Tunis: [n. pb.], 1980), pp. 69-86.

الجدول الرقم (٢٩ - ١)

الفئات البيئية وتأثيراتها في الموارد والأشكال المائية

الفئات البيئية	الوجود	التأثيرات في الموارد المائية	التأثيرات في الأشكال المائية
المناخ	يساهم في قدرة المجال الإقليمي، ومع الوقت، في الحفاظ على الموارد المائية الموجودة فيه.	تدخل الحرارة، والتعرض للشمس، والرياح السائدة، والرطوبة، في تمدد شكل المياه وفي العلاقة الكبرى أو الصغرى بينها وبين العالم الخارجي.	ترتبط درجات الحرارة العالية بالتدانة المنخفضة للهواء، وتسهل من عملية التبخر، وهو الأسلوب الغالب في جميع البلدان الإسلامية من خلال شكل الأبعاد المحدودة وحمايتها من العوامل الجوية. وفي المناطق التي تعتدل فيها درجات الحرارة، مثل شمال شرق أفريقيا وشمال كل من الهند واليمن، تشجع الظروف الجوية المثل على تطوير أشكال أوسع وأكثر انفتاحاً.
بنية الطبقات الصخرية	تعمل مباشرة طبقاً لمقدرة التربة وطبقة التربة التحتية على البناء على سطح المياه أو على الطبقات السطحية للمياه.	يعتمد وجود مسارات المياه السطحية والمجري الجبلية على الاندماج الكلي أو الجزئي للتربة، وعلى اتحد الطبقات الجيولوجية ووجود التشققات الجيولوجية التي تتجمع فيها المياه.	إن قابلية التربة في الصحراء الأفريقية للتسرب تمنع تطوير أنظمة المياه السطحية، في حين أن التصدع الكبير في النظام الجيولوجي للساحل الهندي، الذي يرتبط بالتراس المحكم للتربة، يسهل الوصول إلى مصادر المياه، وذلك من خلال الآبار. كما أن وجود الفتحة القارصة يكون بسبب الانحدار الخفيف للأرض الصخرية وتناوبها للطبقات السابقة حيث تدخل المياه ويتم الاحتفاظ بها في قنوات سطحية.
مورولوجيا التربة	تساهم في المحاصيل والصيانة ومبادئ نقل المياه.	يؤثر وجود المناطق المنبسطة والانخفاضات والتلال والأنظمة الجبلية في قدرة التربة في توجيه مصادر المياه.	تحولت الوديان الخصبة الكبيرة في المغرب والنيل والفراة والوادي الهندي إلى بحيرات، وهذا يرجع إلى مقدرة التربة على توجيه المصادر المائية في هذه المناطق من أجل تطويرها.
البنية للتربة للتربة ^(١)	تساهم في أنظمة ترشيح المياه وحفظها.	يحدد وجود تربة الصحراء والسهول والغابات والمناطق الزراعية نوعاً مختلفاً من التفاعل السطحي لترشيح المياه ويساهم في تحديد أنواع مختلفة من دورات المياه مثل الزيادة أو التقليل من المطر الداخلي.	كما يحدث في مناطق الواحات في البلاد الإسلامية، يتحدد اقتصاد المياه إلى حد كبير باستخدام أنظمة سميكة للخضرة، حيث تجمع هذه الأنظمة المياه على السطح وتجنب النبات عمليات التبخر الزائدة بسبب تأثير الظل، كما تمنع زيادة الرطوبة النسبية الداخلية. تقدر المياه شكل المجاري المائية الصغيرة والانحدارات بين النباتات متجنية بذلك امتصاص التربة للمياه بسرعة.

(١) تختلف التربة، التي تمثل الغطاء السطحي للجزء الكبير من الأراضي الناتجة، كثيراً من مكان إلى آخر، حيث يتم تحديد التكوين الكيميائي والبنية الفيزيائية للتربة من خلال نوع المادة الجيولوجية الأصلية، والغطاء النباتي، وطول عمليات التبخر، والطبوغرافيا، وأخيراً من خلال التغييرات الصناعية للأنشطة البشرية.

ويحدد الطبيعة الفيزيائية للتربة وجود أجزاء صغيرة لها أبعاد متغيرة إلى حد كبير، من الحصى إلى الأجزاء الصغيرة جداً، التي يكون قطرها أقل من جزء من الألف من المليمتر. تكون الأجزاء الكبرى، مثل الرمل والحصى، خاملة من الناحية الكيميائية، في حين أن الأجزاء الصغرى، وهي المكون الرئيسي للصلصال، تقوم بوظيفة حوض المواد المغذية لجذور النبات. مثل هذه الأبعاد، إضافة إلى طبيعة هذه الأجزاء غير العضوية، هي التي تحدد قدرة التربة على الاحتفاظ بالماء. وعادة ما يتم تصنيف هذه الأجزاء إلى: الرمل الطمي والصلصال. يتراوح قطر حبات الزرع في التربة الرملية من ٢ ملم إلى ٠,٠٥ ملم، أما الجزيئات التي تكون الطمي فتتراوح من ٠,٠٥ إلى ٠,٠٠٢ ملم؛ أما جزيئات الصلصال فيكون قطرها أقل من ٠,٠٠٢ مم. غالباً ما تكون التربة التي تحتوي نسباً كبيرة من الرمال غير قادرة على الاحتفاظ بالمياه الكافية للسماح بنمو جيد جداً للنباتات. من ناحية أخرى، تحاول التربة التي تحتوي نسباً كبيرة من الطمي أو الصلصال، الاحتفاظ بالماء والمواد المعدنية، وعندما تكون نسبة الصلصال زائدة، تحاول التربة الاحتفاظ بقدر أكبر من المياه، وفي هذه الحالات لا تكون التربة صالحة للزراعة.

أما في المدن والأماكن الرئيسية، وفق ما يخبرنا الجغرافي المقدسي^(٥)، فالوضع مختلف، إذ يتم تزويدها بمصادر مياه الشرب مباشرة من خلال الآبار، والخزانات التي تجمع فيها مياه الأمطار، وعلى نحو أقل من الأنهار وجداول المياه أو المصادر الصغيرة للمياه. وعموماً، فإن الحدائق التي تقع بالقرب من الأمكنة المدنية يتم ريها من خلال السواقي التي تدفع بمجاري المياه، عند وجود آبار، للجريان في قنوات مفتوحة متصلة بأحواض تملأ بواسطة الناعورة أو بالأنظمة الأخرى لرفع المياه. من الممكن أن تكون كل الأعمال المائية الأصلية موجودة في تونس في شكل خزانات كبيرة لتخزين مياه الجداول، ومن خلال المياه الجوفية.

٢ - منطقة شمال شرق أفريقيا (الشمال الأفريقي لحوض البحر المتوسط): مصر وليبيا^(٦)

تتميز هذه المنطقة على وجه الحصر بوجود نهر النيل، أما الباقي فهو صحراء أو سهول جافة. تتضاءل نسبة الموارد المائية وإمكانات الاستيطان كلما اقتربنا من المناطق الصحراوية، حيث تكون فرص الحياة للمجتمعات الصغيرة معتمدة تماماً على وجود الواحات النادرة التي يغذيها «وادي» صغير، كما يحدث في «فزان»، المنطقة الكبيرة في ليبيا، وياتجاه الجنوب حيث واحة سبها وواحة أوباري، مرزوق.

٣ - منطقة الأناضول (الجزء الشرقي لحوض البحر المتوسط): تركيا^(٧)

تتميز مورفولوجيا هذه المنطقة من جهة التربة بتباين يظهر في تموج خفيف ومنخفضات متتالية، يمر بعضها من خلال شبكة أيديوغرافية سطحية غزيرة ومن

(٥) Ch. Pellat, ed. et trans., *Description de l'occident musulman au IV^{ème}-X^{ème} Siècle* (Algerie: انظر: [n. pb.], 1950).

(٦) B. Menu, *Les Problèmes institutionnels de l'eau en Egypte ancienne et dans l'antiquité méditerranéenne* (Le Caire: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1994); J. Cl. Goyon, «Ebauche d'un système étatique d'utilisation de l'eau: Egypte pharaonique de l'ancien au nouvel empire», dans: Metral et Sanlaville, ed., *L'Homme et l'eau en Méditerranée et au Proche Orient*, vol. 2, pp. 61-67, and K. Butzer, *Early Hydraulic Civilization in Egypt: A Study in cultural Ecology* (Chicago, IL: Chicago University Press, 1976).

M. M. Cerasi, «Open Space, Water and Tress in Ottoman Urban Culture in the XVIIIth-XIXth Centuries», in: Carucci, ed., «Environmental Design, Water and Architecture», *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vol. 2 (1985), pp. 36-49; p. Della Valle, *Viaggi di Pietro della Valle: Il pellegrino, descritti da lui medesimo*, edited by Gancia (London: [n. Pb.], 1843); G. A. Evyapan, «Anatolian Turkish Gardens», *Journal of the Faculty of Architecture* (Middle East Technical University- Ankara), no. 1 (1975); M. M. Cerasi, *Lo spazio collettivo della città* (Milano:

دون اتصال بالبحر. جزء كبير من الأرض المرتفعة يتم ترشيحه من خلال نهر كيزيل إرمالك (النهر الأحمر) ونهر الفرات عند الاتجاه شرقاً. هذا الموقع الخاص للأحواض الأيديوغرافية (الكتابة بالرموز) من المناطق الصحراوية من المنطقة المركزية في هذا الإقليم، والمسافة الكبيرة من الأماكن السكنية والربط المورفولوجي للتربة، كل ذلك جعل استخدام المياه من القنوات السطحية البسيطة أمراً صعباً، وليرجع عليها استخدام شبكة قنوات معقدة.

٤ - المنطقة السورية العراقية (الجنوب الشرقي من حوض البحر المتوسط): سورية والعراق^(٨)

تشمل هذه المنطقة بلاد ما بين النهرين. يحكم أيديوغرافيا هذه المنطقة كلياً حوضا نهري الفرات ودجلة، حين يتصل أحدهما بالآخر من خلال شبكة عملاقة من قنوات الري التي تجري من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي.

٥ - المنطقة العربية (نظام الشرق الأوسط الآسيوي): شبه الجزيرة العربية^(٩)

يفسر واقع المطر النادر والجفاف الطويل غياب البحيرات الدائمة والأنهار عن هذه المنطقة، فتحل محلها الينابيع والوديان التي تتبع الانحدار العام للمناطق

[n. Pb.], 1973), and I. Ozis, «The Ancient Istanbul Dams within the Perspective of Dam Technology History», in: *1st International Congress on the History of Turkish-Islamic Science and Technology* (Istanbul: [n. Pb.], 1981).

O. Aurenche, « Préhistoire des sociétés hydrauliques du Proche Orient Ancien, » in: Metral et (A) Sanlaville, eds., Ibid., pp. 31-44; O. Aurenche, «Un Exemple de l'architecture domestique en Syrie au XIII^{ème} millénaire: La Maison XLVII de tell Mureybet, » dans: J. Margueron, eds., *Le Moyen Euphrate, zone de contacts et d'échanges* (Strasbourg: Brill, 1980), pp. 35-53; O. Aurenche: *La Maison Orientale: L'architecture du proche Orient ancien des origines au milieu du IV^{ème} millénaire* (Paris: Librairie Orientaliste p. Geuthner, 1981); «L'architecture mésopotamienne du VII^{ème} milles, » *Paléorient*, vol. 7, no. 2 (1981), pp. 43-55, «Premières Maisons, Premières Villages, » *La Recherche* (July-August 1982); J. Cauvin, *Les Premiers villages de Syrie-Palestine du IX^{ème} au VII^{ème} millénaires*, CMO 4 (Paris: [n. pb.], 1978); J. Cauvin, «Le Problème de l'eau au Proche Orient: De l'homme prédateur aux premières sociétés hydrauliques, » in: Metral et Sanlaville, ed., *L'Homme et l'eau en Méditerranée et au Proche Orient*, pp. 23-30; G. N. Lisitsina, «The Earliest irrigation in Turkmenia, » *Antiquity*, vol. 43 (1969), pp. 279-288; R. M. Adams, *Land Behind Baghdad* (Chicago, IL: Chicago University Press, 1965); N. Al Barazi, *The Geography of Agriculture in Irrigated Areas of the Middle Euphrates Valley* (Baghdad: [n. pb.], 1961); R. J. Garde, «Irrigation in Ancient Mesopotamia, » *Irrigation and Drainage Bulletin* (ICID), vol. 27, no. 2 (1978); Ph. E. Smith and T. C. Young, «The Evolution of Early Agriculture in Greater in Greater Mesopotamia: A Trial Model, » in: Brian Spooner, *Population Growth* (London: MIT Press, 1978).

J. C. Wilkinson, *Water and Tribal Settlement in Southeast Arabia: A Study of the Aflaj of*: انظر (٩) *Oman* (Oxford: Oxford University Press, 1977), and p. M. Costa, «Notes on Traditional Hydraulics and Agriculture in Oman, » *World Archaeology*, vol. 14, no. 3 (1983), pp. 273-295.

المرتفعة، والتي تميز الإقليم من الغرب إلى الشرق؛ ويصحبها طبقة مائية تقع في القسم الأوسط من المنطقة، وهي نجد، التي تتكون من واحة مهمة جداً وهي واحة الرياض.

٦ - المنطقة الإيرانية (نظام الشرق الأوسط الآسيوي): إيران وأفغانستان وباكستان^(١٠)

نقص الأمطار هو سمة ضاغطة، وبخاصة عند أطراف المنطقة. وتدفق المياه سطحي وعارض. تتمتع المنطقة الوسطى من بلاد فارس بترشيح داخلي فتدفق فيها الأنهار الصغيرة لتصل إلى أحواض أو بحيرات مغلقة أو مستنقعات وتغذي كثيراً من المدن الحضرية (كما هو الحال في حوض زابنده رود الذي يغذي منطقة أصفهان). وتصل المياه إلى الأحواض الصغيرة في الجزء الأوسط الجاف ومنطقة الجنوب الغربي ثم تتشر من خلال الترشيحات الجبلية القادمة من عدد من المجاري الصغيرة.

أما الطريقة التقليدية للاحتفاظ بهذه المياه فهي القنوات التي تميز النظام المائي للأراضي المرتفعة في بلاد فارس من خلال شبكة القنوات الموجودة فيها. يعتمد موقع المناطق السكنية أيضاً على هذه الطريقة بين المنحدرات الصخرية الخفيفة والممهدة جيداً^(١١)، حيث تقع على الوديان العميقة المزروعة عند أقدام التلال التي تغذي منها القنوات. لا يتم استخدام الأنظمة المختلفة للري بصفة حصرية^(١٢)، لكن بناء القرى يعتمد، في كثير من الحالات، على المياه الرئيسية الواردة، مع إنشاء أماكن سكنية على طول المصدر المائي أو المتجمعة قرب مصاب القنوات أو مصادر المياه أو بالقرب من أماكن تجميع المياه أو السدود.

(١٠) انظر: E. Beazley and M. Harverson, «Planning with the Climate: The Traditional Attitude to Water in the Villages of the Iranian Plateau», *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, no. 2 (1985), pp. 10-15; E. Beazley and M. Harverson, *Living with the Desert: Working Buildings of the Iranian Plateau* (Warminster: Aris and Phillips, 1982); H. E. Wulff, «The Qanats of Iran», *Scientific American*, vol. 218, no. 4 (1968), pp. 94-105; F. Bemont, «L'Irrigation en Iran», *Annales de Géographie*, vol. 52, no. 382 (1961), pp. 597-620; H. Goblot, *Les Qanats: Une Technique d'acquisition de l'eau* (Paris: Mouton, 1979), et P. Gentelle, «Quelques Observations sur l'extension de deux techniques d'irrigation sur le plateau iranien et en Asie centrale», dans: *Le Plateau iranien et l'Asie centrale des origines à la conquête islamique*, Colloque du 20/24-3-1976 (Paris: C.N.R.S., 1977).

(١١) انظر: X. de Planhol, «Geography of settlement», in: W. B. Fisher, ed., *The Cambridge History of Iran* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1968), pp. 419-420.

(١٢) H. Goblot, «Essai d'une histoire des techniques de l'eau sur le plateau iranien», *Persica*, vol. 8 (1979), p. 120.

٧ - المنطقة الهندية (النظام الآسيوي الرئيسي)^(١٣)

تعد المنطقة الهندية جزءاً من المنطقة الاستوائية الموسمية. تحدد الرياح الموسمية الاختلافات الفصلية، وتؤثر بقوة في المناخ والرطوبة وتكتف البخار في شبه القارة.

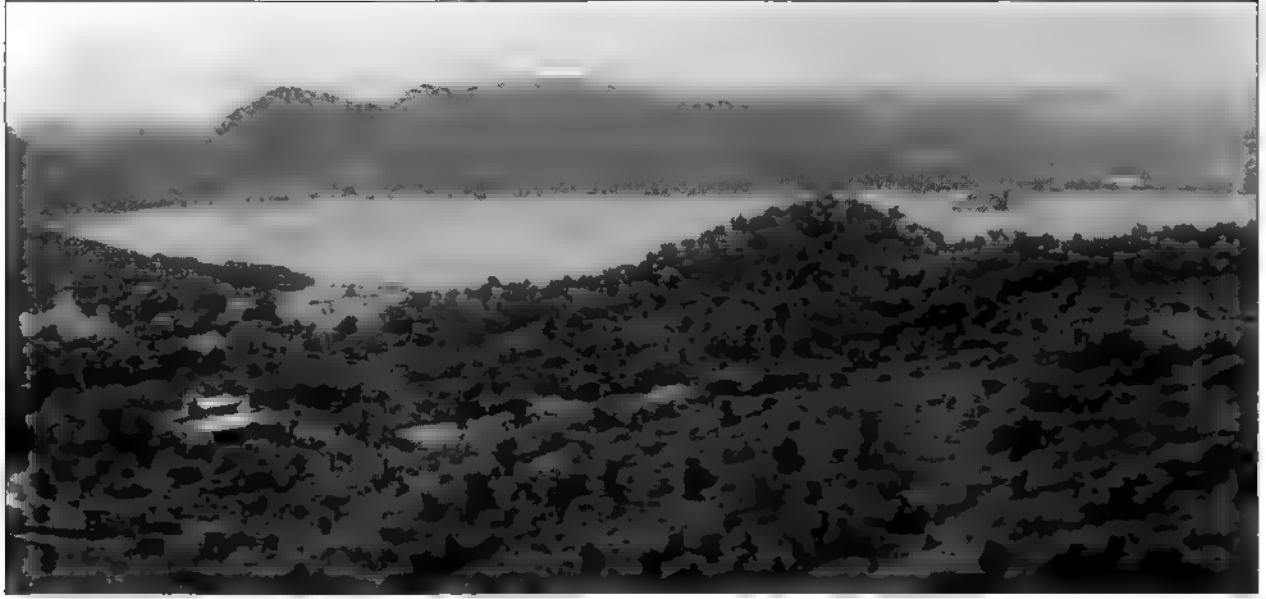
وفي الأراضي ذات الرياح الموسمية الصيفية، حيث القليل من مصادر المياه، فضلاً عن الأنهار الكبيرة والأراضي المحيطة (انظر الرسم الرقم (٢٩ - ١))، يعتمد وجود الأماكن السكنية على طرائق حفظ المياه من فصل الشتاء للفصل الذي يليه.

تعمل البحيرات والخزانات والفساقي والقنوات الصناعية، منذ الماضي، على استكمال مساهمة مياه الأمطار في شبه القارة. وبعد إنشاء مؤسسة سلطنة دلهي منذ بداية القرن السابع إلى القرن الثاني عشر، خضعت تكنولوجيا المياه التقليدية لتغييرات رئيسية بعد وصول المهندسين المعماريين المتخصصين من المنطقة الوسطى من آسيا.

وكان الغزاة الأتراك هم أول من قدّم تقنيات ترشيح المياه، وبخاصة في مناطق الأنهار، في عدد من المستنقعات في البنغال، فبنوا السدود والشوارع والخزانات وسهلوا استرداد مناطق ضخمة في دلتا البنغال (انظر الرسم الرقم (٢٩ - ٢)).

B. And R. Allchin, *The Brith of Indian Civiltization: India and Pakistan before 500 B. C.* (١٣) (Baltimore, MD: Penguin Books, 1968); A. Welch, «Hydraulic Architecture in Medieval India: The Tughluqs,» in: «Environmental Design: Water and Architecture,» *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vol. 2 (1985), pp. 74-81; A. Petruccioli, «Gardens and Religious Topography in Kashmir,» in: «Environmental Design: Mughal Architecture, Pomp and Ceremonis,» *Journal of the Islamic Envinrenmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1991), pp. 64-73; J. L. Wescoat, jr., «Early Water Systems in Mughal India,» in: «Environmental Design: Water and Architecture,» *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vol. 2 (1985), pp. 50-57; R. A. Jairazbhoy, «Early Garden-Places of the Great Mughals,» *Oriental Art*, vol. 4, no. 2 (1958), pp. 68-75; S. A. Rivzi and V. J. Flynn, *Fathpur-Sikri* (Bombay: Taraporevala, 1975), chap. 7; R. Nath: *History of Mughal Architecture*, vol. 1 (New Delhi: Abhinav Publications, 1982); Some Aspects of Mughal Architecture (New Delhi: Abhinav Publications, 1976); Elizabeth B. Moynihan, *Paradise as a Garden in Persia and Mughak India* (New York: George Brazillier, 1979); Sylvia Crowe [et al.], *The Garden of Mughal India* (London: Thomas and Hudson, 1972); Irfan Habib: *The Agrarian System of Maghul India, 1556-1707* (London: Asia Publishing House, 1963), pp. 24-36; *An Atlas of Mughal India* (Delhi: Oxford University Press, 1982), plate 8b; Iqtidar Hussain Siddiqui, «Water-works and Irrigation System in India During Pre-Mughal Times,» *Islamic Culture*, vol. 58 (1984), pp. 1-21; W. H. Moreland, *The Agrarian System of Moslem India* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1929); Anne-Marie Schimmel, «The Celestial Garden in Islam,» in: Elizabeth B. MacDougall and Richard Ettinghausen, eds., *The Islamic Garden* (Washington, DC: Dumbarton Oaks, 1976), pp. 11-40.

الرسم الرقم (٢٩ - ١)
مناظر وبحيرات في المنطقة الهندية



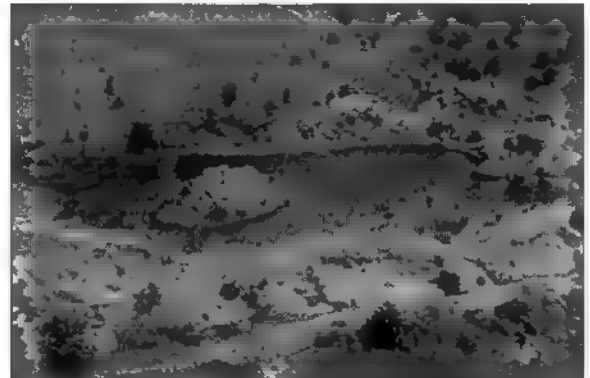
(١)



(د)



(ب)



(ج)

(أ) بحيرة بيتشولا وقصر البحيرة، أودايبور، راجاستان؛ (ب) منظر لحديقة السطح في بحيرة العنبر في راجاستان؛
(ج) منظر لحوض العنبر؛ (د) منظر من حوض أغدال في مكناس ومقطع من دار الماء.

المصدر: Attilio Petruccioli, *Il giardino, Natura, Paesaggio* (Milano: Electa, 1994), pp. 164 and 264.

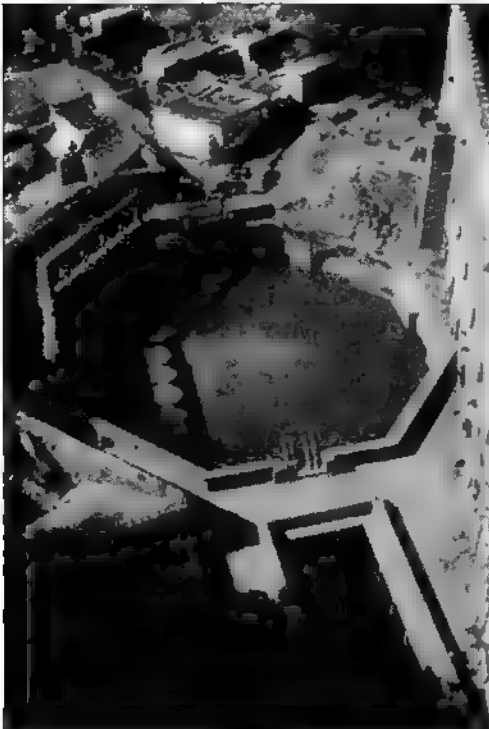
الرسم الرقم (٢٩ - ٢)
مناظر من خزانات المياه



(ب)



(ا)



(د)



(ج)

(ا) خزان ماء محفور في الصخر في شهارة، اليمن؛ (ب) خزان ماء كبير محفور في الصخر في جايبور؛ (ج) البركة الأغالية الكبيرة في القيروان؛ (د) جالرا الكبيرة، بتر مثن (٣٦، ١٠ م). في منطقة رانغ محل، فاتح بور سيكري.

المصدر: Attilio Petruccioli, *Architetture del territorio nei paesi islamici* (Rome: Carucci, 1985), pp. 89-90.

٨ - المنطقة الأيبيرية (المنطقة الغربية من حوض البحر المتوسط):

البرتغال وإسبانيا^(١٤)

يتكون الإقليم الأيبيري في الغالب من جبال تغذي شبكة أيديوغرافية معقدة تتميز بأنهارها الصغيرة، ويكون ذلك في الغالب بسبب الطقس شبه الجاف للبلاد، ولكنها تحفر عميقاً تحت سطح ميسيتا.

في إسبانيا، شاهد الرحالة المسلمون القنوات الرومانية التي تأتي بالماء من مسافات بعيدة، وعلى نفس الطراز أقام العرب على أراضي هذه البلاد (وبخاصة في مدريد) بنية ضخمة من القنوات التي تأتي بالماء من مدنها.

يلخص الجدول الرقم (٢٩ - ٢) أبحاثنا عن الإقليم الإسلامي المتجانس.

سادت دار الإسلام، أي العالم الإداري الإسلامي، فوق أراضي صحراء شمال أفريقيا، وشبه الجزيرة العربية، وإيران، وأجزاء من آسيا الوسطى، وشبه القارة الهندية، والمناطق شبه الجافة القريبة من الصحراء، ومنطقة البحر المتوسط، وجنوب آسيا بمناطقها المناخية والرطوبة والاستوائية. وقد أدت القيود المناخية ونُدرة الأمطار في هذه المناطق الواسعة من كوكب الأرض إلى نشوء علاقة تفاعلية خاصة بين الإنسان وموارد المياه؛ حيث حدثت هذه القيود من الهيكل الاجتماعي للمجتمعات التي وضعت قواعد صارمة للتملك واستخدام وتنمية موارد المياه، مع الأخذ في الحسبان الأنواع المختلفة للمصادر، وذلك قبل تطور الحضارة الإسلامية. وقد تمت ترجمة هذا الهيكل المفروض من خلال الأحاديث الشفهية والقواعد الأخلاقية والتجارب التقنية خلال عصر الحضارة الإسلامية، متخذةً شكل مسائل تشريعية عظيمة دون إعطاء الأولوية لأمر على آخر^(١٥).

C. Bonet y Gallea, *El Problema del agua en Madrid* (Madrid: [n. Pb.], 1935); A. Bazzana and p. Guichard, «Irrigation et Société dans l'Espagne Orientale au moyen age», in: Metral et Sanlaville, ed., *L'Homme et l'eau en Méditerranée et au Proche Orient*, pp. 115-140; J. Bruhnes, *L'Irrigation, ses conditions géographiques, ses modes et son organisation dans la péninsule ibérique et dans l'Afrique du Nord* (Paris: [n. pb.], 1902); A. Bazzana, p. Guichard and Y. Montmesin, «L'Hydraulique agricole dans Al-Andalus: Données textuelles et archéologiques», in: Metral et Sanlaville, ed., *Ibid.*, vol. 4, pp. 57-76; Dozy et De Goeje, trans., *Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrisi*; J. Oliver Asin, *Historia del nombre «Madrid»* (Madrid: [n. Pb.], 1959); L. Bolens, *Les Méthodes culturales au moyen age d'après les traités d'agronomie andalous: Traditions et techniques* (Geneva: [n. Pb.], 1974), et L. Bolens, *Agronomes Andalous du moyen age* (Geneva and Paris: [n. Pb.], 1981).

(١٥) في إطار الحديث عن الثقافة الإسلامية، أبرزت الشريعة القواعد التي تنظم حياة المسلمين، والتي يتم فهمها فقط من خلال القرآن الكريم والحديث الشريف. وقد ميّزت الشريعة ثلاثة أنواع من مصادر المياه التي يمكن استخدامها أو التي تخضع لسيطرة الحاكم.

١ - المياه التي تأتي من الأنهار

أ - الأنهار الكبيرة كنهري دجلة والفرات، ومثل هذه الأنهار تمكن كل شخص من استخدامها للشرب والري من دون أي قيود.

ب - الأنهار الصغيرة التي يمكن أن نتميز فيها بين احتياليين:

- عندما توجد مياه كافية لكل الأشخاص، لكن طريقة الاستخدام يمكن أن تؤدي إلى حرمان بعض المستخدمين، لذا يجب حفر القنوات لنقل المياه من أعلى نقطة من النهر.

- عندما تكون إقامة السد من الأهمية بمكان أو تحديد الأوقات المنتظمة لتدبير المياه الكافية للري، وفي حالات أخرى، يعتبر النهر من حق المجتمع، وتختلف كمية المياه التي يحتفظ بها الفلاح الذي يستفيد من النهر في الوظائف خلال مواسم السنة، وفي نوع الحصاد... إلخ.

ج - القنوات: وتخص المالك أو الملاك الذين تقع هذه القنوات في أملاكهم، وفي حالة تملك أكثر من شخص هذه القنوات، لا يمكن لأحد منهم استخدامها بصفة مستقلة، أو إدخال تعديلات عليها، أو بناء طاحونة أو إقامة جسر... إلخ.

٢ - الآبار

أ - يتم حفر الآبار للاستخدام العام، وتكون المياه متوافرة لكل شخص، ويكون للشخص الذي اشترك في حفر البئر الحق في الحصول على مياهه قبل غيره.

ب - يتم حفر الآبار للاستخدام الخاص، ويكون للشخص الذي يدرك البئر الحق في الحصول على المياه حتى يعيش بالقرب من البئر، ولكنه يُجبر على إعطاء المياه لمن له حاجة مباشرة في المياه، وعندما يغادر مالك البئر هذا المكان، يصبح البئر مشاعاً للاستخدام العام.

٣ - المصادر

أ - المصادر الطبيعية: وهي المصادر التي تتدفق فيها المياه بصفة دائمة، وفي حال عدم توافر المياه كلياً، تصبح الأولوية للشخص الأكثر أهمية في المجتمع، وبصورة مختلفة، يجب تقسيم المياه على نحو عادل.

ب - المصادر المتاحة من خلال حفر التربة، ويكون الشخص الذي قام بالحفر هو مالكها.

ج - المصادر التي يقوم الناس بحفرها في أملاكهم الخاصة، يكون الأمر الوحيد الذي يُجبر عليه المالك هو أن يفي بطلب من يحتاجون إلى المياه بصورة مباشرة. وفي حالة توافر مياه إضافية، يمكن إجباره على أن يوفر المياه الزائدة مجاناً إلى رعاة الماشية الآخرين، ولكن ليس لري محصولاتهم الخاصة.

انظر: *Encyclopaedia of Islam*, word *Mā'* (Leiden: Koninklijke Brill NV, 1999).

انظر أيضاً: D. Bonneau, «Le Souverain d'Egypte, juge de l'usage de l'eau», pp. 69-80; J. Pirenne, «La Juridiction de l'eau en Arabie du sud antique d'après les inscriptions», pp. 81-102; P. Guichard, «L'eau dans le monde musulman medieval», pp. 117-124, et D. Arnaud, «La Législation de l'eau en Mésopotamie du III^{ème} 1^{er} millénaire», pp. 45-59, dans: Metral et Santaville, ed., *L'Homme et l'eau en Méditerranée et au Proche Orient*, J. Pirenne, «Une législation hydrologique en Arabie du sud antique; l'inscription inédite du Djebel Khalbas et le texte CIH 610», dans: *Hommages à A. Dupont-Sommer* (Paris: [n. pb.], 1971), pp. 117-135; A. M. A. Maktari, *Water Right and Irrigation Practices in Lahf* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1971); E. Ashtor, *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages* (London: [n. pb.], 1976); H. Bruno, *Contributions à l'étude du régime des eaux en droit musulman* (Paris: [n. pb.], 1913); Cl Cahen, «Le Service de l'irrigation en Iraq au début du XI^{ème} siècle», *Bulletin d'Études Orientales*, vol. 13 (1949-1951), pp. 117-143; Th. F. Glick, *Irrigation and Society in Medieval Valencia* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1970); H. Goblott, *Les Qanats: Une technique d'acquisition de l'eau* (Paris: La Haye: [n. pb.], 1979); M. Solignac, «Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VII^{ème} au XI^{ème} siècle», *Annales de l'Institut d'Études Orientales*, vols. 10-11 (1952-1953); J. Sourdel et D. Sourdel, *La Civilisation de l'Islam classique* (Paris: [n. pb.], 1968), and A. M. Watson, «The Arab Agricultural Revolution», *Journal of Economic History* (1974).

الجدول الرقم (٢٩ - ٢)

المناطق المتجانسة	علاقة المياه/ المورفولوجيا	شكل أنظمة المياه	شكل السكن	بنية المكان المديني	الأماكن الحضرية
شمال غرب أفريقيا	ندرة الأمطار والأنهار الصغيرة	الآبار والخزانات	تحدد البنية المدينية من خلال إضافة الوحدات وتكتلها بالقرب من الخزانات المدينية ذات المدى الكبير أو التي يتم إمدادها من الآبار العامة والخاصة	بنية أحادية أو متعددة القطبيات	القيروان - فاس
		ينابيع متفجرة	مناطق إستراتيجية جميلة مع ضواحي	بلدات زراعية عظيمة مع بنية واسعة التشيك	تونس، الجزائر، مكناس، مراكش
		ينابيع متفجرة	واحات ذات أنظمة سكن واسعة الانتشار	بنية شجرية للمستوطنة ومناطق المزراع المحيطة بها	مزاب، سرف، قورارة، توات، فكيك أو ققيق، تيديكلت
شمال شرق أفريقيا	ندرة الأمطار وغياب شبه كلي لمسارات المياه باستثناء النيل وفيضاناته الدورية	النهر العظيم (النيل)	مدن رئيسية عظيمة	نماذج مركزية بارزة ومستقلة	القاهرة
		القليل من الوديان والينابيع المتفجرة	القليل من أنظمة المزراع	بلدات زراعية صغيرة واسعة الانتشار ذات هيكلية مشطية	أنظمة استيطان لسهول النهر
		القليل من الوديان والينابيع المتفجرة	أنظمة سكن وواحات معزولة	بنية شجرية من البلدات ومناطق المزراع	واحات سيها، أوياري، وواحة مرزوق
الأناضول	منطقة معتدلة ذات مناطق هطول مستمر تشكل بركاً صغيرة	أنظمة الأقنية	مراكز حضرية كبيرة	نظام مديني متعدد الفروع	إسطنبول

تابع

منطقة سورية/ العراق	منطقة معتدلة، إقليم معتدل مع بعض المناطق ذات الهطول الثابت	نهر عظيم (دجلة، والفرات)	مدن - عواصم كبرى	نماذج مركزية بارزة ومستقلة	دمشق وسامراء
منطقة شبه الجزيرة العربية	أمطار قليلة - عدم توافر البحيرات والأنهار وفق بنية لا تتغير	الأحواض والصحاري	أنظمة واحات صغيرة وبنية مدنية تُحدد من خلال إضافة الوحدات المجمعة حول الصحاري	أنظمة سكن مركزية مستقلة حول الصحاري المدنية	مكة والمدينة وأنظمة الواحات في نجد
إيران	ندرة الأمطار وموسميها	قناة	مدن وقرى واقعة في سفوح الجبال	بنية شجرية من البلدات والمناطق الزراعية المحيطة بها	طهران، قزوین، کرمان
		سدود تخزين	مدن وقرى الأودية	نماذج مركزية بارزة ومستقلة	أصفهان
الهند	مناطق غنية بالأمطار التي تتركز في فترتين على مدار السنة	السدود والبحيرات الصناعية	المدن والعواصم الكبرى	نماذج مركزية بارزة ومستقلة	دلهي، فاتح بور سيكري، أغرا، لاهور
			نظام القرى الزراعية الصغيرة التي تنظم الشبكة الإقليمية	شبكة صغيرة من البلدات المستقلة من شبكة القنوات	منطقة دواهر
		أحواض وصحاري	بلدات زراعية صغيرة مكثفة	هيكل أحادي ومعتمد القطاعات	غوجارات
المنطقة الأيبيرية	مناطق معتدلة مع وجود ندرة في الأمطار والجفاف	قناة	بلدات كبيرة	نماذج مركزية بارزة ومستقلة	مدريد وقرطبة

وفي ما يتعلق بالشريعة، تخبرنا التشريعات الخاصة بالمياه عن قدرة المسلمين على نقل الإقليم، أو تغيير أحواله من أجل ضمان نمو مستوطنات مستقرة. اعتمدت مسألة تأمين مصادر مستديمة للمياه، وعملية نقل الإقليم، بصورة مباشرة، على منطق وجود المجتمع المستقر، الذي تم النظر إليه واستيعابه بوصفه بنية اجتماعية، على عكس المجتمع البدوي^(١٦). يمكننا من هذه النقطة فهم الخلل الكبير الموجود في التاريخ الإسلامي بين البدو الذين اعتادوا التنقل السريع بحثاً عن مناطق الكلاً التي ترعى بها الماشية، وبين المجتمعات المستقرة التي نغزو إليها ثقافة حضرية وزراعية خالصة داخل المنهج الإسلامي^(١٧).

أدت حاجات المياه، وبخاصة في المناطق التي يتعذر وصول المياه إليها، والتي أشرنا إليها، إلى نشوء بنية اجتماعية معقدة ومواد خاصة ساعدت على جمع المياه وتنظيمها وتوزيعها^(١٨). وقد فرض الاهتمام الجيد بموارد المياه هيكلاً اجتماعياً وسياسياً وفتياً تألف من الأفراد الذين لديهم القدرة على إدارة وتقسيم العمل على عدد كبير من المزارعين والعمال، كما أوحى ذلك بوجود سلطة مركزية قوية يكون المزارع فيها عبداً للأرض بنفس المقدار الذي تكون فيه الأرض عبداً للمياه^(١٩).

كان وجود المياه ملموساً في الطبيعة أمامنا عبر خطوط القنوات والأخاديد والتفريعات التي تحدد أشكالاً هندسية منتظمة من البساتين، والأراضي المروية من الآبار، والحواجز التي تفصل بين الممتلكات والشوارع والمنازل. وقد حددت المياه بالطريق المستقيم المجرى الذي يتخذ شكل شبكة هندسية ويقدم المفهوم الخاص بالشكل الذي يمكن التحكم فيه، والتربة الزراعية المحددة التي يمكن قياسها، كما تدخل هندستها في المساحات الصالحة في أمكنة السكن، وتنظم عملية الترابط والتجمع. أما النقيض من هذا فيتمثل بالمساحات التي تقع خارج المناطق السكنية، والمساحات

Miquel André, *L'Islam et sa civilisation* (Paris: Colin, 1977), pp. 17 et 120; G. Marçais, (١٦) «L'Urbanisme musulman» dans: *Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman* (Alger: Imprimerie Officielle, 1937), et G. E. von Grunebaum, *Islam: Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition* (London: Kessinger Publishing), chap. 8: The Structure of the Muslim Town.

L. Sourdel et J. Sourdel, *La Civilisation de l'Islam classique* (Paris: Arthaud, 1976); J. J. (١٧) Saunders, «Le Nomade comme bâtisseur de empire: Conquete mongole», *Diogenes*, no. 52 (1965), pp. 85-109; M. F. Von Oppenheim, *Die Beduinen*, 3 vols. (Leipzig-Wiesbaden: [n. pb.], 1939-1952), et X. De Planhol, *Les Fondaments géographiques de l'histoire de l'Islam* (Paris: Flammarion, 1968).

K. A. Wittfogel, *Il Dispotismo orientale*, 2 vols. (Firenze: Vallecchi, 1968), Aa summery of (١٨) the theories of Wittfogel is in: G. Sofri, *Il Modo di produzione asiatico* (Torino: Einaudi, 1969), p. 134.

J. Weulersse, *Paysans de la Syrie et du Proche Orient* (Paris: Gallimard, 1946). (١٩)

الشاسعة من الصحراء، التي لا شكل أو حدود لها، والتي يبدي الإنسان المسلم كراهية عميقة لها^(٢٠).

تاريخياً، كانت مشكلة المياه، في المناطق الجغرافية التي أمكن الاعتماد فيها على معدل جيد من مياه الأمطار وحيث النشاط الزراعي لا يرتبط بتنمية أنظمة ري معينة، مفروضة كمسألة مرتبطة بما توفره المدينة من هذه الموارد. وفي هذه الحالة، اتخذ جمع المياه وتوزيعها معنى حضرياً قوياً، بالرغم من وجود مصادر هذه الموارد في أماكن بعيدة (كما حدث مع أنظمة القنوات في روما والقسطنطينية، وغيرهما من البلاد)، كما حاولت التعبير عن نفسها، وبخاصة في ظل وجود سلطة محلية قوية، بالأشكال المعمارية ذات الأهمية الفائقة، التي أصبحت في الغالب نقطة محورية لتنظيم النظام المدني. وعند هذه النقطة، أصبحت المدينة والريف مستقلين كلياً.

لكن الوضع يصبح مختلفاً تماماً حيث المدينة تصبح بحاجة إلى الريف لتأمين حاجاتها المادية^(٢١). في هذه اللحظة يغدو بقاء المدينة معتمداً على ما تقدمه بساتين الريف ومساحاته الزراعية. فتغدو المدينة أقل أهمية من الريف، فيجزئ الريف نفسه إلى قرى صغيرة تقوم بإدارة احتياطات المياه القليلة وتنظم نفسها وفق اقتصاد يقوم على الكفاف. بهذه الطريقة، يصبح مكان المياه مكاناً للمرور، حتى من دون معالم معمارية مهمة، وتوظف في خدمة المدينة كما الريف، والإنسان كما الحيوان.

ومع التخطيط التصاعدي للإسلام، وبالرجوع إلى تقنيات القرون الوسطى، ساعدت المياه على المحافظة على الاقتصاد والتوسع في الأنظمة التقليدية لإدارة الإقليم. على سبيل المثال، جرى في إمبراطورية المغول في الهند (١٥٢٦ - ١٨٧٥)، تأسيس النظام الإقليمي الكبير من المدن الرئيسية الكبرى وهي دلهي وأغرا وفاتح بور سيكري ولاهور، حيث كان للمياه فقط دور عمراني وزخرفي، بالتراكم مع نظام من القرى التي تبعد ٢ - ٣ كم، حيث تم تخصيصها بزراعة مروية كثيفة^(٢٢). وما لا شك فيه

R. Berardi, «Spazio e città nella tradizione del Maghreb: Interpretazione del ruolo e del significato della città nel medioevo islamico,» dans: *La città tra colonialismo e nuova dipendenza* (Milano: Angeli, 1981), pp. 25-27, and M. Ira Lapidus, «Muslim Cities and Islamic Society,» in: M. Ira Lapidus, ed., *Middle Eastern Cities* (Berkeley, CA: University of California Press, 1969), p. 60.

R. Lebeau, *Les Grands Types de structures agraires dans le monde* (Paris: Masson, 1972), (٢١) et H. Awad, «L'Eau et la géographie humaine dans la zone aride,» *Bulletin Sociologie et Géographie d'Égypte*, vol. 31 (1958).

Ahmed Enayat, «Origin and Evolution of the towns of Uttar Pradesh,» *Geographical Outlook*, (٢٢) vol. 1 (1956), pp. 38-58, and Gavin Hambly, *Cities of Mughul India* (London: Elek, 1968).

أن هذا المنطق من الانتشار كان ضرورياً لبقاء المدن الرئيسية نفسها يعززه توافر كميات كبيرة من الأمطار الصيفية، وهو ما سهل شيد أعمال ضخمة مثل السدود والبحيرات الصناعية. وبالرغم من أن هذه الأعمال لم تكن وحدها موجودة في العالم الإسلامي، إلا أنها اتخذت هنا شكلاً أكثر من أي مكان آخر، تميّز بالأبهة رمزاً لقوة المملكة، سمحت بها وفرة المياه وتحولت إلى جزء رئيسي من الهندسة المعمارية لتلك المدن ورمزاً لثراء المملكة.

في ظروف أخرى مختلفة، مثل المناطق السكنية الداخلية في العراق، المقيدة بالعثور على المياه الجوفية ونقلها، ويندرية مياه الأمطار والمياه السطحية، نرى أنها تعتمد مباشرة على الحالة الفيزيائية المعينة للإقليم، كما هو الحال في كرمان (التي تفيد من وجود أحواض ومنخفضات في الأرض كانت تعمل كنقاط اتصال خاصة بالمنحنيات والتربة) وفي أصفهان (قربها من موارد المياه وطاقاتها النسبية) وفي طهران (حيث توجد المياه تحت جبل وتصل إلى معظم الأراضي عبر أنظمة القنوات)^(٢٣).

وحتى مع وجود مزيد من الاختلافات التي تحدد وجود مدن مثل دمشق وفاس والقيروان ومكة، أي وجود واحات مع مصادر مياه استثنائية.

كان توافر الماء يعني وجود حضارات بأكملها، كما كان غيابه سبباً في موتها. وعندما كانت إدارة التوازن القائم بين الموارد المحلية واستخدامها تجري بصعوبة، أو تنهار، فالنتيجة تكون تدهور أراض بأكملها. يمكن رؤية هذا الموقف في جميع أنحاء العالم الإسلامي، في الهند، وسورية، وليبيا، وبلاد الرافدين (العراق)، وفلسطين، والجزيرة العربية، وشمال أفريقيا. وعليه، فقد أدى انهيار سد مأرب الشهير في القرن السادس قبل الميلاد إلى انهيار ممالك جنوب شبه الجزيرة العربية بطريقة لم يكن ممكناً علاجها، كذلك كان هجر مدينة رئيسية مثل سامراء، التي كانت للحظة عاصمة العباسيين، نتيجة مباشرة للصعوبة التي لازمتها منذ ظهورها في توفير مياه الشرب لها بطريقة منتظمة^(٢٤). وبالطريقة نفسها حدث الانهيار التالي السريع لفتح بور سيكري، المدينة المغولية الجميلة، بعد أربعة عشر عاماً فقط من تأسيسها ويسبب النقص

Fredy. Bemont, *Les Villes de l'Iran: Des cités d'autre fois à l'urbanisme contemporain*, 3 (٢٣) vols. (Paris: l'auteur, 1969), et G. Marcais, «L'Urbanisme musulman», dans: *Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman*, 2 vols. (Algiers: [n. pb.], 1957).

(٢٤) دائماً في بلاد فارس، فقد شيد سد كبير في الأهواز، أكثر من ٣٠٠٠ قدم في الطول وبسماكة ٢٥ قدماً، يحمل الماء في ٣ أفنية قروي الحقول المملوكة من ساكني المدينة. من دون السد ما كانت المنطقة تُسكن. إنهار السد في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ومعه انهارت المدينة. انظر: أحمد سوسة، ري سامراء في عهد الخلافة العباسية،

الملحوظ في جدول توفير المياه وانتشار الكثير من الأراضي القاحلة بالتالي، التي كانت في ما مضى بساتين وبحيرات صناعية. وفي بلاد فارس، أدت التغيرات التي حدثت في القوى السياسية التي صاحبها تغييرات أخرى مهمة في التحكم بالمياه، إلى أفول الازدهار عن تلك الأراضي - وهذا أمر استمر حتى يومنا هذا^(٢٥).

وقرت المياه، عبر الزمن، أسباب قيام الحروب والغزوات وإلحاق الدمار المتبادل، وباتت تمتلك قيمة مادية وروحية^(٢٦) في آن معاً، كما بات لها قيمة معمارية عندما أصبحت تقف خلف الانجازات المادية التي حدثت في توفير المياه وجمعها ونقلها؛ وهي بذلت بذلك من شكل السطح الفيزيائي. وما الاعتقاد الشعبي الشهير الذي يذهب إلى أن بئر القيروان (بئر بروطة) وبئر زمزم الموجود في مكة متصلان في الأعماق، غير تعبير عن القيمة المقدسة لهاتين المدينتين المرتبطة بقدسية المياه الواصلة إليهما. وهذا ما دفع مارسيه إلى تعريفهما قائلاً: هناك «بئر تقوم حوله مدينة»^(٢٧) (انظر الرسم الرقم (٢٩ - ٣)).

نجح الإسلام، بقدر ما سمحت الظروف التاريخية، في إقامة نظام من البنى التحتية والتقنيات الخاصة بالمياه والتوسع فيها، ما زالت موجودة إلى اليوم في الأقاليم الخاضعة له. وقد كان ذلك مفيداً أيضاً في توسيع تدخل الدولة في الاقتصاد الزراعي المحلي. نشأت فرق من عمال الصيانة وبناء الأعمال الخاصة بالمياه، وخبراء المقاييس، والوكلاء الذين لديهم القدرة على تسجيل توزيع المياه وفرض ضرائب عليها وإنهاء النزاعات الداخلية بين الجماعات حول تقسيم المياه، فألفت جيشاً حقيقياً لديه القوة لضمان السلطة المستمرة للدولة. من جهة أخرى، احتاجت صيانة الأعمال المائية إلى عمل دؤوب، وهو الأمر الذي لا يمكن ضمانه إلا في وجود أمان سياسي، وسهّل ذلك قيام حكومات مستقرة. علاوة على ذلك، أدى مبدأ التوزيع العادل للمياه إلى قبول النظام العام، كما نشأ عن التوزيع غير المشروع للمياه توترات حادة داخل المجتمعات المحلية الصغيرة التي تم إجبارها على تعيين مسؤولي مياه مختصين بها، فأدى كل ذلك إلى زيادة ترابط المجتمعات والجماعات المحلية وتشجيع الخصوصية المحلية.

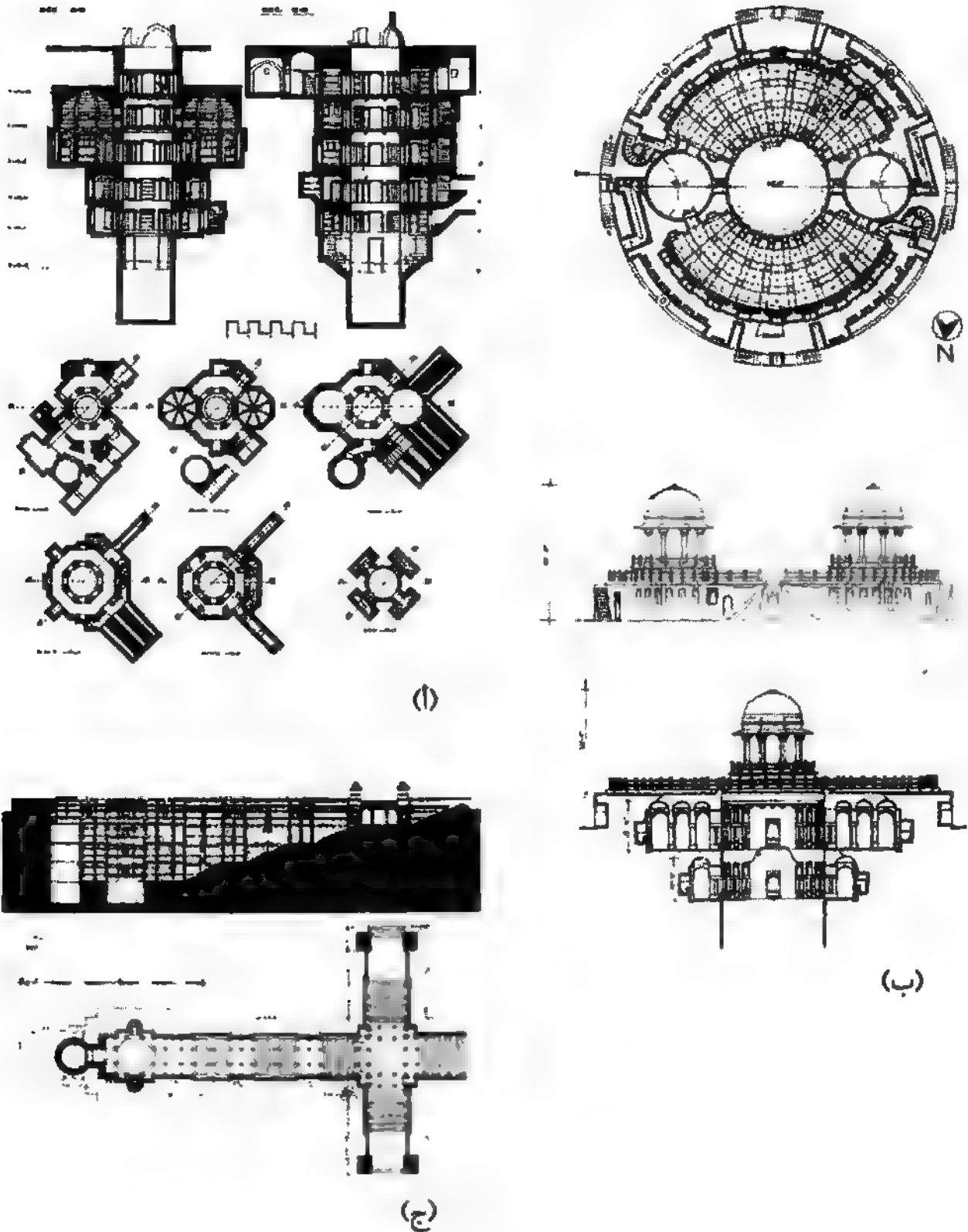
٢ ج (بغداد: مكتبة المعارف، ١٩٤٨)، و«Samarra: A Study in the Medieval Town Planning» in: A. H. Hourani and S. M. Stern, eds., *The Islamic city* (Oxford: Cassirer, 1970), 138f.

G. N. Curzon, *Persia and the Persian Question*, 2 vols. (London: Longmans, Green and Company, 1892), pp. ii and 347-348.

A. Schimmel, «The Water of Life.» in: «Environmental Design: Water and Architecture.» (٢٦) *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vol. 2 (1985), pp. 6-9.

G. Marcais, «L'Urbanisme musulman.» dans: *Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman*, vol. 1.

الرسم الرقم (٢٩ - ٣)
مخططات وخزانات للمياه



(أ) الكويباغار في أغرا. مخططات ومقاطع؛ (ب) بئر دائري في قلعة فيروز آباد، دلهي، ١٣٥٤؛ (ج) باؤلي (خزان) غوجارات.

Attilio Petruccioli, *Dar Al Islam: Architetture del territorio nei Paesi Islamici* (Rome: المصنر: Carucci, 1985), pp. 77, 99 and 100.

جعلت تعقيدات هذه الظواهر، وبخاصة الترابط الخاص بين شكل المياه والشكل المدني، الكلام على التوسطات والتحويلات القادمة من ثقافات مختلفة وخصائص مختلفة في المشهد الطبيعي حيث تحققت هذه الأشكال، أكثر ملاءمةً من الكلام على أنظمة معمارية خاصة بالعالم الإسلامي. وعدا بعض الاستثناءات النادرة، وتبعاً لوجود أغراض معينة، فإن الشكل المدني هو نتيجة الشكل الذي اتخذته البساتين المنتجة من المياه والذي تحول لاحقاً إلى سبب في تحولات المدينة. لذلك، كثيراً ما كانت البساتين والحدائق وتنظيم التربة الزراعية التي تروى بالمياه، هي التي تحدد هيكل المدينة الإسلامية، أو شكل النطاق الحضري المحدود، أو انفتاحها على المساحات المستخدمة، أو قربها من المناطق القاحلة في الصحراء التي لا يمكن الوصول إليها أو التحكم فيها.

وتبعاً للتربة الزراعية؛ كان شكل البساتين المروية يتوافق في كثير من الحالات مع الأشكال المدنية نفسها. ينشأ عن هذه العوامل الدور الحاسم الذي أدته الحدائق في الحضارة الإسلامية وأهميتها في الثقافة والدين، استناداً إلى حاجة الإنسان الماسة القديمة إلى تحويل المساحات الطبيعية لضمان بقائه في ظل ظروف متغيرة باستمرار. ويبين ذلك أيضاً أن العلاقة بين المدينة والمياه هي في الواقع - باستثناء المدن الرئيسية - علاقة غير مباشرة، لا تنشأ في الإطار الخاص بالمكان المدني، لكنها تترجم غالباً إلى لغة مدنية من المعايير والمنطق الرسمي التي تنتمي إلى المناطق الزراعية المحيطة.

وبدقة أكبر، يؤلف كلٌّ من المدينة والريف الإسلاميين وجهين مختلفين للمكان نفسه، ويخضعان للقواعد والمبادئ النازمة نفسها. والقرى إنما تنشأ كإحدى وظائف الإقليم لمواجهة الحاجات البشرية، ولزيادة الحدود المادية الخاصة بالأقاليم المروية التي تتوحد خطوة بعد أخرى في اتجاه المدينة، وبذلك يمكن أن تبقى مترابطة داخل المدن نفسها بوصفها بساتين مروية أو حدائق سرية^(٢٨).

(٢٨) إضافة إلى وجود أسوار دفاعية، تبقى غالباً القيد الهندسي للتربة المنتجة، وهي لا تفصل بين المباني والبساتين، والأراضي المروية من الواحات، حتى في تعيين نفس الاسم للمدينة ولمحيطها المروي. يُخارى على سبيل المثال وكذلك عدة واحات إيرانية في آسيا الوسطى. انظر: G. E. von Grunebaum, *Islam: Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition*, chap. 8: «The Structure of the Muslim Town».

القيمة والمعنى اللذان ينبان للحدائق في العالم الإسلامي هما على كثير من الأهمية في إدراك العملية التي تجري من خلالها هيكل المكان المدني والمدني الإضافي. ولفهم شبكة الوظائف التي ينطوي عليها التحول المدني والنسيج الذي يصل بين الأمكنة المبنية كما في عدد من المدن الإسلامية. بهذه المفردات تؤلف الحدائق عاملاً ضرورياً في

ثانياً: أشكال المياه

كما تنظم المياه عناصر الإقليم والعناصر المدنية، فهي تبين في صورها المتغيرة أنواع الحدود المختلفة بين الأمكنة المبنية والأمكنة المفتوحة غير المبنية. بهذا المعنى، يمكننا محاولة تصنيف أشكال المياه والفئات المختلفة من الأشكال المدنية وبنى الإقليم التي توجد بها.

في وسعنا تحديد صنفين أو فئتين، وسندعوها كما يلي:

- أشكال المياه المتجددة والمستمرة.

- أشكال المياه المنعزلة والقطبية.

أصناف المياه	سلوك شخصي معن	سلوك شخصي مستتج	بنية الإقليم	بنية المكان المدني
المياه الجارية	مفتوحة	متجددة	مستمرة كشبكة أو شجرة	متشعبة بشكل طولي أو قطبي
المياه الساكنة	مغلقة	قطبية	منعزلة: شعاعية	متشعبة متجمعة: مركزية (نوية) أو متعددة المركز (متعددة النواة)

تضم الفئة الأولى أشكال المياه الجارية، وتنقسم إلى أشكال طبيعية، كمياه الأنهار والينابيع المائية ومياه الأمطار، وأشكال اصطناعية، كالقنوات (الفجارة والساقية) المستخدمة لأغراض مختلفة لنقل المياه عبر الطرق الإقليمية أو خلال التوزيع القليل للمزارع والتجمعات الاستيطانية.

أما الفئة الثانية فتشمل المياه الساكنة، وتنقسم بدورها إلى الأشكال الطبيعية لها كالبحيرات والمستنقعات، والأشكال الصناعية كمياه الآبار والخزانات والأحواض والسدود والبحيرات الصناعية.

تتميز كل من هاتين الفئتين بمسار شكلي معن، وآخر شكلي مستخلص؛ حيث يمكن ملاحظة الخصائص الشكلية للمياه، وقابليتها الطبيعية المسبقة

حسن عمل المنزل الجميل أو القصر الفخم، كما في حالة إسلام الغرب، بل تؤلف عاملاً مهماً أيضاً في المزيج المدني وفي تصميم الأحياء الجديدة. بهذا المعنى، وبناء على التجربة التيمورية، جرى تقديم ذلك من قبل الإمبراطور باير في المدن الهندية (أغرا، دلهي، مثلاً، لدى فاتح بور سيكري) وشاه عباس في المدن الصفوية، لتؤدي دوراً حاسماً في التطوير المدني، كما في أصفهان وشيراز. انظر: P. Cunco, *History of City Planning: The Islamic World* (Bari: [n. pb.], 1986), p. 71.

للتحول إلى حدود للبنية الشكلية للإقليم والمكان المديني. كما يمكن، في أغلب الأشكال الأساسية، أن نكتشف في منطقة معينة وجود مسارات شكلية مختلفة لا تكون على القدر نفسه من الأهمية. بهذه الطريقة يمكن دائماً أن نستخلص من هذا السياق تلك المبادئ التي تحكم الخيارات الإجمالية والإنتاجية والشكلية لنظام استيطان معين.

١ - أشكال المياه المستمرة المتجددة

أ - المجاري النهرية الكبرى

(١) المستوطنات التي تقوم قرب الأحواض النهرية الكبرى (كما في نهر النيل ومنطقة الهلال الخصيب... إلخ) أو شبكات الأنهار: تتميز مصر وبلاد الرافدين (العراق) والوادي الهندي ومنطقة الغانج (الهند) بوفرة لا حد لها من المياه. وقد ساهمت هذه الحالة الفريدة تقريباً في العالم الإسلامي في تطور حضارات وهاكل إقليمية في غاية الأهمية، ومنذ أمد بعيد، لم تفعل الحضارة الإسلامية أكثر من تكييفها فقط. يمكن أن ندرج في هذه الفئة نوعين من أنواع الاستيطان:

(أ) المستوطنات التي تنشأ حول شبكات الأنهار الكبرى: نشأت هذه المستوطنات قرب مجاري الأنهار على وجه الخصوص، واستوعبتها في الغالب (القاهرة، بغداد).

تقع القاهرة جنوب نقطة التقاء فرعي نهر النيل (رشيد ودمياط اللذان يشكلان منطقة الدلتا). وقد حدث التوسع الأكبر للمدينة بعد انتهاء الحقبة الفاطمية، مع تشييد قلعة صلاح الدين نحو عام ٥٧٢هـ / ١١٧٦م، لا كمدينة حصن بل كمدينة للإقامة.

جرى إمداد القلعة بمياه نهر النيل من خلال بناء قناطر (قناة). وفي عام ٧١٢هـ / ١٣١٢م^(٢٩) بنى الناصر محمد أربع سواق على النيل لرفع مياه القناطر إلى القلعة، وفي عام ٧١٤هـ / ١٣٤١ أدخل إليها باقي الأسوار التي كان قد أصلحها صلاح الدين. ترتبط صعوبة مناقشة الأثر المباشر للنيل في شكل المدينة بحقيقة أن مجرى النهر قد تغير عدة مرات منذ الفتح الإسلامي، وهو ما جعل من المُحال رسم علاقة مباشرة مع المياه من خلال الناعورة والساقية، ومن خلال شبكات النقل والرفع المختلفة لموارد المياه.

K. A. C. Creswell, *The Muslim Architecture of Egypt* (Oxford: Oxford University Press, (٢٩) 1959), pp. 255-259.

في حقة الفتح الإسلامي كانت المياه تصل إلى قصر الشام ومسجد عمر، ولكن بعد بضعة عقود تراجعت لتكون مساحة بين القلعة ومجرى النيل الجديد، وهو ما سمح ببناء جزء جديد من المدينة. فقد جفت البرك داخل المدن الحديثة؛ ولنذكر التغير التدريجي للجزء الغربي من الدلتا، فقد ظهرت بعض الجزر، وكانت المجاري المائية التي عزلتها عن الضفة قد فصلها المجرى الرئيسي للنهر والمياه المتدفقة إبان فترات الفيضان فحسب، فأصبحت هذه الجزر بركاً مائية ما لبثت أن جفت تماماً فاستخدمت لإقامة الحدائق والأماكن السكنية عليها. لذلك فإن المنطقة بين مجرى النيل الفعلي ومنطقة الاستيطان البعيدة إنما ظهرت أثناء الفترة الإسلامية.

أما بغداد فتتميز بوجود علاقة مختلفة وأكثر مباشرة. تأسست بغداد عام ١٦٢هـ^(٣٠)، على يد الخليفة المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥م) وهي تقع في قلب العراق، حيث ملتقى شبكة المجاري المائية الكثيفة، مياه الفرات بمياه دجلة، وهي مياه صالحة لري الحقول، كما تصلح كمانع دفاعي للمدينة. تقترب مياه دجلة والفرات بعضهما من البعض الآخر في منطقة بغداد كثيراً، وهو ما يمكن شبكة الطرق النهرية من توفير العبور وربط الأجزاء الداخلية المختلفة من المدينة والمنطقة الزراعية الكبرى ومن تقريب المناطق التجارية للمستوطنة المدنية^(٣١).

للمدينة الأصلية مخطط دائري، مع ثلاثة أسوار قطرية. يحيط أضيقتها بقصر الخلافة، أما الثاني ففيه أماكن إقامة الجيش، ويحيط أوسعها بالأحياء حيث منازل عامة الشعب. أما الأحياء التجارية، البازار، فتقع خارج أسوار المدينة. وفي القرون الوسطى أصبحت الطرق المائية عنصراً مهماً في المدينة، لذلك ربطت كلياً بهور صناعي. تشكل قنواتها الرئيسية شبكة لها أربعة جوانب، لا يقطعها إلا مدينة السلام، مدينة المنصور. وتشكل القنوات جزراً صغيرة حضرية يربطها جسر يفصل ممر المشاة عن القوارب الثقيلة التي تعبر المدينة. ويمكن تفسير الموقع الجغرافي الخاص بالمدينة من خلال إظهار أهمية وضعها المركزي بالنسبة إلى المنطقة الخلفية الغنية التي سمحت بانعكاس سريع للدخل العالي في المباني المدنية البارزة^(٣٢).

G. Le Strange, *Baghdad during the Abasid Caliphate* (Oxford: Oxford University Press, ١٩٢٤); J. Lasner, *The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages* (Detroit: WSU Press, ١٩٧٠), and R. McCormick Adams, *Land Behind Baghdad* (Chicago, IL: Chicago University Press, ١٩٦٥).

G. Le Strange, *The Lands of the Eastern Caliphate*, 2nd ed. (Cambridge, MA: Cambridge University Press, ١٩٣٠).

(٣٢) من الصعب تقييم الإحصاء الدقيق لبغداد، فعدد الجوامع والحمامات موضع مبالغات وتناقضات

ومن المحتمل أن تكون الفيضانات، واستحالة ضبط الإنتاج الزراعي، وتحرك طرق الإنتاج نحو المناطق الشمالية، هي في أصل نقل العاصمة إلى سامراء شمال بغداد، وهو ما قام به المعتصم عام ٨٣٦م. وقد عاصر هذا استثمار أموال إضافية في بناء قنوات واستصلاح أراض جديدة. وسببت فيضانات القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وما صاحب ذلك من عدم صيانة القنوات، غصة حقيقية لبغداد، أدت إلى دمار حاق أحياء بأكملها، ومعلناً بدء التراجع المستمر للمدينة وإنتاجية الأراضي المحيطة بها.

وعلى ضفاف نهر دجلة، بعيداً من مدينة سامراء ومنطقة بغداد، يمكننا أن نجد أيضاً مدن ديار بكر (تركيا) والموصل وتكريت (العراق).

(ب) المستوطنات المنتشرة بانتظام حول السهل الخصيب: يشيع هنا وجود القرى الصغيرة والمنازل الفلاحية. وهي تأخذ شكلها مباشرة من نظام إدارة الحقل، ومن منطق خلق حالة مستقرة ودورة زراعية، تتظم من خلال شبكة كثيفة من القنوات. تشكل هذه المستوطنات أساس الاقتصاد الذي استندت إليه المدن الرئيسية في الحضارة الإسلامية. وهي تتمركز مباشرة حول الأنظمة المدنية الكبرى، غير بعيدة من بعضها البعض. وهي تمتلك أبعاداً صغيرة أو بالغة الصغر وعليها تنظيم المنطقة الزراعية وإدارتها، وضمان الصيانة المستمرة والإنتاجية الدائمة لها.

في بعض أنواع التربة، حيث يؤدي وجود المخاطر المائية إلى تحويل المناطق الزراعية إلى مستنقعات، تكمن المشكلة الرئيسية في إزالة المياه الزائدة. ويؤدي هذا إلى تغتيت شديد للتربة نظراً إلى الاستخدام الكثيف لقنوات التجفيف. هذا المظهر الخاص الذي يشكل سطح المنطقة يحدد بقوة بنية التجمعات الاستيطانية، التي تميل نحو اتخاذ شكل مكاني منتظم تقريباً، يدعم تقدم قنوات التصريف.

يمثل وادي النيل^(٣٣) واحة تمتد لمئات الكيلومترات. يبدأ «النيل الإسلامي» من أسوان. وفي اللوهان، تغذي سلسلة من الفروع القناة التي تروي كامل الواحة المنتشرة حول مدينة الفيوم. ومع تقدم الوادي، تقوم شبكة واسعة من أقنية الفيضانات الكافية

(٣٠٠٠٠٠) جامع و ٦٠٠٠٠ حمام في عصر الموقن، و ٢٧٠٠٠ في عصر المقتدر، و ١٧٠٠٠ لمصر الدولة، و ٥٠٠٠ لمعدل الدولة، و ٣٠٠٠ ليهاء الدولة). وفي العادة يخدم الحمام ٢٠٠ منزل، وهو ما يعطي فكرة عن عدد المساكن والسكان.

W.Welcocks, *Egyptian Irrigation* (London: Spon, 1889), and J. Losach, *Le Delta du Nil: (٣٣) Etude de geographie humaine* (Cairo: Societe de Geographie d'Egypte, 1935).

لتوزيع المياه في المنطقة، في حين تتسع الأراضي المروية في الدلتا، حيث المياه أقل كمية وسرعة وأكثر ميلاً إلى الركود، وتحددها قنوات عدة ومجار طبيعية للمياه. يعتمد بقاء الزراعة في المنطقة، وكذلك القرى الصغيرة، على الفيضان السنوي للنيل^(٣٤)، وعلى وجود مناطق طمئية معينة. كانت الزراعة والمستوطنات السكنية في مصر القرون الوسطى هشة إلى أقصى حد. إذا زاد منسوب نهر النيل في فترة الفيضانات على عشرين ذراعاً تغدو المناطق الزراعية بالكامل عرضة للغرق بمياه الفيضان لمدة طويلة جداً، وعاجزة عن إنتاج أي محاصيل. وعلى النقيض من ذلك، عندما يكون منسوب مياه النيل أقل من ١٦ ذراعاً، لا تعود المساحات المغمورة تأخذ الكمية الكافية من المياه التي تتيح لها ضمان الإنتاج الزراعي اللازم لجميع السكان، ولا يعود أحد يشعر بالأمان ما دام منسوب مياه النيل دون الـ ١٦ ذراعاً. لذلك كانت أخبار منسوب النهر تظل سراً لا يشاع للعامة حتى لحظة وصول المنسوب إلى عتبة الأمان^(٣٥).

تغمر مياه الفيضان المناطق الزراعية كافة أثناء فترة الفيضان، كما تغمر القرى، حتى ولو كانت تقع في أماكن مرتفعة أو على بعض الربوات الصخرية، يعزلها الفيضان ولا يعود الوصول إليها ممكناً إلا بواسطة القوارب أو المسارات السطحية للسدود، وعندما تتلقى التربة الماء الكافي يترك المسؤولون السدود مفتوحة في بعض الأجزاء حتى يدعوا فرصة لفيضان المياه على الحقول الأخرى. وبعد أن تتراجع المياه تدريجاً، (بعد ٤٠ يوماً تقريباً) يمكن للمزارعين استئناف أنشطتهم بزراعة الحقول. ويقوم الفلاح بممارسة هذا النظام الزراعي دون إمدادات مياه أخرى، ويسمى هذا النظام «الحصاد الشتوي»^(٣٦).

F. W. Robins, *The Story of Water Supply* (London: [n. pb.], 1946), et D. Bonneau, «Le Nil a (٣٤) l'époque ptolémaïque: Administration de l'eau au III^e siècle le avant notre ère,» dans: Metral et Sanlaville, ed., *L'Homme et l'eau en Méditerranée et au Proche Orient*, pp. 103-114.

(٣٥) أدخل الخليفة الفاطمي المعز ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م هذا التقليد إلى مصر، حيث منع إذاعة منسوب ارتفاع مياه النيل إبان الفيضانات السنوية، حتى لا يحدث بلبلة وأزمة مالية. كان موظفو قياس الارتفاع يعلنون عنه بالإشارات لا بالمعلومات الدقيقة، أما حين يصل الارتفاع إلى ١٦ ذراعاً (ويكون ذلك في شهري تموز/ يوليو وآب/ أغسطس) فيمكن إذاعة الخبر، كما يفرض الحاكم الضريبة المناسبة (الخراج) على الأرض المروية. انظر: H. M. Rabie, *The*

Financial System of Egypt AH 364-741/AD 1169-1341 (London: Oxford University Press, 1972), p. 73, et D. Bonneau, «Le Nilometre: Aspect technique,» dans: Metral et Sanlaville, ed., *Ibid.*, vol. 3, pp. 65-73.

(٣٦) يجري تمييز هذا النوع من المحصول من المحصول الصيفي، وهو يمارس في خلال شهري شباط/ فبراير وآذار/ مارس، مستخدماً نظاماً اصطناعياً من الري يقوم على استخدام دواليب الماء (المُسْتَقْدَمَة من التقليد الفارسي، وهي كالتابورة، مع فارق أنها تحرك من خلال دوران الشيران). هذه التقنيات كانت مستخدمة في مصر قبل وصول العرب، ولا يزال بعضها إلى يومنا هذا. وكانت الدواليب الخشبية من أنواع عدة أشهرها الساقية والنحلة منتشرة حتى القرن الرابع للهجرة/ العاشر الميلادي على طول نهر النيل تؤمن الري للمزروعات كما مياه الشرب للبلدات والقرى.

تمثل منطقة الهلال الخصيب موضوعاً شيقاً آخر؛ حيث يحدّها نهرا دجلة والفرات. نشأ سهل الهلال الخصيب^(٣٧) منذ حقبة حضارات الشرق الأوسط القديمة في بلاد الرافدين، وتطور حتى القرن الرابع الميلادي في شكل قرى زراعية مبنية من الطوب المصنوع من التربة الرسوبية حيث الغرين، ويعلو كلاً منها برج. تتكون منطقة العراق بكل تعقيداتها الحالية من مسطح سهلي يرويه نهران كبيران إلا أنهما يفتقران إلى انتظام نهر النيل^(٣٨).

يتدفق نهر الفرات بمنسوب أعلى من دجلة، ومن ثم فإن شبكات القنوات الكثيفة جداً والمتوازية بعضها لبعض، التي تعترض النهر، تصرف المياه الزائدة فقط من مياه نهر الفرات إلى نهر دجلة، ويجري وفق العادة المحلية المتوارثة التحكم بكمية المياه الموزعة، وفترة الاستخدام بين مستخدمي الأراضي على جوانب القنوات، وكان على المسؤولين المعنيين التشديد على هذا القانون من خلال مراقبة وضبط مغالقات المياه ويواباتها، نظراً إلى طبيعة هذه الشبكة من القنوات الكثيفة المقابلة لقناة النهروان^(٣٩)، وهي القناة الصناعية الوحيدة التي تتدفق عبر الأحياء السكنية على نهر دجلة، وتنفصل عنه في الجزء الشمالي من بلدة سامراء^(٤٠)، ثم تلتقي به ثانية بعد ١٧٠ كم إلى الجنوب من بغداد.

وفي أثناء الحقبة الإسلامية الأولى، تمت إعادة بناء القناطر؛ لذلك بلغت شبكة القنوات أعلى تطور لها، وانتشرت على جوانبها سلسلة لا تحصى من البلدات الصغيرة، التي بدأت في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وقد مرت هذه القناة بتغيرات مختلفة حتى عام ٣٢٦هـ/٩٣٧م، حيث قطع محمد بن رائق القناة وفتحها على نهر

(٣٧) C. Cahen, «Le Service de l'irrigation en Iraq au debut du XI^{ème} siecle.» *BEO*, vol. 13 (1949- 1951), pp. 118-119 et 130-131; M. R. Al-Feel, *The Historical Geography of Iraq between the Mongolian and Ottoman Conquests, 1258-1534* (Najaf: [n. pb.], 1965); E. Wirt, «Landschaft und Menesch in Binnendelta des unteren Tigris.» *MGG Hamburg*, vol. 52 (1955), pp. 7-70, et E. de Vaumas, «Le Controle et l'utilisation des eaux du Tigre et de l'Euphrate.» *Revue de Geographie Alpine*, vol. 46 (1958), pp. 235-331.

(٣٨) دفع عدم انتظام تدفق المياه إلى استعمال أنواع مختلفة من دواليب المياه (دولاب، غرافة، شادوف) تتميز بطرائق مختلفة في أخذ الماء وتوزيعه على الحقول، باعتبار الفصل وعدد الرجال والحيوانات الضرورية للعمل.

(٣٩) Ibn Scrapion, «Description of Mesopotamia and Baghdad.» edited and translated by G. Le Strange, *JRAS*, vol. 19 (1895), pp. 267-270.

(٤٠) يمكن أن ننسب الترك المائل لمدينة سامراء لهذا المزيج، القرب من قناة صناعية تأمين تدفق مياه كافٍ للعاصمة في ظل نهر غير منتظم التدفق كدجلة. انظر: J. M. Rogers, «Samarra, A Study in Medieval Town Planning.» in: Hourani and S. M. Stern, eds., *The Islamic city*, pp. 138 and sqq.

لم يحدث الشيء نفسه لبغداد التي انتفعت بدجلة والفرات معاً، مع التعرض لفيضاناتها والخراب الناتج عن ذلك.

دجلة في محاولة فاشلة لمنع زحف بَـجَـكَم على بغداد. ومن هذه اللحظة جرى ترك هذه الأراضي، وحول جزء من أرض العراق المركزية إلى منطقة مستنقعات، تعرف باسم البطيحة، التي لم يعد ممكناً وضع نظام تصريف لها^(٤١).

ب - أنظمة الأنهار الصغيرة

القرى التي تقع على طول المجاري المائية الصناعية في مسار متغير (الأنهار، الأودية، والأنهار المتقطعة) وتتحكم في وظيفة الماء من خلال إقامة القنوات وأنظمة الصرف (الفجارة والساقية والمُـدِي): في هذه الحالة لا تأخذ البنية المدنية شكلها من مجرى المياه مباشرة.

وفي حالات التقلبات الشديدة في المياه أو عدم توافرها لمدة طويلة، يتم ربط هذه الأنظمة النهرية ببنى من أجل الحصول على مياه الأمطار والمياه السطحية والحفاظ عليها (في داخل صهاريج وأحواض وأوعية). تتجه المناطق السكنية لهذا السبب إلى التجمع حول البنى المائية الأخيرة التي تفقد بصورة واضحة في المورفولوجيا الحضرية الاعتماد على المسارات المائية الأولى.

لذلك، يغذي المطر في العاصمة اليمنية صنعاء^(٤٢)، التي تقع على مستوى أعلى من ٢٣٠٠ متر فوق سطح البحر، على هضبة من الأرض محاطة بالجبال، الوادي الذي يمد المنطقة والمزارع الخلفية النائية بها. وفي وادي ظهر يخرج النهر من قطع وشقوق في جوانب الصخور التي تسد السهل المتزعر المفصول عن المنازل المعزولة، بينما تستوطن المناطق السكنية بالقرب من الجبل، حول حوض كبير يقوم بتصريف المياه القادمة من الجبال نفسها.

لا يختلف هذا الوصف عما ورد في القرآن الكريم عن سد مأرب^(٤٣) الذي يقع في اليمن على هضبة يبلغ ارتفاعها ١٢٠٠ م في دلتا وادي الظنة العظيم، الذي جف من المياه حالياً.

Le Strange, *The Lands of the Eastern Caliphate*, pp. 18, 36 and 57-61; M. Ionides, *The Regime of the Rivers Euphrates and Tigris* (London: [n. pb.], 1937); R. Mc C. Adams, *Land behind Baghdad* (Chicago, IL: Chicago University Press, 1965), pp. 67, 76-79, 81, 86, 94-95 and 99-105, figs. 5, 6, 8, 9, 18, 19.

R. B. Serjeant and R. Lewcock, eds., *San'a: An Arabian Islamic City* (London: World of Islam Festival Pub. Co., 1983).

(٤٣) تجف مياه النهر في مساحة ضخمة تزيد على ١٠٠٠٠ كم^٢، عند الهضاب الشبالية الشرقية لليمن، وتتصف بوفرة الأمطار. وقد ألزم التوفير في الماء بناء سدّ غير منذ القرن الخامس قبل الميلاد وجه المنطقة كلياً جاعلاً إياها منطقة

وربما نجد تشابهاً كبيراً في السلوك الحضري في منطقة مزارع القبائل، التي تقع في شمال غرب الجزائر حيث سلسلة جبال جرجرة التي تميز المنطقة، وتتحكم بوادي صومام الذي يصب في البحر المتوسط بالقرب من ميناء بجاية.

وفي عمق الصحراء في منطقة مزاب جنوب الجزائر تقع مدينة غرداية^(٤٤). يبلغ امتداد المنطقة نحو ٨٠٠٠ كم^٢ على سهل صخري واسع وتنحدر تدريجاً من الغرب إلى الشرق وتقطعها أودية عميقة ومتعرجة يعود اسم شبكة مزاب إليها. داخل هذا الامتداد الواسع المأهول بقبائل من البدو، في قلب مزاب، خمس مدن متلاحمة [أو القصور الخمسة] (هي: العطف، بنورة، بني يزقن، مليكة، غرداية) أسسها الإبااضيون في القرن الخامس (الحادي عشر الميلادي)، وهي تمتد على طول وادي مزاب بمسافة تبلغ ١٢ كم.

يتكيف كل شيء في هذه المنطقة على الاعتماد على موارد المياه السطحية. ولا تمتلك الطبقة الأرضية التحتية في الحقيقة القدرة على إعادة تخزين المياه الطبيعية. ويعتبر الوادي العنصر الوحيد القادر على إعادة ملء هذه الطبقات، من خلال طوفانه العنيف والنادر الذي ينحدر بشكل مناسب من خلال سدود وحواجز تعمل على خفض قوة النهر أثناء الفيضان، ومع نظام قوي من المزاليج التي تأخذ شكل وعاء مشطي معكوس يقوم بتوزيع المياه ويغذي العديد من قنوات التوزيع في الهواء الطلق التي تروي بشكل مباشر مزارع النخيل. وبعد هذا المسار الطويل يترشح الماء من خلال الرمال ويعيد ملء الطبقة العميقة.

وقد كانت طبقات وادي مزاب ووادي النساء ووادي متليلي تفيض بالمياه من دون إعاقة لمسارات تبلغ ١٠٠ - ٢٠٠ كم قبل اختفائها في الصحراء. لكن السدود الحاجزة التي تم بناؤها من أجل ري مزارع النخيل والتي تساعد على الرشح وتوفير الإمدادات الجوفية، أدت إلى ظهور أحجام كبيرة من المياه. وقد أدى ارتفاع مستوى طبقة المياه الجوفية إلى زيادة عمق الآبار ليرواح ما بين ٢٠ و ٣٠ م^(٤٥).

مروية وإلى انبياره حيث انتهت معه مملكة سبأ. انظر: A. P. Caussin de Perceval, *Essai sur l'Histoire des Arabes* (Paris: F. Didot, 1847-1848).

M. Mercier, *La Civilization urbaine au Mzab* (Algiers: [n. pb.], 1932); A. De Calassanti (٤٤) Motylinski, *Notes historiques sur le Mzab* (Algiers: [n. pb.], 1889); C. Donadieu [et al.], *Habiter le Deserto les mozabites* (Brussels: Mardaga, 1977); Kleinknetch, «Le Problem de l'eau au Mzab,» *Bolletino della Societa Geographica Italiana* (1958); Berrien, «A Gardaia, le miracle de l'eau,» *RCDC d'Afrique Francaise*, vol. 48, no. 12 (December 1938), pp. 311-316.

(٤٥) في البتابوليس [القصور الخمسة] أيضاً، تحفظ التربة الكلسية الصخرية في أقصاها بعض الماء وعلى عمق

كانت خربة المَفَجَر^(٤٦) المعروفة باسم قصر هشام^(٤٧) الاسم الحديث لما تبقى من قلعة أموية لم يكتمل بناؤها في وادي النويمة في شمال جرش. تشمل هذه البقايا على ثلاثة مبان منفصلة هي قصر ومسجد وحمام مرفق بحجرة، وعلى الجانب الشرقي لهذه المباني يوجد فناء كبير ذو أعمدة مع حمام سباحة مزخرف في منتصفه. وتوحي أساسات الجدران الموجودة في شمال الموقع بأن المباني كانت محاطة بأحد الحقول التي كانت تطوقها الجدران، بما في ذلك الحقول المتزرعة والمباني الموجودة في وسط الحقول وربما استراحة صيد. وقد ضمن نظام تجمعات الري، الذي تم تطويره منذ الحقبة الرومانية، وقام على ثلاثة مصادر مجاورة - هي السلطان وعين النويمة وعين الديوك - إمداد المباني السكنية بالمياه، فضلاً عن تزويد الأراضي الزراعية أيضاً. ويشهد الاسم الجديد لهذا المكان، الذي يعني «مكان قدوم المياه من الأرض»، على وفرة المياه في هذه المنطقة. إننا لا نعرف الكثير عن هذا المكان، ولا عن المناطق السكنية الأخرى من هذا النوع، الذي يقع على الهضبة السورية والمعروف بـ «قلاع الصحراء»^(٤٨).

يُنظر إلى هذه الأماكن التي ما زالت موجودة في قلب الصحراء حتى الآن على أنها كانت مقر إقامة الخلفاء الأمويين، إلى أن جاء سوفاجي^(٤٩) وافترض أن هذه المباني، المتصلة بمزارع شاسعة مع قرى صغيرة ومحميات للصيد، كانت قرى حقيقية حضرية ومنازل مزارع تم بناؤها حول القلعة يرتادها الأمراء بعيداً من الحكم. وقد شيدت هذه الحصون في وسط الدولة الأموية على بعد مئات الكيلومترات من أقرب منطقة حدودية، لكنها كانت مناطق محصنة ضد الغزوات البيزنطية^(٥٠).

٤٠٠ متر. يجري الوصول إلى هذه المياه بحفر آبار عميقة ولكن في القرارة وزلفانة تظهر المياه على السطح بضغط شديد ساعة يري مساحات كبيرة رغم أنها تتبخر بسرعة في درجة حرارة تبلغ ٤٥ أحياناً.

D. C. Barmaki, *Guide to the Palace of Khirbat Al-mafgar* (Amman: Dept. of Antiquities, (٤٦) 1956).

(٤٧) كرم هشام، الخليفة الأموي العاشر، السنوات الأخيرة من عهده الذي بلغ ١٥ عاماً للتطوير الزراعي والاقتصادي للأراضي من خلال أعمال ظاهرة كانت بدأت مع سابقه. انظر: F. Gabrieli, *Il califfato di Hisham*. *Studi di storia omayyade*, *Memories de la SA d'Alexandrie*, 7/1 (Alexandria: [n. pb.], 1935).

K. A. C. Creswell, *Early Muslim architecture, AD 622-750* (Oxford: [n. pb.], 1969), (٤٨) pp. 561-576.

J. Sauvaget, *Chateaux Umayyades de Syrie* (Paris: Geuthner, 1968); U. Monneret De Villard, (٤٩) *Introduzione allo studio dell'archeologia islamica: Le Origini e il periodo amayyade* (Venezia: [n. Pb.], 1966), and O. Grabar [et al.], *City in the Deserto Qasr al Hayr East*, 2 vols. (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1978).

S. Tateo, «The Landscape of the Limes Arabicus: from the Defensive Roman Castra to the (٥٠) Omayyadi palaces,» (Doctoral Thesis, Tutor A. Petruccioli, Politecnico of Bari, Faculty of architecture, Bari, 2004).

وكان بناء هذه الحاميات المتعددة على الحدود مفيداً في حماية طرق التجارة، حيث كانت عبارة عن معازل مكرّسة لحماية الزراعة وغيرها من المصادر (الأودية) ضد غارات البدو. لذلك كان يتميز كل من قصر الحيرة الغربي، وقصر الحيرة الشرقي، وخربة المفجر، وماشاتا، وقصير عمرة، وغيرها من القصور المتعددة، بأسوارها المرتفعة^(٥١).

وبالمثل كانت تتميز المناطق السكنية الواقعة في فاس^(٥٢)، وهي مدينة أسسها إدريس في الطرف الشمالي الشرقي من سهل سايس في القرن الثامن الميلادي، تماماً حيث تجري مياه الطرف الغربي من المنطقة نزولاً في وادي سبو، عابرةً وادي فاس. كانت هذه المنطقة الأساسية غنية بالمياه، إذ إلى جانب ذلك النهر (وادي فاس)، كان

لدراسة وتحليل القصور الأموية يمكن العودة إلى: P. Canivet and J. P. Rey-Coquais, eds., *La Syrie de Byzance a l'Islam VII-VIII^{ème} siecles: Acts of the International Discourse* (Damascus: [n. pb.], 1992). وبشكل خاص، انظر المقالات التالية: H. Kennedy, «The Impact of Muslim Rule on the Pattern of Rural Settlement», pp. 281-290, and I. Shahid, «Ghassanid and Umayyad Structures: A Case of Byzance apres Byzance», pp. 291-298.

يشير هـ. كينيدي إلى اهتمام عميق من الأسرة الملكية بفنّ العمارة عبر إيجاد أرض شاسعة قرب المناطق التي كانت مبنية أيام البيزنطيين بهدف تجنّب التناقص مع السكان المحليين. كان لكلّ المواقع مصادر مياه كسدود وقنوات. وقد بينت تنقيات شلومبرغر على وجه الخصوص في قصر الحيرة الغربي أنه يتعامل مع آثار أموية وليست رومانية. هناك سؤال مركزي هو سبب هذا التركيز في الاستثمار في مناطق كذلك، حيث الأمطار قليلة ولا يعتمد عليها. الأجوبة متعددة، من موضوع الصيد، إلى الرغبة في العيش على حافة البادية، وسكانها البدو. كما يلحظ كينيدي الوجه المالي المتمثل بتنشيط الأسواق المحلية. ويكشف شاهد عن دور الفسامة العرب المسيحيين في تسهيل احتلال العرب لسورية وشرق الأردن. انظر: G. R. D. King and A. Cameron, eds., *The Byzantine and Early Islamic Near East: II. Land use and Settlement Patterns* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994).

وبخاصة الفقرات التالية: في مواجّه السؤال الدقيق حول المصطلحات والفارق بين مصر، قصر، مدينة، يشير إلى أن مفردة قصر لا تعني فقط القصر أو الحصن، وإنما أيضاً المسكن الزراعي. ويشير ماك آدمز إيتز في «المستوطنات وأنماط الاستيطان في شمال ووسط الأردن في سنوات ٤٩ - ٩٣ هجري» إلى استمرار طرائق الحياة الرومانية مع المسلمين الأوائل وطرانق عدّة وفي مجالات عدّة.

انظر فصل «القصور الأموية» في: G. Bisheh [et al.], eds., *Gli Omayyadi: The Rize of the Islamic Arts* (Milano: Electa, 2000).

(٥١) يبلغ طول سور قصر الحيرة الشرقي ٧ كيلومترات وعرضه ١,٥ كيلومتر، من الجدران الصخرية، وارتفاعه ١,٥ متر، فيما ارتفاع سور ثاني يحيط يبلغ مترين وهو من الطوب المحتمى. ووسط هذه الأسوار غير المنتظمة يجري «وادي» يغذي يساراً ويميناً بضع قنوات.

(٥٢) S. Bianca, «Fes: The City of Water, Gardens and Fountains», in: «Water and Architecture», *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vol. 2 (1985), pp. 58-63; Titus Burckhardt, «Fes» in the *Islamic City* (New York: UNESCO, 1980); *Schema Directeur de la ville des Fes* (New York: UNESCO, 1980); S. Bianca «Fes-Toward the Rehabilitation of a Great City, Seminar 2: Aga Khan Award for Architecture» (Istanbul: [n. pb.], 1978), and *Stadttebau in Islamischen Landern*, ETH/ORL Institute (Ziurich: [n. pb.], 1980).

هناك عدد من المصادر المائية الأخرى - قدرها ليون الأفريقي بـ ٦٠٠ - التي يتم توزيع المياه منها لعدة أغراض، بما في ذلك جرّها إلى البيوت وأماكن العبادة والمدارس والنُّزُل^(٥٣). وقد ضمن وجود هذا النهر توافر كمية إضافية من المياه التي استخدمت لتشغيل الطواحين وللتخلص من النفايات ومن أجل ملء فسافي الشرب والأحواض وري الحدائق أيضاً. ذلك الوقت، تم تنفيذ بعض الأعمال المهمة، لكننا لا نعرف بصورة دقيقة أشكال توزيعها داخل المناطق الحضرية^(٥٤).

وتفيد المعلومات الرئيسية المتوافرة بأن المدينة كانت تحتوي على شبكة طويلة من القنوات منذ فترة طويلة، بعضها سطحي وبعضها في باطن الأرض، يصب من القنوات الرئيسية عبر أنابيب من الفخار لإحضار المياه إلى جميع المنازل، ومن هناك إلى المجاري التي تعبر الأحياء المختلفة^(٥٥). يرجع أصل شبكة البنية المائية هذه إلى القرن الحادي عشر تقريباً، وقد وصلت إلى أقصى تطور لها خلال العصر المريني في القرن السادس عشر.

وفي بعض المناطق غير المحظوظة بموارد المياه، كما في غوطة ليبيا السابقة، أو أودية جبال الأطلس المغربية^(٥٦)، سمحت مصادر المياه القليلة بقيام مشهد يتميز بعدة واحات ذات أبعاد صغيرة. من بين هذه المناطق تبدو حالة منطقة غوطة دمشق لافتة^(٥٧). فقد قامت مدينة دمشق حيث وجد نهر بردى، وهو النهر الوحيد الذي يتدفق بالمياه بصورة دائمة في المنطقة، والذي ينبع من هضبة عابراً عدة جبال قبل أن ينتهي في الصحراء. والفضل لنظام الري الجيد، حيث تعلم الناس كيفية استخدام هذه المياه؛ فتمكنوا من استصلاح جزء من الصحراء، وهو ما جعل دمشق أحد أكبر المناطق الزراعية في منطقة آسيا بأكملها، وتعتبرها الأدبيات الإسلامية إحدى الجنان الثلاث على الأرض (مع سمرقند والأبلة)^(٥٨).

Leo Africanus (16th Century AD), *Description de l'Afrique*, translated by A. Epaulard, 2 vols. (٥٣)
(Paris: Adrien-Maisonneuve, 1956), vol. 1, pp. 179-241.

R. Le Tourneau, *Fes avant le protectorat* (Casablanca: [n. pb.], 1949), pp. 232-239. (٥٤)

MUHTE, *Schema Directeur d'urbanisme à Fes*, Annex 13: Notes sur les Fontaines de Fes (٥٥)
(Fez: [n. pb.], 1977), and W. Betch, «The Fountains of Fes,» AARP (December 1977), pp. 33-41.

J. Celerier, «Le Paysage Rural au Maroc,» *Hesperis* (1943), pp. 129-142. (٥٦)

R. Tresse, *L'Irrigation dans la ghuta de Damas*, *Revue des Etudes Islamiques*; 3 (Paris: (٥٧)
Geuthner, 1929), pp. 459-476.

R. Thoumin, «Notes sur l'aménagement et la distribution des eaux à Damas et dans Ghuta,» (٥٨)
BEO, no. 4 (1934), pp. 1-26.

تمكنت دمشق بفضل موقعها بين الصحراء والجبال وخصوبة تربتها وغزارة مياهها، من جذب الكثير من السكان وهو ما جعلها عاصمة كبرى. تحيط غوطة دمشق بالعاصمة الأموية خارج أحراج الربوة، وقد غدت مشعة بفعل شبكة مياه قوية أمكن من خلالها حفر آبار بارتفاعات مختلفة في موازاة مسار النهر. وعلى طول هذه القنوات التي تضخ خارج الربوة، تتدفق المياه بفعل الجاذبية فلا تحتاج إلى قنوات أو سدود للتحكم فيها. ومن بين عدد من القنوات المختلفة، لا يعبر مدينة دمشق سوى اثنتين منها (قنوات وبانياس) بينما تتدفق القناة الثالثة (الثورة) نحو الأحياء الخارجية. تتميز دمشق بوجود نظام شبكات من الطرق المستقيمة والتقاطعات المستطيلة الشكل. ويلى نظام قنوات الري، نظام مياه الشرب لتزويد المناطق الحضرية بالمياه وتزويد المنازل الخاصة والمباني العامة بالفاسقي والسبل، متفعة من نظام شبكة المياه، كمخطط جيد مصمم للنظام المدني.

وفي واحة أصفهان، في العراق الحديث، يعتبر المصدر الرئيسي للمياه هو نهر زاینده رود. باستثناء مناطق قَرِيدَن وتشهار محل الجبلية، تتم عملية الري بأكملها من خلال مياه النهر عبر القنوات والآبار. ويستقبل نهر زاینده رود، الذي ينبع من المنحدر الشرقي لإقليم زرد كوه، الكثير من الروافد المختلفة التي تأتي من مرتفعات قَرِيدَن وتشهار محل ويتدفق نحو الجنوب الشرقي عبر مدينة أصفهان، وأخيراً يتجه نحو بحيرة غاوخوني في الجزء الشرقي من المدينة. وبين لنجان، حيث يدخل نهر زاینده رود سهل أصفهان وبحيرة غاوخوني؛ تروي مياهه مناطق لنجان وماربن جي وكراج وبراءان ورودشت^(٥٩)، وذلك بفضل استخدام ١٠٥ أقنية معروفة محلياً باسم مُدي. ويرجع ابن رسته أول تنظيم لشبكات المياه إلى أردشير بابك^(٦٠)، بينما ترجع التقسيمات الحديثة إلى شاه عباس^(٦١). ويقطع النهر بين لنجان وغاوخوني نحو ١٢ جسراً دائماً واثنان مؤقتان^(٦٢).

(٥٩) كان يوجد في إقليم أصفهان شبكة من المستوطنات، كان أهمها في عهد المغول ثلاث: أصفهان، فيروزان، وفارغان. وكانت تتألف من ٨ مقاطعات و ٤٠٠ قرية زراعية محاطة بأراض مروية غنية. انظر: G. Le Strange, *The lands of the Eastern Caliphate* (London: [n. pb.], 1919), pp. 40-51.

(٦٠) أحمد بن عمر بن رسته، كتاب الأخلاق النفيسة (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩١).

(٦١) لم يكتمل مشروع شاه عباس من أجل أصفهان كلية، وذلك كما وَرَدَ من خلال ما ذكره الرحالة الإيطالي بيتر ديللا فالي، حيث أراد الملك تشكيل صورة المدينة كـ «تشهار باغ»، عظمة التي يحاورها الرأسية كانت على هيئة طريق على شكل فروع شجرة ضخمة، أما المحاور الأفقية فقد شكلها نهر زاینده رود. انظر: Zayanda Rud and A. Petruccioli, *Dar Al Islam Architectures of the Islamic Lands* (Rome: Carucci, 1985), p. 164.

(٦٢) H. Goblott, «Dans l'ancien Iran: Les techniques de l'eau et la grande Histoire,» *Annal* (٦٢)

بعد هذه الجسور المتقدمة الموجودة في ورزنه، يوجد ثلاثة سدود يتم استخدامها لرفع المياه من أجل ري المناطق المحيطة. وخلال الحقبة الصفوية، تم تطوير المدي حتى أصبحت شبكة دخلت، عبر استغلالها انحدار التربة، مدينة أصفهان مصممة البنية فيها. وعلى طول هذه الشبكة تم بناء الأكشاك والقيلات وبدأت القنوات في تأدية وظيفتها كمسارات للمياه مع وجود الجسور وجسور المشاة لتجاوز هذه المسارات.

دخلت المياه كل البيوت في هذا الوقت. ودفعت هذه التطورات الممتازة شاردان^(٦٣)، الذي كان في زيارة إلى بلاد فارس في الفترة ما بين ١٦٦٤ و ١٦٧٧ إلى التحدث عن أصفهان واصفاً إياها «بأحد أجمل المدن في الشرق بأسره». انعكس تطوير شبكات المياه في كل أنحاء وادي أصفهان في ظل الحكم الصفوي من خلال مشروعات المياه الطموحة التي تم تنفيذها في فترة ما قبل عهد الصناعة: أدى بناء نفق كوه رانغ، عبر حرف مسار نهر قارون^(٦٤)، إلى زيادة تدفق مياه نهر زاینده رود بصورة كبيرة.

ج - أنظمة القنوات المائية وبنائها

المستوطنات التي تأخذ شكلها من المناطق الزراعية وأنظمة الري في الأرياف

تبدو هذه الحالة شبيهة ظاهرياً فقط بما تم تحليله من الأحواض الكبرى الجيدة الري، إلا أن الفرق الجوهرى يكمن في مصدر المياه، فمن حيث الأبعاد وإمدادات

Economies Societes Civilisations, vol. 18, no. 3 (1963), pp. 499-520; J. C. Cardonier, «Les Tendances nouvelles de l'agriculture irriguée dans l'oasis de Isfahan,» *Revue Géographique de l'Est* (1964), pp. 387-392; B. Spooner, «City and River in Iran: Urbanization and Irrigation of the Iranian Plateau,» *Iranian Studies*, vol. 7 (1974), pp. 681-714, and A. K. S. Lambton, «The Regulation of the Waters of the Zayande Rud,» *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, vol. 9 (1938), pp. 663-673.

Chardin, *Voyages*, edited by Langles (Paris: [n. pb.], 1811), vol. 8, p. 134. (٦٣)

(٦٤) كان الشاه طهماسب (٩٣٠ - ٩٨٤هـ / ١٥٢٤ - ١٥٧٦م) أول من حاول تحويل مياه نهر قارون إلى نهر زاینده رود عبر ربطها بنفق تحت قمة الجبل الذي يفصلها. وقد تم صرف النظر عن هذا العمل، لكن شاه عباس (٩٩٦ - ١٠٣٨ / ١٥٨٧ - ١٦٢٩م) قام بتحليل المشروع مرة ثانية، وأقنع عن فكرة النفق كذلك، إذ على الرغم من توظيف ١٠٠٠٠٠ رجل لهذا المشروع فقد فشلت هذه المهمة. ثم قام شاه عباس الثاني (١٠٥٢ - ١٠٧٧هـ / ١٦٤٢ - ١٦٦٧م) بمحاولة أخرى، حيث وضع ثقته في أحد المهندسين الفرنسيين يدعى جينيست، فبنى سداً على نهر قارون يبلغ طوله ٩١م وارتفاعه ٣٢م لتحويل مياه النهر عبر قناة. وقد افترض سميث أن جينيست كان يفكر في ما هو أبعد من مجرد تحويل النهر، إذ كان يأمل في تقليل مقدار الحفر في الجبال عبر رفع منسوب النهر. وقد صرف النظر عن هذا المشروع بعد حفر أول ٣٠ متراً من القناة التي كانت ستربط النهرين. بينما ظهرت الفكرة مرة ثانية خلال حكم رضا شاه بهلوي الذي أكمل حفر القناة، المعروفة بنفق كوه رانغ عام ١٩٥٣، الأمر الذي أتاح زيادة تدفق المياه الواردة من نهر زاینده رود في زراعة المزيد من الأراضي في المناطق التي يتدفق فيها النهر.

المياه يمكن مقارنتها بالأنهار الحقيقية، ومن حيث الانتظام وعمق خططها يمكن أن تمثل محوراً يستدعي وجود مساحات مفيدة للإنسان، من المدينة والريف والعلامات المعمارية وكذلك المناظر الطبيعية. تعتمد المستوطنات في هذه الحالات على تنظيم التربة والعمل وفق نظام نموذجي وتتمتع بانتظام نوعي متعامد.

في الهند، بدأ بناء القنوات الصناعية الكبرى إبان عهد مملكة السلطان علاء الدين الخلجي (٦٩٥ - ٧١٥ / ١٢٩٦ - ١٣١٥) قرب نهاية القرن الثامن الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وكان ذلك يهدف إلى التحكم في النهر لأغراض مائية، فصُممت هذه القنوات بصورة رائعة، وشيدت لتحقيق تطور زراعي^(٦٥).

يرجع فضل بناء عدد معين من القنوات في المنطقة الواقعة بين سوتلج ودلهي إلى فيروز شاه. وقد جذب الانتباه إليها أولاً الطريق الواسع إلى هاريانا الذي كان كبيراً لكن جافاً؛ حيث لم يكن هناك سوى موسم حصاد واحد كل عام؛ في فصل الأمطار. وفي عام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م أسس مدينة هيسار فيروزا (هيسار الحديثة) ومن ثم بنى نظاماً يتكون من قناتين تغذيهما أنهار سوتلج وجَمُنَا^(٦٦) وتمر القناتان عبر مدينة كارنال، متوازيتين حتى مدينة هيسار فيروزا حيث تتدفق مياه القناتين خلال قناة وحيدة في الخندق المحيط بالمدينة. وخارج هاتين القناتين نجد دائماً ذكراً لقنوات أخرى، تنحرف عن مجرى نهر سوتلج، التي وصلت مياهها إلى مدينة جهاجار، (تقع في مقاطعة روتا)، فتعمل على ري منطقة واسعة جافة تبلغ مساحتها ٩٦ ميلاً مربعاً.

لكن قناة جَمُنَا تبقى الأكثر أهمية، وهي تتصل بعاصمة فيروز آباد، وتنحرف من خلفها مياه قناة ساليما التي حفرت في تلال السّواليك والسّرسولي، وقد انحرفت حتى تسمح لمياهها بالتدفق إلى مدينة شاه آباد. وإبان القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي وفي عهد شاه جَهان بنيت وحفرت قنوات جديدة في الأراضي الجديدة، كما زاد شاه جَهان من طول قناة جَمُنَا بمنطقة فيروز شاه، حتى أوصل مياهها إلى شاه جَهان آباد (دلهي) على بعد طريق يمتد لـ ١٣٠ كم، فأدخلت كشريان مياه مركزي للعاصمة الجديدة.

Iqtidar Alam Khan, «Guru Ka Tal a Pre-Modern Water-Work» in: «Technology from Tradition (٦٥) to Innovation» *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1988), pp. 64-67.

(٦٦) تتدفق القناة التي يغذيها نهر سوتلج عبر مدينتي رويار وسرهند، وتعبّر القناة التي يغذيها نهر جَمُنَا قرب مدينة هيسار فيروزا.

أما في المغرب، في حوض مراكش^(٦٧)، فقد أضاف الموحدون في أعقاب دولة المرابطين شبكة قنوات مغطاة (خطارة) إضافة إلى نظام آخر من القنوات المكشوفة، تسمى سواقي، تقوم بتصريف المياه من جبال الأطلس إلى المدينة لعدة كيلومترات. لذلك تقوم قناة تاسولتات الملكية بتمرير المياه لمسافة ٣٠ كم من منطقة أغمات إلى مراكش، ولمسافة ٩٠ كم إلى اليعقوبية، وتقوم بري سهل اليعقوبية. يرتبط نظام السواقي عموماً ببعض الأحواض المفيدة إما كاماكن لتجميع المياه أو لضبط أنظمة الري. كما استخدم النظام نفسه في بناء مدينتي الرباط ومكناس، مع توسع ممتلكات الموحدون نحو الجزيرة الأيبيرية؛ وجرى ذلك أيضاً في جبل طارق وإشبيلية^(٦٨). ومن نظام السواقي تشتق منظومة المنطقة للقطاعات، التي اتبعت تراتيباً تدفق المياه. وكان تخطيط الشبكة يتقاطع مع السهل في مواطن كثيرة، حيث تتوافق كل تفرعة مع المساحة الحيوية لقرية معينة، وتنظم الأفرع التالية من هذا الهيكل الشبكي الذي يصل إلى خارج القرية في تشكيلات المناطق الواقعة في نطاق الري المستديم، والمناطق الواقعة في نطاق الري بالينابيع، والمناطق الشتوية (حيث زراعات الحبوب) وفي النهاية الربوع التي لا تروى (الرعي الماشية).

تنتمي مكناس إلى المنطقة نفسها، وهي ترتفع على سفح جبل إلى الخلف على هيئة معول محفور من وادي بوفكران. يبدأ نظام الري المعقد لهذه المدينة من سد نهر بوفكران، وتتجه المياه مباشرة من خلال القنوات المكشوفة، فيتم تخصيص جزء منه لري حدائق الزيتون التي تقع على الطريق؛ وما إن تدخل شبكة القنوات المنطقة الحضرية، حتى تنقسم إلى فرعين يسيران بمحاذاة محيط سور المدينة. يسير الفرع الغربي منها عبر تفرعات مختلفة، ويخدم قصر الدار البيضاء، والملاح، وينتهي عند مطلع منطقة سيدي سعيد؛ كما ينقسم هذا الفرع ليحمل المياه الاحتياطية ثانياً إلى المدينة، وإلى حوض صهريج الصواني الكبير، ويمد الحدائق والقصور الملكية بالمياه. ويمد هذا الفرع القنوات الأربع الكبرى من المدينة الواقعة خلف المنطقة الملكية. يحمل كل من هذه القنوات الماء إلى الحوض الأسطواني المسمى المعادي، حيث تنطلق منه شبكات القنوات الخاصة بالربوع المختلفة، وهناك أيضاً معادٍ أخرى على طول طريقها تتمتع

P. Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, 2 vols. (Rabat: [n. pb.], 1983); L. Voinot, «Les Zaouia de (٦٧) Marrakech et de la region voisine,» *Revue de Géographie Marocaine*, vol. 1 (1937), pp. 5-53, and J. M. Poupart, «Les Problèmes de l'eau a Marrakech,» *Les Cahiers de Outre-Mer*, vol. 11 (1949).

P. Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, 2 vols. (Rabat: [n. pb.], 1983), L. Voinot, «Les Zaouia de (٦٨) Marrakech et de la region voisine,» *Revue de géographie Marocaine*, vol. 1 (1937), pp. 5-53, and J. M. Poupart, «Les Problèmes de l'eau a Marrakech,» *Les Cahiers de Outre-Mer*, vol. 11 (1949).

بخاصية تقسيم القنوات الفرعية (القادوس)، وبهذه الطريقة يمثل نظام توزيع المياه شبكة تضم شبكات داخلية متلاحمة جداً تغطي المدينة بأكملها^(٦٩).

د- القناطر والسدود

تدخل الإنشاءات والعناصر المعمارية الآتية من المساحات الريفية ضمن المنطقة الحضرية، وتحدد في مناطقها المتاخمة بعض محاور التنمية^(٧٠).

هذا هو الحال مع بعض الإنشاءات كالقناطر، وجسور القناطر، والسدود، والعوائق. تفرض هذه الإنشاءات بتيجة مقاييسها الكبيرة مقارنة مباشرة بالنسيج المدني، فتصبح محوراً هيكلياً ومركزياً بالنسبة إلى المناطق السكنية، أو تصبح في بعض الحالات أسواراً حقيقية يبلغ ارتفاعها عشرة أمتار تقسم المساحة الريفية إلى اثنتين.

وفي موضوع متصل، يمكن أن نتذكر ثراء الحضارات الكبيرة في مرتفعات اليمن قبل الإسلام^(٧١)، حيث وصلت تلك الحضارات إلى مستوى كبير من الرخاء بفضل ازدهار الزراعة التي قامت على تقنيات مائية معقدة، يشهد عليها سد مأرب العظيم الذي كان يبلغ ارتفاعه ٣٥٠م، وقد أدى انهيار هذا السد في القرن السادس للميلاد إلى أفول المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة العربية^(٧٢).

بعد الاحتلال العثماني لإسطنبول، طور العثمانيون نظاماً خاصاً بتقريب المياه من المحاور الرئيسية^(٧٣)، ثم امتد هذا النظام في ما بعد إلى المدن الأخرى في المنطقة،

A. Petruccioli, *Dar Al Islam: Architectures of the Islamic Lands* (Rome: Carucci, 1985), (٦٩) pp. 122-123, et M. Bonjan, «L'Hygiene d'une ville marocaine au XVII^{ème} siècle (Meknès),» *BHM*, vol. 1, no. 3 (1931), pp. 5-17.

K. A. C. Creswell, *A Short Account of Early Muslim Architecture* (Oxford: Oxford University Press, 1958), p. 119, and Sayyid Hussain Nasr, *Islamic Science* (London: World of Islam Festival Trust, 1976), pp. 213-215.

(٧١) في فترة التوسع الكبرى، وبفضل الموقع المتميز على طريق التوابل، ضمت اليمن داخل حدودها إثيوبيا وعمان وأجزاء من شمال المدينة، وقد ظهرت فترات مختلفة للإسلام من هذه الأراضي.

P. Costa and E. Vicario, *Yemen paese di costruttori* (Milano: Electa, 1977); B. Doe, *Southern Arabia* (London: Thames and Hudson, 1971), and X. de Planhol, *Les Fondements géographiques de l'histoire de l'Islam* (Paris: Flammarion, 1968), p. 52.

S. N. Nirven, *Istanbul Sulari* [Waters of Istanbul] (Istanbul: [n. pb.], 1946); O. Onur, *Edime su kulture* [Edirne Water Culture] (Istanbul: [n. pb.], 1985); O. Ozis, «The Ancient Dams of Istanbul,» *Water Power and Dam Construction*, vol. 29, no. 7 (July 1977), pp. 49-51, and vol. 29, no. 8 (August 1977), pp. 44-74; U. Ozis: «The Ancient Istanbul Aams within the Perspective of Dam Technology History,» *International Congress on the History of Turkish-Islamic Science and Technology*, vol. 3 (1981), pp. 19-30; «Istanbul'un tarihi su getirme sistemleri [Historical Water Supply Systems of Istanbul],» in: çevre

وبخاصة القدس ومكة^(٧٤). وفي إسطنبول، كان نظام تقريب المياه من المحاور الرئيسية يتكوّن من جمع المياه في خزانات أو في وحدات تجمع؛ حيث تأتي المياه من منطقتين هضبيتين من ضواحي المدينة (من وادي خالكالي، وغابة بلغراد)، فتأتي هذه المياه عبر طبقة تحتية من الأرض وعبر قنوات واسعة في الأجزاء المرتفعة من المدينة، كما تم بناء بعض الأبراج الرافعة لترفع المياه وتوزعها عبر مسالك ومقاسم نحو الأجزاء المختلفة من المدينة، وقد تم تمويل بناء المنشآت المائية وصيانتها وتنظيمها من خلال الأوقاف، التي يقدمها شخص ما إلى السلطان.

كانت الخزانات والقناطر الرئيسية توصل المياه إلى المباني المجاورة للمساجد الكبيرة، ممثلة النواة التي تأسست حولها المدن العثمانية. أنشئت هذه الأنظمة المائية المعقدة من خلال جهود اثنين من السلاطين هما محمد الثاني وسليمان الأول؛ ففي شتاء عام ٨٦١هـ/١٤٥٦م، أمر محمد الثاني بجلب المياه الغزيرة من الريف إلى المدينة عبر القناطر^(٧٥)؛ وقد كشف السلطان محمد عن الإنشاءات البيزنطية والسدود والجسور التي انهارت خلال القرون الأخيرة للحكم البيزنطي، وأعاد استخدامها لإنشاء أول نظام مائي عثماني، كما أقام السلطان الفساقى الأربعين كرك تشاشمة التي تتلقى المياه من قنطرة المياه القريبة بفالتي. وقد دفع تزايد أعداد السكان القادمين إلى المدينة من أماكن نائية، أولاً تحت حكم بايزيد الثاني ثم تحت حكم سليمان الأول، ومع بناء إنشاءات جديدة، إلى ضرورة البحث عن مصادر للمياه، فضلاً عن بناء المساجد المهمة.

وخلال فترة ولاية عثمان الأول، تم تنفيذ ثاني أعظم مشروع مائي عثماني، يعتمد على جمع المياه من وادي كاغد خانة، الذي استخدم أيضاً لتوفير المياه إلى بيزنطة حتى عام ١٢٠٤^(٧٦)، ومن الممكن في هذه النقطة أن يكون العثمانيون قد أخذوا

'83: *II. Ulusal çevre Muhendisligi Sempozyumu* (Izmir: Dokuz Eylül Üniversitesi, 1983), pp. CS-25, n. 32; *Su muhendisligi tarihi açısından Anadolu'daki eski su yapıları* [Ancient Water Works in Anatolia with Regard to Hydraulic Engineering History],» Muhendislik-Mimarlık Fakültesi (Izmir, Dokuz Eylül Üniversitesi) (1984), pp. 73-149, and N. Yungul, *Taksim suyu tesis/eri* [Taksim Water Works],» *Istanbul Belediyesi Sular İdaresi*, no. 3 (1957), p. 72.

X. De Planhol: *De la Plaine pamphlyienne aux lacs pisidiens* (Paris: [n. Pb.], 1958), pp. 157- (٧٤) 158 ana 323-328, *Les Fondements géographiques de l'histoire de l'Islam*; Unal Ozis, «The Water Conveyance System of Edirne,» *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1988), p. 68-73.

Kritovoulos, *History of Mehmed the Conqueror*, translated by Riggs (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1954), p. 105.

(٧٦) يبين كل من دلمان وويتك أن القناطر الرئيسية (*su-Kemeris*) لهذه الأراضي قام بها المهندس المعماري سنان الذي قام ببنائها للمرة الأولى عام ٩٦١/١٥٥٤، وللمرة الثانية عام ٩٧١/١٥٦٤، وبعد ذلك أدت الأمطار الغزيرة

بعض التقنيات الخاصة بأنظمة المياه من الحكم البيزنطي الروماني، وأضافوها إلى عاداتهم الخاصة، وهو ما أدى إلى خلق هيكل معقد من أنظمة المياه بهدف توفيرها إلى عاصمتهم الكبيرة. وقد مدّت أنظمة المياه نفسها التي تم تنفيذها في ظل حكم السلطان سليمان المدينة ومساجدها العظيمة، بكميات كبيرة من المياه، وتم توزيعها على عدد كبير من الفساق. أما الماء الذي لم يكن يذهب مباشرة إلى هذه الفساق فكان يُخصص لقصور السلطان وحدائقه، ولكبار سكان المدينة، وللحمامات العامة أيضاً. وقد توسع السلاطين الذين أتوا بعد ذلك في هذا النظام، مع العناية الخاصة بالمساجد الجديدة، حيث أنشئت أحواض ومجارٍ مائية جديدة، وتم تمديد الأنظمة التي كانت موجودة قبل ذلك إلى منطقتين رئيسيتين هما كاغد خانة وهالكالي^(٧٧) (انظر الرسم الرقم (٢٩ - ٤)).

وفي الهضبة السورية، ووسط القلاع الأموية، يبدو رائعاً قصر الحيرة الغربي، الذي يبعد ٦٠ كم في الجنوب الغربي من تدمر في الطريق إلى دمشق؛ حيث يحتوي الجزء الضيق من الحصن الصغير على قصر سكني، وحمام، وخان، وبستان كبير، ومنطقة شاسعة من الأراضي المزروعة التي يتم ريّها من خلال مجموعة من القنوات والبرك المتصلة بالسد الروماني في خربة، والذي يبلغ طوله ٣٦٥ م وعرضه ٢٠ م. وقد بنى الرومان سد خربة في القرن الأول الميلادي، وهو ما أدى إلى ظهور عدد من الواحات الغنية. يقع هذا المعلم الروماني على بعد ١٦ كم جنوب منحنيات جبل الرواق، ويكون بحيرة يبلغ طولها ١٥٥٠ م وعرضها ٨٠٠ م، وتتغذى من المياه القادمة من الجبال القريبة. ومن خلال ثلاثة مداخل، تتدفق المياه في نظام من القنوات، فوق جميع الأنظمة التي تقع تحت الأرض، تصل إلى المنطقة المزروعة التي أنشئت بركة فيها يبلغ طولها ٦٠ م وعمقها ٦٥ م، على بعد ٦٠٠ م غرب القصر، ومحاطة بسياج كبير. علاوة على ذلك، يوجد سد ثانٍ يحفظ المياه التي تصل إلى البستان ويغذي نظام الري، ينظم عبر مجموعة من المصاريع والموزعات^(٧٨).

إلى تدميرها. انظر: P. Wittek and K. O. Dalman, *Der Valens-Aquadukt in Konstantinopel* (Bamberg: [n pb.], 1933), and K. Çeçen, *Sinan's Water Supply Systems in Istanbul* (Istanbul: Istanbul Technical University, 1992).

(٧٧) خوفاً من نقص المياه الخاصة بالمساجد الفخمة، والقصور، والفساق العامة في فترة زمنية قصيرة، صدر أمر يلزم من يبنى دار صدقة جديدة، مثل مسجد أو حمام أو فسقية، أن يجد مصدراً للمياه خارج المدينة، وكان يتم جلب هذه المياه إلى المدينة من خلال وسيلة تسمى كمة، أو يتم إضافتها إلى خزانات المياه الرئيسية.

M. D. Schlumberger, «Les Fouilles de Qasr el-Heir el-Gharbi, 1936-1938: Rapport (٧٨) Preliminaire,» *Syria*, vol. 20, nos. 3-4 (1939), pp. 195-238 and 324-373; M. D. Schlumberger, «Deux Fresques omeyyades,» *Syria*, vol. 25 (1946), pp. 86-102, and H. Stern, «Note sur l'architecture des chateaux omeyyades,» *Ars Islamica*, nos. 11-12 (1946), pp. 72-97.

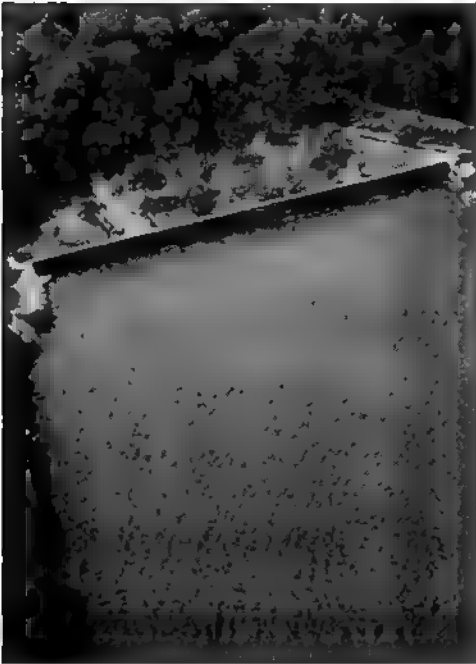
الرسم الرقم (٢٩ - ٤)
منظر لقناة أوزون كير وسد بيوك



(ج)



(ا)



(د)



(ب)

(أ - ب) منظر لقناة أوزون كير.

(ج - د) منظر لسد بيوك.

انتشرت السدود والبحيرات الحاجزة للمياه انتشاراً كبيراً في المناطق الإسلامية؛ لذلك تجد الكثير من بقايا السدود الأموية أيضاً في المناطق المتاخمة لمكة والطائف.

وفي خوزستان [الأهواز] أثناء الحقبة الساسانية، انتشر عدد من السدود ذات المقاييس الكبيرة: سد شوشتر وسد دزفول اللذان بناهما على التوالي كلٌّ من شابور الأول وشابور الثاني، إضافة إلى سد جراحی القريب من خلف آباد وسد مارون في أَرْجان، وقد شيد سد شوشتر من سطح صخري، في الجانب الشرقي من نهر قارون^(٧٩). ويعد سد دزفول نسخة مكررة من سد شوشتر، حيث يبلغ طوله ٣٨٠ م. وبعد انهيار هذا السد، اعتمد نظام الري الداخلي على سدود من الحجارة كانت تتم إعادة بنائها عقب كل فيضان^(٨٠)، كما شيد سد آخر بمنطقة آب غرغر يطلق عليه سد پل بولايتي وذلك خلال فترة الحكم الإسلامي لشوشتر، وكان هذا السد يعمل بطريقة آلية، حيث تم تركيب بعض الطواحين إلى الأنفاق المحفورة في الصخر من كل ناحية من القناة، وذلك لجلب كميات كافية من المياه التي تمكّن هذه الطواحين من الدوران^(٨١).

يمكن أن تجد عدداً من سدود التخزين في أجزاء كثيرة من بلاد فارس، وعلى الرغم من أن المساهمة الكلية لهذه السدود لم تكن كبيرة مثل القنوات أو السدود الموجودة في خوزستان، إلا أنها كان لها أهمية كبيرة، إذ جعلت من أراضي لا يمكن زراعتها بأي طريقة أخرى غزيرة الإنتاج. ومن أحد أكثر هذه الأنظمة روعةً هو ذلك النظام الذي كان يوجد على نهر كور في فارس، الذي ظل يروي منطقة كُربال بالكامل طوال ٢٠٠٠ سنة، أما أكثر السدود شهرة في هذه المنطقة فهو سد باندي أمير الذي بناه البويهبي عضد الدولة عام ٣٤٩هـ / ٩٦٠م، ربما على أساس أخميني سابق، وقبل بناء هذا السد، كانت مياه كور غير قابلة لري الجزء المرتفع في كُربال، فتم تسوية مجرى النهر أو عدد من الطواحين إما إلى السهل وإما إلى الجبل، كما مُدّت قنوات الري لمسافة تزيد على عشرة أميال لتخدم بذلك ٣٠٠ قرية على سهل مرو دشت. وعلى مقربة من السد الذي يبلغ ارتفاعه ٣٦م، وطوله ٨٤م، أنشئت عشر طواحين مائية؛ وكان أعلى السد متسعاً بما يكفي لمرور

(٧٩) هذا السد الذي بناه أسرى الحرب الرومان سنة ٢٦٠م كان مثقّباً بمصاريح مختلفة لكي تكون المياه في حالة تدفق دائم. استغرق بناء السد ثلاث سنوات، كان النهر خلالها ينحدر عبر قناتين متعرجتين، وعندما تمّ استكمال بناء السد، أغلق مدخل آب غرغر من خلال سد آخر هو سد قيصر.

H. Wulff, *The Traditional crafts of Persia* (Chicago, IL: Chicago University Press, 1967), (٨٠) p. 248, and N. Smith, *A History of Dams* (London: Peter Davies, 1971), pp. 59 and 81-82.

G. N. Curzon, *Persia and the Persian Question*, 2 vols. (London: Longmans, Green and Co., (٨١) 1892), pp. i, and 372-374.

فارسين عليه، أحدهما تلو الآخر وعلى السد نفسه^(٨٢) وقد شهدت نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الميلادي إحدى الفترات المهمة في تاريخ بلاد فارس في القرون الوسطى، وذلك لثرائها بعدد من السدود التي انتشرت في أرجائها، ويعد سد قنطرة كبار (كوار) الذي يقع على بعد ١٥ ميلاً جنوب قم أقدم النماذج الموجودة لهذا النوع من المباني التي ترجع إلى عصور بعيدة^(٨٣).

هـ- قنوات تحت الأرض

المناطق السكتية التي تعتمد على أنظمة النقل وشبكات القنوات الخاصة بالأنظمة التي هي تحت الأرض (كالقنوات وغيرها)^(٨٤).

تعد القناة واحدة من أهم تقنيات المياه التي تجري تحت الأرض، وتتكون عن

G. Le Strange, *Description of the Province of Fars in Persia at the beginning of the 12th Century A.D.* (London: British Museum, 1912); H. Goblots, «Dans L'ancien Iran: Les techniques de l'eau et la grande Histoire,» dans: *Annal Economies Societes Civilisations* (1963), pp. 499-520; B. Fisher, «Irrigation System of Persia,» *Geographical Review* (1928), pp. 302-306, and F. Bemont, «L'Irrigation en Iran,» *Annales de Géographie*, vol. 70, no. 377 (1961).

(٨٣) بُنيَ هذا السد في مَرَّ يقوم بنقل المياه إلى وادٍ ضيق عميق، وكان ارتفاع السد يصل إلى ٥٥ م، ويبلغ عرضه بين ٤,٥ م، وكان نصف قطره يصل إلى ٣٨ م، وكان يوجد بالسد مجموعة من الفتحات العمودية المتصلة بالأبار والدهاليز لكي تقوم بمد المياه عبر فتحات مائة من خلال البئر (على الرغم من أن وظيفتها الدقيقة غير مؤكدة). انظر: H. Goblots, «Du Nouveau sur les barrages iraniens de l'époque mongole,» *Arts et Manufactures*, no. 239 (April 1973), pp. 15-20; H. Goblots, «Kebars en Iran sans doute le plus ancien des barrages-voutes,» *Science-Progres*, no. 3358 (February 1965), et H. Goblots, «Sur Quelques barrages anciens et la genese des barrages-voutes,» *Revue d'Histoire des Sciences*, cahier no. 6 ([n. d.]).

(٨٤) لمزيد من المعلومات عن القنوات والكاريز، انظر: M. Streck, «Kanat,» *Islame Ansiklopedisi* (Istanbul), vol. 6 (1967); M. Siroux, *Caravanserails d'Iran et petites Constructions Routieres* (Cairo: [n. pb.], 1949), pp. 120-131; J. Bergren, *Guide Français-Arabe Vulgaire* (Upsala: [n. pb.], 1844), p. 56; S. Sajjadi, *Qanat/Kariz: Storia, tecnica costruttiva ed evoluzione* (Teheran: [n. pb.], 1982); G. B. Cressey, «Qanats, Karez and Foggaras,» *Geographical Review*, vol. 48, no. 9 (1958); p. W. English, *City and Village in Iran: Settlement and Economy in the Kirman Basin* (London: [n. pb.], 1966); p. W. English, «The Origin and Spread of Qanats in the Old World,» *Proceedings of the American Philosophical Society*, vol. 112, no. 3 (1968), pp. 170-181; W. B. Fisher, *The Land of Iran, The Cambridge History of Iran*; 1 (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1968); R. J. Forbes, *Studies in Ancient Technology* (Leiden: Brill, 1964); Ph. Gignoux et H. Goblots, «Les Qanats, une technique d'acquisition de l'eau,» *Studia Iranica*, vol. 9, no. 1 (1980); H. Goblots, «Essai d'une histoire des techniques de l'eau sur le plateau iranien,» *Persica*, no. 8 (1979), pp. 117-128; T. Jacobsen and S. Lloyd, *Sennacherib's Aqueduct at Jerwan*, vol. 24 (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1935); L. Kolori, «Some Notes on Diffusion of Qanats,» *Orient*, vol. 9 (1973); R. Lamt, *Manuel d'Épigraphie Akkadienne* (Paris: Librairie Orientaliste Paul Geuthner S. A., 1963); S. H. Nasr, *Islamic Science: An Illustrated Study* (1976); A. T. Olmstead, *History of the Persian Empire* (Chicago, IL: Sixth Impression, 1970); A. Smith, *Blind White Fish in Persia* (London: [n. Pb.], 1953); A. T. Wilson, *The Persian Gulf* (Oxford: Oxford University Press, 1928); Wulff, *The Traditional Crafts of Persia*; E. Noel, «Qanat,» *Journal of*

طريق استغلال المجاري المائية العميقة من خلال أنفاق الترشيع^(٨٥)، كما أن القناة عبارة عن مجرى مائي عالٍ ولها ميزة كبيرة وهي أنها تحول دون تبخر المياه. تسير المياه الجوفية بقوة الجاذبية، فتجري من الجزء الأعلى إلى الجزء الأسفل في أي مجرى أو قناة مائية، ويكون الانحدار في هذا المجرى بمعدل (١:١٠٠٠ إلى ١:١٥٠٠)، ثم تتبع المياه الجوفية التربة الرسوبية وتمر تحت السهل المائي حتى تصل إلى المجرى الذي تحت الأرض. ومن المهم أن نلاحظ أن طول القناة متغير جداً، حيث يبلغ طولها ٥ - ١٥ كم، بل يصل أحياناً إلى ٢٥ - ٥٠ كم، كما هو الحال في قنوات يزد وكرمان (التي تبدو أغنى قناة يرتبط بها ٣٩٠٠ فرع)^(٨٦).

يرتبط وجود أقنية المياه بالجو الجاف، والغياب الكلي لمصادر المياه السطحية، وبوجود طبقة تحتية سابقة، وهو ما يسمح بتكوين مجارٍ عميقة تتغذى كفاية وباستمرار، كما يرتبط بالحالة المورفولوجية للموقع الذي يتمتع بوجود سلاسل جبلية عريضة بدرجة كافية، الأمر الذي يضمن إعادة إخراج مياه جمع الأمطار؛ ويرتبط أيضاً بمنطقة تلال منخفضة تكون مفيدة في نفاذ المياه على طول المجاري حتى تصل إلى نقطة التجمع. هذه الأسباب أساسية لوجود القنوات ولكنها مهمة لتحديد نوع المنطقة السكنية^(٨٧). وكل الأحواض الطبيعية من الهضبة الإيرانية تخضع لهذه المبادئ، الأمر الذي يجعل هذه المنطقة منطقة اختبار تنتشر فيها هذه التقنيات المائية.

وعند أقدام سلسلة جبال البرز يبدو الموقع الذي ترتفع فيه مدينة طهران مميزاً، وهي منطقة طبيعية يغذيها عدد قليل من القنوات التي تصل إلى قرب المدينة وتوزع مياهها في أقنية التوزيع الخاصة بالأمكنة الحضرية. تفرض دورة الانتفاع بالمياه قيداً رسمياً قوياً على حدود التطوير المدني. وتقدم القناة فكرتين مهمتين جداً، الأولى ترتبط بحقيقة أن القناة، على طول مساراتها من المناطق السفحية إلى المناطق السكنية، مقطوعة بعض المساحة للزراعة؛ وبسبب قوة ترشيح المياه يتم الاحتفاظ بها في الأقاليم المواجهة لها. يبين هذا أن الأشكال الوحيدة المتاحة للبساتين والحدائق هي الموجودة

the Royal Central Asian Society, vol. 31 ([n. d.]), pp. 191-202; M. A. Butler, «Irrigation in Persia by Kanals», *Civil Engineering*, vol. 3 (1933), pp. 69-73; C. Braun, *Teheran, Marrakesch und Madrid: Thre Wasserversorgung Mit Hilfe von Qanaten* (Bonn: [n. pb.], 1974), and S. S. Seyyed Mansur, *Qanat/Karz Storia, Tecnica Costruttiva ed evoluzione* (Teheran: Istituto Italiano di Cultura, 1982).

H. Goblor, «Le Problème de l'eau en Iran», *Orient*, vol. 23 (1962), pp. 46-55. (٨٥)

(٨٦) في شمال أفريقيا، يقل طول القناة حتى تصل تقريباً إلى ٥٠٠ م.

X. De Planhol, «Geography of Settlement», in: W. B. Fisher, ed., *The Cambridge History of Iran* (Cambridge: Cambridge University Press, 1968), pp. 419-420. (٨٧)

بالقرب من الأماكن السكنية حيث تغذيها مياه القنوات نفسها. أما الثانية فترتبط بإمكان سدّ المجرى المائي للقناة، وهذا الوضع يوفرّ خزناً عند مصب القناة يمكن من خلاله التحكم في السائل ويمنع تبديد موارد المياه.

هذا الوضع الأخير، الذي يشبه شكل الماء عند مساقط المياه الطبيعية، يجعل المناطق السكنية متماسكة ويجعل الإقليم منظماً وفق تركيب هيكلي خاص يتزايد باطراد، من مصب القناة أو الخزانات، ومواضع العناصر المختلفة للمناطق السكنية وفق الترتيب التالي: القناة، أحواض التخزين، القرية، البساتين المحاطة بالأسوار، والمناطق الزراعية الثانوية (التي يتم زراعتها في المواسم حيث تغزر المياه). يمكن ملاحظة التسلسل الهرمي القوي داخل المراكز الحضرية، الذي يعتمد على قيمة المياه والدور الاجتماعي لبعض السادة المحليين. لذلك، نجد، على سبيل المثال، في المناطق السكنية في واحات الصحراء وفي السواري ذات الأحجام المتوسطة في إيران، كيف يتم احترام ترتيب التسلسل الهرمي، حيث يُفرض مرور المياه أولاً إلى المساجد (من خلال خزانات مياه مناسبة)، ثم بعد ذلك إلى التجمعات السكنية الخاصة بالسادة، ثم إلى الأسواق، ثم إلى أحياء المدينة الأشد فقراً، ثم إلى الحقول أخيراً^(٨٨).

أدت القنوات دوراً مهماً في إيران وأثرت في طبيعة وشكل الريف والمناطق السكنية والأراضي المزروعة؛ ووجود بعض المدن مثل همدان وقزوین^(٨٩) وطهران ونيسابور وكرمان ويزد، فضلاً عن مدن أخرى، إنما يدين بالفضل لهذه الأنظمة. وفي بعض الحالات، مثل قزوین، كان يجب أن تستخدم مياه القنوات من أجل أهداف غذائية لا من أجل ري الأراضي، وكانت تجري خلال معظم المساكن المهمة في المدينة، كما حدث في بعض منازل أرجان^(٩٠) وشوشتر.

(٨٨) هذه النتائج المهمة دفعت مهندس المياه غوبلوت إلى القول إن نصف الأرض المزروعة في إيران تروى بالقنوات، وبعض هذه المناطق من الهضبة الزراعية كان من المستحيل زراعتها إذا لم يمكن إقامة قرية بالقرب منها، انظر: Goblor, «Le Problème de l'eau en Iran» R. J. Forbes, *Studies in Ancient Technology* (Leiden: Brill, 1955-1958), p. 153; J. Laessoe, «Reflections on Modern and Ancient Oriental Waterworks», *Journal of Cuneiform Studies*, vol. 7 (1953), pp. 5-26; R. Ghirshman, *Iran from the Earliest Times to the Islamic Conquest* (Harmondsworth: [n. pb.], 1954), p. 239, and H. Goblort, «Essai d'une histoire des techniques de l'eau sur le plateau Iranien», *Persica*, vol. 7 (1979), p. 12.

(٨٩) تأتي مياه مدينة قزوین في الأساس من الآبار، وقد بُنيت أول قناة بعد التوسع الحضري الأول؛ خدمت مياه هذه القناة أكثر من ربع سكان المدينة، بعدها أقيم عدد من القنوات لخدمة الأماكن السكنية المختلفة في الحضر.

(٩٠) Sefer Namef, *Relation du Voyage de Nassiri Khosrau*, edited and translated by C. Schefer (Paris: Ernest Leroux, 1881), p. 81.

في القرون الأولى من الحكم الإسلامي، كان هناك انتشار آخر لهذه التقنية، ويرجع ذلك إلى الأمويين الذين طوروها في إسبانيا وبخاصة في مدينة مدريد (وقد أسسها الخليفة محمد الأول عام ٨٧٧)^(٩١)، وإلى المرابطين الذين نشروها عام ١٠٧٠ في المغرب وبخاصة في مدينة مراكش^(٩٢).

وبموازاة تقنية «القناة» الفارسية عرف المغرب نظام الخِطّارة^(٩٣) (مثل القناة الأندلسية)، الذي سيغير معالم الريف والأماكن السكنية في مراكش بطريقة واسعة؛ فالمياه الجوفية الموجودة تحت طبقات جبال الأطلس، التي تتصل بالمياه الآتية من الأمطار، تتجمع هنا في خزانات تتصل بها ٥٠٠ قناة تحت الأرض حُفرت يدوياً بأطوال طويلة تصل إلى أكثر من ٧٠٠ كم. يبلغ طول الخطارة نحو ٤ - ٥ كم، وتنتشر المياه في الطبقة التحت الأرضية وفي مستوى المجرى المائي عبر القنوات التي تغطيها الأحجار والفخار من أجل زراعة الحدائق وتوفير مياه الشرب^(٩٤).

وقد بقيت القنوات في مراكش ومنطقة حديقة أكداو حتى القرن العشرين، وكانت تمتد من الشمال إلى الجنوب، حيث دعت الحاجة أن تتصل هذه القنوات بالمصاب المختلفة للخطارة.

وقد تميزت هذه الطريقة بالتنظيم المدني الذي يعتمد على الشوارع المنتظمة والطويلة نسبياً، لتقوم بمهمتها كخطوط لنقل المياه؛ كما تميزت بهذه الطريقة مدينة طهران، حيث تتبع شوارعها الرئيسية المتوازية سلسلة انحدارات كبيرة للتربة وتعبر بمقدار ٩٠° في الشوارع الفرعية، لتكون شبكة معقدة جداً.

أظهرت الأماكن الخربة التي تم اكتشافها في منطقة القيروان في تونس أن التونسيين كانوا على دراية بهذه التقنية المائية من خلال الرومان، على الرغم من أن أصلها هو في

Asin, *Historia del nombre «Madrid»*.

(٩١)

C. Troll, «Techniques Agricoles, milieu naturel et Histoire de l'Humanite», *Bulletin de la société géographique de Liege* (December 1967).

(٩٣) الخِطّارة هي مساحة ترشيح تحت الأرض تجمع المياه من طبقة جوفية وتأتي بها إلى السطح، يتألف النظام، كما هو الحال في المصدر، من خلال مساحة ترشيح (يتكون فيها آبار تهوية موجودة على مسافة ٢٠ - ٢٥ م)، وتأخذ مياه الطبقة بعد ذلك من خلال النقل وأحواض التجميع وذلك لتغذية مستمرة للحدائق والمناطق السكنية. انظر:

O. Tebbaa, «From the Garden as Living Shape to the Imperial Garden: L'Aghdal of Marrakesh», in: M. Matteini and A. Petruccioli, *Islamic Gardens: Architecture, Ecology* (Geneva: Microart's Edition, 2001), pp. 71-87.

G. Deverdun, *Marrakech* (Rabat: [n. pb.], 1959), pp. 15-17 and 85-90.

(٩٤)

شمال أفريقيا^(٩٥)، كما تبين الاكتشافات بالقرب من قفصة وتونس^(٩٦) أنها بلا شك عربية الأصل.

وفي القرن العاشر دخلت هذه التقنية إلى الجزائر متخذة اسم الفجّارة، وكانت توجد في واحة توات وقورارة وسوف ومزاب وتيديكلت والفجيج^(٩٧). وبعد مصب الفجّارة مباشرة، يمكن أن نجد سلسلة من التشعبات التي تدخل مباشرة إلى الحدائق. يعكس عدد هذه الأعمال الدور البارز الذي أدته في الهضبة الإيرانية وما تقدمه من خدمات إلى الزراعة فيها. وتعد واحة قورارة^(٩٨) حالة مهمة عند إبراز عمليات نقل المياه المستمرة في الإقليم، وقد اكتشفت القرى نظام الفجّارة لاستغلال المياه النقية، في حين أن بستان النخيل يمتد لعمق كيلومتر واحد، وقرب نهاية الطبقة التي تخرج منها الفجّارة تقل المجاري لاكتشاف الطبقات الأعمق، وبهذه الطريقة تنحدر نقطة خروج المياه كثيراً وتأخذ على عاتقها توفير المياه للمناطق السكنية السابقة وجزءاً من بستان النخيل، أما الباقي فيعاني سوء الاستخدام نظراً إلى عدم القدرة على توفير المياه له. بهذه الطريقة تنتقل المناطق السكنية إلى مكان آخر، حيث الجزء الأسفل من الوادي.

٢ - أشكال المياه القطبية والمغلقة

أ - أنظمة التجميع الكبيرة للمياه السطحية

تقام المناطق السكنية بالقرب من المنخفضات الطبيعية أو الصناعية من الإقليم (أحواض المياه والبحيرات الصناعية... إلخ). يعود ذلك إلى الإشارات المعمارية التي تنتمي إلى مستوى المشهد الطبيعي الريفي، ويغدو البعد المدني ملموساً في بعض الحالات فقط، بحيث يترك لنا أشكالاً أثرية معمارية، وبخاصة في المدن الرئيسية.

في المنطقة الشمالية الشرقية من الهند، منذ فترة ما قبل الإسلام، كانت كل منطقة سكنية تقريباً تحتاج إلى واحدة أو أكثر من البحيرات الصناعية، وتأخذ شكل «شطيرة مياه»، وهي كانت معروفة وسط الثقافات الأخرى، مثلها مثل الـ «قوانغ دونغ» في

M. Solignac, «Recherches sur les Installations hydrauliques de Kairouan et des steppes (٩٥) tunisienne du VII^{ème} au XI^{ème} siècle», *AIEO* (Alger), nos. 10-11 (1952-1953), p. 272.

M. Solignac, «Travaux Hydroliques Hafsidés de Tunis», *Revue Africaine* (1936), pp. 517-580. (٩٦)

J. Brunhes, «Les Oases du Souf et du M'zab», *La Géographie*, vol. 5 (1902), p. 180. (٩٧)

P. Laureano, «Wadi Villages and Sebkhia Villages in the Saharan Ecosystem», in: «Water and Architecture», *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vol. 2 (1985), pp. 16-25. (٩٨)

الصين. كانت هذه البحيرات في الغالب من أصل فرعوني وقد صنعت من الأحجار، مثل بحيرة كنكاريا في أحمد آباد. هناك أمثلة متعددة في منطقة راجاستان، وتنتمي أنا ساغر في أجمير إلى فترة المغول بحدائق جهانغير وأعمال المياه الكبرى التي تتصل بقاعدة أودايبور في عام ١٥٦٧. تجد أودايبور نفسها وسط ثلاث بحيرات: بيتشولا، وفاتح ساغر، وأמיד ساغر مع جزر أخرى صغيرة تستخدم كمساكن صيفية. ويجوار المدينة يأتي خزان جايسماند الذي تم بني عام ١٦٨١، وهو أكبر خزان صناعي في آسيا، يتمتع بسد يمتد على طول نهر غومتي الذي يبلغ طوله ٩ كم وعرضه ١٤ م.

مثال آخر مهم على العلاقة بين المناطق السكنية والبحيرات الصناعية هو بحيرة العنبر في الوادي الذي كونه تلال كالي خوه، في منتصف الطريق بين مألوا وغوجارات. تقع المنطقة السكنية على المنطقة العليا، وتتجمع بالقرب من سوربة ماندير، معبد الشمس، ويحكمها حجم القصر. تُختتم المدينة ببخيرتين على ارتفاعات مختلفة: ساغر سماور في مانا سماور. ويتصل القصر، الذي بُني على ارتفاع متوسط، بالبحيرة السفلية مباشرة من خلال هيكل مصطبي يأتي مباشرة إلى الحديقة الواقعة في وسط البحيرة^(٩٩) ويذهب باتجاه مدخل القصر.

وفي سيكري، أقام بابر، مؤسس السلالة المغولية الحاكمة، جزيرة صناعية وسط خزان صناعي هو في الأصل تل محاط بسرداق كبير. وفي عام ١٥٦٩، اختار ابن عمه أكبر موقعاً مترابطاً مورفولوجياً، ليني العاصمة الجديدة فاتح بور سيكري. وقد تحول خزان بابور الصغير إلى بحيرة صناعية من خلال ضفة تسير عمودياً نحو التل، وذلك لحماية القرية الموجودة، في حين أن نظام الثلاثة عشر سوراً سمح بالتحكم السهل في مستوى المياه. بهذه الطريقة، تم التخطيط لكل العناصر التي سيطر عليها النظام الحضري الجديد، الواقعة على أعلى نقطة من سلسلة التلال (وهي القصر الملكي مع الحرم ملك والمسجد الجامع وحي سليم تشيشتي) على أن تكون مطلة على المياه^(١٠٠).

تتوافق كل هذه الطرق مع نموذج إقليمي خاص، تكوّن من خلال تدرج السهل الخصب المأخوذ من الجبل، حيث تتحكم السدود وأسيجة الأراضي في واحد أو أكثر من الخزانات الصناعية.

A. Petruccioli, «The Artificial lake as territorial Topology of the Moghul India,» in: M. (٩٩) Matteini and A. Petruccioli, eds., *Islamic Gardens: Architecture, Ecology* (Geneva: Microart's Edition, 2001), pp. 3-7.

A. Petruccioli, *Fathpur Sikri: Town of the Sun and the Water* (Rome: Carucci, 1988). (١٠٠)

وفي الهند، أسس السلطان شمس الدين إلتيمش أول بحيرة (١٢١١ - ١٢٣٦م) خارج العاصمة دلهي أطلق عليها اسم «حوض السلطان» (أو الحوض الشمسي)^(١٠١). يخبرنا ابن بطوطة عن أبعاد هذه البحيرة ويقول إنها كانت على طول ميلين وكان عرضها نصف ميل، ويشير إلى تشاشمة أفتاب (عيون الشمس) كمصدر تغذى عليه البحيرة. وتشير التفاصيل التي أوردها السلطان فيروز شاه (وأوردها مؤلف كتاب سيرة فيروز شاه) عن إعادة إصلاح البحيرة، إلى القنوات الأصلية التي أنشئت لربط البحيرة بالنهر. عملت هذه القنوات على استكمال الإمداد المائي الناتج من مياه الأمطار المجمعة مباشرة من البحيرة، وذلك بهدف جعل الاحتياطي المائي يكفي طوال العام. أولى السلطان علاء الدين الخلجي اهتماماً بالغاً بتطوير الأنظمة المائية في سلطته من أجل تحقيق التنمية الزراعية، وفي لحظة توليه حكم دلهي (٦٩٥هـ/١٢٩٦م)، كان حوض الشاه مليئاً بالطمي في الوقت الذي كانت المدينة تشهد زيادة سكانية، فعمل على تنظيم الحوض وبنى بحيرة جديدة أكبر من السابقة، خارج جدران عاصمته الجديدة سيري (بالقرب من دلهي)، مطلقاً على هذه البحيرة اسم حوض خاص^(١٠٢).

بهذه الطريقة، ساعد بناء هذه البحيرات الحقيقية على زيادة الموارد المائية في المناطق التي أقيمت فيها كثيراً، وهو ما سمح بتطوير المناطق السكنية التي تمر بها؛ لكن تقليل عمق مصادر الري القرية في المناطق المحيطة تسبب في خلق مشاكل متعددة خاصة بري هذه الحقول. وإبان العصر التوغلوكي سجلنا عدداً آخر متزايداً من الموارد المائية، فقد تزايد عدد البحيرات والخزانات، ليس في دلهي فقط، بل في مدن المقاطعة أيضاً، وهو ما يعكس تقدم الهندسة المدنية من جانب، واهتمام السلاطين بإنشاء خزانات وبحيرات أكثر جمالاً من البحيرات والخزانات التي بناها السلاطين السابقون من جانب آخر.

وفي القرن الثاني عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، أبدى السلطان تيبو اهتماماً كبيراً بمشاكل الري، وبنى خزانات جديدة وعمل على ترميم الخزانات القديمة، وقد تمتع الخزان الضخم الذي بناه في دوراجي بضفة واسعة جداً يصل طولها إلى ٤ كم وارتفاعها إلى ١٤ م. بقيت كل هذه البحيرات والخزانات سالمة من

(١٠١) ذكر كتاب القرون الوسطى الهندية - الفارسية أنه أنشئ خزان من أجل توفير مياه الشرب لمدينة دلهي، ولكن إشارة ابن بطوطة إلى زراعة الفواكه والخضر الموسمية على طول الضفاف يبين أنه تم استخدام المياه من أجل ري الحقول أيضاً.

(١٠٢) في عصر السلطان فيروز شاه، تم دمج القناة الصناعية مع الضفاف العالية جداً لتسهيل تراكم مياه الأمطار للمناطق المجاورة.

العصر الوسيط حتى القرن العشرين، لكن مع التوسع الحديث للقري والمدن، ازداد عدد المنشآت المائية واستخدم بعض القديم منها من أجل الإسكان؛ وفي جنوب الهند، ما زالت هذه المنشآت موجودة ويتم استخدامها كأماكن للتنزه وقضاء أوقات الفراغ.

ب - النظام الدقيق لجمع المياه السطحية

المناطق السكنية الناشئة حول أحواض جمع المياه

في هذا الإطار، ارتبطت أنظمة جمع وتخزين مياه الأمطار والمياه السطحية، في أماكن مثل الصهاريج الكبيرة والخزانات والأحواض (المواجل) الموجودة في الهواء الطلق وغيرها من الأحواض المغطاة، بأنظمة القنوات والقناطر. وقد جمعت هذه المظاهر التي كان يمكن رؤيتها بصورة عادية في الأراضي الإسلامية، عناصر هندسية خالصة كتلك التي كانت في القيروان^(١٠٣)، أو أشكالاً مادية تمثل جزءاً من الجبال مثل اليمن. وفي جميع هذه الحالات، كانت هذه الأنظمة تتعامل مع المظاهر الخاصة بعملية بناء المدينة، وذلك من خلال تنمية محاور حيوية تتجمع على نحو متنامٍ، على الرغم من أنها اتخذت شكلاً مستقلاً معيناً.

أولى الحالات المهمة في هذا الإطار هي نظام مدينة القيروان في تونس، حيث كان موقعها المرتفع أمراً ضرورياً لحمايتها من هجوم الأعداء، ولحمايتها قبل ذلك من الفيضانات التي كانت تحصل في هذه المناطق على الرغم من ندرتها. وقد حُلّت مشكلة توفير المياه من خلال الأغالبة، الذين طرحوا أحد الحلول التي سبق أن قدمها الرومان ثم العرب من بعدهم. فعلى بعد بضعة كيلومترات جنوب المدينة، بُني نظام مائي يسمى قصر الماء، الذي تأسس في القرن التاسع وكان يُغذى عن طريق إحدى القناطر التي تسمى هنشير الدواميس، كان يقوم بجمع المياه من منابع نهر على بعد نحو ٣٣ كم غرب المدينة.

كان قصر الماء يتألف من نظام حوضي مزدوج، وكان أكبر الأحواض يأخذ شكلاً دائرياً يبلغ قطره ١٣٠ م^(١٠٤)؛ وإلى الشمال مباشرة، كان يوجد حوض صغير ذو مقاسات

P. Gauckler, ed., *Enquete sur les installations hydrauliques des Romains en Tunisie*, 2 vols (١٠٣) (Tunis: [n. pb.], 1897-1912).

(١٠٤) في وسط هذا الحوض، كانت توجد بعض الأعمدة التي تدعم الجناح الذي يستخدمه الحكام للاستحمام والراحة في الهواء المنعش خلال ليالي الصيف.

صغيرة يُطلق عليه الفسقية؛ حيث كان يستقبل المياه الآتية من القناطر، فيعمل كصمام أمان، كما يحوّل المياه في حوض كبير من خلال فتحة تسمى السّرح، وذلك عندما تغمر مياه الأخيرة مستوى المقياسين السابقين. وقد تم استكمال تلك السلسلة التي تألفت من حوض تصفية للمياه وخزان كبير يقوم بتوفير المياه، بخزان كبير مع قنطرة، وقد تم بناؤه على الجزء المعاكس للخزان واستخدامه هو لنقل المياه^(١٠٥)، وقد جلب الأغلبية بهذه الطريقة الرخاء إلى هذه الأرض، وأدى ذلك إلى وضع سياسة متخصصة في توفير مياه الآبار والخزانات لجميع مساجد المدينة وبيوتها^(١٠٦)، كما جرى إيصال المياه إلى عدد من المناطق السكنية الموجودة في ضواحي القيروان في السهل (بين سوسة وصفاقس) وفي قفصة.

وفي الهند، بُني عدد من الأحواض قبل وصول المسلمين، وأبسط الأمثلة على ذلك الخزانات الكبيرة المفتوحة التي كانت توجد في المدن ومحيطها. فقد انتشر في الهند ما يسمى التال أو التالة (كانت تسمى في المباني الإسلامية الحوض) التي اتخذت أشكالاً مختلفة ولكنها كانت بصفة عامة مستطيلة الشكل، وفي بعض الأحيان كانت تحاط بأسوار على بعد خطوات قليلة من المستوى المتوسط للمياه، وكانت أراضيها صالحة للوضوء وغسل الملابس، وربما يضاف إليها بعض أشكال الفسقاط المختلفة التي كانت تسمى الكُشك أو الشاتري، وربما يكون قد تم إنشاء بعض المباني المحاطة بأسوار (غات) على طول ضفاف النهر أو البحيرات الصناعية المنبثقة من وجود أحد الوديان (مثل البحيرات الصناعية في آنا ساغر وأجمير وبيتشولا في أودايبور)^(١٠٧).

وفي القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، بنى الملوك عدداً من الصهاريج في الأقاليم بعد الغزو التيموري (٨٠٠ - ١٣٩٨)، كما أنشئت الفساقى في جُونبور وغوجارات وغيرهما من مدن السهل الأخرى، وذلك من أجل تغذية هذه

Solignac, «Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes (١٠٥) tunisiennes du VII^{ème} au XI^{ème} siècle.» pp. 5-273.

G. Marçais, *Tunis et Kairouan* (Paris: [n. pb.], 1937); Ch. Monchicourt, «Etudes (١٠٦) Kairouanaises,» RT (1931-1936), and p. Penet, *Kairouan, Sbeitla, le Jerid, guide illustre du touriste dans le sud-ouest tunisien* (Tunis: [n. pb.], 1911), pp. 1-41.

(١٠٧) يمتدّ اتساع سطح المياه تغيير يمكن إدراكه في بيئة ضيقة النطاق، لذلك بُني عدد من المباني على امتداد هذه الخزانات، التي استفادت من التأثير المتجدّد لعملية التبخر (على سبيل المثال، مدرسة فيروز شاه والمباني الأخرى على كلا جانبي حوض خاص في دلهي، وقصر محمد شاه، والمقابر والمسجد الموجود في ساركيج)، كما شيد عدد من الأجنحة وسط الخزان الصناعي (مثل مجمع حيران مينار الخاص بجهانغير الموجود في شيخوبورا، ومقابر شيور شاه وسالم شاه في ساسرام، وأجنحة المغول في نارناول، وزفار محل في حديقة حياتبخش في حصن دلهي).

الفساقي التي بنيت في المدينة بالمياه المتدفقة من أماكن أكثر ارتفاعاً عبر القنوات الصغيرة. ومع تقديم أراضي الإقطاع إلى النبلاء من سلالة الملك بدلاً من الممرتبات، وقد كان ذلك عاملاً وراثياً خلال فترة المغول^(١٠٨)، بنى أصحاب هذه الأراضي خزانات كبيرة من أجل التوسع في الزراعات والبساتين. وبعد ذلك، بنى ملوك المغول وسلاطين بيدار وغولكوندا، وبيجاپور، وأحمد نغر، عدداً من أحواض تجمع المياه؛ وتلخص المراجع الخاصة بهذه الأحواض التي وردت في بعض أعمال تلك الفترة، القدرة الفنية الكبيرة التي تم التوصل إليها في أعمال الشيد والبناء؛ ويشهد محمد ناد على وجود أحد الأحواض التي بنيت في بيجاپور عام ١١٦٥هـ / ١٧٥١م على يد أفضل خان.

وفي بلاد فارس انتشرت خزانات المياه والبحيرات الصناعية، وبخاصة في المناطق التي تقع على أطراف الصحراء الوسطى، وكانت تتم تغذيتها بالمياه عبر القنوات، أو المصادر الجوفية أو مياه الأمطار، وقد بُني بعضها من الحجارة أو الطوب والإسمنت، كما كانت هذه الخزانات ذات أبعاد مهمة. يذهب عبد الرحيم الضرابي إلى الاعتقاد بأن جميع القرى والمناطق السكنية الصغيرة في كاشان كانت توجد فيها بعض الخزانات الصغيرة إصطخر، وكانت وظيفة هذا الإصطخر معقدة جداً: في المناطق السكنية الصغيرة، أو المزارع؛ كانت المياه متواضعة قياساً على المطلوبة لري قطعة أرض ما خلال المرحلة الأولى من الدورة الزراعية، وذلك عندما يتطلب الأمر غمر الحقول بالمياه لبذر الحبوب، أو لري البساتين. وفي هذه الحالة تكون هناك حاجة إلى ري متواصل فترة زمنية كبيرة من أجل غمر الأرض بالمياه، لأنه إذا كانت كمية المياه صغيرة، تشربها الأرض من دون أن تغمر هذه المياه التربة، وبعد ذلك يتم حفظ المياه في خزان، وعندما يمتلئ الخزان بالمياه، أو عندما تغمره المياه الكافية لري الأراضي، تدفق مياهه إلى قنوات الري حتى يتم الحصول على النتيجة المرجوة.

وربما يحدث أن تكفي مياه قرية صغيرة للمرحلة الأولى من الدورة الزراعية، لكن يكون من الضروري توفير المياه لقطعة الأرض الممهدة للزراعة (الدشت) أو للحقول (مزارع) الواسعة التي تستهلك كميات كبيرة من المياه في المسافة ما بين مصب القناة وبين الجهة الثانية من الأرض التي ستروى بالمياه، وتكون النتيجة في هذه الحالة أن

(١٠٨) الكلمة المستخدمة لبيان شكل التعاقب الإداري، تمت ترجمتها خطأ إلى كلمة «إقطاع» في اللغات الأوروبية. قامت الدولة الإسلامية في القرون الأولى لتأسيسها بتوزيع بعض أجزاء من الولاية تسمى «قطاع»، وقد تم تقسيم هذه الأجزاء إلى قسمين، وهي تخضع لضريبة العشر، كما يحصل في كل الأملاك ذات الأصول الإسلامية.

الأرض لا تُغمر بالمياه (أو على الأقل لا يتم تخزين كمية كبيرة من المياه مسبقاً في الخزان)، وربما يحدث أن توجد مياه كافية للدورة الأولى لثلاث أو أربع قطع أرض، ويحتاج الأمر إلى تقسيم المياه بين ثلاث أو أربع قنوات ري؛ لكن نظراً إلى وجود مياه في بعضها أكثر من بعضها الآخر، فلهذا يغدو وجود الخزان ضرورياً، حيث يمكن توزيع كمية المياه المطلوبة في كل قناة من قنوات الري، أو أنه قد يتم توزيع المياه التي تأتي من ثلاثة أو أربعة مصادر على قنوات مختلفة ويتم تقسيمها بعد ذلك^(١٠٩).

في البيوت الكبيرة ومقاطع الطرق الرئيسية في عدد من المدن الفارسية يمكننا أن نرى خزانات لحفظ المياه (الآب - أنبار)^(١١٠)، بُنيت من الطوب الفخاري وغطيت بملاط مضاد للمياه (الصاروج) وهو خزان مفتوح أرفق بالحوض، وكان يوجد عادة في البيوت في صحن الدار، وكانت هذه الخزانات الخاصة تملأ من خلال القنوات أو من مصادر أخرى عندما يكون الدور على السيد، وكانت مياهها تستخدم لحاجات الأسرة، ولكن ليس للشرب بالضرورة. أما في المناطق التي تعاني قلة المياه، أو فسادها، فكانت تُجلب مياه الشرب من أماكن بعيدة على ظهور الحيوانات. وتعتبر الآب - أنبار مباني تم شيدها على نمط البناء الفارسي، وتتعامل مع المباني الدائرية التي تغطيها قبة يبلغ قطرها ١٧ - ٢٣ م وارتفاعها ٥ - ٧ م، وكان يتم وضعها تحت سطح الولاية للحفاظ على درجة حرارة المياه ومنعها من التبخر، ويجوار الخزان، كان يوجد واحد أو أكثر من أبراج الرياح المتصلة بأحد المباني (البادغير [البادهنج])، الأمر الذي يؤدي إلى نشوء تيار هواء مستمر في الجزء الداخلي لهما كان يساعد على حفظ برودة المياه^(١١١).

هذه الآب - أنبار التي انتشرت في المدن والقرى على طول الامتداد الوسطي للصحراء، يمكن أن نراها أيضاً على طول امتداد مسار القنوات الكبرى، ويصاحبها انتشار بعض المناطق السكنية، وكانت بعضها لها مصادر شخصية، لكن دائماً ما كان يتم الحفاظ على المياه من خلال القنوات أو من خلال مياه الأمطار.

وفي أوزبكستان، انتشر الكثير من الحدائق والبساتين في سمرقند في وسط إحدى الواحات الصناعية، التي كان يوجد فيها نظام قنوات يجمع مياه نهر زرافشان، وقد بُنيت

Encyclopaedia of Islam, Word «6. Irrigation in Persian».

(١٠٩)

R. Holod, «Word «Ab-anbar»,» in: *Encyclopaedia Iranica*, vol. 1 (London: Routledge and Kegan Paul, 1982), pp. 39-41; Beazley and Harverson, *Living with the Desert: Working Buildings of the Iranian Plateau*, and G. Pougatchenkova, *Chefs-d'oeuvre (d'architecture de l'Asie Centrale. XIV^e-XV^e siècle)* (Paris: UNESCO, 1981).

Wulff, *The Traditional crafts of Persia*, pp. 258-259.

(١١١)

أثناء عهد السامانيين (القرن التاسع/ العاشر)، وكواحة حضرية صغيرة محفوظة داخل الأسوار بطريقة منتظمة على امتداد القنوات، تم بناء نظام معقد من المباني العامة والمباني الدينية على امتداد أحد أحواض المياه التي اتخذت شكلاً منتظماً تحيطه مدرجات كبيرة لصب المياه وتظلّلها الأشجار^(١١٢).

ج - الأنظمة الدقيقة لرفع المياه العميقة

المناطق السكنية الناشئة بالقرب من الآبار

نظام رفع المياه المباشر من الطبقات الجوفية (الآبار وغيرها)

في هذا الإطار، لم يكن يتم جمع المياه من خلال تنظيم التربة واستخدام القنوات والمصارف كما كان الأمر في الحالة السابقة. لا تتداخل المياه الجوفية الموجودة في باطن الأرض مع الهيكل المورفولوجي لتربة الهيكل الحضري، لكن البئر كأحد الأشكال المعمارية الأساسية أصبحت نقطة منظمة للتجمعات السكنية القليلة المنفصلة المضافة بعضها إلى بعض.

وفي الهند، لم تكن البئر الخالصة مناسبة مع التوجه الزخرفي، لكن يمكن اعتبارها جزءاً من نظام معقد، كذلك التي كان يبنها جهانغير من وقت لآخر على طول امتداد الطريق إلى كشمير (كانت تتكون من سراي ومسجد وبئر)، وفي أحوال أخرى، كان للبئر دور في منتهى الأهمية، ولذلك بنت زوجة السلطان عادل شاه في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، في ييجابور، أحد الخزانات العميقة الضخمة بأموال السلطان تاج؛ وبعد خزان باني محل (برج الماء)، في نادروغ، وخزان ماء - صاحبة في حيدر آباد أمثلة أخرى مهمة للعمارة المائية.

وقد تحدثت الكثير من المصادر عن هذه الخزانات والآبار مثل čāh أو ba'īn أو باؤلي Ba'oli، ومن بين هذه الأمثلة تحدثت تلك المصادر بوجه خاص عن آبار bā'olī التي كانت ذات مدرجات كبيرة، يستخدمها الناس والحيوانات، وغالباً ما كانت مصاحبة لاستخدام السواقي الفارسية. وكانت لهذه الآبار، ذات الغرف التي كانت توجد على مستويات مختلفة الأعماق والتي كانت متصلة بسطح المياه مباشرة (حتى تصبح أماكن استراحة منعشة خلال شهور الصيف الحارة والطويلة)، قيمةً زخرفية أو وظيفية عظيمة.

A. Gangler, H. Gaube and A. Petruccioli, *Bukhara, The Eastern Dome of Islam* (Stuttgart (١١٢) and London: Menges, 2004), pp. 65-66.

وهناك مبان مشابهة موجودة في غوجارات^(١١٣)، كان يطلق عليها اسم واو (vav)، وكانت على مستوى السطح وكانت تعرف بأنها آبار مغلقة تماماً، تتكون من بئر أو أكثر من الآبار الأسطوانية الشكل (في هذه الحالة كانت إحدى الآبار مخصصة للري والأخرى لمياه الشرب) حيث كان يتم الوصول إلى مستوى المياه عبر سهل منحدر يشق التربة، وهذا يعد أفضل من الوصول إليها عبر نطاق حلزوني، وقد تم استكمال البناء في ما بعد من خلال مزيج معقد من الأعمدة والجدران، التي تعمل كسجن هيكلي للأرض^(١١٤).

خاتمة

في العالم الإسلامي هناك باستمرار فكرة المساحات الطبيعية الحضرية الصالحة للإنسان؛ مساحات حيث أجزاء من الأرض صارعها أناس جاؤوا من الطبيعة البكر. لقد كانت صحراء ومناطق لا يمكن الوصول إليها، فحوّلوها إلى قرى، ومدن، وحدائق، وبساتين. أما المياه التي لم تتوافر بصورة تامة على الإطلاق، فجعلوها في أنهار وأحواض ريّ وخزانات وآبار وقناطر، وقد أصبحت المساحات المتحضرة، والمزروعة والمروية، أعمالاً يتم تعمير الصحراء بها.

في هذا السياق، أصبحت البحيرات الصناعية والأحواض والآبار والخزانات أماكن مخصصة لتعظيم قيمة المياه الكبيرة المتدفقة ورفع مستوى الحضر من خلال انعكاسات الضوء، والانتشار السريع للفساقي ومياه الأمطار، والقدرة على التبخر في ظل الأحواض العميقة وانتشار البرد الخفيف. قبل انتشار الثقافة الإسلامية، ارتبطت هذه الأشكال بصورة مباشرة بعادات البناء المحلية وبمقتضيات بيئية معينة؛ ومع ظهور الإسلام، شاهدنا توحيداً للمعرفة، يتطابق غالباً مع توحيد الأشكال التقنية والمعرفية، مأخوذاً عن مناطق نائية (كما حدث مع انتشار «القناة» من فارس في اتجاه حوض البحر المتوسط)، ولكنها كانت تأخذ شكلاً محلياً على قدر من الاستقلالية.

علاوة على ذلك، انتشر فن العمارة المائية في العالم الإسلامي على نطاق واسع، وهو كان يختلف لجهة بعد الإقليم (ذي الأنهار والبحيرات الكبيرة) عن تلك المظاهر الموجودة في المدن وحدائقها (ذات الخزانات والأحواض)، ليتخذ أبعاد العناصر

S. Shah, «The Water Structures of Gujarat: An Examination of the 19th and 20th Century (١١٣) Historiography,» *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vol. 2 (1985), pp. 26-53, and J. Jain, *Step Wells of Gujarat* (New Delhi: Abhinav Publication, 1982).
Hobson-Jobson, *A Glossary of Colloquial Anglo-Indian Words and Phrases* (New Delhi: [n (١١٤) pb.], 1968).

المعمارية المعزولة (ذات الفسافي والآبار)، وقد ارتبطت هذه الأشكال بصورة مستقلة، بعيداً من المقياس البعدي لها، بالمساحات الحضرية، وهو ما كشف عن أنواع مختلفة من الارتباطات بالإقليم المحيط.

وفي هذا الإطار، يحاول الجدولان الرقم (٢٩ - ١) والرقم (٢٩ - ٢) شرح الانتقال من الأشكال المفتوحة الموجودة في الهواء الطلق، مثل البحيرات الصناعية، إلى الأشكال المشيدة المغلقة، مثل القنوات والخزانات، كعملية معدلة من المساحة الخاصة بالإقليم والحضر. لذلك، سمحت رطوبة الجو وتوافر المياه بكثرة مقابل التبخر النادر، للمناطق الهندية، التي تتغذى بالأمطار الموسمية في فترات خاصة من السنة فقط، بتطوير أشكال مائية متسعة في الهواء الطلق كتلك البحيرات الصناعية.

وفي الوقت الذي كانت المناطق السكنية تقام في المناطق القاحلة والأشد جفافاً، والتبخر يشكل أحد العوامل المهمة للتوازن المائي، فقد فرض ذلك ضرورة وجود المزيد من الحلول وأشكال الاستيعاب (كما هو الحال في الخزانات المفتوحة والأحواض، وأيضاً، في الخزانات المغطاة، والصهاريج، والآبار ذات المدرجات) التي تجمعت داخل أنسجة حية، وحيث يكون من السهل العثور على الحماية من الرياح والشمس السائدتين، فتمنح المكان المديني المزيد من الانتعاش والصحة.

الفصل الثلاثون

اقتصاد المدينة التقليدية

أندرية ريمون

المدينة العربية هي قبل أي شيء مدينة - سوق. وقد كان لويس ماسينيون أحد أوائل المستشرقين الذين التفتوا قبل فترة طويلة إلى أهمية الاقتصاد والسوق في تكوين المدينة «المسلمة» وتطويرها؛ فرأى في معرض دراساته للمدن العراقية أن المدينة المسلمة تركز على الثنائي المكوّن من السوق والمسجد الجامع. ثم أخذ في هذه الأهمية كل المؤرخين المتمين إلى المدرسة الاستشراقية؛ فكتب سوفاجي حول دمشق: «الأسواق... في نهاية المطاف، علة الوجود الأساسية للمدن». واستتج أوجين ويرث، استناداً إلى أبحاثه حول المدينة الإسلامية، العربية والشرقية: «تتميز المدن في الشرق الأوسط بسوقها، وهي الشارع الرئيسي للأعمال... والسوق هي أكثر ما يميز المدن ذات الثقافة الإسلامية»^(١).

في الواقع، لا يسعنا سوى الاعتراف بأنها النواة التي تنشأ حولها المدينة وتنظم وتنمو، لكن من دون الذهاب إلى عد السوق الميزة الوحيدة للمدينة العربية^(٢). ومن

(١) J. Sauvaget, «Esquisse d'une histoire de la ville de Damas», *REI*, vol. 4 (1934), p. 454, et E. Wirth, «Villes Islamiques, villes arabes, villes orientales?», dans: A. Bouhadiba et D. Chevallier, ed., *La ville arab dans l'Islam* (Tunis: [n. pb.], 1982), p. 197.

(٢) في الجوانب العامة للمدينة العربية، انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب: أندرية ريمون، «التنظيم المكاني للمدينة».

المهم بالتالي معرفة جذور هذه السمة، وربما توصلنا إلى ذلك من خلال دراسة أثرية للمدينة العربية ما قبل الإسلام^(٣).

سنسعى هنا إلى دراسة هذه الوظائف الاقتصادية داخل مجموعة من المدن العربية المتوسطة، من دون إغفال مدن المغرب والعراق واليمن، خلال الحقبة التي يمكن وصفها بـ «الحديثة»، ألا وهي فترة الحكم العثماني بالنسبة إلى أغليتها تقريباً (القرن السادس عشر - القرن الثامن عشر). إلا أن أغلبية الخصائص التي سنرصدها يمكن أن تنطبق أيضاً على المرحلة «الكلاسيكية» التي سبقتها.

أولاً: المدينة: الإنتاج والتجارة

خلافًا للنظريات التي أطلقت حول الدور السلبي جداً («طفيلي» على حد قول البعض) الذي اضطلعت به المدينة على مستوى الإسلام، كان للمدينة عملياً وقع إيجابي، على الصعيد المحلي والإقليمية والدولية.

١ - كانت الأرياف مسرحاً لتصنيع المنتجات اليدوية في سياق الإنتاج داخل مشاغل أسرية. ففي مصر على سبيل المثال، كان للمراكز الإقليمية في الدلتا والفيوم والصعيد دور أساسي في تصنيع النسيج. ويلاحظ باير أنه من أصل ألف قرية ذكرت في مؤلف علي باشا مبارك، عرفت ٢٠٠ منها إنتاجاً يدوياً محلياً^(٤). إلا أن الإنتاج الأكثر تخصصاً كان، في أغليته، حكراً على المدن، وذلك في مجالات متنوعة تلبى حاجات سكان المدينة والمناطق الريفية على حد سواء. وكان الحرفيون يقدرون خلال القرن الثامن عشر بنصف السكان العاملين في القاهرة. كانت الحرف «الأساسية» هذه، المتوافرة في جميع المدن الكبرى، تتعلق أساساً بمهن تدخل فيها صناعة المعادن والخشب والجلود ومنتجات الذهب والفضة التي كانت تمثل وسيلة للدخار تعوّل عليها القرى بكثافة. وكانت صناعة النحاس الرائجة عادة في المدن المثال الأسطع على هذا النوع من الحرفية المدنية التي كانت مع ذلك تساهم في سد حاجات المناطق الريفية من المواد المحلية. وكانت هذه الصناعة من الأهمية بمكان بحيث تمركزت،

A. Al-Ansary, «Qaryat Dhat Kahl: Al-Fau,» in: M. Naciri and A. Raymond, eds., *Sciences (٣) Sociales et Phénomènes urbains dans le monde arabe* (Casablanca: Fondation du Roi Abdul-Aziz Al-Saoud, 1997).

G. Baer, «Village and City,» in: A. L. Udovitch, ed., *The Islamic Middle East* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1981), p. 603.

وعلى صخبها، في القاهرة، أي في قلب المدينة النابض، إذ احتلت سوق النحاسين الجزء الشمالي من جادة القصبة التي تمحور حولها وسط المدينة الاقتصادي.

في بعض الحالات، تحول هذا الإنتاج المدني إلى صناعة حقيقية تؤمن حركة إعادة التوزيع باتجاه المناطق الريفية وتدفعاً للصادرات كان يساهم في التوازن الاقتصادي الكلي للبلاد؛ ويمكن إعطاء عدة أمثلة على ذلك.

ففي تونس العاصمة، وفي أواخر القرن الثامن عشر، أصبحت صناعة الشاشيات (القبعات الحمراء) التي عادت إلى الواجهة في أوائل القرن السابع عشر مع وصول آلاف الأندلسيين المطرودين من إسبانيا تعد ٣٠٠ معلم و ١٥٠٠٠ حرفي (انظر الرسم الرقم (٣٠ - ١)). وكان الإنتاج (المقدر أحياناً بـ ١٢٠٠٠٠٠٠ قبة) يصدر إلى المناطق الخاضعة للحكم العثماني كافة، ولا سيما مصر التي كانت تقدر مشترياتها بـ ٣٥,٤ مليون بارة (أي ثلث الواردات من المغرب). كما شهدت القاهرة أنشطة نسيجية مهمة: قدر أوليا جلبي، الذي وصف المدينة قريب عام ١٦٦٠، عدد الحرفيين في صناعة النسيج بـ ١٢٠٠٠ حرفي. وتشير استطلاعات الرأي المدونة في سجلات المحاكم في نهاية القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى أن ثلث الحرفيين تقريباً كانوا يعملون في صناعة النسيج. وكان هذا الإنتاج يصدر بكثافة^(٥).

في بداية القرن التاسع عشر، بلغ عدد مصانع الصابون في نابلس ١٣ مصنعاً يباع قسم من إنتاجه، الذي يعد الأهم في فلسطين، في القاهرة، حيث مثل خان الصابون مركزاً للتجارة الفلسطينية^(٦) (انظر الرسم الرقم (٣٠ - ٢)).

وفي مجال النسيج، كان الإنتاج ناشطاً في حلب، إذ بلغ عدد الأنوال ١٢ ألفاً في بداية القرن التاسع عشر، الأمر الذي سمح بالتصدير إلى أوروبا. وتضاعفت الكميات التي كانت تستوردها مرسيليا ٢٠ ضعفاً خلال القرن الثامن عشر^(٧). يشير مجموع هذه الأمثلة بما يكفي إلى أن الانحطاط الاقتصادي العام المزعوم الذي ينسب إلى ولايات السلطنة العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر لا أساس له من الصحة، وهو يحتاج إلى مراجعة جذرية.

A. Raymond, *Artisans et commerçants au Caire*, 2 vols. (Damascus: Institut français de Damas (٥) (IFD), 1974), vol. I, p. 299.

B. Doumani, *Rediscovering Palestine* (Berkeley, CA: University of California Press, 1995), (٦) p. 257.

A. Raymond, *La Ville arabe. Alep, à l'époque ottoman* (Damascus: IFD, 1998), pp. 359-361. (٧)

الرسم الرقم (٣٠ - ١)
صانعو الشاشيات في تونس



الرسم الرقم (٢٠٣-٢)
مصنع صابون في حلب



٢ - لم تكن المدينة ببساطة مركزاً للإنتاج فقط، إذ كانت مكاناً للتبادل أيضاً على كل المستويات: المحلي والإقليمي والعالمي.

وعلى الرغم من أن الحرف القروية كانت عالية النشاط بحيث كان في وسعها إنتاج فائض قابل للتسويق (كما هي حال الصناعات النسيجية على سبيل المثال)، فإن المنتجات الأكثر تخصصاً وتطوراً كانت تأتي بالتأكيد من المدينة. وهو ما لاحظته جيرار في وصف مصر^(٨)، عندما أفاد أن «الصناعة تقتصر في القرى على الفنون الضرورية وعلى معالجة بعض المنتجات الزراعية التي تستخدم للاستهلاك اليومي... أما المدن فتشهد صناعة أكثر تطوراً تُعنى بتحويل المواد الأولية المستوردة من الخارج إلى منتجات ذات استعمال منتشر في قليل أو كثير»^(٩).

كما أن المنتجات المستوردة من الخارج كان يعاد توزيعها انطلاقاً من المدينة، فكانت المواد الأولية الضرورية للحرفية الريفية تمر أولاً عبر المدن قبل أن يعاد توزيعها في القرى، وكان استعمال الكماليات يعمم في المدن قبل أن توزع على القرى؛ فانتشر استعمال الأغذية الأوروبية على نحو واسع في مصر، ما حدا بتاجرين فرنسيين على فتح متجر في فرشوط في الصعيد عام ١٧٦٧ لبيع الأغذية. كما أصبحت قهوة الموكا رائجة في القرن السابع عشر انطلاقاً من القاهرة، وتعممت على سائر مناطق البلاد. وعندما ظهرت قهوة الجُزر (Café des Îles)، الأدنى جودة والأقل تكلفة، انتشرت سريعاً في القرى. في هذا الإطار، لاحظ فنصل فرنسا عام ١٧٤٠ أن «الكبار والأثرياء لا يحسنونه، فهو يقدم في المقاهي العامة ويستعمل في القرى»^(١٠).

وقد يتطلب الأمر أبحاثاً في مجال الإثنولوجيا التاريخية لبيان مقدار التنوع في المنتجات والأدوات المستعملة في الحياة اليومية التي كانت تستعمل في القرى وتدخل إلى البلاد بواسطة المدن بفضل التجارة الدولية التي كانت المدن نواة لها.

في المقابل، كانت المناطق الداخلية تزود المدن بالمواد الغذائية لاستهلاكها وبالمواد الأولية الضرورية لنشاطها الحرفي، وهذه إحدى السمات التي تميز العلاقات بين المدن والقرى والتي عكف عليها أنطوان عبد النور وبول صباغ لدى دراسة الأنماط

Description de l'Égypte.

(٨)

«Mémoire sur l'agriculture, l'industrie et le commerce,» dans: P. S. Girard, *Description de l'Égypte: Etat moderne* (Paris: [n. pb.], 1812), pp. 590 et 617.

(٩)

Raymond, *Artisans et commerçants au Caire*, vol. 1, pp. 157 et 197.

(١٠)

الغذائية لسكان تونس العاصمة ودمشق^(١١). لا حاجة إلى أن نعرض بالتفصيل المنتجات التي كانت ترسل إلى المدن لتلبية الحاجات الغذائية لسكانها وتزويدهم بوسائل الإنتاج. إلا أنه من المجددي أن نلاحظ التأثير البارز الذي كان لهذه التجارة في بنية المدن، وذلك بوجود أسواق عند أطراف المدن حيث يجري خزن المنتجات الغذائية ثم عرضها للبيع، وحيث كانت تتركز العلاقات التجارية بين المدينة والريف. سنعود إلى هذه النقطة في مرحلة لاحقة لدى التطرق إلى بنية المدينة الاقتصادية.

من الطبيعي أن يتم تسويق المنتجات المزروعة والمصنعة في المناطق الريفية عبر المدن. وفي الواقع، كانت عملية الإنتاج في إطار العلاقات بين المدن وقراها تولّد تعاوناً حقيقياً مع توزيع للوظائف؛ ففي مصر، وفي ما يتعلق بالكثبان والقطن، كانت تتم العمليات الأولية لغرض الغزل في معظم الأحيان في مشاغل أسرية ريفية، وكان النسيج يجري في القاهرة وفي غيرها من المراكز المحلية؛ ولعل الأمر نفسه كان ينسحب على مدن كبرى أخرى. وأبرز ما يدل على هذه الشراكة هو تصنيع الشاشيات في تونس العاصمة؛ فالقبعات كانت تحاك في أريانة في ضاحية تونس العاصمة؛ ومن ثم كانت تخاط في تونس العاصمة وتُدعك في مشاغل طبرية، وهي مدينة صغيرة على ضفاف وادي مجردة، وتنقش في الأسواق في تونس العاصمة؛ أما الصباغة فكانت تتطلب عملية إضافية في زغوان وكان الشكل النهائي يعطى في العاصمة. وعليه، كانت تسجل حركة ذهاب وإياب متواصلة بين المدينة والقرية على امتداد عملية التصنيع.

٣- كانت أغلبية المدن العربية المتوسطة الكبرى التي تمثل موضوع دراستنا تشهد تجارة دولية مكثفة تمنحها أهميتها وتؤمن رفاهها. وكانت هذه المدن تقع عادة على محاور التجارة الدولية الكبرى عند نقاط استراتيجية: تونس العاصمة عند نقطة الاتصال بين أوروبا وأفريقيا وعند نقطة الانقسام بين الحوض الغربي والحوض الشرقي للبحر المتوسط، والقاهرة عند حدود قارات ثلاث، آسيا وأفريقيا وأوروبا (بواسطة الطريق البحري بمحاذاة البحر المتوسط)، وحلب عند نقطة الاتصال الطبيعية بين التجارة البرية القائمة على القوافل نحو الشرق وبين الحركة البحرية باتجاه وسط السلطنة وأوروبا، والموصل عند نقطة مرور دجلة حيث تلتقي الطرق البرية نحو الشرق وبلاد ما بين النهرين والغرب.

(١١) أ. عبد النور، مقدمة لدراسة التمدين في سورية العثمانية (بيروت: [د. ن.]، ١٩٨٢)، ص ٢١٧، و Paul Sebag, *Tunis au XVIII^{ème} siècle* (Paris: L'Harmattan, 1989), pp. 199 sqq.

وكانت هذه المدن مسرحاً لتبادل الإنتاج المحلي والإقليمي والمنتجات المصنعة الوافدة من أوروبا، بل المنتجات الاستوائية أحياناً: أضيفت القهوة إلى البهارات المستوردة من الشرق وأصبح استهلاكها رائجاً نحو عام ١٦٥٠؛ وظلت الأقمشة الشرقية المستوردة من الهند موضع تجارة ناشطة، وكانت المنتجات الوافدة من وسط أفريقيا تمر عبر الجزائر العاصمة وتونس العاصمة والقاهرة. يبرر هذا النشاط الدولي قوة الجهاز التجاري الذي تمتعت به هذه المدن (الخانات، الأسواق) وازدهار كبار التجار المحليين الذين كانوا يزاولون نشاطهم فيها (الذين لم تبرز أهميتهم إلا منذ بضع سنوات)، ووجود تجمعات مهمة من التجار الغربيين. كان الفرنسيون والإيطاليون الأكثر نشاطاً وكانوا يتركزون في الفنادق والحانات المعدة لهم.

يفسر هذا التنوع في الوظائف والإنتاج المعد للأسواق المحلية والدولية ونشاط الترانزيت على جميع المستويات الأهمية الحيوية التي اكتسبتها الأنشطة الاقتصادية في هذه المدن. وقد حملت المدن أثر هذا التفوق، حتى في بنيتها المكانية.

ثانياً: الأنشطة المركزية

تميزت المدينة العربية المتوسطة بمركزية شديدة وبفصل حاد بين المركز الذي كان مسرحاً للأنشطة الاقتصادية المهمة، والذي يمكن وصفه بالمجال «العام» بحكم وجود الجامع الكبير وأجهزة السلطة والإدارة، وبين المنطقة السكنية شبه الخالية من الأنشطة الاقتصادية التي يمكن وصفها بالمجال «الخاص». وكانت الأنشطة تدرج من المركز إلى حدود المدينة من الأهم إلى الأقل أهمية. وبالتالي، ضمن هذا التنظيم المنطقي، كانت تترجم الأوجه المختلفة للنشاط الاقتصادي من الناحية المكانية اختلافاً في المواقع.

لاحظ جميع الباحثين الذين درسوا بنية المدينة، سواء وصفوها بالمسلمة (ماسينيون) أو بالشرقية (ويرث) وجود منطقة مركزية للأسواق بالقرب من الجامع الكبير. اتسمت هذه المنطقة بكثافة المباني ذات الطابع الاقتصادي التي كانت تمارس فيها التجارة الكبرى والتجارة المتخصصة والأنشطة الحرفية الأكثر أهمية^(١٢).

(١٢) واجهت هذه الأسئلة في عملي: A. Raymond, *Grandes Villes arabes à l'époque ottomane* (Paris: Sindibad, 1985).

في خصوص أمكنة الأنشطة في تونس في القرن السابع عشر، انظر مساهمتي في الفصل الثاني من هذا الكتاب: «التنظيم المكاني»، وانظر أيضاً المصدر الذي استقيت منه المعطيات في: Sebag, Ibid.

من جهة أخرى، يمكن تفسير وجود الكُتَّيبين بقرب الجامع الذي يعد مركزاً للتعليم يضم مئات الطلبة والمعلمين (مراجعة حالة تونس العاصمة (قرب الزيتونة) والقاهرة (الأزهر)).

١ - كانت الأنشطة الأكثر أهمية الخاضعة لتجارة دولية ناشطة تتمركز في معظم الأحيان في حرم مقفل لأسباب أمنية أطلق عليه اسم «قيصرية» أو «قيسارية»؛ إلا أنه كان يعرف خلال فترة الحكم العثماني بالبادستان، تيمناً بذلك الموجود في إسطنبول. خضعت القيسارية في فاس، التي لا تزال قائمة حتى اليوم، لدراسة مفصلة أجراها لو تورنو تنسحب على معظم المدن ذات البنية المشابهة (انظر الرسم الرقم (٣٠ - ٣)). تقع هذه القيسارية بين جامع القرويين وضريح مولاي إدريس مؤسس المدينة في قلب حي الأسواق عند نقطة حساسة من المدينة (والمحفوظة مبدئياً من المسلمين)، وتتألف من مجموعة شوارع موازية وشوارع تقطعها بزوايا قائمة يتم النفاذ إليها من خلال فتحات مزودة بأبواب تغلق في المساء عندما تخلو القيسارية من الناس باستثناء الحراس. تحدد الشوارع دكاكين التجار الذين يمارسون الصُّنْع الأكثر مكانة في المدينة، ألا وهم الصاغة والعطارون والشماعون وتجار القماش المستورد... إلخ. وكتب ليون الأفريقي: «في بداية القرن السادس عشر، كانت هذه السوق كناية عن مدينة صغيرة محاطة بأسوار عليها إثنا عشر باباً على الأطراف»^(١٣).

وكان خان الخليلي في القاهرة يتألف من عدة خانات يتم النفاذ إليها عبر ممرين مغلقين بأبواب ضخمة ترقى إلى عهد المماليك وتجري فيها التجارة الدولية الكبرى في القاهرة. ولربما صمم على صورة البادستان (الذي يسمى أحياناً بازستان) بما أنه بني عام ١٥١١ على يد السلطان المملوكي قانصوه الغوري للتجار الأتراك على وجه الخصوص^(١٤). وتوجد قيصریات وبادستانات في الجزائر العاصمة ودمشق وحلب وبغداد.

تميز المركز الاقتصادي أيضاً بوجود خانات تمارس فيها التجارة الدولية الكبرى والتجارة بالجملة ويقيم فيها التجار الوافدون من مناطق أخرى وقسم من السكان المحليين، ولا سيما العناصر «الهائمة» على غرار الجنود. وعرف الخان أيضاً بالفندق

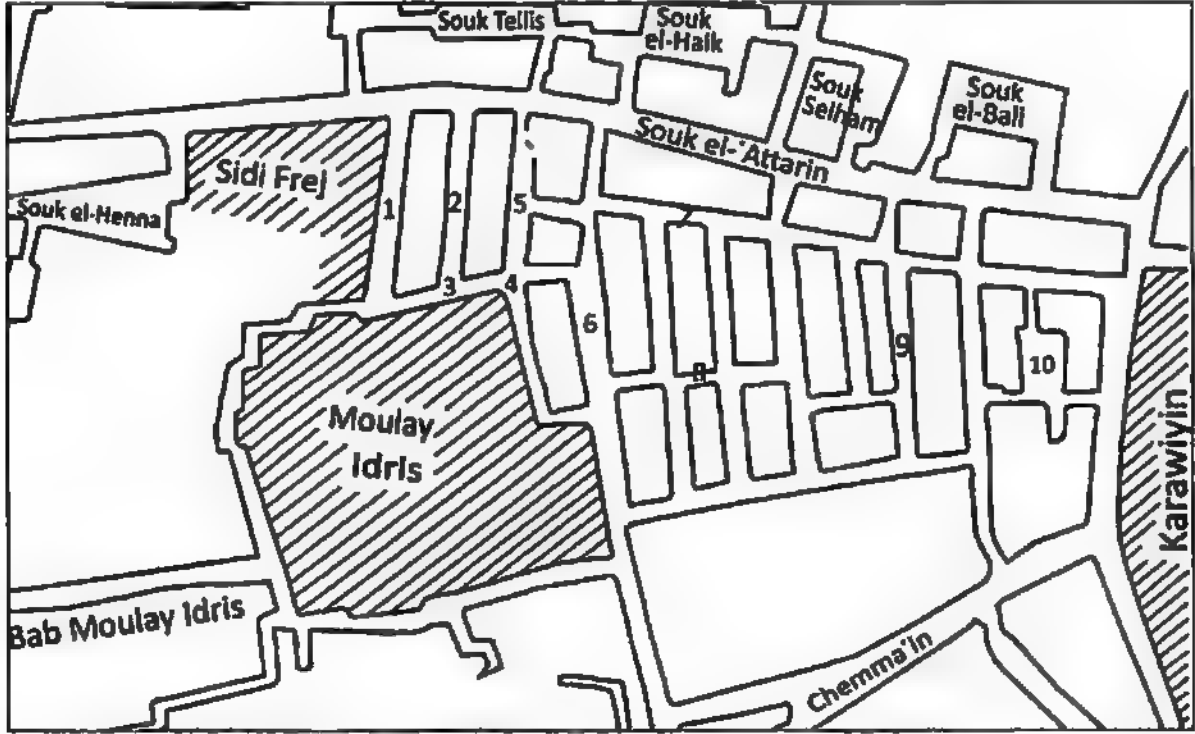
R. Le Tournieu, *Fès avant le protectorat* (Casablanca: SMLE, 1949), pp. 374-376, et (١٣) Jean-Léon L'Africain, *Description de l'Afrique*, edited by A. Epaulard (Paris: Adrien-Maisonneuve, 1956), p. 198.

S. Denoix, J.Ch. Depaule et M. Tuchscherer, *Le Khan Al-Khalili*, 2 vols. (Cairo: IFAO, 1999), (١٤) انظر: (١٤).

في أفريقيا الشمالية (والوكالة في تونس العاصمة) وبالوكالة والخان في القاهرة (التي عرفت الفنادق القيساريات في عهد المماليك) وبالخان في سورية والعراق والسمرة في اليمن (حيث استعملت أيضاً كلمة خان).

الرسم الرقم (٣٠ - ٣)

قيسارية فاس



R. Le Tournau, Fès, 1949.

المصدر:

أياً كانت التسمية وأياً كانت المنطقة المعنية، لم يعرف شكل هذه الإنشاءات أي تغيير، فهي كناية عن أبنية مربعة أو مستطيلة تفتتح بباب واحد غالباً ما يكون ضخماً لناحية الشارع؛ كانت تضم باحة مركزية يمكن أن تركز فيها الحيوانات وتفتح عليها المتاجر المعدة لخزن البضائع وغرف التجار، الموزعة على مستويين في معظم الأحيان.

تضم دمشق بعض الخانات المسقوفة، نذكر منها خان أسعد باشا (١٧٥٣) وهو بناء ضخم يمتد على ٥٢ متراً بـ ٤٦ متراً ويتألف من ٩ قبب. قد يعود ذلك إلى تأثير الهندسة العثمانية التي يلاحظ تأثيرها أيضاً في أبنية أخرى أكثر قديماً.

كان قياس الخان رهن النشاط التجاري الممارس فيه والأهمية التي تكتسبها المدينة. فكان لفندق العطارين في تونس العاصمة قياس متواضع حيث امتد على ٦٢٥ م^٢. كما أن فندق الفرنسيين في تونس العاصمة لا تتجاوز مساحته الـ ١٠٠٠ م^٢. وفي القاهرة، تمتد وكالة «ذو الفقار» على ٢٦٢٥ م^٢ (انظر الرسم الرقم (٣٠ - ٤)) وتضم ٣٢ متجراً و ٣٥ غرفة، إلا أن الوكالات الموجودة في مدخل مرفأ بولاق أكثر اتساعاً، إذ كانت وكالة الخرنوب تمتد على ٣٨٤٠ م^٢.

الرسم الرقم (٣٠ - ٤)
وكالة «ذو الفقار» في القاهرة

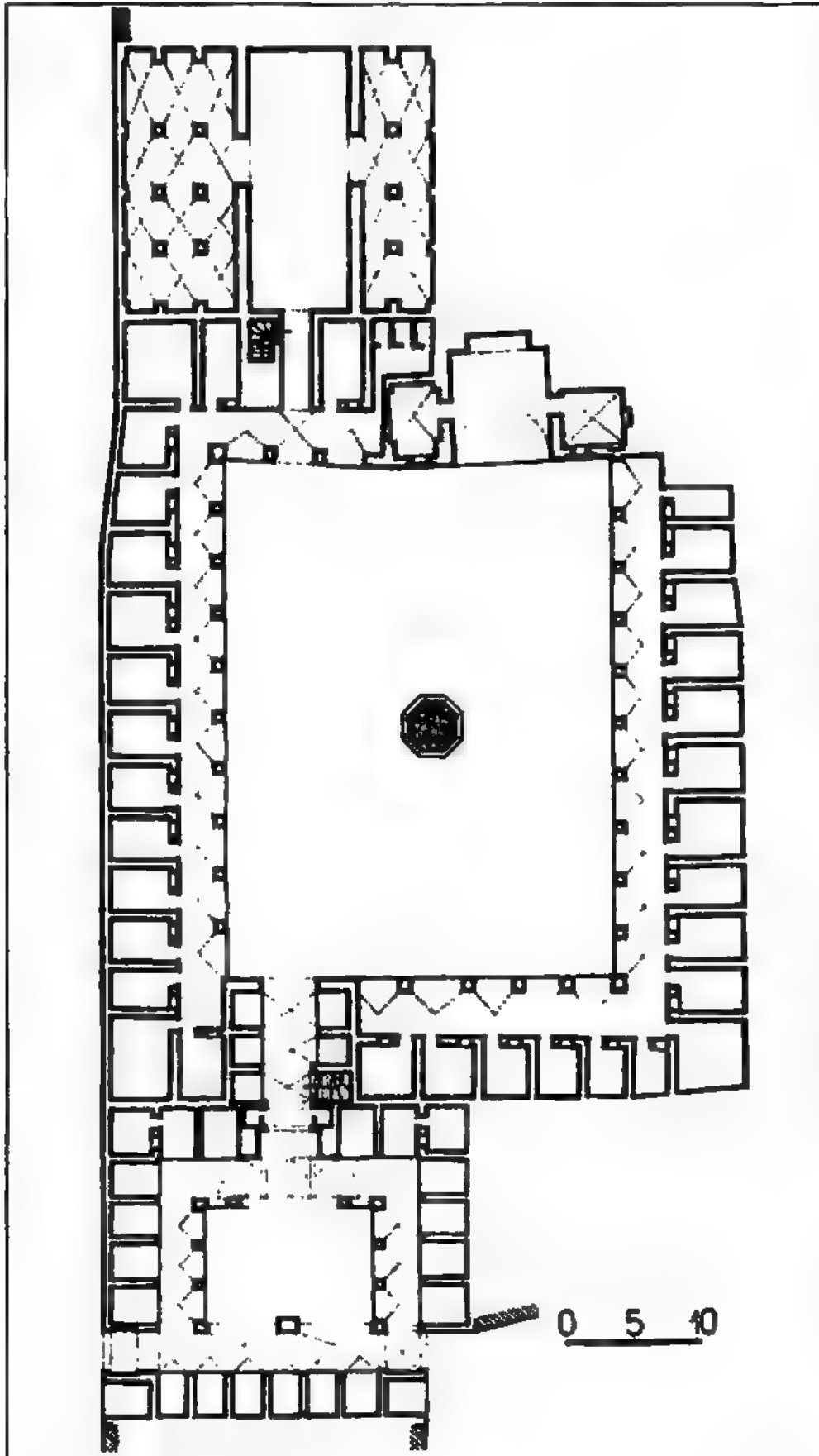


P. Corte, *Architecture Arabe*, 1839.

المصدر:

وكانت حلب تضم الخانات الأكثر ضخامة والأكثر تنسيقاً (انظر الرسم الرقم (٣٠ - ٥)) إذ كان خان الجمرك يمتد على ٦١٦٧ م^٢ ويضم ٥٢ متجراً في الطابق الأرضي و ٧٧ غرفة في الطابق العلوي. يعدّ عدد الخانات في المدينة مؤشراً على دورها كمركز تجاري؛ فهناك ٣٤ خاناً في الجزائر العاصمة و ٤٤ في بغداد و ٣٥ في الموصل و ٥٧ في دمشق ومئة في حلب و ٣٦٠ في القاهرة. ويمثل هذا الرقم الأخير خير دليل على النشاط الاقتصادي الذي شهدته هذه العاصمة وعلى تفوقها في الوطن العربي.

الرسم الرقم (٣٠ - ٥)
خان قرتبای في حلب



كانت الأسواق التي نشأت في هذه المنطقة المركزية أبنية مفتوحة في معظم الأحيان تحتل دكاكينها جزءاً من شارع أو مرفقاً، أو ساحةً في النادر من الحالات، كما في حالة فاس، حيث تجار القماش المحلي كانوا يجتمعون في أربع ساحات صغيرة في سوق العطارين^(١٥). وكان ذلك تجمعاً عفويّاً لدكاكين الحرفيين والتجار الذين يمارسون الصنعة نفسها ويلتزمون في اتحادات مهنية تضم أنشطة مجزأة (كانت القاهرة تضم ٢٥٠ منها على الأقل) ذات قاعدة جغرافية صارمة جداً. وبالتالي، كان اسم الصنعة يشير في آن معاً إلى نشاط مهني واتحاد ومكان محددة في المدينة. وهذا يعني أن الاسم قد يستمر في الدلالة على مكان توقف فيه النشاط المذكور منذ مدة طويلة: في القاهرة خلال فترة الحكم العثماني، هناك المحلة المعروفة بالفحامين (تجار الفحم)، وهم يقومون بنشاط متواضع يمارس عادة في الضواحي)، أما القصة وسط القاهرة تضم تجار القماش الميسورين. وقد شهدت المدن حالات تغيير متعددة تزودنا بالمعلومات حول تاريخها.

كما أن الأمثلة كثيرة على الأسواق ذات الطابع الهندسي، ولا سيّما في جوار الجامع حيث كانت تتمركز الصناعات الأكثر ازدهاراً؛ فخلال النصف الأول من القرن السابع عشر، في عهد يوسف داي، انضمت سوق التُّرك، وهي كناية عن شارع كبير مسقوف، وسوق البركة التي تحمل أعمدتها الستة سقف الساحة الصغيرة، إلى الأسواق المسقوفة في تونس العاصمة التي ترقى إلى عهد الحفصيين والموجودة حول الزيتونة (انظر الرسم الرقم (٣٠ - ٦)). بنيت قصبة رضوان في القاهرة المسقوفة على طول ٥٠ متراً على يد أمير مملوكي نافذ قرابة عام ١٦٤٠، وهي المثل الوحيد على سوق مسقوفة في القاهرة (انظر الرسم الرقم (٣٠ - ٧)).

وفي حلب، بنيت أسواق كبيرة مسقوفة خلال القرن السادس عشر على يد الباشوات الذين أسسوا الأوقاف في المنطقة المركزية من المدينة؛ وتمثل سوق بهرام باشا التي بنيت عام ١٥٨٣ بين جامع وقيصرية، مع مجموعة من القباب التي تؤمن التواصل بين تلك المعالم المختلفة، خير مثال على هذه الإنشاءات النفعية المتميزة ولكن من دون سمات هندسية لافتة كتلك التي تميز حلب. ونلاحظ أن الأمر يتعلق في جميع هذه الحالات، بمؤسسات مدنية كبرى ذات منفعة عامة تديرها السلطات السياسية العليا.

الرسم الرقم (٣٠ - ٦)

سوق البركة، تونس



الرسم الرقم (٣٠ - ٧)

قصة رضوان، القاهرة



يختلف عدد الأسواق، شأنها شأن الخانات، إلى حد بعيد من مدينة إلى أخرى، إذ كانت القاهرة تعد ١٤٥ سوقاً وحلب ٧٧ وبغداد ودمشق والجزائر العاصمة خمسين فقط. وكانت الأسواق تتدرج داخل المنطقة المركزية للأسواق من الأهم إلى الأقل أهمية، إذ كانت سوق الصباغة والعطارين والقماش تحتل عادة المنطقة الأقرب من المركز. ويكتسب توزيع الأنشطة في تونس العاصمة حول الزيتونة مدلولاً خاصاً في هذا الإطار.

مثل الدكان أو الحانوت العنصر المحوري لهذه الأحياء المركزية الذي يبدو أنها شهدت تغييرات طفيفة من القرون الوسطى إلى العصور الحديثة، التي تبدو شبه مماثلة من المغرب إلى أفغانستان. فيتلاقى الوصف الذي أجراه سوفاجي لحلب في عصر الزنكيين مع وصف لايين للقاهرة في عهد العثمانيين ووصف تورنو لفاس في بداية القرن الماضي. وقد تحدث لايين عن مكان صغير مربع الشكل يبلغ طوله ٦ أو ٧ أقدام وعرضه ٣ أو ٤ أقدام قد يضم مخزناً في بعض الأحيان؛ أرضية الدكان مرتفعة عادة عن مستوى الشارع ويجلس صاحب الدكان على مصطبة من حجر. يغلق الدكان في المساء

بواسطة مصاريع خشبية يرتفع جزؤها العلوي ليشكل شرفة وينخفض جزؤها السفلي ليشكل مكتباً^(١٦).

وبسبب هذه البساطة والرخص كانت تكلفة الدكاكين متدنية، وهو ما سمح بشيدها بالآلاف في إطار الأوقاف. فتم بناء عشرين منها في القاهرة عام ١٧٥٠ وبلغ سعر الواحدة ١٦٧٠ بارة، في حين تجاوز سعر الوكالة في هذه المدينة المليون بارة. وكانت الدكاكين المبنية في إطار مشروع هندسي أكثر اتساعاً وتنميّة. كما تغير عدد الدكاكين بحسب أهمية المدن، إذ بلغ عددها ٥٠٠٠ في تونس العاصمة عام ١٨٦٠ و ٦٦٠٠ في دمشق عام ١٨٧١ ولربما ٢٠٠٠٠ دكان في القاهرة عام ١٧٢٩^(١٧).

إلى جانب الأنشطة التجارية في مجال الأقمشة والبهارات (والقهوة) والمعادن الثمينة التي عكفنا عليها، كان المركز يشهد أنشطة متنوعة أخرى تخضع لتجارة رئيسية. تلك كانت حال النقول (الفواكه المجففة) المستوردة من تركيا وسورية، التي توجد سوقها في تونس العاصمة قرب الجامع وفي القاهرة في السكرية عند الطرف الجنوبي للمقبرة. وكان النقوليون تجاراً ميسورين.

أما أسواق الخضار الطازجة فكانت، على العكس، موجودة في الضواحي، وغالباً ما كان التجار في حالة من الفقر المدقع. والأمثلة كثيرة على ذلك. كما كانت المراكز المدنية تشتمل على الأنشطة الحرفية. وفي عدد من الصناعات، كان الصانع هو نفسه التاجر، يتولى بيع منتجاته نظراً إلى غياب الفصل بين عملية التصنيع والبيع. وشهدت هذه المناطق المركزية حرفاً لتصنيع الأغراض ذات الاستعمال اليومي والتي شهدت تنوعاً كبيراً.

في تونس العاصمة، كان موقع البلغاجية [وهي نوع من الأحذية الأفريقية المغربية] مميزاً، على قاب قوسين من تجار البهارات. وبنى يوسف داي (١٦١٠ - ١٦٣٧) للبشامقية [نسبة إلى أحذية البشمق] سوقاً قرب جامعهم. كما كانت أغلبية القوافين في القاهرة مباشرة خارج باب زويلة وبنى لهم الأمير رضوان بك سوقاً مسقوفة رائعة هي خير دليل على ازدهار هذه الحرفة وتمركز عدد لا بأس به منهم في خان الخليلي في مكان أكثر تميزاً.

J. Sauvaget, *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne* (Paris: P. Geuthner, (١٦) 1941), p. 120.

Raymond, *Grandes Villes arabes à l'époque ottoman*, p. 241.

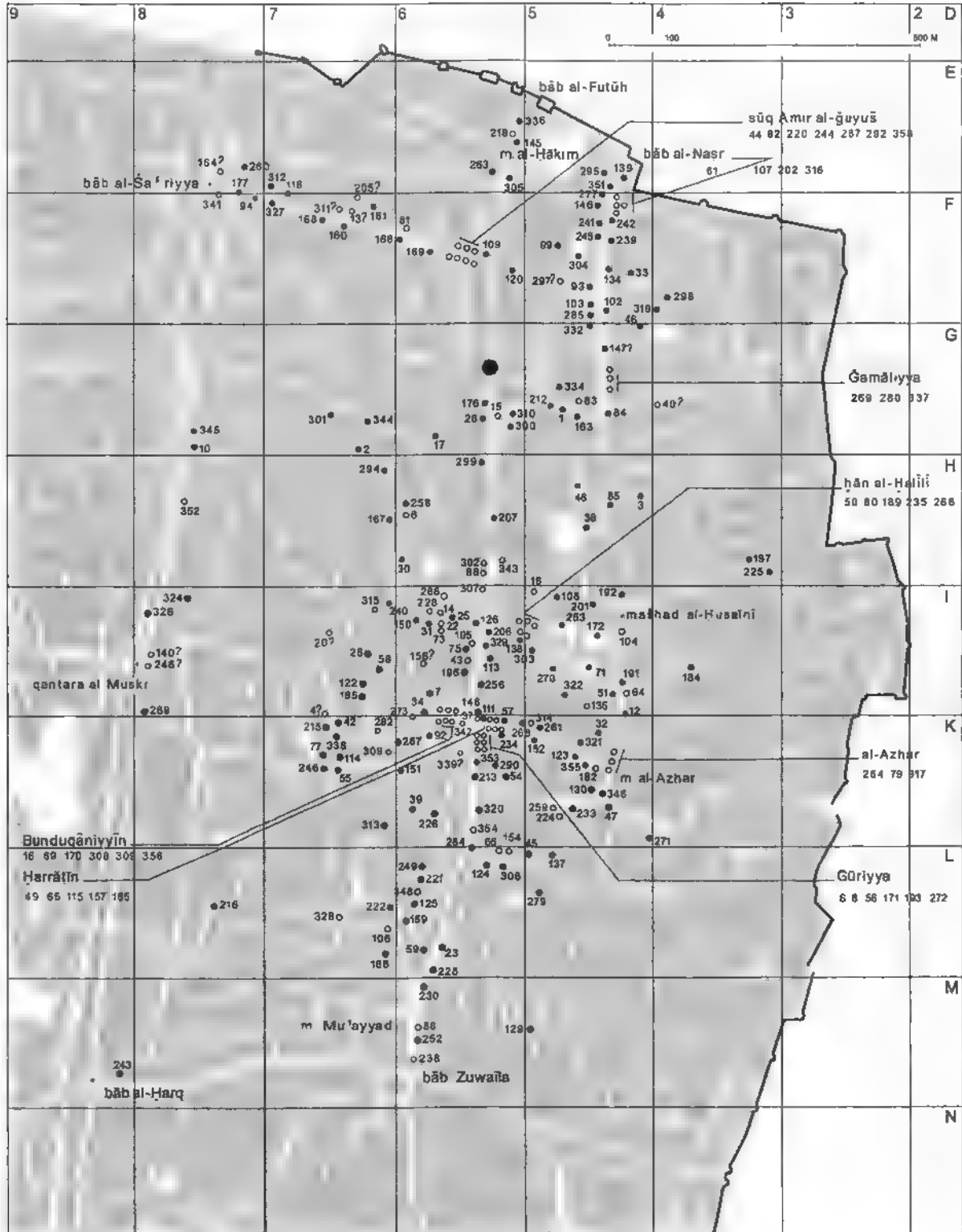
(١٧)

أما الصناعات الأكثر تسبباً بالإزعاج فكانت بعيدة باتجاه الضواحي كما سنرى لاحقاً، واستفادت حرفة بأهمية حرفة النحاسين أكثر من سواها، إذ هي التي توفر القسم الأكبر من أواني المطبخ والأدوات المنزلية من دون استثناء بحيث كان لها أن توجد في المركز على صخبها، كما هي حال سوق النحاسين في تونس العاصمة وفي القاهرة.

٢ - يوجد الجزء الأكبر من الجهاز التجاري الضخم العائد للمدن العربية الكبرى في القلب أو في المركز. ففي الجزائر العاصمة، تمحور نصف الأسواق الـ ٥٤ في المنطقة المركزية. وفي القاهرة، كان ٢٢٩ خاناً من أصل الخانات الـ ٣٤٨ التي عثر عليها، متمركزاً في منطقة قلب القاهرة (انظر الرسم الرقم (٣٠ - ٨)). وفي حلب، كان هنالك ١٩ خاناً في منطقة مركز المدينة حيث بلغت مساحتها ٤,٤ هكتار، أي نصف مساحة هذه المنطقة المركزية. ومثال القاهرة هو الأفضل، حيث تسمح دراسة المستندات الصادرة عن المحاكم بتحديد موقع أنشطة الحرفيين والتجار الذين كشف النقاب عن ثرواتهم من خلال تركاتهم. فخلال أعوام ١٧٧٦ - ١٧٩٨، عادت نسبة ٦٥,٥ في المئة من التركات المسجلة في القاهرة إلى أفراد يمارسون نشاطهم في المناطق المحاذية للقصب، وهي الشارع الرئيسي الذي يمتد على طول الحي الفاطمي من الشمال إلى الجنوب والذي كان لا يزال يمثل في القرن الثامن عشر مركزاً للأنشطة. ومثلت تركات هؤلاء ٨٨,٣ في المئة من مجموع التركات في المدينة. يبرز هذا الرقم الدور الاقتصادي الساحق الذي اضطلع به المركز الاقتصادي، حيث تتمركز الأنشطة والثروات. وعليه، وجدت نسبة ٩٠ في المئة تقريباً من الثروة في القاهرة في منطقة لا تتجاوز مساحتها ١٥ في المئة من مساحة المدينة الإجمالي^(١٨).

يمكن تحديد بنية هذه المنطقة المركزية وقياساتها من خلال الهياكل الاقتصادية التي كوَّنت إطاراً للتجارة الكبرى، ألا وهي الأسواق المتخصصة والخانات. تبرز الخرائط الفرق في المقاييس بين المدن ذات الإشعاع المحلي أو الإقليمي أو العواصم الكبرى (المتروبوليتانية): من الجزائر العاصمة (هكتاران) والمدن المتوسطة الحجم (تونس العاصمة، دمشق، الموصل) والمراكز المهمة (حلب، بغداد) وصولاً إلى عاصمة حقيقية، أي القاهرة (٦٠ هكتاراً) التي لا يمكن مقارنتها إلا بالعاصمة إسطنبول. كانت هذه المراكز الاقتصادية تتميز بطابع فردي في المدينة بحيث أطلق عليها اسماً خاصاً، مثل الرِّبع في تونس العاصمة، والقاهرة في القاهرة، والمدينة في حلب.

الرسم الرقم (٣٠ - ٨)
خانات أو نُزل في منطقة القاهرة، القاهرة



لا عجب أن تكون المناطق المركزية في مدينة، غالباً ما شدد المستشرقون على عدم انتظام شبكة طرقاتها، متصلة بالخارج عبر شوارع واسعة ومباشرة نسبياً (ضمن

الحدود التي يفرضها التجول الذي لا يقوم على السيارات بل يقتصر على نقل البضاعة على ظهر الحيوان). اكتسبت هذه الشبكة أهمية واضحة لحسن عمل المدينة. وكانت تونس العاصمة متصلة بأبواب المدينة الرئيسية في الأسوار (باب السويقة، وباب البحر، وباب الجديد) عبر شبكة من الطرقات المزدوجة أحياناً. بلغ عرض القصبة في القاهرة التي شقها الفاطميون ٦ أمتار وكانت ذات شكل مستقيم من باب الفتوح في الشمال إلى باب زويلة في الجنوب. ورثت دمشق من العصور القديمة الطريق الطويل (سوق مدحت باشا) الذي يصل باب الجاية بباب شرقي. وكان يعبر المدينة في حلب خط مزدوج ثلاثي وأحياناً رباعي من الأسواق التي تتبع خط الطريق الروماني قديماً وترتبط باب أنطاكية بالقلعة مروراً بجوار الجامع الكبير.

٣ - كانت المناطق المركزية داخل المدينة تشهد استقراراً بوجه عام، نظراً إلى الصلة شبه العضوية بين الأسواق والجامع وإلى الأواصر المعقدة بين الأنشطة المجموعة في قلب المدينة. وتطلب الأمر نوعاً من الليونة. خلال فترات التوسع، كانت المنطقة الاقتصادية المركزية تنمو على حساب المنطقة السكنية المجاورة بحيث تُستبدل المنازل بالأسواق والخانات. وقد سجل نمو من هذا النوع في تونس العاصمة والقاهرة وحلب خلال فترة الحكم العثماني وتم قياسه في ما يتعلق بهاتين المدينتين حيث ازدادت المساحة التي غطاها المركز من ٤٠ إلى ٦٠ هكتاراً في ما يتعلق بـ «قاهرة» ومن ٦ إلى ١١ هكتاراً في ما يتعلق بالمدينة [حلب]. هنالك مثال واحد لانتقال المركز الحضري وهو في الموصل، حيث انتشرت الأسواق حول الجامع الذي بناه نور الدين في مركز المدينة الهندسي وانتقل «المركز» إلى الشمال الشرقي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر واستقر حي الأسواق الكبرى قرب القلعة العثمانية ومكان مرور دجلة^(١٩).

ومن باب المفارقة، كانت الأسواق أقل استقراراً داخل هذه المراكز، وهو ما أوحى به ماسينيون عندما تحدث عن ثبات توزيع المهن التي عدها نتيجة للشح في التقنيات^(٢٠). ينسحب هذا التأكيد على الصاغة؛ ففي القاهرة على سبيل المثال، نلاحظ أن هذه السوق احتلت موقعاً مجاوراً للجزء المركزي للقصبة، من عهد المماليك إلى فترة وصف مصر^(٢١) على امتداد أكثر من خمسة عقود.

Dina Khoury, *State and Provincial Society in the Ottoman Empire, Mosul* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1997), pp. 202-203.

L. Massignon, *Mission en Mésopotamie*, 2 vols. (Cairo: IFAO, 1912), vol. 2, p. 92. (٢٠)

Description de l'Égypte (٢١)

إنما نلاحظ في التفاصيل عدة حركات وتبدلات هي ثمرة قاعدة مختلفة في التوزيع المكاني للمهن، ألا وهي قرب المهن الأكثر أهمية من المركز والابتعاد التدريجي منه من المهن الأقل أهمية. سبق وتحدثنا عن «الفحّامين» في القصبة في القاهرة حيث حل تجار القماش مكان تجار الفحم. وقد انتقل الفراءون في القاهرة من موقع مركزي مميز خلال عهد المماليك في عصر كان للفرو دور كبير كرمز لبلوغ مكانة سياسية أو عسكرية وكانت تعد تجارته حيوية، إلى موقع أبعد في الحي الجنوبي خلال فترة الحكم العثماني حين فقد استعمال الفرو كأداة احتفالية أهميته.

على خلاف ذلك، احتل متوج جديد مثل القهوة موقعاً مركزياً، نظراً إلى الدور الاقتصادي الهائل الذي اضطلع به منذ عام ١٦٥٠. في عام ١٧٩٨، كانت الخانات البالغ عددها ٦٢ خاناً متمركزة في قلب المدينة.

ثالثاً: المناطق السكنية

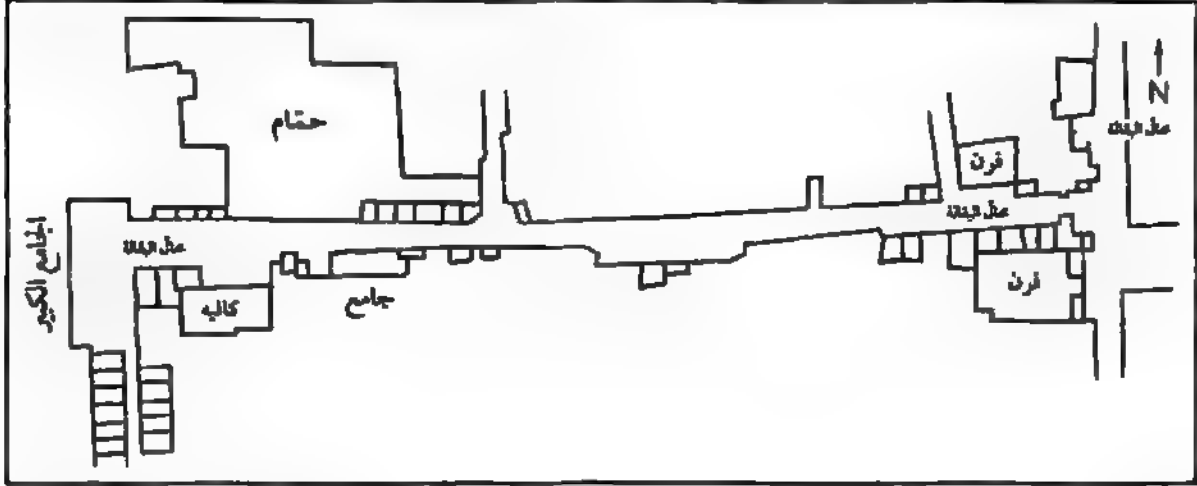
في المناطق السكنية المحيطة بالمنطقة المركزية المكرّسة بصورة أساسية للأنشطة الاقتصادية، لم يكن هنالك من أنشطة متخصصة باستثناء الأسواق غير المتخصصة (أو السوق) التي أجرى سوفاجي وصفاً لها لا ينسحب على مدينتي دمشق وحلب السوريتين فقط، بل على جميع المدن العربية الكبرى أيضاً (انظر الرسم الرقم (٣٠ - ١٠)) وهو جدير بأن يذكر: «كان لكل حي سوقه المصممة على قياسه؛ فالاتحادات المهنية ذات التأثير ممثلة بمجرد دكان أو دكانين، وتقتصر البضائع على المنتجات الغذائية والمنتجات المصنعة الأساسية. إذا... فهي «سوق مصفّرة» (أو سوق)».

لاحظ تورنو في معرض دراسته لاقتصاد أحياء فاس، أنها لا تحتوي إلا على الحاجات الأساسية المطلوبة بصورة دائمة، أي الزيت والزبدة والعسل (لدى البقال) والخضر والفاكهة الطازجة (عند الخضيري) والبهارات والسكر (عند العطار) والفحم (لدى الفحّام) والمكانس المصنوعة من النخيل. تكمل أفران الخبز هذا الجهاز المتواضع. وكان في حي المخيّة فرنان وتسعة دكاكين. تركزت هذه الحوانيت عادة عند مفترق طرق أو على أحد الشوارع الرئيسية في الحي في مكان يمكن أن يزوره أكبر عدد ممكن من الشارين. «إذا أراد سكان الأحياء البعيدة من المركز شراء المنتجات التي لا تبرز الحاجة إليها بصورة يومية (اللحم والسّمك على سبيل المثال)، أو إذا رغبوا في

شراء الثياب أو قص شعرهم، كان عليهم التردد إلى الأسواق المركزية». كما اضطلعت تجمعات الحوانيت المتناثرة في مدينة الجزائر بالوظيفة نفسها^(٢٢).

الرسم الرقم (٣٠ - ١٠)

سوقة جيرون في دمشق



J. Sauvaget, «Esquisse», 1934.

المصدر:

أما في ما يتعلق بالمدن الكبرى، فقد دعا طول المسافة التي يجب قطعها للوصول إلى المركز إلى إنشاء مراكز ثانوية للنشاط غالباً ما كانت توجد قرب أبواب المدينة. وقد توسعت المدينة ما بعد حدودها إلى ضواحي واسعة: وغالباً ما كانت مراكز النشاط الثانوية تذكر بالشكل القديم للمدينة. وعليه، كان المخرجان الأساسيان للمدينة الفاطمية في القاهرة يشكلان خلال فترة الحكم العثماني مجموعات مهمة من الأسواق: في الغرب، كان يحوي باب الشعيرة ١٢ وكالة على الأقل موجودة خارج الأسوار على الطريق التي تقود إلى بولاق؛ وفي الجنوب، كان هنالك ٧ وكالات قرب باب زويلة خارج السور في أول الطريق الذي يقود إلى القسطنطينية - القاهرة القديمة.

رابعاً: الأنشطة في الأطراف

تفسر قاعدة تدرج الأنشطة الاقتصادية عادة من المركز إلى الضواحي وفق ترتيب تراجعي، وجود الحرف الأقل أهمية والصناعات المتصلة

J. Sauvaget: «Décrets Memlouks de Syrie, I», BEO, vol. 2 (1932), pp. 29-30; «Esquisse», (٢٢) pp. 452-453, «Alepx», p. 105; Le Tourneau, *Fès avant le protectorat*, pp. 223-225, et T. Shuval, *La Ville d'Alger vers la fin du XVIII^{ème} siècle* (Paris: CNRS, 1998), pp. 207-208.

بالقربة وتلك التي تحتاج إلى مساحات كبرى وتلك التي قد تسبب الإزعاج للسكان^(٢٣).

كانت أسواق المنتجات الزراعية موجودة عند أطراف المدينة لأسباب تتعلق بقربها وسهولة النقل ولأن هذه المنتجات الكبيرة الحجم والمتدنية القيمة نسبياً تتطلب مساحات واسعة لتعالج وتخزن. وكانت أسواق الغلة والقش توجد عادة في ساحات كبيرة تسمى رُقعة أو رَحبة أو عَرصة وعلوة في العراق. كانت الرحبة في الجزائر العاصمة موجودة مباشرة داخل باب عزّون. وكانت تقع إحدى أبرز أسواق الغلة في القاهرة خارج باب الشعربة في مكان معروف برقعة القمح أو ميدان الغلة. كان هنالك ميادين غلة أخرى قرب أبواب المدينة في الرُميلة وباب اللوق والحسينية. وفي دمشق، كان الشارع الرئيسي في الضاحية الجنوبية للميدان محاطاً بالمستودعات التي تعرف بالبايكة وهي أبنية تبلغ مساحتها ١٠٠ إلى ٣٠٠ متر مربع يخزن فيها القمح والحنطة أو القش. رصدت بريجيت مارينو ستين بايكة^(٢٤)، وكان الموقع منطقياً على الطريق الذي يقود إلى حوران وهي منطقة كبيرة للإنتاج الزراعي. وكانت أسواق الفاكهة والخضر توجد عند أطراف المدينة. وقد احتفت تونس العاصمة تحت اسم باب الخُضراء بذكرى تجار الخضر الذين ترددوا إلى جوار هذا المدخل في الضاحية الشمالية للمدينة (باب السويقة). وفي القاهرة، تمركز تجار الخضر في الجزء الجنوبي من المدينة وسجل وجود سوق الخُصيرية في جوار جامع ابن طولون.

كما تمركزت تجارة الماشية المزعجة والصاخبة والملوثة قرب أبواب المدن. ولا تزال تونس تملك إلى اليوم رحبات الغنم [للخراف] والمراقد [للخيول] الموجودة منذ عهد الحفصيين في الضاحية الجنوبية للمدينة. ولا تزال القاهرة تحتفظ باسم سوق الغنم الموجودة مباشرة خارج باب زويلة وهو الباب الجنوبي للمدينة الفاطمية؛ لكن منذ نهاية عهد المماليك وخلال عهد العثمانيين، في فترة توسع المدينة كثيراً في هذا الاتجاه، كانت سوق الغنم توجد عند طرف الضاحية الجنوبية للمدينة؛ في حين تمركزت سوق الخيل في القاهرة في الرُميلة وهي ميدان واسع يقع عند أقدام القلعة، ويعود ذلك من جهة إلى المساحة التي تحتاج إليها وإلى قرب الجنود الموجودين في القصر وثكنات القلعة وهم أكثر من يشتري الخيول.

(٢٣) حول هذه القضايا، انظر: Raymond, *Grandes Villes arabes à l'époque ottoman*, pp. 189-194.

(٢٤) B. Marino, *Le Faubourg du Midan à l'époque ottomane* (Damascus: IFD, 1997), pp. 95-97.

كما كان من الضروري أن يتمركز بعض الصناعات التي تحول المواد الأولية (القصب وورق النخيل) الوافدة من القرى والتي تعد مزعجة مقابل قيمة تجارية متدنية وتتطلب مساحة كبيرة لتصنيع منتجاتها في أطراف المدينة. كانت تلك حال الحبالين والحُصَريين الذين كانت تتمركز مشاغلهم في القاهرة في الجزء الجنوبي من المدينة بين الرُميلة وقناطر السباع، في أحياء فقيرة، وهو ما يتمشى وطابع هذه الحرفة، إذ إن حي الحبالين كان أكثر الأحياء بؤساً في القاهرة.

استفادت منتجات أخرى آتية من الخارج من الاستثناء نفسه، مثل حطب التدفئة الذي يعد متوجاً مزعجاً يصعب نقله بكميات كبيرة إلى داخل المدينة، والفحم (في القاهرة، كان يحمله البدو إلى المدينة من طور في سيناء في قوافل يجزّرها ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ جمل ويبيع في أسواق قرب باب النصر وباب اللوق)، وأقراص زيل البقر المجففة التي كانت تستعمل للشعلة في مصر وتباع في سوق الغلة، عند الطرف الجنوبي للقاهرة.

كانت معاصر الزيت قريبة من أبواب المدينة وذلك لتسهيل تموين المشاغل والحوّول دون نقل مادة أولية ملوثة عبر المدينة. فالمعاصر المذكورة في وصف مصر وُجدت عند الطرف الغربي للمدينة. كان يُعد الأنشطة «الصناعية»، ولا سيما تلك الأكثر إضراراً بالبيئة، على غرار الأفران على أنواعها، بسبب الدخان والغبار والروائح الناتجة منها، من الثوابت؛ ففي الجزائر العاصمة، كانت الأفران العاملة على الفحم وأفران الكلس والجص تقع خارج باب عزّون الغربي. وكانت المدابغ تخضع للاستثناء نفسه بسبب الطابع الملوّث لهذه المشاغل ولحاجتها الكبيرة إلى الماء والمساحة.

من بين الأنشطة المسيّبة للضوضاء والتلوّث التي تمركزت قرب أبواب المدن، تجدر الإشارة إلى المسالخ ذات الجوار المقزز (مرور الحيوانات، الضجيج، الروائح الكريهة، الدم). كانت «الملحومات» الست في القاهرة تقع عند حدود المدينة في الحسينية في الشمال وفي باب اللوق (حيث حملت بركة موجودة في جواره اسم «بركة الدم»)، وحارة السقاين في الغرب وجسر السباع في الجنوب. وهذه أمور كانت من الثوابت في جميع المدن. وكانت تلك حال المدابغ أيضاً، التي تسبب إزعاجاً هائلاً للجوار نظراً إلى الرائحة التنة التي تفوح منها وإلى حاجتها إلى كميات كبيرة من الماء لمعالجة الجلود التي تحتاج بدورها إلى مساحة لتجفيفها. وبالتالي، فهي كان من الضروري أن تتمركز خارج المدينة من دون أن تستفيد من أي استثناء.

في ما يتعلق بالأنشطة الطرفية، غالباً ما يدل تغيير الموقع على تغير مديني، ولا سيما حين يجبر نمو المدينة على إبعاد نشاطات جزءاً من النسيج المديني نحو الخارج، إنما مع احتفاظ المكان بالتسمية القديمة (أحياناً بإضافة صفة «قديم» أو «عتيق») للدلالة على تاريخ المدينة. والأمثلة كثيرة على ذلك، فالجزائر العاصمة تحتفظ باسم «رحبة القديمة» في المكان الذي كان يشكل مساحة لبيع الغلة قرب باب عزون. وفي القاهرة، احتفظ الشارع الموجود خارج باب زويلة في قلب المدينة باسم سوق الغنم القديمة للدلالة على الموقع السابق، في حين كانت سوق الغلة موجودة عند الطرف الجنوبي للمدينة. وفي حلب يوجد جامع الدبّاعة العتيقة في حي الدباغين القديم. في هذا الإطار، يشكل انتقال المدايح نقطة لافتة للانتباه على الصعيد المديني، إذ ينبغي تفسيره على أنه نتيجة تطور طرأ على المدينة ويفرض نقل المشاغل من موقع بات يعد داخلياً إلى خارج المدينة. رصدت ثلاثة أمثلة عن انتقال من هذا النوع وذلك في حلب نحو عام ١٥٧٠، وفي القاهرة قريب عام ١٦٠٠، وفي تونس العاصمة نحو عام ١٧٧٠ وهي تمثل مراحل توسع مديني بارز^(٢٥).

يبدو تركز الأنشطة عند طرف المدينة منطقياً، بحيث نميل إلى عدّه ظاهرة «عفوية» تنتج من التفاعل الطبيعي للعوامل المختلفة. إلا أن دور المسؤولين عن الشؤون المدنية في هذا التنظيم ليس مستبعداً، إذ كان يحق للقضاة والمسؤولين عن الحسبة (مراقبة الأخلاق والأسواق) اتخاذ القرارات في هذا المجال. وغالباً ما كان نقل مقر المدايح المتميز بوضخامته، نظراً إلى وسع المساحة المكرسة لهذه الأنشطة، نتيجة لتضافر جهود السلطات العليا. فالسلطان العثماني عني عام ١٥٥٢ بمشكلة وجود مدايح القاهرة في موقع مركزي على مقربة من باب زويلة؛ وعليه أطلق إجراءات شارك فيها باشا القاهرة وأدت بعد نصف قرن تقريباً إلى نقل المدايح إلى جوار باب اللوق وهو باب المدينة الغربي^(٢٦)؛ وفي حلب، من المحتمل أن يكون القرار قد صدر عن باشا المدينة. أما في تونس، فقد قرر علي باي نفسه معالجة أزمة السكن التي كانت تعانيها المدينة.

ضمن المنطق نفسه، كانت الأنشطة المتعلقة بالسفر موزعة قرب الأبواب، وكانت المجموعة الواسعة من الصناعات المعنية (الاتجار بالدواب، والرحل، والصناعات

A. Raymond, «Le Déplacement des tanneries à Alep, au Caire et à Tunis,» *Revue* (٢٥) *d'Histoire Maghrébienne* (1977), Reprint in: Raymond, *La Ville arabe, Alep, à l'époque ottoman*, pp. 128-137.

(٢٦) مكتبة توبكاي، ك ك ٨٨٨، ملف، ٣٢٤، رقم ١٤٠٧. قدّم هذه الوثيقة لي مشكوراً البروفسور ج. قابشتاين.

الجلدية، والسروج، وأدوات التخيم والسلع الغذائية) تهم قُواد القوافل وزبائنهم (بمن فيهم الحجاج) وأعضاء الطبقة المهيمنة على حد سواء. وفي القاهرة، جمعت مساحة الرُّميلة الكبيرة تحت القلعة، حيث كان يقيم آلاف الجنود والمماليك وفي موقع كان يتردد إليه الحجاج الذين يحضرون رحلتهم إلى مكة، الخيامين والبرادعية ومختلف أنواع الصناعات، علاوة على تجار السلع الغذائية الضرورية للرحلات الطويلة والبعثات العسكرية أو الحج. وقد وصف سوفاجي مجموعة الأسواق التي تطورت خارج الباب الشمالي الشرقي لمدينة حلب وكانت وظيفتها الأساسية تموين القوافل، أي البرادعة والحدادين والخيامين ومستودعات السلع الغذائية. تطورت هذه الأنشطة خلال عهد المماليك واحتفظ الحي باسم قرية بنقوسة التي ابتلعها توسع المدينة خارج الأسوار. خلال فترة الحكم العثماني، كانت هذه الأنشطة تتطور على طول الطريق الذي يقود إلى باب قارلق على بعد كيلومتر تقريباً نحو الشمال الشرقي^(٢٧).

أدى تضخم حجم المدن والتبادلات التي كانت تتم عند نقطة محاذاة المدينة والريف إلى نمو مجموعات تجارية وحرفية كبيرة قرب الأبواب كان تنوعها متشابهاً، إنما بدرجة أقل ومع طابع ريفي واضح، مقارنة بالتنوع الذي تشهده المناطق المركزية. وكانت تلك حال منطقة الرُّميلة في القاهرة. وفي دمشق، فقد وصف سوفاجي العملية التي أدت إلى نقل أنشطة وجدت في الماضي في المدن إلى المنطقة الموجودة تحت القلعة. يمكننا الافتراض أن عملية مماثلة أدت في الموصل إلى انتقال الأنشطة المتمركزة حول الجامع إلى منطقة تستفيد من ميزة مزدوجة، ألا وهي قرب القلعة التي أسسها العثمانيون على طول دجلة ووجود نقطة عبور على النهر. وفي حلب، تشكلت تمديدات مماثلة ابتداءً من باب النيرب حيث استقرت جماعات من أصول فلاحية وبدوية.

خاتمة

تظهر دراسة المدن (كما دفع بها ماسينيون إلى الواجهة) مدى مساهمة وظائفها الاقتصادية في تنظيمها. وتدين البنية المكانية لتلك المدن لتنظيم الحياة الاقتصادية فيها، وهي في بعض الأحيان نتيجة مباشرة لها. وفي بعض الحالات القصوى، أدت منطقة الأسواق دور الوسيط المهم بين قوى كانت تهدد الوحدة الإجمالية للمدينة أحياناً - نفكر هنا بمدينة مثل أنطاكية المنقسمة بين المجموعات الدينية والإثنية (السنة

الأتراك والمسيحيون والعلويون) التي وفرت لها منطقة الأسواق مساحة مفتوحة جغرافياً للمجموعات كافة (حتى وإن كان المجال التجاري منقسماً بين الأطراف).

كانت المدن العربية مسرحاً لأنشطة تجارية بالغة التنوع، صُمّمت لا لتلبية الحاجات اليومية للسكان ببساطة، بل لتغذية التجارة الإقليمية والدولية على حد سواء. وكانت أوروبا، التي لم تكن قد حققت بعد التفوق الذي تميزت به في هذا المجال في القرن التاسع عشر، تتلقى من دول المغرب والمشرق المنتجات المصنعة على غرار الأقمشة. ونظراً إلى غياب الإحصاءات الموثوق فيها، توفر بنية المدينة معلومات قيمة حول الأنشطة الاقتصادية من خلال تنوع الأنشطة المتخصصة والغنية الموجودة في المراكز المدنية، والأنشطة اليومية والفقيرة التي تزاوّل بعيداً منها. يمثل نشاط المراكز المدنية وتطورها خلال الأزمنة الحديثة مؤشراً مهماً إلى استمرار نشاط اقتصادي عام، لا يُعنى فقط بإنتاج الأغراض ذات الاستعمال اليومي. وعليه، فما من مبرر لفرضية التدهور الاقتصادي على مشارف القرن التاسع عشر التي غالباً ما صدع بها المستشرقون.

وليس من الصواب القول كذلك إن المدن أدت دوراً سلبياً حصرياً في علاقاتها بالبيئة الريفية. فالمدينة تنتج السلع المصنعة التي تحتاج إليها القرى وتستهلك المنتجات الزراعية والمواد الأولية الضرورية لحرفها، وتعيد توزيع المنتجات المستوردة والسلع المنتجة في القرى. وعليه، فهي كانت على صلة وثيقة بالريف المحيط بها. لذا، ليس من المنطقي التحدث عن «طفيلية» وعن استغلال المدينة للريف كما ورد باستمرار على لسان ج. وولرس، ولا سيما في ما يتعلق بالمدن السورية^(٢٨). فالوقائع تشير إلى تعايش وتعاون طبيعيين بين وحدتين متكاملتين، وقد وصف ألبرت حوراني هذا التكامل على النحو التالي: «تحتاج القرية إلى المدينة؛ لكن المدينة لا يمكن أن تقوم من دون الطعام الذي يتجهه الفلاح ويحضره إلى سوق المدينة، سواء للبيع أو تسديداً للضرائب. البنية الأساسية للمدينة في الشرق الأدنى كانت «مدينة زراعية»، أي تجتمع معاً المدينة مع الداخل الريفي، الذي تجلب منه طعامها وتبيع جزءاً من نتاجها الحرفي فيه أيضاً»^(٢٩).

J. Weulersse, *Paysans de Syrie et du Proche-Orient* (Paris: [n. ph.], 1946).

(٢٨)

A. H. Hourani, «The Islamic City in the Light of Recent Research», in: *The Islamic City*, edited by A. H. Hourani and S. M. Stern (Oxford: Oxford University Press, 1970), p. 16.

(٢٩)

الفصل الحادي والثلاثون

مدينة الحج

دايفيد ج. روكسبورغ^(٥)

﴿وَقَالَ اذْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللّٰهِ مَجْرَآءَ وَمُرْسَقًا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾
[القرآن الكريم، سورة هود، الآية ٤١].

من دون جميع المدن، فضلاً عن مواقع خارج المدن، التي يستطيع المرء إيرادها في موضوع الحج، يركز هذا الفصل على مدن الحج الإسلامي الرفيعة الشأن الثلاث: مكة والمدينة والقدس. ومن دون جميع الطرق الكثيرة التي يستطيع المرء أن يسير بها أفكاراً ثقافية في شأن مدن الحج، الهدف الرئيسي هنا هو تفحص كيف صوّرت هذه الجهات المقصودة للحجاج وعائلاتهم.

المصدر الأساسي لهذا البحث مجموعة شهادات حج من القرن الحادي عشر حتى مطلع القرن الرابع عشر ضمناً، وهي شهادات مميزة ببرنامج بصري متكرر يضع خريطة لمواقع الحج الرئيسية من خلال أشكال بصرية يمكن التعرف إليها فوراً. وصور مكة والمدينة والقدس تُرى معاً في تواتر سريع، تفصل بينها نصوص تصف أنشطة الحاج ومقتطفات مختارة من مصادر مثل القرآن. ولأجل الحاج، وفّرت الشهادة دليلاً مادياً

(٥) أستاذ في قسم تاريخ الفن والعمارة - جامعة هارفرد.

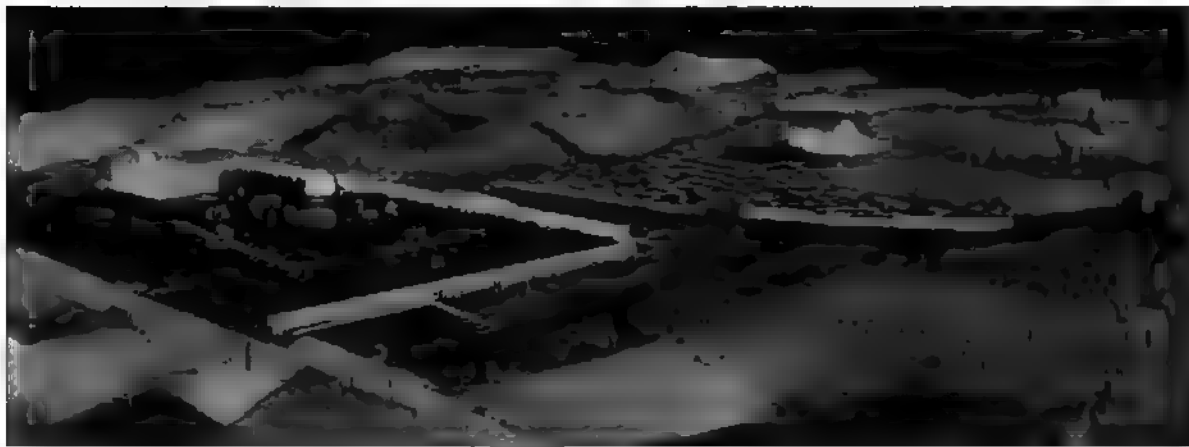
على واجب مؤدى، وبثت مجموعة ذكريات بتسجيلها الانتقائي لأشياء رؤيت وأفعال نُفذت. ومع أن الشهادات قد أُلِّفت كتجميع لصور ساكنة على صفحة طويلة واحدة، فقد فعَّلت ذاكرة الحاج الحركية العلاقات بين المواقع المتوالية لكل مدينة بمفردها، أو بين المدن، في الوقت الذي عملت النصوص المرافقة كمخزون للحركات البدنية والأحاسيس السمعية للدعاء والصلاة.

جوهرياً، تتيح شهادات الحج مثلاً واحداً حول كيف يستطيع المرء الجمع بين مواقع الحج وأنشطة الحاج أو ملاحظاته المسجلة، في دراسة الحج الإسلامي. إنها مقارنة لم تجر بعدُ متابعتها بطريقة منهجية، مع بعض الاستثناءات اللافتة، منها اثنان متعلقان بقدس القرون الوسطى. الأول كتاب أوليغ غرابار عن «قبة الصخرة» وإطارها المحيط بها مباشرة، «الحرم الشريف»، وهو (أي الكتاب) دراسة منسقة عبر أربع فترات زمنية متتالية في تاريخ القدس^(١).

ومن خلال تكنولوجيا التخطيط بمعاونة برنامج الكمبيوتر (CAD)، طوّر غرابار ملاحظات حول الموضع الطبوغرافي للحرم الشريف وأثاره التذكارية بما يتصل بطبوغرافية المدينة، وخصوصاً بمعالمها المسيحية (انظر الرسم الرقم (٣١ - ١)).

الرسم الرقم (٣١ - ١)

القدس في القرن الحادي عشر، منظر مخطط من الشمال الشرقي



المصدر: Oleg Grabar, *The Shape of the Holy: Early Islamic Jerusalem* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1996), fig. 70.

(١) Oleg Grabar: *The Shape of the Holy: Early Islamic Jerusalem* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1969), and «Upon Reading Al-Azraqi», *Muqarnas*, vol. 3 (1985), pp. 1-7.

والدراسة الثانية، لأميكام إيلاد التي سلكت اتجاهاً مختلفاً^(٢). وقد دققت في كيف التصقت مدلولات أو تداعيات محددة - موصولة في معظمها بالجدول الزمني لعلم الكونيات الإسلامي - بأماكن ومبان في الحرم الشريف ومحيطه الأوسع، صورة منظر طبيعي يسميها طريف الخالدي «جيو - دينية»^(٣).

ومن أجل هذه الدراسة، التفت إيلاد إلى واحد من أقدم سجلات رحلات الحج التي دونها المشرف ابن المرجي في منتصف القرن الحادي عشر، فضلاً عن عدة مصادر مكتوبة. وقد أنتج تحليل نص المشرف ابن المرجي خريطة تحدد مواقع مشروحة في ترتيب عددي بحسب توالي زياراتها التفقدية (انظر الرسم الرقم (٣١ - ٢)).

يفهم إيلاد، مثل غرابار، موقع الحج الإسلامي في القدس ككيان دينامي، كان عبر الزمن عرضة لمعان متطورة ومتغيرة. ويضم كل منهما مصادر ومناهج كثيرة - مباني مدينة ومواقعها وعلم آثار تلك المباني والمواقع؛ ومكملات من نصوص تبدأ من روايات تاريخية إلى حكايات زائر وأدلاء حج - ويحاول ربط حجج مرسّخة تاريخياً في شأن الشكل العام لحيز مقدس بفن تصميم رقصات الحاج الدينية.

والدرستان كلتاهما معنيتان ضمناً بتأثير منظر المدينة الطبيعي وآثارها القديمة في الزائر وكيف شكّل تكوين العُرف الممارس أو تقنيته خطوط سير رحلات الزائرين ووجهها. يمكن وصف الكتابين كليهما بأنهما في المقاربة ظاهريان على نحو فطري، وموجهان نحو الأبعاد العملية للحج، على الرغم من أنهما مختلفان في اهتمامهما.

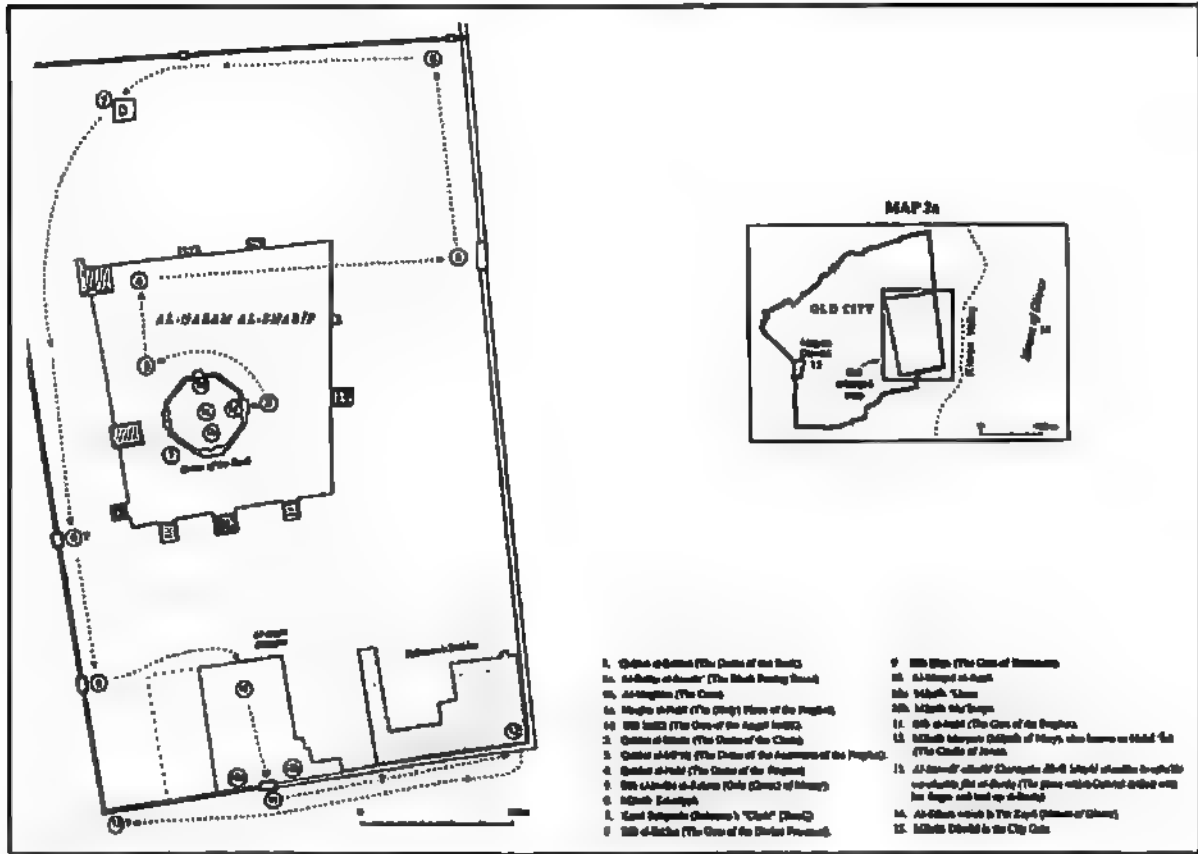
كتاب غرابار متصوّر ذهنياً من خلال إدراك الحاج لمنظر طبيعي مقدّس من خلال الرؤية، منظر طبيعي تتخلله عُقد بصرية تشد الانتباه، وبخاصة البناءان القائمان على المسطح الصخري والمسمّيان الحرم الشريف وقبة الصخرة. يتعلق كتاب إيلاد بحركة الحاج الجسمانية عبر متواليّة من الأحياز الحضرية وكوكبة المعاني المعينة لكل حيز كترتيب تاريخي في طبقات بواسطة التراكم، أو كسلسلة من عمليات طمس يحل فيها معنى محل معنى آخر.

Amikam Elad, *Medieval Jerusalem and Islamic Worship: Holy Places, Ceremonies, Pilgrimage* (٢) (Leiden and Boston: E. J. Brill, 1999).

Tarif Khalidi, «Space, Holiness, and Time: Palestine in the Classical Arab Centuries,» in: Derek Hopwood, ed., *Studies in Arab History: The Antonius Lectures, 1978-1987* (London: Macmillan Press, 1990), pp. 165-174.

الرسم الرقم (٣١ - ٢)

دليل رحلة حج المسلم إلى الأمانة المقدسة في فلسطين بحسب ابن المرجى
(مطلع وأواسط القرن الحادي عشر)



المصدر: Amikam Elad, *Medieval Jerusalem and Islamic Worship: Holy Places, Ceremonies, Pilgrimage* (Leiden: Brill, 1999), maps 2 and 2a.

وفي حين أن دراسة غرابار ساكنة وبصرية من حيث الجوهر، زائر راء محقّر بعوامل الشكل والكتلة والحجم واللون، يستكشف جانب التأمل بالنظر، فإن دراسة إيلاد مائعة وحركية وتشديدها على النظر كشكل للوعي أقل من تشديدها على أنساق الإدراك الأخرى؛ على سبيل المثال، كيف يجب على الحاج أن يحرك جسمه؛ ما هي الأدعية التي يجب أن يتلوها (محدّدات طقسية كالبسمة، والكلمة، والتلبية، والتصلية، والتكبير)؛ والمشاهد والأحداث التاريخية التي تتخلل المنظر الطبيعي فتجعله حافلاً بالمعاني. إن الحاج عند إيلاد محقّر بما يراه وكيف يمكن ما يراه أن يوجّه أو أن يهدي حركاته بدرجة أقل مما يحفزه نص مقرر لما يجب عليه أن يفعله. والحاج عند إيلاد يمكن أن يتغاضى بسهولة عما يراه لأن خاصيات منظر المدينة التي يتحرك فيها لا تؤثر فيه. والصورتان كلتاهما مرتبطتان بالتكنولوجيات البصرية المختارة من جانب

غرابار وإيلاد - التخطيط بمعاونة الكمبيوتر والرسم التخطيطي - ليقدم إلى مشاهديهما معلومات عن وضع طبيعي للقدس^(٤).

تبقى طريقة إيلاد بطبيعتها مقيدة بدراسات تقليدية تتناول الحج إلى مكة، المحل المتميز للحج والمتصف بتنظيم رقصات طقسية منسقة جداً على نسق واحد. وليس هذا موجباً للاستغراب بالنظر إلى أن الحج المكي (بشكله، الأكبر وهو الحج، والأصغر وهو العمرة) كان واجباً دينياً لا واجباً مستحباً كالحج أو الزيارة إلى مقامات موجودة في مراكز مثل المدينة والقدس وكربلاء. وفي الواقع، يمكن فهم سجل رحلة ابن المرجى - الأقدم بين أمثلة متعددة - كمحاولة، في وقت واحد، لبيت ويستوثق من الأهمية الملتبسة للقدس بالنسبة إلى الدين الإسلامي وليجيب عن حاجة إلى جمع وتصنيف طقوس واحتفالات خلال الحج. في ذلك الجانب شارك نص ابن المرجى في جهد واسع النطاق لجلاء مكانة القدس وإعلاء مقامها من خلال باب جديد من أبواب الأدب يسمى «فضائل القدس» أو «فضائل بيت المقدس»، وهو جهد تجدد بعد استيلاء المسيحيين الفرنجة على القدس^(٥).

هذه الحركة تطابقت مع جهود أخرى - قبل الحملات الصليبية وإبانها وبعدها - لإقامة صلات «جيو - دينية» بين القدس ومكة، التي كانت قد استاهما لا تنتهك حرمتيهما حتى نهاية الزمان. ومن الأمثلة على الربط بين مكة والقدس رحلة النبي محمد الليلية من مكة إلى القدس (الإسراء) وصعوده من القدس إلى عرش الله (المعراج)؛ وجريان مياه زمزم تحت الأرض وصولاً إلى سلوان خلال عيد الأضحى، وانتقال الكعبة وحجرها

(٤) تكنولوجيا التخطيط بمعاونة الكمبيوتر تتيح، بشكل مثير للاهتمام ويتناقض ظاهري، تأثيراً حركياً بصورة فورية، وعلى هذا النحو تم تطويرها في المقام الأول على أيدي غرابار وزملائه. وحقيقة أن النتائج مقدّمة في كتاب تمحو جميع الجوانب المعالجة (Fly-through) لإجراءات التحقيق الأصلية المتوافرة في فيديو (Jerusalem 600-1100).

انظر: Muhammad Al-Asad, Abeer Audeh, and Oleg Grabar, *The Shape of the Holy: Early Jerusalem* (Princeton, NJ: Intl. Communications for the Institute of Advanced Study, 1993).

في حالة إيلاد، يصب قراره باستخدام خريطة أيضاً في مصلحة تقاليد خرائطية معينة في عرض المعلومات.

(٥) انظر: Edmond Sivan, «The Beginnings of the Fada'il al Quds Literature,» *Israel Oriental Studies*, vol. 1 (1971), pp. 263-271.

والكتيب الأقدم المعروف هو كتيب أبي بكر محمد بن أحمد الواسطي (قبل ١٠١٩ - ١٠٢٠) الذي كان خطياً في المسجد الأقصى في القدس. وبالنسبة إلى الفترة التي تخللتها الحملات الصليبية، انظر للمؤلف نفسه، Edmond Sivan, «Le Caractere de Jerusalem dans l'Islam aux XII-XIII siecles,» *Studia Islamica*, vol. 27 (1967).

وقد ناقش إيلاد موضوع إحياء الفن الأدبي في عهد الأيوبيين في: Elad, *Medieval Jerusalem and Islamic Worship: Holy Places, Ceremonies, Pilgrimage*, p. 15.

الأسود من مكة إلى القدس خلال نهاية الزمان^(٦). هذه الأحاديث المختلفة ربطت القدس بمكة، أحياناً بمجموعات من معالم مزدوجة، في ما يقرب التناظر وفي تقويم سيبلغ خاتمته خلال نهاية الزمان.

يغالب كتابا غرابار وإيلاد مشكلة عسيرة: التحدي المتمثل بملء مواقع الحج «التاريخية» بالسكان - وبإنشاء صلات بين الناس والأماكن - وهي المواقع التي أضحت بيئات متغيرة منذ زمن طويل. ومن الأمثلة الواضحة بيت النبي محمد في المدينة، البيت الذي اعتُقد لفترة طويلة أنه حُوّل إلى أول مسجد لمجتمع المدينة عام ٦٢٢ - ٦٢٣، وأصبح لاحقاً المكان الذي دُفن فيه النبي^(٧). وقد ضُم إلى جثمان النبي محمد جثمانا الخليفين الأولين، أبو بكر وعمر. وتشير الرسوم التخطيطية من باب التخمين إلى تقديرات بصرية تقريبية لـ «بيت تحول إلى مسجد»، وهو بناء بدائي من طين وطوب وأشجار نخيل في الموقع الذي توقف عنده جمل النبي محمد بعدما أطلق ليسرح. والنبي محمد اشترى الأرض من اليتيمين سهل وسهيل ثم نظف الموقع قبل البناء^(٨). ثم رسمان تخطيطيان حديثان يمثلان مقطعاً واحداً من ماضي المبنى الأفقي والعمودي المركب، ماضي هندسي لمخطط أولي منبسط ومساقط رأسية جديدة^(٩).

وقد جرى توسيع محيط مسجد النبي في المدينة منذ بدايته إلى يومنا هذا؛ وفي عموم أعمال التوسيع تلك، حافظ الموقع على الوضع المادي لعناصر يعود تاريخها إلى ما بعد حياة النبي محمد مباشرة حتى حريق عام ١٤٨٣. من هذه العناصر موقع قبر النبي محمد ومحاريب ومنابر مهمة تاريخياً داخل الحرم. وحتى منذ أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر، خضع المسجد لأعمال تجديد وتحسين وإعادة بناء عملياً، والملاحظ

(٦) الروابط العديدة بين القدس ومكة عُدّهما هربرت بوس في: Herbert Busse, «The Sanctity of Jerusalem in Islam», *Judaism*, vol. 17, no. 4 (1968), pp. 441-468.

وكتب الواسطي أن في إبان الأيام الأخيرة ستشيد الجنة في القدس ومستقل الكعبة والحجر الأسود من مكة إلى القدس.

(٧) قاد تحليل معاصر للمصادر، وتفسيرات قديمها مؤرخون للهندسة المعمارية، ولا سيما كرسول وكايتاني، وجيريمي جونز إلى استنتاج خاطئ مفاده أن المسجد والبنى المنزلية التي بُنيت للنبي محمد وزوجاته كانت مدججة بصورة غير صحيحة. انظر: Jeremy Johns, «The House of the Prophet and the Concept of the Mosque», in: Jeremy Johns, ed., *Bayt al Maqdis: Jerusalem and Early Islam*, Oxford Studies in Islamic Art; 9, 2 (Oxford: Oxford University Press, 1999), pp. 59-112.

(٨) للاطلاع على مناقشة للمجاز الأساسي وترددات صدها العديدة، انظر: المصدر نفسه، ص ١٠٣.

(٩) بشأن عمليات إعادة البناء، فضلاً عن عدد من المخططات الهندسية للمسجد في المدينة، انظر: المصدر نفسه، الشكل (١٥).

بالقدر نفسه أن المنطقة الحضرية المجاورة للمسجد أعيد تشكيلها بكاملها، ومُهدت في بعض الحالات، لكشف الحيز المحيط بالمسجد وتسهيل الوصول والحركة الدائرية^(١٠).

الموقع الآخر الذي تغير في جوانبه المادية منذ بدايته هو المسجد الحرام ومحوره عقده، الكعبة. وهو في كل حين، فهو يُصان ويوسّع بمعانيه وتاريخه الطويل جداً في علم الكون الإسلامي. وبحسب التقاليد، تحتل الكعبة موضع الخلق كما سواه الله أول مرة وموقع المعبد الأزلي الذي بناه آدم وحيث صلى بعد الخروج. وكان إبراهيم (أبو الأنبياء) وإسماعيل قد أعادا بناءها بعد تدهمها في الفيضان. تضيء الصور الفوتوغرافية التاريخية إثارة على التطورات الهندسية والحضرية الضخمة التي بُذلت جهود فيها لمعالجة مشقات الحج اللوجستية في الحقبة الحديثة.

بإيلاء غرابار وإيلاد اهتمامهما للتحدي المتعلق بإعادة البناء التاريخية، هما يتخطيان الانقطاع التقليدي الذي يجري في دراسات الحج، في الوقت الذي يواصلان الكشف في المواد العلمية لتاريخ الفن والهندسة المعمارية وتاريخ الدين. ماذا أعني فعلاً بهذا الانقطاع؟ أولاً، ميل مؤرخي الهندسة المعمارية الملحوظ إلى منح امتياز لعملية إعادة بناء علم آثار الأبنية (المقصود تعريف وافر)، وربما بينات حضرية، وهي عملية تستمر كدورة تفسيرات جديدة لمواد معروفة منذ أمد طويل أو كدورة تحسينات لحجج قائمة^(١١). ثانياً، محاولة المؤرخ للدين ترسيخ عمليات استمرار وتغيير بين الطقوس الإسلامية واليهودية والمسيحية^(١٢)، وتفحص مجادلات وأبحاث دينية وتقدير وقعها على العبادة، ووزن تأثيرات جداول أعمال سياسية أو قوى اجتماعية اقتصادية

(١٠) للاطلاع على تاريخ الموقع والمسجد، انظر: Jean Sauvaget, *La Mosquée Omayyade de Médine: Etudes sur les origines architecturales de la mosquée et de la basilique* (Paris: Vanoest, 1947).

انظر أيضاً: *Encyclopedia of Islam*, 2nd ed. (henceforth EI2), s.v. «Madina» (W.M. Watt et al.).

(١١) تقدم قبة الصخرة مثلاً مقنعاً على لتفسير رائج. انظر: Oleg Grabar, «The Omayyad Dome of the Rock in Jerusalem,» *Ars Orientalis*, vol. 3 (1959), pp. 33-62; Priscilla Soucek, «The Temple of Solomon in Legend and Art,» in: L. Gutman, ed., *The Temple of Solomon: Archeological Fact and Medieval Tradition in Christian, Islamic and Jewish Art* (Missoula, MT: Scholars Press for Academy of Religion, 1976), pp. 73-123; Nasser Rabbat: «The Meaning of The Umayyad Dome of the Rock,» *Muqarnas*, vol. 6 (1989), pp. 12-21, and «The Dome of the Rock Revisited: Some Remarks on Al-wasiti's Remarks,» *Muqarnas*, vol. 10 (1993), pp. 66-75.

(١٢) من كتابات واسعة في هذا الموضوع، انظر: G. R. Hawting, «The Origins of the Muslim Sanctuary at Mecca,» in: G. H. A. Juynboll, ed.: *Studies on the First Century of Islam* (Carbondale: USEP, 1982), pp. 25-47; «The Disappearance and Rediscovery of Zamzam and the MWell of the Ka'ba,» *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, vol. 43 (1980), pp. 44-54; Uri Rubin, «The Ka'ba: Aspects of its Ritual Functions and Positions in Pre-Islamic and Early Islamic Times,» *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, vol. 8 (1986), pp. 97-131, and Yehuda D. Nevo and Judith Koren, «The Origins of the

عرضية أخرى^(١٣). أيمنكون ألا يكون الأمر مجرد إقبال وإدبار بين هذين التقليدين النظاميين وإرثهما من المشكلات والمسائل التقليدية، وإنما الدمج في ما بينهما وبالتالي مواصلة إعادة البناء والإحياء البصريين والحركيين اللذين بدأ في أبحاث غرابار وإيلاد الوافرة المعلومات؟^(١٤).

لقد نشأ اهتمامي بهذا الموضوع بفضل أولويات التخصصات المختلفة المبينة في دراسات الحج، لكن ربما ما أثار اهتمامي أكثر هو مخزون من صور ذات بعدين وكيف تجسد هذه الصور فهمنا للحيز وتشكله (وقد ازداد إلحاحاً، ربما، في الوقت الذي يظهر أن تكنولوجيات الإعلام الجديدة موجّهة نحو الإثارة البصرية لحقائق حساسة وملموسة). تتضمن مثل هذه الصور طليات تتفق مع مخططات هندسية، وواجهات، ورسمات منظورية، وخرائط من أنواع متعددة، ولقطات صور مخططة بمعاونة الكمبيوتر، وصوراً فوتوغرافية. ويمكن فهم الكثير من هذه التقنيات الخاصة بصنع الصور بأنها عمليات إصلاحية لمنظور خطي من خلال التصوير الفوتوغرافي؛ وكانت إحدى نتائج التصوير الفوتوغرافي تطبيع الترتيبات المنظورية لظواهر مرئية، وهي عملية ذكرها إرفن بانوفسكي عرضاً في كتابه الرسم المنظوري كشكل رمزي سنة ١٩٢٤^(١٥).

ومع أن معظم الناس يتفقون على أن كل الصور تلك هي تأويلات للحيز مرّمة ثقافياً، أي نسبية ثقافياً، وتُظهر أن الحيز غير «معطى» البتة، فإن آخرين لا يغالون تماسكها وقوة منطقها، أو قدرتها على تقريب الإدراك البصري، أي ما يعيه الشخص

Muslim Descriptions of the Jahili Meccan Sanctuary,» *Journal of Near Eastern Studies*, vol. 49 (1990), pp. 23-44.

(١٣) من الدراسات حول هذه الموضوعات، انظر: Juan E. Campo, «Authority, Ritual, and Spatial Order in Islam: The Pilgrimage to Mecca,» *Journal of Ritual Studies*, vol. 5, no. 1 (1991), pp. 65-91; William R. Roff, «Sanitation and Security: The Imperial Powers and the 19th C. Hajj,» *Arabian Studies*, vol. 6 (1982), pp. 143-60, and Mohammad Jamil Brownson, «Mecca: The Socio-Economic Dynamics of the Sacred City,» in: Ziouddin Sardar and M. A. Zaki Badwi, eds., *Hajj Studies* (London: Croom Helm, 1978).

(١٤) تبرز الجوانب المكانية للحج في مناهج البحث والدراسة، وتعاود الظهور أساساً من خلال النموذج النظري لفكتور تيرنر، انظر: «The Center Out There: Pilgrim's Goal,» *History of Religions*, vol. 12, no. 1 (1972), pp. 191-230.

لكنها تميل إلى الاحتفاظ بطبيعتها ما وراء الظواهرية. وهناك دراسات كثيرة أخرى تشير إلى حدود أو عُدّات مواقع - إحدائيات في الحيز وما يواجهه المرء هناك - لكن على نحو عابر فقط. انظر مثلاً: Annie H. Betteridge, «Specialists in Miraculous Action: Some Shrines in Shiraz,» in: Alain Mortinis, *Sacred Journeys: The Anthropology of Pilgrimage* (Westport, CT: Greenwood Press, 1992), pp. 189-210.

Erwin Panofsky, *Perspective as Symbolic Form* (New York: Zone Books, 1997), p. 34. (١٥)

ذو المقدرة السليمة من خلال عينيه^(١٦). على سبيل المثال، يرى جوناثان بلوم، في ما كتبه عن التقاليد التقريرية في العالم الإسلامي، «أن المتعلمين يميلون اليوم إلى نسيان أن القدرة على تصوّر وتصوير أحياز ثلاثية الأبعاد على سطوح ذات بعدين (وحل شيفرة هذه التصاوير) هي مهارة في غاية التطور؛ مهارة ما زال الغرب يصقلها منذ عصر النهضة. وليس هناك من دليل على أن البنّائين من مسلمي القرون الوسطى، دعك من الناس العاديين أو حتى الرفيعي المقام، كانوا يستطيعون التفكير في المباني والأحياز بهذه الطريقة»^(١٧).

ويمضي بلوم لمناقشة وصف الجغرافي المسعودي لقصر الحيرة في القرن التاسع ويخلص إلى القول: «لو كان المسعودي يعرف كيف توصف المباني كتالي أحياز أو كيف تصوّر بالرسم لفعل ذلك بلا شك»^(١٨). إن مضامين هذه التقديرات واضحة بما لا مزيد عليها - إنها تستهدف أسلوبَي وصف الهندسة المعمارية: الأسلوب البصري والأسلوب اللفظي. وقد تكون النتيجة الرئيسية لتقديرات بلوم ثني الآخرين عن التنقيب عميقاً في تصاوير الهندسة أو الأماكن التي يندر أنها تفتقر إلى السمات البصرية الشائعة خلال عصر النهضة ومن بعده، وربما لا شيء إطلاقاً من تلك السمات في الأراضي الإسلامية.

ومع ذلك، كانت المباني والأحياز موجودة فعلاً كتصاوير بصرية وكانت مكونة ضمن التقاليد البصرية الإسلامية، وهي تستحق أكثر من تحليل مستعجل. إن أمثلة كتلك الموجودة في الجامع الكبير في صنعاء، اليمن، تجسد التقليد التقريري الذي دام طويلاً والذي يعرض بلوم له بإيجاز: دأب على تصوير الهندسة كشكل أيقوني محدد بوضوح تنقوض فيه وجهات نظر متعددة وتتكامل في مخطط بصري مفرد ذي أقصى ما يمكن من كثافة.

(١٦) رغم أن بانوفسكي وضع منظورية «مائلة ثقافياً»، فإنه يتهي إلى استخدامها، وبكلمات مايكل بودرو بوصفها توقّر وجهة نظر مُطلقة لتفسير ثقافات أخرى. انظر: Michael Podro, *The Critical Historians of Art* (New Haven, CT and London: Yale University Press, 1982), p. 186.

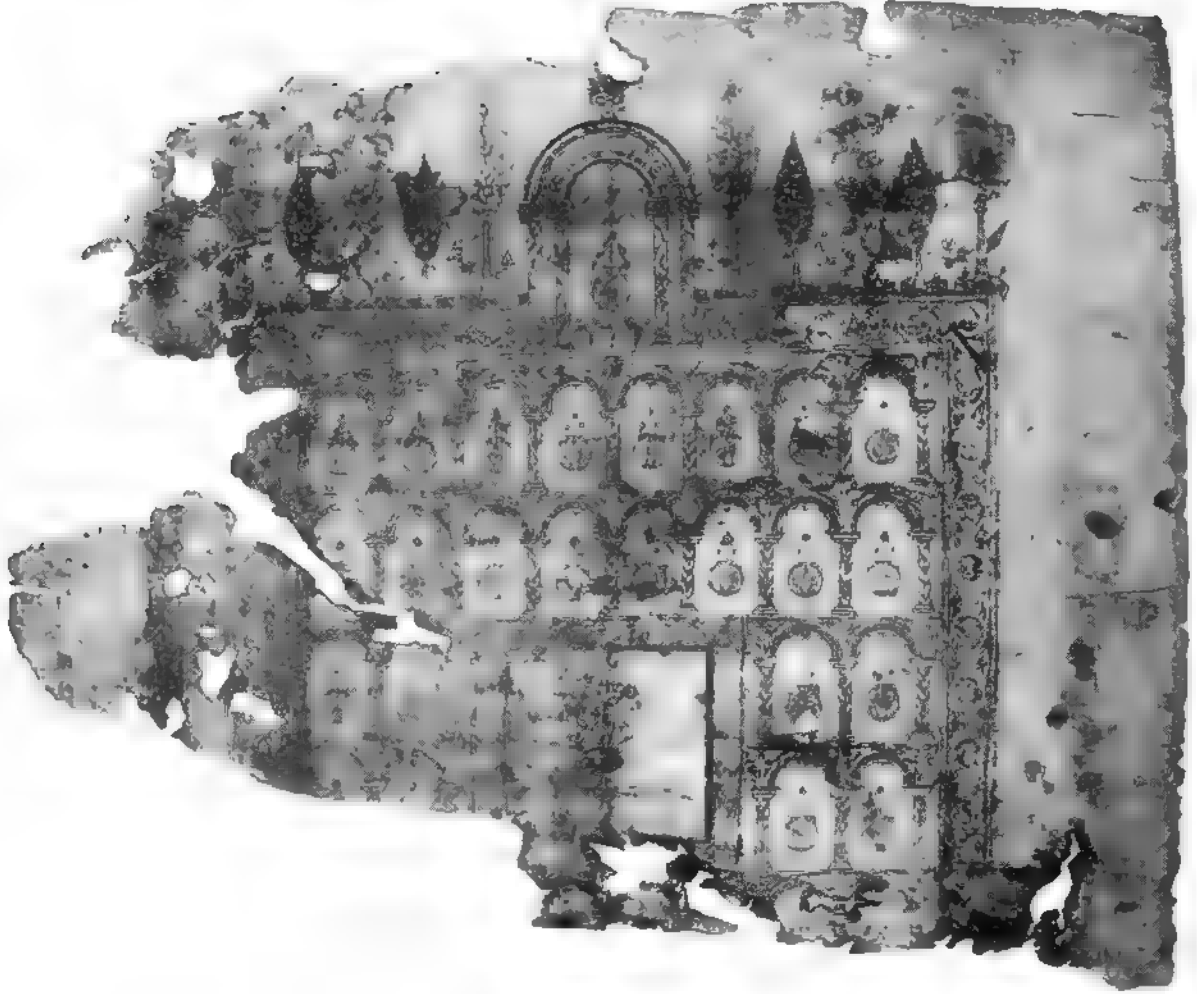
(١٧) Jonathan M. Bloom, *Paper before Print: The History and Impact of Paper in Islamic World* (New Haven, CT and London: Yale University Press, 2001), p. 175.

ناقش بلوم هذه المسألة بعمق في دراسة سابقة، مع الإشارة، على وجه الخصوص، إلى مناهج التصميم الهندسي. انظر: «On the Transmission of Designs in Early Islamic Architecture», *Muqarnas*, vol. 10 (1993), pp. 21-28.

للاطلاع على تحليل مقبول لدور الترميز في العمل المهني الهندسي، انظر: Guriru Necipoglu, *The Topkapi Scroll Geometry and Ornament in Islamic Architecture* (Santa Monica, CA: Getty Center for the History of Art and the Humanities, 1995).

(١٨) Bloom, *Paper before Print: The History and Impact of Paper in Islamic World*, p. 176.

الرسم الرقم (٣١ - ٣)
قطعة من وجه صفحة من القرآن الكريم، من القرن الثامن،
صنعاء، دار المخطوطات



Courtesy of Hans-Caspar Graf von Bothmer.

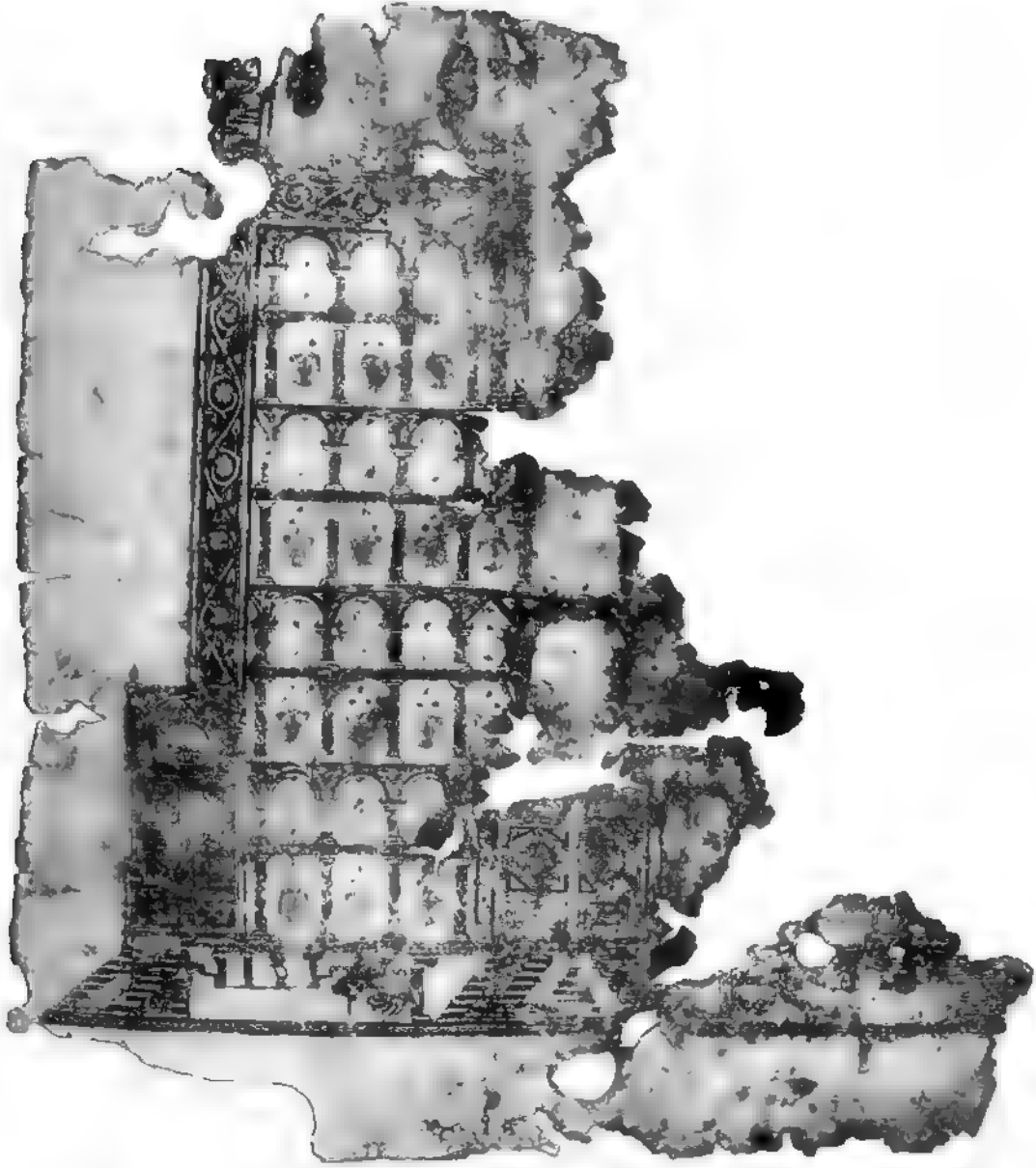
المصدر:

في أحد الأمثلة (الرسم الرقم (٣١ - ٥))، مخطط يبين المحيط الخارجي للمبنى وصحنه الداخلي وهو يحوي سلسلة أقسام - واجهات ذات ممار مسقوفة بقناطر متتالية، ويتدلى مصباح من كل قنطرة - مكدرس أحدها فوق التالي.

وقد يبدو هذا مثل واجهة مبنى مؤلف من طبقات متعددة، لكنه في الحقيقة يُظهر مبنى بتصميمه وواجهته فضلاً عن جوانبه الخارجية والداخلية في آن معاً (أي واجهات الممار المسقوفة الداخلية المتتالية وتصميم الصحن في الوسط). وعلى الرغم من أن هذه الكسرة الممزقة لا تزال تحت على البحث في التاريخ (date) والأصل، ربما يعود

تاريخها إلى ما بين عام ٦٩١ وعام ٧٤٣، وهي لذلك من بين أقدم التصاوير المعروفة
للهندسة من الأراضي الإسلامية^(١٩).

الرسم الرقم (٣١ - ٤)
قطع من وجه صفحة من القرآن الكريم، من القرن الثامن،
صنعاء، دار المخطوطات



Courtesy of Hans-Caspar Graf von Bothmer.

المصدر:

(١٩) انظر: Marilyn Jenkins, «A Vocabulary of Umayyad Ornament: New Foundations for the Study of Early Qur'an Manuscripts,» in: *Masahif San'a* (Kwait: Dar Al-Athar Al-Islamiyya, 1985), pp. 19-23; Hans-caspar Graf Von Bothmer, «Masterworks of Islamic Book Art: Koranic Calligraphy and Illumination in the Manuscripts Found at the Great Mosque in San'a,» in: Werner Daum, *Yemen, 3000 years of Art and Civilization in Arabia Felix* (Innsbruck: Pinguin-Verdag, 1987), pp. 178-187.

الرسم الرقم (٣١ - ٥)
أجزاء من مطوية حج تصوّر الكعبة في مكة وقبر النبي في المدينة، مملوكية،
تعود إلى العام ٦٩١ هـ، ١٢٩١ - ١٢٩٢ م



المصدر: إسطنبول، متحف الفن التركي والإسلامي، رقم ٤٧٢٧. أُخِذَتْ من: Aksay and Milstein, «Collection of Thirteenth Century Illustrated Hajj Certificates,» pl. 12.

ويبين التصوير الثاني (الرسم الرقم (٣١ - ٨)) تقنيات متطابقة لتصوير مبنى في حيز؛ فقسمة السفلي، وهو ما زال كاملاً، يبين ثلاثة مداخل مفصلة في أعلى سلسلة درجات. في هذا المثل، ثمة واجهة «مخيّطة» مباشرة وفق تصميم. الجانب الداخلي من

المسجد، المكدس عمودياً، مركّب أيضاً بواسطة سلسلة ممار مسقوفة بقناطر، غير أن كل ممر مضاعف في الارتفاع. يشهد هذان التصويران على التطور الباكر للغة بصرية من أجل تصوير الهندسة المعمارية - وصف بصري للهندسة المعمارية يمكنه التوفيق بين معلومات كثيرة في صورة واحدة - ويظهران كيف كانت الهندسة المعمارية تُفهم من خلال الحركة (سواء كانت العين تقرأ الصورة أو تخيل جسم يتحرك عبر حيز).

ثمة مجموعة من الدروج [للفافات من الورق المكتوب عليه] اكتُشفت عام ١٨٩٣ في الجامع الأموي في دمشق بعد حريق، وهي تعد من بين أقدم تصاوير مدن الحج الإسلامي^(٢٠). وكانت الدروج قد نُقلت إلى إسطنبول وهي محفوظة الآن في متحف الفن التركي والإسلامي. وكان أول من نشرها جاتين سورديل - تومين ودومينيك سورديل عام ١٩٦٤ ثم عام ١٩٨٤^(٢١).

وفي فترة أقرب، درس جولي أكسوي وراشيل ميلستين مجموعة مختارة من الدروج وحلّلا برامجها البصرية على نحو فاق ما فعلته سورديل - تومين وسورديل من قبل^(٢٢).

(٢٠) وجدت على صفائح حجرية منحوتة تصاوير قديمة للمعهد للكعبة في مكة، ودرس أوليف غرابار واحدة منها يعود تاريخها إلى سنة ٤٩٨ هـ (١٠٩٨ م)، خلال زيارته متحف بغداد سنة ١٩٥٦. انظر: Grabar, «Upon Reading Al-Azraqi».

وظهرت صفيحة أخرى في: Paulo Cuneo, *Storia dell'urbanistica: Il Mondo islamico* (Bari: Laterza, 1986), p. 17.

والكلام الموجز عليها يحدّد تاريخها - ولا يُظهر سوى المسجد الحرام موضوعاً بين نصوص - الذي يرقى إلى سنة ١١٠٤، وهي من الموصل ويملكها متحف العراق، بغداد.

(٢١) Janine Sourdél-Thomine and Dominique Sourdél: «Nouveaux Documents sur l'histoire religieuse et sociale de damas au moyen age,» *Revue des Études Islamiques*, vol. 33 (1964), pp. 1-25, et «Une Collection medievale de certificats de pelgrimage a la Mekke conserves a Istanbul: Les actes de la periode selgoukide et bouride (jusqu'a 549/1154),» dans: G. Sourdél-Thomine, *Etudes Medievales et patrimoine Turc, Culture et Civilization Medievales*; 1 (Paris: [n. pb.], 1983), pp. 167-273.

تري المؤلفتان أن مجموعة الدروج في الجامع الأموي ناشئة من مزاوله عرض الوثائق كعلامة على إتمام الحاج شعائر الحج والعمرة. انظر: Sourdél-Thomine and Sourdél, «Nouveaux Documents sur l'histoire religieuse et sociale de damas au moyen age,» p. 4.

وهما لا تتاولان السياق الأوسع لمجموعة الوثائق، أي، مجموعة مصاحف وصفحات من مصاحف تدلّ على أنها محفوظة. انظر أيضاً: J. S. Thomine, «Une Image musulmane de Jerusalem au debut du XIII siècle,» dans: Daniel Poirion, ed., *Jerusalem, Rome, Constantinople: L'image et le mythe de la ville au moyen age* (Paris: PUPS, 1986), pp. 217-233.

(٢٢) Sule Aksoy and Rachel Milstein, «A Collection of 13th C. Illustrated Hajj Certificates,» in: Irvin Cemil Schlick, ed., *M. Ugar Derman: 65 Yas Armagum* (Istanbul: Sabanci Universitesi, 2000), pp. 101-134.

ما زال هناك مئة وخمسون كُزجاً. ويعود تاريخها إلى ما بين عامي ١٠٨٤ و١٣١٠، وكانت ذروة إنتاجها في فترتي حكم السلاجقة (١٠٧٨ - ١١٧) والأيوبيين (١١٨٠ - ١٢٦٠) على دمشق. والأمر الذي استتجه أكسوي وميلستين من التابع الزمني للأمثلة هو أن إعادة إضافة صور إلى النصوص قد مورست في أواخر القرن الثاني عشر تقريباً، مع أنه جرى الاستمرار في وضع شهادات بلا صور. وابتداء من نحو عام ١١٩٣، حلت بصورة مطردة تصاوير للأماكن المقدسة محل النصوص المصاحبة التي كانت وقتذاك إما مدسوسة بين صور متتالية وإما موضوعة في الحواشي. لكن على الرغم من تكبير التصاوير وتوضيحها، فقد حوِّظ على البسمة الخالدة - بسم الله الرحمن الرحيم - الموضوعية بوصفها الترويسة المزينة لرأس نص الدرج. وتشهد أمثلة كثيرة على الأهمية البصرية الخاصة للبسمة (انظر الرسم الرقم (٣١ - ٦)).

أما النصوص الأخرى فوضعت كحدود هامشية أو خطوط فرجية أو سطور نص منسوخة في الفراغات بين الصور. وتشتمل الأجزاء المكتوبة من الدروج على البسمة وآيات مناسبة من القرآن، ونصوص تتعلق بالحج والحجاج. وتتضمن الأخيرة تعداداً مفصلاً للأماكن التي يتعين زيارتها، والشعائر التي ينبغي تأديتها. وتبدأ النصوص عادة بأدعية تُرفع إلى الله وتمضي لذكر اسم الفرد الذي أدى فريضة الحج أو أدى العمرة، أو كليهما؛ وفي حالة الحج بالوكالة، الذي يمثل عملياً أغلبية الدروج، يُذكر اسم طرف ثالث أيضاً. وفي معظم الأمثلة، ينتهي الدرج بتواقيع شهود شهدوا صحة الحج (سواء أُدِّي بالنيابة أم لا) (٢٣).

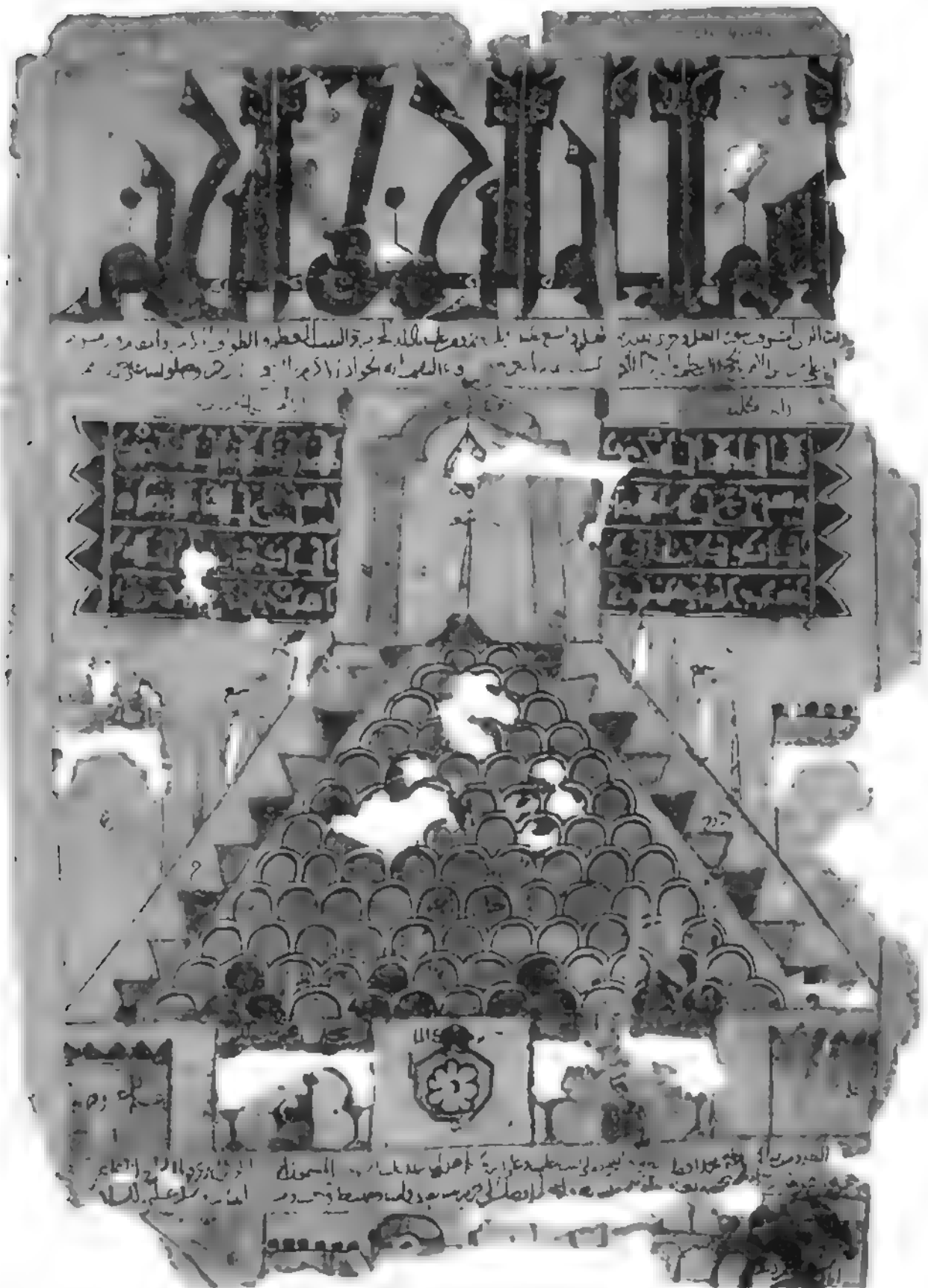
بعد الترتيبات الأولية في شأن شهادة حافظة لعمرة - حيث يقدم الحاج البديل فضائل بن محمود، ويذكر أنه معروف لدى الشهود، والمتفجع أبو الكتائب بن الرهاوي، معرّف - يعطي متن النص رواية قصصية للشعائر المؤداة. يقول النص:

(٢٣) موضوع الحج بالوكالة هو الشخص الرديف [الذي يؤدي فريضة الحج بدلاً من شخص آخر]. وتلاحظ إحالات إلى مراجع عامة أنه بالاستناد إلى حديث للنبي محمد (ﷺ) كانت هذه السنة شرعية نيابة عن أقارب متوفين نوا تأدية فريضة الحج لكن لم يستطيعوا، أو نيابة عن أفراد ضعفاء أو مرضى. وكان المقصود أن يكون الشخص الرديف قد أدى فريضة الحج لنفسه قبل أن يؤدّيها كبديل من غيره. وثمة واقع يثير أسئلة عميقة تتعدى نطاق هذه الدراسة، وهو أن شهادات كثيرة أدبت لمصلحة أناس توفوا قبل إتمام ركن الحج. وقد دفع تحليل مادي للشهادات - ورواية متأخرة جداً للحالة شاردان - أكسوي وميلستين إلى القول إن الدروج عُرضت على الملأ. انظر: Sule Aksoy and Milstein, «A Collection of 13th C. Illustrated Hajj Certificates», pp. 103-104.

ويورد سورديل القرصية نفسها في: Sourdel-Thomine and Sourdel, «Nouveaux Documents sur l'histoire religieuse et sociale de damas au moyen age», p. 4.

الرسم الرقم (٣١-٦)

رأس مطوية حج تظهر «البسملة» وجبل «عرفات»



«بداية وصل إلى التنعيم، وصلى ركعتين في مصلى عائشة، أم المؤمنين، التي يرضى الله عنها رضاه عن أبيها، وكّرّس نفسه لعمرة... محافظاً على حالة التكريس مردداً طوال الوقت عبارة «لَيْتِكَ» في كل مناسبة، في اليسر والعسر، في القيام والقعود. وظل يردد لَيْتِكَ حتى رأى الكعبة، البيت المقدس، ووقف أمام الحجر الأسود، وقبله، وطاف حول البيت سبع مرات، كاملة، ثلاث مرات جرياً وأربع مرات مشياً، ودعا للشخص المذكور أعلاه عند الزوايا الأربع، وكذلك عند موقع الطواف، تحت الميزاب وقرب المستجار، وصلى ركعتي الطواف خلف مقام إبراهيم، خليل الله - عليه السلام - طبقاً لكلام الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(٢٤)، دخل تحت قبة زمزم، وشرب من مائها، ونثره على جسمه وثيابه، ابتغاء لبركة الله ورضائه - «ماء زمزم مفيد، وكان هذا المراد من شربه»، وسأل أن يسقي الله الشخص المذكور اسمه أعلاه الماء المحفوظ للأطهار من كوب النبي المختار - أنزل الله عليه البركة وأكرمه - توجه إلى الصفا من باب الصفا... ردّد عبارة «الله أكبر»، وأفاض بالدعاء للشخص المذكور أعلاه، وركض بين الصفا والمروة سبع مرات، عملاً بقول الله - سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(٢٥)، وسرّع خطاه بين الحدين، وحلق رأسه، وفك إحرامه ودعا أن تكتب هذه العمرة للشخص المسمى أعلاه - غفر الله له - تمت هذه العمرة المباركة... وكفى بالله شهيداً»^(٢٦). كما جميع الشهادات الأخرى، يُختم نص هذه الشهادة بأسماء الشهود.

وقد أوحى الفروق في تهجئة الكلمات بين النصوص في متن الدروج والنصوص الموثقة التي أضافها الشهود لسورديل - تومين وسورديل بأن الدروج وضعت سلفاً، نظرياً، واشتراها الحاج في ما بعد. ويأتينا تدقيق أكسوي وميلستين في مجموعة كتابات دمشق في هذا الشأن بمعلومات أوضح وأدق عن كل درج: رسوم توضيحية مطبوعة في كليشيات، وهذه تقنية يفترض أنهما استجابت لطلب شديد، «توسعت باستمرار إلى جانب رسوم مرسومة باليد. وبحلول الربع الثاني من القرن الثالث عشر، جرى، على ما يبدو، إصدار وثائق مطبوعة فقط»^(٢٧). ويضيفان أنه في أوائل عهد المماليك تدنت نوعية النسخ المطبوعة وأن الصور الإيضاحية هُجرت في آخر الأمر. وأظهر بحثهما أيضاً الجمع بين الخط المطبوع في كليشيات والفقرات المكتوبة بخط اليد، الأمر الذي يؤيد

(٢٤) القرآن الكريم، «سورة البقرة»، الآية ١٢٥.

(٢٥) المصدر نفسه، «سورة البقرة»، الآية ١٥٨.

Sourdel-Thomine and Sourdel, Ibid.

(٢٦) النص مترجم عن الفرنسية ووارد في:

Aksoy and Milstein, «A Collection of 13th C. Illustrated Hajj Certificates», pp. 123-124.

(٢٧)

نظريات سابقة مفادها أن الدروج الموضوعية سلفاً كانت معدة بحسب الطلب بإضافة قطع مكتوبة بخط اليد^(٢٨).

بصرف النظر عما إذا كان الحج المخصص تضمن إتمام العمرة أو الحج، فإن جميع الدروج من الحقبة الأيوبية تمثل الدورة الكاملة للشاهد التوضيحي وفقاً لترتيب موحد من الأعلى إلى الأسفل. وهي تبدأ بمقامات الحج الرئيسية في مكة وجوارها وتنتهي بمسجد النبي في المدينة والحرم الشريف في القدس. يرسم درج يرقى تاريخه إلى الحقبة الأيوبية في سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) (انظر الرسمين الرقمين (٣١ - ٧) و(٣١ - ٨)) صوراً تخطيطية لمكة والمدينة والقدس كعمود مضغوط مع فراغ قليل فوقه من أجل النص (النصوص محذوفة من الرسوم ميلستين وأكسوي بالخطوط).

والعديد من أجزاء الدرج مذيلة داخلياً بعلامات. ويبدأ الدرج بأولى الوحدات العديدة المستقلة بذاتها والمطابقة لسهل عرفات الممتد شرق مكة نحو ١٣ ميلاً. ويحدد الثامن من ذي الحجة، الشهر الثاني عشر في التقويم الإسلامي، موعداً لبدء الحج^(٢٩)، حيث ينطلق الحجاج شرقاً من مكة في حالة إحرام. وبعد تمضية الليلة الأولى في منى، يبلغ الحجاج عرفات في التاسع من ذي الحجة لبدء «الوقوف» الذي يدوم حتى مغيب الشمس. ويصغي الحجاج إلى خطبة تلقى بعد منتصف النهار تأسيماً بالخطبة التي ألقاها النبي محمد في وداعه للحج سنة ٦٣٢، أي في السنة التي ترسخت فيها مقتضيات الحج أول مرة. وبدلاً من رسم أو تقديم هذا الخط المكاني والزمني لسير الرحلة، تصف الصورة الأولى على الدرج جبل الرحمة (المعروف أيضاً بجبل عرفات)، على سهل عرفات قرب مسجد يُعتقد أن إبراهيم بناه وأنه احتوى على منبر الخطيب. ويظهر جبل الرحمة كمثلث محاط ببناء مقبب يحوي شمعة مع سلسلة درجات على كلا الجانبين. والمساحات الممتدة على جوانب أعالي الجبل زاخرة بعناوين كبيرة - تحت البسملة - منقوشة مع اسم الخليفة الحاكم، الناصر لدين الله (١١٨٠ - ١٢٢٥). وفي أسفل الجبل مباشرة مستطيل يحوي صوراً واضعي الحدود (أعلام) للفناء المقدس (الحرم)، ومسجد إبراهيم مع منبر الخطيب، وبركة، وقبر آدم^(٣٠).

(٢٨) المصدر نفسه. تحتوي مقالاتها ملاحظات عديدة حول تقنيات إصدار الشهادات.

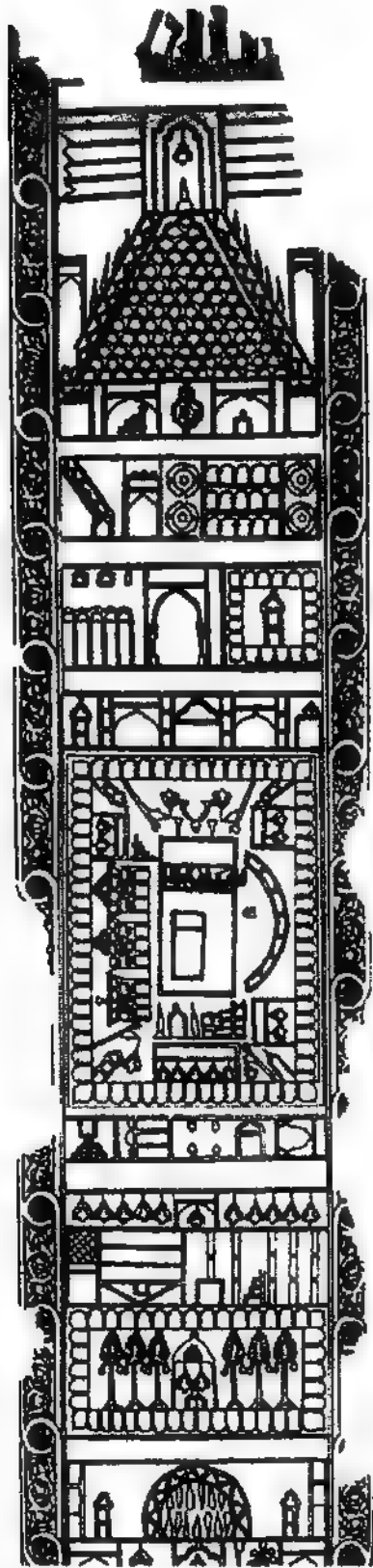
(٢٩) يمكن الوقوف على ملخصات مفيدة للشعائر المؤداة خلال الحج والعمرة في: «Muslim Pilgrimage» s.v.

in: *The Encyclopedia of Religions* (R. C. Martin); and E12, s.v. «Hadjdj» (A. J. Wensinck [et al.]).

(٣٠) حذد أكسوي وميلستين جميع هذه العناصر (وجميع العناصر الأخرى الخاصة بمختلف مواقع مكة

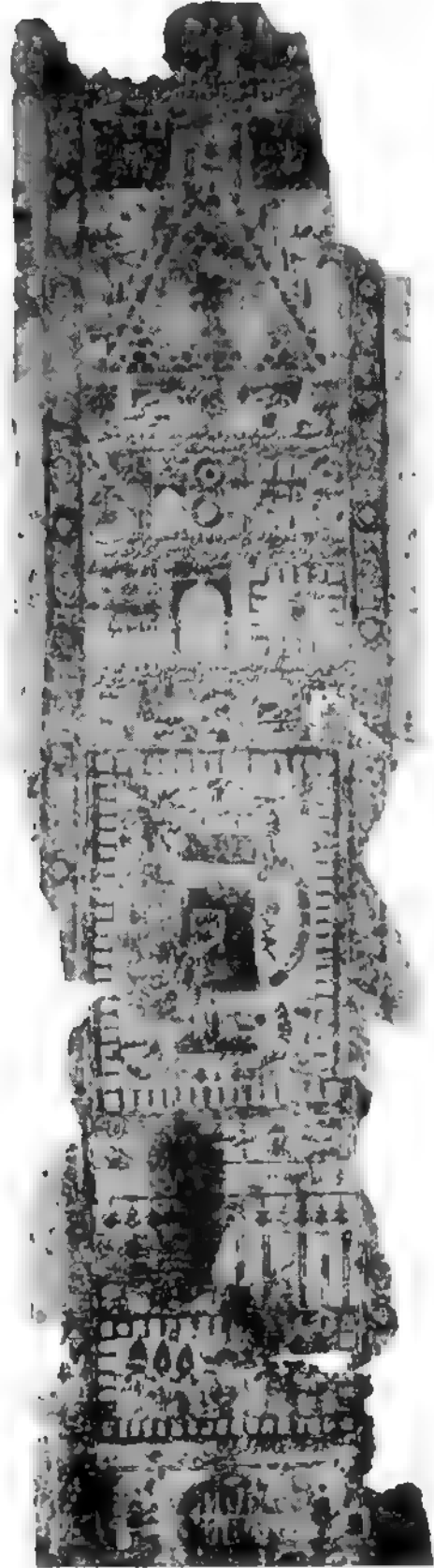
والمدينة والقدس)، وهي ملحقة بشروح مفصلة ودقيقة، في رسميهما.

الرسم الرقم (٣١-٨)
رسم طولي من درج حج يعود إلى العام
٦٠٨هـ (١٢١١-١٢١٢م)



المصدر: إسطنبول، متحف الفن التركي
والإسلامي، رقم ٤٠٩١ مأخوذة من: Aksoy and
Milistein, Ibid; figure 1.

الرسم الرقم (٣١-٧)
درج حج، يعود إلى العام
٦٠٨هـ / ١٢١١-١٢١٢م



المصدر: إسطنبول، متحف الفن التركي
والإسلامي، رقم ٤٠٩١.

يتضح الآن جانبان من صور الدَّرج: عادة تصوير الهندسة المعمارية والمعالم ككيانات معيّنة الحدود أو أيقونات بصرية؛ وتكامل وجهات النظر في مخططات فردية تشير إلى عين (أو ثقافة بصرية) متعوّدة على الانتقال بين تصاوير أبنية في مسقط رأسي ومنظر علوي.

بعد حافة رفيعة من الورق يظهر شريط جانبي آخر، وهذا يدل على مزدلفة. في الغروب، يقوض الحجاج الخيام في عرفات ثم يرحلون إلى مزدلفة حيث يمضون ليلة التاسع من ذي الحجة. وتظهر صورة مزدلفة، من اليسار إلى اليمين، مسجداً (المشعر الحرام)، ومحرابه، وآباراً وقباب مزدلفة. ومرة أخرى، تبدو مناظر خُطّوية (مناظر علوية لقطاعات أفقية) بإزاء مناظر قطاعية وارتفاعات عبر شبكة خطوط كان من الممكن أن تستحوذ على اهتمام.

بعد فراغ آخر على الدَّرج، يشغله نص أيضاً، تأتي منى. يصل الحجاج إليها في صبيحة العاشر من ذي الحجة، إن لم يكن قبل ذلك، ويمضون الأيام الثلاثة التالية. وخلال هذه الأيام، يرمي الحاج في كل يوم سبع حُصي على ثلاثة أعمدة (جمرة) ترمز إلى «شياطين»، كما هو شائع، وفي العاشر من ذي الحجة يقدم أضحية ويولم تكريماً لذكرى إبراهيم في المسجد النبوي (أيام النحر والتشريق)، ويزور مكة من أجل «طواف الوداع» (طواف الإفاضة). ويعود الحاج عادة إلى المدينة للاستراحة في ١١ - ١٣ ذي الحجة^(٣١).

ومنى، المجموعة حول صف من المحال، هي أيضاً موقع لتبادل البضائع بين الحجاج. والمحال متمثلة عادة بصف من القباب (قباب منى). ويضم القسم الذي يُظهر منى في الدرج الأعمدة وقباب منى ومسجدين - مسجد الأضحى ومسجد الخيف.

الرسم التوضيحية الأكبر والأكثر تفصيلاً في دورة الدروج بكاملها هي رسم المسجد الحرام في مكة. هنا ينقسم التركيب إلى ثلاثة أجزاء، يصور الأول مئذنة ومدارس المالكية والشافعية المكتنفة لبوابة إبراهيم. وكانت هذه الإنشاءات محاذية للجدار الغربي من المسجد.

(٣١) إن مختلف عناصر الحج والعمرة، ومستوى ملزوميتها طبقاً لأربعة مذاهب إسلامية، ملخصة على نحو مفيد في: محمد ليب البتّوني، الرحلة الحجازية: لولي النّعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر (القاهرة: مطبعة الجالية، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، الجداول، ص ١٧٨.

في القسم الأوسط والرئيسي، الكعبة محاطة بأركان متعددة، منها الخاتم، وهو جدار صغير منحني يُعتقد أنه المكان الذي دُفنت فيه هاجر وإسماعيل والذي نام فيه النبي محمد ليلة انتقاله من مكة إلى القدس عام ٦٢٠؛ ودُرَج على عجلات سهّل الوصول إلى باب الكعبة، وبثر زمزم الذي يكرم ذكرى إغاثة الله لهاجر؛ ومقام إبراهيم الدال على النقطة الأخيرة في دورة الطواف والمشتمل على حجر وقف عليه إبراهيم وصلى ميمماً شطر الكعبة، و«قبة الشرب»^(٣٢). وثمة قوس صغير، محفوف بالشموع، تحت الكعبة، ربما هو باب بني شيبه الذي دخل الحجاج منه إلى فسحة المطاف. وحُدّدت أربعة أركان مستطيلة مصورة بعيداً من الكعبة بأنها منصات للأئمة الأربعة الذين مثلوا مذاهب الإسلام الشرعية.

يصور الجزء الثالث «المسعى»، الذي يجوبه الحجاج سبع مرات، ساعين بين أعمدة خضر. يمتد المسعى، وهو مسافة طولها نحو ٤٥٠ ياردة، بين قوس المروة الوحيد وقوس الصفا الثلاثي. ويظهر جبل أبي قبيس في محاذاة صفا. ويضم الركن الخامس بناءً مقبباً قرب المروة، وقد عرّفه أكسوي وميلستين بأنه قبة عمر (معظم هذه الأركان مذيبة على الدروج بعلامات صغيرة مكتوبة).

بعد إتمام الحج إلى مكة، اختار الحجاج غالباً الانتقال إلى المدينة ومسجد النبي محمد وقبره، على الرغم من أن ذلك لم يكن فريضة. وفي الدُرَج، يقتصر تصوير المدينة على المسجد المنقسم إلى طوقين يتألفان من بهو مسقوف وضريح ورحبة. وفي القسم العلوي يرى المرء صفّاً من المصاييح يمتد على طول أعلى حافة لجدار قبلة المسجد وأضرحه النبي محمد وأبي بكر وعمر. وفي جوار القبر عنصر أصغر حجماً ذو جدار مصبَّغ يدعى محراب فاطمة. ويشار إلى قاعة الصلاة بالروضة. أما القسم السفلي - وهو شريط مستطيل آخر - فيُظهر صحن المسجد في هيئة أربعة صفوف أو أقواس فوق أعمدة مع رسومات شجر نخيل والبناء المقبب الصغير الذي كان يستخدم لتخزين الزيت والشمع للإنارة.

بعد المدينة مباشرة تأتي القدس والحرم الشريف الذي ينقسم فناؤه إلى قسمين من دون فراغ بينهما. وقبة المقدس مصورة في الأعلى وعلى جوانبها مآذن، وتحتها خمسة أركان تتضمن، من اليسار إلى اليمين، محراب الأقصى أو داود، ومهد المسيح،

(٣٢) عرّفها أكسوي وميلستين بأنها «سقاية العباس أو القبة العباسية من القرون الوسطى، وقد صانت قرآناً من سنة ١٨ هـ». انظر: Aksoy and Milstein, «A Collection of 13th C. Illustrated Hajj Certificates», p. 112.

والصخرة التي عليها أثر قدم النبي محمد، وشجرة زيتون، ومحراب داود أو زكريا (أبو يوحنا المعمدان).

تبين هذه الرموز الهندسية الإضافية كيف يمكن هذه التصاوير أن تكون تقليدية؛ تقليدية كأجزاء إفرادية وكبناء مكرر لأماكن متوالية موصولة بعضها ببعض كما لو كانت قلادة متدلّية. وقد حققت اصطلاحات الشكل والتركيب هذه مستوى من المعيارية لترتيب شهادة الحج وحسنت طابع الوثائق التنظيمي والتعليمي. ويجدر الذكر أن النصوص الكلامية المصاحبة للتصميم البصري المحدد صرفت معظم وقتها مصدّقة - في هيئة لوائح - على الأفعال والأقوال المقررة التي تطلبت في أكثر الأحيان اتجاهًا مكانيًا محددًا. في بعض الجوانب، إذاً، يكون التأثير المشترك للعناصر البصرية والكلامية في كل درج تعزيزاً معرفياً متبادلاً، وربطاً للأفعال بالمواقع التي تشير معاً إلى تجربة الحاج الأساسية مع الحيز. وهذه الأحياز كانت زاخرة بالمعاني لأنها كانت مرتبطة بأحداث تجري ضمن الإطار الإجمالي لعلم الكونيات الإسلامي، بعضها قديم، وأخرى ستحدث في وقت ما. وفي تأدية شعائر الحج، ثمة كثير من الأفعال التذكارية يراد بها إتمام واجب إلزامي لكنه يمارس أساساً أي يرسخ ذكرى محمد وإبراهيم وهاجر وإسماعيل. هذا الجانب من الحج منقول إلى شهادة الحج باسمه، الذكر، الذي له معنى «التذكر» (من فعل ذَكَرَ). وفي أطر تعبدية معينة يشير الذكر إلى التكرار أيضاً. ويسبب ذلك، عمل الدرج كذكرى بصرية ولفظية، مستذكراً مجموعة أفعال تؤدّي في أماكن مقدسة.

إن البيانات الوصفية التفصيلية للرحلة، وهي بيانات معدّدة هنا من أجل دَرْج واحد لكنها صالحة عملياً للكثير من الدروج، تُبرز التصور لكل حيز مقدس كرسم لخريطة أحداث مهمة تاريخياً تُنتج جمعاً من «مميّزات» مواقع. وهذه المميّزات للمواقع منظّمة في وحدات - أحياز متماسكة المعاني، وكل وحدة مفصولة عما تليها، وكان يتعين ملء الفراغات الناجمة بنص، إلا أنها مع ذلك تدل على مسافة (منقولة بريقاً) وأعتاب بين أحرام متتالية. وكانت حدود تلك الأحرام معلّمة بالعلّم. وصور الهندسة المعمارية تضبط إدراك «النوعية» بوضع شكل بصري يحوّم بين «الأيقوني» أو «الرمز المصوّر» - الشكل الوحيد الذي يجعل التعرف إلى كل موقع ممكناً بصورة فورية - وأوجه التشابه الخاصة بدراسة الرموز ودراسة أشكال الأشياء، أو ذخيرة من الرموز، التي تعبّر عن قدسية كل مكان. والدروج تدل على مسار باتجاه التشابه الشديد، انتماء مستخلص بين أماكن منفصلة، ذات مناخ نفسي للمكان، لكنها تنتمي كما ينبغي إلى الفئة نفسها؛ وهي، في

هذه الحالة، الأماكن التي تُزار خلال الحج. وهذه السمة تدنينا من تصوّر ذي صبغة تاريخية في شأن كيف أن الصور نسقت خبرات مكانية لحجاج معاصرين، وكيف أن لغتها البصرية أضفت امتيازاً على بعض أوجه الخبرة ولم تضيفه على أوجه أخرى.

تدل أمثلة أخرى، من عام ١١٨٩ إلى عام ١٢٩١ (انظر الرسم الرقم (٣١ - ٥))، على نموذج بصري وكلامي للشهادة هو بديل من الشهادات التي نوقشت سابقاً؛ والفارق الأوضح فيها هو الانزياح البصري المتزايد بين الأماكن. ولأنها ليست محددة المواضع كتتابع سريع لوحداث منقسمة قليلاً، كما كان أمر النموذج في المثل الذي يحمل تاريخ ١٢١١، فإن هناك ميلاً متزايداً إلى رؤية الوحدات كوحدات مستقلة وبالتالي رؤيتها في تركيب معرفي/ بصري مفكك. ويتطلب وصل وحدات متتالية بعضها ببعض مزيداً من العمل في الأمثلة التي يعود تاريخها إلى عامي ١١٨٩ و ١٢٩١. والعلاقة المتبادلة المحددة بين الوحدات غير مبنية في تركيب الدّرج، والنتيجة انطباع متناقص في شأن الحج بوصفه خط سير رحلة وإحساساً متضائلاً بتجربة الحاج حيال الوقت المنقضي بينما هو (الحاج) يتقل بين المواقع المقدسة. هذا النوع من الرسم البياني الزمني متباين تبايناً واضحاً عن نموذج مثل عام ١٢١١. فما هو، إذًا، نوع الزمن الذي تستحضره شهادة ١٢١١ فعلاً؟

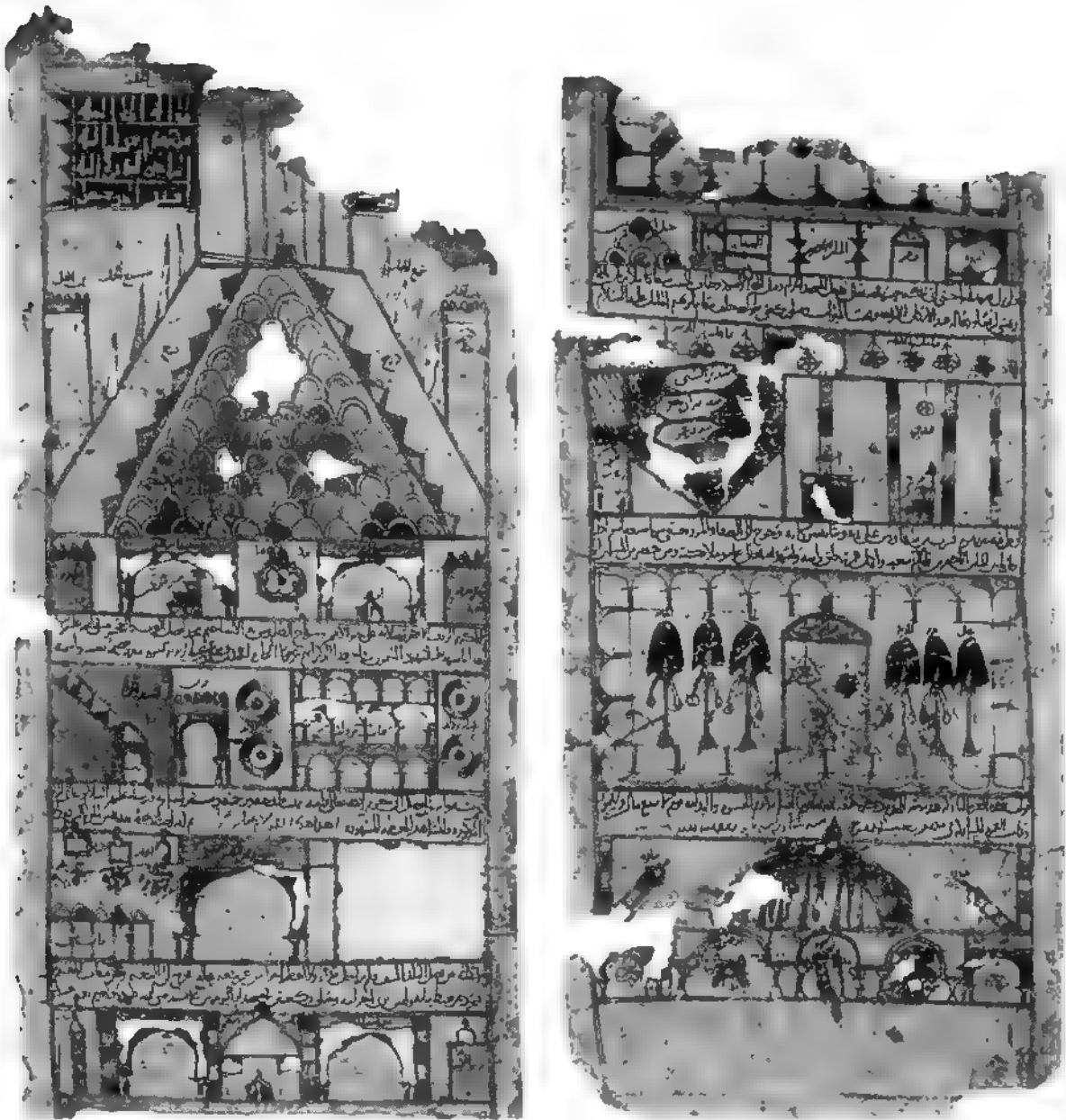
إن أشد ما يلفت النظر في شأن موضع المسجد الحرام والكعبة هو أن وضعهما في تسلسل واجبات الحج المكية يبرز أهمية توقيت موجه نحو طواف الوداع: الكعبة كمقصد أخير قبل أن يغادر المرء إلى المدينة والقدس. والطواف - سبع مرات حول الكعبة - والسعي بين الصفا والمروة، لإحياء لذكرى بحث هاجر عن الماء، ويمثلان معاً واجبات العمرة، التي يمكن تأديتها في أي وقت في التقويم الإسلامي، على الرغم من تفضيل موسم معين أو أوقات معينة على موسم آخر أو أوقات أخرى، مثلاً، خلال شهر رمضان. لم يتوافق إتمام العمرة بالضرورة مع إتمام الحج، مع أن النبي محمد ثبت تقليد الجمع بينهما. وعلى العموم، تتم العمرة قبل الثامن من ذي الحجة وتوجّه الحاج إلى عرفات إيذاناً ببداية الحج. والعمرة يمكن تأديتها في أي وقت قبل الحج - والمقتضى الوحيد هو أن يفك الحجاج إحرامهم بعد العمرة وتجديد طقوس الإحرام قبل تأدية الحج. وكان من الممكن إتمام السعي بعد الحج إذا تخلف المرء عن تأدية هذه الشعيرة من شعائر العمرة، أي أنه قام بالطواف فقط، قبل الثامن من ذي الحجة. وكان في وسع الحجاج كذلك تأدية العمرة بكاملها بعد إتمام الحج.

في درج عام ١٢١١ ودروج أخرى كثيرة من نوعه، يقدم التركيب إلى المشاهد صورة تخطيطية للحج تُظهر جبل الرحمة - المحدّد المكاني لعرفات - فتخص الحج بالتالي بامتياز من الناحية البصرية يفوق الامتياز المعطى للعمرة وفقاً لمكانة الحج مقارنة بمكانة العمرة. ويشار إلى العمرة في العنصر المركزي من خلال مظهر المسجد الحرام والكعبة والممر الممتد بين مرتفعي الصفا والمروة الواطئة. وهي كلها تشكل المواقع التي يؤدي الحاج فيها الطواف والسعي والأماكن العديدة التي يزورها الحاج عند المطاف المرتبط بمحمد وإبراهيم وإسماعيل. ولو كان هذا الدرّج ببساطة بياناً تفصيلياً بصرياً لرحلة الحج، لما كان هناك حاجة إلى الإشارة إلى الصفا والمروة لأنهما ليستا، كما هو معهود، ضمن طواف الوداع الذي يُشرع فيه بعد فك الحاج لإحرامه.

الغاية من هذا كله ملاحظة أن الترتيب التركيبي للمواقع على هذا الدرّج ودروج كثيرة أخرى لا يهدف إلى تخطيط خط سير رحلة توازي مزيجاً زمنياً محدداً للعمرة والحج، ولا يرمي إلى إنتاج قالب بصري للتتابع الدقيق للحج وحده لأنه يبدأ من دون مقدمات في عرفات. طبعاً، يمكن بسهولة تفويض هذه الضروب من الحركات الخطية - المفروضة من العمود الرفيع المطوّل للدرّج - بإطلاق العنان للعين كي تتبّع المسالك داخل الوحدات المكانية الفردية، أو بالقفز من وحدة إلى الوحدة التي تليها. والجدير بالملاحظة أيضاً واقع أنه بصرف النظر عن طقوس الحج المحددة والمكتوبة بكاملها في نص الشهادة - الحج أو العمرة - فإن كل شهادة تُظهر مواقع مكة والمدينة والقدس. وإلى أن يتم نشر نصوص دروج العهدين الأيوبي والمملوكي بكاملها، لن يكون في الإمكان تقرير ما إذا كان نمط وعادة تجهيز الدروج قد تغيراً منذ الحقبة السلجوقية السابقة؛ ما إذا كانت، مثلاً، عادة شراء دروج لإحياء ذكرى إتمام حج قد ازدادت. والتحليل النموذجي الذي أجراه سورديل وسورديل - تومين لنصوص شهادات أعطى تخميناً إحصائياً يفيد بأن من مجموع مئتي درج، كان أربعون درجاً فقط تتعلق بالحج (أكان مصحوباً بعمرة أم لا)، والأغلبية تتعلق بالعمرة وحدها^(٣٣). وهما لا يشيران إلى ما إذا كانت هذه النسبة تنطبق على المجموع الإجمالي للشهادات الباقية عبر الحقبة التاريخية برمتها (من السلاجقة إلى المماليك). أم أنها تنطبق على الدروج حتى نحو سنة ١١٥٤ (التي تشكل محط اهتمام دراستهما للنصوص). ولمضاعفة المشقة، تركّز دراستهما للنصوص على مجموعة من الدروج الخالية من الرسوم أو الصور التوضيحية.

Sourdel-Thomine and Sourdel, «Une Collection medievale de certificates de pelgrinage a la Mekke conserves a Istanbul: Les Actes de la periode selgoukide et bouride (jusqu'a 549/1154),» p. 170. Their total count exceeds Aksoy by 50 scrolls.

الرسم الرقم (٣١-٩)
درج حج، أيوبي، يعود للعام ٦٠٢هـ (١٢٠٥-١٢٠٦م)



المصدر: إسطنبول، متحف الفن التركي والإسلامي رقم ٤٧٣٧ و ٤٧٤٦.

واستمرت في فترات متأخرة النماذج التركيبية الموضوعية للشهادات والاصطلاحات البصرية الخاصة بترتيب الحيّز وتصوير الهندسة المعمارية من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر. وتشهد على ذلك شهادة مؤرخة في ٨٣٦ (١٤٣٣ - ١٤٣٢) وموضوعة من أجل ميمونة بنت محمد بن عبد الله الزردلي^(٣٤).

(London: British Library; Add. 27566).

(٣٤)

فتصويرها للكعبة هو الأقرب إلى النماذج المصوغة في التقليد الأسبق للدروج، في حين أن تصويرها للمدينة يغلب عليه الآن الضريح القائم في حرم المسجد المسقوف. وبحلول القرن الخامس عشر، أتاح الضريح الاهتمام البصري الأساسي بالتسوير الهندسي الذي اختزل إلى جدار محيط مع قناطر مقترحة^(٣٥).

هناك مثال آخر، في تاريخ متأخر أيضاً، لعله أفضل ما درس من بين شهادات الحج كافة^(٣٦). إنه شهادة مذهلة على حج مؤدى بالوكالة نيابة عن الراحل شهزاد محمد (ت ١٥٤٣ م). والدرج يحمل تاريخ ٩٥١ هـ (١٥٤٤ - ١٥٤٥ م). وكان الحاكم العثماني سليمان الكبير، أبو شهزاد محمد، قد أمر بشهادة الحج. ونصوص الشهادة مكتوبة بلغتين؛ فتلک المكتوبة بالتركية العثمانية مخططة بالخط الفارسي نصتعلیق وتحدد الأماكن المصورة على الدرج، بينما تسجل الشرائط المستنسخة باللغة العربية أحاديث النبي محمد وآيات من القرآن ذات صلة بالحج. وتؤدي هذه الشرائط المستنسخة المتعلقة بعلم تفسير الكتابات وظيفية أطر لكل من مشاهد الدرج الخمسة عشر. والدرج منسّق كسلسلة صفائح تبين محطات الحج الرئيسية في مكة وجوارها؛ المزار في المدينة، الذي يظهر أعمال الترميم والتجديد التي قام بها السلطان المملوكي قايتباي في أواخر القرن الخامس عشر؛ ومواقع أخرى تزار في جوار المدينة، منها مقبرة «البقيع» وآثار الحرم الشريف التذكارية في القدس، وتنتهي بنعلي النبي محمد.

وثمة في الدرج نص ختامي قصير هو شهادة لثلاثة قيمين على الحرم المكي، خسرو وعلي ومصطفى، وأمير هو علي بن محمد بن حسين بن عبد الله، يكتب فيها الناسخ، محمد أبو الفضل السنجاري، أن بيرى بن سيد أحمد أتم واجبات الحج وطقوسه الصحيحة. ويميز النص أيضاً الراحل شهزاد محمد الذي كان الحج قد أدّى لحسابه. تختلف البنية العامة للدرج عن نماذج أسبق في أنها تبدأ بالمسجد الحرام

(٣٥) للاطلاع على صور توضيحية، انظر: Nourhan Atasoy, [et al.], *The Art of Islam* (Paris: UNESCO and Flammarion, 1990), p. 10, and Dismond Stewart, *Mecca* (New York: Newsweek, 1980), p. 20.

(٣٦) (إسطنبول: مكتبة قصر توبكاي، H. 1812، ٥٢٤ × ٤٦٠ ملم). للاطلاع على مناقشة للدرج، انظر:

Emil Esin, «Un Manuscrit illustré représentant les sanctuaires de la Mecque et Medine et le Dome du Mir'radj, à l'époque des sultans turcs Selim et Suleyman I^{er} (H. 982-74\1516-66)», dans: *Les Provinces arabes et leurs sources documentaires à l'époque Ottomane* (Tunis: [n. pb.], 1984), pp. 175-190; Zeren Tanindi, «Resimli Bir Hac Vekaletnamesi», *Sanat Dnyamaz*, vol. 9, no. 28 (1983), pp. 2-5; J. M. Rogers and R. W. Ward, *Suleyman the Magnificent* (London: British Museum Publishers, 1988), pp. 100-101, and R. Milstein, «Drawings of the Haram of Jerusalem in Ottoman Manuscripts», in: Amy Singer and Amnon Cohen, eds., *Aspects of Ottoman History: Papers from CIEPO 9, Jerusalem* (Jerusalem: Magnes Press, 1994), pp. 62-69.

وتنتقل إلى الصفا والمروة ومنى ومزدلفة ثم إلى عرفات، قبل الاستمرار مع المدينة، وتختتم بالقدس ونعلي النبي محمد، اللذين - وفقاً للحديث - مسّا عرش الله مسّاً خفيفاً خلال صعود النبي محمد إلى السماء^(٣٧).

هناك جانبان من جوانب الدّرج العثماني مذهلان. الأول هو إجراؤه توازناً بين التقاليد، وهذا واضح في اصطلاحاته الفنية وعادة وضع مثل هذه الوثائق البصرية واللفظية، وتحوير التقاليد، وهذا واضح في اهتمامه بالتغيرات في البيئة المشيدة وفي إعادة ترتيب المدن والمواقع الظاهرة على الدرج. ويعكس المحتوى المحدد للدرج تغيرات في منظر مكة الطبيعي (وفي مناطق أخرى مقدسة ومحيطة بالمدينة والقدس) بإظهار مبان جديدة أو أعمال ترميم وتجديد لمبان قديمة. وهذه مضافة إلى فهرس الدرج البصري. والتغير الرئيسي الآخر هو إضافة نعلي النبي. وقد يُرى مثل هذه الإضافة بأنها ذروة دروج أقدم تاريخياً أقامت ضمناً صلة بين القدس ومكة بإظهارهما متلازمتين على وثيقة واحدة. في أمثلة سابقة تمت دراستها آنفاً، تُركت مناسبات أخرى ذات ترتيب جيو - ديني للإمام المرء، وهي غير جوهرية بالنسبة إلى الدرج بمعناه الأصلي والدقيق.

وفي المثال العثماني، من ناحية أخرى، يعمل نعلا النبي محمد كرمز للرباط بين القدس ومكة ومن طريق الاستشهاد بإسراء النبي محمد ليلاً من مكة إلى القدس، وصعوده من القدس إلى ضفاف الكوثر ومن ثم عبر السماوات السبع في علم الكونيات الإسلامي وصولاً إلى عرش الله ثم إلى الجنة والنار. إن هذا تعبير بليغ عن امتداد جزء من قداسة مكة إلى القدس. والصلة بين الموقعين المقدسين بارزة بتصوير قبة الصخرة والشكل العام لقناتها المقدس - وهو يرسم تشبيهاً بصرياً للكعبة وحرماً. علاوة على ذلك، فإن نعلي النبي محمد يتجهان إلى أعلى أي ناحية قبة الصخرة، وخلف القبة يقع المسجد الأقصى. وهكذا فإن الأجزاء الثلاثة كلها متجهة نحو القبلة، التي هي وجهة مقدسة إلى الكعبة في مكة وظاهرة في أعلى الدرج. ومراعاة القبلة في الأجزاء البصرية

(٣٧) المشاهد المرجّبة الخمسة عشر، التي استعرضها أسين، مي ١ - الكعبة؛ ٢ - الصفا والمروة؛ ٣ - مصليات مكة، بيت النبي؛ ٤ - جامع المواعدة ومسجد الراية؛ ٥ - جبال مرتبطة بأحداث في حياة النبي محمد؛ ٦ - منى مع مسجد الحيف وبيت شريف مكة؛ ٧ - مسجد المشعر الحرام في مزدلفة؛ ٨ - سهل عرفات مع خيام الحجاج؛ ٩ - نصب تذكارية على طريق جلدق، مقبرة الشبيكة، وقبر محمود، ابن الولي إبراهيم أدهم؛ ١٠ - المدينة، مسجد النبي محمد؛ ١١ - مقبرة البقيع في المدينة؛ ١٢ - محيط المدينة؛ ١٣ - ١٤ الحرم الشريف في القدس؛ ١٥ - نعلا النبي محمد. للاطلاع على إحصاء ووصف موسعين، انظر: Esin, «Un Manuscrit illustré représentant les sanctuaries de la Mecque et Medine : et le Dome du Mir'radj, a l'époque des sultans turcs Selim et Suleyman 1^{er} (H. 982-74\1516-66)».

الثلاثة الأخيرة من الدرج تنشئ ترتيباً خطياً معكوساً يدل، مرة أخرى، على الروابط بين القدس ومكة.

الجانب الآخر المحيّر من جوانب درج شهزاد محمد هو مقاومته الظاهرة لطرائق التصوير الأخرى التي كانت قيد الاستكشاف في الوقت عينه، وخصوصاً المخطوطات التي تؤلف تاريخ العثمانيين لنصوح المطرقجي (نصوح السلاحي). ففي كل مخطوطة - ومنها أفضل مؤلفات المطرقجي، مجموع المنازل لسنة ١٥٣٧ - ١٥٣٨ - يقترح حيزاً ينطوي على اصطلاحات مأخوذ فيها من مصادر طبوغرافية وأخرى تتعلق بعلم رسم الخرائط، ومن تلك الاصطلاحات المنظر من علو والعبارات البيانية والتخطيطية المستخدمة لإظهار آثار تذكارية ومدن في تقاليد دروج الحج الأقدم تاريخياً^(٣٨). وقد رُشّت المخطوطات التاريخية بوابل من التصاوير لمناظر مدن في ظل حكم العثمانيين، وكانت مصادفة لحركة أوسع عبر تشكيلة من الفنون الأدبية لتشتمل على أوصاف لأماكن في الكتب.

تضمنت هذه الكتب كتبَ صلوات تحوي مختارات من آيات القرآن وقوائم بأسماء الله الحسنى وأحاديث للنبي محمد والخلفاء الأربعة الأوائل، فضلاً عن كتب إرشادية تتعلق بالحج وتضم أوصافاً للأماكن المقدسة، من مثل كتاب محيي لاري فتوح الحرمين ما قبل ١٥٢٦ - ١٥٢٧^(٣٩). الذي اشتمل على أوصاف شعرية لمكة والمدينة. تظهر صور مواقع مكة والمدينة المقدسة على نحو بارز في الصفحات المواجهة لعناوين نص محيي لاري، وفي صفحات أخرى أيضاً، وهي تصاوير حققت مكانة أيقونية بمقتضى تقليد بصري قديم العهد. تستغل الصور التقاليد الموضحة بالتفصيل في شهادات الحج التي يرقى تاريخها إلى قرون باكرة، وهي، على غرار الشهادة العثمانية، لا تستخدم طريقة إظهار مناظر مرتبطة بأساليب الطبوغرافيا وعلم رسم الخرائط.

قد يكون صحيحاً أن هذه الأساليب البيانية الجديدة والبديلة التي كانت قيد الاستكشاف في القرن السادس عشر أبطلتها الأهمية الخالصة لتقليد فني في التصميم المحدد لدرج الحج، إلا أن الأحياز المقدسة الظاهرة في الدرج العثماني تظهر قوة التاريخ، وأن هذه المواقع وأشكالها الهندسية قد تغيرت بمرور الزمن. على مستوى

(٣٨) سجلت المخطوطة الزاخرة بالصور الإيضاحية أماكن توقف حملة السلطان سليمان الكبير على «العراقين» في فترة ١٥٣٣ - ١٥٣٥. المخطوطة في إسطنبول، مكتبة جامعة إسطنبول (T. 5964, 109ff, 315 x 235mm).

(٣٩) أمدي كتابه لسلطان غوجارات. والنص وصف عام للمقام وشعائر الحج، فضلاً عن العادات والأصاحي.

معين، استطاع الدرج إذا التكيف مع واقع خارجي. وفي وسع المرء أيضاً أن يحتاج بأن الوضع القانوني للدروج الحج - وثائق تثبت إتمام شخص ما أو وكيله واجباً دينياً بنجاح - قد شجع أيضاً تطور لغة بصرية رتيبة. ومع هذا، لا يفسر ذلك الانتقال السهل للنماذج الأولية البصرية من الدرج إلى الكتب.

إن اللغة البصرية لهذه الأحياز المقدسة المصوّرة - عُرفت أولاً في دروج واستمرت لاحقاً في دروج ثم انتقلت إلى كتب، تؤثر - في التحليل النهائي - الاستمرار إزاء التغيير من طريق الاحتفاظ بتصوير تخطيطي يخص التجريد بامتياز بوصفه أسلوبها الأولي. ونحن مدعوون إلى تذكّر أو تخيل هذه الأماكن وتذكر وتخيل خطوط سير رحلاتنا أو رحلات غيرنا من خلالها، عن طريق سلسلة وحدات أيقونية كاملة تتلافى الوصف^(٤٠).

ومع أن الخصوصية ليست موضع محاذرة كاملة - إذ، في نهاية الأمر، كل مكان مميز على نحو كافٍ عن المكان الذي يليه - فإن التشديد منصب على أوجه التشابه التشكّلية (المورفولوجية) وتلك الخاصة بدراسة الرموز. هناك القليل مما يصرف انتباهنا، إذ ثمة مركز للاهتمام ترعاه الجوانب السمعية والحركية للشهادة. وهي جوانب مطمورة ومحوّلة إلى رموز في نصوصها الكلامية؛ نصوص منجّزة خلال حركة رؤية المواقع المقدسة المصوّرة على الدرج. في هذا الشأن، إن المواجهة وتجارب الحيز المتخيّلة في الدرج، والقابلة لإعادة البناء من خلال تفاعلنا معها، تقع في مكان ما بين أفكار غرابار وإيلاد. وتجربة الحيز المحظورة في الشهادات هي تجربة يرى الحاج فيها بالفعل الأشكال المادية أمامه ويعي المسافات التي يقطعها، لكن مدن الحج هي مجموعة إشارات تحفزه على فعل أو قول شيء؛ إشارات تتردد معها أصدااء أحداث ومعاني تاريخية.

(٤٠) في تقييم موجز لصور المدن المقدسة، لاحظ غرابار غياب الوصف ورأى أنها كانت معلّة 5 «بواعث للقداسة». انظر: Grabar, «Upon Reading Al-Azraqi», p. 1.

ويمضي إلى إظهار التباين بين الحاجة البصرية للصور والخصائص الوصفية للعديد من زوار مكة وأماكن مقدسة أخرى. هذه المقارنة - بين طبيعة التجربة المكنونة في روايات الحج ومصادر أخرى مكتوبة من جهة - وصور الأماكن المقدسة الظاهرة في شهادات تتعلق بالحج أو كتب من أنواع مختلفة - من جهة أخرى - تستحق تحليلاً إضافياً.

الفصل الثاني والثلاثون

إدارة المدينة

أندريه ريمون

يتناول هذا الفصل المدينة التي يمكن وصفها بـ «التقليدية»، أي قبل فترة التحديث التي بدأت في القرن التاسع عشر؛ مدينة نعرف جيداً سماتها المميّزة، إذ إنها لا تزال ظاهرة في ما تبقى من المدن القديمة المحفوظة، قليلاً أو كثيراً، أو «المدينة» كما نقول، مدينة نملك عنها معلومات وافرة بفضل غنى وتنوع المصادر (وبخاصة الوثائق التاريخية) وبفضل الأوصاف التي أعطيت لها مع مطلع الحقبة المعاصرة، واستناداً إلى علم الخرائط الذي بات اليوم علماً.

سوف يقتصر هذا الفصل على المدن العربية المتوسطة، الأكثر شهرة، التي تملك خصائص متجانسة إلى حد يكفي لاستخلاص تعميمات في خصوصها - والتي لن تكون هي نفسها في المجال «الإسلامي» حيث امتداده وتنوعه يجعلان من الصعب التوصل إلى أي وصف شامل. يتعلّق الأمر أساساً، إذأ، بمدن عربية رئيسية في الإمبراطورية العثمانية، بما في ذلك المدن المغربية واليمنية الموثقة بشكل واسع ودقيق.

نحتاج، قبل أي شيء، إلى استذكار التوثيق «الكلاسيكي» المتوافر حول إدارة المدينة العربية. وبهذا الخصوص، فقد وضع جان سوفاجي بصفة رئيسية أسس المذهب الاستشراقي في هذا الموضوع من خلال دراساته عن دمشق وحلب، وليجد هذا

المذهب صياغته النهائية على يد غوستاف فون غرونباوم. يكتب سوفاجي: «إن وضع المدن لا يمثل موضوعاً لأي مقارنة محددة من جانب الشريعة الإسلامية. وليس فيها بالتالي، [على عكس المدينة القديمة]، مؤسسات بلدية. لم يعد ينظر إلى المدينة ككيان، أو كشيء يملك وجوده الخاص، المركّب، والحي؛ هي الآن مجرد تلاقٍ لأفراد ذوي مصالح متصارعة». تفككت المدينة لتصبح «تجمعاً غير متماسك وغير عضوي للأحياء السكنية». وحين لا تنجو المدينة، إذا نجت، من القرارات الاعتبارية للحاكم، فهي تغدو كما الحال الآن «نفياً للنظام المدني»^(١).

ويكتب فون غرونباوم في مفردات معادلة: «إن التناقضات الظاهرة التي نراها في إدارة أي مدينة مسلمة رئيسية، حيث لا قانون يحكمها ينظّم أهلية الحكومة والمواطنة، وتفشل بالتالي في وضع قيود واضحة على السلطة التنفيذية، هي ما يقود، في حالات فشل الحكومة في التدخل على نحو طبيعي، إلى عودة الهيئات التقليدية للعمل. ويظهر من ثم الانطباع بالحماقة والذاتية المفرطة والاعتباطية في كل المستويات الناتجة من مشهد التقلبات المتكررة [المتناقضة] من التطرف في سياسة عدم التدخل إلى التطرف المقابل في نظام من سيطرة الدولة المطلقة»^(٢).

إنه في الواقع مشهد من الفوضى المدنية التامة تقدّمه مدينة مجردة من تشريع وإدارة محددين، ومتروكة لإهمال حكامها وتعسفهم. هذا هو الانطباع القاسي الذي يخرج به كتاب المؤلفات الكلاسيكية في خلاصاتهم العامة، أمثال جان سوفاجي حول حلب، أو مارسيل كليرجيه حول القاهرة. لكن الأوصاف التي يقدمونها حول هذه المدن تبين جيداً بأنها لم تفرق إطلاقاً في الفوضى المدنية التي روجوا لها.

هناك تناقض واضح بين النظرية والمشاهدات العملية لتلك المدن التي عاشت، وازدهرت غالباً على الأرجح؛ تناقض يمكن حلّه فقط من خلال دراسة الآليات التي أمكن بواسطتها لتلك المدن العمل. ويحمل بعض تلك الآليات طابعاً متفرداً ويقدم حلولاً أصيلة لمشكلات ربما جرت مقاربتها في بيئة ثقافية أخرى بطريقة مختلفة.

Jean Sauvaget: «Esquisse d'une histoire de la ville de Damas», *Revue des Etudes Islamiques*, (١) vol. 8, no. 4 (1934), pp. 455-456, et *Alep*, 2 vols. (Paris: [n. pb.], 1941), pp. 247-248.

Gustave Von Grunebaum, *Islam* (London: University of Chicago Press, 1961), pp. 149-150. (٢)

أولاً: السلطات المدنية

تتدخل السلطات في إدارة المدينة، ولكن على مستويات متباعدة جداً، وبمسؤوليات متنوعة جداً، وغالباً في غياب أي نظام أساسي خاص بها.

في حالة المدن التابعة للإمبراطورية العثمانية، كانت آثار تدخل الحكومة المركزية تظهر في العواصم الإقليمية - على الأقل في خلال الفترة التي كانت لا تزال سلطة السلطان محسوسة في المقاطعات - وعلى نحو أقوى بالطبع في المقاطعات الأقرب إلى المركز. من هذه الجهة، هناك فارق كبير بين العواصم الإقليمية البعيدة، مثل الجزائر وتونس، إذ إنه من المستحيل رؤية تدخل مباشر من السلطة المركزية، وبين مقاطعة كحلب حيث ظل اهتمام الباب العالي بمشاكل المدينة جلياً في «الأوامر السلطانية» حتى مطلع النصف الثاني للقرن الثامن عشر. هناك على سبيل المثال قرارات تتعلق بمسألة تزويد المدينة بالمياه (صيانة أقيّة المياه في المدينة أو إيصالها إلى حيّ في عام ١٧٤٢) وتنظيم المسالخ (١٧٢٥، ١٧٣٣، ١٧٦٢) وتنظيم شبكة الطرقات (توسيع طريق عام ١٧٣٩) وإجراءات تخص الأخلاق العامة (من مثل مشاكل اختلاط الجنسين في الأسواق والحدائق عامي ١٧٣٩ و١٧٤٢)^(٣).

مقابل هذا التنوع في المصالح، فإن حالة القاهرة، وهي مقاطعة خرجت بسرعة عن التأثير المباشر للسلطنة، لا تبين سوى تدخلات أقل تتعلق في الفترة الأقدم. أما الحالة الأجدر ملاحظتها فهي تتعلق بنقل مدابغ المدينة من موقع بات مركزياً جداً (في جنوب غرب باب زويلة) إلى موقع خارجي (في ضواحي باب اللوق): في رسالة سلطانية طلب من باشا القاهرة منذ عام ١٥٥٢ دراسة نقل المنشآت «التي قد تسبب بالأذى لأولادنا» إلى مكان ملائم أكثر خارج أسوار المدينة^(٤). وقد نُفذت عملية النقل هذه نحو عام ١٦٠٠.

في ضوء مسألة البعد تلك، كانت السلطات السياسية المحلية تؤدي عادة دوراً أكثر فاعلية، مع ملاحظة أن اهتمامها بالمشاكل المدنية كان يتقلص كلما ضعف ثقلها السياسي؛ تلك هي حالة الباشوات الذين أرسلهم الباب العالي إلى مقاطعات الإمبراطورية حيث كان لا يزال يحتفظ الباب العالي ببعض السيطرة على الشؤون المحلية. لكن لم يكن في استطاعة الحكام التغاضي عن المشاكل التي من شأنها إحداث

André Raymond, *Grandes Villes arabes* (Paris: Sindbad, 1985), pp. 128-129.

(٣)

André Raymond, *La Ville arabe: Alep* (Damascus: IFD, 1998), pp. 38-40.

(٤) انظر:

فوضى في المقاطعة التي كلفوا بها. في القاهرة، أبدى الباشوات على مدى قرنين اهتماماً حقيقياً بالأعمال المدنية: دعا محمد باشا (١٦٠٧ - ١٦١١) إلى إزالة سماكة ذراع من الأتربة المتراكمة فوق طرقات القاهرة، الناجمة عن الغبار والأوساخ؛ كما أمر محمد باشا (١٦٥٢ - ١٦٥٦) مسؤولي مساجد القاهرة بإصلاحها وطرشها، وهو ما جعله يستحق لقب «أبو النور». اتخذ محمد باشا (١٦٩٩ - ١٧٠٤) إجراءات لتوسيع الأسواق وإزالة الأتربة المتراكمة.

أما في دمشق، وفي عام ١٧٥٧، فقد أمر موسى الخيخية ممثل رجب باشا، الشعب بترميم المنازل القديمة في الأحياء. وفي مقاطعات شمال أفريقيا، أي في الجزائر وتونس، أدت السلطات السياسية المحلية، الدايات والبايات أصحاب السلطة الفعلية، دوراً مماثلاً إلى جانب الباشوات الذين اقتصر دورهم على دور فخري. قام علي النقيس داي الجزائر (١٧٥٤ - ١٧٦٦)، الذي أساء المؤرخون أخذه في الحسبان، بترميم أو بناء ثلاثة عشر سبيلاً بين عامي ١٧٥٩ و ١٧٦٥ من أجل إصلاح الأضرار التي تسبب بها زلزال عام ١٧٥٥. نقش على أحدها العبارة التالية: «سعى علي باشا إلى كسب الأخيرة من خلال استخدام ثرواته في عمل الخير». أما في تونس فقد قام الداي ومن ثم الباي بأعمال الصيانة لمصلحة سكان العاصمة التي تولوا مسؤوليتها: أمر الباي علي الحسيني (١٧٥٩ - ١٧٨٢) بغية معالجة المشاكل الناتجة من اكتظاظ بعض أحياء المدينة بالسكان بنقل سوق الدباغين الذي كان يقع داخل الأسوار في شمال شرق المدينة إلى خارج أسوار المدينة من جهة باب البحر^(٥).

في معظم مقاطعات السلطنة كان لقادة الإنكشارية، الميليشيا التي تأسست لحفظ أمن المقاطعة، أن يؤدوا دوراً مهماً في حفظ الأمن، وكذلك في معالجة بعض المشاكل التي تتعلق بالأعمال المدنية. ففي القاهرة أصدر علي آغا في عامي ١٧٠٣ و ١٧١١ أوامراً لتنظيف الطرقات من الأتربة المتراكمة وتسهيل حركة المرور في الأسواق عبر تدمير المصاطب المبنية أمام المحال.

لم يجر الالتفات كثيراً إلى الدور الذي كان يؤديه القضاة في الشؤون المدنية، والذين كان يطلب منهم حل مجموعة كبيرة ومتنوعة من الخلافات في الميادين كافة التي تمس حياة الأفراد، وبالتالي حل المشاكل المتعلقة بما يمكننا تسميته إدارة المدينة.

Raymond, *Grand Villes arabes*, p. 125; Henri de Grammont, *Histoire d'Alger* (Algers: [n. pb.], (٥) 1887), pp. 309-314; Gabriel Colin, *Corpus des inscriptions arabes et turques de l'Algérie* (Paris: E. Leroux, 1901), pp. 117-128, no. 77-88.

ويقود نشاط قضاة الشرع المتعدد الأشكال، حتماً، إلى تشكيل نوع من العقيدة، أو المبادئ على الأقل، وضعها بشكل واضح برنشفيج: تتعلق دراسته بقضاة المذهب المالكي في المغرب في حقبة القرون الوسطى، ولكنها تصح أيضاً مع كل مذهب فقهي، وفي كل حقبة. تشمل هذه القواعد الحكم في مسائل الطرقات (الشوارع والأزقة المسدودة) ومتانة الجدران... إلخ. كانت صلاحية قضاة الشرع في الحقبة العثمانية تميل بوضوح إلى التوسع، إلى حد تغطية مجال كبير جداً من الشؤون المدنية كما هو مبين في إحصاء، وإن كان نسبياً، من مثل ذلك الذي أنجزه جلال النحال في أرشيف محكمة القاهرة: التدخل للسماح بحرية المرور في الطرقات (بحيث يستطيع «أي جندي يحمل عتاده أو أي جمل محمل المرور من دون صعوبة»)، ولضمان خصوصية ونوعية الحياة في الحي (من دون الضجيج المزعج)، ولمراقبة متانة المباني... إلخ. وحول زمن أكثر حداثة، بين صالح الحثلول بوضوح كيف تنشأ عقيدة واضحة ومترابطة حول المشاكل المدنية الرئيسية عبر تفصيل القرارات المتخذة حالة حالة في المدينة: الاتساع الأمثل للطرق، وحماية الطرق العامة من التعديات، وحماية الحياة الخاصة، والنفاذ إلى النور والهواء^(٦).

وبالتالي يمكننا أن نستنتج أن عمل قضاة الشرع كان رادعاً بوجه خاص، أي أنه كان يهدف إلى تدارك الأخطاء والتجاوزات المحتملة، ولكنه سمح ضمن هذه الحدود بحل العديد من المشاكل التي فرضتها الحياة المدنية وفي الواقع بتحديد نوع من المعايير التنظيمية في حال عدم وجود تنظيم محدد.

كما يجب الأخذ في الحسبان وجود مأمورين مدنيين بالتحديد في المدن «التقليدية» مسؤولين عن حل الخلافات الجدية على الرغم من تأكيد سوفاجي شبه المطلق ما يلي: «كجزء متكامل وغير منقسم من الجماعة المسلمة الكبيرة، لم يعد من أحد في المدينة مؤهلاً قانونياً لإدارة أقدارها بمعرفة كاملة للوقائع وبطريقة حصرية»^(٧). كان هناك في العادة مأموران للمدن متخصصان وهما المحتسب والوالي. وقد فقد المحتسب (شيخ تجار الأسواق) من دون أدنى شك جزءاً من الصلاحيات

Robert Brunschvig, «Urbanisme Medieval et droit musulman», *Revue des Etudes Islamiques*, (٦) vol. 15, no. 6 (1947); Galal H. El Nahal, *The Judicial Administration of Ottoman Egypt in the Seventeenth Century* (Minneapolis and Chicago, IL: Bibliotheka Islamica, 1979), pp. 52-53; Saleh Al-Hathloul, *Tradition, «Continuity and Change in the Physical Environment»* (Phd. Thesis, Cambridge University Press, 1981), pp. 83 and 128.

Sauvaget, «Esquisse d'une histoire de la ville de Damas», pp. 440-445.

(٧)

الواسعة المتعلقة بالرقابة الأخلاقية التي كان يتمتع بها المأمور في القرون الوسطى، وذلك ربما بسبب الدور المتزايد الذي يؤديه القاضي. تركز نشاط المحتسب في أغلبية المدن على مراقبة محتسبي المهن التي تتعلق بالتغذية، والأسواق الملائمة في وسط المدينة، وهو نشاط يمارسه مع عظمة مثيرة للإعجاب لموكب يضم رجال عدل وجلادين؛ فقد كانت تنفذ عقوبات مباشرة ومبتكرة تفرضها (على لحام فاسد كأن يؤخذ قطعة من ردفه، وحلواني غشاش كأن يُجبر على الجلوس على طبقه الساخن) قريحة المخبرين والمسافرين؛ ولكن كان لها أيضاً بالتأكيد تأثير رادع في أصحاب الدكاكين. أما الوالي (الحاكم) المسمى الصوباشي أو الزعيم أيضاً، فقد تمتع بصلاحيات الشرطة الليلية بحيث أصبح يؤدي دوراً فعالاً في مكافحة الحرائق. اتخذ الوالي في القاهرة مركزاً في وسط المدينة يستطيع من خلاله الإشراف على اندلاع نيران محتملة وإرسال فرق رجال من ذوي المهن المناسبة (السقاؤون والقصارون) لإطفائها^(٨).

كان هناك لا شك مسؤولون آخرون. وفي جميع الأحوال، من دون إمكانية معرفة سبب هذا الاختلاف الإقليمي (الذي قد يعزى إلى اختلاف في معلوماتنا) يمكننا أن نستنتج أن المدن الكبيرة في المغرب كانت تمتلك بوجه عام سلطات مدنية متنوعة أكثر. كان يوجد في طرابلس (منذ القرن الثامن عشر على الأقل) «شيخ البلاد» تساعده «جماعة البلاد»، وهي جمعية تتألف من وجهاء المدينة. وفي تونس المدينة وضاحيتها في الشمال (باب السويقة) وفي الجنوب (باب الجزيرة) كان لها مشايخ تعيّنهم السلطة وكانوا يتمتعون بصلاحيات الشرطة المدنية، وبوجه خاص الليلية منها. كان للجزائر شيخ البلد (أو شيخ المدينة) يعاونه نواب وأمناء، وهو كان مسؤولاً عن الشرطة وله صلاحيات مدنية متعددة (صيانة شبكة الطرقات، التنظيف). ومن زاوية ذات دلالة مهمة، كان مركزه يقع في وسط المدينة بالقرب من قصر الداوي. أما في مدينة فاس، فقد كان السلطان يعيّن حاكماً (عميل) وكان يمارس في المدينة صلاحيات إدارية وقضائية بمساعدة المحتسب والقاضي^(٩).

André Raymond, *Artisans et Commerçants au Cairo au XVIII^{ème} siècle* (Damascus: Institut Français de Damas, 1974), pp. 608-609.

Nora Lafi, *Une Ville du Magreb entre ancien régime et réformes ottomans: Genèse des institutions municipales à Tripoli de Barbarie (1795-1911)* (Paris: Maisonneuve et Larose, 2002), p. 105 sqq, et Tal Shuval, *La Ville d'Alger vers la fin du XVIII^{ème} siècle: Population et cadre* (Paris: CNRS, 1998), p. 172, et Roger Le Tourneau, *Fes avant le protectorat: Etude économique et sociale d'une ville de l'occident musulman* (Casablanca: [n. pb.], 1949), pp. 211-212.

إجمالاً، لم يكن هناك نقص في السلطات التي يمكنها الاهتمام بالأعمال المدنية، سواء أكان ذلك على المستوى السياسي الأعلى أو على مستوى أكثر محلية. لكن تدخلات السلطة السياسية في الأعمال المدنية لم يكن يمرّ من دون ثغر، إذ لم يحدد دائماً حقل مدني معين لهؤلاء المأمورين المتعددين، وهو ما قد يتسبب بتداخل في الصلاحيات ونزاعات، وخصوصاً أن العناصر المتنوعة التي سكنت المدينة (أقليات من كل نوع) كانت قادرة على عزل مأمورين متعددين بسبب الميزات التي ربما تمتعوا بها. إن وضعاً مشابهاً كهذا قد يحدث تفككاً معيّناً في إدارة الأعمال المدنية، ويعني أن على السلطات الاستجابة بسرعة لأوضاع صعبة تستلزم تصحيحاً فورياً بدلاً من قيام تصور لسياسة مدنية متكاملة.

ثانياً: المؤسسات المدنية الجمعية

كانت «التكتلات» (الطوائف) المتعددة التي وجدت في المدن (اتحادات المهن بحسب الاختصاصات، وتجمعات الأحياء على الصعيد الجغرافي، وجماعات إثنية ودينية) تسمح بإخفاء هذه الثغر في إدارة المدينة بصورة جزئية. وفي الوقت الذي لا يمكن عدّ هذه التكتلات بالطبع مؤسسات «بلدية»، فهي أدت دوراً فعالاً في الحياة المدنية؛ فقد أدت رؤية العثمانيين «اللامركزية» نسبياً - والإفادة من وجود هذه الطوائف «الطبيعية» لاستعمالها في إدارة أراضيهم الشاسعة وهو ما يعفيهم من إدارتها مباشرة - إلى تعزيز استقلالية تلك الطوائف ودورها. يتعلق الأمر بأحد أوجه هيكلية المدن العربية الأكثر فرادة في نوعها، الذي أهمله الكتاب الكلاسيكيون بوجه عام، وهو ما حال دون فهمهم طريقة عملها وإدراكها. ومع ذلك، تبقى الدراسة صعبة بسبب نقص المراجع المحددة المتعلقة بهذه الجماعات المختلفة التي لم تترك أي أرشيف، الأمر الذي يفسر بلا شك ندرة البحوث التي تتناول هذه المشاكل.

جلبت اتحادات المهن السكان «الفعليين» معاً: أي مجموع السكان «الأصليين»، باستثناء العلماء^(١٠). اعتمد عدد هذه الاتحادات بصورة طبيعية على أهمية هذه المدن ونشاطها الاقتصادي: كان عدد الاتحادات في الجزائر ٥٧ فقط، في حين قارب عددها في القاهرة ٢٥٠. كانت هذه الاتحادات تخضع لإدارة المشايخ («الأمين» في تونس والجزائر) الذين عادة ما يختارهم أعضاء الاتحاد ولكنهم موظفون من جانب السلطات

(١٠) انظر في هذا العمل: Nelly Hanna, «Guilds in Recent Historical Scholarship» in: Salma Khadra Jayyusi [et al.], *The City in the Islamic World*, 2 vols. (Leiden: Brill, 2008).

التي تستطيع، في الحالات الصعبة، التدخل مباشرة أكثر في عملية التعيين. كان هدف الاتحادات الأساسي مراقبة النشاط المهني لأعضائها، ولكن مع الأخذ في الحسبان الموقع الدقيق للمهن والروابط القائم بين نشاط ما وقطاع جغرافي معين في المدينة، وكانت تؤدي من دون أي شك دوراً في إدارة الأسواق التي كان يقع قسم كبير منها في وسط المدينة. كان رؤساء الاتحادات يهتمون بالأمن في النطاق الجغرافي الذي كانت تشغله المهنة والذي يمكن إغلاقه بواسطة أبواب في الليل حين يكون التجوال ممنوعاً عادة. كانت اتحادات المهن إذاً مرتبطة بإدارة المدينة؛ كما كانت تمثل نوعاً من «خلية خارج الإدارة» تسمح بإدارة المدينة في قسمها العام (المركزي). وليس من المؤكد أن هذا الجسم النقابي كان خاضعاً، وبخاصة في المشرق، لأية تراتبية؛ وبحسب معرفتنا فإن دمشق هي المدينة الوحيدة التي نجد فيها «شيخ مشايخ» - الذي لم يعد يتمتع إلا بصلاحيات فخرية.

أما في المغرب فالأمور كانت مختلفة. ففي تونس كان يرأس المنظمة النقابية أمين التجار الذي كان أيضاً أمين صانعي أغطية الرأس الأندلسيين، ويبدو أن المهاجرين هؤلاء هم الذين أعادوا تأليف المنظمة النقابية التونسية بعيد وصولهم من إسبانيا نحو عام ١٦٠٩. وفي الجزائر، كان هناك «أمين الأمناء» (شيخ المشايخ)؛ وكان يدير الاتحادات وفقاً لنظام «قانون الجزائر على الأسواق» الذي يحدد قواعد المنافسة بين الحرفيين. أما في اليمن فقد كانت سوق صنعاء خاضعة لإدارة شيخ المشايخ ونظام (قانون صنعاء) يحدد هنا أيضاً قواعد عمل خاصة بخمسين مهنة معينة تقريباً^(١١). وكان يطلب من هذه الشخصيات بالتأكيد تأدية دور إلى جانب الحكام في إدارة القسم المركزي من المدينة، حيث كانت تعمل الاتحادات.

وكان هذا الدور في إدارة الرعايا أكثر وضوحاً، أيضاً، في حالة الجماعات الإثنية والدينية التي كانت تضم الأقليات العديدة الموجودة في المدن العربية الكبرى. أما الجماعة الأكبر فكانت في العادة الجماعة اليهودية التي نجدها في كل مدينة من المغرب إلى العراق؛ كما نجد جماعات مسيحية في كل مدينة كبرى في منطقة الشرق الأدنى. لكن كان في إمكاننا أن نجد أيضاً جماعات كردية (في دمشق) وعلوية (في أنطاكية) ومزابية في الجزائر... إلخ. في حالة «المحميين» (الذمين) المسيحيين واليهود، وفي

R. B. Sergeant and Ronald Lewcock, eds., *San'a': An Arabian Islamic City* (London: World of Islam Festival Publication, 1983); Raymond, *Grandes Villes arabes*, pp. 130-133; Houari Touati, «Les Corporations de métiers à Alger à l'époque ottomane», *Revue d'Histoire Maghrébian*, nos. 47-48 (1987), pp. 267-292, et Nacereddin Saidouni, *Règlement des souks d'Alger* (Beyrouth: [n. pb.], 2006).

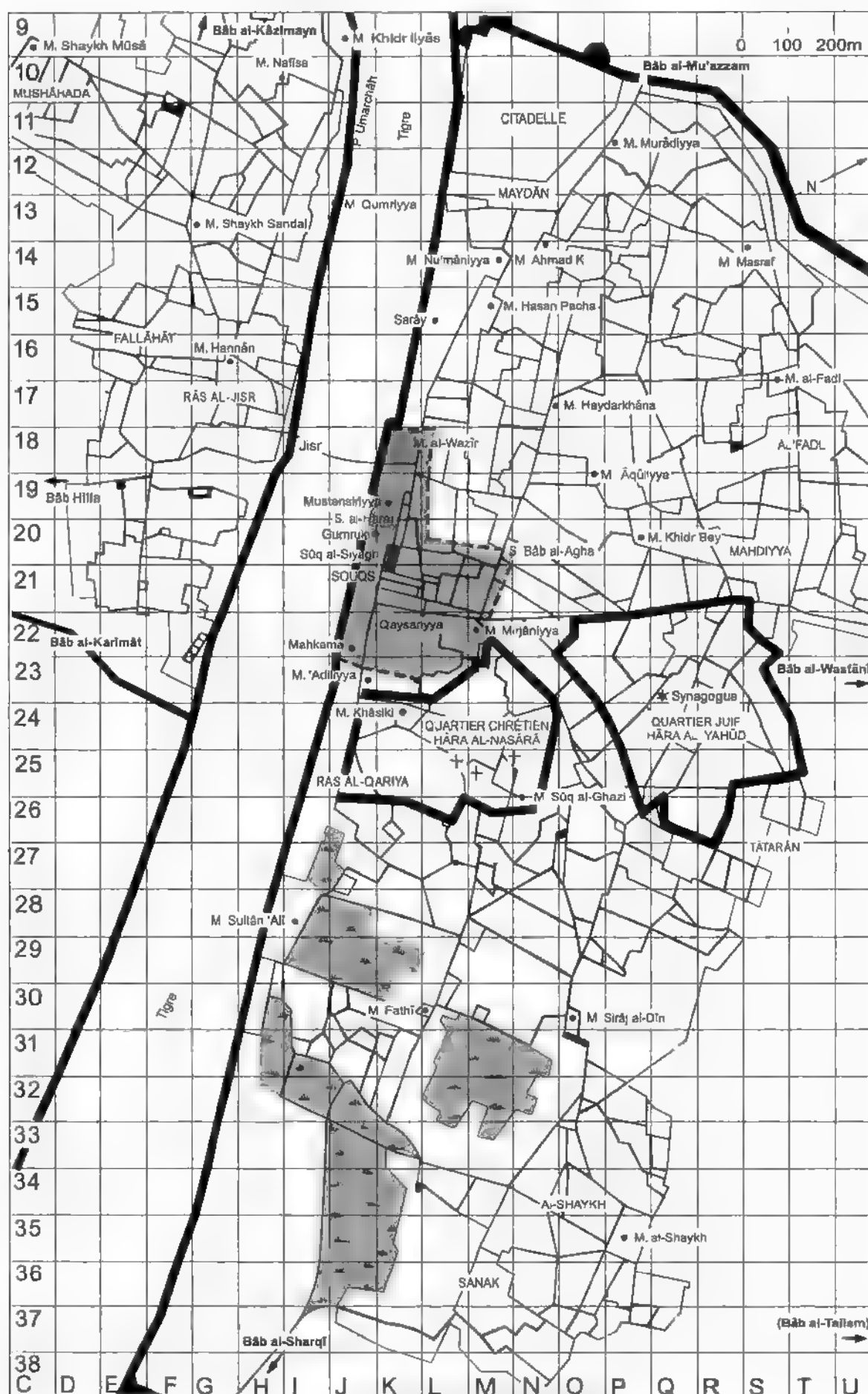
الجماعات المسلمة، كان يجري التميز بسبب اختلاف اللغة والشعائر، حيث تميل هذه الجماعات إلى التجمع في جزء من المدينة (أو أجزاء، كحالة الأقباط في القاهرة). ووفق النزوع العثماني العام للإدارة المحلية فقد أعطيت هذه الجماعات درجة واسعة من الاستقلالية؛ وهي كانت جلية بوجه خاص حيث كانت الجماعات متجمعة بقوة. في هذه الحالة، كان الرؤساء الدينيون، وباسم السلطة التي أعطيت لهم، يراقبون تحت وصاية السلطات العثمانية قطاعاً محدداً من المدينة كانت تجري إدارته عن طريق توسطهم.

لقد وضعت قطاعات بأكملها في المدينة تحت سلطة دينية وإدارية ومالية شبه مستقلة. يمكن أن تكون هذه القطاعات خارجية، مثل الحي اليهودي في صنعاء، والحي اليهودي في الموصل، والحي العلوي في أنطاكية، والحي المسيحي في حلب، والأحياء الكردية واليهودية والمسيحية في دمشق، والأحياء القبطية في القاهرة. لكن غالباً ما كانت هذه القطاعات قريبة جداً من منطقة وسط المدينة مثل الأحياء اليهودية والمسيحية في بغداد (انظر الرسم الرقم (٣٢ - ١))، وحي اليهود في حلب، وحي اليهود في القاهرة، والأحياء اليهودية في تونس والجزائر.

أما الاستقلالية الإدارية الكبيرة التي أعطيت لهذه الجماعات فقد سهّلت مهمة السلطات العثمانية التي أزيل عنها الحمل الذي مثلته إدارة الجماعات التي اختلفت في الديانات والثقافة وأحياناً اللغة عن تلك الخاصة بالسكان العرب والمسلمين المهيمنين. كما أنها ساعدت من دون شك على الازدهار الملحوظ الذي عرفته الجماعات المسيحية بوجه خاص خلال ثلاثة قرون من السيطرة العثمانية (انظر الرسم الرقم (٣٢ - ٢)).

في داخل المناطق السكنية الواقعة حول المركز «العام»، في الجزء «الخاص» من المدينة، كانت المدينة مقسمة إلى أحياء سكنية منفصلة جغرافياً نسبياً ومستقلة جزئياً من وجهة نظر إدارتها^(١٢). يتعلق الأمر هنا بظاهرة لا شك أنها قديمة، وهي تعكس أحياناً الهواجس الأصلية للجماعات المتنوعة التي شاركت في تأسيس المدينة؛ على هذا النحو أقامت الوحدات المغربية التي كانت ترافق الجيش الفاطمي في عام ٩٦٩ في أحياء محددة حُفظت أسماؤها في طبوغرافيا المدينة. ومن ثم عززت أسباب أمنية هذا التقسيم الذي تزايد بلا شك في العصر الحديث مع الأخذ في الحسبان مفهوم «اللامركزية» للإدارة العثمانية.

الرسم الرقم (٣٢ - ١)
الحيّان المسيحي واليهودي في بغداد



الرسم الرقم (٣٢ - ٢)
الحي اليوناني في القاهرة



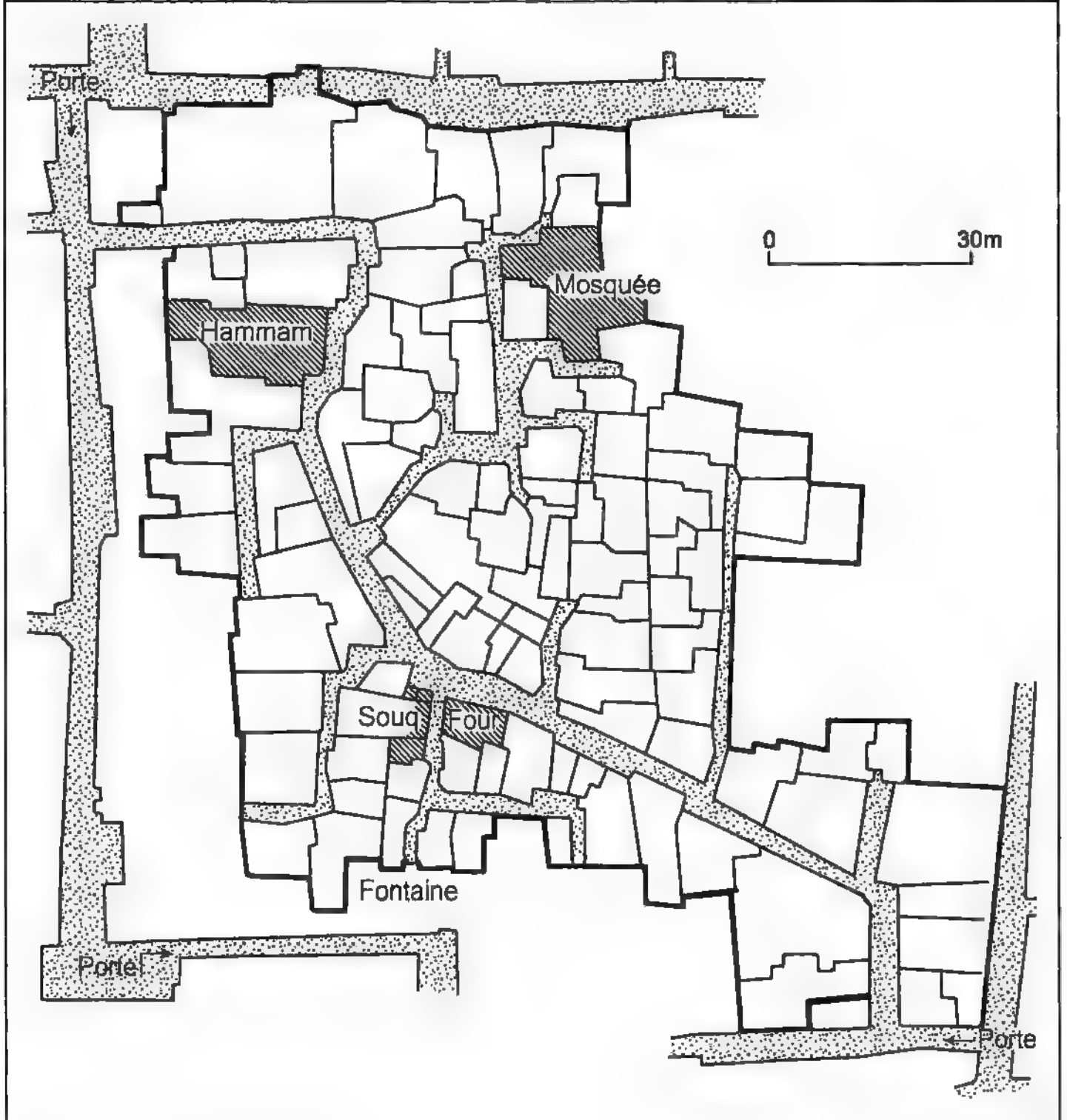
Description de l'Egypte.

المصدر:

كانت هذه الأحياء السكنية تحمل أسماء مختلفة: الحومة في الجزائر وتونس، الحارة في القاهرة ودمشق وصنعاء، و«المحلة» في حلب والموصل وبغداد. لكن هيكليتها كانت متطابقة من أول الوطن العربي إلى آخره (انظر الرسم الرقم (٣٢ - ٣)): مدخل يمكن إغلاقه بواسطة باب (انظر الرسم الرقم (٣٢ - ٤)) ينفذ إلى طريق رئيسي (درب) يتفرع إلى طرق ثانوية ومن ثم إلى طرق مسدودة؛ لم تكن حدود الحي مرسومة بواسطة جدار ولكنها كانت تقع بين المنازل الأخيرة للحي ومنازل الحي المجاور التي تستند إليها.

كانت مساحة الأحياء مختلفة جداً؛ ففي القاهرة راوحت بين ٢٥,٠ هكتار وما يزيد على ٧ هكتارات بمعدل وسطي هو هكتاران، وهو ما يؤلف كثافة سكانية تراوح تقريباً بين ٦٠٠ و ٨٠٠ شخص، وهي محصورة بحيث يستطيع السكان التمتع بعلاقات شخصية ويتمكنون من القيام بمراقبة فردية. كان عدد الأحياء يتوقف عادة على أهمية المدينة، إذ نجد أربعين حياً في تونس، وستين حياً في بغداد، ومئة حي في القاهرة.

الرسم الرقم (٣٢ - ٣)
حي سكني في القاهرة



الرسم الرقم (٣٢ - ٤)
باب أحد الأحياء في دمشق



كوّنت الأحياء، مثلها مثل اتحادات المهن، دائرة أساسية في تقسيم المدينة. فقد كانت تخضع لسلطة المشايخ («المحرّك» في تونس و«العاقل» في صنعاء) الذين يساعدهم معاونون وأحياناً تابعون (يمكن أن يكونوا كتاباً مثلاً). كما يجب أن نفترض أن مشايخ الأحياء كانوا مختارين عادة من بين عائلات النبلاء، والغالب من جانب السكان أنفسهم مع تدخل محتمل للسلطة، ولا سيّما في حال وجود مشكلة ما. تمتع المشايخ بصلاحيات أساسية للمساهمة في توفير الأمن والنظام في داخل الأحياء ولحل النزاعات التي قد تنشأ بينهم. وفي هذا الإطار قد يساعدهم وجود حارس (بواب) أو حتى بعض الحراس في مركز يقع عند مدخل الحي، أو حتى وجود ميليشيا مؤلفة من السكان (العصا في تونس) أو من الشباب (الفتوة في دمشق). وسهّل الحجم الصغير لهذه الوحدة بنجاح المهمة بالسماح للأهالي برقابة ذاتية صارمة يقومون بها بأنفسهم، بحيث يستطيعون ملاحظة وجود عناصر غريبة ومشبوهة واكتشاف التصرفات المنحرفة للسكان، ولا سيّما في ما يتعلق بالأخلاق: كان الفاسدون يُكتشفون بسهولة وبالتالي يمكن استبعادهم من الحي. خلال الليل كانت بوابة الحي مغلقة ولم يكن في الإمكان التجوّل في المدينة من دون الكشف عن الهوية. مثل مشايخ الأحياء وسطاء طبيعيين بين السلطة والشعب: وكان يفترض بهم جباية الرسوم المدنية أو أية ضرائب استثنائية من بين السكان المقيمين، ودعوتهم إلى العمل عندما تطلب السلطة من السكان القيام بأعمال سخرة ذات منفعة عامة.

أخيراً، من الواضح أن الحي كان الإطار لحل المشاكل المدنية الصغيرة التي كان يراجع في شأنها السكان السلطات القضائية، كما تبيّن ذلك المراجعات المرفوعة إلى سجلات محكمة القاهرة؛ ففي مسألة تتعلق بالأضرار التي قد تنتج من إنشاء ورشة مثلاً يتم إجراء تحقيق بأمر من القاضي؛ يصادق رجال الحارة على المشروع الذي عرض عليهم والذي بدا مفيداً للحي في نظرهم، وحيثيذ يأخذ القاضي قراراً وفقاً لهذا الرأي. وفي حال تضرر سكان الحي من تعرض مسجدهم للإهمال يعطيهم القاضي الحق بطلب الترميم ويتم اتخاذ إجراءات لكي تتدخل المؤسسة الخيرية (الوقف) المعنية بهدف ترميم المسجد^(١٣).

حين نأخذ في الحسبان مدى المناطق التي كانت موكلة إلى حد كبير إلى طوائف تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي (المناطق المركزية في ما يتعلق باتحادات المهن،

El Nahal, *The Judicial Administration of Ottoman Egypt in the Seventeenth Century*, (١٣) pp. 53-55.

والمناطق السكنية في ما يتعلق بتجمعات الأحياء، والمناطق التي تسكنها الجماعات الدينية والإثنية) نرى أن العثمانيين قد فوّضوا إدارة أقسام رئيسية من المدينة إلى جهات محلية. إن نظاماً كهذا هو عرضة لأن يقود إلى فوضى مدنية بدلاً من المراقبة الشديدة، لولا أنها تجري من السكان أنفسهم في ظل نظام مسؤولية مشتركة، والذي يعني المجتمع بأكمله في حال حصول مخالفة.

وبعيداً من الفردانية، التي يتحدث عنها سوفاجي، يتوجب علينا على العكس رؤية أن سكان المدن المحصورين في شبكات تتعاضد وتتكامل كانوا يخضعون لرقابة دقيقة ودائمة في خلال المراحل المختلفة من وجودهم: بواسطة اتحادات المهن في إطار أنشطتهم المهنية؛ بفضل تجمعات الأحياء خلال المرحلة الخاصة من وجودهم؛ أو حتى في داخل الجماعات الإثنية والدينية حين يتعلق الأمر بالأقليات. لقد عوّضت هذه الجماعات المختلفة نوعاً ما غياب المجتمع المدني، فقدمت الروابط الاجتماعية التي تسمح بالعيش ضمن جماعات مهمة. وعليه، لا يبدو ساكن المدينة فرداً معزولاً في وجه سلطة، غالباً ما تكون أجنبية، بل هو كائن اجتماعي، يدخل كلياً في شبكة تضامنيات، حيث يبدو مراقباً وإلى حد ما، ولكن محمياً أيضاً.

ثالثاً: المؤسسات الدينية (الوقف، الحبوس)

أدت مؤسسة الوقف الإسلامية دوراً حاسماً في إدارة المدن (أو الحبوس في المغرب)^(١٤). المبدأ العام للوقف معروف جيداً: «مُلْكِيَّات مرصودة أعلنها مالِكها حقاً للوقف غير قابل للتصرف، تُخصَّص عائداً لها لاستعمال معين يحدده المانح بحيث تكون مؤسسته مرضاة لله»^(١٥).

في الممارسة المدنية كان إنشاء الوقف لمصلحة مبنى عام أو عمل ديني يتحقق بسهولة من خلال «الإفادة» من المباني ذات الاستعمال الاقتصادي (أسواق، ومحال، وخانات القوافل، وحمامات عامة، ومقاهٍ) تخصص عائداً لها لتأمين استمرارية المؤسسة. وفي الوقت الذي كانت هناك مبانٍ موجودة أصلاً ومكتسبة من جانب المؤسس (الواقف)، فقد كان من الشائع أيضاً أن يقوم الواقف ببنائها بنفسه لكي تستخدم في

(١٤) حول هذه المسائل، راجع في هذا العمل: الفصل الثامن والثلاثون، راندي دينويلم، «الوقف في المدينة» من هذا الكتاب.

Dominique Sourdel et Janine Sourdel, *Dictionnaire Historique de l'Islam* (Paris: [n. pb.], (١٥) 1991), p. 849.

إطار مؤسسته. ولأسباب تتصل بملاءمة المؤسسة وحسن إدارتها، غالباً ما كان البناء المستفيد من الوقف والمباني المشيدة لمصلحته تقع في منطقة واحدة، وعليه قد يصبح إنشاء الوقف عملية مدنيّة، تعني في الحالات الأكثر أهمية حياً بأكمله، وتصل إلى حد إعادة تنظيم لقطاع كامل من المدينة. وقد حدث ذلك تكراراً في الحقبة العثمانية، حيث كان هناك، لعدة أسباب، نشاط هائل في إنشاء الأوقاف والحبوس. يتخطى عدد الوثائق المتعلقة بالأوقاف، المخصصة لمدينة القاهرة وحدها، عشرة آلاف وثيقة؛ أما في الجزائر وقبل عام ١٨٣٠، يقدر أنه تم بناء ٨٤٠ منزلاً و٢٥٨ محلاً على شكل حبوس من أجل الحرمين الشريفين. تظهر الأوقاف، من هذه الزاوية، التدفق المدني، مشيرة بالتالي إلى القطاعات التي تنضج فيها دينامية المدينة؛ كما مثلت في الواقع ممارسة أمنت توسع المدينة في فترات التطور المدني، كما حصل خلال العهد العثماني في معظم المدن العربية الكبرى.

لا حاجة إلى التوقف مطولاً عند هذه النقطة^(١٦)؛ سنكتفي بالتذكير ببعض الأمثلة حول عمليات من هذا النوع قامت وساهمت في تنظيم التوسع المدني في القاهرة وحلب وتونس في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ففي القاهرة جاءت ثلاث عمليات أوقاف نفذها إسكندر باشا (١٥٥٥ - ١٥٥٨) ورضوان بك (بين عامي ١٦٢٩ و١٦٤٧) وإبراهيم آغا الإنكشاري (بين عامي ١٦٣٢ و١٦٥٧)، وهي تقع في منطقة جنوب باب زويلة، مرافقة لعملية إعادة التنظيم المدني الذي شهدتها الجزء الجنوبي من القاهرة، وفي الوقت الذي كان يتم نقل مدايح المدينة، الذي كان بدوره عامل تطور مدني لهذا المنطقة.

أما في حلب فقد أدت الأوقاف الأربعة الكبرى (خسرو باشا عام ١٥٤٤، ومحمد باشا دوقه كين زاده عام ١٥٥٥، ومحمد باشا عام ١٥٧٤، وبهرام باشا عام ١٥٨٣) المنشأة في جنوب المنطقة الاقتصادية المركزية في المدينة، إلى عملية إعادة تنظيم كاملة لهذه المنطقة الحيوية في المدينة وضمنت حصول شبه مضاعفة لمساحتها خلال أربعين عاماً من ٦ إلى ١١ هكتاراً بالنسبة إلى المساحة التي كانت تملكها في العصر المملوكي. وفي تونس تحققت أعمال يوسف داي حول مسجده في سوق البشامقية (١٦١٥)، الذي يقع قليلاً غرب المسجد الكبير (مع بناء مدرسة، وأسواق مثل سوق التُّرك، وحمام عام، ومقهى) عن طريق الحبوس وأعطت إشارة التوسع التي استكملت

(١٦) André Raymond, «Les Grands waqfs et l'organisation de l'espace urbain à Alep et au Caire», dans: Raymond, *La Ville arabe: Alep*, pp. 141-160.

في ما بعد من المنطقة المركزية في تونس بحيث أمكننا التقدير بأن المساحة سوف تزيد خلال بضع عقود من ٤ إلى ٦ هكتارات وهو ما يمثل نمواً بنسبة خمسين في المئة^(١٧).

قدّمت الأوقاف، إذاً، إطاراً قانونياً سمح بتأمين التطور المدني للمدن في سياق العمليات المعمارية التي أطلقتها. لكن هذه المؤسسات، وبسبب غايتها الدينية والخيرية، كانت بذاتها تسمح بتوفير بناء وتمويل ما نعدّه في عصرنا منشآت ذات منفعة عامة. لقد كان مفهوم المؤسسة الخيرية واسعاً جداً يشمل، على سبيل المثال، ليس مؤسسات تعليمية فقط (مدارس ابتدائية، ومدرسة، ومساجد، وجامعات) ومنشآت الصحة العامة (المستشفيات) التي كانت تعمل بواسطة الأوقاف، بل تشمل ما نعدّه اليوم خدمات عامة بسيطة أيضاً، مثل تنظيف المدينة أو تزويدها بالمياه. وفي هذا المجال الأخير بوجه خاص يظهر اللجوء إلى الأوقاف حاسماً: لدينا أمثلة متعددة بغض النظر عن طريقة تزويد المدينة المعنية بالمياه. سوف نعود إلى هذه النقطة ولكننا سنكتفي بذكر بعض الأمثلة باختصار. في حلب كانت الأوقاف تستخدم لصيانة شبكات القنوات التي تنقل المياه تحت مسؤولية قضاة كانوا يراقبون استعمال الكميات المتوافرة. وفي القاهرة كانت سُبل المياه، التي كانت تسمح بتخزين المياه المنقولة من النيل، المنشآت التي تنظّم استعمال رؤوس الأموال المتوقعة لمكافأة الأشخاص المكلفين خدمة التوزيع، وصيانة السبيل وتزويد المياه الضرورية. أما في الجزائر حيث كانت المياه تجلب إلى المدينة بواسطة أقنية، فقد كان هناك جوس خاصة مكرّسة لصيانة الأقنية وعمل ينابيع^(١٨).

وعليه، ليس من باب المبالغة تقدير أهمية الأوقاف التي كانت تسمح بعمل عدد من الخدمات العامة الأساسية، والتي كانت توفر، فضلاً عن ذلك، الإطار القانوني لعمليات مدنية رئيسية. لقد كانت إلى حد كبير مؤسسة مدنية أساسية، وحين تؤخذ في الحسبان فقط يمكن فهم طريقة عمل مدن عربية كبرى، مع عدم وجود مؤسسات جمعية أو رسمية مثل تلك التي أدت دوراً مماثلاً في المدن الغربية.

رابعاً: الخدمات العامة

في غياب موثيق أو نصوص قانونية صريحة، كان دمج الموارد المتنوعة التي توفرها مجموعة السلطات والمؤسسات الكبيرة التي تم وصفها، يسمح في المدن

Ahmed Saadaoui, *Tunis, Ville ottomane, trois siècles d'urbanisme et d'architecture* (Tunis: CPU, 2001).

Raymond, *Ibid.*, pp. 155-167.

(١٨)

العربية الكبرى بعمل ما لا يمكننا تصنيفه بدقة كـ «خدمات عامة»، مع المخاطرة بالسقوط في مفارقة تاريخية غير واضحة. فالعمل في هذا المجال غالباً ما يبدو ناتجاً من مبادرات تستجيب لحالة طارئة، وليس نتاج عملية منظمة تأخذ في الحسبان المشاكل المختلفة التي تواجهها التجمعات السكنية الكبيرة. من هذا المنطلق نلاحظ باهتمام في الجزائر، على سبيل المثال: خوجة العيون الذي يهتم بخدمة المياه ويدير الحبوس المنشأة في هذا الخصوص، وقائد الزبل، المكلف بتنظيف المدينة، وقائد الشوارة المسؤول عن المجاري^(١٩). هناك مأمورون لا نجد ما يعادلهم في مدن الشرق الأدنى - وهو ما يطرح مجدداً إشكالية وجود وضع مغربي خاص محتمل في هذا المجال.

كان الأمن اليومي موفراً بواسطة إجراءات مراقبة مختلفة متخذة في إطار التنظيم ضمن جماعات سبق ذكرها^(٢٠). كانت تمارس مراقبة دقيقة خلال النهار عن طريق دوريات للحراس في وسط المدينة، بينما تكون الأسواق مغلقة خلال الليل. في الليل كان التجوال في المدينة محظوراً مبدئياً إلا بوجود مواكبة ومصاييح، ولم يكن في إمكان أحد الدخول إلى الأحياء السكنية إلا بعد تعرّف الحراس إلى هويته. أما في تونس، فقد كان المتشردون، الذين يوقفهم مشايخ المدينة وضواحيها خلال الليل يقاضون، انطلاقاً من هذا الواقع، بالسجن، حتى بغياب أي جنحة^(٢١).

كما كان القمع الذي يمارسه القضاة والسلطات المختلفة يستند إلى مجموعة متنوعة من العقوبات التي كانت صرامتها رادعة بالتأكيد، ولا سيما أن العقوبات الأكثر قساوة كانت تبرر للجمهور بأسباب تربوية. كتب شابرول أن «سكان مصر يتميزون باستقامة كبيرة جداً تعود في جزء منها إلى صرامة العقوبات المفروضة على السارقين». كما كان المبدأ السائد بعامه في شأن المسؤولية الجماعية ذات طبيعة تسمح بتقليص مخاطر الجنح والجرائم إذا كانت الجماعات المعنية مهتمة بذلك. لذلك كانت المدن العربية معروفة بالأمن الذي يسود فيها. استتج الراوي المصري ابن أبي السرور، بعد روايته لعملية سطر أصابت ثمانية وأربعين محلاً في سوق ابن طولون، وهو حدث استثنائي بالتأكيد يجدر الحكم فيه نظراً إلى الاهتمام الذي يخصصه له، بأن القاهرة كانت

^(١٩) 'Abd Al-Hakim Al-Qafsi, «Ma'alim wa mawaqi», *Revue d'Histoire Maghrebine*, vols. 91-92 (1998), p. 670, et Pierre Boyer, *La Vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française* (Paris: Hachette, 1963), pp. 98-99.

^(٢٠) Abraham Marcus, *The Middle East on the Eve of Modernity: Aleppo in the Eighteenth Century* (New York: Colombia University Press, 1989), pp. 110-120.

^(٢١) Abdulhamid Henia, «Prisons et Prisonniers à Tunis vers 1762», *Revue d'Histoire Maghrebine*, vols. 31-32 (1983), p. 245.

تتصف «بالأمن الكبير الذي ساد فيها». وهي ملاحظة عاد ورددتها القنصل الأمريكي شالير بعد قرن ونصف القرن في خصوص الجزائر: «على الأرجح أنه ليس هناك أي مدينة أخرى في العالم لها شرطة متنبهة أكثر، أو ترتكب فيها جرائم أقل وتعاقب بالقانون، أو حيث يسود فيها أمن أفضل للأفراد وللممتلكات»^(٢٢).

كان تنظيف المدن ضرورياً لا لتأمين نظافتها فحسب بل لتفادي النتيجة الحتمية أيضاً لأي إهمال مطول في هذا المجال: الارتفاع التدريجي في مستوى علو الطرقات نتيجة تراكم الأقدار والأتربة والغبار (انظر الرسم الرقم (٣٢ - ٥)).

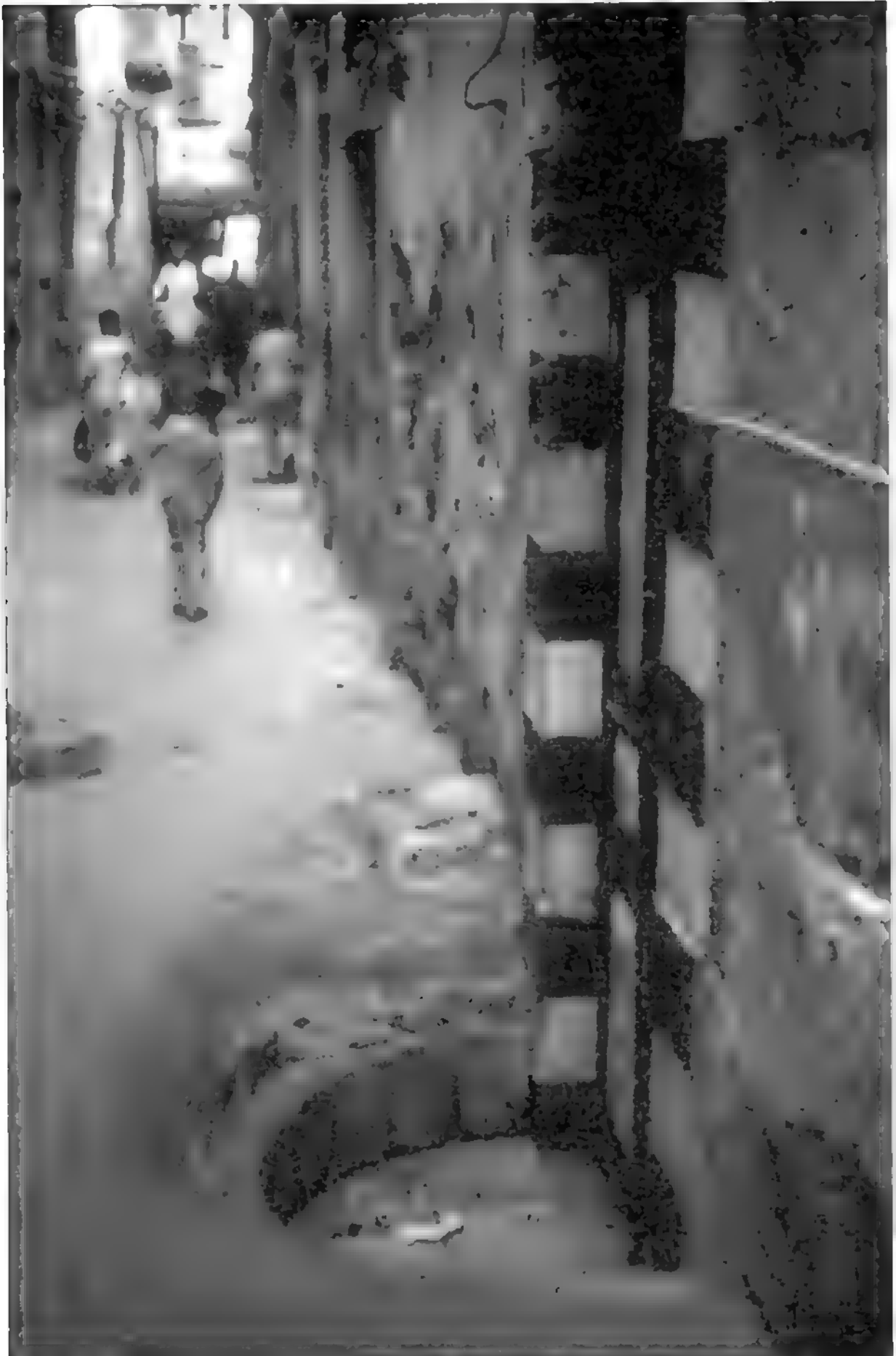
وفي حدود علمنا، كانت عمليتا التكنيس والري لمنطقة الأسواق في قلب القاهرة، وللمنطقة السكنية، منظمتين ويقوم بها «زبالون» يتلقون أجورهم من السكان، في حين كانت النفايات تحمّل بعيداً خارج الأسوار، من جانب أشخاص مختصين (تزابين)، إلى مناطق لم يعد حتى اليوم يجري البناء فيها، «التل»، ثم أصبحت مع الوقت أمكنة لحدائق عامة بتمويل من مؤسسة آغا خان الخيرية (انظر الرسم الرقم (٣٢ - ٦)).

أما في الجزائر فقد كانت هذه الخدمة منظمة بطريقة منهجية تحت مراقبة قائد الزبل: كانت الأقدار توضع في حفر محدثة في الجدار ويجمعها مأمورون يتولون أخذها إلى خارج المدينة. لكن عدداً من الإشارات التي تقدمها أخبار المسافرين أو رواياتهم هو علامة تبيّن الإهمال الذي كان يسود في هذا المجال: كان على السلطات من وقت إلى آخر إلزام السكان بعمليات تنظيف كبيرة للطرقات عن طريق إزالة الأتربة التي كانت تسدها. في تونس كان الداي أسطى مراد (١٦٣٧ - ١٦٤٠) يوجّه الأوامر لإزالة الأقدار المتراكمة خارج باب البحر، وهو عمل كان يقوم به سكان المدينة وضاحيتها مداورة؛ كما كان الداي محمد حاج أوغلي (١٦٦٦ - ١٦٦٩) يأمر بإزالة الأقدار المتراكمة في منطقة سيدي عبد الله الشريف عن طريق نظام السخرة نفسه^(٢٣).

(٢٢) ابن أبي سرور البكري، الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٤٠٩)، ص ٧٥ و ١٦٩؛ M. De Chabrol, «Book Essai sur les moeurs des habitants modernes de l'Egypte», in: *Description de l'Egypte: Etat modern* (Paris: [n. pb.], 1882), pp. 2-424, and William Shaler, *Sketches of Algiers, Political, Historical, and Civil: Containing an Account of the Geography, Population, Government, Revenues, Commerce, Agriculture, Arts, Civil Institutions, Tribes, Manners, Languages, and Recent Political History of that Country* (Boston, MA: Cummings, Hilliard and company, 1828), p. 52.

(٢٣) أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن دينار القيرواني، المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس (تونس: [د. ن.]، ١٩٣١)، ص ١٨٧ - ١٩٤.

الرسم الرقم (٣٢ - ٥)
ارتفاع مستوى أحد الشوارع في حي سكني



الرسم الرقم (٣٢ - ٦)
تلال شرق القاهرة



أما في القاهرة فقد كانت عمليات تنظيف الطرقات المشابهة، التي قد ترتفع سماكة الأقدار فيها إلى أكثر من ذراع، تخضع لأوامر الباشوات أو آغا الإنكشاريين عام ١٦٠٩، ونحو عام ١٧٠٠، وفي عامي ١٧٠٣ و ١٧١١^(٢٤). نستطيع تقديم أمثلة كثيرة حول عمليات من هذا النوع أمرت بها سلطات عليا ونفذت من خلال تعبئة السكّان.

في ما يتعلق بتوزيع المياه، كانت هناك مشكلة حقيقية في ما خص المراكز السكنية المهمة، وفي مناطق جافة نسبياً. يمكننا في هذا المجال أن نرى الأسلوب الذي جرى من خلاله تأمين هذه الخدمة خارج أي تنظيم أو تدخل لسلطة متخصصة، وبفضل خليط من مبادرات خاصة وعمل مؤسسات متنوعة. ويظهر وضع القاهرة خصوصاً الحالة تلك بوضوح^(٢٥).

كانت هذه العاصمة تفتقر كلياً إلى أي مصدر تموين ملائم: عملياً يتعذر استعمال مياه الأمطار ومياه الآبار الشديدة الملوحة والمرارة بهدف الاستهلاك. لذلك كانت مياه الشرب المستعملة في القاهرة تحمّل على ظهور الحيوانات من النيل الذي يبعد مسافة

Raymond, *Grandes Villes arabes*, p. 150.

(٢٤)

(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٥٦ - ١٦١.

كيلومتر تقريباً. كانت عمليات نقل المياه من النهر تتم عبر السقائين المنظمين في هيئات (أربع منها تستخدم الحمير وواحدة تستخدم الجمال) واقعة على طول الحدود الغربية للمدينة. كان توزيع المياه في المدينة مفوضاً لخمس هيئات، عمل هذا النظام الذي كان يمول بتعويض كلياً من المستعملين (بمشاركة الأوقاف) بطريقة مستقلة ظاهرياً، وبلا شك تحت مراقبة معينة من السلطات. وكانت سبل المياه العامة، حيث تتخزن المياه لكي يتم إعادة توزيعها على عابري السبيل، تؤدي دوراً مهماً: فقد كانت هذه السبل التي يفوق عددها الثلاثمئة، والتي بني معظمها في العصر العثماني، موزعة بطريقة منتظمة جداً على مجمل مساحة القاهرة، إلى حد أننا استطعنا استعمال توزيعها كمؤشر لتوزيع السكان في مختلف أنحاء المدينة (انظر الرسم الرقم (٣٢ - ٧)).

شيدت هذه الأبنية، المتواضعة في أكثر الأحيان، والفخمة أحياناً، على نفقة وجهاء غالباً ما كانوا ضباطاً في عسكر القاهرة وكانت بمنزلة أعمال خير (انظر الرسم الرقم (٣٢ - ٨)).

وبوجه عام، كان بناء السبل يتبع حركة سكان المدينة. هي إذاً مساهمات فردية تساهم في تأمين رفاهة السكان. أما إدارتها فقد كانت تؤمن في إطار المؤسسات الخيرية (الأوقاف) التي كانت عائداتها تضمن تغطية النفقات التي تستلزمها صيانة المبنى ومكافأة السقائين وشراء مياه الأنهار. لقد عمل هذا النظام خلال ثلاثة قرون في العصر العثماني من دون مشاكل ظاهرة، باستثناء إعاقة الأزمات السياسية عملية التزويد بالمياه من النيل. تبين لنا هذه الحالة بوضوح طريقة عمل نظام يستخدم الموارد التي تعمل عليها «مبادرات خاصة»، والمؤسسات النقابية، والرعاية الفردية ومؤسسة دينية: كان يجري تأمين المياه لمدينة بلغ عدد سكانها ٢٥٠٠٠٠ نسمة من دون تدخل واضح لأي نظام وسلطات وإدارة، مع أننا نظن أنه من الضروري ممارسة تنظيم معين في الحالات الصعبة.

تعدّ حالة القاهرة حالة استثنائية قصوى. فلما كان تزويد المياه يؤمن عن طريق شبكات القنوات والأقنية غداً توزيع المسؤوليات مختلفاً بالطبع واستدعى تدخلاً «عاماً» أكثر وضوحاً. وهي كذلك حالة الجزائر، إذ لم تكن تمتلك قبل الفتح العثماني أي نظام لجّر المياه، فقامت السلطات العثمانية لاحقاً ببناء شبكة الأقنية التي تحبس مياه الساحل^(٢٦).

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١٦٣ - ١٦٧.

الرسم الرقم (٣٢-٧)
 أمكنة سُبل ماء القاهرة



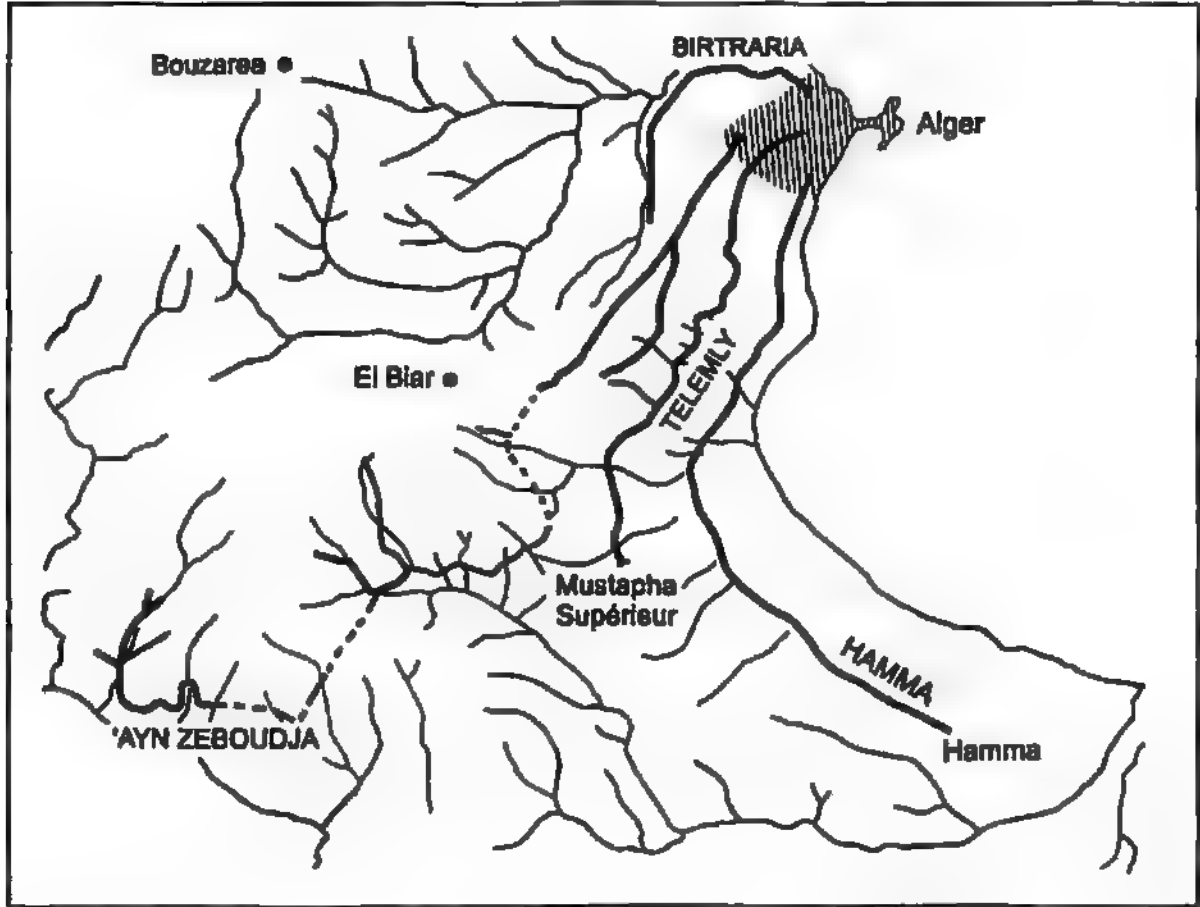
الرسم الرقم (٣٢-٨)
سبيل عبد الرحمن كتحفة في القاهرة، من العام ١٧١٤



بنى حسن باشا قناة تيليملي (٣٨٠٠ متر) عام ١٥٥٠ على الأرجح. كما بنى
عرب أحمد باشا قناة بيرتراريا (١٧٠٠ متر) عام ١٥٧٣. لقد تم استكمال بناء قناة حمّة
(٤٣٠٠ متر) عام ١٦١١ في زمن كوسه مصطفى باشا. أما قناة عين زبوجة (٩ كم) فقد
بنيت في منتصف القرن الثامن عشر. لقد تم بناء عدد من السبل العامة التي نجد مئة
منها في الجزائر في القرنين السابع عشر والثامن عشر على يد باشوات ودايات: لقد
رأينا النشاط الملحوظ الذي قام به الداي علي النقيس الذي ينسب إليه بناء ثلاثة عشر
سبيلاً بين عامي ١٧٥٩ و ١٧٦٥. لقد أخذت السلطات السياسية العليا مبادرة أعمال
ذات مصلحة عامة. لكن كان باستطاعة أفراد مستقلين الاهتمام بتزويد المياه عبر إنشاء
حبوس تخصص عائداتها لصيانة أفنية المياه والينابيع وعلى نية عمل خيري - مع أنها لم

تخل من أفكار مبطنة لأن هذا الكرم كان يسمح للمانح بالحصول على حصة مياه لمتزله
(انظر الرسم الرقم (٣٢ - ٩)).

الرسم الرقم (٣٢ - ٩)
قنوات ماء في الجزائر



نستطيع مضاعفة الأمثلة المحلية وربما عرضنا أيضاً الطريقة التي كانت تعالج بها
المشاكل المتعلقة بمكافحة الحرائق أو تلك المتعلقة بالنقل المديني^(٢٧). وسنرى التداخل
نفسه بين تدخلات السلطات السياسية (الغاية بصورة أقل عما كنا نعتقده)، والمأمورين
المحليين (الموجودين أكثر في المغرب)، ونشاط اتحادات المهن المتخصصة، الذين
يكافئهم المستعملون للخدمة، وبمشاركة الأوقاف التي ينشئها النافذون والأغنياء
لمصلحة المجتمع. تتحد هذه العناصر جميعها للسماح لتمكين المدن الكبيرة من أداء
وظائفها بغياب إدارة مدنية حقيقية ولضمان عمل «الخدمات العامة». وفي كل حالة من
الحالات تلك، كان هناك مزيج من اندفاع السلطات والمشروع الفردي والرعاية الدينية

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٥٣ - ١٥٧.

يبحث على إنشاء نظام، ربما كان خالياً من أي تجانس ومن أي قاعدة قانونية وتنظيمية، غير أنه كان مع ذلك فعالاً نسبياً.

خاتمة

لم تكن المدن العربية الكبيرة خالية، إذًا، كلياً من الإدارة، كما يجري الافتراض غالباً. فلو كان ذلك النقص موجوداً لكان من الصعب بالتالي فهم استمرارها. إن التقاء تدخل السلطات السياسية «الوطنية» و«المحلية» في الأعمال المدنية، وعمل بعض المأمورين المدنيين المختصين، ووجود جماعات ذات أنواع مختلفة، واللجوء إلى الأوقاف/الحبوس سمحت جميعها بتأمين إدارة هذه المدن، بل سمح بتطورها في فترات التوسع المدني، كما حصل في الحقبة العثمانية.

تم ضمان أمن المدن بوجه عام بفضل صرامة العقوبات التي اتخذت لمحاسبة التصرفات الإجرامية والجنائية وبفضل شبكة لصيقة للمراقبة الجماعية يتحمل مسؤوليتها السكان أنفسهم. لم يكن أمام هؤلاء غير فرص قليلة للإفلات من مراقبة كانت تمارس عليهم في جميع حقول حياتهم الجماعية، فالقهر الذي تم ممارسته عليهم كان أكثر فاعلية لأنه اعتمد على مراقبة ذاتية تقوم بها الجماعة في أوجه مختلفة (الجماعات المهنية، المناطقية، والدينية). وخلافاً لما يقدم عادة حول هذا الموضوع، كان الحقل الخاص محدداً بصرامة بوجود قطاع جمعي كبير يتم في داخله الإشراف الدقيق على هذا الفرد، فيقدم شكوى في حقه، إذا كان ذلك ضرورياً، ويعاقب لارتكابه أي مخالفة للقانون. والجدران غير النافذة، مبدئياً، لـ «المتزل المسلم» لم تكن تحمي فعلاً العلاقات العائلية الخاصة، أو تحول دون مراقبة الجوار لها.

لم يمنع النقص في المسؤولين والإدارات المتخصصة، وهو أمر يدعو إلى الحيرة، من تلبية حاجات السكان في المجال الذي نطلق عليه اسم «الخدمات العامة»، وبفاعلية لا نستطيع إلا أن ندهش منها حين نكتشف بساطة الوسائل المستخدمة والإجراءات التي وضعت في العمل.

الفصل الثالث والثلاثون

الريف، التراث الهيدروليكي والزراعي الروماني للبلدان الإسلامية المتوسطة

فيرشيلد روجلز^(١)

كتب عالم الجغرافيا جان برونيس قائلاً: «المدينة ليست وحدة مستقلة؛ فهي تعتمد على التربة التي تحملها، والمناخ الذي تتمتع به، والبيئة التي تعيش منها»^(٢). يقدم مفهومه عن «الوحدة المتكاملة» إلينا نظاماً مفيداً لفهم العلاقة بين المدينة والريف، لأنه يضع الفاعلية البشرية داخل نمط بيئي أكبر من التكامل الذي يخضع فيه البشر للأحوال الطبيعية للبيئة ويجسدون فيها إرادتهم أيضاً. وفي الوقت الذي تشدد الأنماط التاريخية على الإرادة البشرية، والمنافسات والتفاعلات الاجتماعية، والتغيرات القصيرة المؤقتة، يعطي النمط الجغرافي أهمية أكبر لما يسميه برونيس «الحقائق الأرضية» للمكان، والمسافة والتباين في المستوى^(٣).

هذه طريقة مثمرة للتفكير في الطبيعة، حيث يمكنه أن يفسر الاستمراريات في العلاقة بين الإنسان والأرض التي غالباً ما يفشل النمط التاريخي التقليدي في إدراكها. في هذا الفصل، سأضع عدداً من الموازنات في سلسلة من المفاهيم المزدوجة: فن العمارة والطبيعة، الريف والمدينة، الاستقلالية والتكامل، روما والإسلام، التغير

(*) أستاذة في جامعة إلينوي، كلية الهندسة المعمارية، قسم هندسة المناظر الطبيعية.

(١) انظر: Jean Brunhes, *Human Geography: An Attempt at a Positive Classification, Principles and Examples*, edited and translated by E. F. Row (London: George G. Harrap, 1952), p. 26.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

والاستمرارية. هذه الازدواجيات مصطنعة ومبالغ فيها كأى نموذج بنائي، ولكنها تساعد على إبراز جوانب مهمة في البيئة المبنية للبحر المتوسط إبان فترة التغير، من العهد الروماني إلى العصر الإسلامي الأول، بحيث يمكن تفحصها وتحليلها.

تقوم العمارة على أيدي عامل البناء وصاحب المبنى، ويمكن إرجاعها إلى حقبة تاريخية محددة أو إلى مجموعة حقوب، أما الطبيعة فهي عملية بيئية مستمرة. وبينما هي مؤلفة من حجارة كبيرة، وجدران، وفساق، فهي مؤلفة في الوقت عينه من مياه، وأرض، وكائنات حية يمكن تحديثها وتدويرها على نحو موسمي وربما على نحو يومي. إن الدور الذي تقوم به الأسبقية التاريخية مهم في كلتا البيئتين المبنية والمزروعة، لكنها تحدث على مستويات مختلفة من الوعي البشري. وقد قدمت الأندلس على حوض المتوسط حالة دراسية جيدة للطرائق المختلفة التي يمكن المجتمع البشري بها أن يعترف أو يتجاهل دور التاريخ في فن العمارة في مدنه وفي تطوير المشاهد الطبيعية للريف. سوف يركز هذا الفصل في الأساس على الزمان والمكان التاريخي، ولكنه سوف يشير أيضاً إلى عدة بلدان إسلامية في منطقة البحر المتوسط في الفترة نفسها، من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر.

انطلق الإسلام من شبه الجزيرة العربية، تلك الصحراء التي وفّرت الظروف المناسبة لتربية البدو الحيوانات واتجارهم بها، وليس للمستوطنات الزراعية إلا في القليل من الحالات. لكن ما إن بدأ الأمويون (٦٦١ - ٧٥٠م) فتح البلاد التي تقع على الساحل الشرقي والغربي للبحر المتوسط، واتجهوا إلى الشمال الشرقي - حيث سورية والأردن وفلسطين ولبنان والعراق وأجزاء كبيرة من إيران، وغرباً حيث مصر وتونس والمغرب (مراكش وإسبانيا) - حتى بدأ عدد المسلمين في التزايد، ليس من سكان المدن والقبائل البدوية فقط، بل من أهل الزراعة أيضاً الذين طوروا الأرض لاستخداماتهم هم كما للأجيال التي تأتي من بعدهم. قام المسلمون الأوائل بزراعة الأرض التي عمل الرومان على تطويرها قبل خمسمئة سنة واستفاد منها بعد ذلك البيزنطيون والأقباط، وقد استخدم المسلمون تقنيات زراعية مشابهة وزرعوا محاصيل مشابهة.

وبينما تتلقى الأماكن الساحلية حول منطقة البحر المتوسط المطر موسمياً، تبقى المناطق الداخلية في هذه البلاد جديداً. وكانت الزراعة المتاحة فيها ممكنة بالاعتماد على المحاصيل التي تتحمل ندرة المياه مثل شجر النخيل والزيتون، في حين كانت زراعة محاصيل أخرى مثل الفاكهة والحبوب ممكنة فقط من خلال عمليات الري المنتظم عن طريق الجمع والتخزين ونقل المياه العالية القيمة. كان الري مكلفاً، لكن

التقانة قدمت العديد من المنافع الاقتصادية إلى ملاك الأراضي والفلاحين الذين تعلموا ممن سبقهم من الفرس والرومان. لكن لم تؤسس المجتمعات الإسلامية في منطقة البحر المتوسط شبكات ري جديدة بقدر ما جددوا وبنوا على أعمال هيدروليكية أكثر قدماً. مع ذلك، وعلى الرغم من أن المسلمين يدينون بالفضل الواضح لأنظمة الري الرومانية والفارسية، فإن مؤرخي القرن الأول الإسلامي نادراً ما اعترفوا بالدين المادي للإمبراطوريات السابقة.

على سبيل المثال كانت مدن عنجر (انظر الرسم الرقم (٣٣-١))، والرصافة [شمال سورية] مواقع رومانية وبيزنطية عملت المجتمعات الإسلامية على توسعتها وتطويرها في أواخر القرن السابع. وحين اختار الخليفة هشام بن عبد الملك (ح ٧٢٤ - ٧٤٣م) مدينة سيرجيوبوليس الجميلة ذات الأسوار الجبسية لتكون مكاناً لأملاكه الريفية، أعاد تسميتها الرصافة وأضاف إليها وأقام خارج المدينة حديقة لها سور من الطوب (انظر الرسم الرقم (٣٣-٢))^(٣).

كانت المياه التي تستخدم لري هذه الحديقة ترد من النهر الموسمي نفسه الذي كان يجري في ممر صخرية في المدينة البيزنطية هذه. وبالمثل، اعتمد قصر الحيرة الغربي الذي بناه الخليفة هشام بين عامي ٧٢٤ و٧٢٧م على مسافة ٦٠ كم غرب تدمر، على مصدر مائي قديم. وعلى الرغم من احتواء الموقع على قصر جميل كان يستضيف اللقاءات السياسية والثقافية، فهو كان منتجاً كذلك للمحاصيل الزراعية المروية كما للزيتون، وكان معروفاً باسم «الزيتونة». كانت المياه تجلب لهذا المشروع بواسطة «قناة» (وفق تقنية فارسية) من سد روماني شيد في القرن الثالث، على مسافة ١٦ كم جنوباً^(٤).

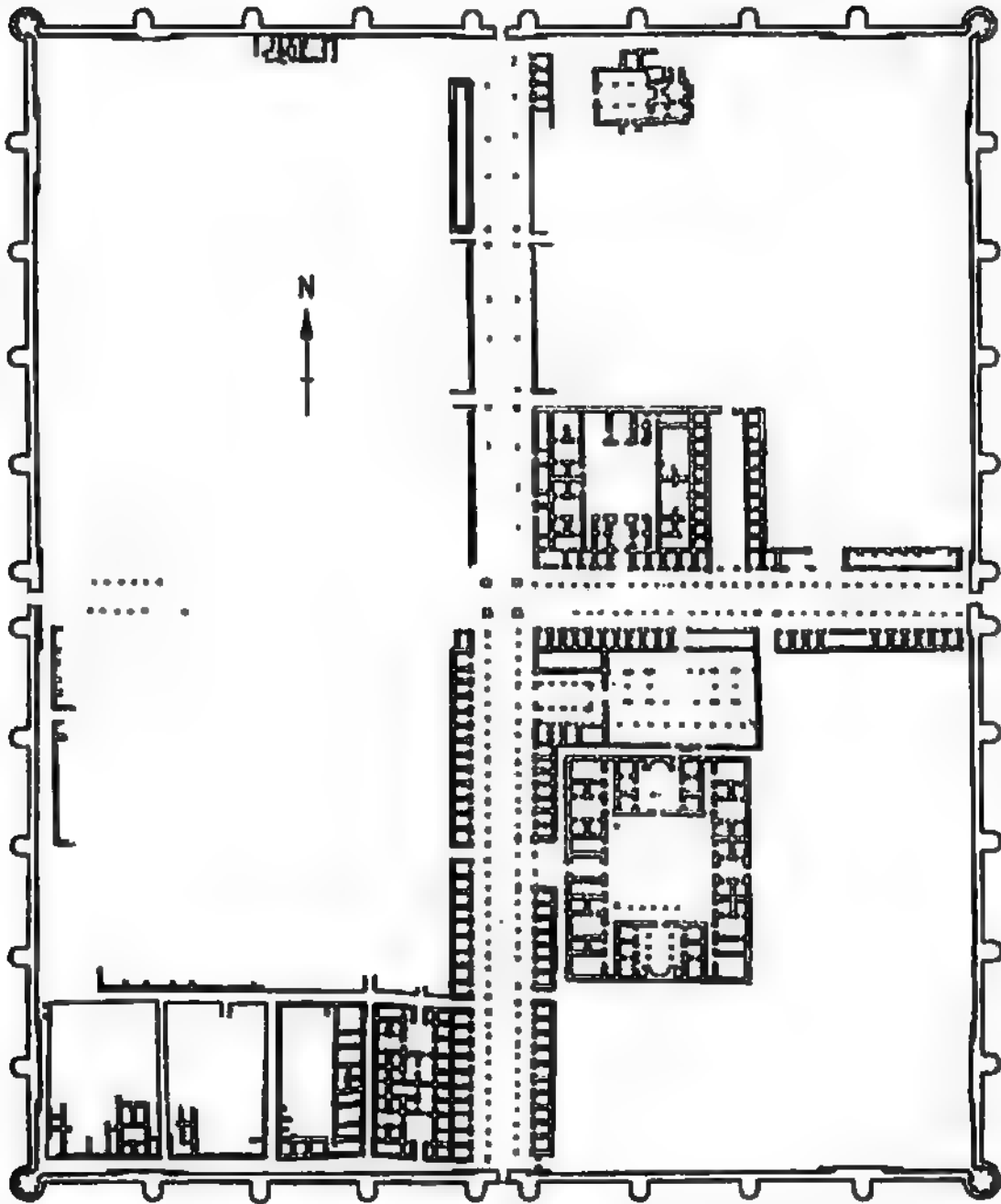
(٣) تمت مناقشته في: Michael Mackensen [et al.], *Resafa I: Eine befestigte spätantike Anlage vor den Stadtmauern von Resafa. Ausgrabungen und spätantike Kleinfunde eines Surveys im Umland von Resafa-Sergiopolis* (Mainz: [n. pb.], 1984).

واحدة من هذه المرفقات تم مناقشتها، في: Thilo Ulbert, «Ein Umayyadischer Pavillion in Resafa-Rusafat Hisam,» *Damaszener Mitteilungen*, vol. 7 (1993), pp. 213-231.

وحول أهمية اكتشاف تاريخ الحدائق الإسلامية، انظر: D. Fairchild Ruggles, «Il Giardini con pianta a croce nel Mediterraneo islamico,» in: Attilio Petruccioli, ed., *Il giardino islamico: Architettura, natura, paesaggio* (Milan: Electa, 1993), pp. 143-54; German Edition: «Der als Achsenkreuz angelegte islamische Garten des Mittelmeerraums und seine Bedeutung,» in: *Der islamische Garten: Architektur, Natur, Landschaft* (Stuttgart: Deutsche Verlag-Anstalt, 1994), pp. 143-154.

(٤) K. A. C. Creswell, *A Short Account of Early Muslim Architecture*, revised by James Allan (١) (Cairo: American University in Cairo Press; Aldershot: Scolar Press, 1989), pp. 135-146, and Oleg Grabar, «Umayyad «Palace» and «Abbasid «Revolution»,» *Studia Islamica*, vol. 18 (1963), pp. 3-185.

الرسم الرقم (٣٣ - ١)
مخطط مدينة عنجر

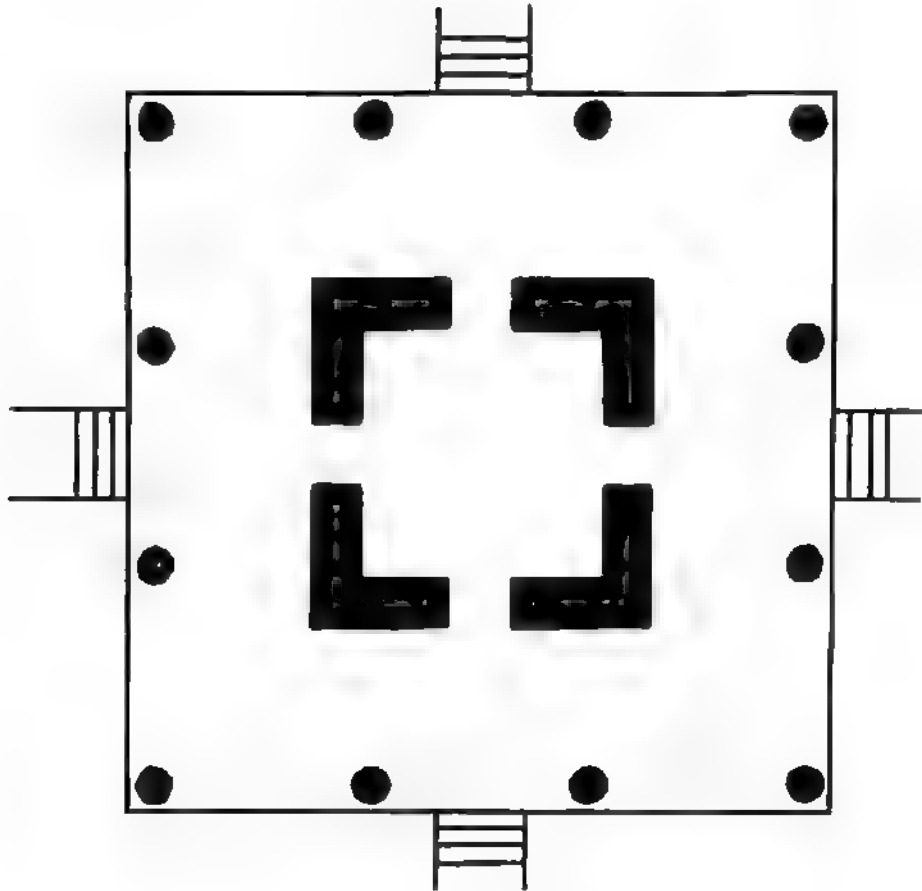
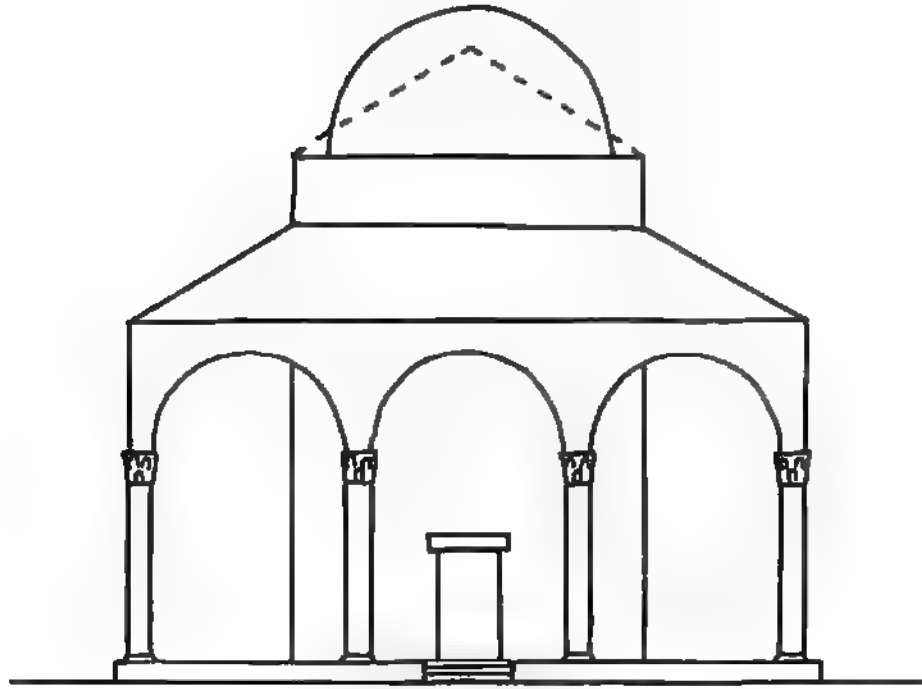


المصدر: K. A. C. Creswell, *A Short Account of Early Muslim Architecture* (Cairo: American University Press, 1989).

بعبارة أخرى، كانت الأرض الزراعية تعتمد تماماً على أنظمة ري وعلى إنشاءات بنيت قبل قدوم الإسلام بقرون. وكان قصر الخليفة هشام بن عبد الملك (خربة المفعج) يعتمد كذلك على قناة رومانية^(٥).

(٥) R. W. Hamilton, *Khirbat Al-Ma'jar: An Arabian Mansion in the Jordan Valley* (Oxford: Clarendon Press, 1959).

الرسم الرقم (٣٣ - ٢)
الرصافة، مخطط حديقة



0 5 10 m

المصدر: D. Fairchild Ruggles, «Il Giardini con pianta a croce nel Mediterraneo islamico,» in: Attilio Petruccioli, ed., *Il giardino islamico: Architettura, natura, paesaggio* (Milan: Electa, 1993).

وعلى الرغم من ذلك، نادراً ما اعترف القِيمون على الدولة الإسلامية ومؤرخوهم بتلك الإنشاءات ما قبل الإسلامية (التي تجاهلها المؤرخون المعاصرون الذين جعلوا عمليات تخضير الصحراء مشروعاً إسلامياً خالصاً). يعكس هذا من جهة أولى الميل الطبيعي إلى إبراز عمليات التغيير والإنشاء لا الاستمرارية، كما أنها من جهة ثانية مسألة منهجية تنبثق من انتشار النمط المعماري، الذي يركز على عمليات البناء والشيد أكثر من تركيزه على النمط الطبيعي الذي يلحظ كلاً من عملية البناء الجديدة والعامل المستمر للشروط القائمة مثل المناخ والطبوغرافيا وتساقط الأمطار.

في منطقة الأناضول، زودت بقايا الممار والقنوات المائية من العصر الروماني إحدى أكبر الحدائق الإسلامية وواحات الصيد إبان النصف الثاني من القرن الثالث عشر؛ ففي فترة تأسيس المنطقة واستغلال مواردها من الغابات وصيد الحيوانات والزراعة، عمل الحكام السلاجقة على تأسيسها استراتيجياً للإفادة من أنظمة الري القديمة الطبيعية الموجودة^(٦).

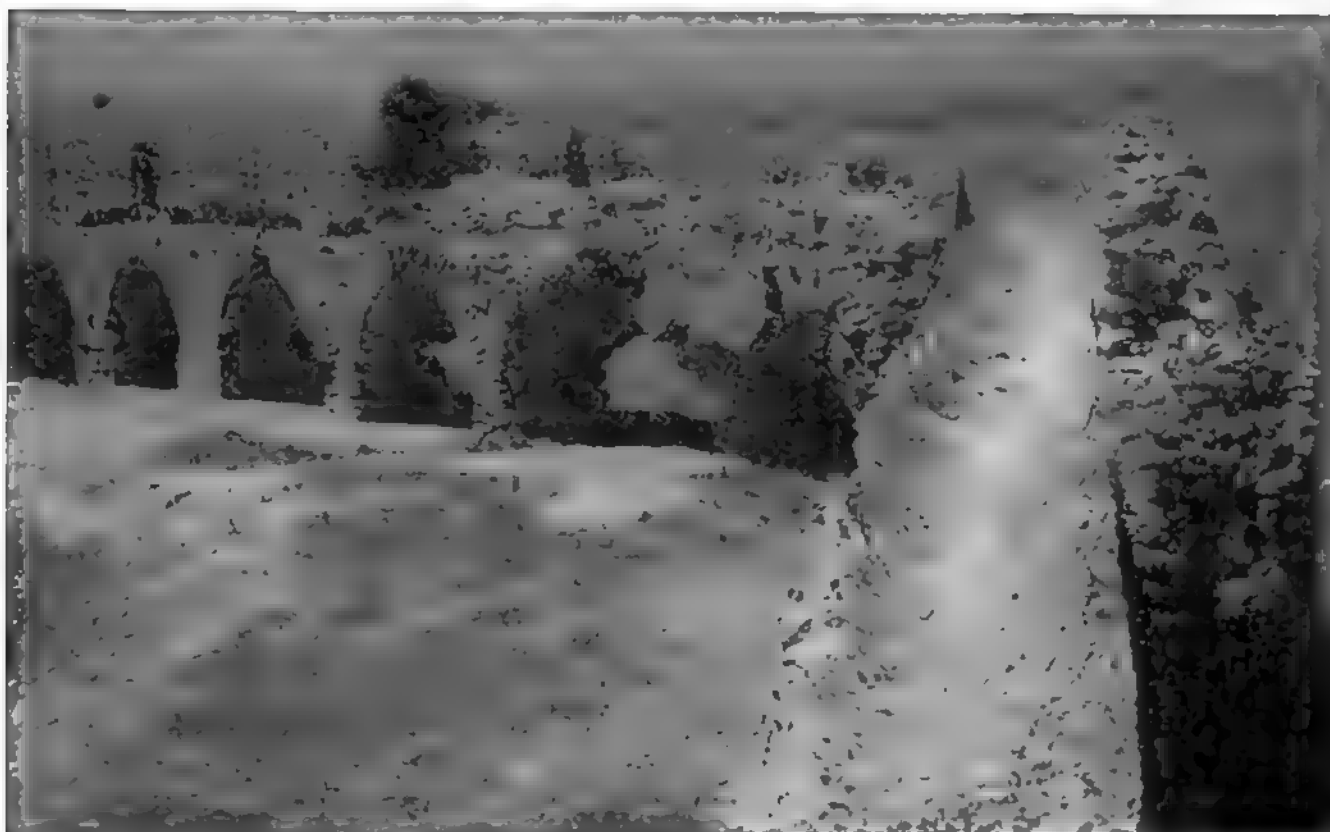
وفي أفريقيا (تونس)، استمر العمل إبان العصر الإسلامي بالنظام الروماني للري بالصنابير من خلال موارد مياه جبلية مثل تلك التي أطلق عليها اسم «معبد المياه» في زغوان (انظر الرسم الرقم (٣٣ - ٣))، وتخزينها في أحواض متعددة مثل تلك الأحواض التي كانت مقامة في منطقة القيروان (انظر الرسم الرقم (٣٣ - ٤)). وقد تميز الساحل الشمالي لأفريقيا بعدد من الأنظمة الرومانية الهيدروليكية التي ظل بعضها يعمل حتى القرن التاسع عشر^(٧).

لم يكن هناك سبب لرفض أنظمة الانتفاع من الأرض الزراعية تماماً، لذلك لم تُهجر هذه الأنظمة حتى تهالكت وأصبحت غير صالحة للاستخدام. كما أنها لم تتقاعد حتى فقدت كل معرفة بطرائق إصلاحها، أو على الأرجح أن الاقتصاد الزراعي الذي أقاموه قد هلك، وعليه لم تعد هناك حاجة إلى هذه الكميات الكبيرة من المياه، أو أنه قد توسع ولم تعد مشروعات الري القديمة مناسبة له فتم استبدالها بمشروعات كبيرة جديدة.

Scott Redford: *Landscape and the State in Medieval Anatolia: Seljuk Gardens and Pavilions* (٦) of Alanya (Oxford: Archaeo Press, 2000), and «Seljuk Pavilions and Enclosures in and around Alanya,» *Arastırma Sonuçları Toplantısı* (Ankara), vol. 14 (1997), pp. 453-467.

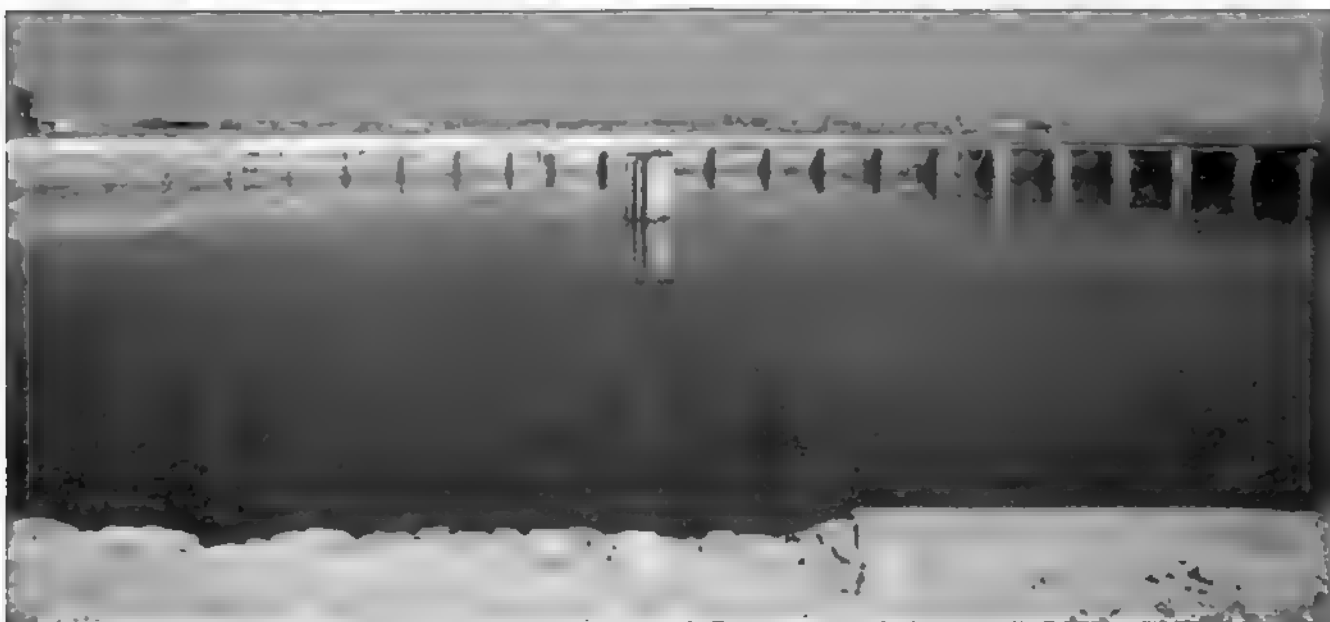
M. M. Knight, «Water and the Course of Empire in North Africa,» *Quarterly Journal of* (٧) *Economics*, vol. 43 (1928-1929), pp. 44-93.

الرسم الرقم (٣٣ - ٣)
زغوان، قناة في «معبد المياه»



المصدر: المصدر نفسه.

الرسم الرقم (٣٣ - ٤)
أحواض الأغالبة في القيروان



المصدر: المصدر نفسه.

حين فتح المسلمون شبه الجزيرة الأيبيرية عام ٧١١م، تكررت من جديد التجربة السورية للتعامل مع أرض مخططة من قبل. وكانت أولى المباني التي دخلت الخدمة في النظام الجديد هي مباني قوطية غربية قائمة، وقد أصبح القصر القوطي الغربي القديم على الجانب الغربي من قرطبة مقراً لإقامة الوالي، كما أعطت الكنيسة الرئيسية جزءاً من مساحتها لإقامة المسلمين صلاتهم الجامعة. ولما بدأ تأسيس المباني الرئيسية الجديدة بعدما وصل أول خليفة أموي، هو عبد الرحمن الأول، ليحكم الأندلس عام ٧٥٦، وجد البناؤون الكثير من مواد البناء القديمة ولم يترددوا لحظة في قلبها، وتقطيعها، وإعادة استخدامها.

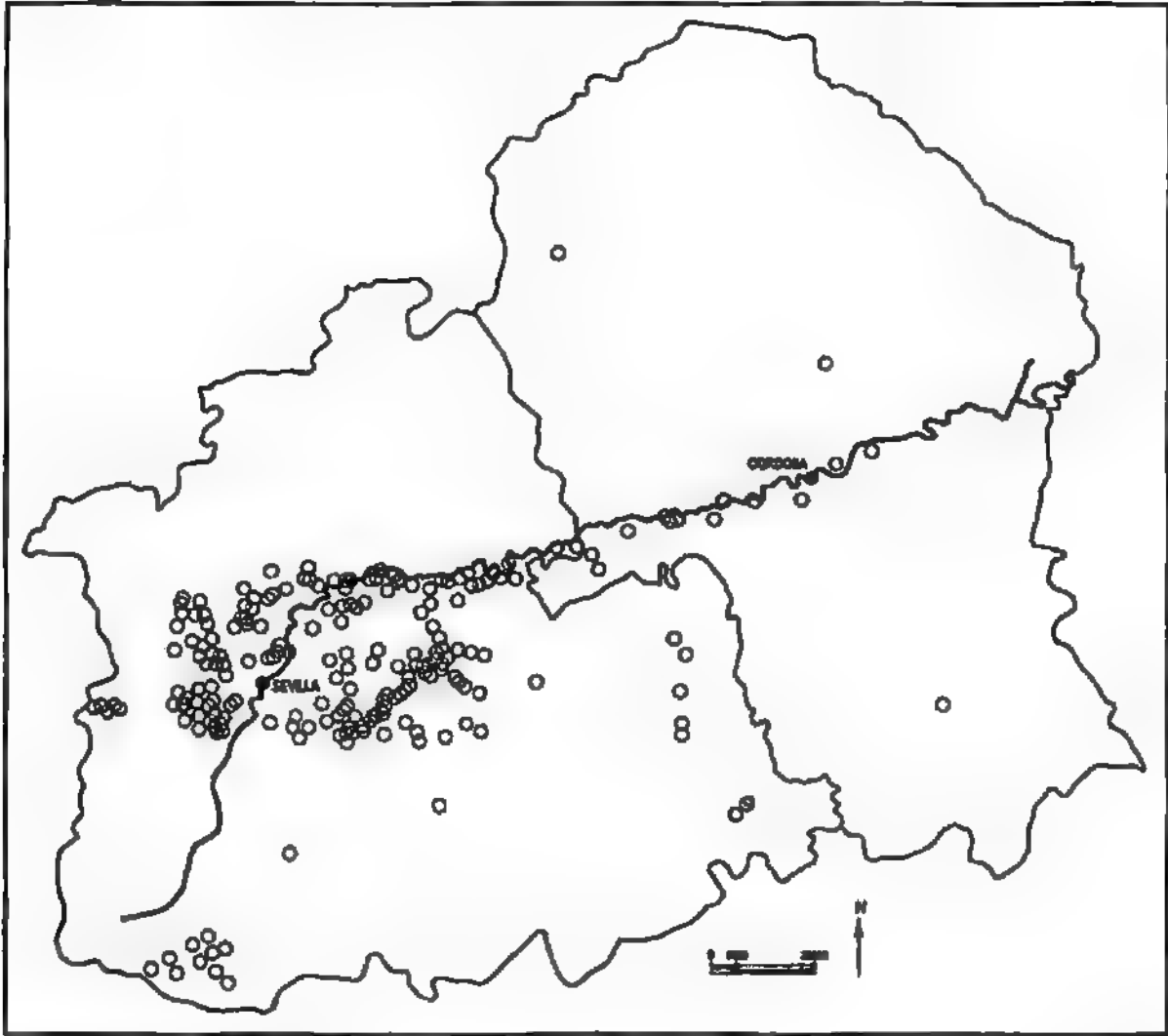
كانت الأمثلة المعمارية لهذه الأبنية معروفة آنذاك: ففي القرن الأول من عصر الخلفاء والأمراء الأمويين، تم بناء مسجد قرطبة العظيم على أرض كنيسة قوطية غربية قديمة (تأكد وجودها من خلال عمليات التنقيب)، كما تم ترميم الجسر الروماني في الجانب الجنوبي لمدينة قرطبة مع أسوار المدينة الرومانية القديمة. لقد قيلت بضع كلمات في وصف الطبيعة الساحرة لاستمرارية آثار العمارة وحفظها، إلا أنه لم تجر مقارنة إلا جزء ضئيل من البيئة المبنية.

وبتركيز هذه الكتابات على المدن ومبانيها فقط، تكون قد تجاهلت أنظمة الطرق والبنى الزراعية والهيدروليكية وأنواع المحاصيل التي تم تطوير زراعتها والتي سمحت بازدهار الحياة المدنية. وكما العمارة، ينبئ النسيج المادي والنباتي للأرض بالاستمرارية التي جرت على الرغم من الانتقال من نظام سياسي إلى آخر.

في الأندلس، امتدت الأراضي الزراعية من إشبيلية إلى قرطبة على طول ضفتي نهر الوادي الكبير، وهي منطقة غنية بالموارد الطبيعية ومناسبة تماماً للتطوير الزراعي. كانت إشبيلية مسكونة بكثافة في حقبة العصر الروماني، وكان فيها ١٩٤ فيلاً، مع مدينة إيتاليكا، أحد أكبر مراكزها. وقد بنى الرومان، الذين حكموا شبه الجزيرة الأيبيرية من عام ١٥٢ قبل الميلاد حتى القرن الخامس ميلادية، عدداً من الفيلات على طول الوادي الكبير، التي عُثر أواسط القرن العشرين على بقايا ١٦ فيلاً منها في مقاطعة قرطبة (انظر الرسم الرقم (٣٣-٥))^(٨).

Jean-Gérard Gorges, *Les Villas hispano-romaines: Inventaire et problématique archéologiques* (٨)
(Paris; Talence: Bocard, 1979).

الرسم الرقم (٣٣ - ٥)
خريطة لمواقع رومانية عند نهر الوادي الكبير



Ruggles and Variava map.

المصدر:

كان لهذه الفيلات الريفية مثيلاتها في المدن؛ على سبيل المثال، عُثر حديثاً على بقايا قصر ثيرثيديا في الشمال الغربي لمدينة قرطبة. وقد بلغت مساحة هذا القصر ثمانية هكتارات، وكان مجمعاً إدارياً مهماً في فترة حكم الإمبراطور ماكسيميان، الذي ربما تم تفويضه حاكماً للبلاد بعد زيارته المدينة عام ٢٩٦م^(٩).

(٩) تم بناؤها على سطح ملعب روماني قديم، انظر: R. Hidalgo and Pedro Marfil Ruiz, «El yacimiento arqueológico de Cercadilla: Avance de resultados», *Anales de Arqueología Cardobesa*, vol. 3 (1992), pp. 277-308.

على الرغم من أن عالم الآثار الإسباني الشهير ليوبولدو توريس بالباس كان قد عبّر في أواسط القرن العشرين عن امتعاضه لعدم وجود دراسات حول مدينة قرطبة في العصر الروماني، فهو أشار إلى الآثار الغنية والفريدة التي تم اكتشافها خلال حفر المجاري المائية وممار خطوط التليفون وعمليات التنقيب في الأرض^(١٠). وما دام المحدثون اكتشفوا أنقاضاً قديمة لدى الحفر لإقامة أبنية جديدة، فمن المؤكد أن الأندلسيين في القرنين التاسع والعاشر قد أخرجوا مثل هذه الكنوز أيضاً. وهناك دليل قاطع على أن ذلك لم يكن حال مدينة قرطبة فقط، ولكنه يسري أيضاً على سائر المنيات أي الملكيات الزراعية، والقصور التي شيدت بين القرنين الثامن والعاشر.

بدءاً من ثنية الرصافة التي بناها الخليفة الأموي عبد الرحمن الأول في النصف الثاني من القرن الثامن شمال مدينة قرطبة، وفّرت هذه المنيات لأصحابها بدائل ريفية عن المساكن المدنية المزدهمة وربما الملوثة بالضوضاء^(١١). وكما الفيلات الرومانية، توفر لهذه المنيات التربة الخصبة على طول نهر الوادي الكبير. ولكنها لم تكن مستمرة من الناحية التاريخية، لأنه عندما بدأ عصر اقتصاد المنيات كانت الفيلات الرومانية قد تهالكت. وربما كان ذلك في العصر القوطي الغربي عندما انهار الاقتصاد الزراعي بالكامل (مثلما حدث ثانية في قرطبة بعد فتنة ١٠١٠ - ١٠١١). كانت هناك أيضاً علامات على أن الفيلات الرومانية تم تدميرها نتيجة غزوات التخريب في القرن الخامس، لأن كثيراً من الفن الروماني الذي جرى العثور عليه كان مدمراً وهو ما دل على ما عاناه خلال الفترات العصيبة.

في كلتا الحالتين، كانت هذه الفيلات خلال الفتح الإسلامي للأندلس كمحاجر يستعين بها البناؤون من خلال تقطيع الأحجار والأعمدة والقواعد والأحواض والتماثيل. وقد تم الاستعانة بهذه القطع من الحجارة الرومانية والقوطية الغربية في بناء مسجد قرطبة.

وفي مدينة الزهراء، كان يوجد في قصر الخلافة الكبير الذي بناه الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث الناصر على مسافة قريبة من قرطبة عام ٩٣٦، أحواض مياه

(١٠) لخلاصة عن الأركيولوجيا الرومانية في قرطبة، انظر: P. Léon Alonso, ed., *Colonia Patricia*: انظر: *Corduba: Una reflexión arqueológica* (Cordoba: [n. pb.], 1996).

(١١) Antonio Arjona Castro, «Las Ruzafas de Siria y de Córdoba», in: M. J. Viguera Molins and C. Castillo, *El Esplendor de los Omeyas cordobesas (Exposición en Madinat al-Zahra' 3 de mayo a 30 de septiembre de 2001)* (Granada: Fundación El Legado Andalusi, 2001), pp. 380-385.

مصنوعة من الأحجار الرومانية، وعلى البوابة الرئيسية للقصر كان يوجد تمثال روماني لامرأة^(١٢). أطلق على هذه البوابة اسم «باب المدينة» أو «باب الصورة»، إشارة إلى التماثيل الرائعة. لم يستطع المؤرخان الرازي وابن حيان إدراك فن نحت التمثال، إلا أنهم تعرفوا إلى أسلوبه الفريد كتمثيل مدينة الزهراء الأموية الأسطورية^(١٣).

ومع ذلك، من المؤكد أن هذا التمثال كان رومانياً لأن هناك تماثيل شبيهة له على المدخل الروماني لجسر كبير يقود إلى المدينة المسورة^(١٤). لم يكن وجود هذا التمثال عادياً ولكنه لم يكن فريداً في نوعه، إذ يسجل ابن حيان أن هذه التماثيل المرمرية، وهي من أصل روماني بالتأكيد، تحرس أسوار مدينة إشبجة^(١٥).

تجاهل مؤرخو هذه الفترة الأصول الرومانية لا للتماثيل الفنية فقط وإنما لعدد من مظاهر البناء الأخرى أيضاً حول قرطبة^(١٦). وقد كتب المقاري في بدايات القرن السابع عشر معتمداً روايات شهود عيان مثل الرازي وابن حيان، حيث أرجع القناطر التي كانت تروي منية الناعورة (٣٢٩/ ٩٤٠) على أنها كانت تحت رعاية الخليفة عبد الرحمن الناصر وفي أملاكه:

(١٢) لمعرفة المزيد عن هذا الحجر، انظر: J. Beltrán Fortes, «La Collección arqueológica de época romana en Madinat al-Zahra',» *Cuadernos de Madinat al-Zahra'*, vol. 2 (1991), pp. 109-126.

(١٣) معظم الخليلات كن عبادات مسيحيات من الشمال، وكان للبين ثقافات مختلفة ويتحدثن لغات مختلفة. لمعرفة الأصول الرومانية لتمثال البوابة انظر: D. Fairchild Ruggles, «Mothers of a Hybrid Dynasty: Race, Genealogy, and Acculturation in al-Andalus,» *Journal of Medieval and Early Modern Studies*, vol. 34 (2004), pp. 65-94, and [in Spanish], «La Lengua materna: convivencia y cultura en al-Andalus,» in: Eduardo Subirats, ed., *Américo Castro y la Revisión de la Memoria (España y El Islam)* (Madrid: Ediciones Libertarias, 2003).

(١٤) Al-Muqqari, *Analectes sur l'histoire et la littérature des arabes d'Espagne*, edited by R. Dozy [et al.], 2 vols. in 3 (Leiden: E. J. Brill, 1855-1861); [reprinted] (London: Oriental Press, 1967), vol. 1, p. 344, citing Al-Razi and Ibn Hayyan; trans. Pascual de Gayangos, *History of the Mohammedan Dynasties in Spain*, 2 vols. (London: Oriental Translation Fund, 1840), and E. Lévi-Provençal, *Histoire de l'Espagne Musulmane*, 3 vols. (Paris: Maisonneuve, 1950-1953), vol. 2, pp. 135-136.

(١٥) أبو مروان حيان بن خلف القرطبي بن حيان، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس: وهو مشتمل على تاريخ دولة الأمير عبد الله الأموي بقرطبة، ٥ ج (مدريد: [د. ن.], ١٩٧٦)، ص ٥٦، وقد ذُكر في: Janina Safran, «From Alien Terrain to the Abode of Islam: Landscapes in the Conquest of Al-Andalus,» in: John Howe and Michael Wolfe, eds., *Inventing Medieval Landscapes* (Gainesville: University Press of Florida, 2002), pp. 136-149.

(١٦) D. Fairchild Ruggles, *Gardens, Landscape, and Vision in the Palaces of Islamic Spain* (Pennsylvania: Pennsylvania State University Press, 2000), pp. 37-40; Safran, «From Alien Terrain to the Abode of Islam: Landscapes in the Conquest of Al-Andalus,» pp. 136-149, and Janina Safran, *The Second Umayyad Caliphate* (Cambridge, MA: Center for Middle Eastern Studies and Harvard University Press, 2000), pp. 143-150.

«في بداية عام (٣٢٩هـ / ٩٤٠م)، أنهى الناصر إنشاء القناطر الصناعية الهائلة التي تنقل المياه العذبة من الجبال إلى قصر الناعورة في الجهة الغربية من قرطبة، وقد تدفقت المياه عبر القناطر الصناعية في منظر خلّاب متصل، وتصب هذه القناطر مياهها في بركة كبيرة يوجد على حافتها أسد ضخم الحجم، فريد التصميم، مخيف في مظهره... وتروى هذه السلسلة الغناء من الحدائق من العصارات التي تتدفق فوق الأرض وحول المنطقة»^(١٧).

وعلى امتداد عدة كيلومترات من القناطر التي تأتي بالمياه من الجبال إلى قرطبة وضواحيها، تم بناء التوسعات الجديدة في القرن العاشر، مثل القناطر القصيرة المقوّسة الشكل الخاصة بقناة فالديفوييتيس فوق مدينة الزهراء. ومع ذلك، عندما قام المعمارون المتخصصون بفحص مواد البناء، اكتشفوا أن أغلب القنوات والترع التي كانت في مدينة قرطبة وفي الضواحي الخاصة بممتلكات البلاط الملكي مثل منية الناعورة (٣٢٩هـ / ٩٤٠م) ومدينة الزهراء تنتمي إلى «أكوا أوغستانا»، وهي شبكة متصلة بُنيت خلال القرن الأول الميلادي (انظر الرسم الرقم (٣٣ - ٦))^(١٨).

وفي كلا العصرين، الروماني والإسلامي، كانت هذه القناطر تجلب المياه إلى المدينة والريف على حد سواء؛ وكان يوجد نظام هيدروليكي واحد يقوم في خدمة متطلبات الاثنين. ولا تزال بقايا هذا النظام موجودة في قرطبة إلى اليوم (انظر الرسم الرقم (٣٣ - ٧)).

كانت المياه إحدى الضرورات العاجلة لعدة أسباب؛ فقد كان تأمين مياه الشرب من باب الأولويات للسكان، وكذلك مياه الخدمة العامة، إضافة إلى أنها تمثل حاجة لدى المسلمين لدواعي الوضوء قبل إقامة الصلوات الخمس اليومية. وعليه، فتزويد الجماعة بفساقٍ من مياه الشرب العامة (السبل) وتوفير المياه لحمامات المدينة والمساجد، كان تحديداً بعضاً من أعمال الخير. لكن المياه هي كذلك أحد الموارد الاقتصادية المهمة.

(١٧) Al-Maqqari, *Analectes sur l'histoire et la littérature des arabes d'Espagne*, vol. I, p. 371.

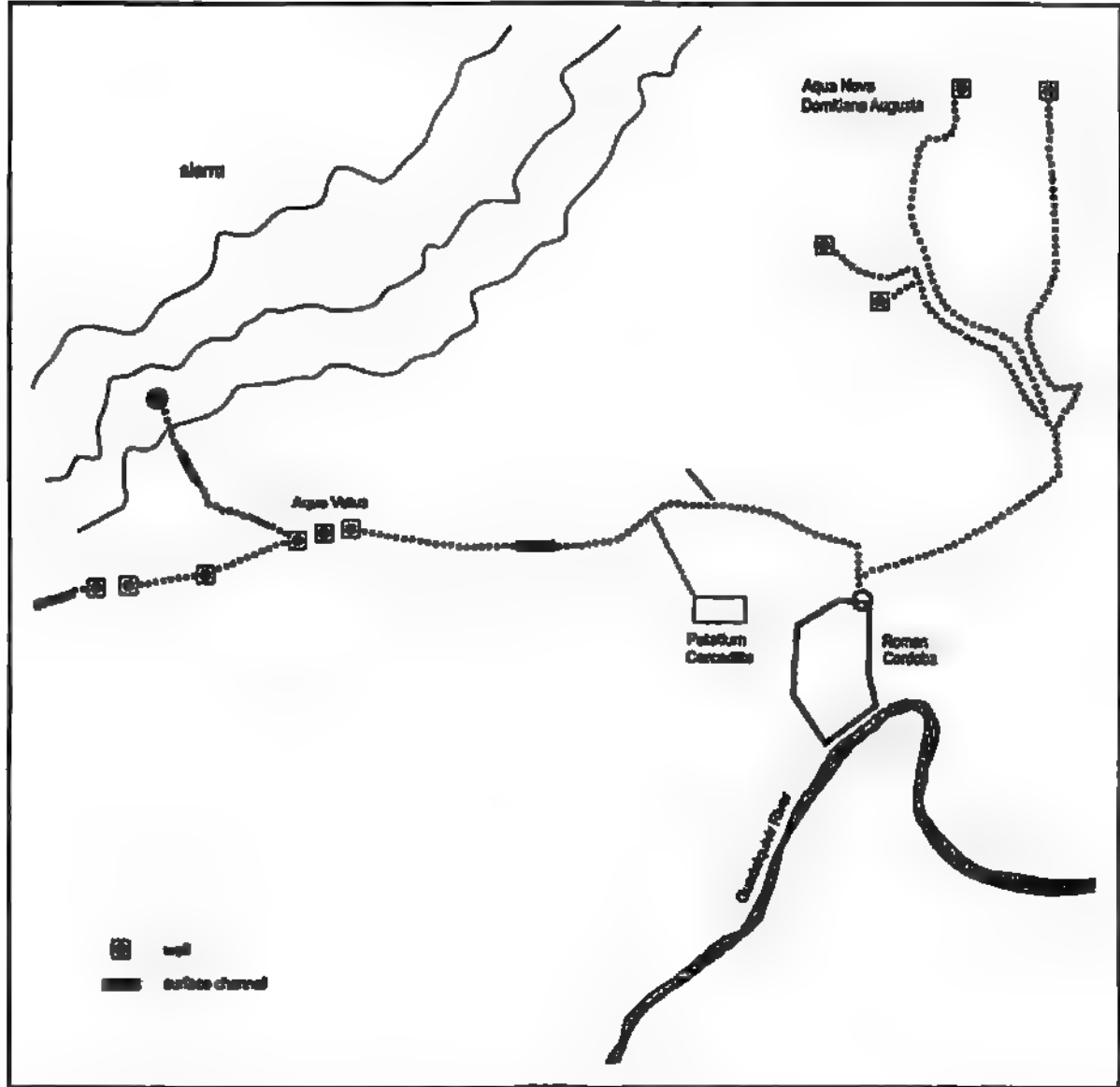
(١٨) Ventura Villanueva, *El abastecimiento de agua a la Córdoba romana. I. El Acueducto de Valdepuentes* (Córdoba: [n. pb.], 1993).

وفي ما يتعلق بفنّ عمارة القناطر حول قرطبة، انظر: R. Castejón, *Excavaciones del plan nacional en Medina Azahra (Córdoba), campaña de 1943* (Madrid: Ministerio de Educación Nacional, 1945), pp. 14-17.

وفي ما يتعلق بالبنية التحتية الهيدروليكية بمدينة الزهراء، انظر: Antonio Vallejo Triano, *El aprovechamiento del sistema de saneamiento de Madinat al-Zahra'* (Córdoba: [n. pb.], 1991), and Vallejo, «Madinat Al-Zahra», capital y sede del Califato omeya andalusí, in: *El Esplendor de las Omeyas cordobeses* (Granada: Fundación Andalusí, 2001), pp. 386-397.

كانت هناك بعض المدن التي تتوافر فيها المياه لمدّها إلى السبل وحتى إلى بعض السكان، مثل فاس، بينما عانت مدن أخرى، مثل طنجة، الجفاف المستمر الذي لم يخفف منها حفر الآبار أو الإدارة الحريصة^(١٩).

الرسم الرقم (٣٣ - ٦)
أكوا أوغستانا، قرطبة



Ruggles, «Il Giardini con pianta a croce nel Mediterraneo islamico».

المصدر:

Susan G. Miller, «Watering the Garden of Tangier: Colonial Contestations in a Moroccan (١٩) City,» in: Susan Slyomovics, ed., *The Walled Arab City in Architecture: Literature and History* (Portland-London: Frank Cass, 2001), pp. 25-50.

الرسم الرقم (٣٣ - ٧)
بقايا قناة رومانية في الجزء الغربي من قرطبة



المصدر: المصدر نفسه.

وعلى الرغم من أن السيرا، التي تحدّ الوادي الكبير من إشبيلية إلى قرطبة فيها مصادر مياه وفيرة، فقد اعتمدت الزراعة فيها على أنظمة الري. كان متوسط الأمطار في تلك المنطقة يصل إلى ٧, ٣ بوصة (٩٤ مم) في شهر تشرين الثاني/نوفمبر وحده، لكنها تعود فتجف أو تنعدم تقريباً خلال أشهر الصيف^(٢٠). وكان النهر يقوم بتوفير كمية محدودة فقط من المياه لأنها كانت تحتاج إلى رفعها إلى الحقول عند الحاجة، وهو استثمار مكلف من ناحية العمالة. لكن بالنسبة إلى الملكيات البعيدة، مثل مدينة الزهراء التي تعلو ١٠٠ م عن مستوى النهر، والتي تبعد مسافة كبيرة من ضفافه، فكان يتم الحصول على المياه من الجداول الموسمية التي تجري من الجبال شمال النهر (انظر الرسم الرقم (٣٣ - ٨))، وقد تم تحويل هذه الجداول إلى قنوات وترع تدفقت إلى

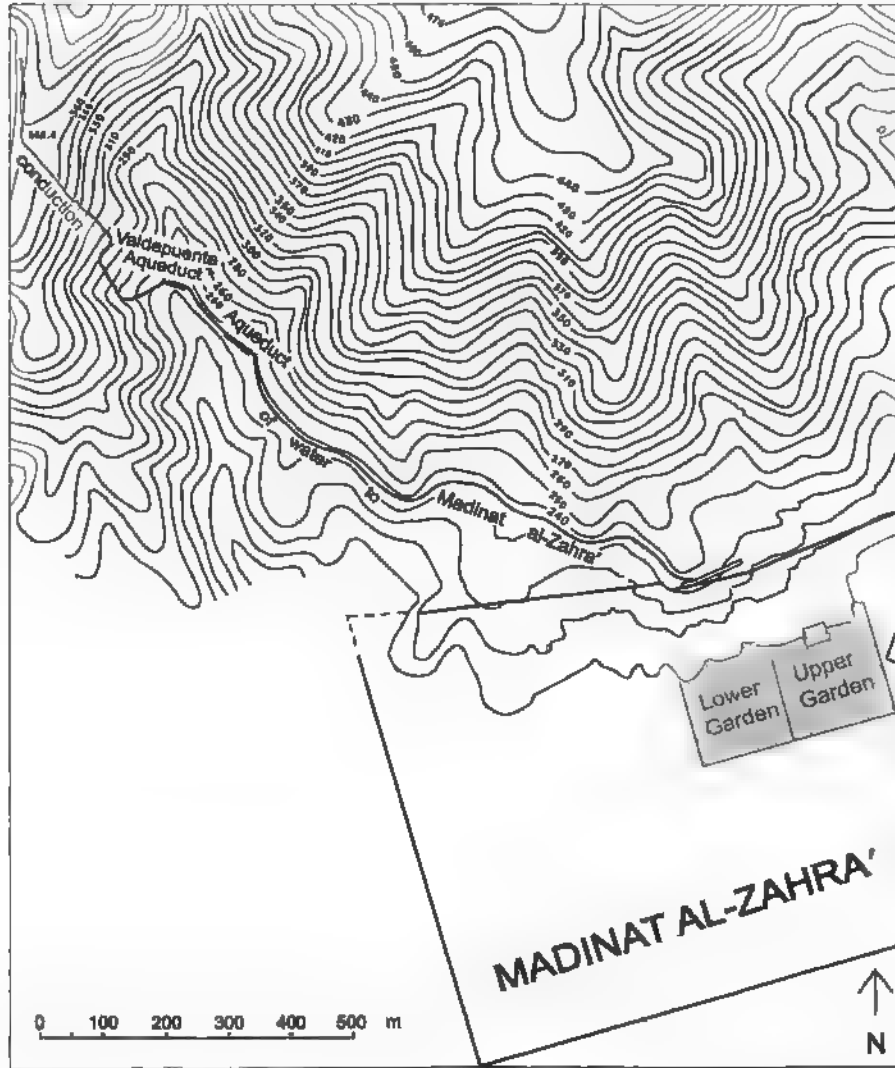
James Ruffner and Frank Bair, eds., *The Weather Almanac*, 4th ed. (Detroit: [n. pb.], 1984), (٢٠) p. 332.

وفي ما يتعلق بالجغرافيا البشرية وأنظمة الريّ الإسبانية، انظر: Thomas Glick, *Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1979).

وفي ما يتعلق بأنظمة الريّ في الوادي الكبير، انظر: Ruggles, *Gardens, Landscape, and Vision in the Palaces of Islamic Spain*, pp. 5-7.

الأراضي الزراعية، إضافة إلى الآبار التي غطت الأراضي الزراعية حول قرطبة، والتي أفادت من الطبقة المائية المرتفعة القريبة من النهر^(٢١).

الرسم الرقم (٣٣ - ٨)
إمدادات المياه في مدينة الزهراء



المصدر: المصدر نفسه.

وعلى الرغم من التوافر الدائم للمياه في العادة، فقد تم توظيف عدد من التقنيات الهندسية المختلفة لتوصيل المياه إلى الأماكن التي تحتاج إليها من أجل الري. أحد تلك التقنيات كانت القناة السطحية، كما رأينا. وكان الأساس الذي تقوم عليه هذه التقنية هو

(٢١) دافع ابن البصّال في كتابه الفلاحة عن فكرة إقامة الآبار بمحاذاة الأنهار، انظر: Ibn Bassal, *Kitab Al-Filaha: Libro de agricultura*, edited and translated by José M. Millás Vallicrosa and Mohamed Aziman (Tetuan: Instituto Muley El-Hassan, 1955), pp. 223-226, and Glick, *Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages*, p. 238.

السماح للمياه بالتدفق بمستوى ثابت ومعتدل من الانحدار، أي ليس شديد الاستواء ولا شديد الانحدار. وكانت القناة تعديلاً للنظام ذاك: حمل المياه في قناة عبر منطقة طبوغرافية غير منتظمة. وتعد القنوات الجزء الأكثر وضوحاً لقنوات أكثر طولاً تجري على مستوى الأرض أو في أنفاق عبر الجبال.

كانت القنوات (القنوات) إحدى التقنيات الخاصة بنقل المياه من مصدر مرتفع إلى نقطة توصيل منخفضة. لكن المضخات اللولبية ودواليب المياه، التي تكونت من نوعين أساسيين، أدت وظيفة مغايرة للقناطر؛ إذ كانت ترفع المياه من النهر أو البحر إلى الأرض الزراعية التي تحتاج إلى الري. وكان النوع الأول هو الناعورة، تلك العجلة الخشبية الكبيرة ذات المجاديف والدلاء المعلقة بمحيطها الخارجي، فكلما دفع تيار النهر المجاديف دارت العجلة، وامتلات الدلاء بالمياه من النهر مرتفعة بها إلى أعلى، ثم تقوم بإفراغها، بعد بلوغ رأس القوس مباشرة، في القناة أو الحوض الذي تناسب المياه منه بغزارة إلى الحقل أو المزرعة من أجل استخدامها في الري (انظر الرسم الرقم (٣٣ - ٩)). إلا أن هذا النوع من السواقي لا يرفع المياه إلى ارتفاع يزيد على ارتفاعه، لكنه كان يستفيد من مصدر الطاقة المستمر والطبيعي على نحو ثابت؛ كما أنه لا يتطلب سوى القليل من العمالة البشرية لتشغيله وربما لا يتطلب أي عمالة، لكن أعظم نواحي القصور في هذا النوع أنه كان لا يستطيع تزويد المياه إلا للأراضي الملاصقة للنهر.

والنوع الآخر من النواعير، يدعى الساقية، وهو يستخدم الحيوانات لتدوير عجلة أفقية تقوم بربط الأسنان بعجلة رأسية، وكان يتم ربط حبل أو سلسلة مع برمبل أو دلو إلى العجلة يتم تدليته أسفل البئر أو إلى نقطة منخفضة (انظر الرسم الرقم (٣٣ - ١٠)). وكلما تم تدوير العجلة، تقوم الدلاء برفع المياه من أعماق البئر إلى ارتفاع محقول، وتقوم بصبه في الحوض أو القناة التي تناسب منها المياه إلى الحقل أو الخزان. يتميز هذا النظام بأن الماء كان يتم رفعه من عمق كبير، كما أنه لم يكن يعتمد على النهر كمصدر للمياه، بينما كان يُعاب على هذا النظام حاجته إلى نفقات إضافية تتمثل بجهد الحيوانات. وكان يمكن استخدام هذين النوعين من السواقي معاً، ناعورة يدفعها ماء النهر لتدوير الساقية، وبذلك يتم الجمع بين الاستفادة من الارتفاع والقوى الطبيعية^(٢٢).

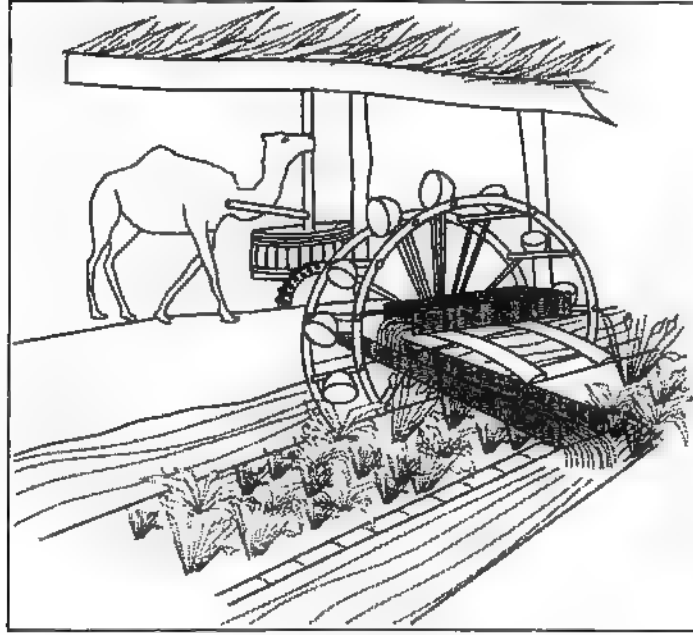
(٢٢) كانت أكثر المصادر الشاملة في تقانة السواقي، انظر: Thorkild Schioler, *Roman and Islamic Water-*

Lifting Wheels (Denmark: Odense University Press, 1971), and Donald Hill, *Islamic Science and Engineering* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1993).

Glick, *Ibid.*, pp. 68-78, and 217-247.

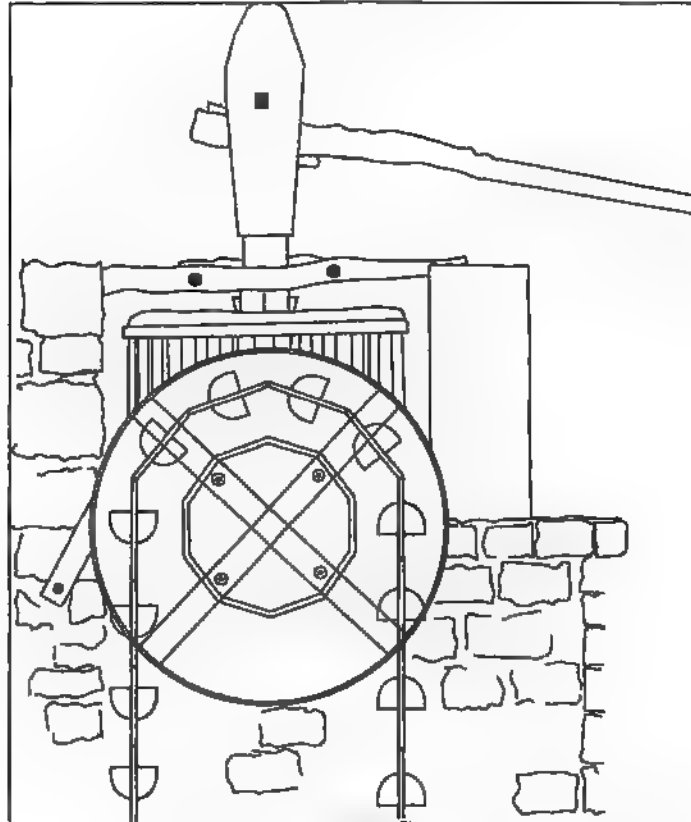
وفي ما يتعلق بالأثر الاجتماعي لهذه التقانة، انظر:

الرسم الرقم (٣٣ - ٩)
ناعورة تعمل على قوة دفع النهر



المصدر: Thorkild Schioler, *Roman and Islamic Water-Lifting Wheels* (Denmark: Odense University Press, 1971).

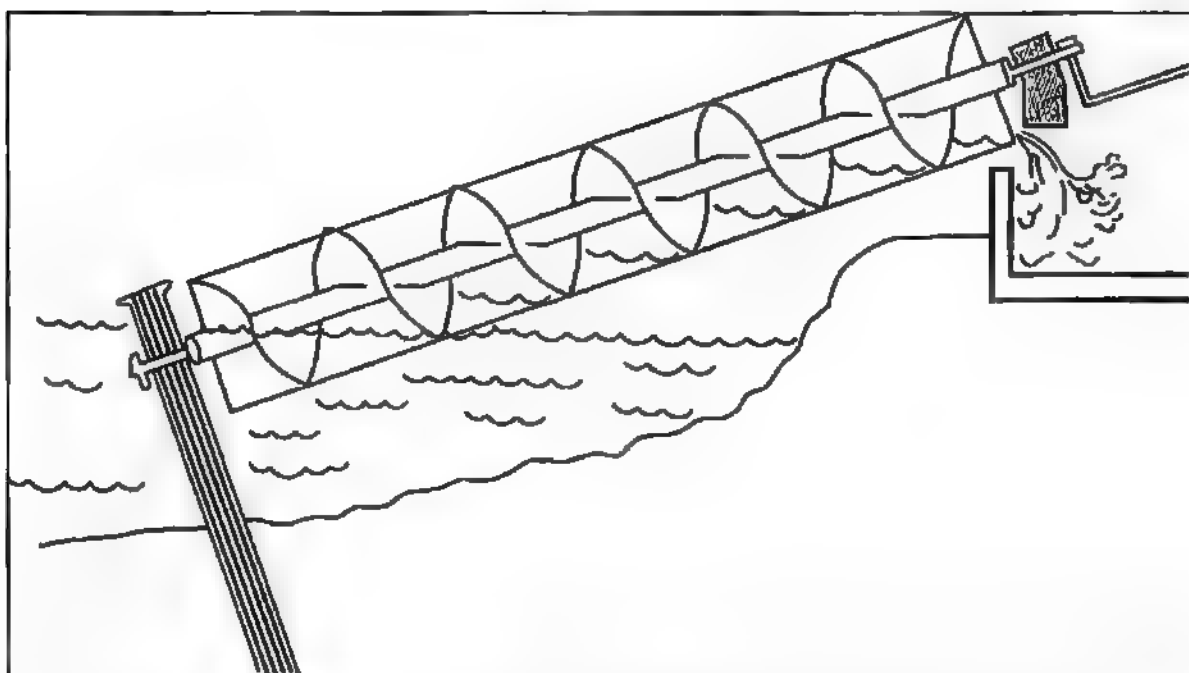
الرسم الرقم (٣٣ - ١٠)
«ساقية» ناعورة



المصدر: المصدر نفسه.

استخدمت المضخة الحلزونية، أي برغي أرخميدس، تقنية آلية مختلفة لتأدية المهمة نفسها في رفع الماء. كان يزرع لولب في إسطوانة خشبية، غالباً ما تكون جذع شجرة مجوفاً. وكلما دار المحور دار الحبل ورفع المياه إلى أعلى الأنبوب (انظر الرسم الرقم (٣٣ - ١١)). ومع أن هذه المضخة الحلزونية بسيطة إلا أنها محدودة بارتفاع محورها، ليس أكثر من عدة أمتار في العادة، كما أنها تحتاج إلى مشغل بشري، إضافة إلى أن كمية المياه التي يمكن أن ترفعها محدودة بدورها.

الرسم الرقم (٣٣ - ١١)
المضخة الحلزونية



المصدر: Donald Hill, *Islamic Science and Engineering* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1993).

وقد سجل مدّاح القرن الثالث عشر الهجري، إسماعيل بن محمد الشقندي، ٥٠٠٠ ساقية على نهر الوادي الكبير. ورغم أن بعض هذه السواقي كان عبارة عن طواحين آلية، إلا أن الجزء الباقي كان يقوم بتوفير المياه للزراعة وللإستخدام المحلي؛ فليس من الدهشة بمكان إذا أن نجده يمتدح نهر الوادي الكبير لتأثيره الطيّب في البساتين والمزارع والحقول المزروعة حول ضفتيه^(٢٣)، ولا يزال بالإمكان مشاهدة آثار البنية التحتية لهذه

Al-Maqqari (Citing al-Shaḡundi), *The History of the Mohammedan Dynasties in Spain*, vol. 1, (٢٢) pp. 41-42, and Al-Shaḡundi, *Elogio del Islam español*, translated by E. García Gómez (Madrid: Escuela de Estudios Árabes, 1934), p. 105.

المياه في أراضي قرطبة، فيمكن على سبيل المثال مشاهدة آثار الناعورة (الناعورة أو الساقية) التي كانت ترفع المياه من النهر إلى حدائق الكازار [قصر المورق] على ضفة النهر الآن؛ حيث تندفع المياه بصورة أكثر قوة تحت الضغط، وهذا هو تماماً ما يحدث حين تندفق مياه النهر عبر قناطر الجسر، ونظراً إلى قوة الدفع الهائلة في منطقة النهر على جانب الجسر، كان هناك عدد كبير من السواقي في هذه المنطقة، ومعظم هذا النوع من السواقي يخص الطواحين، ولا يزال يمكن رؤية أساسات الحجارة في الجزر التي تقع وسط النهر، لكن تلك السواقي التي تقع على طول ضفتي النهر كانت تعمل كآليات لرفع المياه من أجل الري.

وبين الرسم التوضيحي الوارد في مخطوطة بياض ورياض التي تعود إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر من الهجرة هذه السواقي التي ترفع المياه من النهر إلى حديقة مرتفعة تحيطها جدران عالية من الحجارة، تشبه حدائق قصور قرطبة^(٢٤).

وفي الحقيقة، إن الدلائل على أنظمة عاملة على الجاذبية كبيرة اليوم. ففي نظام المياه الشامل لمدينة الزهراء، لم تكن المياه العذبة تندفق إلى كل حجرة تقريباً فقط، ولكن هذا النظام كان يعمل أيضاً بالتوازي مع نظام لصرف المياه^(٢٥).

وفي إحدى المناطق المرتفعة في الجبال، في منطقة تُستخدم اليوم لتربية الثيران، تقوم أرض زراعية ترجع إلى العصر الإسلامي، يوجد فيها حوض مزخرف يتم تغذيته من خلال قناة حجرية كانت تصب المياه عبر سبيل يشبه الفيل أو الخنزير (انظر الرسم الرقم (٣٣-١٢)).

وعلى الرغم من أن هذا الموقع في إحدى المناطق البعيدة كان متصلاً بالمركز العمراني الذي كان يأخذ ما ينتجه للبيع، فهو كان متصلاً أيضاً عبر مسارات مياه خاصة به بجميع المزارع الأخرى حول قرطبة^(٢٦).

(٢٤) توجد النسخة الوحيدة المعروفة من هذه المخطوطة في الفاتيكان (رقم ٣٦٨).

(٢٥) Vallejo, «Madinat Al-Zahra», capital y sede del Califato omeya andalusí.

(٢٦) انتقل هذا السبيل مؤخراً إلى إحدى المناطق الريفية في متاحف قرطبة، في ما يتعلق بهذه السبل التي تشبه أشكال الحيوانات، انظر: Ruggles, *Gardens, Landscape, and Vision in the Palaces of Islamic Spain*, pp. 209-212.

كانت أحواض المسجد تمتلئ بمياه الأمطار التي يتوضأ بها المصلون، لكن الخليفة الحَكَم الثاني قام بتوسيع شبكة الري لتوفير المياه العذبة باستمرار. انظر: Ibn 'Idhari, *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne intitulée al-Bayano 'l-Mogrib*, translation de E. Fagnan, 2 vols. (Algiers: [n. pb.], 1901-1904), vol. 2, p. 396.

الرسم الرقم (٣٣-١٢)
نافورة مياه على شكل فيل مع خزان وقناة



Ruggles, «Il Giardini con pianta a croce nel Mediterraneo islamico».

المصدر:

وفي عام ٩٦٧، تم توسيع هذا النظام لكي يمد المياه إلى سبيلين عامين يتم استعمالهما للوضوء في المسجد الكبير في قرطبة^(٢٧)، هذا ولم يسجل المؤرخون اسم الملكية الزراعية التي كان يوجد فيها السبيل الذي يشبه الفيل، كما لم يبق أثر لمبانيها السكنية، لكن الثابت أن أحواض هذه المنطقة استمرت تُمَلأ بالمياه (المجموعة من الأمطار) في الثمانينيات، وعندما رأى هذا المؤلف الصورة تلك، فقد شهد على ديمومة الأنظمة النفعية، على الرغم من تقلب الحظوظ السياسية.

شجعت التحسينات والتوسعات التي أدخلها أمراء وخلفاء الدولة الأموية على شبكة الري الملاكين على الخروج من المدينة وتأسيس أملاك ومزارع جديدة. وفي ذلك الوقت كانت الضواحي الموجودة حول قرطبة تكتظ بالسكان، وهو الأمر الذي جعل شاعراً مثل الشقندي يلاحظ قائلاً: «لقد نما إلى سمعي أن مدن قرطبة والزهراء والزاهرة كانت تغطي مجتمعة مساحة من الأرض تمتد إلى ١٠ أميال، مسافة يمكن

(٢٧) كان الجامع يملأ عادة خزاناته من المطر الذي يجمع من المزارب المحيطة بسقف قاعة الصلاة، لكن الخليفة الحَكَم الثاني مدَّ شبكة الري لتأمين مياه شرب أيضاً، انظر: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٠.

قطعها بالليل في ضوء المصابيح القريبة من بعضها البعض^(٢٨). وقد أوضح المسح الأثري أن الآبار في هذه المنطقة كانت تغرق في بعض الأوقات حتى لثلاثة أو أربعة أمتار، وهو ما يدل على الكثافة السكانية^(٢٩). وكانت الأنظمة الهيدروليكية يتم تركيبها عادةً لتقوم بخدمة الحاشية الملكية في المقام الأول، لكنها أصبحت في ما بعد مواد محفزة للتنمية الإقليمية الجديدة. ويظهر بوضوح أن حوافر الضواحي الجديدة كانت عالمية: ففي بناء مدينة الزهراء، كان الخليفة يغدق الأموال لتشجيع أتباعه على شيد منازلهم في هذه المنطقة^(٣٠).

وبعيداً من الضواحي المكتظة في المنطقة التي تحيط بمدينة قرطبة مباشرة، كانت الأملاك الزراعية أو الإقطاعيات تشغل مساحات شاسعة بعيدة بعضها من البعض. وتمدنا النصوص التاريخية بأسماء ووصف العديد منها. وكانت هذه الأملاك تخص في العادة أفراد العائلة الأموية، وقد اكتشف المسح الأثري بقايا القليل منها، ومن هذه الإقطاعيات الرصافة التي بناها عبد الرحمن الأول في الفترة ١٣٨ - ١٧٢ هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨ م شمال المدينة في المنطقة التي تعرف اليوم باسم تورينولوس^(٣١). بينما قام ببناء مئنة العجب على الضفة الأخرى من المدينة زوجة الحَكَم الأول في بدايات القرن التاسع^(٣٢).

ولم تكن هذه الإقطاعية مقرأ ملكياً ولكنها كانت وسية [عزبة] يعمل بها الناس، ومن الثابت أنه قد تم وهبها كوقف يصرف من عوائده على مرضى الجذام الذين يعيشون بإحدى المناطق المخصصة لهم، أما مئنة الناصر فقد بناها أحد الموالى الأغنياء لعبد الرحمن الثاني (٨٢٢ - ٨٥٢) ثم حازها وأعاد تجديدها عبد الله (٨٨٨ - ٩١٢)

Al-Shaqundi, in: Al-Maqqari, *The History of the Mohammedan Dynasties in Spain*, vol. 1, (٢٨) p. 41.

Gayangos, *History of the Mohammedan Dynasties in Spain*. وقد تم اقتباس الترجمة هنا من:

Rafael Castejón, «Córdoba Caliphal», *Boletín de la Real Academia e Ciencias, Bellas Letras* (٢٩) y *Nobles Artes de Córdoba*, vol. 8, no. 25 (1929), p. 295.

(٣٠) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، المغرب في حلل المغرب، حققه وعلق عليه شوقي ضيف، ذخائر العرب؛ ١٠، ٢ ج (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤)، ص ١٧٤، و *Kitab* Ibn Hawqal, *Configuration de la terre* (surat al-ard), édité et transleté de J. H. Kramers et G. Wiet, 2 vols. (Paris et Beirut: [n. pb.], 1964), vol. 1, pp. 110-111, et vol. 2, p. 111.

Ruggles, *Gardens, Landscape, and Vision in the Palaces of Islamic Spain*, pp. 42-45, and (٣١) Castro, «Las Ruzafas de Siria y de Córdoba», pp. 380-385.

اكتشف التصوير الفضائي سياجاً مركزياً من التخطيط رباعي الأجزاء، ومع ذلك يبقى تعيين هذا المكان كالرصافة من الخطورة بمكان.

Lévi-Provençal, *Histoire de l'Espagne Musulmane*, vol. 3, pp. 381-382; Castejón, «Córdoba (٣٢) Caliphal», pp. 291 and 301, and Ruggles, *Ibid.*, p. 45.

وكانت تقع شمال المدينة على الضفة المقابلة، كما كان يوجد فيها عدد من الطواحين المعروفة باسم طواحين الحناء^(٣٣).

وكان من بين تلك الإقطاعيات وسية منية القرشية التي تنتمي إلى أحد أشقاء هالام الثاني، وكانت تقع كذلك على ضفة النهر، وكان اللقب الذي يطلق عليها «الشمامات» أو «الشمامات» بمعنى الرائحة الطيبة^(٣٤)، كما كان يوجد عدد من الإقطاعيات الأخرى مثل منية البنطي، ومنية الناعورة، وفيلا ابن شهيد، دار الروضة، منية المتالي، كاستيلو البيضاء، والرّمانيّة، مدينة الزاهرة، منية المغيرة، قصر البستان، الدّمشقي، منية الزبير، المشافية، حير الزجالي، وغيرها من الإقطاعيات الأخرى التي جاء وصفها دون ذكر أسمائها^(٣٥).

وفي القصائد الشعرية والنصوص الجغرافية، امتدح الأندلسيون الطبيعة وليس البراري، لكن من أجل أن تكون ذات منفعة اجتماعية وقيمة اقتصادية، كان لا بد من تطويع الطبيعة من خلال علاقتها بالمدينة والتأثير الحضاري للثقافة المدنية، لهذا كانت هناك مكانة منطقية للمزارع وإعادة إعداد الإقطاعيات على الخريطة، وهذا ما يحدده التأثير الريفي والحضري. وكان لكل منية تأثيرها في المركز الحضري والبيئة التي حولها، وذلك في تناغم يمثل الاستثمار النمطي للوادي الكبير.

لقد كانت هذه المنيات تزيد على كونها مجرد مناطق تشغل حيزاً مكانياً إلى كونها تنمية مرحلية، وإلا لما كان لها من تأثير ليس في البيئة المحيطة فقط بل في التنمية المستقبلية أيضاً. كانت هذه المنيات مصفوفة بطريقة استراتيجية حول المدينة من أجل الاستفادة من مراكز الأسواق والشبكات الاجتماعية؛ حيث كانت علاقة المدينة بالمنية تشبه علاقة قصر المورق بإقطاعياته الملكية التي توجد في الضواحي؛ حيث كانت أغلبية هذه المنيات قريبة بعضها من بعض إلى درجة أن رجال القصر والحاشية لم يكونوا ليتحركوا بينها باستمرار؛ وحتى مدينة الزهراء، وهي إحدى أبعد المناطق، إذ كانت تبعد من قرطبة نحو ٧ كم، لم تكن تُسكن باستمرار؛ وكان الخليفة يرجع إلى القصر خلال فصول الشتاء فقط من أجل الاجتماعات العامة مثل المجالس الحربية. ولم تكن المحاصيل الزراعية

Ruggles, *Ibid.*, pp. 45-47.

(٣٣)

E. Garcia Gomez, «Notas Sobre topografia cordobesa en los 'Anales de al-Hakam II' por 'Isa (٣٤) Razi.» *Al-Andalus*, vol. 30 (1965), p. 339.

Ruggles, *Ibid.*, pp. 35-52 and 110-132; Torres Balbás, *Ciudades Hispanomusulmanas*, انظر: (٣٥) 2nd ed. (Madrid: Instituto Hispano-Arabe de Cultura, 1985), p. 141, and Al-Maqqari, *Analectes sur l'histoire et la littérature des arabes d'Espagne*, vol. 1, p. 304.

هي التي تؤخذ للمدن لبيعها في الأسواق فقط؛ إذ كانت الأرباح التي يجنيها التجار في الحضر من خلال التجارة في المواد الخام وتصنيعها (مثل الجلود والعطور والأنسجة) يتم استثمارها مرة ثانية في الريف، لذلك كان الرخاء الاقتصادي للمدينة يعتمد على رخاء المناطق الريفية النائية والمساهمة فيها^(٣٦). هذا التجاور كان يعني، بمفردات اقتصادية وثقافية، أنه كان هناك فارق طفيف بين الحياة في المدينة والضواحي.

كانت المنيات مشاريع إنتاجية، إضافة إلى جمالها الخلاب؛ حيث كانت جذرائها البيض المشرقة تشبه، وفقاً لما ذكره ابن سعيد، «مجموعة من اللآلئ»، كانت بساينها وحدائقها الغناء تنتج الطعام، والتوابل، والروائح المفيدة، وسرعان ما امتدح المؤرخون العرب هذه الجوانب كافة^(٣٧). فهناك البرتقال والليمون وأشجار اللوز التي تفوح بالروائح العطرة الطيبة في الربيع، والتي كانت تنتج الفواكه وحبّات الجوز الصالحة للأكل، وقد كان للزهور أيضاً قيمة اقتصادية، حيث كان يستخدم كل من الزعفران والورد في الطهي وفي مركبات الروائح؛ حيث كانت الورود تنمو بكثافة حول قرطبة، وقد كتب أحد من رأى هذه المشاهد أن الزهور كانت تمثل مصدراً جيداً للدخل لأن مقدار «ربع» (خمسة وعشرون رطلاً) من أوراق الورد كان يصل ثمنه إلى أربعة دراهم أو أكثر في السوق^(٣٨).

وفي الحقيقة، كان التنوع الكبير في الثمار، والزهور، والمحاصيل الرئيسية التي تنمو في المواسم المتعاقبة، يمثل تأميناً ضد حدوث أي تلف بأحد المحاصيل، وقد أدرج ابن العوام في كتيب زراعي ١٢٠ نوعاً، كان أكثرها شهرة القمح، والزيتون، والتين، والليمون، واللوز، والعنب^(٣٩). ومن بين الـ ١٧٧ نوعاً التي قام ابن البصّال بشرحها في كتاب الفلاحة، نطلق اليوم على نصف هذه الأنواع اسم نباتات الزينة.

قام نظام الري الذي سمح بازدهار المشهد الزراعي حول مدينة قرطبة على أسس رومانية وتقانية قديمة أعاد مالكو الأرض من المسلمين بناءها وصقلها، حيث

Maurice Lombard, *Espaces et réseaux du haut moyen âge* (Paris and The Hague: [n. pb.], (٣٦) 1972), p. 36-63, and Glick, *Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages*, p. 74.

Al-Maqqari, (quoting al-Shaḥūndī's description of Córdoba), in: De Gayangos, *History of the* (٣٧) *Mohammedan Dynasties in Spain*, vol. 2, pp. 41-42.

(٣٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١.

Ibn Al-'Awwam, *Le Livre de l'agriculture d'Ibn al-Awwam (Kitab al-Filaha)*, translated by (٣٩) J. J. Clément-Mullet, 2 vols. in 3 (Paris: [n. pb.], 1865-1867); Reprinted (Tunis: Éditions Bouslama, 1977), and Jaime Vicens Vives, *An Economic History of Spain*, translated by F. M. López-Morillas, 3rd ed. (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1969), pp. 108-109.

كان لدى هؤلاء المالكين حافز اقتصادي وقانوني من أجل رفع إنتاجية تلك الأرض. ومع ذلك، فقد ركز المؤرخون المسلمون حصراً على التجديد والتحديث، حيث صوّروا ذلك بوصفه منشآت جديدة. لم تكن شبكة الري هي الإرث الروماني الوحيد الذي تجاهله المؤرخون الأندلسيون؛ فعندما سار الجيش الإسلامي الفاتح عام ٧١١ من شاطئ جبل طارق إلى قرطبة ثم طليطلة، واستولى على مدينة إشبيلية عام ٧١٢ ثم مريدا [غير المدينة الشهيرة في المكسيك، بل هي عاصمة منطقة الحكم الذاتي في إكستريما دورا غرب وسط إسبانيا] عام ٧١٣، ثم بعض المدن الشمالية الأخرى بين عامي ٧١٣ و٧١٤، كان الجنود الرومان هم من مهّدوا الطرق الرئيسية تلك^(٤٠).

ومع ذلك، لم يذكر مؤرخو القرون الوسطى سهولة السفر كجانب مهم من جوانب الفتح. وربما يرجع ذلك إلى أن الطرق كانت في حالة سيئة حيث لم تكن جميعها سوى طرق مشاة صغيرة وضيقة بعد قرون من الإهمال في العصر القوطي الغربي عندما تدهورت التجارة وأصبحت شبكة الطرق عديمة الفائدة. ولكن كون نهر الوادي الكبير هو المجرى الإسباني الوحيد الصالح للملاحة، فإنه من المنطقي أن تحظى الطرق التي تربط هذه المجاري المائية بالمراكز الحضرية الداخلية لشبه الجزيرة الأيبيرية الجنوبية بقدر كبير من الاستخدام. وعلى الجانب الآخر، فلعل الأرض المسطحة الممهدة لم تكن لتعني غير القليل لجيش اعتاد الانتقال كمشاة أو على الخيل، ومن دون عربات. وعلى الرغم من ذلك، فإنها الهندسة الرومانية وطرق السفر هي التي سهلت الرحلات الطويلة التي قطعها الجنود.

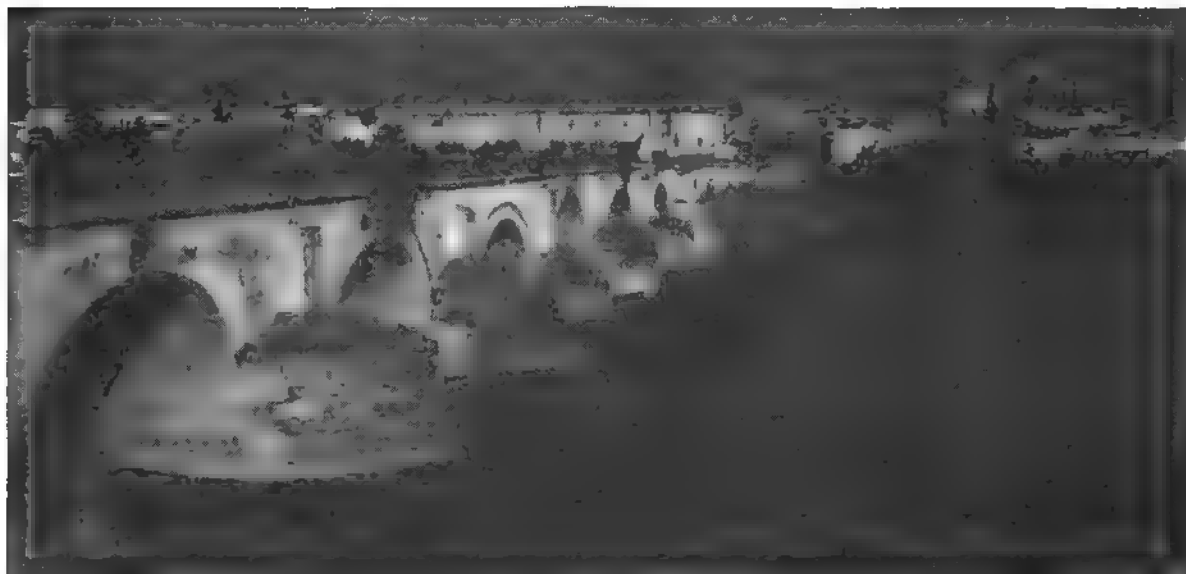
عندما وصل هؤلاء الجنود إلى قرطبة، بهدف العبور من الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير إلى المدينة الواقعة على الضفة الشمالية، من المحتمل أن يكون الجيش قد عبر النهر مع اتجاه التيار فيه. وقد بدأ الهجوم في تشرين الأول/أكتوبر حين لم يكن النهر في حالة فيضانه الكاملة، حتى أواخر الشتاء، وبالتالي فهو كان ملائماً للعبور. ومع ذلك، كانت الجسور القديمة الطريق المناسب لعبور النهر عقب إخضاع قرطبة. الجدير بالذكر هنا أن الجسور التي بنيت في عهد الملك أغسطس قد دمرت وانهارت تماماً واضطر حاكم قرطبة المسلم إلى إعادة بنائها عام ٧٢١، وقد أعاد بناءها من الحجارة التي أخذت من سور المدينة. ثم قام عبد الرحمن الأول بعد ذلك بإصلاحها وتوسيعها

Francisco Videl Castro, «De Arabia a Toledo: La expansión terrestre,» in: *El Esplendor de los Omeyas cordobeses*, pp. 24-33. (٤٠)

مرة ثانية بعد عام ٧٥٦ على الرغم من وصف المؤرخين لذلك بأنه إعادة إعمار (انظر الرسم الرقم (٣٣-١٣))^(٤١).

الرسم الرقم (٣٣-١٣)

جسر قرطبة



المصدر: المصدر نفسه.

أخيراً، أحاطت الأسوار التي أقامها الرومان بكل جوانب قرطبة، مدينة بلغت مساحتها ما يقرب من ١٨٢ هكتاراً (أصغر نسبياً من مدينة إشبيلية). وقام عبد الرحمن الأول (الذي حكم من عام ٧٥٦ حتى عام ٧٨٨) بإصلاح وتوسيع أسوار المدينة؛ ولكن بعض المؤرخين، أمثال النويري، كتبوا أن الأمير هو الذي بنى تلك الأسوار^(٤٢).

وعلى الرغم من أن الأبنية القوطية الغربية التي ربما قد حُجبت عدداً من المؤسسات الرومانية، إلا أنه ما زالت هناك بقايا بارزة لمعبد، كما كان هناك عدد من آثار النصب التذكارية الرومانية والقوطية الغربية التي أعيد استخدامها في بناء المسجد الكبير. وفي إشبيلية لا تزال آثار المتدى والمسرح وحمامات وقناة رومانية ظاهرة إلى

(٤١) شمس الدين أبو عبد الله محمد الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق أ. مهران (ليدن : هرازوفتش، [١٩٢٣])، ص ٢٤٢.

(٤٢) Al-Nuwayri, *Historica de los musulmanes de Epania y Africa (Nihayat al-'rab fi fnon al-'adab)*, edited and translated by M. Gasper Remiro, 2 vol. (Granada: CEH, 1917), vol. 1, p. 9.

يومنا هذا. واليوم يقع المستوى الروماني على عمق يراوح ما بين ثلاثة إلى ستة أمتار تحت مستوى شوارع المدينة الحالية في قرطبة.

في مجال واحد أقر الكتاب العرب بدينهم فيه إلى القدماء، هو مجال العلم والفلسفة. فالكتيبات الإرشادية التي تتناول الزراعة والدراسات التي تتناول النباتات، مثل النسخة المشروحة على نحو جيد من كتاب المواد الطبية لديوسقوريدوس، وهي عبارة عن نص يوناني كتب عام ٧٨م، وقد أرسلها الإمبراطور البيزنطي إلى الخليفة عبد الرحمن الثالث في الحقبة ٣٣٧ حتى ٩٤٨، حظي التراث اليوناني لا بالاعتراف والتقدير فقط وإنما بكثير من الحفاوة أيضاً.

وفي الحقيقة، فقد كان التنويه بأعمال بعض الكتاب اليونانيين واللاتينيين أمثال بلييني وغالين وكولوميليا وفارون دلالة على سعة المعرفة الموجودة^(٤٣). كما تنقل كتاب أمثال عريب بن سعيد، وابن جلجل، وابن وافد وابن سينا بسلاسة بين تعاليم عدد من الكتب الكلاسيكية القديمة وملاحظاتهم الواقعية في الحياة الفعلية، فاستوعبوا المعلومات القديمة المتعلقة بالنباتات في ما قدم عدد منهم تعليقات وملاحظات جعلتها أكثر منفعة في السياق الأندلسي^(٤٤).

وقد أدى جلب فصائل جديدة غير محلية من النباتات، مثل الزعفران والسبانخ والحشيش ونبات الكتّاد والذرة وأشجار الحنّة من القرن الثامن وحتى القرن الرابع عشر، إلى تنوع النباتات التي تطلبت من علماء النبات الفهم العملي لكيفية تربية النباتات الغريبة والمجربة محلياً وتحسين السلالات من خلال بعض التقنيات مثل تطعيم النباتات وانتقاء سلالات جديدة وتحسين التربة^(٤٥). وربما ترجع اللفتة في تلقي أعمال العلماء الزراعيين أمثال ابن وافد وابن الحجاج وابن البصّال وابن ليون وأبو الخير

Ruggles, *Gardens, Landscape, and Vision in the Palaces of Islamic Spain*, pp. 19-29. (٤٣)

César E. Dubler, *La «Materia médica» de Diocòrides: Transmisión*: انظر: *medieval y renacentista*, 6 vols. (Barcelona: Emporium, 1953-1959); vol. 1: «Addresses the Arabic Versions of Diocorides».

Ruggles, *Ibid.*, pp. 20-25. (٤٤)

لم يكن هذا غريباً عن الأندلس: ابن بطّان (ت ١٠٦٦)، الطيب المسيحي يؤكد بالمثل كل من المصادر القديمة وكذلك الخبرة العملية، وفقاً ل: Eva Baer, «The Illustrations for an Early Manuscript of Ibn Butlan's Da'wat: Al-stibba' in the L. A. Mayer Memorial in Jerusalem.» *Muqarnas*, vol. 19 (2002), pp. 1-11.

J. E. Hernández Bermejo and García Sánchez, «Economic Botany and Ethnobotany in (٤٥) Al-Andalus.» *Economic Botany*, vol. 52, no. 1 (1998), p. 23, and Andrew Watson, *Agricultural Innovation in the Early Islamic World: the Diffusion of Crops and Farming Techniques, 700-1100* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1983).

إلى أن مهاراتهم مستمدة من الخبرة العملية المباشرة في الزراعة إضافة إلى معرفتهم المكتسبة من الكتب^(٤٦).

هناك حد فاصل بين المؤرخين الذين كتبوا عن بناء الأسوار وأنظمة المياه في الأندلس وبين العلماء الذين كتبوا أبحاثاً ودراسات معمقة. فقد تفاخر العلماء الذين كتبوا تلك الرسائل والأبحاث بمعرفة حكمة القدماء وبناء شكل من الإسناد (سلسلة السند)، بينما أشار المؤرخون والجغرافيون بفخر إلى «تجديد» البنية الأندلسية. بمعنى ما، فقد كانوا يكتبون على سبيل الدعاية، ويهدف تمجيد حكم الأسرة الأموية المالكة، إما من أجل حاكم أموي كان يجزي المؤرخ بالدرجة الأولى، وإما من أجل القراء في المستقبل الذين سينظرون إلى فترة الحكم الأموي على أنه عصر ذهبي.

وإذا كان المؤرخون قد فشلوا في الإشادة بالقنوات أو القول إن الرومان هم الذين أقاموها، فربما يكون ذلك أيضاً لأن الثقافة الإسلامية منذ عقودها الأولى إنما ازدهرت في منطقة البحر المتوسط التي كانت في الأساس تحت تأثير ما أنجزته الإمبراطورية الرومانية على نطاق واسع وعميق. هنا أصبحت الفروق بين فن العمارة والمشهد الطبيعي واضحة، كما أصبحت عناصر المساحة الطبيعية، وأكثر من أي شكل آخر من أشكال الثقافة المادية والفنية، طبيعية على نحو سريع في عيون البشر حتى أصبح من الصعب تخيل التغييرات التي حدثت في تلك المساحة.

وسواء في العصور الرومانية أو القوطية الغربية أو الإسلامية أو عصور النهضة أو العصور الحديثة، تشرق الشمس نفسها على النهر نفسه، والتربة الغرينية نفسها تروى بالمطر نفسه. وعلى الرغم من أن مسارات الجداول الموسمية ربما تتغير، إلا أنها ما زالت تجري من الجبال نفسها. وفي نمط غير متغير، تعمل رعشة الشتاء البارد وحرارة الصيف الجاف على تخدير الأرض وتدفعها بالتناوب. وتُعدّ الظروف المناخية ثابتة إلى حد ما؛ لذلك نمت النباتات نفسها وأعادت إنتاج نفسها، باستثناء التغييرات الكبيرة مثل جلب وإدخال فصائل جديدة أو أنواع مختلفة مصنعة جينياً أو الأنواع المنقرضة (مثل ما حدث مع شجر البلسم الذكي في منطقة البحر الميت في القرن السادس)^(٤٧).

Ruggles, Ibid, pp. 21-29.

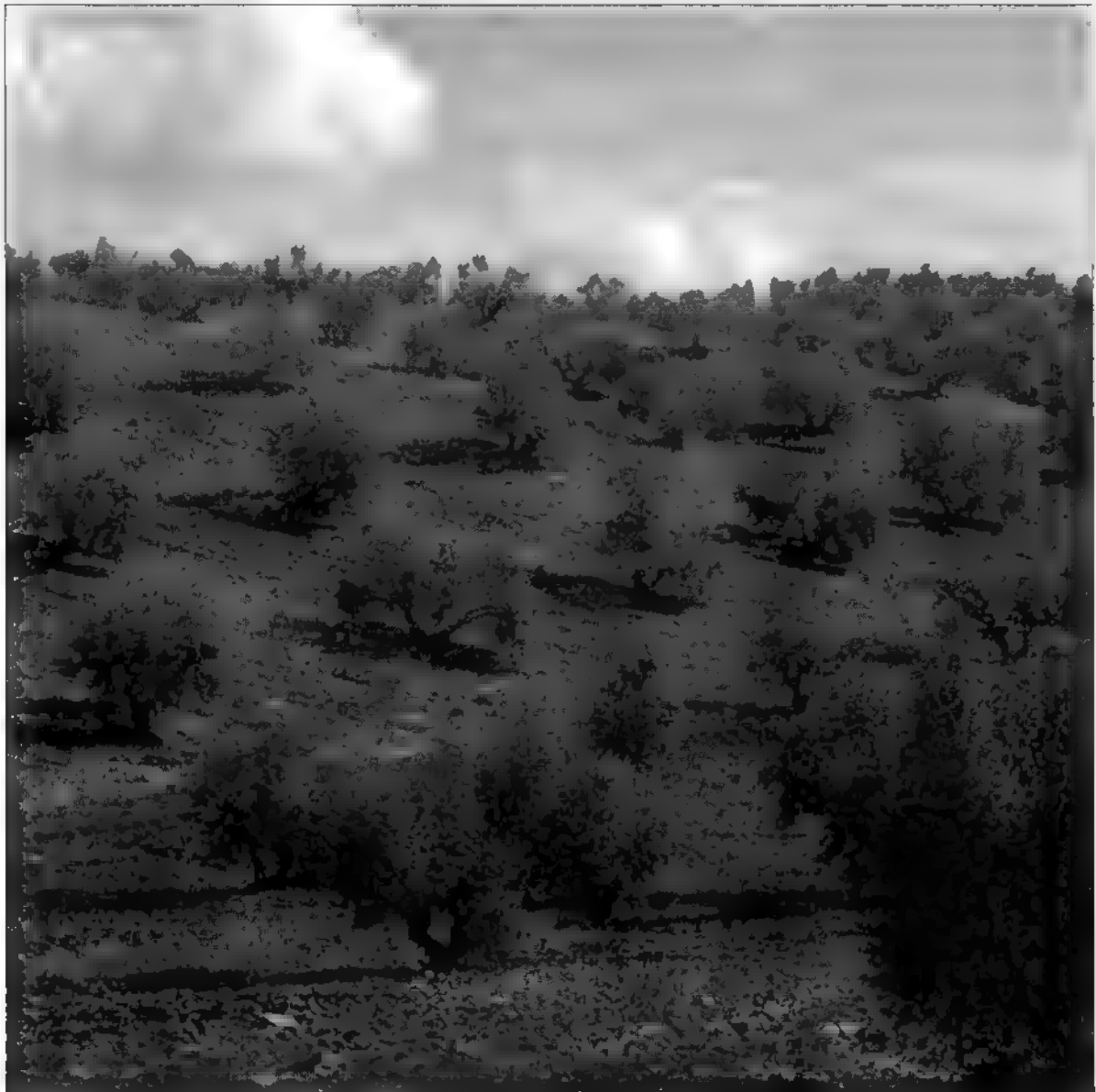
(٤٦)

Abraham Rabinovich, «Curse of the Balsam Cookers,» Archaeology (25 February 1997), (٤٧)
<<http://www.archaeology.org/online/news/balsam.html>>.

كما كانت زراعة العنب والقمح والشعير في الوادي الكبير الخصب في فترة الحكم الإسلامي هي المزروعات نفسها التي كانت تزرع من جانب الفلاحين في القرون السابقة، وأشجار الزيتون التي أنتجت المحصول الرئيسي في العصر الأندلسي الإسلامي كانت مستنسخة جينياً من أشجار قديمة أنتجتها سلالات متعاقبة كانت موجودة في العصرين الروماني والقوطي الغربي (انظر الرسم الرقم (٣٣ - ١٤))^(٤٨).

الرسم الرقم (٣٣ - ١٤)

منظر لأشجار زيتون



المصدر: المصدر نفسه.

وعلى الرغم من أنه كان هناك تحول من الاقتصاد القائم على الزراعات الجافة الواسعة النطاق التي تقاوم الجفاف، المرتكزة على الإقطاعات الرومانية (Latifundias)، إلى بيئة زراعية متنوعة وقائمة بصورة أكبر على الري في العصر الإسلامي، فإن ذلك لم يحدث تغيراً مفاجئاً في لحظة واحدة نتيجة الغزو السياسي. وعلى الرغم من عمليات التحسين والتطوير التي أدخلت على الزراعة منذ القرن الثامن وحتى القرن الثاني عشر نتيجة التطبيق والاستخدام المكثف للأسمدة والمخصبات (التي تحتوي جميعها على خواص معدنية مثالية لتخصيب أنواع معينة من التربة)، علاوة على إدخال وجلب أنواع وسلالات جديدة من النباتات والتطبيق المتزايد للري المنظم الذي أدى إلى التكثيف في زراعة مزيد من الرقعة الزراعية، فإن ذلك لم يكن ثورة مفاجئة بل كان عبارة عن عملية نمو ثابتة نتجت من العلاقة الإبداعية بين المجتمع الإنساني والمشهد المادي للماء والتربة والنباتات. لقد تم تشجيع الاستثمار في اقتصاد المُنْية محفزاً بينى ضريبية وأنظمة إيجار ملائمة. كان المستأجرون والمالكون أفراداً أحراراً؛ حيث تم توجيه أنشطتهم من خلال العقود التي تضمن الفائدة والمنفعة لكل من الطرفين التي حفزت كلاً من المالك والمستأجر على العمل على تحسين الإنتاج. كما كان المالك مسؤولاً عن تحسين رأس المال مثل تطهير الأرض وحفر الآبار وإقامة السواقي وربما المساهمة في شراء البذور والحيوانات من أجل جر المعدات الزراعية وحمل المحاصيل. كما قام مفتشو الأسواق بمراقبة الضرائب وتنظيمها على أساس حسابات ما قبل الحصاد - أي على أساس ما يحتمل أن تخرجه الأرض - مع معونات مخصصة تحسباً لحدوث أي تغييرات في أسعار السوق أو حدوث كوارث غير متوقعة^(٤٩).

وبالفعل سعت الشريعة الإسلامية والسياسات الإدارية بصورة متواصلة إلى إقامة العدالة في تقييم الضريبة كما شرحت الفوائد التي يمكن أن تعود على الاقتصاد بأسره من جراء ذلك. وفي زمن مبكر يعود إلى بداية النصف الثاني من القرن السابع، أمر الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ولاته قائلاً: «... وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في

S. M. Imamuddin, *The Economic History of Spain (Under the Umayyads, 711-1031 A.C.)* (٤٩) (Dacca: Asiatic Society of Pakistan, 1963), p. 48; Pedro Chalmers, «Un Formulaire notarial hispano-arabe du IV-X^{me} siècle: Glanes économiques», *Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islámicos en Madrid*, vol. 23 (1985-1986), pp. 181-202, and Ruggles, *Gardens, Landscape, and Vision in the Palaces of Islamic Spain*, pp. 5-7.

استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً، فإن شكوا ثقل أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش، خفت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم، ولا يثقلن عليك شيء خفت به المؤونة عنهم، فإنه ذكر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزوين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقتك بهم، فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوهم طيبة أنفسهم به، فإن العمران محتمل ما حملته^(٥٠).

وبالمثل أكد دليل الحسبة الخاص بابن عبدون، الذي كُتب في إشبيلية في القرن الثاني عشر، الصلة بين المعاملة العادلة للعمال والمزارعين العاديين وبين ازدهار الاقتصاد: يتعين على الحاكم إصدار أوامره ببذل مزيد من الجهد في حراثة التربة. حيث يجب الحفاظ عليها كما يجب معاملة القائمين على حرثها بلطف والاعتناء بهم أثناء قيامهم بحرثها^(٥١).

وفي ما يتعلق بتقييم الضرائب، كتب ابن عبدون أنه يتعين حماية المزارعين من محصلي الضرائب المفرطين من خلال تحديد ضريبة فعلية خمسة وعشرين في المئة أقل من التقييم. وذلك يسمح بادخار هامش وافر تحسباً لكوارث الطقس المفاجئة أو إخفاق المحاصيل بسبب الأمراض. كما قرر «أنه في حالة الجبوب، يجب أن لا يحصى الحصاد حتى يتم جمع الحزم في أكوام وبعد استقطاع الزيادة المعلنة في الأسعار في وقت الحصاد»^(٥٢).

لقد كانت فاعلية الأفراد إحدى الخصائص المهمة في النظام الزراعي الإسلامي وكان تأثير ذلك يظهر في المجموع. لم يكن ذلك عمل فرد واحد فقط، بل كان هناك تغيير واسع في النظام الاجتماعي الذي قاد إلى إقامة قنوات للمياه عبر مسافات طويلة أو تخزين هذه المياه في صهاريج للاستخدام خلال موسم الصيف القاحل. وعلى الرغم من إمكانية قيام أفراد بإدخال نباتات جديدة - مثل تين الدنقال الذي أخفاه الغزالي في

A Classic Administrative Policy Letter of Hazrat Ali, 4th Caliph [pamphlet], edited and translated by Shamsul Alam (Dacca: [n. pb.], 1976), p. 14. (٥٠)

Ibn 'Abdun, in: E. Lévi-Provençal, Seville Musulmane au Début du XII^{ème} Siècle: Le Traité d'Ibn 'Abdun (Paris: G. p. Maisonneuve, 1947), p. 5. (٥١)

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٥ - ٦.

وسط رزمة من الكتب وهربه من القسطنطينية إلى الأندلس في بداية القرن التاسع^(٥٣) - فإن ذلك كان يجري وسط تغيير شامل سمح بتكييفه من أجل الاستخدام البشري أو الصناعي. لقد نمت الأشجار ببطء وأعيد زرعها من خلال استئصال جذورها، لكن عدداً من النباتات الفصلية نمت بسرعة شديدة كما تم توزيعها بسهولة من أجل إعادة زرعها في أماكن أخرى. علاوة على ذلك، نُقلت أنواع من البطيخ الجيد والجميل من إحدى قطع الأرض وزُرعت مرة أخرى في الحدائق المجاورة والمزارع في السنة التي تلت. ويمكن أن نتخيل صعوبة القيام بذلك. وعلى نحو مماثل، ليس هناك شيء مماثل خطر جراحة واحدة؛ فهي وباء يضرب الحصار حول المجتمع بأكمله. كما يؤثر الطوفان والجفاف في كل فرد. وعليه كانت المعالجات لهذه المشكلات جماعية، وكذلك الاستجابة لفرص الجديدة ودمجها معاً.

ورد التحول الاقتصادي والسياسي لدول البحر المتوسط في أواخر القرن الثامن وحتى القرن الحادي عشر في عدد من النصوص التاريخية، لكن الرومان السابقين الذين أتاحوا حدوث ذلك تم تجاهلهم بسبب الفرق في الملاحظة الشاملة للطبيعة والرقعة الزراعية والاكتفاء بها. وعلى الرغم من ملاحظة الفن والعمارة كإبداع اجتماعي وتاريخي بزغ في أحد العصور والأماكن من خلال الأيدي البشرية بأمر من وصي ما، فإن المشهد الطبيعي للأرض الزراعية كان يبدو متواصلاً وغير منقطع. يرجع ذلك إلى أن الأرض الزراعية تتج بصورة مستمرة وفي كل مكان، ولهذا السبب لم تكن الأساسات الرومانية للأرض الزراعية مرئية: كان الماضي الروماني متواصلاً وموجوداً وليس نافراً ليستحق الوصف.

إلى ذلك، لم يكن من أهداف الأيديولوجيا الإسلامية إنعاش الحضارات الرومانية الوثنية أو البيزنطية أو القوطية الغريبة السالفة. فقد تفاخر المسلمون، فقهاء ومادياً، باستبدال النظام القديم بنظام أفضل. وبناء على ذلك، لم يركز المؤرخون على أصول نشأة الأسوار والجسور والبوابات والمنشآت وأنظمة المياه الرومانية ومزروعات الزيتون التي أحاطت بها وسمحت بها، ذلك بأنهم نظروا بحق إلى إعادة البناء المعماري على أنه بدايات جديدة، وإلى الأرض نفسها كما لو كانت من دون تاريخ.

E. Garcia Gomez, «Sobre Agricultura arabigoandaluza: Cuestiones biobiligráficas», (٥٣) *Al-Andalus*, vol. 10 (1945), p. 13.

الجدول الرقم (٣٣ - ١)

جدول بفصائل النبات التي عرّف بها إبن البصّال في دليله كتاب الفلاحة^(*)

Broom	المكنسة	Acacia	أكاسيا
Broom retama sphaerocarpa	المكنسة	Almond	لوز
Broom corn	المكنسة بشكل رأس الذرة	Amaranth	قطيفة
Bugloss	نبته أوروبية الأصل ذات أزهار زرق	Apple mint	تفاح بطعم النعناع
cabbage	الملفوف	Apricot tree	شجر المشمش
Caper bush	الطقربوش	Artichoke	أرضي شوكة
Caraway	الكرابيا	Ash	شجرة الدردار
Cardoon	الكاردون	Asparagus	الهليون
Carob tree	شجر الخروب	Asparagus bean	الفول
Carrot	الجزر	Balsam tree	شجر البلسم
Celandine	البقلة	Barley	الشعير
Chamomile	البابونج	Basil	الريحان
Chestnut	الكستناء	Beet	البنجر
Chickpea	البازيلا	Bindweed	اللبلاب
Chicory	الهندباء	Bitter apple	الحنظل
Citron	الحامض	Black cumin	الكمون الأسود
Coco grass	عشبة الكوكو	Black mustard	الخردل
Madonna lily	الزنبق مادونا	Black Pepper	البهار الأسود
Mahaleb	المحلب	Bottle gourd	القرع الأسطواني
Maiden hair fern	عذراء السرخس	Box thorn	المربع الشوكي
Cowpea	اللوبيا	Bramble	العليق
Crocus	الزعفران	Broccoli	البروكولي

(*) ليس بين أيدينا كتاب الفلاحة الأصلي لابن البصّال بالعربية، لذا ترجمنا الترجمة الإنكليزية، وعليه ربا بعض الأسماء لم تكن صحيحة فاقضى الإبلاغ (مدقّق الترجمة).

المصدر: Hernández Bermejo and Garcíá Sánchez, «Economic Botany and Ethnobotany in Al-Andalus», *Economic Botany*, vol. 52, no. 1 (1998), pp. 15-26.

Leek	الكرّاث	Cucumber	الخيار
lemon	الليمون الحامض	Cumin	الكمّون
Lentil	العدس	Cypress	السرو
Lettuce	الخس	Cyprus-tyrepentine	الفسق
Madder	النبات الصبغى	Date palm	البلح
Rush (lygeum spartum)	نبته الخرز	Dock	الحماض
Safflower	القرطم	Dyer's broom	مكنسة الصباغ
Sea onion	بصل البحر	Eggplant	الباذنجان
Sesame	السمسم	Elm	خشب الدردار
Snake melon	بطيخ الأنمى	Esparto grass	الليف
Snowbell	جرس الثلج	Fig tree	شجر التين
Soft rush	الزهرة العشبية	Flax	الكتّان
Sorghum	الذرة البيضاء	Foxtail millet	ذيل الثعلب
Mallow	المخيزة	Frankincence tree	البخور
Matricary	نبات عطري وطبي	Garden pea	البازيلا
Melon	البطيخ	Garlic	الثوم
Millet	حبوب مع قش	Gingerbread	الزنجبيل
Morning glory	مجد الصباح	Golden shower (Cassia fitula)	القرقة
Mulberry	التوت	Grape	العنب
Mullein	أذن الدب	Hackberry	الشجر الميس
Myrobalan	البرقوق	Hazelnut	بندق
Myrrh	الشجر المر	Henna	الحناء
Myrtle	الأمس	Hollyhock	الخطمة
Narcissus	الترجمس	Hyacinth bean	الصفير الفول
Nut sedge	الجوز البري	Jasmine	الياسمين
Oak tree	شجر البلوط	Jujube	العنّاب
Oil grass	العشب الزيتي	Kale	القلعة
Oleander	الدفلى	Laurel	الفار

Common apple	التفاح	Oleaster	الزيتون البري
Common balm	البلسم	Olive tree	شجر الزيتون
Coriander	الكزبرة	Onion	البصل
Cotton	القطن	Orach	شبيه بالسبانخ
Spinach	السبانخ	Orange	البرتقال
Stock	نبات عشبي منشور	Panic	عشب البطة
Strawberry tree	شجرة الفراولة	Paradise tree	شجرة الجنة
Sweet cherry tree	الكرز الحلو	Parsnip	الجزر الأبيض
Sweet marjoram	المردكوش الحلو	Peach	الخوخ
Sycamore	الدلب	Pear	الكمثري
Thistle	نبات شوكة	Pepper grass	عشب الفلفل
Thyme	الزعتر	Pine tree	شجر الصنوبر
Vetch	نبته البقة	Pistachio tree	شجر الفستق
Viola	نبته بنفسجية	Plum tree	شجر البرقوق
Wallflower	العريش	Pomegranate	الرمان
Walnut	خشب الجوز	Poplar	شجر الحور
Watercress	البقلة	Poppy	الخشخاش
Watermelon	البطيخ	Privat	الحناء
Wheat	القمح	Purslane	الرجلة (نبات عشبي)
White lupine	الترمس	Quince	السفرجل
White mustard	الخردل	Radish	الفجل
Wild pea	البازيلا البرية	Reed	القصب
Wild teasel	العميشقة	Rice	الرز
Willow	الصفصاف	Rose	الورد
Wormwood	الأفستين (نبته مرة الطعم)	Rue	نبته متوسطة ذات أزهار صفراء وأوراق لها طعم حاد
Yellow sweet clover	البرسيم الأصفر	Common anise	اليانسون

الفصل الرابع والثلاثون

المواطنة الحضرية في مواجهة القرن

محمد ناصري^(٥)

عرف القرن العشرون مرحلتين كانت مجتمعات المواطنة الحضرية القديمة فيهما محوراً للأبحاث والدراسات. تمثلت أولى هاتين المرحلتين بالثلث الأول من القرن العشرين حين كانت هذه المجتمعات لا تزال خاضعة للتنظيم الحضري التقليدي في حين كان الاستعمار لا يزال يسعى إلى بسط سلطانه؛ أما المرحلة الثانية فتمثلت بالثلث الأخير من ذلك القرن حيث بدت المدن القديمة في العالم العربي - الإسلامي رازحة تحت وطأة نزوح سكانها الأصليين، فأُست ضحية القدم والتدهور وترك السلطات العامة لها للنهب والإهمال والتسيان.

شهدت الفترة الممتدة من أواسط القرن إلى أوائل الثمانينيات تلاشياً لهذا الاهتمام، لا بل اندثاراً له من حقل البحث الحضري، باستثناء مجالين هما التاريخ والأنثروبولوجيا، كما لو أن مواطني المدن وأمكتهم، أياً تكن، لم يعودوا يستحقون البحث.

وعليه، إن تجدد الاهتمام بهذه المجتمعات قبل عشرين سنة يمثل مفارقة حقيقية، لأن المجتمع الحضري لا ينفك يتراجع من حيث عدد سكانه، وقد تحولت المدن

(٥) باحث من المغرب.

القديمة من حيث المساحة المشغولة إلى جزر صغيرة في سياق انتشار التنظيم الحضري الحديث.

تتطلب متابعة تطور الوضع الاجتماعي الثقافي لمجتمع ما وعلاقته بالشق الحضري، أي المواطنة فيه، خلال القرن العشرين، إجراء تقييم شامل لمجموع الأبحاث حول المدن العربية الإسلامية. هذا العمل المعقد إلى حد بعيد هو من الضخامة بحيث يستحيل النهوض به في إطار هذه الاعتبارات الموجزة حول تطور فكرة، أو مفهوم على حد قول البعض، لطالما عُدَّ أداة بائدة وغير مناسبة للتعرف إلى المجتمعات الحضرية.

تثير المواطنة جملة مسائل معقدة، لأسباب تاريخية وثقافية، ولأسباب ترتبط بشكل الأراضي وبالبنية السياسية للسلطات المدنية: فهل هي لها المعنى نفسه في كل مكان، في جميع المدن، وفي جميع مراحل تطورها؟ وقد تقع في هذا الإطار في مفارقات تاريخية أو في مقارنات غير ملائمة، أو قد تغفل الخصوصية لمصلحة الإجمالية. ما هي حال المواطنة المدنية ماضياً وحاضراً؟ ما هي السمة التي تجعل المدن الحالية حضرية؟ سيحاول هذا الفصل الإجابة عن هذه الأسئلة بإظهار التطور الطويل الذي طرأ على مفهوم وتعداد معانيه:

- مواطنة حضرية مفقودة: يزداد الغموض والضبابية اللذان تثيرهما هذه التساؤلات حدة حين نبحث عن معنى لمفهوم «المواطنة الحضرية» (Citizenhood)، أي citadinité الفرنسي.

فما من قاموس فرنسي يشرح معناها، إذ لا ترد سوى لفظة «حضري» (citadin) الإيطالية الأصل. قد يعود أصل كلمة حضرية إلى إيطاليا الشمالية حيث عكس التعارض (cittadino/contadinn) الطبيعة العميقة للعلاقات بين سكان المدن والأرياف الناتجة من السيطرة السياسية للمدن الإيطالية على فضاء الأرياف المجاورة. تمثل هذه العلاقة عنصراً أساسياً في علاقات المواطنة الحضرية. في أدب أوائل القرن، كانت كلمة «مواطن حضري» تشير إلى سكان المدينة التقليدية؛ أما اللغة الإنكليزية فهي لا تملك في الحقيقة ذلك المفهوم، إذ إن كلمة Citizenhood (المواطنة الحضرية) المنحوتة من الفرنسية، غنية بمكوناتها الحضرية، إلا أنها لا تفيد معنى المواطن الحضري^(١).

(١) Citizenhood: الترجمة التي اقترحتها للكلمة الفرنسية (Citadinité) والتي تبدو لنا أنها تعبر بشكل أفضل عن فكرة الالتئام إلى مدينة؛ اعتمدت هذه الترجمة في الصفحة ٢٥٠ من مقارنة المدن الشرق الأوسطية. رأي حول مدن المغرب والشرق في: *Middle Eastern Cities in Comparative Perspective: Point de vue sur le villes du*

نواجه الصعوبة نفسها في اللغة العربية. فقد استعمل ابن خلدون مفهوم «ال عمران الحضري» ليعني به سكان المدن، والذي ترجم في طبعة بلياد (Pléiade) بمعنى «الحضارة المدنية» أو العمران المدني.

في الوقت الحالي، يوجد مفهوم جديد يحاول التعبير عن هذا المعنى، ألا وهو «التمدينة». إلا أن هذه الكلمة لا ترضي الجميع، حيث يفضل الكثيرون عبارة «الثقافة المدنية»، للحؤول دون انزلاق المعنى إلى «التمدين» بمعنى التحضر.

ويشير البعدان الزماني والمكاني مشكلة أخرى؛ فحضرية المدينة ليست رهن حجمها، إذ من الممكن أن تعدّ مدينة صغيرة حضرية في حين لا يمكن إطلاق هذه الصفة أحياناً على تجمع سكاني كبير. لذا، فالحضرية لا تشهد تطوراً خطياً، بل هي عرضة لانقطاعات، لفترات من تراجع تأثيرها أو لتطور سريع. وعليه، من الضروري النظر إلى الحضرية لا كحالة مستقرة غير قابلة للمساس بها، وإنما في بعدها التطوري.

لكن، على الرغم من الانقطاعات التي قد تحصل بين المواطنة الحضرية في المدن والحضرية المحتملة للتجمعات الكبرى، فإن الصلات بين الأمكنة التاريخية والأفراد والمجموعات لا تختفي بسهولة. فالمواطنة الحضرية كعلاقة اجتماعية ثقافية، التي تبقى فاعلة من جيل إلى جيل، تعيد هيكلة حياة المجتمع تاركة فيه أحياناً آثاراً لا تمحى على الممارسات والمواقف والتصورات العقلية للأفراد كما للجماعات الاجتماعية المعاصرة. وقد يتخذ هذا التأثير شكل نموذج ثقافي مهيم مع تأثيرات متنوعة ظاهرة في عمارة المنازل وهندستها الداخلية، إضافة إلى الأثاث، كما في تنظيم الأمكنة الداخلية وفنون الطعام.

- ما هي علاقتها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية؟ إن ظروف بروز التفكير حول المواطنة الحضرية، وأسباب اندثاره لثلاثين سنة ابتداء من أواسط القرن، وإطار عودته إلى حقل الاختصاصات محاولاً منح مباحثه الطابع الإشكالي، هي على صلة وثيقة بالتحويلات على مستوى العلوم الإنسانية والاجتماعية. تميزت بداية القرن بالبحث عن استقلالية للتخصصات قيد التشكل؛ أما نهايته فتميزت، مع قدر من المفارقة، برغبة في التقارب، بل والاندماج في بعض الحالات، من خلال مشاريع بحث مشتركة انطلاقاً من مشكلات يجري بحثها على نحو مشترك. ومع ذلك فكل مرحلة تشير إلى أزمة

في المجتمع المواطني المدني وإلى أزمة في المشكلات المستعملة من أجل فهمه في شموليته. عليه، يكشف الاهتمام بالمواطنة الحضرية النقاب في الوقت عينه عن اختلالات في المجتمع وعن عجز الأدوات المتوافرة عن ضمان فهم أفضل لظروف وخصائص أزمته. وفي الفترتين، تشكل «المحاولات» الرامية إلى فرض «علم» مدني إحدى أبرز مساهمات دراسة المواطنة الحضرية في تطور العلوم الإنسانية والاجتماعية حول المدينة.

أدى تعقيد مفهوم المواطنة الحضرية إلى الكثير من اللغط ومن سوء التفاهم والخلافات حول مدى ملاءمته للأزمة الراهنة، وقبول جدواه إنما يحصره بالعالم العربي - الإسلامي، أو رفضه بكل بساطة لأن المواطنة الحضرية يجب أن تعدّ أداة لم تعد تصلح إلا للمتأخرف. إلا أن انقلاب التوجهات أدّى أخيراً إلى اعتماد مفهوم المواطنة الحضرية، بعد مناقشات تخللتها سلسلة من اللقاءات العلمية والأبحاث الجماعية والفردية، في مسار طويل سنحاول التطرق إلى مراحل الأساسية على مر القرن الماضي.

أولاً: الظروف التاريخية لبناء المواطنة الحضرية

نعكس الفترات الرئيسية للاهتمام بمجتمعات المدن التقليدية تغييرات عميقة واكبت التطور التاريخي للمنطقة العربية الإسلامية خلال القرن، فقد شهد الاستعمار تحولاً سياسياً عميقاً بسقوط المدن العربية الإسلامية، بعضها لأول مرة في تاريخها، في أيدي قوى أجنبية. كما عرفت الاستقلالات الأولى بداية ثورة ديمغرافية أدت إلى إعادة تشكيل التراتيبات الاجتماعية والامكنة الداخلية في المدينة. وكان السكان المدنيون على وشك أن يصبحوا أكثرية في عدد من البلدان التي كانت الريفية البسيطة السمة المهيمنة حتى ذلك الوقت، وفق تعبير جاك بيرك. وكان النزوع إلى الاستبداد والانكفاء إلى القيم الدينية مؤشرين لبلبله كبيرة. وبدت النخب عاجزة عن احتواء المشكلات الداخلية والخارجية في ظل تفاقم التخلف، والتفاوتات الاجتماعية والمكانية التي حولت المكان الحضري في المدن إلى تجمعات سكنية عملاقة. وترافقت هذه الانتكاسات مع تراجع سياسي وثقافي واقتصادي دّل إلى ضخامة الأزمة التي يعانيها المجتمع الحضري ويفسر في الوقت عينه حيوية النقاش حول تطور المواطنة الحضرية.

جرت الأبحاث الأولية حول المواطنة الحضرية في المغرب أولاً، وقد سمح الاستعمار المتأخر للبلاد بالحفاظ على النسيج القديم على نحو لافت للنظر والمحافظة النسبية على السكان في خلال العقود الأولى من فترة الوصاية^(٢).

١ - فهم أفضل لسيطرة أفضل

لم تبد المدن في بداية الاحتلال الاستعماري مقاومة تذكر إزاء الاحتلال؛ ففي حين كان من المفترض أن يعادي السكان المحتلون، ولا سيما في فاس، «المدينة التي قيل عنها في الغرب إنها أكثر تعصباً وانغلاقاً على الأجانب من المدن الأخرى»، كان الواقع يخفي مفاجأة؛ إذ «كان الاحتكاك الأول بين السكان والغربيين سلمياً. فقد قابلنا حضرية البرجوازية بعطف حازم وباحترام كبير للتقاليد. سكان المدن أناس مهذبون ومتقنون يحافظون في المدينة على بقايا حضارة المرابطين العظيمة»^(٣).

لكن، بعد إحكام قوى الاستعمار سيطرتها على القرى، كانت المدن، ولا سيما الحضرية منها على غرار فاس وسلا، هي التي خلقت ابتداءً من الثلاثينيات، وبواسطة المقاومة السلبية أو الناشطة لسكانها، تحدياً بارزاً لوجود الاستعمار على المدى البعيد. وقد سجلت حالة مماثلة في حلب، وهو ما أثر في العلاقات بين المجتمع الحضري، والحركة الوطنية، وسلطات الانتداب^(٤)؛ فالنخب الحضرية فقدت السلطة في مدنها، وخسرت روحها، بينما «الدولة» التي كانوا يعملون على حمايتها كانت تسقط أمام ناظرهم. وجلب هذا الاندثار إعادة نظر تامة لعالمهم بأكمله. كانت هذه الفترة بداية تفتت غير قابل للرجوع عنه للنظام الحضري القديم. «لقد كانت فاتحة عصر من الشك ومن فقدان المرجعية وتلاشي الحس المرجعي»^(٥).

لم ينتظر المستعمرون ردود الفعل هذه لإيلاء أهمية قصوى منذ بداية فترة الوصاية لعملية التعرف إلى المجتمع الحضري. ويعود التعبير الأفضل عن الأهمية الاستراتيجية

(٢) عُدَّت عبارة «مدن الصفيح» التي أشارت لأول مرة إلى المناطق الفقيرة لفترة معينة خاصة في المغرب قبل أن يعمم استخدامها وأن يدرك واقعها كموضوع للأبحاث. أليس الأمر كذلك بالنسبة إلى المواطنة الحضرية؟

(٣) Robert Montagne, *Revolution au Maroc* (Paris: Edition France Empire, 1957), p. 76.

(٤) Marion Farouk-Sluggett and Peter Sluggett, «Early, Recent and Future Research on the Modern History of Aleppo: A Review and Some Proposals», paper presented at: *Middle Eastern Cities in Comparative Perspective: Point de vue sur les villes du Maghreb et du Machreg*, p. 290.

(٥) Robert Escalier, «Elites, Pouvoirs et ville dans le monde arabe: Eléments d'analyse de la citadinité», dans: *La Citadinité en Questions*, édité par Michel Lussault et Pierre Signoles, Collection Sciences de la ville; 13, Fascicule de Recherches d'urban; 29 (Tours: URBAMA, 1996), p. 29.

لهذه المعرفة إلى جورج هاردي، معاون ليوتي البارز، عالم الإثنوغرافيا أكثر منه الجغرافي، والخبير الجيوسياسي في الشؤون الاستعمارية وأحد رواد التفكير حول المجتمع الحضري، حيث حدد في مؤلفه حول الروح المغربية في الأدب الفرنسي^(٦) أحد أهدافه: «يكمن هدفنا في إقناع الباحثين، أياً كانوا، بتوجيه جهودهم نحو البحث الوحيد الذي يعد مهماً في المرحلة المضطربة التي نعيشها، ألا وهو التعرف إلى الناس هنا وهناك». ويوصفه رجلاً سياسياً فقد قدر عالماً مساهمة علماء الإثنوغرافيا في تحقيق هذا الهدف. «لم يكونوا، في أغليبيتهم، مجرد عابري طريق وكانوا على اتصال بالواقع المعيش ولم يكتبوا فقط للأكاديميين، بل عملوا مع ممثلي السلطات الاستعمارية»^(٧).

وقد أنجز هاردي وصفاً لافتاً للنظر للتراتيبات في المجتمع الحضري في الفصل المعنون «مواطنون» (Citadins) من مؤلفه^(٨). تشير الكلمة في الوقت عينه إلى المدينة وسكانها. وكانت طريقة العيش والنشاط الثقافي يحددان الطابع الحضري لمدينة مثل فاس مأخوذة كنموذج. «فاس خير مثال عن المدينة الحضرية التي تجمع ما بين فخامة المسكن والملبس والمأكل؛ الكلام مصقول أكثر من أي مكان آخر، والأدب في الصدارة. يزعم الفاسيون عن حق أنهم يمثلون في الإمبراطورية واحة الثقافة الأبرز»^(٩).

وكانت فاس مدينة حضرية حقيقية من حيث وظائفها. فهي تقدم «هذه التوليفة النادرة بين مدينة مثقفة وجامعية ودينية ولاهوتية مزودة بسوق ناشطة ومشغل تصنيع واسع؛ فجميع الفاسيين يلدون تجاراً بحكم الوراثة والتقليد كما هي حال الفينيقيين القدماء». كما كانت حضرية بفعل قدرتها الاستيعابية وإشعاعها، إذ «اضطلعت بدور بوتقة ومنارة في الوقت عينه؛ فكانت بوتقة ذابت فيها عناصر إثنية في خليط غريب من آثار المرابطين والحضرية؛ ومنارة وصل إشعاعها إلى الأجزاء الأبعد من الكتلة البربرية القديمة لتليينها وإثارتها شيئاً فشيئاً».

من أجل إدارتها على نحو أفضل، كان ينبغي عزل مدن المواطنين الحضرية عن المدينة الاستعمارية. وقد خضع هذا الانقسام، المؤسس لانعدام التجانس الذي ميز

Georges Hardy, *L'Âme marocaine d'après la littérature française*, Bulletin de l'Enseignement Public du Maroc; 73 (Rabat: Editions du Bulletin de l'Enseignement Public du Maroc; Paris: Librairie Emile Larose, 1936).

(٧) المصدر نفسه، ص ٢ و ١٥٥.

(٨) المصدر نفسه، ص ١١٧ - ١١٩.

Montagne, *Revolution au Maroc*, p. 81.

(٩)

المدن في القرن العشرين، لـ «المبدأ المطلق في فصل المدينة المغربية عن المدن الأوروبية الجديدة». ترافق هذا التهميش للمدن التقليدية مكانياً مع الإمعان في النظر إلى الماضي البعيد؛ وعليه، وبحسب رأي ليوتي، فإن «المدن القديمة جواهر غريبة من القرون الوسطى تجدر حمايتها». واعترف جورج هاردي أن قلة هم الأشخاص الذين لا «ينظرون إلى المغرب على أنه من مخلفات القرون الوسطى، وصحيح أن أي مدينة تستذكر بالضرورة وحتى اليوم بعد أربعة عشرة سنة من الوصاية الفرنسية صوراً كثيرة من ماضينا». وأكد روبر مونتان من جهته أن «سكان المدن يشكلون في ما بينهم مجتمعاً شبيهاً بذلك الذي تشكل خلال القرون الوسطى في المدن التجارية الكبرى في أوروبا».

إذاً، الصورة لا لبس فيها: مجتمع جامد تأبّد على مر الزمن داخل إطار تجمّد على مرّ القرون. أما حضرته فقد جرى فهمها من خلال لائحة المفاهيم التي يملكها المراقب لماضيهم. إلا أن هذه الرؤية لم تخدع جورج هاردي، إذ رأى أن هذا الشبه بين ماضي مجتمع وحاضر مجتمع آخر مجرد «تماثل سطحي». وخلص إلى القول عقب تحليل خصائص الإقطاعية عموماً والمدينة الإقطاعية خصوصاً، «لا يمكن إقامة أي مقارنة بين هذا الوضع الاجتماعي (المغرب) والإقطاعية».

٢ - من الأهداف النفعية للمعرفة إلى المشروع البحثي

كان جورج هاردي يطمح إلى تخطي «التماثلات الخاطئة في الزمان التي تضاف إلى التماثلات الخاطئة في المكان لتزيد من حدة الالتباس». لذلك، فقد تولى الإفصاح عن هدف مشروعه والإشارة إلى مناهج التقمّص المستخدمة: «الروح المغربية في النهاية ليست سوى حصيلة خبرات، وما يشغلنا يتجاوز نطاق السياسة الاستعمارية». كانت النية واضحة جلية، إذ لم يقضِ الهدف بدراسة مجتمع حضري على نحو ظرفي أو لتوفير دليل لـ «مستعمرين»، بل بإدراك «الحالة النفسية» لسكان المدينة عبر التحقيق في فئاتهم الاجتماعية ومهنتهم ورجال السلطة والأعيان لإدراك واقع السكان الأصليين. واتسم هذا الأخير بالصبر والحساسية وبُعد النظر وتتطلب «اختلاطاً طويلاً وحميماً مع الجماعات موضوع البحث».

كان على هذه المعرفة الحداثية مراعاة قواعد المنهجية؛ لأنه تعين على الدراسة النفسية «العثور على المعلومات النفسية وتوضيحها وإكمالها ببيانات علمية» وبما يتجاوز الاستغلال المنهجي للمصادر الوثائقية. أضاف: «تساهم العلوم الإنسانية كافة

وبصورة متفاوتة في حركة البحث هذه». ومن خلال إدراج مشروعه في إطار تطور «العلوم الإنسانية»، فقد نصّت منهجيات مشروعه على ضرورة أن «تستمد المعطيات من خلال العناية العلمية، وأن يبقى الأدب العلمي الموضوع النفسي نصب أعينه»^(١٠). وكانت تلك إرادة واضحة في إقامة الجسور بين التخصصات توجهاً لمعرفة متكاملة جديدة في طور التشكل.

من هم رواد مشروع تأسيس المعرفة الجديدة هذه؟^(١١) أولاً علماء الإثنوغرافيا الذين اهتموا بعلم النفس المحلي أكثر من اهتمامهم بعلم النفس العام». شدد جورج هاردي، حيال موضوعات دراستهم التي كانت في طور الصياغة ومناهجهم غير الدقيقة، على ضرورة التعرف إلى الحياة العملية لمواطني المدن ومواقفهم من الدين وضرورة تخطي إطار البحث في الفولكلور. كذلك شدد على الحاجة إلى تفسير قصصهم وأساطيرهم وتفادي إهمال «قواعد الأسلوب والفرق بين المراقبة والسرد وبين الواقع والخيال». وكان يريد أن يتم إرفاق الأبحاث حول المؤسسات بدراسة القانون والوقوف عند الفنون التي وجب تحريرها من «الاستشراق المعهود». ولاحظ أن اللغويين «واسعو الخيال»، إنما فصلوا اللغة عن العقل وذلك بإجراء عدد قليل من «الدراسات التي تتناول تركيب الجملة والتي من شأنها توفير وثائق رفيعة المستوى حول علم النفس». وقد أوصى في نهاية المطاف بتأسيس «علم النفس الجمعي» هذا بالاستغلال المنهجي لمصدر جديد يتمثل بـ «تعبير الوجه والحركات والمواقف» و«العلاقة بين تفاصيل الحياة اليومية وطرق التفكير وحركات الجسم المختلفة». وهو يشير في هذا الإطار إلى أودينو الذي رأى أن «طريقة الجلوس تقرر كل شيء»، من ارتفاع النوافذ إلى علو الأثاث إلى الآلات الموسيقية، أي الحياة كلها»^(١٢).

لم تكن مساهمات الاختصاصات المختلفة في مشروع بحثه الواسع متكافئة. وبحسب جورج هاردي يُبدي الجغرافيون «تحفظاً بالغاً فيه، نظراً إلى تمسكهم بقيود شكلية. و«الجغرافيا النفسية» لم تتخذ حتى الآن شكلاً واضحاً في أي مكان». ولا يمكن

Hardy, Ibid., pp. 2, 7, 10, 145-155, 164.

(١٠)

Nellia Dias, «Une Science nouvelle? La Géo-ethnographie de Jomard,» dans: *L'Invention scientifique de la Méditerranée* (Paris: Edition de l'EHESS, 1998), pp. 159-183.

هذا المقال يتقصى تاريخ تأسيس الأنثروبولوجيا الوصفية بضوابط.

Hardy, *L'Ame marocaine d'après la littérature française*, pp. 157-159 et 162.

(١٢)

يلاحظ موريس لو غلاي حول طريقة الجلوس: «لسنا جنساً مرفصاً وأعتقد أننا لن نستطيع اعتماد طريقة عيش هذا الشعب (المغربي) وأساليب عمله من دون أن نفقد سلطاننا عليه».

بالتالي التعويل على هذا التخصص على الرغم من أن له الفضل في تجنب الجغرافيين
أشراك الحتمية^(١٣).

في المقابل، أعطى جورج هاردي التاريخ مكانة رفيعة في دراسته، لأن التفسيرات
التاريخية تضيف لمسة محددة على الاعتبارات الإثنوغرافية والجغرافية، وهو ما يعيد
إبراز الخصائص المحلية. وفي رأيه «أنه من الواضح أن يكون للتفسير التاريخي دور
بارز في دراسة... كل مدينة، وكل مجموعة اجتماعية».

هنالك انشغال أولي يتعلق بالسلطة وحرص في المعرفة أو مشروع تكوين معرفة
جديدة حول «علم النفس الجماعي» لفهم ليس مواطن المدن فحسب، بل سكان البلد
ككل أيضاً. كان طموح جورج هاردي تطوير مناهج بحث «علمية» لا تزال جنينية، وقد
اعترف هو نفسه بحدوده فقال «يجب إعداد دراسة كاملة حول المناهج» لحل المشاكل
الأكثر عمومية^(١٤).

وعلى الرغم من عمله في ظروف أخرى مختلفة، يظهر مؤلف مارسيل كلارجي
حول القاهرة سمات مشابهة، مع الرغبة في تقديم إشكاليات جديدة متعلقة بالأبحاث
حول المدينة. ففي عام ١٩٣٤، «كان [مارسيل كلارجي] أول من لاحظ (في دراسته
حول جغرافية القاهرة) استحالة فهم النسيج الحضري من دون النظر في أبعاده
التاريخية والقانونية والديمقراطية أو الاجتماعية. وهو مشروع ضخم أسيء فهمه في
زمه^(١٥) من جانب الهيئات الأكاديمية في فرنسا، كما كانت حال الدراسة التي أعدها
جورج هاردي.

خلق سوء فهم الغايات المتوخاة من المحاولات الرامية إلى إعادة تأسيس
الاختصاصات التي يتناول موضوع بحثها المدينة أزمة مستدامة ستؤثر في تجديد
المعارف حول المدن التقليدية وتطور مجتمعاتها.

(١٣) ينفذ جورج هاردي علم الإثنوغرافيا «الذي لا يسهه تفسير كل شيء ويقول بثبوت الطبع الإنساني الذي
ينبغي إكماله وتصحيحه من خلال الجغرافية». ويقول عن هذا التخصص الأخير وعن ممارسته على يد البعض:
«بالطبع، إننا نستبعد هذه الجغرافية الخاطئة والملتبسة وأي شعور يبدو وكأنه يفسر كل شيء في حين لا يفسر شيئاً
ويستند إلى تأثير غير محدد المعالم وظاهري محض للجور والمشهد الطبيعي الذي هو رهن حساسية المراقب وأفكاره
المسبقة على نحو شبه حصري».

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٥٣ و ١٦٤.

(١٥) Robert Ilbert, «Méthodologie et Idéologie, la recherche française sur les politiques urbaines en
Egypte», paper presented at: *Middle Eastern Cities in Comparative Perspective: Point de vue sur le villes
du Maghreb et du Machreg*, pp. 103-114.

٣- المواطنة الحضرية كصلة بالعالم: حضارة أم ثقافة؟

اضطلع شخصان بدور حيوي في تحديد خصائص المواطنة الحضرية، وهما يمثلان الفترة الأخيرة لباحثي الحقبة الاستعمارية، الشاهدان الأخيران على «الحياة المواطنة الحضرية».

تلقي صورة المجتمع الفاسي الذي رسمها روجيه لو تورنو ضوءاً جلياً على أوجه الحياة كافة في مدينة كبيرة في خلال مرحلتين من تطورها، أي في بداية ونهاية فترة تمتد لنصف قرن. إلا أنه على الرغم من معرفته العميقة بالمجتمع الفاسي فهو لا يتحدث عن مواطنته الحضرية، فتراه يحلل ظواهرها البادية في جميع أوجه المدينة وحياة المجتمع، من دون أن يورد الكلمة نفسها. وهو يتحدث عن «جهد كبير في التقنين المناقي»، ولا سيما عن نجاح الفاسيين في «إرساء طريقة عيش خاصة بهم، غنية، ومتميزة ويمكن تطبيقها على الأنشطة اليومية كافة، بدءاً من طريقة الأكل والاستقبال وصولاً إلى العلاقات الفكرية الأكثر سمواً. يعرف هذا الجهد بالحضارة». فهو يتحدث عن رائعة فاس في «فن» العيش الجمعي «العقلاني والواقعي»، ويلاحظ أنهم «نجحوا في خلق حضارة أصيلة حتى داخل المغرب، مرهفة من دون إفراط، وراضية عن ذاتها»^(١٦). هذا أحد المواقف في تقليد الإثنوغرافيا الاستعمارية التي جعلت كلمة مواطنة حضرية أكثر تعقيداً وزادت من ثرائها لجهة المعنى.

ويعود لجاك بيرك الفضل في استعمال كلمة مواطنة حضرية (Citadinité) وتحويلها إلى مفهوم. فعبرة «المواطنة ككمال للثقافة» تزيد من تعقيد المفهوم ومن دقة استعماله لأنها تحيلنا على المعاني المتعددة التي تكتسبها كلمة ثقافة، ما يصعب علينا الأمور. إلا أنه لا يكتفي بهذه العبارة، إذ تم تحليل المواطنة الحضرية بطريقة تجعلها أقرب من الأنثروبولوجيا القانونية منها إلى المقاربة الإثنوغرافية أو السوسيولوجية. وبسبب تشبعه بالعلوم الإسلامية فقد كان أكثر قدرة من الإثنوغرافيين على فهم التأثير العميق للمؤسسات في حالة المجتمع ووضع المدينة.

تمتلك التكتلات الكبرى جميع صفات «المدينة» مع جامع، ومواعظ، وحمامات، وأسواق. ومع ذلك فهي لا يسعها الزعم بحضريتها. وعليه «يتوجب أن نضيف إلى

Roger Le Tourneau: *La Vie quotidienne de fès en 1900* (Paris: Hachette, 1965), *Fès avant* (١٦) *le protectorat: Etude Economique et sociale d'une ville de l'occident musulman* (Casablanca: Société Marocaine de librairie et d'Édition, 1949), 668 Photos and maps, pp. 38 et 302.

الحد الإحصائي الذي يتعين على أي تكتل اجتيازه ليكتسب صفة مدينة حداثاً آخر يتصل بما نسميه مواطنة حضرية». وقد أعطى أمثلة حية لدعم هذه المقاربة الأولى. «على الساحل التونسي، لا تعد مساكن، التي تضم عشرين ألف شخص، مدينة، في حين أن المُستير والمهدية هما كذلك وينصف عدد السكان الذي تضمه الأولى». وأجرى الملاحظة نفسها في ما يتعلق بالشرق. فـ «بلدات صغيرة مثل نابلس في فلسطين وزحلة في لبنان تتسم بطابع مواطني حضري حاد»، في حين تفتقر تكتلات ضخمة في مصر إلى هذه الصفة. ويسبب شعوره ربما بحدود هذه الملاحظة، فقد قدّم الملاحظة التالية: «إنها تنطلق من عناصر غير ملموسة، على غرار التقليد الحضري والذكريات التاريخية والعناصر البرجوازية والتخصص في بعض الأنشطة والألقاب التاريخية أو الروحية، إن لم يكن ذلك بسبب العناصر المادية، على غرار المظهر الخارجي والأسوار والطابع المعماري».

واستناداً إلى تكهنات وإجراءات إضافية، توصل إلى أن الانتقال من الضيعة الكبيرة إلى المدينة رهن بـ «الوظيفة التي يجب على المدينة تأديتها بحسب المبادئ الإسلامية: أي أن تكون مكاناً للتبادل والشهادة». ومن خلال إظهاره التعقيد في ممارسة القانون المدني، في التبادل والشهادة، طوّر جاك بيرك حول موضوع السوق والجامع العناصر التي تكوّن أساس المنطق المتعارض للوحدة/ الانقسام اللذين سيحكمان الحياة الحضرية: بين الفلاح وساكن المدينة لجهة التبادل، وبين التعبير الوحدوي عن المدينة، من خلال جامع المواعظ، وتوسع هذه الشهادة بتكاثر الخطب الأسبوعية في جوامع الحي.

لا تستطيع مقارنة المواطنة الحضرية أن تتجنب التحليل الدقيق للمؤسسات المدنية: علاقات الوقف بالسوق، علاقة هذه المؤسسات الخيرية بالمرافق المدنية، الانقسام بين ممارسة الملكية والحق بمراكمة العقارات التي تؤثر في كامل اقتصاد المدينة. وفق جاك بيرك، ليست المدينة المسلمة مثلاً يحتذى للتنظيم نظراً إلى وجود «توتر في العلاقة بين واقع المدينة ومثالها القانوني». اضطلع الاجتهاد الممثل بالفقه بدور هيئة تنظيمية بين المدينة ومؤسساتها. «الفقه هو هيئة رقابة صارمة على المواطنة الحضرية»؛ لأن «المدينة على عيوبها هي مركز التقوى والقانون». ولربما هذا هو المعنى الذي توخاه روجيه لو تورنو عندما تحدث عن الحضارة للدلالة على المواطنة الحضرية.

لم يكتفِ جاك بيرك بأفكار مستمدة من الأنثروبولوجيا القانونية لتحديد معنى، بل كنه، الحضرية. تحقيقاً لهذا الهدف، قاطع بين سلالة المجموعات ومهنها لتحديد

«نظام ثلاثي الوظائف» يكون أساساً ملموساً للمواطنة الحضرية. وهي «نتاج التأليف بين أفراد من سلالات مختلفة في ما بينها ضمن نظام من الأنشطة المنظمة بحسب تعاقب ثلاثي، حرفة، تجارة، ودراسة. والأسرة تعدّ حضرية من حيث تمثيلها في أحد الأنشطة الثلاثة في المدينة. تلك هي حال فاس في الوقت الحالي وسلا وتونس العاصمة»^(١٧).

في ما خص التنظيم المكاني - الزماني للمدينة، يلحظ بيرك بعدين هما البنية المادية للمدينة وتعقيد زمنيها. وعلى خلاف التيار الإثنوغرافي والجغرافي التقليدي الذي لم يدرك أهمية البنية المكانية للمدينة، يؤكد بيرك تكراراً «من يقول مدينة، يقول مخطط أو تصميم»، ما دل على ميله الكبير إلى الربط ما بين الشق المادي والشق الاجتماعي والتأثير السياسي، وعلى تصوره للحضرية في تعقيدها المكاني^(١٨). لذلك هو يُظهر ميلاً واضحاً إلى ربط الواقع المادي بالواقع الاجتماعي والسياسي، كأداة في إدراك المدينة في تعقيدها المكاني. ومن المحتمل أنه أظهر في ما خص الزمن في المدينة، التغييرات التي بدأت تؤثر في النظام المدني.

ووفق بيرك، «نحن ننتقل من تصور موسمي لمرور الزمن، من تقليد يشبك الأعمال والأيام على مر السنة إلى تصور لحياة يومية تكون لك بالمرصاد». وعليه، كانت المدينة تغير وتيرتها، كما كان يتغير وضع مكونات النظام الثلاثي الوظائف للحضرية، وتحديداً الحرفي والتاجر. وقد لاحظ تفاوت «الانتقال من مدينة الحرفيين إلى مدينة العمال»، في حين استمر التاجر يجهل المصرف ويقتصر على المستودع. إلا أن ما يثير الاستغراب هو غياب أي تحليل من جانب المؤلف لدور «العالم» وهو أحد الممثلين البارزين للمواطنة الحضرية. فهل كان يستشف أفعال دور العالم في إطار التغييرات التي حلت بالمدينة، ولا سيما على المستوى الديني، تمهيداً لظهور الحركات الأصولية؟

تدل هذه الرؤية الإيجازية للتغييرات التي عصفت بالمجتمع الحضري على إدراك جاك بيرك لدور الديناميات التي تضع الحضرية في صلب التوتر الذي تحدث

(١٧) تعود الاستشهادات التي سبقت إلى المقال المؤسس الذي حرره جاك بيرك. انظر: Jacques Berque, «Médinas, Villeneuve et bidonvilles», dans: Jacques Berque, *Opera Minora*, 2 vols. (Paris: Bouchene, 2000), pp. 239-272.

(١٨) Mohammed Urbaine, «La Médina de Fés, trame urbaine en impasses et impasse de la planification urbaine», dans: *Présent et Avenir des Médinas (De Marrakech à Alep)*, Fascicule de recherché d'Urbama; 10-11 (Tours: URBAMA, 1982), pp. 237-254.

عنه كمحرك للتغيير الذي لا محال منه في المدينة. بعد مرور عشرين سنة على نصه المؤسس، هل أمل جاك بيرك «أن تستعيد (فاس) سمعتها في مجال الأعمال والتصنيع بعدما خسرت نظام الحسبة القديم الذي يضمن الخلقية الحضرية»^(١٩) في سبيل مواطنة حضرية جديدة؟

٤ - هيمنة الاختصاصات ذات «الغاية الوصفية»

دخلت المدن العربية القديمة طي النسيان في إثر تزعزع بُنى المدينة وأمكتتها ووقوعها تحت تأثير التنظيم الحضري. وشكلت من ثم مدخلاً لتدفق السكان الريفيين. تقبل سكان المدن القدامى والسلطات العامة هذا التطور، الأولون لأسباب اقتصادية، أحياناً تجارية، والتالون لأسباب تتصل بالتنظيم الاجتماعي السياسي. وأصبحت الأبنية القديمة بالية ومتدهورة بفعل غياب الصيانة والكثافات السكانية نظراً إلى ظاهرتي الضغط والتجمع. وقد تم النظر في برامج إعادة التأهيل في كل من المغرب والجزائر، لكنها بقيت حبراً على ورق^(٢٠).

في تونس، هددت الرغبة في التحديث بتدمير مدينة تونس القديمة بشق الطرقات الكبرى. إلا أنه تم التراجع عن هذه الفكرة، وهو ما أنقذ المدينة من دمار محتم^(٢١). وقد هددت المشاريع تلك المدن التونسية الكبرى بالتدمير غير مرة. إلا أنها تطورت مع ذلك وحافظت على سمات فريدة وأعطت مثلاً لافتاً للنظر عن القدرة على التأقلم في جميع ميادين الحياة الحضرية^(٢٢).

بدت الاختصاصات التي يقوم موضوع دراستها وبحثها الأساسي على المدينة فقيرة بوجه عام، إزاء تعقيدات المجتمع الحضري وخصائص ارتباطه بالأمكنة الحضرية التاريخية. «إن الفراغ التصميمي وعدم الإشارة إلى الشق الاجتماعي شديد في هذا المجال، من فاس إلى دمشق ومن صنعاء إلى الجزائر»^(٢٣).

Jacques Berque, «Fés, ou destin d'une medina,» dans: *De l'Euphrate à l'Atlas* (Paris: Sindibad, 1978), vol. 1: *Espaces et Monuments*, pp. 380-415.

Daniel Pini, «Croissance Urbaine et sous integration, la Casbah d'Alger,» dans: *Présent et Avenir des Médinas (De Marrakech à Alep)*, pp. 121-144.

Jellal Abdelkafi, «La Médina de Tunis, des Études aux actions,» dans: *Ibid.*, pp. 237-255. (٢١)

Paul Lowy, «Evolution des grandes médinas tunisiennes,» dans: *Ibid.*, pp. 103-120. (٢٢)

Jean- Marie Miossec, «Recherche urbaine et politiques urbaines en Tunisie,» dans: *Middle Eastern cities in comparative perspective*, pp. 115-140. (٢٣)

على صعيد الإجراءات الفعلية، افتقر القيّمون على إدارة المدن والخبراء الموفدون من مكاتب الدراسات الكبرى ومؤسسات البحث المديني^(٢٤)، باستثناء حالات قليلة، إلى الدراية اللازمة للتدخل في نسيج حضري يعج بالرموز والقيم الاجتماعية. يستند التدخل في المدينة الحديثة إلى تقنيات يصعب تكييفها «من دون أن يكون إبراز دور المدن العربية في القرن العشرين ممكناً ومن دون النظر في سياسة اجتماعية واسعة النطاق في شأن السكان الفقراء الذين يعيشون فيها. الجدير بالذكر أيضاً أن الهندسة والتنظيم الحضري التقليديين لنوع المدينة لم يتكررا، باستثناء بعض الحالات القليلة»^(٢٥). فكان صناع السياسات يتصرفون كما لو أن المدينة افتقرت إلى الذاكرة، وعليه، لم تستند الإجراءات التي اتخذوها إلى أي موجب يلزمهم بالعودة إلى التاريخ.

تعود الأزمة التي شهدتها آفاق البحث الحضري في فترة الستينيات والسبعينيات إلى ثلاثة أسباب، ألا وهي صعوبة الاختصاصات في المجال الحضري في الابتعاد من نمط الدراسات الأحادية المؤلف ومن النتائج المحاسبية لنمو المدن ووصف أنشطتها ووظائفها؛ والهندسة المدنية التي عدّت أن المدن التقليدية منغمسة في الفوضى عجزت عن فهم منطق تراتبية المساحات والقدرات في مجال تأطير وإدماج المؤسسات المدنية التقليدية؛ وأخيراً إدارة الدولة للمدن التي كانت أداة للسيطرة السياسية أكثر منها أداة تطوير^(٢٦). كانت المهل الزمنية الراحية لأنشطتهم قصيرة وذات غاية سياسية واستندت إلى وسائل تقنية لحل المشاكل المجتمعية.

منذ أواسط القرن، سلكت الأبحاث الفردية المنحى المعاكس للمقاربات المهيمنة في ما يتعلق بدراسة الظاهرة الحضرية. فبرزت ثلاثة تيارات مفتوحة على المقاربات الأخرى للعلوم الإنسانية والاجتماعية، أولها في المغرب وثانيها في مصر وثالثها في لبنان وسورية. وكانت تهدف إلى فهم الشق الحضري في كليته والتغيير في تعارضاته والتقليد والحداثة في توتراتهما المستمرة.

Michèle Jolé, «La Recherche sur les villes arabo-musulmanes et la notion de politique urbaine, (٢٤) instrument de classement ou instrument d'analyse,» dans: Ibid., pp. 93-102.

Miossec, Ibid., p. 124, et Jean-Marie Miossec, «Identité Tunisienne: De la personnalité (٢٥) géographique d'un pays du Maghreb, du Monde arabo-Musulman et de la Méditerranée,» *Revue Tunisienne de sciences sociales* (Tunis), vol. 36, no. 118 (1999), pp. 43-91.

Mohammed Naciri, «Les Politiques urbaines, instrument de pouvoir ou outil de (٢٦) développement?,» Introduction de: J. Métal et G. Mutin, eds., *Politiques Urbaines dans le monde arabe*, Collection Etude sur le monde arabe; 1 (Lyons: Maison Méditerranéenne, 1984), pp. 13-42.

ثانياً: عودة الاهتمام بالشأن الحضري

كانت أنثروبولوجيا المغرب خلال الحقبة الاستعمارية أنكلوسكسونية وريفية، ثم تبعت بعد الاستقلال النموذج الأمريكي الشمالي المستند إلى المواطن. ومنذ ستينيات القرن العشرين، كانت مساهمات الجيل الجديد من الباحثين وممثلهم الأبرز كليفورد غيرتز^(٢٧)، تقارب الأنثروبولوجيا من حقول تخصصية مختلفة، فنأت بنفسها لجهة البحث بطرائق مختلفة عن الإرث الاستعماري بخصوص المدن التقليدية.

١ - في المغرب: مساهمات الأنثروبولوجيا

كان أهل سلا^(٢٨) العمل الأول الذي يحلل بعمق الآليات الحميمة حيث تتشكل شخصية المواطن. هو تحليل دقيق لحياة مجتمع المواطن، الذي يعاد تأسيسه خلال دورة الحياة لجهتي الكيفية والظروف التي يدخل فيها الفرد والجماعة في عملية مجتمعية معقدة وبخاصة مظاهر تأثير المقدس في الحياة اليومية. وتأخذ المواطنة هنا معنى فن العيش، أو أخلاقيات السلوك مجسدة في ممارسات التبادل والمبادرة عبر الأنشطة والاحتفالات والشعائر الدينية. هي تُظهر كيف تبدل المجتمع على مدى قرن من الزمان، من خلال الانقطاعات المتعددة، الذي لم يخسر في أي لحظة الوحدة الثقافية للجماعة. ومع ذلك، لم يضعف الإنتاج المتعاقب للترابوية في المجتمع السلاوي، والمحافظة المتجذرة فيه، من قدرته على التكيف وإظهار الوحدة. وقد شكلت الصلات التي تربط السلاويين داخل بنية اجتماعية وثقافية نسيجاً من الوحدة المتماسكة، تتجمع في أطر اجتماعية وشبكات وتحالفات متقابلة. وليس ذلك غير بعض التناقضات الممسكة بالمواطنة الحضرية.

وبعد نموذج جاك بيرك الذي شدد في تحليله للمدينة التقليدية على الدور المركزي للسوق^(٢٩) الذي يحدد على نحو مستمر المكان والوحدة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، أنجز فريق الأنثروبولوجيين الذين يقودهم كليفورد غيرتز دراسة تفصيلية إلى حد بعيد للعلاقات المعقدة القائمة في السوق. وكان اختيار مدينة صفرو التي ينافس

Daniel Cefai, «Le Sûq de Sefrou, analyse culturelle d'une forme sociale,» Introduction and (٢٧) Translation of Clifford Geertz's Contribution, «The Bazar Economy of Sefrou,» in: *Meaning and Order in Moroccan Society: Three Essays in Cultural Analysis* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1979), pp. 9-53.

Kenneth L. Brown, *People of Salé: Traditions and Change in a Moroccan City (1830-1930)* (٢٨) (Manchester: Manchester University Press, 1976), French Translation, *Les Gens de Salé: Les Slawis, Traditions et changements de 1830-1930* (Casablanca: Eddif, 2001).

سكانها أهل فاس من حيث المواطنة الحضرية عاملاً أعطى الفريق الفرصة لاستكشاف الجوانب المتعددة لدور السوق في الحياة المدنية: «القراية، الواجبات، التبادلات، السكن، الجيرة اللغوية، تبدو كلها لا عناصر منعزلة بل «أطراً اجتماعية» - إمكانات علائقية ومصادر اجتماعية متوافرة - للتحالفات السياسية أو التجمعات الاقتصادية»^(٢٩).

وعبر تحليل دور الوقف والزوايا والمؤسسات في إنعاش الحياة الاقتصادية والاجتماعية للسوق، يظهر كليفورد غيرتز وجود الإطار الاجتماعي في صفرو، التي تعد مدينة وريفاً في الوقت عينه، المبني على شبكات الزبائن والتجمعات والتحالفات التي تشكل الإطار المواطني الحضري، عبر العلاقات بين المدينة والريف كعناصر أساسية لحياة المجتمع المواطني الحضري^(٣٠).

وأبعد من الأنثروبولوجيا الاقتصادية والثقافية هذه المعروفة بـ «المدينة الإسلامية»، التقليدية، ما قبل الاستعمارية، ما قبل الحقبة الصناعية، أو «المدينة» ببساطة، يبقى مفهوم الخصوصية المسلمة ماثلاً للعين وقائماً في هذا التيار الجديد من الدراسات الأنثروبولوجية حول الحضري^(٣١). ومع ذلك فقد ساهم التطور المنجز على صعيد معرفة المدن المغربية القديمة في فتح الطريق أمام النشوء التدريجي البطيء لاعتبارات المواطنة الحضرية في الثلث الأخير من القرن العشرين.

٢ - في المشرق: المدينة التقليدية بين التدهور المادي وإعادة التأهيل من خلال البحث التاريخي

لم تكن تيارات الفكر الأنثروبولوجي المحرك الوحيد لتجديد التفكير حول الظاهرة الحضرية في العالم الإسلامي. ومقابلة بالمدن الكبرى التي لم تنفك تتوسع حول القلب التاريخي، يزداد مستقبل هذه الأخيرة غموضاً؛ لكن كلما تلاشت أهمية القلب التاريخي لتلك المدن التي تحولت أحياناً إلى عواصم أو تكتلات كبرى، شكّل على نحو متزايد

K. Brown, «The Uses of a Concept, the «Muslim City»,» dans: *Middle Eastern Cities in Comparative Perspective*, pp. 73-82.

André Raymond, «Les Relations villes-campagnes dans les pays arabes à l'époque ottoman (XVI^{ème}-XVIII^{ème} siècle),» dans: *La Ville arabe, Aleph, à l'époque ottoman, XVI^{ème}-XVIII^{ème} siècle* (Damascus: Institut Français de Damas, 1998); Thierry Boissière, *Jardiniers et Société citadine dans la vallée de l'Oronte en Syrie Centrale*, 2 vols. (Lyon: Université Lumière 2, 1999), et Mohammed Naciri, «Salé Etude de géographie,» *Revue de Géographie du Maroc* (Centre Universitaire de la recherche scientifique), vols. 3-4 (1963), pp. 11-82.

Brown, «The Uses of a Concept, the «Muslim City».

(٣١)

موضوع اهتمام بارزاً في البحث التاريخي. تعود هذه المفارقة من جهة إلى مكان وتصور التراث في السياسات العامة الخاصة بالمدينة، حيث لم يترك التحديث وتحدياته سوى مجال محدود لسياسة تراثية حقيقية للمدن القديمة؛ ومن جهة أخرى تعود إلى الاهتمام المطرد الذي أولته الجماعة البحثية للمدن في العالم العربي - الإسلامي.

نشأ المجال الثاني لتجديد التفكير حول المدن التقليدية، بعد المغرب، في مصر على أيدي مؤرخين من مثل جان كلود غارسان وأندريه ريمون اللذين أعطت مؤلفاتهما حول القاهرة في عهد المماليك والعثمانيين دفعاً جديداً لتجديد البحث التاريخي في هذا المجال^(٣٢). وقد باشر طلبة في علم التاريخ أعدوا في أغليتهم أطروحاتهم تحت إشرافهما أبحاثاً مبدعة حول الأمكنة والمجتمعات في القاهرة والإسكندرية.

لن نحاول الآن تحليل كل هذه الأعمال، بل سنظهر مدى مساهمتها ابتداءً من ستينيات القرن الماضي في فتح آفاق جديدة للبحث الحضري. ففي الوقت الذي عجزت الأبحاث الكلاسيكية التي أجراها الجغرافيون عن تفسير الطابع الشامل وتعقيدات التطورات هذه، نظراً إلى الحجم الهائل الذي بلغته المدينة المعاصرة في إطار من التخلف، نجح علماء التاريخ، الذين استفادوا من الغنى اللافت للنظر في الوثائق والوسائل الجديدة والأفكار الإبداعية، في فهم تشابك الحركات الحضرية والنسيج الاجتماعي ودور الأطر المؤسسية في تطوير المجتمع الحضري.

سمح توجيه البحث التاريخي نحو الاستمرارية على المدى الطويل باستعادة الانقطاعات والتواصلات التي ميزت التطورات، ما عكس تنوع دينامياتها في الماضي. وقد ظهرت مقدمات إعادة التفكير في المسألة الحضرية في بحث تناول التاريخ الاجتماعي أجراه جاك بيرك على حي في القاهرة^(٣٣) في نهاية الستينيات. وهو ربما أطلق بذلك ما يمكن أن نسميه اليوم التاريخ الجغرافي المتقاطع مع الأنثروبولوجيا، الذي تكوّن من خلال البحث لفترة ممتدة عن التأثيرات الحاسمة للقرارات السياسية

(٣٢) أنتج كل من جان كلود غارسان وأندريه ريمون عملاً رائعاً في غناه مجتدين في البحث التاريخي حول مدن المشرق. انظر خصوصاً: Jean-Claude Garcin, *Un Centre de la haute Egypte medievale: Qus* (Cairo: IFAO, 1976); «Note sur la Population du Caire en 1517,» et «Le Caire,» dans: Jean-Claude Garcin, ed., *Grandes Villes Méditerranéennes du monde musulman*, collaboration de J.-L. Arnaud et S. Denoix (Rome: Ecole Française de Rome, 2000), et André Raymond, *Grandes Villes arabes à l'époque ottoman* (Paris: Sindibad, 1985).

Jacques Berque and Mustafa Al-Shakâa, «La Gamaliya depuis un siècle: Essai d'histoire sociale d'un quartier du Caire,» *Revue des Etudes Islamique* (1974), pp. 45-99.

والاقتصادية والاجتماعية في بنية المكان الحضري في تطوره التاريخي. وعليه، بات في وسعنا، والفضل للتطورات البحثية تلك، إلقاء الضوء على الأسباب الكامنة خلف أنماط التصرفات الحالية إزاء التغير الذي يعيقه تعدد التفسيرات الحاكمة للمدينة.

هكذا استبعدت الأبحاث الجديدة التصورات الجامدة لمدينة إسلامية فريدة تأيد نموذجها التنظيمي على مر التاريخ. وقد سلطت أعمال المؤرخين، بإنكارها لهذه الرؤية لنموذج المدينة الشرقية، الضوء على ديناميات وتنوعات أنماط تنظيم مدينتي القاهرة والإسكندرية وأظهرت عوامل الانقطاع والاستمرارية لتوسعاتها المادية بوصفها تحولاً في تراثيتها الاجتماعية وعلاقاتها بالسلطات المهيمنة والمجموعات المجتمعية التي حددت التطور التاريخي للمدينة.

أظهرت نتائج البحث التاريخي حول المؤسسات، ولا سيما الأوقاف، مرونة العلاقات داخل مجتمعات المواطنة الحضرية؛ إذ كان في استطاعة الأدوات تلك تكثيف الوقائع الحضرية والالتفاف على أحكام الفقه التي لا تمس، من دون التعرض للأسس الدينية لمجتمع موحد ثقافياً، وإن كان متنافراً اجتماعياً. يظهر التوزيع المكاني للفئات الاجتماعية حصة الفقر والثراء داخل النسيج الحضري. فالمدن التقليدية عرفت تفسيرات متعارضة، ومناورات للسلطة، ومنافسات وصراعات للسيطرة على المدينة ومواردها. إلا أنها وضعت في الوقت عينه آداباً جعلت، وإن تم خرقها أحياناً، الحياة الجماعية والتبادلات بين الأفراد ممكنة.

لم يجعل البحث التاريخي من ثقافة العيش المشترك المسمّاة مواطنة حضرية مفهوماً ممكناً وعلى نحو صريح وحسب، بل هو أظهر أيضاً العناصر المكوّنة لها عبر وجود آليات التأطير المؤسسي والتآزرات المتعددة التي تربط ما بين الفئات المختلفة للمجتمع الحضري وتخفف من حدة اختلافاتها الاجتماعية. تبدو العمليات المركبة لإدماج المجموعات والأفراد في المجتمع الحضري، من منظور اختلافاتهم الثقافية، متنوعة ومتغيرة بحسب المجموعات الاجتماعية وأصلها وطائفتها ومجال إدماجها في المدينة وأشكال التأطير والسيطرة الاجتماعية السياسية. وقد أحيا روبرت إيلبرت في كتاب الإسكندرية^(٣٤) «تاريخ [جماعة المواطنين] منسوجة في إطار متناقض، حيث تختفي عناصر بينما يبقى غيرها موجوداً. والزمن يبدو متوقفاً حين تكون تحولات

Robert Ilbert, *Alexandrie: Histoire d'une communauté citadine, 1830-1930*, Bibliothèque (٣٤) d'Etude; 112/1, 2 vols. (Cairo: Institut Français d'archéologie orientale, 1996).

جديدة قيد التحضير، فيحاول عالم التاريخ فك الحبال واستعادة الوقائع والأساليب التي من شأنها تفسير أو على الأقل توضيح التطورات في جزء منها أو جعلها أقل غموضاً. هذه العملية هي في صلب البحث عن فهم أفضل للمواطنة الحضرية، ولا سيما في تعبيرها الشمولي الناشئ عن العالمية كما ترجمت في تعددية العواصم والتكتلات السكانية الضخمة للشرق الأوسط خلال القرون الوسطى^(٣٥).

٣ - من التراث إلى المكان العام: دور المواطنة الحضرية معكوساً

تمثل سورية ولبنان المجال الثالث لتطور التفكير حول المواطنة الحضرية، حيث يقترب التاريخ الجغرافي من علم الانسان. انجذب علماء الجغرافيا والتاريخ والاجتماع إلى ما يمكن أن أسميه تداخل الاختصاصات. وهي مبادرة متكررة تلجأ إلى الماضي وتقود إلى بناء تصور لتطور المجتمع الحضري في المدن التقليدية، بدءاً من استقصاء الحقائق الملموسة للمدينة الحالية، ومع تجاوز حدود الاختصاصات. فعالم الجغرافيا الذي يعتمد هذه المقاربة لا يخشى تقصي الماضي لمعالجة موضوعات تقع عادة ضمن اختصاص العالم السياسي أو الاجتماعي أو عالم الأنثروبولوجيا. كما أنه لا يتراجع أمام دراسة العلاقات بين الدولة ومصير التراث التاريخي في ما يتعلق بالسياسة الحضرية وردود أفعال النخب التقنية والفكرية والسياسية على مشاريع إعادة تأهيل المراكز القديمة^(٣٦) بمبادرة من الحكومتين السورية واللبنانية.

وَقَرَّ تحديد التناقضات بين السلطات المحلية والمستويات العليا لصنع القرار مادة للتفكير والبحث في مجال العلوم السياسية والأنثروبولوجيا في خصوص

Jean-Claude Garcin, «La Notion de mégapole,» dans: *Villes Médiévales et orientales*, nos. (٣٥) 3-6; A Report Submitted at the Meeting held on 10-11 February 1995 for the preparation of: Claude Nicolert, Robert Ilbert and Jean-Charles Depaule, eds., *Mégapoles en Méditerranée, Géographie Urbaine retrospective* (Paris: Maisonneuve et Larose, Aix-en-Provence: MMSH; Rome: Ecole Française de Rome, 2000), and Jean-Claude Garcin and Thierry Bianquis, «De la notion de mégapole,» dans: Garcin, ed., *Grandes Villes Méditerranéennes du monde musulman*.

(٣٦) جان كلود دافيد، هو جغرافي، ويمثل على نحو نموذجي للتيار الراهن في: Jean-Claude David, «L'évolution des axes de circulation et d'activités à Alep de 1870 à nos jours: Une continuité de développement urbain,» in: *Présent et Avenir des Médinas (De Marrakech à Alep)*, pp. 255-260; «Political et Urbanisme à Alep: Le Projet de Bab Al-Faraj,» dans: *Etat, Ville et mouvements sociaux au Maghreb et au moyen Orient/Urbain crises and social movements in the Middle East* (Paris: L'Harmattan, 1989), pp. 317-324; Nabil Beyhum and Jean-Claude David, «Du Sûq à la place, du citoyen au citoyen,» dans: Mohammed Naciri et André Raymond, eds., *Sciences Sociales et phenomenes urbains dans le monde arabe* (Casablanca: Fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud, 1997), and Jean-Claude Pascual, «La Syrie à l'époque ottomane (le XX^{ème} siècle),» dans: *La Syrie à l'époque ottoman*.

الأمكان العامة. وعليه غذّت الموضوعات المستعرضة، على غرار سياسات إعادة التأهيل والمشاكل المتعلقة بالتراث وفردانية مؤسسات الحضرية التقليدية ومحاولات التكيف مع التغير الذي طرأ على الأحياء القديمة ودور التقليد في الحضرية الحديثة، أبحاثاً مهمة حول المدينة؛ فجرت قراءة الإرث التاريخي من جديد في بعده الثلاثي، أي المكاني والمؤسسي والاجتماعي، وهو ما أطلق العنان للتفكير حول علاقة التقليد بالحدثة؛ سمحت مثل هذه المبادرة بإبراز العلاقات، المتعارضة في بعض الأحيان، بين المستويات العليا لصنع القرار والسلطات المحلية والنخب الحضرية، الأمر الذي أدى إلى أبحاث حول طبيعة المجتمع الحضري وأشكال المساحات العامة والخاصة في المدن التقليدية إضافة إلى الاستمراريات والانقطاعات التي شهدتها نظراؤها في المدن الحديثة.

مثلت الحرب الأهلية اللبنانية عاملاً لتطور التفكير حول الانتقال من مجتمع حضري، خضع في الماضي لإدارة وتنظيم مدنيين استندوا إلى التبادلات بين الطوائف، إلى مجتمع يشهد مواجهات مأساوية بين شرائحه المختلفة لم تحل اختلافاته في الماضي دون التجارة في معناها الأول. وهكذا نرى كيف أنه في إطار من الضعف أولاً وغياب الدولة ثانياً، كانت معادلات القوة الشرسة تطيح التنوع ضمن مجتمع تقوم العلاقات فيه على مدونات سلوك وتصرف بين خلفاء مجتمعات حضرية قديمة. وقد شكلت التآزرات شبكة من التبادلات المعقدة التي تصب في مركزية النسيج القديم لبيروت. فتم بذلك ذكر ودراسة المواطنة الحضرية التي زالت خلال الحرب والبحث في إمكان تحويلها إلى مواطنة سياسية عندما تأزف ساعة المصالحة. واللافت للنظر في حالة بيروت هو النقاش الجاري حول هذه الحضرية كأساس تراثي لإعادة بناء المركز القديم الذي دمرته الحرب^(٣٧).

عليه، وخلافاً لفترة الاستعمار، لم يعد فهم الحضرية وسيلة للسيطرة على مجتمع ما، بل أصبح طريقاً للنفوذ إلى حدثة جديدة. يمثل تبديل القيمة الوظيفية للحضرية من أداة للسيطرة إلى أداة لإعادة بناء ثقافي للمواطنة عبر إعادة تأهيل إرثها الحضري، دليلاً ساطعاً على تعقيدها. وعليه، ما الطريق لفهم العلاقات بين المواطنة الحضرية، والتراث، والمواطنة السياسية.

Nabil Beyham, *Espaces éclatés, espaces dominés: Etude de la recomposition des espaces publics centraux de Beyrouth 1975-1990*, 2 vols. (Lyon: Université de Lumière, Faculty of sociology, Academic year, 1990-1991), et Mohammed Naciri, «Succès de la ville, crise de l'urbanité,» dans: *Espaces et Sociétés* (Paris: L'Harmattan, 1991), pp. 9-18.

ثالثاً: مراحل تكوين التوافق حول المواطنة الحضرية

يشير عدد المؤلفات الجماعية في الاختصاصات المختلفة، إلى أن النقاش حول المدينة العربية - الإسلامية، وأزمة العلوم الاجتماعية والإنسانية، ومكانة المدينة التقليدية كتراث وكنصر فاعل في التطور الحضري، موضوعات لأبحاث مستفيضة امتدت على السنوات العشرين الأخيرة. وقد سمح تنوع الاختصاصات والانتماء إلى تقاليد بحث خاصة، أوروبية، وأنكلوسكسونية، وعربية أو يابانية، بصوغ إشكالية محدثة حول موضوع المدينة. إلا أن هذه المؤلفات الجماعية لم تعالج مباشرة موضوع المواطنة الحضرية، باستثناء ثلاثة منشورات جماعية سنحلل بعض عناصرها المتعلقة بالمفهوم. فهي سمحت بالتساؤل بصورة مباشرة حول مدى صحته ووفرت آفاقاً لتجاوز الاعتراضات حول جدوى وفاعلية استعماله في ميدان البحث الحضري.

١ - استعادة المواطنة الحضرية

بما أن المدن تجمع من دون دمج وتذيب التصرفات الجماعية وتطيح الأولويات الثقافية من دون توفير مراجع جديدة لسكانها لمساعدتهم على إقامة التآزر الجديدة، فهي لا تسهل عمليات الاندماج الحضري، وبالتالي تعكس تجزئتها المكانية تباينات اجتماعية واقتصادية لا تنفك تتفاقم من دون أي آفاق تنذر بالخروج من الأزمة.

في هذا الإطار، انعقدت ندوة فرنسية - بريطانية في لندن عام ١٩٨٤ وكان هدفها «وضع حصيلة تحليلية ومقارنة للأبحاث حول المواطنة الحضرية في المغرب والمشرق التي أجريت في فرنسا وبريطانيا»^(٣٨). تجاوزت النقاشات نطاق المقارنة بين السياسات المؤسسية للبحث حول المدينة في البلدين، وتطرق إلى صحة مفهوم المدينة المسلمة وخصوصية المدن العربية - الإسلامية. هل هي مدن من العالم الثالث أم هل يا ترى حافظت على بُعد اجتماعي ثقافي وسياسي من ماضيها يميزها أساساً عن باقي المدن في العالم؟ يدل الفرق في القاهرة بين المدينة التقليدية والمدينة الاستعمارية والعاصمة^(٣٩) على الطابع المركب للمدينة العربية ويسمح بفهم الاختلافات بين ديناميات التطور: هل هناك استمرارية أو انقطاع في الزمن، تقريب أم انصهار في المكان؟ وجدت التساؤلات حول الأزمة الحضرية والحركات الاجتماعية والسياسات العامة في مجال التنظيم

Middle Eastern Cities in Comparative Perspective, p. 10.

(٣٨) انظر المقدمة، في:

Robert Ilbert, «Méthodologie et Idéologie,» and *Héliopolis, genèse d'une ville: Le Caire* (٣٩)

1905-1922 (Paris: Editions du CNRS, 1981).

الحضري وعلاقتها ببروز الحركات الدينية امتداداً لها، ولا سيما في ما يتعلق بالموضوع الأخير، في الندوة الفرنسية - البريطانية الثانية المنعقدة في باريس عام ١٩٨٦ تحت عنوان «الدولة، المدينة والحركات الاجتماعية في المغرب والشرق الأوسط»^(٤٠).

فما هي الاستراتيجية التي قد تفضي انطلاقاً من واقع معيوش ومنظور ومحلل إلى مبادئ عامة تفسيرية لدراسة الشق الحضري؟ وما هو المقياس والحجم الواجب اعتمادهما لمعالجة حقائق الكيان الاجتماعي؟ يسمح علم الاجتماع الحضري بفهم أفضل للتصورات والخطابات والممارسات في الحياة اليومية، وهو ما يبرز الأشكال الاجتماعية في الأنسجة القديمة ويسمح بقياس حجم التغير والانتقال إلى مجتمعات المدن الحديثة. تقدّم جان مترال في أفكاره حول التشكل القريب العهد للمدن الشرق الأوسطية الصغيرة في سورية، ببعض الاقتراحات المثيرة للاهتمام كونها تشجع على فهم «الحضرية» من تحت كهوية ثقافية مشتركة بين سكان المدينة منذ تأسيسها. وقد حثّ المخاض الذي تفتقت عنه الحضرية تحديد خط الأنساب التي أدت إلى إنشاء المدينة الصغيرة. «أليس ضرورياً كي ينشأ الحضر ويتطور وجود عدد صغير من الأنساب ترسي في ما بينها مدونات خلقية لمعالجة علاقات الجوار والتعاون و/أو التعارض؟» هل كانت تلك الأنساب أساساً للمواطنة الحضرية التي تحدث عنها جاك بيرك؟ وهو يذهب أبعد، فيشير إلى «أن مستوى حضرياً إضافياً يجري بلوغه حين تحمل الأرض اسم النسب وتصبح حياً لتجمعه، الذي يضحى ضمن أرض مستقلة ومنخرطة في شبكة من المدن المجاورة تضم شبكات الأحلاف والزبائن للدلالة على حضرته»^(٤١).

تلك هي بعض عناصر المواطنة الحضرية (Citizenhood) التي نجدها في صفرو والتي سماها مترال التحضر (Urbanity). هل يعود ذلك إلى تردده في استعمال المفهوم نفسه؟ أخذت ندوة لندن على عاتقها مناقشة هذا الأمر؛ فأظهر عرض كان بمنزلة بحث حول أصل المفهوم أهمية هذا المنحى لفهم التحولات الماضية والحالية التي طرأت على المجتمعات الحضرية^(٤٢). لكن، إذا كانت المواطنة الحضرية (Citizenhood) حقيقة لمن يعيشها أو للباحثين الذين يعكفون عليها، يبقى علينا معرفة «ما هي استراتيجية البحث الأكثر مواءمة لتحليلها».

Etat, ville, et mouvements sociaux au Maghreb et au Moyen Orient.

(٤٠)

Jean Métal, «Citadinité au Proche Orient», dans: *Middle Eastern Cities in Comparative Perspective*, pp. 249-270.

(٤١)

Mohammed Naciri, «Regards sur la citadinité au Maroc», dans: *Ibid.*, pp. 249-270.

(٤٢)

أظهر تنوع المقاربات المعتمدة من الاختصاصات المختلفة والمواجهة بين أساليبها أمرين ضروريين: فقد وُقرت الألسنية الاجتماعية والأدب على سبيل المثال (لنتذكر في هذا الإطار الاقتراحات المماثلة التي تقدم بها جورج هاردي في العشرينيات)، ولا سيما الأدب الشعبي وكل ما يرافقه من تصورات وأساطير وخرافات، فرصاً للتعرف الدقيق إلى العمليات المعقدة الآيلة إلى موضعة الأفراد داخل الكيان الاجتماعي، أو للانقطاع في وحدة الهوية للجماعة. «في اعتقادنا أن علم الاجتماع المنصب على الخيال والرموز وشاعرية المساحة وأثار الذاكرة الجماعية هو الكفيل بتزويدنا بالأفكار الفريدة حول المدن»^(٤٣).

وقد توفّر دراسة الأدب العربي مجالاً للبحث كمرآة للخيال الحضري ومجالاً لترجمة التغيرات التي تؤثر في الحياة الحضرية. يشهد تنظيم اتحاد كتاب المغرب طاولةً مستديرة حول المواطنة الحضرية على الأهمية التي تكتسبها الثقافة الحضرية بالنسبة إلى الإبداع الأدبي. كذلك يرد موضوع المدينة القديمة في الإنتاج الروائي. فالكاتب محمد براءة كرس مكانة مميزة للذاكرة الجماعية والتاريخية في تنظيم الأمكنة الحضرية التقليدية.

٢ - الفاعلون الحضريون: بين السلطة والبنى والثقافة

بعد مرور عشر سنوات على ندوة لندن، مثل المؤتمر المنعقد في الدار البيضاء في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٤ حول «العلوم الاجتماعية والظواهر الحضرية في العالم العربي»^(٤٤) مرحلة جديدة للتفكير حول المدينة العربية الإسلامية لمتابعة تطوراتها ورصد الانقطاعات والاستمراريات عبر الزمن وفهم كيفية تأبّد أو تطور أو تحول التقاليد العربية - الإسلامية، انطلاقاً من البنى المادية للمدن وصولاً إلى المؤسسات الاجتماعية والأشكال المعمارية وكيفية انخراطها اليوم ضمن المدن المعاصرة أو اندثارها تحت التأثير المتزايد للحدثة.

تمثلت إحدى المشكلات التي انصبّ حولها النقاش بتحديد طبيعة التأثير الذي خلفته الثقافات المختلفة في المدن وإدارة أمكتها، إذ إن تطور هذه التأثيرات عبر الزمن يصعب تحديده. فإلى أي مدى أثر تفسير الشرع لتكييف الممارسات الاجتماعية بصورة أفضل، أو لإدارة المؤسسات الدينية وفق معايير الملكية، في التحولات التي شهدتها

Jean-Paul Blais, «Recherches Urbaines et françaises», dans: Ibid., pp. 53-58.

(٤٣)

Naciri et Raymond, eds., *Sciences Sociales et phenomenes urbains dans le monde arabe*.

(٤٤)

الأمكنة العامة والخاصة وشجع الاختلاط أو أدى إلى فصل الفئات الاجتماعية؟ كيف تمايزت أشكال تنظيم المكان من المنزل إلى الشارع فالحي وكيف يمكن تقييم آثار التداخل بين السكان المنحدرين من أصول مختلفة في تطور هذه البنى المكانية وانقسامها إلى مجموعات اجتماعية، بغض النظر عن طائفتهم وأصلهم أو نشاطهم؟ هل كان للزوايا والجمعيات وجود في الكيانات الاجتماعية على اختلاف أوضاعها، مخففة بالتالي من إدراك الانتماء إلى طبقة معينة، في حين لا يخفى علينا أن المدينة المغربية أو «المدينة» الحلبية أو المدينة القديمة، في دمشق على سبيل المثال، في المشرق لم تكن متجانسة اجتماعياً، إذ كانت تضم الأحياء الفقيرة والأحياء الغنية في آن معاً.

على الصعيد الثقافي، أي على مستوى المواطنة الحضرية، لم يكن الثراء وسيلة للانخراط في المجتمع الحضري، إذ لا مانع من أن يكون الفرد مديناً نموذجياً وفقيراً. كانت مدة البقاء في المدينة وطبيعة النشاط المزاول والعمل في الحوانيت وشبكات الزبائن من شأنها تسهيل النفاذ إليها. لم يكن التباين في المكانة تبايناً بالثروة، وإنما بالثقافة. تمثلت سلطة «المخزن» في المدينة في المغرب بعملاء ريفيين لم يعدوا مواطنين على الرغم من المكانة المتأتية لهم من ممارستهم للسلطة أو تمتعهم بالثراء.

لم تشمل هذه التساؤلات القراءة المكانية لتركات الماضي المعقدة فحسب، إنما توخت فهم الديناميات الاجتماعية والثقافية والسياسية على امتداداتها المحتملة في الحاضر. ما هو الدور الذي أدته الدولة و/أو السكان في التحولات التي شهدتها المدن القديمة عقب انتقال المراكز باتجاه المدن الحديثة ونتائج هذا الانتقال بالنسبة إلى السياسات الرامية إلى حماية وإعادة تأهيل أو تجديد هذه المدن؟ هل انتقل سكان المدن، شأنهم في ذلك شأن الدولة، «من عصر الثقافة إلى عصر المظاهر»^(٤٥)، أي من بساطة المدينة التقليدية إلى التباهي الذي يعم المدينة الحديثة؟

يمكن تفسير هذه الحالة في الانقسامات الكبرى^(٤٦) التي شهدتها المجتمعات الحضرية. وكان هدف الفرضيات الرامية إلى استشفاف أسباب التغيرات التي حلت بثقافتها مزدوجاً: إعادة العلاقات بين المجموعات والأفراد التي تسمح بالتجديد الاجتماعي والثقافي مع البقاء واعين للطريقة التي تسمح لهم هويتهم بتشكيل مجتمع موحد لا يخلو

Robert Escalier, «Elites Pouvoirs et villes dans le monde arabe: Elements d'analyse de la (٤٥) citadinité», dans: *La Citadinité en Questions*, pp. 21-32.

Mohammed Naciri, «La Culture citadine est-elle une culture citoyenne?», dans: Brown, *Les (٤٦) Gens de Salé: Les Slawis, Traditions et changements de 1830-1930*.

من التجاذبات الداخلية والاعتراضات والعلاقات الملتبسة مع السلطة. والهدف الثاني هو تحديد العمليات الكفيلة بإدماج الأفراد في مجتمع المواطنين المدنيين.

إحدى الخلاصات الأساسية لهذا البحث عن خصائص الثقافة المواطنة تكمن في ضرورة الحديث لا عن حضرية واحدة، بل عن عدة حضريات لفهم خصائص الروابط بين الأمكنة والمجتمعات التي تميز كل مجموعة حضرية. فالمدينة كناية عن تراكم تاريخي خاضع لتغيرات وتآكلات وتحولات متعددة، وهي تسليط الضوء على الثقافة الماضية للمدن القديمة؛ لكن هل هي فعالة بما يكفي لتعزيز الهويات الحالية والانفتاح على الحداثة؟

٣ - مفهوم المواطنة الحضرية في مرآة الاختصاصات

منذ انعقاد ندوة لندن، تغيرت معالجة مفهوم المواطنة الحضرية بحسب الاختصاصات. ففي النقاشات التي تلت المحاولات الرامية إلى تعميق المفهوم، ناقش علماء الجغرافيا مدى ملاءمته، لأن مفهوم ثقافة المواطن الحضرية يبقى ضبابياً ولا سيما أنه لا يأتي على ذكر المكان. وعليه فإدراك أراضي المدينة هو في قلب تصورات المواطن. فالمفهوم بالنسبة إليه مرساة للهوية. تؤدي الولادة والنشأة في الشارع نفسه والعيش في الحي عينه إلى تآزرات بين الأشخاص تتجاوز الانشقاقات السياسية أو الأيديولوجية. وأظهرت أعمال لاحقة أن المواطنة الحضرية متلازمة مع المكان. «تفتح المواطنة الحضرية منفذاً آخر للمكان الجغرافي... وهي أرض تتبلور فيها مختلف طرق تنظيم المجموعة الحضرية». خلقت التحولات الحديثة التي طرأت على هذه المجموعة الشروط التي أضعفت المكان الحضري نظراً إلى الخسائر لجهة جيرة الأشخاص والأمكنة. في هذه الظروف، تساءل ميشال لوسو: «كيف يستطيع الفرد جمع شذرات هذا المكان في كيان متجانس وامتلاكها وتنظيمها في بنية شكلية ذات معنى بالنسبة إليه وإلى الآخرين، أي في صفة تكرر تماثله واختلافه في الوقت عينه؟». باستطاعة الممارسات الاجتماعية الرفع أو التخفيض من شأن الأمكنة بحسب انتقال الأشخاص والمنتجات^(٤٧).

في أثناء طاولة نقاش نظمها اتحاد كتاب المغرب في الرباط عام ١٩٩٦، خلص العالم الجغرافي محمد عامر إلى أن المواطنة الحضرية هي تراكم تاريخي له مدلولات

Jean-Charles Depaule and Franck Mermier, «Chroniques des années 1980,» dans: Samia (٤٧) Naim, ed., Yemen (Paris: Maisonneuve et Larose, 2001), pp. 29-30, and Michel Lussault, dans: La Citadinéité en questions, pp. 44-47.

كثيرة لثقافة رفيعة تسمح بفهم المجتمعات الحضرية القديمة وعلاقاتها بالمكان وشبكاتنا ونسيج علاقاتها الاجتماعية. إلا أنه يشك في قدرتها على تفسير واقع المدينة الحالية حيث يحول تنوع الشعوب الناتجة من الهجرة الريفية دون الاندماج في ثقافة المواطن القديمة، وهو ما يعبر عنه عالم جغرافي آخر بجملة مقتضبة: «تم الانتقال من المدينة الدامجة إلى مدينة اليوم، مدينة التمييز والتجزئة»^(٤٨)، التي لا ينطبق عليها مفهوم المواطنة الحضرية. هذه الحجج صائبة، إلا أنها تندرج ضمن معنى آخر للمواطنة الحضرية التي لا تفك تثير الحيرة بتعدد معانيها.

خلال ندوة الدار البيضاء، وجد المؤرخون أن المواطنة الحضرية تقدم رداً جزئياً على سعيهم إلى تحديد التأثيرات الثقافية في أمكنة المدينة التقليدية في إطار تطوراتها التاريخية. ولم يخل هذا التحديد من بعض الاعتراضات التي عجز النقاش عن توضيحها. وإذ بدا مفهوم الشبكة مناسباً لفهم طريقة سير المجتمعات الحضرية، أثناء الطاولة المستديرة المنعقدة في الرباط، أبدى عالم اجتماعي خبير في الشؤون الريفية الاعتراض نفسه، إذ عدّ استراتيجيات القرابة والتحالفات المبنية على المصاهرة سمة خاصة بالآرياف. إلا أن معرفة المدني لسلالة العائلات المختلفة، وليس عائلته فقط، كانت تسمح له بفهم تفرعات الشبكات وتحديد نسبة القرابة بين واحدة وأخرى؛ وفي رأيه أنها وفرت شبكة ملائمة لتحليل التصرف الفردي والاستراتيجيات العائلية، وجلبت إمكانية حقيقية لاعتماد منطقها أو الاعتراض عليه أو بكل بساطة فهمه. من جهة أخرى، يتجاوز استعمال كلمة «بيت» أو «بيوت» أو «بيوتات»، بمعنى النسب، هذا الاعتراض المزدوج^(٤٩).

أثارت محاولات تكوين الجماعات على مستوى العالم العربي من خلال التمييز بين حضرية أندلسية دامجة وحضرية عثمانية تشاركية وحضرية خليجية تبديدية، نقاشاً تناول بعض مواطن اللغظ المحيطة بهذا التصوير للعالم العربي من الثقافات الحضرية للمجتمعات المعنية^(٥٠). وبدا أن هذا التمييز مستند إلى أسس غير متجانسة، أي مرجعية الثقافة ومرجعية الإمبراطورية ومرجعية الأرض بحيث اختلت المقاييس التاريخية. وفي الحقيقة فإن التقاطع قد يكون أكثر ملائمة للمقارنة. إلا أن المواطنة الحضرية

Robert Escalier, «Elite, Pouvoirs et villes,» dans: *La Citadinité en questions*, p. 27. (٤٨)

Naciri and Raymond, *Science sociales et phénomènes urbains*, p. 156. (٤٩) انظر:

Mohammed Naciri, «Le Rôle de la citadinité dans l'évolution des villes arabo-islamiques,» (٥٠) dans: Naciri and Raymond, *Ibid.*

في الحالات الثلاث كانت حصيلة عمليات تراكمية، على الرغم من أنها لا تمتلك الطبيعة نفسها أو العمق التاريخي نفسه. فالأولى تأثرت بثقافة خاصة لمجتمع أظهر التاريخ بعده الدامج، والثانية امتثلت لمنطق الإمبراطورية، التشاركي بطبيعته والموحد لجماعات وطوائف ومجموعات إثنية مختلفة ضمن المكان الحضري؛ في حين تحدّرت الثالثة من أرض عززت فيها سهولة التنقل الميل إلى التشتت والبذخ والتبذير؛ فحُسبت تبديدية. إلا أن هذا الأمر لا يسمح بتحديد قيمة الواحدة بالنسبة إلى الأخرى، إذ لكل نوع مواطنة خصائصه. في المغرب على سبيل المثال، اعترض المدينيون في تونس على سلطة الباب العالي وليس على البايات الذين حكموهم^(٥١) خلافاً للمغرب حيث كانت العلاقات بين «المخزن» والمدن الحضرية شديدة الالتباس. وبالتالي، فهي مجموعات حضرية عاشت خبرات تاريخية مختلفة لا تزال تؤثر في المجتمعات المعاصرة بحسب درجة تطورها.

وكان لمؤرخ، مديني، مداخلة أثناء الطاولة المستديرة المنعقدة في الرباط أثر فيها عبارة «الثقافة الحضرية» (لا التمدنية) التي لا نعرف الكثير عنها على حدّ قوله^(٥٢). لذا اقترح تحليل المواطنة الحضرية ضمن علاقة ثلاثية بين العالم الريفي و«المخزن» والمدن؛ وبما أن هذه الأخيرة تراجعت منذ القرون الوسطى، فمن الضروري الأخذ في الفترات الزمنية لتطورها كي لا تتحوّل المدن إلى نموذج لا تاريخي يُظن أنه يصلح لكل زمان.

انطلاقاً من هذه الاعتبارات، خلص المؤرخ إلى ضرورة معالجة المواطنة الحضرية على ثلاثة مستويات، ألا وهي الممارسات الاجتماعية والأشكال المكانية والقيم والرموز، لفهم العلاقات بين طريقة السكن والعائلة الكبيرة والهوية والشبكات العائلية على سبيل المثال. يؤدّي الانقسام بين المستويات الثلاثة إلى تحولات تفقد المدينة التقليدية وظائفها وتجعلها مجرد ملجأ للهوية والذاكرة من دون أيّ إمكان للانتقال من التقليد إلى حضرية جديدة.

علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، وبخاصة الأنثروبولوجيا الحضرية، هم أكثر من تنبّهوا إلى أهمية المعلومات التي قد يوفرها التفكير حول الحضرية في إطار أبحاثهم

(٥١) عبد الحميد هنية، الملكية والاستراتيجيات الاجتماعية في تونس العاصمة (القرن السادس عشر - القرن التاسع عشر)، سلسلة التاريخ ٣٤ (تونس: جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٩).

(٥٢) عبد الأحد سبتي، «حول الثقافة الحضرية»، وعبد عامر، «ملاحظات حول إشكالية الحضرية والمواطنة»، آفاق (مجلة اتحاد كتاب العرب) (١٩٥٨ - ١٩٩٦).

حول المجتمعات الحضرية. فمعرفة تصرفات ومواقف المدنيين عبر تعاطيهم مع المكان وترددهم إلى أماكن الاختلاط الاجتماعي وعلاقاتهم اليومية تسمح جميعها بفهم تصورهم للمكان، وهو موضع اهتمام مشترك بين علماء الإنسان وعلماء التاريخ. وفي إطار سعيهم لفهم المواطنة الحضرية في بعدها التاريخي وفي طريقة تصورهما اليوم، تمكنوا من اقتفاء أثر مخلفات الماضي والتقاليد والانفتاح على التغيير، لا بل على الحداثة. على سبيل المثال، «عندما نتحدث عن المساكن المعاصرة والتقاليد، لا نتحدث عن الهندسة المعمارية وعن أنواع العمارة فقط، بل عن العادات وطرائق السكن أيضاً»، أي ما يسميه هانري لوفيفر المكان الملموس: «الحركات، المسار، الجسم والذاكرة، الرموز والمعاني». من الممكن بالتالي استخراج سمات مستدامة للتطور وسمات أخرى أقل استدامة^(٥٣).

وبوجه عام، يسمح الأخذ في الثقافات كعوامل لتفسير تطور المجتمعات الحضرية القديمة بقراءة واضحة للمجتمعات القائمة في مشاهدتها الاجتماعية المكانية. ومن شأن دراسة علماء التاريخ وعلماء الأنثروبولوجيا، ولا سيما الأنثروبولوجيا التفسيرية لغيرتز، إحراز التقدّم ليس في مجال تفسير العالم الحالي فحسب، بل أيضاً على صعيد تجديد «النماذج البالية التي غدت قسماً وثيراً من البحث في مجال العلوم الإنسانية منذ نهاية القرن التاسع عشر».

رابعاً: إعادة اعتماد مفهوم معيّن في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية

كانت تحفّظات علماء الجغرافيا والأنثروبولوجيا واضحة منذ البدء، فالمفهوم غامض كونه يتجاهل المكان وصراع الطبقات ولا المواطنة الحضرية. وقد يتعلق بعده الإشكالي، في الحد الأقصى، بالمنطقة الثقافية العربية الإسلامية حصراً^(٥٤) متجاهلين المدن الأخرى، في مناطق العالم الأخرى.

Jean-Charles Depaule, «Contribution au Theme «habitat traditionnel et traditions»,» dans: (٥٣) Naciri and Raymond, *Science sociales et phénomènes urbains*, pp. 215-221.

(٥٤) لا يتصل التفكير حول الحضرية بالمجال الثقافي والعالم العربي والإسلامي، بل يشمل أيضاً المدن الغربية. يشير هذا التصريح إلى التغيير في الموقف حيال الحضرية. انظر: dans: *La Citadiné en questions*.

Naciri, «La Culture citadine est-elle une culture: انظر: في ما يتعلق بعلاقات المواطنة والحضرية، *citoyenne?*».

تشرح ثلاثة عوامل كما يبدو استئناف التفكير حول المواطنة الحضرية، بعد اثني عشر عاماً على ظهورها في مجال البحث الحضري. يكمن أولها في توسع الموضوع بتزايد الأبحاث في مجال العلوم الاجتماعية، ولا سيما علم الأنثروبولوجيا الحضرية حول فكرة الحضر - التمدّن - المواطنة المطبقة على دراسة مدن العالم الغربي، وثانيها في نجاح الأطروحات والأبحاث حول المدن التي أوضحت أن مدخل المواطنة الحضرية يسمح، بطريقة فريدة في نوعها، باستشراف مدى تشعب الظاهرة الحضرية، وثالثها في دور الاستثمار الفردي في تنظيم وإدارة عملية التفكير الجماعي حول غنى مفهوم المواطنة الحضرية بالمعاني والالتباسات على حدّ سواء. نذكر في هذا المجال رضا الأمين^(٥٥)، وميشال لوسو، وهما عالما جغرافيا تشهد أعمالهما بأهمية مساهمتهما في إيجاد متنفس للمواطنة الحضرية في مجال العلوم البشرية والاجتماعية.

تكمن أهمية كتاب أسئلة حول المواطنة الحضرية^(٥٦)، وهو مؤلف جماعي نشر عام ١٩٩٦، في أنه حدد مضمون المفهوم ومعانيه المتعددة. وكان يرمي إلى محاولة بناء مفهوم المواطنة الحضرية للمضي قدماً في الأبحاث حوله. يتعلق الأمر أولاً بـ «ممارسات التمايز التي تسمح للأفراد بتأكيد انتمائهم إلى الجماعة، وهو ما يسمح بالربط بين المواطنة الحضرية والهوية؛ ومن ثم يتم التشديد على عمليات الاندماج في المدينة واكتساب ثقافتها وهويتها عبر ممارسات فردية أو جماعية تفضي إلى الاستمدان [أو التمدّن]. وأخيراً المواطنة الحضرية التاريخية التي تكمن صعوبتها الأساسية في «الفجوة بين النظام القديم الذي كشف النقاب عنه من خلال البحث (والذاكرة) وبين النظام الحالي، وهي فجوة مبهمة المعالم في معظم الأحيان». وهذه الإيضاحات على جدواها، لا تؤدي إلا إلى تأكيد التصورات الراهنة للأنثروبولوجيين.

يشدد ميشال لوسو انطلاقاً من التفكير حول العناصر المعقّدة للنسيج الحضري الذي يوحد الأفراد والمجموعات في شبكة من التماثلات التي تسمح بوضعنا على السّاحة الاجتماعية^(٥٧) هوية الفرد والمدينة غير القابلة للانتقاص،

(٥٥) رضا الأمين، المدن والمدنيون في الساحل الأوسط (سوسة - تونس: كلية الآداب والعلوم الانسانية، ٢٠٠١).

أطلق رضا الأمين المبادرة التي أدت إلى نشر المؤلف الجماعي المعنون أسئلة حول الحضرية، انظر: *La Citadinité en questions*.

(٥٦) استُخرجت جميع الاقتباسات من: Mishel Lussault, «La Citadinite: Pour une approche problematique», dans: Ibid.

(٥٧) Jacques Levy et Michel Lussault, eds., *Dictionnaire de la géographie et de l'espace des sociétés* (Paris et Berlin, [n. pb.], 2003).

فيقول «تتوي مجالات اختصاصنا، أي العلوم الإنسانية والاجتماعية، مناقشة هذا التعقيد الأساسي. وقد توفر المواطنة الحضرية أداة مثيرة للاهتمام لإزالة الغموض المحيط بالظواهر الحضرية».

ماذا بعد، يتساءل في نهاية خطابه: ما هي المواطنة الحضرية؟ وتبدو إجابته عن السؤال بديهية: «هي بكل بساطة العلاقة بين أي فاعل اجتماعي فرد، سواءً أكان شخصاً أو مجموعة أو مؤسسة، وبين محيطه، أي العالم الحضري، الذي لا يمكن انتقاظه بحيث يلخص ببعده المكاني فقط».

لم ينفك لوسو، بفضل غنى مراجعه، يضخم معاني المواطنة الحضرية التي يصوغها خطوة خطوة، مرحلة بعد مرحلة، فيستند إلى الأدب ويقول: كيف أن الفرد الذي تتجاذبه حقيقتان حضريتان مختلفتان يواجه حضرية الانتماء بين علاقيتين ممكنتين بالمدن، أي «طريقتين لتصور المدينة (مدينته) وفهمها والتصرف والعيش ضمنها» واعتماد السلوك نفسه بالنسبة إلى مدن الآخرين، أي أن هناك نمطين من العلاقات ضمن رسوم بيانية ذهنية. وعليه، تتخذ المواطنة الحضرية شكل بنية شديدة التعقيد من التصورات المؤسسة للممارسات؛ وينسب إلى كل فاعل اجتماعي مواطنة حضرية واحدة وهي ظاهرة متغيرة الشكل تولّد طريقة تصرف وممارسات يؤثر تطورها في هذه المواطنة الحضرية التي تبني الدراية الفنية والفكرية والقيود والقواعد الجماعية وكفاءات الأفراد والمؤسسات، وهو ما يسمح بـ «توحيد الممارسات الشخصية ضمن بنية مجتمعية ومكانية منسقة».

لكن، ألن يؤدي حصر المواطنة الحضرية بالكفاءة الشخصية، المجزأة بطبيعتها، إلى تشتيتها وتذويبها في تصرفات مهمشة تفتقر إلى المعنى وإلى انتماء إلى مجتمع أو مكان؟ ومع ذلك، يطرح تذرر المجتمع الحضري اليوم، شأنه شأن تفجر أمكنة المدينة، مشكلةً بالنسبة إلى الأفراد الموزعين على مجال تنقل فسيح بعض الشيء. في الواقع، تعاني شبكات الاندماج الاجتماعي وأنسجة التصميم المكاني فجوات واضحة؛ فكيف يتعاطى الأفراد مع مثل هذا التذرر لأوساط وأماكن التعايش في المدن؟ يعترف لوسو بفضل «التصورات التي تشكل الوجه غير المادي للمواطنة الحضرية» في توطيد العرى الاجتماعية وحياسة النسيج الممزق للمكان المديني الفردي. وعليه، فإن أسطورة كاملة تتشكل حول هوية المكان والتراث والفعل الثقافي لإضفاء معنى على أرض ليست بالضرورة كذلك. وبالنسبة إليه، فإن الحضرية العامة لمجتمع ما في لحظة تاريخية محددة تبرز في شتى أنواع المواطنة الحضرية، وهو ما يشكل نظاماً معقداً ودينامياً ذا معنى».

ينسب لوسو تنوع بيئة إنتاج المواطنة الحضرية، التي هي في أساس تنوع معانيها، إلى «المهندسين والمصممين المدنيين والمعماريين وعلماء الجغرافيا وعلماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا والتاريخ والفلاسفة، الذين يستطيعون كل على طريقته التعبير عن الواقع الحضري». لكن يبدو أنه أغفل جانباً معيناً، ألا وهو المواطن المدني العادي الذي لا تعنيه المعرفة النظرية، لأنه يمارس ببساطة مواعته الحضرية يومياً.

وله يعود الفضل في تشريع أبواب الساحة السياسية أمام المواطنة الحضرية. يمنح دور المواطن الحضري أبعاداً مهمة تكسب طابعاً شاملاً للمدن، بغض النظر عن موقعها. وعليه فقد تحررت المواطنة الحضرية من حصرها في المجال الثقافي الإسلامي المزعوم بأنه مجال اختصاصها الوحيد. فاكسبت المقارنات بأماكن حضرية أخرى معنى وسمحت بفهم الشق الحضري انطلاقاً من الأدب واللغة والإشارات وروايات الفاعلين السياسيين، ووسائل الإعلام والإعلانات وقدرتها على تجزئة الأمكنة كما كان حال الفصائل المتناحرة في بيروت أيام الحرب.

يخلص ميشال لوسو إلى القول: «تبدو المواطنة الحضرية تركيبة دينامية حقيقية ذات منطق متعدد ترتبط على نحو وثيق بالممارسة والرواية، وتتناول المعاني والأجساد والنفسيات في كل امرئ، حتى لتصيبك بالدوار لشدة غناها. فهي دهليز يدعوك إلى سبر أغوار منعطفاته ويبدو أنه المفتاح لفهم العالم الاجتماعي وأمكته». ويذهب لوسو أبعد من ذلك في فيض أفكاره؛ فهو يعمم المعاني المتعددة للمواطنة الحضرية على المدن الأمريكية. وهناك أساس بالتأكيد للشك في شرعية توسيع المفهوم إلى الوقائع الحضرية لهذه المدن. فالمواطنة الحضرية تتقدم من ثقافة الجيرة والجماعة، بينما، وبحسب عمل ريشار سينييه، الذي يعود إليه: «يعكس وجه المدن [الأمريكية] الرهبة الخفية لسكانها في التعرض للأنظار». وأمكته الحضرية إنما تهدف إلى «تبديد خطر الاحتكاك الاجتماعي»^(٥٨)، وهو ما يبعثنا من المعنى الأول للمدينة كركيزة للأواصر الاجتماعية وأماكن التعايش بفضل الجهود المتواصلة الرامية إلى الحفاظ عليها.



مؤلفان إذاً، هما جورج هاردي وميشال لوسو، لم يجمعهما شيء عند طرفي القرن، ولكن جمعتهم إرادة إرساء معرفة من خلال مشروع علمي حول المواطنة

Richard Sennet, *The Conscience of the Eye: The Design and Social Life of Cities* (New York: (٥٨)
[n. pb.], 1990) [*La Ville à vue d'oeil, urbanisme et société*] (Paris: Plon, 1992).

الحضرية. كانت دوافع الأول: «تأسيس مجال اختصاص جديد على نحو كامل». وقد عرضنا للتو «المقاربة الإشكالية» للثاني في بناء المواطنة الحضرية. أما المسألة التي تطرح نفسها فتتعلق بالإطار الذي تفرض فيه الرغبة، بل الحاجة إلى تجديد المعرفة الاجتماعية. يواكب هذا المفهوم تطور العلوم الاجتماعية في مقارباتها للمدينة وهي مقاربات تراوح بين التردد واليقين، والتقدم والتراجع، وحتى الأزمات، على طريق فهم بنى المكان وتكوين الكيان الاجتماعي الذي شهد في الماضي تحولات بطيئة ويعيش في الوقت الحاضر نمواً سريعاً يؤدي إلى تحولات في جميع أوجه الحياة والعيش في المدينة.

ويبدو أنّ المواطنة الحضرية (بل المواطنات) في وسعها أن تتحول إلى مفهوم ناشط في أوقات الأزمة. أزمة مجتمع؟ أزمة اختصاصات؟ أو كلاهما في الوقت عينه؟ هل هي من صميم هذه الأخيرة؟ في حال الإيجاب، يمكن القول إن المواطنة الحضرية غذت على مر عقد من الزمن أفكاراً غنية ومتناقضة حول المدن على يد متجيين للمعرفة على اختلاف اختصاصاتهم. ألا يسعنا إذاً القول إنّ المفهوم ساهم إلى حدّ بعيد في التفاعل ما بين اختصاصي العلوم الإنسانية والاجتماعية وإلى نشوء مقاربة جديدة ذات اختصاصات متداخلة؟ أليس إيراد المواطنة الحضرية أول مرة في قاموس فرنسي متخصص بعنوان قاموس جغرافية أمكنة المجتمعات^(٥٩) طريقة لتكريس المفهوم؟ هل سيسمح تكريس مفهوم عقب تطور امتد على قرن بفهم البعد الحضري في غناه اللامتناهي حول العالم؟ لا شك في أنّ لحظات من الاهتمام تنتظر المواطنة الحضرية في المستقبل، وعلى نحو أكثر عمقاً.

الفصل الخامس والثلاثون

المنزل والتنسيق العمراني في المدينة الإسلامية المتوسطة

أتيليو بينروشيولي

مقدمة

عُرف المنزل ذو الباحة بتمثيله الدقيق للثقافة الإسلامية، تبعاً لدوره المقفل في إخفاء وحماية أجزائه الداخلية. فقد وضعت هذه الثقافة في مركز فلسفتها حماية الأسرة وفصل النساء عن الشؤون العامة. ومع استثناءات قليلة، طبقت الأغلبية العظمى من البنى العمرانية المدنية الإسلامية التقليدية هذا الطراز المغلق.

والواقع أن الدراسة الدقيقة للمدن الإسلامية المسوّرة تظهر وجود أشكال أولية إضافية من المساكن إلى جانب دُور الشعر الكبيرة. وهي منازل بسيطة من حجرة واحدة، مع مدخل واحد يفتح على الواجهة الرئيسية يسمح بوصول الهواء والضوء إلى الداخل. هذه المساكن البدائية البسيطة هي إما أثر باقي من أنواع بناء ريفية سابقة، أو نتاج غزو للأماكن العامة في المدينة. وهي، في كل الأحوال، تغييرات ذات دلالة معينة، وتسمى «علوي» في مدينة الجزائر، على سبيل المثال، حيث ترتفع طبقتين فوق الأرض. وحين تصطف هذه المساكن الأحادية النواة في شكل سلسلة، فهي تشكّل النمط الخام لمنازل المدن الغربية في القرون الوسطى. أما في المدن الإسلامية فقد ظلت على النقيض منفصلة وعلى الهامش.

ونظراً إلى ضيق مجال الفصل هذا، فلن يجري تناول الأنواع الصغرى تلك.

اكتنف الدراسات التي أجريت على المنازل ذات الفناء غموض دائم، فكانت تميل إلى تخليد صورة طراز أصلي عام، بغض النظر عن الموقع، وعلى نحو ثابت على الدوام. ومع ذلك، فإن احتفاء أعمال المستشرقين والمهتمين بالدراسات العربية بالبهو، بوصفه قلب «الدار»، والعائلة الممتدة، قد عكّر صفو الماء، على حدّ تعبير المعمارين. فبسبب اقتناعهم بالطابع الأصلي العام والفضائل الوظيفية، حذفوا المكونات النوعية والبنوية التي تمثل عاملاً أساسياً في التقييم الكامل للدار ذي البهو. لذلك، فقد أخفقوا في تفصيل المراحل التاريخية التي تميّز التغيير في النمط وتجلياته في المواقع الجغرافية المختلفة.

في المبحث الأول سيُظهر فيتوريو غريغيتو الأهمية الاستثنائية للفناء المنزلي كعمل معماري بامتياز؛ فالسياج لا يؤسس لعلاقة خاصة مع مكانٍ خاص فحسب، بل هو المبدأ الذي تتمكّن بواسطته مجموعة بشرية من تقديم شكل علاقتها بالطبيعة والكون. وإلى ذلك، فالإقبال هو شكل لشيء ما؛ كيف يقدم نفسه إلى العالم الخارجي؛ وكيف يعرب عن نفسه^(١). وعلى قاعدة أن النمط المعماري للدار ذي البهو المعماري يمثل عملاً أصيلاً في الإقبال والبناء، فلا فائدة من إعادة تأصيل شيء هو من الأهمية للبشرية بقدر ما كانت عليه العجلة، مثلاً. وعلى الرغم من ذلك فمن الضروري رؤية أن كل منطقة ثقافية قد أنشأت نوعاً من الملاذ والإقبال وفق أنماط مختلفة، وذلك من خلال اختيار بؤرة أساسية معيّنة أو من خلال توجيه رمزية العملية في اتجاه معيّن.

يهدف هذا الفصل إلى وصف الدلالات التي انطوى عليها تطور المنزل ذي الفناء «الإسلامي» المتوسطي مع الإحالة إلى العوامل التي تتضمّن المساحة المبنية. كما سيناقش المشاكل المعقّدة الموجودة على مستوى مجموعة أنماط المباني، والتراكم الذي أسبغته المنزل ذي الفناء على خصائص المدينة الشرق الأوسطية.

أولاً: المنزل ذو الفناء

في التاريخ الدلالي للمنزل ذي الفناء، كانت هناك لحظة حاسمة عندما جرى تمييز المسكن الأحادي ذي الغرفة الواحدة بإقامة سور في المساحة المحيطة به. عقب ذلك أصبح ذاك الجدار المحيط نقطة مرجعية، مع إضافة سلسلة من الغرف بعضها إلى جانب

V. Gregotti, «Editoriale», *Rassegna*, vol. 1 (December 1979), p. 6.

(١) انظر:

البعض حول فناء مركزي. وبخلاف موضوعة غرف ترصف الواحدة إلى جانب الأخرى، فرضت الإحاطة تلك شكلاً أخيراً للمنزل ذي الفناء، ورشح صورة المحتوى الداخلي له.

كتب الكثير عن الأهمية المقدسة للمنزل ذي الفناء. فقد قيل، على سبيل المثال، إن الفناء الوسطي في المنزل العربي يبعث خيال «جنات عدن»^(٢). أما غوتفرايد سمبر^(٣)، فربط شكل الإحاطة الدائري بالمجتمع الزراعي جنوب المتوسط، هذا المجتمع الذي كان عليه أن يكّد ليستخرج محصوله من تربة فقيرة، ثم كان عليه أن يحميه من العناصر. واستخدم غي بوتّي الاشتقاق اللغوي ليربطه بالبدو الهند - أوروبين. ومع ذلك، فالنوع ذاك هو الشكل المحلي الغالب للمسكن الذي تطور على نحو مستقل في عدة أماكن من الحضارة السومرية - المصرية إلى منطقة المتوسط وآسيا الصغرى، وصولاً إلى الوادي الهندي^(٤). وعليه، فالمنزل ذو الفناء المغلق والمعزّز هو نتاج للتزاوج الثقافي الذي يعود تاريخه إلى العصر البرونزي، واستمر في منطقة حوض المتوسط في شكل المنزل الروماني (Atrium) واليوناني (Pastas) الكلاسيكيين.

لبّ هذا النوع هو مفهوم العضوية، أو بالأحرى التوازن المحدد بين الاتجاه التسلسلي و/أو التوجه العضوي في الجمع معاً للأشكال التراثية في كل ثقافة. وعليه، فالمنزل ذو الفناء في غويلين في الصين، والمنزل ذو الفناء في فاس، والدوموس في إيطاليا وإسبانيا، تختلف كثيراً على الرغم من التشابه الأصلي. فالمنزل الصيني يفرش أجنحته داخل مقصورة عالية بطريقة متناثرة، ونادراً ما تتصل بالحائط المحيط بها. أما المنزل في فاس فيجعل الغرف الأساسية على طول المساحة الموجودة، بينما يكون هناك تناظر مضاعف يحكم نظام المدخل، لكن من دون التأثير في المبنى برمته. أما طراز الدوموس الإيطالي، فيتألف من غرف تلتف حول رواق بطريقة منتظمة، يحكمها تناظر من محورين يعبر المبنى بأكمله من المدخل إلى المقر المستدير الخارجي. والمساحات ذات أحجام مختلفة، وتتألف هرمياً من عدة أنماط بناء على الرغم من تشابهها جميعاً ظاهرياً كمنازل ذات فناء.

(٢) انظر: J. E. Campo, *The Other Sides of Paradise: Explorations into the Religious Meanings of Domestic Space in Islam* (Colombia: University of South California Press, 1991); p. Oliver, *Dwellings: The House Across the World* (Austin, TX: University of Texas, 1987), and G. T. Petherbridge, «The House and Society», in: G. Michell, ed., *Architecture of the Islamic World: Its History and Social Meaning* (London: Thames and Hudson, 1978), pp. 193-204.

(٣) انظر: G. Semper, *The Four Elements of Architecture and Other Writings* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1988).

(٤) انظر: G. Buti, *La Casa degli Indo-europei: Tradizione e archeologia* (Florence: [n. pb., 1962]).

من أجل فهم أفضل لطراز الفناء في أشكاله المختلفة، من المفيد التقديم بذكر الفروق الدلالية الأساسية بين المنزل ذي الفناء والدار الخام الأصلية. تقع الدار الخام الأصلية دائماً على طريق، في مواجهتها، ويمكن الوصول إليها مباشرة من الخارج. وتقع الأرض التابعة لها في الخلف، كما يجري ملؤها في مراحل لاحقة. ويحدد تميز موقع البناء، وقيمة العقار العالية المتصلة بمواجهته، أبعاد الأرض المفروزة، وتكون واجهته الأمامية مساوية لحجم الحجرة الأصلية، بمساحة خمسة أمتار تقريباً.

أما المنزل ذو الفناء فهو على العكس من ذلك، إذ يملك إحساساً رقيقاً بالجيرة من جهة الأرض، بحيث يتطابق الشكل مع أبعاد قطعة الأرض نفسها. لكن العلاقة الصارمة لجهة الطريق لا تنطبق على نوع الفناء، بحيث يمكن لأي وجه من وجوه قطعة الأرض أن تواجه الطريق من دون التدخل في التنظيم الداخلي للمنزل. وكان الفناء في البناء الأصلي في بادئ الأمر على مسافة ما من الطريق. وكانت رقعة الأرض غير المبنية تغطي على الرقعة المبنية، إذ إنها يجب أن تتوسط بين داخل البناء وخارجه، كما تقوم بتوزيع البناء من الداخل.

أكثر من ذلك، فإن نوع المنزل ذي الفناء يفتقر إلى فتحات على الخارج، وقد ظهرت هذه حديثاً فقط في الشرق والغرب على السواء، عقب عملية طويلة، وفي المناطق الحضرية حصرياً. والواقع أن الغرفة لا مصدر آخر للمضوء فيها إلا من الفناء أسهم في تحديد عمقها في حدود ستة أمتار أو أقل، اعتماداً على حجم البوارة الأصلية المستخدمة من الجماعة. ويمكن مدّ هذا العمق وتوسيعه بإضافة رواق أرضي إلى الفناء الأصلي مع سقيفة على المستوى العلوي. كما يمكن مضاعفة ساحة البناء فقط بعمل فتحة في الحائط المواجه للشارع، الذي سيسمح بغلق الرواق حيثنذ.

يقدم غاي باثربردج تفسيراً كلياً لتوزّع نوع المنزل ذي الفناء، وذلك بالتمييز بين نمطين:

- «المنزل ذو الفناء الداخلي، حيث يحيط المنزل بالفناء أو الساحة، وهي سمة المناطق الحضرية».

- «المنزل ذو الفناء الخارجي، حيث يحيط الفناء بالمنزل، مقدماً منطقة محمية بجوار الوحدات السكنية، إلا أنه لا يحيط بهذه الوحدات»^(٥).

وقد وجد أندريه بازانّا أن هذا التمييز يصدق على شبه الجزيرة الأيبيرية، وهو يسمّي الأول «شبيه المجتمع»، أما الثاني فينعت به «الملحق». وبحسب بازانّا، فإن الفرق بين الاثنين هو اقتصادي: فالفناء الخارجي استخدمه أشباه البدو، أما الفناء الداخلي فقد صمم على نمق قصر في صحراء، استخدمه في الأصل مزارعون مستوطنون^(٦).

إلا أن مثل هذا التحليل يبقى موضع شك، إذ إنه تمّ على مستوى منخفض جداً من الدلالات المحددة. والتقابل الذي يقيمه باثربريج بين الطرازين يقيم فصلاً نمطياً بين المجتمع الريفي والمجتمع الحضري التجاري، ولا يسمح بالتالي بقيام مواقع متوسطة. وهذا التقابل مصطنع، وأدى إلى أن يكون نتيجة للعقيلة الاستشراقية منه إلى أن يكون نتيجة لتفكير الجغرافيين الذين يركّزون على الأرض، ولتفكير المؤرخين مثل توريز بالاس، ممن يركّزون على الاستثناءات، كمنازل التجار ومسؤولي المدينة المترفة المزخرفة.

إلى ذلك، لو نظرنا إلى العمليات الدلالية المحلية في المغرب والأندلس، لاكتشفنا ليس فقط عدم تناسب طرازي المنزل المغلق والمفتوح كتفسير مقنع، بل نرى كذلك أن المدينة العربية - الإسلامية التي يعكس نسيجها الانطباع بأن الزمان قد توقف فيها بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر، ليست كذلك على نمط دلالي واحد، بل هي مبنية على العكس على غنى في الأشكال التي لا تبالغ في تعظيم شأن أسس نمط الفناء. وقد جاء سوء الفهم - كما في حالة بازانّا - نتيجة لفكرة أن عنصر الفناء قد بقي في الذاكرة الثقافية إلى ما بعد انتهائه فعلياً بوقت طويل، وقد تم استنساخه وإعادة استخدامه في المنطقة نفسها بعد مرور فترة كبيرة من الزمن.

ثانياً: التسمية الاصطلاحية والعملية الدلالية

يبدأ المبحث هنا بتحليل العمليات الدلالية من خلال دراسة النسخة الريفية من المنزل ذي الفناء. وتسمح التغيّرات المحدودة التي عرضت له بقراءة أوضح للنوع الأصلي والمراحل المبكرة لهذه الظاهرة. وعلى وجه العموم، هناك نوعان من البناء الريفي داخل السور نفسه: محل السكن والملحقات التي تتضمن حظائر الحيوانات

(٦) انظر: A. Bazzana, *Maisons d'al-Andalus: Habitat medievale et structures du peuplement dans*

l'Espagne orientale (Madrid: Casa de Velázquez, 1992), p. 169.

للمزيد، انظر: C. Flores, *Arquitectura española popular*, 5 vols. (Madrid: La Torre Libros, 1973).

ومخازن الأدوات والتجهيزات الزراعية. وتقع الملحقات على الجانب المقابل للمنزل، في حين يقع محل الإقامة من البناء على الجانب الواقع في واجهة المدخل، وهي إما موازية للمدخل وإما على الجانب المتعامد معه.

أما في المنازل المدنية العربية - الإسلامية في الشمال الأفريقي، فإن آثار هذه المرافق تتوافق مع المطبخ، وبيت الخزين والحمام، وتجتمع معاً على الجانب المواجه لـ «البيت» الرئيسي^(٧).

كما أن أبعاد هذا المنزل لا تنحصر بحال في المساحة المبنية، وهذا الاعتماد التبادلي هو سمة من سمات التخطيط المدني فقط. ويجده المرء في منطقة المتوسط في كلا المنزلين: الباستاس اليوناني القديم الذي تراوح واجهته بين ٩ و ١٨ م^(٨)، والدوموس الروماني الذي تراوح واجهته بين ١٢ و ١٨ م^(٩).

هناك عاملان رئيسيان يقرران الوجه الأول من التطور الكلي للمنزل: الاتجاه والمدخل. فالوحدة المبنية يتم توجيهها لتمتع بالحد الأقصى من ميزة الشمس مباشرة، التي تكون في منطقة المتوسط في الجانب الجنوبي والجنوبي الغربي. ولأن اختيار الجهة كثيراً ما يتصل بضرورات الإنتاج أكثر من اتصاله بالبناء نفسه، وهذا قانون صارم في المناطق الريفية، إلا أنه ليس كذلك تماماً في المدن، على الرغم من أنه السائد في أغلبية منازل المدن كذلك. ومع غلبة الاتجاه نحو الجنوب، فإن الجزء المبني داخل السور، يكون إما موازياً للطريق وإما متعامداً معه.

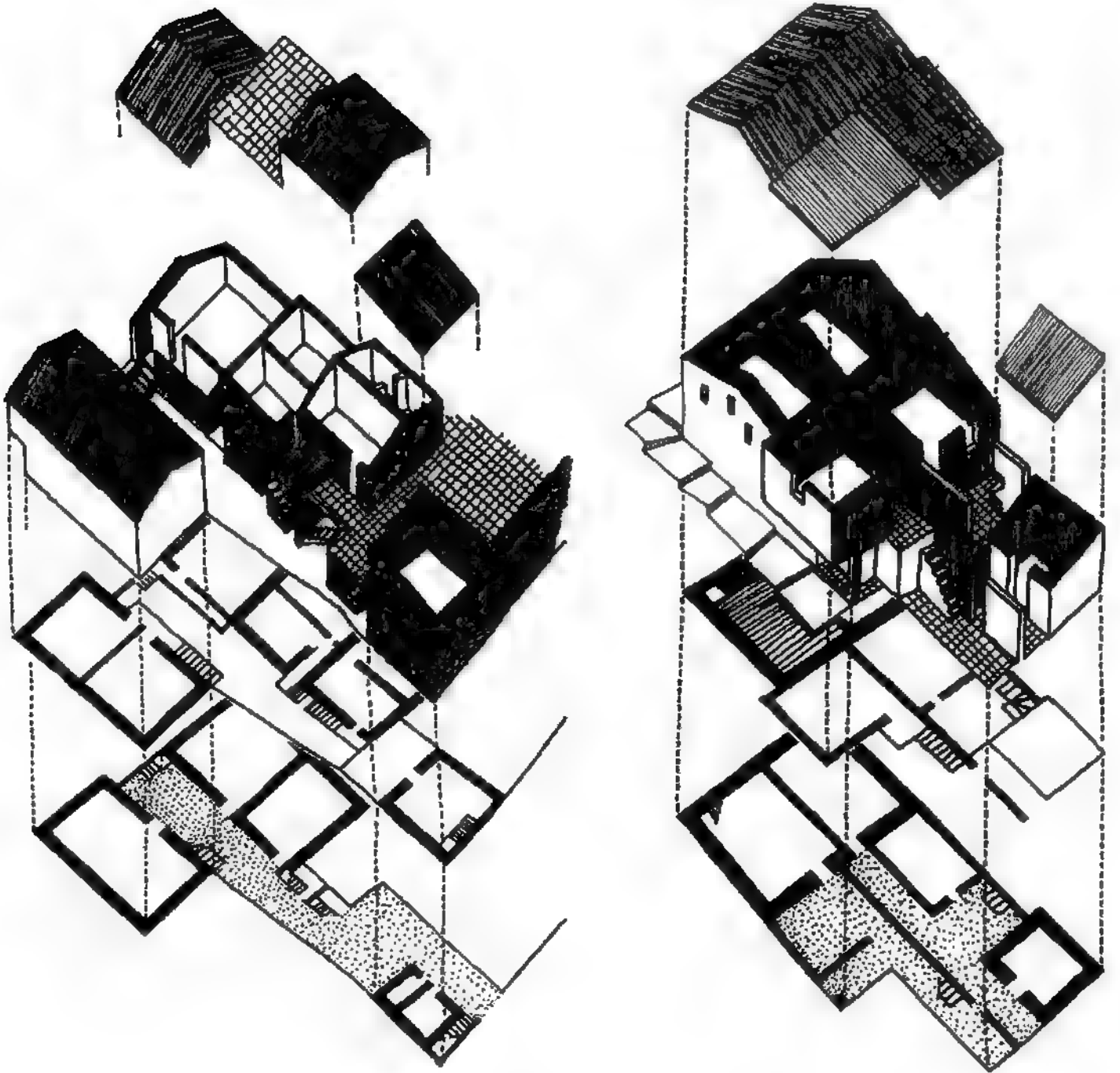
وهناك من ثم ثلاثة مداخل ممكنة لفناء الدار: في الحالة الأولى عندما يكون البناء موازياً أو مجاوراً للطريق، يكون المدخل من خلال البناء نفسه، حيث يدفع إلى أقصى النهاية كي لا تحد من الإمكانيات التوزيعية للبناء. وفي الحالتين الأخريين، فيكون البناء إما مقابلاً أو متعامداً مع الطريق، ويقع المدخل حينئذ في قلب الجانب الخالي من البناء (انظر الرسوم الأرقام (١ - ٣٥) و (٢ - ٣٥) و (٣ - ٣٥)).

(٧) انظر: J. Revault, *Palais et demeures de Tants XVIII^{ème} et XIX^{ème} siècles* (Paris: Editions du Centre national de la Recherche Scientifique, 1971).

(٨) وبالتحديد، وُجِدَت واجهات ٩ م، و ١٨ م في بيرن على ناحيتين مختلفتين، و ١٥ م في أوليتو وكاسوي، و ١٨ م في دورا يورويوس، وحتى ٢١ م في ألبيرا. يمكن شرح الحجم المائل للواجهة في المثال الأخير من خلال القول إن البهوات التي تم تنسيقها مع الناحية البارزة بالتوازي مع الطريق هي التي يتم فتح المدخل فيها. انظر: W. Hoepfner and E. L. Schwandner, *Haus und Stadt im Klassischen Griechenland* (Munich: Deutscher Kunstverlag, 1994).

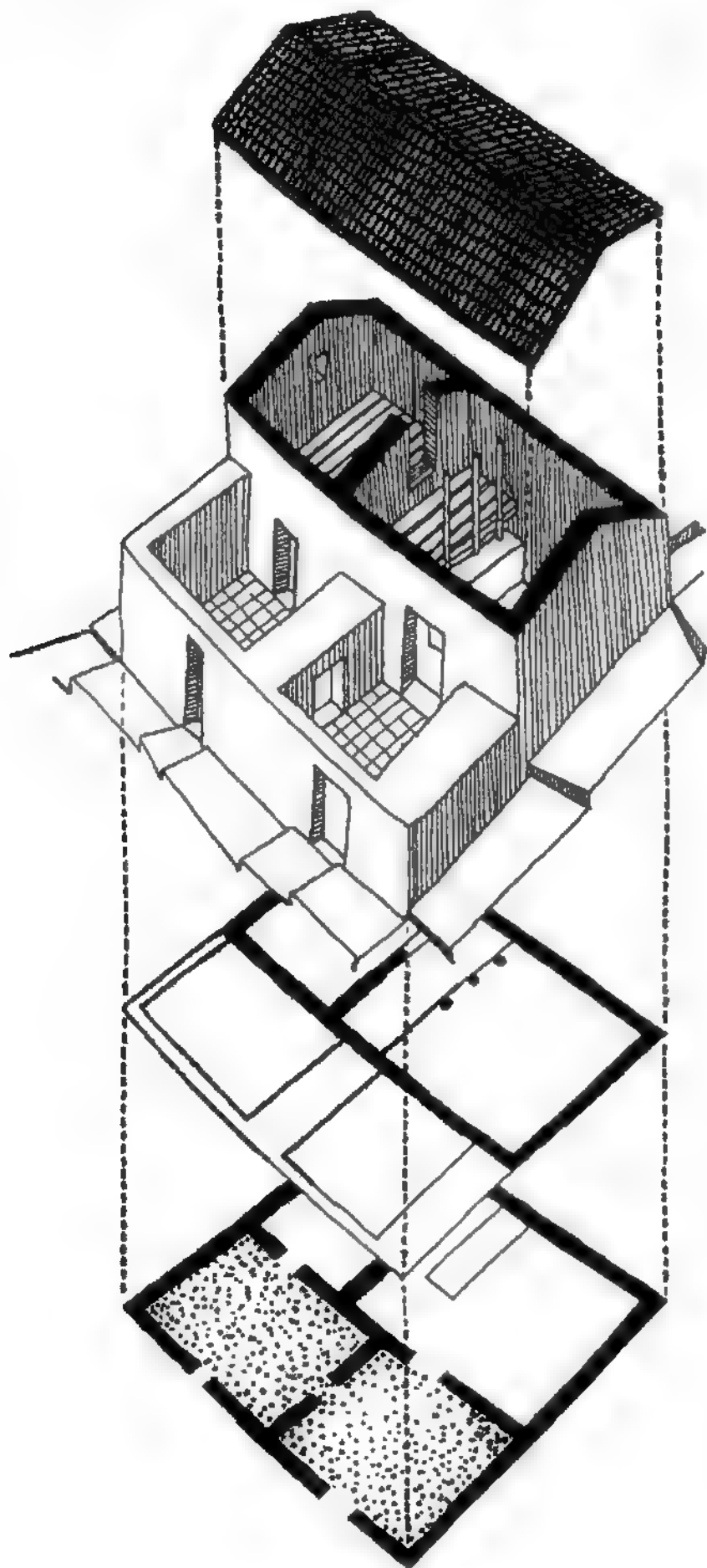
(٩) بالنسبة إلى المقياس الروماني، انظر: A. Martini, *Manuale di metrologia* (Turin: Loescher, 1883).

الرسم الرقم (٣٥ - ١)
قرية آيت لآحسن، في منطقة القبائل، الجزائر:
تكرار لوحدة سكن على منحدر



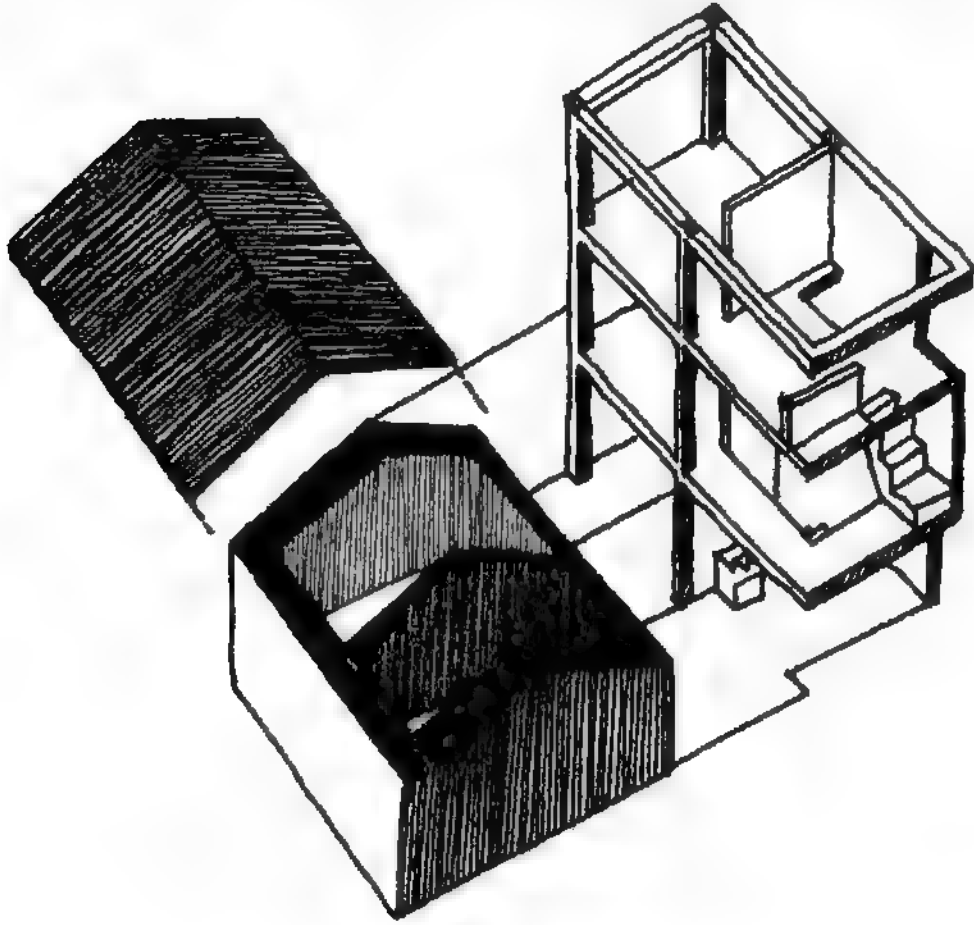
توضح الأشكال الأولى مواقف ينتج منها تنوعات مختلفة ظاهرياً، والعمليات المتصلة بها، والتحويلات الأكثر أهمية في هذه العمليات. وهذه التحويلات قادرة بدورها على أن تنتج عمليات موازية من المتغيرات المصاحبة في أثناء المرحلة نفسها، والتي لا تظهر في الأشكال التوضيحية، لأسباب متصلة بالمكان.

الرسم الرقم (٢-٣٥)
قرية آيت لحسن في منطقة القبائل في الجزائر: امتداد جانبي للأقسام



الرسم الرقم (٣٥-٣)

قرية آيت لحسن، الجزائر: تكرر جانبي، ولكن مع خرسانة معززة

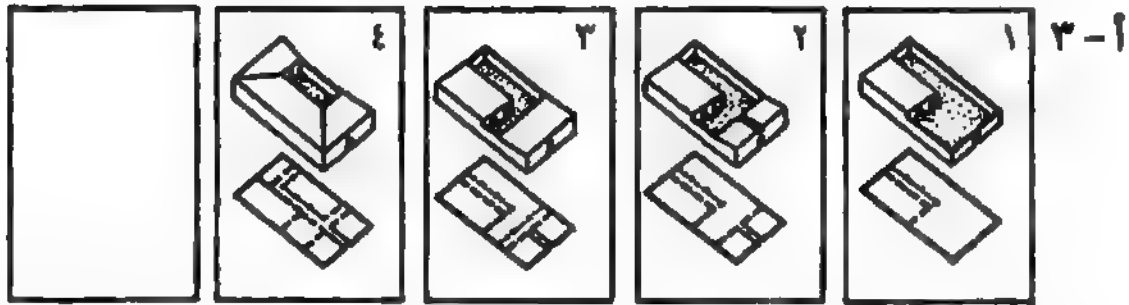
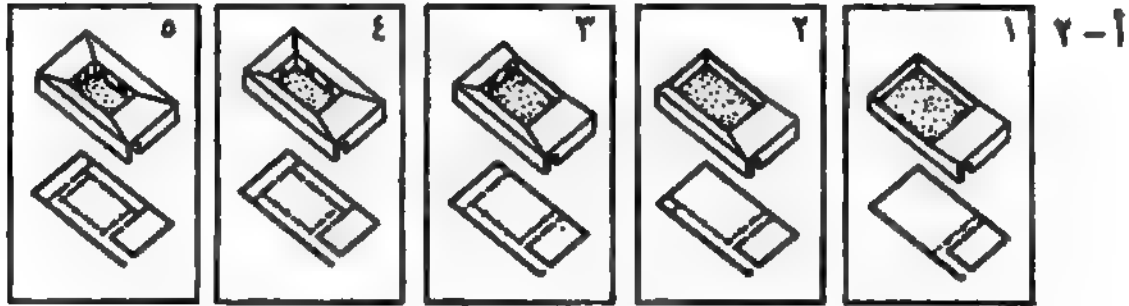
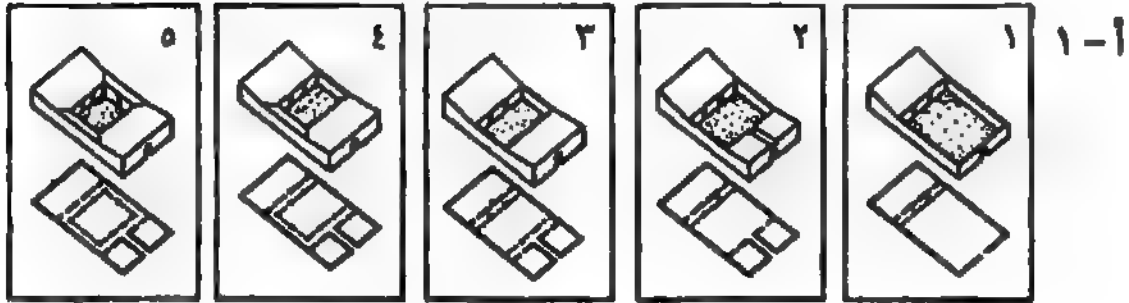


يُظهر الرسم الرقم (٣٥-٤) (١-أ، ٢-أ، ٣-أ)، كيف أخذ الفناء الأولي يتحول تدريجاً مع زيادة شغل القطعة التي يقع فيها، لذلك بدأت الأنشطة التي كانت تحدث في الماضي في الخارج تحدث الآن في الداخل، وهذا ما يتم تحقيقه بإضافة غرف على الجانب المقابل للبوّرة الأصلية. ثم يجري دعم هذه الغرف الجديدة برواق، بعدما يكون قد تم توحيد الجزأين معاً من خلال ممر مغطى يربطهما معاً، وتنتهي العملية بتكوين فناء محيط حول مركز المنزل. ولأن المثال في هذه التشكيلة هو لأسرة فردية، فإن الجيوب السقفية والإضافات الرأسية الممكنة للعمليات المختلفة لم يجر تضمينها، على الرغم من شيوعها، كيما تحفظ لبوّرة واحدة على الأقل مدخلاً مستقلاً إلى الخارج يستخدمه الأزواج الجدد والضيوف^(١٠).

(١٠) وُجد الاستخدام غير التجاري الذي نتج من عملية الحانة في المغرب في أحد ملحقات الدار وتسمى العالي في تونس والجزائر والمصرية في المغرب.

وفي السلسلة الأولى هذه، يكون للمنزل بالأحرى مستوى أدنى من التخصيص، حتى إن حجم قطعة الأرض في المنطقة الحضرية يكون كبيراً بما فيه الكفاية للسماح بتقسيم وظيفي لكل جزء على مستوى فردي. وتحدث ترتيبات أخرى عندما تحدث إضافة إلى المستوى الأعلى أو بتملك الأفنية المجاورة لتكوين وحدة مبنية أكبر حجماً. وهذا الخيار لن يكون تعسفياً، بل يتقرر وفق عوامل ثقافية وسياسية واقتصادية.

الرسم الرقم (٣٥ - ٤) معالجة طوبوغرافية لفناء المنزل الداخلي



سلسلة (أ) تؤلف أشكالاً متنوعة لمنزل أسرة فرادي داخل قطعة الأرض نفسها مع حد أدنى من التخصيص:
 أ - ١، مدخل وممر إلى الجزء المقابل المسقوف؛ أ - ٢: مدخل وممر من الجزء المقابل المسقوف؛ أ - ٣: تصميم الجزء المسقوف مع جدار جانبي طويل. من اليمين إلى اليسار: أ - ١، ٢: جعل بناء المداخل على الجانب المقابل لوسط المنزل؛ أ - ٣، ١، إدماج المداخل مع بناء الأروقة؛ أ - ٤، ١: توحيد نظام التوزيع مع الممر المسقوف؛ أ - ١، ٥: الميل لتشكيل فناء داخلي حول المركز أو القلب.

وتحدث خطوة مهمة في عملية جعل البيت أكثر تعقيداً وتخصصاً حين يتم إدخال استخدامات للبيت غير مجرد السكن. ويمكن لذلك أن يحدث عندما تقترب منطقة بقوة من منطقة تجارية خارجية. وتصف رسومات السلسلة (ب - ١، ب - ٢، ب - ٣) هذا التطور، الذي سنشير إليه باسم الـ «تاييرنا» (الحانة) (أخذاً من الكلمة اللاتينية التي تعني «المحل التجاري»)، وهو مصطلح استخدمته أول مرة مدرسة موراتوري للإشارة إلى تحويل ملكيات سكنية إلى أغراض تجارية. وتؤدي الجاذبية التجارية لتحويل الجزء الأمامي من فناء الدار إلى حوانيت (محال تجارية)، وهو ما يتم بيسر عن طريق فتح مدخل جديد ومباشر من الخارج إلى الغرف الموجودة في الدار. يتطور هذا النموذج على نحو مستقل إلى الدرجة التي يصبح فيها منزل صف جديداً على حافة الطريق، ويعمل كبؤرة أولية مستقلة: فيضاعف ارتفاعه بإدخال سلم إليه، ويمدد إلى الجوانب ليكون نواة لنسيج من الطراز الذي يأخذ شكل الصف، الذي يُذكر بتطور الوحدة ذات الغرفة الواحدة، كما في الرسم البياني. وحيثما أمكن تجري مضاعفة حجم الواجهة على حساب الطريق العام من خلال إضافة رواق أمامي.

حدّدت العملية هذه قيام صفوف مزدوجة الغرف، وما إن قنتت حتى أصبحت الأساس في أوروبا القرون الوسطى لكل التوسعات التي جرت في القرى الأخذة في التوسع بكثافة. وحدثت الظاهرة في أوستيا أنتيكا، المركز التجاري لروما، وقد عرّفها ووصفها أليساندرو جيانيني بالتفصيل^(١١). وحدثت إضافات أخرى كلما كان يجري إشغال المكان العام، وهذا سلوك إنساني بدائي عالمي (انظر الرسم الرقم (٣٥ - ٥)).

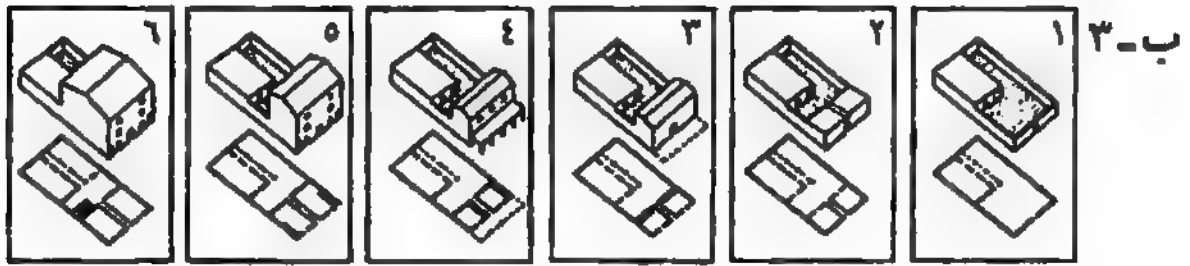
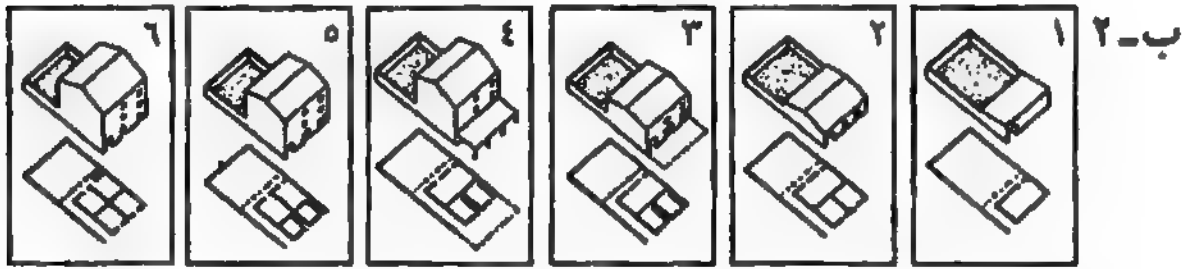
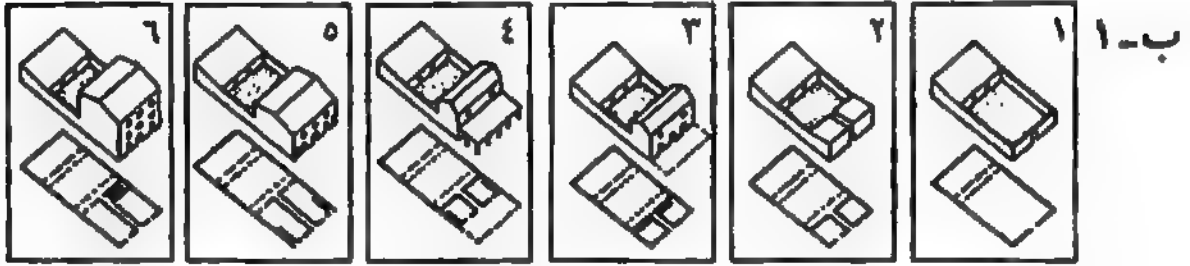
كانت هذه الظاهرة منتشرة في القرون الوسطى، وبخاصة في تلك المدن العربية، حيث المؤسسات التقليدية - الملتقى والساحة - جرى ابتلاعها، تاركة الحد الأدنى من الطريق. ففي الأسواق الخطية للمدن الإسلامية هناك شريط من المحال الصغيرة يقدم الخلفية لنسيج سكني لمنازل ذات فناءات. وفي حالة السكن الأولي العفوي، إذا لم يكن النسيج يتسع لإقامة محال من غرفتين على الواجهة الأمامية، فسوف يسمح بالإزالة والاستبدال داخل الدار، وإلى الحد الأقصى، وهو ما ينتج تغييراً في الاستخدام^(١٢).

(١١) انظر: A. Giannini, «Ostia» *Quaderno dell'Istituto di Elementi di Architettura e Rilievo dei Monumenti*, vol. 4 ((n. d.)), p. 36 ff.

(١٢) مذكرات ألكسندر لزين في أحد البلوكات التونسية في شارع غريال، تم نقل ثلاثة منازل مزودة بصحن بهذه الطريقة بعد القرن السابع عشر. انظر: Alexander Lezine, *Deux Villes d'Ifriqiya* (Paris: Librairie Orientaliste Paul Geuthner, 1971), p. 160.

الرسم الرقم (٣٥ - ٥)

سلسلة (ب-١) و(ب-٢) و(ب-٣) تصف عملية التايرنا



في ب-١، ٢: حيث تأسس محلان من خلال تكرار اثنين من خلايا [غرف] المنزل الأولية على خارج قطعة الأرض. تتطور التايرنا تلقائياً حتى تؤسس لنمط المنزل الحام المطل على الشارع، وتعمل بالتالي كأنها خلية أولية معزولة: في وسعها ساعتذاك مضاعفة ارتفاعها (ب-١، ٣) من خلال تقديم درج؛ ثم تذهب جانبياً (ب-٢، ٣) لتؤلف جنين نسيج المنزل الحام وحين يبدو ممكناً مضاعفة واجهته الأمامية بدمج المساحة التي كانت شرفة على الشارع العام (ب-١، ٤، ٣، ٢). العملية تستمر تكراراً باتجاه داخل قطعة الأرض الأصلية، والملحقات غدت شققاً ب، ٦.

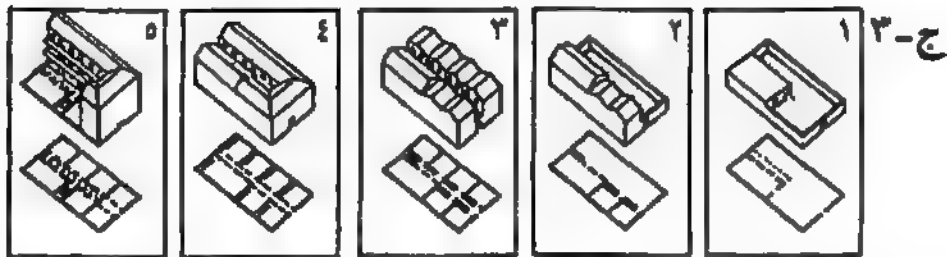
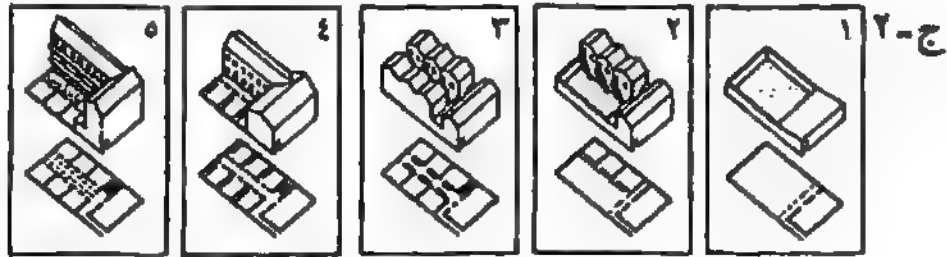
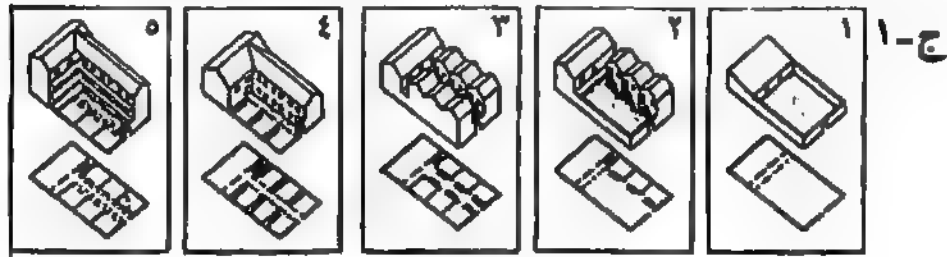
وعملية الإشغال المستمر هذه للفناء التي يمكننا أن نطلق عليها «عملية الجُزر»، تتطابق مع التحويل إلى سكن أكثر من عائلة في الدوموس الأولي^(١٣). أما الرسم الرقم (٦ - ٣٥) السلسلة (ج - ١، ج - ٢، ج - ٣) فيصف هذه العملية، إذ تبدأ على جانب من الفناء أو صحن الدار بصف من الحجرات الذي يتضاعف في الارتفاع ويستخدم كشرفة. ويقع صحن السلم بشكل استراتيجي في رواق البوابة الأصلية. وبمضاعفة الصف على

(١٣) يطلق بعض المعماريين التقليديين على البناء الطويل اسم إنسولا؛ وذلك من أجل تمييزه من الدوموس، بينما يطلق البعض الآخر اسم بلوك على هذه الكلمة.

الجانب المواجه، يمكن صحن سلم واحد أن يخدم شرفة أخرى على نحو فعال^(١٤). وإذا كان الفناء أو صحن الدار المفتوح قد جرى الانتفاع به بالكامل، فهو يتحول إلى ممر خطي. ومع ذلك، فإذا كانت العملية تبدأ على الجانب المقابل للفناء (ج - ١، و ج - ٢)، فالميل يكون إلى إقامة ساحة صغيرة مسوّرة. والعمليتان لا تجريان بصفة مستقلة إحداهما عن الأخرى. على العكس، فإن تحويل الأماكن السكنية لأغراض تجارية (عملية تاييرنا) وظاهرة بلوكات الشقق (عملية الجزر السكنية) دائماً ما يقترنان معاً.

الرسم الرقم (٣٥-٦)

سلسلة (ج - ١) و (ج - ٢) و (ج - ٣) تمثل عملية إنسولا insula



تبدأ باحتلال أحد جوانب فناء المنزل (ج - ٢، ١) بصف من الخلايا [غرف] تبدأ بالتمدد عمودياً (ج - ٢، ٢). لزيادة مساحة المكان المأهول، تلغي الخلايا الجديدة الدرج الخارجي وتؤسس شرفة جماعية يخدمها درج واحد موضوع استراتيجياً عند واجهة الخلية الأصلية الأولية، ثم ينعكس الصف على الجانب المقابل (ج - ١، ٣). ويقود ذلك بناء شرفة ثانية يخدمها الدرج نفسه (ج - ١، ٥). نسخة مماثلة تنشأ عن الدرج داخل كل خلية أولية من الصفين، ثم يصبح للخلايا أربعة أقدام الآن وعلى الجوانب الأربعة (ج - ١، ٤).

(١٤) تعطي البلوكنة التي في صحن الدار والتي تعرّضت لعملية إنسولا أفضل النتائج بقدر ما تدع سُلماً واحداً يسمح بالوصول إلى عدد من المساكن.

كانت عملية البلوكات قد نشأت نتيجة اتجاهين متقابلين؛ ففي فترة الأزمات الاقتصادية والسياسية كان الاضطراب الاجتماعي يتسبب بتراجع في التخصيص؛ ف فيما يتحرك الأغنياء نحو الخارج، يجري شغل منازلهم وتقسيمها من جانب الأسر الفقيرة. وفي مراحل النمو الاقتصادي السريع، تجذب المدينة سكاناً جددًا، الأمر الذي يؤدي إلى حدوث ضغط على العقارات، وحاجة عامة إلى توفير الإسكان، يجب إيجاد حل لها بشغل المنازل الداخلية أو الموجودة. ويجب أن يكون واضحاً أن تزايد البناء ظاهرة طبيعية يمكن المجتمع أن يضبطها بموجب شروط معينة، لكن في لحظات الخلل الاجتماعي الكبير يمكن أن تكون ظاهرة مرضية، كالتعدي الصارخ أو الهدم المتعمد الذي يأخذ شكل الظاهرة، واستبدال المنزل ذي الفناء بمنازل أشد كثافة في عدد الشقق^(١٥).

حدثت عملية «الجزر السكنية» في المدن العربية والعثمانية ما قبل الصناعية أساساً في حالات محددة بالحوضر الكبرى، مثل القاهرة في أثناء الحقبة العثمانية، لاتصالها بأحوال الناس الاجتماعية، وهو أمر نادر الوقوع في مدينة من التجار والحرفيين، لأنها تترك علامات خفيفة على البناء^(١٦). إن التغيرات العميقة التي حدثت في المجتمع المسلم في النصف الثاني من القرن الأخير قد أتت على جذور البناء الأبوي للأسرة، ومن ثم فإنها تشكل السبب الأساسي لبقاء المنزل ذي الفناء للأسرة الواحدة. واستدعت عملية التقسيم تقدماً أساسياً، ولم تستثن منها مدينة واحدة حيث يتضاعف النمط كاملاً، وحيث تحدث زيادة لنصف النمط، فتصنفان دمج وحدتين متجاورتين. وهذه العملية تخضع لواحدة من نتائج خمس رئيسية:

١ - ضم غير تراتبي لأفنية متباينة.

٢ - ربط سهل لقطعتين عقاريتين متجاورتين بإزالة الجدار الفاصل من دون أية تعديلات لاحقة.

٣ - ضم غير تراتبي للأفنية المتشابهة.

٤ - توحيد لبناءين موجودين سابقاً.

(١٥) للبدائل الرمزية وملاحظاتها الاجتماعية المترتبة عليها في القاهرة القديمة، انظر: L. Christians, O. Greger and F. Steinberg, *Architektur und Stadtgestalt in Kairo* (Berlin: Kanopka, Sabine, 1987), p. 84 ff.

(١٦) يُطرح السؤال الذي يتم بهيكل العائلة، فقد كانت الدار بخاصة في المدن القديمة تجمع العائلة الكبيرة، وهو هيكل قريب من الفكرة اللاتينية عن العائلات الممتدة بخلاف الاتجاه الحديث للعائلة المستقلة، ويؤدي نمو العائلة إلى إنشاء وحدات جديدة، الأمر الذي يتج من في الغالب تعقيدات في المبنى، ومن المعتاد أن ترى نمو عائلة ممتدة مع مرور الوقت بشكل كبير بحيث تقوم بإنشاء مجاورتها الخاصة.

٥ - إغلاق الفناء أو صحن الدار من الجهات الأربع.

هذه العملية الكلية تجري بصورة مختلفة في المدن في المغرب، حيث تجري توسعة المنزل من خلال الإضافة المتتابعة لأجزاء جديدة مستقلة. على سبيل المثال، فقد يكون لمنزل كبير ثلاثة أفنية، لكن لا يجري إعادة صفها تراتيباً، كما في حالة المباني ذات الأفنية المتسلسلة في القصور الإيطالية إبان فترة عصر النهضة. وبدلاً من ذلك، يجري دمج الكلّ إما بإحداث فتحة في أحد جدران الوحدة التي تم تملكها، وفي حالة كونها أصغرهما، فهي تصبح وحدة خدمية تابعة، وإما بإضافة ممر مرتفع لها (السباط).

هناك عمليات تتصل بالتقسيم الفرعي لقطعة الأرض. وكل قسم جديد سيتم التعامل معه كنوع مستقل، إذا كان ذا حجم موحد، مع أخذ وجود ممر يخدم المسكن من الداخل في الحسبان من دون تمزيقه.

الغرض من الرسوم الأربعة ذوات الأرقام (٣٥ - ١ و ٢ و ٣ و ٤) هو إعادة بناء الظواهر الرئيسية المرتبطة بالعمليات الدلالية للمنزل ذي الفناء. ولا تهدف هذه الرسوم البيانية إلى اقتراح نمط شامل يعمل كقالب شامل، وهي خاضعة بالتالي للتعديل. ويجب أن نضع نصب أعيننا أن لكل ثقافة بناء سلوكاً يختلف عن غيره، والأفضليات التي يمتلكها داخل الترسمة الأكبر. على سبيل المثال، فالخلية الابتدائية قد تتنوع في الشكل والحجم، مع ضم غرف أخرى معتمدة على مستوى التماسك الثقافي^(١٧).

ثالثاً: المنزل ذو الفناء: التنظيم البنوي

يظهر المنزل الإسلامي تعقيداً بنوياً في تنظيم المبنى. ويمكن تحليل مكونات المبنى من خلال النماذج المأخوذة من المنطقة الثقافية نفسها. فالمنازل البرجوازية في فاس في القرنين السابع عشر والثامن عشر من القرن الماضي وتنوعاتها الدلالية هي نقطة النهاية لرحلة طويلة من الخبرة للمكونات الدلالية والتكنولوجية والوظيفية التي كانت ثمرة معرفة مهنية عملية قوية. وفي ما يخص عمليات الإنشاء، فقد تم بناء هذه المنازل من الخشب ومواد حجرية جرى استخدامها بطريقة تستفيد في الوقت نفسه من الخصائص البنوية والحرارية المتوافرة فيها.

(١٧) تمثل المناطق التي تزداد فيها نسبة المواد العضوية إلى التنظيم من خلال محاور مركزي أو مقسم، ويمكن أن تكون خلية الركن جزءاً من خلية شكل مستطيل أكبر (كما هو الحال في المغرب) أو جزءاً من شكل موحد (كما هو الحال في بومباي).

من الضروري لإجراء التحليل التنظيمي أن نطرح جانباً موضوع المساحات الملحقة التي لا تمثل أهمية لموضوعنا، مثل التقسيمات الصغيرة للغرف والتجاويزات التي قد تؤدي إلى غلق الفناء، والغرف المكتسبة خارج المساحة الأصلية، و«المعلقات» أو الممار المعلقة (الساباطات). للحصول على وصف تفصيلي للأجزاء الداخلية كافة. ويمكن القارئ، في هذا الصدد، مراجعة العمل المفصل لجاك ريفو^(١٨).

المنزل النمطي ذو الفناء في فاس هو عبارة عن مبنى مكوّن من طابقين مع ممر محاط بأربعة جدران إلى جانب شرفة مزدوجة أو رواق خارجي. وهو يتكون من غرف معيارية تسمّى «بيت» ذات شكل مستطيل طويل ممتد حول جوانب قطعة الأرض. وتقع الغرف الثانوية، مثل غرف المطبخ والحمام والطعام في الزوايا، وأحياناً يتوافر لها ممر، بينما يقع السلم في الجانب المقابل للمدخل. وفي مباني الأشخاص الأكثر ثراءً، تتم مضاعفة الترتيبات الرأسية، حيث يؤدي سلم إلى حُجر الضيوف، ويؤدي آخر إلى الحريم والتراس. ويتم نقل ترتيب البيوت في الطابق الأرضي إلى الطابق العلوي، حيث يتوافر للفراغات شرفة خارجية أو غرف متتابعة.

والتراس، الذي يكون محجوزاً عادة للنساء والأطفال، محاط بجدار مرتفع على طول المحيط الخارجي للمنزل، بينما يوجد حاجز قصير يحمي الأشخاص في البهو (انظر الرسم الرقم (٣٥ - ٧)).

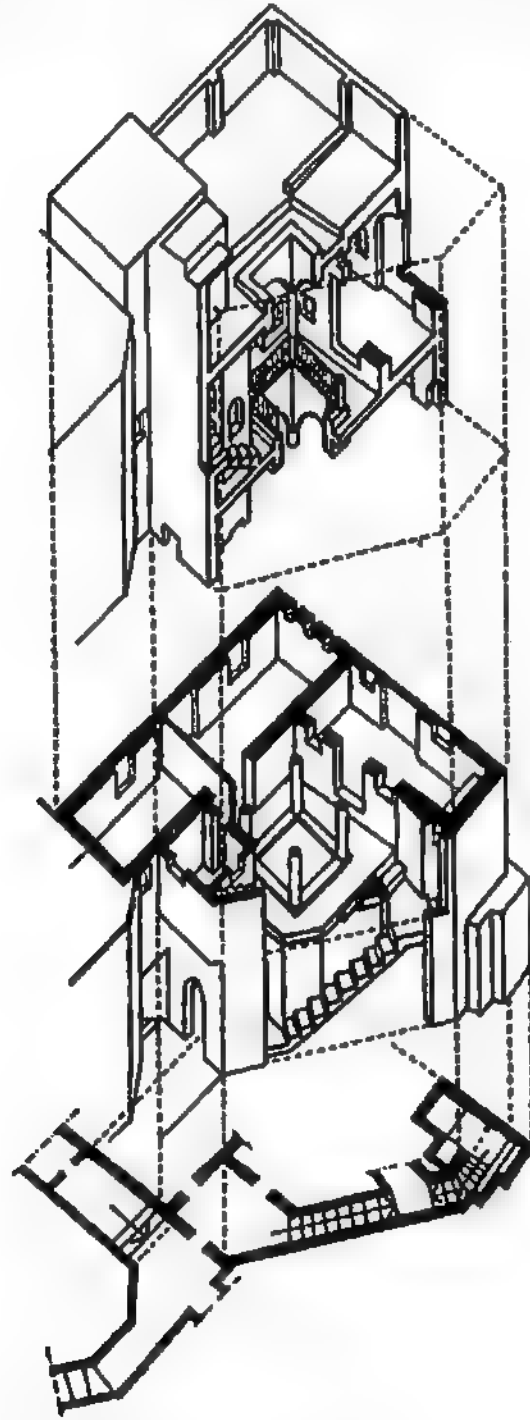
وفي التنسيق المتبادل بين الغرف، تتجسّد خطة كل «بيت» في أشكال شبه منحرفة لإخفاء أوجه الشذوذ الخارجي في النسيج المدني، لكنها تضع الجدران على زاوية ٩٠ درجة على طول الفناء للحفاظ على التناسق الهندسي للمساحة أو صحن الدار المركزي. والغالب أن يكون الفناء مستطيلاً أو مربعاً ويحتوي على محور أو محورين تناسق، يميّزه وضع أبواب البيت بحيث تكون مقابلة لبعضها البعض وسط جانب من الصحن.

وفي بعض الأحيان، توجد نافورة صغيرة في الوسط تدعم التقاطع الفرضي بين المحورين. ولا يشمل تناسق الفناء المبنى بالكامل (على خلاف منازل الدوموس الرومانية أو قصور عصر النهضة الإيطالية)، حيث تبقى الأبواب المواجهة للصحن غير متناسقة مع البيت الفردي.

(١٨) يمكن الوقوف على الوصف التفصيلي لقرن العمارة الداخلي الخاص بفاس في الأعمال الكثيرة لـ:

Jacques Revault, L. Golvin and A. Amahan, *Palais et demeures de Fès: I. Epoques merinide et saadienne (XIV^{ème}-XVII^{ème} siècles)* (Paris: [n. pb.], 1985).

الرسم الرقم (٣٥ - ٧)
منزل في القصبة، الجزائر، في خمس طبقات بشكل هرمي



بالرغم من تفرعات هذا النموذج فهو يمثل المكونات الظاهرة وهي النمط السائد. وتظهر سلسلة الممار كامل شبكة التوزيع للبناء: مدخل، الشرفة المدخل، الدرج، والشرفات. الغرف لا تفتح بعضها على بعض، لا مباشرة ولا من خلال أمكنة ملحقة، فقط إلى ومن الشرفة والدرج.

وتجري ملاءمة العلاقة بين المنزل مع النسيج المدني من خلال تعديل البؤر الطرفية. أما البهو أو «وسط الدار»، على النقيض من ذلك، فهو بأشكاله الأولية

وترتيب فتحاته التي يغلب عليها الطابع المتناسق، يغدو مركز التركيب ويوفر الإضاءة والهواء الضروريين للمنزل. علاوة على ذلك، فإن الانتقال من أرض البهو إلى الأعلى، والمعالجة الخاصة لعلية المنزل المعلقة بالبلاط الأخضر والتزيينات الخشبية، تضيف على الفناء طابعاً شبه مستقل له قواعده الخاصة في الترتيب والإنشاء^(١٩).

في أنماط المنازل ذات الفناء في فاس، يقوم نظام من البنى المغلفة والمتجانسة المشتمل تكون الخلية الأساسية لـ «البيت»، وهي عبارة عن وحدة ثلاثية الأبعاد أقصى عرض لها ٢٢٠ سم (أي ما يعادل ذراع مزدوج يبلغ عرضه ١٦٥ سم إضافة إلى ذراع عرضه ٥٥ سم)، ويمتد الطول إلى ٧ - ٨ م. ووفقاً لما يراه بعض العلماء، فإن العرض يحدد وفقاً لاستخدام القدماء لعوارض النخل الخشبية. ومن الناحية العملية، يتمتع البيت بأكثر درجات المرونة والاستقلال، بحيث يشتمل إما على مصطبة رئيسية أو أرائك غرفة المعيشة، كما أنه مفصول عن الفناء بباب بارز. ويمكن تحويله بسهولة إلى وحدة سكنية مستقلة ليصبح مسكناً لبؤرة العائلة الممتدة.

والشرفة القائمة على أعمدة هي عبارة عن بنية مفتوحة تثرى معمارياً منازل الأسر الأكثر ثراء، كما هي حال منزل «أبو هلال». أما النظام الأدنى، فيرتكز على دعائم حجرية تحدد الشرفة الأقل عرضاً، كما تقوم بترشيح الهواء والضوء إلى الأمكنة الداخلية. ويغطي الأرض طبقة كثيفة من الجص، الأمر الذي يقلل وزنها، ويجعلها لماعة تحت الشمس. والشرفة العليا لها وظيفة البهو والرواق نفسيهما من حيث ترتيب المسارات لتجنب المرور المتتابع في الغرف. ونادراً ما يسير البهو بطول المحيط الخارجي للفناء بالكامل، حيث إنه يأخذ في معظم الأحيان شكل رواق ذي قناطر أمام المدخل الرئيسي.

والعناصر البنيوية هي تجمعات لعوامل تساهم في تشكيل النظام. أما الهيكل الخشبي فيأخذ شكل إطار، أي هيكل مفتوح غير دائم مزود بدعامات متغيرة، وعلى العكس من ذلك، يكون الهيكل الحجري مغلقاً ومستمراً ويمثل عنصراً دائماً. وقد بلغ نظام الهياكل المزدوج في منازل فاس مستوى متقدماً من التكامل، فتطلب وجود النجار والبناء معاً في الموقع. أما أساسات المنازل فهي عبارة عن قوالب حجرية متصلة من الطوب والحجارة الموضوعة في الملاط. وهناك ثلاثة جدران من المنزل مشتركة في العادة مع المنازل المتجاورة، أما الجدار الرابع، وهو الواجهة الأمامية، فلا توجد فيه

(١٩) وُجد الطراز البدائي الخاص بالسقيفة في ما يطلق عليه دور العبادة المزعومة في البيوت الصينية، وهو جدار مجوف مثبت داخل الجدار الخارجي والعمودي على المحور المتاح الخاص بالصحن، وإضافة إلى هذا المثال، يوجد العنصر الخاص بالتوزيع في المناطق السامية.

فتحات ذات أهمية سوى المدخل الرئيسي. والمعالجة الموحدة لسطح الواجهة الأمامية بالجير والرمل تدعم الحصى بالاستمرار في مواد البناء الحجرية. وفي الجانب الداخلي، يسمح الجدار بنفاذ الضوء من خلال فتحات صغيرة مرتفعة، كما توجد في الواجهة شرفات. وعادة ما تنفذ الأبواب في شكل أقواس، وفي حالات نادرة تتم إزالة الجدار بالكامل ليظهر السقف.

حظي السقف، من بين العناصر الأخرى كافة، باهتمام خاص، نظراً إلى أنه أكثر الأشياء إظهاراً لتقاليد البناء في المناطق الثقافية المختلفة. يعدّ السقف، نظرياً، تجسيداً للسطح على نحو أفقي، لذلك ففي الثقافات التي تستخدم أسطح الجمelon يتم تحويل سلسلة الروافد الخشبية إلى عارضة خشبية رئيسية^(٢٠).

وللهياكل الخشبية الأفقية في فاس مستويات مختلفة من التعقيد. فالسقف البسيط لبيت مكون من صف عوارض تسمى الجائزة، ويراوح طولها من ١٥ إلى ٢٠ سم، ويجري زخرفتها عند طرفيها. ويوجد في هذا الهيكل ألواح أرضية سمكها ستيمتر واحد يوجد عليها سطح من الملاط. وفوق ذلك توجد طبقة من الحصى (٥٠ سم للأرضية، و٣٠ سم للسطح)، مثبت عليها سيراميك أو ساتر مضاد للماء. يضمن هذا النوع من الهياكل التوزيع الثابت للأوزان على جداري التحميل الرئيسيين، ولكنه يصل إلى عرض ٢٢٠ سم فقط. وقد كان من الشائع زيادة مساحة كتائف الأسقف.

الممارّ العالية مبنية على نتوءات مستطيلة تتطلب هيكلاً أشد تعقيداً للسقف لإنشاء ممر عرضه يراوح من ٦٠ إلى ١٢٠ سم. وفي هذه الحالة توضع الروافد على عارضة ممتدة على طول المحيط الخارجي للصحن. وعادة ما يكون الأخير مستقراً على

(٢٠) تختلف أشكال السقف تماماً في الصورة عما هي عليه في فاس، وتتألف العوارض من النوجا (خشب الأرز)، إضافة إلى بعض الخشب القليل، ولا يزيد عل ٣,٢ م، وتسد هذه العوارض هيكلاً آخر مغطى بطبقة من أغصان التاسويت، وقد صُنِعت الأرضية من طبقة مغطاة بأوراق الشجر الجافة المخلوطة بالملاط والتراب. ويتم التأكد من الخاصية الرمزية لكل منطقة من خلال التحقق من أن الأسقف الظاهرة المتشابهة تم التعرف إليها في الحقيقة وفقاً لمفاهيم مقابلة تماماً. ويتسم السقف النابولي بالكانيجيا كما يلي: «في نابولي أدى عادة بناء الهياكل من أحجار خفيفة (حجر الخفاف، وحجر اللايبلوس «حجر صغير يتج من البراكين») إلى تشييد أسقف خشبية ذات عوارض مجردة تقريباً ... وهو سقف لا يمثل في حد ذاته دعامة ... ولكن يمكنه أن يقوم بذلك استاتيكيّاً في حالة عزله. وفي الحقيقة لا تتكوّن هذه الأسقف من الكثير من الأخشاب التي يمكنها أن تدعم مجموعة أحجار اللايبلوس المخلوط بالملاط الذي يغطيه بسلك (يصل إلى متر في بعض الأماكن). ويعمل هذا الهيكل الخشبي كقالب يمكن التخلص مما تم وضعه عليه؛ إنه هيكل أصيل بقدر ما يمكن أن يشكل نوعاً من القنطرة الطبيعية الناتجة من ترسب المواد المطروحة عند فصل القطع الزجاجية عنها». انظر: G. Caniggia and G. L. Maffei, *Composizione architettonica e tipologia edilizia. Il progetto nell'edilizia di base* (Venice: [n. pb.], 1985), p. 160.

عارضتين متراكبتين مدعمتين بالأعمدة مع وضعهما في اتجاه المركز لتقليل المسافة. تكون هذه العوارض مصحوبة بعناصر من القسم نفسه يتم تجميعها على شكل صندوق. ويقابل الهيكل الخشبي قطع من خشب الأرز مزودة بأشكال نباتية أو منقوشات كوفية لتحسين مظهرها.

وفي نظام بديل، فإن نظام النجارة الذي يسمى «الحلقة» يصل إلى أعلى المستويات المعمارية، مع استخدام طبقة من العوارض والكثائف العديدة المتراكمة. وتقوم طبقات الروافد بدعم الحاجز والجزء العلوي من البلاط. وليس للنظام الأول، من خلال تكرار الدعامات، حدود عرض نظرية، باستثناء تلك المحددة بنوع الخشب المستخدم في فاس، الذي يبلغ طوله ١٨ م. والنظام الثاني مقصور على الساحات التي لا تزيد مساحتها على ٥ م.

وعلى الرغم من حقيقة أن التباين بين لون مواد البناء الفاتح وعتمة خشب الأرز ينتج كثيراً من التأثيرات المرئية، فإن المنظر الجذاب لليوت التقليدية ذات البهو لا ينبغي أن يخفي الوظيفة الدقيقة للطرق الهيكلية المستخدمة. ويعدّ تسلسل الماسونية - ثم الخشب - ثم الماسونية خاصية مميزة لهذا النوع من المنازل.

وفي ما يتعلق بإنشاءات الماسونية، تعطي طريقة البناء عادة الأولوية لطوب الزينة المستخدم مع أنواع متعددة من الهياكل: مثل المسار المزدوج الرأسية والمائل والمستقيم والمبني مع مسارات من الأحجار والأخشاب للوصول إلى أنماط الواجهة. والهياكل الثلاثة الرئيسية - الأفقية والمائلة والمستقيمة - قد تظهر في الجدار نفسه بتسلسل بديل. ومن الخارج، يكون الجدار مغطى بالجص، ومن الداخل، فإنه يكون مغطى بالجص أو السيراميك أو الجص المزخرف^(٢١).

تتكون الهياكل الخشبية من مكونات يمكن قراءتها ككيانات منفصلة من خلال التفكيكية الإنشائية للوصلات. وتكون الفتحات داخل القوس مغلقة مع وجود باب مستطيل ارتفاعه ٣٥٠ سم يدور على محاور اسطوانية مثبتة في الطابق، وفي الإطار الخشبي (الرتج).

(٢١) وجدت بعض النماذج المختلفة في بناءات القرميد التي تشمل على الستائر، والتقاطعات، والتطريز المسنن، والتطريز المسنن المزدوج، والترصيع المكون من الخشب والحجارة. انظر: «Schema Directeur d'urbanisme de la ville de Fes», Dossier Technique, vol. 4, no. 2 (1980), dans: *Les Techniques traditionnelles de l'architecture et du decor à Fes* (Paris: Marsilio Editori, 1980).

رابعاً: هل المنازل ذات الفناء نموذج عالمي؟

تركزت المناقشة حتى الآن على العمليات الرمزية من الناحية العلمية. لكن السؤال التالي يتعلق بما إذا كانت المنازل ذات الفناء تعدّ نموذجاً عالمياً أم لا. وقد لاحظ عدد من العلماء أنه على الرغم من كون المنازل ذات الفناء نمطاً رائداً في عدد من المناطق، مثل بادانيا (وادي البو) في المغرب، وباقي مناطق الشرق الأوسط، إلا أنه غير منتشر على نمط واحد في منطقة البحر المتوسط وشمال أفريقيا.

وعلى الرغم من أنه من المنطقي أن نفترض أن أراضي الإمبراطورية الرومانية تأثرت بطراز الدوموس حتى القرن الخامس على الأقل، فإنه لا يمكن العثور على أثر له في أجزاء من وسط إيطاليا (بما في ذلك روما)، وجنوب إيطاليا (باستثناء نابولي) وبروفينس. ولا يعدّ المناخ السبب الرئيسي وراء شيوع المنازل ذات الفناء. على سبيل المثال، تتشارك كل من ميلانو وحلب النوع نفسه من البناء على الرغم من اختلاف مناخهما^(٢٢).

قد يرجع سبب انتشار المنازل ذات الفناء إلى استمرار الثقافة البيزنطية، ففي المناطق التي هجرتها الإمبراطورية، كان انتعاش صناعة البناء قائماً على نوع متخلف نسبياً يتوافق تماماً مع الخلية الأولية. ففي داخل العالم الإسلامي، تأثر نمط المنازل ذات الفناء، الموروث عن الإمبراطورية البيزنطية، كثيراً بالمتطلبات الإسلامية الأساسية من ناحية عزل المرأة وحمايتها. وهذا يفسر الانتقال السهل من أنماط اليمن الأولى إلى نمط الفناءات لدى الأمويين عندما وصلوا إلى شواطئ البحر المتوسط.

وفي أوروبا، أدى تحويل طراز الدوموس مباشرة إلى تقنين طراز المنازل المتراسة على شكل صفوف، بينما لم يحدث ذلك في الدول الإسلامية قبل الاستعمار إلا على نحو متفرق. لذا، فقد انتشر طراز الجزيرة في دول المغرب العربي على نحو غير دقيق، وقد تمّت مقاومته بشدة في شمال أفريقيا حين كان فناء المنزل، أو وسط الدار، مهدداً تحت ضغط الانفجار السكاني. وحتى مع زيادة الكثافة السكانية التي وصلت إلى ٥٠٠

(٢٢) يدّعي الباحثون النظريون المتخصصون في التكنولوجيا التي يمكن الإبقاء عليها أن الصحن قادر على التلازم مع الحرارة. انظر: G. Scudo, «Climatic Design in the Arab Courtyard House», in: A. Petruccioli, ed., «Technology: From Tradition to Innovation», *Environnemental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1988), pp. 82-91.

ساكن في الهكتار، كان بناء المنازل يستجيب لذلك عن طريق زيادة الارتفاع وتقسيم المنازل في محاولة للحفاظ على سلامة صحن الدار^(٢٣).

وعلى الرغم من أن صحن الدار قد فقد في حد ذاته قيمته «الجمالية» (كما يسميها حسن فتحي) منذ وقت طويل أثناء الانتقال من مسكن الأسرة الواحدة إلى مسكن الأسر المتعددة، فهو ما زال يمثل في عقل المجتمع فكرة الوحدة التي تتجاوز وظيفته التوزيعية. وتقدم حالة المنازل المتراسة على شكل صفوف دليلاً إضافياً على مقاومة الثقافة الإسلامية لتطور نمط بناء (الجزيرة) في دول البحر الأبيض المتوسط.

وفي المدينة الإسلامية، كانت المنازل المتراسة على شكل صفوف تعدّ من مساكن الطبقة الدنيا، بينما كانت في القرون الوسطى في أوروبا تعدّ من منازل الطبقة المتحضرة المتوسطة. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا النوع من المنازل له تاريخ محلي على طول ساحل الجزء العربي من البحر المتوسط، كما اتضح ذلك من أعمال التنقيب لمنازل صغيرة ثنائية الخلايا في مدينة الفسطاط. كما أنه يظهر جلياً في شكل خلايا صغيرة مبنية على الجانب العلوي من واجهات المحال داخل حواجز محمية على أطراف المناطق السكنية. وحتى اليوم، ينظر إلى المنازل المتراسة أو المزودة بتراس على أنها دخيلة على المنطقة، وأنها تشبه طراز الفلل الحديثة في الدول الغربية.

ولا يمكن النظر إلى هذا النوع وراء حدود الجغرافيا المساحية أو الثقافية، حيث إن تحول المنزل المزود بصحن أو فناء مقبّد بظروف اجتماعية وليست مساحية. وقد أظهرت بعض الدراسات التي أجريت مؤخراً في بعض المدن المرتفعة الكثافة السكانية في المراكز الحضرية في شمال أفريقيا (مثل الدار البيضاء، حيث يعيش ما يزيد على ١٠٠٠ شخص في الهكتار الواحد) أن تقسيم المنازل ذات الفناء يعدّ أمراً شائعاً. والاتجاه السائد هو تقسيم هذه المنازل إلى أجزاء صغيرة يسهل الوصول إليها، ويمكن تغطيتها إذا لزم الأمر. ونظراً إلى أن هذا قد يكون أساساً لمنازل مستقبلية على شكل صفوف أو شقق، فإن التغييرات التي تشهدها المنازل ستؤدي، كما يعتقد، إلى تعديلات لاحقة على النظرة الإسلامية نحو المنزل أو المدينة نفسها^(٢٤).

(٢٣) في الجزائر، يتم وضع حاجز معدني براءة فوق الصحن لعمل كسطح يمكن السير عليه، وكغطاء في حال نزول الأمطار، ويؤدي هذا إلى إنشاء عزلتين، واحدة فوق الأخرى، بينما يظل الاحتفاظ بالصحن كساحة واسعة داخل البيت.

(٢٤) انظر: مسح على بيوت الصورة: M. Accorsi and A. Petruccioli, «A Survey of an Essauira House on the Rue de la Mellah,» and M. Cote, *L'Algérie ou l'espace retourné* (Algiers: Média Plus, 1933).

خامساً: الخط المتوسطي للمنازل ذات الفناء

من أجل الإبحار في أرخبيل عمليات التصنيف المتعلقة بتقييم المنازل ذات الفناء، من المفيد تعميق مفهوم المنطقة الثقافية. فالنوع السكني هو تعبير عن الثقافة المترسّخة في الإقليم، حيث بنى المجتمع هويته. وإذا سلّمنا بأن القول إنّ النوع السكني لا يتنقل، فهو حقيقة جزئية، فهذا لا يمكن أن يخفي التزاوج والتفاعل بين الثقافات. وتظهر العلوم اللغوية أنه كلما كانت الحدود الأمامية غير قابلة للاختراق، صعبت الاتصالات وانتقال المخططات. والعلاقة لا تسير بشكل خطّي، وإنما هي مرتبة ترتيباً هرمياً. ففي المنطقة تقوم أماكن فرعية، لكنها مهيمنة اقتصادياً واجتماعياً، مثل القرى في السهول. وقد يحدث أن تشكّل العائلات البرجوازية في المناطق الأخيرة أنواعاً من الأبنية المعمارية الخاصة بها اعتماداً على النماذج الموجودة في المدينة الرئيسية.

وهذا المفهوم نسبي، إذ يكفي توسيع الحجم من المكان المحلي إلى منطقة جغرافية أوسع. ومن الحتمي أن تكون القرى أماكن يمكنها تصدير الثقافة إلى المناطق التي تحظى بالأفضلية، مثل العاصمة. وهو ما سيكون عليه الحال لو كان سهل المدينة وسفح بلدية وساحل تيارزة أماكن مستقلة عن الجزائر العاصمة. وعليه، فقد تأثرت العواصم الإقليمية مثل الجزائر ودمشق وطرابلس وبغداد بالأنماط التي كانت سائدة في إسطنبول، عاصمة الإمبراطورية العثمانية. وتؤكد الدراسات الأولى حول العمليات الرمزية في منطقة البحر الأبيض المتوسط الانقسام بين منطقة بلاد المشرق والمناطق الواقعة إلى الغرب. ويسود في جنوب إسبانيا والمغرب طراز المنازل ذات الأفنية والممثلة جيداً بمنازل فاس التي قمنا بتحليلها للتوّ. وما يميّز هذه المنازل في العائلة نفسها هو التادرت، أو الخلية الأولية السائدة لجهة الزمن والمكان في جميع أنحاء غرب البحر المتوسط. وقد أتاحت الدراسات الأثرية الإثنية، مثل تلك التي أجراها لاويست في وسط المغرب^(٢٥) عزل التادرت، وهي خلية طويلة ضيقة تتنقل من قبيلة إلى أخرى.

ويمكن أن يقال إن التادرت هي النوع الأولي الذي أصبح في المغرب مكوناً للهيكل المساحي - البيت - على نحو يتماثل مع الغرف التي تأخذ شكل حرف T والمستورد من الشرق - في المنازل الريفية والحضرية. ويوصف التادرت مكان إقامة مؤقتاً، فهي ليست

E. Laoust, *L'Habitation chez les transhumants du Maroc central* (Paris: [n. pb.], 1955), and (٢٥)
R. Riche, «La Maison de l'Aures» *Cahiers des arts et techniques d'Afrique du nord*, vol. 5, pp. 30-36.

أكثر من مجرد نسخة حجرية من خيمة موضوعة على المحيط الخارجي للصحن، كما يضع البدو خيامهم حول الدّوار مع ترك غرفة في الوسط لحيواناتهم.

من جانب آخر، قد أدى هجر المناطق الإسلامية الغربية للخلية التربيعية التي يبلغ اتساعها 5 x 5 م، إلى عدم استمرارية أنماط العالم الروماني. وسيتم استخدام المنازل في البندقية ولبنان وتركيا والقاهرة لتتبع بقايا العمليات الرمزية نظراً إلى التطور الذي طرأ عليها، ويمكن إعادة بناء طرف المناقشات حول المركزية والتقسيم الثلاثي للغرف بطريقة معقولة من البداية باستخدام الدليل الأثري.

ويغض النظر عن العلاقة التاريخية مع دول شرق البحر الأبيض المتوسط، تعدّ البندقية المنطقة الرئيسية لأنها توفر قراءة واضحة للرمزية والمورفولوجيا المدنية. ويوفر عمل سافيريو موراتوري وباولو ماريو وجيانفرانكو كانيجيا^(٢٦) الكثير من المعلومات التي لا مثيل لها عن هذا الموضوع، من دراسة منهجية لبنية وأبنية المدينة إلى التحليل النظري الدقيق للبيانات.

سادساً: منازل البندقية ذات الفناء

من السمات الخاصة بتصميم المنزل في البندقية أنه لا يتغيّر بمرور الوقت نظراً إلى تقنيات البناء الخاصة التي تتطلبها أساساته. وقد منعت التكلفة المرتفعة المرتفعة للأساسات المقامة على ركائز خشبية الاختلافات التي تضمنت نقل جدران الدعم. ويعدّ هذا مع المقاومة الطبيعية للمكان من الأسباب الرئيسية وراء بقاء ما يسمّى التصميم البيزنطي على حاله على الرغم من الاتجاهات الطرازية التي ظهرت مع مرور الوقت^(٢٧).

وقد تم تحديد نوع البناء الأول في البندقية، الدوموس الأولي، في غرفة مرتكزة على الجدار الشمالي من المبنى، وتم دمجهما إلى عنصر توزيعي، وهو السقيفة. وقد أدى استواء السطح إلى تفضيل هذا الحلّ على حلّين آخرين، حيث إن هذه المنازل كانت تنتمي إلى الصيادين، وكانت الساحات تمثل نقطة عبور بين المياه من جانب، والشارع من جانب آخر. وقد حدد وصل الجانبين طبيعة المنزل في البندقية والحلّ الرمزي الفريد.

S. Muratori, *Per una operante storia urbana di Venezia* (Rome: Istituto Poligrafico della Stato, (٢٦) 1959), et G. Caniggia, «La Casa e la città nei primi secoli», P. Maretto, *La Casa veneziana nella storia della città dalle origini all'ottocento* (Venice: Marsilio, 1986), pp. 3-53.

P. Maretto, *L'Edilizia gotica veneziana* (Rome: [a. pb.], 1961).

(٢٧)

تم تطوير هذا النوع عند إضافة طابق واسكويرو (مكان يستخدم لوقف القوارب وإصلاحها)، وتم إغلاق واجهة المبنى. وعند هذه المرحلة، فقدت السقيفة وظيفتها الأساسية، وتم تحويلها إلى «صالة بندقية» مفتوحة من الجانبين. وبعد ذلك، قامت بوظيفة توزيعية، إضافة إلى توفير الضوء. وقد كان وضع الوصول إلى الشارع دالاً على ذلك، وما زال يمكن رؤيته اليوم في منطقة السقيفة أو الصحن الذي تم تغطيته في ما بعد بعناصر أفقية متتابعة كانت في أغلب الأحيان عبارة عن أروقة. وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل العنصر الأفقي الرئيسي ثابتاً، كما يمكن التعرف إليه بسهولة وتمييزه حتى من الارتفاع الخارجي. وربما يفسر ذلك عدم التناسق المتكرر بين عدد من الواجهات البندقية، كما في مناطق كامبو نازاريو ساورو وليستا دي سبانيا وساني ستاي.

أدى التطور المبكر في عملية العزل إلى نشوء النمط التجاري، وهو عبارة عن مخزن ذي رواق أمامي، وقد أدى تكراره المنهجي إلى التطوير المهم الذي شهده نوع المنازل المزودة بصحون والمطلّة على الشارع. وعند النظر إلى هذا النوع على أنه نوع مستقل، فإن استخدامه يتضح في المشروعات الضخمة كافة التي تم التخطيط لها في المدينة: مثل رياتو ومنطقة الواجهة المائية كاناريغيو، ومنازل الطبقة العاملة التي قامت الجمهورية بتمويلها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من القرن الماضي.

هذا النوع عبارة عن مزيج وظيفي في غاية الأهمية يتضمن شريحة من الشارع تبدأ من المياه إلى المسار البري الرئيسي الذي يحيط به من الجانبين منازل تأخذ شكل صفوف. وبمجرد تقنين ذلك، تم استخدامه في مستوطنات البحر الأبيض المتوسط كافة التي تأثرت بالطراز البندقي، بما في ذلك طراز دوبروفنيك. وتبدو لافتة للنظر أوجه الشبه بين هذا التصميم الثلاثي والفناء المستقطع المركزي مع المخطط البندقي و«التريكانيوم» البيزنطي.

سابعاً: المنازل اللبنانية ذات الفناء

أجرى فريدريك راجيت بحثاً تناظرياً مهماً على المنزل اللبناني^(٢٨) في الستينيات من القرن الماضي، الأمر الذي أتاح لنا إعادة بناء العملية الرمزية في هذه المنطقة. ويعدّ

Friedrich Ragette, *Architecture in Lebanon: The Lebanese House during the 18th and 19th Centuries* (Beirut: Caravan Books, 1974), pp. 25-27. (٢٨)

هذا العمل مهماً نظراً إلى شموله، حيث إنه يغطي العديد من النماذج التي كانت سائدة في منتصف القرن التاسع عشر، مثل التصميمات التي تظهر الطبقة السفلية المهمة. ويوجد في لبنان، وبخاصة في المناطق الريفية، نوع أولي قابل للتحديد مزود بساحة مقوّسة أو خريطة مطولة. وقد طرأت التغييرات على هذا النوع من طريق مضاعفة العرض أو الارتفاع. ويمكن أن تؤدي الحالة الأولى إلى تجمع تسلسلي لما يصل إلى خمس خلايا مع إضافة فضاء أمامي اختياري^(٢٩).

والنقطة المهمة هي أن الخلية المتوسطة، حتى في المنازل الريفية، أصبحت متخصصة وأدت إلى نشوء الإيوان المعروف محلياً باسم الليوان. وهو عبارة عن غرفة مغلقة من ثلاثة جوانب تقع على المستوى الرئيسي أو في الطابق العلوي. وهو عنصر معماري معروف في أنحاء الشرق الأوسط كافة، ويحتمل أن يكون أصل نشأته في إيران^(٣٠).

وقد أدى الإيوان دوراً مركزياً في تشكيل المنازل اللبنانية ذات الفناء، نظراً إلى أن الدخول إلى المنزل لم يعتمد عليه. وبدلاً من ذلك، قام سلم خارجي أو جانبي بتأدية هذه المهمة، الأمر الذي أتاح أن يصبح الإيوان العنصر الأساسي في المنزل بالكامل (انظر الرسم الرقم (٣٥ - ٨)).

هناك فئتان أساسيتان من الليوان وجمع الخلايا/ الغرف: تتضمن الفئة الأولى تجميع المجموعات الأولية المتحلقة حول الليوان بوصفه فناء. وكنقطة انفصال للمحور الهندسي، يقيم الليوان ترتيباً هرمياً ومقياساً، بعضها يتضمن ليواناً واحداً أو اثنين أو ثلاثة أو اثنين ورواق. وهذه الفئة تتضمن المنزل المملوكي في حلب الذي قام بدراسته جان كلود دايفيد، حيث يصل الإيوان إلى درجات متقدمة^(٣١).

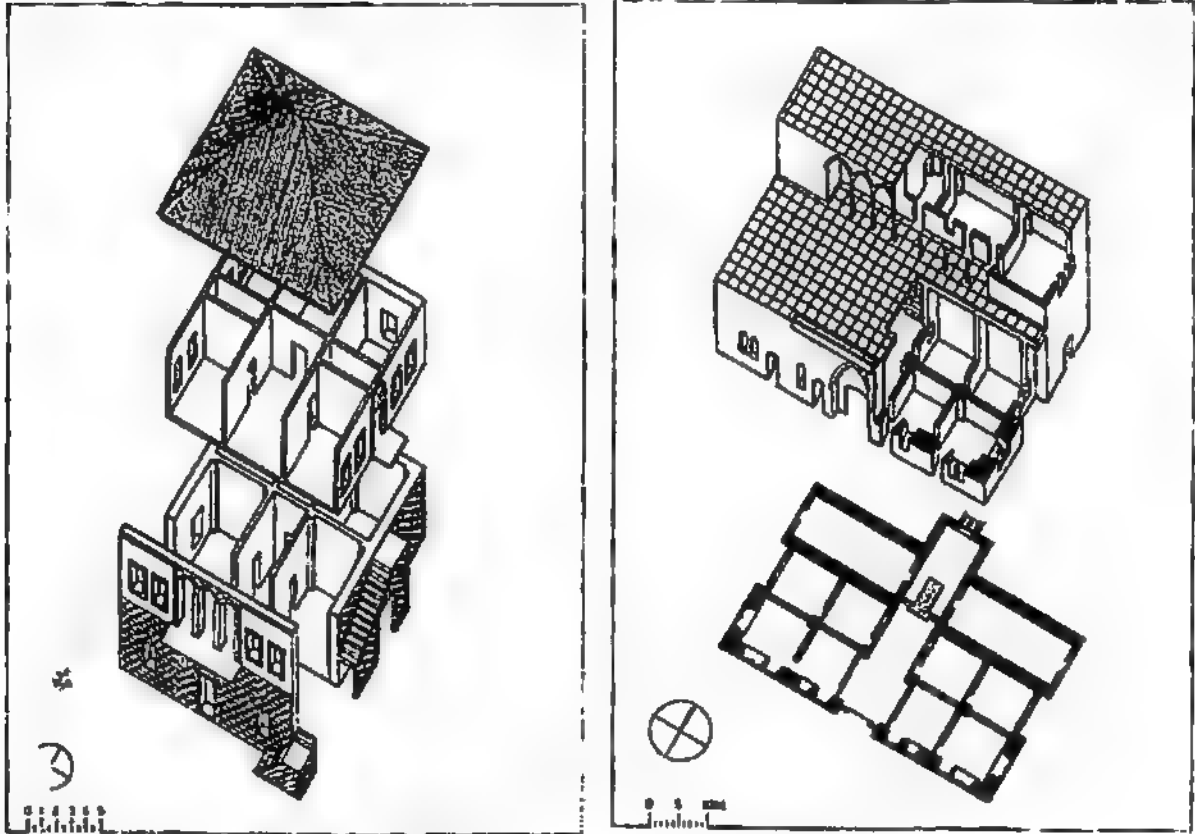
H. de Beyle, *L'Habitation byzantine* (Paris: Grenoble, 1903), and A. Deroko, «Quelques (٢٩) Reflections sur l'aspect de la maison byzantine,» dans: *Actes du Congrès international d'études byzantines* (Istanbul: [n. pb.], 1955), pp. 124-125.

(٣٠) هناك بعض المناقشات المهمة حول ما إذا كان الإيوان هو نتاج عملية إنشائية تطويرية مستقلة، أو تفسيراً موضوعياً عن فكر ما قبل الإسلام المشهور في جميع أنحاء المشرق، أو أن ذلك هو مجرد طراز مستورد. ويصف المصطلح الإيراني إيوان (ليوان بالعربية) مساحة مستقلة أو غير مستقلة مغلقة من ثلاث نواح بالجدران ومفتوحة تماماً من الناحية الرابعة، وتكون مقنطرة دائماً، ويمكن تطبيق هذا النموذج على السلم أو على البناء بأكمله، لمزيد من المناقشة حول الإيوان الضخم، انظر: «Iwan,» in: *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed.

Jean Claude David, «Syrie: Systèmes de distribution des espaces dans la maison traditionnelle (٣١) d'Alep,» *Les Cahiers de la recherche architecturale*, vol. 20-21, p. 38 ff.

الرسم الرقم (٣٥ - ٨)

منزل الشيخ عادل حصن الدين في المختارة، لبنان
مخطط للطابق السفلي ومقطع رمزي

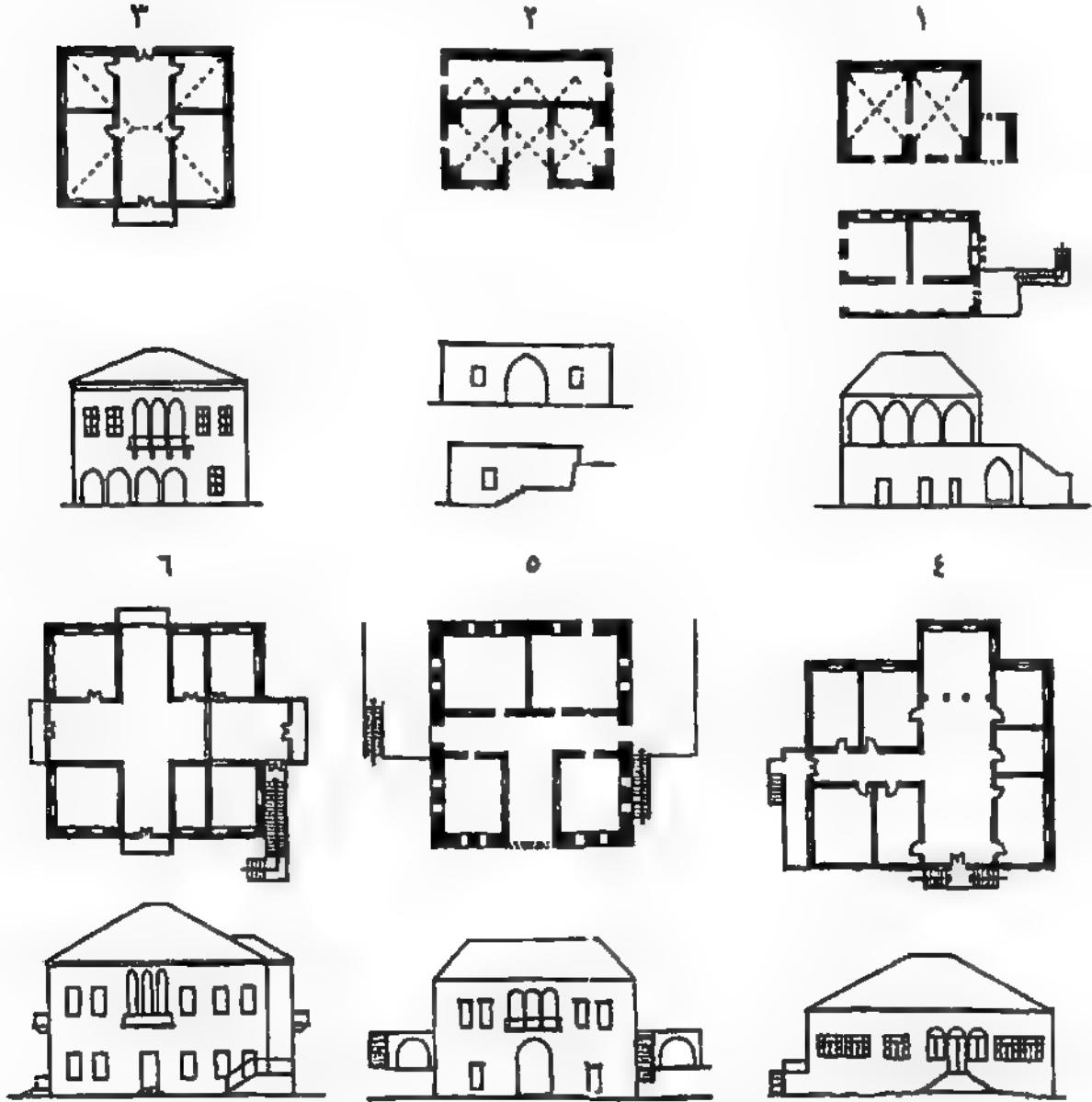


أما الفئة الثانية، فتشمل مدّ وتحويل الإيوان إلى بهو عبور. ويبرز الإيوان من الواجهة الأمامية المدعومة بسلسلة من الركائز والأقواس المضمّنة. يمكن الوصول إلى هذه الغرفة من الناحية الأمامية عبر بهو أو من الجانب عبر أحد الأروقة. يترتب على هذا النمط من الوصول شكلان مختلفان في غاية الأهمية - نظام على شكل T أو نظام المصالبة - وقد كان كلّ منهما شائعاً في أواخر القرن التاسع عشر. يؤدي الوصول من الناحية الأمامية إلى إنشاء غرفة رئيسية وإيوان منفصلين بسلسلة من الأقواس، يصل طولها إلى عشرين متراً في المساكن الكبيرة.

وبعد التشابه مع المنازل العثمانية التي تغلب عليها الأرائك جديراً بالملاحظة، لكن ليس الهدف هنا كشف نظام شامل من العلاقات^(٣٢) أو الإجابة عن السؤال المطروح منذ زمن بعيد حول أصول نشأة المنزل التركي. وعلى الرغم من ذلك، وبالعودة إلى بحث

سادات إلديم^(٣٣)، يمكن التوصل إلى نتيجة محدّدة في ما يتعلق بالمنزل العثماني التركي أو ما يسمّى نوع الصوفا (انظر الرسم الرقم (٣٥ - ٩).

الرسم الرقم (٣٥ - ٩)
لبنان. من الخلية الأولية إلى المنزل مع قاعة تتوسطه



(١) منزل عبد الباقي في عينال: خلية أولية مزدوجة أو مكورة مع شرفة قناطر في الطبقة الثانية. الشرفة ذات القناطر نفسها ليست نوعاً ولكنها تفصيل في نوع. (٢) منزل في عين التفاحة: ينشطر إلى اثنين بفضل توزيع الخليتين وبينهما قاعة مربعة وسطى. (٣) منزل منصور في برصا: تكرار أو مضاعفة في العمق وخلق قاعة عبور مع نوافذ على الواجهتين تخدم الغرف كافة. (٤) منزل «المعلم» في كفرحزير: مدخل ثانوي يخلق نظامي توزيع، وتخص قاعة العبور بخلق شرفة حديقة. (٥) منزل عادل طي في كفرحجيم: الممر الثاني مع غرفة بشكل حرف T. (٦) منزل حنا شيخاني في بكفيا: زرع قاعة عبور مركزية، جزء مما يخدم أيضاً كمنظر للمخارج.

ثامناً: المنازل التركية ذات الفناء

يختلف المنزل التركي عن المنازل الأخرى في منطقة الشرق الأوسط بطريقة مهمة ومميزة، حيث تعدّ الخلية أو الغرفة (الأوضة) الأولية العنصر الرئيسي، كما أنها تعدّ عنصراً مستقلاً رسمياً ووظيفياً. هذا النوع من المنازل يدعم هندسة السطوح المستوية في المباني التي تؤدي إلى تقسيم إطار المنزل من خلال استغلال المساحات. وتعدّ الصوفا نتاجاً للتنظيم المسبق للغرفة، تتضح دائماً من خلال مركزية رمزية أو هندسية قوية تدعهما مراجع متجانسة. بناءً على ذلك، يحدد إلهديم جوهر نمط الصوفا من حيث أليتها المتعددة الوظائف، كما أنه يقدم تصنيفاً تطويراً. يبدأ النوع ذاك بـ «حياة» [أي قاعة مركزية تتوزع حولها الغرف] متشعبة، ثم يتبع ذلك بنمط صوفا خارجي مع إمكان تحويل وضع الإيوان بين غرفتين لتكوين صوفا على شكل حرف T. ثم يبنى كشك في الناحية المقابلة للصوفا، حيث تصبح الأخيرة جزءاً من الجانب الداخلي بمرور الوقت، وفي المرحلة النهائية، تكون هناك صوفا داخلية، وأخرى مركزية. ويظهر إلهديم أنه من خلال ذلك يستمر الفناء بتأدية دور مهم في مخطط المنزل^(٣٤).

والتشابه بين التصميم الثلاثي المزود بيهو عبور مركزي في المنزل اللبناني المكتمل، أو السقيفة البندقية، والصوفا التركية، تشابه مثير وجدير بالملاحظة. وباستثناء عمليات الهجرة الثقافية المهمة من ناحية أو أخرى، فإنه من المعقول أن نقول إن العمليات الرمزية الثلاث المتوازية، تمّ التوسع فيها بصفة مستقلة عن النوع الأساسي الشائع، وهو طراز الدوموس البيزنطي.

تاسعاً: المنازل المصرية ذات الفناء

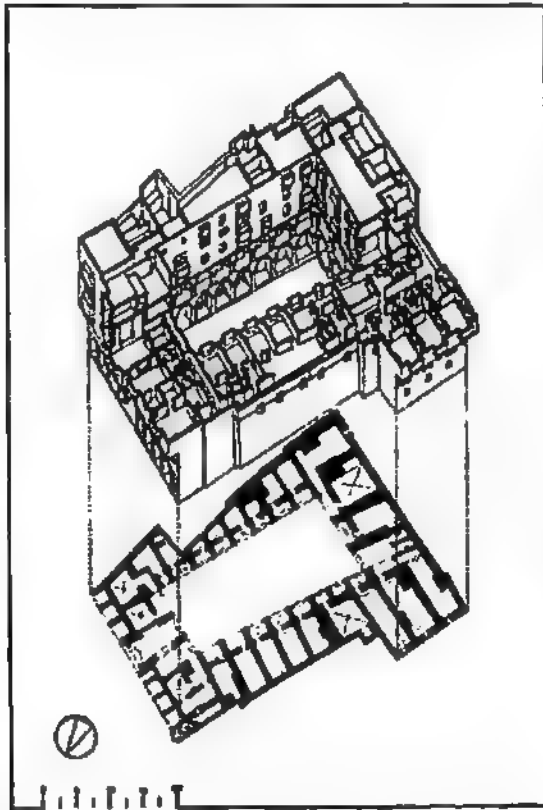
تمثل القاهرة حالة أخرى جديرة بالدراسة، نظراً إلى تعقّد الهياكل المدنية الناتجة من تقسيم طبقات الهياكل وتخصّص الأنواع. وباستثناء بعض المنازل الأرستقراطية والمجمّعات السكنية الكبيرة، فقد تم استبدال تركيبة المدينة تماماً. وعلى الرغم من أن إعادة بناء العمليات ستكون حتماً غير مكتملة ومحتاج إلى التعديل، إلا أنه يمكن تتبع تاريخ المنازل المصرية المزودة بصحن أو فناء باستخدام الدليل الأثري والوثائقي

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٢٦ - ٣١، رسومات مقياس المسطحات، في الجزء الموجود في الرسم الرقم (٦٨). يرفض إلهديم فكرة وجود التأثير البيزنطي الملحوظ، حيث يجتج بأنه لا أثر لوجود البيت البيزنطي في إسطنبول، ومع ذلك، يسمى التشابه مع هذا النوع البيزنطي تريكلينيوم.

الخاص بالأوقاف. وتوضح عمليات التنقيب التي أجريت مؤخراً في الفسطاط^(٣٥) تحت قيادة اسكانلون عدداً من الأنواع التي تشمل اكتشافات سابقة قام بها غبريال^(٣٦).

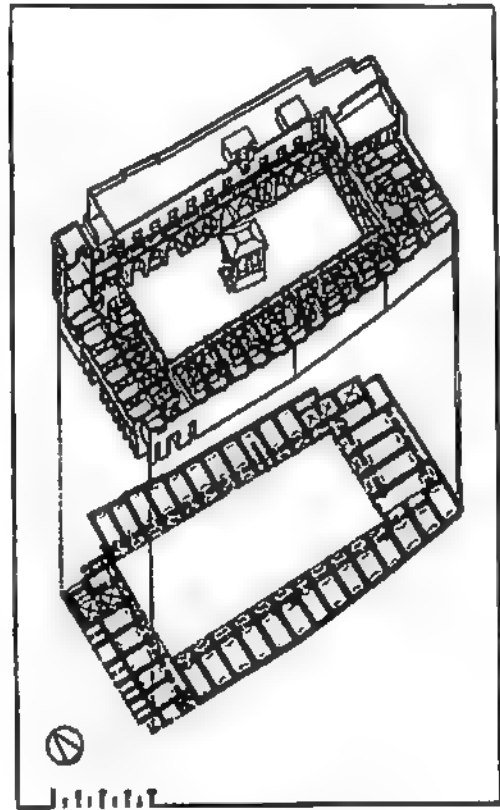
ويقدم غبريال الوصف التالي لمنزل القرن التاسع المزود بصحن، الذي يبدو معتمداً على طراز سامراء في العراق (انظر الرسمين الرقمين (٣٥ - ١٠) و(٣٥ - ١١)).

الرسم الرقم (٣٥ - ١١)
مقطع قياسي ومخطط الطابق الأرضي
لـ «الوكالة» و«الربيع» في القاهرة



أحد الأمثلة الأكثر مشهدة ربما يكون قد بني أواخر القرن السابع عشر. في الطبقة الثالثة، يتود الممر الخارجي إلى ١٩ شقة منظمة في ثلاث طبقات وتغير بين ٧٠٠ و ١٤٠٠ قدم مربع. يسمح تنظيم المبنى يكامله بالتواصل الاجتماعي ويخلق انتقالاً تدريجياً من المكان الخاص إلى المكان العام.

الرسم الرقم (٣٥ - ١٠)
«الوكالة» و«الربيع»
في ذو الفقار



المقطع الإسقاطي ومخطط للطابق الأرضي. المخطط شبيه ببناء متسلسل يبدأ على مراحل كمجمع سكني. لاحظ عدم التناسق في الزوايا. إلى اليسار شبكة الخلايا، ثم شريطان نسيجان متعامدان مع الخلية الرسمية، ولاحقاً لإقبال الخلية.

G. T. Scanlon, «Fustat Expedition: Preliminary Report 1965,» *Journal of the American Research Center in Egypt*, vol. 5 (1966), pp. 83-112, and vol. 10 (1973), pp. 11-25.

A. B. Bey and A. Gabriel, *Les Fouilles d'al Foustat et les origines de la maison arabe en Egypte* (Paris: [n. pb.], 1921).

تعتمد معظم المنازل التي أنشئت في مراحل مبكرة على محورين عموديين منبثقين من صحن مركزي. ويوجد على أحد جانبي الصحن رواق مزود بثلاثة تجاويف. كما يوجد في الجوانب الثلاثة الأخرى عدد من الإيوانات التي تختلف أعماقها، وفي بعض الأوقات تشكل غرفاً حقيقية، ولكنها بوجه عام تجاويف بسيطة أو محاريب مسطحة ومستوية. يتجه الرواق المزود بثلاثة أعمدة، والمؤدي إلى أماكن المعيشة الرئيسية عادة نحو الشرق، ولا يتجه مطلقاً نحو الجنوب أو الشمال^(٣٧).

توجد أدلة قليلة تساعدنا على إلقاء الضوء على الانتقال من المنازل الأولى المزودة بصحنون في الفسطاط أو القاعات المملوكية. لا توجد بقايا أثرية للمنازل التي كانت منتشرة في العصر الفاطمي، باستثناء المخطط الذي وضعه بوتلي للصحن المكوّن من أربعة إيوانات في قصر سيدة الملّك. وعلى الرغم من أن النسب أكبر من ذلك، فإن العناصر نفسها موجودة، وتتمثل بالتكوين القائم على محورين والرواق والصالون في جانب، والإيوان المفتوح في الجوانب الثلاثة الأخرى.

تمثل النقوش على بهو الاستقبال في القصر الأيوبي (١٢٤٠م) في جزيرة الروضة مخططاً لمتزل من غرفتين على شكل حرف T ملحقين بصحن. وأبعاد الغرفة متقاربة نسبياً مع الصحنون أو الفناءات المنتشرة في الفسطاط، وتتوافق مع الدرقاعة في المنازل المملوكية التي كانت منتشرة في القرن الرابع عشر الميلادي. يمكن تفسير قاعة القصر في الدردير، التي وصفها كرسول^(٣٨) بأنها بهو مستطيل مغلق مضاء من أعلى بقبة على المحور المركزي، على أنها مرحلة متأخرة تم فيها تغطية الصحن.

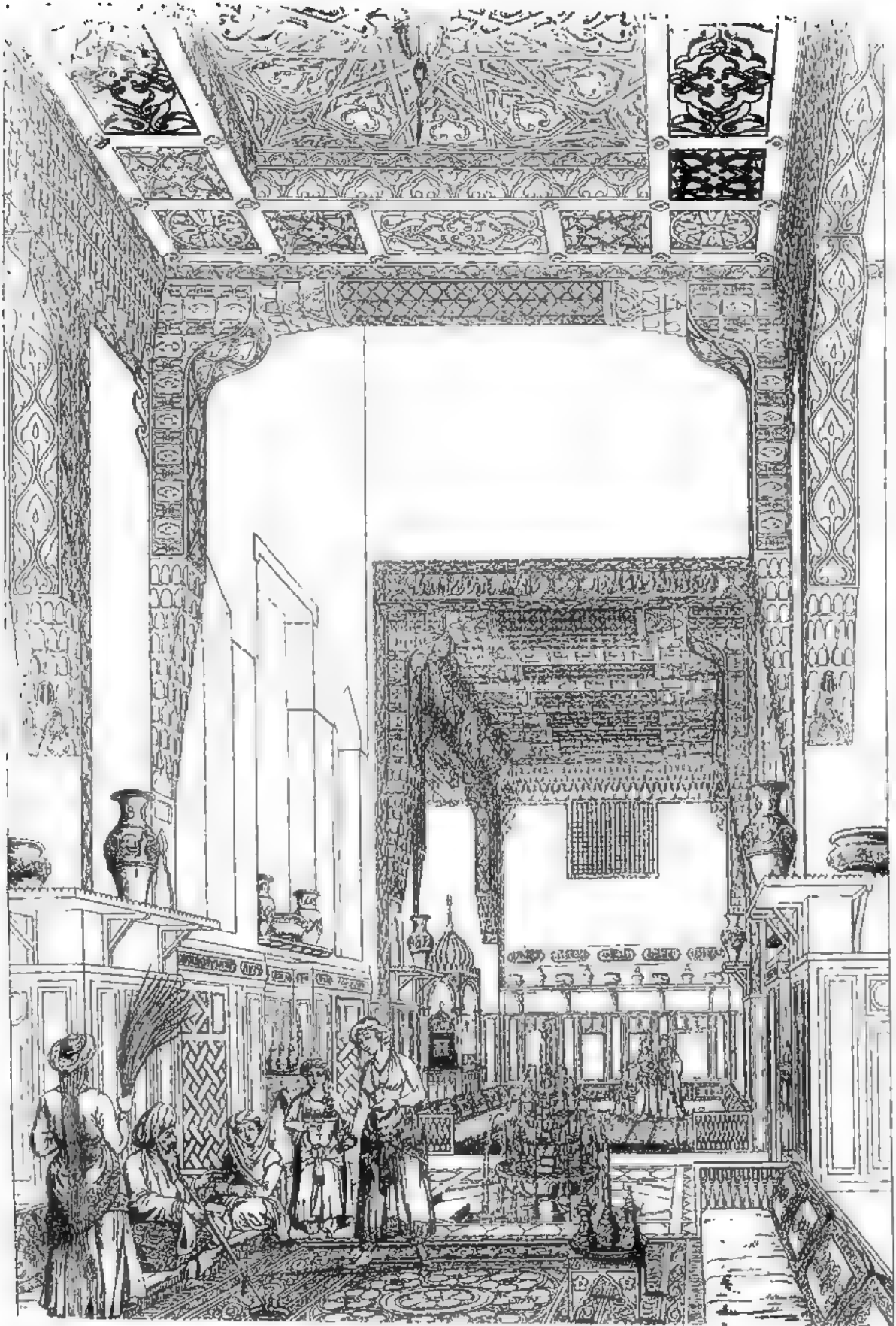
وبعد هذا الافتراض مقبولاً ومتناسباً مع العمليات المشابهة، مثل اشتقاق الهيكل الديني الذي تبلغ مساحته ٣ و ٦ و ٣ أمتار من تغطية تجويف الدوموس، الذي كان يعتقد تقليداً للطراز البازيليكي المسيحي الأولي الذي تبلغ مساحته ٦ و ١٢ و ٦ أمتار، وهي أول طراز يتم تقنيته^(٣٩) (انظر الرسم الرقم (٣٥ - ١٢)).

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٧٦ - ٢٧٩.

K. A. C. Creswell, *The Muslim Architecture of Egypt*, 2 vols. (Oxford: Clarendon Press, 1959), (٣٨) vol. 2, p. 208.

(٣٩) تُعدّ كنيسة سانتا ماريا في أنطاكية (التي تقع في الساحة الرومانية) والتي أخذت مباشرة من دوموس عند مقارنة مقياس مسطحات الكنيسة بما يُطلق عليه بيت سرجيون في بومباي، وتوجد التشابهات نفسها عبر ثقافات منطقة حوض البحر المتوسط، وخاصة في سورية.

الرسم الرقم (١٢-٣٥)
قاعة صيفية في منزل في القاهرة



وفي عمليات إعادة بناء «المقعد»، لا نحسب رواق الطابق العلوي المواجه للناحية الشمالية نوعاً مستقلاً، لأنه لا تتوافر فيه خصائص الاستقلال الرسمي عن الدار المملوكية التي يتّحد معها ليكون نظاماً واحداً. ويمكن العثور على قاعتين ومقعد في الطابق العلوي من منزل زينب خاتون، وهي دار ثرية ترجع إلى عصر قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٦) ^(٤٠). يوجد بالمبنى مدخلان يؤديان إلى شقتين منفصلتين ومختلفتين في الحجم تواجهان الصحن نفسه. وإذا كانت قراءة المخطط صحيحة، فإن هذا النموذج يمثل مرحلة مهمة في ظهور المنزل البرجوازي. وقد كان الغرض من الملحقات تأجيرها ^(٤١). ونظراً إلى أن الدرقاعة أصبحت أكثر أهمية للحياة الأسرية، فقد قلت أهمية الصحن. وفي النهاية، أصبح دور الصحن لا يتعدى كونه ممراً يقع فيه عدد من الأنشطة، وتفرض فيه أشكال مختلفة. وأثناء العصر العثماني، على وجه التحديد، تم قصر الدار على كونها مجرد مبنى عامي كبير يحيط بمنطقة خالية ^(٤٢).

وتؤكد حقيقة وجود قاعة في كل مبنى أن هناك نوعاً من المنازل المزودة بصحون كان طرازاً سائداً في العمليات الرمزية في القاهرة، ويظهر بوضوح في نوع معين من المناطق السكنية الجماعية المعروفة في القاهرة باسم «الرّبع». وقد كان هناك نوعان من المساكن الجماعية في القاهرة في العصر العثماني؛ الحوش والرّبع ^(٤٣). الأول كان عبارة عن فناء كبير، يبلغ في بعض الأحيان حجم مبنى بأكمله، يتم إعطاؤه للفقراء ليأووا إليه. وهذا المكان العشوائي، تمت إعادة استيعاب تركيبته البنائية بسهولة في الأوقات

(٤٠) J. Revault, «L'Architecture domestique du Caire à l'époque mamelouke XIII^e-XVI^e siècles», dans: J. C. Garcin [et al.], eds., *Palais et maisons du Caire: 1. L'époque mamelouke* (Paris: [n. pb.], 1982), pp. 108-109.

(٤١) قام كلٌّ من أندريه ريمون ونيللي حتّا بمناقشة أهمية النتائج التي يشتمل عليها هذا الأمر للمناطق المدنية بصفة عامة. انظر: N. Hanna, «La Maison Waqf Radwan au Caire», *L'Habitat traditionnel*, vol. 1, pp. 61-77.

(٤٢) D. Behrens-Abouseif, «Alternatives to Cadaster Maps for the Study of Islamic Cities», in: A. Petruccioli, ed.: «Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans», *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1993), pp. 92-95, and «Notes sur la fonction de la cour dans la maison moyenne du Caire ottoman», *L'Habitat traditionnel*, vol. 2, pp. 411-418.

(٤٣) يقوم ريمون في: Raymond, *Grandes villes arabes*, pp. 323-326 بوصف الحوش والحضور خلال العهد العثماني، يرى كليرجيه (ج ١، ص ٣١٢)، أن كل حوش في القاهرة يشبه القرية ويضم ثلاثين أو أربعين عائلة، ويرى الرحالة. راسل أنه كان هناك العديد من الأحراش والضواحي في حلب، وقام بوصفها على أنها «فناء كبير يحيط به عددٌ معين من المساكن المنخفضة والمتوسطة التي تتكوّن من ثلاث أو أربع غرف»، وتكون المنطقة العامة ممهّدة بطريقة غير منظمة، باستثناء البهو الذي يكون أمام كل بيت ... لم يكن هناك سبيل للشرب، ولكن كان يوجد العديد من النايّج. انظر: A. Russell, *The Natural History of Aleppo*, vol. 2 (London: [n. pb.], 1794), p. 36.

الأخيرة إلى جانب إعادة توزيعه من دون ترك أي آثار واضحة فيه^(٤٤). وقد كان النوع الثاني أقرب إلى النسخة العصرية من مجمّعات الشقق السكنية المخصّصة للمواطنين من الطبقة المتوسطة. وقد تمّت هيكلته بشكل رسمي، وهو يتكون من سلسلة من الشقق المنبثقة من القاعة، والموزعة حول الصحن في أشكال ثنائية أو ثلاثية. وتشمل كل شقة جزءاً من التراس، وهو المنفذ الخارجي الوحيد للمسكن. وقد كان الرّيع غالباً بجوار نزل الوكالة، حيث كان يتم استخدام الطابق الأرضي والميزانين للتخزين والمعاملات المالية، بينما تخصص الجوانب العلوية للسكن فقط. وتطل الشقق على مجموعة من السلالم المؤدية إلى الخارج. وبهذه الطريقة تم الحفاظ على استقلالية الجانبيين. وهذا التصميم واضح خارج المبنى على السطح المزوّد بنوافذ ومشربيات، وهو مركّز على قاعدة حجرية خشنة وصلبة ذات مدخل أثري كامل الارتفاع.

وعلى الرغم من الاختلافات في المصطلحات، فإن ترديد استخدام القاعة التقليدية كان بالدرجة نفسها من القوة، سواء كانت واقعة في القصور أو في المنازل الأكثر تواضعاً. وقد نتج من التقاء الثقافة العثمانية والعادات المحلية في عصر محمد علي نوع جديد يسمّى الفسحة^(٤٥)، وهو عبارة عن بهو مركزي وسلم كبير، وقد تم استخدامه في المباني الكبيرة والمجمّعات السكنية. كان الترتيب الهرمي التوزيعي للمبنى يبدأ بصحن كبير فيه عدد من السلالم المختلفة التي تؤدي إلى الفسحة. وكان ذلك بمنزلة صحن داخلي مغطى تفتح فيه الشقق المستقلة، إلى جانب وجود مناطق الخدمة المشتركة.

كان تصميم الشقة مشابهاً لتصميم الرّيع؛ من حيث تقسيم غرفة المعيشة الطويلة إلى ردهة، تشبه الدرقاعة، وإيوان فيه شرفة بارزة. وقد كانت محاريب القاعة كبيرة بما يكفي لتكون بمنزلة غرف ثانوية.

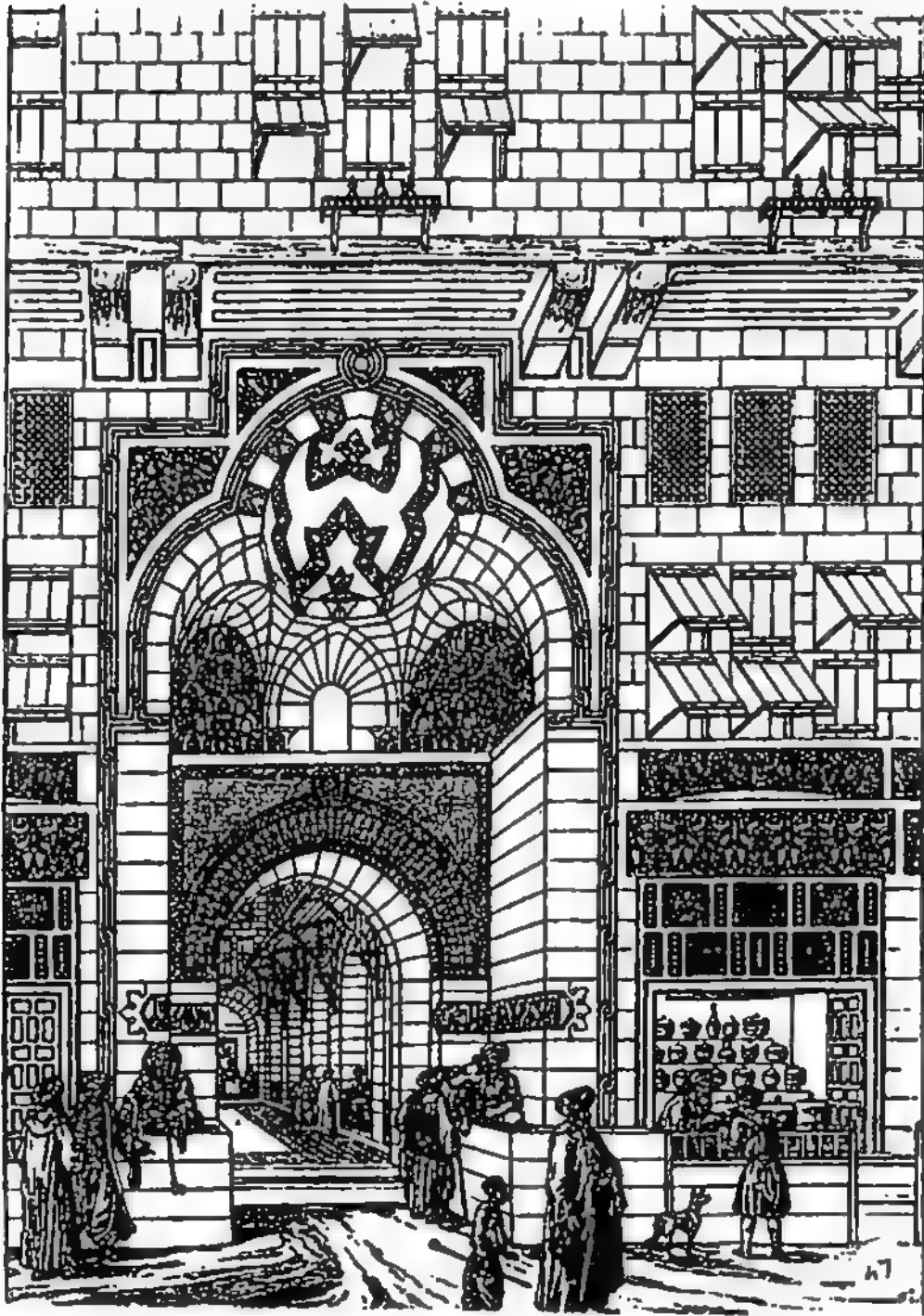
وربما تكون أكثر الدروس أهمية في العملية الرمزية في القاهرة هو أنها توضح بالتفصيل التوازي في التخصص الطردي والترتيب الهرمي للهياكل الحضرية ونمو المجمّعات السكنية والتغيرات التي تطرأ على المنازل المزوّدة بصحون. وفي تاريخ القاهرة الحديث، فإن الانتقال من أماكن الإقامة الفاطمية الأولى إلى المدينة التي انتشرت

(٤٤) عيّن جان كلود دافيد ما هو محتمل بأن يكون سلسلة من الأحواش خلال العهد العثماني في حي قارلق في الشمال الشرقي من حلب، انظر: Jean Claude David, «La Formation du tissu de la ville arabo-islamique: Apporte de l'étude des plans cadastraux d'Alep.» dans: Petruccioli, ed., «Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans,» pp. 138-155.

(٤٥) Olivier Blin, «Le Caire XIX^{ème}-XX^{ème} siècles: De la fasaha a la sala comme modeles,» *Les cahiers de la recherche architectural*, vols. 20-21 (1987), p. 96 ff.

في العصر المملوكي، ثم إلى الحاضرة في العصر العثماني، انعكس في شكل المنازل المزودة بصحون. وقد تم دمج التغيير الذي يعتمد على التنوع في هذا النوع من المنازل في القاعة (نوع سكني أكثر اكتظاظاً يمكن إلحاقه بالمنزل أو القصر أو الربع أو حتى المجمعات السكنية الحديثة) لجعل القاهرة مكاناً مميزاً (انظر الرسم الرقم (٣٥-١٣).

الرسم الرقم (٣٥-١٣)
ربع قايتباي في القاهرة. مدخل تاريخي مزخرف



المصدر: المصدر نفسه.

للوصول إلى نتيجة متكاملة، قد يكون من المفيد البدء بالتأكيد أن مصطلحي «تسلسلي» و«عضوي» يشيران إلى الفكرة وراء أي قراءة دقيقة لبيئة مناطق البناء. الجدير بالذكر أن لكل حضارة، كجزء من ثقافتها الخاصة، طريقة مختلفة للتعبير عن المكونات التي تراوح من أقصى معدلات التسلسل العرضي إلى أقصى معدلات العضوية. ولهذا السبب، وعلى الرغم من أن وجود نموذج أصلي للمنازل المزودة بصحون، وهو نتاج التكوين المتعدد، يعدّ مختلفاً من حيث التخطيط في المغرب، وفي المنازل الرومانية التي تغلب عليها التجاويف، إلا أن ذلك لا ينبغي أن يخفي الطبيعة العالمية لهذا النوع.

توجد الخلية المحلية، وهي القالب الأولي في تطور المنازل المزودة بصحون، كعنصر قياسي له بعد معين بغض النظر عن مصادره الثقافية. ويمكن أن تتطور الخلية الأساسية من خلال عمليات ازدواج متتابعة لتكوين منازل تأخذ شكل صفوف، أو شقق مزودة بصحون.

وعلى الرغم من ذلك، فإن المنزل المزود بصحن يتطلب الاهتمام لأنه النوع السكني الذي يستجيب في الوقت نفسه للعوامل المناخية والثقافية والجمالية. وهو بذلك يعدّ النوع السكني الوحيد في المنطقة العربية، على الرغم من أنه تمتع بقدر من التطور المتوازي في ما وراء دول الشرق الأوسط. وتعدّ عمليتا التخصص التجاري (عملية تابيرنا) والتقسيم والتجزئة (عملية إنسولا) في غاية الأهمية، حيث إنهما مصدر ظاهرة التحول إلى المدن الدينامية في العالم العربي.

وفي ما يتعلق بالثقافات المختلفة، فإن التشابه بين المنازل المزودة بصحون في سورية ولبنان وتركيا والبندقية لا يمثل، كما يفترض البعض، ظاهرة تناضح ثقافي، ولكنه يمثل الاشتراك في مصدر مشترك واحد في بلاد الشام، إذ تشارك هذه المنازل في النوع الجيني الأساسي أو الطبقة السفلية من الدوموس.

من ناحية أخرى، تظهر المنازل المزودة بصحون في القاهرة سمات مختلفة، حيث القاعة تتطور ببطء لتصبح ردهة الشقة الحديثة. وبالنسبة إلى الجزائر العاصمة، تتحد الثقافة الأوروبية الدخيلة بقوة مع الثقافة المحلية لإحداث تغيير جذري يدعم أنواع البناء المستوردة (الشقق) والتجمّعات (البلوكات السكنية)، اعتماداً على كون الشوارع المفتوحة بديلاً من الساحات المغلقة.

ويمكن أن نتعلم درساً مهماً من القاهرة والجزائر العاصمة، مفاده أن الخلية المحلية ليست هي التي تؤدي إلى وجود المنزل المزود بصحن، لكن ما يحقق ذلك هو كيفية وضع هذه الخلايا بعضها مع بعض. ويعدّ ثبات تصميمات الساحة العامة (الشارع)، والساحة الخاصة (الخلية) التي تستفيد من المخطط والقسم لإيجاد مأوى وتحقيق الخصوصية، أساس المنزل المزود بصحن.

الفصل السادس والثلاثون

المدينة المُقسّمة بحسب الجنس

لوسيان ثاي - شينوگاك^(*)

باتت التعريفات المبكرة لـ «المدينة الإسلامية» موضع مراجعة في العقود الثلاثة الماضية من خلال سلسلة منهجيات ما بعد حداثة ظهرت في عدة حقول، من بينها الدراسات المدنية، وتاريخ الفن والعمارة، والدراسات الشرق الأوسطية، والجغرافية، والدراسات النسائية، والأكثر حداثة تاريخ الجندر. وكان مطلب استحضار وتفحص أطر نظرية أكثر تقليدية كثيراً ما أنتجت خطابات مقسّمة في الحقول تلك، تحدياً لباحثين انخرطوا في دراسة الهويات المركّبة للمدينة الإسلامية وتعريفاتها غير الدقيقة غالباً.

وفي نهاية ثمانينيات القرن العشرين كان باحثون يعملون على «القاهرة كدراسة حالة» من أمثال جانيت أبو لغد، قد بدأوا يلاحظون أن المكان المدني في القاهرة وطريقة استعماله، وفق مقارنة وإنتاج جندريين، ليس مجرد حالة بسيطة في قسمة الجغرافيات العامة - الخاصة وتخصيصها على التوالي للذكور والإناث.

في مقالة متميِّزة نُشرت عام ١٩٨٧، وحملت عنوان «المدينة الإسلامية - الأسطورة التاريخية، الروح الإسلامية والصلة بالعالم المعاصر»، حدّدت جانيت أبو لغد الفصل بين الجنسين بأنه واحد من «العناصر» التي ساهمت في تكوين هوية المدينة الإسلامية.

(*) أستاذة في جامعة كوش، قسم علم الآثار وتاريخ الفن - تركيا.

ووفقاً لأبو لُغْد، فإن «ما يطلبه الإسلام هو طريقة لتقسيم الوظائف والأماكن على أساس الجنس، ومن ثم إقامة حاجزٍ بصريٍّ بينها». وتضيف أبو لُغْد أن «هذا النوع من تنظيم المكان كان ليختلف لو أن الاختلاط بين الذكور والإناث كان نمطاً سائداً... فسيماء المكان في المدينة الإسلامية تعطي الإنذارات وتساعد الأشخاص على القيام بواجباتهم، بينما يتبعون نظام تفادي الجنس الآخر»^(١).

يتضمن تحليل أبو لُغْد لسيماء المكان المديني الإسلامي تقسيمه إلى: أولاً، مفهوم الجنس إلى ذكور وإناث؛ وثانياً، رؤية للمكان المديني مقسماً في دائرتين، عامة وخاصة. ومع ذلك، وبعد مشاهدتها نساء القاهرة الفقيرات يمشين في الأزقة المعهودة للأحياء التي يعشن فيها، وهنّ أقلّ تحجباً من ذي قبل، ولكن يتبعن التقاليد والبراسم عينها المتعلقة بالمكان المخصّص للجنس الواحد، تلاحظ أبو لُغْد أن بعض الأنماط السلوكية لا تندرج بالكامل في واحدة من الدائرتين العامة أو الخاصة، بل تحتاج إلى دائرة ثالثة، مكان «شبه خاص». وضمن هذه الفئة الثالثة، يكون السلوك المقبول للفصل بين الجنسين أكثر سلاسةً، ويتعدى فيه الولاء العائلة، أو القرابة، ويستطيع الرجل والمرأة على حدّ سواء التحرك بسهولة أكبر في أمكنة «الحارة»^(٢).

كان عمل أبو لُغْد علامة فارقة مهمة في نهاية ثمانينيات القرن العشرين، حيث بدأت بمساءلة المكان الذي جرى فرضه دائماً على المدينة الإسلامية. إلا أنها، وفي سياق إعادة تقييم تقسيم المكان العام - الخاص كأداة منهجية لفهم المدينة الإسلامية، حافظت على تعريف للجندر يفصل بين جنسين، ذكر وأنثى. وعليه، وفي وقتٍ هي تسمح بدخول مكان إضافي إلى المدينة الإسلامية، المكان شبه الخاص، إلا أنه لا مكان في مدينة أبو لُغْد الإسلامية لـ «جنس ثالث»^(٣). وقد تفحص عدة باحثين في حقول الدراسات

(١) Janet Abu-Lughod, «The Islamic City: Historical Myth, Islamic Essence, and Contemporary Relevance», *IJMES*, vol. 19 (May 1987), p. 163.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٨، و: L. Thys-Senocak, «Space: Architecture, The Ottoman Empire», in: *Encyclopedia of Women and Islamic Cultures*, vol. 4 (Leiden: Brill, 2007), pp. 514-518.

(٣) استخدمت جوديث هيرين هذا المصطلح لتصف دور المخصيين كـ «جنس ثالث» والذكور من دون لحى J. Herrin, «The Imperial Feminine in Byzantium», *Past and Present*, انظر: vol. 169, no. 1 (November 2003), pp. 3-35.

عن دور «المخصيين» في العالم الإسلامي، انظر: S. Marmon, «The Eunuchs of the Prophet: Space, Time and Gender in Islam», (Ph.D. Dissertation, Princeton University Press, New Jersey, 190); S. Marmon, *Eunuchs and Sacred Boundaries in Islamic Society* (Oxford; New York: Oxford University Press, 1995), and D. Ayalon, «On The Eunuchs in Islam», *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, vol. 1 (1979), pp. 67-124.

النسائية في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، مثل جوان سكوت، النظرة التقليدية التي تجعل الجندر في فئتين صافيتين، أنثى أو ذكر، في مواجهة قيود وإعاقات يفرضها إطار معرفي تقليدي كهذا^(٤). وعلى قاعدة البحث المهم لما بعد الحقبة الاستعمارية لأبي لغد، وتفحص جوان سكوت لتعريفنا التقليدي للجندر، سأحاول زيارة المدينة الإسلامية من جديد في ضوء دراسات أكثر حداثة حول الجندر والجغرافيا المدنية التي أعادت طرح تقسيم المكان إلى خاص وعام، وتقسيم الجندر إلى ذكر وأنثى فقط^(٥).

كان الفصل الجنسي بين الأماكن الخاصة والعامة في الحياة المدنية موضوعاً مثيراً للجدل بالنسبة إلى عدد كبير من دعاة الحدّثة المبكرين، الذين كانوا منكبّين على التراث المعماري والتاريخ المدني في أنحاء أوروبا كافة^(٦).

وقد لاحظ الباحثون أنّ النهج التقليدي الذي يقسم الأماكن أولاً إلى أماكن عامة، وأخرى خاصة، ومن ثم يخصص الأولى للذكور، والثانية للإناث، هو إطار غير مناسب لتحليل الأماكن المدنية المقسّمة بين الجنسين في بدايات أوروبا الحديثة. إلا أنّ النموذج هذا ما زال يجد قبولاً بين المؤرّخين المختصّين بالهندسة المعمارية والتقسيم المدني المنكبّين على جغرافيات العالم الإسلامي.

وقد لاحظت بيرس، في عملها المكثف حول «الحريم العثماني» أنّ فرض اختزال أنماط المكان المتعددة في ثنائية ذكر/ أنثى أو عام/ خاص لا يستجيب على نحو صحيح للعمليات المعقّدة التي لوّنت من جهة الجندر المكان في عدة مناطق من العالم

J. Scott, «Gender: A Useful Category of Analysis,» *American Historical Review*, vol. 91, no. (٤) 5 (December 1986), pp. 1053-1075; S. Ardener, ed., *Women and Space: Ground Rules and Social Maps* (Oxford and Providence: Berg Publishers, 1993), and Merry Wisener-Hanks, «Women's History and Social History: Are Structures Necessary?,» in: T. Kuhen, A. J. Schutte and S. S. Menchi, eds., *Time and Space in Women's Lives In Early Modern Europe, Sixteenth Century Essays and Studies*; 57 (Kirkville: Truman State University Press, 2001), pp. 3-16.

«Beyond Harem Walls: Ottoman Royal Women and the Exercise of Power,» in: O. Dorothy (٥) Helly and S. M. Reverby, eds., *Gendered Domains: Rethinking Public and Private in Women's History* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2000), pp. 40-55; L. Ottoman, *Women Builders: The Architectural Patronage of Hadice Turhan Sultan* (Aldershot: Ashgate Press, 2007); H. Z. Watenpaugh, «Art and Architecture,» in: *Encyclopedia of Women and Islamic Cultures: Methodologies, Paradigms and Sources*, vol. 1 (Leiden: Brexuality and Spatiality in Alterist Discourse; London; New York: Verso Books, 1999).

(٦) الأعمال كثيرة حول هذا الموضوع. انظر: Dorothy O. Helly and Susan M. Reverby, eds., *Gendered Domains: Rethinking Public and Private in Women History* (Ithaca: Cornell University Press, 1992). وهذا الكتاب يقدم مادة جيّدة لهذا النقاش.

الإسلامي، بما فيها السلطنة العثمانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، حين أدت نساء العائلة المالكة أدواراً رائدة في تشكيل وتلوين أمكنة مدن الإمبراطورية بهذا الجنس أو ذاك.

بعد أن دققت في اللغة الغنية التي استخدمها العثمانيون ليصفوا مختلف أنواع المكان واستعمالاته، أثبتت بيرس الطبيعة الرجعية والمجردة لنمط الخاص/العام في وصف حالة الإمبراطورية العثمانية: «كان المجتمع العثماني في القرنين السادس والسابع عشر مقسماً إلى دوائر يسود فيها التمييز بين الأكثر حظوة والعادي، بين المقدس والمدنس، أكثر مما تسود فيه مبادئ العام/الثروة المشتركة/الذكور والخاص/الداخلي/الإناث - وهي تميزات تتعارض مع التقسيم التقليدي وفقاً للجنس»^(٧).

وفي حين لست متأكداً من أننا مستعدون أو مضطرون إلى التخلص بالكامل من نموذج الخاص مقابل العام لتمكّن من فهم طبيعة الجغرافيات المدنية في العالم الإسلامي، فإنني أود أن أذهب من حدود نظرية أبو لغد عن الفئة «شبه الخاصة» لاستكشف الطرق المعقدة التي طبع الجنس بواسطتها بعض أمكنة المدينة الإسلامية. ولهذه الغاية، سأركز على عاملين تركا أثراً في شكل وجنس العوالم المدنية الإسلامية، بما فيها العمارة والتجارة والرموز والاحتفالية الدينية^(٨). ولطالما كان مُعترفاً بدور العمارة الإسلامية كعامل مهم في عملية تخصيص الجغرافيات الإسلامية، إمبراطورية أكانت أم غير إمبراطورية، لكل جنس على حدة.

تلاحظ أبو لغد أنه «إلى جانب الممارسات النابعة من التقاليد، وإضافة إلى النصوص الفقهية الإسلامية، ساهمت الهندسة المعمارية في هذه العملية. ليس فقط من خلال حاجز المشربية، بل إن تصميم المنازل، وحتى الأحياء، قاد إلى هذا الواقع غير المتوازن الذي يتيح للنساء أن يرين الرجال من دون أن يتمكن الرجال من رؤيتهن، باستثناء النساء اللواتي تربطهن علاقة ما برجل»^(٩). ففي بدايات إسطنبول العثمانية

(٧) Leslie Peirce, «The Imperial Harem: Gender and Power in Ottoman Empire (1520-1656)», (Ph.D. dissertation, Princeton University, New Jersey, 1988), pp. 8-9.

(٨) معظم مراجعي مستمدة من الحقبة العثمانية المبكرة، وتخصيصاً من إسطنبول القرن السابع عشر، المدينة والقرن اللذين أشعر بألفة كبيرة معها. انظر: Thys-Senocak, «Space: Architecture, The Ottoman Empire», pp. 315-316.

(٩) يجب ضبط مسألة مقارنة أشكال معمارية معينة، كذلك، لسبب معاكس، كما يتضح من تعليقات رحالة فرنسي إلى أصفهان في القرن السابع عشر، جان شاردان، الذي كتب في مسألة أن المآذن العالية قد تسبب المشاكل في مكان كأصفهان في القرن السابع عشر: «... هم لا يسمحون لأيّ كان بتسلق المنطة العالية للدعوة إلى الصلاة، لأنهم سيتمكنون من مشاهدة النساء في منازلهن، والتي هي مفتوحة دائماً لهذه الجهة، أو في باحات منازلهن وحدائقها. وعليه

الحديثة، كما في مناطق مدينية إسلامية أخرى، كان الولوج إلى أنواع أمكنة مختلفة، من حرم قصر توبكابي إلى شوارع إسطنبول، رهناً ليس فقط بالجنس، بل أيضاً بمجموعة من العوامل الأخرى، مثل المكانة الاجتماعية، والعمر، والثراء، والاحتفالات أو الطقوس. وإلى ذلك، كان أفراد البلاط العثماني، ذكوراً وإناثاً، يمارسون سلطتهم على الأماكن المدينية ويصنّفونها وفقاً للجنس، مستغلّين الهندسة والطقوس، وممارسين امتياز المراقبة الملكية، وهو امتياز معمولٌ به في تصميم العمارة العثمانية، بدءاً من أكثر عُرف الحريم عزلةً في قصر توبكابي إلى المجمّعات الاجتماعية - الدينية الكبيرة المسماة «الكليات» التي لا تزال تسم عدة مدن عثمانية إلى يومنا هذا.

أولاً: الحريم: هل هو مكانٌ نسائيٌ فقط؟

صحيحٌ أنّ جذور «الحريم» ليست إسلامية، إلا أنه لطالما اقترن ببلاط الحاكم المسلم أو برّب عائلة كبيرة. وهكذا يجري وصف الحريم بشكليه: حريم البلاط، وحريم العامة؛ بوصفه أكثر الأمكنة فصلاً بين الجنسين في العالم الإسلامي المديني. يقع الحريم في الحرم الداخلي للقصر أو في أبعد غرفة في المنزل، ويعدّ مكاناً خاصاً محدّداً وغير مختلط، يقع في شكله البلاطي على أطراف المدينة التي يوجد فيها أو خارجها أو يطلّ على أماكنها^(١٠). ويُسمح فقط لبعض الرجال ذوي الامتيازات بدخول الحريم الذي يتألف بأغلبه من النساء. وتُعدّ عُرف الحريم في قصر توبكابي في إسطنبول واحاتٍ للعزلة النسائية غالباً ما وصفها المراقبون بأنها سجونٌ نسائية، وليست مؤسسات طُبعت القسم الأكبر من جغرافيات البيئة المدينية المحيطة (انظر الرسم الرقم ٣٦ - ١).

وفي الوقت الذي يستمر الجدل حول نموذج «سلطنة الحريم»، استمرّ الباحثون المنكبّون على المدينة العثمانية في عدّ أماكن الحريم ومن يعيش فيها فاعلةً وراء الكواليس، ولكن من دون أن يكون لها أي مقاصد شرعية لتعزيز المشروع العثماني

فالنارات اليوم هي للزينة ولا يجري استخدامها. وبدلاً منها هم يتادون اليوم على الصلاة من على سطح الجامع». انظر: Jean Chardin, *Voyages du Chavallier Chardin, en perse et autres lieux de l'Orient*, edited by L. Langles, 10 vols. (Paris: Le Normant, 1811), vol. 7, p. 112, et vol. 9, pp. 194-195.

كما لحصنها وترجمها في: S. Blake, «Contributors to the Urban Landscape: Women Builders in Safavid Isfahan and Mughal Shahjahanabad», in: G. Hambly, *Women in the Medieval Islamic World: Power, Patronage and Piety* (New York: Saint Martin's Press, 1998), p. 415.

S. Germaner and Z. Inankur, *Constantinople and the Orientalists* (Istanbul: Isbank, 2002). (١٠)

العام (وهو ذكوريّ بحث)»^(١١). صحيح أنّه كان محظوراً الدخول إلى الحريم الملكي على معظم الذكور والإناث الذين يعيشون داخل حدود الإمبراطورية وخارجها، إلا أنّ الدخول إليه كان مسموحاً لعددٍ من الذكور الذين كانوا يديرون شؤونه إلى جانب السلطان والأمراء العثمانيين، ويُعرف هؤلاء باسم «مخصّي البلاط». وكان هؤلاء «الذكور من دون لحى» أو المعروفون بـ «الجنس الثالث» زوّاراً شبه دائمين أو مقيمين دائمين في الأمكنة الواقعة ضمن جدران الحريم. وقدم بوبوفي، وهو خادّم من أصلٍ بولندي عمل لمدة ٢٧ سنة كموسيقي في قصر توبكابي، عدّة أمثلة عن المخصّصين، واصفاً كيفية دخولهم إلى غرف الحريم. وكانت والدّة السلطان تعتمد إلى حدّ كبير على رئيس المخصّصين الأسود ورئيس الخدم لتبقى مطلّعةً على أهم الأحداث التي تجري داخل القصر والإمبراطورية. ويقول بوبوفي إنّ «رئيس الخدم كان بمنزلة سيد المنزل. فهو يتمتّع بالسلطة على كلّ المخصّصين، وعلى جميع نساء أجنحة الحريم، وهو بمنزلة مرافق شخصي، إذ يرافق والدّة السلطان أينما ذهبت ويبقى بالقرب منها»^(١٢).

وعليه، فإذا أخذنا أحد أكثر الأماكن فصلاً بين الجنسين في العالم الإسلامي، وأعدنا النظر فيه في ضوء وجود عنصرٍ بالغ الأهمية والنفوذ هو «الجنس الثالث»، نجد أنفسنا مضطرين إلى زيادة العوامل المتغيرة، من جهة أولى، في معادلة الجنس بهدف احتساب أولئك الذين يعيشون في أمكنة الحريم، والذين يقعون في مكانٍ ما وسط معادلةٍ منقسمة إلى ذكور وإناث.

يحتاج ذلك، من الجهة الثانية من المعادلة، إلى إعادة احتساب، إذ من الواضح أنّ المكان «الخاص» للحريم يجب ألا يُعد مكاناً نسائياً محضاً، كما يحلو لمستشرقي القرن التاسع عشر أمثال جيروم أن يتخيّلوه. ونظراً إلى إمكان وجود تعريف أكثر تعقيداً

(١١) ترجع دراسة النساء الملكيات العثمانيات، والتحريف الذي بات يداخل الحديث عنهن، وإلى حدّ كبير، إلى كتابات أحمد رفيق، وهو مؤرخ عثماني في أوائل القرن العشرين، أطلق على هذه الحقبة اسم «سلطنة النساء» في كتاب يحمل العنوان عينه (سلطنة الحريم ١ - ٤، إسطنبول، ١٩١٣ - ١٩٢٣). وقد غدا ذلك سبباً آخر يُزعم أنه وراء تراجع الإمبراطورية العثمانية بعد القرن السادس عشر، وهو ما يذكره أحمد رفيق عن سوء حظ الباب العالي بالأعيب الزوجات والأمهات الملكيات اللواتي مارسن برأيه سلطة كبيرة من خلف جناح الحريم. ألعيب السلطة والثروة هذه التي مارسها النساء الملكيات كانت برأي رفيق سبباً جوهرياً في انحدار السلطنة السياسي والاقتصادي بعد ما يسمى العصر الكلاسيكي الذهبي. لمراجعة هذا النموذج ونقده انظر: «النساء في المجتمع السلجوقي والعثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر»، في: ٩٠٠٠ عام على المرأة الأناضولية: كتابوغ معرض (إسطنبول: وزارة الثقافة في الجمهورية التركية، ١٩٩٣)، ص ١٩٢ - ٢٠١، و L. Thys-Senocak, *Ottoman Women Builders: The Architectural Patronage of Hadice Turhan Sultan* (Aldershot: Ashgate, 2007).

(١٢) C. Fisher and A. Fisher, «Topkapi Sarayi in the Mid 17th Century: Bobovi's Description», *Archivum Ottomanum*, vol. 10 (1985-1987), pp. 22 and 26.

للجندر، فإن هذا «الجنس الثالث» يعقد الأمور بالفعل، إذا رغبتنا بمحاذرة الوقوع في التصنيفات المجردة (ذكر/ أنثى) التي انتقدت في بداية هذه الفصل.

الرسم الرقم (٣٦ - ١)

جان لوي جيروم، «تراس الحريم»، ١٨٨٦



صورة مرسومة بالزيت على الكانفا.

المصدر: مجموعة خاصة. مستشرق تقليدي يصف مكان «الحريم» العثماني بالحار لكنه سجن معزول مع شخصي السلطان.

وإذا استثنينا المخصصين، وجدنا أن دخول الحريم الملكي العثماني كان مسموحاً أيضاً لعددٍ من ذكور «الجنس الأول»، من الأمراء إلى الأقزام والموسيقيين. وعن الحياة في قصر توبكابي، يروي بوبوفي كيف أن قزماً واحداً، ربما ترد صورته هنا في رسم مصغرٍ لمحمد الرابع كصبي من عام ١٦٥٠، كان «يرتدي ستراتٍ باهظة الثمن، ويحظى بتأييد السلطان والملكة الأم، وكان يتنقل بحرية في أرجاء القصر كله» (انظر الرسم الرقم (٣٦ - ٢)).

ويروي بوبوفي تجربته الشخصية، حيث كان يعزف لوالدة السلطان ضمن عُرف الحريم. ويوصفه خادم البلاط، كان يعرف أماكن الحريم كافة معرفةً وثيقةً، إذ كان يعزف في الحفلات الموسيقية داخل الأجنحة الخاصة بالملكة الأم وحاشيتها. ويقول بوبوفي

إنَّ «الموسيقين الذكور كانوا يدخلون الحريم معصوبي العينين ويغنون ويعزفون، وكان المخصيون يراقبونهم باستمرار من الجهات كافة لمنع أي منهم من رفع رأسه، وكانوا يضربونهم عندما يتحركون ولو قليلاً. وفي وسعي أن أؤكد لكم أنه لأمر متعبٌ ومربكٌ أن تكون عازفاً مقابل ثمن كهذا، وأن تكون في مكانٍ مميّز كهذا وأنت محرومٌ من النظر»^(١٣).

الرسم الرقم (٣٦ - ٢)
محمد الرابع، كأيّ شاب، يراقب بينما مهرّجان يسليانه



المصدر: صورة مجهولة المصدر تعود للعام ١٦٥٠، رسم مصغّر، برلين، مكتبة المتحف السلطاني، ليبرهايد، أو. زد. ٥٢، ملف IV.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٥٦.

إضافة إلى الوجود الجسدي لمختلف أنواع الذكور داخل «الحريم»، الذين لا يقعون دائماً داخل معادلة ذكر/ أنثى، أتاحت بعض المعالم المعمارية لغرف الحريم في القرن السادس عشر المزيد من التواصل مع العالم خارج حدود جدران القصر. ونتيجةً للتغيرات المعمارية التي طرأت عامي ١٥٧٧ و ١٥٧٨ في عهد السلطان مراد الثالث على تصميم غرف الحريم في قصر توبكاي، صارت مساكن النساء والمختصين السود أقرب إلى قاعة المجلس، حيث كانت تجري الأعمال الرسمية للبلاط العثماني^(١٤).

ومن ذلك الموقع، كانوا يستطيعون سماع المناورات السياسية الجارية تحت غرفهم، من خلال فجوة في حائط الحريم. وبالتالي، كانت نساء الحريم وخدامهن المقربون يقتربون أكثر فأكثر من قلب الإدارة العثمانية نتيجةً للتغيرات الهندسية. فبدأن بتقليد سلوك السلطان العثماني الذي كان يشاهد أنشطة الديوان مختبئاً وراء نافذة مقفلة فوق قاعة المجلس (انظر الرسم الرقم (٣٦ - ٣))^(١٥).

ثانياً: مشهد المدينة الإسلامية

إلى جانب الحريم الملكي، يمكن إخضاع مشهد المدينة الإسلامية للفصل الجنسي في أشكال متعددة، ومن خلال مؤسسات مختلفة. تُعد الأمكنة المقسمة بحسب الزمان والمكان والمصنفة كجغرافيات نسائية، مثل شارع بنات الهوى أو الجزء الخلفي من الجامع أو «يوم النساء» أو غرفة الحمام، هي الأسهل للتعرف إليها، إذ غالباً ما كانت هناك لافتات تدل عليها أو كان يصفها كتاب السير المعاصرون^(١٦).

وهنا أيضاً، كان الجنس عاملاً أساسياً يحدّد إلى أي مدى يكون مكانٌ مديني محدد محظوراً أو متاحاً لشخصٍ ما. إلا أن العمر والدين والمكانة الاجتماعية كانت هي الأخرى من العوامل المهمة. فقد كانت بعض أجزاء المدينة ونصب تذكارية معينة خاضعةً للفصل الجنسي المؤقت، كما أنّ حركة إعادة تخصيص مكان معين لجنسٍ

(١٤) انظر: G. Necipoglu-Kafadar, *Architecture, Ceremonial and Power* (Cambridge, MA: MIT Press, 1991).

وذلك لدراسة تفصيلية حول التغيرات المعمارية في قصر توبكاي في القرون الثلاثة الأولى.

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(١٦) يصف الرحالة ساردان، على سبيل المثال، بالتفصيل حي الجامع في أصفهان حيث النساء كنّ «غير محجّيات ومن دون غطاء للرأس». انظر: Chardin, *Voyages du Chevalier Chardin, en perse et autres lieux de l'Orient*, vol. 2, pp. 215-216 et vol. 7, p. 417.

دون الآخر غالباً ما كانت تحصل في أحياء المدينة، ولا سيما في أوقات الطقوس أو الاحتفال^(١٧). ولا بد من التدقيق في نقاط الالتقاء بين الجنسين، وفي هذه العوامل الأخرى بدلاً من الاكتفاء بفحص عامل الجنس وحده.

الرسم الرقم (٣٦ - ٣)
حفلة استقبال على شرف سفير في قاعة المجلس العام



صورة مرسومة بالزيت على الكانفا.

المصدر: جان باتيست فان مور، مجموعة كوتش هولدينغ، إسطنبول، ١٦٧١ - ١٧٣٧. داخل القوس هناك نافذة شبكية كان في وسع السلطان أن يراقب منها سراً الأنشطة الجارية في الديوان.

(١٧) ظاهرة جنس المكان هذه، وكما يشير دافيس في دراسته حول «البندقية»، ليست وفقاً على المدن الإسلامية. وهو يكتب عن إسطنبول الجارة المتوسطية الغربية «التوازن الجندي للمكان المدني لا يتحدد فقط من خلال قرارات ذكورية، وإنما أيضاً نتاج عملية مستمرة، عملية تبادل أدوار دائمة بين الجنسين وبين الأمكنة الاجتماعية في المدينة التي تعمل على مدّ وترسيخ أو نقض قرارات جعل أمكنة معينة للرجال وأخرى للنساء. انظر: R. Davis and Robert C. Davis, «The Geography of Gender,» in: Judith C. Brown, Judith C. Brown and Robert C. Davis, eds., *Gender and Society in Renaissance Italy* (New York: Longman, 1998), p. 20.

في القرن السادس عشر، لاحظ المسافرون إلى إسطنبول، ومن بينهم هانس ديرنشوارم، في سجله لعام ١٥٣٣، أنّ النساء الأكبر سنّاً كنّ يقصدنّ الأجزاء المنفصلة من جوامع المدينة للصلاة، بينما كانت النساء الأصغر سنّاً وغير المتزوجات يصلّين في بيوتهنّ^(١٨). ومشاهد خروج النخب النسائية العثمانية إلى الحمامات العامة في إسطنبول مع حاشية كبيرة من الأطفال والخدم كانت على الأرجح شائعة وتكرر كثيراً وبانتظام في العاصمة. ويظهر ألبوم صور من عام ١٥٨٦ أحد المشاهد تلك (انظر الرسم الرقم (٣٦ - ٤) ^(١٩)).

وقد اتخذ مسؤولو المدينة خطوات شرعية بهدف الفصل بين النساء والرجال، أو النأي عن الأمكنة المدنية المعروفة الخاضعة لقواعد الفصل الجنسي، إلا أن معايير الشرف والجنس فيها قد تكون عرضة للشبهة والابتذال. وتُظهر المصادر تلك كيف يجري تخصيص أمكنة معينة لجنس معيّن، في حين تبقى الأمكنة الأخرى للجنس الآخر. ويضع القاضي المالكي، ابن عبدون، قائمة بعدّة قواعد حول السلوك السليم للذكور والإناث في إشبيلية القرن الثاني عشر، مفادها أنّ المرأة «يجب ألا تغتسل في الحدائق، لأنها أمكنة إغواء، وألا تجلس على حافة نهر أيام الصيف إذا ظهر رجال هناك.

أما في أيام الاحتفالات، فيجب ألا يمشي الرجل والمرأة على الطريق عينه عندما يريدان عبور النهر. كذلك، يُمنع الحلاق من الانفراد بامرأة في محلّه». أما التي تقصد بئراً عاماً لتأتي بالماء، سواء كانت مسلمة أم غير مسلمة، فتُعَدّ مغادرة طالما ترافقها حاشية من الخدم. ولعلّ أكثر الأماكن تحريماً كانت متاجر بيع الزيزفون في إشبيلية التي، على غرار مقاهي إسطنبول في القرن السادس عشر، كانت محظورة على النساء الشريقات تحديداً، لأنّ «الرجال يقصدونها لينفردوا بالنساء»^(٢٠).

(١٨) انظر: Hans Dernschwam, *Istanbul ve Anadolu'ya Seyahat Gunlugu*, translated by Y. Onen (Ankara: Kultur ve turizm bakanligi, 1987), as cited by: Y. Seng, «Invisible Women: Residents of Early 16th C. Istanbul,» in: *Medieval Islamic Women*, vol. 265, note 2.

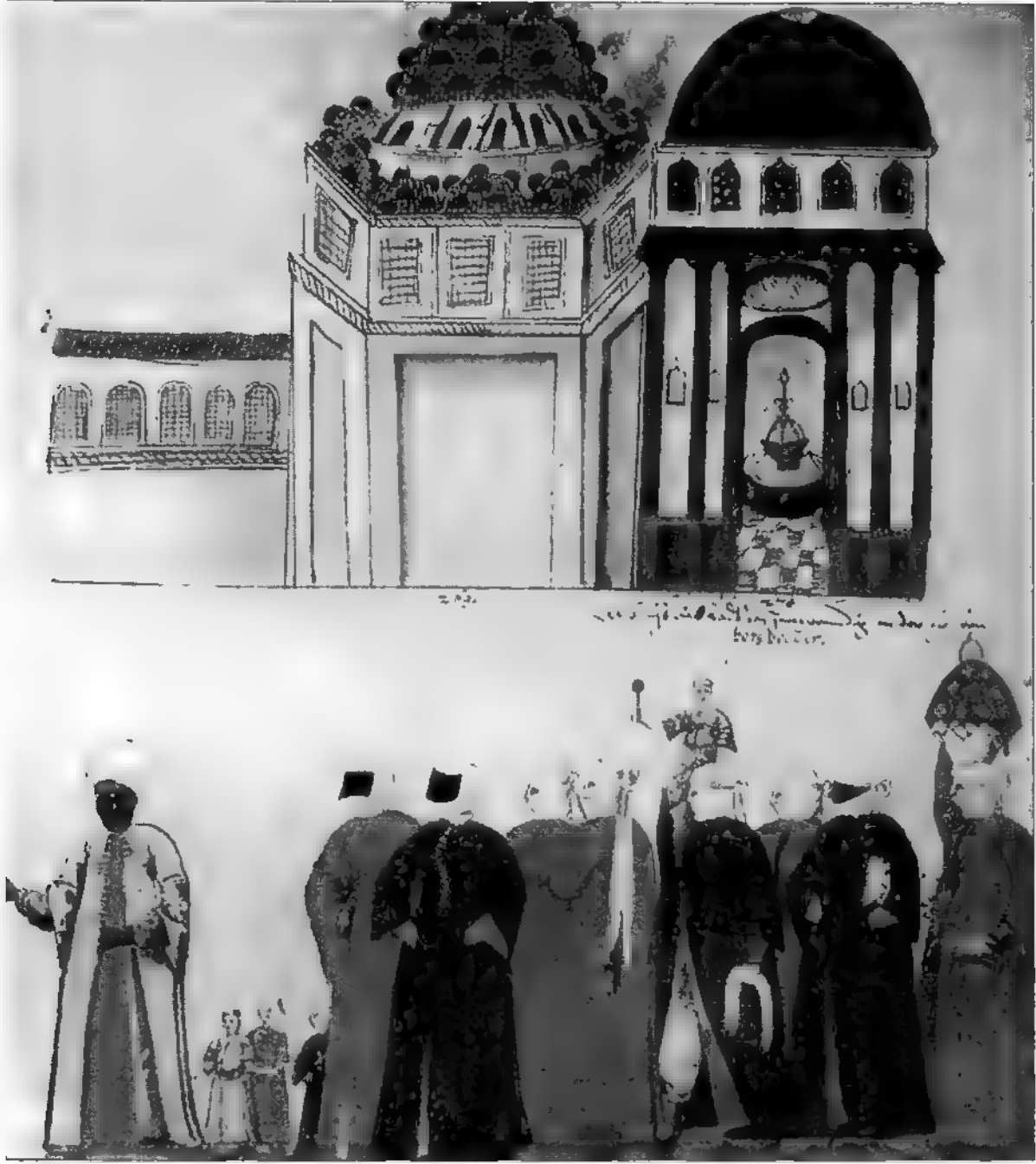
(١٩) يحتوي هذا الألبوم على ١٨٥ ورقة مع شروحات عدّة وصنع لصالح: Johannes Lewenklaw's Codex Vindobonensis 8615, now in Vienna's Austrian National Library.

M. And, *Istanbul in the Sixteenth Century* (Istanbul: Akbank, 1994), p. 243.

انظر:

(٢٠) *Islam: From the Prophet Mohammed to the Capture of Constantinople*, vol. 2: *Religion and Society*, edited and translated by Bernard Lewis (New York and Oxford: Oxford University Press, 1987), pp. 157-165.

الرسم الرقم (٣٦ - ٤)
نساء يتقدمن إلى حمام عام



المصدر: من جوهانز لوينكلاوز، مخطوطات فيندوبوننسيس ٨٦١٥، المكتبة الوطنية في فيينا.

وكانت الإدارة المدنية والنخبة الحاكمة غالباً ما تتدخلان ليس فقط لحظر الأماكن على المرأة، بل أيضاً لتخصيص أماكن معينة لهنّ لكي يتمكنّ من دخول الأسواق والحمامات والحصول على الخدمات الاجتماعية الأخرى المتّاحة في المدينة. كذلك بنى الحكّام بعض المساجد على غرار مسجد غولفام [ألفت] خاتون في أسكودار لمنح المرأة

مكاناً للصلاة^(٢١). وكان للحمام المزدوج الكبير الذي بته الزوجة المفضلة لدى السلطان العثماني سليمان الكبير، حُرّم سلطان (روكسيلانا)، على أرض ميدان سباق الخيل البيزنطي القديم، أقسامٌ مخصصة للرجال وأخرى للنساء (انظر الرسم الرقم ٣٦-٥).

الرسم الرقم (٣٦-٥)

حمام مزدوج، للرجال والنساء، شيدته زوجة سليمان، خاسكي حرم، وجدت في أسس سباق خيل بيزنطي في إسطنبول، منظر من جهة الغرب



المصدر: من معهد الآثار الألماني في إسطنبول.

بالطبع، كانت هناك حمامات أخرى كثيرة في إسطنبول، وإذا كانت تتألف من صالة واحدة، كانت المرأة تقصد الحمام في أيام وأوقات معينة دون أخرى، بحيث لا تلتقي بالرجال. أما مؤرّخ القرن السابع عشر، أوليا جلبي، فذكر أن نساء المدينة كنّ يقصدن حمام النساء في حال أردن المشاركة في هذا النشاط^(٢٢).

وعلى الرغم من أنّ التغاضي عن هذه العادة لم يكن شائعاً، فقد كانت النساء من غير أفراد النخبة الحاكمة يقصدن أسواق إسطنبول تماماً كأسلافهن البيزنطيات^(٢٣) (صورة مصغرة عن النساء في التاريخ الإسلامي). وكما تشير إيفون

L. Peirce, *The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire* (New York; (Y) Oxford: Oxford University Press, 1993), p. 201.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٢، و. Thys-Senocak, «Space: Architecture, The Ottoman Empire,» p. 517.

Ankeli E. Laiou, «Women in the Marketplace: انظر: حول النساء في السوق التجاري البيزنطي، انظر: of Constantinople (10-14 Centuries),» in: Nerva Necipoglu, ed., *Byzantine Constantinople: Monuments, Topography and Everyday Life* (Leiden: Brill, 2001), pp. 261-273.

سنغ، في دراستها حول سجلات محكمة إسطنبول في القرن السادس عشر «... بالنسبة إلى النساء من ذوات المكانة الاجتماعية الاقتصادية الدنيا كافة، المسلمات وغير المسلمات، كان الخروج إلى الأمكنة العامة أمراً لا مفر منه. وكان الخروج إلى الشارع يعني أكثر من مجرد حركة على طريق الجامع أو الحمام العام؛ فقد كان دخول الأسواق أمراً لا بد منه، وبخاصة في غياب الخدم أو الذكور الذين في وسعهم القيام بهذه الوظيفة»^(٢٤).

وعلى الرغم من أن أغلبية البائعين في الأسواق المدنية الكبيرة كانوا من الرجال، فقد كان مسموحاً للنساء شراء وبيع السلع، كالأصواف والأشرطة وغيرها، في أسواق الأحياء المدنية طالما أنهن لا ينافسن بقية التجار، ولا يتهكن القوانين (انظر الرسم الرقم (٣٦-٦))^(٢٥).

وقد حاول مسؤولو المدن العثمانية إقامة سوق خاصة هي بازار أورات (النساء)، حيث تستطيع النساء الشريفات شراء حاجاتهن من دون القلق على سلامتهن وشرفهن أو منافسة سائر التجار. وتقع هذه السوق بالقرب من المسجد الذي أمرت زوجة السلطان خاسكي ببنائه في إسطنبول. وكانت تلك السوق، بحسب رواية جون ساندرسون، وهو مسافر إنكليزي من القرن السادس عشر، سوقاً نسائية حيث تأتي النساء لبيع صناعاتهن ومنتجاتهن^(٢٦).

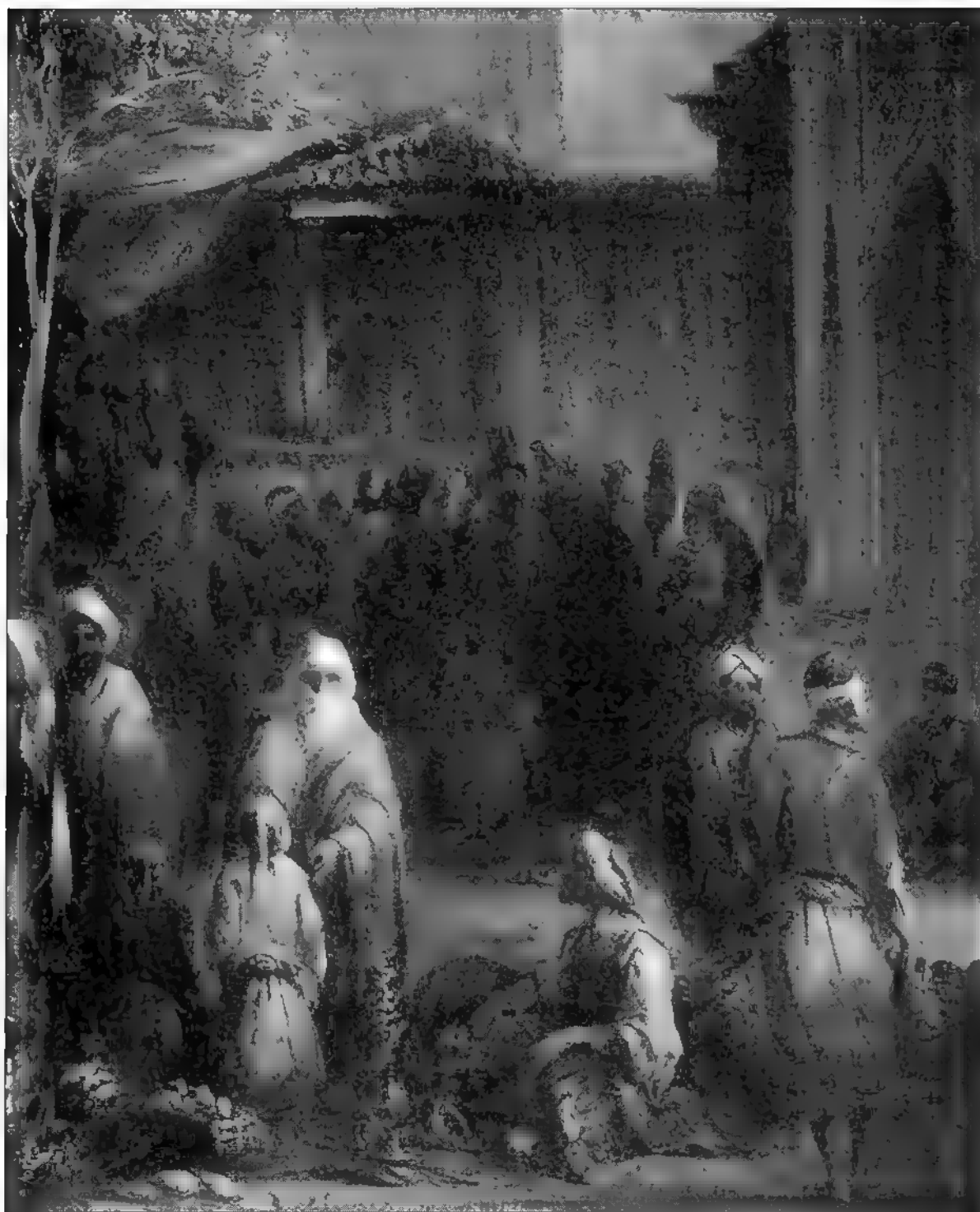
منذ العصور القديمة، كانت المرأة تخرج من بيتها لممارسة طقوس الدفن وتنظيم أنشطة السهر على جثة الميت، والاحتفال بالأعراس، والعمل كقابلات في توليد النساء، وإنشاد آخر أغنية للميت. في تلك الحقب، كانت الأماكن المدنية التي يأهلها الذكور عادةً ويسيطرون عليها، تخضع لإعادة تخصيص للجنس الآخر بشكل مؤقت، لتصبح مقاماً تقليدياً تمارس فيها النساء واجباتهن التقليدية (انظر الرسم الرقم (٣٦-٧)).

Y. Seng, «Invisible Women: Residents of Early Sixteenth Century Istanbul,» in: Gavin (٢٤) Hambly, ed., *Women in the Medieval Islamic World* (New York: Saint Martin's Press, 1998), p. 243.

Necipoglu-Kafadar, *Architecture, Ceremonial and Power*, p. 193. (٢٥)

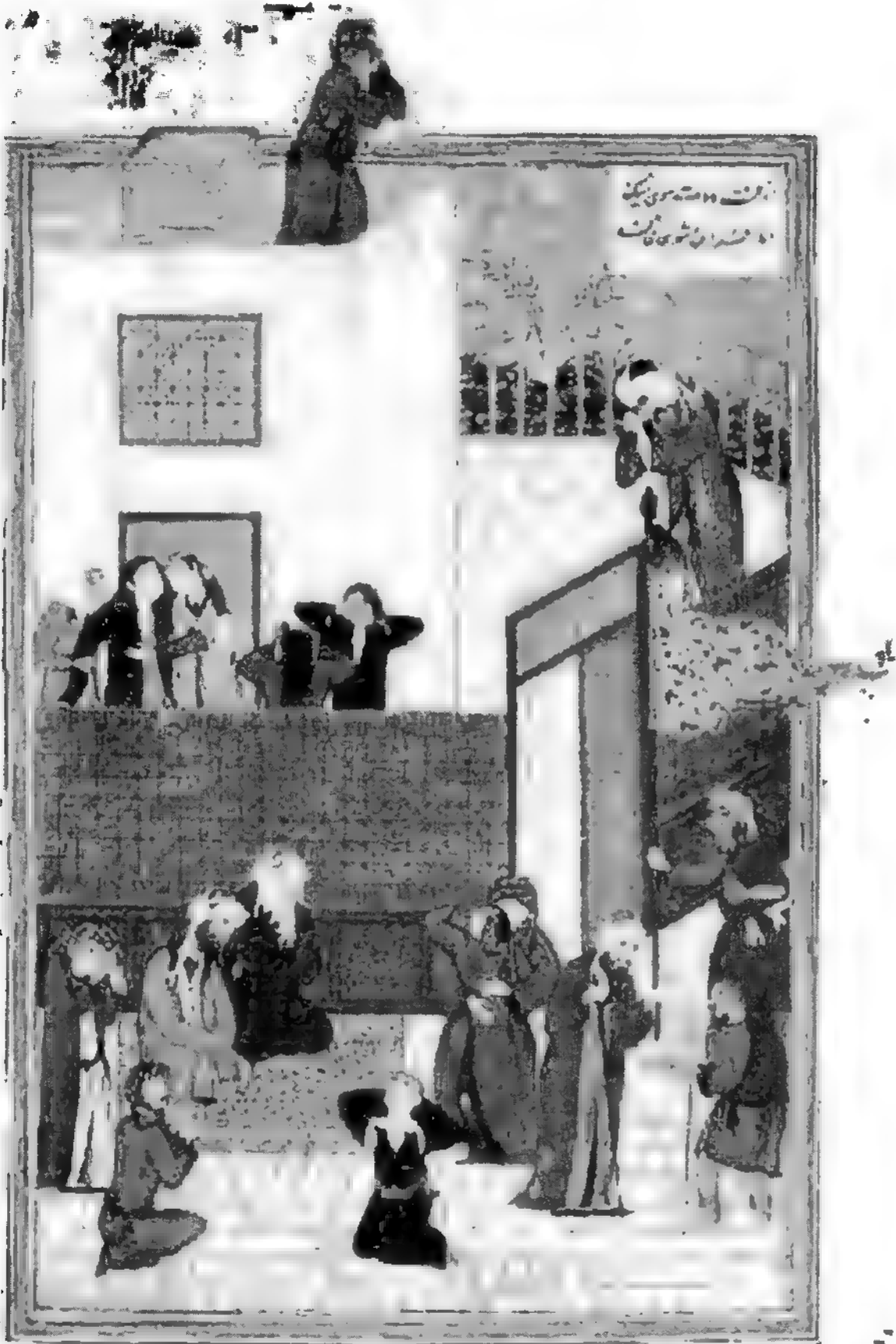
John Sanderson, *The Travels of John Sanderson in the Levant, 1584-1602*, edited by Sir W. (٢٦) Foster, *Hanklutty Series no. 67, 2nd series* (London: [n. pb.], 1931), p. 77, and Thys-Senocak, «Space: Architecture, The Ottoman Empire,» p. 517.

الرسم الرقم (٣٦ - ٦)
إتيان رافورت، «سبيل ماء طوفان» ١٨٤٩



صورة مرسومة بالزيت على الكانفا.
كان مشهد النساء في العادة، وبخاصة من غير النخب، عادياً في أسواق إسطنبول.
المصدر: مجموعة أمين رندا، إسطنبول.

الرسم الرقم (٣٦ - ٧)
النساء يتحجن، كما يجب أن يكون الأمر، مع الرجال في «نظام الخامس»
في طقوس التفجع على موت مجنون ليلى



وفي عددٍ من مدن العالم الإسلامي، كانت المرأة تقصد المدافن والمعابد، ومن خلال زيارتها تجعل الأماكن والنصب التذكارية المجاورة مكاناً نسائياً بحثاً تقصده المرأة للصلاة، طالبةً إنجاب طفلٍ معافى، مثلاً، أو الحصول على زوجٍ مناسب.

وهكذا، كانت مقابر بنات «خوجة معين الدين جشتي» وحفידاته في مدينة أجمير في الهند تضمّ جزءاً للعبادة مخصّصاً للنساء. وكان مسجد بيغم الذي بنته جهان آرا بيغمي صاحب، ابنة الإمبراطور المغولي شاه جهان، محطةً مهمةً على طريق حجّ النساء المسلمات في الهند^(٢٧).

وحتى أيامنا هذه، ما زالت بعض المساجد في إسطنبول، على غرار ضريح تلي بابا، يستقبل زواراً من النساء في أغليبتهم، يأتين طلباً لحياة زوجية مديدة، ولكثير من الأولاد الذكور (انظر الرسم الرقم (٣٦-٨)).

الرسم الرقم (٣٦-٨)

ضريح تلي بابا على الشاطئ الأوروبي من البوسفور في إسطنبول هو مكان تقليدي للزيارة والحج للنساء يصلين فيه من أجل زواج سعيد وأطفال في المستقبل



Gregory Kozlowski, «Private Lives and Public Peity: Women and the Practice of Islam in (٢٧) Muslim India,» in: Hambly, ed., *Women in the Medieval Islamic World*, pp. 469-488.

ومن الأماكن المدنية الأخرى التي كانت مخصصةً لجنس واحد في العالم الإسلامي، نذكر محكمة القاضي. والأمر الذي لا شك فيه أن الصورة المؤثرة لابن بطوطة وهو يدافع عن نساء الموالي نصف العاريات في مالي، كانت استثناءً لا قاعدة في ما يتعلق بجنس (ولباس) الحضور في المحكمة. إلا أن محكمة القاضي كانت مكاناً تُطبق فيه الشريعة وعدالة السلطان.

وبالتالي، يمكن القول إن الرجال إجمالاً في العالم العثماني كانوا يقصدون المحاكم، وكذلك النساء، إنما بصورة أقل. وخلال العقود الثلاثة المنصرمة، جرت أبحاث مكثفة تناولت موضوع استخدام المرأة العثمانية للمحاكم، والوجود الذي فرضته على محيطها عندما كانت تجازف لتدافع عن حقوقها الشرعية. وبخلاف الفرضيات الأولية السابقة التي زعمت أن النساء اللواتي يطلبن العدل كن يمنحن يوماً خاصاً بهن في محكمة القاضي، لم يتبين أنه كان هناك أي يوم مخصص للنساء تقصد فيه المرأة المحكمة لرفع دعوى ضد جارها مثلاً أو لتحل نزاعاً مع زوجها^(٢٨)، بل تشير الأدلة إلى أن النساء والرجال على حد سواء، كانوا يمثلون شخصياً أمام المحكمة، وغالباً ما يرافقهم شهود من النساء، ويعرضون قضيتهم على المحكمة^(٢٩).

بالتأكيد، كانت معظم القضايا التي استمع إليها القاضي مُحالةً عليه من الرجال أو من محامين ذكور يمثلون النساء، ولكن من المهم أن نلاحظ أن هذا المكان الذي لطالما ظنناه خاضعاً لهيمنة الذكور وحدهم، كان أيضاً متاحاً للرجال والنساء، خلال الفترة الحديثة الأولى من العهد العثماني على الأقل (انظر الرسم الرقم (٣٦ - ٩)).

إضافة إلى المثل أمام المحكمة، ساهمت المرأة في طبع الأماكن الحضرية للمدينة الإسلامية من خلال كم لا بأس به من الأعمال التجارية التي كانت تقوم بها هناك، وأيضاً من خلال المشاريع العمرانية التي أسستها. ومن خلال أبحاثها الشاملة وسجلات المحكمة التي خلفتها في القرن السادس عشر نساء مدينة أسكودار، إحدى مقاطعات إسطنبول، تقول سنغ عن حق: «خلف الجدران التي سرقت من المرأة مكانتها، وخلف جدران البيوت التقليدية في القرى والمدن العثمانية، كانت المرأة ناشطة في ميادين

R. Jennings, «Women in Early Seventeenth Century Ottoman Judicial Records: The Sharia Court of Anatolian Kayseri», *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 18 (1975), pp. 53-114.

حول تجربة ابن بطوطة في مالي، انظر: <<http://www.fordham.edu/halsall/source/1354-ibnbattuta.htm>>.

Jennings, «Women in Early Seventeenth Century Ottoman Judicial Records: The Sharia Court of Anatolian Kayseri», p. 59.

اجتماعية واقتصادية تخصّ محيطها. وما لا يعرفه المراقبون الأوروبيون هو أنّ معظم النساء كنّ في الواقع يملكنّ تلك الجدران والأراضي الواقعة ضمنها، وكنّ على طريق شراء أراضٍ أخرى وبيعها. صحيحٌ أنّ الحجاب واللباس المحتشم كانا يحميان المرأة من أي اهتمام ذكوري غير مرغوب فيه، إلا أنّ هذا الأمر لم يمنع المرأة المتخفية وراء الحجاب من المشاركة في صفقات كبيرة لتقديم القروض أو الاستثمار في شركات تجارية مع رجال لا تربطها بهم قرابة ولا دين. باختصار، كان المسجد والحمام مجرد جزأين من نظام حياتها الاجتماعية والاقتصادية».

الرسم الرقم (٣٦ - ٩)

سجلات البلاط تشهد أن النساء في السلطنة العثمانية وفي بدايات الحقبة الحديثة كن يتقدمن مباشرة بظلاماتهن إلى القاضي والرسميين الآخرين في السلطنة



التفاصيل من مصغر هاترنم يعود إلى العام ١٥٨٨.
المصدر: أرشيف متحف قصر توبكاي، ١٥٢٤هـ.

ثالثاً: الهندسة المعمارية والمدينة المقسّمة بحسب الجنس

كانت الهندسة المعمارية أداة أخرى جعلت المرأة من خلالها تحدّد مجرى الحياة في المدينة الإسلامية، وأن تقسّم الجغرافيات المدنية بحسب الجنس. وعلى عكس الاعتقاد السائد بأن المرأة في الإمبراطوريات الإسلامية كانت مجردة من أية سلطة بسبب الممارسات الثقافية التي أعاقَت تنقلها ووجودها جسدياً في الدائرة العامة ومنعتها من الظهور علناً، أظهرت دراساتٌ حديثةٌ أنّ عدداً من النساء الملكيات في البلاط الإسلامي أخذن على عاتقهنّ مشاريع معمارية طموحة، وساهمن بشكلٍ فاعلٍ في الطقوس كوسيلة لتمثيل أنفسهنّ وإثبات وجودهنّ بين سائر فئات الشعب، ولترك بصماتهنّ في بيئتهنّ المدنية المحيطة^(٣٠).

وهناك تراث غنيّ من النساء اللواتي طبعنّ العمارة الإسلامية، وأنجزنّ مشاريع معمارية هائلة، بدءاً بنساء البلاط الإسلامي الملكي في أيامه الأولى، ومنهنّ زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد، وصولاً إلى النساء العثمانيات في أوائل فترة الحداثة، أمثال خُرّم ومُخرِمة وطرخان سلطنة. ودفعت التغيّرات الحاصلة في أوجه السياسات العثمانية في ما يخصّ الخلافة في منتصف القرن السادس عشر بنساء البلاط الملكي، ولا سيّما والِدات الأمراء العثمانيين، إلى الاقتراب أكثر فأكثر من أوساط السلطنة في إسطنبول. وفي عملية يسمّيها بيرس «نزوح السلطنة»، «كانت العائلة المالكة تنزح تدريجاً من المقاطعات لتستقرّ في البلاط الملكي في العاصمة إسطنبول»^(٣١).

وكان لهذا التغير في مكان وجود أفراد العائلة المالكة تأثيرٌ في المرحلة التي استطاعت نساء العائلة المالكة خلالها أن تمهّد الطريق لسلطتهنّ. وقبل منتصف القرن السادس عشر، كانت أبرز المشاريع المعمارية التي بنتها نساء العائلة المالكة العثمانية تُنفَّذ في المراكز الحضرية خارج العاصمة إسطنبول. وكانت أمهات ورثة عرش السلطنة، ومن خلال تأدية دور الحارسات والمستشارات لأبنائهنّ، تتولّى إدارة معظم أعمال قصور المقاطعات التابعة للأمير في مختلف مناطق الإمبراطورية. وفي الأسر الملكية في المقاطعات، غالباً ما كانت والدّة الأمير، بصفتها الأكبر سنّاً في البلاط، تؤدي دور مديرة الشؤون المعمارية. ولكن مع بدء النزوح التدريجي لمساكن الأمراء نحو

Hambly, ed., *Women in the Medieval Islamic World*; Fatma Mernissi, *The Forgotten Queens of Islam*, translated by J. Lakeland (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1993), and Thys-Senocak, «Space: Architecture, The Ottoman Empire».

Leslie Peirce, «Shifting Boundaries: Images of Ottoman Royal Women in the Sixteenth and Seventeenth Centuries», *Critical Matrix*, vol. 4, no. 61 (Fall-Winter 1988), p. 47.

إسطنبول، كان ردّ نساء العائلة المالكة في تركيز جهودهنّ في مجال البناء في العاصمة أكثر من المقاطعات. وباستثناء مسجد السلطان أحمد الذي تم بناؤه في النصف الأول من القرن السابع عشر، كانت معظم المساجد في العاصمة إسطنبول منذ منتصف القرن السادس عشر وحتى القرن السابع عشر، وكذلك محيطها، بطلب من نساء البلاط العثماني وإشرافهن، مثل زوجات السلاطين العثمانيين وبناتهن وأمهاتهن^(٣٢).

كان بعض نساء العائلة المالكة النافذات هؤلاء من اللواتي أُنسِنَ لمشاريع بناء ضخمة لم تترك أثرها في الأماكن المدنية التي كانت موجودة فيها فحسب، بل ساهمن من خلالها أيضاً في تخصيص بعض تلك الأمكنة للنساء دون الرجال. ومن خلال اللافئات والتعليمات الدقيقة، كان هؤلاء النساء يلفتنّ انتباه الرجال الذين يدخلون تلك الأماكن إلى أنهم مسؤولون عن تلك الأبنية الضخمة التي تُعدّ أفعال خير.

وفي العالم العثماني، لم تكن المعايير الاجتماعية والثقافية تسمح بظهور علني أكبر لنساء العائلة المالكة؛ من هنا، جاء التركيز على العمارة لتحلّ محل وجود المرأة الملكية العثمانية. وأصبحت الهندسة المعمارية والطقوس المحيطة بها بالنسبة إلى النساء العثمانيات اللواتي ساهمن في حركة العمارة، رمزاً لتقواهنّ وسلطتهنّ ووجودهنّ الفعلي في الإمبراطورية. وكان مجمع مسجد يني جامع في إمينونو في إسطنبول الذي شيّده طرخان سلطنة في القلب التجاري للإمبراطورية العثمانية أحد تلك المعالم^(٣٣).

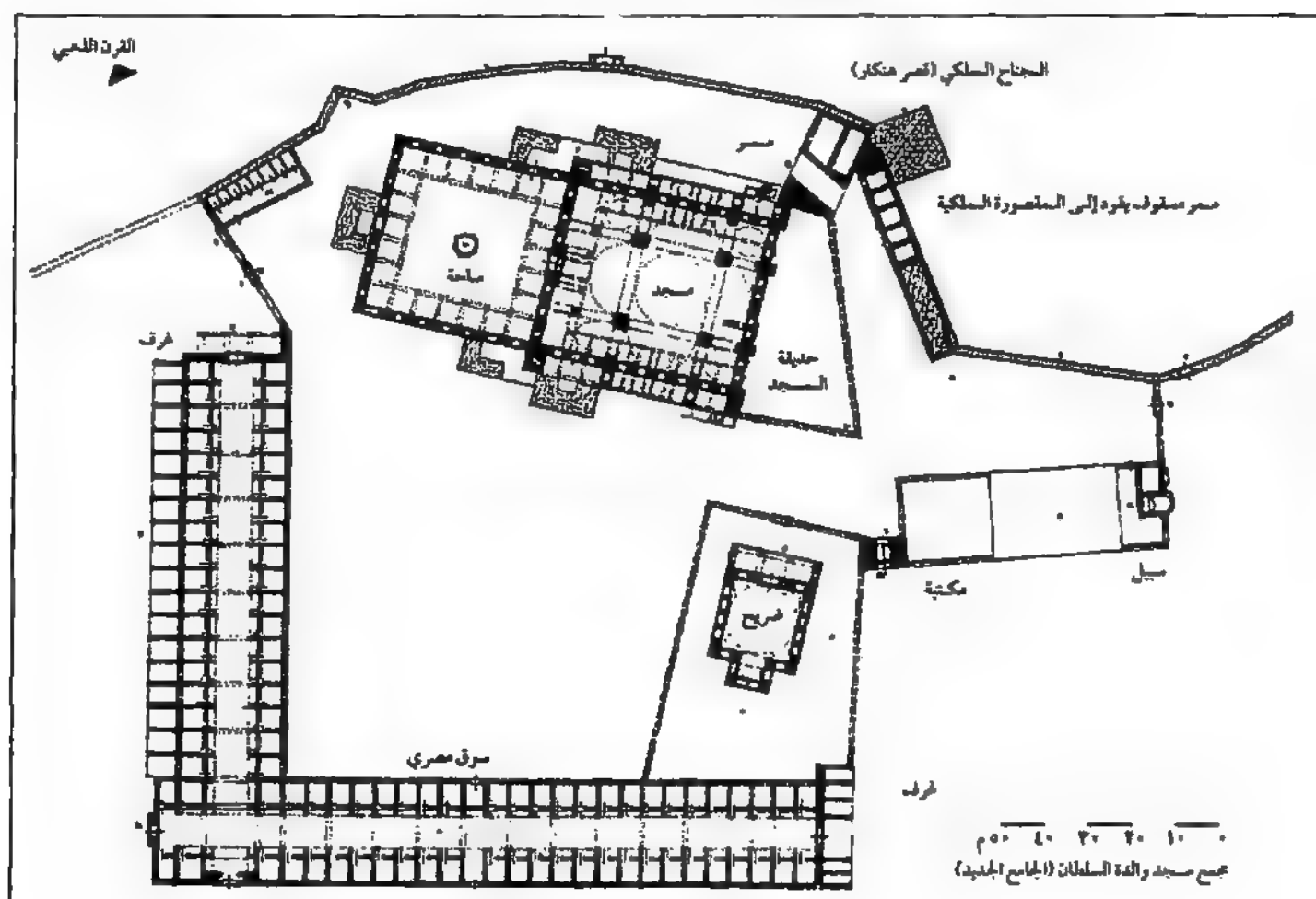
رابعاً: خديجة طرخان سلطنة ومجمع مسجد يني جامع والجناح الملكي: أماكن مخصصة لجنس واحد

كان قصر هُنْكار، الجناح الملكي العالي، يقع في مكان مميز من مجمع مسجد يني جامع، ويتصل بالجدار الشرقي للجامع. وحدها فتحة معيّنة قليلة كانت تحظى بإمكان تأمل المنظر الجميل الذي يطل عليه الجناح، كوالدة السلطان التي كانت تستطيع دخول تلك الغرف الملكية الخاصة (انظر الرسم الرقم ٣٦ - ١٠).

(٣٢) وفق حساب أحد الكتاب أنه في منتصف القرن السادس عشر كان نحو ٣٧ في المئة من كلّ مؤسسات إسطنبول تملكها نساء. انظر: Gabriel Baer, «Women and Waqf: An Analysis of the Istanbul Tahrir of 1546», *Asian and African Studies*, vol. 17, nos. 1-3 (1983), p. 10.

(٣٣) من أجل تحليل تفصيلي لهذا الموضوع ورعاية طرخان سلطنة، انظر: Thys-Senocak, «Space: Architecture, The Ottoman Empire», chapter 5.

الرسم الرقم (٣٦ - ١٠)
مخطط مجمع مسجد يتي جامع في أمينونو، إسطنبول



وقد صُمِّمَ الجناح الملكي ليكون مركزاً لمراقبة الأماكن التي يُطلُّ عليها، وكان يسمح لوالدة السلطان بمراقبة ما يجري حول المجمع، إذ كانت بسبب الجندر ممنوعةً من التواجد في عدة أماكن من مجمّعها. كذلك، كان يمكن رؤية حركة العمل في أرصفة الجمارك في إمينونو من ناحية الجناح الملكي المواجهة للقرن الذهبي. ولعل أهمية المنظر المتاح من الجناح الملكي تكمن في بُعد الملحمي. ففي منطقة قبة الجناح يرد بيت شعر للشاعر العاصمي يقول البيت الأول منه إنّ «الجناح الملكي هو مكان مميز للنظر والتأمل»^(٣٤).

وكما يشير إليه رسم المجمع الرقم (٣٦ - ١١)، تلتقي خطوط الرؤية من الجناح الملكي مع عدة أماكن وأنشطة استراتيجية، وهي: المدخل الجنوبي الجمعي للمسجد (k)، والمدخل الخاص للإمام (o)، حيث كانت الشربات تُقدَّم للمصلين بعد وقت الصلاة.

وكان يمكن رؤية هذه الأماكن كلّها من ناحية الجناح الملكي المقابلة لمياه القرن الذهبي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أي نشاط تجاري أو عسكري كان يدور عند مدخل الميناء وفي مركز جمارك إمينونو (q) ومن ناحية القصر، يمكن أيضاً رؤية عدة مواقع مهمة مجاورة لمدخل المجمع، منها: المدخل إلى القبر الضخم الذي بنته طرخان سلطنة لنفسها (f)، والبوابة الشرقية المؤدية إلى السوق المزدهمة (i)، والمدخل المؤدي إلى المدرسة الابتدائية، وربما إلى مدرسة تعلّم الحديث الشريف (j)^(٣٥).

أما النافورة الكبيرة في أقصى الناحية الشرقية من المجمع (g)، فهي الوحيدة التي لم يكن ممكناً رؤيتها من داخل الجناح الملكي، بل من الحديقة الخاصة الواقعة خلف شرفات برج فاسيليوس، حيث يقع الجناح (c).

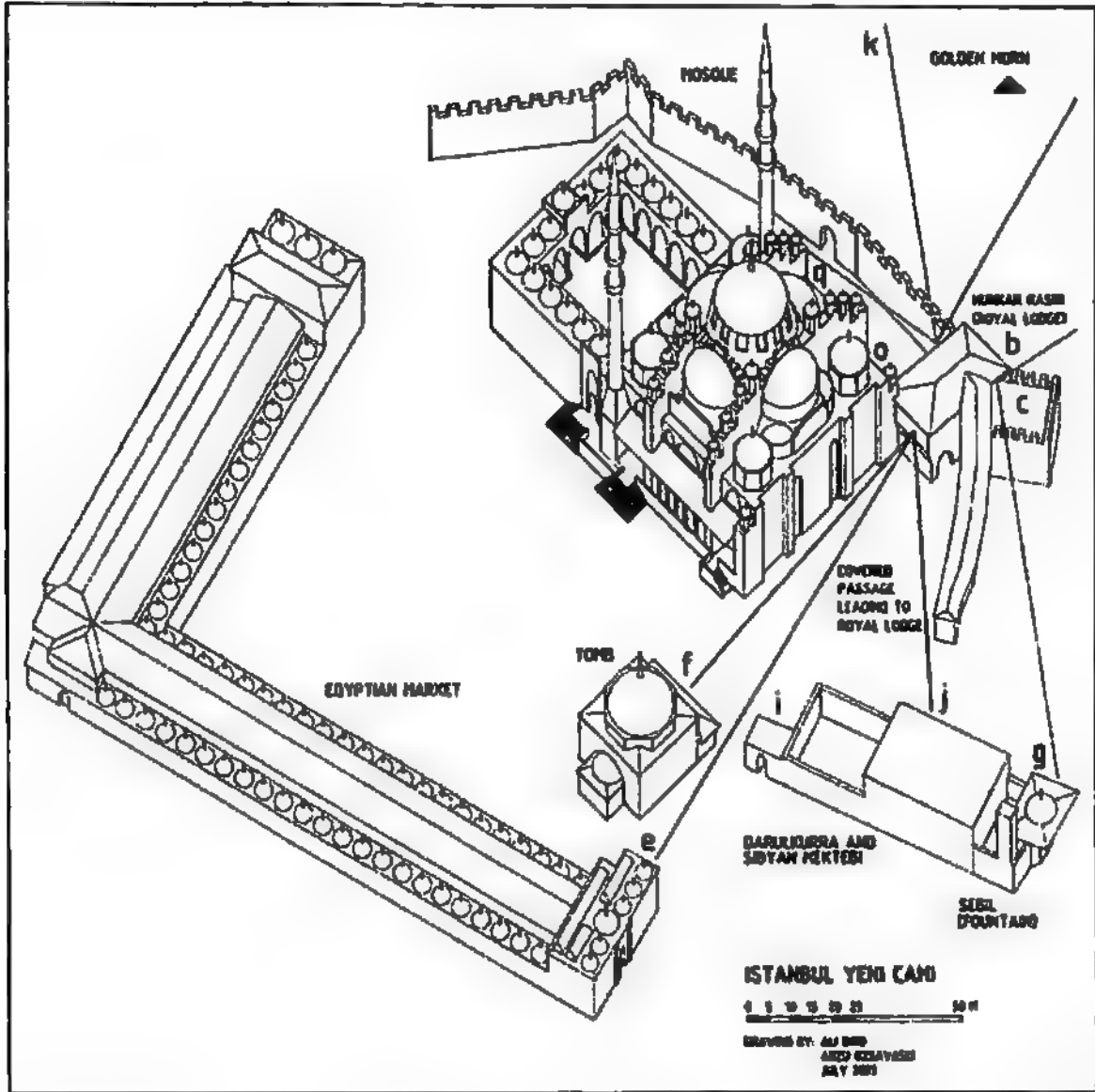
وعلى ذلك، فإنّ تصميم مجمع مسجد يني جامع لم يكن من باب المصادفة أو كما يعتقد بعض الباحثين «مجموعةً تنظمت عشوائياً»، بل كان منظماً بطريقة تسمح لوالدة السلطان بالنظر إلى أماكن المجمع كافة، حيث كان يُمنع وجودها عليها.

(٣٤) لبحث هذا البرنامج الإيوغرافي لمجمع مسجد يني جامع، انظر: L. Thys-Senocak, «The Yeni Valide Mosque Complex of Eminonu,» *Maqarnas*, vol. 15 (1998), pp. 58-70; L. Thys-Senocak: «The Yeni Valide Mosque Complex of Eminonu, Istanbul (1597-1665): Gender and Vision in Ottoman Architecture,» in: D. Fairchild Ruggles, ed., *Women, Patronage and self Representation in Islamic Societies* (Albany: SUNY, 2006), pp. 69-90, and Thys-Senocak, *Ottoman Women Builders: The Architectural Patronage of Hadice Turhan Sultan*, chap. 5, pp. 220-230.

(٣٥) المدرسة الأساسية ومدرسة الحديث لم تعودا موجودتين، وحل محلّ إنشاءهما مصرف وشارع.

الرسم الرقم (٣٦-١١)

مخطط مجمع مسجد يني جامع، يظهر الأجزاء المختلفة لمؤسسة طرخان سلطنة التي كان بها ممر للسيدة إلى المقصورة الملكية



وهكذا، بدل أن يجري اعتبار تصميم المجمع تدهوراً في مبادئ التخطيط المعماري العثماني في حقبة ما بعد سنان، كما يرى بعض مؤرخي العمارة، فإن تصميم مجمع مسجد يني جامع، المتمحور حول نقطة «القصر»، يمثل إبداعاً معمارياً يستجيب للمكانة المتغيرة للنساء العثمانيات الأميرات، وبخاصة والدة السلطان، خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر.

وكانت إطلالة الجناح الملكي بمنزلة برج مراقبة، أتاحت للسلطان العثماني مراقبة أتباعه وهو مختبئ خلف فجوات نوافذ قاعة المجلس العام، أي ديوان همايون،

في قصر توبكابي^(٣٦). ومنذ النصف الثاني من فترة حكم السلطان محمد الثاني، بدأ بروتوكول البلاط العثماني يُبعد السلطان أكثر فأكثر من أنظار العامة، وتدريباً، فأصبح السلطان شخصيةً بعيدة المنال وكلّية الحضور في الوقت عينه. وقد استمرّ العمل بتقليد عزل السلطان بدرجاتٍ مختلفة حتى القرن الثامن عشر، حين تمّ التوقّف عن العمل بالبروتوكولات التي تفرض العزل الجسدي للسلطان وإبعاده عن الأنظار^(٣٧). وأصبح بمقدور أفراد البلاط العثماني، ذكوراً وإناثاً، أن يمارسوا السلطة على مختلف أنواع الأماكن، مستفيدين من تقسيم الأماكن في مشاريع العمارة، وممارسين امتياز المراقبة الملكية الذي كان يطبّق في تصميم الأبنية العثمانية وهندستها، بدءاً بأجنحة الحريم الأكثر عزلةً في قصر توبكابي، وصولاً إلى مجمع مسجد يني جامع الذي بنته طرخان سلطنة في إمينونو^(٣٨).

وكان امتياز المراقبة الملكية يُعدّ عنصراً مهماً في العمارة النهضة الإيطالية. وقد تمّ اكتشاف أهمية عنصر المراقبة الملكية ودينامياته المعقدة مؤخراً كعنصرٍ مهم في كيفية ممارسة منقّذي الهندسة المعمارية الإسلاميين لسلطتهم ونفوذهم على الأماكن الحضرية، وكيفية تخصيصها لجنس دون الآخر^(٣٩). وكما يكتب هيل، فإن «الهندسة المعمارية هي نظام ملموسٌ للتصنيف يعمل باستمرار على زرع وتعزيز المبادئ التصنيفية الكامنة وراء كلّ الشروط التعسّفية لثقافة ما. وهذا ما يبرز جلياً في الممارسة المعمارية الأولى لمرحلة الحداثة، في تركيزها على التراتبية الاجتماعية للأمكنة، من حيث الأصول وطقوس المواكب الملكية، واستعمال المشاهد والأبواب الداخلية

(٣٦) من أجل تقييم مقارن لدور النظر، انظر: Gurlu Necipoglu-Kafadar, «Framing The Gaze in Ottoman, Safavid and Mughal Palaces,» *Ars Orientalis*, vol. 23 (1993), pp. 303-342.

(٣٧) من أجل التعليق على الصورة المتبدلة للحاكم العثماني والمقارنة بالملاحظات الفرنسية والثمانية المعاصرة حول الملكية. انظر: المصدر نفسه، ص ٣٠٦، الملاحظة ١٨.

(٣٨) Thys-Senocak: «The Yeni Valide Mosque Complex of Eminonu, Istanbul (1597-1665): Gender and Vision in Ottoman Architecture,» pp. 6-90.

(٣٩) لعمل مفيد وبيلوغرافيا دور النظر في العمارة والتخطيط المدني لبواكير النهضة، انظر: Marvin Trachtenberg, *Dominion of the Eye: Urbanism, Art and Power in Early Modern Florence* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1997).

لعمل آخر حول مسألة «النظر» الملكي في قصر توبكابي العثماني، كما في أمكنة ملكية أخرى في بواكير العالم الإسلامي، انظر: Gurlu Necipoglu-Kafadar, «Framing the Gaze in Ottoman, Safavid and Mughal Palaces,» *Ars Orientalis*, vol. 23 (1993), pp. 303-304; D. F. Ruggles, «The Eye of the Sovereignty Poetry and Vision in the Alhambra's Lindaraja Mirador,» *Gesta*, vol. 36 (1997), pp. 180-189, and D. F. Ruggles, *Gardens, Landscapes and Vision in the Palaces of Islamic Spain* (University Park: Penn State Press, 2000).

المتسلسلة للإيحاء بالمسافة التي تتيحها السلطة^(٤٠). وجرت العادة في الهندسة المعمارية العثمانية على تصميم الأماكن بطريقة تمنح رئيس العائلة المالكة إمكان النظر إلى عدة أماكن ومراقبتها. وكانت الرغبة في تخصيص مثل هذا المكان، حيث الرؤية والمراقبة، هي أحد العوامل الأساسية في تصميم مجمع مسجد طرخان سلطنة في إمينونو. وكانت الأماكن التي يطل عليها الجناح الملكي توحى بأن نساء العائلة المالكة، لدى تنفيذ المشاريع المعمارية، لم يكتفين بطريقة التصميم التي اعتمدها الذكور فحسب، بل كنَّ أيضاً يضاهين الرجال في الاهتمام بامتياز المراقبة الملكية. وأكثر من ذلك، فقد لجأن إليها للحصول على إمكان النظر إلى الأماكن التي يُحظر وجودهنَّ فيها.

بدءاً من القرنين السادس عشر والسابع عشر، بدأت نساء العائلة المالكة، وبالتدريج، يملأن الفراغ البصري والطقسي الذي خلفه السلطان العثماني، وأصبح وجودهنَّ ملموساً من خلال مشاريع العمارة التي باتت تتركز في وسط الإمبراطورية بفضل مشاركتهنَّ الواضحة، وإن محجَّبات، في المواكب والحفلات الملكية التي يقدمها البلاط العثماني. ويفيد المسافرون الأوروبيون أنَّ الجولات الملكية التي شاركت فيها النساء كانت ضخمة بالفعل. فكان موكب طرخان سلطنة في عام ١٦٦٨ يتألف من أكثر من ألف شخص من أفراد البلاط العثماني. وضمن حاشيتها الملكية، كان هناك مئة فرد من الفرسان العثمانيين بملابسهم الفخمة، إضافةً إلى مئات الجنائين، ومتحدِّرين من سلالة النبي محمد (ﷺ)، والعديد من الإنكشاريين. وكانت عربة والدة السلطان محاطة بالمخصيين السود الذين كانوا يبعدونها عن أنظار العامة، ولكن كانوا في الوقت عينه يجذبون الاهتمام إليها كعنصر أساسي في الموكب الذي كان يستمرَّ عبوره ثلاث ساعات. وعلى الرغم من أن السلطنة لم تكن على مرأى من الناظرين، إلا أنَّ وجودها كان باهراً فعلاً. ومن وراء ستائر نافذة عربتها، كانت تراقب الحشود المبتهجة، وتمنحها فرصة أن تكون في حضرته الملكية لمدة ثلاث ساعات^(٤١).

Helen Hills, ed., *Architecture and Gender politics in early Modern Europe* (Aldershot: Ashgate Press, 2002).

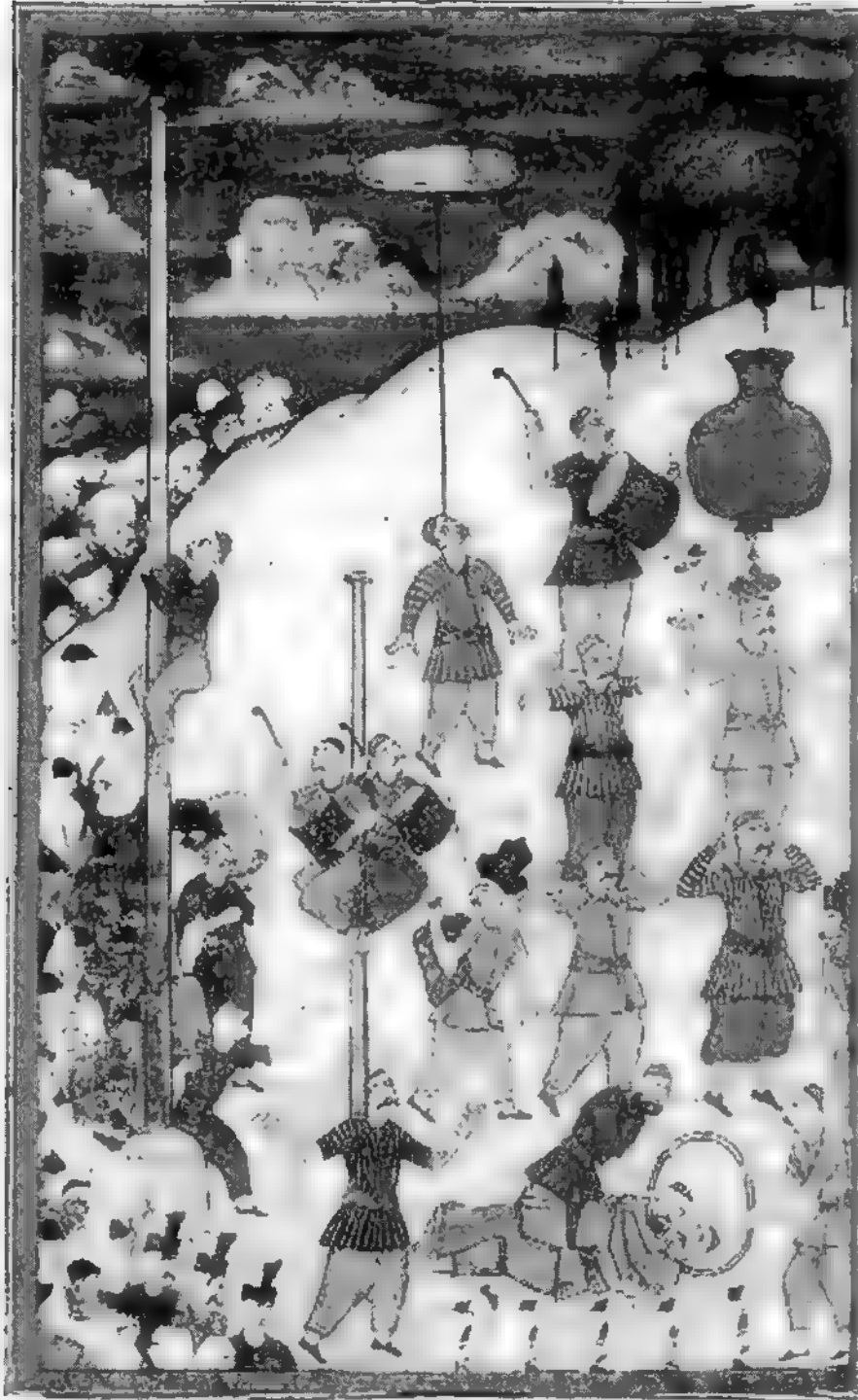
(٤١) في وصف مراقب أوروبي لهذا الموكب، انظر: J. B. Tavernier, *Nouvelle Relation de l'intérieur de : serrail de grande seigneur continent plusieurs singularitez jusqu'icy n'ont pas été mis en lumière* (Paris: [n. pb.], 1681), pp. 158-161, and Peirce, *The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire*, p. 195.

وفي وصف موكب طرخان سلطنة إلى أدرنة في ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٦٧٢، انظر: Antoine Galland, *Istanbul'a Ait Gunluk Hatradar 1672-1673, vol. 1*, edited by C. Schfer, translated by N. S. Orik (Ankara: Turk Tarih Kurumu Basmavei, 1987).

أما بالنسبة إلى النساء اللواتي كنّ يقفن على جوانب الطريق ليتفرّجن على الموكب الكبيرة كموكب طرخان سلطنة، فغالباً ما كان المكان الذي يشغلنه موضوع جدلٍ وسبباً للبلبلّة يستدعي اتخاذ تدابير قانونية (انظر الرسم الرقم (٣٦ - ١٢)).

الرسم الرقم (٣٦ - ١٢)

غالباً ما تشاهد النساء يشاركن في المناسبات العامة، ولو على الهامش



Book of the Circumcision Festival (1720), Folio 55°.

المصدر:

وفي حالة من هذا النوع، ونتيجةً لتجمع نسائي كبير لمشاهدة وقائع زفاف ملكي في عام ١٧٥٨، كان تحذير السلطان: «إنَّ رغبة النساء في مشاهدة العروض العامة إنما هي مبالغٌ فيها... ويُمنعن من الاقتراب من المركز التجاري للمدينة والأماكن، حيث تتجمع الحشود...»^(٤٢).

ومع ذلك، تظهر صورٌ لنساءٍ عثمانيات غير ملكيات، وإن في الهامش، في كتب الاحتفالات العثمانية التي تبرز احتفالات الختان الكبيرة في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، مثل سورنامه وهي التي أظهرها لفني رسام بلاط السلطان أحمد الثالث. وعليه، فإن وجود النساء في تلك الاحتفالات لم يكن ممنوعاً بالكامل أو حالة غير طبيعية، بدليل إدخال الرسام لعدة نساء في إطار لوحته.

ومن بقايا الأرشيفين المكتوب والمادي المتوافرة لدراسة بدايات المدينة العثمانية الحديثة، يظهر لنا أن كل أفراد العالم العثماني - الجندر، والنخب، وغير النخب، والسكان المدينيين وغير المدينيين - كانوا جميعاً يدفعون باستمرار حدود الأمكنة التي خصصها المجتمع لتناسب وقيود الجندر. وقد عبّروا عن ذلك من خلال العمارة، والتجارة، والرموز، والاحتفالات، وذلك في عملية مستمرة من إعادة تعيين وجندرة الأمكنة التي كانت في الواقع أكثر ازدحاماً، وكذلك جغرافية بواكير المدينة الإسلامية الحديثة.

Necipoglu-Kafadar, «Framing the Gaze in Ottoman, Safavid and Mughul Palaces,» p. 200. (٤٢)

الفصل السابع والثلاثون

النقابات في الدراسات التاريخية الأخيرة

نبيل حنا^(١)

يُعنى هذا الفصل بالأبحاث التي أجريت على النقابات في العقدين الأخيرين، غير أنه من الأهمية بمكان أن يتم تحديد بعض الأسس التي تستند إليها تلك الأبحاث. وفي هذا ما يستدعي الرجوع إلى مطلع فترة السبعينيات، حيث كان ظهور العديد من القضايا التي تشكّل أساس الدراسات التي تجرى على المجتمعات الحضرية اليوم. ففي أوائل السبعينيات، تحوّلت دراسة النقابات من كونها دراسة للمؤسسات التي غالباً ما كانت ذات طبيعة وصفية، إلى دراستها من حيث التاريخ، في إطار الزمان والمكان، وكجزء من عملية التغيير القائمة.

في هذا الصدد، كان لأندرية ريمون دور أساسي في خلق اتجاه جديد نحو دراسة النقابات، حيث أصبح كتابه الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر^(٢) نموذجاً يُحتذى به من جانب العديد من العلماء والدارسين. قدم ريمون دراسة للنقابات في ظل علاقتها بإطارها الاجتماعي، وبالمجموعات ذات السلطة، كما أوضح العلاقة المتغيرة بين النقابات والطبقات الحاكمة. وهكذا أصبحت النقابات جزءاً من صورة كبرى تحتل العوامل الاجتماعية والاقتصادية مقدمتها.

(١) أستاذة التاريخ في الجامعة الأمريكية في القاهرة.

(٢) *Artisans et Commerçants au Caire au XVIII^{ème} siècle.*

(١)

إضافة إلى ذلك، يعتمد كتاب ريمون على العديد من المصادر، أهمها كتاب وصف مصر^(٢)، الذي يقدم صورة تفصيلية لنقابات مصر في عام ١٨٠٠، وكذلك كتاب أوليا جلبي، المفكر والرحالة التركي من القرن السابع عشر، وكتاب الذخائر، وهو نص نادر يعود تاريخه إلى القرن السابع عشر، ويبدو أن كاتبه كان أحد الحرفيين. والأكثر أهمية هو استخدامه الواسع لسجلات المحكمة في القاهرة في إعادته بناء تاريخ نقابات هذه المدينة^(٣).

تلا ذلك أن أصبحت سجلات المحكمة متاحة في العديد من المراكز الحضرية، الأمر الذي جعلها مصدراً رئيساً لدراسة النقابات في العديد من أجزاء العالم العربي والعثماني الأخرى. ومنذ ذلك الحين، استغل الدارسون والعلماء تلك السجلات في دراسة النقابات في القدس ودمشق ومدن سورية أخرى، وبورصة، ومدن البلقان، الأمر الذي يعني أن هناك الآن نطاقاً واسعاً من التجارب والخبرات، أناضولية وعربية وبلقانية، تتمتع بعمق وشمولية، ويمكن استخدامها كأساس في كتابة تاريخ النقابات.

وهكذا، فإن هذا البحث لا يقتصر على المراكز الحضرية الكبيرة أو العواصم كالقاهرة وإسطنبول؛ فكتاب آمون كوهين عن النقابات في القدس يوضح أنه يمكن القيام بدراسة شاملة حول المدن المتوسطة الحجم التي لا يزيد عدد النقابات فيها على مئة نقابة (في مقابل ١١٠٠ نقابة في إسطنبول و٢٦٠ نقابة في القاهرة)^(٤)، كما أوضح أنه حتى البلدات الأصغر مثل حماة - التي قدّر الرحالة الفرنسي فولني تعداد سكانها بنحو ٤٠٠٠ نسمة في عام ١٧٨٠ - كان فيها نقابات يمكن دراستها من خلال سجلات المحكمة^(٥).

إحدى النتائج التي أسفر عنها هذا الاتجاه هي تحول الدراسات من التركيز على محاولات فهم نقابات «الشرق الأوسط» أو النقابات «الإسلامية» بوصفها كتابات تختص بمدينة بعينها في فترة زمنية محددة. ومن ناحية أخرى، نتج من هذا الاتجاه نوع من التشتيت، حيث تضاقت الدراسات المتعمقة عن الصورة الأكبر. كما اتضح أنه

Description de l'Égypte. (٢)

Andre Raymond, *Artisans et Commerçants au Caire au XVIII^{ème} siècle*, 2 vols. (Damas: Institut français de Damas, 1973-1974). (٣)

Amnon Cohen, *The Guilds of Ottoman Jerusalem* (Leiden: Brill, 2001), p. 5. (٤)

James A. Reilly, *A Small Town in Syria, Ottoman Hama in the Eighteenth and Nineteenth Centuries* (Oxford; Bern: Peter Lang, 2002), pp. 72-73. (٥)

يمكن اجتناب التعميم الكائن في مصطلحات مثل نقابات الشرق الأوسط والنقابات الإسلامية، حيث إنها لم تشهد أي تغيير بمرور الوقت، ولم تلقِ الضوء على أهمية التنوع المحلي من منطقة إلى أخرى.

أظهرت تلك الدراسات أن هناك بعض السمات المشتركة في حياة النقابات بغض النظر عن موقعها، فوظائف كالاقتصاد بجمع الضرائب، وسمات مثل بناء النقابة الهيكلية، وقيادة شيخ النقابة؛ كلها خصائص تشترك فيها النقابات بوجه عام. غير أنه ما زال من الممكن ملاحظة بعض الاختلاف من منطقة إلى أخرى، هذا على الرغم من أن قليلاً من الأعمال قد عيّنت بتلك المقارنات. أما في ما يتعلق بوجود المرأة في تلك النقابات، فقد ذكر عبد الكريم رافق، على سبيل المثال، في دراساته المتعددة عن البلدان والمدن في بلاد الشام، أن المرأة لم تكن أبداً عضواً في أي نقابة، ولم يكن للنساء نقابات خاصة بهن، على الرغم من اشتغالهن في بعض الحرف مثل إنتاج المنسوجات وصنع الحصائر من القش^(٦).

أما السجلات الحكومية في القاهرة، فتظهر صورة مختلفة إلى حد ما، من حيث إن النساء كن أعضاء في بعض النقابات ذات الصلة بالأنشطة النسائية، كعضوات أو كرئيسات نقابات في بعض الأحيان. يتضح هذا في تعيين امرأة كرئيسة لمجموعة من الرافصات من نساء الغجر (الغجر النسوة) اللاتي كن يقدمن عروضهن في المهرجانات العامة والموائد^(٧). أغلب الظن أن هذا الاختلاف بين المنطقتين إنما يعود إلى التقاليد المحلية وتنوعها، ومن المؤكد أن دراسة مقارنة بين ممارسات تلك النقابات سوف تسفر عن نتائج غاية في الأهمية.

منذ ذلك الوقت المبكر، أثار عدد من تلك المناقشات اهتمام العلماء المنشغلين بدراسة تلك النقابات، وسوف تعتمد الصفحات التالية إلى إلقاء الضوء على بعض تلك الاتجاهات من خلال مناقشة أهم الموضوعات التي طرأت أثناء دراسة تلك النقابات، والتي أثارت اهتمام العلماء في العقدين الأخيرين؛ مثل العلاقة بين النقابة من ناحية والحكومة والاقتصاد والحياة السياسية والمحكمة والشريعة من ناحية أخرى.

Abdul-Karim Rafeq, *Mahattat fi Tarikh Bilad al-Sham* (Balamand, Lebanon: Balamand University Press, 2006), p. 164.

Court of Bab Ali 167(b), case 202 dated 1092/1681, p. 61.

(٧)

أولاً: تسلسل أحداث النقابات وتاريخها المبكر

تعود السجلات الحكومية المتاحة في بعض المناطق إلى القرن الخامس عشر، وإلى القرن السادس عشر في العديد من المناطق الأخرى. نتج من هذا أن الدراسات الأخيرة التي أجريت على النقابات تركز على الفترة من القرنين الخامس عشر والسادس عشر وحتى الثامن عشر، أو التاسع عشر في بعض الأحيان. أما العلماء ممن يعملون على الفترات السابقة على تلك الفترة، فيلجأون إلى مصادر محدودة لمساعدتهم على فهم تطور تلك المؤسسات.

أما بالنسبة إلى هؤلاء المهتمين بأية حال بدراسة التاريخ المبكر للنقابات، فإن نشأتها ظلت دائماً في بؤرة اهتمامهم. حقيقة الأمر أن الاهتمام المنصبّ حول نشأة تلك النقابات كان دائماً أكبر من الاهتمام بتطورها التاريخي. وليس هناك اتفاق يجتمع عليه العلماء في شأن كيفية ووقت نشأة تلك النقابات، نظراً إلى كثرة التخمينات المرتبطة بالموضوع، ولأن تلك التخمينات عادة ما تكون مرتبطة بمنطقة دون أخرى. لكن أحد تلك التساؤلات يدور حول ما إذا كان لهذه النقابات وجود قبل العثمانيين. وتمثل وجهة نظر إيرا لايبيدوس أحد الاتجاهات؛ فدراسته على مدينتي دمشق وحلب تحت حكم المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) تفترض أنه لم يكن للنقابات وجود في تلك الفترة، إلا أنه يذكر وجود بعض الهيئات التي عملت على تدريب العمال وتنمية مهاراتهم، وأن نوعاً من التضامن كان يسود بين أبناء أفراد مجموعات الحرفة الواحدة^(٨).

وعلى النقيض نفسه في القاهرة - تحت حكم المماليك كذلك - كان حرفيو المهنة الواحدة يتكتلون في منطقة واحدة أو بناية واحدة. وأثيرت الفكرة نفسها مؤخراً في مقالة كتبها عباس الهمداني يتعقب فيها نشأة رابطات الحرفيين في أوائل القرون الوسطى في بغداد. ففي تحليله لرسائل إخوان الصفا، عدّد الهمداني بعض الوظائف الأساسية التي كانت تقوم بها هيئات الحرفيين تلك، الأمر الذي أفضى به إلى اقتراح مسمى أشمل لكلمة «نقابة» ليشمل رابطات الحرفيين التي كثيراً ما يرد ذكرها في المصادر الأدبية الأولى^(٩).

Ira Lapidus, *Muslim Cities in the Later Middle Ages* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1967), p. 101.

Abbas Hamdani, «The Rasa'il Ikhwan al-Safa' and the Controversy about the Origin of Craft Guilds in Early Medieval Islam,» in: Nelly Hanna, *Money, Land and Trade: An Economic History of the Muslim Mediterranean* (London: IB Tauris, 2002), p. 157-173.

أما بالنسبة إلى هؤلاء القائلين إنه كان للنقابات وجود قبل العثمانيين، فهناك العديد من الافتراضات، مثل الأصول البيزنطية والسلجوقية لدارسي الأناضول. فتحليل التاريخ اليوناني - على سبيل المثال - يذكر الهيئات النقابية في اليونان بوصفها امتداداً طبيعياً للمؤسسات التي بدأت تؤدي دوراً مستقلاً أثناء فترة سقوط الحكم البيزنطي^(١٠).

ونتيجة لذلك، فإن ما لدينا اليوم من تاريخ للنقابات إنما هو مبني على أجزاء من دراسات أجريت هنا وهناك، وليس هناك من سبب يدعونا إلى افتراض أنه يمكن تعميم التاريخ نفسه على كافة المناطق، إلا أنه لا يمكن الانتهاء إلى أن الافتقار إلى مثل هذه الدراسات، أو نقص المصادر، يعني بالضرورة أنه لم يطرأ عليها أية تغيرات، أو أن النقابات كانت تتسم بالثبات في الفترة من ابن خلدون وحتى إلياس قدسي (القرن التاسع عشر)^(١١)، كما زعم أحد العلماء. وعلى الرغم من الاحتمال القائم بأن العديد من صفات الحياة النقابية تتسم ببقائها لفترات طويلة؛ كبنائها الهيكلي، وكونها مروسة بشيخ، ووظيفتها من حيث تدريب الصنّاع والحرفيين، إلا أن هناك مشكلة منهجية في افتراض غياب التغيير حتى العصر الحديث أو حتى انتشار الرأسمالية البريطانية.

وهناك اتفاق عام على أن القرن السادس عشر قد شهد تطوراً عظيماً في الدور الذي تؤديه النقابات، وأنه في العديد من مناطق العالم الإسلامي تعود أصول النقابات إلى عوامل محلية سابقة. ويغض النظر عن منشأ تلك الهيئات، من الواضح أن ازدهارها قد بدأ منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر، إلا أن الظروف التي أتاحت هذا الازدهار ما زالت تتطلب بعض البحث والدراسة. لذا، يتوجب علينا أن نولي هذا الموضوع اهتماماً خاصاً يتمثل بتتبع الإرشادات القليلة التي اتخذها العلماء، ومنها العلاقة بين ظهور النقابات واختفاء المحتسب. كانت هذه الشخصية البارزة، التي يتم انتخابها وتعيينها من بين علماء الدين، مسؤولة عن السوق الحضري. ففي مصر إبان حكم المماليك، كانت وظيفة المحتسب واحدة من أبرز الوظائف وأكثرها احتراماً، ولا يشغلها إلا أشخاص تلقوا تدريباً في مؤسسات دينية، مثل المقرئ المورخ العظيم.

وهناك عدد من «الحسابات» اليدوية التي يعود تاريخها إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، تصف تفصيلاً المهمات التي من المفترض أن يقوم بها المحتسب، مثل

Nikolai Todorov, *The Balkan City, 1400-1900* (Seattle: University of Washington Press, (١٠) 1983), p. 111.

Zoubair Ghazzal, *L'économie Politique de Damas durant le XIX^{ème} siècle: Structures traditionnelles et capitalism* (Damascus: Institut Français de Damas, 1993), pp. 129-131.

مراقبة جودة البضائع التي تباع في السوق، والتأكد من أنه لا يتم شيد البنايات على الطرق العامة؛ وهي نفسها المهمات التي أصبحت في ما بعد من مسؤوليات النقابات. أما ما استلزمه هذا التغيير فلا يزال قيد البحث والتفسير. فبالطبع يجدر بالباحث أن يبحث عن تفسير يتجاوز مجرد تغيير يطرأ على طبيعة عمل موظف حكومي.

وفقاً لعبد الكريم رافق، فإن إحدى أهم النتائج كانت التغيير الذي طرأ على الأبعاد الدينية للنقابة؛ بصفة خاصة من حيث إن «الاحتساب» كان وظيفة دينية، وأنه من المفترض أن يتبع «المحتسب» الشريعة، ولكن ما إن بدأ تطبيق قانون النقابة حتى اختلف الأمر. فالحرفيون لم يكونوا من العلماء، وكان اهتمامهم هو ممارسة عملهم بغض النظر عن الشريعة. كما أن «رفيق» يرى أن اختفاء دور «المحتسب» في ما يخص شؤون السوق في القرنين السابع عشر والثامن عشر، إنما يتزامن مع القوة الاقتصادية لـ «الطوائف» التي كانت قد تأسست تماماً آنذاك^(١٢).

ثانياً: النقابات والدولة

تعدّ العلاقة بين النقابة والدولة قضية معقّدة ومتعددة الأوجه، ولطالما كانت في مقدمة العديد من الدراسات، وما زالت موضع جدل ونقاش. فالفهم الكامل لطبيعة النقابات لا يتأتى ضمن سياق مجرد، ولا سيما هيكل القوة الذي تعمل النقابات في إطاره. بيد أن فهم طبيعة العلاقة بين النقابة والدولة أمر حتمي لفهم قضايا أعمق؛ كإدارة الاقتصاد، والدور الذي تؤديه النقابات في الحياة السياسية، وفكرة التقليدي في مقابل الحديث، ودور النقابات في الصورة الاجتماعية الأشمل. وهكذا، فإن تحليل العلاقة بين النقابة والدولة من شأنه أن يقدم قناة يمكن من خلالها فهم الإطار الاجتماعي - الاقتصادي لحقبة زمنية بعينها. كما أنه يتضمن فهم كيفية التغيير الذي طرأ على تلك العلاقات، والظروف التي أسفرت عن تلك التغييرات. وكلها أمور ما زالت بحاجة إلى البحث والاستكشاف.

تتفاوت الآراء بشدة حول هذا الموضوع؛ فمن ناحية، هناك دولة عثمانية مركزية قوية في القرن السادس عشر حاولت التحكم في الاقتصاد عن طريق أسعار البضائع وفرض القيود من خلال نظام التعريفة على حركة البضائع والمواد الخام، ومن ثم

Abdul-Karim Rafeq, «Craft Organization, Work Ethics and the Strains of Change in Ottoman Syria», *Journal of the American Oriental Society*, vol. 111, no. 3 (1991), p. 496.

على أنشطة النقابات^(١٣). وعلى الجانب الآخر، يرى بعض العلماء مثل أندريه ريمون وعبد الكريم رافق أن سيطرة الدولة على النقابات كانت سيطرة محدودة. بالطبع، كانت هناك صلات بين الدولة والنقابات متمثلة بـ «شيوخ» النقابات، حيث كان جمع الضرائب على الخدمات والمنتجات من خلالهم. وحينما كانت الدولة تستصدر أمراً في شأن الصنّاع أو أعمالهم، كان هذا أيضاً يتم من خلال هيكل النقابة. وأخيراً، كان للدولة أن تتدخل مع بعض النقابات بشكل مباشر، إما للقيام ببعض مشاريع البناء، وإما للقيام ببعض الخدمات كنقل البضائع؛ وهي مهمات تلتزم فيها النقابات بتقديم عمّالها وصنّاعها. فكان يمكن استدعاء هؤلاء الرجال للقيام ببعض أعمال الإصلاح أو الصيانة في بعض مشروعات الدولة، مثل صيانة القلاع على طول طريق الحج. فمثلاً، تعدّ كل من نخل وأجرود محطتين مهمتين في صحراء سيناء شهدتا العديد من الإصلاحات في عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م، اشترك فيها العديد من النقابات المعنية بالبناء والشيد، وتحملت خزّانة الملكية المصرية التكاليف كافة. وكان العمل في مثل هذه المشروعات واجباً عادة ما تتقاضى عنه النقابات أجراً أقل من أسعار السوق العادية^(١٤).

ويعود ذلك الاختلاف في وجهات النظر إلى عدة عوامل، منها:

١ - قضية المصادر، إذ تعدّ ملفات وسجلات الدولة العثمانية، مثل القوانين والفرمانات، جزءاً رئيسياً في أعمال العديد من العلماء مثل روبرت مانتريان في دراسته لإسطنبول، ونيكولاي تودوروف في دراسته لمدن البلقان. فبطبيعة الحال، تحفل سجلات الدولة بالعديد من القرارات التي أُصدرت ولم تتّبع، فهي بذلك لا تقدم صورة حقيقية للواقع. لذا كان استخدام تلك السجلات من قبل علماء مثل مانتريان وتودوروف لفهم العلاقة بين الدولة والنقابات، بهدف التركيز على الدور الذي أدته الدولة في توظيف النقابات؛ وقد افترضوا وجود نوع من الرقابة الحكومية الصارمة على النقابات، ومن ثم على الحياة الاقتصادية. على سبيل المثال، ذكر تودوروف في دراسته لمدن البلقان أن النقابات كانت تدار من خلال مجموعة من الأوامر السلطانية^(١٥). إضافة إلى ذلك، عمدت بعض الدراسات التي أجريت على نقابات الحرف من خلال التعليمات

Nelly Hanna, *Making Big Money in 1600: The Life and Times of Ismail Abu Taqiyya, Egyptian Merchant* (Syracuse: Syracuse University Press, 1998), p. 4.

Nelly Hanna, *Construction Work in Ottoman Cairo (1517-1798)* (Cairo: Institut Français d'archéologie orientale, 1984), pp. 25-26 and 65-67.

Todorov, *The Balkan City, 1400-1900*, p. 95.

(١٥)

الرسمية إلى خلق صورة من الانسجام بين الدولة والمجتمع. من ناحية أخرى، توصلت بعض الدراسات الأخرى التي استخدمت السجلات الحكومية إلى وجهة نظر أقل انحيازاً للدولة. حقيقة الأمر أن العديد من المعلومات المدونة في تلك السجلات إنما ترصد نزاعات بين الصناع، وبين الصناع ورؤساء النقابات أو السلطات. ومن ثم، رأت المؤرخة باسكال غزاله في دراستها على القاهرة أن تلك العلاقة كانت دائماً تتسم بالتوتر المستمر، والتقلبات، والصراع على السلطة، والمساومات، بدلاً من أن تكون علاقة هيمنة ثابتة. ولفهم طبيعة تلك العلاقات، يجدر أولاً توضيح بعض الظروف^(١٦).

٢ - قضية الاتجاه، ففي العقود الأخيرة، كان الاتجاه التاريخي يسير نحو تاريخ يعطي ثِقَلًا للقوى الاجتماعية، ونرى ذلك جلياً في دراسة تاريخ النقابات. فالجدل المثار - في الدراسات التي أجريت مؤخراً - حول ما إذا كانت النقابات تدار من قبل الدولة أم لا، قد فسخ في المجال لاتجاه مختلف إلى حد ما. فقد أزاحت ثريا فاروقي الستار عن بعض الظروف التي أدت بالدولة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى تعبئة العمال والصناع للعمل في مشاريع حكومية، إما في أوقات الحملات الحربية وإما في مشروعات عمرانية مهمة. وعادة ما كان يحدث هذا لفترات معينة، وعلى الرغم من أن تلك التعبئة كانت تتم بالإجبار، إلا أن هؤلاء العمال كانوا يتقاضون أجوراً لقاء عملهم، وإن كانت أقل من معدلات أجورهم العادية^(١٧). على أية حال، من الواضح بالنسبة إليها أنه لم يكن هناك هيئة نقابية ذات نمط مركزي مُفترض، وأن الترتيبات المحلية كانت متفاوتة إلى حد بعيد.

٣ - قضية الزمان والمكان، فحقيقة الأمر أنه كانت هناك اختلافات واسعة في العلاقة بين النقابة والدولة تبعاً لاختلاف الزمان والمكان محل الدراسة. ونظراً إلى أن العديد من الدراسات التي أجريت حول النقابات في الفترة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر قد تركزت حول إسطنبول، حيث كان للدولة حضور قوي، وحيث كان الالتزام بالتعليمات الخاصة بالأنشطة الاقتصادية أكثر منه في المناطق الأبعد، فقد جرت العادة على استخدام إسطنبول كنموذج يمكن تعميمه على جميع البلدان الواقعة تحت حكم الإمبراطورية العثمانية. وقد عمدت بعض الدراسات حول

Pascale Ghazaleh, «Masters of the Trade, Crafts and Craftspeople in Cairo, 1750-1850,» (١٦) *Cairo Papers in Social Sciences* (American University in Cairo Press), vol. 22, no. 3 (Fall 1999).

Suraiya Faruqi, «Labor Recruitment and Control in the Ottoman Empire (Sixteenth and Seventeenth Cent),» in: Donald Quataert, ed., *Manufacturing in the Ottoman Empire and Turkey, 1500-1950* (Albany: State University of New York Press, 1994), pp. 24-25.

النقابات إلى التركيز على علاقتها الوثيقة بالدولة. ويرى المؤرخ التركي محمد غنج أن الدولة كانت وثيقة الصلة بتوظيف بعض النقابات، تحديداً في ما يخص إمداد العاصمة ببعض البضائع الحيوية والأغذية؛ وهي سياسة أطلق عليها المؤرخون اسم «الإمدادية» (Provisionism)، وهي التأكد من استمرارية عملية الإمداد بحيث تظل السلع والخدمات رخيصة الثمن، ومتوافرة، وذات جودة عالية. وكان يمكن تفعيل هذا من خلال التسعير، ومن خلال توجيه بعض السلع نحو العاصمة وسكانها البالغ عددهم سبعمئة وخمسين ألف نسمة. بالطبع، كان غنج يشير في هذا إلى إسطنبول، مركز الإمبراطورية وأكثر المدن الأهلة بالسكان. ولكن، إلى أي مدى كان يتم تطبيق سياسة «الإمدادية» في المدن الأخرى؟... تلك قضية أخرى. فبالوسائل التي كانت متاحة آنذاك - قبل العصر الحديث - هل كان فعلاً من الممكن السيطرة على النقابات في المدن والبلدان الأخرى خارج إسطنبول؟

تعتقد ثريا فاروقي، كما تذكر في كتابها، أنه كانت هناك اختلافات واسعة بين النقابات في إسطنبول ومثيلاتها في المدن الأخرى. فهي تؤكد ما قاله غنج حول سيطرة الدولة على الحرف في العاصمة، فحرفيو إسطنبول لم يعملوا أبداً للأسواق الإقليمية أو الدولية، ومتجاتهم كانت دائماً للإنتاج المحلي. وقد عُيّنت السلطات العثمانية بسياسة «الإمدادية» تلك، وحرصت عليها في ما يخص توزيع السلع على سكان العاصمة. حتى إن التاجر أو الحرفي الذي يحاول نقل بضائعه من سوق إسطنبول كان ينظر إليه بوصفه مثيراً للمشاكل، ولا يناله إلا وقف كل أنشطته. وكان لتلك القيود أثرها في هيكله النقابات في العاصمة^(١٨). من ناحية أخرى، تذكر ثريا فاروقي أن الأمر مختلف حتى في البلاد الشديدة القرب من إسطنبول - مثل بورصة - حيث العلاقة واهية بين النقابة والدولة^(١٩).

يتضح من هذا الأمر أنه ليس بوسع المؤرخين أن يتخذوا من إسطنبول نموذجاً يمكن تطبيقه على مدن أخرى. ففي دراسة النقابات - كما في دراسة المجالات الأخرى - هناك دائماً مشكلة التعميم استناداً إلى تطبيق الأبحاث التي تجرى على إسطنبول على سواها من مناطق الإمبراطورية العثمانية، من دون مراعاة اختلاف الأطر والظروف من مدينة إلى أخرى. أما بالنسبة إلى العلماء المنشغلين بدراسة مصر، أو

Suraiya Faroqhi, «Ottoman Guilds in the late Eighteenth Century: The Bursa Case,» in: (١٨) *Making a living in the Ottoman Lands, 1480-1820* (Istanbul: Isis Press, 1995), pp. 93-95.

Masashi Haneda and Toru Muira, eds., *Islamic Urban Studies: Historical Review and Perspectives* (London: Kegan Paul International, 1994), pp. 209-210. (١٩)

سورية، أو الجزائر، فيتضح من دراساتهم أن سيطرة الدولة على النقابات في تلك البلدان والعديد غيرها أضعف منها في إسطنبول. وجدير بالذكر أن مؤرخي الوطن العربي - أمثال أندريه ريمون وعبد الكريم رافق - لا يتفقون غالباً ووجهة النظر الخاصة بسيطرة الدولة على الأنشطة الاقتصادية، لأن تلك السيطرة تختفي ما إن نبتعد عن العاصمة.

إضافة إلى ذلك، حتى في لحظة معينة، وفي مكان بعينه، لا يمكن للعلاقة بين النقابات والدولة أن تتخذ شكلاً واحداً. فهناك نقابات تختص بالإنتاج، وأخرى تختص بالخدمات، ونقابات تختص حتى بأوجه الترفيه. فعلى المستوى النظري، بوسع الدولة أن تكلف أياً من النقابات للقيام بمشروع ما أو تقديم سلعة معينة. أما من الناحية العملية، فإن الكثير من النقابات لا يقع في دائرة اهتمامات الدولة. فنظرة إلى لائحة نقابات القاهرة لعام ١٨٠١ - التي أعدها أفراد من الحملة الفرنسية على مصر - نجد أن معظم النقابات البالغ عددها ٢٧٨ المذكورة في اللائحة لا علاقة لها بالدولة. على سبيل المثال، تقتصر العلاقة بين الدولة والنقابات المشغلة بأوجه الترفيه (كثقافة الموسيقيين، أو القصاصين، أو المغنيات، أو الراقصات، أو الرواة في المقاهي، أو لاعبي خيال الظل، أو الراقصات والموسيقيين المصاحبين لهم، والذين يطلق عليهم اسم «رقاصين») على جمع الضرائب^(٢٠).

أما النقابات ذات الصلة بإنتاج السلع الغذائية، فهي أكثر النقابات خضوعاً لسيطرة الدولة من خلال سياسات التسعير. ففي القاهرة في القرن السادس عشر، كان هناك دائماً قوائم أسعار للسلع الغذائية الأساسية تصدر وتُطبق بصفة منتظمة، إلا أنها أسقطت بعد ذلك. أما إنتاج المنسوجات؛ وهي واحدة من أكبر الصناعات في القرنين السابع عشر والثامن عشر في القاهرة، التي كانت تستوعب أكبر أعداد من العمالة، فكانت تعمل بشكل مستقل عن أية سيطرة من قبل الدولة. من ناحية أخرى، كان السكر سلعة استراتيجية، وقد عيّنت الدولة بالإشراف على توزيعه عن قرب^(٢١).

غير أنه من الممكن استكشاف العلاقة بين النقابات والسلطات من خلال دراسة أعمق لطبيعة تلك السلطات، وغالباً ما سنجد أن ما يطلق عليه جزافاً اسم «سلطة» أو «دولة» يتكون من عدة كيانات أحياناً ما تتنافس مع بعضها البعض، ولكل منها مستوى

André Raymond, «Une Liste des corporations de métiers au Caire en 1801», *Arabica*, vol. 4, (٢٠) nos. 126, 131, 137, 139, 147-148, 192 and 260 (1957) p. 1-14.

Hanna, *Making Big Money in 1600: The Life and Tunes of Ismail Abu Taqiyya, Egyptian Merchant*, pp. 95-97.

معين من السيطرة على النقابات. من ضمن تلك الكيانات: السلطان، أو الدولة التي تصدر أحكاماً بعينها؛ وهناك أيضاً السلطات المنوطة بتنفيذ تلك الأحكام، في ما يخص سداد الأموال وجباية الضرائب على سبيل المثال. وبين تلك السلطات والنقابات قد يطرأ نوع من التفاوض، أو الأخذ والرد، في شأن بعض أوجه الإجراءات والترتيبات، وذلك بدلاً من سياسة إصدار الأوامر من طرف وتنفيذها من قبل الطرف الآخر. وهنا يطرأ تساؤل: هل أن كل من يتم تعيينه في وظيفة ما يحرص فعلاً على اتباع القوانين الرسمية؟ حقيقة الأمر أن الأدلة تشير دائماً إلى أن موظفي الدرجات الوسطى غالباً ما يكون لهم مصالحهم الخاصة، وانتماءاتهم الخاصة، فغالباً ما يقعون في فخ الاختيار بين ولائهم لدولتهم وولائهم لمصلحتهم الخاصة. فتجدهم يطبقون اللوائح، ولكن بالطريقة التي تناسب ومصالحهم، بغض النظر عما إذا كانوا يتبعون نص القانون أو روح القانون.

في هذا الإطار، من هؤلاء الذين يمثلون مصلحة السلطة: القاضي، الذي يفصل في النزاعات بين النقابات والسلطات؛ والملتزم، الذي يعمل على جباية الضرائب من النقابات؛ والمفتي، الذي يتم الرجوع إليه للحصول على رأي قانوني في قضية أو حالة ما. أما القاضي فيمكنه الاستعانة بأهل الخبرة للأخذ برأيهم في الأمور الفنية، وغالباً ما يؤخذ بها في صنع القرار.

إضافة إلى تينك الشخصيتين، هناك «المحتسب» الذي تقلص دوره منذ القرن الخامس عشر، والذي له بعض النفوذ والصلاحيات على النقابات بدرجات متفاوتة. ومن ضمن وظائفه الأخرى التي ظلت هي وضع أسعار البضائع بالاتفاق مع رئيس النقابة. وللمحتسب أن يفرض بيع سلع بعينها في أماكن محددة حتى يمكن إخضاعها للضريبة. وهكذا، فإن اعتبار كل تلك الشخصيات ككيان واحد قد يكون أمراً مضللاً، فليس بالضرورة أنهم يجتمعون على وجهات النظر نفسها، أو أن لهم جميعاً الاهتمامات نفسها. كما أنه ليس بالضرورة أن تكون العلاقة بين كل منهم والنقابات واحدة، بل إن تلك العلاقات بالأحرى، خاضعة للانحيازات بحسب الظروف السائدة.

ففي قضية يرجع تاريخها إلى عام ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م، نشأ نزاع بين النقابة والدولة، وساند كل من «القاضي» و«المفتي» ادعاءات النقابة. وكان النزاع حول السكر الذي كانت ترسله مصر إلى إسطنبول كل عام إلى المطبخ الإمبراطوري، حيث كان يتم إرسال مقدار ثابت من السكر كل عام إلى القصر يُدفع ثمنه من الخزانة المصرية. وكان منتج السكر مطالبين بتوفير تلك الكمية قبل قيامهم ببيع السكر في السوق المصري. لكن لم يكن النزاع حول التزام منتجي السكر باللوائح المفروضة من قبل الدولة، وإنما حول

طريقة حساب الكمية؛ من حيث إذا كان «رطل» السكر يساوي ١٥٠ درهماً، كما يجري الوزن في إسطنبول، أم ١٤٤ درهماً، كما يجري الوزن في مصر. بالطبع، كان هناك من يمثل مصلحة الدولة، وهو «المحتسب» في هذه الحالة؛ ومن ناحية أخرى كان هناك منتجو وتجار السكر ومعهم وازنو البضائع ممثلين برئيس النقابة^(٢٢). وأخيراً، كان هناك ممثلو العدالة و«الشرعية»؛ فكان «القاضي» أولاً، ثم «المفتي»، اللذان كانا يُطلب منهما أن يدلّيا برأيهما في تلك القضايا.

في أوقات أخرى، نجد بعض المنحازين إلى النقابات يلجأون إلى سلطات الدولة لمساندتهم ضد جامعي الضرائب. ففي عام ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م، على سبيل المثال، تقدمت نقابة الصيادين في قرية بانوب في محافظة الغربية في منطقة الدلتا بشكوى أن الملتزم الذي من المفترض أن يجمع عشرة في المئة من إنتاجهم، قد فرض عليهم ضريبة جديدة أطلق عليها اسم الـ «طعمة»، ورفعت الشكوى إلى محمد باشا، حاكم مصر آنذاك، الذي استدعى بدوره قاضي القضاة ليتأكد من إقامة العدل ومنع فرض أية ضرائب إضافية على الصيادين^(٢٣).

يتضح من هذه القضايا مقدار التعقيد في المصالح والاهتمامات، بدءاً من اللوائح العليا الصادرة من قبل الدولة، وحتى المستوى الأدنى من الموظفين المنوط بهم تنفيذ تلك اللوائح، والنقابات المختلفة، والشق القانوني نظرياً وتنفيذياً، أو من السلطة السياسية، أو هيئة الضرائب والسلطة القضائية. أما الاتجاه الذي ينظر إلى الأمر باعتباره لعبة بين لاعبين؛ الحاكم والمحكوم، أو كياناً يصدر الأوامر، وآخر يطيعها وينفذها، فلا يظهر تلك التعقيدات. كما أن هذا النوع من التحليل يلقي الضوء على الطبيعة الدينامية لتلك العلاقة، وكذلك العناصر المكوّنة لها.

والسؤال هنا ليس ما إذا كانت النقابات أدوات بيد الدولة، أو منظمات مستقلة ذاتياً تعمل بشكل منفصل عن الدولة، بل هي دراسة عن العلاقة المتغيرة بين السلطات السياسية والكيانات الاجتماعية الأخرى. والنتائج التي يتضمنها هذا التحليل هي ظروف تنطبق على مدينة كبيرة، ولا تنطبق بالضرورة على المدن الأصغر، كما أن ما يجري في العاصمة إسطنبول ربما لا يماثل ما يجري في المدن البعيدة من المركز.

Bab Ali Court, Cairo, register 127, case 1258, dated 1060/1650, p. 309, and Bab Ali register (٢٢) 124 case 68, dated 1054/1644, p. 16.

Bab Ali court, Cairo, register 125, case, 4, dated 1057/1647, p. 2

(٢٣)

ثالثاً: النقابات والقانون

كان للاهتمام الأخير بدراسة العلاقة بين الشريعة الإسلامية والمجتمع أثره في دراسة النقابات، إذ إن أغلبية هذا الاهتمام كان منصباً حول تطبيق القانون والصلاات الوثيقة بين النقابات والهيئات القضائية. ففي الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر، مثلت المحكمة جزءاً مهماً في تاريخ النقابات، فكان على الباحثين حول النقابات أن يهتموا بالعلاقة بين النقابات والمحكمة تماماً كاهتمامهم بالعلاقة بين النقابات والدولة، نظراً إلى التعامل شبه المستمر بين أعضاء النقابة و«القاضي» في شؤونهم اليومية، كما أن القضاة هم من يصدّقون على انتخاب وتعيين رؤساء النقابات، وهم من يفصلون في النزاعات التي تقوم بين أعضاء النقابة بعضهم مع بعض، أو بين أعضاء النقابة من ناحية وشيوخهم من ناحية أخرى، أو بين أعضاء النقابة والسلطات السياسية.

في ما يتعلق بالنقابات، تلقي قرارات المحكمة الضوء على بعض التعقيدات في العلاقة بين تلك الهيئة والنظام القضائي. فعلى «القاضي» أن يتأكد من تنفيذ قوانين الدولة ولوائحها الصادرة من هيئاتها الإدارية أو السياسية، إضافة إلى التأكد من اتباع «الشريعة».

ولكن ليس هذا كل شيء. فالقضايا المدوّنة في السجلات إنما توضح أيضاً أنه عند قيام نزاع ناتج من خرق أحد نظم النقابة الداخلية، فإن الأمر يرفع إلى القاضي، الذي يؤكد بدوره ضرورة اتباع قوانين النقابة المنفصلة عن الشريعة الإسلامية، في ما عدا إذا كانت تلك القوانين تمثل اتفاقية صدّقت عليها الأطراف المختلفة بحضور شهود. فمن الممكن أن ترفع إليه قضية نتيجة لخرق إحدى اللوائح النقابية المتفق عليها من قبل الأعضاء بشكل منفصل عن الشريعة، كانتخاب رئيس النقابة، حيث هناك دائماً بعض الشروط التي يجب على شيخ النقابة اتباعها. فإذا ما أخلّ بأي من تلك الشروط واللوائح، يمكن رفع الأمر إلى القاضي للنظر في القضية. فمثلاً، حدث أن تقدم أعضاء نقابة صانعي السجاد إلى القاضي باتهام ضد رئيسهم لفساده وشرّه، حيث كان يضربهم ويستولي على أموالهم، فما كان منهم إلا أن اختاروا شخصاً آخر عارفاً بقانون النقابة، وصدّقت المحكمة على هذا الاختيار^(٢٤).

Galal El-Nahhal, *The Judicial Administration of Ottoman Egypt in the Seventeenth Century* (٢٤) (Minneapolis, MN; Chicago, IL: Bibliotheca Islamica, 1979), p. 59.

ومن المحتمل بحق أن يكون التعدد في القوانين هو سبب من أسباب التوتر القائم بين القوانين النقابية، والشريعة الإسلامية، وقوانين الدولة. ويمكن ملاحظة التوتر بين القوانين النقابية والشريعة الإسلامية على عدة مستويات: فعلى المستوى النظري، ليس للنقابات - بهذا الشكل - ذكر في كتب علم التشريع، غير أنه - كما أوضح عبد الكريم رافق - لطالما كان رأي «المفتين» في سورية في الفترة من القرن السابع عشر وحتى القرن التاسع عشر مناهضاً للممارسات النقابية؛ أبرزهم خير الدين الرملي، وحامد أفندي العمادي، ومحمد أمين عابدين^(٢٥). وهناك العديد من الدراسات التي أجريت على هذا الموضوع، زاخرة بالعديد من الأمثلة.

أما على المستوى العملي، فيمكن ملاحظة بعض التناقضات بين القوانين النقابية والشريعة الإسلامية. ففي ممارسة أعمالهم - على سبيل المثال - عمدت بعض النقابات إما إلى قصر العضوية على النقابة ذاتها، أو حاولت احتكار إنتاج بعض السلع. وعادة ما يتم التصديق على القواعد المنظمة لتلك القيود من قبل القضاة لدى انتخاب شيخ النقابة. ولكن - على وجه التحديد - يتضح من بعض القضايا التي رفعت للنظر فيها أن بعض تلك اللوائح والنظم لم تكن تتماشى مع الشريعة الإسلامية. ويذهب بعض العلماء إلى قبول فرضية أنه في وسع أية نقابة احتكار نشاط اقتصادي بعينه أو حرفة بعينها.

وعلى الرغم من ذلك، يوضح آمنتون كوهين في دراسته حول النقابات في القدس أن التوترات تنشأ من تعدد القوانين. ففي عام ١٧١٧، أطلقت شكوى ضد رئيس نقابة الخياطين لأنه منع فرداً آخر من بيع ملابس مخططة. كان دفاع رئيس النقابة أن الخياطين فقط هم المسموح لهم ببيع تلك الملابس؛ وهي حجة كانت تتوافق وممارسات النقابة آنذاك، وأضاف أن الخياطين فقط هم من يقومون بدفع الرسوم المفروضة على النقابة. بناء على ذلك، استصدر رافق الدعوى «فتوى» من مفتي القدس تقتضي بأنه ليس من شأن رئيس النقابة أن يتدخل في حرية بيع السلع لما قد يفرض عليه هذا من «احتكار»، وهو أمر يعاقب عليه القانون^(٢٦). وعمل القاضي بنصيحة المفتي، وأصدر حكماً ضد رئيس النقابة. وفي حالات أخرى، تبنى القاضي وجهة نظر أعضاء النقابة، وقصر ممارسة المهنة على أعضاء النقابة المحتكرة لها.

Abdul-Karim Rafeq, «Crafts Organizations, Work Ethics and the Strains of Change in (٢٥) Ottoman Syria,» *Journal of the American Oriental Society*, vol. 11, no. 3 (1991), p. 496.

Cohen, *The Guilds of Ottoman Jerusalem*, p. 143.

(٢٦)

والأكثر إثارة للدهشة أن نرى تلك التوترات موجودة ليس فقط في ما يتعلق بالممارسات النقابية، ولكن أيضاً في ما يتعلق بالمؤسسات الدينية، مثل «الوقف» الذي يحكمه الشرع الإسلامي بمتهى الصرامة، وتحت سيطرة «القاضي». فالوقف مؤسسة إسلامية ذات قواعد وبنود واضحة في ما يختص بصلاحيات المؤسس والصفة الشخصية للملكية الممنوحة، وهو ما يشرف عليه القاضي بشكل مباشر. فالشخص يستطيع منح ممتلكاته الشخصية، ومع ذلك، يعثر المرء على «وقف» في القاهرة كان أسسه الخياطون مجتمعين عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م، يتألف من بضع مئات من القطع النحاسية، ويبدو مملوكاً من قبل أعضاء النقابة مجتمعين. وقد أثارت تلك القضية أمراً في غاية الأهمية، وهو غياب الشخصية الاعتبارية في الشريعة الإسلامية، فإذا لم يرد ذكر الشخصية الاعتبارية بشكل محدد في كتب علم التشريع، لا يمكن إذاً التعويل على وجودها في الواقع العملي.

علاوة على ذلك، يبدو أن أعضاء النقابة قد عيّنوا شخصاً ليكون مشرفاً على هذا الوقف للتأكد من صيانة ملكيته، والتأكد من أن عائد إيجاره يتم توزيعه على الفقراء من أعضاء النقابة^(٢٧). يتضح من هذا الأمر أن أعضاء النقابة إنما يضعون قواعدهم بأنفسهم، بدلاً من اتباع بنود قانون «الوقف»، كما ترد في كتب علم التشريع. وهذا ليس فقط لتأكيد حجة حاييم غريب من أن قوانين النقابة لا تسنّ من أعلى، بل توضع من قبل الأعضاء أنفسهم، وحتى يمكننا الانطلاق إلى أبعد من هذا، وهو احتمالية أن قوانين النقابة قد وضعت على مستوى قوانين الشريعة نفسها - أو أعلى - كما يتضح في كتب علم التشريع^(٢٨). وبالتأكيد، فإن أمثلة كذلك تجعل هذا الأمر - المشكوك فيه - جديراً بالبحث لما يليق به من ضوء على العلاقة بين النقابة والمحكمة.

يسفر الفحص الدقيق لسجلات المحكمة عن بعد جديد في العلاقة بين القاضي والنقابات، وكذلك الدور الذي أدته النقابات في السياق الحضري، وهو دور لم يتم تناوله بشكل كافٍ، ويستلزم المزيد من الدراسة والاستكشاف، في ما يتعلق بفهمنا لطريقة عمل المحكمة، لفهمنا لطبيعة العلاقة بين النقابات والمجتمع الأكبر. وفي مناسبات عدة، واجه القاضي الذي كان يرئس المحكمة نزاعات أو ادعاءات تستند إلى أمور ذات طبيعة فنية. فعلى سبيل المثال، نعرف أن الشؤون المالية المتعلقة بمصروفات

Bab Ali 229, case 292, dated 1157/1744, p. 147-148.

(٢٧)

Haim Gerber, *State, Society and Law in Islam: Ottoman Law in Comparative Perspective* (٢٨)
(Albany, NY State University of New York Press, 1994), pp. 113-114.

«الوقف» إنما تخضع لرقابة القاضي لتفادي أية محاولات لاختلاس الأموال. وهكذا، عندما يتطلب «وقف» ما بعض الإصلاحات، يستلزم الأمر موافقة القاضي على المبالغ المطلوبة لهذا الغرض، مستنداً في ذلك إلى نصيحة خبير مّمن يمكن الاعتماد على خبراتهم لتقديم معلومات دقيقة. ويطلق على هؤلاء الخبراء اسم «أهل الخبرة». فعندما تتعلق المشكلة ببنائات، أو إنشاءات، أو إصلاحات، أو صيانات، فإن أهل الخبرة الذين يتم استدعاؤهم هم المهندسون، إلا أن اعتبار الخبراء مصدراً من مصادر الحكم يتجاوز نطاق الأوقاف إلى العديد من الأمور الأخرى التي تتطلب نصيحة خبير. فعلى سبيل المثال، في حالة بيع ممتلكات شخص متوفى بالمزاد العلني، على أعضاء نقابة بيع الكتب أن يكونوا موجودين إذا ما احتوت التركة على كتب. وبالمثل، يتم استدعاء طبيب في حالة الشك في قضية قتل، وتستدعى قابلة لفحص ضحية مغتصبة، وهكذا. عادة ما يستدعي القاضي رئيس النقابة محل النزاع، وربما أحد الأعضاء.

توضح هذه السجلات إحدى الطرائق حين كان للنقابة حضور ملحوظ؛ عندما كان الأمر يتعلق بالنظام القانوني الذي أعطى خبرة الحرفيين ثقلاً لا يمكن إغفاله، وعندما كان الأمر يتعلق بالمجتمع الحضري ككل. كما ساهمت تلك السجلات في إلقاء الضوء على مدى تدخل الدولة في شؤون النقابات؟

رابعاً: النقابات في النسق الحضري

كان بُعد آخر من أبعاد دراسة النقابات هو الدور الذي أدته هذه الجمعيات داخل الإطار الحضري. فنحن نعرف أن النقابات قامت بمهام مثل تنظيم الحرف، وتوفير المواد الخام، وربما تسعير بعض السلع. كما نعرف أنه أحياناً ما تقوم النقابات ببعض الوظائف الاجتماعية لأعضائها. فكانت تساعد الفقراء، وتصرف التعويضات للمرضى، ومن حين إلى آخر كانت عائدات الهبات تذهب إلى أعضاء النقابة الأقل حظاً. وفي السنوات الأخيرة، أظهر العلماء بعض الاهتمام بالوظائف الحضرية والاجتماعية والسياسية التي قامت بها النقابات على نطاق أوسع. وأحياناً كان يتم تدوين تلك الخدمات الاجتماعية والمالية على الورق، عند تعيين أحد الشيوخ، أو عندما تتألف تلك الخدمات من مجموعة من الهبات، وأحياناً كانت تلك الأشياء تمضي بلا تدوين.

إضافة إلى تلك الوظائف، كان يُطلب من النقابات - من حين إلى آخر - القيام ببعض الوظائف الحضرية. وقد أوضح أندريه ريمون الدور الذي أدته النقابات والمؤسسات

الأخرى، مثل المؤسسات السكنية، في النسق الحضري. ففي غياب هيئة حاكمة مثل الإدارة المحلية للمدن الأوروبية، تقوم المؤسسات النقاية والسكنية ببعض الوظائف التي تقوم بها تلك الإدارة في المدن الأوروبية. إلا أن حقيقة أن للنقابات نظامها الهيكلي وموقعها الجغرافي في مناطق بعينها في المدينة، وأن مثل تلك المؤسسات يجب أن توجد في القرب من بعضها البعض، يجعل تنظيم هذا الأمر شيئاً سهلاً نسبياً. فباستطاعة أعضاء النقابة - على سبيل المثال - أن يسهموا في بعض المهمات العامة، مثل مكافحة الحريق، أو تعزيز الأمن في مناطقهم^(٢٩).

كانت النقابات من أهم منظمات المدينة، لما لها من هيكل وقيادة؛ أي المقومات اللازمة للهيئات المنظمة، وقد ناقش العلماء فكرة ما إذا كانت تلك النقابات قد عمدت إلى الاتصال ببعضها البعض لاستغلال تلك الإمكانيات، أم أنها كانت كيانات يعمل كل منها بشكل مستقل. السؤال الأهم خلف هذا التساؤل هو: هل كان باستطاعة نقابات المدينة أو البلدة الواحدة، مع اختلاف هياكلها وقيادتها وقواعدها، أن تجتمع وقت الأزمات تحت قيادة واحدة؟ أن تتحدث بصوت واحد؟ وأن تقوم بمهمة واحدة؟ حقيقة الأمر أن معظم البلدان تفتقر إلى الهيكل الذي يمكن من خلاله جمع كل تلك النقابات تحت قيادة واحدة. ولكن هناك بعض الاستثناءات، ففي دمشق القرن التاسع عشر كان هناك شيخ الشيوخ، وهو رئيس كافة النقابات، وفي جزائر القرن السابع عشر، بالإضافة إلى رؤساء النقابات، كانت هناك وظيفة شيخ البلد، يشغلها اثنان، وهما الصلة بين رؤساء النقابات والباي^(٣٠)، إلا أن هذا البناء لم يكن متوافراً في معظم البلدان الأخرى.

لذا، فالسؤال هنا: هل كانت كل نقابة تمثل وحدة منغلقة على نفسها، بهيكلها وقيادتها؟ هل كان لتلك النقابات اهتمامات حضرية تتعدى حدود اختصاصاتها؟ هل كان باستطاعتهم تنظيم أنفسهم في جماعة واحدة لأي غرض سياسي؟ بكلمات أخرى، هل كانت تلك المنظمات كيانات ثابتة غير متأثرة بالأحداث من حولها؟ أم أنها شكلت جزءاً من السياق التاريخي، من حيث الإسهام في التغيرات، والتأثر بالتحولات المهمة التي تطرأ في فترة معينة والاشتراك فيها؟ وفي بعض اللحظات بعينها، ما هي الظروف

Andre Raymond, «The Role of the Communities (Tawa'if) in the Administration of Cairo (٢٩) in the Ottoman Period,» in: Nelly Hanna, ed., *The State and its Servants: Administration in Egypt from Ottoman Times to the Present* (Cairo: American University in Cairo Press, 1995), p. 34.

Houari Touati, «Les Corporations de métiers a Alger a l'époque ottomane,» in: *Melanges* (٣٠) Professeur Robert Mantran (Zaghouan: [n. pb.], 1988).

السائدة التي أتاحت الفرصة لتلك النقابات للظهور؛ فالدور السياسي للنقابات كان - بلا شك - نتاجاً لظروف بعينها.

يرى روبرت مانتران، كما أتى في دراسته لنقابات إسطنبول في القرن السابع عشر، أن النقابات لم تكن هيئات سياسية، وأن دورها في النطاق الحضري كان دوراً اقتصادياً واجتماعياً، وأن اتصالها بالوكالات الحكومية كان من خلال مقروضين محترفين، بهدف تنظيم أنشطتها مع تلك الوكالات الحكومية أو الدفاع عن مصالحها المادية^(٣١). إلا أن بعض العلماء قد اختلفوا مع تلك المزاعم. فقد اهتم كل من أندريه ريمون وروبرت أولسون بالنقابات من حيث الصراع الطبقي الذي ساد في القاهرة وإسطنبول في القرن الثامن عشر. ففي بعض المقالات التي نشرت في مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في الشرق، أوضح أولسون الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي سادت النصف الأول من القرن الثامن عشر في إسطنبول، والتي مهدت الطريق للدور السياسي النشاط الذي قامت به النقابات آنذاك (إنصاف). فقد جلبت السنوات الأولى من القرن المزيد من الضرائب، وارتفاعاً في أسعار الأغذية، وندرة في الإمدادات الغذائية^(٣٢).

كما يقدم أولسون تحليلاً للتمرد الذي حدث في إسطنبول عام ١٧٣٠ كرد فعل لتلك الظروف، وبصفة خاصة ضد حملة الضرائب التي كانت تفرضها الحكومة في بدايات حربها ضد الفرس، والتي أدت فيها النقابات دوراً في غاية الأهمية. وفي النهاية، بعد فترة طويلة من الفوضى، وإعدام زعماء التمرد، أجبرت بعض الطلبات، فأعدم إبراهيم باشا - الوزير المكروه - وخُلع السلطان؛ في إشارة إلى مدى قوة الشوار. وقد أوضحت مقالة أولسون أن بعض المجموعات على هامش هيكل القوة، مثل النقابات، استطاعت أن تجعل صوتها مسموعاً في أفق السياسة الأعلى. المهم هو إلى أي جانب ينحازون، حيث إن مساندتهم من شأنها أن تقلب الموازين، فترجع كفة دون الأخرى.

وهكذا، وفي ما يخص البناء الهيكلي، والقيادة، والتنظيم داخل ذلك البناء، قدمت الهيئة النقابية حافزاً للتحرك السياسي، وأظهرت أن قوى سياسية قد تستطيع، في ما لو توافرت لها القيادة، جمع تلك النقابات في كيان واحد، حتى ولو كان هذا الأمر بشكل مؤقت.

Robert Mantran, *Istanbul au siècle de Soliman le Magnifique* (Paris: Hachette, 1994), p. 125. (٣١)

Robert W. Olson: «The Esnaf and the Patrona Halil Rebellion of 1730: A Realignment in Ottoman Politics,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 17, no. 3 (1974), pp. 340-341, and «Jews, Janissaries, Esnaf and the Revolt of 1740 in Istanbul,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 20, no. 2 (1977), pp. 185-207. (٣٢)

وقد عمت ظروف مشابهة في القاهرة في القرن الثامن عشر، حين انفلتت السيطرة على هيكل القوة والمصادر الاقتصادية من يد ممثلي الدولة العثمانية إلى يد بكوات المماليك. ففي دراسته التي أجراها على الشبكة الحضرية، يعتقد أندريه ريمون أن سكان الحضر لم يكونوا مفتقرين إلى وسائل مقاومة الإجراءات المستبدة التي كانت مفروضة عليهم من قبل الطبقة الحاكمة، فسلسلة من الشبكات الحضرية كانت لها روابطها بالنقابات المحترقة، وجماعات الإخوان الدينية، والسكان المحليين، الأمر الذي أعطى سكان الحضر بناءً هيكلياً خاصاً بهم. ومن خلال هذا البناء كان يمكن القيام ببعض الحركات العامة ضد المماليك، وقد وجد ريمون علاقة مباشرة بين أحداث الشغب الأولى في نهاية القرن الثامن عشر، وانتهاكات إبراهيم بك ومراد بك ومملوكيهم^(٣٣).

اهتم كلا العالمين بالقرن الثامن عشر. ومن هنا يُطرح السؤال: هل كانت هناك تحولات ذات نطاق أوسع تحدث في مناطق أخرى أسفرت عن تلك الحركات السياسية التي قامت بها النقابات؟ أم كانت هناك اتجاهات اقتصادية أشمل يمكن ملاحظتها من خلال النقابات من دون الحاجة إلى أن تكون ظواهر اقتصادية واضحة؟ لو أن الحال كانت كذلك، يمكن للبحث - إذاً - أن يتعرض لاتجاهات مماثلة في مدن غير القاهرة وإسطنبول. وأخيراً، هل كانت الحركات السياسية ظاهرة تقتصر على القرن الثامن عشر، أم أن لها مظاهر أخرى في الفترات السابقة على ذلك؟ قبل سيطرة المماليك، كانت الضرائب المفروضة على النقابات أقل كثيراً، الأمر الذي كان يسمح لهم ببعض الراحة المادية. فهل لنا أن نعرف كيف كان شكل العلاقة بينهم وبين الطبقة الحاكمة آنذاك أيضاً؟

خامساً: النقابات والاقتصاد

إن أهمية النقابات بالنسبة إلى الاقتصاد الحضري ليست محل خلاف، حيث إن الحرف الحضرية الرئيسية والإنتاج الحضري كانا بيد أعضاء النقابات. ولكن هناك شيء من الجدل بين العلماء حول إمكانية أن تشكل طبيعة هيكل النقابات والهيئة النقابية، كما

André Raymond, «Urban Networks and Popular Movements in Cairo and Aleppo (end of (١٨) the Eighteenth-beginning of the Nineteenth Centuries),» in: *Urbanism in Islam: Proceedings of the International Conference on Urbanism and Islam*, 4 vols. (Tokyo: The Middle Eastern Culture Centre in Japan, 1989), pp. 223-224.

هي عليه، عائقاً في طريق التغير الاقتصادي أو تقدم الرأسمالية. وقد دفعت حقيقة أن النقابات لا تشجع على المنافسة، من حيث إنها تفرض قيوداً على حيازة المواد الخام والأسعار، وأنه بوسعها وضع قواعد للقبول من شأنها أن تقيّد - بدلاً من أن تشجع - على انضمام أعضاء جدد، دفعت بالعلماء إلى مناقشة ما إذا كانت هذه القيود عائقاً على طريق التغير أم أنها نوع من التوسع في النشاط الاقتصادي. في مقالة بعنوان «الصناعة العثمانية في القرن الثامن عشر»، يناقش محمد غنّج أن من أحد السمات المميزة للاقتصاد هي «التقليدية» (Traditionalism). فبدلاً من النظر إلى نماذج جديدة، فإن الاقتصاد يستند إلى تقاليد أصيلة^(٣٤). وتطرح هذه المقالة وجهة نظر تبناها العديد من المؤرخين. وكان روبرت مانتران قد ناقش في وقت سابق في دراسته حول إسطنبول القرن السابع عشر فكرة أن تزمت النقابات كان دائماً عقبة في طريق التقدم^(٣٥).

وعلى الرغم من ذلك، فما زال هناك مجال للنقاش حول هذه القضية؛ ففي قضايا المحكمة، كانت النقابات تعتمد دائماً إلى مساندة مطالبها بالإشارة إلى العادة القديمة المسماة «العوايد القديمة»، كحجة رئيسية يلجأون إليها عند النزاع. ومن المؤكد أن استخدام «العوايد القديمة» قد عكس نوعاً من الارتباط بالتقاليد، ويفعل الأشياء بالطريقة التي كانت دائماً تتم بها. ولكن، ألا يمكن أن يكون في هذا استخدام لمبرر قانوني، حيث إن التقاليد، أو الممارسات المعتادة والمقبولة، أو «العرف»، كانت دائماً أساساً للقرارات القانونية؟ لذا، من الأهمية بمكان أن يتم تحليل هذه القضايا في إطار أوسع.

في واقع الأمر، قام بعض العلماء باستكشاف العلاقة بين النقابات والاقتصاد بطريقة تسمح بدراسة عملية التغير في الفترة الأولى من العصر الحديث. وقد استوجب هذا نوعاً من إعادة النظر في عدد من المعطيات في ما يخص النقابات نفسها؛ داخلياً وفي علاقاتها بالكيانات الخارجية، وبصفة خاصة مع النقابات الأخرى والتجار. من هذه المعطيات بعض قواعد النقابات التي قد تمثل عائقاً في طريق التغير، فالنقابات تؤيد فرض تلك القيود المختلفة على أنشطتها وأعضائها. فمثلاً، عمدت بعض النقابات إلى تحديد عدد الأعضاء الذين يتم قبولهم، بينما فرضت نقابات أخرى سيطرتها على المواد الخام، مانحة فقط رئيس النقابة مهمة توزيعها، وعملت نقابات أخرى على التأكد من

Donald Quataert, «Ottoman Industry in the Eighteenth Century,» in: Quataert, ed., (٣٤) *Manufacturing in the Ottoman Empire and Turkey, 1500-1950*, p. 60.

Robert Mantran, *Istanbul dans le seconde moitié du XVII^{ème} siècle* (Paris: [n. pb.], 1962), (٣٥) p. 388.

أن أعضاء النقابة فقط هم من يمارسون المهنة أو يتتجون السلعة ذات الصلة، رغم أنه في الحقيقة، إذا قررنا إصدار الأحكام من خلال قضايا المحكمة التي تعدد مثل تلك اللوائح، فمن الواضح، أولاً، أنه لا يوجد قاعدة واحدة تم تطبيقها على النقابات كافة، وأن كل نقابة كان لها مجموعة القواعد الخاصة بها. وثانياً، حتى حينما تنص قاعدة ما على نمط التصرف الواجب اتباعه من قبل الأعضاء، فإن كتابة تلك النصوص كان لا يعني إطلاقاً تنفيذها. لذا، نجد أنه حتى حينما حاولت بعض النقابات الحد من العضوية، لم يتأت لنا التوصل إلى نظام العضوية الذي كان متبعاً في أي من النقابات، ولا إلى الطريقة التي تطورت بها. فمثلاً، لا يصدق عبد الكريم رافق أن عضوية النقابات ظلت ثابتة قط. فالنقابات كانت دائماً خاضعة للتغيير، وللتوسع، أو حتى للاختفاء، وتتغير تبعاً للظروف تماماً مثلما تتغير الموضة. ففي دمشق، طرأ ازدياد ملحوظ في أهمية نقابة التبغ عندما أصدر الشيخ عبد الغني النابلسي «فتوى» أعلن فيها أن التدخين جائز شرعاً. وفي الحقيقة، هناك مجال واسع للبحث في سهولة توسع أية نقابة بمجرد أن تفتح الباب للعضوية فيها، أو البحث في إمكانية الارتباط بأكثر من نقابة، وحتى إمكانية العمل بشكل منفصل عن النظام النقابي.

أخيراً، هناك حقيقة أنه في وسعنا ملاحظة التوسع في إنتاج سلعة بعينها، مثل السكر والمنسوجات في القاهرة، فالصادرات المهمة التي بدأت منذ القرن السابع عشر يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند بحث الأنشطة النقابية، فإما أن النقابات قد سمحت بالتوسع في عضويتها لمواجهة الطلب المتزايد على المنتجات، وإما أنه لم يعد هناك احتكار للمنتجات من قبل النقابات. في ما يخص القاهرة، يرى أندريه ريمون أن كل الفئة العاملة من السكان ترتبط بالنقابات. وفي دراسته لنقابات بورصة في القرن السابع عشر، وجد حاييم غريب أنه ليس كل العاملين يتمون إلى نقابات، فعلى سبيل المثال، النساء اللواتي يعملن في منازلهن، ربما من خلال نظام خارجي، لا يتمين إلى أية نقابة، إلا أنهن يتقاضين راتباً ولا يدفعن ضرائب عليها. كذلك الباعة المتجولون والتجار العاملون في التجارة الدولية - وفقاً لغريب - لا يتمون إلى أي نظام نقابي^(٣٦).

نتيجة لذلك، كان هناك نوع من إعادة النظر في الصورة الأنيقة للنقابات، وكل منها يعمل وفقاً لقواعد خاصة بها وضعتها لحماية مصالحها ومصالح أعضائها. وقد أعطى هذا الفرصة لاتجاه أكثر دينامية في النظر إلى الطريقة التي حاولت بها النقابات

Haim Gerber, «Guilds in Seventeenth-Century Anatolian Bursa», *Asian and African Studies*, (٣٦) vol. 11, no. 1 (1976), p. 63.

الأقوى السيطرة على النقابات الأضعف. ففي مقالة أخيرة كتبها عبد الكريم رافق، ألقى فيها الضوء على العلاقة بين النقابات المختلفة، موضحاً كيف أنه في القرنين السابع عشر والثامن عشر، حينما أصبحت النقابات راسخة التأسيس في الاقتصاد المحلي، حاولت النقابات الأكثر تأثيراً أن تتحدى اللوائح التقليدية التي قيدت مصادرها وحالت دون توسع أعمالها، إذ عمدت إلى ربط أنفسها بالنقابات الأصغر ذات الصلة، عن طريق علاقة أطلق عليها اسم «يَمَك»، أو «تابعين»، فحصلوا بذلك على مصادر إضافية للنقابة الأكبر عن طريق تسخير النقابات الأصغر في العمل، وتسويق المنتجات الثانوية، والاشتراك في دفع الضرائب. فمثلاً، أصبحت نقابة صنّاع الطباقيات يَمَكاً [تابعين] لنقابة الخياطين، فيمدّهم الخياطون بالقماش ويشركونهم في دفع الضرائب. ومن خلال هؤلاء اليمك، استطاعت النقابة التابعة أن تمدّ النقابة الرئيسية بالمواد الخام، كما في حالة أصحاب المجازر (اليَمَك) الذين يمدّون الجزائريين (النقابة الرئيسية) (٣٧).

يستوجب فهم تاريخ النقابة كذلك، في ظل نسق اقتصادي متغير، بحثاً في العلاقات مع كبار التجار الذين يسعون إلى الحصول لأنفسهم على المواد التي يحتاجون إليها في تجارتهم الدولية، ومنتجي تلك المواد. لقد كانت هناك محاولات لاستكشاف ذاك النظام الخارجي، الذي كان سائداً في عدة أجزاء من أوروبا في الفترة من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر، وتأثيره في النقابات. نحن نعرف أن مثل هذا النظام قد وجد في بعض أجزاء الإمبراطورية العثمانية، غير أنه من الصعوبة بمكان تقدير مدى انتشار هذا النظام، حيث التجار يبدأون بمناورة قواعد النقابات، ثم التوصل إلى مستوى أفضل من الأجور، ومن ثم الحصول على المواد التي يحتاجون إليها للتجارة، ليس فقط في المدن حيث قوة النقابات، بل وفي المناطق الريفية حيث الأجور المنخفضة. وكان من شأن هذه الممارسات، نظرياً، أن تضعف من قوة النقابة.

وتظهر بعض الدراسات الأخيرة أنه في بعض أجزاء الإمبراطورية العثمانية، وفي بورصة وتجارة الحرير على وجه التحديد، كان التجار وثيقي الصلة بعملية الإنتاج، وتشغيل العمالة، سواء في المدينة أو في الريف، وحتى في تسخير العبيد. غير أن درجة سيطرة التجار على الإنتاج ليست دائماً بذلك الوضوح. فلا يزال هناك الكثير الذي يجب عمله في العديد من المراكز الحضرية قبل أن نعرف بشكل أكيد ما إذا كان يجري

^{٣٧} Abdul-Karim Rafeq, «Making a Living or Making a Fortune in Ottoman Syria,» in: Hanna, Money, Land and Trade: An Economic History of the Muslim Mediterranean, pp. 105-106.

استخدام الحرفيين من قبل التجار، أو أنهم لا يزالون يقومون ببعض الأعمال لأنفسهم بشكل منفصل عن هؤلاء التجار، أو أن تلك السيطرة تعني بالفعل استحواذ التجار على الأدوات التي يحتاج إليها الحرفيون للعمل، أم أنهم يقدمون رأس المال فقط. فتجار بورصة كانوا يمتلكون الحرير - المادة الخام - ولكنهم لم يمتلكوا الأدوات التي يستخدمها الصانع^(٣٨). وكان للعلاقة بين التجار وأعضاء النقابات عدة أشكال وأنماط، وفقاً لطبيعة المنتج. فمثلاً، في القاهرة في أوائل القرن السابع عشر، عندما أصبح السكر من أهم السلع التصديرية، كان التجار يستثمرون في إنتاج السكر. فامتلكوا مكابس للسكر في المدينة، واستأجروا العمال اللازمين للقيام بالعمل، كما كان لهم استثمارات في مكابس السكر في الريف^(٣٩).

ومن الأهمية بمكان في فهمنا لطبيعة النقابات أن نعرف ما إذا كانت تلك الممارسات شائعة في أماكن أخرى، وهل تضمنت أنشطة بعينها، افتراضاً في حالات ازدياد الطلب؟ والأهم على الإطلاق هو الآثار التي ربما خلفتها تلك الممارسات على النقابات. في القاهرة القرن السابع عشر، لم يسفر تدخل التجار في إنتاج السكر عن إخراج نقابة إنتاج السكر من الصورة، وهو ما يدعو إلى محاولة فهم ما إذا كان هناك نوع من التوازن قد تحقق بين التجار والمنتجين. وهنا - ثانية - يمكن حل التوتر بينهما بصورة مختلفة عما حدث في بورصة أو في أي مكان آخر تبعاً للظروف المحلية ذات الصلة. وربما كان من المفيد إجراء مقارنة بالنقابات الأوروبية التي خضعت بقوة لتأثير التجار في الحرف والإنتاج.

إن أهمية استكشاف هذه الأبعاد في تاريخ النقابات متعددة، فهي تزودنا بعنصر مهم من عناصر التاريخ الاقتصادي. من منظور أوسع، بوسع هذا الاكتشاف أن يساعد على فهم الفترة الزمنية بصورة أشمل. فالتغيرات في العلاقة بين النقابات بعضها ببعض، وبين النقابات والتجار، أو بين الإنتاج والاتجار، يوضح ليس تفاصيل عملية اجتماعية اقتصادية دينامية فاعلة فقط، بل ويعطي خلفية ممكنة لتطورات لاحقة. وفي نظرة إلى الدراسات التي ما زالت ترى أن الظروف لم تتغير منذ القرون الوسطى وحتى وقتنا الحالي، فإن بحث تلك العناصر، على الرغم من صعوبتها، يظل قناة مهمة تستلزم الكثير للقيام بها.

Suraiya Faruqi, «Merchant Networks and Ottoman Craft Production (16th-17th Centuries),» (٣٨) *Proceedings of International Conference on Urbanism in Islam* (Tokyo), vol. 1 (1989), p. 187.

Hanna, *Making Big Money in 1600: The Life and Times of Isma'il Abu Taqiyya, Egyptian Merchant*, pp. 83-84 and 90-95. (٣٩)

كانت التطورات التي مرت بها النقابات خلال القرن التاسع عشر، وتفتتها كنتيجة لانتشار الرأسمالية الأوروبية، وسيطرة الدول المتوسعة عليها، مصدر إلهام لعدد من الدراسات التي بدأت في اتجاهات مختلفة. وكان أحد أهم الموضوعات إيضاح أن عملية تقليص دور النقابات في الحياة الحضرية والحياة الاقتصادية لم تكن عملية بسيطة، بل إنها مجموعة من العوامل المتداخلة التي يجب أخذها في الحسبان لفهم تلك التغيرات التي طرأت في القرن التاسع عشر.

يتفق العلماء على أن تدفق السلع من أوروبا الصناعية، مدفوعاً بوسائل اتصال جديدة مثل البواخر، وتأسيس أنظمة سكك الحديد، قد أدى إلى فقر أعضاء النقابة ممن لم تستطع منتجاتهم الوقوف في وجه المنافسة مع أسعار المنتجات المستوردة بحجمها المتزايد، وقد نتج من هذا الأمر فقر الحرفيين المحليين، وهو ما تؤكد المصادر الأدبية. ففي دراسة للأمثال الشعبية للقرن التاسع عشر، وجد حسام عبد الظاهر إشارات عديدة إلى العاطلين من العمل والحرفيين المهرة الذين اضطروا إلى القيام بأعمال حقيرة بدلاً من البقاء في منازلهم^(٤٠).

وقد أسفرت تلك الظروف الصعبة عن نوع من التوتر الحاد بين هؤلاء المنتجين، ورجال الأعمال، والسماصرة الذين كانوا يروجون لبيع السلع الأوروبية^(٤١). وهكذا، بدلاً من النظر إلى النقابات في تلك الفترة على أنها محطمة بفعل ظروف مضادة، يركن بعض العلماء إلى وضعهم في علاقة مختلفة مع مجموعات أخرى، حتى وإن كانت نحو المزيد من الضرر بالنسبة إليهم.

كما يتضح من الظروف المتغيرة أن التطورات لم تكن أبداً متماثلة في كل المناطق، وحتى وإن كانت كذلك، فهي لم تتبع أبداً تسلسل الأحداث نفسه. ففي هذا المجال أيضاً تُعدّ الاتجاهات المتنوعة سمة معظم الدراسات. في مصر، أسفرت سياسات محمد علي (١٨٠٥ - ١٨٤٨) ومحاولاته لمركزة معظم الأنشطة الاقتصادية - التي تعود إلى تاريخ مبكر جداً - عن التحاق العديد من الحرفيين والصناع بمصانع الدولة، وبصفة خاصة العاملين في مجال المنسوجات، وهي واحدة من أكبر الأنشطة الاقتصادية. كما أدت محاولات السيطرة على الأنشطة الاقتصادية إلى المزيد من السيطرة على العديد

(٤٠) حسام عبد الظاهر، «الأمثال الشعبية»، مصدر لدراسات الأعمال والحرف المصرية في القرن التاسع عشر، في: نصير إبراهيم، محرر، الطوائف المهنية والاجتماعية في مصر في العصر العثماني (القاهرة: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، ٢٠٠٣)، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٤١) Rafeq, «Making a Living or Making a Fortune in Ottoman Syria», pp. 107-108.

من عناصر الحياة النقابية^(٤٢)، إلا أن تلك السياسات لم تسبب في القضاء على النظام النقابي فوراً، فالوثائق الخاصة بأحد مصانع محمد علي الحديثة - مصنع الخرنفش للمنسوجات - توضح أن المصنع قد تبني سياسة النقابة، إضافة إلى أشكال أخرى من التنظيم العمالي، مثل العقود الفرعية، وورديات العمل النهارية، والعمل بالقطعة^(٤٣).

وبالمثل، في ما يتعلق بالأناضول، يوضح دونالد كواتيرت أن الصورة في النصف الأول من القرن التاسع عشر ليست بسيطة. فهو يعني بالطرق المختلفة لإنتاج المنسوجات، العمل الحر عن طريق النسيج في بيوت القرى، ونظام خارجي يديره التجار والنساجون في المدينة والقرى، والعمل المستمر للنقابات في إسطنبول، على سبيل المثال. وقد عمدت مصانع الدولة إلى استئجار عمالة مدفوعة الأجر، وهي عادة من الأطفال^(٤٤).

في النهاية، يتضح أن الدراسات التي أجريت على النقابات خلال العقدين الأخيرين قد اتخذت عدة مسارات، مستندة إلى مروحة واسعة. وقد أوضحت جميعها التنوع والتعقيد اللذين اتسمت بهما المؤسسات النقابية في أشكالها المختلفة. وفي الوقت الحالي، مع هذا الثراء في الدراسات التي أجريت، يجدر النظر إلى قضية النقابات في ظل إطار أكبر لفهم موقع تلك النقابات - كمنظمات اجتماعية واقتصادية - داخل الصورة الأكبر للتغير والتوسع والأزمة والأفول.

والآن، في ظل وجود دراسات تاريخية عن المراكز الحضرية المختلفة، ربما حان الوقت لكتابة تاريخ أشمل عن النقابات. وهي ليست بالمهمة السهلة، فهي تتضمن البحث في ما إذا كان هناك نمط نقابي واحد، أم أنه يجب علينا تتبع أكثر من نمط أو نموذج، ثم محاولة فهم الأسباب وراء تلك الاختلافات؛ وبالمثل نحو تسلسل الأحداث المختلف بالنسبة إلى النقابات، أي أنه يجدر بنا محاولة رؤية تاريخ النقابات بالكثير من العمق والتدقيق اللذين يستحقهما.

(٤٢) عبد السلام عبد الرحيم أمبر، طوائف الخراف في مصر، ١٨٠٥ - ١٩١٤ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز وثائق وتاريخ مصر، ١٩٩٣)، ص ٦٣ - ٧٤.

(٤٣) Pascale Ghazaleh, «Manufacturing Myths: Al-Khurunfish, A Case Study» in: Hanna, Money, Land and Trade: An Economic History of the Muslim Mediterranean, pp. 129-133.

(٤٤) Donald Quataert, «Ottoman Manufacturing in the Nineteenth Century», in: Quataert, ed., Manufacturing in the Ottoman Empire and Turkey, 1500-1950, p. 94.

الفصل الثامن والثلاثون

الوقف في المدينة

راندي ديغويلم^(*)

ما هو الوقف؟

شملت تقديرات الوقف الذي وُجد دائماً، سواء في المدن المتوارثة أم المنشأة في العالم الإسلامي، بصورة فعلية، كل قطاع اجتماعي واقتصادي داخل المراكز المدنية، وداخل البيئات الريفية إلى حد ما^(١). هبات الوقف، التي غالباً ما تمت مناقشتها، ولكن نادراً ما يجري تعريفها، تعطي فرداً ما أو مجموعة أفراد^(٢) فرصة تمويل يستفيد الفرد أو الأفراد عبرها بمجموعة من التقديرات الناشئة عن مداخيل لملكية يملكها المانح، والتي عيّن كأصول وقفية. وكلاهما، الملكية الوقفية والمستفيدون، يحدد على نحو دقيق في عقد إنشاء الوقف وفق معايير رسمية. وتُمنح المداخيل للمستفيدين وفق قاعدة ثابتة بواسطة مدير الوقفية الذي يتم تعيينه أو تكليفه من جانب مؤسس الوقفية الذي يتولى توزيع كمية محددة من عائدات ممتلكات الوقف على المستفيدين على نحو منتظم، وعادة ما يكون سنوياً^(٣).

(*) باحة في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS).

(١) انظر: دراسات حول إيران، والإمبراطورية العثمانية، وجنوب شرق آسيا، والهند الإسلامية، وأفريقيا جنوب الصحراء. في: Rudolph Peters [et. al.], *Encyclopedia of Islam*, New Version (New York: [n. pb.], 2000).

(٢) في حالات محدّدة، يعمل عدّة أشخاص معاً لتأسيس وقف، الوقف النقابي على سبيل المثال.

(٣) Randi Deguilhem, «Presentation», in: Randi Deguilhem, ed., *Le Waqf dans l'espace Islamique: Outil de pouvoir socio-économique* (Damascus: Institut Français d'études arabes de Damas [IFEAD], 1995), pp. 15-26.

حين يختار المانح المستفيدين مع أهداف دينية أو اجتماعية أو خيرية، مثل جامع أو مدرسة دينية أو عيادة صحية أو طريق عام (جسر، أدراج)، أو سبيل للشرب، أو إنشاءات للري، أو لرعاية الأيتام أو الأرامل... إلخ، تسمى هذه المؤسسة الوقف الخيري (التي تترجم كوقف ديني أو خيري أو عام). وتعدّ الأوقاف التي تمنح بهدف دعم أشخاص محدّدين، وهم غالباً أفراد أسرة المؤسس أو أشخاص آخرين، بمن فيهم العبيد المعتقون العاملون عند المانح أو عند عائلته، بمنزلة أوقاف ذرية أو أوقاف أهلية (أوقاف خاصة أو عائلية). وهناك نوع ثالث من الأوقاف، وهو الأوقاف المشتركة، حين يكون المستفيدون من وقف مجموعة من نوعين من الممنوحين في وقت واحد، أي حيث يتم التوزيع على نحو مشترك لحصص معلنة من عائدات الوقف على الأفراد المحدّدين، كما على مستفيدين من القطاع العام أو الديني أو الخيري في المجتمع. هذه التركيبة المزدوجة للمستفيدين تسمى القطاعين العام والخاص، وهي تؤدي إلى ظهور ما يسمى «الوقف المشترك».

على ذلك، فإن نوع المستفيدين هو الذي يحدد طبيعة المؤسسة. لكن، في جميع الأحوال، المستفيد النهائي من كل وقف يكون ذا طبيعة عامة أو خيرية أو دينية. في ما يتعلق بالوقف الذري، أو الوقف المشترك، حيث يتم تقسيم عائدات المؤسسة على الأفراد كالمستفيدين من الوقف، يحصل تحوّل في المراحل الأخيرة من مدة الوقف، بحيث لا تقدم العائدات إلى المستفيدين من الوقف، بل إلى مستفيدين دينيين أو عاقين. يحصل هذا التحول حين يتوفى الأشخاص الذين يعدّون المستفيدين من الوقف، فضلاً عن أحفادهم إذا ذكرهم المانح كمستفيدين مستقبليين لحظة إنشاء المؤسسة. في هذه الحالة، تذهب العائدات التي كان يتلقاها الأفراد بوصفهم المستفيدين إلى مستفيد عام أو ديني معيّن يطلق عليه المانح هذا الاسم في عقد تأسيس المؤسسة. إن هذا المستفيد النهائي يحوّل بصورة فعلية الوقف الذري أو الأهلي إلى وقف خيري.

يجب أن تكون المعلومات المتعلقة بأنواع المستفيدين موجودة في عقد تأسيس المؤسسة، غير أن الوثيقة لا تشير بالضرورة إلى الأسباب، أو حتى القرينة، التي تكمن وراء اختيار المستفيدين. هنا بالتحديد تظهر مصادر أخرى قيمتها مثل المؤرخات التاريخية التي تمت كتابتها حديثاً مع وثائق مؤسسة الوقف. وبما أن المؤرخات التاريخية تسجل عادة أنشطة بشرية واجتماعية يومية في مكان وزمان محدّدين، ففي إمكانها الكشف عن الأسباب السياسية والاجتماعية والدينية التي تكمن وراء القرارات

المشار إليها في الوثيقة التأسيسية للوقف، مثل الجمعيات الفردية أو العائلية، مع جامع معين أو مدرسة دينية معينة أو مذهب أو عيادة صحية (بيمارستان)^(٤)... إلخ في حالة الوقف الخيري. كما قد تذكر المؤرخات الروابط الشخصية بين الأفراد، موضحة بالتالي أسباب اختيار مانحي الوقف لبعض الأشخاص لكي يكونوا المستفيدين من مؤسساتهم في حالة الوقف الذري.

في زمن الحكم العثماني، كانت وثائق الوقف (الحُجة) التي تتم صياغتها بعد التأسيس الأصلي لأي وقف تمثل مصدراً آخر مهماً للمعلومات المتعلقة بأوقاف محدّدة، مع الأخذ في الحسبان ليس فقط الخيارات الأصلية التي يتخذها المانع بخصوص البنية التحتية الداخلية للوقف الخاص به، بل حتى تطور هذا الوقف الخاص، ذلك بأن الحجة المسجلة مع النظام القضائي العثماني (الذي يمكن أن يطلع عليه الباحثون في يومنا هذا)^(٥)، كانت تدوّن التغييرات التي تطرأ على حياة هذا الوقف. لقد قصد مديرو الوقف المحاكم لتسجيل ممتلكات جديدة تضاف إلى الموجودات الأصلية الخاصة بأي وقف، على سبيل المثال، ولإزالة القديمة منها التي يفترض أنها لم تُعدّ تنتج عائدات ملائمة للوقف، والتي تم استبدالها بممتلكات مربحة أكثر من خلال عملية الاستبدال أو المعاوضة^(٦)، فضلاً عن تغييرات في المستفيدين من الوقف حين يتوفى مستفيد فردي، على سبيل المثال، بحيث تعود حصته من العائدات إلى المستفيد التالي، أو حين تتوقف مدرسة ما عن العمل، فتعود حصص عائداتها بالتالي إلى المستفيد التالي المحدد... إلخ.

أولاً: في المدينة

تعدّ الأوقاف بيانات اجتماعية وشخصية في وقت واحد، وهي تعكس خصائص كل منهما، وتخترق النطاقين العام والخاص في مدن العالم الإسلامي منذ العقود الأولى

(٤) الخدمات الطبية في العيادة الصحية التقليدية (البيمارستان) اعتمدت كلياً تقريباً على مداخيل الأوقاف. ويمكن مقارنة مدير ممتلكات الوقف التابع للعيادات بمدير مستشفى حديث، وخصوصاً في إمكانياته المالية. انظر: سالم الحسنية، من البيمارستان إلى المستشفى: دراسة مقارنة للنظام الإداري (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٨)، ص ٢٥.

(٥) على سبيل المثال، انظر: محمد قدري باشا، قانون العدل والإنصاف لأهل القضاء (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٢٨)، ص ٥٨ - ٦١، ومحمد أبو زهرة، محاضرات في الأوقاف (دمشق: [د. ن.]، ١٩٥٩)، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٦) Tal Shuval, «La Pratique de la Mu'awada (échange de biens habûs contre propriété privée) à Alger au XVIII^{ème} siècle», *Revue de Monde Musulmans et de Méditerranée (REMMM)*, vols. 79-80 (1999), pp. 55-72.

للإسلام. ومن أعلى درجات النظام الاجتماعي وأكثرها قوة إلى أكثر مستويات المجتمع تواضعاً، كان لمنح الوقف تأثيرات في الحياة اليومية للأشخاص العاديين والاستثنائيين الذين يعيشون ويعملون في المدن. لقد استطاعت شخصيات قيادية إنشاء مؤسسات كبيرة ومؤثرة ودائمة من خلال منح عقارات مبنية قيمة إلى أوقافها، إضافة إلى ممتلكات زراعية واقعة في مناطق مدينية أو محيطة بالمدن، أو من خلال منح قرى بأكملها إلى مؤسساتها، فضلاً عن مبالغ يملكها الوقف وتم تسليفها إلى المؤسسة بهدف الربح في زمن الدولة العثمانية. وعلى مستوى أكثر اعتدالاً، أنشأ أشخاص ذوو مستويات اجتماعية متواضعة أوقافاً صغيرة تألفت غالباً من غرفة عادية أو رقعة زراعية صغيرة، وقد أنشأها هؤلاء كأصول لمؤسساتهم. تراجع الوجود الكلي للأوقاف، ولشبكات الأوقاف المتداخلة ضمن المراكز المدينية في بلدان يسودها الإسلام، نتيجة تأمين موجودات المؤسسة، ودمج إدارتها في إدارة الدولة التي وقعت مع انتهاء الفترة الاستعمارية، أي في منتصف القرن العشرين تقريباً^(٧).

في الفترة التي سبقت تأمين الوقف، ولا سيما في زمن الأيوبيين^(٨) والمماليك^(٩)، ومن ثم في زمن العثمانيين، أدت الأوقاف الكبيرة والصغيرة على حد سواء دوراً أساسياً بالنسبة إلى تطوير وربط واستمرارية عناصر البنى التحتية في المراكز المدنية والعالم الإسلامي، ولا سيما في ما يتعلق بإنشاء و/أو بالدعم المادي لمساجد ومدارس دينية ومستشفيات وعيادات ونبايح عامة للشرب ومراكز رعاية الفقراء والمعدمين القائمة... إلخ. ومن أجل تأمين التمويلات لعناصر البنى التحتية تلك، كان مدخول الأوقاف يتج إلى حد كبير من تأجير الممتلكات الزراعية المبنية حديثاً أو التي سبق أن تم شيدها.

(٧) كمثال عن الوقف في سورية ما بعد الاستعمار، انظر: Randi Deguilhem: «Le Waqf en Syrie: indépendante (1946-1990),» dans: Faruk Bilici, ed., *Le Waqf dans le monde Musulman contemporain (19^{ème}-20^{ème} siècles)* (Istanbul: Institut Français d'étude Anatoliennes [IFEA], 1994), pp. 123-144, and «On the Nature of Waqf: ious Foundations in Contemporary Syria: A Break in the Tradition,» dans: R. Deguilhem and A. H. Hénia, *Les Fondations Pieuses (Waqf) en Méditerranée: Enjeux de société, enjeux de pouvoir* (Kuwait: Fondation Publique des Awqaf du Kuwait, 2004), pp. 395-430, and *Breaking with the Past: New Directions for Pious Waqf Foundations in Post-Colonial Middle Eastern Societies* (Damascus: French Institut of the Near East (IEPO), 2004).

Joan Elizabeth Gilbert, «The Ulama of Medieval Damascus and the International World of (٨) Islamic Scholarship,» (Ph.D Dissertation, University of California, Berekley, 1977), and Abd Razzaq Moaz, «Les Madrasas de Damas et d'al-Salihiyya depuis la fin du V/XI^{ème} siècle jusqu'au milieu du VII/XIII^{ème} siècle: Textes Historiques et études architecturales,» (Thèse du Doctorat, Aix-Marseille I: University of Provence, 1990).

(٩) راجع أمثلة أخرى من العصر المملوكي وبخاصة من العصر العثماني في هذا الفصل.

منذ البداية، تجدر الإشارة إلى أن مؤسسات الوقف لم تكن على الإطلاق مقتصرة على العالم الإسلامي، بل كانت تستخدم أيضاً إلى حد كبير من جانب أفراد ينتمون إلى جماعات مسيحية ويهودية تعيش على أراضي إسلامية. لقد أنشأ المسيحيون واليهود أوقافاً خصصوها لأهداف دينية وعامة داخل مجتمعاتهم، فضلاً عن أوقاف ذات أهداف عائلية، على الرغم من الحظر الذي فرض خلال زمن الحكم العثماني على إنشاء هذه الأنواع من الوقف. وقد أظهرت الأبحاث أنه قد تم التغلب على هذا الحظر بطرائق متعددة. على سبيل المثال، أنشأت عائلة محاسب المارونية مؤسسات وقف مشترك لدير مار شليطا المكرس في أوائل القرن السابع عشر في جبل لبنان لأهداف عائلية إلى حد كبير. كما أسست عائلة الخازن المارونية أوقافاً لدير سيدة بكركي^(١٠) في المنطقة المجاورة نفسها، ولأهداف مشابهة في القرن التالي. وكذلك أنشأ أفراد من عائلات يهودية مؤسسات وقفية في فلسطين لأهداف اجتماعية وعائلية زمن الحكم العثماني^(١١).

ثانياً: لمحة عن مختلف أنواع الوقف في المدينة وطرائق استخدامه

استطاع الوقف أن يؤثر ويحدد على نحو متزايد العديد من أوجه عدة من البنى التحتية في مدن العالم الإسلامي، فضلاً عن الحياة اليومية للأفراد الذين يعيشون في المدن منذ القرون الإسلامية الأولى إلى القرون الوسطى، فالأزمة الحديثة والمعاصرة. ومع توسع الإسلام في مستوطنات ومدن حديثة النشأة، أو انتشاره في مراكز مدينية موروثة وقائمة، أدت تقديرات الأوقاف دوراً رئيسياً في تحديد شكل المدن، نتيجة

(١٠) عل الرغم من أن الذمين كانوا ممنوعين من إقامة وقف عائلي خلال العصور العثمانية، فإن الأبحاث تشير إلى أن ذلك جرى تجاوزه في غير طريقة. انظر: Sabine Saliba, «Une Famille, un couvent: Deir Mar Chalitta : انظر: Chronos, vol. 3 (2000), pp. 93-137. Mouqbès, 1615-1878».

وفي ظاهرة مماثلة لدى عائلة الخازن، انظر: Richard Van Leeuwen, «The Maronite Waqf of Dayr Sayyidat : انظر: Bkirkī in Mount Lebanon during the 18th Century,» pp. 259-275, and Zouhair Ghazzal, «Lecture d'un Waqf maronite du mont Liban au XIX^{ème} siècle,» dans: Deguillem, ed., *Le Waqf dans l'espace islamique: Outil de pouvoir socio-économique*, pp. 101-120.

وقد حلل فان لورين وغزال وقف عائلة الخازن وخلقههم واستخدامهم للوقف في دير سيدة بكركي. لمعلومات أوسع عن الوقف المسيحي في جبل لبنان انظر: Joseph Abou Nohra, *Contribution à l'étude du rôle des monastères dans l'histoire rurale du Liban: Recherches sur convent St. Jean de Kunshara, 1710-1960: Thèse d'état*, 2 vols. (Strasbourg: University of Strasbourg, 1983).

(١١) Ron Shahan, «Christian and Jewish Waqf in Palestine during the Late Ottoman Period,» *Bulletin of the School of Oriental and Asian Studies (BSOAS)*, vol. 54, no. 3 (1991), pp. 460-472.

إضافة مبانٍ ومجمّعات إسلامية على المشهد المدنيّ أو تكييف مبانٍ ومجمّعات قائمة في شكل مساجد، ومدارس، ودور حديث، ودور قرآن، وزوايا، وأربطة، وبيمارستانات، ومطابخ للحساء... إلخ، التي كانت معظمها ممولة من عائدات الوقف. وينشأ مدخول الأوقاف إلى حد كبير من تأجير المباني التجارية الخاصة بالأوقاف، كالمحال والأفران والمشاعل الحرفية والنزل والمقاهي والحمامات... إلخ، أو عن استغلال الأراضي الزراعية، مثل بساتين الفواكه والخضار... إلخ.

وبما أن المؤسسات قد شملت تقريباً جميع مستويات العيش ضمن مختلف طبقات المجتمع الاجتماعية والاقتصادية، أي بدءاً من أولئك الأفراد الذين أنشأوا الأوقاف إلى أولئك الذين يرمون عقوداً لتأجير ممتلكات الأوقاف، وإلى أولئك الذين يعملون عادة في المباني أو يحرقون الأراضي التي تملكها المؤسسات، فقد ساهم الوقف في المقابل في تحديد المظهر الاقتصادي والديني والسياسي والاجتماعي للمناطق المدنية في العالم الإسلامي.

خلال العصر الفاطمي، أي في القرنين العاشر والحادي عشر، وخلال العصر الأيوبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، أنشئ آلاف الأوقاف في مختلف مدن العالم الإسلامي لأهداف عامة وخاصة. على سبيل المثال، وعلى المستوى الحكومي، استخدمت الأوقاف في دمشق بهدف إنشاء ودعم أسس دينية، وبالتالي سياسية، لمجموعات نخبة حاكمة جديدة في المدينة التي أنشأ أعضاؤها مؤسسات ورفقة بهدف دعم بناء وصيانة المساجد السنّة والمدارس كحصن اجتماعي ضد تأثير أسلافهم الفاطميين الشيعة، وكوسيلة لتثبيت سلطتهم في المجتمع الإسلامي كذلك. لقد كان إنشاء هذه المؤسسات الدينية والتربوية مع الوظائف ذات الرواتب (إمام، خطيب، محدث... إلخ) التي كانت تمويلها الأوقاف، طريقة لبناء شبكات دعم محلي وقواعد متمكنة بين علماء الدين العاملين في دمشق، وقد جاء عدد منهم من خارج المدينة، الأمر الذي يعطي الطابع الكوسموبوليتي للمدينة^(١٢). علاوة على ذلك، يجدر القول إن الأفراد كانوا يستخدمون أيضاً الأوقاف كطريقة لإنشاء وضمان مراكز تعليم مؤثرة في

Gilbert, «The Ulama of Medieval Damascus and the International World of Islamic (١٢) Scholarship» Louis Pouzet, *Damas au VII^e/XI^e siècle: Vie et Structures religieuses dans une métropole Islamique* (Beirut: Dar el-Macreq, 1991); Moaz, «Les Madrasas de Damas et d'al-Salihiyya depuis la fin du V/XI^e siècle jusqu'au milieu du VII/XIII^e siècle: Textes Historiques et études architecturales.» and Michael Chamberlain, *Knowledge and Social Practice in Medieval Islam, 1190-1350* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1994).

المساجد والمدارس ودور الحديث ودور القرآن^(١٣). بمعنى آخر، لقد أمنت مؤسسات الوقف وسائل التدخل الفعلي في ترتيب المساحات المدنية من خلال بناء مجتمعات دينية جديدة، وبنى تحتية تجارية دعمت هذه المباني الضخمة، كما أمنت الطريقة الرئيسية لتغيير البنية الدينية والاجتماعية للمدن في العالم الإسلامي وإعادة توجيهها إلى حد ما.

في عصر المماليك، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ومن ثم في الدولة العثمانية، استمرت ممارسات الوقف في التنوع والتزايد، لأنها تكيّفت مع الحاجات الاجتماعية والشخصية. وفي موازاة توسع الإسلام في المستوطنات والمدن المبنية حديثاً، مثل القسطنطينية، وهي مدينة إسلامية أنشئت في منتصف القرن السابع على الضفة الشرقية لنهر النيل^(١٤)، أو في مدن متوارثة مثل إسطنبول^(١٥)، كانت مؤسسة الوقف غالباً ما تستخدم كوسيلة للمساعدة على بناء عناصر دينية وثقافية على شكل جوامع وخانات وزوايا، فضلاً عن مستشفيات ومراكز صحية، مثل اليمارستانات. وكما هو مشار سابقاً، شيدت المباني التجارية، مثل القيصريات (خانات القوافل)، والخانات، والبادستانات (مبان مخصصة للبضائع الثمينة)^(١٦)، والدكاكين والمقاهي والمباني الأخرى، أو حتى استخدمت تلك الموجودة بغية إنتاج عائدات لدعم هذه العناصر الإسلامية في المدينة.

وجرت عملية أسلمة قطاع البنى التحتية أيضاً في مدن الأندلس مثل غرناطة، وذلك مع بناء «مجمع مدرسة» في تلك المدينة (الوحيد في إسبانيا المسلمة)، إضافة إلى بناء المساجد والتزل... إلخ في مراكز مدينية أخرى خلال القرون الألفية الثمانية في شبه الجزيرة الأيبيرية من القرن الثامن إلى نهاية القرن الخامس عشر^(١٧). خلال هذه

(١٣) لتفاصيل حول الوقف الداعم لمؤسسات تعليمية في العالم المملوكي، انظر: Ulrich Haarmann, «Mamluk Endowment Deeds as a Source for the History of Education in Late Medieval Egypt», *Al-Abhath*, vol. 28 (1980), pp. 31-47.

(١٤) لتفاصيل حول التطور المدني لجزء من القاهرة، انظر: Sylvie Denoix, Jean-Charles Depaule et Michel Tuchscherer, dirs., *Le Khan Al-Khalili: Un Centre commercial et artisanal au Caire du XIII^e au XX^e siècle* (Cairo: Institut Français d'archéologie orientale, 1999), et Sylvie Denoix, *Fustât-Misr d'après Ibn Duqmâq et Maqrîzî* (Cairo: IFAO, 1992).

(١٥) Faruk Bilici, «Support économique de l'islam Orthodoxe: Le Wakf de Atâ-İlah Efendi (XVI^e-XX^e siècle)», dans: *Anatolia Moderna/yeni Anadolu X* (Istanbul and Paris: Institut Français d'études anatoliennes (IFEA), 2004), pp. 1-51.

(١٦) Halil Inalcik, «The Hub of the City: The Bedestan of Istanbul», *International Journal of Turkish Studies*, vol. 1 (1980), pp. 1-17.

(١٧) Ana Maria Carballeira Debasa, *Legados pios y Fundaciones Familiars en al-Andalus (Siglos IV/X-VI-XII)* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científica, 2002).

القرون، تم تحويل عدد من الكنائس إلى مساجد عن طريق الحبوس (مال الوقف)^(١٨). ويُعيد طرد المسلمين من إسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر أعيد تحويل المساجد إلى كنائس.

مع ذلك، لا يعني هذا أن تطور الأوقاف جاء في خط مستقيم خلال أربعة عشر قرناً من وجودها. فقد تنوّعت أوجه استخدام الأوقاف مع ممارساتها وأطرها القانونية (أحكام الأوقاف، والفتاوى ذات الصلة، والقوانين... إلخ) إلى حدّ ما في خلال تلك القرون المديدة، وذلك نتيجة تنوّع وتبدّل حاجات المجتمع، بحيث أخذت أشكالاً مختلفة وفريدة حول العالم الإسلامي، واستوعبت غالباً العادات المحلية التي كانت قائمة قبل مجيء الإسلام أو تلك التي كانت معاصرة له. كذلك اختلفت الممارسات المتعلقة بالوقف وفقاً للمذاهب التي اتبعتها مجموعات سكانية مختلفة في مناطق محدّدة.

بمعنى آخر، على الرغم من أن كلمة «وقف» تعني وقف النشاط (في اللغة العربية تعني كلمة «وقف» حرفياً «التوقف»، أما مرادفها في شمال أفريقيا^(١٩) فهو «حبس» أي «سجن» أو «كبح»)، فإن الأوقاف الدينية لم تكن مثل ممتلكات الوقف المجمّدة التي وصفها مديرو الاستعمار الأوروبي الذين تولّوا مناصبهم في شمال أفريقيا في القرن التاسع عشر. كما وصف عدد من هؤلاء الأوروبيين الذين يعيشون في شمال أفريقيا الآليات القانونية والمعرفية التي اتبعتها مديرو الوقف في ذلك الوقت، الذين قاموا، مثل نظرائهم في مناطق أخرى من العالم الإسلامي، بتأجير وتبادل أصول الوقف على نحو منظم في أسواق العقارات المحلية، فضلاً عن بيعها وشرائها ورهنها، على الرغم من القيود القانونية المفروضة على هذا النشاط. نظرياً، كان الهدف من هذا النشاط الاقتصادي والتجاري تأمين ربح للوقف، لكن الفساد أدى دوره هنا، إذ قام بعض المديرين بالتخلّص من أصول الوقف المربحة أو مصادرتها لمصلحتهم الخاصة، التي كانت تعود على الأوقاف سابقاً بالأرباح الطائلة^(٢٠).

(١٨) تظهر بعض الدراسات أن المصادر التاريخية لـ «الحبس»، التي ترجع إلى الحبوس، تختلف عن الوقف، كما تطوّراته اللاحقة. ومع ذلك فالوقف والحبس يشتركان في خصائص عدة. انظر: Jean-Claude Garéin, «Le Waqf: est-il la transmission d'un patrimoine?», dans: J. Beaucamp and G. Dagron, eds., *La Transmission de Patrimoine: Byzance et l'aire méditerranéenne: Travaux et mémoires du centre de recherche d'histoire et civilisation de Byzance* (Paris: [n. pb.], 1998), pp. 101-109.

(١٩) على سبيل المثال، انظر: Louis Milliot, *Démembrements du habous. Manfa'a, Gza, Guelsa, Zinaet: Istighraq* (Paris: [n. pb.], 1918).

(٢٠) كان شائعاً أن تمهد ممتلكات الوقف في السوق العقارية من خلال بعض العقود. انظر: Randi Deguilhem,

من بين الأمثلة المتعددة حول المدن الحديثة النشأة التي أدى فيها الوقف دوراً قيادياً في تحديد الطابع الإسلامي للبنى التحتية المدنية، يمكننا ذكر ما يلي: الفسطاط، وهي مدينة إسلامية تأسست في عام ٦٤٣م، على الضفة الشرقية لنهر النيل، على يد عمرو بن العاص الذي قاد الجيوش الإسلامية الفاتحة إلى مصر^(٢١)؛ والقاهرة التي تأسست على بعد بضعة كيلومترات من الفسطاط في عام ٩٧٠م، على يد الخليفة الفاطمي المعز^(٢٢)؛ وبغداد التي تأسست مع بداية الحكم العباسي في منتصف القرن الميلادي الثامن، على يد الخليفة المنصور كمدينة السلام. وعلى الرغم من أن هذه المدن تأسست على يد حكام إسلاميين كمراكز مدنية للعالم المسلم، فلقد كانت في الواقع مأهولة سابقاً، لكن عندما تم تحويلها إلى مدن إسلامية كانت أجزاء عديدة منها في حالة خراب. في البداية، كانت الضفة الأساسية التي ميّزت تلك المدن كمدن إسلامية، بناء مسجد الجماعة بتمويل من عائدات ممتلكات الوقف، ومن ثم شيد مباني أخرى ترافق المدن الإسلامية المذكورة سابقاً.

كما ضمت المدن المتوارثة في العالم الإسلامي المباني نفسها التي كانت تمولها الأوقاف إلى حد كبير، لكونها مأهولة بالسكان المسلمين. ومن بين بعض أهم الأمثلة اللافتة للنظر مدينة القسطنطينية، وهي العاصمة السابقة للإمبراطورية البيزنطية المسيحية التي غزاها العثمانيون عام ١٤٥٣، فقد أخذت المدينة خصائص مدنية نموذجية للمدينة الإسلامية، أي وجود المسجد الجامع وغيره من المعالم الإسلامية التي مولتها الأوقاف^(٢٣). كما استخدمت شخصيات مسلمة بارزة مؤسسة الوقف في المدينة لتحديد المظهر الديني لمدينة إسطنبول العثمانية والتأثير فيها^(٢٤).

«The Loan of Mursad on Waqf Properties,» in: F. Kazemi and R. D. McChesny, eds., *A Way Prepared: Essays on Islamic Culture in Honor of Richard Bayly Winder* (New York: New York University Press, 1988), pp. 68-79; Zouhair Ghazzal, *L'Economie politique de Damas durant le XIX^{ème} siècle* (Damas: IFEAD, 1993), pp. 101-117, and Shuval, «La Pratique de la Mu'awada (échange de biens habîs contre propriété privée) à Alger au XVIII^{ème} siècle,» pp. 55-72.

(٢١) كما يتيّ نيللي حنا في: Nelly Hanna, *An Urban History of Bûlâq in the Mamluk and Ottoman Periods* (Cairo: Institut Français d'archéologie orientale, 1983).

(٢٢) لتفاصيل أكثر حول تطوّر جزء من القاهرة نتيجة لتقديرات الوقف، ولو جزئياً. انظر: Denoix, Depaule et Tuchscherer, dirs., *Le Khan Al-Khalili: Un Centre commercial et artisanal au Caire du XIII^{ème} au XX^{ème} siècle*.

Suraiya Faroqhi, «A Map of Anatolian Friday Mosques (1520-1535),» *Osmanli Arastimarli*, (٢٣) vol. 4 (1984), pp. 161-173, and Halil Inalcik, «Istanbul: An Islamic City,» *Journal of Islamic Studies*, vol. 1 (1990), p. 1-23.

(٢٤) كمثال على أعداد القرون الكثيرة، انظر: Bilici, «Support économique de l'islam Orthodoxe: Le Wakf de Atâ-llah Efendi (XVI^{ème}-XX^{ème} siècle),» pp. 1-51.

يمكن العثور على أمثلة مشابهة في مدن متوارثة أخرى في الإمبراطورية العثمانية. وأحد الأمثلة على ذلك حلب التي استخدمت فيها الأوقاف لخلق مساحة إسلامية عندما قام حاكم المدينة إيشير باشا في منتصف القرن السابع عشر بتأسيس وقف ضخم مع ممتلكات تجارية ذات عائدات على شكل خان، وقيسارية، وفرن، ومصبغة، ومقهى، ومحال تقع في الحي المسيحي من مدينة الجُدَيْدة، التي كانت تذهب عائداتها إلى الأماكن الدينية الإسلامية الواقعة في أحياء أخرى في حلب^(٢٥). تشكّل مدينتا القاهرة^(٢٦) والموصل^(٢٧) المتوارثتان منذ زمن الإمبراطورية العثمانية مثالين آخرين يبيّنان كيف أن أصول الوقف والمستفيدين منها تصل إلى أحياء دينية بينية. تجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من التمازج غير الطائفي للأنشطة التجارية والاقتصادية في المدن الإسلامية كان عادة المعيار المعتمد، في حين يقوم أفراد الديانات المختلفة باستئجار أو استخدام ممتلكات تمنح لوقف ما من جانب فرد ينتمي إلى مجموعة دينية أخرى.

وإذ نتجه نحو الشرق، يمكننا ذكر مدينة بلخ (بختريا) [هي اليوم وزير أباد]، وهي مدينة مهمة من الناحيتين التجارية والسياسية في آسيا الوسطى التي تضم مقام «الإمام علي» [ويعتقد أن عمرأ بن علي بن أبي طالب مدفون فيه] الإسلامي الذي مولته عدة أوقاف منذ أواخر القرن الخامس عشر حتى يومنا هذا^(٢٨).

وتبدو أهمية الوقف معتمدة إلى حد كبير على واقع كون مقام «الإمام علي» هو نقطة ارتكاز العائدات بدلاً من البنى التحتية المدنية في بلخ نفسها. وقد يصبح استخدام أو حتى عدم استخدام الأوقاف كتقنية لتطوير الخدمات المدنية وتعزيزها أوضح إذا ما نظرنا إلى ممارسة الوقف في مدن أخرى في آسيا الوسطى. على سبيل

Jean Claude David and Bruno Chauffert-Yvart, *Le Waqf d'Ispir Pasa à Alep (1063/1653)*: (٢٥) *Étude d'urbanisme historique* (Damas: IFEAD, 1982), and André Raymond, «Les Grandes waqfs et l'organisation de l'espace urbain à Alep et au Caire à l'époque Ottomane (XVI^{ème}-XVIII^{ème} siècle),» *Bulletin d'étude orientales* (BEO), vol. 31 (1980), pp. 113-128.

André Raymond, *Artisans et Commerçants au Caire au XVIII^{ème} siècle*, 2 vols. (Damas: (٢٦) IFEAD, 1973; Reprint: Cairo: IFAO, 1999); Nelly Hanna: *Construction Work in Ottoman Cairo (1517-1798)*, 2 vols. (Cairo: IFAO, 1984), and *Habiter au Caire au XVI^{ème} et XVII^{ème} siècle*, 2 vols. (Cairo: IFAO, 1991).

Dina Rizk Khoury, *State and Provincial Society in the Ottoman Empire: Mosul, 1540-1834* (٢٧) (Cambridge: Cambridge University Press, 1997).

Robert D. McChesney, *Waqf in Central Asia: Four Hundred Years in the History of Muslim* (٢٨) *Shrine, 1480-1889* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1991).

المثال، في مقابلة أجريت مؤخراً في حزيران/يونيو ٢٠٠٤ مع نائب إمام المسجد في مدينة أورالسك الواقعة في غرب كازاخستان على مسافة غير بعيدة من الحدود الجنوبية الشرقية الحالية مع روسيا، كشف أن منح الممتلكات المدنية كأصول ذات عائداً من أجل إنشاء أو صيانة البنى التحتية الدينية أو الخيرية أو العامة كان سابقاً ممارسة غير موجودة في منطقة أورالسك، وفي كازاخستان نفسها أيضاً. من جهة أخرى، شدد نائب إمام مسجد أورالسك على أن الأراضي الزراعية كانت عادة تمنح للوقف، غير أن حجم هذه الأصول الممنوحة، فضلاً عن المستفيدين من هذه العائدات تبقى غير واضحة حتى اليوم بسبب نقص الدراسات الموثقة^(٢٩). إن هذه الطريقة في استخدام الممتلكات الزراعية كأصول ذات عائداً لوقف ما بدلاً من استخدام عقارات مبنية هو أيضاً واقع الحال في إيران^(٣٠).

أما إذا اتجهنا نحو شبه القارة الهندية، فيمكننا أن نلاحظ أن المؤسسات الخيرية والعامة والدينية في المراكز المدنية ذات الكثافة السكانية المسلمة، إضافة إلى المناطق الزراعية في الهند، كانت منظمة على دخول واسعة من عائداً الوقف. هذه هي الحالة نفسها بالنسبة إلى المؤسسات العائلية المسلمة في الهند^(٣١). وبما أنه كان لهذه الأوقاف ممتلكات مدنية كثيرة وقطع أرض مهمة في مناطق محيطة بالمدن، وحتى في مناطق ريفية أيضاً، بذلت الإدارة الاستعمارية البريطانية جهوداً كبيرة في القرن التاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين في محاولة لجعل هذه الأصول تحت سيطرة الدولة. بهذه الطريقة، اتبع البريطانيون تصرفاً مماثلاً في فلسطين، كما تصرفت القوى المستعمرة الفرنسية في سورية ولبنان بالطريقة نفسها بالنسبة إلى الجهود المبذولة لإدارة ممتلكات الوقف الثرية وعائداتها^(٣٢).

(٢٩) مقابلة لراندي ديفولم مع نائب إمام جامع أورالسك (كازاخستان في ٢٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٤) الذي بنى أجريته بخصوص ممارسة الوقف ماضياً وحاضراً في كازاخستان بناء على مشاهداته كما على مسوحات أجريت في أوائل الحكم السوفياتي للمنطقة. كذلك راجع المسألة من سنة ٢٠٠٣ في: *The Religious Board of Kazakhstan Muslims* (Almaty: Information on Islamic Practicer in Kazakhstan, 2003).

Ann K. S. Lambton, «Wakf in Persia», in: Peters [et al.], *Encyclopedia of Islam*. (٣٠)

Gregory C. Kozlowski: *Muslim Endowments and Society in British India* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1985), and «The Changing Political and Social Contexts of Muslim Endowments: The Case of Contemporary India», in: Randi Deguilhem, ed., *Le Waqf dans l'espace islamique: Outil de pouvoir socio-politique* (Damas: IFEAD, 1995), pp. 277-291.

Randi Deguilhem-Schoem, «History of Waqf and Case Studies from Damascus in Late Ottoman and French Mandatory Times», (Ph.D. Dissertation, New York University, New York, 1986), pp. 117-143. (٣٢)

وإذا توجهنا أكثر نحو الشرق، يمكننا أن نرى ظروفاً مشابهة باستخدام أموال الوقف لأهداف خيرية ودينية، فضلاً عن أغراض عائلية خاصة من جانب مسلمين في مناطق مدنية في ماليزيا وسنغافورة^(٣٣).

ثالثاً: ممارسة الوقف وتنظيم المكان المدني: مدينة حلب مثلاً^(٣٤)

إذا ألقينا نظرة دقيقة على عدد من الأوقاف الضخمة التي أسستها شخصيات مؤثرة في مدن ضمن العالم الإسلامي، يمكننا أن نستخلص التأثير الكبير الذي تركته مؤسسات الوقف في البنى التحتية المدنية.

تقدم إلينا مدينة حلب السورية الشمالية مثلاً جديراً بالذكر حول استعمال الوقف لتعديل مظهر المدينة وتشكيله، ولترك علامة راسخة على المنطقة المدنية. فبعد مرور عدة عقود على الغزو العثماني للمدينة عام ١٥١٧، اتسعت مساحة حلب إلى حد كبير قياساً على ما كانت عليه في عصر المماليك مع إنشاء عدد من الأوقاف الضخمة^(٣٥).

أما خسرو باشا، وهو أحد أوائل الحكام العثمانيين على حلب، فقد طوّر مظهر المدينة بصورة دائمة ببناء مسجد الخسروية عام ١٥٤٤ جنوب شرق القلعة والمدينة المملوكية. وجرى دعم الخسروية عن طريق بناء مجموعة من المباني التجارية التي شيدت على مساحة ٤ إلى ٥ هكتارات، وهي تضم قيسارية من خمسين محلاً وخاناً فيه

Murat Cizakça, *A History of Philanthropic Foundations: The Islamic World From the Seventh Century to the Present* (Istanbul: Bogazici University Press, 2000), pp. 210-234.

(٣٤) مع أن حلب فقط هي المعنية بهذا البحث، فلقد نشرت دراسات عن مدن سورية أخرى، خصوصاً

دمشق. انظر: Jean Claude Pascual, *Damas à la fin du XVI^{ème} siècle d'après trois actes de Waqf ottomans* (Damascus: IFEAD, 1983); James Reilly, «Rural Waqfs of ottoman Damascus: Rights of Ownership, Possession, and Tenancy», *Acta Orientalia*, vol. 51 (1990), pp. 27-46; Randi Deguilhem, «Waqf Documents: A Multi Propose Historical Source: The Case of Damascus in the Nineteenth Century», dans: Daniel Panzac, *Les Villes dans l'empire ottoman: Activités et société* (Paris: CNRS, 1991), pp. 67-95 and 191-203, and Astrid Meier, «Waqf Only in Name, Not in Essence: Early Tanzimât Waqf Reforms in the Province of Damascus», in: Jens Hassen, Thomas Philipp and Stefan Weber, eds., *The Empire in the City: Arab Provincial Capitals in the Late Ottoman Empire* (Beirut: Orient Institut der DMG, 2002), pp. 201-218.

(٣٥) ما سيلي مأخوذ من: Raymond, «Les Grandes waqfs et l'organisation de l'espace urbain à Alep et au Caire à l'époque Ottomane (XVI^{ème}-XVIII^{ème} siècle)», pp. 115-117.

٩٥ محلاً وسوقاً ومحال أخرى بنيت حول المسجد أو في جواره وقد ذهبت لإيجاراتها إلى تمويل الخسروية.

لقد غيّرت هذه المباني، أي المسجد والبنى التحتية التجارية التي دعمته، وجه المدينة جوهرياً، موسعة بالتالي مساحة المدينة إلى ما وراء حدودها السابقة في عصر المماليك.

استمر العمل بهذه المباني مع المجموعة اللاحقة من الحكام والوجهاء العثمانيين في حلب الذين ساهمت أوقافهم إلى حد كبير بتغيير مظهر المدينة جذرياً مع بناء مجتمعات دينية وتجارية على مساحات كانت في زمن المماليك أراضي شبه خالية.

وبعد مرور بضع سنوات على بناء الخسروية والبنى التحتية التجارية المرافقة لها، قام محمد باشا دوقه كين زاده، وهو شخصية ذو سلطة، وعلى علاقة بأسرة السلطان العثماني، ببناء مجموعة مهمة من المباني التجارية التي هدفت إلى دعم جامع العادلية الذي شُيد عام ١٥٥٥ غرب مسجد الخسروية. وقد امتدت المباني التي شُيدت إلى جامع العادلية على مساحة تقارب الثلاثة هكتارات غرب وشمال وشرق المسجد، وقد ضمت أربع أسواق تحتوي على ١٥٧ محلاً.

بعد نحو عشرين عاماً، حافظ إبراهيم خان زاده محمد باشا على مباني الوقف الكبيرة هذه الواقعة غرب القلعة وجنوبها مع بناء الوقف الخاص به عام ١٥٧٤. وعلى الرغم من أن معظم البنى التحتية التجارية الضخمة المنتجة للعائدات التابعة للوقف الخاص به كانت في حلب، أي خارج المناطق المملوكية السابقة للمدينة، مساهمة بالتالي في توسيع المنطقة الممدنة وتطويرها، بما في ذلك خان الجمرک الجميل الذي يضم ٣٤٤ محلاً، فقد كان جزء من ممتلكات الوقف يقع أيضاً في مدن عثمانية أخرى. يبيّن هذا الواقع مرة أخرى كيف أن الطبيعة المتداخلة لأصول الوقف والشبكات الكبيرة الخاصة به، كانت ممتدة على مساحات واسعة، حيث تنشأ عائدات الوقف جزئياً في مناطق بعيدة من المستفيد من الوقف.

ولكي تكتمل صورة أوقاف القرن السادس عشر الكبرى التي تم تأسيسها في حلب، والتي غيّرت جذرياً في وجه المدينة، ترك بهرام باشا الذي تولى منصب حاكم حلب عام ١٥٨٠ أثره في البنى التحتية الخاصة بحلب عبر بناء مسجده الخاص الذي سمّاه جامع البهرمية الواقع في غرب القلعة، والمبني في إطار الوقف الخاص به عام ١٥٨٣. وقد تم تمويل بناء جامع البهرمية وأنشطته من سوقين مؤلفين من تسعة وعشرين

محلاً وقيسارية تضم خمساً وثلاثين غرفة تقع شمال هذا المسجد. أما الممتلكات الأخرى التي تقع في أجزاء أخرى من المدينة، مثل الحمام الموجود في حي الجُدَيْدة المسيحي الكبير، فقد ساهمت أيضاً في تمويل الوقف^(٣٦).

هذه الملاحظات المتعلقة بالأوقاف الكبيرة التي تم تأسيسها في حلب أيام الحكم العثماني ستبقى ناقصة ما لم تنتقل إلى القرن التالي لنلقي نظرة على وقف إيشير مصطفى باشا الذي بدلت مبانيه أيضاً صورة المدينة^(٣٧).

إن معظم مساحات الأرض الواقعة في غرب المدينة وجنوبها إنما باتت مساحات مدنية في القرن الماضي بفضل الأوقاف المذكورة سابقاً، فقد قرر إيشير باشا، حاكم دمشق عام ١٦٤٩، ومن ثم حاكم حلب عام ١٦٥١، إنشاء معظم البنى التحتية التجارية الخاصة بوقفه الذي تأسس في عام ١٦٥٤ في الجزء الشرقي من الحي الذي تم تطويره حديثاً في المدينة، أي حي الجُدَيْدة (الاسم نفسه يشير إلى حدائق الحي) الذي يأهله سكان معظمهم من المسيحيين. وكذلك كان مسجده يقع في هذا الحي في جنوب شرق الجُدَيْدة، الأمر الذي يبين مرة أخرى أن المباني والأنشطة المختلفة للمجموعات الطائفية كانت تتكاتف بعضها مع البعض الآخر، وعلى نحو عادي في معظم مدن العالم الإسلامي. ومع أن المسجد كان متواضعاً، فقد جرى دعمه ببنى تحتية تجارية مهمة شملت سوق النوال الذي ضم قيسارية حدّت الجهة الشرقية للمسجد، فضلاً عن خان العرصة (ليعب الحبوب) الواقع في شمال المسجد. كما كانت هناك قيساريتان ومحل وفرن عند غرب المسجد، فضلاً عن مقهى ضخم له أربع عشرة نافذة وسبعة أعمدة من الرخام باتجاه الجنوب. وأخيراً، كانت هناك أيضاً قيسارية واسعة جداً إلى جانب المسجد، وهي تتألف من طابقين مع سبع عشرة غرفة، ومن ستين محلاً وورشة عمل لتصنيع الملابس الحريرية والمخملية والساتان. هذه كلها شكلت بنى تحتية تجارية ضخمة أدت دوراً اقتصادياً بارزاً في حي الجُدَيْدة المسيحي في حلب.

بعد ذكر كل ما سبق، من المهم جداً أن ندرك أن معظم الأوقاف قد ألحقت بأوقاف أخرى أكثر تواضعاً. أنشئت هذه الأوقاف الصغيرة على بعض الممتلكات، ولأهداف

(٣٦) أندريه ريمون الذي درس بالتفصيل التأثير المدني للوقف في أجزاء كبيرة من القرن السادس عشر في حلب العثمانية، اعتماداً على سجلات محلية، إذ طبق نصوصاً من كتاب نهر اللعب في تاريخ حلب للفرزي، الذي استند إلى الوقفيات، على تلك الموجودة في خريطة حلب. انظر: المصدر نفسه، ص ١١٥ - ١١٧، والخرائط في نهاية مقاله.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١١٧ - ١٢٠، وDavid and Chauffert-Yvart, *Le Waqf d'Ispir Pasa à Alep* (1063/1653): *Etude d'urbanisme historique*.

بسيطة في المجتمع تختلف عن الأوقاف الكبيرة التي تبين الطابع الروتيني للمؤسسة في حياة الناس العاديين، واستعمال المؤسسة من جانب مالكي صغار، كطريقة للمساهمة والتدخل في عمليات المجتمع اليومية. لقد كان الوقف وسيلة أيضاً لتوفير الضمانة المالية لأولاد الناس العاديين من خلال بناء الوقف العائلي، كما هو مشار إليه في الفصول السابقة واللاحقة للمساهمة الحالية.

رابعاً: الوقف في المدينة: اعتبار شخصي أم اجتماعي؟

يمكننا، من النظرة الأولى، الافتراض أن إنشاء الوقف والخيارات المتخذة لتأسيسه، تمثل الجوهر المطلق لأسلوب التعبير الفردي الذي تبقى بعد وفاة المانح، إذ إن الوقف يستمر في أداء وظيفته حتى بعد وفاة المؤسس، ما يضيف طابع الخلود على الوقف ومؤسسه أيضاً. يتخذ مؤسس الوقف بلا شك مبادرة شخصية لحظة تأسيس الوقف، بغض النظر عما إذا كان مانح الوقف رجلاً أو امرأة، لأن الوقف مؤسسة تتجاهل الجنس^(٣٨)؛ ولكن إذا تفحصنا هذه الخيارات التي يتخذها مانح الوقف في خصوص أصول المؤسسة والمستفيدين منها ومديرها يتبين لنا تقريباً بأنها تعكس المركز الاجتماعي والاقتصادي لعائلة المؤسس، وتؤثر بالتالي عن قصد أو غير قصد في الخيارات المتخذة في الوقف^(٣٩).

يظهر البيان المثلث في الرسم الرقم (٣٨ - ١) مانح الوقف على القمة التي تصدر عنها الخيارات المتعلقة بإنشاء المؤسسة، فضلاً عن الخيارات المتعلقة بالإدارة الأساسية للوقف. ويؤدي الشهود الذين يوقعون اسمهم في أسفل عقد الوقف دوراً حيوياً في تثبيت الوقف، لأنهم يشهدون على التكامل بين مانح الوقف والقرارات التي يتخذها أو تتخذها عند تأسيسه.

وكقاعدة عامة، كلما زادت أهمية الوقف، كثر عدد الشهود الذين يشهدون صحة الوقف ويوقعون عقد تأسيسه. ولكن الشهود لا يظهرون في الرسم التالي، لأنهم يقومون

Randi Deguilhem, «Gender Blindness and Societal Influence in Late Ottoman Damascus: (٣٨) Women as the Creators and Managers of Endowments,» *HAWWA: Journal of Women in the Middle East and the Islamic World*, vol. 1, no. 3 (2003), pp. 329-350.

Randi Deguilhem, «Centralized Authority and Local Decisional Power: Management of the (٣٩) Endowments in Late Ottoman Damascus,» in: Hassen, Thomas Philipp and Stefan Weber, eds., *The Empire in the City: Arab Provincial Capitals in the Late Ottoman Empire*, pp. 219-234.

بدورهم مرة واحدة، أي عند تأسيس الوقف، وبالتالي هم لا يشغلون وظيفة مستمرة في عمليات الوقف، كما تفعل العناصر المبيّنة في الرسم البياني.

يعدّ الوقف وحدة مكتفية ذاتياً، وفي المبدأ وحدة مستقلة ومستمرة بذاتها، كما هو مبين في الرسم المثلث، وهو يدور حول نفسه إلى ما لا نهاية. ويظهر الرسم العلاقات والروابط القائمة بين مؤسس الوقف والممتلكات المنتجة للمداخل والمستفيدين من الوقف على أنها مجموعة علاقات تتكرر وتتجدّد في كل مرة يعمد مدير الوقف إلى توزيع العائدات الناتجة من ممتلكات الوقف على المستفيدين منه. وغالباً ما كان يتم توزيع العائدات على أساس سنوي وفقاً للصيغة المذكورة عادة في عقد تأسيس الوقف، وقد أنشئت هذه الروابط المثلثة «إلى الأبد». ولكن في الواقع كان هناك تغييرات مستمرة ضمن هذا المثلث.

الرسم الرقم (٣٨ - ١) مانح الوقف



على سبيل المثال، يذكر مانح الوقف شخصياً، بالاسم أو بالإشارة، المستفيدين الذين سيحصلون على جزء محدد من عائدات الممتلكات الخاصة به أو بها، والتي تكون بالتحديد مخصصة لإنتاج مدخول للمؤسسة. كما يعيّن مانح الوقف المدير الذي سيشرف على أنشطة المؤسسة (في زمن الحكم العثماني بهدف مراقبة الوقف غالباً ما كان المدير الأول لمؤسسة ما هو نفسه مانح الوقف). حتى التغييرات المستقبلية

التي قد تطرأ على العلاقات القائمة بين مانح الوقف والملكية/الممتلكات الممنوحة والمستفيد/المستفيدين من الوقف ومدير الوقف، فقد استبقها المانح مبدئياً في وثيقة المؤسسة عبر تسمية بدلاء.

بمعنى آخر، قد تتغير بلا شك عناصر المؤسسة مع مرور الوقت، إذ يمكن في أي لحظة في المستقبل بعد تأسيس الوقف أن يتوفى مدير الوقف، وتبرز الحاجة إلى بديل. كما قد يتوفى المستفيدون - في حال كانوا أشخاصاً - ويتولى آخرون مكانهم. أما إذا كان المستفيدون مؤسسات (مبانٍ دينية أو عامة ...)، فقد تتوقف عن العمل أو قد تتعرض للخراب في المستقبل نتيجة فرط استعمال المباني التي لم تلقَ اهتماماً ملائماً لجهة صيانتها أو نتيجة وقوع كارثة (حريق، فيضان، زلزال)، بحيث تتوقف حيثئذ عن العمل، وبالتالي لا تعود تنجز أهداف الوقف (عمل المساجد، المدارس الدينية، عيادات صحية...). حيثئذ تبرز حاجة إلى استبدال هؤلاء المستفيدين.

وأخيراً، قد تصير الممتلكات المنتجة للعائدات والممنوحة للوقف (عقارات مثل المباني أو الأراضي الزراعية التي تم تأجيرها...) مفرطة الاستغلال، كحالة قطعة أرض زراعية تصاب بضرر بفعل الاستخدام المفرط للتربة، بحيث لا تستطيع بعد ذلك إنتاج المدخول المطلوب، وتحتاج إلى الاستبدال. يلاحظ مانح الوقف هذه التغيرات المستقبلية، وينصّ عليها ويذكرها في العقد التأسيسي للوقف من خلال ذكر أسماء الأشخاص أو المؤسسات التي ستحلّ مكان المجموعة الأولى من المديرين والمستفيدين والممتلكات المنتجة للعائدات. ويؤكد هذا مبدئياً رؤية مانح الوقف حول الهيئة والإدارة المستقبلية للوقف.

بصورة أخرى، كان يتم في بعض المقاطعات الأناضولية والعربية في الإمبراطورية العثمانية تسليف مبالغ محدّدة من العائدات الناتجة من حصص محدّدة من الممتلكات الخاصة بمانح الوقف (حليب)^(٤٠)، التي نتجت إلى حدّ كبير من عائدات عقود الإيجار المبرمة حول أصول مثل المباني أو الأراضي الزراعية العائدة إلى الوقف، وكذلك من الممتلكات المنقولة بما في ذلك المبالغ النقدية، كما هو مشار إليها سابقاً، والتي تم تسليفها بهدف الربح. وجاءت تمويلات الوقف على أساس سنوي، في حين وزّع

(٤٠) مع ذلك، هناك استثناءات، حيث أسس مانحون أوقافاً عثمانية في القرن التاسع عشر ذات أصول مستندة إلى «الميري» وفق عقد سند طابو أعطى حق استخدام عائدات الميري. انظر: Deguilhem, Ibid., pp. 70-74. أو إرساد (شكل آخر للملكية)، انظر: Kenneth Cuno, «Ideology and Juridical Discourse in Ottoman Egypt: The Uses of the Concept of Irsad», *Islamic Law and Society*, vol. 5, no. 3 (1998), pp. 1-28.

المديرون الذين يعينهم المانح حصصاً محددة من عائدات الوقف إلى المستفيدين، كما يشير إليها المانح بصراحة في وثيقة التأسيس.

نظراً إلى أن عائدات الوقف توزع على أساس دوري إلى المستفيدين من المؤسسة، ترك المانح بصمة خاصة ومتجددة في تركيبة المجتمع من خلال ربط اسمه أو اسمها بـ «صورة دائمة» بعنصر محدد في المجتمع، أي المستفيد/ المستفيدين، وسبب وجود الوقف، ومتسلم عائداته.

إن الشكل المثلث، كما هو مخطط سابقاً، يمثل مئات آلاف وحدات الوقف التي كانت تعمل في المدن الإسلامية، فضلاً عن المناطق الريفية في دار الإسلام، ضمن إطار أكبر تحدده عدة مجموعات من القانون. لقد وضع ريتشارد فان لوين دراسة حول دمشق في القرن التاسع عشر، مظهراً العلاقات القائمة بين عدد من مؤسسات الوقف التي عملت وفقاً لقانون الدين الإسلامي (الشريعة)، وقانون الدولة العثمانية (قانون)، فضلاً عن الممارسة التقليدية (العرف) ^(٤١).

على الرغم من أن هذا الشكل المثلث جاء وفقاً للأصول، فقد برزت عدة اختلافات. على سبيل المثال، وإن كانت مؤسسة الوقف ينشئها فرد وفقاً للرسم المخطط سابقاً، إلا أنه في بعض الحالات النادرة يقوم شخصان معاً بإنشاء وقف مثل ذلك الذي أسسه الثنائي المملوكي قُشبغا وزوجته آق ملك بنت عبد الله، في دمشق عام ٨٦٦هـ/ ١٤٦١م. فقد ذهبت عائدات أوقافهما إليهما، وإلى أولادهما ^(٤٢)، إذ اشترط مانح هذا الوقف أن يذهب جزء من أرباحهما الناشئة من مؤسستهما إلى الفقراء مع الجامع الأموي في دمشق، في حين تذهب أجزاء أخرى من العائدات إلى مطعم في المدينة، فضلاً عن الفقراء الذين يسكنون في مرابط المدينة (وهو خيار شعبي للمستفيدين الأساسيين من الوقف العائلي) بعد انقراض سلالتهم. كما كان جزء من الأرباح مخصصاً للعيد المعتمدين العاملين عند الثنائي الذي أسس الوقف.

وفي زمن الحكم العثماني استمر مانحو الوقف باتباع هذه العادة بإدخال عبيدهم المعتمدين في لائحة المستفيدين كجزء من العائلة الموسعة، كما حصل في الأوقاف التي

Richard van Leeuwen, *Waqfs and Urban Structures: The Case of Ottoman Damascus* (Leiden: Brill, 1999).

Michael Winter, «Mamluks and their Households in Late Ottoman Damascus: A Waqf Study», (٤٢) in: Michael Winter and Amalia Levanoni, eds., *The Mamluks in Egyptian and Syrian Society* (Leiden: Brill, 2004), pp. 297-316.

أسستها حفيظة خانم المورلي، وهي زوجة مسؤول حج بارز في دمشق^(٤٣) (صورة أميني) في عام ١٨٨٠ بعد مرور أربعة قرون على تأسيس وقف قُشْبُغَا، ووقف آق ملك بنت عبد الله.

أما الوقف النقابي في الإمبراطورية العثمانية، فقد كان تغييراً آخر طرأ على الرسم المثلث، لأن هذا النوع من الأوقاف لم يكن مؤسساً على يد فرد بذاته، بل على يد أعضاء نقابة كمجموعة. وكانت أصول الوقف النقابي في الأساس أموالاً نقدية يمكن الحصول عليها لتوزيعها على المحتاجين من بين أعضاء النقابة أو عائلاتهم. وفي حال كانت النقابة متعددة الطوائف، توافر هذا الوقف الجماعي لأعضاء النقابة كافة بغض النظر عن الدين. أما خارج بنية النقابة، فقد كان يتم تسليف أموال نقدية من هذه الأوقاف التابعة للنقابة مع فائدة كمجازفة متبعة للعائلات بغية إيجاد مدخول للنقابة^(٤٤).

أما الوقف النقدي في بعض أنحاء الإمبراطورية العثمانية، فقد كان طريقة مشيرة للجدل، لكن ظاهرياً مستخدمة على نطاق واسع من أجل توليد العائدات للأوقاف، حتى التي لا تخص النقابات. وفي محاولة لجعل هذه الممارسة رسمية في القرن السادس عشر، صدّق شيخ الإسلام العثماني أبو السعود على الوقف النقدي^(٤٥)، وفي نحو منتصف القرن السادس عشر كانت الممتلكات النقدية، بحسب بعض المصادر، تمثل جزءاً مهماً من أصول الوقف العثماني^(٤٦).

أخيراً، تجدر الإشارة إلى تعدد المؤسسات الفردية التي أسسها مانحون مختلفون للشخص نفسه، إذ تحصل هذه الحالة عادة في المواقع الدينية المحلية والعالمية المعروفة أو المهمة على حد سواء. مثلاً، غالباً ما كان مسجد مجاور صغير أو مدرسة

Randi Deguilhem, «Naissance et Mort du waqf damanscain de Hafiza Hânûm Al-Mûrahli (٤٣) (1880-1950),» in: Randi Deguilhem, ed., *Le Waqf dans l'espace islamique: Outil de Pouvoir socio-économique* (Damascus: IFEA, 1995), pp. 221-222.

Suraiya Faroqhi, «Ottoman Guilds in the Late Eighteenth Century: The Bursa Case,» in: (٤٤) *Making a Living in the Ottoman Lands, 1480-1820* (Istanbul: Isis Publishers, 1995), pp. 97 and 102-108.

John Mandaville, «Usurious Piety: The Cash: حول الوقف النقدي: (٤٥) انظر أحد أول المنشورات *Waqf Controversy in the Ottoman Empire, International Journal of Middle East Studies*, vol. 10, no. 3 (August 1979), pp. 289-308.

وتلا ذلك عدة دراسات لاحقة استندت إلى أرشيف سجلات المحاكم، لبهاء الدين يديليديز، وتُرك طارح كُرومو، ومراد جيزاكجا، وفاروق بيليحي.

O. L. Barkan and E. H. Ayverdi, *Istanbul Vakıfları Tahrir Defteri, 943 (1546) Tarihli* (Istanbul: (٤٦) *Baha matbasi*, 1970).

دينية واقعة في المدينة أو القرية، المستفيد من الأوقاف العديدة التي أسسها أفراد يعيشون في مناطق مجاورة، فخلقوا بالتالي رابطاً دائماً بين أنفسهم والمستفيد من عائدات أوقافهم. وكانت هذه أيضاً حالة معظم المواقع المشهورة في العالم الإسلامي، مثل المدينتين المقدستين في السعودية (الحرمين الشريفين)، والمسجد الأقصى في القدس، والأزهر في القاهرة، والجامع الأموي في دمشق... إلخ، وجميعها يحصل على عائدات من عدد غير محدد تقريباً من مؤسسات الوقف. كما لا بد من التأكيد أن هذه المباني التي يزورها ويستخدمها المؤمنون باستمرار، تحتاج إلى أعمال تصليح متواصلة تمولها إلى حد كبير أموال الأوقاف.

وإذ نتذكر العلاقات القائمة بين مانح الوقف والممتلكات الممنوحة ومدير الوقف والمستفيدين من الوقف، نعود لنطرح السؤال التالي: هل تُعدّ مؤسسة الوقف بياناً شخصياً، أم أنها تتوقف على المركز الاجتماعي لعائلة المانح؟ وإلى أي مدى تمثل العلاقات المشار إليها في الرسم السابق فعلاً الخيارات والقرارات الشخصية من مثل مانح الوقف؟ وكيف تؤثر الجماعة الدينية الحالية والمجتمع السياسي والاقتصادي الأوسع في اختيار المانح؟ ختاماً، ما هو مجال المناورة والاختيار الحر الذي يعطى للمانح في ما يخص الأصول والمستفيدين والأوصياء المعيّنين على الوقف؟ وإلى أي مدى يكون الوقف مؤسساً «إلى الأبد»؟

تعدّ صفة الأبدية هذه مثلاً أعلى، بحيث إن عدداً من المؤسسات العائلية الصغيرة التي تمنح ملكية واحدة أو عدة ملكيات منتجة للعائدات، تعمل في الواقع ضمن مهلة زمنية محددة (أي عدة سنوات، أو عدة عقود) حتى تتوقف الأصول عن إنتاج العائدات المطلوبة، وتصبح بالتالي غير قابلة للاستمرار، على الرغم من إمكان قيام مدير الوقف باستبدال هذه الممتلكات بأخرى مربحة عن طريق «الاستبدال» أو «المعاوضة» أو ترتيبات أخرى، ولكن لم تكن هذه حالة الأوقاف الكبيرة والمؤثرة التي حصلت باستمرار على تدفق في الممتلكات الجديدة، التي إما منحت بطريقة مباشرة إلى المؤسسات التي سبق أن تأسست، وإما من خلال إنشاء أوقاف جديدة أضيفت في ما بعد إلى الوقف المؤسس أصلاً. في العادة، استمرت هذه الأنواع من المؤسسات لعدة قرون، والبعض منها ما زال قائماً حتى اليوم.

أما وقف خاسكي سلطان في القدس الذي تأسس في النصف الأول من القرن السادس عشر على يد زوجة السلطان سليمان الكبير (سليمان القانوني)، فهو أحد أفضل الأمثلة المعروفة حول مؤسسة دائمة في عالم الشرق الأوسط التي ما زالت

تعمل حتى يومنا هذا^(٤٧). لقد تأسس هذا الوقف أصلاً لتأمين الطعام والماوى للأشخاص المحتاجين، لكن وثائق لاحقة موجودة في الوقف أشارت إلى أن العائلات البارزة في المدينة كانت تأكل من مطبخ المؤسسة إلى جانب المحتاجين. وقد تلقى هذا الوقف عائدات سنوية ناتجة من أصول مدنية وريفية، ليس في مدينة القدس وضواحيها فقط، بل من الممتلكات الواقعة في أماكن أخرى بعيدة في فلسطين.

وعلى مستوى آخر، مثل هذا الوقف الذي استمر في العمل لمدة أربعة قرون ونصف القرن، إحدى المؤسسات الأكثر ثراء في الشرق الأوسط، وليس بالضرورة أبدياً، على الرغم من أن أصول الوقف واسعة وغنية بحيث يمكن أن تتقل عائدات هذا الوقف إلى مجموعة أخرى من المستفيدين، حتى وإن لم يعد المطبخ موجوداً، على سبيل المثال. فقد استمر الوقف، ولكن عائداته قد توزع على المجموعة الثانية من المستفيدين الذين يستفيدون من المانع في عقد مؤسسة الوقف.

مع ذلك، تعد بعض الأوقاف أبدية فعلاً حين تؤخذ في الحسبان كمجموعة. والمثال على هذه الأبدية هو بامتياز الأوقاف التي تم تأسيسها للحرمين الشريفين في السعودية. وهناك سبيان رئيسيان يفسران صفة الأبدية التي تتمتع بها هذه المؤسسات، إذ يتم إنشاء أوقاف جديدة باستمرار في جميع أنحاء العالم الإسلامي، مع إضافة أصولها إلى مجمل ممتلكات الوقف المنتجة للعائدات لمدينتي مكة والمدينة^(٤٨)، وهما محور العالم الإسلامي نفسه وجوهره، وبالتالي السبب الرئيسي لإنشاء هذه الأوقاف. غير أن تنظيم هذه الأوقاف التي تأسست للحرمين وتوزيع عائداتها على المدينتين، اختلف بحسب المكان والزمان.

أما السبب الثاني الذي يفسر أبدية وقف الحرمين، فهو يعود إلى واقع أن عدداً من مانحي الأوقاف العائلية أو المختلطة حدّوا مدينتي مكة والمدينة كآخر وحدة تستفيد من مؤسساتهم بعد أن تنتهي سلالة المستفيدين أو الأفراد الآخرين الذين تم تسميتهم كمتلقين لعائدات الوقف.

Amy Singer, *Constructing Ottoman Benefence: An Imperial Soup Kitchen in Jerusalem* (٤٧) (Albany: State University of New York Press, 2002).

(٤٨) من أجل الوقف الحرمي الذي أنشئ وجرت ممارسته في الجزائر، انظر: Nacereddine Saidoni, «Les

Liens de l'Algérie Ottomane avec les lieux saints de l'Islam à travers le rôle de la foundation du Waqf de Haramyan.» *Awqaf* (June 2004), pp. 37-76.

خامساً: الأوقاف المسيحية واليهودية في مدن العالم الإسلامي

عمدت الأوقاف الإسلامية، السنيّة والشيعية، إلى تطوير وتعريف المدينة الإسلامية بطرائق متعددة. لكن شكل المدينة الإسلامية قد تأثر أيضاً بامتلاكات المؤسسات المسيحية واليهودية والمستفيدين منها. لقد كانت المؤسسات، التي لم يكن استعمالها مقتصرأ على المجتمعات المسلمة فقط، أداة مهمة لتنظيم المجتمع بين المسيحيين واليهود الذين يعيشون في «دار الإسلام». وكما فعل مانحو الوقف المسلمون، أسس المسيحيون واليهود من مختلف الطبقات الاجتماعية والاقتصادية أوقافاً صغيرة وكبيرة في مدن مختلفة في العالم الإسلامي؛ لكن هذه المؤسسات، ولا سيّما تلك المسيحية منها، لم تكن محور دراسة مركّزة إلا مؤخراً، وهي بالتالي أقل شهرة من الأوقاف الإسلامية حتى هذه اللحظة على الأقل. مع ذلك، في السنوات العشرين الأخيرة، كانت مؤسسات الوقف المسيحية والتاريخ المحيط بها في الأماكن المدنية والريفية موضوع أبحاث قيّمة يّنت دورها المعقّد في الحياة اليومية للأفراد، وفي تحديد شكل الجماعة ضمن الجماعة الدينية و بين الجماعات.

وعلى الرغم من أنها على الأرجح استعملت من جانب الجماعات اليهودية في دار الإسلام قبل القرون الوسطى، فإن وثائق الكنيس الشهيرة التي كتبت في مصر في القرون الوسطى، ووجدت في كنيس في القسطنطينية، احتوت على أقدم مجموعة وثائق معروفة لأوقاف يهودية متعلقة بالحياة في المدينة الإسلامية^(٤٩).

إن هذه الوثائق التي تشير إلى الأوقاف اليهودية بمصطلحات مختلفة (أحباس اليهود، حبس، حقدش، قودش، وقف) تسجل معلومات حول المؤسسات اليهودية في القاهرة في القرون الوسطى، مظهرة كيف استخدمها أفراد من المجتمع اليهودي في القاهرة بطرائق مشابهة جداً لطريقة المسلمين في استخدام الوقف.

بمعنى آخر، منح يهود القاهرة في القرون الوسطى منازلهم وعقارات أخرى في المدينة إلى مستفيدين من مؤسسات عامة ذات عائدات تذهب إلى صيانة وعمل

S. D. Goitein, *A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza* (New York: University of California Press, 1971), vol. 2, pp. 99-103, 112-121 and 413-469, and vol. 4, and Moshe Gil, *Documents of the Jewish Pious Foundations from the Cairo Geniza* (Leiden: Brill, 1976).

المساحات الدينية (الكنيس، التعليم الديني)، ومن خدمات اجتماعية (عائدات تذهب إلى الأراامل والفقراء) في المدينة، إضافة إلى مستفيدين من أفراد وعائلات.

كما كانت ممارسات الإدارة والإدارة اليومية للأوقاف اليهودية مشابهة أيضاً لتلك المستعملة للوقف الإسلامي. على سبيل المثال، قام مانح وقف يهودي بتعيين وصي (ناظر، متول) على وقفه، فضلاً عن تحديد وسائل لتوفير عائدات للمؤسسة، أي نوع الإيجار الذي يجب اتّباعه بخصوص الأصول الممنوحة بالطريقة نفسها مثل مانحي الوقف المسلمين. وبعد عدة قرون، أمّنت الأوقاف اليهودية والمسيحية في ما كان يعتبر فلسطين العثمانية عائدات لتأمين الحاجات الدينية والخيرية والعامة لهذه المجتمعات^(٥٠). وكما في الأوقاف الإسلامية التي يقوم فيها أفراد من أية ديانة بتأجير ممتلكات تعود إلى أوقاف أسسها مسلمون، تشير وثائق في سورية في أوائل القرن التاسع عشر إلى الممتلكات الخاصة بالوقف اليهودي في قرية جوبر الواقعة خارج دمشق التي أجراها أعضاء مجتمعات أخرى^(٥١).

كانت هذه أيضاً حالة الجزائر العثمانية، على سبيل المثال، حيث قام يهود بتأجير محالّ ومنازل وقطع أرض زراعية وممتلكات مدنية أخرى تعود إلى الأوقاف الإسلامية^(٥٢)، كما كان وسط بيروت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين^(٥٣)، إذ كان تأجير أصول الوقف من جانب أفراد يتمون إلى ديانات مختلفة بالفعل حادثة عادية، أي واقعاً يجب التشديد عليه من أجل فهم النفاذ الديني للجغرافيا الاقتصادية في المدن الإسلامية.

كما كانت الأوقاف المسيحية مظهراً دائماً في المدينة الإسلامية. وتشهد دراسات حديثة تركز على توثيق محلي من الكنائس والأديرة، فضلاً عن المحاكم العثمانية، على انتشارها ليس في المناطق المدنية فحسب، بل في المناطق الريفية أيضاً. كما جعل

(٥٠) Ron Shaham, «Christian and Jewish Waqf in Palestine during the Late Ottoman Period», *Bulletin of the School of Oriental and Asian Studies (BSOAS)*, vol. 54, no. 3 (1991), pp. 460-472.

(٥١) يوسف ناعسة، يهود دمشق (دمشق: دار المعرفة، ١٩٨٨)، ص ١٤ - ١٥.

(٥٢) Akael Nomeir «La Fonction économique et culturelle des foundations pieuses des villes saintes d'arabie à Alger au XVIII^{ème} siècle», (PhD. Dissertation, University of Provence, 2002).

(٥٣) Aurore Adada, «Les Relations Islamo-chrétiennes à travers l'exploitation des biens légués en Waqfs entre 1843 et 1909 à beyrouth», dans: Souad Slim, ed., *Les Relations entre musulmans et chrétiens dans Bilad Al-Chams à l'époque Ottomane aux XVII^{ème}-XIX^{ème} siècle: Apport des archives des tribunaux religieux des villes: Alep, Beyrouth, Damas, Tripoli, Balamand Lebanon* (Beyrouth: University of Balamad, 2004), pp. 291-310.

المجتمع القبطي في مصر الاستخدام الواسع لنظام الوقف طريقة لتقوية مؤسساته الدينية والاجتماعية في المدينة، ولدعم وجود البنى التحتية الخاصة به هناك^(٥٤).

كانت هذه مشابهة للحالة في الزمن العثماني، ولا سيّما، بحسب بحث حديث في القرن التاسع عشر، حين قامت جماعات الروم والموارنة في مدن حلب^(٥٥) ودمشق^(٥٦) وبيروت^(٥٧) بتقوية أوقافها المدنية وبتنوعها. كما استخدمت الجماعة المارونية الوقف كطريقة لتثبيت جذورها في المناطق الريفية من جبل لبنان، ولا سيّما عن طريق وقف الأديرة العائلية^(٥٨).

سادساً: الوقف: ليس ظاهرة مدنية فقط

إن مؤسسات الوقف التي تميّزت إلى حدّ كبير بفضل دورها الأساسي في إيجاد مظاهر البنى التحتية المتعددة الطبقات في المدينة الإسلامية والمحافظة عليها، شغلت أيضاً مكانة مهمة في المناطق الريفية، لأسباب مشابهة لوجود الوقف في المدينة. فقد

(٥٤) في استخدام الوقف بين الأقباط المصريين، انظر: مجدي جرجس: القضاء القبطي في مصر (القاهرة: مبريت للنشر، ١٩٩٩)، «آثار الأراخنة على أوضاع القبط في القرن الثامن عشر»، *Annales Islamologiques*، العدد ٣٤ (٢٠٠٠)، ص ٢٣ - ٤٤، وLe، Faruk Bilici، «Les Waqfs coptes au XIX^{ème} siècle»، dans: *Waqf dans le monde musulman contemporain (XIX^{ème}-XX^{ème} siècle)* (Istanbul: Institut Français d'études Anatoliennes (IFED), 1994), pp. 119-122.

Jean Claude David, «Les Territoires des groups à Alep à l'époque ottoman: Cohésion urbaine (٥٥) et forms d'exclusion», *REMMM*, nos. 97-80 (1996), pp. 225-254.

Randi Deguilhem, «La Gestion des biens communautaires chrétiens en Syrie au XIX^{ème} siècle: (٥٦) Politique ottoman et ingérence française», *REMMM*, nos. 79-80 (1996), pp. 215-224.

May Davie, *La Millat greque-orthodoxe de Beyrouth, 1800-1940: Structuration interne et (٥٧) rapport à la cité* (Paris: Université de Paris- la Sorbonne, 1993), pp. 236-255, and Souad Slim, «The Greek Orthodox Waqf in Lebanon during the Ottoman Period», (PhD. Dissertation, University of Birmingham, 2002), ch. 4.

Richard Van Leeuwen, *Notables and Clergy in Mount Lebanon: The Khâzin Sheikhs and the (٥٨) Maronite Church (1736-1840)* (Amsterdam: University of Amsterdam, 1992), chap. 5, pp. 129-150; Zouhair Ghazzal, «Lecture d'un Waqf maronite du mont Liban au XIX^{ème} siècle», dans: Randi Deguilhem, ed., *Le Waqf dans l'espace islamique: Outil de pouvoir socio-économique* (Damascus: Institut Française d'étude Arabes de Damas (IFEAD), 1995), pp. 101-120; Sabine Saliba, «Une Famille, mun couvent: Deir Mar Chalitta Mouiqbès, 1615-1878», *Chronos*, vol. 3 (2000), pp. 93-137; Sabine Saliba, «Waqf et Gérance familial au Mont Liban à travers l'histoire du couvent maronite de Mar Chalitta Mouqbès (XVII^{ème}-XIX^{ème} siècle)», dans: Randi Deguilhem and Abdelhamid Hénia, dir., *Méditerranée: Enjeux de société, enjeux de pouvoir* (Kuwait: Fondation Publique des Awqaf du Kuwait, 2004), pp. 99-129, and Sabine Saliba, «Dualités, pouvoirs et strategies dans le Mont Liban à travers l'histoire du couvent maromite de Mar Chalitta Mouqbès (17^{ème}-19^{ème} siècle)», (PhD. Dissertation, Université de Provence, 2006).

قامت المؤسسات التي أدت دوراً مزدوجاً في المدينة الإسلامية والمناطق الريفية لدار الإسلام، بتمويل وتعزيز الشبكات الدينية والتعليمية داخل المجتمعات الدينية المحددة الخاصة بالمانح، فضلاً عن تأمين أسس الخدمات الاجتماعية وغيرها من الخدمات العامة لأفراد من المجتمع كافة. وقد أصبح هذا التدخل الواسع الانتشار في المجتمع ممكناً بفضل كميات كبيرة من العائدات الناتجة من ممتلكات منحت إلى مؤسسات الوقف.

إن مؤسسات الوقف التي تمثل عنصراً من البنى التحتية الحيوية في القرى الريفية والمناطق المدنية، وهي تعمل كأداة لدعم الخدمات الدينية والعامة والاجتماعية في شكل وقف خيري، فضلاً عن استخدامها كطريقة لتأمين الدعم المادي لأفراد في الدوائر الخاصة والعائلية على شكل وقف ذري/ أهلي، أدت أيضاً دوراً مهماً آخر في المناطق الريفية، إذ أمنت رابطاً مؤسسياً بين العالمين المدني والريفي. وقد خلقت ممتلكات الوقف الواقعة في المناطق الريفية روابط بين المجتمعات الريفية والمدنية، وحافظت عليها، وذلك لأن الأراضي الزراعية الممنوحة في القرى النائية، وفي المناطق الخلفية، كانت تنتج عائدات لمستفيدين في مناطق مدنية.

بمعنى آخر، أتمن بيع المنتجات الزراعية أو تأجير أراضي الوقف الواقعة خارج المدن، وأحياناً في عمق الأرياف بعيداً جداً من المراكز المدنية، مدخولاً منتظماً لمستفيدين حضريين، مثل الجوامع المهمة، والمقابر، والزوايا ... إلخ، بالتالي الروابط الوثيقة بين البيئة الريفية والمدنية على أساس منتظم عادة ما يكون سنوياً، أي في كل مرة كان يتم توزيع العائدات الريفية على متسلمي الوقف المدني. كما أجريت دراسات حول هذه العلاقة، على سبيل المثال، في المناطق السورية الجنوبية في بداية فترة الحكم العثماني^(٥٩).

اختلف حجم ملكيات الأراضي الزراعية الممنوحة بصورة واضحة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ومن شبه المستحيل تحديد حجم الملكيات لمناطق محددة وفق الحدود الحالية للبحث. مع ذلك، تقدم تقارير المراقبين الميدانيين فكرة عن حجم الأصول الزراعية الممنوحة قبل عصر تأمين ممتلكات الوقف الذي حصل في نحو منتصف القرن العشرين، عند انتهاء الفترة الاستعمارية. على سبيل المثال،

W. D. Hutteroth and K. Abdulfattah, *Historical Geography of Palastain, Transjordan and Southern Syria in the 16th Century* (Erlangen: Mitteilugen der Frankischen Geographisen Gesellschaft, 1977).

توقع لويس ميلليو، وهو مدير فرنسي عمل في شمال أفريقيا^(٦٠)، ومثل نقطة تحول في القرن العشرين، ما يلي: أن تكون ثلاثة أرباع الأراضي الزراعية المزروعة في الأناضول العثمانية ممتلكات ممنوحة، بما في ذلك الممتلكات التي تخص أوقاف السلطان^(٦١).

وقد كانت هذه حالة نصف الأراضي الزراعية في الجزائر في عام ١٨٥٠ (وبلا شك احتسبها ميلليو وفقاً لمسح أجري على أصول المؤسسات في الجزائر)^(٦٢)، وثلاثها في تونس في عام ١٨٨٣^(٦٣)، وثمنها في مصر في عام ١٩٢٥. ومن الواضح أن هذه التقديرات غامضة، ولكنها تعطي فكرة حول اتساع عرض الأراضي الزراعية التي يملكها الوقف في دار الإسلام، والتي تنتج عائدات غالباً لمستفيدين في مراكز مدنية نائية.

خاتمة: عامل المرونة

على مستوى تجريبي وتحليلي، تفتح الدراسة حول وثائق مؤسسة الوقف نافذة قرية على ممارسات الوقف اليومية في المدينة الإسلامية، وعلى الطرائق التي استخدمها الأفراد لأهداف شخصية أو عامة. إن أنواع الممتلكات المستخدمة لخلق أصول منتجة للعائدات للأوقاف وموقعها الجغرافي في المدينة، فضلاً عن المناطق الريفية، تبين أنماط الملكية لأفراد يتمون إلى مستويات اجتماعية واقتصادية مختلفة في مدن محدّدة في العالم الإسلامي. كما أن المستفيدين الذين اختارهم المانحون عادة ما عكسوا التوجهات والهموم الثقافية والدينية والسياسية والاجتماعية الخاصة بهذا العصر. لقد أمّن الوقف بالتالي البنى التحتية للعديد من أوجه الحياة اليومية، فضلاً عن الوسائل للمحافظة عليها ودعمها.

Jean-François Rycx, «Règles islamiques et droit positif des successions: Présentation (٦٠) générale,» in: Marceau Gast, dir., *Hériter en pays musulman: Habus, Lait vivant, Manyahuli* (Paris: Centre National de la Recherche Scientifique CNRS, 1987), p. 33, et Louis Milliot, *Introduction à l'étude du droit musulman* (Paris: Sirey, 1970).

John Robert Branes, *An Introduction à l'étude du droit musulman* (Paris: Sirey, 1970). (٦١)

Nacereddine Saidouni [et al.], eds., *Dirasat* لدراسة حديثة عن الأوقاف في الجزائر، انظر: (٦٢)

Insania [Etudes Humaines]: «Le Waqf en Algérie (18^{ème}-19^{ème} siècles),»: Sources, Problématiques et thématiques (Algiers: Presses de l'Université d'Alger, 2001-2002).

Abdelhamid Hénia, *Propriété et Stratégies Sociales à Tunis, XV^{ème}-XIX^{ème} siècles* (Tunis: (٦٣)

Publications of University of Tunis I, 1999), chap. 10: «Pratique habous et strategies sociales,» pp. 346-374.

حتى انتهاء نظام الوقف التقليدي مع نهاية فترة ما بعد الاستعمار، لم يتسبب الزمن بزوال المؤسسة، لأن الأوقاف تكيّفت مرة أخرى مع متطلبات العصر^(٦٤).

وإذا أردنا إعطاء مثل حول المياه، فهناك مورد ثمين في المدينة الإسلامية يتمثل بالبحر المتوسط: لقد كانت ينابيع المياه (السبل) من ضمن المواقع المستفيدة والأكثر شيوعاً من عائدات الوقف في المدينة الإسلامية، إذ إن الينابيع العامة التي تحافظ عليها الأوقاف عادة ما أمنت مياه الشرب لعابري السبيل في المدينة، وما زالت تقوم بذلك حتى اليوم. وقد تم تأسيس أوقاف جديدة لهذه الغاية، مثل «السبل» الذي يحافظ عليه بواسطة عائدات المؤسسة في حي البزورية في دمشق. ويحمل هذا الينبوع الذي سبق أن أصلحه الشيخ رباح الجزائري في عام ١٩٩٦ كجزء من وقفه، اسمه بهذا الخصوص، على اعتبار أنه المانع الجديد الذي يسدّ نفقات الصيانة^(٦٥).

وفي استخدام مختلف لهذه الوسائل التقليدية لتأمين خدمة مياه الشرب للمجتمع، تؤمن مؤسسات الوقف حالياً مياهاً باردة للشرب تحفظ في برادات في مقابر في لبنان لتقدم إلى الأشخاص الذين يزورون هذه المقابر^(٦٦).

يمثل التجدد المدني وترميم المباني في المدينة الإسلامية استعمالاً مستمراً آخر لممارسات الوقف الرائجة في يومنا هذا، من أجل المحافظة على قدرة المباني على الاستمرار، ولكن أيضاً كوسيلة للمحافظة على الإرث الثقافي. نجد مثلاً على ذلك في مدينة صيدا الساحلية في جنوب لبنان، حيث يتم حالياً ترميم قصر علي آغا حمود العائد إلى الحقبة العثمانية، والواقع في القرب من خان الفرنج، بتمويل من مؤسسة وقف دبانة التي تأسست عام ١٩٩٩، في خطوة لمنع دمار هذا القصر الذي كان دائماً مأهولاً لنحو ثلاثة قرون منذ أن أسسه علي آغا حمود عام ١٧٢١/١٧٢٢ الذي عاش مع عائلته في هذا القصر.

وقد حصلت عائلة دبانة على هذا القصر في أوائل عام ١٨٠٠، وحالياً أنشأ أفراد من هذه العائلة مؤسسة وقف لجمع الأموال لتصليح الأضرار التي لحقت بهذا المبنى من جراء الحرب اللبنانية في أواخر السبعينيات والثمانينيات [الغزو الإسرائيلي على لبنان ١٩٨٢]، فضلاً عن استخدامه من جانب ٢٥٠ لاجئاً عاشوا فيه لمدة خمس

(٦٤) انظر المؤتمر والمنشورات المذكورة في الهامش ٧ من هذا الفصل.

(٦٥) ملاحظة شخصية، دمشق، أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤.

(٦٦) مقابلة لرائدي ديفولم مع محمد النفري، المدير العام لدار الفتوى ومدير مكتب المفتي في لبنان (بيروت،

٢٨ أيار/مايو ٢٠٠٤).

سنوات. والجدير بالذكر أن وقف دبانة لا يمول تصليح المباني المدنية المهمة فحسب، بل إنه يحضر لتحويل هذا القصر إلى متحف يعود إلى العصر العثماني، ولاستقبال الحفلات الموسيقية والمعارض الفنية^(٦٧).

يبين هذان المثالان كيف أن مؤسسات الوقف في المدينة الإسلامية ما زالت وسيلة مفضلة للتدخل في النسيج المدني للمحافظة على الخدمات الاجتماعية للمجتمع وحمايتها، وكذلك وسيلة للمحافظة على العقارات المدنية داخل المركز المدني في العالم الإسلامي.

Stefan Weber, «An Agha, a House and the City: The Debbané Museum Project and the Ottoman City of Saida,» *Beiruter Blätter* (Oriental Institute of Beirut), vols. 10-11 (2002-2003), pp. 132-140, and *Welcome Brochure to the Debbané Palace* (Sidon: [n. pb.], 2004), p. 1.

القسم الخامس

المدينة الحديثة والمعاصرة

الفصل التاسع والثلاثون

تحديث مدن السلطنة العثمانية (١٨٠٠ - ١٩٢٠)

جان لوك أرنو^(*)

منذ مطلع القرن التاسع عشر، عندما كان جزء صغير فقط من سكان السلطنة العثمانية يقيم في بيئة مدينية، شهدت المدن نمواً لا سابقة له. ففي خلال عقود قليلة، استقرّ في المدن عشرات الألوف من الأشخاص الذين ولدوا في الريف أو في مناطق البداوة. وعلى كل مستوى من مستويات الواقع الحضري، تسارعت التحوّلات، وتبدّلت أنماط التطور. ومع أن التحول ذلك لم يكن متوازياً دائماً - إذ إنّ بعض المدن بدأت حركة تطورها قبل سواها - إلا أنه مثل ظاهرة جديدة؛ فهو لم يكن مجرد إعادة تنظيم متزايدة فحسب، بل مثل لحظة انقطاع في طرائق الإدارة، وفي تقسيم الجماعات والأنشطة في المكان، كما في الأشكال الهندسية والحضرية.

أولاً: سياق جديد

يجب النظر إلى هذا الانتقال في إطار مجموعة أوسع من التحوّلات التي تتخطى حدود السلطنة. ففي القرن التاسع عشر، كانت منطقة البحر المتوسط، وقبل أي شيء آخر، تحت وقع الصعود السريع للإمبريالية الغربية، يدل عليها تزايد قوة التبادلات بين ضفتي المتوسط، ولا سيّما الاقتصادية منها. وفي هذه الفترة أيضاً فقدت السلطنة

(*) باحث في المرصد الحضري للشرق الأدنى (IFPO).

العثمانية عدة ولايات لمصلحة التوسع الاستعماري للقوى العظمى، أو لبناء دول وطنية جديدة ومستقلة.

١ - تزايد قوة التبادلات، ديناميات جديدة

أدى تطور الإبحار بواسطة السفن العاملة على البخار، منذ عام ١٨٣٠، إلى تسريع التبادلات وخفض نفقات الشحن، وبالتالي إلى زيادة في حجم البضائع المنقولة بحراً. ونتيجة لهذا التطور، أصبحت الضفة العثمانية للبحر المتوسط، وفي آن معاً، مصدراً لتزويد المصانع الأوروبية الجديدة بالمواد الأولية، وسوقاً محتملة واسعة لتصريف إنتاج المصانع تلك. أما المدن التي تأثرت أساساً بهذه النقلة، فكانت مرفأ ساليونيك وإسطنبول وإزمير ومرسين وبيروت وحيفا والإسكندرية. نشأت منافسة شرسة بين هذه الموانئ، ولا سيما على السواحل الفلسطينية والسورية، حيث بدا الصراع بينها على أشده. في هذا السياق، يشهد نقل القنصليات الأجنبية بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٦٠ من عكا إلى حيفا أو في الشمال من طرسوس إلى مرسين، على عملية إعادة التشكيل الجارية وما يتبعها من انخفاض مكانة أمكنة معينة لمصلحة المرفأ التي تملك الوسائل الضرورية لاستيعاب الفوائض الزراعية ولاستقطاب السفن الأجنبية^(١).

أدت وسائل الاتصال بين هذه المرفأ ومدن الداخل دوراً أساسياً في إعادة التشكيل هذه. في مصر، أدرك محمد علي باشا، الذي فكر منذ أوائل القرن التاسع عشر في الابتعاد من الباب العالي، طبيعة الرهان على تطور المرفأ. فقد أمر، في نهاية العقد الثاني من القرن التاسع عشر، بحفر قناة المحمودية التي من شأنها تقليص زمن السفر بين القاهرة - المدينة الرئيسية في ولاية مصر يومها - والإسكندرية^(٢). وقد مهدت هذه الأشغال السيل أمام إنشاء رصيف عسكري في مرفأ هذه المدينة. وعلى السواحل السورية، حرم انتزاع ميناء صيدا في النصف الأول من القرن التاسع عشر دمشق من نافذتها البحرية^(٣).

(١) Mahmoud Yazbak, «Immigration and Integration: Haifa the Port City of the Nineteenth Century Palestine,» pp. 51-52, and Meltem Toksöy, «An Eastern Mediterranean Port-Town in the Nineteenth Century,» p. 15, paper presented at: *Mersin, the Mediterranean and Modernity: Heritage of the Long Nineteenth Century* (Mersin: [n. pb.], 2002).

(٢) Michael J. Reimer, *Colonial Bridgehead, Government and Society in Alexandria* (Cairo: American University in Cairo Press, 1997), p. 111.

(٣) John Bowring, *Report on the Commercial Statistics of Syria* (London: W. Clowes for Her Majesty's Stationery, 1840), p. 52.

وعليه، فقد استقرت القنصليات والوكالات التجارية الغربية في بيروت. ومع ذلك، كان اجتياز مسافة التسعين كيلومتراً بين المدينتين يستغرق ثلاثة أيام على الخيل لعبور الجبال اللبنانية وسهل البقاع. وفي أوائل الستينيات، فتحت شركة خاصة طريقاً للعربات بين بيروت ودمشق^(٤)؛ ويفضل هذه المبادرة، لم تعد تحتاج العربات إلى أكثر من ثلاث عشرة ساعة للانتقال من المدينة الواحدة إلى الأخرى^(٥). وفي ذلك الوقت، بالتحديد، أصبحت البواخر أفضل وسيلة نقل في موانئ المشرق، وتم التخلي نهائياً عن المراكب الشراعية التي خصّصت لإعادة التوزيع المحلية على طول الساحل^(٦).

وبعد مرور بضع سنوات، ضمنت سكك الحديد الوسيلة الفضلى لنفاذ الأسواق الغربية من الموانئ إلى الداخل. وشهد عام ١٨٦٦ إنشاء خطين ينطلقان من سميرنة باتجاه أيدين (في الجنوب الشرقي) وقصبة [تورغوتلو] (في الشرق) رمزاً لهذه الدينامية الجديدة^(٧). وتمثلت هذه الدينامية أيضاً بالمنافسة القوية التي نشأت خلال تسعينيات القرن التاسع عشر بين مختلف الشركات الغربية حول تجهيز سورية وفلسطين بسكك الحديد^(٨).

وتزامن بروز أهمية المدن المرفئية مع تطوير سكك الحديد. وخلال السنوات الثلاثين الأخيرة من القرن التاسع عشر، كانت مرافق إزمير وسالونيك وإسطنبول وبيروت قد جهزت بالأرصعة والأجهزة الضرورية التي تسهل عمليات التحميل والتخزين ورقابة الجمارك^(٩).

(٤) Leila Fawaz, «The Beirut-Damascus Road: Connecting the Syrian Coast to the Interior in the 19th Century», in: Thomas Philipp and Birgit Schabler, eds., *The Syrian Land: Process of Integration and Fragmentation: Bilad al-Sham from the 18th to the 20th Century* (Stuttgart: F. Steiner, 1998), pp. 19-28.

(٥) ألرتير ألفترادس، سكك الحديد في سوريا ولبنان: دراسة تاريخية مالية واقتصادية (بيروت: [د. ن.], ١٩٤٤)، ص ٣٧-٣٩.

(٦) بطرس لبكي، نبذة عن التاريخ الاقتصادي اللبناني: الحرير والتجارة الخارجية في نهاية الفترة العثمانية (١٨٤٠-١٩١٤) (بيروت: [د. ن.], ١٩٨٤)، ص ٥٨.

(٧) Paul Dumont, «La Période des Tanzimât (1839-1878)», dans: Robert Mantran, ed., *Histoire de l'Empire Ottoman* (Paris: [n. pb.], 1989), p. 496.

(٨) Jacques Thobie, *Intérêts et Impérialisme français dans l'empire Ottoman (1895-1914)* (Paris: [n. pb.], 1977), pp. 163-166 et 318-330.

(٩) Elena Frangakis Syrett, «The Dynamics of Economic Development: Izmir and Western Anatolia, Late 19th /Early 20th Centuries», in: *Mersin, the Mediterranean and Modernity: Heritage of the Long Nineteenth Century*, pp. 65-72.

حول سالونيك، انظر: Meropi Anastasiadou, *Slamique, 1830-1912: Une Ville ottomane à l'âge des Réformes* (Leiden; New York; Cologne: [n. pb.], 2000), pp. 141-145.

ونقلت السفن لا البضائع فحسب، بل الناس أيضاً. فمتد معاهدة بلطة ليمان التي وقّعها الباب العالي مع فرنسا وإنكلترا^(١٠) عام ١٨٣٨، ازداد عدد المقاولين الأجانب الذين استقروا في السلطنة. وبعد ستين، استقر نسّاج من دروم في بيروت مع نحو أربعين عاملة فرنسية^(١١).

وفي الإسكندرية، ثم في القاهرة، كانت هناك حالات كثيرة مماثلة؛ ففي أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر، كان الخديوي إسماعيل باشا يتلقى طلباً بإنشاء مصنع أو تطوير نشاط جديد كل أسبوع.

وأخيراً، ومنذ ستينيات القرن التاسع عشر، ساهم ازدهار قطاع السياحة في تعزيز وجود الأجانب في السلطنة، وتمثل ذلك في مضاعفة حضور أدلاء السفر مترافقاً مع إنشاء المرافق الضرورية لهذا التطور (الفنادق الفخمة، وكالات السفر... إلخ). غير أن ذلك يجب ألا يحجب حركة في الاتجاه المعاكس ربما تقل عنه كثافة، ولكن تساويه أهمية. ففي أواسط عشرينيات القرن التاسع عشر، بدأ محمد علي بإرسال بعثات مدرسية إلى فرنسا، وقد تألفت البعثة الأولى من ثلاثة وأربعين طالباً، ممن احتلوا مناصب عليا في ما بعد في إدارته^(١٢).

وقد ضاعف المسؤولون العثمانيون من جهتهم رحلاتهم إلى أوروبا، حيث استمدّوا الأفكار التي قادت إلى أول الإصلاحات عندهم. وفي عام ١٨٤٦، سافر أحمد باي، حاكم تونس، إلى باريس حيث أقام شهراً بكامله، فزار لا المتاحف فقط، بل بعض المصانع ومدرسة البوليتكنيك^(١٣) أيضاً.

حول إسطنبول، انظر: Zeynep Celik, *The Remaking of Istanbul: Portrait of an Ottoman City in the Nineteenth Century* (Washington, DC: Washington University Press, 1986), p. 75.

حول بيروت، انظر: ك. بابيكيان، شركة مرفأ بيروت: قصة امتياز (١٨٨٧ - ١٩٩٠)، ٢ ج (بيروت: [د. ن.].، ١٩٩٦).

(١٠) تلغي هذه المعاهدة احتكارات السلطنة وحمايتها الجمركية وتسمح للفرنسيين والإنكليز بممارسة أنشطة تجارية. انظر: Dumont, «La Période des Tanzimât (1839-1878)», p. 496.

(١١) Thobie, *Intérêts et Impérialisme français dans l'empire Ottoman (1895-1914)*, p. 493.

(١٢) أنور لوقا، «تأملات الطهطاوي، ١٨٠١ - ١٨٧٣»، في: دانييل بانزاك وأندريه ريمون، فرنسا ومصر في عصر نواب الملوك ١٨٠٥ - ١٨٨٢ (القاهرة: [د. ن.].، ٢٠٠٢)، ص ٦٠.

(١٣) انظر تاريخ تونس، في: J. J. Marcel, *Histoire de Tunis précédée par une description de cette régence par L. Franck* (Tunis: Editions Bouslama, 1979), pp. 210-214, et Noureddine Sraïeb, «Le Voyage d'Ahmad Bey à Paris en 1846,» dans: D. Jacobi, ed., *Itinéraires de France en Tunisie* (Marseille: [n. pb.], 1995).

٢ - استقلالات وإصلاحات

شهد القرن التاسع عشر أيضاً التفكك البطيء للسلطنة العثمانية. وكانت صربيا أول بلد ينشق في أوائل القرن التاسع عشر (١٨٠٤)، وتلاها اليونانيون والفالاك والمولدافيون خلال السنوات التالية. لكن البلقان، حيث المسيحيون يفوقون المسلمين عدداً في المناطق التي سعت إلى الانفصال، لم يكن المنطقة الوحيدة التي كانت تواجه حركات انفصال. فبعد مرور ستين على ثورة الصرب، استولى الوهايون الذين استقروا في السعودية منذ القرن الثامن عشر على مكة والمدينة. وبعد ذلك كانت ثلاثينيات القرن التاسع عشر حاسمة، إذ باتت حدود السلطنة مهددة على عدة جبهات. ففي عام ١٨٢٨، دخلت فرق قيصر روسيا الأناضول، وبعد ثلاث سنوات احتلت فرنسا الجزائر، في حين أفاد المصريون من الضعف النسبي للسلطان فاحتلوا سورية. أما الإنكليز فقد استقروا من جهتهم في عدن. وفي ظل هذه الظروف، أطلق الباب العالي أول إصلاحات إدارية (تنظيمات) في نهاية ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وفي محاولة لاستعادة سلطته على ما تبقى من أجزاء السلطنة، استند الباب العالي بصورة خاصة إلى دور المدن كمنصة انطلاق من أجل تحكّم أوسع في أراضي السلطنة.

اتخذ التشديد على دور الدولة أوجهاً مختلفة؛ فنتيجة لأعمال الشغب التي ترأسها القادة الروحيون في عامي ١٨١٩ و ١٨٢٠ في حلب ضد ممثلي الباب العالي، أمر الحاكم بتدمير أبواب الأحياء التي أعاققت إعادة احتلاله للمدينة^(١٤). وبعد مرور عقد على ذلك، عززت إسطنبول سلطتها في العراق حين قضت على المماليك الجورجيين، وهم عبيد سابقون كانوا يحكمون المنطقة باسم السلطان منذ أواسط القرن الثامن عشر^(١٥).

وبعد بضع سنوات، أي بعد احتلال الفرنسيين للجزائر العاصمة، نفى الباب العالي الأسرة التي كانت تمسك بزمام السلطة منذ أكثر من قرن في طرابلس الغرب، واستبدل «الباشا» بحاكم قام بتعيينه، ليتمكّن من التحكّم في تصرفاته على نحو أسهل^(١٦). في كلتا الحالتين، كانت المدن الكبرى - البصرة وبغداد والموصل وطرابلس - الأمكنة الرئيسية لمحاولة إعادة بعث الحياة في الإدارة العثمانية.

Jean-Claude David and Gérard Degeorge, *Alep* (Paris: Flammarion, 2002), p. 297. (١٤)

Pierre-Jean Luizard, *La Question Irakienne* (Paris: Fayard, 2002), p. 17. (١٥)

Nora Lafi, *Une Ville du Maghreb entre ancien régime et réformes ottomans: Genèse des Institutions à Tripoli de Barbarie (1795-1911)* (Paris: L'Harmattan, 2002), p. 185. (١٦)

ثانياً: أنماط الإدارة، والرعاية، والتشريع

١ - سنّ تشريع جديد

أخذت السلطة العثمانية على عاتقها، حتى قبل ظهور أول نصّ خاص بالإصلاحات الإدارية، الاهتمام بتنظيم مدن السلطنة. ففي عام ١٨٣٦، اقترح مصطفى رشيد باشا، الأب المؤسس لـ «التنظيمات»، على السلطان مجموعة من الإجراءات التي تهدف إلى تحسين تصميم المدينة وتفادي انتشار الحريق^(١٧). وقد أخذ بقسم كبير من اقتراحاته بعد بضع سنوات في قانون حظر استعمال المواد القابلة للاشتعال في البناء، وحدد عرض الطرقات بحسب دورها في شبكة السير، ومنع الأزقة المسدودة^(١٨). ثم كان هذا التشريع منطلقاً لقوانين إضافية (١٨٤٨). فقد عُمّم ليشمل جميع مدن السلطنة في عام ١٨٦٣، ثم جمعت أنظمة البناء المختلفة في قانون واحد في عام ١٨٨٢^(١٩). ومع ذلك، فهذه النصوص غالباً ما كانت تطبق جزئياً فقط. لقد وضعت إطاراً عاماً، أو هدفاً يجب تحقيقه في مجال التنظيم المدني، ولكن عدة أسباباً كانت تعترض تطبيقه الكامل.

أولاً، كانت التشريعات تسنّ في إسطنبول، حتى ولو كانت تستهدف جميع مدن السلطنة. وكان يتجها مؤلفون يقيمون في العاصمة، وهدفهم الأساسي التحكم في عمليات البناء فيها من أجل الحدّ من مخاطر الحريق بصورة خاصة^(٢٠). غير أن المباني الخشبية تلك المفتوحة على الخارج بواسطة ألواح، والمتشرة في إسطنبول، لا علاقة لها بالمباني التي تشكّل الجزء الأكبر من تلك المشيدة في الولايات العربية، والتي كانت تستعمل الحجارة أو القرميد أو الطين الممزوج بالقش. وبالتالي، فإن التشريع السلطاني كان يطبق على نحو غير متناسب مع الخصائص المحلية. هذه هي الحال في دمشق، مثلاً، حيث كان التشريع لا يتناسب البتّة مع دراية خبراء البناء المحليين^(٢١).

(١٧) Alain Borie, Pierre Pinon et Stéfane Yérasimos, *L'Occidentalisation d'Istanbul au XIX^{ème} siècle: Research Report* (Paris: La Défense, 1989), p. 5, et Dumont, «La Période des Tanzimat (1839-1878)» p. 492.

(١٨) İlhan Tekeli, «Nineteenth Century Transformation of Istanbul Area», dans: Paul Dumont et François Georgeon, eds., *Villes Ottomanes à la fin de l'Empire* (Paris: L'Harmattan, 1992), p. 38.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٢٠) يوضح إ. نكيلي كيف أدّت الحرائق الكبرى في إسطنبول إلى هدم ٧٥٠ مبنى عام ١٨٥٦، و٣٥٠٠ عام ١٨٦٤ ... الأمر الذي أدّى إلى إدخال تعديلات متالية على التشريعات الخاصة بالبناء. انظر: المصدر نفسه، ص ٣٨ - ٤٠.

(٢١) Jean-Luc Arnaud, *Damas: Recompositions urbaines et renouvellement de l'architecture, 1860-1925* (Arles: Actes Sud, 2005), 3rd part.

وفي مصر، لم تسنَ نصوص التشريع المدني الأولى حتى مطلع عام ١٨٨٠^(٢٢)، على الرغم من أن لجنة أورناتو التي أسسها محمد علي باشا عام ١٨٣٤ في الإسكندرية كانت قد وضعت تشريعاً مفصلاً يضمن التحكم في تطور المدينة والمباني الجديدة فيها^(٢٣).

إلى ذلك، كان من الصعب التحديد المسبق للبنية الإدارية الأكثر ملاءمة من أجل التوصل إلى النتائج التي يتوخاها القانون. وتشير إلى ذلك التنبهات الحادة العديدة والتعديلات التي أجريت على تنظيم المرافق العامة، فقد جرت الإصلاحات على طريقة التجربة والخطأ. فضلاً عن ذلك، خلال السنوات الأولى للتنظيمات، كانت القرارات الإدارية مركزة إلى حد بعيد. ففي أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر، وبعد حرب القرم التي ظهر خلالها سوء إدارة المدن حين كانت تتوقف الفرق العسكرية فيها، بأمر المصلحون التفكير في حسنات تأسيس سلطات محلية في المدن^(٢٤).

٢ - السلطات المحلية/ السلطة المركزية

حتى أواسط خمسينيات القرن التاسع عشر، كان الاهتمام برعاية المدن متروكاً لإدارات الولايات. أما بعد ذلك، فشهدنا بداية تأسيس المجالس البلدية؛ فظهر أولها في إسطنبول عام ١٨٥٥. وتباين الآراء حول النتائج المحققة في إطار هذه التجربة الأولى. غير أن المجالس البلدية أخذت تزداد بعد ذلك في المدن الكبرى: في بيروت عام ١٨٦٣، وفي سالونيك عام ١٨٦٩، يليها في العام التالي في طرابلس الغرب. وفي عام ١٨٧٧، عمم البرلمان نظام البلديات على جميع مدن السلطنة^(٢٥). وقد عهد القانون إلى هذه الإدارات الجديدة مجموعة واسعة من المهمات من الرقابة على المباني الجديدة إلى إنشاء المآوي للفقراء، مروراً بشرطة الأسواق ومسك سجلات الأحوال الشخصية^(٢٦). غير أن ضعف الوسائل المتاحة لم يسمح لها بالقيام بكامل مهماتها^(٢٧).

Jean-Luc Arnaud, *Le Caire: Mise en place d'une ville modern: Des intérêts du prince aux sociétés privées* (Arles: Actes Sud, 1998), pp. 231-241. (٢٢)

Reimer, *Colonial Bridgehead, Government and Society in Alexandria*, pp. 73-75. (٢٣)

Tekeli, «Nineteenth Century Transformation of Istanbul Area», p. 35. (٢٤)

Dumont, «La Période des Tanzimat (1839-1878)», p. 492. (٢٥)

«Attributions Générales de l'administration municipale», dans: Georges Young, *Corps de droit ottoman* (Oxford: Oxford University Press, 1905), vol. 1, pp. 70-71. (٢٦)

(٢٧) الاستثناء يؤكد القاعدة، فيبدو أن بلدية مرسين التي تفرض ضريبة على البضائع التي تمر بمرفئها تتمتع بموارد مالية وفيرة بعض الشيء. انظر: Toksöy, «An Eastern Mediterranean Port-Town in the Nineteenth Century», pp. 16-17.

فضلاً عن ذلك، فقد واجهت عملية إنشاء الهيئات البلدية في عواصم الولايات، أو في المدن المرشحة إلى أن تصبح في المستقبل عواصم، عدة صعوبات، إذ لم تشجع السلطة المركزية نشوء سلطات محلية قوية. وفي إسطنبول، انحصرت «التجربة» في الأحياء التي يقيم فيها الأجانب، والتي تقع على ضفة «القرن الذهبي» الشمالية، بعيداً من القصر، ومن مرافق الدولة^(٢٨).

وفي تونس، فرض الميثاق الأساسي الذي اعتمد عام ١٨٥٧ تحت الضغوط التي مارسها الممثلون الأوروبيون - ولا سيما فرنسا وإنجلترا - إنشاء مجلس بلدي. فاضطر الباي في السنة التالية إلى إنشاء المجلس المذكور، غير أنه احتفظ بحقه في تعيين الرئيس ومساعدته لكي يتمكن من التحكم فيهما، كما خفض الموارد إلى درجة لم يستطع المجلس معها تنفيذ مهماته منذ تشكيله. وأخيراً غالباً ما كان يتعاون مع الهيئات القديمة التي لم يُعدّ النظر في أدوارها بتاريخ إنشاء المجلس^(٢٩).

في مدن السلطنة الأخرى، لم تحظ السلطات المحلية بمعاملة أفضل من جانب السلطة المركزية. وعلى الرغم من أن القانون يحدد بوضوح صلاحيات الحاكم والمجلس على التوالي^(٣٠)، فإن الأمور في الواقع لم تكن بهذا الوضوح. ففي دمشق، مثلاً، بدت التدخلات متعددة، فمع تبدل الحكام المستمر والصلاحيات التي يتمتعون بها، تتغير الوسائل التي تمنح للسلطة المحلية والمرافق الفنية^(٣١).

أما حلب، فلم تتعرض للضغوط عينها الممارسة من الحكام، فتمتعت السلطة البلدية التي أنشئت عام ١٨٦٨ بمرافق أكثر تطوراً نسبة إلى نظيرتها في دمشق^(٣٢).

(٢٨) Tekeli, «Nineteenth Century Transformation of Istanbul Area», pp. 35-36.

لتنشيع البلديات للدائرة السادسة (بيرا وغلطة)، انظر: Young, *Corps de droit ottoman*, vol. 6, pp. 149-167.

(٢٩) محمد عبد العزيز بن عاشور، فتات المجتمع التونسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر: الانتخابات المسلمة (تونس: [د. ن.], ١٩٨٩)، ص ٢٩٩. وحول صلاحيات هذا المجلس البلدي، انظر: Jelal Abdelkafi, *La médina de Tunis: Espace historique* (Paris: Presses du CNRS, 1989) p. 24.

(٣٠) Moshe Ma'oz, «Syrian Urban Politics in the Tanzimat Period Between 1840 and 1861», *Bulletin of School of Oriental and African Studies*, vol. 29 (1966), p. 280 sqq.

(٣١) Franck Fries, *Damas (1860-1946): La Mise en place de la ville modern: Des règlements au plan* (Paris: Marne la-Vallée, 2000), p. 77 sqq.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٨٣، و١٩٥، «Power and Society in Aleppo in the 18th and 19th Centuries», in: «Alep et la Syrie du nord», *Revue du monde musulman et de la Méditerranée*, vol. 62 (1991), pp. 157-158.

غير أن تدخل السلطة العثمانية في الشؤون المحلية لم يقتصر على دمشق فقط. ففي سالونيك، وبعد مرور ثلاثين عاماً على إنشاء البلدية، منح الباب العالي امتيازاً لبناء شبكة نقل محلية وتشغيلها^(٣٣). وعلى عكس ذلك، وعلى الرغم من المشاريع والعروض المقدمة منذ عام ١٨٧٠، لم تنشئ القاهرة مرافق بلدية مستقلة قبل نهاية أربعينيات القرن العشرين، إذ لم تكن السلطة المركزية المصرية، ثم الإنكليزية (بعد عام ١٨٨٢)، ترغب في أن تبرز قوة محلية في المدينة التي تضم المرافق الإدارية الوطنية. يدل تردّد السلطات هذا على أنه ابتداء من عام ١٨٧٠، لم تعد القاهرة مجرد قصبة في ولاية من ولايات السلطنة العثمانية، بل إنها أصبحت عاصمة مصر المستقلة.

وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهتها، والقيود التي فرضتها، السلطات المركزية، باستثناء القاهرة، تمكّنت جميع المدن الكبرى من إنشاء مرافق بلدية بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وبصورة عامة، مثلت هذه الهيئات وطرائق تشغيلها (على أساس موازنات سنوية) حدثاً جديداً في المدن، وفي إدارة مرافقها البلدية، حتى ولو ظهر أن أول مجلس بلدي أنشئ في طرابلس الغرب عام ١٨٧٠ إنما أخذ صلاحيات «مشيخة» البلاد القديمة^(٣٤).

٣ - التدخلات بحسب الحالات

قبل القرن التاسع عشر والإصلاحات، لم تكن المدن العثمانية خالية من البنى الإدارية، غير أن المهمات المدنية كانت موزعة على العديد من الهيئات المدنية والدينية، محلية أكانت أم مركزية^(٣٥). كانت هذه الهيئات تهتم بالشؤون العامة اليومية، غير أنها لم تكن مسؤولة عن التخطيط لأعمال أوسع نطاقاً. بناء على هذا النظام، كانت إيرادات الضريبة توزع بين صندوق السلطنة وصندوق الحاكم، ولم تخصص «موازنة» للمدينة^(٣٦).

(٣٣) Anastasiadou, *Slamique, 1830-1912: Une Ville ottomane à l'âge des Réformes*, p. 168.

(٣٤) Lafi, *Une Ville du Maghreb entre ancien régime et réformes ottomans: Genèse des institutions à Tripoli de Barbarie (1795-1911)*, p. 228.

(٣٥) André Raymond, *Grandes Villes arabes à l'époque ottomane* (Paris: Sindbad, 1985), chap. 3: «Les Fonctions urbaines», pp. 118-167, and Stéfane Yérasimos, «La Réglementation urbaine ottomane (XVI^{ème}-XIX^{ème} siècles)», in: Emeri Van Donzel, ed., *Proceedings of the Second International Meeting on Modern Ottoman Studies and the Turkish Republic* (Leiden: Brill, 1989), pp. 1-14.

(٣٦) أنطوان عبد النور، نبذة عن تاريخ مدن سوريا العثمانية: من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر (بيروت: [د.ن.]، ١٩٨٢)، ص ١٨٨.

وعليه، كانت الأشغال الرئيسية تنفذ على قاعدة الضرورة والحالات الطارئة، أو بناء لقرارات من الحكام. وكانت هذه العمليات تمّول إما بواسطة فرض ضرائب استثنائية، كما كانت الحال في طرابلس الغرب في عام ١٨٢٧ لتصليح جزء من حائط سور^(٣٧)، أو من الحكام نفسه، كما في دمشق عام ١٧٤٣^(٣٨).

ولم تساهم الإصلاحات الأولى، ولا المجالس المحلية المنشأة على قاعدة الإصلاحات تلك، في تغيير هذه الممارسات. ففي أواسط أربعينيات القرن التاسع عشر، لم يكن مجلس دمشق يستفيد من أي مصدر للإيرادات، كما كان يقوم بدور الوسيط بين الإدارة المركزية والشعب أكثر منه بدور المؤسسة البلدية^(٣٩). وبقيت الأعمال البلدية الكبرى بالتالي ذات طابع استثنائي. على سبيل المثال، أدت زيارة السلطان إلى بورصة عام ١٨٦١، إلى الأمر بتوسيع وتحسين عدد من الطرقات النافذة إلى المدينة^(٤٠).

واستمرت هذه الممارسات حتى بعد إنشاء البلديات. وكانت زيارات الشخصيات والمبادرات وقرارات الحكام أو السلاطين أسباباً للقيام بتحسينات جزئية لا علاقة لها بعمليات مخطط لها. وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن معظم القيمين على البلديات أدركوا الحاجة إلى تحسين شبكات الشوارع في مدنهم.

في معظم مدن الأناضول والولايات الأوروبية، كانت المنازل تصنع من الخشب، ما جعلها بالتالي عرضة للحريق الذي دمر أحياناً أحياء بكاملها. وتزداد هذه الكوارث سوءاً نظراً إلى ضيق الشوارع وكثافة إشغال الأراضي. ومن أجل تجنب هذه المخاطر، نصّت التشريعات ابتداء من عام ١٨٦٣، إلى جانب القواعد المتعلقة بمواد البناء وحجم المباني، على ضم الأحياء المهتمة من أجل تسوية تخطيط الطرق وتوسيعها بحسب كثافة استعمالها. وقد نصّ النظام على خمس فئات بناء يراوح عرضها بين ٤,٥٠ و ١١,٤٠ متر، وحدد العلو الأقصى المسموح به للمباني التي تحيط بهذه الطرق^(٤١).

Lafi, *Une Ville du Maghreb entre ancien régime et réformes ottomans: Genèse des institutions à Tripoli de Barbarie (1795-1911)*, p. 155.

(٣٨) عبد النور، المصدر نفسه، ص ١٩٢ - ١٩٣.

Elizabeth Thompson, «Ottoman Political Reform in the Provinces: The Damascus Advisory Council in 1844-45», *International Journal of Middle East Studies*, vol. 25 (1993), pp. 458-461.

Béatrice Saint-Laurent, «Un Amateur de théâtre: Ahmed Vefik pacha et le remodelage de Bursa dans le dernier tiers du XIX^{ème} siècle», dans: Dumont et Georgeon, eds., *Villes Ottomanes à la fin de l'Empire*, p. 103.

(٤١) قانون ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٦٣، في: Barie, Pinon et Yerasimos, *L'Occidentalisation d'Istanbul au XIX^{ème} siècle: Research Report*, pp. 72-80.

ففي إسطنبول، مثلاً، حيث أسفرت الحرائق عن خسائر فادحة - دمر حريق عام ١٨٦٤ أكثر من ٣٥٠٠ منزل - ألّفت لجنة خاصة مسؤولة عن تحديد التخطيط الجديد للطرق، وعن توزيع الأراضي المتبقية^(٤٢).

وقد أدت هذه العمليات إلى إفرازات مربعة تختلف أشكالها تماماً عن التقسيمات القديمة^(٤٣). كما كانت تهدف إلى تحسين شبكة الطرق المحلية. وقد خضعت مناطق تمدد المدينة لأنظمة مماثلة.

ومع ذلك، فإن دائرة التدخل في ما يتعلق بالإفرازات الجديدة، وفي تلك التي حلت مكان الأحياء المحروقة، ظلت مقيدة بمدى توافر الأراضي، وبطريقة لا تتربط معها دائماً شبكات الاتصالات المصممة وفق هذا المبدأ على نحو مرض (انظر الرسم الرقم (٣٩ - ١)).

وعليه، فالتحسينات التي طرأت بموجب هذا التشريع غالباً ما أخذت طابعاً آتياً، بل هي بدت أحياناً متناقضة مع المخطط العام لكل مدينة^(٤٤).

وفي مصر، وعلى الرغم من ضخامة الأنشطة التي أطلقها إسماعيل باشا في القاهرة في نهاية ستينيات القرن التاسع عشر بغية ترويج تطوير المدينة - حيث سلّم في غضون خمس سنوات أكثر من مئة هكتار من الأحياء الجديدة إلى السوق العقارية - فقد دلّ تسلسل المشاريع والأشغال على عدة تغييرات في الموقف حيال التدخلات، ولا سيما في مجال النسيج القديم، إذ بدت هذه الأنشطة قائمة على مبدأ التجربة والخطأ، وبعيدة كل البعد من التنظيم المبرمج^(٤٥).

يتضمّن هذا القانون فئة خاصة بالطرق المسدودة التي لا ينصّ عليها نظام ١٨٦١. انظر: Grégoire Aristarchi, *Législation Ottomane ou recueil des lois, règlements, ordonnances... de l'empire ottoman: troisième partie, droit administrative* (Constantinople: [n. pb.], 1874), p. 200.

والذي ألّفه بموجب قانون ٢٢ آب/ أغسطس ١٨٩١. انظر أيضاً: Young, *Corps de droit ottoman*, vol. 6, p. 137.

Tekeli, «Nineteenth Century Transformation of Istanbul Area,» p. 40. (٤٢)

Borie, Pinon et Yérasimos, *L'Occidentalisation d'Istanbul au XIX^{ème} siècle: Research Report*, (٤٣) pp. 97 and 109.

Stéfane Yérasimos, «La Planification de l'espace en Turquie,» *Revue du monde musulman et de la Méditerranée*, vol. 50 (1998), pp. 109-110. (٤٤)

Arnaud, *Le Caire: Mise en place d'une ville modern: Des intérêts du prince aux sociétés privées*, pp. 33-183. (٤٥)

الرسم الرقم (٣٩ - ١)
إسطنبول، حي أدنة كايي، تقسيم الأرض قبل ١٨٨٢



عرض الشوارع وتصميمها يتوافقان مع «التنظيمات». وفي ما يبدو هذا الحي على اتصال جيد بشبكة الطرق على طول السور وإلى جهة طريق الجنوب، إلا أنه يبقى من الجهتين الشرقية والشمالية معتمداً على أزقة صغيرة غير نافذة.
بحسب خريطة لإسطنبول من العام ١٨٨٢، منشورة في:
E. H. Ayverdi (1978), sheet D6.

ثالثاً: الوظائف المدنية وأشكال الفرز الجديدة

١ - الوظائف المدنية الجديدة

ساهم التجديد في طرائق ممارسة السلطة وتطوير الدولة للخدمات في شتى المجالات، كالأحوال الشخصية، والأشغال العامة، والاتصالات البريدية والتلغرافية، إلى تعزيز دور المدن التي أصبحت وسيطاً حقيقياً للإدارة المركزية، ولا سيما منذ عام ١٨٦٤ بعد إصلاح الولايات^(٤٦). غير أن أنشطة الباب العالي لم تقتصر على أعمال الإدارة. فبعد التنظيمات حملت موجة علمانية - في مجال العدل والتعليم والصحة - السلطات العامة على تطوير أنشطة جديدة تقع أغليتها في المدن. كما ساهمت التحولات في قطاع الإنتاج والنمو الكبير الذي سجله القطاع الثالث في تنويع الأنشطة أيضاً. وبعد محاولات محمد علي، في مطلع القرن التاسع عشر، الهادفة إلى تحويل مصر إلى بلد صناعي^(٤٧)، سهل انفتاح السلطنة على رؤوس الأموال الأجنبية في عام ١٨٣٨ عملية إنشاء مؤسسات جديدة ذات طابع صناعي أو ما قبل صناعي^(٤٨).

ولم تستثمر رؤوس أموال العواصم الأجنبية في قطاع الإنتاج فقط، فبموجب التشريع الجديد الذي يجيز القروض المضمونة مقابل رهن، ويسمح للأجانب بشراء أموال غير منقولة، وظفت الاستثمارات أيضاً في الأنشطة الجديدة: المصارف والوساطة وقطاع الخدمات الإدارية والاقتصادية. لكن القطاع الحرفي شهد، خلال هذه الفترة، تراجعاً ملموساً^(٤٩). فقد تأثر الإنتاج المحلي لسلع الاستهلاك اليومي إلى حد بعيد بتطوير وسائل النقل البحري والبري، وانخفاض أسعار السلع الذي نجم عنه. كانت المنتجات المصنعة في أوروبا (ولا سيما القماش) تصل إلى بلاد الجنوب بأسعار غالباً ما كانت أدنى من تلك المعتمدة من قبل الحرفيين المحليين، ما حملهم على تغيير وظيفتهم أو على صنع منتجات أقل تكلفة وذات نوعية متدنية.

Dumont, «La Période des Tanzimat (1839-1878),» p. 483.

(٤٦)

Ghislaine Alleaume, «Muhammad Ali Pacha d'Egypte (1771-1849),» dans: Pascal Coste, (٤٧) *Toutes les Egypte* (Marseille: [n. pb.], 1998), pp. 49-70, et Linan Bey de Bellefonds, *Mémoires sur les principaux travaux d'utilité publique exécutés en Egypte depuis la plus haute antiquité jusqu'à nos jours* (Paris: [n. pb.], 1989), pp. 551-552.

Dumont, «La Période des Tanzimat (1839-1878),» p. 493.

(٤٨)

Charles Isawi, «Economic Change and Urbanization in the Middle East,» dans: Ira Marvin (٤٩) Lapidus, ed., *Middle Eastern Cities* (Berkeley, CA: Berkeley University Press, 1969), p. 110, et François Georgeon, «Le Dernier sursaut (1878-1908),» dans: Robert Mantran, ed., *Histoire de l'Empire Ottoman* (Paris: Fayard, 1989), pp. 551-552.

وفي الوقت عينه، عمل تجار قطاع الاستيراد على تطوير أنشطتهم وتنويعها. ولم يتأثر القطاع الثانوي إيجاباً على مستوى إنتاجه المعدّ للاستهلاك المحلي. فمن أجل تزويد قطاع الصناعة لديها بالمواد الأولية، مالت واردات أوروبا إلى أن تكون مهمة جداً.

وعلى سبيل المثال، في حين كانت سورية تصدر معظم حريرها على شكل قماش في أوائل القرن التاسع عشر، انخفض في حدود عام ١٨٣٠ حجم القماش المصدّر، في حين ازداد حجم الخيوط المصدّرة. ومع نهاية القرن، تدنى حجم صادرات سورية حتى من الخيوط، في حين ازدادت صادرات الشرائق الخام. وقد أدت هذه التحولات إلى خفض القيمة المضافة التي تنطوي عليها المنتجات المصدّرة، وقادت إلى تراجع الصناعة المحلية التي لا تمتلك الوسائل اللازمة لتعبئة رؤوس الأموال الضرورية من أجل تحديثها^(٥٠).

تحدّدت الوظائف المدنية الجديدة أيضاً بتطور الخدمات المتعلقة بنشر تقنيات المواصلات والنقل. وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر عصر التلغراف والطرق وسكك الحديد، وفي داخل المدن، عصر الترامواي ومجاري المياه وشبكات تصريف المياه والتزويد بالطاقة الكهربائية والغاز.

إن هذه الأنشطة متنوعة، وليست دائماً على صلة مباشرة بالمدن، غير أن إدارات الشركات التي كانت تقوم على تلك الأنشطة كانت متمركزة في المراكز المدنية. وقد استفاد العديد من موظفي هذا القطاع وقرّعاته - وبخاصة الوسطاء الذين يتعاطون النقد أو البضائع، بصورة خاصة - من مداخيل كبيرة لم يسبق لها مثيل. وقد جلبت الممارسات الاستهلاكية الجديدة تلك، على الرغم من الفوارق، تطوراً لأنشطة خدمية جديدة: المقاهي الكبيرة، المطاعم، صالات السينما الكبرى، وسواها، وذلك لتلبية الحاجات الخاصة بهذه الفئة الاجتماعية الجديدة.

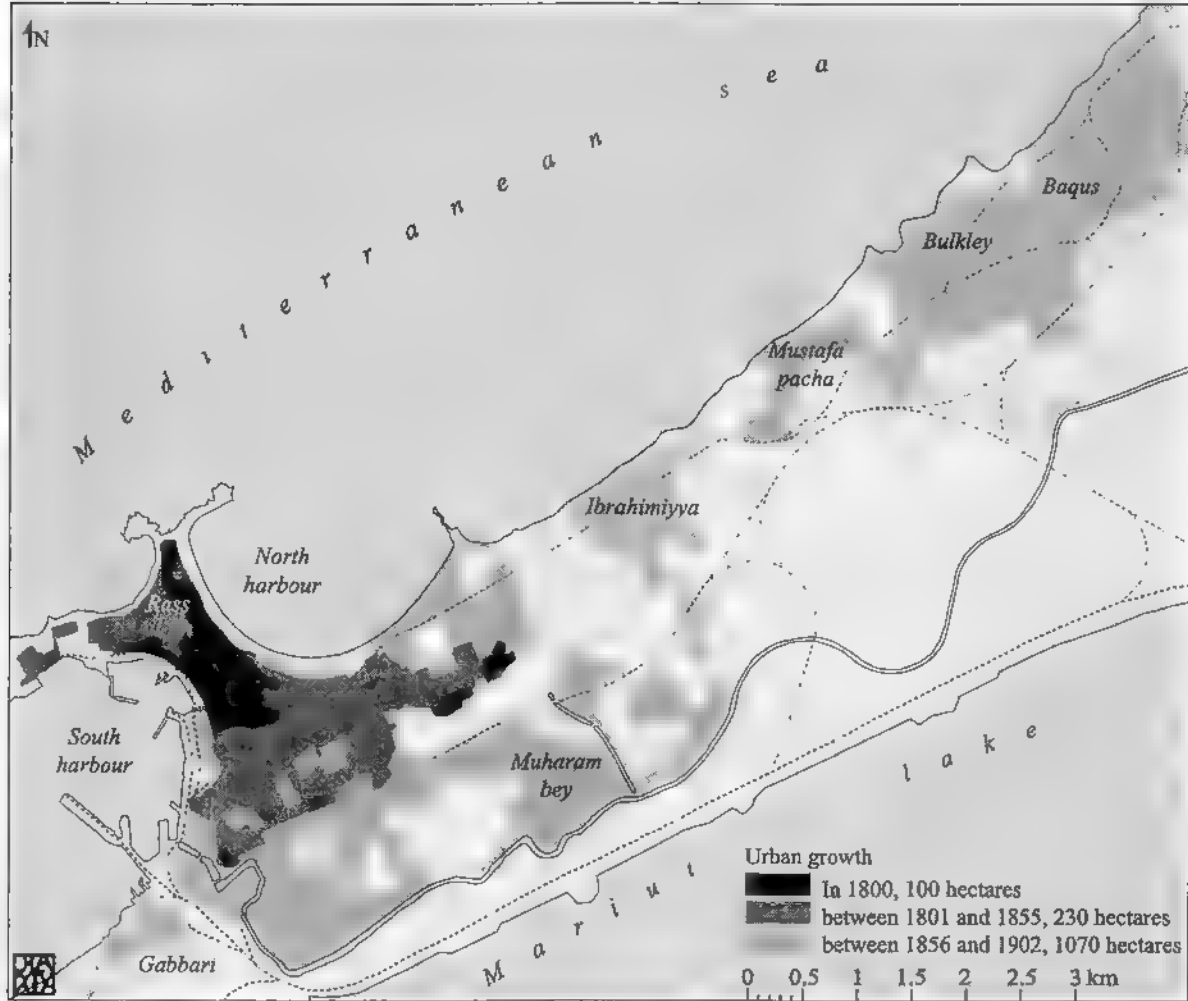
٢ - تجديد التنظيم الاجتماعي

كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالنسبة إلى سكان مدن جنوب البحر المتوسط فترة من النمو. غير أن هذا النمو كان متفاوتاً جداً، إذ إن المدن البحرية كانت

(٥٠) لبكي، نبذة عن التاريخ الاقتصادي اللبناني: الحرير والتجارة الخارجية في نهاية الفترة العثمانية (١٨٤٠ - ١٩١٤)، ص ٣٢٥.

عموماً الأسرع في النمو (انظر الرسم الرقم (٣٩ - ٢))؛ فقد استقبل بعضها على غرار بيروت والإسكندرية حركات نزوح كبيرة منذ بداية القرن التاسع عشر. كان نمو المدينتين مدهشاً، إذ كان عدد السكان فيهما يراوح بين ثلاثة وخمسة آلاف نسمة عام ١٨٠٠. ومع ذلك، فالتزوح الأكثر كثافة أتى لاحقاً، وشكل نقطة انقطاع حقيقية.

الرسم الرقم (٣٩ - ٢) مدينة الإسكندرية، فترة نموها



الإسكندرية، محاولة تطوير مبكرة. فالمدينة التي كانت على نحو ١٠٠ هكتار سنة ١٨٠٠، باتت على ٣٣٠ هكتاراً سنة ١٨٥٥، ثم ١٤٠٠ هكتار سنة ١٩٠٢. بحسب: «Alexandrie, Plan General deux ports, de la ville modern et de la ville des arabes,» dans: *Description de l'Egypte* (Paris: [n. pb.], 1809), vol. 2, p. 84, et Charles Müller, *Plan d'Alexandrie comprenant toutes ses fortifications rues et édifices principaux par Charles Müller 1855* (Triste, 1855), et *Plan de la ville d'Alexandrie dressé par les services techniques de la municipalité* (Alexandria, 1902).

وفي حين تميزت بدايات القرن التاسع عشر بتغيرات مختلفة - خسرت القاهرة سكاناً، في حين باشرت الإسكندرية بنموها - فقد شهد النصف الثاني من القرن نمواً

في جميع المدن، إذ ازداد عدد السكان في جميع مدن السلطنة (انظر الرسم الرقم ٣٩ - ٣). ومثل هذا النمو الذي نتج أساساً من حركات الزواج، المحرك الأساسي لتجديد المجتمعات المدنية^(٥١).

وأدت التحولات في أنشطة المدن ووظائفها دوراً كبيراً في هذه الحركة. وقد بدأت الصناعة الحرفية تراجع لتستبدل بطريقة إنتاج جديدة: المصنع، حيث يعمل عدد كبير من الموظفين الذين يتقاضون أجراً. من جهة أخرى، يستقطب قطاع الخدمات حجماً متزايداً من الموظفين.

وقد أدى إدخال التوظيف، وبروز الطبقة العاملة، وارتفاع عدد الموظفين في القطاع الثالث إلى اختلالات بارزة، ما انتهى إلى خسارة تدريجية لسلطة المؤسسات التقليدية. وحتى ولو أتى اختفاؤها متأخراً^(٥٢)، فقد برزت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في معظم المدن، طبقة كبيرة من العمال، وطبقة متوسطة من الموظفين. وهذه طبقات اجتماعية جديدة، فالطبقة الأولى تعاني فقراً مدقعاً، وتكرست هامشيتها من خلال المؤسسات الخيرية التي أسستها الثانية في ذلك الوقت.

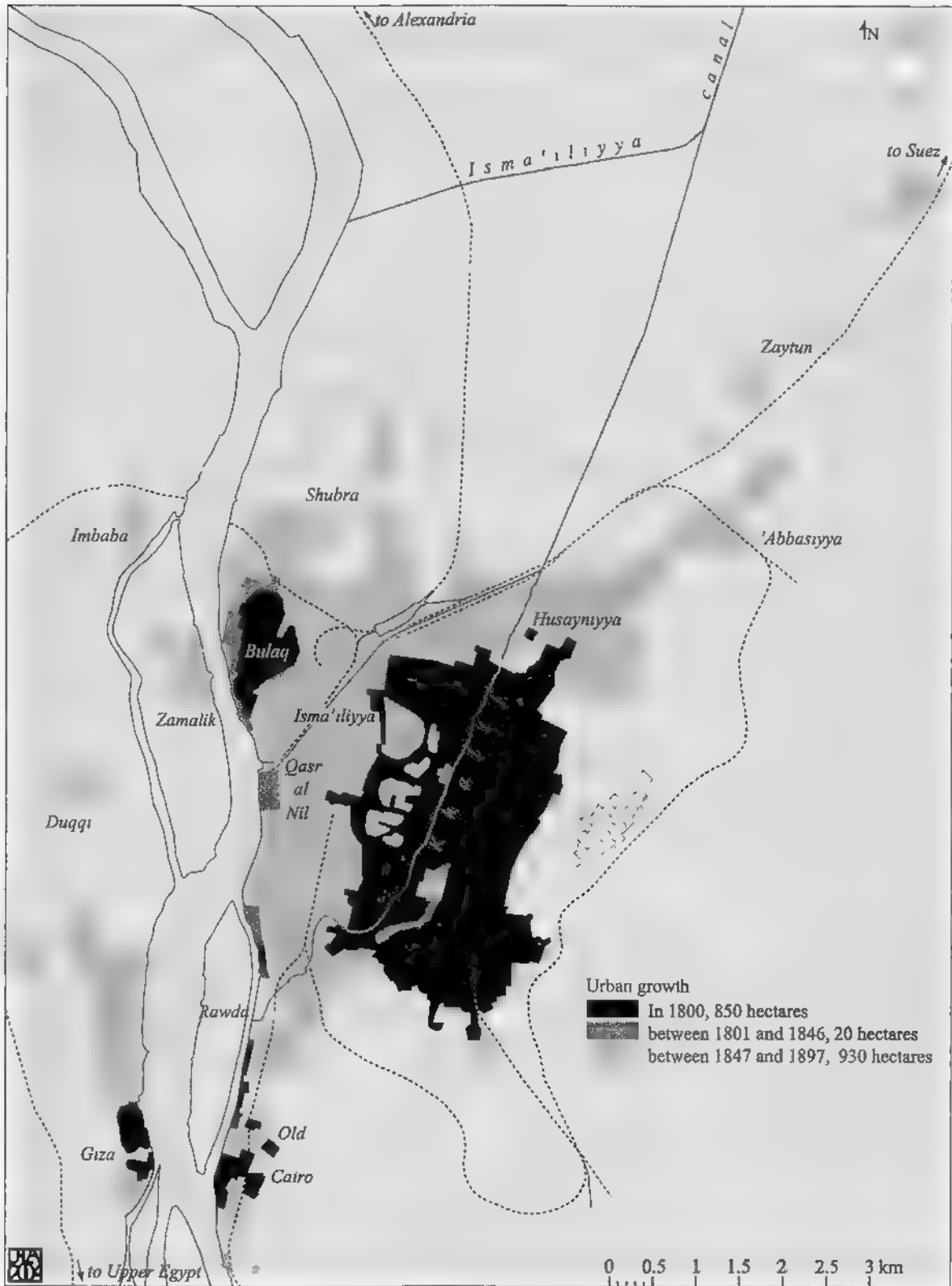
وفي مصر، كانت لوائح «السكان الأساسيين» والأعيان الآخرين التي نشرها المعنيون من القطاع الخاص، تشهد على انقسام هذين العالمين. فالذين وردوا في هذه اللوائح كانوا يتميزون بمهنتهم، وبدا القطاع الثالث حاضراً على نحو مفرط. على سبيل المثال، في القاهرة، تضمن دليل لعام ١٨٩٦ لائحة كاملة بالمحامين الأجانب، في حين لم يشر إلا إلى ١١ بقالاً من أصل ١٣٤٠ كانوا يعملون حينئذ في هذا المجال^(٥٣). وخلال هذه الفترة، شهد تأسيس النوادي الأدبية والتاريخية وغيرها بروز طبقات اجتماعية جديدة أيضاً تتميز بممارساتها الاجتماعية والاستهلاكية الجديدة.

(٥١) Kemal Kerpat, «Ottoman Population Records and the Census of 1881/82-1893», *International Journal of Middle East Studies*, vol. 9 (1978), pp. 237-274.

(٥٢) حول مصر، انظر: Gabriel Baer, *Studies in the Social History of Modern Egypt* (Chicago, IL: Chicago University Press, 1969), pp. 149-160 and chap. 12.

(٥٣) Jean-Luc Arnaud, «Artisans et Commerçants dans les villes d'Égypte, à la fin du XIX^e siècle, une source peu exploitée: Les Annuaires», dans: B. Marino, coord., *Études sur les villes du Proche-Orient, XVI^e-XIX^e siècle: Hommages à André Raymond* (Damascus: Institut Français d'Étude Arabes de Damas, 2001), pp. 205-206.

الرسم الرقم (٣٩ - ٣) النمو المدني للقاهرة في القرن التاسع عشر



كانت مساحة المدينة ٨٥٠ هكتاراً سنة ١٨٠٠، ثم زادت العشرات من الهكتارات بعد أقل من خمسين سنة فبلغت ١٨٠٠ هكتار عند نهاية القرن التاسع عشر. انظر: Jacotin, ed., «Environs du Kaire - Plan General de Boulacq, du Kaire, de l'île de roudah, du vieux-Kaire et de Gyzeh,» dans *Description de l'Egypt* (Paris, 1809), E. M. vol. 1, pl. 15; «Pan general de la ville du Kaire et des environs,» dans: E. Pruner, *Topographi médivale du Kaire avec le plan de la ville et des environs* (Munich, 1847), et *Plan Général de la ville du Kaire et des environs, dressé par le service de la ville du Kaire* (Cairo, 1897)

٣ - إعادة التشكيل

يمكننا، بصورة عامة، وخلال القرن موضوع البحث، أن نلاحظ تناسباً إجمالياً بين التوسع في مساحات المدن والنمو في عدد سكانها. غير أن هذه العلاقة لا تعني أن السكان الجدد - النازحين أو الأطفال - باتوا يقيمون في الأحياء الجديدة.

على عكس ذلك، ففترات النمو تراكمت مع تسريع إعادة التنظيم في المجموعات الاجتماعية والأنشطة داخل الكتل السكنية. وابتداءً من أواسط القرن التاسع عشر، ازدادت إعادة التنظيم هذه أهمية مع تغير طرائق تكوّن النسيج الحضري. وفي حين كان نمو المدينة التقليدية العثمانية كثيفاً ومطرداً، فقد ساهم فتح الأسوار، ولاحقاً اعتماد وسائل النقل العام، في تعزيز النمو عما كان قبل ذلك، مع المزيد من الأراضي التي يجري إدخالها في النسيج المدني.

كان النسيج الحضري التقليدي في الإسكندرية وحلب وبورصة وسالونيك مؤلفاً من مجموعات صغيرة وقطع أرض تراوح مساحتها ضمن نسبة واحد إلى مئة. وعليه، فقد نجد ضمن المجمع العمراني الواحد - بين وسطه وأطرافه - أو في قطعة الأرض عينها - بين واجهتها وأبعد نقطة فيها - أراضي تختلف مساحتها وقيمتها ومردودها، ما أدى إلى اختلاط في الأنشطة والمجموعات الاجتماعية المختلفة (انظر الرسم الرقم ٣٩ - ٤٤).

ابتداءً من أواسط ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وبخاصة في ستينيات القرن التاسع عشر، أدت أهمية توفير أراض قابلة للتنظيم المدني، وما تنطوي عليه من قيمة مضافة، إلى هدم جدران الأسوار - أزيلت من أنقرة في عام ١٨٤٠^(٥٤) - والدخول في طريقة تنظيم جديدة.

ولم تعد العقارات تقسم تدريجاً بناءً على طلب أولئك الذين يمكن أن يكونوا قادرين في البناء. فمن أجل الاستفادة من عائلاتها إلى أقصى حد، وخفض المساحة التي تشغلها شبكة الطرقات، سبق المالكون العقاريون الشارين، وقسموا أراضيهم وفق أشكال هندسية ومنتظمة (انظر الرسم الرقم ٣٩ - ٥٥).

François Georgeon, «Du Poil de chèvre au Kalpak, l'évolution d'Ankara au dernier siècle (٥٤) de l'Empire Ottoman,» dans: Dumont et Georgeon, eds., *Villes Ottomanes à la fin de l'Empire*, p. 117.

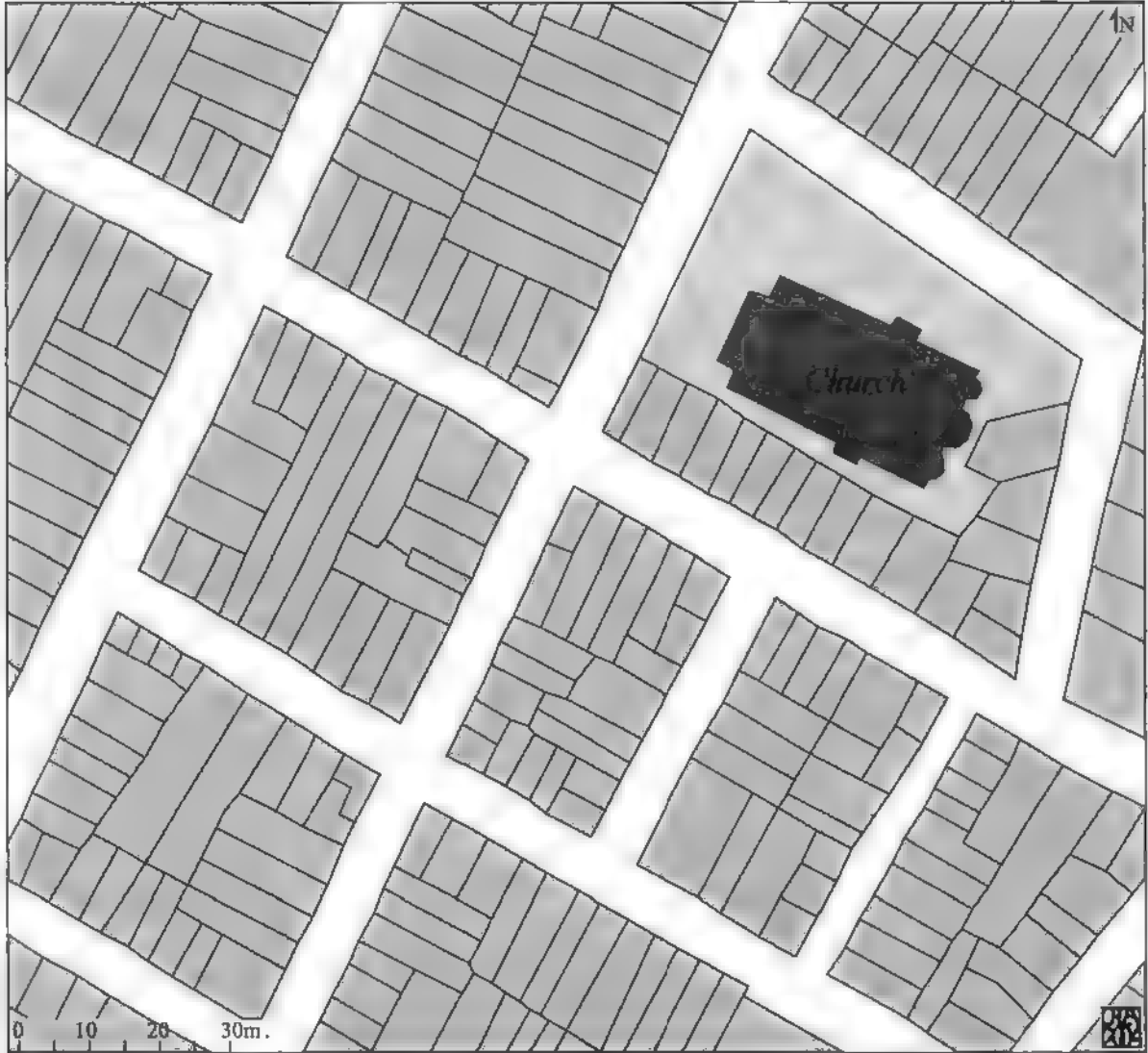
الرسم الرقم (٣٩ - ٤)
دمشق، مثال على النسيج المدني القديم، حي سوق ساروجة



التقسيم غير المنتظم للأراضي يسمح باختلاف كبير في قيمة الأراضي داخل الحي الواحد.
المصدر: Ville de Damas (Damascus: 1933), division VI, souq sarouja, section 1, sheet 1.

نتيجة لذلك، غاب التنوع والاختلاط اللذان ميّزا النسيج الاجتماعي القديم؛ فأصبحت كل أرض مفرزة تستهدف فئة معينة ومتجانسة من الشارين، في حين كانت تظهر الفوارق بين موارد الراغبين في البناء من خلال حجم أراضيهم - كانت منازل الميسورين أكبر من منازل الفقراء - وليس من خلال موقعها. وقد سمح تفوق العرض على الطلب في السوق العقارية بتطوير استراتيجيات سكنية جديدة، إذ أصبح موقع الأراضي يمثل - بالنسبة إلى الوسط وشبكات الاتصالات والأنشطة - عنصراً حاسماً في عملية الاختيار. في هذا السياق، نظمت المجموعات الاجتماعية نفسها في أحياء جديدة، بطريقة تنطوي على تميز أكبر مما كان عليه الحال في النسيج الاجتماعي القديم.

الرسم الرقم (٣٩ - ٥)
إسطنبول، حي كومكاي، مثال لتقسيم أراضٍ منتظم



تقسيم الأراضي هذا أعقب حريق إسطنبول الكبير سنة ١٨٦٤.

Borie [et al.], *L'occidentalisation d'Istanbul*, p. A8.

المصدر:

لم تمثل السوق العقارية وهدم الأسوار المحركين الوحيدين اللذين دفعا إلى هذه التغيرات. فقد تميّز النصف الثاني من القرن التاسع عشر بحركة تصنيع أيضاً. ولم تجد المصانع التي كانت تضم أحياناً مئات العمال معاً، وآلات ضخمة في الأحياء القديمة، أراضي واسعة بما يكفي أو سهولة النفاذ. فما كان منها سوى التركز في أطراف المدن في مناطق تتدنى فيها قيمة العقارات، نظراً إلى بعدها من الوسط، أو لكونها تضم أنشطة وضيقة. وفي تونس، تعددت الجوانب السلبية في الحي المعروف بصقلية الصغيرة. فهو بعيد من الوسط وقريب من بحيرة تصبّ فيها مياه صرف المدينة، ما جعل هواء المنطقة غير صالح للتنشق.

وفي هذه المنطقة تمركزت الورش والمستودعات المتصلة بالأنشطة المرفئية في أواخر القرن التاسع عشر، وفي الوقت عينه تشكل حي شعبي يسكنه الإيطاليون بصورة خاصة. فضلاً عن ذلك، أكملت التشريعات التي صدرت في ذلك الحين التوجه إلى تنظيم المدن في مناطق وظيفية. وقد تضاعف منع بعض الممارسات، أو منع بعض السكان، في مناطق معينة. وجرى تصنيف بعض المؤسسات كـ «فاسدة وخطرة»، ومقاهٍ وحانات وأمكنة الشحاذين وأخرى للبقاء... إلخ، وألزم جميعها على ممارسة أنشطتها في مناطق حددها المشرع بصورة واضحة ودقيقة^(٥٥). وتجلى هذا التدخل بصورة واضحة وفظة في الإسكندرية عام ١٩٢٠ حين قررت البلدية منع دخول البدو إلى المدينة^(٥٦).

ولكي تتمكن السلطات العامة (المحلية أو القومية) من إدارة هذه المدن في نهاية القرن التاسع عشر بصورة أفضل، قامت بتقسيم مختلف عناصرها وتصنيفها وقياسها وتعيينها. كما ساهمت الفئات التي نشأت من هذه الأنشطة في تعزيز ظاهرة التمييز، أو على الأقل، وكما الحال في ما يتعلق بالتشريع، حددت الاستعمالات المخصصة لكل مكان. وغالباً ما اتخذت التقسيمات الإدارية الجديدة داخل المدن صورة سيطرة حقيقية مارسها السلطة العامة. فقد خضع كل حي لشبكة تعيين، إذ كانت الإدارة تصنفه في فئة معينة، وتخصص له الحقوق والوسائل والخدمات المناسبة بحسب خصائصه التشكيلية والاجتماعية والاقتصادية.

على سبيل المثال، خصص مشروع تصريف مياه القاهرة في نهاية القرن التاسع عشر قنوات تصريف متباينة السعة لأحجام متساوية من السكان، وذلك بحسب الحي المعني، إذ كان يفترض بسكان الأحياء القديمة (بوصفهم من السكان المحليين) أن يستهلكوا قدرأ من المياه يقل عما يستهلكه سكان الأحياء الجديدة^(٥٧).

(٥٥) حول مصر، انظر: Philippe Gelat, *Répertoire Général annoté de la législation et de l'administration égyptiennes*, 5 vols. (Alexandria: Lagoudakis, 1908), pp. 622-641.

حول تونس، انظر: Joseph Valenski, *Législation Communale de la Tunisie: Recueil des décrets et arrêtés municipaux* (Tunis: [n. pb.], 1897), p. 894 sqq.

حول إسطنبول ومدن السلطنة الأخرى، انظر: Aristarchi, *Législation Ottomane ou recueil des lois, règlements, ordonnances... de l'empire ottoman: troisième partie, droit administrative*, pp. 53-54.

Robert Ilbert, *Alexandrie, 1830-1930: Histoire d'une communauté citadine* (Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1996), p. 504.

Ghislaine Alleaume, «Hygiène Publique et travaux publics: Les ingénieurs et l'assainissement (٥٧) du Caire (1882-1907)», *Annales Islamologiques*, vol. 20 (1984), pp. 151-182.

هكذا، برزت علاقة جديدة بين تنظيم المساحة الحضرية وتوزيع المجتمع، وذلك نتيجة طريقة تقسيم الأراضي والتشريع والنشاط الإداري. وعلى الرغم من أن المدن القديمة لا تتمتع بالخصائص عينها، فقد جرى الانتقال من تداخل الأنشطة والمجموعات الاجتماعية إلى تخصصات محددة كانت نتاج أوجه جديدة من التمييز، بل والاستبعاد.

كان هذا التمييز اقتصادياً في بادئ الأمر، إلى أبعد حد. وخير دليل على ذلك، الطريقة التي أفاد بها اليهود من التوسعات الجديدة للمدن من أجل مغادرة الأحياء التي كانوا قد «حشروا» فيها منذ عدة قرون. ومع نهاية القرن التاسع عشر، كان عدد من اليهود يقيمون في الأحياء الجديدة. لقد كانوا من الميسورين الذين غادروا المدن القديمة، وتركوا الفقراء في أحيائهم الأولى، ليقموا هم قرب سكان آخرين وجماعات عرقية أو دينية أخرى لديها المستوى عينه من المداخل.

واللافت للانتباه في القاهرة في أواسط أربعينيات القرن العشرين أن الجماعة اليهودية كان موزعة في عدة أحياء، في حين ظل الفقراء منهم قابعين بكثافة سكانية عالية، وعلى نحو شبه حصري غالباً، في ذلك الحي من المدينة القديمة الذي كان يضم قبل قرن واحد الجماعة بأكملها.

رابعاً: ظهور أشكال مدينية وهندسية جديدة

تغير نمط التوسعات المدينية في جميع مدن السلطنة، فقد كان هناك انتقال من المباني المشيدة خطوة خطوة، في سياق ملكية عقارية وأسواق عقارية ذات دينامية ضعيفة، إلى مدن أكثر انفتاحاً وأنسجة حضرية قطعت مع الماضي إلى حد كبير، ويتبع التصميم فيها قواعد جديدة في التنظيم. وقد مثلت التوسعات الظاهرة الأبرز للتغيرات، غير أن القرن التاسع عشر كان أيضاً عصر إعادة بناء المدينة نفسها.

وإذا كانت الحرائق هي المسؤولة عن تدمير المنازل الخشبية في الجزء الشمالي من السلطنة، فقد شهدت مدن الجنوب أيضاً تسارعاً في تجديد أبنيتها، ولا سيما في مجال الهندسة المنزلية. ففي القاهرة كما في دمشق، خضعت أغلبية المنازل لتحولات وتعديلات أو حتى إعادة بناء^(٥٨). وقد أعيد تنظيم المساحات الحضرية من عدة جهات

(٥٨) لاحظ ستيفان وير أن ٧٥ في المئة من منازل النسيج القديم في دمشق أعيد بناؤها جزئياً أو كلياً بين أواسط القرن التاسع عشر وأول عقود القرن العشرين. يدل هذا التجديد على دينامية شديدة. انظر: Stefan Weber, «Images

تدخل، وشهدت إدخال الأشكال الهندسية الجديدة من جهة، وإعداد التصاميم من جهة أخرى.

١ - إنشاء مركزيات جديدة

ابتداء من عام ١٨٢٦، وبعد الإصلاح العسكري وتفكيك الوحدات المنظمة للإنكشارية (التي كانت في حلب، مثلاً، في أصل الفتن المتعددة والانقلاب على الحاكم في بداية القرن التاسع عشر)، بنت الدولة ثكنات معدة لاستقبال فيالق العسكر الجديدة المشكلة بنتيجة التجنيد. في مرحلة أولى، كان الجيش يوزع أحياناً في مبان جرى استردادها و/أو تأهيلها داخل المدن. ولكن، مع توافر الوسائل المناسبة، أنشئت مبان جديدة وكبيرة حول باحات مركزية^(٥٩) في المناطق المجاورة القريبة. وبخروجها عن البنى الحضرية القديمة، وصعوبة النفاذ التي كانت تتميز بها، جرى وصل هذه الثكنات مباشرة بالطرق الجديدة (وأحياناً بسكك الحديد أيضاً)، وهو ما ساهم في تحسين قدرة الجيش على التحرك، وسمح بالتحكم في التكتلات السكانية وحمايتها^(٦٠).

وفي أواخر القرن، أثر تطور شبكات سكك الحديد إلى حد بعيد في تنظيم الأرباض. وقد مثلت المحطات، الهائلة أحياناً، أبرز ظواهر هذا التطور، غير أن مشاغل صيانة الآلات ومستودعات الفحم ومستودعات المؤسسات التي تعتمد أنشطتها الاقتصادية على الفرص التي تتيحها وسيلة النقل الجديدة هذه، غالباً ما شغلت مساحات واسعة على مداخل تلك الكتل السكانية.

وغير بعيد من المراكز القديمة، ساهمت قصور الحكام والمدارس ومقار المحاكم على نحو مهم في تنظيم الأحياء الحديثة وخلق مركزيات استقطاب جديدة. كما تميزت

of Imagined Worlds: Self-Image and Worldview in Late Ottoman Wall Paintings of Damascus.» in: Jens Hansen, Thomas Philipp and Stefan Weber, eds., *The Empire in the City: Arab Provincial Capitals in the Late Ottoman Empire* (Beirut: [n. pb.], 2002), p. 163.

Olivier Blin, «Le Caire XIX^{ème}-XX^{ème} siècles: De la fasaha à la sala comme : انظر : حول القاهرة،
modèles,» *Espace Centré: Les Cahiers de la recherche architecturale*, vol. 20-21 (1987), p. 96.

(٥٩) تمركز الفيلق السابع من الجيش العثماني الذي جرى إصلاحه في بيروت. في عام ١٨٥٣، تم بناء أول مستوى من ثكنة ضخمة (السراي) تمتد أرضيتها على آلاف الأمتار المربعة. وهذا أول مبنى من هذا النوع في بيروت.
May Davie, *Beyrouth, 1825-1975: Un siècle et demi d'urbanisme* (Beirut: Ingénieurs et architectes : انظر :
de Beyrouth, 2001), p. 40.

David and Degeorge, *Alep*, p. 299.

(٦٠) انظر:

الأحياء الجديدة بنمو القطاع الثالث المتطور الذي تشهد عليه مبانٍ رئيسية على غرار الفنادق الكبرى والمصارف.

في البنى القديمة، كانت نسبة المساحة الممدية المخصصة لشبكات الطرقات ضئيلة جداً، إذ لم تتجاوز الخمس بصورة عامة. وهذه النسبة المتدنية كانت مكونة من نوعين متكاملين من الطرق: الشوارع، والأزقة المسدودة (انظر الرسم الرقم (٣٩-٦)). وكان عدد الأزقة المسدودة أكبر في المناطق العربية، وتبقى في النهاية شبكة طرق المدن العثمانية أقل ترابطاً مما هي عليه في المدن الغربية^(٦١).

وفي الأحياء الجديدة، لم تكن الشوارع عريضة ومستقيمة فحسب، بل جرى تخطيطها بحيث تتقاطع وتشكل شبكة لا صلة لها بالنسيج القديم، حيث غالباً ما كان عدد المسارات الممكنة للانتقال من نقطة إلى أخرى محدوداً جداً. وفي معظم الأحيان، بنيت هذه الأحياء حول ساحات تؤمن الصلة مع الطرق القديمة. وفي نهاية ستينيات القرن التاسع عشر، نفذت بلدية بيرايوس - غَلَطَة في إسطنبول مشروع بناء ساحة كبيرة في إثر تفكيك أسوار الحقة الجنوبية، وفتح طريق جديد في النسيج القديم للسماح بمرور أول ترامواي (نجره حيوانات). وكان هذا المشروع مستوحى من هندسة ساحة الإنوال في باريس^(٦٢). وبعد بضع سنوات، بني مقر البلدية في آخر الساحة وشكل نهاية لها.

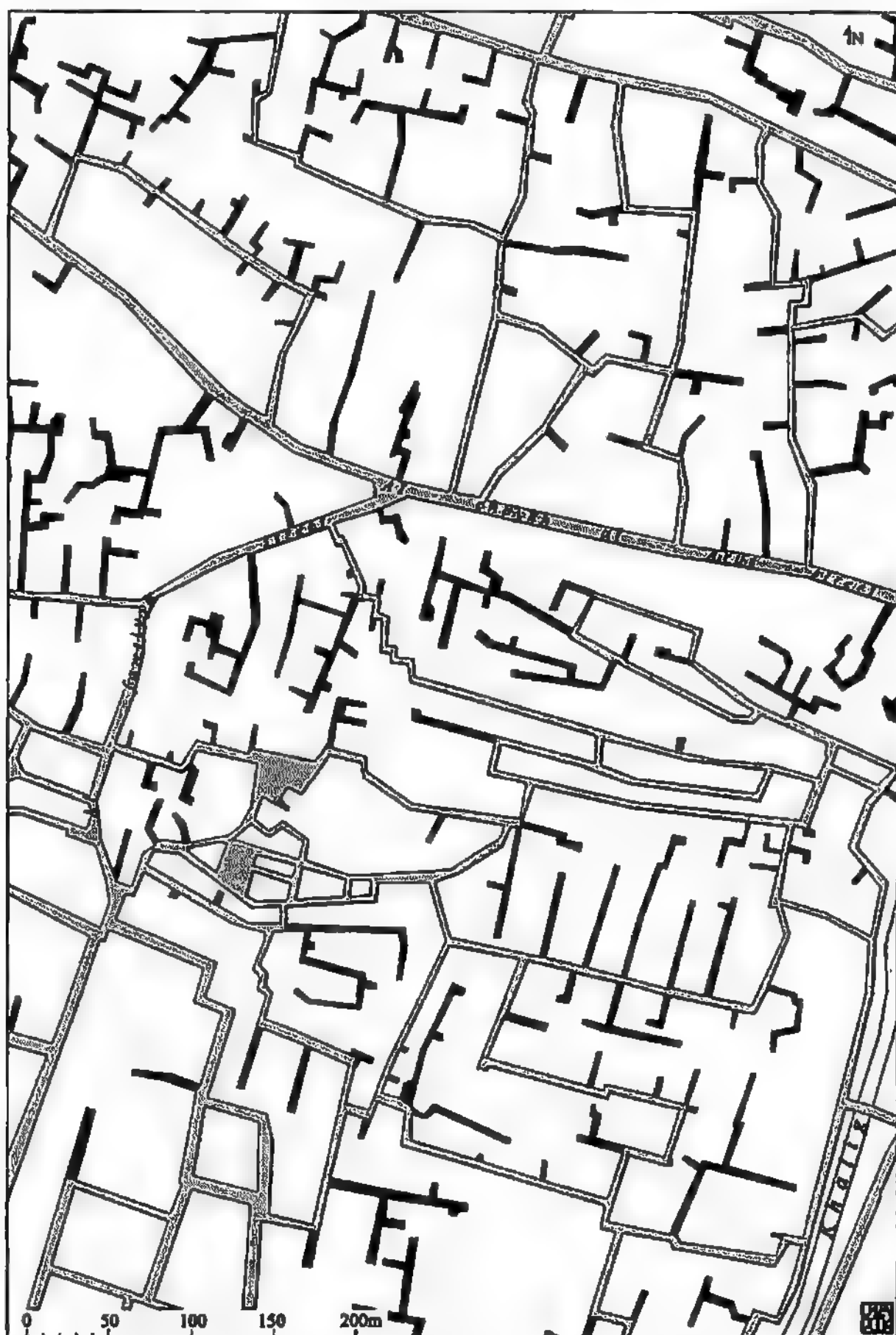
استكملت هذه المشاريع العمرانية أحياناً بالحدائق، كما هي الحال في مصر، حيث أنشئت حديقة الأزبكية في أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر، أو في حلب حيث أنشئت حديقة عامة كبيرة افتتحت للجمهور عام ١٩٠٠. وفي مدن أخرى، اتخذت هذه الأماكن المخصصة للترفيه التي استقبلت أنشطة جديدة أشكالاً أكثر خطية، كما هي الحال في سالونيك حيث ضم المرفأ الذي بني في أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر، وبلغ طوله أكثر من كيلومتر، معظم المؤسسات التي شكّلت رمز الحدائق على غرار المحال والمقاهي والمسارح والفنادق^(٦٣).

Pierre Pinon, «Essai de Définition morphologique de la ville ottomane des XVII^{ème}-XIX^{ème} siècles», dans: *La Culture urbaine des Balkans* (Belgrad; Paris: Institute for Belkan Studies, 1991), pp. 147-155.

Zeynep Celik, *The Remaking of Istanbul: Portrait of an Ottoman City in the Nineteenth Century* (Washington, DC: Washington University Press, 1986), p. 72.

Anastasiadou, *Slamique, 1830-1912: Une Ville ottomane à l'âge des Réformes*, p. 192. (٦٣)

الرسم الرقم (٣٩ - ٦)
القاهرة، شوارع وأزقة غير نافذة، أحياء إلى الشمال الغربي من المدينة القديمة



Plan général de la ville du Caire et des environs (Cairo: 1896)

المصدر:

وفي تونس، ضمت أيضاً جادة طويلة المؤسسات عينها منذ أواسط ثمانينيات القرن التاسع عشر، غير أنها لم تكن تمتد على طول ضفة البحيرة، بل كانت تؤدي إليها من أحد الأبواب الرئيسية للمدينة (انظر الرسم الرقم (٣٩ - ٧)).

الرسم الرقم (٣٩ - ٧)

تونس، الجادة البحرية، حوالى العام ١٩١٠



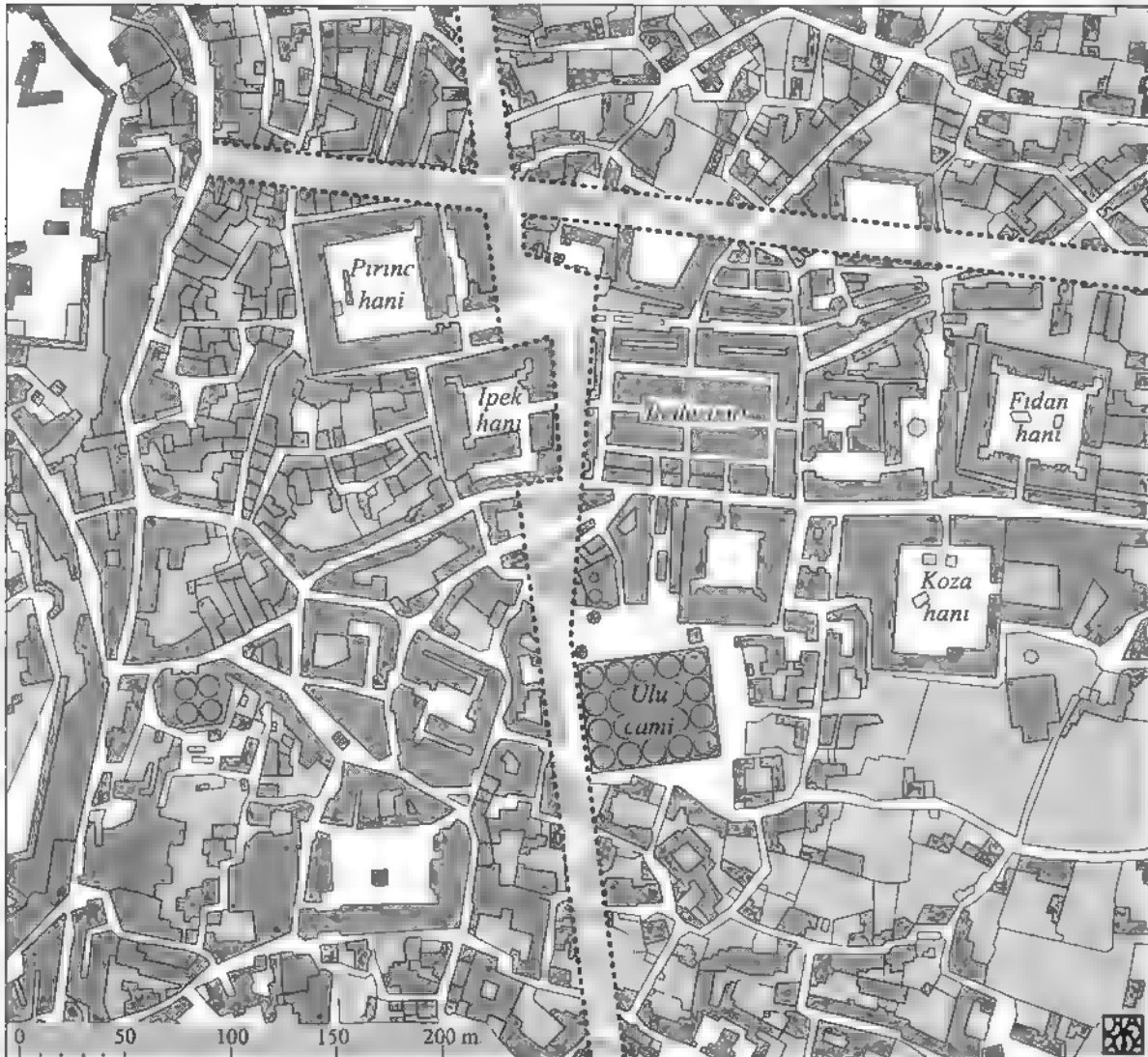
تربط الجادة هذه، التي شقت في خمسينيات القرن الثامن عشر، المدينة القديمة بصفتي البحيرة. المصدر: أخذت هذه الصورة من مجموعة المؤلف.

كما تأمنت الوصلات بين الأحياء الجديدة والأحياء القديمة بواسطة طرق جديدة، ويفضل تحسين - توسيع ورصف - الطرقات القديمة. وأول من باشر بهذه الترتيبات هو محمد علي باشا الذي فتح طريقاً في القاهرة عام ١٨٤٥ تقريباً من الطرف الغربي للمدينة إلى وسطها. وقد أكملت هذه الطريق تلك التي كان بناها جيش الاحتلال الفرنسي في أوائل القرن بين المرفأ (بولاقي) والمدينة.

وقد أتت الأمثلة التالية في وقت لاحق، ولكن في هذا المجال أيضاً استفاد القادة المدنيون من الكوارث الطبيعية. ففي بورصة، وبعد زلزال عام ١٨٥٥، فتح الحاكم طريقين يتقاطعان بزاوية قائمة، ويهدفان إلى وصل المركز التجاري والديني (السوق والجامع الكبير) بمركز السلطة المدنية والعسكرية (انظر الرسم الرقم (٣٩-٨)).^(٦٤)

الرسم الرقم (٣٩-٨)

بورصة، تقاطع شوارع مفتوحة في حي البازار شقت بعد زلزال ١٨٥٥



المصدر: خريطتان منشورتان في: Mustafa Cezar, *Typical Commercial Buildings of the Ottoman Classical Period and the Ottoman Construction System* (Istanbul, 1983), pp. 38-316.

(٦٤) Saint-Laurent, «Un Amateur de théâtre: Ahmed Vefik pacha et le remodelage de Bursa dans le dernier tiers du XIX^{ème} siècle,» p. 103.

وفي سالونيك، أفادت السلطات من حريق عام ١٨٩٠ الذي دمر ما لا يقل عن ٣٥٠٠ منزل من أجل تسوية تخطيط الطرق في المناطق المحروقة^(٦٥). أما في مدن الوطن العربي، حيث كانت المباني الحجرية تقاوم الحريق على نحو أفضل نسبة من مدن شمال السلطنة، كانت الطرق الجديدة المنشأة نتيجة دمار في الأحياء القديمة مجرد استثناءات.

أدت هذه العمليات الحضرية والهندسية إلى إنشاء مراكز جديدة تضم معظم خدمات الإدارة والأنشطة الاقتصادية المتصلة بالحدثة. من جهة أخرى، شكّلت المراكز الدينية (حول الجوامع الكبرى) وأسواق التجارة التقليدية مراكز قديمة فقد البعض منها مكانته السابقة.

٢ - الإفادة من ارتفاع قيمة الملكيات العقارية

ضمت الأحياء الجديدة مؤسسات السلطة ومؤسسات القطاع الاقتصادي، إلا أن تطور التنظيم الحضري كان مصدره أيضاً النمو في عدد السكان. وتختلف الأحياء الجديدة المعدة للسكن إلى حد بعيد عن الأحياء القديمة، بمعزل عن نمط إنتاجها. وقد أدى تزايد طلب القطاع الثالث على العقارات في المراكز الجديدة إلى ارتفاع مجمل أسعار العقارات. كما حمل المالكين على ترشيد تقسيم المناطق المطروحة في السوق لتجنب إنشاء جيوب مطوّقة تحول دون الإفادة من هذه الأسعار.

في هذا السياق، يشكّل حي «العمارة البرانية» في دمشق مثلاً جيداً على ذلك. ففي هذا الحي الذي يمتد على طول أحد أبرز الطرق الذي يصل المدينة بالشمال، تدرج الأقسام المفروزة وفق انتظام تصاعدي بين الحدود التي وصل إليها التنظيم الحضري عام ١٨٦٠ والتنظيم الحضري السائد في أوائل عشرينيات القرن العشرين. وكلما ابتعدنا من المركز، ازدادت الطرق النافذة إلى الأراضي المفروزة عرضاً واستقامة. وقد خضعت الأقسام المعنية للتسوية عينها، إذ جرى تقسيمها بطريقة تحول دون تشكّل الجيوب المطوّقة (ولم تكن الحال على هذا النحو في الأراضي المفروزة قبل عام ١٨٦٠) وأصبح عرضها أكثر انتظاماً.

لا تقتصر الإفادة حتى الحد الأقصى من العقارات خلال تقسيم الأراضي، وقد مثّل إنشاء أول مجمعات سكنية دليلاً بارزاً على ذلك. وعلى الرغم من أن هذا النوع

من المساكن كان معروفاً في مصر منذ زمن طويل^(٦٦)، إلا أنه بقي غائباً عن سائر مدن السلطنة، باستثناء سكن المسافرين والأجانب والرجال غير المتزوجين. وفي مرحلة أولى، اتسم هذا النوع الهندسي الذي فرضه ارتفاع سعر الأراضي المجاورة للمناطق المركزية بترتيبات ركيكة أحياناً، إذ إنها جاءت ثمرة عدة تجارب وأخطاء، متأثرة بالأنواع التي سبقتها (تجربة الخان) وليس التجارب الغربية^(٦٧). ولكن، مهما كانت طريقة توزيع المساكن، فقد اتسمت المباني الأولى بترتيبات تميّزت بعظمتها وفخامة تزيينها، وكان من شأنها أن تعوّض من نوعها الهندسي الرديء^(٦٨).

في إطار التدخلات في النسيج القديم، أدت الحاجة الاقتصادية إلى تقليص قلب المجموعات، وإلى بروز أنواع هندسية جديدة لا تشغل الأراضي فيها أكثر من غيرها، ولكن تزيل الأقسام غير المربحة (انظر الرسم الرقم (٣٩ - ٩)).

وهنا، جرى توزيع جديد للمساحات غير المبنية: أنشئت مساحات عامة في قلب المجموعات لزيادة قيمتها العقارية إلى أقصى حدّ. وقد كانت أسماء المكان العامة، على غرار ممر وقلب المدينة النظامية في تونس العاصمة، خير دليل على هذه الأشكال والممارسات الجديدة.

إلى جانب الأهمية الهندسية لهذه المباني، شهدت تواريخ بناء الأولى منها في كل مدينة على اندماجها في النظام الاقتصادي والاجتماعي الجديد الذي تطور في ذلك الحين في مدن السلطنة العثمانية. وقد تطورت المدن الساحلية، وبالأحرى المرفئية قبل سواها. ولربما كانت الإسكندرية الأولى من بينها، إذ بنيت فيها المباني في أواسط سبعينيات القرن التاسع عشر (انظر الرسم الرقم (٣٩ - ١٠)).

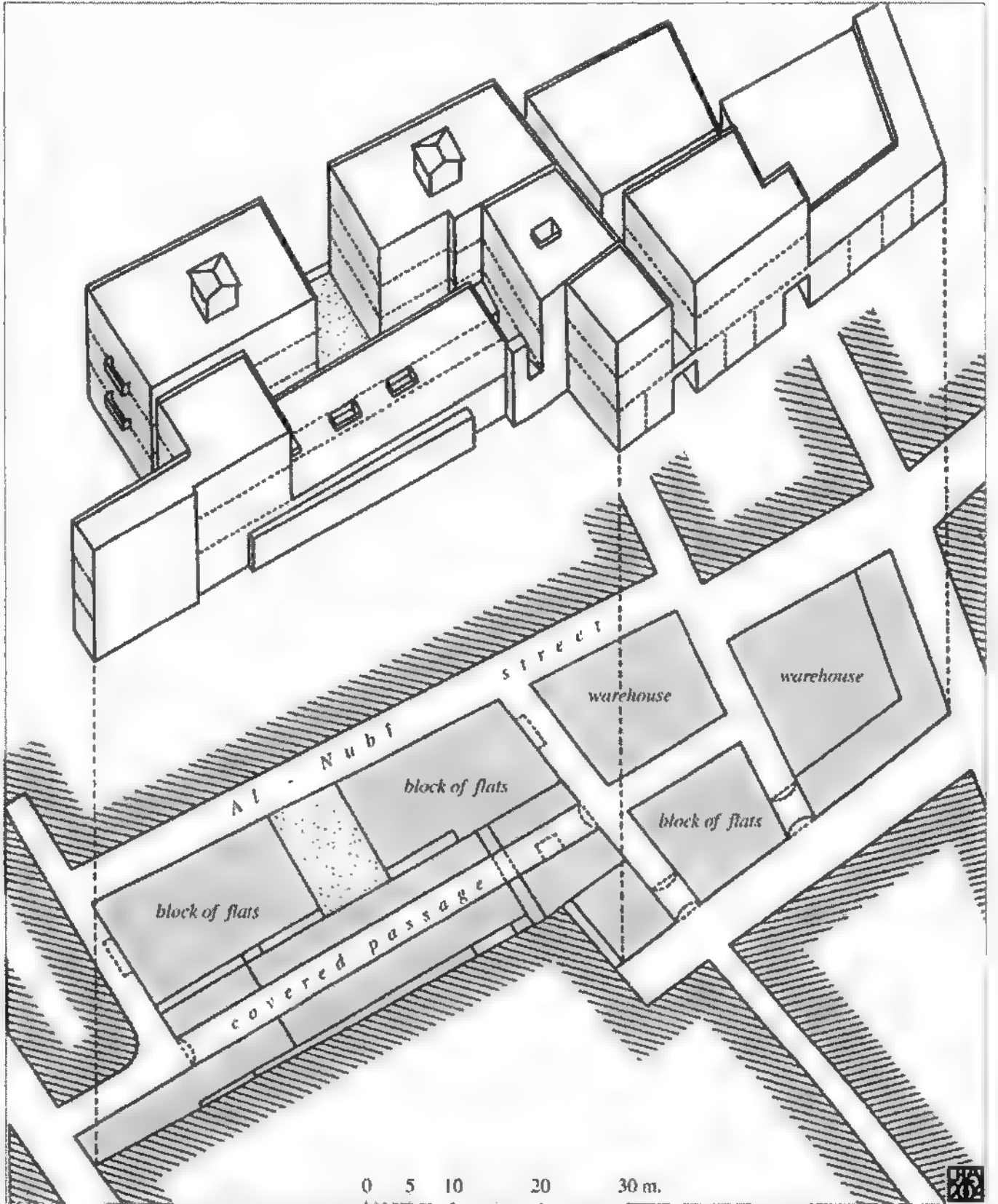
أما دمشق، فتأخرت بالنسبة إلى غيرها، إذ لم تظهر فيها المجمعات السكنية إلا في أوائل عشرينيات القرن العشرين. كذلك، لم تبرز المجمعات الأولى في حلب إلا في أوائل القرن العشرين.

Jean-Claude Garcin, Bernard Maury et Jacques Revault, *Palais et Maisons du Caire, époque mamelouke (XIII^{ème}-XV^{ème} siècles)* (Paris: Editions du Centre national de la recherche scientifique, 1982), p. 175.

Jean-Claude David, «Elaboration de la Nouveauté en architecture en Syrie,» dans: «European Houses in the Islamic Countries,» *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1994-1995), pp. 50-73.

(٦٨) اللافت للانتباه أنه، في كلّ مدينة، تميّزت المباني الأولى بفخامة الأدرج، في الإسكندرية في أوائل الثمانينيات (١٨٨٠) وفي دمشق بعد أربعين سنة.

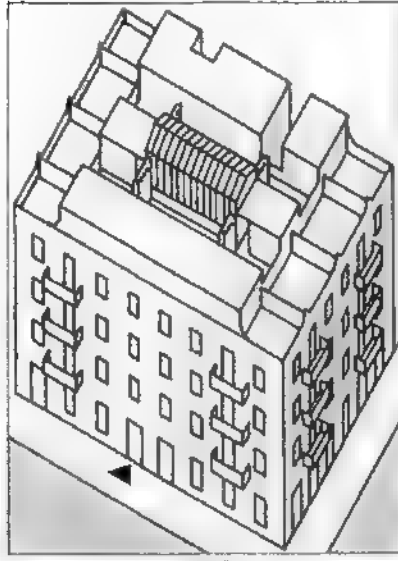
الرسم الرقم (٣٩-٩)
القاهرة، ممر مسقوفة، الحي الفرنسي



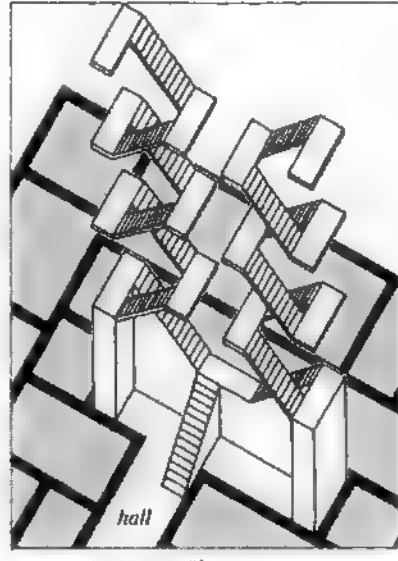
بني هذا التجمع نحو سنة ١٨٩٠، ويتألف من خمسة مجمعات، مستودع، ورش حرفية، و٣٠ محلاً تجارياً.

المصدر: إعادة تكوين ورسم من المؤلف، بالاعتماد على: E. Goad, *Insurance Plan of Cairo- Egypt*:
March 1905 (London; Toronto, 1905)

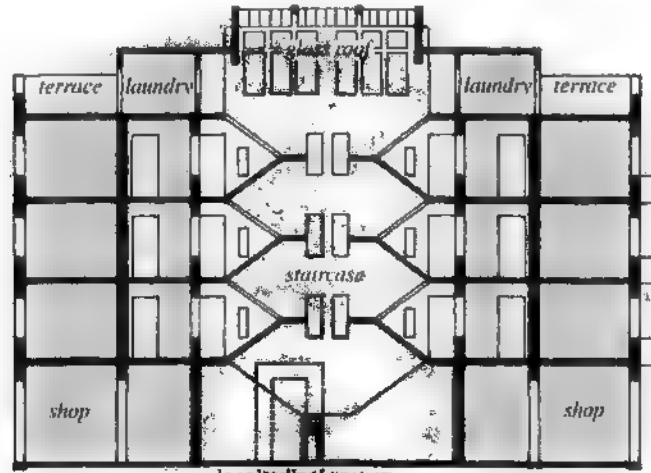
الرسم الرقم (٣٩ - ١٠)
الإسكندرية، مجمع شقق في حي كوم الناضورة



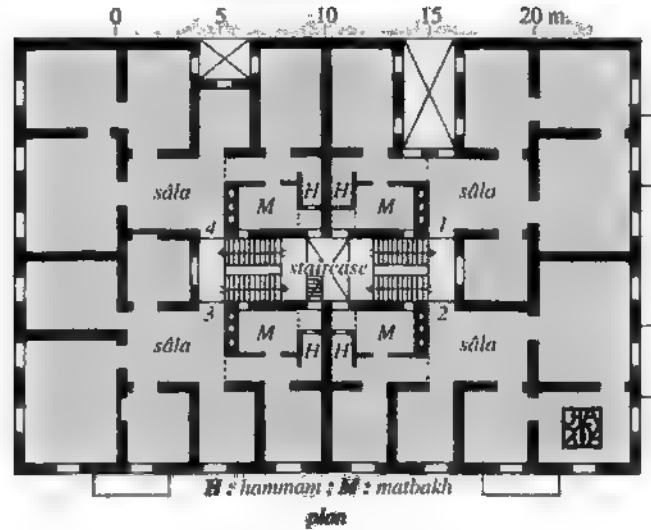
axonometric view



staircase



longitudinal section



H : hanunaji ; M : matbakh

plan

هذا المجمع الذي بني قبل نهاية ثمانينيات القرن التاسع عشر يتألف من ١٢ مسكناً، كل بين ١٠٠ و ١٢٠ متراً مربعاً. هو جزء من تجمع فيه أربع مجمعات مشابهة منظمة حول ممر وأزقة غير نافذة.
المصدر: من تنقيط ورسم المؤلف.

٣ - من المنزل إلى مجمّع الشقق

خلال فترات تسريع إعادة التنظيم، ازداد التفاوت بين استمرارية المباني وتحولات الطلب في مجال الأموال غير المنقولة. وعند منعطف القرن التاسع عشر والقرن العشرين، كان تطور السوق من السرعة بحيث يمكن القول إن الوقت الذي يستغرقه شيد الأبنية كان يمثل عائقاً أمام المستثمرين: ففي نهاية ورشة ما، قد يبدو النوع الهندسي المحدد منذ ستة أشهر أو سنة قديماً أو غير ملائم للسوق. وفي هذا السياق، اعتمد الراغبون في البناء ترتيبات هندسية خاصة، في اهتمامهم بالتحويلات الممكنة لممتلكاتهم. وهكذا، لم تهدف الأنواع الجديدة للمباني إلى زيادة ربحية الأموال العقارية فحسب، بل كان عليها أيضاً مواكبة التحولات السريعة التي تشهدا السوق.

شكل المنزل - المجمع خير مثال على ذلك، فقد كان الميزة الجديدة لسوق يشهد تغيرات عنيفة. وقد انتشر هذا النوع الهندسي بسرعة في جميع مدن السلطنة. وكان أحياناً عبارة عن مجمع مشيد على قطع أرض ربما لا تتجاوز مساحتها الخمسمئة م^٢. وفي معظم الأحيان، كانت تبنى على قاعدة وتشمل طابقين أو ثلاثة، وكل طابق منها يشكل وحدة سكن كاملة. وكان هناك سلم مفتوح على الخارج في الطابق الأرضي يفضي إلى كل طابق. وخلافاً لترتيب المباني الاعتيادي، كان الباب الرئيسي يوضع على جانب من المبنى. وعلى الواجهة، بضع درجات ومدخل يؤمنان نفاذاً مباشراً إلى المستوى الأول. وقد سمح جهاز التوزيع المزدوج هذا باستعمال كامل المبنى كـ «فيلا». وبفضل الأبواب التي تفصل بين سلالم كل طابق، يمكن استعمالها كوحدات عائلية منفصلة أو تأجيرها إلى عائلات مختلفة.

كان هذا التنظيم، في أحسن الأحوال، ملتبساً، فبفضل المدخل المزدوج المفتوح على الطريق والانفصال - الوظيفي والتوزيعي - الذي يتميز به كل طابق، كان من الممكن تحويل المنزل إلى مبنى، وبالتالي تكييف المبنى سريعاً لمتطلبات السوق و/ أو للطلب الاجتماعي. وبعدها ظهر هذا النوع الهندسي الجديد في مصر وإسطنبول في أواخر القرن التاسع عشر، تطور أيضاً في حلب (في أوائل القرن العشرين)، وفي بيروت بعد بضع سنوات، وفي دمشق في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين. والجدير بالذكر أن هذا النمط برز خلال فترة لم تتحول فيها أسعار العقارات والطلب عليها والممارسات الاجتماعية بالوتيرة عينها في كل المدن، بل تميزت بتفاوتات ملموسة. وقد سمح مبدأ التوزيع المزدوج للمبنى بالتكيف المناسب عند الضرورة مع هذه التفاوتات وإدارتها.

بامستثناء مصر التي دخلت الإصلاحات قبل سواها من مناطق السلطنة كثيراً، لم تبدأ فترة التحولات المدنية الكبيرة قبل أواسط القرن التاسع عشر. وهكذا، وفي غضون أقل من خمس وسبعين سنة، شهدت المدن الخاضعة لسلطة الباب العالي تحولات استثنائية. وقد حاولت هذه الدراسة إظهار ذلك عبر بضعة أمثلة في ثلاثة مجالات فقط، غير أنه من الواضح أن جميع المجالات الأخرى شهدت التحولات عينها. فخلال هذه الفترة، جرى الانتقال من المدينة الإسلامية التقليدية، كما حددها ريمون^(٦٩)، إلى المدينة الحديثة.

ومع ذلك، وعلى الرغم من وحدة التشريع ووحدة الطرائق الأساسية لممارسة السلطة، لم تدخل الإصلاحات إلى جميع المدن في الوقت عينه، إذ نلاحظ تفاوتات وتسارعات؛ فالمدن التي كانت تسمح بدخول البضائع الغربية والنفوذ الغربي تطورت قبل سواها، غير أنه سرعان ما لحقت بها المدن الأخرى، وأحياناً تجاوزتها.

وهكذا، وعلى الرغم من الفوارق الملموسة على صعيد إمكانات المدن من جهة، والطريقة التي أصابتها فيها الإصلاحات من جهة ثانية، يمكن القول إنه، عشية تفكك السلطنة العثمانية في أوائل عشرينيات القرن العشرين، كانت موجة من التحديث قد اجتاحت معظم مدنها الكبيرة^(٧٠).

Raymond, *Grandes Villes arabes à l'époque ottoman*.

(٦٩)

(٧٠) لم تكن شبه الجزيرة العربية عرضة لهذه الظاهرة. على الرغم من كبر مساحتها، ولم تشمل هذه المنطقة من السلطنة العثمانية العديد من المدن الكبيرة، إذ بلغ عدد السكان في أمهها، مكة، أقل من ١٠٠٠٠٠ نسمة في العام ١٩٥٠. انظر: François Moriconi-Ebrard, *Geopolis, pour comparer les villes du monde* (Paris: Anthropos, 1994), p. 216.

الفصل الأربعون

المتوسطة: تصاميم المعماريين الفرنسيين والإيطاليين في الثلاثينيات في مدن شمال أفريقيا

ميا فولر^(*)

صِغَ مفهوم الفن المعماري المتوسطي، على نحو نمطي، أول مرة في عشرينيات القرن العشرين على يد بعض المهندسين المعماريين الأوروبيين في أفريقيا الشمالية المستعمرة، حيث كانت فكرة العمارة المتوسطية تتبّع كلياً السياق الاستعماري، جمالياً وسياسياً. وفي الترويج لأنماط معمارية أفريقية شمالية محلية، بدلاً من نماذج العمارة الأوروبية، اقترح هؤلاء جمالية قائمة على المكعبات البيض مع سقوف مسطحة ذات تراسات. وكانت جدالاتهم بعد ذلك ضمنياً سياسية، إذ إن فن العمارة الذي وصفوه كان مصمماً ومبنياً في بيئة من العلاقات غير المتساوية بين المستعمر الأوروبي وشعوب شمال أفريقيا الخاضعة له.

في هذا الفصل، سأصف كيف برّر المهندسون المعماريون الفرنسيون والإيطاليون في فترة ثلاثينيات القرن العشرين في الجزائر وليبيا، دمج الأوجه الزخرفية والبنوية للهندسة المعمارية الشمال الأفريقية مع تصاميمهم - التي بدت وكأنها استعيرت من

(*) أستاذة مشاركة، قسم الدراسات الإيطالية، جامعة كاليفورنيا، بيركلي.

ملاحظة من المؤلفة: أنا مدينة بالشكر لكاترينا بورييلي ولورا وثمان لتزويدي بالمصادر التي استخدمتها في هذا الفصل. كذلك لستيفاني هوم كاري وديانا ك. دافيس لإطلاعي على أعمالها التي لم تنشر بعد؛ ولباري مارغريت جونز وألونا نتران شيفتان للنقاشات المفيدة والمقترحات والمراجع، وإليزابيث ليك لقراءتها للنسخ الأولى من هذا الفصل ولاقتراحاتها التحريرية.

الشعوب المستعمرة «الأقل شأنًا» - عبر إضفاء الطابع المتوسطي على عناصر التصميم، فتركوا بصماتهم الهندسية كاستمرارية لتاريخ طويل من التقاليد المشتركة في بيئة جغرافية مشتركة^(١).

بعدها، أنتقل لمناقشة البيئة التاريخية والسياسية الأوسع التي قام المهندسون المعماريون في ظلها بهذا التحوّل الجذري، ولا سيما الوجدان الوطني الفرنسي والإيطالي والسياسات الفرنسية والإيطالية إزاء حوض البحر المتوسط وأراضيه. وأختم الفصل بتسليط الضوء على نقطة مفادها أن فهم ظاهرة «الطابع المتوسطي» على أنه ابتكارٌ أوروبي منبثق مباشرة من التجربة الاستعمارية، يوسّع فهمنا للتحاليل الأوروبية للمدينة في العالم الإسلامي.

أولاً: فن العمارة «المتوسطية» الفرنسية

اعتمدت الحكومة الفرنسية منذ احتلالها الجزائر عام ١٨٣٠، ووصولاً إلى تحويل تونس إلى محمية لها اعتباراً من ثمانينيات القرن التاسع عشر، أشكالاً فخمة كانت تتمسك بها وتطبقها على أراضيها، فارضةً بنى تمثيلية أجنبية مثل المكاتب البريدية في قلب المدن المستعمرة^(٢).

ووفقاً لتعريف بيغوين (وآخرين)، هذا ما صار يُعرَف بـ «فن العمارة الخاص بالفتح»، الذي يتباين مع مبدأ «فن العمارة الخاص بالحامي أو الوصي» الذي يبدو أكثر صداقة مع الدولة المستعمرة، والذي بدأ يحلّ مكان الأول مع بداية القرن العشرين^(٣).

وكان «فن العمارة الخاص بالحامي» الذي يبيّن الفرق (الخاطي) بين الاحتلال الاستعماري الكامل للجزائر وسياسة الحماية في تونس والمغرب، يشتمل عمداً على

(١) واجهت السلطات الاستعمارية الإسبانية في شمال أفريقيا المفضلة نفسها التي واجهها الفرنسيون والطيّان، ولجأوا في عدّة حالات إلى الحلول والتصاميم نفسها، لكنهم كانوا أقلّ ميلاً إلى استخدام خطاب «المتوسطية». انظر: A. B. Nieto, *Arquitecturay urbanismo español en el norte de Marruecos* (Madrid: Junta de Andalucía, 2000).

(٢) انظر: F. Beguin, D. Lesage et L. Godin, *Arabisation Décor architectural et trace urbain en Afrique du Nord, 1830-1950* (Paris: Dunod, 1983); Paul Rainbow, *French Modern: Norms and Forms of the Social Environment* (Cambridge, MA; London: Cambridge University Press, 1989); G. Wright, *The Politics of Design in French Colonial Urbanism* (Chicago, IL; London: University of Chicago Press, 1991), and Zeinep Celik, *Urban Forms and Colonial Confrontations: Algiers, Under French Rule* (Berkeley, CA: University of California Press, 1997).

Beguin, Lesage et Godin, *Ibid.*, pp. 11-30.

(٣)

أساليب مختلطة مُزجت فيها عناصر زخرفية محلية من النماذج الهندسية الأوروبية. في عشرينيات القرن العشرين، إذًا، كان الأسلوب المغربي الجديد (Neo-moorish) لزخرفة المباني الأوروبية التابعة للقطاعين العام والخاص، والذي تم تعريفه على نحو خاطئ، نمطاً سائداً على مدى عقدين تقريباً في أبرز المدن الساحلية لدول المغرب العربي الفرنسي.

بلغ هذا المزج السطحي ذروة تطوره (وأعظم نجاحاته الحاسمة) في المغرب بدءاً من عام ١٩١٢، حيث وسّع فريق المهندسين المعماريين والمخطّطين التابعين للحاكم ليوتي عملية تكييف الإرث الهندسي المعماري المحلي التي كانت حتى ذلك الوقت غير منسقة، وحولوا تلك العملية إلى برنامج بناء حكومي متطور وممول^(٤). وفي عام ١٩٢٨، وصف المهندس المعماري ألبير لابراد، أحد أعضاء الفريق، «الأسلوب الجديد» الذي بدأ يظهر هناك بأنه «خلاصة روحنا اللاتينية وحبنا لفن الشعوب الأصلية»^(٥). ويجسد وصفه هذا آراء عدد من زملائه من فترة أواخر عشرينيات القرن العشرين حول وجدانهم «اللاتيني» (أي الأوروبي) وقرارهم إضفاء النسق المحلي (أي العربي) على التصميم. ولعلّ أهم ما أشار إليه وصف لابراد هو المعضلة التي واجهوها جميعاً، وهي: إلى أي مدى يجب أن يُدخلوا ما هو غير أوروبي في أعمالهم الهندسية الاستعمارية؟^(٦). برزت تسمية «فن العمارة المتوسطة» بعد تلك المرحلة قليلاً، وشملت الملامح الهندسية «اللاتينية» و«الخاصة بالسكان الأصليين» التي يفضلها المهندسون المعماريون الأوروبيون - واستثنوا في الوقت عينه غيرها من أشكال الهندسة المحلية وصنّفوها في خانة الهندسة المعمارية «العربية».

في هذا الوقت، كانت تنظيرات المهندسين المعماريين من دعاة الحداثة تكتسب المزيد من الأهمية في العاصمة الفرنسية وسائر أنحاء أوروبا. وجاء كتاب لا كروا نحو فن عمارة عام ١٩٢٣ ليعكس الأفكار الجديدة للعديد من المهندسين المعماريين،

(٤) في خط عمل جانيت أبو لُغُود نفسه، في وسع المرء القول إن الأعمال المعمارية تلك يمكن أن تنسب إلى سياسات الفصل داخل مجتمع استعماري. انظر: Janet Abou-Lughod, *Rabat: Urban Apartheid in Morocco* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1980).

(٥) Albert Laprade, «Souvenirs du Temps de la guerre, contribution a la future histoire de Casablanca et de Rabat» *Le Maroc catholique* (September-December 1928), p. 599.

(٦) من أجل مصدر يقدم موقف أن العمارة التليفقية يمكن أن تخدم فقط المستعمرين الفرنسيين، انظر: Joseph Marrast, «Dans Quelle mesure fait-il faire appel aux arts indigenes dans la construction de édifices?» dans: Jean Royer, ed., *L'urbanisme aux colonies et dans les pays tropicaux*, 2 vols. (Paris: Delaunay, 1935), pp. 24-25, et Emile Bayard, *L'art de reconnaître les styles coloniaux de la France* (Paris: Garnier, 1931).

وليمنحهم صوتاً مميزاً في الوقت عينه. وعارض دعاة الحداثة إعادة استعمال الأشكال التاريخية لذاتها فقط، وانطبقت هذه الرؤية على واجهات المباني في مرحلة النهضة، مثلاً، وعلى الأساليب الكلاسيكية (أو النيو - كلاسيكية) بوجه خاص، ولكنهم اقترحوا، في المقابل، استخلاص العبر من المعالم الهيلينية على أساس «روحها» التي وصفوها بأنها حديثة تماماً في بساطتها ومذهبها العملي وطهارتها الجمالية. وعلى الرغم من أن لا كروا كان قد كتب سابقاً عن «الهيليني» بدلاً من «المتوسطي»، إلا أن ما كان يجول في ذهنه هو تلك المكعبات البيض والسطوحات عينا على خلفية من السماء والبحر الزرقاوين والطبيعة الصخرية الوعرة التي بدأ مهندسو الفترة الاستعمارية في الجزائر يشيرون إليها في أواخر عشرينيات القرن العشرين بمصطلح «المتوسطي».

بتعبير آخر، كان المهندسون المعماريون في شمال أفريقيا المستعمرة مهتمين بالنماذج الشكلية عينا، ولكنهم عوضاً من التركيز على المراجع الكلاسيكية في كتاباتهم، تطرقوا إلى أوجه أخرى من «إضفاء الطابع المتوسطي»، منها التاريخ والحتمية الجغرافية التي تركز عليها الشمولية الخالدة (سأعود إلى هذه النقطة في ما يلي).

وما لا شك فيه أن المهندسين المعماريين الفرنسيين في الجزائر واجهوا معضلة عملية أكثر من تلك التي واجهها واضعو النظريات في العاصمة الفرنسية. فبالنسبة إلى المهندسين المعماريين في الجزائر، كانت مسألة إدخال العناصر المحلية في هندستهم الاستعمارية مسألة ذات صلة آنية في الواقع في خضم سوق بناء ناشطة جداً وظروف سياسية شديدة الحساسية. وفي أي حال، كانوا أقل ميلاً من نظرائهم في الشمال إلى مناقشة فن العمارة انطلاقاً من «روحها». وفي مقالات بعنوان «نحو فن عمارة متوسطية» تم نشرها في صحيفة جزائرية للمهندسين المعماريين والمهندسين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٠، أقر كاتبان مختلفان بأهمية لوكوربوزيه عبر تكييف عنوان كتابه الشهير، ولكنهم ناقشوا فن العمارة المتوسطية الخاص بهم في البيئة الجزائرية، وكيف يجب أن تكون علاقته بفن العمارة المحلي «البربري» أو الشمال أفريقي، والفرق بينه وبين فن العمارة الحديثة في شمال أوروبا. فجاء الكاتب الأول دو بي - لا كروا ليستمر في التركيز البالي على الزخرفة النيو - بربرية، ودَحَّضَ الأوجه «الحديثة» لفن العمارة المحلية الذي كان بعض زملائه يمدحونه في الحال، ولخص وجهات نظر المصممين النيو - بربرين في العقد الأول والثاني من القرن العشرين. أما كوتيرو، فقد كان وراء المناقشات المؤيدة لبساطة فن العمارة المحلية، وفي الوقت عينه وضع مسائل فن العمارة الاستعمارية في قلب النقاش بين الدعاة إلى الحداثة المعاصرين.

كان «الأسلوب المتوسطي» الذي نادى به دوبي - لا كروا في نيسان/ أبريل ١٩٢٩ «سليلاً حديثاً للمباني البربرية وورث أبعاداً جمالية ساحرة» يؤدي إلى «البيت المثالي الحقيقي»^(٧). وبحسب وصفه، تنبع هذه «الأبعاد الجمالية الساحرة» من الزخرفات النموذجية التي تتميز بها العمارة البربرية الفخمة «الرفيعة المستوى»، وليس من المنازل المحلية الشمال الأفريقية التي لم يروج لها لا كروا كنموذج مفيد يمكن للمهندسين المعماريين في فترة الاستعمار أن يقلّدوه.

وعلى الرغم من أنه وصف «أسلوبه المتوسطي» المثالي بأنه «من سلالة المباني البربرية»، إلا أنه كان أكثر شبهاً بمنزل ريفي فرنسي مألوف أضيفت إليه الزخرفات المستعارة. وبحسب لا كروا، «على المنزل أن يؤمن الحاجات العصرية لناحية النظافة والراحة، ذلك أن أسلافنا المسلمين [في المستعمرة] لم يفهموا شيئاً من آلاف التفاصيل الصغيرة التي تجعل الحياة ممتعة». وتقتضي «الراحة» المزيد من التهوية: كانت العادة التي درج عليها البناء المحلي في شمال أفريقيا، والتي يكون فيها المنزل محاطاً بياحة خارجية تمنع التهوية الضرورية، الأمر الذي يؤدي إلى انبعاث رائحة كريهة ناجمة عن الرطوبة.

وتتطلب «الراحة» أيضاً خصوصية أكبر من تلك التي كانت تؤمنها المنازل الجزائرية النموذجية، حيث كان فتح جميع الغرف على بعضها وإطلالها على باحة خارجية واحدة يفرض «اختلاطاً يتنافى مع عاداتنا الحساسة»، ويؤدي إلى دخول أشعة الشمس بصورة أكبر، إذ إن «كافة غرف البيت الجزائري تقريباً كانت مظلمة»^(٨). وفي هذا الصدد، لا يبدو أن لا كروا كان مهتماً بعزل داخل المنازل عن أشعة الشمس الحادة، بل على العكس أراد المزيد من النوافذ. وأضاف لا كروا: «لا شيء أكثر جمالاً من المنزل [المحلي] الأبيض المتألق»، واعترف بـ «شعور الإعجاب في حضرة المنزل البربري»، ولكنه أضاف أن «المنزل البربري أعمى وسرعان ما يوحى بالحزن، وبلغز عدائي يفسد متعة العين»^(٩). ولتصويب هذا الواقع، يتعين على المهندسين المعماريين «إضفاء الحياة على المنزل البربري. ووحدها المشربيات الكبيرة والنوافذ الجميلة المؤطرة بالفسيفساء الملونة هي التي ستعطي النتيجة الأفضل»^(١٠).

R. Du Puy-Lacroix, «Vers une architecture mediterraneenne,» *Chantiers Nord-Africains*, vol. 2, (٧) no. 4 (April 1929), pp. 245-247.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

وبعد ثمانية أشهر، بدأ كوتيرو بنشر سلسلة من المقالات تحت العنوان نفسه كلا كروا، وإنما مختلفة عنه في التوجه. فبالنسبة إلى كوتيرو، يتحدّر «فن العمارة المتوسطة» مباشرة من الهندسة المحلية. وفي النهاية، جاءت مناقشاته المختلفة للأساليب التاريخية في أنحاء حوض المتوسط كافة لتخدم خطته الهندسية المحددة، ومفادها أن اعتماد الكورنيش والأروقة المعمّدة والسطوحات - وهي كلها عناصر تقترن بالعمارة المحلية في الجزائر، وتتمتع بميزات الحماية من أشعة الشمس الحادة والأمطار الغزيرة - كان ضرورياً ومناسباً للعمارة الفرنسية في مستعمرات شمال أفريقيا^(١١). كما اعترف كوتيرو في أمكنة أخرى بأن بعض المعالم الزخرفية، مثل القرميد الخزفي والمشربيات^(١٢)، جذيرة بالذكر، ولكن تبقى في نظره ثانوية بالنسبة إلى معالم التصميم الهندسية المحلية.

إضافة إلى الميزة التكميلية للهندسة المحلية، كان أمام كوتيرو حاجزاً آخر ليهزمه، وهو يتمثل بالفكرة القائلة إنه على الرغم من استعمال الأشكال المعمارية المتشابهة (على غرار المكعبات البيض)، كانت أعمال المهندسين المعماريين الاستعماريين تختلف عن أعمال المهندسين من دعاة الحداثة. ففي النهاية، بدا تحول المهندسين المعماريين في فترة الاستعمار من دمج العناصر الهندسية المحلية السطحية في أعمالهم إلى دمج العناصر البنيوية الهيكلية، وكأنه يتماشى مع آراء المهندسين المعماريين التابعين للحركة الحداثيّة في أوروبا الذين كانوا يروجون للمذهب النفعي، ولرموز جمالية الحجم، وللمساحات غير المزخرفة بدلاً من المزخرفات.

والى حد ما، اكتسب دور الطابع المحلي في العمارة الاستعمارية بعض التأييد بفضل تطابقه الرسمي مع التطورات النظرية الحالية. ولكن كوتيرو أصرّ على أن الأسلوب الاستعماري الجديد لم يكن بأي شكل من الأشكال منسوخاً، معتبراً أن الأعمال الجديدة للمهندسين المعماريين الاستعماريين كانت أكثر ملاءمة لبيئتها مما كانت عليه أعمال دعاة الحداثة في أوروبا - على سبيل المثال كان بناء السطوحات منطقياً في المنازل الواقعة على شواطئ البحر المتوسط، ولكن ليس في أوروبا. في الواقع،

Jean Cotereau, «Vers une architecture méditerranéenne», *Chantiers nord-Africains*, vol. 3, no. (١١) 1 (January 1930), pp. 381-383.

Jean Cotereau, «La Maison mauresque», *Chantiers Nord-africains*, vol. 3, no. 6 (June ١٢) 1930), pp. 533-652, described in: Cohen and Eleb, *Casablanca*, 146-167, and in: Sherry McKay, «Mediterraneanism: The Politics of Architectural Production in Algiers during the 1930s», *City and Society*, vol. 1, no. 1 (2000), pp. 79-102.

استعمل كوتيرو العنوان الشهير الذي استعمله لا كروا فقط ليهرن عن موقف مفاده أنه على الرغم من أوجه الشبه بين العمارة الاستعمارية المستوحاة من العمران المحلي للدول المستعمرة، والعمارة القائمة على مبدأ الانتفاعية الذي طبع العمران الحديث في شمال أوروبا، كانت كل واحدة منهما مستوحاة من مصدر مختلف^(١٣). فالمهندسون المعماريون لفترة الاستعمار لم يكونوا مستقلين عن دعاة الحداثة في الشمال فحسب، بل كانوا يستطيعون استعمال اللون الأبيض والمكعبات أكثر من سواهم، لأن هذه العناصر كانت شبيهة بالبناء المحلي لتلك المستعمرات ومناسبة للمناخ السائد فيها.

وعلى الرغم من أن لا كروا وكوتيرو قدما تفسيرين شديدي الاختلاف لـ «فن العمارة المتوسطية»، فقد كانت مقدماتهما حول المتوسط نفسه متطابقة تقريباً. وكانت توقعاتهما التي ظلت في صلب هذا الجدل خلال ثلاثينيات القرن العشرين، وتفسيراتهما لجاذبية الهندسة المعمارية المحلية (سواء في زخرفتها أم في بساطتها الحديثة والعصرية) قائمة على نظريات حول وحدة المتوسط تغلب فيها المصلحة الذاتية وسرد الأخبار التاريخية، وتقوم في بعض الأحيان على الحتمية الجغرافية. أما لا كروا، ففضل نظرية السلف التاريخي، وأشار على نحو ملحوظ إلى إعجاب الأوروبيين الكبير بالبقايا الكلاسيكية أينما وجدت على شواطئ المتوسط. وردّد كوتيرو العبارات المجازية عينها، مشيراً في الوقت عينه إلى تاريخ شعوب حوض البحر المتوسط، وليس فقط إلى بقايا نتاجهم. وبالنسبة إليه، يمكن تلخيص كل تاريخ حوض البحر المتوسط بأنه صراع نفوذ بين العرقين «الآري» و«السامي»^(١٤). وكذلك وصف الوضع الاستعماري في أيامه كما يلي: «باتت شعوب المتوسط برعاية الدول اللاتينية (الأوروبية) تشهد حالة تشبه تلك التي سادت أيام الرومان»^(١٥).

واللافت للنظر أن أياً من الكاتبين لم يناقش موضوع الإمبراطورية العثمانية التي كانت قد انهارت حديثاً، على الرغم من بسط هيمنتها على مدى خمسة قرون، بل كانت الأحداث التاريخية التي أشارا إليها كلاسيكية بحتة. وعلى الرغم من ذلك، لم يكن أي منهما ميالاً إلى تقليد الأساليب الكلاسيكية، بل استخدمها على سبيل المثال

Jean Cotereau, «Vers une Architecture méditerranéenne», *Chantiers Nord-africains*, vol. 3, (١٣) no. 3 (March 1930), pp. 219-223.

Jean Cotereau, «Vers une Architecture méditerranéenne», *Chantiers Nord-africains*, vol. 3, (١٤) no. 2 (February 1930), pp. 117-120.

Jean Cotereau, «Vers une Architecture méditerranéenne», *Chantiers Nord-africains*, vol. 2, (١٥) no. 12 (December 1929), pp. 679-681.

لإثبات الوحدة التاريخية والثقافية المثقلة بالتأثير الأوروبي لمنطقة المتوسط. وتعدّت عمليات النسخ التي نجمت عن تلك النصوص الطابع المعماري، إذ طالبت ضمناً بحقها في حوض المتوسط عبر استثناء كل سلالة محدّدة من تاريخ المنطقة باستثناء السلالة «اللاتينية». وفي هذه الأثناء، عاد كوتيرو أيضاً إلى الحتمية الجغرافية، حيث كان للمناظر الطبيعية والمناخ دور حاسم في طبع العمارة المحلية التي كان معجباً بها. وانطلاقاً من هذه الفكرة، افترض أن هناك وجوداً حتمياً لما يُسمى «فن العمارة الخاص بالمناطق المناخية». وكان حوض المتوسط بكل شواطئه منطقة كهذه: «إن كان هناك منطقة متوسطة، فلا بد من وجود... فن عمارة متوسطة»^(١٦).

وسواء كانت تلك النظريات تستند إلى السرد التاريخي أو إلى التعميم الجغرافي، فإن جميعها يعزو جذور التصاميم الهندسية الاستعمارية إلى عوامل غير تاريخية، ما يُلطّخ علاقات النفوذ المعقّدة والتبعية بين الفرنسيين والشعوب الجزائرية والتونسية والمغربية التي كانت خاضعة للهيمنة الفرنسية. وإذا وصف المهندسون المعماريون منطقة البحر المتوسط بمكان متجانس، حيث تحدّد القوانين التاريخية والجغرافية النوع الأبرز لفن العمارة، فهم تعمّدوا تغاضي مناقشة حقيقة أنهم كانوا ينسبون إلى أنفسهم الهندسة المعمارية المحلية لشعوب يُفترض أنها أقل «تمدناً» منهم.

باختصار، كانت المسألة العملية المتعلقة باختيار التفضيلات الهندسية بسيطة نوعاً ما. ولكن المسألة السياسية المتعلقة بتبرير استعمال بعض النهج الهندسية كانت تتطلب تجديداً بلاغياً لإعادة تسمية فن العمارة المحلية «البربرية» أو الشمال الأفريقية باسم «المتوسطة». وفي المقالات التي وصفتها حتى الآن، قلّل كوتيرو من أهمية «الطابع العربي» للهندسة المحلية، وشدّد في المقابل على العناصر التي تجعلها «متوسطة» أكثر. ولكن في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين - بينما كانت مقالاته عن المتوسطة في طور الصدور - نشر أيضاً مقالاً عن «المنزل البربري» في الجريدة عينها، حيث ركّز على النقطة ذاتها تماماً، ومفادها أن الهندسة المعمارية المحلية قابلة للتكييف مع الوجدان الحديث، واستعمل عباراتٍ اعترفت بأن منفعة الهندسة المحلية وبساطتها الجديرتين بالتقدير ترتبطان بمصدرها المباشر، أي الشعب العربي الجزائري.

تمثّل الفيلا العربية أكثر أوجه الشبه غرابةً مع الفيلا المعاصرة، حيث أدّت الرغبة في عدم إظهار الثراء (بين العرب) إلى النتائج عينها في فن العمارة كالذوق البسيط (بين

(١٦) المصدر نفسه.

المهندسين). وكان نوعا الفيلا كناية عن مكعبين أبيضين متصلين... وفي كلا الحالين، تقوم سطحية في أعلى المبنى^(١٧).

أضاف كوتيرو: «ما نستطيع (نحن المهندسين المعماريين) أن نقلّده في ما يسمّى «المنزل البربري» هو ما حافظ عليه من إرثه الروماني»^(١٨). هنا يبرز بوضوح الانقسام في الحجج التاريخية - الإثنية التي قدّمها كوتيرو (ومن لحقه من المهندسين المعماريين)، فقسم فن العمارة المحلية إلى خصائص مرغوب فيها يجب نسخها - وإعادة تسميتها «المتوسطة»، أي الرومانية أو اللاتينية - ونذكر من بقايا هذا الانقسام، بعض خصائص المنازل العربية التي لم يشأ المهندسون المعماريون الفرنسيون أن يقلّدوها، مثل الرطوبة وانعدام الخصوصية. وكانت دلالة كلمة «المتوسطة» ذات أثر كبير حتى الآن، لأنها كانت تخفي ذلك النسخ، وتجعله يبدو مجرد مطالبة بشيء كان يتمي إلى الأوروبيين حكماً بسبب طابعه «الروماني» أو «اللاتيني» المطلق.

ووفقاً لحجة أخرى قدّمها كوتيرو، وهي حجة جغرافية، اكتسبت عمليات الاستيلاء التي قام بها المهندسون المعماريون زخماً إضافياً بسبب الاعتقاد القائل إنه في أي حال، لم يكن العرب هم من بنوا تلك المنازل الجميلة، بل المناخ. وعلى حدّ قول لابراد، سمح الخطان الجغرافي والتاريخي لهذه الحجة المزدوجة للمهندسين المعماريين، بتجسيد «روحهم اللاتينية وحبهم لفن الشعوب الأصلية»، بينما يحافظون في الوقت عينه على «هوية الآخر» للعمارة المحلية العربية. وكما تختصرها كلمات شيري ماكاي: «ما كان في أحد الأيام منزل من طراز السكان الأصليين صار عكسه تماماً، أي المنزل المتوسطي الذي يبدو وكأن التقنيات الحديثة حرّرت»^(١٩).

بعد تلك المنشورات بفترة قصيرة، زار لو كوربوزيه الجزائر أول مرة عام ١٩٣١. وقد استُقبل ببرودة وبأجوبة مزدوجة على يد المهندسين المعماريين المحليين^(٢٠)، الذين كانوا، في نهاية المطاف، قد قاموا بعمليات تشييد أكثر منه، ولا يحبّذون تعليمات الأجانب عن الحداثة. وعلى الرغم من ذلك «اكتشف» لو كوربوزيه في تلك المناسبة

Cotereau, «La Maison mauresque», p. 538.

(١٧)

Jean Cotereau, quoted in: Jean-Jacques Deluz, «Quelques Réflexions sur Le Corbusier et l'Algérie», dans: *La Méditerranée de Le Corbusier: Actes du colloque international: Le Corbusier et la Méditerranée à Marseille, les 24, 25 et 26 September 1987* (Paris: Aix-en Provence, 1991), pp. 23-48.

Mckay, «Mediterraneanism: The Politics of Architectural Production in Algiers during the 1930s», p. 88.

Deluz, Ibid.

(٢٠)

الخاصية المتوسطة المتمثلة بتعميم المكعبات البيض التي كان يصفها، وباتت نظرياته اللاحقة تميل أكثر إلى المتوسطي، وأقل إلى اليوناني أو اللاتيني المحض^(٢١). وعلى الرغم من الحجج التي قدّمها كوتيرو بأن الهندسة المعمارية المتوسطة كانت مختلفة عن الهندسة المعمارية الحديثة، استمرّ بعض المهندسين المعماريين من دعاة الحداثة خلال ثلاثينيات القرن العشرين في القول إن الحداثة في نهاية الأمر متوسطة^(٢٢).

ثانياً: فن العمارة المتوسطة الإيطالية

كانت نظريات المهندسين المعماريين الإيطاليين المحدثين عن فن العمارة الذي نفّذوه في ليبيا شبيهة بمناقشات المهندسين المعماريين الفرنسيين لأساليب العمارة الاستعمارية في الجزائر في كل تفاصيلها تقريباً. منذ بداية الاحتلال الإيطالي في عامي ١٩١١ و ١٩١٢، كانت مدينتا طرابلس وبنغازي قد شهدتا عدّة عمليات بناء من طراز النمط البربري المحض. وبدأت حفة من المهندسين المعماريين الإيطاليين تنادي بفن عمارة استعمارية متوسطة قائمة على العمارة المحلية بعد فترة قصيرة من زملاتهم الفرنسيين عام ١٩٣١^(٢٣). ووصف هؤلاء أيضاً فن العمارة المحلية العربية على أنها «رومانية» أو «لاتينية» أساساً، وتتمشى مع أكثر الوجدانيات حداثةً ومتأثرةً بالمناخ^(٢٤). وفي بعض النواحي، كانت حججهم تختلف عن حجج الفرنسيين. فهم

(٢١) استخدم لو كوريوزيه لاحقاً مفردة «لاتين» في أبحاثه، كما في: *Esprit Grec Esprit Latin: Esprit*, Greco-Latin, *Prelude*, vol. 2 (15 February 1933), pp. 1-2.

في ملاحظة مختلفة، فإن المواجهة بين المعماري الحديث والمنطقة الشمال الأفريقية المستعمرة هي مجرد حالة لا يجري غالباً التركيز عليها بما يكفي: فالتطورات منذ حداثة الثلاثينيات لا يمكن أن تفهم تماماً من دون الأخذ بعين الاعتبار وعي المعماريين الحداثيين للحضور الاستعماري لمثل هذه الأبحاث. انظر: Brian L. McLaren, «Mediterraneità and modernità Architecture and Culture during the Period of Italian Colonization of North Africa», (PhD. Dissertation, Massachusetts Institute of Technology, 2001).

(٢٢) على سبيل المثال، انظر: Erich Mendelsohn, «Il Bacino mediterraneo e la nuova architettura», *Architettura*, vol. 11, no. 2 (1932), pp. 647-648.

(٢٣) استمرت لجنة التوفيق الحكومية طوال فترة الحكم الإيطالي، مع ذلك انظر مثلاً: Krystyna von Henneberg, «Imperial Uncertainties: Architectural Syncretism and Improvisation in fascist Colonial Libya», *Journal of Contemporary History*, vol. 31 (1966), pp. 373-395.

(٢٤) انظر: Silvia Danesi, «Aporie dell'architettura italiana in periodo fascista – mediterraneità e purism», in: Silvia Danesi and Luciano Patetta, eds., *Il razionalismo e l'architettura in Italia durante il fascismo* (Milan: Mondadori Electa, 1976), pp. 21-28; Mia Fuller, «Building Power: Italian Architecture and urbanism in Libya and Ethiopia», in: Nezar Alsayyad, ed., *Forms of Dominance: On the Architecture of Architecture and Urbanism of the Colonial Enterprise* (Adershot: [n. pb.], 1992), pp. 211-239, and Brian L. McLaren, «Carlo Enrico Rava- «mediterraneità» and the Architecture of the Colonies

مثلاً لم يتكروا باستمرار دور فن العمارة العثمانية في طبع العمارة المحلية التي أرادوا أن يحذوا حذوها^(٢٥). ولكن، بغض النظر عن هذه الاختلافات البسيطة، لجأ الإيطاليون، على غرار المهندسين المعماريين الفرنسيين في الجزائر، إلى أمثلة من السوابق التاريخية والجغرافية والوحدة المناخية ليبرروا حقهم في استعمال نماذج فن العمارة المحلية من دون الاعتراف بأي فضلٍ للشعوب الخاضعة للاستعمار في الناحيتين الجمالية والفكرية لتلك العمارة.

لدى إلقاء النظرة الأولى، يمكن أن تتساءل ما إذا كان المهندسون المعماريون العقلانيون (الإيطاليون المُحدثون) ببساطة يقلّدون نظراءهم الفرنسيين، إذ إن كتاباتهم كانت مشابهة تماماً لما سبق أن كُتب. ولكن نصوصهم كانت منسوخة تحديداً، لأن المهندسين المعماريين الإيطاليين كانوا عازمين على استعادة ما كانوا يعدّونه «هيمنة» لفن العمارة الإيطالية في حوض البحر المتوسط على فن العمارة الفرنسية التي أتت لتغتصبها. ومع تفاقم روح القومية التي سيطرت على إيطاليا إبان الحكم الفاشي (١٩٢٢ - ١٩٤٣)، كان نسخ الفرنسيين لمبدأي «الرومانية» و«اللاتينية» في خطاباتهم عن الهندسة المعمارية يشير حفيظة بعض الإيطاليين. ففي رأيهم، خضع الفرنسيون والفرنسيون القدامى - وهم أجداد الفرنسيين - للغزو على يد الإمبراطورية الرومانية التي ضمتهم إليها، بينما ينحدر الإيطاليون مباشرة من السلالة الرومانية.

وبحسب هذا المنطق، كان المهندسون المعماريون الإيطاليون أحق من الفرنسيين في نسخ فن العمارة «المتوسطة» واعتبارها ملكهم. وكانت مناقشات المهندسين المعماريين الإيطاليين في هذا الصدد ترمي إلى الردّ على مناقشات نظرائهم الفرنسيين عبر تكرار الحجج عينها، ولكن بتفسيرٍ إيطالي. وقد تعاون المهندسون المعماريون العقلانيون أحياناً مع المُحدثين الفرنسيين^(٢٦)، ولكنهم كانوا دائماً في منافسةٍ معهم بهدف استعادة حيّزة المصطلحات (رومانية، ولاتينية، ومتوسطة) التي كان الفرنسيون قد بدأوا يدمجون تحت تسميتها أشكالاً مختلفة من فن العمارة المحلية العربية في

in Africa.» *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 15-16, nos. 1-2 (1994-1995), pp. 160-173.

Pietro Romanelli, «Vecchie Case Arabe Di Tripoli,» *Architettura ed arti Decorative*, vol. 3 (٢٥) (1924), pp. 193-211.

Benedetto Gravagnuolo, «Les Liaisons indicibles-Le Corbousier et les intellectuels (٢٦) italiens,» dans: *La Méditerranée de Le Corbusier: Actes du colloque international «Le Corbousier et la Méditerranée» à Marseille, les 24, 25, et 26 September 1987* (Paris: Aix-en Provence, 1991), pp. 187-199.

تصاميمهم. بتعايير أخرى، امتد السجال حول فن العمارة الاستعمارية إلى خارج حدود المستعمرة نفسها، فأصبح وسيلة تخدم التنافسات القومية بين الدول المستعمرة أيضاً.

في الوقت الذي اعترف المهندسون المعماريون الفرنسيون بروح لاتينية مزعومة، دأب العقلانيون الإيطاليون على المطالبة بأحقيتهم بتلك «الروح». وكان كارلو إنريكو رافا، صاحب أكثر الكتابات بين منظري فن العمارة الاستعمارية الإيطالية، أول من جاء بهذا الموقف في عام ١٩٣١، إذ قال:

نحن هي الشرايين النابضة القديمة قدم القرون... لهذه الروح اللاتينية التي لا يستطيع لو كوربوزيه الهرب منها، هذه الروح الأزلية التي تعود لتجتاح أوروبا: من سواحلنا الليبية إلى كابري، ومن ساحل أمالفي إلى الريفييرا الإيطالية، هناك فن عمارة محلية لاتينية نموذجية، وهو يتمي إلينا، إنه فنٌ قتي ولكنه عقلاني [عملي وحديث]، ويتألف من المكعبات البيض والسطوحات الواسعة، وهو متوسطي وتثيره الشمس. ويبدو أنه يدلنا على الطريق لإيجاد جوهرنا الأكثر خصوصية كإيطاليين. عرقنا وثقافتنا وحضارتنا القديمة والجديدة، كلها متوسطة. وبالتالي، في هذه «الروح المتوسطة» بالذات يجب أن نبحت عن طابع الـ «إيطاليانيتنا» [الإيطاليوية] الذي ما زال مفقوداً في هندستنا المعمارية الفتية العقلانية، ولا سيما أن هذه الروح تضمن استعادة هيمنتنا^(٢٧).

جاء هذا المقطع الموجز رداً على المجازات التي استعملها المهندسون المعماريون الفرنسيون في ما يتعلق بـ «الروح اللاتينية» والحتمية المناخية والمنازل البيض على شكل مكعبات. ولكنه أوضح أيضاً أن «هذه الروح اللاتينية الأزلية» - كما يجسدها فن العمارة المحلية المتوسطة - كانت خاصة بالشواطئ الشمال الأفريقية والليبية، الأمر الذي أعطى المزيد من الوزن لحق المهندسين المعماريين الإيطاليين في المطالبة بفن العمارة المتوسطة على أنها لهم بالوراثة.

ثالثاً: فن العمارة المتوسطة في بيئتها

بما أن نظريات المهندسين المعماريين الإيطاليين عن فن العمارة المتوسطة كانت شبيهة بنظريات زملائهم الفرنسيين، ربما بدا من غير الضروري مناقشتها. ولكن النظر فيها على خلفية السياسات الإيطالية المتوسطة يشير إلى الأعماق السياسية للجدالات

Carlo Enrico Rava, «Svolta pericolosa: Situazione dell'Italia di fronte al razzionalismo europeo», (٢٧) *Domus*, vol. 4, no. 1 (January 1931), pp. 39-44.

التي بدا أنها تتعلق بفن العمارة فقط. ومقارنةً بوجهات نظر المستعمرين الفرنسيين، كانت وجهات نظر القوميين الإيطاليين عن المتوسط تنصب نفسها كمرجع وشديدة العزم. فإذا كانوا يتأرجحون بين الاعتقاد بتفوق سائر الدول الأوروبية على إيطاليا والضغط الذي فرضوه على أنفسهم لاستعادة «عظمة» إيطاليا، سعى القوميون الإيطاليون إلى خشبة الخلاص، محاولين إيجادها في الإمبريالية، بغض النظر عن مدى تأخر إيطاليا في دخول «معترك أفريقيا».

وكانت إيطاليا قد أصبحت دولة موحدة مستقلة عام ١٨٦١. وبعد توحيدها بفترة قصيرة، كانت بعض الأنشطة التوسعية قد بدأت على شواطئ البحر الأحمر، في ما صار يُعرف اليوم بإريتريا. وفي الثمانينيات من القرن التاسع عشر، كان السياسيون الإيطاليون قد أكدوا هدفهم المتمثل بالتوسع في منطقة المتوسط - أو كما كانوا يسمونها أحياناً «مير نوستروم» (أي بحرنا)، بحر أجدادهم الرومان^(٢٨). وهذا ما يفتر مثلاً سبب وصف بعض السياسيين الإيطاليين للإمبريالية في منطقة البحر الأحمر بأنها الوسيلة الأساسية لضمان التوسع في البحر المتوسط. وكما قال وزير الخارجية الإيطالي عام ١٨٨٥: «مفتاح المتوسط... هو البحر الأحمر»^(٢٩). ومنذ افتتاح قناة السويس، حظي الإيطاليون بفرصة للبناء على بعض شواطئ البحر الأحمر ليمنعوا عزلهم على يد الهيمنة الفرنسية والبريطانية. ولكن حتى البحر الأحمر لم يكن هدفاً بالنسبة إليهم، بل وسيلة لحماية أنفسهم في المتوسط.

في نهاية القرن التاسع عشر، وضع عالم الأنثروبولوجيا الطبيعية الإيطالي جيوسيبي سيرجي «نظرية العرق المتوسطي»، وميزه عن العرق «الآري» ومنح المتوسطيين ضمناً

(٢٨) حول خطاب الطليان عن «التملك المسبق» في ليبيا، انظر: Mia Fuller: «Preservation and Self-Absorption: Italian Colonization and the Walled City of Tripoli, Libya,» in: Susan Slyomvics, ed., *The Walled Arab City in Literature, Architecture and History: The Living Medina in the Maghrib* (London: Frank Cass, 2001), pp. 121-154, and *Moderns Abroad: Architecture, Cities and Italian Imperialism* (London: Routledge, 2007).

(٢٩) Camera Dei Deputati, «Tripolitana e Cirenaica, Parte Prima: Precedenti parlamentari (aprile ١٨٨١-luglio ١٩١١),» in: *La XXIII Legislatura 24 marzo ١٩٠٩-29 settembre ١٩١٣* (Rome: [n. pb.], 1913), p. 1031.

لم ينشأ الاهتمام الإيطالي بالمتوسطية فجأة أواخر القرن التاسع عشر، بل أخذ آنذاك شكلاً جديداً. انظر على التوالي، الحجج التي تدعم القول إن المتوسطية كانت دائماً في جوهر الجغرافيا «الرومانية»، لكن إيطاليا الحديثة انجذبت ناحية «أوروبا»: Roberto M. Dainotto, *Europe (in Theory)* (Durham, NC: [n. pb.], 2007). وأن المتوسطية بدأت تصبح مرتكزاً إيطالياً في الوعي والسياسة منذ فترة مبكرة تعود إلى القرن السادس: Stephanie Horn Cary, «The Metaphorical Mediterranean: Rhetorics of Temporality in Ariosto and Thevet,» (Unpublished 2003).

(أي الإيطاليين) منزلةً متساوية مع الشعوب الشمالية^(٣٠). وفي حين كان الإيطاليون يستعدون لاستعمار ليبيا، انتشرت التعليقات حول حتمية «عودة» الإيطاليين إلى المنطقة. ولعل أشهر تعليق هو الذي جاء على لسان الشاعر الإيطالي الشهير جيوفاني باسكولي في خطابٍ في عام ١٩١١:

«نحن قريبون من هذه الأرض... سبق أن كنا هنا وتركنا رموزاً لم ينجح، ولا حتى البربر أو البدو أو الأتراك، في محوها. إنها رموز إنسانيتنا وحضارتنا، رموزُ بأننا لسنا بربراً، ولا بدوياً، ولا أتراكاً. سوف نعود»^(٣١).

بالنسبة إلى الإيطاليين، إذاً، كان المتوسط أكثر من مجرد وسيلة لغزو شواطئه البعيدة، بل كان يوصف بأنه وسيلة لـ «استعادة» أو اكتساب بعض المفخرة الوطنية^(٣٢). ويجب رؤية خطابات المهندسين المعماريين الإيطاليين في الثلاثينيات من القرن العشرين في هذا الضوء^(٣٣)، في مناخ سياسي حيث كان فن العمارة والمؤسسات الفاشية مترابطين، وكان المهندسون يتصارعون في ما بينهم للسيطرة على نظام الحكم.

وكان شبه محتم أن يضع رافا حجته في سياق استعادة الهيمنة - «استعادة فن العمارة» الذي يحمل صدى استعادة الغزو السياسي - الذي هو ناجمٌ عنه في الوقت عينه، ولم يكن «إعادة» نسخ المعجازات المتعلقة بفن العمارة - من قبل الشعوب الخاضعة للاستعمار والفرنسيين - سوى وجهٍ واحدٍ من أوجه صراع الإيطاليين لاستعادة أجزاء من العالم الاستعماري بهدف منح إيطاليا المزيد من الشرعية بصفتها دولة حديثة.

Giuseppe Sergi, *Origine e diffusione della stirpe Mediterranea* (Rome: [n. pb.], 1895). (٣٠)

وفي عمله الأوسع انتشاراً، انظر: Giuseppe Sergi, *The Mediterranean Race: A Study of the Origin of European Peoples* (London: W. Scott, 2001).

Giovanni Pascoli, *Patria e umanità: Raccolta di scritti e discorsi*, 3rd ed. (Bologna: N. Zanichelli, 1923), pp. 234-248. (٣١)

(٣٢) رسم عالم سياسي التقابل نفسه أواخر الثلاثينيات، محمداً أن إيطاليا وحدها (بين مجموع الأوروبيين) رأت في المتوسط غاية في ذاتها، انظر: Elizabeth Monroe, *The Mediterranean in Politics* (New York: Oxford University Press, 1938), pp. 1, 90 and 143.

(٣٣) أدب «الفاشية» في فنّ عمارة الثلاثينيات واسع. انظر خصوصاً: Diane Ghirardo, «Italian Architects and Fascist Politics: An Evaluation of the Rationalist's Role in Regime Building», *Journal of the Society of the Architectural Historians*, no. 2 (1980), pp. 109-127; Giorgio Ciucci, *Gli architetti e il fascismo: Architettura e città, 1922-1944* (Turin: [n. pb.], 1989); Fabrizio Brunetti, *Architetti e fascismo* (Florence: Alinea, 1993), and Paolo Nicolozio, *Gli architetti di Mussolini: Scuole e sindacato, architetti e massoni, professori e politici negli anni del regime* (Milan: Franco Angeli, 1999).

وقبل وقتٍ طويل من حصول الإيطاليين على الفرصة ليفعلوا الأمر عينه في ليبيا، كان الباحثون والسياسيون الفرنسيون قد نسخوا أيديولوجياً الآثار الرومانية في الجزائر، وأحاطوا وتشبّعوا على نحو غير مباشر من هالة الإمبراطورية^(٣٤). وخير دليل على ذلك هو التعليق الذي أدلى به ليوتي في عام ١٩٢٤، إذ قال:

«هنا في أفريقيا الشمالية، نجد أينما كان آثاراً لروما تحت أقدامنا، الأمر الذي يثبت أننا ننتهي إلى هذا المكان، في الصفوف الأولى للحضارة»^(٣٥).

ومع أن الأنشطة العسكرية والتجارية كانت قد أتت بالفرنسيين إلى المتوسط منذ قرون، لم يدخل مفهوم «المتوسط» على أنه مجموعة من الظروف التاريخية المحددة والوحدة المناخية في لعبة السجلات والأيديولوجيا إلا في القرن التاسع عشر، فأصبح رهاناً يزيد مساعي النسخ^(٣٦). وصار بمنزلة وسيلة في خدمة الغاية، إذ أثمر حيازات استعمارية وفرصاً تجارية^(٣٧). ولم تبدأ كلمة المتوسط - أو «البحر اللاتيني» في اللغة الفرنسية - بالظهور في أوساط الحياة الفكرية الفرنسية كهدف بحدّ ذاته إلا في العقود الأولى من القرن العشرين، فأدت - على سبيل المثال - إلى تأسيس الأكاديمية المتوسطية في مدينة نيس عام ١٩٢٦^(٣٨).

وبالتالي، يدلّ مفهوم «الطابع المتوسطي» في فن العمارة على أكثر من مجموعة من التصميم الهندسية أو مجرد اكتشاف عشوائي لفن العمارة المحلية. ففي السياق الاستعماري الذي استُنبط فيه، كان «المتوسط» يمثل الطموحات الإمبريالية المتزاحمة

Patricia M. E. Lorcin, «Rome and France in Africa: Recovering Colonial Algeria's Latin Past», *French Historical Studies*, vol. 25, no. 2 (Spring 2002), p. 295-329.

من أجل خطوة استكمالية لتصوير الصحراء الجزائرية كما لو كانت دعوة للإبداع الاستعماري، انظر: Patricia M. E. Lorcin, «Rome and France in Africa: Recovering Colonial Algerian's Latin Past», *French Historical Studies*, vol. 25, no. 2 (Spring 2002), pp. 295-329.

كذلك من المفيد ملاحظة أنه لم تجر استعادة الإرث الروماني المتوسطي قبل أدبيات الاستعمار الإيطالي في القرنين التاسع عشر والعشرين، كان الأمر أقرب إلى روما الكاثوليكية. انظر على سبيل المثال: Thomas J. Dandele, *Spanish Rome, 1500-1700* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2001).

Hubert Lyautey et Prosper Richard, *Les Merveilles de l'autre France: Algérie-Tunisie- Maroc*: (٣٥) *Le Pays- les monuments- les habitants* (Paris: Hachette, 1924), p. 2.

Anne Ruel, «L'Invention de la Méditerranée», *Vingtième Siècle*, vol. 32 (1991), pp. 7-14. (٣٦)

Jean Robert Henry, «La France et le Mythe méditerranéen», dans: Habib El-Malki, ed., *La Méditerranée en Question: Conflits et interdépendances* (Paris: Editions du CNRS, 1991), pp. 191-199.

Monroe, *The Mediterranean in Politics*, p. 90.

(٣٧) كما وُزّدت في:

Ruel, «L'Invention de la Méditerranée», p. 12.

(٣٨)

لاستعادة أمجاد ماضي ما قبل حقبة العثمانيين، وشرعنة النسخ في عالم ما بعد حقبة العثمانيين، بطريقة تسمح بهزم الاختلافات الزمنية والتاريخية والقمع الراهن. وتاماً، كما كان هذا^(٣٩) «الطابع المتوسطي» الأيديولوجي ابتكاراً استعماريّاً في العصر الحديث، كان «فن العمارة المتوسطية» في النصوص الفرنسية والإيطالية حول الهندسة المعمارية تفسيراً للتصميم الاستعماري - الحديث. والجدير ذكره في هذا السياق هو أن مفهوم «المتوسطي» الذي ينطوي على خطأ دلالي كان موجوداً في الخطابات الإسرائيلية عن الجذور الوطنية والسجلات حول فن العمارة^(٤٠).

في النهاية، وفي ما يتعلق بتحليل الباحثين عن المدن في العالم الإسلامي، لا بد من الإشارة إلى أن استنباط المهندسين الفرنسيين تعبير «الطابع المتوسطي» في فن العمارة برز تقريباً في الوقت عينه مع استنباط المؤرخين الفرنسيين الحضريين تعبير «المدينة الإسلامية» الذي ظهر في عام ١٩٢٨. وقد يقول البعض إن هذه الاستنباطات هي بمنزلة «اختراع» للمدينة الإسلامية كنموذج مثالي على الأقل، تماماً كما استنبط مفهوم «الطابع المتوسطي» و«فن العمارة المتوسطية» على أنهما شكلان هندسيان حديثان في القرن التاسع عشر، وفي عام ١٩٢٩ على التوالي. وفي وقت كان المهندسون المعماريون الفرنسيون والإيطاليون في فترة الاستعمار يلجأون إلى «المتوسطية» كطريقة لتحديد هويتهم الأوروبية بين سائر الهويات الاستعمارية، ابتكر الباحثون آلة جديدة في محاولة لعزل الأوجه المحددة للهويات الأخرى التي تشكّل المدينة «الإسلامية»^(٤١).

وما لا شك فيه أن فهم الأوروبيين للهوية الاستعمارية الأخرى كان ينحدر من معتقداتهم العميقة المتعلقة بماضيهم في فترتي الكلاسيكية والقرون الوسطى، حيث

(٣٩) كما أشرت باختصار في مكان آخر، انظر: Mia Fuller, «Mediterraneanism,» in: «Presence of Italy in the Architecture of the Islamic Islamic Mediterranean,» *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center* (1990), pp. 8-9.

(٤٠) لا يصف هؤلاء المؤلفون إسرائيل كقوة استعمارية، لكن أعماهم في هذا الاتجاه، انظر: Yaacov Shavit, «The Mediterranean World and Mediterraneanism: The Origins, Meaning, and Application of a Geo-Cultural Notion in Israel,» *Mediterranean Historical Review*, vol. 3, no. 2 (1988), pp. 96-117, and Alona Nitzan-Shifan, «Contested Zionism- Alternative Modernism,» *Architectural History*, vol. 39 (1996), pp. 147-180.

وحول انتقال المجاز الفلسطيني في التحليل المعماري بخصوص إسرائيل - فلسطين، انظر: Ron Fuchs, «The Palestinian Arab House and the Islamic «Primitive Hub»,» in: Gulru Necipoglu, ed., *Muqarnas 15* (Leiden: Brill, 1998), pp. 157-177.

(٤١) «القلب الكلاسيكي» الميادر لهذه النقاشات هو عمل وليام مارسيه. انظر: William Marçais, «L'Islamisme et la vie urbaine,» *L'Académie des Inscriptions et belles-lettres: Compte-rendus* (Paris: CRAI, 1928), pp. 86-100.

غالباً ما استُعملت هذه الأخيرة لوصف العناصر الحضرية «الإسلامية»، مثل أهمية الجمعيات التجارية والدينية. وهنا أيضاً قد يرى البعض أن تعريف الأوروبيين لما هو «إسلامي» (تماماً كفتي «العرب» أو «المتوسطي») كانت مبنيةً على عملية معقدة لفصل ما كان الأوروبيون يستطيعون تعريفه، وما عجزوا عن تعريفه.

وكما أسلفت الذكر، يمكن العودة بجذور الجدالات حول أصل المدينة (المدينة الإسلامية) إلى نسخ المهندسين المعماريين الفرنسيين الاستعماريين للكلمة العربية «المدينة» (la madina في الفرنسية) وتكييفها. واستمر الخطأ الدلالي في كلمة la madina - الذي كان أيضاً بمنزلة تعريف لوحدة مورفولوجية تحددها حدود خارجية تتألف من الجدران، وتعريف آخر قائم على إثنية السكان - في خلال الجدالات حول المدينة الإسلامية. وفي رأيي، هذا الغموض هو ما جعل من الصعب تعريف «المدينة الإسلامية» بطريقة ترضي الجميع^(٤٢).

واليوم، ما زالت فكرة فن العمارة المتوسطة مألوفة. فالكتب حول هذا الموضوع كثيرة، وهي غالباً ما تصف الفيلات الريفية بسقوفها من القرميد الأحمر والعرائش المتسلقة والفناء المرصوف بتعايير أخرى؛ هذه المنازل هي الأقرب إلى نمط المنازل الريفية في جنوب أوروبا. وتشير هذه الصورة النموذجية إعجاب المستهلك عموماً، إذ يرى فيها عودةً إلى زمنٍ ماضي من العمارة، وإلى «نمط الحياة» المتمحور حول قيلولات فترة بعد الظهر، والنظام الغذائي الخالي من الشعور بالذنب. وبالتالي، فإن ما نعرفه اليوم على أنه فن «عمارة متوسطة» غالباً ما يكون مختلفاً عن الفكرة التي أرادها أول من ابتكر هذه التسمية، أي المكعبات البيض والسطوحات الواسعة والأبنية المحلية على الشواطئ الصخرية. ولكن، من ناحية أخرى، يبقى الكثير من التعابير والفئات، التي نراها من المسلمات في أبحاثنا، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالبيئة التي نشأت فيها العلاقات الاستعمارية.

(٤٢) لخصت أطروحتي المقترحة حول الأسس الفرنسية لـ «المدينة الإسلامية» في: Mia Fuller, «The Medina and the Islamic City: Colonial Terms and Postcolonial Legacies», *Public Affairs Report*, vol. 43 (2002), pp. 4-6, <<http://www.igs.berkeley.edu/publications/par/winter2002/mia%fuller.htm>>.

الفصل الحادي والأربعون

الجزائر العاصمة: المدينة المستعمرة

أتيليو بيتروشيولي

مقدمة

خففت السنوات الثلاثون التي تلت حرب الجزائر من حدة المواجهة بين الحضارتين المختلفتين اللتين قطعتا أرض الجزائر. فالجيل الجديد بات يعدّ الإرثين الحضاري والتاريخي اللذين وصلا إليه على السوية نفسها، من دون إلزام نفسه بأي سؤال إبستمولوجي وفق طريقة تاريخية محرّفة تكمن وراء تفضيل حقبة تاريخية على أخرى.

وقد لاحظ كل من تحقق لاحقاً من مدى شرعية هذا الموقف أن الإرث الحضاري لا يتكون من اللغة والمعرفة العلمية والمؤسسة السياسية والعادات اليومية فحسب، وإنما أيضاً من الشكل المادي للمجتمع، مؤكداً بذلك الفكرة القائلة إن «العمارة هي التعبير الأسمى عن الحضارة».

المدينة المستعمرة، وأبعد من أن تكون مجرد «نتاج حرب»، هي جزء من الذاكرة الجمعية، ويمثل جوهرها المادي والمعنوي إرثاً مهماً ومادة للدراسة والتقييم على أمل تحديد المنهجيات لحفظها بطريقة ملائمة. مثل هذه الدراسات يجب أن تكون شاملة؛ ونظراً إلى الأهمية الأساسية لهذه الدراسات فمن الضروري تناول ليس الإرث

التاريخي المجرد والفني وحسب، وإنما البيت أو المنزل لدى أغلبية الجزائريين أيضاً^(١).

إن تراثاً كهذا هو عرضة اليوم للخطر لعدة أسباب، ويحتاج إلى تدخل ملتح لترميمه والمحافظة عليه، قبل أن يلحق به التدهور المتزايد باستمرار، ويستدعي بالتالي أعمال صيانة أكثر جذرية وتكلفة. والانهيئات التي حدثت أخيراً لبعض المباني في ساحة الشهداء، وفي شارع باب عزون، والتدخل من أجل صيانة سريعة عبر صب الإسمنت المسلح، فرض تقنية وتوزيع مختلفين؛ وهي لا بد أن تشكل كلها سبباً كافياً لتفكير أوسع في الأدوات والتقنيات التي يجب استخدامها في الحفاظ على التراث التاريخي والمعماري. تجدر الإشارة إلى أنه من غير الممكن إطلاق استراتيجية ترميم شاملة في المدينة على حساب المجتمع ككل. لذلك فاقتراحنا هو تحضير «أطلس» تصنيفي وتقني يدرس نمط المباني يعود إليه ويستخدمه كل من المالك والعامل بسهولة وهو يبقى الأفضل لكليهما. فهو يقدم قائمة بالحلول المناسبة لمشكلة محددة، ويشرحها بما يتمشى مع نمط المباني المتعامل معها والتقنية المتبعة في إنجازها^(٢). والدراسة التي نقترحها تنحصر في دراسة النمط المركب للأبنية السكنية وتحديده وفهرسته في الجزائر العاصمة، وهي مدينة يمكن بسبب حجمها واتساع بناها عدّها مثلاً للجزائر البلد ككل.

في خصوص التاريخ المديني للجزائر العاصمة، تجدر بنا العودة إلى دراسات ليسبس^(٣) وكريستي^(٤) ومالفير دو بيكار^(٥) التي أعادت بناء تطور الشكل المديني منذ عام ١٨٣٠.

(١) تمّ تحضير هذه المدونات أثناء صف في «التحليل الرمزي-المورفولوجي» التي كان يدرّسها المؤلف سنة ١٩٨٩ لطلاب السنة الأخيرة من برنامج «المواقع التاريخية» في كلية الفنون والهندسة المعمارية والمدنية في الجزائر العاصمة.

(٢) لا يوجد أية أمثلة عن أطالس رمزية. انظر: R. Panella, ed., *Prontuario del restauro. Indicazioni per gli interventi di restauro edilizio nel Centro Storico di Pesaro* (Pesaro: [n. pb.], 1980).

للمنظر التقني فقط ويتضمن رمزي بحث انظر مرجع أكثر حداثة: Ufficio Speciale per gli Interventi sul Centro Storico, *Manuale del recupero del Comune di Roma* (Roma: DEI, 1989).

(٣) انظر: R. Lespès, *Alger: Etude de Géographie et d'Histoire urbaines* (Paris: Alcan, 1930).

لوصف المدينة في الـ ٢٥ سنة الأولى من القرن التاسع عشر انظر أيضاً: p. Boyer, *La Vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française* (Paris: Hachette, 1963).

(٤) F. Cresti, «Algeri dalla conquista francese alla fine del Secondo Impero», *Storia Urbana*, vols. 35-36 (April-September 1986), pp. 41-76; F. Cresti, «Alger 1830-1860: L'affrontement entre les deux villes», *Urbi*, vol. 6 (1982), pp. 22-23.

(٥) انظر: X. Malverti et A. Picard, «Dalla città indigena alla città europea: il servizio del genio e la ristrutturazione degli insediamenti in Algeria (1830-1870)», *Storia Urbana*, vols. 35-36 (April-September 1986), pp. 3-40.

سوف يحاول هذا الفصل إلقاء الضوء على أهم تطورات الشكل ذاك، وعرض المخططات المدنية التي كان لها الأثر الأهم في تكوين المدينة كما هي عليه اليوم.

أولاً: مراحل تطور الجزائر العاصمة

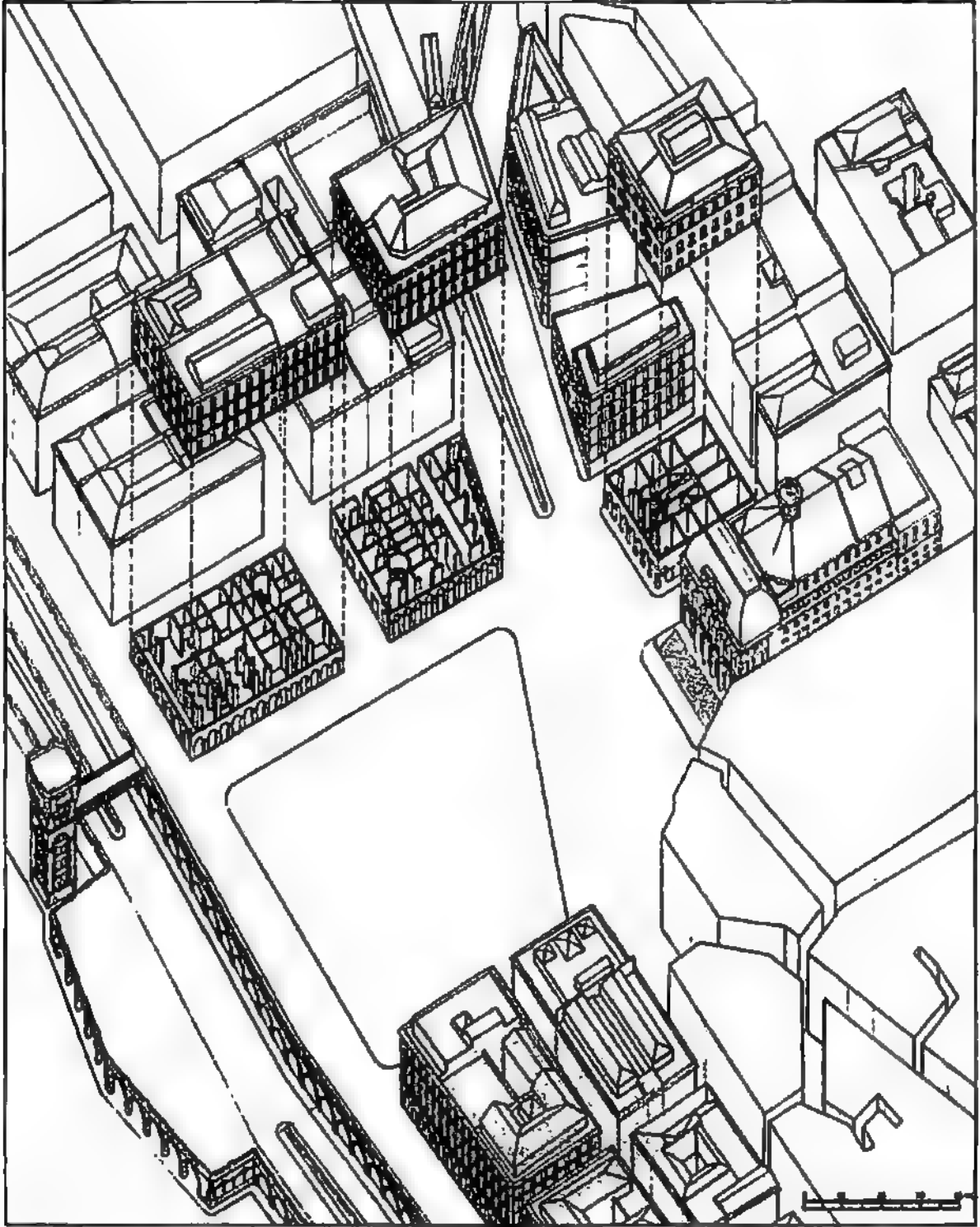
يمكننا تقسيم تطور الجزائر العاصمة إلى أربع مراحل أساسية (انظر الرسم الرقم (٤١ - ٢))، تمثل كل منها التحولات المهمة التي طرأت على نوعية البناء، وعلى النسيج المدني. بدأت المرحلة الأولى بعد الاحتلال مباشرة، ودامت حتى عام ١٨٤٦، حين تسببت الأزمة الاقتصادية في الجزائر العاصمة في السنة تلك برحيل ربع المستعمرين عنها، واستمر الركود حتى عام ١٨٥٤. وقد انحصرت التدخلات في الحقبة تلك بإعادة تكوين النسيج المدني القائم، وبلغت ذروتها في إعادة تشكيل شارع باب عزون وشارع باب الواد وشارع البحر، التي تلتقي جميعها في المكان الذي ستجري توسعته على نحو ملائم ليصير «ساحة الحكومة»، التي تعرف اليوم باسم «ساحة الشهداء». وقد شُيد شارع شارتر والساحة التي تحمل الاسم نفسه لاستقبال جزء من الحركة التجارية التي لا محل لها في ساحة الشهداء. بدأ بناء جدران جديدة لتسوير المدينة عام ١٨٤١، وانتهى العمل فيها عام ١٨٤٧. وبنيت الشكنات العسكرية على طول الساحل عام ١٨٤١ كذلك.

تميزت هذه الحقبة بالتخطيط الأولي للضواحي: في موازاة شارع إيزلي وباتجاه ساحة الأمير عبد القادر الحالية، وبالقرب من باب الواد الذي يذكّرنا بحيّ بيجو. كما توسعت ضواحي حي إيزلي، المنحصر بين البحر والشكنات العسكرية الجديدة وصولاً إلى شارع قسنطينة، إلى الهضاب المنحدرة، مشكّلة صورة القصبة النموذجية الحالية. ومن المفيد الإشارة هنا إلى مشروع غويوشان عام ١٨٤٨ الذي كان يهدف إلى إزالة المزيد من أجزاء القلعة التركية (الذي لم يتحقق)، ثم إلى إنشاء الجادتين على طول القناة الواحد بعد الآخر. وفي فترة الركود بين عامي ١٨٤٦ و ١٨٥٤ جرى شيد بعض المؤسسات والأبنية العامة، مثل مبنى المديرية (المقاطعة)، ودار الأوبرا للمهندس شارل فريدريك شاتيريو والكاتدرائية. وانتهى أخيراً العمل على ساحة الحكومة بعد إزالة الجنبية (الحديقة)^(٦) (انظر الرسم الرقم (٤١ - ١)).

(٦) حول سياسة نابليون الثالث الاستعمارية انظر: A. Julien, *Histoire de l'Algérie contemporaine* (Paris: Presses Universitaires de France, 1979), chap. 8, pp. 388-452.

حول أهم بنية تحتية: جادة الإمبراطورة، انظر: F. Cresti, «The Boulevard de l'impératrice in colonial Algiers», *Environmental Design*, vol. 1 (1984).

الرسم الرقم (٤١ - ١)
ساحة الجمهورية



لاحظ إلى اليمين دار الأوبرا صممه فد. شاتيريو.

حول تأثير مشروع شاتيريو على مخطط أويوس، انظر: R. Cozzolini et A. Petruccioli, «Algeri-Le Corbusier-Algeri,» editée par Giancarlo de Carlo, *Spazio e società* (Milano), vol. 4, nos. 15-16 (1981), pp. 104-115.

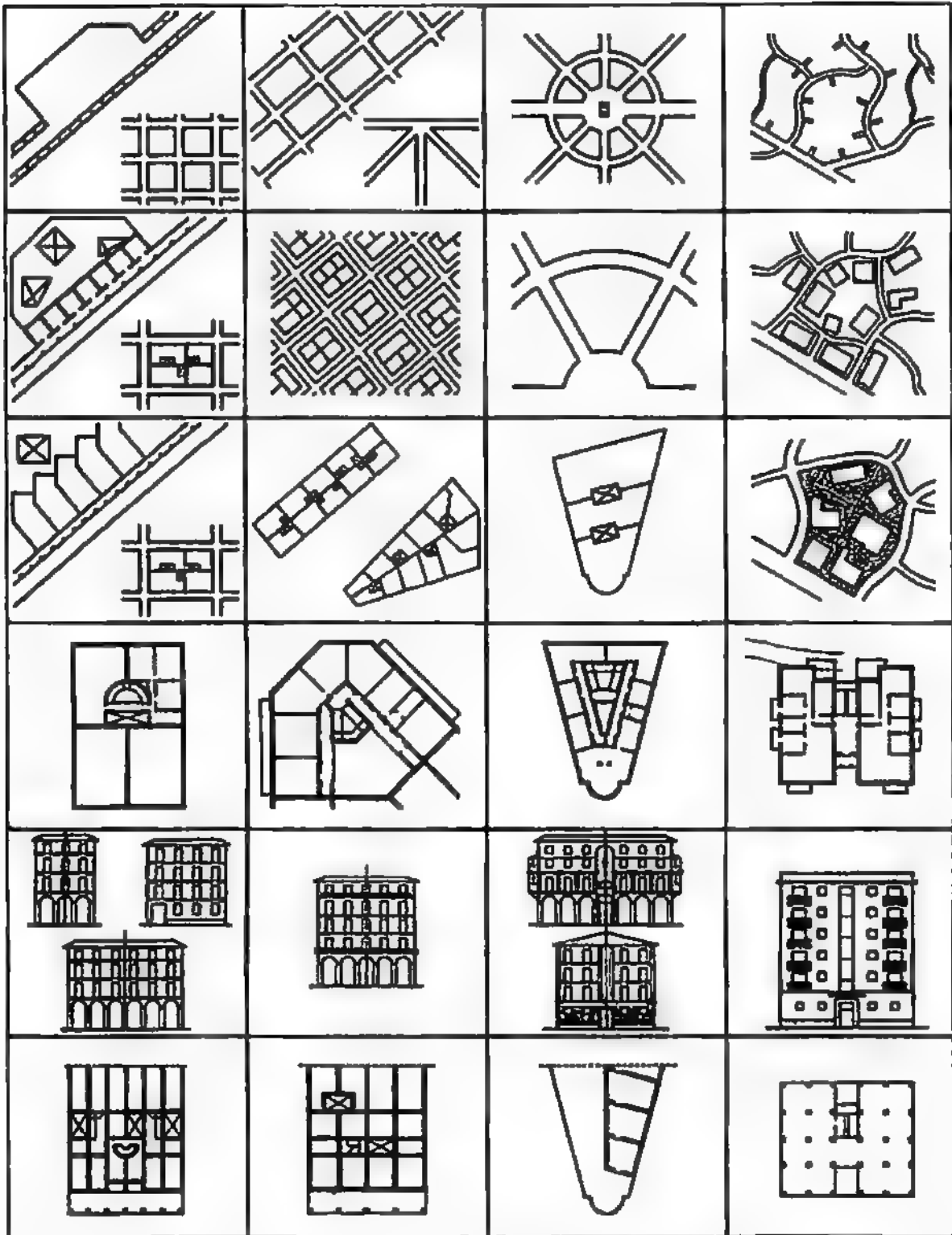
تميّزت المرحلة الثانية، التي امتدت من عام ١٨٥٤ إلى عام ١٨٨١، بموجة جديدة من حركة البناء، وخصوصاً في محيط مستشفى مصطفى باشا (هنا لا بد من ذكر مشروعى مدينة نابليون لشاسيريو، ومشروع التنمية فيغورو، ومشروع كايا). وقد جرى قطع نسيج القصبة بسبب فتح شارع لير الذي بقي غير مكتمل. وشجعت زيارتنا نابليون الثالث عامي ١٨٦٠ و ١٨٦٥ على بناء بنى تحتية أساسية، وخصوصاً على طول الخط البحري، وتميزت بالقناطر المؤدية إلى جادة الإمبراطورة التي تطلبت عملاً هائلاً. صادفت الجزائر في الفترة ١٨٧٠ - ١٨٨١ حالة من البطالة في حقل البناء تزامنت مع الحروب الأوروبية، واكتملت أخيراً المنشآت التي كانت قد بدأت في المرحلة السابقة.

يظهر في خريطة الجزائر العاصمة لعام ١٨٨٠ منحدر شارع قسنطينة (حالياً شارع مصطفى بن بولعيد)، والجادتان اللتان كان مخططاً لبنائهما عند أسوار المدينة، وهما «غامبيتا» التي تعرف اليوم باسم وريدا مداد، و«دو فردان» (تعرف اليوم باسم نهج حداد عبد الرزاق)، مع العلم أن الأولى ما زالت غير محاطة بالأبنية. وانتهى العمل أخيراً على ساحة الجمهورية، وبدأت أعمال الشّيد في الجوار حول شارع إيزلي، مروراً بساحة الأمير عبد القادر سابقاً، ووصولاً إلى شارع بيليتسييه (المعروف الآن باسم خ. خلدون). تحول شارع جوانفيل (المعروف الآن باسم أولحاج عمروش) إلى «مكان مديني» حقيقي يتعامد مع شارع إيزلي وصولاً إلى البحر.

تمثل «قناطر الإنكليز» على الواجهة البحرية للجزائر العاصمة أكثر أعمال «التجميل» إثارة. وقد صممها المهندس شارل فريدريك شاسيريو بين عامي ١٨٦٠ و ١٨٦٦، وتعد أكثر المشاريع تمثيلاً للمدينة الفرنسية وللطريقة المتبعة في حل أولي لمشكلة تفاوت المستويات التي تقوم عليها المدينة. وقد أدت الحاجة إلى ربط وسط المدينة بالمرفأ الجديد إلى إنشاء هذا المشروع، وكان توسيع المرفأ مؤخراً قد أدى إلى تغيير جذري في مشهد المدينة البحري، وخلق صورة للمدينة المرتبطة بقوة بالمكان الذي ترتفع فوقه، إذ جمع مرتفعاتها وشكلها الكلي العام في مشهد واحد.

وإذا كانت المدينة التركية المتربعة على التلال المرتفعة تعكس حتى ذلك الحين صورة مغلقة وجذّية عن الجزائر العاصمة بالنسبة إلى القادمين من البحر المتوسط، فقد أتى التدخل الأوروبي ليغيّر العلاقة بين المدينة والبحر، ففتح المجال أمام مناظر أساسية من خلال إدخال مفهوم المناظر على مستويات متفاوتة (انظر الرسم الرقم (٤١ - ٢)).

الرسم الرقم (٤١ - ٢)
قياس العملية الرمزية



من اليسار إلى اليمين، المراحل الأربع بين ١٨٣٠ و ١٩٣٠. من فوق المقياس المدني أو المخطط؛ تصميم قطعة المساحة التي سبني عليها المجمع المدني، نمط الشق، وتقنيات البناء.

هناك ثلاثة مستويات من الارتفاعات تحدد تغيير التضاريس في الجزائر العاصمة: واحدة على ارتفاع ٢٠ متراً فوق سطح البحر، والثانية على ارتفاع ٥٠ متراً، والثالثة على ارتفاع ١٠٠ متر. وتبقى قناطر الإنكليز أهمها من حيث الحجم ودقة تنفيذ المشروع الذي يعكس علاقة المدينة بالبحر ومواجهتها المباشرة مع المرفأ وحياة البحر. والواقع أن قناطر الإنكليز تحدد قاعدة جديدة لمدينة تطورت بأشكال تختلف بين الأجزاء الواقعة على ارتفاع ٥٠ متراً، أي المدينة التركية، وتلك الواقعة على ارتفاع ١٠٠ متر، أي حيث يوجد حصن القصبة. تجسّد واجهة الجزائر العاصمة البحرية تفاوتاً في التضاريس في ارتفاع ٢٤ متراً، وتصل المدينة الإدارية والمؤسسية بمنطقة المرفأ، وبخطوط السكة الحديد المواجهة لها، فتقوم بذلك بدور الدعامة المرئية وغير المباشرة بين المدينة المستعمرة في القرن التاسع عشر القابعة على المستوى الأعلى والمدينة البحرية القابعة على مستوى البحر.

جرى حل قضية القاعدة من خلال سلسلة مفتوحة من القناطر الضخمة الحجم وذات النظام الفردي على عدة مستويات؛ فقامت مقام الطريق في مستوى الغطاء الأعلى، وباتت تؤوي الصيادين في مستواها الوسطي، والأعمال التجارية على مستوى المرفأ. والواقع أن أهم وجوه هذا التدخل تكمن في نقل مستوى المدينة البحري إلى مستوى أعلى من خلال رفع مستوى الطريق إلى مستوى المباني الرسمية. تحقق على طول هذا الارتفاع أهم شريان مواصلات للمركبات في المدينة، وتجلّى كأنه قناة مدينية مهمة، ألا وهي جادة الإمبراطورة التي حملت هذا الاسم مؤقتاً حين سُميت عام ١٨٧٠ جادة الجمهورية، واستقرت أخيراً على اسم جادة تشي غيفارا.

عرّفنا بهذا الأمر مورتون بيتو في رسمه الأصلي، حيث يظهر باب عزّون مرتبطاً ببوابة فرنسا التي كانت بدورها بوابة المدينة التركية الأثرية. وتعد هذه الطريق وسيلة مواصلات مهمة بالنسبة إلى المدينة، وهي كذلك مكمن المباني الإدارية، ومراكز أهم المؤسسات الرئيسية في المدينة، وهي نقطة لقاء مختلف وسائل النقل إلى داخل المدينة وخارجها. وتستمر هذه الطريق المستقيمة على كامل طولها تقريباً لتتوقف في بعض الأماكن، مثل منطقة مسجد سوق السمك التي أنجزتها أعداد ضخمة من الخطوات، ومنها قطع تواصل القناطر.

وتتكاثر وظائف متعددة لتشكل مشروع القناطر، فهو إضافة إلى كونه أساساً للأشكال والقياسات المتناثرة على طول الواجهة البحرية للمدينة - وهو ليس مجرد واجهة لها - فهو بناء يحتوي على وظائف جمّة. ويتضمن عند الحاجة أدراجاً كبيرة تقوم

مقام المصعد، فتربط مستوى المرفأ بمستوى الجادات ويمنازل الصيادين المبنية على المستوى المتوسط في أروقة متشابهة.

قدّم هذا البناء الضخم بمستوياته المركبة شكلاً نموذجياً لتصميم خريطة أوبوس التي رسمها لو كوربوزيه عام ١٩٣٢. وحين يستحضر المرء الفكرة التي طرحها لو كوربوزيه في تحويل مبنى القناة إلى طريق عام، يشعر بقوة العلاقة بين البناء وتصميم أوبوس، حتى لو لم يدق أحد بها. وفي الواقع، يجد الباحث صلة مباشرة بين هذا العمل وما أنجزه شاتيريو منذ نحو سبعين سنة (انظر الرسم الرقم (٤١ - ٣)).

الرسم الرقم (٤١ - ٣)

البنية التحتية العملاقة للمرفأ من تصميم شاتيريو



في أثناء المرحلة الثالثة التي تمتد من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩١٥، جرى وصل القصبة بالمدينة الفرنسية. وقد انتهى العمل على حي إيزلي حتى حدود الفوروم، وهو ساحة واسعة خالية من التحصينات. وانتهى كذلك العمل على حي مبنى المقاطعة. ويظهر في خريطة المدينة لعام ١٨٩٥ مشهد النسيج المدني للشان دو مانوفر (ساحة أول ماي حالياً) الذي يملأ كامل الطريق حتى حدود حديقة إيساي (حديقة الحامة أو حديقة التجارب حالياً)، كما يظهر أسفل شارع ميشليه (يعرف الآن باسم شارع ديدوش مراد) (انظر الرسم الرقم (٤١ - ٤)) قيد الإنشاء؛ وهكذا تصل حدود المدينة إلى بداية منحدرات تيليملي.

الرسم الرقم (٤١ - ٤)
الدرج كحل للزاوية في شارع ميشليه



أما المرحلة الرابعة والأخيرة فتتضم تاريخ الجزائر العاصمة المعاصر، أي تطورها على الواجهة البحرية (وفقاً لمحور نموها الحقيقي)، وعلى التلال، وبخاصة على القمم والأطراف قبل أن تمتلئ قيعان الوديان، مثل شارع فرانكلين (يعرف الآن باسم الأخوين دروني) أو شارع الأخوين خليل.

ثانياً: التحولات النمطية

قبل الغوص أكثر في هذا الفصل لا بد من التوقف لتعريف بعض المبادئ الأساسية لفهم فكرة «عملية تصنيف الأنماط»؛ فالنمط هو العامل الأساسي في كل قراءة للنسيج المدني، ويحدّد كمجموعة من السمات المشتركة لسلسلة مبانٍ لها الوظيفة نفسها، في بيئة ثقافية معينة، وشيدت في فترة زمنية محددة. هذه المؤشرات مهمة جداً في أي عملية تأسيس لتصنيف لاحق للطبقات والعائلات، كما في صنوف علم النبات، ما يسمح

بالتمييز بين البناء السكني والبناء الاجتماعي، أو تمييز منزل من القرن الثاني عشر من آخر من القرن الخامس عشر. إلا أن أهم إمكانات هذا التصنيف إنما تكمن في مكان آخر؛ فهو من جهة، وعلى العكس من علم النبات، متجذر في الحضارة التي تنشئه، أو، بمعنى آخر، هو نتاج الوعي العفوي للناس، أي أن كل فرد في المنطقة الجغرافية تلك يشترك في المعرفة نفسها حول ما يجب أن يكون عليه المنزل، والسماوات وتقنيات البناء التي يجب أن تستخدم فيه. ونستطيع في الواقع القول إن النمط «لا يسافر» إلا في سياق هجرة أصحابه. ومن جهة أخرى، فهو يتغير باستمرار مع الزمن، مُظهراً ببطء طبقات جديدة من التاريخ، كما من المكان، ومن خلال تكيّفه مع شروط طبوغرافية وإطارية محددة. لهذه الأسباب جميعها يدخل النمط وأشكاله تحت تعريف «عملية تصنيف النمط»^(٧).

ليس تأويل وتفصيل نتاج هذه العملية، أي البناء، بالعملية السهلة. فقد تكدّست وتعزّزت التدخلات المتتالية في المكان نفسه وفق عملية هي أقرب إلى التفاعل الكيميائي (حيث تنتج وحدة كاملة جديدة من ذرات أو جزيئات مفردة) منها إلى الصفحات في كتاب (حيث تتكوّن وحدة باتحاد عناصر فرعية محدّدة سلفاً، هي الصفحات). وعليه، فالمهمة بين أيدينا هي «مشروع إعادة قراءة قادر على تحديد وتصنيف الأنماط» الأساسية لحقبة تاريخية معينة؛ أي الأنماط التي عزّزت ونشرت ميزاتها الإحصائية والتوزيعية والتقنية، والمختلفة عن ميزات الأنماط السابقة؛ أي دراسة وتعريف الدوموس (البيت)، مثلاً، أو المنزل القروسي، أو المنزل الخطّي (وكيف أنتجت التحولات المتعددة في المنزل الخام على المدى الطويل المنزل الخطّي)، وكذلك قراءة التغيرات المتزامنة التي كانت نتيجة للتحولات في النمط، في المجتمع، كما في النسيج المدني.

الهدف من هذه التعريفات النظرية المحكمة هو بيان أن قراءة العمليات التصنيفية هي تحليل لتطور الأبنية بوصفها مجموعة متسلسلة هرمياً، وكيف تؤدي دوراً أساسياً في فهم تطور الأشكال المبنية. فلو كانت المدينة قد نمت في إثر سلسلة من التطورات العضوية المتسلسلة من أجل استيعاب الزيادة في عدد السكان، لجرى النمو الرمزي

(٧) نظم هذه المفاهيم جيانفرانكو كانيجيا. انظر: Gianfranco Caniggia, «Dialectica tra tipo e tessuto nei rapporti preesistenza-attualita', formazione-mutazione, sincronia-diacronia», *Studi e documenti di Architettura*, vol. 11 (June 1983), pp. 25-38, and S. Malfroy, *L'Approche morphologique de la ville et du territoire* (Zurich: ETH, 1986).

وبالأخص الفصل حول مفهوم عملية تصنيف النمط، في: «La Notion de processus typologique».

التمطي من دون صدمات، ولمرّ التحول من نمط إلى آخر من دون انقطاعات في استمراريتها. لكن نمو المدن يشبه في الحقيقة الحمل والولادة؛ فعلى سبيل المثال، توقف نمو كل المدن الإيطالية تقريباً فجأة بعد تفشي الطاعون في النصف الأول من القرن الرابع عشر. لهذا فإن نمو المدينة الجديدة فوق المركز التاريخي القديم وضرورة تكيف أنماط العمارة مع الكثافة الجديدة للسكان يحصل من دون فرض تعديلات ثورية على نشاط البناء.

ونحن نعترف في الواقع بسلسلة كاملة من التعديلات المتزامنة كان النمط «يعاني» تبعاتها أثناءها في محاولته التأقلم مع نسيج مدني غير ملائم. إن الدراسات التي أنجزت حول جنوى ومرسيليا^(٨)، وكذلك تلك التي أنجزت حول الطراز الباريسي في القرن الثامن عشر^(٩) تقدم، مثلاً، مجموعة كاملة من الفحوصات الدقيقة لقطع الأرض، وللإضافات العمودية، ومضاعفة الأبنية نحو عمق الأرض، ومن تحويل الأدراج باتجاه قطع أرض قريبة خاوية أو باتجاه الأفقية. وفي الوقت نفسه، برزت ظاهرة مصمّم المشاريع ابتداءً من القرن السابع عشر، نتيجة للضرورة الملحة إلى إيجاد وسيط بين ضرورات المستخدمين والأنماط المختلفة. وكان المصمّم أو المهندس يشدد على أن أهمية المشروع تكمن في شكله النهائي؛ فعلى سبيل المثال، صمّمت الأبنية في هذه الحقبة تبعاً لرصف قياسي للنوافذ. وحين عادت المدن إلى النمو مجدداً في القرن التاسع عشر، لم يكن المصمّمون مستعدين لمواجهة المشكلات التي جلبتها الأبعاد الجديدة للمشاريع المدنية. فكانوا يلجأون تارة إلى مجموعة الأنماط المعروفة لهم سابقاً، ويستوردون تارة أخرى أنماطاً أجنبية تبعاً لموضة عصرهم (ووفقاً للتعريفات السابقة، فهم إنما تبنّوا «نماذج» وليس «أنماطاً»)^(١٠).

بدأ هذا البعد الجديد بعد الثورة الفرنسية، وأدى إلى اتساع المدينة من عدة وجوه، فحين وجد معماري القرن التاسع عشر أنه غير قادر على فهم وإعادة تأويل تراث الفن المعماري المحلي، حدّ نفسه بالتصميم الشكلي لرقعة الشطرنج (ومع ذلك من دون أي

(٨) انظر: G. Caniggia et G. L. Maffei, *Il Progetto dell'edilizia di base* (Padova: Marsilio, 1984); M. Morozzo, *Tipologia edilizia, tipologia architettonica: Genova, Marsiglia, Firenze, Roma* (Geneve: ECIG, 1988), and J. L. Bonillo, *Type Urbain et types domestiques: Analyse architectural des trois fenêtres marseillaises* (Marseille: INAMA, 1978).

(٩) انظر: F. Boudon [et al.], *Système de l'architecture urbaine: Le Quartier des Halles à Paris* (Paris: CNRS, 1977).

(١٠) تعريفات النموذج والنمط المجددة التي يعطينا إياها كواترومير مدعاة للجدل. انظر: Quatremère de Quincy, *Dizionario storico di architettura* (Padova: Marsilio, 1985), pp. 273-276.

توجيه محدد)، أو أنه حدّ نفسه بالمخطط الشعاعي، وأسس بعض هرميات ابتدائية إلى الحدّ الأقصى من مثل جعل الأبنية العامة في وسط المدينة. وفي قف لاحق اختفى حتى المخطط الرسمي لشبكة الطرقات الأساسية، واختصر إلى مجرد أرقام ومعايير مجردة. فترى مجمع العمارات يبدأ موازياً للشارع، ويكمل كذلك على طول محيط المجمع، ثم يأخذ في تحرير عناصره بعضها عن بعض، ويفصلها إلى وحدات مستقلة. وهكذا يصبح النمط بالتالي مشاعاً عاماً أكثر فأكثر ويفقد استثنائيته. ويقود المزج بين السمات المحلية (التغيرات المتزامنة) والأنماط المستوردة إلى تطوير أشكال مختلفة في كل مدينة أوروبية، على الرغم من التشابه في مناهج التخطيط، وتقنيات البناء، والأساليب المعمارية، التي تعتمد عادةً على الموروث التقليدي^(١١).

ثالثاً: النمو الحضري

سنحاول أن نبني في هذا الفصل فرضية عامة أولى عن النمو الحضري للجزائر العاصمة تبعاً للمراحل التي بدأت مع استعمار المدينة، بالاعتماد على هذه المفاهيم الأساسية، على الرغم من كونها عامة.

بادئ ذي بدء، يجب أن نأخذ في الحسبان الهستيريا الواضحة في تخطيط وبناء المدينة، التي أدت في ظروف معينة إلى تجاوز للمراحل جزئياً. أفضل مثال هو حال جادة غامبيتا التي بدأ إعمارها عام ١٨٤٠ ولم يته إلا بعد خمسين عاماً.

في المرحلة الأولى، وحتى عام ١٨٥٤، كان النشاط المعماري المسيطر مقتصرأ على إعادة إنشاء النسيج الموجود. وبالرغم من المظاهر، أعادت التدخلات الفرنسية إحياء المنطق الوظيفي للمدينة القديمة؛ أفضل مثال على هذا هو السوق التجاري المسقوف في ساحة الشهداء، وهو البناء الثاني من الجانب الأيمن للساحة، وقد شيد في خمسينيات القرن التاسع عشر - على طراز المدن الأوروبية الشائع في القرن التاسع عشر - ويعيد تكييف نسق السوق التركي الأقدم. وقد هدفت التطورات الجديدة إلى استغلال الضواحي إلى أقصى حد؛ فمجمع الأبنية قبل باب عزّون هو عينة من نقاط الوصل بين المستويات بواسطة أشكال، تحاول أن تبقي الوضع على ما هو عليه. وهي

(١١) انظر: C. Aymonino, G. Fabbri et A. Villa, *Le Citta capitali del XIX secolo: Parigi e Vienna* (Rome: Officina, 1975).

من أجل النشاط في باريس عند نهاية القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر، انظر: C. Daly, «Maisons de Paris», *Rome Generale de l'Architecture et des Travaux Puplics* (1859).

تمثل واجهة رسمية واحدة لها رواق ذو أعمدة مواجهة للشارع، بينما تمثل الواجهات الداخلية الشكل النموذجي لعمارة الفناء الداخلي^(١٢).

وأدت المرونة النسبية في بناء البيت «الأصلي» (تعاقب غرف متلاصقة من دون نسق تراتبي خاص وموزعة على فناء مركزي) إلى تسهيل أعمال إعادة الإنشاء، وأبقت في الوقت نفسه على قدر كبير من ميزات نمطه الأصلي. وبيت السكان «الأصليين» هو عبارة عن سلسلة من الغرف المتلاصقة لا تتبع أي ترتيب، وتلتف حول فناء مركزي. وقد خلف الاقتطاع من جانب المجمعات الأصلية مجمعات شبه منحرفة، يميّزها الآن وجود أفنية صغيرة على طول جدار الوسط للمجمع أو في نهاية المجمع أغلب الأحيان حيث تكون الأدراج. وكانت المنازل في شارع شارتر صغيرة إلى درجة يتساءل معها المرء إذا كانت مسكونة فعلاً (انظر الرسم الرقم (٤١ - ٥)).

الرسم الرقم (٤١ - ٥)

النسيج العربي التقليدي تغطيه واجهة استعمارية في ساحة شارتر



(١٢) من المفيد مقارنة الواجهات على شارع باب عزّون مع ترسيمات الواجهات لديوران. انظر: J. N. L. Durand, *Lecon d'architecture* (Paris: [n. pb.], 1815; reprint Uhl: Verlag, 1975).

أدى هذا إلى امتلاء الأفنية الصغيرة بسرعة بغرف مكّمة بعضها فوق بعض ومحرومة الهواء والنور. وبدأت الحال أفضل في ساحة شارتر، إذ اتخذ الفناء المقطع من الأبنية السابقة شكل مربع تحيط به أروقة معمّدة بلا دعائم من جهاته الثلاث. وتُبنى الأحياء الحضرية تبعاً لشبكة مقاسات عادية بين ٦٠٠ و ١٠٠٠ متر مربع وموازية للمرفأ - كما هو حال جادة تشي غيفارا اليوم - أو دائرية تدور حول محور ٩٠ درجة مئوية، كما هو حال ساحة الحكومة. وتتضح معالم الترتيب الوظيفي للأبنية كالتالي: تمركزت أبنية المؤسسات الكبيرة، مثل البنوك والأبنية الإدارية، على الواجهة البحرية، بينما حافظت الساحة أكثر على الطراز التجاري.

ويسيطر على المجمّعات المستطيلة الشكل نمط العمارة الخطية مرتبة وفق أربعة مبان ذات أجزاء بطابقين أو ثلاثة، ولها مداخل غير متناسقة وتوزيع عمودي مستوحى مباشرة من النمط المرسيلي الذي انتشر في القرن السابق، على الرغم من أن التضاريس والضرائب على الممتلكات كانت تفرض حلولاً أبسط وأكثر فوضوية، مثل نمط المباني الثلاثية، كما هو حال الأبنية في رامب روفيجو (تعرف الآن باسم ذبيح شريف) أو كما هو حال محيط شارع طنجة (يعرف الآن باسم شارع أحمد شايب).

وقد تأثر البناء في آخر شارع إيزلي كثيراً بالنمط المحلي الذي فرض تفصيلاً مختلفاً لترتيب المرور. فشوارع جوانفيل مثلاً هو منحدر للمشاة، في حين يسمح شارع موغادور (يعرف الآن باسم شارع هارشد علي)، وشارع دوبوش (يعرف الآن باسم موزاوي عبد العزيز)، وشارع القديس أوغسطين (يعرف الآن باسم إخباريوين طيب)، تسمح جميعها بمرور السيارات، وهي جميعها شوارع موازية لخطوط تضاريس المدينة. إضافة إلى ذلك، تطلّب هذا الوضع الخاص تنوعاً كبيراً في أنماط الأبنية؛ أعاقّت الأرضيات المنحدرة تنظيم المباني المتعدّدة الطوابق، فبنّت عمارة المدينة أكثر فأكثر سلسلة من المباني بطابقين أولين يبقى ظهرهما إلى المنحدر^(١٣).

بنيت المباني الجديدة التي أعيد تأهيلها معاً وفق قانون البناء الفرنسي لعام ١٧٨٤ الذي كان يقضي باحتساب المقاسات تبعاً لتناسب دقيق بين عرض الطريق وطول المبنى حتى الزاوية المزخرفة: ١٤, ٦٢ متر مقابل ٩ أمتار عرض، و ١٧, ٥٤ متر مقابل ١٢ متراً

(١٣) التنظيم في المباني الثنائية والثالثة يُشتق من الزيادة في العمق لمنازل القرون الوسطى الحام. المباني القوطية في بولونيا تصل إلى خمسي قطعة الأرض الواحدة، حيث تترك الثلاثة من أجل الضوء والتهوية.

عرض^(١٤). وقد استمرت الحجارة رائجة في صناعة البناء، وكانت المنازل تبنى متعامدة بالأخص مع الطريق وفق بُعد يوازي ثلاثة أمتار ونصف المتر؛ استوحى هذا القياس الصغير من الأنماط المحلية التي أعادت تأويل التقنيات الفرنسية، وقد استُعملت أول مرة إبان إعادة تأهيل القصور التركية^(١٥). وتبقى ميزة الواجهات الأساسية القضبان المتصالبة والمتساوية الأبعاد، وتكون أحياناً عمودية تماماً، وتوزع نوافذها وأبوابها بشكل منساق، وبأعداد متزاوجة. وتكون بهذا مرتبة أفقياً بالفعل، ويظهر للعيان الفرق العظيم بين القاعدة ذات الأروقة وباقي الواجهة. أما السقف فهو غالباً شديد الانحدار أو تبرز تحته علية.

تتزامن المرحلة الثانية مع التحول الهوسماني لباريس الذي بدأ عام ١٨٥٤، واستمر خمسة وعشرين عاماً. فنزع التطور إلى الشكل نصف القطري، ويظهر بخاصة ابتداءً من ساحة جادة لافارير (تعرف الآن باسم جادة محمد خميسي). كما يظهر في الجهة المواجهة شمال جادة غويمان (تعرف الآن باسم جادة طالب عبد الرحمن). وقد انفصل المخطط نصف الدائري أكثر فأكثر عن المجمع الحضري. وبدأت مجمعات ذات أشكال مثلثة كبيرة بالظهور بعدما كانت غير معهودة في الماضي. وكانت تتسم زواياها عادةً بالأنشطة التجارية الصغيرة (أفضل مثال على هذا هو المطعم الصغير الذي يقع على تقاطع شارع روفيغو وإيزلي، ويشكل الحل الأمثل لتعدد المستويات). ويميز المجمعات ذات الأشكال المثلثة كذلك نوعية البناء المتدنية (كما هو حال مبنى كونيون الواقع بين شارع دورفيل وقسنطينة، وقد تأثرت عمارته ببناء مشهور لالساندرو أنتونيلي في تورينو - إيطاليا الذي بني على أساس فكرة المثلث)، واتخذت المجمعات المساحية المنقسمة إلى شطرين^(١٦) شكلاً شبه منحرف أو مثلثاً. ومع ذلك، فأهمية هذه

(١٤) L. Hautecour, «Le Permis de construire», *Académie des Baux Arts* (1957-1958).

حول قوانين البناء، انظر: *Recueil des Lettres Patentes, Ordonnances Royales, Décrets et Arrêtes préfectoraux concernant les voies publiques de la Ville de Paris* (Paris: Deville and Hochereau, 1960).

(١٥) Cresti, «The Boulevard de l'impératrice in colonial Algiers». انظر:

(١٦) J. Castex, J. Ch. Depaule et Ph. Panerai, *Formes urbaines: De l'ilot a la barre* (Paris: Dunod, 1980). انظر:

«مقاسات المجمعات المثلثة الشكل - وهي الأكثر رواجاً بالفعل - تغيرت بشكل محسوس، ويبدو أنها تستني التقييم الأمثل الذي كان من الممكن أن يكون فعالاً تقريباً في كل مكان. [...] من جهة أخرى، يساعد هذه المجمعات شكلها المثلث أن تبقى مدجة وتحافظ على أصغر عرض لها». إضافة إلى هذا: «بالنسبة إلى التبرير العقلاني ونتيجته الطبيعية - وهي التناسق - فيجب فهمها على نحو صحيح، إذ يبدو أن شكل المحيط المثلث لا يظهر عدم تناسق، فنظهر طبعاً الزوايا الحادة التي يصعب زخرفتها، وخصوصاً للشقق. وفي النهاية، مهما فعل المرء، ستبقى هذه المجمعات مختلفة. فليس الهدف تحقيق مجمعات سكنية متماثلة ذات طراز إنكليزي. وفي كثير من الحالات نجد

المرحلة لا تكمن في الشكل بقدر ما تكمن في أبعاد المجمعات التي كبرت بالتأكيد مقارنةً بحجم المباني في المرحلة السابقة.

تجدر الإشارة هنا إلى أن النشاط المعماري تناقص كثيراً في هذه المرحلة. فغالباً ما شُيدت الأبنية المصممة لهذه الفترة، في مراحل لاحقة، وبالتالي بُنيت وفق معايير وقواعد مختلفة، إذ كان عرض الطرقات يُحتسب في هذه الفترة وفق القواعد الموضوعة للمباني الباريسية لسنة ١٨٥٩.

وعلى الرغم من أن هذه القوانين تعزز مقياس عرض الطرقات المنصوص عليه في القوانين التي سبقتها، فهي تفضل في الطرقات التي يزيد عرضها على ٢٠ متراً أن يوازي المنحرف ٤٥ درجة. وفي المجمعات ذات الشكل المستطيل حول ساحة الجمهورية (ساحة بور سعيد الآن)، في حي قصر العدل، وعلى طول بولفار زيروت يوسف، وغيرها، فإن قطع الأرض ذات الشكل «L» و«T» هي الأكثر تكراراً، مقدّمة مجموعة كاملة من أنواع البيوت المختلفة التي تضم ثلاثة أو أربعة أو حتى خمسة منازل متلاصقة بالاعتماد على فكرة أفضل استغلال للمساحة، ما يؤدي إلى ترك مجال ضيق للتهوية المتاخمة للأدراج المركزية. فقط أخيراً ظهرت، وللمرة الأولى، المجمعات التي تذهب أكثر عمقاً (مثل المجمعات المشادة على قطعة مفرزة واحدة)^(١٧). فكان توزيع الشقق الداخلي يعاني التعقيدات الاعتبارية، مثل إدخال التصميم الداخلي المنحرف بزاوية ٤٥ درجة، ومضاعفة عدد الأدراج، وكأن الهدف من النمط الجديد هو استرداد تعقيدات النمط القديم الضائعة^(١٨). وقد جُهّزت جميع المنازل التي شادها البناؤون بأدراج في الوسط، بينما تصطف الغرف في المجمعات السكنية المشادة بالكامل في خط مستقيم، ويستمد الدرج نوره من الشارع مباشرة.

أما في المجمعات المثلثة الشكل، فيحدّد محور التماثل خط زاوية استُبدل في ما بعد بنوافذ أو بشرقات. ويؤدي قطع الزاوية دوراً مهماً كذلك في المجمعات المستطيلة الشكل، كما هو حال ساحة الجمهورية، وخصوصاً في شارع علي بومنجل. وتُظهر تركيبة الواجهة المتساوية الأبعاد محور التماثل الذي يقسم المبنى إلى قسمين متساويين، إضافة

مجمعات سكنية كبيرة في الزوايا وفي وسط الأحياء. كما يجد المرء طرقات تقطع عبر المجمعات، فتطلّ على شارعين في أضيق الأماكن، على الرغم من عرض يزيد على ٣٠ متراً في أكنة أخرى. تطلّ المجمعات العادية عادةً من جهة واحدة على الطريق (ص ٣١-٣٢).

(١٧) انظر: *Recueil des Lettres Patentes, Ordonnances Royales, Décrets et Arrêtes préfectoraux concernant les voies publiques de la Ville de Paris.*

(١٨) انظر: Boudon [et al.], *Système de l'architecture urbaine: Le quartier des Halles à Paris.*

إلى عدد مفرد من النوافذ الناتئة تقود إلى المدخل الرئيسي. وفي الوقت نفسه، بدأ نمط العمارة يتحرر من الحيّ المدني. وبما أنه لم يكن مستحسناً تقسيم الغرفة المركزية بسبب محور التماثل، كانت تنسب هذه المساحة الزائدة إلى أي من الشقتين في كل الطوابق من دون تفرقة. وبما أنه لا يمكن ملاحظة الفرق بين حجم الشقق من الخارج، فقد أصبح الترتيب الأفقي أقوى حيلة؛ فمن جهة فصلت أداة القولية بقوة الشرفة عن باقي الواجهة التي زاد في تفصيلها صفوف الشرفات، وخصوصاً أن الدرابزين مصنوع من الحديد المطاوع الذي عادةً ما يكون في الطابقين الثالث والخامس^(١٩).

وزاد استعمال الزخرفة كثيراً في هذه الفترة، وظهر ذلك في استخدام الطراز الضخم: الكورنيش، والزوايا المزخرفة والتماثيل التي تقوم مقام العواميد. وقد أظهرت هذه الزخارف النوافذ الناتئة أكثر، وأظهرت أول مرة واجهات أكثر تفصيلاً، مزجت أنماط الفن المعماري بسهولة جمّة، فتنقلت من الفن الإغريقي - الروماني إلى فن النهضة، ومن فن القرن السابع عشر إلى فن القرن الثامن عشر.

بعد عام ١٨٨١، بدأت المرحلة الثالثة، وتزامنت مع التطور نصف القطري على جوانب الهضاب، وهو النظام الذي يربط بين المستويات المختلفة. وتكثر الطرقات التي تقطع المجمّعات بشكل منحرف، مثل شارع عدون أحمد، وشارع الرازي هامي، وشارع فروخي مصطفى، وجادة محمد خميسي، الأمر الذي أدى إلى ظهور مجمّعات أكبر ذات أشكال مثلثة وشبه منحرفة. والسبب وراء تزايد حجم المجمّعات هو غالباً القياسات الشاذة والاعتباطية. ويتميز نمط العمارة بمباني مؤلفة من صفيين من الغرف المصطفة على الواجهتين، ويصفيين من الغرف الثانوية في الداخل يدخلها النور والهواء من هيكل البناء المركزي، حيث زوّد بالمناور والأدراج.

(١٩) من المثير مقارنة واجهات شارع إيزلي (شارع سعداوي صغير الآن) وواجهات القسم الأول من شارع قسنطينة مع تلك في بولفار دو سيانول في باريس. يكتب هونكور حول تصميم واجهات المباني التي تشتمل عادةً على عدّة شقق: «تغيرت واجهات المباني ذات الشقق المتعددة أثناء النصف الأخير من القرن التاسع عشر. أراد المهندسون المعماريون أن يزوّدوا المبنى بهيئة تذكارية، ويكملوا تقاليد القرن الثامن عشر، فاستعملوا الطابق الأرضي والميزانين (الشرقة) كقاعدة لرفع طابقين أو ثلاثة متفاوتي العلو، بهدف بناء تركيبة متناسقة من العواميد ومتوّجة بزوايا مزخرفة ونقيلة تستند إليها شرفة الطابق الأخير. وقد حثّت التغييرات الاجتماعية والحاجات الاقتصادية تغيراً في تنظيم الطوابق المختلفة، وفي حجم الشقق السكنية: بما أن الغرض الاجتماعي من المبنى أصبح نفسه على كل المستويات، لم يعد من حاجة إلى تصميم منفرد لكل طابق، إذ لم يعد المهندسون المعماريون يصممون وفقاً للطلب العمودي، بل تبعاً للعناصر الأفقية، فتجد الواجهات حباتها في الشرفات والزوايا المزخرفة... إلخ. وغالباً ما تكمل منظر المبنى المتناخم لها. انظر: L. Hauteceur, *Histoire de l'architecture classique en France*, tome 7 (Paris: V. Freal, [n. d.]), p. 249.

وكان أحد أهم الأبنية في هذه الفترة يقع على تقاطع شارعي أحمد شايب ويومنجل. وقد بني هذا المجمع على شكل شبه منحرف، وفي وسطه فناء مغطى بمنور. ويصل المستوى الأرضي بالمستوى الأول نظام عمودي معقد من السلالم الكابولية، بحيث تقوم الأدراج بوظيفتها الطبيعية لربط بقية المستويات بعضها ببعض ابتداءً من المستوى الأول.

ونجد في كل مستوى شقتين سكنيتين وزعت غرفهما على طول الرواق الذي يصلهما، وتعود الأفضلية إلى الشقق الأكبر المطة على الطريق، وتوحي زخرفتها الفخمة بالأصول البرجوازية لسكانها الأصليين. تأتي هذه المرحلة وفق قوانين البناء الفرنسية لعام ١٨٨٤، وقد سمحت شدة انحدار السقف بكسب طابقين إضافيين من دون المساس بالعلو المسموح به للزاوية المزخرفة^(٢٠).

وأدت فرصة الامتداد خارج حدود الواجهة إلى تغيير ملحوظ، إذ استبدل خط الزاوية بشكل من الشرفات المستديرة أو النوافذ الناتئة (بحسب مكان أهم غرفة في الشقة). وإضافة إلى الأثر الذي أبرزه منظر البلاستيك على الواجهة، سمحت هذه الفتحات برؤية أوسع على الطريق، وأعطت انطباعاً أكبر حجم المبنى. كما بنيت الواجهات الطويلة جداً تبعاً لتسلسل في الإنشاء.

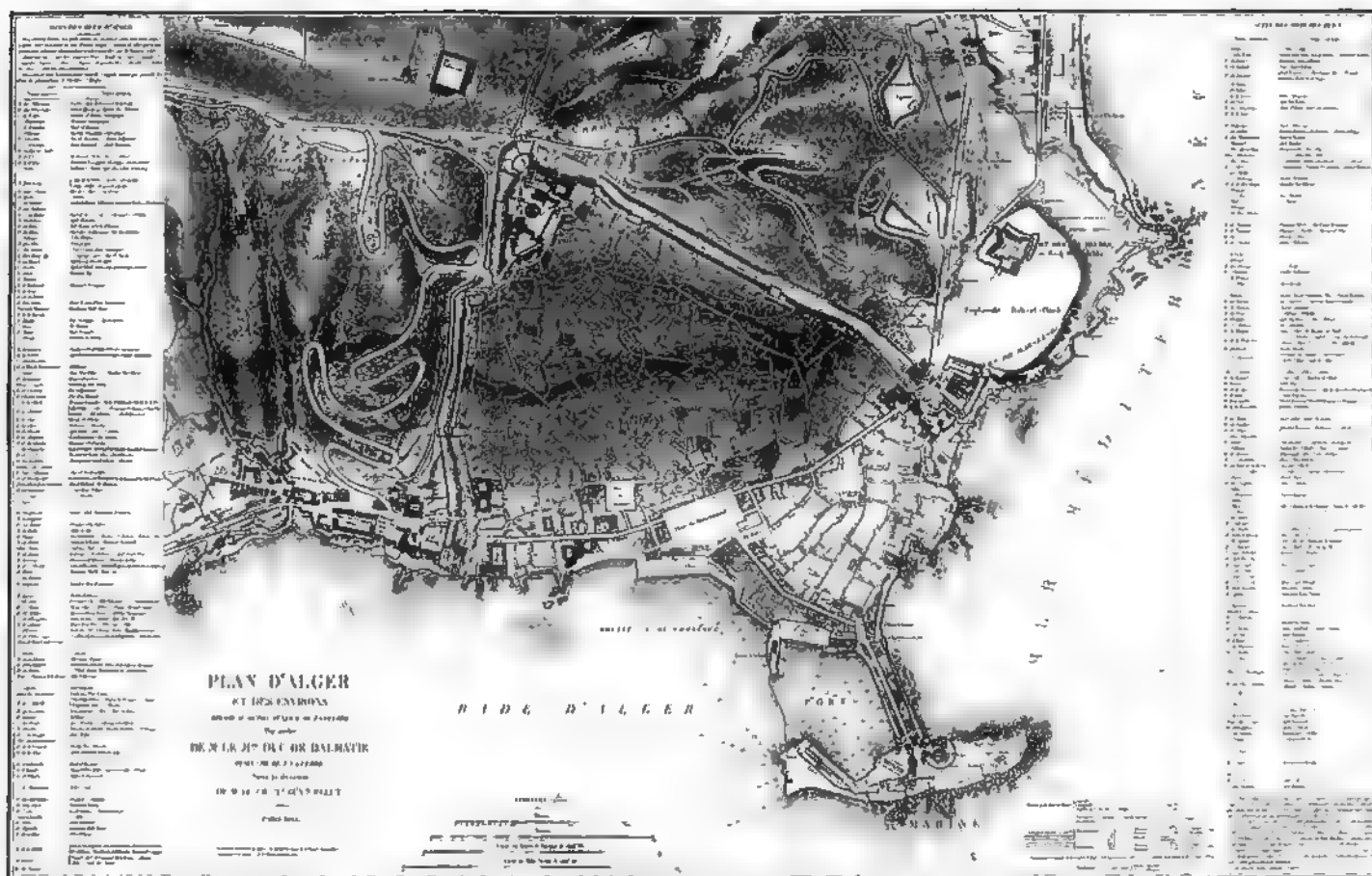
على سبيل المثال، لولا بثّ النوافذ الناتئة المستطيلة الشكل تناغماً غريباً في مساحة الواجهة المجردة، لكان كل ما يميزها هو قضبان النوافذ العادية. والأمثلة على هذا لا تحصى، يكفينا ذكر المبنى الواقع بالقرب من كنيسة القديس أوغسطين، وذلك الواقع بين تقاطع شارعي خميستي والأمير الخطابي. فقد ضعفت قيمة النظام الأفقي الآن بعد أن توازى علو جميع الطوابق، وبدأت موجة من الأبعاد العمودية بالظهور مثل الزوايا المزخرفة والزخرفة البلاستيكية.

لكن لم يعد استعمال شبكة الفتحات العادية رائجاً بعد عام ١٨٨٤. وبعد عام ١٩٠٢، نلاحظ أن قياس تقسيم النوافذ قد تغير، فأصبح ينهض الآن إلى الخارج معلناً اقتراب عهد الفن الجديد. وفي هذه المرحلة، اكتمل الفصل بين النمط والواجهة، إذ لم يعد ممكناً التكهن بتقسيم الشقق من الخارج، ولا معرفة وظيفة غرفها.

Aymonino, Fabbri et Villa, *Le Citta capitali del XIX secolo: Parigi e Vienna*.

(٢٠) انظر:

الرسم الرقم (٤١ - ٦)
مخطط الجزائر



في النهاية، من المهم ذكر تبني القائمين على البناء العناصر الأنيقة والمستوحاة من مزيج من الفن المعماري العربي الممزوج على نحو مريح بفن الحقبة الاستعمارية. وقد يؤدي مزيج من هذا النوع إلى خلق تصاميم مثيرة للاهتمام ولو كانت خجولة، وخصوصاً في الزوايا التي تتطلب حلاً. يكفيننا ذكر زاوية المبنى الواقع في تقاطع شارع بن مهدي وشارع مصطفى بن بولعيد، وكذلك مبنى غارسيا مقابل فندق أليتي^(٢١).

وتُظهر الهندسة المعمارية في القرن العشرين رموزاً ثابتة تعود إلى القرن السابق، باستثناء بعض العناصر العائدة إلى الحركة العصرية. ومع ذلك، فقد حثت على تقدم آلية المزج بين النمط المعتاد من خلال فصل التفاصيل عن موضوع هندستها، التي أصبحت الآن موضوعات معزولة عن سياقها، وقلّصت المدينة إلى مجموعة من المعايير. وفي الواقع، استمرت المباشرة بين المباني والطرق لعشرين عاماً، لتزامن بعد هذه المرحلة مع معركة الحركة العصرية «الثورية» وفترة لو كوربوزيه.

اعتمدت العمارة في ضواحي الجزائر العاصمة في المرحلة الرابعة على نسيج طبيعي أكثر فأكثر، كما اعتمدت طرقاً منحنية، ومساحات ذات أشكال شاذة، فأصبح من الصعب جداً شيد مباني موازية للطريق، فأوثر فصل المنازل المتراسة وعزلها في وحدات متفرقة. وأخذ كل عنصر استقلاله الجديد كفرصة لإظهار اختلافاته عن الآخرين، ولتبدأ لعبة لا تنتهي أدت إلى أشكال مبتدلة. تكمن المفارقة في أن المهندس المعماري العصري تفاعل مع التماثل النمطي المطلق المستقي من تبني العالم للنمط الخطي، فعالج بحرية بناء الواجهة التي كان بناؤها قد عرف الفوضى. وقد انفصل بناء النوافذ الناتئة والشرفات والمقصورات، وكل ما كان ناتئاً أو متراجعاً عن نمط بنائه الأصلي، وكاد يصبح جزءاً من لعبة التأليف، وفي أفضل الحالات استعمل لمجرد أن يكون له علاقة بالزخرفة العصرية^(٢٢).

F. Beguin, *Arabesances* (Paris: Dunod, 1983).

(٢١) بوجه عام انظر:

X. Malverti, «Alger, Méditerranée, soleil et modernité», dans: *Architectures* حول الجزائر، انظر: *Françaises Outre-mer* (Liège: Mardaga, 1992).

J. J. Deluze, *L'Urbanisme et* حول الهندسة المعمارية الحديثة في الجزائر العاصمة، انظر: *l'architecture d'Alger: Aperçu critique* (Alger: OPU, and Liège: Mardaga, 1988).

أنجز المؤلف جميع التقارير والرسوم وقام بالتقاط الصور.

الفصل الثاني والأربعون

الدار البيضاء: المدينة في العالم الإسلامي

جان لوي كوهين^(*)

وفقاً للنموذج المغربي، تعدّ الدار البيضاء خارج مضلع المراكز التي تُقرّر فيها مصير البلاد حتى القرن التاسع عشر. لقد مثّلت أماكن التبادل التجاري مثل طنجة وتطوان أو أغادير، والمدن الإمبراطورية مثل فاس ومراكش والرباط ومكناس، شبكة تحوّل مظهرها وتراثيتها مع ازدهار الدار البيضاء. كما أنّ تلاقي جماعات مختلفة وتعاون المتعهدين والمضاربين والاختصاصيين والبيروقراطيين المستثمرين المثمر جعل منها قالباً لثقافة حديثة. لكنها ظلت، في الوقت نفسه، مسرحاً للصراعات بين جماعات وطنية وطبقات اجتماعية وقوى سياسية.

تكشف الدار البيضاء، التي تمثّل البوابة الرئيسية للمغرب الحديث، عن تناقضات كبيرة، إذ هي تجمع في آن واحد معاً بين ترف طبقتها البرجوازية وعوز سكانها الريفيين. وظلّت الدار البيضاء مهداً للتمردات والحركات الشعبية التي شهدتها إبان الصراعات من أجل الاستقلال ومثّلت السيطرة عليها موضوع مواجهات سياسية حادة. كذلك، هي مركز للثقافة العامة بدءاً بوسائل إعلامها المكتوبة والمرئية والمسموعة. أما في مجال الهندسة المعمارية المعاصرة، وعلى الرغم من قوة مشاهد الرباط أو مراكش، فتستقبل الدار البيضاء إنتاجاً وافراً تدفع به المصانع والمصارف والمبادرة الفردية.

(*) مهندس معماري فرنسي متخصص في مجال العمارة الحديثة وتخطيط المدن.

حافظ اسم المدينة نفسه على الأصداء الأسطورية التي اقترنت بفترات الغزو الفرنسي الأولى. وحظيت مدينة المغامرات «الغريبة والمثيرة» في الأغنية الشعبية، وشبه الجانحة في الأدب، بصورة مكانٍ للإبداع في الدعاية الاستعمارية. وثبت عمل المؤرخين صحة هذا البعد إلى حدٍّ اختلاق نوع من الأساطير من الجيل الثاني أو الثالث^(١). وتزامن تطورها مع ازدهار الصحف اليومية الإخبارية المصوّرة والسينما، ما يفسّر شهرتها السريعة. فقد أعادت السينما الموجودة منذ عام ١٩٠٧ للدار البيضاء الشهرة التي كانت قد خطفتها عندما صوّر ميشال كورتيز (في بريانك) فيلمه السياسي والعاطفي^(٢). لكنّ الدار البيضاء بدت في الروايات تلك حقلاً خطيراً للمناورات في المجالين العقاري والمالي^(٣). أمّا في الروايات المنشورة منذ عام ١٩٨٠، فقد بدت الدار البيضاء وكأنها تعود مجدداً مكاناً للحبكات المثيرة أو مسرحاً للذكريات^(٤).

إنّ الثروة الأدبية للدار البيضاء ليست إلا وجهاً من أوجه الإشراق الذي عرفته في النصف الأول من القرن العشرين حين بدأ تحديث السياسة الاستعمارية والمجتمع الفرنسي. وبالتأكيد، امتد الغزو العسكري ليشمل اغتصاب العقارات والسيطرة الاقتصادية وعبر قمع استمر حتى نهاية نظام الحماية الذي أنشئ من عام ١٩١٢ حتى عام ١٩٥٦.

(١) يستند هذا المقال إلى بحوث أجريت مع مونيكا إلب، وجمعت أساساً في: Jean-Louis Cohen et Monique Eleb, *Casablanca: Mythes et figures d'une aventure urbaine* ([Paris]: Hazan, 1998).

والنسخة الإنكليزية: Jean-Louis Cohen and Monique Eleb, *Casablanca: Colonial Myths and Architectural Ventures* (New York: Monacelli Press, 2002).

ومن منظور أكثر معاصرة، يمكن الاطلاع على معالجة مركّزة موجودة، في: *Casablanca: Portrait de ville* (Paris: Institut français d'architecture, 1999).

أخيراً، هناك تفصيل حول المدينة المعاصرة، يشكّل الخيط الرئيسي لـ: Jean-Louis Cohen et Monique Eleb, *Les Mille et une villes de Casablanca* (Courbevoie, Paris: ACR éd., 2003).

(٢) حول فيلم كورتيز، «الدار البيضاء» (Casablanca) (١٩٤٢) يمكن إضافة المحاكاة الساخرة أيضاً، في: *A Night in Casablanca* (Archie Mayo, 1946) and *My Favorite Spy* (Norman Z. McLeod, 1952), and *Le Roman d'un spaht* (Michel Bernheim, 1936), *Les Hommes nouveaux* (Marcel L'Herbier, 1936), *La Môme vert de gris* (Bernard Borderie, 1953) and *Casablanca, mid d'espions* (Henri Decoin, 1963).

(٣) وسوف يكون أفضل مسلسل رئيسي: Claude Farrère, *Les Hommes nouveaux* (Paris: Flammarion, 1922); Emile Nolly, *Le Conquérant: Journal d'un «indétrable» au Maroc* (Paris: Calmann-Lévy, 1915), et Marcel Frager, *La Ville neuve: Odyssée d'un écumeur* (Paris: Ollendorf, 1924).

(٤) وتمثل الرواية الأولى بـ: Tito Topin, *55 de Fièvre* (Paris: Gallimard, 1983), et *Piano Barjo* (Paris: Gallimard, 1983).

الثانية: Michel Chaillou, *Mémoires de Melle* (Paris: Seuil, 1993), et François Salvaing, *Casa* (Paris: Stock, 2003).

لكن الدار البيضاء تختصر، في الوقت عينه، التجارب كلها التي أجراها هوبير ليوتي وهو ملهم فكرة الغزو والمقيم العام الفرنسي الأول. وعلى غرار النموذج الجزائري القائم على تدمير واسع لثقافة ما قبل الاستعمار، عارض ليوتي مسألة الحفاظ على المدن القديمة. ولجأ إلى الخبراء الأكثر تقدماً في المسائل القانونية أو الاقتصادية أو الثقافية لجعل المغرب والدار البيضاء «مدرسة للطاقة» يمكن أن تكون نموذجاً تحتذي به النهضة الفرنسية^(٥). وبالطبع تشكّل المدينة جزءاً من القواعد التي استند إليها ليوتي وأسس عليها دعايته. وبدعوة من حكومة الوصاية، يتن وكيل الإعلانات الباريسي لياندر فاتيا عام ١٩٢٩ بأن «ما هو غير مسموح به على مستوى باريس أو أراضيها مسموح به في الدار البيضاء» حيث الأنظمة والمشاريع تسبق تلك الخاصة بمدن الدولة المستعمرة^(٦).

تذهب صورة «المدينة الفرنسية الجديدة» التي التصقت بالدار البيضاء على مدى خمسة وأربعين عاماً أدراج الرياح ما إن نتفحص حقيقة سكانها، وهذا تحديداً ما يجعلها على النقيض من الجزائر العاصمة مثلاً. وحين حقق المغرب استقلاله عام ١٩٥٦، كانت الدار البيضاء لا تزال تتسم بعد مرور نصف قرن على إنزال عام ١٩٠٧ بوجود سكان من أصول متنوعة جداً كالإسبانيين والإيطاليين، وبأعداد أقل من البرتغاليين والروس والبولنديين والسويديين والبريطانيين والسويسريين والأمريكيين، ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية، هذا إلى جانب وجود الفرنسيين الذين يؤلفون أغلبية بين الأوروبيين. وفي حين سبق للفرنسيين أن تأقلموا في شمال أفريقيا، كان الصقليون والأندلسيون ينقلون إلى العواصم الكبرى السابقة أذواقاً وممارسات جديدة. فافتُح مشغل مشترك للمهنيين الأوروبيين - مهندسين أو مهندسين معماريين أو رسامي الطبيعة - وللحرفيين المغاربة - بنائين أو نجارين أو بلاطين أو نحاتين أو بستانيين. وإلى الثقافات المنقولة من تونس والجزائر وإسبانيا وإيطاليا، تُضاف الأمركة الناتجة من إنزال الحلفاء عام ١٩٤٢.

هكذا تلاقى الأجانب الذين جذبتهم «غرب أقصى» بدا فيه كل شيء ممكناً، مع المغاربة الذين اقتلعهم البؤس الريفي من جذورهم. وفي كل مرحلة من مراحل بناء

Alfred De Tarde, *Le Maroc, école d'énergie* (Paris: Plon, 1923); Paul Rabinow: «Techno- (٥) Cosmopolitanism: Governing Morocco,» in: Paul Rabinow, *French Modern: Norms and Forms of the Social Environment* (Cambridge, MA; London: MIT Press, 1989), and «France in Morocco: Technocosmopolitanism and Middling Modernism,» *Assemblage*, no. 17 (April 1993), pp. 52-56, and Gwendolyn Wright, *The Politics of Design in French Colonial Urbanism* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1991).

Léandre Vaillat, *Le Visage français du Maroc* (Paris: Horizons de France, 1931), p. 6

(٦)

المدينة الجديدة، عاد التمييز المكاني والاجتماعي ليتكوّن من جديد بحيث كذب بإصرار التوقعات الرسمية. كان النمو السكاني نحو ٣ في المئة سنوياً قبل عام ١٩٠٠ بحيث بلغ ٢٠ ألف نسمة. أما عام ١٩١٤، فقد بلغ عدد السكان ٧٨ ألف نسمة بينهم ٤٠ في المئة من الأوروبيين. وفي عام ١٩٢٧، بيّن الإحصاء أنّ نصف عدد السكان البالغ ١٢٠ ألفاً كانوا من المغاربة المسلمين وثلثهم من الأوروبيين - وسدسهم من الإسرائيليين. ومع التصنيع ارتفعت نسبة المغاربة بين السكان باطراد. وأثارت هذه الظاهرة المتفردة بين المدن الاستعمارية في المغرب العربي، وبسرعة، القلق لدى السلطات الاستعمارية المدنية المعنية.

كان الأوروبيون باستمرار يؤثفون أقلية في الدار البيضاء وهم لم يمثلوا في عام ١٩٥٢ أكثر من ١٩ في المئة من مجموع السكان الذي بلغ ٦٨٢ ألف نسمة، في حين مثل المسلمون ٦٩ في المئة. ومع اقتراب عدد سكان المدينة من المليون نسمة عام ١٩٦٠، يكون هذا العدد قد بلغ نحو ١٣ ضعف ما كان عليه عام ١٩١٤. بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٦٠، وحصرياً بسبب وصول مغاربة نازحين من الريف أو المدن الصغيرة، بعدما جذبتهم الوظائف الصناعية، استمرّ النمو السكاني بعد الاستقلال، بينما هاجر الإسرائيليون بين عامي ١٩٥٦ و ١٩٧٠ لتتخفّف نسبتهم من ١١ إلى ٢ في المئة من المجموع. هكذا بلغ عدد سكان المدينة نحو مليون ونصف المليون نسمة. أما بحسب إحصاء عام ١٩٨٢ فقد بلغ عدد السكان ٢,٢ مليون نسمة بينما وصل عام ١٩٩٤ إلى ٣,٢٥ مليون نسمة - من دون احتساب المقيمين غير الشرعيين^(٧).

إنّ حالة الانقطاع التي شهدتها المدينة مدوّنة في تاريخها لسببين؛ فتقسيم أحيائها إنما يعود إلى التقليد المدني المغربي المتمثل بمدن تنمو بفعل إضافات متتالية، وإلى اهتمام الفرنسيين المستمر، ومن ثم سلطات المغرب المعاصر بالحفاظ على النظام، ما يفسّر كثرة الطرق التي تفصل بين الأحياء وتسمح عند اللزوم بعزلها وتربيعها. استقر الفرنسيون الذين وصلوا حديثاً بعد الحرب العالمية الأولى في بداية الأمر، وبحذر شديد، في الشقق الصغيرة الموجودة في قلب المدينة. وبعدها اغتتوا، بنوا فيلات في الأحياء الجميلة بالقرب من قلب المدينة مثل مرسى السلطان أو جادة أنفا (انظر الرسم الرقم (٤٢ - ١)).

(٧) حول التوزيع المكاني لسكان الدار البيضاء، انظر: André Adam, *Casablanca: Essai sur la transformation de la société marocaine au contact de l'Occident* (Paris: Centre national de la recherche scientifique, 1968).

الرسم الرقم (٤٢ - ١)
بقايا «أنفا»، من جورج براون وفرانز هوغنبرغ



Civitates orbis terrarum (Cologne, 1572), Beinecke Library, Yale University.

المصدر:

أما الجماعات ذات الدخل الزهيد فاستثمرت في أحياء أبعد ولكن سهلة البلوغ مثل حي الصخور السود الذي يسكنه فرنسيون وإيطاليون. وتبقى الكثافة السكانية في الأحياء الأوروبية ضعيفة في حين ازدادت بسرعة في القطاعات التي يسكنها مغاربة يهود أو مسلمون. كما مثل الإسبان الذين يسكنون بعض التجمعات في قلب المدينة أيضاً، الجالية الأكثر عدداً بعد الفرنسيين. في البداية مارس المغاربة الريفيون الذين وصلوا حديثاً مهناً صغيرة وسكنوا لدى وصولهم قرى تتألف من أكواخ قبل العثور على مسكن أكثر استقراراً. وسكن المغاربة اليهود الفقراء القادمون من البلدات الساحلية التي خربتها الدار البيضاء، ومن ثم من الجنوب، بعد عام ١٩٤٥، في الملاح في بداية الأمر؛ أما اليهود الميسورون فقد استقروا في المدينة الجديدة.

كانت الدار البيضاء، الحاذقة والمنشغلة والمزدهرة بالمقاهي والحانات والسينما، مدينة تحتل فيها العروض المشهدة والأعمال البطولية الجوية والرياضات الترفيهية مكاناً رئيسياً؛ فتجد أبطالها مع الطيار جان ميرموز أو سانت إكزوبيري، ومن ثم بعد عام ١٩٤٥، مع لاعب كرة القدم جوست فونتين أو الملاكم مارسيل سيردان، الذين لا تزال آثارهم محفوظة بإجلال حتى يومنا هذا أيضاً. والدار البيضاء المغامرة كانت اختبارية أيضاً. لقد جاء بناء الدار البيضاء نتيجة مشهدين مزدوجين: أحدهما يتعلق بالورشة الدائمة التي تقدمها إلى الجمهور الأوروبي الكبير عبر الصحف والأحداث السينمائية بدءاً بالغزو، والآخر يتعلق بالأنظمة والأصول الجديدة المقدمة إلى المهندسين المدنيين والمهندسين المعماريين والنقاد. في خلال عشرين عاماً تمحورت جدالات المؤتمر الفرنسي حول المدينة الاستعمارية (١٩٣١) ومؤتمر أكس أون بروفنس الدولي حول الهندسة المعمارية الحديثة (١٩٥٣) إلى حد كبير حول سياسات الدار البيضاء ومشاريعها^(٨).

(٨) حول المؤتمر الفرنسي عام ١٩٣١، انظر: *L'Urbanisme aux colonies et dans les pays tropicaux: Communications et rapports du congrès international de l'urbanisme aux colonies et dans les pays de latitude intertropicale*, réunis et présentés par Jean Royer; préface de M. le Maréchal Lyautey; introduction de E. du Vivier de Streel, rapport général par Henri Prost La (Charité-sur-Loire: Delayance; Paris: Editions d'urbanisme, 1932-1935).

حول مؤتمر أكس أون بروفنس، انظر: Jean-Louis Cohen, «Le Groupe des Architectes Modernes Marocains et l'habitat du plus grand nombre.» *Gli ultimi CIAM* (Rassegna), vol. 52 (December 1992), pp. 58-69; Monique Eleb, «An Alternative to Functionalist Universalism: Ecochard, Candilis and ATBAT- Afrique.» in: Sarah Williams Goldhagen and Rejean Legault, eds., *Anxious Modernisms: Experimentation in Postwar Architectural Culture*, [essays by] Maristella Casciato [et al.] (Montréal: Canadian Centre for Architecture; Cambridge, MA: MIT Press, 2000), pp. 55-73.

أما على الأرض، وحتى يومنا هذا، فيبقى قطاعا البناء والمضاربة النشاطين الأساسيين في المدينة بحيث يأسران اهتمام السكان. وعلى نقيض ما حدث في فرنسا، ولا سيما بعد كل حرب عالمية، اجتذب هذا الإنتاج الغزير المهندسين المعماريين الأوروبيين، بحيث سيجد بعضهم لنفسه مهناً لا يمكن تصوّرها في شمال البحر المتوسط.

مع تجاوز صدمة الاستقلال، لم تخسر الدار البيضاء شيئاً من تفوّقها الاقتصادي، إذ بقيت الضلع الأول للتحديث الصناعي والتجاري في البلاد. كما أصبحت في خلال أكثر من أربعين عاماً مصدراً للحركات الاجتماعية الكبرى ومقراً فكرياً أساسياً في الشبكة المدنية المغربية. وعلى الرغم من أن حكومة الوصاية لم تُدخل إلى النظام التعليمي في المغرب سوى المرحلة الثانوية، فإنّ الدار البيضاء التي باتت تشكّل قطباً جامعياً منذ السبعينيات، تضمّ اليوم نحو ١٠٠ ألف طالب، وهي مقر لأبرز دور النشر والصحف. كذلك كانت الدار البيضاء حاضرة في الأدب المغربي، وذلك بتحولها إلى مصدر وحي للشعراء والكتاب المسرحيين والروائيين^(٩).

تطوّرت الدار البيضاء بسرعة على جبهة بحرية طولها سبعة عشر كيلومتراً وبعمق عشرة كيلومترات. وانطلاقاً من نواة قديمة، لم يكن نموها منتظماً، بل هو جاء بدرجات قوة متعددة أدّت إلى تطور الدار البيضاء في خلال القرن العشرين. وبالتالي، وحدها القراءة المزدوجة، التاريخية والطبوغرافية، تستطيع أن تجعل هيكلتها مفهومة. يحتلّ مركز المدينة القديم موقعاً مائلاً منذ زمن بعيد، وحين ظهرت الدار البيضاء على صفحات الجرائد اليومية الأوروبية أثناء الإنزال الفرنسي عام ١٩٠٧ كان موقعها قد طُبِعَ بأحداث تسعة قرون مضت.

كان مؤسسو قرية أنفا في القرن الحادي عشر من بربر زاناة. والمدينة التي يُشَهِد لها على نشاطها وازدهارها، والتي تحدّر منها مثقفون وجنود، والتي قاومت الغزاة، المرابطين والموحدين، أصبحت في عهد المرينيين بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر مركزاً ذا أهمية نسبية. وفي حدود عام ١٤٦٩، دكّ الملك البرتغالي دون فرناندو أسوار المدينة مدمراً جزءاً كبيراً من المدينة نفسها^(١٠).

(٩) انظر المجموعة، في: Alain Bourdon et Didier Folléas, *Casablanca: Fragments d'imaginaire* (Casablanca: Institut français de Casablanca; Edition le Fennec, 1997).

(١٠) André Adam, *Histoire de Casablanca: Des origines à 1914* (Aix-en-Provence: Ophrys, 1968), et Ramón Lourido Diaz, «Documentos inéditos sobre el nacimiento de Dar-al- Bayda' (Casablanca) en el siglo XVIII,» *Hespéris-Tamuda*, vol. 15 (1974), pp. 119-146.

ومنذ ذلك الحين، دخلت الدار البيضاء في دورة ركود سوداوية، وكان ليون الأفريقي قد أبرز في القرن السادس عشر صورة «المعابد والمتاجر الجميلة والقصور العالية لمدينة متحضرة ومزدهرة جداً»، لكون أرضها «ملئمة لأنواع الحبوب كافة»^(١١).

تمنح الأبنية ذات الجدران المكلسة التي تتجاوز أنقاض السور المدينة اسمها العربي أي الدار البيضاء الذي استُخدم منذ عام ١٨٦٠. وقرابة عام ١٧٧٠، قام السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله بترميم الأسوار وسلّحها بالمدفعية في محاولة لإيجاد نقطة مقاومة ضد الغزوات الأوروبية. كذلك أسهم في إدراج المدينة في الدورات الاقتصادية الأطلسية وربطها بإسبانيا. وأنشئ جمرک دائم عام ١٨٣٦ في حين ازداد الوجود الأوروبي في قرية كبيرة يسكنها نحو ألف نسمة. في خمسينيات القرن التاسع عشر، تكثفت صادرات الحبوب والصوف باتجاه أوروبا، كما نشأت في العقد التالي نهضة معمارية^(١٢).

يضم سكان المدينة مغاربة من أصول مختلفة، وعائلات كبيرة من مدينة فاس وقبائل الشاوية ويهوداً من المدن الساحلية بأعداد متزايدة وأوروبيين من بينهم الإسبان الذين ألفوا حتى عام ١٩٠٧ الجالية الأكبر عدداً، على الرغم من وجود جوال فرنسية وألمانية وبريطانية قوية. وفي عام ١٨٨٦ كان في وسع الجغرافي إيليزي ريكلوس أن يجد شيئاً من التشابه بين هذه المدينة «المقفرة وغير الصحية تماماً» و«البلدات الساحلية الصغيرة في أوروبا»^(١٣).

شغلت المدينة عام ١٩٠٠ مساحة مضلعة تبلغ نحو خمسين هكتاراً، محاطة بسور مسنن بأبراج مربعة بقي منها سور باب المرسى على واجهة البحر وباب مراكش باتجاه الغرب^(١٤). (انظر الرسم الرقم (٤٢ - ٢)).

Jean-Léon l'Africain, *Description de l'Afrique*, traduite de l'italien par A. Épaillard, 2 vols. (١١)
(Paris: Adrien-Maisonneuve, 1956), vol. 1, p. 160

Jean-Louis Miège et Eugène Hugues, *Les Européens à Casablanca au XIX^{ème} siècle, 1856-1906* (Paris: Larose; Institut des Hautes études Marocaines, 1954). (١٢)

Elisée Reclus, *Nouvelle géographie universelle: La Terre et les homes* (Paris: Hachette, 1886), (١٣)
vol. 11, p. 753.

Félix Weisgerber, «Etudes géographiques sur le Maroc, 1. La province de Chaouïa, 2. Casablanca,» *Bulletin de la Société de Géographie de Paris*, vol. 1, 1^{er} semestre (1900), pp. 437-448. (١٤)

الرسم الرقم (٤٢ - ٢)
فيليكس وايزرير، مخطط الدار البيضاء عام ١٩٠٠



المصدر: من مجموعة المؤلف.

منذ عام ١٨٩٢ هدف السور الجديد الذي بناه السلطان مولاي حسن إلى إحاطة الجوالي الأوربية، الذي بقي خالياً حتى بداية القرن، إذ بات منذ ١٩٠٧ موقعاً لمنشآت عسكرية. كما أنّ الكيانات الثلاثة التي تكوّن الدار البيضاء، وهي غير مقروءة عملياً اليوم، تعكس تقسيم السكان. أما الحي المسلم الذي يحتل ثلثي الملكية فيسكنه أوروبيون بعدد كبير. من الناحية المقابلة للساحل يعدّ الملاح، أو الحي اليهودي، أكثر اتساعاً مما هو عليه في المدن المغربية الأخرى. وأخيراً، تشكل أحياء الصفيح متاهة

مؤلفة من أزقة تحيط بها أكواخ من قصب حيث يزدحم آخر الواصلين الأشد فقراً. وتحيط بالسور مقابر وبساتين يقع إلى شرقها السوق الكبير في قاع واد بوسكورة. أما الطريق الرئيسي في المدينة فهو يربط بخط قطري باب السوق، الذي توجد فيه القيسارية، وهي سوق مخصصة للأقمشة، بباب المرسى. يُعتبر الجامع الكبير الذي يقع في شارع دار المخزن الجامع الأهم، بينما يُعد جامع ولد الحمرا الواقع على حافة السور الموازي للبحر الأكثر أناقة. ويحتل ضريح سيدي بليوط، حامي المدينة، الزاوية الجنوبية الشرقية للسور.

يضم نسيج المدينة عدة أجيال من الأبنية والمنازل المغربية المكعبة المشادة في الثلث الأول من القرن التاسع عشر والمنطوية حول صحن دارها والقرية من الأبنية الأندلسية. كما تظهر منازل التجار بالجملة مع مستودعاتها ذات الطبقات الأرضية ومن ثم مبان صغيرة ذات شرفات وكذلك فنادق ما زال يمكن تمييزها على طول الشوارع الحالية، في حين اختفت المنازل المنخفضة تماماً. وهكذا، فإن ما يراه مسافر ذلك الزمن لا يخلو من التناقض: صورة «ميناء متروك» و«بلدة صغيرة فقيرة»، جنباً إلى جنب، ومع ذلك فهما يحظيان، كما سيظهر، باهتمام فرنسي لافت للنظر^(١٥).

وليس من قبيل المصادفة أن تتدخل مدفعية الطراد غاليلى وجنوده في آب/أغسطس ١٩٠٧ متيحةً لفرنسا السيطرة على الدار البيضاء ومنطقة الشاوية. وكانت ذريعة الإنزال أعمال شغب ضد مشروع تحديث المرفأ، غير أن التصرف الفرنسي أفضى إلى هيجان عام في صفوف القبائل. منذ عام ١٩٠٥، راودت العسكرين فكرة إنشاء رأس جسر على الأطلسي. كما أن تخطي حركة الإبحار في الدار البيضاء عام ١٩٠٦ حركة الإبحار في طنجة جعل من هذه الأخيرة أول مرفأ مغربي، وتالياً، توافرت ذريعة لوجود الجيوش الفرنسية وتمكنت هذه الأخيرة من السيطرة بإحكام على المدينة.

أدى استتباب الأمن والشهرة المفاجئة للدار البيضاء إلى تدفق مباشر لسكان هم مزيج من المستثمرين والمغامرين. وأوجدت دوائر البلدية الجديدة التابعة للنقيب ديستينييه طرقاً للنفاذ إلى المرفأ وللتخليص عبر الأسوار وحديقة عامة تبلغ مساحتها هكتارين. كما بنت دوائر البلدية عام ١٩١٠ برجاً لساعة هي بمنزلة منارة

Roger Coindreau et Charles Penz, *Le Maroc: Maroc français, Maroc espagnol, Tanger* (Paris: (١٥) Société d'éditions géographiques, maritimes et coloniales, 1949), p. 126.

انظر لمزيد من التفاصيل، في: Cohen et Eleb, *Casablanca: Mythes et figures d'une aventure urbaine*.

جديدة تُدخل الدار البيضاء في تقسيمات الزمن الأوروبي. لقد رمز البرج حتى تدميره عام ١٩٤٨ إلى الحلقة المؤسسة للوجود الفرنسي. ونُصب معسكر كبير من الخيم ومنازل القصب في جنوب المدينة، كما أنشئ حصناً مراقبة قويان على طريقي مديونة ومراكش.

ومع ذلك، تبقى مسألة المنافذ البحرية مسألة إشكالية. وحده حوض الشاطئ البحري وهو شبه منحرف بعرض خمسين متراً كان يسمح حتى عام ١٩٠٦ بإرساء قوارب صغيرة على الرمل تتولى نقل السلع والركاب من وإلى متن السفن التي تبقى في عرض البحر. وبخلاف رأي البحرية التي رشحت مازاغان أو فضالة [المحمدية حالياً] ميناء رئيسية للمغرب، أقام ليوتي في الموقع هذا العاصمة الاقتصادية للمحمية على حساب المرافئ الأقدم (وعلى حساب الرباط). هكذا نُفذت أعمال رصيف المرفأ الكبير التي بدأ العمل عليها في عام ١٩١٤، وإلى ثلاثينيات القرن العشرين. وفصل هذا المرفأ المدينة عن البحر بحيث أصبح الشاطئ الواقع في الشرق نقطة التلاقي الرئيسية بين الأرض الجديدة الناشئة والأحياء الجديدة. كما أن الحفاظ على المقبرة الإسلامية الكبيرة خلف قبة سيدي بليوط أغلق النفاذ البحري للمدينة معرقلاً بالتالي توحيد الهيكلية المدنية^(١٦).

ظهر مجتمع سكني كبير مضطرب ومرتبك حول الأسوار. ومن دون أي مبدأ توجيهي، ضم المجتمع أحياء ذات بنية مجزأة على شكل قوس دائرة. وعلى طول شوارع بوسبير الضيقة والموازية، شاد المسلمون في غرب المدينة مساكن متواضعة ذات فناءات. كما استقر اليهود في الملاح وعلى الطرقات المؤدية إلى المدينة الجديدة. تألفت «الطبقة الأولى» من التمدن الأخذ في الانتشار، التي احتلوها مع الأوروبيين، من منازل ذات طبقات أرضية تغطيها شرفات. ويظهر في هذه الطبقة منازل أكثر غنى وفنادق وبعض المباني التجارية المقنطرة والمبنية أحياناً من إسمنت.

تمتد الفنادق في المنطقة الجنوبية الشرقية على طول طريق مديونة وهي العمود الفقري للخدمات المخصصة للتنمية الزراعية. ووضع المساح تارديف عام ١٩١٢ أول خريطة شاملة راسماً فيها جادة دائرية ومحددات أرضاً عمقها ١ كم حول المدينة القديمة وحيّاً سكنياً في المكان المذكور آنفاً (مرسى السلطان) المجاور لطريق

Georges Vidalenc, *Une Oeuvre française: Le Port de Casablanca* (Casablanca: Librairie (١٦) Farair, 1928).

مديونة. وسيستقبل هذا الحي من دون أي تأخير الفيلات الكبيرة الأولى على تل مهوى ومكشوف جداً. تتمثل الطبيعة التجارية للمدينة الجديدة بوجود الورشتين الأكثر طموحاً اللتين أنجزهما المهندس هيبوليت ديلابورت عند أطراف السوق الذي أصبح يُسمى ساحة فرنسا (ساحة الأمم المتحدة حالياً). ومخازن باريس - المغرب التي افتُتحت في عام ١٩١٤ كان قد صممها وبنّاها الأخوان بيريه، رائدا العمارة الخرسانية في الدار البيضاء. أما بالنسبة إلى فندق لكسلسيور، فإنه يجتد أفكار الزخرفة المغربية الجديدة المنتشرة في الجزائر وتونس غير أن شركة كوانيه بنته من الإسمنت.

سمح التشريع المبتكر لنظام الحماية برسم «خطط تنظيم وتوسيع» المدن وإعادة تجميع المالكين ضمن جمعيات نقابية من ضمّ الأراضي عبر التفاوض^(١٧). كما قدّم رسام الطبيعة جان كلود نيكولا فورستيه اقتراحات حول رسم متنزهات ورياض المدن الجديدة، ودعا ليوتي إلى تعيين هنري بروسست عام ١٩١٤ لإدارة «الهيئة الخاصة بالهندسة وخرائط المدن» وهي الإدارة الأولى المختصة بالتنظيم المدني في التاريخ الفرنسي. وقد وضع بروسست بين عامي ١٩١٥ و١٩١٧ رسماً لا يهدف إلى إقامة مدينة جديدة بل إلى جمع ووصل وتنظيم وتوسيع مجموعة متناثرة من الشوارع ومجموعات المنازل (انظر الرسم الرقم (٤٢ - ٣)).

يمرّ تنظيم وتقويم الأراضي المفروزة المعنية أولاً في مرحلة إنشاء نظام تراتبي لجادات تربط بين نقاط التقاطع. ومع الأخذ في الحسبان المشاكل المتعلقة بالبنية التحتية والصناعة التي لا تزال مجهولة في العاصمة فإنّ الخطة هي أيضاً مبتكرة لجهة أخذها السيارات في الحسبان. لقد جعل هذا الاتجاه المستقبلي حركة السير في المدينة سهلاً نسبياً وحتى أواخر تسعينيات القرن العشرين.

كما رسم بروسست حدود مناطق منظمة عملية كبيرة مكرراً بذلك عمل صديقه ليون جوسيلي عام ١٩٠٥ على خريطة برشلونة. يتقاطع نوعان من تقسيم المناطق في الدار البيضاء: الأول بنياني يميز بين ثلاث مناطق «مركزية» و«صناعية» و«ترفيهية»، وهذه

(١٧) حول دور المغرب في الدستور الفرنسي الحضري، انظر: Hélène Vacher, *Projection coloniale et ville rationalisée: Le Rôle de l'espace colonial dans la constitution de l'urbanisme en France 1900-1931*, publications of the department of languages and intercultural studies, Aalborg University; 17 (Aalborg: Aalborg University Press, 1997).

حول الإدارة، انظر: Daniel Rivet, *Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc : 1912-1925*, 3 vols. (Paris: Ed. L'Harmattan, 1988), et William A. Hoisington, Jr., *Lyautey and the French Conquest of Morocco* (New York: St. Martin's Press, 1995).

الأخيرة المخصصة لبناء فيلات أو مساكن خاصة تحدد «الخدمات التي يجب فرضها على المالكين لمصلحة الصحة، والسير، والتجميل»؛ والثاني صحيّ يحدد ست مناطق في خدمة الحماية من الأضرار أو الإزعاج الناجم عن المنشآت^(١٨).

الرسم الرقم (٤٢ - ٣)

هنري بروت، تطوير وتوسعة مخطط ١٩١٧ للدار البيضاء



في «المغرب الفرنسي»، ١٩١٧.
المصدر: من مجموعة المؤلف.

وفي ما يستكمل ساحة فرنسا المكرّسة للتجارة والتبادلات، تقوم ساحة الإدارة (محمد الخامس) المصممة في ضوء أبحاث طوني غارنييه أو جوسيلي لتؤكد حضور عدالة حكومة الوصاية وإدارتها. وحلّت هذه الساحة مكان المخيمات العسكرية القديمة وأصبحت مفصلاً مثالياً بين الأحياء التجارية والمدنية، ورسم تنظيمها الإجمالي جوزيف ماراست.

Henri Prost, «Le Plan de Casablanca», *France-Maroc* (15 February 1917).

(١٨)

ابتعد فريق بروسست من سوابق الانتقائية الجزائرية والتونسية من خلال تفكير متصل مع ليوتي، المتعلق كثيراً بـ «الرصانة الخارجية» و«بساطة حدود وواجهات» «البناء العربي» مثل ما هو متعلق بوحدة «الترتيبات الهندسية الكبرى لفرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر» على نمق ساحة ستانيسلاس في نانسي. وسوف يلهم بروسست مهندسي البريد أو قصر العدل أو القيادة العسكرية تنظيماً عصرياً للأقسام المركزية وجدراً أكثر تجريداً للأقسام الملحقة^(١٩).

بين الكاتدرائية في جانب، وساحة الإدارة وحتى الجادة الدائرية، رسم لابراد المتنزّه المركزي، وهو المساحة الخضراء الوحيدة في الدار البيضاء حتى اليوم إضافة إلى الحديقة العامة في المدينة وحديقة مردوخ التي تعود إلى عام ١٩١٢. تتخذ الحديقة شكلاً صليبيّاً وتصل الأجزاء المتناثرة للأراضي المفروزة التي كانت متناثرة قبل ذلك. كما تتسع بوجود شارعين عريضين باتجاه الجنوب (جادة كلود بيرّو) وباتجاه الغرب (جادة مولاي يوسف التي تؤدي إلى البحر).

وحول ثنائي ساحتي فرنسا والإدارة تحتل الأحياء التجارية والسكنية جملة مجموعات مكثفة مع طرق ذات سمة خاصة. فمن خلال تنوع المقاسات والأروقة وتكرار تقاطعات الطرق توصل بروسست إلى إضفاء شعور بالوحدة في ظل التنوع الذي يميّز مركز الدار البيضاء. كما وضع «حقوق ارتفاع معمارية» محددة لكل شارع. وهكذا يمكن ملاحظة تراتبية واستمرارية دقيقتين، على الرغم من السرعة في العمل على المواقع (التي كانت تترك أحياناً حتى يومنا ثغراً غير منجزة). ووضعت قيد العمل منذ عام ١٩١٥ «قواعد دقيقة» لتنظيم الأروقة، واستكملت بـ «وحدة التنظيم» (ظهر صادر في الأول من نيسان/ أبريل ١٩٢٤)، وتولّت دائرة التخطيط المدني وضع رسوم نموذجية للواجهات وأنظمة خاصة أخرى في أكثر من اثني عشر شارعاً في مركز المدينة.

كانت الطرق المتباينة إلى درجة كبيرة بعض ما ركزت عليه خطط التوسع الطموحة؛ فربطت جادة الزواوين الرابعة (هوفوييه - بوايه) ساحة فرنسا بالمرفأ. وتمتد الجادة التي يعدها بروسست كانبية الدار البيضاء منذ عام ١٩١٤ على طول الهدب الشرقي للمدينة، حيث استبدلت الأسوار بمخازن تجارية كبرى، تفتتح باتجاه الساحل، إذ كان بروسست

Henri Descamps, *L'Architecture moderne au Maroc* (Paris: Library de la Construction (١٩) modern, 1930), vol. 1: *Public Buildings*, plates 32-46.

يحلم بإنشاء مساحات مفتوحة «لإبقاء المحيط بعيداً». الأمر الذي لم يتحقق إلى يومنا هذا. وأقيمت محطة السكك الحديدية المركزية بعيداً في شرق المدينة، وفرض اتصالها بساحة فرنسا (الأمم المتحدة) فتح الطريق الرئيسي الثاني أي «جادة المحطة» (محمد خميستي).

ويوضح المنهج العملي في ضم الأراضي المتأثرة بمرور الجادة الاستراتيجية العقارية التي استُخدمت. ووصلت جادة المحطة بالشوارع المجاورة عبر تقسيم متفاوض عليه لقطع أرض كبيرة قادرة على استقبال بنايات ضخمة. كما تتسع الجادة عند السوق المركزي وتتصل بالمحطة وفقاً لمسار متعرج حيث يشكل برجها إحدى منارات المدينة العصرية، مع برج الساعة ومنارة إلهانك. وكانت مفارق الطرق على قدر من التناقض: من تقاطعات بسيطة إلى مستديرات كبرى تحتوي على حديقة. وفي جزئها الأكثر ازدحاماً، كانت الجادات تنفرع إلى مخازن تجارية كبرى تمتد بأروقتها المقنطرة: في مواءمة بين القيسارية المغربية والجادات الباريسية في القرن التاسع عشر.

والدار البيضاء التي عاصرت ولادة السيارة والسينما ربما تجد نفسها في مراتبها وصلالات السينما أكثر مما هي في مبانيها العامة. كما أن الدار البيضاء بمشاربها وحسها التجاري مستثمرة بواسطة شبكة كثيفة من الورش الميكانيكية والمستودعات ومخازن البيع بالجملة وهي مساحة مزدحمة تصل ساحة فرنسا بالأحياء الصناعية في الشرق. وتعتج المطاعم والمشارب والمقاهي والحانات بالناس ابتداء من الصباح وحتى وقت متأخر من الليل. فحياة السهر واللهو القريبة في الأصل من المخيمات العسكرية تحتل قسماً كبيراً من وسط المدينة، وتجذب في آن واحد المسافرين العابرين، والسياح كما المستوطنين في الداخل.

يبين المشهد المعماري للدار البيضاء حتى اليوم التباين المزدوج الذي أدخله بروسست بين نوعي الأحياء الضروريين لمدينة «عملية وصحية» في الوقت عينه. كان هناك، إذاً، مركز الأعمال وهو مفهوم مستحدث حتى في فرنسا، وأحياء تضم منازل فردية. ومنذ عام ١٩١٥ تشكلت على طول شوارع قلب المدينة مجموعة استثنائية من أبنية للإيجار نتيجة التقاء زبائن مغامرين وطموحين سواء أكانوا أوروبيين (فرنسيين وإيطاليين بوجه خاص) أو مغاربة (مسلمين ويهوداً) بمعماريين انخرطوا في نوع من التنافس الخلاق. ومع أن هذه البنايات مشتقة في الأصل من تجارب أجريت في باريس منذ بداية القرن، فهي سرعان ما اتخذت في الدار البيضاء خصائص خاصة بها. فبدت البنايات المرتفعة، التي تعكس نموذج تهجين ثقافي في التنظيم والزخرفة،

أيقونات تقطع الشوارع والساحات. وكانت البنايات تلك التي تشكل مجمعات كبيرة ذات ساحة مركزية، أو ساحة مفتوحة، أو الناتئة هنا وهناك متوجة أحياناً بقباب خزفية. وكانت تمتدّ على مساحة قطع أرض شاسعة تحيط بها عدة شوارع^(٢٠) (انظر الرسم الرقم (٤٢ - ٤)).

الرسم الرقم (٤٢ - ٤)

هنري بروس، مخطط قطاعي للدار البيضاء، نسخة ١٩٣٠



المصدر: المكتبة العامة للأرشيف، الرباط.

إلى جانب النماذج السكنية الكبرى، برزت أنواع جديدة من المباني الصحية العالية. لقد شكّلت المباني التي نفّذها ماريوس بوايه بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٣٩ مجموعة بارزة من الحلول لمشكلة السكن الجماعي في المدينة الكبيرة محققاً الأفكار التي لم يستطع هنري سوفاج تحقيقها في باريس، بفعل تحديد الارتفاعات الذي نص عليه تنظيم عام ١٩٠٢^(٢١). كما أصبحت البنايات التي سكنتها المجموعات البرجوازية المسيطرة في الدار البيضاء في قلب المدينة معالماً من مدينة رحلت. وفي

(٢٠) لِنظرة ثاقبة حول تشكّل هذه المجموعات والكتل، موجودة في: «Le Maroc en 1932», *L'Afrique du Nord illustrée*, special issue (1932).

(٢١) Marius Boyer, *Casablanca, travaux d'architecture* (Strasbourg: Edari, 1933).

حول هذا الموضوع، انظر العديد من المقالات التي نشرتها صحف مثل: *Chantiers nord-africains* التي تصدر في الجزائر و *Réalisations* التي تصدر في الرباط.

عام ١٩٣٥ بدأ تطبيق مشاريع تحديث ساحة فرنسا وحيّ المرفأ عبر بناء أول المباني المرتفعة.

وبحسب تصوّر بروس، تسمح مجموعات سكنيتان أقل كثافة واقعتان عند أطراف المدينة «لرجل الأعمال بالاستراحة في مسكنه العائلي المحاط بالعشب الأخضر». ومرسى السلطان، الحيّ السكني القريب من قلب المدينة، ومن قصر السلطان، الذي يتميز بالاختلاط الاجتماعي، مأهول جزئياً بعائلات التجار المسلمين.

أما أنفا، وهي الحيّ السكني الأكثر فخامة، فقد أصبحت جزيرة اخضرار وسلام كما هي أيضاً مكان نجح فيه نوع من التهجين، ليس بين السكان أو الطبقات الاجتماعية فقط وإنما بين الشمال والجنوب أيضاً، كما بين أوروبا وأفريقيا. كذلك شهد المكان إنشاء فيلات فخمة فيه. وتنتشر في الأحياء الذاهة أكثر باتجاه المركز منازل مرتفعة، تم تدمير الكثير منها في السنوات الخمس عشرة الأخيرة.

وكان انتشار المنازل الفردية في أحياء البرجوازية الصغيرة انعكاساً للنموذج الفرنسي الريفي، مع إضافات مغربية. وبين حي الأعمال وحي الفيلات، يقع حي المعاريف الذي ظل على حاله منذ العشرينيات، مستفيداً بالتأكيد من تجاهل خلفاء بروس له. يتألف هذا الحيّ الذي سكنه لوقت طويل موظفون إسبان أو إيطاليون، من مباني صغيرة مع ساحات لها، وبما يشبه النماذج الأندلسية للمنازل الأوروبية الأولى في الدار البيضاء.

لم تعد الدار البيضاء تفارق أحداث الساعة العالمية بعد الإنزال (الفرنسي) عام ١٩٠٧. إنّ خطوة ليوتي والنمو النموذجي للمدينة قد استمرّا في إيجاد مكان يجذب إليه المراسلين ولم تكن حكومة الوصاية ملزمة بالتالي ببذل أي جهد لاستئجار كتاب وصحافيين. لكن مع بدء الحرب العالمية الثانية، عاد البعد السياسي إلى الواجهة. وهكذا أصبحت الدار البيضاء منعطفاً بارزاً في اللعبة المعقّدة بين حكومة فيشي الفرنسية ودول المحور والولايات المتحدة التي بدأت مع إنزال ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٢.

في مؤتمر أنفا، استقبلت الدار البيضاء في كانون الثاني/ يناير ١٩٤٣ مفاوضات فترة ما بعد الحرب التي ستشهد ترك الأمريكيين آثار وجودهم العسكري والتجاري والثقافي في المرفأ الفرنسي الأول في أفريقيا. إنّ فكرة إنشاء «كاليفورنيا» جديدة تعززها حكومة الوصاية وتستخدم في السياسة الزراعية مع إطلاق العلامة التجارية «برتقال المغرب» تتلخّص في التشابه بين لوس أنجلوس

والدار البيضاء الذي ظهر واضحاً في الفيلات التي بُنيت في الخمسينيات^(٢٢).
(انظر الرسم الرقم (٤٢ - ٥)).

الرسم الرقم (٤٢ - ٥)
صورة جوية للمدينة، ١٩٤٣



المصدر: الأرشيف الوطني، واشنطن دي سي.

لم ينتظر نقد خريطة بروسست نهاية الحرب بل بدأ منذ عام ١٩٤٣ عندما عمد
ألكسندر كورتوا إلى مراجعة الوثيقة الصادرة في عام ١٩١٧؛ فاكشف «مدينة واسعة
جداً» توهم بأنها عاصمة في بعض أجزائها وتقدم «لسوء الحظ في الكثير من النقاط

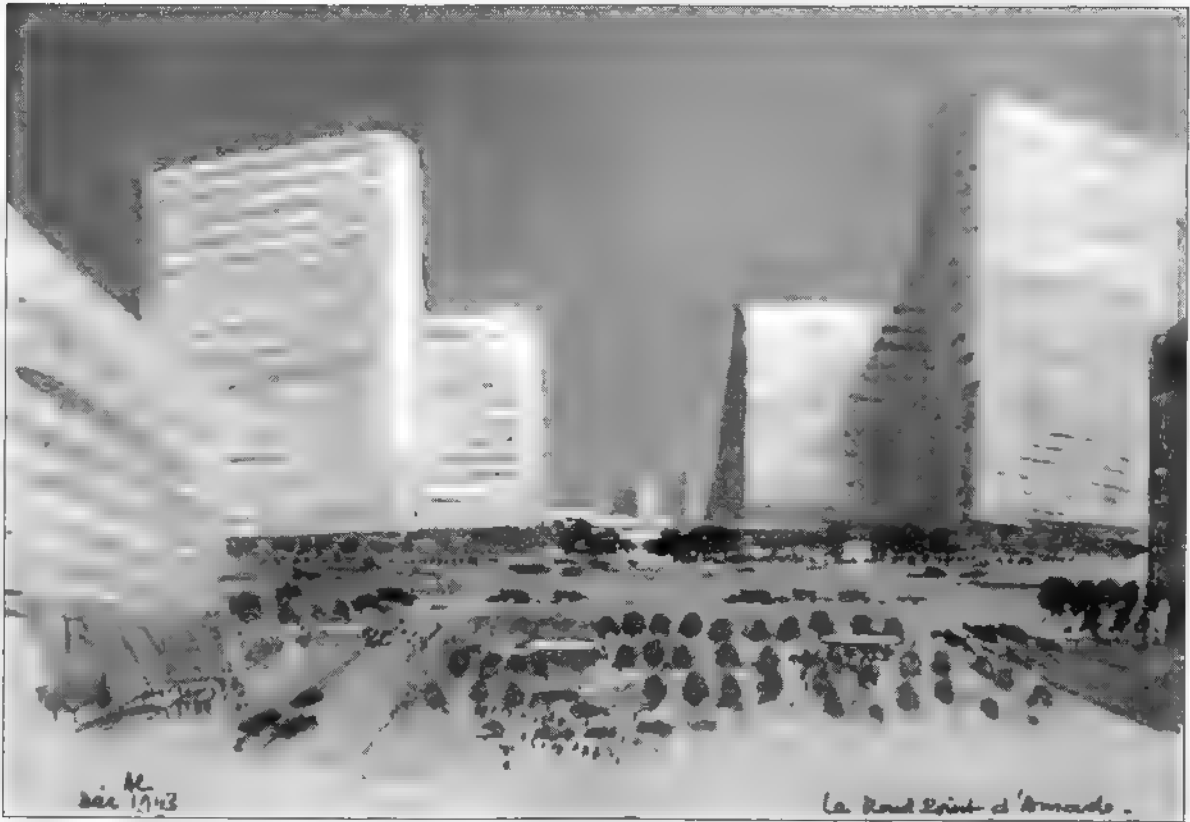
Will D. Swearingen, *Moroccan Mirages: Agrarian Dreams and Deceptions, 1912-1986* (٢٢)
(London: I. B. Tauris, 1988), pp. 59-77.

الأخرى وجه منطقة مهجورة فعلاً». وأدى تدفق الريفيين المغاربة إلى تفجير التخوم المحددة بطريقة تعسفية لمساكن «الأهلين».

وقام كورتوا من ثم بوضع رسم شامل جديد معزلاً مركز أعمال «بوابة المغرب على المحيط» بمجموعة ناطحات سحاب. كما اقترح تقليص مساحة المدينة التي يجب تحويلها إلى سوق سياحي أساساً. كما أبصرت النور فكرة جديدة متعلقة بالبنى التحتية مع فرضية طريق عربات دائريّ يتصل بـ «مساحة مركزية للنقل» وعلى حافة مركز المدينة، في الرباط^(٢٣). (انظر الرسم الرقم (٤٢ - ٦)).

الرسم الرقم (٤٢ - ٦)

ألكسندر كورتوا، مشروع مستديرة داماد، ١٩٤٤



المصدر: مجموعة ألكسندر كورتوا.

أوكل المعتمد العام الليبرالي إيريك لابونّ عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ الإدارة المدنية للمحمية إلى ميشال إيكوشار بعد عودته من سورية ولبنان حيث وضع خريطة بيروت.

Edmond Pauty, «Casablanca et son plan», *Revue de géographie marocaine*, vol. 4 (1945), (٢٣) pp. 3-9.

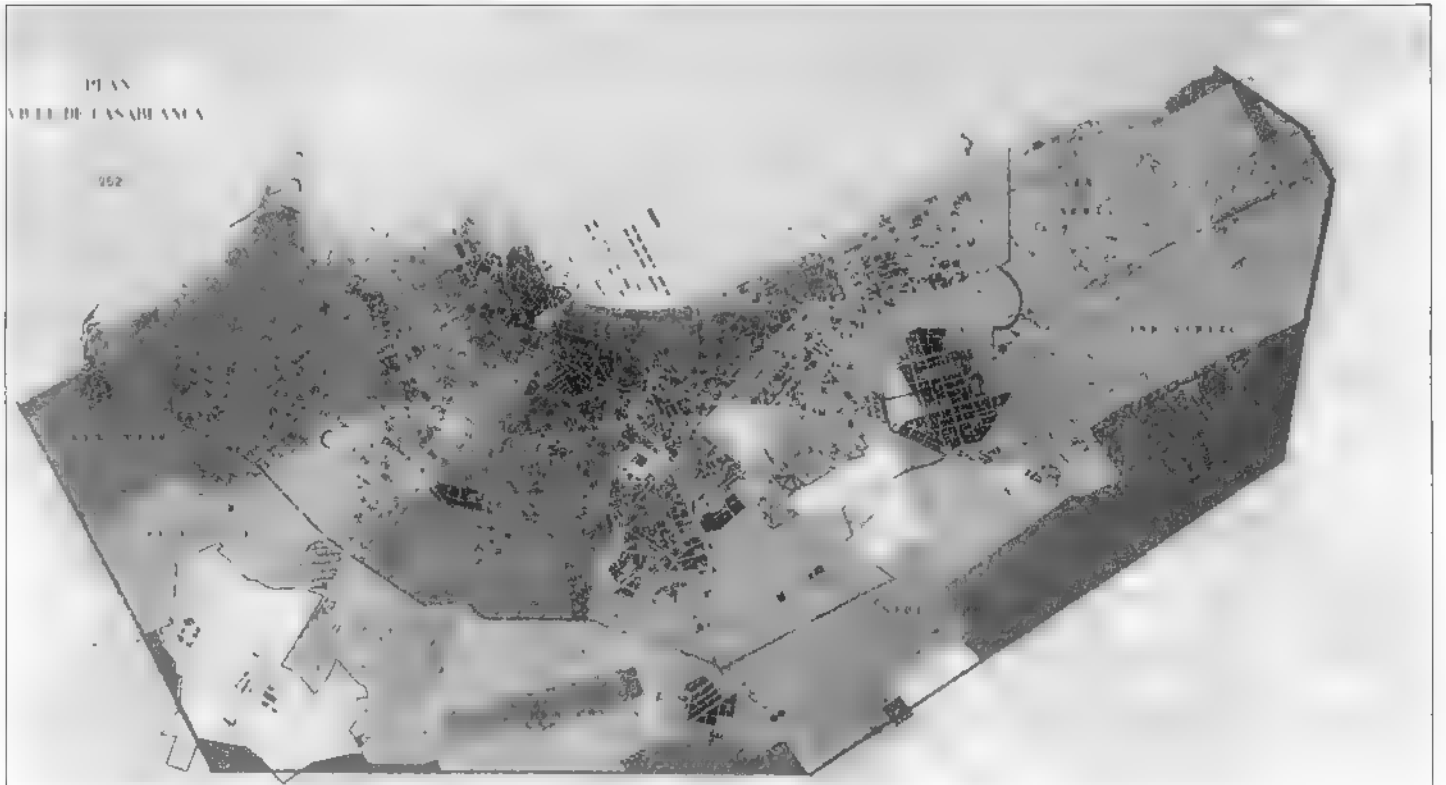
عمل إيكوشار المطلع بدقة على الإسلام والمناصر لفكرة مدينية نفعية من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٥١ على خريطة الدار البيضاء مدرجاً بعض أفكار كورتوا، ولكن معجراً في الواقع انقلاباً كاملاً على الطموحات والعقيدة والتقنيات المطبقة. أما الحيز المكاني للخريطة فقد أصبح مختلفاً كلياً، لأنّ الأمور باتت تتعلق بتنظيم نمو شريط ساحلي كبير يدمج ضاحية الدار البيضاء كلّها ويضم إليه مرفأ فضالة النفطي (المحمّدية) في الشرق (انظر الرسم الرقم (٤٢ - ٧)).

أما إيكوشار الذي أخذ في تجربة سلطة وادي تينيسي التي ظهرت عام ١٩٤٥، فقد أيد خطة الواجهة البحرية الطموحة التي لحظت إيجاد «اتحاد صناعي» متفرد على حدود المحيط. يضع الحل الخطي ذاك بموازية الساحل وبطول ٣٥ كيلومتراً خطوطاً من المصانع ومساكن للعمّال والمتنزهات ومنشآت المرور. فمن أجل استقبال اليد العاملة اللازمة لتحقيق تنمية صناعية طموحة للتجمع السكاني، ومن أجل مواجهة أزمة السكن التي تؤثر بوجه خاص في الطبقات الشعبية الأوروبية والمغربية الفقيرة مسلمة كانت أم يهودية، تولّى إيكوشار تنظيم أطراف المدينة مشكلاً طوقاً من المجموعات الكبيرة المخصصة لكلّ فئة اجتماعية على نحو مستقل. ويصبح التمييز الاجتماعي والعنصري الخفي إذ ذاك الأساس لمشروع معقول لا يخلو من النيات النبيلة، ولكن غير القادر على تجاوز عقائد رسمي المحمية.

استكملت المجموعات السكنية للطبقة الأوروبية المتوسطة في الغرب (سي. إي. إل، بوليو، وبلاتو) بمجموعة سكنية كبرى في الشرق للعائلات الشعبية من الأصول ذاتها (بورنازيل)، وبحيّ سكني قليل الكثافة (عين السباع). فاليهود الكادحون الآتون بأعداد متزايدة من البلدات الصغيرة في الداخل استقروا في سلسلة مجمعات مبنية على القسم الأقل ملائمة من الشاطئ بين حيّ تي. أس. أف ورأس الهانك.

أما المسلمون الفقراء الذين يقيمون في مجمعات سكنية صغيرة مكتظة في المدينة القديمة والجديدة، والذين يقطنون مدن الصفيح الضخمة والقرية من مصانع الصخور السود، والذين يتوافدون من دون توقف من المناطق الريفية، فقد حظوا أول مرة بوعده بالحصول على استجابة شاملة صناعية لتطلعات طالما تجاهلتها الدوائر السياسية الرسمية.

الرسم الرقم (٤٢ - ٧)
ميشال إيكوشار، الدار البيضاء الكبرى في قطاعات، ١٩٥٢



المصدر: مجموعة المؤلف.

كان المهندسون المدنيون، ورسامو الطبيعة، والاقتصاديون، والقانونيون الشباب في فريق إيكوشار على اتصال بالعلماء الاجتماعيين مثل روبير مونتان، الذين كانوا يعملون على ظروف حياة السكان المغاربة وعاداتهم. وبالتالي، لم يكن الفريق يعمل لساكين بعامة وإنما لأناس محددين يعرفون ظروفهم حق المعرفة. وبفعل المسوحات والأبحاث التي أجريت في الأحياء القائمة، كان لا بد لهذا الاختيار الذي يتم عن ولاء ما تجاه المغاربة من أن يؤثر بشدة في علاقات إيكوشار بالقوى المحافظة، ولا سيما الصناعيين وكبار المالكين في الدار البيضاء الذين يسيطرون على المجلس البلدي وقسم كبير من الصحافة. وهكذا أدت السجلات في عامي ١٩٥١ و ١٩٥٢ والغيظ من طيف «حزام أحمر» موعود به في الخريطة إلى تجميد عمليات البناء المقترحة في الضواحي بغية منع «التفريق بين المباني».

قاد الاستخدام النقدي لنموذج «المؤسسات الإنسانية الثلاث» الذي وضعه لو كوربوزيه إلى تغيير حاسم لجهة المنهج، وفي ما يخص الرؤية الشاملة للمجمعات السكنية في الدار البيضاء، التي تُعد بمنزلة جمع لـ «مدينة صناعية وعملية» ولـ «مدينة أعمال» واسعة ولـ «منطقة سكنية محاطة بحزام أخضر».

لم يستطع إيكوشار المولع بتطوير البنى التحتية إلا أن يتابع عمله على طريق العربات الدائري والذي افتتح في النصف الأول من الخمسينيات. كما لاحظ إنشاء مساحات خضر و«تحرير» الأرض من المجمعات السكنية الكبرى - أسطورة أخرى للو كوربوزيه - وقبل ذلك كله إقامة حزام صغير من المتزهات يحاصر المدينة من الجهة الجنوبية الغربية على شكل نصف دائرة.

أما في قلب المدينة فقد أطلق إيكوشار أخيراً ملف «مدينة الأعمال» العمودية المنتظرة منذ عام ١٩٣٠. كما أنجز شق جادة الجمهورية التي تربط ساحة فرنسا بالساحل عند موقع مقبرة سيدي بليوط. ومن وجهة مورفولوجية، تخلى إيكوشار عن فكرة البناء وفق صف مستقيم المستخدمة في أول مباني ما بعد الحرب، لمصلحة طريق يحيط به «مشط» من أشكال متصالية مخصصة ولا سيما للفنادق ولصناعة السياحة والرحلات - وهي الجادة الحالية للقوات المسلحة الملكية. أما من جهة المدينة، التي لم يعرها إيكوشار الاهتمام الكافي (مع أن اندفاعات التحديث عنده كانت أكثر اعتدالاً في المدن المغربية الأخرى)، فقد استكمل الجادة الجديدة عبر الواجهة البحرية القديمة في الملاح وحتى ساحة فردان، وصمم النسخة الأولى لمجمع مخصص ليكون فندقاً

كبيراً. وفي النهاية قاده ضغط المحافظين والاستعماريين إلى الاستقالة في نهاية عام ١٩٥٢^(٢٤).

برزت ظاهرة تحديث ثانية بعد عام ١٩٤٥ في شوارع المدينة، ظاهرة مفتوحة على مراجع معمارية أقل تركيزاً على فرنسا، ومفتحة برامج كانت أحياناً غير متوقعة^(٢٥). بلغ صدى هذه الظاهرة العاصمة وأوروبا وكان من القوة بحيث بقي الإنتاج في شمال البحر المتوسط مطبوعاً بمفهوم الاستعجال والمنفعة الأكثر صرامة. كما ظهر جيل جديد من المرائب ومحطات خدمة السيارات عند أطراف الجادات مرافقة انطلاق مراتب سيارات أكثر عصرية حتى مما هي عليه في المتروبول. الفضاء الحالي للدار البيضاء تقطعه حواجز عمودية، وقد أنشئ عدد منها في ذلك الوقت. فقد ظهرت مبانٍ جديدة من حيث الارتفاع في ما يشبه الحلقة حول المركز وبين الأحياء التجارية ومناطق الفيلات، وهي تجمع ما بين المساكن والمكاتب وفق مبادئ متغيرة. أما بالنسبة إلى سكان الدار البيضاء الميسورين، فأصبحت المباني العالية المبهرة في أكثر الأحيان طموحاً واضحاً لهم بعد عام ١٩٤٥.

في مثل هذا المشهد المدني الذي قسّمته المباني إلى مجموعات متعددة، شكّلت المشاريع العامة مناطق يسهل تمييزها، وكانت مبرراتها في الغالب على نقيص تقشف المشاريع الخاصة. عند طرف الجادة الدائرية (الزرقطوني) قام المكتب الشريفي للإسكان المنبثق من حكومة الوصاية، بدءاً بالعام ١٩٤٦، ببناء المدينة الخضراء في حيّ بورغون، وهي أكبر مشروع عام أنجز على الإطلاق لأوروبي الدار البيضاء، وهي تتألف من مبانٍ «عالية النوعية» مخصصة للموظفين والعسكريين والمقاتلين القدامى الأوروبيين. وبين ما أنشئ في ذلك الوقت مدينة بوليو، بمشاهدها الجميلة البارزة. أما للزبائن المتواضعين من مستخدمين وموظفي خدمات أو كوادر الصناعة الصغار أنجزت الشركة العقارية الفرنسية - المغربية مدينة بورنازيل التي ستغدو أكبر مجمع سكني في الدار البيضاء (١٩٥٤).

بقي حيّ الفيلات في أنفا الذي تم تطويره منذ العشرينيات معزولاً عن وسط المدينة إلى أن تم ربطه بواسطة المشاريع العامة. ويظهر ازدهار مرحلة ما

M. Ecochard, *Casablanca: Le Roman d'une ville* (Paris: Editions de Paris, 1955). (٢٤)

(٢٥) هناك عدد من المجلات عالجت موضوع إنتاج ما بعد الحرب، مثل: *L'Architecture d'Aujourd'hui*,

vol. 35 (May 1951); «Maroc» *L'Architecture française*, vols. 95-96 (May 1950), et «Maroc» *L'Architecture française*, vols. 131-132 (April 1953).

بعد الحرب الثانية من خلال بناء عشرات المساكن الفاخرة أو الاختبارية التي تملأ الأراضي المفرزة الشاغرة. وإذا كان بعض هذه المنازل يستمر بالتعبير عن بعض الحنين إلى المقاطعات الفرنسية أو إلى إسبانيا متخيلة، فإن بعضها كان أكثر ابتكاراً بالإحالة إلى طرق عيش بعيدة أكثر كسكان كاليفورنيا على سبيل المثال. واجتمع معاً الإبداع المرن والبحث عن الراحة في مشاريع مترفة فاق ما يشبهها في المتروبول.

وعلى الرغم من مرور الزمن، بقيت التقسيمات الاجتماعية لفضاء الدار البيضاء مستقرة على نحو غير اعتيادي. في الواقع، وعلى الرغم من أن ليوتي وبروست قد راودتهما فكرة إقامة مدينة تكون أوروبية قبل أي شيء، فقد نشأت مجتمعات سكنية مسلمة غير متوقعة على نحو سريع في نقاط متعددة. إن مسألة سكن «المحميين» المغاربة التي أخذت في الحسبان بطريقة منظمة بعد عام ١٩٤٥ قد طُرحت منذ بدايات الاستعمار من خلال ترتيبات غير مدروسة وإجراءات تسيطر عليها الإدارة بأحكام أو مشروعات خاصة عشوائية. كانت الأحياء الأولى للمدينة الجديدة منذ إنشائها عصيةً على الأغلبية الساحقة من المسلمين المتواضعين على الرغم من عدم وجود أي نظام يمنعهم من السكن فيها. وبكثافة خانقة، جمعت المدينة معاً الطبقات الشعبية التي تعمل فيها أو التي تستخدمها الشركات التي كانت تنشأ في شرق المدينة. أما النواة لمساكن المغاربة فكانت قد أُرسيّت منذ عام ١٩١٤ ولا سيما في منطقة درب غلف.

تتابعت محاولات تكييف الدار البيضاء مع هجرة السكان المغاربة إليها؛ فاقترح بروست عام ١٩١٧ «إنشاء مدينة محلية جديدة وإنما بقياسات معتدلة جداً». وعلى طريق مديونة، قُدّمت أراضي المالك الإسرائيلي حاييم بن دحان إلى إدارة «الحبوس» لهذه الغاية. وعلى قطعة أرض صغيرة تبلغ مساحتها ٤ هكتارات، ابتكر لابراد في عام ١٩١٧ برنامجاً أول للمسلمين ذوي الدخل المتواضع انطلاقاً من مسوحاته للهندسة المعمارية في فاس والأندلس.

يجمع حي الحبوس بتركيبته بين الإيقاعات الخاصة بالمعمار التجارية وبين الجدران الكاذبة للمساكن التي لا يمكن النفاذ إليها عبر الطرق الرئيسية. فالأمر يتعلق بالحفاظ على كل الممارسات المدنية الاعتيادية والأماكن التي توطّد الألفة التقليدية والشعائر لدى المسلمين: المساجد والحمامات المغربية والساحات والمخازن المنعزلة أو المتجمّعة في قيسارية، والفنادق والأسواق والبازارات. وعلى الفور أكدت أسواق

دائمة ومتنقلة نجاح الحي الذي سبق أن أوى ٣ آلاف نسمة في عام ١٩٣٢ وهي عائلات ميسورة حلّت بسرعة مكان السكان السابقين الأكثر تواضعاً^(٢٦) (انظر الرسم الرقم (٤٢ - ٨)).

الرسم الرقم (٤٢ - ٨)
أربعة مناظر لحي الحبوس [أي الوقف في التعبير المغربي]



المصدر: ألبير لابراد بالتعاون مع أوغست كاديه وإدموند بدايون، الأرشيف الوطني، باريس.

فضلاً عن هذه النواة الأولى، امتدت «مدينة البلدية» أو درب البلدية جنوب خط سكك الحديد على مساحة ١٠ هكتارات ومهدت منذ عام ١٩٢٠ لسياسة مدنيّة أخرى. فالأمر لم يعد يتعلّق بمشروع محدد مسبقاً ومرسوم بالتفصيل من قبل مهندسين

Albert Laprade, «Une ville créée spécialement pour les indigènes à Casablanca,» dans: (٢٦) *L'Urbanisme aux colonies et dans les pays tropicaux: Communications et rapports du congrès international de l'urbanisme aux colonies et dans les pays de latitude intertropicale*, pp. 94-99; Gaetano Arcuri and Anna Pasquali, «Casablanca: The Derb el Habous by A. Laprade or How to Build in the Arab Fashion,» *Journal of the Islamic Environmental Design Research Centre*, vol. 1 (1985), and Attilio Petruccioli, ed., «Maghreb: From Colonialism to a New Identity,» *Journal of the Islamic Environmental Design Research Centre*, vol. 1 (1985), pp. 14-21.

معماريين، وإنما بترتيبات أقل رسمية. وتم تأجير الأراضي التي اشترتها البلدية لمدة ٩٩ عاماً، فعمد المغاربة إلى البناء عليها مع احترام أبسط قواعد الامتداد والصحة.

وفي فترة العشرينيات، تم بناء حيّ دعارة بوسبير، الخاضع للإشراف، في جنوب المدينة الجديدة وبعدها أزيح من قلب المدينة. كانت الأجزاء الحضرية للمدينة الجديدة أبعد من أن تكون كافية لإيواء السكان الذين لا يتوقفون عن التوافد إلى الدار البيضاء. فوجد العمال المغاربة مكاناً جنوب الامتدادات المخططة في معسكر ضخم له جذوع ذات طبيعة مسطحة سُمّي في آخر العشرينيات بمدينة الصفيح وهي عبارة مستخدمة بعد ذلك في أنحاء أفريقيا كلها ومن ثم في باريس.

لم تتوقف بلدية الدار البيضاء خلال فترة الثلاثينيات عن الاهتمام بتحسين «الأزقة غير الصحية» ومدن الصفيح، وهدفت من ذلك إلى تطهير الأحياء وإعادة إنشائها في أماكن محددة جداً وصحية ومراقبة، فضلاً عن دعم أبنيتها. وعلى الرغم من حملات إعادة التنظيم الدورية في الخمسينيات، تكرر شكل السكن الموقت هذا مع كل موجة هجرة جديدة واستمرّ في فجوات المدينة، ولم تكن حظائر القصب بكافية لتخفيه بالكامل عن عيون الناظرين.

شهد الحي الصناعي في منطقة الصخور السود المدن العمالية الأولى التي تميزت بنوع من الطموح المعماري، والذي سيجري تطويره بتفصيل أكبر مع شركة السكر المغربية التي تأسست عام ١٩٣٢. وكما في الحَبُوس، أحيطت ساحات الأمكنة هذه بمتاجر، كما يستفيد السكان من وجود مسجد وعدة منشآت أخرى (مدرسة قرآنية وفرن وقيسارية). إن إنشاء الجمعية الشريفة للمدينة العمالية الأهلية في الدار البيضاء عام ١٩٣٩ والتي كان من المفترض أن تحل مشكلة السكن «ليس على مستوى الأفراد وإنما على مستوى المهنة المنظّمة» أراح الصناعيين الأكثر حداثة من مهمة كانت تثقل كاهلهم.

وفي جنوب الطريق السيار الذي رُسم في الخمسينيات، حدّدت الطرق الكبيرة مجموعات المنازل البيض في عين شوق، وهو كيان مستقل أوجده المكتب الشريفي للإسكان منذ عام ١٩٤٥ استجابةً للرغبة التي أبدتها حكومة الحماية منذ عام ١٩٣٦ بإنشاء «مدينة نموذجية» من أجل القضاء على مدينة الصفيح في بن سبك. أنجزت المدينة مرحلة من مراحل إنشاء مسكن «يلاثم» المسلمين، من حيث مقياسه ومن حيث بناء مساكن فردية ذات عدة طبقات أو منضدة.

يصعب اليوم لدى عبور الشوارع المزدحمة والمكتظة بالمقاهي والمتاجر في حي المحمدي التصور بأن يكون نفوذه هو نفسه مكان مدينة الصفيح القديمة أو ما كان يسمى «دروب البلد»، وهو الحي الأكبر والأكثر صخباً سياسياً في الدار البيضاء حيث يشير مصطلح «كريان» أو درب إلى الأحياء الهشة الخطرة منذ العشرينيات^(٢٧).

ومنذ عام ١٩٥١، اقترحت دائرة الإسكان وإيكوشار أن تبني مكانها أولى مجموعات «المدن التابعة» التي يبلغ متوسط عدد سكانها ٣٠ ألف نسمة وفقاً للمعايير التي حددها المؤتمر الدولي للهندسة المعمارية الحديثة (CIAM) والتي تضم وحدات جوار مع منشأتها. وعلى قطع أرض صغيرة تبلغ مساحتها ٨ × ٨ أمتار تتألف «الحجيرات النموذجية»، كما يحصل في معظم المدن المبنية، من غرفة أو غرفتين تطل على صحن الدار ومطبخ مغلق ومرحاض. في وسط شوارع حي المحمدي تسيطر ثلاثة مباني على بنية الشبكة التي تبلغ مساحتها ٨ × ٨ أمتار. تركز هذه المباني الجماعية التي ابتكرها جورج كانديليس وشادرتش وودز وفلاديمير بوديانسكي على فكرة المسكن البربري في جنوب المغرب، بهدف إعطاء مسكن تقليدي معدّل (انظر الرسم الرقم (٤٢ - ٩)). هذا التفكير في «المسكن الأكبر عدداً» هو ما أخذه CIAM في الحسبان عام ١٩٥٣. وتتلاقى هذه الفكرة مع أفكار ألدو فان أيك وآل سميثسون حول هوية المسكن في المدينة ونوعيته^(٢٨). وسوف تمتد هذه الفكرة بعد الاستقلال مع أحياء «الدرب الجديد» ومدينة سيدي برونوسي جنوب شرق عين السبع التي جرى لحظها في مخطط إيكوشار.

تشغل الشريط الساحلي للدار البيضاء المحاذي للمركز إنشاءات المرفأ، الذي يبقى فرضياً خارج المشهد العام. ومثل كثير من المدن المرفئية التي قلما ترغب في البقاء مثبتة على مشهد عمل أرصفة المرافئ، فهي تدير ظهرها للبحر. تقود البوابات المفتوحة في سور المدينة إلى جادة يحيطها سياج إسمنتي طويل من جهة المحيط بينما تشكل طرق السكك الحديد حدوداً واضحة باتجاه الشرق. كما انحصر امتداد المرفأ حتى حي عين السبع الشعبي على «طريق الرباط» بينما كان الشاطئ يمتد على الجانب نفسه من المدينة أمام مزار سيدي بليوط في بداية القرن العشرين. في المقابل، لم تتوقف هجرة مجتمعات الاستحمام باتجاه الغرب عن التزايد منذ إنشاء شاطئ في حي تي. أس. أف (TSF) عند الحدود الغربية للمدينة. كما أن وجود أراض جاهزة دفع بالبلدية إلى

André Adam, «Le Bidonville de Ben Msik à Casablanca», *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger*, vol. 8 (1949), pp. 61-199.

Alison Smithson and Peter Smithson, «Collective Housing in Morocco», *Architectural Design* (٢٨) (January 1955), p. 2.

بناء أوسع مسبح أفريقي في البحر في بداية الثلاثينيات، وقد طُمر في بداية الثمانينيات من أجل السماح بشيد مسجد حسن الثاني الكبير.

الرسم الرقم (٤٢ - ٩)

مشروع «أثبات أفريقيا» (ATBAT-AFRIQUE)، إسكان العمال المسلمين،
(Carrieres Centrales, 1952)، وزارة الإسكان، الرباط



المصدر: جورج كانديليس، شادرتش وودز، فلاديمير بوديانسكي.

أما الدار البيضاء اليوم فهي تخفي معالم المدينة المسورة التي تعود إلى بداية القرن العشرين. وبعد ذلك ضُمَّت مساحة الخمسين هكتاراً الأولى إلى تكتل من ٨٦ ألف هكتار، بينها ١٥ ألف مدينية، أي بزيادة ٣٠٠ مرة على ما كانت عليه منذ قرن واحد. ولفترة من الزمن بقيت الأطر التي وضعها نظام الحماية في ما يتعلق بالتقسيم بحسب

المناطق والبناء المكثف للمساكن الاقتصادية معمولاً بها. كما تمت متابعة برامج فريق إيكوشار وبقيت المعايير نفسها في الغالب. وقد ترك رحيل أغلبية الأوروبيين وشبه مجموع اليهود المغاربة جوانب واسعة من الأحياء المشيدة في ظل الحماية خالياً.

أما في قلب المدينة، فقد كانت المباني المخصصة للإيجار مسكونة من جانب عائلات كثيرة تستفيد حتى هذا اليوم من الاحتفاظ بالأماكن مقابل دفع أجور زهيدة لكنها غير كافية للسماح بالصيانة الأساسية للمباني والمصاعد وبالترميم المستديم للواجهات. وبينما تشهد الأحياء المتلاصقة تغييراً مطرداً في ساكنيها، تستقر البرجوازية المغربية الصاعدة وعلى نحو متزايد في حي الواحة أو حي بولو.

وامتداد القسم الشرقي لجادة القوات المسلحة الملكية (الجمهورية في الأساس) يجد ما يشبهه في الامتداد من ساحة فرنسا (الأمم المتحدة) إلى ساحة فردان (وادي المخازن) حيث جسد فندق الدار البيضاء (الحياة) على أطرافها في ستينيات القرن العشرين الفرضيات التي ترسخت منذ أربعين عاماً. تستقطب الدار البيضاء، المركز الصناعي العملي للمغرب الجديد، نزوحاً ريفياً لم يسبق له مثيل. يؤدي التدفق المستمر لساكلي المدينة الجدد إلى إنشاء مدن صفيح جديدة في استمرار لمنطقتي بن مسيك أو سيدي عثمان. كما تتوزع مدن صفيح جسيمة أخرى على نحو لا يكاد يمكن رؤيتها نظراً إلى كونها مخبأة في أحياء أقرب إلى وسط المدينة. وتحولت المنازل ذات صحن الدار الممتدة على مساحة ٨ × ٨ م إلى مباني صغيرة يسمح بروزها على الشوارع بكسب المزيد من الأمتار المربعة الثمينة. وهكذا برز مشهد مديني جديد، يقطعه إيقاع رتيب، لكنه متنوع وحي على الأرض وعلى نحو واضح (انظر الرسم الرقم (٤٢ - ١٠)).

يسمح التقسيم الوظيفي، الذي وضعه إيكوشار عام ١٩٥٢ والذي عدل بواسطة تسويات متتالية حتى عام ١٩٧٤، بطريقة ما، وعلى الرغم من النمو السكاني، بالحفاظ على محيط مديني محدد بصورة واضحة تقريباً^(٢٩). لكن البنى التحتية لمدينة تضم مليون نسمة لم يجر تحديثها بما يتمشى مع سرعة النمو السكاني. وعليه فسيؤول التوتر الخفي في الدار البيضاء الشعبية إلى حركات تمرّد شعبية في حزيران/يونيو ١٩٨١، وهو ما عدته السلطة طلقة إنذار مبكر عنيفة. ومُذ ذاك، فقد أبصرت النور طرائق عمل جديدة تؤكد القطيعة مع حلول ما بعد الحرب السابقة (انظر الرسم الرقم (٤٢ - ٧)).

(٢٩) حول الوضع في الدار البيضاء بعد ١٥ عاماً من الاستقلال، انظر: «Les Grandes villes d'Afrique et de

Madagascar, Casablanca,» Notes et études documentaires (14 juin 1971).

الرسم الرقم (٤٢ - ١٠)
شارع في حي سيدي عثمان، ١٩٩٩



المصدر: الصورة من مجموعة المؤلف.

لم يكن إنشاء وكالة مدنية عام ١٩٨٤ مكلفة تطبيق المخطط الرئيسي للتنظيم المدني الذي تمت دراسته عام ١٩٨١ إلا الجانب التقني في إعادة تقسيم شاملة للتجمع السكني^(٣٠). وظهر تنظيم سياسي ومؤسسي جديد مع إنشاء تسع وعشرين بلدية مدنية وست بلديات ريفية مجموعة في تسع مقاطعات ترئسها ولاية الدار البيضاء الكبرى. وستبقى كذلك إلى أن يعيد الإصلاح البلدي عام ٢٠٠٣ توحيد التجمعات السكنية تحت قيادة والٍ واحد.

يستند المخطط الرئيسي للتنظيم المدني الذي تمت المصادقة عليه عام ١٩٨٥، والذي وضعه فريق المهندس الباريسي ميشال بانسو، إلى محيط يوسع خريطة إيكوشار ويشمل المحمدي وبلديات الضواحي. كما يميل إلى تعزيز الروابط الساحلية الموجودة وإعادة تنظيم العلاقات بين المساكن والأعمال. وبطريقة أكثر شمولية، يقترح المخطط العام للتنظيم المدني تحديث البنى التحتية للطرق والسكك الحديدية وتعديلات

Rahal Moujid, *L'Agence urbaine de Casablanca* (Casablanca: Afrique-Orient, 1989).

(٣٠)

جوهريّة على التقسيم بحسب المناطق تسمح بشيد مجمعات سكنية في الأحياء. وقد بات في حيز التنفيذ نظام جديد من عدة أقطاب، مع شبكة مقاطعات جديدة ومقارّ لبلديات مدنيّة.

بحسب الإحصاء الذي أجري عام ١٩٩٤، كان ٢٢ في المئة من سكان المدن في المغرب - أي ١٢ في المئة من المجموع - يسكنون في الدار البيضاء الكبرى التي تحوي رسمياً ٣,٢٥ مليون نسمة بما في ذلك المناطق الريفية المجاورة. بلغ معدل نمو السكان ٣,٣ في المئة سنوياً عام ١٩٨٢ ثم انخفض إلى ٢,٢ في المئة، وهي إشارة إلى استقرار ممكن لحركة نزوح السكان. كما يبقى مرفأ المدينة أحد أهم مرفأ أفريقيا مع حركة تجارة تبلغ ١٦ مليون طن - أي ٤٥ في المئة من المجموع المحلي - فيعيد رسم مصير أحياء الشرق الواقعة بين مرفأ إعادة التصدير والمصانع ومستودعات تجار الجملة. وهي قوة اقتصادية هائلة، وخصوصاً إذا أضفنا إليها حركة تجارة المحمدي شرق المركز السكاني التي تبلغ ٦,٨ ملايين طن - أي ١٦ في المئة إضاكية على المجموع المغربي.

أما بالنسبة إلى الصناعة فهي جمعت ٤٣ في المئة من الوحدات و٤٦ في المئة من اليد العاملة المغربية في المدينة عام ١٩٩٧ (بنسبة ٥٩ في المئة و٦٠ في المئة في المنطقة على التوالي) مصدرة أساساً المنتجات النسيجية والجلود والمنتجات الزراعية - الصناعية والكيميائية والميكانيكية^(٣١).

لم يتم تحديث البنى التحتية بما يتمشى مع التمدين الواسع، وتبدى ذلك في عدم قدرة مجاري التصريف على استيعاب الأمطار الغزيرة، أضف إلى ذلك التقصير في جمع النفايات. إنّ الضغط السكاني واضح في المجمعات الصغيرة المكتظة بالسكان في المدينة القديمة وفي الأزمة المستمرة للسوق المحلي، وفي الحفاظ على سوق إيجارات اجتماعي جمّد بالكامل من إمكان صيانة المباني القديمة.

فضلاً عن ذلك، منح تدخل الدولة امتياز النفاذ إلى الملكية وسمح بإنجاز مدن جديدة لا تحصى حيث الكثافة السكانية فيها لا تلغي المواصفات المدنيّة. ومع ذلك، فقد ظلت بعيدة من الاستجابة الكاملة للحاجات إلا في ما يتعلق بإزالة السكن المشترك وتخفيف حدة مشكلة المساكن الموقّعة.

Abdelkader Kaïoua, *L'Espace industriel marocain: De Kenitra à Casablanca, Urbanisation* (٣١) du monde arabe; 13 (Tours: Institut de géographie, 1984), et Abdelkader Kaïoua et Jean - François Troin, *Atlas de la Wilaya de Casablanca* (Tours: Urbama, 1986-1989).

تغير بعض الأحياء اليوم، في الدار البيضاء، من حيث الاستخدام والاتجاه على غرار حي المعاريف الذي شهد تحولاً بفعل زبائن الطبقة الوسطى وبناء ناطحات سحاب المركز - التوأم المثير للجدل والذي دُشن عام ١٩٩٩. وتبقى الصلة بين المدينة والساحل مسألة إشكالية. فقد شهد الكورنيش بعض الركود على الرغم من إنشاء مطاعم الوجبات السريعة وصالات السينما المتعددة القاعات. وإلى يمين المرفأ لم تتوقف المشاريع عن التعاقب لتشكّل مجموعة الأبراج المنتظرة منذ عام ١٩٣٠ حاشدة حولها مجموعات كبيرة من السياح الأوروبيين.

والجادة الملكية التي تنتهي في الجامع الكبير، والتي شقت على تخوم المدينة القديمة، هي أحد التخطيطات الرئيسية للتنظيم المدني لعام ١٩٨٤. كما أن هذه الجادة البالغ عرضها ٦٠ متراً في الجزء الأول المصمم والمحاطة بأبنية يبلغ ارتفاعها ٢٦ متراً، تعرضت لعمليات هدم أولى بينما أعيد إسكان المطرودين في المجمع الكبير المنجز في مدينة النسيم في جنوب غرب المدينة. ومن ثم فهي تتصل، وفقاً لهندسة متعددة الزوايا تحيط بالمدينة، بساحة الأمم المتحدة (ساحة فرنسا) وجادة القوات المسلحة الملكية (FAR). كما تظهر مجموعة ترتيبات جزئية في المخطط الرئيسي للتنظيم المدني؛ فطريق مديونة (جادة محمد السادس) المتاخمة لحي الحبوس والقصر الملكي هي موضوع برنامج إعادة سبك وبتناسق هندسي محدد من القناطر، كصدي للتقنيات التي وضعها بروسست. كما أُطلق مشروع استصلاح ١٥ كلم من الطريق الدائري الذي يربط بين المقاطعات وينتهي بطريق رئيسي أكثر ازدهاراً بين حي المحمدي والمحيط.

لكن التنظيم الواسع للدار البيضاء اليوم تحدده أيضاً الرهانات المنطقية. فالتجمع السكني الممتد حالياً على ساحل طوله ٨٠ كلم يخضع لعناصر ضاغطة أكثر وضوحاً؛ إذ إن الارتفاع المستمر في سعر الأراضي يشلّ نمو الشركات الصناعية. ولكنه لا يعيق أبداً في المقابل انتشار الأراضي المفرزة الفخمة في كاليفورنيا أو كريت أو انتشار المجمعات السكنية الشعبية العفوية الجديدة في دار بوعزة أو بوسكورة أو عين حرودة أو سيدي مومن أو الهراوين، آخر المدن المولودة حديثاً من بين المدن الهشة. أما مطار محمد الخامس، الذي يمكن الوصول إليه عبر السكة الحديد والطريق السيار، والذي يتولّى ٥٢ في المئة من النقل الجوي للبلاد، فأصبح هو الآخر مع افتتاح قطاع التجارة الحرة فيه قطب نمو مركزياً، مثلما كان المرفأ في أيامه.

في الوقت عينه، بقيت مشكلات المنشآت المدنية الجديدة موجودة. فالدار البيضاء تجمع ٣٦ في المئة من وسائل النقل في المغرب وحركة السيارات تخنق

الطرق في أوقات الذروة بينما تعجز الحافلات عن الاستجابة لطلبات النقل. وقد حدد المخطط الرئيسي لعام ١٩٨٤ أول خط مترو طوله ١٥ كيلومتراً يربط قلب المدينة بالضاحية الجنوبية عبر طريق مديونة وفي موازاة طريق السيار الذي ما زال معلقاً. واستمرت إحدى السمات السلبية الأساسية للدار البيضاء الاستعمارية وهي ضعف عدد ونوعية المتنزهات والحدائق العامة. كما برزت رغبة واضحة في تعديل مواصفات التجمع الكبير ليستجيب لحاجات السياحة، وتمثل ذلك بإنشاء مجمع سكني مساحته ٧٥ هكتاراً في دار بوعزة ومارينا بحرية في مرفأ صيد السمك. وسيبقى حجم السياحة في حدود المليون ليلة سنوياً (عام ١٩٩٧) قطاعاً نامياً ومهماً للدار البيضاء.

الرسم الرقم (٤٢ - ١١)

مركز أعمال جديد على الطريق إلى مطار محمد الخامس، سيدي معروف - ٢٠٠٢



المصدر: الصورة من مجموعة المؤلف.

كذلك، تعدّ مشاكل تراث المدينة ملحة ومعقدة جداً. فقد نص مخطط التعمير عام ١٩٨٤ على «إعادة تأهيل» المدينة وتنمية حي الحبوس وأدى إلى بعض التحسينات^(٣٢).

Casablanca à l'horizon 2000 (Casablanca: Agence urbaine de Casablanca, 1989).

(٣٢)

ومع ذلك، تبقى حماية المجمعات الأكثر بروزاً تحت عنوان الآثار التذكارية التاريخية رمزية. فالتقسيم بحسب المناطق الذي نصّت عليه خطط إعادة التنظيم المعتمدة عام ١٩٨٩، القريب من خطط الإسكان في الأراضي الفرنسية، الذي حث مالكي الفيلات في الغرب على استبدالها بمبانٍ، غالباً ما قادهم إلى إزالة بعض الفيلات الأكثر جمالاً، العائدة لمرحلة ما بين الحربين، على الرغم من انطلاق حركة الدفاع عن التراث الحديث.

لقد أظهر تزايد قوة البلديات اللامركزية قبل عام ٢٠٠٣ التفاوت الكبير بين البلديات الأكثر غنى وتلك الأشد فقراً، وذلك حين لا يكون نقل صلاحيات الدولة مدعوماً بنقل متناسب للموارد أيضاً. وفي الأحوال كلها، فبعد التنظيم الديمقراطي البديل الذي بدأ عام ١٩٩٧، بقيت الوزارة الجديدة لاستصلاح الأراضي والبيئة والعمران والإسكان محرومة السيطرة على «الوكالة المدنية» الحيوية التي بقيت تحت إدارة وزارة الداخلية.

إن الظروف التي بدأت في ظلها عام ٢٠٠٤ مراجعة خطط التطوير القديمة العائدة إلى عام ١٩٩٩ والحاسمة في عملية تحوّل النسيج المدني، هي الآن إحدى المشكلات الأكثر إشكالية. كذلك يحمل التطوير الجاري مكان مطار أنفا القديم ومنطقة زناتة خطر استهلاك كل الاستثمارات التي يبدو قلب المدينة في أمس الحاجة إليها. والمدينة التي تشكلت على امتداد قرن من المواجهة الدائمة بين السوق والتنظيم العام، والتي جرت السيطرة الملكية الدقيقة عليها في عهد حسن الثاني، تبدو الآن على عتبة تحولات جذرية محتملة.

الفصل الثالث والأربعون

الهوية والعولمة والمدينة الإسلامية المعاصرة

حسن الدين خان^(٥)

أدى النمو العجيب للمدن في العالم الإسلامي في القرن العشرين إلى تشكُّل مدن كبرى ومدن ملازمة لها داخل مدن. وإلى هذا، فإن وقع العولمة على المظاهر المحلية والإقليمية لعمرائها الحضري جلي. وزيادة على الضغوط والتغيرات الهائلة، المادية منها والاجتماعية والاقتصادية، غدا تمييز الحضري من الريفي أقل أهمية، حيث بات السكن يحمل خصائص الاثنين معاً. وفي القرن الحادي والعشرين، يمكن إعادة تعريف المدينة فكرياً بأنها سلسلة أغشية، أو موزايك من أجندات متداخلة، تساعد على كشف شخصيتها ووظائفها وتميزها: المدينة كشبكة تفاعلات متعددة تزداد تعقيداً.

منذ تسعينيات القرن الماضي، ما انفك باحثون وسياسيون كُثر يحاولون تفسير الاقتصاد والسياسة والدبلوماسية بمصطلحات الثقافة^(١). شدّد الرئيس الإندونيسي سوهارتو، في افتتاحه مؤتمر «مستقبل مدن آسيا»، في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٦، على

(٥) أستاذ في العمارة وصون التراث التاريخي.

(١) للاطلاع على خلاصة موجزة للمواقع الثقافية، انظر: «Cultural Explanations: The Man in the

Baghdad Café,» *Economist*, 9/11/1996, pp. 23-26.

حيث يشير الاستنتاج إلى أن «نوع الحضارة التي تنتمي إليها، هي أقل أهمية مما يمكن أن نظن».

ضرورة توجيه اهتمام جدي إلى «مشاريع ثقافية لتعزيز رفعة ومكانة حياة المجتمعات الحضرية»^(٢).

وهناك فكرة عامة مؤداها أنه ينبغي لـ «القيم الإسلامية» تحديد المدينة المعاصرة في البلاد الإسلامية، لكن من غير الواضح ماهية هذه القيم وكيف يمكنها أن تؤثر في شكل المدينة. وثمة عدة أفكار وجدت طريقها إلى المناقشات. ومن الأفكار التي تمحور حولها النقاش، تنظيم المدينة في «محلات» أو أحياء، وأهمية المسجد ومبانٍ مدنية أخرى تخدم الناس والإسلام، وكيفية حفظ خصوصية الأسرة والنساء^(٣). إلا أن الأفكار الحديثة في التخطيط المدني هي السائدة على نطاق واسع، من مثل تقسيم المناطق وشبكات النقل الحضرية.

تجسد المدينة عوامل التقليد والحداثة الموجودين جنباً إلى جنب حيث تصطبغ احتمالات كونها محلية، أو حتى إقليمية، بصورة ما من صور الأمية. ولقد تبدل حقاً نمط المدن وصورتها في العالم الإسلامي^(٤). فالمدينة الإسلامية المعاصرة مكيفة وفق الصور الأسطورية للمدينة الأمريكية الحديثة - نيويورك، هيوستن، شيكاغو... إلخ -

The Jakarta Post (3 December 1996), p. 1.

(٢) مقتبسة من:

(٣) كتب كثير من الدارسين عن المدينة الإسلامية، ويبدو أنهم أعطوها خصائص مشتركة. انظر كتابات إيرا لايدوس وجمال حمدان وكريستول وفون غرونباوم وآخرين. وتقول جانيث أبو لغد، في مقالة بعنوان «المطابقة المعاصرة لمقتضى القواعد الحضرية الإسلامية» إن «هناك على ما يظهر» بني عميقة» أساسية معينة للتعبير الإسلامي عن الخبر». وعبر نزار الصياد عن الفهم النمطي للمدينة الإسلامية بكلمات أخرى في كتابه مدن وخلفاء، انظر: Nezar AlSayyad, *Cities and Caliphs: On the Genesis of Arab Muslim Urbanism, Contributions to the Study of World History* (Westport, Conn: Greenwood Press: 1991), p. 6.

«المدينة الإسلامية مدينة عُقدتها المركزية مسجد جامع ذو ناحية بديعة واضحة الحدود ومركزية نوعاً ما، وقصبة أو نتوء مذهب يمتد من بوابة رئيسية إلى أخرى، وتقع على طولها أهم المباني المنتشرة على امتداد البازار الطويل الذي يتفرع داخل المدينة، مشكلاً أسواقاً مختصة غير منتظمة لكنها واضحة الحدود. والمدينة أيضاً قلعة أو موقع دفاعي على أطرافها. وكان الإسكان مكوناً من أحياء سكنية أساسية متوجهة إلى الداخل، وكل حي مخصص لمجموعة معينة من القاطنين، ويتم الدخول إليه عبر شارع واحد مسدود. وبالنسبة إلى البنية المكانية للمدينة الإسلامية، لم يكن للمدينة ساحات عامة مكشوفة، وكانت الحيزات المعدة للتنقل وشبكة المرور ضيقة وغير منتظمة». ومضى الصياد ليتحدى فكرة المدينة الإسلامية، كما فعل حوراني وستيرن في: Albert Hourani and S. M. Stern, eds., *Islamic City: A Colloquium* (Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1970).

إني أتفق مع قولها أن ليس هناك نموذج واحد للمدينة الإسلامية؛ غير أنها تبقى مصطلحاً ملائماً.

(٤) أستخدم المصطلحين «العالم الإسلامي» و«المدينة الإسلامية» كشكل من أشكال الاختزال للإشارة إلى مدن وثقافات ذات أغلبية سكانية مسلمة، أو محكومة بقواعد إسلامية، أو تحسب نفسها مسلمة أو إسلامية، من مثل مدينة حيدر أباد في الهند أو الجمهوريات الإسلامية. ولبعض المجتمعات والمدن التي أذكرها تجمعات كبيرة من السكان المسلمين، أو متأثرة تاريخياً بالإسلام، كما في حالة دلهي وحيدر أباد في الهند. إلا أنني على حذر عموماً من هذه التسميات.

كرمز للحركة ولسلطة الشركات، والمركزية، و«التقدم». وحيث تتبع البلدان الإسلامية نماذج اقتصادية وتنموية متشابهة، فإن المدن في شبه الجزيرة العربية وإيران وباكستان وماليزيا وإندونيسيا، مثلاً، القائمة على هذه النماذج، تزداد أكثر فأكثر شبهاً بالمدن الغربية.

أولاً: المدينة الإسلامية: حقيقة واقعة؟

هل ثمة كيان من مثل المدينة الإسلامية الحديثة مختلف عن مدن في أنحاء أخرى من العالم؟ إذا كان الأمر كذلك، فأين تكمن خصائصها المميزة؟ وما الذي يحدد هويتها؟ هناك افتراض عام أن الإسلام كدين وثقافة كان له التأثير الغالب في تطور المدن في الشرق الأوسط وفي أماكن أخرى لاحقاً. إلا أن السمات المشتركة للمدن في العالم الإسلامي ما زالت محط شك؛ إذ حتى الإمبراطوريات الإسلامية الباكورة لم تكن أحادية وقد اشتملت على وقائع مناخية وجغرافية مختلفة، وثقافات مختلفة، وأنظمة اقتصادية مختلفة.

وليس مهماً هنا إثبات إن كان الإسلام هو السبب، والتمدين هو النتيجة، أو إطالة الكلام على خصائص المدن التقليدية والتاريخية في العالم الإسلامي، وإنما المهم هو التركيز على المدينة داخل البلدان الإسلامية اليوم.

تتخذ المطامح الكامنة خلف تطوير رؤية للمدينة أشكالاً مادية، وقد يُرى إلى التنظيم المدني بوصفه إفصاحاً عن المصلحة العامة (الحكومية) والمصلحة الخاصة (المجتمع المدني) كليهما. ففي آسيا لا تزال الحكومات تسيطر على إجمالي الناتج العام وتنفق جزءاً كبيراً منه، وهي كتلة أكبر في معظم الأماكن مما كان يُنفق قبل خمسين عاماً مضت، فلا عجب إذاً في أن للحكومات تأثيراً في المدن. بيد أن الأدوار المتنوعة في تبدل؛ فتقديم الخدمات، مثلاً، وهو من مهمة الحكومة عادة، يتم الآن من طريق تسخير القطاع الخاص.

وهناك مثل آخر هو البلدات الجديدة في جنوب شرق آسيا التي شكلها مستثمرون خاصون ناهضون بالدور الرئيسي في نوع من الشراكة مع الحكومة. كما أن منظمات غير حكومية ومنظمات في المجتمع المدني وأفراداً يؤازرون أيضاً قطاعات المشاريع الحكومية والخاصة. لقد أصبح جميع اللاعبين وأدوارهم في تشابك. ولا يقتصر الأمر على أن طبيعة المدن تبدل، بل يتعدى ذلك إلى أنها تغدو أكثر تعقيداً.

يمكن النظر إلى هوية مدينة ما بطرائق مختلفة: كما المكان نفسه، أو كما أولئك الذين يقطنون فيه أو يزورونه. وفكرة أن المدن تفقد هوياتها تنافي واقع أن المدينة في العالم الإسلامي هي في حقيقة الأمر خليط من عدة مدن يفرض قراءات متعددة للمكان. وفي طيات هذه القرارات فكرة تعددية متزايدة يكون الشكل المادي فيها مؤشراً أقل أهمية على ما هي المدينة عليه أو على ما تريد المدينة أن تكونه (على حد تعبير المهندس المعماري لويس خان). وربما يعطي دور المال وصنع القرار السياسي المدينة مبرر وجودها واستدامتها، لكن حس المكان ناشئ من خلال هندستها المعمارية. من هنا ستكون كتابتي عن المدينة الإسلامية متلازمة مع الإحالة إلى هندستها؛ إذ إن الاثنتين متواشجتان.

لقد اخترت هنا التركيز على ما أعتقد أنها أهم العوامل التي تضفي شخصية على المدينة المعاصرة في البلدان الإسلامية. وإني أبدأ من المستوى الكبير للمدن الكبيرة والعولمة، وأمضي إلى النظر إلى الأوضاع الأكثر محلية أكثر والأحوال المعيشية للفقراء الذين يمثلون أغلبية في معظم المدن الإسلامية.

ثانياً: نمو المدينة الحديثة

في المدينة التقليدية، لتكن القاهرة أو لاهور، ترتدي الأبنية زِيَّها، على النحو نفسه الذي يرتدي الناس ثيابهم - بما يعبر عن المناخ والتكنولوجيا في شكل متكامل من أشكال التطور. أما المدينة الكولونيالية، من جهة أخرى، جاكرتا أو نيودلهي مثلاً، فقد طورت مدناً موازية ونسيجاً حضرياً جديداً، تاركة المدينة التقليدية على حالها تقريباً. وتقدمت المدينة الحديثة، بأنواع أبنيتها الجديدة، بهذا الأمر خطوة أخرى من طريق تقسيم المناطق وتقسيم وظائفها وسكانها، كما يمكن أن يُرى في إسلام آباد أو في محاولات في أماكن مثل إسطنبول. وفي قراءة ما بعد حداثة، يتعايش التقليدي والحديث جنباً إلى جنب، كما في حالة جدة، ونحن لسنا متأكدين من كيفية تحديث المدينة التقليدية، على نحو ما تظهره كل من صنعاء ومدينة لاهور المسوّرة، حين يجري إدخال بنية تحتية جديدة إلى النسيج الحضري القديم.

في بداية القرن العشرين كانت مصادر التأثير الأعظم في البلاد الإسلامية: تركيا (استقلت عام ١٩٢٣)، التي أعلنت قطيعة مع الماضي في عهد مصطفى كمال أتاتورك، وإيران (١٩٢٥) في عهد رضا شاه، والعراق (١٩٣٢) في عهدي الملكين غازي

وفیصل. فبعد انقلاب أبيض عام ١٩٢١، حذت إيران حذو تركيا بأن توجهت نحو العلمنة في سياق التحديث، معتبرة الدين، على وجه العموم، قوة أعاققت التقدم. في طهران، جرى تحويل المدينة بتخطيط جديد لشبكة شوارع وجادات وافرة أدخلت في النسيج الحضري المزدهم، ففصل بين الأسواق وحركة مرور السيارات، وأدخلت مباني جديدة في النسيج الحضري.

بعد الحرب العالمية الثانية، اعتمد الكثير من البلاد المستقلة حديثاً على الغرب، طلباً للتكنولوجيا والاستثمار مع عدة تصاميم هندسية وافدة من الخارج. وكان وقع إجراءات التخطيط المدني الحديث شديداً على طابع المدن في الشرق الأوسط وآسيا، وبفعل المستعمرين الفرنسيين والبريطانيين بوجه رئيسي. فالنمو غير المسبوق في سكان المدن المتروبوليتانية الكبرى عدل في المستوطنات الحضرية^(٥). فقد قامت المدن الكولونيالية غالباً بمحاذاة المستوطنات التاريخية الأقدم عهداً، كما في بيروت ودمشق.

وأياً يكن المنحى الذي اتخذته فعل الاستقلال، أكان نظاماً جمهورياً أم دكتاتورياً أم ملكياً أم اشتراكياً، فقد جلب معه الحاجة إلى التعبير عن التحرر من ماضي كولونيالي أو خاضع لأجنبي أو حتى من ماض متلفع برداء التقاليد أو الأعراف الموروثة. وفي وسع المرء أن يزعم أن الأممية والتحول الحضري أخذاً يترسخان في الجزء المبكر من القرن، حتى في بلدان كان يغلب عليها سكان الأرياف. فالثورة الروسية عام ١٩١٧ ونماذج التطور الاشتراكية اللاحقة التي أثرت أيضاً في مفاهيم جديدة للتحديث والمساواة، ركزت أولاً على مراكز حضرية.

وحتى في البلدان التي جعلت نفسها جمهوريات إسلامية، كباكستان وماليزيا، فقد شعرت بالحاجة إلى أن تكون «حديثّة» بأنماط الحكم فيها وبمبانيها ومدنها. واتبعت مدن جديدة أو مدن شهدت نمواً غير مسبق قواعد تخطيط مستحدثة. وشملت تلك القواعد أفكار تقسيم مناطق، وعلاقة الأماكن المبنية بالأماكن الشاغرة، وأماكن ملائمة للتصنيع. وكان من العوامل الحاسمة التخطيط للطرق وسكك الحديد وغيرها من أشكال الاتصال كالهاتف. وثمة أمثلة قليلة تكفي لإيضاح المسار العام الذي سلكته مدن إسلامية كثيرة.

(٥) على سبيل المثال، ازدادت نسب سكان المدن في الشرق الأوسط بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٨٠ من ٦٤ في المئة إلى ٧٩ في المئة في لبنان ومن ٣٣ في المئة إلى ٥٥ في المئة في العراق ومن ١٥ في المئة إلى ٢٣ في المئة في السعودية. انظر: *World Development Report 1994: Infrastructure for Development* (New York: World Bank, 1994).

إن تطور العراق ملخص بعاصمتها، بغداد. فسكة الحديد التركية - الألمانية جلبت معها مواد وتقنيات بناء جديدة، والاحتلال البريطاني للبلد جلب معه هندسة معمارية جديدة كمحطات السكك الحديد والمطارات. واكتشف علماء جيولوجيون نفطاً في كركوك عام ١٩٢٧ وبحلول عام ١٩٣٨ بترت صادرات النفط عملية تحديث دينامية. وبالفعل، سهّل النفط الكثير من التطور والتحضر في الشرق الأوسط، من السعودية إلى الإمارات.

مرت القاهرة بعدة فترات من التحديث منذ حكم الخديوي إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٨) الذي كان حلمه تحويل مصر إلى بلد أوروبي. فقد بنى في القاهرة، مع افتتاح قناة السويس، مناطق «مؤرّبة» مع حدائقها وشوارعها العريضة ومبانيها المعدة للسكن ودار الأوبرا، ونقل مقر السلطة من القلعة إلى قصر عابدين. ومع الاحتلال البريطاني عام ١٨٨١، تقاطر إلى البلد مئات الآلاف من الأجانب الذين ضاقت بهم غاردن سيتي والزمالك وأماكن أخرى.

وجرى تصور وبناء مدن جديدة، هليوبوليس والمعادي، الأمر الذي أدى إلى نمو الأطراف وتراجع المدينة القديمة. وقد صُممت هليوبوليس مع نظام مترو جديد كـ «مدينة فيحاء» عام ١٩٣١ بناء على قواعد تخطيط معتمدة في باريس، في حي دوفان، على سبيل المثال. وأدت ثورة عام ١٩٥٢ في عهد جمال عبد الناصر (١٩٥٢ - ١٩٧٠) إلى تصنيع في الضواحي الشمالية والجنوبية، وبُنيت جسور جديدة وقامت مؤسسات تربوية جديدة. وكان جدول الأعمال الاجتماعي متفوقاً على ذلك الذي كان قائماً قبله، ولكن على حساب الحس الجمالي والحس المكاني (انظر الرسم الرقم (٤٣ - ١)).

في عهد أنور السادات، من عام ١٩٧٢ فصاعداً، تعزز توسع القاهرة السريع بتدفق مليارات الدولارات إليها من مصريين عاملين في البلدان العربية الغنية بالنفط ومن الدعم الأمريكي. وجرى بناء عدة مدن جديدة، كانت أولها العاشر من رمضان التي أقيمت عام ١٩٧٦، ثم أقيمت على مسافة ٥٠ ميلاً من المدينة مساكن لـ ٥٠٠٠٠٠ نسمة، وتضاعف ذلك العدد في غضون عشرة أعوام. وسلك الرئيس مبارك مساراً وسطياً بين صرامة ناصر الاشتراكية وانفتاح السادات، وأكب عام ١٩٩١ على فترة من إعادة البناء الاقتصادي^(٦).

(٦) مهيب زكي، المجتمع المدني والدمقرطة في مصر، ١٩٨١ - ١٩٩٤ (القاهرة: دار الكتب، ١٩٧٠)، ص ١٦٦.

الرسم الرقم (٤٣ - ١)
مخطط هليوبوليس، مصر



المصدر: أبعاد رسمه ن. سايمون.

«لطالما ميزت كثافة القاهرة وتراصها التقارب الاجتماعي، حيث تُضَبِّط أوجه التفاوت... إلا أن السلطات دعت علم التخطيط المدني إلى وضع صيغة للنظام الحضري لتمييز عناصره الاجتماعية وفصلها وتأكيد مركزية حديثة. وقد أرشدت التخطيط المدني المعاصر ثلاثُ قواعدُ غالبية: أولاً، رسم الحدود الخارجية للمدينة؛ ثانياً، توكيد مركزية المدينة وجعل الوصول إلى مركز المدينة أسهل؛ وثالثاً، تأسيس مجتمع جديد في مدن جديدة على أراضي الصحراء المحيطة»^(٧).

كان تقديم مساكن إلى القطاعات ذات الدخل المنخفض هدفاً دائماً للحكومات المصرية، غير أن نظام السادات بدا مفتقراً إلى الإرادة أو الموارد لمواجهة أزمة السكن.

(٧) إني مدين لمحمد عبد القادر على مؤلفه في شأن القاهرة لنيل شهادة الدكتوراه. وكنت وقتذاك (عام ٢٠٠٠) أدرّس في بيركلي. وهذا مقتبس من بحث وضعه لي تحت عنوان «الاقتصاد السياسي والبيئة المعمرّة: الحداثة والاشتراكية والتحرير الاقتصادي في مصر».

وبرنامجه للإسكان العام لم يستهدف الفقراء في حقيقة الأمر، إذ بعد عام ١٩٧٣، حُجز ٦٠ في المئة من الوحدات السكنية للجيش وموظفي القطاع العام والعائدين من الخارج، بصرف النظر عن مداخيلهم. وبحلول عام ١٩٨٥، كانت قيم الأراضي وتكاليف البناء قد تضاعفت عشر مرات خلال ذلك العقد وازداد عدد السكان الفقراء على نحو جذري، لم تقوَ الحكومة على مواصلة مسعاها وغدت المدينة أكثر انقساماً إلى مدينة للأغنياء وأخرى للفقراء، يعيش سكان الأولى في تجمعات مسورة في حين يعيش سكان الثانية بين قبور المدافن القديمة (ستناول هذه النقطة لاحقاً).

نمت مدينة القاهرة سكانياً من ٦٠٠ ألف نسمة عام ١٩٠٠ إلى ٩ ملايين نسمة عام ١٩٨٠، وإلى ما يقدر بـ ١٤ - ١٦ مليون نسمة في بداية القرن الحادي والعشرين^(٨). واليوم تشكل منطقة القاهرة الكبرى نحو ٢٥ في المئة من سكان البلد. وهناك مشاريع لزيادة رقعة الأراضي المخصصة للإسكان في القاهرة الكبرى بنسبة ٢٧ في المئة بحلول عام ٢٠٢٠، وبناء ١٦ مدينة جديدة في البلد^(٩). إن حجم المشكلة هائل.

في أغلب الأحيان تختار الدول التعبير عن استقلالها في عواصم جديدة أو مناطق جديدة ضمن عواصم قائمة. ففي تركيا خطط المهندس الألماني هرمان يانسن (١٩٢٨ - ١٩٣٢) لأنقرة كي تكون مدينة «رشيده وحديثة». وفي باكستان خطط المخطط اليوناني النافذ قسطنطين دوكسياديس (١٩٥٩ - ١٩٦٤)^(١٠) لإسلام أباد، وكانت نظرياته الحضرية مستندة إلى تصميم القطاعات والأحياء ضمن نظام نقل أوسع وإطار قطري. وقد قسّم تخطيط المدينة «المنطقي» المدينة إلى قطاعات سكنية، لكل قطاع مرافقه ونقلياته وعقدته التجارية، مع تصور بأن تكون ضمن مسافة تُقطع مشياً (إلا أن المناخ يعمل خلافاً لهذا المشتبه). وينقسم سكان القطاع بحسب الدخل أو المهنة، كموظفي الحكومة مثلاً، وبذلك غالباً ما يُعرّف المرء بالمكان الذي يسكنه.

(٨) للاطلاع على تحليل لتطور القاهرة فيه تفصيلات ومقارقات أكثر، انظر: Saad-Eddin Ibrahim, «Cairo: A Sociological Profile», in: *The Expanding Metropolis: Coping with Urban Growth of Cairo* (Singapore: Concept Media for the Aga Khan Award for Architecture, 1985), pp. 25-33.

(٩) كلمة ألقاها رئيس الوزراء كمال الجتوزري في مجلس الشعب في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣.

(١٠) كان قسطنطين دوكسياديس (١٩١٣ - ١٩٧٥) اليوناني مخططاً ومصمماً للمدن ومستشاراً في علم المستوطنات البشرية. وكانت له مواقع رسمية وأكاديمية في تخطيط المدن وإعادة بناء المساكن، وقام بعد الحرب العالمية الثانية بوضع تصميمات كثيرة جريئة لمدن ومستوطنات جرى بناؤها في مختلف أنحاء العالم، من إسلام أباد، عاصمة باكستان إلى مشروع التجديد الحضري إيسنتويتش في فيلادلفيا، ولاية بنسلفانيا. ومن مؤلفاته: *Ekistic Analysis* (1946), *Between Dystopia and Utopia* (1966), and *Anthropolis* (1975).

ورغم أن تأثيره كبير في العالم الإسلامي، فإن عمله لم يعد متمشياً مع الموضة.

كما أن المخطط يقتطع الطبوغرافيا والمناظر الطبيعية، لكنها لا تزال الآن، وبعد مرور نصف قرن على تأسيسها، مكاناً نظيفاً ولطيفاً يحلو العيش فيه. وفي رأس المخطط مسجد فيصل الكبير (متصور بوصفه المسجد الوطني)؛ وهو تذكير بباكستان كدولة إسلامية (انظر الرسم الرقم (٤٣ - ٢)). وكان المخطط الرئيسي لأبوجا في نيجيريا، وهو من وضع شركاء للتخطيط الدولي (IPA)^(١١) (١٩٧٦ - ١٩٧٩)، مبنياً على كثير من أفكار لو كوربوزيه في شأن «المدينة من أجل ثلاثة ملايين نسمة». وعلى الرغم من أنه قد جرى تصورها كعاصمة جديدة، فإنها لم تغدُ العاصمة الفعلية إلا عام ١٩٩١. لقد كانت كلها متصورة كمدن حديثة. وتلتها عواصم أخرى نذكر منها مدينة الكويت في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين.

تجراً التنظيم الجديد للمدينة بعض الشيء على دمج جميع أجزاء الاستيطان الحضري في وحدة واحدة موصولة بشبكة نقل. ومن الأمثلة على ذلك خطط قسطنطين دوكسياديس بخصوص الرياض عام ١٩٧١، وشبكة خطط جورج كانديليس (١٩٧٤) بخصوص الدمام والخبر والظهران، لحساب أرامكو (شركة النفط العربية - الأمريكية). وقد اتبعت تلك الخطط قواعد حديثة لتقسيم المناطق وتقسيم المدينة إلى قطاعات موصولة بعضها ببعض بوسائل نقل، مع اعتبار طفيف للمستوطنات القديمة أو المباني التراثية التي هُدم أغلبها. وبدت قضايا الخصوصية العامل الأهم في التطوير السكني حيث بسطت السلطات المحلية متطلبات معنية بالمنظر والارتفاع والاستئجار في البناء خلال السبعينيات^(١٢).

انعكست القومية الناشئة، والأشكال الجديدة للتنظيم الاجتماعي، وبنية السلطة الداخلية الجديدة، في أشكال وهندسة معمارية حضرية، من بين أشياء أخرى. كما أن عدداً من أنماط البناء الجديدة عكس صورة الدولة المستقلة. وكان من بين أهمها مساجد الدولة والساحات العامة ومباني البرلمان. فمجمع الدوائر الحكومية، مقر الحكومة والتعبير عن شكل من أشكال حكم الشعب، عبّر عنه من خلال مبان جديدة للبرلمان كما في دكا، بنغلادش (باكستان الشرقية آنذاك) وكوالالمبور ومدينة الكويت، ولاحقاً في الرياض.

(١١) تألف كونسورتيوم المخططين من مشروع مشترك بين Architect Systems International, the Planning Research Corporation and Wallace, McHarg, Roberts, and Todd from Philadelphia.

وقد قام المهندس الياباني كيتزو تانج أيضاً بدور في تصميم قطاعات ومبان متأنقة.

(١٢) للاطلاع على بحث جيد في هذا الأمر، انظر: صالح الهذلول، المدينة الإسلامية العربية: التقليد والاستمرارية والتغير في البيئة المادية (الرياض: دار السنان، ١٩٩٦)، الفصل السادس، ص ١٩٥ - ٢٣٦.

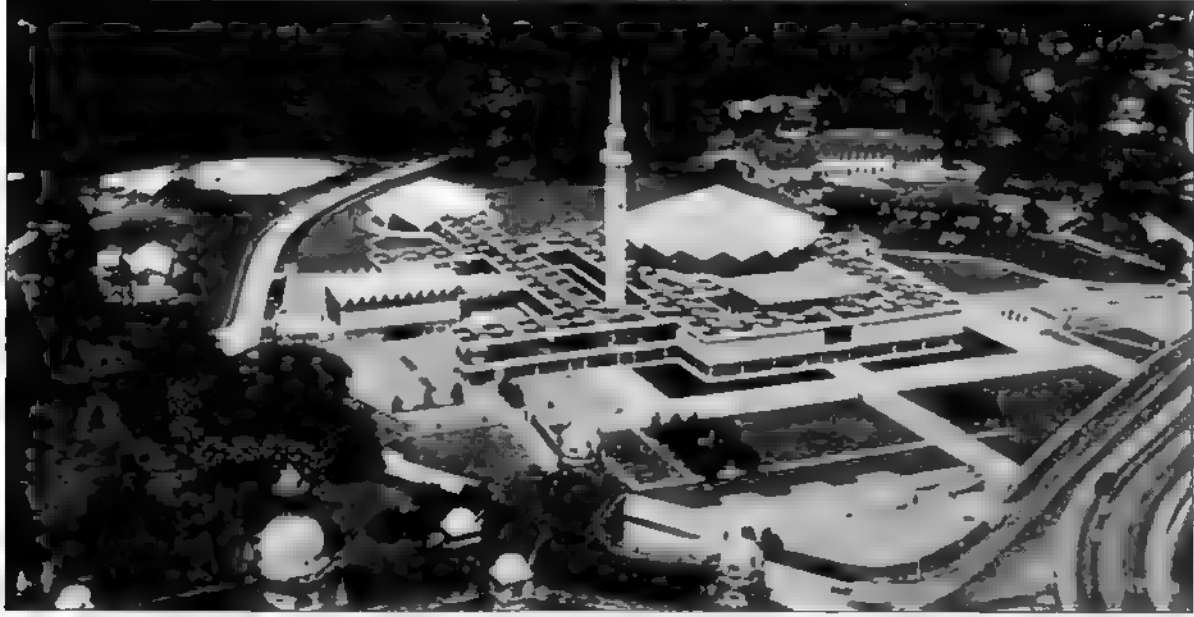
الرسم الرقم (٤٣ - ٢)
المخطط الرئيسي لإسلام آباد



المصدر: قسم التخطيط في إسلام آباد.

ولكن، كما يؤكد لورنس فال، كان «الكثير من مجمعات الدوائر الحكومية بعد الحقبة الاستعمارية، إلى حد بعيد، كما القلاع القديمة، ملجأ للحكام أكثر مما كانت واسطة لتقاسم السلطة السياسية»^(١٣) (انظر الرسم الرقم (٤٣ - ٣)).

الرسم الرقم (٤٣ - ٣) كوالالمبور، المسجد الوطني



ما زالت المساجد هي الدالة على المدن الإسلامية. وهي تراوح بين مساجد الأحياء الصغيرة والمساجد الوطنية الكبيرة. والمساجد هذه رموز للإسلام في المشاهد الحضرية، وقد بُنيت في أنماط تدرجت من النمط التاريخاني، كمسجد الاستقلال (١٩٥٥ - ١٩٨٤) في جاكرتا [للمهندس] ف. سيلبيان، ونمط مسجد نيغارا الحديث (١٩٥٧ - ١٩٦٥)، المسجد الأول الذي أنجز للدولة، في كوالالمبور على يد باهار الدين أبو قاسم.

وتبقى المساجد علامات مهمة ضمن قطاعات مختلفة في المدن كافة، إذ تجاهر بهوية السكان بوصفهم مسلمين، وهي مدرجة في جميع مخططات المدن المعاصرة^(١٤) (انظر الرسم الرقم (٤٣ - ٤)).

Lawrence Vale, *Architecture, Power and National Identity* (New Haven, Ct: Yale University Press, 1992), p. 53.

Renata Holod and Hasan Uddin Khan, *The Mosque: Confronting the Modern World* (London: Thames and Hudson; New York: Rizzoli, 1997).



المصدر: حسن الدين خان.

في العالم الإسلامي، صاحبت فترات من التعاضد الوطني بداية البحث عن هوية في الستينيات، والتعامل مع تاريخ طويل من التأثير بحركات خارجية ومهندسين أجانب والتدرب في الخارج. وقد بدأت البلاد الآن النظر إلى الداخل بحثاً عن تعابير «مشروعة» في البناء تردد في آن واحد صدى الحداثة مع تطلعات ثقافية محددة، مقتدية بما سماه كينيث فرامبتون «القطرية الحرجة»^(١٥).

إن أشكال البناء متشابكة بإحكام مع صورة المدينة وتطورها. وفي شأن الهندسة المعمارية المعاصرة التي أضحت مرتبطة بالإسلام يجدر ذكر معماريين اثنين: محمد

(١٥) انظر: Kenneth Frampton, «Prospects for Critical Regionalism», *Prospecta*, no. 20 (1983), pp. 144-152.

للاطلاع على عدة آراء حول النزعة الإقليمية في العالم الإسلامي، انظر: مقالات ومناقشات في: Robert Powell, ed., *Regionalism in Architecture* (Singapore: Concept Media 1987)

وكتابات وليام كورتيس ورفعت الجادرجي. كما أن هذا الموضوع مناقش في المجلة المتوقفة عن الصدور حالياً *Mimar: Architecture in Development*.

مكية ورفعت الجادرجي، وهما ربما أهم المهندسين العراقيين في القرن العشرين. يحاول عمل مكية التوفيق بين الهندسة والتخطيط التقليديين (بناء على مثل إسلامية) والحاجات المعاصرة والهندسة الحديثة. أما الجادرجي فحاول حل التناقض بين أن يكون حديثاً وأن يبقى أميناً للجذور المحلية باستخدام تقانات حديثة في أشكال عربية ثقافياً. وقد تركت مباني هذين الرجلين وأفكارهما بصماتها على الهندسة في السبعينيات والسبعينيات في بلدان الخليج وفي أماكن أخرى، بينما لم يكن لأشهر المهندسين العرب في القرن العشرين، حسن فتحي، أي تأثير في التخطيط المدني.

جرى انبعاث الثقة بالإسلام في أوائل السبعينيات بدافع من نجاح أوبيك (منظمة الدول المصدرة للنفط)، التي استطاعت إعادة بناء سوق النفط الحيوية لمصلحتها. وقد سبب هذا أزمة نفط عالمية، وتباطأت بالتالي سوق البناء في الغرب وازدهرت في الشرق الأوسط. ولم يدل رد الفعل المعادي للقيم الغربية على شيء مميز يتعدى توقيراً أكبر لأشكال أخلاقية وجمالية تقليدية.

مرة أخرى، كانت مسألة الهوية في خطر، إلا أن الاعتبارات العاطفية المتعلقة بالوحدة الإسلامية دلت ضمناً على متحد ثقافي يمتد من المغرب إلى مانيلا. وانتشرت في العالم فكرة هوية إسلامية موحدة لدول ذات أغلبية إسلامية. وحتى في تركيا، الدولة العلمانية الأحدث في العالم الإسلامي، كان ثمة ارتداد في الثمانينيات والتسعينيات، حيث أدلت دوائر محافظة وإسلاموية بدلوها في عملية التنمية. وكانت فكرة هوية إسلامية واحدة فكرة معقدة عويصة أمام ثقافات إسلامية مختلفة. وعلى الرغم من ذلك، فهي فكرة تحولت إلى صيغة تعبئة سياسية وثقافية جرى التمسك بها لتمييز الإسلام من الغرب العلماني والمؤمرك. وفي المساواة بين البلد والدين، قُدمت فكرة الإسلام لا كمعتقد فحسب بل كقوة ثقافية دينوية أيضاً.

كان أوضح شاهد على هذا ما جرى في إيران. فالمعارضة التي بدأها أتباع آية الله الخميني ضد الشاه عام ١٩٧٧، مع شعار «استقلال، حرية، جمهورية إسلامية»، أدت إلى الثورة الإسلامية ١٩٧٨ - ١٩٧٩. وأفضت دعوة العودة إلى المبادئ الإسلامية إلى التشكيك في التنمية الحضرية على النمط الغربي، وإلى هندسة معمارية جديدة أيدت البناء الإسلامي التقليدي، بالقول لا بالفعل، وبتعابير شكلية لا أكثر - من دون أي اعتراف حقيقي بقواعده الجوهرية. وإذا كان من فكرة واحدة يمكنها أن تلخص المشاغل الحالية للمهندسين والمخططين في العالم الإسلامي، فهي إيجاد تعبير إبداعي واستخدام تقانات جديدة تجعل التراث وذاكرة الماضي مراجع لها. ويستمر البحث

عن تأليف ما بين تعبيرات هندسية معمارية تعكس هويات ثقافية واجتماعية من خارج العولمة.

في الغرب، لبثت المدينة كياناً مستقراً إلى حد بعيد؛ وفي أمريكا فقدت بعض المدن في واقع الأمر الكثير من سكانها في العقود الماضية. أما في البلاد الإسلامية، فالوضع مختلف جداً، حيث تستمر مدن عملاقة مثل كراتشي وجاكرتا في جذب الاهتمام المتنامي أبداً، على الرغم من أن المدينة المتوسطة الحجم باتت هي الأسرع نمواً^(١٦). وإلى جانب التغيير في نمط النمو، فثمة عوامل جديدة تبدل طبيعة المدينة.

ثالثاً: المدينة العالمية في العالم الإسلامي

ليس مرامي هنا تفحص فكرة المدن العالمية، حيث إن هذا الأمر موضوع تناوله اقتصاديون وعلماء اجتماع بصورة وافية، وإنما مرامي تذكير أنفسنا بأنها مولدة لإنتاج اقتصادي مهم (مسؤول الآن عن أكثر من ٨٠ في المئة من رسملة العالم)، وبأنها تضم على نحو غير متوازن عدداً من مقار الشركات الدولية العابرة للقوميات ومؤسسات دولية. كما أن المدن العالمية تخدم كمواقع لإبداع منتجات ولإنتاج بعامه، إضافة إلى إمداد الأسواق بهذه المنتجات. وهناك مؤشرات قوية على أن هذه المدن هي أيضاً منصة وئب لمزيد من التطورات الاقتصادية والثقافية التي لها الآن ارتدادات عالمية بالغة الأثر، ولتصل شركات تجارية متعددة الجنسيات بأنماط استيطان حضرية^(١٧).

تؤثر التغييرات التقانية والاقتصادية حتماً في تحليل المدينة وإدراكها وشكلها. ف«تأثيرات العولمة في التحضر والمجتمع إنما تمس قضايا أكثر عمقاً على صعيد التقليد والهوية الثقافيين حيث المكان دائماً موسوم ثقافياً بالمعنى، وحيث يتمثل المجتمع من خلال الأمكنة التي يكوّنها»^(١٨). وليس علم السياسة ولا علم الاقتصاد هما اللذان

(١٦) هذا صحيح في كل من الهند وإندونيسيا، وهو الاتجاه السائد في آسيا بأسرها. وبصورة عامة، المدن مسؤولة عن نصيب كبير في إنتاج دخل الدولة.

Saski Sassen, *The Global City: New York, London* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1991), and Jordi Borja and Manuel Castells, *Local and Global: The Management of Cities in the Information Age* (London: Earth Span Publications, 1997).

لقد وضع هؤلاء المؤلفون، بين آخرين، المسرح للنقاش حول مدينة العولمة.

(١٨) Anthony King, «Architecture, Capitalization and Globalization of Culture,» in: *Global Culture*, edited by Mike Featherstone (London: Sage Publication, 1990), p. 404.

يخلقان حساً بالمكان، بل الرؤية والشكل المعماري هما اللذان يفعلان ذلك. وما زالت أوصاف الحيز الحضري تصلح كمؤشر مهم على اتجاه المجتمعات ومركزها في وجه تأثيرات عالمية قوية عابرة للحدود الوطنية. ربما يكون صحيحاً القول إن السوق الدولية ليست مفهوماً ثقافياً في حين أن الثقافات الجديدة عالمية بطبيعتها.

تكتسب فكرة أن المدن تحتاج إلى مبرر وجود لتحفر موقعاً لها في عالم العولمة المزيد من التأيد. فالمدينة كآلية (ميكانيزم) للاقتصاد العالمي ولصورته، على وجه الخصوص، يمكن رؤيتها من خلال تطور الواجهات البحرية، والزيادات في عدد الفنادق وقصور المؤتمرات، والمبيعات التجارية بالمفرق على نطاق واسع، والتطورات السكنية. وهذا الأمر يبين في أنواع المشاريع العالية الحجم التي هي قيد الإنشاء في عدة مدن، مثل الكويت مع تطور كورنيشها، ودبي (التي حلت محل بيروت الستينيات) التي تطورت كملعب للشرق الأوسط ومركزه التجاري. وتقدم جاكارتا مع تطوراتها الجديدة الحضرية ليس صورة عن نوع جديد من أسلوب العيش / التواصل فقط، وإنما تولّد أيضاً أسلوباً مختلفاً للسكن هو امتداد للمدينة الفيحاء والمجتمع المسور كليهما (المزيد على هذه النقطة لاحقاً).

هناك أماكن أخرى تروج لنفسها كمراكز صناعية. وثمة ظاهرة راهنة لافتة للاهتمام وهي ظاهرة «الإحالة على مصدر خارجي» (Outsourcing) حيث باتت الأنشطة التي تخدم طريق المعلومات السريع والسوق العالمية يجري وضعها في تطورات حضرية مصممة بحسب الطلب. وهناك مدن جديدة تقام على نحو محدد كي تؤمن حاجات الأنشطة الجديدة، ولا تزال مجموعات «محترفي معلوماتية» جديدة صاعدة تنمو بسرعة في الهند وأماكن أخرى.

إن مدناً مقترنة بالثقافة الإسلامية، من مثل حيدر أباد في الهند، لديها مركز يعرف باسم «سايبير أباد» لصناعة الكمبيوتر والاتجار به مع موردين أجانب. هذه المستوطنات توفر مرافق عيش وأساليب حياة غير معروفة في البلد حتى الآن، وتعيد إلى البلد الأشخاص الذين كانوا جزءاً من هجرة الأدمغة في العقود الماضية. تحاول باكستان أيضاً اقتفاء هذا الأثر، لكن إقلاعهما أبطأ كثيراً، ربما بسبب المناخ السياسي والاقتصادي. لم تنتج هذه التطورات الحضرية حتى الآن، ربما، جغرافية حضرية اجتماعية مختلفة، لكنها تترك مع ذلك أثرها في الأنماط المكانية الحالية للمدن. وهذا كله شكل من أشكال التأسيس للهوية التي لا يبدو أنها نتاج تأثير ديانة محددة أو قائمة على ثقافة معينة.

رابعاً: المدينة العملاقة والمدن الجديدة: حكاية مدينتين

عاملان وسما التغيير بعد الاستقلال بالنسبة إلى المجتمعات والحكومات الإسلامية. ففكرتا «التطور»، بوصفه النموذج المنظم والأداة الذائعة الصيت لإعادة بناء الدولة، و«الحدائق»، التي يجري عادة المساواة بينها وبين التغريب رغبةً في تقلد دور اللاعبين على المسرح العالمي، كانتا قوتين حافظتين في خطاب وممارسة عدة دول آسيوية جديدة.

توضح مدينتان عملاقتان في آسيا - كراتشي الباكستانية ذات الـ ١٥ مليون نسمة تقريباً، وجاكرتا الإندونيسية ذات الـ ٢٠ مليون نسمة - على نحو ملموس مسار المدن في العالم الإسلامي. وهما ستكونان من بين مدن العالم العشرين الأكثر سكاناً بحلول عام ٢٠٢٠، حيث يُتوقع أن يكون عدد سكانهما ضعفي عددهم الحالي. في كلتا المدينتين أغلبية سكانية مسلمة، حيث باكستان جمهورية إسلامية وحيث لدى إندونيسيا عقيدتها البنكاسيلا (المبادئ الخمسة)، التي هي أشمل من الديانات كافة.

«ليست كراتشي أكبر مدن باكستان فحسب، بل هي تُعد بفعل كثافة سكانها وانتشارها المدهش بين أكبر مدن العالم. إنها شريان حياة اقتصاد البلد، والمساهم الأكبر في خزانة الدولة، والمدينة الأكثر حداثة في البلد. وهي، مثلها مثل أي مدينة كبيرة حديثة، موطن أفقر الفقراء وأغنى الأغنياء... حيث إلى جوار فنادق الخمس نجوم المكلفة نجد أيضاً الطبق المحلي نيهاري الأبخس ثمناً؛ وحيث يسقط منذ أعوام، بوتيرة متغيرة أحياناً، عدد لا يحصى من الأشخاص ضحايا زخات عيارات نارية في الشوارع في كل حي»^(١٩).

كانت كراتشي مدينة صغيرة فاترة الحركة إلى أن استقل البلد عام ١٩٤٧، إذ أصبحت العاصمة لعدة أعوام. وكانت جاكرتا مدينة كولونiale تحت حكم الهولنديين وعاصمة البلد لفترة طويلة. والمدينتان كلتاهما ميناءان شهدا نمواً سريعاً بسبب الهجرة وتوسّع التجارة والتبادل التجاري. إندونيسيا أغنى من باكستان بمواردها الطبيعية - نفط وخشب وزراعة - وأسرع منها نمواً اقتصادياً. وكلتاهما تؤديان أدواراً اقتصادية وسياسية بالغة الأهمية في منطقتيهما: كراتشي في جنوب آسيا وجاكرتا في جنوب شرق آسيا. غير أن المدينتين تتركان لنا صوراً مختلفة جداً. والتوصيفات التالية لمسات جلية لشرح وجهة النظر.

توسعت المدينتان كلتاهما على نحو أفقي وبكثافة من المرفأ والمنطقة التجارية إلى مناطق صناعية وسكنية جديدة ممتدة أميالاً، ومن دون الالتزام بدقة بمخطط رئيسي.

كراتشي أساساً مدينة ذات أبنية متوسطة ومنخفضة الارتفاع. وأبنية الأغنياء والمؤسسات فيها تتبّع بعض أشكال الهندسة المعمارية ذات الأسلوب الدولي، يتطابق تخطيط هذه المناطق تقريباً مع قواعد التخطيط الغربي المقسّم إلى مناطق. أما مستوطنات الجماعات ذات الدخل المتوسط والمتدني فتبدو أكثر عشوائية كثيراً في تخطيطاتها وانتقائية بصورة مذهشة في عمارتها. وجاكرتا أيضاً نمت نحو الخارج بعيداً من الميناء والمركز التجاري والإداري الهولندي القديم.

هنا، خلافاً لكراتشي، يمكن اقتفاء أثر التغير التاريخي في التطور من المستوطنات التقليدية والتاريخية إلى المدينة الحديثة. وتطور جاكرتا الجديدة بأبنيتها العالية ورموز التقدم فيها تجري في محاذاة طرق سريعة محاطة بأحياء أغنياء وفقراء متمازجة في بعض الجيوب. وتتفاوت أنواع المستوطنات من مستوطنات مصممة وفق مخطط إلى مستوطنات قامت كقرى مدنية أو (Kampungs). وخلافاً للوضع في كراتشي حيث كان في المستطاع ضبط مثل هذه المستوطنات كي تتبّع قواعد معيارية، فقد شجعت هذه القرى في جاكرتا على التطور في طرزها الخاصة بها مع درجة كبيرة من النجاح.

لم يكن لكراتشي، خلافاً، لنقل، للاهور في باكستان، تاريخ طويل أو حس بالمكان، الأمر الذي ساعدها على ركوب موجة حداثة وتصنيع ونمو سريع غير مسبوق، بينما استطاعت جاكرتا الرجوع إلى طرزها المحلية وحتى الكولونيالية الموروثة وإلى تراث ثري مجسّد في موسيقى جاوا وأشكالها الفنية، حيث تستطيع أبنية جديدة أن تشير إلى طرز قديمة ابتغاء الإلهام والشرعية. أما طرز كراتشي فيمكن تسميتها «إسلامية»، بالعودة فقط وعلى نحو ما إلى الأبنية المغولية، أبنية عجزت عن أن تمتلك صدى لها في أسلوب العيش المعاصر وفي الدولة المستقلة حديثاً.

في عهد الرئيس سوكارنو جرى تحديث جاكرتا مع خدمات مدنية محسّنة، وجادات تتخلل قلب المدينة، ومنطقة تجارية جديدة. ظلت القرى المدنية قائمة وسط تطور المدينة الجديدة. وفي مستهل التسعينيات، بدّل النظام الجديد الذي أطلقه سوهارتو صورة جاكرتا من كونها «مدينة ألف قرية» إلى «جاكرتا العاصمة»، وهو ما جعلها إحدى مدن جنوب شرق آسيا الرئيسية. ويتركز الاستثمار الأجنبي المباشر في أشكال جاكرتا المكانية، مثل الأبراج ما بعد الحداثيّة، والطرق الجديدة التي تُجبي لها

رسوم مرور من السيارات المتوجهة إلى مراكز تسوق زاهية وملاعب لرياضة الغولف وتجمعات محصورة، ممتدة إلى الريف الذي يطوقها. وعلى غرار سنغافورة، في عهد لي كوان يو، فقد حدث تحول جاكرتا في ثمانينيات القرن العشرين، وإلى درجة استثنائية، تحت سيطرة أسرة الرئيس سوهارتو وشركائها من رجال الأعمال (انظر الرسم الرقم (٤٣ - ٥)).

الرسم الرقم (٤٣ - ٥)

جاكرتا: القرى المدنية



المصدر: حسن الدين خان.

ثمة نتاج للعولمة الاقتصادية منذ التسعينيات في جزء كبير من جنوب شرق آسيا هو نموذج «توسيع رقعة المدينة» الأمريكي المستخدم في مشاريع تطوير الإسكان الجديدة في الضواحي. وقد رسّخت هذه البلدات الصغيرة في عقول الطبقات العليا صورة معاصرة للغرب.

ففي إندونيسيا، قامت سيبوترا، شركة البناء التي تعمل في شراكة مع الحكومة وتملكها أسرة «الرياضي»، وتعدّ إحدى أبرز شركات البناء في البلد، بتطوير عدة بلدات جديدة أهمها ليو كاراواسي الواقعة على مسافة ٢٠ كيلومتراً تقريباً إلى

الغرب من جاكارتا. وقد صممها معماريون أستراليون وبريطانيون وأمريكيون، وأصبح غوردون بنتون، الماليزي المولد، المصمم من داخل الشركة والمدير للبلدة (انظر الرسم الرقم (٤٣ - ٦)).

«كان تبني نماذج الإسكان الأمريكية نتيجة للطلب الشعبي داخل إندونيسيا لكل شيء أمريكي، والمكان يروق أساساً لمهنيين شبان لا أولاد لديهم. المنازل نفسها تستحضر صوراً، من صور المنازل الكاليفورنيانية ذات الطبقة الواحدة إلى صور منازل النهضة اليونانية الفخمة، ومتميزة بمساكن مسماة «دالاس» (العمارة الأمريكية) و«متوسطة» (في الواقع كاليفورنيانية)، من بين جم غفير من مسميات أخرى. وقد أعطيت بعض المنازل الصغيرة فحوى بالي محلي. وتبين هندسة البلدة الرغبة في مبان هجينة جديدة من خلال هندسة معمارية ما بعد حداثة. وعلى الرغم من مزاعم اعتبارها غريبة، فالمنازل تحمل بقايا جذورها المحلية وتنتج بيئة هجينة هي في الواقع إندونيسية. والرغبة في نماذج غريبة عالمية يجري تلطيفها بالمناخ المحلي والظروف الاجتماعية وصورة الذات»^(٢٠).

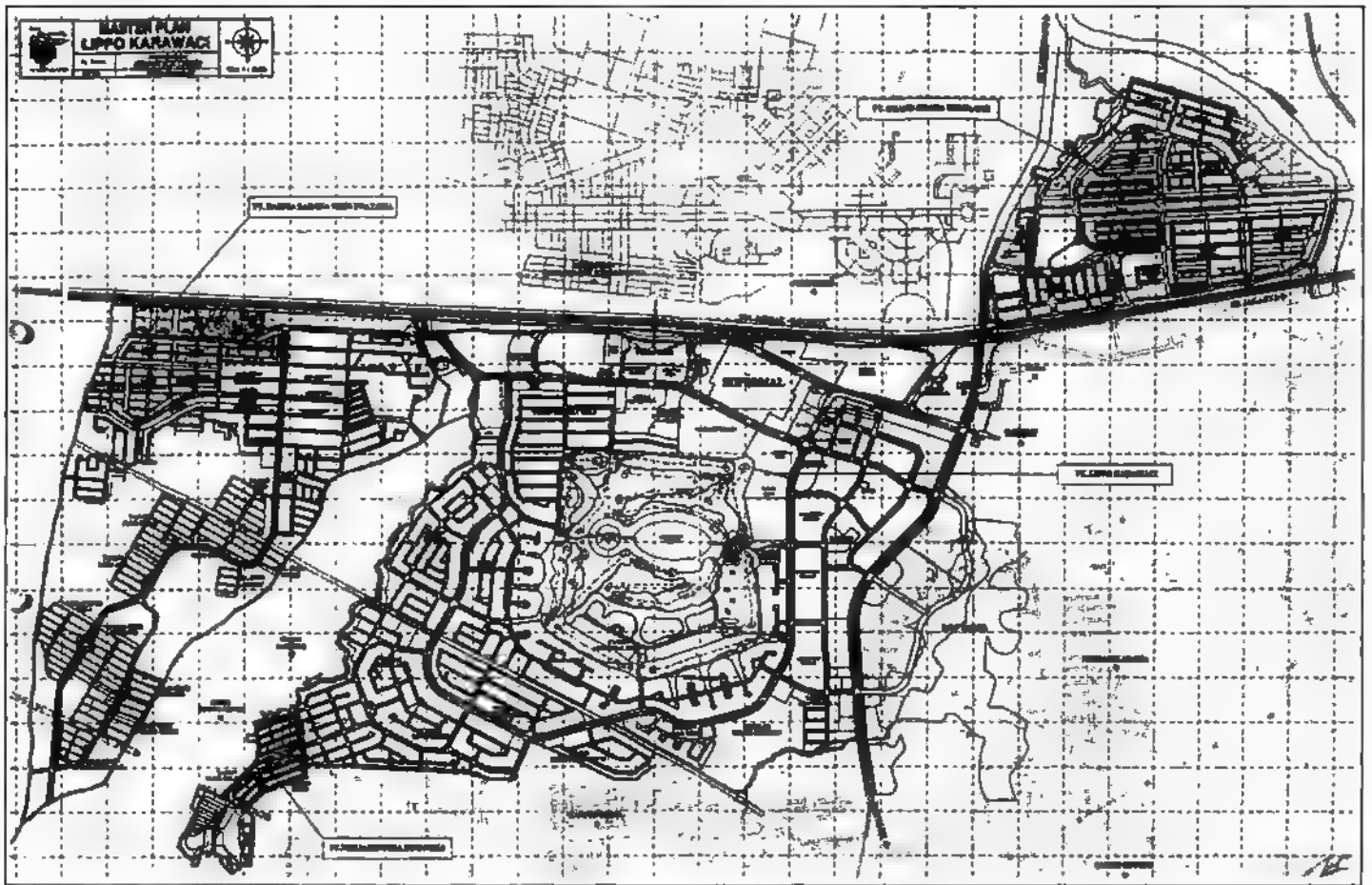
تجتمع هذه التطورات مع منطقة الأعمال المركزية (CBD) والمناطق التجارية الجديدة على نقيض القرى المدنية وأشكال التنظيم التقليدية مثل سكن المدارس الإسلامية الداخلية المستندة إلى تعاليم الإسلام. ويبرز ذلك، وكما في معظم المدن الآسيوية، وجود «ازدواجية اجتماعية» كما وصفها دايفيد هارفي في كتابه العدالة الاجتماعية في المدينة^(٢١).

على الرغم من النمو السريع لكلتا المدينتين، فإن جاكارتا، على الرغم من كونها مدينة أكثر «عالمية»، لا تزال تحتفظ بحس بالمكان مشبع بمعانٍ ماضية ومطامح حاضرة بينما وصل الأمر بكراتشي إلى التكيف مع النمو من دون حس بالتاريخ أو رؤية لدوره. فأنظمة قيمهما وأذواقهما مختلفة: الأولى أكثر توافقاً مع الصور العالمية بينما الأخيرة أكثر توافقاً مع مزيج من التعابير التاريخية والمحلية والحداثة. هل كلتاها «مدينتان إسلاميتان»؟ إنهما بالتأكيد مثالان جيدان لنوعين من التطور الحضري في العالم الإسلامي.

Robert Cowherd, «Cultural Construction of Jakarta: Design, Planning and Development in Jabotabek, 1980-1997», (Ph.D Dissertation, MIT Press, 2002), pp. 109-111.

David Harvey, *Social Justice in the City* (Cambridge, MA: John Hopkins University Press, 1988).

الرسم الرقم (٤٣ - ٦)
مخطط ليو كاراواسي



خامساً: تكييف العولمة: المنطقة المركزية لإدارة الأعمال والتجليات التجارية

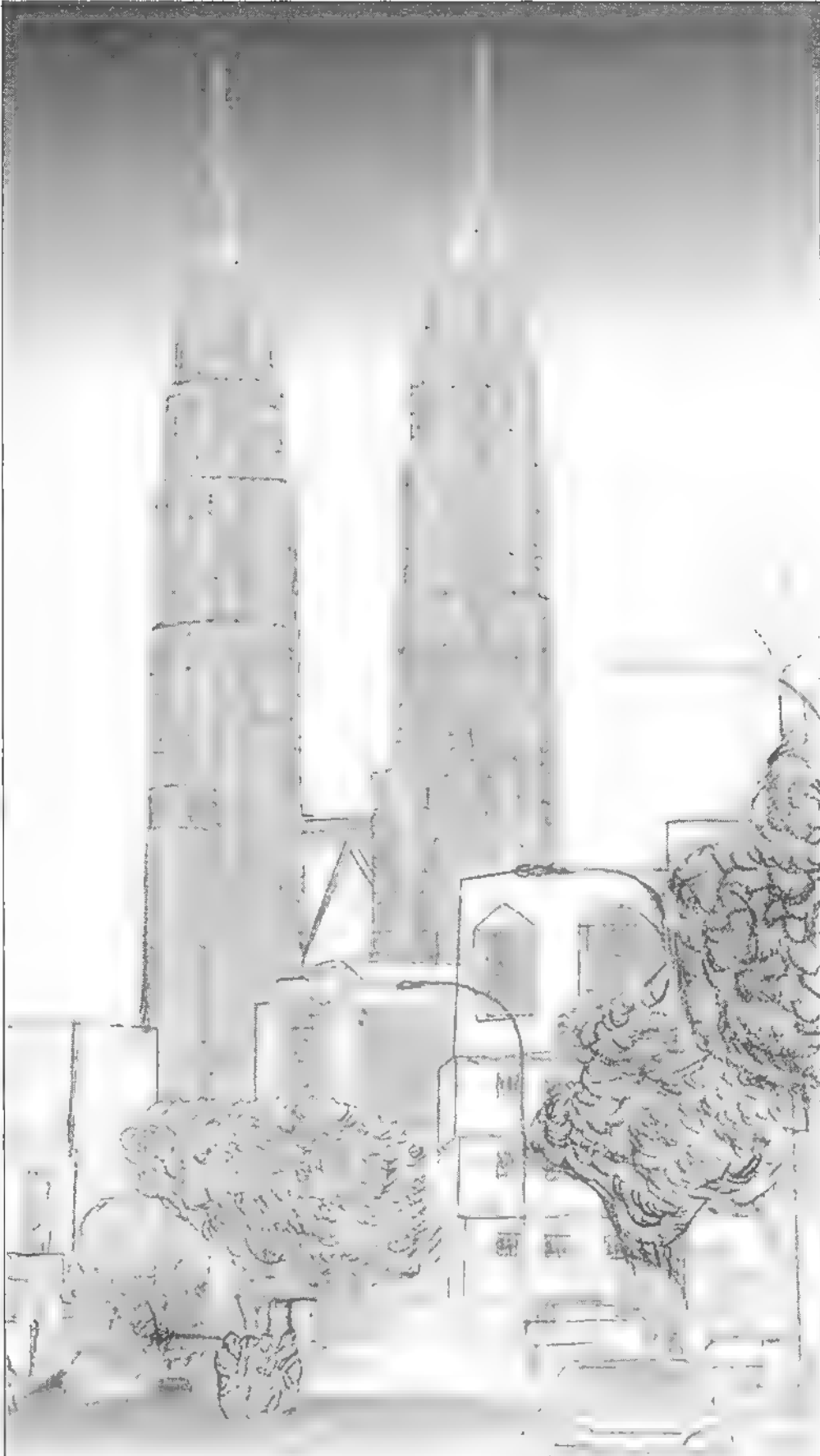
المنطقة المركزية لإدارة الأعمال مع تطورها المركز ذي الكثافة العالية أمر شائع في المدن الكبيرة. وقد جرى تحضير عدة مراكز حضرية لتكون أمكنة لمكاتب جديدة ولأشكال من الاستهلاك الثقافي من أجل وافدين أجانب بمعايير دولية. وقد أُقيمت بنى تحتية لشبكة اتصالات متطورة لتيسير قوة عمل مثقفة معلوماتياً. والهدف كما يبدو هو محاولة تكوين بيئة جاذبة لاستثمارات جديدة وشركات متعددة الجنسيات. ويصل ذلك، من خلال ناطحات السحاب الجديدة المبنية لمكاتب العمل، إلى حد محاولة الارتقاء بالهوية المدنية من مدينة حديثة إلى مدينة ذات مشاهد رائعة - انظر، مثلاً، بُرجي بتروناس (١٩٩٨)، أعلى المباني في العالم حينها، من تصميم سيزار بيلي في كوالالمبور (انظر الرسم الرقم (٤٣ - ٧)).

في الخليج العربي، وبسبب من الثروة النفطية على الأغلب، تحولت عدة دول، بما فيها السعودية، من جيوب سكنية صغيرة تحيط بها الصحراء إلى مدن حديثة في الستينيات والسبعينيات. وقد دُعي مخططون ومعماريون أجانب إلى السعودية للتعويض من النقص المبدئي في الخبرات المحلية، إلا أن عملهم رمز أيضاً إلى النجاح الدولي والاقتصادي الجديد الذي حققه البلد على مستوى عالمي. وقد جرى تحول لا يقل إثارة في دبي التسعينيات، «غير أن هذا التطور غير المسبوق بسرعه وضع الثقافة والتقاليد المحلية في مجرى هائل من التغير المتواصل... وبدأ أن وفرة المباني الزجاجية المبردة في بيئة صحراوية جعلت مواطنين عرباً سياحاً في مدنهم»^(٢٢).

حالة البحرين مفيدة أيضاً. في بداية السبعينيات أعلنت الحكومة رسمياً مشروعها لتحويل الدولة - المدينة الصغيرة إلى مركز مصرفي ومدينة حديثة. وواصلت السلطات ووسائل الإعلام حض المواطنين على تحسين تنافسية البلد على المستوى الدولي. وكان يفترض بالهندسة المعمارية المحلية أن تتمتع بحس دولي فأعلنت المجمعات المتعددة الاستخدام والأبنية العالية دخول البحرين لا كمركز إقليمي فقط بل كلاعب على المسرح العالمي. واقتضت عملية وإرادة تحويل البحرين إلى مدينة حديثة تغييرات اجتماعية وثقافية كبيرة، فضلاً عن التنمية الاقتصادية.

Deeba Haider, «The Growing Pains of Global Cities», (Master Thesis, MIT Press, 1999), (٢٢)
p. 22.

الرسم الرقم (٤٣ - ٧)
بُرجا بتروناس، كوالالمبور



المصدر: ن. سايمون.

وفي هذا السياق، دعمت الحكومة عن دراية معماريين أجانب على حساب المعمارين المحليين لانتزاع اعتراف دولي بالمدينة ومنحها صدقية ضرورية. وامتد هذا إلى القطاع الخاص حيث كانت مشاركة المهندسين الأجانب تضمن عادة نيل الموافقة على المشاريع، حتى ولو أسفرت عن رد فعل معاد من المهندسين المحليين^(٢٣). غير أن طفرة النمو كانت محدودة وتجاوزت دولاً أخرى، ولا سيما الإمارات العربية المتحدة، أهمية البحرين. وهذه حكاية تستحق تفحصاً بمزيد من التفصيل، وقد ذكرت هنا بصورة عابرة فقط لتوضيح أهمية الإرادة والرؤية السياسيتين (انظر الرسمين الرقمين (٤٣-٨) و(٤٣-٩)).

في كثير من المدن الإسلامية، كان لوجوه معينة من العمارة المحلية «الإسلامية» تأثيرها في تصميم المباني التجارية. فالمشربيات أو الستائر الخشبية المخرومة التي استُخدمت لحجب أشعة نور الشمس ولتسرب الهواء وتوفير الخصوصية باتت تُستخدم غالباً بأسلوب رمزي على واجهات المباني. وقد غدت في أكثر الأحيان مجرد تطبيقات سطحية منفصلة عن المنفعة أو المعنى. وعلى نحو مماثل يفترض باستخدام القوس المدبب في مبان أخرى أن يكون بمثابة تذكير بالمباني التقليدية المحلية. ويستحضر تصميم هذه المباني الإشارة إلى ماضي البلد، ويُرى إليه كمذكر بجذور المجتمع ويعصر الإسلام الذهبي في بعض الأحيان.

ولا تملك معظم المباني العالية، بأطرها الإسمتية وجدرانها الحاجبة، غير صلة محدودة بالظروف المحلية المناخية والثقافية. وغياب الإشارة إلى ما هو محلي، حيث المواطنون أنفسهم بعيدون جداً من قيم جيل آبائهم ويمثلون نحو ٢٥ في المئة فقط من سكان البلد، يبدو أنه يلائم رغبتهم في هوية حديثة دولية. إلا أن ذلك، وبحلول التسعينيات (كما في معظم البلدان العربية) بات غير كافٍ، وأصبحت الرغبة في ابتكار مفردات هندسية تعبر بصورة أوضح عن السكان العرب مسألة بالغة الأهمية.

لا يُقصد بهذا أن التطورات كلها تحاول أن توفق بينها وبين التاريخ المحلي أو الأشكال التقليدية. فالتحول المادي في كوالالمبور خلال انتعاش حركة البناء في الثمانينيات أظهر نجاح نخبة المقاولين والسياسيين المحليين في حشد رأس المال الداخلي ورأس المال الأجنبي كليهما من أجل مشاريع جديدة.

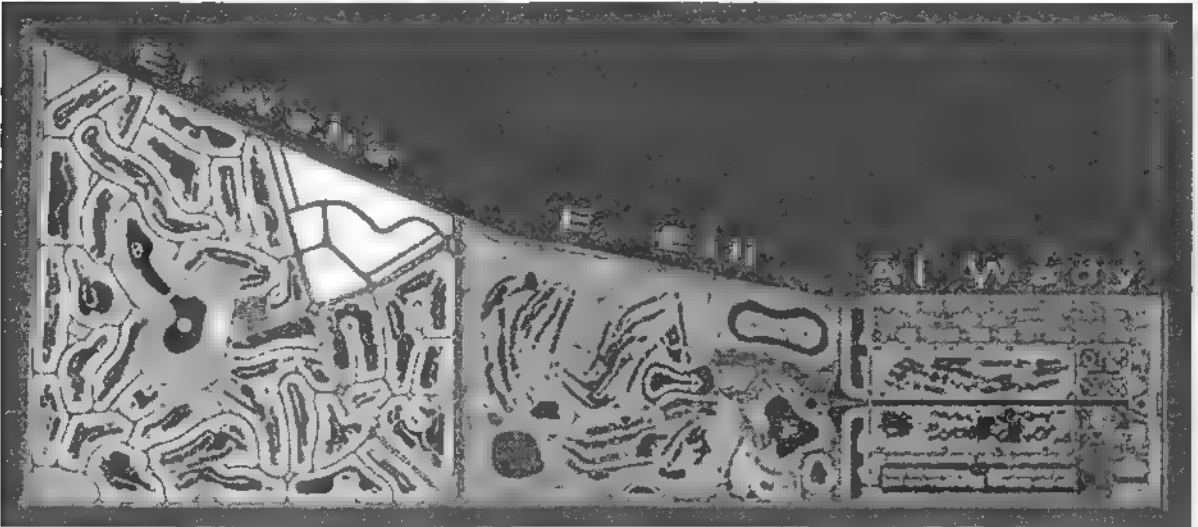
(٢٣) انظر مثلاً: William Lim, «The Nations with to Express progress and Modernity is reflected in the international Symbols of Modern Corporate Architecture [Which Destroyed the] Fragile Experiment in the Evolutionary Development of Localism and Identity,» in: Robert Powell, *Innovative Architecture of Singapore* (Singapore: Select Books, 1990), p. 13.

الرسم الرقم (٤٣ - ٨)
دبي، مول حديث للتسوق



المصدر: حسن الدين خان.

الرسم الرقم (٤٣ - ٩)
مدينة غولف السلیمانیة



تمتاز منطقة المثلث الذهبي في وسط مدينة كوالالمبور بفنادق خمس نجوم ومطاعم ومراكز تسوق ومرائب سيارات وأبراج مكاتب وخدمات اتصالات سريعة عبر الإنترنت. ولا يحتوي المثلث الذهبي على مبان مدنية رئيسية أو مبان دينية ذات شأن - لا تُصَب تذكارية ولا مبان رسمية. لقد استُبدلت كلها بقاعات فنادق... واختفت حياة الأرصفة والشوارع»^(٢٤). والمباني نفسها هي في الغالب أبراج ما بعد حداثة

Julian Beinart [et al.], «The Golden Area Triangle Study,» in: *Design for High-density Development* (Cambridge, MA: Aga Khan Program for Islamic Architecture at Harvard and MIT, 1986), pp. 83-90.

رأها السكان المحليون مختلفة وعصرية، حتى عندما حاول المعمارين ربطها بأشكال ورموز محلية.

وبالمثل، أصبحت مراكز التسوق في الكويت، ومجمعات الأبنية المكيفة، مع ما فيها من مطاعم ماكدونالدز ومقاهي هارد روك ودور أزياء غوتشي ومخازن تبيع سلعاً من جميع أنحاء العالم، أماكن للقاءات الاجتماعية والنزهات العائلية. والمخازن نفسها، باستثناء القليل منها، مستورد من أوروبا وأمريكا واليابان. وفي جهود لإعادة تكييف بيئة باتت على نحو متزايد غريبة عما كانت عليه قبل ثلاثين عاماً، حاول المعماريون والمخططون ربط الأشكال المعمارية بعناصر تقليدية وثقافية في مسعى يائس لإيجاد معنى في الشوارع العربية والتجارة الجديدة. وتباع في الباحات أطعمة هي تشكيلة متنوعة من المطابخ العالمية، ومكيفة أحياناً مع الثقافة المحلية - فشطيرة BLT (لحم خنزير وخس وبندورة) مثلاً تُعدُّ من لحم البقر بدلاً من لحم الخنزير. وهذا أمر مماثل في جاكارتا، حيث يقدم أول مطاعم ماكدونالدز وأنجحها الرز على قائمة المأكولات. ولجميع مراكز التسوق الكبيرة فسح جانبية مخصصة للصلاة، وبعضها يدعو المتسوقين إلى الصلاة عبر الجهاز الخاص بإعلانات «المول».

في أماكن أخرى في الشرق الأوسط، في جدة السعودية، صمم غوردون بنشافت، من سكيدمور وأوينغز وميريل (SOM)، مبنىً عالياً حاول أن يوفق فيه بين أفكار بناء تقليدية وأفكار بناء عالمية في البنك التجاري الوطني (١٩٨٣). والمبنى المثلث هذا ذو السبع وعشرين طبقة والواجهة الممتجة إلى الداخل، يمثل رداً على المناخ القاسي واستجابة للمنوال العربي. وأجزاؤه الداخلية معبر عنها من الجهة الخارجية بفتحات واسعة، فتحة واحدة على كل واجهة، تعطي لمحات من ردهات مظلمة وجُدُر ذات نوافذ ممتصة للحرارة وأفنية ذات أرض منسقة. والحل هذا يوفر نموذجاً جديداً ذا مقاربة مراعية للطاقة وملائمة ثقافياً من أجل مبان عالية للمنطقة^(٢٥).

إن مباني قليلة جداً تحرز هذا النجاح في التوليف بين التقليد والحداثة. وتقديم الهوية الثقافية المحلية أمر صعب حين تتضارب مع وقع العولمة. وهو أكثر تعقيداً في المدن الفتية، التي لا تملك غير النزر القليل نسبياً من التقليد أو التراث المعماري.

(٢٥) انظر: Hasan-Uddin Khan, ed., *World Architecture 1900-2000: Middle East v. 5: A Critical*

Mosaic, World Architecture 1900-2000: A Critical Mosaic (Vienna: Springer Verlag, 1999).

وفيه وصف لهذا المبنى ولبيان أخرى في المنطقة.

هناك شكل حضري آخر يجدر ذكره هو المجتمع المسور المقصور على الأغنياء. فقد أنشئت مجتمعات مسورة في الكثير من مدن العالم الإسلامي، وهي تقتدي بالمجتمعات المسورة التي كانت لمدن أمريكية في الثلاثينيات وللكن العسكرية الموجودة في مدن كثيرة سبق أن استعمرها البريطانيون. ومثل هذه المجتمعات ازدهرت في جاكارتا والرياض وحولهما في التسعينيات (وبعضها للأجانب فقط).

وبالمثل، تزدهر في القاهرة، على أرض تعدّها الدولة للتطوير، مجتمعات فيلات مع ملاعب غولف وأماكن لصيد السمك، وحتى بحيرات اصطناعية. وتصف الشركات المروّجة هذه التطورات بأنها «نهضة عمرانية». وفي وسع من يملكون الوسائل - وسائل النقل والاتصالات الخاصة - الآن الإفلات من الأصوات المتنافرة في المدينة مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بسبيل الوصول إلى حياة مدنية. ويبرز هذا التطور على وجه الخصوص قطعة متنامية في طريقة الحياة القاهرية^(٢٦).

سادساً: المستوطنات الريفية/ الأهلية في المدينة

بدأ الفارق الجوهرى بين حضري وريفي ينكسر، وبدأت المستوطنات الريفية ترتدي خصائص حضرية. وكتيجة طبيعية، فإن الطبيعة الريفية للتطور الحضري هي جزء من المدن. فالمدينة الآسيوية مؤلفة غالباً من مستوطنات قروية صغيرة - من مثل القرى الإندونيسية والماليزية أو مجتمعات شمال كراتشي المحددة سابقاً. وسكان مثل هذه المستوطنات يرسلون أموالاً إلى قراهم ويعودون إليها في مناسبات خاصة كالأعراس والاحتفالات الدينية. وحياة المدينة محبوكة مع حياة القرى. والإبقاء على الأشكال الريفية يخفي الانتقال الجوهرى إلى اقتصاد حضري إقليمي.

الحياة في المناطق الحضرية والمدن الصغيرة والقرى على السواء متأثرة بالعولمة والانتقال الدولي للمعلومات والصور. وبحلول عام ٢٠٠٠، كانت تغطي المستوطنات الريفية الفقيرة في المناطق الشمالية من باكستان صحون لاقطة لصور الأقمار الاصطناعية، وكان القرويون يوجهون اهتمامهم إلى برامج دولية، أشهرها المسلسلات

Eric Dennis, «Urban Planning and Growth in Cairo», *The Middle East Report*, vol. 27, no. 1 (٢٦) (Winter 1997), p. 10.

التلفزيونية الهندية ومسلسل باي واتش (Baywatch) الذي تظهر فيه نساء شبه عاريات (علمت مؤخراً بأن برنامج أوبرا أكثر البرامج التلفزيونية شعبية عند النساء من الأعمار كافة في العراق وقسم كبير من الشرق الأوسط).

وفي وسع المرء تخيل أثر مثل هذه البرامج في أنظمة القيم والطموحات المحلية! هناك ابتكار رئيسي آخر هو نظام هاتف الاتصال المباشر الذي أصبح في المتناول في مقاهي القرى؛ إذ أتاح للقرويين الاتصال مباشرة وفوراً بسائر أنحاء البلد، بل والعالم! هذه التغييرات هي تغييرات نوعية تترك أثرها في مدارك الناس وسلوكهم! إنها تأتي بنموذج جديد من التنمية. وما عادت مدن باكستان، مثل لاهور أو كراتشي، هي المثال: المثال الآن هو المدينة العالمية الغربية.

سابعاً: السياحة والمحافظة على التاريخ واللغة العامية المحلية

في بقاع كثيرة من العالم الإسلامي، ينشأ الاهتمام المتصاعد بالمحافظة التاريخية من الرغبة في التعبير عن الهوية بإقامة صلة بالماضي التاريخي في البيئة المبنية وكذلك باعتبارات اقتصادية، وخصوصاً السياحة. والأمر الملازم لهذا هو أن البنية التحتية للسياحة يخطط لها في هيئة فنادق وخدمات سفر ومواصلات واتصالات.

لدى بلاد مثل إندونيسيا والهند والصين مواقع تاريخية كافية لإحداث هذه التغييرات، لكن في بعض المجتمعات، كالمجتمع السعودي، ثمة على ما يبدو حاجة إلى «صنع تراث وتقاليد استهلاك»، كما يستخلص من عنوان كتاب لنزار الصياد^(٢٧)، وإلى استغلال مواقع وأبنية تاريخية، على قلتها، لإكمال تنميتها كمدن. ويبدو الاحتمال القريب أن يكون مظهر الحداثة غير كافٍ وثمة حاجة إلى تعزيز معالم المناطق والحس بالمكان من أجل أهل البلد والزائرين على حد سواء.

في محاولة لجعل المكان جذاباً للسياح والسكان على حد سواء، أقام الحكام مرافق تنسب إلى أشكال مألوفة. فخيمة البدوي أصبحت صورة لمشاريع متعددة في

Nezar Al Sayyad, *Consuming Tradition, Manufacturing Heritage: Global Norms and Urban Forms in the Age of Tourism* (London: Routledge, 2001).

الشرق الأوسط، منذ استخدامها الباكر في فندق ومركز مكة للمؤتمرات (١٩٧٦) الذي صممه، بينيته القابلة للشد والمغطاة بالمعدن، فراي أوتو ورولف غوتروود وآخرون، إلى مبنى وصول الحجاج ومغادرتهم في مطار الملك عبد العزيز قرب جدة (١٩٨٢). وهو من تصميم فضل الرحمن خان التابع لسكيدمور وأوينغز وميريل (SOM). وكان لذلك المبنى المبتكر بخيمه المشيدة بالألياف الزجاجية المغلفة بالتفلون(*) وقع شديد على الصور الهندسية المعاصرة للشرق الأوسط العربي (انظر الرسم الرقم (٤٣ - ١٠)).

الرسم الرقم (٤٣ - ١٠)
مطار الظهران، ١٩٦١، مينورو ياماساكي،
تفسير حدائوي لنمط الخيمة البدوية



المصدر: جائزة آغا خان للهندسة المعمارية.

والسقف الخرسانى للمجلس الوطنى (١٩٨٣) فى الكويت، وهو من تصميم جورن أوتزون، يوفر قباب خيم خرسانية. ومثله نادى خور دى للغولف واليخوت فى دى (١٩٨٨) لجيريمى بيرنى وكارل لاتن؛ وهو واحد من عدة أندية غولف فى بلد يضع نفسه فى مصاف مقصد رئيسى من مقاصد رياضة الغولف الدولية (انظر الرسم الرقم (٤٣ - ١١)).

(*) Teflon: مادة لدائنية عازلة للحرارة والرطوبة.

الرسم الرقم (٤٣ - ١١)
مبنى المجلس الوطني في الكويت



المصدر: المعماري ج. أوتزون حائز على جائزة آغا خان للهندسة المعمارية.

وعلى نحو مماثل، تشاد مبان شبيهة بالدَّهْو، المركب الشراعي العربي التقليدي الذي يرمز إلى الحياة في المناطق الساحلية ويرتبط ارتباطاً متيناً بثقافة دبي المتعلقة بالملاحة البحرية. وقد جرى تبني هذا الشكل في بناء الفندق الأعلى تكلفة وارتفاعاً في العالم (حتى عام ٢٠٠٤) أي فندق برج العرب على جزيرة اصطناعية. وهو من تصميم أتكينز وشركاه. هنا، بني شراع الدَّهْو في هيئة جدار زجاجي استثنائي مغطى بألياف زجاجية مطلاة بالتفلون الأحمر.

تجدر الملاحظة هنا أن هذا البناء الهندسي ذا التقنية العالية اقتبس من واجهات المشرييات بوصفه الرمز الجديد لدبي (انظر الرسم الرقم (٤٣ - ١٢)).

وفي قيد البناء حالياً جُزر النخيل على شكل ١٧ سعة نخل ضخمة محاطة بحواجز مرجانية واقية على امتداد سبعة أميال ونصف الميل، وهي داخلة في البحر مسافة ثلاثة أميال إلى الجنوب من مدينة دبي. ستضم الجزيرة ٢٠٠٠ فيلاً وحتى ٤٠ فندقاً فخماً ومجمعات تسوّق ودور سينما ومتزهاً بحرياً هو الأول في نوعه في الشرق الأوسط.

وسيكون الوصول إليها عبر جسور طولها ٩٩٠ قدماً من البر الرئيسي أو بواسطة مراكب إلى مرفأين لليخوت، بينما سيكون للجسر الرئيسي أيضاً نظام لسكة حديد أحادية. ويجري التخطيط لهذا المشروع الطموح والاستثنائي وبنائه بالاشتراك مع عدد كبير من الشركات المحلية والدولية. وهو كذلك جزء من توجه مقصود لحكومة دبي نحو جعل المكان «الوجهة الموسمية» لا على صعيد المنطقة فقط، وإنما على صعيد دولي أيضاً. وقد يغير هذا المشروع ومشاريع أخرى في دبي صورة المدينة الإسلامية بالفعل(*).

الرسم الرقم (٤٣ - ١٢)

فندق برج العرب



المصدر: حسن الدين خان.

في أماكن أخرى، كما في إيران وقطر مثلاً، تفيد مبانٍ حديثة من استغلال صور مصائد الرياح التقليدية لكنها تغير وظيفتها. ففي متحف طهران للفن المعاصر (١٩٧٧)، استخدم كامران ديبا، من شركة داز للهندسة، أبراجاً ضوئية على شكل مصائد الرياح لإنارة العمل الفني. وفي جامعة قطر (١٩٨٥)، للمهندس كامل

(*) لمزيد من التفاصيل حول جُزر النخيل انظر ص ١٤٢٠ من هذا الكتاب.

الكفراوي، تسمح مصاّد الرياح المتعددة للضوء، بدلاً من الرياح، بالدخول إلى المجمع المبرّد ميكانيكياً.

إن المساواة بين الأصالة والتمثيل الثقافي من جهة وما هو بهيج المنظر من جهة أخرى مناورة بارعة شائعة في جذب الزوار. وهذه المقاربة معروفة حتى في مدن ذات صورة رصينة وبنى تاريخية كثيرة، كما في بغداد. فالمنطقة المحيطة بالحضرة الكاظمية جُرفت في السبعينيات خلال مرحلة تحديث المدينة وإعادة تخطيطها. وفي غضون عقد من الزمن بدا أن المنطقة جذباء وأعيد بناء الحي بكامله ليتضمن شوارع أضيق وتنمية عالية الكثافة تذكّر بما كان موجوداً تاريخياً. وقد بُنيت البنية الأساسية التقليدية المنظر مع مخازنها الصغيرة وساحاتها ومسالك مشاتها بتقنيات ومواد بناء حديثة، وعُدّل مخططها تسهيلاً لحركة مرور السيارات فيها.

الفندق السياحي يصب أيضاً في مصلحة صورة حاضر تاريخي أو لغوي «محلي». فهنا تُستحضر صورة محلية للهندسة وتقدّم إلى السائح التائق إلى استنفاد الثقافة المحلية يُيسر. وثمة فنادق جمّة في أنحاء جنوب شرق آسيا تستخدم الهندسة البالية النموذجية؛ على الرغم من أن هذه الهندسة ليس لها علاقة بالإسلام، ويمكن مشاهدتها في متجعات جاوا وشرق ماليزيا، من مثل الداتاي على جزيرة لنكاوي (١٩٩٣) لمهندسي كيري هيل مع أكيتك جررانسانغ. وفي باكستان، يعود فندق كوتا مرينا (١٩٩٤) إلى نموذج هندسة القرية الطينية المحلية، مع أنه مأمون من الناحية الصحية ومستساغ لأذواق صعبة.

وفي نواح أخرى من آسيا، كالهند، تعتمد المقاربة نفسها غالباً مع إعادة استغلال قصور مغولية على نحو مكثّف. والهندسة هنا مزينة برقصات وأطعمة تقليدية معدّة للاستهلاك الجماعي. وصور الماضي ممزوجة بحاجات الوقت الحاضر وأسباب الراحة فيه. وكل شيء هنا أكثر من «الشيء الحقيقي» نظافة وترتيباً وأماناً بحيث يوفر مهرباً من واقع البيت (أياً يكن) وتجربة جديدة مختلفة ومرضية.

ثامناً: تجليات المحلي

إذا كان ما جاء أعلاه هو تجليات للحدائث والعولمة بصفة عامة، مع أن تلك التجليات ممتزجة مع المحلي في بعض الأحيان، فإنها تجد نظراءها في أشكال محلية للتنظيم والبيئات المعمّرة. وقوة المحلي تذكّر بها مؤسسات المجتمع المدني - منظمات غير حكومية وأندية كرة قدم وكريكيت ومنظمات الحي،

من بين جهات أخرى. وتجد طريقة التعبير عن نفسها على المستوى المادي في المتنزهات والملاعب المحلية وفي الشوارع. وهنا أقدم واحدة منها فقط على سبيل المثال.

يمكن رؤية الأشكال المحلية للتنظيم في الأحياء السكنية لمعظم المدن الآسيوية. ويبقى تاريخ حياة المدن الجاوية المقياس الرئيسي الذي يُرجع إليه بالنسبة إلى المدن في جاوا. فالقرية المدنية، حتى عندما وجدت ضمن مراكز حضرية، عاشت ودامت أكثر من الاستعمار الهولندي والحكم الياباني وفترة الاستقلال والتحديث. إنها أكثر من شكل من أشكال التنظيم المكاني، وهي تجسد أيضاً أشكال تنظيم اجتماعي، وتبقى المعلم المهيمن من معالم المدن الإندونيسية؛ إذ تضم نحو ٨٠ في المئة من سكان البلد. وعلى الرغم من أن هذه المناطق تشمل أغلبية من ساكني جاكرتا، فإنها تشغل جزءاً صغيراً غير متناسب مع حجمها من الأراضي الممدنة، أي نحو ١٥ في المئة عادة.

في ضوء الكثافة العالية لهذه الأحياء وأهمية النشاط الاقتصادي للقطاع غير الرسمي، تميل القرى المدنية (Kampungs) إلى استغلال أشكال غنية متنوعة من استخدامات الأراضي، من الاستخدام الصناعي والبيع بالتجزئة إلى الاستخدام السكني (ينبغي ألا يخلط بين القرى الحضرية وقرى التطوير المنخفضة الدخل). والبنية الاجتماعية للقرية الحضرية مشكّلة على نحو واضح في مفهوم «المساعدة المتبادلة» الذي يناشد المقيمون بموجبه مجتمعاً حياً ما تقديم المساعدة إليهم عند الضرورة. وبالفعل، كما لاحظ روبرت كاوهرد، تبقى القرية الحضرية مصدراً للتماسك والاستقرار في الأوقات العصيبة:

«أدت أعمال الشغب في أيار/ مايو ١٩٩٨ في إندونيسيا إلى وضع حد لرياسة سوهارتو التي دامت اثنين وثلاثين عاماً. وقد استهدف السكان المحليون المسلمون إندونيسيين من أصول صينية. وأضحت مواقع التطوير التجارية والمرقعة الدخل أهدافاً، وتراجعت المدينة إلى وضع دفاعي. لكن المثير للاهتمام هو أن سكان القرية المدنية، وهي موقع يعتمد على قدر كبير من الحكم الذاتي والنشاط الجماعي، أظهروا قدرة مثيرة للإعجاب على الاحترام المتبادل والتضامن، مانحين الأمل لوضع ثقل موازن لولايات البلد الاقتصادية التي سببها فشل اقتصادي إقليمي. تقدم

هذه المستوطنات، بالاشتراك مع منظمات غير حكومية، فرصة لصوغ رؤية جديدة للمجتمع»^(٢٨).

لقد استخدمت الحكومة ومخططو جاكرتا القرية الحضرية لبناء المدينة المتوسعة، ونصب أعينهم كل من طاقتها الكامنة ومشكلاتها. وفي السبعينيات قدم البنك الدولي، ضمن بنية مركبة داخلياً وشبكة ممكنة للانتشار، دعماً للقرى المدينة في جاكرتا وسورابايا كجزء من حجر الزاوية للتنمية المحلية. وفي الثمانينيات فاز «برنامج تحسين القرية المدينة» بإحدى أولى جوائز آغا خان للهندسة المعمارية اعترافاً بتحسين الحياة والأماكن في المدينة.

إلى جانب القرية المدينة، لا تزال عناصر أخرى من المنظر البري الحضري كاملة لم تمس في المدن الإندونيسية: مثال على ذلك، ما انفكت ساحة المدينة والسوق التقليدية والمسجد مصادر أولية للمعنى والتوجه في المدينة.

تاسعاً: مدينة الفقراء

في موقع سابق من هذا البحث بدأت كلامي بالسؤال «مدينة مَنْ؟» هذه التي ندرسها؟ من سوء الحظ أن مدناً كثيرة في العالم الإسلامي تؤوي أغلبية كبيرة من الناس الذين يعيشون تحت خط الفقر. وحتى التسعينيات تقريباً شعرت عدة حكومات أن من واجبها الأبوي في الحكم تأمين مساكن للفقراء وفي التخطيط حددت مناطق في المدن وطُورت من أجل مجموعات الدخل المتدني.

من الستينيات فصاعداً، أدت الهجرة الداخلية من الريف إلى المدن، كما في إسطنبول أو طهران، إلى نشوء مساكن غير شرعية ضمن المدن وفي محيطها. وتمثل التجمعات غير الشرعية، التي تسمى غالباً مستوطنات غير رسمية، أغلبية السكان الحضريين في كل مكان من العالم الإسلامي من جاكرتا إلى كراتشي والقاهرة.

تمثل الأحياء الفقيرة في تركيا، التي توصف بالغيچكوندو Gecekondu، أي «عمليات الإنزال الليلية»، أو المساكن المبنية بين ليلة وضحاها، جزءاً بالغ الأهمية من

Cowherd, «Cultural Construction of Jakarta: Design, Planning and Development in Jabotabek, (٢٨) 1980-1997», pp. 88-89.

البيئة المعمّرة لمدنها^(٢٩). فتمة ٥٠ في المئة تقريباً من سكان إسطنبول يعيشون في هذه المساكن المستحثة. وقد شكل الجيل الأول من تلك الأحياء الغيجكوندو ظاهرة فريدة لمستوطنة مبنية في هيئة قرية منظمة ذاتياً، الأمر الذي وفر شبكة أمن وأمان اجتماعية لوافدين جدد.

وفي الجيل الثاني كان كل متر مربع من الأرض قد تم بيعه وتمدينه. بهذه الطريقة أصبحت كل أسرة تقريباً مستثمرة ومطوّرة لأمالك المدينة الكبيرة الراهنة، التي تتسم، من ناحية أخرى، باستيطان هائل وخراب بيئي وسوق للأراضي تسيطر عليها مافيا محلية. وبالنسبة إلى أغلبية السكان المكتوين بظروف عمل خطر وغير رسمي (غير موثّق)، فإن البيوت المقامة في أحياء الغيجكوندو على نحو مستقل وغير رسمي أساساً هي على الأغلب الأمن الاجتماعي والاقتصادي الوحيد. وحسبها السلطات أعمالاً تعدّ داخل المدن غير مرغوب فيها، فجرفت في بعض الأحيان، لكنها رضيت بها في آخر الأمر كتجليات لا بد منها للتنمية الحضرية الصناعية ووفرت لها في معظم الحالات التيار الكهربائي وخدمات أخرى، و«نظمتها» في بعض الحالات بتزويد سكانها صكوكاً عقارية بوصفها بيوتاً مستأجرة.

في أنقرة، حيث كان نحو ٥٧ في المئة من سكانها عام ١٩٨٥ يعيشون في أحياء الغيجكوندو الفقيرة، بدأت الحكومة تتخذ خطوات لإسكان الناس في مساكن جديدة، كما في بلدية تشانكايا حول وادي ديمكين، على سبيل المثال. لكن ربما سيتم في المدى البعيد التخلص من مثل هذه المساكن في المنطقة لمصلحة الأغنياء^(٣٠).

وعلى الرغم من أن المساكن المستحثة بادية بوضوح في معظم المدن، فإن أشدها وقعاً على النسيج الحضري هي ربما المساكن المنتشرة في القاهرة بمدافنها التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر. ولما كانت المدينة عاجزة عن التكيف مع تزايد السكان ضمن أي مسافة معقولة من أماكن العمل في العاصمة، فقد أخذت المساكن المستحثة

(٢٩) كتب الكثير عن «المساكن المستحثة»، ومن بين ما كُتب: Turgul Akcura, *Ankara* (Ankara: ODTU Yayinlari, 1971); Murul Akcura, *Ankara* (Ankara: ODTU Yayinlari, 1971), and Murat Karayacın, «Batikent: A New Settlement Project Projects in Ankara.» *Ekistecis*, nos. 325-327 (July-December 1987).

(٣٠) يمكن الوقوف على سرد جيّد لهذا ولغيره في: Fredrico Malusandri and Giuseppe Occhipinti, «Informal Settlements Upgrading: the Gecekondus in Ankara.» paper presented at: 39th ISOCaRP Congress, Cairo, 2003.

تحتل المقابر التاريخية الواسعة المنتشرة داخل المدينة، منها المقبرتان اللتان تقع إحداهما في الشمال بمحاذاة الطريق الممتد من المطار إلى باب النصر وتقع أخراهما في الجنوب بعيداً من القلعة لتندمج في أحياء صراف (تخشييات) في أسفل المقطم. وهما تؤويان ما بين نصف المليون والمليون ساكن غير شرعي. و«مدينتا الأموات» هاتان، كما هما معروفتان، مزودتان بالتيار الكهربائي وبعض المياه الجارية وخدمات الهاتف. ومع أن ساكنيهما فقراء، فيبدو أنهم مندمجون جيداً في اقتصاد القاهرة الحضري^(٣١).

بحلول عام ١٩٧١، كانت تجمعات المساكن المستحلة، على وجه العموم، عنصراً مقبولاً من عناصر التمدن كما اتضح من مناقشتها في مؤتمر المستوطنات البشرية (Habitat) في فانكوفر في تلك السنة. وقد رأى المخطط جون تيرنر وآخرون أن المساكن المستحلة مورد أكثر منها مشكلة^(٣٢). وبعدهم الإسكان سيرورة لا نتاجاً، فقد ساعدوا على تركيز الاهتمام على مثل هذه المستوطنات البشرية بطريقة أكثر إيجابية.

حاولت التجمعات المخططة للفقراء تطبيق مخططات «رشيدة» مستطاعة لتدبير مواقع إقامة غير ثابتة الأماكن، في تعارض تام مع الأحياء التي لها رأي في تنميتها. وهذا ما حاولته مواقع ومشاريع خدمانية بصميمها في ميتروفييل، شمال كراتشي، في السبعينيات. وللتنمية الحضرية المنظمة والمخططة في نمط شبكي جميع العناصر المعتادة من مراكز تجارية وعُقد مواصلات وأحياء ومساجد ومدارس ومبان عامة أخرى. لكن ثمة شيئاً مفقوداً: رؤية، قلب. إن المدينة لا تمثل لتطبيقات التخطيط المتقنة، وهي تنمو وتكبر على نقيض المخططات الحكومية.

هناك ظاهرة أخرى في البلدان العربية الغنية بالنفط هي إنشاء «مخيمات» لعمال مهاجرين من بلاد أخرى، أغلبها بلاد آسيوية^(٣٣). فعمل المهاجرين تزايد بكثرة في

(٣١) انظر: Keith Sutton and Wael Fahmi, «Cairo's «Cities of the Dead»: The Myths, Problems and Future of a unique Squatter Settlement,» *Arab World Geographer*, vol. 5, no. 1 (Spring 2002).

(٣٢) كان لكتاب أبراهام وقع بين على السياسات الحكومية تجاه الفقراء. وحتى ذلك الحين، قامت الحكومة عادة بإزالة التخشييات حيثما استطاعت، على الرغم من واقع أن قاطنيها (التخشييات) شكلوا أغلبية سكان المدن. انظر: Charles Abrahams, *Man's Search for Shelter in an Urbanizing World* (Cambridge, MA: MIT Press, 1964), and John Turner, *Writings, Freedom to Build* (New York: McMillan, 1972), and *Housing by People*.

(٣٣) يأتي عمال البناء، وكلهم ذكور، من بلاد آسيوية أخرى فقيرة، إسلامية (باكستان وبنغلادش... إلخ) وغير إسلامية (كوريا الشالية، الفلبين). وهم يستخدمون عادة من خلال وكالة ويعيشون في البلد لفترة تراوح بين عامين

الشرق الأوسط العربي؛ إذ قبل عام ١٩٧٢، كان هناك نحو ٨٠٠ ألف عامل مهاجر، ثم ارتفع العدد إلى ٢,٨٣ مليون بحلول عام ١٩٨٠، ثم إلى ٤ ملايين بحلول عام ١٩٨٣. ويمثل السكان المهاجرون نسبة كبيرة في كثير من البلدان العربية؛ ففي الإمارات العربية المتحدة، مثلاً، مثّلوا نسبة ٢٤ في المئة عام ١٩٨٥ وأكثر من ٥٠ في المئة مع حلول عام ٢٠٠٠، وفي الكويت، مثّلوا أكثر من ٦٠ في المئة بحلول السنة نفسها.

ويقيم العمال في مستوطنات مراقبة، ومنفصلة عادة عن سائر المدينة، أي على غرار المساكن التي كانت تقام بعيداً من المدن التاريخية أو التراثية في عهد المدن الاستعمارية. وتحوي هذه المستوطنات غالباً وحدات معدنية مسبقة الصنع («بيوت» جاهزة) وردئة التصميم، وتستخدم أحياناً كمنازل مرصوفة في صفوف بلا أي اعتبار لإنشاء روح جماعة أو بيئة طيبة للعيش فيها. هذه المستوطنات البشرية للعمال في بلاد مثل السعودية هي من أجل عمال عابرين وتباين تبايناً شديداً مع نظيراتها المخصصة للأغنياء - المجتمع المسوّر (انظر الرسم الرقم (٤٣ - ١٣).

الرسم الرقم (٤٣ - ١٣) مخيم إسكان للعمال الأجانب في السعودية



المصدر: غاري أوت.

وأربعة أعوام. وفي السعودية، ينالون القليل من الحقوق ويعيشون في ظل قيود مشددة. وفي هذه الأثناء يرسلون قسماً كبيراً من مدّخراتهم إلى ديارهم التي يعودون إليها في آخر المطاف ليعيشوا.

عاشراً: التعددية في «المدينة الإسلامية»: نظرة إلى المستقبل

إننا بحاجة إلى نظرية ثقافية على المستوى الدولي شديدة الحساسية للطرائق التي تتشكّل بها الهوية وكما تتجسد في الثقافة والعلاقات الاجتماعية. جانبيت وولف^(٣٤)

تثير العولمة، وما يلزمها من تأثير في صنع المكان، مسألة إن كانت الهوية القومية والاجتماعية أو أفكار الهوية الإسلامية في الواقع ما زالت مهمة؛ إذ إنها تؤدي كما يظهر دوراً صغيراً في المدينة المندفعة اقتصادياً. وعلى الرغم من ذلك، تجزم مدن مثل دبي ولاهور وبغداد وكوالالمبور بأهمية الثقافة والهوية القوميتين وتعرب عنهما بصرياً في مبانيها لكن بدرجة أقل في مخططاتها.

وما يمكن إثباته هو أن المدينة كانت ولا تزال تعبيراً عن السلطة والامتيازات المكتسبة، وأن التخطيط والعمارة يقيان سلاحين بيد القوي. لكن، كما لاحظ آلان سكوت: «بصرف النظر عن مدى رسوخ محاولة بث مادة ثقافية متجانسة وموحدة، فإن الفاعلين أعلم والثقافة أعقد، في شأن أي عملية تبادل ثقافي، بغض النظر عن حصرتها، من أن يكونوا على مذهب واحد»^(٣٥). وهذا ينسحب حتى على المجال الأكثر اندفاعاً تقانة وتجارة كمنطقة الأعمال المركزية (CBD). ومع ذلك، فخطر الخلط يستمر.

وكذلك تغيرت مهمة الحكومات، فوضع الحفاظ على الهوية وإنتاج إطار عمل للمصالح الاقتصادية الخارجية. وفي حديث أدلى به إسماعيل سراج الدين، النائب الأسبق لرئيس البنك الدولي، في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢، جاء أن الحكومات هي من ناحية سيئة الإعداد لتحكم خارج حدودها على نطاق عالمي (حتى بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية - القوة العالمية الوحيدة حالياً)، وهي عاجزة من ناحية أخرى عن الترابط مع سكانها^(٣٦). ويبدو أن هذا ينطبق على المجتمعات الإسلامية.

Janet Wolff, «The Global and the Specific,» in: *Culture, Globalization and World System*, (٣٤) edited by Anthony King (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1997), p. 171.

Alan Scott, ed., *Limits of Globalization* (London: Routledge, 1997), p. 19. (٣٥)

(٣٦) هذه صيغة أخرى، تقريباً، للملاحظات/الخلاصة الختامية التي قدمها إسماعيل سراج الدين في مؤتمر «حماية الإرث الثقافي والطبيعي في نصف الكرة الأرضية الغربي» الذي عُقد في جامعة هارفرد، ٥ - ٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

ستواصل المدن مع سكانها اليائسين التحرك باتجاه غايات عالمية. ومستمر عملية المجانسة المادية، لكن قد يوازنها التهجين والمشهد المحلي. و«التحدي الذي تفرضه دراسة الشكل المركب لمدينة آسيوية هو أن تتم الدراسة من خلال العدسة حيث يستمد الموضوع معناه عبر تاريخ وثقافة محددين»^(٣٧).

ويظهر أن فكرة الثقافات الإسلامية، بصيغة الجمع، أخذت تنتظم على شكل معين، والأحاسيس والرؤى في شأن المدن ستصبح أكثر تعقيداً حتى. وتعطينا دراسة هندسة المكان دلالات لقيم ثقافية وأفكار «التقدم»؛ فالثقافة هي بالذات العلامة الفارقة للحضارة. إننا نتذكر إنجازاتنا ونقيّمها من خلال إرث رؤانا الفلسفية والبيئة المادية التي نكوّنهما، على الرغم من احتمال أن يغير الوصول إلى الموارد أو العلوم المجردة الطريقة التي نرى بها العالم. وظاهرة المدينة الكبيرة إرث سيكتمل في هذا القرن، لكن قد تكون مستوطنات بشرية جديدة، ذات خصائص حضرية - ريفية - محلية - عالمية، موجة المستقبل. والشكل الحضري، في أحسن التنظيرات (السيناريوات)، سيتخذ خصائص نوع من أنواع «القرية الكونية». على حد تعبير مارشال ماكلوهان من الستينيات.

إن التعددية المتأصلة للمدينة في العالم الإسلامي - أكانت ذات مظهر اجتماعي أم إثني أم مادي - يجب أن تكون منعكسة في تعددية مقاربات لمختلف اللاعبين من السكان الحضريين. واعتبارات الأدوار العامة - الخاصة، للمنطقة المبنية، والبيئة الطبيعية، والعافية الاقتصادية والاستدامة، وإنسانية تعترف في آن واحد بالمحلي والعالمي كليهما؛ تجبرنا هذه الاعتبارات كلها على الالتفات إلى تنمية واعتماد متبادل في «نظام عالمي جديد» حقيقي.

Cowherd, «Cultural Construction of Jakarta: Design, Planning and Development in Jabotabek, (٣٧) 1980-1997», p. 84.

الفصل الرابع والأربعون

آلام دبي المتنامية: مدينة تبحث عن هويتها

ديا حيدر^(٥)

إننا نعيش في عالم يتميز لا بالاختلاف وحسب، بل بالرغبة الجامحة فيه أيضاً.
جويل م. خان، الثقافة والثقافة المتعددة وما بعد الثقافة

إن ما يميز المدينة الناجحة هو الإحساس بما هو ممكن.
ديان سوديتش، مدينة المئة ميل

كانت دبي في مطلع القرن العشرين بلدة صغيرة تمتد على طول ٣ كلم وعرض ١ كلم. وبفضل النجاح الجزئي لتجارة اللؤلؤ، استوطن خليط من القبائل المختلفة على امتداد الشاطئ. في البداية، عاشت تلك القبائل كل على حدة، مشكّلة نواحي خاصة بها من أكواخ السكن (البراستي).

وفي نهاية المطاف استبدلت هذه البيوت البسيطة المبنية من سعف النخل بمنازل الأبراج الهوائية التي أدخلها أولاً التجار الفرس الذين وفدوا إلى المنطقة. وسواء أكانت هذه القبائل أو المستوطنون يعيشون في البلدات الساحلية أم في الجبال أم في الصحراء،

(٥) باحثة مستقلة في التخطيط الثقافي والاستراتيجي للمناطق الحضرية.

فقد كانت تربطهم الأواصر القبلية، والتعاليم الدينية المشتركة واللغة العربية. وما زاد في محدودية «عمرانهم» كان الامتداد الشاسع للصحراء من حولهم.

ولكون دبي مدينة صحراوية، فقد كانت محدودة جداً من حيث المصادر الطبيعية، ولم تكن تستطيع تأمين غير الحد الأدنى من العيش. وسرعان ما تراجعت تجارة اللؤلؤ في دبي بعدما ابتكرت اليابان فكرة اللاكس المستنبته. لكن بوجود خور يشكّل ميناءً طبيعياً، استفادت دبي من إيرادات التجار. مع حلول أواسط القرن العشرين، كانت دبي لا تزال تفتقر إلى الطرق المناسبة، والخدمات الطبية، ومرافق الكهرباء والصرف الصحي. ولم يكن يتوافر آنذاك أي شكل من مرافق النقل أو نظم الاتصالات.

غير أن اكتشاف النفط بكميات تجارية في حقل الفاتح البحري عام ١٩٦٦ هو الذي أمدّ دبي في آخر الأمر بالزخم والموارد المالية التي مكّنتها من الانتقال من مستوطنة صغيرة إلى مدينة عالمية رائدة. وقد أطلقت عائدات النفط برنامجاً مكثفاً للتحديث. وجلبت هذه الثروة المفاجئة مواد البناء الجديدة مثل الإسمنت والحديد والزجاج والكهرباء، وهذه جلبت بدورها مكيفات الهواء إلى دبي، الأمر الذي أحدث ثورة شاملة في صناعة البناء. وبذلك أصبحت أبراج الرياح التي وقفت شامخة ذات يوم على طول الخور قزماً أمام المباني الشاهقة المصنوعة من الخرسانة والزجاج، وحلّت مراكز التسوق الحديثة محل الأسواق القديمة، التي كانت تشكّل قلب المدينة ذات يوم. واخترقت الطرق السريعة المتعامدة حشود أكواخ البرّاسي. وبين ليلة وضحاها، أصبح مركز التجارة العالمي وفندق حياة ريجنسي الرمزين الجديدين لمدينة دبي.

وفي حين كانت دبي الحديثة تزرع جذورها في أواخر سبعينيات القرن العشرين، كان الاقتصاد العالمي يكتسب زخمه ويبتلع العالم. تأثرت خطى التطور غير المسبوقة في دبي بشدة وانجرفت بفعل تنامي حركة العولمة. وفي سعي دبي العاجل إلى الحداثة، واللاحق بالعالم المتقدم بل وحتى تجاوزه، اختُصرت ثلاثمئة عام من التطور المدني والاجتماعي والتكنولوجي في خمسة وثلاثين عاماً. وتحولت دبي من قرية صغيرة تعيش على صيد السمك إلى مدينة تقود منطقتها في التكنولوجيا المتفوقة، والبنية التحتية، والتمويل العالمي والسياحة المترفة.

يشجع الاقتصاد العالمي المدن على المبادرة والتنافس بطرائق جديدة لتترك بصمتها على المسرح العالمي. تمثّل المدن العالمية نقاط تحكّم مركزة في التمويل الدولي، ونقاط تقاطع عالمية لتوزيع الاقتصاد العالمي. وهي تجتذب وتؤوي عدداً

غير متناسب من مراكز القيادة العالمية، والشركات والمؤسسات المتعددة الجنسيات، وتعمل كنقاط انطلاق لمزيد من التطور الاقتصادي والثقافي الذي له آثار دولية^(١). كما أن المدينة العالمية مركز سياحي، حيث يركّز جانب كبير منها على الصناعات الترفيهية، والمنازل الفخمة ومنشآت المطارات^(٢). تجسّد المدن العالمية الحركة والقوة الاقتصادية التي تتولى تكييف مجتمع عالمي متحرّك وهش بشكل متزايد.

كان قادة دبي مبادرين جداً في تصميم مدينة لا تشارك في الاقتصاد العالمي وحسب، بل تقوده أيضاً، وهو ما يجتذب بسهولة لاعبيه الفاعلين. ونظراً إلى بداياتهم المتواضعة، فإن لديهم رغبة غامرة في كسب الاحترام والمنافسة العالمية. وبسرعة هائلة، حُجبت رمال الصحراء في دبي بستار متقدم تكنولوجياً من المباني المكتبية والفنادق من فئة الخمس نجوم لإسكان الأعداد المتزايدة من الوافدين من كل الجنسيات. وتبنّت دبي أشكالاً وأهدافاً وعادات وثقافةً جديدة ومستوردة. وأنفقت مئات الملايين من الدولارات في جذب شركات الأعمال الدولية والاستثمارات والسياح.

لم يكثرث المخططون والمصممون الحكوميون في دبي للظروف المناخية المحلية والحاجات الثقافية، وغرسوا بحرية البيئة العمرانية للمدن العالمية الرائدة مثل هونغ كونغ ونيويورك ولندن. واستقدموا مصممين دوليين من أمريكا الشمالية وأوروبا للعمل على تصميم مشاريع كبيرة مثل الأبراج والفنادق والمستشفيات والمطارات، لاعتقادهم أن هذه المشاريع أكثر تعقيداً من أن يتولاها المعمار يون المحليون. غير أنّ المصممين العرب المحليين حصلوا على المباني المتوسطة الحجم بوصفهم قادرين على إدارة مثل هذه المشاريع.

جلب نمو قطاع البناء والتطور الاقتصادي أعداداً كبيرة من العمال الأجانب من جنوب شرق آسيا وشرق أوروبا إلى دبي لشغل الكثير من الوظائف الجديدة المستحدثة. وأرسلت الشركات المتعددة الجنسيات المتلهفة للإفادة من سياسات التجارة الحرة الجريئة التي تبنتها الحكومة، خبراءها للعمل في مناخ اقتصادي جديد ومتنام. وخلال فترة وجيزة من الزمن، غلبت أعدادُ العمال الأجانب، الذين جذبتهم حيوية المدينة وأعمالها وثروتها والفرص التي توفرها، على السكان العرب المحليين. ويبدو هذا

Saskia Sassen, *The Global City: New York, London, Tokyo* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992), p. 166.

Hamilton C. Tolosa, «Rio De Janeiro as a World City,» in: Fu-Chen Lo and Yue-Man Yeung, *Globalization and the World of Large Cities* (Tokyo: United Nations University Press, 1998), p. 133.

التدفق للعمال الأجانب أكثر وضوحاً داخل دبي بسبب الحجم الضئيل لسكانها العرب المحليين، الذين يؤلفون في الوقت الحالي ٢٠ بالمئة فقط من مجمل السكان ولا يمثلون سوى مكّون صغير من القوة العاملة الدولية الوافدة من ١٢٠ بلداً مختلفاً إلى دبي. وما بدأ كمجتمع متجانس أصبح في التسعينيات أبعد ما يكون من التجانس^(٣).

أدت سرعة التطور الشديدة لمدة عقدين ونصف العقد إلى وضع الثقافة والتقاليد العربية بلا شك في حالة من التغير والتقلب الكبير المتواصل. وبالنسبة إلى الكثير من المواطنين العرب المحليين، هناك خوف حقيقي من أن يعمل التدفق السريع للأجانب والتكنولوجيا الحديثة المقترنة بالتغيرات العميقة في بيئتهم العمرانية، على تغيير مجتمعهم القبلي القديم بطريقة جذرية وقاسية. وفي حين أن التمثيل الثقافي أداة فعالة جداً في تعريف المدن وجعلها صالحة للسكن بالنسبة إلى سكانها المحليين، فإن الامتداد الحضري المحدود لدبي قبل اكتشاف النفط سرعان ما طغى عليه التطور العمراني المتجانس عالمياً في الظاهر.

ويقر المخطّطون في بلدية دبي بأسف بأن الاندفاع في التطور لم يترك الوقت الكافي للتأمل في مكان الهوية الثقافية في البيئة الحضرية. عند التجول في المتاجر الكبيرة والشوارع المزدهمة في دبي، يتضح أن الأذواق المعاصرة للغرب أخذت تطمس ببطء ما يوجد من ثقافة محلية محافظة. ومع وجود ستار من الأبنية المرتفعة، وسيطرة الشعارات التجارية للشركات الأمريكية ولوحات الإعلانات الضخمة للمصممين الأوروبيين على المشهد العمراني لمدينة دبي، يكاد الأمر يبدو وكأن المواطنين العرب أصبحوا سياحاً في مدينتهم. لكن في ذلك إغفال للطبيعة المرنة للهوية الثقافية المحلية.

في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، وبعد عدة عقود من عمليات التطوير المكثفة، أخذ يتنامى الوعي المتزايد للثقافة المحلية وتقديرها واحترامها. ووسط الضغوط المستمرة للاقتصاد العالمي، ظهرت الهوية الثقافية المحلية كقوة فعالة ومؤثرة. كما أن اللغة والتراث الديني المشتركين مع الوطن العربي الكبير يوفران للمواطنين المحليين رابطاً إقليمياً قوياً يحتاج إلى التعبير عنه. وقد اشتد هذا الصوت بين الأقلية العربية المحلية في دبي وطالب بالاعتراف به داخل بيئتهم العمرانية.

Edmund Ghareeb and Ibrahim Al Abed, eds., *Perspectives on United Arab Emirates* (London: (٣) Trident Press, 1997), p. 270.

بالنسبة إلى زعامة دبي، كان من الضروري إنشاء مدينة عالمية رائدة يحترمها العالم ويحسدها، لكن ما إن بدا هذا الهدف قابلاً للتحقيق حتى أصبح تمثيل الثقافة المحلية والاحتفاء بها بوضوح أمرين لا يقلان أهمية بالنسبة إليهم. وأصبحت تلك قضية مهمة بعدما صارت دبي لا تشبه بشيء المدينة التي كانت قبل عشرين سنة. وقد عزز هذا التوتر بين الكوزموبوليتانية العالمية والثقافة المحلية والإقليمية تنامي الازدواجية والتعقيد ضمن البيئة الحضرية لمدينة دبي، وهو ما أدخل خليطاً مدهشاً من التأثيرات المختلفة. وتحت الحياء الظاهري للزجاج والفولاذ، وضمن البيئة المتحكممة والمتجانسة في الظاهر للاقتصاد العالمي، يجري بذل جهد جهيد لاستعادة المكان وإعادة تقييمه وتصحيحه بهوية وثقافة محلية وعربية وإسلامية بطبيعة الحال.

إنّ هذا المجهود المبذول في الإفصاح عن هوية ثقافية محلية أكثر تأصلاً يبدو واضحاً في كل أنحاء البيئة العمرانية لدبي. وهذا ما يتضح من المصادقة على قوانين جديدة تتعلق بالتطوير العمراني والمحافظة على التاريخ. فقد جرى الحفاظ على المباني التي عُدّت تاريخية في دبي أو أعيد إنشاؤها. كما تم إيلاء اهتمام أكبر للمباني الأكثر قدماً كتأثير موجه للتنمية المعاصرة. وتم التلاعب بالعناصر المعمارية التقليدية ودمجها بالأشكال والواجهات الحديثة المتقدمة تكنولوجياً^(١). وهذه المحاولات جميعها تخدم تقوية هوية ثقافية تزايد هشاشة في بيئة عمرانية تتوجه عمداً نحو الاقتصاد العالمي.

وفي مطلق الأحوال، تسعى هذه الإيماءات المعمارية إلى التلميح إلى ثقافة بدوية محلية أو هوية إقليمية إسلامية. ولسوء الحظ، غالباً ما يتلاشى وضوح هذه الصفات ويتقلص حين تختلط دوافع رعاية وتعزيز التأثيرات المحلية أو حين تتعارض مع المساعي الهادفة إلى إنشاء مدينة عالمية.

ولئن كان نجاح دبي الاقتصادي يعتمد على اجتذاب وافدين أثرياء ومن مناطق مختلفة من العالم، فقد أصبح من غير الواضح إلى حد ما، من هو الجمهور المستهدف في النهاية (المحلي أو الأجنبي) من هذه العروض المكثفة للحضارة المحلية والإقليمية. وربما كانت جهود المحافظة على الوجه التاريخي لمدينة دبي خير مثال على هذا الاختلاط.

Mohammad Abdullah Eben Saleh, «The use of Historic Symbols in Contemporary planning and design», *Cities*, vol. 15, no. 1 (February 1998), pp. 41-47.

خلال المراحل الابتدائية للتطور العمراني والاجتماعي لدبي، المدفوع بقوى العولمة، تم تجاهل أكوخ البرّاسي ومنازل أبراج الرياح إلى حدّ كبير لفتح المكان للمباني الجديدة. ويصف دوغان كوبان هذا الهدم للماضي المبني بأنه برهان على استعداد المدينة أو البلاد للتحديث: «البيئة التي سيدمّرونها هي الأكثر تجذراً وعمقاً في التاريخ، لأنه من خلال شعائر التضحية هذه فقط يمكنهم إثبات أنهم جديرون بنيل عضوية العالم الحديث»^(٥). لكن جرى التشكيك في هذا القرار بجذّ خلال السنوات العشرين الماضية في دبي. وهناك وعي أكبر في ما يتعلق بفقدان الهوية والتمثيل الثقافي. ومع التلاشي التدريجي للقيم الثقافية التقليدية بفعل التدفق المنتظم للمهاجرين والتأثيرات الخارجية الأخرى، تولّدت رغبة قوية في المحافظة على تاريخ دبي أو إعادة إنشائه في حلّته المعمارية وفي التمييز الدائم للهوية والتراث الثقافي العربي للسكان المحليين فيها، وربما الأهم من ذلك، تمييزه بالنسبة إلى السكان الوافدين العابرين. لقد بذلت حكومة دبي جهوداً هائلة في ترميم وإعادة شيد المباني التي ترى أنها تعكس الثقافة المحلية. وتتجردها عن المؤثرات كافة، تسعى الحكومة إلى «استعادة» الماضي عبر إعادة بناء «المباني التاريخية» وتجديد الأسواق لكي تبدو أكثر أصالة، وإعادة إحياء صور الماضي - البدو - منها الغطاسون الباحثون عن اللؤلؤ، والتجار في مراكبهم الشراعية.

من أجل قيادة هذا المسعى، تم تأليف «لجنة الحفاظ على التراث المعماري» في ١٤ أيلول/سبتمبر ١٩٩٤، وهي تضم مجموعة من الأفراد الممتنين إلى هيئة الأشغال العامة وهيئة التخطيط والصيانة. ومهمتهم تحديد المناطق التاريخية التي تمثل التراث المعماري المحلي وإفرادها من أجل صيانتها أو إعادة إنشائها. كما تقوم بمراجعة الطلبات المقدمة إلى اللجنة والمتعلقة بهدم المباني أو إعادة إنشائها أو صيانتها في الأماكن التاريخية. تتألف أغلبية المباني التي تهتم اللجنة بصيانتها أساساً من المباني التي شيدت في أواخر القرن الثامن عشر وحتى أواسط القرن العشرين والتي تمثل تاريخ التجارة في دبي. وقد صنفت اللجنة مباني مثل منزل الشيخ سعيد آل مكتوم (١٨٩٦)^(٦)،

Dogan Kuban, «Conservative of the Historic Environment for Culture Survival,» in: Sherban (٥) Cantacuzino, *Architecture in Continuity: Building in the Islamic World Today: The Aga Khan Award for Architecture* (New York: Aperture, 1983), p. 35.

(٦) كان هذا المبنى مقرّ الحاكم. وكان يتميّز بفناء كبير وأربعة أبراج رياح في كلّ قسم من المنزل. شُيّد عل حافة الخور من أجل مراقبة حركة القوارب. يوجد فوق مدخل قاعتي الجلوس نقوش قرآنية. ومن عناصر الزينة الموجودة في المنزل لوحات من الجبس نُقِشت عليها أشكال أزهار. يُستخدم هذا المنزل حالياً كمuseum للصور والوثائق التاريخية لإمارة دبي.

وحصن الفهيدي (١٧٩٩)^(٧) (انظر الرسم الرقم (٤٤ - ١))، ومنزل الوكيل (١٩٣٤)^(٨) ومدرسة الأحمدية، والمناطق المحيطة (١٩١٢)^(٩)، بأنها تمثل التراث المعماري والاجتماعي والثقافي والنمو الحضري لإمارة دبي^(١٠). وقد استخدمت فيها المواد التقليدية مثل الطين والجبس والمرجان.

الرسم الرقم (٤٤ - ١)

حصن الفهيدي، دبي



ومؤخراً، أجريت أعمال صيانة في حي البستكية (انظر الرسم الرقم (٤٤ - ٢))، وهو الحي الوحيد في دبي الذي لا يزال يحتوي على منازل أبراج الرياح. كان قسم كبير من هذه المباني قد هدم أولاً في بداية الثمانينيات لفتح المجال لمكتب الديوان. وبعدما هجرت معظم هذه المباني، اختيرت المنطقة بكاملها لكي تتم صيانتها من جانب قسم المباني التاريخية التابع لإمارة دبي.

(٧) يُعتبر هذا الحصن أقدم منشأ قائم في دبي، ويتميز بثلاثة أبراج للمراقبة حول محيط فناء كبير. أُعيد افتتاحه تحت اسم متحف دبي في عام ١٩٩٥، بعد الاستكمال الناجح للتوسعة السفلية للحصن التي أشرف عليها المعماري العراقي محمد مكية.

(٨) سُمّي هذا المنزل باسم الوكيل البريطاني لشركة الملاحة الهندية البريطانية، الذي استخدمه كمنزله ومكتب. وهو بمثابة أول مبنى إداري في دبي. وسوف تُستخدم هذه المباني كمتحف بحري لإمارة دبي.

(٩) بنى المدرسة الشيخ أحمد بن دلوكة لأبناء التجار الكبار الذين أقاموا في المنطقة. أبواب المبنى ونوافذه مصنوعة من خشب الساج والأعمال التزيينية فيه نُقِشت على الجبس إلى جانب آيات من القرآن الكريم التي كُتبت بالخط العربي. أصبحت المدرسة بعد إعادة ترميمها متحف الثقافة.

(١٠) اكتملت أعمال صيانة المباني كلها المذكورة في منتصف التسعينيات.

الرسم الرقم (٤٤ - ٢)
حي البستكية، دبي



خضعت أسواق دبي التي كانت مراكز تجارية واجتماعية ذات يوم لعملية ترميم أيضاً بلغت تكلفتها ٣٠ مليون درهم، فتم تحسين الأرصفة والإنارة. واستبدلت الأسقف التي كانت مغطاة يوماً بالعريش أو جذوع النخيل بمنشآت خشبية جديدة (انظر السوق الكبير في الرسم الرقم (٤٤ - ٣)). كما استبدلت لافتات النيون البالية بلوحات حجرية يفترض أن تكون «تقليدية أكثر» من أجل إضفاء شعور أعمق بـ «بالأصالة». وباتت الأبنية القديمة والجديدة التي تحيط بالسوق بحاجة الآن إلى اتباع إرشادات وقيود جديدة بحيث لا تنتقص من البيئة «التقليدية» المنشأة حديثاً. ويوجد حالياً ٢٥٠ مشروعاً مسجلاً لدى قسم المباني التاريخية التابع لمبلدية دبي.

ربما كان الاندفاع نحو المحافظة على التراث تلبية لما تراه الحكومة حاجة إلى مزيد من الوعي الثقافي، وإلى ما يربط السكان المحليين بتراثهم في بيئة تزيدهم غربة عن ماضيهم. لكن يوجد سبب آخر قوي جداً لهذا التركيز على المحافظة على التراث. فالنفط، وهو المصدر الطبيعي الوحيد في دبي، مورد محدود ويقدر أنه سينضب في غضون ثلاثين أو أربعين سنة. وهذا ما زاد من حدة الحاجة إلى التنوع اقتصادياً لشمول قطاعات أخرى.

الرسم الرقم (٤٤ - ٣)
السوق الكبير مع السقف الخشبي، دبي



تمثل صادرات النفط حالياً نسبة ضئيلة من عائدات دبي، لكن مع بدء احتياطات النفط بالنفاد، يتوقع أن تعرّض السياحة نسبة مهمة من العائدات النفطية^(١١). وفي حين أن البنية التحتية للسياحة مثل الفنادق والنقل والاتصالات تتمتع بوفرة زائدة في دبي، يخشى المخططون المحليون أن يكون النقص في العنصر العربي المحلي «الأصيل» مانعاً لحدوث الزوار المحتملين.

ووفق عدد من المسؤولين في البلدية، يهدف نشر الهوية المحلية عبر المحافظة على التراث إلى زيادة الجاذبية للسياح الباحثين عن «تجربة عربية فريدة». وتتجلى قدرة السياحة على الدفع في اتجاه المحافظة على التراث، في تحويل هذه المباني التاريخية إلى متاحف ومواقع سياحية أخرى. ومن الواضح أن مشاريع المحافظة على المعالم التاريخية يبرز التعارض بين الضغوط المحلية والعالمية. وفي بعض الحالات لم يكن ما تمت «المحافظة» عليه أو أعيد إنشاؤه في نهاية المطاف له وجود في تاريخ دبي.

وفق الكثير من سكان هذه المدينة الصحراوية من العرب المحليين، يعدّ التراث الإسلامي جزءاً لا يتجزأ من هويتهم الثقافية. وتفيد هذه الصلة أيضاً كرابط قوي مع بقية العالم العربي أو الإسلامي. وتتجلى هذه العلاقة في دبي في البيئة العمرانية من حيث تصميم المباني المكتبية وانتشار المساجد. واستناداً إلى المخططين في بلدية دبي، فالمساجد هي السمة الأكثر تمثيلاً للمدن الإسلامية وهي توفر دعماً لهوية المجتمع. ويمثل الجامع رمزاً مهماً وأبدياً لهوية منفردة وقوية في بيئة عالمية.

إن التأثير القوي الذي يمارسه الإسلام في الهوية الثقافية المحلية يبرز بوضوح من خلال العدد الكبير للمساجد الموجودة في المدينة. ويتمثل ذلك في قانون صدر في دبي ينص على أنه «لا ينبغي لأحد أن يضطر إلى المشي مسافة تزيد على خمسمئة متر لكي يصل إلى مسجد»^(١٢).

ومنذ نشوء الإمارات العربية المتحدة ككيان سياسي، بُني ما يزيد على ألفي مسجد جديد، بحيث إن كثافة المساجد في دبي هي الأعلى من بين معظم البلدان العربية على الرغم من قلة عدد سكانها. ويمكنك أن تجد مجموعة انتقائية من المساجد الصغيرة في زاوية كل شارع تقريباً. والمساجد في دبي متأثرة بالأنماط المعمارية السائدة في أرجاء

Diana Darke, *Discovery Guide: The United Arab Emirates* (London: Immel Publishing, (١١) 1997), p. 162.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٨٥.

الوطن العربي كافة، من الطراز المصري إلى التركي إلى الإيراني. وأكثر هذه المساجد شهرة مسجد الجميرا المستوحى من الطرازين المصري والأناضولي.

في حي البستكية، تصطف متاجر بيع الأقمشة الصغيرة على جوانب الشوارع المؤدية إلى الأسواق. في هذه المنطقة التي يزورها السياح والمواطنون المحليون بكثرة، يوجد عدد مذهل من المساجد المبنية جنباً إلى جنب؛ فعلى مسافة بضع دقائق مشياً على الأقدام من المسجد الكبير المتأثر بالطراز الأناضولي ذي القباب الخمس والأربعين (انظر الرسم الرقم (٤٤ - ٤))، يوجد مسجدان كبيران يواجه أحدهما الآخر على الشارع نفسه. ومن الواضح أن مسجد عليّ بن أبي طالب متأثر بفن العمارة السائد في إيران وآسيا الوسطى (انظر الرسم الرقم (٤٤ - ٥)).

الرسم الرقم (٤٤ - ٤) الجامع الكبير، دبي



إضافة إلى وفرة المساجد، يستقي الجيل الجديد من المعمارين والمخططين والزّاعين كذلك من الأنماط المعمارية التي كانت سائدة في الإمبراطوريات الإسلامية السابقة، من أجل إضفاء مسحة قوية للهوية المحلية والإقليمية على المباني التي

يصممونها. ولمعالجة نقص الهوية الثقافية داخل البيئة العمرانية لمدينتهم، نجدهم يناضلون من أجل مزيد من المزاوجة بين العمارة الحديثة والتأثيرات التقليدية^(١٣).

الرسم الرقم (٤٤ - ٥)
مسجد علي بن أبي طالب، دبي



Daruish Zandy, «Development of Architecture in the Gulf», *Arts and the Islamic World*- (١٣)
Architecture, Archaeology and the Arts in UAE, Special Issue, no. 23 (1993), pp. 28-32.

أما في المنطقة التجارية في دبي، فأصبحت نواح معينة من العمارة التقليدية «الإسلامية» ذات تأثير قوي في تصميم المباني التجارية. المشربيات ستائر خشبية مشبكة للنوافذ تصنع من شرائح متصلة من الخشب المشكّل. وتقليدياً، كانت المشربيات تصنع من ملاط الجبس أو الرخام في المباني الرسمية وذلك من أجل حجب أشعة الشمس من الدخول إلى المبنى مع السماح بجريان الهواء. لكن مع تغير الأنماط المعمارية والتكنولوجيا والمجتمع بمرور الزمن، تغير الغرض من دمج المشربيات في واجهات المباني جذرياً أيضاً. ففي العمارة المعاصرة، عادت المشربيات الخشبية المزخرفة أو المصنوعة من الرخام التي كانت سائدة في الماضي لتمثل بنموذج خرساني في المباني متوسطة الارتفاع والمرتفعة لتخدم وظائف تزيينية أو رمزية أو كمجرد حنين إلى الماضي^(١٤).

من أبرز الأمثلة على ذلك مركز التجارة العالمي في دبي الذي قام بتصميمه جون هاريس وشركاؤه. أسندت المشربيات الخرسانية إلى جدار خرساني أملس مما أعطى الواجهة عمقاً ومظهراً طبقياً، فضلاً عن توفير شيء من الظل للأقسام الداخلية من المبنى. وربما يوحي من هذا المثال نجد عدداً متزايداً من المباني في الوسط التجاري لمدينة دبي تعرض تفسيراً مشابهاً للمشربيات.

يوجد مبنى حكومي متوسط الارتفاع عند زاوية شارع عمر بن الخطاب وشارع بني ياس عند مدخل الوسط التجاري، يضم سلسلة من المشربيات المعدنية المصفوفة رأسياً على سطح جدار خرساني يخفي فتحات النوافذ.

وفي مبنى آخر متوسط الارتفاع على شارع آل مكتوم، نجد المكاتب الداخلية محجوبة خلف ستائر خرسانية مزينة بنقوش هندسية. ويوضع هذه الستائر تحت النوافذ التي يمكن فتحها في كل طابق، لم تعد تُرى حتى من الداخل. وفي هذا تشويه كامل للغرض الأصلي من هذه الستائر. وفي هذا المثال، أصبحت الستائر حجاباً سطحياً لا يخدم غرضاً باستثناء إضفاء رونق «إسلامي تقليدي» للمبنى المصنوع من الزجاج والخرسانة.

إلى جانب مركز التجارة العالمي، توجد مباني مرتفعة أخرى في الوسط التجاري تدمج كذلك نوعاً من مشربيات النوافذ التقليدية في تصميم واجهاتها. ويعد برج الديرة

Shirlet Kay and Dariush Zandi, *Architectural Heritage of the Gulf* (Abu Dhabi: Motive (١٤) Publishing, 1991), p. 90.

الذي يقع خلف شارع بني ياس المعروف الموازي للخور مثلاً آخر. فهو يتألف من ثلاث واجهات مقعرة وأسطوانة مسطحة في أعلاه، وجميعها ترتكز على منصة مستطيلة الشكل. وعلى غرار مركز التجارة العالمي، تضيف الستائر الخرسانية طبقة إضافية من العمق لواجهة المبنى. تخفي الستائر الخرسانية الكبيرة التي تلتف حول القاعدة المستطيلة للمبنى بمهارة موقف السيارات الداخلي. ويظهر على جوانب البرج الثلاثة قناطر متكررة بصلية الشكل مضغوطة ومقطعة من الستارة الخرسانية. لكن حجم هذه الفتحات كبير بحيث إنها لم تعد توفر ظلاً ملائماً. إضافة إلى ذلك، نجد أن فتحات المشربيات الخرسانية لا تتظم في بعض الأحيان مع النوافذ، أو تحجب الرؤية في أحيان أخرى. وهي بذلك لا تخدم غرضاً سوى التلميح إلى نوع من العمارة التاريخية، ولكنها محاولة ضعيفة لإثارة الحساسية الثقافية. لقد اختزلت المفاهيم المعقدة للثقافة والهوية إلى مجرد تطبيقات سطحية ومحاكاة خالية من أي جوهر أو وظيفة أصلية.

لا يقتصر البحث على تمثيلات ثقافية في المباني العالية على مشربيات النوافذ أو التخطيط الهندسي فقط؛ فقد تمت الإفادة من نماذج أخرى للعمارة الإسلامية لتمثيل هوية ثقافية في المظهر العمراني للمدن. كما أن إعادة تطبيق وتمثيل القناطر والمقرنصات في تصاميم المباني العصرية وسيلة أخرى يسعى من خلالها المعمارون المحليون إلى إيجاد رابط بين العمارة والهوية الإسلامية لسكان دبي. وهذا الدمج بين القناطر والمقرنصات في واجهات المباني نجده بكثرة في المباني متوسطة الارتفاع، إذ إن المباني الصغيرة تسمح بحرية أكبر في تجربة هذه الفكرة وتطبيقها. كما أن ذلك قد يرجع إلى أن مشاريع البناء المتوسطة تُمنح للشركات الهندسية المحلية فقط.

وفي جميع الحالات، نجد هذا العرض الثقافي في الواجهات فحسب. وفي حين أنّ التركيز على الواجهات يمكن أن يكون محل انتقاد، تعارض ديانا ذلك بتشديدها على أهمية الواجهة في تشكيل الحيز العمراني: «الواجهات ليست مجرد مكان أمامي للبناء، إنها السطح الذي يحدد الحيز المسرحي أيضاً»^(١٥). فبالنسبة إليها، المكان العام هو الموضوع الذي تظهر فيه تشكيلات وتعقيدات ثقافة معينة بأقصى كثافة^(١٦). ول سوء الحظ، فإن واجهات معظم المباني المتوسطة الارتفاع في دبي تعكس أداءً سطحيًا للنماذج المعمارية «الإسلامية التقليدية».

Diana I. Agrest, *Architecture from Without* (Cambridge, MA: MIT Press, 1991), p. 114. (١٥)

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٧.

توجد مكاتب شركة زيروكس ووزارة الزراعة في دبي في مبنى متوسط الارتفاع في شارع آل مكتوم. تغلب على هذا الشارع المباني المتوسطة التي تستأجرها الشركات الصغيرة. ويتألف مبنى وزارة الزراعة من عشرة طوابق. يختلف تصميم جانبي المبنى الرئيسيين الذي يقع عند زاوية الشارع قليلاً عما هو عليه في معظم المباني المجاورة له. يلف الزجاج الأزرق الواجهات العامة، وفي أعلى الجدران الساترة هذه، يظهر نمط عشوائي من الشرفات الخرسانية الصندوقية. تشكل فتحات هذه الشرفات أشكالاً من القناطر المستديرة، أو فتحات مربعة أو مستطيلة الشكل. وقد انتظمت في هذه الشرفات تلميحاً مجردة لشرفات الحصون للتعبير عن القوة العسكرية للماضي الإسلامي.

من الأمثلة المشابهة الأخرى مبنى مصرف حبيب في ميدان بني ياس الجميل جداً، الذي يستلهم أيضاً التمثيلات الأيقونية للعمارة الإسلامية. وهو مصنوع، على غرار معظم المباني متوسطة الارتفاع في دبي، من هيكل خرساني. الواجهة الرئيسية للمبنى التي تطل على الميدان مكسوة بالواح من الزجاج الأزرق العاكس. وفي أعلى المبنى تصطف عقود بيض في نسق متخالف تناسب مع الواجهة الزجاجية. يستدق أسفل هذه العقود نزولاً نحو أسفل المبنى، لتنفصل إلى تمثيلات مجردة من المقرنصات الثنائية البعد، وهو عنصر معماري آخر معروف بأنه من التقاليد العربية للعمارة الإسلامية. لكن الوظيفة الابتدائية للمقرنصات، التي تصل الركائز بين القبة والقاعدة المستديرة، لا نجدها هنا. فالتشابكات والتقنيات والحرفية التي كانت من متطلبات نحت المقرنصات في الأشكال المعمارية غير العادية التي كانت سائدة في القرون الأولى باتت منمطة في عصر المعايير المادية والبناء السريع.

وعلى مسافة مباني قليلة في الشارع نفسه في ميدان بني ياس، يوجد مبنى آخر من تصميم شركة دبي أرك الهندسية المحلية. يظهر على واجهة هذا المبنى عدد هائل من القناطر المسننة من الحجم كافة، تفصل بينها مسافات متساوية على المبنى المؤلف من اثني عشر طابقاً. تحيط أغلبية هذه العقود بالشرفات التي توفر الظل للمكاتب الداخلية وتنشئ واجهة إضافية ثلاثية الأبعاد. توجد أقواس متفرقة أخرى على الواجهة الأمامية للمبنى، تستطيل إلى أن تصبح شرائح خطية رفيعة وطويلة مملوءة بمشربيات النوافذ المنحوتة التي تسمح بنفاذ الضوء ودخول الهواء إلى المبنى، وهو استخدام أكثر تمشياً مع الغرض الأصلي من هذه المشربيات. وفي أعلى المبنى المتوسط الارتفاع، نشاهد أيضاً شرفات تحاكي عمارة الحصون أيام الإمبراطوريات الإسلامية السالفة، لكنها لا تخدم أي غرض وظيفي واضح.

إنّ تصميم هذه المباني، مثل الكثير من المباني الأخرى المتوسطة الارتفاع في دبي، لا يظهر براعة ولا ذوقاً رفيعاً. فقد فات المصممين في محاولتهم استلهام العمارة الإسلامية السالفة المدلول والوظيفة الأصلية، واختزلوها بدلاً من ذلك في تطبيقات مركّبة من عدّة مصادر. وقد تجاهل هؤلاء المعمارىون أنّ العمارة الإسلامية في الأصل كانت مصممة بدقة بحيث تتعامل مع الحاجات المحلية والمناخ ومواد البناء.

ونجد، لسوء الحظ، أن المباني العالية والمتوسطة الارتفاع التي تهيمن على رمال الصحراء في دبي يمكن أن توصف بأي شيء عدا أنها حساسة للبيئة. وبدلاً من ذلك، نجدها تُظهر مرّة أخرى هذا الصراع الدائر بين المعرفة الضرورية للثقافة المحلية والصورة المتجانسة لأية مدينة عالمية بمبانيها الزجاجية الشاهقة ذات التكنولوجيا المتقدمة.

لكن من المهمّ أيضاً ملاحظة أن التطبيقات السطحية على واجهات هذه المباني المتوسطة الارتفاع، وإن كانت متهوّرة وقليلة العمق، فربما تمثّل الفرص المحدودة لكي يغرس المصممون المحليون تصوّراتهم الخاصة لهويتهم الثقافية في الوجه العام لدبي. ربما كانت هذه التكييفات السطحية للعمارة الإسلامية تمثّل محاولاتهم لربط بيئتهم الحالية بالقوة المادية والثقافية والروحية للإمبراطوريات الإسلامية السابقة.

وفي حين قد يشكك المرء في ملاءمة هذه التطبيقات وفعاليتها، نجد أنه من المهم الإشارة إلى أن هذه التصاميم متأثرة أيضاً بالتشريعات الحكومية. ومع أنه لا توجد قوانين رسمية تحكم واجهات المباني في الوسط التجاري، فقد أدت البلدية مع ذلك دوراً نشطاً في تصميمها. وقد تم نشر دليل يسمى «الكتاب المرجعي لعناصر العمارة التقليدية في دبي» بغية مساعدة المصممين في إحياء نمط في الوسط التجاري يُعتقد أنه يتمشى مع العمارة المحلية والتقليدية. كما تم تأليف لجنة خاصة لمراجعة المقترحات المتعلقة بواجهات المباني. ويتعين على المعمارىين والاستشاريين الذين يقومون بتنفيذ مشاريع في الوسط التجاري الحصول على موافقة هذه اللجنة لكي يتمكنوا من الحصول على رخصة للبناء. وتجري حالياً دراسة هذه الرغبة في إضفاء صفات محلية على واجهات الوسط التجاري أو «أسلمتها» من قبل وحدة المباني التقليدية التابعة للبلدية على أمل التوصل إلى معايير وتشريعات أكثر تماسكاً للبناء في هذه المنطقة.

وفي حين تُمنح مشاريع المباني المتوسطة الحجم للمعمارىين المحليين، نجد أن المعمارىين الأجانب الذين طُلب منهم تصميم المشاريع الكبيرة في دبي يرجعون إلى

التاريخ المحلي للمنطقة للحصول على إلهام معماري. ونجد الكثيرين منهم يستلهمون في الماضي البدوي لديي ويلحظون عمارة القبائل الرُّحَّل، أي الخيمة. وحين تبرز الحاجة إلى رسم العمارة في دبي بطابع المكان وتاريخه، نجد أن النماذج التي تحاكي الخيام تستخدم بحرية كعلامات تدل على الهوية الثقافية المحلية. لكن في عصر العولمة، يجري دمج هذا المنشأ الأساسي رسمياً والمستخدم من أجل إحياء العادات البدوية في النماذج المبنية للنوادي الرياضية والمتجعات.

ومن أول الأمثلة على ذلك المدرج المسقوف لمضمار سباق الجمال في دبي. فهو يتبع تقليد ومنشأ الخيمة البدوية السوداء. إنه منشأ طويل ومنخفض ويرتكز في وسطه على أعمدة سقف مركزية تعطي إيحاءً بوجود قمم متعددة للخيمة. والمثال الآخر هو أول نادٍ للغولف في دبي، نادي الإمارات للغولف. بُني هذا النادي سنة ١٩٨٨ بتمويل من الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم. وأشرف على هذا المشروع مصمم ملاعب الغولف الأمريكي كارل ليتن، وبلغت تكلفته عشرة ملايين دولار، وهو يغطي ٧٠٠ ألف متر مربع من رمال الصحراء بالعشب. يأخذ مبنى النادي، بمرافقه كافة، من المطاعم الأنيقة وحوض السباحة وملاعب التنس، شكل مجموعة خيم أكثر نمطية. وهذا النموذج خليط من الخيم السود والبيض التي يستخدمها البدو^(١٧).

تلا ذلك نادٍ آخر، نادي خور دبي للغولف واليخوت، الذي صممه المعماري البريطاني بريان جونسون، وهو يلمح إلى صورة مجردة جداً للخيمة. المبنى الرئيسي محاط بأحواض فخمة، ومطاعم أنيقة ونباتات استوائية غضة.

يمكن العثور على تمثيلات مشابهة بالنسبة إلى أبراج الرياح. ومن الأمثلة على ذلك، برج خور دبي، وهو مبنى تجاري مرتفع يقع في منطقة الوسط التجاري. للبرج مسقط مربع في الأساس، وهو مثبت من زواياه الأربعة بأبراج أسطوانية نحيفة. يستخدم في منتصف واجهة المبنى الزجاج العاكس لإعطاء انطباع بأن المبنى مجوّف، وهذا مستوحى من أبراج الرياح التي كانت تنتصب يوماً على خور دبي بأكمله. كما أن فندق فيرمونت الأحداث، وهو فندق خمس نجوم، يتكوّن من ثمانية وعشرين طابقاً في دبي، مصمم أيضاً على شكل برج رياح. الزوايا الأربع للمبنى مثبتة بأبراج طويلة ونحيفة، في حين أن قلب المبنى مجوف بشكل مائل عند جوانبه الأربعة.

إن صورة القارب أو الدهو، القارب العربي التقليدي، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بثقافة دبي كارتباط تاريخها بالخور والميناء. عندما انتُدب كارلوس أوت وعادل المعجل من جانب مجلس إدارة مصرف دبي الوطني من أجل تصميم المقر الجديد للمصرف، أثرت صورة الدهو في تصميمهم النهائي. يتألف مبنى المصرف من برج مكاتب ذي واجهة زجاجية محدبة، معلق بركيزتين ضخمتين رأسيّتين من الغرانيت فوق منصة شفافة. ادّعى أوت بأن الستارة الرأسية المحدبة للبرج تمثل الأشرعة المتفخخة لقوارب الدهو التي تبحر أمام المصرف^(١٨).

وهناك إشارة أخرى للدهو في مركز المؤتمرات الجديد في مجمع فندق الجميرا بيتش. يتخذ مبنى المؤتمرات بأكمله شكله وتصميمه من بدن الدهو. وهو مبنى مصنوع من الفولاذ والخشب والزجاج ويتألف من ثلاثة طوابق. وفي الجهة المقابلة لفندق الجميرا بيتش الذي يأخذ شكل الموجة، نجد فندق برج العرب البراق القائم على جزيرة اصطناعية في الخليج العربي.

يستلهم البرج شكله من شراع مركب الدهو. تتصل الستارة المحدبة للواجهة بالجانب المقابل بعمود فولاذيّ ضخم يرمز إلى سارية الشراع. (انظر الرسم الرقم (٤٤ - ٦)) هذا المشروع المتطور من الناحية التكنولوجية من تصميم أتكينز وشركاه (S. Atkins and Partners Overseas)، وهي الشركة البريطانية نفسها التي بنت فندق الجميرا بيتش. وهذان المبنيان يلّمحان معاً إلى التراث البحري لدبي.

إنّ هذا الارتفاع الشاهق لبرج العرب الذي يصل إلى ثلاثمئة وواحد وعشرين متراً لا يجعله الفندق الأكثر ارتفاعاً في العالم حالياً وحسب، بل يجعله معلم دبي الجديد أو أيقونتها. وبما أن هذا الفندق يمثل هذا الدور الرمزي، فقد خلف مركز التجارة العالمي بوصفه المرأة الجديدة لدبي. والفندق موجود حالياً على لوحات السيارات في دبي.

فندق برج العرب

من المفارقات أنّ هذا الفندق، وهو أيقونة دبي المهيبة، ليس لديه الكثير لكي يقوله عن المواطنين العرب أو المدينة. وكان التفويض الممنوح لشركة أتكينز وشركاه المعمارية البريطانية، يقضي بتصميم متجع لقضاء العطل يوفر لدبي أيقونة يمكن

Barry Jordan, «Reflecting an Image-National Bank of Dubai Headquarters,» *World Architecture*, vol. 65 (April 1998), 4pp. 8-53.

التعرف إليها في مختلف أرجاء العالم. لقد أراد قادة دبي رمزاً لمدينتهم لكي يثبتوا للعالم وصول دبي إلى المسرح العالمي. وبالتالي، كان يُنظر إلى المبنى على أنه معلم وطني أكثر من كونه فندقاً. تم تصميم المنشأ الناتج بدقة بحيث يشبه الشراع المتفتح لقارب الدهو. ووفقاً لتوم رايت، كبير المصممين في الشركة، ينبغي أن يثير تصميم برج العرب «إحساساً بالتurf والإثارة والتطور والمغامرة». والمواطنون يطلقون عليه اسم «الصرصور العملاق»^(١٩).

لكن المبنى مأثرة هندسية عجيبة. فبعد استكمال بنائه عام ١٩٩٩، بات الفندق الأعلى في العالم^(٢٠). وبارتفاعه البالغ ٣٢١ متراً، يهيمن الفندق على المشهد العمراني لدبي. يقع برج العرب في جزيرة اصطناعية مساحتها ١٤٠٠ متر مربع وتبعد من الشاطئ مسافة ٣٠٠٠ متر مقابل فندق الجميرا بيتش. وهذه مسافة ضرورية لا من أجل منع تظليل الشاطئ وحسب، بل لتعزيز الإحساس بالخصوصية لعملاء الفندق ونزلائه أيضاً. صنع هيكل المبنى من الفولاذ والخرسانة المسلحة. تعمل طبقة خارجية فولاذية ضخمة على حماية البرج من الأحمال الزلزالية والرياح. يلتف هذا الإطار الذي على شكل حرف V حول شكل V آخر، مع برج من الخرسانة المسلحة يضم غرف الفندق وردهته. ويتصل هذان المنشآن بعد ذلك بعمود فقري خرساني.

تتألف واجهة المبنى من الزجاج والتفلون المطلي بالفايرغلاس. تنقسم الستارة التي يبلغ ارتفاعها ١٩٨ متراً إلى اثني عشر حقلاً يتركز كل منها على أقواس فولاذية. ولسوء الحظ، فإن الحرارة والضوء، في هذه البيئة الصحراوية القاسية، سيؤثران في النهاية على طول عمر البناء الذي يمثل الشراع في أطول مبنى معرض لقوى الشد في العالم. إن المناخ في دبي قاسٍ جداً بحيث صُنِعَ طلاء واقٍ خاص جديد لمنع رمال الصحراء من تخريب النوافذ.

يحتوي المبنى من الداخل على ردهة مساحتها ١٨٠ متراً مربعاً، وهي كبيرة بما يكفي لإيواء تمثال الحرية. الجدران الداخلية مغطاة بتشكيلة غير منتظمة من الأقمشة الزاهية والألوان القوية. والإسراف هو الفكرة الغالبة على هذا الفندق. فكل ما يلزم ذهب. فقد تم طلاء ٢٠٤٤ متراً مربعاً من المساحة الداخلية بطبقة رقيقة من الذهب عيار عشرين قيراطاً.

مع أن شكل المبنى وهيكله يلمحان إلى القوارب العربية التقليدية، غير أن هذا الفندق يجسد النجاح التجاري لدبي، وترفها وخصوصيتها أكثر من كونه رمزاً للثقافة

Andrew Cave, «Where Milton Keynes Meets Vegas,» *Daily Telegraph*, 3/4/2004.

(١٩)

(٢٠) سيظل كذلك، في الوقت الحاضر على الأقل، إلى أن تتفوق دبي على نفسها مرة أخرى عندما يتم

إنشاء فندق فوركس روتانا لمجموعة أبكو الذي يُقدَّر ارتفاعه بـ ٣٨٠ متراً في المنطقة المالية من دبي.

العربية أو لجذور دبي. وهذا المبنى، وإن كان يبرهن بلا شك عن إنجاز هندسي غير عادي، إلا أن النسبية الثقافية والحساسية البيئية لا تؤديان دوراً في تصميمه. يبدو شراع برج العرب مجتمعاً مع فندق الجميرا بيتش الذي يشبه موجة البحر ومركز المؤتمرات فيه الذي يأخذ شكل قارب الدهو، أشبه بديكور فيلم هوليووديّ من التمثيلات الثقافية المهمة لمدينة وشعبها. لقد أراد قادة دبي رمزاً عالمياً، مبنى يعلن عن دورهم وتأثيرهم المتزايد في المسرح العالمي. لكن يبدو أن برج العرب لا يقول الكثير عن الجوهر ما وراء الخارج الذي يعدّ مآثرة هندسية.

توفر هذه الخلاصات للأيقونات المحلية بديلاً ممتعاً لتمثيل الهوية المحلية في بيئة عمرانية. ومع أنها قد تعبر عن مآثر هندسية عظيمة، لكنها تدلّ أكثر على إرادة العولمة بدلاً من الحساسيات المحلية. والحكم على هذه المباني الزجاجية العملاقة في البيئة الصحراوية بأنها انعكاس لرؤية مهندس معماري أو ذوق الممول لإنشائها سيختلف على الأرجح بين مشروع وآخر. ومع ذلك، فهي تظهر مرة أخرى بوضوح التعقيد والصراع الهائل داخل دبي في شأن التعبير عن هوية ثقافية محلية ضمن بنى العولمة.

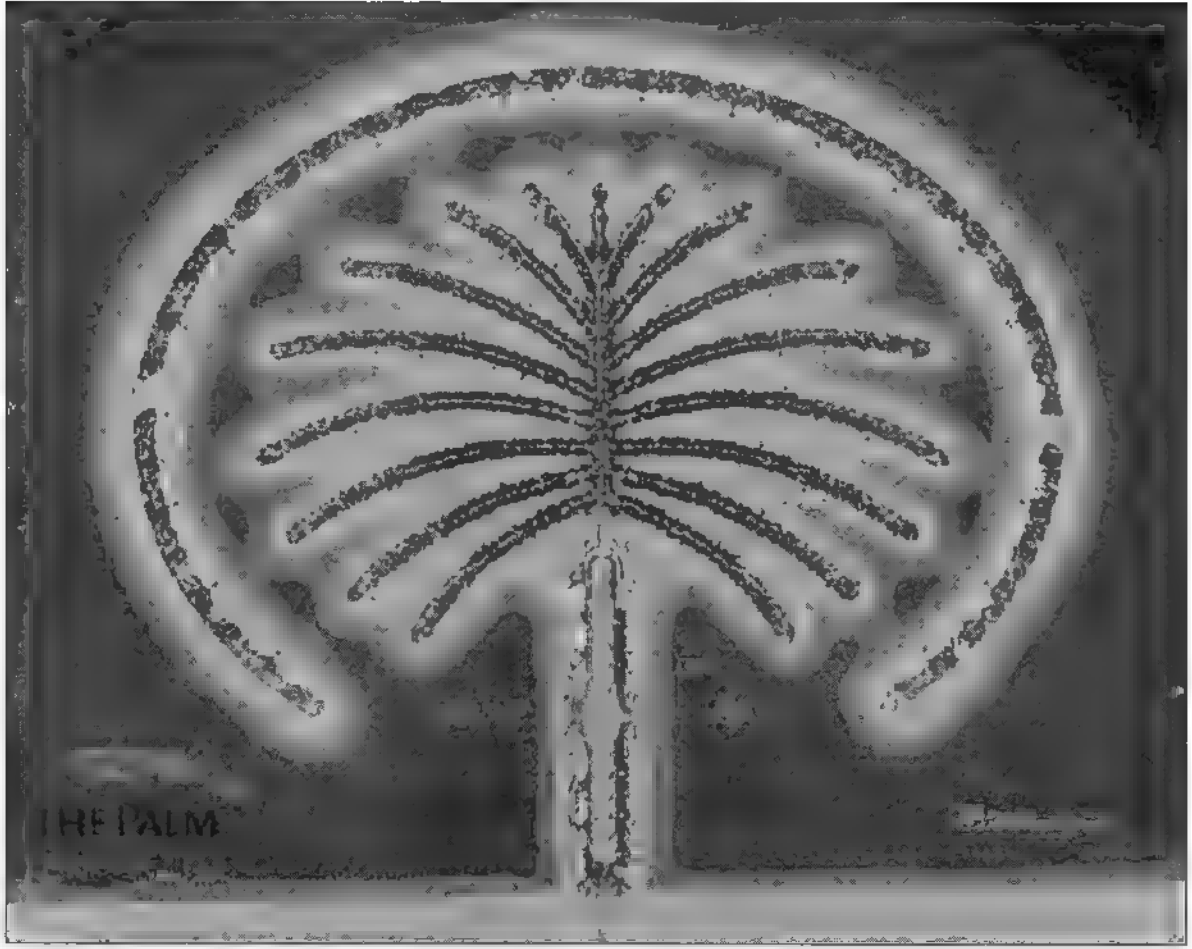
أسفرت هذه التطورات المعمارية الأخيرة عن ظهور أيقونة أخرى تمثل الثقافة المحلية في دبي، شجرة النخيل. ربما كان المقصد هو الإشارة إلى العمارة القديمة، عندما كانت أكواخ البرّاسي والأسواق مصنوعة أساساً من سعف النخل، أو الإشارة إلى مفهوم أكثر إقليمية للحديقة الإسلامية أو الواحة. ستكون نخلة الجميرا ونخلة جبل علي (انظر الرسم الرقم (٤٤ - ٧)) جزيرتين من صنع الإنسان على شكل شجرتي نخيل، قبالة شاطئ دبي في الخليج العربي. وهو مشروع تقدّر تكلفته بثلاثة مليارات دولار. ستعمل هاتان الجزيرتان على مضاعفة الشريط الساحلي لدبي، وحين يكتمل إنشاؤهما تكون رؤيتهما ممكنة من سطح القمر.

كما أن هاتين الجزيرتين ستضمّان أول حديقة ألعاب بحرية في الشرق الأوسط، فضلاً عن فنادق تجارية وفيلات وأحواض لرسو السفن ومتاجر للتسوق وصلات للسينما وعروض تمثيلية وحديقة ألعاب مائية. ومن الأهداف الرئيسية التي تبغيها قيادة دبي عبر إقامة هاتين الجزيرتين هي دمج هوية دبي بقوة على المشهد العالمي، وخصوصاً بعد النجاح الدولي لفندق برج العرب. غير أن زرع شجرتي نخيل عملاقتين في الخليج العربي في محاولة لتمثيل هوية دبي تبدو فكرة مبتدعة إلى حد ما وتختزل بالأحرى قروناً من التراث في صورة شبه كاريكاتورية.

الرسم الرقم (٤٤ - ٦)

برج العرب





ختاماً، يمكن رؤية محاولات أكثر ذكاءً لإضفاء مسحة ثقافية على بيئة الاقتصاد العالمي في تكييف المساحات العامة واستخدامها. فقد أصبحت مراكز التسوق والمتاجر جزءاً مهماً من المشهد العمراني لدبي. وأصبحت المباني الضخمة المكيفة التي تبيع أي شيء يوجد في العالم أماكن للقاءات الاجتماعية والنزهات العائلية. كما أن التصميم المادي لمراكز التسوق المشهورة هذه متجانس في مظهره مع الكثير من مراكز التسوق الأخرى التي تشاهد في مختلف أرجاء العالم.

والسلع، عدا القليل منها، تستورد من أوروبا وأمريكا واليابان، وصلات تقديم الأطعمة توفر المأكولات من مختلف المطابخ العالمية، والشباب والشابات العرب يقفون في الصفوف من أجل شراء «وجبة ماكдональдز الكبيرة» أو سندويشات BLT

البحرية من مطاعم تحت الأرض. غير أن هذا السندويش مصنوع من لحم بقري فقط. وبمثل بساطة هذا التغيير، يوجد القليل من هذا التنوع داخل هذه البيئة التجارية التي تلمح إلى حاجات المستخدمين العرب وتقاليدهم وثقافتهم.

توفر مراكز التسوق الكبيرة، مثل السيتي سنتر وبرجمان والوافي، مساحات جانبية خاصة من أجل الوضوء لأداء الصلاة. ويوجد داخل هذه المراكز عدد من القاعات الضخمة، بعضها مخصص للرجال والبعض الآخر مخصص للنساء لأداء الصلوات اليومية. بل إن مركز برجمان للتسوق الواقع في طرف شارع خالد بن الوليد، الشارع المالي في مدينة دبي، ينادي المتسوقين لأداء الصلاة عبر نظام النداء في المركز.

تعدّ هذه الأمثلة كلها على التطور العمراني والمعماري براهين واضحة على مدينة تعيش حالة من التقلب والصراع مع الضغوط والتأثيرات الإقليمية والعالمية. يمتلك قادة دبي الحازمة رؤية لمدينتهم دفعتها من مدينة بسيطة هاجعة في أحد بلدان العالم الثالث إلى لاعب بارز على المسرح العالمي.

ونظراً إلى محدودية موارد الإمارة الطبيعية، وإدراكها المتطلبات المتنامية والمعقدة للاقتصاد العالمي، أنشأت بنية تحتية شاملة ومتطورة ووسعتها من أجل تلبية الحاجات الحالية والمتوقعة. وقد اكتسب تمثيل الهوية الثقافية المحلية ضمن هذه البيئة العمرانية التي بُنيت على عجل أهمية متزايدة، كرد قوي مشحون بالقلق من العولمة من ناحية، وكدعم لاتجاه العولمة من ناحية أخرى.

ومن سوء حظ المصممين والمخططين في دبي، أن عملية التمثيل المرئي للهوية الثقافية ممارسة حديثة نسبياً. بل إن تصوّر الهوية الثقافية في دبي يصبح أكثر تعقيداً إذا نظرنا إلى حداثة عهد الإمارة نسبياً. ولكي يتم تحويل جوهر الثقافة كما يظهر على الوجه المعماري المعاصر بتأنّ ونجاح، يلزم توافر الوقت والتحليل والدراسة. وكل ذلك غير متوافر في دبي. ويعلق أحد المخططين في بلدية دبي بذلك على ذلك بقوله: «لقد بدأنا [العرب في دبي] للتو في تطوير ثقافة [مرئية]. يحتاج الناس إلى الوقت لدراسة قيمنا الأخلاقية والتقنية والثقافية. وفي أحيان كثيرة، نوضع الخطط لاستباق متطلبات الاقتصاد العالمي، وغالباً ما يؤدي ذلك إلى تغيير الطريقة التي تتم فيها الأشياء محلياً. وقد بدأنا مؤخراً فقط بالتركيز على تقاليدنا»^(٢١).

(٢١) النصّ مُقتبس من حديث مع محمد فايز الشمسي في بلدية دبي بتاريخ ٢٥ كانون الثاني/يناير ١٩٩٩.

بافتقار البيئة العمرانية في دبي إلى هذه المسافة الحرجة، فقد دخلت في معركة بين التأثيرات العالمية والمحلية والإقليمية. وهي لم تستطع حتى الآن أن تدمج بنجاح هذه المؤثرات وتترجمها إلى تصميم معاصر ذي طابع محلي - حيث يبقى الدفع والجذب - بين نسبة العشرين في المئة من السكان العرب المواطنين ونسبة الثمانين في المئة من السكان الأجانب. ونتيجة إلى ذلك، يستمر التطور العمراني في دبي في تصوير هذا الصراع والتجاذب.

لطالما كانت أهمية الهوية الثقافية وإظهارها في البيئة المبنية عملية معقدة. فالعوامل الوسيطة فيها غامضة ومبهمة، كما أن تدفق الاقتصاد العالمي والعاملين من مختلف الجنسيات والتكنولوجيا الحديثة إلى دبي تجعلها أكثر غموضاً. ففي الأمثلة كلها التي تعرضنا لها، اختزلت الإشارات في العمارة الإسلامية التقليدية إلى صور وعمليات سطحية لإعادة الإنتاج، لا تخدم أي حاجة حقيقية. وعلى هذا الصعيد، يمكن انتقادها لكونها تطبيقات جوفاء في صيغتها الجوهرية.

ويبدو أنه تم تحييد الأيقونات الوطنية والثقافية في عصر العولمة. ومع أنها تمثل تشديداً على الهوية الثقافية وعلى هيمنة الثقافة ربما على التكنولوجيا والاقتصاد، فقد أصبحت أقل إثارة للخلاف في تمثيلها. ربما أصبح ذلك ضرورياً في الاقتصاد العالمي، فقد تضاعفت الاختلافات الثقافية من أجل توفير مزيد من الراحة للسكان المتعددي الجنسيات. وهي تتمتع بما يكفي من الحركة لإثارة الاهتمام والتعريف الثقافي الخالي مع ذلك من أي عناصر تاريخية استفزازية قد تربك الناظر الأجنبي.

إذا نظر المرء انتقادياً حيال هذه المنشآت الجديدة، يجد أنها لا تؤدي حتى الآن دور الوسائل الأكثر مناسبة للتعبير عن الثقافة في عمارة معاصرة. فمن يستطيع الادعاء في آخر الأمر ما يمكن عده شرعياً في بيئة يمثل تنوع مدينة عالمية وتعقيداتها؟ وبالتالي يطرح هذا الاستنتاج سؤالاً حول كيفية غرس صور التعريف الثقافي أصلاً في بيئة عمرانية بُنيت أساساً من أجل إغراء الاقتصاد العالمي. ومن المفارقات أن نجد في هذه المباني الشاهقة، وهي المنارات الأبرز للعولمة، تفسيرات للهوية المحلية بأوضح صورها وأكثرها جلاء.

ربما كانت فاعلية العامل الجاذب الرئيسي للتمثيل الثقافي في توفير إحساس بالتجذر والارتباط للمواطنين المحليين. والأسرة الحاكمة في دبي إنما حافظت على حكمها بفضل نسبها العريق منذ أيام أكواخ البراستي في دبي. وهم يملكون سلطة مطلقة

على الرغم من أنهم لا يمثلون سوى قسم ضئيل من سكان دبي. غير أن هذا التكوين اللامتناسب للقاعدة السكانية سبب رئيسي لإحساس المواطنين العرب المحليين والحكومة بانعدام الأمن. كما أن الأغلبية من العرب يخشون ذوبان ثقافتهم بفعل تدفق الأجانب وثقافتهم. لذلك فهم يشعرون بالحاجة إلى مواجهة هذا الانعدام في الأمن بعرض نماذج من الفخر الوطني أو الثقافي، وبذلك يجعلون الإحساس بوجودهم المحدود أكثر قوة.

توجد تفسيرات أخرى لهذا العرض الثقافي الشديد الوضوح. فنجاح التنمية المحلية بعد ثلاثين عاماً من النمو الكبير والتخطيط قد أثار الرغبة في الإشارة بوضوح إلى الأشخاص المسؤولين عن هذا التطور الرائع. وكما يقول بول ويتلي، «إن الثقة الوطنية المتنامية تتطلب التعبير عن هويتها وخصائصها الذاتية»^(٢٢). وما تطبيقات العمارة التقليدية على النماذج المبنية المعاصرة سوى لافتات فخر تعترف بمساهمات السكان المحليين في البناء الناجح للمدينة العالمية وتطورها المستمر.

قد يكون لهذا الاهتمام بدمج الأيقونات المحلية على النسيج العمراني علاقة وثيقة بالعجلة الشديدة التي تطورت دبي فيها من إمارة من العالم الثالث إلى مدينة عالمية رائدة. ففي غضون أقل من ثلاثين سنة، تغير محيطها بالكامل عما كان عليه سابقاً، وهو ما جعل تتبع عنصرها الأصلي متعذراً من حيث الجوهر. وقد فرضت هذه السرعة غير العادية للتغير ضغوطاً هائلة على مجتمعها.

ويقترح فريد دايفيس بأنه في البيئات التي تشهد تدفقاً وقلقاً كبيرين، غالباً ما يكون هناك إحياءات حنين إلى الوضع السابق، حتى وإن لم تكن هذه الإحياءات في الواجهة الأمامية للوعي. وهذه العواطف، التي تنشأ في لحظات من عدم اليقين، تهدد باحتمال انقطاع الهوية^(٢٣). «يزدهر الحنين إلى الماضي بالانتقال وبالاقطاعات الذاتية التي تولد فينا التوق إلى الاستمرارية»^(٢٤). يوفر الحنين إلى الماضي تراجعاً وملجأ مؤقتاً من نزعات القلق التي تنشأ عن بيئة تشهد تغيرات متتابعة. وتتحول إلى وسيلة للتمسك بالهويات والثقافات التي تعرضت لرضوض شديدة في أوقات الاضطرابات وإعادة

Kernial Singh and Paul Wheatley, *Management of Success: The Molding of Modern Singapore* (٢٢) (Boulder, CO: Westview Press, 1990), p. 76.

Fred Davis, *Yearning for Yesterday: A Sociology of Nostalgia* (New York: Free Press, 1979), (٢٣) p. 34.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٤٩.

تأكيدهما^(٢٥). لذلك في حين أن هذه الرموز والأيقونات المطبقة في الحيز العام لدبي، هي بمنزلة تبسيطات إجمالية للعناصر المحلية والأشكال المعمارية الإقليمية، فهي تخدم مع ذلك في التلميح إلى ماضي بسيط، يتقاسمه أعضاء المجموعة المهيمنة سياسياً. ويسمح تولّد الحنين إلى الماضي بترشيح هذا الماضي، وانتقائه وترتيبه وإنشائه وإعادة إنشائه من تجربة جماعية إلى حد ما. بل إن شيئاً يمثل رقة النداء إلى الصلاة داخل أحد المراكز التجارية يفيد في إدخال الراحة والتذكير بفاعلية كبيرة بالقوة والأبدية الظاهرة للثقافة والمعتقدات المحلية.

يتأثر دور الحكومة ويتغير بلا شك بالتدفق الحر للاقتصاد العالمي وتأثيراته. فقد أصبح التنافس بين المدن العالمية أكثر حدة، في حين يقوم عدد من المدن بإنشاء البنية التحتية المعقدة اللازمة لاجتذاب اللاعبين العالميين البارزين والشركات المتعددة الجنسيات. وصارت الحكومات المحلية للمدن العالمية تقف في أوضاع تزداد غموضاً. وقدرتها على تأكيد قوتها وسلطتها يشوبها الدور الذي تؤديه كمجذب للاقتصاد العالمي. وقد أثرت هذه الازدواجية بين التشديد على حضورها وبين محاولاتها لجذب الشركات المتعددة الجنسيات والعمال الأجانب، أثر بلا شك في وضوح تصميم الفضاء المدني. وبما أن حكومة دبي هي أقوى داعم للاقتصاد العالمي، فلم يكن أمامها في آخر الأمر أي خيار سوى تعديل حضورها داخل إطار العمل العالمي. وعلى الرغم من أهمية تمثيلات الهوية الثقافية، فإنها تصبح أقل إثارة للخلاف حين تكون ملونة وحيوية.

لقد خطا مدلول التمثيلات الثقافية في المدينة العالمية خطوة إلى الأمام باستدلال بعض الباحثين بأن الثقافة أصبحت منتجاً مصنعاً آخر للاقتصاد العالمي. فبالنسبة إلى وليام ليم وتان هوك بنغ، باتت الثقافة الآن مجرد زاوية أخرى لتحقيق عائدات مالية أكبر. وهما يصفان الإنتاج الثقافي المعاصر بأنه تحويل النماذج التاريخية والثقافية إلى أشياء تجري المتاجرة بها^(٢٦). وأصبحت الثقافة سلعة قابلة للتسويق في المدن العالمية، في عصر العولمة. واختزلت قيمة الثقافة إلى ما يمكن عدّه شيئاً مربحاً. غير أن هذا التحليل يحوّل المدن، والمجتمعات، والثقافات إلى مجرد رهائن للعائد المالي. ويفترض هذا التحليل من دون تمييز أن الاقتصاد العالمي أصبح اقتصاد استهلاك. وهو يفترض بأن كل فرد وكل شيء يعمل فقط من أجل نشر الاقتصاد العالمي. لذلك، تبدو وجهة النظر تلك

(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(٢٦) William S. W. Lim and Tan Hock Beng, *The New Asian Architecture: Vernacular Traditions and Contemporary Style* (Hong Kong: Periplus Editions, 1998), p. 31.

ضيقة إلى حد ما. وهي تقترب من العجرفة بافتراضها أن الهوية الثقافية التي أدت دوراً كبيراً في تعريف الإنسانية على مرّ آلاف السنين، يمكن تغييرها والتلاعب بها بسهولة.

في هذا التحليل، تتعرض الوسائل التي تم وفقها تصوير الهوية الثقافية في العمارة المعاصرة لديبي للمساءلة والانتقاد. لكن في الوقت نفسه، يظل غائباً أي اقتراح بديل في شأن أكثر الوسائل ملاءمة لتمثيل الهوية الثقافية مع مركّبات العولمة. وربما كان هناك قدر كبير من الصحة في تعليق عارف درلك بأن «الثقافة لا يتقصر منها بتعرّضها للتغيير من خلال ممارسة الحياة اليومية»^(٢٧).

ومن المهم الاعتراف بأن العولمة لا تزال حديثة العهد وظاهرة فنية نسبياً، وكان لا بدّ من أن يشير تطورها السريع أسئلة أكثر مما يقترح حلولاً. ولا تزال المسافة الحرجة اللازمة للتوصل إلى تقييم عادل وشامل في بدايتها.

ويمرور الوقت، قد نتوصل إلى أجوبة أكثر تأملاً واكتمالاً. وسوف يستمر موضوع الهوية الثقافية في مغازلة المدينة العالمية. وما التعقيدات والإرباك الذي تمر به دبي في معرض بحثها عن طرائق أكثر ملاءمة وفاعلية لتصوير الهوية الثقافية إلّا ردود أفعال ابتدائية حافزة على الزخم المكثف للسنين الثلاثين الأولى للعولمة. وربما مع استمرار دبي في النضج كمدينة واكتسابها مزيداً من الثقة وتحولها إلى لاعب محنك في الاقتصاد العالمي، يمكن أن تتحوّل عن هذه التطبيقات السطحية، وتصبح أكثر قدرة على ترشيح ما هو مهمّ من الناحية الثقافية والمعمارية وتكوين هوية عصرية مركّبة وعميقة الفكر واضحة في عروبتها وعالمية في آن واحد، وتستحوذ على الدينامية العجيبة لديبي.

Arif Dirlik, «The Global and the Local,» in: Rob Wilson, *Global/Local: Cultural Production* (٢٧) and the *Transnational Imaginary*, edited by Wimal Dissanayake, Asia-Pacific: Culture, Politics, and Society (Durham, NC: Duke University Press, 1996), p. 39.

الفصل الخامس والأربعون

القاهرة بين آثار الماضي وإعادة التأسيس الليبرالي

إريك دنييس^(٥)

مقدمة

تُلقَى الرؤى القاصرة، المتحيزة والجزئية، والطريقة غالباً، والمتضمنة مسبقاً انطباعاً من الفوضى وعدم الانتظام والضحامة، بظل من الإسقاطات المريحة على محاولات وصف عاصمة كبرى مثل القاهرة. فالحشود المكثمة، المتدمرة دائماً، لا تنفك تظهر حيناً رقيقاً لأسرار الشرق ومشاعر جياشة تبعثها آثار الماضي. والصور النمطية في كل مكان: الساكنون على السطوح، في المباني الضخمة، أو المقابر، الأحياء العشوائية تمتد إلى ما لا نهاية، ومشاهد كثيرة أخرى تجسّد التخلف والبؤس وغزواً لا ينقطع من الأرياف؛ إلى تفجّر أقرب إلى أن يكون من الداخل. هي تفسيرات غير متأنية لم تتوان مؤخرًا، مع المحاولات المصممة مرة أخرى على بناء مدينة عربية متميزة كلياً، عن إدراج فكرة «شارع عربي» هو بوضوح على شفير التمرد: وفي نوع من إعادة النقاش لموضوع مبتذل في الواقع لكنه لا يزال يحتفظ بفكرة المدينة الخطرة.

تقودنا هذه الصور النمطية، المتقاطعة مع الاستشراق، إلى عامل من العالمية قديم كما أقدم المدن، بابل، رمز الضخامة والفوضى اللذين ما انفكا يُنسبان إلى صور العواصم

(٥) باحث في جغرافية السكان والمناطق الحضرية في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS) - فرنسا.

الكبرى الراهنة. وتدعونا حقيقة أن الأراضي المصرية كانت مسرحاً لإمبراطوريات متعاقبة، تركت خلفها آثاراً معمارية ذات آفاق عالمية، وبخاصة في القاهرة مع أهرام الجيزة وجوامع وقصور المدينة القديمة، إلى رؤية ما هو قائم اليوم بوصفه انحطاطاً، وعلى قاعدة ما في الحاضر من صور التعقيد وصعوبات العيش اليومي. وفي حين تظهر عظمة الماضي جلية في الآثار، لا يكاد استبداد الماضي، والبؤس الذي كان لأكثرية الناس، والمساكن الرثة لمعظمهم، يُذكر أو يترك غير القليل من البقايا^(١).

هدفنا في هذا الفصل هو تبين أن الصور النمطية للقاهرة هذه لا تصمد أمام التحليل. فمراحل التطور الحديث للمدينة يمكن النظر إليها بوصفها موازية للزمن العالمي الذي كان للمدن البالغة الضخامة. والتحويلات الوظيفية والسياسية والديمقراطية والاجتماعية تعيد تشكيل بيئة المدينة، في أشكالها كما في طرائق سلوك الناس وعيشتهم. وهي تعرف أيضاً بنوع المجتمع الساكن للمدينة، وترتب عناصره؛ وهي في النتيجة التي تكتب التاريخ وترسي معنى للآثار.

عرفت القاهرة، المدينة الخامسة عشرة في العالم بساكنيها الإثني عشر مليوناً، ولأكثر من عشرين سنة، تجديداً اتسم بالاستقرار الديمغرافي، بهدف تأكيد دورها القيادي وتحسين بناها التحتية الأساسية. ومنذ الاستقلال، شهدت القاهرة استثماراً كثيفاً لتأكيد حقيقة أنها العاصمة الوظيفية، الحديثة والمنتجة، لدولة - أمة مستقلة. وعليه فقد جرى تطبيق سلسلة لم تتوقف من برامج الهيكلية العامة المتعاقبة وإلى يومنا الحاضر، تقودها سياسات رسمية جامدة هدفت إلى تثبيت السيطرة والتوجيه على مجموع ما فيها، وعلى الرغم من الانسجام الجلي مع سياسات التكيف واللبلة التي تحض على فك الارتباط مع السلطات العامة.

وتتوسع القاهرة اليوم، على نحو ثابت ويعجل، بفعل مبادرات القطاع الخاص تقوده عمليات الخصخصة وللقطاع العقاري على وجه الخصوص. في أثناء ذلك، توسعت مساحة القاهرة لتبلغ ضعف ما كانت عليه تقريباً قبل عشر سنوات، بينما يتقدم العمل على إعادة ترميم وتصميم قلب المدينة. ومع ذلك فلا شيء يشير إلى أن بؤس معظم الناس، الذي بات أكثر هشاشة بفعل إجراءات التكيف الهيكلي واللبلة

(١) يستخدم المصطلح «بقايا» أكثر من مرة في النص هذا، وهو يدين على المستوى التاريخي لعمل برنار لوبيتي: كتابة التاريخ وإعادة كتابته وحركته في سلوك ودور الموضوعات المدنية الموروثة، أكانت نُصباً، أو أبنية شعبية، أو تلك العائدة في الواقع إلى إطارى العقارات أو الطرقات. انظر: «Une Herménétique de la ville est-elle possible?», dans: Bernard Lepetit et Denise Pumain, *Temporalités Urbaines* (Paris: Anthropos, 1993).

الاقتصادية، قد اختفى؛ بل هو يتمدد، وتتوسع الكتل تلك وتغزو أكثر رسوخاً من خلال العملية الطبيعية المتمثلة في إعادة بناء الناس لأوضاعهم. في مثل هذا السياق من التوترات والإيقاعات، المتناقضة والمتكاملة معاً، تنشأ المساحات العصبية على الاختراق، والخطرة في بعض الأحيان.

ستقودنا دراسة هذه التحولات - التي تلي النظر في الاستقرار السكاني، وفي إعادة توزيع السكان، والتمدد المتعاقب لمناطق السكن الحضري الكثيف والأنشطة المتصلة به - إلى إثارة عدد من الأسئلة حول تصنيع صورة القاهرة هذه، وإعادة تفسير تاريخها المدني، وإعادة تعيين أمكتها، بغية إعطاء بعض المعنى لعمليتي القطع وإعادة التنظيم الجاريتين.

أولاً: البناء الوطني والتفجر السكاني الضخم

شهد عام ١٩٥٢ نيل الاستقلال ونهاية الملكية. ترافق ذلك مع لحظة إعادة تشكيل لأقصى نمو ديمغرافي للمدينة، تلى حقبة تدفق الزوح الكبير إليها من المحافظات الأكثر تصديراً لليد العاملة، وبخاصة المنوفية في وسط الدلتا وسوهاج في أعالي الصعيد^(١). ومنذ ذلك الوقت بدأت معدلات الهجرة الكثيفة الوافدة إلى المدينة بالتراجع لمصلحة إعادة توزيع قاطنيها باتجاه تجمعات مناطقية أصغر للسكان ولأنشطتهم (انظر الرسم الرقم (٤٥ - ١)).

وفي خلال قرن من الزمن كان هناك تلازم وثيق في المدينة بين التحولات الديمغرافية والسياسية. فمع النظام الجديد الذي نتج من ثورة الضباط الأحرار، تحول الاستقطاب باطراد فغداً نوعياً، ليصبح سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً، وليس ديمغرافياً فحسب. أصبح الجذب انتقائياً، وبدأ التأسيس للعاصمة الكبرى. ومع الاستقطاب والتنظيم، بدأ على نحو متزايد الاستنزاف الواسع لموارد المدينة.

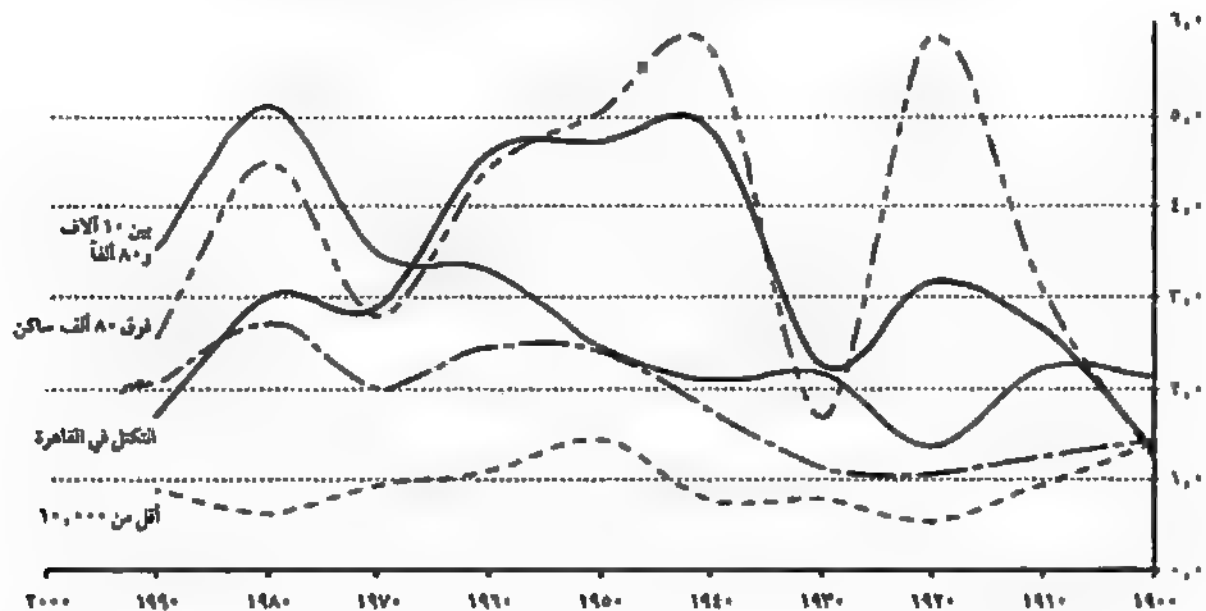
وإذا بدا أن ذلك كان الاتجاه الجديد لنمو المدينة منذ عام ١٩٥٢، فإن نمو كتلها، وفي حدّها الأقصى، لم يتحقق حتى التسعينيات؛ حين زاد عدد ساكنيها مليونين - وبخاصة - بين عامي ١٩٧٦ و ١٩٨٦، ثم مليوناً إضافياً في العقد الذي تلا. بعبارة أخرى، فقد اتسمت السنوات الخمسون الأخيرة بالحاجة الملحة إلى تجهيز

François Ireton, «Notes sur les migrations interne en Egypte», *Fascicule de Recherches*, vol. 27 (٢) (1988).

وتأمين حسن اشتغال عاصمة غير قادرة على التكيف مع ضغط ديمغرافي قادت إليه هجرات ضخمة منذ مطلع القرن. وبسبب صعوبة إسكان هذا الفائض الضخم، وعدم قدرة الخطط الصغيرة الجارية لإعادة التوزيع، نشأت الصورة النمطية للتفجر السكاني في القاهرة، ولتراجعها الذي لا عودة عنه. ثم إن هذه الخطط نفسها قد تعثرت وحتى الثمانينيات بسبب نقص التمويل وأولوية المجهود الحربي.

الرسم الرقم (٤٥ - ١)

نسبة النمو السنوي حسب حجم التجمعات، ١٩٠٠ - ٢٠٠٠



يستعمل التوزيع الوحدات في حدود ثابتة بناء على التجمع المدني للعام ١٩٩٦.

E. Denis, SEDET (2004).

المصدر: معطيات إحصائية:

أما وقد غدت الأمة الشابة مستقلة، فقد ورثت الحمل الثقيل الذي تركته أزمنة سابقة جامدة، ويات تنظيمه أمراً لا مفر منه. وهكذا جرى فرض وقائع نظر قاصرة على العاصمة الكبرى، عززتها حاجة نظام، طامح إلى قيادة الوطن العربي والعالم الثالث، إلى إبراز مكانة القاهرة كعاصمة إقليمية للمنطقة^(٣). وبالنسبة سقطت المدينة تحت ثقل

(٣) استخدم مصطلح «تحيّز حضري» طويلاً ليؤشر إلى الطابع السلبى للأعمال التمدنية الأولية لما يدعونها «بلدان الجنوب»، أعمال تمدين اتسمت بضعف الإنتاجية وجلبت معظم مظاهر فكفكة بنى البلدان تلك. لكنها كانت مع ذلك مفيدة في تخفيف الضغط على الأموال العامة والجذب التراكمي الفردي لقدرات الاستثمار الخاص الناجمة دائماً من التأكيد المستمر لرأس المال البلدان المستقلة. واليوم، فإن المؤسسات الدولية مثل البنك الدولي تبدو معنية مسبقاً بالترويج للبرلة التجمعات السكانية بوصفها محرك النمو الجاذب للاستثمارات والمثني لسياسات اللاتوازن الإقليمي التي لا تستطيع البلدان الناشئة مقاومتها.

الحاجة إلى دفع التصنيع إلى أمام، من خلال مصانع الحديد والإسمنت الضخمة في حلوان، والمصانع الحربية شمال المجتمع؛ كما تحت الاستثمار الكثيف في مجال البناء مع برامج الإسكان العام، والبرامج التي أريد بها إشباع حاجة جهاز الدولة إلى إرساء بنية تقنية. وهكذا، وفي سبيل تطوير هذا التوجه القيادي ورعايته، غداً ضرورياً التوسع في إنشاءات البنية التحتية - مثل جسور المشاة، وجسور العربات، وشبكة الصرف الصحي، والمترو^(٤).

وعند نهاية القرن، التقت من جديد إيقاعات النمو، فما عاد من فاصل ولو طفيف بين المدن المتباعدة والأرياف، بل حصل اندماج حضري للبلاد بأسرها. ومع ذلك، لم تلتق أشكال صنع المدينة، إذ إنه، وفي الوقت عينه، كانت قد تجددت محاولات إجراء تنقيح داخل نسق المدينة. فقد ظهر إلى العلن التشديد على بيئة جديدة، وكان يجب أخذها في الحسبان. وكان يجب تغيير كل خطط التجميع وطرائق التصرف. ولم يعد من معنى للبحث في حدود تخص القاهرة وحدها، بينما منطقتها باتت تشكل مثل تلك الشبكة الهائلة المنتشرة بعيداً في المحافظات المجاورة، وداخل برّ الصحراء الشاسع المحاذي لها. ومع ذلك، ولأن هناك نسقاً واحداً يجمع ذلك كله، يصبح قلب المدينة خاضعاً للتغيرات في الحجم، ولإعادة توزيع السكان، وللأنشطة، وللقيم التي تُسقط على الأمكنة، وكذلك إعادة تحديد جغرافيتها (انظر الرسم الرقم (٤٥ - ٢)).

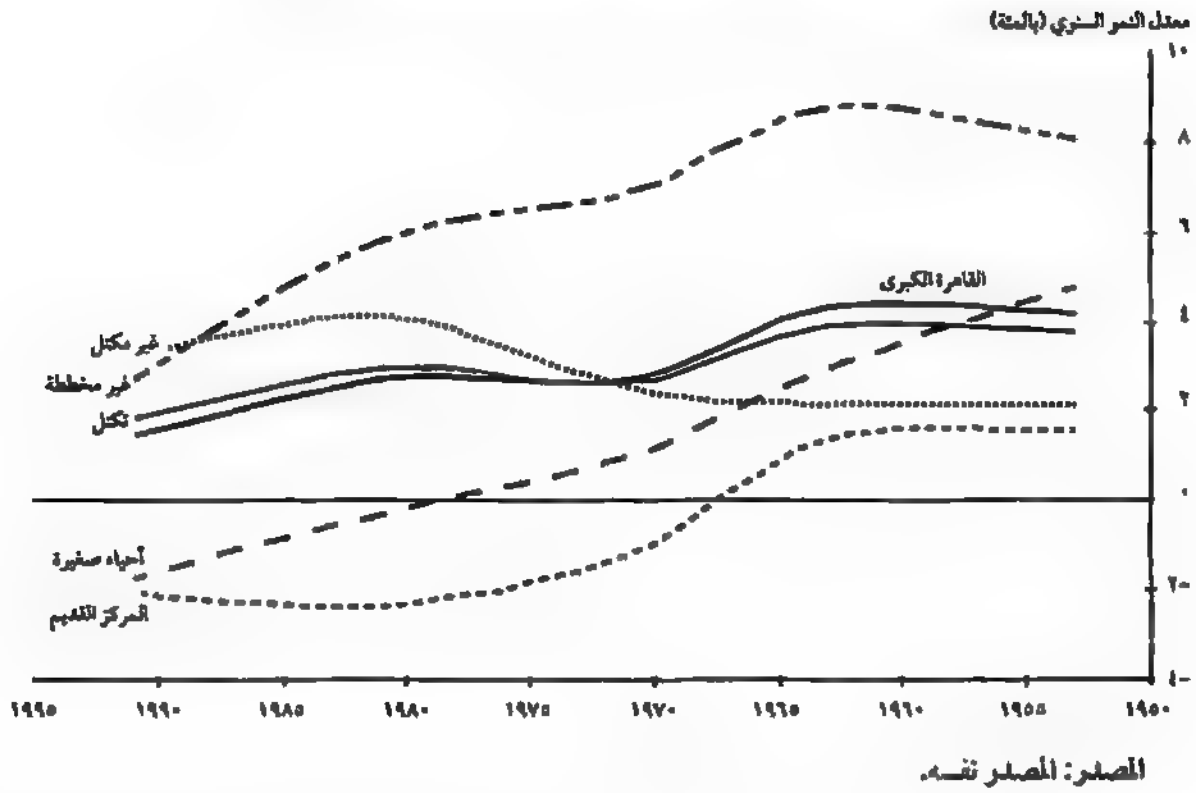
ثانياً: السيطرة على الديمغرافيا

يؤكد العقد الممتد بين عامي ١٩٨٦ و ١٩٩٦ تراجع معدلات النمو البيوي التي كانت لمنطقة القاهرة في العقدين السابقين^(٥)؛ فقد هبط معدل نمو المنطقة من ٣ في المئة سنوياً بين عامي ١٩٧٦ و ١٩٨٦ إلى ١,٩ في المئة في العقد الأخير. وانخفضت الزيادة في عدد السكان إلى أدنى مما كانت عليه في العقد السابق؛ فقد تراجع النمو في عدد سكان القاهرة الكبرى من ٢٧٧٠٠٠ ساكن سنوياً بين عامي ١٩٧٦ و ١٩٨٦ إلى ٢٢٨٠٠٠ ساكن سنوياً في العقد الأخير.

Eric Denis, «Le Cairo: Quand la villedéborde sous enceinte,» *Villes en Parallèle*, nos. 30-31 (٤) (2000), pp. 89-116.

Mercédes Volaitm, «Le Cairo: Les problèmes de la croissance à la lumière du recensement (٥) 1986,» *Espace Populations Société*, vol. 2 (1988), pp. 213-215, and Frederic C. Shorter, «Cairo's Leap Forward: People, Households and Dwelling Space,» *Cairo Papers in Social Science*, vol. 12, no. 1 (1989).

الرسم الرقم (٤٥ - ٢) تطور معدلات النمو السنوي حسب نوع الحي



عادت معدلات نمو تجمع القاهرة السكني، الذي بات يمثل ١٧ في المئة من مجموع سكان مصر، مع حدود مستقرة، إلى ما كانت عليه أواسط الستينيات. وأظهرت حقبة ١٩٨٦ - ١٩٩٦ حركة توسع وانتشار للظاهرة الحضرية، التي كان دونها بعض الحساسيات في العقد السابق. وفي السياق العام لانخفاض معدلات النمو السكاني، صارت البلدات لا المدن هي التي تسجل معدلات نمو أعلى من المعدل الوطني العام، والتي لم تكن لتحسب في الغالب ضمن الشريحة الحضرية. نمت الأرياف - الضيع والقرى والبلدات - على نحو أسرع مما كان عليه نسق المدن. ومعدل النمو السنوي للمناطق المصنفة رسمياً حضرية هو اليوم أدنى من المعدل العام في مصر. ظاهرة التراجع هذه تنطبق بوضوح أكبر على التجمعات الكبرى مثل القاهرة والإسكندرية.

وهكذا برز انعطاف رئيسي في نسق توزع سكان مصر. فلنحو مئة ستة تقريباً، كان معدل نمو النسق المديني أعلى على نحو ثابت مما هو في الأرياف، وبما يتطابق مع الصورة الكلاسيكية لاتجاهي الاستقطاب والتوسع المديني، على الرغم من انخفاض مبكر وأقوى لمعدلات الخصوبة في المدن الكبرى. تدين المدن بنموها السكاني المتسارع للهجرة من الريف، العامل المميز لأعوام ١٩٥٠ - ١٩٦٠ في فترة تأسيس

التجمعات الكبرى، الذي بدا استقطاباً حصرياً من جانب القاهرة لأغلبية الطاقة البشرية لمصر.

أما اليوم، فمعدلات نمو المدن ليست، على نحو أساسي، أكثر من نتاج للنمو الداخلي الطبيعي للمدن تلك الذي يبدو هو نفسه على انخفاض. لم تعد المدن الكبرى، بما فيها القاهرة، مدينة بنموها للنزوح؛ بل هي تفقد حتى شطراً من ساكنيها، تبعاً لاتجاهات خفض الكثافة السكانية التي انعكست نزوحاً معاكساً نحو الأطراف والبلدات التابعة. وأصبحت الصورة العامة لمعدل النمو في المنطقة مماثلاً، في الشروط نفسها، لما كانت عليه مطلع القرن العشرين (١٨٩٧ - ١٩٠٧).

لقد كان قرناً من الحركة المحمومة باتجاه قيام المتروبولات (التجمعات الضخمة). لكن الحركة انعكست الآن لمصلحة المستويات الأدنى في تراتبية الوحدات السكانية. حلّ الانتشار بدل الاستقطاب، أو بكلام أدق انتقل الاستقطاب إلى إطار البلدات الصغيرة والقرى.

في مئة سنة، وعلى مستوى «المركز» والمدينة، شهدت المساحة المسكونة الإجمالية معدلات نمو أعلى من المعدل الوطني العام، ثم انخفاضاً، قبل أن تعود للانتشار مرة ثانية. والآن، فإن ٦٨ في المئة من «الوادي» و«الدلتا» تشهد نمواً أعلى من المعدل العام، بينما لم يكن ذلك ليشمل غير ٢٩ في المئة عام ١٩٦٦ - حيث كانت معدلات نمو المتروبولات في ذروتها. أما في عام ١٨٩٧ فقد كانت النسبة تشمل ٥٨ في المئة من الأراضي القابلة للنمو.

عزز النهوض الاقتصادي الذي صار أقل احتكاراً من الدولة دوران السلع والبضائع، الأمر الذي قلل من أهمية القرب من المدينة. ومع ذلك، لم تظهر كما سنرى أية إشارة لتراجع التركز الاقتصادي في المدن الكبرى، بل حدث العكس تماماً.

أدى تراجع الاستقطاب الديمغرافي إلى بروز اتجاهين: الأول، هو تقادم أو هرم مراكز المدن الكبرى من خلال نزوح الشباب للسكن في الأطراف البعيدة، والثاني، الوقف النهائي لنوع معين من الهجرات باتجاه المدن الكبرى. وتعززت الظاهرتان أعلاه بحركة صاعدة من الهجرات الدائرية أو البندولية؛ التي كانت بدورها ثمرة تطور غير مسبوق في قدرات النقل والمرونة المتزايدة في التنقل - بفضل خطوط المايكروباص الكثيرة. قلّص كل ذلك من أهمية المسافات، وزاد من وحدة المكان. وفرض هذا

الازدهار في وسائل النقل الجمعي الخاصة نمواً للخدمات والتجارة في أدنى مستويات النسق السكاني. وقدّم ذلك نمطاً تراكمياً فردياً ساهم في الاستقرار السكاني. صارت السلعة هي التي تذهب إلى السكان. ولم يعد بمقدور المدن الكبرى أن تحتكر التجارة، وكما كان الحال في سياق اقتصادي شكا لفترة طويلة من الشح في البضائع والخدمات. لقد كانت هناك نقلة متزايدة من وفرة يؤمنها تنقل الأشخاص إلى أخرى قائمة على قرب السلع والخدمات.

الجدول الرقم (٤٥ - ١)

النسبة المئوية لمنطقة القاهرة الكبرى من إجمالي عدد سكان مصر^(٥)

السنة	النسبة المئوية
١٩٤٧	١٢,٥
١٩٦٠	١٥,٧
١٩٦٦	١٧,٤
١٩٧٦	١٨,٥
١٩٨٦	١٨,٢
١٩٩٦	١٧,٣

(٥) حدود ١٩٦٦ الثابتة، على مستوى الأقسام والمراكز، أو المناطق المدنية والريفية.

كانت هذه التغيرات شديدة الصلة بحركة الانتقال من اقتصاد الشح والندرة عموماً في المنتجات والخدمات - حيث التوزيع خاضع كلياً لسيطرة أجهزة الدولة - إلى اقتصاد وفرة في السلع قائم على المبادرة الفردية. لا يلغي توافر السلع بالطبع الأزمات المالية للأسر ومن قدرتها على الوصول فعلاً إلى تلك السلع والخدمات.

وفي كل الأحوال، فقد عزز الوصول السهل إلى السلع والخدمات من ميل السكان إلى أنواع من التواصل ومن شبكات التعاضد المحلية داخل الأسرة بديلاً من التزوح إلى المدن الكبرى. بل هي حركت نزوحاً معاكساً للعودة إلى «الأهل» ونحو الشبكات العائلية، من أجل الانخراط في أنشطة، أو الزواج، أو الحصول على مسكن، حتى ولو استمرت فرص العمل مرتبطة بالمدينة وبحركة الانتقال البندولي إليها ومنها.

إذا حددنا «المدينة» بالتجمع المورفولوجي الذي يحوي مئة ألف ساكن وما فوق، أمكننا القول إن في مصر عام ١٩٩٦، ٧٥٨ مدينة، مقابل ٤٨ مدينة عام ١٨٩٧. وفي عام ١٩٦٦ كان عدد هذه المدن يزيد على ثلاثة أضعاف ما صرح به التصنيف الرسمي. فقد كان فيها ٧٠ في المئة من إجمالي السكان بينما كانت النسبة ٤٣ في المئة في المعدل الرسمي. والآن، وقد بلغ عدد المتروبولات تلك ٨٠٠، وقد بلغ النسق حده الأقصى من حيث الأرض المتوافرة فعلياً وقرب الوحدات بعضها من البعض الآخر: فبات تداخل التجمعات يقلص من عدد المدن. فمدن الدلتا المئة والعشرون التي يسكنها عشرون مليوناً من السكان تضم أيضاً ٣ مدن أخرى على الأقل في كل منها ٢٠٠٠٠ ساكن وعلى مسافة تقل عن ٢٠ كم، كما تضم مدن الوادي الـ ٩١ مدينتين أخريين بالمواصفات أعلاه.

هذه الصورة الضبابية للمدينة بقيت تحت تأثير من ممار نفوذ موروثه. لكنها تبقى، قبل أي شيء آخر، ونتيجة التآكل نفسه للمسافة والزمن، محكومة في موقعها في حدود قريها من تجمع القاهرة. هكذا يعيش أكثر من نصف سكان مصر في حدود ٨٠ إلى ٩٠ كم من القاهرة؛ أي في مسافة مواصلات لا تزيد على ١٢٠ كم، وتبقى ضمن حدود التنقل اليومي المعقول وبما لا يزيد على ٣ ساعات في الإجمال. وفي حدود أو شعاع ٢٠٠ كم من القاهرة يقيم ٧٠ في المئة من السكان.

أما الجزء الثالث فيشمل أيضاً التجمعات الريفية ذات الكثافة السكانية الأعلى؛ ومعدل ٣٠٠٠ ساكن في الكيلومتر الواحد ليس بالأمر النادر، بينما المعدل الوسطي هو ١٧٠٠ ساكن في الـ ٣٥٠٠ كم^٢ من المساحة الإجمالية القابلة للسكن في مصر، وهو أعلى في الحقيقة من المعدل في التجمعات الكبرى في أمريكا الشمالية. هي في الواقع أرض التداخل والانتقال. ويجب ألا ينظر إليها فقط كضاحية تقوم على التنقل اليومي بين البيت والعمل: فبنية سوق العمل والأجر الزهيد للعمالة لا يخدمان هذا الاتجاه. هي أرض دائرية اتسمت بانتقال السلع، والتجارة، والبحث عن عمل مؤقت، وبخاصة في مواقع البناء، والعمل الفردي بحسب الظروف: النقص في العمالة المحلية، أو في مواسم الحصاد، أو في أوقات الذروة في المدن والبلدات - أيام الأسواق الأسبوعية، والمناسبات الدينية، والأعراس، وما إلى ذلك - من دون أن نهمل أهمية الزيارات الاجتماعية التي تعيد باستمرار ربط عناصر الأمكنة الاجتماعية، فتوسع وتعزز التحالفات وأشكال التضامن الأخرى.

وما لم توجد إشارة إلى تراجع في الدور الاقتصادي لهذه التجمعات الضخمة، فستستمر الاتجاهات الديمغرافية هذه، وإن بدت متناقضة، مبرراً لآلة التجمعات السكنية الضخمة؛ فهي تخفف الضغط عن المركز، الذي يستطيع أن يغدو إذ ذاك، ويسر أكبر، موضوعاً لإعادة تكييف وظيفي. ويعاد تكوين المكان المستعمل برمته في خدمة التجمعات السكنية الضخمة الجديدة.

وعليه فتفكيك المركزية ليس بالاتجاه الشائع، بل يجب أن يُفهم بوصفه انتشاراً تراتبياً منظماً لمساحة لا تزال محكومة باستقطاب عال. فالمكان هذا يجري تنظيمه من المركز نفسه، ولكن مع تبادلات تزداد شدة وبنوية حول نقاط استقطاب متقلة وتدفقات لم تعد لتمرّ بالمركز. يجمع المكان الثالث الوظائف الكلاسيكية كاحتياطي غذائي للعاصمة مع القدرة على إنتاج التحضر أو المدينة في المواقع نفسها من خلال رسملة الكفاءات والموارد البشرية. وتبرز بالنتيجة شبه بروليتاريا دنيا تجهد، من جهة، إلى تأمين قوتها اليومي من خلال فضلات آلة المتروبولات الضخمة، بينما هي توفر، من جهة ثانية، قوة عمل احتياطية تضمن على المدى البعيد استمرار الأجور المتدنية للعمالة وترباط الخدمات، من فرد إلى فرد، لجهة المشاريع التجارية والعمل الفردي الخاص.

ومن العيب إيجاد تحديد دقيق لمنتجات المكان الثالث ذاك، بل هي يجب أن تُفهم في إطار بنية متشعبة من نقاط الاستقطاب والممار. كما يجب الأخذ في الحسبان أنها تتوسع، وفي مكان ضيق كما هي المساحة القابلة للعيش في مصر، لتشمل المكان بأكمله. لذلك كله، سيبقى المكان في خدمة آلة التجمعات الضخمة التي تستمر في مراكمة عائداتها وقيمها المضافة؛ فلا تعيد توزيع العائدات تلك إلا في الحد الأدنى وفي حدود ما يضمن ترسيخ مركزيتها.

ثالثاً: إعادة توزيع السكان بعيداً من المركز

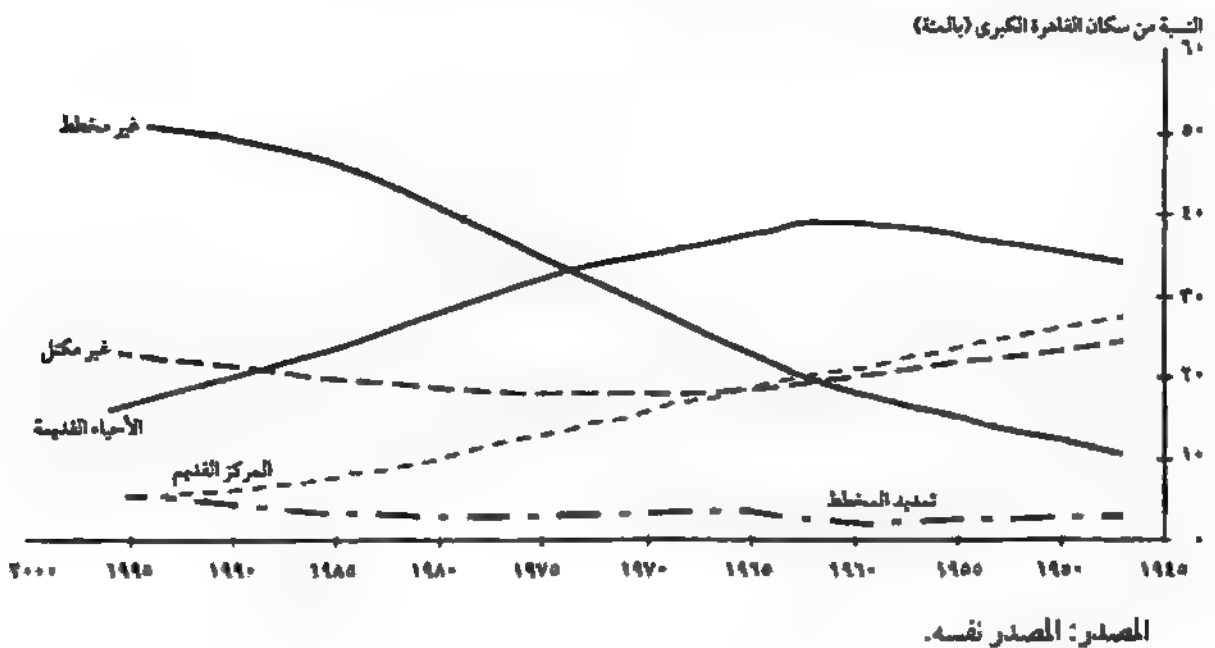
ترافق الهبوط المتواصل في نمو المتروبولات الضخمة مع توحيد الاتجاهات المدينية الداخلية. وكل زوايا التجمع السكاني تنحو منحى المعدل المتوسط. فمعدلات النمو، والكثافة السكانية بالتالي، صارت كلها متجانسة. وانتشر الهبوط الديمغرافي للأحياء المركزية الذي كان قد بدأ في الخمسينيات، وتحت ضغط تأكلها وإعادة الزواج باتجاه الأطراف، ليشمل الضواحي شبه المركزية - في شاهد إضافي

على تراجع الدور السكني لقلب التجمع السكني. وعلى الرغم من ذلك، فالبديل الوظيفي القادر على معالجة هذا الانحدار في سكن المركز والضواحي شبه المركزية لا يكاد يُرى. فالتآكل لا يزال مهيمناً، تبعاً للنقص في الاستثمار وخصخصة أسواق المُلْكِيَّة والعقارات.

تسارع على نحو غير مسبوق تآكل الوظيفة السكنية للأحياء المركزية. فلم يعد يعيش في حي الجمالية غير ٥٩٠٠٠ ساكن، في حين كان العدد عام ١٩٦٦، وفي حده الأقصى، ١٣٥٠٠٠ ساكن. وفي الموسكي أيضاً يعيش ٢٩٠٠٠ ساكن فقط، مقابل ٧٥٠٠٠ في بولاق. وقد سرَّع زلزال ١٩٩٢ من حركة نزاع المركزية هذه.

وإذا كان للقاهرة أن تسجل بعض النمو الإيجابي، الضعيف وفي حدود ١,١ في المئة سنوياً، فذلك بفضل التمدد السطحي نحو السهل الصحراوي المجاور في الشرق والشمال الشرقي. وبمعدل من النمو يبلغ ١٤ في المئة سنوياً يقطن حي السلام الشعبي الآن نحو ٣٧٠٠٠٠ ساكن مقابل ١٠٠٠٠٠ قبل عشر سنوات. وكذلك مدينة نصر، الضاحية السكنية التي أنشئت مطلع السبعينيات، فهي لا تزال تحافظ منذ عشرين سنة على معدل نمو يبلغ ٩ في المئة سنوياً، بحيث تضم الآن ٤٠٠٠٠٠ ساكن (انظر الرسم الرقم (٤٥ - ٣)).

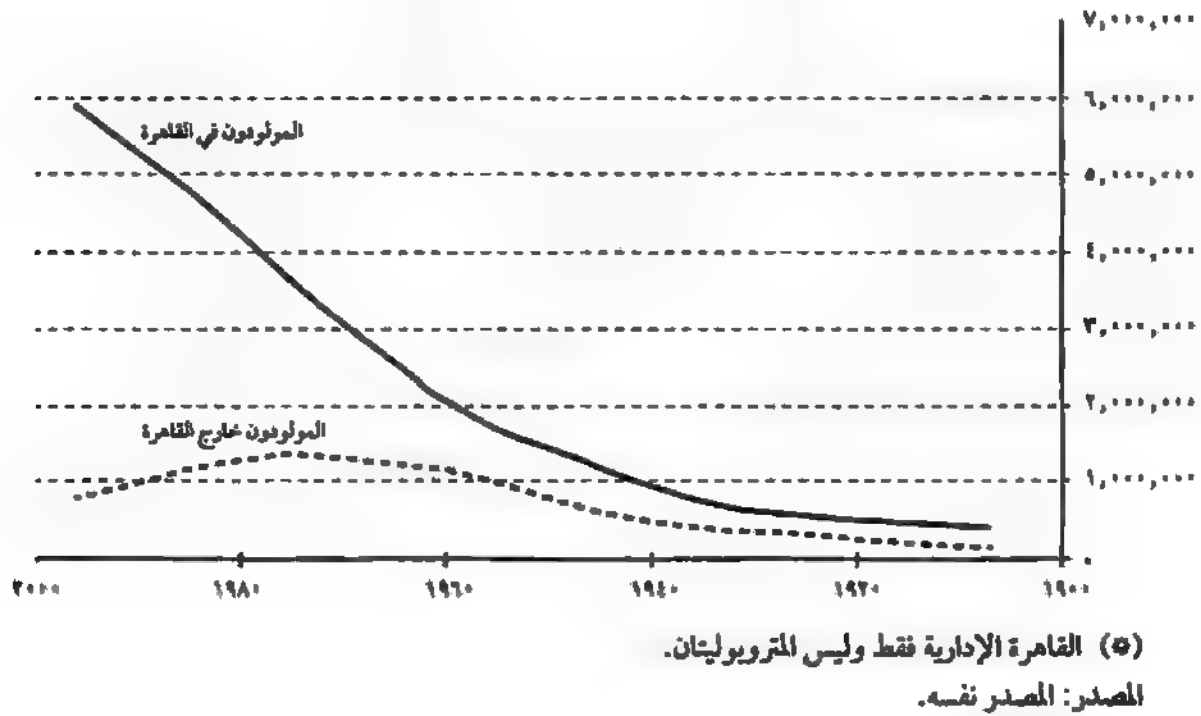
الرسم الرقم (٤٥ - ٣)
تطور عدد سكان القاهرة الكبرى



رابعاً: إعادة التوزيع السابقة للنزوح من الأرياف

من الأهمية بمكان، وإلى أقصى حد، ملاحظة أن العاصمة لم تعد تجذب النازحين من المحافظات. في عام ١٩٦٠ كان ٣٥ في المئة من سكان القاهرة من مواليد خارج القاهرة، بينما هبطت النسبة تلك إلى أكثر من ١٢ في المئة قليلاً في العام ١٩٩٦ (انظر الرسم الرقم (٤٥ - ٤)).

الرسم الرقم (٤٥ - ٤)
نسبة المولودين خارج القاهرة من عدد السكان،
في تعداد ١٩٠٧ - ١٩٩٦^(٥): زمن الهجرة



شهدت كل من محافظتي الجيزة والقليوبية زيادة سكانية لا بأس بها من غير مواطنيها، وكان نصف هؤلاء نازحين آتين من القاهرة. ومع ذلك تبقى القاهرة بمركزها ومناطقها شبه المركزية ذات المباني القديمة المترهلة وبدلات الإيجار الزهيدة الوجهة المثلى لنصف المهاجرين من المحافظات.

وفي القاهرة يعيد هؤلاء توزيع أنفسهم أكثر من مرة وفق الاتجاهات الغالبة على حركة تجمعاتها. وإلى الشمال من القاهرة، بدأت القليوبية تؤدي دوراً رئيسياً في سكن النازحين الجدد. ويجب أن تفهم الظاهرة، كما في حال الجيزة، كانعكاس لانتشار المتروبول السكني الضخم. ويحل هؤلاء في قلب مركز المنطقة الأكثر قدماً وترهلاً، من

المدينة أو البلدة، محل سكانها الأصليين الذين يتقلون باطراد إلى ملكيات خاصة وإلى سكن بمواصفات أفضل في الأطراف.

هذه الحركة العكسية في النمو - أي ترحل المركز ونزوح الشباب منه - تجد تعبيراً لها في التناقص المتزايد لسكان قلب المناطق المدنية التي تغدو أكثر اتساعاً، يعززها توقف النزوح من محافظتي الجيزة والقليوبية. وفي خلال الإحصاء الداخلي بين عامي ١٩٨٦ و ١٩٩٦، كانت هذه المناطق قد خسرت نصف المليون من مجمل ساكنيها. وخسر هذا الحيّز، الذي يضم معاً قلب المدينة القديم، مركز الأعمال، والضواحي المتراجعة، أكثر من ١٤ في المئة من ساكنيه في خلال ١٠ سنوات.

في الوقت نفسه، كانت بقية أجزاء المتروبول تنمو بأكثر من ٤٠ في المئة، بفعل استقبالها المزيد من الشرائح السكانية الجديدة ويسبب النمو الطبيعي القوي المتصل بانتقال السكن الذي يلي الزواج. وفي الإجمال، بلغت الزيادة الإضافية ٣٠ في المئة في ١٠ سنوات ليرسخ اتجاه نمو أكثر وضوحاً في البلدات الصغيرة والقرى، وليس في التجمعات.

خامساً: الأحياء الشعبية غير المخططة، أو مستقبل القاهرة

تمثل اتجاهات السكن الجديدة للشباب، المفككة للمركز، عاملاً حيوياً يغذي إعادة توزيع السكان. وتنعكس الاتجاهات تلك في شيخوخة المركز وتراكم شبابي في الأحياء الطرفية التي تستقبل الأزواج الشباب وأطفالهم. وهكذا تجد في حي غير مخطط له، مثل العمرانية، أن ٢١ في المئة من السكان هم تحت سن العاشرة، بينما ٣,٥ في المئة فقط هم فوق الستين. وقد أدى معدل النزوح العالي باتجاه هذا الحي إلى زيادة إيجابية في عدد ساكنيه تبلغ ١٤٠٠٠٠ ساكن في ١٠ سنوات (١٩٨٦ - ١٩٩٦). وتقوم بنى شبيهة بتلك في أحياء أخرى مثل بولاق الدكرور، المطرية، حلوان، شبرا الخيمة، والحوامدية (انظر الرسم الرقم (٤٥ - ٥)).

وعلى النقيض من ذلك، فإن شريحة من هم تحت سن العاشرة في حي مركزي مثل قصر النيل، لا تتعدى ٧ في المئة من ساكنيه، في حين أن ١٢ في المئة هم فوق الستين. إن أحياء مثل المعادي والزمالك، والدقي أيضاً، هي أحياء تزداد هرمياً. وعلى الرغم من تأثير اتجاه النزوح السلبى في «الأقسام» المركزية، فإن بعضها مثل حي الجمالية لا يزال

يحتفظ بشريحة أطفال عالية (١٥ في المئة)، بينما معدل الذين يبلغون الستين هو أقل من ٥ في المئة، الأمر الذي يشير إلى صمود قاعدته الشبابية.

الرسم الرقم (٤٥ - ٥)

الاحتكاك بين حي بولاق الدكرور حيث السكن الشعبي غير المخطط،
ومنطقة المهندسين السكنية في الجيزة



Ikonos, 2000.

المصدر:

وعلى الرغم من استمرار وجود التمايزات، فالاتجاه الغالب هو توحيد الصور الديمغرافية. فنسبة من هم تحت سن الـ ١٥ يستقر كما يبدو عند حدود ٣٢ في المئة من إجمالي السكان، أي ٤ ملايين. هذه النتيجة، التي تتطابق مع انخفاض معدل الولادات في الأحياء الشعبية الطرفية أيضاً، إنما تدين للتحسن النوعي للجهاز المدرسي - لجهة تعزيزه وتحسين نوعية أدواته على الأقل وفي أحياء كانت، إلى الآن، مهملة بسبب ظاهرة البناء العشوائي فيها.

في المقابل، زاد وزن الشريحة السكانية بين ١٥ و ٦٠ سنة، أي الشريحة المنتجة من حيث المبدأ، وعلى نحو ملحوظ. فهي تقدر الآن بـ ٨ ملايين نسمة، مقارنة بـ ٦

ملايين قبل ١٠ سنوات. هذه الزيادة، نتاج الولادات ما بين ١٩٧٠ و ١٩٨٠، هي التي تضغط بقوة على سوق العمل. فهي ليست عامل تطور باتجاه عمالة كاملة، أو في زيادة الاستقرار، أو في زيادة الأجور. هي بالأحرى عامل أساسي لمقاربة التحضر من زاوية الأمن، مقاربة ما انفكت ومن دون توقف تلقي بظلمها على التجمع السكاني الضخم، دافعة من يستطيع إلى الالتحاق بالمدن الخاصة (المجمعات ذات البوابات)، تنشأ بعيداً في الصحاري وخلف أسوار عالية.

سادساً: إعادة توزيع الكثافة السكانية ولكن من دون انخفاضها

تُظهر النقلة باتجاه الأحياء العشوائية ميلاً إلى التراجع: فالأحياء تلك بدأت تسجل انخفاضاً في معدل النمو السنوي. وهي الآن، كمعدل عام، ٧, ٢ في المئة، مقارنة بـ ٩, ٥ في خلال العقد السابق (١٩٧٦ - ١٩٨٦). بل هي أكثر انخفاضاً من نسبة نمو «الأقسام» القريبة من المركز التي تبلغ ٢, ٣ في المئة، الأمر الذي يظهر انتشاراً لحركة التزوح بعيداً من المراكز.

إن مراوحة معدلات الكثافة السكانية للتجمعات الكبرى عند المعدل العام، وبحسب المكان والمجتمع، هي نتيجة مباشرة للآلية الديمغرافية تلك في فكفكة المركز لمصلحة الأطراف. ومع ذلك، لا تتبع القاهرة في شكل إعادة توزيع السكان الأنماط الأكثر رواجاً في العالم. فمعدل كثافة التجمع تبقى في المحصلة الأخيرة عالية إلى أقصى حد. بل هي، وبمعدلها الذي يبلغ ٢١٧ ساكناً للهكتار، أحد أكثر التجمعات السكنية كثافة في العالم، إلى جانب بومباي وجاكرتا وعدد آخر من المدن الآسيوية الضخمة. وهي تزيد كثيراً على معدلات كثافة مدن أمريكا اللاتينية أو أفريقيا. فالكثافة السكانية لمكسيكو لا تزيد على ٣٠ في المئة في الهكتار الواحد، بينما هي ٢٠ في المئة في ساو باولو^(٦).

وإذا كان سكان المركز يتراجعون لأكثر من ٢٠ سنة، فإن الأحياء الطرفية الشعبية لم تُظهر مع ذلك غير انتشار طفيف، بسبب ندرة الأراضي وأسعارها العالية بالتالي. وبالنتيجة، فإن التمدد الشعبي، أي البناء في غياب مستثمرين كبار، الذي يتجاوز بالتالي خرائط التخطيط الموضوعة للأمكنة تلك ويحتال على الأنظمة، فيولّد مكاناً مديناً عالي

François Moriconi-Ebrard, *GEOPOLIS: Pour comparer les villes du monde*, Collection Villes (٦) (Paris: Economica, 1994).

الكثافة السكانية. أدت قوة حركة الانتشار الشعبي هذا إلى جعله القاعدة، وهو يمثل اليوم ٦٠ في المئة من سكان القاهرة. ويمكن مقارنة معدل كثافة الأراضي الجديدة هذه بتلك في المدينة القديمة. فهي إمبابية مثلاً، الذي بلغ درجة التشبع السكاني الأقصى، بات لا يسجل من معدل نمو الآن غير ١ في المئة في مقابل أكثر من ٩ في المئة في الستينيات والسبعينيات، ويظهر بالتالي بوصفه «القسم» الأكثر كثافة سكانية في الكتلة الكبرى بمعدل يصل إلى ٨٠٠ نسمة في الهكتار الواحد.

وعليه، فأنماط إنتاج وسكن أطراف المتروبول لا تتوافق بالضرورة مع نمط الانتشار شبه المديني الكلاسيكي؛ وتبقى الظاهرة هذه هامشية. وهكذا، فعلى حركة الانتشار السكاني أن تتعامل أكثر مع صور الأحياء القديمة لا مع مظاهر النمو غير المخطط التي غزت كل مكان متاح وإلى أقصى حد - والتي يمكن ملاحظتها في المساحات الواسعة، الشعبية وغير النامية غالباً، والمحيطه بالمتروبولات الكبرى الأفريقية والأمريكية اللاتينية. إن معظم السكن الشعبي هنا بُني بشكل غير شرعي على أملاك خاصة وعبر صفقة ما.

ومع ندرة الأراضي المتاحة، يبلغ البناء عمودياً الذروة مع حد أدنى لشبكة الطرق والخدمات العامة، وكل ذلك في غياب السلطات الرسمية. كما يغيب حق الشفعة أو أولوية الخدمات الجمعية، أو إمكان فرض نسبة إشغال معينة للأرض، إذ البناء ممنوع قانوناً في الأصل. أما تصميم المباني وتوزيعها فيخضعان كلياً، وعلى نحو مسبق، للتنظيم الزراعي ونظام الري.

في الضواحي الكثيفة جداً هذه، التي هي على تماس مباشر مع التجمع السكاني، يغيب الخوف من أن يكون الساكن مقصياً أو بعيداً جداً نظراً إلى القرب الشديد من المدينة الشرعية أو المراكز: ففي القاهرة مثلاً تقوم الأحياء غير المخططة مثل بولاق الدكرور، وإمبابية، على مسافة أقل من ٣ كم من المركز الوظيفي. أكثر من ذلك، فإن نفقات تجهيز هذه الأحياء، لجهة النقل والمياه والكهرباء والصرف الصحي وما شابه، ومع اتجاه للبناء عمودياً، هي أدنى كثيراً مما هي عليه في الأحياء المخططة. وهكذا يتنج ساكنو المدينة، وهم الأغلبية العظمى لمواطني القاهرة، تنظيمًا مدينيًا دقيق التخطيط، وعلى نحو يقاوم الجوار والأحياء المكتظة.

هناك انتشار واضح بالتأكيد، ويتضح ذلك من معدلات النمو العالية في الممار أو المسطحات الصحراوية التي جرى تطويرها؛ ومع ذلك فإن البناء الشعبي وبعيداً

من المركز لا يزال يقاوم الحركة هذه. وعلى العكس، فإن الاكتظاظ، لا الانتشار، هو القاعدة. وبسبب التجهيز والانفتاح، فإن أمكنة الأحياء تلك تشهد بسرعة نهوض جيل جديد من الأبنية، أعلى وأحسن شكلاً. لم يعد هناك من دفع نحو الأطراف، إلا في حالات الإشباع القصوى أو في حالات الارتفاعات الحادة في أسعار العقارات من ضمن حركة أسواق العقارات أو صفقات التملك الشرعية. وهكذا تُزاح الأسر الأكثر فقراً، بواسطة ارتفاع الأسعار والإيجار، فتذهب شطر مناطق أبعد. فبين عامي ١٩٩١ و١٩٩٨، انتشر السكن غير المخطط بحدود ٢٥ كم نحو الأطراف، أي بمعدل نمو ٣,٢ في المئة سنوياً (انظر الرسم الرقم (٤٥ - ٦))^(٧).

سابعاً: إعادة تعريف الملكية المتاحة

تجري عمليات إعادة التوزيع تلك وفق دينامية الملكية العقارية. تلا التراجع الديمغرافي للمركز تدني حجم السكن البدائي (الخيم، ومنازل الطين والخشب) ومدن الصفيح. يتمركز معظم هذا السكن البدائي، في قلب المدينة والضواحي القديمة مثل بولاق، على السطوح أو في الباحات المقفلة.

أخلت هذه الحالات الاستثنائية، خارج مظاهر التفجر السكاني التقليدي في القاهرة، الطريق لسكن الأطراف، أي لشقق من ثلاثة أو أربعة أدوار. في عام ١٩٩٦ باتت المساكن البدائية في القاهرة الإدارية لا تمثل أكثر من ٢,٥ في المئة من إجمالي عدد المباني، بينما كانت النسبة ٥ في المئة في عام ١٩٨٦. حتى في هذه الحالة هي تبلغ ١١٠٠٠ وحدة سكنية فقط يعيش فيها نحو ٥٠٠٠٠ ساكن لا أكثر.

وبالمثل، هبط عدد المنازل ذات الغرفة الواحدة أو المنازل المشتركة في القاهرة من ١٥ في المئة إلى ٩ في المئة من إجمالي عدد المساكن. بتعبير آخر، فقد استقر السكن متاح عند نحو ٢٦٤٠٠٠ وحدة سكنية، يضاف إليها ٧٠٠٠٠ في الجيزة و٣٤٠٠٠ في القليوبية. وهكذا لا يزال ١,٥ مليون يعيشون في منازل بدائية نسبياً، نظراً إلى عجزهم عن الحصول على سكن في الأحياء المخططة ولا حتى في الأحياء الشعبية الجديدة.

Eric Denis et Marion Séjourné, «Le Caire: Métropoleprivatisée,» *Urbanisme*, no. 328 (janvier- (٧) février 2003), pp. 31-37.

الرسم الرقم (٤٥ - ٦)
سكن شعبي غير قانوني على حافة أرض زراعية خاصة - الجيزة



المصدر: David Sims, «The Cairo Case,» in: *Understanding Slums: Case Studies for the Global Report on Human Settlements 2003* (London: UN-Habitat and DPU, 2003).

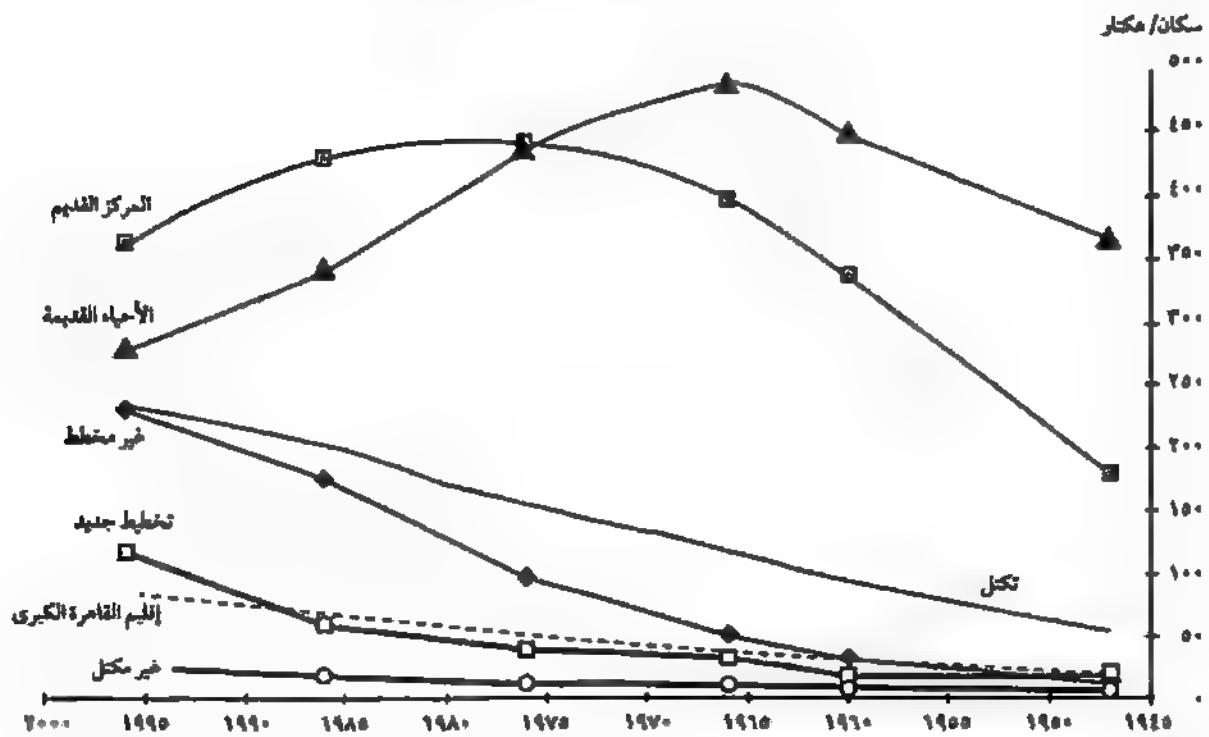
الرسم الرقم (٤٥ - ٧)
سكن شعبي غير قانوني على حافة أرض زراعية خاصة - الجيزة



المصدر: المصدر نفسه.

تزايد عدم التوازن في عدد المنازل المعروضة في مقابل حركة الطلب مرة أخرى بين ١٩٨٦ و ١٩٩٦؛ فقد ازداد حجم البناء ٣٠٠٠٠٠ وحدة سكنية مشغولة جديدة و ٢٤٨٠٠٠ وحدة شاغرة. وحجم السكن الجديد الشاغر في القاهرة اليوم، كما في سائر مدن مصر، هو أكبر مما كان عليه قبل عشر سنوات. ففي القاهرة اليوم ٤٨٦٠٠٠ وحدة سكنية شاغرة مقارنة بـ ٢٣٨٠٠٠ في عام ١٩٨٦؛ أي ١٧ في المئة من إجمالي المساكن، مقابل ١٤ في المئة. وفي الجيزة ٢٦٥٠٠٠ وحدة سكنية شاغرة، أي ٢٢ في المئة من إجمالي المساكن المتاحة، وفي القليوبية ٩٨٠٠٠، أي ٢٠ في المئة من إجمالي المساكن المتاحة، أي ٨٥٠٠٠٠ وحدة سكنية متممة ومسكونة. لكن الظاهرة هذه ليست، مع ذلك، بالأمر الجديد؛ فمنذ ١٩٨٢ كان يمكن ملاحظة أن ٢٠ في المئة من مساكن القاهرة كانت في الواقع شاغرة (انظر الرسم الرقم (٤٥ - ٨)).

الرسم الرقم (٤٥ - ٨)
نطور الكثافة السكنية حسب نوع الحي



E. Denis, SEDET (2004).

المصدر:

تضم هذه المُلْكِيَّة العقارية المتاحة، ولكن المجمدة خارج السوق، ٢٠ إلى ٣٠ في المئة من المنازل القديمة المتآكلة التي لا تستطيع توفير بديل فوري للسكن في الأحياء غير الشرعية. فهذه تقوم غالباً في المناطق المركزية أو شبه المركزية. أكثر من ذلك، وفي

حين تتزايد على نحو مطرد سوق الإيجارات التي لا يحكمها القانون في ما يخص البناء الجديد، فهي نفسها تبدو عاجزة عن توفير إعادة استثمار كثيف في المناطق المركزية للعاصمة حيث تحافظ المنازل القديمة على تدني إيجاراتها. يعكس تزايد عدد المساكن الشاغرة، جزئياً، قوة دينامية سوق الملكيات العقارية في الأطراف.

وهكذا، فإن ٩ في المئة من المليون ونصف المليون وحدة سكنية الجديدة التي شيدت في السنوات العشر الأخيرة في القاهرة الكبرى، إنما كانت في مدينة نصر التي تحتوي على ١٣٥٠٠٠ وحدة سكنية تزيد على عدد العائلات الساكنة، وهذا يعني أن لديها إمكان مضاعفة عدد السكان من دون الحاجة إلى أبنية جديدة. ولا يستثني ذلك حتى الأحياء غير النظامية، إذ تحتوي على ٥٠ في المئة من المساكن غير المشغولة. وهنا أيضاً فالمخزون الموجود قادر على مضاعفة عدد السكان من دون أبنية جديدة. وعدم القانونية هنا ليس عائقاً يحول دون المضاربات الاستثمارية ما دام البناء يندرج في إطار التجمع السكاني الكبير.

ثامناً: بيئة الاندماج الجديد في السوق

تميل المدينة ذات الأصل الشعبي، التي تتكرس أبنيتها بالممارسة لا بالقانون الوضعي، إلى أن تكون سمة مشتركة ومعماراً للعيش لدى الناس. يتركز النقاش اليوم على كيفية شرعيتها أكثر مما هو على العمليات الآيلة إلى إبقائها مهمشة واحتواء طاقتها المتدفقة دونما توقف. والدافع وراء هذا التغيير في النظرة ليس عمل الخير، وإنما التشديد على بيئة مدينية كبرى جديدة تقود إلى إعادة تحديد التجمع المديني ككل ومكوناته. والهدف هو الإدماج كيما تسهل السيطرة؛ والاعتراف، في سبيل الإبداع داخل المدينة، بالجمهور، وبدافعي الضرائب الجدد وهم جزء من المجتمع؛ وأخيراً لإنشاء حيوية قوية شفافة يكون لها سهم مهم في ثروة التجمع المديني^(٨).

لقد حدث النقيض عند مفترق الثمانينيات والتسعينيات، مع التراجع في التزوج السكني باتجاه القاهرة ومَدِينَةُ المحافظات. كانت أنماط التدخل منصبّة، حتى ذلك الوقت، على المدينة، أي كيفية حماية القاهرة ومواطنيها. وقد هدفت المخططات

(٨) يمثل المخزون العقاري غير القانوني، والمقدر من ٥. دو سوتو (١٩٩٧) بـ ١٧٥ مليار دولار، رأس مال هو خارج السوق، يساوي ٢٢ مرة رأس المال المالي الموظف في بورصة القاهرة، أو ٤٠ مرة إجمالي الاستثمارات الأجنبية في مصر حتى عام ١٩٩٦.

المتعاقبة إلى الحؤول دون المزيد من تضخمها والعمل على الدمج بين وظائف الأجزاء المختلفة^(٩).

هدفت السياسات إلى حماية المدينة، التي كوّنت صورة لنفسها كضحية لاجتياح أبناء الأرياف لها، من الغزو الذي تسبب بكل أمراض المدينة. كان الريفيون هؤلاء، الفلاحون في الغالب، هم «الآخر»، الغرباء، وكبش المحرقة. وهكذا جهّزت المدينة بطريق دائري كانت وظيفته أن يعيّن الحدود الشرعية للمدينة. ما ليس داخل السوار تلك هو غير موجود، ولا يمكن أن يكون بالتالي مجالاً لأية إنشاءات أو خدمات. وعليه فالمدن الجديدة هي البديل الشرعي الوحيد، على نقيض ازدهار التجمعات السكنية غير المخططة.

ومع ذلك، وأياً تكن سياسات احتواء البناء غير الشرعي تلك، فهي باءت بالفشل؛ لأنها انحرفت عن هدفها الأصلي. وكان النمو السكاني للمدن الجديدة بطيئاً جداً. وهو فشل كان مرتبطاً بالحاجة إلى الرحرحة صوناً للسلم الاجتماعي، ولشبكات المحسوبة، أو لطبيعة المضاربات على البناء ذاته، وأخيراً للميل المستمر لكل ما يخفض الدين العام. وإنشاء الإسكان العام أمر لا يمكن عزله عن الرغبة في بعث الحيوية في قطاع مواد البناء - الفولاذ والإسمنت - وفي قطاع البناء نفسه: الصناعتان المهمتان والضرورتان لجيل شاب مستقل منذ الستينيات.

ومنذ عام ١٩٩١، حين جرى توقيع اتفاقية مع صندوق النقد الدولي في خصوص هيكله الإنفاق العام والخصخصة، كان على طرائق التفكير والعمل أن تتغير. لم يعد ممكناً فرض إسكان شعبي بديل من خلال الإنفاق الاجتماعي العام. إذا توافر للناس أن تسكن على طريقتها، ومن جيبتها الخاص، فليكن ذلك ويتم الاعتراف به. وذهب البعض بهذا المنطق الليبرالي إلى نهايته فاقترحوا على وزارة المالية المصرية أنه ما دام الاعتراف بـ «رأس المال الميت» هذا حصل^(١٠)، ففي الإمكان تحويله إلى رهن عقاري، وإلى مصدر هائل بالتالي لرأس مال متيج يجعل التجمع السكني الكبير أكثر دينامية، كما يساعد على دمج ساكنيه. وأعطى الجانب الصناعي من تجارة البناء دعمه للاقتراح داعياً إلى تشريع البناء وتحويل الأرض، ليعوّض حرمان قطاع الإسكان المال العام. وهو

Galila El-Kadi, «Trenteans de plantification urbaine au Cairo», *Revue Tiers-Monde*, vol. 31, no. (٩) 121 (1990), pp. 166-185, et Denis, «Le Cairo: Quand la ville débordé sons enceinte».

(١٠) هي كلمة دو سوتو في: *The Mystery of Capital: Why Capitalism Triumphs in the West and Fails Else* (London: Basic Books, 2000).

صرّح علناً أن البناء غير القانوني هو سوقه الرئيسي؛ فإن تقف بالتالي ضد البناء الشعبي سيعني أنك تقف بالنتيجة ضد التوسع الصناعي.

هكذا غدا المسكن الشعبي شيئاً عادياً تماماً، حتى وإن لم يجر تنظيم شرعته، أو واجه أشكالاً موروثية من المقاومة، وبخاصة من الإدارات، لمساواة هذا السكن بالمواطنين العاديين. وفي الحقيقة، فإن هذه المقاربة القانونية والليبرالية، التي تقلّص دور الدولة إلى مجرد ناطور للملكيات الخاصة، تنطوي على الكثير من التبسيط. فهي تولّد مساحات لا تبدو الإدارة مجهزة لخدمتها وإدارتها. وتشير دراسة وزارة المالية إلى أنه يجب تسوية أوضاع ٩٢ في المئة من العقارات المبنية و٨٨ في المئة من الأنشطة^(١١).

وتبدو أشكال تسوية أوضاع معظم العقارات المبنية أمراً حيوياً جداً لمستقبل الأشكال المدنية ولمجتمع القاهرة. وبالإفادة من تجارب أجنبية، بدت المقاربات المطبقة خليطاً مشوشاً وحساسة من جهة الأهداف الاقتصادية الماكروية^(١٢). وقد أخذت في الحسبان تعقيدات الوضع اللاقانوني ودقته وعلاقة ذلك بالإجراءات التقليدية لتشريع الاعتراف بالملكية؛ بكلام آخر فوضى الاستخدامات القانونية وتجانس الأنسجة المحلية ذات الأصل الشعبي.

إلى ذلك، تهمل المقاربة الليبرالية الصرفة هذه وزن قطاع الإيجارات داخل المساكن غير المنظمة. وهي تؤوي أكثر من ٤٠ في المئة من العائلات المتدنية المداخيل التي كان لا حول لها ولا قوة أمام النقلة التي حدثت لوضع الأحياء ولقيمة إيجارات المساكن فيها. والأمر عينه ينطبق على كبار ملاكي العقارات الذين يغريهم الآن إعادة بيع أراضيهم والاستثمار في مناطق أبعد حيث لا يزال البناء ممنوعاً. وبالطريقة نفسها، بات توزيع سندات الملكية المحرك الأساسي لتوسع المساكن غير القانونية في مدن مثل مكسيكو وإسطنبول. وعليه باتت السلطات المحلية المعنية كما البرامج الدولية تفضل على نحو متزايد التعامل مع المقاربات التي تتسم بالشرعية وتحتوي على تجهيزات البنية التحتية والخدمات.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) Alan Gilbert, «On the Mystery of Capital and Myths of Hernando De Soto: What Difference Does Legal Title Make?», *International Development Planning Review*, vol. 24 (2002), pp. 1-2, and David Sims, «The Cairo Case», in: *Understanding Slums: Case Studies for the Global Report on Human Settlements 2003* (London: UN-Habitat and DPU, 2003).

من المنظور الاقتصادي والحسابي الصرف نفسه في تكوين التجمع السكني، ومن أجل تحقيق أغراض الجانب الصناعي من البناء وتوفير عوائد مالية، فتحت الدولة جذرياً، ومن دون أي قيود، أبواب المساحات الصحراوية المحيطة بالمدن الجديدة. فقد جعلت احتياطي الأراضي هذا بتصرف الشركات العقارية التي عملت على تطوير منتج واحد فيه: المدن الخاصة والمجمعات المحروسة. وهكذا، فإن مساحة ما لا تقل عن ١٠٠ كيلومتر مربع، أي ما يوازي ثلث مدينة استغرق إنشاؤها على ما هي عليه آلاف السنوات، باتت في غضون ١٠ سنوات فقط مكاناً سهلاً للبناء وتالياً للسكن.

تاسعاً: البيئة الاستثنائية الجديدة لمخاوف التجمعات السكنية الكبرى

تستجيب المدن الخاصة التي تحمل أسماء معبرة (يوتوبيا، دريم لاند، بيفرلي هيلز، بالم هيلز، أو القطامية هايتس)، لحاجات إعادة الهيكلة الإلزامية لقطاع البناء، الذي كان قد خسر سوق الإسكان العام. ومن أجل بيع هذا النوع من المساكن، الغربية على الاستخدامات المحلية، المتميزة، والتمايزة من حيث الكثافة، كان لازماً بذل مجهود كبير في التعامل مع جملة مخاوف ومخاطر مدنية.

تلاشى كلياً الخطاب حول المدينة الذي كان يصرّ بالحاح على ضرورة حماية المدينة من غزو الفلاحين، وحول ضرورة الدفاع عن اندماجها، لمصلحة صورة سلبية تماماً لانحطاط المدينة ككل، إذ لم يبق شيء ليجري الدفاع عنه. وقد شكّلت سلسلة أحداث بالتدريج نسيج صورة المدينة التي يجب تركها والانتقال إلى المدن المحروسة جيداً، أكان ذلك داخل مجتمعها والأفضل خارجه، بعيداً من الحشود والتلوث. وسلّط زلزال تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٢ الضوء على الأحياء الشعبية العملاقة، التي عجزت فرق الإنقاذ فيها عن دخول أزقتها الضيقة بعد تركها وإهمالها لفترة طويلة، لم يكن فيها من علامات أو إشارات مساعدة.

وللمفارقة، فقد لبّت النداء وبسرعة الشبكات التعاونية ذات المرجعية الإسلامية، وصاحبة التجربة الطويلة في حقلي الصحة والتعليم. لم يعد المسكن غير المنظم هو تلك الأرض المجهولة، أو أسوأ من ذلك، منزل الجماعات المعارضة العنيفة التي تستلزم الضبط المستمر. وكان يجب أن يلي ذلك التشريع القانوني والتجهيز. كانت المواجهات العنيفة مع الشرطة هي ميزة المراحل الأولى، وقبل أن تصبح الأحياء غير

الشرعية تلك يؤر معارضة عنيفة مع السلطات. وقاد ذلك غير مرة إلى تدخل الشرطة بأعداد كبيرة، مثلما حدث في حي إمبابية الشعبي أواخر عام ١٩٩٢. فقد جرى إعلان الحي جمهورية إسلامية مستقلة. أتى مصطلح «الحي غير الشرعي» في الوقت المناسب تماماً لحكومة قلقة تواجه المزيد من المعارضة العنيفة؛ فقد سمح بتحديد دقيق للخطر المنتشر في المجتمع، وعند أبواب المدينة تماماً؛ لقد تم العثور على كبش محرق. لم تعد مسألة فلاحين يندسون المدينة، بل مسألة شباب خطيرين ينتسبون بأعداد ضخمة إلى الجماعات الإسلامية الراديكالية.

وارتسمت من ثم بيئة موازية للواقع السوسيو-ديمغرافي وللزمن العالمي الجديد- القاهرة والشباب الإسلاموي. وكان غير بعيد من ذلك تصاعد الخطابات البيئية حول تلوث المدينة. وقد استندت إلى وقائع وحوادث حقيقية غذت المخاوف المدنية من مثل الدخان الأسود الذي يغطي التجمع كل خريف من كل سنة، وبسبب إحراق جذوع القطن. فضلاً عن تصاعد الحرارة حين تغدو الأرض في الليل أكثر سخونة فتجلب، في غياب الريح، كل أنواع الدخان والروائح.

قادت هذه الحوادث المنبّهة، وبعد اشتغال وسائل الإعلام عليها، إلى خيارات حاسمة لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً أن يعيش المدينة في الريف وأن يطلب الجنة على الأرض، في مجتمعه الخاص، مع مسبح و«جنة عدن»، في صفقة موحدة يروج لها أصحاب مشاريع المدن الخاصة، إضافة إلى كل مواصفات مجتمع «جنة عدن» الاستهلاكي، مثل الغولف ومدينة التسلية والمجمع التجاري. لم يعد من وجود للمدينة. ولم يعد من معنى للدفاع عنها. علينا فقط الفرار منها. وفي مثل هذه البيئة يزدهر بالتأكيد الحديث عن الأمن، وسوق الأمن (انظر الرسم الرقم (٤٥ - ٩)).

وفي كل الأحوال، لم يكن هناك من طريقة للاستمرار في حماية اندماج المرء، أو الاستمرار في البحث عن بديل من صنع الإنسان لمتزله الخاص، بعيداً من السكان العاديين. وجرى التعبير عن ذلك في أوساط الساكنين الجدد للمدن الخاصة: «لقد حان الوقت لتجرب مدينتنا على مستوى المدن الكبرى ومن دون انتظار تطوير مفترض أو تحسن في المجموع ككل». كان هذا الانعتاق من الحشد الكبير، وإشاحة النظر عن الحشد ذاك، مع الازدواجية المتزايدة في صور التجمع السكاني الضخم، أمراً لا مفر منه. كان ذلك ضرورياً لإعادة إنتاج نمط انقسام عميق غير متكافئ وأن يبقى على رأس تكاليف الإنتاج الصناعي وفق معايير سوق العولمة ورسميله وسلعه، وحتى من أجل ازدهار مجتمع خدمات الذي يحتاج بالضرورة إلى عمالة رخيصة.

الرسم الرقم (٤٥ - ٩)
فيلاً في مجتمع سكن الأحلام المسوّر - قرب مدينة ٦ أكتوبر،
الجيزة، ٢٠٠٢



المصدر: Eric Denis, «Le Cairo: Quand la ville débordé sous enceinte,» *Villes en Parallèle*, nos. 30-31 (2000).

ومع انتشار سياق من التراجع لا عودة عنه، يصبح ما هو غير شرعي رأس مالٍ مرناً لا تقف حركته المتصاعدة عند حدود البلدان المدعوة متطورة. إن دينامية تجمع ضخم مثل نيويورك تدين بالدرجة الأولى إلى كثافة استخدام شرائح تحت - بروتينية مستوردة أو هابطة. وكما في القاهرة، فالمجموع هو نسق يساهم في تلاقي المشاهد المختلفة معاً^(١٣).

وعليه فلا يجب الخلط، إذًا، بين السكن غير الشرعي والنمو غير الخاضع للسيطرة؛ هو بالأحرى نمط مديني يستند إلى أشكال من التدخل الاقتصادي والسياسي الذي يحتاج إلى تعزيز (انظر الرسم الرقم (٤٥ - ١٠)).

(١٣) انظر: Janet Abou Lughod, «Le Caire et New York vus de la rue,» *Revue Internationale des Science Sociale*, vol. 42 (1990), pp. 345-358.



المصدر: المصدر نفسه.

عاشراً: عودة الخاص مع شبه العام

ليس في وسع مجموع المدينة الخاصة أن يعكس ببساطة عودة العروض الخاصة كمحرك رئيسي في إحياء الأشكال المدنية وإعادة تكوين التجمّع السكاني الكبير؛ فهو يجلب معه أيضاً إصلاحاً لإدارة المدينة. وإذا كان ذلك ممكناً، عام ١٩٩٢، توصيف حي إمبابية متمرداً، بسبب عدم اعتراف خدمات الدولة به ثم التدخلات الانتهازية للمنظمات ذات المرجعية الإسلامية، فإن المواطنة الخاصة التي حلّت على الأرض أمراً واقعاً من خلال الإدارة الدقيقة للمدن الخاصة شكلت هي الأخرى نقيضاً كاملاً لسلطة الدولة. كان الشارون يفرون في الحقيقة من مدينة ضاعت، ومن فساد لا حدّ له، ويدخلون بالتالي في عملية نفي لإدارة عجزت عن تقديم الخدمات الأساسية وصونها.

إذا كانت الدولة، من خلال برامج المدن الجديدة، قد قدمت البنى التحتية الأساسية التي تسمح للمدن الخاصة أن تتعش، وياعت الأرض التي جرى البناء عليها بأسعار

زهيدة، فالتطورات الحالية لا تصب في مصلحتها. فمثال السكن في مدينة بات موجوداً في مكان آخر. ويتضح ذلك، مثلاً، من قرار عدد من المدن الخاصة أن تطالب بسهم لها في الأرباح المحتملة على الأموال المشتركة الموظفة في سوق بورصة القاهرة. وتزداد قوة المواطنة «الخاصة» الناشئة وأهميتها أكثر فأكثر بحيث تبدو قادرة على فرض نفسها وقت تتعزز السلطوية. ومظاهر الخصخصة تبدو واضحة في الانتشار الكثيف للمجمعات التجارية، هذه الأمكنة شبه العامة حيث الدخول والخروج منها هما تحت السيطرة^(١٤).

كذلك كانت هناك تجربة أخرى مع الخصخصة في محاولة حل مشكلة الأحياء غير الشرعية، مع الرغبة - وإن بدا صعباً تحقيقها - في إيكال قطع من الأراضي في قلب الأحياء غير المجهزة لمقاولين، شرط تركهم جزءاً من استثماراتهم للخدمات الجمعية والسكن العام. فمع التخلي عن التخطيط الاستراتيجي الشامل، تراجعت مقاربات الدولة تلك في ضوء حاجتها الماسة إلى أموال، الأمر الذي قاد إلى تدهور شامل في قوة السلطة التنظيمية. ولم تعد حتى الحماية داخل المدينة أكثر من مجموع مبادرات خاصة غير منسقة، أو في أحسن الأحوال إجراءات موضوعة في خدمة مصالح المستثمرين. وتظهر من ذلك كله صورة مدينة قريبة مما كانت عليه قبل الاستقلال، أي مدينة قائمة على الامتيازات الخاصة، وقبل ذلك على المبادرات الأميرية أو الدينية (انظر الرسم الرقم (٤٥ - ١١))^(١٥).

لذلك فإن النقد الذي يصيب الصعوبات الحالية للمدينة إنما يستهدف في الحقيقة السياسات العامة التي أعقبت الاستقلال، وبخاصة النتائج المدنية التي ترتبت على السياسات تلك: صناعات التصنيع التي تحولت إلى مصدر للتلوث، الإسكان العام غير الصحي وبما يتجاوز الإسكان غير المنظم، تجميد الإيجارات، تدمير الملكيات التراثية، أو أيضاً الإدارات الرسمية الزائدة على اللزوم التي تخنق قلب المدينة. وعليه يتجه الكثير من النقد، الذي رأيناه، إلى شرعية دولة لا تستطيع رفع الضرائب، ولا تستطيع بالنتيجة غير غض الطرف عما يجري دونما حتى القدرة على تنظيمه. وقد أدى غياب نظام ضريبي على الأرض والملكيات، مع ذلك، إلى عدم الاعتراف بحقوق الساكنين؛ وحول أوضاع ساكني المدينة إلى علاقة زبونية، تسلطية وتعسفية، وإلى ما تحت هامش القانون.

(١٤) Mona Abaza, «Shopping Malls, Consumer Culture and the Reshaping of Public Space in Egypt», *Theory, Culture and Society*, vol. 18, no. 5 (2001), pp. 97-122.

(١٥) Jean-Luc Arnaud, *Le Caire: Mise en place d'une ville moderne, 1867-1907: Des interets: انظر: du prince aux societes privees*, La Bibliotheque arabe (Paris: ActesSud, 1998), and Andre Raymond, *Le Cairo* (Paris: Fayard, 1993).

الرسم الرقم (٤٥ - ١١)
تمدد السكن الشعبي غير القانوني على الأرض الزراعية



Ikonos (2002).

المصدر:

هذا فقدان لسلطة عامة، في مجال مبادرات تنظيم المتروبول، كشف أنه لم تكن هناك في الحقيقة سلطة مسؤولة، وأن الحقبة ما بين الاستقلال ويومنا الراهن قد ملأتها فواصل حدائية مستوردة، لم يكن لها غير تأثير هامشي في المدينة. وعلى وجه الخصوص، جرى، وبرعاية السلطات الرسمية، خلق أمكنة عامة مفتوحة للجمهور ككل - أي بما يتطابق ومواصفات المدينة الحديثة - لكنها لم تنجح في تحقيق تطلعات الأغلبية؛ لقد كان هناك أوبرا، حدائق عامة رائعة، وسواها.

وحين كانت تلك الأمكنة تقارب التطلعات هذه - الساحات، الحدائق، أو مراكز الشباب - كانت الأجهزة المعنية بها تعجز عن صيانتها. لقد بدا كما لو أن مصطلح «عام» قد أخفق في أن يحتل مكانة شرعية في المتروبول حيث الاستخدامات الموروثة من الشرع الإسلامي تُعلي وتضمن الملكية الخاصة، وتروج في الآن نفسه لفكرة أن الساكنين هم المسؤولون عن صيانة الأمكنة المشتركة. من هذا المنظار، فإن الطريقة التي احتكرت بها السلطة العامة سرعان ما تراجعت لتعود بدلاً منها، وينجاح، أنماط

العمل والإدارة الإسلامية، مثل الوقف، والحبوس. إن عجز السلطة العامة عن القيام بمسؤولياتها، واستقالتها أمام موجة التراجع، هما اللذان يفسران بدورهما غياب أي حس بالمسؤولية من مستخدمي الشوارع لصيانتها، والميل إلى توسيع الشارع من دون تردد؛ لقد كانت تلك ضروب من الاعتراض جرى غض النظر عنها.

وبخلاف ذلك، قدّم تصميم الممارّ وصيانتها، التي هي خارج المحاور الكبرى من مسؤولية الساكنين، الفرصة إلى هؤلاء لاستحداث تسهيلات مكانية وسيطة وسهلة وبما يؤكد الكفاية الجمعية المشتركة. وهكذا يمكن أن يكون هناك مكان يقدّم إلى الجمهور، إلى المستخدمين، أو في الحقيقة إلى المجتمع المحلي، وفي وسعه أن يوفر للعابرين، وللجوار، شيئاً ذا قيمة: نوافير مياه، مساجد، مدارس، مقاهٍ، حدائق، تجارة^(١٦).

بهذه الطريقة يجري، في المدن ذات المنشأ الشعبي، صنع المكان العام من الحضور المشترك والمبادرات الشخصية. وعلى الرغم من عدم الثقة بقدرة الدولة الحديثة - التي تتلمسها ومن دون أن تكون علنية دائماً - على إدارة الإرث المقتطع من السوق، فما يجب الاعتراف به هو أن الدولة تملك، في مدينة كالقاهرة، أكثر من نصف الأرض والإرث المبني، إضافة إلى كامل المناطق الصحراوية المحيطة. وهكذا، تصطدم مشاهد القاهرة، وبقوة، بثقل أو اتساع البناء أو الأرض خارج السوق، والتي لا يظهر دائماً للعيان حالها البائس بل المتدهور. وتتصل الدولة من مسؤولياتها حين تقوم ومنذ عشر سنوات بعرض هذه الأراضي والملكيّات الواقعة في مراكز المدن للبيع - مباني شركات التأمين القديمة وكذلك الأوقاف.

خلف حالات البيع هذه تقوم حاجة الدولة إلى المال، وكذلك التوجه الرسمي الثابت بالانتماء إلى العقيدة الليبرالية. إلا أن ذلك ليس السبب الوحيد: بل هي طريقة في تحليل الدولة من مسؤولياتها التي لا تستطيع أجهزة الدولة القيام بها. هو اعتراف بعدم الكفاية وعلى نحو بنيوي. ومن ناحية ثانية، يبقى هذا البيع الوازن للملكيات القديمة العامة آخر وسيلة في توجيه للتطوير المدني بيد أجهزة الدولة^(١٧)؛ فضلاً عن حقيقة أنها تشكل مصدراً مهماً للأرباح التي يتقاسمها المقاولون المقربون من النظام (انظر الرسم الرقم (٤٥ - ١٢)).

Jamel Akbar, *Crisis in the Built Environment: The Case of the Muslim City* (Singapore: Minor, (١٦) 1998).

Mostafa M. El Araby, «The Role of the State in Managing Urban Land Supply and Prices in Egypt», *Habitat International*, vol. 27, no. 3 (2003), pp. 429-458.

الرسم الرقم (٤٥ - ١٢)
رمزية السكن غير القانوني داخل منطقة القاهرة الكبرى



يتأكد مبدأ فواصل التحديث والتدخل في هيكله مدينة مثل القاهرة، وعلى مساحة زمنية طويلة، من خلال غياب الأشكال المدنية التي تكون نتاجاً لطبقة وسطى تتلقى دعماً مقصوداً من خلال التسهيلات العقارية. هذه الأشكال التي ميّزت إمكانات السكن في القرن العشرين، من المجتمع إلى القيل، التي صارت هي الغالبة في أنماط تمدد متروبولات الديمقراطيات الصناعية، غير موجودة في القاهرة. المسكن النموذج المستند إلى تسهيلات مؤسسية غير موجود. فهزال المداخليل وعدم استقرارها يحولان دون ذلك.

بكلام آخر، حتى إن المسكن ذا الأصل الشعبي يبقى ثمرة تراكم مالي عزيز، من الهجرة إلى بلدان النفط الخليجية على سبيل المثال. وإلى ذلك، يفرض هذا التمويل المباشر للبناء أنماطاً معينة من العيش ومن الصور المدنية، من مثل العائد العالي مقابل الأرض، ومن ثم الكثافة السكانية العالية. ويتطلب ذلك أن تكون تكاليف البناء في الحد الأدنى، وخفضاً موازياً في ميزانية الأجزاء الأخرى من المشروع، وهو ما يعني خفضاً في فرص الإنفاق والاستهلاك.

عند الحد الآخر من هذا الطيف الاجتماعي، تساعد ضرورات الدفع نقداً على تشجيع أشكال البناء التي تُظهر من خلال التزيق والتنميق الثراء الشخصي لأصحابها. وتظهر أبنية التباهي هذه على أفضل صورة في المباني السكنية الفخمة الجديدة المشيدة في الصحراء، والتي ما عادت ملزمة بمراعاة الجوار، أو طريقة العيش في المتروبول. وتغدو طرائق العيش أو التعامل مع المتروبول أكثر خصوصية.

حادي عشر: استشارة الحنين والتراث كوسيلة للترويج للبيرالية

ترافق بيع الملكيات التراثية القديمة في قلب البلد مع السعي لتحديد المنازل والأبنية القديمة ذات القيمة المعمارية أو التاريخية بوصفها رموزاً للهوية أو لقيمتها المعمارية. وكما قيل فقد استند افتتاح سوق العقارات إلى مضاربة على «الفراغ»، أي على الفضاء المركزي والرمزي خارج السوق.

يتوافق هذا العمل على إعادة كتابة التاريخ المدني من خلال الانتقاء وطريقة حفظ الآثار المبنية في الماضي ليس فقط في تفعيل الأرض داخل المدينة وسوق العقارات، وإنما مع التحول الذي حدث للقيم المرافقة لذلك؛ فترميم المعالم التاريخية بات يستبدل بمقاربة وفق الحيّ ويهدف توحيد وتجانس الصورة المثالية التي يجب أن تعكسها هذه

الأحياء المركزية القديمة مع الاستخدامات المتوقعة لها. وعليه فالمدينة - المكان المعقد والمتعدد، الاستقطاب الشعبي، الدين كما الحِرَف والتجارة - باتت موضوعاً لبرنامج محافظة يأمل أن يحولها إلى متحف خارجي مفتوح.

وفي النتيجة، غدت طريقة تلقيها محددة ومقننة وفق محددات عابرة للقوميات، تجارية، وسياحية، تبث صورة شرق إسلامي بجوامع البرّاقة، وأسواقه، ومقاهيه. لا يمكن بالتأكيد محو طرائق العيش والعمل في المدينة بسهولة، لكن ترحل السكن الشعبي يقدم الفرصة لتسريع تفتت مناطق الأنشطة الحرفية غير المتصلة بالسياحة ويضعف مقاومة الميل إلى إضفاء الطابع الفولكلوري على مشاهد المدينة واستخداماتها. وبحسب المنطق هذا، فإن التشريع وفق قواعد عالمية عابرة للحدود لا يهدف فقط إلى خدمة وظائف تجارية متصلة بالسياحة الدولية، بل هي أيضاً طريقة في تكييف إسلام تعددي وشعبي في تناول كل إنسان، في حين تبقى إعادة تعيين وظيفة هذه المركزية المفقودة القاعدة للمدينة لا لقلبها.

إضافة إلى التفكك المحتمل الذي أصاب الأجواء المدنية، وبفعل اختلاط الاستخدامات، فإن تحويل المركز القديم إلى متحف تحت اسم «المدينة الإسلامية» أو «المدينة الفاطمية» (حتى لو كانت معالم هذه الحقبة قد اندثرت كلياً تقريباً) قد ترافق وعلى نحو متزايد مع حملة ترميم سريعة للقصور والمساجد؛ في معرض يراد له أن يبقى نظيفاً ناعماً ومتوهجاً، ولو على حساب الأشكال الأصلية وما تركه الزمن حقاً. هو حديث عن الدوافع، وهذه المرة عن الأغراض الضمنية المستهدفة، من إعادة تكوين بيئة الآخر من خلال عيوننا نحن، وخارج الزمن، كما ربما كان المعرض العالمي (شارع في القاهرة) في باريس عام ١٨٨٩. وتغدو الحالة فاقعة أكثر في هضبة الأهرام في الجيزة، غرب القاهرة، حيث جرت وعلى أرض عذراء إعادة تكوين معمارية لسوق شرقية بشوارعها وساحاتها، وبالطبع متاجرها - خان العزيزة!

هذا التثوير والتعظيم لروائع الماضي لا يقف عند حدود المدينة القديمة ومعالمها؛ بل هو يؤثر أيضاً في المدينة الموروثة منذ نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. فجهود تسويق المباني التراثية بات له وقعه في المباني المهمة، والفيلات، ومجمعات الشقق، وسوق البورصة، والمصارف، والمجمعات المعمارية، وساحات قلب البلد، حيث بدأت تجزئة الأراضي فيها عند نهاية القرن التاسع عشر وظهرت المباني منذ مطلع القرن العشرين. وتأثرت أكثر من ذلك إنشاءات حديثة مثل الغاردن

سيتي وهليوبوليس. فقد توالى إجراءات الحماية القانونية والتصنيف والترميم وتكرر اللجوء إلى صور لعمارة مأخوذة من حملات الترويج للمدن الخاصة.

ولناخذ ببساطة مثالين هما مينا غاردن سيتي وهليوبوليس الجديدة. فالتجانس تام ويستلزم المستثمرين أنفسهم، دلالي قلب البلد، ومروّجي مدن الصحراء، مع واجهة تشير إلى حقبة مرجعية جديدة، العصر الذهبي الجديد للقاهرة، أي العصر الليبرالي. وحين تُعهد إلى رجال الأعمال مشاريع إضفاء الطابع التراثي على كل شيء فإنما يجري تشريع ذلك بوصفه مظهراً للمجتمع المدني. فقد جرى تجديد حي البورصة، وترميم الواجهات ورصف منطقة للمشاة تربط الشوارع المحاذية بواسطة تجمع لرجال الأعمال، وفي إشارة تضيء على أهمية المبادرات الخاصة، مع التلميح إلى أن مرحلة البناء الوطني بعد عام ١٩٥٢ كانت أكثر ضرراً من المرحلة الاستعمارية السابقة. والسائد الآن هو مراجعة التاريخ حيث امتد ذلك ليشمل إعادة تأهيل الملكية، من خلال إنشاء متحف في حلوان مكرس للملك فاروق. وفوق الوظيفة الجلية لخلق قيمة تصاحب تحرير الأراضي، الأمر الضروري لاستعادة المركز، مع الوظيفة الأخرى المعنية جداً بتفخيم الليبرالية حتى حين تتضمن إضفاء الشرعية على الإرث الملكي لمصر المعاصرة، فتتحول إعادة التأهيل تلك إلى قاعدة تاريخية لأشكال جديدة من نمط العيش في الصحراء. فالمدن الخاصة لم تعد مستورداً غير شرعي؛ بل هي الولادة من جديد لماضي المتروبوليس المجيد.

وقد جلبت مشاريع إضفاء الطابع التراثي معها أنماط البناء التي كانت سائدة مطلع القرن في إظهار للعراقة التي لا يخفي الحنين إلى ذلك الماضي عبر إحياء ليس أبنيته فقط بل الاستخدامات الاجتماعية للأبنية ولإطاراتها القديم أيضاً، وذلك في سياق جعل التاريخ والتراث حاضرين في المدن الخاصة الجديدة. والهدف، بعيداً من طلب الأصالة، هو تحريك مشاعر الحنين عبر نوستالجيا تفرض نفسها على الحاضر. هكذا يجري تصوير ما يجري استحداثه لا تذكيراً بالتاريخ فقط، بل استعادة لذلك التاريخ المفقود أيضاً.

ومثلما الموضحة، التي هي نتاج دمج عدة عوالم ومظهر لدوران متسارع حول العالم، تغدو العراقة أمراً مؤقتاً. وينضم هذا الاختلاق للزمن، من خلال نفي الحاضر بهدف تسهيل وتسريع الترويج والاستهلاك، إلى المخاوف المدنية الأخرى وليخلق بالتالي حالاً من عدم الاستقرار. هي دعوة للشخص إلى المبادرة إلى حماية نفسه، أي السعي إلى الحماية في ظل القلق المتزايد، واضطراب الحياة اليومية، وفي ظل التعقيدات القائمة والتبعية لمرجعيات متداخلة. هي طريقة في تشكيل متروبول، وإن بدا

أنه يعيد تفعيل أنواع التجمع القديمة، فهو لا يترك مكاناً للتساؤل حول مظاهر التمزق الاجتماعي - ولا يحاول حتى إلباسها شرعية موروثية.

خلاصة

بما أن البحث الحالي، كما كل عرض توليفي لمدينة ما، لا يمكن اختصاره في مجرد مجموعة حذرة من الملاحظات، بل يجب أن يقترح ممراً لمحاولة استعادة المجموع، بكل تفاصيله الصغيرة، وإعادة التماسك بين أجزائه، لذلك لا يخلو العرض الذي قدمناه آنفاً لمتروبول القاهرة من الثغر. هو يرمي، أساساً، إلى إلقاء الضوء على مسار معاصر من خلال التركيز الشديد على الاستقرار الديمغرافي وآثاره المكانية، وتحديدًا في تمدد المنطقة المتروبوليتانية وانتقائية إعادة توزيع السكان. وتلا ذلك تحليل وسائل الإنتاج وطرائق تحريك الأشكال المدنية التي صاحبها. ثم أظهر كيف يقوم نسق جديد، مكاني واجتماعي، بعلاقة أعيد تجديدها بفعل اللبلة الاقتصادية، وكيف جلب هذا الدمج معه إعادة كتابة التاريخ وإعادة تكييف الأشكال الموروثة. وقد أخذت قراءة المساحات الخاضعة للبناء في حالة المدن الخاصة، ونظراً إلى أنه جرت هيكلتها من خلال شرعة السكن غير المنظم، في الحسبان الفصل الاجتماعي وأولوية الأمن، في مقارنة واحدة في خدمة أهداف اقتصادية كلية.

علينا، عند هذه النقطة، أن نبليح لا محالة الخلاصة المحتملة، وهي أننا استبدلنا صورة التفجر الديمغرافي الطاعني الآن على كل قراءة للقاهرة، بالتأسيس لطغيان سوسيو - مكاني يعيد تلفيق مظاهر اللامساواة الظاهرة وعلى نحو كاريكاتوري، وإلى الحد الذي لا يعود موجوداً معه غير الإجراءات ذات القاعدة الأمنية، والمقاربات السلطوية، التي يُراد لها أن تعيد الإمساك بالكلّ معاً. عند هذا الحد يمكن القول إن خطر الانفجار لم يختفِ - لقد أخذ ببساطة مجرى آخر. إن الشراسة والسرعة اللتين تسمان هذه التغيرات تثبتان، بالممارسة، بتفاقم الانقسامات الأساسية. واستناداً إلى المنطق نفسه، فالصورة الراهنة لمدن العالم العربي - الإسلامي تشي بسلطة أمنية طاغية تسعى إلى السيطرة على الفوضى الاجتماعية والمعارضة.

وعلينا بالملاحظة نفسها حيال التقارير التي تصرّ - وهي تستتج أن الانفجار هو على الباب، من دون أن يكون بين أيدينا بابل جديدة مدمرة - ومن باب التبرير لعدم تحقق نبوءاتها: «ومع ذلك فنحن ذاهبون إليها». ومن دون إنكار طغيان الانقسامات الاجتماعية الحادة ومخاطر الانفجار الاجتماعي، مع الغياب التام لقنوات أو فرص

التعبير الشرعية أمام المعارضة، علينا الاعتراف أن المتروبول يحتوي على موارد تسمح للمجموع، المترابط بالضرورة، بالعمل معاً وخلق نظام من التبادلات السلمية لتسود الممارسة اليومية.

ويبدو مناسباً الآن (مع أن ذلك يذهب أبعد من هدف هذا العمل) دراسة أنماط تلقّي وتكييف هذه الموضوعات المدنية الجديدة التي تستدعي، سلفاً، الفرز والتصنيف. فمن وجهة نظر علم الاجتماع - القائمة على مقارنة تستند إلى التلقّي، والتفاعل، والاستخدامات، وليس فقط على المظاهر المباشرة والرسمية والحرفية - فإن التفاوض والتدجين، سمّي خليط المشاهد القائمة، أمران يجب عدم التنكر لأهميتهما. ثم ماذا لو أن هذا الذي لا يمكن اختراقه، أي المقاومة للوجود معاً واختلاط الاستخدامات التي تمكّن هذا التناقض الصارخ (والانطباع المباشر الأول دائماً) والمستمر؛ ماذا لو أن هذا تحديداً، الذي شكّل سمة المتروبول، أمكن من ثم قراءة قدرته هو نفسه على تجاوز التناقضات؟ فالمجمع التجاري مثلاً، الذي يمكن عدّه أحد مظاهر الخصخصة، هو أيضاً مكان عام جديد، ويذكرنا إلى حد ما بالسوق. فهو يتيح قيام استخدامات جديدة واختلاطات جديدة^(١٨).

إن العمل على تكييف مركزيات جديدة وبطريقة لا تتبع رغبات المستثمرين، حين يدفع هؤلاء مثلاً إلى إقامة متحف مفتوح، هي مقارنة تبدو ضرورية جداً. ثم إن الدراسات حول الطريقة التي تستطيع الأحياء الشعبية من خلالها النفاذ إلى اقتصاد المتروبول ستكون مفيدة كذلك. ولا داعي إلى التذكير أن لمرونة العلاقات والاستخدامات، والتفاوض، قصب السبق اليوم.

وبالمثل، فإن النقل والانتقال، اللذين لم نتطرق إليهما هنا، يمكن أن يحملا في تطورهما الأخير الشاهد على التصنيف والازدواجية معاً، على الرغم من الانحياز الواضح للأوتوسترادات السريعة وتالياً لسيارات الأحياء الجديدة ذات الوجهة والأعمال. ومع ذلك، فإن المرونة الملحوظة في قطاع النقل هي أيضاً عامل مرغوب فيه في تمكين أواصر الصلات. وهو يعزز القرب، على الرغم من اتساع المتروبول. كذلك المترو، فهو يميل إلى ردم الانقسامات العميقة ويعزز الوجود - معاً. وهو أخيراً يفرض ردود فعل مسؤولة، بحيث تغدو الخدمة مضمونة وجيدة.

(١٨) انظر: Abaza, «Shopping Malls, Consumer Culture and the Reshaping of Public Space in Egypt».

الفصل السادس والأربعون

إعمار بيروت

جو نصر^(٥)

إريك فرداي^(٥٥)

مقدمة

صوّرت بيروت تكراراً رمزاً للمدينة التي هدمتها الحرب، وحالة نموذجية في كيفية قتل الحضارة^(١)، ثم رمزاً لولادة مدينة من جديد من خلال إعادة إعمار وسطها^(٢). وأثنت على ولادتها من جديد المجالات العقارية، وسوّقتها على أنها المقصد السياحي المزدهر لمواطني الخليج العربي. تجعل الصورتان من بيروت مدينة خارج المقارنة، وخارج المألوف، وتصفانها بالمدينة الاستثنائية والرائعة.

ومع ذلك، إن استثنائية كهذه لا بد من تحدّيها. فالعاصمة اللبنانية تشارك من جهة قدرها، كساحة للحروب الأهلية والخارجية، ثم لإعادة إعمار لاحقة، مدناً أخرى مثل القدس وبغداد وحماة (وتقريباً حلب) ومقديشو وسرايفو وموستان وبلفاست، من بين

(٥) باحث مستقل متعاقد مع المعهد الفرنسي للشرق الأدنى - لبنان.

(٥٥) باحث في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS)، والوحدة المختلطة للأبحاث حول البيئة والمدينة والمجتمع - فرنسا.

(١) أفضل مثال معروف للتحليل الصحافي هو تحليل فريدمان، انظر: Thomas L. Friedman, *From Beirut to Jerusalem* (New York: Farrar, Straus, Giroux, 1989).

(٢) أعطي هذا المثال في عنوان كتاب من التسعينيات. انظر: Angus Gavin and Ramez Maluf, *Beirut Reborn: The Restoration and Development of the Central District* (London: Academy Editions, 1996).

عدد غيرها في أواخر القرن العشرين^(٣). لكن المدينة التي مزقتها الحرب هي، من حيث العنف المدني كما من حيث المخططات المدنية، حالة متطرفة. لهذا السبب يجب تحليل كلا العنف المدني والتنظيم المدني بوصفهما أداتين واعيتين بين أيدي لاعبين سياسيين لإعادة تشكيل المجتمعات المدنية والبلدان، على الصُّعد المحلية والإقليمية والعالمية. وعليه يجب إعادة موضعة المدينة، في حراكها المتعاقب بين السلم والحرب، في سياق تطورها السياسي والاجتماعي/الديمقراطي والاقتصادي. وهكذا يجب عدّ إعادة الإعمار سلسلة لحظات متعاقبة في ميزان الصراع السياسي.

من جهة أخرى، لا تختلف سياسات إعادة الإعمار المدنية إذاً، إلا في الدرجة، لا النوع، عن المخططات والمشاريع الهادفة إلى التغيير المدني بمعايير أكثر تعميماً. ولن تعد العثور على عدة أمثلة لاتجاهات معينة، لدى بعض المخططين، تزدري النسيج المدني القديم وساكنيه، باسم تحديث المدينة، أو إثبات حضور الدولة فيها، أو ضرورة تكييفها مع متطلبات العولمة الاقتصادية.

من الخطأ وضع صورة بيروت كمدينة الحرب مقابل بيروت المدينة التي أعيد إعمارها، لأنه كانت هناك أكثر من إعادة إعمار واحدة لبيروت، ولل علاقة المتلازمة بالتالي بين التدمير وإعادة الإعمار. لقد واجهت بيروت غير مرة، وعلى مر الزمن، تجربة إعادة الإعمار، ليس في فترات الحرب فقط وإنما على أيدي العثمانيين أيضاً، ثم في محاولات التحديث الفرنسية بعد الحرب العالمية الأولى. وحتى في أثناء الحرب الأخيرة لم يكن التمييز بين زمن التدمير وزمن إعادة الإعمار واضحاً، إذ إن مشاريع إعادة الإعمار كانت عنصراً في عمليات التدمير أو التهديم على الأقل. ثم إن فشل اتفاقيات السلام أثناء الحرب اللبنانية خرّب لمرتين على الأقل انطلاقة عملية إعادة الإعمار.

وتركت محاولات التغيير تلك، ومع فشل بعضها، بصماتها في موضوعي القيود القانونية وقانون الملكية (التي شرّعت الباب أمام نزع الملكيات، والتصديق على قوانين لم يجر تطبيقها) كما في عقليات وذكريات الكثير من الفاعلين. هذا الفشل وانعكاساته يلقيان ضوءاً جديداً على عمليات إعادة الإعمار.

(٣) لم يكن انعقاد المؤتمر العالمي لإعادة إعمار المدن بعد الحرب في بيروت في التسميات من باب المصادفة. توجد المحاضر المنبثقة عن الجلسات، في: *Reconstruction of War-Torn Cities: Proceedings of the UIA's International Conference, November 1997*, edited by Jad Tabet (Beirut: Order of Engineers and Architects, 1999).

نقطة انطلاقنا في هذا الفصل هي إعادة الإعمار المادي للمدينة، طريقة للإضاءة على عملية إعادة الإعمار بمعناها الأوسع^(٤). فإعادة الإعمار المادية إنما جرت في إطار سياسي واجتماعي/اقتصادي أعادت الحرب تشكيله. وتداخلت مع عملية إعادة الإعمار سياسات أخرى من حقبة ما بعد الحرب وعلى مستوى البلد، مثل المهجرين أو المصالحة أو تلك المعنية بقطاعات معينة (كالطرق والطاقة وغيرها). كذلك يجب عدم النظر إلى إعادة الإعمار كعملية مستقيمة بسيطة. فردود الأفعال على العملية الجارية كانت هي بدورها تعدّل وتغيّر في التصاميم الأولية.

يستوجب فهم إعمار بيروت أولاً لمحة تاريخية شاملة لتاريخ تحولات العاصمة اللبنانية قبل عام ١٩٧٥. وتتولى فترات الحرب ومخططاتها بعد ذلك مهمة تفسير التغيرات الجذرية التي أثرت في المدينة والسبب وراء فشل إعمارها. ونهي الفصل بتحليل مخططات فترة ما بعد الحرب ومشاريعها، مع التشديد على وسط المدينة.

أولاً: لمحة تاريخية عامة للتحولات في بيروت قبل عام ١٩٧٥

١ - من مدينة عثمانية هامشية صغيرة إلى عاصمة لدولة جديدة

حتى منتصف القرن التاسع عشر، كانت بيروت لا تزال مجرد مدينة عثمانية هامشية، إلى أن غيّرت من وضعها تدريجاً سلسلة من التحولات السياسية^(٥)؛ فقد نمت التجارة مع الغرب من خلال عدد من القرارات مثل: اعتماد الحجر الصحي ثم التحولات التي طرأت على المرفأ وشق طريق بيروت - دمشق. ونمت صلات وثيقة بمنطقة جبل لبنان الداخلية، من خلال إنتاج الحرير والتجارة، على الرغم من أن هذه المنطقة كانت مستقلة إدارياً في عهد المتصرفية. استقر الكثير من المهجرين المسيحيين في المدينة بعد مذابح عام ١٨٦٠ في دمشق وجبل لبنان. ثم جاءت تسمية

(٤) حول الفهم المتعدد لإعمار بيروت، انظر: Joe Nasr, «Reconstruction», in: Eric Huybrechts et Chawqi Douayhi, eds., *Reconstruction et réconciliation au Liban-Négociations, lieux publics renouement du lien social*, Les Cahiers du CERMOC; no. 23 (Beirut: Centre d'études et de recherches sur le Moyen-Orient contemporain, 1999).

بعض هذه المفاهيم موضح في بعض فصول هذا الكتاب.

(٥) يوجد العديد من المنشورات حالياً حول تاريخ بيروت الحضري بما فيه تحولها المادي. انظر مثلاً: Samir Kassir, *Histoire de Beyrouth* (Paris: Fayard, 2003); May Davie, *Beyrouth 1825-1975: un siècle et demi d'urbanisme* (Beyrouth: Ordre des Ingénieurs et Architectes, 2001); Jad Tabet [et al.], *Portrait de ville: Beyrouth* (Paris: Institut français d'architecture, 2001), et Robert Saliba, *Beirut, 1920-1940: Domestic Architecture between Tradition and Modernity* (Beirut: Order of Engineers and Architects, 1998).

بيروت ولاية عام ١٨٨٨ لتعطي المدينة وضعاً إدارياً جديداً. فخلال القرن التاسع عشر كانت تطورت تجارة بيروت وعدد سكانها على حساب سكان صيدا وطرابلس وتجارتهما.

وبعد الحرب العالمية الأولى، اختار الفرنسيون بيروت عاصمة لدولة لبنان الكبير، وهي كيان جديد، تمتد أطرافه أبعد من متصرفية جبل لبنان، ليضم وادي البقاع ومدينة طرابلس وسهل عكار وجبل عامل المطل على سهول فلسطين الواقعة تحت النفوذ البريطاني. وكسبت بيروت بهذه السيطرة على أراضي تتمتع بعلاقات أقوى بمدن أخرى، كدمشق بالنسبة إلى البقاع أو حيفا إلى جبل عامل. أما طرابلس، فقد حرمتها الحدود الجديدة مناطقها الداخلية الخاصة بها ومدن حوض العاصي في وسط سورية.

استطاعت بيروت أن تستفيد من عدد من التحولات السياسية والاقتصادية لتعزيز دورها الإقليمي بعد الحرب العالمية الثانية وبعد استقلال لبنان عام ١٩٤٣. فقد أدى إنشاء دولة إسرائيل [في فلسطين] وحرب عام ١٩٤٨ بين العرب وإسرائيل إلى إغلاق باب التجارة بين حيفا والمدن العربية. وتعززت نتيجة ذلك دور مرفأ بيروت ليصبح المرفأ الرئيسي لساحل المتوسط، مع مناطقه الداخلية الممتدة إلى العراق وشبه الجزيرة العربية في ظل زخم ازدهار تجارة النفط. ومع نقض اتفاقيات التجارة الحرة بين لبنان وسورية عام ١٩٥١ فرض مقترحو فكرة «جمهورية التجار» رأيهم على البلاد، فغدت رابطاً تجارياً بين الشرق والغرب.

استفادت بيروت في الخمسينيات من الهارين من الثورات القومية والاشتراكية في البلدان المجاورة، ومن تدفق الفلسطينيين الأغنياء، واستفادت كذلك من أولئك الذين جمعوا ثرواتهم من مدخول نفط الخليج العربي، وجلبوا جميعاً ثرواتهم إلى النظام المصرفي اللبناني واستثمروا في قطاع العقارات. واضطلعت سياسات السرية المصرفية والتجارة الحرة بدور حيوي في دفع الاقتصاد اللبناني. أصبحت بيروت وجبل لبنان مركزين سياحيين منذ الستينيات. وجعلت الشركات الغربية مكاتبها الإقليمية في بيروت حيث وجدت أمناً حكومياً مؤيداً للغرب وسكاناً موهوبين ومناخاً جذاباً ومطاراً يصلها بأي مكان في الشرق الأوسط. بهذا اعتمد دور بيروت الإقليمي على تزايد الطلب على اقتصاد الخدمات في المنطقة بأكملها.

لم يصل الرخاء الاقتصادي الذي عرفته العاصمة اللبنانية إلى جميع المناطق في لبنان. فكان هذا التناقض العامل الرئيسي للتزوح من الريف. وكانت النزاعات

السياسية الإقليمية قد دفعت بالكثيرين إلى الهجرة إلى بيروت أيضاً، فزاد عدد المهجرين، وهو ما ضاعف من نموها السكاني. استقبلت بيروت بعد الحرب العالمية الأولى اللاجئين الأرمن القادمين من كيليكيا جنوب الأناضول. وجاء دور الفلسطينيين بعد عام ١٩٤٨. ولم يكن عدد المهاجرين من الريف السوري، لأسباب اقتصادية، بالقليل. ونتيجة موجات المهاجرين تلك، نما عدد سكان بيروت من نحو ١٦٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٢٠ إلى ٤٠٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٥٠. وبلغ عدد سكان المدينة وضواحيها القرية ٨٠٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٧٠. لكن العدد الحقيقي للسكان كان يقارب ١,٢ مليون نسمة.

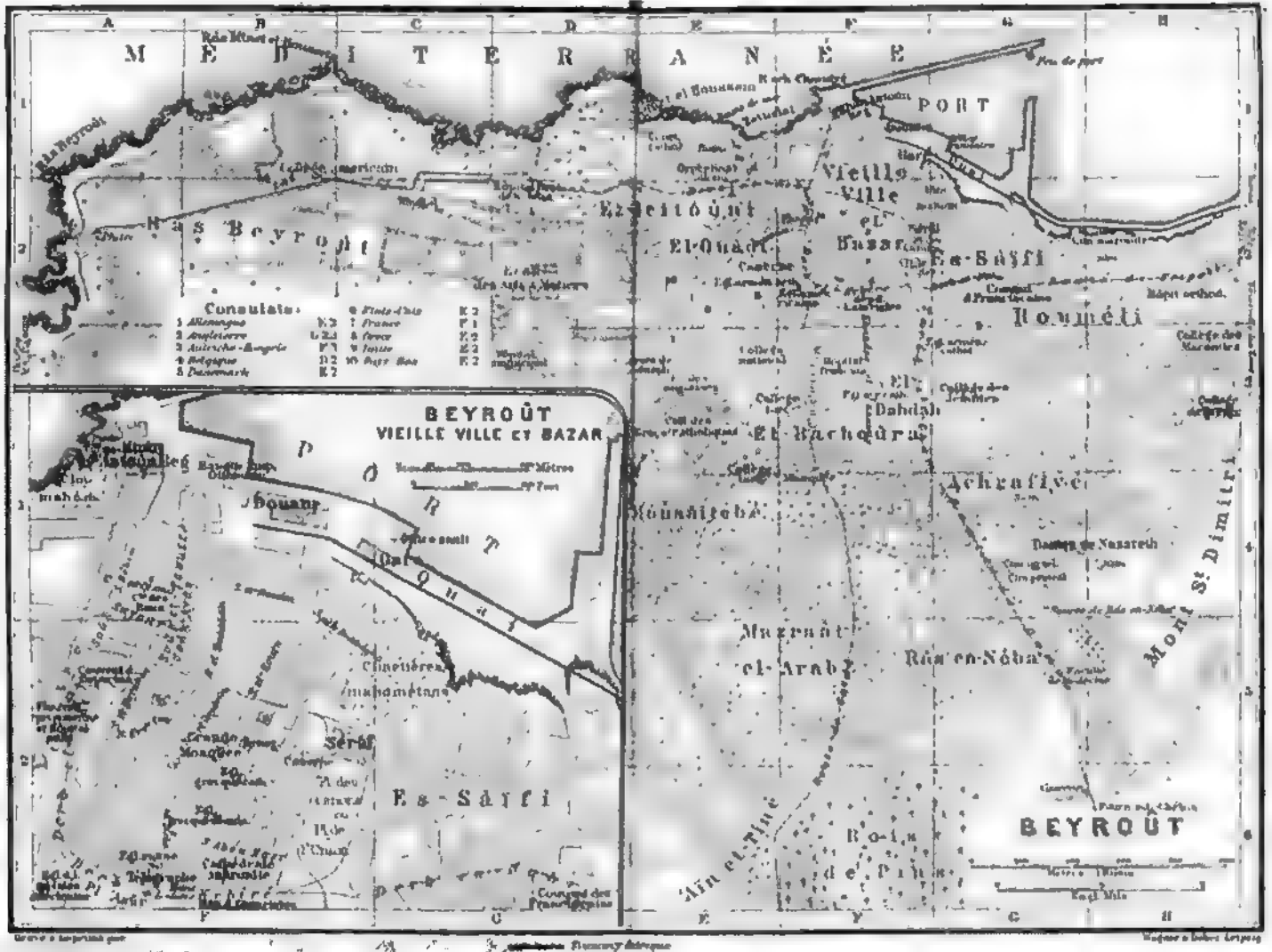
في الواقع، واجهت المدينة العثمانية الصغيرة تغيرات فعلية رئيسية؛ فمُنذ الثلاثينيات توسعت بيروت إلى ما وراء حدودها البلدية واستوعبت قرى التلال والسهول المجاورة التي تحيط بها وحولتها إلى نوى لضواحي المدينة. وتغيرت أنماط المباني بعد انتشار مباني الإسمنت المتعددة الطوابق. وأصبحت أنماط المساكن أكثر تعقيداً كذلك؛ فظهر في الحمرا مركز تجاري جديد يقع غرب مركز المدينة القديم. ونمت أحياء شعبية ومخيمات لاجئين في الضواحي. وتأسست مجمعات فرعية، مخطط لها جزئياً، على التلال خارج المدينة (انظر الرسم الرقم (٤٦ - ١)).

٢ - بناء عاصمة: المخططات والمشاريع

كان ظهور بيروت كعاصمة لدولة جديدة ومركز إقليمي، فضلاً عن التحولات المادية التي طرأت عليها، نتيجة خيارات سياسية واقتصادية خارجية، فضلاً عن التغيرات الإقليمية غير المتوقعة. وبرزت هذه المنزلّة الجديدة في إطار فكرة تحديث المدن، التي بعثها إما «التنظيمات» العثمانية (الإصلاحات) وإما لاحقاً انتشار أفكار تخطيط المدن في العالم الاستعماري.

وعلى الرغم من أن هذه الرغبة لتحديث المدينة وتكييفها مع وضعها ودورها الجديدين قد أتت بالتأكيد من الخارج، إلا أنها التقت مع رغبة جزء من النخب المحلية. فمُنذ أواخر القرن التاسع عشر، كان تأكيد وضع الدولة اللبنانية الجديدة أحد الأبعاد المعقّدة للمشاريع الحضريّة في بيروت، إذ يتعين على الحجارة المستعملة في بناء المدينة الجديدة أن ترسّخ فكرة الدولة الجديدة. وطوال قرن كامل لم تتوقف النزاعات حول تطبيق مثل هذه المشاريع. ولم يسمح ميزان القوى للحكومات الوطنية المتعاقبة بتنفيذ ميزات الطموحة بالكامل.

الرسم الرقم (٤٦ - ١)
مخطط وسط بيروت للعام ١٩١٢، دليل للمسافرين



ولا يمكن في السياق نفسه اعتبار المؤسسات المحلية، وخصوصاً البلدية، فاعلاً قوياً. فقد أنشئت البلدية عام ١٨٦٠، وسيطر عليها الفرنسيون بعد عام ١٩٢٠، ثم همشت الحكومة في لبنان المستقل دورها لاحقاً. كذلك يتعين هنا عدم إهمال اللاعبين الآخرين، مثل ملاك الأراضي، ومن بينهم المؤسسات الدينية (الأوقاف)، ومصالح الشركات.

تضمّنت «عثمنة» المدينة تحت رعاية البلدية والولاية (الحكام)، من عام ١٨٧٨ حتى الحرب العالمية الأولى^(٦)، سلسلة مشاريع، من بينها إعادة تصميم ساحة البرج والسراي الجديد (١٨٨٣ - ١٨٨٤) ونصب «برج الساعة» ليعكس «زمن» إسطنبول (١٨٩٨)، وتمثل هذه المشاريع روح ذلك الزمن.

وفي عام ١٩١٥، أطلق مشروع تحديث السوق بعد طول تأجيل. وحصلت بعض أعمال التهديم بعد وصول الفرنسيين إلى بيروت بعد الحرب. وكان أحد اهتماماتهم أن يكملوا التهديم قبل أن يبدأوا تدريجاً بتوسيع المدينة وتحويلها وإعادة تصميمها. صممت المنطقة قرب المرفأ على شكل شبكة متعامدة وسميت شوارعها الرئيسية بأسماء جنرالاتهم المتصرين في الحرب العالمية الأولى، مثل فوش، وويغان، وألني. بدأ تصميم ساحة النجمة عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦ وانتهى بناؤها في نهاية الثلاثينيات. وفرضت الساحة فروعها على معالم البناء المدني العثماني القديم. لهذا قاومت الأوقاف المسيحية خطة بناء ساحة النجمة بقوة، حتى إن اثنين من فروعها لم يريا النور يوماً^(٧).

أما المؤسسات الوطنية، مثل مبنى البلدية أو مبنى البرلمان، فقد صممت وفقاً لهندسة معمارية «مشرقية» جديدة. حملت مشاريع التحديث الأولى لوسط بيروت الاستمرارية والتغيير في التخطيط. وبدا التغيير واضحاً في المقياس الجديد الذي أعطاه الفرنسيون للمشروع، كما في الأنماط المنظمة الجديدة من مثل تصميم شكل «النجمة» الجديد. أما الاستمرارية فتظهر في مشروع التحديث نفسه أو في طريقة العمل من خلال البلدية. وعلى الرغم من أن الهدف وراء هذه الهندسة المشرقية هو إظهار دولة لبنان

Jens Hanssen, *Fin de siècle Beirut: The Making of an Ottoman Provincial Capital*, Oxford (٦) Historical Monographs (Oxford: Clarendon Press; Oxford; New York: Oxford University Press, 2005).

May Davie, «Beirut and the «Étoile» Area: An Exclusively : انظر (٧) في إثر رد بعض البارزين المحليين،

French Project?», in: Joe Nasr and Mercedes Volait, eds., *Urbanism: Imported or Exported?* (Chichester, England; Hoboken, NJ: Wiley-Academy, 2003), pp. 206-229.

الجديد، إلا أنها كانت تستقي من المصادر نفسها التي صممت للعثمانيين مستخدمة المهندسين والمصممين المحليين الذين كانوا مسؤولين من قبل، مثل يوسف أفيموس.

كان إدخال التخطيط الحديث خارج بيروت القديمة في الثلاثينيات أقل نجاحاً^(٨). ومنذ الاستقلال وحتى اندلاع الحرب الأهلية، عانت الحكومات اللبنانية الفشل نفسه عدة مرات. في فترة ما بين الحربين العالميتين، حوّل المخططون المدن الاستعمارية الفرنسية إلى حقل تجارب تلبية لرغبة السلطات الاستعمارية نفسها. وكانت بيروت رمزاً لهذا النهج، إلى جانب المغرب وسورية. كانت المحاولة الأولى في بيروت عام ١٩٣٠ - ١٩٣٢ حين عمل الأخوان دانجيه حيث كانت شركتهما La Société des plans régulateurs de villes، قد عملت في عدة مناطق خارج الشرق الأدنى.

وفي خلال الحرب بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٣، كُلف المهندس الشاب ميشال إيكوشار، الذي كان قد أسس دائرة التنظيم المدني في سورية عام ١٩٣٨، وضع مخطط رئيسي لتوسيع المدينة وتحديث بعض أجزاء وسطها حيث لزم بناء الإدارات الحكومية. وباءت كلتا المحاولتين بالفشل في مواجهة التخمين العقاري، ومصالح الشركات الفرنسية الخاصة (مثل شركة المرفأ أو شركة السكك الحديدية أو مصرف سورية ولبنان)، وفي ظل الضعف المالي للقطاع العام.

في حقبة الاستقلال، علّق مشروع تخطيط بيروت وتحديثها في أثناء توتر بين لحظتين كلاهما مهم: أولوية تطوير الاقتصاد الوطني من جهة وتأكيد سيادة الحكومة من جهة ثانية.

وفي الخمسينيات، بقيت الخطط معتدلة ومتفقة مع سياسة رسمية في إطلاق الحريات الاقتصادية و«جمهورية التجار». شملت الخطط التي اعتمدت مسودة إيكوشار والمخطط السويسري إرنست إيغلي (انظر الرسم الرقم (٤٦ - ٢)) الجهود الرئيسية لبناء مطار جديد في منطقة خلدة وتعديل الإطار القانوني ليتناسب مع ضغوط سوق العقارات وتوسيع بعض الطرق الرئيسية. ثم انتخب فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية بعد الاضطرابات الأهلية التي وقعت في لبنان عام ١٩٥٨، فشدد على إصلاح الدولة وتحديثها في سبيل توحيد البلاد. وحُدّدت التنمية المتوازنة بين مختلف المناطق اللبنانية والتحكم بنمو المدينة الجديدة كهدفين رئيسيين. سيطرت الحكومة المركزية بحزم

Marlène Ghorayeb, «L'Urbanisme de la ville de Beyrouth sous le mandat français,» *Revue du monde musulman et de la Méditerranée*, vol. 73, nos. 73-74 (1994), pp. 327-342.

على التنظيم المدني وجعلت منه موضوعها الأهم وأقرت قانوناً لتدخل أدوات تنظيم جديدة^(٩). وكان خلق مديرية للتنظيم المدني عام ١٩٥٩ وتعيين إدارتين مستقلتين لتنفيذ المشاريع عام ١٩٦١ و ١٩٦٣ أكبر دليل على تصميم الحكومة.

الرسم الرقم (٤٦ - ٢)
مقترح إرنست إيغلي لتغييرات في بيروت وضواحيها



جزء من معرض سنة ١٩٥٠.

Egli Collection, Archives of ETH - Zurich, Hs 785:142.

المصدر:

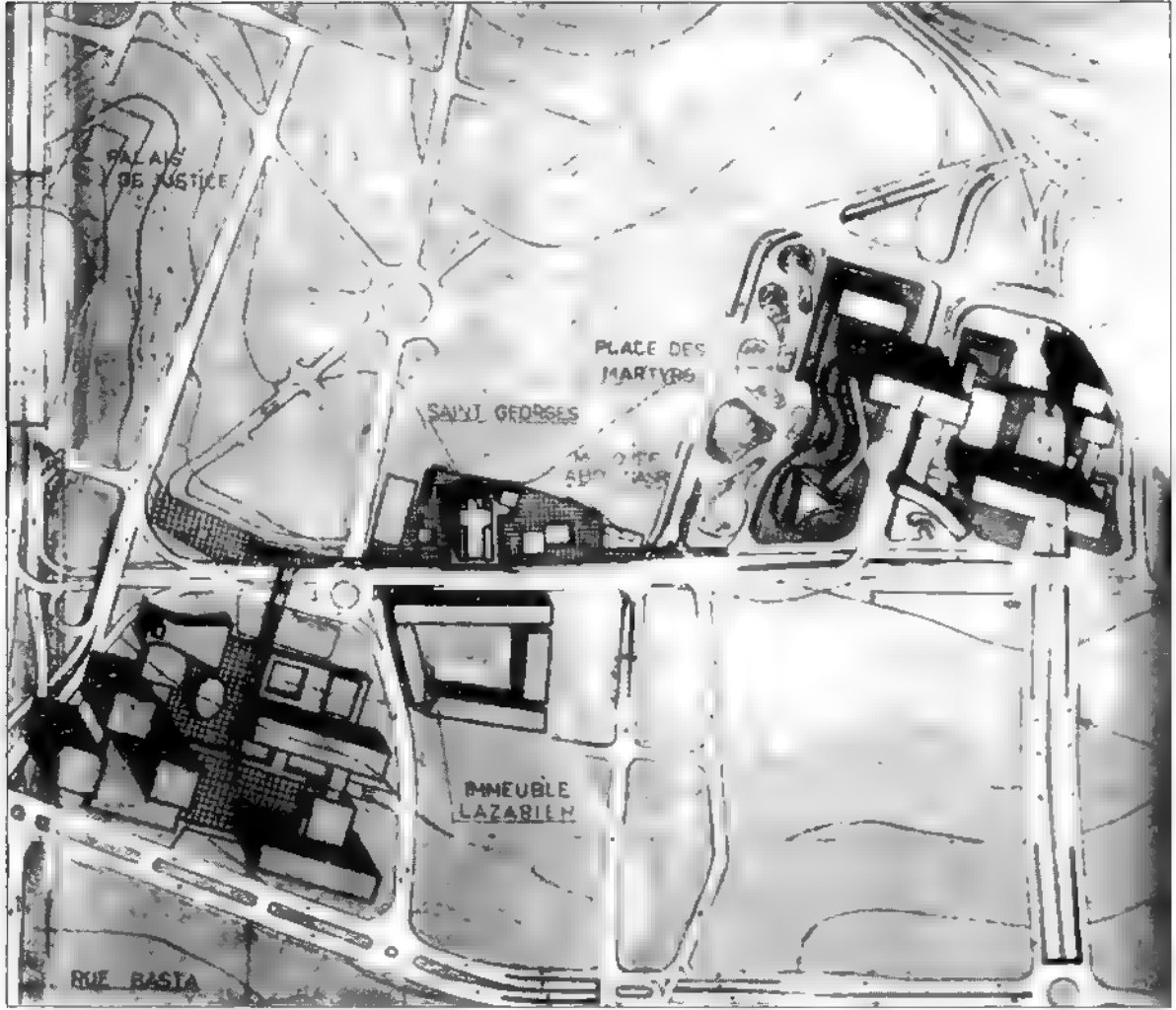
أعيد تكليف إيكوشار ثانية عام ١٩٦٣. ففي عام ١٩٦١ كان قد كُلف تحضير مخطط رئيسي للمدينة الحكومية (كمجمع إداري كبير) خارج وسط المدينة، يعكس

Eric Verdeil, «Politics, Ideology and Professional Interests: Foreign versus Local Planners in (٩) Lebanon under President Chehab,» in: Nasr and Volait, eds., Ibid.

Peter G. Rowe and Hashim Sarkis, eds., *Projecting Beirut: Episodes in the* انظر أيضاً قسماً من: *Construction and Reconstruction of a Modern City* (Munich; New York: Prestel, 1998).

إرادة الإصلاح والشرعية للإدارة. في عام ١٩٦٣ قَدّم إيكوشار مخططاً رئيسياً لبيروت وضواحيها. وكان يشتمل على فكرة لامركزية مدنية تتوزع في مدن تتصل بالعاصمة عبر شبكة من الطرق السريعة. وكان يتضمن ترميم وسط المدينة بإنشاء مباني عالية وخطوط مواصلات منفصلة طبقاً لمبادئ المرور الحديثة (انظر الرسم الرقم (٤٦ - ٣)).

الرسم الرقم (٤٦ - ٣) مشروع تغييرات لوسط بيروت



مجلس تنفيذ المشاريع الكبرى لمدينة بيروت سنة ١٩٦٤، الاستشاريون: م. إيكوشار، ج. بنشوياء، ع. سلام، ب. خوري، ن. طباره، ر. داود، ر. عيسى.
المصدر: الصورة من إريك فرداي.

دمج هذا المشروع بين مسألتي الاهتمام بالعقارات وبالتنمية الاقتصادية معاً في مدينة كان مقدراً لها أن تصبح صلة وصل بين الشرق والغرب، مع المحافظة على الهدف الأساسي وهو التأكيد الرمزي للدولة، من خلال تكريس عدة مواقع كمباني عامة. وُضع

تشريع جديد لشركات عقارية مختلطة لتتولى تنفيذ المشروع. إلا أن الخطط الشهابية لم تنفذ بالكامل.

أما أهم ما نفذ منها فهي لائحة أنظمة البناء السكني، التي عدّلت في ما بعد تحت ضغط مالكي الأراضي، وشبكة الطرقات وبعض المباني الإدارية في المدينة الحكومية في بئر حسن. في المقابل أهمل بناء المساكن الشعبية وإقامة مشاريع لمدينة جديدة وترميم المنطقة المركزية بسبب تغير ميزان القوى في البلاد بعد نهاية فترة حكم فؤاد شهاب عام ١٩٦٤ وبسبب التداعيات المالية للأزمة الإقليمية عام ١٩٦٧.

ارتبط تخطيط بيروت وتحديثها على الدوام ببناء الوطن، وذلك بسبب وضعها كعاصمة لدولة جديدة وغير مستقرة. وبينما كانت محاولات تحديث العاصمة، وبخاصة وسط المدينة، تهدف أيضاً إلى تشجيع اقتصاد يرتكز على التجارة الإقليمية والعقارات، ارتبطت المشاريع تلك بحلقات من الإعمار السياسي ومن الحاجة إلى تأكيد دور الدولة.

ثانياً: بيروت وخططها في زمن الحرب

١ - النظرة إلى الحرب كسياق للتغيير المدني

كانت الحرب، منذ عام ١٩٧٥ إلى عام ١٩٩١، إطاراً معقداً للتغيير المدني. وأهم أبعاد الحرب المعقدة تلك هي أنها محلية وإقليمية ودولية، وأيديولوجية وطائفية، في آن واحد. وتجعل الخصوصية تلك حال المدن اللبنانية مختلفة عن تلك الأوروبية أثناء الحرب العالمية الثانية من حيث الصفة الزمانية والمكانية للقتال، وطبيعة الدمار، وهويات المتقاتلين (من الميليشيات المسلحة أو الجيوش المنظمة) وجنسياتهم المختلفة (لبنانيون وفلسطينيون وإسرائيليون وسوريون وإيرانيون وأرمن وأوروبيون... إلخ) ونوع الحروب التي خاضوها (الطائفية، الاجتماعية، أو الإقليمية الأبعاد، أو المحلية).

وبسبب طول أمد الحرب تلك، تبدل الممثلون على ساحة الأحداث مع الوقت. وأضعفت الدولة وإداراتها كثيراً، فلم يعد بمقدورها التحكم بالإعمار المدني، حتى في إصدار رخص البناء مثلاً. وإلى ذلك، زادت الأمور سوءاً حين لم تعد الإدارات قادرة على الاحتفاظ بقوتها العاملة الماهرة ولا قادرة على استبدالها. وضربت الحرب كذلك

مالكي الأراضي بصورة مباشرة أو غير مباشرة حين أفلس البعض وهاجر البعض الآخر أو تغيبوا أو خافوا تعهد إصلاح ما خربته الحرب.

في المقابل، ظهر على الساحة لاعبون جدد وأصبحوا من البارزين. واستفاد بعض الأفراد وبعض المجموعات من الحرب اقتصادياً أو سياسياً. حتى إن رؤساء بعض الميليشيات أصبحوا وزراء ومسؤولين. واستفاد بعض رجال الأعمال من الحرب اقتصادياً. فبروز رفيق الحريري الذي بنى نجاحاته في المقاولات خارج لبنان، وتحديداً في السعودية، يُظهر سمةً أخرى من التجديد السياسي والمالي. وعلى صعيد الإدارة الرسمية، أنشئ مجلس الإنماء والإعمار عام ١٩٧٧ ليحل محل وزارة التخطيط، وهو راكم تدريجاً الكثير من السلطات على حساب الإدارة «الكلاسيكية» الآيلة إلى الزوال.

كانت الحرب اللبنانية في الواقع جولات متعاقبة، برهانات مختلفة، تفصل بينها فترات من الهدنة التي كانت تبوء بالفشل، وخصوصاً عام ١٩٧٧ وعامي ١٩٨٢ و١٩٨٣. فالطبيعة الدورية للحرب هي السبب وراء الدمار والإعمار المتلاحقين. وقد أصابت المعارك كل البلاد تقريباً، في واحدة من الجولات على الأقل، أو بصورة غير مباشرة. ومثلت بيروت وضواحيها أحد مسارح الحرب الرئيسية والمستمرة واستحقت بهذا لقب حرب مدينية. بقيت خطوط التماس في بيروت هي نفسها على مدى أيام الحرب. وكان وسط المدينة أيضاً مركزاً رئيسياً للمواجهات. وصاحب التفاعل بين هذه العوامل المختلفة تحولات مدينية يمكن تصنيفها وفقاً لمعاييرها المختلفة.

٢ - المعايير المتعددة لتحولات بيروت زمن الحرب

ضربت الحرب المدينة بشدة. ولم تقتصر الأضرار على المادية فقط؛ وإنما أصابت تنظيم السكان المكاني ووسائل الإنتاج كذلك. وتأقلم الناس بطرائق شتى فلجأوا إلى الريف وإلى المدن الثانوية. وكان الدمار الذي خلفته الحرب السبب الرئيسي وراء التهميش الاقتصادي الذي ضرب البلاد ككل وبيروت بوجه خاص. والضرر الأكثر حضوراً كان ذاك الذي تسببت به الحرب. لذلك يبقى تقييم الدمار الذي حدث إشكالية تنطوي على الكثير من التحدي المنهجي^(١٠)، إذ تقدر المباني التي تضررت بالكامل أو جزئياً بأكثر من عشرة في المئة من مجمل المباني. وتخفي هذه الأرقام اختلافات

(١٠) نوقشت بعض هذه الصعوبات في قسم من: Joseph L. Nasr, «Reconstruction or Constructing Cities?: Stability and Change in Urban form in Post-World War II France and Germany» (Ph. D Dissertaion, University of Pennsylvania, Philadelphia, 1997).

وعلى نمط الحروب الأهلية والمدينية، أصيب السكان بحركات نزوح هائلة^(١١). فقد قلب النزوح الجماعي من المحافظات إلى العاصمة، وموجات النزوح المتبادل بين المناطق المختلفة للمدينة، التوزيع الجغرافي للسكان جذرياً. ففي عام ١٩٨٧ اعتُبر ٢٧ في المئة من السكان من المهجرين. ولا تضم هذه النسبة أولئك الذين هاجروا بمحض إرادتهم لأسباب أمنية. من أهم الآثار التي خلفها النزوح تكوين قطاعين كل منهما ذو تركيبة طائفية متجانسة على جانبي خط التماس. فضم شرق خط التماس المسيحيين بمستوى كلي تقريباً، وضم الغرب أكثرية مسلمة. وشكل التوسع السريع والهائل للضواحي، وخصوصاً على طول الساحل الشمالي وفي التلال، وكذلك في السهل الجنوبي، أحد تداعيات هذا النزوح. وعلى الرغم من أن عمليات البناء آنذاك كانت خاضعة للقانون، إلا أن احتلال الأراضي والبناء غير الشرعي وغير المسموح به كان شائعاً جداً وخصوصاً في الضواحي الجنوبية حيث الأغلبية من اللاجئين أو المهجرين الشيعة^(١٢).

أما التراجع الذي حدث لوظائف متعددة (مثل الإسكان والصناعة والتجارة) وعلى مستويات متعددة (نحو الريف أو البلدات اللبنانية الثانوية أو نحو القرى القريبة من بيروت) فقد عوض جزئياً من الدمار وعدم الأمان اللذين انتشرا في العاصمة. فانخفضت نسبة سكان بيروت الكبرى من ٥٤ في المئة إلى ٤٢ في المئة بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٩٦. ويعبر ظهور كتل سكنية مثل جونية وزحلة وشتورة والنبطية عن الآلية تلك التي أضعفت منزلة العاصمة في البلاد.

إلى ذلك، أثرت الحرب بعمق في مكانة بيروت ولبنان ودورهما الإقليمي. فانخفض الناتج المحلي الإجمالي نحو ٢٥ في المئة من القيمة الثابتة، على الرغم من أن عودة أموال المغتربين وأموال الذين هربوا من البلاد مؤخراً عوضت جزءاً منه. وضربت الحرب عدة قطاعات اقتصادية بشدة، فترك بعض مكاتب الشركات الغربية والمصارف والمؤسسات المالية الأخرى لبنان، وأغلقت بعض الفنادق وبعض آخر

Eric Verdeil, Sofia Shwayri et Sébastien Velut, *Atlas du Liban: Espaces et société* (Beyrouth: (١١) Institut français du Proche-Orient (IFPO); Le Centre national de la recherche scientifique (CNRS), 2007), chap. 4, et Sofia Toufic Shwayri, «Beirut, 1975-1990: The Making and Remaking of a City during Civil War,» (Ph. D Dissertation, University of California, Berkeley, CA, 2002).

Valérie Clerc, «L'Urbanisme face aux quartiers irréguliers: Le Cas d'Elyssar en banlieue (١٢) sud de Beyrouth,» (Ph. D Dissertation, Paris VIII University, 2002), et Mona Fawaz, «Strategizing for Housing: An Investigation of the Production and Regulation of Low-income Housing in the Suburbs of Beirut,» (Ph. D Dissertation, MIT, Cambridge, MA, 2004).

من القطاع السياحي. وتعطل العمل في مرفأ بيروت ومطارها معظم أيام الحرب وقد كان كلاهما من البنى التحتية الرئيسية في نظام لبناني متقدم قبل الحرب. في هذه الأثناء استطاعت مدن أخرى جذب الشركات الهاربة والتأقلم مع التغيرات الاقتصادية في المنطقة. فطورت عمان ودبي والمنامة والدوحة والقاهرة وعدة مدن أخرى وظائف جديدة مثل المطارات والقطاعات المالية والمصارف والجامعات والمستشفيات؛ فلم تعد بعض الأدوار التي كانت تؤديها بيروت قبل الحرب مناسبة أو تنافسية أو فريدة بعدما باتت هذه المدن وغيرها مراكز تنجز فيها أغلب هذه الأدوار. وأدى ذلك كله إلى تهيمش العاصمة اللبنانية في منطقتها.

٣ - مخططات ومشاريع زمن الحرب

أصبح الإعمار المادي من الأولويات الملزمة، بعد الدمار الوحشي والتغيرات التي أصابت المدينة، وبخاصة في الأماكن ذات القيمة الرمزية والاقتصادية العالية مثل وسط المدينة. وكأداة للمعالجة، وضعت المشاريع لا كأداة لاسترداد شروط التنمية الاقتصادية قبل الحرب فحسب، وإنما لتحديث وسط البلد التاريخي أيضاً الذي بدا، على نحو متزايد بالياً وآيلاً إلى الخراب وبحاجة إلى التغيير. تضمن ذلك إفادة مشاريع الإعمار من الفرص التي أتاحتها الحرب لتطبيق بعض الخطط والأفكار التي كانت تواجه العقبات سابقاً، مثل مشاريع تحديث وسط المدينة أو خطط إعادة الهيكلة العملاقة. وفي ذلك تكون الحرب قد أعطت تجانساً أكبر لأجندات قديمة كانت لا تزال موجودة.

ربما جرى لحظ بعض شروط ومشاريع ما قبل الحرب في عدد من مخططات الإعمار، لكن الإعمار الذي حدث إنما كان، ولا يزال، تعزيزاً لتحولات ما بعد الحرب من عدة نواح، مثل تعزيز كل الاختلالات الناجمة عن الحرب وتقسيم الطوائف المختلفة إلى قطبين توزعا على جانبي خط التماس أو في تمدد المدينة نحو الجبال. تكمن أهمية هذا الموضوع على وجه الخصوص من زاوية التجديد السياسي، إذ إن إعادة الإعمار كانت أمراً حاسماً لإضفاء الشرعية على الفاعلين السياسيين الجدد خلال فترتي إعادة الإعمار وإعادة تأسيس الدولة عام ١٩٧٧ وعامي ١٩٨٢ - ١٩٨٣^(١٣).

في نهاية حرب الستين (١٩٧٥ - ١٩٧٧) عيّن الرئيس إلياس سركيس عالم الاقتصاد سليم الحص رئيساً للوزراء. وتسلم المهندس ورئيس نقابة المهندسين السابق

Eric Verdeil, «Reconstructions manquées à Beyrouth: La Poursuite de la guerre par la projet (١٣) urbain», *Annales de la recherche urbaine*, no. 91 (2001), pp. 84-93.

أمين البزري مسؤولية وزارة الأشغال العامة. وأشرف شخصياً، وبالتعاون مع لجنة من الاختصاصيين، على وضع خطط إعمار وسط بيروت الذي كانت تعده مؤسسة استشارية فرنسية هي المؤسسة الباريسية لتخطيط المدن (Atelier Parisien D'Urbanism (APUR)). اهتم اقتراح اللجنة الأول بمنطقة واسعة من ١٢٠ هكتاراً تضم المواقع الأكثر تضرراً.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أهمية وسط المدينة تكمن في كونه الرمز للمكان العام الرئيسي للمدينة حيث تلتقي وتتفاعل الجماعات المختلفة في البلاد. وكان مقترحها الأول إعادة صورة المدينة المتوسطة. تضمن هذا الاقتراح إعادة ترميم الأسواق وفتح المدينة على المرفأ وتصميم جادة على طول الخط البحري. كما تضمن وضع حد لارتفاع بنايات إلى ٣٠ متراً واتجهاً مغايراً لمفهوم «العمارة العالمية». وكانت في الواقع المرة الأولى التي تظهر فيها مسألة التراث مطبقة في بيروت. ولكن الشق الثاني من المشروع كان تحديث المدينة: حيث أرسيت توقعات لبناء مبان عامة ترمز إلى وحدة الدولة. وتضمن كذلك شق طرق جديدة عبر المشهد المدني القديم وإنشاء مركز تجاري حديث على رصيف قديم للمرفأ. ومن أجل إحداث تطوير في قطاع الأعمال، فقد سمح مضاعفة المساحة الأرضية الكلية للمناطق الأكثر تضرراً من خلال إنشاء بنايات جديدة. كان المبرر الرئيسي لمخطط عام ١٩٧٧ هو الحاجة الملحة إلى العودة بالمدينة إلى الحالة الطبيعية في فترة ما قبل الحرب وإعادة إحياء صورة الدولة الموحدة والمدينة المتوسطة المكرسة للتجارة. وفي خط مشاريع ما قبل الحرب نفسه، سعت هذه الأهداف لرعاية الأعمال التجارية وتطوير العقارات وفتح طرق جديدة في هذه المنطقة.

لم يسمح الفشل المتواصل لترتيبات السلم بتطبيق هذه المشاريع، وزادت الممارك الجديدة الأضرار سوءاً في وسط المدينة. عاد التفكير في الإعمار بعد عام ١٩٨٢، في إثر الاحتلال الإسرائيلي، حين تولّى الرئاسة على التوالي الكتائبان بشير الجميل ثم تلاه أمين الجميل. لم يتحلّ حكم أمين الجميل بالشرعية والدعم السياسي اللذين حظيت بهما رئاسة أخيه. فأعطته عملية الإعمار فرصة لبناء هذه الشرعية. ولم تقتصر استراتيجيته على إعمار وسط المدينة فقط كما كان الحال عام ١٩٧٧. بل أطلق مشروعاً واسعاً يحوي عدة قوانين جديدة وأعمالاً عاجلة في وسط المدينة وفي الضواحي الجنوبية، ومشروع تنمية حضرية هائلاً لطمر البحر على الشاطئ الشمالي للتجمعات السكانية ومخططاً رئيسياً لمنطقة متربوليتانية في بيروت. وكان مستشاروه

لهذه الخطط المعهد الفرنسي لتنظيم وتخطيط المدن لمنطقة ضواحي باريس (IAURIF).

وعاد النظر إلى وسط المدينة مرة جديدة رمزاً لاستمرارية الوطن. لكن تمدد أضرار الحرب وواقع تحويل خليج السان جورج منذ عام ١٩٧٨ إلى مكب رئيسي للقمامة، تطلب بالضرورة تعديل مخطط الإعمار الذي أقر سابقاً. فعرضت شركة أوجيه التي يملكها رجل الأعمال رفيق الحريري المساعدة، وأخذت على عاتقها تنظيف الموقع. وفي ظل ظروف غامضة، هدمت أجزاء كبيرة من الأسواق القديمة قرب ساحة البرج، مزيلةً من المباني أكثر من تلك التي تضررت في الحرب. بين عامي ١٩٨٣ و ١٩٨٦ أدخلت شركة أوجيه وعلى حسابها عدة تعديلات على الخطط الرسمية مقترحة عدة خيارات (انظر الرسم الرقم (٤٦ - ٥)).

الرسم الرقم (٤٦ - ٥)
مشروع أوجيه لمنطقة ساحة الشهداء عام ١٩٨٤



المعماري: جان وليرفال.
المصدر: مركز التوثيق CDR.

وفي النتيجة، غدت خطط إعادة الإعمار أكثر تطرفاً. فقد دعت الخطط الجديدة إلى عمارة حديثة، ذات وظائف تجارية وسياحية، وعلى حساب حفظ التراث وملاك الأراضي القدامى والمستأجرين. وفي الواقع، فهي قد قبلت التغيرات الاجتماعية الناتجة من القتال بل عملت على ترسيخها.

وفي الضواحي الجنوبية، كانت الدولة تواجه مسألة التجمعات السكنية غير الشرعية في منطقة يسيطر عليها سياسياً تنظيمًا أمل وحزب الله الشيعة. واندمجت محاولات حل مشكلة العقارات من حيث المبدأ مع مشروع إسكان ذوي الدخل المنخفض وترقية البنى التحتية في أجزاء مختلفة من المنطقة^(١٤). لكن محاولة الإزالة الوحشية لبعض المحتلين، في إطار استئناف التوترات بين رئيس الجمهورية ومعارضيه الشيعة في شباط/فبراير ١٩٨٤، أدت إلى انتفاضة أعادت بيروت إلى حضيض الحرب. أما بالنسبة إلى المشاريع شمالاً، فكانت تهدف إلى إعادة هيكلة منطقة صناعية مهجورة جزئياً وتحويلها إلى منطقة سياحية وسكنية. وقد حصل هذا الأمر في منطقة المتن، مسقط رأس الرئيس أمين الجميل الذي أشرف بنفسه على عمليات التحديث^(١٥). لم يكن من الممكن تحويل هذه المنطقة من منطقة صناعية إلى منطقة تجارية وسكنية لولا التحولات الاجتماعية التي حصلت في داخلها، والتي حولتها من منطقة صناعية إلى منطقة تجارية وسكنية، في إطار تطبيع سكن المسيحيين الذين هربوا من غرب بيروت.

يصور مشروعا الضواحي الجنوبية والشمالية كلاهما أن التخطيط لم يكن مجرد تأكيد محايد للدولة، وإنما هو أظهر ميزان القوى القائم كما عزز التحولات الاجتماعية التي أصابت المدينة. تجدر الإشارة هنا إلى أن رفيق الحريري كان طرفاً في كلا المشروعين وعلى نحو متزايد في مشروع إعمار المدينة عموماً كمقاول ومستثمر في آن. وقد كان لهذا أثر كبير في المراحل اللاحقة لعمليات إعادة الإعمار. وكان آخر مشروع هو مخطط IAURIF عام ١٩٨٦ وكان مخططاً متروبوليتانياً. فقد سعى لتعزيز وحدة المدينة من خلال إعادة بناء وسطها وبناء شبكة من المواصلات العامة. واقترح المشروع مراكز ثانوية في نهر الموت والحازمية والليلكي وخلدة تجنباً لانتشار مديني لا يمكن السيطرة عليه. ومع أن المشروع الرئيسي كان أقل تأثراً بالأغراض السياسية من

Eric Verdeil, «Une ville et ses urbanistes: Beyrouth en reconstruction», (Ph. D in Geography, (١٤) Paris I University, 2002).

Eric Verdeil, «Entre guerre et reconstruction: Remblais et empiétements Littoraux à (١٥) Beyrouth», dans: L. Goeldner, S. Velut et N. Yellès-Baron, eds., *Le Littoral: Mélanges en hommage à Fernand Verger* (Paris: Presses de l'Ecole Normale Supérieure, 2002).

المشاريع الأخرى، لكن تحديد المواقع هذه كان موضع جدل، نظراً إلى وقوعها في مناطق مسيحية وشيعية ودرزية، الأمر الذي فُسر وكأنه قبول بتقسيم المدينة إلى قطاعات متواجهة.

لم تطبق هذه الخطط كاملة على الإطلاق، على الرغم من أهمية أثرها في مستقبل هذه المناطق بعد الحرب. فقد سلّط الكشف عن حفريات الضوء على أفكار ومفاهيم تخطيط تلك العمليات الطويلة الأمد وعلى الاستمرارية في المشاريع. ومن بين الفاعلين الرئيسيين في خطط الإعمار، برز المخططون المختصون حملة ذاكرة محددة من الأفكار - مع أنه لا يمكن التنكر للتعديلات والتغييرات التي أدخلوها على المشاريع. كذلك لا يمكن التقليل من أهمية دور الفاعلين السياسيين والاقتصاديين في خطط الإعمار، وخصوصاً حين تعتمد مسيرتهم المهنية بشدة على النجاح في الدخول على عمليات التخطيط، وخير مثال على هذا حالة رفيق الحريري.

ثالثاً: بيروت ما بعد الحرب وخططها ومشاريعها

١ - مشهد جديد ورهانات جديدة

يهيمن شخص رفيق الحريري على المرحلة اللاحقة من قصة بيروت في سنين ما بعد الحرب منذ عام ١٩٩١، كرئيس لمجلس الوزراء اللبناني لفترتين (١٩٩٢ - ١٩٩٨ و ٢٠٠٠ - ٢٠٠٤) وكمستثمر رئيسي كذلك. هو يمثل التداخل الدائم بين المصالح العامة والمصالح الخاصة والترابط بين سياسات التخطيط المدني وتأكيد النفوذ السياسي، واستمرارية الفاعلين في عملية بناء المدينة (أو تدميرها) في خلال الحرب وبعدها (كان له في البداية دور في إعادة تشكيل مشهد المدينة أثناء الحرب، ثم توسّع دوره وتأثيره بعد توقف القتال).

اختفت من مشهد ما بعد الحرب شخصيات كان لدورها تأثير كبير زمن الحرب مثل الرئيس أمين الجميل، وفي المقابل ظهرت شخصيات غيرها. ونتيجة التحولات في الإطار السياسي والإداري، حدثت تغييرات جوهرية في بنية الاختصاصيين المسؤولين عن إعادة الإعمار. فالمهاجرون العائدون، والمصممون والمعماريون الشباب المتدربون في الغرب، والمؤسسات الاستشارية التي بدأت في لبنان ثم نمت لتصبح شركات إقليمية وإداراتها خارج لبنان (وأكبرها دار الهندسة - شاعر وشركاه)، هم الذين صمّموا أو أخذوا على عاتقهم معظم مشاريع إعادة الإعمار.

من أهم تغيرات ما بعد الحرب، مقارنة بأوضاع أيام الحرب، هو عودة الدولة كفاعل مركزي (أو فاعلين مركزيين)، حتى لو تخللتها، كما الحال دائماً، المصالح الخاصة. على الرغم من هذا الاستدراك المهم، فقد أظهرت المفاوضات التي أدت إلى اتفاق الطائف والتي مهدت الطريق إلى وقف القتال أواخر عام ١٩٩٠، أن مخطط إعمار تقوده الدولة آتٍ لا محالة، إذا أحسن الأخذ في الحسبان التمثيل السياسي المتوازن والحذر للفئات والجماعات الأخرى. وأعطى ذلك الدولة، من خلال مجلس الإنماء والإعمار، دوراً أساسياً في إصلاح أوضاع البلاد، بوصفها فاعلاً رئيسياً، وكقناة للمؤثرات الأجنبية، وكساحة دائمة للمفاوضات بين الفاعلين المختلفين.

ولئن كان الرهان الرئيسي في مفاوضات كهذه هو تمويل الدولة (وتدفق الأموال الدولية عبرها)، فقد اتسمت فترة ما بعد الحرب عموماً بالإسراف في المشاريع «الصعبة». وبهذا كانت إعادة الإعمار المادية في قلب عملية إعادة الإعمار بعامة، وكان مقدراً أن تؤثر أساماً في المسار مع مرور بعض الوقت. إلى ذلك، ترافق الإنفاق، وبخاصة في أوائل التسعينيات، مع تعزيز النمط الاستهلاكي لحياة الفرد الذي عرف به لبنان منذ أمد بعيد. وكان لهذه الازدواجية من مستويات الإنفاق العالية العامة والخاصة أثرها مع الوقت، الأمر الذي أدخل الاقتصاد اللبناني ككل مرحلة من التباطؤ الشديد.

نستدل مما سبق أن السنوات الاثنتي عشرة التي تمثل فترة ما بعد الحرب لا تشكل فصلاً واحداً، مستقراً، بل هي كشفت بالأحرى عن تطورٍ هو انعكاس ونتاج للسياق العام الذي جرى انتهاجه في معالجة أوضاع البلاد. وعليه، انطوت تلك المعالجة - للبلاد بعامة ولبيروت على وجه الخصوص - على سلسلة من الانطلاقات الفاشلة، ومن حالات النجاح والفشل المتعاقبة، ومن أخطاء في الحسابات والأحكام. هكذا، يستطيع المرء أن يلاحظ اتجاهاً عاماً يبدأ بازدهار ويتفاؤل مبكرين، تتبعه فترة إحباطٍ للحماسة يتسبب بها الركود، وتنتهي بتباطؤ يعيق تقدم البلاد. يظهر اتجاه البلاد هذا في عملية إعادة إعمار بيروت نفسها (وإلى حد ما بسببها).

٢ - مراحل تحولات بيروت ما بعد الحرب

وسنناقش في ثلاث مراحل هذا المنحى الذي أخذته البلاد والذي ميّز هاتين الحقيبتين التاريخيتين المتزامنتين^(١٦).

Eric Huybrechts et Eric Verdeil, «Beyrouth entre reconstruction et métropolisation», dans: (١٦) «Gouverner les métropoles», *Villes en parallèle*, nos. 32-33 (2000), pp. 83-103.

أ- مرحلة ازدهار القطاع الخاص وتأسيس المشاريع العامة (١٩٩٠ - ١٩٩٤)

اتسمت السنوات الأولى التي تلت توقف القتال بنشاط شبه فوري في مجال أعمال البناء في لبنان. اقتصر الأمر في البداية على توسيع المناطق الهامشية في بيروت الحضرية حتى بعدما أصبحت بيروت «آمنة» مجدداً.

لكن، وفي وقت قصير، انطلقت أعمال الهدم والإصلاحات وإعادة البناء، فبدأت بيروت تتعافى. كانت معظم المبادرات في السنوات الأولى تلك مبادرات فردية وكانت تتعامل مع الإعمار على أساس كل حالة على حدى وبطريقة عشوائية جداً. لم تقتل إعادة اكتشاف بيروت كجنة للاستثمار العقاري الاستثمارات القائمة في محيطها التي كان قد استهل معظمها في الثمانينيات، بل كانت مكملةً له في البداية. وقبل أن تستعيد الدولة الأخذ بزمام الأمور بالكامل كانت أنشطة البناء قد حققت أعلى مستوياتها نحو عام ١٩٩٤.

توزع اهتمام الدولة في الواقع في هذه السنوات بين جهود مختلفة. فهي لم تلتزم كثيراً بأعمال البنية التحتية الأساسية على الرغم من أنها عملت على مخططاتها. وبدلاً من ذلك، انصب اهتمامها في هذه المرحلة على حالة الطوارئ. فبدأت بإسعاف المهجرين مادياً عبر تأمين مساكن لهم غير تلك المحتلة، وعبر إصلاح المرافق الأساسية واستئناف تقديم الخدمات والإدارات الرسمية.

لم تخلُ هذه الأنشطة من بعض الخلافات. وبمعزل عن المناظرات العامة الكثيرة حول مستقبل وسط بيروت والأصدقاء الدولية التي أثارته، وهو موضوع سناقشه في الفقرات اللاحقة، لم يلقَ الكثير من أوجه انتعاش البلاد الاهتمام الذي يستحق، هذا إن لم يهمل تماماً كما هي حال الإعمار الفعلي خارج نطاق هذه المنطقة المحددة، أو حال الكثير من سمات إعمار البلاد غير إعادة البناء الملموسة.

وأحد الأمثلة على ذلك هو الأولوية التي أعطيت لشق الطرق السريعة الجديدة على حساب إعادة إحياء النقل العام. وهكذا، أدت هيمنة مسألة «سوليدير» إلى إنجاز أنشطة أخرى لا تحصى متزامنة معها، بهدوء نسبي، بينما لم تخضع أبعاد أخرى من انتعاش ما بعد الحرب لأي نوع من التخطيط من جانب الدولة.

ب - مرحلة تباطؤ اقتصادي وتطبيق للمشاريع العامة (١٩٩٥ - ١٩٩٨)

ربما يكون عصر الإعمار قد بلغ ذروته في هذه المرحلة، وقد بدأت تظهر فيه أولى إشارات الأنشطة «الطبيعية» لعصر ما بعد الإعمار حتى ضمن بيروت. فبعد بضع سنوات من التحضير، انطلقت عدة مشاريع رئيسية بكامل قوتها، وخصوصاً أن الحكومة هي التي أسست شركة سوليدير بعدما تغلبت على الكثير من التحديات على وجودها وعلى شكلياتها. وبدأت سوليدير بالعمل على تطبيق بعض أهم تحولات وسط بيروت، مثل إكمال الطريق الذي يحيط بوسط المدينة وشق الطرق وبنيتها التحتية وترميم أو بعث الكثير من البنيان في القطاع «التاريخي» في وسط بيروت والحفاظ على استقرار المواقع البحرية الواسعة التي استعملت في الحرب لدفن النفايات. في المقابل، كانت أهم مشاريع الأشغال العامة قيد الإنشاء أو انتهى العمل منها فعلاً في هذه السنوات القليلة الماضية، وبخاصة بعض الطرق السريعة الجديدة مثل الطريق الجديد للمطار، وطريق الجنوب السريع، وتوسيع جزء من طريق الشمال السريع، والطريق الجانبي لطريق الشام... إلخ.

أما على نطاق القطاع الخاص، فقد استمر النشاط الإعماري الفعال ولكن بوتيرة أقل. واستمرت بيروت تجذب المشاريع الإعمارية الكبيرة والصغيرة وخصوصاً في الطرف الأعلى للسوق. غلبت المشاريع العادية في هذه الفترة على أنشطة الإعمار، فأعيد مثلاً تطوير مواقع البناء الأكثر قدماً أو الأكثر جدة في جميع أنحاء المدينة. وبلغ الإعمار لاستبدال المنشآت المدمرة التي خلقتها الحرب جزءاً بسيطاً من نشاط البناء. وبدأ نوع من البنايات السكنية العالية بالظهور تميزها مواصفات مشتركة مثل الشرفات البيضاء الشكل، والاستعمال المفرط للرخام والغرانيت... إلخ. لكي تلائم هذه الأبراج بقية المشهد. ولسخرية القدر، ضمت موجة التهديم عدداً من المباني كانت قد وضعت على القائمة الرسمية للأبنية المحمية فشملتها أنياً حملة تجديد المباني التاريخية وبالأخص لإيواء أماكن الترفيه العصرية في الأحياء الأقرب إلى وسط بيروت. وبذلك، ترسخت وتعززت الاتجاهات المتناقضة والمتوازية التي ظهرت بعد الحرب مباشرة.

إلى ذلك، لاحظنا «تهديشاً» لأنشطة ما بعد الحرب في الروابط التي تألفت عبر المنطقة الحضرية. ففي حين لم يتراجع حجم الانشقاق السكني بين المسيحيين والمسلمين أبداً، ما فتئت حركة التنقل بين المنطقتين وعبر خط التماس تزداد وتقوى، فكانت بمتزلة جسر للعلاقات بين الأفراد إلى حد ما، على الرغم من أن هذه الجسور لم

تزد عمقاً بوجه عام. وبعبارات أخرى، جرى تفضيل المزيد من الجوار على المزيد من الارتباط.

إلا أن أكبر هموم الحياة اليومية بالنسبة إلى اللبنانيين والبيروتيين كان التباطؤ الاقتصادي المتزايد الذي أرخى بثقله على البلاد وعلى المدينة عاماً بعد عام. يمكن تفسير هذا الانزلاق ببساطة بأن التراجع في الازدهار تخلّفه الحروب عادةً، إلا أن جزءاً منه يجب أن يُرى أيضاً من زاوية التغيير الحاد الذي أصاب المنطقة بعد اغتيال إسحاق رابين وراء الحدود الجنوبية، الأمر الذي حوّل التفاؤل الإقليمي إلى تشاؤم. وفي الحقيقة، تزامن التفاؤل الإقليمي مع التفاؤل المحلي الذي عمّ البلاد في السنوات الأولى التي تلت هدنة القتال، من توقع عودة الأفراد، مثل المهاجرين إلى البلاد العربية والغربية، وتدفق أموال المغتربين والعرب الآخرين وكتلة المستثمرين الأجانب. لكن هذا التفاؤل تبخّر نسبياً، وبسرعة، في منتصف التسعينيات.

على أي حال، وفي حين أن جميع هذه التفسيرات (حتى لو بدت واهمة) هي خارجية، فقد كانت أهمية العوامل المحلية بالدرجة عينها في تفسير التباطؤ الذي أصاب الآلية الاقتصادية للبلاد. استحوذت هذه الآلية المتباطئة على البلاد خلال السنوات الأربع الأولى لبداية فترة ما بعد الحرب. وللتوضيح، فإن ما يظهر من تناقض بين نقاط في الفقرتين السابقتين مع نقاط الفقرة هذه ليس دقيقاً، بل هما يرتبطان على نحو وثيق. وفي الحقيقة، تكمن التفسيرات المحلية للتباطؤ الاقتصادي جزئياً في إنفاق الدولة المتواصل على مشاريع البنى التحتية الهائلة (بما فيها إعادة بناء الوسط التجاري معدلاً). والأرجح أن الدولة لم تكن لتحمل هذا الإنفاق، إذا كانت قد تحمّلته حقاً يوماً، في هذا الجو الإقليمي المتغير، يرافقه استثمار مستمر خاص في قطاع البناء، الذي لم يكن على صلة مباشرة بحاجة البلاد أو قابليتها على التحمل في ذلك الوقت. وعليه، لا يمكن فصل الإعمار المادي أو إعادة البناء التي جرت في لبنان عن الاتجاهات السلبية التي أصابت إعمار البلاد في معناه الأوسع منذ عام ١٩٩٥ وحتى الآن.

ج - مرحلة الكساد الاقتصادي ونهاية مرحلة «إعادة الإعمار» (١٩٩٩ - ٢٠٠٤)

تمثل هذه المرحلة امتداداً لسابقتها، مع تأكيد معظم الاتجاهات التي ظهرت في أثناء الأعوام الانتقالية تلك، من نهاية ازدهار ما بعد الحرب ونهاية فترة «الإعمار» ذاتها من دون شك. تحوّل التباطؤ الاقتصادي هنا إلى كساد تام يشلّه مستوى الدين العام

الآخذ في التصاعد والذي بلغ ١٦٥ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي عام ٢٠٠٣، إضافة إلى تزايد التداخل بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة وانعدام الثقة بين المستثمرين المحتملين. لم يدم إخراج الحريري من السلطة بعد انتخاب الرئيس لحود أكثر من سنتين (١٩٩٨ - ٢٠٠٠). ولم يؤدّ خروجه من السلطة، ولا رجوعه إليها في ما بعد، إلى قلب الموازين في البلاد. لقد حدث تحسن طفيف نحو عام ٢٠٠٣ (وأمكن رؤيته بوضوح في توتّع قطاع السياحة، حيث بلغ عدد السياح أكثر من مليون زائر أجنبي تلك السنة)، وارتبط ذلك بعوامل طارئة أكثر راهنية (وبخاصة الوضع الإقليمي المعقد الذي تلا أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١) لا بعوامل الانتعاش الاقتصادي القصير الأمد لما بعد الحرب.

وكانت مظاهر فقدان المتزايد للثقة بمستقبل اقتصادي للبلاد^(١٧) - كما عكسها التقرير الدراماتيكي عن مستويات الفقر والهجرة - متعددة^(١٨). ونذكر بعضها، مثل إبطاء أو تعطيل الكثير من المبادرات المدنية العامة الكبرى. وأصبح نشاط البناء مشتتاً، وباتت رؤية رافعات البناء أقل كثافة ممّا كان عليه في السنوات التي مضت. ومع هذا، لم يوقف تدني أسعار الكثير من العقارات من حركة البناء، وهو ما عكس اهتزاز أسطورة قطاع العقارات الذي لا يهتز. كذلك لا يبدو أن هناك ما يهدد التقليد القديم بالتركيز المبالغ فيه على الزوار والمستثمرين العرب - بل هو تعزز - وينعكس هذا في الظهور المستمر للفنادق والمتجعات الضخمة.

أخيراً، تعود بعض الاتجاهات التي كنا قد لاحظنا وجودها في المرحلة السابقة لتؤكد بقوة في هذه المرحلة. ويشكل التعزيز النسبي للقوى المحلية أحدها، كما رأينا سابقاً، وذلك في إطار تحديث البلديات لتكون الممثل الحقيقي بقدرات فعلية بعد انتخابات ١٩٩٨ (رغم أن ما تحقق يبدو محدوداً بسبب سيطرة الدولة والضائقة المالية). وظهر اتجاه آخر مهم لجهة إعادة تأهيل المشهد المدني الحالي، إذ إن النجاح الكبير الذي لاقته ساحة النجمة القديمة المجددة، مع شارع المعروض وفوش - النبي في قلب

Franck Debié, Danuta Pieter et Eric Verdeil, *La Paix et la crise: Le Liban reconstruit?* (Paris: (١٧) Presses universitaires de France, 2003).

Choghig Kasparian, *L'Entrée des jeunes libanais dans la vie active et l'émigration*, 3 vols. (١٨) (Beyrouth: Presses de l'Université Saint-Joseph, 2003).

في عام ٢٠٠١، ٤٢ في المئة من ربات البيوت كن يكسبن أقل من ٨٠٠٠٠٠ ل.ل. أي ما يعادل الخمسة دولارات أمريكي في الشهر الواحد. ويقدر عدد اللبنانيين الذين هاجروا بعد الحرب بنحو ٤٠٠٠٠٠ لبناني، منهم ٢٥٠٠٠٠ بين عامي ١٩٩٦ و٢٠٠١.

المنطقة التي تديرها سوليدير، فغدت المقصد الرئيسي للحياة الليلية في بيروت ومؤخراً للبيع بالتجزئة، الذي يجب أن يعدّ واحداً من سلسلة الخطوات لتبيّن واستخدام الأبنية القائمة. وتضمنت الخطوات تلك توسعاً في إعادة استخدام المباني التاريخية أبعد من نطاق منطقة الوسط المباشر؛ والجهود التي بذلتها منظمة مساعدة لبنان الخيرية لطلي الواجهات (Help Lebanon)، والتي يبدو أنها تتشر لتصبح جهوداً فردية؛ وكذلك الجهد المماثل الذي بذله الصندوق الوطني للمهجرين من خلال تغيير أولوياته من تأمين مبالغ ثابتة للمهجرين إلى تحسين صورة بعض الأحياء القديمة التي كانت ما زالت تؤوي بعض اللاجئين مثل منطقة رأس النبع؛ والأنشطة الجديدة في الأحياء القديمة مثل مهرجان درج الفن في الجميزة إحدى هذه الخطوات؛ والتمويل الكبير من البنك الدولي لبرنامج حفظ الإرث الثقافي والنمو الحضري في طرابلس وبيعلبك وصيدا وجبيل وصور.

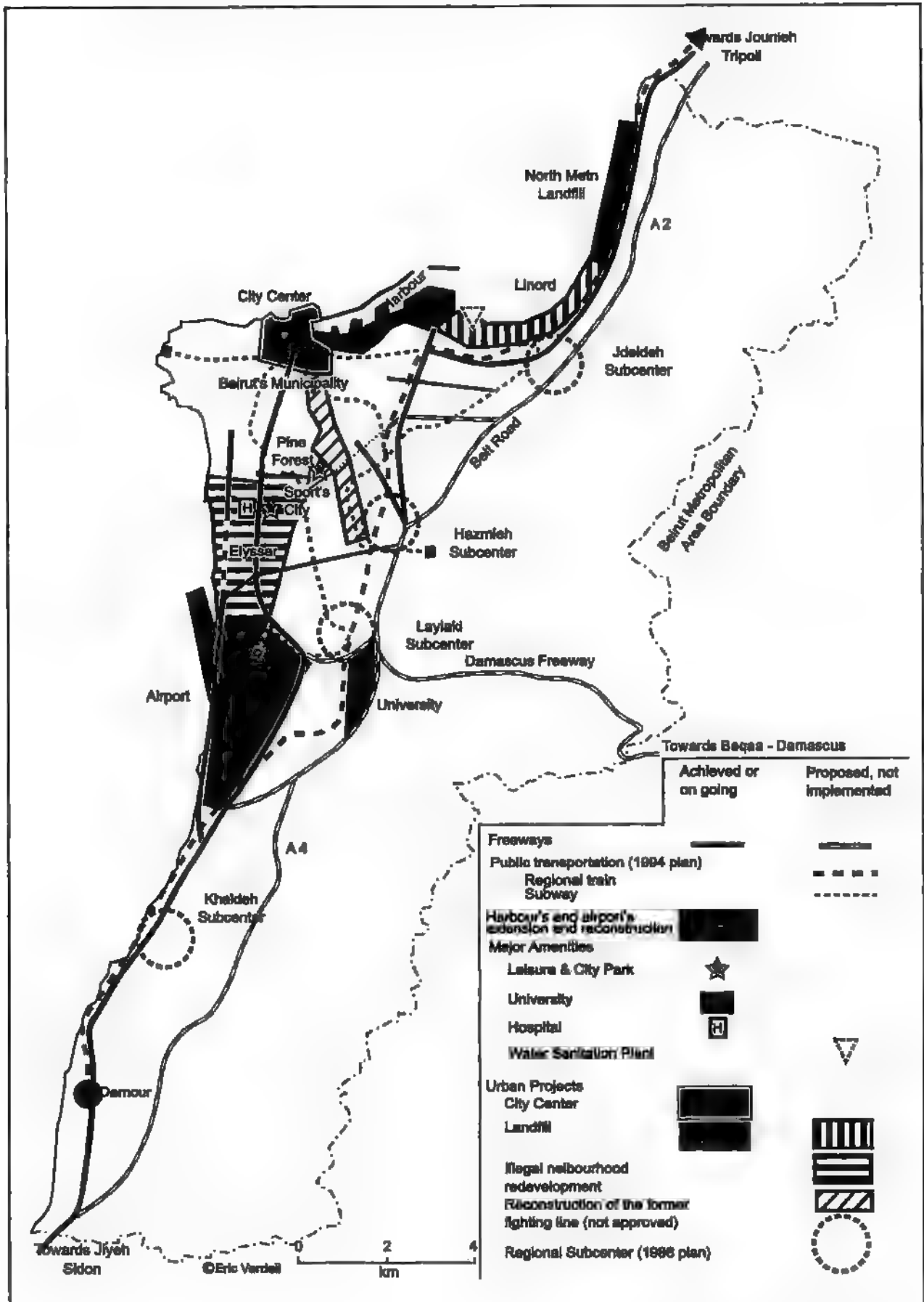
على مدى العقد ونصف العقد الماضيين، ظهرت سلسلة من التناقضات الظاهرة: أهمها آنية التهديم وإعادة التأهيل، واستثمارات هائلة مجاورة لخراب حرب ما زال كما هو، وتدهور اقتصادي في موازاة إنفاق عام وخاص على البناء شديدين، وسواها. تلقي التفسيرات المختصرة السابقة بعض الضوء على كيفية فهم التناقضات الكثيرة هذه في سياق أعوام إعادة الإعمار وما بعد إعادة الإعمار اللبنانية. هذه التناقضات يمكن مشاهدتها بوضوح في الخطط والمشاريع المقترحة التي نفذت جزئياً في هذه الفترة.

٣- خطط ومشاريع ما بعد الحرب

أهم ما يلاحظ في إعمار ما بعد الحرب في بيروت، وبوجه عام في لبنان، هو الانتقائية في التخطيط والتجزؤ في الإنجاز (انظر الرسم الرقم (٤٦ - ٦)).

بمعنى آخر، لم يكن هناك خطة شاملة ولا رؤية واضحة للتعامل بشمولية مع الأمور المتعلقة بازدهار ما بعد الحرب. لم يكن هناك وزارة للتخطيط. وعلى الرغم من أن مجلس الإنماء والإعمار قد استطاع إنجاز عدد من أدوار وزارة كهذه من تنسيق المشاريع وإرسال الأموال من الخارج لتمويل بعض أنشطة إعادة الإعمار، فلم تكن النظرة إلى هذه الأدوار موحدة ولا ذات رؤية، بل عملت بدلاً من ذلك على مستوى إعادة إحياء بعض القطاعات المعينة أو دراسة أجزاء معينة من البلاد. لذا، فتجزئ الإعمار يدخل في إطار المكان والقطاع. وفي الوقت نفسه، سيطر نوعان من المخططات الفعلية على الخطط الموضوعية أو المشاريع التي أطلقت، وهي مخططات البنى التحتية الرئيسية ومخططات إعادة التطوير الواسعة النطاق لمناطق محددة.

الرسم الرقم (٤٦ - ٦)
مشاريع إعادة الإعمار لمنطقة بيروت الكبرى خلال التسعينيات



المصدر: الصورة من إريك فرداي.

وفي حين شمل بعض أهم مشاريع البنى التحتية التي نُفذت مبادرات جديدةً وكاملة، مثل الطريق السريع بين بيروت والجنوب، فإن البعض الآخر لم يكن إلا أجزاء من مشاريع، مثل تنفيذ قطع من طرق سريعة جديدة. مثلاً، نُفذ القسم الالتفافي من طريق بيروت - دمشق قرب ضواحي بيروت في انتظار استكمالها الطويل الأجل إلى المناطق الجبلية. والمطار المتضرر جزئياً أعيد بناؤه كلياً ليستطيع استيعاب مستوى النشاط المتضاعف في الوقت الحاضر، بينما شهد المرفأ ترميمات جوهرية. خضعت خطة إعادة حرم بيروت لأمر غير اعتيادي، وهو المتنزّه الرئيسي للمدينة، الذي كان خط التماس يمر عبره أثناء الحرب، إذ دخل تصميمه في إطار المنافسة قبل البدء بإنجازه. وعلى الرغم من مرور عقد من الزمان على الانتهاء منه، ما زال ينتظر افتتاحه أمام الجمهور.

على أي حال، فإن خطة حاسمة مثل خطة النقل التي حضرها المعهد الفرنسي لتنظيم وتخطيط المدن لمنطقة ضواحي باريس (IAURIF) عام ١٩٩٤ لا تزال إلى حد بعيد حبراً على الورق؛ إذ في حين بدأ إنجاز بعض الطرق السريعة منها، لم ترَ بقية الخطة النور بعد ولو جزئياً.

أما بالنسبة إلى مشاريع إعادة التنمية الكبيرة فقد برزت ثلاثة مشاريع: أولها مشروع شركة سوليدير لإعادة إعمار وسط بيروت، وثانيها مشروع أليسا لإعادة الإصحاح المرحلي لضواحي بيروت الجنوبية بين حدود بيروت والمطار، وثالثها مشروع لينور لإعادة تطوير ساحل بيروت الشرقي وموقع طمر النفايات في المتن الشمالي إلى شمال الساحل الشرقي لبيروت. سوف نناقش لاحقاً المشروع الأكثر شهرة الذي تحقق جوهرياً، أي المشروع الأول.

أما المشروعان الآخران فقد عرفا تاريخاً طويلاً ومعقداً والقليل من التطبيق الفعلي بعد اثني عشرة سنة. فقد عَطِلَ مشروع أليسا، وهو المشروع الأقرب بين الثلاثة للتنمية العامة، عدّة عوامل منها النزاع السياسي وقلة التمويل والتعقيدات في استملاك الأراضي وتعويض السكان الشرعيين وغير الشرعيين، وتحديات أخرى، على الرغم من التحوّل التدريجي في موقف القوى المحلية، وبخاصة حزب الله، من معارضة المشروع إلى تبني تشكيله. لم يطبق شيء من المشروع في ما عدا حفنة من قطع الطرق الجديدة في المنطقة. وتستمر الحياة لعشرات الآلاف من السكان الفقراء والمتوسطي الدخل على حالها من دون التغيير الذي كان مقصوداً من عمليات إعادة

إسكانهم وما يلحقها من أبنية الإسكان الجماعي الذي كان مقرراً أن تستبدل المباني في هذه المنطقة^(١٩).

وفي هذه الأثناء، بقيت إعادة تطوير المناطق الصناعية الشرقية من دون صدى، في ما عدا تغيير بعض الحالات كل على حدة. وبينما بُنيت مواقع طمر النفايات في المناطق الشمالية وظهرت فوقها شبكة من الشوارع، لم يتم بناء أي من الفنادق الضخمة التي كان من المقرر إقامتها لتصبح كتل المدينة المستقبلية^(٢٠).

تختلف المشاريع الثلاثة أحدها عن الآخر في عدة نواح. إلا أن أبعاداً رئيسية تربط هذا الثلاث من المشاريع الضخمة معاً. وأوضح ما يجمعها هو مقياسها الذي ميّزها عن أي شيء آخر حصل في البلاد منذ التسعينيات، لو أن مشروع الضواحي قد نفذ كما كان مفروضاً.

أما البعد الثاني فهو خاصية الدافع الرئيسي وراء هذه المشاريع كمشاريع عقارية بدلاً من أدوات تغيير اجتماعي أو محركات اقتصادية. وفي الوقت نفسه اكتسبت هذه المشاريع أهمية رمزية بسبب حجمها المحض والقيم التي تمثلها.

وأخيراً فهي لا تمثل مشاريع طويلة الأمد فقط، بل تمتد بداياتها بعيداً في الماضي كذلك، إذ إن التخطيط لها جاء في إثر الكثير من الاقتراحات وبعض الإدراك للوضع الذي هدف إلى تحويل المناطق هذه بالذات من خلال العمليات الفعلية منذ عدة سنوات أو حتى منذ عقود، كما يبيّن في بداية بحثنا هذا.

يجب ألا يصرف التشديد في هذه الفترة على الخطط والمشاريع انتباهنا عن الإعمار العشوائي غير المخطط له سلفاً الذي ميّز فترة ما بعد الحرب في البلاد وفي عاصمتها. من الممكن أن نرى الطبيعة التدريجية للإعمار على مستويين. بالنسبة إلى المناطق التي تضررت في الحرب، فمنطقة وسط بيروت التي التزمها سوليدير وحرش بيروت، قد خضعا نوعاً ما لخطة عمل تم اتباعها تقريباً، أما الدمار الأكبر الذي امتد كيلومترات على طول خط التماس فقد تُرك ليستعاد وفق مشيئة وقدرة المالكين

(١٩) Harb el-Kak Mona, «Urban Governance in Post-War Beirut: Resources, Negotiations, and Contestations in the Elyssar Project», in: Seteny Shami, ed., *Capital Cities: Ethnographies of Urban Governance in the Middle East* (Toronto: University of Toronto, Centre for Urban and Community Studies, 2001), pp. 111-133, and Clerc, «L'Urbanisme face aux quartiers irréguliers: Le Cas d'Elyssar en banlieue sud de Beyrouth».

(٢٠) Verdeil, «Entre guerre et reconstruction: Remblais et empiètements Littoraux à Beyrouth».

والمستأجرين على المستوى الفردي. ففي حين حصل اللاجئون والمهجرون وغيرهم من الذين عانوا خسائر الحرب على مبالغ ثابتة منصفة من الدولة لمساعدتهم على تحمّل خسارتهم، لم ينظّم تقريباً أي شيء مماثل في هذه المناطق التي يفترض أنها مناطق إعمار بكل ما في الكلمة من معنى. فعلى الأرجح أن انعدام التخطيط للإعمار على طول معظم خط التماس^(٢١) يمثل ميزة أكثر تلازماً لإعادة البناء في بيروت ممّا يحددها التحول المدروس الذي طبق على طول كيلومتر أو نحوه لخط التماس الذي يقع في منطقة سوليدير. وفي الوقت نفسه، فإن أنشطة التطوير وإعادة التطوير في مناطق بيروت الكبرى الواسعة التي لا يمكن عدّها مناطق متضررة من الحرب تُركت تعود كلياً للمالكين بصفتهم الفردية.

٤ - سوليدير وتطوراتها

بدأ الإعلان على نحو واسع عن خلق شركة سوليدير لتكون المسؤولة الوحيدة عن تطوير منطقة وسط بيروت، المدمّرة جزئياً من جرّاء الحرب. كتبت الصحافة العالمية والمحلية عنها بصورة استثنائية منذ انطلاقها وبداية نشاطها وتساعد الخلافات حتى قبل استهلال العمل بها وإلى السنوات الأخيرة حين أصبح إنجازها الجزئي نوعاً من النموذج الإقليمي لإعادة التطوير^(٢٢)، وعنصراً أساسياً في التجربة السياحية في بيروت. وإذا أخذنا في الحسبان الكم الهائل من الكتابات حول هذا الموضوع، في المجالين العلمي والصحافي عموماً^(٢٣)، وبما أن هذا الفصل يحيل على سوليدير بعامة،

(٢١) دراسة حققها المعهد الفرنسي IAURIF في بداية التسعينيات، تبعتها بعض الاقتراحات التي كان الهدف من ورائها رسم خطط للمدينة، إلا أن الحكومة اللبنانية لم تكمل في هذه الطريق.

(٢٢) كما نرى في المرجع لشركة سوليدير حيث حققت مشاريع إعادة تطوير مهمة في عمان (العبدلي) وفي دمشق (سوق ساروجة).

(٢٣) انظر مثلاً و(بلغات مختلفة): Nabil Beyhum, ed., *Reconstruire Beyrouth: Les Paris sur le possible*, collection études sur le monde arabe; no. 5 (Lyon: Maison de l'Orient Méditerranéen, 1991); *Les Cahiers de l'Orient*, special section on «La reconstruction du Liban», nos. 32-33 (4th quarter 1993-1st trimester 1994); Samir Khalaf and Philip S. Khoury, eds., *Recovering Beirut: Urban Design and Post-war Reconstruction*, with an introduction by Richard Sennet, Social, Economic, and Political Studies of the Middle East = Etudes sociales économiques et politiques du Moyen Orient; v. 47 (Leiden; New York: E. J. Brill, 1993); Heiko Schmid, *Der Wiederaufbau des Beiruter Stadtzentrums: Ein Beitrag zur handlungsorientierten politisch-geographischen Konfliktforschung*, Heidelberger Geographische Arbeiten; Bd. 114 (Heidelberg: Universität Heidelberg Geographisches Institut, 2002) et Verdeil, «Une ville et ses urbanistes: Beyrouth en reconstruction»,

وإعمار بيروت والفرصة الضائعة، وسط بيروت التجاري والشركة العقارية: الولاات - المرتكزات - البدائل (بيروت: طبع على نفقة المساهمين، ١٩٩٢).

فإن القسم الختامي سيكون مختصراً، ويسترجع ميزات هذا النهج في إعادة بناء وسط بيروت، ويؤكد ثوابت المشروع كما السمات التي تطورت فيه.

رخصت الحكومة اللبنانية لسوليدير كشركة خاصة تتولى التطوير العام منذ أوائل التسعينيات، وقد أعطيت سيطرة تامة على منطقة محددة بصورة واضحة تغطي مركز بيروت التاريخي والمناطق المحاذية لها مباشرة، من ضمنها مكب النفايات الهائل الواقع على الشاطئ البحري (تمثل كلها ١,٥ كم^٢). وحُولت معظم حقوق المالكين القدامى والمستأجرين إلى أسهم تمثل ثلثي أسهم الشركة. وفتح الثلث الآخر أمام المستثمرين المحليين والعرب. وكون رفيق الحريري يمثل أكبر مستثمر فيها فقد جرى ربط المشروع بقوة برئيس الوزراء في أذهان العامة كما في الواقع.

ولإنشاء سوليدير، استند إلى قانون قديم وغير مطبق من قبل يسمح بإنشاء شركات إعادة تطوير على أساس جمع الأراضي وإعادة فرزها كأساس لبدايتها، إلا أنه مُنحَل ليُسمح بدمجها مع الاستثمار الخاص وبمعاملتها كشركة تجارية. كانت فكرة إعادة تطوير أجزاء من وسط المدينة فكرة قديمة تعود إلى العقود الماضية، كما رأينا سابقاً، ولكن درجة سيطرة سوليدير عظمت هذه المحاولة من خلال ترخيص جميع القطاعات في الوسط وحتى اختيار نوع بلاط الرصيف، كما عظمتها من جهة الحجم (حيث مُددت حدود المنطقة المحددة ليعاد تطويرها إلى أبعد كثيراً من منطقة الدمار الهائل)، ومن حيث الوقت (حيث مددت الدولة إلى ٧٥ سنة التنازل الممنوح لسوليدير).

وقد مثلت درجة المهنية العالية للشركة نفسها سمة إبداعية أخرى للمشروع. ففي الحقيقة شددت الشركة في تمثيلها كثيراً على اعتمادها أحدث وأرقى عمليات التخطيط والتصميم والتسويق وإدارة الأعمال وعمليات أخرى. أما هدفها فالتأكيد للعالم الخارجي وللبلاد نفسها أن المقصود من سوليدير هو نموذج للشركة «العالمية» المتكاملة عالمياً، وهو أمر محتمل في لبنان الذي يعود مرة أخرى طليعة للحدثة في الشرق الأوسط.

بدأ مركز الأبحاث الفرنسي CERMOC، ويعرف الآن باسم IFPO، بحثاً مهماً حول إعمار بيروت من ضمن بحثه السابق «Observatoire de Recherche sur Beyrouth et la Reconstruction». انظر: <http://www.lb.refer.org/cermoc>.

يتضمن ١٤ موضوعاً حول lettre de l'information de l'ORBR رسالة الإعلام الـ ORBR من ١٩٩٤ إلى ٢٠٠١.

وبينما تمثل الأبعاد التي ذكرناها آنفاً الثوابت الأساسية في تاريخ سوليدير، فقد تطور المشروع بعدة طرائق في السنوات الاثنتي عشرة الماضية، منذ نهاية القتال ووصول الحريري إلى السلطة عام ١٩٩٢، فأتاح له الانتقال من أفكار على الورق إلى أبنية من الإسمنت وشوارع وأمكنة.

واجه نهج سوليدير، مذ كشف النقاب عنه والطريقة التي اقترح بها، تحديات كبيرة، من ضمنها ما امتدت آثاره إلى الخطط نفسها. وبرز نوعان من التعديلات. فرداً على انتقاد آليات نزع الملكية ونتائجها، وضعت قائمة بالمباني التي يمكن لأصحابها أن يستردوا ملكيتهم لها (التي تُستثنى من ملكية تبادل الأسهم التي فرضت على الآخرين)، وتجدد تحت وصاية الشركة الصارمة وضمن جدول مواعيد صارم. استثنيت كذلك جميع ممتلكات الجماعات الدينية (ومنها الأوقاف). والتحول الأوسع ربما كان قبول وضع بعض القطاعات ضمن المنطقة جانباً كمناطق «تاريخية» لتتم حمايتها ولكن بعد ترميمها (انظر الرسم الرقم (٤٦ - ٧ أ و ب))^(٢٤).

ونستطيع أن نسجل للهجمات المتكررة من جانب متقدي المشروع، على الرغم من أنها لم تستطع وقفه، الفضل في التعديلات المهمة التي أدخلت على المشروع. وقد بقي بعض هؤلاء الأشخاص بعيدين تماماً من سوليدير، باختيارهم أو باختيار الشركة، في حين انتهى المطاف ببعضهم الآخر إلى التعاون مع سوليدير على عدة صعد، من التخطيط أو الاستشارة في جميع قطاعات سوليدير إلى تصميم مبانٍ محددة في منطقة سيطرتها.

مثل دمج حماية المباني التاريخية، وإلى حد ما الآثار، نقلةً جزئية نحو نوع العمارة الحالية. إلا أن هذه النقلة كانت غريبة، إذ إن بعض المناطق قد هدم بالكامل (مثل جنوب ساحة البرج) أو بمعظمه (مثل سوق أياس وسوق سرسق) أو جزئياً (مثل وادي أبو جميل)، بينما بعضها الآخر، الذي كانت الحرب قد ضررت به بصورة مماثلة، قد حُفظ وأعيد تجديده بنفقات كبيرة، مثل تقاطع شارعي فوش وآلنبي وساحة النجمة والمعرض والصيفي. وكانت هذه النقلة خير عون في تمثيل الشركة، إذ رافقت حداثة الوسط صفته التاريخية فتلور شعار الشركة السابق «مدينة عريقة للمستقبل»^(٢٥).

(٢٤) عوض النص الناتج في الكثافة بإسهاب من خلال زيادة الكثافة في مناطق أخرى ومن خلال تمديد منطقة دفن النفايات.

(٢٥) Joseph L. Nasr, «Beirut/Berlin: Choices in Planning for the Suture of two Divided Cities», *Journal of Planning Education and Research*, vol. 16, no. 1 (Fall 1996), pp. 27-40.

الرسم الرقم (٤٦ - ١٧)

مقترح لمنطقة وسط بيروت، كما جرى تقديمه سنة ١٩٩١



مخطط هنري إده.

المصدر: الصورة من جو نصر.

الرسم الرقم (٤٦ - ٧ ب)
مقترح لمنطقة وسط بيروت من سوليدير (١٩٩٥)



المصدر: الصورة من إريك فردي.

مع ذلك، يحس المرء أن الهدف من هذه النقلة هو مجرد تهدئة الانتقادات. وهكذا، كان تجديد المناطق المحفوظة، في الغالب، تدبيراً لتوفير وسائل الراحة لبقية الوسط (وللمدينة ككل)، وعُدّ كذلك للمنطقة ككل وأظهر حجم البناء. على أي حال،

أدى التدهور الاقتصادي وأسباب أخرى إلى تقديم عمليات الحفظ (وإكمال البنى التحتية الأساسية التي كان يجب أن تسلم في البداية)، على عمليات البناء الجديدة التي شهدت انطلاقاً بطيئة جداً.

لاقت المناطق المرممة نجاحاً هائلاً - على الأقل على المستوى الأرضي في حين بقيت الطبقات العليا مدينة أشباح في أغلبها - وهو ما غير في الواقع مفهوم منطقة سوليدير. ولسخرية القدر، فإن المساحات الواسعة، التي كان من المفترض أن تضم البنايات الضخمة والتي لم تر النور حتى الآن، هي الآن مواقف واسعة للسيارات الكثيفة في خدمة الجزر التي باتت المكان العام الرئيسي لتلاقي بيروت كلها (انظر الرسم الرقم (٤٦ - ٨)).

الرسم الرقم (٤٦ - ٨)

منظر شامل لمنطقة الوسط، يظهر المنطقة المفرغة خارج ساحة الشهداء على اليمين، وجزءاً طريق الرينغ حول الوسط لجهة اليسار



المصدر: الصورة من إريك فردي.

إن البداية البطيئة في النشاط المركزي للشركة (أي شيد آلاف الأقدام المربعة من البناء الجديد)، كما تعكسها الخسارة الكبيرة في قيمة أسهمها في البورصة وحتى في خفض عدد الموظفين في السنوات الأولى لوجودها، تستحق المزيد من النظر فيها. فبعض التفسيرات قد تندرج في النهج الداخلي المتبع في الشركة، إذ أدى اختيار إنجاز مشروع ذي نطاق عالمي إلى وضع معايير وأسعار باهظة جداً للعقارات وأعلى كثيراً

من تلك التي في بيروت أصلاً، وهو ما جعلها بالضرورة خارج قدرة أغلبية المواطنين لجهة الإيجار، والعمل، أو السكن، أو حتى الوجود في منطقة سوليدير (ما عدا أمكنة الاستجمام). وكانت تكلفة بعضها هائلة مثل طمر مكب النفايات وبناء حاجز البحر. وواجه موقف الشركة كمؤسسة خارج نطاق سيطرة الدولة حقيقة وجود قوانين وأنظمة تنطبق عليها وتقع تحت سلطة كيانات حكومية أخرى. وأدى هذا إلى إبطاء تقدم عدد من المشاريع في وسط بيروت. وكانت العلاقة مع بلدية بيروت صعبة جداً.

امتزجت تأثيرات هذه القرارات الداخلية بالعوامل الخارجية، وبعضها بطريقة مباشرة أكثر من غيره. واستعمل الوضع السياسي بين المجموعات القوية في البلاد والأفراد أغلب الأحيان سوليدير كساحة حرب. فقد كانت النظرة إلى مشروع الأسواق على سبيل المثال كالمحفز الأساسي ومرساة الأنشطة التجارية في المنطقة. وبدلاً من هذا، كان المشروع يؤجل بسبب الخلافات بين الحريري وبعض معارضيه الذين يتحكمون بمؤسسات حكومية وبلدية متعددة.

وهكذا فوّت المشروع فرصة وجوده على ساحة السوق للبيع بالمفرد والتي كانت تتبعثر في مواقع وأحياء أخرى في وسط بيروت مثل الأشرقية وفردان والجناح. وكان للتباطؤ الاقتصادي الزاحف الأثر الأعظم في سوليدير مثل أي مكان آخر. ويمكن إلقاء اللوم عليه في هبوط قيمة سهم الشركة والعجز الكبير في ميزانيتها عام ٢٠٠٠، وفي الإقلاع البطيء جداً في بيع العقارات وفي استقطاع بعض أنشطتها. وفي حين ظهرت موجة جديدة من الاستثمارات بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، إلا أنها لم تعوّض البطء في بدايتها بالنسبة إلى توقعاتها المعلنة.

وكما هي حال أكثر الأمور في لبنان، فقد ترجم جزء من الاشتباك السياسي حول وسط بيروت إلى معركة أخذت منحىً طائفيًا. من الملائم استنتاج كيف فسّرت إعادة بناء وسط بيروت على أنها إعادة بناء مدينة في العالم الإسلامي. وعلى المرء أن يلاحظ هنا تغيب البعد الطائفي في هذا المضمار، وهو ما غاب في البدء، وإلى حد كبير، عن أغلب مناقشات إعادة إعمار بيروت. وهذا لا يعني بالطبع غياب الدين كعامل مؤثر^(٢٦). فالجماعات الطائفية كانت منذ فترة طويلة من ملاكي الأراضي المهيمنين وحتى المستثمرين في الأجزاء الأقدم من بيروت؛ ولكن دورهم كلاعب أساسي كان محدوداً،

(٢٦) انظر على سبيل المثال: Nabil Beyhum, ««Ne me tuez pas une seconde fois!»: Note sur le mazar du Dimashki dit al Iraki dans le centre-ville de Beyrouth,» dans: Michael F. Davie, dir., *Beyrouth: Regards croisés* (Tours: URBAMA, 1997).

إلا أنهم برزوا كلاعبين موجودين حين سمحت سوليدير لأراضيهم أن تُستثنى من تملك الأراضي الذي انتهجته، ووزعت التمثيل في مجلسها تبعاً للطوائف المختلفة كما هو معمول به في دولة لبنان الطائفية إلى حد كبير.

نادراً ما أخذت الخلافات التي ميّزت حياة الشركة، وبخاصة في سنواتها الأولى، أبعاداً طائفية واضحة. لذا، فإنه لمن السخريّة أن تأتي محاولة «أسلمة» وسط المدينة متأخرة جداً وبعد كل هذه السنوات، وفي سياق المعركة الانتخابية عام ٢٠٠٠، وذلك من خلال بناء مسجد عظيم جديد في قلب المدينة على حدود الساحة الرئيسية وهي ساحة البرج [الشهداء]، في جوار كنيسة مار جرجس المارونية الرئيسية، التي بدأ بناء المسجد يرتفع فوقها منذ الآن (انظر الرسم الرقم (٤٦ - ٩)).

الرسم الرقم (٤٦ - ٩)

مسجد جديد قيد الإنشاء في آذار/ مارس ٢٠٠٤ [جامع محمد الأمين]
بين ساحة البرج [الشهداء]، في المقدمة، وكاتدرائية سان جورج إلى اليسار



في أقصى اليسار مجمّع اللعازارية، الذي أنشئ في الخمسينيات على أرض كانت تشغلها سابقاً مدرسة دينية.
المصدر: الصورة من جو نصر.

قصة هذا المسجد معقدة. ويكفي القول إن عرض فكرة بناء مسجد جديد عظيم، كما الحال في الدار البيضاء وعمّان وعدد من المدن العربية وغير العربية الأخرى، لقي في البدء معارضة من السلطات، ثم انتهى الأمر بتبني السلطات هذه الفكرة، وخصوصاً الحريري. وهكذا، وفي الوقت الذي كان الإعمار وكل ما يربطه بحرب كانت تدور ولو جزئياً حول النزاع الطائفي ينسحب من الأنشطة اليومية إن لم يكن من الذكريات في لبنان، يرتفع رمز ديني في قلب العاصمة، أول مرة في فترة ما بعد الحرب، في أحد الأجزاء الوحيدة من المدينة التي أديرت كيما تتجنب دلالات واضحة على التجمعات الطائفية.

نص لاحق^(٥)

استكمل النص هذا في نيسان/أبريل ٢٠٠٤. إلا أن أحداثاً دراماتيكية حدثت في لبنان بين عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٧ وأثرت مباشرة في إعادة وسط المدينة وغيّرت في معنى المكان فيه. فقد اغتيل رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري في ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٥ ودفن بجوار المسجد الجديد، في ساحة الشهداء. لم يكن ذلك بالتأكيد أمراً خطط له، تماماً كما أن الجامع لم يكن في مخططات وسط المدينة. ويات المكان محجاً لتظاهرات ضخمة معادية أو مؤيدة لسورية وقادمة من مناطق لبنان كافة. وفي سياق الصراع السياسي الذي تلا حرب تموز/يوليو - آب/أغسطس ٢٠٠٦ بين إسرائيل وحزب الله، أقام معارضو الحكومة في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦ «مدينة خيام» احتلت أجزاء كبيرة من وسط المدينة، فجمدت كل نشاط تجاري في المنطقة. وهكذا اختبر المكان وعلى نحو رمزي تغييرات جذرية جديدة أضيفت إلى تاريخه الطويل عبر الزمن.

كذلك أثرت حرب ٢٠٠٦ ويعمق في الضواحي الجنوبية من العاصمة، حيث دمر فيها ٣٠٠٠٠ وحدة سكنية. ووسط نقد خجول من جهات عدة، بدأ مشروع إعادة إعمار جديد، تحت إدارة حزب الله. ومن جديد، تقسم الخطوط السياسية والطائفية جغرافية المدينة، ويطفو العنف المدني من جديد إلى السطح مهدداً بإشعال حرب أهلية جديدة. ومستقبل وسط المدينة يبدو مرة أخرى، وبعمامة، غير محدد، كما البلاد وعاصمتها. وهكذا يتواصل تدمير بيروت وإعادة إعمارها.

(٥) أضيفت هذه الفقرة في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨ - المحرر.

الفخارس

فهرس الأعلام

- أ -

- إبراهيم بن الأغلب: ٢٠٠
 إبراهيم بن الأغلب (الثاني): ٢٠٠
 إبراهيم خان زاده محمد باشا: ٤٥٢-٤٥٣،
 ١٢٣٧، ٤٥٨
 إبراهيم (السلطان العثماني): ٦٣٣، ٦٥٧
 إبراهيم (الكاثولييكوس): ٣٣٤
 إبراهيم، لىلى على: ٨٣-٨٤
 إيشير مصطفى باشا: ١٢٣٤، ١٢٣٨
 ابن ألب أرسلان، ملك شاه (السلجوقي):
 ١١٨، ٦١١
 ابن إسحاق، خليل: ٨٩٥-٨٩٧
 ابن إبراهيم، دولت: ٧١٣
 ابن أبي السرور، شمس الدين محمد: ١٠٥٨
 ابن أبي سفيان، زياد: ١٩٣، ١٩٥
 ابن أبي سفيان، معاوية: ١٦٩
 آسكيا محمد الأول: ٩٠٢
 آشتور، إيلياهو: ٦٢، ٦٤
 آصف جاه الأول. انظر: نظام الأول
 آصف جاه الخامس. انظر: نظام الخامس
 آغا محمد خان القاجار: ٦٠٩، ٧١١، ٧٢٨
 آل سعود، عبد العزيز بن فهد: ٣٦-٣٧
 آل مكتوم، محمد بن راشد: ١٤١٧
 الإباضيون: ٩٦٠
 إبراهيم آغا الإنكشاري: ١٠٥٦
 إبراهيم باشا (الصدر الأعظم): ٦٣٥، ٦٣٧،
 ٦٣٩-٦٤١، ٦٥٦، ٦٥٩، ١٢١٦
 إبراهيم باشا (والي مصر): ٤٧٥
 إبراهيم بك: ١٢١٧

ابن جرادة، أحمد بن علي: ٣٣٧
 ابن جُزَي: ٣٥٨
 ابن جعفر، موسى: ٧١٤
 ابن جلجل، سليمان بن حسن: ١٠٩٢
 ابن جهانغير، برويز: ٧٦٤
 ابن جهانغير، خسرو: ٧٧٥
 ابن جهانغير، مغيث الدين (شاه جهان):
 ٢٧١، ٧٤١، ٧٤٣-٧٤٥، ٧٤٨، ٧٥٠،
 ٧٥٢-٧٥٤، ٧٥٩-٧٦٠، ٧٦٢-٧٦٤،
 ٧٦٦-٧٦٧، ٧٦٩-٧٧٩، ٩٦٦
 ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن
 علي: ٣٢٠
 ابن الحاج، محمد: ٣٤٧، ٣٦٠
 ابن الحجاج، أبو عمرو أحمد بن محمد:
 ١٠٩٢
 ابن الحجاج، مسلم: ١٤٨
 ابن حذافة، خارجة: ١٩٠
 ابن حريث، عمرو: ١٩٥
 ابن حسون، عبد الله: ٨٨٤
 ابن الحسين، طاهر: ٧١٣
 ابن الحسين، عبيد الله: ٢٠٠
 ابن الحمامة: ٨٧١
 ابن حمزة، علي (المير): ٧١٤، ٧٢٠
 ابن حنبل، أحمد: ٣٣٦، ٨٩٢
 ابن حنيف، عثمان: ١٩٣
 ابن حوقل، محمد أبو القاسم: ٧٤، ١٧٧،
 ٢٥٨، ٢٦٢، ٣١٩
 ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف: ١٠٧٧
 ابن حيراء، شيث تشوني: ٧٧٧
 ابن الخازن: ٨٧١

ابن أبي الصبر أيوب، محمد: ٣٥٠
 ابن أبي طاهر، أحمد: ١٨٩
 ابن أبي وقاص، سعد: ١٩٤، ٣٩١
 ابن أحمد، حفي صالح: ٥٠٥
 ابن أحمد، محمد: ٣٣٠
 ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل: ٣٤٤،
 ٣٥٥
 ابن الب، أرسلان: ٦١١-٦١٢
 ابن إلياس، أبو علي: ٦٠١، ٦٠٥-٦٠٧
 ابن الإمام، عبد الله: ٩٠٠
 ابن أنس، مالك: ١٤٠، ٨٩٢، ٨٩٩
 ابن باجة: ٨٧١
 ابن برقوق، الناصر فرج: ٤١٠
 ابن البصّال، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم:
 ١٠٨١، ١٠٨٩، ١٠٩٢، ١٠٩٨
 ابن بطوطة، محمد بن عبد الله: ٣٢٠،
 ٣٥٥-٣٥٦، ٣٥٨، ٤٨٤، ٩٧٩، ١١٨٨
 ابن بَقِي (الشاعر): ٣٥٢
 ابن البناء، أبو العباس أحمد: ٣٣٧، ٣٥٧،
 ٣٦١
 ابن تروميت، علي بن محمد: ٣٥٧
 ابن تغري بردي، يوسف: ١٨٩، ٤١٠
 ابن تومرت، أبو عبد الله محمد: ٨٦٩، ٨٧١
 ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم: ٣٥٧
 ابن ثابت، أحمد (الخطيب البغدادي):
 ١٨٩، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٣١، ٣٤١
 ابن جبلة، حكيم: ١٩٣
 ابن جبلة، علي: ٣٢٥
 ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد: ٣٢٠،
 ٣٢٨-٣٢٩

- ابن خالد، إدريس: ٩٠٠
ابن الخطيب، لسان الدين: ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٥٢-٣٥٣، ٣٥٦، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٨٤
ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد: ٣٢٥-٣٢٦، ٣٤٩، ٣٥٦، ٣٥٨-٣٥٩، ١١٠٣، ١٢٠٣
ابن خلدون، يحيى: ٣٥٦
ابن خليل، خليل: ٥٠٤
ابن خير الدين، حسن: ٥٧٨
ابن داود، علي: ٨٤٧
ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد: ٢١٠
ابن دلموك، أحمد: ١٤٠٧
ابن رائق، محمد: ٩٥٨
ابن رسته، أحمد بن عمر: ١٧٣، ٢٤٤، ٩٦٤
ابن الرهاوي، المتفح: ١٠٢٦
ابن زياد، أيوب: ٢٤٤
ابن زيد، أسامة: ١٩٠، ١٩٥
ابن سراييون، يوحنا: ١٨٩، ٣١٩
ابن سعيد، عريب: ١٠٨٩، ١٠٩٢
ابن سعيد، يحيى: ٣٥١
ابن سينا، أبو علي الحسين: ١٠٩٢
ابن شاه جهان، أورانغزب: ٢٧٠-٢٧٢، ٢٨٨، ٧٦٠، ٧٧٤-٧٧٧، ٧٧٩
ابن شاه جهان، دارا شكوه: ٧٦٤، ٧٧٤، ٧٧٩
ابن شاه جهان، شجاع: ٧٧٥
ابن شبة، عمر: ١٨٩
ابن الشحنة، أبو الفضل محمد: ٤٤٨، ٤٧١
ابن ططخ، أزبك: ٤١٤
ابن طولون، أحمد: ١٨٩، ١٩٨، ٢٠٦
ابن طوير، أبو محمد عبد السلام: ١٨٩
ابن الطيب، أحمد: ٣٣٠
ابن عاشر، أحمد: ٣٥٦، ٨٧٨
ابن العاص، عمرو: ١٩٠، ١٩٧-١٩٨، ٥١٣، ١٢٣٣
ابن عاصم، أبو بكر محمد: ٨٩٥
ابن عباد، المعتمد: ٣٤٧، ٣٥٦، ٣٦٠
ابن عباس، عبد الله: ١٥٥
ابن العباس، قثمة: ٦٦٩
ابن عبد الله، أبو بكر: ٥٠٢
ابن عبد الله، إدريس: ٢٠٨
ابن عبد الله، علي بن محمد بن حسين: ١٠٣٧
ابن عبد الله، محمد: ٨٨٢
ابن عبد الرحمن، محمد: ٨٨٣
ابن عبد المطلب، العباس: ٣٢٠
ابن عبد الملك، هشام: ١٧٢، ٩٦١
١٠٦٩-١٠٧٠
ابن عبدون، أبو عبد الله محمد: ١٠٩٦، ١١٨١
ابن عبيد الله، طلحة: ١٩٠، ١٩٣
ابن عثمان، محمد (الآغا): ٥٦٨
ابن العجمي، أحمد: ٤٧١
ابن عربي، محي الدين: ١٨٩
ابن عرفطة، خالد: ١٩٥
ابن عقبة، الوليد: ١٩٥
ابن عقيل، أبو الوفاء: ٣١٩، ٣٢٦، ٣٢٨
ابن علي، أبو عنان فارس: ٣٥٢، ٣٦٢

ابن علي، عمر: ١٢٣٤
 ابن عمر، عثمان بن اسحاق: ٩٠٠
 ابن عمير، عبد الله: ١٧٧
 ابن العوام، أبو زكريا يحيى بن محمد: ١٠٨٩
 ابن العوام، الزبير: ١٩٣، ١٩٠
 ابن غزوان، عتبة: ١٩٢
 ابن الفرات، أبو عبد الله أسد: ١٨٩، ٣٢٤
 ابن فرحون، إبراهيم شمس الدين: ٨٩٧
 ابن القسطنطينية: ٥٠٤، ٥٠١
 ابن قلاوون، الناصر محمد: ٤٠٤-٤١٠،
 ٤١٤، ٤١٦-٤١٨، ٤٢٠، ٩٥٤
 ابن قنفذ، أبو العباس أحمد بن حسن: ٣٦١
 ابن قيس، منذر: ٧١٣
 ابن كوبرولو، فضيل أحمد: ٦٣٧
 ابن كوبرولو، قره مصطفى باشا: ٦٣٧-٦٣٨
 ابن مجاهد، نور: ٨٤٦، ٨٥٢
 ابن محمد، إدريس بن خالد: ٨٩٦-٨٩٧،
 ٨٩٩-٩٠٠
 ابن مخلد، مسلمة: ١٩٠
 ابن المدجن: ٣٤٧
 ابن المرجى، المشرف: ١٠١٥-١٠١٧
 ابن مروان، عبد الملك: ١٤٠، ٤٣٢-٤٣٣
 ابن المصطفى، عبد القادر: ٨٩٦، ٩٠٠
 ابن مطعم، جبير: ١٩٥
 ابن المنصور، المهدي: ٢٠٤، ٣٢٣، ٣٢٨
 ابن مهدي، شبك: ٤١٤، ٤١٧، ١١١٢
 ابن مهمندار، يزدجرد: ٢١١، ٣٣٠
 ابن موسى، أحمد: ٧١٤
 ابن موسى، علي: ٧١٣-٧١٤

ابن نافع، عقبة: ١٩٠، ١٩٩
 ابن النديم، أبو الفرج محمد بن اسحق: ٢٤٤
 ابن وافي، أبو المطرف عبد الرحمن بن
 محمد: ١٠٩٢
 ابن يوسف، محمد: ٧١٣
 أبو الحسن، علي بن عثمان: ٣٥٥، ٣٥٧-
 ٣٦٢، ٣٥٨
 أبو حنيفة النعمان: ٨٩٢
 أبو العباس، عبد الله: ١٩٦
 أبو عنان، فارس بن علي: ٣٥٥، ٣٥٨، ٨٧٥
 أبو لغد، جانيث: ٦٥، ٦٧، ١٠٣، ١١٧١-
 ١١٧٢، ١١٧٤، ١٢٩١، ١٣٦٢
 أبو هريرة، عبد الرحمن: ١٥٤
 أتابك زنكي: ٧١٨
 أتابك قراتشه: ٧٢٨-٧٢٩
 أتابورك، مصطفى كمال: ١٣٦٤
 الأتراك: ١٠٤، ١٣٤، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٨-
 ٢٠٩، ٢١٩، ٢٢٦، ٢٣٢، ٣٣٣-٣٣٤،
 ٥١٧، ٥٢٨، ٥٤٦-٥٤٨، ٥٥٠، ٥٦٤،
 ٥٦٦، ٥٦٨، ٥٧٣، ٥٧٥، ٥٨٥، ٥٨٨،
 ٦١١، ٧١٤، ٧٨٣، ٩٤٠، ٩٩٥
 ١٠١٢، ١٣٠٢
 الأحباش: ٧٨٣
 أحمد الأول (السلطان العثماني): ٦٣٢-
 ٦٣٣، ٦٥٧
 أحمد الثاني (السلطان العثماني): ٦٣٤،
 ٦٥٨
 أحمد الثالث (السلطان العثماني): ٦٣٤،
 ٦٣٨-٦٣٩، ٦٤١-٦٤٢، ٦٥٥-٦٥٦،
 ١١٩٨

- أحمد باشا الثاني: ٥٢٥
أحمد باشا طه زاده: ٤٦٣، ٤٦٩-٤٧٠
أحمد باشا القرماتلي: ٥٢٥
أحمد ييه (حاكم تونس): ١٢٥٨
أحمد، زبير: ٨٩١
الأخمينيون: ٢٤٠، ٧١٦، ٩٧٢
إخوان الصفا: ٣٨٦، ١٢٠٢
الادارسة: ٦٩، ١٨٣، ٢٠٨-٢٠٩، ٣٤٣
٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٤
إدريس الأول: ١٨٣، ٣٥٨، ٩٦٢
إدريس الثاني: ٢٠٨
الإدريسي، أبو عبد الله محمد: ٧٥، ٨٨، ٨٧٨، ٥٥٢
أراغون، فرديناند دي: ٥١٤
الأراكانيون: ٢٨٤
أردشير الأول: ١٧٤، ٢٤١، ٢٥٩
أرسلان، ألب: ٦١١
أرسلان شاه: ٦٠٨، ٦١٤
الأرمن: ١٣٤، ٢٥٤، ٤٣٨، ٤٥٥، ٤٧٤، ٤٩٣-٤٩٤، ٥٠١-٥٠٢، ٥٠٧، ٧٠٣، ١٤٧٥، ١٤٦٩، ٧٠٥
أرندا، إيمانويل دو: ٥٦٦
أرنو، جان لوك: ١٢٥٥
أزبك، سيف الدين: ٤١٤
الأسدي، أبو الهياج: ٣٩١
أسرة.... انظر: عائلة
أسطى مراد (الداي): ١٠٥٩
الإسكندر الأكبر: ١٨٥، ٢٤٠-٢٤١، ٢٥٦، ٢٦٦
إسكندر باشا: ٥١٨، ١٠٥٦
- إسماعيل باشا: ١٢٥٨، ١٢٦٥، ١٣٦٦
إسماعيل الصفوي (الشاه): ٢٥٢، ٤٩٣، ٧١٤، ٧٣٠
إسن، هوفستد فان: ٧٢٨
الاشعري، أبو موسى: ١٩٢، ١٩٥
الاشعري، سعد: ١٩٢
الاشكتاز: ٤٢٨
أشوكا (الإمبراطور البوذي): ٢٧٥
الأصبهاني، أبو نعيم: ٢٤٤
الإصطخري، أبو اسحق إبراهيم: ١٧٧، ٢٦٢، ٢٥٨
الأصفهاني، إسماعيل بن طاهر بن محمود: ٦٩٦
الأغالبة: ٦٩، ٢٠٠، ٩٨٠-٩٨١، ١٠٧٣
أغسطس (الإمبراطور الروماني): ١٧١، ١٠٩٠
أفتموس، يوسف: ١٤٧٢
أفضل الدولة. انظر: نظام الخامس
أفضل خان شيرازي: ٧٦٢، ٩٨٢
الأفغان: ٧٠٥
الأقباط: ١٩٨، ٤٢٣، ٤٣٨، ١٠٤٩، ١٢٤٨، ١٠٦٨
أكبر (الإمبراطور المغولي): ٢٧١، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٩٩، ٧٤٧، ٧٥٣
٧٧١-٧٧٣، ٧٧٥، ٩٧٨
أكور، سيفجي: ٩٨
الأكراد: ٤٥٩، ١٠٤٨
إكسماوث (اللورد): ٥٧٧-٥٧٨
أكسوي، جولي: ١٠٢٥-١٠٢٦، ١٠٢٨-١٠٣٢، ١٠٢٩

- الأميري، موسى: ٤٦٣، ٤٦٩-٤٧٠
إلتوش، شمس الدين: ٩٧٩
إلديم، سادات: ١١٦١
ألماس (الأمير): ٤٠٥
ألماغرو، أنطونيو: ٧٩
ألتي، إدموند: ١٤٧١
ألين، تيري: ٩٣
إمام قُلي خان: ٧٠٥، ٧٠٩-٧١٠، ٧٢٤، ٧٣٥-٧٣٤
أمانت خان: ٧٦٢
أمجزاده حسين باشا: ٦٣٧-٦٣٨
أمداسيون (إمبراطور الحبشة): ٨٤٥
الأمويون: ٤٢، ٦٩، ١٨١، ١٨٤، ١٨٨، ٢٠٢، ٣٢٠، ٣٨٣، ٤٣٤، ٩٦١، ٩٧٦، ١٠٦٨، ١٠٧٤، ١٠٨٧، ١٠٩٣، ١١٥٣
الأمين بن هارون الرشيد: ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٣٨
أمينة (ملكة زازاو): ٩٠٢
الأمين، رضا: ١١٢٩
أنتونيلي، ألساندرو: ١٣٢١
أنتيوسوس الأول: ٢٤١
الأنصاري، أبو أيوب: ٦٢٧
أنغورا، رفايل: ٨٨٣
الإنكشارية: ١١٩، ٤٥٩-٤٦٠، ٤٧١، ٤٧٤، ٤٧٦، ٤٩٤، ٥١٨-٥١٩، ٥٢٣، ٥٢٥، ٥٥٠، ٥٦٢، ٥٧٣، ٥٨٤-٥٨٧، ٥٨٩، ٦٣٤، ٦٥٦، ١٠٤٤، ١٠٦١، ١١٩٦، ١٢٧٧
أوبين، جان: ٧٢٨
أوتزون، جورن: ١٣٨٩
أوت، كارلوس: ١٤١٨
أوتو، فراي: ١٣٨٩
الأورومو: ٨٤٦-٨٤٨، ٨٥١-٨٥٢
أوزبك خان: ٦٦٢، ٦٨٤-٦٨٥
أوغلو، أصلان: ٩٩
أوغلي، محمد حاج: ١٠٥٩
أوفري، ميشال: ٥٥٦، ٥٨١
أولد، سيلفيا: ٩١
أولسون، روبرت: ١٢١٦
أولغ بك: ٦٨٥، ٦٩٦
أوليفيه، غيوم أنطوان: ٧١١
أيدغمش (الأمير): ٤٠٦
إيرزن، جال: ٩٩
إيسان، هوفستد فان: ٧٢٩
إيغلي، إرنست: ١٤٧٢-١٤٧٣
أيك، ألدو فان: ١٣٥٣
إيكلمان، دايل: ٦٤
إيكوشار، ميشال: ١٣٤٥-١٣٤٨، ١٣٥٣
١٣٥٥-١٣٥٦، ١٤٧٢-١٤٧٣
إيلاد، أميكام: ١٠١٥-١٠٢٠، ١٠٤٠
إيلبرت، روبرت: ٦٧، ٧١، ٨٥، ١٠٥، ١١١٨
الإيلخانيون: ٦٩، ٣٣٠
إيليسيف، نكتا: ٦٣
إيماني بك: ٧٢٠
إيمونيو، كارلو: ٧١
إينال (الأشرف): ٤١٠-٤١١، ٤١٧
إينالشيك، خليل: ٩٩، ٣٠٤، ٣١١-٣١٢
إيتز، ماك أدامز: ٩٦٢
الأيوبي، نجم الدين: ٤٠٠، ٤٠٣

بالباس، ليوبولدو توريس: ٧٨، ٣١١،
١٠٧٦

بالبو، مارشيلو: ٨٣

باموك، اورهان: ٤٢

بانانا (زعيم مرو): ٩٠٠

بانسو، ميشال: ١٣٥٦

بانوفسكي، ارفن: ١٠٢٠-١٠٢١

بانيراى، فيليب: ٧١-٧٣، ٨٥، ٣١٣

باوتي، ادموند: ٦٠-٦١

باون، جيب: ٦١-٦٢، ٦٤

باون، هارولد: ٦١-٦٢

باير، غابريال: ٩٨٨

بايزيد الاول (السلطان العثماني): ٤٩١

بايزيد الثاني (السلطان العثماني): ٤٩١،

٦٢٩-٦٣٠، ٦٥٧، ٩٦٩

باي، طومان: ٤١١

بايكر، صمويل: ٤٧٧

بايلي، ستيفارت: ٨١٤

بجكم (الأمير): ٣٢٨، ٩٥٩

بحيرى (الراهب): ١٦٩

البخاري، محمد بن اسماعيل: ١٥٩

البدو: ٥٣، ٦٢، ٦٩، ٩٥، ٩٨، ١٩٢،

٢٠١، ٢١١، ٣٦٣، ٣٦٨، ٣٨٩، ٣٩٨،

٤٥٩-٤٦٠، ٤٨٠، ٧٠١، ٩٤٧، ٩٦٠،

٩٦٢، ١٠٠٩، ١٠١١، ١٠٦٨، ١١٣٥،

١١٣٧، ١١٥٦، ١٢٥٥، ١٢٧٥،

١٣٠٢، ١٣٨٨-١٣٨٩، ١٤٠٥-

١٤١٧، ١٤٠٦

برادة، محمد: ١١٢٣

براق حاجب، انظر: قتلغ خان

الأيوبي، صلاح الدين: ٢٠٩، ٤٠٠، ٤٠٦،
٤١٥، ٤٣٦، ٩٥٤

الأيويون: ٦٩، ٢٠٨، ٤٠٢، ١٠٢٦

- ب -

بابا كوهي: ٧٢٨

باباي، سوزان: ٥٩٤

بأير، ظهير الدين محمد: ٢٧١، ٧٤٠-٧٤١،

٧٤٥-٧٤٧، ٧٥٤، ٧٥٨-٧٥٩، ٧٦٦،

٩٥٣، ٩٧٨

الباتان: ٧٨٣

بائربرج، غاي: ١١٣٦-١١٣٧

بادشاه خاتون: ٦١٦

بارادي، فانتور دي: ٥٤٨، ٥٥٨، ٥٦٤،

٥٧٢، ٥٧٨، ٥٨٣، ٥٨٧، ٥٩٠

بارثولد، ديبلو: ٥٦-٥٧

البارثيون: ٢٤١

البارسيون: ٧٩٧

باركان، لطفي: ١١١، ٣١٢

بازود، ريتشارد: ٧٦٠

ياروكانو، ماريان: ٨٠

بازانا، أندريه: ٧٩-٨٠، ١١٣٧

باسكال، جان بول: ٩٠

باسكوا، جان بول: ٧١

باسكولي، جيوفاني: ١٣٠٢

باسيني، جان: ٤٣، ٧٩-٨٠

بالازون، خوليو نافارو: ٤٢، ٧٩

بالايولوجوس، ميخائيل: ٤٩٢

بالاس، توريز: ١١٣٧

البزري، أمين: ١٤٨٠	البرامكة: ٢٠٤
بشير آغا الجمदार: ٤٠٩، ٦٥٠	البراهمانيون: ٢٨٣
بطليموس: ٨٨، ٨٧٦	براون، جورج: ١٣٣١
البكري، أبو عبيد: ٣٤٥، ٣٤٨	براون، كارل: ٦٥
البلاذري، أحمد بن يحيى: ١٩٤-١٩٥	براون، كينيث: ٦٤-٦٥
البلديون: ١٠٩، ٥٤٧، ٥٥٠	البربر: ٥٢، ٦٩، ١١٣، ٢٠٠، ٢٠٨-٢٠٩،
بلسارت، فرانسيسكو: ٧٤٧-٧٤٨، ٧٥٣، ٧٦٤	٣٣٣، ٥١٦، ٥٢٤، ٥٣٧، ٥٦٨، ٥٧٥،
بلنهل، كزافييه دي: ٦١-٦٢	٥٨٦، ٨٨٨، ١١٠٦، ١٢٩٢، ١٣٠٢
بلوم، جوناثان: ١٠٢١	بربروس، خير الدين: ٥٤٤، ٥٤٦، ٥٤٨،
بليك، ستيفان: ٢٩٧	٥٥٠-٥٥١، ٥٧٨، ٥٨٠، ٥٨٣
بليبي سكوندوس (الأكبر): ١٠٩٢	بربروس، هروج: ٥٤٦-٥٤٨، ٥٥٠
البنادقة: ٤٤٥، ٤٧٣، ٥٦٦	برسباي، سيف الدين (السلطان المملوكي):
بنت برويز، نادرة بانو بيغم: ٧٦٤	٤٠٤، ٤١٠-٤١١
بنت عبد الله، آق ملك: ١٢٤٢	برقوق، الظاهر سيف الدين (السلطان
بِتون، غوردون: ١٣٧٩	المملوكي): ٤٠٤، ٤٠٩-٤١٠
بن دحان، حاييم: ١٣٥٠	بركاتي، خليل: ٣١١
بنشافت، غوردون: ١٣٨٦	البرمكي، جعفر بن يحيى: ٢٠٤، ٣٢٣
بنو الإمام: ٣٥٧	برنشفيخ، روبرت: ٥٢-٥٣، ٦١، ٦٥، ١١٠،
بنو جُنيد: ١٧٤	١١٤، ١٣٤، ٣٨١، ٣٨٣، ٣٩٥، ١٠٤٥
بنو الحاج: ٣٥٣	برنيه، فرنسوا: ٢٨٩
بنو حنا: ٤٠٢	بروديل، فرناند: ٥٥٢، ٥٥٦، ٥٦٦، ٥٧٨،
بنو زيان: ٣٥٥	٨٨٨
بنو ضبة: ٣٩١	بروست، هنري: ١٣٣٨-١٣٤٤، ١٣٥٠،
بنو عبد الواد: ٣٥٦	١٣٥٨
بنو عثمان: ٣٥٨	بروفنسال، ليفي: ٨٧٣
بنو عجرم: ٣٥٦	برونيس، جان: ١٠٦٧
بنو العزفي: ٣٥٦	بروين، كورنيليس لو: ٧١٠، ٧١٢، ٧١٥-
بنو عشرة: ٨٧١	٧١٦، ٧١٨، ٧٢٣-٧٢٤، ٧٢٩، ٧٣١-
	٧٣٣
	بريزيوسي، دونالد: ٧٧

- بنو مرزوق: ٣٥٧
بنو مرين: ٣٦٣
بنو مزغنة: ٥٤٥
بنو مكدة: ٣٥٦
بنو الملحوم: ٣٥٣
بنو نصر: ٦٩، ٣٥٥
بنو النصير: ٣٣٥
بنو هارون: ٣٣٥
بنو هلال: ٢٠١، ٣٨٠
بنو وطاس: ٣٦٢-٣٦٣
بهاء الدولة البويهى: ٣٢٤، ٩٥٦
بهادر نصرت جنك: ٧٦٧
بهرام باشا: ٤٥٢، ١٢٣٧
بهرام شاه: ٦٠٨
بهرنر- أبو سيف، دوريس: ٨٤، ٣٩٩
بهلوي، رضا شاه: ٩٦٥، ١٣٦٤، ١٣٧٣
البهلويون: ٧٠٥
البهمنيون: ٢٧٧، ٢٧٩
بوايه، ماريوس: ١٣٤٢
بوب، آرثر أوبهام: ٥٩
بويوفي، ألبرت: ١١٧٦-١١٧٧
بوتيرو، جيوفاني: ٥٥٨
بوتي، غي: ١١٣٥، ١١٦٣
بودرو، مايكل: ١٠٢١
بودوان، أوجين: ٥٩
بوديانسكي، فلاديمير: ١٣٥٣
بورغوني، ميشال: ٩١
بوزيو، جان أمتون: ٥٥٦
بوسي، كومندان دي: ٨١١
بوشناق، نفتالي: ٥٨٣
بولاند خان: ٧٥٤
بولشاكوف، أوليغ: ٩٦، ٦٦٣، ٦٧٢، ٦٧٤، ٦٨٠، ٦٨٥
بوليت، ريتشارد: ١٧٧-١٧٩
بونابرت، لويس نابوليون (نابوليون الثالث):
١٣٠٩، ١٣١١
بونابرت، نابوليون: ٢٢٣، ٥٠٦
بونين، ميشال: ٨٣، ٩٢-٩٣
بُون، هارولد: ١١١
البويهيون: ٦٩، ٣٢٤، ٣٣٦
بياتكا، ستيغانو: ٧٦، ٣٦٦
بيبرس، الظاهر ركن الدين (السلطان المملوكي): ٣٩٩، ٤٠٢-٤٠٤، ٤١٥-٤٢٠، ٤٢٠
بيتروشيولي، أتيليو: ٣٦، ٤٧، ٧٢-٧٣، ٨١، ٩٧، ٢٨٩، ٥٣٦، ٦٦١، ١١٣٣، ١٣٠٧
بيتو، مورتون: ١٣١٣
بيجاري، غلام حسين: ٥٩٦
بيراردي، روبرتو: ٧٣، ٨٢، ٣٦٥
بيرس، ليزلي: ١١٧٣-١١٧٤، ١١٩٠
بيرك، جاك: ١١٤، ١١٦، ١١٠٤، ١١١٠-١١١٣، ١١١٥، ١١١٧، ١١٢٢
بيرم باشا: ٦٣٣
بيرم خان: ٧٧٥
بيرمن، إيريني: ٧٦
بيرتي، جيريمي: ١٣٨٩
بيرين، هنري: ٥٢، ٦٠
البيزنطيون: ٦٩، ١٨٤، ٩٦١، ١٠٦٨، ١٢٠٣

التلمساني، أبو عبد الله: ٣٥٧، ٣٥٩-٣٦٠

التلمساني، محمد بن مرزوق: ٣٥٤

تزيرو، أنطونيو: ٧٢٨

التنوشي، أبو علي المحسن بن علي: ٣٣٠

تودوروف، نيكولاي: ٣١١-٣١٢، ١٢٠٥

تورنو، روجيه لو: ١٠٣-١٠٤، ١٠٦، ٩٩٥

١٠٠٠، ١٠٠٦، ١١١٠-١١١١

تورو، جان: ٨٨٨

تورو، جيروم: ٨٨٨

تولوت، جان باتيست: ٥٥٦

تونسيس، باتستينو دو: ٥١٤

تيو (حاكم سلطنة مايسور): ٩٧٩

التيجاني، أبو محمد عبد الله: ٥١٣-٥١٤

٥٣٨

تيراس، هنري: ٦٠

تيرنر، جون: ١٣٩٦

تيفينو، جان دو: ٧٤٩

تيموتاوس (الكاثوليكيوس): ٣٣٤

تيمورلنك: ٢٥٢، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٧١، ٢٧٧

٣٢٩، ٤١٠، ٤٢١، ٦٦٦-٦٦٧، ٦٧٠-

٦٧١، ٦٧٤، ٦٧٨، ٦٩٧، ٧١٥، ٧٢٧

٧٣٠

التيموريون: ٦٩، ١٦٦، ٦١٩، ٦٨٤، ٩٥٣

- ث -

ثاي - شينوكاك، لوسيان: ١١٧١

الثقي، الحجاج بن يوسف: ٢٠١

الثقي، الحر بن عبد الرحمن: ١٨٢

بيغان، فرنسوا: ١٢٩٠

بيغلر بيكي: ٧٠٥، ٧٠٩

بيكار، مالفير دو: ١٣٠٨

بيكتز، صامويل: ٨٣

بيكي، فرنسوا: ٤٧٤

بي-لا كروا، ر. دو: ١٢٩١-١٢٩٣، ١٢٩٥

بيللو، خديجة: ٨٩٦

بيللو، محمد: ٨٩٢، ٨٩٦-٨٩٧، ٩٠٠

بيلي، سيزار: ١٣٨١

بيناراي، فيليب: ٤٢

بينو، بيار: ٧١، ٩٩، ٢١٥، ٣٠٣، ٣١٣-

٣١٤

بيني، دانييل: ٨٣

- ت -

تات، جيهان: ٨٩

تارديف (المساح): ١٣٣٧

تاسي، لوغيه دو: ٥٥٢، ٥٥٦، ٥٨٢

تافارنيه، جان باتيست: ٣٣٠، ٧١٦، ٧٢٩-

٧٣٢، ٧٣٥، ٧٦٦

تاماري، شمويل: ٦٣

تان هوك بنغ: ١٤٢٦

تايلور، فريدريك: ٩٠٤، ٩٠٨

التجبي، ابن ليون: ١٠٩٢

ترايانوس (الإمبراطور الروماني): ٢٠٦

الترك: ٢٠٧

تركان خاتون: ٦١٦

التركمان: ٢٠٣، ٣٣٠، ٤٥٩

تشاند، سيل: ٧٧٨

- ج -

٧٥٨، ٧٦٢-٧٦٥، ٧٧٠، ٧٧٥، ٩٧٨،

٩٨٤، ٩٨١

جوردان، جون: ٧٤٠

جوسيلي، ليون: ١٣٣٨-١٣٣٩

الجوطي، محمد بن عمران: ٣٥٤، ٣٦١

الجولي، منجار: ٤٠٤

جونسون، بريان: ١٤١٧

جوهانسن، باير: ٤٣، ١١٤، ١١٦، ١٣٤

جيانيني، أليساندرو: ١١٤٣

جيرار، ييار سيمون: ٩٩٢

جيرار، سيرجيون: ٥١٦، ٥٢٠

جيرمن، أيدن: ٦٥

جيروسيك، شارلوت: ٤٩٦

جيروم، جان لوي: ١١٧٦-١١٧٧

جيز، إيرنست: ٩٦

الجيلاني، عبد القادر: ٨٥٦

جيمس الأول (ملك انكلترا): ٧٥٢

الجوسي، سلمى الخضراء: ٣٧

- ح -

الحثلول، صالح: ٤٣، ١٠٤٥

الحريري، رفيق: ١٤٧٦، ١٤٨١-١٤٨٣،

١٤٨٨، ١٤٩٤-١٤٩٥، ١٤٩٩، ١٥٠١

حسن آغا: ٥٤٤

حسن باشا: ١٠٦٤

حسن الثاني (ملك المغرب): ١٣٦٠

حسن (وزير المأمون): ٣٢٣

الحص، سليم: ١٤٧٩

الحفاري، محمود: ٩١

الجانيون: ٢٧٢

الجادر جي، رفعت: ١٣٧٣

جاسوانت سينغ: ٧٧٨

جاي سينغ (الراجا): ٧٥٣

الجانيون: ٢٩٣

جب، هاملتون: ١٠٤، ١١١

جررانسانغ، أكيك: ١٣٩٢

جرفيس، باولا: ٨١، ٨٣، ٣٦٦، ٣٨٠-٣٨١

الجزائري، رباح: ١٢٥١

الجزناني، علي: ٣٦٢

جستينيان (الإمبراطور الروماني): ١٧١

جشتي، معين الدين: ١١٨٧

جعفر خان: ٧٧٨

جعيط، هشام: ٦٧، ٩٤، ١٩٤-١٩٥، ٢١٠

الجلالريون: ٣٣٠

جلال الدين شاه مسعود: ٧٢٣

جلبي، أوليا: ٦٢٣، ٦٤٦، ٦٤٩، ٩٨٩،

١١٨٣، ١٢٠٠

الجميل، أمين: ١٤٨٠، ١٤٨٢-١٤٨٣

الجميل، بشير: ١٤٨٠

الجنابي، هاشم خضير: ٩٥

الجنزوري، كمال: ١٣٦٨

جنگيز خان: ٦٦٣، ٦٧٨

الجنويون: ٤٤٥، ٤٧٣، ٥٢٦

جهان آرا: ٧٥٠، ٧٥٩-٧٦٠، ٧٧٩، ١١٨٧

جهانغير، نور الدين محمد سليم: ٢٧١،

٢٩٩، ٧٤٥، ٧٤٧-٧٤٨، ٧٥٢، ٧٥٤،

خُرم سلطان (السلطنة العثمانية): ١١٩٠

الخزاعي، عمرو بن الحارث: ١٩٠

الخزنجي، محمد (الداي): ٥٨٥-٥٨٦

خسرو باشا: ٤٥٠، ١٢٣٦

خسرو بك: ٢٣٣

خسرو، ناصر: ٤٣٦

خضير، هاشم: ٩٥

الخليجي، علاء الدين: ٩٦٦، ٩٧٩

خليل، الأشرف: ٤١٦

خليل باشا: ٦٤٤

الخميني، روح الله الموسوي: ١٣٧٣

الخوافي، فصيح: ٦٠٤

خوشقدم، الظاهر: ٤١٠-٤١١، ٤١٣

الخولاني، السمح بن مالك: ١٨٢

الخيخية، موسى: ١٠٤٤

الحفصيون: ٦٩، ٣٥٥

الحَكَم الأول (الخليفة الأموي): ٢٠٨،

١٠٨٧

الحَكَم الثاني (الخليفة الأموي): ١٠٨٥-

١٠٨٦

حكيم، بسيم سليم: ٦٥، ١٣٧، ٨٩١

الحكيم، عبد المجيد: ٩٠١

حكيم عليم الدين وزير خان: ٧٦٣، ٧٧٧

الحموي، ياقوت: ٣٢٠

حنّا الدمشقي (القديس): ١٨٤

الحنابلة: ٣٣٦-٣٣٧، ٣٣٩-٣٤٠

حنّا، نيللي: ٨٤، ٩٠، ١٢٨، ١٣٠، ١١٦٥،

١١٩٩، ١٢٣٣

حوراني، ألبرت: ٦٣-٦٤، ١٠١٢، ١٣٦٢

حيدر، دينا: ١٤٠١

- خ -

- د -

الخادم، مؤنس: ٣٢٤

خاسكي سلطان: ١١٨٣-١١٨٤، ١٢٤٤

خان، جويل: ١٤٠١

خان، حسن الدين: ١٣٦١، ١٣٧٢

خان، لويس: ١٣٦٤

خانيكوف، نيكولا: ٥٩٤

خاير بك: ٤٤٦

خديجة طرخان (السلطنة العثمانية): ٦٣٥-

٦٣٦، ٦٥٠، ١١٩٠-١١٩١، ١١٩٣-

١١٩٧

الخراساني، أبو مسلم: ١٧٨-١٧٩، ١٩٦

الخراساني، رستم بن عبد الله: ٧١٥

دابجيل، سانسون: ٥٥٦

دارقيو، لوران: ٥٨١

دافيتي، بيار: ٥٥٨

دافيدوفيتش، بوزو: ٦٨٠

دان، فرنسوا بيار: ٥٥٦، ٥٦٦، ٥٧٠

دان فوديو، عبد الله: ٨٩٢-٨٩٤، ٨٩٦-

٩٠١

دان فوديو، عثمان: ٨٩١-٨٩٢، ٨٩٦-

٨٩٧، ٩٠٠-٩٠١، ٩٠٣

داود آغا: ٦٣٥

داود خان: ٧٠٩

- ر -

رؤوف باشا: ٨٤٨
رابوبورت، أموس: ١٥٧
رايين، إسحاق: ١٤٨٧
راجيت، فريدريك: ١١٥٧
الرازي، أبو بكر: ١٠٧٧
الراضي بالله، أبو العباس محمد (الخليفة
العباسي): ٣٢٤
رافا، كارلو إنريكو: ١٣٠٢، ١٣٠٠
رافق، عبد الكريم: ١٢٠١، ١٢٠٤-١٢٠٥،
١٢٠٨، ١٢١٢، ١٢١٩-١٢٢٠
رافورت، إتيان: ١١٨٥
رايت، توم: ١٤١٩
راينال، غيوم توماس: ٥٧٢
رباط، ناصر: ٧٦-٧٧
رجب باشا: ١٠٤٤
رستم باشا: ٢٣٣
رضوان بك: ١٠٠١، ١٠٥٦
رفيق، أحمد: ٣٠٦، ٣١٢، ١١٧٦
ركن الدولة البويهى: ٣٤٠، ٧١٤، ٧١٨
رمّاح، مراد: ٣٧٤
الرملي، خير الدين: ١٢١٢
الرندي، ابن عباد: ٣٤٥، ٣٥٢، ٣٥٩، ٣٦٢
الرهبان الكبوشيون: ٤٧٣
الرهبان الكرمليون: ٤٧٣، ٧٠٣، ٧٠٦
رو، توماس: ٧٥٢
روجلز، فيرشيلد: ١٠٦٧
روسو، جان جاك: ٤٥٢
روشي، ألدو: ٧١، ٦٨١

دايفيد، جان كلود: ٧١-٧٢، ٨٦، ١٢٨،

٤٤٣، ١١١٩، ١١٥٨، ١١٦٦

دايفيس، فريد: ١٤٢٥
درغوث باشا: ٥٠٩، ٥١٥-٥١٧، ٥٢٠،
٥٢٣-٥٢٢
درلك، عارف: ١٤٢٧
دِفولكس، ألبرت: ٥٧٧
الدمشقي، طقتمر (الأمير): ٤٠٦
دنوب، يوسف: ٩٥
دوبوا تانيفيل، جاك شارل: ٥٥٨
الدوري، عبد العزيز: ٣٣٢
دوفاردان، غاستون: ١٠٤
دوكسياديس، قسطنطين: ١٣٦٨-١٣٦٩
دوناتي، باولو: ٨١، ٨٣، ٣٦٦
دونر، فريد: ١٩٥
ديا، كامران: ١٣٩١
ديبول، جان شارل: ٧١، ٨٥
ديرنشوارم، هانس: ١١٨١
ديتسينيه (النقيب): ١٣٣٦
ديغويلم، راندي: ١٢٢٥، ١٢٣٥، ١٢٥١
ديلابورت، هيبوليت: ١٣٣٨
ديلافال، بيترو: ٩٤
دينوا، سيلفي: ٧١، ٨٥، ١٨٧
ديوسقوريدوس: ١٠٩٢

- ذ -

ذو القدر، الياس بك: ٧٣٠
ذو القدر، خليل: ٧١٤

الزردلي، ميمونة بنت محمد بن عبد الله:

١٠٣٦

الزرزاري، سالار: ٤٠٦

زكريا، منى: ٨٢

الزهار، أحمد الشريف: ٥٧٢

الزياتي، الحسن بن محمد (ليون الأفريقي):

٣٤٤-٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٦٣، ٥١٥-

٥١٦، ٥٤٤، ٥٥٢، ٥٥٤، ٩٦٣، ٩٩٥،

١٣٣٤

زيدان، جرجي: ٣٥

الزيري، باديس: ٢٠١

الزيريون: ٦٩

زين خان: ٧٤٧

- س -

ساتياوان، أريف: ٨٢١

السادات، أنور: ١٣٦٦-١٣٦٧

ساربولاند خان: ٧٥٤

الساسانيون: ٦٩، ١٦٨، ١٧٤-١٧٨، ١٨٠،

٣٢١

ساستيني، دومينيكو: ٥٠٣

ساسيريو، شارل فريديريك: ١٣١٤

الساقزلي، عثمان: ٥١٩

الساقزلي، محمد: ٥١٩

ساك، دوروثي: ٧٤، ٧٦، ٨٩

سالار جنغ (الوزير): ٧٨٥-٧٨٦، ٧٩٧،

٨١٢-٨١٤

سالسوس، كالبورنيوس: ٥١٢

سالفاجو، جيوفاني باتيستا: ٥٥٦، ٥٦٦

روشان، كاترين وايل: ٩٢

روفو، جاك: ١٢٨

روكسبورغ، دايفيد: ١٠١٣

روكسيلانا (السلطانة العثمانية): ١١٨٣

الروم: ١٢٤٨

الرومان: ١٠٥، ١١٢، ١٤١، ١٦٦، ٢٤٢،

٢٦٠، ٥١٢، ٥٧٧، ٨٣٨، ٨٦٥، ٩٧٠،

٩٧٢، ٩٧٦، ٩٨٠، ١٢٩٥، ١٣٠١

ريبندر، فون: ٥٧٢

ريتشاردز، فرد: ٧٠٩

ريفو، جاك: ٨٢، ١١٤٨

ريفو، فيليب: ٩١

ريكلوس، إيليزي: ١٣٣٤

ريمون، أندريه: ٣٦، ٤٤، ٤٧، ٦٨، ٧١-

٧٢، ٨٣-٨٤، ٨٧-٨٨، ٩٠، ١٠٣،

٣٠١، ٣٠٨، ٣١٢، ٤٤٤-٤٤٥، ٥٤٦،

٥٦٢، ٥٦٨، ٩٨٧، ١٠٤١، ١١١٧،

١١٦٥، ١١٩٩، ١٢٠٥، ١٢٠٨،

١٢١٤، ١٢١٦-١٢١٧، ١٢١٩،

١٢٣٨، ١٢٨٧

رينال، رينه: ٥٥٨

رينو، باليسير دو: ٥٢٨

- ز -

زاريا (ملكة زازاو): ٩٠٢

زبيدة (زوجة هارون الرشيد): ١١٩٠

الزرادشتيون: ٣٣٤-٣٣٦، ٦٠٩، ٦١٤،

٧١٣

- السامانيون: ٦٦٣-٦٦٢، ٦٩
- ساممزاي، رافي: ٩٣
- سانت إكزوبيري، أنطوان: ١٣٣٢
- سانتيلي، سيرج: ٧١، ٩٢، ٨٤٥
- ساندرسون، جون: ١١٨٤
- ساواي جاي سينغ (المهراجا): ٧٥١
- سايكس، بيرسي: ٥٩٤، ٥٩٦، ٥٩٨، ٦٠١-
- ٦٠٣، ٦٠٦، ٦٠٨-٦٠٩، ٦١٢، ٦١٦-
- ٦١٧، ٦٢٠، ٧١٧، ٧٢٩، ٧٣١-٧٣٢
- ستالين، جوزيف: ٦٩٤
- ستراينج، غي لو: ٣١٨، ٣٢٠
- ستيرن، صامويل: ٦٣-٦٤، ١١٢، ١٣٦٢
- السلجماسي، ابن مخلوف: ٣٦١
- سراج الدين، إسماعيل: ٦٥، ١٣٩٨
- سركيس، إلياس: ١٤٧٩
- السعدي، حرقوص بن زبير: ١٩٣
- السعديون: ٢٠٩، ٣٤٤، ٣٦٣
- السفارديم: ٤٢٨
- السقاف، عبد العزيز: ٦٥
- سكوت، ألان: ١٣٩٨
- سكوت، جوان: ١١٧٣
- السلاجة: ٦٩، ٣٢٠، ٣٢٤، ٦٠٨، ٦١٣،
- ١٠٢٦، ١٠٣٥، ١٠٧٢، ١٢٠٣
- السلافيون: ٣٣٣
- سلالة آصف جاه. انظر: النظاميون
- سلالة أوزبك خان: ٦٦٢، ٦٨٤
- سلالة السيد: ٢٧٧
- سلالة تشو: ٢٦٥
- السلالة الرومانية: ١٢٩٩
- السلالة الزندية: ٧٠٧، ٧٠٩
- السلالة السلجوقية: ٢٤٣
- السلالة الصفوية: ٤٩٣، ٧٠١، ٧١٤
- السلالة العلوية: ٨٨٥
- سلالة قطب شاه: ٧٨٧، ٧٩١، ٧٩٣، ٨٠٥،
- ٨٠٨، ٨١٢، ٨١٥، ٨١٧-٨١٨، ٨٢٠
- سلالة كوبرولو: ٦٣٧
- السلالة المرينية: ٨٧٥-٨٧٦
- سلام ليش، حياة: ٩١
- سلر، جون: ٥٢٠، ٥٢٢-٥٢٣
- سلطان حسين (الشاه): ٢٥٤
- السلوقيون: ٢٤١
- سليم الأول (السلطان العثماني): ٣٠٥،
- ٤٥٥، ٤٩٣، ٦٢٩
- سليم الثاني (السلطان العثماني): ٥٥٠،
- ٦٢٩، ٦٣٢، ٦٥٧
- سليمان الأول (السلطان العثماني).
- انظر: سليمان القانوني
- سليمان الثاني (السلطان العثماني): ٦٥٨
- سليمان القانوني (السلطان العثماني): ٤٣٩،
- ٤٩٣، ٥١٥، ٦٢٣، ٦٢٥، ٦٢٩-٦٣٠،
- ٦٣٢، ٦٥٣، ٨٤٣، ٩٦٩-٩٧٠،
- ١٠٣٧، ١٠٣٩، ١١٨٣، ١٢٤٤
- سمبر، غوتفرايد: ١١٣٥
- سمط العلّی: ٦١٥، ٦١٧
- سميشون، آل: ١٣٥٣
- سنان باشا (القائد العسكري): ٣٠٨، ٥١٥-

شايرول، غاسبار دو: ١٠٥٨
 شاير الأول: ٢٤١-٢٤٢، ٢٦٠، ٩٧٢
 شاير الثاني: ٩٧٢
 الشابي، هلال: ١٨٩
 الشاذلي، أبو الحسن: ٣٤٦، ٣٥١، ٣٥٧-
 ٣٦١-٣٦٢، ٣٥٨
 شاردان، جان: ٢٥٠، ٧٠٣، ٧٠٧، ٧٠٩-
 ٧١٠، ٧١٥-٧١٦، ٧١٨، ٧٢٣-٧٢٤،
 ٧٣٠-٧٣٢، ٩٦٥، ١٠٢٦، ١١٧٤،
 ١١٧٩
 شارل الخامس (ملك فرنسا): ٥١٥، ٥٧٨
 شاتيريو، شارل فريدريك: ١٣٠٩، ١٣١١،
 ١٣١٤
 الشافعي، محمد بن إدريس: ٣٩٩، ٨٩٢
 شالميتا، بيدرو: ٨١
 شالير، وليام: ٥٥٨، ١٠٥٩
 شاه، أليسون ماكترزي: ٧٨٣
 شاه رُخ: ٦٧٤
 شاو، توماس: ٥٥٦، ٥٨٢
 شايب العين، محمد الإمام: ٥٢٣
 شجرة الدر (سلطانة المماليك): ٤٠٠، ٤٠٢
 شرارة، عبد الجبار أحمد: ٩٠١
 شرودر، إيريك: ٥٩٨، ٦١٣
 الشقندي، إسماعيل بن محمد: ١٠٨٤،
 ١٠٨٦
 الشمسي، محمد فايز: ١٤٢٣
 شهاب، فؤاد: ١٤٧٢، ١٤٧٥
 شيث حيرالال: ٧٧٦

سينان باشا (المهندس المعماري): ٣٠٥-
 ٣٠٧، ٣١٣، ٤٥٠، ٦٢٣، ٦٢٩، ٦٣٢،
 ٦٣٥، ٩٦٩، ١١٩٤
 ستيلي، سيرج: ٨٢
 السنجاري، محمد أبو الفضل: ١٠٣٧
 سنغ، إيفون: ١١٨٣، ١١٨٨
 سوتوكو (الإمبراطور الياباني): ٨٩٢
 سوديتش، ديان: ١٤٠١
 سورديل-تومين، جانين: ١٠٢٥-١٠٢٦،
 ١٠٢٨، ١٠٣٥
 سورديل، دومينيك: ١٠٢٥، ١٠٢٨، ١٠٣٥
 السوربون (الهند): ٢٧١
 سوفاج، هنري: ١٣٤٢
 سوفاجي، جان: ٥٤، ٦٣، ٦٦، ١٠٣-١٠٥،
 ١٠٧، ١٠٩-١١٢، ١١٤، ١٢٣، ١٢٧،
 ١٣٤-١٣٥، ١٧٢، ٣٠٣، ٤٤٥-٤٤٦،
 ٤٤٨، ٤٧٣، ٩٦١، ٩٨٧، ١٠٠٠،
 ١٠٠٦، ١٠١١، ١٠٤١-١٠٤٢،
 ١٠٤٥، ١٠٥٥
 سوكارنو، أحمد: ١٣٧٧
 سوهارتو (الرئيس الأندونيسي): ١٣٦١،
 ١٣٧٧-١٣٧٨، ١٣٩٣
 الشيخ: ٢٧٢، ٢٩٩
 سيدي بن عاشر: ٨٦٧، ٨٨٤
 سيدي اليابوري: ٨٦٧
 سيراسي، مورييس منير: ٩٨-٩٩، ٦٢٣
 سيرجي، جيوسيبي: ١٣٠١
 سيرجنت، روبرت: ٦٤
 سيردان، مارسيل: ١٣٣٢
 سيني، ريشار: ١١٣١

الشيشيون: ٧٧٦

شيرازي، حافظ: ٧٢١، ٧٢٣، ٧٣٨

شيرازي، سعدي: ٧٢٤، ٧٣٨

شيرازي، ميرزا حسن: ٧٠٣

شيشتي، سليم: ٢٨٥

شيلتبرغر، هانز: ٤٩٢

شيواداسا، راي: ٧٥١

- ض -

الضرابي، عبد الرحيم: ٩٨٢

- ط -

الطائفة اليهودية في المغرب: ٨٨٣. انظر

أيضاً: اليهود المغاربة

الطاجيك: ٦١١

طاشتمر. انظر: طقتمر

طانيش، حافظ: ٦٧٥

طاهر، محمد: ٦٢٣

الطاهريون: ٦٩، ١٧٨

طبّاع، ياسر: ٨٧

الطبري، محمد بن جرير: ١٩٤، ٣٢٠-

٣٩٢، ٣٢١

طرخان سلطنة. انظر: خديجة طرخان

طهماسب (الشاہ): ٢٥٢، ٧٢٠، ٩٦٥

طوران شاه السلجوقي (الملك العادل):

٦٠٩-٦١٢، ٦٢٠

الطوسي، حميد بن عبد الحميد: ٣٢٥

طوغاي، سيف الدين: ٤٠٩

الطولونيون: ٦٩

- ظ -

الظاهر أبو سعيد قانصوه: ٤١١، ٤١٧

الظاهر جقمق (السلطان المملوكي): ٤١٠،

٤١٦

الظاهر غازي (ملك حلب): ٤٤٦

- ص -

الصايغ، هلال: ٣٣٢

الصادق، سمير: ٦٥

صالح، أحمد العلي: ٩٥

صالحة (السلطنة العثمانية): ٦٤٩

صالح، محمد: ٦٩٧، ٧٤٨

الصالح، نجم الدين أيوب: ٤٠٠، ٤٠٢-

٤٠٣

صباغ، بول: ٩٩٢

الصفاريون: ٦٩

صفرداي (الوالي التركي): ٥١٨، ٥٣٨

صفرونيوس (البطريك اليوناني): ٤٣١

الصفويون: ٢٥٠، ٥٣٩، ٦٢٠، ٧٠٦-

٧٠٧، ٧١٤، ٧١٧، ٧٣٠

صفية (السلطنة العثمانية): ٦٣٥

الصقلي، جوهر: ٢٠٦

الصكلي، المنذر: ٢٠٠

الصليبيون: ٣٩٩، ٤٣٦

الصولي، محمد ابن يحيى: ٣٢٠، ٣٣١،

٣٣٤، ٣٣٦، ٣٣٩

الصياد، نزار: ٧٧، ١٣٦٢، ١٣٨٨

عائلة الهمداني: ١٨٤
عابدين، محمد أمين: ١٢١٢
عادل شاه: ٩٨٤
عالمي، مهوش: ٩٤، ٧٠١
عامر، محمد: ١١٢٥
عباس الأول (الشاه): ٢٥٢-٢٥٥، ٤٩٤،
٦١٨، ٦٢١، ٧٠٩، ٧٧٠، ٩٥٣، ٩٦٤-
٩٦٥
عباس الثاني (الشاه): ٩٦٥
العباسيون: ٦٩، ١٧٨، ١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٤،
٣١٧، ٣٢٠-٣٢١، ٣٢٣، ٣٣٢، ٣٣٤،
٣٤٠، ٣٨٣، ٩٤٩
عبد القادر، محمد: ١٣٦٧
عبد الله خان الثاني: ٦٨١، ٦٨٣
عبد الرحمن الأول (ال خليفة الأموي): ١٨٢،
١٠٧٤، ١٠٧٦، ١٠٨٧، ١٠٩٠-١٠٩١
عبد الرحمن الثاني (ال خليفة الأموي): ١٨٣،
١٠٨٧
عبد الرحمن الثالث الناصر (ال خليفة
الأموي): ١٠٧٦-١٠٧٧، ١٠٩٢
عبد الظاهر، حسام: ١٢٢٢
عبد العزيز خان الأول: ٦٨٢، ٦٨٥
عبد العزيز خان الثاني: ٦٩٦-٦٩٧
عبد الناصر، جمال: ١٣٦٦
عبد النور، أنطوان: ٨٩، ٣١٢، ٩٩٢
عبد ي بيك: ٧٢٠
عبيد الله خان: ٦٨١، ٦٨٣
عثمان الأول (السلطان العثماني): ٩٦٩
عثمان الثاني (السلطان العثماني): ٦٣٣،
٦٥٧

عائلة الأميري: ٤٧٠
عائلة برغاش: ٨٨٨
عائلة بريثال: ٨٨٨
عائلة بلافريج: ٨٨٨
عائلة بيرو: ٨٨٨
عائلة تريدانو: ٨٨٨
عائلة الجوياري: ٦٨٨
عائلة الخازن: ١٢٢٩
عائلة دبانة: ١٢٥١
عائلة الرياضي: ١٣٧٨
عائلة زنبير: ٨٨٨
عائلة سرجون: ١٨٤
عائلة السلالقي: ٣٥٣
عائلة سيد: ٢٧١
عائلة شيت: ٧٧٧
عائلة العمر: ٨٨٨
عائلة فنيش: ٨٨٨
عائلة قرجي: ٥٣٦
عائلة القرمانلي: ٥١٠، ٥١٥، ٥١٨، ٥٢٤،
٥٣٦
عائلة كاتشواها: ٧٥٣
عائلة الكرومي: ٨٨٨
عائلة كوبرولو: ٦٣٨
عائلة محاسب: ١٢٢٩
عائلة محسن: ٥٣٦
عائلة مولين: ٨٨٨
عائلة مير عالم: ٧٩٧

عثمان باشا: ٤٦٩-٤٧٠، ٥٢٠، ٥٢٣

العثمانيون: ٤٦، ٦٩، ١٠٦، ٢١٩، ٢٢١،

٢٢٦، ٢٣٢، ٢٥٤، ٣٠٢، ٣٠٧، ٣٠٩-

٣١١، ٣٣٠، ٤٢١، ٤٣٩، ٤٤٨، ٤٧٧،

٤٨٣، ٤٩١-٤٩٤، ٥٠٩، ٥١٤، ٥٤٣،

٥٨٧، ٦٣٩، ٦٤١، ٦٥١، ٦٥٥-٦٥٦،

٨٤٣، ٩٦٨-٩٦٩، ١٠١١، ١٠٣٩،

١٠٤٧، ١٠٥٥، ١١١٧، ١١٧٤،

١١٧٦، ١١٩٠-١١٩١، ١١٩٦،

١٢٠٢-١٢٠٣، ١٢٣٣، ١٢٣٦-

١٢٣٧، ١٢٥٨-١٢٥٩، ١٤٦٦، ١٤٧٢

المعجمي، بلر الدين: ٤٠٩

عجمي، هندية: ٤٧٩

العرب: ١٠٩، ١٥٨، ١٧٣، ١٧٧، ١٨٨،

١٩٠، ١٩٢، ١٩٦-١٩٧، ٢٠٠، ٢٠٣،

٢٠٧، ٢١١، ٢٤٣-٢٤٤، ٣١٠، ٣١٨،

٣٢٣، ٣٣٢-٣٣٤، ٣٤١، ٤٠٠، ٤٣١،

٥١٣-٥١٤، ٥١٦، ٥٢٤، ٥٢٨، ٥٣٧،

٥٤٧، ٥٧٣، ٦٧١، ٧١٣، ٧٨٣، ٨٣٨،

٩٤٣، ٩٥٧، ٩٦٢، ٩٨٠، ١٠٤٩،

١٠٨٩، ١٠٩٢، ١٢٩٦-١٢٩٧،

١٣٠٥، ١٣٧٣، ١٣٨١، ١٣٨٣،

١٤٠٣-١٤٠٤، ١٤١٠، ١٤١٨،

١٤٢٢-١٤٢٥، ١٤٦٨، ١٤٨٨

عرب أحمد باشا: ٥٤٦، ١٠٦٤

عصمت الدنيا قتلغ. انظر: ترکان خاتون

عضد الدولة البويهی: ٣٢٤-٣٢٥، ٧١٤،

٩٧٢

العلويون: ١٠٧، ١٣٤، ١٠١٢، ١٠٤٨،

علي آغا: ١٠٤٤

علي آغا حمود: ١٢٥١

علي باشا: ٥٢٥، ٥٢٨، ١٠٤٤

علي الحسيني (البابي): ١٠١٠، ١٠٤٤

العليمي، مجير الدين عبد الرحمن: ٤٣٨

علي وردي خان: ٢٥٤، ٧٠٩

العمادي، حامد أفندي: ١٢١٢

العمري، أحمد بن يحيى بن الفضل: ٣٤٧،

٣٥٠-٣٥١

العنقري، خالد: ٣٦-٣٧

عياد (القاضي): ٣٦٢

- غ -

غابوريو، مارك: ٢٦٩

غارسان، جان كلود: ٦٥، ٦٨، ٨٢، ١١٣،

٢٠٩، ٤٢١، ٤٦٦، ١١١٧

غارنيه، طوني: ١٣٣٩

غازي، أوركخان: ٤٨٤، ٤٩٠، ٤٩٢

الغازي، أحمد بن إبراهيم. انظر: غران

غازي خسرو بك: ٣٠٨

غازي، عثمان: ٤٨٣

غازي (ملك العراق): ١٣٦٤

غالن، كلود: ١٠٩٢

غانغلر، أنيت: ٨٧، ٩٧

غيريال، ألبير: ١١٦٢

غرابار، أوليغ: ٣٦، ٧٦، ٩١، ١١٣، ٤٢٧،

١٠١٤-١٠٢٠، ١٠٢٥، ١٠٤٠

غرابرغ، جاكوب: ٥٥٨، ٥٨٥

غراماي، جان باتيست: ٥٥٦، ٥٨٣

غرامون، هنري ديبلما دو: ١٠٤، ٥٤٨،

٥٦٦، ٥٦٨، ٥٧٢، ٥٨١، ٥٨٣، ٥٨٥

- غران (أمير هرر): ٨٤٦
غريب، حاييم: ١٢١٩، ١٢١٣، ١٠٠
غرونباوم، غوستاف فون: ٦١-٦٢، ٦٤، ١٠٣، ١١٠، ١١٣، ٣٠٩، ٣٩٨، ١٠٤٢، ١٣٦٢
غريغيتو، فيتوريو: ١١٣٤
غزالة، باسكال: ١٢٠٦
الغزالي، أبو حامد: ١٠٩٦
الغزنويون: ٦٩، ٢٧٠، ٦١٢، ٦١٥
الغساسنة: ١٦٩، ٩٦٢
غلاي، موريس لو: ١١٠٨
غنج علي خان: ٥٩٦، ٥٩٨، ٦١٨-٦٢١
غنج، محمد: ١٢٠٧، ١٢١٨
غويي، هاينتز: ٧٤-٧٥، ٨٦، ٨٩، ٩٢-٩٣، ٩٧، ٢٣٧، ٦٦٢
غوتروود، رولف: ١٣٨٩
غودوين، غودفري: ٩٩
الغوري، قانصوه (السلطان المملوكي): ٤٠٤، ٤١٠، ٤١٥-٤١٦، ٤٢٠، ٩٩٥
غول، سوزان: ٢٨٩
غولومبك، ليزا: ٥٩٣
غيرتز، كليفوردا: ٤٢، ١١١٥-١١١٦، ١١٢٨
غيشارد، بيار: ٧٩
- ف -
فاتسينغر، كارل: ٣٦٦
فاروق (ملك مصر): ١٤٦١
فاروقي، ثريا: ١٠٠، ٣١١-٣١٢، ٤٨٣، ١٢٠٦-١٢٠٧
فارون، ماركوس: ١٠٩٢
الفاطميون: ٦٩، ١٠٦، ١١٩، ١٨٩، ٢٠٠-٢٠١، ٢٠٦-٢٠٧، ٤٣٤-٤٣٥، ١٠٠٤، ١٢٣٠
الفالاك: ١٢٥٩
فال، لورنس: ١٣٧١
فالي، بييترو ديللا: ٧٠٣، ٧٠٩-٧١٠، ٧١٦، ٧١٨، ٧٢١، ٧٢٤، ٧٣٢، ٩٦٤
فايا، لياندر: ١٣٢٩
فاينشتاين، جيل: ٣٠١، ١٠١٠
فتححي، حسن: ١١٥٤، ١٣٧٣
الفخري، عبد الغني: ٤١١
فرامبتون، كينيث: ١٣٧٢
فرايزر (الكولونيل): ٧٨٦، ٨٠٨
فرحات، حليلة: ٣٤٣
فرداي، إريك: ١٤٦٥
فرزاة بيغم: ٧٧٨
الفرس: ١٦٩، ٢٤٠، ٢٩٧، ٣٣٠، ٣٣٢-٣٣٤، ٣٣٦، ٣٦٩، ٧٠١، ٧١٠، ٧٢٣-٧٢٤، ٧٣٠، ٧٣٣، ٨٤٢، ١٠٦٩
١٢١٦، ١٤٠١
فرسان سان جون: ٥٠٩، ٥١٥
فرناندو (ملك البرتغال): ١٣٣٣
فرنانديز، ليونور: ٨٤
الفرنسيسكان: ٤٣٨، ٤٧٣-٤٧٤
الفشتالي، عبد الله: ٣٦١
فضل الرحمن خان: ١٣٨٩
فلاندين، أوجين نابليون: ٧٢٠، ٧٣٢

القاهر بالله، أبو منصور محمد (الخليفة
العباسي): ٣٢٤
قايتباي، الأشرف: ٤١٠، ٤١٤، ١١٦٥
قايتباي، حسن (السلطان المملوكي): ٤١٠-
٤١١، ٤١٣، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٨، ١٠٣٧
القبائل العربية: ٦٩، ١٤٩، ١٨٨، ١٩٠،
١٩٢-١٩٥، ١٩٧-١٩٨، ٢٠٩، ٣٦٢
قبيلة أروسي: ٨٤٧
قبيلة الأزد: ١٩٣، ١٩٥
قبيلة الأسد: ١٩٥
قبيلة أهل العالية: ١٩٣
قبيلة بارلاس: ٦٧٠-٦٧١
قبيلة بجيلة: ٣٩١
قبيلة بكر بن وائل: ١٩٣
قبيلة بورانا: ٨٤٧
قبيلة تغلب: ٣٩١
قبيلة تميم: ١٩٣
قبيلة تيم اللات: ٣٩١
قبيلة ثقيف: ١٩٥، ٣٩١
قبيلة الزواوة: ٥٤٧، ٥٥٠، ٥٦٤
قبيلة السدرتي: ٣٦٢
قبيلة سليم: ٣٩١
قبيلة عبد القيس: ١٩٣
قبيلة فشتالة: ٣٥٦
قبيلة الفودودي: ٣٦٢
قبيلة كندة: ١٩٥
قبيلة ليغا: ٨٤٧
قبيلة مزينة: ١٩٥
قبيلة النخع: ١٩٥

الفهري، يوسف: ١٨٢
الفودودي، عمر بن عبد الله بن علي بن
سعيد: ٣٦٢
فورونينا، فيرونكا: ٦٩٩
فورستيه، جان كلود نيكولا: ١٣٣٨
فوزارو، فلورندو: ٧٢
فوسمان، جيرار: ٢٨٢
فوش، فرديناند: ١٤٧١
فولارس، جاك: ١٠٣-١٠٤، ١٠٧، ١٠٩،
١٢٧، ١٣٥
فولتسينغر، كارل: ٣٦٦
فولر، ميا: ١٢٨٩
فولني، قسطنطين فرنسوا: ١٢٠٠
فونتين، جوست: ١٣٣٢
فير، ماكس: ٥٢
فيروز شاه (السلطان): ٩٧٩
فيصل الثاني (ملك العراق): ١٣٦٥
فيغيروا، دون غارشيا دي سيلفا: ٧٢٩-
٧٣١، ٧٣٤
فيكتوريا (ملكة بريطانيا): ٢٧٢
فيليب الثالث (ملك إسبانيا): ٧٢٩، ٨٧٩
فيليمونوف: ٦٧٧
الفينيقيون: ٥١١، ٨٦٥، ١١٠٦
- ق -
القاجار: ٥٩٤، ٥٩٦، ٥٩٨، ٦٠٧-٦٠٩،
٦١٢، ٦١٥، ٦٢٠، ٧٢٦
القادر (الخليفة): ٣٢٨

قبيلة همدان: ١٩٥، ٣٩١

قبيلة الوداية: ٨٦٩

قبيلة اليمني: ٣٦٢

قتلغ خان: ٦١٤-٦١٦

قدسي، إلياس: ١٢٠٣

القراصنة: ١١٣، ٣٩٨، ٥٢٧، ٥٧٨، ٨٨٠

القرامطة: ٦٩

قُرْجي، مصطفى: ٥٢٧

القرشي، عبد النبي: ٧٦٥

القرطاج: ٨٦٥

قرطان، إينيس: ٩٩

القرمانليون: ٥٢٤-٥٢٥، ٥٢٧

القروي، عبد العزيز: ٣٥٨

قسطنطين الكبير (الإمبراطور الروماني):

٤٣١

القشتاليون: ٨٧٦

قطب الدين (السلطان): ٦١٦

قُطر، المظفر سيف الدين: ٤٠٢

قلاوون، شعبان: ٤٠٩

قلاوون، المنصور سيف الدين: ٤٠٣-٤٠٤

فرسان مالطا: ٥١٧

القلقشندي، أبو العباس: ١٨٩، ١٩٨

قمشغا (السلطان المملوكي): ١٢٤٢

القنقباتي، جوهر: ٤١٥

قوسيم (السلطنة العثمانية): ٦٣٣-٦٣٤،

٦٥٠

قوصون (الأمير): ٤٠٥-٤٠٦

قوم سكا: ٢٦٢

القيسي، الأشهب: ٨٩٥، ٨٩٩

- ك -

كادروني، لودوفيكو: ٧٣

كاستيل، إيزابيل دي: ٥١٤

كاكي، قطب الدين بختيار: ٢٩٤

كامبفير، أنغلبرت: ٢٤٩، ٧٠٢، ٧١٥-

٧١٦، ٧١٩-٧٢١، ٧٢٣، ٧٢٥-٧٢٦،

٧٢٩، ٧٣٢-٧٣٣، ٧٣٧

كاميل، كلود: ٨٠٨

كانبو، محمد صالح: ٧٤٣، ٧٦٧

كانديليس، جورج: ١٣٥٣، ١٣٦٩

كانو، خوان: ٥٥٨

كانيجيا، جيانفرانكو: ١١٥٦

كاومرد، روبرت: ١٣٩٣

كايمفر، اي: ٩٤

كاين، كلود: ٦٢، ٦٤، ١١١-١١٢، ٣٢٨

كايني، جاك: ١٠٤، ٨٨٠

كُشل بيك: ٧٣٠

كرستي، فديريكو: ٥٤٣

كرسول، كييل: ٧٠، ١٠١٨، ١١٦٣، ١٣٦٢

كرماني، أفضل الدين أحمد بن حامد: ٦٠٥-

٦٠٦، ٦٠٨-٦٠٩، ٦١١، ٦١٧

كروسي، باتريك: ٧٩-٨٠

كريستي، فيديريكو: ٨٥، ١٣٠٨

كريم خان زند: ٧٠٥، ٧٠٩-٧١١

كسرى أبرويز: ٢٤٤

كسرى الأول (الإمبراطور الساساني): ٢٤٤

الكفراوي، كامل: ١٣٩١

كلارجي، مارسيل: ١٠٤، ١٠٩، ١١٠٩

كلافيو، روي غونزاليس دي: ٦٧٠

- كلفا، سميون: ٦٢٣
كلوزيل، برتراند: ٥٧٥، ٥٥٨
كليرجيه، مارسيل: ١٠٤٢، ١١٦٥
كليوباترا: ٨٧٦
كمانكش مصطفى باشا: ٦٣٣
الكناني، ابن سلمون: ٨٩٥، ٨٩٧
كواتيرت، دونالد: ١٢٢٣
كواندرو، روجيه: ٨٨٠
كوبان، دوغان: ٩٧-٩٨، ١٤٠٦
كوبرولو، محمد: ٦٣٧
كورين، جان: ٥٥٨
كويياك، فلاديسلاف: ٨٦، ١٣٠، ١٩٧
كوتون، دوذمور: ٧٠٩، ٧٢٤
كوتيرو، جان: ١٢٩٢، ١٢٩٤-١٢٩٨
كوران، عبد الله: ٩٩، ٦٣٥
كوربوزيه، شارل إدوار لو: ١٢٩٢، ١٢٩٧-
١٢٩٨، ١٣٠٠، ١٣١٤، ١٣٢٦
١٣٤٨، ١٣٦٩
كورتوا، ألكسندر: ١٣٤٤-١٣٤٦
كورتيز، ميشال: ١٣٢٨
كوززون (اللورد): ٧١٠، ٧٧٦
كوست، باسكال: ٧٠٣، ٧٠٨، ٧١٧، ٧٢٠
٧٣٠، ٧٣٢، ٧٣٥
كوسه مصطفى باشا: ١٠٦٤
كوش، إيبا: ٧٣٩، ٧٦٩
كولاس، ميموار: ٥٥٨، ٥٧٣
كولومبلا، لوسيوي: ١٠٩٢
كونيو، باولو: ٧٠
كوهين، آمنون: ١٢٠٠، ١٢١٢
- كوهين، جان لوي: ١٣٢٧
كينو، باولو: ٤٤
كينيدي، هيو: ٩٢، ١١٢، ١٦٥، ٩٦٢
- ل -
- لابراد، ألبير: ١٢٩١، ١٢٩٧، ١٣٤٠،
١٣٥٠
لابون، إيريك: ١٣٤٥
لابيدوس، إيسرا: ٦١-٦٤، ٧٧، ١٢٠٢،
١٣٦٢
لاين، كارل: ١٣٨٩
لاجين، حسام الدين: ٤٠٥
لاري، محيي: ١٠٣٩
لاستر، جاكوب: ٣٢٠، ٣٢٨، ٣٣١
لانفريدوتشي، فرنسوا: ٥٥٦
لاوري، هيث: ٥٠٣
اللجائي، أبو زيد: ٣٦١
اللجائي، أبو علي الحسن: ٣٦٠
لحدود، إميل: ١٤٨٨
اللخميون: ١٩٥
لوتورنو، روجيه: ٥٢-٥٣، ١٠٥
اللوديون: ٢٧١، ٢٧٧، ٢٧٩، ٧٣٩، ٧٤٦،
٧٧١
لورانس، إيفون: ٥٨٠-٥٨١
لوز، نمرود: ٩١
لوسابس، إدمون دو: ٤٧٧
لوسو، ميشال: ١١٢٥، ١١٢٩-١١٣١
لوسبوس فيروس (الإمبراطور الروماني):
٥١٢

ماسينيون، لويس: ٥٢-٥٣، ٦٢-٦٤، ١١٧،
١٩٤-١٩٥، ٩٨٧، ٩٩٤، ١٠٠٤،
١٠١١

ماشيزي، محمد سعيد: ٦١٩-٦٢٠
ماكاون، دونالد: ٣٩٤
ماكاي، شيري: ١٢٩٧
ماكسيميان (الإمبراطور الروماني): ١٠٧٥
ماكلوهان، هربرت: ١٣٩٩
ماكونن، تفاري: ٨٤٨
ماكونن، راس: ٨٤٨، ٨٥٠
مالدونالدو، بافون: ٧٩
المأمون بن هارون الرشيد: ٣٢٢-٣٢٣،
٣٢٥، ٣٣٦، ٣٣٨، ٧١٣
مانتران، روبرت: ٣١١، ٦٤٩، ١٢٠٥،
١٢١٦، ١٢١٨

ماندلسلو، يوهان أليخس فون: ٧٤٠
مان سينغ (الراجا): ٧٥٣
ماينيكي، ميشال: ٩٠
مبارك، حسني: ١٣٦٦
مترال، جان: ١١٢٢
المتصوفة: ٢٨٢، ٣٤٥، ٣٥٥، ٣٥٩-٣٦١،
٦٨٢، ٧١٣، ٧١٧، ٧٨٣
المتقي لله، أبو إسحاق إبراهيم (الخليفة
العباسي): ٣٢٨
المتوكل على الله، أبو الفضل جعفر (الخليفة
العباسي): ٢٠٦، ٣٣٦
المجوس: ٢٠٣، ٣٣٥-٣٣٦
محفوظ (إمبراطور الحبشة): ٨٤٦
محمد الأول (أمير قرطبة): ١٨٣
محمد الأول (الخليفة الأموي): ٩٧٦

لوفيفر، هانري: ١١٢٨
لوكار، لورنس: ٢٣٧
لوكون، رينولد: ٨٢١

لويس الرابع عشر (ملك فرنسا): ٤٧٤
لوين، ريتشارد فان: ١٢٢٩، ١٢٤٢
ليت، كارل: ١٤١٧
ليثغو، وليم: ٥٥٨
ليسبس، ريني: ١٠٤، ٥٤٦، ٥٥٨، ٥٦٢،
٥٧٢-٥٧٣، ١٣٠٨
لي كوان يو: ١٣٧٨
ليم، وليام: ١٤٢٦
ليوتي، هوبير: ٨٨٨، ١١٠٦-١١٠٧،
١٢٩١، ١٣٠٣، ١٣٢٩، ١٣٣٧-
١٣٣٨، ١٣٤٠، ١٣٤٣، ١٣٥٠

- م -

الماراثيون: ٢٧٢
ماراست، جوزيف: ١٣٣٩
مارسيل، غابرييل: ٣٨٣
مارسيه، جورج: ٥٢-٥٤، ٦٠-٦١، ٦٣-
٦٤، ٨٢، ١٠٣، ١٠٦، ١١٣، ٩٥٠
مارسيه، وليام: ٥٢-٥٤، ٦٠، ٦٣-٦٤،
٨٢، ١٠٣، ٣٠٩، ١٣٠٤
ماركوس أوريلوس أنطونيوس (الإمبراطور
الروماني): ٥١٢
ماركوس، أبراهام: ٤٦١
ماريتو، باولو: ١١٥٦
مارينو، بريجيت: ١٠٠٨
ماسترز، بروس: ٤٧٨

مراد الثالث (السلطان العثماني): ٦٢٩،
 ١١٧٩، ٦٥٧، ٦٣٥، ٦٣٢
 مراد الرابع (السلطان العثماني): ٤٥٥،
 ٦٥٧، ٦٣٣، ٥١٩
 مرتضى قُلي خان: ٧٢٥
 المرزبانجون: ٦٦٧-٦٦٨
 المرواريون: ٧٩٧
 المريدون: ١٨٣
 المريني، أبو الحسن: ٨٧٦
 المريني، أبو عنان: ٣٤٣
 المريني، أبو يوسف يعقوب: ٨٧٦
 المرينيون: ١٠٦، ٢٠٩، ٨٧٨، ٨٨١
 المستعين بالله (ال خليفة العباسي): ٣٢٣
 المسعودي، أبو الحسن علي: ٣٢٠، ١٠٢١
 مسكريتناس، جو: ٥٥٨، ٥٨٧
 مسكويه، أحمد بن يعقوب: ٣٢٠
 مصطفى آغا: ٥٨٣، ٦٣٥
 مصطفى الأول (السلطان العثماني): ٦٣٣،
 ٦٥٧
 مصطفى الثاني (السلطان العثماني): ٥٢٣،
 ٦٣٤
 مصطفى رشيد باشا: ١٢٦٠
 مصطفى، محمد علي: ١٩٥
 المطرقجي، نصوح: ١٠٣٩
 مظفر (حاكم كرمان): ٦٠٤
 المظفريون: ٦١٧، ٦١٩
 مظلوم، مكسيموس: ٤٧٨
 المعتصم بالله، أبو اسحق محمد (ال خليفة
 العباسي): ٢٠٤، ٢٠٦، ٣٣٣-٣٣٤،
 ٩٥٦

محمد باشا: ١٠٤٤، ١٢١٠
 محمد باشا دوقه كين زاده: ٤٥١-٤٥٢،
 ١٢٣٧، ٤٥٤
 محمد بك: ٥٨١
 محمد بن عبد الله (السلطان العلوي):
 ١٣٣٤
 محمد الثاني (السلطان العثماني): ٢٢٠،
 ٣٠٥، ٦٢٥، ٦٥٧، ٩٦٩، ١١٩٥
 محمد الرابع (السلطان العثماني): ٦٣٣-
 ٦٣٥، ٦٥٠، ١١٧٧-١١٧٨
 محمد الخامس (ملك غرناطة): ٣٥٣
 محمد شاه (الإمبراطور المغولي): ٧٥١
 محمد، شهزاد: ١٠٣٧
 محمد علي باشا: ٤٧٥، ٥٢٥، ١١٦٦،
 ١٢٢٢-١٢٢٣، ١٢٥٦، ١٢٥٨
 ١٢٦١، ١٢٦٧، ١٢٨٠
 محمد الفاتح (السلطان العثماني): ٤٨٣،
 ٤٩٠، ٦٢٧، ٦٢٩-٦٣٠، ٦٥٣
 محمود الأول (السلطان العثماني): ٦٤٢،
 ٦٥٥، ٦٤٩
 محمود باشا: ٥٢٥
 المرابطون: ٢٠٨، ٩٦٧، ٩٧٦، ١١٠٥-
 ١١٠٦، ١٣٣٣
 مراد آغا: ٥١٦-٥١٧، ٦٥٧
 مراد الأول خُداوندكار (السلطان العثماني):
 ٤٩٠
 مراد باشا: ٣٠٨
 مراد بك: ١٢١٧
 مراد الثاني (السلطان العثماني): ٤٨٤

الممالك: ٦٩، ١٣٤، ٣٩٩-٤٢٥، ٤٣٧،
 ٤٤٥-٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥٠، ٤٦٦، ٤٩٣،
 ٥٢٥، ١٠٣٥، ١٢١٧، ١٢٥٩
 ممتاز محل (الملكة): ٧٥٩
 مفورد، لويس: ٣٥
 متران، روبرت: ٩٧
 المنصور (ال خليفة الفاطمي): ٢٠٠
 المنصور، أبو جعفر (ال خليفة العباسي):
 ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٦٠، ٣١٧، ٣٢٠-٣٢٢،
 ٩٥٥، ١٢٣٣
 منصور (الشاه): ٧١٥
 المنصور، عبد المؤمن: ٨٦٧، ٨٦٩
 المنصور، يعقوب: ٨٦٧، ٨٦٩، ٨٧١،
 ٨٧٣-٨٧٥
 منعم خان: ٧٧٥
 المهديون: ٨٧٤
 الموارنة: ٤٥٥، ٤٧٩، ١٢٢٩، ١٢٤٨
 الموحدون: ٣٤٣، ٣٤٩-٣٥٠، ٣٥٧،
 ٣٥٩، ٨٦٩، ٨٧١، ٨٧٤، ٩٦٧، ١٣٣٣
 موراتوري، سافيريو: ٤٢، ٧٣-٧٤، ١١٥٦
 موراوي، جون: ٧٦٠
 المورسكيون: ٥٤٧-٥٤٨، ٥٧٠، ٥٨٥،
 ٥٨٨، ٨٧٩-٨٨٠
 المورلي، حفيظة خانم: ١٢٤٣
 الموريون: ٥١٤، ٥٤٧-٥٤٨، ٥٥٠، ٥٦٤،
 ٥٧٣
 موسى، أبو حمو: ٣٥٧
 الموفق بالله (ال خليفة العباسي): ٩٥٦
 مولاي الرشيد (سلطان المغرب): ٨٨٢
 مولاي حسن (سلطان المغرب): ١٣٣٥

المعتضد بالله، أبو العباس عبد المجيد
 (ال خليفة العباسي): ٢٠٤، ٣٢٣، ٣٢٧
 المعجل، عادل: ١٤١٨
 معز الدولة البويهري: ٣٢٤، ٣٣٥، ٣٤٠،
 ٩٥٦
 معز الدين (ملك خراسان): ٢٥٩
 المعز عز الدين أيك: ٤٠٢
 المعز عز الدين أيك الأفرم: ٤٠٣
 المعز لدين الله (ال خليفة الفاطمي): ٥١٧،
 ٩٥٧، ١٢٣٣
 المفراويون: ٣٤٣
 المغربي، خلوف: ٣٥٧
 المغول: ١٦٦، ٢٥٢، ٢٧٠-٢٧٣، ٢٧٩،
 ٢٨١، ٢٨٤-٢٨٧، ٢٩٤، ٣٩٩، ٤٢١،
 ٤٣٦، ٦٦٧، ٦٦٩، ٦٧١، ٧١٣، ٧٣٩-
 ٧٨١، ٧٨٨، ٧٩١، ٧٩٣، ٨٠٥، ٨٠٨-
 ٨٠٩، ٩٤٨، ٩٨٢
 المقتدر بالله، أبو الفضل جعفر (ال خليفة
 العباسي): ٣٢٣-٣٢٥، ٣٢٨، ٣٣٠،
 ٩٥٦
 المقدسي، شمس الدين محمد بن أحمد:
 ١٧٤، ٣١٩، ٦٠١-٦٠٢، ٦٠٦، ٩٣٧
 المقرري، أبو عبد الله: ٣٥٧، ٣٥٩-٣٦٠
 المقريري، تقي الدين أحمد: ١٨٩، ١٩٨،
 ٣٢٩، ٤٠٤، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤١٠-٤١١،
 ٤٢٠-٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٥، ١٢٠٣
 مكشيشيني، روبرت: ٩٧
 المكثفي بالله، أبو أحمد علي: ٣٢٣، ٣٢٨
 مكسيموس (البطريك الكاثوليكي): ٤٧٧
 مكية، محمد: ١٣٧٢

الناصر، عبد الله: ٣٦-٣٧	مولاي سليمان: ٨٨٢-٨٨٣
ناصر، محمد: ١١٠١	مولاي عبد الرحمن (السلطان): ٨٦٩
نافارو، بيدرو: ٥١٤	المولدافيون: ١٢٥٩
النحال، جلال: ١٠٤٥	مولير-فاينر، دبليو: ٩٨
الناطرة: ٢٠٣، ٣٣٤	مولين، سعيد: ٤٢، ٨٦٥
نسيه، سعيد: ٩١	مونتالبانو، كالجيرو: ٩٣٣
نصر، جو: ١٤٦٥	مونتان، روبر: ١١٠٧، ١٣٤٨
النصري، أحمد بن خالد: ٨٨٤	مونكادا، هيوغو دي: ٥٧٨
نظام الأول: ٧٩١، ٨٠٥	مورينيهان، إيزابيت: ٧٦٦
نظام الثاني: ٧٩١	ميان، غازي: ٢٨٤
نظام الثالث: ٧٩٣-٧٩٤، ٧٩٦	ميتشل، جورج: ٢٩٧
نظام الرابع: ٧٩٣-٧٩٤، ٧٩٦	الميديون: ٢٤٠
نظام الخامس: ٧٨٤-٧٨٨، ٨٠٠-٨٠٣، ٨٠٥، ٨٠٨، ٨١٣-٨١٥، ٨٢٠	مير تهته علي خان. انظر: نظام الخامس
نظام السادس: ٨٠٩	ميرشن، ميشال فان دير: ٣٦٦
النظاميون: ٢٨١، ٧٨٣-٧٨٥، ٧٨٧-٧٨٨، ٧٩١، ٧٩٣-٧٩٤، ٧٩٩-٨٠١، ٨٠٤-٨٠٦، ٨٠٨، ٨١١-٨١٣، ٨١٧-٨٢٠	ميرموز، جان: ١٣٣٢
نعيمه، مصطفى: ٦٢٣، ٦٥٦	ميشو، فرنسواز: ٣١٧
نغليا، جوليا آناليندا: ٥١	ميكارا، لودوفيكو: ٧٣، ٥٠٩، ٥٣٦
النقاريون: ٢٦٢	ميلستين، راشيل: ١٠٢٥-١٠٢٦، ١٠٢٨-١٠٣٢
النقري، محمد: ١٢٥١	ميليو، لويس: ١٢٥٠
النقيس، علي (الداي): ١٠٤٤، ١٠٦٤	مينليك الثاني (الإمبراطور الإثيوبي): ٨٤٦، ٨٤٨، ٨٥٩
النميري، إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم: ٣٥٢	- ن -
نورتهديج، أستير: ٤٣	النابلسي، عبد الغني: ١٢١٩
نور جهان (الملكة): ٧٥٨، ٧٦٥	ناجمي، عبد الواسي: ٩٣
النورمانديون: ٥١٣	نادر شاه. انظر: إمام قلي خان
نوري، عثمان: ٣٠٦	الناصر دين الله، أبو العباس أحمد (ال خليفة العباسي): ٣١٨، ٣٢٤، ١٠٢٩

الهندوس: ٢٦٩-٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٤-٢٧٥،

٢٨٣-٢٨٥، ٢٨٧، ٢٩٣-٢٩٤، ٢٩٦-

٢٩٧، ٢٩٩، ٧٨٠

هنري الثالث (ملك انكلترا): ٦٧٠

هودكين، هوارد: ٧٥٤

الهورناشيون: ٨٨٠

الهوسا: ٩٠٢، ٩٠٤، ٩١٠

هوس، دونالد: ٣٩٤

هوغبينغ، فرانز: ١٣٣١

هولاكو: ٣٢٩

هولود، ريناتا: ٣٦، ٤٧، ٧٦-٧٧

هيوداموس: ٣٦٩

هيرودوتس: ٢٤٠

هيرين، جوديث: ١١٧٢

هيلاتاسي (إمبراطور إثيوبيا): ٨٤٩، ٨٦٣

هيل، كيري: ١٣٩٢

هيلينبراند، روبرت: ٩١

- و -

واتنبوف، هيغدار: ٨٩

الوائق بالله (ال خليفة العباسي): ٢٠٦

الواسطي، أبو بكر محمد بن أحمد: ١٠١٧-

١٠١٨

واطسون، مايكل: ١٧٩

وايزربر، فيليكس: ١٣٣٥

وردي خان: ٧٣٠

وودز، شادرتش: ١٣٥٣

وولرس، جاك: ١٠١٢

وولف، جانيت: ١٣٩٨

نوير، سوزان: ٤٢

التويري، شهاب الدين: ١٠٩١

نيبور، كارستن: ٧٠٣، ٧٠٥، ٧٠٧، ٧١٦،

٧٢٣، ٧٢٨، ٧٣١

نيدرماير، أوسكار فون: ٢٥٧

دنيس، إريك: ١٤٢٩

نيسبولغو، غولرو: ٧٦-٧٧

نيقولاي، نيقولاس دي: ٥٥٤

نيكراسوفا، يلزافيتا: ٦٧٧

- ه -

هاردي، جورج: ١١٠٦-١١٠٩، ١١٢٣،

١١٣١

هارون الرشيد (ال خليفة العباسي): ٢٠٠،

٢٠٤، ٢١١، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٢٧، ١١٩٠

هاريس، جون: ١٤١٣

الهاشمي، أبو الحسن محمد بن صالح بن

علي: ٣٣٠

هالام الثاني: ١٠٨٨

هامر، جوزف فون: ٥٠٣-٥٠٤، ٥٠٦،

هامفريز، ستيفن: ١٠٤

هايرغر، برنار: ٤٤٥، ٤٧٣

هايدو، ديفغو دي: ٥٤٦-٥٤٨، ٥٥٠،

٥٥٥-٥٥٦، ٥٧٨

همداني، أبو طالب كلیم (شاعر شاه جهان):

٧٥٩، ٧٧٩

الهمداني، عباس: ١٢٠٢

الهمداني، عجلان: ١٨٤

ويب، آرثر: ٩٠٨، ٩٠٤

وير، ستيفان: ٩٠-٩١، ١٢٧٦

ويتكومب، رونالد: ٩٢-٩٣، ١٧٦

ويتلي، بول: ٤٣، ٧٠، ١٤٢٥

ويرث، أوجين: ٦٥-٦٧، ٧٤-٧٥، ٨٦

٨٩، ٩٢، ١١٢، ١١٥-١١٦، ٢٣٤

٩٩٤، ٩٨٧، ٣٠٣

ويغان، مكسيم: ١٤٧١

فيلبر، دونالد: ٧٠٧، ٧١٢، ٧٢٨

وينفري، أويرا: ١٣٨٨

- ي -

يادغار بك: ٧٦٠

يانسن، هرمان: ١٣٦٨

يرازيموس، ستيفان: ٩٩، ٣٠٦-٣٠٧

يزدي، شرف الدين علي: ٧٢٧

اليسوعيون: ٤٧٣-٤٧٤، ٤٧٩

اليعاقبة: ٣٣٤، ٤٣٨، ٤٧٤

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: ١٩٥،

٢٠٣، ٢٠٦، ٣١٩، ٣٢١-٣٢٢، ٣٢٧

٣٣٢

يعقوبي، دايفيد: ٤٩٢

اليهود: ٤٥، ١٣٢، ١٣٤، ١٧٣، ١٨٢، ٢٠٣،

٢٢٠، ٢٢٤، ٣٠٥، ٣٣٤-٣٣٦، ٣٤٨،

٣٥٠، ٣٥٢، ٣٦١، ٤٢٣، ٤٣٠-٤٣٣،

٤٣٥-٤٣٦، ٤٣٨-٤٤٠، ٤٧٤، ٤٧٦،

٤٨٠، ٥٠٢، ٥١٠، ٥١٥، ٥٢٥-٥٢٦،

٥٣٠-٥٣٣، ٥٣٦-٥٣٧، ٥٤٧، ٥٥٠،

٥٥٢، ٥٦٤، ٥٧٢-٥٧٣، ٥٨٢-٥٨٣،

٥٨٨، ٥٩٠، ٦٢٩، ٦٥٣، ٨٤٢-٨٤٣،

٨٨٢-٨٨٣، ١٠٤٨، ١٢٢٩، ١٢٤٦-١٢٤٧

١٢٤٧، ١٢٧٦، ١٣٣٢، ١٣٣٧، ١٣٤٦

اليهود الساليون: ٨٨٣

اليهود المغاربة: ١٣٣٢، ١٣٣٤، ١٣٤١،

١٣٥٥. انظر أيضاً: الطائفة اليهودية في

المغرب

يو العظيم: ٢٦٥

يوسف باشا (القرمانلي): ٥٢٥، ٥٢٧-٥٢٨

يوسف داي: ٩٩٩، ١٠٠١، ١٠٥٦

يوكاوا، تكيشي: ٦٥

فهرس الأساكن

آسيا الصغرى: ٦٩، ٢٥٦، ٣٠٢، ١١٣٥	- ١ -
آغياتانا: ٢٤٠	
آنا ساغر: ٩٧٨، ٩٨١	آبار واو: ٩٨٥
آيا صوفيا: ٦٤٦، ٦٥٧	آب غرغر: ٩٧٢
أبديرا: ١١٣٨	آت ميدان. انظر: ميدان سباق الخيل (إسطنبول)
أبراج الرياح: ٩٨٣، ١٤٠١-١٤٠٢، ١٤٠٦-١٤٠٧، ١٤١٧	آريا. انظر: هرات
الأبلّة: ٣٢١، ٩٦٣	آسيا: ٦٦، ٨٨، ١٠٦، ٢٦٦، ٢٦٩، ٣٤٥، ٤٨٨، ٧٤٠-٧٤١، ٧٨٣، ٧٨٥، ٩٤٠، ٩٤٣، ٩٦٣، ٩٧٨، ٩٩٣، ١٣٦٣، ١٣٦٥، ١٣٧٤، ١٣٧٦-١٣٧٨، ١٣٩٢، ١٤٠٣
أبوجا: ١٣٦٩	آسيا الوسطى: ٤١، ٥٦، ٦١، ٦٩، ٨٨، ٩٤- ٩٦، ١١٣، ٢٠٤، ٢٣٨، ٢٥٠، ٢٦٢- ٢٦٥، ٢٧١، ٣٢١، ٣٣٣، ٦٦٧، ٦٨٣، ٦٨٦، ٦٨٩-٦٩٠، ٧٤٣، ٩٤٣، ٩٥٢، ١٢٣٤، ١٤١١
أبو الجعد: ٦٤	
أبو ظبي: ٤٤	
أثينا: ٢٢١، ٤٩٩	
إثيوبيا: ٨٤٦-٨٤٨، ٩٦٨.	
أجرود: ١٢٠٥	
أجمير: ٢٨٥، ٢٨٧، ٩٧٨، ٩٨١، ١١٨٧	
أحمد آباد: ٢٧٩، ٢٨٧، ٢٨٩، ٩٧٨	

٨٨١، ٨٨٣، ٨٨٧، ٩٤٣، ٩٧٦، ٩٨٩،

١٠٤٨، ١٠٦٨، ١٠٩٠، ١١٣٥،

١١٥٥، ١٢٣١-١٢٣٢، ١٣٢٩،

١٣٣٤، ١٣٥٠

أسبدانة، انظر: غبي

أسيجاب: ٣٣٢

إسْتَجَة: ١٠٧٧

إسترامادورا: ٨٧٩

إسحاق بك: ٧٠٩

إسطبلات سليمان: ٤٣٦، ٤٤٠

إسطبل الأمير أيدغمش: ٤٠٦

إسطبل الأمير طاشتمر: ٤٠٦

إسطبل الأمير قوصون: ٤٠٦

إسطبل بكتيمور. انظر: قصر بكتيمور

أسطح الجملون: ١١٥١

إسطنبول: ٤١، ٤٦، ٥٩، ٧٧، ٩٧-١٠٠،

١٢٧، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٣٤-٢٣٥،

٣٠٢، ٣٠٥-٣٠٩، ٣١١، ٣١٣، ٣٧٤،

٤٤٣-٤٤٤، ٤٦٤، ٤٧٧، ٤٨٣-٤٨٨،

٤٩١، ٤٩٥، ٤٩٨، ٥٠٠، ٥١٨، ٥٢٥،

٦٢٣-٦٦٠، ٧٤٩، ٩٤٥، ٩٦٨-٩٦٩،

٩٩٥، ١٠٠٢، ١٠٢٥، ١١٥٥، ١١٦١،

١١٧٤-١١٧٥، ١١٨١، ١١٨٣-١١٨٣،

١١٨٥، ١١٨٧-١١٨٨، ١١٩٠-١١٩٠،

١١٩٢، ١٢٠٠، ١٢٠٥-١٢١٠،

١٢١٦-١٢١٨، ١٢٢٣، ١٢٣١،

١٢٣٣، ١٢٥٦-١٢٥٧، ١٢٥٩-١٢٥٩،

١٢٦٢، ١٢٦٥-١٢٦٦، ١٢٧٤،

١٢٧٨، ١٢٨٦، ١٣٦٤، ١٣٩٤-١٣٩٤،

١٣٩٥، ١٤٥٠، ١٤٧١

إسكاف بني جنيد: ١٧٤

إسكندر آباد: ٧٩١

أحمد نغر: ٢٧١، ٩٨٢

أحياء الغيجكوندر: ١٣٩٤-١٣٩٥

الأخضر: ٣٨٣

أدرنة: ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٣٠،

٣٠٨، ٣١٣، ٤٨٣-٤٨٤، ٦٢٦، ٦٢٩،

٦٣٢-٦٣٤، ٦٤٠، ٦٥٥-٦٥٦، ١١٩٦،

أدرينوبل. انظر: أدرنة

أديس أبابا: ٨٤٩

أذربيجان: ٣٢١

أراغون: ٣٥١، ٥٤٧

أراكان: ٢٨٤

أرجان: ١٧٦، ٩٧٢، ٩٧٥

أردبيل: ٢٥٤

أردشير بابك: ٩٦٤

أردشير خوره. انظر: فيروز آباد

الأردن: ٤١، ٩٢، ٩٤، ١٦٦، ٢٦٣، ٩٦٢،

١٠٦٨

أرسلان خان: ٦٦٧، ٦٨٠

أرضروم: ٢١٨، ٣١٣، ٤٩٣

أركوت: ٢٨١

أرم باغ. انظر: باغ نور أفشان

أرمينيا: ٢٣٩، ٢٥٤، ٣٢١

أرمينيا الصغرى: ٤٤٥

أريانة: ٣٩٣، ٩٩٣

إريتريا: ١٣٠١

إزمير: ٥٩، ٢٢٤، ٣٠٣، ٣١٣، ٤٨٥، ٥٠٣،

١٢٥٧-١٢٥٦، ٥٧٣

إزنيق: ٤٩٢

إسبانيا: ٧٨-٧٩، ٨٨، ١٦٦، ٣٠٥، ٣٣٥،

٣٤٨، ٤٣٧، ٥١٤، ٥١٩، ٥٢٥، ٥٤٧،

٥٥٦، ٥٧٠، ٥٨٣، ٨٦٩، ٨٧٤، ٨٧٩،

الإسكندرون: ٤٨٠	أغادير: ١٣٢٧
الإسكندرية: ٨٥، ١٨٨، ١٩٧، ٤٠٤، ٤١٦، ٤٤٤، ١١١٧-١١١٨، ١٢٥٦، ١٢٥٨، ١٢٦١، ١٢٦٩، ١٢٧٢، ١٢٧٥	أغرا: ٤٦، ٢٧١، ٢٧٩-٢٨٠، ٢٨٧-٢٨٩، ٢٩٩، ٧٣٩-٧٨١، ٩٤٦، ٩٤٨، ٩٥١
١٢٨٣، ١٢٨٥، ١٤٣٤	٩٥٣
أسكودار: ٦٢٩، ٦٣٣، ٦٣٨، ٦٤٢، ٦٤٤	أغراس: ٥٠٥
٦٤٩، ٦٥٥، ١١٨٢، ١١٨٨	أغمات: ٩٦٧
إسكوريال: ٥٤٨	أفاميا: ١٠٥، ١١٢، ١٦٨
إسكي سراي. انظر: القصر القديم (إسطنبول)	أفراشياب: ٤٣، ٦٦٦، ٦٦٩
إسلام آباد: ٤٣، ٢٧٣-٢٧٤، ١٣٦٤	أفريقيا: ٧١، ٨٨، ١٠٦، ١١٣، ١٤٠، ١٩٩-
١٣٦٨، ١٣٧٠	٢٠٠، ٢٠٦-٢٠٧، ٣٤٥، ٣٦٢، ٣٨٠، ٥٤٨، ٥٨٥، ٩٣٧-٩٣٥، ٩٤٥، ٩٩٣-
أسواق الرّبع (تونس): ١٢٠، ١٠٠٢	٩٩٤، ١٣٠١، ١٣٤٣، ١٣٥٢، ١٣٥٧
أسوان: ٩٥٦	١٤٤٣. انظر أيضاً: شمال أفريقيا
إسباجا: ١٨١	أفضل درّوازه. انظر: باب أفضل
إشاو أستاذ: ٦٨٢	أفغانستان: ٣٩، ٦٩، ١١٥، ١٦٦، ٢٣٨، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٧٠، ٢٧٩
إشبيلية: ١٨١-١٨٢، ٣٤٧، ٣٥٥، ٨٧١	٧٤١، ٩٣٩، ١٠٠٠
٨٧٤، ٨٧٨، ٩٦٧، ١٠٧٤، ١٠٨٠	الأفلاق: ٢١٨
١٠٩٠-١٠٩١، ١٠٩٦، ١١٨١	الافرون: ٥٦٤
الأشرفية (بيروت): ١٤٩٩	أفيون: ٢١٨، ٢٢١، ٢٣٤، ٣١٣
الأشرفية (فلسطين): ٤٤٠	أكاديا: ٨٧٩
أشقودرة: ٢١٨، ٢٢١-٢٢٢، ٢٢٨-٢٢٩	أكبر آباد. انظر: أغرا
أشور: ٣٦٩	إكس: ٧٢
أصبهان. انظر: أصفهان	إكستريما دورا: ١٠٩٠
إصطخر: ١٧٥-١٧٦، ١٨٥-١٨٦، ٧١٣	أكسراي: ٦٥٦
٧١٧	أكواخ البرّاستي (دبي): ١٤٠١-١٤٠٢، ١٤٠٦، ١٤٢٠، ١٤٢٤
أصفهان: ٤٦، ٥٩، ٧٧، ٩٣، ١٨٤، ٢٣٨	أكواخ النوايل: ١٣١
٢٤٣-٢٥٣، ٢٥٥، ٢٦٠، ٣٢١، ٥٣٩	ألانيا: ١٠٧٢
٦١٦، ٦١٩، ٦٢١، ٦٦٢، ٧٠١-٧٠٣	ألباسان: ٢٢١
٧٠٥، ٧١٧-٧١٨، ٧٢٠، ٧٢٥-٧٢٦	ألبانيا: ٢١٧، ٢٢١
٧٣٥-٧٣٧، ٧٤٠، ٧٤٩، ٩٣٩، ٩٤٦	الرّي: ١٦٥، ١٧٦، ٣٤٠
٩٤٩، ٩٥٣، ٩٦٤-٩٦٥، ١١٧٤	
١١٧٩	

إندونيسيا: ١١٣، ١٣٦٣، ١٣٧٤، ١٣٧٦،
 ١٣٧٨-١٣٧٩، ١٣٨٧-١٣٨٨،
 ١٣٩٣
 أنطاكية: ١٠٤، ١٠٧، ١٣٤-١٣٥، ١٦٨-
 ١٦٩، ١٧١، ١٨٨، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٤٢،
 ١٠١١، ١٠٤٨-١٠٤٩، ١١٦٣
 أنطاليا: ٢١٨
 أنطلياس: ١٤٧٧
 أنغوري باغ: ٧٧٢-٧٧٣
 أنفا: ١٣٣٣، ١٣٤٣، ١٣٤٩
 أنقرة: ٤٣، ٢١٨، ٣١٣، ١٢٧٢، ١٣٦٨،
 ١٣٩٥
 إنكلترا: ٥٢٨، ٥٨٣، ٧٩٠، ٨٨١، ١٢٥٨،
 ١٢٦٢
 أهرام الجيزة: ١٤٣٠، ١٤٦٠
 الأهواز: ٣٢١، ٩٤٩، ٩٧٢
 أميركابي: ٦٤٦
 أوادا: ٢٧٢
 أواسا: ٨٤٧
 أويوس: ١٣١٠، ١٣١٤
 أودايبور: ٩٤١، ٩٧٨، ٩٨١
 أور: ١٤٢، ١٦٢، ٣٦٩، ٣٩٤
 أورالسك: ١٢٣٥
 أورفة: ٢١٨، ٢٢٤، ٣١٣-٣١٤، ٤٨٠
 أوروبا: ٣٤، ٥٣، ٦٦، ١٠٦، ١٩٧، ٢٥٢،
 ٣٩٦، ٤٣٧-٤٤٥، ٤٤٦، ٤٧٩،
 ٥٠٣، ٥٠٦، ٥١٤، ٥٧٣، ٥٨٣، ٦٧٨،
 ٧٣١، ٨٤٨، ٨٨١، ٩٨٩، ٩٩٣-٩٩٤،
 ١٠١٢، ١١٠٧، ١١٤٣، ١١٥٣-
 ١١٥٤، ١١٧٣، ١٢٢٠، ١٢٢٢،
 ١٢٥٨، ١٢٦٧-١٢٦٨، ١٢٩١-
 ١٢٩٢، ١٢٩٥-١٢٩٤، ١٣٠٠-

الألزاس: ٢٢٣
 الله آباد: ٢٧٣
 ألمانيا: ٨٨١
 ألمرية: ٣٥٧
 أليغار: ٢٧٢، ٢٨٦، ٢٩٣، ٧٦٤
 الإمارات العربية المتحدة: ١٣٦٦، ١٣٨٣،
 ١٣٩٧، ١٤١٠
 أماسيا: ٢١٨، ٤٩٣، ٦٢٩
 أمالفى: ١٣٠٠
 أميلاكيا: ٢١٨، ٣١٣
 أمريكا: ٣٤، ١٣٧٤، ١٣٨٦، ١٤٢٢
 أمريكا الشمالية: ١٤٠٣، ١٤٣٧
 أمريكا اللاتينية: ١٤٤٣-١٤٤٤
 إمينونر: ٦٣٤-٦٣٥، ٦٤٢، ٦٥٨، ١١٩١،
 ١١٩٣، ١١٩٥-١١٩٦
 الأناضول: ٥٦، ٥٩، ٩٧-٩٨، ٢١٦،
 ٢١٨-٢١٩، ٢٢١-٢٢٢، ٢٢٦،
 ٢٣٤، ٢٥٠، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣٠٨-
 ٣٠٩، ٣١٣-٣١٤، ٣٢١، ٣٦٩، ٤٦٣،
 ٤٨٠، ٤٨٥، ٤٩٣-٤٩٤، ٥٠٥، ٥٥٠،
 ٥٨٥، ٦٣٢، ٦٣٤، ٦٣٨، ٦٤١، ٩٣٧،
 ٩٤٥، ١٠٧٢، ١٢٠٣، ١٢٢٣، ١٢٤١،
 ١٢٥٠، ١٢٥٩، ١٢٦٤، ١٤٦٩
 الأندلس: ٦٩، ٧٩-٨٠، ١٣٤، ١٤٠،
 ١٦٥، ١٨٠-١٨١، ١٨٣، ١٨٥، ٢٠٨،
 ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥٦، ٣٦٢، ٥٤٧، ٥٥٦،
 ٨٦٧، ٨٦٩، ٨٧١، ٨٧٥، ٨٧٨-٨٨٣،
 ٨٨٧-٨٨٨، ٩٨٩، ١٠٤٨، ١٠٦٨،
 ١٠٧٤، ١٠٧٦، ١٠٩٢-١٠٩٤،
 ١٠٩٧، ١١٣٧، ١٢٣١، ١٣٥٠

أيفاليك: ٢٣٠	١٣٠١، ١٣٠٥، ١٣٣٤، ١٣٤٣
الإيوان الكبير: ٤٠٧، ٤١٤	١٣٤٩، ١٣٨٦، ١٤٠٣، ١٤٢٢
إيوان كسرى: ١٧٤، ٣٢١	أوريد: ٢٢٣
إيوان مابين: ٢١٨	أوزبكستان: ٩٦، ٩٨٣
أيوب: ٤٨٥، ٦٢٧، ٦٢٩، ٦٤٢، ٦٤٩	أوستيا أنتيكا: ١١٤٣
٦٥٣، ٦٥٥	أوغادين: ٨٤٧
- ب -	أوكلا: ٢٨٦
بثر بروطة: ٩٥٠	أول خان: ٢٣٢
بثر جالرا الكبيرة: ٩٤٢	أوليتو: ١١٣٨
بثر حسن: ١٤٧٥	أومبولسيوم: ٥٠٩
بثر زمزم: ٩٥٠، ١٠١٧، ١٠٢٨، ١٠٣٢	أوهريد: ٢١٨
باؤلي غوجارات: ٩٥١	أويا: ٥١١-٥١٢، ٥٠٩
باب آهني. انظر: دروازه آهني	إيتاليكا: ١٠٧٤
باب إبراهيم: ١٠٣١	أيدين: ١٢٥٧
باب ابن إلياس: ٦٠٥	إيران: ٤٢، ٥٦، ٥٩، ٦٩، ٧٥، ٩٤، ١١٠
باب احساين: ٨٨٣	١١٣، ١٤٠، ١٦١، ١٦٥-١٦٧، ١٧٥
باب الأخضر: ٥٣٨	١٨٥، ٢٣٧-٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٢-٢٤٤
باب أدونة: ٦٤٣	٢٥٢، ٢٥٩-٢٦٠، ٢٦٢-٢٦٦، ٢٧١
باب إزم: ٧٣٤	٣٢٠، ٣٣٢-٣٣٣، ٤٥٠، ٤٨٧، ٤٩٣-
باب الأزج: ٣٢٨	٤٩٤، ٤٩٦، ٥٠٢، ٥٩٣، ٥٩٨، ٦٦٢
باب الأشدر. انظر: باب زناته	٦٨٣، ٧١٣، ٧١٦، ٧٢٣، ٧٣٧، ٧٤٧
باب إصطخر. انظر: باب أصفهان	٧٧٠، ٧٨٦، ٨٠٨، ٨٥٨، ٩٣٩، ٩٤٣
باب أصفهان: ٧٠٣، ٧٠٥-٧٠٦، ٧٠٨-	٩٤٦، ٩٥٢، ٩٧٥، ١٠٦٨، ١١٥٨
٧٠٩، ٧١٤-٧١٥، ٧١٧، ٧٢٣، ٧٣٢	١٢٣٥، ١٣٦٣-١٣٦٥، ١٣٧٣
باب أفراسياب: ٦٦٦، ٦٦٩، ٦٧٨	١٣٩١، ١٤١١
باب أفضل: ٧٨٦، ٨٠٢-٨٠٤، ٨٠٦، ٨١٣	أيسلندا: ٨٧٩
باب أكتاو: ٨٧٢	إيطاليا: ٧١-٧٢، ٧٤، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٣٥
باب أمار سينغ: ٧٧٢	٣٤٥، ٣٩٦، ٤٣٧، ٤٩٤، ٥١٩، ٥٨٣
باب الإنتجتي: ٣٨١	٥٨٨، ٦٨٦، ٨٨١، ١١٠٢، ١١٣٥
	١١٥٣، ١٢٩٩، ١٣٠١-١٣٠٢
	١٣٢١، ١٣٢٩
	إيفات: ٨٤٥، ٨٤٨

باب أنطاكية: ١١٩، ٤٥٢، ١٠٠٤	باب الحد: ٨٧١، ٨٨٦-٨٨٢
باب بازار نارشاخ دار: ٦٦٢	باب الحديد (حلب): ٤٥٦، ٤٦٣
باب باغ شاه. انظر: دروازه آهني	باب الحديد (سمرقند): ٦٩٧
باب البحر (تونس): ١١٩، ٣٧٢، ٣٨١	باب الحديد (شيراز). انظر: دروازه آهني
٣٩٣، ١٠٠٤، ١٠٤٤، ١٠٥٩	باب الحرية: ٥٣٤، ٥٣٦
باب البحر (طرابلس): ٥١٣، ٥٣٠-٥٣١، ٥٣٨	باب خاتون قيامه. انظر: باب نو (شيراز)
باب البحر (المغرب): ٨٦٧، ٨٨١	باب خييص: ٦٠١، ٦٠٤
باب البصرة: ٢٠٢-٢٠٣، ٣٢١	باب خراسان: ٢٠٢، ٣٢١
باب البنات: ١١٩، ٣٧٥	باب الخضر: ١٠٠٨
باب بني أسد: ٦٧١، ٦٨١	باب الخندق: ٥٣٠
باب بني سعد: ٦٦٤، ٦٧٤، ٦٧٨	باب الخوخة: ٣٤٥، ٣٤٩
باب بني شيبه: ١٠٣٢	باب دار بازار: ٦٧٢
باب بوحاجة: ٨٧٥	باب دَرَك موسى. انظر: دروازه آهني
باب بودا: ٨٥٠	باب دلهي: ٧٨٩، ٧٩٤-٧٩٥، ٨٠٠، ٨٠٤
باب البويية: ٨٨١	باب دولت: ٧١٣
باب بيزا: ٧٠٦	باب الديوان: ٣٧٩، ٣٨١
باب التين: ٨٨١	باب الذهب: ٢٠٢
باب تشادرغات: ٧٩٦	باب الرواح: ٨٧١-٨٧٢
باب تنغة الله أكبر: ٧٠٣، ٧٠٥، ٧١٨، ٧٢٠	باب رؤ: ٦٧٢، ٦٧٥
باب تونس: ٣٧٩، ٣٨١	باب ريغ آباد: ٦١٧
باب الجاية: ١٠٠٤	باب الزرادشتيين. انظر: باب غير
باب الجبلي: ٣٧٩	باب زَرَنْد: ٦٠١، ٦٠٤، ٦١٨
باب الجديد (تونس): ١١٩، ٣٧٢، ٣٧٥	باب زعير: ٨٧١، ٨٧٦
٣٧٩، ٣٨١، ٣٨٦، ٣٩٢، ١٠٠٤	باب زناتة: ٥١٣، ٥١٧، ٥٣٦
باب الجديد (الجزائر): ٥٧٤	باب زويلة: ٤٠٨، ٤١٦، ٤٢١، ١٠٠١
باب الجديد (الرباط): ٨٧٥	١٠٠٤، ١٠٠٧-١٠٠٨، ١٠١٠
باب الجديد (طرابلس): ٥٣٠، ٥٣٦	١٠٤٣، ١٠٥٦
باب الجزيرة: ١١٩، ٣٧٥، ١٠٤٦	باب سبتة: ٨٧٥
باب الجلادين: ٣٨١	باب سعادت: ٧٠٦، ٧١٥، ٧٢٣-٧٢٤
باب حاكم. انظر: باب بودا	باب سعدي: ٧٠٣، ٧٠٥-٧٠٦، ٧٠٨
	٧٢٣-٧٢٥

باب السلام. انظر: باب سنغا	باب الفرج: ٤٤٨، ٤٥٦
باب سلم. انظر: باب شاه داعي	باب الفرد: ٨٧٥
باب سمرقند: ٦٧٣	باب فرنسا: ١٣١٣
باب سنغا: ٨٥٠	باب فسّا: ٧٠٣، ٧٠٦، ٧٣٠
باب السويقة: ١١٩، ٣٧٢، ٣٧٥-٣٧٦	باب فلّانا: ٨٥٠
٣٩٢، ١٠٠٤، ١٠٠٨، ١٠٤٦	باب فهندر: ٧٢٣
باب سيدي بن عاشر: ٨٧٥	باب قارلق: ١٠١١
باب شالّة: ٨٧٦، ٨٨١-٨٨٢	باب القرافة: ٤٠٦، ٤٢٠
باب الشام: ٢٠٢، ٣٢١	باب قرطاجنة: ٣٧٥
باب شاه داعي: ٧٠٣، ٧٠٦	باب قصاب خانة. انظر: باب فسا
باب الشريعة: ٣٤٩	باب القصب: ٧٠٣
باب الشعرية: ١٠٠٧-١٠٠٨	باب القصبة: ٨٧٢
باب شعفة: ٨٧٥	باب قسرين: ٣٧٩، ٤٤٦
باب الشماسية: ٣٢٣-٣٢٤، ٣٣٥	باب كابول: ٢٩٢
باب سُوا: ٨٥٠-٨٥١	باب كارش: ٦٧٣
باب شوشتر. انظر: باب كازرون	باب كازرون: ٧٠٣، ٧٠٦
باب الصفا: ١٠٢٨	باب كراكول: ٦٧٢
باب الصورة: ١٠٧٧	باب كشتارغاه: ٧٠٣
باب الطاق: ٣٢٨	باب كلاباد: ٦٧١
باب طالب: ٦٧١	باب الكنيسة: ٣٤٥
باب الطلسم: ٣١٨	باب كوّار. انظر: باب فسا
باب العامة: ٣٢٤	باب الكوفة: ٢٠٢-٢٠٣، ٣٢١
باب عزّون: ١١٩، ٥٤٦-٥٤٧، ١٠٠٨-	باب لاهور: ٢٩٢
١٠١٠، ١٣٠٨-١٣٠٩، ١٣١٣	باب اللوق: ١٠٠٨-١٠١٠، ١٠٤٣
١٣١٨-١٣١٩	باب ماهان: ٦٠١، ٦٠٥
باب العلو: ٨٧١	باب مبارك: ٦٠١-٦٠٢، ٦٠٥
باب غيّر: ٦٠٩، ٦١٧	باب المحروق. انظر: باب الشريعة
باب غُدُرغاه. انظر: باب سعادت	باب المدينة: ١٠٧٧
باب غوسفند. انظر: باب فسا	باب المراتب: ٣٢٨
باب الفتوح (القاهرة): ١٠٠٤	باب مراکش: ١٣٣٤
باب الفتوح (هرر). انظر: باب فلّانا	باب مردستان. انظر: دروازه آهني

بادستان: ١١٧، ٢٢١، ٣١٠، ٦٢٦، ٦٤٧،
 ٩٩٥، ١٢٣١
 بادشاه قلعة. انظر: قلعة أغرا
 بادوريا: ٣٣٠
 باديس: ٣٤٥
 بارثيا: ٣٦٩
 باردو: ١١٩
 باري (إيطاليا): ٧٤
 باري (الهند): ٧٤٢
 بارس: ٥٦٤، ٧٣٦، ٧٥٠، ١١٢٢، ١٢٥٨،
 ١٢٧٨، ١٢٩١-١٢٩٢، ١٣١٧-
 ١٣١٨، ١٣٢١، ١٣٢٣، ١٣٢٩،
 ١٣٤١، ١٣٥٢، ١٣٦٦، ١٤٦٠
 بازار الأحصنة: ٦٧٩
 البازار الأخضر: ٦٨١
 بازار أورات: ١١٨٤
 بازار الباب العالي: ٦٤٤
 بازار تشهار سو (سمرقند): ٦٦٩
 بازار داشت: ٢٥١
 بازار شهرستان: ٦٨٢
 بازار عبد الله خان. انظر: تيمتشي عبد الله
 خان
 بازار غول: ٦٦٤
 البازار الكبير (كرمان): ٥٩٦، ٥٩٨، ٦٠٠،
 ٦٠٢، ٦٢٢
 بازار مجلسي: ٢٥١
 بازار محمود: ٦١٧
 بازار مُرغ: ٧٠٩
 البازار المزدوج: ٦٣٥
 بازار مسقرها: ٧٠٩
 البازار المسقوف. انظر: كابالي تشارسي

باب المرسى: ١٣٣٦
 باب المرفأ الصغير: ٨٧٦
 باب المريسة: ٨٦٧، ٨٧٥-٨٧٦
 باب المنارة: ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٨٦
 باب منذر: ٧٠٦، ٧١٣
 باب المنشية: ٥١٣، ٥٢٥، ٥٣٠، ٥٣٦،
 ٥٤٠
 باب المونسكية: ٥٣٤
 باب النصر (حلب): ٤٤٨، ٤٥٢، ٤٥٦-
 ٤٥٧
 باب النصر (القاهرة): ١٠٠٩، ١٣٩٦
 باب النصر (هرر). انظر: باب شوا
 باب نمازگاه: ٦٨٢
 باب نُو (بخاري): ٦٧١، ٦٨١
 باب نُو (شيراز): ٧٠٦
 باب النيرب: ٤٥٩، ٤٦١، ١٠١١
 باب هرر (شرق): ٨٥٠
 باب هرر باري (غرب): ٨٥٠
 باب هواره: ٥١٣
 باب الواد: ١١٩، ١٣٠٩
 الباب الوسطاني: ٣١٨
 بابل: ١٣٨، ١٤٢٩
 باتاك: ٢٢٦
 باتاليوترا: ٢٧٥
 باتنا: ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٨٢-٢٨٣، ٢٨٧
 باتانكوت: ٢٨٥
 باحريش: ٢٨٤
 باختريا: ٦٦٨
 باداخوز: ١٨٣، ٨٧٩
 بادانيا: ١١٥٣

- بازار مظفري: ۶۱۸، ۵۹۶
 بازار نارشاخ دار: ۶۶۲
 بازار الوكيل: ۵۹۶
 بازستان آراستا: ۲۲۳
 بازستان بورصة: ۲۳۳
 باستاني باريزي: ۶۱۶
 باغ امام قلي خان: ۷۲۲-۷۲۱
 باغ بادشاه: ۷۵۵
 باغ البلب: ۷۲۰
 باغ تخت قاجار. انظر: باغ تخت قراتشه (شيراز)
 باغ تخت قراتشه (سمرقند): ۷۳۰
 باغ تخت قراتشه (شيراز): ۷۱۵، ۷۱۲
 ۷۳۰-۷۲۸، ۷۱۹، ۷۱۷
 باغ جهان آرا: ۷۶۰-۷۵۹، ۷۵۵، ۷۴۶
 باغ جهان نما: ۷۲۰
 باغ حكيم كاظم علي: ۷۵۵
 باغ خان علم: ۷۷۱-۷۷۰، ۷۵۵
 باغ دلغشا (شيراز): ۷۲۷-۷۲۴، ۷۱۷
 باغ دلغشا (هرات): ۷۲۷
 باغ راي شيف داس: ۷۵۵
 باغ الزهراء. انظر: باغ جهان آرا
 باغستان: ۷۳۷-۷۳۶، ۷۲۳، ۷۱۵
 باغ سلطان برونيز: ۷۶۴، ۷۵۵
 باغ شاه: ۷۳۷، ۷۳۳-۷۲۹
 باغ شاه نواز خان: ۷۵۵
 باغ فردوس. انظر: باغ تخت قراتشه
 باغ محمد زكريا. انظر: باغ وزير خان
 باغ ملي: ۷۱۴
 باغ مهتاب بادشاه. انظر: مهتاب باغ
 باغ موسوي خان صدر: ۷۶۶، ۷۵۵
 باغ ميدان: ۷۲۳
 باغ نظر: ۷۱۱-۷۱۰
 باغ نور آفشان: ۷۵۵، ۷۵۷-۷۵۸، ۷۷۷-۷۷۸
 باغ نو: ۷۲۰، ۷۳۰
 باغ هزار جريب: ۷۳۷
 باغ هشت بهشت. انظر: تشهار باغ (اغرا)
 باغ وحش: ۷۳۵
 باغ وزير ايماني بك: ۷۱۲
 باغ وزير خان: ۷۴۶، ۷۵۵، ۷۶۲-۷۶۳
 باكستان: ۴۳، ۲۶۹-۲۷۰، ۲۷۲-۲۷۳، ۲۸۳، ۲۸۵، ۱۳۶۳، ۱۳۶۵، ۱۳۶۸-۱۳۶۹، ۱۳۷۷-۱۳۷۵، ۱۳۸۷-۱۳۸۸، ۱۳۹۲، ۱۳۹۶
 باك: ۲۲۱
 بالم هيلز: ۱۴۵۱
 باليرمو: ۵۴۸
 بانجكنت: ۹۶
 باندوا: ۲۸۵-۲۸۶
 بانغلا جهان آرا: ۷۷۳
 بانغلا درشان: ۷۷۳
 باياس: ۳۱۳
 بتالا: ۲۸۲
 البتراء: ۱۶۹
 بجاية: ۵۱۴، ۵۵۲، ۵۷۳
 البحر الابيض المتوسط: ۵۱، ۵۵، ۸۸، ۱۱۰، ۱۶۹، ۲۰۹، ۳۲۱، ۳۴۵، ۳۶۶-۳۶۷، ۳۷۰-۳۷۱، ۳۹۶، ۴۰۴، ۴۱۰، ۴۳۲، ۴۴۵، ۴۴۸، ۴۸۰، ۵۱۰، ۵۱۴، ۵۲۷-۵۲۸، ۵۴۳، ۵۵۰، ۶۶۰، ۸۸۰، ۸۸۸، ۹۳۵، ۹۳۷-۹۳۸، ۹۴۳، ۹۶۰، ۹۸۵، ۹۹۳، ۱۰۶۸، ۱۱۳۵، ۱۱۵۳

بُخاري: ٩٦-٩٧، ١٦٦، ١٧٦، ٢٤٠، ٢٤٣،
٢٥٩، ٢٦٤، ٣٣٢، ٦٦١-٦٦٣، ٦٦٥-
٦٦٧، ٦٦٩، ٦٧١-٦٧٢، ٦٧٤-٦٨٣،
٦٨٥-٦٨٦، ٦٨٨-٦٩١، ٦٩٣-٦٩٤،
٦٩٧، ٦٩٩، ٩٥٢

بختريا. انظر: بلخ

برائن: ٩٦٤

براغا (غاليسيا): ١٨١

براهما بوترا: ٢٨٤

بريانك: ١٣٢٨

بريرة: ٨٤٧-٨٤٨

برير زاناة: ١٣٣٣

البرتغال: ٣٠٥، ٨٨١، ٩٤٣

بُرْجا بتروناس: ١٣٨١-١٣٨٢

البرج الأحمر: ٥٢٧

برج باتيس كامبا: ٧٥٤

برج باغ جهان آرا: ٧٦١

برج التراب. انظر: برج الفنار

البرج الجديد: ٥٢٧

برج حسان: ٨٨٩

برج خور دبي: ١٤١٧

برج الدم: ٧٧٤

برج الديرة: ١٤١٣

برج الذهب: ٣٥١

برج الساعة (بيروت): ١٤٧١

برج الساعة (الدار البيضاء): ١٣٣٦، ١٣٤١

برج الساعة (طرابلس): ٥٣١

برج سيدي مخلوف: ٨٨١

برج فاسيليوس: ١١٩٣

برج الفرارة: ٥٢٧

برج الفنار: ٥١٧، ٥٢٢، ٥٢٧

١١٥٥، ١١٦٣، ١٢٥١، ١٢٥٥-

١٢٥٦، ١٢٦٨، ١٢٩٠، ١٢٩٤-

١٢٩٦، ١٢٩٩، ١٣٠١-١٣٠٣،

١٣١١، ١٣٣٣، ١٣٤٩، ١٤٦٨. انظر

أيضاً: بحر نوستروم

البحر الأحمر: ١٣١، ٢٠٦، ٤٠٤، ٨٤٥،

٨٤٧، ١٣٠١

البحر الأسود: ٢١٨، ٤٤٥، ٦٣٤

بحر إيجة: ٢٣٠

بحر قزوين: ١٧٧، ٢٠٨

بحر مرمرية: ٦٤٦

البحر الميت: ١٠٩٣

بحر نوستروم: ٥١٢، ١٣٠١. انظر

أيضاً: البحر الأبيض المتوسط

البحرين: ٣٢١، ١٣٨١، ١٣٨٣

بهمدون: ١٤٧٧

بحيرة أميد ساغر: ٩٧٨

بحيرة بيتشولا: ٩٤١، ٩٧٨، ٩٨١

بحيرة تونس: ٣٧٢، ٣٩٢

بحيرة حسين صقر: ٧٨٩، ٧٩٧

بحيرة ساغر سماور: ٩٧٨

بحيرة العنبر: ٩٤١، ٩٧٨

بحيرة عيون الشمس. انظر: تشاشمة أفتاب

بحيرة غاوخوني: ٩٦٤

بحيرة فاتح ساغر: ٩٧٨

بحيرة قُربانغاه. انظر: درياتشه قربانغاه

بحيرة قوانغ دونغ: ٩٧٧

بحيرة كَنكاريا: ٩٧٨

بحيرة الملح. انظر: درياتشه نمك

بحيرة مهارلو: ٧١٧، ٧٣٥

بحيرة نمك. انظر: درياتشه نمك

بشامون: ١٤٧٧
 بشكطاش: ٦٥٥، ٦٤٩، ٦٤٢
 البصرة: ٩٥، ١٦٥، ١٧٤-١٧٥، ١٨٨-
 ١٩٠، ١٩٢-١٩٤، ٢٠١، ٢١١، ٣٢١،
 ٣٢٤، ٣٣٣، ٣٩١، ٤٦٣، ١٢٥٩
 بُصرى: ١٦٩
 بعبداء: ١٤٧٧
 بعلبك: ١٤٨٩
 بعلشميه: ١٤٧٧
 بغداد: ٤٥، ٩٤-٩٥، ١٢٠، ١٣٥، ١٤١،
 ١٦٥، ١٧٣-١٧٥، ١٨٦، ١٨٨-١٨٩،
 ١٩٩، ٢٠٢-٢٠٤، ٢٠٦، ٢١٠-٢١١،
 ٢٦٠، ٢٧٠، ٣١١، ٣١٧-٣٤١، ٣٧٤،
 ٣٩٩، ٤٦٣، ٤٨٠، ٥٦٢، ٦٣٣، ٦٧١،
 ٧١٣، ٩٣٤، ٩٥٤-٩٥٦، ٩٥٨-٩٥٩،
 ٩٩٥، ٩٩٧، ١٠٠٠، ١٠٠٢، ١٠٤٩-
 ١٠٥١، ١١٥٥، ١٢٠٢، ١٢٣٣،
 ١٢٥٩، ١٣٦٦، ١٣٩٢، ١٣٩٨، ١٤٦٥
 بكركي: ٤٧٩
 بكفيا: ١١٦٠
 بلاتو: ١٣٤٦
 بلاد الرافدين: ٩٥٨، ٩٥٤، ٩٤٩
 بلاد الروم: ٤٨٦
 بلاد الشام: ١٦٧، ١٧٠، ١٧٣، ٣٢١،
 ١١٦٨، ١٢٠١
 بلاد فارس: ١٦٥، ١٧٥-١٧٦، ١٩٢،
 ٢٣٩، ٢٦٠، ٢٦٢، ٣٠٩، ٣٢١، ٣٣٢،
 ٣٦٩، ٤٤٥، ٦٤١، ٧٠٢-٧٠٣، ٧٠٩،
 ٧١٣، ٧٢٨، ٧٣١، ٩٣٩، ٩٤٩-٩٥٠،
 ٩٦٥، ٩٧٢-٩٧٣، ٩٨٢، ٩٨٥
 بلاد ما بين النهرين: ٦٣، ٦٦، ١٣٧، ١٤٢،
 ١٦٢، ١٧٣، ١٩٢، ٢٠٠، ٢١٨-٢١٩،

برج فيزغراد: ٢٣٤
 برج الكرمة: ٥١٧
 برج ليندر: ٦٤١
 برج الماء. انظر: خزان باني محل
 برج المزجرة: ٥٢٧
 برج مَمَسَنِي: ٧٣٢
 برج المندريك: ٥١٦، ٥٢٧
 بُرجي: ٣١٣
 بردسير. انظر: كرمان (إيران)
 برشلونة: ١٣٣٨
 بركة الأزيكية: ١٣٤، ٤١٤
 البركة الأغالية الكبيرة: ٩٤٢
 بركة الحبش: ٤٠٦، ٤٢٠
 بركة الدم: ١٠٠٩
 البركة الشُعبيية: ٤٠٣
 بركة غوكوس خان: ٦٨١
 بركة الفيل: ١٣٤، ٤٠٥، ٤١٧، ٤٢١
 البركة الناصرية: ٤٠٥
 برلين: ١٤٧٧
 برهانبور: ٢٨٣، ٧٦٤
 بروفينس: ١١٥٣
 بريزرن: ٢٢٢
 بريشتينا: ٢٢٢
 بريصا: ١١٦٠
 بريطانيا العظمى: ١٠٤، ٤٨٧، ٧٨٨، ٧٩١،
 ٨٠٤، ٨٢٨، ١١٢١
 برين: ٣٦٩
 بستان أمينة: ٣٥٢
 بستان الخشّاب: ٤٢٠
 بستان كافور: ٢٠٨
 بسكرة: ٥٦٤

بني يزقن: ٩٦٠	٢٣٩، ٢٧٥، ٣٢٠-٣٢١، ٣٣٣، ٣٣٥
بهادر باي: ٦٨٢	٣٣٨، ٣٦٨-٣٦٩، ٧١٦، ٩٣٨، ٩٩٣
بوابة... انظر: باب	٦٨٢، ٦٧١، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨
بويال: ٢٧٢، ٢٨١	١٦٦، ١٧٦، ٢٦٦، ٣٣٢، ١٢٣٤
بوتان: ٢٦٩	٧١٨، ٧١٢، ٧١٩
بوخارست: ٢١٨، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٢٨	٢١٧-٢١٨، ٢٢٦، ٣١٣
بور: ٥٠٥	١٤٦٥، ١٤٦٦
بورصة: ١٠٠، ٢١٦، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٣-٢٢٤	٢١٧-٢١٨، ٣٠٢، ٣٠٨-٣٠٩
٢٢٤، ٢٣٤، ٣٠٣، ٣٠٨، ٣١٣، ٤٨٣-	٣٠٩، ٣١٣-٣١٤، ٤٨٣، ٥٢٥
٥٠٧، ١٢٠٠، ١٢٠٧، ١٢١٩-١٢٢١،	١٢٥٩، ١٢٠٠
١٢٦٤، ١٢٧٢، ١٢٨١	٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٧-٢٣٠، ٢٣٤
بورما: ٨٠١	٣١٣
بورنازيل: ١٣٤٦، ١٣٤٩	١١٥٥، ٥٥، ١١٥٦
بوسكورة: ١٣٥٨	٨٨٥، ٨٨٣، ٨٨٤
البوسنة: ٢١٧-٢١٨، ٢٢٠-٢٢١	٩٣، ٢٥٩-٢٦٤، ٥٩٨
بوسنة - سراي. انظر: سرايفو	١١٤٤، ١١٤٥
بولارم: ٧٩٧، ٨٠٤	البنتابوليس: ٩٦٠
بولاند باغ: ٧٥٤-٧٥٥، ٧٥٧	البنجاب: ٢٨٢
بولفار دو سياتول: ١٣٢٣	البندقية: ٣٤٤، ٣٧٤، ٤٤٥، ٤٩٥، ٥١٩
بولفار زيروت يوسف: ١٣٢٢	٦٣٢، ٦٣٤-٦٣٥، ١١٥٦-١١٥٧
بولفار كريم خان زند: ٧٣٢	١١٦١، ١١٦٨، ١١٨٠
بولونيا: ٥٠٠، ٦٧٣، ١٣٢٠	بترت: ٣٩٣
بوليو: ١٣٤٦، ١٣٤٩	بنسلفانيا: ١٣٦٨
بومباي: ٢٧٣، ١١٤٧، ١١٦٣، ١٤٤٣	بن سيك: ١٣٥٢
بومياني: ٨٢٨	بنغازي: ١٢٩٨
بونتوس: ٢٣٨	البنغال: ٢٧١-٢٧٢، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٤-
بيت المقدس: ٤٣١، ١٠١٧	٢٨٦، ٥٠٣، ٩٤٠
بيت الحكمة: ٢١١	بنغلادش: ٢٦٩، ٢٧٣-٢٧٤، ٢٨١، ٢٨٤
بيت الدين: ١٤٧٧	١٣٦٩، ١٣٩٦
بيت سيرجيون: ١١٦٣	بن مسيك: ١٣٥٥
بيت شان. انظر: بيسان	بنورة: ٩٦٠

بييت لحم: ٩٢	بيفرلي هيلز: ١٤٥١
بييت مالك: ٢١٨	بيك: ٢٢٨
بييت المعراوي: ٤٦٥	بيلان غنچ: ٧٧٤
بييت النبي محمد: ١٠٣٨، ١٠١٨	بيلوبونيز: ٢٢٠
البييت الهندي: ٨٦٢	بيمارستان: ١٢٢٧، ١٢٣٠-١٢٣١
بييتنيا: ٢١٩	بيمارستان أرغون الكاملي: ٣٧٩
بيجابور: ٢٧١-٢٧٢، ٢٧٩، ٢٨٦، ٢٩٣	بينارسي: ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٣-٢٩٤
٩٨٤، ٩٨٢	بينون: ٥٧٨
بيدار: ٢٧١، ٢٧٧، ٢٨٦، ٢٩٣، ٢٩٧	بيهار: ٢٧٥
٩٨٢	
بيرات: ٢٢١، ٢١٨	- ت -
بيرار: ٢٧١	
بيرا: ٦٤٢، ٦٥٥، ١٢٦٢	تاج تانري: ٧٦٧
بيربناب: ٧٣٥، ٧٠٨	تاجوراء: ٥١٦، ٨٤٨
بير بندياس: ٧١٥	التادرت: ١١٥٥
بير العزب: ٨٤٣	تارا نواس. انظر: مبارك منزل
بيركلي: ٧٧، ١٣٦٧	التالار: ٧١١، ٧٢٠-٧٢١، ٧٢٦، ٧٢٩
بيرمت كوتي. انظر: مبارك منزل	تاميل نادو: ٢٨١، ٢٨٤
بيرمه دليك: ٧١٥	تبريز: ٢٥٤، ٧٠١
بيرن: ١١٣٨	تخت بادشاه كيشل: ٧٣٠
بيروت: ١٦٩، ٤٤٤، ٤٧٨، ٤٨٠، ١١٢٠	قلمر: ١٠٥، ١١٢، ١٧٠، ١٧٢، ٩٧٠
١١٣١، ١٢٤٨، ١٢٥٦-١٢٥٨	١٠٦٩
١٢٦١، ١٢٦٩، ١٢٧٧، ١٢٨٦	تراباني: ٥٨٠
١٣٤٥، ١٣٦٥، ١٣٧٥، ١٤٦٥-١٥٠١	التراس: ٢٣٤-٢٣٥، ٥٣٩، ٦٩٨، ٨٧٦
البيرينيه: ١٤٠	١١٤٨، ١١٦٦
بيزنطة: ٩٦٩	تراسيا: ٢٢٠
بيسان: ٤٢، ١١٢، ١٦٧-١٦٨، ١٧١-١٧٢	ترانسوكسيانا. انظر: بلاد ما وراء النهر
بيسكارا: ٥٣٦	تركستان: ٥٧، ١١٠، ١١٣، ٢٣٩، ٢٤١
بيشاپور: ١٧٦، ١٨٠، ٢٤١-٢٤٢، ٢٥٩-	تركمانيستان: ١٦٦
٧٠٣، ٢٦٢، ٢٦٠	تركيا: ٤٢-٤٣، ٢١٧-٢١٩، ٢٢٤، ٢٣٠
بيغال: ٢٧٢	٢٣٤، ٥٥٠، ٩٣٧، ٩٥٦، ١٠٠١

تشهار باغ المغول: ٧٤١-٧٤٣، ٧٤٥،
٧٧٠-٧٦٩، ٧٦٧، ٧٦٥، ٧٥٢
تشهار سو: ١٧٧، ٢٥٧، ٢٥٩، ٦٢٠،
٦٦٩-٦٧٠، ٦٧٣، ٦٨١، ٧٠٨، ٨٠٨
تشهار سو بخاري: ٦٧٥
تشهار سو شاهريسابز: ٦٧٥
تشهار فصل: ٢٦١
تشهل تنان: ٧٢١
تشهل مقام: ٧١٥-٧١٧، ٧٢٤
تشهل مينار: ٧٢٨
التشيكما: ٢٢٣
تطوان: ١٣٢٧
التغارينوز: ٥٤٧
تقاطع الأربع عرصات: ٥٠٩، ٥١٣-٥١٤،
٥١٨، ٥٢٠، ٥٢٨، ٥٣٤، ٥٣٦-٥٣٧
تكايا الدراويش: ٦٤٥، ٦٥٣، ٦٥٩
تكريت: ٩٥٦
تكية الأربعين شخصاً. انظر: تشهل تنان
تكية الأشخاص السبعة. انظر: هفت تنان
تكيرداغ. انظر: رودوس تشوك
تلال السُرسولي: ٩٦٦
تلال السَّواليك: ٩٦٦
تلال كالي خوه: ٩٧٨
تلة الحصن (كرمان). انظر: قلعة دختر
تلة السودا: ٤٧٥
تل حصير بافان: ٧١٠
تل الشاطر علي: ٧٠٩-٧١٠
تلمسان: ٣٤٥، ٣٥٥-٣٥٧، ٣٦٠، ٣٦٢،
٥٨٧، ٥٥٢
تمثال الحرية: ١٤١٩
التعيم: ١٠٢٨

١١٥٦، ١١٦١، ١١٦٨، ١٣٦٤-
١٣٦٥، ١٣٦٨، ١٣٧٣، ١٣٩٤
تريبوليس: ٥١٢
تريكالالا: ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣١
التركانيوم: ١١٥٧
تشادرغات: ٧٨٩-٧٩١، ٧٩٣، ٧٩٥-
٧٩٦، ٨٠٠، ٨٠٢، ٨١٠-٨١١، ٨١٣،
٨١٥
التشارسي: ٢٢١-٢٢٢، ٣١٠، ٦٢٦، ٦٤٤،
٦٤٩
تشار كمان: ٨٠٦-٨٠٥، ٨٠٢، ٧٨٦
تشار مينار: ٨٠٦-٨٠٧، ٨٠٢
تشاشمة أيوب: ٦٨٢
تشاشمة أفتاب: ٩٧٩
تشاندرلي: ٢٨٣، ٢٩٣
تشانكايا: ١٣٩٥
تشرباغ بادشاه. انظر: تشهار باغ (أغرا)
تشرباغ بادشاه الثانية: ٧٥٥
تشرباغ المغول. انظر: تشهار باغ المغول
تشرشما: ٦٤٥
تشفته تشارسي. انظر: البازار المزدوج
شاهار: ٢٧٥
تشهار باغ (أصفهان): ٢٥٤، ٧١٨، ٧٣٥-
٧٣٧، ٩٦٤
تشهار باغ (أغرا): ٧٢٣-٧٢٤، ٧٤١، ٧٤٦،
٧٥٥، ٧٦٦
تشهار باغ بادشاه. انظر: تشهار باغ (أغرا)
تشهار باغ (دلهي): ٧٤٢
تشهار باغ (شيراز): ٧٠٩-٧١٠، ٧١٢،
٧١٥، ٧٢٣-٧٢٤

تيرانا: ٢١٨	تنغة الله أكبر: ٧٠٣، ٧٠٧، ٧١٥-٧٢١،
تيمتشيه عبد الله خان: ٦٦٤، ٦٨٢، ٦٩٤،	٧٢٧، ٧٣٠-٧٣١، ٧٣٥-٧٣٦
٦٩٩	توات: ٩٤٥، ٩٧٧
تيمتشيه لطيف ميراقي: ٦٧٢	توب خانة: ٦٤٢
تيمقاد: ١٠٥	توبراك قلعة: ٢٦٣
تيودوسيوس: ٢٢٥	توبكايي: ٦٣٣، ٦٥٥
	توينغن: ٧٤
- ث -	تورونتو: ٥٩٤
الثغور: ٣٢١	تورينولوس. انظر: الرصافة (قرطبة)
ثيساليا: ٢١٨	تورينو: ١٣٢١
	توكات: ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٣، ٣١٣، ٤٩٣
- ج -	تونس (المدينة): ٤٤، ٦٨، ٧٣، ٧٦، ٨١،
الجاية: ١٨٨، ١٩٠	٨٣، ٨٧، ١١٧، ١١٩-١٢٠، ١٢٨-
الجادة الملكية: ١٣٥٨	١٣٢، ١٣٤، ١٣٩، ١٤٥-١٤٦، ١٥٣،
جادة المحطة. انظر: جادة محمد خميسي	١٥٧، ٢٠١، ٣٠٩، ٣١١، ٣٥٧، ٣٦٥،
جادة الامبراطورة. انظر: جادة الجمهورية	٣٦٧-٣٦٩، ٣٧١-٣٨٢، ٣٨٤-٣٨٨،
جادة أندينا مانغت: ٨٥١	٣٩٢-٣٩٤، ٣٩٦، ٥١٤، ٥١٧-٥١٨،
جادة أنفا: ١٣٣٠-١٣٣١	٥٦٢، ٥٨١، ٥٨٧، ٨٨٠، ٩١٠، ٩٣٧،
جادة بورقية: ٣٩٢	٩٤٥، ٩٧٧، ٩٨٩-٩٩٠، ٩٩٣-٩٩٧،
جادة تشي غيفارا. انظر: جادة الجمهورية	٩٩٩-١٠٠٢، ١٠٠٤، ١٠٠٨، ١٠١٠،
جادة الجمهورية: ١٣٠٩، ١٣١١، ١٣١٣،	١٠٤٣-١٠٤٤، ١٠٤٦-١٠٤٩،
١٣٢٠، ١٣٤٨، ١٣٥٥	١٠٥١، ١٠٥٤، ١٠٥٦-١٠٥٩،
جادة خيابان: ٦٧٣، ٦٨٣	١١١٢-١١١٣، ١١٤١، ١٢٦٢،
جادة دو فردان: ١٣١١	١٢٧٤، ١٢٨٠، ١٢٨٣، ١٢٩٠، ١٣٣٨،
جادة ديوان يولو: ٦٢٤-٦٢٥، ٦٢٨، ٦٣٠-	تونس (البلد): ٦٩، ٨١، ١٤٠، ١٥٢، ١٦٥،
٦٣١، ٦٣٣، ٦٣٥، ٦٣٨، ٦٤٢-٦٤٤،	٩٣٥، ٩٧٦، ٩٨٠، ١٠٤٤، ١٠٦٨،
٦٤٦، ٦٥٣، ٦٥٨-٦٥٨	١٠٧٢، ١١١٣، ١١٢٧، ١٢٥٠،
جادة راست. انظر: تنغة الله أكبر	١٢٥٨، ١٢٩٠، ١٣٢٩
جادة الزرقطوني: ١٣٤٩	تونك: ٢٧٢
جادة الزواوين الرابعة: ١٣٤٠	تيازة: ١١٥٥
	تيتوفو: ٢٢٣
	تيديكلت: ٩٧٧، ٩٤٥

جامع أفضل غنيج: ٧٨٦-٧٨٧، ٨٠١-
 ٨٠٢، ٨١٥-٨٢٠
 جامع آقبغا الأطروش: ٤٤٦
 الجامع الأقمر: ٢٠٨، ٥٣٩
 جامع الطنبغا: ٤٤٦
 الجامع الأموي: ١٧١، ١٠٢٥، ١٢٤٢،
 ١٢٤٤
 جامع الأمير الماس: ٤٠٥
 جامع الأمير بشتاك: ٤٠٥
 جامع الأمير قوصون: ٤٠٥
 جامع إمينونو: ٦٣٥، ٦٤٢
 جامع أورالسك: ١٢٣٥
 جامع براتا: ٣٢٨
 جامع البهرمية: ١٢٣٧
 جامع تيم فروشان: ٦٧٢
 الجامع الجديد (الجزائر): ٣٠٩
 جامع الجيرالدا: ٨٧٤
 جامع جينيلي: ٦٣٣
 جامع الجيوشي: ٢٠٨
 جامع الحاكم: ٢٠٨
 جامع الحرية: ٣٢٨
 جامع حي أم جعفر: ٣٢٧
 جامع الخروية: ٥٢٢، ٥٣٩
 جامع دار الخلافة. انظر: جامع القصر
 جامع الدبّاغة العتيقة: ١٠١٠
 جامع الدروج: ٥٠٩، ٥٣٩
 جامع الرصافة: ٣٢٨
 جامع زرقا: ٨٨٣
 جامع زنده - قل أحمد: ٦٨٢
 جامع الزيتون: ١١٧، ٣٩٣
 جامع سامراء: ١٩٩، ٨٧٣

جادة طالب عبد الرحمن: ١٣٢١
 جادة غاميتا: ١٣١١، ١٣١٨
 جادة غويمان. انظر: جادة طالب عبد الرحمن
 جادة فرنسا: ٣٩٢
 جادة القصبة: ١١٩-١٢١، ١٢٨، ٩٨٩،
 ٩٩٩، ١٠٠١-١٠٠٢، ١٠٠٤، ١٠٠٦
 جادة القوات المسلحة الملكية: ١٣٥٥،
 ١٣٥٨
 جادة كلود بيرو: ١٣٤٠
 جادة كوتشه باغ: ٧٣٢
 جادة لافارير. انظر: جادة محمد خميسي
 جادة محمد خميسي: ١٣٢١، ١٣٢٣-
 ١٣٢٤، ١٣٤١
 جادة محمد السادس. انظر: طريق مديونة
 جادة مولاي يوسف: ١٣٤٠
 جادة وريدا مداد. انظر: جادة غاميتا
 جارتشي باشي: ٢٥٥
 جاكوتا: ١٣٦٤، ١٣٧١، ١٣٧٤-١٣٧٩،
 ١٣٨٦-١٣٨٧، ١٣٩٣-١٣٩٤،
 ١٤٤٣
 جاكوفيا: ٢٢١
 جامع ابن طولون: ٤٠٣، ٤٠٥-٤٠٦،
 ١٠٠٨
 جامع أبي مدين: ٣٦٢
 جامع أحمد باشا القرماني: ٥٢٢، ٥٣٤،
 ٥٣٦، ٥٣٩-٥٤٠
 الجامع الأزهر: ١١٧، ١٢٨، ٢٠٨، ٤١٣،
 ٤١٥، ٩٩٥، ١٢٤٤
 جامع الأشياخ: ٢٠٨
 جامع أصفهان: ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥١، ٦١١
 الجامع الأعظم: ٨٦٦، ٨٧٤-٨٧٦

- جامع السلطان أحمد: ٦٢٣، ٦٤٤، ١١٩١
جامع السلطان حسن قايتباي: ٤٠٢، ٤٠٨-٤٠٩
٤١٨، ٤٢٠
جامع سيدي درغوث: ٥٠٩، ٥١٧-٥١٨، ٥٢٢، ٥٣٤، ٥٣٩
جامع سيدي سالم: ٥٢٢، ٥٣٥
جامع سيدي عبد الوهاب: ٥٣٥
جامع سيدي محرز: ٣٠٩، ٣٩٣
جامع الشاه (أصفهان): ٢٥٣-٢٥٤
جامع شاه مير حمزة: ٧١٨، ٧٢٣
جامع شايب العين: ٥٢٢-٥٢٣
جامع الشرفاء: ٢٠٨
جامع الصالح: ٢٠٨
جامع الصقلاني: ٥٣٧
جامع صنعاء: ٨٢٣-٨٢٤
جامع طوران: ٦١٧
جامع العادلية: ٤٥١-٤٥٢، ٤٥٤، ١٢٣٧
الجامع العتيق: ١٧٧، ٨٦٦، ٨٦٩
جامع عشق تيمور: ٤٤٦
جامع عمرو بن العاص: ١٩٨، ٤٠٤، ٤١٣، ٤١٥
جامع الغوري: ٤١٥، ٥٢٢
جامع القرويين (فاس): ١١٧، ٢٠٨، ٣٤٥، ٣٥٠-٣٥١، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٧٦-٣٧٧، ٩٩٥
جامع القصر: ٣٢٨، ٣٣٧
الجامع الكبير (تونس): ٣٧٥، ٣٧٨، ٣٨٦، ٣٩٠
الجامع الكبير (فاس): ٣٧٧
الجامع الكبير (القيروان): ٢٠٠، ٣٨٠
جامع الكُتبية: ٨٧٤
جامع محمد الأمين: ١٥٠٠-١٥٠١
جامع محمد باشا: ٥٣٤، ٥٣٩
جامع محمود خزنندار: ٥٢٢
جامع مصطفى باي قُرجي: ٥٢٧، ٥٣٥، ٥٣٩
جامع مظفري: ٥٩٦، ٥٩٨، ٦١٨-٦٢٠، ٦٢٢
جامع مفاك عطار: ٦٧٢، ٦٧٤، ٦٩٥
جامع المنصور: ٣٢٧، ٣٣٧
جامع الموادة: ١٠٣٨
جامع الناصر محمد: ٤٠٧-٤٠٨
جامع الناقة: ٥١٧-٥١٨، ٥٣٤، ٥٣٦، ٥٣٨، ٥٤٠
جامع الوالدة، انظر: مسجد بني جامع
جامع ولد الحمراء: ١٣٣٦
جامع يلينا الناصري: ٤٤٦
جامع اليهود: ٥٧١
جامع يوسف داي: ١٠٠١، ١٠٥٦
جامع... انظر أيضاً: مسجد
الجامعة الإسلامية الوطنية (أوكل): ٢٨٦
جامعة أكس أون بروفنس: ٤١
جامعة أليغار الإسلامية: ٢٧٤، ٢٨٧
جامعة بامبرغ: ٤٢
جامعة برلين التقنية: ٧٤
جامعة بنسلفانيا: ٣٦، ٧٦
جامعة تور: ٤١، ٧٢
جامعة روما: ٧٢
جامعة الزيتونة: ٣٧٨، ٣٨٥
جامعة الشرق الأوسط التقنية: ٤٣
جامعة طهران: ٥٩٤
جامعة فردريش - ألكسندر: ٧٤

- جامعة قطر: ١٣٩١
جامعة كاليفورنيا: ٧٧
الجامعة اللبنانية: ٩١
جامعة ميتشغان: ٥٩٤
جامعة هارفرد: ١٣٩٨، ٦١٨، ٩٧، ٨٩
جانينا: ٢٢٩، ٢٢١
جاوا: ١٣٩٣-١٣٩٢، ١٣٧٧
جايبور: ٧٥١-٧٥٢، ٧٥٤، ٧٥٧، ٧٦٣
٧٧٥-٧٧٨، ٩٤٢
جبال الأطلس: ٩٦٣، ٩٦٧، ٩٧٦
جبال الأطلس الكبير: ٣٦٢، ٣٥٧
جبال الألب: ٢٣٨
جبال ألبرز: ٢٣٨، ٩٧٤
جبال أولوداغ: ٤٨٤
جبال البلقان: ٢٣٨
جبال بني يازغة: ٣٤٥
جبال تشهار محل: ٩٦٤
جبال جرجرة: ٩٦٠
جبال زاغروس: ١٨٠، ٢٣٨، ٧٠٢
جبال طوروس: ٢٣٨
جبال فريدن: ٩٦٤
جبال الكاربات: ٢٣٨
جبل أبو قبيس: ١٠٣٢
الجبل الأسود. انظر: كوه سياه
جبل بابا كومي: ٧٠٨، ٧١٥-٧١٧، ٧٢٨-٧٢٩
جبل الدراويش الأربعين. انظر: تشهل مقام
جبل ذوي اللباس الأخضر. انظر: كوه سبز
بوشان
جبل الراهب: ٤٨٤
جبل الرحمة. انظر: جبل عرفات
- جبل الرواق: ٩٧٠
جبل الزيتون: ٤٣٠، ٤٣١-٤٣٧
جبل سنغ: ٦٠٥
جبل سيس: ١٩٩
جبل سي شناور: ٧١٧
جبل الشيخ سعدي. انظر: قلعة فهندر
جبل صهيون: ٤٣٩
جبل طارق: ٣٥١، ٩٦٧، ١٠٩٠
جبل عامل: ١٤٦٨
جبل عرفات: ١٠٢٧، ١٠٢٩، ١٠٣١،
١٠٣٤-١٠٣٨، ١٠٣٥
جبل فهندر. انظر: قلعة فهندر
جبل قبلي. انظر: كوه سياه
جبل لبنان: ٤٧٩، ١٢٢٩، ١٢٤٨، ١٤٦٧-١٤٦٨
جبل المقطم: ٢٠٨، ٤٠٠، ٤٠٧، ١٣٩٦
جبل موريا: ٤٣٢
جبل نفوسة: ٥٢٥
جبل: ١٦٩، ١٤٨٩
جدة: ١٠٣٨، ١٣٦٤، ١٣٨٩
جديدة المتن: ١٤٧٧
جربة: ٥٦٤
جرجان: ١٧٧، ٣٣٢
الجرداق: ٢١٨
جرش: ١٦٦-١٦٧، ١٧٠، ١٧١-١٧٦، ٩٦١
الجزائر (البلد): ٤١، ٥٥، ٦٩، ١٠٣، ١١٠-١١١،
١٤٠، ٥٢٨، ٨٨٠، ٩٣٥، ٩٦٠،
٩٧٧، ١٠٤٤، ١١١٣، ١١٣٩-١١٤١،
١١٤٩، ١٢٠٨، ١٢٤٥، ١٢٥٠،
١٢٥٩، ١٢٨٩-١٢٩٠، ١٢٩٢،
١٢٩٤، ١٣٠٣، ١٣٠٨، ١٣٢٩

الجزائر (المدينة): ٨٥، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٩،	جسر قرطبة: ١٠٩١
١١١، ١١٩-١٢٠، ١٢٣، ١٢٥-١٢٦،	جسر كاريفي: ٢٣٢
١٣١-١٣٢، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣١١، ٥١٤،	الجلّاز: ٣٧٢
٥١٨، ٥٤٣-٥٩١، ٩٤٥، ٩٩٤-٩٩٥،	جُلّفا: ٢٥٤
٩٩٧، ١٠٠٠، ١٠٠٢، ١٠٠٧-١٠١٠،	الجلّوم: ٤٧١
١٠٤٣، ١٠٤٦-١٠٤٩، ١٠٥١،	الجم: ١٠٥
١٠٥٦-١٠٥٩، ١٠٦٢، ١٠٦٤-	جمعة: ٩٠٣
١٠٦٥، ١١١٣، ١١٣٣، ١١٥٤-	جميلة: ١٠٥
١١٥٥، ١١٦٨-١١٦٩، ١٢١٥،	الجناح (بيروت): ١٤٩٩
١٢٤٧، ١٢٥٩، ١٢٩٧، ١٢٩٩،	جناح أفتاب محل: ٨٠٩
١٣٠٧-١٣٢٦، ١٣٢٩، ١٣٣٨،	جناح أفضل محل: ٨١٠-٨١٢، ٨١٤
جزر البليار: ٥٨٣	جناح تهنتة محل: ٨٠٩-٨١٢
الجزر اليونانية: ٣٠٥	جناح مهتاب محل: ٨٠٩
جزيرة الروضة: ٤٠٢-٤٠٣، ٤٠٨، ٤١٣،	جناح نايا مكان: ٨١٣-٨١٥
١١٦٣	جنان الفك: ٥٣٢
جزيرة كيوس: ٥٠٣	جنوى: ٣٥١، ٥٨٠، ٦٣٢، ١٣١٧
جزيرة لانكاوي: ١٣٩٢	الجنية (الجزائر المدينة): ١١٩، ١٣٠٩
جزيرة نخلة جبل علي: ١٤٢٠	جهاجار: ٩٦٦
جزيرة نخلة الجميرا: ١٤٢٠	جورلولو: ٦٢٤-٦٢٥، ٦٢٨، ٦٣٦
جسر أفضل غنج: ٨٠٢-٨٠٣، ٨١٢-	جوري أمير: ٦٦٦
٨١٣، ٨٢٠	جوغل: ٨٥٠، ٨٥٤، ٨٥٦، ٨٦٣
جسر بورانا پل: ٨٠٢	جُونبور: ٢٧١، ٩٨١
جسر تشادرغات: ٧٨٩، ٧٩٦، ٨٠٢، ٨٠٤	جونية: ١٤٧٨
جسر خسكة: ٦٧٤	جوهر شاد: ٦٩٨
جسر الخليج: ٤٢١	الجويباري: ٦٨١، ٦٨٣
جسر الخندق: ٦٧٢، ٦٧٤	جيبوتي: ٨٤٩
جسر السباع: ١٠٠٩	جير وكاستر: ٢١٨، ٢٢١
جسر السوق: ٦٨٥	الجيزة: ١٤٤٠-١٤٤٢، ١٤٤٥-١٤٤٧،
جسر الشاه رستم: ٧١٥، ٧٢٣	١٤٥٣-١٤٥٤، ١٤٦٠
جسر شاه زاده. انظر: پل شاه زاده	جيلان: ٧١٣
جسر علي ورددي خان: ٢٥٤	جَيّ: ١٨٤، ٢٤٣-٢٤٥، ٢٦٠
جسر غاتفر: ٦٧٠	

- حديقة إيساي: ١٣١٤
حديقة تاج محل: ٧٧٠، ٧٦٦، ٧٤٤
حديقة التجارب. انظر: حديقة إيساي
الحديقة الجديدة. انظر: باغ نو
حديقة حافظ شيرازي: ٧٢١، ٧١٦
حديقة الحامة. انظر: حديقة إيساي
حديقة حياتبخش: ٩٨١
حديقة الرصافة: ١٠٧١، ١٠٦٩
الحديقة العالية. انظر: بولاند باغ
حديقة العنب (أغرا). انظر: أنغوري باغ
حديقة القاهرة: ٤٣
حديقة قتلغ: ٧١٤
حديقة قصر غمدان: ٨٤٢
حديقة مردوخ: ١٣٤٠
حديقة موتي باغ: ٧٦٤
حديقة موغال: ٧٦٤
الحديقة النائرة للضوء. انظر: باغ نور أفشان
حرش بيروت: ١٤٩٢-١٤٩١
الحرم الشريف: ٤٢٧، ٤٣١-٤٣٢، ٤٣٤-
٤٤٠، ١٠١٤-١٠١٥، ١٠٢٩، ١٠٣٢
١٠٣٧-١٠٣٨
الحرم ملك: ٧٠٥، ٩٧٨
الحسينية: ٤٠٢، ٤٠٨، ٤١٤، ٤٢١
١٠٠٨-١٠٠٩
الحصن الأحمر: ٢٧٢، ٢٩٠
حصن درغوث باشا. انظر: حصن سان بيتر
حصن دلهي: ٩٨١
حصن الرباط: ٨٦٩
حصن سان بيتر: ٥١٥، ٥١٧
حصن الفنار. انظر: برج الفنار
حصن الفهيدى: ١٤٠٧
حارة التلة: ٨٨٥
حارة الجزارين: ٨٨٣، ٨٨٥
حارة رأس الشجرة: ٨٨٥
حارة زويلة: ٤٢٣
حارة السقاين: ١٠٠٩
حارة السويقة: ٨٨٢-٨٨٣، ٨٨٥
الحارة الصغيرة: ٥٣٠
حارة الصوف: ٨٨٣، ٨٨٥
حارة الفخامين: ٩٩٩، ١٠٠٦
الحارة الكبيرة: ٥٣٠
الحازمية: ١٤٧٧، ١٤٨٢
حانوت الحجام: ١٥٢-١٥٣
الحبالات: ٣٤٣
الحبشة: ٨٤٥
الحجاز: ٣١١، ٤٠٥
حجرة تح خانة: ٧٥٩، ٧٦٣
حدائق سوق صنعاء: ٨٢٩، ٨٣٢-٨٣٣
٨٤٣، ٨٣٨
حدائق شاليمار: ٧٤٢
حدائق قصر شاه يومان: ٧٨٠
حدائق الكازار: ١٠٨٥
الحدود الكرواتية: ٣٠٧
الحدود العثمانية: ٤٩٣
حديقة الأزبكية: ١٢٧٨
حديقة اعتماد الدولة: ٧٥٢، ٧٦٥
حديقة أكدا: ٩٧٦
حديقة إمام قُلي خان: ٧٣٢-٧٣٣
الحديقة الإمبراطورية (أغرا). انظر: باغ
بادشاه

حمام الأزيكية: ٤١٤	الحصن القديم (كرمان). انظر: قلعة أردشير
حمام تركاشدوزان: ٦٩١	حصن كاستيللو. انظر: برج المندريك
حمام تيمتشه لطيف ميراقي: ٦٧٢	حصن اللوديين: ٧٤٦
حمام الجويباري: ٦٩١	حصن المقدسي: ٦٠٤
حمام الحلقة: ٥٤٠	الحَضْر: ٢٤١، ٢٦٠
حمام خوجة: ٦٩١	الحضرة الكاظمية: ١٣٩٢
حمام خيابان: ٦٩١	الحفصية: ٣٧٥
حمام ريجهستان: ٦٩١	حقل الفاتح البحري: ١٤٠٢
حمام زارغاران: ٦٩١	الحقل المقدس: ٢٦٥
حمام سار بازار ريجهستان: ٦٩١	حق مزار: ٦٨٢
حمام شاه جهان: ٧٧٣	حلب: ٥٤-٥٥، ٥٧، ٦٨، ٧٢، ٨٦-٩٠،
حمام شوكي مينوي: ٦٩١	١٠٤-١٠٥، ١٠٧، ١٠٩، ١١١-١١٢،
الحمام الصغير: ١٩٨	١١٧، ١١٩-١٢٠، ١٢٣، ١٢٨، ١٣١-
حمام غازيان: ٦٩١	١٣٢، ١٣٤-١٣٥، ١٤١، ١٥٨، ١٦٦-
حمام غربية: ٦٩١	١٦٨، ١٧٢، ١٨٥، ١٨٨، ٢٠٩، ٢٢٤،
حمام غنج علي خان: ٦١٥	٢٤٣، ٣٠٨، ٣١٣-٣١٤، ٣٣٢، ٣٦٦،
حمام غوكوس خان: ٦٩١	٣٦٨، ٣٧٦، ٣٧٩، ٣٨١-٣٨٢، ٣٩٠،
حمام الفار: ١٩٨	٤٢١، ٤٣٧، ٤٤٣-٤٤٤، ٤٨١، ٤٨٥، ٤٩٣،
حمام فروشان: ٦٩١	٥٠٥، ٥٦٢، ٩٨٩، ٩٩١، ٩٩٣، ٩٩٥،
حمام كبا: ٦٩١	٩٩٧-١٠٠٠، ١٠٠٢، ١٠٠٤، ١٠٠٦،
الحمام الكبير (طرابلس): ٥٢٠	١٠١٠-١٠١١، ١٠٤١-١٠٤٣،
حمام كفير: ٦٩١	١٠٤٩، ١٠٥١، ١٠٥٦-١٠٥٧،
حمام موتشي تشابازاي: ٦٩١	١١٠٥، ١١٥٣، ١١٥٨، ١١٦٥-
حمام ميري: ٦٧٢	١١٦٦، ١٢٠٢، ١٢٣٤، ١٢٣٦-
حمام الوالدنة: ٦٥٦	١٢٣٨، ١٢٤٨، ١٢٥٩، ١٢٦٢،
حمص: ٤٥٩	١٢٧٢، ١٢٧٧-١٢٧٨، ١٢٨٣،
حوران: ١٠٠٨	١٢٨٦، ١٤٦٥
حوز آب: ٦٨٧-٦٨٤، ٦٨٢، ٦٧٣	حلبة سباق الخيل (شيراز): ٧٣٢
حوز خوجة جعفر: ٦٨٥	حلق الوادي: ٣٩٢
حوز خيابان: ٦٨٥	حماة: ٥٥، ٤٣٧، ٤٤٧، ٤٥٩، ١٢٠٠،
حوز الرشيد: ٦٧٢	١٤٦٥
	الحمامات (تونس): ٨١، ٣٧٢

حويل راي بهادور شيث سوراج بهان كي:

۷۷۷

حويل شايستا خان: ۷۵۵

حويل عزام خان: ۷۵۵

حويل عساف خان: ۷۵۵

حويل عَلمغير: ۷۷۵-۷۷۶، ۷۵۵

حويل مانجلي بيغم: ۷۹۴

حويل مغول خان: ۷۵۵

حويل مقيم خان: ۷۵۵

حويل مهابة خان: ۷۵۵

حويل نظام بوراني: ۷۸۹، ۷۹۴، ۸۰۸

حويل هوشدار خان: ۷۵۵

حويل وزير خان: ۷۷۷، ۷۵۵

حي ابن طولون: ۴۰۸

حي أدرنة كابي: ۶۴۴، ۶۵۵، ۱۲۶۶

حي الأزيكية: ۴۱۷، ۴۱۴

حي إمبابة: ۱۴۵۴، ۱۴۵۲، ۱۴۴۴

حي البازار (بورصة): ۱۲۸۱

حي بايزيد: ۶۴۵-۶۴۷، ۶۴۹، ۶۵۷

حي البيزورية: ۱۲۵۱

حي البيستكية: ۱۴۰۷-۱۴۰۸، ۱۴۱۱

حي البلدية: ۵۳۰-۵۳۱

حي بنقوسة: ۸۷، ۴۵۹، ۴۶۱، ۴۶۳، ۱۰۱۱

حي بورغون: ۱۳۴۹

حي بوسبير: ۱۳۳۷، ۱۳۵۲

حي بولاقي: ۸۴، ۴۰۸، ۴۱۰، ۴۲۱، ۹۹۷

۱۰۰۷، ۱۲۸۰، ۱۴۳۹، ۱۴۴۱-

۱۴۴۲، ۱۴۴۴-۱۴۴۵

حي بولو: ۱۳۵۵

حي بيجو: ۱۳۰۹

حي ترك آباد: ۶۱۴-۶۱۸

حوز الملك: ۶۱۴-۶۱۵

حوز نُو: ۶۸۳، ۶۸۵

الحوش: ۱۳۰، ۴۰۷، ۱۱۶۵

حوض أغدال: ۹۴۱

حوض الإندوس: ۲۷۰

حوض خاص: ۹۷۹، ۹۸۱

حوض زابنده رود: ۹۳۹

حوض السلطان: ۹۷۹

الحوض الشمسي. انظر: حوض السلطان

حوض صهريج الصواني: ۹۶۷

حوض العنبر: ۹۴۱

حوض ماهي: ۷۲۴

حوض مراکش: ۹۶۷

حوض المَعادي: ۹۶۷

حوض نهر الفرات: ۹۳۸

حوض نهر دجلة: ۹۳۸

حوض نهر دبالا: ۱۷۴

حوض نهر العاصي: ۱۴۶۸

حوض نهر الغانج: ۲۷۰

حومة... انظر: حي

حويل آغا خان: ۷۵۵

حويل أصالة خان: ۷۵۵

حويل إسلام خان: ۷۵۵

حويل أورانغزب: ۷۷۵

حويل جعفر خان: ۷۵۵

حويل حافظ خدمتغار: ۷۵۵

حويل خان جهان لودي: ۷۵۵

حويل خان داوران: ۷۵۵، ۷۶۷

حويل خليل خان: ۷۵۵

حويل دارا شكوه: ۷۷۴، ۷۵۵

حي تي. أس. أف: ١٣٥٣، ١٣٤٦
حي تيبى: ٢٢٩
حي الجُنديدة: ٤٤٨، ٤٥٢، ٤٥٧، ٤٦٢،
١٢٣٨، ١٢٣٤
حي الجمالية: ١٢٨، ١٤٣٩، ١٤٤١
حي الحبالين: ١٠٠٩
حي الحبوس: ١٣٥٠-١٣٥١، ١٣٥٨-
١٣٥٩
حي حذرة البقر: ٤٠٢، ٤٠٦، ٤٢٠
حي حصن آباد: ٦٢٠
حي حلوان: ١٤٤١، ١٤٦١
حي الحوامدية: ١٤٤١
حي خورخور: ٦٥٦
حي دار الخلافة: ٣٢٨
حي الدباغين القديم: ١٠١٠
حي الدرب الجديد: ١٣٥٣
حي الدقي: ١٤٤١
حي دوفان: ١٣٦٦
حي الرصافة (بغداد): ٩٥، ٢٠٤، ٣٢٣،
٣٢٨، ٣٢٦
حي الزرادشتين: ٥٩٦، ٦٠٩
حي الزمالك: ١٣٦٦، ١٤٤١
حي السُخنة: ٤٦١
حي السلام: ١٤٣٩
حي السليمانية: ٢٢١، ٢٢٥، ٦٤٦
حي سليم نشيتي: ٩٧٨
حي السليمية: ٢٢١
حي سوق الدابة: ٣٢٨
حي سوق السلاح: ٣٢٨
حي سيدي عثمان: ١٣٥٦
حي سيدي فاتح: ٨٨٤
حي شاه زاده: ٢٢١، ٦٤١، ٦٤٦-٦٤٧،
٦٥٧، ٦٥٩
حي الشاه العادل: ٦١٢
حي شبرا الخيمة: ١٤٤١
حي الشماسية: ٢٠٤، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٣٥
حي شيادان: ٧١٢، ٧١٥، ٧٢٣
الحي الشيعي (حيدر آباد): ٧٩٤
حي الصخور السود: ١٣٣٢، ١٣٤٦، ١٣٥٢
حي الصفا: ٤٦١
حي صقلية الصغيرة: ١٢٧٤
حي الصليبية: ٤٤٨
حي الطالعة: ٨٧٤، ٨٨٣
حي طانجي الأكبر: ٧٠٣
حي العزيزية: ٤٨٠
حي العلوم: ٨٨٤
الحي العلوي (أنطاكية): ١٠٤٩
حي العمارة البراتية: ١٢٨٢
حي عمارة الفاتح: ٦٢٧-٦٢٨
حي العمرانية: ١٤٤١
حي عين السباع: ١٣٤٦، ١٣٥٣
حي غريان: ٥٣٠-٥٣١
الحي الفاطمي: ١٠٠٢
الحي الفرنسي: ١٢٨٤
حي الفنار: ٦٤٨
حي قارلق: ١١٦٦
حي القاع: ٨٤٣
الحي القبطي (القاهرة): ٤١٤
حي القرباط: ٤٦١
حي القصر: ٢٣٢، ٢٣٤
حي القلعة (أدرنة): ٢٢٥
حي القلعة (بورصة): ٣٠٣

حي تي. أس. أف: ١٣٥٣، ١٣٤٦
حي تيبى: ٢٢٩
حي الجُنديدة: ٤٤٨، ٤٥٢، ٤٥٧، ٤٦٢،
١٢٣٨، ١٢٣٤
حي الجمالية: ١٢٨، ١٤٣٩، ١٤٤١
حي الحبالين: ١٠٠٩
حي الحبوس: ١٣٥٠-١٣٥١، ١٣٥٨-
١٣٥٩
حي حذرة البقر: ٤٠٢، ٤٠٦، ٤٢٠
حي حصن آباد: ٦٢٠
حي حلوان: ١٤٤١، ١٤٦١
حي الحوامدية: ١٤٤١
حي خورخور: ٦٥٦
حي دار الخلافة: ٣٢٨
حي الدباغين القديم: ١٠١٠
حي الدرب الجديد: ١٣٥٣
حي الدقي: ١٤٤١
حي دوفان: ١٣٦٦
حي الرصافة (بغداد): ٩٥، ٢٠٤، ٣٢٣،
٣٢٨، ٣٢٦
حي الزرادشتين: ٥٩٦، ٦٠٩
حي الزمالك: ١٣٦٦، ١٤٤١
حي السُخنة: ٤٦١
حي السلام: ١٤٣٩
حي السليمانية: ٢٢١، ٢٢٥، ٦٤٦
حي سليم نشيتي: ٩٧٨
حي السليمية: ٢٢١
حي سوق الدابة: ٣٢٨
حي سوق السلاح: ٣٢٨
حي سيدي عثمان: ١٣٥٦
حي سيدي فاتح: ٨٨٤

حي الراحة: ١٣٥٥	حي قنسرين: ٤٦٥
الحي اليهودي (بغداد): ١٠٥٠	حي قوم الشيخ سلامة: ١٢٤
الحي اليهودي (حلب): ١٠٤٩	حي الكرخ: ٩٥، ٢٠٤، ٣٢٢، ٣٢٦-٣٢٩
الحي اليهودي (الدار البيضاء): ١٣٣٥	٣٣٩-٣٣٨
الحي اليهودي (دمشق): ١٠٤٩	الحي الكردي (دمشق): ١٣٤، ١٠٤٩
الحي اليهودي (سلا): ٨٨٣	حي الكزا: ٨٨٤
الحي اليهودي (صنعاء): ١٠٤٩	حي كوفاتشي: ٢٣٣
الحي اليهودي (طرابلس): ١٣٣، ٥١٥، ٥٢٨	حي كوكا مصطفى باشا: ٢٢٥
الحي اليهودي (فاس): ٣٥٠	حي كوم الناصورة: ١٢٨٥
الحي اليهودي (القاهرة): ١٠٤٩	حي المأمونية: ٣٢٨
الحي اليهودي (الموصل): ١٠٤٩	حي المحمدي: ١٣٥٣، ١٣٥٦-١٣٥٨
الحي اليوناني (القاهرة): ١٠٥١	حي المخرم: ٢٠٤، ٣٢٣، ٣٢٨
حيدر آباد: ٢٧٢، ٢٨١، ٢٨٦، ٧٨٣-٨٢٠، ٩٨٤، ١٣٦٢، ١٣٧٥	حي المخية: ١٠٠٦
الحيرة: ١٩٥	حي المدينة (حلب): ١٢٠، ١٢٨، ٤٥٠، ٤٥٥، ٤٥٧، ٤٧٠-٤٧١، ٤٧٣، ٤٧٧-
خير الزجالي: ١٠٨٨	٤٧٨، ١٠٠٢، ١٠٠٤، ١١٢٤
حيفا: ١٢٥٦، ١٤٦٨	حي مرسى السلطان: ١٣٣٠، ١٣٣٧، ١٣٤٣
- خ -	حي المسرح: ٢٣٥
الخايم: ١٠٣٢	الحي المسيحي (بغداد): ١٠٥٠
خاسكي: ٦٣٣	الحي المسيحي (حلب): ١٠٤٩، ١٢٣٤
خاص محل: ٧٧٢-٧٧٣	١٢٣٨
خالكيس. انظر: قنسرين	الحي المسيحي (دمشق): ١٠٤٩
خان الأرز: ٦٧٥	الحي المسيحي (فاس): ٣٤٨
خان أسعد باشا: ٩٩٦	الحي المسيحي (القدس): ٤٤٠، ٤٤٩
خان البرازية: ٤٩٠	حي المصلى: ٧٢١
خان جرم: ٦٩١	حي المطرية: ١٤٤١
خان الجمر (حلب): ٤٥٢-٤٥٣، ٤٥٨، ٩٩٧، ١٢٣٧	حي المعادي: ١٤٤١
	حي المعاريف: ١٣٤٣، ١٣٥٨
	حي المقس: ٤١١
	حي نهر المعلي: ٣٢٨
	حي الهدير: ٤٥٩

- خان حسن باشا: ٦٤٩، ٦٤٢
- خان خادم: ٦٩١
- خان الخليلي: ١١٧، ١٢٨، ٩٩٥، ١٠٠١
- خان خناك: ٦٩١
- خان ديودان: ٧٠٩
- خان السلطان: ٤٣٨
- خان السمكشخانه: ٦٤٩، ٦٣٨
- خان سوق الحبوب (بورصة): ٤٩١
- خان الشونة: ٤٥٠
- خان الصابون: ٩٨٩
- خان العرصة: ١٢٣٨
- خان العزيزية: ١٤٦٠
- خان الفرنج: ١٢٥١
- خان قرباي: ٩٩٨
- خان كريم خان: ٧٠٩
- خان مولتاني: ٧٠٩
- الخان الهندي: ٦٧٥
- خان الوالدة: ٦٣٥
- خان والدة بويوك: ٦٤٩
- خان الوزير: ٦٤٩، ٦٣٥
- الخان الجديد، انظر: كروان سراي يتي خان
- الخاننش: ٢٧١
- خانقاه أوستوروكي: ٦٨٠
- خانقاه بهاء الدين النقشبندي: ٦٧٧، ٦٨٩
- ٦٩٩، ٦٩٤
- خانقاه بيمرس الجاشنكير: ٤٠٤
- خانقاه حوز بولو: ٦٨٠
- خانقاه خليفة خداداد: ٦٨٢
- خانقاه فايز آباد: ٧٠٠
- خانقاه السلطان قانصوه الغوري: ٤١٥
- خانقاه الناصر محمد: ٤٠٥، ٤١٦
- خانقاه نادر ديوانبني: ٦٨٢، ٦٨٧
- الخان الهندي: ٦٨٢
- الخبر: ١٣٦٩
- خييص: ٦٠٨
- خراسان: ١٧٦-١٧٨، ١٨٠، ١٩٢، ٢٦٦، ٣٣٢، ٧٤٧، ٧٤٠، ٧١٣، ٦٧٢
- خريقة: ٩٧٠
- الخريفة: ١٩٢
- خزان باني محل: ٩٨٤
- خزان جايسماند: ٩٧٨
- خزان غوجارات، انظر: باولي غوجارات
- خزان الكوباغار: ٩٥١
- خزان ماء - صاحبة: ٩٨٤
- خزانة ثلبة ديروا: ٨٦٠
- خضر زنده: ٧١٥
- خطال: ٣٣٢
- خطوط التماس (بيروت): ١٤٧٦-١٤٧٩
- ١٤٨٦، ١٤٩١-١٤٩٣
- خلدة (بيروت): ١٤٧٢، ١٤٨٢
- خلف آباد: ٩٧٢
- خلوات الدراويش، انظر: تكايا الدراويش
- خلوت خانه (حيدر آباد): ٧٩١
- خلوت خانه (شيراز): ٧٢٦-٧٢٧
- خليج البنغال: ٢٨٤
- خليج السان جورج: ١٤٨١
- الخليج العربي: ٣٢١، ١٣٧٣، ١٣٨١
- ١٤١٨، ١٤٢٠، ١٤٦٥، ١٤٦٨
- ال خليفة حسين: ٦٨٢
- خوارزم: ١٧٧، ٣٣٢، ٦٧١
- الخواص بورا: ٧٦٩
- خوجة زين الدين: ٦٧١

خوجة ساساران: ٦٨٢	دار شهر: ٦١٧
خوجة نملبوش: ٦٨٢	دار الصوف: ٥٦١، ٥٦٥
خور دبي: ١٤٠٢، ١٤٠٦، ١٤١٤، ١٤١٧-١٤١٨	دار الضرب (العباسية): ٢٠٠
خوزستان. انظر: الأهواز	دار الضرب (كرمان). انظر: دار سك النقود (كرمان)
خوشينان: ٢٤٣-٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٩	دار العلم: ٧٣٨
خوني برج. انظر: برج الدم	دار العمارة: ١٩٠، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢١٠، ٢٣١
خيابان راست. انظر: تنغة الله أكبر	دار القيطون: ٣٤٨
خيوا. انظر: خوارزم	دار مصطفى باشا: ٥٥٩
- د -	دار المملكة: ٣٢٤
دار الإمارة: ١٧٨-١٧٩، ١٩٨	دار الهجرة: ١٩٩
دار الأوبرا (الجزائر): ١٣٠٩-١٣١٠	دارابجرد. انظر: داراب
دار الأوبرا (القاهرة): ١٣٦٦	داراب: ١٧٦، ٢٤١، ٧٠٣
دار بازار: ٦٨١	دار السمك (أغرا). انظر: مشهي باوان
دار بوعزة: ١٣٥٨-١٣٥٩	دار الجمارك (أغرا). انظر: مبارك منزل
دار بيرم: ١٥٣	دارجيلينغ: ٢٧٣
الدار البيضاء: ١١٥٤، ١٣٢٧-١٣٦٠، ١٥٠١	داكا: ١٣٦٩
دار الحكم: ٦٠٩	الدامور: ١٤٧٧
دار الخلافة: ٣٢٤-٣٢٥، ٣٢٨، ٧٧٩	داوارو: ٨٤٥
دار الرزق: ١٩٥	دبي: ٤٤، ١٣٧٥، ١٣٨١، ١٣٨٤، ١٣٨٩-١٣٩١، ١٣٩٨، ١٤٠١-١٤٢٨، ١٤٧٩
دار الروضة: ١٠٨٨	درب الزعفران: ٣٢٦
دار السكة: ١١٩، ٣٥٠	درب المجوس: ٣٣٥
دار سك العملة: ٢٥٤	درب البلدية: ١٣٥١
دار سك النقود (إسطنبول): ٦٥٦	درب سليمان: ٣٢٦
دار سك النقود (كرمان): ٦٠٨، ٦١٧، ٦٢٠	درب غالف: ١٣٥٠
دار السلطنة. انظر: دار المملكة	درج الجميزة: ١٤٨٩
دار الشفاء: ٧١٠	الدردنيل: ٦٣٤
دار شقرون: ٨٨٤	الدردير: ١١٦٣
	درسة مير عرب: ٦٩٨

دمشق: ٥٥-٥٦، ٦٢-٦٣، ٧٦، ٨٩-٩٠، ١٠٤-١٠٥، ١٠٧-١٠٨، ١١١، ١١٩-١٢٠، ١٢٣، ١٢٧، ١٣١-١٣٢، ١٣٤، ١٤٠-١٤١، ١٥٨، ١٦٥-١٦٧، ١٦٩، ١٧١، ١٨١، ١٨٤، ١٨٨، ٢٠٠، ٢٠٩، ٢٢٤، ٢٤٣، ٣٠٨، ٣٢٠، ٣٤٦، ٣٦٦-٣٦٨، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٩، ٣٨١-٣٨٢، ٣٩٠، ٤٣٧-٤٣٨، ٤٤٤-٤٤٥، ٤٥٥، ٤٥٩، ٤٦٤-٤٦٥، ٤٨٠، ٥٦٢، ٩٣٤، ٩٤٦، ٩٤٩، ٩٦٣-٩٦٤، ٩٧٠، ٩٨٧، ٩٩٣، ٩٩٥-٩٩٧، ١٠٠٠-١٠٠٢، ١٠٠٤، ١٠٠٦-١٠٠٨، ١٠١١، ١٠٢٥-١٠٢٦، ١٠٢٨، ١٠٤١، ١٠٤٤، ١٠٤٨، ١٠٥١، ١٠٥٣-١٠٥٤، ١٠٨٨، ١١١٣، ١١٢٤، ١١٥٥، ١٢٠٠، ١٢٠٢، ١٢١٥، ١٢١٩، ١٢٣٠، ١٢٣٨، ١٢٤٢-١٢٤٤، ١٢٤٧-١٢٤٨، ١٢٥١، ١٢٥٦-١٢٥٧، ١٢٦٠، ١٢٦٢-١٢٦٤، ١٢٧٣، ١٢٧٦، ١٢٨٢-١٢٨٣، ١٢٨٦، ١٣٦٥، ١٤٦٧-١٤٦٨، ١٤٩١، ١٤٩٣، ١٧٥: دمنان
دمنات البقر: ٣٤٥
دمياط: ٤٠٤
دنزيلي: ٥٠٥
الدنمارك: ٨٨١
دهقان: ٦٦٤
دواهر: ٩٤٦
دوبروفنيك: ١١٥٧
الدوحة: ١٤٧٩
دوراجي: ٩٧٩
دورا يوروبوس: ١١٣٨

درس خانه: ٦٩٤-٦٩٥، ٦٩٨
الدرعية: ١٣٩
دروازه آهني: ٧٠٣، ٧٠٦-٧٠٧، ٧٣٠-٧٣٢
دروازه كازرون: ٧٣٥
دروب البلد: ١٣٥٣
دروم: ١٢٥٨
درياتشه قربانغاه: ٧١٢، ٧١٨-٧٢٠
درياتشه نمك: ٧١٥
دريم لاند: ١٤٥١
دقة: ١٠٥
دكا: ٤٣، ٢٧٣-٢٧٤، ٢٧٧، ٢٨١، ٢٨٦-٢٨٧، ٢٨٧
الدكن: ٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٥-٢٨٦، ٢٨٨-٢٨٩، ٢٩٧، ٧٨٤، ٧٨٦-٧٨٨، ٧٩١، ٧٩٤، ٨٠١، ٨٠٥-٨٠٦، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١١، ٨١٥، ٨١٧-٨١٨
دلنا البنغال: ٩٤٠
دلنا الغانج: ٢٨٤، ٢٧١
دلنا النيل: ١٩٧، ٩٥٤-٩٥٥، ٩٥٧، ٩٨٨، ١٢١٠، ١٤٣١، ١٤٣٥، ١٤٣٧
دلنا وادي الظنة: ٩٥٩
دلهي: ٢٧٠-٢٧٩، ٢٧٧، ٢٨١-٢٨٣، ٢٨٥-٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٤-٢٩٥، ٢٩٨، ٧٣٩، ٧٤٢، ٧٤٧، ٧٥٣، ٧٧٢، ٧٧٩، ٧٩١، ٧٩٤-٧٩٦، ٨٠٠، ٨٠٥، ٩٣٤، ٩٤٠، ٩٤٦، ٩٤٨، ٩٥١، ٩٥٣، ٩٦٦، ٩٧٩، ٩٨١، ١٣٦٢. انظر أيضاً: شاه جهان آباد
دلهي دروازه. انظر: باب دلهي
الدقام: ١٣٦٩

- ذ -

ذبيح شريف: ١٣٢٠
ذكرخانة: ٦٨٢

- ر -

راثور: ٧٧٨
راجاستان: ٩٧٨، ٩٤١
راست شاه مير حمزة: ٧٢٠
راست مصلی: ٧٣٥، ٧٣١
رأس المتن: ١٤٧٧
رأس النبع: ١٤٨٩
رأس الهانك: ١٣٤٦
رام باغ. انظر: باغ نور أفشان
رامب روفيجو. انظر: ذبيح شريف
رامبور: ٢٨١، ٢٧٢
رانغ محل: ٩٤٢
رايشور داراسيو: ٧٨٦
الرباط: ١٠٤، ١٤٦، ٨٦٥، ٨٦٧-٨٧٠،
٨٧٢-٨٧٦، ٨٧٩-٨٨٩، ٩٦٧،
١١٢٥-١١٢٧، ١٣٢٧، ١٣٣٧،
١٣٥٤، ١٣٤٥
رباط دشت: ٦٠٩-٦١٠
رباط عبد المؤمن: ٨٦٦، ٨٧١، ٨٨٠
ريض النصاري: ٣٤٨
ريض حسار نو: ٦٦٢
ريض ماراقتند: ٦٧٠
ربع قايتباي: ١١٦٧
الربوة: ٢٨٥
الرحبة: ٤٢٠، ١٠٠٨
رحبة القديمة: ١٠١٠

دو منار در دشت: ٦١٦

الدوموس الإسباني: ١١٣٥

الدوموس الإيطالي: ١١٣٥

الدوموس الروماني: ٥١٣، ١١٣٨، ١١٤٤،

١١٤٨، ١١٥٣، ١١٥٦، ١١٦١،

١١٦٣، ١١٦٨، ١٣١٦

الدونا: ٢٢٨

ديار بكر: ٢١٨، ٣١٣-٣١٤، ٤٩٣، ٩٥٦

ديار ربيعة: ٣٢١

ديار مضر: ٣٢١

ديبروتنياتر: ٧١٥

دير داوا: ٨٤٩-٨٥٠

دير درتا: ٣٣٥

دير درمالس: ٣٣٥

دير الروم: ٣٣٥

دير الزور: ٤٨٠

دير سمالو: ٣٣٥

دير سيده بكركي: ١٢٢٩

دير الشيخ أبو بكر: ١١٩

دير العاقول: ١٧٣

دير القباب: ٣٣٥

دير القمر: ١٤٧٧

دير مار شليطا: ١٢٢٩

ديفريك: ٢١٩

ديلوس: ٢٣٥، ٣٦٩

ديوان ديودي: ٧٨٩، ٧٩٧-٧٩٩، ٨٠٢،

٨١٣-٨١٥

ديوان همايون: ١١٩٤

ديويند: ٢٨٦

- ردعة الدرقاعة: ١١٦٣، ١١٦٥-١١٦٦
 رشميتا: ١٤٧٧
 الرصافة (بغداد). انظر: حي الرصافة (بغداد)
 الرصافة (سورية): ١٩٩، ١٠٦٩، ١٠٧١
 الرصافة (قرطبة): ١٠٧٦، ١٠٨٧
 رف مارابرايا: ٨٦٠
 رقادة: ٢٠٠-٢٠١
 الرقة: ٣٢١
 رقعة القمح. انظر: ميدان الغلة
 الرُماتية: ١٠٨٨
 الرملية: ١٩٩
 رواليند: ٢٧٣
 رويار: ٩٦٦
 روتا: ٩٦٦
 رودشت: ٩٦٤
 رودوس تشوك: ٤٨٥
 رودوس: ٣٠٣، ٥١٥
 روسيا: ٥٧، ٨٨، ٦٤١، ٦٧٢-٦٧٤، ٦٨٢
 ١٢٣٥، ١٢٥٩
 روض الغزلان: ٣٥٢
 روضة أفضل خان. انظر: ضريح أفضل خان
 شيرازي
 روضة جعفر خان: ٧٧٧-٧٧٩، ٧٧٤، ٧٥٥
 روضة شاه جهان: ٧٦٧، ٧٥٥
 روضة شايبستا خان: ٧٥٥
 الروضة الصينية. انظر: ضريح أفضل خان
 شيرازي
 الروضة النبوية: ١٠٣٢
 روما: ١٤٠، ٣٥٥، ٣٧٠، ٤٧٤، ٥٣٥
 ٥٨١، ٧٣٦، ٩٤٨، ١٠٦٧، ١١٤٣
 ١١٥٣، ١٣٠٣
 روملي: ٣٠٢، ٣٠٥، ٣٠٨
 الرياض: ٤٣، ١٣٩، ١٦٢، ١٩٢، ٩٣٩
 ١٣٦٩، ١٣٨٧
 رباق: ٤٨٠
 ربالنو: ١١٥٧
 ريجستان: ٦٦٢، ٦٦٦، ٦٦٨-٦٧٢، ٦٧٨
 ٦٨٠-٦٨٢، ٦٨٤-٦٨٧
 الريدانية: ٤١٤-٤١٥
 الريفييرا: ١٣٠٠
 - ز -
 زاريا: ٨٩١، ٩٠١-٩٠٤، ٩٠٧-٩٠٨
 ٩١٠
 زازاو: ٩٠١-٩٠٢
 الزاهرة: ١٠٨٦، ١٠٨٨
 الزاورة: ٩٠٤، ٩٠٦-٩٠٩
 زاوية المتوكلية: ٣٥٢
 زاوية النسك: ٨٧٨
 زحلة: ١١١١، ١٤٧٨
 زرد كوه: ٩٦٤
 زرنج: ٢٦٢-٢٦٤
 زَرَنَد: ٦٠٤، ٦٠٨-٦٠٩، ٦١٤، ٦١٨
 زعفرانبولو: ٢١٨
 زغزغ. انظر: زازاو
 زغوان: ٩٩٣، ١٠٧٢-١٠٧٣
 زفار محل: ٩٨١
 زقاق الأربعين: ٤٥٥
 زقاق القناديل: ١٩٨
 زلقانة: ٩٦١
 زليتن: ٥٢٥

ساحة الشهداء (بيروت): ١٤٧١، ١٤٨١،
 ١٤٩٥، ١٤٩٨، ١٥٠٠-١٥٠١
 ساحة الشهداء (الجزائر): ١٣٠٨-١٣٠٩،
 ١٣١٨، ١٣٢٠
 ساحة الشيشان: ١٢٧٨
 ساحة فردان: ١٣٤٨، ١٣٥٥
 ساحة فرنسا: ١٣٣٨-١٣٤١، ١٣٤٣،
 ١٣٤٨، ١٣٥٥، ١٣٥٨
 ساحة الفوروم: ٣٦٨، ٨٧٦، ١٣١٤
 ساحة محمد الخامس. انظر: ساحة الإدارة
 ساحة النجمة: ١٤٧١، ١٤٨٨، ١٤٩٥
 ساحة وادي المخازن. انظر: ساحة فردان
 ساحل تيبازة: ١١٥٥
 الساحل الهندي: ٩٣٦
 سارياش: ٧٠٣
 ساركيج: ٩٨١
 ساساري: ٢٢٣
 ساسرام: ٩٨١
 السافوي: ٥٦٤
 ساكستان: ٢٦٢
 سالونيك: ٢٢٠، ٢٢٤-٢٢٥، ٣٠٣، ٣٠٨،
 ١٢٥٦-١٢٥٧، ١٢٦١، ١٢٦٣،
 ١٢٧٢، ١٢٧٨، ١٢٨٢
 سامراء: ٤٣، ١٦٥، ١٩٩، ٢٠٤-٢٠٦،
 ٣٢٣، ٣٣٤، ٩٤٦، ٩٤٩، ٩٥٦، ٩٥٨،
 ١١٦٢
 سان ستاي: ١١٥٧
 ساوباولو: ١٤٤٣
 سباهي ميدان. انظر: ميدان سباق الخيل
 (إسطنبول)
 سبتة: ٣٤٥، ٣٥٦-٣٥٧، ٣٦٢

زناتة: ١٣٦٠
 الزمراء: ١٠٧٦-١٠٧٨، ١٠٨٠-١٠٨١،
 ١٠٨٥-١٠٨٨
 الزهراء الجديدة: ١٨٢
 زورخانه: ٢٦١، ٢٢٦
 زوزن: ٦٠٦، ٦١٥
 الزيتون (تونس): ١٢٠، ٩٩٥، ٩٩٩-١٠٠٠
 الزيتون (سورية): ١٠٦٩
 زيلع: ٨٤٨

- س -

ساحة الإتوال: ١٢٧٨
 ساحة الإدارة: ١٣٣٩-١٣٤٠
 ساحة إسبارتو: ٥٣٢
 ساحة الأعمدة. انظر: سبلاناد
 ساحة الأمم المتحدة. انظر: ساحة فرنسا
 ساحة الأمير عبد القادر: ١٣٠٩، ١٣١١
 ساحة أول ماي: ١٣١٤
 ساحة البرج. انظر: ساحة الشهداء (بيروت)
 ساحة بور سعيد. انظر: ساحة الجمهورية
 ساحة التوحيد: ٦٠٠
 ساحة الجمهورية: ١٣١٠-١٣١١، ١٣٢٢
 ساحة الحكومة. انظر: ساحة الشهداء
 (الجزائر)
 ساحة الرُميلة: ٤٠٦، ٤٠٨، ٤١١، ٤٢٠،
 ١٠٠٨-١٠٠٩، ١٠١١
 الساحة الرومانية: ١١٦٣
 ساحة سان سلفادور: ١٨٢
 ساحة ستانيسلاس: ١٣٤٠
 ساحة شارتر: ١٣٠٩، ١٣١٩-١٣٢٠

سبلاناد: ٨٧٨	سرادق يالي. انظر: منازل يالي الشاطئية
سبوليا: ٥١٣	السرادق الفارسية: ٦٤١
سبيدان: ٧١٥	سراي إسحق بك: ٢٣٢
سبيل إبراهيم باشا: ٦٣٥	سراي جهان آرا بيغم: ٢٩٦
سبيل توب خانة: ٦٤٢	سراي الحمراء: ٥٣٤، ٥٤٠
سبيل جورلولو علي باشا: ٦٣٥	سراي دشت: ٦١٢
سبيل حسن باشا: ٦٣٥	سراي: ٤٩٩
سبيل حكيم أوغلو علي باشا: ٦٤٢	سرايفو: ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٩
سبيل عبد الرحمن كتحدة: ١٠٦٤	٢٣٢-٢٣٣، ٣٠٨، ٣١٣، ١٤٦٥
سبيل قايتباي: ٤٣٧	سردار: ٧٢٠
سجستان: ١٩٢، ٢٦٢	سردينيا: ٥٢٧، ٢٢٣
سجلماسة: ٣٤٥	سرس. انظر: سراي
سجن شاه زنده: ٦٧٨	سرقسطة: ١٨١
سجن مزوار: ١١٩	سرهند: ٩٦٦
سد الأهواز: ٩٤٩	سري لانكا: ٢٦٩
سد باندي أمير: ٩٧٢	سعد آباد: ٦٣٨
سد بيوك: ٩٧١	سعدية: ٧١٧، ٧٢٤
سد بُل بولايتي: ٩٧٢	السعودية: ٣٦، ٤٣، ١٣٩، ١٦٢، ١٢٤٤-
سد جاراحي: ٩٧٢	١٢٤٥، ١٢٥٩، ١٣٦٥-١٣٦٦
سد خريقة: ٩٧٠	١٣٨١، ١٣٨٦، ١٣٩٧، ١٤٧٦
سد دزفول: ٩٧٢	سغد: ٣٣٢
سد شوشتر: ٩٧٢	سقاية العباس: ١٠٣٢
سد قنطرة كبار/كيوار: ٩٧٣	السكرية: ١٠٠١
سد قيصر: ٩٧٢	سكوبي: ٢٢١-٢٢٢، ٢٢٨-٢٢٩
سد مأرب: ٩٤٩، ٩٥٩، ٩٦٨	سلا: ٦٤، ٨٣، ٣٥٦، ٨٦٥-٨٦٨، ٨٧٠-
سد مارون: ٩٧٢	٨٧١، ٨٧٤-٨٨٠، ٨٨٣-٨٨٩
سد نهر بوفكران: ٩٦٧	١١٠٥، ١١١٢، ١١١٥
سراج خانة: ٦٣٨، ٦٤٧، ٦٥٦	سلا الجديدة. انظر: الرباط
سرادق تارات خانة: ٦٩٧	سلا القديمة. انظر: شالة
سرادق جهان نما: ٧٢٠	سلخانة. انظر: باب رؤ
سرادق كولا الفرنجي: ٧١١	سلسلة جبال لبنان: ١٢٥٧

سلوان: ١٠١٧

سميرليطاش: ٦٤٤

السمت. انظر: ذكرخانة

سمرقند: ٤٣، ٥٧، ٩٦، ١٦٦-١٦٧، ١٧٥،

١٧٧، ١٧٩، ٢٤٣، ٦٦١-٦٦٢، ٦٦٦-

٦٦٩، ٦٧١، ٦٧٨، ٦٨٣-٦٨٤، ٦٩١،

٦٩٦-٦٩٧، ٧٣٠، ٩٦٣، ٩٨٣

سميرنة. انظر: إزمير

السند: ٢٧١

ستغافورة: ١٢٣٦، ١٣٧٨

سهب آسيا الوسطى: ٣٢١

سهل أصفهان: ٩٦٤

سهل البقاع: ١٢٥٧، ١٤٦٨

سهل جعفر آباد: ٧١٥، ٧١٨

سهل سايس: ٩٦٢

سهل شيراز: ٧١٩، ٧٣٠، ٧٣٢، ٧٣٥

سهل عكار: ١٤٦٨

سهل الغانج: ٧٤٣

سهل ماروداشت: ٩٧٢

سهل المدينة: ١١٥٥

سهل مصلّى: ٧١٨

سهل البعقوية: ٩٦٧

سهنى باين. انظر: مشهي باوان

سهنى رويي زمين. انظر: مشهي باوان

سوتلج: ٩٦٦

السودان: ٢٠٨، ٣٤٥، ٨٤٨

سور باب المرسى: ١٣٣٤

سور صنعاء: ٨٢٢

سور قصر الحيرة: ٩٦٢

سورابايا: ١٣٩٤

سورات: ٢٨٤

سوراج بهان: ٧٧٧

سورية: ٤١، ٦٩، ٧٥، ٩٠، ١١٢، ١١٦،

١٤٠، ١٦٦-١٦٨، ١٧٥، ١٨٥،

١٩٠، ١٩٩، ٢١٨، ٢٢٤، ٣٠٢،

٣٢٠-٣٢١، ٣٣٣، ٣٦٨، ٣٧٠، ٤٠٥،

٤١٠-٤١١، ٤١٤، ٤١٦، ٤٢١، ٤٣٧،

٤٣٩، ٤٤٤، ٤٥٩، ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٧٥،

٤٨٠، ٤٨١، ٤٩٣، ٤٩٦، ٤٩٩، ٩٦٢،

٩٩٦، ١٠٠١، ١٠٦٨-١٠٦٩، ١١١٤،

١١١٩، ١١٢٢، ١١٦٣، ١١٦٨،

١٢٠٠، ١٢٠٨، ١٢١٢، ١٢٢٨،

١٢٣٥، ١٢٤٧، ١٢٤٩، ١٢٥٦-

١٢٥٧، ١٢٥٩، ١٢٦٨، ١٣٤٥،

١٤٦٨، ١٤٧٢، ١٥٠١

سورية ماندير: ٩٧٨

سوسة: ٣٦٩، ٩٨١

سوف: ٩٤٥، ٩٧٧

سوق ابن طولون: ١٠٥٨

سوق الأربعاء: ٣٩٨

سوق الأوزار: ٣٧٨

سوق أبياس: ١٤٩٥

سوق البركة: ٩٩٩-١٠٠٠

سوق البشامقية: ١٠٠١، ١٠٥٦

سوق البلاط: ٣٧٥، ٣٨٤

سوق البلغاجية: ١٠٠١

سوق بهرام باشا: ٩٩٩

سوق الترك: ٣٧٨، ٥٢٠، ٩٩٩، ١٠٥٦

سوق تشاندني تشوك: ٢٩٨

سوق الثلاثاء: ٣٢٣-٣٢٤

سوق الثور: ٦٢٦

سوق الجميل: ٦٨٢

سوق الحبوب: ٣٧٩

سوق الحدادين (حلب): ١٠١١	سوق الحدادين (حلب): ٣٨١
سوق الحدادين (تونس): ٣٧٩، ٣٧٥	سوق الحدادين (تونس): ٥٢٠
سوق الحدادين (القيروان): ٣٨١	سوق الناقة: ٥٤٠
سوق الخُصيرية: ١٠٠٨	سوق النجارين: ٣٧٩
سوق الخميس: ٣٩٨	سوق النحاسين (شيراز). انظر: بازار مسغرها
سوق الخيالة (بورصة): ٤٩٠	سوق النحاسين (تونس): ١٠٠٢
سوق الخيل (القاهرة): ١٠٠٨	سوق النحاسين (القاهرة): ١١٧، ٩٨٩، ١٠٠٢
سوق الخيل (حلب): ٤٤٦	سوق التوال: ١٢٣٨
سوق داود خان: ٧٠٩	سوق وردان: ١٩٨
سوق الدباغين: ١٠٤٤، ٣٨١	سوكوتو: ٨٩١، ٨٩٦-٨٩٧، ٩٠٠، ٩٠٣
سوق الربا: ٥٢٠	سونغاي: ٩٠٢
سوق زاريا: ٩٠٤	سوهاج: ١٤٣١
سوق ساروجة: ١٢٧٣، ١٤٩٣	سويتا: ١٨٣
سوق سرسق: ١٤٩٥	السويد: ٨٨١
سوق الصاغة: ١١٧، ١٠٠٠، ١٠٠٤	سويقة جيرون: ١٠٠٧
سوق الصباغين: ٣٧٩	سويقة علي: ٤٧٠
سوق الصرافين: ١١٧	سيثوبوليس. انظر: بيسان
سوق صنعاء: ٨٢٣-٨٢٩، ٨٣٢، ٨٤٢، ١٠٤٨	سيدي برنوصي: ١٣٥٣
سوق الطيور (شيراز). انظر: بازار مُرغ	سيدي بو سعيد: ١٣٩
سوق العطارين: ٩٩٩-١٠٠٠	سيدي سعيد: ٩٦٧
سوق غدير مغالا: ٨٥٠-٨٥٢	سيدي عبد الله الشريف: ١٠٥٩
سوق الغلة: ١٠٠٩-١٠١٠	سيدي عثمان: ١٣٥٥
سوق الغنم: ١٠٠٨	سيدي فرج: ٥٧٥
سوق الغنم القديمة: ١٠١٠	سيدي معروف: ١٣٥٩
سوق القرانة: ٣٧٥	سيدي مومن: ١٣٥٨
سوق قصبة رضوان: ٩٩٩-١٠٠٠	سيرجيوبوليس. انظر: الرصافة (سورية)
سوق القطانين: ٤٣٨	سير غارام: ٦٨٣
سوق اللفة: ٥٤٠	سيرى: ٩٧٩
السوق المشتمن: ٧٥٠	سيستان: ٢٣٩، ٢٦٠، ٢٦٢، ٧١٣
سوق مدحت باشا: ١٠٠٤	سيفيتافيكيا: ٥٨٠

سيكاندارا: ٧٦٥	شارع بن طي: ٣٧٥
سيكري: ٩٧٨	شارع بن مهدي: ١٣٢٦
سيكين غيدا: ٩٠٦	شارع بني ياس: ١٤١٣-١٤١٤
سيملا: ٢٧٣	شارع البوية: ٨٨٢
سيناء: ١٢٠٥، ١٠٠٩	شارع بيليتيه: ١٣١١
السير: ١٠٨٠	شارع بين القصرين: ٢٠٨، ٤٠٠، ٤٠٢-٤٠٣
	٤١١، ٤١٢-٤١٦، ٤١٧-٤٢١
- ش -	شارع جامعة الزيتونة: ٣٧٥
	شارع جامع الدروج: ٥٣٧
الشاتري: ٩٨١، ٧٤٥	شارع جامع الزيتونة: ٣٨٢
شاتري جاسوانت سينغ: ٧٧٨، ٧٥٥	شارع جوانفيل: ١٣٢٠، ١٣١١
شارع آتشكده: ٦٠٩	شارع الحمرا: ١٤٦٩
شارع آل مكتوم: ١٤١٣، ١٤١٥	شارع خالد بن الوليد: ١٤٢٣
شارع إسوردوا: ٣٧٥	شارع خ. خلدون. انظر: شارع بيليتيه
شارع أحمد شايب: ١٣٢٤، ١٣٢٠	شارع دار المخزن: ١٣٣٦
شارع إخاريووين طيب: ١٣٢٠	شارع الدباغين: ٣٧٥
شارع الأخوين خليل: ١٣١٥	شارع درب الأحمر: ٤٢١
شارع الأخوين دروني. انظر: شارع فرانكلين	شارع الديكيومانوس مكسيموس: ٥٠٩-٥١٠
الشارع الأعظم: ٣٢٤	٥١٠، ٥١٢-٥١٤، ٥١٧، ٥٢٠، ٨٧٦
شارع النبي: ١٤٧١، ١٤٨٨، ١٤٩٥	شارع دويوش: ١٣٢٠
شارع الأمير (هر): ٨٥١	شارع دو تريزور: ٣٨٥
شارع الأمير الخطابي: ١٣٢٤	شارع دورفيل: ١٣٢١
شارع أوكتشو موسى: ١٢٧٨	شارع ديدوش مراد. انظر: شارع ميشليه
شارع أولحاج عمروش. انظر: شارع جوانفيل	شارع ديركلراواسي: ٦٥٩
شارع إيزلي: ١٣٠٩، ١٣١١، ١٣١٤	شارع دي سيليه: ٣٨٢
١٣٢٠-١٣٢٣، ١٣٢١	شارع الرازقي هاماني: ١٣٢٣
شارع إيلافا: ٢٣٤	شارع رودكي: ٧٣١
شارع باغ شاه: ٧٣٢	شارع روفيجو: ١٣٢١
شارع البحر: ١٣٠٩	شارع الزرادشتين. انظر: درب المجوس
شارع بن بجي: ٣٧٥	شارع السجون: ٣٧٥
	شارع سعداوي صغير. انظر: شارع إيزلي

شارع السقائين: ٢٠٣
 شارع السويقة: ٨٨١
 شارع سيدي بن عروس: ٣٧٨
 شارع سيدي علي عزوز: ٣٨٤، ٣٧٥
 شارع سيدي عمورة: ٥٣٧
 شارع سيدي فاتح: ٨٧٥
 شارع شارتر: ١٣١٩، ١٣٠٩
 شارع الشرطة: ٢٠٣
 شارع شورصوران: ٦٨٣
 شارع الصليية: ٤٠٣-٤٠٤، ٤٠٦، ٤١٧، ٤٢١
 شارع الصيفي: ١٤٩٥
 شارع طشقند: ٦٦٦
 شارع طنجة. انظر: شارع أحمد شايب
 شارع عدون أحمد: ١٣٢٣
 الشارع العريض: ٦٨١، ٦٧٥
 شارع علي بومنجل: ١٣٢٢، ١٣٢٤
 شارع عمر بن الخطاب: ١٤١٣
 شارع غربال: ٣٧٨، ٣٨٤، ١١٤٣
 شارع غولستان: ٧٣١
 شارع فرانكلين: ١٣١٥
 شارع فردان: ١٤٩٩
 شارع فروخي مصطفى: ١٣٢٣
 شارع فوش: ١٤٧١، ١٤٨٨، ١٤٩٥
 شارع القديس أوغسطين. انظر: شارع
 إخباريوين طيب
 شارع قسنطينة: ١٣٠٩، ١٣١١، ١٣٢١
 ١٣٢٦، ١٣٢٣
 شارع القصبة: ٣٧٥، ٣٧٨، ٣٨٢
 شارع القناصل: ٨٦٧، ٨٨١

شارع الكاردو: ٥٠٩-٥١٠، ٥١٢-٥١٤،
 ٥٢٠-٥٢١، ٥٢٥، ٥٣٤
 شارع كراكول: ٦٧١، ٦٧٣، ٦٨١-٦٨٣
 شارع كريم خان: ٧٠٥
 شارع لطف علي خان: ٧٠٥، ٧٠٩-٧١٠
 شارع لير: ١٣١١
 شارع المؤذنين: ٢٠٣
 شارع ماكينا غرغير: ٨٥١-٨٥٢
 شارع المحاكم: ٣٧٥
 شارع محسن: ٣٧٥
 شارع المدرسة السليمانية: ٣٨٥
 الشارع المستقيم (هرر): ٨٥١
 الشارع المستقيم (دمشق): ١١٩
 شارع مشير فاطمي: ٧٣٢
 شارع مصطفى بن بولعيد. انظر: شارع
 قسنطينة
 شارع المعرض: ١٤٨٨، ١٤٩٥
 شارع المفتي: ٣٨٤
 شارع المقاصيص: ١١٧
 شارع موزاوي عبد العزيز. انظر: شارع
 دويوش
 شارع موغادور: ١٣٢٠
 شارع ميرزا ساتشاك: ٦٧٢
 شارع ميشليه: ١٣١٤-١٣١٥
 شارع الميناتكي: ٣٧٥
 شارع النساء: ٢٠٣
 شارع نمازي: ٧٣٢
 شارع النيار: ٣٧٨، ٣٨٤
 شارع هارشد علي. انظر: شارع موغادور
 شارع ويغان: ١٤٧١

شالّة: ٨٦٧، ٨٧١، ٨٧٥-٨٧٦، ٨٧٩، ٨٨٢، ٨٨٩
 شان دو مانوفر. انظر: ساحة أول ماي
 شاه آباد: ٩٦٦
 شاه تشيراغ: ٧٠٣، ٧٠٥، ٧٠٧-٧٠٨، ٧١٢، ٧١٤
 شاه جهان آباد: ٤٦، ٢٧٣، ٢٧٧-٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٨-٢٩٤، ٢٩٦-٢٩٧، ٧٣٩، ٧٤٤، ٧٤٩-٧٥٣، ٧٧٢، ٧٧٩-٧٨٠، ٩٦٦. انظر أيضاً: دلهي.
 شامروود: ٦٧٢-٦٧٥، ٦٨٠، ٦٨٥، ٦٨٧
 شامريساييز: ٦٦٩-٦٧٠، ٦٧٤-٦٧٥، ٦٩٧
 شاه زنده: ٦٦٩
 شاه عرب: ٦٨٢
 شاه غدير: ٧١٥-٧١٦
 الشاوية: ١٣٣٤، ١٣٣٦
 الشايخانة: ٦٧٧
 شبكة أكوا أوغستانا: ١٠٧٨-١٠٧٩
 شبه جزيرة إسطنبول: ٢٢١، ٦٤٥
 شبه الجزيرة الأيبيرية: ١٤٠، ١٨٠-١٨١، ٢٣٨، ٥٤٦، ٥٨٧، ٩٤٣، ٩٦٧
 ١٠٧٤، ١٠٩٠، ١١٣٧، ١٢٣١
 شبه الجزيرة العربية: ٦٩، ١١٥، ١٤١، ١٤٩، ١٥٨، ١٦٩، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٨-١٩٩، ٢٣٨، ٤٣٩، ٨٢٢، ٨٣٣، ٨٤٢، ٩٣٨، ٩٤٣، ٩٤٦، ٩٤٩، ٩٦٨
 ١٠٦٨، ١٢٨٧، ١٣٦٣، ١٤٦٨
 شبه الصحراء الأفريقية: ٨٩١، ٩١٠-٩١١، ٩٣٦
 شبه القارة الهندية: ٢٦٩-٢٧١، ٢٧٣-
 ٢٧٤، ٨٠٠، ٩٤٠، ٩٤٣، ١٢٣٥. انظر
 أيضاً: الهند

شتورة: ١٤٧٨
 شرشال: ٥٤٨
 الشرق الأدنى: ٥٧، ١١٥، ١٣٧-١٣٨، ١٥٨، ١٨٤، ٢٣٧، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦٦، ٣١٣، ٣٣٣، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٨٤، ٤٣١، ٤٣٨، ١٠١٢، ١٠٤٨، ١٠٥٨، ١٤٧٢
 الشرق الأقصى: ١١٣، ٢٥٢، ٦٤١
 الشرق الأوسط: ٥٤-٥٦، ٥٩، ٦٤، ٦٦، ٧١، ٧٤، ٨٦، ١٤٠، ٣٠٨، ٣٣٣، ٤٤٨، ٤٧٣، ٤٧٩، ٨٩٢، ٩٣٨-٩٣٩، ٩٥٨، ٩٨٧، ١١١٩، ١١٢٢، ١١٥٣، ١١٥٨، ١١٦١، ١١٦٨، ١٢٠٠-١٢٠١، ١٢٤٤-١٢٤٥، ١٣٦٣، ١٣٦٥-١٣٦٦، ١٣٧٣، ١٣٧٥، ١٣٨٦، ١٣٨٨-١٣٩٠، ١٣٩٧، ١٤٢٠، ١٤٦٨، ١٤٩٤
 شروان: ٤٩٢
 شريش: ٨٧٥
 شمال أفريقيا: ٥٥-٥٧، ٥٩، ٦٣-٦٤، ٦٦، ٨١-٨٢، ١٤٠، ١٦٣، ١٦٦، ٣٧٠، ٣٨٤، ٥١٤، ٥٥٦، ٥٥٨، ٥٨٠، ٨٩٢، ٩١٠، ٩٣٧، ٩٤٣، ٩٤٩، ٩٧٤، ٩٧٧، ٩٩٦، ١٠٤٤، ١٠٧٢، ١١٣٨، ١١٥٣-١١٥٤، ١٢٣٢، ١٢٥٠، ١٢٨٩-١٢٩٠، ١٢٩٢-١٢٩٤، ١٣٠٣، ١٣٢٩. انظر أيضاً: أفريقيا
 شهارة: ٩٤٢
 شهرستان: ٥٩٨، ٦٦٢-٦٦٤، ٦٦٧، ٦٧١-٦٧٢، ٦٧٤-٦٧٥، ٦٧٨-٦٨٠
 ٦٨٢
 شوا: ٨٤٧-٨٤٨
 شوشتر: ٧٢٩، ٩٧٢، ٩٧٥

صوفى: ١٤٧٧
 صوفى: ٢٢٩-٢٣٠
 صومعة بير بونو: ٧٣٥
 الصورة: ٨١، ١١٥١، ١١٥٤
 صيدا: ١٦٩، ١٢٥١، ١٢٥٦، ١٤٦٨،
 ١٤٨٩
 الصين: ٨٨، ١٠٦، ١١٣، ١٤٠، ٢٦٤-
 ٢٦٥، ٥٠٣، ٦٤١، ٨٥٢، ٨٦١، ٩٧٨،
 ١١٣٥، ١٣٨٨

- ض -

الضاحية الجنوبية لبيروت: ١٤٧٧-١٤٧٨،
 ١٤٨٠، ١٤٨٢، ١٤٩١، ١٥٠١
 ضاحية القرن الرومانى: ٥٣١
 ضاحية كروان الصحو: ٨١٥
 ضريح آي أبدة: ٨٥٦
 ضريح أبو أيوب الأنصارى: ٦٥٥
 ضريح أبي يوسف يعقوب الميرنى: ٨٧٦
 ضريح أحمد بن عاشر: ٨٧٩
 ضريح أحمد بن موسى الكاظم: ٧١٤
 ضريح اعتماد الدولة: ٧٥٢، ٧٥٥، ٧٥٨-
 ٧٥٩، ٧٦٤-٧٦٥، ٧٧٠، ٧٧٧
 ضريح أفضل خان شيرازى: ٧٤٦، ٧٥٥،
 ٧٦٢، ٧٧٠
 ضريح الإمام أبو بكر الجويبارى: ٦٨٨
 ضريح إمام زاده إبراهيم: ٧١٤
 ضريح الإمام الشافعى: ٣٩٩، ٤١٣، ٤١٥
 ضريح الإمبراطور همايون: ٢٩٤، ٧٤٢
 ضريح أمجد زاده حسين باشا: ٦٣٨
 ضريح الأمير نور بن مجاهد: ٨٥٢، ٨٥٥
 ضريح الأمير يشبك بن مهدي: ٤١٤

الشويقات: ١٤٧٧
 شيتاغونغ: ٢٨٤
 الشيخ جلال: ٦٨٢
 شيخوبورا: ٩٨١
 شيراز: ١٦٥، ١٧٦، ١٨٦، ٢٤١، ٦٠١،
 ٦٩٠، ٧٠١، ٧٣٨، ٩٥٣
 شيرون والى كوتى. انظر: مكتبة دارا شكوه
 شيز: ١٨٠
 شيكاغو: ١٣٦٢

- ص -

الصالحية: ١٣٤
 صبراتة: ٥١١
 صبرة المنصورية: ٢٠٠-٢٠١، ٢٠٦-٢٠٧
 الصحراء الجزائرية: ١٣٠٣
 الصحراء السورية: ١٨٨، ٤٨٠
 الصحراء الكبرى: ٢٣٨
 صحراء لوت: ٢٦٠، ٢٦٤
 صربيا: ٢١٧، ٢١٩، ١٢٥٩
 الصعيد (مصر): ٩٨٨، ١٤٣١
 صفاقس: ٨١، ٣٦٦، ٣٦٨، ٣٧٤، ٣٧٩،
 ٣٨١-٣٨٢، ٩٨١
 الصفا (مكة): ١٠٢٨، ١٠٣٢، ١٠٣٤-
 ١٠٣٥، ١٠٣٨
 صفد: ٣٠٥
 صفرو: ٤٢، ١١١٥-١١١٦، ١١٢٢
 صقلية: ٥١٣، ٥١٩، ٥٨٠
 صنعاء: ١٤١، ٨٢١-٨٤٤، ٩٥٩، ١٠٢١-
 ١٠٢٣، ١٠٤٨-١٠٤٩، ١٠٥١
 ١٠٥٤، ١١١٣، ١٣٦٤
 صور: ١٦٩، ١٤٨٩

ضريح بابا كوهي: ٧٢٨
 ضريح براق حاجب: ٦١٦
 ضريح تلي بابا: ١١٨٧
 ضريح جعفر خان: ٧٧٨، ٧٧٠
 ضريح جورلولو علي باشا: ٦٣٥
 ضريح حافظ الشيرازي: ٧٠٣، ٧١٦، ٧٢١، ٧٢٣
 ضريح خاتون قيامه: ٧٠٣
 ضريح الخليفة أبي بكر الصديق: ١٠١٨، ١٠٣٢
 ضريح الخليفة عمر بن الخطاب: ١٠١٨، ١٠٣٢
 ضريح خوجة أنابك: ٦١٣
 ضريح خوجة زين الدين: ٦٦٥
 ضريح خوجة سنان: ٦٣٥
 ضريح خوجة عبد الرشيد: ٦١٦
 ضريح رستم بن عبد الله الخراساني: ٧١٥
 ضريح روح آباد: ٦٦٨، ٦٧٠
 ضريح ساراي ملك خانم: ٦٩٧
 ضريح السامانيين: ٦٦٢
 ضريح السلطان إبراهيم: ٦٥٧
 ضريح السلطان أحمد الأول: ٦٣٢، ٦٥٧
 ضريح السلطان أحمد الثاني: ٦٥٨
 ضريح السلطان إينال: ٤١١
 ضريح السلطان بايزيد الثاني: ٦٥٧
 ضريح السلطان برسباي: ٤١١
 ضريح السلطان برويز: ٧٦٤
 ضريح السلطان حسن: ٤٠٩
 ضريح السلطان خوشقدم: ٤١١
 ضريح السلطان سليمان الثاني: ٦٥٨
 ضريح السلطان سليم الثاني: ٦٥٧
 ضريح السلطان عثمان الثاني: ٦٥٧
 ضريح السلطان قانصوه الغوري: ٤١٥
 ضريح السلطان قايتباي: ٤١١، ٤١٣، ٤١٧
 ضريح السلطان قطب الدين: ٦١٦
 ضريح السلطان محمد الثاني: ٦٥٧
 ضريح السلطان مراد الثالث: ٦٥٧
 ضريح السلطان مراد الرابع: ٦٥٧
 ضريح السلطان مصطفى الأول: ٦٥٧
 ضريح السلطان المنصور قلاوون: ٤٠٣، ٤١٦
 ضريح سليم شيشتي: ٢٧٩، ٢٨٥
 ضريح السيدة رقية: ٤٠٠
 ضريح السيدة نفيسة: ٤٠٠، ٤١٣، ٤١٥
 ضريح سيد حسن باشا: ٦٣٥
 ضريح السيد علاء الدين الحسين: ٧٠٣، ٧١٤، ٧١٢، ٧٠٥
 ضريح السيد مير حمزة: ٧٠٣، ٧١٢، ٧١٤-٧١٥، ٧١٨، ٧٢٠
 ضريح السيد مير محمد: ٧١٠، ٧١٢، ٧١٤
 ضريح سيدي بليوط: ١٣٣٦، ١٣٥٣
 ضريح سيدي عبد الله بن حسن: ٨٨٤
 ضريح شاه زاده منصور: ٧١٥
 ضريح شجرة الدر: ٤٠٠
 ضريح الشيخ أبادير: ٨٥٢، ٨٥٤-٨٥٦
 ضريح الشيخ داوود: ٦١٩
 ضريح الشيخ سعدلي: ٧١٢، ٧٢٣-٧٢٥
 ضريح الشيخ سيد الدين: ٧١٢
 ضريح الشيخ نوربخش: ٧١٢
 ضريح الظاهر قانصوه أبو سعيد: ٤١١
 ضريح العادل طومان باي: ٤١١
 ضريح عبد القادر الجيلاني: ٨٥٤-٨٥٦

طاق تيمشيه عبد الله خان: ٦٩٤
 طاق زارغاران: ٦٧١-٦٧٢، ٦٧٥، ٦٧٧،
 ٦٨٠-٦٨٢، ٦٩٤
 طاق صرافان: ٦٧٢-٦٧٥، ٦٧٧، ٦٧٩،
 ٦٨٢، ٦٩١
 طاق طيريجاما: ٦٧٧
 طبرية: ٩٩٣
 طرابلس: ٥٠٩-٥٤٢، ٨٧١، ٨٨٠، ١٠٤٦،
 ١١٥٥، ١٢٥٩، ١٢٦١، ١٢٦٣-
 ١٢٩٨، ١٢٦٤
 طرابلس (لبنان): ٩١، ١٦٩، ٤٣٧، ٤٤٦،
 ١٤٦٨، ١٤٨٩
 طراغونة: ١٨١
 طرسوس: ١٢٥٦
 طرسوس: ٥٥
 طريفة: ٣٥٧
 طريق أدرنة كابي - توبكابي: ٦٥٥
 طريق السيار: ١٣٥٩
 طريق المطار (بيروت): ١٤٨٦
 طريق بابا كوهي: ٧٠٣
 طريق باسكارسيا: ٢٣٣
 طريق بيروت - دمشق: ١٢٥٧، ١٤٦٧،
 ١٤٩١

طريق جلافنايا أوليتسا: ٦٧٣
 طريق جَمْنَا - كنارا: ٧٧٧، ٧٧٤
 طريق الرباط: ١٣٥٣
 طريق الرينغ (بيروت): ١٤٩٨
 طريق سراسي: ٢٣٣
 طريق الشيخ سعدي: ٧٠٣
 طريق مديونة: ١٣٣٧، ١٣٥٠، ١٣٥٨-
 ١٣٥٩

ضريح عمر بن علي: ١٢٣٤
 ضريح غضنفر آغا: ٦٣٥
 ضريح غيسو دراز شيشتي: ٢٨٥
 ضريح قسمة بن العباس: ٦٦٩
 ضريح قرقماز: ٤١١
 ضريح قره مصطفى باشا: ٦٣٥
 ضريح قطب الدين بختيار كاكاي: ٢٩٤
 ضريح كالا غومباد: ٧٤٦
 ضريح كوبرولو: ٦٣٥
 ضريح محمد شاه: ٦١٦
 ضريح مريم الزمان: ٧٦٥
 ضريح معين الدين شيشتي: ٢٨٥
 ضريح ممتاز محل: ٧٦٧، ٧٦٩
 ضريح مولاي إدريس: ١١٧، ٣٦١، ٣٧٧،
 ٣٧٩، ٩٩٥
 ضريح الناصر الفرج بن برقوق: ٤١١
 ضريح الناصر محمد بن قلاوون: ٤٠٥
 ضريح النبي محمد: ١٠١٨، ١٠٢٤، ١٠٣٢
 ضريح نجم الدين الأيوبي: ٤٠٠
 ضريح نظام الدين أولياء: ٢٨٥، ٢٩٤
 ضريح الوزير الأعظم إبراهيم باشا: ٦٣٥
 ضهور الشوير: ١٤٧٧

- ط -

الطائف: ٩٧٢
 طاق أورد قُروشان: ٦٧٧، ٦٧٢
 طاق بستان: ٧١٤
 طاق تشهار سو تونبا قُروشان: ٦٧٧
 طاق قَلْبَاك قُروشان: ٦٧١-٦٧٢، ٦٧٤-
 ٦٧٥، ٦٧٧، ٦٨٧، ٦٩٢، ٦٩٤

العسكر: ١٩٨	طليطلة: ٤١، ٤٣، ٧٩-٨٠، ١٨١-١٨٢،
العطف: ٩٦٠	١٠٩٠
العقبة: ٢٦٣	طنجة: ١٦٣، ١٨٣، ١٠٧٩، ١٣٢٧، ١٣٣٦
عقبرة: ٣٤٠	طهران: ٩٤، ٧١١، ٩٤٦، ٩٤٩، ٩٧٤-
عكا: ١٢٥٦	٩٧٦، ١٣٦٥، ١٣٩٤
العليا: ٢٠٨	طواحين الحناء: ١٠٨٨
عماد باغ نظام: ٧٩٦	طور (سيناء): ١٠٠٩
عمّان: ١٧٠، ١٩٩، ٣٢١، ٣٢٤، ١٤٧٩،	طيسفون: ١٧٣-١٧٤، ١٨٠، ١٨٦
١٥٠١، ١٤٩٣	
العمودان: ٧٣١	- ظ -
عنجر: ٤٥، ١٨٨، ١٩٩، ٢٦٣، ٦٥٩،	الظهران: ١٣٦٩
١٠٦٩-١٠٧٠	
عُباط. انظر: أوريا	- ع -
عيدكاه: ٢٩٤	
عين بركة: ٨٧٨	العاشر من رمضان: ١٣٦٦
عين التفاحة: ١١٦٠	عالية: ١٤٧٧
عين خرّودة: ١٣٥٨	عبادية: ١٤٧٧
عين الديوك: ٩٦١	العباسية: ١٤١، ٢٠٠-٢٠١، ٣٩٩
عين السلطان: ٩٦١	العبدلي: ١٤٩٣
عين شوق: ١٣٥٢	عَدَل: ٨٤٥
عين غبولة: ٨٦٩	عدن: ٨٤٨، ١٢٥٩
عين النويمة: ٩٦١	العراق: ٣٩، ٦٩، ٩٤، ١١٥-١١٦، ١٤٠،
عينبال: ١١٦٠	١٦٥، ١٧٣، ١٧٥، ١٩٠، ١٩٩، ٢٠١-
عينطورة: ٤٧٩	٢٠٢، ٢١١، ٢٤١، ٢٥٠، ٢٥٩-٢٦٠،
	٣١١، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٤١، ٣٧٠،
	٤٦٣، ٨٧٣، ٩٣٨، ٩٤٦، ٩٤٩،
	٩٥٤-٩٥٦، ٩٥٨-٩٥٩، ٩٦٤، ٩٨٨،
	٩٩٦، ١٠٠٨، ١٠٤٨، ١٠٦٨، ١١٦٢،
	١٢٥٩، ١٣٦٤-١٣٦٦، ١٣٨٨، ١٤٦٨،
- غ -	العربية السعيدة: ٨٢٢
غابة بلغراد: ٦٥٥، ٩٦٩	عرمون: ١٤٧٧
غات: ٥٢٨	
غار دن سيتي: ١٣٦٦، ١٤٦٠	
غَبي: ٢٤٣	

عُجْدِيوان: ٦٩٦

غدامس: ٥٢٨

الغَرَارة: ٩٦١

غرداية: ٩٦٠

الغرفة الباردة. انظر: خان خناك

غرفة التدليك. انظر: خان خادم

غرفة تيت غار: ٨٦٢

الغرفة الحارة. انظر: خان جرم

غرفة ديرا: ٨٥٧، ٨٦١-٨٦٢

غرفة غدِير غار: ٨٥٧-٨٦٢، ٨٦٤

غرفة الفواكه: ٦٣٨

غرفة كويتي قالا: ٨٥٧، ٨٦٢

غرفة كيرتات: ٨٥٧، ٨٦١-٨٦٢

غرفة المقرج: ٨٣٦-٨٣٧

غرناطة: ٦٩، ٧٩، ٣٤٧، ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٥٧

٥١٤، ٥٤٧، ٨٧٥، ٨٩٥، ٨٩٧، ١٢٣١

غريان: ٥٢٥

الغلاريوس المقدس: ٢٢٠

غَلَطَة: ٢٣٤، ٦٢٥، ٦٢٩، ٦٤٢، ١٢٦٢

غَلَطَة سراي: ٦٤١

غواندو: ٨٩٦-٨٩٧، ٩٠٠

غوجارات: ٢٧١، ٢٨٤، ٩٤٦، ٩٧٨

٩٨١، ٩٨٥

الغُور: ١٧٦، ٢٧٩، ٢٨٥-٢٨٦

غوزو: ٥١٥

غوطة دمشق: ٩٦٣-٩٦٤

غوطة ليبيا: ٩٦٣

غولبارغا: ٢٧٧، ٢٨٥

غولكوندا: ٢٧١-٢٧٢، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٦

٧٨٦، ٧٩٣، ٨١٥، ٩٨٢

غون: ٢٧٥

غويلين: ١١٣٥

غي آباد: ٨٥٧

غي غار: ٨٥٧-٨٥٩، ٨٦٢-٨٦٣

غيتزبورغ: ٦٦٤

- ف -

فاتح بور سيكري: ٤٦، ٢٧٩، ٢٨٥-٢٨٦

٢٨٨، ٢٩٨، ٧٧٨، ٩٤٢، ٩٤٦، ٩٤٨

٩٤٩، ٩٥٣، ٩٧٨

فاردار: ٢٢٨

فارزانا: ٩٦٥

فارفآن: ٩٦٤

فاس: ٥٣، ١٠٤، ١٠٦، ١١٧، ١٢٣

١٣٠-١٣١، ١٦٥، ١٨٣، ١٩٩، ٢٠٨

٢٠٩، ٣٣٢، ٣٤٣-٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٨

٣٧٦-٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٦، ٣٩٧، ٥٨٧

٨٦٩، ٨٨٦، ٩٣٤، ٩٤٥، ٩٤٩، ٩٦٢

٩٩٥-٩٩٦، ٩٩٩-١٠٠٠، ١٠٠٦

١٠٤٦، ١٠٧٩، ١١٠٥-١١٠٦

١١١٠، ١١١٢-١١١٣، ١١١٦

١١٣٥، ١١٤٧-١١٤٨، ١١٥٠

١١٥٢، ١١٥٥، ١٣٢٧، ١٣٣٤، ١٣٥٠

فاس الجديدة: ٢٠٩، ٣٥٠، ٣٧٧

فاس القديمة: ٣٤٩-٣٥٠

فالنسيا: ٧٩، ٥٤٧

فانكوفر: ١٣٩٦

فايستوس: ٣٧٠

فتجار: ٨٤٥

الفجيج: ٩٧٧

فرساي: ٢٤٣

فرشوط: ٩٩٢

فندق ألبتي: ١٣٢٦	فرغانة: ٣٣٢
فندق اليهود: ٣٤٨	فرنجةستان: ٤٨٦
فندق برج العرب: ١٣٩٠-١٣٩١، ١٤١٨-١٤٢١	فرنسا: ٧٢، ١٠٤، ١١٠، ١٣٢، ٤٦٧، ٤٧٣-٤٧٤، ٥١٩، ٥٢٨، ٥٦٤، ٥٨٣، ٧٣٣، ٨٨١، ٩٩٢، ١١٠٩، ١١٢١، ١٢٥٨-١٢٥٩، ١٢٦٢، ١٣٣٣، ١٣٤٠-١٣٤١، ١٣٤٩
فندق الجميرا بيتش: ١٤١٨-١٤٢٠	فروخ آباد: ٢٧٢، ٢٨١
فندق حياة ريجنسي (دمبي): ١٤٠٢	فزان: ٩٣٧، ٥٢٨
فندق الدار البيضاء (الحياة): ١٣٥٥	الفساقي الأربعون، انظر: كرك تشاشمة
فندق الزاهرية: ٥٤٠	الفسحة: ١١٦٦
فندق زميت: ٥٣٥	الفسطاط: ٨٦، ١٠٦، ١٣٠، ١٦٥-١٦٦، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٦-١٩٨، ٢٠١، ٢٠٦-٢٠٧، ٢١٠-٢١١، ٣٨٣، ٣٩٩-٤٠٠، ٤٠٢-٤٠٤، ٤٠٦-٤٠٨، ٤١٣، ٤١٥، ٤٢٠-٤٢١، ٤٢٣، ٩٨١، ١٠٠٧، ١١٥٤-١١٦٢، ١١٦٣، ١٢٣١، ١٢٤٦، ١٢٣٣
فندق العطارين: ٩٩٧	فقيق، انظر: فكيك
فندق الفرنسيين: ٩٩٧	فكيك: ٩٤٥
فندق فوركس روتانا: ١٤١٩	فلسطين: ١٦٨، ٤٣٧، ٤٣٩، ٤٧٥، ٩٤٩، ٩٨٩، ١٠١٦، ١٠٦٨، ١١١١، ١٢٢٩، ١٢٣٥، ١٢٤٥، ١٢٤٧، ١٢٥٦-١٢٥٧، ١٤٦٨، ١٣٠٤، ١٢٥٧
فندق فيرمونت: ١٤١٧	فلکه تماشا: ٧٣٢
الفندق الكبير: ٥٢٠	فلکه ستاد: ٧٣٢
فندق كوتا سرينا: ١٣٩٢	فلورنسا: ٣٩٦
فندق لكسلسيور: ١٣٣٨	فم الصلح: ١٧٣
فندق الهناء: ٣٧٨، ٣٨٤	فناء أكبر محل: ٧٧٢-٧٧٣
فوليبليس: ١٨٣، ١٨٥، ٨٧٥	فناء جهانغير محل: ٧٧٢-٧٧٣
فيجاياتاغار: ٢٧١	فندق أسكور: ٨٧٨
فيروز آباد: ١٧٥-١٧٦، ٢٤١-٢٤٢، ٢٥٩-٢٦٠، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨٦، ٢٨٨-٢٨٩، ٢٩٧، ٧٠٣، ٩٦٦	فندق الشمع: ٣٥٢
فيروزان: ٩٦٤	
فيروز شاه: ٩٦٦	
فيريا: ٢٢٣، ٢٢٦-٢٢٩	
فيلا ابن شهيد: ١٠٨٨	
فيلا دلفيا: ١٣٦٨	
فيلا كوبي: ٣٦٩	
الفيليبين: ١٣٩٦	
الفيوم: ٩٥٦، ٩٨٨	
فيتا: ٥٧٨، ٦٣٨، ١١٨٢	

- ق -

١٢١٦-١٢١٧، ١٢١٩، ١٢٢١،

١٢٣٣-١٢٣٤، ١٢٤٤، ١٢٤٦،

١٢٥٦، ١٢٥٨، ١٢٦٣، ١٢٦٥،

١٢٦٩-١٢٧١، ١٢٧٥-١٢٧٧،

١٢٧٩-١٢٨٠، ١٢٨٤، ١٣٦٤،

١٣٦٦-١٣٦٨، ١٣٨٧، ١٣٩٤-

١٣٩٦، ١٤٢٩-١٤٦٣، ١٤٧٩

القاهرة (القاهرة): ١٢٠، ١٢٢، ١٣٤،

١٠٠٢-١٠٠٤

القاهرة الكبرى: ١٢٢، ٧٤٠، ١٣٦٨،

١٤٣٣-١٤٣٤، ١٤٣٦، ١٤٣٩،

١٤٤٧-١٤٤٨، ١٤٥٨

قباب مزدلفة: ١٠٣١

قباب منى: ١٠٣١

قبة بائعي الدهون. انظر: طاق تشهار سوتونبا
فروشان

قبة بائعي الرمان. انظر: طاق أورد فروشان

قبة باعة القبعات. انظر: طاق تلباك فروشان

قبة المقدس: ١٠٣٢

القبة الخضراء: ٦١٥-٦١٦

قبة زمزم: ١٠٢٨

قبة سَبْر. انظر: القبة الخضراء

قبة السلسلة: ٤٢٨، ٤٣٤

قبة سيدي بليوط: ١٣٣٧

قبة الشرب. انظر: سقاية العباس

قبة الصاغة. انظر: طاق زارغاران

قبة الصخرة: ٩١، ١٧١، ٤٢٧-٤٢٩،

٤٣٢-٤٣٤، ٤٣٩-٤٤٠، ١٠١٤-

١٠١٥، ١٠١٩، ١٠٣٨

القبة العباسية. انظر: سقاية العباس

قبة عمر: ١٠٣٢

قبة الفداوية. انظر: مسجد القبة (الفداوية)

قاضيان: ٢٨٥

قاعة تشيني خانة: ٧٩٨

قاعة حياة: ٢١٧-٢١٨، ٣١٣

قاعة خاصة دولت خانه: ٧٧٣

قاعة دربار تشاو محل: ٨١٠، ٨١٢

قاعة دولت خانه: ٧٧٢

قاعة صوفا: ٢١٧-٢١٨، ٢٣٤، ٣١٣،

١١٦٠-١١٦١

قاعة العرش: ٨٠٨، ٨١٧

قاعة عينة خانة: ٧٩٨-٧٩٩، ٨١٤

قاعة مرايا الدربار: ٨١٢

قاعة الغرخانه: ٦٩٢

قاعة فانوس عبد الله خان: ٦٩٩

قاهر محل: ٩٦٤

القاهرة: ٤٢-٤٣، ٤٥-٤٦، ٥٥، ٦٨، ٧٧،

٨٢-٨٧، ٩٠، ١٠٤، ١٠٩، ١١٧-

١٢١، ١٢٤، ١٢٧-١٢٨، ١٣٠-١٣٥،

١٦٦، ١٨٩، ١٩١، ١٩٩، ٢٠٦-٢٠٩،

٢١١، ٢٢٣، ٣٠٨، ٣١١، ٣٢٦، ٣٢٩،

٣٧٤، ٣٩٩-٤٢٥، ٤٣٧-٤٣٨، ٤٤٣،

٤٦٤-٤٦٦، ٤٧٨، ٤٨٥، ٥١٧، ٥٣٩،

٥٦٢، ٥٨٤، ٩٤٥، ٩٥٤، ٩٨٨-٩٨٩،

٩٩٢-٩٩٧، ٩٩٩-١٠٠٤، ١٠٠٦-

١٠١١، ١٠٤٢-١٠٤٧، ١٠٤٩،

١٠٥١-١٠٥٢، ١٠٥٤، ١٠٥٦-

١٠٥٩، ١٠٦١-١٠٦٤، ١١٠٩،

١١١٧-١١١٨، ١١٢١، ١١٤٦،

١١٥٦، ١١٦١-١١٦٢، ١١٦٤-

١١٦٩، ١١٧١-١١٧٢، ١١٩٩-

١٢٠٢، ١٢٠٦، ١٢٠٨، ١٢١٣،

قرية الفاو: ١٩٢
 قرية مدشر الشاطبي: ٣٤٥
 قرية الهراوين: ١٣٥٨
 قزوين: ٢٥٢، ٢٥٤، ٧٠١، ٧٢٠، ٩٤٦، ٩٧٥
 القسطنطينية: ٢١٩-٢٢٠، ٢٢٥، ٣٣١-
 ٣٣٢، ٤٨٣، ٤٩٢، ٥٤٤، ٥٧٣، ٦٢٥،
 ٦٢٧، ٩٤٨، ١٠٩٧، ١٢٣٣
 قسطوريا: ٢١٨، ٢٢٩
 قسطنطينية: ٥٥٢، ٥٨٧
 قشتالة: ٣٥١، ٧٢٩، ٨٧١
 القصبة الأندلسية: ٨٦٩
 القصبة (تورغوتلو): ١٢٥٧
 القصبة (تونس): ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٧٩، ٣٨١،
 ٣٩٢
 القصبة (الجزائر): ١١٩، ٥٤٩، ٥٥٤،
 ٥٦٢-٥٦٣، ٥٦٩، ١١٤٩، ١٣٠٩
 ١٣١١، ١٣١٤
 القصبة (المغرب): ٢٠٩، ٨٦٩-٨٧٠،
 ٨٧٩-٨٨٢، ٨٨٧
 القصبة (الهند): ٢٧٥، ٢٨٢-٢٨٣، ٢٩٩
 قصبة الوداية: ٨٦٧، ٨٦٩، ٨٧٣
 القصر الأبلق: ٤٠٧
 قصر ابن تومرت: ٨٧١
 قصر ابن مقله: ٣٢٥
 قصر الأمير أبو إسحاق: ٧٢٣
 قصر أبو نصر: ١٦٧، ١٧٦
 قصر أبو يحيى الكواكبي: ٤٧١
 قصر أخرا: ٧٥٠
 قصر أقسراي: ٦٩٧
 قصر الطنبغا المارديني: ٤٠٦

قبة قاعة الدراسة. انظر: درس خانة
 قبة يشبك: ٣٩٩
 قبر آدم: ١٠٢٩
 قبر تيمورلنك: ٦٧٠
 قبر خان علم: ٧٧٠
 قبر محمود بن إبراهيم أدهم: ١٠٣٨
 القبر المقدس: ٩١، ٤٢٨، ٤٣١، ٤٣٦،
 ٤٣٨-٤٤٠
 قبور سلالة تيمورلنك: ٦٧٠
 القدس: ٤٥، ٩١-٩٢، ١٣٤-١٣٥،
 ١٦٦-١٦٨، ١٧١، ٤٢٧-٤٤٢،
 ٩٦٩، ١٠١٣-١٠١٥، ١٠١٧-١٠١٨،
 ١٠٢٩، ١٠٣٢، ١٠٣٤-١٠٣٥،
 ١٠٣٧-١٠٣٩، ١٢٠٠، ١٢١٢،
 ١٢٤٤-١٢٤٥، ١٤٦٥
 قدمگاه خضر: ٧١٥-٧١٦
 قرطاج: ١٩٩
 قرطبة: ٦٩، ١٦٥-١٦٦، ١٨١، ١٨٣،
 ١٨٥، ٢٠٨، ٣٢٦، ٣٥٥، ٣٨٤، ٩٣٤،
 ٩٤٦، ١٠٧٤-١٠٨١، ١٠٨٥-١٠٩٢
 القرن الذهبي: ٦٢٥، ٦٢٧، ٦٣٠، ٦٤٧،
 ٦٤٩، ٦٥١، ٦٥٣، ١١٩٢-١١٩٣،
 ١٢٦٢
 قرية آيت لحسن: ١١٣٩-١١٤١
 قرية بانوب: ١٢١٠
 قرية بنقوسة. انظر: حي بنقوسة
 قرية البهاليل: ٣٤٥
 قرية جوير: ١٢٤٧
 قرية راجوارا: ٧٧٨
 قرية سرياقوس: ٤٠٥، ٤١٦-٤١٧، ٤٢٠
 قرية شبطا: ١٧٢
 قرية ضياء الدين. انظر: حي الشيدان

- قصر إمام قُلي خان: ٧١٠، ٧١٧، ٧٣٢، ٧٣٧
- القصر الأموي (قلعة عمان): ٣٨٣
- قصر الأمير جانبك: ٤١٣
- قصر الأمير حميد: ٣٢٣، ٣٢٥
- قصر أيوب: ٦٣٦
- القصر الأيوبي: ١١٦٣
- قصر برسيوليس: ٧١٣، ٧٢٨، ٧٣٠
- قصر البستان: ١٠٨٨
- قصر بشكطاش: ٦٣٦
- قصر بكتيمور: ٤٠٦
- قصر بني جنيد: ١٧٤
- قصر بيغلر بيكي: ٧٠٥
- قصر التاج: ٢٠٤، ٣٢٣-٣٢٤
- قصر تشاو محل: ٧٨٦-٧٨٧، ٨٠١-٨٠٢
- ٨٠٨-٨١٥، ٨٢٠
- قصر تكفور: ٦٤١
- قصر تويكابي: ٧٧، ٦٢٦، ٦٣٣، ٦٣٦
- ٦٣٨، ٦٤٣-٦٤٥، ٦٥٦-٦٥٧
- ١١٧٥-١١٧٧، ١١٧٩، ١١٩٥
- قصر الثريا: ٣٢٣
- قصر جان بولاد: ٤٦٥
- قصر جايور: ٧٥١، ٧٧٧
- قصر جراح باشا: ٦٣٤
- القصر الجعفري: ٢٠٤، ٣٢٣
- قصر جلال الدين شاه مسعود: ٧٢٣
- قصر الجوسق: ٣٢٣
- قصر الحجاج: ٢٠٢
- القصر الحسني. انظر: القصر الجعفري
- قصر حصن شاه يوهان: ٧٨٠
- قصر الحيرة الشرقي: ٤٥، ١٩٩، ٣٨٣، ٩٦٢
- قصر الحيرة الغربي: ٩٦٢، ٩٧٠، ١٠٦٩
- قصر خربة المَفَجَر: ٩٦١-٩٦٢، ١٠٧٠
- قصر الخلافة: ١٠٧٦
- قصر الخلد: ٣٢٢، ٣٢٥
- قصر خوابگاه: ٧٧٣، ٧٩٤
- قصر دار البحر: ٨٨٢
- قصر الدار البيضاء: ٩٦٧
- قصر داريوس: ٣٦٩
- قصر درغوث باشا: ٥٠٩، ٥١٧
- قصر دولت خانه: ٧٣٧، ٧٧٥
- قصر رعمالا: ٧٩٤
- قصر روشان محل: ٧٩٤
- قصر زمريلين: ٣٧٠
- قصر سالار جنغ: ٨١٣-٨١٤
- قصر السلطان حسن: ٤٠٦
- قصر سيدة المُلْك: ١١٦٣
- قصر سيدي محمد بن عبد الرحمن: ٨٨٣
- قصر الشام: ٩٥٥
- قصر شاه جهان: ٧٤٢
- قصر شاه عباس: ٧٣٦
- قصر شاه قاجار: ٨٠٨
- قصر الشجرة: ٣٢٣
- قصر الشمع: ١٩٧
- قصر الصالح نجم الدين الأيوبي: ٤٠٢-٤٠٣
- القصر الصغير: ٤٥
- قصر الطاهر: ٣٢٥
- قصر طوران شاه: ٦٠٩
- قصر عابدين: ١٣٦٦
- القصر العباسي: ٣١٨
- قصر العدل (حلب): ٤٤٦

قصر العدل (الجزائر): ١٣٢٢	قصر نو محل: ٧٩٣
قصر العدل (الدار البيضاء): ١٣٤٠	قصر النيل: ١٤٤١
قصر عزّام: ٤٤٧	قصر هشام بن عبد الملك. انظر: قصر خربة المفجر
قصر العظم: ٤٦٥	قصر مُنكار: ٦٣٧، ١١٩١-١١٩٢
قصر علي آغا حمود: ١٢٥١-١٢٥٢	قصر يلغا اليحياوي: ٤٠٦
قصر علي خان: ٧٢٤	القصور الخمسة. انظر: البتابوليس
قصر علي قابو: ٢٥٣	قصير عمرة: ٩٦٢
قصر عُمدان: ٨٤٢	قطاع سرباغ: ٧٠٣، ٧٠٥
قصر الغوري: ٤٧١	القطامية هايتس: ١٤٥١
قصر فرج: ٣٢٥	قُطْرُبُل: ٣٣٠
قصر الفردوس: ٢٠٤، ٣٢٣	قطر: ١٣٩١
القصر القديم (إسطنبول): ٢٢٠، ٦٥٦	قطيعة أم جعفر: ٣٢٣
قصر القسطل: ٣٨٣	قفصة: ٩٧٧، ٩٨١
قصر القطرانة: ٣٨٣	قلاع الصحراء: ٩٦١
القصر القوطي الغربي: ١٠٧٤	قلعة أردشير: ٥٩٦، ٦٠٣، ٦٠٧
قصر كدليستون: ٧٩٠	قلعة أرك: ٦٢٢
قصر كريم خان: ٧١٠-٧١١	قلعة أصفهان: ٢٥١
قصر مؤنس الخادم: ٣٢٤	قلعة أغرا: ٧٤٩-٧٥٠، ٧٥٥، ٧٦٧، ٧٧١-٧٧٩
قصر الماء: ٩٨٠	قلعة الفردوس. انظر: باغ تخت قراتشه
قصر ماشاتا: ٩٦٢	قلعة بابل (مصر): ١٩٧
القصر المأموني. انظر: القصر الجعفري	قلعة بيم: ٢٦٠-٢٦١
قصر الناصر محمد: ٤٠٩	قلعة بندرغا. انظر: قلعة فهندر
قصر محمد شاه: ٩٨١	قلعة بني حمّاد: ١٨٨
قصر المشّي: ٣٨٣	قلعة التل: ٦٠٦-٦٠٨، ٦١٢، ٦١٥
قصر الملك الأقرع. انظر: تخت بادشاه كشَل	القلعة التيمورية: ٦٦٨، ٦٧٠
قصر الملك سليمان: ٤٣٤	القلعة الجديدة (كرمان): ٦٠٦-٦٠٧
القصر الممتد: ٤٠٧	قلعة جزيرة الروضة: ٤٠٢-٤٠٣
قصر منطرة الخمس وجوه: ٤١١	قلعة جلالِي: ٧٢٨
قصر المورق: ١٠٨٥، ١٠٨٨	قلعة جي: ٢٤٤
قصر الناعورة: ١٠٧٨	

قلعة حلب: ٥٥، ١١٩، ١٢٨، ٤٤٦، ٤٤٨،	قناة بايزيد: ٦٥٣
٤٥٠، ٤٥٤، ٤٧٥-٤٧٦، ١٠٠٤،	قناة بندر: ٧٢٤
١٢٣٧	قناة بيرتراريا: ١٠٦٤
القلعة الحمراء: ٧٤٤	قناة بيليك: ٦٥٣
قلعة دُخْتَر: ٥٩٦-٥٩٧، ٦٠٢-٦٠٨،	قناة تاسولتات: ٩٦٧
٦١٨، ٦٢٠-٦٢١	قناة تيليملي: ١٠٦٤
قلعة زرنج: ٢٦٢	قناة الثورة: ٩٦٤
قلعة سلا: ٨٦٩	قناة جَمُنا: ٩٦٦
قلعة صلاح الدين (القاهرة): ٤٠٦-٤١٠،	قناة الحلقلي: ٦٥٣
٩٥٤	قناة حمة: ١٠٦٤
قلعة عمان: ٣٨٣	قناة زرافشان: ٦٧١
قلعة غوريان: ٦٧١	قناة ساليما: ٩٦٦
قلعة فرسان مالطة: ٥٣٤	قناة سعدي: ٧٢٤
قلعة فهندر: ٧١٣، ٧١٥، ٧١٧، ٧٢٤	قناة السلطان أحمد: ٦٥٣
قلعة فيروز آباد: ٩٥١	قناة السليمانية: ٦٥٣
القلعة القديمة (كرمان): ٦٠٦-٦٠٧	قناة السويس: ١٣٠١، ١٣٦٦
قلعة القصبة (الجزائر): ٥٤٥-٥٤٦، ١٣١٣	قناة شاهرود: ٦٦٢، ٦٦٤، ٦٧١، ٦٧٤
قلعة قصبة الأزهار (فاس): ٣٤٩	قناة الشهرستان: ٦٧٢
قلعة الكبش: ٤٠٦، ٤١٣	قناة عين زبوجة: ١٠٦٤
القلعة الكبيرة (كرمان). انظر: قلعة التل	قناة فاتح سويولاري: ٦٢٩
قلعة لاهور: ٧٥٩	قناة فالديفويتس: ١٠٧٨
قلعة اللوديين: ٧٤٧	قناة فهندر: ٧٢٤-٧٢٥
قلعة محمود: ٦١٧	قناة كوبرولو سويولاري: ٦٢٩، ٦٥٣
قلعة مرو: ٢٦٣	قناة مجان: ١٧٨
قلعة الملحدين: ١٧٨-١٧٩	قناة محرمه: ٦٥٣
قلعة هرات: ٢٥٦-٢٥٩، ٢٦٣	قناة محمود باشا: ٦٥٣
القليوبية: ١٤٤٠-١٤٤١، ١٤٤٥، ١٤٤٧	قناة المحمودية: ١٢٥٦
قمرت: ٣٩٢	قناة نفق كوه رانغ: ٩٦٥
قناة الفاتح: ٦٥٣	قناة النهروان: ١٧٣، ٩٥٨
قناة أوزون كيمر: ٩٧١	قناة نورعثمانية: ٦٥٣
قناة بانياس: ٩٦٤	قناطر الإنكليز: ١٣١١، ١٣١٣

قيسارية (فاس): ١١٧، ٣٥٢، ٣٧٦-٣٧٧،
 ٣٧٩، ٩٩٥-٩٩٦
 قيسارية (فلسطين): ١٦٩، ١٨٥
 قيسارية (القاهرة): ٤١٦، ٤٢١
 قيسارية (المغرب): ١٣٤١
 القيصرية: ١١٧، ٣١٠، ٩٩٥، ١٢٣١. انظر
 أيضاً: القيسارية
 قيصرية (أصفهان): ٢٥٠، ٢٥٤-٢٥٥
 قيصرية (تركيا): ٢١٨-٢١٩، ٣٠٢، ٣١٣-
 ٣١٤

قيصرية (شيراز): ٧٠٩

- ك -

كابالي تشارسي: ٦٤٩
 كابري: ١٣٠٠
 كابل: ٣٣٢، ٧٤٠، ٧٤٧
 كاتالونيا: ٥٤٧
 كاتدرائية سان جورج (بيروت): ١٥٠٠
 كاتدرائية سان جون برودروم: ٤٩٩
 كاث: ١٧٧
 كادرغا: ٦٤٦
 كارسيا: ٢٢١، ٢٣٤
 كاراتيك: ٢٧٢
 كارنال: ٩٦٦
 كازاخستان: ١٢٣٥
 كاستوريا: ٣١٣
 كاستيل: ٦٧٠
 كاستيلو البيضاء: ١٠٨٨
 كاسوي: ١١٣٨
 كاشان: ٦٦٢، ٩٨٢

قناطر السباع: ٤١٣، ٤٢٠، ١٠٠٩
 قنّرين: ١٦٨

القنصلية البريطانية (شيراز): ٧٣١
 قنطرة الموسكي: ٤١١
 قنطرة بفالتي: ٩٦٩
 قنطرة هشير الدواميس: ٩٨٠
 قنوات آب ركني: ٧١٨
 قنوات آب زنكي: ٧١٨
 قورارة: ٩٤٥، ٩٧٧

قوس ماركوس أوريليوس: ٥٠٩، ٥١٤،
 ٥١٧-٥١٨، ٥٢٧، ٥٣٣-٥٣٥،
 ٥٣٧-٥٣٨

قوس النصر (سلا): ٨٧٦

قوص: ٤٠٤

القوقاز: ٢١٩

قولوبارا خان. انظر: أول خان

قوناق الصدر الأعظم خليل باشا: ٦٤٤

قونيا: ٢١٨-٢١٩، ٣١٣-٣١٤

القيروان: ٨١، ٨٣، ١٤١، ١٦٥، ١٩٩-
 ٢٠١، ٢١١، ٣٢٥، ٣٦٦، ٣٦٨، ٣٧٩-
 ٣٨٢، ٩٤٢، ٩٤٥، ٩٤٩-٩٥٠، ٩٧٦،
 ٩٨٠-٩٨١، ١٠٧٢-١٠٧٣

القيسارية: ٩٩٥-٩٩٦. انظر أيضاً: القيصرية

قيسارية الأزيكية (القاهرة): ٤١٤

قيسارية (تونس): ٣٧٦، ٣٧٨

قيسارية (حلب): ١١٧، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٥٠،
 ٤٥٢، ٤٥٧-٤٥٨، ٤٦٣، ١٢٣٤،
 ١٢٣٦، ١٢٣٨

قيسارية (الدار البيضاء): ١٣٣٦، ١٣٥٠،
 ١٣٥٢

قيسارية (سلا): ٨٧٤

كروانسراي نادر ديوانبغبي: ٦٧٣، ٦٨٢، ٦٩٢	كاغد خانة: ٩٧٠ كافالا: ٢٢٢
كروانسراي يتي خان: ٤٩١، ٦٥٠ كروجا: ٢٢٧، ٢٢٢، ٢١٨ كريان: ١٣٥٣ كريت: ١٣٥٨، ٣٦٩ كسالونيك: ٣٠٥ كستيل: ٥٠٥ كسكر: ٢٠١ كسيس داغي. انظر: جبل الراهب كشك السبت: ٦٣٣ كشك علي: ٦٤٤ كشمير: ٢٧٩، ٧٤٢-٧٤٣، ٩٨٤ الكعبة: ١٠١٧-١٠١٩، ١٠٢٤-١٠٢٥، ١٠٢٨، ١٠٣٢، ١٠٣٤-١٠٣٥، ١٠٣٧-١٠٣٨ كفر حزير: ١١٦٠ كفر حيم: ١١٦٠ كفي: ٩٠٣ الكلتاوية: ٤٧١ كلواذاي: ٣٣٠ كلية تاريخ الفنون (لوس أنجلس): ٧٧ كلية العمارة (باليرمو): ٨١ كلية العمارة (بيسكارا): ٥٣٦ كلية العمارة والبوليتكنيك في باري (إيطاليا): ٨١، ٧٤ كمالوسا يوليسا: ٢٣٣ الكنائس اليونانية: ٤٢٣ كنارا: ٧٧٧، ٧٧٤ كتانور: ٢٨٤ كنوسوس: ٣٧٠	كالكوتا: ٢٧٣، ٢٨٤، ٧٩٠-٧٩٢، ٨٠٥ كاليفورنيا: ١٣٤٣، ١٣٥٠، ١٣٥٨، ١٣٧٩ كامبو نازاريو ساورو: ١١٥٧ كامبيه: ٢٨٤ كاناريغيو: ١١٥٧ كانبايا. انظر: كامبيه كانبور: ٢٧٣ كانو: ٨٩٧ كاياالباتينام: ٢٨٤ كايت: ٤٩٨، ٥٠٥ كبادوكيا: ٢١٨-٢١٩ كراتشي: ٢٧٣، ٣٧٠، ١٣٧٤، ١٣٧٦- ١٣٧٧، ١٣٧٩، ١٣٨٧-١٣٨٨، ١٣٩٤، ١٣٩٦ كرارج: ٩٦٤ كربال: ٩٧٢ كربلاء: ٤٥، ٣٣٦، ١٠١٧ كركاسو: ٥٠٥ كرك تشاشمة: ٦٥٣، ٩٦٩ كركوك: ١٣٦٦ كرمان (إيران): ١٦٥، ١٧٦، ٢٦٠، ٣٣٢، ٥٩٣-٦٢٢، ٩٤٦، ٩٤٩، ٩٧٤-٩٧٥ كرمان (تركيا): ٥٠٥ كرمانيا: ٢٣٩ كروانسراي إسكي - يني: ٤٩١ كروانسراي الرشيد: ٦٧٩، ٦٩٢ كروانسراي عبد الله خان: ٦٧٤ كروانسراي غوكوس خان: ٦٧٤، ٦٨٧ كروانسراي ميرزا توردي: ٦٦٤

كنيسة آيا صوفيا: ٢٢٠	كوكا: ٦٢٥
كنيسة الرسل المقدسة: ٢٢٠	كولة: ٣١٣
كنيسة سانتا ماريا: ١١٦٣	الكوليج دو فرانس: ٢٨٢
كنيسة سان فنان: ١٨٢-١٨١	كوم الريش: ٤١١
كنيسة القبر المقدس: ٤٤٠	كومكابي: ١٢٧٤، ٢٣٤
كنيسة القديس أوغسطينوس: ١٣٢٤	كوه درك: ٧١٧
كنيسة القديسة آن: ٤٣٦	كوه سبز بوشان: ٧١٢
كنيسة القديس جاورجيوس: ٧٩٧	كوه سياه: ٧١٧، ٧١٢
كنيسة مار جرجس (بيروت): ١٥٠٠	كوهي رحمت: ٧١٦
كنيسة مدهيلم: ٨٥٠	الكويت: ١٣٦٩، ١٣٧٥، ١٣٨٦، ١٣٨٩، ١٣٩٧
كوالالمبور: ١٣٦٩، ١٣٧١، ١٣٨١-	كوير: ٢٦٤
١٣٨٣، ١٣٨٥، ١٣٩٨	كيبي: ٩٠٠
كوبريفشتيسا: ٢٢٦	كيرلا: ٢٨٤
كوة إكيد تكيث: ٨٦٠	كيليكيا: ١٤٦٩
كوة أمير ندبة تكيث: ٨٦٠	كيولا: ٢١٨
كوة تيلي تكيث: ٨٦٠	
كوة غبتي هير ندبة تكيث: ٨٦٠	- ل -
كوة كيرتات: ٨٦١	
كوتاهيا: ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٣٤	لاباي: ٩٠٣
كور خراسان: ٣٢١	اللاذقية: ٥٤-٥٨، ١٠٥، ١٠٩، ٢٢٤
كورمانديل: ٢٨٤	لا فالتيا: ٥٨٠
كوريا الشمالية: ١٣٩٦	لال باغ بادشاه: ٧٥٥
كوزاني: ٢٢٩-٢٣٠	لاليلي: ٦٥٨
كوسوفو: ٢٢١	لاهور: ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٧٩، ٢٨٥، ٢٨٧-
الكوش: ٦٨٣-٦٨٥، ٦٨٧، ٦٩٦	٢٨٨، ٢٩٩، ٧٤٩، ٧٦٢، ٩٤٦، ٩٤٨، ١٣٦٤، ١٣٧٧، ١٣٨٨، ١٣٩٨
كوشة الصفار: ٥٣٠، ٥٣٧	لُبدة الكبرى: ٥١٢
الكوشك: ٢٢٦	لبنان: ٣٩، ٩١، ١٤٠، ٢١٨، ٢٦٣، ٤٧٩، ١٠٦٨، ١١١١، ١١١٤، ١١١٩، ١١٥٦، ١١٥٨-١١٥٩، ١١٦٨، ١٢٣٥، ١٢٥١، ١٣٤٥، ١٣٦٥
كوفار غيدا: ٩٠٦	
الكوفة: ٦٧، ٩٤، ١٦٥، ١٧٤-١٧٥، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٤-١٩٦، ٢٠١-	
٢٠٢، ٢١١، ٣٣٢-٣٣٣، ٣٩١	

مأثورا: ٧٧٦-٧٧٧، ٧٨٠	١٤٦٨، ١٤٧١-١٤٧٢، ١٤٧٧-
ماراقتد: ٦٦٧-٦٦٩	١٤٧٨، ١٤٨٣-١٤٨٥، ١٤٨٧
مارين جاي: ٩٦٤	١٤٨٩، ١٤٩٤، ١٤٩٩، ١٥٠١
ماردين: ٢١٨-٢١٩، ٣١٣	لكتاوا: ٢٧٣، ٢٨١
المارستان: ٣٦٠-٣٦١، ٨٧٨	لنجان: ٩٦٤
ماريكار: ٢٨٤	لندن: ٣٦، ٤١، ٤٩٤، ٧٥٠، ٨١٢، ١١٢١،
ماريكا: ٢٢٨	١٤٠٣
المالديف: ٢٦٩	لوت: ٢٦٤
مالطا: ٥١٣، ٥١٥، ٥٢٧، ٥٨٠	لوس أنجلس: ٧٧، ١٣٤٣
مألوا: ٢٧١، ٢٨٣، ٩٧٨	لونغوباردو: ٦٧٣
ماليا: ٣٧٠	اللوهان: ٩٥٦
ماليزيا: ١٢٣٦، ١٣٦٣، ١٣٦٥، ١٣٨٧،	ليو كاراواسي: ١٣٧٨-١٣٨٠
١٣٩٢	ليبيا: ٦٩، ١٤٠، ٥١١، ٥٢٩، ٥٣٢، ٥٣٥،
مالي: ١١٨٨	٩٣٧، ٩٤٩، ١٢٨٩، ١٢٩٨، ١٣٠٠-
مانتا سماور: ٩٧٨	١٣٠٣
مانيسا: ٦٣٢	ليستا دي سبانيا: ١١٥٧
مانيللا: ١٣٧٣	ليشبوتة: ٥٥٨
ماهان: ٦٠٨	ليفهورن: ٥٢٥-٥٢٦، ٥٨٠، ٥٨٣
مبنى إزم: ٧٣٤	الليكي: ١٤٨٢
مبنى البرلمان (بيروت): ١٤٧١	الليون: ١١٥٨
مبنى البلدية (أغرا): ٧٧٤-٧٧٥	ليون: ٧٢، ٤٨٧، ٦٧٠
مبنى البلدية (بيروت): ١٤٧١	
مبنى البنك التجاري الوطني (جدة): ١٣٨٦	- م -
مبنى غارسيا: ١٣٢٦	مئذنة أرسلان خان: ٦٦٧، ٦٨٣
مبنى كونيون: ١٣٢١	مئذنة الجيرالدا: ٨٧٤
مبنى مبارك منزل: ٧٧٤، ٧٧٦-٧٧٧	مئذنة حسان: ٨٧٨
مبنى المجلس الوطني (الكويت): ١٣٩٠	مئذنة خراسان: ٦٧٢
مبنى مصرف حبيب: ١٤١٥	مئذنة الطالعة: ٨٧٤
مبنى الميانسراي: ٦٨٤، ٦٩٢، ٦٩٥-٦٩٦،	مئذنة غوكوس خان: ٦٧٣-٦٧٤
٦٩٨-٦٩٩	مئذنة كاليان: ٦٨١
متحف أونتاريو: ٥٩٤	مئذنة الكتبية: ٨٧٤

- متحف بغداد: ١٠٢٥
متحف بيناكي: ٤٩٩
متحف الثقافة (دبي): ١٤٠٧
متحف المهرجا ساواي مان سينغ الثاني: ٧٧٧، ٧٥١
متحف طهران للفن المعاصر: ١٣٩١
متحف الفن التركي والإسلامي: ١٠٢٥
متحف المسكوكات القديمة (كرمان): ٦٢٠
متحف ميشيتي لفرانكافيل البحرية: ٥٣٦
المتن (لبنان): ١٤٨٢
المتن الشمالي (لبنان): ١٤٩١
متنزهات دولمابهشة: ٦٣٣
متنزهات سعد آباد: ٦٣٨
مثن بغداد: ٧٥٠
مجمع آصف جاه: ٧٨٧
مجمع إبراهيم باشا: ٦٤١، ٦٣٥
مجمع أنيك علي باشا: ٦٤٤
مجمع الأشرف برسباني: ٤٠٤
مجمع إكمكجي زادة: ٦٣٥
مجمع أمجزاده حسين باشا: ٦٣٨، ٦٣٥، ٦٤٥، ٦٥٩
مجمع أيوب سوكلو: ٦٣٥
مجمع بايزيد الثاني: ٦٢٩
مجمع بوتارية محل: ٧٧٤
مجمع بي بي دختران: ٧١٢، ٧٠٥
مجمع تاج محل: ٧٤٤، ٧٤١، ٧٣٩، ٢٧١، ٧٤٤-٧٤٤، ٧٤٥، ٧٥٠، ٧٥٣-٧٥٤، ٧٥٩-٧٦٠، ٧٦٢-٧٧٢
مجمع ترکان خاتون: ٦١٦-٦١٧
مجمع تشور بكر: ٦٨٧-٦٨٩
مجمع نيرثيديا: ١٠٧٥، ١٨١
مجمع جاغال أوغلو حجي بشير آغا: ٦٤٢
مجمع جلو خانه: ٨١٧، ٧٩٣، ٧٩١
مجمع جورلولو علي باشا: ٦٣٨، ٦٣٥، ٦٤١
مجمع حكيم أوغلو علي باشا: ٦٥٢، ٦٤٢
مجمع حيران مينار: ٩٨١
مجمع خوجة زين الدين: ٦٦٥
مجمع خوجة سينان: ٦٣٥
مجمع الساسا: ٩٠٨
مجمع سرياقوس: ٤٠٥
مجمع سكن الأحلام: ١٤٥٣
مجمع السلطان أحمد: ٦٥٧
مجمع السلطان قلاوون: ٤٢٣، ٤٠٣
مجمع السليمانية: ٦٥٨
مجمع سيد حسن باشا: ٦٣٥
مجمع الشيخ المؤيد: ٤١١، ٤٠٤
مجمع الظاهر برقوق: ٤٠٤
مجمع الظاهر بيبرس: ٤١٦
المجمع الغازي: ٦٨١
مجمع غنج علي خان: ٥٩٥
مجمع غور أمير: ٦٦٨، ٦٧٠
مجمع غوكوس خان: ٦٧٢، ٦٧٤، ٦٨١-٦٨٧، ٦٨٣
مجمع الفاتح: ٦٤٣، ٦٥٧
مجمع فرح آباد: ٢٥٤
مجمع قانصوه الغوري: ٤١٥، ٤٠٤
مجمع قره مصطفى: ٦٢٤، ٦٢٨، ٦٣٥-٦٣٦
مجمع كاليان: ٦٦٧
مجمع كمانكش مصطفى: ٦٣٥
مجمع كونيرولو: ٦٣٥

- مجمع كويوكو مراد: ٦٣٥
مجمع اللعازارية: ١٥٠٠
مجمع مسجد ينّي جامع: ٦٣٧، ١١٩١-١١٩٥
مجمع النور عثمانية: ٦٢٣، ٦٤٢، ٦٥٩
مجمع هزار جريب: ٢٥٤
مجمع طرخان سلطانة: ١١٩٦
محراب الأقصى: ١٠٣٢
محراب داود: ١٠٣٢-١٠٣٣
محراب زكريا: ١٠٣٣
محراب فاطمة: ١٠٣٢
محلة بني عشرة: ٨٦٦، ٨٧٠
محلة بيراش: ٢٢٩
محلة رأس الشجرة: ٨٨٣
محلة شهر: ٦٠٤، ٦٠٨-٦٠٩، ٦١٣
محلة غبر. انظر: حي الزرادشتيين
محلة فراتنيك: ٢٣٢
محمد ناد: ٩٨٢
محمود باشا: ٦٤٧
المحيط الأطلسي: ٤٥، ٨٨، ١١٣، ١٤٠، ٣٤٣، ٨٦٥، ٨٧٠، ٨٧٩-٨٨٠، ٨٨٣، ١٣٣٦
المحيط الهندي: ٤٥، ٣٢١
مخازن باريس - المغرب: ١٣٣٨
مخازن الثلج. انظر: نجدان ملك
مخاضة الضفة الروسية: ٦٧٢-٦٧٤، ٦٨٢
مخاضة غوكوس خان: ٦٧٣
المختارة: ١١٥٩
المدائن. انظر: طيسفون
مدارس أبي عنان: ٣٥١
مدارس الفريز: ٥٣٢
مدارس (الهند): ٢٧٣
مدرسة إبراهيم باشا: ٦٣٥، ٦٤٠-٦٤١
مدرسة أبو الحسن: ٨٧٦
مدرسة أتيك علي باشا: ٦٤٤
مدرسة الأحمدية: ١٤٠٧
مدرسة إسماعيل أفندي: ٦٤٥
المدرسة الأشرفية: ٤٣٨
مدرسة إمام قلبي خان: ٧٠٩، ٧١٢
مدرسة أمجزاده حسين آغا: ٦٣٨، ٦٤٥
مدرسة الأمراء والولاة: ٧١٠
مدرسة أمير علم خان: ٦٩٤
مدرسة الأنقراوي: ٦٣٨
مدرسة أولغ بك: ٦٦٤، ٦٧٠، ٦٨١، ٦٨٤-٦٨٦
مدرسة بازار غوسفند: ٦٨٩، ٦٩٥، ٦٩٧
مدرسة باي أستانا: ٦٧٣
مدرسة براق حاجب: ٦١٥-٦١٦
المدرسة البريطانية لعلم الآثار في القدس: ٩٢
مدرسة البنات (طرابلس): ٥٣٢
مدرسة البوليتكنيك: ١٢٥٨
مدرسة بيرم باشا: ٦٣٣
مدرسة تامغاش بورغا - خان: ٦٦٩
مدرسة ترسن خان: ٦٦٤، ٦٧١-٦٧٢، ٦٩٩
مدرسة تركمان: ٦٦٤
مدرسة تلاقاري: ٦٧٠، ٦٨٥
المدرسة التنكزية: ٤٣٨
مدرسة جورلولو علي باشا: ٦٣٥، ٦٤١
مدرسة حكيم أوغلو علي باشا: ٦٤٢
مدرسة حوز بولو: ٦٨٠

المدرسة الغازية: ٦٧١، ٦٧٣، ٦٨٣-٦٨٤، ٦٩٤
 مدرسة غصنفر آغا: ٦٣٥
 مدرسة غوكوس خان: ٦٨١، ٦٨٧، ٦٩٢، ٦٩٤
 مدرسة فيروز شاه: ٩٨١
 مدرسة فيض الله أفندي: ٦٣٥
 مدرسة القبطان إبراهيم: ٦٤٥
 المدرسة القراخانية: ٦٦٩
 مدرسة قره مصطفى باشا: ٦٣٥
 مدرسة القرويين: ٢٠٨
 مدرسة القطبية: ٦١٦
 مدرسة كاليان: ٦٦٧، ٦٨٥، ٦٨٧
 مدرسة كمانكش مصطفى باشا: ٦٣٣
 مدرسة كوبرولو: ٦٣٥
 مدرسة كوكلداس: ٦٨٢، ٦٨٥، ٦٨٧-٦٨٩
 مدرسة مادر خان: ٦٨٣-٦٨٤، ٦٨٧
 مدرسة محمد يار أتاليك: ٦٨٩
 المدرسة المستنصرية: ٣١٨، ٥٣٨
 مدرسة مسكين: ٦٩٢
 مدرسة المعز أبيك: ٤٠٢
 مدرسة مولانا شريف: ٦٦٤
 مدرسة مير عرب: ٦٨١، ٦٨٣-٦٨٤، ٦٩٩
 مدرسة ميروكون: ٦٩٧
 مدرسة نادر ديوانبغلي: ٦٨٢، ٦٨٥، ٦٨٧، ٦٩٢
 مدرسة الناصر محمد: ٤٠٤، ٤١٦
 مدرسة نجم الدين الأيوبي: ٤٠٠، ٤٠٢-٤٠٣

مدرسة خان: ٧٠٩
 مدرسة خوجة سنان: ٦٣٥
 مدرسة خوجة نيكول: ٦٨١
 مدرسة خيابان: ٦٨٩، ٦٩٧
 مدرسة دار الشفاء: ٦٨٠
 مدرسة درغوث: ٥٣١
 مدرسة دوملو شير: ٦٨٥
 مدرسة الرشدية: ٥٣١
 مدرسة سارجيتيميش: ٤٠٤
 مدرسة السلطان حسن: ٤٠٦، ٤٠٩، ٤١٦، ٤١٨
 مدرسة السلطان شعبان: ٤٠٩
 مدرسة السلطان قطر: ٤٠٢
 مدرسة السلطان قلاوون: ٤٠٣
 مدرسة سليمان أفندي: ٦٤٥
 المدرسة السليمانية: ٣٨٥
 مدرسة سنجار الجولي: ٤٠٤
 مدرسة سيد حسن باشا: ٦٣٥، ٦٤٢-٦٤٣
 مدرسة شويدي: ٦٨٠
 المدرسة الشيبانية: ٦٧٣
 مدرسة شير دور: ٦٧٠، ٦٨٥
 مدرسة الظاهر بيبرس: ٤٠٢-٤٠٣، ٤١٦
 مدرسة عبد الله خان: ٦٨٣-٦٨٤، ٦٩٩
 مدرسة عبد الرحمن علم: ٦٧٤، ٦٨٣، ٦٨٧، ٦٩٢
 مدرسة عبد الشكر: ٦٨١
 مدرسة عبد العزيز خان: ٦٨١-٦٨٢، ٦٨٤، ٦٩٩، ٦٨٧
 مدرسة عثمان باشا: ٥٢٠، ٥٤٠
 مدرسة العمارة (باريس): ٤١
 مدرسة العمارة (مونيخ): ٨١

مرفأ إزمير: ١٢٥٦-١٢٥٧	مدرسة نزار إلتشي: ٦٨٥
مرفأ إسطنبول: ١٢٥٦-١٢٥٧	مدرسة نُوبادل بك: ٦٨١
مرفأ الإسكندرية: ١٢٥٦	المدرسة الوطنية العليا للعمارة (تونس): ٨١
مرفأ بولاق: ٩٩٧، ٤١٠، ١٢٨٠	مدريد: ٧٨، ٥٤٨، ٩٤٣، ٩٤٦، ٩٧٦
مرفأ بيروت: ٤٨٠، ١٢٥٦-١٢٥٧	مدينة ٦ أكتوبر: ١٤٥٣
١٤٦٧-١٤٦٨، ١٤٧١، ١٤٧٩-١٤٨٠	مدينة الأموات: ١٣٩٦
مرفأ حيفا: ١٢٥٦	المدينة البيضاء (طرابلس): ٥١٣
مرفأ الدار البيضاء: ١٣٣٦	المدينة البيضاء (فاس): ٢٠٩، ٣٤٦، ٣٤٨-
مرفأ سالونيك: ١٢٥٦-١٢٥٧، ١٢٧٨	٣٥٠
مرفأ فضالة: ١٣٣٧، ١٣٤٦	المدينة الخضراء: ٢٣٢، ١٣٤٩
مرفأ المحمدية، انظر: مرفأ فضالة	مدينة الخيالة: ٢٠٩
مرفأ مرسين: ١٢٥٦، ١٢٦١	مدينة غولف السليمانية: ١٣٨٥
مركز برجمان للتسوق: ١٤٢٣	المدينة المنورة: ٤٥، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٧،
مركز التجارة العالمي: ٣٩، ١٤٠٢، ١٤١٣-	١٥٤، ١٥٩، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٢،
١٤١٤، ١٤١٨	١٩٩، ٢١٠، ٣١١، ٤٣٧، ٤٥٨،
مركز جمارك إمينونو: ١١٩٣	٩٤٦، ١٠١٣، ١٠١٧-١٠١٨، ١٠٢٩،
مركز سايبير أباد: ١٣٧٥	١٠٣٢، ١٠٣٤-١٠٣٥، ١٠٣٧-
مركز سيتي ستر للتسوق (دبي): ١٤٢٣	١٠٣٩، ١٢٤٤-١٢٤٥، ١٢٥٩
مركز الشيباني التجاري: ٦٧٤	مراكش: ١٠٤، ١١٥، ١٣٥، ٢٠٩، ٣٤٣،
مركز مكة للمؤتمرات: ١٣٨٩	٣٥٥، ٣٥٧، ٣٩٧، ٨٦٩، ٨٧٢،
مركز الوافي للتسوق: ١٤٢٣	٨٧٤، ٨٨٤، ٨٨٦، ٩٤٥، ٩٦٧، ٩٧٦،
المروة: ١٠٢٨، ١٠٣٢، ١٠٣٤-١٠٣٥،	١٠٦٨، ١٣٢٧، ١٣٣٧
١٠٣٨	المريجة: ٢١١
مرو: ٤٥، ٩٦، ١٦٥-١٦٧، ١٧٥-١٧٦،	مربّع جلاوخانة: ٧٦٧، ٧٦٩-٧٧٠
١٧٨-١٨٠، ١٨٥، ٢٤١، ٢٦٣-٢٦٤،	مرج دابق: ٤٢١
٣٣٢، ٩٠٠	مرج كان غُل: ٧٢٧
مريدا (إسبانيا): ١٨١-١٨٣، ٨٧٩، ١٠٩٠	مُرزق: ٥٢٨
مريدا (المكسيك): ١٠٩٠	المرسى: ٣٩٢
مزاب: ٩٤٥، ٩٦٠، ٩٧٧	مُرسية: ٤٣، ٧٩، ١٦٥، ٨٧٥
مزار القديس يولاليا: ١٨٢-١٨٣	مرسيليا: ٥٠٣، ٥٤٧، ٩٨٩، ١٣١٧
	مرسين: ١٢٥٦، ١٢٦١
	مرشد أباد: ٢٨١، ٢٨٦

مسجد الأمير حسين: ٤٠٨	مزدلفة: ١٠٣٨، ١٠٣١
مسجد أولغ بك: ٦٦٦	مساجد غدر. انظر: مسجد غدر
مسجد يازار شاه: ٦١٣، ٦١٥	مساجد المازة. انظر: مسجد غدر
مسجد بازار غول: ٦٦٤	المستجار: ١٠٢٨
مسجد بامناز: ٦٠٩	مستديرة تماشا. انظر: فلكه تماشا
مسجد باي أستانا: ٦٧٣	مستديرة داماد: ١٣٤٥
مسجد بايزيد: ٦٢٩	مستديرة ستاد. انظر: فلكه ستاد
مسجد بردي: ٧٣٥	مستشفى الأمراض العقلية (سلا): ٨٧٨
مسجد البركات: ٧١٠	مستشفى دار الشفاء: ٧١٠
مسجد بوياندا أناليك: ٦٨١	مستشفى عضد الدولة: ٣٢٥
مسجد بيبي خانم: ٦٦٦-٦٧٠، ٦٧٨، ٦٩٧	مستشفى قلاوون: ٤٠٣
مسجد بيغم: ١١٨٧	مستشفى مصطفى باشا: ١٣١١
مسجد تاجوراء: ٥١٧	مستغانم: ٥٧٨
مسجد ترکان خاتون: ٦١٦-٦١٧	مستقعات البطيحة: ٩٥٩
مسجد تولي: ٨١٦	مستودعات البايكة: ١٠٠٨
المسجد الجديد (أصفهان). انظر: جامع الشاه (أصفهان)	مسجد آصف جاه: ٨١٨
مسجد جمعة (هرات): ٦٩٧	مسجد آهني: ٧١٠
مسجد الجميرا: ١٤١١	مسجد إبراهيم (سهل عرفات): ١٠٢٩
مسجد جورلولو علي باشا: ٦٤١	مسجد إبراهيم باشا: ٦٤١
مسجد حامد نوح: ٦٧٨	مسجد ابن الطبيب: ٥٣٧
مسجد حجي ناصر: ٧١٠	مسجد الأزيكية: ٤١٤
المسجد الحرام: ١٠١٩، ١٠٢٥، ١٠٣١	المسجد الأزرق: ٦٣٢
١٠٣٤-١٠٣٧	مسجد الاستقلال: ١٣٧١
مسجد حسان: ٨٦٦، ٨٧١، ٨٧٨	مسجد الأشرفية: ٤٤١
مسجد حسن الثاني الكبير: ١٣٥٤	مسجد الأضحى: ١٠٣١
مسجد حكيم أوغلو علي باشا: ٦٤٢	المسجد الأقصى: ١٧١، ٤٢٨-٤٢٩،
مسجد الخسروية: ١٢٣٦-١٢٣٧	٤٣٤-٤٣٥، ٤٣٩-٤٤٠، ١٠١٧
مسجد خوجة زين الدين: ٦٦٤	١٢٤٤، ١٠٣٨
مسجد الخيف: ١٠٣٨، ١٠٣١	مسجد الأخوة: ٣٨١
مسجد ذركيم: ٧١٠	مسجد الإمام. انظر: مسجد الملك
	مسجد الأميرة تر الحجازية: ٤٠٩

مسجد غوكوس خان: ٦٨١، ٦٩٩	مسجد دروازه: ٧١٠
مسجد غولفام خاتون: ١١٨٢	مسجد الراية: ١٠٣٨
مسجد الفاتح: ٢٢٠	مسجد الزاوية القادرية: ٥٤٠
مسجد فاتح بور: ٢٩٦	مسجد السلطان سليم الأول: ٦٢٩
مسجد فضل بن يحيى: ٦٧٨	مسجد سليمان: ١٨٠
مسجد فيصل الكبير: ١٣٦٩	مسجد السليمانية: ٦٥٧
مسجد قايتباي: ٤١٣، ٤١٧	مسجد سليم الثاني: ٦٣٢
مسجد القبة (الفداوية): ٤١٤	مسجد سوق السمك: ١٣١٣
مسجد قرطبة: ١٠٧٤، ١٠٧٦	مسجد سيدي أحمد حجي: ٨٨٣-٨٨٤
مسجد القرطبي: ٢٠٨	مسجد سيدي بشير: ٣٩٣
مسجد قطب شاه: ٧٨٧، ٨١٥، ٨١٧	مسجد سيدي حاج عبد الله: ٨٨٣
مسجد الأقمار: ٤٢٤	مسجد سيدي رمضان: ٥٦٧
مسجد كاليان: ٦٦٤، ٦٦٧، ٦٨١، ٦٨٣-	مسجد سيدي الشعاب: ٥٣٨
٦٨٤، ٦٨٦-٦٨٧، ٦٨٩، ٦٩٢	مسجد شاه بخشي: ٦٧٣
٦٩٧-٦٩٨	مسجد شاه زاده: ٧١٠
مسجد الكوفة: ١٩٤	مسجد شمس الملك: ٦٧٨
مسجد لطف الله: ٢٥٣	مسجد الشهباء: ٨٨٣
مسجد مادر سليمان: ٧١٣، ٧١٥-٧١٦	مسجد الشوق الأعظم: ٨١٧
مسجد مارليك خان: ٧٠٩	مسجد شيخو: ٤٠٩
مسجد مبارك منزل: ٧٥٥، ٧٧٥-٧٧٦	مسجد صاحب الطابع: ٣٩٣
مسجد المشعر الحرام: ١٠٣١، ١٠٣٨	مسجد الطالعة. انظر: الجامع الأعظم
مسجد مفاك كوربا: ٦٨٧، ٦٩٤	مسجد طرخان: ١١٩٦
مسجد مكة المكرمة: ٧٩١، ٨٠٨، ٨١٥	مسجد طريق خانة: ١٧٥
مسجد الملا أمير: ٦٧٢	مسجد الظاهر بيبرس: ٤٠٢، ٤٠٥
مسجد الملك: ٥٩٥-٥٩٦، ٥٩٨-٥٩٩،	مسجد عبد العزيز الأول: ٦٨٥
٦٠٢، ٦١٠، ٦١٢-٦١٣، ٦١٥	مسجد علو قامي: ٤٩٠
مسجد المهديين: ٨٦٧	مسجد عليّ ابن أبي طالب: ١٤١١-١٤١٢
مسجد موتي: ٧٧٢	مسجد عمر بن الخطاب: ٩٥٥
مسجد مولانا شريف: ٦٦٤	مسجد غازي خسرو بك: ٢٣٢
مسجد مولانا ميرزا: ٦٧٣	مسجد غُتَر: ٦٦٤، ٦٦٦، ٦٧٧، ٦٨٩،
مسجد مولاي إدريس: ٣٧٧	٦٩٤

١٣٦٧-١٣٦٦ ، ١٢٨٧-١٢٨٦
 ١٤٤٧، ١٤٣٨-١٤٣٦، ١٤٣٤
 مصر السفلى: ١٩٧
 مصر العليا: ١٩٧، ٤٠٤
 مصطبة ميدان القبق: ٤٢٠
 مصنع الخرنفش للمنسوجات: ١٢٢٣
 مضيق البوسفور: ٤٦، ٣٠٢، ٦٣٣-٦٣٤،
 ١١٨٧، ٧٤٩، ٦٥٣، ٦٥١، ٦٤٦، ٦٣٨
 مضيق جبل طارق: ٨٨، ٨٦٩، ٨٧٤
 مطار أنفا: ١٣٦٠
 مطار بيروت الدولي: ١٤٧٩، ١٤٩١
 مطار الظهران: ١٣٨٩
 مطار محمد الخامس: ١٣٥٨-١٣٥٩
 مطار الملك عبد العزيز: ١٣٨٩
 مطعم الطير: ٤١٥، ٤٢٠
 المعادي: ١٣٦٦
 معبد الشمس: ٩٧٨
 معبد المياه: ١٠٧٢-١٠٧٣
 معبد هيرود: ١٧١
 المعهد الألماني للآثار (القاهرة): ٨٦
 المعهد الألماني للأبحاث الشرقية (بيروت):
 ٩١
 المعهد الأمريكي للدراسات المغربية: ٨٢
 ١٦٣
 معهد التاريخ في أكاديمية العلوم
 (أوزبكستان): ٩٦
 المعهد الفرنسي لتنظيم وتخطيط المدن
 لمنطقة ضواحي باريس: ١٤٨١، ١٤٩١
 معهد ماساتشوستس للتقانة: ٣٦، ٧٦، ٩٧
 المغرب: ٤٢، ٦٤، ٦٩، ٧٩، ٨١، ٨٣
 ١٠٥، ١١٠، ١١٣، ١١٥-١١٦،

مسجد مولاي سليمان: ٨٨٢
 مسجد ميدان الشاه: ٧١٠
 مسجد مير عالم مندي: ٨١٧
 مسجد ناين: ١٧٥
 المسجد النبوي: ١٠١٨-١٠١٩، ١٠٢٩،
 ١٠٣١-١٠٣٢، ١٠٣٨
 مسجد ثور: ٧٠٧-٧٠٨، ٧١٠، ٧١٢
 مسجد نيفارا: ١٣٧١
 المسجد الوطني: ١٣٦٩، ١٣٧١
 مسجد يتي جامع: ٦٣٧-٦٣٨، ٦٤٢، ٦٤٤،
 ٦٥٨، ١١٩١-١١٩٥
 مسجد... انظر أيضاً: جامع
 المسرة: ٣٥١
 مسلخ غوكوس خان: ٦٨٧
 المشافية: ١٠٨٨
 المشتى: ١٩٩
 مشهد: ٤٥
 مشهي باوان: ٧٧٢-٧٧٣
 مصر: ٥٥، ٦١، ٦٩، ٨٦، ١٦٥-١٦٦،
 ١٩٠، ١٩٢، ١٩٦-١٩٨، ٢٠٠-٢٠١،
 ٢٠٦، ٢٦٦، ٣١١، ٣٢١، ٣٢٦، ٣٣٣،
 ٣٣٥، ٣٥١، ٣٥٥، ٣٧٠، ٤٠٣-٤٠٤،
 ٤٠٦، ٤١٦، ٤٢١، ٤٢٤، ٤٣٤، ٤٣٦،
 ٤٤٨، ٤٦٣، ٤٧٥، ٤٨٠، ٤٨٥، ٥٢٥،
 ٦٤١، ٩٣٧، ٩٥٤، ٩٥٧، ٩٨٨-٩٨٩،
 ٩٩٢-٩٩٣، ١٠٠٩، ١٠٥٨، ١٠٦٨،
 ١١١١، ١١١٤، ١١١٧، ١٢٠٠،
 ١٢٠٣، ١٢٠٧-١٢١٠، ١٢٢٢،
 ١٢٣٣، ١٢٤٦، ١٢٤٨، ١٢٥٠،
 ١٢٥٦، ١٢٦١، ١٢٦٣، ١٢٦٥،
 ١٢٦٧، ١٢٧٠، ١٢٧٨، ١٢٨٣

مقبرة هفت تنان: ٧١٥
مقدونيا: ٢٢١، ٢١٨-٢١٧
مقديشو: ١٤٦٥
المقر البريطاني في تشاد رغات: ٧٨٧،
٧٩٧-٧٩٦، ٧٩٤، ٧٩٢-٧٨٩
٧٩٩-٨٠٠، ٨٠٢-٨٠٤، ٨١٠-٨١٣،
٨١٥، ٨١٩
مقر مصرف دبي الوطني: ١٤١٨
مقصورة ابنة شاه جهان، انظر: بانغلا جهان
آرا
مقصورة المشاهدة الإمبراطورية. انظر: بانغلا
درشان
مقعد أمير نَدَبَة: ٨٥٩
مقعد تايث نَدَبَة: ٨٥٩-٨٦٠
مقعد سورتي نَدَبَة: ٨٥٩-٨٦٠
مقعد غبتي هير نَدَبَة: ٨٥٩-٨٦٠
مقعد غدير نَدَبَة: ٨٥٩-٨٦٠
مكاتب السكرتيريو: ٣٨٩
مكة المكرمة: ٤٥، ١٣٨، ١٦٩، ٢٨٤،
٣٠٦، ٣١١، ٣٥٤، ٤٢٤، ٤٣٣-
٤٣٤، ٤٣٧، ٤٥٨، ٥٣٩، ٦٦٤،
٨١٩، ٨٣٠، ٩٤٦، ٩٤٩-٩٥٠، ٩٦٩،
٩٧٢، ١٠١١، ١٠١٣، ١٠١٧-١٠١٨،
١٠٢٤-١٠٢٥، ١٠٢٩، ١٠٣١-
١٠٣٢، ١٠٣٧-١٠٤٠، ١٢٤٤-
١٢٤٥، ١٢٥٩، ١٢٨٧
مكتبة أحمد الثالث: ٦٤٥
المكتبة البريطانية: ٧٠٢، ٧٢٨، ٧٧٦
المكتبة الخالدية: ٤٤٠
مكتبة دارا شِكوه: ٧٧٤، ٧٧٧
مكتبة عاطف أفندي: ٦٤٥
مكتبة فيض الله أفندي: ٦٣٥

١٨٣، ٢٠١، ٣٤٣، ٣٤٥، ٤٦٣، ٨٦٥،
٩٣٦-٩٣٥، ٩٦٧، ٩٧٦، ٩٨٨-٩٨٩،
١٠٠٠، ١٠٤٥، ١١٠٥، ١١٠٧،
١١١٠، ١١١٣-١١١٥، ١١١٧،
١١٢٤، ١١٢٧، ١١٣٧، ١١٤٧،
١١٥٣، ١١٥٥، ١٢٩١، ١٣٢٩،
١٣٣٣، ١٣٥٣، ١٣٥٧-١٣٥٨، ١٣٧٣
مقام إبراهيم: ١٠٢٨، ١٠٣٢
مقام الإمام علي: ١٢٣٤
مقام الخضر. انظر: قدمگاه خضر
مقام السيدة نفيسة: ٤٢١
مقبرة أحمد بن عاشر: ٨٧٩
مقبرة برويز خان: ٧٦٤
مقبرة البقيع: ١٠٣٧-١٠٣٨
مقبرة الترك جندي: ٦٧٣، ٦٨٠-٦٨١
مقبرة جوان آباد: ٧١٤
مقبرة خوجة بلغار: ٦٨٠
مقبرة خوجة تشارشامبا القزاق: ٦٨٠
مقبرة خوجة نور آباد: ٦٨٠
مقبرة دار السلام: ٧١٤
مقبرة سالم شاه: ٩٨١
مقبرة سعدي: ٧١٥
مقبرة السلطان مراد الثاني: ٤٨٤
مقبرة سيدي بليوط: ١٣٤٨
مقبرة شالة: ٨٦٧، ٨٧٥-٨٧٦
مقبرة شاه بخشي: ٦٧٣، ٦٨٠
مقبرة شاه داعي: ٧٠٣
مقبرة الشبيكة: ١٠٣٨
مقبرة شيور شاه: ٩٨١
مقبرة قربانگاه: ٧٢٠
المقبرة المرينية الملكية. انظر: مقبرة شالة

مكتبة الكونغرس: ٤٢	منزل إمام قُلي خان: ٧٠٩
مكتبة وزارة الهند في لندن: ٤١	منزل الأمير سلطان خُرم: ٧٧٥
المكسيك: ١٠٩٠	منزل الباستاس: ١١٣٨
مكسيكو: ١٤٤٣، ١٤٥٠	منزل الباشا: ٥٣٧، ٥٤١
مكناس: ٨٠، ٣٤٦، ٣٩٧، ٩٤١، ٩٤٥	منزل بني الحاج: ٣٦٢
١٣٢٧، ٩٦٧	منزل حنا شيخاني: ١١٦٠
مُلا أمير: ٦٧٢	منزل خسرو ابن جهانغير: ٧٧٥
المُلاح: ٨٨٢-٨٨٥، ٩٦٧، ١٣٣٢	منزل راس تفاري: ٨٤٩، ٨٦٣
١٣٣٥، ١٣٣٧، ١٣٤٨	منزل رِمباود: ٨٦٢
مُلتان: ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٧، ٧٠٩	منزل زينب خاتون: ١١٦٥
الملحقية الثقافية السعودية: ٣٦	منزل سعيد آل مكتوم: ١٤٠٦
مليكا: ٢٣٢	منزل عادل حصن الدين: ١١٥٩
ملبكة: ٩٦٠	منزل عادل طي: ١١٦٠
مليلية: ١٨٣	منزل عبد الباقي: ١١٦٠
ممتاز محل: ٧٧٨	منزل المعلم: ١١٦٠
منارة إلهانك: ١٣٤١	منزل منصور: ١١٦٠
منارة حسان: ٨٦٧، ٨٧٤	منزل مير عالم: ٧٩٤
منازل عائلة غريبال: ٣٧٨	منزل الوكيل: ١٤٠٧
منازل يالي الشاطئية: ٦٣٣، ٦٣٨، ٦٥٣	المُنستير: ١١١١
٦٥٨	منشأة أيك: ٤٠٤
المنامة: ١٤٧٩	منشأة المهراني: ٤٠٢
متجعات الداتاي: ١٣٩٢	منشأة المهراني- انظر: منشأة المهراني
المتندي الروماني المتأخر: ٦٢٦	المنوفية: ١٤٣١
منحدرات تيليملي: ١٣١٤	مِنى: ١٠٢٩، ١٠٣١، ١٠٣٨
منخفض مهارلو: ٧٠٨	المُنيب: ١٤٥٤
منزل ابن عباد: ٣٦٢	منية البنطي: ١٠٨٨
منزل أبو هلال: ١١٥٠	منية الزبير: ١٠٨٨
منزل أتشيلباش: ٤٦٩	منية العجب: ١٠٨٧
منزل أسرة قرجي: ٥٣٦-٥٣٧	منية القرشية: ١٠٨٨
منزل أسرة القرماتلي: ٥٣٦-٥٣٧، ٥٤١	منية المغيرة: ١٠٨٨
منزل أسرة محسن: ٥٣٦-٥٣٧	منية المتالي: ١٠٨٨

ميدان الشاه: ٦١٨، ٥٣٩	منية الناصر: ١٠٨٧
ميدان صنعاء: ٨٤٣-٨٤٢	منية الناعورة: ١٠٨٨، ١٠٧٨-١٠٧٧
ميدان الغلة: ١٠٠٨	مهتاب باغ: ٧٦٦، ٧٥٥
ميدان غنج علي خان: ٥٩٦، ٦٠٠، ٦١٧-	المهدية: ١١١١، ٨٦٩، ٣٢٦، ٢٠٧، ٢٠٠
٦١٨	مهراولي: ٢٩٤
ميدان قرس مغالا: ٨٥١-٨٤٨	المهندسين: ١٤٤٢
ميدان القبق: ٤٢٠	موتي باغ بادشاه: ٧٥٥
ميدان اللفحة: ٧١٠	موتيغالي: ٧٩١، ٧٨٩
ميدان المهرة: ٤٢٠	موريتانيا: ٨٧٥
مير سلوم. انظر: درياتشه نمك	موستار: ١٤٦٥
ميزاب (الجزائر): ٥٦٤	الموسكي: ١٤٣٩
ميزاب الكعبة: ١٠٢٨	الموصل: ٩٥، ١٢٠، ١٦٥، ٣١٤، ٣٢١، ٤٦٣، ٤٨٠، ٥٦٢، ٩٥٦، ٩٩٣، ٩٩٧، ١٠٠٢، ١٠٠٤-١٠٠٥، ١٠١١، ١٢٥٩، ١٢٣٤، ١٠٥١، ١٠٤٩، ١٠٢٥
ميسيتا: ٩٤٣	موغلا: ٢١٨
ميسي: ٦٤٣	موهنجو - دارو: ٣٧٠
ميلانو: ١١٥٣	ميتروفيل: ١٣٩٦
ميلنيك: ٣١٣	ميدان أرك: ٦٢٢
ميليتوس: ٣٦٩	ميدان أسفريس. انظر: ميدان أصفهان القديم
ميناء بجاية: ٩٦٠	ميدان أصفهان الجديد: ٢٤٩، ٢٥٤-٢٥٥
ميناء زيلع: ٨٤٥، ٨٤٧-٨٤٨	ميدان أصفهان القديم: ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠-٢٥١
ميناء صيدا: ١٢٥٦	٢٥٢-٢٥٣، ٢٥٥، ٧٠٩
ميناء طرابلس (ليبيا): ٥١١، ٥١٣-٥١٦، ٥٢٠، ٥٢٣، ٥٢٥-٥٢٧، ٥٢٩	ميدان الخيل (حلب): ٤٤٦
ميهمان خانا: ٧٦٩	ميدان باب السويقة: ٣٩٣
- ن -	ميدان بني ياس: ١٤١٥
نابلس: ٩٨٩، ١١١١	ميدان الحلقاويين: ٣٩٣
نابولي: ٥٢٧، ٧٣٦، ١١٥١، ١١٥٣	ميدان سباق الخيل (إسطنبول): ٦٥١
نادروغ: ٩٨٤	ميدان سعاد: ٧٢٣، ٧١٧
نادي الإمارات للغولف: ١٤١٧	ميدان السلطان أحمد: ٦٥٢
	ميدان السلطان لاجين: ٤٠٦

نادي خور دبي للغولف واليخوت: ١٣٨٩،

١٤١٧

نارناول: ٩٨١

نافورة أسكودار: ٦٣٩

نافورة تويكابي باب همايون: ٦٣٩

نافورة شاه مرتاض علي: ٧٢٤

نافورة لاليلي: ٦٥٦

نانسي: ١٣٤٠

النبطية: ١٤٧٨

نتوء سيرونسيلو: ٥١٧

نتوء سيرون: ٥١٧

نجدان ملك: ٦٠٤

نجد: ٩٤٦، ٩٣٩

النجف: ٩٦

نخل: ١٢٠٥

النَّدِيَّة: ٨٥٦، ٨٥٩-٨٦٠، ٨٦٢، ٨٦٤

نزل الرهبان الكرملين: ٧٠٣

نزل الشاه عباس الأول: ٢٥٤-٢٥٥

نزل قُرّه بك: ٦٩٢

نزل كُليوتا: ٦٩٢

النزل الهندي: ٦٩٢

النسيم: ١٣٥٨

نصب المعمارين: ٦١٦

نصراوة: ٩٠٣

نصر: ١٤٣٩، ١٤٤٨

نقاره خانه: ٧١٤

النقاشخان: ٦٥٦

النقب: ١٧٢

نقش رستم باسارغاد: ٧١٣

نمازغانسكايا أوليتسا. انظر: نمازگاه

نمازگاه: ٦٧٣

النمسا: ٦٤١، ٨٨١

نهج حداد عبد الرزاق. انظر: جادة دو فردان

نهر أبو رقرق: ٨٦٥-٨٧١، ٨٧٣-٨٧٦،

٨٨١-٨٨٨، ٨٨٩

النهر الأحمر. انظر: نهر كيزيل إرمك

نهر بَردي: ٩٦٣

نهر التايمز: ٨٧٩

نهر جاون. انظر: نهر جَمُنا

نهر جَمُنا: ٧٤٠، ٧٤٦، ٧٤٩-٧٥٠، ٧٥٢،

٧٥٤، ٧٦٠، ٧٦٤، ٧٦٦-٧٦٧، ٧٧٠،

٧٧٤، ٧٧٧، ٧٧٩، ٧٨١، ٩٦٦

نهر خَرَم درّه. انظر: نهر خشك

نهر خُشك: ٧٠٣، ٧٠٨، ٧١٥، ٧٢٩، ٧٣٦،

نهر دجلة: ١٢٠، ١٧٤، ٢٠١-٢٠٢، ٢٠٤،

٢٠٦، ٢١١، ٣١٨، ٣٢١-٣٢٣، ٣٢٥،

٣٣٤، ٣٣٧-٣٣٨، ٣٤٠، ٩٣٤، ٩٣٨،

٩٤٤، ٩٤٦، ٩٥٥-٩٥٦، ٩٥٨، ٩٩٣،

١٠٠٤، ١٠١١

نهر دمياط: ٩٥٤

نهر ديا لا: ١٧٤

نهر رشيد: ٩٥٤

نهر رودخان: ٧١٢

نهر زارافشان: ٩٨٣

نهر زابنده رود: ٢٣٨، ٢٤٣-٢٤٤، ٢٥٤،

٧٣٦، ٧٤٩، ٩٦٤-٩٦٥

نهر سوتلج: ٩٦٦

نهر الغانج: ٩٣٤، ٩٥٤

نهر غومتي: ٩٧٨

نهر الفرات: ١٩٣-١٩٤، ٢٠٣، ٣٢١،

٤٨٠، ٩٣٦، ٩٣٨، ٩٤٤، ٩٤٦، ٩٥٥،

٩٥٨

نهر فرسان: ٢٤٤

هنگاريا: ٨٨١	واڊي البو: ١١٥٣
هورتلوم: ٧١٥	واڊي بوفكران: ٩٦٧
هورتوس فردوس. انظر: باغ تخت قراتشه	واڊي تينيسي: ١٣٤٦
هورتي: ٧١٥	واڊي الجواهر: ٣٤٦
هورناشوس: ٨٧٩	واڊي خالكالي: ٩٦٩
هوسا بگاوي: ٩٠٢	واڊي ديكمين: ١٣٩٥
هولندا: ٨٨١، ٥٨٣، ٥١٩	واڊي سيبو: ٩٦٢
هونغ كونغ: ١٤٠٣	واڊي صومام: ٩٦٠
هيسار فيروزا: ٩٦٦	واڊي الظنة: ٩٥٩
هيكل سليمان: ٤٣١-٤٣٢، ٤٣٤، ٤٣٦	واڊي ظهر: ٩٥٩
هيكل القمر: ٦٩٥	واڊي الغانج: ٢٨١، ٢٧٣
هيوستن: ١٣٦٢	واڊي فاس: ٩٦٢
- و -	واڊي الفرات: ٤٨٠
واحة اصفهان: ٩٦٤	واڊي كاغد خانة: ٩٦٩
واحة اوياري: ٩٤٥، ٩٣٧	واڊي مجردة: ٩٩٣
واحة توات: ٩٧٧	واڊي مزاب: ٩٦٠
واحة تيديكلت: ٩٧٧	واڊي ميلتيلي: ٩٦٠
واحة الرياض: ٩٣٩	واڊي ناسا: ٩٦٠
واحة سبها: ٩٤٥، ٩٣٧	واڊي النعيمه: ٩٦١
واحة سوف: ٩٧٧	واڊي النيل: ٩٥٦
واحة الفجيج: ٩٧٧	الواڊي الهندي: ٩٣٦، ٩٥٤، ١١٣٥
واحة قورارة: ٩٧٧	واڊي الهيكسوس: ٢٢٥
واحة مرزوق: ٩٤٥، ٩٣٧	واسط: ١٩٩، ٢٠١-٢٠٢، ٢١٠، ٣٢١
واحة مزاب: ٩٧٧	واسكويرو: ١١٥٧
واد بوسكورة: ١٣٣٦	واه اردشير: ١٧٤
واڊي ابو جميل: ١٤٩٥	الوركاء: ٣٦٩
واڊي ابو رقراق: ٨٦٥، ٨٦٧، ٨٧٥	وزنيجلر: ٦٥٦
واڊي لييرو: ١٨١	وزير آباد. انظر: بلخ
واڊي البقاع: ١٤٦٨	وسط بيروت التجاري: ١٢٤٧، ١٤٧٠-
	١٤٧١، ١٤٧٤، ١٤٧٩-١٤٨١

ولاشيا: ٢٢١-٢٢٠، ٢١٨
الولايات المتحدة الأمريكية: ١٥٦، ٧٦،
١٣٩٨، ١٣٤٣، ٨٨١، ٥٢٧
وليلي. انظر: فوليبليس
وهال: ٨٤٥
وهران: ٥١٤، ٥٥٢

- ي -

اليابان: ١٤٢٢، ١٤٠٢، ١٣٨٦، ٨٦١
يزد: ٩٧٥-٩٧٤، ٦١٤
اليعقوبية: ٩٦٧
اليمامة: ٣٣٢، ٣٢١
اليمن: ١١٥-١١٦، ١٤١، ١٩٢، ٨٢١،
٨٤٧، ٩٣٦، ٩٤٢، ٩٥٩، ٩٦٨، ٩٨٠،
٩٨٨، ٩٩٦، ١٠٢١، ١٠٤٨، ١١٥٣
يميش أوضة. انظر: غرفة الفواكه
يهودية (أصفهان): ١٨٤، ٢٤٣-٢٤٥،
٢٤٧، ٢٤٩
يوتوبيا: ١٤٥١
اليونان: ٢٢٣-٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٩، ٣٦٩-
٣٧٠، ٨٣٠، ١٢٠٣

١٤٨٥-١٤٨٧، ١٤٩١-١٤٩٤،
١٤٩٦-١٤٩٩، ١٥٠١
وسط دبي التجاري: ١٤١٣، ١٤١٦-١٤١٧
وضر خوجة عُنجار: ٦٨٢
وفا: ٦٤٥-٦٤٦
وقف آق ملك بنت عبد الله: ١٢٤٢-١٢٤٣
وقف إبراهيم خان زاده محمد باشا: ٤٥٢-
٤٥٣، ٤٥٨
وقف إيشير باشا: ٤٥٧، ٤٦٢، ١٢٣٨
وقف أحمد باشا طه زاده: ٤٦٣
وقف بهرام باشا: ٤٥٢، ٤٥٧، ١٠٥٦
وقف السلطان حسن: ٤١٦
وقف خاسكي سلطان: ١٢٤٤
وقف خسرو باشا: ١٠٥٦
وقف دبانة: ١٢٥٢
وقف الغوري: ٤١٦
وقف قابنباي: ٤١٦
وقف قُمشُبغا: ١٢٤٢-١٢٤٣
وقف محمد باشا دوقه كين زاده: ٤٥١،
٤٥٤، ١٠٥٦
وقف موسى الأميري: ٤٦٣
وكالة الخرنوب: ٩٩٧
وكالة ذو الفقار: ٩٩٧، ١١٦٢

فهرس الموضوعات

- أ -

- الاستعمار الفرنسي: ٤١، ٧٠، ١٠٤، ١١٠
 استقلال لبنان (١٩٤٣): ١٤٦٨
 استقلال المغرب (١٩٥٦): ١٣٢٩
 الاستهلاك الثقافي: ١٣٨١
 استيلاء البريطانيين على أغرا (١٨٠٣): ٧٨١
 الأسلمة: ٣٠٩، ١٢٣١، ١٥٠٠
 إعادة إعمار بيروت: ١٤٦٥-١٤٦٧،
 ١٤٨٣-١٤٨٤، ١٤٨٩، ١٤٩١
 ١٤٩٤، ١٤٩٩
 اغتيال رفيق الحريري (بيروت، ٢٠٠٥):
 ١٥٠١
 الاقتصاد الزراعي: ٩٥٠، ١٠٧٢، ١٠٧٦
 الاقتصاد العالمي: ٥٠٦، ١٣٧٥، ١٤٠٢-
 ١٤٠٥، ١٤٢٢-١٤٢٤، ١٤٢٦-
 ١٤٢٧
 اتحاد كتاب المغرب: ١١٢٣، ١١٢٥
 الإثنوغرافيا: ١١٠٦، ١١٠٨-١١١٠،
 ١١١٢
 الاحتلال الإسباني لمدينة طرابلس الغرب
 (١٥١٠-١٥٥١): ٥٠٩، ٥١٤-٥١٥،
 ٥١٧، ٥٢٢، ٥٣٨
 الاحتلال الإيطالي لليبيا (١٩١١): ١٢٩٨
 أحداث ١١ أيلول/سبتمبر (٢٠٠١):
 ١٤٨٨، ١٤٩٩
 أحداث ١٩٥٨ (لبنان): ١٤٧٢
 الإرث التاريخي: ١٣٠٧
 الأرثوذكسية: ٤٤٠، ٤٧٧، ٤٩٩
 أزمة السكن (مصر): ١٣٦٧
 الاستعمار الإيطالي: ٥٣٧، ١٣٠٣

أوبيك (منظمة الدول المصدرة للنفط):

١٣٧٣

- ب -

الباب العالي: ٣٠٩، ٥١٩، ٦٤٤، ٦٥٠،

٨٨٤، ١٠٤٣، ١١٢٧، ١١٧٦، ١٢٥٦،

١٢٥٨-١٢٥٩، ١٢٦٣، ١٢٦٧، ١٢٨٧،

الباسانت: ٧٩٣-٧٩٤

برنامج آغا خان للهندسة الإسلامية: ٧٦، ٩٦،

برنامج تحسين القرية المدنية: ١٣٩٤

البروتستانتية: ٤٤٠

البعثة الإيطالية لدراسة التراث المعماري

والمديني للحقبة الإسلامية في ليبيا:

٥٣٤، ٥٣٦

البنك التجاري الوطني (جدة): ١٣٨٦

البنك الدولي: ١٣٩٤، ١٣٩٨، ١٤٣٢،

١٤٨٩

البنية التحتية: ١٩٠، ١٩٨-٢٠٠، ٢٠٤،

٢٠٦، ٢٠٩، ٢٣٥، ٤١٤، ٤٨٨، ٦٧٣،

٩٥٠، ١٠٨٤، ١٢٢٧-١٢٢٩، ١٢٣١،

١٢٣٤-١٢٣٨، ١٢٤٨-١٢٥٠،

١٣١٤، ١٣٤٥، ١٣٤٨، ١٣٥٥-

١٣٥٧، ١٣٨٨، ١٤٢٦، ١٤٣٣،

١٤٥٠، ١٤٥٤، ١٤٧٩، ١٤٨٢،

١٤٨٥، ١٤٨٧، ١٤٨٩، ١٤٩١، ١٤٩٨،

البنية المدنية: ٥١-٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦١،

٦٣-٦٧، ٧٠-٧١، ٧٣، ٧٥-٨١، ٨٤،

٨٦-٨٧، ٨٩، ٩١-٩٩، ١٠١، ٢٣٤،

٥٠٩، ٥٣٥، ٥٩١، ٥٩٤، ٦٦٧، ٦٨٦،

٩٤٥، ٩٥٩

الاقتصاد المديني: ٨٤

الاحتلال الإيطالي لمدينة طرابلس (١٩١١):

٥١٥، ٥٣٢، ٥٣٤

الإمبراطورية البيزنطية: ٣٠٢، ٣٣٥، ٤٨٣،

٤٩٢، ١١٥٣، ١٢٣٣

الإمبراطورية الرومانية: ١٠٤، ١٦٨، ١٧٠،

١٨٠، ٣٠٢، ١٠٩٣، ١١٥٣، ١٢٩٩،

الإمبراطورية السلجوقية: ٢٤٩، ٢٥٢،

الإمبراطورية المغولية: ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٩،

٧٤٠، ٧٥١، ٧٩١

الأمم المتحدة

- منظمة التربية والعلم والثقافة

(الأونيسكو): ٨٩، ٧٧٢

الأمن الاجتماعي: ١٣٩٥

الانتخابات الرئاسية اللبنانية (١٩٩٨):

١٤٨٨

الانتخابات النيابية اللبنانية (٢٠٠٠): ١٥٠٠

الانتداب الفرنسي: ٥٤، ٤٤٦، ٤٨١

الإنترنت: ١٦٢، ١٣٧٥، ١٣٨١، ١٣٨٥،

١٣٨٧

انتفاضة بيروت (٦ شباط/فبراير ١٩٨٢):

١٤٨٢

الانتفاضة الهندية (١٨٥٧): ٧٨٥، ٨١٩

الإنزال الفرنسي على الدار البيضاء (١٩٠٧):

١٣٣٣، ١٣٤٣

الأنظمة الحضرية الإيرانية - الأفغانية: ١١٥

الأنظمة الحضرية البلقانية - الأناضولية:

١١٥

الأنظمة الحضرية الشرق الأوسطية: ١١٥

تجارة خيوط النسيج والمنسوجات: ٢٥٤،
٣٥٢، ٤٤٦، ٤٨٤، ٤٩٢، ٤٩٩، ٥٠٢،
٥٠٤-٥٠٥، ٨٤٨، ١٠٨٩، ١٢٦٨
التجارة الدولية: ١١٧، ١٢٧، ٩٩٢-٩٩٣،
٩٩٥، ١٠١٢، ١٢١٩
تجارة السلع الفخمة والثمينة: ١١٧، ٢٤٩،
٣١٠، ٤٢٣، ١٠٠١، ١٢٣١
تجارة العبيد: ٣٨١، ٤٢٣
التجارة العثمانية: ٣٠٤
التجارة الفرنسية: ٤٧٤
التجارة الفلسطينية: ٩٨٩
تجارة القماش: ١٢٧، ٢٥٤، ٣٨١، ٩٩٤،
١٠٠١، ١٢٦٧-١٢٦٨، ١٣٣٦، ١٤١١
تجارة اللؤلؤ: ١٤٠١-١٤٠٢
تجارة الماشية: ١٠٠٨
التجارة المتوسطية: ٤٤٥
تجارة المنتجات الزراعية: ٤٢٣، ٤٥٥،
٨٤٨، ٩٩٣، ١٠٠١، ١٠٠٦، ١٠٠٨
١٠١٢، ١٢٤٩
تجارة النفط: ١٤٦٨
تحرير العبيد: ٥٢٨، ٥٦٦، ٥٨١، ٥٨٩،
١٢٢٦
التحول الاقتصادي: ١٠٩٧
التحول الهوسماني: ١٣٢١
التحيز الحضري: ١٤٣٢
التخطيط المدني. انظر: التنظيم المدني
التدين الاجتماعي: ٤٣٧
التراث الفرنسي: ٨١١
التراث اليوناني: ١٠٩٢
الترامواي: ١٢٦٨، ١٢٧٨

البنية المعمارية: ٨١، ٩٦، ٩٣٥
البوذيون: ٢٦٩
البيئة العمرانية: ١٧٠، ١٧٢، ١٧٩، ٨٩١-
٨٩٢، ٩٠٠، ١٤٠٣، ١٤٠٥، ١٤١٠،
١٤١٢، ١٤٢٠، ١٤٢٣-١٤٢٤
بيت الشرق المتوسطي (فرنسا): ٧٢
البيروقراطية: ٣١١، ٤٩٥، ٥١٩، ٦٤٤،
٦٤٦، ٧٨٥، ٨١٤

- ت -

التاريخ الاجتماعي: ٩٧، ٣١١، ١١١٧
التجارة الإقليمية: ١٠١٢، ١٤٧٥
تجارة الأراضي والأمكنة البحرية: ٥٣٧
التجارة الأفغانية: ٢٨٣
تجارة العقاقير والتوابل: ٣٥٢، ٤٨٨، ٨٢٦،
٩٩٤، ١٠٠١، ١٠٠٦
التجارة البحرية: ١٦٩، ٢٨٤، ٥١٢، ٧٤٠،
٨٧٨، ٩٩٣
التجارة البرية: ٧٤٠، ٩٩٣
تجارة البن: ١٢٧-١٢٨، ٨٤٧-٨٤٨،
٩٩٢، ٩٩٤، ١٠٠١، ١٠٠٦
تجارة البناء: ٣٠٦، ٦٧٩، ١٣٧٣، ١٤٤٩
التجارة الحرة: ١٣٥٨، ١٤٠٣، ١٤٦٨
تجارة الحرير: ٣٥٢، ٤٤٥-٤٤٦، ٤٨٧،
٤٩١-٤٩٤، ٤٩٦-٤٩٧، ٤٩٩
٥٠١-٥٠٤، ٥٠٦-٥٠٧، ٥٤٧
١٢٢٠، ١٢٦٨، ١٤٦٧
التجارة المحلية: ٤٨٠

تربية الماشية: ٤٦١

التصميم المدني- انظر: التنظيم المدني

التصوف: ٤٧٩

التطور العمراني: ٦٢٧، ٦٣٠، ٦٣٦، ٦٥٥،

١٤٠٤، ١٤٢٣-١٤٢٤

التطور المدني: ٦٨، ٧١، ٧٥، ٨٠، ٨٤،

٣٠٣، ٥٠٩، ٥٣٤، ٦١٨، ٦٢٢، ٧٤٥،

٨٠٣، ١٠٥٦-١٠٥٧، ١٢٣١، ١٤٠٢،

التطور المعماري: ٦٢٧، ١٤٢٣

التغير الاجتماعي: ٧٨٤

تقسيم شبه القارة الهندية (١٩٤٧): ٢٧٠

التماسك الاجتماعي: ٣٩٠

التماسك الثقافي: ١١٤٧

التماسك الديمغرافي: ٦٢٩

التناسق المعماري: ٦٢٩

التنظيم الاجتماعي: ٦١، ١٩٠، ١٩٨،

١٢٦٨، ١٣٦٩

التنظيم المدني: ٤٧، ٥٣، ٦١، ١١٢،

١٧٢، ١٨١، ١٩٨-١٩٩، ٣٢٤،

٣٧٣، ٤١٦، ٤٥٠، ٦٦٢-٦٦٤، ٦٧٠،

٦٨١-٦٨٢، ٦٨٧، ٧٤٧، ٧٨٤، ٧٨٦،

٧٨٨، ٨١٢-٨١٣، ٨٢٠، ٨٧٤-٨٧٥،

٩٧٦، ١٠٥٦، ١١٣٨، ١١٩٥، ١٢٦٠،

١٢٧٢، ١٣٤٠، ١٣٦٢-١٣٦٣،

١٣٦٥، ١٣٦٧، ١٣٧٣، ١٤٦٦،

١٤٧٣، ١٤٨٣

التنظيم المكاني: ٨٤، ١٠٣-١٣٥، ١٨٧،

٢٠٢، ٧٨٣، ١١١٢، ١٣٩٣

التنمية الاقتصادية: ١٣٨١، ١٤٧٤، ١٤٧٩

التنمية الزراعية: ٩٧٩، ١٣٣٧

التنمية المحلية: ١٣٩٤، ١٤٢٥

التوازن الاقتصادي: ٩٨٩

- ث -

الثقافة الإسلامية: ٣٧، ١٣٧-١٣٨، ١٥٨،

٢١٠، ٧٧٤، ٨٩٢، ٩٤٣، ٩٨٥، ٩٨٧،

١٠٩٣، ١١٣٣، ١١٥٤، ١٣٩٩

الثقافة العربية: ٣٣، ٣٦-٣٧، ٢١٠، ٣٠٩

الثورات الهندية ضد البريطانيين (١٨٣٩-

١٨٥٧): ٨١٩

الثورة الإسلامية (إيران، ١٩٧٩): ١٣٧٣

الثورة البلشفية (روسيا، ١٩١٧): ٥٦-٥٧،

١٣٦٥

ثورة تموز/ يوليو (مصر، ١٩٥٢): ١٣٦٦،

١٤٣١

الثورة الفرنسية (١٧٨٩): ١٣١٧

ثورة الصرب (١٨٠٤): ١٢٥٩

- ج -

جائزة آغا خان للثقافة: ٤٢

جائزة آغا خان للهندسة المعمارية: ٦٨-٦٩،

١٣٩٤

الجمعية الشريفة للمدينة العمالية الأهلية

(الدار البيضاء): ١٣٥٢

جمهورية أبو رقرق (١٦٢٧-١٦٦٦):

٨٧٩-٨٨٠، ٨٨٢، ٨٨٨

الجنادر: ٤٢، ١١٧١، ١١٧٣، ١١٩٣،

١١٩٨

- ح -

حركة طالبان (أفغانستان): ٣٩
 حركة العمران: ٤٤٣
 حزب الله (لبنان): ١٤٨٢، ١٤٩١، ١٥٠١
 حصار كانيا (١٦٤٤): ٥٦٦
 الحضارة الإسلامية: ٤٣، ١٤٠-١٤١،
 ٩٥٤، ٩٥٢، ٩٤٣، ٩٣٤-٩٣٣، ١٥٦
 ٩٥٦، ١٣٠٥
 الحضارة الأوروبية: ٥٩، ٨٨١
 الحضارة البيزنطية: ١٠٩٧
 الحضارة الرومانية: ١٠٥، ١٠٩٧، ١٣٠٣
 الحضارة السومرية: ١١٣٥
 الحضارة العربية: ٣٧
 الحضارة الغربية: ٣٩١، ٨٤٨
 الحضارة القوطية: ١٠٩٧
 الحضارة المتوسطية: ٥١٠
 الحضارة المسلمة: ١٠٥
 الحضارة المصرية: ١١٣٥
 الحقبة البريطانية (الهند): ٢٨١، ٢٨٣،
 ٢٨٧، ٢٩٩، ٧٨٦
 الحقبة... انظر: العصر
 الحكم الإسلامي: ١٠٧، ١٠٩، ١٧٠-
 ١٧١، ١٨٠، ١٨٥، ٣٠٩، ٤٣٠، ٤٣٧،
 ٥١٠، ٩٧٢، ٩٧٦، ١٠٩٤
 الحكم الأموي: ١٠٩٣
 الحكم البريطاني: ٢٨٤، ٧٨٥، ٧٨٧-٧٨٨
 الحكم البيزنطي: ١٦٧-١٦٨، ٢١٩، ٩٦٩-
 ٩٧٠، ١٢٠٣
 الحكم الساساني: ٢٦٢
 الحكم السوفياتي: ١٢٣٥
 الحكم الصفوي: ٥٠٢، ٩٦٥

الحج الإسلامي: ١٠١٣-١٠١٩، ١٠٢٤-
 ١٠٢٧، ١٠٢٩-١٠٤٠
 الحرب الأهلية العباسية (٨١٤): ٣٢٢
 الحرب الأهلية العباسية (٨٦٥): ٣٢٣
 الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥-١٩٩٠):
 ١١٢٠، ١١٣١، ١٢٥١، ١٤٦٥-
 ١٤٦٧، ١٤٧٢، ١٤٧٥-١٤٧٦،
 ١٤٧٩، ١٤٨١، ١٤٨٣، ١٤٨٦-
 ١٤٨٧، ١٤٩٢، ١٤٩٥
 حرب الجبل (لبنان، ١٨٦٠): ١٤٦٧
 الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨):
 ٤٨٠، ٤٨٧، ٥٠٧، ١٣٣٠، ١٤٦٦،
 ١٤٦٨-١٤٦٩، ١٤٧١-١٤٧٢
 الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥):
 ١٥٦، ١٣٢٩، ١٣٤٣-١٣٤٤، ١٣٦٥،
 ١٤٦٨، ١٤٧٢، ١٤٧٥
 الحرب العربية - الإسرائيلية
 - (١٩٤٨): ١٤٦٨
 - (١٩٦٧): ٥٣٦
 - (لبنان، ١٩٨٢): ١٢٥١، ١٤٨٠
 - (لبنان، ٢٠٠٦): ١٥٠١
 الحرب على العراق (٢٠٠٣): ٣٩
 حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦): ١٢٦١
 الحرب المقدسة: ٨٦٩-٨٧٠، ٨٧٤،
 ٨٨٠-٨٨١
 حركات التمرد الشعبية (دار البيضاء،
 ١٩٨١): ١٣٥٥
 حركة أمل (لبنان): ١٤٨٢
 حركة الجلاي: ٤٩٤، ٦٣٤

الحكم العثماني: ١١١، ١١٦، ٣٠٣،
٣٠٩، ٤٤٠، ٤٧٦، ٤٧٨، ٥١٥، ٥٢٤،
٥٤٣، ٥٤٥، ٥٥٢، ٥٥٤، ٥٧٧، ٥٨٣،
٥٨٧-٥٨٨، ٥٩١، ٩٨٨-٩٨٩، ٩٩٥،
٩٩٩، ١٠٠٤، ١٠٠٦-١٠٠٧، ١٠١١،
١٠٤٩، ١٢٢٧، ١٢٢٩، ١٢٣٨،
١٢٤٠، ١٢٤٢، ١٢٤٩

الحكم العلوي: ٨٨٥

الحكم القرطاجي: ٥١٢

الحكم القرمانلي: ٥١٠

الحكم القوطي: ١٨١

الحكم المغولي: ٦١٥

الحكم المملوكي: ٣٩٩، ٤٠٤، ٤٣٦-
٤٣٧، ١٢٠٢-١٢٠٣

الحكم الياباني: ١٣٩٣

حكومة فيشي: ١٣٤٣

الحملات الصليبية: ١٠١٧، ٦٢٥

- خ -

الخلاف بين الأمين والمأمون: ٣٣٨

الخلافة الأموية: ١٦٨، ٧١٣

الخلافة العباسية: ٩٥، ١٩٣، ٣٢٠، ٧١٣

خلافة قرطبة: ٦٩

- د -

الديار المغولي: ٧٨٦، ٧٩٢-٧٩٣، ٧٩٦،
٧٩٩-٨٠٠، ٨٠٥، ٨٠٩، ٨١١-٨١٢

الدولة الأخمينية: ٢٣٩

الدولة الإسلامية: ٩٨٢، ١٠٧٢

الدولة الأموية: ١٩٩، ٩٦١

الدولة الصفوية: ٢٥٢، ٤٨٧

الدولة الطولونية: ١٩٨

الدولة العباسية: ٣٣٣، ٣٩٩

الدولة العثمانية: ١٢٠، ٢١٥-٢١٦، ٢١٩،

٢٢٩، ٣٠١-٣٠٢، ٣٩٣، ٤٤٣، ٤٧٣،

٤٧٧-٤٧٨، ٤٨٣، ٤٩٢-٤٩٣، ٥٠٧،

٥١٩، ٥٢٥، ٥٦٤، ٥٨٤، ٥٨٩-٥٩٠،

٦٣٨، ٦٤١، ٩٨٩، ٩٩٣، ١٠٤١،

١٠٤٣، ١١٥٥، ١١٧٤، ١١٧٦،

١١٨٩، ١١٩١، ١٢٠٤-١٢٠٧،

١٢١٧، ١٢٢٠، ١٢٢٨، ١٢٣١،

١٢٣٤، ١٢٤١-١٢٤٣، ١٢٥٥، ١٢٩٥

الدولة الفاطمية: ١٢٠، ١٠٤٩، ١١٦٦

دولة لبنان الكبير: ١٤٦٨

الدولة الميمنية: ٢٤٠

الديانة الجاينية: ٢٨٣

الديانة الكوشية: ٨٥٤

الديانة الهندوسية: ٢٨٣

- ذ -

الذاكرة الجماعية: ٥٩٤

ذكرى عاشوراء: ٣٣٦، ٧٩٣، ٨٥٦

- ر -

الراج البريطاني- انظر: الحقبة البريطانية
الرأسمالية: ٢٧٤، ١٢٠٣، ١٢١٨، ١٢٢٢،

١٤٣٢، ١٤٤٩، ١٤٥٢

الربط بين الحضرية والهوية: ١١٢٩

شركة سوليدير: ١٤٨٥-١٤٨٦، ١٤٨٩،
١٤٩١-١٤٩٥، ١٤٩٧-١٥٠٠

شركة سيوترا: ١٣٧٨

شركة الشرق: ٤٩٤

الشركة العقارية الفرنسية - المغربية: ١٣٤٩

شركة غارافاك وغاسون: ٥٠٣

شركة كوانيه: ١٣٣٨

شركة الملاحة الهندية البريطانية: ١٤٠٧

شركة النقل البحري العامة: ٤٦

شركة الهند الشرقية: ٧٨٥

شركة الهند الشرقية البريطانية: ٢٧٢، ٨١١

شركة الهند الشرقية الهولندية: ٧٥٣

الشرعة الإسلامية: ٤٤، ٦٥، ١٠٧، ١٣٨

١٤٣، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٥-١٥٧، ١٦٠

٣١٤، ٣٣٦، ٤٩٣، ٨٩٢، ٩١١، ٩٤٣

٩٤٧، ١٠٤٢، ١٠٩٥، ١٢٠٤، ١٢١٠-

١٢١٣، ١٢٤٢، ١٤٥٦

شريعة حمورابي: ١٣٨

الشيعة: ١٤٠، ٢٠٦، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٦

٣٣٩، ٤٩٣، ٦٨٣، ٧١٣-٧١٤، ٨٠٥

٨١٧، ١٢٣٠، ١٤٧٨، ١٤٨٢

- ص -

الصراع السياسي: ١٤٦٦

الصراع العثماني - الصفوي: ٤٩٨

الصراع على السلطة: ٥٢٣

الصفوية: ٢٤٣، ٢٥٤، ٥٩٤

صناعة الحرير: ٤٨٧، ٤٩٢، ٤٩٤-٤٩٦

٥٠٠، ٥٠٣

الرق: ٣٣٣، ٥٦٦، ٥٧٨، ٥٨٠-٥٨١،
٨٤٨

الركود الاقتصادي في الجزائر (١٨٥٤):
١٣٠٩

- س -

سقوط السلطنة العثمانية (١٩١٨): ٦٠، ٦٨

سقوط بغداد (١٢٥٨): ٣١٧

سقوط القسطنطينية (١٤٥٣): ٥١٤، ٦٢٥،
١٢٣٣

السلم الاجتماعي: ١٤٤٩

السيطرة... انظر: الحكم

- ش -

الشاذلية: ٣٥٦، ٨٧٨

الشركات المتعددة الجنسيات: ١٣٨١،
١٤٠٣

شركة آرامكو: ١٣٦٩

شركة أوجيه: ١٤٨١

شركت - حايري. انظر: شركة النقل البحري
العامة

شركة داز للهندسة: ١٣٩١

شركة دبي آرك: ١٤١٥

شركة زيروكس: ١٤١٥

شركة السكر المغربية: ١٣٥٢

شركة السكك الحديدية (بيروت): ١٤٧٢

شركة سكيدمور وأوينغز وميريل: ١٣٨٦،
١٣٨٩

العصر الأموي: ١١٢، ١٦٨، ١٧٠-١٧٤،
١٩٥، ١٩٩، ٢٠٢، ٢١٠، ١٠٩٣،
١٢٣١

العصر الأيوبي: ٨٧، ١٠١٧، ١٠٢٩،
١٠٣٥، ١٢٢٨، ١٢٣٠

العصر البارثي: ٢٤١

العصر البربري: ٥٥٤

العصر البرونزي: ٢٣٩، ١١٣٥

العصر البويعي: ٦٠١

العصر البيزنطي: ١١٢، ١٧٢، ٩٦٢

العصر التوغلوكي: ٩٧٩

العصر التيموري: ٦٠٤، ٦١٦، ٦١٨، ٦٦٢،
٦٦٧، ٦٧٠، ٦٧٢، ٦٧٥، ٦٨٦، ٧٢٧

العصر الجنوبي: ١٢٧٨

العصر الحفصي: ٩٩٩، ١٠٠٨

العصر الروماني: ١٠٧، ١٨٠، ٢٠٧، ٥١٣،
٨٧٥، ٩٦١، ١٠٦٨، ١٠٧٢، ١٠٧٤

١٠٧٦، ١٠٩٣-١٠٩٤

العصر الزنكي: ١٠٠٠

العصر الساساني: ١٧٣-١٧٤، ١٧٦، ١٨٠،
٩٧٢، ٢٦٤

العصر الساماني: ٦٦٢، ٦٦٦، ٦٧٤، ٦٧٧،
٩٨٤

العصر السلجوقي: ٢٥٣، ٣٢٠، ٣٢٨-
٣٢٩، ٣٣٧، ٦٠٩، ٦١٢-٦١٣، ٦١٥

٦١٧، ١٠٣٥

العصر السوفياتي: ٥٧، ٦٧٥

العصر الشركسي: ٤١٠، ٤١٥، ٤٢٠

العصر الصفوي: ٩٣، ٢٥٣، ٢٥٥، ٣٠٣،
٥٩٦، ٦٠٦، ٦٠٩، ٦١٢، ٦١٧-٦١٨

صندوق النقد الدولي: ١٤٤٩

الصندوق الوطني للمهجريين (لبنان): ١٤٨٩

الصفوية: ٢٧٩، ٢٨٥، ٢٨٧، ٣٥٩، ٣٦١،
٦٨٢

- ط -

الطائفية: ١٥٠٠-١٥٠١

الطبوغرافيا: ٨٧، ١٦٧، ١٧٧، ٣٦٦، ٣٩٣،
٦٠١، ٦٧١، ٦٨٧، ٧٠٥، ٩٣٦، ١٠٧٢

الطراز الباروكي: ٦٢٣، ٦٤٢، ٨٨٨

الطراز البازيليكي: ١١٦٣

الطراز البالاديوني: ٨٠٤، ٨٠٩

الطراز البندقي: ١١٥٧

الطراز الروكوكي: ٦٤٢

- ع -

العالم الثالث: ١١٢١، ١٤٢٣، ١٤٢٥،
١٤٣٢

العدالة الاجتماعية: ١٣٧٩

عصر الأتابكة: ٧١٤

العصر الأخميني: ٣٦٩

العصر الإسلامي: ٧٧، ٨٠، ٨٦، ١٣٨،
١٤٠، ١٤٧، ١٤٩، ١٦٥-١٧٠، ١٧٤-

١٧٦، ١٧٨، ١٨١، ١٨٦، ١٩٠، ٢٤٢

٢٥٠، ٢٥٢، ٢٦٣، ٢٧٥-٢٧٦، ٣٠٣

٤٠٤، ٥١٣، ٥٣٥-٥٣٦، ٧١٤، ٨٢١

٨٤٢، ٩٤٣، ٩٥٠، ٩٥٨، ١٠٦٨

١٠٧٢، ١٠٨٥، ١٠٩٣، ١٠٩٥

١٢٢٩، ١٣٨٣

- عصر المرابطين: ٣٤٣
العصر المريني: ٣٤٣، ٣٤٩، ٨٧١، ٨٧٥-
٨٧٦، ٨٨٤، ٩٦٣، ١٣٣٣
العصر المغولي: ٢٧٣-٢٧٥، ٢٨١-٢٨٣،
٢٨٧، ٢٨٩-٢٩٠، ٩٦٤، ٩٧٨، ٩٨٢
العصر المملوكي: ٨٤، ٢١٠، ٤٠٠، ٤٠٧،
٤١٥، ٤٢٠، ٤٣٨-٤٣٩، ٤٤٨، ٤٥٠،
٤٦٣-٤٦٥، ٩٩٦-٩٩٥، ١٠٠٤،
١٠٠٦، ١٠٠٨، ١٠١١، ١٠٢٨،
١٠٣٥، ١٠٥٦، ١١١٧، ١١٦٧،
١٢٢٨، ١٢٣١، ١٢٣٦-١٢٣٧
العصر الموريتاني: ٨٧٥
عصر النهضة: ٨٨٨، ١٠٢١، ١٠٩٣، ١١٤٧
العصر النبوآشوري: ١٣٨
العصر الوسيط: ٤٠١، ٤٨٨، ٦١٠، ٩٨٠
العلاقات الاجتماعية: ٦٤
العلاقات الإنسانية: ٣٨٤
العلاقة بين الإنسان والبيئة: ٩٣٤
العلاقة بين الإنسان وموارد المياه: ٩٤٣
العلاقة بين الحاكم والمقيم: ٨٠٤
العلاقة بين الدولة والتراث التاريخي: ١١١٩
العلاقة بين السلطة والمجتمع: ٤٤٦
العلاقة بين الشريعة والمجتمع: ١٢١١
العلاقة بين الماء والحضارة الإسلامية: ٩٣٤
العلاقة بين المباني السكنية والنسيج
المديني: ٨٢
العلاقة بين المدن والقرى: ٩٩٢-٩٩٣،
١٠٦٧، ١١١٦
العلاقة بين المدينة والاقتصاد: ١٠٠
العلاقة بين المدينة والبحر: ١٣١١، ١٣١٣
- ٧٠١-٧٠٢، ٧٠٩، ٧١١، ٧١٤، ٧١٦-
٧١٧، ٧٢٠-٧٢١، ٧٢٤، ٧٢٩، ٧٣١،
٩٦٥
العصر العباسي: ١٩٣، ١٩٨، ٢١٠، ٣١٧،
٣١٩، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٧٠، ١٢٣٣
العصر العثماني: ٥٩، ٦٨، ٨٤-٨٥، ٨٧،
٨٩، ٩٧-٩٨، ١٠٤، ١٠٩، ١١١،
١١٣، ١١٨، ١٢٠، ١٣٢، ٣٠١-٣٠٣،
٣٧٦، ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٥٠، ٤٥٩،
٤٦١، ٤٦٣-٤٦٥، ٤٧١، ٤٧٤، ٤٨١،
٤٩٠، ٥٠٠، ٥٠٩-٥١٠، ٥٤٣-٥٤٤،
٥٤٦، ٥٥٤، ٥٥٦، ٥٦٠، ٥٦٢، ٥٧٣،
٥٧٥، ٥٨٣-٥٨٤، ٥٨٧-٥٨٨، ٥٩٠-
٥٩١، ١٠٠٠، ١٠٠٨، ١٠٤٥، ١٠٥٦،
١٠٦٢، ١٠٦٦، ١١٤٦، ١١٦٥-
١١٦٧، ١١٧٤، ١١٨٨، ١٢٢٨،
١٢٤٨، ١٢٥١-١٢٥٢
العصر العلوي: ٨٨٢
العصر الفاطمي: ٩٢، ٤٢٣-٤٢٤، ٩٥٤،
١١٦٣، ١٢٣٠
العصر الفاجاري: ٥٩٤-٥٩٦، ٦٢٢، ٧٢١،
٧٢٩، ٧٣٢
العصر القراخاني: ٦٦٨-٦٦٩
العصر القوطي: ١٨٣، ١٠٧٦، ١٠٩٠،
١٠٩٣-١٠٩٤
عصر ما قبل الإسلام: ٤٤-٤٥، ٥٩، ٦٦،
٩٣، ١٣٨، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٦، ١٥٨،
١٦٥، ١٧٢، ١٧٦، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥٩،
٢٧٥، ٣٧٠، ٦٦٢-٦٦٤، ٦٦٦، ٧١٣،
٨٢٤، ٨٤٢، ٨٥٤، ٨٥٦، ٩٦٨، ٩٧٧،
٩٨٨، ١٠٧٠، ١٠٧٢، ١١٥٨، ١٢٣٢

العلاقة بين المدينة والمياه: ٩٥٢

العلاقة بين المساكن والأعمال: ١٣٥٦

العلاقة بين المناطق السكنية والبحيرات

الصناعية: ٩٧٨

العلاقة بين النقابات والاقتصاد: ١٢١٨،

١٢٢١

العلاقة بين النقابات والمجتمع: ١٢١٣

العلاقة بين النقابة والحكومة: ١٢٠١

العلاقة بين النقابة والدولة: ١٢٠٤، ١٢٠٨

العلاقة بين النقابة والمحكمة: ١٢١٣

علاقة المنازل بالشوارع: ١٥٥، ٢٣٤

علاقة الهندسة بالإسلام: ١٣٩٢

علم النفس الجمعي: ١١٠٨

العمارة الأوروبية: ١٢٨٩

العمارة الإيطالية: ١٢٩٩

العمارة الأيوبية: ٩١

العمارة البريطانية: ٨١٢

العمارة التقليدية: ١٤١٣

العمارة الخرسانية: ١٣٣٨

العمارة العالمية: ١٤٨٠

العمارة المائية: ٩٣٣-٩٨٦

العمارة المتوسطة: ١٢٨٩-١٣٠٥

العمارة المملوكية: ٤٣٨، ٤٠٨، ٩١

ال عمران المدني: ٤١

العمر: ١٠١٧، ١٠٢٥-١٠٢٦، ١٠٢٨-

١٠٣٥-١٠٣٤، ١٠٣١، ١٠٢٩

عملية إنسولا: ١١٦٨، ١١٤٥

عملية تاييرنا: ١١٤٣-١١٦٨، ١١٤٥

عملية الجزر (السكنية): ١١٤٤-١١٤٦

العنف المدني: ١٤٦٦

عهد تراجان (٩٨-١١٧): ١٦٦

العهد... انظر: العصر

العولمة: ١٣٦١-١٣٩٩، ١٤٠٢، ١٤٠٦،

١٤١٧، ١٤٢٠، ١٤٢٣-١٤٢٤،

١٤٢٦-١٤٢٧، ١٤٥٢، ١٤٦٦

عيد النوروز: ٣٣٤، ٣٤٠، ٧١٣-٧١٤،

٧٣٣، ٧٩٣-٧٩٤

العيش المشترك: ١١١٨

- غ -

الغزو البريطاني للهند (١٨٥٨): ٢٧٠

الغزو التيموري للهند (٨٠٠-١٣٩٨): ٩٨١

الغزو العثماني لمدينة حلب (١٥١٧):

١٢٣٦

غزو الفاندال: ٨٧٥

الغزو الفرنسي للجزائر (١٨٣٠): ٥٧٧،

٥٩٠

- ف -

الفاشية: ١٢٩٩، ١٣٠٢

الفتح الإسلامي: ٤٤، ٨٦، ٩٤، ١١٣،

١٦٨-١٧٠، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٧-١٧٨،

١٨٠، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٧، ١٨٩-١٩٠،

١٩٦-١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٤٤، ٢٨٧،

٤٤٣، ٨٣٠، ٩٥٤-٩٥٥، ١٠٧٦

الفتح الروماني للشام (٧٠ م): ١٧١

الفتح العثماني: ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥٠، ٦٢٥،

١٠٦٢

١١٢٧ ، ١١٣٣ ، ١١٤٣ ، ١١٥٤ ،

١٢٠٢ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٩ ، ١٢٤٦ ، ١٣٢٠

القرية المدنية: ١٣٩٣-١٣٩٤

القضية الفلسطينية: ٣٩

قيام دولة إسرائيل (١٩٤٨): ١٤٦٨

القيم الاجتماعية: ١٥٦ ، ٩١٢

القيم الإسلامية: ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ٩١٢ ،

١٣٦٢

- ك -

الكاثوليكية: ٤٢٨ ، ٤٤٠ ، ٤٧٣-٤٧٥ ،

٤٧٧-٤٧٩ ، ٥٠٠ ، ٥٧٧

الكثافة السكانية: ١٠٨٧ ، ١٣٣٢ ، ١٣٥٧ ،

١٤٣٥ ، ١٤٣٧ ، ١٤٤٣-١٤٤٤ ، ١٤٥٩

الكنائس الأرثوذكسية: ٤٤٨ ، ٤٩٩ ، ٥٣٢ ،

٨٤٨

الكنائس الأرمنية: ٤٤٨ ، ٤٧٧

الكنائس السريانية: ٤٤٨

الكنائس الكاثوليكية: ٥٣٢ ، ٨٥٠

الكنائس المارونية: ٤٤٨

الكوزموبوليتانية العالمية: ١٤٠٥

- ل -

لجنة أورناتو: ١٢٦١

لجنة الحفاظ على التراث المعماري (ديبي):

١٤٠٦

اللغة السريانية: ٢٠٣

الفترة... انظر: العصر

الفسيفاء: ٦٢ ، ١٧٢ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٣٨٢ ،

٣٩٤ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥ ، ٦٢١ ، ٧٦٢ ، ١٢٩٣

الفن الإسلامي: ٧٦ ، ٤٣١ ، ٨٨٧

الفن الروماني: ١٠٧٦

الفن العثماني: ٦٣٩

فن العمارة: ٦٨ ، ٨٦ ، ٢١٩ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ،

٩٣٣ ، ٩٦٢ ، ١٠١٩ ، ١٠٦٧-١٠٦٨ ،

١٠٧٨ ، ١٠٩٣ ، ١١٤٨ ، ١٢٨٩-

١٤١١ ، ١٣٠٥

الفن الفارسي: ٦٤٠

الفن المعماري العربي: ١٣٢٦

- ق -

القادرية: ٨٤٦

قانون البناء الفرنسي (١٧٨٤): ١٣٢٠ ،

١٣٢٤

القرصنة: ٥٢٠ ، ٥٤٦ ، ٥٥٢ ، ٥٦٨ ، ٥٨٠-

٥٨١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٧-٥٨٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨٢

القرون الوسطى: ٥٣-٥٤ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٢ ،

٦٤ ، ٦٦ ، ٩٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٤ ،

١٨٢ ، ٢٢٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ،

٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٣١١ ،

٣١٨ ، ٣٣٠-٣٣١ ، ٣٤٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧٣ ،

٣٨٥ ، ٣٩٦ ، ٤٠٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦-٤٣٧ ،

٤٧٣ ، ٥١٩ ، ٥٨٧ ، ٥٩٣-٦٢٢ ، ٦٧٨ ،

٧٨٣ ، ٨٢١ ، ٨٢٦ ، ٨٢٨ ، ٨٣٨ ، ٩٤٨ ،

٩٥٥ ، ٩٥٧ ، ٩٧٣ ، ٩٧٩ ، ١٠٠٠ ،

١٠١٤ ، ١٠٢١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٤٥-

١٠٤٦ ، ١٠٩٠ ، ١١٠٧ ، ١١١٩ ،

اللغة العربية: ٣٩، ٢٠٣، ٢١١، ٢٧٥،
٣٠٩، ٣٣٤، ٨٣٨، ٨٥٠، ٨٥٦، ٨٦٠،
١٠٣٧، ١١٠٣، ١٤٠٢، ١٤٠٤
اللوثية: ٤٢٨

- ٢ -

مؤتمر إكس أون بروفنس الدولي حول
الهندسة المعمارية الحديثة (١٩٥٣):
١٣٣٢

مؤتمر الدار البيضاء (١٩٩٤): ١١٢٣
المؤتمر الفرنسي حول المدينة الاستعمارية
(١٩٣١): ١٣٣٢
مؤتمر المستوطنات البشرية (فانكوفر،
١٩٧١): ١٣٩٦

المؤسسة الباريسية لتخطيط المدن: ١٤٨٠
مؤسسة تواصل شرق - غرب/ بروتا: ٣٣،
٣٧

مؤسسة سامويل كريس: ٩٦
مؤسسة قناة كوبرولو: ٦٥٣
المؤسسة الوطنية لحفظ التراث (تونس):
٨١

مؤسسة وقف دبانة: ١٢٥١
متروبول: ١٣٤٩-١٣٥٠، ١٤٣٥، ١٤٣٧-١٤٣٨،
١٤٤٠-١٤٤١، ١٤٤٤
١٤٥٦، ١٤٥٩، ١٤٦١-١٤٦٣

المترو (مصر): ١٤٣٣
المجتمع الإسلامي: ٥٣-٥٤، ٦٢، ٦٤،
١١١، ١٢٨، ١٣١، ١٤١-١٤٢، ١٤٨،
٤٤٠، ٨٤٦، ٩٣٤، ٩٤٧، ١٠٦٩،
١٢٣٠، ١٣٩٨

المجتمع المسلم: ٨٥٠، ١١٤٦، ١٢٤٦
المجتمع البدوي: ٩٤٧
المجتمع الحضري: ١١٢، ٣٦٥، ١١٠١-
١١٠٢، ١١٠٤-١١٠٦، ١١١٢-
١١١٣، ١١١٧-١١٢٠، ١١٢٢،
١١٢٤، ١١٢٦، ١١٢٨، ١١٣٠،
١١٣٧، ١١٩٩، ١٢١٤، ١٣٦٢

المجتمع القبطي: ١٢٤٨
المجتمع الملني: ١٣٥، ١٠٥٥، ١٣٦٣،
١٤٦١، ١٣٩٢

المجتمع المدني: ٦١
المجتمع اليهودي: ٥٨٣، ١٢٤٦
مجلس الإنماء والإعمار (لبنان): ١٤٧٦،
١٤٨٤، ١٤٨٩

المجلس الوطني (الكويت): ١٣٨٩
مجموعة أبكو: ١٤١٩
مخصّيو البلاط: ٦٥٠، ١١٧٦-١١٧٧
المخطط المدني للدار البيضاء (١٩٨٤):
١٣٥٩

المدينة الآسيوية: ٥٧، ٥٩، ٩٥-٩٦،
٢٦٤، ١٣٦٣، ١٣٦٥، ١٣٧٩، ١٣٨٧،
١٣٩٩، ١٣٩٣

المدينة الآشورية: ٣٦٨-٣٦٩
المدينة الإغريقية: ١١٠
المدينة الأكادية: ٣٦٨، ٣٧٠
المدينة الأمريكية: ٥٥٦، ١١٣١، ١٣٦٢،
١٣٧٨، ١٣٨٧

المدينة الأناضولية: ٩٧-٩٨، ٢١٦
المدينة الأندلسية: ٣٥، ٥٢، ٧٩، ٣٥٩
المدينة الإندونيسية: ١٣٩٣-١٣٩٤

٢٤٢، ٢٦٤، ٣٠٣، ٣٠٩، ٩٨٧، ٩٩٤،

١١١٨

المدينة الشمال الأفريقية: ٥٣، ٥٥، ٦٠،

٦٤، ٨٣، ٥٥٢، ٩١٠

المدينة الصفوية: ٩٤، ٩٥٣

مدينة الصفيح: ١٣٠، ١١٠٥، ١٣٤٦،

١٣٥٢-١٣٥٣، ١٣٥٥، ١٤٤٥

المدينة الصينية: ٢٤٠، ٢٦٥

المدينة العالمية: ٣٣٤، ١٣٧٤، ١٣٧٩،

١٣٨٦، ١٣٨٨، ١٤٠٢-١٤٠٣،

١٤٠٥، ١٤١٦، ١٤٢٤-١٤٢٧

المدينة العثمانية: ٤٦، ٩٩، ١١٤، ٢١٥-

٢١٦، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٣-٢٢٦،

٢٣٢، ٢٣٤-٢٣٥، ٤٤٠، ٤٧١، ٨٤٣،

٩٦٩، ١١٧٥، ١١٨٤، ١١٩٨، ١٢٣٧،

١٢٦٣، ١٢٧٢، ١٢٧٨، ١٢٨٣،

١٤٦٧، ١٤٦٩

المدينة العراقية: ٩٤، ١١٧، ٢٤٧

المدينة العربية: ٦٥-٦٦، ٧٧، ١٠٥، ١١١،

١١٥-١١٦، ١٢٣، ١٣٤، ٣٠١-٣٠٢،

٣١٢، ٣١٤، ٣٧١، ٩٨٧-٩٨٨، ٩٩٣-

٩٩٤، ١٠٠٢، ١٠٠٦، ١٠١٢، ١٠٥٦-

١٠٥٨، ١٠٦٦، ١١٢١، ١١٢٣،

١١٣٧، ١١٤٣، ١٥٠١

المدينة العلمية: ٢٨٦

المدينة الغربية: ٥١، ٥٧، ٢٣٥، ٣٠٢،

٣١٣-٣١٤، ٣٨٥، ٦٢٩، ١٠٥٧،

١١٢٣، ١٢٧٨، ١٣٦٣، ١٣٨٨

المدينة الفاطمية: ٢٠٧

المدينة الفرنسية: ١٠٥، ١٣٢٩

المدينة الأوروبية: ٥٢، ٥٧، ٦٠، ٦٤، ٢٨٧،

٣٩٢، ١٣١٥، ١٣١٨، ١٤٧٥

المدينة الإيرانية: ٥٢، ٦٦، ٩٢-٩٣، ٩٧-

٩٨، ١٧٦-١٧٧، ١٧٩، ٢٠٩، ٢٣٧-

٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٧، ٢٥٦، ٢٦٢-٢٦٦،

٥٩٣

المدينة الإيطالية: ١٨٥، ٣٩٨، ٦٨٦، ١٣١٧

المدينة البابلية: ٣٦٨

المدينة البارثية: ٢٤١، ٢٦٠

مدينة بلاد ما بين النهرين: ٦٦

المدينة البلقانية: ٢١٥-٢١٦، ٢١٩، ٢٢١،

٢٣٢، ٢٣٤-٢٣٥، ٢٠٥

المدينة البيزنطية: ٩٨، ٢١٩

المدينة التركية: ٥٢، ٦٦، ٩٧-٩٨، ٢٣٤،

٣٠٢

المدينة الجاوية: ١٣٩٣

المدينة الدائرية: ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٣٨، ٢٤٢،

٢٦٠، ٢٩٧

المدينة الدينية: ١٦٨، ٢٨٤-٢٨٥

المدينة الروسية: ٥٧

المدينة الرومانية: ٦٧، ١٠٥، ١١٠، ١٨٤،

٢٦٣، ٥١٢-٥١٣، ٥٤١

المدينة الساسانية: ١٦٦، ١٨٠، ٢٦٠

المدينة السورية: ١٠٧، ٤٢١، ٤٤٣

المدينة السومرية: ٣٦٨، ٣٧٠

المدينة الشرق الأوسطية: ٥٥، ٩٨٧،

١١٢٢، ١١٣٤، ١٣٦٥

المدينة الشرقية: ٦٦-٦٧، ٧٥، ٩٨، ١٠٩،

١١٥، ٢٢٣-٢٢٤، ٢٢٦، ٢٣٤-٢٣٥،

المركز الثقافي الفرنسي (مدريد): ٧٨
 مركز دراسات الشرق الأوسط (جامعة
 كاليفورنيا): ٧٧
 مركز دراسات البيئة المبنية (الأردن): ٤١،
 ٩٢
 مركز الدراسات العربية في غرناطة: ٧٩
 مركز دراسات المغرب في تونس: ٨٢
 المركز العراقي - الإيطالي للآثار (بغداد):
 ٩٥-٩٤
 المركز الفرنسي في دمشق: ٩٠
 المركز الفرنسي للبحث العلمي (جامعة
 تور): ٧٢
 المركز الفرنسي للبحوث الأركيولوجية
 الشرقية (القاهرة): ٨٦
 المساواة الاجتماعية: ١٣١-١٣٢
 المستشرقون: ٥٢-٥٣، ٦٧-٦٨، ١٠٥-
 ١٠٦، ١٠٩، ١١١-١١٥، ١٢٣، ١٣٤-
 ١٣٥، ٣١٨، ٩٨٧، ١٠٠٣، ١٠١٢،
 ١١٣٤، ١١٧٦
 المسيحية: ١٧١، ١٨٣، ٢٩٩، ٤٣١، ٤٣٣،
 ٤٣٦، ٥١٥
 مشروع أثبات أفريقيا: ١٣٥٤
 مشروع أليسا (بيروت): ١٤٩١
 مشروع تافو: ٧٤
 مشروع التجديد الحضري إستويتش:
 ١٣٦٨
 مشروع التنمية فيغورو: ١٣١١
 مشروع غويوشان (١٨٤٨): ١٣٠٩
 مشروع كاتيا: ١٣١١
 مشروع لينور (بيروت): ١٤٩١

المدينة الفيسفائية: ٦٤، ٧١
 المدينة القروسطية: ٥٧، ٣١٣، ٤٤٠، ٨٢١
 المدينة الكولونيالية: ١٣٦٤-١٣٦٥،
 ١٣٧٦-١٣٧٧
 المدينة اللبنانية: ١٤٧٥
 المدينة المتروبوليتانية: ١٣٦٥
 المدينة المتوسطية: ٢٢٣، ٥١٠-٥١١،
 ٥١٩، ٥٢١، ٥٣٦، ٩٩٣-٩٩٤،
 ١٠٤١، ١١٣٣، ١٤٨٠
 المدينة المسيحية: ٤٣١، ١٠١٤
 المدينة المغربية: ٨٠، ٨٣، ١١٠٧، ١١٢٤،
 ١٣٣٥
 المدينة الهندوسية: ٢٩٧، ٢٩٥
 المدينة الهندية: ٢٦٤، ٢٧٦، ٢٨٨، ٢٩٤،
 ٧٨٣
 المدينة اليهودية: ٢٤٠-٢٤٢
 المدينة اليونانية: ٦٧، ٢٦٣
 المدينة الميكروية: ٣٠٧
 المذهب الحنبلي: ١٤٠، ١٤٩، ٣٣٩-٣٤٠
 المذهب الحنفي: ١١٦، ١٤٠، ١٤٩، ١٥٩،
 ٣٠٩
 المذهب الشافعي: ١٤٠، ٣٠٩، ١٠٣١
 المذهب المالكي: ١٤٠، ١٤٧، ١٤٩، ١٥١،
 ٣٠٩، ٣٩٥، ٨٩٢، ١٠٣١، ١٠٤٥
 المربع السحري: ٢٦٥، ٧٦٥
 المرحلة... انظر: العصر
 مركز (UCLA) لدراسات الشرق الأدنى:
 ٧٧
 مركز البحوث والدراسات حول العالم
 العربي والإسلامي (فرنسا): ٧٢

المياه الساكنة: ٩٥٣
المياه السطحية: ٩٣٦، ٩٥٩-٩٦٠، ٩٧٤،
٩٨٠

مياه الشرب: ٩٧٦، ٩٨٣
الميثاق الوطني التونسي (١٨٥٧): ١٢٦٢

- ن -

التدوة الفرنسية - البريطانية
- باريس (١٩٨٦): ١١٢٢
- لندن (١٩٨٤): ١١٢١، ١١٢٣

التزوح الجماعي: ١٤٧٨
النسيج المدني: ١٩٩، ٢٠١، ٢١٥، ٣١٧،
٣٢٥، ٤٤٣، ٨٨٢

النسيج المدني: ٤٠، ٤٢-٤٥، ٤٧، ٥٤-
٥٥، ٦٨، ٧١، ٧٣، ٨٢-٨٤، ٨٨-٨٩،
٩١، ١٣٩، ٢٢١، ٢٢٣-٢٢٦، ٢٣٠،
٢٣٣-٢٣٥، ٢٨٩، ٣٠٧، ٣١٠، ٣١٢-
٣١٣، ٣٢٢، ٣٧٣، ٤١٦، ٥٠٩-٥١٠،
٥٢١، ٥٣٦، ٥٣٩، ٦٣٦، ٦٤٨، ٦٦٢،
٦٦٤، ٦٧٥، ٧٠٧، ٧٣٥، ٧٨٦، ٨٦٤،
٨٧٤، ٨٨٥، ٩٦٨، ١٠١٠، ١١٤٨-
١١٤٩، ١٢٥٢، ١٢٧٢-١٢٧٣،
١٣٠٩، ١٣١٤-١٣١٦، ١٣٦٠، ١٤٦٦

نظام التموضع العالمي (GPS): ٤١
النظام المدني: ١٠٤٢
النظام المدني: ٩٦٤
نظام المعلومات الجغرافية (GIS): ٤١
نظرية الدومينو: ٥٣٦
النقط: ١٣٨١، ١٣٩٦، ١٤٥٩، ١٤٦٨

مشروع مدينة نابليون: ١٣١١
مصرف دبي الوطني: ١٤١٨
مصرف سورية ولبنان: ١٤٧٢
معاهدة بلطة ليمان (١٨٣٨): ١٢٥٨
المعتزلة: ٣٣٦
معركة تشالينكو: ٨٥٩
معركة الجمل: ١٩٣
معركة ساموغار (١٦٥٩): ٧٧٧
معركة فالونة (١٦٣٨): ٥٦٦
مفوضية آغا خان: ٤٣
المكانة الاجتماعية: ١١٧٥، ١١٨٤
المندالا البوذية: ٢٦٥
المتزل البربري: ١٢٩٣، ١٢٩٦-١٢٩٧
المتزل التركي: ١١٥٩-١١٦١
المتزل العثماني: ٢٢٤، ١١٦٠
المتزل اللبناني: ١١٥٧، ١١٦٠-١١٦١
المتزل المصري: ١١٦١
المتزل المملوكي: ١١٥٨
منظمة الإرث الثقافي الإيراني: ٥٩٤
الموارد البشرية: ١٤٣٨
المواطنة: ٣٩٨، ١١٠١-١١٣٢، ١٤٥٤-
١٤٥٥

موكب لانغار: ٧٩٣
المونوغرافيا: ٧٧، ٩٣، ١٠٤، ٣١١
مياه الأمطار: ٩٤٨، ٩٥٩، ٩٨٠، ٩٨٢-
٩٨٣، ٩٨٥
المياه الجارية: ٩٥٣، ٩٧٤
المياه الجوفية: ٩٣٧، ٩٤٩، ٩٦٠، ٩٧٤،
٩٨٤

- النقابات: ٥٣، ٦٢، ١٣٥، ٣٨٦، ٣٩٧،
 ٤٩٦، ٤٩٨-٤٩٩، ٦٩٠، ١٠٤٧-
 ١٠٤٨، ١٠٥٥، ١٠٦٢، ١٠٦٥،
 ١١٩٩-١٢٢٣، ١٢٤٣
 النمو الحضري: ١٤٠٧، ١٤٨٩
 النمو السكاني: ١٤٣٤
 النمو المديني: ٦٨، ٩١، ٢٤٣، ٢٧٤، ٣٠٤،
 ٣٠٨، ٦١١، ١٢٧١
 النهضة اليونانية: ١٣٧٩
 النوع الهندسي: ١٢٨٣
- الهوية الإثنية: ٣١٠
 الهوية الثقافية: ٥٢٢، ١٣٨٦، ١٤٠١-
 ١٤٢٨
 الهوية القومية: ١٣٩٨
 هيئة الأشغال العامة (دبي): ١٤٠٦-١٤٢٨
 هيئة التخطيط والصيانة (دبي): ١٤٠٦-
 ١٤٢٨
 الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض: ١٦٢
 الهيلينية: ٥٤، ٢٢٤، ٣٦٧-٣٦٨، ٦٦٢-
 ١٢٩٢، ٦٦٣

- ه -

- هجرة المسلمين الإسبان (١٦٠٩): ٥٨٨
 الهندسة الإقليدية: ٣٩٤
 الهندسة الباليينزية: ١٣٩٢
 الهندسة التقليدية: ٣٩٤
 الهندسة التيمورية: ٦٩٦، ٦٩٨-٦٩٩
 الهندسة العثمانية: ٩٩٦
 الهندسة الفارسية: ٦٩٢، ٨١١
 الهندسة المرينية: ٣٥٠
 الهندسة المعمارية: ٣٧٠، ٣٨٣، ٤٢٤،
 ٤٣٧-٤٣٨، ٩٤٩، ١٠١٨-١٠١٩،
 ١٠٢١، ١٠٢٥، ١٠٣١، ١٠٣٣،
 ١٠٣٦، ١١٢٨، ١١٧٣-١١٧٤،
 ١١٩٠-١١٩١، ١١٩٥-١١٩٦،
 ١٢٨٩-١٣٠٥، ١٣٢٦-١٣٢٧،
 ١٣٣٢، ١٣٥٠، ١٣٦٤، ١٣٦٦،
 ١٣٦٩، ١٣٧٢-١٣٧٣، ١٣٧٧،
 ١٣٨١، ١٣٧٩
 الوقف الفرنسية على المغرب (١٩١٢):
 ٨٦٧
 الوعي الثقافي: ١٤٠٨
 الوقف الإسلامي: ٤٢٤، ٤٥٧، ٦٢٨،
 ٦٤٦-٦٤٧، ٦٥٠، ٦٥٣، ٦٥٩،
 ١٠٥٤-١٠٥٧، ١٠٦٢، ١٠٦٥،
 ١١٩١، ١٢١٣-١٢١٤، ١٢٢٥-
 ١٢٥٢، ١٤٥٧
 الوقف المسيحي: ١٢٢٩، ١٢٤٦-١٢٤٨،
 ١٤٧١
 الوقف اليهودي: ١٢٢٩، ١٢٤٦-١٢٤٧
 وكالة الإنكليز التجارية: ٧٠٣
- ي -
 اليد العاملة المغربية: ١٣٥٧